قصص العرب

موسوعة تراثية جامعة لقصص ونوادر وطرائف العرب في العصرين الجاهلي والإسلامي



إعداد
إبراهيم شمس الدين

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

إبراهيم شمس الدين
قصص العرب
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

قصص العرب

موسوعة تراثية جامعة
لقصص ونوادر وطرائف العرب
في العصر الجاهلي والإسلامي

إعداد
إبراهيم شمس الدين

الجزء الأول

يحتوي على:

الباب الأول: قصص محاسن الأخلاق
الباب الثاني: قصص مساوئ الأخلاق
الباب الثالث: قصص الكرم والكرماء والبخل والبخلاء والغنى والأغنياء والفقر والفقراء والطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والطفيليين

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٧٨٥٤٢ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٦٤٣٩٨ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ١١ ـ ٩٤٢٤ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X
9782745134233 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

عنوان هذا الكتاب «قصص العرب» يوحي بأنه لا يرتكز إلى موضوع واحد وفكرة محددة، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه كتاب مشتّت الأفكار والموضوعات، فاقِد الصِّلات والحلقات، لا يهدف إلى غاية معينة.

فالقصة والأثر الأدبي هي أقدر الأساليب الأدبية على تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس، وتمثيل الأخلاق وتصوير العادات والتقاليد، ورسم خلجات النفوس، كما أنها إذا شَرُف غرضها، ونَبُل مقصدها، وكَرُمت غايتها، تهذّب الطِّباع، وترقّق القلوب، وتدفع الناس إلى الاقتداء بالمُثُل العليا، من الإيمان والواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار.

بالإضافة إلى ذلك فإننا إذا أردنا أن نكوِّن فكرة ما عن أي مجتمع من حيث عاداته وتقاليده وقيمه الإنسانية والاجتماعية والثقافية وحتى الاقتصادية منها، فلا بد من الاطِّلاع على آدابه وفنونه وثقافته الشعبية وأمثاله وشعره وبالأخص على قصصه.

لقد حصرنا مادة هذا الكتاب في المأثور التراثي العربي بهدف إلقاء نظرة على الخلفية الثقافية والمفهومية لمختلف جوانبِ المجتمع العربي القديم وفي سبيل هذه الغاية حرصنا على أخذ مادة الكتاب من كتب التراث المعتَبَرة والمصادر الموثوقة.

وهذا لا يعني أن كل قول أو قصة أو طُرفة مذكورة إنما هي موثوقة من حيث حدوثها وحصولها، ولكن قيمتها تنبع من كونها مأخوذة من صُلب التراث وليس من حواشيه أو إضافاته فكثير مما تطالعنا به كتب التراث موضوع أو مُختَلَق أو منسوب نسبة غير حقيقية، غير أن هذا الأمر لا ينفي عنه قيمته الثقافية

والاجتماعية من حيث دلالته على مفاهيم عامة سائدة أو مقبولة في المناخ الثقافي العام.

فنحن عندما نقرأ مثلًا قولًا منسوبًا لعليّ بن أبي طالب في المرأة وهو؛ «المرأة شرٌّ كلها، وشرّ ما فيها أنه لا بد منها» قد نشكّك في صحة نسبة هذا القول، استنادًا إلى ما نعرفه عن عليّ من علوّ همة ومن انسجام كامل مع أعماق المفاهيم الإسلامية. غير أن هذا التشكيك لا ينفي عن هذا القول بحدّ ذاته قيمته الدلالية، لأنه قول أُخذ به من قِبَل الكثيرين ورُوِيَ بأشكال متفاوتة متقاربة المعنى منسوبة إلى غير قائل، وبالتالي فإنه عبّر عن مفهوم مقبول ومعمول به في المناخ الثقافي السائد عبر مراحل تاريخية طويلة، ومن هنا فإن القيمة التوثيقية للقول تتراجع لتتقدم عليها القيمة الدلالية الثقافية التاريخية.

وذات يوم شكّك الدكتور طٰه حسين بصحة نسبة الشعر الجاهلي وقال بأن الرواة اختلقوا أكثره ووضعوه وضعًا على لسان شعراء جاهليين بعضهم نشك بصحة وجوده كشاعر، ولو سلّمنا جدلًا بهذا الرأي فإننا لا نستطيع أن ننفي عما رُوِيَ من الشعر منسوبًا إلى الجاهليين قيمته من حيث دلالته على روح وثقافة ولغة الجاهلية. فإذا كان حمّاد الراوية من المقدرة والتمكّن والمعرفة بحيث وضع شعرًا لا نستطيع تمييزه عن الشعر الجاهلي الحقيقي، فإن ذلك معناه أن ما وضعه حمّاد يصح الأخذ به من حيث تعبيره عن روح الشعر الجاهلي.

وبعد فقد اعتمدنا في مادة هذا الكتاب على مصادر أساسية في التراث العربي، مثل: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والمستطرف للأبشيهي، وذمّ الهوى، وأخبار النساء، وأخبار الأذكياء، وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، ويتيمة الدهر للثعالبي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وأدب الدنيا والدين للماوردي، وأسواق العرب لسعيد الأفغاني، والأصنام لابن الكلبي، وأمالي أبي علي القالي، والبداية والنهاية لابن كثير، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي، وتاريخ الطبري، وخزانة الأدب للبغدادي، وكتاب البخلاء، والبيان والتبيين، وكتاب الحيوان للجاحظ، والسيرة النبوية لابن هشام، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، والفرج بعد الشدة للتنوخي، والكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري، ومجمع الأمثال للميداني، ونفح الطيب للمقري

التلمساني، والوزراء والكتّاب للجهشياري، وغير ذلك من كتب التراث ودواوين الشعر وكتب الأمثال والنوادر والطرائف.

وقد رتبنا مادة هذا الكتاب في أبواب مختلفة، يحتوي كل باب على موضوع أساسي، وهذه الأبواب هي:

الباب الأول: قصص محاسن الأخلاق (التوكل والرضا والقناعة والعدل والإحسان ومحاسن الأخلاق والعفو والحلم والصفح وكظم الغيظ الاعتذار وقبول المعذرة والوفاء بالوعد وحفظ العهد والصدق والصادقين وشكوى الزمان وانقلابه والصبر على المكاره والتأسّي في الشدّة والتسلّي عن نوائب الدهر والفرج بعد الشدة).

الباب الثاني: قصص مساوىء الأخلاق (الظُّلم والظَّلَمَة، والأشرار والفجار، والغدر والخيانة، والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد والرياء والرشوة والكذب والحرص والطمع وطول الأمل).

الباب الثالث: قصص الكرم والكرماء، والبخل والبخلاء، والغنى والأغنياء، والفقر والفقراء، والطعام وآدابه، والضيافة وآداب المضيف، والطفيليين.

الباب الرابع: قصص العقلاء والأذكياء، والحمقى والمغفلين.

الباب الخامس: قصص الملوك والخلفاء والوزراء، والحجاب والولاة والقضاة والقصاص والعبيد والإماء والخدم.

الباب السادس: قصص الفصحاء والبلغاء والخطب والخطباء والوصايا الحسنة والموعظة المستحسنة والشعر والشعراء وسرقاتهم والكتابة والكتاب.

الباب السابع: قصص الحيل والخداع واليقظة والتبصر في الأمور.

الباب الثامن: قصص المغنين والمغنيات.

الباب التاسع: قصص نساء العرب.

الباب العاشر: قصص العرب في الجاهلية وأوابدهم والكهانة والقيافة، والزجر، والعرافة، والفأل، والطيرة والفراسة، والأساطير.

الباب الحادي عشر: قصص الجن والشياطين.

الباب الثاني عشر: قصص شجعان العرب وفرسانهم.

الباب الثالث عشر: قصص الفخر والمفاخرة.

الباب الرابع عشر: قصص عشاق العرب.

الباب الخامس عشر: قصص الأمثال العربية.

الباب السادس عشر: الأجوبة المسكتة.

ونلفت القارىء الكريم إلى أن هناك بعض القصص تتكرر في أكثر من باب، كأن يكون للقصة أكثر من مدلول ومغزًى، فقد تكون القصة تُحكى عن أحد شجعان العرب، وتكون في الوقت نفسه قصة مثل مأثور، أو تكون قصة أحد الكرماء والأسخياء، وتكون في الوقت نفسه قصة أحد الملوك أو الوزراء، أو تكون قصة من أساطير العرب، وتكون في الوقت نفسه قصة من قصص أذكياء العرب أو نساء العرب.

وأخيرًا نرجو أن يكون عملنا هذا خالصًا لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو وليُّ التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

الباب الأول

قصص محاسن الأخلاق

التوكّل

الرّضا والقناعة

العدل والإحسان

محاسن الأخلاق

العفو والحلم والصّفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة

الوفاء بالوعد وحفظ العهد

الصدق والصادقون

شكوى الزمان وانقلابه

الصبر على المكاره

التأسّي في الشدّة والتسلّي عن نوائب الدهر

الفرج بعد الشدّة

في التوكّل على الله تعالى

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفُرقان: الآية ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفَال: الآية ٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: الآية ٣]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «يدخل الجنّة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير». رواه مسلم. قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتعود بطانًا»، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود مَن دعاني أجبته، ومَن استغاثني أغثته، ومَن استنصرني نصرته، ومَن توكّل عليَّ كفيته، فأنا كافي المتوكلين وناصر المستنصرين، وغياث المستغيثين، ومجيب الداعين.

الرشيد وعبد راقص

حُكِيَ أنه كان في زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر، وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادًا عظيمًا، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب، ففي بعض الأيام رؤي عبد يصفق ويرقص ويغني، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس، فقال: إن سيدي عنده خزانة بر، وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها، فلهذا أنا إذًا لا أبالي فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد

---

(١) المستطرف ص ٧٤.

توكل على مخلوق مثله، فالتوكل على الله أولى، فسلم للناس أحوالهم، وأمرهم بالتوكّل على الله تعالى.

حاتم الأصم وابنته

حُكِيَ أن حاتمًا الأصم كان رجلًا كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربّه في هذا العام حاجًّا، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئًا ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق، وليس برزاق، فذكرتهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت.

فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافرًا، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكت ما تكلمنا. فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء، وقالت: إلٰهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدًا، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: مَن أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلٰهي وسيّدي سبحانك البارحة بتنا جياعًا، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزًا جديدًا وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم.

فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئًا، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعًا،

فقال الأمير: ونحن أيضًا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: مَن أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالًا جزيلًا واستردها منهم.

فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديدًا، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسع علينا، فقالت: يا أم. والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعًا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهمّ انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرمًا ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيبًا، فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح، فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكرًا في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجّه ورجع تلقته أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه مَن توكل على الله فهو حسبه.

من كلام الحكماء

من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن أعلم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع، ومن علم أن مولاه خير له من العبادة، فقصده كفاه همه وجمع شمله، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت عند النبيّ ﷺ يومًا فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشيء لم ينفعوك إلا

بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الصحف وجفت الأقلام».

الرشيد والأموي

رُفِعَ إلى الرشيد أن بدمشق رجلًا من بني أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذٍ بالكوفة، قال منارة خادم الرشيد: فاستدعاني الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتني بفلان الأموي، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك. فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به، واذكر لي حاله ومآله، وقد أجلتك لذهابك ستًا، ولمجيئك ستًا، ولإقامتك يومًا، أفهمت؟ قلت: نعم. قال: فسر على بركة الله.

فخرجت أطوي المنازل ليلًا ونهارًا لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصدًا نحو دار الأموي، فإذا هي دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم، وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة، وغلمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن، فبهتوا وسألوا عني، فقيل لهم: إن هذا رسول أمير المؤمنين، فلما صرت في وسط الدار رأيت أقوامًا محتشمين، فظننت أن المطلوب فيهم، فسألت عنه، فقيل لي: هو في الحمام، فأكرموني، وأجلسوني، وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر، وأنا أتفقد الدار، وأتأمل الأحوال، حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان، فسلم عليَّ وسألني عن أمير المؤمنين، فأخبرته وأنه بعافية، فحمد الله تعالى، ثم أُحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كُل معنا، فتأملت تأملًا كثيرًا إذ لم يمكنني، فقلت: ما آكل، فلم يعاودني، ورأيت ما لم أره إلا في دار الخلافة، ثم قدم الطعام، فوالله ما رأيت أحسن ترتيبًا، ولا أعظر رائحة، ولا أكثر آنية منه، فقال: تقدم يا منارة، فكُلْ. قلت: ليس لي به حاجة، فلم يعاودني ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحدًا منهم عندي، فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندي.

فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر، ثم قام فصلّى الظهر، فأتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلني وقال: ما أقدمك يا منارة؟

فناولته كتاب أمير المؤمنين، فقبله ووضعه على رأسه، ثم فضَّه وقرأه، فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله، فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلي، وما شككت أنه يريد القبض عليَّ، فقال: الطلاق يلزمه الحج والعتق والصدقة، وسائر إيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدم رجليه وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل، وسرنا.

فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا، وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك، وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه، وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدًا فريدًا، وأنت تحدثني حديثًا غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك، فقال: إنا لله وإنّا إليه راجعون، لقد أخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي[1] وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضي علي بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه، وإن لم يكن قد قدر علي بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر مَن على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لي ذنب فأخاف، وإنما هذا واشٍ وشى عند أمير المؤمنين ببهتان[2]، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي، وعليّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جوابًا. ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة.

وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد

(١) الناصية: مقدم الرأس.

(٢) البهتان: الكذب والافتراء.

قبّلت الأرض، فقال: هات يا منارة أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليَّ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة والغضب يظهر في وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه، وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقدي لأصحابي، فلم أجد منهم أحدًا اسودَّ وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الإيمان المغلظة تهلل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له، وما قال لي هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه، وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله.

اخرج إليه، وانزع قيوده، وفكه وأدخله عليَّ مكرمًا، ففعلت، فلما دخل قبّل الأرض، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه، واعتذر إليه، فتكلم بكلام صحيح، فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي قال: هذا كائن، فسل غيره؟ قال: عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجني إلى سؤال. قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه، قم في حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك هنا وحوائجك، فانظر حسن توكله على خالقه، فإنه مَن توكل عليه كفاه ومَن دعاه لباه، ومَن سأله أعطاه ما تمناه.

كلمات من التوراة

رُوِيَ أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقيًا، وسلطاني لا ينفد أبدًا، يا ابن آدم لا تخشى من ضيق الرزق ما دامت خزائني ملآنة، وخزائني لا تنفد أبدًا، يا ابن آدم لا تأنس بغيري، وأنا لك، فإن طلبتني وجدتني، وإن أنست بغيرك فتّك وفاتك الخير كله، يا ابن آدم خلقتك لعبادتي، فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تتعب، وفي أكثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك، وكنت عندي محمودًا، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندي مذمومًا، يا ابن آدم خلقت السمٰوات السبع والأرضين السبع، ولم أعي بخلقهم أيعينني رغيف أسوقه لك من

غير تعب، يا ابن آدم أنا لك محب، فبحقي عليك كن لي محبًا، يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد، فإني لم أنس مَن عصاني، فكيف مَن أطاعني وأنا على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط.

قال الشاعر:

وما ثَمَّ إلّا الله في كلّ حالةٍ فلا تتكل يومًا على غير لطفهِ
فكم حالةٍ تأتي ويكرهُها الفتى وخيرته فيها على رغم أنفه

في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

قال في المستطرف[1]: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية ٩٧]. أن المراد بها القناعة. وقال ﷺ: «القناعة مال لا ينفذ». وقيل: يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «لا بأس مما في أيدي الناس وإيّاكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الأوفر، وأنه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة، قال الكندي[2]:

العبد حرٌ ما قنعْ والحرّ عبدٌ ما طمعْ

قال بشر بن الحرث: خرج فتى في طلب الرزق، فبينما هو يمشي فأعيا، فآوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هي:

إني رأيتك قاعدًا مستقبلي فعلمتُ أنك للهموم قرينُ
هوّن عليك وكن بربّك واثقًا فأخو التوكّل شأنه التهوينُ
طرح الأذى عن نفسه في رزقه لمّا تيقّن أنّهُ مضمونُ

قال: فرجع الفتى إلى بيته، ولزم التوكل وقال: اللهمَّ أدبنا أنت.

---

(١) المستطرف ص ٧٦.

(٢) الكندي: هو يعقوب بن إسحٰق بن الصباح، أبو يوسف فيلسوف العرب والإسلام في عصره نشأ في البصرة وانتقل إلى بغداد، فاشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك وألّف وترجم كتبًا عديدة له مؤلفات كثيرة في الفنون التي اشتهر بها «ولم يكن في الإسلام غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطاطاليس» توفي حوالي سنة ٢٦٠ هـ.

قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة وفي ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعايش، فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرًا أو خلفًا قال: ويلك يا حجام(١) والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سببًا للائتلاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه في بيته لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل وطيبه القطران وبعر الظباء، وحلي زوجته الودع، وثماره المقل، وصيده اليربوع وهو في مفازة(٢) لا يسمع فيها إلا صوت بومة، وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: يا بني إذا طلبت الغنى، فاطلبه في القناعة، فإنها مال لا ينفذ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه.

وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحد في زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئًا لقبلتها تعظيمًا للميت، وإكرامًا للحي، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح، واخرجوا من الدنيا بسلام.

وأنشد المبرد:

إن ضنّ زيدٌ بما في بطن راحتهِ ... فالأرضُ واسعة والرزق مبسوطُ(٣)
إنَّ الذي قدَّر الأشيا بحكمتِهِ ... لم ينسني قاعدًا والرحلُ محطوطُ

---

(١) حجام: الذي يقوم بمنهة الحجامة وهي إخراج بعض الدم من الجسد.
(٢) مفازة: الأرض التي تكثر فيها الهلكة (الوعرة).
(٣) ضن: شحّ وبخل.

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة، قيل له: متى يكون العبد راضيًا عن ربّه؟ قال: إذا سرّته المصيبة كما تسرّه النعمة، وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي، فسكر يومًا ففاتته الصلاة جاءته جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله، فانتبه مذعورًا فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة. فقام فصلى الصلوات، وتصدق بما يملكه وذهب يبيع البقل، فدخل عليه فضيل وابن عيينة، فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء، فقالا له: إنه لم يدع أحد شيئًا إلا عوّضه الله منه بديلًا، فما عوّضك عمّا تركت له؟ قال: الرّضا بما أنا فيه.

وقال الثوري: ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذلّ له، وقال الفضيل: مَن رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس في الشتاء جلالي، ونور القمر سراجي، وبقل البرية فاكهتي، وشعر الغنم لباسي، أبيت حيث يدركني الليل ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذي كببت الدنيا على وجهها.

بيت مفرد:

إنَّ القناعة من يحللْ بساحتها لم يلقَ في ظلِّها همًّا يُؤرِّقهُ(١)

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث، ولا تحصد، والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أكبر بطونًا من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها.

عروة بن أذينة وهشام بن عبد الملك

وقيل: وفد عروة بن أُذينة على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلته، فقال له القائل:

لقد علمْتَ وما الإسرافَ من خلقي أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلّبه ولو قعدت أتاني ليس يعييني

(١) يؤرقه: يقلقه ويمنع عنه الراحة والنوم.

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت، وخرج، فركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعًا، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه، فذكر عروة، فقال في نفسه رجل قريش قال حكمة ووفد علي، فجبهته ورددته خائبًا، فلما أصبح وجه إليه بألفي دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة، وأعطاه المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين مني السلام وقل له: كيف رأيت قولي سعيت، فأكديت، فرجعت، فأتاني رزقي في منزلي.

عبد الله بن عامر والثقفي

ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصاري وثقفي، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال: الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني، فوفد الثقفي وقال: أحوز الحظين، فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصاري؟ قال: رجع إلى أهله، فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار، فخرج الثقفي وهو يقول:

فوالله ما حرْصُ الحريص بنافع ... فيغني ولا زهد القنوع بضائر
خرجنا جميعًا من مساقط روسنًا ... على ثقةٍ منا بجود ابن عامر
فلما أنخنا الناجعات ببابه ... تخلف عني اليثربيّ ابن جابر
وقال ستكفيني عطية قادرٍ ... على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر ... لرَبِّي الذي أرجو لسدِّ مفاقري
فقلت خلا لي وجهه ولعله ... سيجعل لي حظَّ الفتى المتزاور
فلما رآني سال عنه صبابةً ... إليه كما حنت ظؤار الأباعر[1]
فأبْتُ وقد أيقنت أن ليس نافعًا ... ولا ضائرًا شيءٌ خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أتدري لِمَ رزقت الأحمق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال.

ولبعض العرب:

ولا تجزع إذا أعسرت يومًا ... فقد أيسرت في الزمن الطويلِ

---

(١) ظؤار الأباعر: المرضعات من البهائم.

ولا تظننّ بربّك ظنّ سوءٍ فإنَّ الله أولى بالجميلِ
وإنَّ العسر يتبعه يسارٌ وقول الله أصدق كلّ قيلِ
فلو أن العقول تسوق رزقًا لكان المال عند ذوي العقولِ

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انظر إلى الأرض فنظر إليها، فانفجرت، فرأى دودة على صخرة، ومعها الطعام، فقال له: أتراني لم أغفل عنها، وأغفل عنك، وأنت نبيّ وابن نبيّ.

عليّ بن أبي طالب وسارق اللجام

دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفًا على باب المسجد: أمسك عليَّ بغلتي، فأخذ الرجل لجامها، ومضى وترك البغلة، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافىء بها الرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلامه درهمين يشتري بهما لجامًا، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال علي رضي الله عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له.

وقال سليم بن المهاجر الجيلي:

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه به الله عن غشيان كلِّ بخيل[1]
فما عشت لم آت البخيل ولم أقم على بابه يومًا مقام ذليل
وإنَّ قليلًا يستر الوجه أن يرى إلى الناس مبذولًا لغير قليلِ

أشعار في القناعة والرضا

وقال عمر بن أبي عمر اليوناني:

غلا السعر في بغداد من بعد رخصة وأنِّي في الحالين بالله واثقُ
فلست أخاف الضيق والله واسعٌ غناه ولا الحرمان، والله رازق

وقال القهستاني:

غنيٌّ بلا دنيا عن الخلق كلّهم وأنَّ الغنى الأعلى عن الشيء لا به

(١) غشيان: قصد.

وقال منصور الفقيه:

الـمـوت أسـهـل عـنـدي بـيـن الـقـنـا والأسـنّـة[١]
والـخـيـل تـجـري سـراعًـا مـقـطّـعـات الأعـنّـة[٢]
مـن أن يـكـون لـنـذلٍ عـلـيَّ فـضـلٌ ومـنّـه

وأنشد أعرابي:

أيا مالك لا تسأل الناس والتمسْ بكفّيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملّوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصني قال: عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وقيل: إذا وجدت الشيء في السوق، فلا تطلبه من صديقك، وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش. وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك.

وقال المعري:

إذا كنت تبغي العيش فابغ توسّطًا فعند التناهي يقصر المتطاولُ
توقّى البدور النقص وهي أهلّةٌ ويدركها النقصان وهي كواملُ

وقال آخر:

اقنع بأيسر رزق أنت نائله واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلّا وهو مُنتَقصٌ ولا تعكّر إلا في الزيادات

وقال أعرابي: استظهر على الدهر بخفة الظهر. قال هشام بن إبراهيم البصري:

وكم ملك جانبته عن كراهةٍ لإغلاق بابٍ أو لتشديد حاجبِ
ولي في غنى نفسي مرادٌ ومذهبٌ إذا انصرفت عنّي وجوه المذاهب

وقيل: ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن أتته صحفة تناولها، وإن لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها، وقال شقيق بن إبراهيم البلخيّ: قال

(١) القنا والأسنة: السيوف والرماح.
(٢) الأعنة: جمع عنان وهو ما تلجم به الدابة.

لي إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أخبرني عما أنت عليه قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت. قال: هكذا تعمل كلاب بلخ؟ فقلت: كيف تعمل أنت؟ قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت، وقال بعضهم:

هي القناعة فالزمها تعِشْ ملكًا ... لو لم يكن منك إلا راحة البدنِ
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

وقال آخر:

وإنَّ القناعة كنز الغنى ... فصرت بأذيالها ممتسكْ
فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني له منهمكْ
فصرت غنيًّا بلا درهمٍ ... أمرّ على الناس شبه الملكْ

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئًا للعشاء ووجدهم بغير سراج، فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول: بأي يد كانت مني تركت مثل على هذه الحالة.

في العدل والإحسان والإنصاف

قال في المستطرف[1]: اعلم أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الإحسان وهو فوق العدل فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النّحل: الآية ٩٠]. فلو وسع الخلائق والعدل ما قرن الله به الإحسان. والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمُحقّ من المُبطِل. واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل ازمنة ثوابًا أيام العدل.

من أقوال رسول الله ﷺ

وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لعمل الإمام العادل في رعيته يومًا واحدًا أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عامًا». ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة». وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء».

عدل عمر بن الخطاب

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: أخبرني عن جنّة عدن، قال يا أمير المؤمنين: لا يسكنها إلا نبيّ أو صديق أو شهيد أو إمام عادل،

---

(١) المستطرف: ص ١١٣ ـ ١١٥.

فقال عمر: والله ما أنا نبيّ، وقد صدقت رسول الله ﷺ وأما الإمام العادل، فإني أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأنّى لي بها. قال الحسن: فجعله الله صديقًا شهيدًا حكمًا عدلًا.

عدل الإسكندر

سأل الإسكندر حكماء أهل بابل: أيما أبلغ عندكم، الشجاعة أو العدل؟ قالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة. ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته.

عدل عمر بن عبد العزيز

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله مالًا يرمها به، فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي، فحصن مدينتك بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام. ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف، فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف، فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف، وقيل: أكثر. وقال: إن عشت لأبلغنه إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما في تلك السنة.

ومن كلام كسرى لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله استوف لأمير المؤمنين حقّه، وفرق ما بقي بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال، كما ضرب لأحد الغرماء، ثم كتب للمنصور: إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء، فكتب إليه المنصر: ملئت الأرض بك عدلًا.

أحمد بن طولون والعود المكسور

وكان أحمد بن طولون والي مصر متحليًا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم.

حُكِيَ أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يومًا، فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره، فدخل العباس إليه وأخبره بذلك، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح، فلما أحضر إليه قال: أنت الذي كسرت العود، قال: نعم. قال: فأفعلمت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمته لي، قال: أكرمه لك بمعصية الله عزّ وجلّ، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: الآية ٧١]. ورسول الله ﷺ يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كل مُنكر رأيته فغيره وأنا من ورائك.

عبد الملك بن مروان واليهودي

وقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمني فانصفني منه وأذقني حلاوة العدل، فأعرض عنه، فوقف له ثانيًا، فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة، وقال: يا أمير المؤمنين إنا نجد في التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه: إن الإمام لا يكون شريكًا في ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزله، فقد شاركه في الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلى مَن ظلمه، فعزله وأخذ لليهودي حقه منه.

أنصفني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى

رُوِيَ أن رجلًا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتى إلى المنصور، فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين أأذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلًا؟ فقال: بل اضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظنًا منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلًا وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلي بيته وحرمه. فقال المنصور: بل ننصفك، وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه.

عدل الإسكندر

كان الإسكندر يقول: يا عباد الله إنما إلـٰهكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحًا بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغني أن الله تعالى أحب شيئًا إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئًا إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أنبئت أن الله تعالى يحب العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي، ومَن ظهر منه العدل من عمالي، فليتكىء في مجلسي كيف شاء، وليتمنَّ عليّ ما شاء فلن تخطئه أمنيته، والله تعالى المجازي كلًا بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

المأمون ووالي الكوفة

قيل: تظلّم أهل الكوفة من واليهم، فشكوه إلى المأمون، فقال: ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدًا بلدًا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين، فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم.

وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم متّ

قدم المنصور البصرة قبل الخلافة، فنزل بواصل بن عطاء وقال: بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل، فقم بنا إليه، فأشرف عليهم من غرفة، فقال لواصل مَن هذا الذي معك؟ قال: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، فقال: رحب على رحب، وقرب على قرب، فقال: إنه يحب أن يسمع أبيات في العدل، فقال: سمعًا وطاعة، وأنشد يقول:

حتى متى لا نرى عدلًا نُسرّ به ... ولا نرى لوُلاة الحق أعوانا
مستمسكين بحقٍ قائمين به ... إذا تلوَّن أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداءٍ لا دواءَ له ... وقائدٍ ذي عمًى يقتاد عميانا

فقال المنصور: وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم مت.

عمر بن عبد العزيز وردّ المظالم

قيل: لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم، فابتدأ بأهل بيته، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه، فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقًا، فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ فلما قضي الأمر إلى معاوية جره يمينًا وشمالًا، وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يومًا عصيبًا، فقال كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا أمنني الله.

أقوال في العدل والإحسان

وقال وهب بن منبه: إذا همّ الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع[1] وكل شيء، وإذا همّ بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك.

قال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ملكًا من الملوك خرج يسير في مملكته متنكرًا، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها، فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس، فقال له الملك: ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خيرها فهمّ بأخذها، فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همَّ بالظلم ذهبت البركة. فتاب الملك وعاهد ربّه في نفسه أن لا يأخذها ولا يحسد أحدًا من الرعية، فلما كان من الغد حلبت عادتها، ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وأن كل قصبة منها تعصر قدحًا، فعزم الملك على أخذها منها، ثم أتاها وسألها عن ذلك، فقالت: نعم، ثم إنها عصرت قصبة، فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذي كان يقال؟ فقالت: هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني، فارتفعت البركة منها، فتاب الملك وأخلص لله النيّة وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدًا، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

---

(١) الضروع: جمع ضرع وهو الثدي في الماشية الحلوب.

النخلة العادلة

حكى أبو بكر الطرطوشي رحمه الله في كتابه «سراج الملوك» قال: حدَّثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك، فغصبها السلطان، فلم تحمل شيئًا من ذلك العام، ولا تمرة واحدة، وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد: أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهي تحمل عشرة أرادب وستين ويبة وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء كل ويبة بدينار.

السمك العادل

وحكى أيضًا رحمه الله تعالى قال: شهدت في الأسكندرية والصيد مطلق للرعية والسمك يطفو على الماء لكثرته، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حجزه الوالي ومنع الناس من صيده، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

الناس حسب ملوكهم يسألون

روى أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا: كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار، ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة ويتغالون في المناكح والسراري ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك، ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك، فينبغي للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضي الله عنهم ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبيّ مرسل أو ملك مقرب، وقد قيل: إن مثله كمثل الرياح التي يرسلها الله تعالى بشرًا بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحًا للثمرات وروحًا للعباد.

في محاسن الأخلاق

أخلاق رسول الله ﷺ

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤]. فخص الله تعالى نبيّه ﷺ من كريم الطّباع ومحاسن الأخلاق، من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره، ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾. قالت عائشة رضي الله عنها: كان خُلُقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وكان الحسن رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: «أكرم ولد آدم على الله عزّ وجلّ أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله، أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى»، وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، ولا يأكل متكئًا ولا على خوان، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول: «برد هذا يطفىء حر هذا»، وكان أحب الطعام إليه اللحم، ويقول: «هذا يزيد في السمع، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل»، وكان يحب الدباء، ويقول: «يا عائشة إذا طبختم قدرًا، فأكثروا فيه من الدباء، فإنها تشد قلب الحزين»، وكان يقول: «إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها»، وكان يكتحل بالإثمد[2] ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والإبرة يخيط ثوبه بيده، وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا ينكره، وكان يسابق أهله.

---

(١) المستطرف: ص ١٢٦ ـ ١٢٩.

(٢) الإثمد: الكحل.

قالت عائشة رضي الله عنها: سابقته، فسبقته، فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي وقال: هذه بتلك، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أُمّيّ لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحارى يتيمًا لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، وكان أفصح الناس منطقًا وأحلاهم كلامًا، وكان يقول: «أنا أفصح العرب»، وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق نبيًا ما قال لي في شيء قط كرهه لم فعلته ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته ولا لامني أحد من أهله إلا قال: دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر، وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى: لا مانع من أن النبيّ ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية فالنبيّ ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبدًا له متواضعًا، فحاز المرتبتين مرتبة العبودية ومرتبة الملكية، ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا إكاف ويردف خلفه، ويأكل الخشن من الطعام وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى من دعاء لباه، ومَن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذي يرفعها، يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء، أعظم الناس من الله مخافة وأتعبهم لله عزّ وجلّ بدنًا، وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما والله ما كانت تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادمًا له، ولا ضرب بيده شيئًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثمًا أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه، وقال إبراهيم بن عباس: لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت، وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم». وفي رواية أخرى: «فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن».

وعنه ﷺ: «حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه»، والزمام بيد الملك، والملك يجره إلى الخير والخير يجره إلى الجنّة، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيد الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار. وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند

الأجانب والسيء الخلق أجنبي عند أهله، وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه، والعابد إذا ساء خُلقه مقتوه.

قيل: أبى الله لسيء الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه. وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: «ما بال فلان، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون»، حتى لا يفضح أحدًا، وعنه ﷺ: «ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»، وعنه أيضًا ﷺ قال: «ثلاث مَن كن فيه كن له، مَن صدق لسانه زكا عمله، ومَن حسنت نيّته زيد في رزقه، ومَن حسن بره لأهل بيته زيد له في عمره»، ثم قال: «وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان في الرزق». وقيل: «سوء الخلق يعدي لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله».

كتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين رضي الله عنهم في إعطائه الشعراء، فكتب إليه الحسين أنت أعلم مني بأن خير المال ما وقي به العرض، فانظر إلى شرف أدبه، وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه فأنت أعلم مني، وكان بينه وبين أخيه كلام، فقيل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك، فقال: إني سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أيما اثنين جرى بينهما كلام، فطلب أحدهما رِضا الآخر كان سابقه إلى الجنّة» وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنّة، فبلغ ذلك الحسن، فجاءه عاجلًا رضي الله عنهما، وأُنشد في المعنى:

وإنّي لألقى المرءَ أعلم أنّهُ … عدوٌ وفي أحشائه الضغن كامنُ
فأمنحه بِشرًا فيرجع قلبه … سليمًا وقد ماتت لديه الضغائن[1]

لا تبع بيع خائف

سرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل، فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها، فقالوا: باعها فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليه وأحضر بين يدي جعفر، فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغير لونك ألست يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك، وأقسم بالله لقد

(١) الضغائن: الأحقاد.

أنسيت هذا، ثم أمر للجوهري بثمنها، وقال للرجل: خذها الآن حلالًا طيِّبًا وبعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به، لا تبع بيع خائف.

تحت هذه العمامة كرم ومجد

دخل محمد بن عباد على المأمون، فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تتبسم، فقال لها المأمون: ممّ تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحي وإكرامك إيّاي، فقال: لا تعجبي فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجدًا. قال الشاعر:

وهل ينفع الفتيانَ حسنَ وجوههم إذا كانت الأعراضُ غير حسان
فلا تجعل الحسنَ الدليلَ على الفتى فما كلّ مصقول الحديد يماني[١]

أخلاق بهرام الملك

حُكِيَ أن بهرام الملك خرج يومًا للصيد فانفرد عن أصحابه، فرأى صيدًا، فتبعه طامعًا في لحاقه حتى بعد عن عسكره، فنظر إلى راعٍ تحت شجرة، فنزل عن فرسه ليبول، وقال للراعي: احفظ على فرسي حتى أبول، فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبسًا ذهبًا كثيرًا، فاستغفل بهرام وأخرج سكينًا، فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذي عليه، فرفع بهرام نظره إليه، فرآه فغضّ[٢] بصره وأطرف برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته، ثم قام بهرام، فوضع يده على عينيه، وقال للراعي قدم إليَّ فرسي، فإنه قد دخل في عيني من ما في الريح، فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه، فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره، فقال لصاحب مراكبه أن أطراف اللجام قد وهبتها، فلا تتهمن بها أحدًا.

أخلاق أنو شروان

ذُكِرَ أن أنو شروان وضع الموائد للناس في يوم نوروز وجلس، ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاؤوا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشموم[٣] في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنو شروان يراه، فلما فقده

(١) اليماني: السيف.
(٢) غض بصره: خفضه وأطرق به إلى الأرض.
(٣) المشموم: المسك.

الشرابي صاح بصوت عالٍ لا يخرجن أحد حتى يفتش، فقال كسرى: ولمَ؟ فأخبره بالقضية، فقال: قد أخذه مَن لا يرده ورآه مَن لا ينم عليه، فلا تفتش أحدًا فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره، وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية، فدعاه كسرى، وقال له: هذا من ذاك، فقبلّ الأرض، وقال: نعم أصلحك الله.

أخلاق الرجل وأخلاق خدمه

وقال عبد الله بن طاهر كنا عند المأمون يومًا، فنادى بالخادم يا غلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانيًا، وصاح يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إلى كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلًا، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ فقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا.

أخلاق الوليد بن عتبة بن أبي سفيان

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة واليًا، وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف، والله ما ترك فينا فقيرًا إلا أغناه، ولا مديونًا إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا بكلام أحلى من الجني ولقد شهدت منه مشهدًا لو كان من معاوية لذكرته، تغدينا يومًا عنده، فأقبل الفراش بصحفة، فعثر في وسادة، فوقعت الصحفة من يده، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد، وانكب جميع ما فيها في حجره فبقي الغلام متمثلًا واقفًا ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه، فقام الوليد فدخل، فغيّر ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفراش وقال: يا بائس ما أرانا إلا روعناك. اذهب، فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى.

أحمد بن أبي داود والمعتصم

مرض أحمد بن أبي داود، فعاده المعتصم، وقال: نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، فاجعلها في

أهل الحرمين، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة، فقال: نويت أن أتصدق بها على من هٰهنا، وأطلق لأهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النميري[1] لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلّك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصمًا فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

أخلاق قيس بن عاصم

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له، فقتله لوقته، فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

مَن خدعنا في الله انخدعنا له

كان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحدًا من عبيده يحسن صلاته يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له، فكان يعتقهم، فقيل له في ذلك، فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له.

أخلاق أبي عثمان الزاهد

رُوِيَ أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة، فألقي عليه من فوق سطح طست رماد، فتغير أصحابه، وبسطوا ألسنتهم في الملقي للرماد، فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئًا، فإن مَن استحق أن يصب عليه النار، فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب.

فرح مرتان

قيل لإبراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته: هل فرحت في الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين إحداهما أني كنت قاعدًا ذات يوم، فجاء إنسان فبال عليَّ، والثانية كنت جالسًا فجاء إنسان فصفعني.

---

(١) النميري: هو الهيثم بن الربيع بن زرارة من بني نمير بن عامر أبو حية شاعر مجيد، فصيح راجز من أصل البصرة ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وقيل في وصفه: كان أهوج جبانًا بخيلًا كذابًا، مات حوالي سنة ١٨٣ هـ.

أخلاق علي بن أبي طالب

رُوِيَ أن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه دعا غلامًا له، فلم يجبه، فدعاه ثانيًا وثالثًا فرآه مضطجعًا، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك، فتكاسلت، فقال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

إذا دُعي حضر وإذا زجر انزجر

حُكِيَ أن أبا عثمان الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لي وجه في دخولك، فانصرف رحمك الله، فانصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له، وقال: احضر الساعة، فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال في الأولى، ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان ينصرف ويحضر، ثم قال: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه، فقال أبو عثمان: لا تمدحني على خلق تجده في الكلاب، فإن الكلب إذا دُعي حضر وإذا زجر انزجر. وقال الحرث بن قصي: يعجبني من القراء كل فصيح مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثر الله في المسلمين مثله.

أخلاق المأمون

من محاسن الأخلاق: ما حُكي عن القاضي يحيىٰ بن أكثم قال: كنت نائمًا ذات ليلة عند المأمون، فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه، وأنا نائم، فينغص عليّ نومي، فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلاثمائة خطوة، فأخذ منها كوزًا، فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه، فخطا خطوات خائف لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه، ثم رأيته آخر الليل قام يبول، وكان يقوم في أول الليل وآخره، فقعد طويلًا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائمًا وصاح يا غلام، وتأهب للصلاة. ثم جاءني، فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح بالغلام،

فأزعجك، فقلت: يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم، فهنّاك الله تعالى بهذه النعمة، وأتمّها عليك، فأمر لي بألف دينار، فأخذتها وانصرفت. قال: وبت عنده ذات ليلة، فانتبه وقد عرض له السعال، فجعلت أرمقه، وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه، فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته، فأنتبه، قال يحيىٰ: وكنت معه يومًا في بستان ندور فيه، فجعلنا نمر بالريحان، فيأخذ من الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئًا من البقول، قال يحيىٰ: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل، ويكون هو في الشمس، فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيىٰ والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي، فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت، فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي، وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا، فإنه لا خير في صحبة مَن لا ينصف.

من كلام رسول الله ﷺ

قال رجل: يا رسول الله، أوصني بشيء ينفعني الله به، قال: «أكثر ذكر الموت فإنه يسليك عن الدنيا. وعليك بالشكر فإنَّ الشكر يزيد النعمة. وأكثر من الدعاء فإنك لا تدري متى يُستجاب لك».

قال: «أيها الناس إنما بغيُكم على أنفسكم. وإياك والبغي فإن الله قد قضى أنه من بُغي عليه لينصرنّه الله. وإياك والمكر، فإن الله قد قضى أن لا يحيق المكرُ السيءُ إلّا بأهله».

وقيل: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟» فقال: «اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطبًا من ذكر الله».

وقيل له: أيّ الأصحاب أفضل؟ قال: «الذي إذا ذكرت أعانك، وإذا نسيت ذكرك». وقيل: أي الناس شر؟ قال: «العلماء إذا فسدوا».

وقال ﷺ: «دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء».

البغضاء هي الحالقة ـ حالقة الدين، لا حالقة الشعر.

إن الله كره لكم العبث في الصلاة، والرفث في الصيام، والضحك عند المقابر.

وقال: «إذا أذَّنت فترسَّل، وإذا أقمت فاجزم». «من ذبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقًا عليه أن يحرَّم لحمه على النار».

وفي الحديث الشريف:

قال النبيّ ﷺ فيما أدَّب به أمته وحظَّها على مكارم الأخلاق: «أوصاني بالإخلاص في السرّ والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأن أعفو عن ظلمي، وأعطي من حرمي، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرًا».

أوصيكم: إن أسوأ الناس مَن أكل وحده، ومنع رِفْدَه، وجلد عبده.

حِفْظُ اللسان

قال الإمام جعفر الصادق (ع):

يموتُ الفتى من عَثْرةٍ، بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجلِ

فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرجل تَبْرا على مهل

وقال الشاعر:

الحلم زَيْنٌ والسكوت سلامةٌ ... فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما إن ندمت على سكوتي مرَّة ... إلَّا ندمتُ على الكلام مرارا

واجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي فقال أحدهما للآخر: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر. وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت عيوبه كلها. قال: وما هي؟ قال: حفظ اللسان.

في الشفاعة

قال عليّ بن أبي طالب (ع): الشفيع جناح الطالب.

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي لما عفا عنه: إن أعظم يدًا عندك بين عفوي عنك أني لم أجرِّعك امتنان الشافعين.

قال المبرد: أتاني رجل يستشفع في حاجة، فأنشدني لنفسه:

إني قصدتك لا أدلي بمعرفةٍ ... ولا بقربي ولكن قد فَشَتْ نِعَمُكْ
فبتُّ حيرانَ مكروبًا يؤرِّقني ... ذُلُّ الغريب ويُغشيني الكرى كَرَمُكْ
ولو هممْتَ بغير العُرف ما علَقْتَ ... به يداك ولا انقادت له شيَمُكْ
ما زلتُ أُنكَبُ حتى زُلزِلَت قدمي ... فاحْتَلْ لتثبيتها لا زُلْزِلَتْ قَدَمُكْ

قال: فشفعت له وقمت بأمره حتى بلغت له ما أَحَبَّ.

وخرج العطاء في أيام المنصور، وأقام الشقراني - من وَلَد شقران مولى رسول الله ﷺ - ببابه أيامًا لا يصل عطاؤه. فخرج جعفر بن محمد (ع) من عند المنصور فقام الشقراني إليه، فذكر حاجته، فرحَّب به، ثم دخل ثانيًا إلى المنصور، وخرج عطاء الشعراني في كمه فصبَّه في كمه ثم قال:

يا شقراني، إن الحَسَنَ من كلِّ أحدٍ حسنٌ، وإنه منك أحسن لمكانك منَّا.

وإن القبيح من كلِّ أحد قبيح، وهو منك أقبح لمكانك منا. فاستحسن الناس ما قاله. وذلك لأن الشقراني كان صاحب شراب.

قالوا: فانظر كيف أحسن السعي في استنجاز طلبته، وكيف رحَّب به وأكرمه مع معرفته بحاله. وكيف وعظه ونهاه عن المنكر على وجه التعريض.

قال المبرد لعبد الله بن يحيىٰ بن خاقان: أنا أشفع إليك أصلحك الله في أمر فلان، فقال له: قد سمعت، وأطعت وسأفعل في أمره كذا، فما كان من نقص فعليّ، وما كان من زيادة فله، قال المبرد: أنت أطال الله عمرك كما قال زهير بن أبي سلمى:

وجار سار معتمدًا إلينا ... أجاءته المخافة والرجاء
ضمّنا ماله فغدا سليمًا ... علينا نَقْصُهُ وله النماء

وقال دعبل الخزاعي:

وإن امرءًا إليَّ بشافع ... إليه ويرجو الشكر مني لأحمقُ
شفيعك يا شكر الحوائج إنه ... يصونك عن مكروهها وهو يخلقُ

وقال آخر:

وإذا امرؤٌ أسدى إليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

وقال آخر:

مضى زمن والناس يستشفعون بي فهل لي إلى ليلة الغداة شفيعُ[(١)]

في الزهد

ذكر أبو المقدام هشام بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، فجعلت أحدُّ النظر إليه. فقال لي: يا أبي كعب، ما لك تحدّ النظر إليّ؟ قلت: لما نحل من جسمك، وتغيّر من لونك. قال: فكيف لو رأيتني بعد ثلاثة أيام في قبري؟ ثم قال:

أعِد عليّ حديثًا كنت حدثتنيه لابن عباس. فقلت: سمعت ابن عباس يقول: إن رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل شيء شرفًا، وإن أشرف المجالس مجلسٌ أستقبل به القبلة. مَن أحب أن يكون أعزَّ الناس فليتَّقِ الله، ومَن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله. ومَن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده».

ثم قال: «ألا أنبئكم بشرار الناس؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن نزل وحده ومنع رفده، وجلد عبده».

ثم قال: «ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك؟» وقالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن لا يرجى خيره، ولا يؤمنُ شره».

ثم قال: «ألا أنبئكم بشر من ذلك؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن يبغض الناس ويبغضونه»[(٢)].

في الزيارة

قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابّين فيَّ، والمتباذلين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، ليوم أظلهم بظلي يوم لا ظلَّ إلّا ظليّ».

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨/٢٠٥.

(٢) البيان والتبيين: ١/٢٣١ ـ ٢٣٢.

مَن عاد مريضًا أو زار أخًا نادى منادٍ: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا.

وقيل: المحبة شجرة أصلها الزيارة.

قال الشاعر:

زر مَن تحبُّ وإن شطَّتْ به الدارُ ... وحال من دونه حجبٌ وأستارُ
لا يمنعنك بُعدٌ من زيارته ... إن المحبُّ لمن يهواه زوَّارُ

يقال: الإكثار من الزيارة مملٌ، والإقلال منها مُخلٌ.

وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا تقاطعنا ونحن ببلدةٍ ... فما فضلُ قرب الدار بنا على البعد

وكتب المأمون إلى جاريته يستدعيها للزيارة:

نحن في أفضل السرور ولكنْ ... ليس إلَّا بكم يتمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودِّي ... أنكم غبتمو ونحن الحضورُ
فأجِدوا السير بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

ولتكن الزيارة غبًّا لقول رسول الله ﷺ: «زر غبًّا تزدَدْ حبًّا».

وقال الشاعر في هذا المعنى:

عليك بإغباب الزيارة إنها ... إذا كثرت صارت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يُسأَمُ دائمًا ... ويُسألُ بالأيدي إذا هو أمسكا

قال المفضل الضبيّ:

كان معاذ بن صرم الخزاعي، وكانت أمه من عكٍّ، وكان فارس خزاعة، وكان يكثر زيارة أخواله. قال: فاستعار منهم فرسًا وأتى قومه. فقال له رجل يقال له جحيش بن سودة، وكان له عدوًا: أتسابقني على أن من سبق صاحبه أخذ فرسه؟ قال: نعم، واتفقا. ولما كان السبق اقتتلا فقتل معاذ بن صرم جحيشًا فقتله.

وأقام في أخواله زمنًا. ثم خرج مع بني أخواله في جماعة من فتيانهم يتصيدون، فحمل معاذ على عير فلحقه ابن خال له يقال له الغضبان، فقال: خلِّ عن العير. قال: لا ولا نعمة عين[(١)] ـ فقال الغضبان:

إما والله لو كان فيك خير لما تركت قومك ـ فقال معاذ: «زر غبًّا تزدَدْ حبًا» فأرسلها مثلًا. ثم أتى قومه فأراد أهل المقتول قتله. فقال لهم قومه: لا تقتلوا فارسكم وإن ظلم، فقبلوا منه الديَّة.

ومن هذا المثل قال الشاعر:

إذا شئت أن تُقْلى فَزُرْ متواترًا ... وإن شئت أن تزداد حُبًا فزُرْ غبًّا[(٢)]

في الإخوان

قيل: خير ما اكتسب المرء الإخوان، فإنهم معونة على حوادث الزمان، ونوائب الحدثان، وعون في السرَّاء والضرَّاء.

ومن كلام الإمام علي (ع):

عليك بإخوان الصفا فإنهم ... عمادُ إذا استنجدتهم وظُهورُ
وإن قليلًا ألفُ خِلٍّ وصاحب ... وإنَّ عددًا واحدًا لكثيرُ

قال لبيد بن ربيعة:

ما عاقب المرءَ اللبيب كنفسهِ ... والمرءُ يصلحه الجليس الصالحُ

قيل لابن السماك: أي الإخوان أحبُّ إليك؟ قال:

الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملّك على القرب، ولا ينساك على البعد. إن دنوت داناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودلاة قوله...

وأنشدوا في هذا:

إنَّ أخاك الصديق من يسعى معكْ ... ومن يضرُّ نفسه لينفعكْ
ومن إذا ريب الزمان صَدَعَكْ ... شتتَ فيك شمله وجمعكْ

---

(١) يقال: أفعله نعمة عين: أي أفعله إكرامًا لعينك.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ١٨٧.

قال أبو تمام:

مَن لي بإنسانٍ إذا أغضبتهُ ... وجهلتُ كان الحلمَ ردُّ جوابه
وإذا صَبَوْتُ إلى المدام شربت ... من أخلاقه وسكرت من آدابهِ
وتراه يصغي للحديث بطرفه ... وبقلبه ولعلَّهُ أدرى بهِ

قيل لخالد بن صفوان: أي الإخوان أحبُّ إليك. قال: الذي يسدُّ خلتي، ويغفر زلتي، ويقيل عثرتي.

قال الشاعر:

إذا كنت في كلّ الأمور معاتبًا ... صديقَك لن تلقى الذي لا تعاتبهْ
وإن أنت لم تشرب مرارًا على القذى ... ظمئت وأيُّ الناس تصفو مشارد

قال النبيّ ﷺ:

«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وقال ﷺ: «إن روحَيْ المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم، وما رأى أحدها صاحبه» وفي ذلك قال أحدهم:

هويتكم بالسمع قبل لقائكم ... وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفِهِ
وخُبِّرتُ عنكم كلَّ جودٍ ورفعةٍ ... فلما التقينا كنتم فوق وصفه

قال بعض الحكماء:

إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك.

ويقول المثل: القلوب شواهد. قال في ذلك عبد الله بن طاهر:

خليلي للبغضاء حالٌ مبينةٌ ... وللحبِّ آثارٌ تُرى ومعارفُ
فما تنكر العينان فالقلب منكرٌ ... وما تعرف العينان فالقلب عارف

وقال بعضهم:

وكنت إذا الصديقُ أراد غيظي ... وشرَّقني على ظمأ بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيضي ... مخافة أن أعيش بلا صديقِ

في الهدية

قال إيليا أبو ماضي في هدية العيد:

أيَّ شيءٍ في العيد أهدي إليك ... يا ملاكي وكلُّ شيءٍ لديك
أسوارًا أم دملجًا من نضارٍ ... لا أحبُّ القيود في معصميكِ
أم خمورًا وليس في الأرض خمرٌ ... كالتي تسكبين من لحظَيْكِ
أم ورودًا والورد أجمله عندي ... الذي نشقتُ من خدَّيكِ
أم عقيقًا كمهجتي يتلظَّى ... والعقيق الثمين في شفتيكِ
ليس عنديَ شيءٌ أعزُّ من الروح ... وروحي مرهونةٌ في يديك[١]

أهدى الصابئي[٢] إلى عضد الدولة إسطرلابًا[٣] في يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدى إليك بنو الأملاك واحتفلوا ... في مهرجان جديد أنت تبليه
لكنَّ عبدك إبراهيم حين رأى ... سموَّ قدرك عن شيءٍ يدانيه
لم يرض بالأرض يهديها إليك وقد ... أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه[٤]

وقالوا في الهدية:

هدايا الناس بعضهم لبعضٍ ... تولِّدُ في قلوبهم الوصالا
وتزرع في القلوب هوًى ووِدًّا ... وتكسوك المهابة والجلالا

وقال بعضهم:

لو كان يهدى على قدري وقدركم ... لكنتُ أهدي لك الدنيا وما فيها

حُكِيَ أن الخيزران زوجة المهدي العباسي، وأم ابنيه الهادي وهارون الرشيد، وكانت ملكة حازمة، متفقهة، يمانية الأصل، وأخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي.

---

(١) ديوان إيليا أبو ماضي.
(٢) هو إبراهيم بن هلال، أبو إسحٰق الصابىء: أشهر كتاب عصره. تقلد ديوان الرسائل أيام بني بويه. توفي سنة ٩٩٤ م.
(٣) الإسطرلاب: آلة قديمة لقياس مواقع النجوم وتحديد ساعات الليل والنهار.
(٤) المستطرف: ٢/٤٦.

عزم المهدي على شراء دواء، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بارعة الجمال وكتبت إليه تقول:

إذا خرج الإمامُ من الدواءِ وأعقب بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب بهذا الجام من هذا الطلاء
فينعم للتي قد أنقذته إليه بزورةٍ بعد العشاء

فسُرَّ بذلك وأعجبته الجارية، وزار الخيزران وأقام عندها يومين.

كتمان السر

جاء في الحديث الشريف: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود» وقال علي عليه السلام: سِرُّكَ أسيرك، فإذا تكلمت به صرت أسيره. واعلم أن أمناء الأسرار، أقلّ وجودًا من أمناء الأموال. وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيِّعها كلامٌ سابق. وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال؛ فإن الرجل يستقلّ بالجمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر. وإن الرجل يكون سره في قلبه، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملًا ثقيلًا[١].

قال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها. فليحفظ كل إنسان مفتاح سره.

ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزانِها كان أوثق لها. أما الأسرار فإنها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها. وكم من أظهار سرٍّ أراق دم صاحبه، ومنعه من بلوغ مآربه[١].

وأسرَّ رجل لآخر حديثًا. ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جَهِلْت. ثم قال له: أحفِظت؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحدُ المُخبر، وأحلف للمستخبر.

---

(١) المستطرف: ١/٢٩٦.

ومن أحسن ما قيل في كتمان السر:

ولها سرائر في الضمير طويتها نسي الضمير بأنها في طيِّه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوي فقال:

أني كتمت حديث ليلى لم أبح يومًا بظاهره ولا بخفيِّهِ
وحفظت عهد ودادها متمسكًا في حُبِّها برشاده أو غيِّهِ
ولها سرائرُ في الضمير طويتها نسي الضمير بأنها في طيِّهِ(١)

وقيل: كتمان الأسرار يدلُّ على جواهِرِ الرجال. وكما أنهُ لا خير في آنية لا تُمسك ما فيها، فكذلك لا خيرَ في إنسانٍ لا يمسكُ سرَّهُ. قال الشاعر:

ومستودعي سرًّا كتمتُ مكانهُ عن الحسِّ خوفًا أن ينُمَّ به الحسُّ
وخفتُ عليه من هدى النفس شهوةً فأودعتُهُ من حيثُ لا يبلغ الحسُّ

وقال قيس بن الخطيم:

أجود بمكنون التِّلاد وإنني بسري عمَّنْ سالني لَضَنينُ
وإن ضَيَّعَ الأقوام سريَّ فإنني كتومٌ لأسرار العشير أمينُ

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودعني سرَّه لا ترجُ أن تسمع مني
لم أجره قطُّ على فكرتي كأنه لم يجر في أذني

قال الأحنف بن قيس: يضيق صدرُ الرجل بسرِّه. فإذا حدث به أحدًا قال: اكتمهُ علي. قال الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرَّهُ بلسانه ولام عليه غيرهُ فهو أحمقُ
إذا ضاق صدر المرء عن سرِّ نفسِهِ فصدر الذي يستودعُ السرّ أضْيَقُ

وقال آخر:

إذا ما ضاقَ صَدْرُكَ عن حديثٍ وأفشتهُ الرجالُ فمن تلومُ
وإن عاتبتُ مَن أفشي حديثي وسرّي عنده فأنا الملوم

(١) المستطرف: ١/٢٩٦.

قيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرّقهُ تحت شغاف قلبي ثم أجمعهُ وأنساه، كأني لم أسمعهُ. وقال بعضهم:

إذا ما غفرتُ الذنوب يومًا لصاحبٍ فلستُ معيدًا ما حُييت لهُ ذكرا
ولستُ إذا إذا ما صاحبٌ خان عهدَهُ وعندي لهُ سرٌ مذيعًا له سرّا

ولله درُّ المتنبي حيث قال:

وللسرِّ مني موضعٌ لا يناله نديمٌ ولا يفضي إليه شرابُ[1]

قال المنصور: المَلك يحتمل كلَّ شيء من أصحابه إلَّا ثلاثة: إفشاء السِّر، والتعرض للحرم، والقدح في الملك. وكان يقول: سرُّك من دمِك فانظر من تُملِّكه. وكان يقول: سرُّك لا تطلع عليه غيرك. وإنَّ من أنفذ البصائر كتمان السرِّ حتى يبرم المبروم.

قيل لأبي مسلم الخرساني: بأي شيء أدركت هذا الأمر؟ (أي نجاح الدعوة العباسية) قال: ارتديتُ بالكتمان، واتَّزرتُ بالحزم، وحالفتُ الصبر، وساعدت المقادير، فأدركت طلبتي، وحزتُ بغيتي. وأنشد في ذلك:

أدركتُ بالحزم والكتمان ما عجزَتْ عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلتُ أسعى عليهم في ديارهمُ والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا من نومةٍ لم ينمها قبلهم أحدُ
ومَن رعى غنمًا في أرض مسبعةٍ ونام عنها تولى رعيها الأسد

وأنشد اليزيدي:

النجم أقرب من سرٍ إذا اشتملتْ مني على السرِّ أحشاءٌ وأضلاعُ

قال أبو نواس:

لا تفشِ أسرارك للناسِ ودامر أحزانك بالكاسِ
فإنَّ إبليس على ما به أرأفُ بالناس من الناسِ

---

(١) المستطرف: ١/٢٩٨.

وقال المبرد: أحسن ما سمعت في حفظ اللسان ما رُوي عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

لعمرك إن وشاة الرجال لا يتركون أديمًا صحيحا
فلا تبدِ سرَّك إلَّا إليك فإن لكلِّ نصيحٍ نصيحا

وقال آخر:

لا يكتُمُ السرَّ إلا كلُّ ذي خطرٍ والسرُّ عند كرام الناس مكتومُ
والسرُّ عندي في بيتٍ له غلقٌ قد ضاع مفتاحه والباب مردومُ[1]

قيل في الكلام: اجتمع أربعة حكماء من الروم والفرس والهند والصين. فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل وقال الآخر: إذا تكلمتُ بالكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم ملكتها ولم تملكني وقال الآخر: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرَّته، وإن لم ترجع لم تنفعه.

وقال الرابع: أنا على ردِّ ما لم أقل أقدر منيِّ على ردِّ ما قلت[2].

مؤدب الأمير

قال عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك ولدي إصلاحك لنفسك، فإن عينيه معقودتان بعينيك؛ فالحسن عنده ما استحسنت والقبح عنده ما استقبحت. علِّمه كتاب الله ولا تُكرِهه عليه فيملّه ولا تتركه عنه فيهجره ـ ثم زوّده من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه. ولا تُخرِجه من علم إلى غيره حتى يُحكِمه؛ فإن ازدحام الكلام بالسمع فضله للفهم. وعلِّمه سِيَر الحكماء وأخلاق الأنبياء.

دخل الرشيد يومًا على الكسائي وهو لا يراه، وكان الكسائي معلمًا لولديه الأمين والمأمون، فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها، فنهض الأميران بعجلة ووضعا النعل بين رجلي الكسائي. بعد وقت جلس الرشيد مجلسه وقال: يا كسائي أيّ الناس أكرم خدمًا؟.

قال الكسائي: أمير المؤمنين أعزه الله.

---

(١) المحاسن والأضداد: ٥٣ ـ ٥٦.

(٢) شرح نهج البلاغة.

قال الرشيد: بل الكسائي؛ يخدمه الأمين والمأمون. وحدثهم بما رأى[١].

قال أبو محمد اليزيدي: كنت أؤدب المأمون، وحين بعثت إليه أحد الغلمان أطلبه في شيء تباطأ. فبعثت إليه غلامًا آخر فلم يحضر. فقلت في نفسي: يتشاغل عني بالبطالة! وأقسمت أن أقومه بالأدب. فلما حضر ضربته تسع درر فبكى. بينما هو كذلك حضر الوزير جعفر البرمكي فاستأذن على المأمون. وقبل أن يدخل عليه أخذ منديلًا ومسح عينيه، وجمع ثيابه وقام إلى مجلسه وقعد عليه متربعًا ثم قال: ليدخل جعفر.

قال أبو محمد: قمت أنا من المجلس فلربما يشكوني للوزير فألقى منه ما أكره. فلما خرج جعفر قلت للمأمون:

والله لقد خفت أن تشكوني لجعفر، ولو فعلت لتنكّر لي.

قال المأمون: إنا لله يا معلمي. أتراني يا أبا محمد أطلع الرشيد في هذا؟ فكيف أطلع جعفرًا على أني أحتاج إلى أدب؟! خذ في أمرك؛ فلقد خطر في بالك ما لا تراه أبدًا، ولو عدت في كل مرة.

ضرب «أبو مريم» الأمين فخدش ذراعه فلما رآه هارون الرشيد سأله فردّ عليه الأمين: ضربني أبو مريم.

بعث الخليفة لأبي مريم ودعاه إلى مجلسه وأمر له بالوضوء فتوضأ، وبالغداء فتغدى، وبعد ذلك سأله الخليفة: ما بال محمد يشكوك؟ فرد أبو مريم: والله يا أمير المؤمنين لقد غلبني خبثًا وعدم طاعة. فردّ الرشيد وقد فزع: اقتله. . . فلأن يموت خير من أن يفسد[٢].

في القناعة والرضا

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية ٩٧] أن المراد بها القناعة. وقال رسول الله ﷺ: «القناعة مال لا ينفد».

---

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٦١. (٢) معادن الجوهر ٢/١٤٧.

وقيل: يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «الإياس مما في أيدي الناس. وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر».

قال الكندي:

العبد حرٌّ ما قَنِعْ والحرُّ عبدٌ ما طَمِعْ

وقال بشر بن الحارث:

خرج فتى في طلب الرزق، فبينما هو يمشي فأعيا، فأوى إلى خراب يستريح فيه. فبينما هو يدير بصره وقعت عينه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هي:

إني رأيتك قاعدًا مستقبلي فعلمت أنك للهموم قرينُ
هوِّنْ عليك وكن بربك واثقًا فأخُو التوكل شأنهُ التهوينُ
طرحَ الأذى عن نفسه في رزقه لما تيقن أنه مضمونُ

فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل، وقال: اللهم أدبنا أنت.

قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفّق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم السياسة والتجارة والفلاحة. وفي ذلك بطلان المصالح وذهاب المعايش. فكل صنف من الناس مزيَّنٌ لهم ما هم فيه.

فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرًا أو خُلْفًا قال: ويلك يا حجّام! والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك! فيجعل الله تعالى الاختلاف سبيلًا للائتلاف فسبحانه من مدبر قادر حكيم.

ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمَّد[١] بعظام الجيف، كلبه معه في بيته ولباسه شملة من وَبَر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل، وطيبه القطران، وحلي زوجته الوَدَع، وثماره المُقْل[٢]. وهو في مفازة لا يسمع فيها إلّا صوت بومة، وعواء ذئب، وهو قانع بذلك مفتخر به.

---

(١) معمَّد: مدعَّم ومسنَّد بعظام الحيوانات النافقة.
(٢) المُقل: ثمر الدَّوم، وهو يشبه النخل.

وقيل: وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلَّته[١]. فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خُلُقي أنَّ الذي هو رِزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعْييني تطلُّبه ولو قعدت أتاني ليس يُعنيني

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت وخرج فركب ناقته وكرَّ راجعًا إلى الحجاز. فلما كان الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه: رجل من قريش وقال حكمة ووفد علي فجبهتهُ ورددته خائبًا فلما أصبح وجَّهَ إليه بألفي دينار. فقرع الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين عني السلام، وقل له كيف رأيت قولي: سعيت فأكديت[٢] فرجعت، فأتاني رزقي إلى منزلي.

لما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان أنصاري وثقفي، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال: الذي أعطى عبد الله بن عامر العراق قادر على أن يعطيني. فوفد الثقفي وقال أحوزُ الحظين. فلما دخل على عبد الله بن عامر، قال له: ما فعل زميلك الأنصاري؟ قال: رجع إلى أهله. فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الأنصاري بثمانية آلاف. فخرج الثقفي وهو يقول:

فوالله ما حِرْصُ الحريص بنافعٍ فيغني ولا زهدُ القنوع بضائر
خرجنا جميعًا من مساقط رؤوسنا على ثقة منا بجود ابن عامرِ
فلما أنخنا الناجيات ببابه تخلّف عني اليثربي ابن جابر[٣]
وقال ستكفيني عطية قادر على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر لربي الذي أرجو لسد مفاقري
فقلت خلا لي وجهه ولعله سيجعل لي حظ الفتى المتزاور
فلما رآني سأل عنه صبابة إليه كما حنَّت ظؤار الأباعرِ[٤]
فأبتُ وقد أيقنت أنْ ليس نافعًا ولا ضائرًا شيء خلاف المقادرِ

---

(١) الخلّة: الحاجة والفقر. (٢) أكدى: رجع خائبًا.
(٣) الناجيات: جمع ناجية، وهي الناقة السريعة.
(٤) الظئر: الناقة العاطفة على ولد غير المرضعة له.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أتدري لما رزقت الأحمق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال.

ولبعض العرب:

ولا تجزع إذا أعسرت يومًا فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تظنن بربك ظنَّ سوءٍ فإن الله أولى بالجميل
وإن العسر يتبعه يسارٌ وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقًا لكان المال عند ذوي العقول[1]

في الحِلْم ودفع السيئة بالحسنة

يقال: الحليم عليم، والسفيه كليم. وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشدُّ على الشيطان من عالم معه حِلم؛ إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم. يقول الشيطان: سكوته عليَّ أشدُّ من كلامه!

إذا كنت تبغي شيمةً غير شيمةٍ طبعت عليها لم تطعك الضرائبُ[2]

قال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشدُّ؟ قال: غضب الله. قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: أن لا تغضب.

ويقال: مَن أطاع الغضب، أضاع الإرب.

قال أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم عدو العقل أعدى من الغضب

قيل: إن رجلًا كان يغضبُ كثيرًا ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف. فأعطى كل صحيفة لرجل. وقال للأول: إذا اشتد غضبي فقم إليَّ بهذه الصحيفة وناولنيها.

وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناوليها. وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناولني التي معك.

---

(١) المستطرف: ١/١٠٩.

(٢) الضريبة: الطبع والسجية.

وكان في الأولى: أَقْصِرْ، فما أنت وهذا الغضب. إنك لست بإله، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا.

وفي الثانية: ارحم مَن في الأرض يرحمك مَن في السماء.

وفي الثالثة: احمل عباد الله على كتاب الله فإنه لا يصلحهم إلّا ذاك.

قال النبيّ ﷺ: «مَن كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء». وقيل: ملأه الله أمنًا وإيمانًا.

شتم رجلٌ رجلًا، فقال له: يا هذا، لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعًا، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا، فلن أجئها كبيرًا. وإني لا أكافىء مَن عصى الله فيَّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

حُكِيَ عن جعفر الصادق عليه السلام أن غلامًا وقف يصب الماء بين يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش على وجهه. فنظر إليه الصادق (ع) نظر مغضب، فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ. قال: قد كظمت غيظي. قال: والعافين عن الناس. قال: قد عفوت عنك. قال: والله يحبُّ المحسنين. قال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

لما قَدِمَ نصر بن منيع بين يدي الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه. قال: يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها. قال: قل. فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرة ... عصفورَ برٍّ ساقَهُ التقديرُ
فتكلم العصفورُ تحت جناحه ... والصقر منقضٌّ عليه يطيرُ
أني لمثلِكَ لا أُتَمِّمُ لُقْمةً ... ولَئِنْ شُويتُ فإنني لحقيرُ
فتهاون الصقرُ المُدِلُّ بصيدِهِ ... كرمًا وأفلت ذلك العصفورُ

قيل: فعفا عنه وخلّى سبيله.

قال الرشيد لأعرابي: بمَ بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: بحلمه عن سفيهنا وعفوه عن مسيئنا، وحمله على ضعيفنا. لا منّان إذا وَصَبَ، ولا حقود إذا غضب. رحب الجنان، سمح البنان، ماضي اللسان. فأومأ الرشيد إلى كلب صيدٍ بين يديه وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحقّ بها السؤدد.

وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنبٍ وأن عَظُمتْ منه علي الجرائم
فما الناس إلّا واحد من ثلاثةٍ شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال ضنَّت عن إجابته نفسي، وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا تفضلت إنّ الحرّ بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني، إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه، فإن أنصفك، وإلَّا فاحذره. وقال الشاعر:

إذا كنت مختصًا لنفسك صاحبًا فمن قبل أن تلقاه بالود أغضبه
فإن كان في حال القطيعة منصفًا وإلّا فقد جربتهُ فتجنبْهُ

قيل: إن الأحنف سبَّه رجل وهو يماشيه في الطريق. فلما قرب من المنزل وقف وقال له: يا هذا إن كان بقي معك شيء فقله هٰهنا، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا.

قال الشاعر:

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله فاقتلهُ بالمعروف لا بالمنكر

قال المأمون إبراهيم بن المهدي بعد أن صفح عنه:

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه[(١)]

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصّلَت: الآيتان ٣٤، ٣٥].

ومرَّ المسيح (ع) بقوم من اليهود، فقالوا له شرًا ـ فقال خيرًا ـ فقيل له: إنهم يقولون شرّا وتقول لهم خيرًا. فقال: كل واحد ينفق مما عنده.

---

(١) المستطرف: ١/ ٢٧٨ ـ ٢٨٠. والعقد الفريد: ٢٧٧.

قال الحسن بن رجاء:

أحبُّ مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلمًا ... فشرُّ الناس مَن يهوى السبابا
ومَن هاب الرجال تهيَّبوه ... ومَن حقر الرجال فلن يهابا
ومَن قضت الرجال له حقوقًا ... ولم يقض الحقوق فما أصابا

وقال آخر:

إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرءِ لا تسأل وسَلْ عن قرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

قال أحدهم:

إن النفوس لأجنادٌ مجندة ... بالإذن من ربِّنا تجري وتختلفُ
فما تعارف منها فهو مؤتلف ... وما تناكر منها فهو مختلقُ

وقيل عن لسان أحد الأئمة:

سأله رجل قال: يا مولاي، إني أرى الشخص فأُحبُّهُ وأشعر أني أعرفه قبل الآن. فقال: ربما تكون روحه قريبة روحك أو أختها أو حبيبتها. ثم قال:

الأرواح جنود مجندة؛ مَن تحاب هناك تحابَّ هنا، ومَن تخاصم هناك تخاصم هنا.

قال الحسن بن رجاء:

وكن معدنًا للحلم واصفح عن الأذى ... فإنك راءٍ ما عملت وسامعُ
وأحبب إذا أحببت حبًّا مقاربًا ... فإنك لا تدري متى أنت نازعُ
وأبغض ما أبغضت غير مباينٍ ... فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

قال أبو جعفر الشيباني:

أتانا يومًا أبو ميَّاس الشاعر ونحن في جماعة فقال: ما أنتم فيه وما تتذاكرون؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده. قال: كلا، إنما الزمان وعاء. وما ألقي فيه

من خير أو شر كان على حاله. ثم أنشد:

أرى حُللًا تصانُ على أناسٍ وأخلاقًا تداس ولا تصانُ
يقولون الزمان به فسادٌ وهم فسدوا، وما فسَد الزمانُ

وكتب عقيل بن أبي طالب لأخيه الإمام علي (ع) يسأله عن أحواله فكتب إليه يقول:

فإن تسألني كيف أنت فإنني جليدٌ على غضّ الزمان صليبُ
عزيزٌ عليَّ أن ترى بي كآبةً فيفرحَ واشٍ أو يُساءَ حبيبُ(١)

في آداب المعاشرة

وأما آداب المعاشرة فالبشاشة، والبشر، وحسن الخلق، والأدب. فعن جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا، والمصافحة إذا تلاقوا».

كان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالسه رجل يجعل له نصيبًا من ماله ويعينه على حوائجه. ودخل يومًا على معاوية فأمر له بألف دينار، وكان هناك رجل قد فسح له المجلس فدفعها إليه أي للذي فسح له، فقال:

وكنت جليسَ قعقاعِ بن شور وما يَشْقَى بقعقاعٍ جليسُ
ضحوك السِّن أن نطقوا بخير وعند الشر مطرافٌ عبوس

قال ابن عباس في أدب المجالسة: لجليسي عليَّ ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل وأُوسع له إذا جلس، وأُصغي له إذا حَدَّث.

ويقال: لكل شيء محل، ومحل العقل مجالسة الناس.

ومثل الجليس كمثل العطّار، إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته.

كانت تحية العرب: صَبَحَّتْكَ الأنعمة، وطيِّبُ الأطعمة. ونقول أيضًا: صبحتك الأفالح وكل طير صالح.

---

(١) العقد الفريد: ٢/ ١٤١.

وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف في المجالسة، بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه، فيكون كل منهما في محله.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إذا دخلت منزل صديقك فأقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر. وينبغي للإنسان أن لا يُقْبِلَ بحديثه على مَن لا يُقبلُ عليه. فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله. ولا يبتدع كلامًا لا يليق بالمجلس. فقد قيل: لكل مقام مقال. وخير القول ما وافق الحال.

قال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي؛ لم يُعِدْ عليَّ حديثًا قط وقيل: إن أبا العباس كأن يحدثه يومًا، إذ عصفت الريح فأرمت طستًا من سطح إلى المجلس فارتاع مَن حضره ولم يتحرك الهذلي. ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح... فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي! فقال: إن الله يقول: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية ٤]. وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال. فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها، ولا وجمت لها. فقال السفاح: لئن بقيت لك لأرفعن مكانك.

كان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قط غلبةَ رجل يصغي إلى حديثي.

قيل: المودة طلاقة الوجه والتودُّد إلى الناس. وقيل؛ البشر يدل على السخاء. كما يدُلُّ النور على القمر.

وقيل من السُّنَّة: إذا حدَّثت القوم فلا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحدٍ نصيبًا.

وقيل: إذا أردت حسن المعاشرة فألقَ عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات. وإذا جلست فلا تتكبر على أحد. وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخواتمك. وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس، وفي الصلاة.

وليكن مجلسك هادئًا. وحديثك منظومًا مرتبًا، وأصغ إلى الكلام، واسكت عن المضاحك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزيين، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع الناس على الظلم، ولا تهازل أَمَتَكَ ولا عبدك فيسقط وقارك.

قال النبيّ ﷺ: «مَن جلس في مجلسي فكثر فيه لغطه. فقال: قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، وأشهد أن لا إلٰه إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، غفر له ما كان في مجلسه ذاك».

وقال بعضهم:

مَن لم يكن عقله مؤدبه ... لم يغنه واعظٌ من النسب
كم من وضيع الأصول في أُمم ... قد سوَّدوه بالعقل والأدب

أدب الرجل وأخلاق الصحاب

قال بعضهم:

السبعُ سبعٌ ولو كلَّت مخالبه ... والكلب كلب ولو بين السباع رُبي
وهكذا الذهب الإبريز خالطهُ ... صفر النحاس وكان الفضل للذَّهب
لا يُعجبنك أثوابٌ على رجلٍ ... دع عنك أثوابه وانظر إلى الأدب
فالعود لو لم تُفحْ منه روائحهُ ... لم يفرق الناسُ بين العود والحطب
وليس يسودُ المرءُ إلا بنفسه ... وإن عدَّ آباءَ كرامًا ذوي نسب
إذا العودُ لم يثمر ولو كان شعبةً ... من المثمرات اعتدَّه الناس من حطب

وقال آخر:

قد ينفع الأدبُ الأحداثَ من صغرٍ ... وليس ينفع بعد الشيبة الأدبُ
إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قوَّمتهُ الخشبُ

وقال أبو تمام:

إذا جاريت في خُلق دنيئًا ... فأنت ومَن تجاريه سواءُ
رأيتُ الحرَّ يجتنب المخازي ... ويحميه عن الغدر الوفاءُ
وما من شدَّةٍ إلَّا سيأتي ... لها من بعد شدَّتها رخاءُ
لقد جرَّبتُ هذا الدهر حتى ... أفادتني التجاربُ والعناءُ
يعيش المرءُ ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاءُ
إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ... ولم تستح فاصنع ما تشاء

وقال أبو فراس الحمداني في نتيجة الاختبار والتجارب:

لا أشتري بعد التجارب صاحبًا — إلَّا وددتُ بأنني لم أشرهِ
وتركت حلو العيش لم أحفل به — لما رأيت أغره في أمرهِ
والمرءُ ليس بغانم في أرضِهِ — كالصقر ليس بصائدٍ في وكرهِ

الصديق الصدوق والعدو الحسود

قال الطغراني في المقارنة بين الصديق والعدو:

جامل عدوَّك ما استطعت فإنهُ — بالرفق يطمع في صلاح الفاسدِ
واحذر حسودك ما استطعت فإنهُ — إن نمت عنه فليس عنك براقدِ
إن الحسود وإن رآك تودُّدًا — منه أضرُّ من الغدوِّ الحاقدِ
ولربما رضي العدوُّ إذا رأى — منك الجميل فصار غير معاندِ
ورضا الحسود زوالُ نعمتك التي — أوتيتها من طارف أو تالد
فاصبر على غيظ الحسود فناره — ترمي حشاه بالعذاب الخالدِ
إذا ما رأيت النار تأكل نفسها — حتى تعود إلى الرماد الهامدِ

الرأي والاستشارة والعزم

قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]. واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة: أحدها: أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه. وهذا قول الحسن. ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل، وهذا قول الضحاك. ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستنَّ به المسلمون وإن كان في غنية عن مشورتهم.

سمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة — فإن فساد الرأي أن يترددا

فأضاف إليه قوله:

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلًا — فإن فساد العزم أن يتقيَّدا

ولمحمد بن إدريس الطائي:

ذهب الصواب برأيه فكأنما آراؤه اشتقت من التأييد
فإذا دجا خطب تبليج رأيه صبحًا من التوفيق والتسديدِ

ولمحمد بن الورّاق:

إن اللبيب إذا تفرق أمره فَتَقَ الأمورَ مناظرًا ومساورا
وأخُو الجهالة يستبدُّ برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

قال الإمام جعفر الصادق: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأي الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرَن على مستبدٌ برأيه، ولا متلونِ، ولا على لحوح.

وقيل: ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأي. فليس كل عالم يعرف الرأي الصائب. وكم من نافذٍ في شيء ضعيف في غيره. قال أبو الأسود الدؤلي:

وما كل ذي نصح بمؤتيك نُصْحَهُ وما كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبِ
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعةٍ بنصيبِ

لما أراد نوح بن مريم قاضي مرو، أن يزوج ابنته استشار رجلًا مجوسيًا، كان جارًا له... فقال: سبحان الله! الناس يستفتونك وأنت تستفتيني؟! قال: لا بد أن تشير علي. قال: إن كسرى ملك الفرس كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب يختار الحسب، ورئيسك محمد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدي.

وقيل: إذا استجار الرجل ربه، واستشار صحبه، وأَجْهد رأيه، فقد قضى ما عليه ويقضي الله في أمره ما يحب.

النصيحة

ومما جاء في النصيحة:

اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين، من سنن المرسلين. قال الله تعالى إخبارًا عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ

أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ [هود: الآية ٣٤]. وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٣].

وقال صالح عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٩].

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الدين نصيحة، إن الدين نصيحة، إن الدين نصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين ولعامتهم». فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله، وتنزيهه عمّا ليس له بأهل، والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهرًا، وباطنًا، والرغبة في محابه، والبعد عن مساخطه، وموالاة مَن أطاعه ومعاداة مَن عصاه، والجهاد في رد العصاة إلى الطاعة قولًا وفعلًا. والنصيحة لكتابه إقامته في التلاوة، وتحسينه عند القراءة، وتفهم ما فيه، والذبّ عنه من تأويل المحدثين وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [صَ: الآية ٢٩].

وقال ورقة بن نوفل:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... إني النذير فلا يغرركُم أَحَدُ

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... إلّا الإلـه ويردى المالُ والولدُ

لم تغن عن هرمزٍ يومًا ذخائره ... والخلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد؛ أني قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد أعد لك مني قلبًا معقودًا بنصيحتك، ويدًا مبسوطة لطاعتك، وسيفًا مجردًا على عدوك. وأنشد الأصمعي:

النصح والنصيحة أن تعدت ... هوى المنصوح عزلها القبولُ

فخالفت الذي لك فيه حظٌ ... فنالك دون ما أملت غولُ

وقال أيضًا:

النصح أرخص ما باح الرجال فلا ... تردُدْ على ناصح نصحًا ولا تَلُمِ

إن النصائحَ لا تخفى مناهِلُها ... على الرجال ذوي الألباب والفَهَمِ

وقيل: أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج فلم يقبل منه وسار إليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتك أمرًا حازمًا فعصيتني فأصبحت مسلوب الإرادة نادمًا
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر فنفسك أولى اللوم إن كنت لائمًا
فما أنا بالباكي عليك صبابةً وما أنا بالداعي لترجع سالمًا

وقيل: مَن اصفر وجهه من النصيحة، اسودَّ وجهه من الفضيحة.

وقال طرفة:

ولا ترفُدَنَّ النصح من ليس أهله وكن حين تستغني برأيك غانيا
وإن امرأً يومًا تولى برأيه فدعه يصيب الرشد أو يك غاويا

وفي مثله قال أحدهم:

فلا تمنحن الرأي مَن ليس أهله فلا أنت محمود ولا الرأي نافِعُهُ

حفظ العهد والوفاء بالوعد

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المَائدة: الآية ١]، وقال جلّ ذكره وتقدّس اسمه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: الآية ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: الآية ٣٤] والآيات في ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصَّف: الآيتان ٢، ٣].

رُوِيَ في صحيح البخاري أن النبيّ ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، إذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

فالوفاء من نسيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطوات الظنون. ويقال: الوعد وجه، والإنجاز محاسنه. والوعد سحابة، والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لكل شيء رأس، ورأس المعروف تعجيله. وأنشدوا:

إذا قلت في شيء، نعم فأتمهُ فإنّ نعم دَيْنٌ على الحر واجبُ
وإلّا فقل لا، تسترح وترتح بها لئلا تقول الناس إنك كاذبُ

وقال آخـــر:

لا كلَّف الله نفسًا فوق طاقتها ولا تجود يدٌ إلا بما تجدُ
فلا تَعِدْ عَدةً إلا وفيتَ بها واحذر خلاف مقالٍ للذي تَعِدُ

وقال أعرابي: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطلٌ وتعليل. وقال: العذر الجميل. خير من المطل الطويل.

ومدح بشار يومًا خالد بن برمك، فأمر له بعشرين ألفًا، فأبطأت عليه. فقال لقائده[1]: أقمني حيث يمر. فمر فأخذ بلجان بغلته وقال:

أظلّت علينا منك يومًا سحابة وأضاء لها برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامعٌ ولا غيثها يأتي فتروي عطاشها

فقال ابن برمك: لا نبرح حتى تؤتى بها.

وقال صالح اللخمي:

لئن جمع الآفات فالبخل شرها وشر البخل المواعيد والمطل
ولا خير في وعد إذا كان كاذبًا ولا خير في قولٍ إذا لم يكن فعل

وقيل: ماتت للهذلي أم ولد، فأمر المنصور الربيع[2] أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجِّه إليك جارية نفيسه لها أدب وظرف، يسليك بها، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين.

ونسيه المنصور، فحج المنصور ومعه الهذلي. وطاف معه بالمدينة، حتى وصل إلى بيت عاتكة. فقال: يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة التي

(١) أي للرجل الذي يقوده في الطريق، لأن بشار بن برد كان أعمى.
(٢) هو الربيع بن سليمان وزير المنصور.

يقول فيها الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتغزَّلُ حذر العدا وبه الفؤاد موكَّلُ
أني لأمنحكَ الصدودَ وإنني قسمًا إليكَ مع الصدود لأميلُ

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه. فلما رجع المنصور أَمرَّ القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليه.

وقال الشاعر:

تعجيلُ وعد المرء أكرومةٌ تنشر عنه أطيب الذِّكرِ
والحرُّ لا يمطل معروفه ولا يليق المطْلُ بالحرِّ

وقال آخر:

ولقد وعدت وأنت أكرم واعد لا خير في وعد بغير تمامِ
أنعم عليّ بما وعدت تكرُّمًا فالمَطْلُ يُذهب بهجة الإنعامِ

وقال آخر:

وميعادُ الكريم عليك دينٌ فلا تزد الكريم على السلامِ
يذكره سلامك ما عليه ويغنيك السلامُ عن الكلام

وقال آخر:

شكاك لساني ثم أمسكت نصفه فنصف لساني بامتداحك ينطق
فإن لم تنجّز ما وعدت تركتني وباقي لساني بالمذمّة مطلقُ

وقال آخر:

باتت لوعدك عيني غير راقدة والليل حي الدياجي منبت السحرِ
هذا وقد بتُّ من وعدٍ على ثقة فكيف لو بتُّ من هجرٍ على حذرِ

في العقل وسداد الرأي

قال أبو هلال: من العجب أن العرب تمثلت في جميع الخصال بأقوام جعلوهم أعلامًا فيها؛ فضربوا بها المثل إذا أرادوا المبالغة، فقالوا:

أحلمُ من الأحنف بن قيس، ومن قيس بن عاصم؛ وأجودُ من حاتم، ومن كعب بن أمامة؛ وأشجعُ من بَسطام؛ وأبيَنُ من سُحبان وائل؛ وأرمَى من ابن ثقن؛ وأعلمُ من دَغفل؛ ولم يقولوا: أعقلُ من فلان. فلعلهم لم يستكملوا عقل أحد، على حب ما قال الأعرابي، وقد قيل له:

حِدَّ لنا العقل. فقال: كيف أحُدُّه ولم أره كاملًا في أحدٍ قط؟

وقيل لحكيم: ما جماع العقل؟ قال: ما رأيتُهُ في أحدٍ فأصِفُهُ، وما لا يُوجَدُ كاملًا فلا حدَّ له.

قال عبد الله بن عمر بن معاوية عن عمر بن عتبة المعروف بالعتبي: العقل عقلان عقلٌ تفرَّد الله تعالى بصُنعه، وهو الأصل، وعقلٌ يستفيدُهُ المرءُ بأدبه، وهو الفرع، فإذا اجتمعا قوَّي كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظُّلمة للبصر.

قال بعض الشعراء في هذا اللفظ، ويروى لعلي بن أبي طالب (ع):

رأيتُ العَقْلَ عقلانِ ... فمطبوعٌ ومسموعٌ
ولا ينفعُ مسموعٌ ... إذا لم يكُ مطبوعٌ
كما لا تنفعُ الشمسُ ... وضوءُ العين ممنوعٌ

وتقول الآية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: الآية ٤٦].

وقال ابن دريد:

وأفضلُ قسم الله للمرءِ عقلُهُ ... فليس من الخيراتِ شيءٌ يقاربُهْ
فزَيْنُ الفتى في الناس صحةُ عقلِهِ ... وإن كان محظورٌ عليه مكاسبُهْ
ويُزري به في الناس قلةُ عقلِهِ ... وإنْ كرُمَتْ أعراقُهُ ومناسبُهْ
إذا أكمل الرحمنُ للمرءِ عقلَهُ ... فقد كملت أخلاقُهُ ومآربُهْ(١)

لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض، أتاه جبريل (ع) فقال: يا آدم إن الله عزّ وجلّ قد حباك بثلاث خصال لتختار منها واحدة وتتخلى عن اثنتين. قال: وما هن؟ قال: الدين والعقل والحياء.

---

(١) نهاية الأرب: ٣/ ٢٣٧.

قال آدم: اخترت العقل. فقال: جبريل للحياء والدين: ارتفعا. قالا: لن نرتفع. قال جبريل (ع): أتعصياني؟ قالا: لا، ولكن أُمرنا أن لا نفارق العقل[١].

قال محمد عبد الله بن طاهر:

لعمرك لا بالمال يكتسب الغنى ... ولا باكتساب المال يكتسب العقلُ
وكم من قليلِ المال يُحْمَدُ فضلُهُ ... وآخرُ ذو مالٍ وليس له فضلُ
وما سبقتْ من جاهلٍ قطُّ نعمةً ... إلى أحدٍ إلا أضرَّ به الجهلُ
وذو اللب إنْ لم يُعْطِ أحْمَدْتَ عقلَهُ ... وإن هو أعطى زانه القول والعقلُ

وقال محمد بن مناذر:

وترى الناس كثيرًا فإذا ... عُدَّ أهل العقل قلّوا في العدَدْ
لا يقلُّ المرءُ في القصدِ ولا ... يُعدم القِلَّة من لم يقتصِدْ
لا تعِدْ شرًا وعد خيرًا ولا ... تخلف الوعدَ وعجِّل ما تَعِدْ
لا تقل شعرًا ولا تهمم به ... وإذا ما قلتَ شعرًا فأجِدْ

قال النبيّ ﷺ: «العقل نور في القلب نفرّق به بين الحق والباطل، وبالعقل عرف الحلال والحرام، وعرفت شرائع الإسلام ومواقع الأحكام، وجعله الله نورًا في قلوب عباده ويهديهم إلى هدى، ويصدهم عن ردى.

من جلالة قدر العقل أن الله تعالى لم يخاطب إلّا ذوي العقول. فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ١٩]، وقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: الآية ٧٠] أي عاقلًا، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: الآية ٣٧] أي لمن كان له عقل.

وقال النبيّ ﷺ: «العاقل يحلم عمن ظلم، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق إلى البر من فوقه، وإذا رأى باب برٍّ انتهزه، وإذا عرضت له فتنة اعتصم بالله وتنكبها»[٢].

---

(١) المستطرف: ١/٢٣.

(٢) تنكبها: تجنّبها وابتعد عنها.

ولعبد الله بن محمد:

تأمل بعينك هذا الأنام ... وكن بعض من صبانه نُبْلُهُ
فحِلْيَةُ كلِّ فتى فضلُهُ ... وقيمةُ كل امرئٍ عقلهُ
ولا تتكل في طلاب العلا ... على نسب ثابتٍ أصلهُ
فما من فتى زانه أهلهُ ... بشيء وخالفه فِعلهُ

وقال أحد الشعراء:

عقل هذا المرء مرآ ... ةٌ ترى فيها فِعَالَهُ
فإذا كان عليها ... صدأٌ فهو جَهالَهْ
وإذا أخلصه الله ... صقالًا وصفالَهْ
فهي تعطي كل حيٍّ ... ناظرٍ فيها مثالَهْ

قال بعضهم:

إذا أحببتُ أقوامًا فلاصِقْ ... بأهل العقل منهم والحياءِ
فإنَّ العقل ليس له إذا ما ... تفاضلتِ الفضائلُ من كَفَاءِ

ولبعضهم:

العقل يأمر بالعفاف وبالتُّقى ... وإليه يأوي الحلم حين يؤولُ
فإن استطعت فخذ بفضلك فضله ... إن العقول يُرى لها التفضيلُ

وقال أبو العلاء المعري:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقال آخر:

لا تراني أبدًا أكرمُ ذا المال لمالِهْ
لا ولا تُزري بمن يعقل عندي سوءُ حالِهْ
إنما أقضي على ذاك وهذا بفعالِهْ
أنا كالمرآة ألقى كل وجهٍ بمثالِهْ
كيفما قلّبني الدهر يجدني من رجالِهْ(١)

(١) العقد الفريد: ١/١١١ ـ ١١٥.

وقالوا: لتجربة مرآة العقل. ولذلك حمدت آراء المشايخ، حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم فهم. وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع، فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة.

قال الشاعر:

ألـم نـر أن الـعـقـل زَيْـنٌ لأهـلـه ولكن تمام العقل طول التجاربِ

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفةٍ أفادت له الأيام في كرِّها عقلا

وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان، كما يعيش الأسد بقوته حيث كان.

قال الشاعر:

إذا لـم يكـن لـلمـرء عـقـلٌ فإنـه وإن كان ذا بيتٍ على الناس هيِّنُ
ومـن كـان ذا عقـلٍ أجلّ لـعـقـلـه وأفضـل عـقـل عـقـل مـن يـتـديَّـنُ

وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدي إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير.

ويروى عن الإمام علي عليه السلام أنه كان يترنم بهذه الأبيات:

إن الـمـكـارم أخـلاق مـطـهـرةٌ فـالـعـقـل أوّلـهـا والـديـنُ ثـانـيـهـا
والـعـلـمُ ثـالـثـهـا والـحـلم رابـعـهـا والجود خامسها والعرف سادسها
والعين تعلم من عينَيْ محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها
والـنـفـس تـعـلـم أني لا أحـدقـهـا ولست أرشد إلا حين أعصيها

مما قيل في الدَّيْن

رُوِيَ عن علي عليه السلام قال: كان النبيّ ﷺ إذا أتى جنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن دَيْنه، فإن قيل عليه دين كفَّ الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلّى عليه.

قال أحدهم:

لقد كان القريضُ سمير قلبي فألهتني القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مردة التميمي:

وإني لأقضي الدين بالدين بعدما يرى طالبي بالدين أن لست قاضيا

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيتَ الدينَ بالدين لم يكن قضاءٌ ولكن ذاك غرمٌ على غُرمِ

وقيل: الدين همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار.

قال الزهري: لا همَّ إلا هم الدين، ولا وجع إلا وجع العين. وعن النبيّ ﷺ قال: «مَن تزوَّج امرأةً بصداق ينوي أن لا يقضيه فهو سارق».

قيل: أُتيَ النبيّ ﷺ بجنازة، فلما قام ليكبِّر سأل: «هل عليه دين»؟ قالوا: ديناران يا رسول الله. فعدَل النبيّ ﷺ عنه، وقال: «صلّوا عليه». فقال علي: هما عليَّ يا رسول الله. فعدل النبيّ وصلّى عليه.

ثم قال لعليّ: «جزاك الله خيرًا وفكَّ الله رهانك كما فككت رهان أخيك إنه ليس من ميتٍ يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه. ومَن فكَّ رهان ميِّت فكَّ الله رهانه يوم القيامة»[1].

وقال الإمام الشافعي في الحظ والغنى:

لو أنَّ بالحيل الغنى لوجدتني بنجوم أفلاك السماء تعلُّقي

لكن من رُزِقَ الحِجَى حُرِمِ الغنى ضدَّان مفترقان أيَّ تفرقِ

فإذا سمعتَ بأنَّ محرومًا أتى ماءُ ليشربه فغاض فصدِّق

أو أنَّ محظوظًا غدا في كفِّهِ عودٌ فأورق في يديه فحقِّق[2]

سارقٌ يقطع سارقًا

مرّ عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقًا. فقال: سبحان الله! سارق العلانية يقطع سارق السر.

(١) المستطرف: ١/ ١٥٥.

(٢) كشكول البهائي، ص ٢٨١.

ومما قيل في العداوة والبغضاء[1]

قد ذكر الله العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: الآية ١٤] ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: الآية ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك» وقال زياد بن عبد الله:

فلو أني بُليتُ بهاشميٍّ خؤلته بنو عبد المدانِ
صِرتُ على عداوته ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

وعن أبي حيان: قال لقمان: نقلت الصخور وحملتُ الحديد، فلم أر شيئًا أثقلُ من الدين. وأكلت الطيبات. وعانقتُ الحسان، فلم أرَ شيئًا ألذُّ من العافية.

وأنا أقول: لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء، خصوصًا إذا كانوا مساهمين في نسب، أو مجاورين في بلد. اللهم أني أعوذ بك من تتابع الإثم، وسوء الفهم، وشماتة ابن العم.

وأنشد الجاحظ:

تقول العاذلات تسلَّ عنها وداوِ عليلَ قلبك بالسلوِّ
وكيف ونظرة منها اختلاسًا ألذُّ من الشماتة بالعدوِّ

قال الجاحظ: ما رأيت سنانًا أنفذ من شماتة الأعداء.

قال حكيم: لا نأمن عدوّك وإن كان ضعيفًا فإن القناة قد تقتل وإنّ عدمت السنان. قال الشاعر:

فلا تأمن عدوّك لو تراه أقلَّ وإذا نظرت من القُراد
فإنّ الحرب ينشأ من جبان وإنّ النار تُضرم من رماد

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب:

كفاية الله خير من توقّينا وعادة الله في الماضين تكفينا

---

(١) المستطرف: ١/ ٣٠٥.

كاد الأعادي فلا والله ما تركوا قولًا وفعلًا وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نحن في سرٍّ وفي علنٍ على مقالتنا يا رب أكفينا(١)

ومما قيل في الحسد

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: الآية ٥٤] وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمةٍ محسود».

قيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة. فذكر جميع دواعي الحسد.

قال المغيرة شاعر آل المهلب(٢):

آل المهلب قومٌ إن مدحتهم كانوا الأركام أباءً وأجدادا
إنَّ العرانين تلقاها محسَّدةً ولا ترى للئام الناس حُسَّادا

في نوابع الحكم: الحسَدُ حسك، مَن تعلق به هلك.

وقال أحدهم:

إني حسدتُ فزاد الله في حَسَدي لا عاش مَن عاش يومًا غير محسودِ

وقال نصر بن سيار(٣):

إني نشأت وحسادي ذوو عددٍ ياذا المعارج لا تُنْقِصْ لهم عددا
إن يحسدوني على ما بي لما بهم فمثل ما بي مما يجلب الحسدا

وقالوا: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد.

ومما قيل في الحياء

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوَّة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

(١) المستطرف: ١/٣٠٥.
(٢) هو المغيرة بن عمرو بن ربيعة الحنظلي المتوفى سنة ٩١ هـ/ ٧١٠ م. شاعر إسلامي، كان من رجال المهلب بن أبي صفرة. اشتهر بابن الحبناء، نسبة إلى أمه. وقيل: «هبناء» لقب غلب على أبيه لجبنه.
(٣) نصر بن سيّار (٦٦٦ ـ ٧٤٨ م). أمير من الدهاة الشجعان. كان شيخ مضر بخراسان، ثم وُلي إمرتها بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري.

وقال علي بن أبي طالب: مَن كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه.

وعن زيد بن علي بن الحسين: مَن لم يستح فهو كافر. وقال الخوَّاص إن العباد عملوا على أربع منازل.

على الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء. فأرفعها منزلة الحياء، لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال. قالوا: سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء.

في الغرور

ومما قيل في الغرور الذي يحمل صاحبه على توهُّم أمور غير صحيحة قصيدة إيليا أبو ماضي «النجوم والضفادع» من ديوانه «الجداول». وأبو ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧ م) من كبار شعراء المهجر ومن أعضاء «الرابطة القلمية» فيه. ولد في قرية «المحيدثة» اللبنانية وأقام في الإسكندرية سنة ١٩٠٠ يبيع السجائر ثم هاجر إلى أميركا سنة ١٩٠١ وتوفي فيها.

صاحت الضفدعَ لما شاهدت ... حولها في الماء أظلال النجومْ
يا رفاقي، يا جنودي: احتشدوا ... عَبَرَ الأعداءُ في الليل التخومْ
فاطردوهم واطردوا الليل معًا ... إنه مثلهُم باغٍ أثيمْ
زعقةٌ صار صداها في الدجى ... فإذا الشطُّ شخوصٌ وجسومْ
في أديم الماء من أصواتها ... رعدةُ الحمَّى وفي الليل وجومْ
فرَّق الفجرُ جلابيب الدجى ... ومحا من صفحة الأرض الرسومْ
فمشتْ في سربها مختاله ... كمليك ظافر بين قرومْ
ثم قالت: لكم البشرى ولي ... قد نجونا الآن من كيدٍ عظيمْ
نحن لو لم تقهر الشهب التي ... هاجمتنا لأذاقتنا الحُتومْ
وأقامت بعدنا من أرضنا ... في نعيم لم تجده في الغيومْ
أيها التاريخ سجِّلْ أننا ... أمةٌ قد غلبَتْ حتى النجوم

ومن الغرور الذي يودي بصاحبه إلى التهلكة، قصيد أمير الشعراء أحمد شوقي: ملك الغربان.

كان للغربان في العصر مليك ... وله في النخلةِ الكبرى أريكْ
فيه كرسيٌ وخدرٌ ومهود ... لصغار الملك أصحاب العهودْ

جـاءه يـومًـا ـ نـدورُ ـ الـخـادمُ وهـو فـي الـبـاب الأمـيـن الـحـازمُ
قال: يا فرع الملوك الصالحين أنت لا زلْتَ تحبُّ الناصحينْ
سوسةٌ كانت على القصر تدور جازتِ القصر ودبَّتْ في الجذورْ
فـابـعـثِ الـغـربـان فـي إهـلاكـهـا قـبـل أن نـهـلَـكَ فـي أشـراكـهـا
ضحكَ السلطان من هذا المقال ثـم أدنـى خـادمَ الـخـيـرِ وقـال
إنا ربُّ الشوكةِ الضاني الجناح أنـا ذو الـمـنـقَـار غـلَّابُ الـريـاح
أنـا لا أنـظـر فـي هـذي الأمـورْ أنـا لا أبـصـرُ تـحـتـي يـا نـدورْ
ثـم لـمـا كـان عـامٌ بـعـد عـام قام بين الريح والنخل خصامْ
وإذا الـنـخـلـة أقْـوَى جـذعـهـا فـبـدا لـلـريـح سـهـلًا قـلـعُـهـا
فـهـوَتْ لـلأرض كـالـتَّـلّ الـكـبـيـر وهوى الديوان وانقضَّ السرير
فدعا السلطان ذا الخطب المهوّل ودعـا خـادمـه الـغـالـي يـقـول:
يا ندور الخير أسعف بالصياح ما ترى ما فعلت فينا الرياح؟
قال: يا مولاي لا تسأل ندورْ أنـا لا أنـظـرُ فـي هـذي الأمـورْ

في الفِطرة والطِّباع

قال الإمام علي بن أبي طالب مخاطبًا قومًا قست قلوبهم وفسدت فطرتهم:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٤].

وفي قدرة العقل على التمييز بين الخطأ والصواب يقول الإمام علي:

كفاك عقلك ما أوضح لك سُبُل غيِّكَ من رُشْدِك.

وفي تبيان الحق يقول زهير بن أبي سلمى:

فـإن الـحـقَّ مـقـطـعـه ثـلاثٌ يـمـيـنٌ أو نِـفـارٌ أو جـلاءُ

ويقول الشاعر في قيل الإنسان إلى الشاحنة والعدوان:

كـلـمـا أنْـبَـتَ الـزمـان قـنـاةً ركَّـبَ الـمـرءُ فـي قـنـاةٍ سِـنـانـا

بيد أن مظهر المرء لا يدلُّ دائمًا على مخبره، ومن هنا يقول المتنبي:

إن السلاح جميع الناس تحمِلهُ ... وليس كل ذوات المخلبِ السبُعُ

ويقول النابغة في ذمّ الطمع وعاقبته الوخيمة:

الرفق يمنٌ والأناة سعادة ... فاستأْنِ في أمرٍ تُلاقِ نجاحا
واليأس عمَّا فات يعقبُ راحةً ... ولرُبَّ مُطمعةٍ تعود ذُباحا

ويقال: الطمعُ ذُباح؛ وهو داءٌ في الحلق.

قيل لابن المقفع: مَن أدَّبك كل هذا الأدب؟

قال: نفسي.

فقيل له: أيؤدب الإنسان نفسه بغير مؤدب؟

فأجاب: كيف لا. كنت إذا رأيت في غيري حسنًا أتيته، وإن رأيت قبيحًا أبيته، وبهذا وحده أدَّبْتُ نفسي.

وقال أحمد شوقي:

وقد أنسى الإساءة من حسودٍ ... ولا أنس الضغينة والفعالا

قال قوم من الخوارج لمحمد بن الحنفية. لم غرَّر بك أبوك في الحروب ولم يغرر بأخويك الحسن والحسين؟

فأجابهم: لأنهما عيناه، وأنا يمينه؛ فهو يدفع عن عينيه بيمينه.

وهذا جواب من يُحسن التخلُّص من كيد الحاسدين.

سُئِلَ إبراهيم بن أحمد: لم لا تصحب الناس؟

فقال: إن صحبت من هو دوني آذاني بجهله، وإن صحبت مَن هو فوقي تكبَّر علي، وإن صحبتُ مَن هو مثلي حسدني.

قال إيليا أبو ماضي:

قال العدا حولي علت أصواتهم ... أَأُسَرُّ والأعداء حولي في الحمى
قلت ابتسم لم يقصدوك بذمهم ... لو لم تكن منهم أجلَّ وأعظما

سأل الإمام أحمد بن حنبل حاتم الأصم وكان من الحكماء: كيف السبيل إلى السلامة من الناس؟

فأجاب: تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم، ويؤذونك ولا تؤذيهم، وتقضي مصالحهم ولا تكلفهم بقضاء مصالحك.

قال: إنها صعبة يا حاتم!

فأجاب: ولَيْتَكَ تسلم.

قال أبو العلاء المعري:

ألا إنما الأيامُ أبناء واحد وإن الليالي كلها أخواتُ
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي جاءت به السنواتُ

ما يُستحسن من المرأة عند العرب خَلْقًا وخُلُقًا:

قال السيد محمود شكري الآلوسي في كتابه «بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب»:

وأحسن ما رأيك من وصف النساء خلقًا وخُلُقًا ما ذكره كثير من أئمة الأدب ومنهم الميداني في كتابه «مجمع الأمثال» عند قولهم: «ما وراءك يا عصام؟». قال المفضل: أول مَن قال ذلك الحارث بن عمرو ملك كندة، وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم وكمالها وقوة عقلها، دعا امرأة من كندة، ذلك عقل ولسان وأدب، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي عِلْم ابنة عوف، فمضت حتى انتهت إلى أمها وهي أمامة بنت الحارث، فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت إلى ابنتها، وقالت: أي بنية، هذه خالتك أتتك لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلق، وناطقيها إن استنطقتك. فدخلت فنظرت ما لم تر قط. فخرجت من عندها، وانطلقت إلى الحارث. فلما رآها مقبلة قال: ما وراءكِ يا عصام؟ قالت: «صرَّحَ المخضُ عن الزُّبَد» رأيت جبهة كالمرآة المصقولة، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل، إن أرسَلَتْه خِلْتَهُ سلاسل؛ وإن مشطت قلت عناقيد جلاها الوابل(١)، وحاجبين كأنما خُطّا بقلم، أو سُوِّد بحُمَم(٢)، تَقَوّسا مثل عين الضبية العبهرة(٣) بينهما أنف كحدِّ السيف الصنيع(٤). حَفّت به وجنتان كالأرجوان، في بياضٍ كالجُمان، شُقَّ فيه فم كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غُرّ، ذات

(١) الوابل: المطر الشديد الضخم القطر. (٢) الحُمم: الفحم.

(٣) العبهرة: الممتلئة الجسم، والناعمة الطويلة الجامعة للحسن.

(٤) السيف الصنيع: الصقيل المجرّب.

أُشُر[١]، تقلب فيها لسانًا بفصاحة وبيان، بعقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي فيه شفتان حمراوان تجلبان ريقًا كالشهد إذا دُلِك، في رقبة بيضاء كالفضة، رُكبت في صدر كصدر تمثال دُمية، وعَضُدان مُدْمَجان يتصل بهما ذراعان، ليس فيهما عظم يُمَسُّ ولا عرقٌ يُحَسّ. نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين، يخرقان عليهما ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُويَ طيّ القُباطيّ المدمجة (ثياب قبطية) كُسِّر عُكُنا[٢] كالقراطيس المدرجة، تحيط بتلك العُكن برّة كالدهن المجلدّ.

خلف ذلك ظهر كالجدول، ينتهي إلى خصْر لَوْلَا رَحْمَةُ الله لانْبَتَر. لها كفل يُقعدها إذا نهضت، ويُنهضها إذا قعدت، كأنهُ دِعْصُ[٣] رمل لبَّده سقوط الطلّ، تحمله فخذان لفًا كأنما قُلبا على نضد جمان، تحتها سَاقَان خَدِلَتَان[٤] كالبردتين دُشّيَتا بشعرٍ أسود، كأنه حلفُ الزَّرد، يحملُ ذلك قدمان كحذو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما وكيف تطيقان حمل ما فوقهما. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها إياه.

وبعث بصداقها فجهِّزت، فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها: أي بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعولة للعاقلة ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه، ولكن الناس للرجال خلقن ولهن خلق الرجال. أي بنية، إنك فارقت الجوّ الذي منه خرجت، وخلفت العشّ الذي فيه درجت، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكوني له أمةً يكنْ لك عبدًا وشيكًا.

يا بنية، احملي عني عشر خصال يكنَّ لك ذخرًا وذكرًا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه على قبيح، ولا يشم منك إلا طيبَ ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدو عنه حين منامه. فإن حرارة الجوع مَلْهَبَة، وتنغيص النوم مبغضة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على

(١) أُشُر الأسنان: التحزيز الذي فيها، ويكون خلقة.
(٢) العكن: هي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا.
(٣) الدعص: الكثيب، قطعة من الرمل مستديرة. (٤) خدلتان: ممتلئتان ضخمتان مستديرتان.

نفسه وحشمة عياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء[(١)] على العيال والحشم حسن التدبير. ولا تفشي له سرًا، ولا تعصي له أمرًا، فإنك إن أفشيت له سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أوغرت صدره.

ثم أتَّقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا[(٢)]، والاكتئاب عنده إن كان فرِحًا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير.

وكوني أشدُّ ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، أطول ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهت والله يخير لك.

فحُمِلَتْ إليه عروسًا وعظم موقعها عند الحارث، وولدت له سبعة ملوك حكموا اليمن.

قال الألوسي:

وفي الشعر الجاهلي كثير من أوصاف النساء محمودة، من ذلك قول بعضهم في قصيدة طويلة مشهورة:

بيضاءُ قد لبس الأديم أد ... يم الحسن فهو لجلدها جلدُ
ويزين فَوْدَيها إذا حَرَت ... ضافي الغدائر فاحم جَعْدُ[(٣)]
فالوجه مثل الصبح مبيضٌ ... والفرع مثل الليل مسودُّ[(٤)]
وجبينها صلْتٌ وحاجبها ... شَخْتُ المخطّ أَزَجُّ ممتدُّ[(٥)]
وكأنها وَسْنَى إذا نظرت ... أو مُدْنَفٌ لمَّا يَفِقْ بعدُ[(٦)]

(١) الإرعاء: الإبقاء عليهم. (٢) الترح عكس الفرح.

(٣) الفود: معظم شعر اللحة مما يلي الأذنين وناحية الرأس. وقال ابن السكيت الفودان: الضفيرتان. والغذائر: ج غديرة وهي الذؤابة، والفاحم: الأسود والجعد من الشعر خلَاف السبط أو القصير منه. وحسرت المرأة خمارها، كشفته.

(٤) الفرع: الشعر التام ـ ويروى بدل مبيض (منبلج).

(٥) الصَّلْت الجبين: الواضح. وقد صلت صلوتة، والشَّخْت: الدقيق، والأزجّ الحاجب: الدقيق في طول.

(٦) الوسن بفتحتين: النعاس، ورجل وَسْنان وامرأة وسن بهما سِنة. المدنف: المريض الذي لازمه المرض.

وكانت العرب مع اعتبارهم هذه الأمور في المرأة يراعون شرف الفضيلة، وهم الذين ينتفي بهم العار، ويحصل بهم الاستكثار. وفي الحديث: «تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها إلا في الأكفاء».

ورُوِيَ أن أكثم بن صيفي قال لولده: يا بنيَّ لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فإن المناكح اللئيمة مدرجة للشرف.

وقال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: قد أحسنت إليكم صغارًا وكبارًا، وقبل أن تولدوا. قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تُسبُّون بها.

ومما امتدح به الرجال أيضًا العفّة وكرم النفس. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما وُصف لي أعرابيٌّ قط فأحببت أن أراه إلَّا عنترة بن شداد» لقوله:

وأغضُّ طَرْفي إن بَدَتْ لي جارتي ... حتى يواريَ جارتي مأواها

ومن شعر عنترة الذي يمتدح به أخلاقه وكرم نفسه وشجاعته قوله:

بَكَرَتْ تخوّفني المنون كأنني ... أصبحت عن غرض المنون بمعزلِ
فأجبتها: إن المنية منهلٌ ... لا بُدَّ أن أُسقى بكأسِ المنهل
فأقنَيْ حياءك (لا أبالكِ) واعلمي ... إني امرؤٌ سأموت إن لم أقتلِ
ولقد أَبيتُ على الطوى وأظلُّهُ ... حتى أنال به كريم المأكلِ

في الصدق والكذب

عن عبد الله بن عمر قال:

جاء رجل إلى النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله، ما عمل أهل الجنة؟ قال: الصدق، إذا صدق العبد برَّ، وإذا برَّ أمِنَ، وإذا أمِنَ دخل الجنة.

قال: يا رسول الله ما عمل أهل النار؟ قال: الكذب؛ إن العبد إذا كذب فَجَر، وإذا فَجَر كفر، وإذا كفر دخل النار.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ [الجاثية: الآية ٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٠٥﴾

[النّحل: الآية ١٠٥]، وقال في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار» ـ وقال ﷺ: «الكذب مجانب الإيمان». وقال ﷺ: «لا يجوز الكذب في جدٍّ ولا هزل».

قال عمرو بن العلاء القارىء: ساد عتبة بن ربيعة وكان مُمْلقًا، وساد أبو جهل وكان حَدَثًا، وساد أبو سفيان وكان بخيلًا، وساد ابن الطفيل وكان عاهرًا، وساد كليب بن وائل وكان ظلومًا، وساد عُيَيْنة وكان محمقًا، ولم يسد قطُّ كذاب. فصلح السؤدد مع الفقير والحداثة، والبخل والعهر والظلم والحمق، ولم يصلح مع الكذب، لأن الكذب يعمُّ الأخلاق كلها بالفساد.

قال يحيىٰ بن خالد: رأيت شرّيب خمر نزع، ولصًّا أقلع، وصاحب فواحش رجع ولم أر كذابًا رجع.

قال الأصمعي: قيل لرجل معروف بالكذب، هل صدقت؟ قال: أخاف أن أقول «لا» فأصدق وآفة الكذب النسيان ـ قال الشاعر:

ومِن آفة الكذابِ نسيان كذبِهِ   وتلقاه ذا دهيٍ إذا كان كاذبا

وقال أبو تمام:

يا أكثر الناس وعدًا حشوَهُ خُلُقٌ   وأكثر الناس قولًا حشوه كذِبُ

وقال الله تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٠].

وقال محمود بن أبي الجنود:

لي حيلة فيمن يَنِمُّ   وليس في الكذاب حيلة
مَن كان يخلق ما يقو   ل فحيلتي فيه قليلة

وقال الأبشيهي في المستطرف:

لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء، وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك. ثم رجع

إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين: أعلم أنك لو لم تولِّ هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف[١] ساكت. فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت، وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله خيرًا عما تقول. فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب. فقال: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار الناس، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت.

فقال الأحنف: يا هذا أمسك. فإن ذا الوجهين خليقٌ أن لا يكون عند الله وجيهًا. وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين، أو أصلح بين الزوجين، ويُذمُّ الصدقُ إذا كان بخيبة. وقد رفع الحرج عن الكاذب في الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه.

وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه، يقوي بذلك جأشهم. فكانوا إذا رأوه مقبلًا إليهم قالوا: جاءنا بكذب.

في ذمّ الغيبة وتحريمها

قال الأبشيهي في «المستطرف»: قال محمد بن حزم:

أول مَن عمل الصابون سليمان، وأول مَن عمل السويق ذو القرنين، وأول مَن عمل خبز الجرداق نمرود، وأول مَن اغتاب آدم إبليس لعنه الله.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي إلى السماء وردت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء يأكلون لحوم الناس.

وقال أيضًا ﷺ: «إياكم والغيبة فإنها أشدُّ من الزنا».

قال كُثيِّر عَزَّة:

وسعى إليَّ بعيبِ عَزَّةَ نسوةٌ   جعل الإلـٰهُ خدودهنَّ نعالها

---

(١) الأحنف بن قيس: هو ابن معاوية بن حصين المري السعدي التميمي، أبو بحر، سيد تميم، واحد من العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب به المثل في الحلم. أعتزل الفتنة يوم الجمل، وشهد صفين مع عليّ (ع) توفي سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م.

اغتاب رجل الحسن البصري، فأهدى له طبقًا من الرطب، فأتاه الرجل وقال له: أغتبتك فأهديت إليّ! فقال الحسن: أهديتَ إليّ حسناتك فأردت أن أكافئك.

وبعض المتفقهين والمتعبّدين يعرضون بالغيبة تعريضًا، تُفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا؛ الله يغفر لنا؛ الله يصلحه؛ نسأل له العافية؛ نحمد الله الذي لم يبتلينا بالدخول على الظلمة؛ نعوذ بالله من الكبر؛ يعافينا الله من قلة الحياء؛ والله يتوب علينا... وما أشبهه ذلك مما يفهم تنقيصه. فكل ذلك غيبة محرّمة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعَام: الآية ٦٨].

ومما أنشدوه في هذا المعنى:

وسمعكَ صُنْ عن سماعِ القبيحِ ... كصونِ اللسان عن النطق بِهْ
فإنك عند سماع القبيح ... شريك لقائله فانتبهْ
وكم أزعج الحرص من طالب ... فوافى المنية في مطلبِهْ

وقال في شرح نهج البلاغة، من حديث البراء بن عازب:

خطب رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن، فقال: «لا لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبّعوا عوراتهم، فإنه من تتبّع عورة أخيه تتبَّع الله عورته، ومَن يتتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

قال الإمام علي (ع): يا عبد الله، لا تعجل في عيب أحد بذنوبه، فلعلّه مغفورٌ له. ولا تأمن على نفسك معصية، فلعلّك معذَّبٌ عليه. فليكفف مَنْ عِلمَ منكم عيب. غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكرُ شاغلًا له على معافاته مما ابتُليَ به غيره.

رُوِيَ أن رجلين كانا عند باب المسجد، فمرَّ بهما مخنَّث، فترك ذلك في نفسهما، فقالا: لقد بقي عنده منه شيء، فأقيمت الصلاة، وصلّيا مع الناس وذلك يجول في أنفسهما. فأتيا عطاء بن رباح، فسألاه، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، إن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك.

في خطبة حجَّة الوداع: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام لحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. إن الله حرَّم الغيبة كما حرَّم المال والدم».

سُئل الفضيل بن عياض عن غيبة الفاسق، فقال: لا تشتغِل بذكره، ولا تعوِّد لسانك الغيبة. أشغل لسانك بذكر الله، وإياك وذكر الناس، فإن ذكر الناس داء، وذكر الله دواء.

أتى رجل عمرو بن عبيد الله ـ فقال له: إن الأسواريّ لم يزل يذكرك ويقول: عمرو الضال. فقال له: يا هذا، والله ما رعيتَ حقَّ مجالسة الرجل حين نقلت لي حديثه، ولا رعيتَ حقي حين بَلَّغتَ عن أخي ما أكرهه. أعلمه أن الموت يُعمُّنا، والبعث يحشرنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا.

قيل: روى معاذ بن جَبَل أن رجلًا ذُكر عند رسول الله ﷺ فقال قوم: ما أعجزه! قال عليه السلام: «اغتبتم صاحبكم» ـ فقالوا: قلنا ما فيه ـ فقال: إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه».

قال: وقد احتجَّ الزاعمون أن لا غيبة في الدين: وهذا ليس بحجة ـ لأن الصحابة إنما ذكرَت ذلك في مجلس الرسول ﷺ لحاجتها إلى تعرّف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضها التنقُّص.

ومن كلام علي بن أبي طالب (ع): أيها الناس من عَرَفَ من أخيه وثيقة دين وسداد طريق فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال. أما إنه قد يرمي الرامي، وتخطىء السهام، ويحيل الكلام، وباطل ذلك يبور، والله سميع وشهيد.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحُجرات: الآية ١٢].

من دعاء الإمام زين العابدين:

اللهم أعزَّني، ولا تبتلني بالكِبْر، واعصمني من الفخر. اللهم ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزًّا ظاهرًا إلا أحدثت

لي ذلّة باطنة عند نفسي. اللهم وسدِّدْ لي أن أعارض مَن غشَّني بالنصح، وأكافىء مَن قطعني بالصلة.

وقيل في جشع بني الإنسان:

الذئب يترك شيئًا من فريسته ... للجائعين من الذؤبان إن شبعا
والمرء وهو يداري البطن من بشمٍ ... يسعى لسلبِ طاوي البطن ما جمعا

قال الحجاج لامرأة من الخوارج: والله لأعذبنَّكم عذابًا. ولأحصدنّكم حصدًا.

فقالت: أنت تحصد والله يزرع.

وقال موسى بن عبد الله في سوء الزمان:

تولّت بهجة الدنيا ... فكل جديدها خَلِقُ
وخان الناس كلهم ... فما أدري بمن أثقُ
رأيتُ معالم الخيرا ... تِ سُدَّت دونها طرقُ
فلا حسبٌ ولا نسبٌ ... ولا دينٌ ولا خُلُقُ
فلستُ مصدِّقُ الأ ... قوام في شيء وأن صدقوا

قال أبو العلاء المعري يصف فساد الساسة والحكام:

يسوسون الأنام بغير عقل ... وينفُذُ أمرهم فيقال سَاسَهْ
فأفٍّ من الحياة وأفٍّ مني ... ومن زمنٍ سياستُه خساسهْ

وقال:

مُلَّ المقامُ فكَمْ أعاشر أمةً ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

في تحريم السعاية بالنميمة

جاء في المستطرف، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلّغني أحدٌ من أصحابي عن أحد شيئًا، فإني أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر. ومن الناس مَن يتلوّن ألوانًا، ويكون بوجهين ولسانين، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا».

قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله:

قل للذي لست أدري مِن تَلوُّنِهِ ... أَنا صحٌ أم على غِشٍّ يناجيني
أني لأكثِرُ مما سمتني عجبًا ... يدٌ تشُجُّ وأخرى منك تأسوني
تغتابني عند أقوام وتمدحني ... في آخرين وكلٌّ عنك يأتيني
هذان شيئان قد نافيت بينهما ... فأكفُفْ لسانك عن شتمي وتزييني

وقيل: لألفُ لحوح جموح، خيرٌ من واحد مُتلوِّن.

وأنشد بعضهم:

مَن نمَّ في الناس لم تُؤمن عقاربه ... على الصديق ولم تُؤمن مساعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحدٌ ... من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقُضُهُ ... والويل للودِّ منه كيف يفنيه

وقال آخر:

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا ... تأمَنْ غوائل ذي وجهين كيَّادِ

وقال في المستطرف:

كلّم معاوية الأحنف(١) بشيء بلغه فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: أبلغني عنك الثقة. فقال له الأحنف: إن الثقة لا يُبْلِغ مكروهًا. وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية. وإذ أتاه ساعٍ يقول له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبناك، وإن استقلتنا أقلناك ـ وقال في جواب كتاب ساعٍ: نحن نرى أن قبول السعاية شرٌ من السعاية. لأنَّ السعاية دلالة، والقبول إجازةٌ. وليس من دلَّ على شيء ـ وأجز به كمن قبله وأجازه. فاتقوا الساعي. فإنه لو كان في سعايته صادقًا. لكان في صدقه لئيمًا، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العودة. وقيل: مَن سعى بالنميمة حَذِرَهُ الغريب ومقته القريب.

---

(١) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي ـ أبو بحر ـ سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان. وُلد في البصرة وأدرك النبيّ ﷺ ولم يره. اعتزل الفتنة، ثم شهد صفين مع علي (ع) ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه، فأغلظ له الأحنف في الجواب فسُئلَ معاوية عن صبره عليه، فقال: هذا الذي إذا غضب، غضب له مئة ألف لا يدرون فيم الغضب.

وقال المأمون: النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلّا جرّدتها، ولا جماعة إلّا بددتها، ثم لا بد لمن عُرف بها ونُسب إليها أن يُجتنب ويُخاف من معرفته ولا يوثق به.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم: الآيتان ١٠، ١١]. وحسبك بالنمّام خِسَّة ورذيلة سقوطه وضعته. والهمّاز: المجتاب الذي يأكل لحوم الناس.

ومما جاء في الغدر

لما جعل المنصور الخليفة العباسي العهدَ إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخّره، قدم المهدي عليه فقال:

أينسى بنو العباس ذبّي عنهُمُ ... بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها ... فذلَّ معاديها وعزَّ نصيرها
أقطع أرحامًا عليَّ عزيزةً ... وأبدي مكيداتٍ لها وأثيرها
فلما وضعتُ الأمر في مستقرِّه ... ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورها
دُفِعْتُ عن الأمر الذي أستحقّه ... وأوسق أوساقًا من الغدر غيرها

قال المدائني: قال الحجاج بن يوسف لأنس بن مالك ـ حين دخل عليه في شأن ابنه عبد الله ـ وكان عبد الله قد خرج مع ابن الأشعث[(١)] ـ قال له:

لا مرحبًا بك ولا أهلًا. لعنة الله عليك من شيخ جوالٍ في الفتنة. مرة مع أبي تراب[(٢)] ومرة مع ابن الأشعث. والله لأقتلعنك قلع الصمغة، ولأغصبنَّك عصب السلمة، ولأجرِّدَنَّك تجريد الضَّبْ. قال أنس: مَن يعني أبقاه الله؟ قال: إياك أعني! أحمَّ الله صداك. فكتب أنس إلى عبد الملك بن مروان بذلك، فكتب عبد الملك إلى الحجاج: بسم الله الرحمن الرحيم، والله قد صمَّمْتُ أن أركلك برجلي ركلةً تهوي بها إلى الجحيم. قاتلك الله يا أخيفش. أصكَّ الرجلين، أسوأ الجاعرتين، والسلام[(٣)].

---

(١) هو عبد الرحمن بن الأشعث المتوفى سنة ٨٥ هـ. قائد أموي، ثار على الحجاج وأبى الخضوع لأوامر الخليفة عبد الملك بن مروان. استولى على الكوفة، وهزمه الحجاج في معركة دير الجماجم. وأنس بن مالك هو الصحابي المعروف وخادم الرسول. توفي سنة ٩٣ هـ.

(٢) هو عليّ بن أبي طالب.

(٣) العقد الفريد: ١/ ١٩٢.

وقد عُرف الضبع بالغدر ـ وكنيته أم عامر ـ فضربوا به المثل. قالوا:

خرج قوم للصيد، فطاردوا ضبعة حتى ألجئوها إلى خباء أعرابي فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها. فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنِه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول:

ومَن يصنع المعروف في غير أهله يلاقِ كما لاقى مجير أم عامرِ
أعدَّ لها لما استجارت ببيته أحاليب ألبان اللقاح الدوائرِ
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت فَرَتْهُ بأنيابٍ لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من يجود بمعروفٍ على غير شاكر

الذئب المدلَّل: الطبع يغلب التطبّع!

شهدت إحدى القرى الجميلة الصغيرة في اليونان أغرب «قصة حب» بطلاها سيدة في الرابعة والخمسين تدعى إيفانجيليا فراكا وذئب متوحش عمره عشر سنوات.

وتبدأ هذه القصة الغريبة في عام ١٩٧٦ عندما عثرت السيدة على ذئب صغير مصاب، تركته أمه في الغابة القريبة من القرية التي تعيش فيها فما كان من إيفانجيليا إلا أن حملته وعادت به إلى البيت الذي تعيش فيه عند سفح الجبل بقرية لانجاديا.

وراحت السيدة تعنى بالذئب الصغير وتطعمه، ولم يمض وقت طويل حتى كانت القرية كلها تتحدث عن الذئب الصغير الأليف الذي يحرص الأطفال على زيارته واللعب معه.

ومرّت الشهور والأعوام، وبدأ الذئب الصغير يكبر، وبدت الشراسة في عينيه وفي عوائه المخيف بالليل.

وأسرع أهل القرية إلى صاحبته ينصحونها بأن تعيده إلى الغابة ـ حيث يجب أن يكون ـ حتى لا يصبح خطرًا يهدد الأطفال الذين يلعبون معه.

ولكن السيدة كانت تفزع لمجرد التفكير في أنها سوف تفقده، وشيئًا فشيئًا بدأ الناس يبتعدون عن «بيت الذئب» حتى أصبحت السيدة تعيش في عزلة تامة مع هذا الوحش المدلل.

إلى أن كانت إحدى الأمسيات، عندما ذهبت السيدة تقدم للذئب طعامه فهاجمها وأحدث إصابات بالغة في جميع جمسها، ونقلوها إلى المستشفى للعلاج. وقال أهل القرية: لا بد أنها اقتنعت الآن بضرورة التخلص منه. ولكنهم فوجئوا بها عندما ذهبوا لزيارتها، فكانت تتوسل إليهم وإلى الأطباء بألّا يتعرضوا له بأذى وقالت: «لقد أخطأت... فهو حيوان ذكي... ولا بد أنه سمع من الجيران وهم يطلبون إليّ التخلّص منه».

وقالوا في قلّة الوفاء

قال وهب بن منبّه: صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلًا غفر لي زلّة؛ ولا أقال لي عثرة، ولا ستر لي عورة.

وقال عليّ عليه السلام: إذا كان الغدر طبعًا. فالثقة بكل أحدٍ عجز. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمًّى، وحيوانٌ غير موجود. قال الشاعر:

سمعنا بالصديق ولا نراه على التحقيق يوجد في الأنام
وأحسبه محالًا نمّقوه على وجه المجاز من الكلام

قال الإمام الصادق عليه السلام: أقلل من معرفة الناس، وأنكر من عرفت منهم. وإن كان لك مائة صديق، فاطّرح تسعة وتسعين، وكن من الواحد على حذر... وقيل لبعض الولاة: كم لك من صديق؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير. وأنشد:

الناس أخوان من دامت له نعم والويل للمرء إن زلّت به القدمُ

لما نكب علي بن عيسى الوزير، لم ينظر ببابه أحد من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته. فلما رُدّت إليه الوزارة وقف بأصحابه وقال:

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها فكلما انقلبت يومًا به انقلبوا
يعظّموه أخا الدنيا فإن وثبت يومًا عليه بما لا تشتهي وثبوا

وقال آخر:

ما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليلُ

وقال البحتري:

إياك أن تغتر أو تخدعك بارقة   من ذي خداع يرى بشرًا وألطافا
فلو قبلت جميع الأرض قاطبة   وسرت في الأرض أوساطًا وأطرافا
لم تلق فيها صديقًا صادقًا أبدًا   ولا أخًا يبذل الإنصاف إن صافى

وقال آخر:

لما رأيت بني الزمان وما بهم   خلٌّ وفيٌّ للشدائدِ أصطفي
فعلمت أن المستحيل ثلاثةٌ   الغولُ والعنقاءُ والخِلُّ الوفي

مما قيل في الجار

باع أبو الجهم العدوي داره، وكان في جوار سعيد بن العاص، بمائة ألف درهم. فلما أحضرها المشتري قال له: هذا ثمن الدار، فأعطني ثمن الجوار، قال: أيُّ جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحدٌ جوارًا قط؟

قال: رُدَّ عليَّ داري، وخذ مالك. لا أدَعُ جوار رجل إن قعدت سأل عني، وإن رآني رحَّب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدتُ عنده قرَّبني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتني نائبة فرَّج عني...

فبلغ ذلك سعيدًا فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك.

كان كعب بن مامة إذا جاور رجلًا قام له بما يصلحه، وحماه ممَّن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه عليه، وإن مات ودَّاه لأهله. فجاوره أبو دؤاد الإيادي، فزاره على العادة، فبالغ في إكرامه، فكانت العرب إذا حمدت جارًا قالت: جار كجار أبي دُواد.

قال قيس بن زهير:

أطوِّفُ ما أطوِّفُ ثم آوي   إلى جار كجار أبي دؤاد

تعلَّم منه أبو دؤاد، وكان يفعل لجاره فعل كعب به.

جاء رجل إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة عبد الملك على دمشق، فقال: أيها الأمير، إنَّ عندي نصيحة. قال: أذكرها، قال: جارٌ لي رجع من البعث

سرًا. فقال: أما أنت فقد أخبرتنا أنك جار سوء. فإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت كاذبًا عاقبناك، وإن كنت صادقًا مقتناك، وإن تركتنا تركناك. قال: بل أتركك أيها الأمير ـ وانصرف ـ.

من وصية الإمام عليّ عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام، لما ضربه ابن ملجم لعنه الله: «الله الله في جيرانكم، فإنها وصية نبيكم، ما زال يوصي بها حتى ظَنَنَّا أنه سيورثهم».

قال الأصمعي: جاور أهل الشام الروم، فأخذوا عنهم خصلتين: اللؤم والحسد. وجاور أهل البصرة الخزر، فأخذوا عنهم خصلتين: الزنا وقلة الوفاء. وجاور أهل الكوفة السواد، فأخذوا عنهم خصلتين: السخاء والغيرة.

قال لقمان: يا بنيَّ، حملتُ الحجارة والحديد فلم أرَ أثقل من جار السوء!

ومن أدعيتهم: اللهم إني أعوذ بك من مال يكون عليَّ فتنة، ومن ولد يكون عليَّ كلاًّ، ومن حيلةٍ تُقرِّب الشيب، ومن جار سوءٍ تراني عيناه وترعاني أذناه. إن رأى خيرًا دفنه، وإن سمع شرًا طارَ بِهِ[١].

ولا تُفرطو في الثناء!

قال عليّ عليه السلام لرجل أفرط في الثناء عليه ـ وكان له مُتَهمًا: «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

وقال النبيّ ﷺ لمن مدح إنسانًا كاد يسمعه: ويحك! قطعت عُنُقَ صاحبك! لو سمعها لما أفلح».

ناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجاني في مسألة كلامية، فجعل النوشجاني يخضع في الكلام ويستخذي له، فقال: يا محمد، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل الحجة لي عليك. وقد ساءني منك ذلك. ولو شئت أن أفسِّر الأمور بعزَّةِ الخلافة وهيبة الرياسة لصُدِّقت وإن كنتُ كاذبًا، وعُدِّلت وإن كنت جائرًا، وصوِّبت وإن كنت مخطئًا، ولكن لا أقنع إلَّا بإقامة الحجة وإزالة الشبهة. وإن أنقص الملوك عقلًا وأسخفهم رأيًا مَن رضيَ بقولهم: صدق الأمير.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧/٨، ٩، ٤٠.

قال معاوية لرجل: مَن سيِّد قومك؟ قال: أنا ـ قال: لو كنت كذلك لم تقله.

قال الإمام عليّ عليه السلام:

ربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تُثنوا عليَّ بجميل ثناء، ولا تكلموني بما تكلَّم به الجبابرة، ولا تتحفظوا بما يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، فإنه مَن استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يُعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه.

قال رجل لعبد الملك بن مروان: إني أريد أن أُسِرَّ إليك يا أمير المؤمنين شيئًا. فقال لمن حوله: إذا شئتم فانهضوا، فتقدم الرجل يريد الكلام، فقال له عبد الملك: قف! لا تمدحني فإني أعلم بنفسي منك، ولا تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب، ولا تغتب عندي أحدًا فإني أكره الغيبة. قال: أفيأذن أمير المؤمنين في الانصراف؟ ـ قال: إذا شئت[1] . . .

وقال عليّ عليه السلام:

«إن من حقِّ مَن عظَّم جلالَ الله سبحانه في نفسه وجلَّ موضعه من قلبه، أن يصغُر عنده لعظم ذلك كلُّ سواه. وإن أحقَّ مَن كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه ولطف إحسانه إليه، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلَّا ازداد حق الله عليه عظمًا». وهذا مقام جليل من مقامات العارفين، وهو استحقار كل ما سوى الله تعالى. وذلك أن مَن عرف الله تعالى فقد عرف ما هو أعظم من كل عظيم. فمن شاهد الشمس المنيرة يستحقر ضوء القمر والسراج الموضوع في ضوء الشمس حال مشاهدته جرم الشمس.

وقال أبو الأسود الدؤلي في الحسود والسفين ومَن يعظ الناس ولا يعمل بما يدعوهم إليه:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداءٌ له وخصومُ
وترى اللبيب محسَّدًا لم يحترم ... شتم الرجال وعرضهُ مشتومُ
وكذاك من عظُمتْ عليه نعمة ... حُسَّاده سيفٌ عليه ضرومُ

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٢٣٢.

فاترك مجاراة السفيه فإنها ... ندمٌ وغِبٌّ بعد ذاك وخيمُ
فإذا جريتَ مع السفيه كما جرى ... فكلاكما في جريه مذمومُ
وإذا عتبتَ على السفيه ولمتهُ ... في مثل ما تأتي فأنت ظلومُ
يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلَّا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصحُّ به وأنت سقيمُ
وأراك تُصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا، وأنت من الرشاد عقيمُ
لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ
إبدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبَلُ ما وعظت ويُقتدى ... بالعلم منكَ، وينفع التعليم

وقال الإمام الشافعي هذه الأبيات، وهي من أدب الحياة:

دعِ الأيام تفعل ما تشاءُ ... وطِبْ نفسًا إذا حكم القضاءُ
ولا تجزع لحادثِ الليالي ... فما لحوادث الدنيا بقاءُ
وكن رجلًا على الأهوال جلدًا ... وشيمتُك السماحة والسخاءُ
يُغطي بالسماحة كل عيبٍ ... وكم عيبٍ يُغطيه السخاءُ
ولا حزنٌ يدوم ولا سرورٌ ... ولا عسرٌ عليك ولا رخاءُ
ولا تُرينَّ للأعداء ذُلّا ... فإن شماتةَ الأعدا بلاءُ
ولا تَرْجُ السماحة من بخيلٍ ... فما في النار للظمآن ماءُ
ورزقك ليس ينقصه التأني ... وليس يزيد في الرزق العناءُ
إذا ما كنت ذا قلبٍ قنوع ... فأنت ومالكُ الدنيا سواءُ
ومن نزلت بساحته المنايا ... فلا أرضٌ تقيه ولا سماءُ
وأرض الله واسعة ولكنْ ... إذا نزل القضا ضاق الفضاءُ

وقال صالح بن عبد القدوس المتوفى سنة ٨٥٥ هـ:

المرءُ يجمع والزمان يفرقُ ... ويضل يرقع والخطوب تمزّقُ
ولأن يعادي عاقلًا خير له ... من أن يكونَ له صديقٌ أحمقُ
فأربأ بنفسك أن تصادق أحمقًا ... إن الصديق على الصديقُ مصدق
وزِنِ الكلامَ إذا نطقت فإنما ... يبدي عقول ذوي العقول المنطقُ

ومن الرجال إذا استوت أخلاقهم — من يُستشار إذا استشير فيطرقُ
حتى يحلَّ بكل وادٍ قلبهُ — فيرى ويعرف ما يقول فينطق
ما الناس إلا عاملان فعاملٌ — قد مات من عطش وآخرَ يغرق

وقال الإمام عليّ بن أبي طالب في الصمت:

لا تبدأنَّ بمنطقٍ في مجلس — قبل السؤال فإن ذلك يشنعُ
فالصمتُ يحسن كل ظنٍ بالفتى — ولعله خرقٌ سفيهٌ أرقعُ
ودع المزاح فرَبَّ لفظة مازحٍ — جلَبتْ إليك بَلابلًا لا تدفعُ
وحفاظ جارٍ لا تُضِعْه فإنه — لا يبلغ الشرف الجسيم مضيِّعُ
وإذا استقالك ذو الإسارة عثرة — فأقلهُ، إن ثواب ذلك أوسعُ
وأطِعْ أباك بكل ما أوصى به — إن المطيع أباه لا يتضعضعُ

وقال أيضًا:

صُنِ النفس واحملها على ما يزينُها — تَعِشْ سالمًا والقولُ فيك جميلُ
ولا تَرينَ النفس إلَّا تجمُّلا — نبا بك دهرٌ أو جفاك خليلُ
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ — عسى نكباتَ الدهر عنك تزولُ
يعزُّ غنيُّ النفس إن قلَّ مالُهُ — ويفنى غنيُّ المال وهو ذليل
ولا خير في ودِّ أمرىء متلوِّنٍ — إذا الريحُ مالت مال حيث تميلُ
جوادٌ إذا استغنيت عن أخذ مالهِ — وعند احتمال الفقر عنك بخيلُ
فما أكثر الأخوان حين تعدّهم — ولكنهم في النائباتِ قليلُ

وقال بعض الشعراء في مكارم الأخلاق:

أحبُّ الفتى ينفي الفواحش سمعُهُ — كأن به عن كل فاحشةٍ وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطًا أذى — ولا مانعًا خيرًا ولا قائلًا هجرا
إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلةٌ — فكن أنت محتالًا لزلته عذرا
غنى النفس ما يكفيك — فإن زاد شيئًا عاد الغنى فقرا

في الآباء والأنبياء

أبوّة الرسول ﷺ

كان النبيّ ﷺ مضرب المثل في حبه لأولاده وأحفاده. فيُروى أن الأقرع بن حابس زار النبيّ ﷺ يومًا، فلما أخذ مجلسه واستقرّ به المقام، أقبل الحسن بن علي على الرسول ﷺ فرحّب به الرسول وضمه إلى صدره وقبّله بين عينيه. فتعجب الأقرع من فعل الرسول وعطفه الغامر وحنانه الدافق، ولم يقدر أن يستر دهشته، فقال للنبيّ ﷺ متعجبًا: أتُقَبِّل الأطفال؟ فقال له النبي ﷺ: «نعم وأية غرابة في هذا؟» قال الأقرع: والله إن لي عشرة من الأولاد ما قبّلت واحدًا منهم قط!

وعندئذٍ قال الرسول ﷺ: «وما أفعل إذا كان الله تعالى قد نزع الرحمة من قلبك؟ إن الله رحيم يحب الرحماء، ومَن لا يَرحم لا يُرحم!».

ومن كلمات الإمام عليّ عليه السلام في وصيته لابنه الحسن (ع):

«وجدتك بعضي، بل وجدتك كليّ، حتى كأن شيئًا لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي، فكتبتُ إليك كتابي مستظهرًا به إن أنا بقيت لك أو فنيت».

قيل: غضب الطرماح على امرأته فشفع فيها ولده منها صمصام، وهو غلام لم يبلغ عشرًا، فقال الطرماح:

أصمصام إن تشفعْ لأمك تلْقها ... لها شافعٌ في الصدر لم يتزحزحِ
هل الحب إلّا أنها لو تعرَّضتْ ... لذبك يا صمصام قلتُ لها: اذبحي
أحاذر يا صمصام إن متُّ أن يلي ... تراثي وإياك امرؤٌ غير مصلحِ
إذا صكَّ وسط القوم رأسك صكةً ... يقول له النّاهي: ملكتَ فاسجحِ

وفي الحديث المرفوع: «إن ريح الولد من ريح الجنة».

قيل: غضب معاوية على ابنه يزيد، فهجره، فاستعطفه له الأحنف وقال له: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ضليلة، وأرض ذليلة، فإن غضبوا فأرضِهِم، وإن سألوا فأعطِهم، تكن عليهم قفلًا فيملوا حياتك، ويتمنّوْا موتك.

أحبُّ أولادي إليَّ

قيل لابنة الخُسّ: أيُّ ولدك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود.

وابنة الخُسّ هذه هي بنت الخُسّ بن حابس الإيادية: فصيحة جاهلية، كانت ترد سوق عكاظ ولها أخبار فيه. قال الجاحظ في وصفها: «من أهل الدهاء والنكراء، واللَّسن واللَّقن، والجواب العجيب، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة، والمخارج العجيبة».

يا حبَّذا ريحُ الولَدْ!

ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها:

يا حبذا ريحُ الولدْ ريح الخزامي في البلدْ
أهكذا كلُّ ولدْ؟ أم لم يلد مثلي أحدْ؟!

وأنشد الرياشي:

مَن سرَّهُ الدهر أن يرى الكبدا يمشي على الأرض فلْيرَ الولدا

ومن وصية الإمام (ع) لابنه الحسن أن ينظر الولد إلى ما كان آبائه ويكون تكملةً لهم فيقول:

«احْي قلبك بالموعظة، وأمِتهُ بالزهادة وقوة اليقين، ونوِّره بالحكم، وذلِّله بذكر الموت، وبصِّرهُ فجائع الدنيا، وحذِّره صولة الدهر، وفُحش تقلب الليالي والأيام، واعرض عليه أخبار الماضي، وذكِّره بما أصاب مَن كان قبلك من الأولين، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، وأين حلُّوا ونزلوا، فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة، وحلُّوا دار الغربة، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم. فأصلِحْ مثواك، ولا تبعْ آخرتك بدنياك، ودعْ القول، فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تكلَّف، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإنَّ الكفَّ عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال».

وقوله عليه السلام: «ودع القول فيما لا تعرف» من قول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «يا عبد الله، كيف بك إذا بقيت في حثالة من

الناس، مَرَجْت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا» ـ وشبَّك بين أصابعه ـ، قال عبد الله: «فقلت: مُرْني يا رسول الله، قال: «خذ ما تعرف، ودع ما لا تعرف وعليك بخويصة نفسك»(١).

إنما أولادنا أكبادنا

الشاعر حطان بن المعلَّى أحد شعراء العربية الذين وُهبوا القدرة على تجسيد هذه العاطفة في قالب شعري شديد النفاذ والتأثير، قادر على اجتياز الأزمان ومخاطبة الإنسان في كل مكان، من خلال تعبير سهل ممتنع وبساطة أخاذة وصدق مؤثر. يقول حطان:

أنزلني الدهر على حكمه ... من شامخ عالٍ إلى خَفْضِ
وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر، ويا ربما ... أضحكني الدهر بما يرضي
لولا بُنياتٌ كزغب القطا ... رددن من بعضٍ إلى بعضِ
لكان لي مضطربٌ واسعٌ ... في الأرض، ذات الطول والعرضِ
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرضِ
لو هبَّتِ الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغمضِ

وقال عبد العزيز الديريني(٢):

أحبُّ بنيَّتي ووددت أني ... دفنت بنيَّتي في قاع لحدِ
وما بي أن تهون عليَّ لكن ... مخافة أن تذوق الذُلَّ بعدي
فإن زوّجتها رجلًا فقيرًا ... تكون ببيتها والهمُّ عندي
وإن زوّجتها رجلًا غنيًا ... فيلطم خدها ويسبُّ جدي

قال الشاعر أحمد شوقي في حب البنات وفضلهن:

أأبا البنات، رُزِقتهنَّ كرائمًا ... ورزقت في أصهارك الكُرماءِ
لا تذهبنَّ على الذكور بحسرةٍ ... الذِّكرُ نعمَ سلالة العظماءِ

---

(١) شرح النهج: ١٦/ ٦٤.

(٢) هو عبد العزيز بن أحمد الديريني، نسبة إلى «ديرين» في مصر. فقيه شافعي، من الزهاد. توفي سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م.

وأرى بُناة المجد يثلمُ مجدهم ... ما خلَّفوا من صالحِ وغشاءِ
إنَّ البنات ذخائرٌ من نعمةٍ ... وكؤس حبٌ صادقٍ ووفاءِ
والساهرات لعِلَّةٍ أو كبرةٍ ... والصابراتُ لشدَّةٍ وبلاءِ
والباكيانك يوم ينقطع البكا ... والقاصداتك في العراء النائي
والذاكراتك ما حُيين تحدثًا ... بسوالف الأخبار والآراء
بالأمس عزَّاهنَّ فيك عقائلٌ ... واليوم جاملهنّ فيك رثائي
أجزعن أن يجري عليهن الذي ... من قبلهن جرى على الزهراءِ؟
عذرًا لهن إذا ذهبن مع الأسى ... وطلبن عند الدمع بعض عزاءِ
ما كل ذي ولدٍ يسمَّى والدًا ... كم من أبٍ كالصخرة الصمَّاءِ
هَبْهُنَّ في عقل الرجال وحلمهم ... أقلوبهن سوى قلوب نساء

وقال بعض المتقدمين في حبِّ البنين:

ولولا أميمة لم أفزع من العدم ... ولم أَجُبْ في الليالي جندس الظّلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... أن الذي يجفو ذوو الرحم
أحاذرَ الفقر يومًا أن يلمَّ بها ... فيهتك الستر عن لحمٍ على وضَم(١)
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقًا ... والموتُ أكرم نزَّالٍ على الحُرمِ

الصاحب بن عباد يهنّىء بعض أصحابه بابنة ولدت له:

كان الصاحب بن عباد مغرمًا بالسجع كلفًا به، وكان في بعض رسائله يترك نفسه على سجيتها. وإن لم يواته السجع استخدم أسلوب الازدواج. ورسائله تدل على مهارة واسعة، وقدرة أدبية خلّاقة. يشهد على ذلك هذه التهنئة اللطيفة ببنت ولدت لبعض أصحابه:

«أهلًا وسهلًا بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، والمبشّرة بإخوة يتناسقون، بخباء يتلاحقون:

فلو أن النساء كمثل هذي ... لفضلت النساءُ على الرجالِ
فما التأنيث باسم الشمس عيبٌ ... ولا التذكير فخرٌ للهلالِ

(١) يقال: هو لحم على وَضَم، أي هو ذليل.

فادَّرعْ يا سيدي اغتباطًا واستأنف نشاطًا، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة، ومنها خلقت البريَّة وكثرت الذرية. والسماء مؤنثة وقد زُيِّنتْ بالكواكب وحليتْ بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا عُرف الأنام. والجنة مؤنثة وبها وُعِدَ المتقون ولها بُعثَ المرسلون.

فهنيئًا لك ما أوليت، وأذرعك الله شكر ما أعطيت، وأطال الله بقاءَك ما عُرِف النسل والولد، وما بقي الأمد، وكما عُمِّر لُبَدْ.

عقيل بن علقمة يضرب ابنته لضحكها:

كان بنو عقيل بن علقمة بن مرة بن غطفان يتنقلون وينتجعون الغيث فسمع عقيل بن علقمة يومًا بنتًا له ضحكت فشهقت في آخر ضحكها، فاخترط السيف وحمل عليها وهو يقول:

فَرِقتُ إني رجل فَروقُ ... لضحكةٍ آخرها شهيقُ

سبَّ أعرابي ولده وذكر له حقه. فقال الولد: يا أبتاه إن عظيم حقك علي لا يبطل صغير حقي عليك.

ومن فلسفة المعري بنظرته للأولاد قوله:

أرى ولد الفتى عبئًا عليه ... لقد سعد الذي أمسى عقيمًا
فأما أن يربيه عدوًا ... وإما أن يخلِّفه يتيمًا
أما شاهدت كل أبي وليدٍ ... يؤم طريق حتفٍ مستقيمًا

وصية الرشيد لمؤدّب ولده المأمون

ووصّى الرشيد مؤدّب ولده المؤمون، فقال:

«يا أحمر[1] إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطةٍ، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئهُ القرآن، وعرِّفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلِّمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام

(١) هو عليّ بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي، وكان يؤدب الأمين. وكان مشهورًا بالنحو واتساع الحفظ، ومات سنة ٣٠٦.

وبديِّه، وامنعه من الضَّحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرَّنَّ بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة»[1].

قال الشاعر أحمد شوقي في الأم:

لولا التُّقى لقلتُ لم ... يخلق سواك الولدا
إن شئتِ كان العبد أو ... إن شئتِ كان الأسدا
وإن تردْ غيًّا غوى ... أو تَبْغِ رشدًا رشدا
والبيت أنت الصوتُ فيـ ... ـه وهو للصوت صدى
كالببغا في قفصٍ ... قيل له فقلَّدا
وكالقضيب اللَّدْنِ قد ... طاوع في الشكل اليدا
يأخذ ما عوَّدتِهِ ... والمرءُ ما تعوَّدا

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النِّساء: الآية ٣٦]. وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: الآية ١٤]. وقال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤].

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣١.

في العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب

قال في المستطرف[1]: قد ندب الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحِجر: الآية ٨٥]. قيل: هو الرضا بلا عتب. وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشّورى: الآية ٤٣]، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمَان: الآية ١٧].

أقوال في العفو والحلم

عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت قصورًا مشرفة على الجنّة، فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالعفو، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود».

وقال الحسن بن أبي الحسن إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ، مَن كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشّورى: الآية ٤٠].

---

(١) المستطرف: ص ١٩٩.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره، ويقول: لقد حبب إليَّ العفو حتى أني أخاف أن لا أثاب عليه، وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها، وقال: لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إليَّ بالجنايات.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكرًا للقدرة عليه، وقال رضي الله تعالى عنه: أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثرًا إلا ويده بيد الله يرفعه، وقال رضي الله عنه: إن أول عوض الحليم عن حلمه، إن الناس أنصار له على الجاهل.

وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي(١) يلحقها ذم الندم. وقال ابن المعتز: لا تشن(٢) وجه العفو بالتقريح(٣) به. وقيل: ما عفا عن الذنب من قرع به. وقال رجل لرجل سبه: إياك أعني، فقال له: وعنك أعرض.

وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول: ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفت له فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وكان مشهورًا بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته، وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم: كنا نختلف إليه في الحلم كما يختلف إلى الفقهاء في الفقه، ولقد حضرت عنده يومًا، وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاؤوا به مكتوفًا، فقال: ذعرتم أخي أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدي ديته، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تصبيرًا وتعزيةً إحدى يديَّ أصابتني ولم تردِ
كلاهما خلفٌ من فقدِ صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي(٤)

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر. وقالوا: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام. وقيل: مَن انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره، ولم يحمد في العالمين ذكره، والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة

---

(١) التشفي: الانتقام.
(٢) لا تشن: لا تقبح.
(٣) التقريع: التوبيخ واللوم.
(٤) خلف: عوض.

شيمته، وإن كان ولا بد من الانتقام، فليرفق في انتقامه إلا أن يكون حدًا من حدود الله تعالى.

عفو المنصور

وقال المنصور لجانٍ عجز عن العذر: ما هذا الوجوم وعهدي بك خطيبًا لَسِنًا؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له وعفا عنه. وسعي إلى المنصور برجل من ولد الأشتر النخعي، ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي والتعصب لهم، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين ذنبي أعظم من نقمتك، وعفوك أعظم من ذنبي، ثم قال:

فهبني مسيئًا كالذي قلت ظالمًا   فعفوًا جميلًا كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما   أتيت به أهلًا فأنت له أهل

فعفا عنه، وأمر له بصلة.

عفو المأمون

أحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنبًا، فقال له: أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف[1] على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلّى سبيله.

عفو الهادي

أحضر إلى الهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك، فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين إن إقراري يلزمني ذنبًا لم أفعله، ويلحق بي جرمًا لم أقف عليه، وإنكاري رد عليك، ومعارضة لك، ولكني أقول:

فإن كنت تبغي بالعقاب تشفّيًا   فلا تزهدن عند التجاوز في الأجرِ

فقال: لله درّك من معتذر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك، وأثبت جنانك[2] وعفا عنه وخلّى سبيله.

---

(١) أسرف: جهل وغفل وجاوز الحد أي ظلم نفسه.

(٢) الجنان: العقل.

حلم عمرو بن العاص

ركب يومًا عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء، ومرّ على قوم فقال بعضهم: مَن يقوم للأمير، فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف؟ فقال واحد منهم: أنا، فقام وأخذ بعنان بغلته، وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلًا، فلمَ ركبت دابة أشهاب وجهها؟ فقال: إني لا أمل دابتي حتى تملني، ولا أمل رفيقي حتى يملني. فقال: أصلح الله الأمير، أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه، فمن الأم؟ قال: على الخبير سقطت. أمي النابغة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب، فأتي بها سوق عكاظ، فبيعت، فاشتراها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت، وأنجبت، فإن كان قد جعل لك جعل، فارجع وخذه، وأرسل عنان الدابة. وقيل: إن أمه كانت بغيًا عند عبد الله بن جدعان، فوطئها في طهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، فولدت عمرًا، فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه، فقالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذي كان ينفق عليها. وقالوا: كان أشبه بأبي سفيان.

عفو الواثق

وكان الواثق يتشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه، وكان يقال له: المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لست به، فقالت: السلام عليك أيها الأمير، فقال لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقالت: ليسعنا عدلكم، فقال: إذًا لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد لأنكم حاربتم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، ومنعتم حقه، وسممتم الحسن رضي الله عنه، ونقضتم شرطه، وقتلتم الحسين رضي الله عنه، وسبيتم أهله، ولعنتم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على منابركم وضربتم عليّ بن عبد الله ظلمًا بسياطكم، فعدلنا لا يبقى منكم أحدًا، فقالت: فليسعنا عفوكم، قال: أما هذا، فنعم، وأمر برد أموالها عليها، وبالغ في الإحسان إليها.

حلم معاوية

كان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة، وكان يقول: إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي،

وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي، وهذه مروءة عالية المرتبة، وقال له رجل يومًا: ما أشبه إستك بإست أمك، فقال: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها. وكتب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما، يقول: من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب. أما بعد، يا بني عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصي ولباب عبد مناف وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية؟ وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى، ولن يعود لمثله إلى أن يغيب في الثرى، فكتب إليه عقيل يقول:

صدقت وقلت حقًّا غير أني   أرى أن لا أراك ولا تراني
ولست أقول سوءًا في صديقي   ولكني أصد إذا جفاني[1]

فركب إلى معاوية رضي الله عنه، وناشده في الصفح عنه، واستعطفه حتى رجع.

معاوية والزرقاء بنت عدي

وحُكِيَ عنه رضي الله عنه أنه لما ولي الخلافة، وانتظمت إليه الأمور وامتلأت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، وساعده في مراده القدر المقدور، استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم، وقائع أيام صفين، ومَن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى مَن كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض، فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب علي تسمعهم كلامًا كالصوارم، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدبر لقابل، والمسلم لحارب، والفار لكرّ، والمتزلزل لاستقر.

فقال لهم معاوية رضي الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه، قال: فما تشيرون عليَّ فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: بئسما أشرتم، وقبحًا لما قلتم. أيحسن أن يشتهر عني أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها، إني إذا للئيم، لا والله لا فعلت ذلك أبدًا.

---

(١) أسد: أهجر.

ثم دعا بكاتبه فكتب كتابًا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إليَّ الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهّد لها وطاء لينًا ومركبًا ذلولًا، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها، فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها في هودج، وجعل غشاءه خزًا مبطنًا، ثم أحسن صحبتها؟ فلما قدمت على معاوية قال لها: مرحبًا وأهلًا خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة، وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير، فقال: هل تعلمين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. قال: ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم، قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبتر الذنب، والدهر ذو غِيَر(١) ومَن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك، وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله، قال: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يُقطع الحديد إلا بالحديد، ألا مَن استرشدنا أرشدناه، ومَن سألنا أخبرناه أن الحق كان يطلب ضالة فأصابها، فصبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوي المحق والمبطل، فمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون، فالنزال النزال، والصبر الصبر، ألا وأن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء. أليس هذا قولك وتحريضك؟

قالت: لقد كان ذلك، قال: لقد شاركت عليًا في كل دم سفكه، فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك. مثلك مَن يبشر بخير ويسر جليسه، فقال معاوية: أوَقد سرك ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرّني قولك وأنى لي بتصديقه، فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليَّ من حبكم له في حياته، فاذكري حوائجك نقض. فقالت: يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي

---

(١) ذو غير: ذو أحداث وصروف.

أن لا أسأل أحدًا بعد علي حاجة، فقال: قد شار عليَّ بعض مَن عرفك بقتلك، فقالت: لؤم من المشير، ولو أطعته لشاركته، قال: كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك، فقالت: يا أمير المؤمنين كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساء وأعطى من غير مسألة، قال: فأعطاها كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تغل كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

معاوية وعبد الله بن الزبير

قيل: كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضًا عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتابًا إلى معاوية يقول له فيه: أما بعد، يا معاوية، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن، والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه، وقرأه ودفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بني ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشًا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه، فقال: بل غير ذلك خير منه يا بني، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير، يقول فيه: أما بعد، فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه، كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير، وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه، وأسفر، فقال له أبوه: يا بني مَن عفا ساد، ومَن حلم عظم، ومَن تجاوز استمال إليه القلوب، فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء، فداوه بمثل هذا الدواء.

معاوية ورجل

لما دخل الفيل من دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه، فبينما هو كذلك إذ نظر في بعض الحجر من قصره رجلًا مع بعض

حرمه، فأتى الحجرة ودق الباب، فلم يكن من فتحه بد، فوقعت عينه على الرجل، فقال له: يا هذا في قصري، وتحت جناحي تهتك حرمتي، وأنت في قبضتي، ما حملك على هذا؟ قال: فبهت[١] الرجل، وقال: حلمك أوقعني، فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسترها عليَّ، قال: نعم. فعفا عنه وخلّى سبيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجاني، وهو عروض قول الشاعر:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ

المنصور وأموال بني أمية

حُكِيَ عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال: ما رأيت رجلًا أربط جأشًا، وأثبت جنانًا من رجل سعى به إلى المنصور، أن عنده ودائع وأموالًا لبني أمية، فأمرني بإحضاره، فأحضرته إليه، فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرج لنا منها، واحضرها، ولا تكتم منها شيئًا، فقال: يا أمير المؤمنين وأنت وارث بني أمية؟ قال: لا، قال: فوصي لهم في أموالهم ورباعهم؟ قال: لا، قال: فما مسألتك عما في يدي من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور، وتفكر ساعة، ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه، فاجعله في بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين، فيحتاج إلى إقامة بيّنة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه، فإن بني أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين.

قال: فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يا ربيع، ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه، ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أن تجمع بيني وبين مَن سعى بي إليك، فوالله الذي لا إلـه إلا هو ما في يدي لبني أمية مال ولا وديعة، ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولًا، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة. فقال: يا ربيع اجمع بينه وبين مَن سعى به، فجمعت بينهما، فلما رآه

(١) بهت: احتار، ودهش مأخوذًا بالحجة.

قال: هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق(١) مني وخاف من طلبي له، فسعى بي عند أمير المؤمنين. قال: فشدد المنصور على الغلام وخوفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أهذ المال الذي ذكره وسعى به كذبًا عليه وخوفًا من أن يقع في يده، فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه، فقال: قد عفوت عنه، وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي وعفوك عني، ثم انصرف. قال الربيع: فكان المنصور يتعجب منه، وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

الرشيد وحميد الطوسي

غضب الرشيد على حميد الطوسي، فدعا له بالنطع والسيف فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفًا على خروجي من الدنيا، وأمير المؤمنين ساخط عليَّ، فضحك وعفى عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع.

نسيت اسم نفسي

أمر زياد بضرب عنق رجل، فقال: أيها الأمير إن لي بك حرمة، قال: وما هي؟ قال: إن أبي جارك بالبصرة، قال: ومَن أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيت اسم نفسي، فكيف لا أنسى اسم أبي؟ فرد زياد كمه على فمه، وضحك وعفا عنه.

الحجاج ومن يحسن الكلام

أمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذي أنت غدًا بين يديه أذل موقفًا مني بين يديك إلا عفوت عني، فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث أتى رجل من بني تميم، فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب ما أحسنت في العفو، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف! أما كان فيهم مَن يحسن الكلام مثل هذا؟ وعفا عنه وخلّى سبيله.

(١) أبق: فرّ وهرب.

إبراهيم بن المهدي والمأمون

كان إبراهيم بن المهدي يقول: والله ما عفا عني المأمون تقربًا إلى الله تعالى، ولا صلة الرحم، ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد(١) بقتلي.

كثرة العفو زيادة في العمر

سئل الفضل عن الفتوة، فقال: الصفح عن عثرات(٢) الإخوان. وفي بعض الكتب المنزلة: أن كثرة العفو زيادة في العمر. وأصله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: الآية ١٧].

الرشيد ويزيد بن مزيد

قال يزيد بن مزيد: أرسل إليَّ الرشيد ليلًا يدعوني، فأوجست منه خيفة، فقال لي: أنت القائل: أنا ركن الدولة والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها؟ لا أم لك، أي ركن، وأي ثائر أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما قلت هذا، إنما قلت: أنا عبد الدولة، والثائر لها، فأطرق وجعل ينحلّ(٣) غضبه عن وجهه، ثم ضحك، فقلت أحسن من هذا قولي:

خلافة الله في هارون ثابتةٌ   وفي بنيه إلى أن ينفخ الصور

فقال: يا فضل أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح.

لو لم يكن ذنب لما عرف العفو

أمر مصعب بن الزبير بقتل رجل، فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك وأقول: أي رب سل مصعبًا لِمَ قتلني؟ فقال: أطلقوه، فلما أطلقوه، قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتك في خفض عيش. قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فقال:

أيا المذنب الخطّاءُ والعفو واسعٌ   ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِف العفوُ

---

(١) تكسد: يبطل العمل بها.
(٢) عثرات: زلاّت.
(٣) ينحل: يتفكك ويزول.

اصنع ما أحبّ الله

تغيظ عبد الملك بن مروان على رجل، فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله، فعفا عنه وأمر له بصلة.

أقوال في العفو والحلم

قال الحسن: إن أفضل رداء تردّى به الإنسان الحلم. وهو والله عليك أحسن من برد الحبر. وفيه قال أبو تمام:

رفيقُ حواشي الحلمِ لو أن حلمه بكفّيك ما ماريت في أنه برد[(١)]

ويقال: الحليم سليم، والسفيه كليم. وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: سكوته عليَّ أشد من كلامه. شعر:

إذا كنت تبغي شيمةً غير شيمةٍ طُبِعْتَ عليها لم تطعك الضرائبُ

وعن عليّ بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفي التوراة: اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة، فضربها الغلام فأندر[(٢)] عينها. فقالوا: إن غضب ابن عون، فإنه يغضب اليوم، فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: «غضب الله». قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: «أن لا تغضب» ويقال: مَن أطاع الغضب أضاع الأرب. قال أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتُهم عدوًا لعقل المرء أعدى من الغضب

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالمرء إثمًا أن يقال له:

---

(١) ماريت: شككت. برد: ثوب. (٢) أندر عينها: أخرجها من مكانها.

اتق الله فيغضب، ويقول: عليك نفسك. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل، فاحبسه، فإذا سكن غضبك فاخرجه، فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطًا. وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة. قال: ترك الغضب.

وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلًا. وقال للأول: إذا اشتد غضبي، فقم إليَّ بهذه الصحيفة وناولنيها، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي، فناولنيها. وكان في الأولى: «اقصر، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإلٰه إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا». وفي الثانية: ارحم مَن في الأرض يرحمك مَن في السماء». وفي الثالثة: «احمل عباد الله كتاب الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك». رُوِيَ أنه أنو شروان. وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت:

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل، عن أنس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ: «مَنْ كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء»، ورُوِيَ: ملأه الله أمنًا وإيمانًا. وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط، ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوى أحدًا يشفي غيظه. وقال أبو ذر لغلامه: لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك، قال: لأجمعن مع الغيظ أجرًا أنت حر لوجه الله تعالى. واستأطن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فأذن لهم، فقالوا: السلام عليك يا محمد، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: بل السأم عليكم، واللعنة، فقال: يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقالت: ألم تسمع ما قالوا، قال: قد قلت وعليكم.

عبد الملك بن مروان وأُم حمزة

رفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له: حمزة، سرق، وقامت عليه البينة، فهمّ عبد الملك بقطع يده، فكتب إليه حمزة من السجن

يقول شعر:

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها بعفوك أن تلقى مقامًا يشينُها
فلا خير في الدنيا وكانت خبيثة إذا ما شمالٌ فارقتها يمينُها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة وقالت: يا أمير المؤمنين بني وكاسبي وواحدي، فقال لها عبد الملك: بئس الكاسب لك هذا حد من حدود الله تعالى، فقالت: يا أمير المؤمنين اجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعوه إليها، وخلى سبيله. شعر:

إذا ما طاشَ حلمك عن عدوٍ وهان عليك هجران الصديقِ
فلستَ إذًا أخا عفوٍ وصفحٍ ولا لأخٍ على عهدٍ وثيقِ
إذا زلَّ الرفيقُ وأنت ممنٍ بلا رفقٍ بقيت بلا رفيقِ
إذا أنت اتّخذت أخًا جديدًا لما أنكرت من خلقٍ عتيقِ
فما تدري لعلك مستجيرٌ من الرمضاءِ[1] فرّ إلى الحريقِ
فكم من سالكٍ لطريقٍ أمنٍ أتاه يحاذر في الطريقِ

شتم رجل رجلًا فقال له: يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعًا، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا، فلن أجيئها كثيرًا، وإني لا أكافىء مَن عصى الله فيَّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

حلم جعفر الصادق

حُكِيَ عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن غلامًا له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال: يا مولاي «والكاظمين الغيظ» قال: قد كظمت غيظي، قال: «والعافين عن الناس» قال: قد عفوت عنك، قال: «والله يحب المحسنين» قال: اذهب، فأنت حر لوجه الله تعالى.

نصر بن منيع والخليفة

قيل: لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة، وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها. قال: قل،

(١) الرمضاء: وقت اشتداد حرارة الشمس.

فأنشأ يقـول:

زعموا بأن الصقر صادف مرةً عـصفـور بـر سـاقـه الـتـقـديـرُ
فتكلم العصفورُ تحت جناحه والـصـقـر منقـضٌّ عليه يـطـيـرُ
إنّـي لـمـثـلك لا أتـمّـم لـقـمـةً ولـئن شُـويتُ فـإنـنـي لـحـقـيـرُ
فتهاون الصقر المدل بصيده كـرمًا وأقـلت ذلـك الـعـصـفـور

قال فعفا عنه وخلّى سبيله. قال الشاعر:

أقرر بذنبك ثم اطلبْ تجاوزهُم عنهُ فإن جحود[1] الذنبِ ذنبان

وقال بعضهم:

يستوجب العفو التفى إذا اعترفْ وتـاب عـمّـا قـد جـنـاه واقـتـرفْ
لـقـولـه قـل لـلـذيـن كـفـروا إن ينتهوا يُغفَر لهم ما قد سلف[2]

وقال آخر:

إذا ذكـرت أياديك التي سلفت مع قبحِ فعلي وزلّاتي ومجترمي[3]
أكـاد أقـتـلُ نـفـسـي ثـم يـدركـنـي علمي بأنك مجبولٌ على الكرمِ

حلم عمر بن الخطاب

رُوِيَ أن عمر رضي الله تعالى عنه رأى سكران، فأراد أن يأخذه ليعزره، فشتمه السكران، فرجع عنه، فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته، قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي، فلا أحب أن أضرب مسلمًا لحمية نفسي.

المنصور والكاتب

غضب المنصور على رجل من الكتّاب، فأمر بضرب عنقه، فأنشأ يقول:

وإنّـا الـكـاتـبـونـا وإن أسـأنـا فـهـبـنـا لـلـكـرام الـكـاتـبـيـنـا

فعفا عنه وخلّى سبيله وأكرمه.

(١) جحود: نكران. (٢) ما قد سلف: ما قد مضى.
(٣) مجترمي: أي اقترافي الذنوب والأخطاء.

حلم هشام بن عروة

قال الرشيد لأعرابي: بمَ بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: بحلمه عن سفيهنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا. لا منان إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان سمح البنان، ماضي اللسان، قال: فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه، وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد.

أقوال وأشعار في الحلم

قيل لمعن بن زائدة: المؤاخذة بالذنب من السؤدد؟ قال: لا، ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن يعظم جرمه، وقلّ شفعاؤه، ولم يجد ناصرًا. وقال محمود الوراق[(١)]:

سألزم نفسي الصفح عن كلِّ مذنبٍ   وإنْ عظمتْ منهُ عليَّ الجرائم
فما الناس إلا واحدٌ من ثلاثةٍ   شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدرَه   وأتبع فيه الحقَّ والحق لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن   إجابته نفسي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا   تفضَّلت إنّ الحرّ بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه، فإن أنصفك، وإلا فاحذره. قال الشاعر:

إذا كنت مختصًا لنفسك صاحبًا   فمن قبل أن تلقاه بالودِّ أغضبه
فإن كان في حال القطيعة منصفًا   وإلا فقد جرّبته فتجنّبه

ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

لن يبلغ المجد أقوامٌ وإن شرفوا   حتى يذلّوا وإن عزّوا لأقوامِ
ويشتموا فترى الألوان مسفرةً[(٢)]   لا صفح ذلك ولكن صفح إكرام

(١) هو محمود بن حسن الوراق، شاعر أكثر شعره في المواعظ والحكم، روى عنه ابن أبي الدنيا، وفي الكامل للمبرد نتف من شعره. وجمع ما وجد من شعره في ديوان وطبع، توفي سنة حوالي ٢٢٥ هـ.

(٢) مسفرة: ضاحكة حسنة.

وقال آخر:

وجهلٍ رددناه بفضل حلومنا ... ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الأحنف: إياكم ورأي الأوغاد، قالوا: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عارًا. وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأسبنك سبًا يدخل معك قبرك، فقال: معك والله يدخل لا معي. وقيل: إن الأحنف سبّه رجل وهو يماشيه في الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقي معك شيء، فهات، وقله هٰهنا، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا. وقال لقمان لابنه: يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه، ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا[1]

أصبت حليمًا أو أصابك جاهل

وقال آخر:

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله ... فاقْتُلْهُ بالمعروف لا بالمنكر

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كذبٍ ... حلمي أصم وأذني غيرُ صماءِ

قبيح الفعل حسن الاعتذار

يُروى في بعض الأخبار، أن ملكًا من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قومًا من خاصته فلما مد السماط أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه، فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك، فقال له: ويحك ما هذا؟ فقال: أيها الملك إنما صنعت هذا شحًا على عرضك، لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني: قتله في ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد، ولم

---

(١) الخنا: الفحش.

يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور. فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قتلي وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك مليًا ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

المأمون وإبراهيم بن المهدي

حُكِيَ عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج عمه إبراهيم المهدي عليه وبايعه العباسيون الخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلبًا لإبراهيم حتى أخذه وهو متنقب[١] مع نسوة، فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: لا سلم الله عليك ولا قرب دارك، استغواك[٢] الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام. فقال له إبراهيم: مهلًا يا أمير المؤمنين فإنّ ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذي ناب كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات:

ذنبي إليك عظيمٌ   وأنت أعظم منه
فخذْ بحقّك أو لا   فاصفح بعفوك عنهُ
إن لم أكن في فعالي   من الكرام فكُنْهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول وأكثر مما تأمل، ولقد حبب إليّ العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه، لا تثريب[٣] عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده وإدخاله الحمام وإزالة شعثه[٤] وخلع عليه ورد أمواله جميعها إليه

(١) متنقب: أي يلبس نقابًا على وجهه كما تلبس النساء.
(٢) استغواك: أضلك. (٣) لا تثريب: لا ملامة.
(٤) شعثه: أي استحمامه وتسريح شعره.

فقال فيه مخاطبًا:

ردت مالي ولم تبخل عليّ به وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي
فإن جحدتك ما أوليت من كرم إنّي لباللؤم أولى منك بالكرم

الحجاج وابنة عباد بن أسلم

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري، فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله لا تقتلني، فوالله إني لأعول أربعًا وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري. فرق لهن واستحضرهن وإذ واحدة منهن كالبدر، فقال لها الحجاج: ما أنت منه؟ قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول ثم قالت:

أحجاجُ إمّا أن تمنّ بتركه علينا وإما أن تقتّلنا معا
أحجاج لا تفجع به إنْ قتلته ثمانًا وعشرًا واثنتين وأربعا
أحجاج لا تترك عليه بناته وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة.

عمر بن الخطاب وعيينة بن حصن

لما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، فاستأذن فأذن له عمر فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩] وأن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله تعالى.

الفضل بن الربيع والمزوّر

حُكِيَ أن رجلًا زوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها

خط الفضل فشرع في أن يزن له الألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق[١] الفضل، بوجهه ثم قال للوكيل: أتدري لم أتيتك في هذا الوقت؟ قال: لا، قال: جئت لأستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة، فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيّرًا في أمره فالتفت إليه الفضل وقال له: طب نفسًا وامض إلى سبيلك آمنًا على نفسك فقبّل الرجل يده وقال له: سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى.

ما جاء في العتاب

قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب إلا على زلة. وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة. وقد قال أبو الحسن بن منقذ شعرًا[٢]:

أسطو عليه وقلبي لو تمكّن من ... يديَّ غلّهما غيظًا إلى عنقي
وأستعير له من سطوتي حنقًا ... وأين ذل الهوى من عزة الحنق[٣]

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت في سفر ومعي رجل من الأعراب فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم فتعانقا وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحي فقال لهما: انعما عيشًا إن المعاتبة تبعث التجني والتجني يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير في شيء ثمرته العداوة. قال الشاعر:

فدعْ ذكر العتاب فربَّ شرٍّ ... طويلٍ هاجَ أوَّلُه العتابُ

---

(١) أطرق: أحنى رأسه تفكيرًا.

(٢) هو علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، أبو الحسن سديد الملك، أمير، كان شجاعًا قوي النفس كريمًا، وهو أول مَن ملك قلعة شيزر بين «المعرة وحماه». وكانت في يد الروم له ديوان شعر جيد. توفي سنة ٤٧٩ هـ.

(٣) الحنق: الغضب، والسطوة: القوة والجاه.

وقيل العتاب من حركات الشوق وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر:

علامة ما بين المحبين في الهوى   عتابهم في كل حقٍّ وباطلِ

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغيّر حاله معه يقول:

عرضنا أنفسًا عزّت علينا   عليكم فاستخف بها الهوانُ
ولو أنّا رفعناها لعزَّتْ   ولكن كل معروضٍ مهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنت إذا ما جئت أدنيتَ مجلسي   ووجهُك من تلك البشاشة يقطرُ
فمنْ ليَ بالعين التي كنتُ مرَّةً   إليّ بها في سالف الدهر تنظر

وقال أبو الحسن بن منقذ:

أخلاقك الغر السجايا ما لها   حملت قذى الواشين وهي سلاف
ومرآة رأيك في عبيدك ما لها   صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حط عليه:

اقرأ كتابك واعتبره قريبًا   فكفى بنفسك لي عليك حسيبا
أكذا يكون خطاب إخوان الصفا   إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطوبا
ما كان عذري أن أجبت بمثله   أو كنت بالعتب العنيف مجيبا
لكنني خفت انتقاص مودّتي   فيُعد إحساني إليك ذنوبا

وقال آخر:

أراك إذا ما قلت قولًا قبلته   وليس لأقوالي لديك قبولُ
وما ذاك إلّا أنّ ظنّك سيءٌ   بأهل الوفا والظن فيك جميل
فكن قائلًا قول الحماسي تائهًا   بنفسك عجبًا وهو منك قليل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته إضاقة ثم ولي عملًا فأثرى فقصده محمد مسلمًا فرأى منه تغيرًا فكتب إليه:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروةً   فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنتَ عسرِ
فقد كشف الإثراء منك خلائقًا   من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من الفقر

وقال آخر في المعنى:

دعـوت الله أن تـسـمـو وتـعـلو علـوَّ الـنـجـم فـي أفـقِ الـسـمـاءِ
فـلـمـا أن سـمـوت بُـعـدتَ عـنّي فـكـان إذًا عـلـى نـفـسـي دعـائـي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرمًا وابن عرادة يتجنّى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

عـتـبـت عـلـى سـلـم فـلـمّـا فـقـدتـه وصاحبت أقوامًا بكيت على سلمِ
رجعت إليه بعد تجريب غيره فكان كبرٍ بعد طولٍ من السقم

وقال مسلم بن الوليد:

ويـرجـعـنـي إلـيـك إذا نـأت بـي ديـاري عـنـك تـجـربـةُ الـرجـال

وقال أبو الحسن القابسي:

إذا أنـا عـاتـبـت الـمـلـوم فـإنّـمـا أخطّ بـأقـلامي عـلى الـمـاء أحـرفـا
وهبه ارعوى[1] بعد العتاب ألم تكن مـودتـه طـبـعًـا فـصـارت تـكـلـفـا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه عند معاتبة الصديق أهون من فقده وما أحسن ما قيل في العتاب:

وفـي الـعـتـاب حـيـاةٌ بـيـن أقـوام وهو المحكّ لذي لَبْسٍ وإبهامِ[2]

(١) ارعوى: انصرف وامتنع.
(٢) لبس: الاختلاط والشبهة وعدم الوضوح.

في الوفاء بالوعد
وحفظ العهد ورعاية الذمم

قال في المستطرف[1]: أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذي من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداه. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المَائدة: الآية ١]. وقال جلّ ذكره وتقدّس اسمه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢٠]. وقال جلّ وعلا: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النّحل: الآية ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: الآية ٣٤]. والآيات في ذلك كثيرة من أشدها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا[2] عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصَّف: الآيتان ٢، ٣].

ورُوِيَ في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان». فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون وتصدق فيه خطرات الظنون، ويقال: الوعد سحابة والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لكل شيء رأس ورأس المعروف تعجيله، وأنشدوا:

إذا قلتَ في شيءٍ نعم فأتِمّهُ ... فإنَّ نعمْ دينٌ على الحرّ واجبُ
وإلّا فقل لا تسترحْ وتُرِحْ بها ... لئلّا يقول الناس إنّك كاذب

(١) المستطرف: ص ٢٠٩ ـ ٢١٦.
(٢) المقت: الكره، والبغض.

وقال آخر:

لا كلّف الله نفسًا فوق طاقتها ولا تجود يدٌ إلّا بما تجدُ
فلا تعِدْ عِدَةً إلّا وفيت بها واحذر خلاف مقالٍ للذي تعدُ

وقال أعرابي: وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل وقال أعرابي أيضًا: العذر الجميل خير من المطل الطويل. ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفًا فأبطأت عليه فقال لقائده: أقمني حيث يمر فأقامه فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول:

أظلت علينا منك يومًا سحابةٌ أضاء لها برقٌ وأبطأ رشاشها[١]
فلا غيمها يجلى فييأس طابعٌ ولا غيثُها يأتي فتروي عُطاشها

فقال: لا تبرح حتى تؤتى بها وقال صالح اللخمي:

لئن جمع الآفات فالبخلُ شرّها وشرٌّ من البخل المواعيد والمطل[٢]
ولا خير في وعدٍ إذا كان كاذبًا ولا خير في قولٍ إذا لم يكن فعل

المنصور والهذلي

قيل: ماتت للهذلي أم ولد، فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور، فحجّ المنصور ومعه الهذلي فقال المنصور وهو بالمدينة: إني أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لي مَن يطوف بي. فقال الهذلي: أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة، فقال: يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص[٣]:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكّل
إني لأمنحك الصدودَ وإنّني قسمًا إليك مع الصدود لأميل

(١) رشاسها: قطرها وماؤها، وأبطأ: أي أبطأ. (٢) المطل: التسويف والمماطلة.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد اللهبن عاصم الأنصاري من بني ضبيعة، شاعر هجاء، صافي الديباجة، من طبقة جميل بن معمر، ونصيب، كان معاصرًا لجرير والفرزدق وهو من سكان المدينة، نفاه الوليد بن عبد الملك إلى «دهلك» وأمر بجلده لسوء سيرته، لقب بالأحوص لضيق في مؤخرة عينه، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ١٠٥ هـ.

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق[1] اللسان يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليه.

أشعار في الوفاء بالوعد وحفظ العهد

قال الشاعر:

تعجيل وعد المرء أكرومةٌ ... تنشر عنه أطيب الذكر
والحرّ لا يمطل معروفه ... ولا يليق المطل بالحرّ

وقال آخر:

ولقد وعدتَ وأنتَ أكرمُ واعدٍ ... لا خير في وعدٍ بغير تمام
أنعم عليّ بما وعدت تكرّمًا ... فالمطل يُذهب بهجةَ الإنعامِ

وقال آخر:

لعبدك وعدٌ قد تقدم ذكره ... فأوله حمدٌ وآخره شكر
وقد جمعت فيك المكارم كلها ... فما لك عن تأخير مكرمةٍ عذر

وقال آخر:

وميعاد الكريم عليه دينٌ ... فلا تزد الكريم على السلام
يذكره سلامك ما عليه ... ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر:

شكاك لساني ثم أمسكت نصفه ... فنصف لساني بامتداحك ينطقُ
فإن لم تنجز ما وعدت تركتني ... وباقي لساني بالمذمة مطلق

وقال آخر:

باتت لوعدك عيني غير راقدةٍ ... والليلُ حي الدياجي منبتُ السحرِ
هذا وقد بت من وعدٍ على ثقةٍ ... فكيف لو بت من هجرٍ على حذر

---

(١) المذق: الكذب.

وقال آخر:

نـذكـر بـالـرّقـاع إذا نـسـيـنـا ويـأبـى الله أن تـنـسـى الـكـرام

الطائي وشريك نديم النعمان بن المنذر

كان النعمان قد جعل له يومين يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم مَن لقيه فيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئًا لصبيته وصغاره، فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم بؤسه فلما رآه الطائي علم أنه مقتول وأن دمه مطلول، فقال: حيا الله الملك إن لي صبية صغارًا وأهلًا جياعًا وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال في قتلي بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا ضياعًا ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمره. فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رقَّ له ورثى لحاله، غير أنه قال له: لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يـا شـريـك بـن عُـدي مـا مـن الـمـوت انـهـزام
مَـن لأطـفـالٍ ضـعـافٍ عـدمـوا طـعـمَ الـطـعـامِ
بـيـن رجـوع وانـتـظـار وافـتـقـارًا وسـقـام
يـا أخـا كـلّ كـريـمِ أنـت مـن قـومٍ كـرام
يـا أخـا الـنـعـمـان جُـدْ لـي بـضـمـانٍ والـتـزام
ولـك الله بـأنّـي راجـعٌ قـبـل الـظـلام

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك، عليّ ضمانه فمر الطائي مسرعًا وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولّى ولم يرجع، وشريك يقول: ليس للملك علي سبيل حتى يأتي المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلًا وأرجو أن

يكون الطائي فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل، قال: فبينما هم كذلك وإذ بالطائي قد اشتد عدوه في سيره مسرعًا حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي. ثم وقف قائمًا وقال: أيها الملك مر بأمرك فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقامًا يقوم فيه ولا ذكرًا يفتخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء. فلا أكون أنا ألأم الثلاثة ألا وأني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك. فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي ... فعددت قولهمو من الإضلال
إني امرؤٌ مني الوفاء سجية ... وفعالُ كلِّ مهذبٍ مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك؟ فقال: ديني فمن لا وفاء فيه لا دين له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده مكرمًا إلى أهله وأناله ما تمناه.

المأمون وعبد الله بن طاهر

حُكِيَ أن الخليفة المأمون لما ولي عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه، دخل على المأمون بعض إخوانه يومًا فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره، فاستحضر شخصًا وجعله في زي الزهاد والنساك الغزاة ودسّه إلى عبد الله بن طاهر، وقال له: امض إلى مصر وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة[1] عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه إلى القاسم بن محمد العلوي واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته، وائتني بما تسمع.

ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل

(١) البطانة: الخاصة والأصحاب.

من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له: لقد فهمت ما قصدت فهات ما عندك، فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد، فقال له عبد الله: أوتنصفني فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم، قال: فيجب عليَّ وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب، وأمري فيما بينهما مطاع وقولي مقبول، ثم إني ألتفت يمينًا وشمالًا فأرى نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضًا عليَّ، أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وتقول: اغدر وجانب الوفاء، والله لو دعوتني إلى الجنّة عيانًا لما غدرت، ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له، فسكت الرجل، فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك، فارحل من هذا البلد. فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون، فأخبره بصورة الحال، فسره ذلك، وزاد في إحسانه إليه، وضاعف إنعامه عليه.

كافور الإخشيدي والمنجم

قال حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه. قال: قال لي أبو الفتح المنطيقي: كنا جلوسًا عند كافور الإخشيدي، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة والمكنة، ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر، فحضرت المائدة والطعام، فلما أكلنا نام وانصرفنا، ولما انتبه من نومه طلب جماعة منا، وقال: امضوا الساعة إلى عقبة النجارين، وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حيًا، فاحضروه، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم.

قال: فمضينا إلى هناك، وسألنا عنه، فوجدناه قد مات، وترك بنتين إحداهما متزوجة، والأخرى عاتق[١]، فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك، فسيّر في الحال واشترى لكل واحدة منهما دارًا وأعطاهما مالًا جزيلًا وكسوة فاخرة، وزوج العاتق، وأجرى على كل واحدة منهما رزقًا وأظهر أنهما من المتعلفين به لرعاية أمورهما، فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك وقال: أتعلمون سبب هذا؟ قلنا: لا، فقال:

(١) عاتق: أي حرة غير متزوجة، وهي في أول إدراكها.

اعلموا أني مررت يومًا بوالدهما المنجم، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثّة، فوقفت عليه، فنظر إليَّ واستجلبني وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغًا كبيرًا، وتنال خيرًا، ثم طلب مني شيئًا، فأعطيته درهمين كانا معي، ولم يكن معي غيرهما، فرمى بهما إليَّ وقال: أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين؟ ثم قال: وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه، فاذكرني إذا صرت إلى الذي وعدتك به ولا تنس.

فقلت له: نعم، فقال: عاهدني أنك تفي لي ولا يشغلك ذلك عن افتقادي، فعاهدته، ولم يأخذ مني الدرهمين، ثم إني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال وصرت إلى هذه المنزلة ونسيت ذلك، فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته في المنام قد دخل عليَّ، وقال لي: أين الوفاء بالعهد الذي بيني وبينك، وإتمام وعدك؟ لا تغدر، فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم، ثم زاد في إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده، والله أعلم.

حديث السموأل بن عاديا

لما أراد امرؤ القيس الكندي المضي إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعًا وسلاحًا وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل، فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها وأبى أن يدفع إليه منها شيئًا. فعاوده، فأبى وقال: لا أغدر بذمتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء والواجب عليَّ. فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره، فدخل السموأل في حصنه وامتنع به، فحاصره ذلك الملك. وكان ولد السموأل خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك، فأخذه أسيرًا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وها هو معي، فإن سلمت إليَّ الدروع والسلاح التي لامرىء القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختر أيهما شئت. فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي. فاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبًا. واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القيس سلم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه، فسارت الأمثال في

الوفاء تضرب بالسموأل، وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكروا السموأل في الأول.

صنيع البرامكة

قال خادم أمير المؤمنين المأمون: طلبني أمير المؤمنين ليلة، وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي: خذ معك فلانًا وفلانًا وسماهما أحدهما علي بن محمد، والآخر دينار الخادم، واذهب مسرعًا لما أقوله لك، فإنه قد بلغني أن شيخًا يحضر ليلًا إلى دور البرامكة، وينشد شعرًا ويذكرهم ذكرًا كثيرًا ويندبهم ويبكي عليهم، ثم ينصرف، فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئًا، فائتوني به. قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول:

ولما رأيت السيفَ جندلَ جعفرًا ... ونادى منادٍ للخليفة في يحيىٰ
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ورددها، فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعًا شديدًا، وقال: دعوني حتى أوصي وصية، فإني لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين، فاستفتح، وأخذ ورقة، وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه، ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره، وقال له: مَن أنت، وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها؟ قال الخادم: ونحن وقوف نسمع، فقال: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم؟ قال: قل.

قال: يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين، واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس أهلي، أشاروا عليَّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًا وصبية، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت بثويبات لي كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعًا لا شيء عندهم، ودخلت

شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم، فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيىٰ بن خالد، ودخلت معهم، وإذا بيحيىٰ جالس على دكة له في وسط بستان، فسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحد وبين يديه عشرة من ولده، وإذا غلام أمرد عذاراه[١] خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر[٢]، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني، فوضعوه بين يدي الغلام إلى جنب يحيىٰ.

ثم قال يحيىٰ للقاضي: تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا. فخطب القاضي، وزوجه، وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا بالنثار[٣] ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي، ونظرت، فإذا نحن في المكان ما بين يحيىٰ والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلًا، فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادمًا مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي بين يدي يحيىٰ لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزني الخادم، فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كمي، وأخذت الصينية في يدي وقمت، وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها، فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيىٰ يلحظني إذ قال للخادم: ائتني بذلك الرجل. فرددت إليه، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي، ثم أمرني بالجلوس، فجلست فقال لي: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي، فقال للخادم: ائتني بولدي موسى، فأتى به، فقال له: يا بني هذا رجل غريب، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك.

فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش، وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه

---

(١) الأمرد: الشاب الذي طلع شاربه ولم تطلع لحيته، والعذار: الشعر بين الأذن والصدغ.
(٢) الفهر: حجر رقيق تسحق به الأدوية. (٣) النثار: ما نثر على الجمع.

العباس وقال: إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل، وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك، وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء. فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا لي: قم، فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: واويلاه سلبت الدنانير والصينية، وأخرج إلى عيالي في هذه الحالة. إنّا لله وإنّا إليه راجعون فرفع الستر الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج، فارفعها إليّ فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به، فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنًا ونورًا واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إلي ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعوني، فلما جاءتهم البلية، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل، أجحفني عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليَّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليَّ وأشكرهم على إحسانهم.

فقال المأمون: عليَّ بعمرو بن مسعدة، فلما أُتي به قال: يا عمرو، أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا، قال: رد له كل ما استأديته منه في مدته، ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده، قال: فعَلَا نحيب الرجل وبكاؤه، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال: يا هذا قد أحسنا إليك، فلمَ تبكي؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضًا من صنائع البرامكة، إذ لو لم آت خراباتهم، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين، ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين. قال إبراهيم بن ميمون، فلقد رأيت المأمون قد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر. وقيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ودوام عهده

فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر:

سقى الله أطلالَ الوفاءِ بكفّه فقد دَرَسَتْ[١] أعلامُه ومنازله

وقال آخر:

أشددْ يديك بمن بلوت وفاءه إنّ الوفاء من الرجال عزيز

لا خير فيمن نسي إذا وعد وعدًا

قال مالك بن عمارة اللخمي: كنت جالسًا في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان، وقبيصة بن ذؤيب، وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرة، وفي المذاكرة مرة، وفي أشعار العرب، وأمثال الناس مرة، فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حدث، وحلاوة لفظه إذا حدث، فخلوت معه ليلة، فقلت له: والله إني لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك، فقال: إن تعش قليلًا، فسترى العيون طامحة إليّ، والأعناق نحوي متطاولة، فإذا صار الأمر إليّ، فلعلك أن تنقل إلي ركابك، فلأملأن يديك. فلما أفضت إليه الخلافة، توجهت إليه، فوافيته[٢] يوم الجمعة، وهو يخطب على المنبر، فلما رآني أعرض عني، فقلت: لعله لم يعرفني، أو عرفني وأظهر لي نكره، فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب، فقال: أين مالك بن عمارة؟ فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، فمد إلي يده وقال: إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن، فمرحبًا وأهلًا، كيف كنت بعدي؟ فأخبرته، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: نعم، فقال: والله ما هو بميراث وعيناه، ولا أثر رويناه، ولكني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى، ما خنت ذا ود قط، ولا شمت بمصيبة عدو قط، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي حديثه، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذًا بها، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل.

---

(١) درست: انمحت. (٢) وافيته: التقيته.

ثم دعا بغلام، فقال له يا غلام: بوئه[١] منزلًا في الدار، فأخذ الغلام بيدي، وأفرد لي منزلًا حسنًا، فكنت في ألذ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه، ثم أدخل عليه في وقت عشائه، وغدائه، فيرفع منزلتي ويقبل عليَّ ويحادثني، ويسألني مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة، فتغديت يومًا عنده، فلما تفرق الناس نهضت قائمًا، فقال: على رسلك، فقعدت، فقال: أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة[٢] لك في المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة، فقلت: يا أمير المؤمنين فارقت أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين، وأعود إليهم، فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد، فقال: لا، بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد في زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك. أتراني قد ملأت يديك؟ فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعدًا، وزرنا إذا شئت، صحبتك السلامة.

أبو بكار الأعمى وآل برمك

رُوِيَ عن أبي بكار الأعمى، وكان قد انقطع إلى آل برمك، قال مسرور الكبير: لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيىٰ دخلت عليه، فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فلا تحزن فكل فتًى سيأتي ... عليه الموتُ يطرق أو يغادي[٣]

فقلت: في هذا والله قد أتيتك، ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته، وضربت عنقه، فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقتني به، فقلت له: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: أغناني عن الناس، فقلت: حتى أستأمر الرشيد، ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد، وأخبرته بخبر أبي بكار، فقال: هذا رجل فيه مصطنع أضمه إليك، وانظر ما كان يجري عليه جعفر فادفعه إليه. وكان يحيىٰ بن خالد إذا أكد في يمينه قال: لا والذي جعل الوفاء أعز ما يرى. قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يتّقي الإنسانُ فيما ينوبه ... ومن أين للحرِّ الكريم صحابُ
وقد صار هذا الناس إلَّا أقلهُم ... ذئابًا على أجسادهن ثيابُ

(١) بوئه: أحله وأسكنه. (٢) النصفة: العدل والمساواة.
(٣) يطرق أو يغادي: أي أن الموت سيأتيه ليلًا أو صباحًا.

المنصور وخادم هشام بن عبد الملك

سأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا، فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ بساطي وتترحم على عدوي؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لوفي حافظ للخير، ثم أمر له بمال، فأخذه، ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة. فقال له المنصور: لله درك، فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدًا مخلدًا.

إخلاص زوجة

خرج سليمان بن عبد الملك، ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبابين الشام، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي، قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها، فحكت شمسًا عن متون غمامة، فوقفنا متحيرين ننظر إليها، فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله: هل لك في أمير المؤمنين بعلًا؟ فنظرت إلينا، ثم أنشأت تقول:

فإن تسألاني عن هواي فإنه ... يجولُ بهذا القبرِ يا فتيان
وإني لأستحييه والترب بيننا ... كما كنتُ أستحييه وهو يراني

رُوِيَ عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص الكلبي زوج عثمان رضي الله عنهما، أن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يديها، وخطبها معاوية، فردته، وقالت: ما يعجب الرجل مني؟ قالوا: ثناياك[1]، فكسرت ثناياها، وبعثت بها إلى معاوية، فكان ذلك مما رغب قريشًا في نكاح نساء بني كلب.

ولما أحسّ مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: انج بهذا فأخذه زياده ودقه بين حجرين، وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك. ولما قدم هدبة بن الحشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم، قالت زوجته: إن لهدبة عندي وديعة، فامهله حتى آتيك بها، فقال: أسرعي، فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزًا عن داره، فمضت إلى السوق، وأتت

(١) الثنايا: الأسنان الأربع التي في مقدم الفم.

إلى قصاب، فقالت: أعطني شفرتك، وخذ هذين الدرهمين، وأنا أردها عليك، فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفها على وجهها، ثم جدعت أنفها من أصله، وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب. ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس، فقالت: أتراني يا هدبة متزوجة بعد ما ترى، فقال: الآن طابت نفسي بالموت، فجزاك الله من حليلة وفية خيرًا.

إخلاص أحمد اليتيم

ذكر عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعًا على أحوال أحمد بن طولون عارفًا بأموره عالمًا بوروده وصدوره، فقال: ما معناه أن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلًا مطروحًا، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة، وأحسنهم زيًا وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به، فأخذه إليه، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه، وقال له: أنت عندي بمكانة أرعاك بها، ولكن عادتي أني آخذ العهد على كل من أصرفه في شيء إنه لا يخونني فعاهده، ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذًا على المقام حاكمًا على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن إليه، واعتمد في أمور بيوته عليه، فقال له يومًا: يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر، فائتني بها، فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شباب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب، فلما رأياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره، فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إليَّ وأخذ العهد عليَّ، ثم تركها، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه.

وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة، وخرج من الحجرة لئلا يذكرها للأمير، فأقامت أيامًا لم تجد من الأمير ما غيره عليها. ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عمن سواها، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها، ولا يراها، وكان أولًا مشغولًا بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الخائبة الغادرة العائبة

العاهرة الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها اشتغالًا بالجارية الجديدة الممجدة السعيدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه من ملاعبة أترابها، وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف رضاب أضرابها، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكبر عليها إعراضه عنها ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها، فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت: إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي. فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظًا وغضبًا، وهمَّ في الحال بقتله، ثم عاوده حاكم عقله، فتأنى في فعله، واستحضر خادمًا يعتمد عليه، وقال له: إذا أرسلت إليك إنسانًا ومعه طبق من ذهب، وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكًا، فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق، وأحضره مغطى.

ثم إن الأمير أبا الجيش جليس لشربه، وأحضر عنده ندماءه الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء، ولا هجس هاجس في قلبه، فلما مثل بين يدي الأمير، وأخذ منه الشراب شرع في التدبير، فقال: يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكًا، فأخذ أحمد اليتيم ومضى، فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء، والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماضٍ في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق، فقالوا له: أرسل مَن ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير، فأدار عينيه، فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له: يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكًا، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم، فذكر له ذلك، فقتله، وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق، وأقبل به، فناوله لأحمد اليتيم، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال: ما هذا؟ فقصّ عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم، وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره.

قال: أتعرف لهذا الفراش خبر يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره، لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها، وأمره بقتلها، ففعل، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه.

في الصدق

قال في المستطرف(1): قال الله تعالى مبشرًا للصادقين: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: الآية ١١٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٥]. فمدحهم وبيّن لهم المغفرة والأجر العظيم.

وقال عمر رضي الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك. وما أحسن ما قيل في ذلك:

عليك بالصدق ولو أنه　　أحرقك الصدق بنار الوعيدِ
وابغِ رضا المولى فأغبى الورى　　من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبي الوفاة جمع بنيه، فقال لهم: يا بني عليكم بتقوى الله وعليكم بالقرآن، فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلًا، ثم سئل عنه أقربه، والله ما كذبت كذبة قط مذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ بِمَ يعرف المؤمن؟ قال: «بوقاره ولين كلامه، وصدق حديثه». وقيل: لكل شيء حلية وحلية النطق الصدق.

وقال محمود الوراق:

الصدق منجاةٌ لأربابه　　وقربة تدني من الرب

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة، فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه.

---

(١) المستطرف: ص ٢٦٣.

وقال المهلب بن أبي صفرة: ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعزله من الصدق. وكان يقال على الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعي. ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لاطّلع على خزائن الغيب، ولكان أمينًا في السمٰوات والأرض. وقيل: مَن لزم الصدق وعوّد لسانه به وفق. ويقال: الصدق بالحر أحرى.

وقال عتبة بن أبي سفيان: إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب. فانظر أيهما أقرب إلى هواك، فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى.

وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذي يزن، «وضع الخد للحق عز» وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان، فأمر له بمائة ناقة، فقبّل يده، وقال: والله ما قبلت يد قرشي غيرك إلا واحد، فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله، قال: فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: فغضب، وقال: والله ما قبلتها لله تعالى، فقال: والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى، ولكن قبلتها لنفسي، فقال: والله لا ضرّك الصديق عندي أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدواني في وصيته: إني وجدت صدق الحديث طرفًا من الغيب فاصدقوا، يعني من لزم الصدق وعوّد لسانه وُفق، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه.

أنكحك الصدق

خطب بلال لأخيه امرأة قرشية، فقال لأهلها: نحن مَن قد عرفتم كنا عبدين، فأعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين، فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين، فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخي، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا، فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض. فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته، ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ. فزوجوا أخاه، فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ ما عدا ذلك، فقال: مه يا أخي صدقت فأنكحك الصدق.

خلصة صدقه

خطب الحجاج فأطال، فقام رجل. فقال: الصلاة، فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك، فأمر بحبسه، فأتاه قومه زعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله، فقال: إن أقر بالجنون خليته، فقيل له، فقال: معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني. فبلغ ذلك الحجاج، فعفا عنه لصدقه.

في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

قال في المستطرف[1]: رُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنّة إلا والذي قبله خير منه سمعت ذلك من نبيكم ﷺ وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تُسبق، فجاء أعرابي فسبقها، فشق ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، فقال ﷺ: «إن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه».

انقلاب حال ذي الكلاع الحميري

حُكِيَ عن شيخ من همدان قال: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثت شهرًا لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف أشرافه من كوّة، فخرّ له من حول القصر سجدًا، ثم رأيته من بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص واشترى بدرهم لحمًا، وسمطه خلف دابته وهو القائل هذه الأبيات:

أُفٍّ للدنيا إذا كانت كذا ... أنا منها في بلاءٍ وأذى
إن صفا عيش امرئٍ في صحبها ... جرعته ممسيًا كأس الردى
ولقد كنت إذا ما قيل من ... أنعم العالم عيشًا قيل ذا

---

(١) المستطرف: ص ٣٢٩.

أقوال وأشعار في شكوى الزمان

قال يونس بن ميسرة: لا يأتي علينا زمان إلا بكينا منه ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه. ومن قوله ذلك:

ربَّ يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

ومثله:

وما مرّ يومٌ أرتجي فيه راحةً فأخبره إلّا بكيت على أمسي

ومن كلام ابن الأعرابي:

عن الأيام عدّ فعن قليلٍ ترى الأيام في صوَرِ الليالي

وقال رضي الله عنه: ما قال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء. قال الشاعر:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعهدُ

دخل داود عليه الصلاة والسلام غارًا، فوجد فيه رجلًا ميتًا وعند رأسه لوح مكتوب فيه، أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلًا من الدراهم في رغيف فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلًا من الجواهر فلم يوجد، فدققت الجواهر واستفيتها[1] فمت مكاني، فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أن على وجه الأرض اغنى منه أماته الله كما أماتني.

وذكر أن عبد الرحمٰن بن زياد لما ولي خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق في كل يوم ألف درهم على نفسه أنه يكفيه، فرؤي بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها. وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة في يوم شات وهو جالس في قبة مغشاة بالسمور، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود. ثم رأيته بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس.

(١) واستفيتها: أي أكلها بعد أن طحنها من غير ماء.

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ونزل في داره وقعد على فرشه. دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عامر: إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك. وقال مالك بن دينار: مررت بقصر تضرب فيه الجواري بالدفوف ويقلن:

ألا يا دار لا يدخلْكِ حزنٌ ... ولا يغدرْ بصاحبك الزمانُ
فنعم الدارُ تأوي كلّ ضَيفٍ ... إذا ما ضاق بالضيف المكانُ

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوزًا، فسألتها عما كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله إن الله يغيِّر ولا يتغيَّر والموت غالب كل مخلوق، قد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان.

وقال أبو العتاهية:

لئن كنتَ في الدنيا بصيرًا فإنّما ... بلاغُك منها مثل زاد المسافِر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر[(١)]

وقال عبد الملك بن عمير: رأيت رأس الحسين رضي الله عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك، قال سفيان، فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنتا عشرة سنة.

إنَّ للدّهر صرعةً فاحذرنها ... لا تبيتنّ قد أمنت الشرورا
قد يبيت الفتى معافى فيردى ... ولقد كان آمنًا مسرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره على الدجلة ينظر، فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبة على رأسها رقعة، فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعرًا وهو للشافعي رضي الله تعالى عنه:

تاه الأُعيرج واستعلى به البطرُ ... فقل له خير ما استعملته الحذرُ
أحسنن ظنّك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخفْ سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

---

(١) ضائر: أي مضر.

قال: فما انتفع بنفسه. وأعجب ما وجد في السير خبر القاهر أحد الخلفاء وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير طهارة، ومد يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فتبارك الله يعز مَن يشاء ويذل مَن يشاء.

وقيل: كان لمحمد الهلبي قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول:

ألا موتٌ يباع فاشتريه … فهذا العيش ما لا خيرَ فيه
ألا رحم المهيمن نفس حر … تصدّق بالوفاة على أخيه

قال: فرثى له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا. ثم ترقّى المهلبي إلى الوزارة، وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه، فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

ألا قل للوزير فدته نفسي … مقال مذكِّر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيشٍ … ألا موتٌ يباع فأشتريه

فلما قرأها تذكر، فأمر له بسبعمائة درهم ووقّع تحت رقعته: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٦١]. ثم قلّده عملاف يرتزق منه.

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال له: أي الزمان أدركته أفضل، وأي الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامدًا وذامًا، وأما الزمان فيرفع أقوامًا ويضع آخرين، وكلهم يذكر أنه يبلى جديدهم ويفرق عديدهم ويهزم صغيرهم ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

لم أبكِ من زمنٍ لم أرض خلّته … إلّا بكيت عليه حين ينصرمُ

وقال آخر:

يا معرضًا عنّي بوجهٍ مدبرٍ … ووجوه دنياه عليه مقبلة
هل بعد حالك هذه من حالةٍ … أو غايةٍ إلّا انحطاط المنزلة

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير:

ذهـب الـذيـن إذا رأونـي مـقـبـلًا بـشّـوا إلـيَّ ورحـبـوا بـالـمـقـبـل
وبـقـيت فـي خـلفٍ كـأنَّ حـديـثـهـم ولغُ الكلاب تهارشتْ في المنزل[١]

وقال آخر في معناه:

يـا مـنـزلًا عـبـث الـزمـان بـأهـلـه فـأبـادهـم بـتـفـرّقٍ لا يـجـمـع
أيـن الـذيـن عـهـدتـهـم بـك مـرةً كـان الـزمـان بـهـم يـضـر ويـنـفـع
أيـام لا يـغـشـى لـذكـرك مـربـعٌ إلّا وفـيـه لـلـمـكـارم مـرتـعُ
ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وقال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي[٢]:

وإنّي رأيت الدهر منذ صحبته مـحـاسـنـه مـقـرونـة ومـعـايـبُـهْ
إذا سرّني في أوّل الأمر لم أزلْ على حذر من أن تذمّ عواقبه

وقال بعضهم:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والـمـنـكـرون لـكـل أمـرٍ مـنـكـر
وبقيت في خلف يزيِّن بعضه بعضًا ليدفع معورٌ عن معور[٣]
حـلـف الـزمـان لـيـأتـيـن بـمـثـلـهـم حنثت يمينك يا زمان فكفر[٤]

وكان يقال: إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير، وكان يقال: بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال. ويقال: زمام العافية بيد البلاء ورأس السلامة تحت جناح العطب. وقال بعضهم: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارًا والشر إلا إقبالًا والشيطان في هلاك الناس إلا طمعًا، اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيرًا يكابد فقرًا، أو غنيًا بدّل نعمة الله كفرًا، أو بخيلًا اتخذ بحق الله

---

(١) ولغ الكلاب: أي تدنيس الآنية بأفواهها.
(٢) إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: أبو محمد بن النديم من أشهر ندماء الخلفاء، تفرّد بصناعة الغناء، كان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، راويًا للشعر، حافظًا للأخبار، فارسي الأصل ولد في بغداد سنة ١٥٥ هـ، وتوفي فيها سنة ٢٣٥ هـ. له تصانيف كثيرة منها: أغاني معبد، والاختيار من الأغاني والنوادر المتخيّرة.
(٣) المعور: القبيح من الرجال.
(٤) حنثت: أي لم تفِ بالقسم.

وفرًا، أو متمردًا كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقرا. وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول: يا ليتني مكانه».

ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل. بيت:

ما من مسيءٍ وإن طالت إساءته … إلا ويكفيك يومٌ من مساويه

وقال الأمين:

يا نفس قد حُقّ الحذرْ … أين المفر من القدرْ
كلّ امرئٍ مما يخا … ف ويرتجيه على خطرْ
من يرتشفْ صفو الزما … ن يغص يومًا بالكدر

وقال بعضهم:

وقائلة ما بال وجهك قد نضت … محاسنه والجسم بان شحوبه(١)
فقلت لها هاتي من الناس واحدًا … صفا وقته والنائبات تنوبُهُ(٢)

وللأمير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملك الأمرَ غيره … ومنْ هو بالسرّ المكتّم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا … لإعلانها عندي أشد وأعظم
وبي كلٌّ ما يبكي العيون أقلّه … وإن كنت منه دائمًا أتبسّمُ

وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه: وايم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها، لأن الله تعالى ليس بظلّام للعبيد، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

يقولون الزمان به فسادٌ … وهم فسدوا وما فسد الزمانُ

وكفى بالقرآن واعظًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: الآية ١١]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) نضت: فارقت. (٢) تنوبه: أي تصيبه.

في الصبر على المكاره

قال في المستطرف[1]: قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمر به، وجعل أكثر الخيرات مضافًا إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحثّ على التثبت في الأشياء، ومجانبة الاستعجال فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: الآية ١٥٣]. فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠]. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٣٧]. وبالجملة، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعًا. وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥].

وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ في ذلكَ أخبار كثيرة، فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر». وقوله عليه الصلاة والسلام: «بالصبر يتوقع الفرج». وقوله: «الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان، فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والتثبت في حركاته وسكناته، وكثيرًا ما أدرك الصابر مرامه أو كاد، وفات المستعجل غرضه أو كاد».

وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلًا ونهارًا،

---

(١) المستطرف: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٨.

فقلت يا أمير المؤمنين: إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر وفي الروح إلى الطاعات في البكر
إني رأيت وفي الأيام تجربةٌ للصبر عاقبةٌ محمودةُ الأثر
وقلّ من جدّ في أمرٍ يؤمّلُهُ واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فحفظتها منه وألزمت نفسي الصبر في الأمور، فوجدت بركة ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصب[1] ولا وصب[2] ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا حط الله بها من خطاياه». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة». وقال ﷺ: «إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمَن رضي فله الرضا ومَن سخط فله السخط». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وعن إسحٰق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أنس بن مالك قال: قال النبيّ ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومَن استرجع بعد مصيبته[3] جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها».

ورُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: احفظوا عني خمسًا. اثنتين واثنتين وواحدة. لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجوا إلا ربه، ولا يستحي أحد منكم إذا سُئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسُدَ الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظلمًا، فمات في حبسه مات شهيدًا فإن ضربه فمات، فهو شهيد.

---

(١) النصب: التعب والشقاء. (٢) الوصب: المرض.
(٣) استرجع: أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون.

ورُوي في الخبر لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٢٣].

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألَيس تمرض، أليس يصيبك الأذى، أليس تحزن»، قال: بلى يا رسول الله. قال: «فهذا ما تجزون به يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفّارة لك، وبهذا اتضح أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء.

صبر رسول الله ﷺ

رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به. فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلا والفرث[1] والدم، فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر، فقلت: لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبيّ ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان، فأخبر فاطمة رضي الله عنها، فجاءت فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بقريش، ثلاث مرات، فلما سمع القوم صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته فقال: اللهم عليك بأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وربيعة، والوليد، وأمية بن خلف، فقال عليّ رضي الله عنه: والذي بعث محمدًا بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر. وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من رزقهن فقد رزق خيرَيْ الدنيا والآخرة. الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء».

لمّا صبرت انتصر الله لها

حُكِيَ أن امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة، فسرقها سارق، فصبرت وردّت أمرها إلى الله، ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق، ونتف ريشها

---

(١) السلا والفرث: قذارة جوف الحيوان.

نبت جميعه في وجهه، فسعى في أزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبرًا من أحبار بني إسرائيل، فشكا له، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها مَن قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سرقت، فقال: لقد آذاك مَن سرقها؟ قالت: قد فعل، ولم تدع عليه. قال: وقد فجعك في بيضها؟ قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه، فقيل لذلك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتصر الله لها، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه.

ما قيل في الصبر شعرًا

من أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

وإذا مسّك الزمان بضر ... عظمت دونه الخطوب وجلّتْ
وأتت بعده نوائب أخرى ... سئمت نفسك الحياة وملّت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني ... فالرّزايا إذا توالت تولّتْ
وإذا أوهنت قواك وجلّت ... كشفت عنك جملةً وتخلّت

ولمحمد بن بشر الخارجي:

إن الأمور إذا اشتدت مسالكُها ... فالصبر يفتح منها كلّ ما رتجا(١)
لا تيأسنّ وإن طالت مطاليه ... إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فرجا

ولزهير بن أبي سلمى:

ثلاثٌ يعز الصبر عند حلولها ... ويذهل عنها عقل كلِّ لبيبِ
خروج اضطرارٍ من بلاد يحبّها ... وفرقة أخوانٍ وفَقْد حبيبِ

وقال بعضهم:

عليك بإظهار التجلُّد للعدا ... ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أما تنظر الريحان يشمم ناضرًا ... ويطرح في البيدا إذا ما تغيّرا

---

(١) رتج: أقفل.

ولابن نباتة:

صبرًا على نوب الزما ... ن وإنْ أبى القلب الجريح
فلكلّ شيءٍ آخرٌ ... إمّا جميلٌ أو قبيح

وقال أبو الأسود وأجاد:

وإنّ امرءًا قد جرّب الدهر لم يخفْ ... تقلُّب عصريه لغير لبيبِ
وما الدهر والأيام إلا كما ترى ... رزيّةَ مالٍ أو فراق حبيبِ

ومن كلام الحكماء: ما جوهد الهوى بمثل الرأي، ولا استنبط الرأي بمثل المشورة، ولا حفظت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل[1]:

ويومٍ كأنَّ المصطلين بحرّه ... وإن لم يكن نارٌ قيامٌ على الجمر
صبرنا له صبرًا جميلًا وإنّما ... تُفرّج أبواب الكريهةِ بالصبرِ

قال ابن طاهر:

حذّرتني وذا الحذر ... ليس يغني من القدر
ليس مَن يكتم الهوى ... مثل مَن باح واشتهر
إنما يعرف الهوى ... من على مُره صبر
نفس يا نفس فاصبري ... فاز بالصَّبر من صبر

وكان يقال: مَن تبصّر تصبر. وكان يقال: إن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال: لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر. ولله در القائل:

الدهر أدَّبني والصبر ربّاني ... والفوت أقنعني واليأس أغناني
وحنكتني من الأيام تجربةٌ ... حتى نهيت الذي قد كان ينهاني

وما أحسن ما قال محمود الوراق:

إني رأيت الصبر خير معوّلٍ ... في النائبات لمن أراد معولا[2]

---

(١) نهشل: توفي نحو ٤٥ هـ. هو نهشل بن حري بن حمزة الدارمي: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية وعاش في الإسلام، أسلم ولم ير النبيّ، صحب عليًا في حروبه، وبقي إلى أيام معاوية. قال الجمحي: «نهشل شريف مشهور».

(٢) المعول: المعين.

ورأيت أسباب القناعة أُكِّدت بعرى الغنى فجعلتها لي مَعقلا
فإذا نبا بي منزلٌ جاوزته وجعلت منه غيره لي منزلا
وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركنه فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يومًا بنكبة فافرغ لها صبرًا ووسِّع لها صدرا(١)
فإن تصاريف الزمان عجيبةٌ فيومًا ترى يسرًا ويومًا ترى عسرا

وقال بعضهم:

وما مسّني عسرٌ ففوّضت أمره إلى الملك الجبّار إلَّا تيسّرا

وما أحسن ما قيل:

الدهر لا يبقى على حالة لا بدّ أن يقبلَ أو يدبر
فإن تلقّاك بمكروهة فاصبرْ فإنَّ الدهر لا يصبر

الصبر ستر الكروب

نقل عن محمد بن الحسن رحمه الله قال: كنت معتقلًا بالكوفة، فخرجت يومًا من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همي وكادت نفسي أن تزهق وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل عليَّ ورأى ما أنا فيه من الكآبة فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الصبر ستر الكروب وعون على الخطوب». ورُوي عن ابن عمه عليّ رضي الله تعالى عنه أنه قال: الصبر مطية لا تدبر وسيف لا يكل، وأنا أقول:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله عند الإلـه وأنجاه من الجزعَ
من شدَّ بالصبر كفًّا عند مؤلمهِ ألوت يداه بحبلٍ غير منقطع

فقلت: بالله عليك زدني، فقد وجدت بك راحة. فقال: ما يحضرني شيء عن النبي ﷺ. ولكني أقول:

أما والذي لا يعلم الغيب غيره ومن ليس في كلِّ الأمور له كفو
لئن كان بدءُ الصبر مرًّا مذاقه لقد يجتني من بعده الثمر الحلو

---

(١) أفرغ: أي اجعل لها مكانًا.

ثم ذهب، فسألت عنه، فما وجدت أحدًا يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة، ثم أُخرجت في ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع في نفسي أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لي يوقظني ويؤدبني ويسليني.

أخشى أن يذهب ماء وجهي

قيل: إن رجلًا كان يضرب بالسياط ويجلد جلدًا بليغًا، ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه، وقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى، قال: لِمَ لا تصيح؟ فقال: إن في هذا القوم الذين وقفوا عليَّ صديقًا لي يعتقد فيَّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه، فأخشى إن ضجيت يذهب ماء وجهي عنده ويسوء ظنه بي، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبهُ ويحمد منه الصَّبر مما يصيبه
فمنْ قلّ فيما يلتقيه اصطباره لقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه

صبر أُولي العزم

قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر ولم يكلفني إلا ما كلفوا به، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥]. وإني والله لأصبرن كما صبروا. فإن النبيّ ﷺ لما صبر كما أمر أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره، وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولوا العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا، وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة، فقال مقاتل رضي الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحٰق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم، وقال قتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. ويقال: ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولي العزم؟

صبر نوح عليه السلام

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة والسلام يُضرب ثم يُلف في لبد ويُلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يعود ويخرج إلى قومه

ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه، فقال لابنه: يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرّك، فقال له ابنه: يا أبت مكّني من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحًا عليه الصلاة والسلام شج بها رأسه، وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم، وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [هُود: الآيتان ٣٦، ٣٧]. قال: يا ربّ، وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجي فيه أهل طاعتي وأغرق أهل معصيتي، قال: يا رب، وأين الماء؟ قال: أنا على كل شيء قدير، قل: يا رب، وأين الخشب، قال: اغرس الخشب.

فغرس الساج(١) عشرين سنة. وكفّ عن دعائهم وكفّوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه، فقطعها وجففها، وقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عجّل بعمل السفينة، فقد اشتد غضبي على مَن عصاني، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته، وإهلاك قومه، وعذابهم إلا مَن آمن معه. وفار التنور وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب، حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعًا، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيّه نوحًا عليه الصلاة والسلام.

صبر إبراهيم عليه السلام

أما إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها، لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حائزًا كالحوش طول جداره ستون ذراعًا في سفح جبل عالٍ ونادى منادٍ ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ومَن تخلّف عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يومًا ليلًا ونهارًا حتى كاد الحطب يساوي رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحائز، وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر

(١) الساج: شجر عظيم طويل عريض صلب الخشب أسوده.

يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنيانًا شامخًا، وبنوا فوق منجنيقًا، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣].

وقيل: كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة، فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام، وقال يا إبراهيم: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: سل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦٩]. فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام، فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماءً عذبًا.

قال كعب: ما أحرقت النار غير أكتافه، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل: أكثر من ذلك، ونجاه الله تعالى، ثم أهلك نمرود وقومه بأخس الأشياء وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم.

صبر إبراهيم وولده الذبيح عليهما السلام

تلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إني أريد أن أقرب قربانًا، فأخذ ولده والسكين والحبل، وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله تعالى قد أمرني بذبحك، فانظر ماذا ترى؟ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢]، يا أبت اشدد وثاقي كي لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أمي فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت عليَّ وإذا لقيت أمي، فاقرأ السلام عليها، فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويبكي ويقول: نِعْمَ العون أنت يا بني على ما أمر الله تعالى، قال مجاهد: لما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين، فقال يا أبت: اطعن بها طعنًا. وقال السدي: جعل الله حلقه كصحيفة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئًا، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودي أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبيًا بصبره وامتثاله لأمره.

صبر يعقوب عليه السلام

أما يعقوب عليه الصلاة والسلام: فإنه لما ابتلي بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال: فصبر جميل. وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لما ابتلاه الله تعالى بإلقائه في ظلمة الجب وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن، وحبسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

صبر أيوب عليه السلام

أما أيوب عليه الصلاة والسلام: فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله، وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية من حمله. ولنذكر شيئًا مختصرًا من ذلك وهو أن ملكًا من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام، فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك، لأطيلن بلاءك، فقال إبليس لعنه الله: يا رب سلّطني على أولاده وماله، فسلّطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه، ورعاتها، فاحتملوها جميعًا وقذفوها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعه وجناته فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازله وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولدًا وخدمه وأهله، فزلزلوها فهلكوا.

ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام، وهو يصلي، فتمثل له في صورة رجل من غلمانه فقال: يا أيوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبّت عليها ريح عظيمة، وقذفت الجميع في البحر، وأحرقت زرعك وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع، ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله، ثم قبله مني. ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانيًا، فقال: يا رب سلطني على جسده، فسلطه، فنفخ في إبهام رجله فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أمعاؤه تبين وهو مع ذلك كله صابر محتسب مفوّض أمره إلى الله تعالى.

وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجًا عن البيوت من نتن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يومًا في صورة شيخ ومعه سخله[1] وقال لها: ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمي فيبرأ، فجاءته، فأخبرته، فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة. تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى، فطردها عنه، فذهبت وبقي. ليس له مَن يقوم به، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا أحد من الناس يتفقده خرّ ساجدًا لله تعالى وقال: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٣]، فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طوّل هذه المدة وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وإنه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به. عاد الله تعالى بألطافه عليه، فقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٤]. وأفاض عليه من نعمه، ما أنساه بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه في يمينه تحلة قسمه، ومدحه في نص الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [صَ: الآية ٤٤].

جزاء الصبر

رُوِيَ عن الحسن البصري رضي الله تعالى أنه قال: كنت بواسط، فرأيت رجلًا كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: أكتم على أمري، حبسني الحجاج منذ ثلاث سنين، فكنت في أضيق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معي، فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غدًا تضرب عنقي، فأخذني حزم شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني فقلت: إلٰهي اشتد الضر وفقد الصبر وأنت المستعان، ثم ذهب من الليل أكثره، فأخذتني غشية، وأنا بين اليقظان والنائم إذا آتاني آت فقال لي: قُم فصلّ ركعتين وقل: يا من لا يشغله شيء عن شيء، يا من أحاط علمه بما ذرأ وبرأ وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصي وساوس الصدور، وأنت بالمنزل الأعلى، وعلمك محيط بالمنزل الأندى، تعاليت علوًا كبيرًا، يا مغيث أغثني، وفكّ

(١) السخلة: ولد الضأن والمعزى.

أسري، واكشف ضري، فقد نفذ صبري، فقمت وتوضأت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه، ولم تختلف عليَّ منه كلمة واحدة، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت. فقمت، فخرجت ولم يعارضني أحد، فأنا والله طليق الرحمـٰن، وأعقبني الله بصبري فرجًا، وجعل لي من ذلك الضيق مخرجًا، ثم ودعني وانصرف يقصد الحجاز.

وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام، يا داود مَن صبر علينا وصل إلينا، وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها: دقار، فبينما أنا أطوف في خرابها إذا رأيت مكتوبًا بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات:

يا مَن ألحّ عليه الهمُّ والفكر ... وغيّرت حاله الأيام والغِير[1]
أما سمعت لما قيل في مثلٍ ... عند الأياس فأين الله والقدر
ثمّ الخطوب إذا أحداثها طرقت ... فاصبر فقد فاز أقوامٌ بما صبروا[2]
وكلّ ضيقٍ سيأتي بعده سعةٌ ... وكلّ فوتٍ وشيكٌ بعده الظفر

ولما حُبس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته، وقلّ صبره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فرد عليه جواب رقعته يقول:

صبرًا أبا أيوب صبرَ مُبرِّحٍ ... وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إنّ الذي عقد الذي انعقدتْ به ... عقد المكاره فيك يملك حلّها
صبرًا فإن الصبر يعقب راحةً ... ولعلّها أن تنجلي ولعلّها

فأجابه أبو أيوب يقول:

صبّرتني ووعظتني وأنا لها ... وستنجلي بل لا أقول لعلّها
ويحلّها مَن كان صاحب عقدها ... كرمًا به إذ كان يملك حلّها

---

(١) الغير: صروف الزمان وأحداثه.

(٢) طرقت: حلت ونزلت.

فما لبث بعد ذلك أيامًا حتى أطلق مكرمًا، وأنشدوا:

إذا ابتليتَ فثقْ بالله وارضَ به … إنّ الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه … لا تيأسنّ فإنَّ الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته … فما ترى حيلةً فيما قضى الله

في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قال في المستطرف[1]: قال الثوري رحمه الله تعالى: لم يفقه عندنا مَن لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة. وقيل: الهموم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب. وسمع حكيم رجلًا يقول لآخر: لا أراك الله مكروهًا، فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بد أن يرى مكروهًا. وتقول العرب: ويلٌ أهون من ويلين. وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غموم، فما كان فيها من سرور فهو ربح. وقال العتبي: إذا تناهى الغم انقطع الدمع بدليل أنك لا ترى مضروبًا بالسياط ولا مقدمًا لضرب العنق يبكي.

قيل: تزوج مغن بنائحة فسمعها تقول: اللهم أوسع لنا في الرزق، فقال لها: يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفي ذلك، فإن كان فرح دعوني، وإن كان حزن دعوك. وقال وهب بن منبه: إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء. وقال مطرف: ما نزل بي مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبي فاستصغرته.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه يرفعه: «يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء. وروى أبو عتبة عن النبيّ ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه. قالوا: وما اقتناه؟ قال: لا يترك له مالًا ولا ولدًا».

ومرّ موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعًا لله عزّ وجلّ قد مزقت السباع لحمه وأضلاعه وكبده ملقاة على الأرض، فوقف متعجبًا، فقال: أي

---

(١) المستطرف: ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠.

رب عبدك ابتليته بما أرى، فأوحى الله تعالى إليه أنه سألني درجة لم يبلغها بعمله، فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة.

صبر عروة بن الزبير

كان عروة بن الزبير صبورًا حين ابتلي، حُكِيَ أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطىء عظمًا، فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع له الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله، فقالوا له: اشرب مرقّدًا، فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى، فأحمي له المنشار، وقطعت رجله، فقال: ضعوها بين يدي ولم يتوجع، ثم قال: لئن كنت ابتليت في عضو فقد عوفيت في أعضاء. فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه أطلع من سطح على دواب الوليد، فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحدًا لقد أبقيت جماعة.

صبر وشدة الشيخ الضرير

قدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي وعيالي، ولا أعلم عبسيًا يزيد ماله على مالي، فعرسنا في بطن واد، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير، فشرد البعير، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير، فحطم وجهي برجليه، فذهبت عيناي، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل، فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن في الدنيا مَن هو أعظم مصيبة منه.

أقوال وأشعار في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قيل: الحوادث الممضة(١) مكسبة لحظوظ جليلة، إما ثواب مدخر أو تطهير من ذنب أو تنبيه من غفلة أو تعريف لقدر النعمة. قال البحتري: يسلي محمد بن يوسف على حبسه:

وما هذه الأيام إلّا منازل ... فمن منزلٍ رحبٍ إلى منزل ضنك

---

(١) الممضة: المؤلمة.

وقد دهمتك الحادثات وإنما صفا الذهب الإبريز قبلك بالسّبك
أما في نبيّ الله يوسف أسوةٌ لمثلك محبوسٌ عن الظلم والإفك[١]
أقام جميل الصبر في السجن برهةً فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وقال علي بن الجهم لما حبسه المتوكل:

قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبسي وأي مهندٍ لا يغمد
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والنار في أحجارها مخبوءةٌ لا تصطلي إن لم تثرها الأزند
والحبس ما لم تغشه لدنيّة شنعاءَ نعم المنزل المتودّد
بيتٌ يُجدد للكريم كرامةً ويُزار فيه ولا يزور ويحمد
لو لم يكن في الحبس إلّا أنّه لا تستذلّك بالحجاب الأعبد
غرّ الليالي باديات عودٌ والمال عاريةٌ يعار وينفد
ولكل حيٍّ معقبٌ ولربما أجلى لك المكروه عمّا يحمد
لا يؤيسنك من تفرّج نكبةٍ خطبٌ رماك به الزمان الأنكد
كم من عليلٍ قد تخطّاه الردى فنجا ومات طبيبه والعوّدُ[٢]
صبرًا فإن اليوم يعقبه غدٌ ويد الخلافة لا تطاولها يدُ

قال وأنشد إسحٰق الموصلي في إبراهيم بن المهدي حين حبس:

هي المقادير تجري في أعنّتها فاصبر فليس لها صبرٌ على حال[٣]
يومًا تريك خسيس الأصل ترفعه إلى العلاء ويومًا تخفض العالي

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضي الله عنه، وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب في إبراهيم بن المدني حين عزل:

ليهن أبا إسحٰق أسباب نعمةٍ مجددةٍ بالعزل والعزل أنبلُ
شهدت لقد منّوا عليك وأحسنوا لأنك يوم العزل أعلى وأفضل

(١) الإفك: الإثم والخطيئة. (٢) العود: الزوار.
(٣) أعنتها: أي في خيرها وشرها. والعنان: سير اللجام الذي تمسك به الدابة.

وقال آخر:

قـد زاد مـلك سـليـمـان فـعـاوده والشمس تنحطُ في المجرى وترتفع

وقال أبو بكر الخوارزمي لمعزول: الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال، وعافى في الكبير وهو الحال:

ولا عار إن زالت عن الحر نعمةٌ ولكنّ عارًا أنْ يزول التجمُّل[١]

وقيل: المال حظ ينقص ثم يزيد، وظل ينحسر ثم يعود. وسئل بزرجمهر عن حاله في نكبته فقال: عوّلت على أربعة أشياء: أولها أني قلت القضاء والقدر لا بد من جريانهما، الثاني: أني قلت إن لم أصبر فما أصنع، الثالث: أني قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع: أني قلت لعل الفرج قريب.

(١) التجمل: الصبر.

في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطّلاق: الآية ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشّورى: الآية ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يُوسُف: الآية ١١٠]. ويُروى عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «لو كان العسر في حجر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه». وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تناهي الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء». وقال عليّ رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ: «أفضل عبادة أمتي انتظارها فرج الله تعالى». وقال الحسن: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشّرح: الآيتان ٥، ٦]، قال النبيّ ﷺ: «أبشروا فلن يغلب عسر يسرين».

ومن كلام الحكماء: إن تيقنت لم يبق هم. وقال أبو حاتم:

إذا اشتملت على البؤس القلوبُ ... وضاق بما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في مكامنها الخطوب
ولم نر لانكشاف الضرّ وجهًا ... ولا أغنى بحيلته الأريب[2]
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ ... يمن به اللطيف المستجيبُ

---

(١) المستطرف: ص ٣٤١ ـ ٣٤٦.

(٢) قنوط: يأس.

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرجٌ قريب
فيأمن خائفٌ ويغاث عانٍ ... ويأتي أهله النائي الغريب[١]

وقال آخر:

تصبّر أيها العبد اللبيب ... لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكل الحادثات إذا تناهت ... يكون وراءها فرجٌ قريب

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرج[٢]
ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنّها لا تفرج

وقال آخر:

لئن صدّع البيت المشتّت شملنا ... فللبين حكمٌ في الجموع صدوع[٣]
وللنجم من بعد الرجوع استقامة ... وللشمس من بعد الغروب طلوع
وإن نعمةٌ زالت عن الحرِّ وانقضت ... فإنَّ بها بعد الزوال رجوع
فكن واثقًا بالله واصبرْ لحكمه ... فإن زوال الشرِّ عنك سريع

دعاء الكرب

رُوِيَ أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة، أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن وكان محبوسًا واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء عليّ بن الحسين عليه السلام، فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن، فقال: يا ابن العم ما لك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك، قال: ما هو يا ابن العم؟

(١) عان: مقاس للمتاعب والأمراض.
(٢) ذرعًا: مكانًا وصبرًا، وذرع البيت أي مشى فيه من ناحية إلى ناحية من الهم وغيره.
(٣) صدع: فرق.

فقال: لا إلٰه إلا الحليم الكريم لا إلٰه إلا الله العلي العظيم، سبحان رب السمٰوات ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ثم انصرف عنه، وأقبل الحسن يكررهما فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه في سجنه مظلومًا أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره، فأطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالى.

المهدي وموسى بن جعفر

قال الربيع لما حبس المهدي موسى بن جعفر، رأى في المنام عليًا رضي الله تعالى عنه وهو يقول: يا محمد فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، قال الربيع، فأرسل المهدي إليَّ ليلًا فراعني ذلك، فجئته، فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان حسن الصوت، فقصّ عليَّ الرؤيا ثم قال: ائتني بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال: يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ عليَّ كذا فعاهدني أن لا تخرج عليَّ ولا على أحد من ولدي، فقال: والله ما ذاك من شأني، فقال: صدقت، ثم قال: يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلًا، فما أصبح إلا على الطريق، وقال إسماعيل بن بشار:

وكلُّ حرٍّ وإن طالت بليتُهُ … يومًا تفرّج غمّاه وتنكشفُ

مسلم بن الوليد ويزيد بن مزيد

قال مسلم بن الوليد: كنت يومًا جالسًا عند خياط بإزاء منزلي فمرّ بي إنسان أعرفه، فقمت إليه وسلّمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتها مع جاريتي لبعض معارفها فباعهما بتسعة دراهم واشترت بها ما قلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت، فقال: أنت مسلم بن الوليد، قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك فأخرج لي كتابًا وقال: هذا من الأمير يزيد بن مزيد، فإذا فيه: قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا، فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيفي شيئًا يشتري به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجدناه في الحمام، فلما خرج استؤذن

لي عليه فدخلت، فإذا هو جالس على كرسي وبيده مشط يسرح به لحيته فسلّمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذي أقعدك عنا؟ قلت: قلّة ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته بها، قال: أتدري لم أحضرتك؟ قلت: لا أدري، قال: كنت عند الرشيد منذ ليالٍ أحادثه فقال لي: يا يزيد مَن القائل فيك هذه الأبيات:

سلَّ الخليفة سيفًا من بني مضر يمضي فيخترق الأجسام والهاما
كالدهر لا ينثني عمّا يهمُّ به قد أوسع الناس إنعامًا وإرغاما[١]

فقلت: والله لا أدري يا أمير المؤمنين، فقال: سبحان الله، أيقال فيك مثل هذا ولا تدري مَن قاله؟ فسألت فقيل لي: هو مسلم بن الوليد، فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبّلت الأرض وسلّمت فرد عليَّ السلام فأنشدته ما لي فيه من شعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال: ما ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم وما أحسن ما قيل:

الأمن والخوف أيامٌ مداولةٌ بين الأنام وبعد الضيقِ تتسع

سبحان من قتل الأمير وفك الأسير

لما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال، ضيّق على يزيد بن أبي مسلم فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولي يزيد بن أبي مسلم إفريقية، وكان محمد بن يزيد واليًا عليها فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم وشدد في طلبه فأتى به إليه في شهر رمضان عند المغرب وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد، قال: نعم، قال: طالما سألت الله أن يمكنني منك، فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك، فقال: والله ما أجارك ولا أعادك، وإن سبقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك. ثم أمر به فكُتِّف ووضع في النطع وقام السياف فأقيمت الصلاة، فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلي، وكان أهل إفريقية قد

(١) إنعامًا وإرغامًا: أي أن سيفه حماية للطائعين وحربًا على العاصين والمتمردين.

أجمعوا على قتله فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله، وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت فسبحان مَن قتل الأمير وفك الأسير.

أطلق القاتل

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول: أطلق القاتل، فارتعت لذلك ودعوت بالشموع ونظرت في أوراق السجن وإذا ورقة إنسان ادعي عليه بالقتل وأقرّ به، فأمرت بإحضاره فلما رأيته وقد ارتاع فقلت له: إن صدقتني أطلقتك، فحدّثني إنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة، وإن عجوزًا جاءت لهم بامرأة صارت عندهم صاحت الله الله وغشي عليها، فلما أفاقت قالت: أنشدك الله في أمري فإن هذه العجوزة غرّتني وقالت: إن في هذه الدار نساء صالحات وأنا شريفة جدي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة وأبي الحسين بن علي فاحفظوهم فيّ، فقمت دونها وناضلت عنها فاشتد عليّ واحد من الجماعة، وقال: لا بد منها وقاتلني فقتلته، وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتني، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولًا والسكين بيدي فأمسكوني وأتوا بي إليك وهذا أمري، فقال إسحٰق: قد وهبتك لله ولرسوله فقال: وحق اللذين وهبتني لهما لا أعود إلى معصية أبدًا.

كل يوم هو في شأن

أمر الحجاج بإحضار رجل من السجن فلما حضر أمر بضرب عنقه فقال: أيها الأمير أخرني إلى غد، قال: وأي فرج لك في تأخير يوم واحد؟ ثم أمر برده إلى السجن فسمعه الحجاج في السجن يقول:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنّه ... له كلّ يومٍ في خليقته أمر

فقال الحجاج: والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩]. وأمر بإطلاقه.

المعتمد ومنصور الجمال

قال بعض جلساء المعتمد، كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال: لا تبرحوا حتى أغفى سويعة، فغفا ساعة ثم أفاق جزعًا مرعوبًا وقال: امضوا إلى السجن واتتوني بمنصور الجمال فجاؤوا به فقال له: كم لك في السجن؟ قال:

سنة ونصف، قال: على ماذا؟ قال: أنا جمال من أهل الموصل وضاق عليَّ الكسب ببلدي فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدي لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريق فدفع واحد منهم شيئًا للأعوان فأطلقوه وأمسكوني عوضه وأخذوا جملي فناشدته الله فأبوا وسجنت أنا والقوم، فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل شهر وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلي هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: أطلق منصورًا الجمال من السجن وأحسن إليه.

أشعار في الفرج بعد الشدة

قال الشاعر:

إذا تضايق أمرٌ فانتظرْ فرجًا فأضيق الأمرِ أدناه إلى الفرجِ

وقال آخر:

فلا تجزعنْ إن أظلم الدهر مرّةً فإنّ اعتكارَ الليل يؤذن بالفجرِ

وقال آخر:

لعمرك ما كلّ التعاطيل ضائرًا ولا كلّ شغلٍ فيه للمرء منفعه[1]
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى عليك سواءً فاغتنمْ لذّة الدِعه[2]
فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ألا ربَّ ضيقٍ في عواقبه سعه

وقال الرياشي: ما اعتراني هم فأنشدت قول أبي العتاهية حيث قال:

هي الأيام والغِيَر وأمر الله يُنتظر
أتيأس أن ترى فرجًا فأين الله والقدر

إلا سرّى عني وهبت ريحَ الفرج.

---

(١) التعاطيل: من التعطيل، وهو عدم العمل، وضائرًا: مضرًا.
(٢) الدعه: الاستقرار والأمان.

استغاثة

يُروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركبًا إلى إفريقية يأتوني بأخبارها، فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم، قد امتثلت أمرك وأنفذت مركبًا فرجع بعد ساعة وسيحدثك مقدم المركب، فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب فبينما أنا في جوف الليل والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا ألله يا الله يا غياث المستغيثين يكررها مرارًا، فلما استقرّ صوته في أسماعنا ناديناه مرارًا لبيك لبيك وهو ينادي يا ألله يا ألله يا غياث المستغيثين، فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقًا في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله فقال: كنا مقلعين من إفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت وما زلت أصيح حتى أتاني الغوث من ناحيتكم.

أمانة

حكى أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك قال: أخبرني أبو الوليد الباجي عن أبي ذر قال: كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءًا من الحديث في حانوت رجل عطار، فبينما أنا جالس معه في الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر في طبق يحمله على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: أعطني بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها في طبقه وأراد أن يمضي فسقط الطبق من يده فانكب جميع ما فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء، فقال: سمعًا وطاعة، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له: لا تجزع فأمر الدنيا أيسر من ذلك.

فقال الطواف: أيها الشيخ ليس جزعي لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى أني كنت في القافلة الفلانية فضاع لي هميان[1] فيه أربعة آلاف دينار

(١) هميان: حزام من جلد توضع فيه الدراهم.

ومعها فصوص قيمتها كذلك فما جزعت لضياعها حيث كان لي غيرها من المال، ولكن ولد لي ولد في هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم فخشيت أن أشتري بها حاجة النفساء فأبقى بلا رأس مال، وأنا قد صرت شيخًا كبيرًا لا أقدر على التكسب، فقلت في نفسي أشتري بها شيئًا من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئًا أسد به رمق أهلي ويبقى رأس المال أتكسب به، واشتريت هذا العطر فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبقى لي إلا الفرار منهم، فهذا الذي أوجب جزعي.

قال أبو حفص: وكان رجل الجند جالسًا إلى جانبي يستوعب الحديث فقال للشيخ أبي حفص: يا سيدي أريد أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي، فظننا أن يعطيه شيئًا، قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطواف وقال له: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة فقال له الجندي: وكنت في تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان فعلم الجندي صحة قوله فقال: وما علامة الهميان وفي أي موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة، قال الجندي إذا رأيته تعرفه، قال: نعم، فأخرج الجندي له هميانًا ووضعه بين يديه فحين رآه صالح وقال: هذا همياني والله وعلامة صحة قولي أن فيه من الفصوص ما هو كيت وكيت ففتح الهميان فوجده كما ذكر، فقال الجندي: خذ مالك بارك الله لك فيه، فقال الطواف: إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت في حل منها ونفسي طيبة بذلك، فقال الجندي: ما كنت لآخذ على أمانتي مالًا، وأبى أن يأخذ شيئًا ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى ودخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الأغنياء.

ضربة شافية

حُكِيَ أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه لم يجدوا له شفاء، فدسوا على قتله وأرصدوا له رجلًا ومعه خنجر فلما كان في بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته لم تخط المعي الذي فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى وبرىء أحسن ما كان.

قضاء وقدر

أبو بكر الطرطوشي قال: حدّثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم، وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع، فقال رجل منهم: يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلن أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجًا عنهم، ولم يقرب ذلك المكان، فأصبحوا في عافية وحملوا على دوابهم، فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقضي حاجته فخرّ عليه الحائط فمات لوقته.

بركة مولود

أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار وأشار إلى دار هناك، قضية عجيبة، قلت: وما هي؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخز، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار فثقل عليه فأمر إنسانًا هناك فأعانه على إنزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له الرجل كن رفيقي آنس بك وتعينني على سفري ونفقتك ومؤنتك عليّ، فقال له الرجل: وأنا أيضًا أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه.

ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرفقة ولم ير أحدًا فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجد في السير في المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه فقالوا: ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرنا فظننا أنك أمرته. فكرّ الرجل راجعًا إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثرًا ولا سمع له خبرًا، فيئس منه ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهارًا فقيرًا

جائعًا عريانًا مجهودًا فاستحى أن يدخلها نهارًا فتشمت به الأعداء، نعوذ بالله من شماتتهم، وخشي أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة، فاستخفى إلى الليل ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له: مَن هذا؟ قال: فلان يعني نفسه، فأظهروا له سرورًا عظيمًا وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة، والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم والله ما وجدنا ما نشتري به شيئًا للنفساء، فأْتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا.

فلما سمع ذلك ازداد غمًّا على غمّه وكرِه أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته ونام، فناداه فعرفه فأجابه، وشكر الله على سلامته، فقال له: افتح حانوتك وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن، فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت فرأى خرجه الذي هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه، وقال: يا عدو الله ائتني بمالي، فقال له البياع: ما هذا يا فلان؟ والله ما علمتك متعديًّا وأنا أبدًا ما جنيت عليك ولا على غيرك فما هذا الكلام.

قال: هذا خرجي هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي، فقال البياع: والله ما لي علم غير أن رجلًا ورد عليّ بعد العشاء واشترى مني عشاءه وأعطاني هذا الخرج فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح، والحمار في دار جارنا والرجل في المسجد نائم، قال له: احمل معي الخرج وامضِ بنا إلى الرجل فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوبًا، فقال: ما لك؟ قال: أين مالي يا خائن؟ قال: ها هو في خرجك فوالله ما أخذت منه ذرّة، قال: فأين الحمار وآلته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذي معك، فعفا عنه وخلّى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالمًا فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبرّكوا بذلك المولود.

الباب الثاني

قصص مساوىء الأخلاق

الظلم والظلمة

الأشرار والفجار

الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد

الريـــاء

الرشــوة

الكـذب

الحرص والطمع وطول الأمل

في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه
وذكر الظَّلَمَة وأحوالهم

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: الآية ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٢]. قيل: هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: الآية ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٢٢٧].

وقال رسول الله ﷺ: «مَن مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام»، وقال أيضًا ﷺ: «رحم الله عبدًا كان لأخيه قبله مظلمة في عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتي يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم»، وقال أيضًا ﷺ: «مَن اقتطع حق امرىء مسلم أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنّة»، فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئًا يسيرًا قال: «ولو كان قضيبًا من أراك».

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إليّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتًا من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة، فإني ألعنه ما دام قائمًا يصلي بين يدي حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنّة».

وعن عليّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه»، وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد ظُلم فشخص[2] ببصره إلى السماء إلا

---

(١) المستطرف: ص ١١٦ ـ ١١٩.

(٢) شخص: تطلع.

قال الله عزّ وجلّ لبيك عبدي حقًا لأنصرنك ولو بعد حين»، وعنه أيضًا أنه قال: «ألا إن الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب»، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨]. وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضًا، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه.

ومرّ رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضرّ بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين وإذا مناد ينادي حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين.

وقيل: مَن سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره. وسمع مسلم بن بشار رجلًا يدعو على مَن ظلمه فقال له كل الظالم[1] إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك. ويقال: مَن طال عدوانه زال سلطانه، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، ورُئي لوح في أفق السماء مكتوب فيه لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت:

فلم أر مثل العدل للمرء رافعًا ... ولم أر مثل الجور للمرء واضعا

وقال الشاعر:

كنت الصحيح وكنّا منك في سقم ... فإن سقمت فإنا السالمون غدا
دعت عليك أكفٌ طالما ظُلمت ... ولن ترد يدٌ مظلومة أبدا

وكان معاوية يقول: إني لأستحي أن أظلم مَن لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله، وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود وقلت: قد تضافروا عليّ وصاروا يدًا واحدة فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكرًا فقال: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، قلت: هم فئة كثيرة فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

وقال يوسف بن إسباط: مَن دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه.

---

(١) كل الظالم: أي أوكله ودعه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «مَن أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

وقال مجاهد: يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجشادهم حتى تبدو العظام، فيقال لهم: هل يؤذيكم هذا فيقولون: إي والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لما كشف الله العذاب عن قوم يوسف عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه.

وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر في البنيان من غير حلّه عربون على خرابه، وقال غيره: لو أن الجنّة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب.

وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يعجبك رحب الذراعين سفّاك الدماء فإن له قاتلًا لا يموت.

وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك.

وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله.

وبكى عليّ بن الفضل يومًا فقيل له: ما يبكيك قال: أبكي على مَن ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة.

ورُوِيَ أن النبيّ ﷺ قال: «يقول الله تعالى اشتد غضبي على مَن ظلم مَن لا يجد له ناصر غيري»، ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٤] قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضًا مع أرضه. ورُوِيَ أن كسرى أنو شروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يومًا

من غير ذنب فأوجعه فحقد أنو شروان عليه، فلما وُلي الملك قال للمعلم: ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلمًا؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنو شروان: زه زه.

وقال محمد بن سويد وزير المأمون:

فلا تأمننَّ الدَّهر حرٌّ ظلمته ... فما ليلُ حرٍّ إن ظلمتَ بنائمِ

ورُوِيَ أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم مصدرهُ يفضي إلى النّدمِ
تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ ... يدعو عليك وعينُ الله لم تنمِ

وما أحسن ما قال الآخر:

أتهزأُ بالدعاء وتزدريهِ ... وما تدري بما صنع الدعاءُ
سهام الليل نافذةٌ ولكنْ ... لها أمدٌ وللأمد[١] انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربّي ... ويرسلها إذا نفذَ القضاءُ[٢]

وقال أبو الدرداء: إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها تسري بالليل والناس نيام، وقال الهيثم بن فراس السامي من بني سامة بن لؤي في الفضل بن مروان:

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبرْ ... فقبلك كان الفضلْ والفضلْ والفضل
ثلاثة أملاكٍ مضوا لسبيلهم ... أبادهمُ الموت المشتّت والقتلُ

يريد الفضل بن الربيع والفضل بن يحيىٰ والفضل بن سهل. ووجد تحت فراش يحيىٰ بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها:

وحق اللهِ إنّ الظلم لؤمٌ ... وإنَّ الظلم مرتعهُ وخيمُ[٣]
إلى ديّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

---

(١) الأمد: الوقت والحين. (٢) نفذ القضاء: حل ونزل.
(٣) مرتعه وخيم: أي أن عشبه ومرعاه لا يستمرأ لأن نهايته العذاب.

ووجد القاسم بن عبيد الله المكتفي في مصلاه رقعة مكتوبًا فيها:

بغي وللبغي سهامٌ تنتظر
أنفذ في الأحشا من وخز الإبر
سهام أيدي القانتين في السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء: ما كنت لألي[1] هذا بعدما حدّثني إبراهيم، قال: وما حدَّثك إبراهيم؟ قال: حدَّثني عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة حتى مَن برى لهم قلمًا أو لاق لهم دواة، فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم».

محمد بن عبد الملك الزيات والمظلوم

وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبي للمظالم يومًا فلما انقضى المجلس رأى رجلًا جالسًا فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم. أدنني إليك فإني مظلوم وقد أعوزني العدل والإنصاف، قال: ومَن ظلمك؟ قال: أنت ولست أصل إليك فأذكر حاجتي قال: وما يحجبك؟ وقد ترى مجلسي مبذولًا؟ قال: يحجبني عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك. قال: ففيم ظلمتك؟ قال: في ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصبًا مني بغير ثمن فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم، فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء، فقال له الرجل: أيؤمنني الوزير من غضبه حتى أجيب؟ قال: نعم قد أمنتك.

قال: البينة هم الشهود وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأي شيء هذه الأشياء إن هي إلا الجور وعدولك عن العدل؟ فضحك محمد وقال: صدقت والبلاء موكل المنطق وإني لأرى فيك مصطنعًا ثم وقع له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف وإعادة ضيعته له، يقال له: يا فلان كيف الناس

---

(١) لألي: لأتولى، من الولاية.

فيقول: بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردّ عليه ضيعته وأنصفه قيل له ليلة: كيف الناس الآن؟ قال: بخير. قال: اعتمدت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الإجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب.

دعوة مظلوم

مما نقل في الآثار الإسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلًا من ضعفاء بني إسرائيل كان له عائلة وكان صيادًا يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته، فخرج يومًا للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله، فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبًا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال: إلـٰهي جعلتني ضعيفًا وجعلته قويًا عنيفًا، فخذ لي بحقي منه عاجلًا فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة.

ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاهًا ونكزته في أصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له: دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسري الألم إلى بقية الكف، فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه فقال له الطبيب: ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد فقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوًا انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه.

فخرج هائمًا على وجهه مستغيثًا إلى ربّه ليكشف عنه ما نزل به، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلًا يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك امضِ إلى خصمك الذي ظلمته فارضه، فانتبه من النوم وفكر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى

إليه فوقع بين يديه يتمرّغ على رجليه وطلب منه الإقالة[١] مما جناه، ودفع إليه شيئًا من ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد فسكن في الحال ألمه وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحي على موسى عليه السلام: يا موسى وعزّتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته.

متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهّاتهم أحرارًا؟

مما تضمنته أخبار الأخيار ما رواه أنس رضي الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، فقال عمر رضي الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك؟ فقال: سابقت بفرسي ابنًا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمرًا أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك.

فكتب لعمرو بن العاص إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصري: أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالدرة، قال أنس رضي الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين قال يا أمير المؤمنين: قد استوفيت واشتفيت قال: ضعها على ضلع عمرو، فقال يا أمير المؤمنين: لقد ضربت الذي ضربني قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع.

ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول: إني لم أشعر بهذا.

أحمد بن طولون والسيدة نفيسة

قيل: لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد،

---

(١) الإقالة: المسامحة.

فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فترجّل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخوّلتم فعسفتم وردت إليكم الأرزاق فقطعتم هذا وقد علمتم أنْ سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ماشئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا بالله مستجيرون واظلموا فإنا إلى الله متظلمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، قال: فعدل لوقته.

عند الله تجتمع الخصوم

حُكِيَ أن الحجاج حبس رجلًا في حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج إلى بيّنة، وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤم إذا التقينا ... غدًا عند الإله من الظلوم
أما والله إن الظلم لؤمٌ ... وما زال الظلوم هو الملومُ
سينقطع التلذّذ عن أناسٍ ... أداموه وينقطع النعيمُ
إلى ديّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ

المعتضد بالله وسارق الحلي

حكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحي قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فانتبه منزعجًا وقال: يا خدم، فأسرعنا الجواب فقال: ويلكم أعينوني والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرًا في سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتوني به ووكّلوا بالسفينة مَن يحفظها، فأسرعنا فوجدنا ملاحًا في سفينة منحدرة وهي فارغة فقبضنا عليه ووكّلنا بها مَن يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد، فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك، فتلعثم وقال: نعم، كنت سحرًا في المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلي كثيرة وجواهر فطمعت فيها واحتلّت عليها حتى سددت فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها في الماء ولم أجسر على حمل سلبها إلى داري لئلا يفشو الخبر علي، فعوّلت على الهروب

والانحدار إلى واسط فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني إليك.

فقال: وأين الحلي والسلب؟ قال: في صدر السفينة تحت البواري. قال المعتضد: عليّ به الساعة، فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد مَن خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرًا وعليها ثياب فاخرة وحلي فليحضر، فحضر في اليوم الثاني ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلّم ذلك إليهم، قال: فقلت يا مولاي من أين علمت أو أوحى إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية. فقال: بل رأيت في منامي رجلًا شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التي قتلها اليوم ظلمًا وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك، فكان ما شاهدتم.

الظُلم ثلاثة أنواع[1]

وتحدَّث عليّ بن أبي طالب عليه السلام في بعض خطبه عن الظُلم فقال:

«ألا وإنَّ الظلم ثلاثة: فظلمٌ لا يُغفَرَ، وظلمٌ لا يُترك، وظلمٌ لا يُطلب فأما الظلم الذي لا يغفرُ فالشرك بالله، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨].

وأما الظلمُ الذي لا يطلب، فظلمُ العبد نفسه عند بعض الهنات.

وأما الظلم الذي لا يُترَك، فظلمُ العبادِ بعضهُمْ بعضًا».

«يا أيها الناس، طوبى لِمن شغلَهُ عيْبُهُ عن عيوبِ الناس، وطوبى لمن لزم بيتَهُ وأكَلَ قُوتَهُ، واشتغلَ بطاعةِ رَبِّه، وبكى على خطيئته، فكانَ من نفسهِ في شغل والناس منهُ في راحةٍ».

وقال موصيًا واعظًا:

«أوصيكم عبادَ اللهِ بتقوى الله الذي ألبسَكُم الرِّياش، وأسبغ عليكُم المعاش فلو أنَّ أحدًا يجدُ إلى البقاء سُلَّمًا، أو لِدفع الموت سبيلًا، لكان ذلك لسليمان بن

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

داود (ع) الذي سُخِّر له مُلْكُ الجنّ والأنس مع النَّبُوَّةِ وعظيم الزُّلفة. فلمَّا استوفى طُعْمَتَهُ، واستكملَ مُدَّتهُ، رَمَتْهُ قسيُّ الفناء بنبالَ الموت، وأصبحتْ الدِّيار منهُ خالية، والمساكنُ مُعَطَّلة، وورثها قومٌ آخرون.

وإن لكم في القرون السالِفَة لَعِبْرَة، أينَ العمالقةُ وأبناءُ العمالقة؟ أين الفراعنةُ وأبناءُ الفراعنة؟ أين أصحَاب مدائنِ الرَّسِّ الذين قَتَلُوا النبيِّين، وأطفأوا سُنَنَ المرسلين، وأحيوا سُنَنَ الجبارين؟ أين الذين سارُوا بالجيوش، وهَزَموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدَّنوا المدائن؟».

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج:

العمالقة هم أولاد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. كان لهم الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم. فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام، ومنهم طسم بن لاوذ أخوه، ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما. وكان العزُّ والملكُ بعد عملاق بن لاوذ في طسم. فلما ملكهم عملاق بن طسم، بغى وأكثر الفساد في الأرض حتى كان يطأ العروس ليلة عرسها وإن كانت بكرًا. وقبل وصولها إلى الزوج ففعل ذلك بامرأة من جديس يقال لها غفيرة بنت غفار، فخرجت إلى قومها وهي تقول:

لا أحد أذلّ من جديس ... أهكذا يفعل بالعروس

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار، وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته، فصنع الأسودُ طعامًا ودعا عملاق الملك إليه. ثم وثب به وبطسم فقضى على رؤسائهم، ونجا منهمُ رياح بن مرَّ، فصار إلى ذي جبشان بن تبَّعْ الحميري - ملك اليمن فاستغاثَ به، واستنجدَهُ على جديس.

فسار ذو جيشان في حِمْيَر فأتى بلاد - جَوّ - وهي قصبة اليمامة، فاستأصل جديسًا كلها، وأخْربَ اليمامة، فلم يبقَ من جديس باقية، ولا لطسم إلَّا اليسير.

ثم ملك بعد طسم وجديس - وَبَارُ بنُ أميم بن لاوذ بن أرم، فسار بولده وأهله فنزل بأرض وبار، وهي المعروفة برمل عالج، فبغوا في الأرض حينًا، حتى أفناهم الله.

ثم ملك الأرض بعد وَبَار - عبد ضَخْم بن أثيَفْ بن لاوذ فنزلوا بالطائف حينًا، ثم بادوا.

ومِمَّن يُعدُّ من العمالقة عاد وثمود، فأمَّا عاد فهو عاد بن عويص بن أرم بن سام بن نوح. كان يعبد القمر، ويقال: إنَّهُ رأى من صُلبِهِ أولاد أولادِهِ أربعة آلاف، وإنَّهُ تزوج ألف جارية، وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن، وهي من شِحرْ عُمان إلى حضرموت. ومن أولاده شدَّاد بن عاد، صاحب المدينة المشهورة (إرم).

الفراعنة: ويقول عليه السلام: أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ جمعْ فرعون، وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن الريَّان فرعون يوسف، ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى. ومنهم فرعون ابن الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأخربَ بيت المقدس.

أصحاب الرَّسّ: قيل: إنهم أصحاب شعيب النبيّ وكانوا عبدة أصنام، ولهم مواشٍ وآبار يسقون منها.

والرسّ: بئرٌ عظيمة جدًا انخسفت بهم، وهم حولها، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلِّها وديارهم. وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة، كان بها قوم من بقايا ثمود بغوا فأهلكوا.

ومن قوله، عليه السلام، في الحقوق التي بها تستقيم الأمور وتُردُّ المظالم:

«وأعظم ما افترضَ سبحانه من تلك الحقوقِ، حقُّ الوالي على الرعية وحقُّ الرعيَّةِ على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلّ، فجعلها نظامًا لأُلْفتهم وعزًّا لدينهم.

فليست تصلحُ الرعيةَ إلَّا بصلاحِ الولاة، ولا تصلُحُ الولاة إلَّا باستقامة الرعية.

فإذا أدَّتْ الرعيَّةُ إلى الوالي حقَّهُ، وأدَّى الوالي إليها حقَّها، عزَّ الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالِمُ العدل، وجرت على إذلالها السُّنَنْ، فصلَح بذلك الزمان، وطُمِعَ في بقاء الدولة. ويئِست مطامعُ الأعداء».

قال ابن أبي الحديد في الشرح[١]:

بعث سعد بن أبي وقاص جرير بن عبد الله البجلي من العراق إلى عمر بن الخطاب بالمدينة ـ فقال له عمر:

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/٦٣٣.

كيف تركتَ الناس؟ قال: تركتهم كقداح الجعبة، منها الأعصل الطائش (القليل الريش) ومنها القائم الرائش. قال: فكيف سعْدُ لهم؟ قال: ثقافها الذي يقيم أودها، ويغمز عصلها. قال: فكيف طاعتهم؟ قال: يصلُّون الصلاة لأوقاتها، ويؤدون الطاعة إلى ولاتها.

قال: الله أكبر؛ إذا أقيمت الصلاة أُدِّيَت الزكاة، وإذا كانت الطاعة كانت الجماعة.

وتظلَّمَ أهل الكوفة إلى المأمون من واليهم فقال: ما علمتُ في عمَّالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية، ولا أعوَدُ عليهم بالرفق منه. فقال له أحدهم: فلا أحدٌ أولى منكَ يا أمير المؤمنين بالعدل والإنصاف. وإذا كان بهذه الصفة فمن عدلِ الأمير أن يوليه بلدًا بلدًا، حتى يلحق أهل كلِّ بلدٍ من عدلِه مِثلُ ما لحقنا منه، ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذ منه سوأهم. وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثر من ثلاث سنوات فضحِك وعزلهُ.

شرور الوزراء والأعوان

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج(١):

أُتي الوليد بن عبد الملك برجلٍ من الخوارج. فقال له: ما تقول في الحجاج؟ قال: وما عسيتُ أن أقول فيه؟ هو خطيئة من خطاياك، وشررٌ من نارك، فلعنك الله ولعن الحجاج معك. وأقبل يشتمها، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز فقال له: ما تقول في هذا؟ قال: ما أقول فيه: هذا رجل يشتِمكم، فإما أن تشتموه كما شتمكم، وإما أن تعفوا عنه.

فغضب الوليد وقال لعمر: ما أظنُّك إلا خارجيًا. قال عمر: وما أظنك إلا مجنونًا! وقام فخرج مغضبًا.

ولحقه خالد بن الريَّان صاحب شرطة الوليد، فقال له: ما دعاك إلى ما كلَّمتَ به أمير المؤمنين؟ لقد ضربتُ بيدي إلى قائم سيفي أنتظر أن يأمرني بضرب عنقك. قال: أوكنت فاعلًا لو أمرك؟ قال: نعم، فلما استُخلِفَ عمرُ جاء خالد الرَّيان فوقف على رأسه متقلدًا سيفه، فنظر إليه وقال:

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٤٢ ـ ٤٣.

يا خالد، ضع سيفك، فإنك مطيعنا في كل أمرٍ نأمرك به. وكان بين يديه كاتب للوليد، فقال له: ضع أنت قلمك، فإنك كنت تضرُّ به وتنفع. ثم قال: اللهم إني قد وضعتهما فلا ترفعهما. قال: فوالله ما زالا وضيعين حتى ماتا.

ويقول الإمام عليّ (ع) في هذا المعنى، وذلك في وصيته لمالك الأشتر: «إن شرَّ وزرائك مَن كان قبلك للأشرار وزيرًا، ومَن شركهم في الآثام. فلا يكوننَّ لك بطانة، فإنهم أعْوان الأثمة، وإخوان الظلمة، وأنت واجدٌ خيرًا منهم ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم، مِمَّن لا يعاون ظالمًا على ظلمه، ولا آثمًا على إثمه. أولئك أخفُّ عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفًا، وأقلُّ لغيرك إلفًا.

أبو عبَّاد كاتب المأمون(١)

كان أبو عباد ثابت بن يحيىٰ كاتب المأمون إذا سئل الحاجة يشتمُ السَّائل ويسطو عليه ويُخجِله ويُبَكِّته ساعة، ثم يأمر له بها، فيقوم وقد صارت إليه وهو يذمّه ويلعنه. قال علي بن جبلة العكوك:

لعن الله أبا عباد لعنًا يتوالى
يوسع السائل شتمًا ثم يعطيه السؤالا

وكان الناس يقفون لأبي عباد وقت ركوبه، فيتقدم الواحد منهم إليه بقصة ليناوله إياها، فيركله برجله بالرّكاب، ويضربه بسوطه، ويطير غضبًا، ثم لا ينزل عن فرسه حتى يقضي حاجته ويأمر له بطلبته، فينصرف الرجل بها وهو يذمه، ساخطًا عليه، فقال فيه دعبل:

أولى الأمور بضَيْعةٍ وفساد — مُلْكٌ يدبِّرهُ أبو عبَّاد
متعمِّدٌ بدواتِهِ جُلَساءَهُ — فمضرَّجٌ ومُخضَّبٌ بمداد
وكأنه من دير عِزْقِلَ مُفْلِتٌ — حَرِدٌ يجرُّ سلاسِلَ الأقياد
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين صِفادهُ — بأشدَّ منه في يدِ الحداد

---

(١) المستطرف.

وقال فيه بعض الشعراء:

قل للخليفة يا ابن عمِّ محمَّدٍ   قَيِّدْ وزيرك إنَّهُ ركَّالُ
فلسوطهِ بين الرؤوس مسالكٌ   ولرجله بين الصدور مجالُ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد بن العاص

لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بن العاص؛ وكان قد صالحه وكتب له أمانًا وأشهد شهودًا ثم غدر به وقتله.

قال عبد الملك لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟

قال: قد فات دَرْكُه. قال: لتقولن! قال: حزمٌ لو قتلته وحَيَيْت. قال: أولست بحي؟ فقال: ليس بحيٍّ من أوقف نفسه موقفًا لا يوثق له بعهد ولا بعقد. قال عبد الملك: كلامٌ لو سبق سماعه فعلي لأمسكت[1].

قال المسعودي:

وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ذا شهامة وفصاحة وبلاغة وإقدام، وكان بينه وبين عبد الملك بن مروان محادثات ومكاتبات.

كتب إليه عبد الملك ذات مرة: حملت نفسك بالخلافة، ولست أهلًا لها، فكتب إليه عمرو: استدراج النعم إياك، أفادك البغي، ورائحة الغدر أورثتك الغفلة. زجرت عما وافقت عليه، وندبت إلى ما تركت سبيله. ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطالب، ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز، وعن قريب يتبيّن مَنْ صريع بغي وأسير غفلة.

ودعا عمرو الناس إلى بيعته في دمشق، وكان عبد الملك غائبًا، فكرَّ راجعًا إليها، وناشده الرحم وقاله له: لا تفسد أمر أهل بيتك وما هم عليه من اجتمَاع الكلمة وفيما صنعت القوة لابن الزبير.

(١) العقد الفريد: ١/٥٨.

فرضي سعيد وصالح، كتب له عبد الملك أمانًا. ودخل مرةً إلى مجلس عبد الملك؛ وكان هذا قال لحاجبه: إذا دخل عمرو أن يغلق الباب وراءه ولا يدخل أحدًا من قومه.

ودخل عمرو فأغلق الحاجب الباب دون أصحابه، ومضى عمرو ولم يلتفت وهو يظنُّ أن أصحابه قد دخلوا معه كما كانوا يفعلون، فعاتبه عبد الملك طويلًا، وقد كان وصّى صاحب حرسه ـ أبا زعزعة ـ بأن يضرب عنقه إذا قال له: «شأنك» ـ وهذه كانت العلامة بين عبد الملك وأبي زعزعة.

وأغلظ له القول ـ فقال: يا عبد الملك أتستطيل عليَّ كأنك ترى لك عليَّ فضلًا؟ إن شئت والله نقضت العهد بيني وبينك، ثم نصبت لك الحرب. فقال عبد الملك: قد شئت. فقال: وأنا فعلت.

فقال عبد الملك: يا أبا زعزعة شأنك. فألتفت عمر فلم يجد أصحابه، فدنا من عبد الملك، فضربه أبو زعزعة فقتله فقال له عبد الملك: إرمِ برأسه إلى أصحابه.

فلما رأوا رأسه تفرّقوا ـ ثم خرج عبد الملك فصعد المنبر وذكر عمرًا وذكر خلافه وشقاقه ـ ونزل عن المنبر[(١)].

يحيىٰ بن يعمر في مواجهة الحجّاج

قال الشعبي: كنت بواسط وكان يوم أضحى، فحضرت صلاة العيد مع الحجاج، فخطب الناس، ولما انصرفت جاءني رسوله، وعندما دخلت عليه قال لي: يا شعبي هذا يوم أضحى، وقد أردت أن أضحي فيه برجل من أهل العراق من محبي أبي تراب (عليّ بن أبي طالب) وأحببتُ أن تسمع قوله لتعلم أني قد أصبت الرأي فيما أفعل. فقلت له: أيها الأمير كان رسول الله ﷺ يضحّي بكبش فأستنّ به. فقال: إذا سمعت ما يقول صوّبت رأيـي فيه لكذبه على الله ورسوله وإدخاله الشبهة في الإسلام.

ثم أمر الحجاج بالنطع والسياف، فأُحضرا، فقال: أحضروا الشيخ. فأتوا به وإذا هو يحيىٰ بن يعمر. فاغتممت غمًّا شديدًا، وقلت لنفسي: ماذا فعل هذا.

---

(١) مروج الذهب: ١٠٩/٣ ـ ١١٠.

حتى يُقتل؟! فقال له الحجاج: أنت أفقهُ أهل العراق. قال: أنا من فقهائهم. قال الحجاج: كيف زعمتَ أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ؟

قال يحيىٰ: ما أنا بزاعم ذلك. بل قائله بحق. فقال الحجاج: وأي حق؟ قال يحيىٰ: كتاب الله نطق بذلك. فقال الحجاج: لعلك تريد قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٦١] الآية، وأن رسول الله ﷺ خرج للمباهلة ومعه عليّ وفاطمة والحسن والحسين؟

قال يحيىٰ: والله إنها لحجة بليغة، ولكن مع ذلك لا أحتجّ بها. فقال الحجاج: إن جئت بغيرها من كتاب الله فلك عشرة آلاف درهم، وإلا قتلتك وكنت في حلٍّ من دمك. قال يحيىٰ: نعم. وتلا قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٨٤، ٨٥] فقال الحجاج، وكان حافظًا للقرآن: أين تركت عيسى؟ قال يحيىٰ: ومن أين كان عيسى (ع) من ذرية إبراهيم ولا أب له؟ فقال الحجاج: من قبل أمه مريم.

قال يحيىٰ: عيسى من ذريّة إبراهيم بواسطة أمه وبينها وبينه ما تعلم من الأجداد، ولا يكون الحسن والحسين من ذريّة رسول الله ﷺ بواسطة أمهما فاطمة وهي ابنته بلا واسطة؟

فكأنما أُلقم الحجاج حجرًا، فأطلقه وأعطاه عشرة آلاف درهم وقال: لا بارك الله لك فيها[1].

البطش بعد العفو

قال المعتضد بالله أبو العباس أحمد: لما أوقع الفتنة إسماعيلُ بن بلبل بيني وبين أبي الموفق، فأوحشه مني حتى حبسني حبستي المشهورة، وكنت أتخوف القتل وأعيش مرارة السجن والأسر. ومن خشيتي القتل أقبلت على الدعاء، وكان إسماعيل يجيئني كل يوم حتى يظهر لي الولاء الكاذب. فدخل عليَّ يومًا وبيدي المصحف وأنا أقرأ، فتركته وأخذت أحادثه، فقال لي:

(١) ماذا في التاريخ: ٣/ ١٢٤.

أيها الأمير أعطني المصحف لأتفاءل لك به، فلم أجبه بشيء، فأخذ المصحف ففتحه فكان في أول سطر منه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩]، فاسودّ وجه إسماعيل واربدَّ... وخلط الورق، وفتحه ثانية فخرج: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: الآية ٥] فازداد قلقًا واضطرابًا، وفتحه ثالثًا فخرج: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النُّور: الآية ٥٥].

فوضع المصحف وقال: أيها الأمير، أنت والله الخليفة بغير شك، فما حق بشارتي؟ فقلت: الله، الله في أمري، احقن دمي وحاذر أن يعلم الخليفة مثل هذا الكلام. ثم صار يتنصل لي ويعتذر، وأنا أظهر له التصديق حتى سكن. وسرعان ما جاء الموفق من الجبل، وقد اشتدت به علّته ومات، فخرجت من السجن وصرت خليفة، ومكنني الله من عدوي إسماعيل بن بلبل فأنفذت حكم الله فيه.

الفرج بعد الشدَّة

قال عبد الله بن سليمان: كنت يومًا في حبس محمد بن عبد الملك بن الزيات في خلافة الواثق، وقد يئست من الفرج وفارقني الصبر، وخفت أن أكفر من رحمة الله، حتى وردت إليَّ رسالة من أخي الحسن بن وهب وفيها شعر له:

محسن أبا أيوب أنت محلها ... فإذا جرعت من الخطوب فمن لها
إن الذي عقد الذي انعقدت به ... عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فإن الله يعقب فرجه ... ولعلها أن تنجلي ولعلها
وعسى تكون قريبة من حيث لا ... ترجو وتمحو عن جديدك ذلها

فتفاءلت بذلك، وقويت نفسي، فكتبت إليه:

صبَّرتني ووعظتني وأنا لها ... وستنجلي، بل لا أقول: لعلها
ويحلها مَن كان صاحب عقدها ... ثقة به إذ كان يملك حلها

ولم يمضِ يومي ذاك حتى فرّج الله عني، وأُطلقت من حبسي. ورُوِيَ أن هاتين الرسالتين وقعتا بيد الواثق ـ الرسالة والجواب ـ فأمر بإطلاقي، وقال: والله، لا تركتُ في حبسي مَن يرجو الفرج.

ظالم يُبْلى بأظلم!

لا تـجـزعـنّ ويـدًا إنـهـا دولٌ دنـيـا تـنـقَّـلُ مـن قـومٍ إلـى قـومِ

هذا القول لمحمد بن عبد الملك بن الزيات.

كان سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك بن الزيات بعد خلافته بأشهر، فقبض أمواله وجميع ما كان له، وقلّد مكانه أبا الوزير.

وكان ابن الزيات وزيرًا للمعتصم الخليفة العباسي ثم وزيرًا للواثق إلى أن ولي المتوكل وكان في نفسه عليه شيء.

كان ابن الزيات اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنُّورًا من الحديد رؤوس مساميره إلى داخل، قائمة مثل رؤوس المسالّ، في أيام وزارته للمعتصم والواثق، فكان يُعذِب الناس فيه.

فأمر المتوكّل بإدخاله في ذلك التنور، فقال محمد بن عبد الملك الزيات للموكَّل به أن يأذن له في قلم وورق ليكتب ما يريد، فاستأذن المتوكل في ذلك فأذن له فكتب:

هي السبيلُ فمن يومٍ إلى يوم كأنه ما تريك العين في النوم
لا تـجـزعَـنَّ رويـدًا إنـهـا دُوَلٌ دنـيـا تَـنَـقَّـلُ مـن قـومٍ إلـى قـومِ

وتشاغل المتوكل في ذلك اليوم فلم تصله الورقة. فلما كان الغد قرأها فأمر بإخراجه فوجدوه ميتًا.

وكان حبسه أربعين يومًا في ذلك التنور إلى أن مات. وكان كاتبًا بليغًا وشاعرًا مجيدًا، وهو القائل في تحريض المأمون على عمه إبراهيم بن المهدي حين خرج عليه:

ألـم تـر أن الـشـيء لـلشـيء عـلّةٌ تـكـون لـه كـالـنـار تقدح بالـزندِ
كـذلـك جرَّ بـنـا الأمـور، وإنـمـا يدلُّك ما قد كان قبل على البعدِ
وظـنّـي بـإبـراهـيـم أنَّ فـكـاكـهُ سيبعثُ يومًا مثل أيامه النكد
تـذكَّـر أمـيـر الـمـؤمـنـين قـيـامـه وأيامه في الهزل منه وفي الجدِّ
إذا هـزَّ أعـواد الـمـنـابـر بـاسـمـه تغنَّى بليلى أو بميَّةَ أو هند[1]

(١) مروج الذهب: ٤/٨٨.

قال الإمام عليّ (ع): أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.

وقال بعض الحكماء: لذة العفو أطيب من لِذَّةِ التشفِّي والانتقام، لأن لذَّة العفو يشفعها حميد العاقبة، ولذَّة الانتقام يلحقها ألم الذَّم.

وقالوا: العقوبة ألأم حالات ذي القدرة وأدناها، وهي طرفٌ من الجزع[١].

المنذر بن ماء السماء في يوم بؤسه

كان المنذر بن ماء السماء قد نادمه رجلان من بني أسد، أحدهما: خالد بن المضلَّل، والآخر عمرو بن مسعود بن كلدة، فأغضباه في بعض القول، فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظهر الحيرة، ثم يجعلا في تابُوتين ويُدفنا في الحفرتين، حتى إذا أصبح سأل عنهما، فأُخبر بهلاكهما، فندم على ذلك، وغمَّهُ.

ثم ركب المنذر، حتى نظر إليهما، فأمر ببناء الغريَّيْن عليهما، فبُنيا عليهما، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغربيين، يسمِّي أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس.

فأول مَن يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شومًا أي سودًا، وأول مَن يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظِربان أسود، ثم يأمر به، فيُذبح ويغرَّى بدمه الغريّان، فلبث بذلك برهة من دهره.

ثم إن عبيد الأبرص كان أول مَن أشرف عليه في يوم بؤسه، فقال له: هلّا كان الذبح لغيرك يا عبيد؟ فقال: «أتتك بحائنٍ[٢] رجلاه» فأرسلها مثلًا. فقال المنذر: أنشدني، فقد كان شعرك يعجبني، فقال عبيد: حال الجريضُ[٣] دون القريض، ـ وبلغ الحزام الطُّبيين[٤] ـ فأرسلها مثلًا.

فقال له المنذر: اسمعني فقال: «المنايا على الحوايا»[٥]. فأرسلها مثلًا. فقال آخر: ما أشدَّ جزعك من الموت، فقال عبيد: لا يرحل رحلك من ليس معك، فأرسلها مثلًا. فقال المنذر: قد أمللتني، فأرحني قبل أن آمر بك، فقال عبيد: من عزَّ بزَّ، فأرسلها مثلًا. فقال المنذر: أنشدني قولك:

أقـفـرَ مـن أهـله مـلحـوبُ

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٨٣.
(٢) الحائن: الهالك.
(٣) الجريض: الغصة.
(٤) الطبي: حلمة الضرع.
(٥) الحوايا: ما يحويه الإنسان في بطنه.

فقال عبيد:

أقفر من أهله عبيدُ فليس يُبدي ولا يُعيدُ
عَنَتْ له عنَّة نكود وحان منها له ورودُ

فقال المنذر: يا عبيد ويحك أنشدني قبل أن أذبحك، فقال عبيد:

والله إن متُّ لما ضرَّني وإن أعشْ ما عشتُ في واحدة

فقال المنذر: إنه لا بُدَّ من الموت، ولو أن النعمان عرض لي في يوم بؤس لذبحته، فاختر لنفسك إن شئت الأكحل(١)، وإن شئت الأبجل(٢) ـ وإن شئت الوريد.

فقال عبيد: ثلاثُ خصال كسحابات عاد، واردها شرُّ ورَّاد، وحاديها شرُّ حاد، ومعادها شرُّ معاد، ولا خير فيه لمرتاد.

وإن كنت لا محالة قاتلي فاسقني الخمر، حتى إذا ماتتْ مفاصيل وذهلتْ لها ذواهلي فشأنك وما تريد. فأمر المنذر بحاجته من الخمر، حتى إذا أخذت منه، وطابت نفسه أمر بقتله(٣).

إنصاف المأمون أمةً من ابنه

روى الشيباني من حديث قحطبة بن حميد قال:

إني لواقف على رأس المأمون يومًا وقد جلس للمظالم، فكان آخر مَن تقدم إليه ـ وقد همَّ بالقيام ـ امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيىٰ بن أكثم، فقال لها يحيىٰ: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك، فقالت:

يا خير منتصفٍ يُهدَى به الرَّشَدُ ويا إمامًا به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ القوم أرملةٌ عُدِّي عليها فلم يُترك لها سَبَدُ
وابتُزَّ مني ضياعي بعد منعتها ظُلمًا وفُرِّق مني الأهلُ والولدُ

(١) الأكحل: وريد في وسط الذراع.
(٢) الأبجل: وريد في الرجل أو اليد بإزاء الأكحل.
(٣) الأغاني: ٢٢/ ٩١ ـ ٩٣.

فأطرق المأمون حينًا ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

فـي دون مـا قـلت زال الصبرُ والجلدُ
عني وأقرح مني القلبُ والكبدُ
هـذا أذان صلاة العصر فانصرفي
وأحضري الخصم في اليوم الذي أعِدُ
والمجلسُ السبتُ إن يُقضَى الجلوسُ لنا
نُنصِفْك منه وإلَّا المجلسُ الأحدُ

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول مَن تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام أين الخصم؟ قالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خُذ بيده وأجلسه معها مجلس الخصُوم، فجعل كلامُها يعلو كلامَ العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك.

فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه، ثم قضى لها بردِّ ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب إلى العامل الذي في بلدها أن يسقط الخراج عنها، ويُحسن معاملتها، وأمر لها بنفقة[1].

ملك يجلس للمظالم بنفسه

كان بعض الأكاسرة يجلس إلى المظالم بنفسه، ولا يثق بأحد، ويقعد بحيث يسمع الصوت، فإذا سمعه أدخل المتظلم، فأصيب بصمم في سمعه، فنادى مناديه: إن الملك يقول: أيها الرعية، إني إن أُصبْتُ بصمم في سمعي فلم أُصب في بصري. كلُّ ذي ظلامة فليلبس ثوبًا أحمر. ثم جلس لهم في مستشرفٍ له.

قال أبو العتاهية:

يا من تشرَّف بالدنيا وزينتها ليس التشرُّفُ رفع الطين بالطين

(١) العقد الفريد ١/ ٢٧ ـ ٢٨.

إذا أردت شريف الناس كلَّهم فانظر إلى ملكٍ في زي مسكين
ذاك الذي عظُمتْ والله نعمتهُ وذاك يصلح للدنيا وللدينِ

من وصيّة الإمام عليّ بن أبي طالب إلى عامله

من كتاب للإمام عليّ عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكة:

أمَّا بعد، فأقم للناس في الحج، وذكِّرهم بأيام الله، واجلس لهم في العصرين، فأفتِ المستفتي، وعلِّم الجاهل، وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلَّا لسانكَ ولا حاجب إلَّا وجهك. ولا تحجب ذا حاجة عن لقائك بها، فإنها إن ذيدت عن أبوابك في أوَّل وِردها لم تُحمد فيما بعد على قضائها[١].

ومن كلامه في تهذيب النفس

رحم الله امرءًا سمع حُكمًا فوعى، ودُعي إلى رشاد فَدَنا، وأخذ بحجزة هاد فنجا، راقب ربه، وخاف ذنبه، قدَّم خالصًا، وعمل صالحًا، اكتسب مذخورًا، واجتنب محذورًا، ورمى غرضًا، وأحرز عوضًا، كابر هواه، وكذَّب مناه. إن عليَّ جُنةً حصينة، فإذا جاء يومي انفرجت عنيِّ وأسلمتني، فحينئذٍ لا يَطيشَ السهم، ولا يبرأ الكلم[٢].

الاحتكام إلى كتاب الله

دخل الحارث بن الأعور صاحب عليّ بن أبي طالب (ع). قال: يا أمير المؤمنين ألا ترى إلى الناس قد أقبلوا على هذه الأحاديث وتركوا كتاب الله قال: وقد فعلوها؟ قال: نعم ـ قال: أما أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ـ وخبر بعدكم ـ وحكم ما بينكم ـ هو الفصل ليس بالهزل ـ ما تركه من جبار فصمه الله ـ ومَن أراد الهدي في غيره أظلَّه الله.

وهو حبل الله المتين ـ وهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم ـ وهو الذي لمَّا سمعتهُ الجن قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عربيًّا عجبًا يهدي إلى الرشد ـ مَن قال به صدق ومَن زال عنه عدا ـ ومَن عمل به أجر ـ ومَن تمسَّك به هدى السراط.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٦٧.
(٢) شرح النهج: ١/ ٣٩٩.

هاؤم اقرأوا كتابيَهْ!

جيء بأعرابي إلى السلطان، ومعه كتاب قد كتب فيه قصته، وهو يقول: «هاؤم اقرؤوا كتابيه».

فقيل له: يقال هذا يوم القيامة ـ قال: هذا والله شرٌّ منه. إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي، وأنتم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي.

في السلطان والرعيّة

روى الأبشيهي في باب «الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه» فقال:

عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وقّروا السلاطين وبجّلوهم، فإنهم عزّ الله وظله في الأرض إذا كانوا عدولًا».

وقال عليه الصلاة والسلام: «أيما راعٍ استرعى رعيته، ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلّا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء».

وقال مالك بن دينار: وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى: «أنا ملك الملوك رقاب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم».

وقال أردشير لابنه: يا بني، الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الثاني. فالدين أس، والملك حارس، ومَن لم يكن له أس فمهدوم، ومَن لم يكن له حارس فضائع.

وقيل: لما دنت الوفاة لهرمز، وكانت امرأته حامل، عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولد له ولد. ولما أدرك تملك. وأغار على العرب فانتهكهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفًا، فقيل له: ذو الأكتاف. وأمر العرب حينئذٍ بإرخاء الشعور ولبس المصبغات، وأن يسكنوا بيوت الشعر، وأن لا يركبوا الخيل إلّا عراة.

وقيل: من أخلاق الملوك: حب التفرد. كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان، وإذا لبس حلة لم يُرد على أحد مثلها. وإذا تختم بخاتم كان حرامًا على أهل المملكة أن يتختموا بمثله.

وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتمَّ لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه.

ومما جاء في طاعة ولاة الأمور في الإسلام: أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: الآية ٥٩]. وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إلـٰه إلّا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم. وفي صحيح البخاري أن النبيّ ﷺ أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ومناصحته ومحبته والدعاء له.

التحذير من صحبة السلطان

سُئِلَ كلثوم بن عمرو التغلبي: لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأني رأيته يعطي عشرة آلاف من غير شيء، ويرمي من السور من غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون.

قال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: يا ميمون، احفظ عني أربعًا: لا تصحبن السلطان. وإنْ أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلوَنَّ بامرأة ولو اقرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رحمه فإنه إليك أقطع، ولا تتكلم اليوم بكلام تعتذر منه غدًا.

كان يقال: قد خاطر بنفسه مَن ركب البحر، وأعظم منه خطرًا مَن صحب السلطان.

قال في كليلة ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلّا القليل: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة.

قال يحيىٰ بن خالد: إذا صحبت السلطان. فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق.

رُوِيَ أن بعض الملوك استصحب حكيمًا فقال له: أصحبك على ثلاث خصال: لا تهتك لي سترًا، ولا تشتم لي عرضًا، ولا تقبل فيَّ قول قائل حتى تستشيرني.

قال بعض الحكماء: إن زادك السلطان تأنيسًا فزده إجلالًا، وإن زادك إحسانًا فزده فعل العبد مع سيده؛ وإذا جعلك أخًا فاجعله أبًا، وإذا ابتليتَ بالدخول على السلطان مع الناس وأخذوا بالثناء عليه فعليك بالدعاء له، ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة، فإن ذلك شبيهٌ بالوحشة والغربة.

قال ابن عباس، قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستشيرك، ويستخلطك ويقدمك على الأكابر أصحاب محمد ﷺ، وإني أوصيك بثلاث خصال: لا تفشينَّ له سرًا، ولا تجرينَّ عليه كذبًا، ولا تعاتبنَّ عنده أحدًا.

وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل:

عَدْوَى البليدِ إلى الجليلدِ سريعةٌ والجمرُ يوضع في الرماد فيخمدُ

ومثل مَن صحبه السلطان ليصلحه مثل مَن ذهب ليقيم حائطًا مائلًا، فاعتمد عليه ليقيمه فخرّ الحائط عليه فأهلكه. قال الشاعر:

ومُعاشِر السلطان شبهُ سفينة في البحر ترجفُ دائمًا من خوْفه
إن أدخلت من مائِهِ في جوفها يغتالها مع مائِها في جوفه

وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يسعد مَن ابتلي بصحبة الملوك، فإنهم لا عهد لهم، ولا وفاء ولا قريب، ولا حميم، ولا يرغبون فيك. إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك. ولا ودَّ للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يُغفر.

وقال ابن المعتز: مَن شارك السلطان في عزِّ الدنيا شاركه في ذلِّ الآخرة. وعنه: إذا زادك السلطان تأنيسًا وإكرامًا فزده تهيبًا واحتشامًا.

وقيل: مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة: عقل، وصبر، ومال. وتحته مكتوب: كذب عدوَّ الله. مَن كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان.

وقال حسان بن ربيع الحميري: لا تثقنَّ بالملك فهو ملول، ولا بالمرأة فإنها خئون، ولا بالدابة فإنها شَرود.

وقال عبيد بن عمير: ما ازداد رجل من السلطان قربًا، إلّا ازداد من الله بعدًا، ولا كثرت أتباعه إلّا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلّا كثُر حسابه. وقال ابن المبارك رحمه الله:

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا
ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما است
غنى الملوك بدنياهم عن الدين

في الحجَّاب والولاية

قال الأبشيهي في هذا الباب:

أما الحجاب، فقد قيل: لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجّاب. وقيل: إذا سهل الحجَّاب أحجمت الرعية عن الظلم. وإذا أعظم الحجاب هجمت على الظلم.

قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه: مَن بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن الرسول ﷺ. فأذن له أن يدخل. فلما دخل. قال: حدّثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَن ولي شيئًا من أمور المسلمين ثم حجب عنه، حجبه الله عني يوم القيامة». فقال عمر لحاجبه: إلزم بيتك. فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب.

وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يَرُدُّهُ بغير قضائها. قيل: فما الذي أشدُّ منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له.

ووقف عبد الله بن عباس العلوي على باب المأمون يومًا، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا. وأما النظرة بعد النظرة، والتوقف بعد التعرف، فلا أفهم معناه. ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضًا كان الحمار مطيتي ولكنَّ مَن يمشي سَيَرْضَى بما ركب

ثم انصرف. فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضربًا شديدًا، وأمر لعبد الله بصلة جزيلة. وقال الشاعر:

رأيت أناسًا يسرعون تبادرًا   إذا فتح البواب بابك إصبعا
ونحن جلوسٌ ساكتون رزانة   وحلمًا إلى أن يفتح الباب أجمعا

ووقف خراساني بباب أبي دلف العجلي حينًا فلم يؤذن له. فكتب رقعة وتلطف في وصولها وفيها:

إذا كان الكريم له حجابٌ   فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريم قليل مالٍ   ولم يُعْذَرْ تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجباتٌ   فلا تستنكرنَّ حجاب بابي

من محاسن النظم في ذمِّ الاحتجاب:

سأهجركم حتى يلين حجابكم   على أنه لا بد سوف يلين
خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها   وإن لم تكن خانت فسوف تخون

وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسألة إلّا أغلَقَ الله أبواب السمٰوات دون حاجته وخلته ومسألته». وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال:

سأصبر أن جفوتَ فكم صبرنا   لمثلك من أمير أو وزير
رجوناهم فلما أخلفونا   تمادت فيهم غِيَرُ الدهور
فبتنا بالسلامة وهي غُنْمٌ   وباتوا في المحابس والقبور
ولما لم ننل منهم سرورًا   رأينا فيهم كل السرور

وقال آخر:

ماذا على بوّاب داركم الذي   لم يعطنا إذنًا ولا يستأذن
لو ردّنا ردًّا جميلًا عنكم   أو كان يدفع بالتي هي أحسن

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه، فهتف بالبكاء، فأتى إليه الناس، وفيهم كعب فقال: وما يبكيك يا سعد؟ قال: وما لي لا أبكي، وقد ذهب

الأعلام من أصحاب الرسول ﷺ ومعاوية يلعب بالأمة. فقال كعب: لا تحزن، إن في الجنة قصرًا من ذهب ـ يقال له: عدن، أهله الصديقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله.

استأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه، فقال:

في كل يومٍ لي ببابك وقفة ... أطوي إليه سائر الأبواب
وإذا حضرتُ رغبت عنك فإنه ... ذنبٌ عقوبته على الأبواب

وقال آخر:

ولقد رأيت بباب دارك جفوة ... فيها لحن ضيعك التكديرُ
ما بال دارك حين تدخل جنة ... وبباب دارك منكر ونكيرُ

وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى يلين قليلا
فما خاب مَن لم يأته متعمدًا ... ولا فاز مَن قد نال منه وصولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعًا ... وجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

انتهى حديث الأبشيهي[١].

ومما ذكره صاحب العقد الفريد[٢] عن الحجَّاب:

قال محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم فتحصنوا ... من كل طالب حاجة أو راغب
عَالَوْا بأبواب الحديد لِعِزّها ... وتنوَّقوا في قبح وجه الحاجب
فإذا تلطّف للدُّخولِ عليهم ... راجٍ تلقّوهُ بوعدٍ كاذب
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن ... بادي الضراعة طالبًا مِن طالب

وقف أبو العتاهية على باب بعض الهاشميين فطلب الإدن. فقيل له: تكون لك عودة، فقال:

لئِنْ عُدْتُ بعد اليوم أني لَظالمٌ ... سأصْرِفُ وجهي حيث تُبغي المكارمُ
متى يَظفر الغادي إليك بحاجةٍ ... ونِصفُكَ محجوبٌ ونصفك نائمُ؟

---

(١) المستطرف: ١/ ١٤٥ ـ ١٤٧.

(٢) العقد الفريد: ١/ ٦٧ ـ ٧١.

ونظير هذا المعنى للعتابي:

قـد أتـينـاك لـلسلامِ مـرارًا ... غـيـر مـن منّـا بـذاك الـمـزار
فـإذا أنـت فـي اسـتـتـارك بـالله ... عـلى مـثـل حـالـنـا بـالـنـهـار

وقال غيره:

أتيتُكَ للتسليمِ، لا أنني امرؤٌ ... أردت بإتيانكَ أسباب نائِلك
فألفيتُ بوابًا ببابكَ مغرمًا ... بهدمِ الذي وصدته من فضائِلك
وقد قال قومٌ حاجبُ المرءِ عاملٌ ... على عرضِهِ، فاحذر خيانة عامِلَكْ

وقال الحسن بن هانىء:

أيها الراكب المغذُّ إلى الفضل ... تـرفَّـقْ فـدونَ فـضـلِ حـجـابُ
ونَعَمْ هَبْكَ قد وصلت إلى الفضل ... فـهـل فـي يـديـك إلَّا الـترابُ

وقال العتابي:

حجابك ليس يشبهُهُ حجابُ ... وخيـرُكَ دون مطلبهِ السجادُ
ونومُكَ نوم من ورد المنايا ... فليس لهُ إلى الدنيَا أيابُ

وقال غيره:

أذا مـا أتـيـنـاه فـي حـاجـةٍ ... رفـعـنـا الـرقـاع لـه بـالـقـصَـبْ
لـه حـاجـبٌ دونـهُ حـاجـبٌ ... وحـاجـبُ حـاجِـبـهِ مُـحْـتـجِـبْ

وفيما جاء في القضاء وذكر القضاة:

وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق، فكشف عن باب مغلق، فظنناه كنزًا فكتبنا إلى أبي بكر فكتب إلينا لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلّة منسوجة بالذهب، وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خـان الأمـيـر وكـاتـبـاه ... وقاضي الأرض داهن في القضاء
فـويـلٌ ثـم ويـلٌ ثـم ويـلٌ ... لقاضي الأرض من قاضي السماء

وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم، فلما ألحُّوا عليه دخل بيته ونام على ظهره

وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللّهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك، فقُبض.

وعن أنس عن النبيّ ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة».

قال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن سائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضيًا، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيًا. وقيل: أول مَن أظهر الجور في القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان أمير البصرة قاضيًا فيها، وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إليّ، فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له.

وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيىٰ بن أكثم مع رجل أدعى عليه بثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مُصَلّى يجلس عليه، فقال له يحيىٰ: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بيّنة، فأراد أن يحلف المأمون، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إني تناولتك من جهة القدرة، ثم أمر ليحيىٰ بمال وأجزل عطاءه.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صٓ: الآية ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٧]، قال رسول الله ﷺ: «مَن حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق، فعليه لعنة الله».

عن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر فسلّم عليه فلم يرد عليه. فقال عمر لعبد الرحمـٰن بن عوف: أخاف أن يكون وجَدَ عليَّ خليفة رسول الله ﷺ. فكلّم عبد الرحمـٰن أبا بكر فقال: أتاني، وبين يديّ خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلي عنهما، وعمّا قالا.

وادعى رجل علي عليّ، عند عمر وعليّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا، وانصرف الرجل ورجع عليّ إلى مجلسه، فتبين لعمر التغيير في وجه عليّ. فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيرًا

أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنيتني بحضرة خصمي فهلّا قلت يا عليّ قم فاجلسْ مع خصمك. فأخذ عمر برأس عليّ فقبله بين عينيه ثم قال: بأبي أنتم، بكم هدانا الله، وبكم أخرجنا من الظلمان إلى النور(١).

غدر المماليك بالسلطان قطز

بويع الملك المظفر «قطز» عام ٦٥٧ هـ - وبينما هو في مملكته جاءت أخبار جحافل التتار وقد وصلت إلى دمشق تنهب البلاد وتقتل العباد. كان قطز من أشجع الفرسان ومن أهل الأصول بيع في رق ابن الزعيم فلطمه يومًا فبكى بحرقة فقيل له: أمِن لطمة واحدة تبكي؟ قال: إنما أبكي من لعنة أبي وجدي وهما أفضل منه.

جمع قطز الأمراء والفرسان وقرر الخروج إلى التتار. وفي عين جالوت بالشام أوقع بهم هزيمة مروّعة في ساعة تشيب لهولها الولدان.

كانت مصر تنتظر عودة من رد كيد المعتدين عن المسلمين وعن العالم، وكانت الزينات منصوبة، والزغاريد مدوية، والمصابيح مضاءة، والقوارب تمرح على صفحة النيل ابتهاجًا بعودة المنتصر.

وبينما كان قطز المنتصر في صحراء الصالحية يطارد أرنبًا ساق خلفه الأمراء وعلى رأسهم «بيبرس» أحد خاصته ومريديه، ثم دنا منه بيبرس وأراد أن يقبل يده، فلما مد السلطان يده إليه قبض عليه وضربه بيبرس في غدر باغت بسيفه، وسرعان ما أجهز عليه الأمراء. ارتوت الصحراء بدم هازم التتار ومحرر الشام، وكان الجيش العائد بالنصر حاملًا جثة صاحب النصر حيث ووريت ودفنت بين مقابر فقراء المسلمين.

سبحان مَن له الدوام

تسلطت شجرة الدر، سلطانة مصر، وكانت آخر سلاطين بني أيوب. حف بها المجد وسطعت أيامها بالأبهة ومظاهر الفخر فأنعمت على الأمراء بالوظائف السنية، وأغدقت على الجند بالأموال والعطايا ولكن الناس نفروا أن يتولى أمرهم امرأة، فتزوجت الأمير «عز الدين أيبك» التركماني. كانت شديدة الغيرة، فقتلت

---

(١) المستطرف: ١/١٥١ - ١٥٢.

زوجها الذي أصرّ على أن يحتفظ بزوجته الأولى «أم عليّ» فقتلته شجرة الدر شر قتلة. لكن شاءت الأقدار أن تظفر بها أم عليّ بمعاونة بعض الجواسيس فقتلوها ضربًا بالقباقيب في حمامها.

وحُملت شجرة الدر: «ملكة المسلمين، عظمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجليل والستر الجميل»، وألقيت من على سور القلعة عارية إلا من سروالها. فتسلل حرفوشان من العامة وسرقا من تكة سروالها لؤلؤتين وزجاجة من المسك وحملاها في قفة ووارياها في مقابر الصدقة».

ظلم المجتمع وذوي السلطان

يروي الرواة أن الخليفة العباسي المتوكل غضب يومًا على عافية بن شبيب وأقصاه عن مجلسه ونفاه إلى البصرة، لأنه رآه يأكل بطريقة لا تليق بمن يجالس الخليفة ـ وينال صلاته ـ.

وفي مثل هذه الرواية دلالة على أن بلاط الخلفاء كان يفرض على المقربين إليه تقاليد خاصة وأساليب معينة من العيش والحديث والسلوك الاجتماعي وأن مَن يحيد قيد شعرةٍ عن هذه التقاليد يُقضى عليه بالإقصاء عن مجالسه الخليفة وإن أدَّى ذلك إلى نكران مواهبه.

وغير بعيد أن يكون الوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه ابن الرومي قد طبع معيشته وسلوكه بطابع لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صلاته.

لقد أدّى إقصاء ابن الرومي عن مجالس الخلفاء أن يرتاب سائر رجال الدولة حتى بمديحه لهم، فإذا هم يتأولونه إلى الهجاء. ولعل في هذه الريبة دلالة أيضًا على أن شاعرنا لم يكن يقدم على مدح هؤلاء إلَّا متثاقلًا متكلفًا وأنهم كانوا يحسُّون في مديحه هذا التثاقل والتكلف، فيتخذون من ذلك حجة لانتقاص قدره.

وصف ابن الرومي حمالًا أعمى، في قطعة إنسانية تبين مدى حقده على الحرمان وعلى ذوي السلطان ـ وعلى كل مستأثر بالنعمة فقال:

رأيت حمالًا مُبين العمى ... يعثر في الأكم وفي الوهدِ
محتملًا ثقلًا على رأسه ... تضعف عنه قوة الجلدِ

بين جمالاتٍ وأشباهها | من بشر ناموا على المجدِ
وكلهم يصدمه عامدًا | أو تائهِ اللبِّ بلا عمدِ
والبائس المسكين مستسلمٌ | أذلّ للمكروه من عبد
وما اشتهى ذاك ولكنه | فرَّ من اللؤم إلى الجهد
فرَّ إلى الحمل على ضعفه | من كلمات المكثرِ الوغدِ

فهو يستحضر ملكته في استيعاب الحالة الإنسانية في حالة هذا الأعمى واستسلامه لعبودية الفقر[١].

لو كان الاستبداد رجلًا

لو كان الاستبداد رجلًا وأراد أن ينتسب لقال:

أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضُّرّ، وخالي الذل، وابني الفقير، وابنتي الحاجة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب.

في الغدر

قال أبو عمرو بن العلاء:

كانت بنو بني تميم أغدر العرب، وكانوا يسمون الغدر كيسان، فقال فيهم الشاعر:

إذا كنت في سعدٍ وخالك منهم | فلا يغررك خالك من سعدِ
إذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم | إلى الغدر أدنى من شبابهم المرد

المنصور وابن هبيرة

قال المدائني:

لما كتب أبو جعفر المنصور أمانًا لابن هبيرة ـ واختلف فيه الشهود أربعين يومًا ـ ركب ابن هبيرة في رجال معه حتى دخل على المنصور فقال له: إن دولتكم هذه جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها ـ وجنبوهم مرارتها ـ لتسرع محبتكم إلى قلوبهم ـ ويعذُب ذكركم على ألسنتهم وما زلت منتظرًا لهذه الساعة، فأمر المنصور برفع

---

(١) عناوين جديدة لوجوه قديمة: ص ٢٩.

الستر بينه وبين ابن هبيرة ـ فنظر إلى وجهه وباسطه القول حتى اطمأن قلبه ـ فلما قال أبو جعفر لأصحابه: عجبًا من كل مَن كان يأمرني بقتله. ثم بعد ذلك قتله غدرًا[١].

بئس الشيمةُ الغدرُ بالعهد

قال قيس بن جردة الطائي، ويقال اسمه العارف أيضًا:

من مبلغ عمرو بن هندٍ رسالةً ... إذا استحقَبَتْها العيس جاءت من البد

أيوعدني والرَّمل بيني وبينه ... تبيَّنْ رويدًا ما أمامة من هندِ

ومن أجأةٍ حَوْلي رعانٌ كأنها ... قنابل خيلٍ من كميتٍ ومن وَرَدِ

غدرت بأمرٍ كنت أنت اجتررتنا ... إليه وبئس الشيمة الغدرُ بالعهد

وكان عمرو بن هند غزا اليمامة فأخفق فرجع منفضًا، فمرَّ بطيء ـ وكانوا في ذمته بكتاب عقد اكتتبه لهم وعهدٍ أحكمه معهم ـ فقال زرارة بن عديس له: أبيت اللعن، أصبْ من هذا الحي شيئًا ـ قال: ويلك إن لهم عقدًا لا يجوز لنا تخطيه.

فأخذ زرارة يهون عليه أمر العهد عليه ويحسن الإيقاع بهم، فلم يزل يقنعه لشيء كان في نفسه على طيء، حتى أصاب أذوادًا ونساءً، فهجا العارف الطائي عمرو بن هند بأبيات يعصب بها رأسه فيها بالغدر الذي كان منه، فوقعت الأبيات إلى عمرو بن هند، فتوعد عارفًا وحلف أن يقتله، فاتصلت مقالته بعارف، فقال التي أوردناها[٢].

أغشًّا وحنثًا

مرّ الخليفة عمر بن الخطاب على عجوز تبيع اللبن. فقال لها: يا عجوز لا تغشّي المسلمين، ولا تُشزي لبنك بالماء، قالت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم مرّ بها بعد ذلك فقال: يا عجوز ألم أعهد إليك أن لا تشوبي لبنك بالماء؟ قالت: والله ما فعلت يا أمير المؤمنين، فتكلمت ابنتها من داخل الخباء. فقالت: يا أمّاه! أغشًّا وحنثًا جمعت على نفسك؟ فسمعها عمر فأعجبته، فقال لولده: أيكم يتزوجها؟

---

(١) العقد الفريد ١/٥٨.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/١٤٦٦.

فتزوجها ابنه عاصم فولدت له أم عاصم. وتزوجها بعده عبد العزيز بن مروان، فولدت له عمر بن عبد العزيز[١].

مقتل يحيىٰ بن زكريا (يوحنا المعمدان)

كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيىٰ بن زكريا ويُدني مجلسه ويستشيره في أمره ولا يقطع أمرًا دونه وإنه أراد أن يتزوج ابنة امرأة له، فسأل يحيىٰ عن ذلك فنهاه عن زواجها، وقال: لست أرضاها لك. فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيىٰ حين نهاه أن يتزوج ابنتها، فعمدت إلى الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابًا رقاقًا حمرًا، وطيبتها، وألبستها فوق ذلك كساء أسود، فأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه وأن تعرض له، فإن أرادها على نفسها أَبَتْ عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاها ذلك سألته أن تؤتى برأس يوحنا بن زكريا في طسْت، ففعلت، فجعلت تسقيه وتعرض له. فلما أخذ فيه الشراب أرادها على نفسها، فقالت: لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك.

قال: ما تسأليني؟ قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيىٰ بن زكريا، فأُوتي برأسه في هذا الطسْت.

فقال: ويحك سليني غير هذا وقالت: ما أريد أن أسألك إلَّا هذا.

فلما أبتْ عليه، بعث إليه فأُتي برأسه، والرأس يتكلم، حتى وُضع بين يديه وهو يقول: لا تَحِلُّ لك. فلما أصبح إذا دمُه يغلي.

فأمر بتراب فألقي عليه، فرقى الدم فوق التراب يغلي، فألقي عليه التراب أيضًا فارتفع الدم فوقه، فلم يزل يُلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك. ثم أراد أن يبعث جيشًا لافتتاح مدينة فأتاه بختنصّر فكلَّمه وقال:

إن الذي كنت أرسلت على رأس جيشك تلك المرَّة ضعيف، وإني دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها فابعث فسار بختنصر حتى بلغوا ذلك المكان، فتحصّن أهله في المدينة. فلما اشتدَّ عليه المقام وجاع أصحابه أراد الرجوع، فخرجت إليه عجوز من عجائز بني إسرائيل فقالت: أين أمير الجند؟ فأتى به إليها، فقالت: إنه بلغني أنك تريد أن ترجع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة.

---

(١) نهاية الأرب ٣/ ٢٤٠.

قال: نعم، قد طال مقامي وجاع أصحابي فلست أستطيع المقام فوق الذي كان مني. فقالت: أرأيتك إن فتحتُ لك المدينة، أتعطيني ما أسألك؛ فتقتل من أمرتك بقتله، وتكفّ إذا أمرتك أن تكف؟

قال لها: نعم، قالت: إذا أصبحت فأقسم جندك أربعة أرباع، ثم أقِم على كلِّ زاوية ربعًا ـ ثم ارفعوا بأيديكم إلى السماء، فنادوا: «إنَّا نستفتحك بالله، بدم يحيىٰ بن زكريا»، فإنها سوف تسقط ففعلوا ذلك، فتساقطت المدينة، ودخلوا من جوانبها. فقالت المرأة: كفَّ يدك، أقتل على هذا الدم حتى يسكن، فانطلقت به إلى دم يحيىٰ وهو على التراب، فقتل عليه حتى سكن.

فلما سكن الدم قالت له: كفَّ يدك، فإن الله عزَّ وجلَّ إذا قُتِل نبي لم يرضَ حتى يُقتل مَن قتله ومَن رضي بقتله.

من تعسُّف الحجاج وظلمه

حُكِيَ أن الحجاج حبس رجلًا في حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام، والموعد يوم القيامة، والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج إلى بيّنة وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤوم إذ التقينا ... غدًا عند الإلٰه من الظَّلُومُ
أما والله إن الظلم لؤمٌ ... وما زال الظلوم هو الملومُ
سينقطع التلذذ عن أناسٍ ... أداموه وينقطع النعيمُ
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ

قدم إلى الحجاج أحد أقاربه من البادية وطلب منه أن يوليه بعض الحضر. فقال له الحجاج: إن الحضر يقرأون ويحك وأنت لا تعرف شيئًا قال: اسألني والله إني أعلم بالحساب. فقال الحجاج: أقسم ثلاثة دراهم على أربعة رجال فبدأ يقول: ثلاثة بين أربعة، لكل واحد درهم ويبقى الرابع. فما هم أيها الأمير لو أعطيت الرابع درهمًا من بيت المال فضحك الحجاج وقال: إن أهل أصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين، وكلما أتاهم والٍ أعجزوه، فلأرمينهم ببرويه هذا وعنجهيته. وولّاه أصبهان، فلما آتاها قال لهم: لماذا تغضبون ولاتكم ولا تدفعون الفيء؟ قالوا: المواسم يا مولاي سيئة فأمهلنا بالخراج ثمانية أشهر. فقال: أريد ضمناء عليكم. فجاؤوا بعشرة ضمناء منهم. ولما قرب الوقت بدأوا يهتموا بجمع الخراج

حتى حان موعد الدفع. فلم يأتوه بشيء. فجمع الضمناء وقال: أين الخراج؟ قالوا: أصابنا من الآفة ما نقض ذلك. فلما رأى ذلك، أقسم أن لا يفطر، وكان ذلك في شهر رمضان، حتى يجمعوا له المطلوب، ثم قدَّم أحدهم فضرب عنقه ووضعه في كيس وكتب: قبضنا المطلوب من فلان. كذلك فعل بالثاني. عندما رأى القوم الرؤوس تبذر وتجعل بأكياس بدل البذر. قالوا: توقف أيها الأمير سنحضر لك المال. فأحضروه في أسرع وقت، ولم يزل عليها حتى مات الحجاج.

تعسُّف وزير وكرامة قاضٍ

كان بين القاضي أحمد بن أبي دؤاد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات (وزير المعتصم) منافسة شديدة، حتى منع الوزير شخصًا كان يصحب القاضي ويختص بقضاء حوائجه من التردد إليه. فبلغ ذلك القاضي، فجاء إلى الوزير وقال: «والله ما أجيئك متكثرًا بك من قِلَّة، ولا متعزّزًا بك من ذلَّة، ولكن أمير المؤمنين رتَّبك مرتبة أوجبت لقاءك، فإن لقيناك فله، وإن تأخرنا عنك فلك».

وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات إلا قام له. فكان ابن أبي دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي ـ حتى لا يقال وقف من أجله[1].

وزير في بئر

قال يعقوب بن داود: حبسني «المهدي»، وكنت وزيره، في بئر بُنيت فوقه قبة فكنت فيها خمسة عشرة سنة وكان يدلي لي كل يوم رغيفًا وكوز ماء، وأؤذن بأوقات الصلاة فلما كان قبل الفجر رأيت في المنام كأن قائلًا يقول لي قل: يا شفيق، يا رفيق، أنت ربي الحقيق، ادفع عني الضيق، إنك على كل شيء قدير. فقلتها، فما شعرت إلا بأبواب تفتح، ثم أخذوني إلى قصر الخلافة وأنا خارج من ظلمة الزمان والبئر إلى شمس النهار الساطعة، لا أعرف من أيامي شيئًا، ولا من صروف الدهر خبرًا. قلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين «المهدي». فقال: لست به. فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادي. قال: لست به. قلت: السلام

(١) وفيات الأعيان ١/ ٢٥، وجمهرة خطب العرب ٣/ ١٤٨.

عليك يا أمير المؤمنين الرشيد ورحمة الله. فقال: عليك السلام. أتاني الذي أتاك وخلى سبيلي[١].

قال الإمام عليّ (ع) في الظلم:

أمـا والله إن الـظـلـم شـؤمٌ	ولا زال الـمـسـيء هـو الـظـلـومُ
إلـى ديَّان يـوم الـديـن نـمـضـي	وعـنـد الله تـجـتـمـع الـخـصـومُ
ستعلم في الحساب إذا التقينا	غدًا عند المليك من الملومُ؟
لأمـرٍ مـا تـصـرَّمـتِ الـلـيـالـي	لأمـرٍ مـا تـحـرَّكـتِ الـنـجـومُ
سـل الأيـام عـن أمـم تـقـضَّـتْ	سـتـنـبيك الـمـعـالـم والـرسـومُ
تـروم الـخـلدَ فـي دار الـدنـايـا	فـكـم قـد رام غـيـرك مـا تـرومُ
تـنـام ولـم تـنـم عـنـك الـمـنـايـا	تـنـبَّـهْ لـلـمـنـيـة يـا نَـؤومُ
لـهـوت عـن الـفـنـاء وأنـت تـفـنـى	فـمـا شـيءٌ مـن الـدنـيـا يـدومُ
تـموتُ غـدًا وأنـت قـريـر عـيـنٍ	من الشهوات في لـجـجٍ تـعـومُ

(١) مجلة العربي، العدد ٤٣٦، ص ١٨٨، سنة ١٩٩٥.

في ذكر الأشرار والفجار
وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

قال في المستطرف[١]: عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحًا باردة طيِّبة، فتقبض روح كل مؤمنٍ ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا ويقع في الصالحين.

وقال لقمان لابنه: يا بني كذب مَن قال الشر يطفىء الشر، فإن كان صادقًا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفىء الشر الخيرُ كما يطفى الماءُ النارَ. ووصف بعضهم رجلًا من أهل الشر فقال: فلان عري من حلة التقوى ومحي عنه طابع الهدى، لا تثنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع ولدواعي شيطانه مطيع. شعر:

كأنه التيسُ قد أودى به هرمُ   فلا لحمٌ ولا صوفٌ ولا ثمرُ

وقيل: مَن فعل ما شاء لقي ما ساء. وقيل: زنى رجل بجارية فأحبلها، فقالوا له: يا عدوّ الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت؟ قال: قد بلغني أن العزل مكروه، قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟ وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها، قال: فمن لي إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد.

وقال أبو العيناء: رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها، فسألتها عن ذلك، فقالت: يا سيدي إنه يواقعني من قيام، ويصلي من قعود،

---

(١) المستطرف: ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

ويشتمني بإعراب، ويلحن في القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلي الضحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر الله في المسلمين مثله.

وكانت ظَلْمةُ القوادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحًا، خلا ملك قمار، قال الزمخشري رحمه الله: أقمت بقمار سنين، فلم أر ملكًا أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل. وقمار ينسب إليها العود القماري كما ينسب إلى مندل، قال مسكين الدارمي(١):

ولا ذنبَ للعودِ القماريِّ إنّه يُحرَّق إن نمّتْ عليه روائحه(٢)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم، وأن الناس اليوم أديانُهُم تبعٌ لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، وفي ذلك قيل:

إذا لم تصنْ عرضًا ولم تخشَ خالقًا وتستحِ مخلوقًا فما شئت فاصنع(٣)

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه. وذم رجل قومًا، فقال: وجوههم وأيديهم حديد أي وقاح بخلاء. ووصف رجل وقحًا فقال: لو دق الحجارة بوجهه لرضها ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر:

لو أن لي من جلد وجهك رفعةً لجعلت منها حافرًا للأشهب(٤)

---

(١) هو ربيعة بن عامر بن أنيف «بالتصغير» بن شريخ الدارمي التميمي شاعر عراقي شجاع من أشراف تميم، لقب مسكينًا لأبيات قال فيها:

«أنا مسكين لمن أنكرني»

له أخبار مع معاوية ومع زياد بن أبيه وله ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٨٩ هـ.

(٢) نمت: دلّت.

(٣) تصن عرضًا: أي تحميه.

(٤) الأشهب: الحصان الذي كان لونه الشهبة وهي بياض غلب على السواد.

وقال آخر:

إذا رُزِق الفى وجهًا وقاحًا تقلّب في الأمور كما يشاء

وقال أنو شروان: أربعة قبائح وهي في أربعة أقبح، البخل في الملوك والكذب في القضاة، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء. ويقال: مَن جسر أيسر ومَن هاب خاب. قال الشاعر:

لا تكونن في امور هيوبًا فإلى هيبةٍ يصير الهبوب(١)

وقال عليّ رضي الله عنه: إذا هِبْتَ أمرًا فقع فيه، فإنَّ شرّ توقية أعظم مما تخاف منه. وقال رضي الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا، وإذا افترقوا نفعوا، فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ قال: يرجع أهل المهن إلى مهنهم، فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه. وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل أراد السفه. قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهلِ الجاهلينا

وقيل: الجاهل مَن لا جاهل له. أي: مَن لا سفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس، إذ جاء أعرابي، فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو، فجلد به الأرض، فقال عمر: ليس بعزيز مَن ليس في قومه سفيه. وقال الشاعر:

ولا يلبث الجهّال أن يتهضّموا أخا الحلم ما لم يستعنّ بجهول(٢)

وقال صالح بن جناح:

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعدًا وخُيِّرت أنّى شئت فالحلم أفضلُ

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفًا ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثلُ

---

(١) هيوبًا: خائفًا ووجلًا.

(٢) يتهضموا: أي يبخسوه حقه.

وقال الأحنف بن قيس[١]:

وذي ضغن أبيْتُ القولَ عنه ... بحلمٍ فاستمرّ على المقالِ
ومَن يحلمْ وليس له سفيهٌ ... يلاقِ المعضلاتِ من الرجالِ

وقال آخر:

فإن كنتُ محتاجًا إلى الحلم إنّني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ
ولي فرسٌ للخير بالخير ملجمٌ ... ولي فرسٌ للشرّ بالشرّ مسرجُ
فمن رام تقويمي فإنّي مقوّمٌ ... ومن رام تعويجي فإنّي معوّج

وقال آخر:

فإن قيل حلمٌ قلت للحلم موضعٌ ... وحلم الفتى في غير موضعه جهل

في الغدر والخيانة

قال في المستطرف[٢]: قال رسول الله ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة البغي». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة في النار».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلاث من كن فيه كنّ عليه. البغي والنكث والمكر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [يُونس: الآية ٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفَتْح: الآية ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فَاطِر: الآية ٤٣].

وكم أوقع القدر في المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فهو على فكّه غير قادر، وأوقعه في خطة خسف[٣] وورطة حتف[٤]، فما له من قوة ولا ناصر، ويشهد لصحة

---

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المتقري التميمي أبو بحر سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحان الفاتحين، ولد في البصرة وأدرك النبيّ ﷺ ولم يراه ووفد على عمر وشهد صفين مع علي واشتهر بالحلم وله سير وأخبار كثيرة توفي سنة ٧٢ هـ.
(٢) المستطرف: ص ٢٢٠ ـ ٢٢٦.
(٣) الخسف: الذل والقهر والنقص.
(٤) الحتف: الموت.

هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري.

قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري

تلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبيّ ﷺ فجاءه يومًا وقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثعلبة أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبًا وفضة لسارت».

ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، والذي بعثك بالحق نبيًا لئن رزقني الله مالًا لأعطين كل ذي حق حقه. وعاهد الله تعالى على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمّ ارزق ثعلبة ما قال».

فاتخذ ثعلبة غنمًا فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، ونزل واديًا من أوديتها، وهي تنمو كما ينمو الدود، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم وتنحّى صار يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلي بقية الصلوات في غنمه، فكثرت ونمت حتى بَعُدَ عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضًا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة»؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ غنمًا ما يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة». فأنزل الله تعالى آية الصدقة.

فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجل من بني سليم، ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب[1] الصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهما: «مرّا بثعلبة بن حاطب، وبرجل آخر من بني سليم، فخذا صدقاتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إليّ، فانطلقا، وسمع بهما السلمي،

(١) أنصاب الصدقة: طريقة أخذ النصيب منها.

فنظر إلى خيار إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قالا: ما هذا؟ قال: خذاه، فإن نفسي به طيبة، فمرا على الناس وأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فقرأه، ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ اذهبا حتى أرى رأيًا.

قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله ﷺ، فلما رآهما قال قبل أن يتكلما: «يا ويح ثعلبة»، فأنزل الله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة: الآيات ٧٥ - ٧٨]. وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة قد نزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيّ ﷺ، فسأله أن يقبل صدقته، فقال: «إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة»، فجعل ثعلبة يحثو[1] التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك قد أمرتك، فلم تطعني»، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا.

ثم أتى إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه حتى استخلف فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك، فلا أقبلها أنا، فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه، ولم يقبلها.

فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي، فلم يقبلها منه، وقال: لم يقبل رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه، فأنا لا أقبلها؟ وقبض عمر رضي الله عنه، ولم يقبلها.

ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه، فسأله أن يقبل صدقته، فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما، فأنا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

---

(١) يحثو التراب: يهيل به على رأسه.

قال الشاعر:

غدرتَ بأمرٍ كنت أنت جذبتنا إليه وبئس الشيمةُ الغدرُ بالعهد

يحلف وينوي الغدر

لما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام، وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيىٰ أن يقول: خذلني الله إن خذلته، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد نفسي أن أمري لا يتم، فقلت له: ولِمَ ذلك؟ أعز الله الأمير قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر وكان كذلك لم يتم أمره.

جزاء الخيانة

ورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة، كان ملكًا بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذي الأكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقًا كثيرًا.

ثم إن سابور جمع جيوشًا وسار إلى ضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء، ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت فخرجت من الربض[١] وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن، وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فآرها ورأته فعشقها وعشقته وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لي إن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي؟ فقال: أحكمك، فقالت: عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة فتتداعى المدينة كلها، وكان ذلك طلمسًا لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقي الحرس الخمر فإذا صرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن، واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها.

فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرّر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام، فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها[٢] وأثرت

---

(١) الربض: من الحصن أو المقام والمكان.

(٢) العكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا.

فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها، ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل: إنه أمر رجلًا فركب فرسًا جموحًا وضفر غدائرها بذنبه، ثم استركضه فقطعها قطعًا.

جزاني جزاء سنمار

تقول العرب: جزاني جزاء سنمار، وهو أن أزدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مرىء فدل على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يبني له جوسقًا فامتثل أمره، وبنى له جوسقًا كأحسن ما يكون وكان الذي بنى الجوسق رجلًا يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال: لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنيته بناء يدور معا لشمس حيث دارت، فقالوا: وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع، فكانت العرب تقول: جزاني جزاء سنمار.

أشهر الغدارين

وممن غدر عبد الرحمٰن بن ملجم لعنه الله، غدر بعليّ رضي الله عنه وقتله. وعمرو بن حرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله، غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدي عليه، فقال عيسى:

أينسى بنو العبّاس ذبّي عنهُمُ ... بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها[1]
فتحت لهم شرق البلاد وغربها ... فذلّ معاديها وعزَّ نصيرها
أقطع أرحامًا عليَّ عزيزةً ... وأبدي مكيداتٍ لها وأثيرُها
فلما وضعت الأمر في مستقرهِ ... ولاحت له شمسٌ تلألأ نورها
دُفعت عن الأمر الذي أستحقّهُ ... وأوسق أوساقًا من الغدر عيرُها[2]

---

(١) ذبي: دفاعي.
(٢) أوسق: حمل. عيرها: البعير وغيره مما يحمل عليه.

غدر ضبعة

خرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجؤها إلى هباء أعرابي فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها، وأنشد يقول:

ومن يصنعِ المعروف مع غير أهله   يلاقي كما لاقى مجيرُ أمّ عامر
أعدَّ لها لما استجارت ببيته   أحاليب ألبانِ اللقاح الدوائر
وأسمنها حتى إذا ما تمكنّت   فَرَتْه بأنيابِ لها وأظافرِ[1]
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من   يجود بمعروفٍ على غير شاكرِ

غدر الذئب

حكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا، قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيرًا وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى، وأنشدت:

بقرتُ شويهتي وفجعت قومي   وأنت لشاتنا ابنٌ ربيب[2]
غُذيت بدرها ونشأت معها   فمن أنباك أنّ أباك ذيبُ
إذا كان الطباع طباع سوءٍ   فلا أدبٌ يفيد ولا أديب

في السرقة والسرّاق

سارق العلانية يقطع سارق السرّ

مرّ عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقًا، فقال: لا إلٰه إلّا الله سارق العلانية يقطع سارق السر.

تصلب وأنت كاره

أمر الإسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك إني فعلت ما فعلت، وأنا كاره. فقال: وتصلب أيضًا وأنت كاره.

(١) فرته: قطعته وشقته.   (٢) بقرت شهويهتي: قتلت وقورت بطنها.

قال أكتل السلمي، وكان لصًا فاتكًا:

وإنّي لأستحي من الله أن أرى … أُجرجر حبلي ليس فيه بعيرُ
وأن أسأل المرء الدنيء بعيرَهُ … وأجمالُ ربّي في البلاد كثيرُ

قال الفرزدق:

وإنّ أبا الكرشاء ليس بسارقٍ … ولكنْ متى ما يسرق القومُ يأكلِ

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كلف ببنت عم له، فتسور عليها الدار ذات ليلة، فأخذه أخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسري، وجعلوه سارقًا، فسأله خالد، فصدقهم ليدفه الفضيحة عن الجارية، فهمّ خالد بقطعه، فقال عمرو أخوه:

أخالد قد والله أوطئت عشوةً … وما العاشق المظلوم فينا بسارق(1)
أقرّ بما لم يأته المرء إنّه … رأى القطع خيرًا من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية.

فيما جاء في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عزّ وجلّ العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: الآية ٦٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: الآية ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: العداوة تتوارث، وقال زياد بن عبد الله:

فلو أنّي بليت بهاشمي … خؤلته بنو عبد المدانِ
صبرت على عداوته ولكنْ … تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

وبث رجل في وجه أبي عبيدة مكروهًا، فأنشأ يقول:

فلو أنّ لحمي إذ وهي لعبت به … سباعٌ كرامٌ أو ضباعٌ وأذؤب
لهوّن وجدي أو لسلي مصيبتي … ولكنما أودى بلحميَ أكلُبُ

(١) العشوة: ركوب الأمر على غير تبصر وهدى.

وقيل لكسرى: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلًا؟ قال: عدوي، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كان عاقلًا كنت منه في عافية وأمن.

وقيل: كونوا من المرء الدغل[١] أخوف من الكاشح[٢] المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي وبطن. وقالوا: إياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك في لحافه. وقال أبو العتاهية:

تنحّ عن القبيحِ ولا تَرِدْهُ ... ومن أوليته حسنًا فزده
ستلقي من عدوك كلّ كيدٍ ... إذا كاد العدوّ ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب، فلما كبر وشب قال:

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي ... أميل وأمري بين خالي ووالدي
وأورث جساس بن مرة غصةً ... إذا ما اعترتني حرّها غير بارد

ثم قال بعد ذلك:

يا للرجال لقلبٍ ما له جَلَدٌ ... كيف العزاء وثاري عند جساس[٣]

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم ترني ثأرت أبي كليبًا ... وقد يرجى المرشّح للدخول
غسلت العار عن جسم ابن بكرٍ ... بجساس بن مرة ذي البتول

بيـــــت:

سنّ العداوةَ آباءٌ لنا سلفوا ... فلن تبيد وللآباء أبناء

ويقال: دار عدوك لأحد أمرين: إما للصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكنك، وكتب سويد إلى مصعب.

فبلّغ مصعبًا عني رسولي ... وهل تلقى النصيح بكل واد
تعلّم أنَّ أكثر من تناجي ... وإن ضحكوا إليك هم الأعادي

---

(١) الدغل: المضمر الحقد. (٢) الكاشح: المبغض.
(٣) جلد: صبر.

ويقال: فلان كثير المراق مر المذاق. وقال الحجاج لخارجي: والله إني لأبغضك، قال: أدخل الله الجنة أشدنا بغضًا لصاحبه.

ولما أراد أنو شروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته، فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، وكانت أم قباذ تركية، وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم، فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك، فقال: إن قصره من رجليه ولا يكاد يرى إلا جالسًا أو راكبًا، فلا يستبين ذلك فيه. فقيل: هو بغيض في الناس، فقال: أراه هلك ابني هرمز، فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة إلى الناس فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه:

ولست براءٍ عيب ذي الود كلّه ... ولا بغضَ ما فيه إذا كنت راضيًا
فعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

وفي المعنى قيل:

وعينُ البغض تُبرزُ كلَّ عيبٍ ... وعينُ الحب لا تجد العيوبا

وعن أبي حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور وحملت الحديد، فلم أر شيئًا أثقل من الدين، وأكلت الطيّبات وعانقت الحسان، فلم أر شيئًا ألذ من العافية. وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء خصوصًا إذا كانوا مساهمين في نسب أو مجاورين في بلد. اللهمّ إنّا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم. وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء. وأنشد الجاحظ:

تقول العاذلات تسلَّ عنها ... وداو عليلَ قلبك بالسلو[1]
وكيف ونظرةٍ منها اختلاسًا ... ألذُّ من الشماتة بالعدو[2]

وقال ابن أبي جهينة المهلبي:

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الأعداء

---

(١) السلو: الصبر والهجر.
(٢) اختلاسًا: اختطافًا.

وقال الجاحظ: ما رأيت سنانًا أنفذ من شماتة الأعداء. وقيل: لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضرموت، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف، فقال رجل منهم:

أبـلغ أبـا بـكـرٍ إذا مـا جـئـتـهُ أنّ الـبـغـايـا مـن بـنـي مـرّام
أظهرن في موت النبيّ شماتةً وخضـبـن أيـديـهـن بـالـغـلّام[1]
فـاقطعْ هُـديت أكفـهـنّ بـصـارمٍ كالبرق أومض في متون غمامِ

فكتب أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله، فأخذهن وقطع أيديهن. ويقال: فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحًا إلا في فسادك ولا رفعة إلا في سقوط حالك. وقال حكيم: لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفًا، فإن القناة قد تقتل، وإن عدمت السنان. قال الشاعر:

فـلا تـأمـنْ عـدوّك لـو تـراه أقـلَّ إذا نـظـرتَ مـن الـقـراد
فـإن الـحـرب يـنـشـأ مـن جـبـانٍ وإن الـنـار تُـضـرَمُ مـن رمـاد

بيت مفرد:

فمن لم يكن منكم مسيئًا فإنه يشدّ على كف المسيء فيجلبُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب:

كـفـايـة الله خـيـر مـن تـوقّـيـنـا وعادة الله في الماضين تكفينا
كاد الأعادي فلا والله ما تركوا قولًا وفعلًا وتلقينًا وتهجينًا[2]
ولم نزد نحن في سر وفي علنٍ عـلى مقـالـتـنـا يـا ربّـنـا اكـفـيـنـا
فـكـان ذاك وردَّ الله حـاسـدنـا بـغـيـظـهِ لـم يـنـل تـقـديـره فـيـنـا

في الحسد

قال الله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: الآية ٥٤] وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».

---

(١) الغلام: نوع من الخضاب، والغلمة شهوة الضراب.

(٢) تهجينًا: تقبيحًا وعيبًا.

وقال عليّ رضي الله عنه: الحاسد مغتاظ على مَن لا ذنب له. وقيل: الحسود غضبان على القدر. ويقال: ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش. الحقد والحسد وسوء الخلق. وقيل: بئس الشعار الحسد. وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد.

وقال أعرابي: الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، وهو مأخوذ من الحديث: «قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله».

وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي: رحمة الله تعالى عليه: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود، أولاها: غم لا ينقطع. الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يحمد عليها، الرابعة: سخط الرب، الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق.

قاتل الله الحسد ما أعد له بدأ بصاحبه فقتله

حُكِيَ أن رجلًا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده، وقال في نفسه: إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين، وأبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعامًا، وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه.

فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتابًا إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه كتاب، وقال له: امض به إلى فلان وائتني بالجواب. فامتثل البدوي

ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان.

فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك، ويعطيك ألفي دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي أفعل. قال: أعطني الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير.

فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي، وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أيامًا ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عني للناس أني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسدًا، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه. فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرًا وراح الوزير بحسده.

أقوال وأشعار في الحسد

قال المغيرة شاعر آل المهلب:

آل المهلب قومٌ إن مدحتَهُمُ ... كانوا الأكارم آباءً وأجدادًا

إن العرانين تلقاها محسّدة ... ولا ترى للئام الناس حسّادًا[1]

وقال عمر رضي الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسدًا من التيوس. وعن أنس رضي الله تعالى عنه رفعه: إن الحسد

(١) العرانين: جمع عينين هو أول الأنف حيث يكون فيه الشحم والرفعة.

يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وقال منصور الفقيه[١]:

منافسة الفتى فيما يزول ... على نقصان همّته دليلُ

ومختار القليل أقل منه ... وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عزّ وجلّ: الحاسد عدوّ نعمتي متسخّط لفعلي غير راضٍ بقسمتي التي قسمت لعبادي. قال الشاعر:

أيا حاسدًا لي على نعمتي ... أتدري على مَن أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترضَ لي ما وهبْ

فأخزاكَ ربِّي بأن زادني ... وسدّ عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعي: رأيت أعرابيًا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومَن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وقيل لعبد الله بن عروة: لِمَ لزمت البدو، وتركت قومك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسد على نعمتي أو شامت علي نكبة، وقال الشاعر:

يا طالب العيش في أمنٍ وفي دعةٍ ... رغدًا بلا قترٍ صفوًا بلا رنق[٢]

خلّص فؤادك من غل ومن حسدٍ ... فالغل في القلب مثل الغلّ في العنق[٣]

وقال آخر:

اصبر على حسد الحسو ... د فإن صبرك قاتلُه

كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكلُهْ

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي، أبو الحسن، فقيه شافعي، من الشعراء ضرير. سافر إلى بغداد في شبابه، ومدح بها الخليفة المعتز، وكان خبيث اللسان في الهجو. مات سنة ٣٠٦ هـ بمصر.

(٢) القتر: الضيق في النفقة، والرنق: الكدر. (٣) الغل: الحقد، والغل: الطوق والقيد.

وفي نوابغ الحكم الحسد حسك من تعلق به هلك، ولبعضهم:

إني حسدت فزاد الله في حسدي ... لا عاش من عاش يومًا غير محسود

وقال نصار بن سيار:

إنّي نشأت وحسّادي ذوو عُددٍ ... يا ذا المعارج لا تنقصْ لهم عددًا

إن يحسدوني على ما بي لما بهم ... فمثل ما بيَ ممّا يجلب الحسدا

وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد.

وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غمًّا؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس.

دَرسٌ يُلقَى عَلى حَاسِد(١)

قال المنصور بن أبي عامر يومًا لأبي يوسف الرَّماديّ: كيف ترى حالَكَ معي؟ فقال: فَوْقَ قَدْرِي ودونَ قَدْرِك. فأطرقَ المنصورُ كالغَضْبان، فانسلّ الرَّمادي، وخرج وقد ندِم على ما بَدَرَ منه، وجعل يقول: أخطأتُ، لا والله ما يفْلح مع الملوك مَن يعاملُهم بالحقّ! ما كان ضرّني لو قلتُ له: إني بلغت السماء، وتمنطقت بالجوزاء! وأنشد:

متَى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً ... لنَفْسيَ إلَّا قد قَضَيْتُ قَضاءَها

ولما خرج كان في المجلس مَن يحسُده على مكانه من المنصور، فوجد فُرْصَةً فقال: وصل الله لمولانا الظَّفر والسَّعدَ! إن هذا الصنفَ صِنْفُ زُور وهذَيان، لا يشكرون نعمة، ولا يرعَوْن إلَّا(٢) ولا ذِمّة؛ كلابُ مَنْ غَلَب، وأصحاب من أخْصب، وأعداء مَن أجدب؛ وحسبُك منهم أنَّ الله جلّ جلالهُ يقول فيهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦]. والابتعادُ منهم أولى من الاقتراب؛ وقد قيل فيهم: ما ظنُّك بقوم الصدق يُسْتَحْسن إلا منهم!

فرفع المنصور رأسَه ـ وكان مُحَامِيَ أهلِ الأدب والشعر ـ وقد اسودّ وجههُ، وظهر فيه الغضبُ المفْرط؛ ثم قال: ما بالُ أقوام يُشيرون في شيء لم يُسْتَشَاروا

---

(١) نفح الطيب: ٢ ـ ٢٢٦.

(٢) الإل: العهد.

فيه؛ ويسيئون الأدبَ بالحكم فيما لا يدرون، أَيُرْضِي أم يُسْخِط! وأنت - أيّها المنبعث للشرّ دون أن يُبْعَث - قد علمنا غرضَك في أهل الأدب والشعرِ عامة، وَحسدَك لهم، لأنّ الناس كما قال القائل:

مَـن رأى الـنـاسُ لـه فـضـــلًا عـلـيـهـم حـسـدُوهُ

وعرفْنا غرضَك في هذا الرجل خاصَّة، ولسنا - إن شاء الله - نبلغ أحدًا غرضه في أحد؛ وإنّك ضربتَ في حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب؛ فزدتَ بذلك احتقارًا وصَغارًا، وإني ما أطرقتُ من كلام الرماديّ إنكارًا عليه؛ بل رأيتُ كلامًا يجلُّ عن الأقدار الجليلة، وتعجَّبْتُ من تهدِّيه له بسرعة؛ والله لو حكَّمتُه في بيوت الأموال لرأيتُ أنها لا ترجَح ما تكلّم به قدرَ ذَرَّة، وإياكم أن يعودَ أحدٌ منكم إلى الكلام في شخصٍ قبل أن يُؤخَذَ معه فيه؛ ولا تحكّموا علينا في أوليائنا ولو أبصرتُم منا التغيّر عليهم؛ فإنا لا نتغيرُ عليهم؛ بغضًا لهم؛ وانحرافًا عنهم، بل تأديبًا وإنكارًا؛ فإنا من تريد إبعاده لم نُظْهرْ له التغيّر، بل ننبذُه مرة واحدة؛ والتغيّر إنما يكون لمن يُراد استبقاؤه.

ولو كنتُ مائلَ السمع لكلّ أحد منكم في صاحبه لتفرّقتُم أيدي سبًا، وجُونبتُ أنا مُجانَبَة الأجرب، وإني قد أطلعتكم على ما في ضميري، فلا تَعْدِلوا عن مَرْضاتي.

ثم أمر أن يُردّ الرماديّ، وقال له: أَعِدْ عليّ كلامك، فارتاع. فقال: الأمرُ على خلاف ما قدَّرت، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب، فسكن لتأنيسه[1]، وأعاد ما تكلم به، فقال المنصور: بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فمَ النابغة بالدُّر لكلامٍ استملحه منه، وقد أمرّنا لك بما لا يَقْصُرُ عن ذلك وبما هو أَنْوَهُ وأحسن عائدَة.

وكتب له بمال وخِلَع وموضع يعيش منه؛ ثم ردّ رأسه إلى المتكلّم في شأن الرماديّ - وقد كاد يغوصُ في الأرض لشدةِ ما حلَّ به مما رأى وسمع - وقال: والعجبُ من قوم يقولون: الابتعادُ من الشعراء أولَى من الاقتراب! نعم، ذلك لمن ليس له مفاخرُ يريد تخليدَها، ولا أيادٍ يرغبُ في نشرها؟ فأين الذين

(١) التأنيس: خلاف الإيحاش.

قيل فيهم:

على مُكثريهم رِزْقُ من يعتريهمُ　　وعند المقلّينَ السماحةُ والبذْلُ[١]

وأين الذي قيل فيه:

إنــمــا الــدنــيــا أبــو دُلَفٍ　　بــيــن مَــبْــدَاهُ[٢] ومُــحْــتَــضَــرِهْ
فــــإذا ولّى أبـــــو دُلَفٍ　　ولَّــتِ الــدنــيــا عــلى أَثَــرِهْ[٣]

أما كانَ في الجاهليّة والإسلام أكرمُ ممن قيل فيه هذا القول؟ بلى! ولكنَّ صُحْبةَ الشعراء والإحسانَ إليهم أحْيَتْ غابر ذكرهم، وخصّتهمْ بمفاخر عصرهم، وغيرُهم لم تُخلد المدائحُ مآثِرَهم، فدثَرَ ذكرُهم، ودَرَس فخرُهم!

في الرياء

وأما ما جاء في الرياء: فقد قال الله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٤٢]. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين، وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين».

وقيل: لو أن رجلًا عمل عملًا من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه، فهو من أقبح الرياء.

وقيل: كل ورع يحب صاحب أن يعلمه غير الله، فليس من الله في شيء.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء».

وقيل: بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله، فجاء رجل يريد أن يستظل معه، فمنعه، وقال: إن أقمت معي ولم يعلم الناس أن الغمامة تظلني، فقال له الرجل: قد علم الناس أنني لست ممن تظله الغمامة، فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في مدح آل هرم بن سنان.
(٢) المبدي: كل منتجع.　(٣) البيتان لعليّ بن جبلة في مدح أبي دلف.

وقال عبد الأعلى السلمي يومًا: الناس يزعمون أني مراء وكنت أمس والله صائمًا ولا أخبرت بذلك أحدًا.

في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون

أما الرشوة، فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تولوا اليهود ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا ولا يحل في دين الله الرشا، قال الشهيدي: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم.

وفي نوابغ الحكم أن البراطيل تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مَن شفع شفاعة ليرد بها حقًا أو يدفع بها ظلمًا، فأهدى له فقبل فذلك السحت، فقيل له: ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم، قال: الأخذ على الحكم كفر، وأنشد المبرد رحمه الله تعالى:

وكنت إذا خاصمت خصمًا كببته على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت علي وقالت قم فإنك ظالم

وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال: فقد رُوِيَ عن أبي أُمامة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَن تداين بدين وفيه نفسه وفاؤه ثم مات، تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء. ومَن تداين بدين وليس في نفسه وفاؤه ثم مات، اقتصّ الله لغريمه منه يوم القيامة». رواه الحاكم.

ورُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتي له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دَين كفّ عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دَين صلّى عليه، فأُتي بجنازة، فلما قام ليكبّر ﷺ قال: «هل على صاحبكم دَين»؟ فقالوا: ديناران يا رسول الله، فعدل النبيّ ﷺ عنه وقال: «صلوا على صاحبكم»، فقال عليّ كرّم الله وجهه: هما عليّ يا رسول الله ﷺ وهو بريء منهما، فتقدم رسول الله ﷺ فصلّى عليه، ثم قال لعليّ رضي الله عنه: «أجزاك الله عنه خيرًا، فك الله رهانك ما فككت رهان أخيك، إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه، ومَن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة».

وقال بعض الحكماء: الدين همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار، وهو غل جعله الله في أرضه، فإذا أراد الله أن يذل عبدًا جعله طوقًا في عنقه.

وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى دينًا له على رجل، فقالوا: خرج إلى الغزو، فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلًا قتل في سبيل الله، ثم أحيي، ثم قتل لم يدخل الجنّة حتى يقضي دينه».

وعن الزهري قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دين، ثم قال بعد: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم مَن مات وعليه دين فعليَّ قضاؤه» ثم صلّى عليهم.

وعن جابر لا هم إلا هم الدين ولا وجع إلا وجع العين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «مَن تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه إليها، فهو زانٍ، ومَن استدان دينًا ينوي أن لا يقضيه فهو سارق»، وقال حبيب بن ثابت: ما احتجت إلى شيء أستقرضه إلا استقرضته من نفسي، أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة، ونظيره قول القائل:

وإذا غلا شيء عليَّ تركته ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم أيضًا:

لقد كان القريضُ سمير قلبي ... فألهتني القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مرة التميمي:

وإني لأقضي الدّينَ بالدين بعدما ... يرى طالبي بالدين أن لست قاضيًا

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن ... قضاء ولكن ذاك غرم على غرم[1]

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال: حبًا وكرامة، ولكن سكّن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه، فقال: يا أبا سعيد أما تثق بي؟ قال: بلى، وإن خليل الله كان واثقًا بربّه، وقد قال له: ولكن ليطمئن قلبي.

---

(١) الغرم: الذنب.

في الكذب وما جاء به

قال الله تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٠]. وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور. والفجور يهدي إلى النار. وتحروا الصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به». ويقال: راوي الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المآثم الكذب وعمود الكذب البهتان(١). وقيل: أمران لا ينفكان من الكذب، كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٨]. وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمعي: قلت لكذاب: أصدقت قط؟ قال: لولا أني أخاف أصدق في هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وقال محمود بن أبي الجنود:

لي حيلة فيمن ينمّ ... وليس في الكذّاب حيلة
مَن كان يخلقُ ما يقولُ ... فحيلتي فيه قليلة

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب، ومن سحاب تموز. وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب، وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتي، وإني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالني من نفعه. وقال فيلسوف: مَن عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله.

ولبعضهم:

حسب الكذوب من البلية ... بعض ما يحكى عليهِ
فمتى سمعت بكذبةٍ ... من غيره نسبت إليهِ

---

(١) البهتان: الإفك والزور.

وأضاف صيرفي قومًا. فأقبل يحدثهم، فقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٢].

وعن عبد الله بن السدي قال: قلت لابن المبارك حدِّثنا حديثًا، قال: ارجعوا، فلست أحدثكم، فقيل له: إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لكفرت وحدثتكم، ولكن لست أكذب، فكان هذا أحب إلينا من الحديث.

وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أنينه في سقمه، وحتى أن الصبي ليبكي، فتقول له أمه: اسكت وأشتري لك كذا، ثم لا تفعل، فتكتب كذبة.

وقال الفضيل: ما من مضغة[1] أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقًا. ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوبًا. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب».

قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلَّا من مهانته ... أو فعله السوء أو من قلّة الأدبِ

لبعضُ جيفةِ كلبٍ خير رائحة ... من كذبة المرء في وجد وفي لعب

ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا

لما نصب معاوية رضي الله تعالى عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل، ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله خيرًا عما تقول، ثم أمر له بألوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت.

---

(١) مضغة: قطعة لحم أو غيره تمضغ.

فقال له الأحنف: يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهًا.

وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رُفع الحرج عن الكاذب في الحرب، وعن المصلح بين المرء وزوجه، وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوي بذلك جأشهم، فكانوا إذا رأوه مقبلًا إليهم، قالوا: جاءنا بكذب.

وقال يحيىٰ بن خالد: رأينا شارب خمر نزع ولصًا وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذابًا صار صادقًا. وكان عمرو بن معد يكرب مشهورًا بالكذب. وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب؟ فقال: كان يكذب في المقال، ويصدق في الفعال. قيل: إن بلالًا لم يكذب مذ أسلم رضي الله تعالى عنه.

في ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: الآيتان ١، ٢].

ورُوِيَ أن النبيّ ﷺ قرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: الآيتان ١، ٢] قال: «يقول ابن آدم مالي، وهل من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت».

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها، أن النبيّ ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت اللحوق بي، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلقي ثوبًا حتى ترقعيه».

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالرشد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل». وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في رزقه، وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طاوعتَ حرصك كنت عبدًا ... لكلِّ دنيئةٍ تدعى إليها

وقال آخر وأجـــاد:

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب   إن الحريص على الدنيا لفي تعب

وقيل للإسكندر: ما سرور الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره لنسيت الأمل وغروره.

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبيّ الله ﷺ يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب، فأقول: إن الماء منك قريب، فيقول: ما يدريني لعلي ما أبلغه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: لا يزال الكبير شابًا في اثنين، حب المال وطول الأمل.

وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل، وقيل: مَن جرى في عنان أمله كان عاثرًا بأجله، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال، ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

وذي حـرصٍ تـراه يـلمّ وفـرًا   لـوارثـه ويـدفـع عـن حِـمـاه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ[١]   فـريـسـتـه لـيـأكـلـها سـواه

ولقد أحسن مَن قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك[٢] النفس حرصًا   فأمسكها عن الشهوات أمسكْ
ولا تـحـرص لـيـومٍ أنـت فـيـه   وعدّ فرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن مَن ألهاه أمله أخزاه عمله، قال عبد الصمد بن المعدل:

ولـي أمـل قـطـعـت بـه الـلـيـالـي   أرانـي قـد فـنـيـت بـه وداما

(١) طاو: جائع.
(٢) نازعتك: أي حملتك وجمحت بك.

قال الحسن: إياكم وهذه الأماني، فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيرًا قط في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال قس بن ساعدة:

وما قد تولّى فهو لا شك فائتٌ فهل ينفعنّي ليتني ولعلّني

وقال آخر:

ولا تتعلّلْ بالأماني فإنّها عطايا أحاديث النفوس الكواذب

وقال آخر وأجاد:

الله أصدقُ والآمالُ كاذبةٌ وجلّ هذي المنى في الصّدر وسواس

وقال آخر:

شطّ[1] المزار يسعدى وانتهى الأمل فلا خيالٌ ولا رسمٌ ولا طلل
إلّا رجاءٌ فما ندري أندركه أم يستمرّ فيأتي دونه الأجل

وقال أبو العتاهية:

لقد لعبتُ وجدَّ الموت في طلبي وأن في الموت لي شغلًا عن اللعب
ولو سمتْ فكرتي فيما خُلِقْتُ له ما اشتدّ حرصي على الدنيا ولا طلبي

وله أيضًا:

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذلّ الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصير ذلك للزوال

وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:

أيا مَن عاش في الدنيا طويلًا وأفنى العمر في قيلٍ وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى وجمّع من حرامٍ أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصير ذلك للزوال

---

(١) شط: بعد.

في الطمع وذمه

قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: أكثرهم مصارع العقول تحت بروق المطامع، وقال رضي الله عنه: ما الخمر صرْفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

وفي الحديث: «إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر». وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع. وقال بعضهم: مَن أراد أن يعيش حرًا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام(١) فقال له كعب: يا ابن سلام مَن أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه، قال: الطمع وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.

واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع، وقيل: لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحسد فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها، والجاهل يبديها، ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه.

قال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حسبي بعلميَ إنْ نفعْ ... ما الذلّ إلّا في الطمع
مَن راقب الله نزع(٢) ... عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع

وقل سابق البربري:

يخادع ريبَ الدهرِ عن نفسه الفتى ... سفاهًا وريب الدهر عنها يخادعه
ويطمع في سوف ويهلك دونها ... وكم من حريص أهلكته مطامعه

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحرث الإسرائيلي أبو يوسف، صحابي، قيل: إنه من نسل يوسف بن يعقوب، أسلم عند قدوم النبيّ ﷺ إلى المدينة وكان اسمه «الحصين» فسماه الرسول عليه الصلاة والسلام «عبد الله» وفيه نزلت الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأحقاف: الآية ١٠] والآية: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ٤٣] مات في المدينة سنة ٤٣ هـ.

(٢) نزع: ابتعد.

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري فأفت خبزي، وقال أيضًا: ما رأيت رجلين يتساران في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله، وما زفت عروس إلا كنست بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إليّ.

قال بعضهم:

لا تـغـضـبـنّ عـلى امـرئ لـك مـانـعٌ مـا فـي يـديـه
واغضب على الطّمع الذي استـ ـدعـاك تـطـلـب مـا لـديـه

الباب الثالث

قصص الكرم والكرماء
والبخل والبخلاء
والغنى والأغنياء
والفقر والفقراء
والطعـام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والطُّفيليين

في الجود والسخاء والكرم

قال في المستطرف[1]: اعلم أن الجود بذل المال، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢]. قيل: إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد. وقيل: مَن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومَن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومَن آثر غيره بالحاضر، وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار. وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطي بخيلًا إذا صعب عليه البذل، والممسك حيًّا إذا كان لا يستصعب العطاء.

قمة الكرم والإيثار

فمن الإيثار ما حُكِيَ عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ومعي شيء من الماء، وأنا أقول، إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك، فأشار إليَّ أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك، فأشار إليَّ أن نعم. فسمع آخر يقول: آه، فأشار إليَّ أن انطلق إليه، فجئته، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

فداه بنفسه

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرو، ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه، فأحرقوا خاناتهم، فقبض

---

(١) المستطرف: ص ١٦٩ ـ ١٨٢.

السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعًا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم، فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها. فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل، فقال: والله ما كنت أبالي لولا أمّ لي. وكان بجنبه بعض الفتيان، فقال له: في رقعتي الجلد وليس لي أم، فخذ أنت رقعتي واعطني رقعتك. ففعل، فقتل ذلك الفتى وتخلّص هذا الرجل.

أسخى من قيس بن سعد

قيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة، فجاء زوجها، فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان. فجاءنا بناقة فنحرها، وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، وقال: شأنكم، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده أيامًا، والسماء تمطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قرانا[1]، ثم إنه لحقنا، وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا.

أقوال في السخاء والكرم

قال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه.

وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط، فقال: لا.

وعنه ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنّة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنّة قريب من النار، ولَجاهلٌ سخيٌ أحب إلى الله من عابد بخيل».

---

(١) قرانا: ضيافتنا.

وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود. تلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبأ: الآية ٣٩].

وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفًا.

وقال أكتم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع وإن وقع جد له متكأ.

وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السرف[1]، فقال: لا سرف في الخير، فقلب اللفظ واستوفى المعنى.

ووجد مكتوبًا على حجر: «انتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليلته».

وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك فإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وقال النعمان بن المنذر يومًا لجلسائه: من أفضل الناس عيشًا وأنعمهم بالًا وأكرمهم طباعًا، وأجلّهم في النفوس قدرًا؟ فسكت القوم، فقام فتى فقال: أبيت اللعن، أفضل الناس مَن عاش الناس فضله، فقال: صدقت.

وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحدًا عن حاجة، لأنه إن كان كريمًا أصون عرضه أو لئيمًا أصون عن عرضي.

وكان مورق العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه، فيضع عند أحدهم البدرة، ويقول له: امسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها في حل.

وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضًا بسبعمائة ألف درهم، فلما جاء المال قال: إن رجلًا يبيت هذا عنده لا يدري ما يُطرّقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين.

كرم عائشة رضي الله عنها

ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتني فاقة[2] فقالت: ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت

---

(١) السرف: مجاوزة الحد والاعتدال. (٢) الفاقة: الحاجة.

بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها إليه في أثره، فأخذها ودخل بها السوق، فاشترى جارية بألف درهم، فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، وهم: محمد وأبو بكر، وعمر بنو المنكدر.

كرم طلحة بن عبيد الله

وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل، فسأله برحم بينه وبينه، فقال: هذا حائطي بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم، يراح إلى المال بالعشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وإنه ليخيط إزاره بيده.

رحم آدم عليه السلام

ذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الأمالي أن رجلًا جاء إلى معاوية رضي الله عنه فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلى ما قضيت حاجتي، فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأي رحم بيني وبينك؟ قال: رحم آدم عليه السلام. قال: رحم مجفوة[١] والله لأكونن أول مَن وصلها، ثم قضى حاجته.

كرم عدي بن حاتم

رُوِيَ أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدورًا كانت لأبيه حاتم، فملأها مالًا وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيرها فارغة.

كرم أبي سهل الصعلوكي

كان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد، ولم يناول أحدًا شيئًا وإنما كان يطرحه في الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض، وكان يقول: الدنيا أقل خطرًا من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى. وقد قال النبيّ ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

---

(١) رحم مجفوه: أي متقطعة ومفارقة.

التبرّع بالمعروف قبل السؤال

سأل معاوية الحسن بن عليّ رضي الله تعالى عنهم، عن الكرم فقال: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل.

كرم رجل من قريش

قدم رجل من قريش من سفر، فمرّ على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضرّ به المرض، فقال له: يا هذا أعنّا على الدهر، فقال لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهمّ ليقوم، فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك؟ فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

قال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال: علي دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكيًا، فقالت له زوجته: هلا تعللت حيث شقت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إليَّ أن سألني.

كرم عبد الله بن أبي بكر

يُروى أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يومًا في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزًا، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإنني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله أتسخرني؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفًا، فقالت: اسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين، فما أمست، حتى كثر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين دارًا من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله تعالى عنه.

كرم قيس بن سعد بن عبادة

لما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله ما لا يمنع

عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي مَن كان لقيس عنده مال، فهو منه في حل. فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد. وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة، فيفرقها في الناس ولا يرى إلا وعليه دين.

كرم عبد الله بن جعفر

سمّن رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها، فمرّ بعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه، فقال: يا صاحب البهيمة أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له، وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيرًا، وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفرًا. عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحمًا وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة ونقلًا، وواحد يحمل مالًا، فأعطاه جميع ذلك، واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه.

ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه، وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه، فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك، فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبي وأمي أنت، فقال: ولهذه ألف ألف، فقال: أما إني لا أقولها لأحد بعدك، فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد، فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكّل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين.

وخرج رضي الله تعالى عنه هو والحسنان وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجأوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت[1] السماء، فذبح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة، فسل عنا، فاحتاج الأعرابي بعد سنين، فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة، فلقيت أولئك الفتيان، فقال: قد نسيت أسماءهم، فقالت: سل عن ابن الطيار، فأتى المدينة، فلقي سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه، فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها، ثم أتى الحسين رضي

(١) سكنت السماء: هدأت وانقطعت.

الله تعالى عنه، فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل، فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه، فقال: كفاني إخواني الإبل والشياه، فأمر له بمائة ألف درهم. ثم أتى أبا دحية رضي الله تعالى عنه، فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن ائتني بإبلك، فأوقرها لك تمرًا. فلم يزل اليسار في عقب الأعرابي من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يومًا لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم: إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: بأبي أنتما. إن الله عزّ وجلّ عوّدني أن يتفضّل عليَّ، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني المادة.

وامتدحه نصيبٌ، فأمر له بخيل، وأثاث، ودنانير ودراهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثناه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثيابًا تبلى ومالًا يفنى، وأعطانا مدحًا يروى وثناء يبقى.

وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يومًا إلى ضيعة له، فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه، فأتى بقوته ثلاثة أقراص، فدخل كلب، فدنا من الغلام، فرمى إليه بقرص، فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث، فأكلهما. وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام. كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت؟ قال: فلمَ آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أرده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء، وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط، وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام، ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل، والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لي فهو في سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يجود هذا وأبخل أنا؟ لا كان ذلك أبدًا.

كرم عبيد الله بن عباس

كان عبيد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، قال: يا ابن عباس إن لي عندك يدًا وقد احتجت إليها،

فصعد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفًا بفناء زمزم وغلامك يمتح[١] لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بفضل كسائي حتى شربت، فقال: أجل إني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه، وما أراها تفي بحق يده.

كرم عبد الله بن عباس

قدم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة، فأهدى إليه من هدايا النوروز حللًا كثيرة ومسكًا، وآنية من ذهب وفضة، ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب، وهو ينظر إليها، فقال له: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما الصلاة والسلام، فضحك عبد الله، وقال: خذها، فهي لك، قال: جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية، فيحقد عليَّ، قال: فاختمها بخاتمك، وسلمها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلًا، فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم.

وحبس معاوية عن الحسين بن عليّ رضي الله تعالى عنهما صلاته، فقيل: لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف، فقال الحسين: وأنى تقع ألف ألف من عبد الله، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه، وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد، رفيع العماد، والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال؟ ثم قال لوكيله: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب، وأخبره أني شاطرته، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني، فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثقلت والله على ابن عمي، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال له: يا ابن عم محمد ﷺ إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك

(١) يمتح: يستخرج أو يستقي.

تبركًا بك، وأن أمه ماتت، فقال له: بارك الله لك في الهبة، وآجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله، وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا، وفي العيش يبس، وفي المال قلة، فقال الأنصاري: جعلت فداءك لو سبقت حاتمًا بيوم ما ذكرته العرب.

معاوية والحسن بن علي

قال أبو جهم بن حذيفة يومًا لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال(١):

يقيننا ما نخاف وإنْ ظننّا ... به خير أراناه يقينا
نميل على جوانبه كأنّا ... إذا ملنا نميل على أبينا
نقلّبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرمًا ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما:

بلوت الناس قرنًا بعد قرن ... فلم أر غير ختّالٍ وقالٍ(٢)
ولم أر في الخطوبِ أشدّ وقعًا ... وأمضي من معاداة الرجالِ
وذقت مرارةَ الأشياء طرًّا ... فما شيءٌ أمرّ مِنَ السؤالِ(٣)

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يومًا وهو مضطجع على سريره، فسلّم عليه، وأقعده عند رجليه وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تزعم أني لست للخلافة أهلًا، ولا لها موضعًا؟ فقال الحسن: أواعجبًا مما قلت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجليك، فاستحيا معاوية، واستوى جالسًا، ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد ألا ما أخبرتني كم عليك دينًا؟ قال: مائة ألف درهم، فقال يا غلام: اعط أبا محمد

---

(١) هو حسان بن عبد كلال الحميري من ملوك حمير في الجاهلية، زحف بجيش من اليمن على الحجاز يريد انتزاع «الحجر» من الكعبة ونقله إلى اليمن لتحويل الحج إليه فقاتله فهر بن مالك بقبائل كنانة وغيرها فارتد منهزمًا.

(٢) ختال: مخادع. قال: هاجر ومبتعد عند الحاجة.

(٣) طرًّا: عامة وقاطبة.

ثلاثمائة ألف يقضي بها دينه، ومائة ألف يفرقها على مواليه، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه، وسوغها إليه الساعة.

كرم معن بن زائدة

كان معن بن زائدة من الأجواد وكان عاملًا على العراق بالبصرة، قيل: إنه أتى إليه أحد الشعراء، فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه، فلم يتهيأ له ذلك، فقال يومًا لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان، فعرفني، فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر بيتًا ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالسًا على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها، وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جودَ معنٍ ناجِ معنًا بحاجتي ... فليس إلى معنٍ سواك شفيعُ[١]

فقال: مَن الرجل صاحب هذه؟ فأُتي به إليه، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأُتي به، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأُتي به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأُتي به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وتفكر في نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده، فقال معن: لقد ساء والله ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم، ولا دينار. وفيه يقول القائل[٢]:

يقولون معنٌ لا زكاةَ لماله ... وكيف يزكّي المالَ من هو باذله

إذا حال حولٌ لم تجدْ في دياره ... من المال إلا ذكرهُ وجمائله[٣]

(١) ناج: من المناجاة والنجوى، وهي الإسرار بالعواطف وغيرها.

(٢) الأبيات لأبي تمام.

(٣) حول: عام. جمائله: فضائله.

تـراه إذا مـا جـئـتـه مـتـهـلـلًا كـأنّك تعطيه الذي أنت نائله
تعوّد بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضًا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن في كفّه غير نفسه لجاد بها فليتقِ الله سائله

ومن قول معـن:

دعيني أنهي الأموال حتى أعفّ الأكرمين عن اللئام[١]

كرم يزيد بن المهلب

كان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته، فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي، فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط، فائتنا إن شاء الله تعالى، فسافر، وأقمت، فقال لي بعض إخواني: اذهب إليه، فقلت: كان جوابه فيه ضعيف، قالوا: أتريد من يزيد جوابًا أكثر مما قال؟ قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر، فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري، فالتفت إلي يزيد، وقال: إيه يا عقيل، فقلت:

أفاضَ القومُ في ذكر الجواري فأما الأعزبون فلن يقولوا[٢]

قال: إنك لم تبق عزبًا. فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالي، وأنا على هذه الحالة، فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر، فقلت: أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع، فأكبت عدوي وأسر صديقي، فقال: إنما أخيرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أولَم أيها الأمير؟ قال: إنما هذا تغنني أثاث المنزل، ومصلحة القدوم، فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب، فطلب حلاقًا يحلق رأسه، فجاءه بحلاق، فحلق رأسه، فأمر له بخمسة آلاف درهم، فتحيّر الحلاق ودهش، وقال: آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها أني قد

(١) أعف: أي أمنعهم ذل السؤال. (٢) أفاض: أكثروا خوضًا.

استغنيت؟ فقال: اعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك.

وقيل: إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه، مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وهو في السجن، فجاءه الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعًا لما فيه، ولم آت ممتدحًا، فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالدٍ ضاقتْ خراسانُ بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
فما قطرتْ بالشرق بعدك قطرةٌ ولا اخضرّ بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزِّك بهجةٌ وما لجوادٍ بعد جودك جودُ

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف.

ومرّ يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، بعجوز أعرابية، فذبحت له عنزًا، فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها، فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي. وقال مروان بن أبي الجنوب الشاعر: أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفًا وخمسين ثوبًا، ورواحل كثيرة، فقلت أبياتًا في شكره، فلما بلغت قولي:

فأمسكْ ندى كفّيك عني ولا تزدْ فقد خفتُ أن أطغى وأن أتجبرا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي، وأمر له بضياع تقوم بألف ألف.

أسخى الأسخياء

قال أبو العيناء تذاكروا السخاء، فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية، وعلى البرامكة في الدولة العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعًا وأفضل.

كرم آل برمك

سئل إسحٰق الموصلي عن سخاء أولاد يحيىٰ بن خالد، فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر، فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وفي يحيىٰ يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حرّ فقال لا ... ولكنّني عبدٌ ليحيىٰ بن خالدِ
فقلت شراءٌ قال لا بل وراثةٌ ... توارثني من والدٍ بعد والدِ

وفي الفضل يقول القائل:

إذا نزل الفضل بن يحيىٰ ببلدةٍ ... رأيتَ بها غيثَ السماحة ينبُتُ
فليس بسعالٍ إذا سيل حاجةً ... ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت(١)

وفي محمد يقول القائل:

سألت الندى والجود ما لي أراكما ... تبدّلتما عزًّا بذل مؤبّد(٢)
وما بال ركنِ المجد أمسى مهدّمًا ... فقال أُصبْنا بابن يحيىٰ محمد
فقلت فهلا مُتّما بعد موته ... وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كي نعزّي بفقده ... مسافة يومٍ ثم نتلوه في غد

كرم عليّ بن أبي طالب

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرّم الله وجهه: مَن كانت له جارية فليرفعها إليَّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي، فقال يا أمير المؤمنين: إن لي إليك حاجة، الحياء يمنعني أن أذكرها، فقال: خطها في الأرض، فكتب إني فقير فقال: يا قنبر اكسه حلتي، فقال الأعرابي:

كسوتني حلّةً تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمةً ... وليس تبغي بما قدمته بدلا
إن الثناء ليحيىٰ ذكر صاحبِه ... كالغيث يحيي نداهُ السهلَ والجبلا
لا تزهدِ الدهرَ في عرفٍ بدأت به ... كلّ امرىءٍ سوف يجزي بالذي فعلا

---

(١) ينكت: يحفر، وينقب مطرقًا.
(٢) مؤبد: أي أبدي ودائم.

فقال: يا قنبر زده مائة دينار، فقال: يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضي الله تعالى عنه: صَه يا قنبر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه» ولعبد الله بن جدعان:

إني وإن لم ينل مالي مداخلتي ... وهّابٌ ما ملكت كفّي من المال[1]
لا أحبس المالَ إلا حيث أنفقُهُ ... ولا يُغيِّرني حالٌ إلى حال

أقوال وأشعار في الكرم والسخاء

قال بعض العرب لولده: يا بني لا تزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف، فكم راغب كان مرغوبًا إليه، وطالب كان مطلوبًا ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُدّ من الرحمٰن فضلًا ونعمةً ... عليك إذا ما جاء للخير طالبُ
ولا تمنعنْ ذا حاجةٍ جاء راغبًا ... فإنّك لا تدري متى أنت راغب

وقال بعضهم:

أبيتُ خميصَ البطن عريان طاويًا ... وأوثر بالزاد الرفيق على نفسي[2]
وأمنحه فرشي وأفترشُ الثرى ... وأجعل سترَ الليل من دونه لبسي
حذارِ أحاديثَ المحافلِ في غدٍ ... إذا ضمّني يومًا إلى صدره رمسي[3]

وقال يحيىٰ البرمكي: أعط من الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئًا، وأعط منها وهي مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئًا، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك، ويقول: لله درّه ما أطبعه على الكرم، وأعلمه بالدنيا، وقد أمر يحيىٰ من نظمه فقال:

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلةٌ ... فليس يُنقِصها التبذير والسرفُ
فإنْ تولتْ فأحرى أن تجود بها ... فليس تبقى ولكن شكرها خلف

---

(١) مداخلتي: اللئام والأدعياء من الناس.
(٢) خميص البطن: جوعان. وأوثر: أفضل.
(٣) رمسي: قبري.

وقال يحيىٰ لولده جعفر: يا بني ما دام قلمك يرعد فامطره معروفًا وقال بعضهم:

لا تكثري في الجود لأئمتي وإذا بخلت فأكثري لومي
كفّي فلست بحاملٍ أبدًا ما عشتُ همّ غدٍ إلى يومي

وقال عليّ رضي الله تعالى عنه وكرّم وجهه: لا تستح من عطاء القليل، فالحرمان أقل منه.

كرم المخلوع

وسئل إسحٰق الموصلي عن المخلوع، فقال: كان أمره كله عجبًا، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء مَن لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبي جعفر يومًا، فأراد الرجوع إلى أهله، فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين عليّ. فقال: أوقروا له زورقه ذهبًا وأمر له بألف ألف درهم.

شكوى

شكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك، وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين، فاستحضره سليمان، وقال: لا أم لك أتهجو سعيدًا؟ قال: يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر: عشقت جارية مدنية، وأتيت سعيدًا، فقلت: إني أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك، فقال لي: بورك فيك، فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد، فذكرت له حالي، فقال: يا جارية هاتي مطرفًا، فأتته بمطرف خز، فصر لي في كل زاوية مائتي دينار، فخرجت وأنا أقول:

أبا خالدٍ أعني سعيد بن خالدٍ أخا العرف لا أعني ابنَ بنت سعيد
ولكنني أعني ابنَ عائشة الذي أبو أبويه خالد بن أسيد
عقيدُ الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لم يرضَ الندى بعقيدِ
ذروه ذروه إنكم قد رقدتموا وما هو عن إحسانكم برقود

فقال سليمان: قل ما شئت.

كل ما سدّ فقرًا فهو محمود

كتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكرّهت أن تعطي القليل ولم ... تقدر على سعةٍ لم يظهر الجود
بُثّ النّوال ولا تمنعكَ قلتُهُ ... فكلّ ما سدَّ فقرًا فهو محمود[1]

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفردة نعلة.

كرم عبد الله بن عتبة بن مسعود

باع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضًا بثمانين ألفًا، فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرًا؟ فقال: بل اجعله ذخرًا لي، واجعل الله ذخرًا لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجات.

كرم ابن مالك القشيري

كان ابن مالك القشيري من الأجواد، قيل: إنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات، فعاتبه خاله، فقال:

يا خالُ ذرني ومالي ما فعلت به ... وخذْ نصيبك منه إنني مودي[2]
فلن أطيعك إلّا أنْ تُخلّدني ... فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي[3]
الحمدُ لا يشترى إلا بمكرمةٍ ... ولن أعيش بمالٍ غير محمود

وقال المهلب: عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأشرار بفعاله.

نُعين النازل على الإقامة ولا نُعينه على الرحيل

نزل بأبي البحتري وهب بن وهب القرشي ضيفًا، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما همَّ بالرحيل لم يقر به أحد منهم وتجنبوه، فأنكر ذلك عليهم، فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل.

---

(١) بث النوال: وزع العطايا.
(٢) مودي: أي متلف ومنفق له.
(٣) كيدك: تدبيرك.

الحجاج وليلى الأخيلية

وفدت ليلى الأخيلية[١] على الحجاج، فقالت فيه:

إذا ورد الحجاج أرضًا مريضةً تتبّع أقصى دائها فشفاها[٢]
شفاها من الداءِ العضال الذي بها غلامٌ إذا هزّ القناة سقاها

فقال: لا تقولي غلام، ولكن قولي همام. يا غلام: أعطها خمسمائة فقالت: أيها الأمير اجعلها نعمًا، فجعلها إبلًا إناثًا، وقال أبو الفياض الطبري:

والعزّ ضيفٌ لا يراه بربعه من لا يرى بذلَ التلاد تلادا
والجود أعلى كعب كعبٍ قبلنا فمضى جوادًا يوم مات جوادا[٣]

وقال آخر:

أيقنت أن من السماح شجاعةً وعلمت أنَّ من السماحة جودا

كرم المستعين بالله

قال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطًا على صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته.

قال أحمد بن حمدون: فقال لي، ولأترجة الهاشمي: اذهبا، فانظرا إليه، وكان معنا الحاجب، فمضينا ورأيناه، فوالله ما رأينا في الدنيا شيئًا أحسن منه، ولا شيئًا حسنًا إلا وقد عمل فيه، فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان، فوضعته في كمي، ثم جئناه، فوصفنا له حسن ما رأيناه، فقال أترجه: يا أمير المؤمنين: إنه قد سرق منه شيئًا، وغمزه على كمي، فأريته الغزال، فقال: بحياتي عليكما ارجعا، فخذا ما أحببتما، فمضينا، فملأنا أكمامنا وأقبيتنا وأقبلنا نمشي

---

(١) هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب الأخيلية من بني عامر بن صعصعة، شاعرة فصيحة، ذكية جميلة، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير، وأبلغ شعرها قصديتها في رثاء توبة، توفيت في ساوة بالري سنة ٨٠ هـ. ولها ديوان شعر مطبوع.

(٢) أرضًا مريضة: أي بها فتنة وفساد.

(٣) التلاد: المال الموروث.

كالحبالى، فلما رآنا ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين؟ فقال: قوموا، فخذوا ما شئتم، ثم قام، فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك.

ونظر يزيد المهلبي سطلًا من ذهب مملوءً مسكًا، فأخذه بيده وخرج، فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين. فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقي، فانتهبوه، فوجهت إليه أمه تقول: سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه، فإنني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، فقال: يحمل إليها مثل ذلك حتى تعيد مثله، ففعلت، ومضى حتى رآه، وفعل به كفعله بالأول.

طلحة بن عبد الله والفرزدق

دخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يومًا، فوافق فيه الفرزدق، فقال يا أبا فراس: اختر عشرًا من الإبل، ففعل، فقال ضم إليها مثلها، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة، فقال: هي لك، فقال:

يا طلح أنت أخو الندى وعقيدُهُ   إن الندى ما مات طلحةَ ماتا
إن الندى ألقى إليك رحالهُ   فبحيثُ بتَّ من المنازل باتا

كل شيء وثمنه

قدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور، فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار، فقال:

إن السماحة والمروءة والندى   في قُبّةٍ ضربتْ على ابن الحشرجِ

فقال: زدني، فقال: كل شيء وثمنه.

كرم أبي عطاء السندي

وفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له، فأنزله، وأحسن إليه، وقال: ما عندك يا أبا عطاء؟ فقال: ما عسى أن أقول، وأنت أشعر العرب غير أني قلت بيتين. قال: هات. ما قلت فقال:

يا طالب الجواد إمّا كنت تطلبُهُ   فاطلبْ على بابه نصرَ بنَ سيّارِ
الواهبُ الخيلَ تغدو في أعنّتها   مع القيان وفيها ألف دينارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه، ولم يأخذ منه شيئًا، فبلغ ذلك نصرًا، فقال: يا له. قاتله الله من سيد، ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله.

عمرو بن هبيرة والأعرابي

قال العتبي: أشرف عمرو بن هبيرة يومًا من قصره، فإذا هو بأعرابي يرقل قلوصه، فقال عمرو لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي، فأوصله إليَّ، فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي ... ولا أطيق العيال إذ كثروا
أناخَ دهري عليَّ كلكَلَهُ ... فأرسلوني إليك وانتظروا[١]

فأخذت عمر الأريحية، فجعل يهتز في مجلسه ثم قال: أرسلوك إليَّ وانتظروا إذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار.

كرم ابن عامر

قيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم، فجرى القلم بخمسمائة ألف، فراجعه الخازن في ذلك، فقال: أنفذه، فما بقي إلا نفاذه، وأن خروج المال أحب إليَّ من الاعتذار، فاستشرفه الخازن فقال: إذا أراد الله بعبد خيرًا صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته، وأنا أردت شيئًا وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة الله الغالبة، وأمره النافذ.

ووقف أعرابي على ابن عامر، فقال: يا قمر البصرة، وشمس الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برحت بي الحاجة، وأكدت بي الآمال إلا بفنائك، فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والهمة، فأمر له بمائتي ألف درهم.

هذه قطرة من سحابك

سمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أأتركُ إن قلّتْ دراهمُ خالدِ ... زيارته إنّي إذًا للئيم

---

(١) كلكله: صدره. وأناخ: حط رحاله.

فقال: أوَ قلت دراهم خالد احملوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بن يحيىٰ إلى عمارة بن عقيل، وقال: هذه قطرة من سحابك.

كرم عبد الرحمٰن بن الضحاك

لما عزل عبد الرحمٰن بن الضحاك عن المدينة بكى، ثم قال: والله ما بكائي جزعًا من العزل، ولا أسفًا على الولاية، ولكن أخاف على هذه الوجه أن يلي أمرها مَن لا يعرف لها حقًا.

كرم يحيىٰ بن خالد

أراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات، فقال يحيىٰ بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلائنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء، فقبل يده وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء قال يحيىٰ لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا، فقال منصور: أنا أستخبر لك هذا. فقال يحيىٰ: إذن يقول لك، قل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئًا، فقد تركتها له.

كرم عميلة الفزاري

عن الأخفش الصغير قال: كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدرًا وأكثرهم أدبًا، وأفصحهم لسانًا، وأثبتهم جنانًا، فطال عمره ونكبه دهره، فخرج عشية ينتفل[1] لأهله، فمرّ به عميلة الفزاري، فسلّم عليه، وقال: ما أصارك يا عمر إلى ما أرى؟ فقال: بخل مثلك بماله وصون وجهي عن مسألة الناس، فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيّرن ما أرى من حالك، فرجع ابن عنقاء إلى أهله، فأخبرها بما قال له عميلة، فقالت له: لقد غرّك غلام في جنح الليل، قال: فكأنما ألقمت فاه حجرًا وبات متململًا بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة قد قسم ماله شطرين، وبعث إليك بشطره، فأنشأ يقول:

رآني على ما بي عميلة فاشتكى ... إلى ماله حالي فواسى وما هجر

---

(١) ينتفل لأهله: يطلب العطاء.

ولما رأى المجد استُعيريت ثيابُه ... تردّى رداءً سابغ الذيل واتزر[١]
غلامٌ حباه الله بالحسن يافعًا ... له سيمياءٌ لا تشقّ على البصر
كأنَّ الثريا عُلِّقتْ في جبينه ... وفي أنفه الشعري وفي جيده القمر[٢]

كرم عمر بن عبيد الله بن معمر

كان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي من الأجواد. قيل: إنه كان لرجل جارية يهواها، فاحتاج إلى بيعها، فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هنيئًا لك المال الذي قد قبضته ... ولم يبق في كفّي غير التحسّرِ
أبوءُ بحزنٍ من فراقك موجعٍ ... أناجي به صدرًا طويل الفكّرِ

فأجابها بقوله:

ولولا قعود الدهر بي عنكِ لم يكنْ ... يفرقُنا شيءٌ سوى الموت فاعذري
عليك سلامٌ لا زيارةٌ بيننا ... ولا وصلَ إلّا أن يشاءَ ابن معمر

فقال ابن معمر: قد شئت وقد وهبتك الجارية وثمنها، فخذها وانصرف.

كرم محمد بن عبد السلام

وفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله، فوجده في دار الخراج يطالب، فدخل عليه يتوجع له، فلما رآه محمد قال:

ولقد قدمتُ على رجالٍ طالما ... قدم الرجال عليهم فتموّلوا
أخنى الزمانُ عليهم فكأنّما ... كانوا بأرضٍ أقفرت فتحوّلوا[٣]

فقال أبو الشمقمق[٤]:

الجودُ أفلسهم وأذهبَ مالهم ... فاليوم إن راموا السماحةَ يبخلوا

---

(١) سابغ الذيل: طويله ووافيه.
(٢) الثريا والشعري: من الكواكب، والجيد: العنق.
(٣) أخنى الزمان: غدر وأهلك.
(٤) هو مروان بن محمد شاعر هجاء من أهل البصرة، خراساني الأصل من موالي بني أمية، له أخبار مع شعراء عصره كبشار وأبي العتاهية، وأبي نواس. زار بغداد في زمن الرشيد، وكان بشار يعطيه في كل مائتي درهم يسميها أبو الشمقمق «جزية». توفي حوالي سنة ٢٠٠ هـ.

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه، فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة، فوقع إلى عالمه بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته.

كرم المأمون

قال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائي، فدخلت يومًا على يحيىٰ بن أكثم القاضي، فقال: إن أمير المؤمنين جلس للمظالم، وأخذ القصص، فهل لك في الحضور؟ قلت: نعم، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء، بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دونَ النّاس كلّهمِ ... وللرجاءِ حقوقٌ كلّها تجبُ
إن لم يكن لي أسبابٌ أعيشُ بها ... ففي العلا لكَ أخلاقٌ هي السبب

فقال: يا سلامة انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال: بقية من مال، قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهرًا مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء، حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده، فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء، فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيئان لو بكت الدماءُ عليهما ... عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقدُ الشباب وفرقةُ الأحبابِ

كرم أحمد بن طولون

كان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبه منها في الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ في دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يومًا: أيها الأمير إني أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمد إليَّ، وفيها الحناء، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب، أفأعطي أم أرد؟ قال: فأطرق طويلًا، ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردها.

كرم جعفر بن سليمان

قال سلمة بن عياش[١] في جعفر بن سليمان:

وما شمّ أنفي ريحَ كف شممتُها ... من الناس إلّا ريحُ كفِّك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

كرم عبد العزيز بن عبد الله

كان عبد العزيز بن عبد الله جوادًا. مضيافًا، فتغدى عنده أعرابي يومًا، فلما كان من الغد مرّ على بابه، فرأى الناس في الدخول على هيئتهم الأمس، فقال: أوَكل يوم يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم، فأنشأ يقول:

أكلّ يومٍ كأنّه عيدُ أضحى ... عند عبد العزيز أو عيدُ فطرِ

وله ألفُ جفنةٍ مترعاتٍ[٢] ... كل قدر يمدها ألف قدر

كرم سعيد بن العاص

تعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص، فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعدًا، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات، وخلف دينًا وعيالًا، وسأله أن يكتب له كتابًا إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له: لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم.

كرم علي بن سليمان

دخل رجل على عليّ بن سليمان الوزير، فقال له: سألتك بالله العظيم ونبيّه الكريم إلا ما أجرتني من خصمي، فقال: ومَن خصمك؟ حتى أجيرك منه، فقال: الفقر، فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف. فبينما هو في الطريق إذ أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونبيّه الكريم متى أتاك خصمك معنفًا، فأرجع إلينا متظلمًا.

---

(١) هو سلمة بن عياش شاعر راوية نقاد من أهل البصرة له أخبار مع أبي حية النمري وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وهو من شعراء الحماسة الصغرى لأبي تمام وحماسة ابن الشجري. توفي حوالي سنة ١٧٠ هـ.

(٢) جفنة مترعات: الجفنة، القصعة التي يوضع فيها الطعام، ومترعات: مليئة ومباحة للطالبين.

كرم خيثمة بن عبد الرحمٰن

قال الأعمش: كانت عندي شاة، فمرضت، وفقدت الصبيان لبنها، فكان خيثمة بن عبد الرحمٰن يعودها بالغداة والعشي ويسألني. هل أسوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكانت تحتي لبد أجلس عليه، فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

كرم يزيد بن مزيد

حكى أبو قدامة القشيري قال: كنا مع يزيد بن مزيد يومًا، فسمع صائحًا يقول: يا يزيد بن مزيد، فطلبه فأتي به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قِيلَ منْ للجودِ والمجد والندى فنادي بصوتٍ يا يزيد بن مزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجبًا به، وبمائة دينار، وخلعه سنية فأخذها وانصرف.

كريم حتى بعد موته

حُكِيَ أن قومًا من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له: هل لك أن تبيعني بعيرك بنجيبي[1]؟ وكان الميت قد خلف نجيبًا، وكان للرائي بعير سمين، فقال: نعم، وباعه في النوم بعيره بنجيبه، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير، فنحره في النوم، فانتبه الرائي من نومه، فوجد الدم يسيح من نحر بعيره، فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا، ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب، فتقدم منهم شاب، فنادى، هل فيكم فلان ابن فلان؟ فقال صاحب البعير: نعم ها أنا فلان ابن فلان فقال: هل بعت من فلان الميت شيئًا؟ قال: نعم. بعته بعيري بنجيبه في النوم، فقال: هذا نجيبه، فخذه، وأنا ولده، وقد رأيته في النوم، وهو يقول: إن كنت

(١) النجيب: الفتي من الإبل.

ولدي، فادفع نجيبي إلى فلان. فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

أسخى الناس

رُوِيَ عن الهيثم بن عدي أنه قال: تمارى ثلاثة نفر في الأجواد، فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر، فقال الآخر: أسخى الناس: قيس بن سعيد بن عبادة، فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي، فتنازعوا بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام، فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود، فنحكم على العيان. فقام صاحب ابن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل ومنقطع به، قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستوِ على الناقة، وخذ ما في الحقيبة، وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس، فوجده نائمًا فقالت له جارية قيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل ومنقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن الإبل[1]، فخذ راحلة من رواحله، وما يصلحها، وعبدًا، وامض لشأنك، قيل: إن قيسًا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت، فأعتقها، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه، قال بعض الشعراء:

وإذا ما اختبرتَ ودَّ صديقٍ ... فاختبر ودّه من الغلمانِ

ومضى صاحب عرابة، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به. وكان معه عبدان، فصفق بيده اليمنى على اليسرى، وقال: أواه أواه، والله ما أصبح ولا أمسي الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالًا، ولكن خذ هذين العبدين، فقال الرجل: والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك، فقال: إن أخذتهما، وإلا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت، فأعتق، فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد، فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد.

---

(١) معاطن الإبل: زرائبها.

إن زدتنا زدناك

قيل: إن شاعرًا قصد خالد بن يزيد، فأنشده شعرًا يقول فيه:

سألت الندى والجود حرّان أنتما ... فقالا يقينًا إننا لعبيدُ
فقلت ومَن مولاكما فتطاولا ... إليَّ وقالا خالدُ ويزيد

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقل له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كريمُ كريمِ الأمهات مهذّبٌ ... تدفّقُ يمناه الندى وشمائله
هو البحرُ من أي الجهاتِ أتيته ... فلجّتُهُ المعروفُ والجود ساحله[1]
جوادٌ بسيط الكف حتى لو أنه ... دعاها لقبضٍ لم تجبه أنامله

فقال يا غلام: أعطه مائة ألف درهم، وقل له: إن زدتنا زدناك، فأنشد يقول:

تبرّعتَ لي بالجود حتى نعشتني ... وأعطيتني حتى حسبتك تلعبُ
وأنبتَّ ريشًا في الجناحين بعدما ... تساقط مني الريش أو كاد يذهب
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى ... حليف الندى ما للندى عنك مذهبُ

فقال يا غلام: أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسبي ما أخذت وانصرف.

مَن انتهى إليهم الجود في الجاهلية

أما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية: فهو حاتم بن عبد الله الطائي، وهرم بن سنان، وخالد بن عبيد الله، وكعب بن أمامة الأيادي. وضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما.

فأما كعب، فجاد بنفسه، وآثر رفيقيه بالماء في المفازة، ومات عطشًا، وليس له خبر مشهور.

وأما خالد بن عبيد الله، فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إني قلت فيك بيتين من الشعر، فقال: في مثل هذا الحال؟ قال:

(١) لجته: أعماقه.

نعم، فقال: هاتهما، فأنشده يقول:

يـــا واحـــد الـــعـــرب الـــذي ... مـــا فـــي الأنـــام لـــه نـــظـــيـــرُ
لـــو كـــان مـــثـــلـــك آخـــرٌ ... مـــا كـــان فـــي الـــدنـــيـــا فـــقـــيـــر

فقال: يا غلام، أعطه عشرين ألف دينار، فأخذها وانصرف.

رسول الله ﷺ وعدي بن حاتم الطائي

أما حاتم، فأخباره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنّى أبا سفانة وأبا عدي، وكان يسير في قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة، وكان ولده عدي يعادي النبيّ ﷺ، فبعث النبيّ ﷺ عليًا إلى طي، فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرتها خيل رسول الله ﷺ، فلما أُتي بها إلى النبيّ ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائبًا، أنا بنت حاتم الطائي، فقال لها النبيّ ﷺ: «يا جارية هذه صفات المؤمنين حقًا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه. خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق». وقال فيها: «ارحموا عزيزًا ذل وغنيًا افتقر، وعالمًا ضاع بين جهال». فأطلقها ومنّ عليها، فاستأذنته في الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحابه: «اسمعوا وعوا»، فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سببًا في ردها عليه. فلما أطلقها رجعت إلى قومها، فأتت أخاها عديًا وهو بدومة الجندل، فقالت له يا أخي: ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإني قد رأيت هديًا ورأيًا سيغلب أهل الغلبة رأيت خصالًا تعجبني. رأيته يحب الفقير، ويفك الأسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ. وإني أرى أن تلحق به، فإن يك نبيًا فللسابق فضله، وإن يك ملكًا فلن يذل في عز اليمن.

فقدم عدي إلى النبيّ ﷺ فألقى له وسادة محشوة ليفًا، وجلس النبيّ ﷺ على الأرض، فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها، وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها

وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتمسكي، وإما أن أمسك وتعطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء، فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق.

أخبار حاتم الطائي

قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية، وكان جوادًا يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفرًا إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشرًا من الإبل وأطعم الناس، واجتمعوا إليه، وكان قد تزوج ماوية بنت عفير، وكانت تلومه على إتلاف المال، فلا يلتفت لقولها. وكان لها ابن عم يقال له مالك، فقال لها يومًا: ما تصنعين بحاتم، فوالله لئن وجد مالًا ليتلفنه، وإن لم يجد ليتكلفن ولئن مات ليتركن أولادًا عالة على قومك. فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك.

وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن أن يكن في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قِبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قِبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قِبل اليمن حولته إلى الشام، وإن كان من قِبل الشام حولته إلى اليمن، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته، فلم يأتها، ثم قال لها ابن عمها: طلقي حاتمًا وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالًا، وأنا أمسك عليك، وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلقته، فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء، فقال حاتم لولده: يا عدي ما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك. قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد، فنزل فيه، فجاءه قوم، فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون، وكان عدتهم خمسين فارسًا، فضاقت بهم ماوية ذرعًا وقالت لجاريتها: اذهبي إلى ابن عمي مالك، وقولي له: إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلًا، فأرسل إلينا بشيء نقريهم ولبن نسقيهم، وقالت لها: انظري إلى جبينه وفمه، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه، وإن ضرب بلحيته على زوره[1]، ولطم رأسه، فاقبلي ودعيه. فلما أتته وجدته متوسدًا وطبًا[2] من لبن، فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم،

---

(١) زوره: صدره.
(٢) الوطب: الوعاء.

فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته، وقال: اقرئيها السلام وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتمًا لأجله، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم.

فرجعت الجارية، فأخبرتها بما رأت وبما قال لها، فقالت لها: اذهبي إلى حاتم وقولي له: إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بناقة نقريهم ولبن نسقيهم، فأتت الجارية حاتمًا، فصاحت به، فقالت: لبيك قريبًا دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه، فقال لها: حبًا وكرامة، ثم قام إلى الإبل، فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيبهما(١)، فطفقت ماوية تصيح: هذا الذي طلقتك بسببه. نترك أولادنا وليس لهم شيء، فقال لها: ويحك يا ماوية الذي خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم. وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلًا، فيقصدها، ولم يكن حاتم يمسك شيئًا ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما، ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة.

حُكِيَ أن ملكان ابن أخي ماوية قال: قلت لها يومًا: يا عمة حدّثيني ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف، وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سفانة، وأخذ عديًا، وجعلنا نعللهما حتى ناما، فأقبل عليَّ يحدّثني ويعللني بالحديث حتى أنام، فرفقت به لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام، فقال لي: أنمت؟ فلم أجبه، فسكت ونظر في فناء الخباء، فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه، فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب أو كالذئاب جوعًا، فقال لها: أحضري صبيانك، فوالله لأشبعنهم، فقامت سريعة لأولادها، فرفعت رأسي وقلت له: يا حاتم، بماذا تشبع أطفالها، فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائمًا، وأخذ المدينة بيده وعمد إلى فرسه، فذبحه، ثم أجج نارًا ودفع إليها شفرة، وقال: قطعي واشوي وكلي وأطعمي صبيانك، فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها، فأيقظت أولادي وأكلت

(١) العرقوب: عصب غليظ فوق العقب في مؤخر القدم.

وأطعمتهم، فقال: والله إن هذا لهو اللؤم تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم، ثم أتى الحي بيتًا بيتًا يقول لهم انهضوا بالنار، فاجتمعوا حول الفرس، وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية، فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم، وإنه لأشدهم جوعًا، وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره:

أماويَّ إنَّ المال غادٍ ورائحٍ ... ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ
وقد علم الأقوام لو أنَّ حاتمًا ... أراد ثراءَ المال كان له وفرُ

وأغار قوم على طيىء، فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى في جيشه وأهل عشيرته، ولقي القوم، فهزمهم وتبعهم، فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لي رمحك، فرمى به إليه، فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك، ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب مَن يقول هب لي؟ ولما مات عظم على طيء موته، فادعى أخوه أنه يخلفه، فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلقتيكما، وضعته، فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلًا من الجيران، وكنت أنت ترضع ثديًا ويدك على الآخر، فأنى لك ذلك. قال الشاعر:

يعيش الندى ما عاش حاتمُ طيِّىءٍ ... وإن مات قامت للسخاء مآتمُ

وكانت العرب تسمي الكلب داعي الشمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر لما يجلب من الأضياف بنباحه. والضمير: الغريب، وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح، ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العمد لتستوحش فتنبح، فتهتدي الضلَّال وتأتي الأضياف على نباحها.

الكَريم طَرُوب(١)

قدم عبدُ الله بنُ جعفر على معاوية بالشام، فأنزله دار عِياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه، فغاظ ذلك زوج معاوية، ثم سمعتْ ذات ليلة غناءً عند عبد الله بن جعفر: فجاءت إلى معاوية، وقالت: هلمَّ فاسمع ما في منزل الذي جعَلْتَه من لحمك ودمك وأنزلْتَه بين حرَمك.

---

(١) العقد الفريد: ٢ ـ ٤٩، الأغاني ٤ ـ ٢١٢.

فجاء معاوية؛ فسمع شيئًا حرّكه وأطْربه، فقال: والله إني لأسمع شيئًا تكاد الجبال تخرُّ له! ثم انصرف.

فلما كان في آخر الليل سمع معاويةُ قراءةَ عبد الله بن جعفر، وهو قائم يصلي، فنبّه زوجه، وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعتني، هؤلاء قومي ملوكٌ بالنهار، ورهبانٌ بالليل!

ثم إن معاوية أرقَ ذات ليلة؛ فقال لخادمه: اذهب فانظر مَنْ عند عبد الله بن جعفر وأخْبِرْه أني قادم عليه.

فذهب وأخبره، فأقام عبد الله كلَّ مَن كان عنده؛ فلما جاء معاوية لم يرَ في المجلس غير عبد الله، فقال: مجلسُ مَن هذا؟ قال عبد الله: هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: مُره فليرجع إلى مجلسه، حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد. قال: مجلس مَنْ هذا؟ قال: مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين؛ قال: إن أُذُنِي عليلة فمُرْه أن يرجعَ إلى مجلسه، وكان مجلس بُدَيح المغني، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه، فقال له معاوية: داوِ أذني من علّتها، فتناول العودَ وغنى، وقال:

وَدّعْ هريرةَ إنَّ الركبَ مُرْتَحِل ... وهل تطيقُ وداعًا أيها الرجلُ

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه. فقال له معاوية: لم حركتَ رأسك يابن جعفر؟ قال أَرْيَحيَّة أجدها يا أمير المؤمنين لو لَقِيتُ عندها لأبْلَيْت، ولو سئلتُ لأعطيت.

وكان معاوية قد خَضب، فقال ابن جعفر لبدَيح: غنِّ غير هذا ـ وكان لمعاوية جارية أعزُّ جواريه عليه، وكانت تتولى خِضَابَه فغنَّى بُدَيح وقال:

أليس عندك شكرٌ للتي جَعَلَتْ ... ما ابْيَضَّ من قادِماتِ الرأسِ كالحُمَم

وجدّدتْ منك ما قد كان أخْلَقه ... صَرْفُ الزمان وطولُ الدهر والقِدَم

فطرب معاوية طربًا شديدًا، وجعل يحرك رجله، فقال له ابن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنك سألتني عن تَحْريك رأسي فأجبتك وأخبرتُك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك! فقال: كل كريم طروب!

ثم قام، وقال: لا يبرح أحدٌ منكم حتى يأتيَ له إذْني. ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كُسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار، وعشرة أثواب.

الأعرَاب في جُهدِهم وَضَنْكَ عَيشِهم[١]

قال زيادٌ لغَيلان بن خَرَشة: أحبُّ أن تحدِّثني عن العرب وجهدها، وضَنْك عَيشها، لنَحمد الله على النِّعمةِ التي أصْبَحنا بها، فقال غيلان: حدّثني عمي قال:

توالت على العربِ سنونَ تسعٌ في الجاهلية حَطَمت كلَّ شيء، فخرجتُ على بَكْر لي في العرب، فمكثت سبعًا لا أطعَمُ إلا ما ينَالُ منه بعيري، أو من حشرات الأرض، فشددت على بطني حجَرًا من الجوع، حتى دفعتُ في اليوم السابع إلى حِوَاءٍ[٢] عظيم، فإذا بيتٌ جُحِش[٣] عن الحي، فَمِلْتُ إليه، فخرجت إليَّ امرأة طُوَالة[٤] حُسَّانة[٥]، فقالت: مَنْ؟ قلتُ: طارقُ ليل، يلتمسُ القِرى! قالت: لو كان عندنا شيء لآثَرْنَاكَ به، والدالُّ على الخير كفاعله، حِسَّ[٦] هذه البيوت، ثم انظر إلى أعظمها فإن يك في شيء منها خيرٌ فَفِيه.

ففعلتُ حتى دَفَعْتُ إلي، فرحّب بي صاحبُه، وقال: مَنْ؟ قلت: طارق ليل، يلتمس القِرى. فقال: يا فلان، فأجابه، فقال: هل عندك طعَام؟ فقال: لا، فوالله ما وقرَ[٧] في أذُني شيء كان أشدَّ عليّ منه.

قال: فهل عندك شراب؟ قال: لا. ثم تأوَّه، فقال: قد بقَّينا في ضرع الفُلَانة[٨] شيئًا لطارق إن طرَق. قال: فأتِ به. فأتى العَطَن[٩] فابْتَعثَها، فما سمعتُ شيئًا قطُّ كان أشد من شَخْبِ تِيك الناقة في تلك العُلْبة[١٠]، حتى إذا ملأها، وفاضتْ من جوانبها، وارتفعتْ عليها رَغْوَة كجُمَّة الشيخ، أقبل بها يَهْوِي نحوي،

(١) المحاسن والمساوىء: ٩٩، عيون الأخبار: ٣ ـ ٢٤٤.
(٢) الحواء: جماعة البيوت المتدانية.
(٣) جحش: نحى وأبعد عن البيوت.
(٤) طوالة: طويلة القامة.
(٥) حسانة: حسناء.
(٦) حس: تعرف أحوالها.
(٧) وقر: ثقل.
(٨) الفلانة والفلان بالتعريف: كناية عن عير الآدميين.
(٩) العطن: مناخ الإبل حول وردها.
(١٠) العلبة: قدح ضخم من جلود الإبل، أو من خشب يحلب فيها.

فعثَر بعود أو حجر، فسقطتِ العُلبة من يده، فما أُصِبْتُ بمصيبة أفزع لقلبي، ولا أعظم موقعًا عند من انكفاء تلك العلبة على مثل الحال التي كنت فيها.

فلما رأى ذلك ربُّ البيت خرج شاهرًا سيفه، فبعثَ الإبلَ، ثم نظر إلى أعظمها سَنامًا، ودفه إليّ مُدْية، وقال: يا عبد الله، اصطلِ واحتمل.

جعلت أهوِي بالبَضْعَة[1] إلى النار، فإذا بلغَتْ إناها[2] أكلتُها، ثم مسحتُ ما في يدي من إهالتها[3] على جلدي، وقد قَحِلَ[4] عليَّ عظمي، حتى كأنه شَنّ[5]، ثم شربتُ شربةَ ماءٍ، وخرَرْتُ مغشيًا عليَّ، فما أفقتُ إلى السَّحَر.

وقطع زيادٌ الحديث، وقال: لا عليك ألّا تخبرنا بأكثر من هذا، فَمن المنزولُ به؟ قلتُ: عامرُ بنُ الطّفيل.

يَجُودُ عَلَى مِقدَار نَفْسه[6]

خرج عُبيد الله بن العباس مرةً من المدينة يريدُ معاويةَ في الشام، فأصابَتْه سماءٌ؛ فنظر إلى نُوَيْرَةٍ[7] عن يمينه، فقال لغلامه: مِلْ بنا إليها.

فلما أتَياها إذا شيخٌ ذو هيئةٍ رثَّة، فقال له: أنِخْ؛ انزل، حُيِّيتَ! ودخلَ إلى منزله، فقال لامرأته: هيِّئي شاتَك أقضِي بها ذِمامَ[8] هذا الرجل، فقد توسَّمتُ فيه الخير؛ فإن يكن من مُضَر فهو من بني عبد المطلب، وإن يكن من اليمن فهو من بني آكِلِ المُرَار. فقالت له: قد عرفتَ حال صِبْيتي، وأنَّ معيشتَهم منها؛ وأخافُ الموتَ عليهم إن فقدوها؛ فقال: موتُهم أحبُّ إليَّ من اللّؤم، ثم قبض على الشاة؛ فأخذ الشَّفْرَة، وأنشد:

قَريبَتِي لا تُوقِظِي بَنِيَّه ... إن يُوقَظُوا ينسحبوا عَليه
ويَنْزَعوا الشَّفْرَة من يَديه ... أبْغِض هذا أن يُرَى لديه

ثم ذبحها وكَشط جلدها، وقطعها أرباعًا، وقذفها في القِدْر حتى إذا استوت ثَرَدَ في جَفْنَة؛ فعشّاهم ثم غدّاهم.

(١) البضعة: القطعة من اللحم.
(٢) بلغ إناه: نضجه وإدراكه.
(٣) الإهالة: الشهم أو ما أذيب من الشحم.
(٤) قحل: يبس.
(٥) الشن: القربة الخلق الصغيرة.
(٦) خزانة الأدب: ٣ ـ ٥٩٣.
(٧) تصغير نار.
(٨) الذمام: الحرمة.

وأراد عبيدُ الله الرحيلَ، فقال لغلامه: ازم للشيخ ما معك من نفقةٍ، فقال: ذَبح لك الشاة فكافِئه بثمن عشرة أمثالها؛ وهو لا يعرفُك! فقال: وَيحك! إن هذا لم يكن يملكُ من الدنيا غيرَ هذه الشاة، فجادَ لنا بها، وإن كان لا يعرفُنا فأنا أعرفُ نفسي، ارمِ بها إليه، فرماها إليه، فكانتْ خمسمائة دينار!

ثم ارتحلَ عُبَيْد الله، فأتى معاويةَ، فقضى حاجتَه، ثم أقبل راجعًا إلى المدينةِ، حتى إذا قربَ من ذلك الشيخ قال لغلامه: مِلْ بنا ننظره في أيّ حالة هو، فانتهيا إليه، فإذا برجل سَرِيّ عنده دُخانٌ عال، ورمادٌ كثير، وإبلٌ وغنم؛ ففرح بذلك، وقال له الشيخُ: انزل بالرُّحْب والسَّعة! فقال له عبيد الله: أتعرفُني؟ فقال: لا، والله، فمن أنت؟ فقال: أنا نَزِيلُك ليلة كَذا وكذا، فقام إليه فقبّل رأسَه ويَدَيْه ورِجْليه، وقال: قد قلتُ أبياتًا؛ أتسمعُها مني؟ فقال: هات، فأنشد:

توسَّمتُه[1] لما رأيتُ مَهَابةً ... عليه وقلتُ: المرُ من آل هاشِم

وإلّا فمِنْ آل المُرار فإنهمْ ... ملوكٌ عظامٌ مِنْ كِرَامِ أعاظِمِ

فقمْتُ إلى عَنْزٍ بقيّةِ أُعنزٍ ... لأذبحَها فعلَ امرىءٍ غيرِ نادِمِ

فعوَّضني عنها غَنَاي ولم تكُنْ ... تُسَاوِيُ[2] عَنْزِي غيرَ خَمْسِ دراهمِ

فقلت لأهلي في الخَلَاء[3] وصِبْيَتي: ... أحقًّا أرى أم تلك أحلامُ نائِم!

فضحك عُبيد الله، وقال: أعطيتَنا أكثرَ مما أخذتَ منا، يا غُلام، أعطِه مثلها! وبلغتْ فَعْلَتُه معاوية فقال: لله دَرُّ عبيد الله، من أي بَيْضَة خرج! وفي أي عُشٍّ دَرَج!

يَد عِندَ عُبَيد الله بن العبّاس[4]

أتى رجلٌ عبيدَ الله بن العباس ـ وهو بفِناء دارِه فقال: يابنَ العباس؛ إن لي عندك يدًا وقد احتجتُ إليها؛ فصعَّد فيه بَصره وصوَّبَه، فلم يعرفْه. ثم قال له: ما يدُك عندنا؟ قال: رأيتُك واقفًا بزمْزم وغلامُك يمْتَحُ[5] لك من مائها، والشمسُ قد صَهَرَتْك، فظلّلتُك بطَرَف كسائي حتى شربتَ!

---

(١) توسمته: تفرسته.
(٢) تساوي: بوضع الضمة على الياء للضرورة.
(٣) الخلاء: الفضاء.
(٤) خزانة الأدب: ٣ ـ ٢٥٦.
(٥) متح الماء: نزعه.

قال: إني لأذكرُ ذلك، وإنه يترَدّدُ في خاطري وفِكْري! ثم قال لقيِّمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ آلاف درهم. قال: ادْفعها إليه، وما أراها تَفِي بحقِّ يدِه عندنا!

قال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيلَ ولدٌ غيرُك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد وَلَدَ سيّدَ الأولين والآخرين محمدًا ﷺ، ثم شفَع بك وبأبيك!

لَو بدأتِ بِي[1]

خرج الحَسنُ والحسينُ وعبدُ الله بن جعفر حُجّابًا، ففاتتهم أثقَالُهم[2]؛ فجاعوا وعطشوا؛ فمرّوا بعجُوز في خِباء لها؛ فقال أحدُهم: هل مِنْ شَرَاب؟ قالت: نعم. فأناخُوا إليها، وليس لها إلا شُوَيهة[3]. فقالت: احلبوها فاشْرَبوا لبنها، ففعلوا.

فقالوا: هل مِنْ طعام؟ قالت: لا؛ إلا هذه الشاة فليذْبَحْها أحدكم حتى أهَيّيء لكم ما تأكلون!

فقام إليها أحدُهم فذبحهَا وكَشَطها[4]، ثم هيّأتْ لهم طعامًا فأكلوا، وأقاموا حتى أبْرَدوا[5].

فلما ارتحلوا قالوا: نحن نفرٌ من قريش ووجهتنا هذا الوجه؛ فإذا رجعنا سالمين، فألمي بنا فإنا صانعون إليك خيرًا! وارتحلوا.

وأقبلَ زوجُها، فأخبرتْهُ بخبرِ القوم والشاةِ، فغضب وقال: ويحك! تَذْبَحين شاتِي لقومٍ لا أعرفُهم، ثم تقولين: نَفَرٌ من قريش!

ثم بعد مدّة ألجأتهما الحاجةُ دخول المدينة فدخَلَاها، وجعلا يَلْتَقِطَان البَعْر ويعيشان بثَمنه؛ فمرّت العجوزُ ببعض سِكَكِ المدينة، فإذا الحسنُ بن علي واقفٌ بباب داره، فعرفَ العجوزَ، فبعثَ إليها غلامَه، فدعا بها، فقال لها: يا أمةَ الله، أتعرفينني؟ قالت: لا! قال: أنا ضيفُكِ بالأمس يوم كذا وكذا! قالت: بأبي أنتَ وأمي!

---

(١) ثمرات الأوراق للحموي: ٢٤.
(٢) جمع ثقل: وهو المتاع.
(٣) شاة صغيرة.
(٤) يريد: سلخها.
(٥) أبردوا: دخلوا في آخر النهار.

ثم اشترى لها من شياه الصدقة ألفَ شاة، وأمر لها بألف درهم، وبعثَ بها مع غلامه إلى الحسين، فأمر لها بمثل ذلك، وبعث بها مع غلامه إلى عبدِ الله بن جعفر، فقال لها: بكمْ وصلَكِ الحسَنُ والحسين؟ قالت: بألفي درهم، وألفي شاة. فقال لها: لو بدأتِ بي لأتعبتُهما في العطاء! أعطوها عَطِيَّتَهُما.

فرجعت العجوزُ إلى زوجها بأربعةِ آلاف درهم، وأربعة آلاف شاة!

اختبَار الأجوَاد(١)

تمارَى ثلاثةٌ في أجوادِ الإسلام، فقال رجل: أسْخَى الناس في عصرنا هذا عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب. وقال آخر: أسْخَى الناس عَرَابة الأوْسي. وقال ثالث: بل قَيْس بن سعد بن عُبَادة. وأكْثَرُوا الجِدال في ذلك، وعَلَا ضجيجهُم وهُم بِفِنَاءِ الكعبة.

فقال لهم رجل: قد أكْثَرْتُم الجدال في ذلك، فما عليكم أن يمضيَ كلُّ واحد منكم إلى صاحبِه يسألُه، حتى ننظرَ ما يُعطيه، ونحكم على العِيانَ؟

فقامَ صاحبُ عبد الله إليه، فصادفه قد وضعَ رجْلَه في غَرْز(٢) ناقَتهِ يريد ضَيْعَةً له، فقال: يابنَ عَمِّ رسولِ الله! قال: قل ما تشاء. قال: أناابن سبيلٍ ومنقطع به، فأخرجَ رِجْلَه من غَرْز الناقة، وقال له: ضَعْ رجلك، واسْتَوِ على الراحلة؛ وخذْ ما في الحقيبة، واحتفظ بالسيف، فإنه من سيوف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه!

فجاء الناقة، والحقيبةُ فيها مطارفُ(٣) خَزّ، وأربعةُ آلاف دينار، وأعظمُها وأجلُّها السيفُ!

ومضى صاحب قيس بن سعد بن عُبَادة، فصادفه نائمًا، فقالت الجارية: هو نائم، فما حاجتُك إليه؟ قال: ابن سبيل ومنقَطع به، قالت: حاجتُك أهون من إيقاظه! هذا كيسٌ فيه سبعمائة دينار، واللهُ يعلمُ أن ما في دار قيس غيره، خُذه؛

---

(١) غرر الخصائص: ١٥٥، ثمرات الأوراق للحموى: ١ ـ ١٠٢.

(٢) الغرز: ركاب الرحل.

(٣) المطرف من الثياب: ما جعل في طرفه علمان.

وامْضِ إلى مَعَاطِنِ(١) الإبل، إلى أموالِ(٢) لنا بعلامتنا فخُذْ راحلةً من رواحله، وما يصلحها وعبدًا، وامْضِ لشأنك!

ولما انتبه قيس من رَقْدَتِه أخْبرَتْهُ بما صَنَعَتْ فأعْتَقها.

ومضى صاحبُ عَرابة الأوسيّ إليه؛ فألفاه قد خرج من منزله يريدُ الصلاة وهو يمشي على عَبْدين، وقد كُفّ بصَرُه، فقال: يا عَرابة، ابنُ سبيل ومنقطع به، فخلّى العَبْدَين، وصفَّقَ بيُمْنَاه على يُسْراه، وقال: أوّاه! أواه! ما تركت الحقوقُ لِعَرَابةَ مالًا، ولكن خُذْهما ـ يعني العبدين ـ قال: ما كنتُ بالذي أقُصّ جناحيك. قال: إن لم تَأْخُذْهما فهما حُرَّان، فإن شئتَ تأخذ، وإن شئت تَعْتِقْ، وأَقْبَلَ يلتمسُ الحائط، راجعًا إلى منزله.

فأخذهما صاحبُه، وجاء بهما إلى رِفاقه؛ فقالوا: إن هؤلاء الثلاثة أجودُ عصرهم، إلا أنّ عَرَابة أكثرُهم جودًا لأنه أعْطَى جهده.

الأخطَل محبُوس في كنيسَة(٣)

قال إسحٰق بن عبد الله: قدمت الشامَ وأنا شابٌ مع أبي، فكنت أطوفُ في كنائسها ومساجدها، فدخلتُ كنيسة دمشق، وإذا الأخطل فيها محبوسٌ، فجعلتُ أنظرُ إليه. فسأل عني فأُخْبِرَ بنسبي؛ فقال: يا فتى؛ إنك لرجلٌ شريف، وإني أسألُك حاجةً. فقلت: حاجتُك مقضية. قال: إن القَسّ حبسني هٰهنا فتكلِّمُه ليخليَ عني.

فأتيتُ القسّ فانتسبت له، فرحب وعظم، ثم قلت: إنّ لي إليك حاجةً. قال: وما حاجتُك؟ قلت: الأخطل تُخَلّي عنه. قال: أعيذُك بالله من هذا! مثلُك لا يتكلم فيه؛ فاسقٌ يشتمُ أعراضَ الناس ويهجوهم! فلم أزل أطلبُ إليه حتى مضى معي متكِئًا على عصاه، فوقف عليه ورفع عصاه، وقال: يا عدو الله! أتعودُ تشتم الناس وتهجوهم وتقذِف المحصنات! وهو يقول: لست بعائد ولا أفعل ويستخذي له.

---

(١) المعاطن: جمع معطن، وهو مبرك الإبل.

(٢) أموال: تريد الإبل، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل، لأنها كانت أكثر أموالهم.

(٣) الأغاني: ٨ ـ ٢٠٩.

فقلت له: يا أبا مالك، الناسُ يهابُونك، والخليفةُ يُكْرِمُك، وقدرُك في الناس قدْرُك، وأنت تخضعُ لهذا وتستخذي له! فجعل يقول لي: إنه الدِّين! أنه الدِّين!

حَدِّثني عَن أغرب مَا مرَّ بك[١]

لما أفضَتِ الخلافةُ إلى بني العَبَّاس اختفى جميعُ رجالِ بني أُميَّة ـ وكان منهم إبراهيمُ بن سُلَيمان ـ فشفعَ له عند السَّفَّاح بعضُ خواصّه. فأَعْطَاه الأمان، ثم أحلَّه مجلسَه، وأكرم مَثْواه.

وقال له السَّفاح ذات يوم: يا إبراهيم، حدِّثني عن أغرَب ما مرَّ بك أيامَ اختفائك.

فقال: كنت مختفيًا في الحِيرة بمنزل مُشْرِفٍ على الصحراء، فبينما كنْتُ يومًا على ظَهْرِ ذلك البيت أبصرتُ أعلامًا سَوْدَاء قد خرجتْ من الكوفة تُريدُ الحِيرة، فأوْجَسْتُ منها خِيفةً إذ حسبتُها تقصدني.

فخرجتُ مُسْرِعًا من الدار متنكِّرًا، حتى أتيتُ الكوفةَ، وأنا لا أعرفُ مَنْ أخْتَفي عنده، فبقيت متحيّرًا في أمري، فنظرتُ وإذا أنا بباب كبير فدَخَلْتُه، فرأيت في الرَّحبَة رجلًا وَسِيمًا لطيفَ الهيئةِ، نظيفَ البِزّة، فقال لي: مَن أنت؟ وما حاجتُك؟ قلت: رجلٌ خائفٌ على دَمِه، جاء يَسْتَجِيرُ بك.

فأدخلني منزله، وَوَاراني في حُجرة تلي حجرةَ حُرَمِه، فأقمتُ عنده، ولي كلُّ ما أحبُّ من طعام وشرابٍ ولِباس، وهو لا يسألني عن شيء من حالي، إلا أنه كان يركبُ في كلّ يوم من الفجر، ولا يرجع إلّا قُبَيل الظهر.

فقلتُ له يومًا: أراك تُدمِن[٢] الركوبَ، فَفيمَ ذلك؟ قال لي: إن إبراهيمَ بنَ سليمان بن عبد الملك قَتل أبي، وقد بَلغني أنه مختفٍ في الحِيرة، فأنا أطلبهُ لعلي أجدُه وأُدرِك منه ثأرى. فلما سمعتُ ذلك ـ يا أمير المؤمنين ـ عَظُم خوفي، وضاقتِ الدنيا في عينيّ، وقلت: إني سُقْتُ نفسي إلى حَتْفِي.

---

(١) بحر الآداب: ٣ ـ ٥٢.

(٢) تدمن: تديم.

ثم سألتُ الرجلَ عن اسمه واسمِ أبيه، فأخبرني عن ذلك؛ فعلمت أنَّ كلامَه حقّ؛ فقلت له: يا هذا؛ إنه قد وجَبَ عليّ حقك، وجزاءً لمعروفك لي أريدُ أن أدلّك على ضَالّتِك.

فقال: وأينَ هو؟ قلت: أنا بُغْيَتك إبراهيم بن سُليمان، فَخُذْ بِثأرِك. فتبسم، وقال: هل أضْجَرك(١) الاختفاءُ والبعدُ عن دارك وأهلك فأحْبَبتَ الموت؟ قلت: لا والله! ولكني أقول لك الحق، وإني قتلتُ أباك في يوم كذا من أجل كذا وكذا.

فلما سمع الرجلُ كلامي هذا، وعلم صِدْقِي تغيَّر لونُه واحمرّتْ عيناه؛ ثم فكّر طويلًا، والتفت إليّ، وقال: أمّا أنتَ فسوف تَلْقى أبي عند حاكم عادل فيأخُذُ بثأره منك، وأمّا أنا فلا أخفُر ذمتي(٢)، ولكني أرغَب أنْ تبعد عني فإنّي لستُ آمَنُ عليك من نفسي. ثم إنه قدم لي ألفَ دينار، فأبيتُ أخْذَها، وانصرفتُ عنه.

فهذه الحادثة أغربُ ما مرَّ بي، وهذا الرجلُ هو أكرمُ مَن رأيته، وسمعتُ عنه بعدَك يا أمير المؤمنين.

جُود عَبد الوَاحِد بن سلَيمان(٣)

قال عبد الله بن إبراهيم الجمَحي: قلت لابنِ هَرْمة: أتمدحُ عبدَ الواحد بن سليمان بشعرٍ ما مَدَحْتَ به غيرَه فتقول فيه هذا البيت:

وجدنَا غالبًا كانتْ جَناحًا ... وكان أبُوك قادِمةَ(٤) الجناح

ثم تقول فيها:

أعبْدَ الواحدِ الميمونَ إني ... أغَصُّ حِذَار سُخْطك بالقرَاح(٥)

فبأيّ شيء استوجبَ ذلك منك؟ فقال: إني أخبرك بالقصة لتعْذرني:

أصابتني أزْمَةٌ بالمدينة، فاستنهضتني بنتُ عمي للخروج؛ فقلت لها: ويحك! إنه ليس عندي ما يقِلُّني. فقالت: أنا أُنهضك بما أمكنني، وكانتْ عندي

---

(١) أضجرك: أتعبك.
(٢) لا أخفر ذمتي: لا أنقض عهدي معك ولا أغدر بك بعد أن أمنتك.
(٣) الأغاني: ٦ ـ ١٠٧.
(٤) القوادم: أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، الواحدة قادمة.
(٥) القراح: الماء لا يخالطه شيء.

نابٌ(١) لي، فنهضتُ عليها نهجّدُ النوام(٢)، ونؤذي السمار، وليس من منزل أنزله إلا قال الناس: ابن هرمة! حتى دَفعتُ إلى دمشق.

فأويتُ إلى مسجد عبد الواحد في جوف الليل، فجلستُ فيه أنتظرُه إلى أن بزغ الفجر، فإذا الباب ينفلق عن رجلٍ كأنه البدر، فدنَا فأذّن، ثم صلّى ركعتين؛ وتأملته فإذا هو عبد الواحد، فقمتُ فدنوتُ منه وسلّمتُ عليه؛ فقال لي: أبو إسحٰق! أهلًا ومَرْحبًا؛ فقلتُ: لبيك، بأبي أنتَ وأمي! وحيّيك الله بالسلام وقرّبك من رِضْوانه؟ فقال: أما آن لك أن تزورَنا؟ فقد طال العهدُ، واشتدَّ الشوق، فما وراءَك؟ قلت: لا تسلْني - بأبي أنت وأمي - فإن الدّهر قد أخْنى عليَّ؛ فما وجدتُ مُستغاثًا غيرك؛ فقال: لا ترعْ(٣). فقد وَرَدْتَ على ما تحبُّ إن شاء الله.

فوالله إني لأخاطبُه، فإذا بثلاثة فتية قد خرجوا كأنهم الأشْطَان(٤)، فسلّموا عليه، فاستَدْنى الأكبرَ منهم فهمسَ إليه بشيء دوني ودون أخويه، فمضى إلى البيت ثم رجع، فجلس إليه فكلمه بشيء دوني ثم ولّى، فلم يلبَث أن رجع ومعه عَبْدٌ ضابط(٥)، يحمل عبئًا من الثياب حتى ضرَب به بين يدي(٦)، ثم همس إليه ثانيةً فعاد، وإذا به قد رجع ومعه مثلُ ذلك، فضرب به بين يدي.

فقال لي عبد الواحد: ادْنُ يا أبا إسحٰق؛ فإني أعلم أنك لم تصرْ إلينا حتى تفاقم صَدعُك؛ فخذ هذا وارجع إلى عِيالك، فوالله ما سللنا لك هذا إلا من أشْداق عِيالنا، ودفع إليّ ألف دينار، وقال لي: قمْ فارحل فأغِثْ مَنْ وراءك.

فقمت إلى الباب، فلما نظرتُ إلى ناقتي ضِقتُ؛ فقال لي: تعالى، ما أرى هذه مُبَلِّغتك. يا غلامُ؛ قدّم له جملًا. فوالله لقد كنتُ بالجمل أشدَّ سرورًا مني بكلِّ ما نلتُه؛ فهل تلومني أن أغص حِذارَ سُخطِ هذا بالقَراح! والله ما أنشدته ليلتئذ بيتًا واحدًا.

---

(١) الناب: الناقة المسنّة.

(٢) تهجّد النوام: نوقظهم، وهو من الأضداد.

(٣) لا تراع: لا تخف ولا تفزع.

(٤) الأشطان: جمع شطن، وهو الحبل الطويل.

(٥) ضابط: قوي شديد.

(٦) رمى به.

أبو حنيفة يرعى الجوَار[١]

كان لأبي حَنيفة جارٌ بالكوفة يُغَنِّي في غُرْفته، ويسمعُ أبو حنيفة غِنَاءَه فيعجبه، وكان كثيرًا ما يغنّي . :

أضاعوني وأيَّ فَتَى أضاعُوا ... لِيَوْمِ كريهه وسِدَادِ[٢] ثَغْرِ

فلقيه العَسَسُ[٣] ليلةً فأخذوه وحُبِس.

فَفَقَدَ أبو حنيفة صوتَه تلك الليلة، فسأل عنه من غدٍ فأُخْبِرَ؛ فدعَا بِسَوَادِه وطَويلته[٤] فلبسهما، وركب إلى عيسى بن موسى، فقال له: إن لي جارًا أخذه عَسَسُك البارحة فحُبس، وما علمتُ منه إلا خيرًا. فقال عيسى: سلّموا إلى أبي حنيفة كلَّ مَن أخذه العَسَسُ البارحة؛ فأُطلقوا جميعًا؛ فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سِرًّا: ألستَ كنت تغنّي يا فتى كل ليلة:

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا

قبل أضَعْنَاك؟ قال: لا والله، ولكن أحسنتَ وتكرَّمتَ، أحسن الله جزاءَك. قال: فعُدْ إلى ما كنت تغنّيه، فإني كنت آنسُ به، ولم أر به بأسًا، قال: أفعل!

يُرْبِى الله الصّدقات[٥]

قال سوّار: انصرفتُ يومًا من دارِ المهدي، فلما دخلتُ منزلي دعوتُ بالطعام فلم تقبلْهُ نفسي، فأمرتُ به فرُفِع، ودخلتُ وقتَ القائلة فلم يأخذْني نوم، فنهضتُ وأمرتُ ببغلة لي فأُسْرِجَتْ وأُحْضرَت، فركبتُها.

فلما خرجت استقبلَني وكيلٌ لي، ومعه مال، فقلت: ما هذا! فقال: ألفا درهم جَبَيْتُها من مُسْتَغَلّكَ الجديد. قلت: أمسكها معك واتبعني.

فخلّيت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم سرتُ حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعتُ إلى باب الأنبار، فانتهيتُ إلى باب دار لطيف، عليه شجرَةٌ،

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٤١٤.
(٢) سداد الثغر: سده بالخيل والرجال.
(٣) العسس: جمع عاس وهو الذي يطرق بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة.
(٤) الطويلة: القلنسوة العالية المدعمة بعيدان؛ وكان السواد شعارًا لبني العباس.
(٥) العقد الفريد للملك السعيد: ١٢٣.

وعلى الباب خادم، فوقفت وقد عطشت؛ فقلت للخادم: عندك ماءٌ تَسْقِينِيه؟ قال: نعم! وقام، فأخرج قُلَّة نظيفة طيبةَ الرائحة، عليها مِنديل، فناولَني فشربتُ، وحضر وقتُ العصر فدخلتُ مسجدًا، فصلَّيت فيه.

فلما قضيتُ صلاتي إذا أنا بأعمى يتلمّس الطريق، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد! قلت: وما حاجتُك، فجاء حتى قعد إليّ وقال: شممت منك رائحةً طيبة، فظننتُ أنك من أهل النعيم، فأردتُ أن أُلقيَ إليك شيئًا. فقلت: قل. قال: ترى بابَ هذا القصر؟ قلت: نعم، قال: هذا قصرٌ كان لأبي فباعَه، وخرج إلى خُراسان وخرجتُ معه، فزالت عنه النِّعم التي كنَّا فيها، وعميتُ، فقدمت هذه المدينة؛ فأتيتُ صاحبَ هذه الدار لأسأله شيئًا يَصِلُني به وأتوصل به إلى سوّار؛ فإنه كان صديقًا لأبي. قلت: ومَن أبوك؟ قال: فلان ابن فلان.

قال: فإذا هو كان أصدق الناس لي، فقلت له: يا هذا؛ فإن الله تعالى قد أتاك بسوّار؛ ومنعه النوم، والطعام والقَرار حتى جاء به فأَقْعده بين يديك. ثم دعوت الوكيل، فأخذت الدراهم منه، فدفعتُها إليه؛ وقلت له: إذا كان غَدٌ فصِرْ إلى منزلي؛ ثم مضيتُ فقلت: ماأُحَدِّثُ أميرَ المؤمنين المهدي بشيء أظرفَ من هذا.

فأتيتهُ فاستأذنتُ عليه فأذِن لي، فلما دخلتُ عليه حدَّثْتُه، فأعجَبَه، ثم أمر لي بألفي دينار، وقال: ادْفعها إلى الأعمى. فنهضتُ، فقال: اجلس، أَعليك دَين؟ قلت: نعم! قال: كم دَيْنُك؟ قلت: خمسون ألف درهم! فأمسك، وجعل يحادثُني ساعة، وقال: امضِ إلى منزلك. وإذا بخادم معه خمسون ألفًا، وقال: يقول لك أمير المؤمنين: اقضِ بها دينَك؛ فقبضتُ ذلك منه.

فلما كان من الغد أبطأ عليّ الأعمى، وأتاني رسولُ المهدي يدعوني، فجئتُه، فقال: فكرْتُ البارِحَة في أمرك، فقلت: يقضي دينه، ثم يحتاجُ إلى القَرْض أيضًا، فأمرت لك بخمسين ألف درهم أخرى. فقبضتُها، ثم انصرفت!

فجاءني الأعمى، فدفعتُ إليه الألفين، وقلت له: قد رزقَ الله تعالى بكرمه ـ بإسداء المعروف إليك ـ بأضعاف ذلك، ثم أعطيتُه شيئًا آخر من مالي، وجهَّزْتُه وانصرف.

لَا أسال سِوَاك وَلَو سففْتُ التراب[١]

ركب محمدَ بن إبراهيم الإمام دَيْنٌ، فركب إلى الفضلِ بن يحيىٰ، ومعه حُقَّة فيها جوهر؛ فقال له: قصّرتْ بنا غلّاتنا، وأغفَل أمرَنا خليفتُنا، وتزايدت مئونتنا، ولزِمنا دَينٌ احتجنا لأدائه إلى ألف درهم؛ فكرِهْتُ بَذْلَ وجهي للتجار وإذالة عِرْضي بينهم، ولك مَنْ يعطيك منهم، ومعي رهن ثِقة بذلك، فإن رأيتَ أنْ تأمر بعضهم بقبضه، وحَمْلِ المال إلينا!

فدعا الفضلُ بالحُقَّةِ، فرأى ما فيها، وخَتمها بخاتم محمد بن إبراهيم، ثم قال له: نُجْحُ الحاجة أنْ تقيمَ عندنا اليوم. فقال له: إن في المُقام عليّ مشقة؛ فقال: ما يشقُّ عليك من ذلك؟ إنّ رأيْتَ أن تلبسَ شيئًا من ثيابنا دعوتُ به، وإلا أمرتَ بإحضار ثياب مَنْ منزلك. فأقام، ونهض الفضل، ودعا بوكيله، وأمره أن يحملَ المال ويسلمه إلى خادم محمد بن إبراهيم، ويسلمه الحقَّةَ بما فيها من الجوهر بخاتمه، ويأخذ خَطّه بذلك. ففعل الوكيل؛ وأقام محمد عنده إلى المغرب، وليس عنده شيء من الخَبَر.

ثم انصرف إلى منزله فرأى المال، وأحضر له الخادمُ الحقّة؛ فغدا على الفضل ليشكرَه؛ فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد؛ فوقف منتظرًا، فقيل له: قد خرج من الباب الآخر قاصدًا منزله. فانصرف عنه.

ولما وصل إلى منزله وجد أنّ الفضلَ قد وجّه إليه ألف ألف درهم أُخر، فغدا عليه وشكره وأطال؛ فأعلمه أنه بات ليلته وقد طالت عليه غَمًّا بما شكاه، إلى أنْ لقي الرشيد، فأعلمه حاله؛ فأمره بالتقدير له، ولم يزل يُمَاكِسُه[٢] إلى أن تقرر الأمرُ له على ألف ألف درهم، وأنه ذكر أنه لم يصلك بمثلها قط، ولا زادك على عشرين ألف درهم؛ فشكرته وسألته أن يكتب بها صَكًّا[٣] بخطه، ويجعلني الرسول.

فقال له محمد: صدق أمير المؤمنين، إنه لم يصلني قطّ بأكثر من عشرين ألف، وهذا إنما تهيأ بك، ولك، وعلى يديك، وما أقدر على شيء أقْضِي به

---

(١) الوزراء والكتاب: ١٩٦.

(٢) تماكسا في البيع: تشاجا.

(٣) الصك: الكتاب.

حقك، ولا على شُكْرٍ أُجازي به معروفَك، غير أنه «عليّ وعليّ»؛ وحلف أيمانًا موكدَة ـ إن وقفتُ عَلَى باب أحدٍ سواك، ولا سألتُه حاجةً أبدًا، ولو سفِفْتُ التراب!

فكان لا يركبُ إلى غير الفضل إلى أن حدث من أمر البرامكةِ ما حَدَث، فكان لا يركبُ إلى غير دار الخليفة، ويعودُ إلى منزله، فعُوتب بعد تقضّي أيامهم في تَرْك إتيان الفضل بن الربيع، فقال: والله لو عمرتُ ألف عام، ثم مَصِصتُ الثِّماد[1]، ما وقفتُ بباب أحَدٍ بعد الفضل بن يحيىٰ، ولا سألته حاجة حتى ألقى الله عزّ وجلّ!

ولم يزل على ذلك حتى مات.

تِيــهٌ وَكَرَم[2]

قيل للفضل بن يحيىٰ البرمكي: ما أحْسنَ كرمَك لولا تِيْهٌ فيك! فقال: تعلمتُ الكرمَ والتِّيْهَ من عُمَارة بن حمزة! فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: كان أبي عاملًا على بعض كُوَر بلاد فارس، فانكسرتْ عليه جُمْلةٌ مستكثرة، فحُمِل إلى بغداد، وطولبَ بالمال؛ فدفعَ جميعَ ما يملكه، وبقيت عليه ثلاثةُ آلاف ألف درهم لا يعرفُ لها وجهًا، والطلبُ عليه حَثيث، فبقيَ حائرًا في أمره.

وكانت بينه وبين عُمَارة بن حمزة منافرةٌ ومواحشة؛ لكنه علم أنه ما يقدر على مساعدته إلا هو، فقال لي يومًا وأنا صبيّ: امْض إلى عُمارة وسَلِّم عليه عني، وعرِّفه الضرورةَ التي قد صِرْنا إليها، واطلب منه هذا المبلغَ على سبيل القَرْض، إلى أن يستهل الله تعالى باليُسْر. فقلت له: أنت تعلم ما بينكما، فكيف أمضي إلى عدوِّك بهذه الرسالة وأنا أعلم أنه لو قدَر على إتلافك لأتلفك؟ فقال: لا بدّ أن تمضيَ إليه، لعلّ الله يسخِّره ويوقع في قلبه الرحمة!

قال الفضل: فلم تمكني مُعاوَدته، وخرجتُ وأنا أقدّم رجلًا وأُوخر أخرى، حتى أتيتُ دارَه، واستأذنتُ في الدخول عليه؛ فأذنَ لي، فلما دخلتُ وجدته في صَدْر إيوانه، متكئًا على مَفَارش وثيرة، وقد غلّف شعر رأسه ولحيته بالمسك، وَوَجهُه إلى الحائط ـ وكان من شدة تيهه لا يقعُدُ إلا كذلك ـ فوقفت أسفل

---

(١) الثماد: الماء القليل.

(٢) وفيات الأعيان: ٢ ـ ٤١٠.

الإيوان، وسلّمت عليه، فلم يردّ السلام، فسلمتُ عليه عن أبي، وقصصتُ عليه القصة، فسكت ساعة ثم قال: حتى نَنْظُر!

فخرجتُ من عنده نادمًا على نقل خُطايَ إليه، ومُوقنًا بالحرمان، عاتبًا على أبي أنْ كلفني إذلالَ نفسي بما لا فائدةَ فيه، وعزمتُ على ألّا أعودَ إليه غيظًا منه.

فغبتُ عنه ساعة، ثم جئتُه وقد سكن ما عندي. فلما وصلتُ إلى الباب وجدتُ بِغالًا محمَّلةً؛ فقلتُ: ما هذه؟ فقيل: إن عُمارةَ قد سَيَّر المال؛ فدخلتُ على أبي، ولم أخبره بشيء مما جرى لي معه كي لا أكدّر إحسانَه عليه.

فمكثنا قليلًا، وعاد أبي إلى الولاية، وحصلتْ له أموالٌ كثيرة؛ فدفع إليّ ذلك المبلغَ وقال: احمله إليه. فجئت به؛ ودخلتُ عليه فوجدتُه على الهيئة الأولى؛ فسلمتُ عليه فلم يردّ، فسلمت عليه عن أبي وشكرتُ إحسانَه، وعرفته بوصول المال؛ فقال لي بحَرَد[١]: ويحك! أقَسْطَارًا[٢] كنتُ لأبيك؟ اخرج عني، لا بارك الله فيك؛ وهو لكَ! فخرجتُ ورددْت المال إلى أبي، وعَجبنَا من حاله!!

جُودُ البرامِكَة[٣]

قال مُخَارِق:

أَذِن لنا أميرُ المؤمنين الرشيدُ أنْ نُقيم في منازلنا ثلاثةَ أيّام، وأعلمنا أنه مُشتغِل فيها؛ فمضى الجلساءُ أجمعون إلى منازلهم، وأصبحت السماءُ مُتغيِّمة تطِشُّ[٤] طشًّا خَفيفًا، فقلت: والله لأذهَبنَّ إلى أستاذي إبراهيم[٥] فأعرف خبَره ثم أعود.

فأمرتُ مَنْ عندي أن يسوُّوا مَجلسًا لنا إلى وقت رجوعي؛ فجئت إلى إبراهيم الموصلي، فإذا البابُ مفتوح، والدِّهْلِيز قد كُنِس، والبوّاب قاعد؛ فقلت: ما خبرُ أستاذي؟ فقال: ادخلْ، فدخلتُ فإذا هو جالس في رِواق له، وبين يديه قُدُور تُغَرْغِر[٦]، وأباريق تَزْهَر، والسِّتارة منصوبةٌ والجواري خَلْفها.

---

(١) الحرد: الغضب.
(٢) القسطار: الصيرفي.
(٣) الأغاني: ٥ ـ ١٧٨.
(٤) الطش: المطر الضعيف، وهو فوق الرذاذ.
(٥) إبراهيم بن إسحٰق الموصلي.
(٦) تغرغر: تصوت للغلي.

فدخلتُ أترنَّمُ ببعض الأصوات، وقلتُ له: ما بالُ السِّتارة لستُ أسمَعُ من ورائها صوتًا؟ فقال: اقعُد، وَيْحَك! إني أصبحتُ على الذي ظَننتَ، فأتاني خبرُ ضَيْعة تجاورُني، قد والله طلبتُها زمانًا وتمنَّيتُها فلم أمْلِكها؛ وقد أُعطِيَ بها صاحبُها مائة ألف درهم. فقلتُ: وما يمنعُك منها؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعافَ هذا المال وأكثر! قال: صدقت، ولكن لستُ أطِيبُ نفسًا أن أُخْرِجَ هذا المال؛ فقلت: فمن يُعطيك الساعة مائةَ ألف درهم؟ والله ما أطمعُ في ذلك من الرشيد، فكيف بمن دونه! فقال: اجلس، خذ هذا الصوت، ونَقَر بقضيب معه على الدواة وألقى عليّ:

نام الخليّون مَنْ همٍّ ومن سَقَم وبتُّ مِنْ كَثْرةِ الأحزان لم أنَم

يا طالبَ الجود والمعروفِ مجتهدًا اعْمِدْ ليحيىٰ حليفِ الجود والكرَم

قال مخارق: فأخذتُه فأحكمتُه؛ ثم قال لي: امْضِ الساعةَ إلى باب الوزير يحيىٰ بنِ خالد، فإنك تجدُ الناس عليه، وتجدُ البابَ قد فُتِح، ولم يجلس بعدُ، فاستأذِنْ عليه قبلَ أن يصلَ إليه أحد، فإنه سينكِرُ عليك مَجيئَك ويقول: من أين أقبلتَ في هذا الوقت؟ فحدِّثْه بقَصْدِك إياي، وما ألقَيْتُ إليك من خَبَرِ الضّيعةِ، وأَعْلِمْه أني صنعتُ هذا الصَّوْت وأعجبني، ولم أَرَ أحدًا يستحقه إلا فلانةَ جاريتَه، وأني ألقيتُه عليك حتى أحكَمْتَه لتطرحَه عليها؛ فسيدعو بها، ويأمر بالسِّتارة أن تُنصَب، ويُوضع لها كرسيّ، ويقول لك: اطرَحه عليها بحضرتي؛ فافعل، وأْتِني بالخبر بعد ذلك.

ففعَل كلَّ شيء قاله لي إبراهيم؛ وأَحْضر الجارية فألقيتُه عليها، ثم قال لي: تقيمُ عندنا يا أبا المهنَّأ أو تنصرف؟ فقلت: أنصرف أطال الله بقاءَك، فقد علمتُ ما أُذِنَ لنا فيه! قال: يا غُلام؛ احمل مع أبي المهنَّأ عشرة آلاف درهم، واحمل إلى أبي إسحٰق مائة ألف درهم ثمنَ هذه الضيعة؛ فحُمِلَتِ العشرة الآلاف إليّ، وأتيتُ منزلي، فقلت: أُسَرّ يومي هذا، وأُسِرُّ مَنْ عندي؛ ومضى الرسولُ إليه بالمال.

فدخلتُ منزلي، ونثرتُ على مَنْ عندي من الجواري دراهم من تلك البَدْرة، وتوسَّدْتُها وأكلتُ وشرِبت وطربت وسُرِرْتَ يومي كله.

فلما أصبحتُ قلتُ: والله لآتينَّ أستاذي ولأعْرِفَنَّ خبره، فأتيتُه فوجدتُ البابَ كهيئته بالأمس، ودخلتُ فوجدتُه على مثلِ ما كان عليه، فترنمتُ وطربت فلم يتلقَّ

ذلك بما يجب! فقلت له: ما الخبرُ؟ ألم يأتك المال؟ قال: بلى؟ فما كان خبرُك أنت بالأمس؟ فأخبرتُه بما وُهِبَ لي، وقلت: ما يُنتظر من خلف الستارة؟ فقال: ارفع السَّجْف[١]، فرفعته فإذا عشر بِدَر، فقلت: وأي شيء بقي عليك في أمْرِ الضَّيعة؟ قال: ويحك! ما هو والله إلا أن دخلتُ منزلي حتى شَحِحتُ عليها، فصارتْ مثل ما حويتُ قديمًا؛ فقلت: سبحان الله العظيم! فتصنَعُ ماذا؟ قال: ثم حتى أُلقيَ عليك صوتًا صنعتُه، يفوق ذلك الصوت. فقمتُ وجلستُ بين يديه، فألقى عليَّ:

ويَفرحُ بالمولود مِنْ آل بَرْمَكٍ بُغَاةُ النَّدى والسيفُ والرمحُ ذو النَّصلِ
وتنبسطُ الآمالُ فيه لِفضله ولا سيما إن كان من وَلَدِ الفَضْلِ

قال مخارق: فلمَّا ألقى عليَّ الصوت سمعت ما لم أسمع مثلَه قط، وصَغُر عندي الأول فأحْكَمتهُ؛ ثم قال: انهض الساعةَ إلى الفضلِ بن يحيىٰ، فإنك تجدُه لم يَأْذنْ لأحد بعدُ؛ فاستأْذِنْ عليه، وَحدِّثْه بحديثنا أمس، وما كان من أبيه إلينا وإليك، وأعْلمه أني قد صنعتُ هذا الصوتَ وكان عندي أرفع من الصوت الذي صنعتُه بالأمس، وأني ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه، ووجهتُ بك قاصدًا لتُلقيَه على فلانة جارِيته.

فصِرْتُ إلى باب الفضل، فوجدتُ الأمر على ما ذكر، فاستأذنْتُ فوصلتُ، وسألني: ما الخبرُ؛ فأخبرتُه بخبري في اليوم الماضي، وما وصل إليّ وإليه من المال؛ فقال: أَخْزَى الله إبراهيمَ فما أبخلَه على نفسه! ثم دعا خادمًا، فقال: اضرب السّتارة فضربها، فقال لي: أَلْقِه، فلما غنَّيْتُه لم أتمه حتى أقبل يَجُرُّ مِطْرَفَه[٢]، ثم قعد على وِسادة دون الستارة؛ وقال: أَحْسَنَ والله أُستاذُك، وأحسنتَ أنت يا مُخارق. فلم أخرج حتى أخذتْه الجارية وأحكمَتْه؛ فسُرَّ بذلك سرورًا شديدًا؛ وقال: أقِمْ عندي اليوم، فقلتُ: يا سيدي، إنما بقي لنا يومًا واحد، ولولا أني أُحِبُّ سرورَك لم أخرج من منزلي. فقال: يا غلامُ، احمل مع أبي المهنَّأ عشرين ألف درهم واحمل إلى إبراهيم مائتي ألف درهم.

فانصرفتُ إلى منزلي بالمال، ففتحتُ بَدْرَة، فنثرت منها على الجواري وشربتُ وسُرِرت أنا ومَنْ عندي يومنا.

---

(١) السجف: الستر. (٢) المطرف: الثوب فيه علمان.

فلما أصبحتُ بكّرتُ إلى إبراهيم أتعرَّف خبَرَه وأعرِّفه خَبَري، فوجدتُه على الحال التي كان عليها أوّلًا وآخِرًا، فدخلتُ أتَرَنَّمُ وأُصَفِّقُ، فقال لي: ادْنُ؛ فقلتُ: ما بقيَ؟ فقال: اجلس وارفع سَجْف هذا الباب، فإذا عشرون بَدْرَة مع تلك العشر؛ فقلت: ما تنتظر الآن؟ فقال: ويحك! ما هو والله إلا أن حصلتْ حتى جرَت مجرى ما تقدَّم. فقلت: والله ما أظن أحدًا نال في هذه الرتبة ما نلتَه! فَلِمَ تبخلُ على نفسك بشيء تمنيتَه دهرًا، وقد مَلَّكك الله أضعافَه؟!

ثم قال: اجلس فخذ هذا الصوت، وألقى عليّ صوتًا أنساني والله صوتَيَّ الأوَّلَيْن:

أفي كلّ يومٍ أنتَ صَبٌّ وليلةٍ ... إلى أمّ بكرٍ لا تفيقُ فَتُقْصِرُ
أُحِبُّ على الهِجْران أكْنَافَ بيتها ... فيالَكَ من بيتٍ يُحَبُّ ويُهْجَرُ
إلى جعفَر سارتْ بنا كلُّ جَسْرَةٍ ... طواها سُراها نحوَهُ والتهجّرُ[1]
إلى واسعٍ لِلمُجْتَدِينَ فِناؤه ... تروح عطاياه عليهم وتَبْكُر

قال مخارق: ثم قال لي إبراهيم: هل سمعتَ مثلَ هذا؟ فقلت: ما سمعت قطّ مثله، فَلَم يزل يردّدُه عليَّ حتى أخذتُه؛ ثم قال لي: امضِ إلى جعفر، فافعلْ به كما فعلتَ بأخيه وأبيه.

قال: فمضيتُ ففعلتُ مثلَ ذلك، وخبّرتُه ما كان منهما؛ وعرضتُ عليه الصوتَ، فسُرَّ به؛ ودعا خادمًا، فأمره بضَرْب الستارة وأحضر الجارية؛ وقعد على كرسي، ثم قال: هاتِ يا مخارق. فاندفعتُ فألقيت الصوت عليها حتى أخَذتْه؛ فقال: أحسنتَ والله يا مخارق، وأحْسَنَ أُستاذُك، فهل لك في المقام عندنا اليوم؟ فقلتُ: يا سيدي، هذا آخرُ أيامنا، وإنما جئتُ لموقع الصوت مني حتى ألقيتُه على الجارية، فقال يا غلام: احمل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلي ثلاثمائة ألف درهم.

فصرتُ إلى منزلي بالمال، فأقمتُ ومَن معي مسرورين نشرب بقيةَ يومنا ونَطرَبُ، ثم بكرتُ إلى إبراهيمَ فتلقاني قائمًا، وقال لي: أحسنتَ يا مخارق،

---

(١) الجسرة: الناقة العظيمة. السرى: السير بالليل، والتهجر: السير في الهاجرة، أي في نصف النهار عند اشتداد الحر.

فقلت: ما الخبر؟ فقال: اجلس فجلستُ، فقال لمنْ خلف الستارة: خذوا فيما أنتم فيه؛ ثم رفعَ السَّجْف فإذا المال، فقلتُ: ما خبرُ الضيعة؟ فأدخل يده تحت مِسْوَرة[1]، وهو متَّكىءٌ عليها، فقال: هذا صَكُّ الضَّيْعَة! سُئِل عن صاحبها فوُجد ببغداد، فاشتراها منه يحيىٰ بن خالد، وكتب إليَّ: قد علمت أنك لا تسخو نفْسًا بشراء الضَّيْعة من مالٍ يحصل لك؛ ولو حيزَتْ لك الدنيا كلها، وقد ابتعتُها لك من مالي، ووجهتُ لك بصكِّها؛ وهذا المال كما ترى.

ثم بكى، وقال لي: يا مخارق؛ إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثل هؤلاء، وإذا غنَّيت فغنّ لمثل هؤلاء، هذه ستمائة ألف وضيعة بمائة ألف، وستون ألف درهم لك حصلنا ذلك أجمع، وأنا جالسٌ في مجلسي لم أبرح منه، فمتى يدرَك مثل هؤلاء!

حُسن العَفْو[2]

قال محدِّث: مدَح شاعرٌ أبا حاتم كاتبَ الديوان فلم يَصِلْه بشيء؛ فأنشأ شعرًا يقول فيه:

لتُنْصِفَنّي يا أبا حاتِم أو لأصيرَنْ إلى حاكم

فاحتفظها صاحبُ الخبر، ورفعها إلى الرشيد[3]؛ فقال: صدَق! لولا أني نائمٌ ما كانت أموري تَجْري على هذه السبيل! وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه، فأول ما وَجَدَ على منصور بن زيادة عشرة آلاف ألف درهم!

فحدَّث صالح صاحبُ المصلّى، قال: دعاني الرشيد، وهو على كرسيّ، فقال: اذهب الساعةَ فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم، فإنْ لم يُؤَدِّها إلى المغرب فاضرب عنقَه، وجِئني برأسه؛ وأنا نفيٌّ[4] من المهدي لئن أنت دافعتَ عنه لأضربنَّ عنقك! قلت: يا سيدي، فإن أعطاني بعضها، ووقِّتَ لي في بعضها وقتًا؟ قال: لا!

فخرجتُ فأعلمتُه بالخبر، فأسْقِط في يده؛ وقال: ما أراد إلا قَتْلي، لأنه يعلم أنَّ مقدارَ ما لي لا يبلغُ ما به طالبني؛ ولكن تأذنُ لي أن أدخُلَ بيتي فأُودِّع أهلي! فأذنت له فدخل ودخلتُ معه، وبقيتُ واقفًا، فبعثَ إلى أمهات أولاده وبناتِه

---

(١) المسورة: الوسادة من الجلد.

(٢) المحاسن والمساوي: ٤٥٣.

(٣) انظر صفحة ١١٠.

(٤) فلان نفي: دعي، قد نفي.

ونسائه أن اخرُجنَ إليّ كما كنتُنَّ تخرجْن عند موتي، فإنّ هذا آخرُ أيامي؛ ولا سِتْرَ لكُنَّ بعدي!

فَخَرَجْنَ إليه مشقَّقات الجيوب، مخمَّشات الوجوه، بصُراخ شديد؛ فبكى إليهنّ، وبكيْنَ إليه، وبكيتُ معهنَّ، ثم ودَّعَهُنَّ وخرج، وهُنَّ في أثره وَاضعاتِ التربا على رؤوسهن.

ثم قال: يا أبا مُقَاتل؛ لو أذِنتَ لي في المصير إلى أبي عليّ يحيىٰ بن خالد البرمكي، فكنتُ أوصيه بولدي وأهلي! فقلت: امضِ!

وصِرْنا إليه، وقد نزل في ساعته، وهو على كرسيّ يغسِلُ يديه، فلما توسَّطنا الدارَ جعل منصور يبكي ويمشي إليه حتى دنا منه، وهو يسألُه عن الحال، فيمنعُه البكاءُ من إخْبَاره؛ فقصصتُ عليه قصتَه، فقال: ارجع إلى أمير المؤمنين، وسَلْه أن يَهبَه لي! قلت: ما إلى ذلك سبيل، ولا يراني إلا والمالُ معي أو رأس المنصور، كما أمرني!

فقال لخادم له: ائت فلانة فَسَلْها: كم لنا عندها من المال؟ فانصرف ورجع فذكر أنّ عندها خمسةَ آلآف ألف درهم! فقال لي: احملها. وأبلغ أمير المؤمنين رسالتي في باقيها. فأعلمتُه أن لا سبيلَ إلى حَمْلِ بعضها دون بعض، فأطرق، ثم رفع رأسه، ثم قال يا غلام: ائت دنانير فقل لها: تبعث إليّ بالجوهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين، فبعثَته إليه بحُقّة[1]، فقال: هذا جوهرٌ ابْتَعناه لأمير المؤمنين بمائتي ألف دينار، وهو عارفٌ به، وقد جعلتُه له بمائة ألف دينار، فاحمله إليه والرسالة، فأَبيتُ!

فوجه إلى الفَضْل ابنه: إنَّك كنتَ أعلمتَني أنك على ابتياع ضَيْعَة نفيسة، وقد أصبتُها، ولا يوجدُ مثلُها في كلّ وقتٍ، وابتياعُها فرصةٌ، فاحملُ إلى مالها، فعاد الرسولُ ومعه ألف ألف درهم!

ووجه إلى جعفر ابنه أنْ يوجّه إليه بألف ألف درهم، فأنفذ إليه صَكّا إلى الجِهْبِذِ[2] بها.

(١) وعاء من الخشب أو العاج أو غير ذلك مما يصلح أن ينحت منه.
(٢) الجهبذ: النقاد الخبير.

فقبضْتُ المال، ووافيتُ الرشيد قبل المغرب، وهو على حالته ينتظرُ رجوعي إليه، فأخبرتُه الخبر، فلما انتهيت إلى خبر الحقَّةِ، قال: صدقَ! وقد ظننت أنه لا يُنْجِيه غيرهم، احمل هذا المال أجمعَ إلى أبي علي، وارْدُدْه عليه، وأعْلمْه أني قد قبلتُ ذلك عن منصور، ورددتُه عليه! ففعلت ذلك.

ولقيني بعد ذلك يحيىٰ منصرفًا من الدار، ومنصورٌ معه يُسَايرُه ويضاحكه، والناسُ خَلْفَه، فقلت: والله لأنصحنَّ هذا الشيخَ الكريم، فدخلت معه، ودخل المنصور ودعا بغدائه؛ فلما نهض المنصور قلت: يا أبا علي؛ إني والله ما رجعْتُ إلا لنُصْحِك! وقد رأيت مكان هذا الرجل منك؛ وكنا حين حملت المال أنهضتُه معي، فوالله ما قطعَ نصفَ الصحن من الدار حتى تمثَّل بهذا البيت:

فما بُقْيَا عليَّ تركتماني ولكن خفْتما صَرَدَ[١] النِّبَال

فعارض أكرَم فعلك بألأم خصلةٍ فيه؛ فدعاني الامْتِعَاضُ من ذلك إلى إخبارك، فإني من تَعْلمُ في مَوَدَّتكَ وطاعتك!

فأكبَّ على الأرض ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: اعذره؛ فقد كان عقله عَزَب[٢] عنه في ذلك الوقت!

قال: فكان عذرُه له أحسنَ من إحيائه إياه.

أفضَل الأصحَاب[٣]

كان محمد بن حُمَيْد الطُّوسي على غَدائه يومًا مع جُلسائه، وإذا بصَيْحةٍ عظيمة على باب داره، فرفع رأسه، وقال لبعضِ غلمانه: ما هذه الضِّجة؟ مَنْ كان على الباب فَلْيدْخل!

فخرج الغلام، ثم عاد إليه، وقال: إن فلانًا أُخِذ وقد أُوثِق بالحديد، والغلمانُ ينتظرون أمرَكَ فيه؛ فرفع يده عن الطعام؛ فقال رجل من جُلَسائه: الحمد لله الذي أمْكَنكَ من عدوّك، فسبيله أن تَسقِيَ الأرضَ من دَمه؛ وأشار كلٌّ من جلسائه عليه بقتْله عَلَى صِفةِ اخْتارها، وهو ساكت!

(١) سرد الرمح صردًا: نفذ حده، أي خفتما أن تصيب نبالي.

(٢) عزب: بعد.

(٣) نهاية الأرب: ٦ ـ ٦٣، غرر الخصائص: ٢٣٩.

ثم قال: يا غلام؛ فُكَّ عنه وَثاقه، ويدخل إلينا مكرَّمًا.

فأُدخِل عليه رجلٌ لا دمَ فيه؛ فلما رآه هشَّ إليه، ورفع مجلسه، وأمر بتجديد الطعام. وَبَسَطه بالكلام، ولَقَّمه حتى انتهى الطعام، ثم أمر له بكُسْوةٍ حسنةٍ وصِلة، وأمر بردِّه إلى أهله مُكَرَّمًا، ولم يعاتبْه على جُرْمٍ ولا جناية.

ثم التفت إلى جلسائه، وقال لهم: إنَّ أفضل الأصحاب من حضَّ الصاحبَ على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم؛ وحسّنَ لصاحبه أن يجازيَ الإحسان بضعفِه، والإساءةَ بصفحه؛ إنا إذا جازَينا مَن أساءَ إلينا بمثل ما أساء فأين موقعُ الشكرِ على النعمةِ فما أُتيحَ من الظفر! إنه ينبغي لمنْ حضر مجالسَ الملوك أن يُمْسِكَ إلا عنْ قولٍ سَدِيد وأمْرٍ رشيد؛ فإن ذلك أدومُ للنعمة، وأجمع للأُلْفةِ. إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزَاب: الآيتان ٧٠، ٧١].

مَا وَلدتِ العَربُ أكرمَ منك[(١)]

قال الأصمعيّ: قصدتُ في بعض الأيام رجلًا كنتُ أغشَاهُ لكَرمه؛ فوجدتُ على بابه بوَّابًا؛ فمنعني من الدخول إليه؛ ثم قال: والله يا أصمعيّ ما أوْقفنِي على بابه لأمنع مثلك إلا لرقَّة حاله، وقصور يده؛ فكتبتُ رُقْعَةً فيها:

إذا كان الكريمُ له حِجابٌ ... فما فضلُ الكريمِ على اللئيم!

ثم قلتُ له: أَوْصِلْ رُقْعَتي إليه؛ ففعل وعاد بالرُّقعة، وقد وقّعَ على ظهرها:

إذا كان الكَريمُ قليلَ مالٍ ... تحجَّبَ بالحجابِ على الغريمِ

ومع الرّقعةِ صُرَّةٌ فيها خمسمائة دينار.

فقلت: والله لأُتحفَنّ المأمونَ بهذا الخبر؛ فلما رآني قال: من أينَ يا أصمعيّ؟ قلتُ: من عند رجلٍ من أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين.

قال: ومَنْ هو؟ فدفعتُ إليه الورقةَ والصُّرةَ، وأعدْتُ عليه الخبر. فلما رأى الصُّرَّةَ قال: هذا من بيتِ مالي، ولا بدّ لي من الرجل! فقلتُ: والله يا أمير

(١) ثمرات الأوراق للحموي: ١ ـ ٢٣٢.

المؤمنين إني أستَحْي أن تُرَوِّعه[١] برُسُلك، فقال لبعض خاصته: امْض مع الأصمعيّ؛ فإذا أراك الرجلَ، فقل له: أَجِبْ أميرَ المؤمنين من غير إزعاج!

فلمّا حضر الرجلُ بين يدي المأمون قال له: أنت الذي وقَعْتَ لنا بالأمس؛ وَشكَوْتَ رِقةَ الحال، وأن الزمان قد أناخ عليك بِكَلْكَلِهِ[٢] فدفَعْنَا إليكَ هذه الصُّرة لتُصْلِحَ بها حالَك، فقصدك الأصمعي ببيتٍ واحدٍ؛ فدفَعتَها إليه!

فقال: نعم يا أميرَ المؤمنين؟ والله ما كذبتُ فيما شكوتُ لأمير المؤمنين من رقَّةِ الحال؛ لكنني استَحْيَيْتُ من الله تعالى أن أُعيدَ قاصِدي إلّا كما أعادَني أميرُ المؤمنين.

فقال له المأمون: لله أنتَ! فما ولدت العربُ أكرمَ منك.

الأصمَعِي يطلب القِرَى[٣]

قال الأصمعيّ: سرتُ في تَطْوافي في العرب بجبلي طيّء؛ فدفعتُ إلى قوم منهم يَحْتلِبون اللبن، ثم يَصيحون: الضيفَ الضيفَ! فإن جاءَ مَنْ يضِيفُهم، وإلاَّ أراقوه، فلا يَذُوقون منه شيئًا دون الضيف إلا أن يَجهَدَهم الجوع.

ثم دَفَعتُ إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله، فسألْتُه القِرى، فقال: القِرى والله كثير، ولكن لا سبيلَ إليه، فقلت: ما أحسب عندك شيئًا؛ فأمَرَ بالجِفَان فأُخْرِجتْ مُكَرَّمة بالثريد، عليها وَذَرُ[٤] اللَّحم، وإذا هو جادٌّ في المَنْعِ؛ فقلت: واللهِ ما أشبهتَ أباك حيث يقول:

وأُبرِزُ قِدْري بالفناء، قليلُها ... يُرَى غيرَ مضنُونٍ به وكثيرُها

فقال: إلّا أُشْبِهْهُ في هذا؛ فقد أَشبهتهُ في قوله:

أمَاوِي إما مانع فَمُبيِّن ... وإمّا عطاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ[٥] الزَّجْرُ

فأنا والله مانعٌ مبيّن. فرحلتُ عنه.

(١) روعه: أفزعه.
(٢) الكلكل: الصدر، والمعنى: أنك في ضيق وشدة.
(٣) ذيل الأمالي: ١٠٩.
(٤) الوذرة من اللحم: القطعة الصغيرة لا عظم فيها.
(٥) ينهنهه: يكفه.

ودفعت إلى امرأةٍ من ولدِ ابن هَرْمة فسألتُها القِرَى، فقالت: إني والله مُرْمِلةٌ مُسْنِتَة[١]، ما عندي شيء، فقلت: أما عندك جَزُور؟ فقالت: والله ولا شَاة، ولا دُجاجة، ولا بَيْضَة! فقلت: أمَا ابنُ هَرْمة أبوكِ؟ فقالت: بلى والله! إني لمنْ صميمهم. قلت: قَاتلَ اللهُ أباك ما كان أكذبه حيث يقول:

لا أُمْتعُ العُوذَ[٢] بالفصَال ولا أُبْتَاعُ إلا قريبةَ الأجَلِ
إني إذا ما البخيلُ آمَنَها باتَتْ ضَمُوزًا منّي على وَجَلِ[٣]

وَوَلّيتُ، فنادت: ارْبَعْ أيها الراكب؛ فعْلُه والله ذلك أقله عندنا؛ فقلت: إلّا تكوني أوسَعْتِنَا قِرَى، فقد أوْسَعْتِنَا جوابًا!

لقد أمكَنَكَ اللهُ مِنَ الوَفَاء[٤]

قال صاحبُ شرطة المأمون: دخلتُ يومًا مجلسَ أميرِ المؤمنين ببغداد؛ وبين يديه رجلٌ مُكبَّلٌ بالحديد: فلمّار رآني؛ قال لي: يا عبّاس! قلت: لبّيك يا أمير المؤمنين!

قال: خُذْ هذا إليك، واحتفظ به، وبكِّر به إليّ في غد!

فدعوتُ جماعةً فحملوه ولم يقدرْ أن يتحرّك! فقلت في نفسي: مع هذه الوصيةِ التي أوصاني بها أميرُ المؤمنين من الاحتفاظ به يجبُ أن يكون معي في بيتي، فأمرتُهم فتركوه في مجلسٍ لي في داري.

ثم أخذتُ أسألُه عن قضيّته وعن حالِه، ومن أين؟

فقال: أنا من دِمَشق؛ فقلت: جزى الله دمشقَ وأهلَها خيرًا! فمن أنْتَ من أهلها؟ قال: وعمّن تسألُ؟ قلت: أتعرفُ فلانًا؟ قال: ومن أين تعرفُ ذلك الرجل! قلتُ: وقعت لي معه قضيَّة. فقال: ما كنتُ بالذي أعرِّفُك خبرَه حتى تعرِّفني قضيَّتك معه!

---

(١) أسنتت: أصابتها السنة، وهي الجدب. (٢) العوذ: الحديثات النتاج.
(٣) ضمز البعير: أمسك جرته في فيّه ولم يجتر.
(٤) المستطرف: ١ ـ ٢٤٠؛ العقد الفريد للملك السعيد: ٨١.

فقال: كنتُ مع بعضِ الولاة بدمشق؛ فبغى أهلُها، وخرجوا علينا حتى إن الوالي تدلّى في زنبيل[١] من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربتُ في جملة القوم.

فبينما أنا هاربٌ في بعض الدُّروب إذا بجماعة يغْدُون خلفي؛ فما زلتُ أغْدُو أمامهم، حتى فُتُّهُم؛ فمررتُ بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالسٌ على باب داره؛ فقلت: أغِثني أغاثَك الله! قال: لا بأسَ عليك! ادخل الدار؛ فدخلت، فقالت زوجتُه: ادخلْ تلك المقصورة[٢]؛ فدخلتُها، ووقف الرجلُ على باب الدار فما شعرتُ إلا وقد دخل، والرجالُ معه يقولون: هو والله عندك!

فقال: دونكم الدار، فتِّشوها؛ ففتَّشوها حتى لم يبقَ سوى تلك المقصورة، وامْرَأَتُه فيها؛ فقالوا: هو هنا! فصاحتْ بهم المرأة ونهَرَتهم؛ فانصرفوا.

وخرج الرجلُ وجلس على باب دارِه ساعةً، وأنا قائم أرجُف، ما تَحْمِلني رِجْلاي من شدَّة الخوف؛ فقالت المرأة: اجلس لا بأْس عليك! فجلستُ فلم ألْبث حتى دخل الرجلُ فقال: لا تخفْ، قد صرف الله عنك شرَّهم، وصِرْت إلى الأمْنِ والدَّعَة.

فقلت له: جزاك الله خيرًا! ثم ما زال يعاشِرُني أحسن معاشرة وأجملَها، وأفرَد لي مكانًا في داره، ولم يفتُر عن تفقُّد أحوالي.

فأقمتُ عنده أربعة أشهر في أرْغَدِ عيش وأهنئهِ إلى أن سكَنت الفتنةُ وهدأتْ وزال أثَرُها؛ فقلت: أتأذنُ لي في الخروج حتى أتَفَقَّدَ حال غلماني؛ فلعلي أقفُ منهم على خبر! فأخذ عليَّ المواثيق بالرجوع إليه.

فخرجتُ فطلبتُ غِلماني؛ فلم أرَ لهم أثرًا؛ فرجعتُ إليه وأعلمْتُه الخبر. وهو مع هذا كلِّه لا يعرفُني ولا يسألُني، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبُني إلا بالكُنْيَة.

ثم قال: عَلَام تَعْزِم؟ فقلتُ: عزمتُ على التوجّه إلى بغداد؛ فقال: القافلة بعدَ ثلاثة أيام؛ وهأنذا قد أعلَمْتُك!

---

(١) الزنبيل: القفة.

(٢) المقصورة: الدار الواسعة المحصنة أو هي أصغر من الدار، ولا يدخلها إلا صاحبها.

فقلت له: إنك تفضّلت عليّ هذه المدَّة، ولك عليّ عهدٌ ألا أنسى لك هذا الفضل ولأُكافئنَّك ما استطعت.

ثم دعا غلامًا له أسود، وقال له: أَسْرِج الفرس، ثم جَهّز آلةَ السفر؛ فقلت في نفسي: ما أظنُّ إلا أنه يريدُ أن يخرجَ إلى ضَيْعةٍ أو ناحيةٍ من النواحي؛ فأقاموا يومهم ذلك في كدٍّ وتعب.

ولما حان يومُ خروج القافلة جاءني السَّحَرَ[1]، وقال لي: قم، فإن القافلةَ تخرجُ الساعة، وأكرهُ أن تَنْفرِدَ عنها، فقلتُ في نفسي: كيف أصنعُ، وليس معي ما أتزوَّد به، ولا ما أَكْتَرِي به مركوبًا[2]! ثم قمتُ، فإذا هو وامرأتهُ يحملان أفْخَرَ الملابس، وخفَّين جديدين، وآلة السفر. ثم جاءني بسيف ومِنْطَقَة فشدّهما في وسطي، ثم قدّم بَغْلًا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فَرْش، وقدّم إليّ فرسًا، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك، ويَسُوسُ مركوبك.

وأقْبلَ هو وامرأتُه يعتذران إليّ من التقصير في أمري، وركب معي يشيّعني، وانصرفتُ إلى بغداد وأنا أتوقّعُ خبرَه، لأفِيَ بعهدي له في مجازاته ومكافأته، واشتغلتُ مع أمير المؤمنين، فلم أتفرَّغ أن أُرسِلَ إليه من يكشفُ خبره، فلهذا أسألُ عنه!

فلما سمع الرجُلُ الحديثَ قال: لقد أَمْكَنَك الله من الوفاءِ له، ومكافأتِه على فعله ومجازاتِه على صنيعِه بلا كُلْفة عليك، ولا مئونةٍ تَلزمُك.

فقلتُ: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضّرُّ الذي أنا فيه غيّرَ عليك حالي، وما كنتَ تعرفُه منّي.

فما تمالكْتُ أن قمتُ وقبّلْتُ رأسه، ثم قلتُ له: فما الذي أصارَك[3] إلى ما أرى؟ فقال: هاجَتْ بدمشق فِتنةٌ مثلُ الفتنةِ التي كانت في أيامك؛ فنُسِبَتْ إليَّ وبعث أميرُ المؤمنين بجيوش، فأصْلَحُوا البلد، وأُخِذْتُ أنا وضُرِبْتُ إلى أن أشرفتُ على الموت! وقُيِّدْتُ وبُعِثَ بي إلى أميرِ المؤمنينَ، وأمري عنده عظيمٌ، وخَطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا مَحَالَة!

---

(١) السحر: قبيل الصبح.

(٢) المركوب: ما يركب.

(٣) أصارك: صيرك.

وقد أُخْرِجْتُ من عند أهلي بلا وصيَّةٍ، وقد تَبِعَني من غِلْمَاني من ينصرفُ إلى أهلي بخَبَري، وهو نازلُ عند فلان، فإن رأيتَ أن تجعلَ من مكافأتك لي أن ترسلَ مَن يُحْضِرُه حتى أوصيَه بما أُريد! فإن أنتَ فعلتَ ذلك فقد جاوزتَ حدَّ المكافأة، وقمتَ لي بوفاء عهدك! قلتُ: يصنعُ الله خيرًا.

ثم أحْضَرَ العباس حدّادًا في الليل فكّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال(١)، وأدخله حمّام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سيَّر مَن أحضَرَ إليه غلامَه.

فلما رآه جعلَ يبكي ويوصيه؛ فاستدعى العباسُ نائبَه، وقال: عَلَيّ بالأفراس والهدايا، ثم أمره أن يشيّعه إلى حَدِّ الأنبار!

فقال له: إن ذَنْبي عند أمير المؤمنين عظيمٌ، وخَطْبي جسيم، وإن أنتَ احتججت بأنّي هربتُ بعثَ في طلبي كلّ مَن على بابه، فأُردّ وأُقتل.

فقال العبّاس: انجُ بنفسك ودَعْني أدبِّر أمري! فقال: والله لا أبرحُ بغداد حتى أعلمَ ما يكون من خبرك! فإن احتجْتَ إلى حضوري حضرت.

فقال العباس: إن كان الأمرُ على ما تقول، فلتكن في موضع كذا، فإن أنا سَلِمتُ في غداة غدٍ أعْلَمْتُك، وإن أنا قُتِلتُ فقد وَقَيْتُك بنفسي كما وقيتَني!

ثم تفرّغ العباس لنفسه، وتحنّط وجهّز له كفنًا.

قال العبّاس: فلم أفرغ من صلاة الصبح ألا ورسلُ المأمون في طلبي، وهم يقولون: هاتِ الرجل معك وقُمْ!

فتوجّهتُ إلى دار أمير المؤمنين؛ فإذا هو جالسٌ ينتظر. فقال: أين الرجل؟ فسكتُّ! فقال: ويحك! أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ اسمعْ منى. فقال: لله عليّ عهدٌ لئن ذكرتَ أنه هرب لأضْرِبَنَّ عُنقَك! فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هَرَبَ، ولكن اسمَعْ حديثي وحديثَه، ثم شأنك وما تريد أن تفعَله في أمري! قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ كان من حديثي معه كيت وكيتَ، وقَصَصْتُ عليه القصة جميعَها، وعرّفتُه أني أريدُ أن أفيَ له، وأكافئه على فعله معي، وقلت: أنا

---

(١) الأنكال: جمع نكل. قيد الشديد.

وسيدي ومولايَ أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفحَ عني؛ فأكون قد وفيتُ وكافأتُ وإما أن يقتلني فأقيَه نفسي، وقد تحنّطت، وها هو ذا كفني يا أمير المؤمنين!

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك، لا جزاك الله عن نفسك خيرًا؛ إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئُه بعد المعرفة بهذا؟ هلا عرّفتني خبرَه، فكنا نكافئُه عنك، ولا نقصّر في وفائك له!

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه هٰهنا وقد حلف ألا يبرحَ حتى يعرفَ سلامتي، فإن احتجت إلى حضوره حضر.

فقال المأمون: وهذه منّةٌ أعظمُ من الأولى، اذهبْ إليه الآن، فطيّب نفسه وسكّن رَوْعه، وائتني به حتى أتولّى مكافأته.

فأتيتُ إليه وقلت له: ليزُل خوفُك، إن أمير المؤمنين قال كذا وكذا!

فقال: الحمد لله الذي لا يحمدُ على السراء والضراء سواه؛ ثم قام وركب، فلما مَثَلَ بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه، وأدناه من مجلسه وحدّثه، حتى حضر الغداء فأكل معه، وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستعفى، فأمر له بصلةٍ وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به.

مِن جُود أبي دُلَف(١)

لما مرض أبو دُلَف بالعلّة التي مات بها أقام شهرًا ملازمًا الوِسَادة، فأفاق يومًا، فقال لخادمه بِشْر: كم لي على هذه الحال؟ قال: شهر. فلما سمع ذلك من بِشْر بكى كثيرًا، وقال: أيمرُّ عليّ من عمري هذه المدة لا أَبَرُّ فيها أحدًا من الناس! يا بشر؛ اخرج إلى الباب فإن قلبي يشهدُ أن بالباب قومًا لهم إلينا حوائج؛ فلا تمنع أحدًا من الدخول إلينا.

فخرج بشر، فإذا عشرة من أولاد أبي طالب، فأمرهم بالدخول، فدخلوا؛ فابتدر رجلٌ منهم، وقال: أصلَحك الله! نحن قوم من بني أبي طالب من أهل بيت رسول الله، وقد أحاطت بنا المصائب، وأجحفت بنا النوائب، فإن رأيتَ أن تجبر كَسْرنا، وتغني فَقْرنا، فعجِّل!

---

(١) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.

فقال لخادمه: خُذْ بيدي، فأجلِسني على ذاك الفراش، ففعل، ثم قال: ليأخذْ كل واحدٍ منكم ورقةً، وليكتب فيها بخطه: إنه قبض مني مائةَ ألف درهم. فتحيّروا عند قوله، فلما كتبوا الرقاع وضعوها بين يديه، فقال لخادمه: ائتني بالمال، فأحضره، فأعطى كلَّ واحد منهم مائة ألف درهم.

فلما تسلموا المال قال رجل منهم: بالآباء نفديك، وبالأمهات نقِيك! والله ما لنا مال ولا عقار، وخطُوطنا عندك ماذا تصنعُ بها! فبكى، وقال لهم: أتظنون أنها وثائقُ عليكم! لا والله، لا والله! ثم قال لخادمه: يا بِشر، إذا أنا متّ فاجعل الرقاع في أكْفاني ألْقَى بها محمدًا ﷺ يوم القيامة؛ ثم قال له: أعط كلّا منهم ألف درهم لنفقة طريقه. انصرفوا باركَ الله فيكم!

حُسْن المكَافأة(١)

حكى الحسنُ بن سهل، قال: كنتُ يومًا عند يحيىٰ بن خالد البرمكي، وقد خَلا في مجلسه لإحْكام أمرٍ من أمور الرشيد، فبينما نحن جلوسٌ إذ دخل عليه جماعةٌ من أصحاب الحوائج، فقضاها لهم؛ ثم توجَّهوا لشأْنهم، فكان آخرَهم قيامًا أحمدُ بن أبي خالد، فنظر يحيىٰ إليه، والتفتَ إلى الفضل ابنه؛ وقال: يا بني؛ إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثًا، فإذا فرغتُ من شغلي هذا فذكِّرْني أحدّثك به.

فلما فرغ من شغله وطَعِم قال له ابنُه الفضل: أعزَّك الله يا أبي؛ أمرْتني أن أُذَكِّرك حديث أبي خالد، قال: نعم، يا بني:

لما قِدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيرًا لا يملكُ شيئًا، فاشتدَّ بي الأمر، إلى أنْ قال لي مَن في منزلي: إنا كتمنا حالنا؛ وزاد ضررُنا، ولنا اليوم ثلاثةُ أيام ما عندنا شيءٌ نَقْتَاب به! فبكيتُ يا بنيّ لذلك بكاء شديدًا، وبقيت وَلْهَانَ حيران مُطْرِقًا مفكِّرًا.

ثم تذكَّرت مِنْدِيلًا كان عندي، فقلتُ لهم: ما حالُ المنديل! فقالوا: هو باقٍ عندنا. فقلتُ: ادْفَعُوه لي، فأخذتُه ودفعْته إلى بعض أصحابي، وقلتُ له: بِعْه بما تَيَسَّر، فباعَه بسبعَةَ عشر درهمًا، فدفعتُها إلى أهلي، وقلتُ: أنْفِقُوها إلى أن يرزق اللهُ غيرَها!

---

(١) المستطرف: ١ ـ ٢٣٩.

ثم بكّرتُ من الغدِ إلى باب أبي خالد، وهو يومئذ وزيرُ المهدي، فإذا الناسُ وقوفٌ على داره ينتظرون خروجَه؛ فخرج عليهم راكبًا، فلما رآني سلّم عليّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد؛ ما حالُ رجلٍ يبيعُ من منزله بالأمس منديلًا بسبعة عشرَ درهمًا! فنظر إليَّ نظرًا شديدًا؛ وما أجابني.

فرجعتُ إلى أهلي كسيرَ القلبِ، وأخبرتُهم بما اتَّفق لي مع أبي خالد، فقالوا: بئس والله ما فَعَلت! توجهت إلى رجلٍ كان يَرْتجيك لأمرٍ جليل؛ فكشفتَ له سِرَّك وأطْلَعْتَه على مكنون أمرك، فأزرَيْتَ[١] عنده بنفسك، وصغَّرت عنده منزلَتك، بعد أن كنتَ عنده جليلًا، فما يَراك بعد اليوم إلا بهذه العين! فقلت: قد قضى الأمرُ بما لا يمكن استِدْرَاكُه.

فلما كان من الغد بكّرتُ إلى باب الخليفة، فلما بلغتُ البابَ استقبلني رجلٌ، فقال لي: قد ذُكرتَ الساعةَ بباب أمير المؤمنين؛ فلم ألتفتْ لقوله، فاستقبَلني آخر، فقال لي: كمقالةِ الأول، ثم استقبلني حاجبُ أبي خالد، فقال لي: أين تكون؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين.

فجلستُ حتى خرج. فلما رآني دعاني، وأمر لي بدابَّة، فركبتُ، وسرتُ معه إلى منزله، فلما نزل قال: عليّ بفلان وفلان الحنّاطَيْن[٢]. فأحْضرا، فقال لهما: ألم تشتريا مني غلّاتِ السواد[٣] بثمانيةَ عشرَ ألف ألف درهم؟ قالا: بلى، قال: ألم أشترط عليكما شركةَ رجلٍ معكما! قالا: بلى. قال: هذا هو الرجل الذي اشترطتُ شَرِكَتَه لكما، ثم قال لي: قمْ معهما.

فلما خرجْنا، قالا لي: ادْخل معنا بعضَ المساجد حتى نكلِّمَك في أمرٍ يكونُ لك فيه الربح الهنيء؛ فدخلنا مسجدًا، فقالا لي: إنك تحتاجُ في هذا الأمر إلى وكلاء وأُمَنَاء وأعوان ومُؤن، لا تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيعَنا شركتَك بمال نعجّله لك، فتنتفعَ به، ويسقطَ عنك التعب والنَّصَب؟ فقلت لهما: وكم تبذلان لي؟ فقالا: مائةَ ألف درهم. فقلت: لا أفعل.

(١) أزرى به: حقره وهوّن من شأنه. (٢) الحناط: بائع الحنطة، وهي البر.
(٣) السواد: ما حوالي الكوفة من القرى.

فما زالا يزيداني، وأنا لا أرضى إلى أن قالا لي: ثلاثمائة ألف درهم، ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت: حتى أشاورَ أبا خالد. قالا: ذلك لك!

فرجعتُ إليه وأخبرتُه، فدعا بهما، وقال لهما: هل وافقتُما على ما ذَكَرَ؟ قالا: نعم. قال: اذهبا، فانْقُدَاه المال الساعةَ، ثم قال لي: اصلحْ أمرَك، وتهيَّأ، فقد قلدتُك العمل.

فأصلحتُ شأني، وقلّدَني ما وعدني به؛ فما زلت زيادةٍ، حتى صار أمري إلى ما صار.

ثم قال لولده الفضل: يا بني؛ فما تقولُ في ابْنِ مَن فعلَ بأبيك هذا الفعل؟ وما جزاؤه؟ قال: حقٌّ لعمري وجَبَ عليك له. فقال: والله يا ولدي ما أجد له مكافأةً؛ غير أني أعزلُ نفسي وأولِّيه.

رَجَوْتك دُون الناس (١)

قال أبو العَيْنَاء: حصلت لي ضِيقةٌ شديدة، فكتمتُها عن أصدقائي، فدخلت يومًا على يحيىٰ بن أكثم؛ فقال: إن أمير المؤمنين المأمونَ جلس للمظالم؛ فهل لك في الحضور؟ قلت: نعم! فمضيتُ معه إلى دار أمير المؤمنين؛ فلما دخلنا عليه أَجْلَسَه وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء؛ ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتُك دونَ الناس كلِّهم ... وللرجاءِ حقوقٌ كلُّها تَجِبُ
إن لم تَكُنْ ليَ أسبابٌ أعيشُ بها ... ففي العُلَا لك أخلاقٌ هي السَّبَبُ

فقال: يا سلامة؛ انظر أي شيء في بيت مالنا دُون مالِ المسلمين؟ فقال: بقية من مال! فادْفعْ إليه مائةَ ألف درهم، وابعثْ له بمثلها في كلِّ شهر!

فلما كان بعد أحد عشر شهرًا مات المأمون؛ فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرَّحت أجفانُه؛ فدخل عليه بعضُ أولاده، فقال: يا أبتاه! بعد ذهاب العين ماذا ينفعُ البكاء؟ فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيئان لو بكت الدماءَ عليهما ... عيناي حتى يُؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشَارَ من حقّيْهما ... فقدُ الشبابِ وفُرقَةُ الأحباب

(١) ثمرات الأوراق للحموي: ٢ ـ ٢٤٥.

عفّة الشَريفُ الرضيّ(١)

حكى أبو حامد بن محمد الإسفراينيّ الفقيهُ الشافعي، قال: كنتُ يومًا عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضيّ أبو الحسن فأعظَمه وأجلّه، ورفعَ من منْزِلته، وخلّى ما كان بيده من القِصَص والرّقاع، وأقْبلَ عليه يحادثُهُ إلى أن انصرف.

ثم دخلَ بعد ذلك المرتضى أبو القاسم، فلم يُعظِّمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يُوَقِّع بها، فجلس قليلًا، وسأله أمرًا فقضاه، ثم انصرف.

قال أبو حامد: فتقدّمت إليه وقلتُ له: أصلح الله الوزير! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلّم صاحبُ الفنون، وهو الأمثل الأفضل منهما، وإنما أبو الحسن شاعرٌ. فقال لي: إذا انصرفَ الناسُ، وخَلا المجلس أجبتُك عن هذه المسألة. قال: وكنتُ مجمعًا على الانصراف، فجاءني أمر لم يكن في الحُسْبَان، فدعت الضرورةُ لملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناسُ واحدًا فواحدًا.

فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحُجّابه دعا بالطعام، فلما أكلْنا وغسل يده وانصرفَ عنه أكثرُ غلمانه، ولم يبق عنده غيري، قال لخادم له:

هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذُ أيام، وأمرتكَ أن تجعلَهما في السَّفَط(٢) الفلانيّ. فأحضرهما فقال: هذا كتابُ الرضيّ، اتّصل بي أنه قد وُلِدَ له ولد، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار، وقلت: هذه للقَابلة ـ فقد جرت العادة أن يَحْمِلَ الأصدقاء إلى أخلّائهم، وذوي مودّتهم مثل هذا في مثل هذه الحال ـ فردَّها، وكتب إليَّ هذا الكتاب، فاقرأْه.

قال: فقرأته، وهو اعتذار عن الردّ، وفي جملته: إننا ـ أهلَ بيت ـ لا يطَّلع على أحوالنا قابلةٌ غريبة، وإنما عجائزنا يتولّين هذا الأمر من نسائنا، ولسنَ ممن يأخُذْن أجرة، ولا يقبلْن صِلَة.

---

(١) ابن أبي الحديد: ١ ـ ١٣.

(٢) السفط: الجوالق، أو كالقفة.

قال: فهذا، هذا. وأما المرتضى فإننا كنا قد وزَّعنا وقَسَّطنا[١] على الأملاك تقسيطًا نَصْرِفه في حفر فُوَّهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب مِلكًا للشريف المرتضى عشرون درهمًا، وقد كتب إليّ منذ أيّام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه؛ فقرأتُه، وهو أكثر من مائةِ سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالةِ والطلبِ والسؤال في إسقاط هذه الدراهم عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه.

قال فَخْر الملك: فأيّهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل؟ هذا العالم المتكلم الفقيهُ الأوحد، ونفسُه هذه النفس، أم ذلك الذي لم يُشْهر إلا بالشعر خاصة؛ ونفسهُ تلك النفس؟ قلت: وفَّق الله الوزير، فما زال موفّقًا، وما وضع الأمر إلا موضعه، ولا أحلّه إلا في محلّه.

أمِيـــن[٢]

قال أحد التجار: قصدتُ الحجَّ في بعض الأعوام، وكانت تجارتي عظيمةً، وأموالي كثيرة، وكان في وسطي هِمْيان[٣]، فيه دنانير وجواهر قيّمة، وكان الهمْيان من ديباج أسود.

فلمّا كنت ببعض الطريق نزلت لأقضيَ بعض شأني، فانحلَّ الهمْيان من وسطي، وسقط ولم أعلم بذلك إلا بعد أن سرتُ عن الموضع فراسخ، ولكنّ ذلك لم يكن يؤثّر في قلبي لما كنت أحتويه من غنًى، واستخلفتُ ذلك المال عند الله إذ كنت في طريقي إليه تعالى.

ولما قضيتُ حِجّتي[٤] وعُدْتُ، تتابعتِ المحنُ عليّ حتى لم أملك شيئًا! فهرَبت على وجهي من بلدي. ولما كان بعد سنين من فقري أفضيتُ إلى مكان وزوجي معي، وما أملك في تلك الليلة إلّا دانِقًا[٥] ونصفًا، وكانت الليلة مطيرة، فأويت في بعض القرى إلى خان خراب، فجاء زوجي المخاض فتحيّرتُ، ثم ولدتْ فقالت: يا هذا؛ الساعة تخرج روحي، فاتخذ لي شيئًا أتقوَّى به، فخرجتُ أخبط في الظلمة والمطر حتى جئت إلى بدَّال[٦] فوقفت عليه، فكلّمني بعد جهد،

---

(١) قسط الشيء: فرقه.
(٢) الفرج بعد الشدة: ٢ ـ ١٤.
(٣) الهميان: المنطقة.
(٤) الحجة (بالكسر) المرة الواحدة، وهي من الشواذ.
(٥) الدانق: سدس الدرهم.
(٦) البدال: بياع الأطعمة.

فشرحتُ له حالي، فرحمني وأعطاني بتلك القطع حلبةً وزيتًا وأغلاهما، وأعارني إناءً جعلتُ ذلك فيه، وجئت أريدُ الموضع، فلمّا مشيتُ بعيدًا وقربتُ من الخان زلقتْ رجلي، وانكسر الإناء وذهب جميع ما فيه؛ فوردَ على قلبي أمرٌ عظيم ما ورد عليَّ مثلُه قط! فأقبلتُ أبكي وأصيح؛ وإذا برجل قد أخرج رأسه من شبّاك في داره، وقال: ويلك! ما لك تبكي! ما تَدَعُنا أن ننام!

فشرحتُ له القصة، فقال: يا هذا؛ البكاء كله بسبب دانقٍ ونصف!

قال: فداخلني من الغمّ أعظم من الغمّ الأول، فقلتُ: يا هذا؛ والله ما عندي شيء لما ذهب منّي، ولكن بكائي رحمةً لزوجي ولنفسي؛ فإنَّ امرأتي تموتُ الآن جوعًا، ووالله لقد حججتُ في سنة كذا وكذا وأنا أملِك من المال شيئًا كثيرًا، فذهب منّي هِمْيان فيه دنانير وجواهر تساوي ثلاثة آلاف دينار، فما فكّرتُ فيه، وأنت تراني الساعة أبكي بسبب دانق ونصف، فاسأل الله السلامة؛ ولا تُعَايِرْني فتُبْلى بمثل بَلْوَايَ.

فقال لي: بالله يا رجل، ما كانت صفةُ هُمْيانك، فأقبلت أبكي، وقلت: ما ينفعُني ما خاطبتَني به أوَ ما تراه من جَهْدي[1] وقيامي في المطر حتى تستهزىء بي أيضًا! وما ينغني وينفعك من صفة هِمْياني الذي ضاع منذ كذا وكذا!

ومشيتُ؛ فإذا الرجل قد خرج وهو يصَيح بي: خذ يا هذا، فظننته يتصدّق عليّ، فجئت وقلت له: أيّ شيء تريد؟ فقال لي: صف هِمْيانك وقَبَض عليّ، فلم أجد للخلاص سبيلًا غير وصفه له، فوصفته فقال لي: ادخُلْ، فدخلتُ، فقال: أين امرأتك؟ قلتُ: في الخان، فأنفذ غلمانه فجاءوا بها، وأدخلتْ إلى حُرَمه[2]، فأصلحوا شأنها وأطعموها كلَّ ما تحتاج إليه وجاءوني بجُبة وقميص وعمامة وسَرَاويل، وأدخلتُ الحمام سحَرًا، وطرح ذلك عليّ، وأصبحتُ في عيشة راضية. وقال: أقم عندي أيامًا، فأقمتُ عشرة أيام، كان يعطيني في كل يوم عشرة دنانير، وأنا متحيِّر في عِظَم بِرّه بعد شدّة جفائه!

فلمّا كان بعد ذلك قال لي: في أي شيء تتصرّف؟ قلت: كنت تاجرًا، قال: فلي غلّات وأنا أعطيك رأس مال تتّجر فيه وتَشْركني. فقلت: أفعل، فأخرج لي

---

(١) الجهد: المشقة.
(٢) حرم الرجل: أهله.

مائتي دينار فقال: خذها واتَّجر فيها هٰهنا، فقلت: هذا معاش قد أغْناني به الله يجب أن ألزمه، فلزمتُه.

فلمّا كان بعد شهور ربحتُ فجئتُه وأخذت حقّي وأعطيتُه حقّه، فقال: اجلس؛ فجلستُ، فأخرج لي همياني بعينه وقال: أتعرفُ هذا؟ فحين رأيتُه شَهَقْتُ وأُغْمِي عليّ، فما أفقتُ إلا بعد ساعة! ثم قلت له: يا هذا؛ أَمَلك أنت أم نبيٌّ! فقال: أنا أحفظه منذ كذا وكذا سنة، فلمّا سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته، وطالبتك بالعلامة فأعطيْتَها أردتُ أن أُعطيكَ للوقت همیانك، فخفتُ أن يُغْشَى عليك، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهمتك أنها هِبَة، وإنما أعطيتُكها من همیانك؛ فخذ هِمْيانك واجعلني في حلّ! فشكرته ودعوتُ له.

وأخذت الهمْيان ورجعت إلى بلدي، فبعتُ الجوهر وضممت ثمنه إلى ما معي واتّجرتُ، فما مضت إلا سنيّات حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالي!

في البخل والشّحّ
وذكر البخلاء وأخبارهم

أحاديث نبوية في ذمّ البخل
والتحذير منه والاستعاذة بالله منه(١)

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش، وإياكم والشح، فإنّما أهلكَ مَن كان قبلكم الشح: أمرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، إياكم والشح، فإنه أهلك مَن كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

وعن أبي هريرة، أن النبيّ ﷺ قال: «إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش، وإياكم والظلم، فإنه عند الله ظلمة يوم القيامة، وإياكم والشح والبخل».

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «نجا أوّل هذه الأمة باليقين والزهد، وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع».

---

(١) كتاب البخلاء للخطيب البغدادي ص ٢٥ ـ ٦٠.

وعن شعيب بن العلاء، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ شهيدًا فبكته باكية، فقالت: واشهيداه! فقال النبيّ ﷺ: «وما يدريك أنه شهيد؟ فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه».

وعن عمر، أن النبيّ ﷺ كان يتعوّذ من خمس: «من البخل، والجبن، وفتنة الصدر، وعذاب القبر، وسوء العمر». لفظ ابن حنبل.

وعن مصعب بن سعد، عن سعد: أنّه كان يأمر بخمس، ويذكرهن عن النبيّ ﷺ: «اللهم! إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أردَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر».

وعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والجبن والبخل».

وعن عمر بن محمد بن جبير بن مطعم، أن محمد بن جبير قال: أخبرني جبير بن مطعم أنه بينا هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين علقت رسول الله ﷺ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ! فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدونني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا».

وعن سلمان بن ربيعة، قال: قال عمر: قسم النبيّ ﷺ فقلت: غير هؤلاء كانوا أحق به منهم، قال: «إنهم يخيروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني، ولست بباخل».

وعن أبي سعيد الخدري، قال: دخل رجلان على رسول الله ﷺ، فسألاه ثمن بعير، فأعطاهما دينارين، فخرجا من عنده فلقيهما عمر ابن الخطاب، فأثنيا، وقالا معروفًا، وشكرا ما صنع بهما. فدخل عُمر على رسول الله ﷺ! فأخبره بما قالا، فقال له رسول الله ﷺ: «لكن فلانًا أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك. إن أحدكم ليسألني، فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار». قال: فقال عمر: ولم تعطيهم ما هو نار؟ قال: «يأبون إلّا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل».

وعن جابر، قال: دخل رجلان على رسول الله ﷺ، فاستعانا في شيء، فأعانهما بدينارين، فدخل عليه عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله! رأيت فلانًا

وفلانًا خرجا من عندك، فإذا هما يثنيان خيرًا. قال: «لكن فلانًا ما يقول ذاك، وقد أعنته ما بين عشرة إلى مائة، فما يقول ذاك، فإن أحدكم يخرج بصدقته من عندي متأبطها، وإنما هي له نار». فقلت: يا رسول الله! وكيف تعطيه وقد علمت أنها له نار؟ قال: «فما أصنع؟ يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل».

وعن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن السخاء شجرة من أشجار الجنة، لها أغصان مدلاة في الدنيا؛ فمن كان سخيًا تعلّق بغصن من أغصانها، فساقه ذلك الغصن إلى الجنة. والبخل شجرةٌ من أشجار النّار، لهَا أغصان مدلاة في الدنيا. فمَن كان بخيلًا تعلق بغصن من أغصانها، فساقه ذلك الغصن إلى النّار».

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه؛ حديث السَّخاء والبخل، قال: فقال أبو عبد الله: ليس السخيُّ المبذر الّذي ينفق ما له في غيْر حقَّه، ولكنَّه الذي يؤدي إلى الله ما فرضه عليه في ماله من الزكاة وغيرها، والبخيل الّذي لا يؤدي حقَّ الله في ماله.

وعن جعفر بن محمد؛ عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدليات في الدنيا؛ فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة؛ والبُخْلُ شجرةٌ من أشجار النَّار، أغصانها متدلياتٌ في الدنيا؛ فَمَنْ أخذ بغصْن من أغصانها قاده ذلك الغصن إلى النار».

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجود من جود الله تعالى، فجودوا يجد الله لكم، ألا إن الله خلق الجود فجعله في صورة رجل، وجعل أسَّهُ راسِخًا في أصْل شجرة طوبى، وشد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى، ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة، إلا إنّ السخاء من الإيمانَ والإيمان في الجنة. وخلق البخل من مقته، وجعل أسّهُ راسخًا في أصْل شجرة الزقوم، ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله النار، ألا إنّ البخل من الكفر، والكفر في النار».

وعن عبد الله بن جراد، قال: قال رسول الله ﷺ: «السخاء شجرة تنبت في الجنة، فلا يلج الجنة إلّا سخي، والبخل شجرة تنبت في النار، فلا يلج النار إلّا بخيل».

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: «مثل المنفق والبخيل مثل رجلين عليهما جنّتان من حديد من لدن ثدييهما إلى تراقيْهما، فجعل المنفق ينفق، فاتسعت عليه الدرع، ومرّت تجن بنانه، وإن أراد البخيل أن ينفق قلصت، ولزمت كل حلقة مكانها، حتى أخذت بترقوته أو بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع».

وعنه أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جنتان أو جبتان من لدن ثدييهما إلى تراقيهما، فإذا أراد المنفق أن ينفق سبغت عليه الدرع، أو مرت تجن بنانه وتعفو أثره، وإذا أراد البخيل أن ينفق قلصت ولزمت كل حلقة موضعها حتى تأخذ بعنقه، أو ترقوته فهو يوسعها ولا تتسع».

وعنه أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من تراقيهما إلى ثدييهما ـ قال أحمد: إلى أيديهما ـ، فأما المنفق فلا ينفق نفقة إلا اتسعت حلقه، فهو يوسعها عليه، وأما البخيل فلا تزاد عليه إلّا استحكامًا».

وعن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «طعام السخي دواء» وقال التنوخيّ: «شفاء» ـ «وطعام الشحيح داء».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سيدكم يا بني لحيان؟» قالوا: سيدنا جدُّ بن قيس، إلّا أنه رجل فيه بخل، قال رسول الله ﷺ: «وأي داء أكبر من البخل؟».

وعن جابر، قال: جاء حيٌّ من الأنصار، يقال لهم: بنو سلمة، رهط معاذ بن جبل، فقال: «يا بني سلمة مَن سيدكم» قالوا: سيدنا جد بن قيس؛ وإنّا لنبخله. فقال النبيّ ﷺ: «وأيّ داء أدوى من البخل؟».

وعنه أيضًا، قال: قال النبيّ ﷺ لبني سلمة: «يا بني سلمة! من سيدكم؟» قالوا: جدُّ بن قيس، على أنّنا نبخله. قال: «وأي داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم الأبيض عمرو بن الجموح».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجدُّ بن قيس، ولكننا نبخله. قال: «وأيّ داء أدوى من البخل! ولكنّ سيدكم عمرو بن الجموح».

وعن أنس، قال: وقف رسول الله ﷺ على مجلس بني سلمة، فقال: «يا بني سلمة مَن سيدكم؟» قالوا: جد بن قيس، إلّا أنا نبخله. قال: «إن السيد لا يكون بخيلًا، بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح».

وعن عبد الله بن كعب، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني سلمة! مَن سيدكم؟» قالوا: الجدّ بن قيس، على أنّا نبخله. فقال: «وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم الجعد القطط عمرو بن الجموح».

وعن كعب بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: سيدنا جد بن قيس. فقال رسول الله ﷺ: «تسودونه؟» قالوا: إنه أكثرنا مالًا، وإنا على ذلك، لنزنه بالبخل. فقال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل؟ ليس ذلك سيدكم». قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال: «سيدكم بشر بن البراء».

وعن الزهري، قال: أخبرني عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ يعني كعبًا ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سيدكم يا بني سلمة؟» فقالوا: يا رسول الله! سيدنا جدُّ بن قيس. فقال: «وبما تسودونه؟» قالوا: لأنه أكثرنا مالًا، وإنّا على ذلك لنزنُهُ بالبخل. فقال رسول الله ﷺ: «فأي داء أدوى من البخل؟ ليس ذلك سيدكم». قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ فقال: «سيدكم البراء بن معرور».

وكان جوادًا سيِّدًا مُدافِعًا عن قومه، فقال شاعر بني سلمة:

أَجَدُّ بْنُ قَيْسٍ دَاوِ بُخْلَكَ؛ إِنَّهُ ... أَبَى لَكَ عِندَ المُصْطَفَى أَنْ تُسَوَّدَا

ولحسان بن ثابت:

وَقَـالَ رَسُـولُ الله والْحَـقُّ لَازِمٌ ... لمَنْ كان مِنَّا: مَنْ تُسَمُّونَ سَيِّدَا؟

فَقُلْنَا لَهُ: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ ـ عَلَى الَّذي ... نُبَخِّلُهُ فِينَا ـ وَقَدْ نَالَ سُؤْدُدَا

فَقَالَ: وَأَيُّ الدَّاء أَدْوَى مِنَ الَّذِي ... رَمَيْتُمْ بِهِ جَدًّا وَأَعْلَى بِهَا يَدَا؟

فَسَوَّدَ بِشْرَ بْنَ الْبَرَاءِ بِجُودِهِ ... وَحُقَّ لَبِشْرِ بْنِ الْبَرَا أَنْ يُسَوَّدَا

فَلَيْسَ بِخَاط خُطْوَةً لِدَنِيَّةٍ ... وَلَا بَاسط يَوْمًا إِلَى غَيْرِهِ يَدَا

إِذَا جَاءَهُ السُّؤَالُ أَنْهَبَ مَالَهُ وَقَالَ: خُذُوهُ؛ إِنَّهُ عَائِدٌ غَدَا
فَلَوْ كُنْتَ يَا جَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى الَّتِي عَلَى مِثْلِهَا بِشْرٌ لَكُنْتَ الْمُسَوَّدَا

وعن أبي ذر، قال: قال النبيّ ﷺ: «ثلاثة يبغضهم الله تعالى: البخيل والمنان والفاجر». أو قال: «التاجر الحلّاف، والفقير المختال».

وعن عليّ بن أبي طالب، عن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تعالى يبغض البخيل في حياته، السخي عند موته».

وعن أبي هريرة، عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «السخيُّ الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل».

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد».

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: سوء الخلق، والبخل».

وعن أبي عبد الرحمٰن السلمي، قال: لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلًا ولا جبانًا».

وعن جابر، عن أبي جعفر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلًا ولا جبانًا».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «السخي قريب من الله [تعالى]، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيدٌ من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار».

وعنه أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، وإنّ البخيل بعيدٌ من الله، بعيد من النّاس، بعيد من الجنة، قريب من النار؛ وجاهل سخيٌّ أحب إلى الله من عابد بخيل، وأدوى الداء البخل».

وعن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «السخي قريب من الله، بعيد من النار، قريبٌ من الجنة، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار؛ والجاهل السخيُّ أحب إلى الله من العابد البخيل».

وعنها أيضًا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «السخي قريب من الله، قريب من الخير، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الخير، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار؛ وجاهل سخيٌّ أحبّ إلى الله من عابد بخيل».

وعن علقمة بن وقاص، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «السَّخيُّ قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار. والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل».

وعن محمد بن إبراهيم التيمي، عن عائشة، أنَّ النبيّ ﷺ قال: «السخيُّ قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، والجاهل السخيُّ أحبُّ إلى الله من العابد البخيل».

وعن أبي بكر الصديق، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة خب، ولا بخيل، ولا لئيم، ولا منَّانٌ، ولا سيء الملكة».

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة دار الأسخياء، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة بخيل، ولا عاق والديه، ولا منّان بما أعطى».

وعن أبي الزاهرية، عن أبي شجرة، أن النبيّ ﷺ قال: «يقولون، أو يقول قائلكم: الشحيح أعذر من الظالم، وأي ظلم أظلم عند الله من الشح؟ حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله ألّا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل».

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ غرس جنة عدن بيده، وزخرفها، وأمر الملائكة فشقت فيها الأنهار، فتدلت فيها الثمار، فلما نظر إلى زهرتها وحسنها، قال: وعزَّتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي ما جاورني فيك بخيل».

المأثور عن المتقدمين في ذمّ البخل والبخلاء(١)

عن ابن عباس قال: «لما خلق الله تعالى جنّة عدن، قال لها: تزيني. فتزينت، ثم قال لها: أظهري أنهارك. فأظهرت عين السلسبيل، وعين الكافور،

(١) كتاب البخلاء للخطيب البغدادي.

وعين التسنيم. ففجر منها الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن. ثم قال لها: أظهري سررك وحجالك وكراسيَّك وحليّك وحللك وحور عينك. [فأظهرت] فنظر إليها، فقال: تكلمي، قالت: طوبى لمن دخلني! فقال الله تعالى: وعزّتي لا أسكنتك بخيلًا».

وعن سلمان الفارسي، قال: إذا مات السّخيُّ المعسر، قالت الأرض والحفظة: ربّ تجاوز عن عبدك لسخائه في الدنيا واستخفافه بها، وإذا مات البخيل، قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة الدائمة، كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا.

وعن الشعبي، قال: ما أدري أيهما أبعد غورًا في النار، الكذب أو البخل.

وعن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعت شيخًا أدرك الناس وهو يقول: ثلاثٌ هن أحسن شيء فيمن كنّ فيه: نصبٌ لغير دنيا، وجود لغير ثواب، وتواضع في غير ذل. وخمس هن أقبح شيء فيمن كن فيه: الحرص في العالم، والفسق في الشيخ، والبخل في الغني، والكذب في ذي الحسب، والحدةُ في السلطان.

قال في المستطرف(١): قالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: إن البخل لو كان قميصًا ما لبسته أو كان طريقًا ما سلكته.

بخلاء العرب

قيل: بخلاء العرب أربعة: الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة فمر به إنسان وهو على باب داره وبيده عصا، فقال: أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها.

وأما حميد الأرقط، فكان هجاء للضيفان فحّاشًا عليهم، نزل به مرة أضياف، فأطعمهم تمرًا، وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه.

وأما أبو الأسود، فتصدق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنّة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالًا منهم.

---

(١) المستطرف: ص ١٨٣ ـ ١٨٨.

وأما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار كم تعير وكم تطرف وتطير، لأطيلن حبسك. ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لِمَ لا تنفق، ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه، وأنشد بعضهم:

وهِبْني جمعت المالَ ثم خزنته   وحانت وفاتي هل أُزادُ به عمرا
إذا خَزّن المالَ البخيلُ فإنّه   سيورثه غمًّا ويعقبه وزرا[١]

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل، فقيل: هو محموم، فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتابًا في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره، «قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه». وقال ابن أبي فنن:

ذريني وإتلافي لمالي فإنّني   أُحبّ من الأخلاق ما هو أجملُ
وإنّ أحقّ الناس باللوم شاعرٌ   يلوم على البخل الرجال ويبخل

بخل عمر بن يزيد الأسدي

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلًا جدًا، أصابه القولنج[٢] في بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة وأسرج به.

بخل المنصور

وكان المنصور شديد البخل جدًا، مرّ به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج، فحدا له يومًا بقول الشاعر:

أغرّ بين الحاجبين نورُهُ   يزينه حياؤه وخيرُهُ[٣]
ومسكنه يشوبه كافوره   إذا تغدّى رُفعت ستورُهُ[٤]

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال: يا ربيع أعطه نصف درهم، فقال مسلم: نصف درهم! يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لي بثلاثين

(١) الوزر: الإثم والذنب.
(٢) القولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج التفل والريح.
(٣) أغر: أبيض منير. (٤) يشوبه: يخالطه.

ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم، يا ربيع: وكل به من يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

بخل أبي العتاهية ومروان بن أبي حفصة

كان أبو العتاهية، ومروان بن أبي حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل، قال مروان: ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لي المهدي، فوزنتها فرجحت درهمًا، فاشتريت به لحمًا.

واشترى يومًا لحمًا بدرهم، فلما وضعه في القدر دعاه صديقه، فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين، فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول: هذا لحم مروان، واجتاز يومًا بأعرابية، فأضافته، فقال: إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهمًا، فوهبه سبعين ألف درهم، فوهبها أربعة دوانق.

بخل أهل مرو

من الموصوفين بالبخل أهل مرو، يقال: إن عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسما المرق. وقيل لبخيل: مَن أشجع الناس؟ قال: مَن سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيىٰ؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبرًا، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر، ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟ وقد نظم ذلك من قال:

لو أن دارك أنبتتْ لك واحتشتْ　　إبرًا يضيق بها فناءُ المنزلِ
وأتاك يوسُف يستعيرك إبرةً　　ليخيطَ قدّ قميصهِ لم تفعلِ(١)

---

(١) قد قميصه: شقه.

بخل المتنبي

كان المتنبي بخيلًا جدًا مدحه إنسان بقصيدة، فقال له: كم أملت منا على مدحك؟ قال: عشرة دنانير. قال له: والله لو ندفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقًا.

بخل سهل بن هارون

قال دعبل: كنا عند سهل بن هارون، فلن نبرح حتى كاد يموت من الجوع، فقال: ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس، فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته، فقال: والله إني لأكره مَن يرمي برجله، فكيف برأسه؟ ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التي يضرب بها المثل، فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم نر عظمًا أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهبك ظننت أني لا آكله، أما قلت عنده مَن يأكله. انظر في أي مكان رميته فأتني به. فقال: والله لا أدري أين رميته، فقال: ولكني أنا أعرف أين رميته. رميته في بطنك، الله حسبك.

بخل أبي دلف

قيل من الناس مَن يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس. قال بعضهم في أبي دلف:

أبـو دلـفٍ يُـضيِّـع ألـفَ ألـفٍ ... ويضربُ بالحسام على الرغيفِ
أبـو دلـفٍ لـمـطـبـخـه قـتـارٌ ... ولـكـن دونـه سـلّ الـسـيـوف(١)

دواء وغذاء

اشتكى رجل مروزي صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة، ورأى الصبر على الوجه أخف عليه من الدواء، فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه، فوصف له ماء النخالة، وقال: إنه يجلو

(١) قتار: دخان ذو رائحة ينبعث من القدر والشواء وغير ذلك.

الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره ووجده يعصم، فلما حضر غداؤه أمر به، فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: اطبخي لأهل بيتنا النخالة فإني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدور. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء، فالحمد لله على هذه النعمة.

إسـراف

عن خاقان بن صبح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلًا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة، وقد علق فيها عودًا بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطًا؟ قال: قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره، فلا نجد إلا عودًا عطشانًا، ونخشى أن يشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود، فقال الرجل: يا فلان لقد فررت من شيء ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود، لِمَ لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضًا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراساني: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت في ذلك من المسرفين.

كن ضيفًا على الضيف

قال الهيثم ابن عدي: نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة، فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه، ثم رجع وكتب إليه:

يا أيها الخارجُ من بيته وهاربًا من شدة الخوفِ
ضيفك قد جاء بزادٍ له فارجع وكن ضيفًا على الضيف

ما أكثر السؤال في هذا المكان!

اشترى رجل من البخلاء دارًا وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثانٍ، فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك، ثم التفت إلى ابنته، فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان. قالت: يا أبت ما دمت مستمسكًا لهم بهذه الكلمة فما تبال كثروا أم قلوا.

بخل حميد الأرقط

ألأم اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له هجاء الأضياف، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت ... وبين أخرى تليها قيد أظفور

وقال فيه أيضًا:

تُجهز كفّاهُ ويحدر حلقُه ... إلى الزور ما ضمّت عليه الأنامل(١)

بخل أبي الأسود

أكل أعرابي مع أبي الأسود رطبًا فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فسقطت منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها، فقال الأعرابي: والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزل من السماء ما تركها.

أقوال وأشعار في البخل

وقال أعرابي: لنزيل نزل به: نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدم أو ارحل بندم وللحمدوني:

رأيتُ أبا زرارة يومًا ... لحاجبه وفي يده الحسامُ
لئن وُضِع الخوان ولاح شخصٌ ... لاختطفن رأسك والسلام(٢)
فقال سوى أبيك فذاك شيخ ... بغيضٌ ليس يردعه الكلام
فقام وقال من حنق إليه ... ببيت لم يُرد فيه القيام
أبي وَابْنَا أبي والكلبُ عندي ... بمنزلةٍ إذا حضر الطعام
وقال له ابن لي يا ابن كلب ... على خبزي أصادر أو أضام(٣)
إذا حضر الطعام فلا حقوقٌ ... علي لوالديَّ ولا ذمام
فما في الأرض أقبحُ من خوان ... عليه الخبز يحضره الزحام

---

(١) يحدر حلقه: يهبط. والزور: الصدر.
(٢) الخوان: الطعام وآنيته.
(٣) أضام: أظلم وأذل.

فأين هذا من القائل:

بخيل يرى في الجود عارًا وإنما ... يرى المرء عارًا أن يضنّ ويبخلا
إذ المرء أثرى ثم لم يُرج نفعه ... صديقٌ فلاقته المنية أوّلًا

وقال آخر:

وآمرةٌ بالبخل قلت لها اقصري ... فليس إليه ما حييت سبيلُ
أرى الناس إخوان الكريم وما أرى ... بخيلًا له في العالمين خليل

وقالوا إذا سألت لئيمًا شيئًا فعاجله ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعدًا وقال ربعي الهمداني:

جمعت صنوف المال من كلّ وجهةٍ ... وما نلتها إلّا بكفّ كريم
وإني لأرجو أن أموت وتنقضي ... حياتي وما عندي يدٌ للئيم

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق:

ممن تعلمت هذا أن لا تجود بشيء ... أما مررت بعبده، لعبد حاتم طي

ومما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب:

والتغلبي إذا تنحنح للقرى ... حكّ إسته وتمثّل الأمثالا(١)

وله أيضًا فيهم:

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدار
قوم إذا استنبح الضيفان كلبَهُمُ ... قالوا لأمّهم بولي على النار
فتمنع البولَ شحًا أن تجود به ... وما تبول لهم إلّا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندي عندهم ... والقمح خمسون إردبًا بدينار

فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر:

أبلجُ بين حاجبيه نوره ... إذا تغدى رفعت ستوره

---

(١) للقرى: للضيافة، وإسته: عجزه.

وقال بعضهم في بخيل:

أتانا بخيلٌ بخبزٍ له ... كمثل الدراهم في رقته
إذا ما تنفس حول الخوان ... تطاير في البيت من حقته[١]

وقال آخر:

تراهم خشية الأضياف خرسًا ... يقيمون الصلاة بلا أذان

وقال آخر وقد بات عند بخيل:

فبتنا كأنا بينهمُ أهلُ مأتمٍ ... على ميّتٍ مستودعٍ بطن ملحد
يحدّث بعضًا بعضنا بمصابه ... ويأمر بعضًا بعضنا بالتجلد

وقال آخر:

وجيرة لا ترى في الناس مثلَهُمُ ... إذا يكون لهم عيدٌ وإفطارُ
أن يوقدوا يوسعونا من دخانهم ... وليس يبلغنا ما تطبخ النارُ

وقال آخر وأجاد:

فصدق أيمانه إن قال مجتهدًا ... لا والرغيف فذاك البرّ من قسمه
فإن هممت به فاعبث بخبزته ... فإنّ موقعها من لحمه ودمه
قد كان يعجبني لو أنّ غيرته ... على جرادقةٍ كانت على حرمه[٢]

وقال آخر:

ذهب الكرام فلا كرام ... وبقي العضاريط اللئام[٣]
من لا يُقيل ولا ينيـ ... ـل ولا يُشَمّ له طعام

وقال آخر:

خليلي من كعبٍ أعينا أخاكما ... على دهره إنَّ الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه ... مخافة أن يرجى نداء حزين
إذا جئته في حاجة سدَّ بابه ... فلم تلقهُ إلَّا وأنت كمين

---

(١) حقته: أي الغضب.
(٢) الجرادق: الرغيان بالفارسية.
(٣) العضاريط: الخدم.

وقال آخر:

لـه يـومـان يـوم نـدى ويـومٌ يسل السيفَ فيه من القراب[١]
فـأمـا جـنـوده فـعـلى قـحـابٍ وأمـا سـيـفـه فـعـلى الـكـلاب

وقال آخر:

زففت إلى نبهانٍ من صفو فكرتي عروسًا غدا بطنُ الكتاب لها صدرا
فـقبّلها عـشرًا وهـام بـحبـهـا فلما ذكرت المهر طلّقها عشرا[٢]

وقال آخر:

لـو عبَرَ الـبـحـر بـأمـواجـه فـي لـيـلـةٍ مـظـلـمـة بـاردة
وكـفّـه مـمـلـوءة خـردلًا ما سقطتْ من كفه واحدة[٣]

وقال آخر:

يـا قـائـمًـا فـي داره قـاعـدًا من غـيـر مـعـنًى لا ولا فـائـدة
قد مات أضيافك من جوعهم فـاقـرأ عـلـيـهـم سـورة الـمـائـدة

وقال آخر:

نـوالـك دونـه شـوك الـقـتـاد وخـبـز كـالـثـريـا فـي الـبـعـاد[٤]
فـلو أبـصـرت ضـيـفًـا فـي مـنـام لـحـرمـت الرّقـاد إلـى الـعـبـاد[٥]

وقال آخر:

لا تـعـجـبـنّ لـخـبـز زلّ مـن يـده
فـالـكـوكـب الـنـحـس يـسـقـي الأرض أحـيـانـا

وقال ابن أبي حازم[٦]:

وقـالـوا قـد مـدحـت فـتًى كـريـمًـا فـقـلـتُ وكـيـفَ لـي بـفـتًـى كـريـمِ

---

(١) القراب: أي الغمد. (٢) المهر: ما يدفع للعروس من مال وغيره.
(٣) الخردل: نبات له حب صغير يستعمل في الطب وفي التوابل.
(٤) القتاد: نبات شوكه شديد الوخز. (٥) المعاد: القيامة.
(٦) ابن أبي حازم هو عبد العزيز بن سلمة بن دينار المدني، أبو تمام فقيه محدث. قال ابن حنبل: لم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه من أبي حازم.

بلوتُ ومرّ بي خمسون حولًا وحسبك بالمجرب من عليمِ[١]
فلا أحدٌ يعدّ ليوم خيرٍ ولا أحدٌ يجود على عديم

بخل محمد بن الجهم

من رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال: وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء وعشرة من الشعراء وعشرة من الأدباء تواطؤا على ذمي واستسهلوا شتمي حتى ينتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إلى أمل آمل ولا يبسط نحوي رجاء راجٍ.

وقال له أصحابه يومًا: إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة تعرفنا بها وقت استثقالك لمجالستنا، فقال: علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء.

خصـــام

قال عمر بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جارًا له، فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقًا لي زارني فاشتهى رأسًا فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس.

أنت صاحبها

قال رجل من البخلاء لأولاده: اشتروا لي لحمًا فاشتروه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطي أحدًا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أشمشمها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر[٢] فيها مقيلًا[٣] قال: لست بصاحبها. فقال الأوسط: ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدري أحد لعام هي أم لعامين. قال: لست بصاحبها، فقال الأصغر: يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفًا. قال: أنت صاحبها، وهي لك زادك الله معرفة وحزمًا.

---

(١) الحول: العام. (٢) الذر: صغير النمل.
(٣) القيل: مكان الاستراحة.

بخل أبي الأسود

وقف أعرابي على باب أبي الأسود وهو يتغدى، فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه، فقال له الأعرابي: أما إني قد مررت بأهلك، قال: كذلك كان طريقك. قال: وامرأتك حبلى. قال: كذلك كان عهدي بها. قال: قد ولدت. قال: كان لا بد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر. قال: ما كان ليبقى بعد موت أخيه. وقال: ماتت الأم. قال: حزنًا على ولديها. قال: ما أطيب طعامك. قال: لأجل ذلك أكلته وحدي ووالله لا ذقته يا أعرابي.

بخل أعرابي

قيل: خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعًا، فسأله عن أهله وقال: ما حال ابني عمير؟ قال: على ما تحب قد ملأ الأرض والحي رجالًا ونساءً. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضًا. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: قد ملأ الحي نبحًا، قال: فما حال جملي زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه وقال: ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الأعرابي ثم أقبل عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية أعد علي ما ذكرت، قال: سل عما بدا لك، قال: فما حال كلبي إيقاع؟ قال: مات. قال: وما الذي أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات. قال: أوَمات جملي زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير. قال: أوَماتت أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عمير. قال: أومات عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: سقطت عليه الدار. قال: أوسقطت الار؟ قال: نعم. قال: فقام له بالعصا ضاربًا فولّى من بين يديه هاربًا.

غلب على كل طبع أهله

حكى بعضهم قال: كنت في سفر فضللت عن الطريق فرأيت بيتًا في الفلاة فأتيته، فإذا به أعرابية فلما رأتني قالت: مَن تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلًا

ومرحبًا بالضيف انزل على الرحب والسعة، قال: فنزلت فقدمت لي طعامًا فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال: مَن هذا؟ فقالت: ضيف. فقال: لا أهلًا ولا مرحبًا ما لنا وللضيف، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتًا في الفلاة فقصدته، فإذا فيه أعرابية فلما رأتني قالت: مَن تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلًا ولا مرحبًا بالضيف ما لنا وللضيف؟ فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رآني قال: مَن هذا؟ قالت: ضيف. قال: مرحبًا وأهلًا بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مرّ بي بالأمس فتبسمت، فقال: مِمَ تبسمك؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي وإن بعلها أخو امرأتي هذه، فغلب على كلّ طبعُ أهله.

بُخل المنصور العباسي

كان المنصور بخيلًا ممسك اليد. حدّث الوضيء بن عطاء قال: استزارني أبو جعفر المنصور، وكانت بيني وبينه خلالة وصداقة قبل الخلافة. فصرت إلى مدينة السلام، فخلونا يومًا، فقال: يا أبا عبد الله: ما مالك؟ قلت: الخبر الذي يعرفه أمير المؤمنين. قال: وما عيالك؟ قلت: ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ. فقال لي: أربع نساء في بيتك؟ قلت: نعم.

وردّد المنصور عليَّ ثلاثًا حتى ظننت أنه سيموّلني. ثم رفع رأسه إليَّ وقال: أنت أيسر العرب والله! أربعة مغازل في بيتك؟!

ويُروى أن أبا دلامة دخل على المنصور فأنشده:

رأيتك في المنام كسوت جلدي ثيابًا جمّة وقضيت ديني
فصدِّق يا فدتك الناس رؤيا رأتها في المنام كذاك عيني

فأمر له بذلك وقال: لا تتحلَّم عليَّ ثانية، فأجعل حلمك أضغاثًا ولا أُحققه.

روى الأصفهاني أن المؤمل الشاعر قدم على المهدي بالري، وهو إذا ذاك ولي عهد، فامتدحه بأبيات، فمنحه المهدي عشرين ألف درهم. فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور. فكتب المنصور إلى المهدي يعذُلُهُ ويلومه.

وطلب الشاعر حتى أتيَ به. فقال المنصور له: أتيت غلامًا غرًّا كريمًا فخدعته فانخدع. أنشدني ما قلت فيه. فأنشده قصيدته التي منها:

هـو الـمـهـديُّ إلا أن فـيـه مشـابـه صورة الـقـمـر الـمـنـيـر
لـقـد سـبـق الـمـلوك أبوه حتى بـقـوا مـا بـيـن كـابٍ أو حـسـيـر
فـإن بـلغ الـصـغـيرُ مـدى كـبـيرٍ فـقـد خُلق الصـغيرُ من الكبير

فقال المنصور: أحسنت، ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم. يا ربيع أعطه أربعة آلاف، وخذ الباقي. ولما آلت الخلافة إلى المهدي حضر الشاعر ورفع له ظلامة بين رقاع المظالم فلما قرأها المهدي ضحك. وأعاد له ما أخذ منه وزاده أربعة آلاف[1].

كان مسلم الحادي ممن يجيدون الحداء، وقد حدا يومًا للمنصور حداء أطرب المنصور وأعجبه حتى ضرب برجله المحمل. ثم قال للربيع: يا ربيع أعطه عشرين درهمًا. فقال مسلم: يا أمير المؤمنين. والله لقد حدوت لهشام، فأمر لي بثلاثين ألف درهم. فقال المنصور: تأخذ المال من مال المسلمين ثلاثين ألف درهم من أجل حداء؟

يا ربيع، وكِّلْ مَن يستخلص منه هذا المال، قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروض المنصور فما سكت حتى قبِل مسلم على نفسه أن يحدو للمنصور في ذهابه وإيابه بغير مؤونة.

بخل أهل خراسان

قال الجاحظ: زعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل، وصبروا على الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر.

ثم إنهم تناهدوا وتخارجوا، وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل معهم في الدفع. فكانوا إذا جاء المصباح، شدُّوا عينيه بمنديل، ولا يزال، ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح. فإذا أطفأوه أطلقوا عينيه.

---

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

أبو جعفر الطرسوسي

زار أبو جعفر الطرسوسي قومًا فأكرموه وطيبوه، وجعلوا في شاربه وسبلته طيبًا.

فحكته شفته العليا، فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفة حتى لا تأخذ إصبعه من الغالية شيئًا إذا حكها من فوق.

إمام البخلاء

زعموا أن رجلًا قد بلغ في البخل غاية، وصار إمامًا، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم. خاطبه وناجاه، وفدّاه. وكان مما يقوله له: «كم من أرضٍ قد قطعت؟، وكم من كيس قد فارقت؟ وكم من خامل قد رفعت؟ ومن رفيع قد أخملت، لك عندي أن لا تعرى ولا تضحى» ثم يلقيه في الكيس، ويقول له: اسكن على اسم الله، في مكان لا تهان، ولا تزلّ ولا تزعج منه. وقيل: إنه لم يُدخل في كيسه درهمًا قط ثم أخرجه. وخرج مرة ومعه درهم ليشتري به، فرأى حوّاءً يحمل حية على كتفه لدرهم واحد فقط يأخذه، فقال صاحبنا لنفسه: أأتلف شيئًا تبذل فيه النفس بأكلة أو شربة؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله، فرجع إلى أهله وردّ الدرهم إلى كيسه، فكان أهله منه في بلاء، وكانوا يتمنون الخلاص منه بالموت والحياة بدونه، ولما مات وظن أهله أنهم استراحوا منه ومن بخله، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره، ثم قال: ما كان إدام أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما بالإدام، قالوا: كان يتأدم بجبنة عنده. قال: أرونيها. فإذا فيها حزٌ كالجدول من مسح اللقمة. قال: ما هذه الحفرة؟ قالوا: كان لا يقطع الجبن بل يمسحها بالخبز مسحًا.

قال: فبهذا أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد. ولو علمت ذلك ما صلّيت عليه. قالوا له: فأنت كيف تريد أن تضع؟ قال: أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة.

ديكة مرو

قال الجاحظ: لم أرَ الديك في بلدة إلّا وهو لاقطٌ يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدّام الدجاجة إلا ديكة مَرْوَ. فإني رأيت الديكة تسلب الدجاج ما في

مناقيرها من الحب. قال: فعلمت أنَّ بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثم عمَّ جميع حياتهم.

صبية مرو

حدّث أحمد بن رشيد قال: كنت عند شيخ من أهل مرو وصبيٌّ له صغير يلعب بين يديه. فقلت له إمَّا عابثًا أو ممتحنًا: أطعمني من خبزكم. قال: لا تريده فهو مُرّ. قلت: فاسقني ماءكم. قال: لا تريده هو مالح.

فصرت كل ما قلت له: هات من كذا. قال: هو كذا، إلى أن عددت له أصنافًا كثيرة وكل ذلك يمنعنيه.

فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا هذا مَن علَّمَهُ ما تسمع؟ يعني أن البخل طبعٌ فيهم وفي أعراقهم وطينتهم.

بخيلة فصيحة

قالت: أعرابية لابنها حين خاصمته إلى عامل الماء: أما كان لك بطني وعاء؟ أما كان لك حجري فناء؟ أما كان لك ثدي سقاء؟ فقال ابنها: أصبحت خطيبة، رضي الله تعالى عنك!

أقوال وأشعار في البخل

عبد الرحمٰن، يعني: ابن أخي الأصمعي، عن عمه، قال: سمعت أعرابيًا يقول: الحسدُ ما حقٌ للحسنات، والزهو جالبُ لمقت الله عزّ وجلّ ومقت الصَّالحين، والعجب صارفٌ عن الازدياد من العلم، داع إلى التخمُّط والجهل؛ والبخل أسوأ الأخلاق وأجلبها لسوء الأُحدُوثة.

قال عبد الله بن عمر بن لقيط:

مَا أَحْسَنَ الجُودَ مَعَ العُسْر وَأَقْبَحَ البخلَ مَعَ اليُسْرِ
لَيسَ يُواسِي النَّاسَ مِنْ مَالِهِ مَنْ حَدَّثَتْهُ النَّفْسُ بالفَقْرِ

وعن إسحٰق بن إبراهيم الموصلي مختلط قال: دخلت على هارون الرشيد، فقال لي: يا أبا إسحٰق! أنشدني شيئًا من شعرك، فأنشدته:

وَآمرَة بالبُخْل قُلْتُ لَهَا: اقْصري فَذَلكَ شَيْءٌ مَا إلَيْه سَبيلُ

أَرَى النَّاسَ خلَّانَ الْجَوَاد وَلَا أَرَى بَخيلًا لَهُ في الْعَالَمينَ خَليلُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْبُخْلَ يُزْري بِأَهْله فَأَكْرَمْتُ نَفْسي أَنْ يُقَالَ: بَخيلُ
وَمَنْ خَيْرِ حَالات الْفَتَى - لَوْ عَلمْته - إذَا نَالَ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ يُنيلُ
عَطَائي عَطَاءُ الْمُكْثرينَ تَكَرُّمًا وَمَالي - كَمَا قَدْ تَعْلَمينَ - قَليلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ أَوْ أُحْرَمُ الغنَى وَرَأيُ أَمير الْمُؤْمنينَ جَميلُ؟!

فقال الرشيد: لا، كَيْفَ إنْ شاء الله تعالى، يا فضل! أعْطِهِ مائةَ ألف درهم. ثم قال: لله درُّ أبيات تأتينا بها يا إسحٰق! ما أجود أصولهَا! وأحسن فصولها! فقلت: يا أمير المؤمنين، كلامُكَ أحسن من شعري، فقال: يا فضل! أعطه مائة ألف أخرى؛ فكان ذلك أول مال اعتقدته.

وعن أبي الحسن القرشي، قال: قال رجلٌ من العباد: صغر فلانٌ في عيني لعظم الدنيا في عينه، كان يرد السائل ويبخل النّائل.

وعن الأصمعي، قال: سمعت أعرابيًا وقد وصف رجُلًا، فقال: لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه، وكأنما يرى بالسائل إذا رآه ملك الموت إذا أتاه.

وعن أبي بكر محمد بن القاسم الأنباريّ، قال: أنشدني أبي

لَمَّا رَأَيْتُ السُّوَّالَ قَدَ كَثُرُوا وَالمَالُ قُوتُ يُمَسّكُ الرَّمَقَا
خَيَّرْتُ نَفْسِي بَيْنَ الخَصَاصَةِ وَالـ ـبُخْلِ، فَقَالَتْ نَصِيحَةً شفقَا
البُخْلُ عَارٌ يَبْقَى وَلا عَارَ لِلـ ـفَقْرِ، وَشَرُّ العُيُوبِ مَا لَصقَا
فَاخْتَارَتِ الفَقْرَ مِنْ تَكَرُّمِهَا وَقَالَتْ: البُخْلُ شَرُّ مَا خُلِقَا

وعن محمد بن سماعة قال: سمعت أبا يوسف يقول: سمعت أبا حنيفة يقول: لا أرى أن أعدل بخيلًا. فقيل له: وكيف؟ قال: يحمله البخل على التقصي، فيأخذ فوق حقه مخافة أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة.

وعن مليح بن وكيع، قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبا حنيفة يقول وقد ذكر عنده ذم البخيل وإسقاط شهادته: من أين قلت؟ فقال: سمعت عطاء بن رباح يقول: قال عليّ بن أبي طالب: والله ما استقصى كريم قط. قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۢ﴾ [التحريم: الآية ٣].

عن أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، قال: أنشدنا أحمد بن يحيىٰ، وأبي، واللّفظ في الروايتين مختلط، وأحدهما يزيد وينقص:

وَعـاذلَة هَبَّتْ عَـليَّ تَـلُومُـني ... وَلَمْ يَغْتَمِزْني قَبْلُ ذَاكَ عَذُولُ
تَقُولُ اتَّئِدْ لَا يَدْعُكَ النَّاسُ مُمْلِقًا ... وَتَزْرِ بِمَنْ ـ يَا ابْنَ الكِرَام! ـ تَعُولُ
فَقُلْتُ: أَبتْ نَفْسي عَلَيَّ كَريمَةً ... وَطَـارقُ لَيْـلٍ غَـيْـرَ ذَاكَ يَـقُـولُ
أَلَمْ تَعْلَمِي ـ يَا عَمْرَكِ الله أَنَّني ... كَرِيمٌ عَلَى حِيْنَ الكِرَامُ قَلِيلُ؟
وَإِنِّي لَا أَخْزَى إِذَا قِيلَ: مُمْلِقٌ ... سَخِيٌّ وَأَخزَى أَنْ يُقَالَ: بَخيلُ

قال أبو العيناء: حضرت بعض إخواني من الأدباء وهو يجود بنفسه يردد شعرًا حتى مات:

يَرَى الحُرُّ أَحْيَانًا إِذَا قَلَّ مَالُهُ ... مِنَ الجُود سَاعَاتٍ فَلا يَسْتَطِيعُهَا
وَمَا ذَاكَ عَنْ بُخْلٍ وَلَكنَّ وُجْدَهُ ... يُقَصِّرُ عَنْهَا وَالْبَخِيلُ يُضِيعُهَا

أبو العتاهية:

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصَّديق لقَاؤُهُ ... وَأَخُو الحَوائجِ وَجْهُهُ مَمْلُولُ
وَأَخُوكَ مَنْ وَفَّرْتَ مَا في كيسه ... فَإِذَ عَبَثْتَ بِه فَأَنْتَ ثقيلُ
يَلْقَاكَ بالتَّعْظِيم مَا لَمْ تَرزَهُ ... فَإِذَا رَزَأْتَ أخًا فَأَنْتَ ذَلِيلُ
وَالْمَوْتُ أرْوَحُ منْ سُؤالكَ باخلًا ... فَتَوَقَّ لَا يَمْنُنْ عَلَيْكَ بَخيلُ
هَبَةُ البَخيل شَبيهَةٌ بطبَاعه ... فَهُوَ الْقَليلُ وَمَا يُنيلُ قَليلُ
وَالْعزُّ في حَسْم المَطَامع كُلِّهَا ... فَإن اسْتَطَعْتُ فَمُتْ وَأَنْتَ نَبيلُ

وقـال:

مَـنْ لَمْ يَكُـنْ لَكَ مُـنْصِـفًا ... فـي الـوُدِّ فَـابْـغ بـه بَـديـلًا
وَعَـلَيْـكَ نَـفْـسَـكَ فَـازعَـهَا ... وَاكْسَبْ لَهَا حِمْلًا ثَقيلًا
وَمَـنْ اسْـتَـخَـفَّ بِـنَـفْـسـه ... كَـسَـبَـتْ لَهُ قَالًا وَقيلًا
اصْرفْ بطَرْفكَ حَيْثُ شئْـ ... ـتَ، فَلَا تَرَى إِلَّا بَخيلًا
وَلَرُبَّمَا سُئلَ البَخيـ ... ـلُ الشَّيْءَ لَا يَسْوَى فَتيلًا
فَيَقُولُ: لَا أَجدُ السَّبيـ ... ـلَ إلَيْه، أكْرَهُ أَنْ أُنيلًا

عن أبي بكر، قال: سمعت خالي أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، يقول: ما بقي من اللذات إلا ثلاث: ذمُّ البخلاء، وأكلُ القديد، وحك الجرب.

وقال بشر بن الحارث: البخيل لا غيبة له. قال النبيّ ﷺ: «إنك لبخيل» ومدحت امرأة عند النبيّ ﷺ فقالوا: صوامةٌ، قوامةٌ، إلا أن فيها بخلًا، قال: «فما خيرها إذًا؟».

وعن الحسين ابن الحسن المروزي، قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا سفيان بن عيينة، حدّثني صدقة بن يسار، أخبرني أبو جعفر أنه ذكر لرسول الله ﷺ امرأة صوَّامة قوامة مصلية، امرأة صدق، غير أنها بخيلة، فقال: «فما خيرها إذًا».

وعن صدقة بن يسار، عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: ذكر للنبيّ ﷺ امرأ متعبدة، فقيل: إنها بخيلة، قال: «فما خيرها إذًا».

وعن الجسن بن عمرو الشيعي السبيعي قال: سمعت بشر بن الحارث، يقول: صاحبُ زيغ سخيٌ، أخفُّ على قلبي من عابد بخيل. زاد ابن بشران: والنظر إلى البخيل يقسي القلب.

وعن حسين الأنماطي، قال: سمعت بشر بن الحارث، يقول: بقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين.

وعن إسماعيل بن الحسين المذكر القزويني، قال: سمعت يحيىٰ بن معاذ يقول: يأبى القلب للأسخياء إلّا حبًا ولو كانوا فجارًا، وللبخلاء إلّا بغضًا ولو كانوا أبرارًا.

وعن محمد بن موسى السمري، قال: أنشدنا حماد بن إسحٰق الموصلي، للخليل بن أحمد:

مَـا أَقْـبَـحَ الـنُّـسْـكَ بِـسَـئَّالِ! وَأَقْـبَـحَ الـبُـخْـلَ بِـذِي الـمَـالِ!
وَالْحِـرْصُ مِـنْ شَـرِّ أَدَاةِ الـفَـتَـى لَا خَـيرَ فِي الحِـرْصِ عَلَى حَـالِ
وَأَقْـبَـحَ الـثَّـرْوَةَ إِنْ لَـمْ تَـكُـنْ عِـنْـدَ أَخـي جُـود وَإِفْـضَـالِ!
مَـنْ بَـاتَ مُـحْـتَـاجًـا إِلَى أَهْـلِهِ هَـانَ عَـلَى ابْـنِ الْعَـمِّ وَالْخَـالِ
مَـا وَقَـعَ الْوَاقِـعُ فِـي وَرْطَـةٍ أَزْرَتْ بِــهِ مِــنْ رِقَّــةِ الْحَــالِ

وقال عبد الله بن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.

وعن ثعلب، عن ابن الأعرابي يعني أنه أنشد:

تَكَامَلَ فِيهِ الجُودُ والْبُخْلُ فَاعْتَلَى   بفَضْلَيْهِمَا وَالْبُخْلُ بِالْمَرْءِ قَدْ يُزْرِي

أراد الجودَ بماله، والبخل بعرضه، والبخل الثاني ضد السخاء.

وعن أبي عبيد الله المرزباني، قال: أنشدنا أبو الحسن عليّ بن سليمان الأخفش، قال: أنشدنا أبو العباس محمد بن يزيد، عن أبي محلم، لعباس المشوق، هكذا في أصل المرزباني مضبوط:

قَالَ الْبَخِيلُ: أَنَا أَسْودُ عَشِيرَتِي   بِدَرَاهِمِي وَبِكِسْوَتِي وَمَوَاكِبِي
فَأَجَابَهُ أَدْنَى الْعَشِيرَةِ كُلِّهَا   نَسَبًا إِلَيْهِ فِي الحَرَامِ الْكَاذِبِ

وعن العباس ابن العباس الجوهري، قال: أنشدنا أبو عبد الله الصوفي لنفسه:

الْبُخْلُ شُؤْمٌ وَلَهُ قَسْوَةٌ   وَكُلُّ مَا ضَرَّ فَمَذْمُومُ
قَدْ فَازَ مَنْ كَانَتْ لَهُ نِعْمَةٌ   تَظْهَرُ وَالْمَعْرُوفُ مَكْتُومُ
أَمْوَالُهُ يُنْفِقُهَا رَاضِيًا   وَهُوَ بِشُكْرِ الله مَوْسُومُ
وَآخَرُ يَحْرُسُ أَمْوَالَهُ   مُوَكَّلٌ بِالْجَمْعِ مَهْمُومٌ
قَدْ عَدِمَ اللَّذَّاتِ فِي ذَوْقِهِ   كَأَنَّهُ الكَشْحَانُ مَحْمُومُ

وعن عبد الله بن خبيق، قال: لقي يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام إبليس في صورته، فقال: يا إبليس! أخبرني بأحبّ الناس إليك، وأبغض الناس إليك. قال: أحب الناس إليّ المؤمن البخيل، وأبغضهم إليّ الفاسق السمحُ. قال يحيىٰ: وكيف ذلك؟ قال: لأن البخيل قد كفاني بخله، والفاسق السخيّ أتخوف أن يطّلع الله عليه في سخائه فيقبله. ثم ولّى وهو يقول: لولا أنك يحيىٰ لم أخبرك.

وعن أحمد بن محمد بن عيسى المكي، قال: أنشدنا أبو العيناء:

لَحَجْلٌ هَكَذَا مَيْلًا   عَلَى رِجْلَيْنِ أَوْ رِجْلِ
وَوَطْءُ الحَسَكِ المُلْقَى   بِلَا خُفٍّ وَلَا نَعْلِ
وَمَشْيٌ فِي اللَّيَالِي القُرْ   رِ فِي المَاءِ وَفِي الوَحْلِ
وَشُرْبُ المُسْكِرِ المُرِّ الْـ   ـلَذِي يَذْهَبُ بِالعَقْلِ

وَإِقْـدَامٌ عَـلَى الـلَّيْـث ... مَـعَ الـلَّبْـوَة وَالـشِّـبْـل
لَنَـا أَصْـلَحُ مِـنْ أَنْ نُـنْـ ... ـزِلَ الـحَـاجَـةَ بِـالـنَّـذْل

وعن طاهر بن عبد الله قال: كان ببغداد أخوان يقال لأحدهما: عقبة، وكان من أجود الناس. ويقال للآخر: عيسى، وكان من أبخل الناس. فقال فيهما ابن بسّام الشاعر:

لَمْ يَدْرِ مَا كَرَمٌ عِيسَى فَلِيمَ كَمَا ... لَمْ يَدْرِ عُقْبَةُ مَا لُؤمٌ فَلَمْ يُلَمِ
فَزُهْدُ عُقْبَة فِي «لا» حِينَ نَسْأَلُهُ ... كَزُهْدِ عيسَى إذا ما سِيلَ فِي «نَعَمِ»

وعن أبي القاسم عبيد الله بن علي بن عبيد الله الرقي، قال: قرأت بخط أبي عليّ الفارسي مكتوبًا:

وَقَـائِـلٌ: «لا» أَبَـدًا ... إنْ جَـدَّ أَوْ إنْ هَـزَلا
حَـتَّـى إذَا اضْـطُـرَّ إلـى ... قَـوْلِ: «نَـعَـم» قَـالَ: «بَـلَى»
تَـأَنُّـسًـا مِـنْـهُ بِـمَـا ... تَـضَـمَّـنَـتْ مِـن ذِكْـرِ: «لَا»

وعن أبي علي الحسين بن القاسم الكوكبي، قال: قال لي أبو العباس المبرد: قيل لأبي الحارث جمين: لو لقيت فلانًا لَحبَاكَ ونالَك ببرٍّ، واستظرفَكَ. قال: قد أتيته فوجدته ألفًا. قال: وما ألفٌ؟ قال: ألفٌ نصف «لا» وهو ثلث «لاش».

قال: وقيل له مرة: بلغنا أنك صرت إلى نصر بن رستم، فكيف وجدته؟ قال: مشجب. قيل: وما معنى مشجب؟ قال: من أين أتيته رأيت (لا).

وعن عليّ بن سلام أبو الحسن القطان الهروي، قال: حدَّثني روح بن عمر العامري، قال: كنت مع أبي وهب، فسأل رجلًا من أهله حاجة، فبخل بها عنه فأنشد أبو وهب يقول:

إِذَا أَنَـا لَمْ أُثْـنِ بِـخَـيْـرٍ عَـلِمْـتُـهُ ... وَلَمْ أَذْمُمِ الرِّجْسَ الْبَخِيلَ المُذَمَّما
فَفِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ باسْمِهِ ... وَشَقَّ لِيَ الله المَسامِعَ وَالفَمَا؟

قال محمد بن المنكدر: كان يقال: إذا أراد الله تعالى بقوم شرًا أمر عليهم شرارهم؛ وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم.

وعن إبراهيم بن أبي عبلة، قال: سمعت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول: أف للبخل، لو كان البخل قميصًا ما لبسته، ولو كان طريقًا ما سلكته.

وقال الواعظ: والله لو كان البخل طريقًا ما سلكته، ولو كان ثوبًا ما لبسته.

قال أبو عمير: هذا يسوي خمسين حديثًا. هذا مما سألني عنه يحيىٰ بن معين.

وعن عبيد الله بن محمد التميمي، قال: أنشدني بعض الكرام بيتًا فقلت: ما هو يا أبا عبد الرحمٰن؟! قال:

لَهُ دَيـنٌ وَلَيْـسَ عَـلَيْـهِ دَيْـنٌ ... وَذَاكَ عَـلامَـةُ الـرَّجُـلِ الْبَـخِـيـلِ

لا أتقيأ طباهجة ببيض أبدًا

قال عمر: حدّثنا ناجية بن عبد الله البصري، قال: كان عندنا بالبصرة رجل ميسر، وكان بخيلًا على نفسه وعلى عياله، فدعاه بعض جيرانه، فوضع بين يديه طباهجة[1] ببيض، فأكل، فأكثر، وجعل يشرب الماء، فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى، فلما أجهده الأمر، وخاف الموت على نفسه، بعث إلى جار له متطبب، فدخل عليه، فقال: ما حالك؟ قال: أكلت طباهجة ببيض، وشربت ماءً كثيرًا، وقد نزل بي الموت. فقال: لا بأس عليك، قم فتقيأ ما أكلت وقد برئت. فقال: ها! أتقيأ طباهجة ببيض؟ أموت ولا أتقيأ طباهجة ببيضٍ أبدًا.

وقال حماد عجرد:

زرْتُ امْـرَأً فـي بَـيْـتِـهِ مَـرَّةً ... لَهُ حَـيَـاءٌ وَلَهُ خَـيْـرُ
يَـكْـرَهُ أَنْ يُـتْـخَـمَ زُوَّارُهُ ... إنّ أذَى الـتُّـخْـمَـةِ مَـحْـذُورُ
وَيَـشْـتَـهِـي أَنْ يُـؤْجَـرُوا عِـنْـدَهُ ... بـالـصَّـوْمِ والـصَّـائِمُ مَـأجُـورُ

---

(١) ذكر أدي شير في كتابه «الكلمات الفارسية المعربة» أن فارسيته «تباهه» وأنه طعام من بيض وبصل ولحم، وقال الخفاجي في «شفاء الغليل» (١٢٩): أنه الكباب، ثم قال: والعرب تسميه الصفيف. وقيل: هو اللحم المقلي بالدهن.

ولدعبل الخزاعي:

أضْيَافُ عُثْمَانَ فِي خَفْضٍ وَفي دَعَةٍ وَفِي عَطَاء لَعَمْري، غَيْرَ مَمْنُوعِ
وَضَيْفُ عَمْرٍو وَعَمْرٌو يَسْهَرَانِ مَعًا عَمْرٌو لِتُخْمَتِهِ، والضَّيْفُ لِلْجُوعِ

وعن أبي الحسين محمد بن الحسن بن أحمد الأهوازي، قال: أنشدنا وليد بن معن الموصلي:

يَقُولُ إذَا جَاءَهُ زَائِرٌ فَدَيْتُكَ! إن الْعَشَا مَتْخَمَهْ
وَإنْ زارَ هُوَ قَالَ: نَفسِي الْفِدَا تَعَشَّ؛ فَتَرْكُ الْعَشَا مَهرَمَهْ

ولبعضهم:

مَا يُبالي أَعَيْنُهُ فَارَقَتْهُ أَمْ كَسَرْنَا رَغِيفَهُ فَأَكَلْنَا
قَدْ نَزَلْنَا بِهِ نُرِيدُ قِرَاهُ فَابْتَدَا يَمْدَحُ الصِّيَامَ، فصُمْنَا

أخبرنا أبو الحسن العتيقي وأبو محمد الجوهري؛ قالا: أنشدنا محمد بن العباس، قال: أنشدنا علّان بن أحمد الرَّزّاز، قال: أنشدنا قاسم وأنشد أبو عكرمة:

أَتَيْتُ عَمْرًا سَحَرًا فَقَالَ: إنِّي صَائِمُ
فَقُلْتُ: إنِّي قَاعِدٌ فَقَالَ: إنّي قَائمُ
فَقُلْتُ: آتيكَ غَدًا فقالَ: صَوْمي دَائمُ

وعن أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الصوري، قال: أنشدني أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري لنفسه:

وَأَخٍ مَسَّهُ نُزُولي بِقَرْحٍ مِثْلَمَا مَسَّني مِنَ الْجُوعِ قَرْحُ
بِتُّ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْـ ـرُ وَفي حُكْمِه عَلَى الحُرِّ قُبْحُ
فَابْتَدَأني يَقُولُ وَهُوَ مِنَ السَّكْـ ـرَة بِالْهَمِّ طَافِحٌ لَيْسَ يَصْحُو
لِمْ تَغَرَّبْتَ؟ قُلْتُ: قَالَ رَسُولُ الـ ـلَه، والْقَوْلَ مِنْهُ نُصْحٌ وَنُجْحُ:

«سَـافِـرُوا تَـغْـنَـمُـوا» فَـقَـالَ: وَقَـدْ قَـا
لَ تَـمَـامَ الْحَـدِيـث: «صُـومُـوا تَـصِـحُّـوا»

أخبرنا أبو نعيم عبد الرحمٰن بن علي بن القاسم المعدل بصور، ولعبد المحسن بن محمد في رجل بخيل:

إِذَا عَـزَمْـتُـمْ عَـلَى زِيَـارَتِـهِ فَـوَدِّعُـوا الْخُبْزَ حَيْثُمَا كُنْتُمْ
فَلَيْسَ يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ لَكُمْ صُومُوا؛ أَضِيفُوا بِهِ وَقَدْ صُمْتُمْ

بخل جعفر بن عبد الواحد

عن أحمد بن إسماعيل الكاتب، قال: كان جعفر بن عبد الواحد الهاشمي بخيلًا، وكان بسر مَن رأى يستهدي رطبًا، وكان له صديق يوجه كل يوم بسلّة رطب مع غلام له، فقال له: إن الغلام يشعث السَّلَّة فاختمها؛ ففعل، فوجدها قد تشعثت، فقال له: إن أردت أن تبرني بها فاختمها بعد أن تودعها زنبورين يكونان فيها. فكانت تجيء بهيئتها، فإذا فتحها طار الزنبوران وعلم أن اليد لم تدخل فيها.

وقال ابن مناذر:

رَأَيْتُ أَبَا الْقَعْقَاعِ إِنْ ذُكِرَ الْقِرَى تَرَعَّدَ خَوْفًا وَاقْشَعَرَّتْ ذَوَائِبُهُ
رَأَى الصَّيْفَ مَكْتُوبًا فَظَنَّ بِأَنَّهُ لِتَصْحِيفِهِ ضَيْفٌ، فَقَامَ يوائِبُهْ

ولبعضهم:

رَأَى الصَّيْفَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ دَارِهِ فَصَحَّفَهُ ضَيْفًا، فَقَامَ إِلَى السَّيْفِ
فَقُلْتُ لَهُ: خَيْرًا رَأَيْتَ، فَظَنَّنِي أَقُولُ لَهُ: خُبْزًا، فَمَاتَ مِنَ الْخَوْفِ

وعن الأصمعي، قال: أولُ ما تكلم به النابغة من الشعر أنه حضر مع عمّه عند رجل، وكان عمه يشاهد به الناس، ويخاف أن يكون عيبًا، فوضع الرجل كأسًا في يده وقال:

تَـطِـيـبُ كُـؤُوسُـنَـا لَوْلَا قَـذَاهَـا وَنَـحْـتَـمِـلُ الْجَـلِـيسَ عَـلَى أَذَاهَـا

فقال له النابغة:

قَـذَاهَـا أَنَّ صَـاحِـبَـهَـا بَـخِـيـلٌ يُـحَاسِبُ نَفْسَهُ بِكَـمِ اشْتَـرَاهَـا

وحمي لذلـــك.

أين التين؟

وعن مهدي بن سابق، قال: أقبل أعرابي يريد رجلًا، وبين يدي الرجل طبق تين، فلما أبصر الأعرابي غطى التين بكساء كان عليه، والأعرابي يلاحظه، فجلس بين يديه، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئًا؟ قال: نعم. قال: فاقرأ. قال: فقرأ الأعرابي: ﴿وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التِّين: الآيتان ١، ٢] قال الرجل: فأين التين؟ قال: التين تحت كسائك.

صوت المقلى

وعن محمد بن عبد الرحمٰن، قال: دعا مديني أخًا له، فأقعده إلى العصر، فلم يطعمه شيئًا فاشتد جوعه وأخذه مثل الجنون، فأخذ صاحب البيت العود، وقال له: بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال: صوت المقلى.

أَطْـعَـمَـنـي بَـيْـضَـةً وَنَـاوَلَنـي مِنْ بَعْدِها ـ ذُقْتُ فَقْدَهُ ـ قَدَحا

وَقَالَ: أَيَّ الأَصْواتِ يَا ابْنَ أَخي تُـريـدُ؟ إِنِّـي أَرَاكَ مُـقْـتَـرِحـا

فَقُلْتُ: مِقْلَىً وَصَوْتَ جَرْدَقَة إِنْ جَازَ ذا الاقْتَراحُ أَوْ صَلَحا

فَاشْتَطَّ مِنْ ذَاكَ وَامْتَلا غَضَبًا وَكَانَ سَكْرَانَ طَافِحًا، فَصَحا

فَقُلْتُ: إِنِّي مَزَحْتُ، قَالَ: كَذَا! رَأَيْـتَ حُـرًّا بِـمِـثْـلِ ذَا مَـزَحـا؟

بخل محمد بن يحيىٰ بن خالد بن برمك

وقيل: إن محمد بن يحيىٰ بن خالد بن برمك كان بخيلًا قبيح البخل، فسُئل نسيب له كان يألفه عنه، وقال له قائل: صف مائدته فقال: هي فتر في فتر، وصحافة منقورة من حب الخشخاش، وبين نديمه والرغيب نقدة جوزة. قال: فمن يحضره؟ قال: الكرام الكاتبون. قال: أفما يأكل معه أحدٌ؟ قال: بلى! الذباب. فقال: سوأة له أنت خاصٌ به، وثوبك مخرق. فقال: إني، والله! ما أقدر على إبرة أخيطُه بها، ولو ملك محمد بيتًا من بغداد إلى النوبة مملوءَ إبرًا، ثم جاء جبريل وميكائيل، ومعهما يعقوب النبيّ ﷺ يضمنون عنه إبرة، ويسألون إعارته إياها، ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر، ما فعل.

وأنشد هلال بن العلاء:

لَوْ أَنَّ دَارَكَ أَنْبَتَتْ فَاحْتَشَّتْ   إِبَرًا يَضِيقُ بِهَا فِنَاءُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً   لِيَخِيطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وقال أبو عثمان الأشنداني: كان أبو عبيدة يقول: كان الأصمعي بخيلًا، فكان يجمع أحاديث البخلاء، ويتحدث بها، ويوصي بها ولده، وكان أبو عبيدة إذا ذكر الأصمعي أنشد:

عَظُمَ الطَّعَامُ بعَيْنِهِ، فَكَأَنَّهُ   هُوَ نَفْسُهُ لِلآكِلِينَ طَعامُ

وعن محمد بن سلام، قال: كنا مع أبي عبيدة في جنازة ننتظر إخراج الميت، ونحن بقرب دار الأصمعي، فارتفعت ضجة من دار الأصمعي، فبادَرَ الناس ليعرفوا ذلك، فقال أبو عبيدة: إنما يفعلون هذا عند الخبز، كذا يفعلون إذا فقدوا رغيفًا.

جعفر بن يحيىٰ والأصمعي

قال أحمد بن عبيد: كان جعفر بن يحيىٰ يعيب الأصمعي برثاثة الهيئة، وذلك بعد أن أوصل إليه خمسمائة ألف درهم، وقد كان جعفر في يوم من الأيام ركب ليقصد الأصمعي في منزله، وأمر خادمًا له بحمل ألف دينار، ليصله بها عند انصرافه. فلما دخل منزله ورأى رثاثة حاله ووسخ منزله، ورأى في دهليزه حبًا مكسورًا، أمر الخادم برد ألف دينار، فقيل دينار فقيل لجعفر في ذلك فقال: إن لسان النعمة انطق من لسانه، وإن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه، فعلام نعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده وتنطق النعمة بالشكر عنه، ويتزيا بزي أهل المروءات، ويتغذى غذاء أهل الجدات.

وعن محمد بن مظفر بن محمد بن غالب الدينوري، قال: أنشدني منصور بن ربيعة الزهري لنفسه:

قَوْمٌ غَدَا لِلطَّعَامِ عِنْدَهُمُ   وَزْنُ لُجَيْنٍ وَوَزْنُ يَاقُوتِ
إِنْ كَانَ قُوتِي إِلَيْهِمُ وَبِهِمْ   بَرِئْتُ مِنْهُمْ وَمِنكَ يَاقُوتِي!

وقال بعض الشعراء:

واصِفُ دَاودَ بِالنَّدَى، غَلطٌ   كَرَاقِعِ الْوَشْيِ بِالْكَرابِيسِ

ثـيـابُ طَـبَّـاخِـهِ إذا اتَّـسَـخَـتْ — أنْـقَـى بَـيـاضًـا مـنْ الْقَـراطـيـسِ
مَـطْـبَـخُ دَاودَ فـي نـظَـافَـتـهِ — أشْـبَـهُ شَـيءٍ بـصَـرحِ بـلْقِيـسِ
لَوْ طُرحَ الْخُبْزُ وَسْطُ مَطْبَخِهِ — مَا طَمِعَتْ فيه جَوْقَةُ السُّوسِ

ولأبي الفرج علي بن الحسين بن هندو:

لَوْ مَـاتَ لَمْ يَـأْكُـلِ الـطَّـعـامَ إذَا — مَا كـانَ ذَاكَ الطَّـعامُ مِنْ كِيسِهْ
إنْ لَمْ نُـشـاهِـدْ دُخَـانَ مَـطْـبَـخِـهِ — فَـقَـدْ شَـهِـدْنَـا دُخَـانَ تَـغْـبِـيـسِـهْ

ولأبي العنبر من البسيط:

يَهْوَى النَّبِيذَ وَلَكِنْ لَيْسَ يَنْبذُهُ — وَمَـا بِـهِ وَلَهُ فَـقْـدٌ ولا عَـدَمُ
قَدْ كَلَّفَ النَّفْسَ مِنْهُ فَوْقَ طَاقَتِهَا — مَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ إلَّا يَوْمَ يَحْتَجِمُ

من أخبار مروان بن أبي حفصة

وعن عليّ بن محمد النوفلي، قال: قال سمعت أبي يقول: كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلًا، حتى يقرم إليه، فإذا قرم أرسل غلامه، فاشترى له رأسًا فأكل، فقيل له: نراك لا تأكل إلّا الرؤوس في الصيف والشتاء، فلم تختار ذلك؟ فقال: نعم، الرأس أعرف سعره، فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه. إن مسَّ عينًا أو أذنًا أو خدًّا وقفت على ذلك؛ وآكل منه ألوانًا، آكل عينه لونًا، وأذنيه لونًا، وغلصمته لونًا، ودماغه لونًا، وأكفى مؤونة طبخه؛ فقد اجتمعت لي فيه مرافق.

وعن جهم بن خلف، قال: أتينا اليمامة، فنزلنا على مروان بن أبي حفصة، فأطعمنا تمرًا، وأرسل غلامه بفلس وسُكُرُّجَة[1] ليشتري له زيتًا، فلما جاء بالزيت، قال: خنتني. قال: من فلس؟ كيف أخونك؟ قال: أخذت الفلس لنفسك واستوهبت زيتًا.

وعن أبي العيناء محمد بن القاسم اليمامي، قال: كان مروان ابن أبي حفصة من أبخل الناس، خرج يريد الخليفة المهدي، فقالت له امرأة من أهله: ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟ قال: إن أعطيت مائة ألف درهم أعطيتك درهمًا؛ فأعطي ستين ألفًا، فدفع إليها أربعة دوانيق! وكان قد اشترى يومًا لحمًا

(١) السُّكُرَّجة: الإناء والصحفة.

بدرهم، فدعاه صديق له، فرد اللحم على القصّاب بنقصان دانق، وقال: أكره الإسراف.

وهجاه بعض الشعراء، فقال:

وَلَيْسَ لِمَرْوَانٍ عَلَى الْعِرْسِ غَيْرَةٌ وَلَكِنَّ مَرْوَانًا يغارُ عَلَى الْقِدْرِ

وقال مخلد الموصلي:

فَتَى لا يَغَارُ عَلَى عِرْسِهِ وَلَكِنْ يَغَارُ عَلَى خُبْزِهِ
يَدُ الْبُخْلِ قَدْ شَبَّكَتْ كَفَّهُ وَكَفُّ السَّمَاحَةِ فِي عَجْزِهِ

وقال آخر:

أَلَمْ تَعْجَبْ لِعَلْقَمَةَ بنِ سَيْفٍ لَهُ غَنَمٌ وَلَيْسَ لَهُ كِلابُ
مَخَافَةَ أَنْ تَدُلَّ عَلَيْهِ ضَيْفًا فَأَنْزَلَ أَهْلَهُ بَيْنَ الضِّرَابَ

وقال دعبل علي الخزاعي:

رَأَيْتُ أبا عمران يَبْذُلُ عِرْضَهُ وَخُبْزُ أَبي عمْرَانَ فِي أَحْرَزِ الْحِرْزِ
يَحِنُّ إِلَى جاراتِهِ بَعْدَ شِبْعِهِ وَجاراتُهُ غَرثَى تَحِنُّ إِلَى الْخُبْزِ

ولدعبل بن عليّ:

قَوْمٌ إِذَا أَكَلُوا أَخْفَوا كَلَامَهُمْ وَاسْتَوْثَقُوا مِنْ لِزَامِ الْبَابِ وَالدَّارِ
لَا يَقْبِسُ الْجَارَ مَنْهُمْ فَضْلَ نَارِهِمُ وَلا تَكُفُّ يَدٌ عَنْ حُرْمَةِ الْجَارِ

من أخبار المنصور

عن الأصمعي، عن يونس، قال: كتب زياد بن عبيد الله الحارثي إلى المنصور يسأله الزيادة في عطائه وأرزاقه، وأبلغ في كتابه، فوقع المنصور في القصة: إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجل أبطراه، وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلك؛ فاكتف بالبلاغة. ولم يذكر الأهوازي في إسناده الأصمعي.

وكتب زياد - يعني ابن عبيد الله - إلى المنصور أمير المؤمنين في حوائج ذكرها، وأبلغ في كتابه، فوقع أمير المؤمنين المنصور في كتابه: إنّ البلاغة والغنى إذا اجتمعا في رجل أبطراه؛ فاكتف بالبلاغة.

زياد الحارثي وأشعب

كان زياد بن عبيد الله الحارثي خال أبي العباس أمير المؤمنين، واليًا لأبي العبّاس على مكة، فحضر أشعب مائدته في أناس من أهل مكة، وكان لزياد بن عبيد الله صحفة يخص بها، فيها مضيرة من لحم جدي، فأتى بها، فأمر الغلام أن يضعها بين يدي أشعب، وهو لا يعلم أنها المضيرة، فأكلها أشعب حتى أتى على ما فيها، واستبطأ زياد بن عبيد الله المضيرة، فقال: يا غلام! الصحفة التي كنت تأتيني بها، قال: قد أتيتك بها أصلحك الله! فأمرتني أن أضعها بين يدي أبي العلاء قال: هنأ الله أبا العلاء وبارك له! فلما رفعت المائدة قال: يا أبا العلاء! ـ وذاك في استقبال شهر رمضان ـ قد حضر هذا الشهر المبارك، وقد رققت لأهل السجن لما هم فيه من الضيق ثم لانهجام الصوم عليهم؛ وقد رأيت أن أصيرك إليهم، فتلهيهم بالنّهار، وتصلّي بهم بالليل؛ وكان أشعب حافظًا، فقال: أو غير ذلك، أصلح الله الأمير!؟ قال: وما هو؟ قال: أعطى الله عهدًا ألّا آكل مضيرة جدي أبدًا.

وأورد الجاحظ في كتابه «البخلاء» (ص: ١٤٩) قوله: «قالوا: وكان لزياد الحارثي جدي لا يمسه، ولا يمسه أحد، فعشى في شهر رمضان قومًا فيهم أشعب، فعرض أشعب للجدي من بينهم، فقال: زياد ـ الحارثي ـ : أما لأهل السجن إمام يصلي بهم؟ قالوا: لا، قال: فليصل بهم أشعب، قال أشعب: أو غير هذا أصلح الله الأمير، قال: وما هو؟ قال: احلف بالمحرجات أن لا آكل لحم جدي أبدًا؟».

بخيل صادق المواعيد

كان للأعمش جارٌ كان لا يزال يعرض عليه المنزل، يقول: لو دخلت فأكلت كسرة وملحًا؛ فيأبى عليه الأعمش، فعرض عليه ذات يوم، فوافق جوع الأعمش، فقال: مر بنا؛ فدخل عليه فقرب إليه كسرة وملحًا إذ سأل سائل، فقال له رب المنزل: بورك فيك! فأعاد إليه المسألة، فقال له: بورك فيك!. فلما سأل الثالثة قال له: اذهب، وإلا خرجت إليك بالعصا. قال: فناداه الأعمش، فقال: اذهب ويحك! فلا والله! ما رأيت أحدًا أصدق مواعيد منه، هو منذ سنة يعدني على كسرة وملح، فلا والله! ما زادني عليهما.

أشعار في البخل

قال جحظة:

قُلْ لقَوْم مَا فيهمُ منْ رَشيد لا، وَلا فَوْقَ بُخْلهم منْ مَزيد
لَنْ تنالوا الْعُلَى بصَحْن قَديد وَبناء بَنَيْتُمُوهُ مَشيد
وَسُتُور قَدْ عُلِّقَتْ، وَدَهَاليـ ـزَ طوال، منْ خَلْف بَاب حَديد
إنَّمَا تُدْرَكُ الْمَكَارمُ بالصَّبْـ ـر لهَدْم الْحَلْوَى، وَأكْل الثَّريد
لَيْسَ صَدِّي عَنْكُمْ صُدُودَ تَجاف هُوَ ذَمٌّ يُشيبُ رَأسَ الوليد
بهجاء، في كُل يوم، عَتيد وبذَمٍّ، في كُلِّ يَوْم، جَديد
هَاكَ، خُذْهَا من ذي بَيَان فَمَا قَصْـ ـصَرَ عَنْ شعْر جَرْوَل وَلَبيد

ولبعضهم:

قَدْ رَأيْنَا حُسْنَ سَابَا طِكَ وَالدَّارَ الْجَميلَهْ
وَعَلِمْنَا أنَّ في بَيْـ ـتِكَ مَا يَكْفِي قَبيلَهْ
غَيْرَ أنَّ الْجِنَّ لا تُحْـ ـسِنُ في خُبْزِكَ حيلَهْ

ولبعضهم:

لأضْربَنَّ رَجَائِي ألْفَ مِقْرَعَةٍ حَدًّا، وَأصْلُبُ آمالي عَلَى خَشَبَه
إذْ مَنَّياني مَوَاتًا لا حَرَاكَ بهمْ وَإنْ سَمِعْتُ لَهُمْ فِي دُورِهِم جَلَبَهْ
سِتْرٌ رَقيقٌ وَأبْوابٌ مُفَتَّحَةٌ وَفِي الْقُصُورِ الأعالِي أنْفُسٌ خَرِبَهْ

وقال بعض الشعراء:

دَارُ أبي الْعَبَّاسِ مَحْشُوَّةٌ مَا شِئْتُ مِنْ بُسْطٍ وَأنْمَاط
وَمُنْتَهَى بُعْدكَ مِنْ خُبْزِهِ كَبُعْدِ بَلْخٍ مِنْ سُمَيْسَاطِ
عَاتَبَهُ الدِّرْهَمُ فِي لَحْمِهِ فِي يَوْمِ إسْرَافٍ وَإفْرَاطِ
مَطْبَخُهُ قَفْرٌ، وَخَبَّازُهُ أفْرَغُ مِنْ حَجَّام سَابَاط
وَخُبْزَهُ عِدَّةُ إخْوانِهِ كَأنَّهَا أفلاقُ خُرَّاطِ
يَكْرَهُ أنْ يُتْخَمَ إخْوَانُهُ إذَا أتُوهُ فِعْلُ مُحْتَاطِ

حمال بأكلة جزر

يوسف بن تميم، قال: حدَّثنا بعض شباب أهل البصرة أنَّ رجلًا كان مُوسرًا كثير المال، وكان ينظر في دقيق الأشياء، فاشترى حوائج له، فدعا بحمّال، فقال: بكم تحميل هذه الحوائج؟ قال: بحبة. قال: أحسن. قال: أقلَّ من حبة؟ لا أدري كيف أقول. قال: نشتري بالحبَّة جزرًا، فنجلس جميعًا فنأكله.

دقة في الحساب

أبو جعفر محمد بن الأصبغ الحارثي، قال: سمعت عمّي، قال: كان زبيدة بن حميد الصيرفي استلف من بقال كان على بابه درهمين ونصف دانق، فقضاه بعد ستة أشهر درهمين وثلاث حبات شعير؛ فاغتاظ، البَقَّال، فقال: سبحان الله! أنت رب مال، وأنا بقال أملك مائة فلس، وإنما أعيش باستفضال الحبة والحبتين، وإنما صاح على باب جمّال وحمّال فلم يحضرني شيء وغاب وكيلك، فنقدت عنك درهمين وأربع شعيرات، فتقضيني بعد ستة أشهر درهمين وثلاثة شعيرات!؟ فقال له زبيدة: يا مجنون! أسلفتني في الصيف وقضيتك في الشتاء وثلاث شعيرات شتوية أوزن من أربع شعيرات صيفية، وما أشك أنّ معك فضلًا كثيرًا.

وقال بعضهم:

قدْرُ الرَّقَاشيِّ مَضرُوبٌ بهَا الْمَثَلُ ... لكُلِّ شَيْء سوَى النِّيران تُبْتَذَلُ
تَشكُو إلَى قدْر جَارَتها إذا الْتَقَتا ... الْيَوْمَ لي سَنَةٌ مَا مَسَّني بَلَلُ
لَكنَّني بيَ يُرْقَى ماءُ بئْرهم ... وَبي تُرَابُهُم إنْ جَمَّ يُنْتَقلُ
فَإنَّمَا بَعْدَ نَقْل الْمَاء أخْلَقَني ... نَقْلُ التُّرَاب إذا مَا عَزَّت الزُّبَلُ

ولأبي نواس:

قدْرُ الرَّقَاشِيِّ مَضروبٌ بِهَا المَثَلُ ... لكُلِّ شَيْءٍ سِوَى النِّيرَانِ تُبْتَذَلُ
تَشْكُو إلَى قدْر جَاراتٍ إذَا التَقَيَا ... الْيَوْمَ لِي سَنَةٌ مَا مَسَّنِي بَلَلُ

ولغيره:

أَقولُ: مَتَى بِاللَّحْم عَهْدُ قُدُورِكُمْ؟ ... فَقَالَتْ: إذَا مَا كُنَّ يَوْمًا عَوَارِيا
مَنْ أضْحَى إلى أَضْحَى وَإلَّا فَإنَّهَا ... تَكُونُ بِنَسْجِ الْعنكَبُوتِ كَمَا هِيَا

بخل عقبة بن جبار

أبو الحسن الدارقطني، قال: كان عقبة بن جبار المنقري بخيلًا، وفيه يقول الشاعر من البسيط:

لَوْ أنَّ قَدْرًا بَكَتْ مِنْ طُولِ مَحْبَسِها ... عَلَى القُفورِ بَكَتْ قِدْرُ ابْنُ جَبَّارِ
مَا مَسَّها دَسَمٌ مُذْ فُضَّ مَعْدَنُهَا ... وَلا رَأَتْ بَعْدَ نَار القَيْنِ مِنْ نَارِ

ولبعضهم في ذمّ البخيل:

أَلا لَيْتَ شعْرِي يَالَ خَاقان هَلْ لَكُمْ ... إِذَا مَا سَلَبْتُمْ نِعْمَةَ الله شَاكِرُ
فَأَمَّا وَأَنْتُمْ لابِسُونَ ثِيابَهَا ... فَمَا لَكُمُ والْحَمْدُ لله ذَاكِرُ

ولبعضهم:

خَنَازِيرُ نَامُوا عَنِ الْمَكْرُماتِ ... فَأَيْقَظَهُمْ قِدْرٌ لَمْ يَنَمْ
فَيَا قُبْحَهُمْ فِي الَّذِي خُوِّلُوا! ... وَيَا حُسْنَهُم في زَوَال النِّعَمْ!

عندما يتغدى يرمون الطير في الهواء

قيل لأبي الحارث جمين: تغديت عند فلان؟ قال: لا، ولكنني مررت ببابه وهو يتغدى. قيل: وكيف علمت ذلك؟ قال: رأيت غلمانه بأيديهم قسي البنادق يرمون الطيرَ في الهواء.

ولأبي الحارث بن التمار الواسطي:

جِئْتُهُ زَائِرًا فَقَالَ لِيَ الْبَوابُ: صَبْرًا؛ فَإِنَّهُ يَتَغَدَّى
قُلْتُ: سَمْعًا؛ فَقَدْ سَمِعْتُ قَدِيمًا ... خُبْزُهُ لازِمٌ، وَلا يَتَعَدَّى

ولجحظة:

تَفَزَّعَ إذْ جِئْتُهُ لِلسَّلام ... وَمَاتَ مِنَ الْخَوْفِ لَمَّا دَخَلْتُ
فَقُلْتُ لَهُ: لا يَرُعْكَ الدُّخُولُ ... فَوَالله مَا جِئْتُ حَتَّى أَكَلْتُ

مبادىء البخيل

كتب بعض الأدباء إلى بعض إخوانه يشاوره في قصد بعض الرؤساء، تأميلًا له واستدعاء لنائله، وكان معروفًا بالبخل، فكتب إليه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. كتبت إليَّ تسألني عن فلان، وذكرت أنك هممت بزيارته، وحدثتك نفسك بالقدوم

عليه؛ فلا تفعل ـ أمتع الله بك! ـ فإنَّ حسن الظن به لا يقع إلّا بخذلان من الله وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلوب إلا من سوء التوكل علَى الله، والرَّجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من روح الله؛ لأنه رجل يرى التقتير الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، وأنَّ الاقتصاد الذي أمر الله به هو الإسراف الذي يعذب عليه، وإنَّ بني إسرائيل لم يستبدلوا العدس بالمن، والبصل بالسلوى، إلا لفضل أحلامهم وقديم علم توارثوه عن آبائهم، وأن الضيافة مدفوعة، والهبة مكروهة، وأن الصدقة منسوخة، وأن التوسع ضلالة، والجود فسق، والسخاء من همزات الشياطين، كأنّه لم يسمع بالمعروف إلّا في الجاهلية الأولى التي قطع الله أخبارها ونهى عن اتباع آثارها، وكأنَّ الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاء كان فيهم، ولا أهلكت الريح العقيم عادًا إلا بجود أفضال كان معهم، وهل يخشى العقاب إلا على الإنفاق ويرجوا العفو إلا على الإمساك، ويعد نفسه بالفقر ويأمرها بالبخل خيفة أن تنزل به قوارع الظالمين ويصيبه ما أصاب الأولين؛ فأقم ـ رحمك الله ـ بمكانك، واصبر على عض زمانك، وامض على عسرتك عسى الله أن يبدل لك خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا».

من خاطر الجن

علي بن العباس ـ يعني النوبختي ـ قال: كان البحتري معي جالسًا، فسلّم علينا ابن لعيسى بن المنصور، فقال لي: مَن هذا؟ فقلت: هذا ابن عيسى بن منصور الذي يقول ابن الرومي في أبيه:

يَقَتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلا خَالِدِ
وَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتيرِه تَنَفَّسَ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدِ

فقال لي: أفّ وتفّ، هذا من خاطر الجن لا من خاطر الأنس، ووثب فمضى.

وقال أبو الحسين علي بن جعفر الحمداني: أنشدنا ابن الرومي في عيسى بن موسى بن المتوكل ـ كما روى لنا الخالع:

يُقَتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِبَاقٍ ولا خَالِدِ
وَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنَفَّسَ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدِ

وقال محمد بن موسى القرشي: سمعت الأصمعي يقول: ثلاثة لا يسألون الحوائج: رجلٌ استغنى بعد الفقر؛ فإنّه يرى إن قضاها عاد إلى فقره؛ وعبد، فإنه يقول: ليس الأمر إليّ، إنّما الأمر إلى مواليّ؛ وصيرفي، فإنّ مروءته أن يستربح على إخوانه في مائة دينار حبّة ذهب.

ولجحظـة:

قَوْمٌ إذا اسْتَنْجَدْتُهُمْ فَكَأَنَّنِي ... حَاوَلْتُ نَتْفَ الشَّعْرِ فِي آنافِهِمْ
قُمْ فَأَسْقِنِيها بالْكَبِيرِ، وَغَنِّنِي ... «ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ في أَكْنافِهِمْ»

فما أنشدتها أحدًا إلا قال: صدقت، هم أهل هذا الزمان.

وعن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنها كانت تقول: قاتل الله لبيدًا حيث يقول:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنافِهِمْ ... وَبَقِيتُ فِي نَسْلٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ
يَتَحَدَّثُونَ مَلاذَةً وَمَهانَةً ... وَيُعَابُ قَائِلُهُم وإنْ لَمْ يَشْغَبِ

قال مالك: قال هشام: قال عروة: ثم تقول عائشة: فكيف لو أدرك هذا الزمان؟! قال مالك: قال هشام: أما أنا فلا أقول شيئًا.

وعن محمد بن يونس الكديمي، قال: سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين يقول: ما أكثر تعجبي من تمثل عائشة ببيت لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعاشُ فِي أَكْنافِهِمْ ... وَبَقِيتُ في خَلَف كَجِلْدِ الأَجْرَبِ!

ولكـن:

ذَهَبَ النَّاسُ فَاسْتَقَلُّوا، وَصِرْنا ... خَلَفًا في أَرَاذَل النَّسْنَاس
في أُنَاس نَعُدُّهُمْ منْ عَديد ... فَإذَا فُتِّشُوا فَلَيْسُوا بنَاس
كُلَّمَا جئْتُ أَبْتَغي النَّيْلَ منْهُم ... بَدَرُوني قَبْلَ السُّؤَال بيَاس
وَبَكَوْا لي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أنّي ... مُفْلتٌ منْهُمُ فرَارًا برَاس

وكتب أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح إلى سعيد بن سلم: لولا أنّ الله ختم نبوته بمحمد ﷺ وكتبه بالقرآن لا نبعث فيكم نبيّ نقمة، وأنزل فيكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوىء السفلة، ومساوئهم فضائح الأمم، وألسنتهم معقولة بالعيّ، وأيديهم معقودة بالبخل، وأعراضهم

أغراض للذم، فهم كما قال الشاعر:

لا يكثُرُونَ وَإِنْ طَالَتْ حَيَاتُهُمُ ... وَلَا تبيدُ مَخَازِيهِمْ وَإِنْ بَادُوا

وأنشد أبو العالية:

تَرَحَّلْ؛ فَمَا بَغْدَادُ دَارُ إقَامَة ... وَلا عِنْدَ مَنْ أضْحَى بِبَغْدَادَ طَائِلُ

مَحَلُّ مُلُوك سَمْتُهُمْ في أديمهمْ ... فَكُلُّهُمْ مِنْ حِلْيَةِ الْمَجْدِ عَاطِلُ

سِوَى مَعْشَر قَلُّوا، وَجُلُّ قَليلهم ... مُضَافٌ إلى بَذْل النَّدَى وَهْوَ بَاخِلُ

ولا غَرْوَ أنْ شَلَّتْ يَدُ المَجْد وَالْعُلَى ... وَقَلَّ سَمَاحٌ مِنْ رجال وَنَائِلُ

إذَا غَضْغَضَ الْبَحْرُ الغُطَامطُ مَاءَهُ ... فَلَيْسَ عَجيبًا أنْ تغيضَ الْجَدَاول

وقال الأصمعي: ست يضنين بل يقتلن: انتظار المائدة ودمدمة الخادم، والسراج المظلم، والوكف من أول الليل إلى آخره، وخلاف مَن تحبه والنظر إلى بخيل.

ولبعضهم:

مَا بالبَخيل انتِفَاعُ ... وَالكَلْبُ يَنْفَعُ أهْلَهْ

فَنَزِّهِ الْكَلْبَ عَنْ أَنْ ... تَرَى أخَا الْبُخْلِ مثْلَهْ

ولأبي هفَّان:

مَا لِي أَرَاكَ بَخِيلًا؟ ... أَمَا تَجُودُ بِشَيّ؟

أَمَا مَرَرت بِسَلْح ... لِكَلْبِ حَاتِمِ طَيّ؟

ولأبي الشمقمق:

مَا لي أرَاكَ بَخِيلًا؟ ... أمَا تَجُودُ بشَيّ

فالوذجة أثرية

أهدى رجل إلى إسماعيل الأعرج الطالبي فالوذجة[1] عتيقة العمل قد سنخت، وكتب: إني اخترت لعملها جيد السكر السوسي، والعسل الماذي، والزعفران الأصبهاني، فكتب إليه: برئت من الله، لقد عملت هذه الفالوذجة قبل أن تمصر أصبهان، وقبل إن تدحى السوس، وقبل يوحي الله إلى النحل.

---

(١) الفالوذجة: نوع من الحلوى.

أشعار في البخل

عن أحمد بن منصور المروذي، قال: قال لي الجاحظ وأنا أقرأ عليه كتابه في «البخلاء» وتذاكرنا ما دقّق الشعراء فيه من ذمّ البخل: لا أعرف شيئًا أبلغ في الهجاء بالبخل من قول أبي الشمقمق:

وَمَـا رَوَّحْـتَـنَـا لِتَـذُبَّ عَـنَّـا ... وَلَكِـنْ خِفْـتَ مَرْزِئَةَ الـذُّبَابِ

وقولـــه:

الْحَابِسِ الرَّوْثَ فِي أَعْفَاجِ بَغْلَتِهِ ... خَوْفًا عَلَى الْحَبِّ مِنْ لَقْطِ الْعَصَافِيرِ

قلت: أما البيت الأول فلم يسم لنا المهجو به، وقبله بيت هو:

شَرَابُكَ فِي السَّحَابِ إِذَا عَطِشْنَا ... وَخُبْزُكَ عِنْدَ مُقْتَطَعِ التُّرابِ

وبعده: «وما روحتنا...» وأما البيت الثاني فالمهجو به أوفى بن نوفل، وقبله بيت هو:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْخُبْزَ فَاكِهَةٌ ... حَتَّى نَزَلْتُ عَلَى أَوْفَى بنِ خِنْزِير

وقد رُوِيَ هذا الشعر لغير أبي الشمقمق.

وأمر المأمون لحفصويه الكاتب من مال زيد بن زبر بمائة ألف درهم، فسأل زيد حفصويه أن يتجافى له عن بعض ما أمر له به، فأبى وهجاه فقال:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْخُبْزَ فاكهَةٌ ... حَتَّى رَأَيْتُكَ يَا زَيْدُ بْنُ خنْزِيرِ

يَا حَابِسَ الرَّوْثِ فِي أَعْفاجِ بَغْلَتِهِ ... بُخْلًا عَلَى الْحَبِّ مِنْ لَقْطِ الْعَصَافِير

وقال: لم أسمع في الهجاء أبلغ من هذين البيتين:

مُـجْـتَـمِـعٌ بِـالْكَـلْبِ لَكِـنَّـهُ ... يَـفْـزَعُ أَنْ يُـسْـمَـعَ مِـنْ نَـبْـحِـهِ

لَوْ سَـقَـطَـتْ مِـنْ فَـمِـهِ لُقْـمَـةٌ ... فِـي سَلْحَةٍ عَـضَّ عَـلَى سَـلْحِـهِ

ولأبي الشمقمـق:

يَـا مَـنْ يُـؤَمِّـلُ مُـبْـعَـدًا ... مِـنْ بَـيْـنِ أَهْـلِ زَمـانِـهِ

لَوْ كَـانَ فِـي اسْتِـكَ دِرْهَـمٌ ... لَاسْـتَـلَّـهُ بِـلِـسَـانِـهِ

ولـــــه:

الخبزُ يُبْطِي حِينَ يُدْعَى بِهِ كَـأنَّـمَـا يَـقْـدُمُ مِـنْ قَـافِ
وَيَـمْـدَحُ الـمِـلْحَ لإخْـوَانِـهِ يَـقُـولُ: هَـذَا مِلْحُ سِـيرَافِ

ولـــــه:

أَنَــا مِــنْ زُوَّارِ بَــيْــتِــي وَأَنَــا ضَــيْـفِ لِنَـفْـسِـي
أَشْـتَـرِي فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ حُـزْمَـةَ الْبَـقْـلِ بِـفَـلْسِ
وَإِذَا مَـــا ذُقْــتُ خَــلًّا كَـانَ مِـنْ أَيَـامِ عُـرْسِـي

بخل أبي العتاهية

عن الجاحظ، قال: دعا أبو العتاهية عياش بن القاسم إلى بعض المتنزعات، فاتخذ له ضروبًا من الأطعمة، وكان في أبي العتاهية شح شديد، فدخلت إليهم، فإذا أبو العتاهية يأكل من صحفة بين يديه، فيها ثريد بخل وبزر، فشممته، فقلت: أتدري ما تأكل؟ قال: نعم، غلط الغلام بين دبة الزيت والبزر، فصب بزرًا، فكرهت أن يرفع من بين يدي فيبطل ولا يأكله أحد، وهما عندي قريب من قريب، فرأيت أن آكله ولا يضيع بعدي.

وقال بعضهـــم:

وَإِذَا سُــئِلْتَ تَــقُــول: لا وَإِذَا طَـلَبْـتَ تَـقُـولُ: هَـاتِ
أَفَـلا سَـبِـيـلَ إِلَى (نَـعَـمِ) أَوْ تَـرْكِ (لا) حَـتَّى الْمَـمَاتِ؟!

وقال أبو الحسن علي بن أحمد النعيمي:

خَلِّي الَّتِي «لا» تُنافِيها وَتَنْقُضُها فَلَيْتَـهُ بَـدلًا من ذَاكَ خَـلى (لا)
وَجْهُ تَلُوحُ عَلَيْهِ مِن حُمُوضَتِهِ شَـهَـادَةٌ أَنَّــهُ مَـا زَال خَـلَّالا

وأتى أبو الشمقمق باب رجل يمدحه، فأقام ببابه أربعًا، فخرجت في اليوم الرابع جارية تستقي ماء في جرة، فكتب على جرتها:

آوَيْـتُ دِهْـلِـيـزَكَ مُـذْ أَرْبَـعِ وَلَمْ أَكُـنْ آوِي الـدَّهَـالِيـزَا
خُبْزِي مِنَ السُّوقِ، وَمَدْحِي لَكُمْ تِـلْكَ لَعَـمْري قِسْـمَةٌ ضِـيزَى

قال ابن درستويه: أنشدنا المبرد:

أَصْبَحْتَ لا تَعْرِفُ الْجَمِيلَ وَلا ... تَفْصِلُ بَيْنَ الْقَبِيحِ وَالْحَسَنِ
إنَّ الَّذِي ظَلَّ يَرْتَجِيكَ كَمَنْ ... يَحْلُبُ تَيْسًا مِنْ شَهْوَةِ اللَّبَنِ

ولبعض أهل دمشق:

وَدَعَوْتَنِي فَأَكَلْتُ عِنْدَكَ لُقْمَةً ... وَشَرِبْتُ شُرْبَ مَنِ اسْتَتَمَّ خَرُوفَا
وَسَأَلْتَنِي فِي إِثْرِ ذَلِكَ حَاجَةً ... ذَهَبَتْ بِمَالِي تَالِدًا وَطَرِيفَا
فَجَعَلْتُ أُفَكِرُ فِيكَ بَاقِي لَيْلَتِي ... مَا كُنْتَ تَفْعَلُ لَوْ أَكَلْتُ رَغِيفَا؟!

نار الحباحب

أبو بكر ابن الأنباري قال: قولهم: «نارُ الْحَباحب». قال الكلبي: عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الحباحب رجلًا من أحياء العرب، وكان رجلًا بخيلًا، فكان لا يوقد ناره بليل كراهية أن يراها راء فينتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها، فأوقدها، ثم بصر بمستضيء بها أطفأها، فضربت العرب بناره المثل، وذكروها عند كل نار لا ينتفع بها.

وأنشد المبرد:

فَتًى يَجْعَلُ الزَّادَ الْمُحَبَّ لِبَطْنِهِ ... شِعَارًا وَيَقْرِي الضَّيْفَ عَضْبًا مُهَنَّدَا
وَإِنْ خَافَ أَنْ يَسْتَوْضِحَ الْكَلْبُ زَادَهُ ... بِهَا، كَعَم الْكَلْبِ الْعَقُورَ وَأَخْمَدَا

دجاجة من آل فرعون

عن ابن عائشة، قال: صحب الغاضري رجلًا من قريش من المدينة إلى مكة، فلما نزل المنزل، دعا القرشي بالطعام، فأتوه في طعامه بدجاجة باردة مشوية، فقال: يا غلام! أسخنها. فلما يردها الخباز حتى رفع الخوان. فلما نزلوا المنزل الثاني دعا القرشي بالطعام، فأتوه بالدجاجة، فأمر بها أن تسخن، فرفع الطعام قبل أن يأتوا بها، ففعل ذلك ثلاث مرات، فلما طال ذلك على الغاضري، قال: ويحكم! أخبروني عن دجاجتكم هذه أمن آل فرعون هي؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: لأنها تعرض على النار غدوًا وعشيًا. قال له القرشي: اكتم عليّ، ولك مائة دينار. قال: ما كنت لأبيع هذا بشيء.

وعن الأصمعي قال: سمعت أعرابية تهجو رجلًا وهي تقول:

رَأَيْتُكَ فِي الْغِنَى تَزْدَادُ بُخْلًا وَتُزْهَى مِثْلَمَا يُزْهَى الْغُرَابُ
وَلا تُعْطِي عَلَى حَمْدٍ وَأَجْرٍ وَتُعْطِي مَنْ تُصَانِعُ أَوْ تَهَابُ
كَأَنَّكَ تَحْسَبُ الأَمْوَالَ تَبْقَى عَلَيْكَ إِذَا تَضَمَّنَكَ التُّرَابُ

وقال مدرك الشيباني يهجو أبا الفرج ابن الحصين الكاتب:

أَبَا الْفَرَجِ اسْمَعْ قَوْلَ مَنْ لَيْسَ ظَالِمًا وَلَا عَنْ سَبِيلِ العَدْلِ مُذْ كانَ يَعْدِلُ
جَزاكَ إِلَهُ الْخَلْقِ مَا تَسْتَحِقُّهُ وَلا زِلْتَ في الْحَاجَاتِ مِثْلَكَ تَسْأَلُ
بَخِلْتَ بِمَا لَوْ يُسْأَلُ الْكَلْبُ ضِعْفَهُ لَجَادَ بِهِ عَفْوًا وَمَا كَانَ يَبْخَلُ
فَأُمُّ الَّذِي وَلَّاكَ مَا أَنَا مُضْمِرٌ أَمَا كَانَ ذَا عَقْلٍ بِأَنْ لَيْسَ تَعْقِلُ

فقيل له: ما أضرمت؟ قال: زانية.

وقلال أبو تمام محمد بن عبد العزيز بن أحمد الهاشمي:

أَخْذُ مَالِ الْبَخِيلِ يَا أَيُّهَا النَّا سُ! عَلَيْهِ أَشَدُّ مِنْ جَدْعِ أَنْفِهْ
فَخُذُوهُ وَأَرْغِمُوا الأَنْفَ مِنْهُ وَاصْفَعُوهُ بِنَعْلِهِ وَبِخُفِّهْ

وقال أبو نواس في عثمان بن نهيك:

اغْسِلْ يَدَيْكَ بِأُشْنَانٍ فَأَنْقِهِمَا غُسْلَ الْجَنَابَةِ مِمَّا عِنْدَ عُثْمَان
وَاسْلَحْ عَلَى كُلِّ عُثْمَانٍ مَرَرْتَ بِهِ سِوَى الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّان
عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو ثَمَنٍ لَكِنَّهُ يَشْتَرِي حَمْدًا بِمَجَّان
وَالنَّاسُ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا حَتَّى يَرَوْا عِنْدَهُ آثَارَ إِحْسَان
قَدْ سَمَّجَ اللهُ فِي عَيْنِي وَبَغَّضَهُمْ كُلَّ الْعَثَامِينِ مِنْ بُغْضِي لِعُثْمَان
يَا أُخْتَ كِنْدَةَ لَيْسَ الرِّزْقُ فِي يَدِهِ الرِّزْقُ فِي كَفِّ مَنْ لَوْ شَاءَ أَغْنَانِي

وقال مخلد بن عليّ السلامي، يهجو نوح بن عمرو بن حويّ:

أَشْكُو وَيَشْكُو سُوءَ حَالاتِهِ فَلَسْتُ أَدْرِي أَيُّنَا السَّائِلُ
لَوْ كَانَ لِي شَيْءٌ لَوَاسَيْتُهُ لأَنَّهُ الْمِسْكِينُ يَسْتَاهِلُ

وقال جحظـــة:

لِي صَدِيقٌ يَقُولُ لِلسَّائل الْمُعـ ـتَـرِّ لا دَرَّ دُرُّ مَــنْ أَعْـطَـاكـا
زَمِّلُوا مَـاءَهُ، فَـقَـالَتْ لَهُ: الْجَـا رَةُ: هَاتِ، اسْقِنِي، جُعلْتُ فدَاكَا!
قَالَ: صُبِّي فِي الْحُبِّ كُوزًا بكُو زِ وَأزيحِي البردين هَـذَا وَذَاكَـا

وقال بشـــار:

خَلِيلَيَّ مِنْ كَعبٍ! أعِينَا أخَاكُمَا عَلَى دَهْرِه؛ إنَّ الْكَرِيـمَ مُعـينُ
وَلَا تَبْخَلا بُخْلَ ابنِ قَرْعَةَ إنَّهُ مَخَافَةَ أَنْ يُرْجَى نَدَاهُ حَزِينُ

كيلجة بدرهم

قال الأصمعي: قالت امرأة مدنية لزوجها: اشترِ لي رطبًا. قال لها: وكيف يباع الرطب؟ قالت: كَيْلَجَةٌ[١] بدرهم. فقال لها: والله لو خرج الدجال وأنت تمخضين بعيسى ما ينتظر إلّا أن تلديه فيقتل الدجال، ثم لم تلديه حتى تأكلي رطبًا ما اشتريته لك، كيلجة بدرهم؟

بأي شيء نبل الطين

أحمد بن الحارث، قال: حفر لعكابة النميري في داره ركية، فخرج ماؤها عذبًا، فقال: إنا لله! بأي شيء نبل الطين؟

قال أحمد بن أبي طاهر: دعوت أبا عفان فأبطأ عليه الغداء، فقال: [من مجزوء الرمل]

أَنَـا فـي بَـيْـتِ صَـديـقٍ وَاصِــلٍ بَــرٍّ شَــفِـيــقِ
رَجُــلٍ أَغْــمَـرُ مِــنْ مِـنــ ـزِلِه ظَـــهْـــرُ الــطَّـــريـــق
لَيْـسَ لي أَكْـلٌ سِـوَى لَحْـ ـمِس، وَشُرْبٌ غَـيْـرَ ريقـي

وقال جحظة:

لِي صَـديـقٌ عَـدِمْـتُـهُ مِـنْ صَـدِيـقْ أَبَـدًا يَـلْقَـنِـي بِـوَجْـه صَـفِـيـقْ
قَوْلُهُ إنْ شَدَوْتُ: أَحْسَنْتَ، عِنْدِي، وَبِـأحْـسَـنْـتَ لَا يُـبَـاعُ الـدَّقِـيـقْ

(١) كيلجة: أي الكيلة والمكيال [اللسان].

قال الأصمعي عن أبيه: كان السيد ابن محمد بن يزيد الحميري عند عقبة بن مسلم، فغداه، ثم سقاه نبيذًا، فاستزاده السيد، فجعل يقول لخادمته: هاتي نبيذًا ويشير عقبة إليها ألا تفعلي، فلم تزده الخادم على ما كان يسقي، فأنشأ السيد يقول:

بَخِيلٌ بالنَّبيذِ أبُو مَلِيكٍ ... جَوَادٌ بالدَّنَانِيرِ الْجِيَادِ
أقُولُ لَهُ: اسْقِنِي، فَيَقُولُ: هَاتِي ... وَدُونَ نَبِيذِهِ خَرْطُ الْقَتَادِ(١)

قال أبو بكر ابن العلاف المعروف بالمخرف: وجهت إلى حنانان النصراني بقنينة، وسألته أن يوجه لي فيها نبيذًا، فاحتبس الرسول، ثم جاءني ومعه قنينة ناقصة، وإذا قد مزجها بالماء، فقلت له:

نبيذُ حَنَانَانِ في بَيْتِهِ ... أعَزُّ مِنَ الْمَاءِ فِي وَاقِصَهْ(٢)
بَعَثْنَا إلَيْهِ بِقَنِّينَةٍ ... وَأبْصَارُنَا نَحْوَهَا شَاخِصَهْ
فَأمْزَجَهَا الْمَاءَ مِنْ بِئْرِهِ ... وَجَاءَ بِهَا بَعْدَ ذَا نَاقِصَهْ

وقال جحظـــة:

دَخَلْتُ عَلَى بَاخِلٍ مَرَّةً ... وَجَنَّاتُ بُسْتَانِهِ زَاهِرَهْ
وَقَدْ قَابَلَ النَّوْرُ نَقْشَ السُّتُورِ ... فَأعْيُنُ زُوَّارِهِ حَائِرَهْ
جِنَانٌ تُعَجَّلُ لِلْبَاخِلِينَ ... وَنَحْنُ نُؤجَّلُ لِلآخِرَهْ

وأنشد الأصمعي لمجنون من أهل البصرة:

رَفَضْتُ بِالْبَصْرَةِ أَهْلَ الْغِنَى ... إنِّي لأمْثَالِهِمُ رَافِضُ
فِيهِمْ أُنَاسٌ لَا أُسَمِّيهُمُ ... طَعْمُ النَّدَى عِنْدَهُمُ حَامِضُ

ووجدت في غير هذه الرواية في هذا الشعر بيتًا ثالثًا، وهو:

قَدْ جَلَّلُوا بالقُطْفِ أعْذَاقَهُمْ ... كَأنَّ حُمَّى بُسْرِهِم نَافِضُ

---

(١) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر.

(٢) واقصة: اسم لعدة مواضع بطريق الكوفة دون ذي مرخ، وبين الفرعاء وعقبة الشيطان، وفي اليمامة (معجم البلدان)، (اللسان).

وأنشد أبو القاسم عبد الواحد بن محمد بن المطرز لنفسه، يصف بستان أبي الخطاب ابن عون الحريري:

بُسْتَانُ عَبْدِ السَّلامِ مَقْبَرَةٌ — لَا تَنْظُرُ الْعَيْنُ فيه عُمْرَانَا
فيه نَخِيلٌ أَغْذَاقُهَا حَمَلَتْ — مِنْ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ حِرْمَانَا
لَهُ خَفِيرٌ مُقَطِّبٌ أَبدا — مِن غَيْرِ جُرْمٍ تَرَاهُ غَضْبَانَا
حَمَاهُ؛ فَالرِّيحُ لَا تَمُرُّ بِهِ — إلا إذَا صَادَفَتْهُ وَسْنَانَا
لَوْ عَبَرَ الطَّائِرُ الْغَرِيبُ بِهِ — لَسَبَّ مِنْ أجْلِهِ سُلَيْمَانَا
وإنْ رَأَى نَمْلَةً تَطُوفُ بِهِ — مَثَّلَهَا فِي الْمَكَانِ ثُعْبَانَا
قَدْ كَتَبَ اللُّؤْمَ فَوْقَ جَبْهَتِهِ — لِلشَّرِّ قَبْلَ اللِّقَاءِ عُنْوَانَا
دَعَا إلَيْهِ يَوْمًا، فَقُلْتُ لَهُ: — لَا كُنْتَ مِن بَاخِلٍ وَلا كَانَا!
لَا جُزْتُ يَوْمًا بِهِ وَلَوْ فُتِحَتْ — جَنَّةُ عَدْنٍ وَكَانَ رِضْوَانَا

وأنشد المطرز لنفسه في مثله:

لَمَا دَعَانَا الْغَوِيُّ مُعْتَرِضًا — بِقَوْلِ سَاهٍ لَا قَوْلِ مُعْتَمِدِ
إلَى قَرَاحٍ كَالنَّجْمِ مَوْقِعُهُ — أَعَزُّ بَابًا مِنْ جَبْهَةِ الأَسَدِ
عَلَيْهِ سُورٌ، وَحَارِسٌ لَحِزٌ[1] — وأَعْيُنٌ لَا تَنَامُ لِلرَّصَدِ
قَالَ: ادْخُلُوا، قَدْ أَبَحْتُ لَحْظَكُمُ — وَلا تَمَسُّوا أثْمَارَهُ بِيَدِ
قُلْنَا لَهُ: فَالثِّمَارُ مُطْلَقَةٌ — قَالَ: بِوَزْنِ الأثْمَانِ فِي الْبَلَدِ
فَإنْ قَنِعْتُمْ فُزْتُم بِلَحْظِكُمُ — أَوْ لا، فَيَا بَرْدَهَا عَلَى كَبِدِي!
لَا تَأْكُلُوا، وَانظُرُوا عَلَى وَجَلٍ — فَهْوَ لِغَيْرِ الأفْوَاهِ وَالْمِعَدِ
أَمَا سَمِعْتُمْ مَا سَارَ مِنْ مَثَلٍ — لَمْ يَشْتَبِهْ قَوْلُهُ عَلَى أَحَدِ:
كَمْ أَكْلَةٍ دَاخَلَتْ حَشَا شَرِهٍ — فَأَخْرَجَتْ رُوحَهُ مِنَ الْجَسَدِ

ولمدنية الشاعر:

إذَا جُمِعَ الآفَاتُ فَالْبُخْلُ شَرُّهَا — وَشَرٌّ مِنَ الْبُخْلِ الْمَوَاعِيدُ وَالْمَطْلُ
فَإنَّ كُنْتَ ذَا مَالٍ وَلَمْ تَكُ عَاقِلًا — فَأَنْتَ كَذِي نَعْلٍ وَلَيْسَ لَهَا رِجْلُ

(١) اللحز: الشحيح الشديد البخل.

وَإنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَلَمْ تَكُ ذَا غِنَى ... فَأَنْتَ كَذِي رجْلٍ وَلَيْسَ لَهَا نَعْلُ
أَلا إنَّمَا الإنْسَانُ غِمْدٌ لِنَفْسِهِ ... وَلا خَيْرَ في غِمْدٍ إذَا لَمْ يَكُنْ نَصْلُ
فَإنْ كَانَ لِلإنْسَانِ عَقْلٌ، فَعَقْلُهُ ... هُوَ الْفَضْلُ، والإنسَانُ مِنْ بَعْدِهِ فَضْلُ

أقوال وأشعار في مواعيد البخلاء

وأنشد أبو بكر بن دريد، لنفسه:

إنَّ مَنْ يَرْتَجِي نَدَاكَ مُعَنَّى ... خَالَفَ الحَزْمَ مُحْسِنٌ بكَ ظَنًّا
وَعَدَتْنِي أُمْنِيَّتِي عَنْك خَيْرًا ... فَأَبَى الْخُلْفُ دُونَ مَا أَتَمَنَّى

ولبعضهم:

أَبَا حَسَنٍ! إنَّ الثَّرَاءَ، وَإنْ صَفَا، ... يَبِيدُ وَيَفْنَى، وَالثَّنَاءُ جَدِيدُ
إلَى كَمْ تُمَنِّينِي بِعَوْدٍ، وَإنَّمَا ... خَرَابُ بُيُوتِ الـمُمْلِقِينَ تَعُودُ
عدمت بعَوْدٍ مِنْ كَلامٍ؛ فَإنَّهُ ... مِنَ الْخَيْرِ قِدْمًا، وَالنَّجَاحُ بَعيدُ

قال محمد بن يزيد النحوي: كان لمحمود الورَّاق صديق، وكان يغشاه كثيرًا، فرَبَّى عندَه دجاجًا سمانًا، فيعدُهُ بذبحها له ويخلفه، فلما طال هذا على محمود كتب إليه:

دَجاجُ أَبِي عُثْمَانَ أَبْعَدُ مَنْظَرًا ... وَأطْوَلُ أَعْمَارًا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرْ
فَإنْ لَمْ نَمُتْ حَتَّى نَفُوزَ بِأَكْلِهَا ... حَيِيتُ بِإذْنِ الله مَا أَوْرَقَ الشَّجَرْ

وعن ابن الأعرابي: [من البسيط]

الله يَعْلَمُ لَوْلَا أَنَّنِي فَرِقٌ ... مِنْ الأَمِيرِ لَعَاتَبْتُ ابْنَ نِبْرَاس
فِي مَوْعِدٍ قَالَهُ لِي ثُمَّ أَخْلَفَنِي ... غَدًا غَدًا، ضَرْبُ أَخْمَاسٍ لأَسْدَاس
حَتَّى إذَا نَحْنُ أَلْجَأْنَا مَوَاعِدَهُ ... إلَى الطَّبِيعَةِ في نَقْرٍ وَإبْسَاس
أَجْلَتْ مَخِيلَتُهُ عَنْ «لا» فَقُلْتُ لَهُ: ... لَوْ مَا بَدَأْتَ بِـ«لا» مَا كَانَ مِنْ باس
وَلَيْسَ يَرْجِعُ فِي «لا» بَعْدَ مَا سَلَفَتْ ... مِنْهُ «نَعَمْ» طَائِعًا حُرٌّ مِنَ النَّاس

وأنشد محمد بن أشكاب العجمي:

وَإذَا جُدْتَ لِلصَّدِيقِ بِوَعْدٍ ... فَصِلِ الْوَعْدَ بِالْفِعَالِ الْجَمِيلِ
لَيْسَ فِي وَعْدِ ذِي السَّمَاحَةِ ... إنَّمَا الْمَطْلُ فِي عِدَاتِ الْبَخِيلِ

ولأبي عثمان الناجم:

جَوْدُ أَبِي الصَّقْرِ كُلُّهُ عِدَةٌ   وَكُلُّ مَا قَالَهُ فَمَمْسُوخْ
لَيْسَ يَرَى أَنْ يَفِي بِمَوْعِدِهِ   كَلَامُهُ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخْ

ولأبي العتاهية [من مجزوء الكامل]:

لأبي الْعَلاء مَخَائِلٌ   وَبَوَارِقٌ وَرَوَاعِدُ
وَلَهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ   مَاءٌ عَتِيدٌ بَارِدُ
وَمَقَالُهُ مُتَيَقِّظٌ   وَالْفِعْلُ مِنْهُ رَاقِدُ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهُ   عِلْقٌ نَفِيسٌ مَاجِدُ
حَتَّى بَدَا لِي مَطْلُهُ   وبَدَتْ لِذَاكَ شَوَاهِدُ
فَاذْهَبْ إِلَيْكَ أَبَا الْعَلا   ء فَإِنَّ جُودَكَ جَامِدُ

مواعيد عرقوب

والعرب تضرب المثل في إخْلاف المواعيد بعرقوب. عن العباس بن هشام الكلبي، عن أبيه، قال: عرقوب بن صخر أو ابن معبد بن أسد رجل من العماليق، بالمدينة. سأله رجل من العرب عذقًا، فقال: نعم. فلما صار بلحًا، قال: دعها حتى تكون زهوًا. فلما بلغت، قال: دعها حتى تشقح، فلما أشقحت، قال: دعها حتَّى تحلقم، فلما حلقمت، قال: دعها حتى ترطب، فلما أرطبت، قال: دعها حتى تكون تمرًا، فلما صارت تمرًا جدَّها بالليل وهرب، فصار مثلًا. وهو الذي ذكره كعب بن زهير في شعره، فقال:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا   وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلّا الأبَاطِيلُ

وقال هشام بن سليمان المخزومي: كان عرقوب رجلًا من الأوس، فجاءه أخ له، فقال: إذا أطلعت هذه النخلة فهي لك؛ فلما أطلعت، قال: دعها حتى تصير بلحًا؛ فلما صارت بلحًا، قال: دعها حتى تشقح؛ فلما اشقحت، قال: دعها حتى تصير رُطبًا؛ فلما صارت رطبًا، قال: دعها حتى تصير تمرًا؛ فلما صارت تمرًا، جاء ليلًا فجدَّها، ولذلك قال جبيهاء الأشجعي:

وَعَدْتَ وَكَانَ الْخُلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ   مَوَاعِيدَ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيَثْرِبِ

فضربته العرب مثلًا في إخلاف العدات. وقد ذكره كعب بن زهير في كلمته التي قالها في النبيّ ﷺ ومدحه فيها، واعتذر إليه، وأظهر توبته من سالف كفره، ورغب في عفوه عنه وإعفائه إياه مما توعده به، فقال في ذلك:

نُـبِّـئْتُ أَنَّ رَسُـولَ الله أَوْعَـدَنِـي ... وَالْعَـفْـوُ عِـنْـدَ رَسُـولِ الله مَأْمُـولُ

وبيته الذي ذكر فيه عرقوبًا في هذه الكلمة قوله:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ... وَمَـا مَـوَاعِـيـدُهَـا إِلَّا الأَبَـاطِـيـل

وقال أحمد بن سعيد الطّائي: مرض البحتري، فوصف له الطبيب مزوَّرة، فقال له بعض إخوانه: عندي جارية أحذق خلق الله بها؛ فمضى ليوجه إليه بها، فلم يفعل، فكتب إليه البحتري:

وَجَدْتُ وَعْدَكَ زُورًا فِي مُزَوَّرَة[1] ... ذَكَرْت مُبْتَدِئًا أَحْكَامَ طَاهِيهَا

فَلَا شَفى الله مَنْ يَرْجُو الشِّفَاءَ بِهَا! ... وَلا عَلَتْ كَفُّ مُلْقِي كَفِّه فيها!

فَاحْبِسْ رَسُولَكَ عَنِّي أَنْ يَجيء بِهَا ... فَقَدْ حَبَسْتُ رَسُولِي عَنْ تَقَاضِيهَا

ولبعضهم:

خُـلِـقْـتُ عَـلَى بَـاب الـلِّئَام كَـأَنَّـنـي ... (قفَا نَبْك منْ ذكْرَى حَبيب وَمَنْزل)

إِذَا جِئْتُ أَبْغي السُّؤْلَ والْجُودَ والنَّدَى ... (يَقُـولُونَ لَا تَـهْلكْ أَسًى وَتَـجَمَّـل)

فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ منْ سُوء فعْلهِمْ ... (عَلَى النَّحْر حَتَّى بَلَّ دَمْعيَ مَحْمَلي)

فَـقَـدْ طَـالَ تَـرْدَادي وَعَـوْدي إِلَيْـهِـمُ ... (فَـهَلْ عنْدَ رَسْـم دَارس منْ مُعَوَّل)

أبو العتاهية والعباس بن محمد

لقي أبو العتاهية العباس بن محمد، فقال: جعلني الله فداك! تسمع مني؟ قال: هات، فأنشده:

إِنَّ الْمَـكَـارِمَ لَمْ تَـزَلْ مَـعْـقُـولَةً ... حَـتَّى حَلَلْتَ بِرَاحَتَيْكَ عِقَالَهَا

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ! ... قُل: (لا)، وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ، مَا قَالَهَا

(١) المزورة: نوع من الحلوى الفالوذجة، وشبهه بالشيء الحلو الطيب المحبوب.

فدخل ووجه إليه بدينارين، فقال أبو العتاهية للخادم: انتظر حتَّى أكتب جواب ما جئتَ به، فأخذ رُقْعةً وَكتب فيها:

مَدَحْتُكَ مِدْحَةَ السَّيْفِ المُحَلَّى لِتَجْرِيَ فِي الْكِرَامِ كَمَا جَرَيْتُ
فَهَبْهَا مِدْحَةً ذَهَبَتْ ضَيَاعًا كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا واعْتَدَيْتُ

ورد الدينارين، فغضب العباس بن محمد من ذلك، وطلبه ليقتله، فلم يقدر عليه.

قافية ضاعت

قال الأصمعي، عن المعتمر: مدح أعرابي رجلًا، فلم يعطه شيئًا، فقال: إن فلانًا يكاد يعدي بلؤمه مَن يسمى باسمه، ولرب قافية قد ضاعت في طلب رجل كريم.

أشعر من بشار

قال عمرو بن بحر الجاحظ: أخبرني سعيد بن سلم الباهلي، قال: دخل على بشار بن برد يومًا، فقال: إني قد امتدحتك أعزّك الله! بقصيدة لم يقل مثلها عربي ولا أعجمي، وإني فيها لأشعر الناس. قال: قلت: هاتها! قال: فأنشدني:

حَيِّيَا صَاحِبَيَّ! أُمَّ الْعَلاء وَاحْذَرَا طَرْفَ عَيْنِهَا الْحَوْرَاء
عَذَّبَتْني بالْحُبِّ عَذَّبَهَا اللَّـ ـهُ بِمَا تَشْتَهِي مِنَ الأَهْوَاء
إِنَّمَا هِمَّةُ الْجَوَادِ ابْنِ سَلْم فِي عَطَاء وَمَرْكَب لِلِّقَاء
لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرِّيَاء وَلِلْخَوْ فِ وَلَكِنْ يَلَذُّ طَعْمَ الْعَطَاء
يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الْحَـ ـبُ وَتُغْشَى مَنازِلُ الْكُرَمَاء

قال: فقلت: يا بشار! أراك تبجح في شعرك، وقد جاءني أعرابي منذ مدة، فمدحني ببيتين لم أسمع أجود منهما، فأغفلت ثوابه فهجاني ببيتين لم أسمع أوجه منهما. قال: فقلت: فما البيتان اللذان امتدحك بهما؟ قال: قوله:

فَيَا سَائِرًا في اللَّيْلِ لَا تَخْشَ ضَلَّةً سَعِيدُ بنُ سَلْمٍ ظِلُّ كُلِّ بِلادِ
لَنَا سَيِّدٌ أَرْبَى عَلَى كُلِّ سَيِّدٍ جَوَادٌ حَثَا فِي وَجْهِ كُلِّ جَوَادِ

قال: قلت: فما البيتان اللذان هجاك بهما؟ قال: قوله:

لِكُلِّ أَخِي مَدْحٍ ثَوَابٌ يُعِدُّهُ وَلَيْسَ لِمَدْحِ الْبَاهِلِي ثَوَابُ
مَدَحْتُ سَعِيدًا وَالْمَدِيحُ مَهزَّةٌ فَكَانَ كَصَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرَابُ

قال: فقال بشار: وهذا أشعر مني ومن أبي وأمي(١).

وقال عبد الله بن جعفر الرازي الكوفي: سمعت أبي يقول: رأيت رجلًا يكتب على حائط بيتين فقرأتهما بعد أن كتبهما:

يَا ذَا الذي أحْسَنْتُ ظَنِّي بِهِ وَلَمْ يَنَلْنِي مِنْهُ إحْسَانُ
أقَلُّ حَقِّي ضَرْبُ حَلْقِي عَلَى تَوَهُّمِي أَنَّكَ إنْسَانُ

ولابن الرومي:

إذَا مَا مَدَحْتَ الْبَاخِلِينَ فَإِنَّمَا تَذْكُرُهُمْ مَا فِي سِوَاهُم مِنَ الْفَضْلِ
فَتُهْدِي لَهُمْ غَمًّا طَوِيلًا وَحَسْرَةً فَإِنْ مَنَعُوا مِنكَ النَوَالَ فَبالْعَدْلِ

قال محمد بن الحسن المخزومي: كان رجل يوصف باللؤم، فأتاه رجل من الشعراء، فامتدحه، فوعده عدة لم يف بها فقال [من السريع]:

قَدْ صِرْتُ في مَدْحِكُمْ شُهْرَةً يُقَالُ لي أَطْمَعُ مِنْ أشْعَب
هذا الَّذي جَاءَ إلَى صَخْرَة يَنْزِعُ مَا فِيهَا بلا مِخْلَب
يَا سَوْءَتي مِنْ طَلَبي سَيْبَكُمْ أَطْلُبُ شَيْئًا قَطُّ لَمْ يُطْلَب
قَدْ كَانَ لي في مَا مَضَى عِبرَةٌ لَوْ أَنَّ عَقْلًا لي لَمْ يَعْزُب

كذب بكذب

عن محمد بن بشير، قال: كان والٍ بفارس قد احتجب بجهده إذ نجم شاعر بين يديه، فأنشده شعرًا مدحه فيه، فلما فرغ، قال: قد أحسنت، ثم أقبل على كاتبه، فقال: أعطه عشرة آلاف درهم. قال: ففرح الشاعر فرحًا كاد أن يستطير به، فلما رأى حاله، قال: وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع، [يا فلان!] اجعلها عشرين ألف درهم. قال: فكاد الشاعر أن يخرج من جلده، قال: فلما رأى فرحه قد أضعف، قال: وإن فرحك ليتضاعف على تضاعف القول، يا

(١) انظر: الأغاني للأصبهاني (٣/١٨٩، ١٩٤).

فلان أعطه أربعين ألف درهم. قال: فكاد الفرح يقتله. قال: فلما رجعت نفسه إليه، قال: جعلت فداك كلما رأيتني قد ازددت فرحًا تزيدني في الجائزة؟ قال: ثم دعا وخرج. قال: فأقبل عليه كاتبه، فقال: سبحان الله هذا يرضى منك بأربعين درهمًا، تأمر له بأربعين ألف درهم؟ قال: وتريد أن تعطيه شيئًا؟ إنما هذا رجل سرنا بكلام، وسررناه بمثله، فهو حين يزعم أني أحسن من القمر، وأشد من الأسد، وأن لساني أقطع من السيف، جعل في يدي من هذا شيئًا أرجع به؟ أليس يعلم أنه قد كذب، ولكن قد سرنا حين كذب علينا، فنحن أيضًا نسره بالقول، وإن كان كذبًا، فيكون كذبًا بكذب.

أهاجي فيمن يسيء الضيافة

عن خالد بن سعيد قال: نزل جرير بعميرة حي من بني عامر بن كلب، فلم يقروه، ولم يرفعوا به رأسًا حتى رحل عنه، فأنشأ يقول:

وَمَا لُمْنَا عُمَيْرَةَ غَيْرَ أَنَّا ... نَزَلْنَا بِالْعُذَيْبِ فَمَا قُرِينَا
فَبِتْنَا مُوحَشِينَ بِلَيْلِ سُوءٍ ... وَقَدْ لَقِيَ الْمَطِيُّ كَمَا لَقِينَا

ونزل أبو مالك الخصاصي، وهو حي من أسد بخالد بن قطن الحارثي، بقرية على نهر صرصر، فأساء قراه، فأنشأ يقول:

تَضَيَّفَت ابْنَ مَلْكَةَ فِي قِرَاهُ ... فَكَانَ قِرَاهُ لَمَّا [أَنْ] أَتَانِي
رَغِيفًا خَفَّ مُنْقَشَر الأَعَالِي ... شَدِيدَ الْيُبْسِ لَيْسَ لِذَاكَ ثَانِي
أَكُلُّ الْمَهْرَجَانِ كَمَا رَأَيْنَا ... بِقَرْيَةِ خَالِدٍ فِي الْمَهْرَجَانِ؟
فَلَمَّا أَنْ مَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ ... تَقَشَّرَ مِنْ خُشُونَتِهِ بَنَانِي

ونزل بلال بن جرير برجل يقال له: مسعود بن طعمة، أحد بني بيدعة من بني عدي، فلم يحسن قراه، وقد كان قال له: انزل عليّ إذا مررت، فقال بلالُ:

أَمَسْعُودُ! أَنْتَ الدَّنِيءُ اللَّئِيمُ ... كَأَنَّكَ قُنْقُذَةٌ فِي ضَعَةْ
سَمِعْنَا لَهُ إِذْ نَزَلْنَا بِهِ ... كَلامًا كَمَا تَنْطِقُ الضِّفْدعَه
فَأَيَّ اللَّئِيمَيْنِ أَشْبَهْتَهُ ... أَطَعْمَةُ أَمْ أُمُّكَ الْكَوْتَعَه[1]

---

(١) الكوتعة: كمرة الحمار (القاموس).

عَـدَدْنَـا عَـدِيًّـا وآبَـاءَهُـمْ ... فَـشَـرُّ عَـدِيٍّ بَـنُـو بَـيْـدعَـهْ
فَـمَـا أَعْـطَشَ الـضَّـيْفَ لَمَّا غَدا ... مِـنَ الْبَـيْـدَعَـاتِ وَمَـا أجْـوَعَـهْ!

ومرّ بلال بن جرير بنفر من بني ناشرة، فجفوه، ولم يقروه فقال:

عَـدَدْنَـا فُـقَـيْـمًـا وَآبَـاءَهـم ... فَـشَـرُّ فَـقَـيـم بَـنُـو نَـاشِـرَهْ
قِـصَـارُ الـفـعَـال طِـوَالُ الْخصَـي ... مَـنَـاتِـيـنُ لَيْـسَـتْ لَهُـمْ بَـادرَهْ
يَـعُـدُّونَ غُـرْمًـا قِرَى ضَـيْـفِـهِـمْ ... فَـلا عَـدِمُـوا صَـفْـقَـةً خـاسِـرَهْ
إِذَا ضِـفْـتَـهُـمْ وَتَـخَـيَّـلْتَـهُـمْ ... وَجَـدْتَ لَهُـمُ عِـلَّةً حَـاضِـرَهْ
وَلَيْـسُـوا إِذَا قُـلْتَ: مَـاذَا هُـمُ ... بِـأَصْـحَـاب دُنْـيَـا، ولا آخِـرَهْ

ونزل حمزة بن بيض بقوم، فأساؤوا ضيافته، وطرحوا لبغلته تبنًا رديئًا، فعافله، فأشرف عليها فشحجت حين رأته فقال:

احْـسَـبِـيـهَـا لَيْـلَةً أدْلَجْـتِـهَـا ... فَكُلِي إِنْ شِئْتِ تِبْنًا أوْ ذَرِي
قَدْ أَتَى مَوْلاكِ خُبْزٌ يَابِسٌ ... فَتَغَدَّى؛ فَتَغَدَّي وَاصْبِرِي

وقَدِمَ ابن حمدون النديم مدينة السلام منصرفًا من الحج، وقد كان قطع عليه في الطريق، فعرض عليه محمد بن عبد الله بن طاهر، وسأله أن ينزل عنده، فلم يفعل، فصرت إليه، فأنشدته:

لِيَـهْـنِـكَ أَجْـرًا حـجَّـةٌ وَرَزِيَّـةٌ ... وَأَنَّكَ لَمْ تَحْلُلْ بِدَارِ ابْنِ طَاهِرِ
بِدَارٍ كَأَنَّ الضَّيْفَ فِي جَنَبَاتِها ... إِذَا مَا غَدَا، ضَيْفٌ لأَهْلِ المَقَابِرِ

وقال بعضهم:

عَـوَّذَ لَمَّـا بِـتُّ ضَـيْـفًـا لَهُ ... أَقْـرَاصَـهُ بُـخْـلًا بِـيَـاسِـيـنِ
فَـبِـتُّ وَالأَرْضُ فِـرَاشِـي وَقَـدْ ... غَـنَّـتْ «قِـفَـا نَـبْـكِ» مَـصَـارِيـنِي

وأنشد أبو محمد عبدالله بن محمد المديني لنفسه بمصر:

فَتَى لِرَغِيفِهِ صَوْتٌ فَصِيحٌ ... يُـنَـادِي بِـالـضُّـيُـوف: أَلا حَـذَارِ
يَـفِـرُّ مِـنَ الـضُّـيُـوفِ إِذَا رَآهُـمْ ... فِرَارَ الصَّقْرِ من ذَرْقِ الحُبَارِي

وقال أبو نصر منصور بن مشكان الخراساني الكاتب:

ظَلَمْنَاكَ لَمَّا طَلَبْنَا قِرَاكَ ... وَمَا لِلْقِرَى وَالفَتَى البَاخِلِ؟
وَسُمْنَاكَ مَا لَمْ تَكَدْ تَسْتَطِيعُ ... وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

وأنشد أبو هلال العسكري لنفسه:

تَنَانِيرُكُمْ لِلنَّمْلِ فِيهَا مَدَارِجُ ... وَفِي قِدْرِكُمْ لِلْعَنْكَبُوتِ مَناسِجُ
وَعِنْدَكُمُ لِلضَّيْفِ حِينَ يَنُوبُكُمْ ... حَوَالاتُ سُوءٍ بِالْقُرَى وَسَفَاتِجُ
وَأَنْتُمْ عَلَى مَا تَزْعُمُونَ أَكَارِمٌ ... فَأَيْرِيَ فِي اسْتِ أُمِّ المَكَارِمِ وَالجُ

وقال ابن حجاج:

يَا ذَاهِبًا فِي دَارِهِ جَائِيًا ... بِغَيْرِ مَعْنَى وَبِلا فَائِدَهْ
قَدْ جُنَّ أَضْيَافُكَ مِنْ جُوعِهِمْ ... فَاقْرَأْ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الْمَائِدَهْ

وقال دعبل الخزاعي:

يَا تَارِكَ الْبَيْتِ عَلَى ضَيْفِهِ ... وَهَارِبًا مِنْهُ مِنَ الْخَوْفِ
ضَيْفُكَ قَدْ جَاءَ بِخُبْزٍ لَهُ ... فَارْجِعْ وَكُنْ ضَيْفًا عَلَى الضَّيْفِ

وقال أبو العباس القرشي [من البسيط]:

قَوْمٌ يَغَارُونَ أَنْ تُغْشَى مَوائِدُهُم ... وَلا يَغَارُونَ في الْعِصْيَان لِلْحُرُم
إِنْ جَاءَ ضَيْفٌ تَوَارَوْا في بُيُوتهم ... كَأَنَّهُ جَاءَهُمْ يَبْغِيهِمُ بِدَم
لَهُمْ وَقَارٌ، وَحِلمٌ مِنْ عَدُوِّهِمُ، ... وَفي الْبُيُوت لَهُم جَهْلٌ عَلَى الْخَدَم

بخل ابن ماذويه الأهوازي

قال العسكري: كنت أكتب لأبي أحمد ابن ماذويه الأهوازي، وهو يومئذ عامل خوي أرذك والأنهار، وكان من أبخل مَن رأيت على شيء من المأكولات، وكان يحتبسني للأكل، فأجلس معه على الطعام، ولا آكل كثير شيء، فاحتبسني يومًا وعنده جماعة، فأكلوا وأكل، وجريت على عادتي في التنقير، وكان الطعام أرزة جدي مشوي ولونين، من أطرافه وسقطه؛ فلما فرغنا من ذلك أقبل غلامه وعلى يده طيفورية فيها الجدي. فأقبل هو علينا، فقال: أما أنا فقد شبعت فلم يبق فيّ فضل فما تقولون أنتم؟ فقلت: أما أنا فقد شبعت، فقالت الجماعة كقولي.

قال: فنجعل الجدي لغد ونأكله مبردًا. فقلت: هذا هو الصواب. فقال: ما أظنكم إلا وفيكم فضلة للأكل، وإنما قلتم قد شبعتم مساعدة لي. فقلت: لا والله يا سيدي! ما في فضل؛ فقال للذي يليني: ما تقول؟ فقال: ما في فضل، فقال: لو كنت شبعان لحلفت كما حلف أبو عبد الله؛ فحلف الرجل أنه شبعان؛ فقال للآخر الذي إلى جانبه، فحلف، فلم يزل يستقري واحدًا واحدًا، ويحلف أنه شبعان، ومَن لم يحلف قال له: لو كنت شبعان لحلفت. فيحلف الرجل، فلما استوثق من جماعتنا بالأيمان، وثلج صدره أنه لا حيلة لأحد منّا في الأكل، قال: أما أنا فقد تتبعت نفسي أكل شحم كلاه حارًّا. فقلنا له: كل هنّأك الله. فقال: يا غلام! ضع الطيفورية؛ فتركت بين يديه، فأكل أكثر الجدي وحده، وأمر برفع باقيه وحفظه.

بخل أسد بن جهور

قال التنوخي، حدّثنا أبي، قال: أخبرني غير واحد أن أسد بن جهور العامل كان بخيلًا سواديًا، وكان مكاشفًا بالبخل على الطعام جدًا، فكان ندماؤه يلقون لذلك جهدًا، وكان يحضرهم ويطالبهم بالجلوس، ويحضر كل لذيذ شهيّ من الطعام، فإن ذاقه منهم ذائق استحل دمه وعجّل عقوبته، وكانت علامته معهم إذا شيلت المائدة أن يمسحوا أيديهم بلحاهم، ليعلم أنهم ما شعثوا شيئًا يزهمها، وكان له ابن أخت يتجرى عليه ولا يفكر فيه، ويهتك ستره إذا واكله. فقدمت يومًا إليه دجاجة هندية فائقة سرية، فحين أهوى ابن أخته إليها بيده قبض أسدٌ عليها، وقال: يا غث يا بارد! يا سيءَ العشرة! يا قبيح الأدب! أفي الدنيا أحد استحسن إفساد هذه؟ فقال له ابن أخته: يا بخيل! يا لئيم! يا سيء الاختيار! فلأيّ تصلح؟ عقدة على وجه الدهر، كنزًا للأعقاب، صنمًا للعبادة، أوسطه للمخانق، سرية يتمتع بالنظر إليها؟! شهد الله أنني ما أدعها؛ فتصابرا عليها إلى أن قال له الفتى: فافتدها مني. قال: بماذا تحب حتى أفعل؟ قال: ببغلتك الفلانية. قال: قد فعلت قال: بسرجها ولجامها المحلى الفلاني؛ قال: قد فعلت. قال: ما أرفع يدي عنها أو تحضر ذلك. قال: يا غلمان! أحضروه؛ فأحضرت البغلة والمركب، فسلمها الفتى إلى غلامه، وأخرجها، ورفع يده عن الدجاجة، وانقضى الطعام، وشيلت المائدة، وقام أسد لينام، فخرج ابن أخته، وقال للطباخ: عليّ بالفائقة الساعة وبجميع ما شلتموه من المائدة؛ فأحضر إليه، وردّ الندماء وقعدوا، فأكلوا ذلك، وانصرفوا وقد

أكل الدجاجة والطعام أجمع، وحصلت له البغلة والمركب. قال: وإنما كان أسد لا يطيق أن يرى ذلك يؤكل، فأما إذا نحي من بين يديه لم يسأل عنه ولم يطالب برده.

البلع أشد من المضغ

قيل: إن بعض الأكابر كان يشتهي أن يحضر الناس مائدته ويأكلوا طعامه، غير أنه كان لا يستطيع أن يرى فمًا يمضغ شيئًا، فشكا ذلك إلى صديق له يأنس به، فقال له صديقه: لو اتخذت لهم طعامًا يتناولونه من غير أن يمضغوه، فقال: وهل يمكن ذلك؟ قال: نعم، أصنع لهم سرطراطة، وهي فالوذجة لم تنضجها النار، فتنعقد، فإنهم يبلعونها ولا يحتاجون إلى أن يمضغوها. فقال: الرجل لصديقه: فرجت عني، وهذا أسهل الأشياء عندي، وليس يصعب عليّ إلا دوية المضغ حسب. فأمر بالفلوذجة، فصنعت، وجعلت في صحن واسع، وأحضر مَن يريد أن يدعوه. فجلس الناسُ في صحن الدّار، وجلس الرجل في غرفة مشرفة عليهم لينظر كيف يأكلون. فلما كان بعد زمان صعد صديقه الذي كان يأنس به إليه، فوجده مغشيًا عليه، فانتظره حتى أفاق، ثم قال له: أيش حالك يا سيدي؟ وما الذي أصابك؟ فقال: يا حبيبي! البلع ـ والله ـ أشد عليّ من المضغ.

اللئيم سباب

مرّ أعرابي برجل قد وضع بين يديه غداءه، وهو يأكل، فقال: لو تعرضت له لعله يدعوني إلى الغداء. فقال: السلام عليكم! فقال: كلمة مقولة. ثم طأطأ رأسه يأكل فقال له الأعرابي: أما أني مررت بأهلك. قال: عليهم كان طريقك؟ قال: وهم صالحون. قال: كذلك خلفتهم. قال: إن امرأتك حبلى. قال: كذلك عهدتها. قال: إنها ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت لتقوى على رضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر. قال: ما كان ليبقى بعد أخيه. قال: ثم ماتت الأم. قال: ما كانت لتبقى بعد ولديها. قال: ما أطيب طعامك! قال: نفعه لغيرك. قال: أف لك. قال: اللئيم سبّابٌ[1].

---

(١) تقدمت هذه القصة عن أبي الأسود الدؤلي.

دقة ناصر الدولة

قال أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي: كنت بحضرة ناصر الدولة ببغداد، فاستدعى شيئًا يأكله، فجاؤوه بدجاجة مشوية ورغيف واحد وسكرجتين وخل وملح وقليل بقل، فجعل يأكل وأنا أحادثه، إذ دخل الحاجب، فأخبره بحضور قوم لا بد من وصولهم بحشمهم، فأمر برفع الدجاجة، فرفعت بسرعة، ومسح يده، ودخل القوم، فخاطبهم بما أراد وانصرفوا، فقال: ردوا الطبق، فأحضر، فتأمل الدجاجة ساعة، ثم جرد وقال: فأين تلك الدجاجة؟ فقالوا: هي هذه، فقال: لا وحق أبي عليّ بالطباخ. فحضر، فقال: هذه هي تلك الدجاجة؟ فسكت، فقال: اصدقني، ويلك!. قال: فما فعلت بتلك؟ قال: لما شيلت لم نعلم أنك تردها، فأخذها بعض الغلمان الصغار، فأكلها، فلما طلبتها أخذنا هذه فكسرنا منها وشعثنا مثل ما كنت كسرت من تلك وشعثت، طمعًا في أنك لا تعلم بذلك، وقدمناها. فقال: يا حمار! تلك كنت كسرت منها الفخذ اليمنى، وأكلت جانب الصدر الأيسر، وهذه مأكولة جانب الصدر الأيمن مكسورةُ الفخذ اليسرى، لا تعاود بعد هذا لمثل هذا. فقال: السمع والطاعة. وانصرف الطباخ، فجعلت أعجب من تفقده وهو ملك لمثل هذا، ونظره فيه.

جحظة والبخيل

قال جحظة: حضرت يومًا عند بعض الرؤساء البخلاء، وكنت عقيب تشك، وقد أحضرت مائدته مضيرة حسنة، فأمعنت فيها إمعانًا استنفد صبره، وهتك تجمله وستره، فقال لي: يا أبا الحسن! أعزك الله! أنت عليل، وجسمك نحيل، واللبن يستحيل. فقلت له: والعظيم الجليل، لا تركت فيها من كثير ولا قليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل! قال: فصبر إلى أن أخذ النبيذ منه، ثم عربد علي، فانصرفت من عنده وقلت، وصنعت فيه لحنًا:

وَلِي صَاحِبٌ لَا قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ... بَطِيءٌ عَنِ الْخَيْرَاتِ غَيْرُ قَرِيبِ
أَكَلْتُ عَصِيبًا عِنْدَهُ فِي مَضِيرَةٍ ... فَيَا لَكَ مِنْ يومٍ عَلَيَّ عَصِيبِ

جحظة وابن بشار

قال علي بن الحسين أبو الفرج الأصبهاني، أخبرني أبو بكر الربيعي الشاعر، وكان كالمنقطع إليّ قال: دعانا أبو محمد بن بشار يومًا، وكان فيه بخل

على الطعام، ودعا جحظة فطال حبسه للطعام جدًّا، فأخذ دواة ورقعة، وكتب إليّ:

مَــــا لِي وَلِلشَّـــــارِ وَأَوْلادِهِ   لا قُـــــدِّسَ الْوَالِدُ وَالْوَالِده
قَدْ حَفِظُوا القُرْآنَ وَاسْتَعْمَلُوا   مَــا فِـيـهِ إلَّا سُـورَةَ الْمَـائِدَهْ

ورمى بها إلي، فقرأتها، وكان ابن بشار يقرأ، فأومأت بها إليه، فقرأها، ووثب خجلًا، فقدم الطعام، وكان بعد ذلك يجهد جهده في أن يجيئه جحظة، فلا يفعل، ويقول لي: حتى يحفظ تلك السورة، ثم أجيئه.

قال أبو الفرج: حدَّثني جحظة، قال: دخلت على أبي محمد بن بشار أهنئه بدخول شهر رمضان، فسألني عن حالي ومَن ألقى من إخواني، فأنشأت أقول:

رَكِبْتُ أُطَوِّفُ فـي الْجَانِبَيْـن   وَأَقْـطَـعُ عُـمْـرَ زَمَـان الـصِّـيَـام
فَـلَـمْ أَلْقَ إلَّا صَـديـقًـا يَـجُـودُ   بطيب الْكَلام وَحُسْن السَّلام
وَلَوْ أَنَّـنـي كُـنْـتُ فـي بَـيْـتـه   سَقَاني بكَفَّيْه كَأْسَ الْحمَام
فَـكَـيْـفَ أَكُـونُ إذَا مَـا قَـصَـدْتُ   لأَكْـل الـطَّـعَـام وَشُـرْب الْمُـدَام

من أخبار أبي الأسود الدؤلي

قال أبو العيناء: سلم أعرابي على أبي الأسود، قال: كلمة مقولة، قال: أتأذن في الدخول؟ قال: وراءك أوسع عليك. قال: هل عندك شيء يؤكل؟ قال: نعم قال: أطعمني. قال: عيالي أحق به. قال: ما رأيت ألأم منك. قال: نسيت نفسك؟!.

قال: أبو الأسود لرجل معه ثوب: بكم هو؟ قال: خذه حتى أقاربك. قال: إن لم تقاربني ما عدتك، فبكم هو؟ قال: أعطيت به كذا. قال: أنت تخبر عما فاتك.

وباع أبو الأسود بعيرًا من رجل، فقال له: أتقضيني حتى أكفائك؟ قال: أهنأ الخير أعجله.

جحظة والحسن بن مخلد

قال جحظة: ربحت بأكلة افتديتها مع الحسن بن مخلد خمسمائة دينار وخمسمائة درهم، وخمسة أثواب فاخرة وعتيدة طيب سرية، فقلت: كيف كان

ذلك؟ فقال: كان الحسن بخيلًا على الطعام، سمحًا بالمال، وكان يأخذ ندماءه بغتة، فيسقيهم النبيذ ويؤاكلهم، فمن أكل قتله مثْلًا، ومَن شرب معه على الخسف حظي به. قال: فكنت عنده يومًا، فقال لي: يا أبا الحسن قد عملت غداء على صبوح الجاشري ـ قال على ابن أبي علي: يعني الشرب قبل طلوع الفجر ـ فبت عندي. فقلت: لا يمكنني، ولكن أباكرك قبل الوقت. فعلى أي شيء عملْت أن نصطبح؟ فقال: قد أعد لنا كذا وكذا. ووصف ما تقدم إلى الطباخ بعمله، فعقدنا الرّأي على أن أباكره، وقمت فجئت إلى بيتي، ودعوت طباخي، فتقدمت إليه أن يصلح لي مثل ذلك بعينه، ويفرغ منه وقت العتمة، ففعل، ونمت وقمت وقد مضى نصف من الليل، فأكلت ما أصلح لي، وغسلت يدي، وأسرج لي، وأنا عاملٌ على المضي إليه، إذ طرقتني رسله فجئته، فقال: بحياتي أكلت؟ قلت: أعيذك بالله! انصرفت من عندك قبيل المغرب، وهذا نصف الليل، فأيَّ وقت أصلح لي شيء، أو أي وقت أكلت؟ سلْ غلمانك على أيِّ حال وجدوني؟ قالوا: وجدناه والله! يا سيدي! قد لبس ثيابه، وهو ذا ينتظر أن يفرغ من إسراج بغلة ليركبها. فسر بذلك سرورًا شديدًا، وقدم الطعام، فما كان في فضل لشمه، فأمسكت عن تشعيثه ضرورة وهو يستدعي أكلي، ولو أكلت أحلّ دمي. قال: وكذا كانت عادته، فأقول له: هو ذا أكل يا سيدي! وفي الدنيا أحد يأكل أكثر من هذا؟ قال: وانقضى الأكل، وجلسنا على الشرب، فجعلت أشرب بالأرطال وهو يفرح، وعنده أني أشرب على الريق أو ذلك الأكل الذي أكلت معه. ثم أمرني بالغناء، فغنيت، فاستطاب ذلك، الأكل الذي أكلت معه. ثم أمرني بالغناء، فغنيت، فاستطاب ذلك، وطرب، وشرب أرطالًا، فلما رأيت النبيذ قد عمل فيه، قلت: يا سيدي! تطرب أنت على غنائي، فأنا على أي شيء أطرب؟ فقال: يا غلام! هات دواة. فأحضرت، فكتب لي رقعة، ورمى بها إليّ، فإذا هي إلى صيرفي يعامله بخمسمائة دينار، فأخذتها وشكرته، ثم غنيت، فطرب، وقد زاد سكره، فطلبت منه ثيابًا، فخلع على خمسة أثواب من أنواع الثياب، ثم أمر أن يبخر مَن كان بين يديه، فأحضرت عتيدة حسنة سرية، فيها طيب كثير، وأخذ الغلمان يبخرون بها الناس، فلما انتهوا إليّ قلت: يا سيدي! وأنا أرضى بأن أتبخر حسب؟ فقال: ما تريد؟ قلت: أريد نصيبي من العتيدة. قال: قد وهبتها لك؛ فأخذتها. وشرب بعد ذلك رطْلًا آخر، واتكأ على

مسورته[١]، وكذا كانت عادته إذا سكر فقام الناس من مجلسه، وقمت وقد طلع الفجر وأضاء، وهو وقت يبكر الناس في حوائجهم، فخرجت كأنب لصٌّ قد خرج من بيت قوم، على قفا غلامي الثياب والعتيدة كارة[٢]، فصرت إلى منزلي، ونمت نومة، ثم ركبت إلى درب عون أريد الصيرفي حتى لقيته في دكانه، فأوصلت الرقعة إليه، فقال: يا سيدي! أنت الرجل المسمى في التوقيع؟ قلت: نعم. قال: أنت تعلم أن أمثالنا يعاملون للفائدة. قلت: أجل. قال: ورسمنا أن نعطي في مثل هذا ما يخسر فيه، في كل دينار درهم، فقلت له: لست أضايقك في هذا. فقال: ما قلت هذا لأريح عليك، ولكن أيما أحب إليك تأخذ مثلما يأخذ الناس وهو ما عرفتك، أو تجلس مكانك إلى الظهر حتى أفرغ من شغلي، ثم تركب معي إلى داري، تقيم عندي اليوم والليلة نشرب؟ فقد والله! سمعت بك، وكنت أتمنى أن أسمعك، ووقعت الآن إليّ رخيصًا، فإذا فعلت هذا دفعت إليك الدنانير بما تساوي من غير خسران؟

فقلت: بل أقيم عندك. فجعل الرقعة في كمه، وأقبل على شغله، وقوضه، فلما أذنت الظهر، جاء غلامه ببغل فاره، فركبه وركبت معه، فصرنا إلى دار سرية حسنة بفاخر الفرش والآلات، ليس فيها إلا جوارٍ رومٌ للخدمة من غير فحل، فتركني في مجلسي، ودخل، ثم خرج إلي بثياب أولاد الخلفاء من حمّام داره، وتبخر، وبخرني بند عتيق حدة، وأكلنا أطيب طعام وأنظفه، ونمنا وقمنا إلى مجلس سري للشرب، فيه فواكه وآلات بمال، فشربنا ليلتنا، فكنت ليلتي عنده أطيب من أختها عند الحسن بن مخلد، فلما أصبحنا أخرج كيسين، فإذا أحدهما دنانير، فوزن لي من أجودها خمسمائة، ثم فتح الآخر، فإذا هو دراهم طرية، فوزن لي منها خمسمائة، فقال: يا سيدي! تلك ما أمرت به، وهذه ـ يعني: الدراهم ـ هدية مني، فأخذتهما وانصرفت، وصار الصيرفي لي صديقًا، وداره لي معقلًا.

---

(١) المسورة: متكأ من الجلد.

(٢) الكارة من الثياب: ما يكوره القصار منها، ويحمله فيكون بعضه فوق بعض [القاموس: كور].

ما لك إلا النفخ في البوق

قال أحمد بن محمد البغدادي: كنا في بيت أبي إسحٰق نلعب بالشطرنج، إذ تعالى النهار وجعنا. قال: فتركنا اللعب، وجعلنا ننظر إلى جدار البيت، فإذا في ناحية الجدار مكتوب:

نِعْمَ الصَّدِيقُ صَدِيقٌ لا يُكَلِّفُنا ... ذَبْحَ الْفِرَاخِ وَلا ذَبْحَ الْفَرَارِيجِ
يَرْضَى بِلَوْنَيْنِ مِنْ كَشْكٍ وَمِنْ عَدَسٍ ... وَإِنْ تَشَهَّى فَبَاقِلّيَ بِطَسُّوجِ

قال: فقلنا: ما كان ولو بقلي، فإنا قد رضينا؛ فإنّا جياع. قال: فعدنا في اللعب حتّى ضجرنا. قال: فرفعنا رؤوسنا، وتركنا اللعب فإذا في ناحية أخرى مكتوب:

اشْرَبْ عَلَى الْخِيْرِ وَالرِّيقِ ... فَنَحْنُ فِي بُعْدٍ مِنَ السُّوقِ
لا تَرْجُوَنَّ الْخُبْزَ فِي بَيْتِنَا ... مَا لَكَ إلّا النَّفْخَ فِي الْبُوقِ

قال: فقمنا وتركناه[١].

أهاجي في البخلاء على الطعام

قال الحجاج بن يوسف: البخل في الطعام أقبح من الوضح في جلد الإنسان.

وقال الشاعر:

رغيفُ سعيد عنده عدل نفسه ... يَقَلِّبُهُ طَوْرًا، وَطَوْرًا يُلاعِبُهْ
وَيَحْمِلُهُ في كُمّه وَيَشُمُّهُ ... وَيَلْثِمُهُ حينًا، وَحينًا يُخَاطِبُهْ
وَإِنْ قَامَ مِسْكِينٌ عَلَى بَابَ دَاره ... إِذَا ثَكَلَتْهُ أُمُّهُ وَأَقَارِبُهُ
يُصَبُّ عَلَيْه الْبَوْلُ مِنْ كُلِّ جَانب ... وَتُخْصَبُ سَاقَاهُ وَيُنْتَفُ شَارِبُهُ

وقال اليزيدي للأصمعي:

وَمَا أَنْتَ؟ هَلْ أَنْتَ امْرُؤٌ ... إِذَا صَحَّ أَصْلُكَ مِنْ بَاهِلَهْ
وَلِلْبَاهِلِيِّ عَلَى خُبْزِهِ ... كِتَابٌ لآكِلِهِ الآكِلَهْ[٢]

---

(١) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ٢٣٣). (٢) ذكره المبرد في «الكامل» (٢/ ٧١٦).

وكتب رجل إلى محمد بن خازم الباهلي:

أَلا أَيُّـهَـا الـمُـدَّعِـي بَـاهِـلَهْ وَهَـبْـكَ كَـمَـا قُـلْتَ مِـنْ بَـاهِـلَهْ
فَـلَوْ هُـجِـيَـتْ بَـاهِـلٌ كُـلُّهَـا لَكَـانَـتْ لأَجْـلِكَ مُـسْـتَـاهِـلَهْ
أَرَى الْبَـاهِـلِي عَـلَى خُـبْـزِهِ يَـمُـوتُ وَتَـأْكُـلُهُ الآكِـلَهْ

وقال الشاعر:

رَأَيْـتُ عُـثْـمَـانَ أَبَـا حـلْس يَـنُـوحُ حُـقْـبَـيْـن عَـلَى فَـلْسٍ
يَبْـكي عَـلَى الْكـسْرَة مـنْ لُؤْمه بُـكَـاءَ شَـمَّـاس عَـلَى قَـسِّ
يَـمْـحُـو كـتَابَ الْفَـلْس في كَفه مـنْ شـدّة الـضَّـبْـط عَـلَى الْفَـلْس
يَـكْـتُـبُ تَـعْـويـذًا عَـلَى خُـبْـزه أَعَـاذَكَ الله مـنَ الـضُّـرْس

وقال أبو نواس في إسماعيل بن نوبخت:

عَلَيَّ خُبْز إسْمَاعيلَ وَاقيةُ الْبُخل فقَد حَلَّ في دَار الأمَان منَ الأكل
وَمَا خُبْزُهُ إلّا كَآوَى يُرَى ابْنُهُ ولَمْ يُرَ آوي في الْحزون وَلا السَّهْل
وَمَا خُبْزُهُ إلّا كَعَنْقَاءَ مُغْرب تُصَوَّرُ في بُسُط المُلُوك وَفي الْمَثَل
يُحَدِّثُ عَنهَا النَّاسُ منْ غَيْر رُؤْيَة سوَى صُورةَ مَا إنْ تُمرُّ وَلا تُحْلي
وَمَا خُبْزُهُ إلا كُلَيْبُ بْنُ وَائل لَيَالي يَحْمي عزَّه مَنبتُ الْبَقْل
وإذْ هُوَ لا يَسْتَبُّ خَصْمَان عنْدَهُ وَلا الصَّوْتُ مَرْفُوعٌ بجدٍّ وَلا هَزْل
فَإنْ خُبْزُ إسْمَاعيلَ حَلَّ به الَّذي أَصَابَ كُلَيْبًا لَمْ يَكُنْ ذَاكَ عَنْ ذُلّ
وَلَكنْ قَضَاءٌ لَيْسَ يَسْطيعُ رَدَّهُ بحيلَة ذي دَهْي وَلا مَكْر ذي عَقْل

وقـــال:

خُـبْـزُ إسْـمَـاعـيـلَ كَـالـوَشْـ ـشـي، إذَا مَـا انـشَـقَّ يُـرْفَـا
عَـجَـبًـا مـنْ أَثَـر الـصَّـنْـ ـعَـة فـيـه كَـيْـفَ يَـخْـفَـى؟
إنَّ رقَـــاءَكَ هَـــذَا أَلْطَـــفُ الأُمَّـــة كَـــفَّـــا
فـإذَا قَـابَـلَ بـالـنِّـصْـ ـف مـنَ الْخُـبْـزَة نـصْـفَـا
أَلْحَـمُ الـصَّـنْـعَـة حَـتَّـى لا تَـرَى مَـوْضـعَ أَشْـفَـى
مـثْـلَمَـا جَـاءَ مـن الـتَّـ ـنُّـور، مَـا غَـادَرَ حَـرْفَـا

وَلَهُ مِنْ بَعْدِ هَذَا ... خَصْلَةٌ أَحْكَمُ ظَرْفَا
يَمْزُجُ الْعَذْبَ بِمَاءِ الْـ ... ـبِئْرِ كَيْ يَزْدَادَ ضَعْفَا
فَهْوَ لا يُسْقِيكَ مِنْهُ ... مِثْلَمَا يَشْرَبُ صِرْفَا

وقال أعرابي:

وَإِنَّ نَصْرًا لَهُ دَارٌ مُشَيَّدَةٌ ... وَمِثْلُهُ لِجِيَادِ الدُّورِ بَنَّاءُ
الْحُسْنُ ظَاهِرُهَا وَالْجُوعُ دَاخِلُهَا ... وَفِي جَوَانِبِهَا بُؤْسٌ وَضَرَّاءُ
مَا يَنْفَعُ الْمَرْءَ مِنْ تَزْوِيقِ مَنْزِلِهِ ... وَلَيْسَ فِي جَوْفِهِ خُبْزٌ وَلا مَاءُ؟
أَسْتَغْفِرُ الله رَبِّيَ! رُبَّمَا خَبَزُوا ... فِي الدَّهْرِ كَعْكًا عَلَيْهِ السُّقْمُ وَالدَّاءُ؟

وقال أبو نواس في البخل:

أَتَانَا بِخُبْزٍ لَهُ يَابِس ... شَبِيهِ الدَّراهم فِي خلْقَتهْ
إِذَا مَا تَنَفَّسْتَ عنْدَ الْخوَانِ ... تَطَايَرَ فِي البَيْتِ مِنْ خِفَّتِهْ
فَنَحْنُ جُلُوسٌ جَمِيعًا مَعًا ... نُدَارِي التَّنَفس مِنْ خَشْيَتِهْ

وللحمدوني:

أَتَانَا بِخُبزٍ لَهُ حَامِض ... شَبِيه الدَّراهم في حلْيَتهْ
يُضرِسُ آكِلَه طَعْمُهُ ... وَيُنْشبُ في الْحَلْق منْ خَشْنَتهْ
إذَا مَا تَنفَّسْتَ عنْدَ الْخوَان ... تَطَايَرَ في الْبَيْت منْ خفَّتهْ
فَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعًا كُلُّنَا ... نُداري التَّنَفُّسَ منْ خُشْيَتهْ

قال الحمدُوني، ويقال للمصيصي:

لأَبِي نُوح رَغِيفٌ ... أَبَدًا في حجْر دَايَهْ
بَرَّة تَمْسَحُهُ الدَّهْـ ... ـرَ بِكُمٍّ وَوَقَايَهْ
وَتَعَاوِيذٌ عَلَيْه ... خُطَّ فيهَا بعنَايَهْ
«فَسَيَكْفيكَهُم اللَّـ ... ـهُ» إلى آخر الآيَهْ

ولبعضهم:

يَجُوعُ ضَيْفُ أَبِي نُو ... حٍ بَكْرَةً وَعَشِيَّهْ
أَجَاعَ بَطْنِيَ حَتَّى ... وَجَدْتُ طَعْمَ الْمَنيَّهْ

وَجَاءَنِي بِرَغِيف قَدْ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَهْ
فَقُمْتُ بِالْفَأْسِ كَيْمَا أَدُقُّ مِنْهُ شَظِيَّهْ
فَثَلَّمَ الْفَأْسَ وَانْصَا عَ مِثْلَ سَهْمِ الرَّمِيَّهْ
فَشَجَّ رَأْسِي ثَلاثًا وَدَقَّ مِنِّي ثَنِيَّهْ

وقال أحد الشعراء:

لأَبِي نُوح رَغِيفٌ كَانَ فِي تَنُّورِ نُوح
ثُمَّ إذْ ذَلِكَ فِي سُلْـ ـلَة إِسْحَاقَ الذَّبِيح
فَجَرَى مِنْ ذَلِكَ الدَّهْـ ـر إلَى عَهْدِ الْمَسِيح
وَلَقَدْ بَارَزَ عَمْرًا قَبْلَ أَيَّام الْفُتُوح
فَنَبَا مِنْ تَحْت صَمْصَا مَتِه نَبْوَةَ رِيح
تَرَكَتْ عَمْرًا بِلا سِـ ـن ولا ضِرْس صَحِيح

ولبعضهم:

أَكْرَمُوا الْخُبزَ بِالصِّيَانَةِ حَتَّى جَعَلُوا الْكَعْكَ لِلْبَنَاتِ شُنُوفا

ولبعضهم:

لَكَ نَفْسٌ إذَا أَضَرَّ بِهَا الْجُو عُ تَلافَيْتَهَا بِشَمِّ الرَّغِيفِ
مَنْ يَكُن عَيْشُهُ كَعَيْشِكَ هَذَا فَلْتَكُنْ دَارُهُ بِغَيرِ رَغِيفِ

وقال دعبل:

أَتَحْجُبُ مَطْبَخًا لا شَيْءَ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا يُخَافُ عَلَيْهِ أَكْلُ
فَهَبْكَ الْمَطبَخَ اسْتَوْثَقْتَ مِنْهُ فَمَا بَالُ الْكَنِيفِ عَلَيْهِ قفْلُ
وَلَكِنْ قَدْ بَخِلْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ فَحَتَّى السَّلْحُ مِنْكَ عَلَيْكَ بُخْلُ

وله أيضًا:

يَفْرَحُ بِالْقُولَنْج فِي بَطْنِهِ بُخْلًا عَلَى مَا حَازَ فِي الْجُوفِ
لَا يَذْكُرُ الله بِشَيْءٍ سِوَى أَعُوذُ بِالله مِنَ الضَّيْفِ

وله:

إنَا سَوْطُ الْعَذَاب أرْسَلَنِي اللّـ ـهُ عَلَى السّاقط السَّمِين الْبَخِيل

غَـيْـرَ أنَّ الْفَـتَـى يَـصُـونُ رَغـيـفًـا مَـا إلَيْـه لـنَـاظـر مـنْ سَـبـيـل
هُـوَ فـي رَقْـعَـتَـيْـن مـنْ أَدَم الـطَّـا ئـف فـي سَـلَّتَـيْـن، فـي مـنـديـل
في جرَاب، في مَخْدَع، جُوف صُنْدُو ق إلَى جَـنْـب خَـادم مَـغْـلُول
وَعَـلَى الـسَّـلَّتَـيْـنِ قُـفْـلان مـفْـتَـا حـهُـمَـا فـي جَـنـاح مـيـكـائـيـل
خُـتـمَـتْ كُـلُّ سَـلَّة بـرَصـاص وَسُـيـور قُـدذنَ مـنْ جـلْـد فـيـل
بِـخـتَـام مـنَ الـنُّـحَـاس عَـظـيـم صـيـغَ بَـعْـدَ الإرْهَـاق وَالـتَّـوْكـيـل
نَقْشُهُ يَا سُمَيَّ! مَا أَحْسَنَ الصَّبْـ ـرَ عَـن الْخُـبْـز بَـعْـدَ جُـوع طَـويـل

وأنشد أبو عكرمة:

فَـتًـى لِرَغِـيـفِـه قُـرْطٌ وَشَـنْـفٌ وَخِـلْـخَـالانِ مِـنْ دُرٍّ وشَـذْرِ
وَيَـبْـكِـي إنْ شَـقَـقْـتَ لَهُ رَغِـيـفًـا بُكـا الْخنْسَاءِ إذْ فُجِعَتْ بِصَخْرِ
وَتَـلْـقَـى دُونَ نَـائِلِهِ نِـطَـاحًـا وَضـرْبًـا مِـثْـلَ وَقْـعَـةِ يَـوْم بَـدْرِ

وقال عباس الخياط:

لأَبِـي عـيـسَـى رَغـيـفٌ فـيـه خَـمْـسُـونَ عَـلامَـهْ
فَـعَـلَى جَـانـبـه الْوَا حـد، لُقِّـيـتَ الْكَـرَامَـهْ
ثُـمَّ لا ذَاقَـكَ لـي ضَـيْـ ـفٌ، إلَى يَـوْم الْقـيَـامَـهْ
وَعَـلَى الآخَـر سَـطْـرٌ نَـسْـأَلُ الله الـسَّـلامَـهْ

ولعلي بن العباس ابن الرومي:

فَـتًـى عَـلَى خُـبْـزِهِ وَنَـائـلـه أَشْـفَـقُ مـنْ وَالِدِ عَـلَى وَلَده
رَغِـيـفُـهُ مِـنْـهُ حِـيـنَ يُـسْـأَلُهُ مَكَانَ رُوحِ الْجَبانِ مِنْ جَسَده

وأنشد أحمد بن يحيىٰ:

قـد نَـزَلْـنَـا بِـمَـالـكَ فَـوَجَـدْنَـا ه سَخيًّا، إلَى المَكَارم يَنْمي
فـانْـتَـقَـلْـنَـا إلَى سَعيد بْن سَلْم فَإذَا ضَيْفُهُ منَ الْجُوع يَرْمي
وَإذَا خُـبْـزُهُ عَـلَيْـه: «سَـيَـكْـفـيـ ـكَـهُـمُ الله» مَـا بَـدَا ضَـوْءُ نَـجْـم
وَإذَا خَـاتَـمُ الـنَّـبـيِّ سُـلَيْـمـا نَ بْـن دَاوُدَ قَـدْ عَـلاهُ بَـخَـتْـم
فَارْتَحَلْنَا منْ عنْدَ هَذَا بحَمْد وَارْتَـحَـلْـنَـا مـنْ هَـذَا بِـذَمِّ

وقال آخر:

أَرَى ضَيْفَكَ فِي الْبَيْتِ وَكَرْبُ الْمَوْتِ يَغْشَاهُ
عَلَى خُبْزِكَ مَكْتُوبٌ «سَيَكْفِيكَهُمُ الله»

ولبعضهم:

أَمَّا رَغِيفُكَ فِي البَعَا دِ فخَلَف مَا خَلَفَ الصَّنَمْ
فَإذَا عَلا فَوْقَ الْخِوَا نِ فمن حَمَامَاتِ الْحَرَمْ
مَا إنْ يُذَاقُ وَلا يُمَسْـ سُ وَلا يُنَالُ وَلا يُشَمْ
فَتَرَاهُ أَصْفَرَ ذَاوِيًا بَالِي النُّفُوسِ مِنَ الْهَرَمْ

وأنشد أبو عكرمة:

بَكَى امرؤٌ لَمَّا شَقَقْتُ رَغيفَهُ وَأَطْرَقَ طَوْرًا مَا يُمِرُّ وَمَا يُحْلِي
وَحَشْرَجَ لَمَّا أَنْ عَسَفْتُ ثَرِيدَهُ وَشَقّ بعَيْنَيْه وَقَالَ: اجْمَعُوا أَهْلِي
فَقَدْ حَلَّ بي ضَيْفٌ أظن مَنِيَّتي بكَفَّيْه إنْ لَمْ يَدْفَع الله أو قَتْلي
فَلَمَّا رَأَيْتُ الأَمْرَ قَدْ حَلَّ بالْفَتَى وَقَامَ منَ الْهَوْل الْجَسيم عَلَى رجْل
دَعَوْتُ بمنْديل لتَرْجعَ نَفْسُهُ إلَيْه وَأُشْنَان وَقُمْتُ إلَى نَعْلي

ولبعضهم:

وَيَحْبُسُ جَعْسَهُ فِي الْبَطْنِ شَهْرًا مَخَافَةَ أَنْ يَجُوعَ إذَا خَرِيهِ
وَقَدْ يَبْكِي عَلَيْهِ إذَا خَرِيهِ كَمَا يَبْكِي الْيَتِيمُ عَلَى أَبِيهِ

ولآخر:

رَغِيفُكَ فِي الْحِجَالِ عَلَيْهِ قُفْلٌ وَأَجْرَاسٌ وَأَبْوابٌ مَنِيعَهْ
رَأَى فِي بَيْتِهِ يَوْمًا رَغِيفًا فَقَالَ لِضَيْفِهِ: هَذَا وَدِيعَهْ

وأنشد أبو محمد الأنباري:

فَدَيْتُكَ! لَيْسَ لِي ذَنْبٌ إلَيْه سِوَى جَهْلي بِمَنْزِلَةِ الرَّغِيفِ
يَقُولُ وَقَدْ كَسَرتُ الْحَرْفَ مِنْهُ تَعِسْتَ أَخَذتَ تَعْبَثُ بالْحُرُوفِ

وأنشد أيضًا:

وإذَا مَرَرْتَ بِبَابِهِ   فَاسْتُرْ رَغيفَكَ عَنْ غُلامِهْ
سِيَّانِ كَسْرُ رَغيفِهِ   أَوْ كَسْرُ عَظْمٍ مِن عِظَامِهْ

ولأبي الشمقمق:

يَا كَاسِرًا حَرْفَ الرَّغِيفِ   عَرَّضْتَ نَفْسَكَ لِلْحُتُوفِ
أَوَ مَا عَلمْتَ بِأَنَّ هُو   ذَةَ غَيْرُ نوَّامٍ ضَعِيفِ؟
وَتَرَاهُ خَوْفَ مُطْفِلٍ   للبُخْلِ يَأْكُلُ فِي الْكَنِيفِ

ولجحظة:

وَخلٍ وَدُود دَعَانِي وَقَدْ   تَوَهَّمَ أَنِّي خَلٌّ وَدُودُ
أَبحْتُ حَرِيمَ فَرارِيجِه   وَكَانَتْ حِمَى أَنْ تُمَسَّ الْجُلُودُ
وَدُونَ الرِّقَاب تُدَقُّ الرِّقَابُ   وَدُونَ الْكُبُود تُرَضُّ الْكُبُودُ
فَقَالَ وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ:   نَعَمْ! هَكَذَا تُسْتَثَارُ الْحُقُودُ
فَقُلْتُ ـ وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ ـ: لا   أَعُودُ؛ فَقَالَ: أَنَا لَا أعُودُ

وله أيضًا:

وَصَاحِبٌ زُرْتُهُ فَقَدَّمَ لِي   كِسْرَةَ خُبْزٍ وَعَيْنُهُ عَبْرَى
وَقَالَ: مَا تَشْتَهِي؟ فَقُلْتُ لَهُ:   قَطْرَةَ مَلْحٍ وَكِسْرَةً أُخْرَى
فَمَزَّقَ الْجَيْبَ ثُمَّ لاكَمَنِي   وَقَالَ: هَذَا الْمُصِيبَةُ الْكَبْرَى

ولبعضهم:

لَمَّا حُجِبْتُ بِبَابِ دَا   رِكَ، والأُمُورَ لَهَا تَشَاكُلُ
أسْرَعْتُ سَيْرَ حُمَيِّرِي   وَعَلِمْتُ أَنَّكَ كُنْتَ تَأكُلْ

ولجحظة:

وَصَاحِبٌ إنْ جئتُهُ قَاصِدًا   أَفَدْتُ مِنْهُ الْعِلْمَ وَالظَّرْفَا
حَتَّى إذَا مَا جِئْتُهُ زَائِرًا   لَمْ أَلْقَ، لَا نَانَا، وَلا أُفَّا

وله أيضًا:

يَا سَائلي بِأَمِيرِنَا   اسْمَعْ إلَى الْخَبَرِ الْمُخَبَّرْ

إنِّـي رَكـبْـتُ ـ وَمَـا أَكَـلْـ ـتُ ـ إلَى الأمير، كَمَا تَقَدَّرْ
قَالَ: الطَّعَامُ، فَجَاءَ خَا دِمُهُ بِفَرْخ قَدْ تَغَيَّرْ
قَدْ كَانَ فَقِّيعًا فَأَصْـ ـبَحَ عِنْدَ طُول المُكْث أَخْضَرْ
وَتَنَاعَرَتْ دَايَاتُهُ هَاتوا لَهُ الجَنْبَ المُبَرَّزْ[١]
فَأَتَوْا بِه فِي صَحْفَة نُحرَتْ لِكسْرَى أَوْ لِقَيْصَرْ
كَرِفَادَاة الفَصْد الصَّغيـ ـرَة بَلْ أَظُنُّ الْجَنْب أصغَرْ[٢]
الحَمْدُ لله الَّذي جَعَلَ السَّمَاحَةَ خَيْرَ مَتْجَرْ

وله أيضًا:

رُبَّ خِلٍّ طَرَقْتُهُ لِلسَّلام ظَنَّ أَنِّي أَتَيْتُهُ لِلطَّعَام
فَتَمَطَّى سَوَيْعَةً ثُمَّ نَادَى: يَا غُلامي! وَأَيْنَ لي بِغُلامي!؟
هَات لي حُقَّةَ الْجُوَارش إني بَشِمٌ مِنْ هَرِيسَة وَهُلام
قُلْتُ: قَدْ قُمْتُ عَنْكَ، قَالَ: وَمَنْ لي مِنْكَ يَا مَن فَقَدْتُهُ بِالْقِيَام
أَحْمَدُ الله، أَقْسَمَ الله أَنْ لا يَتَوَخَّى الرِّزْق غَيْرَ اللِّئام

وله أيضًا:

لِي صَديقٌ طَرَقْتُهُ يَوْمَ جَمْع وَاحْتفَال، وَمنْ دُعَاهُ حُصُولُ
يَتَشَكُّونَ شِدَّةَ الْجُوع وَالدَّا عي لَهُم عَنْ مَقَالِهِمْ مَشْغُولُ
ثُمَّ نَادَيْتَ بِالطَّعَام وَقَدْ كَا دَتْ نُفُوسُ الحُضَّار جُوعًا تسيلُ
هَلْ إلى نَظْرَة إلَيْكَ سَبيلٌ يَرْوَ منْهَا الصَّدَى وَيَشْفَ الْغَليلُ
قَالَ: هَيْهَاتَ! دُونَ ذَلكَ قُفْلٌ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ، وَمَنْعٌ طَويلُ

وله أيضًا:

وَقَائِلَةً: مَا دَهَى نَاظِرَيْكَ؟ فَقُلْتُ: رُوَيْدَكَ! إنِّي دُهِيتُ
قَرَضْتُ دَجَاجَةَ بَعْضَ المُلُوكِ فَمَا زِلْتُ أُصْفَعُ حَتَّى عَمِيتُ

---

(١) النعر: الصياح، والداية: المرضعة، أو المربية، وقيل: المولّدة للوالدة، كما اشتهر بمصر وغيرها. والمبرر أي: الذي نثر عليه البرر أي: التابل.

(٢) الرفادة: الخرقة التي يربط بها الجرح، ويضمد.

وله أيضًا:

وَشَقَقْتُ عَنْ جَذْي الْبَخيلِ إهَابَهُ وَأَكَلْتُ شَحْمَ الْكُلْيَتَيْنِ بِسُكَّر
فَهُنَاكَ مَا دَنَتِ الأكُفُّ لِهَامَتِي لَطْمًا فَأَخْرَجَتِ الدِّمَا مِنْ مَنْخِرِي

وأنشد كشاجم لأبيه [من الطويل]:

صَديقٌ لَنَا منْ أبْرَعِ النَّاس في الْبُخل وَأَفْضَلهمْ فيه وَلَيْسَ بذي فَضْل
دَعَاني كَمَا يَدْعُو الصَّديقُ صَديقَهُ فَجئتُ، كَمَا يَأْتي إلَي مثْله مثْلي
فَلَمَّا دَنَوْنَا للطَّعَام رَأيْتُهُ يَرَى أَنَّهُ منْ بَعْض أعْضَائه أكْلي
وَيَغْتَاظُ أحْيَانًا وَيَشْتُمُ عَبْدَهُ وَأعْلَمْ أنَّ الْغَيْظَ وَالشَّتْمَ منْ أجْلي
أَمُدُّ يَدي سرًّا لآخُذَ لُقْمَةً فَيَلْحَظُني شَزْرًا فَأَعْبَثُ بالْبَقْل
إلى أنْ جَنَتْ كَفِّي لحَيْني جنَايَةً وَذَلكَ أنَّ الْجُوعَ أَعْدَمني عَقْلي
وَأَهْوَتْ يَميني نَحْوَ رجْل دَجَاجَة فَجُرَّتْ كما جَرَّتْ يَدي رجْلَها رجْلي
وَقُدِّمَ منْ بَعْد الطَّعَام حَلاوَةٌ فَلَم أسْتَطعْ فيهَا أُمرُّ وَلا أُحَلِّي
فَلَوْ أَنَّني قَدْ كُنْتُ بِتُّ بِبَيْته رَبحْتُ ثَوَابَ الصَّوْم مَعْ عَدَم الأكْل

ولبعض الكتاب:

رَأَيْتُكَ عنْدَ حُضُور الْخوَان قَليلَ النَّشَاط، كَثيرَ الصِّيَاح
تُلاحظُ عَيْنُكَ كَفَّ الأَكيل فَتَرْمُقُهُ منْ جَميع النَّواحي
وَتَشْغَلُهُ باسْتمَاع الْحَديث طَوْرًا، وَآونَةً بالْمزَاح
فَعَالُ أمْرِىءٍ بَخلَتْ نَفْسُهُ بشَيءٍ يَؤُولُ إلَى الْمُسْتَرَاح

أبخل الناس

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «البخل عشرة أجزاء، فتسعة في فارس وواحد في الناس».

وعن محمد بن مسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «قسم الحفظ عشرة أجزاء، فتسعة في الترك وجزء في سائر الناس. وقسم البخل عشرة أجزاء، فتسعة في فارس وجزء في سائر الناس. وقسم السخاء عشرة أجزاء، فتسعة في السودان وجزء في سائر الناس. وقسم الحياء عشرة أجزاء، فتسعة في العرب وجزء في

سائر الناس. وقسم الكبر عشرة أجزاء، فتسعة في الروم وواحد في سائر الناس».

وقال الجاحظ: ليس في الدنيا أبخل من ثلاثة: خادم ومخنث وذمي.

وقال الحربي رحمه الله: جاء رجل يسأل يحيىٰ بن أكثم، فقال له: أيش توسمت فيَّ؟ أنا قاضٍ، والقاضي يأخذ ولا يعطي؛ وأنا من مرو، وأنت تعرف ضيق مرو، وأنا من تميم، والمثل إلى بخل تميم.

وقال الأصمعي: أبخل أهل خراسان أهل طوس؛ وكانت قرية من قراها قد شهر أهلها بالبخل، وكانوا لا يقرون ضيفًا، فبلغ ذلك واليًا من ولاتهم، ففرض عليهم قرى الضيف، وأمرهم أن يضرب كل رجل منهم وتدًا في المسجد الذي يصلي فيه، وقال: إذا نزل ضيف فعلى أي وتد علق سوطًا أو ثوبًا فقراه على صاحب الوتد؛ وكان فيهم رجل مفرط البخل، فعمد إلى عود صلب، فملسه وحدده، وصيره في زاوية المسجد، ووتده منصوبًا ليزلَّ عنه ما علق عليه، فدخل المسجد ضيف، فقال في نفسه: ينبغي أن يكون هذا الوتد لأبخل القوم، وإنما فعل هذا هربًا من الضيافة؛ فعمد إلى عمامته، فعقدها على ذلك الوتد عقدًا شديدًا، فثبتت، وصاحب الوتد ينظر إليه قد سقط في يديه، فجاء إلى امرأته مغتمًا، فقالت: ما شأنك؟ فقال: البلاء الذي كنا نحيدُ عنه، قد جاء الضيف، ففعل كذا وكذا. فقالت: ليس لنا حيلة إلا الصبر، واستعانة الله عليه؛ وجعلت تعزيه. واجتمع بناته وجيرانه متحزنين لما حل به. وكان أمر الضيف عندهم عظيمًا، فعمد إلى شاة، فذبحها، وإلى دجاجة فاشتواها، وإلى جفنة فملأها ثريدًا ولحمًا. فجعلت امرأته وبناته وجاراتُهُ يتطلعن من فروج الأبواب والسطوح إلى الضيف وأكله، وجعلوا يتبادرون: قد جاء الضيف، ويلُكم! قد جاء الضيف. فتناول الضيف عرقًا من ذلك اللَّحم ورَغيفًا فأكله ومسح يده، وحمد الله عزّ وجلّ، وقال: ارفعوا، بارك الله عليكم!. فقال صاحب البيت: كل يا عبد الله! واستوف عشاءك، فقد تكلفنا لك. قال: قد اكتفيت. فقال: هكذا أكل الضيف مثل أكل الناس لا غير؟ قال: نعم. قال: ما ظننت إلا أنك تأكل جميع ما عملناه وتدعو بغيره. فكان ذلك الرجل بعد ذلك لا يمر به ضيف إلّا قراه.

وقال أبو الشمقمق [من البسيط]:

مَـا إنْ رَأَيـتُ خَـنَـازِيـرًا مُـعَـرَّبَـةً إلّا ذَكَـرْتُ بِـهَـا نَـاسًـا بِـحَـلْوَانِ
قَوْمٌ إذَا حَلَّ ضَيْفٌ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ لَمْ يُـنْـزِلُوهُ وَدَلُّوهُ عَـلَى الْخَـانِ

ولبعضهم:

إذا صَـادَفْـتَ صَـادِقْ وَاسِـطِـيًّـا عَـلَى بَـذْلِ الـسَّـلامِ بِـلا طَـعـامِ
يُـرِيـكَ الْفَـضْـلَ فِـي صَـادٍ وَمِـيمِ وَيَــمْــنَــعُ ذَاكَ فِـي كَـافٍ وَلامِ

وقال بشّار بن برد الأعمى [من الطويل]:

عَلَى وَاسط منْ رَبِّهَا أَلْفُ لَعْنَة وَتِـسْـعَـةُ آلاف عَـلَى أَهْلِ وَاسط
أَيَلْتَمَسُ الْمَعْرُوفُ منْ أَهْلِ وَاسط وَوَاسطُ مَأْوَى كُلِّ علْج وَسَاقط؟
نَبِيطٌ وَأَعْلاجٌ وَخُوزٌ تَجَمَّعُوا شـرارُ عَبيد الله مـنْ كُـلِّ غـائط
وَإنِّي لأَرْجُو أَنَّ أَنَالَ بِشَتْمِهِمْ منَ الله أَجْرًا مثْلَ أَجْر الْمُرَابط

قال بعض أهل البصرة: كان عندنا جماعة من القسامل يتواصون باللؤم مقحط الأموال. قال: فقال بعضهم: غدوت إلى البازجاه بمَرَّان إلى رَجُلٍ عليه قلسان. قال: فقال لي، يعني صاحبًا له: فرَّطت وضيعت وأسأت. قال: وكيف؟ قال: قال ازددت على قوتك، وأخلقت ثوبك، وأبليت نعلك. فقال: كان ثوبي مطويًا على عنقي، ونعلي معلقة بيدي، ولم أزدد على قوتي شيئًا. فقال: قد حفظت.

أسفل سفل سفل

قال عبد الجبّار بن عبد الله: مات رجل - يعني: بالبصرة - وأوصى بثلث ماله للسفل، فسأل - يعني: وصيه - عن السفل. فقيل له: السماكين. فمضى إلى سماكي الحبل، فقال: أنتم السفل؟ قالوا: نحن السفل، ولكن سماكي البازجة أسفل منا. فمضى إلى البازجة، فقال: أنتم السفل؟ فقالوا: نحن السفل، ولكن سماكي الأبلة أسفل منا. فمضى إلى الأبلة، فقال: أنت السفل؟ فقالوا: نحن السفل فماذا تريد؟ قال: مات رجل وأوصى بثلث للسفل فأرشدت إليكم؛ فقام رجل منهم فوثب عليه، وقال: لا نزايلك إلى الحاكم حتى تحلف أنك ما انتفعت منه بشيء، ولا أنفقت. فقال الرجل: أشهد أنكم سفل سفل.

وقال عبد الواحد بن محمد الخصيبي. سمعت أبا علي أحمد بن إسماعيل، يقول: ليس يتهيأ لك الاستقصاء السفلة أو تسفل معهم.

وما يدريك ما الرمان؟

قال صبي من أهل الكوفة لأبيه: يا أبه! أشتهي رمَّانًا. فقال: وما يدريك ما الرمان؟ ثم قال لأمه: ذريه حتى يظنَّ أنّ الذرور هو الرمَّان.

الناطف الناطف

قال عمر: سمعت أبا أيوب الأنطاكي، يقول عن رجل قال: دعاني رجل بالكوفة إلى منزله، فأتيته، فإذا شاة مشدودة في ناحية الدار، فبينا أنا كذلك إذ سمعت: الناطف، الناطف، قال: فصاحت الشاة، واضطربت اضرابًا شديدًا. قال: ففزعت من ذلك. فقال لي الكوفي: يا عبد الله! لا تفزع ولا ترع، إنّ لنا صبيًا إذا سمع صوت «الناطف» جاء إلى هذه الشاة، فنتف صوفها واشترى به ناطفًا، فالشاة لما ينزل بها من الوجع من نتف الصوف تصيح هذا الصياح إذا سمعت صوت «الناطف».

أنا أنتظر السقاء

قال عبد الله بن عقبة الباهلي: دعاني رجل من أهل الكوفة إلى منزله أتغدَّى عنده، فأتيته، فأدخلني إلى دار قوراء كبيرة، فأجلسني في بيت منها، فلم أزل حتَّى انتصف النهار، واشتد جوعي. فقلت: يا هذا! قد حبستني. قال: فنادى بأعلى صوته: يا عاتكة! يا حمامة! يا أم غراب! قال: فأجابته جارية من أقصى الدار: لبيك يا مولاي! قال: ويلك! أبو محمد قد حبسناه منذ غدوة، فهاتي ما عندك. فقالت: يا مولاي! قد نخلتُ دقيقي، وأنا أنتظر السقاء يجيء حتى أعجن. قال: فقمت فخرجت.

كسر الرجل مبولتك

قيل: إن رجلًا عربيًا كان يمشي في بعض دروب الكوفة في يوم قائظ شديد الحر، فلظَّه العطش، فتقدم إلى باب دار، فطرقه، فخرجت إليه جارية، فقال لها: قد لظني العطش، فاسقيني كوزًا من ماء، فقالت له: والله ما عندنا ماءٌ، ولكن عندنا لبن، فهل لك أن تشرب منه، فقال لها الرجل: ومن لي بذلك؟ فأخرجت إليه فخّارة فيها لبن، ودفعتها إليه، فعجب الرجل، وقال في نفسه، أليس يذكر عن

أهل الكوفة البخل؟ وأنا قد طلبت من أهل هذه الدار ماء فسقوني لبنًا، وهذا غاية الكرم. ثم وضع الفخارة عن فمه وقال للجارية: يا هذه إني أرى في الفخارة فأرة ميتة فقالت الجارية: فأرة أخرى؟ فرمى بالفخارة عن يده إلى الأرض فسقطت، فانكسرت، فبادرت الجارية إلى مولاتها صارخة تولول وتقول: يا ستي كسر الرجل مبولتك.

لا يبيع اللحم إلا بالنوى

قيل: إن بغداديًا لحامًا نزل بالكوفة، وفتح فيها حانوتًا ليبيع فيه اللحم، فمكث زمانًا لا يشتري أحد منه شيئًا؛ ثم جاءته امرأة في قناعها نخالة، وقالت له: أعطني بهذه النخالة لحمًا. فصاح عليها وانتهرها، وقال: أيُّ خير يرتجى من قوم يريدون ابتياع اللحم بالنخالة؟ فولّت المرأة وهي تضحك تعجبًا منه، وقالت: هذا البغدادي طريف، لا يبيع اللحم إلا بنوى.

البخلاء وجمع المال

كان أبو العميس رجلًا بخيلًا فكان إذا أخذ الدرهم نقره، وقال: كم من يد وقعت فيها، ومن بلد دخلته، أسكن وقرَّ عينًا؛ فقد استقرّت بك الدار، واطمأنَّ بك المنزل؛ ثم يرفعه.

وعن بعض البخلاء أنه كان إذا وقع الدرهم في يده يخاطبه، ويقول له: أنت عقلي وديني وصلاتي وصيامي وجامعُ شملي وقرّة عيني وأنسي وقوتي وعدتي وعمادي. ثم يقول له:

أهـلًا وَسَـهْـلًا بِـكَ مـنْ زَائـرٍ كُـنْـتُ إلـى وَجْـهِـكَ مُـشْـتَـاقَـا

ثم يقول له: يا نور عيني، وحبيب قلبي! قد صرت إلى مَن يصونك، ويعرف قدرك، ويعظم حقك، ويرعى قديمك، ويشفق عليك، وكيف لا تكون كذلك وأنت تعظم الأقدار، وتعمر الديار، وتفتض الأبكار، وتسمو على الأشراف، وترفع الذكر، وتعلي القدر، وتؤنس من الوحشة. ثم يطرحه في كيسه ويقول:

بِنَفْسِيَ مَخْبُوءٌ عَنِ الْعَينِ شَخْصُهُ وَمَنْ لَيْسَ يَخْلُو مِنْ لِسَانِي وَلا قَلْبِي
وَمَنْ ذِكْرُهُ حَظِّي مِنَ النَّاسِ كُلِّهِم وَأَوَّلُ حَظِّي مِنْهُ فِي الْبُعْدِ وَالقُرْبِ

وكان خالد بن صفوان إذا أخذ جائزته قال للدراهم: أما والله! لطالما غرّبت في البلاد، فوالله! لأطيلن ضجعتك، ولأديمنَّ صرعتك.

وأتى خالد بن صفوان رجلٌ يسأله، فأعطاه درهمًا، فقال له: سبحان الله! يا صفوان! أسألك فتعطيني درهمًا! فقال له خالد: يا أحمق! أما تعلم أن الدرهم عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف عشر عشرة الآلاف، ألا ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية المسلم؟! والله! ما تطيب نفسي بدرهم أنفقه إلّا درهمًا قرعت به باب الجنة، أو درهمًا اشتري به موزًا فآكله.

وقال يزيد بن عمير لبنيه: يا بني! اعلموا أنّه يكون عند أحدكم مائة ألف أعظم له من صدور بني تميم، وأعظم شرفًا من أن يقسمها فيهم، ولأن يقال لأحدكم شحيح. وهو غني، خيرٌ من أن يقال: سَخيٌّ وهو قد افتقر، ولأن يقال لأحدكم: جبان وهو حيٌّ، خيرٌ من أن يقال: شجاع وقد قتل، وتعلّموا الرَّدَّ، فوالله! لهو أشدُّ من الإعطاء.

وقال الفضل بن سهل: رأيت جملة البخل سوء الظن بالله عزّ وجلّ! وجملة السخاء حسن الظن بالله عزّ وجلّ! وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٩].

وأنشد المرتضـى:

وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمَعْشَر صَانُوا الْغِنَى ... وَأَذَالَ مِنْهُمْ مَا سِوَاهُ مَذِيلُهْ
ظلُّ الْغِنَى مِنْ سَاكني ظلّ الْغِنى ... يُخْشَى عَلَيْه زَوَالُهُ وَحُؤُولُهْ
لَمْ يُثْرِ مَنْ لَمْ يُغْنِ مُفْتَقِرًا وَلَمْ ... يَنَلِ الْغِنَى مَنْ لا تَرَاهُ يُنِيلُهْ
وَالْجُودُ لا يَبْقي التِّلادَ عَلَى الْفَتَى ... وَالْبُخْلُ عنْوَانُ الْغِنَى وَدَلِيلُهْ

ولبعضهـم:

أَنْفِقْ وَلا تَخْشَ إقلالًا فَقَدْ قُسِمَتْ ... بَيْنَ الْعِبَادِ مِنَ الآجَالِ أَرْزَاقُ
لَا يَنْفَعُ الْبُخْلُ مَعْ دُنْيَا مُوَلِّيَةٍ ... وَلَا يَضُرُّ مِن الإقْبَال إِنْفَاقُ

في ذكر الغِنى
وحبّ المال والافتخار بجمعه

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: الآية ٤٦]. وقيل: الفقر رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء. فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدًّا من ترك الحياء ومن فَقَد حياءه فَقَد مروءته، ومن فَقَدَ مروءته مقت، ومن مقت ازدري به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له.

وقال رسول الله : «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

وفي الحديث: «لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدي به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه».

وقال عليّ كرّم الله تعالى وجهه: الفقر الموت الأكبر، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر، وقيل: مَن حفظ دنياه حفظ الأكرمين دينه وعرضه. قال الشاعر:

لا تلمني إذا وقيت الأواقي ... بالأواقي لماء وجهي واقي[2]

وقال لقمان لابنه: يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر، فلم أر شيئًا أمر من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا ينتقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه أو تضرع إليه فلم يكشف ما به.

---

(١) المستطرف: ص ٣١٠ ـ ٣١٥.

(٢) وقيت الأواقي: تجنبت المكاره. بالأواقي: بالتذليل، والمنع. واقي: ساتر ومانع.

وكان العباس رضي الله تعالى عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء وأرفع من السماء وأحلى من الشهد وأزكى من الورد، خطؤه صواب وسيئاته حسنات وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يملّ حديثه، والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم ولا يُسْأَلْ عنه إنْ غاب، إن حضر أردوه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة.

وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسي فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعنيها، وتوحشت في البرية فلم أر وحشة أقرّ من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قرينًا أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كل ما يذل القوي ويكسره فلم أر شيئًا أذل له ولا أكبر من الفاقة.

وكل مقل حين يغدو لحاجة ... إلى كلِّ ما يلقى من الناس مذنبُ
وكانت بنو عمِّي يقولون مرحبًا ... فلما رأوني معدمًا مات مرحبُ

وقال آخر:

المال يرفع سقفًا لا عمادَ له ... والفقر يهدم بيت العزِّ والشرف

وقال آخر:

جروح الليالي ما لهنّ طبيبُ ... وعيش الفتى بالفقر ليس يطيبُ
وحسبك أنَّ المرء في حال فقره ... تحمِّقه الأقوامُ وهو لبيبُ
ومن يغترر بالحادثات وصرفها ... يبتْ وهو مغلوب الفؤاد سليبُ
وما ضرّني إن قال أخطأت جاهلٌ ... إذا قال كلّ الناس أنت مصيبُ

وقال آخر:

الفقر يزري بأقوامٍ ذوي حسبٍ ... وقد يسود بغير السيد المال

وقال آخر:

لعمرك إنَّ المال قد يجعل الفتى ... سنيًا وأنَّ الفقر بالمرء قد يزري[1]
وما رفع النفس الدنيّة كالغنى ... ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

---

(١) سنيًا: لامعًا معروفًا بين الناس. ويزري: يهين ويذل.

وقال آخـر:

إذا قـلّ مـال الـمـرء لانـت قـنـاتـه وهـان على الأدنى فكيف الأباعد[١]

وقال ابن الأحنـف:

يمشي الفقير وكل شيءٍ ضده والـنـاس تـغـلق دونـه أبـوابـهـا
وتراه مبغوضًا وليس بمذنبٍ ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروةٍ خضعت لديه وحرّكت أذنابها
وإذا رأت يـومًـا فـقـيـرًا عـابـرًا نبحت عليه وكشّرت أنيابها

وقال آخـر:

فـقـر الـفـتـى يـذهـب أنـواره مثل اصفرار الشمس عند المغيب
والله مـا الإنـسـان فـي قـومـه إذا بـلـي بـالـفـقـر إلّا غـريـب

وقال آخـر:

إن الدراهم في المواطن كلّها تكسو الرجال مهابةً وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحةً وهي السّلاح لمن أراد قتالا

وقال آخـر:

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها فكلّما انقلبت يومًا به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ يومًا عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال بعض الفرس: مَن زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كذاب.

وقال الكناني:

أصـبـحـت الـدنـيـا لـنـا عـبـرة فـالـحـمـد لله عـلـى ذلـكـا
قـد أجـمـع الـنـاس عـلى ذمّـهـا ومـا أرى مـنـهـم لـهـا تـاركـا

وقال الزمخشـري:

وإذا رأيت صعوبةً في مطلب فاحملْ صعوبته على الدينار
وابـعـثـه فـيـمـا تـشـتـهـيـه فـإنـه حـجـرٌ يـلـيّـن قـرّة الأحـجـار

(١) لانت قناته: أي ضعف عوده وقوته.

قال الثوري رحمه الله تعالى: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب أليَّ من أن أحتاج إلى لئيم، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احفظ عُرى مالك تحظى به ... ولا تفرّط فيه تبقى ذليل[1]
وإن يقولوا باخلٌ بالعطا ... فالبخل خيرٌ من سؤال البخيل
واحفظ على نفسك من زلةٍ ... يرى عزيز القوم فيها ذليل

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين والمحترفين والموهمين والمتنسمين.

فأما المطمعون: فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول: إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك وخدمتك، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي لك على مال بل يكون تحت يدك أو تحت يد أحد من جهتك. ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين: إن ائتمنه، وجعل المال بيده أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح، وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير من ماله، ثم يحتج عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال قابحه، وبرطل من جملة المال صاحب جاه، فيدفعه ويقول هذا راباني، فإن روعي صاحب المال وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة، فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم يأتمنه وعوّل أن يكون القبض بيده، والمتاع مخزونًا لديه، واطأ عليه البائعين والمشترين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أوْهَمَهُ أن مفاتيح الأرزاق بيده، وأن كسد المشترى أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال: ليس لي علم بالغيب.

---

(١) عرى مالك: أي عقدها ورباط الكيس الذي وضعتها فيه.

ومن أشد المطمعين المتعرضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنها، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم، فإن كذبهم ظاهر، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيرًا ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل. ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك إلا عدم الإمكان وتعذر المكان، فمنهم مَن يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم مَن يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة فيقنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية وسبيله بعد ذلك إن كان معروفًا قال: فسد عليّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي ينفق عليه: هل لك في المعاودة؟ فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأي سبب كان. وإن كان منكورًا غافل صاحب المكان وخرج هاربًا.

ومن المطمعين قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون: نريد أن تأخذ لنا عدة تنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك، ويوطن نفسه على أن المدة تكون قريبة، فيعملون يومًا أو يومين فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعًا ويعتقد الصحة، ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء. وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه؛ فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا، فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحون: فهم من الخونة والناس بهم أكثر غررًا. وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحد منهم لشراء حاجة سارع فيها واحتاط في جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو درعها ووضع من أصل ثمنها شيئًا وزنه من عنده حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه، وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقى مقاليد أموره إليه فيستعطفه، ويفوز به، ثم يغيّر الحال الأول في الباطن. فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون: فهم الذين يتعرضون لذوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس

ويستعملون كثيرًا من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة. فيما يعانيه ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثيرة من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق أو أكل أو شرب، فتشره نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة يا فلان: تريد الدنيا كلها لنفسك، لمَ لا تشركنا في متاجرك هذه وأرباحك؟ فيقول له: أنت جبان يعزّ عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئًا واحتجت إلى أن تطعمه، وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيرًا كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه. فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتنسمون: فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ومجانبة الحرام ومواظبة الصلاة والصيام لكي يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام، ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهاني بالأعياد. وربما يأتي معه بأحد من الأولاد، ويظهرون النزاهة والغنى، ويجعلون الدين سلمًا إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال وتفوّض إليهم الوصايا، ويجلهم العوام، وتقبل شهادتهم الحكام وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال، وهؤلاء أشر من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم. قال الشاعر:

صلى وصام لأمر كان أمّله ... حتى حواه فما صلّى ولا صاما

وقيل: لا فقير أفقر من غني يأمن الفقر. قال الشاعر:

ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى ... وأن الغني يخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم، وجمع المال، فإن الناس طائفتان خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال.

وقال بعض الحكماء: إذا افتقر الرجل اتهمه مَن كان به موثقًا، وأساء به الظن مَن كان ظنه حسنًا، ومَن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدًا من ترك الحياء، ومَن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعًا سمي أهوج، وإن كان مؤثرًا سمي مفسدًا، وإن كان حليمًا سمي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سمي بليدًا، وإن كان لَسنًا سمي مهذارًا، وإن كان صموتًا سمي عييًا، قال ابن كثير:

الناس أتباع مَن دامت له نعم والويل للمرء إن زلّت به القدمُ
المال زينٌ ومَن قلّت دراهمه حي كمن مات إلّا أنّه صنم
لما رأيت أخلّائي وخالصتي والكل مستترٌ عنّي ومحتشمُ
أبدوا جفاءً وإعراضًا فقلت لهم أذنبت ذنبًا فقالوا ذنبك العدم[1]

ابن مقلة واليهودي

وكان ابن مقلة وزيرًا لبعض الخلفاء، فزوّر عنه يهودي كتابًا إلى بلاد الكفار وضمنه أمورًا من أسرار الدولة، ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي، فأعطته درجًا بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذي كان في الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة، وكان ذلك يوم عرفة، وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل مَن في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلهما أشر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالًا كثيرة وخلعًا سنيّة وندم من فعله واعتذر إليه، فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تحالف الناس والزمانُ فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يومٍ فانكشف الناس لي وبانوا
يا أيُّها المعرضون عني عودوا فقد عاد لي الزمان

(١) العدم: الفقر.

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى، قال بعضهم:

إنـمـا قـوة الـظـهـور الـنـقـود وبـهـا يـكـمـل الـفـتـى ويـسـود
كـم كـريـم أزرى بـه الـدهـر يـومًـا ولـئـيـم تـسـعـى إلـيـه الـوفـود

والأطباء يعلمون أمراضًا من علاجها اللعب بالدينار وشرب الأدوية والمسالق التي يغلي فيها الذهب.

قال الشاعر:

احـرصْ عـلـى الـدرهـم والـعـيـن تـسـلـم مـن الـعـيـلـة والـديـن[1]
فـقـوة الـعـيـن بـإنـسـانـهـا وقـوة الإنـسـان بـالـعـيـن[2]

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوي القلب قوي سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال. وبالضد إذا ضعف الفقر ضعف له البدن.

حُكِيَ أن ملكًا رأى شيخًا قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه، والشاب يعجز عن ذلك، فعجب منه، فاستحضره، فحادثه في ذلك، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه.

وقال لقمان لابنه: يا بني شيئان إذ أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك. والكلام في هذا المعنى كثير. وقد اقتصرت منه على النزر اليسير. وقد كان في الناس مَن يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخرًا.

فمن ذلك: ما حكي عن أحمد بن طولون أنه دخل يومًا بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهره فاستحسنه، فدعا بغدائه فتغدّى، ثم دعا بشرابه فشرب، فلما انتشى قال: عليّ بألف مثقال من المسك، فنثره على أوراق النرجس.

حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالعجائب والطرف: أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة، وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان يُهدى للبيت، قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار.

(١) العين: الأملاك وما شابهها. (٢) إنسان العين: بؤبؤها.

وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قد قُتل صاحبها بثمانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفًا، وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوّض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف.

ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريقًا مرصعًا بالجوهر، فلم يدر أحد ما قيمته، فقال رجل من الفرس: أنا آخذه بعشرة آلاف دينار، ولم يعرف قيمته، فذهب إلى سعد بن أبي وقاص، فأعطاه إياه وقال: لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار، فباعه سعد بمائة ألف دينار.

ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه ونسيت الأخرى، فأصابها المسلمون، فقومت بمائتي ألف دينار.

ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدر ذهب ينزل إليها بسلالم.

ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مولاه فصًا من ياقوت أحمر، وقال له: انج به، وكان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال: والله لا ينتفع به أحد بعد مصعب، وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته ظهر على كنز، فوجد فيه حلّة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب مرصعة بالدر والجواهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد، فحملها إلى مصعب بن الزبير، فخرج من قومها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار، فقال: إلى مَن أدفعها؟ فقيل: إلى نسائك وأهلك. فقال: لا، بل إلى رجل قدم عندنا يدًا، وأولانا جميلًا. ادع لي عبد الله بن أبي دريد، فدفعها إليه.

ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالًا، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر، فقومت بتسعين ألف دينار.

ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أُعد له من آلة الشرب يوم قُتل، سبعمائة صينية من ذهب وفضة. ووجد له مائة ألف مثقال عنبر.

وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي، وعشرة آلاف تكة حرير، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار، ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين.

ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش في شهر رمضان سنة خمس عشر وخمسمائة، خلّف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين إردبًا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج ودواة من الذهب قوم ما عليها من الجواهر واليواقيت بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونًا، وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذي لا يوجد مثله، وخلّف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم وسق مائة جمل، وخلّف عشرة آلاف ملعقة فضة وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبابة فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهبًا كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام ذهبًا بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجًا عن الأرادب في كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلّف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلي النساء ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وخلّف ألف حسكة ذهبًا وألفي حسكة فضة، وثلاثة آلاف نرجسة ذهبًا، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهبًا وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب، وثلاثمائة تور ذهبًا، وأربعة آلاف تور فضة، وخلّف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلّف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه في كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلّف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلًا كان بالقرب من موضع العاضد محتفظًا به، فلما رأوه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط، فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه، فضرط، فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية، ولم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره. وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزًا لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفدت ذخائرهم، وفنيت أموالهم، فسبحان مَن

يدوم ملكه وبقاؤه. قال بعضهم:

هب الدنيا تقاد إليك عفوًا ... أليس مصيرُ ذلك للزوال

وقال الأبشيهي:

أيا مَن عاش في الدنيا طويلًا ... وأفنى العمر في قيلٍ وقالِ
وأتعب نفسه فيما سيفني ... وجمّع من حرامٍ أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا ... أليس مصير ذلك للزوال

في ذكر الفقر

قال في المستطرف[1]: قد دلّ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العَلَق: الآيتان ٦، ٧] على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان. وسُئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى مَن طغى من خلق الله عزّ وجلّ إلا بالغنى وتلا هذه الآية المتقدمة.

والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال. وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة.

وحدّث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء أُمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عامًا»، فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أو من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم، قال: فهل عندك ما تتعشى به؟ قال: نعم، قال: فإذًا أنت من الأغنياء.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان النبي ﷺ يبيت طاويًا ليالي ما له ولا لأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول. هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه، وكان يقول: «اللهم توفني فقيرًا ولا تتوفني غنيًا واحشرني في زمرة المساكين».

وقال جابر رضي الله تعالى عنه: دخل النبيّ ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

---

(١) المستطرف: ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: الآية ٥].

وقال ﷺ: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختار إلا أولياء الله تعالى». وفي الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عزّ وجلّ لملائكته: أدنوا إلي أحبائي، فتقول الملائكة: ومَن أحباؤك يا إلـٰه العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أحبائي، فيدنونهم منه، فيقول: يا عبادي الصالحين إني ما زويت الدنيا عنكم لهوانكم عليَّ ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إليَّ وتمتعوا ما شئتم. فيقولون: وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها، ولقد أحسنت بما صرفت عنا، فيأمر بهم، فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان.

وقال ﷺ: «هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم، والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء أُمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره ـ أي لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ـ ولم يعطه من الدنيا شيئًا».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لَم ينصت لهم. حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم».

ورُوِيَ عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين، وكان ضيق الحال جدًا، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو، فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك، قال: فالتفت يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا، فأخذ حصاة من الأرض وقال: اللهم اجعلها ذهبًا، فإذا هي تبرة في كفه ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إليّ وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: أنفقها على عيالك، فهبته والله أن أردها عليه، وقال عون بن عبد الله: صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحدًا أكثر مني همًّا لأني كنت أرى ثيابًا أحسن من ثيابي ودابة أحسن من دابتي، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك، فاسترحت. قال بعضهم:

وقد يهلك الإنسان كثرة ماله كما يُذبح الطاووس من أجل ريشِهِ

وقال عبد الله بن طاهر:

ألم تَر أن الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى[(١)]
فمن سرّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذْ شيئًا ينال به فقدا

وكان من دعاء السلف رضي الله تعالى عنهم: «اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى». وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويلٌ لمن جمع المال من غير حقه، وويلان لمن ورثه لمن لا يحمده وقدم على مَن لا يعذره.

ولما فتحت بلخ في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغني بعد الانصراف من بين يدي الله تعالى أي: بعد العرض، قال الشاعر:

ومَن يطلب الأعلى من العيش لم يزل حزينًا على الدنيا رهين غبونها[(٢)]
إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكنْ على حالةٍ إلا رضيت بدونها

وقال آخر:

ولا ترهبن الفقر ما عشت في غدِ لكلِّ غدٍ رزقٌ من الله واردُ

وقال هارون بن جعفر الطالبي:

بوعدت همّتي وقُورِبَ مالي ففعالي مقصّرٌ عن مقالي
ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناعٍ وهو من بين ما اكتسوا سربالي
ولقد تعلم الحوادث أنّي ذو اصطبارٍ على صروف الليالي

وقال أعرابي: مَن ولد في الفقر أبطره الغنى، ومَن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعًا، فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه، وأعظم أجر مَن رضي به، وصبر عليه.

الفَقر خَصم لجُوج[(٣)]

ركب خالد[(٤)] في يوم شديدِ البردِ كثير الغَيْم، فتعرَّض له رجلٌ في الطريق؛ فقال له: ناشدتُكَ الله إلا ضَربتَ عنقي! فقال له: أكُفْرٌ بعد إيمان؟ قال: لا؛ قال:

---

(١) أسدى: قدم وأحسن.
(٢) غبونها: نقصها وعدم إقبال. يقال غبنه حقه: أي انتقصه.
(٣) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.
(٤) هو خالد بن عبد الله القسري.

أَفَتَرْغَبُ عن طاعة الرحمٰن؟ قال: لا؛ قال: أفقتلتَ نفسًا! قال: لا. قال: فما سببُ ذلك؟ قال: لي خصمٌ لَجُوج قد عَلقَ بي، ولزِمَني وقهرَني. قال: مَن هو؟ قال: الفقر! قال: فكم يكفيكَ لِدَفْعه؟ قال: أربعة آلاف درهم، قال: إني مُمِدُّكَ بأربعة آلاف درهم.

ثم قال خالد: يا غلام، ادْفَعْ له أربعة آلاف درهم، والتَفَتَ وقال: هل رَبِحَ أحدٌ من التجار كربْحِي اليوم؟ قالوا: وكيف ذلك؟ قال: عزمتُ على أن أعطي هذا الرجلَ ثلاثين ألف درهم، فلما طلب أربعة آلاف درهم وَفّر عليّ ستة وعشرين ألف درهم.

فلما سمع الرجلُ ذلك منه قال: حاشاك وأعيذك بالله أن تربحَ على مُؤَمِّلِكَ. فقال: يا غلام؛ أَعْطِهِ ثلاثين ألفًا، ثم قال للرجل: اقْبِض المال؛ واذهبْ آمنًا إلى خَصْمِك، ومتى رجع يُعَارِضُك فاستَنْجِدْ بنا عليه!

يشتكِي الفَقر(١)

أتى رجلٌ إلى عليّ بن سليمان، فقال له: بالذي أسبغَ عليك هذه النعم - من غير شفيع كانَ لك إليه تفضُّلًا منه عليك - إلّا أنْصَفْتَنِي من خَصْمي، وأخذتَ الحقَّ منه، فإنه ظَلُومٌ غَشُوم، لا يستَحْيِي من كبير، ولا يلتفتُ إلى صغير! فقال له: أعْلِمني مَنْ هو؟ فإن ينصفْك، وإلا أخذتُ الذي فيه عيناه! مَنْ هو؟

فقال: الفقر، فأطْرَق إلى الأرض مَليًّا، يَنْكُتُ(٢) الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه، فأمر له بعشرة آلاف دينار، فأخذها ومضى، فلما سار خارجًا قال: رُدُّوه.

فلما مَثل بين يديه قال: ياذا الرجل، سألتُك بالله - متى أتاك خصمُك متعسِّفًا - آلاَ أتيتَ إلينا متَظَلِّمًا.

---

(١) عين الأدب والسياسة: ١٨٦.

(٢) النكت: أن تضرب الأرض بقضيب فيؤثر فيها.

في الطعام وآدابه
والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة
وما جاء عنهم وغير ذلك

قال في المستطرف[1]: أما إباحة الطيب من المطاعم: فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٢] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «محرم الحلال كمحلل الحرام». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه».

وكان الحسن رضي الله تعالى عنه يقول: ليس في اتخاذ الطعام سرف.

أشهر المأكولات

سئل الفضيل عمن يترك الطيِّبات من اللحم والخبيص[2] للزهد، فقال: ما للزهد وأكل الخبيص؟ ليتك تأكل وتتقي الله إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام، انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيظ وكيف عفوك عمن ظلمك وكيف إحسانك إلى مَن أساء إليك وكيف صبرك واحتمالك للأذى، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

---

(١) المستطرف: ص ١٨٩ ـ ١٩٨.

(٢) الخبيص: حلواء تتخذ من تمر وسمن يخلطان ويخبصان.

نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين لا أقضي على غائب. فأحضرهما إليه، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال: يا أمير المؤمنين كلّما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته.

اختلف الرشيد وأم جعفر في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى، فقال له الرشيد: احكم. قال: قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا دينارًا.

سمع الحسن البصري رجلًا يعيب الفالوذج فقال: لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما أظن عاقلًا يعيبه.

وقال الأصمعي: أو لمَن صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان.

وأتى أعرابي بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له: هل تعرف هذا؟ فقال: هذا وحياتك الصراط المستقيم.

كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم». وكان ﷺ يقول: «هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة وهو يزيد في السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل».

كان ﷺ يحب الدباء ويقول: «يا عائشة إذا طبختي قدرًا فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخي يونس». وعنه ﷺ أنه قال: «عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ويغزر الدمعة».

وعن أبي رافع قال: كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول: أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج، وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب[١]

(١) النصب: التعب، والوصب: المرض.

والكرفس يقوي المعدة ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكنف. وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سماط[١] معاوية ويصلي خلف علي ويجلس وحده. فسئل عن ذلك فقال: طعام معاوية أدسم، والصلاة خلف علي أفضل، وهو أعلم والجلوس وحدي لي أسلم.

وسمِّيت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون، وقال الحسن بن سهل يومًا على مائدة المأمون: الأرز يزيد في العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إن طب الهند صحيح وهم يقولون: إن الأرز يرى منامات حسنة، ومَن رأى منامًا حسنًا كان في نهارين. فاستحسن قوله ووصله.

وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبي الحرث: ما تقول في الفالوذجة؟ قال: وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا في صدري والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن ولكنه لقيه بعصا.

وكانت العرب لا تعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح، حتى كان زمن معاوية رضي الله تعالى عنه فاتخذ الألوان. ويقال للمرقة المسخنة: بنت نارين وكان بعض المترفهين يقول: جنبوا مائدتي بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد. وقيل: إذا ألقي اللحم في العسل ثم أخرج بعد شهر طريًا فإنه لا يتغير. ويقال للسكباج: سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد. ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة، ويقال للخبز: ابن حبة. قال بعضهم:

في حبّةِ القلب مني زرعت حُبَّ ابن حبه

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه: أكرموا الخبز قالوا: وما كرامته يا رسول الله؟ قال: «لا ينتظر به الأدام[٢] إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره».

وفي الحديث: «مَن داوم على اللحم أربعين يومًا قسا قلبه ومَن تركه أربعين يومًا ساء خلقه».

---

(١) السماط: ما يبسط ليوضع عليه الطعام. (٢) الأدام: الطعام.

وقيل: المائدة التي أُنزلت على بني إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث، وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان.

ودخل ابن قزعة يومًا على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه، فقال: ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه فقال: ما الذي أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبدًا وعسلًا، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم، سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس في الحلقوم، ثم مد يده وأكل. وسمع رجلًا يذم الزبد فقال له: ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه؟ وقيل له: ما تقول في الباذنجان، فقال: أذناب المخاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم. قيل له: إنه يحشى باللحم فيكون طيّبًا، فقال: لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح.

وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان: هل عمل كسرى مثلها؟ فاستعفاه، فأقسم عليه فقال: أولم عبدٌ عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، في يد كل واحد إبريق من ذهب. فقال الحجاج: أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفًا.

وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة وكتب إليه: إني اخترت لعملها السكر السوسي والعسل المارداني والزعفراني والأصبهاني، فأجابه والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان وقبل أن تفتح السوس وقبل أن يوحي ربك إلى النحل.
وقيل: إن أبا جهم بن عطية كان عينًا[1] لأبي مسلم الخولاني على المنصور، فأحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يومًا حتى عطش، فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل في ذلك:

تجنَّبْ سويقَ اللوز لا تقربَنَّهُ فشُربُ سويق اللوز أردى أبا جهم[2]

وقال أبو طالب المأموني:

فما حملت كفّ امرىء متطعمًا ألذّ وأشهى من أصابع زينبِ

(١) عينًا: جاسوسًا.
(٢) أردى: قتل وأهلك.

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المنقوشة. ودخل السائب على عليّ رضي الله تعالى عنه في يوم شات، فناوله قدحًا فيه عسل وسمن ولبن، فأباه فقال: أما إنك لو شربته لم تزل دفئًا شبعان سائر يومك. وعن نافع بن أبي نعيم قال: كان أبو طالب يعطي عليًا قدحًا من اللبن يصبه على اللات، فكان عليّ يشرب اللبن ويبول على اللات.

الزهد في المآكل

فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم مَن لا يقدر عليه. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها، والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله ﷺ خبزًا منخولًا منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض، قيل: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف أف.

وعن جابر رضي الله تعالى عنه رفعه: نعم الأدم الخل وكفى بالمرء سرفًا أن يتسخط ما قرب إليه.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول الله ﷺ أدمان إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما كان يجتمع لونان في لقمة في فم رسول الله ﷺ، إن كان لحمًا لم يكن خبزًا وإن كان خبزًا لم يكن لحمًا.

وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «يا علي ابدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء». ورُوِيَ أن نبيًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما.

آداب الأكل

قال رسول الله ﷺ: «مَن قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب». وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال: «بسم الله اللهمّ بارك لنا فيما رزقنا وعليك حلفه».

وقال ﷺ: «مَن أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومَن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي في أوله فليقل بسم الله أوله وآخره».

وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب».

وقال ﷺ: «الأكل في السوق دناءة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ زجر عن الشرب قائمًا قال: فسألناه عن الأكل قائمًا فقال: «هو شر من الشرب».

وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال: إذا أكلت فضم شفتيك، ولا تلتفتن يمينًا ولا شمالًا ولا تلقمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولا تبصق في الأماكن النظيفة.

ومن هذا ما رواه الزهري أن النبيّ ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب، وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حارًا. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما عاب النبيّ ﷺ طعامًا قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه. وقال عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة، قيل: وما إعانته على المروءة؟ قال: أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك.

وعن النبيّ ﷺ قال: «من أكل من سقط المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده وولد ولده من الحمق»، وعنه ﷺ: «مَن سقط شيئًا من الطعام فأكله حرّم الله جلده على النار».

وكان الحارث بن كلدة يقول: إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة. وقيل: خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه.

وقال الحجاج لأعرابي يومًا على سماطه: ارفق بنفسك فقال: وأنت يا حجاج اغضض من بصرك. وقال معاوية لرجل على مائدته: خذ الشعرة من

لقمتك فقال: وإنك تراعيني مراعاة مَن يرى الشعرة في لقمتي، لا أكلت لك طعامًا أبدًا.

ووضع معاوية بين يدي الحسن بن عليّ رضي الله تعالى عنهما دجاجة، ففكها فقال معاوية: هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن: فهل بينك وبين أمها قرابة؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما.

وأحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدي مشوي فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه، فقال له الخليفة: أراك تأكله بحرد كأن أمه نطحتك، فقال: أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك.

ما جاء في كثرة الأكل

رُوِيَ عن حُذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ: «مَن قلّ طعامه صحّ بطنه وصفا قلبه، ومَن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه».

وعن ﷺ: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات».

وقال ﷺ: «ما زيّن الله رجلًا بزينة أفضل من عفاف بطنه».

وقال عمرو بن عبيد: ما رأيت الحسن ضاحكًا إلا مرة واحدة، قال رجل من جلسائه: ما آذاني طعام قط فقال له آخر: أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحنتها.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: البطنة[1] تذهب الفطنة. وقال ابن المقفع: كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهمًا شرهًا[2] أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار. وتقول العرب: أقلل طعامًا تحمد منامًا، وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا:

لست بأكّالٍ كأكل العبدِ ... ولا بنوامٍ كنوم الفهد

---

(١) البطنة: كثرة الأكل وامتلاء المعدة منه. (٢) الشره: النهم الذي يحب الأكل ويكثر منه.

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد:

إذا لـــم أزرْ إلا لآكـــلَ أكـــلةً فـلا رفعـت كفـي إلـى طعـامـي
فـمـا أكـلةٌ إن نـلتـهـا بـغـنـيـمـةٍ ولا جـوعـةٌ إن جـعـتـهـا بـغـرام

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلامًا فألقى بين يديه تمرًا فأكل فأكثر فقال ﷺ: «إن كثرة الأكل شؤم».

وقالوا: الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس السوء خير من الأكيل السوء.

وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر، فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية، قال: أجل، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد، ودعت أبا الحرث حبيبة له، فحادثته ساعة، فجاع فطلب الأكل فقالت له: أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل، قال: جعلت فداءك لو أن جميلًا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا.

من أخبار الأكلة

قيل: إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل، فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك بلح.

ومرّ ميسرة المذكور يومًا بقوم وهو راكب حمارًا، فدعوه للضيافة، فذبحوا له حماره وطبخوه، وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه، فقيل له: هو في بطنك.

وقال المعتمر بن سليمان: قلت لهلال المازني ما أكلة بلغتني عنك. قال: جعت مرة ومعي بعير لي، فنحرته وشويته وأكلته، ولم أبق منه إلا شيئًا يسيرًا حملته على ظهري، فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي، فلم أقدر أن أصل إليها، فقالت: كيف تصل إليّ وبيننا جمل، فقلت له: كم تكفيك هذه الأكلة، فقال: أربعة أيام.

وقال الأصمعي: إن سليمان بن عبد الملك كان شرهًا نهمًا وكان من شرهه أنه إذا أتي بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد، ولا أن يؤتى بمنديل، فيأخذ بكمه، فيأكل واحدة واحدة حتى يأتي عليها، فقال الرشيد:

ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس أني عرضت على جباب سليمان، فرأيت فيها آثار الدهن، فظننته طيبًا حتى حدثتني، ثم أمر لي بجبة منها، فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إليَّ، وقال: يا شمردل: ما عندك ما تطعمني؟ قلت: عندي جدي كأعظم ما يكون سمنًا، قال: عجل به فأتيته كأنه عكة[١] سمن، فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذًا قال: هلم يا أبا جعفر، فقال: إني صائم فأكله، ثم قال: يا شمردل ويلك أما عندك شيء؟ قلت: ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام، فأتيته بهن فأتى عليهن، ثم قال: يا شمردل أما عندك شيء؟ قلت: سويق كأنه قراضة الذهب، فأتيته به، فعبه حتى أتى عليه، ثم قال يا غلام: أفرغت من غذائنا؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: نيف وثلاثون قدرًا، قال: ائتني بقدر قدر، فأتاه بها ومعه الرقاق، فأكل من كل قدر ثلثه، ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا، وصف الخوان، فقعد وأكل مع الناس.

وكان هلال بن الأسعر يضع القمع على فيهِ ويصب اللبن أو النبيذ، وكان غليظًا عتلًا[٢].

وقال أعرابي لرجل رآه سمينًا: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك. وقال المحمر الأعرابي: كانت لي بنت تجلس على المائدة فتبرز كفًا كأنها صلفة[٣] في ذراع كأنه جمارة[٤]، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها، فكبرت وزوجتها، وصرت أجلس على المائدة مع ابن لي فيبرز كفًا كأنها كرنافة[٥]، فوالله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها. وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفًا مع كل رغيف سمكة. ويقال: فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام، وعصا موسى في سرعة الالتهام.

---

(١) عكة سمن: إناء صغير يوضع فيه السمن. (٢) عتلاً: غليظًا جافيًا.
(٣) الصلفة: خوافي قلب النخلة. (٤) الجمارة: شحم النخلة.
(٥) الكرنافة: أصول قضبان النخل التي تبقى في الجذع بعد قطع القضبان.

وقيل لأبي مرة: أي الطعام أحب إليك؟ قال: لحم سمين وخبز سميد[١] أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم. وقال صدقة بن عبيد المازني: أولم لي أبي لما تزوجت، فعمل عشر جفان[٢] ثريد من جزور، فكان أول مَن جاءنا هلال المازني، فقدمنا له جفنة مترعة، فأكلها، ثم أخرى، فأكلها، حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ، فوضع طرفها في شدقه وفرغها في جوفه، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام.

وكان عبيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات، فخرج يومًا يريد الكوفة، فقال له رجل من بني شيبان: الغداء أصلح الله الأمير، فنزل، فذبح له عشرين طائرًا من الأوز، فأكلها، ثم قدم الطعام، فأكل، ثم أتى بزنبيلين في أحدهما تين، وفي الآخر بيض، فجعل يأكل من هذا تينة، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه، ثم رجع وهو جائع.

وكان ميسرة البرائش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف، فذكر ذلك للمهدي، فقال: دعوت يومًا بالفيل وأمرت، فألقي إليه رغيف رغيف، فأكل تسعة وتسعين، وألقي إليه تمام المائة، فلم يأكله.

وحدّث الشيخ نبيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع.

ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضر إليه العدس، فحمله وجاء، فوجده قد أكل الخبز، فذهب، فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصدك؟ قال: إلى الأردن. قال: لماذا؟ قال: بلغني أن بها طبيبًا حاذقًا أسأله عما يصلح معدتي، فإني قليل الشهوة للطعام، فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: إذا ذهبت وأصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك عليَّ.

المهازلة على الطعام

رُوِيَ عن يحيىٰ بن عبد الرحمٰن رضي الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان عندي رسول الله ﷺ، وسودة فصنعت حريرة، فجئت

(١) السميد: الطحين الأبيض.
(٢) جفان: قصع وآنية للطعام.

به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلين أو لألطخن وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت من الصحفة شيئًا، فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فتناولت من الصحفة شيئًا، فلطخت به وجهي، وجعل رسول الله ﷺ يضحك.

واشترى غندر يومًا سمكًا وقال لأهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما انتبه قال: قدموا إليَّ السمك، قالوا: قد أكلت. قال: لا، قالوا: شم يدك، ففعل، فقال: صدقتم، ولكن ما شبعت.

ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم، فقال: لقد ذكرتموني ضيف إبراهيم وقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: الآية ٧٠] ثم قال: كلوا رحمكم الله فضحكوا، وأكلوا.

الضيافة وإطعام الطعام

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: الآية ٢٤] وقال رسول الله ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره». وقال ﷺ: «مَن أكل وذو عينين ينظر إليه ولم يواسه ابتلي بداء لا دواء له».

وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع. وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بم اتخذك الله خليلًا؟ قال بثلاث: ما خيرت بين شيئين إلا اخترت الذي لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لي به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف.

ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحد من ضيف.

وكان الزهري إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام. وقالوا: المائدة مرزوقة. أي مَن كان مضيافًا وسع الله عليه.

وقالوا: أول مَن سنّ القِرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأول مَن ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول مَن أفطر جيرانه على طعامه في الإسلام عند الله

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهو أول مَن وضع موائده على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء، فإن لم يجد مَن يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس، فما استحسنته من أخلاقهم ابتعته وما استقبحته اجتنبته.

وآداب المضيف

فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من القرى، قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوي رحمه الله هذا الكلام بأبيات، فقال:

إذا المرء وافى منزلًا منك قاصدًا ... قراك وأرْمته لديك المسالكُ
فكن باسمًا في وجهه متهلّلًا ... وقلْ مرحبًا أهلًا ويومٌ مباركُ
وقدِّمْ له ما تستطيع من القرى ... عجولًا ولا تبخل بما هو هالكُ
فقد قيل بيتٌ سالفٌ متقدِّمٌ ... تداوله زيدٌ وعمرٌو ومالكُ
بشاشة وجهِ المرءِ خيرٌ من القرى ... فكيف بمن يأتي به وهو ضاحكُ

وقالت العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤاكلة، وقال حاتم الطائي:

سلي الطارقَ المعترّ يا أمَّ مالكٍ ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزري(١)
أأبسط وجهي إنه أول القرى ... وأبذل معروفي له دون منكري

وقال آخر في عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابن جعفر خير فتًى ... وخيرهم لطارقٍ إذا أتى(٢)

ولله در القائل:

الله يعلم أنّه ما سرّني ... شيءٌ كطارقة الضيوف النزّلِ
ما زلت بالترحيب حتى خلتني ... ضيفًا له والضيف ربُّ المنزلِ

---

(١) المعتر: الرجل الغليظ، الكثير اللحم. (٢) الطارق: الآتي ليلاً.

أخذه من قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت ربّ المنزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلنا رحبٌ لمن زاره نحن سواءٌ فيه والطارقُ
وكلّ ما فيه حلالٌ له إلّا الذي حرّمه الخالقُ

وقال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أوَما سمعت قول عاصم بن وائل:

وإنّا لنقري الضيفَ قبل نزوله ونشبعه بالبِشرِ من وجه ضاحك

وقال بعض الكرام:

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل رحله ويخصب عندي والمحلّ جديبُ
وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنّما وجه الكريم خصيبُ

وقال آخر:

عودت نفسي إذا ما الضيف نبّهني عقرَ العشارِ على عسرٍ وإيسار(١)

ومن آداب الضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل إكرام الضيف قال الشاعر:

مطية الضيف عندي تلو صاحبها لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ [هُود: الآية ٧١].

ومن آداب المضيف أن يحدّث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولا ينام قبلهم، ولا يشكو الزمان بحضورهم، ويبش عند قدومهم، ويتألم عند وداعهم، وأن لا يحدّث بما يروعهم به.

كما حكى بعضهم قال: استدعاني إسحٰق بن إبراهيم الظاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار فدخلت، فأحضرت لنا الهريسة فأكلنا، فإذا شعرة قد جاءت

(١) عقر العشار: ذبح النوق.

على لقمة غفل عنها طباخه، فاستدعى خادمه، فأسر إليه شيئًا لم نعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية، فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج، فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لا نعقل. فيجب على المضيف أن يراعي خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكدًا، ولا ينهر أحدًا ولا يشتمه بحضرتهم، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن.

كما حُكِيَ عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه وعمل لهم سماطًا وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ويأنسون به، ففي آخر النهار صعد إلى السطح، فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكي إلى أن تصبح، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم: إن رأيتم أن نصلي على ولدي، فإنه بالأمس سقط من على السطح، فمات لساعته، فقالوا له: لِمَ لا أخبرتنا حين سألناك؟ فقال: ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاذهم ولا يكدر عليهم في عيشهم، فتعجبوا من صبره وتجلده، ومكارم أخلاقه، ثم صلّوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا.

وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم، ويسهل حجابه وقت الطعام ولا يمنع واردًا. وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجاب لئلا يدخل مَن لا يعرفه الأمير ويحترز عن العدو، فقال: إن عدوًّا يأكل طعامنا ولا ينخدع ولا يمكنه الله منا، الأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإن ذلك أول الشناعة عليه، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الظرف إن كان من أهل ذلك، وأن يري أضيافه مكان الخلاء، فقد قيل عن ملك الهند أنه قال: إذا ضافك أحد فأره الكنيف[1] فإني ابتليت به مرة، فوضعته في قلنسوتي. وقالوا: لا بأس أن يدخل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة.

(١) الكنيف: المرحاض.

وقد قصد النبيّ ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري، وكذلك كانت عادة السلف رضي الله تعالى عنهم.

وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلاثمائة وستون صديقًا، فكان يدور عليهم في السنة، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه، فيأكل وهو غائب، فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضي الله عنها، فأكل طعامها وهي غائبة، وكان الحسن رضي الله عنه يومًا عند بقال، فجعل يأخذ من هذه الجونة[1] تينة ومن هذه فستقة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ فقال له: يا لكع[2] اتل عليَّ آية الأكل، فتلا: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النُّور: الآية ٦١] إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النُّور: الآية ٦١] فقال الصديق: مَن استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب.

وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما فيه يده بل يحضر إليهم ما وجد. فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر. ويقولون: ما ندري أيهما أعظم وزرًا الذي يحتقر ما قدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف».

حُكِيَ عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلًا عند الزعفراني ببغداد، فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية، فأخذها الشافعي منها يومًا وألحق فيها لونًا آخر، فعرف الزعفراني ذلك، فأعتق الجارية سرورًا بذلك، وكانت سنّة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي. ومن السنّة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر مَن يحضر من عشيرته، فقد قيل: ثلاثة تضني سراج لا يضيء ورسول بطيء ومائدة ينتظر لها مَن يجيء، ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه بالإمام مالك رضي الله عنه، فصب بنفسه الماء على يديه وقال له: لا يرعك ما رأيت

---

(١) الجونة: سلة صغيرة مغطاة بالجلد تكون مع العطارين ويوضع فيها الطيب.

(٢) اللكع: اللئيم.

مني، فخذ ماء الضيف على المضيف فرض:

أعرض طعامك وابذله لمن أكلا واحلف على مَن أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرضِ محتشمًا من القليل فلست الدهر محتفلًا[١]

ومن البلاء مَن يعزم على الضيف، فيعتذر له، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار، كأنه تخلص من ورطة، وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم. ومن البخلاء مَن يعجبه طعامه ويصف زباديه ويشتهي أن تبقى على حالها، ومنهم مَن يحضر فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس، ويعتذر أن في أصحابه مَن يحضر بالغداة عنده.

وحُكِيَ عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه، فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز، فقال له: ترى أن تأكل عسلًا بلا خبز، قال: نعم، وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة، فقال له البخيل: مهلًا يا أخي والله إنه يحرق القلب، قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك.

وحُكِيَ عن بعضهم أنه قال: غلب عليَّ الجوع مرةً، فقلت: أمضي إلى دار فلان لأتغدى عنده، فجئت إلى باب بيته، فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا إن أعطيتني كسرة، قال: فرجعت هاربًا. ومن البخل تقديم الشيء اليسير وتفخيمه.

وحُكِيَ عن بعض البخلاء أنه حلف يومًا على صديقه، وأحضر له خبزًا وجبنًا وقال له: لا تستقل الجبن، فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال له ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف، قال: وكيف ذلك؟ قال: آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن، فأين هؤلاء من الذي يقول:

قالت أما ترحلُ تبغي الغنى قلت فمن الطارق المعتمِ
قالت فهل عندك شيءٌ له قلت نعمْ جهد الفتى المعدمِ
فكم وحق الله من ليلةٍ قد أطعمُ الضيفَ ولم أطعمِ
إنّ الغنى بالنفس يا هذهِ ليس الغنى بالمال والدرهمِ

---

(١) السابري: ثوب رقيق جيد، منه عرض سابري، لأنه يرغب فيه بأدنى عرض.

وقال بعض البخلاء:

سرى نحونا يبغي القرى طاوي الحشى
لقد علمت فيه الظنون الكواذب(١)
فبات له منّا إلى الصّبح شاتمٌ
يعدد تطفيل الضيوف وضارب(٢)

فشتان ما بين القائلين.

وأما آداب الضيف: فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف في أمور منها: أكل الطعام، ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن. فقد حُكِيَ أنه ورد على بعض الأعراب ضيف، فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام، فقال الضيف: لست بجائع، وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه، فقال الأعرابي: إذا كان هذا، فكن ضيف غيري، فإني لا أرى أن تمدحني في البلاد وتهجوني فيما بيني وبينك.

وحُكِيَ عن بعض التجار قال: استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشًا من تجارتي، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه، فقال: يا فلان. ما هذا الخلق العامي؟ اجلس، فجلست وتحققت كرمه وجعلت آكل الكمثراة في لقمة والتفاحة في لقمة، ثم قدم الطعام وكنت جائعًا فأكلت جيدًا ثم انصرفت، فلم أشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه ببغلته، فاستدعاني إليه، فقال: يا فلان إني قليل الأكل بطيء الهضم، ولقد طابت لي مؤاكلتك بالأمس، فأريد أن لا تنقطع بعدها عني، قال: فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي، فحصل له بقربي منه مال كثير وجاه عريض.

ومن آداب الضيف أيضًا أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان وأكرمه به، وأن لا يمتنع من غسل يديه. وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها.

---

(١) سرى: اتجه وسار ليلًا، وطاوي الحشا: أي جائعًا.
(٢) التطفيل: من التطفل، أي الحشرية والثقل.

فقد نقل في بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عربيدًا على أضيافه سيء الخلق بهم، فبلغ ذلك بعض الأذكياء، فقال: الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره، قال: فقصدته وسلّمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفي. قلت: نعم، فسار بين يدي إلى أن جاء إلى باب داره، فأذن لي، فدخلت، فأجلسني في صدر مجلسه، فجلست حيث أجلسني، وأعطاني مسندًا، فاستندت إليه، فأخرج لي شطرنجًا، وقال: أتتقن شيئًا؟ قلت: نعم. فلعبت معه، فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه، وأنا آكل، فلما فرغنا قدم طستًا وإبريقًا وأراد أن يسكب الماء على يدي، فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلي، فلم أرده عن ذلك، فلما أراد الرجوع. قلت: يا سيدي أنشدك الله إلا فرجت عني كربة؟ قال: وما هي؟ فأخبرته الخبر، فقال: والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى داري، فأجلسه في الصدر، فيأبى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام، فلا أتحفه بشيء مستظرف إلا رده عليَّ، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه، فلا يمكنني من ذلك، فأقول في نفسي لا يحكم الإنسان على نفسه حتى في بيته، فعند ذلك أشتمه وألعنه وأضربه، وفي معنى ذلك يقول بعضهم:

لا ينبغي للضيف أن يعترضْ إن كان ذا حزمٍ وطبعٍ لطيف
فالأمر للإنسان في بيته إن شاء أن ينصفَ أو أن يحيف(١)

ومما يعاب على الضيف أمور منها كثرة الأكل المفرط، إلا أن يكون بدويًا، فإنها عادته. ومنها أن يتتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيها الزبادي والأمراق والحلوى وغير ذلك، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير، ومنها قبح المؤاكلة، وقد عد فيها عيوب كثيرة، فمنها: المتشاوف والعداد والجراف والرشاف والنفاض والقراض والبهات واللتات والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرنخ والمرشش والمفتش والمنشف والملبب والصباغ والنفاخ والحامي والمجنح والشطرنجي والمهندس والمتمني والفضولي.

(١) يحيف: ينقص ويظلم.

فأما المتشاوف: فهو الذي يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام، فلا تراه إلا متطلعًا لناحية الباب يظن أن ما دخل هو الطعام. وأما العداد، فهو الذي يستغرق في عد الزبادي ويعد على أصابعه، ويشير إليها، وينسى نفسه. والجراف: هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر. والرشاف: هو الذي يجعل اللقمة في فيّه ويرتشفها، فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه، وهو يلتذ بذلك. والنفاض: هو الذي يجعل اللقمة في فيّه وينفض أصابعه في الزبدية. والقراض: هو الذي يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ويضعها في الطعام بعد ذلك. والبهات: هو الذي يبهت في وجوه الآكلين حتى يبهتهم، ويأخذ اللحم من بين أيديهم. واللتات: هو الذي يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها في الطعام. والعوام: هو الذي يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادي. والقسام: هو الذي يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها في الطعام من فيّه. والمخلل: هو الذي يخلل أسنانه بأظفاره، والمزبد: هو الذي يحمل معه الطعام. والمرنخ: هو الذي يرنخ اللقمة في الأمراق، فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية. والمرشش: هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه. والمفتش: هو الذي يفتش على اللحم بأصابعه. والمنشف: هو الذي ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها. والملبب: هو الذي يملأ الطعام لبابًا. والصباغ: هو الذي ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده. والنفاخ: هو الذي ينفخ في الطعام. والحامي: هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه من مؤاكليه. والمجنح: هو الذي يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له في المجلس، فلا يشق عليه الأكل. والشطرنجي: هو الذي يرفع زبدية ويضع زبدية أخرى مكانها. والمهندس: هو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا وهذه هٰهنا، حتى يأتي قدامه ما يحب. والمتمني: هو الذي يقول: ليتني لم يكن معي مَن يأكل. والفضولي: هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام، إن كان قد بقي عندك في القدور شيء، فأطعم الناس، فإن فيهم مَن لم يأكل.

ومن الأضياف مَن لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى الغلام واقفًا والإبريق في يده والناس ينتظرونه. ومنهم مَن يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة، فإذا اجتمع الوسخ والزفر تسوك بهما. ومنهم مَن يدخل الدار فيبتدىء بالهندسة أولًا، فيقول: كان ينبغي أن يكون باب المجلس من هٰهنا، والإيوان كان ينبغي أن يكون

من هٰهنا، وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر، وإن كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام، وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم مَن يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة، فيتألم عن انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم.

ولقد حُكِيَ عن مغن غير مجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت؟ قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قال: أكلت في بطني، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شربت في فمي. ومنهم مَن يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه: اشتر كذا، فيقول: والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئًا فأذوقه، فيعجز صاحب المنزل ويخلجه إذا لم يكن في بيته شيء موجود، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلأي شيء حضر. ومنهم مَن يرى صاحب البيت قد أسرّ إلى صديقه شيئًا، فيقول: ما الذي قال المولى لصاحبنا، وهو لا يريد أن يعلمه، ومنهم مَن يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط مكارم أخلاق، وإنما ذلك يكون في بيته لا في بيوت الناس. ومنهم مَن يقول لصاحب الدعوة: مَن يغني لنا، فيقول: فلان، فيقول له: غلطت لمَ لا دعوت فلانًا، ومنهم مَن يسأل صاحب البيت، كيف قوته في النكاح، فيقول له: أنا رجل كبير قد ضعفت قوتي وشهوتي، أو يقول؛ ما لي قوة طائلة في ذلك، فيقول: أنا والله كلما مرّ عليَّ عام تزايدت شهوتي وكثر لهذا الفن تشوفي(١)، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت. ومنهم مَن يشكو حاله مع أهل بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوته لهن وكثرة إنعامه وإحسانه إليهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق وكبر النفس، لتستقل زوجة صاحب البيت ما هي فيه مع زوجها، وربما كان ذلك سببًا لفراقها منه، ومنهم مَن تعجبه نفسه ويستحسن لباسه، ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد، وأظهر الطرب، وحرك رأسه، ويقوم قائمًا يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات، ويظن في نفسه أنه يعشق وأن رسول صاحبة البيت لا يبطىء عنه، ومنهم مَن يقال له: العب الشطرنج، فيأباه ويشتغل بالدندنة(٢)، فيقع في الفضول. ومنهم مَن يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده، ويظن أنه يدل عليهم، ومنهم مَن يقول

---

(١) التشوف: التزين والتحبب.

(٢) الدندنة: الطنين والنغم والكلام الذي لا يفهم.

له صاحب البيت: كلْ، فيقول: ما آكل إلا أنا ورفيقي. ومنهم مَن يسمع السائل على الباب، فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه أو يقول للسائل: فتح الله عليك، ومنهم مَن يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المنن وأكثر الناس واقع في ذلك.

في الطفيليين وما قيل فيهم من الشعر

الطفيلي هو الذي يأتي إلى وليمة لم يدع إلهيا. والذي يدخل على القوم في شرابهم ولم يدع إليه يسمى الواغل. والطفيلي قيل: مأخوذ من الطفل وهو إقبال الليل على النهار بظلمته وقيل: منسوب إلى (طفيل) رجل من أهل الكوفة من غطفان كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها فقيل له: طفيل الأعراس والعرائس. وقيل: منسوب إلى طفيل ابن زلال رجل من بني هلال كان ينزل حفر أبي موسى وهو منزل من منازل العرب حفر فيه أبو موسى الأشعري ركايا على جادة البصرة إلى مكة فكان إذا سمع بقوم عندهم دعوة أتاهم. وهو أول مَن طفل، وأبوه أول مَن زلّ، أي حمل الطعام من الولائم ونحوها فسمي التطفيل به والزل بأبيه. والذي يجيء مع الضيف ولم يدع يسمى الضيفن.

ما قيل في الطفيليين من الشعر

لبعضهم:

يحب الراح من مال الندامى ... ويأكل أكل شداد بن عاد
ولا يروي من الأشعار شيئًا ... سوى بيت لأبرهة العبادي
قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير على الفساد

لآخر:

طفيلي يرى التطفل دينًا ... وقرة عينه غشيان عرس
إذا قبضت يداه على رغيف ... يقسم نهبه بيد وضرس

كان لأبي الأسود الدؤلي دكان لا يسع إلّا مقعده وطبقًا يوضع بين يديه وجعله مرتفعًا وليس له درج كي لا يرتقي إليه أحد. فكان أعرابي يتحيّن وقته ويأتيه على فرس فيصير كأنه معه على الدكان. فأخذ دبة وجعل فيها حصى واتكأ عليها، فإذا رأى الأعرابي قد أقبل أراه كأنه يحول متكأه، فإذا قعقعت الدبة

بالحصى نفر الفرس. فلم يزل الأعرابي يدينه ويقعقع هو به حتى نفر به الفرس فصرعه فلم يعد بعد ذلك.

كان رجل فقير وله أخ مفرط في الغنى شديد البُخل فقال الفقير لأخيه: ويحك! أنا فقير معيل وأنت غني لا تعينني على الزمان؟ والله ما رأيت أبخل منك! فقال أخوه: ليس الأمر كما تظن، ولا أنا كما تقول في اليسر والبخل. والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك منها ألف درهم. يا هؤلاء! فرجل يهب ضربة واحدة ألف درهم يقال له بخيل؟!

وفي ذلك يقول الشاعر:

طفيلي على فرس يدورُ ... يقدّر عند مَن غلت القدورُ
بأوقات الموائد حين يؤتى ... بها للأكل علام خبيرُ
له في الغيب إسطرلابُ وحي ... بمائدة إذا وضعت نذيرُ
فبطليموس في تحديد وقت ... إليه بغير ما غلط يشيرُ
ولو قالوا (تباهَرْتِ) طعام ... لمرَّ إليه تطفيلًا يشيرُ

ولعلي بن العباس الرومي في طفيلي:

يخالف إخوانه في الطريق ... إلى أن تضمهم المائدة
فبينا كذاك إذا هم به ... مع القوم كالحية الراصدة
يلين الطعام على ضرسه ... ولو كان من صخرة جامدة
ويأكل زاد الورى كله ... ولكنها أكلةٌ واحدة
فلو عاينته جحيم الإلٰه ... لخرَّتْ لمعدته ساجدة

وقال بعض أهل العصر:

إن المشائخ لا تحصى مناقبهم ... ولو نظمنا بها كل الأراجيز
قوم إذا سمعوا بالرز في جبل ... دكوا النعال ودقوا بالعكاكيز

ومن أشعار الطفيليين

قال طفيلي:

لذة التطفل دومي ... وأقيمي لا تريمي
أنت تشفين غليلي ... وتسلين همومي

وقال طفيلي آخر:

نـحـن قـوم إن جـفـا الـنـا ... سُ وصـلـنـا مـن جـفـانـا
مـا نـبـالـي صـاحـب الـدا ... ر نـسـيـنـا أو دعـانـا

وقال آخـر:

نـحـن قـوم إذا دعـيـنـا أجـبـنـا ... ثـم إن نـنـسـى يـدعـنـا الـطـفـيـل
ونـقـل عـلـنـا دعـيـنـا فـعـبـنـا ... فـأتـانـا فـلـم يـجـد الـرسـول
نصرف القول نحو أجمل فعل ... مـثـلـمـا يـفـعـل الـودود الـوصـول

وقال آخـر:

ولـمـا أن كـتـبـت فـلـم تـجـبـنـي ... ولـم تـنـظـر إلـيّ بـعـيـن أنـس
رأيت الـحـزم أن أمـضـي ركـابـي ... إلـيـك وأن أكـون رسـول نـفـسـي

وقال آخـر:

أتـأذن لـي حـيـن لا دعـوة ... وتـحـجـبـنـي حـيـن ذبـح الـجـمـل
جـعـلـت فـداك فـمـاذا الـجـفـا ... ألـسـتُ طـفـيـلـيـكـم لـم أزل

وقال آخـر:

نـحـن قـوم نـحـسـن الإقـ ... ـدام فـي وقـت الـزحـام
هـكـذا فـلـيـكـن الـتـطـ ... ـفـيـل تـطـفـيـل الـكـرام

ما نقشه الطفيليون على خواتيمهم

كان نقش خاتم بنان: (وما لكم لا تأكلون) ونقش بعضهم على خاتمه: (أكلها دائم) ونقش آخر: (آتنا غداءنا). ونقش آخر: (لا تبقي ولا تذر).

وصايا الطفيليين نظمًا

أنشد بنان، وكان طفيليًا مشهورًا:

يـا صـفـي الـنـفـس يـا خـيـ ... ـر جـلـيـس ونـديـم
قـل إذا مـا جـئـت قـومًـا ... زائـرًا قـول حـكـيـم
قـد أتـيـنـاكـم بـحـسـن الـظـ ... ـن والـود الـقـديـم
مـا نـخـاف الـبـرد والـحـرْ ... مـان إلا مـن لـئـيـم

نحن قوم وهب الله لنا فضل الحلوم
قد بلونا الناس ما جا هل أمر كعليم
لست من لام على التطفيل في نار الجحيم

وكان طفيل العرائس الذي ينسب إليه الطفيليون يوصي ابنه عبد الحميد في علّته فيقول: إذا دخلت عرسًا فلا تتلفت تلفت المريب، وتخيّر المجالس. فإن كان العرس كثير الزحام فأْمُرْ وانْهَ، ولا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل، ليظن هؤلاء أنك من هؤلاء ويظن هؤلاء أنك من هؤلاء. فإن كان البواب غليظًا وقاحًا فابدأ به ومره وانهه من غير أن تعنّفه. وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال ثم قال:

لا تجزعن من القريب ولا من الرجل البعيد
وادخل كأنك طابخ بيديك مغرفة الثريد
متدليًّا فوق الطعام تدلي البازي الصيود
لتلف ما فوق الموائد كلها لف الفهود
ما طرح حياءك إنما وجه المطفل من حديد
حتى إذا جاء الطعام ضربت فيه بالشديد
وعليك بالفالوذجات فإنها بيت القصيد
والعرس لا يخلو من اللوزينج الرطب العتيد
فإذا أتيت به محوت محاسن الجام الجديد

ثم أُغمي عليه ساعة عند ذكر اللوزينج. فلما أفاق رفع رأسه وقال:

وتنقلنَّ على الموائد فعل شيطان مريد
وإذا انتقلت عبثت بالكعك المجفف والقديد
يا رب أنت رزقتني هذا على رغم الحسود
واعلم بأنك إن قتلت نعمت يا عبد الحميد

وصايا الطفيليين نثرًا

مرض طفيلي فقال له غلامه: أوصني. قال: منَّ الله عليك بصحة الجسم وكثرة الأكل ودوام الشهوة، ومتّعك بضرس طحون ومعدة هضوم. إذا قعدت على

مائدة ولم تجد ماء فغصصت فضع يدك اليمنى فوق رأسك وحركها كأنك تسدي كمك فإنها تنزل بإذن الله. وإذا كان موضعك ضيقًا فقل للذي إلى جانبك: لعلي ضيقت عليك، فإنه يتأخر إلى خلف ويقول: لا والله موضعي واسع فيتسع عليك موضع رجل. ولا تصادفن من الطعام شيئًا فترفع يدك عنه وتقول لعلّي أصادف أطيب منه. وقال: زدني. قال: إذا وجدت خبزًا فيه قلّة فكل الحروف، فإذا كان كثيرًا فكل الأوساط، ولا تكثر شرب الماء وأنت تأكل فإنه يمنعك الأكل وهذا عين الحماقة.

وأوصى بنان رجلًا كان معه على المائدة فقال له: لا تخالفني على كل ما أقول لك. قال: فأُتينا بالهريسة فقال لي: كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثًا. ثم أُتينا بالقلايا اليابسة فقال لي: لا تأكل إلا لقمة أو لقمتين ولا تكثر. ثم أُتينا بالبقلية فقال لي: كل لقمة أو لقمتين. ثم أُتينا بالشواء فقال لي: لا تأكل منه وبَقِّ نفسك فإنا في كل يوم نصيب الشواء بدانق يقوم مقام هذا. ثم أُتينا بالفالوذج وكان كثيرًا شبيهًا بالصومعة فقال لي: ائت من تحت حتى ينهار، ففعلت. فقال: كُل وأكثر فإنك لا ترى هذا في كل يوم. ثم أُتينا باللوزينج فقال لي: أَزْوِحْ وثلّت فإن مُتَّ في ذا مُتَّ شهيدًا. ثم أُتينا بطبق عليه دجاج مسمن مشوي فأكل أكل اثنين أو ثلاثة وقال لي: كل ولا تقصّر فإن قيمة هذه ثلاثة دنانير ولا تأكل إلا ما له قيمة.

هذا يدل على أنهم كانوا يستعملون في المائدة مثل ما يستعمله الأتراك والإفرنج اليوم من المجيء بالألوان واحدًا بعد واحد.

قال بعض الطفيليين: إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن في حال أكلك، وإن اضطررت إلى الجواب فلا تجب إلا بنعم فإنها مضغة.

أوصى بنان رجلًا فقال: إذا دعيت إلى مائدة انشاء الله فإياك أن تتأخر إلى آخر الوقت وتقول: الساعة أذهب، وإلى ساعة وايش فاتني؟ وبعد ما جاء أحد، ولِمَ أكون أنا أول الناس؟ فهذا فعال الحمقى القليلي الحزم. فإذا دعيت فاستخر الله وكن من السبق. واعلم أنه ليس يجيء في أول الأوقات إلا جلّة الناس وسراتهم، فقعودك مع هؤلاء فائدة تسمع كل حديث حسن وخبر ظريف وأنت واسع الموضع قاعد على أول مائدة، واعلم يا أخي أن آخر مائدة يضيق عليهم الطعام ويقل، ولا يقدر الرجل أن يأكل من اللون أكثر من لقمة لقلّته وكثرة الأيدي

عليه. فموضعك أضيف من جوفك. فإذا قال لهم صاحب الوليمة قوموا، سارعوا إلى الخوان فانبسطوا في ميدان المضغ وألزقوا الأكتاف بالأكتاف كأنهم بنيان مرصوص، يأكلون ميمنة وميسرة وقلبًا، وتسمع لهم في حلوقهم معمعة. وإنه لا يقعد على آخر مائدة إلا ضعفاء الجيران ومساكين المحلة والخدام. يقدَّم الجدي أضلاعًا بلا لحم، وحوله خس وهندبًا كأنه كوخ ناطور وقد وقع خشبه وبقي القصب قائمًا. وإنما شرحت لك لتفهم ونصحتك غاية النصيحة وبيّنت لك ما بيَّن سفيان الثوري في جامعة، متعك الله بسعة الصدر، وطيب الأكل، والصبر على المضغ، إنها دعوة مغفول عنها.

ما جاء في الضيف الذي يطيل المقام

فإنه في معنى الطفيلي.

قال المبرد: ضاف رجل قومًا، فطال مقامه، فكرهوه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا بعلم مقدار مقامه؟ قالت: أَلْقِ بيننا شرًا حتى نتحاكم إليه. ففعلا. فقالت للضيف: بالذي يبارك لك في غدوك غدًا أَيُّنا الظالم؟ فقال: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرًا ما أعلم.

نزل بعض أهل البصرة على مديني، فأطال المقام، فقال المديني لامرأته: إذا كان غدًا فإني أقول لضيفنا: كم ذراعًا تقفز؟ فأقفز أنا من العتبة إلى الباب. فإذا قفز الضيف أغلقي الباب خلفه. فلما كان من الغد قال له المديني: كيف قفزك يا أبا فلان؟ قال: جيد فوثب المديني من العتبة إلى خارج الدار أذرعًا وقال له: ثِبْ. فوثب إلى داخل الدار ذراعين. فقال: أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعًا وأنت تثب إلى داخل الدار ذراعين؟ قال: ذراعين إلى داخل خير من أربعة إلى برّا.

ضاف رجل قومًا في الشتاء فأطال المقام. وكان إذا أرادوا كنس البيت يجلس على الخشب الذي يداس به البيدر. فبينا هو جالس عليه يومًا إذ جعل يبكي فسألوه عن سبب بكائه فقال: تذكرت أنه إذا جاء الصيف وأخرجتم هذا الخشب لدياس البيدر فعلى أي شيء أجلس.

ضاف رجل قومًا فأطال المقام فتبرموا به فقال الرجل لامرأته: إذا وضعت له الطعام، فكلما أكل رغيفًا قولي: قتل فارس في المعركة. ففعلت ذلك. وفطن لها

الضيف فجعل يأخذ عدة أرغفة ويأكل منها جميعًا فقالت المرأة: قد حصلت معركة عنيفة لم يعرف فيها القاتل من المقتول.

ومن أخبار الطفيليين ونوادرهم

قيل لطفيلي: ويلك! أتأكل حرامًا؟ قال: ما أكلت قط إلا حلالًا، لأني إذا دخلت أقصد باب النساء فيقولون: هٰهنا هٰهنا، فهذه دعوة.

رأى طفيلي جماعة ذاهبين، فظن أنهم يذهبون إلى وليمة، فدخل معهم، إذا هم قد طلبهم السلطان في جناية. فلما دخلوا عليه أمر بضربهم فضربوا، فلما وصلت النوبة إلى الطفيلي قال للجلاد: اضربني على بطني فلولاها لم أصل إلى هذه الحال. فسُئل عن قصته فأخبرهم أنه ليس من هؤلاء الجانين وإنما رآهم مجتمعين فظن أنهم ذاهبون إلى دعوة فدخل معهم. فبحثوا عن أمره فوجدوه صادقًا فأطلقوه.

اجتمع قوم من الطفيليين فأرادوا وليمة فقال رئيسهم: اللهم لا تجعل البواب لكّازًا في الصدور دفّاعًا في الظهور طرّاحًا للغلانس، هَبْ لنا رأفته وبشره، وسهل لنا إذنه. فلما دخلوا تلقاهم الخباز فقال رئيسهم: غرة مباركة موصول بها الخصب معدوم معها الجدب. فلما جلسوا على الخوان قال لأصحابه: افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم، وأجيدوا اللف، وأشرعوا الأكف، ولا تمضعوا مضغ المتعللين، الشباع المتخمين، واذكروا سوء المنقلب، وخيبة المضطرب.

قال بعض الطفيليين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٦٨] هو الأكل من الحاصل. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٣] هم الذين يردون ولا يأكلون وغيرهم يأكل. وقال آخر: هم الذين لا سكاكين معهم في أيام البطيخ. وقال بعضهم في وصية الخضر لموسى: «ولا تكن مشّاء في غير حاجة» قال: لا تمش إلى موضع لا تمضغ فيه شيئًا.

صحب طفيلي رجلًا في سفر فقال له الرجل: امضِ فاشتر لنا لحمًا. قال: لا والله ما أقدر. فمضى هو فاشترى، ثم قال: قم فاطبخ. قال: لا أحسن. فطبخ هو ثم قال: ثم فاثرد. قال: أنا والله كسلان، فثرد الرجل ثم قال: ثم فاغرف. قال: أخشى أن ينقلب القدر على ثيابي، فغرف هو ثم قال: قم الآن فكُلْ. قال الطفيلي: قد والله استحييت من كثرة خلافي عليك، وجعل يأكل.

دخل طفيلي منزلًا فقال له صاحب المنزل: مَن أنت؟ قال: أنا الذي لم أُحوجك إلى رسول، وأنشد:

سواء عليهم قدموا أو تأخروا أجيء مع الطبَّاخ ساعة يغرف

دخل طفيلي على قوم يأكلون فقال: ما تأكلون؟ فقالوا من بغضه: سُمًّا، فمدَّ يده وقال: لا خير في العيش بعدكم.

دخل طفيلي في دعوة قبطي فقال له: مَن أرسل إليك؟ فأنشأ يقول:

أزوركم لا أكافيكم بجفونكم إن المحب إذا لم يُزَرْ زارا

فقال له القبطي: زُرْ زار، لا ندري مَن هو. اخرج من بيتي.

من أخبار ابن دراج الطفيلي

كان ابن دراج الطفيلي من أهل حران، قدم بغداد، فمرّ بباب قوم عندهم وليمة فدخل فإذا صاحب الدار قد وضع سلّمًا، فكلما رأى إنسانًا لا يعرفه قال: اصعد يا أبي. قال ابن دراج: فصعدت إلى غرفة مفروشة حتى وافينا فيها ثلاثة عشر طفيليًا. ثم رفع السلّم، ووضعت الموائد، فبقي أصحابي متحيرين وقالوا: ما مرّ بنا مثل هذا قط. فقلت: أيش صناعتكم؟ فقالوا: التطفيل. قلت: أنا أحتال لكم حتى تنزلوا وتأكلوا. فأشرفت على صاحب الدار والناس يأكلون فقلت: أيما أحب إليك تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل أو أرمي بنفسي على رأسي فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتمًا؟ وجعلتأجر سراويلي كأني أريد أن أعدو وأرمي بنفسي فقال: اصبر ويلك لا تفعل. وقال: هذا مجنون. فأصعدوا إلينا خوانًا فأكلنا ونزلنا.

ومن أخبار بنان الطفيلي مضافًا لما مرّ

قيل لبنان الطفيلي: ما تحفظ من القرآن؟ قال: آية واحدة ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: الآية ٦٢] قيل: فمن الشعر؟ قال بيتًا واحدًا:

نزوركم لا نكافيكم بجفوتكم إن المحب إذا لم يستزر زارا

وسمع بنان رجلًا يقول: إن الدجال يخرج في سنة قحط، معه أنواع المأكولات. فقال: هذا عافاك الله رجل يستحق أن يُسمع له ويُطاع.

ومن أخبار أشعب

قال أشعب يومًا للصبيان: إن في بيت فلان وليمة فاذهبوا إليه. فلما ذهبوا قال في نفسه: لعله يكون هناك وليمة، فذهب خلفهم.

كان قوم في دعوة يأكلون سمكًا فاستأذن عليهم أشعب فوضعوا الحيتان الكبيرة في قصعة في ناحية البيت وأبقوا الصغار وأذنوا له. فقالوا: كيف رأيك في الحيتان؟ قال: إني عليها لحنق لأن أبي مات في البحر وأكلته الحيتان. قالوا: فدونك، خذ بثأر أبيك. فأخذ سمكة صغيرة ووضعها عند أذنه، وقد رأى القصعة دمًا فيها، فقال: أتدرون ما تقول هذه السمكة؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول إنها لم تحضر موت أبي لأن سنها صغير، ولكن قالت لي عليك بالكبار التي في زاوية البيت فهي أدركت أباك وأكلته.

ومن نوادر بخلاء الجاحظ وأخبارهم المستطرفة:

في معاهد التنصيص، قال دعبل: كنا يومًا عند سهل بن هارون الكاتب البليغ، وكان شديد البخل، فأطلنا الحديث، واضطره الجوع إلى أن دعا بغداء له. فأُتي بقصعة فيها ديك هرم لا تخرقه سكين ولا يؤثر فيه ضرس. فأخذ كسرة خبز فخاض بها مرقته وقلب جميع ما في القصعة ففقد الرأس، فبقي مطرقًا ساعة ثم رفع رأسه وقال للطباخ: أين الرأس؟ فقال: رميت به. فقال: ولِمَ؟ قال: ظننتك لا تأكله. قال: بئس ما ظننت؛ والله إني لأمقت مَن يرمي برجليه فكيف مَن يرمي برأسه. والرأس رئيس، وفيه الحواس الأربع، ومنه يصيح، ولولا صوته لما فضل، وفيه عرفه الذي يتبرك به، وفيه عيناه اللتان يضرب بهما المثل فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكليتين، ولم ير عظم قط أهش من عظم رأسه. أما علمت أنه خيرٌ من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق؟ فإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله فانظر أين هو. قال: لا أدري والله أين هو، رميت به. قال: لكني أدري أين هو، رميت به في بطنك، فالله حسيبك!

قال رجل يومًا لسهل بن هارون: هبني ما لا مرزأة عليك فيه، قال: وما ذاك يا ابن أخي؟ قال: درهم واحد. قال: لقد هوَّنت الدرهم وهو طابع الله في أرضه الذي لا يعصى. والدرهم ويحك عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف ديّة المسلم. ألا ترى يا ابن أخي إلى أين انتهاء الدرهم الذي هوَّنته؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم؟

زعموا أن أهل مرو إذا ترافقوا واشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ، وشك كل إنسان نصيبه في خيط أو خوصة وعلمه بعلاقة، ثم وضعوه في القدر، ثم قسموا المرق. فإن أعادوا المشاركة أعادوا تلك الخيوط لأنها تشربت الدسم.

رُؤِيَ رجلان من أهل تستر يأكلان، بيد كل منهما رغيف، وأمامهما إناء فيه مخيض، فيأخذ أحدهما منه ملعقة ويشربها ويأخذ الآخر ملعقتين. فسُئلا عن ذلك، فقالا: إن هذا دفع فلسين من ثمن المخيض فهو يأخذ منه ملعقتين وهذا دفع فلسًا واحدًا من ثمنه فهو يأخذ منه ملعقة واحدة.

يقال إن ناسًا من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكونوا كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر.

دخل رجل على آخر وإذا المائدة موضوعة والقوم قد فرغوا من الأكل، فمد يده ليأكل فقال له صاحب المنزل: أجهز على الجرحى ولا تتعرّض للأصحّاء، وكل مما أكل منه ولا تتعرض لما لم يؤكل منه من دجاجة أو رغيف أو إناء.

طفيلي فقيه

وحكى المبرد قال: كان بالبصرة طفيلي مشهور، وكان ذا أدب، فمرّ على قوم عندهم وليمة، فاقتحم عليهم، وأخذ مجلسه مع مَن دعي، فأنكره صاحب المنزل، فقالوا له: لو تأنيت أو صبرت يا هذا حتى يؤذن لك، لكان أحسن لأدبك وأجل لمروءتك! فقال: إنما اتخذت البيوت ليدخل فيها، ووضعت الموائد ليؤكل عليها، والحشمة قطيعة واطّراحها صِلَة، وقد جاء في بعض الآثار: صِلْ مَن قطعك وأحسنْ إلى مَن أساء إليك!

شحّ ابن الزبير

أظهر عبد الله بن الزبير الزهد في الدنيا مع الحرص على الخلافة، وقال: إنما أنا بطني شبر، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا؟ وأنا العائذ بالكعبة والمستجير بالرد - وكثر أذيته لبني هاشم مع شحه بالدنيا على سائر الناس. ففي ذلك يقول أبو وجزة مولى الزبير:

إن الموالي أمست وهي عاتبة ... على الحليفة تشكو الجوع والحَرَبا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا ... أي الملوك على ما حولنا غلبا

وفيه يقول بعد مفارقته إياه:

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها — حتى فؤاديَ مثل الخزّ في اللّينِ
لو كان بطنك سبرًا قد شبعت وقد — أفضلت فضلًا كثيرًا للمساكين
أن إمرءًا كنتُ مولاه فضيّعني — يرجو الفلاح لعمري حقّ مغبون

وفيه يقول أيضًا:

فيا راكبًا إمّا عرضت فبلّغنْ — كبر بني العوام إن قيل مَن تعني
تخبّرُ مَن لاقيت أنك عائذٌ — وتكثر قتلًا بين زمزم والركن

ويقول الضحاك بن فيروز الديلمي:

تخبّرنا أن سوف تكفيك قبضة — كما قضمت نار العض حطب السور
فلو كنت تجزي إذ تبيت بنعمة — قريبًا لردتك العطوف على العمر

وكان يزيد سرح جيشًا إلى المدينة لحرب ابن الزبير، عليه عمر بن الزبير أخوه، فلما تصادم الجمعان انهزم عمر ورجاله، فظفر به أخوه عبد الله بن الزبير، فأقامه للناس بباب المسجد الحرام مجردًا، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النساء: الآية ٣٧]. وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والشحّ، فإن الشحَّ أهلك من كان قبلكم» وقال ﷺ: «البخل جامع لمساوىء القلوب، وهو زمام يقاد به إلى كلّ سوء».

كان خالد بن صفوان يقول للدرهم إذا دخل عليه: «يا عيار، كم تعير، وكم تطوف وتطير، لأطيلنّ حبسك» ثم يطرحه في الصندوق ويُقفل عليه. قيل له: لم لا تنفق ومالك عريض؟ قال: الدهر أعرض منه.

وأنشد بعضهم:

وهبني جمعت المال ثم خزنتهُ — وحانت وفاتي هل أُزاد به عمرا
إذا خزن المال البخيل فإنه — سيورثه غمًّا ويعقبه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق بخيل فقيل: هو محموم، فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق.

قيل لبخيل: مَن أشجع الناس؟ قال: مَن سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشقّ مرارته.

وقال الحمدوني:

رأيت أبا زرارة قال يومًا ... لحاجبه وفي يده الحسامُ
لئن وُضِعَ الخوان ولاح شخص ... لأختطفنَّ رأسك والسلامُ
فقال سوى أبيك فذاك شيخٌ ... بغيضٌ ليس يردعه كلامُ
فقام وقال من حنقٍ إليه ... ببيتٍ لم يرد فيه القيامُ
أبي وابنا أبي والكلب عندي ... بمنزلةٍ إذا حضر الطعامُ
إذا حضر الطعام فلا حقوقٌ ... عليَّ لوالديَّ ولا ذمامُ
فما في الأرض أقبح من خوانٍ ... عليه الخبز يحضره الزحامُ

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق:

ممَّن تعلَّمتَ هذا ... أن لا تجود بشيء
أما مررت بعبدٍ ... لعبد حاتم طيء

ومما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم ومن أهجي ما قيل فيهم قول جرير في بني تغلب:

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرى ... حكَّ أسْتَهُ وتمثَّلَ الأمثالا

وأبلغ ما قيل في البخل قول ابن الرومي:

يُقتّر عيسى على نفسهِ ... وليس بباقٍ ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفَّسَ من منخرٍ واحد

وكان أبو هريرة يديم أكل الهريسة، وكان يأكل على سماط معاوية، ويصلّي وراء علي، ويجلس وحده. فسُئل عن ذلك فقال:

طعام معاوية أدسم، والصلاة خلف عليّ أفضل وأعلم، والجلوس وحدي أسلم.

قال دعبل:

استبقْ وُدَّ أبي المقا ... تل حين تأكل من طعامه

سـيَّـان كـسـرُ رغـيـفـه ... أو كـسـر عـظـم مـن عـظـامـه
وتـراه مـن خـوف الـنـز ... يـل بـه يـروَّع فـي مـنـامـه

دخل ابن قرعة يومًا على عزِّ الدولة، وبين يديه طبق فيه موز، فتأخر في دعوته، فقال: ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه. فقال: ما أحسن لونه، فيه سبائك ذهبية، كأنها غشيت زبدًا وعسلًا، أطيب من التمر كأنه مخُّ الشحم، سهل المقشر، ليّن المكسر، عذب المطعم الطعوم، سلس في الحلقوم، ثم مدَّ يده فأكل.

قال أبو الهلال العسكري:

خُبـز الأمـيـر عـشـيـقُـهُ ... يـغـدو عـلـيـه يـلاعـبُـهْ
وإذا بـدا لـجـلـيـسـهِ ... أفـضـى إلـيـه يـعـاتـبُـه
وتـحـوطَـهُ حـراسُـهُ ... وتـذُبُّ عـنـه كـتـائـبُـه
فـالـزور يـصـفـعُ عـنـده ... والـضـيِّفُ ينتفُ شاربه

قال أبو نواس في إسماعيل بن نوبخت بعد أن نصب إسماعيل في صحن داره طارمة وأقام فيها أربعين يومًا ومعه جماعة ـ منهم أبو نواس ـ فبلغت نفقته أربعين ألف درهم.

ثم قال بعد ذلك:

خبز إسماعيل كالوشي ... إذا مـا شُـقَّ يُـرفـا
عـجـبًـا من أثـر الـضـعـة ... فـيـه كـيـف تـخـفـى

وقال ابن الرومي:

بـخـيـلٌ يـصـوِّمُ أضـيـافـهُ ... ويبخل عنهم بأجر الصيام
يـدسُّ الـغـلام فـيـولـيـهُـمُ ... هـوانـا فـيشتم مولى الغلام
فـهـم مفطرون وهـم صائمون ... ومـا يـطـعـمـون وهـم في أثام
فـيـحـتـال لأن يـفـطـرون ... على رفث القول دون الكلام

ولجرير أيضًا في بني تغلب وهو وصف دقيق:

قـومٌ إذا أكـلوا أخـفـوا كـلامـهـم ... وأستوثقوا من رتاج الباب والدار

قومٌ إذا استنبح الضيفان كلبهم — قالوا لأمهم بولي على النار
فتمنع البول شحًا أن تجود به — وما تبول لهم إلّا بمقدار
والخبز كالعنبر المفقود عندهم — والقمح خمسون أردبًا بدينار

وقال بعضهم:

أتانا بَخِيلٌ بخبزٍ له — كمثل الدراهم في رقته
إذا ما تنفَّس حول الخوان — تطاير في البيت من خفّته

وقال أبو تمام وأجاد:

فصدق إيمانه إن قال مجتهدًا — لا والرغيف فذاك البرُّ من قسمه
فإن هممت به فاعبث بخبزته — فإن موقعها من لحمه ودمه
قد كان يعجبني لو أن غيرته — على جرادقه كانت على حرمه

وقال آخر:

خليليَّ من كعب أعينا أخاكما — على دهره إن الكريم معينُ
ولا تبخلا بخل ابن قرعة إنه — مخافة أن يرجى نداء حزين
إذا جئته في حاجته سدَّ بابه — فلم تلقهُ إلّا وأنت كمينُ

وقال آخر:

يا قائمًا في داره قاعدًا — من غير معنى لا ولا فائدة
قد مات أضيافك من جوعهم — فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا قد مدحت فتى كريمًا — فقلت وكيف لي بفتًى كريم
بلوت ومرَّ بي خمسون عامًا — وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحدٌ يُعدُّ ليوم خيرٍ — ولا أحدٌ يجود على عديم

ومن أجود ما قيل في البخل في معرض الاعتبار:

أرى قبر نحَّام بخيل بماله — كقبر غويٍّ في البطالةِ مُفْسِدِ
أرى الموتُ يعتام الكريم ويصطفى — عقيلة مال الفاحش المتشدِّدِ
لعمرك إنَّ الموت ما أخطأ الفتى — لكالطِّوَلِ المرخيِّ وثنياه باليدِ

قيل لبعض الحكماء: مَن أجودُ الناس؟ قال: مَن جاد من قلَّة ـ وصان وجه السائل عن المذلَّة.

وقال حماد عجرد:

أوْرِقْ بخيرٍ تؤَمِّل للجزيل فما ... تُرْجى الثمارُ إذا لم يورِقِ العودُ
إن الكريم ليُخفي عنك عسرتهُ ... حتى تراه غنيًّا وهو مجهودُ
بُثَّ النَّوال ولا تمنعك قلَّتُهُ ... فكُلُّ ما سدَّ فقرًا فهو محمودُ
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ ... زرقُ العيون عليها أوجهٌ سودُ

قال شبيب بن شبَّة: إني لأعرف أمرًا لا يتلاقى به اثنان إلا وجب النَّجح بينهما. قيل له: وما ذاك؟ قال: العقل؛ فإن العاقل لا يسأل ما لا يُمكن، ولا يُردُّ عمَّا يمكن.

ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال: أتيتك في حاجة، فإن شئت قضيتَها وكنا كريمين، وإن شئت لم تقضها وكنا لئيمين. أراد: إن قضيتها كنتَ أنت كريمًا بقضائها وكنت أنا كريمًا بسؤالك إياها، لأني وضعت الطلبة في موضعها. فإن لم تقضها كنت أنت لئيمًا بمنعك وكنت أنا لئيمًا بسوء اختياري لك.

ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان فقال: أتيتكَ في حاجة رفعتها قبلك إلى الله، فإن يأذن الله في قضائها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن في قضائها لم تقضها وعذرناك.

دخل سوار القاضي على عبد الله بن طاهر صاحب خرسان فقال: أصلح الله الأمير:

لنا حاجةٌ والعذرُ فيها مقدَّمٌ ... خفيفٌ معنَّاها مضاعفة الأجر
فإن تقضها فالحمد لله وحده ... وإن عاق مقدور ففي أوسع العُذْرِ

قال له: ما حاجتك أبا عبد الله؟ قال: كتابٌ لي: إن رأى الأمير أكرمه الله أن يُنفذه في خاصته، كتب إلى موسى بن عبد الملك في تعجيل أرزاقي. قال: أوَغير ذلك أبا عَبد الله؟ نعجلها لك من مالك، وإذا وددت كنت مخيَّرًا بين أن تأخذ أو ترد. فأنشد سوار يقول:

فبابُك أيمنُ أبوابهم ... ودارك مأخولةٌ عامرةْ
وكفك حين ترى المجتدين أندى من الليلة الماطرةْ

قال أبو العتاهيــة:

تـعـال الله يـا سـلـم بـن عـمـروٍ أذلَّ الـحـرصُ أعـنـاق الـرجـال
هـب الـدنـيـا تـقـاد إلـيـك عـفـوًا أليـس مـصـيـر ذلـك لـلـزوالِ؟

وقد ضمن البيت الأخير شهاب الدين الأبشيهي فقال:

أيا مَن عاش في الدنيا طويلًا وأفنى العمر في قيلٍ وقالِ
وأتعب نفسه فيما سيفنى وجـمَّـعَ من حرامٍ وحلالِ
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصير ذلك للزوال؟

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن مَن ألهاه أمله أخزاه عمله.

وقال عبد الصمد بن المعدل:

ولي أمل قطعت به الليالي أراني قد فنيت به وداما

وقال قس بن ساعدة:

وما قد تولى فهو لا شكَّ فائتٌ فهل ينفعني ليتني ولعلَّني

وقال آخر:

الله أصـــدق والآمـــال كـــاذبـــةٌ وجُلُّ هذي المنى في الصدر وسواسُ

اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسُمعَ رسول الله يقول: «ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر. إن أسامة لطويل الأمل».

وقال أحدهم:

شطَّ المزار بسَعدى وانتهى الأملُ فلا خيالٌ، ولا رسم، ولا طلل
إلَّا رجاءٌ فما ندري أندركه أم يستمرُّ فيأتي دونه الأجل

قيل: مَن جرى في عنان أمله كان عاثرًا في أجله. ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

وذي حرص تراه يلمُّ وفرًا لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن مَن قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك النفس حرصًا   فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه   وعدٌ فرزقُ يومك رزق أمسك

قيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام، فقال له كعب: يا ابن سلام مَن أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به ـ قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه؟ قال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.

وقيل: إذا سألت كريمًا حاجة فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلّا في خير. وإذا سألت لئيمًا حاجة فعاجله فإنه إن فكر عاد إلى طبعه.

قال أمية بن أبي الصلت:

عطاؤك زين لأمرىء إن حَبَوْتهُ   بخيرٍ، وما كلُّ العطاء يزينُ
وليس بشينٍ لامرىء بذل وجهه   إليك كما بعض السؤال يشين

قال حاتم الطائي يخاطب زوجته:

أمَاوِيَّ إني لا أقول لسائل   إذا جاء يومًا حلَّ في مالي النَّذْرُ
أماويُّ ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر
أماويُّ إن المال مالٌ بذلته   فأوَّلُه شكرٌ وآخره ذكرُ

وقال حاتم الطائي:

يرى البخيل سبيل المال واحدةً   إن الجواد يرى في ماله سُبُلا

قال شاعر يمدح الحكم بن حنطب ـ وكان من أجود الناس:

وكأن آدم حين حان وفاته   أوصاك وهو يجود بالحَوْباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم   فكفيت آدم غيلة الأبناءِ

حديث شريف: «السخي قريبٌ من الله، قريبٌ من الجنة، قريبٌ من الناس، بعيد عن النار».

دخل عتبة بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام على خالد بن عبد الله القسري بعد حجاب شديد، وكان عتبة رجلًا سخيًا، فقال له خالد يُعرِّض به: إن هٰهنا رجالًا يداينون في أموالهم، فإن فَنِيَتْ يداينون في أعراضهم! فعلم القرشي أنه يعرِّض به. فقال:

أصلح الله الأمير، إن رجالًا تكون أموالهم أكثر من مروءاتهم، فأولئك تبقى أموالهم؛ ورجالًا مروءاتهم أكثر من أموالهم، فإن نفدت أدانوا على سعة ما عند الله! فخجل خالد وقال: أما إنك منهم ما علمت.

كتب أحد الشعراء للحسن بن سهل (ذي الرياستين) يقول:

رأيتُ في النوم أني راكبٌ فرسًا ... ولي وصيفٌ وفي كفِّي دنانيرُ
فقال قومٌ لهم فهمٌ ومعرفةٌ ... رأيتُ خيرًا وللأحلام تعبيرُ
رؤياك فسِّرْ غدًا عند الأمير تجدْ ... تعبير ذاك وفي النوم التباشيرُ

فوقع في أسفل كتابه: «أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» وأطلق له ما التمسه.

وقال تعالى في ذَمّ الطمع: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: الآيتان ١، ٢]. ورُوِيَ أن النبيّ ﷺ حين قرأ ذلك قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدّقت فأمضيت» ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخيل والأمل».

ومما جاء في الطمع وذمه: قال الإمام عليّ (ع): أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. وقال أيضًا: ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

قال أحد الفلاسفة: العبيد ثلاث: عبد رقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع. فمن أراد أن يعيش حرًّا مدى حياته فلا يُسكن قلبه الطمع.

وقيل: لما خلق الله آدم عليه السلام، عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع والحسد. فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة. فالعاقل يخفيها والجاهل يبديها. ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه.

وقال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حسبي بعلمي إن نفع ... ما الذُّلُّ إلّا في الطمع
مَن راقب الله نزع ... عن سوءِ ما كان صنع
ما طار طيرٌ وارتفعْ ... إلّا كما طار وقعْ

ومن البخلاء أربعة: الحطيئة، وحميد بن قرط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان.

حُكِيَ أن الحطيئة مرَّ به ـ ابن حمامة ـ وهو جالس بفناء بيته ـ فقال: السلام عليكم ـ قال: قلت: ما لا يُنكر ـ فقال: إني خرجت من أهلي بغير زاد ـ قال: ما ضمنت لأهلك قراك ـ قال: أفتأذن لي أن آتي بظلِّ بيتك أتفيأ به؟ قال: دونك الجبل؟ يفي عليك ـ قال: أنا ابن حمامة ـ قال: انصرف وكن ابن أي طائر شِئتَ.

وقيل: اعترضه رجل وهو يرعى الغنم، وكان بيد الحطيئة عصا فرفعها، وقال: عجراء من سلم، قال الرجل: إنما أنا ضيف. قال: للأضياف أعددتها.

من فلسفة حاتم الطائي في مَن يجمع المال ولا يتمتع به ويأتي الوارث فيأخذه:

ولا تستحين فيه فيسعد وارثٌ ... به حين تغشى أغبر الجوف مظلما
يُقسِّمهُ غنمًا ويشري كرامةً ... وقد صرتِ في خطٍّ من الأرض أعظُما
قليلًا به يحمدنَّك وارثٌ ... إذا نال مما كنت تجمع مغنما

أعرَابي في عُرْس(١)

قال الفضْل بن العباس الهاشمي: كان ناهض بن ثُومة الكِلابي يفد على جَدِّي قُثَم، فيمدحه ويَصِلُه جدي وغيرُه، وكان بدوِيًا جافيًا كأنه من الحوش؛ إلا أنه طيّب الحديث.

حدّثه يومًا: أنهم انتجعوا ناحيةَ الشام فقصد صديقًا له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية؛ كان ينزل حلب وكان برًا به.

قال: فمررت بقرية يقال لها قرية بكرِ بن عاصم الهلالي، فرأيت دُورًا مُتَباينة وخِصاصًا(٢) قد ضُمَّ بعضها إلى بعض، وإذا بها ناسٌ كثيرون مقبِلون ومدْبِرون، عليهم ثياب تَحْكي ألوان الزَّهر، فقلت في نفسي: هذا أحَدُ العيدين: الأضحى أو الفطر، ثم ثاب إليّ ما عَزَب عن عقلي فقلت: خرجت من أهلي في بادية البَصْرة في صَفَر، وقد مضى العيدان قبل ذلك، فما هذا الذي أرى!

---

(١) الأغاني: ١٢ ـ ٣٣.
(٢) الخصاص: جمع خص، وهو شيء من القصب.

وبينا أنا واقف متعجب أتاني رجل، فأخذ بيدي فأدخلني دارًا قَوْراء[١]، وأدخلني منها بيتًا قد نُجِّدَتْ فيه فرش ومُهّدت، وعليها شاب يَنال فرعُ شعره مَنْكِبَيه، والناس حوله سِماطان[٢]، فقلت في نفسي: هذا الأمير الذي حُكِيَ لنا جلوسُه، وجلوسُ الناس بين يديه. فقلت ـ وأنا ماثل بين يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته فجذَبَ رجلٌ يدي وقال: اجلس، فإن هذا ليس بأمير. قلت: فَمَنْ هو؟ قال: عَروس[٣]. فقلت: واثكل أُمّاه! لَرُبَّ عروس رأيته بالبادية أهون على أهله من هَنَة[٤]!

فلم أنْشَبْ[٥] أن دخل رجالٌ يحملون آنات[٦] مُدَوَّرات، أمّا ما خفّ منها فيُحْمَل حَمْلًا، وأما ما كَبر وثَقُل فَيُدحرَج، فوُضع ذلك أمامنا، وتحلّق القوم عليه حَلَقًا، ثم أتينا بخرَق بيضٍ فأُلقِيَتْ بين أيدينا، فظننتها ثيابًا، وهممت أن أسأل القوم منها خِرقًا أُرَقِّعُ بِها قميصي، وذلك أني رأيت نَسْجًا متلاحِمًا، لا يبين له سَدًى ولا لُحْمَة[٧]؛ فلما بسطه القوم بين أيديهم إذا هو يتمزّقُ سريعًا، وإذا هو فيما زعموا صِنْفٌ من الخبز لا أعرفه.

ثم أُتِينا بطعام كثير بين حُلْوٍ وحامض، وحار وبارد، فأكثرتُ منه، وأنا لا أعلم ما في عَقِبه من التُّخَم والبَشَم، ثم أُتينا بشراب أحمر في شَنّ[٨]، فقلت: لا حاجة لي فيه فإني أخاف أن يقتلني، وكان إلى جنبي رجل ناصح ـ أحسن الله جزاءه، فإنه كان ينصح لي من بين أهل المجلس ـ فقال: يا أعرابي؛ إنك قد أكثرت من الطعام، وإن شربت الماء هَما[٩] بطنُك، فلما ذكرت البطن تذكرت شيئًا أوصاني به أبي، والأشياخُ من أهلي؛ إذ قالوا: لا تزل حيًّا ما دام بطنك شديدًا، فإذا اختلف فأوص. فشربت من ذلك الشراب لأتداوى به، وجعلت أُكثر منه فلا أملّ شربه، فتداخلني من ذلك صلَف لا أعرفه من نفسي، وبكاء لا أعرف سببه، ولا عهد لي بمثله، واقتدار على أمر أظن معه أني لو أردتُ نيلَ السقف لبلغتُه،

---

(١) دار قوراء: واسعة. (٢) السماط: الصف.
(٣) العروس: الرجل والمرأة ما داما في أعراسهما، وهم عرس، وهن عرائس.
(٤) الهنة: كناية عن خسيس الشيء.
(٥) لم أنشب: لم ألبث، قال في اللسان: وحقيقته لم يتعلق بشيء غيره، ولا اشتغل بسواه.
(٦) آنات: جمع غير قياسي لإناء.
(٧) السدى من خيوط الثوب: ما مد منها طولًا، واللُّحمة: ما مد منها عرضًا.
(٨) الشن: القربة الخلق الصغيرة. (٩) هما: سال.

ولو شَأوتُ الأسد لقتلته؛ وجعلت ألتفت إلى الرجل الناصح، فتحدثني نفسي بهتْم أسنانه، وهشم أنفه، وأهم أحيانًا أن أشتِمه.

فبينا نحن كذلك إذ هجم علينا شياطينُ أربعة: أحدهم قد علّق في عنقه جَعْبةً فارسية، مفتّحة الطرفين، دقيقة الوسط، قد شُبكت بخيوط، وأُلبست قطعة فَرْو، كأنهم يخافون عليها القرّ. ثم بدر الثاني، فاستخرج من كُمه هنَةً سوداءَ فوضعها في فيّه، وأخرج صوتًا لم أسمع - وبيتِ الله - أعجب منه، فاستتم بها أمرهم، ثم حرّك أصابعه فيها فأخرج منها أصواتًا ليس كما بدأ، ولكنه أتى منها - لما حرك أصابعه - بصوت عجيب، متلائم متشاكل بعضه لبعض، كأنه - علم الله - ينطق به. ثم بدا ثالث له وَجهٌ كَزّ[(١)] مقيت! عليه قميص وسخ ومعه مرآتان، فجعل يصفّق بهما بيديه إحداهما على الأخرى، فخالط بصوته ما يفعله الرجلان. ثم بدا رابع عليه قميص، وسراويل قصيرة، وخُفّان أجذمان، لا ساق لواحد منهما، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب، ثم تلبّط[(٢)] على الأرض، فقلت: معتوه ورب الكعبة! ثم ما برح مكانه حتى كان أغْبَط القوم عندي، ورأيت القوم يحذِفُونه[(٣)] بالدراهم حَذْفًا منكرًا؛ ثم أرسل النساء إلينا: أن أَمْتِعونا من لهوكم هذا؛ فبعثوا بهم، وجعلنا نسمع أصواتهم من بعد.

وكان معنا في البيت شاب لا آبه له، فَعَلت الأصواتُ بالثناء عليه والدعاء له، فخرج وجاء بخشبة عيناها في صدرها، فيها خيوط أربعة، فاستخرج من خلالها عودًا، فوضعه خلْف أذنه، ثم عرَك آذانها، وحركها بخشبة في يده، فنطقت ورب الكعبة! وإذا هي أحسنُ قَيْنة[(٤)] رأيتها قطّ! فأطربني حتى استخفّني من مجلسي، فوثبت وجلست بين يديه، وقلت: بأبي أنت وأمي! ما هذه الدّابة؟ فلست أعرفها للأعراب، وما أراها خُلقت إلا قريبًا! فقال: هذا البَرْبط[(٥)]. فقلت: بأبي أنت وأمي! فما هذا الخيط الأسفل؟ قال: الزير[(٦)]. قلت: فالذي يليه؟ قال: المثنى[(٧)]. قلت: فالثالث؟ قال: المُثَلّث[(٨)]. قلت:

---

(١) وجه كز: قبيح.
(٢) تلبط: اضطجع وتمرّغ.
(٣) يحذفونه: يرمونه.
(٤) القينة: الأمة المغنية.
(٥) البربط: العود معرب (بربط) - بكسر الراء - وهو آلة من المعازف.
(٦) الزير: من أوتاد العود.
(٧) المثني: الذي يلي الزير.
(٨) المثلث: الذي يلي المثنى.

فالأعلى؟ قال: البَمّ[١]. فقلت: آمنت بالله أولًا، وبك ثانيًا، وبالبربط ثالثًا، وبالبَم رابعًا.

قال الفضل: فضحك أبي والله حتى سقط؛ وجعل ناهض يَعْجَبُ من ضحكه! ثم كان بعد ذلك يستعيده هذا الحديث؛ ويُطرِف به إخوانه فيضحكون منه.

أطيَب الطَّعَام[٢]

صنعَ عبدُ الملك بن مَرْوان طعامًا فأكْثَر وأطاب[٣]، ودعا إليه الناسَ فأكلوا. فقال بعضهم: ما أطيبَ هذا الطعام! ما نرى أن أحدًا رأى أكثر منه ولا أكل أطيبَ منه. فقال أعرابي من ناحية القوم: أمّا أكثر فلا، وأما أطيبُ فقد والله أكلتُ أطيبَ منه. فطفقُوا يضحكون من قوله.

فأشار إليه عبد الملك فأُدْنيَ منه؛ فقال: ما أنْتَ بمُحِقٍّ فيما تقول إلا أنْ تُخبرني بما يَبِينُ به صدقُك. فقال: نعم يا أمير المؤمنين؛ بينما أنا بهَجرَ[٤] في بَرْثٍ[٥] أحمر في أقصى حَجْر[٦] إذ تُوُفِّي أبي، وترك كَلّا[٧] وعيالًا، وكان له نخل، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها، كأن تمرها أخْفافُ الرِّباع[٨]، لم يُرَ تمرٌ قطُّ أغلظ ولا أصلَبُ ولا أصغرُ نَوًى ولا أحلَى حلاوةً منه.

وكانت تَطْرُقُها أتان وحشيَّة قد أَلِفَتْها تأوي الليلَ تحتها، فكانت تُثَبِّتُ رجليها في أصلها، وترفعُ يديها، وتَعْطُو[٩] بفيها فلا تَترُكُ فيها إلا النبيذ[١٠] والمتفرق؛ فأعْظَمني ذلك ووقع مني كلَّ موقع.

فانطلقتُ بقَوْسِي وأسهمي، وأنا أظنُّ أني أرجع من ساعتي؛ فمكثتُ يومًا وليلةً لا أراها، حتى إذا كان السَّحَر أقْبَلَتْ، فتهيّأتُ لها فرشقْتُها فأصَبْتُها،

---

(١) البم: الذي يلي المثلث، وهو أغلظ الأوتار.
(٢) الأغاني: ٨ ـ ٤٠.
(٣) أطاب الشيء: طيبه.
(٤) هجر: مدينة بالبحرين مشهورة بالتمر.
(٥) البرث: الأرض اللينة السهلة.
(٦) في أقصى حجر: أي في أبعد ناحية.
(٧) الكل: العيال والثقل.
(٨) الرباع: جمع ربع وهو الفصيل ينتج في الربيع.
(٩) تعطو: تتناول.
(١٠) النبيذ: المنبوذ.

وأَجْهَزْت عليها، ثم عمَدتُ إلى سُرَّتها فاقْتَدَدْتُها، ثم عمَدتُ إلى حَطَب جَزْل فجمعته إلى رَضْف[١]، وعمَدتُ إلى زَنْدِي فقدحتُ، وأَضرمْتُ النار في ذلك الحطب، وألقيْتُ سُرَّتها فيه، وأدركني نومُ الشباب فلم يُوقظني إلّا حرُّ الشمس في ظهري، فانطلقتُ إليها فكشفتها وألقيتُ ما عليها من قذًى وسواد ورماد، ثم قلبت منها مثل المُلَاءة البيضاء، فألقيتُ عليها من رُطَب تلك النخلة المجزّعة[٢] والمنصفة، فسمعتُ لها أطيطًا[٣] كتداعي عامر وغَطَفَان، ثم أقبلتُ أتناول الشَّحْمَة واللحمة فأضعها بين التمرين وأهوى بها إلى فمي، فما أحلف إني ما أكلتُ طعامًا مثله قط!

فقال له عبد الملك: لقد أكلتَ طعامًا طيبًا فمن أنت؟ قال: أنا رجلٌ جانَبْتني عَنْعَنَةُ[٤] تميم وأَسَد، وكشكشةُ[٥] ربيعة، وحُوشيُّ[٦] أهل اليمن ـ وإن كنتُ منهم. فقال: من أيهم أنت؟ قال: من أخوالك من عُذْرَة. قال: أولئك فصحاءُ الناس؛ فهل لك علمٌ بالشعر؟ قال: سَلْني عمّا بدا لك يا أمير المؤمنين. قال: أيّ بيت قالته العرب أمدح؟ قال: قول جرير:

ألستُم خيرَ مَن رَكِبَ المطايَا   وأنْدى العالمين بطون راحِ[٧]

وكان جرير في القوم؛ فرفع رأسه وتطاول لها. ثم قال: فأي بيت قالته العرب أفخر؟ قال: قول جرير:

إذا غضبَتْ عليكَ بنو تميم   حَسِبْتَ الناسَ كلهمُ غضَابَا

فتحرَّك لها جرير. ثم قال له: فأيّ بيت أهجي؟ قال: قول جرير:

فغُضَّ الطرف إنَّكَ من نُمَيْرٍ   فلا كعبًا بلغتَ ولا كِلَابَا

فاستشرف لها جرير. ثم قال: فأي بيت أَغْزَل؟ قال: قول جرير:

إن العيونَ التي في طَرْفها مَرَضٌ   قتَلْنَنَا ثم لم يُحْيينِ قَتْلَانَا

---

(١) الرضف: الحجارة المحماة بالشمس أو النار.
(٢) جزع البسر: إذا بلغ الإرطاب بعضه. ونصف البسر: إذا بلغ الإرطاب نصفه.
(٣) الأطيط: الصوت.
(٤) العنعنة: إبدال العين من الهمزة.
(٥) الكشكشة: اجعل الشين مكان الكاف.
(٦) الحوشى: الغامض.
(٧) راح: جمع راحة، وهي الكف.

فاهتَزّ جرير وطرب. ثم قال له: فأي بيت قالته العرب أحسن تشبيهًا! قال: قول جرير:

سَرَى نحوَهم ليلٌ كأن نجومَه قَنَاديلُ فيهن الذُّبَال[١] المفَتَّلُ

فقال جرير: جائزتي للعُذْرى يا أمير المؤمنين. فقال له عبد الملك: له مثلُها من بيت المال، ولك جائزتُك يا جرير لا تُنْتَقَصُ منها شيئًا. وكانت جائزةُ جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكُسْوة. فخرج العُذْرِيّ وفي يده اليُمنى ثمانية آلاف درهم، وفي اليد اليسرى رِزْمَةُ ثياب!

طفَيْلي في حَضرةِ المَأمون[٢]

أمر المأمونُ أن يُحمل إليهِ عشرة من الزنادقة سُمُّوا له من أهل البصرة، فجُمعوا فأبصرهم طُفَيْلِيّ، فقال: ما اجتمعوا إلا لِصَنِيعٍ، فدخل في وسطهم، ومضى بهم الموكلون، حتى انتهوا إلى زَوْرقٍ قد أعِدّ لَهم، قال الطُّفيلي: هي نزهةٌ، فدخل معهم الزورق، فلم يكن بأَسْرَع من أن يقيّدوا، وقُيّد معه الطفيلي.

ثم سِيرَ بهم إلى بغداد، فأُدْخلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلًا رجلًا؛ ويأمر بضَرْب أعناقهم، حتى وصل إلى الطفيلي، وقد اسْتَوْفى العِدّة، فقال للموكِّلين: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري، غير أنّا وجدناه مع القوم، فجئْنَا به فقال له المأمون: ما قِصَّتُك ويلك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا أعرفُ من أقاويلهم شيئًا، وإنما أنا رجلٌ طفيلي، رأيتُهم مجتمعين، فظننتُ صَنِيعًا يُدْعَوْن إليه. فضحك المأمون، وقال: يؤدّب!

وكان إبراهيم بن المهدي قائمًا على رأس المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، هبْ لي أدبَه، وأحدّثك بحديثٍ عجيب عن نفسي، قال: قل يا إبراهيم.

قال: يا أمير المؤمنين، خرجْتُ من عندك يومًا؛ فطُفْتُ في سِكَك بغداد متطرّفًا، حتى انتهيت إلى موضع كذا، فشممت من قُتَارٍ[٣] أبازير قُدورٍ قدْ فاح؛ فتاقَتْ نفسي إليها، وإلى طيب ريحها، فوقَفْتُ إلى خَيّاط، فقلت له: لِمَنْ هذه

---

(١) الذبالة: الفتيلة التي توضع في القنديل، يوضع فيه الزيت ليستضاء به.

(٢) العقد الفريد: ٤ ـ ٢٣٧، نهاية الأرب: ٣ ـ ٣٣٢.

(٣) القتار: ريح القدر والشواء، والأبازير: التوابل.

الدار؟ فقال: لرجل من التجار. قلت: ما اسمه؟ قال: فلان ابن فلان، فرميتُ بطرْفي إلى الدار؛ فإذا شُبّاك به جارية ذات منظر حسن، فبُهِتّ ساعةً ثم أدْركني ذِهْني، فقلت للخياط: أهو ممن يشرب النبيذ؟ قال: نعم، وأحسب أنّ عنده اليوم دعوة، وهو لا يُنَادم إلّا تُجّارًا مثلَه مَسْتورين.

فإني لكذلك، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرْب، فقال لي الخياط: هؤلاء مُنادماه، فقلت: ما اسماهما وما كُناهما؟ فقال: فلان وفلان، فحرَّكتُ دابَّتي وداخلتهما، وقلت: جُعِلْتُ فِداكما، قد استَبْطأَكُما أبو فلان، وسايرتُهما حتى بلغنا الباب، فأجلّاني وقدّماني؛ فدخلتُ ودخلا.

فلما رآني صاحب المنزل معهما لم يشكّ أني منهما؛ فَرَحَّبَ بي وأجلسني في أفضلِ المواضع، فجِيء يا أمير المؤمنين بمائدةٍ عليها خبزٌ نظيف، وأُتينا بتلك الألوان، فكان طعمها أطيَبَ من رِيحها، ثم رُفع الطعام، وجِيء بالوَضوء، ثم صِرْنا إلى مجلس المنادمة، وجعل صاحب المنزل يلطفُ بي؛ ويميلُ عليّ بالحديث؛ حتى إذا شَرِبنا أقْداحًا خرجتْ علينا جاريةٌ، كأنها بَدْر فأقبلتْ؛ وسلّمتْ غير خَجِلة، وثنيت لها وِسادة، فجلستْ عليها؛ وأُتي بالعودِ فَوُضِع في حِجْرِها؛ فجسَّتْه فاسْتَبَنْتُ حِذْقها في جَسِّها، ثم اندفعت تُغَنِّي:

توهَّمَها طَرْفِي فأصبح خَدُّها ... وفيه مكانُ الوَهْم من نظري أثْرُ
تصَافِحُها كَفِّي فَتُؤلِمُ كَفَّها ... فمِنْ مَسِّ كَفِّي في أناملها عَقْرُ[1]

فهيّجتْ يا أمير المؤمنين بَلَابِلي، وطرِبتُ لِحُسْنِ شِعْرها، ثم اندفَعت تغنّي:

أشرتُ إليها هل عرفتِ مودَّتي؟ ... فردّتْ بطَرْفِ العين: إني على العَهْدِ
فَحِدْتُ عن الإظْهَارِ عَمْدًا لسِرِّها ... وحَادَتْ عن الإظهار أيْضًا على عمْدِ

فصحتُ يا أمير المؤمنين، وجاءني من الطرب ما لم أَمْلِك نَفْسي معه، ثم اندفعت فغنّتْ الصوت الثالث:

أليس عجيبًا أنّ بيتًا يَضُمُّنِي ... وإياكِ لا نخلو ولا نَتكَلَّمُ!
سِوَى أَعْينٍ تشكو الهوى بجفونها ... وتقطِيعِ أكبادٍ على النارِ تضْرَمُ
إشارة أفواهٍ وغَمْزِ حَوَاجِبٍ ... وتَكسير أَجْفَانٍ وكفّ تُسَلِّمُ

---

(١) العقر: الجرح.

فحسدتُها والله يا أمير المؤمنين على حِذْقِها ومعرفتها بالغِناء، وإصابتها لمعنى الشعر، فقلت: بقِّي عليك يا جارية، فضربتْ بالعود على الأرض، وقالت: متى كنتُم تُحْضرون مجالسكم البُغَضاء؟ فندمتُ على ما كان منِّي، ورأيت القوم قد تغيّروا لي، فقلت: أما عندكم عودٌ غير هذا؟ قالوا: بلى، فأتيتُ بعود فأصلحتُ من شأنه ثم غنّيت:

ما لِلْمَنَازِل لَا يُجبنَ حَزينَا ... أصممْنَ أم قَدُمَ البِلَى فَبلِينا؟
راحُوا العَشِيَّةَ رَوْحَةً منكورة ... إن مُتنَ مُتْنا أو حَيِينَ حَيِينَا

فما اسْتَتْمَمْتُه يا أميرَ المؤمنين حتى قامتِ الجارية، فأكبَّت على رِجْلَيَّ تقبِّلُهما، وقالت: مَعْذِرةً يا سيدي، فوالله ما سمعتُ أحدًا يغنِّي هذا الصوت غِنَاءَك، وفعل مولاها وأهل المجلس كفعلها، وطرب القومُ واستحثّوا الشُّرْب فشربوا، ثم اندفعتُ أُغَنِّي:

أفِي الحقِّ أنْ تَمشي ولا تَذْكُرَنَّني ... وقد هَمَعَتْ عيناي من ذكرها الدِّما
إلى اللهِ أشكو بُخْلَها وسَمَاحَتِي ... لـها عَسَلٌ مني وتبذلُ عَلْقَما
فَرُدِّي مصَابَ القلبِ أنتِ قتلتِه ... ولا تتركيه ذاهلَ العقلِ مُغْرما

فطَرِب القومُ حتى خَرَجُوا من عقولهم، فأمسكتُ عنهم ساعةً حتى تراجعوا، ثم غنيت الثالث:

هذا مُحِبُّك مطرِيًا على كَمَدِهْ ... عبري مدامعُه تَجْرِي على جسدهْ
له يدٌ تسأل الرحمٰنَ راحتَه ... مما به وَيدٌ أُخْرَى على كَبدِهْ

فجعلت الجاريةُ تصيحُ: هذا الغناء والله يا سيدي، لا ما كُنّا فيه منذ اليوم. وقال صاحب المنزل: يا سيدي؛ ذهبَ ما مضى من أيّامي ضَيَاعًا، إذ كنتُ لا أعرفك، فمَن أنت؟ ولم يزل يُلِحُّ عليَّ حتى أخبرته الخبَرَ، فقام وقبَّل رأسي، وقال: وأنا أعجبُ أن يكون هذا الأدب إلا لملك! وإني جالس مع الخليفة ولا أشعُرُ، ثم سألني عن قِصَّتي، فأخبرته حتى بلغت إلى تلك الجارية التي رأيتها، فقال للجارية: قومي فقولي لفُلانة: تنزل، فلم تَزل تنزل جواريه واحدةً واحدة، فأنظر إلى كفِّها ومعصمها، وأقول: ليست هذه! حتى قال: والله ما بقي غير أختي وأمي، والله لأنزلنَّهما؛ فعجبتُ من سَعَةِ صدره، فقلت: جُعلتُ فداك! ابْدَأْ بالأخت قبل الأم، فعسى أن تكون هي.

فبرزت، فلما رأيت كفَّها ومِعْصَمها، قلت: هذه هي! فأمر غِلمانَه، فساروا إلى عشرة مشايخ من جلَّةِ جيرانه؛ فأقبل بهم، وأمر بِبَدْرتين فيهما عشرون ألف درهم؛ ثم قال للمشايخ: هذه أُخْتي فلانة، أشهدكم أني قد زوجتُها من سيدي إبراهيم بن المهدي؛ وأمْهَرتُها عنه عشرين ألف درهم، فرضيت وقبلت الزواج، فَدَفع إليها بَدْرة، وفرّق الأخرى على المشايخ وصَرفَهم، ثم قال: يا سيدي، أُمهِّد بعض البيوت! فأحْشَمَني ما رأيت من كرمه، فقلت: أُحْضِرُ عَماريَّة[1] وأحملها إلى منزلي. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتْبَعها من الجهاز ما ضاقَتْ عنه بيوتُنا، فأولَدْتُها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين - يشير إلى ولده.

فعجب المأمون من كرم الرجل، وألحقه في خاصة أهله، وأطلق الطفيلي، وأجازه.

رمَيتَ بهِ في بَطنِكَ[2]

قال دِعْبِل: أقمنا يومًا عند سَهْل بن هارون، فأطلْنَا الحديث حتى اضطرَّه الجوعُ إلى أن دَعا بغَدائه، فأُتِيَ بصَفْحَةٍ عُدْمُلِيَّة[3]، فيها مَرَقُ لحم ديك عاسٍ[4] هرم، ليس قبلها ولا بعدها غيرُها، لا تَحُزّ[5] فيه السكين، ولا تُؤَثِّرُ فيه الأضْرَاس.

فاطّلع في القَصعَةِ، وقلب بصره فيها؛ فأخذ قطعة خُبْز يابس؛ فقلَب بها جميعَ ما في الصَّفْحَةِ ففَقَدَ الرأس؛ فبقي مُطرِقًا ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغُلام، وقال: أين الرأس؟ قال: رميتُ به، قال: ولِمَ؟ قال: ما ظننتُ أنك تأكلُه، ولا تسألُ عنه! قال: ولأي شيءٍ ظننتَ ذلك؟ فوالله إني لأمقتُ مَن يَرْمي برجْله؛ فكيفَ مَن يرْمي برأسه!

والرأس رئيس، وفيه الحواسُّ الخمس، ومنه يصيحُ الديك، ولولا صوته ما أُريدَ، وفيه عُرْفُه الذي يُتَبرَّك به، وفيه عينُه التي يُضْرَبُ بها المثل؛ فيقال: «شرابٌ كَعيْنِ الدِّيك»، ودماغه عجبٌ لوجع الكُلْيَةِ، ولن ترى عظمًا قط أهشَّ من عظم رأسه؛ فإن كان من نُبلِ أنك لا تأكلُه فإن عندنا مَن يأكله! أو ما علمت أنه خيرٌ من طَرَف الجناح ومن الساق والعُنُق!

---

(١) العمارية: هودج يجلس فيه.
(٢) عيون الأخبار: ٣ - ٢٥٩.
(٣) عدملية: قديمة.
(٤) العاسي: الذي أسن حتى جف وصلب.
(٥) لا تحز: لا تقطع.

انظر أي هو! قال: والله ما أدري أين هو، رميتُ به؛ قال: لكني أدري أنك رميتَ به في بطنك، والله حسبُك!

لو عَلِمْتُ بحَالهِ لَوَلَجْتُ عَلَيهِ![1]

قال بشرُ بن سعيد: كان بالبصرة شيخٌ من بني نَهْشل نزل ببني أخت له في سكَّة بني مازن، فخرج رجالُهم إلى ضياعهم، وذلك في شهر رمضان، وبقِيَتِ النساءُ يصلِّين في المسجد، فلم يبقَ في الدار إلا كلب يَعُس[2]، فرأى بيتًا فدخل وانْصَفَق[3] الباب، فسمِع الحركة بَعضُ الإماء، فظنوا أن لصًّا دخل الدار.

فذهبتْ إحداهن إلى الشيخ، وليس في الحيِّ رجلٌ غيره فأخْبرته فقال: ما يبتغي اللصُّ منَّا؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتَّى وقف على باب البيت فقال: إيْهِ يا مَلأَمان[4]! أما والله إنك بي لَعَارِف، وإني بك أيضًا لعارف، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن، شربتَ حامضًا خبيثًا، حتى إذا دَارت الأقداحُ في رأسك منَّتْك نفسُك الأماني، وقلت: أطرُقُ بني عمرو، والرجالُ خلوف، والنساء يصلينَ في مسجدهن، فأسرقهم، سوءةً لك! والله ما يفعل هذا الأحرار! ليس والله ما منَّتْك نفسك، فاخْرُجْ وإلا دخلتُ عليك فصدَمَتْك مني العقوبة، وايمُ الله لتخرجَنَّ أو لأهتِفَن هَتْفةً مشؤومة يلتقي فيها الحيَّان: عمرو وحَنْظَلة، ويجيء سعدٌ بِعَدد الحصى، ويسيل عليك الرجال من هٰهنا ومن هٰهنا، ولئن فعلتُ لتكونَنَّ أشأمَ مولود.

فلما رأى أنه لا يجيبهُ أخذه باللين، وقال: اخرج بأبي وأمي! إني والله ما أراك تعرفني، ولو عرفْتَني لقنعت بقولي واطمأْنَنْت إليّ! أنا عروة بن مرثد؛ أبو الأعز، وأنا خالُ القوم، وجِلْدةُ ما بين أعينهم، لا يعصونني في أمر، وأنا لك بالذمّة[5] كفيلٌ خفير، أُصَيِّرُك بين شَحْمَةِ أذني وعَاتِقِي، لا تُضَارّ؛ فاخرج فأنت في ذمتي، وإلا فإن عندي قَوْصَرَّتين أهداهما إليّ ابن أُختي البارُّ الوصول، فخذ إحداهما فانتبذْها حلالًا من الله تعالى ورسوله!

---

(١) عيون الأخبار: ١ ـ ١٦٧، الحيوان: ٢ ـ ٨٤.
(٢) كلب عسوس: طلوب لما يأكل.
(٣) انصفق: أغلق.
(٤) الملأمان اللئيم.
(٥) الذمة: العهد والأمان.

وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أَطْرَقَ، وإذا سكت وثب يريد المخرج؛ فتضاحك أبو الأعز، ثم قال: يا ألْأَمَ الناس وأوْضعهم؛ لأرَى إلَّا أني الليلة في وَادٍ وأنت في آخر، إذا قلت لك: السوداء والبيضاء تَسْكُت وتُطْرق، فإذا سكتّ عنك تريدُ المَخْرَج، والله لتخرجنَّ بالعفو عنك، أو لألِجَنَّ[1] عليك البيت بالعقوبة؛ فلما طال وقُوفًا جاءت جاريةٌ من إماء الحي، فقالت: أَعْرابي مجنون والله! ما أرى في البيت شيئًا، ودفعت الباب فخرج الكلب شدًّا، وحادَ عنه أبو الأعز، ساقطًا على قفاه! ثم قال: أما والله لو علمت بحاله لَوَلجتُ عليه!

وَعَليّ أيضًا[2]

قال أبو الحسن: كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كَثُر عليه الدَّيْن حتى تَوَارى من غُرَمَائِه، ولزِمَ منزله، فأتاه غريمٌ له عليه شيء يسيرٌ فتَلطَّفَ حتى وصل إليه، فقال له: ما تجعلُ لي إن أَنَا دَلَلْتُك على حيلةٍ تصيرُ بها إلى الظهور والسلامة من غُرمائك! قال: أقضيك حقُّك وأزيدُك مما عندي مما تَقَر به عينك. فتوثَّق منه بالأيمان، فقال له: غدًا قبل الصلاة مُرْ خادمك يكْنُس بابَك وفناءَك، ويرش ويبسط على دكانك حُصرًا، ويضع لك مُتَّكأً، ثم اجلس وكلُّ مَن يمرُّ عليك ويسلم تَنْبَح له في وجهه، ولا تزيدنَّ على النُّباح أحدًا كائنًا مَن كان، ولو كلمك أحد مِنْ أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره، حتى تصير إلى الوالي، فإذا كلمك فانبح له؛ وإياك أن تزيده أو غيره على النُّباح؛ فإنَّ الوالي إذا أَيْقن أنَّ ذلك منك جدٌّ لم يشك أنه قد عرَض لك عارضٌ من مسٍّ فيُخْلي عنك.

ففعل، فمرَّ به بعضُ جيرانه فسلّم عليه؛ فنَبح في وجهه؛ ثم مر آخر ففعل مثلَ ذلك حتى تسامع غُرَماؤه؛ فأتاه بعضهم فسلّم عليه فلم يزدْه على النّباح، ثم آخر وآخر؛ فتعلَّقُوا به فرفعوه إلى الوالي: فسأله الوالي فلم يزده على النُّباح، فرفعه معهم إلى القاضي فلم يزده على ذلك؛ فأمر بحبْسه أيامًا، وجعل عليه العيون. فملك نفسَه، وجعل لا ينطقُ بحرف سوى النُّباح.

فلما رأى القاضي ذلك أمر بإخْرَاجه، ووضع عليه العيونَ في منزله، وجعل لا يَنْطقُ بحرف إلا النباح، فلما تقرَّر ذلك عند القاضي أمر غرماءَه بالكف عنه، وقال: هذا رجل به لمَم؛ فمكثَ ما شاء الله تعالى.

---

(١) ولج البيت: دخل.

(٢) الحيوان: ٢ ـ ٦٢.

ثم إن غريمَه الذي كان علّمه الحيلةَ أتاه متقاضيًا لعِدَته، فلما كلمه جعل لا يزيدُه على النباح! فقال له: ويلك يا فلان! وعليّ أيضًا. وأنا علمتك هذه الحيلة، فجعل لا يزيده على النباح؛ فلما يئس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به.

كَذبٌ يكَذِب!(١)

قال الجاحظ: حدّثني محمد بن يَسِير عن والٍ كان بفارس قال: بينا هو يومًا في مجلس، وهو مشغولٌ بحسابه وأَمْره، وقد احتجب جَهْده، إذ نجم شاعر من بين يديه، فأنشده شعرًا مَدحه فيه وقَرّظه ومجده. فلما فرغ قال: قد أحسنتَ ثم أقبل على كاتبه فقال: أَعْطِه عشرة آلاف درهم؛ ففرح الشاعر فرحًا قد يُسْتَطار له.

فلما رأى حاله قال: وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع. اجعلها عشرين ألف درهم. وكاد الشاعر يخرج من جلْدِه! فلما رأى فرحَه قد تضاعف قال: وإن فرحَك ليَتَضاعَفُ على قَدْر تضاعفِ القول! أعطِه يا فلان أربعين ألفًا. فكاد الفرحُ يقتله. فلما رجعتْ إليه نفسه قال له: أنتَ - جعلتُ فِدَاك - رجل كريم، وأنا أعلم أنك كلّما رأيتني قد ازددتُ فرحًا زدْتني في الجائزة. وقبولُ هذا منك لا يكون إلّا من قلّة الشكر له! ثم دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبُه فقال: سبحان الله! هذا كان يَرْضَى منك بأربعين درهمًا، تأمُر له بأربعين ألف درهم! قال: وَيْلكَ! وتريدُ أن تعطيه شيئًا؟ قال: ومِنْ إنفاذ أمرك بدّ؟ قال: يا أحمق؛ إنما هذا رجل سرَّنا بكلام وسَررْناه بكلام؛ هو حين زعم أني أحسنُ من القمر، وأشدُّ من الأسد، وأن لساني أقطعُ من السيف، وأنّ أمري أنفذُ من السِّنَان، جعل في يدي من هذا شيئًا أرجع به إلى شيء؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا. فنحنُ أيضًا نسرّه بالقول، ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذبًا؛ فيكون كذبٌ بكذب، وقولٌ بقول. فأما أن يكون كذبٌ بصدق، وقولٌ بفعل، فهذا هو الخسران الذي ما سمعت به!

كدّر الله مَن كَدّر العَيش(٢)

قال الحمدوني: بعث إليّ أحمد بن حرب المهلبي في غداةٍ، السماءُ فيها مغيمة، فأتيتُه، والمائدةُ موضوعةٌ مُغَطَّاةٌ، وقد وافت «عجاب» المغنِّية؛ فأكلنا

(١) البخلاء: ١ - ٥٩. (٢) زهر الآداب: ٤ - ١٧٧.

جميعًا، وجلسنا على شرابنا؛ فما راعنا إلا داقٌّ يدقُّ الباب فأتاه الغلام؛ فقال: بالباب فلان! فقال لي: هو فتًى من آل المهلب، ظريف نظيف! فقلت: ما نريد غيرَ ما نحنُ فيه!

فأذن له؛ فجاء يتبختر، وقُدّامي قَدَحُ شراب فكسره، فإذا رجل آدم(١) ضخم! وتكلم؛ فإذا هو أَعْيا الناس.

فجلس بيني وبين «عجاب»؛ فدعوت بدَواة، وكتبت إلى أحمد بن حرب:

كـدّر الله عـيـشَ مـن كـدّر الـعَـيْـ ـشَ؛ فقد كان صافيًا مُسْتطَابَا
جاءنا والسماءُ تهطل بالغَيْـ ـثِ وقد طابق السماءُ الشرابا
كسر الكأس وهي كالكوكب الدُرْ(٢) رِيّ ضمَّت من المُدَام(٣) رُضَابا(٤)
قلت لَمَّا رُمِيتُ مِنْهُ بما أكـ ـرَهُ، والدهرُ ما أفاد أصابا!
عجَّل اللهُ نِقمةً لابنِ حربٍ تَدَعُ الدارَ بعد شهرٍ خَرَابَا!

ودفعتُ الرقعة له؛ فقال: ألا نَفَّسْتَ(٥)؛ فقلتَ: بعد حول(٦)؟ فقلت: أردتُ أن أقولَ بعد يوم؛ فخِفْتُ أن يصيبني مضرَّةُ ذلك!

وفطِن الثقيل؛ فنهض، فقال: آذيتَه! فقلت: هو آذاني!

يضيف أهل الصفة ثم يضربهم(٧)

كان زيادُ بنُ عبد الله الحارثي واليًا على المدينة، وكان فيه بُخْلٌ وجفاء؛ فأهدى إليه كاتبٌ سِلَالًا فيها أطعمة، وقد تنوّق(٨) فيها، فوافقتُه وقد تَغَدّى، فقال: ما هذه؟ قالوا: غَداء بعثه فلان الكاتب! فغضب، وقال: يبعثُ أحدهم الشيءَ في غير وقته! يا خيثم بن مالك ـ يريد صاحبَ شرطته: ادعُ لي أهلَ الصُّفة(٩) يأكلون هذا!

(١) الآدم: الأسمر.
(٢) الكواكب الدري: الثاقب المضيء، نسب إلى الدار لبياضه.
(٣) المدام: الخمر. (٤) الرضاب: العسل، أو رغوته.
(٥) نفس تنفيسًا: فرج، يريد ألا فرجت عن نفسك وصبرت.
(٦) يريد: بدل شهر التي وردت في البيت. (٧) نهاية الأرب: ٣ ـ ٣٠٥.
(٨) تنوق في الأمر: تأنق فيه.
(٩) أهل الصفة: كانوا أضياف الإسلام، وكانوا يبيتون في مسجده ﷺ.

فبعث خيثم الحرسَ يدعونهم، فقال الرسول الذي جاء بالسلال: أصْلح الله الأمير! لو أمرتَ بهذه السلال تُفْتح وينظرُ ما فيها!

قال: اكشِفُوها، فإذا طعام حسن من دَجاج وجِدَاءٍ[١] وسمك وأخْبَصَةٍ[٢] وحَلواء! فقال: ارفَعُوا هذه السِّلال.

وجاء أهل الصُّفّة؛ فأُخْبِر بهم، فأمر بإحْضارهم، وقال: يا خيثم، اضربْهم عشرة أسواط، فإنه بلغني أنهم يحدّثون في مسجد رسول الله ﷺ!

ابن المدَبّر وَطفيْلي[٣]

كان ابنُ المدَبِّر قليلَ الجلوس للمُنادمة، وكان له سبعة ندماء لا يأْنَسُ بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم، قد اصْطَفاهم لعِشْرَته، واختارهم لمنادمته، كل رجل منهم قد انفرد بنوْع من العلم لا يساويه فيه غيرُه.

وكان طفيليٌّ يُعرَف بابن دُرّاج من أكْمل النّاس أدبً، وأخفِّهم رُوحًا، وأشدهم في كل مليحة افتنانًا؛ فلم يزل يحتالُ إلى أن عرَف وقت جلوس ابن المدبر للندماءِ، فتزيًّا في زي ندمائه، ودخل في جملتهم، وظنَّ حاجبُه أن ذلك بعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء، ولم ينكر شيئًا من حاله.

وخرج ابنُ المدبر، فنظر إليه بين القوم، فقال لحاجبه: اذهب إلى ذلك الرجل، فقل له: أَلَك حاجة؟ فسُقِط في يد الحاجب، وعلم أن الحيلة قد تمتْ عليه، وأن ابنَ المدبر لا يرضى في عقوبته إلا بقَتْلِه، فذهب إليه، فقال له: الأستاذ يقول لك: ألك حاجة؟ فقال: قل له: لا. فقال له: ارجع إليه فقل له: أيّ شيء أنت؟ فقال: قل له: طُفيليٌّ يرحمك الله!

فقال له ابنُ المدبر: أنت طفيلي؟ قال: نعم! أعزَّك الله! قال إن الطفيلي يُحْتَملُ دخولُه بيوت الناس وإفسادُه عليهم ما يريدونه من الْخَلْوة بندمائهم والخوض في أسرارهم لخصال، منها أن يكون لاعبًا بالشِّطْرَنْجِ، أو بالنَّرْدِ، أو ضاربًا بالعود أو الطُّنْبور!

---

(١) الجداء: جمع الجدي، وهو ولد المعز. (٢) الخبيص: طعام من التمر والسمن.
(٣) المسعودي: ٢ ـ ٤٣٤.

فقال: أَيَّدَك الله! أنا أحسنُ هذه الأشياء كلِّها، قال: وفي أي وظيفة أنْتَ منها؟ قال: في العُلْيَا من جميعها!

فقال لبعض ندمائه: لا عبْه بالشِّطْرنج، فقال الطفيلي: أصلح الله الأستاذ! فإن قُمِرْت[١]؟ قال: أخرجناك من ديارنا. قال: فإن قَمرْت؟ قال: أعطيناك ألفَ درهم. قال: فإن رأيت ـ أيدك الله ـ أن تحضر الألف؛ فإن في حضورها قوة للنفس والإيقان بالظَّفر.

فأُحضرت؛ فلعبا فغلب الطفيليُّ، ومدَّ يده ليأخذَ الدراهم، فقال الحاجب لينفي عن نفسه بعضَ ما وقع فيه: أعزَّ الله الأستاذ؛ إنه زعم أنه في الطبقة العُلْيا، وابنُ فلان غلامك يَغْلبه.

فأحضر الغلام، فغلبَ الطفيليَّ، فقال له: انصرفْ، فقال: أحضروا النَّرد، فأُحضرت فلُوعب فغلَب، فقال الحاجب: ولا هذا ـ يا سيدي ـ في الطبقة العليا من النّرد، ولكن بَوَّابُنا فلان يغلبه، فأُحْضِر البواب فغلب الطفيليَّ، فقال له: اخرج، فقال: يا سيدي، فالعود؟

فأُتي بالعود، فضرب فأصاب، وغنَّى فأطرب، فقال الحاجب: يا سيدي؛ في جوارنا شيخ هاشمي يُعلم القِيَان أحذقُ منه، فأُحْضر الشيخ، فكان أطربَ منه، فقال له: اخرج، قال: فالطنْبُور، فأعطى طنبورًا فضرب ضربًا لم يَرَ الناسُ أحسنَ منه، وغنَّى غناء في النهاية، فقال الحاجب: أعزّ الله الأستاذ؛ فلانٌ في جوارنا أحذقُ منه، فأُحْضِر فكان أحذق منه وأطيب، فقال له ابن المدبر: قد تقصَّيْنا لك بكل جهد، فأبَتْ حِرْفَتُك إلا طردَك عن منزلنا.

فقال: يا سيدي، بقي شيء! قال: ما هو؟ قال: تأمر لي بقوس بُنْدُق[٢] مع خمسين بُنْدُقة رصاص، ويقام هذا الحاجب على أربع وأرميه بها، وإن أخطأتُ بواحدة منها ضربت رقبتي. فضجّ الحاجب من ذلك، ووجد ابنُ المدبر في ذلك شفاءً لنفسه وعقوبة له على ما فرط منه في إدخال الطفيليّ إلى مجلسه. فأمر بإكافين[٣] فأحضرا، وجعل أحدهما فوق الآخر، وشُدّ الحاجب فوقهما، وأمر بالقوس والبندق فدفعا إلى الطفيلي، فرمي به؛ فما أخطأه؛ وخلّى عن الحاجب

---

(١) قمرت: غلبت في اللعب. (٢) البندق: الذي يرمي به، الواحدة بهاء.
(٣) الإكاف: البرذعة.

وهو يتأوّه لما به، فقال له الطفيلي: أعلى باب الأستاذ مَن يُحسن مثل هذا؟ فقال: ما دام البُرْجاس[١] استِي فلا!

صناعَتهم التّطفيل[٢]

قال درّاج: قدمتُ من بغداد، فمررتُ بباب قومٍ وعندهم وَليمة، وإذا بصاحب الدار يدخلُ ويضع سلَّمًا فكلما رأى إنسانًا لا يعرِّفه قال: اصعدْ يا أبي؛ فصعدتُ إلى غرفةٍ مفروشة حتى وافيتُ فيها ثلاثةَ عشر طفيليًّا، ثم رُفع السُّلم، ووُضِعت الموائد، فبقي أصحابي قد تحيّروا وقالوا: ما مَرَّ بنا مثل ذا قط؛ قلت: يا فتيان، ما صناعتكم؟ قالوا: التطفيل، قلت: فما عندكم في هذا الأمر الذي وقعنا فيه؟ قالوا: ما عندنا فيه حيلة، قلت: فإذا احتلتُ لكم حتى تأكلوا وتنزلوا تُقِرُّون أني أعلمكم بالتطفيل؟ قالوا: ومَن تكون بالله؟ قلت: أنا ابن دراج. قالوا: قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا. قال: فجئتُ إلى صاحب الدار فاطلعتُ عليه والناس يأكلون وقلت: يا صاحبَ الدار؛ قال: مالَكَ؟ قلت: أيّما أحبُّ إليك: تصعدُ إلينا بخوانٍ كبير، نأكلُ وننزلُ أو أرْمي بنفسي، فيخرج من دارك قَتيل؛ ويصير عُرْسُك مأتمًا؟ وجعلت أُرِيه كأني أرْمي بنفسي، فصاح وقال: اصْبر ويلك لا تفعل! وجعل يعجِّل ويقول: هذا مجنون. وأصعدوا إلينا خوانًا، فأكلْنَا ونزلنا.

اصبرُوا عَلَيَّ إلى غَدٍ[٣]

ادّعى مُدّعٍ النبوة، فطُلب ودُعي له بالسَّيف والنِّطع؛ فقال: ما تَصْنعون؟ قالوا: نقتُلك، قال: ولِم تقتلونَني؟ قالوا: لأنك ادّعيتَ النبوة، قال: فلستُ أدّعيها، قيل له: فأيُّ شيء أنت؟ قال: أنا صِدّيق، فدُعِي له بالسِّياط، فقال: لم تَضْربونني؟ قالوا: لادّعائك أنك صدِّيق، قال: لا أدَّعي ذلك، قالوا: فمن أنْتَ؟ قال: من التابعين لهم بإحْسان، فدعى له بالدِّرَّة[٤]، قال: ولِمَ ذلك؟ قالوا: لادعائك ما ليس فيك، فقال: ويحكم! أدخل إليكم وأنا نبيّ تريدون أن تحطّوني في ساعة واحدة إلى مرتبة العوامّ! اصبروا عليّ إلى غدٍ حتى أصيرَ لكم ماشئتم!

---

(١) البرجاس: غرض في الهواء على رأس رمح أو نحوه.

(٢) التطفيل: ٦٢. (٣) نهاية الأرب: ٤ ـ ١٦.

(٤) الدرة بالكسر: التي يضرب بها.

هُوَ خَيرُ الناسِ مَهمَا يفعَل[١]

حدّث رجلٌ من عامر بن لؤيّ، قال: كان صبيٌّ منا ترك له أبوه غنمًا وعبيدًا؛ فخرج يومًا، فنظر إلى جاريةٍ في خبائها فهوِيها، ومال إلى أمها، وسألها أن تزوّجها منه، فقالت: حتى أسألَ عن أخلاقك.

فسأل عن أقرب الناس إليها، فدُلَّ على شيخ كان معروفًا بحُسْن المَحْضَر. فأتاه وسلَّم عليه، وقال: ما جاء بك؟ فأخبره! فقال: لا عليك! فإنَّ العجوز غيرُ خارجةٍ من رأيي، فامْضِ إلى منزلك، وأقِمْ يومًا أو يومَيْنِ، ومُرْ بغنمك أن تُسَاقَ، ونادِ في أهلك: أمَا مَن أَراد أن يحلُبَ فلْيأْتنا! ودَعْني والأمر!

فشاع الخبرُ، فخرجت العجوز مع مَنْ خرج، والشيخُ مع القوم، فنظر إلى الشابّ، وقد كانت العجوز قد أخبرتُه بشأنِه، فقال: هو هو! فقالت: نعم! قال: لقد حُرِمتِ حظَّكِ! قالت: إني أريد أن أسألَ عن أخلاقه. قال: أنا ربيتُه. قالت: فكيف لسانُه؟ قال: خطيبُ أهله، والمتكلم عنهم. قالت: فكيف سماحتُه؟ قال: ثِمَالٌ[٢] في قومه، وربيعهم! قالت: فكيف شَجَاعته؟ قال: حامي قومه والمدافعُ عنهم!

قال: فطَلَع الفتى، فقال: أما ترين ما أحسن ما أقبل! ما انْحنى ولا انثنى!

فلما قرب سلّم، فقال: ما أحسن ما سلّم! ما حار ولا ثار. ثم استوى جالسًا، فقال: ما أحسن ما جلس! ما ركع ولا عجز. قالت: أجل! فذهب يتحرك فضرط، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما ضرط، ما أظَنَّها ولا أغنّها ولا نَفَخَها ولا تَوْتَرَها[٣]. فنهض الفتى خَجِلًا، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما نهض! قالت العجوز: أجَلْ والله! فَصِحْ به وردُّه، فوالله لزوَّجْنَاه ولو فعل أكثرَ مما فعل!

طفَيلِي في عرس[٤]

دخل طفيلي عُرسًا فلم يقدر على الدخول، فأخذ قرطاسًا وأَدْرَجَه[٥]، ولم يكتب فيه شيئًا، وسأل عن العروس: هل له قريب غائب؟ فقيل: أخوه.

---

(١) المحاسن والمساوىء: ٦٤٣ (طبع ليبزج). (٢) الثمال: الغياث الذي يقوم بأمر قومه.
(٣) التترتر: التزلزل والتقلقل. (٤) ذيل زهر الآداب: ٢٨٠.
(٥) أدرج الكتاب: طواه.

فكتب عُنوان الكتاب من فلان ابن فلان أخيه. وجاء فدقَّ الباب، وقال: معي كتابٌ من أخي العروس. فخرج العروس مبادرًا فأدْخَلَ وأحْضَرَ له الطعام؛ فلما قرأ العنوان قال: سبحان الله! تراه نَسِيَ اسمي إذ لم يكتبْه على الكتاب! فقال الطفيلي: وأعجبُ من هذا أنه لم يكتب داخلَه شيئًا من العجلة! فعلم مراده وأدخله!

طفَيلِي محَدِّث[1]

قال أبو عمرو نصر بن عليّ: كان لي جار طفيليّ، وكان من أحسنِ الناس مَنْظرًا، وأعذبهم منطقًا، وأطيبهم رائحة، وأجملهم لباسًا، وكان من شأنه معي أني إذا دعيتُ إلى مَدْعاة[2] تبعني، فيكرمه الناس من أجلي، ويظنون أنه صاحبٌ لي؛ فاتفق يومًا أن جَعفر بنَ القاسم الهاشميّ أميرَ البصرة أراد أن يَخْتن بعض أولاده، فقلت في نفسي: كأني برسول الأمير قد جاء، وكأني بهذا الرجل قد تبعني، والله لئن تبعني لأفضحنَّه!

فأنا على ذلك إذ جاء رسولُه يدعوني، فما زدتُ أن لبستُ ثيابي وخرجت، وإذا أنا بالطفيلي واقفٌ على باب داره، وسبقني بالتأهّب فتقدمتُ وتبعني؛ فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة، ودعا بالطعام، وأحضرت الموائد وكان كلُّ جماعة على مائدة لكثرة الناس، فقدِّمت إليَّ مائدة والطُّفيلي معي، فلما مَدَّ يده، وشرع في تناول الطعام قلت: حدَّثنا نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن دخل دار قومٍ بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقًا، وخرج مُغِيرًا».

فلما سمع ذلك قال: أنِفتُ لك والله أبا عمرو من هذا الكلام! فإنه ما مِنْ أحدٍ من الجماعة إلا وهو يظنُّ أنك تعرض به دُونَ صاحبه، أو لا نَسْتَحِي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيِّد مَنْ أطعم الطعام، وتبخل بطعام غيرك على مَنْ سواك! ثم لا تستحي أن تحدث بهذا الحديث وهو ضعيف، وتحكم برفعه إلى النبيّ ﷺ، والمسلمون على خلافه! لأن حكم السارق القطع، وحكم المغير أن يُعزّر على ما يراه الإمام، وأين أنت عن حديث حدَّثناه أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «طعامُ الواحد يكفي الاثنين، وطعام

(١) التطفيل للبغدادي: ٦٦.
(٢) المدعاة: الدعوة.

الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية». وهو إسنادٌ صحيح ومَتْنٌ صحيح!

قال نصر: فأفحمني فلم يحضرني له جواب، فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي، وسمعته يقول:

ومن ظن مِمَّن يلاقي الحروب بألّا يصاب فقد ظنَّ عَجْزَا

فهرس المحتويات

الباب الأول
قصص محاسن الأخلاق

الباب الثاني
قصص مساوىء الأخلاق

الباب الثالث

قصص العرب

موسوعة تراثية جامعة لقصص ونوادر وطرائف العرب في العصر الجاهلي والإسلامي

إعداد

إبراهيم شمس الدين

الجزء الثاني

يحتوي على :

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطَّبعَة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلميـة
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شـارع البحتري، بنايـة ملكـارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنـان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X
90000>
9782745134233

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

الباب الرابع

أولًا: قصص العقلاء والأذكياء

ثانيًا: قصص الحمقى والمغفلين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أولًا: قصص العقلاء والأذكياء

قال في المستطرف[1]:

نصّ الله سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه العزيز ومُنزِّل خطابه الوجيز على شرف العقل، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها، وبيَّن بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: الآية ١٢]. ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبل، فأقبل ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال عزّ من قائل: «وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقًا أعزّ عليَّ منك. بك آخذ وبك أُعطي وبك أُحاسب وبك أُعاقب». وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضيء خلقه الله عزّ وجلّ في الدماغ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما. فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء. وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلًا وأتمّ دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهمًا وأرجح معرفة، ولهذا قيل: مَن بيّضت الحوادث سواد لمّته، وأخلقت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته، تصاريف أقداره وأقضيته. كان جديرًا برزانة العقل ورجاحة الدراية، وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفيّة مَن يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرّجه عن حدّ

---

(١) المستطرف ص ١٩.

الاكتساب ويصير بها راجحًا على ذوي التجارب والآداب، ويدل على ذلك قصة يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في مُحكَم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: الآية ١٢]. فمَن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة، وأدركته عناية أزلية، أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث.

قصة سليمان بن داود وصاحبي الحرث والغنم

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث[1]. فقال أحدهما: أن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته ولم تبق لي فيه شيئًا، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضًا عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرّا على سليمان عليه السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك. فقال: غير هذا أرفق بالفريقين. فعادا إلى داود عليه السلام وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث. ـ وكان الحرث كرمًا قد تدلّت عناقيده في قول أكثر المفسرين ـ فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته، فقال له داود: القضاء كما قلت. وحكم به كما قال سليمان عليه السلام.

وفي هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[2] فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٨، ٧٩]. فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانيه وألطاف إلٰهية، وإذا

(١) الحرث: الزرع.
(٢) نفشت: أفسدت.

قذف الله تعالى شيئًا من أنوار مواهبه في قلب مَن يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوي التجارب والاكتساب في كثير من الأسباب، ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته، فإن المشاهدة من خصائص الأجسام، فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عارًا ويورثه سوء السمعة.

وقد قيل لبعض الحكماء: بمَ يعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائبًا، فقال: بإحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها. وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه. فإنه رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَن حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن مَن رزق المداراة لم يحرم التوفيق. وقالوا: العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه. وقال رسول الله ﷺ: «الجنّة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس» وقال علي بن عبيدة، العقل ملك والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. فسمعه أعرابي فقال: هذا كلام يقطر عسله. وقيل: بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا. وقيل: لكل شيء غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج. واختلف الحكماء في ماهيته فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعًا وغريزة في القلب كالنور في العين. وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦]. وقيل: محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما رُوِيَ عن الشافعي رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾

[قَ: الآية ٣٧]. أي عقل، وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة. قال الشاعر:

ألم ترَ أنَّ العقلَ زينٌ لأهله ولكنْ تمامُ العقلِ طولَ التجاربِ

وقال آخر:

إذا طال عمرُ المرء في غير آفةٍ أفادت له الأيام في كرّها عقلا

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عقلك[١] عقَلْك عما لا يعنيك فأنت عاقل. ويقال: لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس. وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان. قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنّه وإن كان ذا بيتٍ على الناس هيّن
ومَن كان ذا عقلٍ أجلّ لعقله وأفضل عقلٍ من يتدينِ

وقالوا: العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره[٢] أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح. وقيل لعليّ رضي الله عنه: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذي يضع الشيء مواضعه. قيل: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت. يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه.

وقال المنصور لولده: خذ عني ثنتَين. لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير. وقال أردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدي إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير. وقال القاسم بن محمد: مَن لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه. وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه. وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس. وقيل: مَن أعجب برأي نفسه بطل رأيه، ومَن ترك الاستماع من ذوي

(١) عقلك: منعك، والعقال: ما يعقل به ويربط.
(٢) تبطره: من البطر، وهو التكبّر عند حلول النعمة.

العقول مات عقله. وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغارًا، وأرحمهم كبارًا. وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق. وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعامًا حتى يستمرئه، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه، وقيل: طول اللحية أمان من العقل. وسئل بعضهم: أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف؟ قال: الحياء لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الخبن. وقيل: غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عويمر ازدد عقلًا تزدد من الله تعالى قربًا» بأبي وأمي ومن لي بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلًا، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزد في الدنيا عقلًا، وتزدد من الله قربًا وعزًا». وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم. ويروى عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إنّ المكارم إخلاقٌ مطهرةٌ ... فالعقل أوّلُها والدينُ ثانيها
والعلمُ ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والعُرْفُ[1] ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم أني من عينيّ محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها ... ولست أرشدُ إلّا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله في إرشاد، ورأيه في إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد. والجاهل من جهله في إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم. ولا يكتفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته[2] ونظافة بزته، إذ كم من كنيف[3] مبيض، وجلد مفضّض.

---

(١) العرف: سلوك مستقيم تعارف عليه الناس في تقاليدهم وعاداتهم. وهو أيضًا: الصبر والكرم والمعروف.

(٢) صلفته: من الصلف وهو الادعاء والتكبّر. (٣) الكنيف: المرحاض.

قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخًا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج، وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين، قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلّة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غرارة خرجه ودخله. وقد يكون الرجل موسومًا بالعقل مرموقًا بعين الفضل، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلّة عقله واختلاله.

قصة إياس بن معاوية القاضي

قيل: إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها مَن لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلًا أراد أن يحج، فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسًا فيه جملة من الذهب، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده، فجاء إلى القاضي إياس وقصّ عليه القصة، فقال القاضي: هل أخبرت بذلك أحدًا غيري؟ قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلي؟ قال: لا. قال: انصرف واكتم أمرك، ثم عد إلي بعد غد. فانصرف. ثم إن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال: قد حصل عندي أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيىء لها موضعًا حصينًا. فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضي إياس: امضِ إلى خصمك واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له: امضِ معي إلى القاضي إياس أتحاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته فجاء إلى القاضي وأعلمه بذلك. ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعًا في تسليم المال، فسبّه القاضي وطرده. وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

من عقلاء الروم

لما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها. فقال: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكننا الغرة[1] منهم والوثبة عليهم، وعقدوا لذلك

(١) الغرة: الفرصة والغفلة.

المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر. وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائبًا عنهم، فقالوا: من الحزم عرض الرأي عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صوابًا. فسألوه عن علة ذلك فقال: في غد أخبركم إن شاء الله تعالى. فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا: قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه، فقال: سمعًا وطاعة. وأمر بإحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما، ثم حرض بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر، فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئبًا كان قد أعده لذلك، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعًا على الذئب فقتلاه. فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مثلكم مع المسلمين هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج[1] بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه.

فطنة وذكاء رسول الله ﷺ[2]

عن عليّ عليه السلام قال: لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وجدنا عندها رجلين رجلًا من قريب ومولى لعقبة بن أبي معيط. فأما القرشي فأفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبيّ ﷺ فقال له: كم القوم؟ فقال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجهد النبيّ ﷺ أن يخبره كم هم فأبى، ثم أن النبيّ ﷺ سأله: كم ينحرون من الجزر؟ فقال: عشرًا لكل يوم، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ألف كل جزور لمائة وتبعها».

وعن كعب بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزاة يغزوها إلا وري بغيرها» أخرجاه في الصحيحين.

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إن الله عزّ وجلّ يعرض بالخمر سينزل فيها أمرًا فَمَن كان عنده منها شيء فليبعه فلينتفع به» قال: فما لبثنا إلا يسيرًا حتى قال ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ حرّم الخمر

---

(١) الهرج: الفتنة والاختلاط والقتل. (٢) كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٢٨.

فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء، فلا يشربه ولا يبيع فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها» انفرد بإخراجه مسلم.

وعن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحدث أحدكم في الصلاة فليأخذ بأنفه ثم لينصرف».

وأبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله! إن لي جار يؤذيني فقال: «انطلق واخرج متاعك إلى الطريق» فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس عليه، فقالوا: ما شأنك؟» قال: لي جار يؤذيني، فذكرت ذلك للنبي ﷺ: فقال: انطلق واخرج متاعك إلى الطريق، فجعلوا يقولون: اللهم العنه، اللهم اخزه، فبلغه فأتاه، فقال: ارجع إلى منزلك فوالله لا أؤذيك.

وعن زيد بن أسلم، أن رجلًا قال لحذيفة: يا حذيفة: نشكو إلى الله صحبتكم رسول الله أدركتموه ولم ندركه، ورأيتموه ولم نره، فقال حذيفة: ونحو نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه، والله ما تدري يا ابن أخي لو أدركته كيف كنت تكون. لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مظلمة مطيرة، وقد نزل أبو سفيان وأصحابه بالعرصة، فقال رسول الله ﷺ: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم أدخله الله الجنة» فما قام منا أحد، ثم قال: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة» فوالله ما قام منا أحد. فقال: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيقي يوم القيامة». فوالله ما قام أحد منا. فقال أبو بكر: يا رسول الله! ابعث حذيفة. فقال رسول الله ﷺ: «يا حذيفة» فقلت: لبيك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فقال: «هل أنت ذاهب» فقلت: والله ما بي أن أقتل، ولكنني أخشى أن أؤسر. فقال: «إنك لن تؤسر» فقلت: مرني يا رسول الله بما شئت. فقال: «اذهب حتى تدخل بين ظهراني القوم فأت قريشًا فقل: يا معشر قريش إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين قريش، أين قادة الناس، أين رؤوس الناس، فيقدمونكم، فتصلون القتال فيكون القتل بكم، ثم ائت قيسًا فقل: يا معشر قيس! إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين أحلاس الخيل، أين الفرسان، فيقدمونكم فتصلون القتال فيكون القتل بكم».

فانطلقت حتى دخلت بين ظهراني القوم، فجعلت اصطلي معهم على نيرانهم، وجعلت أبث ذلك الحديث الذي أمرني به، حتى إذا كان وجاء السحر

قام أبو سفيان فدعا اللات والعزى وأشرك، ثم قال: لينظر كل رجل من جليسه ومعي رجل منهم يصطلي على النار، فوثبت عليه فأخذت بيده مخافة أن يأخذني، فقلت: مَن أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان. فقلت: أولى، فلما دنا الصبح نادوا: أين قريش أين رؤوس الناس؟ فقالوا: هات الذي أتيتنا به البارحة أين بنو كنانة أين الرماة فقالوا: هات الذي أتيتنا به البارحة، فتخاذلوا وبعث الله عليهم تلك الليلة الريح، فما تركت لهم بناء إلا هدمته ولا إناء إلا أكفأته، حتى لقد رأيت أبا سفيان وثب على جمل له معقول، فجعل يسحبه ولا يستطيع أن يقوم، فجئت رسول الله ﷺ، فجعلت أخبره عن أبي سفيان، فجعل يضحك حتى بدت نواجذه وجعلت أنظر إلى أنيابه.

وعن عاصم الأحول، عن الحسن أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ برجل قد قتل حميمًا له، فقال له النبيّ ﷺ: «أتأخذ الديّة؟» قال: لا. قال: «أفتعفو؟». قال: لا. قال: «اذهب فاقتله». فلما جاوزه الرجل قال رسول الله ﷺ: «إن قتله فهو مثله». قال: فلحق الرجل رجل فقال له: إن رسول الله ﷺ قال: كذا، فتركه وهو يجز نسعه في عنقه.

قال ابن قتيبة لم يرد رسول الله ﷺ أنه مثله في المأثم واستيجاب النار إن قتله. وكيف يريد هذا وقد أباح الله عزّ وجلّ قتله بالقصاص، ولكن كره رسول الله ﷺ أن يقتص واجب له العفو، فعرض تعريضًا أوهمه به أنه إن قتله كان مثله في الإثم ليعفو عنه، وكان مراده أنه يقتل نفسًا كما قتل الأول نفسًا، فهذا قاتل وهذا قاتل، فقد استويا في قاتل وقاتل. إلَّا أن الأول ظالم والآخر مقتص.

فطنة وذكاء إبراهيم عليه السلام(١)

عن ابن عباس قال: لما رأت سارة إبراهيم قد شغف بأم إسماعيل غارت غيرة شديدة، وحلفت لتقطعن عضوًا من أعضاء هاجر، فبلغ ذلك هاجر، فلبست درعًا وجرت ذيلها، فهي أول نساء العالمين جرت الذيل، وإنما فعلت ذلك لتعفي أثرها في الطريق على سارة، فقال إبراهيم: هل لك في خير أن تعفي عنها وترضي بقضاء الله عزّ وجلّ؟ قالت: وكيف لي بما قد حلفت؟ قال: خفضيها(٢)، فتكون

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٣ ـ ٢٥.
(٢) الخفض للأناث كالختان للذكور.

سنَّة النساء وتبر يمينك. قالت: أفعل. فخفضتها فمضت السنَّة للنساء بالخفض منها.

وعن سعيد بن جبير قال، قال ابن عباس: لما شبّ إسماعيل تزوج امرأة من جرهم، فجاء إبراهيم فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم، فقالت: نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه، فقال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له: يُغَيِّر عتبة بابه، فلما جاء فأخبرته. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك إلحقي بأهلك.

فطنة وذكاء سليمان عليه السلام(١)

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على أحدهما، فأخذتا يختصمان في الصبي الباقي فاختصمتا إلى داود عليه الصلاة والسلام، فقضى به للكبرى منهما، فمرّتا على سليمان عليه السلام، فقال: ما أمركما؟ فقصّتا عليه القصة. فقال: ائتوني بالسكين أشق الغلام بينكما، فقالت الصغرى: أتشقه؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل حظي منه لها، فقال: هو ابنك، فقضى به لها» أخرجاه في الصحيحين.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: بعث سليمان عليه السلام إلى مارد من مردة الجن فأتي به، فلما كان على باب سليمان أخذ عودًا فذرعه بذراعه ورمى به وراء الحائط، فوقع بين يدي سليمان، فقال: ما هذا؟ فأخبر بما صنع المارد، قال: أتدرون ما أراد؟ قالوا: لا، قال: يقول اصنع ما شئت، فإنك تصير إلى مثل هذا من الأرض.

وعن مكحول قال أبو هريرة: بينا سليمان بن داود عليه السلام يسعى في موكبه إذ مرّ بامرأة تصيح بابنها يالدين، فوقف سليمان وقال : أن دين الله ظاهر، فأرسل إلى المرأة، فسألها، فقالت: إن زوجها سافر وله شريك، فزعم شريكه أنه مات وأوصى إن ولدت غلامًا أن أسميه يالادين، فأرسل إلى الشريك فاعترف أنه قتله، فقتله سليمان عليه السلام.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: جاء رجل إلى سليمان النبيّ ﷺ فقال: يا نبيّ الله! إن لي جيرانًا يسرقون إوزي، فنادى: الصلاة جامعة، ثم خطبهم فقال في

(١) كتاب الأذكياء ص ٣٤.

خطبته: واحدكم يسرق إوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه فمسح رجل برأسه فقال سليمان: خذوه فإنه صاحبكم.

ومن المنقول عن عيسى عليه السلام: أن إبليس جاء إليه، فقال له: ألست تزعم أنه لا يصيبك إلا ما كتب الله لك؟ قال: بلى، قال: فارم بنفسك من هذا الجبل، فإنه إن قُدِّر لك السلامة تسلم، فقال له: يا ملعون إن الله عزّ وجلّ أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربّه عزّ وجلّ.

لقمان الحكيم وشرب النهر(١)

عن مكحول أن لقمان الحكيم كان عبدًا نوبيًا أسود، وكان قد أعطاه الله تعالى الحكمة، وكان لرجل من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين مثقالًا ونش. يعني نصف مثقال، وكان يعمل له، وكان مولاه يلعب بالنرد يقامر عليه، وكان على بابه نهر جار، فلعب يومًا بالنرد على أن من قمر صاحبه شرب الماء الذي في النهر كله أو افتدى منه، وإن هو قمر صاحبه فعل به مثل ذلك قال: فقُمِر سيد لقمان، فقال له القامر: اشرب ما في النهر وإلا فافتد منه، قال: فسلني الفداء. قال: عينيك افقؤهما أو جميع ما تملك، قال: امهلني يومي هذا، قال: لك ذلك، قال: فأمسى كئيبًا حزينًا إذ جاءه لقمان وقد حمل حزمة على ظهره، فسلّم على سيده ثم وضع ما معه ورجع إلى سيده، وكان سيده إذا رآه عبث به ويسمع منه الكلمة الحكيمة فيعجب منه، فلما جلس إليه قال لسيده: ما لي أراك كئيبًا حزينًا فأعرض عنه، فقال له: الثانية مثل ذلك فأعرض عنه، ثم قال له: الثالثة مثل ذلك فأعرض عنه، فقال له: أخبرني فلعل لك عندي فرجًا فقصّ عليه القصة، فقال له لقمان: لا تغتم فإن لك عندي فرجًا، قال: وما هو؟ قال: إذا أتاك الرجل فقال لك: اشرب ما في النهر، فقل له: أشرب ما بين ضفتي النهر أو المد، فإنه سيقول لك: اشرب ما بين الضفتين، فإذا قال لك ذلك، فقل له: احبس عني المد حتى أشرب ما بين الضفتين، فإنه لا يستطيع أن يحبس عنك المد، وتكون قد خرجت مما ضمنت له، فعرف سيده أنه قد صدق، فطابت نفسه، فلما أصبح جاءه الرجل، فقال له: فِ لي بشرطي، قال له: نعم أشرب ما بين الضفتين أو المد، قال: لا بل ما بين الضفتين، قال: فاحبس عني المد، قال: كيف أستطيع؟ قال: فخصمه، قال: فأعتقه مولاه.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٦.

وقال لقمان لابنه يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.

عبد الله بن عامر الأزدي وسيل العرم(١)

ومن ذلك ما نقل عن عبد الله بن عامر الأزدي في الاحتيال للسلامة من سيل العرم: حدّثنا الضحاك، عن ابن عباس: لقد كان لسبأ في مساكنهم آية، قال: كانت لا تنقطع عنهم جنتهم شتاء ولا صيفًا، فكفروا ما أنعم الله عليهم، فأرسل عليهم سيل العرم فسلّط على الردم الذي بنوه على غير شربهم جرذًا له مخاليب وأنياب من حديد، فأول مَن علم بذلك عبد الله بن عامر الأزدي، فانطلق نحو الردم، فرأى الجرذ يحفر بمخاليب من حديد ويقرض بأنياب من حديد، فانصرف إلى أهله فأخبر امرأته وأراها ذلك وأرسل إلى بنيه، فقال: هل ترون ما رأينا؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا الأمر ليس لنا إليه سبيل اضمحلت الحيل فيه، لأن الأمر لله وقد أذن في هلاكه، فأتى بهرة والجرذ يحفر ولا يكترث بالهرة، فلما رأت الهرة ذلك ولّت هاربة، فقال عبد الله: احتالوا لأنفسكم. قالوا: يا أبت كيف نحتال؟ قال: إني محتال لكم بحيلة قال: فدعا أصغر بنيه ثم قال له: إذا جلست اليوم في المجلس، وكان الناس يجتمعون إليه وينتهون إلى رأيه، فإذا اجتمعوا أمرت أصغركم بأمر فليغفل عنه، فإذا شتمته فليهم إليَّ فليلطمني ولا تتغيروا أنتم عليه، فإذا رأى الجلساء أنكم لم تتغيروا على أخيكم لم يجسر أحد منهم أن يتغير عليه، أحلف أنا عند ذلك يمينًا لا كفارة لها أن لا أقيم بين أظهر قوم قام إليَّ أصغر بني فلطمني، فلم يتغيروا عليه لذلك قالوا: نفعل.

فلما راح الناس إليه أمر ابنه ببعض أمره فلهى عنه، ثم أمره فلهى عنه فشتمه، فقام إليه فلطم وجهه، فعجبوا من جرأة ابنه، فنكسوا رؤوسهم وظنوا أن وَلده يتغيرون عليه، فلما لم يتغير أحد منهم قام الشيخ، فحلف أن يتحول عنهم ويستبدلوا بداره، فلا يقيم بين أظهر قوم لم يتغيروا على ابنه، فقام القوم معتذرين وقالوا: أما كنا ظننا أن ولدك لا يتغيرون، فذلك الذي منعنا. قال: قد سبق مني ما ترون وليس إلى غير التحويل سبيل، فعرض ضياعه على

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٧.

البيع، وكان الناس يتنافسون فيها واحتمل بثقله وعياله فتحول عنهم، فلم يلبث القوم إلا قليلًا حتى أتى الجرذ على الردم فاستأصله، فلم يفاجىء القوم ليلة بعدما هدأت العيون إذا هم بالسيل قد أقبل، فاحتمل أنعامهم وأموالهم وخرب ديارهم.

فطنة وذكاء الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم(١)

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

عن أنس قال: لما هاجر رسول الله ﷺ كان رسول الله يركب، وأبو بكر رديفه. وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام، فكان يمر بالقوم فيقولون: مَن هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هاد يهديني.

حدّثنا الحسن قال: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من الغار لم يستقبلهما أحد يعرف أبا بكر إلّا قال له: مَن هذا معك يا أبا بكر؟ فيقول: دليل يدلني الطريق. وصدق والله أبو بكر.

حدّثنا الحسن قال: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر الناس، فقال: «إنّ الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله عزّ وجلّ». قال: فبكى أبوبكر فعجبنا من بكائه أن خبر رسول الله ﷺ عن عبد خير فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عن أسلم، عن أبيه قال: قدمت على عمر بن الخطاب حلل من اليمن فقسمها بين الناس، فرأى فيها حلة رديئة. فقال: كيف أصنع بهذه إذا أعطيتها أحد لم يقبلها إذا رأى هذا العيب فيها؟ قال: فأخذها فطواها فجعلها تحت مجلسه، وأخرج طرفها ووضع الحلل بين يديه، فجعل يقسم بين الناس. قال: فدخل الزبير بين العوام، وهو تلك الحال قال: فجعل ينظر إلى تلك الحلة فقال له: ما هذه الحلة؟ قال عمر: دع هذه عنك. قال: ما هيه ما هيه ما شأنها؟ قال: دعها عنك. قال: فأعطينيها. قال: إنك لا ترضاها. قال: بلى قد رضيتها. فلما توثق منه. واشترط عليه أن يقبلها، ولا يردها رمى بها إليه، فلما أخذها الزبير ونظر إليها إذا

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٣١ ـ ٤١.

هي رديئة، فقال: لا أريدها. فقال عمر: أيهات قد فرغت منها، فأجازها عليه وأبى أن يقبلها منه.

وعن عمر قال له والناس يتحامون العراق وقتال الأعاجم: سر بقومك، فما قد غلبت عليه فلك ربعه، فلما جمعت الغنائم غنائم جلولاء ادعى جرير أن له ربع ذلك كله، فكتب سعد إلى عمر بذلك، فكتب عمر صدق جرير قد قلت ذلك له، فإن شاء أن يكون قاتل هو وقومه على جعل فأعطوه جعله، وإن يكن إنما قاتل لله ولدينه ولحبيبه فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، فلما قدم الكتاب على سعد أخبر جرير بذلك، فقال جرير: صدق أمير المؤمنين لا حاجة لي به، بل أنا رجل من المسلمين.

وعن ابن عمر قال: بينما عمر رضي الله عنه جالس إذ رأى رجلًا، فقال: قد كنت مرة ذا فراسة وليس لي رأي إن لم يكن هذا الرجل ينظر ويقول في الكهانة شيئًا ادعوه لي، فدعوه فقال: هل كنت تنظر وتقول في الكهانة شيئًا؟ قال: نعم.

وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج يعس المدينة بالليل، فرأى نارًا موقدة في خباء، فوقف وقال: يا أهل الضوء وكره أن يقول يا أهل النار. وهذا من غاية الذكاء.

قال لرجل عرس هل كان؟ فقال: لا أطال الله بقاك. فقال عمر: قد علمتم فلم تتعلموا. هلا قلت لا وأطال الله بقاك.

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

عن أبي البختري قال: جاء رجل إلى عليّ بن أبي طالب، فأطراه وكان بغضه، فقال له: إني ليس كما تقول وأنا فوق ما في نفسك.

وعبد الله بن سلمة قال: سمعت عليًا يقول بمسكن: لا أغسل رأسي بغسل حتى آتي البصرة وأحرقها وأسوق الناس بعصاي إلى مصر قال: فأتيت أبا مسعود البدري، فأخبرته أن عليًا يورد الأمور مواردها لا يحسنون يصدرونها على رجل أصلع إنما رأسه مثل الطست، إنما حوله زغيبات أو قال: شعيرات.

وعن خنبش بن المعتمر أن رجلين أتيا امرأة من قريش، فاستودعاها مائة دينار وقالا: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نجتمع، فلبثا حولًا، فجاء

أحدهما إليها، فقال إن صاحبي قد مات، فادفعي إليَّ الدنانير، فأبت وقالت: إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه، فلست بدافعتها إليك، فثقل عليها بأهلها وجيرانها فلم يزالوا بها حتى دفعتها إليه، ثم لبثت حولًا فجاء الآخر، فقال ادفعي إليَّ الدنانير، فقالت: إن صاحبك جاءني، فزعم أنك مت فدفعتها إليه، فاختصما إلى عمر بن الخطاب، فأراد أن يقضي عليها، فقالت: أنشدك الله أن تقضي بيننا ارفعنا إلى عليّ، فرفعهما إلى عليّ وعرف أنهما قد مكرا بها، فقال: أليس قد قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه؟ قال: بلى. قال: فإن مالك عندنا، فاذهب فجيء بصاحبك حتى ندفعها إليكما.

عن عليّ أنه جيء برجل حلف، فقال: امرأته طالق ثلاثًا إن لم يطأها في شهر رمضان نهارًا، فقال تسافر بها ثم لتجامعها نهارًا.

الحسن بن عليّ رضي الله عنه

عن أبي الوفاء بن عقيل قال: لما جيء بابن ملجم إلى الحسن قال له: أريد أن أسارك بكلمة، فأبى الحسن وقال: إنه يريد أن يعض أذني، فقال ابن ملجم: والله لو مكّنني منها لأخذتها من صماخه.

قال ابن عقيل: انظر إلى حسن رأي هذا السيد الذي قد نزل به من المصيبة الفادحة ما يذهل الخلق وتقصيه إلى هذا الحد، وانظر إلى ذلك اللعين كيف لم يشغله حاله عن استرداد غشه.

الحسين بن عليّ رضي الله عنه

عن إبراهيم بن رياح الموصلي قال: يروى أن رجلًا ادّعى على الحسين بن عليّ مالًا وقدمه إلى القاضي، فقال الحسين: ليحلف عليّ ما ادّعى ويأخذه، فقال الرجل: والله الذي لا إلـه إلّا هو فقال: قل والله والله والله إن هذا الذي تدعيه لك قبلي، ففعل الرجل وقام، فاختلفت رجلاه وسقط ميتًا. فقيل للحسين في ذلك، فقال: كرهت أن يمجد الله فيحلم عنه.

العباس رضي الله عنه

عن أبي رزين قال: سئل العباس أنت أكبر أم النبيّ ﷺ؟ فقال: هوأكبر مني وأنا ولدت قبله.

وعن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك العير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه: أنه لا يصلح لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله تعالى إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك.

وعن مجاهد قال: بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ وجد ريحًا فقال: ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ، فاستحيا الرجل ثم قال: ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ، فإن الله لا يستحي من الحق، فقال العباس: ألا نقوم مرسلًا، ووصله عنه محمد بن مصعب القرساني، فقال عن مجاهد، عن ابن عباس. وقد جرى مثل هذه القضية عند عمر رضي الله عنه، عن الشعبي: أن عمر كان في بيت ومعه جرير بن عبد الله، فوجد عمر ريحًا فقال: عزمت على صاحب هذه الريح أن قام فتوضأ، فقال جرير: يا أمير المؤمنين أو يتوضأ القوم جميعًا. فقال عمر: رحمك الله نعم السيد كنت في الجاهلية، ونعم السيد أنت في الإسلام.

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

عن عكرمة مولى ابن عباس أن عبد الله بن رواحة كان مضطجعًا إلى جنب امرأة، فخرج إلى الحجرة فواقع جارية له فاستنبهت المرأة فلم تره فخرجت فإذا هو على بطن الجارية، فرجعت فأخذت شفرة، فلقيها ومعها الشفرة، فقال لها: مهيم؟ فقالت: مهيم. أما أني لو وجدتك حيث كنت لو جأتك بها. قال: وأين؟ قالت: على بطن الجارية. قال: ما كنت. قالت: بلى. قال: فإن رسول الله ﷺ نهى أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جُنُب، فقالت: إقرأ، فقال:

أتـانـا رسـولُ الله يـتـلو كـتـابَـهُ ... كما لاحَ منشورٌ مِنَ الصُّبح سَاطِعُ
أرانا الهدى بعد العَمَى فقلوبُنا ... بـه مُـوقِـنـاتٌ أنّ مـا قـال واقِـعُ
يبيتُ يجافي جَنْبه عن فراشِه ... إذا استُثقِلتْ بالكافرين المَضَاجِعُ

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري. قال: فغدوت إلى النبيّ ﷺ فأخبرته، فضحك حتى بدت نواجذه.

محمد بن مسلمة رضي الله عنه

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد أذى الله ورسوله»؟ فقال له محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله يا رسول الله؟ قال: «نعم».

قال: أنا له يا رسول الله. فائذن لي أن أقول قال: قل، فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد أخذنا بالصدقة، وقد عنانا وقد مللنا منه. قال الخبيث لما سمعها: والله لتملنه أو لتملن منه، وقد علمت أن أمركم سيصير إلى هذا. قال: إنا لا نستطيع أن نسلمه حتى ننظر ما يفعل، وإنا نكره بعد أن تبعناه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، وقد جئت لتسلفني تمرًا. قال: نعم على أن ترهنوني نساءكم قال محمد: أترهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فأولادكم. قال: فيعير الناس أولادنا بأنا رهناهم بوسق أو وسقين، وربما قال: فيسب ابن أحدنا، فيقال برهن وسق أو وسقين. قال: فأي شيء ترهنوني؟ قال: نرهنك اللامة يعني السلاح. قال: نعم، فواعده أن يأتيه، فرجع محمد إلى أصحابه فأقبل وأقبل معه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة، وجاء معه برجلين آخرين، فقال: إني مستمكن من رمّته فإذا أدخلت يدي في رأسه فدونكم الرجل، فجاؤوه ليلًا فأمر أصحابه، فقاموا في ظل النخل، وأتاه محمد فناداه، فقالت امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ قال: إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة، فنزل إليه ملتحفًا في ثوب واحد وينفخ منه ريح الطيب، فقال محمد: ما أحسن جسدك وأطيب ريحك. قال: إن عندي ابنة فلان وهي أعطر العرب. قال: أفتأذن لي أن أشمه؟ قال: نعم. قال: فأدخل محمد يده في رأسه فشمه، ثم قال: أتأذن لي أن أشمه أصحابي؟ قال: نعم. فأدخلها في رأسه ثم شبك يده في رأسه قبضًا، ثم قال لأصحابه: دونكم عدو الله، فخرجوا عليه فقتلوه ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره.

وعن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ رجلًا من أصحابه إلى رجل من اليهود ليقتله، فقال: يا رسول الله إني لن أستطيع ذلك. إلّا أن تأذنَ لي. فقال رسول الله ﷺ: «إنما الحرب خدعة فاصنع ما تريد».

قال مؤلف الكتاب: قلت، وقد روينا عن الضحاك في اغتيالهم أبا رافع اليهودي ما يقارب هذه القصة، فلم نر التطويل بذكرها.

سويبط بن حرملة رضي الله عنه

عن وهب بن عبد الله بن زمعة قال: أخبرتنا أم سلمة قالت: خرج أبو بكر في تجارة إلى بصرى قبل موت رسول الله ﷺ بعام، ومعه نعيمان وسويبط بن

حرملة، وكانا قد شهدا بدرًا، وكان نعيمان على الزاد وكان سويبط رجلًا مزاحًا، فقال النعيمان: أطعمني. قال: حتى يجيء أبو بكر. قال: أما لأغيظنك. قال: فمروا بقوم فقال لهم سويبط: أتشترون مني عبدًا لي؟ قالوا: نعم. قال: إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم إني حر، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا عليَّ عبدي. قالوا: لا، بل نشتريه منك. قال: فاشتروه بعشر قلائص. قال: ثم أتوه فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلًا، فقال نعيمان: إن هذا يتسهزىء بكم إني حر ولست بعبد. فقالوا: أخبرنا بخبرك فانطلقوا به، فجاء أبو بكر فأخبر بذلك، فاتبع القوم فرد عليهم القلائص، وأخذ نعيمان، فلما قدموا على النبيّ ﷺ وأخبروه فضحك النبيّ ﷺ وأصحابه منه حولًا.

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

عن ربيعة بن ناجد قال: قيل لمعاوية بن أبي سفيان: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما وثقت بأحد قط.

وقال ثعلب: نظر معاوية يوم صفين إلى إحدى جنبتي عسكره وقد مالت فلمحها فاستوت، ثم نظر إلى الجنبة الأخرى وقد مالت فلمحها فاستوت، فقال له رجل من أصحابه: أهذا كنت دبرته من زمن عثمان؟ فقال: هذا والله كنت دبرته منذ زمن عمر رضي الله عنهم.

وجاء رجل إلى حاجب معاوية فقال له: قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك، ثم قال له: ما أعرف هذا، ثم قال: ائذن لي فدخل، فقال له: أي الأخوة أنت؟ فقال: ابن آدم وحواء. فقال يا غلام: اعطه درهمًا. فقال: تعطي أخاك لأبيك وأمك درهمًا. فقال: لو أعطيت كل أخ لي من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا.

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

عن كعب القرظي قال: قال فتى منا لحذيفة: رأيت رسول الله؟ قال: نعم. قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض. قال حذيفة: دعاني رسول الله ﷺ ونحن بالخندق قال: اذهب فاجلس في القوم، فانظر ماذا يفعلون، فذهبت فدخلت في القوم والريح تفعل في جنود الله عزّ وجلّ ما تفعل لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا ماء، فقام أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش! لينظر كل امرىء مَن

يجالس، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت له: مَن أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان.

المغيرة بن شعبة رضي الله عنه

عن أبي الخليل قال: أخبرنا عليّ قال: كان للمغيرة رمح، فكنا إذا خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة خرج به معه، فيركزه فيمر الناس عليه فيحملونه، فقلت: لئن أتيت على النبيّ ﷺ لأخبرنه، فقال: إنك إن فعلت لم ترفع ضالة.

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين فكرهوه وأبغضوه. قال: فعزل عنهم. قال: فخافوا أن يرد عليهم، فقال دهقانهم: إن فعلتم ما آمركم لم يردّ علينا. قالوا: أمرنا بأمرك. قال: تجمعون مائة ألف درهم حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول إن المغيرة اختار هذا فدفعه إليَّ. قال: فجمعوا له مائة ألف درهم. قال: فأتى عمر فقال إن المغيرة اختار هذا ودفعه إليَّ. قال: فدعا عمر المغيرة فقال: ما يقول هذا؟ قال: كذب أصلحك الله إنما كانت مائتي ألف. قال: فما حملك على ذلك؟ قال: العيال والحاجة. قال فقال عمر للعلج: ما تقول؟ لا والله لأصدقنك أصلحك الله والله ما دفع إليَّ قليلًا ولا كثيرًا. قال فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا العلج؟ قال: الخبيث كذب عليَّ فأحببت أن أخزيه.

وعن مسلم بن صبيح الكوفي قال: سمعت أبي يقول: خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان الفتى طريرًا جميلًا، فأرسلت إليهما المرأة فقالت: إنكما خطبتماني ولست أجيب أحد منكما دون أن أراه وأسمع كلامه، فاحضرا إن شئتما، فحضرا فأجلستهما بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رآه المغيرة ونظر إلى جماله وشبابه وهيئته يئس منها، وعلم أنها لن تؤثره عليه، فأقبل على الفتى فقال له: لقد أوتيت جمالًا وحسنًا وبيانًا، فهل عندك سوى ذلك؟ قال: نعم. فعدد فحاسنه ثم سكت، فقال له المغير: كيف حسابك؟ قال: ما يسقط عليَّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردلة. فقال له المغيرة: لكنني أضع البدرة في زاوية البيت فينفقها أهلي على ما يريدون فما أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها، فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليَّ من هذا الذي يحصي عليّ مثل صغير الخردل، فتزوجت المغيرة.

عمرو بن العاص رضي الله عنه

قال ابن الكلبي: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل على غزة، فبعث إليها علجها أن أرسل إليَّ رجلًا من أصحابك أكلمه، ففكر عمرو، فقال: ما لهذا العلج أحد غيري، فقام حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلامًا لم يسمع مثله قط، فقال له العلج: حدّثني هل من أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هواني عندهم إذ بعثوني إليك وعرضوني لما عرضوني، فلا يدرون ما تصنع بي. قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فمرّ برجل من النصارى من غسان فعرفه، فقال يا عمرو: قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج، فرجع، فقال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية: فيكون معروفك عند عشرة خيرًا من أن يكون عند واحد. قال: صدقت. أعجل بهم وبعث إلى البواب خلِّ سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبدًا. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج فقال له: أنت هو. قال: على ما كان من غدرك.

خزيمة بن ثابت رضي الله عنه

عن الزهرية قال: أخبرنا عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدّثه أن النبيّ ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي فاستتبعه النبيّ ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبيّ ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي، فيساومون الفرس لا يشعرون أن النبيّ ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم للأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبيّ ﷺ، فنادى الأعرابي النبيّ ﷺ فقال: إن كانت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته. فقام النبيّ ﷺ فقال: «أليس قد ابتعته منك»؟ قال: لا. فطفق الناس يلوذون بالنبيّ ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان. فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد أني قد بايعتك، فمن جاء من المسلمين، قال للأعرابي: ويلك إن النبيّ ﷺ لا يقول إلا حقًا، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبيّ ﷺ ومراجعة الأعرابي. فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد إني قد بايعتك. فقال: خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبيّ ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبيّ ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

وفي رواية أخرى أن النبيّ ﷺ قال لخزيمة: «لم تشهد ولم تكن معنا؟» قال: يا رسول الله أنا أصدقك بخبر السماء، أفلا أصدقك بما تقول؟

الحجاج بن غلاط رضي الله عنه

عن معمر، عن ثابت البناني قال: حدّثنا أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالًا، وإن لي بها أهلًا، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئًا، فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم، وفشا ذلك بمكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون سرورًا وفرحًا قال: وبلغ الخبر العباس بن عبد المطلب، فعقر وجعل لا يستطيع أن يقوم. قال معمر: وأخبرني عثمان الجزري، عن مقسم قال: فأخذ ابنًا له كان يشبه برسول الله ﷺ، فقال له: قم واستلقي، فوضعه على صدره وجعل يقول: حبي قثم ذي الأنف الأشم، ثم أرسل غلامًا له إلى الحجاج بن علاط فقال له: ويلك مذ جئت به، وماذا تقول؟ ما وعد الله خير مما جئت به. قال: فقال الحجاج بن علاط: اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له: ليخل لي في بعض بيوته لأتيه فإن الخبر على ما يسره. قال: فجاء غلامه فلما بلغ الباب قال: أبشر يا أبا الفضل. قال: فوثب العباس فرحًا حتى قبل بين عينيه فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه.

قال ثم جاء الحجاج، فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى صفية بنت حيي واتخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها وتكون زوجه، أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجه، ولكني جئت لمالي كان هٰهنا أردت أن أجمعه فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ما شئت، فأخف عني ثلاثًا ثم اذكر ما بدا لك، قال: فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فدفعته إليه، ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أن قد ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يحزنك الله يا أبا الفضل لقد شق علينا الذي بلغك. قال: أجل. لا يحزنني الله، ولم يكن بحمد الله إلاما أحببنا، فتح الله خيبر على رسوله، وجرت سهام الله في أموالهم واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن

كان لك حاجة في زوجك فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقًا، قال: فإني والله صادق والأمر على ما أخبرتك.

قال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرّ بهم لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل. قال: لم يصبني إلا خير بحمد الله لقد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر فتحها الله على رسوله، وجرت سهام الله فيهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه. وقد سألني أن أخفي عنه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ما له وما كان له من شيء هٰهنا ثم يذهب. فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ممن كان دخل بيته مكتئبًا حتى دخل أبو الفضل العباس، فأخبرهم الخبر، فسرّ المسلمون ورد الله تعالى ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين.

نعيم بن مسعود رضي الله عنه

عن ابن إسحٰق قال: بينما الناس على خوفهم يوم الأحزاب أتى نعيم بن مسعود رسول الله ﷺ فحدّثني رجل عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: جاء نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي، مرني أمرك. فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت منا رجل واحد، فحدّث عنا ما استطعت فإنما الحرب خدعة». فانطلق نعيم حتى أتى بني قريظة فقال لهم: يا معشر قريظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية، إني لكم نديم وصديق، قد عرفتم ذلك. قالوا: صدقت. قال: تعلمون والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة، إن البلد لبلدكم به أموالكم ونساءكم وأبناءكم، وإن قريشًا وغطفان بلادهم غيرها، وإنما جاؤوا حتى نزلوا معكم، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل فلا طاقة لكم به، فإن هم فعلوا ذلك فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم تستوثقون به، ولا تبرحوا حتى تناجزوا محمد. فقالوا: لقد أشرت برأي ونصح، ثم ذهب إلى قريش فأتى أبا سفيان وأشراف قريش، فقال: يا معشر قريش، إنكم قد عرفتم ودّي إياكم وفراقي محمد أو دينه، وإني قد جئتكم بنصيحة فاكتموا علي. فقالوا: نفعل، ما أنت عندنا بمتهم. فقال: تعلمون أن بني قريظة من يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، فبعثوا إليه: ألا يرضيك أن نأخذ لك من القوم رهنًا من أشرافهم،

فندفعهم إليك، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك حتى نخرجهم من بلادك؟ فقال: بلى، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرًا من رجالكم، فلا تعطوهم رجلًا واحدًا فاحذروا. ثم جاء غطفان، فقال: يا معشر غطفان، قد علمتم إني رجل منكم. قالوا: صدقت، فقال لهم كما قال لهذا الحي من قريش، فلما أصبحوا بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش: إن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر يهود إن الكراع والخف قد هلكا إنا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه، فبعثوا إليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا من رجالكم نستوثق بهم، لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمدًا. فقال أبو سفيان: قد والله حذرنا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان إنا لا نعطيكم رجلًا واحدًا، فإن شئتم أن تخرجوا فتقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا، فقالت يهود: هذا والله الذي قال لنا نعيم. والله ما أراد القوم إلَّا أن يقاتلوا محمدًا فإن أصابوا فرصة انتهزوها وإلَّا مضوا إلى بلادهم وخلوا بيننا وبين الرجل، فبعثوا إليهم: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا، فأبوا، فبعث الله تعالى الريح على أبي سفيان وأصحابه وغطفان، فخذلهم الله عزّ وجلّ.

الأشعث بن قيس

عن الهيثم بن عدي قال: أخبرنا ابن عباس قال: خطب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب على الحسن ابنه أم عمران بنت سعيد بن قيس الهمداني، فقال: فوقي أمير ذو أمرة يعني أمها. فقال: قم فوامرها، فخرج من عنده، ولقيه الأشعث بن قيس بالباب، فأخبره الخبر فقال: ما تريد إلى الحسن يفخر عليها ولا ينصفها ويسيء إليها، فيقول: ابن رسول الله وابن أمير المؤمنين، ولكن هل لك في ابن عمها فهي له وهو لها قال: ومَن ذلك؟ قال: محمد بن الأشعث. قال: قد زوجته، ودخل الأشعث على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، خطبت على الحسن ابنة سعيد؟ قال: نعم. قال: فهل لك في أشرف منها بيتًا وأكرم منها حسبًا وأتم منها جمالًا وأكثر مالًا. قال: ومَن هي؟ قال: جعدة بنت الأشعث بن قيس. قال: قد قاولنا رجلًا. قال: ليس إلى ذلك الذي قاولته سبيل. قال: إنه قد فارقني ليؤامر أمها. فقال: قد زوجها من محمد بن الأشعث. قال: متى؟ قال: الساعة بالباب. قال: فزوج الحسن جعدة، فلما لقي سعيد الأشعث قال: يا أعور، خدعتني. قال: أنت أعور خبيث حيث تستشيرني

في ابن رسول الله ﷺ. ألست أحمق؟ ثم جاء الأشعث إلى الحسن فقال: يا أبا محمد، ألا تزور أهلك؟ فلما أراد ذلك قال: لا تمشي والله إلا على أردية قومي، فقدمت له كندة سماطين وجعلت له أرديتها بسطًا من بابه إلى باب الأشعث.

وحشي بن حرب

عن سليمان بن يسار قال: حدّثنا جعفر بن عمرو الضمري قال: خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار فقال لي: هل لك في وحشي، فجئنا حتى وقفنا عليه، فسلّمنا فرد السلام، وعبيد الله معتجر بعمامته ما يرى وحشي إلا عينيه ورجليه، فقال عبيد الله: يا وحشي، أتعرفني؟ فنظر إليه ثم قال: لا والله إلّا أني أعلم أن عدي بن الخيار تزوج امرأة فولدت له غلامًا فاسترضعه، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فكأني نظرت إلى قدميه.

فطنة كعب بن سور(١)

الشعبي قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: أشكو إليك خير أهل الدنيا إلا رجل سبقه بعمل أو عمل مثل عمله يقوم الليل حتى يصبح، ويصوم النهار حتى يمسي، ثم أخذها الحياء فقالت: أقلني يا أمير المؤمنين، فقال: جزاك الله خيرًا فقد أحسنت الثناء قد أقلتك. فلما ولّت قال كعب بن سور: يا أمير المؤمنين، لقد أبلغت إليك في الشكوى، فقال: ما اشتكت؟ قال: زوجها. قال: عليَّ بالمرأة وزوجها، فجيء بهما، فقال لكعب: اقضِ بينهما. قال: أأقضي وأنت شاهد؟ قال: إنك قد فطنت ما لم أفطن إليه. قال: فإن الله يقول: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النّساء: الآية ٣] صُم ثلاثة أيام وافطر عندها يومًا، وقم ثلاث ليال وبت عندها ليلة. فقال عمر: لهذا أعجب إليَّ من الأول، فرحّله بدابة وبعثه قاضيًا لأهل البصرة.

قضاء شريح(٢)

قيل: إن عدي بن أرطأة أتى شريحًا وهو في مجلس القضاء فقال لشريح: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: اسمع مني. قال: لهذا جلست مجلسي. قال: إني رجل من أهل الشام. قال: الحبيب القريب. قال: وتزوجت امرأة من

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٤.

(٢) نفس المصدر ص ٦٥.

قومي، قال: بارك الله لك بالرفاه والبنين. قال: وشرطت لأهلها أن لا أخرجها. قال: الشرط أملك. قال: وأريد الخروج. قال: في حفظ الله. قال: اقضِ بيننا. قال: قد فعلت.

فطنة إياس بن معاوية(١)

صالح بن أحمد العجلي قال: حدّثني أبي قال: دخل على إياس بن معاوية ثلاثة نسوة، فقال: أما واحدة فمرضع، والأخرى بكر، والثالثة ثيب، فقيل له: بِمَ علمت؟ قال: أما المرضع فإنها لما قعدت أمسكت ثديها بيدها، وأما البكر فلما دخلت لم تلتفت إلى أحد، وأما الثيب فلما دخلت رمقت بعينها يمينًا وشمالًا.

ذكاء قاضي واسط(٢)

يزيد بن هارون قال: تقلد القضاء في واسط رجل ثقة كثير الحديث، فجاء رجل فاستودع بعض الشهود كيسًا مختومًا ذكر أن فيه ألف دينار، فلما حصل الكيس عند الشاهد وطالت غيبة الرجل قدَّر أنه قد هلك، فهمَّ بإنفاق المال، ثم دبر وفتق الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكانها دراهم، وأعاد الخياطة كما كانت. وقدّر أن الرجل وافى وطلب الشاهد بوديعته، فأعطاه الكيس بختمه، فلما حصل في منزله فضّ ختمه فصادف في الكيس دراهم، فرجع إلى الشاهد، فقال له: عافاك الله، أردد عليَّ مالي فإني استودعتك دنانير والذي وجدت دراهم مكانها، فأنكره ذلك واستعدى عليه القاضي المقدم ذكره، فأمر بإحضار الشاهد مع خصمه، فلما حضرا سأل الحاكم: منذ كم أودعته هذا الكيس؟ قال: منذ خمس عشرة سنة، فأخذ القاضي الدراهم وقرأ سككها، فإذا هي دراهم إليها ما قد ضرب منذ سنتين وثلاث ونحوها، فأمره أن يدفع الدنانير إليه، فدفعها إليه وأسقطه وقال له: يا خائن. ونادى مناديه: ألا إن فلان ابن فلان القاضي قد أسقط فلان ابن فلان الشاهد، فاعلموا ذلك ولا يغترن به أحد بعد اليوم، فباع الشاهد أملاكه في واسط وخرج عنها هاربًا، فلم يعلم له خبر ولا أحسن منه أثر.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٥.

(٢) نفس المصدر ص ٦٦.

إياس بن معاوية وجاحد الوديعة[(١)]

أبو محمد القرشي قال: استودع رجل رجلًا مالًا، ثم طلبه فجحده فخاصمه إلى إيّاس بن معاوية، فقال الطالب: إني دفعت المال إليه قال: ومَن حضر؟ قال: دفعته في مكان كذا وكذا ولم يحضرنا أحد. قال: فأي شيء في ذلك الموضع؟ قال: شجرة. قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة، فلعل الله تعالى يوضح لك هناك ما يتبين به حقك، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت، فتتذكر إذا رأيت الشجرة، فمضى الرجل، قال إياس للمطلوب: إجلس حتى يرجع خصمك، فجلس وإياس يقضي وينظر إليه ساعة ثم قال له: يا هذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكر؟ قال: لا. قال: يا عدو الله إنك لخائن. قال: أقلني أقالك الله، فأمر مَن يحتفظ به حتى جاء الرجل، فقال له إياس: قد أقر لك بحقك فخذه.

حفص بن غياث وإنفاذ الحكم[(١)]

ابن الليث قال: باع رجل من أهل خراسان جِمَالًا بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر، فمطله بثمنها وحبسه، فطال ذلك على الرجل، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوروه، فقال: اذهب إليه فقل له: أعطني ألف درهم، وأحيل عليك بالمال الباقي، واخرج إلى خراسان، فإذا فعل هذا فأتني حتى أشاور عليك، ففعل الرجل، فأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم، فرجع إلى الرجل فأخبره فقال: عد إليه فقل له إذا ركبت غدًا فطريقك على القاضي، فأحضر وأوكل رجلًا بقبض المال وأخرج، فإذا جلس إلى القاضي فادع عليه بما بقي لك من المال، ففعل ذلك، فحبسه القاضي فأخرجته أم جعفر وقالت لهارون: قاضيك حبس وكيلي، فمره لا ينظر في الحكم، فأمر لها بالكتاب، وبلغ حفصًا الخبر فقال للرجل: أحضر لي شهودًا حتى أسجل لك على المجوسي قبل ورود كتاب أمير المؤمنين، فحضر، فقال للرجل: مكانك. فلما فرغ من السجل أخذ الكتاب، فقرأه وقال للخادم: اقرأ على أمير المؤمنين السلام، وأخبره أن كتابه ورد، وقد أنفذت الحكم.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٧.

ابن أبي داود والأفشين(١)

قال أبو بكر الصولي: حدّثنا أبو العيناء قال: كان الأفشين يحسد أبا دلف ويبغضه للفروسية والشجاعة، فاحتال عليه حتى شهد عليه عنده بخيانة وقتل، فأحضر السيَّاف، فبلغ ابن أبي داود، فركب مع مَن حضر من عدوله، فدخل على الأفشين، ثم قال: إني رسول أمير المؤمنين إليك، وقد أمرك أن لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثًا حتى تحمله إليه مسلَّمًا، ثم التفت إلى العدول فقال: اشهدوا إني قد أدّيت الرسالة عن أمير المؤمنين إليه، فلم يقدم الأفشين عليه وسار ابن أبي داود إلى المعتصم، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أدّيت عنك رسالة لم تقلها لي ما اعتد بعمل خير خير منها، وإني لأرجو لك الجنة بها، ثم أخبره الخبر، فصوّب رأيه ووجّه مَن أحضر القاسم، فأطلقه ووهب له، وعنّف الأفشين فيما عزم عليه.

الأعمش وأبو حصين(٢)

حدّثنا أبو بكر بن عياش قال: كان الأعمش إذا صلى الفجر جاءه القراء، فقرؤا عليه، وكان أبو حصين إمامهم. فقال الأعمش يومًا: إن أبا حصين يتعلم القراءة منا لا يقوم من مجلسه كل يوم، حتى يفرغ ويتعلم بغير شكر، ثم قال لرجل ممن يقرأ عليه: إن أبا حصين يكثر أن يقرأ بالصافات في صلاة الفجر، فإذا كان غدًا فاقرأ على الصافات واهمز الحوت، فلما كان من الغد قرأ عليه الرجل الصافات وهمز الحوت، ولم يأخذ عليه الأعمش، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة قرأ أبو حصين بالصافات في الفجر، فلما بلغ الحوت همز، فلما فرغوا من صلاتهم ورجع الأعمش إلى مجلسه دخل عليه بعض إخوانه، فقال له الأعمش: يا أبا فلان لو صلّيت معنا الفجر لعلمت ما لقي الحوت من هذا المحراب، فعلم أبو الحصين ما الذي فعل به، فأمر بالأعمش فسحب حتى أخرج من المسجد قال: وكان أبو حصين عظيم القدر في قومه من بني أسد.

أبو حنيفة واللصوص(٢)

محمد بن الحسن قال: دخل اللصوص على رجل، فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثًا أن لا يعلم أحدًا قال: فأصبح الرجل وهو لا يرى اللصوص يبيعون

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٩.

(٢) نفس المصدر ص ٧٢.

متاعه وليس يقدر أن يتكلم من أجل يمينه، فجاء الرجل يشاور أبا حنيفة، فقال له أبو حنيفة: أحضرني إمام حيك والمؤذن والمستورين منهم، فأحضره إياهم فقال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد الله على هذا متاعه؟ قالوا: نعم. قال: فاجمعوا كل ذي فجر عندكم وكل منهم فادخلوهم في دار أو في مسجد، ثم أخرجوا واحدًا واحدًا، فقولوا: هذا لصك، فإن كان ليس بلصه، وإن كان لصه فليسكت، فإذا سكت فاقبضوا عليه، ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة، فرد الله عليه جميع ما سرق منه.

أبو حنيفة ورجل من الطالبيين(١)

حسين الأشقر قال: كان بالكوفة رجل من الطالبيين من خيارهم، فمرّ بأبي حنيفة، فقال له: أين تريد؟ قال: أريد ابن أبي ليلى قال: فإذا رجعت أحب أن أراك، وكانوا يتبركون بدعائه، فمضى إلى ابن أبي ليلى ثلاثة أيام، وإذ رجع مرّ بأبي حنيفة، فدعاه وسلّم عليه فقال له أبو حنيفة: ما جاء بك ثلاثة أيام إلى ابن أبي ليلى، فقال شيء كتمته الناس، فأملت أن يكون لي عنده فرج. فقال أبو حنيفة: قل ما ماهو. قال: إني رجل موسر وليس لي من الدنيا إلا ابن كلما زوجته امرأة طلقها، وإن اشتريت له جارية أعتقها قال: فما لي ما عندي في هذا شيء، فقال أبو حنيفة: اقعد عندي حتى أخرجك من ذلك، فقرب إليه ما حضر عنده فتغدّى عنده، ثم قال له: ادخل أنت وابنك إلى السوق فأي جارية أعجبته ونالت يدك ثمنها، فاشترها لنفسك لا تشترها له، ثم زوجها منه، فإن طلقها رجعت إليك، وإن أعتقها لم يجز عتقه، وإن ولدت ثبت نسبه إليك قال: وهذا جائز؟ قال: نعم هو كما قلت، فمر الرجل إلى ابن أبي ليلى فأخبره فقال: هو كما قال لك.

شربة ماء بخمسة دراهم(٢)

يحيىٰ بن جعفر قال: سمعت أبا حنيفة يقول: احتجت إلى ماء بالبادية، فجاءني أعرابي ومعه قربة من ماء، فأبى أن يبيعنيها إلا بخمسة دراهم، فدفعت إليه خمسة دراهم وقبضت القربة، ثم قلت: يا أعرابي، ما رأيك في السويق؟ فقال:

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٣.

(٢) نفس المصدر ص ٧٤.

هات. فأعطيته سويقًا ملتوتًا بالزيت، فجعل يأكل حتى امتلأ، ثم عطش، فقال: شربة. قلت: بخمسة دراهم، فلم أنقصه من خمسة دراهم على قدح من ماء، فاستردت الخمسة وبقي معي الماء.

أبو حنيفة وطالب القضاء(١)

عبد المحسن بن علي قال: ذكر أبو حنيفة وفطنته، فقال: استودع رجل من الحجاج رجلًا بالكوفة وديعة، فحج ثم رجع، فطلب وديعته، فأنكر المستودع وجعل يحلف له، فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة يشاوره، فقال: لا تعلم أحدًا بجحوده. قال: وكان المستودع يجالس أبا حنيفة، فخلا به وقال له: إن هؤلاء قد بعثوا يستشيروني في رجل يصلح للقضاء، فهل تنشط؟ فتمانع الرجل قليلًا، وأقبل أبو حنيفة يرغبه فانصرف على ذلك وهو طمع، ثم جاء صاحب الوديعة، فقال له أبو حنيفة: اذهب إليه وقل له: أحسبك نسيتني أودعتك في وقت كذا والعلامة كذا. قال: فذهب الرجل فقال له، فدفع إليه الوديعة، فلما رجع المستودع قال أبو حنيفة: إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أجل من هذا.

المهر الغالي(١)

قال ابن الوليد: كان في جوار أبي حنيفة فتى يعتني مجلس أبي حنيفة ويكثر الجلوس عنده، فقال يومًا لأبي حنيفة: إني أريد التزويج إلى فلان من أهل الكوفة، وقد خطبت إليهم، وقد طلبوا مني من المهر فوق وسعي وطاقتي، وقد تعلقت نفسي بالتزويج، فقال أبو حنيفة: فاستخر الله تعالى وأعطهم ما يطلبونه منك فأجابهم إلى ما طلبوه فلما عقدوا النكاح بينهم وبينه جاء إلى أبي حنيفة، فقال له: إني قد سألتهم أن يأخذوا مني البعض وليس في وسعي الكل، وقد أبوا أن يحملوها إلا بعد وفاء الدين كله، فماذا ترى؟ قال: احتل وافترض حتى تدخل بأهلك، فإن الأمر يكون أسهل عليك من تشدد هؤلاء القوم، ففعل ذلك وأقرضه أبو حنيفة فيمن أقرضه، فلما دخل بأهله وحملت إليه قال أبو حنيفة: ما عليك أن تظهر أنك تريد الخروج عن هذا البلد إلى موضع بعيد، وإنك تريد أن تسافر

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٤.

بأهلك معك، فاكترى الرجل جملين وجاء بهما وأظهر أنه يريد الخروج إلى خراسان في طلب المعاش، وأنه يريد حمل أهله معه، فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤوا إلى أبي حنيفة ليسألوه ويستعينوه في ذلك، فقال لهم أبو حنبيفة: له أن يخرجها إلى حيث شاء. قالوا له: ما يمكننا أن ندعها تخرج. فقال لهم أبو حنيفة: فارضوه بأن تردوا عليه ما أخذتموه منه، فأجابوه إلى ذلك. فقال أبو حنيفة للفتى: إن القوم قد سمحوا أن يردوا عليك ما أخذوه منك من المهر ويبرؤك منه، فقال له الفتى: وأنا أريد منهم شيئًا آخر فوق ذلك، فقال أبو حنيفة: أيما أحب إليك أن ترضى بهذا الذي بذلوه لك، وإلا أقرّت المرأة لرجل بدين لا يمكنك أن تحملها ولا تسافر بها حتى تقضي ما عليها من الدين قال، فقال الرجل: الله الله لا يسمعوا بهذا، فلا آخذ منهم شيئًا، فأجاب إلى الجلوس وأخذ ما بذلوه من المهر.

قيمته عشرة آلاف درهم(١)

أحمد بن الدقاق قال: بلغني أن رجلًا من أصحاب أبي حنيفة أراد أن يتزوج، فقال أهل المرأة: نسأل عنه أبا حنيفة، فأوصاه أبو حنيفة، فقال: إذا دخلت عليَّ فضع يدك على ذكرك، ففعل ذلك، فلما سألوه عنه قال: قد رأيت في يده ما قيمته عشرة آلاف درهم.

أبو يوسف والرشيد(٢)

عن عليّ بن المحسن التنوخي، عن أبيه قال: حدّثني أبي قال: كان عند الرشيد جارية من جواريه وبحضرته عقد جوهر، فأخذ يقلبه ففقده فاتهمها، فسألها عن ذلك، فأنكرت فحلف بالطلاق والعتاق والحج لتصدقنه، فأقامت على الإنكار وهو متهم لها، وخاف أن يكون قد حنث في يمينه، فاستدعى أبا يوسف وقصّ عليه القصة، فقال أبو يوسف: تخليني مع الجارية وخادم معنا حتى أخرج من يمينك، ففعل ذلك. فقال لها أبو يوسف: إذا سألك أمير المؤمنين عن العقد فانكريه، فإذا أعاد عليك السؤال فقولي قد أخذته، فإذا أعاد عليك الثالثة فانكري، وخرج. فقال للخادم: لا تقل لأمير المؤمنين ما جرى. وقال للرشيد: سلها يا أمير المؤمنين ثلاث دفعات متواليات عن العقد، فإنها تصدقك، فدخل الرشيد فسألها،

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٥.

(٢) نفس المصدر ص ٧٦.

فأنكرت أول مرة، وسألها الثانية، فقالت: نعم قد أخذته، فقال: أي شيء تقولين؟ فقالت: والله ما أخذته ولكن هكذا قال لي أبو يوسف، فخرج إليه فقال: ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد خرجت من يمينك لأنها أخبرتك أنها قد أخذته، وأخبرتك أنها لم تأخذه، فلا يخلو أن تكون صادقة في أحد القولين، وقد خرجت أنت من يمينك فسرَّ ووصل أبا يوسف، فلما كان بعد مدة وجد العقد.

الإمام الشافعي والرشيد(١)

عن الحسن بن الصياح قال: لما أن قدم الشافعي إلى بغداد، وأوفق عقد الرشيد للأمين والمأمون على العهد. قال: فبكر الناس ليهنوا الرشيد، فجلسوا في دار العامة ينتظرون الإذن، فجعل الناس يقولون: كيف ندعو لهما فإنا إذا فعلنا ذلك كان دعاء على الخليفة، وإن لم ندعو لهما كان تقصيرًا قال: فدخل الشافعي، فجلس فقيل له في ذلك، فقال: الله الموفق، فلما أذن دخل الناس، فكان أول متكلم الشافعي فقال:

لا قَصَرا عنها ولا بَلَغْتَهَا حتّى يطولَ على يديْك طُولُهَا

أبو العيناء والمتوكل(٢)

عن محمد بن يحيىٰ قال: حدّثنا أبو العيناء قال: قال المتوكل قد أردتك لمجالستي، فقلت: لا أطيق ذلك ولا أقول هذا جهلًا بما لي في هذا المجلس من الشرف، ولكنني محجوب والمحجوب تختلف إشارته، ويخفى عليه الإيماء، ويجوز أن يتكلم بكلام غضبان، ووجهك راضٍ، وبكلام راضٍ ووجهك غضبان، ومتى لم أميّز هذين هلكت. قال: صدقت، ولكن تلزمنا. فقلت: لزوم الفرض الواجب، فوصلني بعشرة آلاف درهم.

قال: ورُوِيَ أن المتوكل قال: أشتهي أن أنادم أبا العيناء لولا أنه ضرير. فقال أبو العيناء: إن عفاني أمير المؤمنين من رؤية الهلال ونقش الخواتم، فإني أصلح.

وبلغنا عن أبي العيناء أنه شكا تأخر رزقه إلى عبد الله بن سليمان، فقال: ألم يكن كتبنا لك إلى فلان فما فعل في أمرك؟ قال: جرني على شوك المطل. قال:

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٧. (٢) نفس المصدر ص ٨٠.

أنت اخترته. قال: وما عليَّ وقد اختار موسى قومه سبعين رجلًا فما كان فيهم رشيد فأخذتهم الرجفة، واختار رسول الله ﷺ ابن أبي سرح كاتبًا فلحق بالكفار مرتدًا، واختار علي أبا موسى، فحكم عليه.

شكا بعض الوزراء كثرة الأشغال، فقال أبو العيناء: لأراني الله يوم فراغك. وقيل لأبي العيناء: بقي مَن يلقي؟ قال: نعم في البئر، وسأل أبو العيناء عن حماد بن زيد بن درهم، وعن حماد بن سلمة بن دينار فقال: بينهما في القدر ما بين أبوابهما في الصرف.

ابن جرير الطبري والأيمان(١)

قال غلام لابن المزوق البغدادي: كان مولاي مكرمًا لي، فاشترى جارية وزوجنيها فأحببتها حبًا شديدًا، وأبغضتني بغضًا شديدًا عظيمًا، وكانت تنافرني دائمًا وأحتملها إلى أن أضجرتني يومًا، فقلت لها: أنتِ طالق ثلاثًا إن خاطبتيني بشيء إلَّا خاطبتك بمثله، فقد أفسدك احتمالي لك، فقالت لي في الحال: أنت طالق ثلاثًا بتاتًا قال: فأبلست ولم أدرِ ما أجيبها به خوفًا أن أقول لها مثل ما قالت، فتصير بذلك طالقًا مني، فأرشدت إلى أبي جعفر الطبري، فأخبرته بما جرى، فقال: أقم معها بعد أن تقول لها أنت طالق ثلاثًا إن أنا طلقتك، فتكون قد خاطبتها به فوفيت بيمينك ولم تطلقها ولا تعاود الأيمان.

ذو النون والأمانة(٢)

حدّثنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر الرازي قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول: قيل لي: إن ذا النون يعرف اسم الله الأعظم، فدخلت مصر وخدمته سنة، ثم قلت: يا أستاذي إني قد خدمتك وقد وجب حقي عليك، وقيل لي: إنك تعرف اسم الله الأعظم، وقد عرفتني ولا تجد له موضعًا مثلي، فأحب أن تعلمني إياه قال: فسكت عني ذو النون ولم يجبني وكأنه أومأ إليَّ أنه يخبرني قال: فتركني بعد ذلك ستة أشهر، ثم أخرج لي من بيته طبقًا ومكبة مشدودًا في منديل، وكان ذو النون يسكن الجيزة، فقال: تعرف فلانًا صديقنا من الفسطاط؟ قلت: نعم. قال: فأحب أن تؤدي هذا إليه. قال: فأخذت الطبق وهو

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٠.

(٢) نفس المصدر ص ٨٢.

مشدود وجعلت أمشي طول الطريق، وأنا متفكر فيه مثل ذي النون يوجه إلى فلان بهدية ترى أي شيء هي فلم أصبر إلى أن بلغت الجسر، فحللت المنديل ورفعت المكبة، فإذا فأرة قفزت من الطبق ومرت... قال: فاغتظت غيظًا شديدًا وقلت: ذو النون يسخر بي ويوجه مع مثلي فأرة، فرجعت على ذلك الغيظ، فلما أن رآني عرف ما في وجهي، فقال: يا أحمق، إنما جربناك ائتمنتك على فأرة، فخنتني أفأئتمنك على اسم الله الأعظم؟ مرّ عني، فلا أراك.

أولاد نزار والأفعى الجرهمي(١)

حدّثنا علي بن المغيرة قال: لما حضرت نزار بن معد الوفاة قسم ماله بين بنيه وهم أربعة: مضر وربيعة وإياد وأنمار، فقال: يا بني، هذه القبة الحمراء وهي من أدم وما أشبهها من المال لمضر، فسمي مضر الحمراء. وهذا الخباء الأسود وما أشبه من المال لربيعة فأخذ خيلًا دهمًا فسمي ربيعة الفرس. وهذه الخادم وما أشبهها من المال لإياد، وكانت الخادم شمطاء، فأخذ إياد البلق. وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه، فأخذ أنمار ما صار له. وقال لهم: إن أشكل الأمر عليكم في ذلك واختلفتم في القسمة، فعليكم بالأفعى الجرهمي، فاختلفوا فتوجهوا إلى الأفعى، فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلاء قد رعي، فقال: إن البعير الذي رعى هذا لأعور فقال ربيعة: وهو أزور، وقال إياد: وهو أبتر، وقال إنمار: وهو شرود، فلم يسيروا إلَّا قليلًا حتى لقيهم رجل توضع به راحلته، فسألهم عن البعير فقال مضر: هو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: هو أزور؟ قال: نعم. قال إياد: هو أبتر؟ قال: نعم. قال أنمار: هو شرود؟ قال: نعم. هذه والله صفة بعيري دلوني عليه، فحلفوا له أنهم ما رأوه. فلزمهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته، فساروا حتى قدموا على نجران، فنزلوا بالأفعى الجرهمي، فنادى صاحب البعير أصحاب بعيري وصفوا لي صفته، ثم قالوا: لم نره. فقال الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه، فقال مضر: رأيته يرعى جانبًا ويدع جانبًا، فعرفت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر، فعرفت أنه أفسدها بشدة وطئته لازوراره. وقال إياد: عرفت بتره باجتماع بعره ولو كان ذيالًا لمصع بعره به، وقال أنمار: عرفت أنه شرود أنه كان يرعى في المكان الملتف نبته، ثم

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٣.

يجوز إلى مكان آخر أرق منه وأخبث. فقال الشيخ: ليسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه. ثم سألهم مَن هم؟ فأخبروه فرحّب بهم وقال: تحتاجون إليَّ وأنتم كما أرى؟ فدعا لهم بطعام فأكل وأكلوا وشرب وشربوا، فقال مضر: لم أر كاليوم خبزًا أجود لولا أنها على قبر. وقال ربيعة: لم أر كاليوم لحمًا أطيب لولا أنه ربي بلبن كلبة. وقال إياد: لم كاليوم رجلًا سريًا لولا أنه ليس لأبيه الذي يدعى له. وقال أنمار: لم أر كاليوم كلامًا أنفع من حاجتنا. فلما سمع صاحبهم كلامهم، فقال: ما هؤلاء إلّا شياطين، فسأل أمه فأخبرته أنها كانت تحت ملك ولا يولد له ولد، فكرهت أن يذهب الملك فأسكنت رجلًا نزل بهم من نفسها، فوطئها، وقال للقهرمان: الخمر التي شربناها ما أمرها؟ قال: من حبة غرستها على قبر أبيك، وسأل الراعي عن اللحم ما أمره؟ فقال: شاة أرضعناها من لبن كلبة ولم يكن ولد في الغنم شيء غيرها. فأتاهم فقال: قصّوا قصتكم، فقصّوا عليه ما وصى به أبوهم وما كان من اختلافهم، فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر فصارت له الدنانير والإبل وهن حمر فسميت مضر الحمراء، وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة فصارت له الخيل وهي دهم فسمي ربيعة الفرس، وما أشبه الخادم وكانت شمطاء من مال فيه بلق، فهو لإياد، فصارت له الماشية البالق من الخيل والبقر. وقضى لأنمار بالدراهم والأرض فساروا من عنده على ذلك.

أحيل من عمرو بن معديكرب(١)

عن الشعبي قال: خرج عمرو بن معديكرب يومًا حتى انتهى إلى حي، فإذا بفرس مشدودة ورمح مركوز، وإذا صاحبه في وهدة يقضي حاجته، فقلت له: خذ حذرك فإني قاتلك. قال: ومَن أنت؟ قلت: عمرو بن معديكرب. قال: يا أبا ثور ما أنصفتني أنت على ظهر فرسك وأنا في بئر، فاعطني عهدًا أنك لا تقتلني حتى أركب فرسي وآخذ حذري، فأعطيته عهدًا أن لا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره، فخرج من الموضع الذي كان فيه حتى احتبى بسيفه وجلس، فقلت له: ما هذا؟ قال: ما أنا براكب فرسي ولا مقاتلك، فإن كنت نكثت عهدًا، فأنت أعلم، فتركته ومضيت، فهذا أحيل مَن رأيت.

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٤.

رسالة تحذير(١)

عن أبي حاتم الأصمعي قال: حدّثنا شيخ من بني العنبرة قال: أسرت بني شيبان رجلًا من بني العنبر، فقال لهم: أرسل إلى أهلي ليفدوني. قالوا: ولا تكلم الرسول إلّا بين أيدينا، فجاؤه برسول فقال له: ائت قومي فقل لهم: إن الشجر قد أورق، وإن النساء قد اشتكت، ثم قال له: أتعقل؟ قال: نعم أعقل. قال: فما هذا وأشار بيده؟ قال: هذا الليل. قال: أراك تعقل انطلق، فقل لأهلي عرُّوا جملي الأصهب، واركبوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثة عن أمري. فأتاهم الرسول فأرسلوا إلى حارثة فقصّ عليهم الرسول القصة، فلما خلا معهم قال: أما قوله إن الشجر قد أورق، فإنه يريد أن القوم قد تسلحوا. وقوله: أن النساء قد اشتكت، فإنه يريد أنها قد اتخذت الشكل للغزو وهي الأسقية. وقوله: هذا الليل، يريد يأتوكم مثل الليل أو في الليل. وقوله: عروا جملي الأصهب يريد ارتحلوا عن الصمان. وقوله: اركبوا ناقتي يريد اركبوا الدهناء، فلما قال لهم ذلك تحملوا من مكانهم، فأتاهم القوم فلم يجدوا منهم أحد.

حوار شعري(٢)

ابن الأعرابي عن بعض مشايخه: أن رجلًا من بني تميم كانت له ابنة جميلة وكان غيورًا فابتنى لها في داره صومعه، وجعلها فيها، وزوجها من أكفائه من بني عمها، وإن فتى من كنانة مرّ بالصومعة، فنظر إليها ونظرت إليه، فاشتد وجد كل واحد منهما بصاحبه ولم يمكنه الوصول إليها، وأنه افتعل بيتًا من الشِّعْرِ ودعا غلامًا من الحي، فعلمه البيت وقال له: ادخل هذه الدار وأنشد كأنك لاعب، ولا ترفع رأسك ولا تصوبه ولا تومىء في ذلك إلى أحد، ففعل الغلام ما أمر به، وكان زوج الجارية قد أزمع على سفر بعد يوم أو يومين، فأنشد الغلام يقول:

لَحَى الله مَنْ يُلحي على الحبِّ أَهْلَه ... وَمَنْ يمنعُ النفس اللجوجَ هَواهَا

قال: فسمعت الجارية ففهمت، فقالت:

ألا إنّما بين التفرُّق ليلة ... وتُعطى نُفُوس العاشقينَ مُنَاهَا

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٤.

(٢) نفس المصدر ص ٨٥.

قال: فسمعت الأم ففهمت، فأنشأت تقول:

ألا إِنَّما تَعنون ناقة رحلِكُم فَمَن كانَ ذا نُوقٍ لديه رَعَاهَا

قال، فسمع الأب، فأنشأ يقول:

فإنَّا سَنَرعاها ونُوثِقُ قَيْدَها ونطردُ عنها الوَحْشَ حين أَتَاها

فسمع الزوج ففهم، فأنشأ يقول:

سَمِعتُ الَّذي قُلْتم فها أنا مُطَلِّقٌ فَتَاتُكُم مَهجُورةٌ لِبَلَاهَا

قال: فطلقها الزوج وخطبها ذلك الفتى وأرغبهم في المهر فتزوجها.

قسمة ضيف ثقيل(١)

حدّثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي قال: قدم إعرابي من أهل البادية على رجل من أهل الحَضر قال: فأنزله وكان عنده دجاج كثير وله امرأة وابنان وابنتان منها، قال: فقلت لامرأتي اشوي لي دجاجة وقدميها لنا نتغدى بها، فلما حضر الغداء جلسنا جميعًا أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي، قال: فدفعنا إليه الدجاجة، فقلنا اقسمها بيننا نريد بذلك أن نضحك منه قال: لا أحسن القسمة، فإن رضيتم بقسمتي قسمت بينكم قلنا: فإنا نرضى. قال: فأخذ رأس الدجاجة، فقطعه، ثم ناولينه، وقال: الرأس للرئيس، ثم قطع الجناحين قال: والجناحان للابنين، ثم قطع الساقين فقال: والساقان للابنتين، ثم قطع الزمكي وقال: العجز للعجوز، ثم قال: الزور للزائر، فأخذ الدجاجة بأسرها، فلما كان من الغد قلت لامرأتي: اشوي لنا خمس دجاجات، فلما حضر الغداء قلنا: اقسم بيننا قال: أظنكم وجدتم من قسمتي أمس. قلنا: لا. لم نجد، فاقسم بيننا، فقال: شفعًا أو وترًا قلنا: وترًا. قال: نعم. أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ورمى بدجاجة، ثم قال: وابناك ودجاجة ثلاثة ورمى الثانية، ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة، ثم قال: وأنا ودجاجتان ثلاثة، فأخذ الدجاجتين، فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه قال: ما تنظرون لعلكم كرهتم قسمتي. الوتر ما تجيء إلا هكذا، قلنا: فاقسمها شفعًا. قال: فقبضهن إليه ثم قال: أنت وابناك ودجاجة أربعة، ورمى إليه بدجاجة، والعجوز

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٦.

وابنتاها ودجاجة أربعة ورمى إليهن بدجاجة، ثم قال: وأنا وثلاث دجاجات أربعة وضم إليه ثلاث دجاجات، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: الحمد لله أنت فهمتها لي.

أين التين؟[1]

مهدي بن سابق قال: أقبل أعرابي يريد رجلًا وبين يدي الرجل طبق تين، فلما أبصر الأعرابي غطى التين بكسائه، والأعرابي يلاحظه، فجلس بين يديه، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئًا؟ قال: نعم. قال: فاقرأ. فقرأ: ﴿وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التين: الآيتان ١، ٢]. قال الرجل: فأين التين؟ قال: التين تحت كسائك.

زياد ورجل من الخوارج[2]

عن عبد الملك بن عمير قال: أخذ زياد رجلًا من الخوارج، فأفلت منه، فأخذ خاله، فقال: إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك قال أرأيت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي قال: نعم قال: فأنا آتيك بكتاب من العزيز الرحيم، وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى عليهما السلام: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨﴾ [النجم: الآيات ٣٦ - ٣٨] قال زياد: خلوا سبيله هذا رجل لقن حجته.

مَن غلب الجاحظ[2]

قال يموت بن المزرع: قال لنا الجاحظ: ما غلبني أحد قط إلا رجل وامرأة، فأما الرجل، فإني كنت مجتازًا في بعض الطرق، فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللحية متزر بمئزر، وبيده مشط يسقي به شقه ويمشطها به، فقلت في نفسي: رجل قصير بطين ألحى، فاستزريته، فقلت: أيها الشيخ! قد قلت فيك شعرًا، فترك المشط من يده وقال: قل، فقلت:

كـأنـك صَـعْـوةٌ فـي أصـلِ حُـشٍّ ... أصـابَ الـحـشّ طَـشٌ بَـعْـدَ رَشٍّ

فقال لي: اسمع جواب ما قلت، فقلت: هات، فقال:

كـأنَّـكَ كِـنْـدَرٌ فِـي ذَنْـبِ كَـبْـشٍ ... يُـدَلْـدَلُ هـكـذا والـكُـبْـش يَـمْـشِـي

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٧.
(٢) نفس المصدر ص ١٢٦.

وأما المرأة، فكنت مجتازًا ببعض الطرقات، فإذا أنا بامرأتين، وكنت راكبًا على حمارة، فضرطت الحمارة، فقالت: إحداهما للأخرى: وي حمارة الشيخ تضرط، فغاظني قولها فاحتدت ثم قلت لها: إنه ما حملتني أُنثى قط إلا وضرطت، فضربت بيدها على كتف الأخرى وقالت: كانت أم هذا منه تسعة أشهر على جهد جهيد.

مَن يتمنى أكثر(١)

عن الأصمعي قال: قال الوليد بن عبد الملك لبديح: خذ بنا في المنى، فوالله لأغلبنك، قال: لا تغلبني. قال: بلى لأفعلن، وقال: فستعلم. قال الوليد: فإني أريد أتمنى ضعف ما تتمنى أنت فهات. قال: فإني أتمنى سبعين كفلًا من العذاب، ويلعنني الله لعنًا كثيرًا، فقال: غلبتني قبحك الله.

سعيد بن العاص ومولى له(١)

مرض مولى لسعيد بن العاص، ولم يكن له مَن يخدمه ويقوم بأمره، فبعث إلى سعيد بن العاص، فلما أتاه قال له: ليس لي وارث غيرك، وهٰهنا ثلاثون ألف درهم مدفونة، فإذا أنا مت فخذها، فقال سعيد حين خرج من عنده: ما أرانا إلا قد أسأنا إلى مولانا وقصرنا في تعاهده، فتعاهده كل التعاهد ووكل به مَن يخدمه، فلما مات اشترى له كفنًا بثلاثمائة درهم وشهد جنازته، فلما رجع إلى البيت حفر البيت كله، فلم يجد شيئًا، وجاء صاحب الكفن يطالب بثمن الكفن، فقال: لقد هممت أن أنبش عليه وأسلبه كفنه.

الحجاج ورجل(١)

أتي الحجاج برجل ليقتله وبيده لقمة، فقال: والله لا أكلتها حتى أقتلك. قال: أو خير من ذلك تطعمنيها ولا تقتلني، فتكون قد بررت في يمينك ومننت عليَّ، فقال: ادن مني، فأطعمه إياها وخلاه.

عمرو بن العاص ورجل(١)

عن عمرو بن العاص أنه منع أصحابه ما كان يصل إليهم، فقام إليه رجل، فقال: أيها الأمير أتتخذ جندًا من حجارة لا تأكل ولا تشرب، فقال له عمرو:

(١) كتاب الأذكياء ص ١٢٧.

اخسأ أيها الكلب، فقال له الرجل: أنا من جندك، فإذا كنت كلبًا، فأنت أمير الكلاب وقائدها.

خطبة من بئر جلولاء(١)

قال المتوكل يومًا لجلسائه: أتدرون ما الذي نقم المسلمون من عثمان؟ قالوا: لا. قال: أشياء منها أنه قام أبو بكر دون مقام الرسول بمرقاة، ثم ومقام عمر دون مقام أبي بكر بمرقاة، فصعد عثمان ذروة المنبر فقال عباد: ما أحد أعظم منه عليك يا أمير المؤمنين من عثمان. قال: وكيف؟ ويلك. قال: لأنه صعد ذروة المنبر، فلو أنه كلما قام خليفة نزل عمن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر جلولاء، فضحك المتوكل ومَن حوله.

مَن أخجل الصاحب بن عباد(٢)

قال الصاحب بن عباد: ما أخجلني غير ثلاثة، منهم أبو الحسين البهديني، فإنه كان في نفر من جلسائي، فقلت له، وقد أكثر من أكل المشمش: لا تأكله، فإنه يلطخ المعدة. فقال: ما يعجبني ما يطبب الناس على مائدته. وآخر قال لي، وقد جئت من دار السلطان، وأنا ضجر من أمر عرض لي: من أين أقبلت؟ فقلت: من لعنة الله، فقال: رد الله غربتك، فأحسن عليَّ إساءة الأدب. وصبي مستحسن داعبته فقلت: ليتك تحتي، فقال: مع ثلاثة أخر. يعني في رفع جنازتي، فأخجلني.

زوال محنة(٣)

قال أبو الحسن علي بن هشام بن عبيد الله الكعب، المعروف أبوه بأبي قيراط قال: سمعت حامد بن العباس يقول: ربما انتفع الإنسان في نكبته بالرجل الصغير أكثر من منفعته بالرجل الكبير، فمن ذلك أن إسماعيل بن بلبل لما حبسني جعلني في يد بواب كان يخدمه، فكان رجلًا حرًّا، فأحسنت إليه وبررته، وكان ذلك البواب يدخل إلى مجلس الخاصة، ولا ينكر عليه لسابق خدمته، فجاءني في بعض الليالي، وقال: قد حرر الوزير علي بن الفرات، وقال: ما يكسّر المال على

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٢٧.
(٢) نفس المصدر ص ١٢٨.
(٣) نفس المصدر ص ١٢٩.

حامد غيرك، ولا بد من الجد في مطالبته بباقي مصادرته، وسيدعو بك الوزير غدًا إلى حضرته ويهددك، فشغل ذلك قلبي، فقلت له: فهل عندك من رأي؟ فقال: أكتب رقعة إلى رجل من معامليك تعرف شحه، والتمس منه لعيالك ألف درهم يقرضك إياها، واسأله أن يجيبك على ظهر الرقعة لترجع إليك لتخرجها، فإنه لشحه يردك بعذر احتفظ بالرقعة، فإذا طالبك أخرجتها إليه، وقلت له: قد أفضت حالي إلى هذا، فأخرجتها على غير مواطئة، فلعل ذلك ينفعك، ففعلت ما قال، وجاءني الجواب بالرد كما حسبنا، فلما كان من الغد أخرجني الوزير وطالبني، فأخرجت الرقعة، فقرأها فلان واستحى وكان ذلك سبب خفة أمري وزوال محنتي.

كُلْ لا واشرب لا(١)

قال عيسى بن محمد الطوماري: سمعت أبا عمر محمد بن يوسف القاضي يقول: اعتل أبي علة شهورًا، فانتبه ذات ليلة فدعا بي وبأخوتي وقال لنا: رأيت في النوم كأن قائلًا يقول: كُلْ لا، واشرب لا، فإنك تبرأ. فلم ندر تفسيره. وكان بباب الشام رجل يعرف بأبي علي الخياط، حسن المعرفة بعبارة الرؤية، فجئنا به، فقصّ عليه المنام، فقال: ما أعرف تفسيره، ولكني أقرأ كل ليلة نصف القرآن، فأخلوني الليلة حتى أقرأ رسمي وأتفكر، فلما كان من الغد جاءنا، فقال: مررت على هذه الآية: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النُّور: الآية ٣٥] فنظرت إلى «لا». وهي تردد فيها. اسقوه زيتًا وأطعموه زيتًا، ففعلنا وكانت سبب عافيته.

هو في الكوز(١)

الأصمعي قال: رأيت رجلًا قاعدًا على قصر أوس في الطاعون، يعد الموتى في كوز، فعد أول يوم عشرين ومائة ألف، فلما كان في اليوم الثاني عد خمسين ومائة ألف، فمرّ قوم بميتهم وهو يعد، فلما رجعوا إذا عند الكوز غيره، فسألوه عنه، فقالوا لهم: هو في الكوز.

أبو عثمان الخالدي ومخنث(١)

أبو عثمان الخالدي قال: عملت قصيدة أمدح سيف الدولة أبا الحسن بن حمدان، وعرضتها على جماعة أتعرف ما عندهم فيها، إذ حضر مخنث وأنا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٠.

أقرؤها، فلما انتهيت إلى قولي:

وأنكَرَتْ شيبةً في الرأسِ واحِدة فَعَاد يَسْخِطُها ما كَانَ يُرضيهَا

قال: هذا غلط، قلت: ما هو؟ قال: تقول للأمير في الرأس واحدة. ألا قلت: في الرأس طالعة أو لائحة، فعجبت من فطنته وجودة خاطره.

أنا ابن آدم(١)

روى سعيد بن يحيىٰ الأموي عن أبيه قال: كان فتيان من قريش يرمون، فرمى منهم من ولد أبي بكر وطلحة فقرطس، فقال: أنا ابن القرنين، فرمى آخر من ولد أبي بكر وطلحة فقرطس، فقال: أنا ابن القرنين، فرمى آخر من ولد عثمان فقرطس، فقال: أنا ابن الشهيد، ورمى رجل من الموالي فقرطس، فقال: أنا ابن مَن سجدت له الملائكة. فقالوا له: مَن هو؟ فقال: آدم.

فطنة أبي بكر الرازي(٢)

قال محمد بن علي الأمين: حدّثنا بعض الأطباء الثقات أن غلامًا من بغداد قدم الري، فلحقه في طريقه أنه كان ينفث الدم، فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق، فأراه ما ينفث ووصف له ما يجد، فنظر إلى نبضه وقارورته، واستوصف حاله، فلم يقم له دليل على سل ولا قرحة، ولم يعرف العلة، فاستنظر العليل لينظر في حاله، فاشتد الأمر على المريض، وقال: هذا يأس لي من الحياة لحذق المتطبب وجهله بالعلّة، فزاد ألمه، ففكر الرازي، ثم عاد إليه، فسأله عن المياه التي شرب. فقال من صهاريج ومسقفات، فثبت في نفس الرازي بحدة خاطره وجودة ذكائه أن علقة كانت في الماء، وقد حصلت في معدته، وذلك الدم من فعلها. فقال: إذا كان في غد عالجتك، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما آمرهم. قال: نعم، فانصرف الرازي، فجمع مركنين كبيرين من طحلب، فأحضرهما في غد معه، فأراه إياهما قال: ابلع جميع ما في هذين المركنين، فبلع شيئًا يسيرًا، ثم وقف. قال: ابلع. قال: لا أستطيع، فقال للغلمان: خذوه فأقيموه، ففعلوا به ذلك وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه، فأقبل الرازي يدس الطحلب في حلقه ويكبسه كبسًا شديدًا ويطالبه ببلعه ويتهدده بأن

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣١.

(٢) نفس المصدر ص ١٥٤.

يضرب إلى أن بلعه كارهًا أحد المركنين بأسره، والرجل يستغيث ويقول: الساعة قذف، فزاد الرازي فيما يكبسه في حلقه، فذرعه القيء، فتأمل الرازي ما قذف فإذا فيه علقة، وإذا هي لما وصل إليها الطحلب قربت إليه بالطبع وتركت موضعها، فالتفت على الطحلب، ونهض العليل معافى.

ذكاء طبيب[١]

عليّ بن الحسن الصيدلاني قال: كان عندنا غلام حدث من أولاد النبا. فلحقه وجع في معدته شديد بلا سبب يعرفه، فكانت تضرب عليه أكثر الأوقات ضربًا عظيمًا حتى يكاد يتلف، وقلّ أكله، ونحل جسمه، فحمل إلى الأهواز، فعولج بكل شيء، فلم ينجع فيه، ورد إلى بيته وقد يئس منه، فجاز بعض الأطباء فعرف حاله، فقال للعليل: اشرح لي حالك من زمن الصحة، فشرح إلى أن قال: دخلت بستانًا فكان في بيت البقر رمان كثير للبيع، فأكلت منه كثيرًا. قال: كيف كنت تأكله؟ قال: كنت أعض رأس الرمانة بفمي، وأرمي به وأكسرها قطعًا وآكل، فقال الطبيب: غدًا أعالجك بإذن الله تعالى، فلما كان الغد جاء بقدر أسفيداج قد طبخها من لحم جروٍ سمين، فقال للعليل: كل هذا. قال العليل: ما هو؟ قال: إذا أكلت عرفتك، فأكل العليل، فقال له: امتلىء منه فامتلأ، ثم قال له: أتدري أي شيء أكلت؟ قال: لا. قال: لحم كلب، فاندفع يقذف، فتأمل القذف إلى أن طرح العليل شيئًا أسود كالنواة يتحرك، فأخذه الطبيب وقال: ارفع رأسك، فقد برأت، فرفع رأسه فسقاه شيئًا يقطع الغثيان، وصب على وجهه ماء ورد، ثم أراه الذي وقع فإذا هو قرادًا، فقال: إن الموضع الذي كان فيه الرمان كان فيه قردان من البقر، وأنه حصلت منهم واحدة في رأس إحدى الرمانات التي اقتلعت رؤوسها بفيّك، فنزل القرد إلى حلقك وعلق بمعدتك يمتصها، وعلمت أن القراد[٢] تهش إلى لحم الكلب، فإن لم يصح الظن لم يضرك ما أكلت، فصح، فلا تدخل فمك شيئًا لا تدري ما فيه، والله الموفق.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٤.

(٢) القراد: نوع من الحشرات. الواحد منها على قدر حجم الذبابة تلتصق بجلد البقر لتمتص الدم.

الغم هو الدواء(١)

قال أبو إدريس الخولاني: سمعت محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: ما أفلح سمين قط إلَّا أن يكون محمد بن الحسن، وقيل له قال: لا تعدو العاقل إحدى خصلتين: إما أن يهتم لآخرته ومعاده أو الدنيا ومعاشه، والشحم مع الهم لا ينعقد، فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم، فانعقد الشحم، ثم قال: كان ملك في الزمان الأول وكان مثقلًا كثير الشحم لا ينتفع بنفسه، فجمع المتطببين وقال: احتالوا إليَّ بحيلة يخف عني لحمي هذا. قليلًا. قال: فما قدروا له على شيء. قال: فبعث له رجل عاقل أديب متطبب فارِه، فبعث إليه وأشخصه فقال له: عالجني ولك الغنى. قال: أصلح الله الملك أنا متطبب منجم دعني حتى أنظر الليلة في طالعك. أي دواء يوافق طالعك فأسقيك، قال: فغدا عليه، فقال: أيها الملك، الأمان قال: لك الأمان. قال: رأيت طالعك يدل على أن الباقي من عمرك شهر، فإن أحببت عالجتك، وإن أردت بيان ذلك، فاحبسني عندك، فإن كان لقولي حقيقة فخلّ عني، وإلَّا فاستقص مني، قال: فحبسه قال: ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس، وخلا وحده مهتمًّا كلما انسلخ يوم ازداد غمًّا حتى هزل وخفّ لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يومًا، فبعث إليه وأخرجه، فقال: ما ترى. قال: أعز الله الملك. أنا أهون على الله عزّ وجلّ من أن أعلم الغيب، والله ما أعرف عمري، فكيف أعرف عمرك. إنه لم يكن عندي دواء إلا الغم، فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلَّا بهذه العلّة، فأذاب شحم الكلي، فأجازه وأحسن إليه.

القطيعي الطبيب(٢)

أبو الحسن بن الحسن بن محمد الصالحي الكاتب قال: رأيت بمصر طبيبًا كان بها مشهورًا يعرف بالقطيعي، وقال: إنه يكسب في كل شهر ألف دينار من جرايات يجريها عليه قوم من رؤساء العسكر، ومن السلطان، ومما يأخذه من العامة قال: وكان له دار قد جعلها شبه المرستان من جملة داره يأوي إليها الضعفاء والمرضى فيداويهم ويقوم بأغذيتهم وأدويتهم وخدمتهم، وينفق أكثر كسبه في ذلك، فاتفق أن بعض فتيان الرؤساء بمصر أسكت. قال: فجعل إليه أهل الطب،

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٥.

(٢) نفس المصدر ص ١٥٦.

وفيهم القطيعي، فأجمعوا على موته إلا القطيعي، وعمل أهله على غسله ودفنه، فقال القطيعي: أعالجه وليس يلحقه أكثر من الموت الذي قد أجمع هؤلاء عليه، فخلاه أهله معه، فقال: هات غلامًا جَلِدًا ومقارع، فأتي بذلك، فأمر به، فمدّ وضربه عشر مقارع أشد الضرب ثم مسّ جسده، ثم ضربه عشرًا أخر، ثم جسّ مجسه، ثم ضربه عشر أخر، ثم جسّ مجسه، وقال: أيكون للميت نبض؟ قالوا: لا. قال: فجسّوا نبض هذا فجسّوه، فأجمعوا أنه نبض متحرك، فضربه عشر مقارع أُخر، ثم جسّوه فجسّوه، فقالوا: قد زاد نبضه، فضربه عشرًا أُخر، فتقلب فضربه عشرًا فتأوّه، فضربه عشرًا فصاح، فقطع عنه الضرب، فجلس العليل يتأوّه، فقال له: ما تجد؟ قال: أنا جائع. فقال: أطعموه، فجاؤوا بما أكله، فرجعت قوته وقمنا، وقد برأ. فقال له الأطباء: من أين لك هذا؟ قال: كنت مسافرًا في قافلة فيها أعراب يخفرونا، فسقط منهم فارس عن فرسه، فأسكت، فقالوا: قد مات؟ قال: فعمد شيخ منهم فضربه ضربًا شديدًا عظيمًا، وما رفع الضرب عنه حتى أفاق، فعلمت أن الضرب جلب إليه حرارة أزالت سكتته، فقست عليه أمر هذا العليل.

الجراد الشافي(١)

قال أبو منصور ابن مارية، وكان من رؤساء البصرة قال: أخبرني شيوخنا قال: كان بعض أهلنا قد استسقى وأيسوا من حياته، فحمل إلى بغداد وشاوروا الأطباء فيه، فوصفوا له أدوية كبار، فعرفوا أنه قد تناولها، فلم تنفع فأيسوا من حياته، وقالوا: لا حيلة لنا في برئه، فسمع العليل، فقال: دعوني الآن أتزود من الدنيا وآكل ما أشتهي ولا تقتلوني بالحمية، فقالوا: كل ما تريد، فكان يجلس بباب الدار، فمهما اجتاز به اشتراه وأكله، فمرّ به رجل يبيع جرادًا مطبوخًا، فاشترى منه عشرة أرطال، فأكلها بأسرها، فانحل طبعه، فقام في ثلاثة أيام أكثر من ثلاثمائة مجلس، وكاد يتلف، ثم انقطع القيام وقد زال كل ما كان في جوفه وثابت قوته، فبرأ وخرج يتصرف في حوائجه، فرآه بعض الأطباء فعجب من أمره وسأله عن الخبر فعرفه، فقال: ليس من شأن الجراد أن يفعل هذا الفعل، ولا بد أن يكون في الجراد الذي فعل هذا خاصية، فأحب أن تدلني على صاحب هذا الجراد

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٦.

الذي باعه لك، فما زالا في طلبه حتى علما به، فرآه الطبيب فقال له: ممن اشتريت هذا الجراد؟ فقال: ما اشتريته أنا أصيده، وأجمع منه شيئًا كثيرًا وأطبخه وأبيعه. قال: فمن أين تصطاده؟ فذكر له مكانًا على فراسخ يسيرة من بغداد، فقال له الطبيب: أعطيك دينارًا وتجيء معي إلى الموضع الذي اصطدت منه الجراد. قال: نعم، فخرجا وعاد الطبيب من الغد ومعه من الجراد شيء ومعه حشيشة، فقالوا له: ما هذا؟ قال: صادفت الجراد الذي يصيده هذا الرجل يرعى في صحراء جميع نباتها حشيشة يقال لها: مازريون وهي من دواء الاستسقاء، فإذا دفع إلى العليل منها وزن درهم أسهله إسهالًا عظيمًا لا يؤمن أن ينضبط والعلاج بها خطر، ولذلك ما يكاد يصفها الأطباء، فلما وقع الجراد على هذه الحشيشة ونضجت في معدته، ثم طبخ الجراد ضعف فعلها بطبختين، فاعتدلت بمقدار ما أبرأت هذا.

القاضي حسين والفتاة العليلة(١)

قال أبو بكر الجفاني: دخلت يومًا على القاضي حسين بن أبي عمر وهو مهموم حزين، فقلت: لا يغم الله قاضي القضاة أبدًا. ومن يزيد المائي حتى إذا مات يغتم عليه قاضي القضاة هذا الغم كله، فقال: ويحك مثلك يقول هذا في رجل أوحد في صناعته قد مات ولا خلف له يقاربه في حذقه وهل فخر البلد إلَّا أن يكون رؤساء الصناع وحذاق أهل العلوم فيه، فإذا مضى رجل لا مثل له في صناعة لا بد للناس منها، فهلا يدل هذا الأمر على نقصان العلم وانحطاط البلدان، ثم أخذ يعدد فضائله، والأشياء الظريفة التي عالج بها، والعلل الصعبة التي زالت بتدبيره، فذكر من ذلك أشياء كثيرة. ومنها: أنه قال لقد أخبرني من مدة مديدة رجل من جلّة هذا البلد أنه كان حدث بابنة له علة ظريفة فكتمتها عنه، اطلع عليها فكتمها هو مدة، ثم انتهى أمرها إلى الموت، قال: فقلت: لا يسعني كتم هذا أكثر من هذا. قال: وكانت العلة أن فرج الصبية كان يضرب عليها ضربانًا عظيمًا لا تكاد تنام منه الليل ولا تهدأ بالنهار، وتصرخ من ذلك أعظم صراخ، ويجري في خلال ذلك منه دم يسير كماء اللحم، وليس هناك جرح يظهر ولا ورم كثير، فلما خفت المأتم ثم أحضرت يزيد فشاروته، فقال: أتأذن لي في الكلام وتبسط عذري

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٧.

فيه؟ فقلت: نعم، فقال: إنه لا يمكنني أن أصف شيئًا دون أن أشاهد الموضع وأفتشه بيدي، وأسأل المرأة عن أسباب لعلها كانت الجالبة للعلة. قال: فلعظم الصورة وبلوغها حد التلف أمكنه من ذلك، فأطال مساءلتها وحديثها بما ليس من جنس العلة بعد أن حبس الموضع حتى عرف بقعة الألم حتى كدت أن أثب به ثم تصبرت ورجعت إلى ما أعرفه من ستراه، فصبرت على مضض إلى أن قال: تأمر من يمسكها، ففعلت ثم أدخل يده في الموضع دخولًا شديدًا، فصاحت الصبية وأغمي عليها وانبعث الدم، فأخرج في يده حيوانًا أقل من الخنفساء فرمى به، فجلست الابنة في الحال واستترت وقالت: يا أبت استرني فقد عوفيت، قال: فأخذ الحيوان في يده وخرج من الموضع، فلحقته وأجلسته وقلت: أخبرني ما هذا؟ قال: إن تلك المسألة التي لم أشك أنك أنكرتها إنما كنت لأطلب شيئًا أستدل به على العلّة إلى أن قالت لي إن يومًا من الأيام جلست في بيت دولاب البقر من بستان لكم، ثم حدثت العلة بها من غير سبب تعرفه من بعد ذلك اليوم، فتخايلت أنه قد دبّ إلى فرجها من القردان، وكلما امتصّ من موضعه ولد الضربان، وأنه إذا شبع نقط من الفرج الذي يمتصّ منه إلى خارج الفرج هذه النقطة اليسيرة من الدم، فقلت: أدخل يدي وأفتش، فأدخلت يدي، فوجدت القراد، فأخرجته وهو هذا الحيوان، وقد كبر وتغيّرت صورته لكثرة ما يمصّ من الدم على طول الأيام قال: فتأملت الحيوان، فإذا هو قراد قال: برئت الصبية. قال: فقال لي أبو الحسن القاضي: هل ببغداد اليوم مَن له صناعة مثل هذا؟ فكيف لا أغتمّ بمن هذا بعض حذقه.

الرشيد وجبريل بن بختيشوع(١)

قال جبريل بن بختيشوع: كنت مع الرشيد بالرقة ومعه محمد والمأمون، وكان رجلًا كثير الأكل والشرب، فأكل يومًا أشياء خلط فيها، ودخل المستراح فغشي عليه، فأخرج وقوي الأمر حتى لم يشكوا في موته، فأحضرت وجسيت عرقه، فوجدت نبضًا خفيًّا، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاء وحركة الدم، فقلت: الصواب أن يحتجم الساعة، فقال كوثر الخادم: لما لم تقدر من أمر الخليفة يا ابن الفاعلة تقول: احجموا رجلًا ميتًا لا نقبل قولك ولا كرامة. فقال

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٨.

المأمون: الأمر قد وقع وليس يضر أن تحجمه، فأحضر الحجام وتقدمت إلى جماعة من الغلمان بإمساكه ومصّ الحجام المحاجم، فاحمرّ المكان ففرحت، ثم قلت: أشرطه فشرطه، فخرج الدم فسجدت شكرًا، فكلما خرج الدم أصفر لونه إلى أن تكلم وقال: أين أنا؟ أنا جائع فغديناه وعوفي، فسأل صاحب الحرس عن غلّته، فعرفه أنها ألف درهم في كل سنة وسأل صاحبه، فعرفه أنها خمسمائة ألف، فقال: يا جبريل كم عليك؟ قلت: خمسون ألفًا. قال: ما أنصفناك إذ غلات هؤلاء وهم يحرسوني كذلك وغلتك كما ذكرت، فأمر بإقطاعه ألف ألف درهم.

ابن نوح الطبيب(١)

قال أبو الحسن المهدي القزويني: كان عندنا طبيب يقال له ابن نوح، فلحقتني سكتة، فلم يشك أهلي في موتي وغسلوني وكفنوني وحملوني على الجنازة، فمرت الجنازة عليه ونساء خلفي يصرخن، فقال لهم: إن صاحبكم حي فدعوني أعالجه، فصاحوا عليه، فقال لهم الناس: دعوه يعالجه، فإن عاش وإلّا فلا ضرر عليكم، فقالوا: نخاف أن تصير فضيحة، فقال: علي أن لا تصير فضيحة، قالوا: فإن صرنا؟ قال: حكم السلطان في أمري، وإن برأ فأي شيء لي؟ قالوا: ما شئت. قال: ديّته. قالوا: لا نملك ذلك، فرضي منهم بمال أجابه الورثة إليه، وحملني فأدخلني الحمام وعالجني، وأفقت في الساعة الرابعة والعشرين من ذلك الوقت، ووقعت البشائر، ودفع إليه المال، فقلت للطبيب بعد ذلك: من أين عرفت هذا؟ فقال: رأيت رجليك في الكفن منتصبة وأرجل الموت منبسطة ولا يجوز انتصابها، فعلمت أنك حي، وخمنت أنك أسكت وجربت عليك، فصحت تجربتي.

ناكح الحمار(١)

قال أبو أحمد الحارثي: كان طبيب نصراني يقال له موسى بن سنان قد أُتي برجل منتفخ الذكر لا يقدر أن يبول، وهو يستغيث ويصيح، فسأله عن علّته، فذكر أنه لم يبل منذ أيام، ورأى ذكره منتفخًا، فنظر في حاله، فلم يجد شيئًا يوجب عسر البول ولا حصاة، فتركه عنده يومًا يسأله، فقال له: حدّثني أدخلت ذكرك في

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٩.

شيء لم تجر عادة الناس به، فلحقك هذا، فسكت الرجل واستحى، فلم يزل الطبيب يبسطه ويشرط له الكتمان إلى أن قال: نكحت حمارًا ذكرًا، فقال الطبيب: هاتوا مطرقة وغلمانًا، فجاؤوه، فأمسكوا الرجل، وجعل ذكره على سندان حداد وطرقه بالمطرقة مرة واحدة وجيعة، فبرزت شعيرة، وذاك أنه خمن أن شعيرة من جاعرة الحمار قد دخلت في ثقب الذكر، فلما طرقها خرجت.

جارية تتمطى(١)

قال أبو القاسم الجهني: أن حظية لبعض الخلفاء أظنه الرشيد قامت لتتمطى، فلما تمطت جاءت لترد يدها فلم تقدر وبقيتا حافتين، فصاحت وآلمها ذلك، وبلغ الخليفة فدخل وشاهد من أمرها ما أقلقه وشاور الأطباء، فكل قال شيئًا واستعمله فلم ينجح، وبقيت الجارية على تلك الصورة أيامًا والخليفة قلق بها، فجاءه أحد الأطباء، فقال: يا أمير المؤمنين، لا دواء لها إلا أن يدخل إليها رجل غريب، فيخلو بها ويمرخها ومروخًا يعرفه، فأجابه الخليفة إلى ذلك طلبًا لعافيتها، فأحضر الطبيب رجلًا وأخرج من كمه دهنًا وقال: أريد أن تأمر يا أمير المؤمنين بتعريتها حتى أمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن، فشق ذلك عليه، ثم أمر أن يفعل ذلك ووضع في نفسه قتل الرجل، وقال للخادم: خذه فأدخله عليها بعد أن تعريها، فعريت الجارية وأقيمت، فلما دخل الرجل وقرب منها سعى إليها، وأومأ إلى فرجها ليمسه، فغطّت الجارية فرجها بيدها ولشدة ما داخلها من الحياء والجزع حمي بدنها بانتشار الحرارة الغريزية، فعاونتها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال بدنها في ذلك، فلما غطّت فرجها قال لها الرجل: قد برأت، فلا تحركي يديك، فأخذه الخادم وجاء به إلى الرشيد، وأخبره الخبر، فقال له الرشيد: كيف تعمل بمن شاهد فرج حرمتنا، فجذب الطبيب بيده لحية الرجل، فإذا هي ملصقة، فانقلعت، فإذا الشخص جارية، وقال: يا أمير المؤمنين، ما كنت لأبدي حرمتك للرجال، ولكن خشيت أني أكشف لك الخبر، فيتصل بالجارية، فتبطل الحيلة لأني أردت أن أدخل إلى قلبها فزعًا شديدًا بحمى طبعها، ويقودها إلى الحمل على يديها وتحريكها وإعانة الحرارة الغريزية على ذلك، فلم يقع لي غير هذا؟ فأخبرتك به، فأجزل الخليفة جائزته وأصرفه. قال أبو القاسم: ولهذا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٩.

استعملت الأطباء في علاج اللقوة الضعيفة الصفعة الشديدة على غفلة من ضد الجانب الملقو ليدخل قلب المصفوع ما يحميه، فيحول وجهه ضرورة بالطبع إلى حيث صفع، فترجع لقوته.

الطبيبات الثلاث(١)

الصلت بن محمد الجحدري قال: حدّثنا بشر بن الفضل قال: خرجنا حجاجًا، فمررنا بمياه من مياه العرب، فوصف لنا فيه ثلاث أخوات بالجمال وقيل لنا: إنهن يتطببن ويعالجن، فأحببنا أن نراهنَّ، فعمدنا إلى صاحب لنا، فحككنا ساق بعود حتى أدميناه، ثم رفعناه على أيدينا وقلنا: هذا سليم فهل من راق، فخرجت أصغرهن، فإذا جارية كالشمس الطالعة، فجاءت حتى وقفت عليه، فقالت: ليس سليم. قلنا: وكيف؟ قالت: لأنه خدشه عود بالت عليه حية ذكر، والدليل أنه إذا طلعت عليه الشمس مات، فلما طلعت الشمس مات. فعجبنا من ذلك.

نباهة صبي(٢)

إن عبد الملك بن مروان قال لرأس الجالوت، أو لابن رأس الجالوت: ما عندكم من الفراسة في الصبيان؟ قال: ما عندنا فيهم شيء لأنهم يخلقون خلقًا بعد خلق غير أنا نرمقهم، فإن سمعنا منهم مَن يقول في لعبه: من يكون معي رأيناه ذا همة وحنو وصدق فيه، وإن سمعناه يقول: مع مَن أكون كرهناها منه، فكان أول ما علم من ابن الزبير أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان، وهو صبي، فمرّ رجل، فصاح عليهم، ففرّوا ومشى ابن الزبير القهقرى وقال: يا صبيان، اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه. ومرّ به عمر بن الخطاب، وهو صبي يلعب مع الصبيان، ففرّوا ووقف، فقال له: ما لك لم تفر مع أصحابك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أجرم، فأخاف، ولم تكن الطريق ضيقة، فأوسع لك.

يحتمي بعمر بن الخطاب(٢)

قال سنان بن مسلمة وكان أميرًا على البحرين: كنا أغيلمة بالمدينة في أصول النخل نلتقط البلح الذي يسمونه الخلال، فخرج إلينا عمر بن الخطاب، فتفرّق

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٠.
(٢) نفس المصدر ص ١٧٩.

الغلمان وثبت مكاني، فلما غشيني قلت يا أمير المؤمنين: إنما هذا ما ألقت الريح، قال: أرني أنظر، فإنه لا يخفى عليَّ، قال: فنظر في حجري، فقال: صدقت. فقلت: يا أمير المؤمنين، ترى هؤلاء الغلمان، والله لئن انطلقت لأغاروا عليَّ، فانتزعوا ما في يدي، قال: فمشى معي حتى بلغني مأمني.

المأمون ومؤدبه(١)

قال أبو محمد الترمذي: كنت أؤدب المأمون وهو في حجر سعيد الجوهري. قال: فأتيته يومًا وهو داخل، فوجهت إليه بعض خدامه يعلمه بمكاني، فأبطأ عليَّ ثم وجهت آخر، فأبطأ فقلت لسعيد: إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر. قال: أجل، ومع هذا إنه إذا فارقك تعزم على خدمه ولقوا منه أذى شديدًا، فقومه بالأدب، فلما خرج أمرت بحمله، فضربته سبع درر. قال: فإنه ليدلك عينيه من البكاء إذ قيل جعفر بن يحيىٰ قد أقبل، فأخذ منديلًا، فمسح عينيه من البكاء، وجمع ثيابه وقام إلى فرشه فقعد عليه متربعًا، ثم قال: ليدخل، فقمت عن المجلس وخفت أن يشكوني إليه فألقى منه ما أكره. قال: فأقبل بوجهه وحدّثه حتى أضحكه وضحك إليه، فلما همّ بالحركة دعا بدابته ودعا غلمانه، فسعوا بين يديه، ثم سأل عني، فجئت فقال: خذ على بقية حزني، فقلت: أيها الأمير، أطال الله بقاءك. لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر بن يحيىٰ، ولو فعلت ذلك لتنكر لي، فقال: تراني يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذا، فكيف بجعفر بن يحيىٰ حتى أطلعه إنني أحتاج إلى أدب إذن، يغفر الله لك بعد ظنك ووجيب قلبك خذ في أمرك فقد خطر ببالك ما لا تراه أبدًا لو عدت في كل يوم مائة مرة.

الصبي والحمار(٢)

قال الصولي، قال الجاحظ، قال ثمامة: دخلت إلى صديق لي أعوده وتركت حماري على الباب، ولم يكن معي غلام، ثم خرجت، وإذا فوقه صبي، فقلت: أتركب حماري بغير إذني؟ قال: خفت أن يذهب، فحفظته لك. قلت: لو ذهب كان أحب إليَّ من بقائه. قال: فإن كان هذا رأيك في الحمار، فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لي، واربح شكري، فلم أر ما أقول.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨٠.

(٢) نفس المصدر ص ١٨١.

ذاك الفعل من أبي[١]

قال رجل من أهل الشام: قدمت المدينة، فقصدت منزل إبراهيم بن برهة، فإذا بنية له صغيرة تلعب بالطين، فقلت لها: ما فعل أبوك؟ قالت: وفد إلى بعض الأجواد، فما لنا به علم منذ مدة، فقلت: انحري لنا ناقة، فإنا أضيافك. قالت: والله ما عندنا قلت: فشاة قالت: والله ما عندنا. قلت: فدجاجة. قالت: والله ما عندنا. قلت فبيضة، قالت: والله ما عندنا. قلت: فباطل ما قال أبوك:

كَـمْ نَـاقـة قـد وجـأت مَـنْـحَـرهـا بـمستـهـلّ الـشـؤبـوب أو جَـمَـلِ

قالت: فذاك الفعل من أبي هو الذي أصارنا إلى أن ليس عندنا شيء.

المعتصم والفتح بن خاقان[١]

قيل: إن المعتصم ركب إلى خاقان يعوده، والفتح صبي يومئذٍ، فقال له المعتصم: أيما أحسن دار أمير المؤمنين أو دار أبيك؟ قال: إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي أحسن، فأراه فصًّا في يده، فقال: هل رأيت يا فتح أحسن من هذا الفصّ؟ فقال: نعم اليد التي هو فيها.

صبر امرأة[٢]

قال الأصمعي: مات ابن لأعرابية، فما زالت تبكي حتى خدد الدمع خدها، ثم استرجعت، فقالت: اللهم إنك قد علمت فرط حب الوالدين لولدهما، فلذلك لم تأمرهما ببره، وعرفت قدر عقوق الولد لوالديه، فمن أجل ذلك حضضته على طاعتهما. اللهم إن ولدي كان من البار بوالديه على ما يكون الوالدان بولدهما، فأجزه مني بذلك صلاة ورحمة، ولقه سرورًا ونضرة، فقال لها أعرابي: نِعْمَ ما دعوت له. لولا أنك شببته من الجزع بما لا يجدي. فقالت: إذا وقعت الضرورات لم يجر عليها حكم المكتسبات، وجزعي على ابني غير ممكن في الطاقة صرفه، ولا في القدرة منعه، ولي عذري بفضله، فقد قال عزّ وجلّ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٣].

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨١.

(٢) نفس المصدر ص ١٨٨.

إني وإياك في الجنة[١]

قال أبو الحسن المدائني: دخل عمران بن حطان يومًا على امرأته. وكان عمران قبيحًا ذميمًا قصيرًا، وقد تزينت، وكانت امرأة حسناء، فلما نظر إليها ازدادت في عينه جمالًا وحسنًا، فلم يتمالك أن يديم النظر إليها، فقالت: ما شأنك؟ قال: لقد أصبحت والله جميلة. فقالت: أبشر فإني وإياك في الجنة. قال: ومن أين علمت ذلك؟ قالت: لأنك أعطيت مثلي فشكرت، وابتليت سلامته بمثلك فصبرت، والصابر والشاكر في الجنة.

عمران بن حطان وأبو الطيب الطبري[١]

كان عمران بن حطان أحد الخوارج، وهو القائل يمدح عبد الرحمٰن بن ملجم على قتله عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه بمنّه وكرمه:

يا ضَرْبةً مِنْ تَقِيٍّ ما أرادَ بها … إلّا ليبلغَ مِنْ ذي العَرْش رِضْوانا
إنّي لأذكُرُه يومًا فأحسبُه … أوْفى البريّة عِنْد اللهِ مِيزَانا
أكْرِمْ بِقومٍ بُطُونُ الأرضِ أقبُرُهُم … لَمْ يَخْلِطُوا دِينَهُمْ بِغْيًا وَعُدْوانا

فبلغت هذه الأبيات القاضي أبا الطيب الطبري، فقال مجيبًا له على الفوز:

إنّي لأبْرَأُ ممّا أنت قائله … على ابنِ مِلْجَم الملعون بُهْتانا
إنّي لأذكُرُه يومًا فألعنُه … دِينًا وألعنُ عُمرانًا وحطّانا
عليْكَ ثمّ عليه الدّهر متصلًا … لعائن الله أسرارًا وأعلانا
فأنْتُم مِنْ كِلَاب النّارِ جاء به … نصّ الشريعة تِبيانًا وبُرهانا

أشار أبو الطيب إلى قول النبيّ ﷺ: «الخوارج كلاب النار».

كُثَيِّر عَزَّة والعجوز[٢]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: حدّثني أبو المشيع قال: خرج كثّير يلتمس عزّة، ومعه شنينة فيها ماء، فأخذه العطش، فتناول الشنينة، فإذا هي عظم، ما فيها شيء من الماء، فرفعت له نار فأمّها فإذا بقربها مظلة بفنائها عجوز، فقالت

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨٨.
(٢) نفس المصدر ص ١٨٩.

له: مَن أنت؟ قال: أنا كثير. قالت: قد كنت أتمنى ملاقاتك، فالحمد لله الذي أرانيك. قال: وما الذي تلتمسينه مني؟ قالت: ألست القائل:

إذا ما أَتَيْنا خِلّة كي نزيلَها ... أبَيْنا وقُلْنَا الحاجبية أوّلُ
سنوليك عرفًا إن أردتِ وِصَالَنا ... ونحنُ لِتلك الحاجبيّة أوصلُ

قال: بلى. قالت: أفلا قلت كما قال سيدك جميل:

يا ربّ عارضة علينا وصْلَها ... بالجدّ تخلطه بقول الهَازلِ
فأجبتها في القَوْلِ بعد تأمّل ... حبي بثينةَ عَنْ وِصَالك شَاغلي
لَوْ كان في قلبي كقدر قَلامة ... فَضْلًا لغيرك ما أتَتْك رسائلي

قلت: دعي هذا واسقيني. قالت: والله لا أسقيك شيئًا. قلت: ويحك إن العطش قد أضرّ بي. قالت: ثكلت بثينة إن طعمت أن عندي قطرة ماء، فكان جهده أن ركض راحلته ومضى يطلب الماء، فما بلغه حتى أضحى النهار وكاد يقتله العطش.

ذو الرمة والجارية السوداء(١)

قال: دخل ذو الرمة الكوفة فبينا هو يسير في شوارعها على نجيب له إذ رأى جارية سوداء واقفة على باب دار، فاستحسنها ووقعت بقلبه، فدنا إليها، فقال: يا جارية، اسقني ماء، فأخرجت إليه كوزًا، فشرب فأراد أن يمازحها ويستدعي كلامها، فقال: يا جارية، ما أحر ماءك، فقالت: لو شئت لأقبلت على عيوب شعرك وتركت حر مائي وبرده، فقال لها: وأي شعري له عيب؟ فقالت: ألست ذا الرمة؟ قال: بلى. قالت:

فأنت الذي شبّهت عنزَ بقفرةٍ ... لها ذَنَبٌ فوق استها أم سالمِ
جَعَلْتَ لها قَرْنَين فَوقَ جَبينها ... وطِبْسين مسوَدين مِثلَ المَحاجِمِ
وساقَيْنِ إنْ يستمكنا مِنْك يتركا ... بجلدك يا غيلان مثل المآثمِ
أيا ظبيةَ الوعَساءِ بين جَلَاجل ... وبين النّقا أأنت أم أُم سالمِ؟

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨٩.

قال: نشدتك بالله ألا أخذت راحلتي وما عليها ولم تظهري هذا، ونزل راحلته، فدفعها إليها، فذهب ليمضي، فدفعتها إليه وضمنت له ألا تذكر لأحد ما جرى.

الحجاج وأم البنين بنت عبد العزيز(١)

قال زهير بن حسن مولى الربيع بن يونس: قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك فصلّى عنده ركعتين، وركب الوليد، فمشى الحجاج بين يديه، فقال له الوليد: اركب يا أبا محمد. فقال: يا أمير المؤمنين، دعني أستكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عن الجهاد زمنًا طويلًا، فعزم عليه الوليد أن يركب ودخل، فركب مع الوليد، فبينا هو يتحدث ويقول: ما فعلت بأهل العراق وفعلت، أقبلت جارية فنادت الوليد ثم انصرفت، فقال الوليد: يا أبا محمد، أتدري ما قالت الجارية؟ قال: لا. قال: قالت: أرسلتني إليك أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أن مجالستك هذا الأعرابي وهو في سلاحه وأنت في غلاله غرر، فأرسلت إليها أنه الحجاج بن يوسف فراعها ذلك، وقالت: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إليَّ من أن يخلو بك الحجاج، وقد قتل أحباء الله له وأهل طاعته ظلمًا وعدوانًا. فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، إنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة لا تطلعهن على سرك، ولا تستعملهن بأكثر من وثبهن، ولا تكثرن مجالستهم صغارًا وذلائم، ثم نهض فخرج، ودخل الوليد على أُم البنين، فأخبرها بمقالته، فقالت: إني أحب أن تأمره بالتسليم عليّ فسيبلغك بالذي يكون بيني وبينه، فغدا الحجاج على الوليد، فقال الوليد: ائت أُم البنين، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: فلتفعلن فأتاها، فحجبته طويلًا، ثم أذنت له، ثم قالت له: يا حجاج، أنت تفتخر على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث. أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خلقه عليه ما ابتلاك بقتل ابن ذات النطاقين ابن حواري رسول الله ﷺ، وابن الأشعث فلعمري لقد استعلى عليك حتى عجعجت ووالى عليك الهرار حتى عويت، فلولا أن أمير المؤمنين نادى في أهل اليمن، وأنت في أضيق من القرن، فأظلتك رماحهم وعلاك كفاحهم لكنت مأسورًا قد أخذ الذي فيه عيناك وعلى هذا، فإن نساء أمير المؤمنين قد نفضن العطر عن غدائرهن وبعنه في

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٠.

أعطية أوليائه وأما ما أشرت على أمير المؤمنين من قطع لذاته وبلوغ أوطاره من نسائه، فإن يكن إنما ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين، فغير مجيبك إلى ذلك، وإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به أمك البظراء عنك من ضعف الغريزية وقبح المنظر في الخلق والخلق، يا لكع، فما أحقه أن يقتدي بقولك قاتل الله الذي يقول:

أَسَدٌ عليَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامة ... فَتَخَاءُ تَنْفرِ مِنْ صَفيرِ الصَّافِرِ
هلَّا برزت إلى غَزالةِ في الوغا ... أو قد كان قلبك في جَنَاحَيْ طائِرِ

ثم أمرت جارية لها، فأخرجته، فلما دخل على الوليد قال: ما كنت فيه يا أبا محمد، فقال: والله ياأمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظهرها. قال: إنها بنت عبد العزيز.

محمد بن عبد الله وجارية شاعرة(١)

قال ابن السكيت عزم محمد بن عبد الله بن طاهر على الحج، فخرجت إليه جارية شاعرة، فبكت لما رأت آلة السفر، فقال محمد بن عبد الله:

دَمْـعَـةٌ كـالـلّؤلـؤ الـرّطْـ ... ـبِ عَـلَى الـخَـدِّ الأسـيـلِ
هَـطَـلَتْ فـي سـاعـةِ الـبَـ ... ـيْنِ من الـطَّـرْفِ الـكَـحيـلِ

ثم قال أجيزي فقالت:

حـيـن هَـمَّ الـقَـمَـرُ الـبـا ... هِـرُ عـنّـا بـالأفُـولِ
إنّـمـا يُـفْـضَـحُ الـعـشّـ ... ـاقُ فـي وقْـتِ الـرَّحِـيْـلِ

الرشيد والجارية(١)

قال أيوب الوزان، قال المفضل: دخلت على الرشيد، وبين يديه طبق ورد، وعنده جارية مليحة شاعرة أديبة قد أهديت إليه، فقال: يا مفضل، قل في هذا الورد شيئًا تشبهها به، فأنشأت أقول:

كـأنَّـهُ خـدُّ مـرمـوقٌ بـقَـبـلـه ... فَم الحَبيب وقَدْ أَبْدى به خَجَلَا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩١.

فقالت الجارية:

كأنّه لونُ خدِّي حينَ يَذْفعُني ... كفّ الرّشيد لأمرٍ يُوجِبُ الغُسْلَا

فقال: يا مفضل، قم، فاخرج، فإن هذه الماجنة قد هيّجتنا، فقمت وأرخيت الستور.

الرشيد والصبية السائلة(١)

قال الأصمعي: لما قدم الرشيد البصرة يريد الخروج إلى مكة، فخرجت معه، فلما صرنا بضرية إذا أنا على شفير الوادي بصبية قدامها قصعة لها، وإذا هي تقول:

طَحَنَتْنَا طَوَاحِنُ الأعوام ... وَرَمَتْنَا نوائبُ الأيام
فأتيناكمو لمذ أكفًا ... لَفَضَالاتِ زَادِكم والطّعامِ
فاطلبُوا الأجْرَ والمثوبَة فِينَا ... أيُّها الزائرون بيت الحَرَام
مَنْ رآني فَقَد رآني وَرَحْلي ... فارحموا غربتي وذُلّ مَقَامي

قال: فرجعت إلى أمير المؤمنين، فقلت: صبية على شفير الوادي، وأنشدته ما قالت، فعجب، فقلت: يا أمير المؤمنين، أفآتيك بها؟ قال: لا. بل نحن نذهب إليها. قال الأصمعي: فوقف عليها أمير المؤمنين، فقلت لها: أنشديه ما كنت تقولينه، فأنشدته ولم تهبه، فقال: يا مسرور املأ قصعتها دنانير، قال: فملأها حتى فاضت يمينًا وشمالًا.

ابن الشيظمي والجارية من ولد الحسين(٢)

ابن الشيظمي قال: حججت في سنة قحطة جدبة، فبينا أنا أطوف بالكعبة، إذ أبصرت جارية من أحسن الناس قدًّا وقوامًا وخلقًا وهي متعلقة بأستار الكعبة تقول: إلٰهي وسيدي. ها أنا أمتك الغريبة وسائلتك الفقيرة حيث لا يخفى عليك بكائي، ولا يستتر عنك سوء حالي. قد هتكت الحاجة حجابي وكشفت الفاقة نقابي، فكشفت وجهًا رقيقًا عند الذل، وذليلًا عند المسألة. طال وعزّتك ما حجبه عنه ماء الغناء وصانه ماء الحياء. قد جمدت عني كف المرزوقين، وضاقت بي

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩١.

(٢) نفس المصدر ص ١٩٢.

صدود المخلوقين، فمن حرمني لم ألمه، ومَن وصلني وكلته إلى مكافأتك ورحمتك، وأنت أرحم الراحمين. قال: فدنوت منها فبررتها، ثم قلت لها: مَن أنت؟ وممن أنت؟ فقالت: إليك عني. من قل ماله، وذهب رجاله كيف يكون حاله. ثم أنشأت تقول:

بعضُ بَنَاتِ الرِّجال أبرزها ... الدّهر لما قَدْ ترى وأخرجها
أبرزها من جَليل نِعمتها ... فابتزّها ملكها وأحوجها
وطالما كانَتِ العُيونُ إذا ... ما خَرجت تستشف هودَجَها
إن كانَ قد سَاءَها وأحز ... نَها فَطالما سرّها وأَبْهَجها
الحمدُ للهِ ربّ معسرة ... قد ضَمِنَ الله أن يفرّجَها

قال: فسألت عنها، فأخبرت أنها من ولد الحسين بن عليّ رضوان الله عليهم أجمعين.

جميل وبثينة(١)

قيل: إن كثير عزة لقي جميلًا، فقال له: متى عهدك ببثينة؟ قال: ما لي بها عهد منذ عام أول، وهي تغسل ثوبًا بوادي الدوم، فقال له كثير: تحب أن أعهدها لك الليلة؟ قال: نعم. فأقبل راجعًا إلى بثينة، فقال له أبوها يا فلان: ما ردك، أما كنت عندنا قبيل؟ قال: بلى، ولكن حضرتني أبيات قلتها في عزة قال: وما هي؟ قلت:

فقلتُ لها يا عزّ ارسل صاحبي ... على بابِ داري والرَّسول موكلُ
أمَا تذكرينَ العَهْدَ يَوْم لقيتكم ... بأسْفل وادي الدّوم والثّوب يُغْسَلُ

فقالت بثينة: أخسأ. فقال أبوها: ما هاجك يا بثينة؟ قالت: كلب لا يزال يأتينا من وراء الجبل بالليل وأنصاف النهار. قال: فرجع إليه، فقال: قد وعدتك من وراء هذا الجبل بالليل وأنصاف النهار، فألقها إذا شئت.

موعد غرامي(٢)

ومن هذا الفن حُكِيَ أن أعرابيًا بعث غلامًا له إلى امرأة يواعدها موضعًا يأتيها فيه، فذهب الغلام وأبلغها الرسالة، فكرهت المرأة أن تقر للغلام بما بينهما،

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٢.
(٢) نفس المصدر ص ١٩٣.

فقالت: والله لئن أخذتك لأعركنّ أذنك عركة تبكي منها، وتستند إلى تلك الشجرة ويغشى عليك إلى وقت العتمة، فلم يعرف الغلام معنى هذا الكلام، وانصرف إلى صاحبه وحكى له، فعلم أنها واعدته تحت الشجرة وقت العتمة.

بلاغة جارية(١)

قال الأصمعي: كنت عند أمير المؤمنين الرشيد إذ دخل رجل ومعه جارية للبيع، فتأملها الرشيد، ثم قال: خذ جاريتك، فلولا كلف في وجهها وخنس في أنفها لاشتريتها، فانطلق بها، فلما بلغت الستر قالت: يا أمير المؤمنين، اردني إليك أنشدك بيتين حضراني، فردها فأنشأت تقول:

ما سلّم الظبيُ على حُسنه ... كلّا ولا البَدْرُ الذي يُوصَف
الظَبْيُ فيه خَنَسٌ بيِّنٌ ... والبَدْرُ فيهِ كَلَفٌ يُعْرَفُ

فأعجبته بلاغتها فاشتراها وقرب منزلها، وكانت أحظى جواريه عنده.

اصعد حتى ترى الدنيا(٢)

قال الجاحظ: رأيت بالعسكر امرأة طويلة القامة جدًّا، ونحن على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت: انزلي حتى تأكلي معنا. قالت: وأنت، فاصعد حتى ترى الدنيا.

هل أقبل الحجر الأسود(٢)

قال الجاحظ: رأيت جارية بسوق النخاسين ببغداد ينادى عليها وعلى خدها خال، فدعوت بها وجعلت أقلبها، فقلت لها: ما اسمك؟ قالت: مكة. فقلت: الله أكبر قرب الحج أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود؟ قالت له: إليك عني ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: الآية ٧].

الخيزران والمهدي(٣)

قال هارون بن عبد الملك بن المأمون: لما عرضت الخيزران على المهدي قال لها: والله يا جارية إنك لعلى غاية المتمنى، ولكنك خمشة الساقين، فقالت:

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٣.
(٢) نفس المصدر ص ١٩٤.
(٣) نفس المصدر ص ١٩٥.

يا أمير المؤمنين، إنك أحوج ما يكون إليهما لا تراهما، فقال: اشتروها، فحظيت عنده، فأولدها موسى وهارون.

المهدي وجاريته الحسناء(١)

حكى أبو بكر الصولي: أن المهدي اشترى جارية فاشتد شغفه بها، وكانت به أشغف، وكانت تتجافاه كثيرًا، فدسّ إليها من عرف ما في نفسها، فقالت: أخاف أن يملّني ويدعني فأموت، فأنا أمنع نفسي بعض لذتها منه لأعيش، فقال المهدي:

ظَفَرَتْ بِالقَلْب منّي غَادَةٌ مِثْلُ الهِلَالِ
كُلّما صَحَّ لها ودّي جَاءَت باعْتِلَالِ
لا تحبّ الهَجْرَ منّي والتنائي عَنْ وِصَالِي
بَلْ لمأمنها على حبّي لَها خَوْفَ المَلَالِ

حيلة ناجحة(١)

حدّثنا رجل من تغلب قال: كان فينا رجل له ابنة شابة، وكان له ابن أخ يهواها وتهواه، فمكثا كذلك دهرًا، ثم أن الجارية خطبها بعض الأشراف فأرغب في المهر، فأنعم أبو الجارية، واجتمع القوم للخطبة، فقالت الجارية لأمها: يا أماه: ما يمنع أن يزوجني من ابن عمي؟ قالت: أمر كان مقضيًا. قالت: والله ما أحسن رباه صغيرًا، ثم تدعوه كبيرًا، ثم قالت لها: يا أماه، إني والله حامل، فاكتمي إن شئت أو نوحي، فأرسلت الأم إلى الأب، فأخبرته الخبر، فقال: اكتمي هذا الأمر، ثم خرج إلى القوم، فقال: يا هؤلاء إني كنت أجبتكم، وأنه قد حدث أمر رجوت أن يكون فيه الأجر وأنا أشهدكم أني قد زوجت ابنتي فلانة من ابن أخي فلان، فلما انقضى ذلك قال الشيخ: ادخلوها عليه، فقالت الجارية: هي بالرحمٰن كافرة إن دخل عليها من سنة أو تبين حملها. قال: فما دخل عليها إلّا بعد حول، فعلم أبوها أنها احتالت عليه.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٥.

نكره منك ما تكره منّا[١]

قال الصولي، قال العتبي: رأيت امرأة أعجبتني صورتها، فقلت: ألك بعل؟ قالت: لا. قلت: أفترغبين في التزويج؟ قالت: نعم. ولكن لي خصلة أظنك لا ترضاها. قلت: وما هي؟ قالت: بياض برأسي. قال: فثنيت عنان فرسي وسرت قليلًا، فنادتني أقسمت عليك لتقفن، ثم أتت موضع خال، فكشفت عن شعر كأنه العناقيد السوناي، فقالت: والله ما بلغت العشرين، ولكنني عرفتك أنا نكره منك ما تكره منا. قال: فخجلت وسرت وأنا أقول:

فَجَعلتُ أطلبُ وَصْلَها بتملُّقٍ والشَّيْبُ يغمزُها بأَنْ لا تَفْعلي

وافق شن طبقة[٢]

قال الشرقي بن قطامي: كان شن من دعاة العرب، فقال: والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي، فأتزوجها، فسار حتى لقي رجلًا يريد قرية يريدها شن، فصحبه، فلما انطلقا قال له شن: أتحملني أم أحملك؟ فقال الرجل: يا جاهل، كيف يحمل الراكب الراكب، فسارا حتى رأيا زرعًا قد استحصد فقال شن: أترى هذا الزرع قد أكل أم لا؟ فقال: يا جاهل، أما تراه قائمًا. فمرّا بجنازة فقال: أترى صاحبها حيًّا أو ميتًا؟ فقال: ما رأيت أجهل منك. أتراهم حملوا إلى القبور حيًّا. ثم سار به الرجل إلى منزله، وكانت له ابنة تسمى طبقة، فقصّ عليها القصة، فقالت: أما قوله أتحملني أم أحملك، فأراد تحدّثني أم أحدّثك حتى نقطع طريقنا، وأما قوله: أترى هذا الزرع قد أكل أم لا، فأراد باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا، وأما قوله في الميت، فإنه أراد أترك عقبًا يحيا به ذكره أم لا، فخرج الرجل فحادثه، ثم أخبره بقول ابنته، فخطبها إليه فزوجه إياها، فحملها إلى أهله، فلما عرفوا عقلها ودهاءها. قالوا: وافق شن طبقة.

بانت وهي في الحياة[٣]

قال أبو بكر بن الأزهر: حدّثني بعض إخواني أن رجلًا كان بالأهواز، وكان له ثروة ونعمة وأهل، فسار إلى البصرة مرة، فتزوج بها، فكان يأتي تلك المرأة في

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٥.
(٢) نفس المصدر ص ١٩٦.
(٣) نفس المصدر ص ١٩٧.

السنة مرة أو مرتين، وكان للبصرية عم يكاتبه، فوقع كتاب منه في يد الأهوازية، فعلمت الحال، فكتبت إليه: من حميه البصري بأن امرأتك قد ماتت، فالحق، فقرأه ثم أخذ في إصلاح أمره ليخرج، فقالت الأهوازية: إني أراك مشغول القلب، وأظن أن لك بالبصرة امرأة، فقال: معاذ الله، فقالت: لا أقنع بقولك دون يمينك، فتحلف بطلاق كل امرأة لك غائبة أو حاضرة، فحلف لها ظنًا أن تلك قد ماتت، فقالت له: لا حاجة لك في الخروج، فإن تلك بانت وهي في الحياة.

يسترزق من بيوت الجيران(١)

خاصمت امرأة زوجها في تضييقه عليها وعلى نفسه، فقالت: والله ما يقيم الفأر في بيتك إلا لحب الوطن، وإلّا فهو يسترزق من بيوت الجيران.

الأدرع والغولة(٢)

قال: حدّثني أبو القاسم عبد الله بن محمد الكاتب قال: حدّثني بعض الأشراف بالكوفة أنه كان بها رجل حسني يعرف بالأدرع، شديد القلب جدًا. قال: وكان في خرائب الكوفة شيء يظهر للمجتازين فيه نار يطول تارة ويقصر أخرى، يقولون هو غولة يفزع منه الناس، فخرج الأدرع ليلة راكبًا في بعض شأنه. قال لي الأدرع، فاعترض لي السواد والنار، فطال الشخص في وجهي، فأنكرته ثم رجعت إلى نفسي، فقلت: أما شيطان وغولة فهوس، وليس إلّا إنسانًا، فذكرت الله تعالى وصلّيت على نبيه ﷺ، وجمعت عنان الفرس وقرعته بالمقرعة وطرحته على الشخص، فازداد طوله وعظم الضوء فيه، فنفر الفرس، فقرعته فطرح نفسه عليه، فقصر الشخص حتى عاد على قدر قامة، فلما كاد الفرس يخالطه ولّى هاربًا، فحركت خلفه، فانتهى إلى خربة، فدخلها، فدخلت خلفه، فإذا هو قد نزل سردابًا فيها، فنزلت عن فرسي وشددته، ونزلت وسيفي مجرد، فحين حصلت في السرداب أحسست بحركة الشخص يريد الفرار مني، فطرحت نفسي عليه، فوقعت يدي على بدن إنسان، فقبضت عليه فأخرجته، فإذا هي جارية سوداء، فقلت: أي شيء أنت وإلا قتلتك الساعة؟ قالت: قبل كل شيء أنت إنسي أم جني، فما رأيت أقوى قلبًا منك قط؟ فقلت: أي شيء أنت؟ قالت: أمة لآل فلان قوم بالكوفة

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٠.
(٢) نفس المصدر ص ٢٠١.

أبقت منهم سنين، فتغربت في هذه الخربة، فولد لي الفكر أن أحتال بهذه الحيلة وأوهم الناس أني غولة حتى لا يقرب الموضع أحد، وأتعرّض ليلًا للأحداث، وربما رمى أحدهم منديلًا أو إزارًا، فآخذه فأبيعه نهارًا وأقتات به أيامًا، قلت: فما هذا الشخص الذي يطول ويقصر، والنار التي تظهر؟ قالت: كساء معي طويل أسود، فأخرجته من السرداب وقضبان مهندبة أدخل بعضها في بعض في الكساء، وأرفعه فيطول، فإذا أردت تقصيره رفعت من الأنابيب واحدة واحدة فيقصر، والنار فتيلة شمع معي في يدي لا أخرج إلا رأسها مقدار ما يضيء الكساء، وأرتني الشمعة والكساء والأنابيب، ثم قالت: قد جازت هذه الحيلة نيّفًا وعشرين سنة، واعترضت فرسان الكوفة وشجعانها، وكل أحد، فما أقدم أحد عليّ غيرك، ولا رأيت أشد قلبًا منك، فحملها الأدرع إلى الكوفة، فردها إلى مواليها، فكانت تحدث بهذا الحديث، ولم ير بعد ذلك أثر غولة، فعلم أن الحديث حق.

يسار الكواعب(١)

قال المبرد: كان يسار الكواعب عبدًا لأناس من بني الحرث بن سعد بن قضاعة، وكان راعيًا في إبلهم، فبعث ببعض نسائهم، وكان أسود، فخدعته امرأة منهم، وأرته أنها قد قبلته وواعدته ليوم، فعلم به بعض أصحابه من الرعاة، فنهاه عنها، وقال له: يا يسار! كُلْ من لحم الجوار، وأشرب من لبن العِشَار، ودع عنك بنات الأحرار، فقال له يسار: إني إذا جئتها زحكت أراد ضحكت ولاعبتني. فأتاها في اليوم الذي واعدته فيه، فقالت: مكانك حتى أطيبك، فعمدت إليه، فجدعت أنفه وأذنه، فرجع إلى صاحبه الذي كان نهاه، فأنكره، فقال: مَن أنت ويلك؟ قال: يسار. قال: فيسار كان لا أنف له ولا أذنين؟ قال: أفما ترى ويحك وبيض العينين، فذهبت مثلًا وسمي يسار الكواعب ممن ذكره جرير حين تزوج الفرزدق إحدى نساء بني شيبان، وزاد في مهرها، فعيّره جرير بذلك فقال:

وإنّي لأخشى إن خطبتَ اليهمُو عَلْيك الّذي لَاقى يَسَارَ الكَواعبِ

(١) الأذكياء ص ٢٠٢.

ثانيًا ـ قصص الحمقى والمغفــلين

أسماء الأحمق

الأحمق، الرقيع، المائق، الأزبق، الهجهاجه، الهلباجة، الخطل، الخرف، الملغ، الماج، المسلوس، المأفون، المأفوك، الأعفك، الفقاقة، الهجأة، الألق، الخوعم الألفت الوطيء، الباحر، الهجرع، المجع، الأنوك، الهبنك، الأهوج، الهبنق، الأخرق، الداعك، الهداك، الهبنقع، المدله، الذهول، الجعبس، الأوره، الهوف، المعضل، الفدم، الهتور، عياياء، طباقاء. فإذا كان يتجه لشيء في أسماء كثيرة وقريب هذه الأسماء على أحمق، وقيل: لو لم يكن من فضيلة الأحمق إلا كثرة أسمائه لكفى. قال ابن الأعرابي: الرقيع هو الذي يحتاج أن يرقع من حمقه. وسئل بعض الأعراب، ما الفرق بين الأحمق والمائق؟ فقال: الأحمق مثل المائح على رأس البئر، والمائق هو مثل المائح الذي هو أسفل البئر، فبينهما من الجودة في الحماقة ما بين هذين. والعرب تقول: أحمق ما يتوجه إلى ما يحسن أن يأتي الغائط. والأخرق هو الذي يخرق الأشياء ولا يحسن لها مأتى.

ومن أسماء النساء ذوات الحمق: الورهاء، الخرقاء، الدفنس، الخذعل، الهوجاء، القرثع، الداعكة، الرطيئة.

قال في المستطرف[١]: قال ابن الأعرابي[٢]؛ الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي، فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر

(١) المستطرف ص ٢٢.

(٢) ابن الأعرابي: هو محمد بن زياد أبو عبد الله راوية وعلامة باللغة من أهل الكوفة، لم ير في علم الشعر أغزر منه وهو ربيب المفضل بن محمد صاحب المفضليات. له تصانيف كثيرة. توفي سنة ٢٣١ هـ.

من الأمور. والحق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت. قال الشاعر:

لكلّ داءٍ دواءٌ يُستطبّ به إلّا الحماقة أعيتْ مَن يُداويها

والحمق مذموم. قال رسول الله ﷺ: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل» ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قلّ دماغه، ومَن قلّ دماغه قلّ عقله، ومَن قلّ عقله فهو أحمق. وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب[1] وكثرة الكلام وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات والخلو من العلم، والعجلة والخفّة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء، إن استغنى بطر وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش، وأن سئل بخل، وإن سأل ألحّ، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق. قال عيسى عليه السلام: «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني» والسكوت عند الأحمق جوابه. ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال: حجر على حجره.

وحُكِيَ أن أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعالى نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث. فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها. وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئًا. قال: ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة. فتصايحا وتخاصما، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا من أن أول مَن يطلع عليهما يكون حكمًا بينهما، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل، فحدثاه بحديثهما، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، قال: صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء، وأعشبت الأرض، فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال: يا

(١) العجب: الاغترار بالنفس.

رب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم أن يدعو عليه، فأوحى الله إليه: لا تدع عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم. ويقال: فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه. وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال:

وما هوجي يا هند إلا سجيةٌ[١]
أجرّ لها ذيلي بحسن الخلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصِهِ[٢]
ولاطمت في البطحاء من كلّ طارقِ

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح، والأحمق المؤذي هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

مَن ضرب المثل بحمقه[٣]

هبنقة

«هبنقة» واسمه يزيد بن ثروان ويقال: ابن مروان أحد بني قيس بن ثعلبة، ومن حمقه أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وقال: أخشى أن أضلّ نفسي ففعلت ذلك لأعرفها به، فحوّلت القلادة ذات ليلة من عنقه لعنق أخيه فلما أصبح قال: يا أخي أنت أنا فمن أنا؟

وأضل بعيرًا فجعل ينادي من وجده فهو له، فقيل له: فلم تنشده؟ قال: فأين حلاوة الوجدان؟ وفي رواية: مَن وجده فله عشرة، فقيل له: لم فعلت هذا؟ قال: للوجدان حلاوة في القلب.

واختصمت طفاوة وبنو راسب في رجل ادّعى كل فريق أنه في عرافتهم، فقال هبنقة: حكمه أن يلقى في الماء فإن طفا فهو من طفاوة وإن رسب فهو من راسب، فقال الرجل إن كان الحكم هذا فقد زهدت في الديوان. وكان إذا رعى

---

(١) السجية: الطبع.
(٢) قلوصة: القلوص: الناقة، والطارق: الآتي ليلًا.
(٣) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي ص ٤١ ـ ٥١.

غنمًا جعل يختار المراعي للسمان وينحي المهازيل ويقول: لا أصلح ما أفسده الله.

أبو غبشـــان

«أبو غبشان» وهو من خزاعة كان يلي الكعبة، فاجتمع مع قصي بن كلّاب بالطائف على الشرب، فلما سكر اشترى منه قصي ولاية البيت بزق خمر، وأخذ منه مفاتيحه وسار بها إلى مكة، وقال: يا معشر قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، ردّها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم. وأفاق أبو غبشان فندم فقيل: (أندم من أبي غبشان) وأخسر من أبي غبشان، وأحمق من أبي غبشان، قال بعضهم:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت ... بزق خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت ... عن المقام وضلّ البيت والنادي

ثم جاءت خزاعة فغالبوا قصيًّا فغلبهم.

شيخ مهو

ومنهم «شيخ مهو» وهي قبيلة من عبد القيس واسمه عبد الله بن بيدرة وكانت إياد تعير بالفسو، فقام رجل منهم بعكاظ ومعه بردًا حبرة فنادى: ألا إنني من إياد فمن يشتري مني عار الفسو ببردي هذين، فقام عبد الله بن بيدرة فقال: أنا، واتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، واشهد الأيادي عليه أهل القبائل وانصرف عبد الله إلى قومه فقال: جئتكم بعار الأبد، فلزم العار بذلك عبد القيس.

عجل بن لجيم

«عجل بن لجيم» بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. من حمقه أنه قيل له: ما سميت فرسك؟ فقام إليه ففقأ إحدى عينيه وقال: سميته الأعور.

قال العنزي:

رمتـنـي بـنـو عـجـل بـداء أبـيـهـم
وأي امرىء في الـنـاس أحـمـق من عـجـل
ألـيـس أبـوهـم عـار عـيـن جـواده
فـصـارت بـه الأمـثـال تـضـرب بـالـجـهـل

حمزة بن بيض

ومنهم «حمزة بن بيض». عن أبي طالب عمر بن إبراهيم أنه قال: دعا حمزة بن بيض حجامًا وكان الحجام ثقيلًا كثير الكلام، فلما أرهف المشاريط قال له: الساعة توجعني، قال: لا، قال: فانصرف اليوم، قال: لا تفعل فإنك محتاج إلى إخراج الدم وذلك بين في وجهك وهي سنّة نبوية، قال: انصرف وعد إلي غدًا، قال: لست تدري ما يحدث إلى غد والمشاريط حادة وإنما هي لحظة، قال: إن كان كما تقول فاعطني فردة بيضة من خصيتك تكون في يدي رهينة إن أوجعتني أوجعتك، فقام الحجام وقال: أرى أن تدع الحجامة في هذا العام، وانصرف.

عن محمد بن العلاء الكاتب أنه قال: قال حمزة بن بيض لغلام له: أي يوم صلّينا الجمعة في الرصافة؟ ففكر الغلام ساعة ثم قال: يوم الثلاثاء، وقيل لحمزة بن بيض: كم تشرب من النبيذ؟ قال: أكثر من رطلين شيء.

أبو أسيد

ومنهم «أبو أسيد». عن محمد بن رجاء قال: قال أبو أسيد وحدث بحديث: كان ذلك في خلافة المهدي قبل موت المنصور وقال: مرّ على أبي أسيد بعيران فقال قوم كانوا حوله: ما أفرهما؟ فقال أبو أسيد: أحدهما أفره من الآخر، قالوا: أيهما أفره؟ قال: القدامى أفره من الأول. وعزّى أبا أسيد رجل عن مصيبته فقال له: رزقنا الله مكافأتك. وعن محمد بن عبد المطلب قال: قال أبو أسيد ونظر إلى رجل نائم: قم، فكم تنام كأنك بعير ناد. وقيل لأبي أسيد: حدّثنا عن ابن عمر، فقال: كان يحف شاربه حتى يبدو بياض إبطيه.

جحا

ومنهم «جحا» ويكنّى أبا الغصن، وقد رُوِيَ عنه ما يدل على فطنة وذكاء، إلا أن الغالب عليه التغفيل، وقد قيل: إن بعض مَن كان يعاديه وضع له حكايات والله أعلم. عن مكي بن إبراهيم أنه يقول: رأيت جحا رجلًا كيسًا ظريفًا وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه، وكان له جيران مخنثون يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه. وعن أبي بكر الكلبي أنه قال: خرجت من البصرة فلما قدمت الكوفة، إذا أنا بشيخ جالس في الشمس، فقلت: يا شيخ أين منزل الحكم؟ فقال لي: وراءك،

فرجعت إلى خلفي، فقال: يا سبحان الله! أقول لك وراءك وترجع إلى خلفك. أخبرني عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: الآية ٧٩] قال: بين أيديهم، فقلت: أبو مَن؟ قال: أبو الغصن، فقلت: الاسم؟ قال: جحا. وقد رُوِيَت لنا هذه الحكاية على غير هذه الصفة. وعن عباد بن صهيب قال: قدمت الكوفة لأسمع من إسماعيل بن خالد، فمررت بشيخ جالس فقلت: يا شيخ، كيف أمر إلى منزل إسماعيل بن خالد؟ فقال: إلى ورائك، فقلت: أرجع؟ فقال: أقول لك وراءك وترجع! فقلت: أليس ورائي خلفي؟ قال: لا. ثم قال: حدّثني عكرمة عن ابن عباس (وكان وراءهم) أي بين أيديهم، قال: قلت بالله مَن أنت يا شيخ؟ قال: أنا جحا، قال المصنّف: وجمهور ما يُروى عن جحا، تغفيل نذكره كما سمعناه.

عن أبي الحسن، قال رجل لجحا: سمعت من داركم صراخًا، قال: سقط قميصي من فوق، قال: وإذا سقط من فوق؟ قال: يا أحمق لو كنت فيه أليس كنت قد وقعت معه؟

وحكى أبو منصور الثعالبي في كتاب «غرر النوادر» قال: تأذى أبو الغصن جحا بالريح مرة فقال يخاطبها: ليس يعرفك إلا سليمان بن داود الذي حبسك حتى أكلت خراك.

وخرج يومًا من الحمام في يوم بارد، فضربته الريح فمسّ خصيتيه، فإذا إحدى بيضتيه قد تقلّصت، فرجع إلى الحمام وجعل يفتش الناس، فقالوا: ما لك؟ فقال: قد سرقت إحدى بيضتي، ثم إنه دفىء وحمى، فرجعت البيضة، فلما وجدها سجد شكرًا لله، قال: كل شيء لا تأخذه اليد لا يفقد.

ومات جار له، فأرسل إلى الحفّار ليحفر له، فجرى بينهما لجاج في أجرة الحفر، فمضى جحا إلى السوق واشترى خشبة بدرهمين وجاء بها، فسُئل عنها فقال: إن الحفار لا يحفر بأقل من خمسة دراهم، وقد اشترينا هذه الخشبة بدرهمين لنصلبه عليها ونربح ثلاثة دراهم ويستريح من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير.

وحُكِيَ أن جحا تبخّر يومًا فاحترقت ثيابه فغضب وقال: والله لا تبخّرت إلا عريانًا.

وهبت يومًا ريح شديدة فأقبل الناس يدعون الله ويتوبون، فصاح جحا يا قوم، لا تعجلوا بالتوبة وإنما هي زوبعة وتسكن.

وذكر أنه اجتمع على باب دار أبي جحا تراب كثير من هدم وغيره، فقال أبوه: الآن يلزمني الجيران برمي هذا التراب واحتاج إلى مؤنة وما هو بالذي يصلح لضرب اللبن فما أدري ما أعمل به، فقال له جحا: إذا ذهب عنك هذا المقدار فليت شعري أي شيء تحسن، فقال أبوه: فعلمنا أنت ما تصنع به فقال: يحفر له آبار ونكبسه فيها.

واشترى يومًا دقيقًا وحمله على حمال فهرب بالدقيق، فلما كان بعد أيام رآه جحا فاستتر منه، فقيل له: ما لك فعلت كذا؟ فقال: أخاف أن يطلب مني كراه.

ووجهه أبوه ليشتري رأسًا مشويًا، فاشتراه وجلس في الطريق، فأكل عينيه وأذنيه ولسانه ودماغه، وحمل باقيه إلى أبيه، فقال: ويحك ما هذا؟ فقال: هو الرأس الذي طلبته. قال: فأين عيناه؟ قال: كان أعمى. قال: فأين أذناه؟ قال: كان أصم. قال: فأين لسانه؟ قال: كان أخرس. قال: فأين دماغه؟ قال: فكان أقرع. قال: ويحك، رده وخذ بدله، قال: باعه صاحبه بالبراءة من كل عيب.

وحُكِيَ أن جحا دفن دراهم في صحراء وجعل علامتها سحابة تظلها. ومات أبوه فقيل له: اذهب واشتر الكفن، فقال: أخاف أن أشتري الكفن فتفوتني الصلاة عليه.

وحُكِيَ أن المهدي أحضره ليمزح معه، فدعا بالنطع والسيف، فلما أقعد في النطع، قال للسياف: انظر لا تصب محاجمي فإني قد احتجمت.

ورأوه يومًا في السوق يعدوا فقالوا: ما شأنك؟ قال: هل مرت بكم جارية رجل مخضوب اللحية؟

واجتاز يومًا بباب الجامع فقال: ما هذا؟ فقيل: مسجد الجامع، فقال: رحم الله جامعًا ما أحسن ما بنى مسجده.

ومرّ بقوم وفي كمّه خوخ، فقال: مَن أخبرني بما في كمي فله أكبر خوخة، فقالوا: خوخ، قال ما قال لكم هذا إلا من أمة زانية.

وسمع قائلًا يقول: ما أحسن القمر، فقال: أي والله خاصة في الليل.

وقال له رجل: أتحسن الحساب بإصبعك؟ قال: نعم، قال: خذ جريبين حنطة، فعقد الخنصر والبنصر، فقال له: خذ جريبين شعيرًا فعقد السبابة والإبهام وأقام الوسطى فقال الرجل: لم أقمت الوسطى، قال: لئلا يختلط الحنطة بالشعير.

ومرّ يومًا بصبيان يلعبون ببازي ميت، فاشتراه منهم بدرهم وحمله إلى البيت، فقالت أمه: ويحك ما تصنع به وهو ميت؟ فقال لها: أسكتي فلو كان حيًّا ما طمعت في شرائه بمائة درهم.

وخرج أبوه مرة إلى مكة فقال له عند وداعه: بالله لا تطل غيبتك واجتهد أن تكون عندنا في العيد لأجل الأضحية.

مـزبــد

ومنهم «مزبد». قال أبو زيد: قيل لمزبد إن فلانًا الحفار قد مات، فقال: أبعده الله، من حفر حفرة سوء وقع فيها.

وقال مزبد لرجل: أيسرك أن تعطى ألف درهم وتسقط من فوق البيت؟ قال: لا، قال مزبد: وددت أنها لي وأسقط من فوق الثريا، فقال له الرجل: ويلك فإذا سقطت مت، قال: وما يدريك! لعلي سقطت في التبانين أو على فرش زبيدة، وقيل له: أيسرك أن تكون هذه الجبة لك؟ قال: نعم وأضرب عشرين سوطًا، قالوا: ولم تقول هذا؟ قال: لأنه لا يكون شيء إلا بشيء.

أزهر الحمـار

ومنهم «أزهر الحمار» كان جالسًا بين يدي الأمير عمرو بن الليث يومًا يأكل بطيخًا فقال له عمرو: كيف طعمه يا أزهر أحلو هو؟ قال: ما أكلت (الخرا) قط؟

وقدم على الأمير عمرو رسول من عند السلطان، فأحضر مائدته، فقال لأزهر: جملنا بسكوتك اليوم، فسكت طويلًا ثم لم يصبر فقال: بنيت في القرية برجًا ارتفاعه ألف خطوة، فأومأ إليه حاجبه أن اسكت، فقال له الرسول: في عرض كم؟ قال: في عرض خطوة، فقال له الرسول: ما كان ارتفاعه ألف خطوة لا يكفي عرضه خطوة! قال: أردت أن أزيد فيه فمنعني هذا الواقف.

وقدم رسول آخر فقيل لأزهر: لا تتكلم اليوم وتجمّل لهذا الرسول، فسكت ساعة فعطس الرسول فأراد أزهر أن يشمته فيقول: يرحمك الله فقال: صبحك الله،

فقال الأمير: أليس قد قدمت إليك أن لا تتكلم! فقال: أردت أن لا يرجع الرسول إلى بغداد فيقول: إن هؤلاء لا يعرفون العربية.

وقال له الطبيب: خذ رمانتين فاعصرهما بشحهما واشرب ماءهما، فعمد إلى رمانتين وقطعة شحم ودقهما في موضع واحد وعصرهما وأخذ ماءهما فشربه.

جامع الصيدلاني

ومنهم «أبو محمد جامع الصيدلاني». قال عليّ بن معاذ: كتبت إلى جامع الصيدلاني كتابًا فكتب جوابه وجعل عنوانه، إلى الذي كتب إليّ. وجاء إليه قوم في أمر حائط فقالوا: يا أبا محمد منذ كم تعرف هذا الحائط؟ فقال: أعرفه منذ كان وهو صغير لفلان.

وقيل له يومًا: كم سنة تعد؟ فقال: إحدى وسبعين سنة، قيل له: فمن تذكر من ولد العباس؟ قال: إيتاخ.

وركب زورقًا فأعطى الملاح قطعة فاستزاده، فقال: مسخني الله ذو أربع قوائم مثلك إن زدتك شيئًا.

ومضى إلى السوق ليشتري لابنه نعلًا، فقيل له: كم سنة؟ فقال: ما أدري ولكنه ولد أول ما جاء العنب الداراني، ومحمد ابني، استودعه الله، أكبر منه بشهرين ونصف سنة.

وكانت له بنت فقيل له: كم سنّها؟ فقال: ما أدري إلا أنها ولدت أيام البراغيث.

وانبثق كنيف لجامع الصيدلاني، فقال لغلامه: بادر وأحضر مَن يصلحه حتى نتغدى به قبل أن يتعشى بنا. وحجّ ابنه في بعض السنين فقال له: يا بني أنت تعلم أنني لا أصبر عنك، فأجهد نفسك أن لا تضحّي إلا عندنا، فإنك تعلم أن أمك لا تأكل شيئًا في العيد حتى تجيء من الصلاة.

الجصـــاص

ومنهم «أبو عبد الله الجصاص». حُكِيَ عنه أنه كان يومًا يأكل مع الوزير، فلما فرغ من الأكل قال: الحمد لله الذي لا يحلف بأعظم منه، ونظر يومًا في المصحف وجعل يقول: رخيص والله، وهذا من فضل ربي، آكل وأتمتع بدرهم،

وإذا في المصحف ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحِجر: الآية ٣] فصحف (ذرهم) فظن أنه درهم.

ودخل ابن الجصاص يومًا على ابن الفرات الوزير الخاقاني وفي يده بطيخة كافور، فأراد أن يعطيها الوزير ويبصق في دجلة، فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في دجلة، فارتاع الوزير وانزعج ابن الجصاص وتحيّر وقال: والله العظيم لقد أخطأت وغلطت أردت أن أبصق في وجهك وأرمي البطيخة في دجلة فقال له الوزير: كذلك فعلت يا جاهل. فغلط في الفعل وأخطأ في الاعتذار.

ونظر يومًا في المرآة فقال: اللهم بيّض وجوهنا يوم تبيض وجوه وسوّدها يوم تسود وجوه.

وقال يومًا أشتهي بغلة مثل بغلة النبيّ ﷺ حتى أسميها دلدل.

وقال يومًا: خريت على يدي، فلو غسلتها ألف مرة لم تنظف حتى أغسلها مرتين.

ونظر يومًا في المرآة فقال لإنسان عنده: ترى لحيتي طالت؟ فقال له: المرآة في يدك، فقال: صدقت، ولكن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب.

وكسر يومًا لوزًا فطارت لوزة فقال: لا إلـه إلا الله، كل شيء يهرب من الموت حتى البهائم.

وأهدى إلى العباس بن الأحنف الوزير نبقًا وكتب إليه «تفيلت[1] أن تبقى فأهديتك النبقا» فكتب في جوابه «ما تفيلت يا أبا عبد الله ولكن تبقرت[2]». وكان ابن الجصاص يسبح كل يوم فيقول: نعوذ بالله من نعمه، ونتوب إليه من إحسانه، ونستقيله من عافيته، ونسأله عوائق الأمور حسبي الله وأنبياؤه والملائكة الكرام. ومن دعائه اللهم ادخلنا في بركة القصور على قبورهم والبيع والثغور الكنائس، سبحان الله قبل الله سبحان الله بعد الله.

وأتاه غلامه يومًا بفرخ فقال: انظروا إلى هذا الفرخ ما أشبهه بأمه، ثم قال: أمه ذكر أم أنثى؟

واعتلّ مرة فقيل له: كيف تجدك؟ فقال: الدنيا كلها محمومة.

(١) يريد (تفاءلت).

(٢) أي لم تصبح فيلاً ولكنك أصبحت بقرة.

وذكر محمد بن أحمد الترمذي قال: كنت عند الزجاج أعزيه بأمه وعنده الخلق من الرؤساء والكتاب، إذ أقبل ابن الجصاص فدخل ضاحكًا وهو يقول: الحمد لله قد سرّني والله يا أبا إسحٰق، فدهش الزجاج ومَن حضر، وقيل له: يا هذا، كيف سرّك ما غمّه وغمّنا؟ فقال: ويحك، بلغني أنه هو الذي مات، فلما صح عندي أنها هي التي ماتت سرّني ذلك، فضحك الناس جميعًا.

وكتب ابن الجصاص إلى وكيل له يحمل إليه مائة مَنٍّ قطنًا فحملها، فلما حلجها خرج منها ربع الوزن، فكتب إلى الوكيل لم يحصل من هذا القطن إلا خمسة وعشرون منًّا فلا تزرع بعد هذا إلا قطنًا محلوجًا وشيئًا من الصوف أيضًا.

ودخل يومًا بستانًا فثار به المرار، فطلب بصلًا بخل ليطفىء المرار، ولم يكن عند البستاني فقال له: لِمَ لَم تزرع لنا بصلًا بخل.

وكان يومًا خلف الإمام فقال الإمام: ولا الضالين، فقال ابن الجصاص: أي لعمري.

وكان إذا سبح يقول: حسبي الله وحدي.

وقال يومًا: ينبغي للإنسان أن يصير إلى المقابر ليغتاظ، أراد يسير ليتعظ.

وقال يومًا: كان الفأر يؤذينا في سقوفنا، فوصف لي إنسان دواء فما سمعت لهم حسوه، وأراد حسًّا.

وذكر يومًا ثلاثة أصناف من الثياب ثم قال: إذا لبست واحدًا من هؤلاء فما أبالي بغيرها.

وقال يومًا: كان الهواء البارحة باردًا، إلا أني لم أجده.

وقدمت له هريسة من نعامة فاستطابها فقال: كيف لو أكلتها بقرية؟ أراد سكباجًا. ومرض فقيل له: لعلك تناولت شيئًا ضارًّا؟ فقال: لا والله ما أكلت إلا مزورة بفرخ فروج.

وذكر بين يديه رجل فقال: أخبرتني أمه أنه ولد أبوه وله ثمانون سنة.

وقدمت إليه اسفيداجة فقال لمن حوله: كلوا فهذه أُم القرى.

وقال يومًا: قمت البارحة إلى المستراح وقد انطفأ القنديل، فما زلت أتلمظ المقعدة حتى وجدتها.

ودخل يومًا على مريض فجلس عنده، فشكا إليه الكتف فقال: والله ما أغفل من وجع كتفي هذين، وضرب بيديه على ركبتيه.

وقد نقل عن ابن الجصاص ما يدل على أنه كان يقصد التطابع لا أنه كان بهذه المثابة. عن عليّ بن أبي عليّ التنوخي عن أبيه قال: اجتمعت ببغداد سنة ست وخمسين وثلاثمائة مع أبي عليّ بن أبي عبد الله بن الجصاص فرأيته شيخًا حسنًا طيب المحاضرة، فسألته عن الحكايات التي تنسب إلى أبيه، مثل قوله خلف الإمام حين قرأنا ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] فقال: أي لعمري بدلًا عن آمين، ومثل قوله: أراد أن يقبّل رأس الوزير فقيل له: أفيه ذهب؟ فقال: لو كان في رأس الوزير خرا لقبّلته، ومثل قوله وقد وصف مصحفًا بالعتق فقال: كسروي! فقال: أما أي لعمري ونحو هذا فكذب، وما كان فيه ملامة تخرجه إلى هذا وما كان إلا من أدهى الناس، ولكنه يطلق بحضرة الوزراء قريبًا مما يحكى عنه لسلامة طبع كان فيه، ولأنه كان يحب أن يصوّر نفسه عندهم بصورة الأبله ليأمنه الوزراء لكثرة خلواته بالخلفاء فيسلّم عليهم. وأنا أحدثك عنه حديثًا حدّثنا به تعلم معه أنه كان في غاية الحزم، فإنه حدّثني فقال: إن أبا الحسن بن الفرات لما ولي الوزراة قصدني قصدًا قبيحًا، فأنفذ العمال إلى ضياعي وأمر بقبض معاملاتي وبسط لسانه بثلبي وتنقصني في مجلسه، فدخلت يومًا داره فسمعت حاجبه يقول وقد وليت: أي بيت مال يمشي على وجه الأرض ليس له مَن يأخذه؟ فقلت: إن هذا من كلام صاحبه وإني مسلوب، وكان عندي في ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عينًا وجواهر، سوى ما يحتويه عليه ملكي. فسهرت ليلتي أفكر في أمري معه، فوقع لي الرأي في الثلث الأخير، فركبت إلى داره في الحال فوجدت الأبواب مغلقة فطرقتها، فقال البوابون: مَن هذا؟ قلت: أين الجصاص؟ فقالوا: ليس هذا وقت وصول، والوزير نائم، فقلت: عرفوا الحجاب إني حضرت في مهم، فعرفوهم فخرج إليّ أحدهم فقال: إنه إلى ساعة ينتبه فيجلس، فقلت: الأمر أهم من ذلك، فنبّهه وعرّفه عني، فدخل وأبطأ ساعة ثم خرج وأدخلني إلى دار حتى انتهيت إلى مرقده وهو جالس على سرير له وحواليه نحو خمسين فراشًا وغلمان كأنهم حفظة وهو مرتاع قد ظنّ أن حادثة حدثت وأني جئته برسالة الخليفة وهو متوقع لما أورده، فقام فرفعني وقال: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ هل حدثت حادثة أو معك من الخليفة رسالة؟ قلت: خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئت إلا

في أمر يخصّني ويخصّ الوزير ولم تصلح المفاوضة فيه إلا على خلوة، فسكن وقال لمن حوله: انصرفوا. فمضوا وقال: هات، قلت: أيها الوزير إنك قد قصدتني أقبح قصد وشرعت في هلاكي وإزالة نعمتي، وفي إزالتها خروج نفسي وليس عن النفس عوض، ولعمري إني أسأت في خدمتك وقد كان في هذا التقويم بلاغ وجد عندي، وقد اجتهدت في إصلاحك بكل ما قدرت عليه، وأبيت إلا الإقامة على إيذائي، وليس شيء أضعف في الدنيا من السنور، وإذا عوينت في دكان البقال وظفر صاحبها بها ولزها إلى زاوية ليخنقها وثبت عليه فخدشت وجهه وبدنه ومزّقت ثيابه وطلبت الحياة بكل ما يمكنها، وقد وجدت نفسي معك في هذه الصورة ولست أضعف من السنور بطشًا، وقد جعلت هذا الكلام عذرًا بيّنًا فإن نزلت تحت حكمي في الصلح وإلا فعلي وعلى، وحلفت أيمانًا مغلظة لأقصدن الخليفة الساعة ولأحوّلن إليه من خزائني ألفي ألف دينار عينًا وورقًا ولا أصبح إلا وهي عنده، وأنت تعلم قدرتي عليها، وأقول خذ هذا المال وسلّم ابن الفرات إلى فلان واستوزره، واذكر له أقرب مَن يقع في نفسي أنه يجيب إلى تقليده ممن له وجه مقبول ولسان عذب وخط حسن، ولا أعتمد إلا على بعض كُتّابك فإنه لا يفرق بينك وبينهم إذا رأى المال حاضرًا، فيسلّمك في الحال ويراني المتقلد بعين مَن أخذه وهو صغير فجعله وزيرًا وغرم عليه هذا المال الكثير فيخدمني ويتدبر برأيي وأسلمك إليه فيفرغ عليك العذاب حتى يأخذ ألفي ألف الدينار منك بأسرها، وأنت تعلم أن حالك تفي بهذا ولكنك تفتقر بعدها ويرجع المال إليّ ولا يذهب مني شيء، وأكون قد أهلكت عدوي، وشفيت غيظي، واسترجعت مالي، وصفت نعمتي، وزاد محلي بصرفي وزيرًا وتقليدي وزيرًا، فلما سمع هذا الكلام سقط في يده وقال: يا عدو الله أوَ تستحل هذا؟ قلت: لست عدو الله، بل عدو الله مَن استحلّ مني هذا الذي أخرجني إلى الفكر في مثل هذا، ولم لا أستحل مكروه مَن أراد هلاكي وزوال نعمتي؟ فقال: أو إيش؟ فقلت: أو تحلف الساعة بما استحلفك به من الإيمان المغلظة أنك تكون لي لا علي في صغير أمري وكبيره، ولا تنقص لي رسمًا ولا تغير لي معامل ولا تدسس علي المكاره ولا تشر لي في سوء أبدًا ظاهرًا ولا باطنًا، فقال: وتحلف أنت أيضًا لي بمثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة والمؤازرة؟ فقلت: افعل، فقال: لعنك الله فما أنت إلا إبليس والله لقد سحرتني، واستدعى دواة وعملنا نسخة يمين فأحلفته أولًا بها ثم حلفت له،

فلما أردت القيام قال: يا أبا عبد الله لقد عظمت في نفسي وخففت ثقلًا عني، والله ما كان المقتدر يفرق بين كفاءتي وبين أخس كتابي مع المال الحاضر، فليكن ما جرى مطويًا فقلت: سبحان الله. فقال: إذا كان غدًا فصر إلى المجلس لتر ما أعاملك به، فنهضت فقال: يا غلمان بأسركم بين يدي أبي عبد الله، فخرج بين يدي نحو مائتي غلام وعدت إلى داري، ولما طلع الفجر واسترحت جئته في المجلس فعرفني الذين كانوا بحضرته وعرفهم ما جرى من التفريط التام وعاملني بما شاهده الحاضرون، وأمر بإنشاء الكتب إلى عمال النواحي باعزازي وإعزاز وكلاتي وعمالي وصيانة أسبابي وضياعي، فشكرت الله وقمت، فقال: يا غلمان بين يديه فخرج الحجاب يجردون سيوفهم بين يدي والناس يعجبون، ولم يعلم أحد سبب ذلك فما حدثت بذلك إلا بعد القبض عليه. قال لي أبو علي: هل هذا فعل من يحكى عنه تلك الحكايات؟ قلت: لا. وقد حكى التنوخي أن ابن الجصاص صودر في أيام المقتدر فارتفعت مصادراته سوى ما بقي له من الظاهر وكانت ستة آلاف ألف دينار.

قال التنوخي: وحدّثني أبو محمد عبد الله بن أحمد بن مكرم قال: حدّثني بعض شيوخنا قال: كنا بحضرة أبي عمرو القاضي فجرى ذكر ابن الجصاص وغفلته فقال أبو عمرو: معاذ الله ما هو كما يقال عنه، ولقد كنت عنده منذ أيام وفي صحن داره سرادق مضروب فجلسنا بالقرب منه نتحدث فإذا بصرير نعل من خلق السرادق فقال: يا غلام جئني بصاحب هذا النعل، فأخرجت إليه جارية سوداء فقال: ما كنت تصنعين هٰهنا، قالت: جئت إلى الخادم أعرفه أني قد فرغت من الطبيخ وأستأذن في تقديمه، فقال: انصر في لشأنك، فعلمت أنه أراد يعرفني بذلك الوطء أن وطء جارية سوداء مبتذلة وأنها ليست من حرمه، فهل يكون هذا من التغفيل؟ عن أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: حدّثني أبو القاسم الجهني قال: كنت بحضرة أبي الحسن بن الفرات وابن الجصاص حاضر فذكروا ما يعتقده[1] الناس لأولادهم، فقال ابن الفرات: ما أجل ما يعتقده الناس لأعقابهم؟ فقال: مَن حضر الضياع، وقال بعضهم: العقار، وقال بعضهم: العقار الصامت، وقال بعضهم: الجوهر الخفيف الثمين فإن بني

(١) أي ما يقتنيه لأولادهم من الضياع والأموال.

أمية سئلوا أي الأموال كانت أنفع لكم في نكبتكم؟ فقالوا: الجوهر الخفيف المثمن كنا نبيعه فلا نطالب بمعرفته والواحدة منه أخف من ثمنها، وابن الجصاص ساكت فقال له ابن الفرات: ما تقول أنت يا أبا عبد الله؟ فقال: أجل ما يعتقده الناس لأولادهم الضياع والأخوان، فإنهم إن اعتقدوا لهم ضياعًا أو عقارًا أو صامتًا من غير إخوان ضاع ذلك وتمحق، وأحدث الوزير بحديث جرى منذ مديدة يعلم منه صدق قولي، فقال له ابن الفرات: ما هو؟ فقال: الناس يعرفون أن أبا الحسن كان رجلًا مشتهرًا بالجوهر يعتقده لنفسه وأولاده وجواريه فكنت جالسًا يومًا في داري فجاءني بوابي فقال: بالباب امرأة تستأذن، فأذنت لها، فدخلت فقالت لي: تخلي لي مجلسك، فأخليته، فقالت لي: أنا فلانة جارية أبي الحسن، فعرفتها وبكيت لما شاهدتها عليه ودعوت غلماني ليحضروا لي شيئًا أغير به حالها فقالت: لا تدع أحدًا فإني أضنك دعوتهم لتغير حالي وأنا في غنية وكفاية ولم أقصدك لذلك ولكن لحاجة هي أهم من هذا، فقلت: ما هي؟ فقالت: تعلم أن أبا الحسن لم يكن يعتقد لنا إلا الجوهر، فلما جرى وتشتتنا وزال عنا ما كنا فيه، كان عندي جوهر قد سلمه إلي ووهبه لي ولابنته مني فلانة وهي معي هٰهنا فخشيت أن أظهره بمصر فيؤخذ مني، فتجهزت للخروج وخرجت مستخفية وابنتي معي فسلّم الله تعالى ووصلنا هذا البلد وجميع ما لنا سالم، فأخرجت من الجوهر شيئًا قيمته خمسة آلاف دينار وسرت به إلى السوق فبلغ ألفي دينار، فقلت: هاتوا فلما أحضروا المال قالوا: أين صاحب المتاع؟ قلت: أنا هي، قالوا: ليس محلك أن يكون هذا لك وأنت لصة، فعلقوا بي ليحملوني إلى صاحب الشرطة فخشيت أن أقع فأعرف فيؤخذ الجوهر وأطالب أنا بمال، فرشوت القوم دنانير كانت معي وتركت الجوهر عليهم وأقبلت، فما نمت ليلتي غمًّا مما جرى عليَّ من خشية الفقر، لأن مالي هذا سبيله، فأنا غنية فقيرة فلم أدر ما أفعل، فذكرت ما بيننا وبينك فجئتك، والذي أريد منك جاهك وبذله لي حتى تخلص لي حق وما أخذ مني وتبيع الباقي وتخلص لي ثمنه وتشتري لي ولابنتي به عقارًا نقتات من غلته. قال: فقلت: مَن أخذ منك الجوهر؟ قالت: فلان، فأنفذت إليه فاستخليت به وقلت: هذه امرأة من داري وإنما أنفذت المتاع لأعرف قيمته ولئلا يراني الناس أبيع شيئًا بدون قيمته فلم تعرضتم لها؟ فقالوا: ما علمنا ذلك، ورسمنا كما تعلم لا نبيع شيئًا إلا بمعرفة، ولما طالبناها بذلك اضطربت فخشينا أن تكون لصة، فقلت له: أريد الجوهر

الساعة، فجاء به، فلما رأيته عرفته، وكنت أنا اشتريته لأبي الحسن بخمسة آلاف دينار، فأخذته منه وصرفته، وأقامت المرأة في داري وتلطفت لها في بيع الجوهر بأوفى ثمن، فخصّها منه أكثر من خمسة آلاف دينار، فابتعت لها بذلك ضياعًا ومسكنًا فهي تعيش في ذلك وولدها إلى الآن. فنظرت فإذا الجوهر لما كان معها بلا صديق حجر، بل كان سببًا لمكروه، ولما وجدت صديقًا يعينها حصل لها منه هذا المال الحليل فالصديق أفضل من العقد، فقال ابن الفرات: أجدت يا أبا عبد الله.

التي نقضت غزلها

قال مقاتل بن سليمان: هي امرأة من قريش تسمى «ريطة» بنت عمرو بن كعب كانت إذا غزلت نقضته، قال ابن السائب: اسمها رايطة، وقال أبو بكر بن الأنباري: اسمها ريطة بنت عمرو المرية ولقبها الجعرا وهي من أهل مكة وكانت معروفة عند المخاطبين فعرفوها بصنعتها ولم يكن لها نظير في فعلها وكانت متناهية الحمق تغزل الغزل من القطن أو الصوف فتحكمه ثم تأمر خادمها بنقصه، قال بعضهم: كانت تغزل هي وجواريها ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن.

دغـــة

«دغة» بنت مغنج، ومغنج هو ربيعة بن عجل، واسم دغة ماوية ودغة لقب، وكانت قد تزوجت صغيرة في بني العنبر فحبلت، فلما جاءها المخاض ظنت أنها أحدثت فقالت لضرتها: يا هنتهاه هل يفتح الجعر فاه؟ قالت: نعم ويدعو أباه، فمضت ضرتها فأخذت الولد، فبنو العنبر تنسب إليها فسموا بنو الجعر لذلك. ورأت يافوخ ولدها يضطرب فشقته بسكين وأخرجت دماغه، وقالت: أخرجت هذه المادة من دماغه ليسكن وجعه. وذكر عنها أنها كانت حسنة الثغر فولدت غلامًا، وكان أبوه يقبله ويقول وا بأبي دردرك، فظنت أن الدردر أعجب إليه، فحطمت أسنانها، فلما قال: وا بأبي دردرك، قالت: يا شيخ كلنا ذو دردر، فقال: أعييتني باشر فكيف بدردر (والأشر التحزيز في أطراف أسنان الأحداث والدردر مغارز الأسنان) فضرب المثل بحمق دغة.

ريطـــة

«ريطة» بنت عامر بن نمير كانت تعلم رأس أولادها بالقزع لتعرف أولادها من أولاد غيرها.

حماقة عيسى بن صالح(١)

قال محمد بن زياد: كان عيسى بن صالح بن علي يحمق وكان له ابن يقال له عبد الله من عقلاء الناس فتولّى عيسى جند (قنسرين) فاستخلف ابنه على العمل، قال ابنه: فأتاني رسوله في بعض الليل يأمرني بالحضور في وقت مبكر لا يحضر فيه إلا لأمر مهم، فتوهمت أن كتابًا ورد من الخليفة في بعض الأشياء التي يحتاج فيها إلى حضوري وحضور الناس، فلبست السواد وتقدمت بالبعثة إلى وجوه القواد وركبت إلى داره، فلما دخلتها سألت الحجاب هل ورد كتاب من الخليفة أو حدث أمر؟ فقالوا: لم يكن من هذا شيء، فصرت من الدار إلى موضع تخلف الحجاب عنه فسألت الخدام أيضًا، فقالوا: مثل مقالة الحجاب، فصرت إلى الموضع الذي هو فيه، فقال لي: ادخل يا بني، فدخلت فوجدته على فراشه، فقال: علمت يا بني إني سهرت الليلة في أمر أنا مفكر فيه إلى الساعة، قلت: أصلح الله الأمير، ما هو؟ قال: اشتهيت أن يصيرني الله من الحور العين ويجعل في الجنة زوجي يوسف النبيّ فطال في ذلك فكري، قلت: أصلح الله الأمير، فالله عزّ وجلّ قد جعلك رجلًا فأرجو أن يدخلك الجنة ويزوجك من الحور العين، فإذا وقع هذا في فكرك فهلّا اشتهيت محمدًا ﷺ أن يكون زوجك فإنه أحق بالقرابة والنسب وهو سيّد الأولين والآخرين في أعلى عليين؟ فقال: يا بني لا تظن أني لم أفكر في هذا فقد فكّرت فيه ولكن كرهت أن أغيظ السيدة عائشة.

رسالة مستعجلة(٢)

المدائني قال: جاء رجل من أشراف الناس إلى بغداد، فأراد أن يكتب إلى أبيه كتابًا يخبره، فلم يجد أحدًا يعرفه فانحدر بالكتاب إلى أبيه وقال: كرهت أن يبطىء عليك خبري ولم أجد أحدًا يجيء بالكتاب فجئت أنا به ودفعه إليه.

خطبة للمهلب(٣)

وبلغنا أن المهلب ولى بعض الأعراب كورة بخراسان وعزل واليها فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اقصدوا لما أمركم الله به، فإنه

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ٩٢.
(٢) نفس المصدر ص ٩٣.
(٣) نفس المصدر ص ٩٤.

رغبكم في الآخرة الباقية وزهدكم في الدنيا الفانية، فرغبتم في هذه وزهدتم في تلك، فيوشك أن تفوتكم الفانية ولا تحصل لكم الباقية فتكونوا كما قال الله تعالى: (لا ماءك أبقيت ولا حرك أنقيت)[1] واعتبروا بالمغرور الذي عزل عنكم سعى وجمع فصار ذلك كله إلى علي رغم أنفه وصار كما قال الله سبحانه وتعالى:

أبشري أم خالد رب ساع لقاعد

ثم نزل عن المنبر.

خطبة الجمعة[2]

قيل: إن يزيد بن المهلب وليّ إعرابيًا على بعض كور خراسان فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر وقال: الحمد لله ثم ارتجّ عليه فقال: أيها الناس إياكم والدنيا فإنكم لم تجدوها إلا كما قال الله تعالى:

وما الدنيا بباقية لحي وما حي على الدنيا بباقي

فقال: كاتبه أصلح الله الأمير هذا شعر، قال: فالدنيا باقية على أحد؟ قال: لا، قال: فيبقى عليها أحد؟ قال: لا، قال: فما كلفتك إذن؟

استقللتها[3]

وبلغنا أن بعض العرب خطب في عمل وليه فقال في خطبته: إن الله خلق السمٰوات والأرض في ستة أشهر، فقيل له: في ستة أيام، فقال: والله أردت أن أقولها ولكن استقللتها.

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب[3]

أبو بكر النقاش قال: كتب كاتب منصور بن النعمار إليه من البصرة أنه أصاب لصًا فكره الإقدام على قطعه دون الاستطلاع على أمره، وأنه خياط، فكتب إليه: اقطع رجله ودع يده، فقال: إن الله أمر بغير ذلك، فكتب إليه: أنفذ ما أمرتك به، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

---

(١) مثل معروف ذكره الميداني في مجمع الأمثال.

(٢) أخبار الحمقى والمغفلين، ص ٩٤. (٣) نفس المصدر ص ٩٥.

مقوم الناقة

قال المدائني: كان عبد الله بن أبي ثور والي المدينة فخطبهم فقال: أيها الناس اتقوا الله وارجوا التوبة، فإنه أهلك قوم صالح في ناقة قيمتها خمسمائة درهم. فسموه مقوم الناقة وعزله الزبير.

حماقة قباذ

وعن جرير بن المقفع عن وزير كسرى قال: كان قباذ أحمق، كان يأتي البستان فيشم الريحان في منبته ويقول: لا أقلعه رحمة له.

حماقة نصر بن مقبل

عن نصر بن مقبل ـ وكان عامل الرشيد على الرقة أنه أمر بجلد شاة الحد، فقالوا: إنها بهيمة، قال: الحدود لا تعطل وإن عطلتها فبئس الوالي أنا، فانتهى خبره إلى الرشيد فلما وقف بين يديه قال: مَن أنت؟ قال: مولى لبني كلاب، فضحك الرشيد وقال: كيف بصرك بالحكم؟ قال: الناس والبهائم عندي واحد في الحق، ولو وجب الحق على بهيمة وكانت أمي أو أختي لحددتها ولم تأخذني في الله لومة لائم، فأمر الرشيد أن لا يستعان به.

الموت خير للجاهل من الحياة

حضر بعض حكماء الهند مع وزير ملكهم وكان الوزير ركيكًا فقال للحكيم: ما العلم الأكبر؟ قال: الطب، قال: فإني أعرف من الطب أكثره، قال: فما دواء المبرسم أيها الوزير؟ قال: دواؤه الموت حتى تقل حرارة صدره، ثم يعالج بالأدوية الباردة ليعود حيًا، قال: ومَن يحييه بعد الموت؟ قال: هذا علم آخر وجد في كتاب النجوم ولم أنظر في شيء منه إلا في باب الحياة فإني وجدت في كتاب النجوم أن الحياة للإنسان خير من الموت، فقال الحكيم: أيها الوزير الموت على كل حال خير للجاهل من الحياة.

حسبة ذكية

عرض أبو خندف دوابه فأصاب فيها واحدة عجفاء مهزولة فقال: هاتوا الطباخ، فبطحه وضربه خمسين مقرعة وقال له: ما لهذه الدابة على هذه الحال؟ قال: يا سيدي أنا طباخ ما علمي بأمر الدواب، قال: بالله أنت طباخ! فلم لم تقل

لي، اذهب الآن فإذا كان غدًا أضرب السائس ستين مقرعة يفضل عشرون فطب نفسًا.

ثلاثة وهم رجل واحد(١)

وروى أبو الحسن محمد بن هلال الصابي قال: خرج قوم من الديلم إلى أقطاعهم فظفروا باللص المعروف بالعراقي فحملوه إلى الوزير أبي عبد الله المهلبي فتقدم بإحضار أبي الحسين أحمد بن محمد القزويني الكاتب وكان ينظر في شرطة بغداد، فقال له المهلبي: هذا اللص العيار العراقي الذي عجزتم عن أخذه فخذوه واكتب خطك بتسليمه، فقال: السمع والطاعة إلى ما يأمر به الوزير، ولكنك تقول ثلاثة وهذا واحد فكيف اكتب خطي بتسليم ثلاثة؟ فقال: يا هذا، هذا العدد صفة لهذا الواحد فكتب يقول: أحمد بن محمد القزويني الكاتب تسلمت من حضرة الوزير اللص العيار العراقي ثلاثة وهم واحد رجل، وكتب بخطه في التاريخ. فضحك الوزير وقال لنصراني: هناك قد صحح القزويني مذهبكم في تسليم هذا اللص.

ضـرطة(٢)

صعد بعض الولاة المنبر فخطب فقال: إن أكرمتموني أكرمتكم وإن أهنتموني ليكونن أهون علي من ضرطتي هذه، وضرط ضرطة.

زن من الثاني(٢)

جاز بعض الأمراء المغفلين على بياع الثلج فقال: أرني ما عندك، فكسر له قطعة وناوله، فقال: أريد أبرد من هذا، فكسر له من الجانب الآخر، فقال: كيف سعر هذا؟ فقال: رطل بدرهم ومن الأول رطل ونصف بدرهم، فقال: زن من الثاني.

أبو دلامة وعافية(٣)

عن ابن الأعرابي قال: خاصم أبو دلامة رجلًا إلى عافية فقال:

لقد خاصمتني غواة الرجال ... وخـاصـمـتـهـم سـنـة وافيـه

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ٩٨.
(٢) نفس المصدر ص ٩٩.
(٣) نفس المصدر ص ١٠١.

فما أدحض الله لي حجة ... وما خيب الله لي قافيه
فمن كنت من جوره خائفًا ... فلست أخافك يا عافيه

فقال له عافية: لأشكونك لأمير المؤمنين، قال: لم تشكوني؟ قال: لأنك هجوتني. قال: والله لئن شكوتني إليه ليعزلنك، قال: لم؟ قال: لأنك لا تعرف الهجو من المدح. (عافية هذا هو ابن زيد القاضي ولاه المهدي القضاء على بغداد).

المثني على نفسه[(١)]

حدّث عبد الرحمٰن بن مسهر قال: ولّاني القاضي أبو يوسف القضاء (بجبل) وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة فسألت أهل جبل أن يثنوا علي فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفرّقوا، فلما آيسوني من أنفسهم سرحت لحيتي وخرجت فوقفت له، فوافى وأبو يوسف في الحراقة، فقلت: يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل، قد عدل فينا وفعل وصنع، وجعلت أثني على نفسي، فرآني أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك، فقال هارون: مِمَ تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي، فضحك هارون حتى فحص برجليه وقال: هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله، فعزلني.

الأمير أخّر الجمعة

عن عليّ بن هشام أنه قال: كان للحجاج قاض بالبصرة من أهل الشام يقال له: أبو حمير، فحضرت الجمعة فمضى يريدها، فلقيه رجل من العراق فقال له: يا أبا حمير فأين تذهب؟ قال: إلى الجمعة، فقال: ما بلغك أن الأمير قد أخّر الجمعة اليوم؟ فانصرف راجعًا إلى بيته، فلما كان من الغد قال له الحجاج: أين كنت يا أبا حمير لم تحضر معنا الجمعة؟ قال: لقيني بعض أهل العراق فأخبرني أن الأمير أخّر الجمعة فانصرفت، فضحك الحجاج وقال: يا أبا حمير أما علمت أن الجمعة لا تؤخر.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٠١.

صاحب الشرطة ينظر في الدماء

قال ابن خلف: قال بعض الرواة، تقدم رجلان إلى أبي العطوف قاضي حران فقال أحدهما: أصلح الله القاضي، هذا ذبح ديكًا لي فخذ لي بحقي، فقال لهما القاضي: عليكما بصاحب الشرطة فإنه ينظر في الدماء.

حبس صاحب الحق

قال أبو الفضل الربعي: حدّثنا أبي قال: سأل المأمون رجلًا من أهل حمص عن قضاتهم، قال: يا أمير المؤمنين، إن قاضينا لا يفهم وإذا فهم وهم، قال: ويحك كيف هذا؟ قال: قدم عليه رجل رجلًا فادّعى عليه أربعة وعشرين درهمًا، فأقرّ له الآخر، فقال: أعطه، قال: أصلح الله القاضي، إن لي حمارًا اكتسب عليه كل يوم أربعة دراهم، أنفق على الحمار درهمًا وعلي درهمًا وأدفع له درهمين، حتى إذا اجتمع ماله غاب عني فلم أره فأنفقتها، وما أعرف وجهًا إلا أن يحبسه القاضي اثنا عشر يومًا حتى أجمع له إياها، فحبس صاحب الحق حتى جمع ماله، فضحك المأمون وعزله.

استحلف جاره

وعن أبي بكر الهذلي قال: كان ثمامة بن عبد الله بن أنس على القضاء بالبصرة قبل بلال بن أبي بردة وكان مخلطًا، فاستدعت امرأة إلى ثمامة على رجل أودعته شيئًا ولم يكن لها بينة، فأراد استحلافه لها، فقالت: إنه رجل سوء فيحلف ويذهب حقي، ولكن استحلف إسحٰق بن سويد فإنه جاره، فأرسل إلى إسحٰق واستحلفه.

قاضي تاهرت

حكى أبو الخير الخياط عن بعض أصحابه قال: دخلت (تاهرت) فإذا فيها قاضٍ من أهلها وقد أتى رجل جنى جناية ليس لها في كتاب الله حد منصوص ولا في السنة، فأحضر الفقهاء فقال: إن هذا الرجل جنى جناية وليس لها في كتاب الله حكم معروف فما ترون؟ فقالوا بأجمعهم: الأمر لك، قال: فإني رأيت أن أضرب المصحف بعضه ببعض ثلاث مرات، ثم أفتحه فما خرج من شيء عملت به، قالوا له: وفقت ففعل بالمصحف ما ذكره، ثم فتح فخرج قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ [القَلَم: الآية ١٦] فقطع أنف الرجل وخلّى سبيله.

كاتب أحمق[١]

وعن الحسين بن السميدع الإنطاكي قال: كان عندنا بإنطاكية عامل من حلب وكان له كاتب أحمق، فغرق في البحر (شلنديتان) من مراكب المسلمين التي يقصد بها العدو، فكتب ذلك الكاتب عن صاحبه إلى العامل بحلب بخبرهما: بسم الله الرحمٰن الرحيم، اعلم أيها الأمير أعزه الله تعالى إن شلنديتين أعني مركبين قد صفقا من جانب البحر أي غرقا من شدة أمواجه فهلك من فيهما أي تلفوا، قال: فكتب إليه أمير حلب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ورد كتابك أي وصل وفهمناه أي قرأناه أدِّب كاتبك أي اصفعه واستبدل به أي اعزله فإنه مائق أي أحمق والسلام أي انقضى الكتاب.

صام الناس يوم الفطر

عن أبي علي النميري قال: تراءينا هلال شوال، فأتينا سوار بن عبد الله لنشهد عنده، فقال حاجبه: أنتم مجانين، الأمير لم يختضب بعد ولم يتهيأ ولئن وقعت عينه عليكم ليضربنكم مائتين، انطلقوا، فانصرفنا وصام الناس يوم الفطر.

شهادة أحمق

عن أبي بكر النقاض قال: قيل لعبد الله بن مسعود القاضي: تجيز شهادة العفيف التقي الأحمق؟ قال: لا وسأريكم هذا، ادع يا غلام أبا الورد حاجبي، ـ وكان أحمق ـ فلما أتاه قال: اخرج فانظر ما الريح، فخرج ثم رجع فقال: شمال يشوبها جنوب، فقال: كيف ترون أترونني أجيز شهادة مثل هذا؟

تعـــزيـــة

عن عبد الله بن إبراهيم الموصلي قال: نابت الحجاج في صديق له مصيبة ورسول لعبد الملك شامي عنده، فقال الحجاج: ليت إنسانًا يعزيني بأبيات، فقال الشامي: أقول؟ قال: قل، فقال:

(وكل خليل سوف يفارق خليله، يموت أو يصاب أو يقع من فوق البيت أو يقع البيت عليه أو يقع في بئر أو يكون شيئًا لا نعرفه) فقال الحجاج: قد سليتني عن مصيبتي بأعظم منها في أمير المؤمنين إذ وجه مثلك لرسولًا.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٠٥.

رسالة إلى طبيب

كتب بعضهم إلى طبيب: بسم الله الرحمـٰن الرحيم، ويلك يا يوحنا وامتع بك، قد شربت الدواء خمسين مقعدًا، المغص والتقطيع يقتل بطني والعينين والرأس، فلا تؤخر باحتباسك عني فسوف تعلم أني سأموت وتبقى بلا أنا، فعلت موفقًا إن شاء الله.

نسي علّته

كتب بعضهم إلى صديق له: بسم الله الرحمـٰن الرحيم، وجعلني الله فداءك، لولا علة نسيتها لسرت إليك حتى أُعرفك بنفسي والسلام.

لم يحدث إلا كل خير

كتب رجل من البصرة إلى أبيه: كتبت إليك يا أبت نحن كما يسرك الله عونه وقوته، لم يحدث علينا بعدك إلا كل خير، إلا أن حائطًا لنا وقع على أمي وأخي الصغير وأختي والجارية والحمار والديك والشاة ولم يفلت غيري.

لا تردني فأحرد

كتب بعض ولد الملوك إلى بعض: استوهب الله المكاره فيك برحمته، أنا وحق جدي رسول الله الذي لا إلـٰه إلا هو، أحبك أشد من جدي المتوكل، فقد بلغني أنه قد جاءك من النبيذ شيء كثير كثير شطرًا، وأنا أحبه شديد شديد شطرًا آخر، وبحياتي عليك إلا بعثت إليّ دستجة أو خمس دبات أو ستة أو سبعة أو أكثر جياد بالغة وإلّا فثلاث خماسيات ولا تردني فأحرد موفقًا إن شاء الله.

أما أنا فأذهب[1]

قال الجاحظ: أخبرني أبو العنبس قال: كان رجل طويل اللحية أحمق جارنا، وكان أقام بمسجد المحلة يعمره ويؤذن فيه ويصلّي، وكان يعتمد السور الطوال ويصلي بها، فصلّى ليلة بهم العشاء فطول، فضجُّوا منه، وقالوا: اعتزل مسجدا حتى نقيم غيرك فإنك تطول في صلاتك وخلفك الضعيف وذو الحاجة، فقال: لا أطول بعد ذلك، فتركوه، فلما كان من الغد أقام وتقدم فكبَّر وقرأ

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٢.

«الحمد»، ثم فكّر طويلًا وصاح فيهم، إيش تقولون في عبس؟ فلم يكلمه أحد إلا شيخ أطول لحية منه وأقل عقلًا، فإنه قال: كَيْسة مرّ فيها. وقرأ إمام في صلاته (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر، فتم ميقات ربه خمسين ليلة) فجذبه رجل وقال: ما تحسن تقرأ، ما تحسن تحسب. وتقدم إمام فصلّى فلما قرأ «الحمد» افتتح بسورة يوسف، فانصرف القوم وتركوه، فلما أحس بانصرافهم قال سبحان الله! ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] فرجعوا فصلّوا معه وقرأ إمام في صلاته ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التّكوير: الآية ١] فلما بلغ قوله فأين تذهبون، ارتجّ عليه وجعل يردد حتى كادت تطلع الشمس، وكان خلفه رجل معه جراب فضرب به رأس الإمام وقال: أما أنا فأذهب، وهؤلاء لا أدري إلى أين يذهبون.

أعرابي أحمق

عن أبي عثمان المازني أنه قال: قدم أعرابي على بعض أقاربه بالبصرة، فدفعوا له ثوبًا ليقطع منه قميصًا، فدفع الثوب إلى الخياط فقدر عليه ثم خرق منه، قال: لم خرقت ثوبي؟ قال: لا يجوز خياطته إلا بتخريقه، وكان مع الأعرابي هراوة من أرزن فشجّ بها الخياط، فرمى بالثوب وهرب، فتبعه الأعرابي وأنشد يقول:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فيما مضى من سالف الأحقاب
مَن فعل علج جئته ليخيط لي ... ثوبًا فخرقه كفعل مصاب
فعلوته بهراوة كانت معي ... فسعى وأدبر هاربًا للباب
أيشق ثوبي ثم يقعد آمنًا ... كلا ومنزل سورة الأحزاب

الكريم لا يرجع بهبته

وعن الأصمعي أنه قال: مررت بأعرابي يصلّي بالناس فصلّيت معه، فقرأ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشّمس: الآيتان ١، ٢] كلمة بلغت منتهاها لن يدخل النار ولن يراها رجل نهى النفس عن هواها، فقلت له: ليس هذا من كتاب الله، قال: فعلمني فعلمته الفاتحة والإخلاص، ثم مررت بعد أيام، فإذا هو يقرأ الفاتحة وحدها، فقلت له: ما للسورة الأخرى؟ قال: وهبتها لابن عم لي، والكريم لا يرجع في هبته.

فانظر ما تعطيني[١]

قال عن الأصمعي: كنت في البادية فإذا بأعرابي تقدم فقال: الله أكبر (سبح اسم ربك الأعلى، الذي أخرج المرعى، أخرج منها تيسًا أحوى ينزو على المعزى) ثم قام في الثانية فقال: (وثب الذئب على الشاة الوسطى وسوف يأخذها تارة أخرى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى إلَا بَلى ألَا بَلى) فلما فرغ قال: اللهم لك عفرت جبيني وإليك مددت يميني فانظر ماذا تعطيني.

يا أعداء الله[١]

وعن أبي الزناد قال: جاء أعرابي إلى المدينة فجالس أهل الفقه ثم تركهم، ثم جالس أصحاب النحو فسمعهم يقولون نكرة ومعرفة، فقال: يا أعداء الله يا زنادقة.

القوم لم يرحلوا[١]

وعن العلاء بن سعيد قال: قعد طائي وطائية في الشمس، فقالت له امرأته: والله لئن ترحل الحي غدًا لأتبعن قماشهم وأصوافهم ثم لأنفشنه ولأغسلنه ولأغزلنه، ثم لأبعثنه إلى بعض الأمصار فيباع وأشتري بثمنه بكرًا فأرتحل عليه مع الحي إذا ترحلوا، قال الزوج: أفتراك الآن تاركتني وابني بالعراء؟ قالت: أي والله، قال: كلا والله، وما زال الكلام بينهما حتى قام يضربها، فأقبلت أمها فقالت: ما شأنكم، وصرخت: يا آل فلانة أفتضرب ابنتي على كد يديها ورزق رزقها الله، فاجتمع الحي فقالوا: ما شأنكم؟ فأخبروهم بالخبر! فقالوا: ويلكم، القوم لم يرحلوا وقد تعجلتم الخصومة.

امرأتي طالق لوجهك تعالى[٢]

عن الأصمعي قال: خرج قوم من قريش إلى أرضهم وخرج معهم رجل من بني غفار، فأصابهم ريح عاصف يئسوا معها من الحياة ثم سلّموا، فأعتق كل رجل منهم مملوكًا، فقال ذلك الأعرابي: اللهم لا مملوك لي أعتقه ولكن امرأتي طالق لوجهك ثلاثًا.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٤. (٢) نفس المصدر ص ١١٥.

لا شكرًا(١)

كان رجل من الأعراب يعمل في معمل للذهب فلم يصب شيئًا، فأنشأ يقول:

يا ربّ قدر لي في حماسي   وفي طلاب الرزق بالتماس
صفراء تجلو كل النعاس

فضربته عقرب صفراء سهرته طول الليلة وجعل يقول: يا رب الذنب لي إذ لم أبين لكم ما أريده، اللهم لك الحمد والشكر، فقيل له: ما تصنع أما سمعت قول الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] فوثب جزعًا وقال: لا شكرًا لا شكرًا.

صلاة الشتاء(١)

قال الأصمعي: رأيت أعرابيًا يصلّي في الشتاء قاعدًا ويقول:

إليك اعتذاري من صلاتي قاعدًا   على غير ظهر موميًا نحو قبلتي
فما لي ببرد الماء يا رب طاقة   ورجلاي لا تقوى على طيّ ركبتي
ولكنني أقضيه يا رب جاهدًا   وأقضيكه إن عشت في وجه صيفتي
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم   إلٰهي في صفعي وفي نتف لحيتي

عاتبت غنيًا

وقيل: إن محمد بن عليّ عليه السلام رأى في الطواف أعرابيًا عليه ثياب رثّة وهو شاخص نحو الكعبة لا يصنع شيئًا، ثم دنا من الأستار فتعلّق بها ورفع رأسه إلى السماء وأنشأ يقول:

أما تستحي مني وقد قمت شاخصًا   أناجيك يا ربي وأنت عليم
فإن تكسني يا رب خفًا وفروة   أصلي صلاتي دائمًا وأصوم
وإن تكن الأخرى على حال ما أرى   فمن ذا على ترك الصلاة يلوم
أترزق أولاد العلوج وقد طغوا   وتترك شيخًا والداه تميم

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٥.

فدعا به وخلع عليه فروة وعمامة وأعطاه عشرة آلاف درهم وحمله على فرس، فلما كان العام الثاني جاء الحج وعليه كسوة جميلة وحال مستقيم، فقال له أعرابي: رأيتك في العام الماضي بأسوأ حال وأراك الآن ذا بزة حسنة وجمال، فقال: إني عاتبت كريمًا فأغنيت.

ما أرى المطلوب غيري

صلّى بعض الأعراب خلف بعض الأئمة في الصف الأول وكان اسم الأعرابي (مجرمًا) فقرأ الإمام: والمرسلات... إلى قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ١٦] فتأخر البدوي إلى الصف الآخر فقال: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ١٧] فرجع إلى الصف الأوسط فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ١٨] فولّى هاربًا وهو يقول: ما أرى المطلوب غيري.

صلاة أعرابي

وكان أعرابي يصلّي، فأخذ قوم يمدحونه ويصفونه بالصلاح، فقطع صلاته وقال: مع هذا إني صائم!

أعرابي يقوم بالليل

وتذاكر قوم قيام الليل وعندهم إعرابي، فقالوا له: أتقوم بالليل؟ قال: أي والله، قالوا: فما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام.

استك[1]

عن سلمة قال: كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد فدعاه يومًا المهدي وهو يستاك فقال: كيف تأمر من السواك؟ قال: استك يا أمير المؤمنين، فقال المهدي: إنا لله، ثم قال: التمسوا من هو أفهم من هذا، قالوا: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريبًا فلما قدم على الرشيد قال له: يا علي، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف تأمر من السواك؟ قال: سك يا أمير المؤمنين، قال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٢١.

مَن ختنــك[١]

عن الوليد أنه قال لرجل: ما شأنك؟ فقال الرجل: شيخ نايفي، فقال عمر بن عبد العزيز: إن أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك؟ فقال: ختني ظلمني، فقال الوليد: ومَن ختنك؟ فنكس الأعرابي رأسه وقال: ما سؤال أمير المؤمنين عن هذا؟ فقال عمر: إنما أراد أمير المؤمنين مَن ختنك؟ فقال: هذا وأشار إلى رجل معه.

أنت في الخرا إلى الحلق

وقع نحوي في كنيف فصاح به الكناس أنت في الحياة قال: ابغِ لي سلمًا وثيقًا وأمسكه إمساكًا رفيقًا ولا بأس علي، فقال له: لو كنت تركت الفَضول يومًا لتركته الساعة وأنت في الخرا إلى الحلق.

من طرائف النحاة[٢]

وقف نحوي على زجاج فقال: بكم هاتان القنينتان اللتان فيهما نكتتان خضراوتان؟ فقال الزجاج: (مدهامتان فبأي آلاء ربكما تكذبان).

وعن أبي زيد النحوي قال: وقفت على قصاب وعنده بطون، فقلت: بكم البطنان؟ فقال: بدرهمان يا ثقيلان.

وعن أحمد بن محمد الجوهري قال: سمعت أبا زيد النحوي، قال: وقفت على قصاب وقد أخرج بطنين سمينين فعلقهما، فقلت: بكم البطنان؟ فقال: بمصفعان يا مضرطان. ففررت لئلا يسمع الناس فيضحكون.

قال: حدّثنا أبو حمزة المؤدب قال: حدّثنا أحمد بن محمد القزويني ـ وكان شاعرًا ـ أنه دخل سوق النخاسين بالكوفة فقعد إلى نخاس فقال: يا نخاس اطلب لي حمارًا لا بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر، إن أقللت علفه صبر وإن أكثرت علفه شكر، لا يدخل تحت البواري ولا يزاحم بي السواري، إذا خلا في الطريق تدفق وإذا أكثر الزحام ترفق، فقال له النخاس بعد أن نظر إليه ساعة: دعني، إذا مسخ الله القاضي حمارًا اشتريته لك.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٢١.
(٢) نفس المصدر ص ١٢٦.

حدّثنا بعض أصحابنا قال: قلت لبقال عندك بسر فرسًا؟ قال: عندي قرعة.

وعن إسحٰق بن محمد الكوفي قال: جاء أبو علقمة إلى عمر الطبيب فقال: أكلت دعلجًا فأصابني في بطني سجح، فقال: خذ غلوص وخلوص، فقال أبو علقمة: وما هذا؟ قال: وما الذي قلت أنت؟ كلمني بما أفهم، قال: أكلت زبدًا في سكرجة فأصابني نفخ في بطني، فقال: خذ صعترًا.

ودخل أبو علقمة النحوي على أعين الطبيب، فقال امتع الله بك، إني أكلت من لحوم هذه الجوازم فطئست طسأة[1] فأصابني وجع من الوالبة إلى ذات العنق، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الحلب والشراسيف فهل عندك دواء؟ قال: نعم خذ حرقفًا وسلقفًا وسرقفًا فزهرقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه، فقال أبو علقمة: لم أفهم عنك هذا، فقال: أفهمتك كما أفهمتني.

قال: حدّثنا أبو عثمان عن أبي حمزة المؤدب قال: دخل أبو علقمة النحوي سوق الجرارين بالكوفة، فوقف على جرار فقال: أجد عندك جرة لا فقداء ولا دباء ولا مطربلة الجوانب، ولتكن نجوية خضراء نضراء قد خفّ محملها وأتعبت صانعها قد مستها النار بألسنتها، إن نقرتها طنت وإن أصابتها الريح رنت؟ فرفع الجرار رأسه إليه ثم قال له: النطس بكور الجروان أحر وجكى، ولدقس باني والطبر لري شك لك بك، ثم صاح الجرار يا غلام شرج ثم درب وإلى الوالي فقرب، يا أيها الناس مَن بلي بمثل ما نحن فيه؟ وأنشد لثعلب:

إن شئت أن تصبح بين الوري ... ما بين شتام ومغتاب
فكن عبوسًا حين تلقاهم ... وكلم الناس بإعراب

مادح سيف الدولة

عن أبي الحسن علي بن منصور الحلبي قال: كنت أحضر مجلس سيف الدولة فحضرته وقد انصرف من غزو عدو له ظفر به، فدخل الشعراء ليهنئوه فدخل رجل وأنشده:

وكانوا كفأر وسْوسُوا خلف حائط ... وكنت كسنور عليهم تسلقا

---

(١) طسيء: أي أتخم وأكل فوق طاقته.

فأمر سيف الدولة بإخراجه، فقام على الباب يبكي، فأخبر سيف الدولة ببكائه فأمر برده فقال: مالك تبكي؟ فقال: (قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه فلما خاب أملي وقابلني بالهوان ذلت نفسي فبكيت) فقال له سيف الدولة: ويلك مَن يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم! فكم أملت؟ قال: خمس مائة درهم فأمر له بألف درهم.

أُمك طالق

عن الصولي، قال: كان لمحمد بن الحسن ابن فقال له: إني قد قلت شعرًا، قال: أنشديه، قال: فإن أجدت تهب لي جارية أو غلامًا؟ قال: أجمعهما لك فأنشده:

إن الديار طيفا هيجن حزنًا قد عفا
أبكينني لشقاوتي وجعلن رأسي كالقفا

فقال: يا بني، والله ما تستاهل جارية ولا غلامًا، ولكن أمك مني طالق ثلاثًا إذا ولدت مثلك.

حماقة سيفويه[1]

عن محمد بن العباس بن حيوية قال: قيل لسيفويه: قد أدركت الناس فلم لم تحدث؟ قال: اكتبوا حدّثنا شريك عن مغيرة عن إبراهيم بن عبد الله مثله سواء، قالوا له: مثل إيش؟ قال: كذا سمعنا وكذا نحدث.

عن ابن خلف قال: جاء يومًا رجل من عرس، فسأله سيفويه ما أكل؟ فأقبل يصف له، فقال: ليت ما في بطنك في حلقي.

وقال ابن خلف: قال عبد العزيز القاص: ليت إن الله لم يكن خلقني وإني الساعة أعور، فحكيت ذلك لابن غياث، فقال: بئس ما قال، وودت والله الذي لا إلـه إلا هو، إن الله لم يكن خلقني وإني الساعة أعمى مقطوع اليدين والرجلين.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٣١.

وروى أبو العباس بن مشروح قال: كان سيفويه اشترى لمنزله دقيقًا بالغداة وراح عشاء يطلب الطعام، فقالوا: لم نخبز، لم يكن عندنا حطبًا، قال: كنتم تخبزونه فطيرًا.

وحكى أبو منصور الثعالبي أن رجلًا سأل سيفويه عن الغسلين في كتاب الله تعالى فقال: على الخبير سقطت، سألت عنه شيخًا فقيهًا من أهل الحجاز فما كان عنده قليل ولا كثير.

وقف سيفويه راكبًا على حمار في المقابر، فنفر حماره عند قبر منها، فقال: ينبغي أن يكون صاحب هذا القبر بيطارًا.

وقرأ سيفويه (ثم في سلسلة ذرعها تسعون ذراعًا[1]) فقيل له: قد زدت عشرين، فقال: هذه خلقت لبغاء ووصيف، فأما أنتم فيكفيكم شريط بدانق ونصف. وقرأ قارىء بين يديه: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾ [يُونس: الآية ٢٧] فقال: ماذا لقي القوم والله من أجل صلاتهم بالليل.

وقرأ القارىء ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرحمٰن: الآية ٥٨] فقال: هؤلاء خلاف نسائكم الفجار.

قيل لسيفويه: إن اشتهى أهل الجنة عصيدة كيف يعملون؟ قال: يبعث الله لهم أنهار دبس ودقيق وأرز، ويقال: اعملوا وكلوا واعذرونا.

من هذا عجبت

عن محمد بن الجهم أنه قال: سمعت الفراء يقول: كان عندنا رجل يفسر القرآن برأيه فقيل له: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [المَاعون: الآية ١] فقال: رجل سوء والله فقيل: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [المَاعون: الآية ٢] فسكت طويلًا، ثم قال: مَن هذا عجبت.

اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف

عن عبد الرحمٰن بن محمد الحنفي قال: قال أبو كعب القاص في قصصه: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا، فقالوا له: فإن يوسف لم يأكله الذئب، قال: فهو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

---

(١) صحتها «ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه» سورة الحاقة الآية ٣٢.

مَن أحب أن يشهد خاتمة السورة

عن العلاء بن صالح قال: كان عبد الأعلى بن عمر قاصًا، فقصّ يومًا، فلما كاد مجلسه ينقضي قال: إن ناسًا يزعمون إني لا أقرأ من القرآن شيئًا وإني لا أقرأ منه الكثير بحمد الله، ثم قال: بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]، فارتجّ عليه فقال: مَن أحب أن يشهد خاتمة السورة فليحضرنا إلى مجلس فلان.

بلبل عليهم عيشهم

حكى أبو محمد التميمي أن أبا الحسن السماك الواعظ دخل عليهم يومًا وهم يتكلمون في أبابيل، فقال: في أي شيء أنتم؟ فقالوا: نحن في ألف أبابيل هل هو ألف وصل أو ألف قطع؟ قال: لا ألف وصل ولا ألف قطع، وإنما هو ألف سخط، ألا ترون أنه بلبل عليهم عيشهم! فضحك القوم من ذلك.

قاصّ أحمق

قال الجاحظ: سمعت قاصًا أحمق وهو يقصّ حديث موسى وفرعون وهو يقول: لما صار فرعون في وسط البحر في الطريق اليابس قال الله للبحر انطبق، فما زال حتى علاه الماء، فجعل فرعون يضرط مثل الجاموس نعوذ بالله من ذلك الضراط. قال: وسمعت قاصًا بالكوفة يقول: والله لو أن يهوديًا مات وهو يحب عليًا ثم دخل النار ما ضرّه حرها.

اقتلوا الشيطان عطشًا

قال بعض القصاص: يا معشر الناس إن الشيطان إذا سمي على الطعام والشراب لم يقربه، فكلوا خبز الأرز المالح ولا تسموا، فيأكل معكم ثم اشربوا الماء وسموا حتى تقتلوه عطشًا.

لا تسألوا عن أشياء

سئل بعض الوعاظ لِم لم تنصرف (أشياء) فلم يفهم ما قيل له، ثم سكت ساعة فقال: تسأل سؤال الملحدين لأن الله يقول: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾(١)

(١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [المائدة: الآية ١٠١].

[المَائدة: الآية ١٠١]. قال بعض الأشياخ: إنه كتب في رقعة إلى بعض القصاص يسأله الدعاء لامرأة حامل، فقرأ الرقعة ثم قلبها وفي ظهرها صفة دواء قد كتبه طبيب وفيه «قنبيل» «وخشيرك» و«افتيمون» ونحو هذا، فظنها كلمات يسأل بها، فدعا وجعل يقول: يا رب قنبيل، يا رب خشيرك ويا رب افتيمون إلى أن نهى ما ذكر.

المزابلي وابن الزكوري(١)

عن عليّ بن المحسن التنوخي قال: كان عندنا بجبل اللكام رجل يسمى أبو عبد الله المزابلي يدخل البلد بالليل فيتتبع المزابل فيأخذ ما يجده ويغسله ويقتاته ولا يعرف قوتًا غيره، أو يتوغل في الجبل فيأكل من الثمرات المباحات، وكان صالحًا مجتهدًا إلا أنه كان قليل العقل، وكان بإنطاكية موسى الزكوري صاحب المجون، وكان له جار يغشى المزابل، فجرى بين موسى الزكوري وجاره شر، فشكاه إلى المزابلي فلعنه في دعائه فكان الناس يقصدونه في كل جمعة فيتكلم عليهم ويدعو، فلما سمعوه يلعن ابن الزكوري جاء الناس إلى داره لقتله فهرب ونهبت داره، فطلبه العامة فاستتر فلما طال استتاره قال: إني سأحتال على المزابلي بحيلة أتخلّص بها فأعينوني، فقالوا له ما تريد؟ قال: أعطوني ثوبًا جديدًا وشيئًا من مسك ونارًا وغلمانًا يؤنسوني الليلة في هذا الجبل، قال: فأعطيته ذلك، فلما كان نصف الليل صعد فوق الكهف الذي يأوي فيه المزابلي فبخر بالند ونفخ المسك فدخلت الرائحة إلى كهف أبي عبد الله المزابلي، فلما اشتمّ المزابلي تلك الرائحة وسمع الصوت قال: مالك عافاك الله ومَن أنت؟ قال: أنا جبرائيل أرسلني ربي، فلم يشك المزابلي في صدق القول وأجهش بالبكاء والدعاء، فقال: يا جبرائيل ومَن أنا حتى يرسلك الله إليّ؟ فقال: الرحمٰن يقرئك السلام ويقول لك موسى الزكوري غدًا رفيقك في الجنة، فصعق أبو عبد الله فتركه موسى فرجع، فلما كان من لغد كان يوم الجمعة أقبل المزابلي يخبر الناس برسالة جبرائيل ويقول: تمسحوا بابن الزكوري واسألوه أن يجعلني في حل واطلبوه لي، فأقبل العامة إلى دار ابن الزكوري يطلبونه ويستحلونه.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٣٥.

يبدل الله سنانهم خشبات

عن أبي النقاش عن شيخ له قال: كنت في جامع واسط ورجلان يحدثان في حديث جهنم، فقال أحدهما: بلغني أن الله عزّ وجلّ يعظم خلق الكافر حتى يكون ضرسه مثل أحد، فقال له الآخر: ليس هذا أمره، وإلى جانبهما شيخ متأله كثير الصلاة فالتفت إليهما فقال: لا تنكروا هذا، إن الله على كل شيء قدير، وتصديق ما كنتما فيه كتاب الله، قالا: وما ذاك يا عم؟ قال: قوله تعالى: (فأولئك يبدل الله سنانهم خشبات) فهو ما يبدل السن خشبة إلا وهو قادر على أن يجعله مثل أحد.

تـــواضـع

عن محمد المخرمي قال: كنا في مجلس فشممت رائحة أنكرتها، فنظرت فإذا رجل قد وضع في شاربه عذرة[1]، فقلت له: ما هذا؟ قال: تواضعًا لربي عزّ وجلّ.

طول اللحية لا يخلف

عن أبي عثمان الجاحظ قال: أخبرني يحيىٰ بن جعفر قال: كان لي جار من أهل فارس وكان بلحية ما رأيت أطول منها قط، وكان طول الليل يبكي، فأنبهني ذات ليلة بكاؤه ونحيبه وهو يشهق ويضرب على رأسه وصدره ويردد آية من كتاب الله تعالى، فلما رأيت ما نزل به قلت: لأسمعن هذه الآية التي قتلت هذا وأذهب نومي، فتسمعت عليه فإذا الآية ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢] فعلمت أن طول اللحية لا يخلف.

دعـــاء

قال الجاحظ: رأيت أبا محمد السيرافي: وكان طويل اللحية يدعو ربه وقد رفع يديه إلى السماء وهو يقول: يا منقذ الموتى ومنجي الغرقى وقابل التوبات وراحم العثرات، أنت تجد مَن ترحمه غيري وأنا لا أجد مَن يعذبني سواك.

(١) العذرة: الغائط، أردأ ما يخرج من الطعام.

دعـــاء آخــر

قال الجاحظ: رأيت أبا سعيد البصري يدعو ربه، وكان طويل اللحية أحمق، وهو يقول: يا رباه، يا سيداه، يا مولاه، يا جبرائيل، يا إسرافيل، يا ميكائيل، يا كعب الأحبار يا أويس القرني بحق محمد وجرجيس عليك، ارخص أمتك على الدقيق.

دعـــاء آخــر

عن بشر بن عبد الوهاب قال: كان يجلس إلى عمود في دمشق رجل جميل الهيئة فرأيته يومًا وقد سجد ويقول في سجوده: سجد لك خضرتي وحمرتي وصفرتي وبياضي وسوادي، خاشعًا ضارعًا خاضعًا ماصًا لبظر أمه ومن أنا عندك الزاني ابن الزانية حتى لا تغفر له؟

لا أدخل بين الأنبياء

قال بعض معارفنا إنه حضر في بعض البلاد عند متزهد، وحضر جماعة يتبركون به، منهم قاضي البلد، فجرى ذكر لوط عليه السلام فقال المتزهد: عليه لعنة الله، فقيل له: ويحك هذا نبيّ، فقال: ما علمت، ثم التفت إلى القاضي فقال: خذ علي التوبة مما قلت، فتاب، ثم أفاضوا في الحديث فجرى ذكر فرعون فقالوا له: ما تقول فيه؟ فقال: أنا الآن تبت فلا أدخل بين الأنبياء.

فطنـة معلم(١)

قال الجاحظ: حدّثنا محمد بن خلف قال: قال بعض المجان مررت ببعض دور الملوك، فإذا أنا بمعلم خلف ستر قائم على أربعة ينبح نبح الكلاب، فنظرت إليه فإذا صبي خرج من خلف الستر، فقبض عليه المعلم، فقلت للمعلم: عرفني خبرك، قال: نعم هذا صبي يبغض التأديب ويفرّ ويدخل إلى الداخل ولا يخرج، وإذ طلبته بكى، وله كلب يلعب به فأنبح له فيظن أني كلبه ويخرج إلي فآخذه.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٤١.

أبلغ من العصا(١)

قال الجاحظ: قلت لبعض المعلمين ما لي لا أرى لك عصا؟ قال: لا أحتاج إليها إنما أقول لمن يرفع صوته أمه زانية فيرفعون أصواتهم وهذا أبلغ من العصاة وأسلم.

معلم مريض(١)

قال غلام للصبيان: هل لكم أن يفلتنا الشيخ اليوم؟ قالوا: نعم، قال: تعالوا لنشهد عليه أنه مريض، فجاء واحد منهم فقال: أراك ضعيفًا جدًا وأظنك ستحم، فلو مضيت إلى منزلك واسترحت، فقال لأحدهم: يا فلان يزعم فلان أني عليل فقال: صدق الله وهل يخفى هذا على جميع الغلمان إن سألتهم أخبروك، فسألهم فشهدوا، فقال لهم: انصرفوا اليوم وتعالوا غدًا.

معلّــم أبله

قيل: إن معلمًا جاء إلى الجاحظ فقال: أنت الذي صنعت كتاب المعلمين تعيبهم؟ قال: نعم، قال: وذكرت فيه بعض المعلمين جاء إلى الصياد وقال: إيش تصطاد طريًا أم مالحًا؟ قال: نعم، قال: ذلك أبله ولو كان فيه ذكاء كان يقف فينظر إن خرج طري علم أو خرج مالح علم.

أدخل سورة في سورة

قال الجاحظ: مررت بمعلم وقد كتب لغلام ـ وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه، يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك، فيكيدوا لك كيدًا وأكيد كيدًا فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا ـ فقلت له: ويحك فقد أدخلت سورة في سورة، قال: نعم، إذا كان أبوه يدخل شهرًا في شهر، فأنا أيضًا أدخل سورة في سورة فلا آخذ شيئًا ولا ابنه يتعلم شيئًا.

جمل يعضّ أُذُن نفسه

قال الجاحظ: ومررت بمعلم صبيان وهو جالس وحده وليس عنده صبيانه فقلت له: ما فعل صبيانك؟ قال: ذهبوا يتصافعون، فقلت: اذهب وانظر إليهم،

(١) أخبار الحمقى والمغفلين.

فقال: إن كان ولا بد، فغط رأسك لئلا يحسبوك أنا فيصفعوك حتى تعمى. ورأيت معلمًا قد جاءه غلامان قد تعلق كل واحد منهما بالآخر، فقال: يا معلم هذا عض أذني، فقال: ما عضضتها وإنما عضّ أذن نفسه، فقال: يا ابن الخبيثة جمل حتى يعضّ أذن نفسه؟

معلّم يشتم الصبيان

قال أبو العنبس: كان ببغداد معلم يشتم الصبيان، فدخلت عليه وشيخ معي، فقلنا: لا يحل لك، فقال: ما أشتم إلا مَن يستحق الشتم، فاحضروا حتى تسمعوا ما أنا فيه، فحضرنا يومًا فقرأ صبي ـ عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون ـ فقال: ليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد فضحكنا حتى بال أحدنا في سراويله.

بينه وبينهم شرط

قال بعضهم: مررت بمعلم الصبيان، يضربونه وينتفون لحيته، فتقدمت لأخلصه فمنعني وقال: دعهم، بيني وبينهم شرط، إن سبقتهم إلى الكتاب ضربتهم وإن سبقوني ضربوني، واليوم غلبني النوم فتأخرت ولكن وحياتك إلا بكرت غدًا من نصف الليل وتنظر فعلي بهم، فالتفت إليه صبي وقال: أنا أبات الليلة هٰهنا حتى تجيء وأصفعك.

منقذ ذكي

عن أبي الفتح محمد بن أحمد الحريمي قال: كان عندنا بخراسان إنسان قروي فكان له عجل، فدخل داره وأدخل رأسه في جب الماء ليشرب، فبقي رأسه في الجب فجعل يعالج رأسه ليخرجه من الجب فلم يقدر، فاستحضر معلم القرية فقال: قد وقعت واقعة، قال: فما هي؟ فأحضره وأراه العجل فقال: أنا أخلصك أعطني سكينًا فذبح العجل فوقع رأسه في الجب وأخذ حجرًا وكسر الجب، فقال القروي: بارك الله فيك قتلت العجل وكسرت الجب.

مَن عيَّر عُيِّر

عن أبي العيناء قال: قال لي الجاحظ، كان لنا جار مغفل جدًا وكان طويل اللحية فقالت له امرأته: مَن حمقك طالت لحيتك، فقال: مَن عيّر عُيّر.

أخبرتها بعيوبي كلها

عن إسماعيل بن زياد قال: نشزت على الأعمش امرأته، وكان يأتيه رجل يقال له: «أبو البلاد» فصيح يتكلم بالعربية يطلب منه الحديث، فقال له: يا أبا البلاد: إن امرأتي قد نشزت عليّ وغمّتني، فأدخل عليها وأخبرها بمكاني من الناس وموضعي عندهم، فدخل عليها فقال: إن الله قد أحسن قسمك، هذا شيخنا وسيّدنا، وعنه نأخذ ديننا وحلالنا وحرامنا، لا يغرّك عموشة عينيه ولا خموشة ساقيه، فغضب الأعمش عليه وقال: أعمى الله قلبك، قد أخبرتها بعيوبي كلها، أخرج من بيتي، فأخرجه.

الأحنف والشاب

عن محمد بن سلام قال: قال الشعبي: كان شاب يجلس إلى الأحنف، فأعجبه ما رأى من صمته إلى أن قال له ذات يوم: أود أن تكون على شرف هذا المسجد وأن لك مائة ألف درهم، فقال له: يا ابن أخي، والله إن مائة الألف لمحروص عليها، ولكني قد كبرت وما أقدر على القيام على هذه الشرفة، وقام الفتى، فلما ولّى قال الأحنف:

وكأين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أبو الشــوارب

عن محمد بن الحسن بن زياد عن بعض ولد أبي الشوارب ـ وكان أحمق ـ أن أباه أمره بتقيير حب فقيِّرَهُ من خارج، فقال له أبوه: ما هذا الفعل؟ قال: إذا شئت أن تقلبه فاقلبه. وحكى أن هذا المذكور قد احتلم ليلة في وقت بارد، وكره أن ينغمس في الماء البارد وطلب شيئًا يسخن فيه الماء فلم يجد، فنزع ثوبه وعبر النهر سباحة حتى استعار شيئًا يسخن فيه الماء ورجع سباحة ثم سخن فيه واغتسل.

روّاد مسجد حمص

عن معمر أنه قال: دخلت مسجد حمص فإذا أنا بقوم لهم رواد، فظننت فيهم الخير فجلست إليهم، فإذا هم ينتقصون عليّ بن أبي طالب ويقعون فيه،

فقمت من عندهم، فإذا شيخ يصلّي ظننت فيه الخير فجلست إليه، فلما أحس بي وسلم قلت: يا عبد الله ما ترى هؤلاء القوم ينتقصون عليًا ويشتمونه، وجعلت أحدثه بمناقبه وأنه زوج بنت رسول الله ﷺ وأبو الحسنين وابن عم الرسول، فقال: يا عبد الله، ما لقي الناس من الناس، ولو أن أحدًا نجا من الناس، لنجا منهم أبو محمد رحمه الله، هوذا يشتم وحده، قلت: ومَن أبو محمد؟ قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكي، فقمت عنه وقلت: لا يحل لي أن أبيت في هذه البلدة، فخرجت من يومي.

يفضلون الكباشي على معبد

قال: وفي هذا المعنى قال ابن الماجشون: كان لي صديق مدني فقدته مدة ثم رأيته، فسألته عن حاله فقال: كنت بالكوفة، فقلت: كيف أقمت بها وهم يسبون أبا بكر وعمر؟ فقال: يا أخي قد رأيت منهم أعجب من ذا، قلت: ما هو؟ قال: يفضلون الكباشي على معبد في الغناء، فسمع المهدي بذلك فضحك حتى استلقى.

ما علمت أنك حمار

وعن عليّ بن مهدي قال: مرّ طبيب بأبي واسع فشكا إليه ريحًا في بطنه، فقال له: خذ الصعتر. فقال: يا غلام دواة وقرطاس، وقال: قلت ماذا أصلحك الله؟ قلت: كَفٌّ صعتر ومكوك شعير، فقال: لم لَمْ تذكر الشعير أولًا؟ قال: ما علمت أنك حمار إلا الساعة.

بصير بالبراذين

عن ابن خلف قال: كان رجل يعرف بالمسكي يدعي البصر بالبراذين، فنظر يومًا إلى برذون واقف، قد بلع رأس اللجام، فقال: العجب كيف لا يزرعه القيء، أنا لو أدخلت أصبعي في حلقي لما بقي في جوفي شيء، قال: قلت الآن علمت أنك بصير بالبراذين.

يموت إن شاء الله

عن أبي حصين قال: عاد رجل عليلًا فعزاهم فيه، فقالوا له: إنه لم يمت، فقال: يموت إن شاء الله.

متى يحرم على الصائم الطعام؟

عن أبي بكر بن مروان قال: كان يجلس إلى أبي حنيفة رجل يطيل الصمت، فأعجب ذلك أبو حنيفة وأراد أن يبسطه، فقال له: يا فتى، ما لك لا تخوض فيما نخوض فيه؟ فقال الفتى: متى يحرم على الصائم الطعام؟ فقال أبو حنيفة: أنت رجل أعرف بنفسك.

متى يفطر الصائم؟

عن طاهر الزهري قال: كان رجل يجلس إلى أبي يوسف فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تتكلم؟ قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غابت الشمس، قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل؟ فضحك أبو يوسف وقال: أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعائي لنطقك، ثم قال:

عجبت لازراء العيي بنفسه ... وصممت الذي كان بالصمت أعلما

وفي الصمت ستر للعيي وإنما ... صحيفة لب المرء أن يتكلما

أنا أفطر عن أمي

عن المرزبان قال: قال أبو عثمان البصري: كان إخوة ثلاثة، أبو قطيفة والطبلي وأبو كلير، وهم ولد غياث بن أسيد، ، فأما أحدهم فكان يحج عن حمزة بن عبد المطلب ويقول: استشهد قبل أن يحج، والآخر يضحي عن أبي بكر وعمر ويقول: غلطا في ترك الأضحية، والآخر يفطر عن عائشة أيام التشريق، ويقول: غلطت في صوم أيام العيد، فمَن صام عن أبيه فأنا أفطر عن أمي عائشة.

عالِم بالأنساب

وعن ثمامة بن أشرس قال: شهدت رجلًا وقد قدم خصمًا له إلى بعض الولاة فقال: أصلحك الله، أنا رافضي ناصبي، وخصمي جهمي مشبّه مجسم قدري، يشتم الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة على عليّ بن أبي سفيان ويلعن معاوية بن أبي طالب؛ فقال له الوالي: ما أدري مِمَ أتعجب، من علمك بالأنساب أم من معرفتك الألقاب، قال: أصلحك الله، ما خرجت من الكتاب حتى تعلّمت هذا كله.

أسوأ الناس حالًا

عن محمد بن المبرد، عن الحسن بن رجاء، أن الرشيد لما غضب على ثمامة دفعه إلى سلام الأبرش، وأمره أن يضيق عليه، وأن يدخله بيتًا ويطين عليه ويترك فيه ثقبًا، ففعل دون ذلك، وكان يدسّ إليه الطعام، فجلس سلام عشية وهو يقرأ في المصحف، فقرأ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المُرسَلات: الآية ١٥] فقال ثمامة: إنما هو (المكذبين)، وجعل يشرح ويقول، المكذبون هم الرسل، والمكذبين هم الكفار، فقال: قد قيل لي إنك زنديق ولم أقبل، ثمَّ ضيق عليه أشد الضيق، قال: ثم رضي الرشيد عن ثمامة فجالسه، فقال: أخبروني عن أسوأ الناس حالًا، فقال كل واحد شيئًا، قال ثمامة وبلغ القول إلي، فقلت: يا أمير المؤمنين، عاقل يجري عليه حكم جاهل فتبينت الغضب في وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين ما أحسبني وقعت بحيث أردت، قال: لا والله، فانشرح، فحدّثته بحديث سلام، فضحك حتى استلقى وقال: صدقت، والله لقد كنت أسوأ الناس حالًا.

قياس لا يصح

وعن ابن المرزبان، قال: أخبرني بعض الأدباء قال: قال رجل من العراق لرجل من الشام في كلام جرى بينهما: حلق الله لحيتك، قال: بمكة إن شاء الله. كذلك قال بعض الأدباء، قال: سُئل خطيب أي أفضل معاوية أم عيسى ابن مريم؟ فقال: لا إلـٰه إلا الله أتقيس كاتب الوحي بنبيّ النصارى...

إقــــرار

وعن ابن المرزبان، قال: دعا رجل من الأشراف بمكة فقال: اللهم إن كنت ما تعرفني فأنا فلان ابن فلان، وأني مررت بعبدك فلان وهو يقول شيئًا فيه فحش، فرفسته فانبطح يفحص برجليه ميتًا، اللهم قد أقررت لك الآن فاغفر لي كما تريد.

ليس هـٰهنا موضع إن شاء الله

خرج رجل إلى السوق يشتري حمارًا، فلقيه صديق له فسأله، فقال: إلى السوق لأشتري حمارًا، فقال: قل إن شاء الله، فقال: ليس هـٰهنا موضع إن شاء الله، الدراهم في كمي، والحمار في السوق، فبينما هو يطلب الحمار سرقت منه الدراهم فرجع خائبًا، فلقيه صديقه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: سرقت الدراهم إن شاء الله، فقال له صديقه: ليس هـٰهنا موضع إن شاء الله.

من تمـــد

عن الهذيل، أنه قال: كان عندنا بالمدينة لحام، فجاءته عجوز فقالت: أعطني بدرهم لحمًا وطيّبه لي وأخبرني باسمك حتى أدعو لك، فأعطاها شر لحم وقال: اسمي (من تمد)، فلما أفطرت العجوز جعلت تمد اللحم فلا تقدر عليه، فجعلت تقول لعن الله (من تمد) فتلعن نفسها. وحكى أن قصابًا كان ينادي على اللحم، سري تعالوا على أربعة.

ذكـــاء مفرط

عن محمد الداري قال: كان عندنا رجل بدارًا وكان فيه غفلة، فخرج من دارًا ومعه عشرة أحمر، فركب واحدًا وعدها، فإذا هي تسعة، فنزل وعدّها فإذا هي عشرة، فلا زال كذلك مرارًا، فقال: أنا أمشي وأربح حمارًا خير من أن أركب ويذهب مني حمار، فرأيته يمشي حتى كاد يتلف إلى أن بلغ قريته.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تقتل الحمير

عن أبي سعيد الحربي قال: كان إبراهيم بن الخصيب أحمق وكان له حمار، وكان بالعشي إذا علق الناس المخالي أخذ مخلاة حماره فقرأ عليها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] وعلقها عليه فارغة وقال: لعن الله مَن يرى أن مكوك شعير خير من ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فما زال حتى نفق الحمار، فقال: والله ما ظننت أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تقتل الحمير، هي والله للناس أقتل لا قرأتها ما عشت.

فتـــوى

عن أبي إسحٰق الجوني قال: كان لنا جار نحاس يقال له عباس، قد أتى عليه خمس وثمانون سنة؛ قال: فسألته امرأة عن مسألة فقالت له: زوجي طلقني ثلاثًا، فقال: أرضي أبوك وأمك؟ قالت: لا، قال: فإذن يجوز العود حتى يرضى أبوك وأمك، قالت: قد سألت أبا إسحٰق فقال لي: قد طلقت، فقال: وما يدري أبا إسحٰق، أنا أبصر منه وأعلم منه وأكبر منه، أنا ألقيت على أبا إسحٰق مسألة فلم يخرج منها.

سمكة لذيذة

عن المروزي قال: اشترى أبو عبد الحميد سمكة فنام إلى أن تستوي فجيء بالسمكة فأكلتها امرأته مع نساء، ثم مسحت شفتيه وأطراف أصابعه منها، فانتبه فدعا بالغداء وقال: هاتوا السمكة، فقالت له امرأته: يا مخبل أَلَسْتَ قد أكلتها ونمت ولم تغسل يديك؟ فشم يده فوجد ريح السمك فغسل يده وقال: ما رأيت سمكة أمرأ من هذه، قد جعت فهيئوا لي الغداء.

ما شبعت

عن يحيىٰ بن معين قال: اشترى غندر سمكًا فقال لأهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده به، فلما انتبه قال: قدّموا السمك، قالوا: قد أكلت، قال: صدقتم ولكني ما شبعت.

نزلت في عهد عمر

دخل على حاتم العقيلي شيخ من أهل الري، فقال: أنت الذي تروي أن النبيّ ﷺ أمر بقراءة فاتحة الكتاب خلف الإمام؟ قال: قد صح الحديث عن النبيّ ﷺ في ذلك، فقال له: كذبت، إن فاتحة الكتاب لم تكن في عهد رسول الله ﷺ، إنما نزلت في عهد عمر بن الخطاب.

أعظم من المصيبتين

قال المدائني: سمع أسماء بن خارجة نادبة فقال:

فمن للمنابر والخافقات ... والجرد بعد إمام العرب
ومن للطعان وغداة الهياج ... ومَن يمنع البيض عند الهرب
ومَن للعفاة وفك العتاة و ... مَن يفرج الكرب عند الكرب

فقال أسماء: إنها لتندب رجلًا شريفًا فمَن هو؟ فقيل له: إنه فلان البقال ابن وردان الحائك، فقال: هذه أعظم من المصيبتين.

كلبـــان

عن المدائني: لقي رجل رجلًا ومعه كلبان، فقال: هب لي أحدهما، فقال: أيهما تريد؟ فإن الأسود أحب إليّ من الأبيض، قال: فهب لي الأبيض، قال: الأبيض أحب إليّ من كليهما.

ثلث القرآن

عن عبد الرحمٰن بن داود قال: لقي تاجر تاجرًا فقال له: ما اسمك ولا تطول، فقال: (أبو عبد منزل القطر عليكم من السماء تنزيلًا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) فقال: مرحبًا بك يا ثلث القرآن.

أتعلم السفر

وقال: أخبرني بعض أصحابنا، قال: أراد ناجية الخروج إلى بغداد، فوضع سلمًا وجعل يصعد وينزل، فقيل له: ما تصنع؟ قال: أتعلّم السفر.

قال: ودخل الماء إلى كعبه فصاح الغرق، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن آخذ بالوثيقة. وعنه، دخل على أبي يعقوب وهو يجود بنفسه، فقيل له: قل لا إلٰه إلا الله، فقال:

أمثلي يروع بالنائبا ت ويخشى حوادث صرف الزمن
أذلّني الله ذل الحمـ ـار وأدخلني حرّ أمي إذن

ارفق به

قال: وأخبرني بعض أهل الأدب قال: أراد رجل أن يختن ابنه فقال للحجام: ارفق به، فإنه ما اختتن قط.

أنسى كل يوم

قال الحاكم: سمعت أبا الحسن بن عمر يقول: بعت دارًا لي، فكنت كلما أذنت بباب المسجد أنسى أنني بعتها فأصلّي وأرجع إليها وأفتح الباب وأدخل، فيصحن بي النساء يا رجل اتقِ الله فينا، فأقول: اعذرنني، فإنني ولدت في هذه الدار، وأنسى كل يوم، إلى أن أتى على ذلك مدة.

نصيحة

عن أبي الحسن الدامغاني ـ حاجب معز الدولة ـ قال: كنت في دهليز معز الدولة، فصاح صائح، نصيحة، نصيحة، فاستدعيته وقلت: ما نصيحتك! قال: لا أذكرها إلا للأمير، فدخلت فعرفته، فقال: هاته، فأحضرته بين يديه فقال: ما عندك! قال: أنا رجل صياد بناحية المدائن، وكنت أصيد فعلقت شبكتي بأسفل جرف، فاجتهدت في تخليصها فتعذر ذلك عليّ حتى نزلت وغصت في الماء، فإذا هي

معلّقة بعروة حديد، فحفرت فإذا قمقم مملوء مالًا فرددته مكانه وناديت لأعرف الأمير، قال الدمغاني: فانحدرت معه في الوقت إلى المدائن العتيقة وقصدنا الجرف فوجدنا القمقم وقلعناه، وسعيت بنفسي في تتبع الموضع فتقدمت إلى الصياد استقصاء الحفر، فوجدنا سبعة قماقم أخر مملوءة مالًا، فحملنا الجميع إلى معز الدولة فسرّ به فأمر للصياد بعشرة آلاف درهم فامتنع من قبولها وقال: الذي أريده غيرها، قال: ما هو! قال: تجعل لي صيد تلك الناحية وتمنع كل أحد غيري من الصيد، فضحك الأمير وعجب من جهله وحمقه: وأمر له بما سأل.

نهرب من شهر رمضان

عن المدائني عن عمرو بن الحسن قال: خرج أهل بيت من اليمن من منازلهم حتى صاروا إلى شعب من الجبل، فاختفوا فيه وقالوا: نهرب من شهر رمضان لا يدخل علينا.

تفصيل

قال أبو علي الداراني: كان الطالقاني من أصحاب أبي حنيفة، وكان شديد الغفلة، فقال يومًا لابن عقيل: كيف مذهبكم في المرة هل يجوز أن يزوجها ابنها! قال له ابن عقيل: في ذلك تفصيل، إن كانت بكرًا جاز، وإن كانت ثيبًا لا يجوز، فقال: ما سمعت هذا التفصيل قط.

فرس طائر

كان بواسط رجل من المعدلين، إلى جانب داره إصطبل، فقال له أهله: إنا نغسل الثياب في السطح فيطير بعضها إلى الإصطبل فلا يردونه علينا، فقال: وأنتم إذا طار لهم شيء فلا تردوه، قالوا: أي شيء يطير من أرض الإسطبل إلى سطحنا! قال: أي شيء طار مثل لجام ومقود وفرس وغيره.

دجاجة تعرف الطريق

قيل: إن رجلًا من (السندية) وهي على ستة فراسخ من بغداد، جاز بدجاج ليبيعه قريبًا من دجلة ببغداد، فأفلتت دجاجة، فطلبها فلم تقع بيده، فقال لها: اذهبي إلى القرية حتى أبيع الباقي، ثم جاء وباع البواقي ورجع إلى القرية وجعل

يتفقد الدجاجة فلم يرها، فقال لزوجته: أين الدجاجة الرقطاء! فقالت: لا أدري، فقال: تركتها من بغداد لترجع إليكم فما جاءت.

يصح الوقف

عن إبراهيم بن دينار قال: كان رجل يقول إنه فقيه يكنّى أبا الغوث وفيه تغفيل، فقلت له: ما تقول فيمن نذر صوم عاشوراء فاتفق عاشوراء في رمضان هل يجزئه عنها! قال الخرقي: فقد نصّ على أنه يجزئه، فقلت: ما تقول فيمن طلّق امرأته، ثم وقفها، هل يفتقر في هذا الوقف إلى حكم حاكم، قال: أما مذهب أبي حنيفة فيفتقر إلى حكم حاكم، وأما مذهبنا مذهب الشافعي فيصح الوقف.

حيـــلـة

عن الصقلاطي: أن رجلًا كان عندهم بالجانب الغربي له غلام، فبعثه إلى قرية ليأتيه منها بغنم، فبعثوا معه من الحملان عشرة، وكتبوا معه بعددها رقعة، فجاء الغلام بتسعة، فقال له سيده: كم سلموا إليك! قال: عشرة، قال: هذه تسعة، قال: عدها، فجعل يعدها، يقول واحد، اثنين، ثلاثة إلى أن قال تسعة، فقال الغلام: والله ما أدري ما تقول، وما هي إلا عشرة، فقال: ويحك إني أعدّها، قال: ما هي إلا عشرة وإلا فتدخل إلى الدار عشرة من الرجال وتمسك كل واحد حملًا، قال: افعل؛ فأدخلوا عشرة ومسك كل رجل حملًا وبقي واحد، فقال له السيد: هذا ما معه شيء، فقال: هذا مدير، كان يدخل ويأخذ في الأول.

مَن طلّق مَن؟

عن أبي الفضل أحمد الهمذاني قال: جاءت امرأة إلى القاضي وذكرت أن زوجها طلّقها، فقال القاضي: لك بينة! فقالت: نعم جار لنا، قال: فأحضرته، فقال القاضي: أسمعت طلاق هذه المرأة! فقال: يا سيدي خرجت إلى السوق فاشتريت لحمًا وخبزًا ودبسًا وزعفرانًا، فقال له القاضي: ما سألتك عن هذا، هل سمعت طلاق هذه المرأة! قال: ثم تركته في البيت وعدت فاشتريت حطبًا وخلًا، فقال: دع هذا عنك، فقال: ما أحسن الحديث من أوله، ثم قال: جلت في الدار جولة فسمعت زعقاتهم وسمعت الطلاق الثلاث، فما أدري أهي طلّقته أم هو طلّقها.

تبـــــذيـر

عن عليّ بن المحسن عن أبيه قال: بلغنا أن رجلًا أسرع في ماله فبقي منه خمسة آلاف دينار، فقال: أشتهي أن يفنى بسرعة حتى أنظر أيش أعمل بعده، فقال له بعض أصحابه: تبتاع زجاجًا بمائة دينار وتبقيه، وتنفق خمسمائة دينار في أجور المغنيات في يوم واحد مع الفاكهة والطعام، فإذا قارب الشراب أن يفنى أطلقت فأرتين بين الزجاج وأطلقت خلفهما سنورًا فيتعادون في الزجاج فيتكسر وننهب نحن الباقي، فقال: هذا جيد فعمل ذلك وجعل يشرب فحين سكر أطلق الفأرتين والسنور وتكسر الزجاج وهو يضحك فقام الرفقاء وجمعوا الزجاج المكسّر وباعوه، قال الذي أشار عليه: فمضيت إليه بعد فإذا هو قد باع قماش بيته وأنفقه، ونقض داره وباع سقوفها حتى لم يبق إلا الدهليز وهو نائم فيه على قطن متغط بقطن، فقلت: ما هذا! قال: ما تراه، فقلت: بقيت في نفسك حسرة! قال: نعم، أريد أرى المغنية، فأعطيته ثيابًا فلبسها، فرحنا إليها فدخل عليها فأكرمته وسألته عن خبره فحدّثها بالحال، فقالت: قم لئلا تجيء ستي فتراك وليس معك شيء فتحرد علي لم أدخلتك، فاخرج حتى أكلّمك من فوق، فخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من الطاقة، فسكبت عليه مرقة سكباج فصيرته فضيحة، فبكى وقال: يا فلان لا تبلغ من أمري هذا، أشهد الله وأشهد أني تائب، قلت: أيش ينفعك التوبة الآن، ورددته وأخذت ثيابي، وبقيت ثلاث سنين لا أعرف له خبرًا، فبينا أنا في باب الطاق يومًا إذ رأيت غلامًا خلف راكب، فلما رآني قال فلان: فعلمت أنه صاحبي وأن حاله قد صلحت، فقبلت فخذه، فقال: قد صنع الله وله الحمد البيت، فتبعته فإذا بالدار الأولى قد رمها وجعل فيها أسبابًا، وأدخلني حجرة أعدها له وفيها فرش حسان وأربعة غلمان، وجاء بفاكهة متوسطة وطعام نظيف، إلا أنه قليل، فأكلنا ومد ستارة فإذا بغناء طيب فلما طابت نفسه قال: يا فلان تذكر أيامنا الأول! قلت: نعم، قال أنا الآن في نعمة متوسطة، وما وهب لي من العقل والعلم بأبناء الزمان أحب إليّ من تلك النعمة، تذكر يوم عاملتني المغنية بما عاملتني به؟ فقلت: من أين لك هذا المال! قال: مات خادم لأبي وابن عم لي بمصر في يوم واحد، فخلفا لي ثلاثين ألف دينار فحملت ووصلت إليّ وأنا بين القطن كما رأيت فعمرت الدار واشتريت ما فيها بخمسة آلاف دينار، وجعلت خمسة آلاف تحت الأرض للحوادث، واشتريت عقارًا بعشرة آلاف وأمري يمشي، وأنا في طلبك منذ سنة

لترى رجوع حالي، ومن دوام صلاح حالي أن لا أعاشرك، أخرجوه ياغلمان، قال: فجروا برجلي وأخرجوني، وكنت ألقاه بعد في الطريق فإذا رآني ضحك.

البصرة في دارك

دخل ربيعة بن عقيل اليربوعي على معاوية قال: يا أمير المؤمنين أعنّي على بناء داري، فقال: أين دارك؟ قال: بالبصرة وهي أكثر من فرسخين في فرسخين، فقال له: فدارك في البصرة أم البصرة في دارك!

لا تقطعوا اللطم

ضاع لرجل ولد، فجاؤوا بالنوائح ولطموا عليه، وبقوا على ذلك أيامًا، فصعد أبوه يومًا الغرفة فرآه جالسًا في زاوية من زواياها، فقال: يا بني أنت بالحياة، أما ترى ما نحن فيه! قال: قد علمت، ولكن هٰهنا بيض قد قعدت مثل القرقة عليه، ما يمكنني أن أبرح، أريد فريخات، أنا أحبهم، فاطلع أبوه إلى أهله فقال: قد وجدت ابني حيًا ولكن لا تقطعوا اللطم عليه، ألطموا كما كنتم.

عادة سـيئة

قال بعضهم: دخلت الكوفة فرأيت صبيًا قائمًا عند شق حائط ومعه خبز وهو يكسر اللقمة ويتركها في شق الحائط ويأكلها، فبينما أنا أنظر إليه إذ أقبل أبوه فرأى ما يفعل فقال: إيش تصنع! قال: يا أبت هؤلاء قد طبخوا سكباجة ويأتي النسيم بريحها فآكل خبزي، فلطمه أبوه وقال: تتعود من صغرك أن لا تأكل خبزًا إلا بأدام.

أمصّه وأرمي تفله

مرض بعض المغفلين فدخل عليه طبيب فسأله عن حاله، فقال: قد اشتهيت الثلج، فقال: الثلج يزيد في رطوبتك فينقص من قوتك، فقال: أنا أمصّه وأرمي تفله.

حب مُفـرِط

حكى عبد الله النوفلي قال: قال مدني إني أحب رسول الله ﷺ حبًا لم يحبه أحد قط، قيل: وما بلغ من حبك له؟ قال: وددت أن عمه أبا طالب أسلم ويسر النبيّ بذلك وأموت كافرًا بدله.

نيـــة حسنة

قال: ذهب بصر عمرو بن هذاب فدخل عليه إبراهيم بن مجاشع فقام بين يديه فقال: يا أبا أسيد لا تجزعن من ذهاب عينيك وإن كانتا كريمتان عليك، فإنك لو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن يكون الله قد قطع يديك ورجليك ودق ظهرك وأدمى ظلفك، قال: فصاح به القوم وضحك بعضهم، فقال عمرو: معناه صحيح ونيته حسنة وإن كان قد أخطأ في اللفظ.

ما سمعت منهما شيئًا

وقال: ضرط أبو النجم في ليلة ضرطتين، فخاف أن تكون امرأته قد سمعته، فقال: أسمعتِ شيئًا؟ قالت: لا ما سمعت منهما شيئًا، فقال: لعنك الله فمن أعلمك أنهما اثنتان؟

علـــم

قال بعضهم: رأيت رجلًا محمومًا مصدعًا يأكل التمر ويجمع النوى، فقلت: ويحك، أنت بهذه الحال وتأكل التمر؟ فقال: يا مولاي عندي شاة ترضع وما لها نوى فأنا آكل هذا التمر مع كراهيتي له لأطعمها النوى، فقلت: أطعمها التمر والنوى، قال: أو يجوز ذلك! قلت: نعم، قال: والله لقد فرجت عني، لا إلـه إلا الله ما أحسن العلم.

اللجام لي

أجريت خيل فطلع منها فرس سابق فجعل رجل يثب من الفرح ويكبر، فقال له رجل إلى جانبه: أهذا الفرس لك؟ قال: لا ولكن اللجام لي.

تعـــزيـة

دخل بعض المغفلين على رجل يعزيه بأخ له فقال: أعظم الله أجرك ورحم أخاك وأعانه على ما يرد عليه من مسألة يأجوج ومأجوج، فضحك مَن حضر وقالوا له: ويحك ويأجوج ومأجوج يسائلان الناس؟ فقال: لعن الله إبليس، أردت أن أقول هاروت وماروت.

مـزيـــن

وعظ بعض القصاص فقال: إذا كان يوم القيامة خرج من النار رأس عظيم، من صفته كذا وكذا، وفي المجلس رجل يميد من الخوف فقال له: ما الذي بك

أتنكر قدرة الله؟ قال: لا بل إني رجل مزين فلو كلفت حلق هذه الرأس كيف كنت أعمل.

قنـــاعـة

سمع بعض المغفلين أن صوم يوم عاشوراء يعدل صوم سنة، فصام إلى الظهر وأكل، وقال: يكفيني ستة أشهر.

خرى الأسد في سروالي

اعترض الأسد قافلة فرآه رجل منهم فخرّ إلى الأرض فركبه الأسد، فشدّ القوم بأجمعهم على الأسد واستنقذوه، فقالوا له: ما حالك؟ قال: لا بأس عليّ ولكن خرى الأسد في سروالي.

متاع قائم ومتاع مسترخ

قال المأمون لمحمد بن العباس: ما حال غلتنا بالأهواز وسعرها؟ قال: أما متاع أمير المؤمنين فقائم على سوقه، وأما متاع أم جعفر فمسترخٍ، فقال أغرب: لعنك الله.

أبو رَافع لَا يَكْذبُ فِي نَوْمٍ وَلَايَقَظَةٍ(١)

حُكِيَ أن امرأة أبي رافع(٢) رأته في نومها بعد مَوْته، فقال لها: أتعرفين فلانًا الصَّيْرفيّ(٣)؟ قالت له: نعم، قال: فإن لي عليه مائتي دينار.

فلما انتبهت غَدَتْ إلى الصَّيْرفي فأخبرته، وسألته عن المائتي الدينار! فقال: رحم الله أبا رافع، والله ما جرتْ بيني وبينه معاملة قط!

فأقبلتْ إلى مسجد المدينة فوجدتْ مشايخ من آل أبي رافع، كلهم مقبولُ القول، جائز الشهادة، فقصَّت عليهم الرؤيا، وأخبرتْهم خبرَها مع الصَّيرفي، وإنكاره لما ادّعاه أبو رافع.

---

(١) العقد الفريد: ٤ ـ ٢٠٤.
(٢) أبو رافع: مولى رسول الله ﷺ. وآل أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم، مع بله فيهم وعي شديد.
(٣) الصيرفي: صراف الدراهم.

قالوا: ما كان أبو رافع ليكذبَ في نوم ولا يقظة! قرِّبي صاحِبَك إلى السلطان، ونحن نشهدُ لك عليه.

فلما علم الصيرفي عَزْمَ القوم على الشهادة لها! وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤديَها، قال لهم: إن رأيتم أن تُصْلِحوا بيني وبين هذه المرأة على ما ترونه فافعلوا، قالوا: نعم، والصلحُ خيرٌ، ونعمَ الصلح الشَّطْرُ، فأدِّ إليها مائة دينار من المائتين، فقال لهم: أفعل، ولكن اكْتُبوا بيني وبينها كتابًا يكون وثيقةً لي، قالوا: وكيف تكون هذه الوثيقة؟ قال: تكتبون لي عليها أنها قَبَضَتْ مني مائة دينار صلحًا عن مائتي الدينار التي ادّعاها أبو رافع في نومها، وأنها قد أبْرَأَتْني منها، وشرطتْ على نفسها ألا ترى أبا رافع في نومها مرةً أخرى، فيدّعي عليّ بغير هذه المائتي الدينار؛ فتجيء بفلان وفلان يَشْهَدان عليّ لها. فلما سمعوا الوثيقة انْتَبه القوم لأنفسهم، وقالوا: قبَّحك الله، وقبحَ ما جئت به!

أهْلِك أعْلَم بِك!(١)

كان لأبي الأسود(٢) الدؤلي دُكان(٣) إلى صدر الجبل يجلس فيه وحده، ويضع بين يديه مائدةً، ويدعو إليها كلَّ مَن يمرّ به، وليس لأحد أن يجلس، فينصرفون عنه.

فمرَّ به صبيٌّ من الأنصار، فقال له أبو الأسود: هلمَّ إلى الغداء يا فتى! فأتى إليه، فلم يَرَ موضعًا يجلسُ فيه، فتناول المائدة فوضعها في الأرض؛ ثم قال: يا أبا الأسود، إن كان لك في الغداء حاجة فانْزل، وأقبل الفتى يأكل، حتى أتى على جميع ما في المائدة، وسقطت آخر الطعام من يده لقمةٌ على الأرض فأخذها، وقال: لا أدَعُها للشياطين! فقال أبو الأسود: والله ما تدعُها للملائكة المقرّبين، فكيف تدعها للشياطين؟ ثم قال له: ما اسْمُك؟ قال: لُقْمان. فقال أبو الأسود: أهْلُك كانوا أعلم زمانهم إذ سمَّوْك بهذا الاسم؛ ولم يَعُدْ إلى ما كان يصنع!

(١) ذيل زهر الآداب: ١٦٧.

(٢) هو: ظالم بن عمرو، وأبو الأسود كنيته، وكان قد أدرك حياة النبي، وسافر إلى البصرة على عهد عمر، واستعمله عليّ بن أبي طالب على البصرة وكان شيعيًا، وهو أول مَن وضع العربية، توفي سنة ٦٩ هـ.

(٣) الدكان: الدكة المبنية للجلوس عليها.

المقَادِير تصيّر العَيّ خَطيبًا(١)

وُصف عند الحجاج(٢) رجلٌ بالجهل؛ وكانت له إليه حاجةٌ، فقال في نفسه: لَأَخْتَبِرَنَّه! ثم قال له حين دخل عليه: أعِصاميٌّ أنت أم عظاميّ(٣)؟ فقال الرجل: أنا عِصامي وعظامي، فقال الحجاج: هذا أفضلُ الناس، وقضى حاجتَه وزاده، ومكث عنده مُدَّة.

ثم باحَثَه فوجده أجهلَ الناس، فقال له: تصدقني وإلّا قتلْتُكَ، قال له: قُلْ ما بَدَا لك وأصدقك! قال: كيف أجبتني بما أجبت لمَّا سألْتك عما سألتُ؟ قال له: واللهِ لم أعلم: أعِصامي خيرٌ أم عظامي! فخشيتُ أن أقول أحدهما فأخطىء فقلتُ: أقول كليهما، فإن ضرَّني أحدهما نفعني الآخر؛ فقال له الحجاج عند ذلك: المقاديرُ تصيّرُ العَيِيَّ خطيبًا!

لَئِن شَكَرتُم لأزيدَنكم(٤)

أخذ الحجّاج لِصًا أعرابيًا؛ فضربه سبعمائة سوط، فكلما قرعه بسوط قال: اللّهم شكرًا! فأتاه ابنُ عم له فقال: والله ما دعا الحجاجَ إلى التمادي في ضَرْبِك إلا كثرةُ شُكْرك، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]؛ فقال: أهذا هو في كتاب الله؟ فقال: اللهم نعم، فأنشأ الأعرابي يقول:

يا ربِّ لا شُكْرَ فلا تَزِدْني أسرفتُ في شُكْرك فاعفُ عني
باعِدْ ثواب الشاكرين منّي

فبلغ قولُه الحجاج، فخلّى سبيله.

يَوْم الحِسَاب(٥)

قال أحد الرواة: كان في زمنِ المهدي(٦) رجل صُوفيّ؛ يركب قَصبةً في كل

---

(١) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٦٠.
(٢) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي: قائد خطيب، ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام، وهو مشهور بشدته، توفي سنة ٩٥ هـ.
(٣) يريد: أشرفت بنفسك أم تفتخر بآبائك الذين صاروا عظامًا.
(٤) عيون الأخبار: ٢ ـ ٥٧. (٥) العقد الفريد: ٤ ـ ١٩٨.
(٦) محمد بن عبد الله من خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولي بعد وفاة أبيه وقام في الخلافة عشر سنين ومات سنة ١٦٩ هـ.

جمعة يومين: الاثنين والخميس، فإذا ركب في هذين اليومين لمعلّم على صبيانه حُكم ولا طاعة، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان.

شاهدتُه يومًا وقد صعد تلًا؛ فنادى بأعْلَى صَوْته: ما فعل النبيُّون والمرسلون؟ أَلَيْسُوا في أعلى علِّيين؟ فقالوا: بلى! قال: هاتوا أبا بكر الصديق؛ فأخِذ غلام فأُجْلِس بين يديه، فقال: جزاك الله خيرًا أبا بكرٍ عن الرعيَّة، فقد عَدَلْتَ وقُمْتَ بالقِسط، وخلفت محمدًا - عليه السلام - في حُسْن الخلافة، ووصلتَ حَبْل الدِّين بعد حَلٍّ وتنازعٍ، وفرغتَ منه إلى أوثق عُروة وأحْسن ثقة، اذهبوا به إلى أعْلى عَلِّيين!

ثم نادى: هاتوا عُمَر، فأُجْلِس بين يديه غلام، فقال: جزاك الله خيرًا يا أبا حفص عن الإسلام، قد فتحتَ الفتوح، ووَسَّعْتَ الفَيْءَ، وسَلَكْتَ سبيل الصالحين، وعدلتَ في الرعية، اذهبوا به إلى أَعْلَى عِلِّيين بحذاء أبي بكر.

ثم قال: هاتوا عثمان؛ فأُتِيَ بغلام فأُجْلِس بين يديه، فقال له: خَلطتَ في تلك السنين، ولكنَّ الله تعالى يقول: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: الآية ١٠٢]. ثم قال: اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين.

ثم نادى: هاتُوا عليَّ بن أبي طالب، فأُجلِس بين يديه غلام؛ فقال له: جزاك الله عن الأمة خيرًا أبا الحسن فأنت الوصيُّ، ووليّ النبيّ، بَسَطْتَ العدل، وزهدت في الدنيا، واعتزلت الفَيْءَ، فلم تَخْمِش فيه بناب ولا ظفر، وأنت أَبُو الذُّرِّيَّةِ المباركة، وزوج الزكية الطاهرة، اذهبوا به إلى أعلى عِلّيين.

ثم قال: هاتوا معاوية، فأُجْلِس بين يديه غلام؛ فقال له: أنت القاتل عمار بن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، وأنت الذي جعل الخلافةَ مُلْكًا، واستأثرع بالفَيْءِ، وحكم بالهَوَى، وبَطِرَ بالنعمة، وأنت أولُ مَن غيَّر سنّة رسولِ الله ﷺ، ونَقَضَ أحكامه، وقام بالبغي؛ اذهبوا به فأَوْقِفوه مع الظَّلَمة.

ثم قال: هاتوا يزيد؛ فأُجلس بين يديه غلام؛ فقال له: أنت الذي قتلتَ أَهْلَ الحَرَّةِ(١)، وأَبَحْتَ المدينة ثلاثة أيام، وانتهكتَ حُرَمَ رسول الله ﷺ،

(١) موضع بظاهر المدينة بها كانت وقعت الهرة أيام يزيد.

وآويت المُلْحِدِين، وبُؤْتَ باللعنة على لسان رسول الله ﷺ، وتمثلتَ بشعرِ الجاهلية:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدرٍ شهِدوا جَزَع الخَزْرَجِ[١] من وَقْعِ الأَسَل[٢]

وقَتَلْتَ حُسَيْنًا، وحملت بناتِ رسول الله ﷺ سبايا على حَقائب[٣] الإبل، اذهبوا به إلى الدَّرَك الأسفل من النار!

ولم يزل يذكر واليًا بعد والٍ حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: هاتوا عمر، فأُتِيَ بغلام، فأجلس بين يديه، فقال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام؛ فقد أحييتَ العَدْل بعد موته، وأَلَنْتَ القلوبَ القاسية؛ وقام بك عمودُ الدِّين على ساق بعد شقاق ونِفَاق، اذهبوا به فأَلْحِقُوه بالصديقين، ثم ذكر مَنْ كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكتَ، فقيل له: هذا أبو العباس أمير المؤمنين، قال: فبلغ أمرنا إلى بني العباس! ارفعوا حساب هؤلاء جملة، واقذفوا بهم في النار جميعًا!

إن أعطُو مِنهَا رَضُوا[٤]

ركب محمدُ بن سليمان[٥] يومًا بالبَصرة وسَوَّار القاضي يُسايره في جنازة ابن عم له، فاعترضه مجنونٌ يُعرف برأسِ النعجة، فقال له: يا محمد؛ أمِنَ العَدْلِ أن تكون نِحِلتُك[٦] في كلِّ يوم مائة ألفِ درهم، وأنا أطلبُ نصف درهم فلا أقدرُ عليه؟

ثم التفت إلى سوَّار فقال: إن كان هذا عَدْلًا فأنا أَكْفُرُ به؟ فأَسرع إليه غلمانُ محمد؛ فكَفهم عنه، وأمر له بمائة درهم!

---

(١) الخزرج: إحدى قبيلتي الأنصار. (٢) الأسل: الرماح.
(٣) الحقيبة: الرفادة في مؤخر القتب، وكل ما شد في مؤخر رجل أو قتب فقد احتقب.
(٤) المسعودي: ٢ ـ ٢٦٣.
(٥) محمد بن سليمان بن علي العباسي: أمير البصرة وليها في أيام المهدي، واستمر إلى أن توفي فيها، وكان غنيًا نبيلًا سمت نفسه إلى الخلافة؛ وصده عن الجهر بطلبها ما كانت عليه من القوة أيام المهدي والرشيد، توفي سنة ١٧٣ هـ.
(٦) النحلة: العطية.

فلما انصرف محمد وسوّار معه اعترضه رأسُ النعجةِ فقال: لقد كرّم الله مَنْصِبَك[١]، وشرّف أبوّتك، وحسَّن وجهك، وعظّم قدرك، وأرجو أن يكون ذلك لخير يريده الله بك!

فدنا منه سوّار فقال: يا خبيث؛ ما كان هذا قولَك في البُدَاءةِ! فقال له: سألتُك بحقِّ الله وبحقِّ الأمير إلا ما أخبرتَني في أي سورة هذه الآية: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التّوبَة: الآية ٥٨]؟ قال: في «براءة» قال: صدَقتَ؛ فبرىء الله ورسوله منك! فضحك محمد بن سليمان حتى كاد يَسقطُ عن دَابَّتِه!

مَا اختَار غَير عَبْد الله بن طَاهِر[٢]

شكا اليزيدي[٣] إلى المأمون خَلَّةً[٤] أصابته وَدينًا لَحِقه، فقال: ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ما تُريد؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن الأمر قد ضَاقَ عليّ، وإن غُرَمائي قد أَرْهَقوني، قال: فَرُمْ لنفسك أمرًا تنلْ به نَفْعًا.

فقال: لك منادمون، فيهم ما إن حَرَّكتُه نِلتُ منه ما أُحِبُّ، فأَطْلِقْ لي الحيلةَ فيهم، قال: قل ما بَدَا لكَ؛ قال: فإذا حضروا وحضرت فَمُرْ فلانًا الخادم أن يوصِّل إليك رُقْعتي، فإذا قرأتَهَا فأَرسل إليّ: دخولُك في هذا الوقت متعذِّر؛ ولكن اخْتَرْ لنفسك مَن أَحْبَبْت.

فلما علم اليزيدي بجلوس المأمون، واجتماع ندمائه إليه، وتيقّن أنهم في سرورهم أتى البابَ فدَفع إلى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها، فأوصلها إلى المأمون فقرأها، فإذا فيها:

يـا خـيـرَ إخـوانـي وأصـحـابـي ... هـذا الـطُّـفَـيـلـيّ لـدى الـبـابِ
خُـبِّـرَ أن الـقـومَ فـي لـذَّةٍ ... يَـصـبُـو إلـيـهـا كـلُّ أوّابِ
فـصـيِّـرُونـي واحـدًا مـنـكـم ... أو أَخْرِجـوا لـي بـعضَ أتـرابي

---

(١) المنصب: الأصل.
(٢) عصر المأمون: ١ ـ ٣٣٣.
(٣) اليزيدي: يحيىٰ بن المبارك بن المغيرة من علماء العربية والأدب، اتصل بالرشيد فعهد إليه في تأديب المأمون فعاش إلى أيام خلافته، توفي سنة ٢٠٢ هـ.
(٤) الخلّة: الحاجة والفقر.

فقرأها المأمون على مَنْ حَضره؛ فقالوا: ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيلي على مثلِ هذه الحالةِ؛ فأَرْسل إليه المأمونُ: دخولُك في هذا الوقت متعذّر، فاختر لنفسك مَن أحببتَ تنادمه.

فقال: ما أرى اختيارًا غير عبد الله بن طاهر، فقال له المأمون: قد وقع اختيارُه عليك؛ فسِرْ إليه. قال: يا أمير المؤمنين؛ فما أكون شريك الطفيليّ! قال: ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين، فإن أحببتَ أن تخرجَ وإلا فافْتَدِ نفسك!

فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ له عليّ عشرةُ إلاف درهم! قال: لا أحسب ذلك يُقْنِعهُ منك ومن مُجَالستك؛ قال: فلم يزل يزيده عشرة عشرة، والمأمونُ يقول له: لا أَرْضَى له بذلك، حتى بلغ مائة ألف، فقال له المأمون: فَعجِّلها له؛ فكتب له بها إلى وكيله، ووجّه معه رسولًا، فأرسل إليه المأمون: قبضُ هذه في مثل هذه الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله، وأنفعُ عاقبةً.

أترى الله يُعطِيك وَيَنسَانِي[١]

خرج الرشيد إلى الحجّ فلمّا كان بظَاهِرِ الكُوفة إذ أبْصر بُهلُولًا[٢] المجنون على قَصبةٍ، وخَلْفَه الصِّبْيَان وهو يَعْدو، فقال: مَنْ هذا؟ فقيل له: بهلول المجْنون، فقال: كنت أَشْتَهِي أن أراه، فادْعوه مِنْ غير تَرْوِيع فَذَهبُوا إليه وقالوا: أَجِبْ أميرَ المؤمنين؛ فلم يجب، فذهب إليه الرّشيد، وقال: السلام عليك يا بهلول، فقال: عليك السلام يا أمير المؤمنين، فقال: دعَوْتُك لاشتياقي إليك، فقال بهلول: لكنّي لم أَشْتَق إليك! فقال الرشيد: عظْني يا بهلول، فقال: وبِمَ أَعِظك؟ هذي قصورُهم وهذي قُبورُهم! فقال الرشيد: زدني فقد أحسنتُ فقال يا أمير المؤمنين: مَن رزقه الله مالًا وجمالًا، فعفّ في جماله، وواسى في ماله كُتب في ديوان الأَبْرار، فظن الرشيد أنه يريد شيئًا؛ فقال: قد أمرنا لك أن تَقْضِي دَينَك، فقال: لا، يا أمير المؤمنين، لا يُقضَى الدَّيْن بدَين، ارْدُدِ الحق على أهله، واقْض دين نفسك من نَفْسِك، قال: فإنا قد أمرنا أن يُجري عليك. فقال: يا أمير المؤمنين؛ أَتَرى الله يُعطيك ويَنْساني! ثم ولّى هاربًا.

---

(١) عقلاء المجانين: ٦٩.

(٢) هو بهلول بن عمرو، كان من عقلاء المجانين، ولد ونشأ بالكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه، وله كلام مليح، ونوادر وأشعار، توفي سنة ١٩٠.

أبو دُلَف وَجُعَيْفِرَان المُوسَوِي(١)

قال عليّ بن يوسف: كنتُ عند أبي دُلَفٍ(٢) القاسم بن عيسى العجليّ، فاستأذَنَ عليه حاجبُه لجُعيْفِران(٣) الموسوس، فقال له: أي شيء أصنع بموسوس؟ قد قضينا حقوقَ العقلاء، وبقي علينا حقوقُ المجانين! فقلت له: جُعِلتُ فداءَ الأمير، موسوس أفضلُ من كثيرٍ من العقلاء، وإن له لسانًا يُتَّقَى، وقولًا مأثورًا يَبْقَى. فالله الله أن تَحْجُبَهُ! فليس عليك منه أذًى ولا ثقل؟ فأَذِنَ له. فلما مَثَلَ بين يديه قال:

يـا أكـرمَ الـعَـالَم مَـوْجـودًا ... ويـا أعـزَّ الـنـاس مـفـقـودًا
لما سألتُ الناسَ عن واحدٍ ... أصبـح فـي الأُمَّـةِ مـحـمـودًا
قـالـوا جـمـيـعًـا: إنـه قـاسمٌ ... أَشْـبَـهَ آبـاءَ لـه صِـيـدًا(٤)
لو عَبَدُوا شيئًا سِوَى ربِّهِمْ ... أصبحتَ في الأمَّةِ معبودَا
لا زلتَ في نُعمى وفي غِبْطَةٍ ... مُكَرَّمًا في الناس مَغْدُودًا

فأمر له بِكُسْوَة وبألف درهم فلما جِيء بالدراهم أخذ منها عشرة وقال: تأمر القَهْرَمان(٥) أن يُعْطِيني الباقي مُفَرّقًا كلما جئتُ؛ لئلا تضيعَ مني، فقال للقهرمان: أعطِهِ المال، وكلما جاءك فأعْطِه ما شاء حتى يفرِّق الموت بيننا، فبكى عند ذلك جُعيفران وتنفّس الصُّعَدَاء وقال:

يَـمُـوتُ هـذا الـذي أَرَاهُ ... وكـل شـيء لـه نـفـادُ
لو غيرُ ذي العرش دام شيءٌ ... لـدام ذَا الـمُـفْـضِـلُ الـجـوادُ

ثم خرج. فقال أبو دُلَف: أنت كنتَ أعلم به مني.

(١) الأغاني: ٨ ـ ٦٤.
(٢) أبو دلف: هو أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده، كان كريمًا سريًا جوّادًا ممدحًا شجاعًا. مقدمًا ذا وقائع مشهورة، وصنائع مأثورة. وله مشاركة في الغناء، توفي سنة ٢٢٦ هـ.
(٣) ولد جعيفران ببغداد ونشأ بها، ثم سكن سر من رأى، وكان أديبًا شاعرًا مطبوعًا، وغلبت عليه المرة السوداء فاختلط في أوقاته، ثم كان إذا أفاق تاب إليه عقله وطبعه فقال الشعر الجيّد.
(٤) الأصيد: الملك، ورافع رأسه كبرًا.
(٥) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على ما تحت يده، وهو من أُمناء الملك وخاصته.

قال: وغَبَر[١] عني مدة ثم لقيني، وقال: يا أبا الحسن؛ ما فعلَ أميرُنا وسيدنا؟ وكيف حالُه؟ فقلت: بخير وعلى غاية الشوق إليك. فقال: أنا والله يا أخي أشوق. ولكني أعرفُ أهلَ العسكر وشرَهِهُم وإلحاحهم؛ والله ما أراهم يتركونه من المسألة ولا يتركُه كرمُه أن يخلِّيهم من العطية حتى يخرجَ فقيرًا. فقلت: دع هذا عنك وزُره؛ فإن كثرة السؤال لا تضرُّ بماله. فقال: وكيف؟ أهو أيسر من الخليقة؟ قلت: لا. قال: والله لو تبذَّل[٢] لهم الخليفة كما يتبذَّل أبو دلف وأطمعَهم في ما كما يُطْمِعُهم لأفقَروه في يومين، ولكن اسمعْ ما قلته في وقتي هذا. فقلت: هاته يا أبا الفضل! فأنشأ يقول:

أبا حسَنٍ بَلِّغَنْ قاسمًا بأني لم أجْفُه عن قِلًا[٣]
ولا عن مَلَالٍ لإتيانِهِ ولا عن صدود ولا عَنَا
ولكن تعَفَّفْتُ عن ماله وأصْفَيْتُه[٤] مِدْحتي والثَّنا
أبو دلف سيدٌ ماجدٌ سنِيُّ العطيَّةِ رحبُ الفِنَا
كريم إذا انْتَابَهُ المعْتَفُو ن عمَّهُم بجزيلِ الحِبَا[٥]

قال: فأبلغتها أبا دلف، وحدّثتُه بالحديث الذي جرى. فقال لي: قد لقيتُه منذ أيام، فلما رأيته وقفتُ له وسلّمت عليه وتحفَّيْتُ[٦] به؛ فقال لي: سِرْ أيُّها الأمير على بركة الله، ثم قال لي:

يا معديَ الجود على الأموال ويا كريمَ النفس في الفعالِ
قد صُنْتَنِي عن ذِلَّةِ السؤال بجودِك المُوفِي على الآمالِ
صانك ذُو العزةِ والجلالِ من غِيَرِ الأيام والليَالي

قال: ولم يزل يختلفُ إلى أبي دُلَف ويَبَرّه حتى افترقا.

أعجَب مَا رَأيت مِنَ المجانِين[٧]

حدث المبرد[٨] قال: قال لي المازني: بلغني أنك تنصرف من مجلسنا إلى

---

(١) غبر: مكث وذهب ضد.
(٢) الابتذال: ضد الصيانة.
(٣) القلا: البغض.
(٤) أصفيته مدحتي: أخلصتها له.
(٥) الحباء: العطاء.
(٦) تحفى به: بالغ في إكرامه.
(٧) معجم الأدباء: ١٩ ـ ١١٦.
(٨) هو محمد بن يزيد، المعروف بالمبرد إمام العربية في زمنه ببغداد وأحد أئمة الأدب والأخبار. =

مواضع المجانين والمعالجين[1] فما معنى ذلك؟ فقلت: أعزّك الله تعالى؛ إن لهم طرائف من الكلام! قال: فأخبرني بأعجب ما رأيت من المجانين! فقلت: صرتُ يومًا إليهم فمررت على شيخٍ منهم، وهو جالسٌ على حصير قصبٍ، فجاوزتُه إلى غيره، ففال: سبحان الله! أين السلام؟ مَن المجنون؛ أنا أم أنت؟ فاستحييتُ منه، وقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: لو كنتَ ابتدأتَ لأوجبتَ علينا حُسْنَ الرَّدِّ، على أنّا نصرفُ سوءَ أدبك إلى أحسنِ جهاته من العذر، لأنه كان يقال: إن للداخل على القوم دهشةً، اجلس - أعزّك الله - عندنا، وأومأ إلى موضعٍ من الحصير، فجلستُ إلى ناحية منه، فقال لي - وقد رأى معي مِحْبَرتي: أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما: أصحابِ الحديثِ الأغثاث، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر؟ قلت: الأدباء! قال: أتعرفُ أبا عثمانَ المازني؟ قلت: نعم! قال: أتعرف الذي يقول فيه القائل:

وفـتًـى مـن مـازنٍ أسـتـاذ أهـل الـبَـصْـرَهْ
أمُّـهُ مـعـرفـةٌ وأبـوه نَـكِـرَهْ

فقلت: لا أعرفه، فقال: أتعرفُ غُلامًا له قد نبغَ في هذا العصر، له ذهنٌ وحفظ وقد برّز في النحو، يعرف بالمُبَرِّد؟ فقلت: أنا والله الخبير به! قال: فهل أنشدكَ شيئًا من شعره؟ قلت: لا أحسِبُه يُحْسِنُ قول الشعر! فقال: يا سبحان الله! أليس هو القائل:

حَبّذَا مـاءُ الـعـنـاقـيـد بـريـقِ الـغـانـيـاتِ
بـهـمـا يـنـبـتُ لَـحْـمِـي ودَمِـي أيَّ نـبـاتِ

قلت: قد سمعتُه ينشد هذا في مجلس أُنسٍ؛ فقال: يا سبحان الله! ألا يستحي أن ينشد مثل هذا الشعر حول الكعبة؟ ثم قال: ألم تسمع ما يقولون في نَسَبه؟ قلت: يقولون: إنه من الأزد أزدشنوءة، ثم من ثُمَالة! قال: أتعرفُ القائل في ذلك:

سـألْـنـا عـن ثُـمَـالَةَ كـل حَـيٍّ فـقـال الـقـائـلون: ومـا ثُـمَـالَهْ؟

= مولده ببغداد وتوفي بها سنة ٢٨٦ هـ.

(١) المدخولين في عقولهم، والمتعاطين للعلاج.

فقلت: محمد بن يزيد منهم فقالوا: زِدْتَنا بهمُ جَهالَهْ!
فقال لي المبرّدُ: خلّ قومي فقومي مَعْشَرٌ فيهمْ نَذَالَهْ!

فقلت: أعرفه! هذا عبدُ الصمد بن المعذّلِ يقولها فيه! فقال: كذب فيما ادّعاه! هذا كلامُ رجلٍ لا نسب له، يريد أن يُثْبِتَ له بهذا الشعر نسبًا، فقلت له: أنت أعلم! فقال: يا هذا، قد غلبت خفّةُ روحك على قلبي، وقد أخّرتُ ما كان يجب تقديمه، ما الكنية؟ أصلحك الله! فقلت: أبو العباس، قال: فما الاسم؟ قلت: محمد، قال: فالأب؟ قلت: يزيد. قال: قبّحَك الله! أحوجتني إلى الاعتذار بما قدمتُ ذكرَه، ثم وثب وبسط يده فصافحني، فرأيتُ القيدَ في رجْله، فأمِنْتُ غائلته، فقال: يا أبا العباس، صُنْ نفسَك من الدخول في هذه المواضع؛ فليس يتهيّأ في كل وقتٍ أن تصادف مِثْلي على مثل حالي، ثم قال: أنت المبرّد! أنت المبرّد! وجعل يصفّقُ، وانقلبت عيناه، واحمرّت وتغيّرت حالته، فبادرت مسرعًا خوفَ أن تبدرَ إليّ منه بادرة؛ وقبلتُ منه والله نُصْحه، ولم أعاوِدْ بعدها إلى تلك المواضع أبدًا!

مَجنُون أديب[(١)]

قال أبو العباس أحمد بن يحيىٰ المعروف بثَعْلَب[(٢)]: كان ببغداد فتًى يُجَنُّ ستّةَ أشهر، فاستقبلني يومًا ببعض السكك فقال: ثعلب! قلت: نعم، قال: فأنشدني، فأنشدته:

وإذا مررتَ بقَبْرِه فاعْقِر به كُومَ[(٣)] الهِجان وكلَّ طِرْفٍ[(٤)] سابحِ
وانْضَحْ جوانبَ قبره بدمائها فَكَذا يكون أخا دَمٍ وذبائحِ

فضحك ثم سكت ساعة؛ وقال: ألا قال:

اذهبا بي إن لم يكن لكما عقـ ـرٌ على تُرْب قبره فاعقِراني
وانْضَحا من دمي عليه فقد كا نَ دَمِي من نَدَاه لو تعلمانِ

(١) عقلاء المجانين: ١٣٥، نهاية الأرب: ٣ ـ ٢١٣.
(٢) أحمد بن يحيىٰ إمام الكوفيين في النحو واللغة كان راوية للشعر مشهورًا بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة، توفي سنة ٢٩١ هـ.
(٣) الكوم: القطعة من الإبل. (٤) الطرف: الكريم من الخيل.

ثم رآني يومًا بعد ذلك فتأمّلني، وقال: ثعلب! قلت: نعَم؛ قال: أنشدني، فأنشدته:

أعَارَ الجَوْدَ[1] نائِله ... إذا ما مالُهُ نَفَدا
وإنْ أسدٌ شَكَا جُبنًا ... أعار فؤادَه الأسَدَا

فضحك وقال: ألا قال:

عَلمَ الجَوْدَ الندى حتى إذا ... ما حكاه علم البأسَ الأسدْ
فله الجَوْدُ مُقِرٌّ بالندى ... وله الليْثُ مقرٌّ بالْجَلدْ

غِنًى وغفلَة[2]

كان بمصر شريف من وَلَد العباس يعرف بأبي جعفر؛ شبيه بابن الجصاص في الغفلة والجَدّ والنّعمة.

قال أبو القاسم بن محمد التنوخي: بعثني أبي إليه من قرية تعرف بتلا يستَقْرضه عشرة أرادب قمحًا وثلاثين زوج بقر، وكتب معي بذلك رقعة، فأتيتُ إليه وسلّمت عليه، ودفعت إليه الرقعة؛ فقال: ذكرتُ أباك، فهو صاحبي وصديقي وخليطي! وأين هو الآن؟ قلت: بقرية تلا - أعزَّ الله سيدي الشريف! قال: نعم! حفظه الله! هو بالفُسْطاط معنا، وقد انقطع عنا كذا! ما كنت أظنه إلا غائبًا!

قلت: لا سيدي هو بتلا! قال: فما لك ما قلتَ لي؟ فما كان سبيله أن يؤنسني برقعة من قبَله؟ قلت: يا سيدي، قد دفعت إليك رُقْعته! قال: وأين هي؟ قلت: تحت البساط! فأخذها وقرأها، وقال: قل لي الآن، أكان لك أخٌ أعرفه حاد الذهن يحسن النحو والعروض والشعر؛ فما فعلَ الله به؟ قلت: أنا هو - أعزَّك الله! قال: كبرتَ كذا! وعهدي بك تأتيني معه؛ قلت: نعم! أيّد الله الشريف!

قال: وما الذي جئتَ فيه؟ قلت له: والِدِي بعثني إليك برقعة يسألك فيها قرض عشرة أرادب قمحًا وثلاثين زوج بقر. قال: وهو الآن بالفسطاط؟! قلت: لا يا سيدي هو بتلا! قال: نعم! وإنما ذاك الفتى أخوك؟ قلت: لا! أنا هو.

---

(١) الجود: المطر الغزير.

(٢) ذيل زهر الآداب: ٢٢٢.

فصار يراجعني في الكلام وقد ضجرتُ من شدَّة غَفْلَته، وكثرة نسيانه لما أقُول له، حتى أقبل كاتبُه أبو الحسين، فقال له: سَلْ هذا الفتى ما يريد؟ فسألني فعرَّفْتُه فأخبره، فقال له: نفِّذْ له حاجته. فوقّع لي الكتاب بما أراد، وقال: تَلْقَاني للقَبْضِ بالديوان، فشكرت الشريف ونهضت! فقال: اصبر يا بنيّ فقد حضرَ طعامُنا؛ وقدم الطعام، وفيه طعام غير جيد، فرفع يده، وقال: مثل مطبخي يكون فيه مثل هذا! عليّ بالطبّاخ! فأتى، فقال له: ما هذا العمل! فقال: يا سيدي؛ إنما أنا صانع، وعلى قَدْرِ ما أُعطَى أعمل! وقد سألت المُنْفِق أن يشتريَ لي ما أحتاجُ إليه فتأخر عنّي، فعملتُ على غير تمكّن؛ فجاء التقصير كما ترى.

فقال: عليّ بالْمُنْفِق فأُحضر، فقال: مَالِي قليل؟ قال: لا، يا سيدي إنما أُنفِق ما أُعطَى، وقد سألت الجِهْبِذَ[1] أن يدفعَ لي فتأخر عني؛ فقال: علي بالجِهْبِذِ! فأُتِي به. فقال: مالك لم تدفع للمُنْفِق شيئًا؟ قال: لم يوقِّع لي الكاتب! فقال للكاتب: لِمَ لَمْ تدفع إليه شيئًا؟ فتَلَعْثم في الكلام، ولم يكن عنده جوابٌ؛ فقال للكاتب: قف هٰهنا، فوقف، ووقف خلفه الجِهْبِذُ، ووقف خلف الجهبذ المنفق، وخلف المنفق الطباخ، وقال: ليصنع كلُّ واحد منكم بمن يَليه بأكثر ما يقدر عليه فتصافعوا.

قال: فخرجت وأنا متعجّب من غباوته وغَفْلته!

حِذاء أَبِي القَاسِم[2]

كان في بغداد رجلٌ اسمه أبو القاسم الطُّنْبُورِي، وكان له مَدَاسٌ[3]، وهو يَلبَسُه سبعَ سنين، وكان كلما تقطّع منه موضعٌ جعل مكانه رقعةً إلى أن صار في غاية الثِّقَل، وصار الناسُ يضربون به المثل.

فاتَّفق أنه دخل يومًا سوق الزجاج، فقال له سِمْسَار[4]: يا أبا القاسم، قد قَدِم إلينا اليوم تاجر من حَلَب، ومعه حِمْلُ مُذَهّب قد كسدَ، فاشتَره منه، وأنا أبيعه لك بعد هذه المدة؛ فَتَكْسِبُ به المثل مِثْلَيْنِ! فمضى واشتراه بستّين دينارًا.

---

(١) الجهبذ: النقاد الخبير، ويريد القائم بالإنفاق وحفظ الأموال.

(٢) مجاني الأدب: ٣ ـ ٢٣٢.

(٣) المداس كسحاب: الذي يلبس في الرجل.

(٤) السمسار: المتوسط بين البائع والمشتري.

ثم إنه دخل إلى سوق العطارين؛ فصادفه سِمْسَار آخر، وقال له: يا أبا القاسم، قد قدِم إلينا اليوم من نَصِيبين[١] تاجرٌ، ومعه مَاءُ وَرْد، ولِعَجَلَةِ سفره، يمكن أن تشتريه منه رخيصًا، وأنا أبيعه لك فيما بعد، بأقرب مدة؛ فتكَسِبُ به المثل مِثْلين!

فمضى أبو القاسم، واشتراه أيضًا بستين دينارًا أخرى، وملأ به الزجاج المذهّب وحمله، وجاء به فوضعه على رَفٍ من رفوف بيته في الصَّدْر!

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يغتسل؛ فقال له بعض أصدقائه: يا أبا القاسم؛ أشْتهي أن تغيّر مداسك هذا! فإنه في غاية الشناعة! وأنت ذو مال بحمد الله! فقال له أبو القاسم: الحقُّ معك؛ فالسَّمْعُ والطاعة.

ثم إنه خرج من الحمام، ولبس ثيابه، فرأى بجانب مداسه مداسًا آخر جديدًا؛ فظنّ أن الرجلَ من كرمه اشتراه له؛ فلبسه، ومضى إلى بيته!

وكان ذلك المَدَاسُ الجديدُ للقاضي، وقد جاء في ذلك اليوم إلى الحمَّام، ووضع مَدَاسَه هناك، ودخل يَسْتَحِمُّ!

فلما خرج فتّش عن مداسه؛ فلم يَجِدْهُ؛ فقال: أَمَنْ لبس حذائي لم يترك عوضه شيئًا؟ ففتَّشُوا؛ فلم يجدوا سوى مداس أبي القاسم! فعرفوه؛ لأنه كان يُضْرَب به المثل!

فأرسل القاضي خدَمَه، فكَبَسُوا[٢] بيته، فوجدوا مداسَ القاضي عنده؛ فأحضره القاضي، وضربه تأديبًا له، وحبسه مدة، وغرمه بعض المال وأطلقه!

فخرج أبو القاسم من الحبس، وأخذ حذاءه، وهو غضبان عليه، ومضى إلى دجلة، فألقاه فيها؛ فغاص في الماء!

فأتى بعض الصيادين ورمى شَبَكته، فطلع فيها! فلما رآه الصيَّاد عرفه، وظنّ أنه وقع منه في دجلة! فحمله وأتى به بيت أبي القاسم؛ فلم يجده! فنظر فرأى نافذة إلى صدر البيت، فرماه منها إلى البيت، فسقط على الرف الذي فيه الزجاج، فوقع، وتكسَّر الزجاج وتبدّد ماءُ الورد!

---

(١) قاعدة ديار ربيعة.

(٢) كبس داره: هجم عليها واحتاط بها.

فجاء أبو القاسم ونظر إلى ذلك فعرف الأمر، فلطم وجهه، وصاح يبكي، وقال: وافَقْرَاه! أفْقرني هذا المداس الملعون!

ثم إنه قام ليَحْفُرَ له في الليل حُفْرَة، ويدفنه فيها، ويرتاح منه؛ فسمع الجيرانُ حسّ الحفرِ؛ فظنوا أن أحدًا ينقب عليهم؛ فرفعوا الأمر إلى الحاكم؛ فأرسل إليه، وأحضره، وقال له: كيف تَسْتَحِلُّ أن تنقبَ على جيرانك حائطهم! وحبَسه، ولم يُطْلِقه، حتى غَرِم بعض المال!

ثم خرج من السجن ومضى وهو حَرْدان[١] من المداس، وحمله إلى كنيف الخان، ورماه فيه، فسدَّ قصبة الكنيف؛ ففاض وضجر الناس من الرائحة الكريهة! وبحثوا عن السبب؛ فوجدوا مداسًا فتأملوه؛ فإذا هو مداسُ أبي القاسم! فحملوه إلى الوالي، وأخبروه بما وقع؛ فأحضره الوالي، ووبخه وحبسه، وقال له: عليك تصليح الكنيف! فغرم جُمْلة مال، وأخذ منه الوالي مقدار ما غرّم تأديبًا له وأطلقه.

فخرج أبو القاسم والمدَاسُ معه، وقال ـ وهو مغتاظ منه: والله ما عدتُ أُفارقُ هذا المدَاس!

ثم إنه غَسَلَه وجعله على سطح بيته حتى يجف؛ فرآه كلب؛ فظنّه رِمَّةً[٢] فحمله وعبر به إلى سطح آخر؛ فسقط من الكلب على رأس رجل، فآلمه وجرحه جرحًا بليغًا، فنظروا وفتشوا لمن المداس، فعرفوا أنه لأبي القاسم!

فرفعوا الأمر إلى الحاكم؛ فألْزَمه بالعِوَض، والقيام بلوازم المجروح مُدّةَ مرضه! فنفِدَ عند ذلك جميعُ ما كان له، ولم يبق عنده شيء!

ثم إن أبا القاسم أخذ المداس، ومضى به إلى القاضي، وقال له: أريد من مولانا القاضي أن يكتب بيني وبين هذا المداس مباراة شرعية على أنه ليس مني ولستُ منه! وأن كلّا منا بريء من صاحبه، وأنه مهما يفعلْه هذا المداس لا أُؤاخذ أنا به! وأخبَره بجميع ما جرى عليه منه!

فضحك القاضي منه ووصله ومضى!

---

(١) حردان: عضبان.

(٢) الرمة بالكسر: العظام البالية.

من طرائف الحمقى والمغفلين(١)

قيل لمغفل: قد سرق حمارك فقال: الحمد لله الذي ما كنت عليه.

نظر رجل في الجب فرأى وجهه فعاد إلى أمه فقال: في الجب لص، فجاءت الأم فاطلعت فقالت: أي والله ومعه فاجرة.

ذكر رجل بين يدي رجل فقال: إنه رجل سوء، قيل له: من أين علمت؟ قال أفسد بعض أهلي، قيل: ومَن أفسد؟ قال: أمي صانها الله.

سئل بعضهم عن مولده فقال: ولدت رأس الهلال للنصف من رمضان بعد العيد بثلاثة أيام، احسبوا الآن كيف شئتم.

كتب بعضهم إلى أبيه: كتابي إليك يوم الجمعة، عشية الأربعاء لأربعين ليلة خلت من جمادى الأوسط، وأعمك أني مرضت مرضة لو كان غيري كان قد مات، فقال أبوه: أمك طالق ثلاثًا، لو مت لما كلمتك أبدًا.

دعا بعض المغفلين فقال: اللهم ارزقني خمسة آلاف درهم حتى أتصدق منها بألفي درهم وإن لم تصدقني فادفع إلي ثلاثة آلاف درهم واحبس الباقي، فإن تصدقت وإلا فتصدق بها على مَن شئت.

خرج بعض المغفلين من منزله ومعه صبي عليه قميص أحمر، فحمله على عاتقه، ثم نسيه، فجعل يقول لكل مَن رآه: رأيت صبيًا عليه قميص أحمر؟ فقال له إنسان: لعله الذي على عاتقك؟ فرفع رأسه ولطم الصبي وقال: يا خبيث ألم أقل لك إذا كنت معي لا تفارقني.

نظر بعض المغفلين إلى منارة الجامع فقال: ما كان أطول هؤلاء الذين عمروا هذه! فقال آخر: اسكت ما أجهلك، ترى أنه في الدنيا أحد طول هذه؟ وإنما بنوها على الأرض ثم رفعوها.

قال: ورأيت رجلًا طويل اللحية على حمار يضربه، فقلت: ارفق به، فقال: إذا لم يقدر يمشي فلم صار حمارًا.

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٧٠.

تفاخر مصري ويمني، فقال المصري: هلكت والله اليمن إذ لم يكن منها رسول الله ﷺ ولا يدخل الجنة أهلها، فقال اليمني: فابن المهلب وأولاده يحاربون عليها حتى يدخلوها بالسيف.

كان بعض المغفلين يقول: اللهم اغفر لي من دنوبي ما تعلم وما لا تعلم.

قدم رجل من الحمقى فسأله رجل متى قدمت! قال: غدًا، قال: لو قدمت اليوم سألتك عن إنسان، فمتى تخرج؟ قال: أمس، قال: لو أدركتك كتبت معك كتابًا.

كان لبعض الأدباء ابن أحمق، وكان مع ذلك كثير الكلام، فقال له أبوه ذات يوم: يا بني لو اختصرت كلامك إذ كنت لست تأتي بالصواب! قال: نعم، فأتاه يومًا فقال: من أين أقبلت يا بني؟ قال: من (سوق) قال: لا تختصرها هنا، زد الألف واللام، قال: من (سوقال) قال: قدم الألف واللام، قال: من (ألف لام سوق) قال: وما عليك لو قلت: (السوق) فوالله ما أردت في اختصارك إلا تطويلًا. وقال هذا الولد يومًا لأبيه: يا أبت اقطع لي جباعة، المال: وما جباعة في الثياب؟ قال: ألست قلت لي اختصر كلامك، يعني جبة ودراعة.

اشترى بعض المغفلين نصف دار فقال يومًا: قد عزمت على بيع نصف الدار الذي لي وأشتري بثمنه النصف الآخر حتى تصير الدار كلها لي.

كتب بعض المغفلين إلى رجل يعزيه بابنته: بلغني مصيبتك وما هي بمصيبة، وقد جاء بالخبر عن النبيّ ﷺ أنه قال: مَن تُوفيت له بنت كان له من الأجر ذهب والله عني، ومَن توفيت له ابنتان كان له من الأجر مثل الذي ذهب عني مرتين، وبعد فقد ماتت عائشة بنت النبيّ ﷺ فمن ابنتك البظراء حتى لا تموت.

كان محمد بن أبي سعيد سليم الجانب، وقد سمع من أبي الحسين الطيوري يسأل بعض مَن يعرف الأدب أن يعلمه شيئًا من العربية، فقال: إذا دخلت على أحد فقل: أنعم الله صباحك، فربما كان يدخل على أحد آخر النهار فيقول: أنعم الله صباحك فيضحك.

حكى أقضى القضاة الماوردي قال: كنت جالسًا في مجلس مقبلًا على تدريس أصحابي، فدخل علينا شيخ قد ناهز الثمانين ـ أو جاوزها ـ فقال لي: قد قصدتك في مسألة اخترتك لها، فقلت: وما هي! وظننته يسأل عن حادثة حدثت

له، فقال: أيها الشيخ أخبرني عن نجم إبليس ونجم آدم ما هما، فإن هذين لا يسأل عنهما لعظم شأنهما إلا علماء الدين، قال: فعجبت منه وعجب من في المجلس من سؤاله، وبدر جماعة بالإنكار عليه والاستخفاف به، فكففتهم عنه وقلت: هذا لا يقنع مما ظهر من حاله إلا بجواب مثله، فأقبلت عليه وقلت: يا هذا إن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة موالدهم، فإن ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله، فقال: جزاك الله خيرًا وانصرف مسرورًا، فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا مَن يعرف مولد هذين.

قيل للفضل بن عبد الله: مالك لا تتزوج؟ قال: إني دفع لي أبي جارية ولأخي، فقيل: ويحك دفع إليك وإلى أخيك جارية واحدة؟ قال: وأيش تتعجب من هذا، هو ذا جارنا فلان له جاريتان.

قال أبو العنبس: اجتزت في بعض الطريق لحاجة، فإذا امرأة عرضت لي فقالت: هل لك أن أزوجك جارية فيجيئك منها ابن؟ قلت: نعم، قالت: وتدخله الكتّاب فينصرف فيلعب فيصعد إلى السطح فيقع فيموت، وصرخت ويلاه ولطمت، ففزعت وقلت هذه مجنونة وهربت من بين يديها، فرأيت شيخًا على باب، فقال: ما لك يا حبيبي؟ فقصصت عليه القصة، فلما انتهيت إلى موضع لطمها استعظم ذلك وقال: لا بد للنساء من البكاء إذا مات لهن ميت، فإذا هو أحمق منها وأجهل.

قال رجل آخر: رأيت البارحة أباك في المنام وثيابه وسخة، فقال: قد كفنته أمس في أربعة أثواب جدد، وما ينبغي أن تكون قد اتسخت ثيابه. وقيل لبعض أهل الموصل: كم بينكم وبين موضع كذا؟ قال: ثلاثة أميال ذاهب وميلين جاي.

قال ثمامة لحاجبه: عجل الفراغ مما أمرتك به فقد قصر النهار، فقال: أي والله يا سيدي والليل أيضًا قد قصر.

دعا بعض المغفلين فقال: اللهم اغفر لأمي وأختي وامرأتي، فقيل له: لم تركت ذكر أبيك؟ قال: لأنه مات وأنا صبي لم أدركه.

قال عبد الله بن محمد: قلت لرجل مرة كم في هذا الشهر من يوم؟ فنظر إلي وقال: لست أنا والله من هذا البلد.

قال أبو العباس: سألت رجلًا طويل اللحية فقلت: إيش اليوم؟ فقال: والله ما أدري فإني لست من هذا البلد، أنا من دير العاقول.

انكسرت خشبة في سقف بعضهم، فمضى يشتري عوضها، فقيل: كم تريد طولها؟ فقال: سبعة في ثمانية.

قال بعضهم: ولد لي غلام الليلة فسميته باسم خالته.

أصيب بعضهم بمصيبة فقيل له: عظم الله أجرك، فقال: سمع الله لمن حمده.

قال الجاحظ: دخلت الكوفة، فبينا أطوف في طرقاتها رأيت شيخًا ذا هيبة جالسًا على باب داره ومن جانب الدار صياح، فقلت له: يا عم، ما هذا الصياح؟ فقال: هذا رجل افتصد، فبلغ موضع، شاذروانة فمات، يريد شريانه.

قال الحجاج بن هارون لصديق يحبه: أنا والله لك مائق، يريد وامق.

شهد رجل عند والٍ فقال: سمعت بأذني (وأشار إلى عينية) ورأيت بعيني (وأشار إلى أدنيه) بأنه جاء إلى رجل فتلبب بعنقه (وأشار إلى صدره) وما زال يضرب خاصرته (وأشار إلى فكه) فقال له الوالي: أحسبك قد قرأت «كتاب خلق الإنسان»، قال: نعم، قرأته على الأصمعي.

قيل لبعض المغفلين: سأل عنك فلان، فقال: يسأل الله عنه وملائكته.

دخل بعض المغفلين إلى بعض القضاة فجلس بين يديه فقال: أعدمني الله القاضي، مات فلان والذي ما خلفوا بعدي سواهم وهو ذا يظلموني إخوتي، نسيباتي تسعة وهم واحد وكل يوم يجعلون عمامتي في عنق القاضي يجرونه إلي، فقال القاضي: ليس الممتحن غيري.

وقال أبو العنبس: صحبني رجل في سفينة فقلت له: ممن الرجل؟ فقال من أولاد الشام، ممن كان جدي من أصدقاء المنصور علي بن أبي سالم شاعر الأنبار، وكان من الذين بايعوا تحت الشجرة مع أبي سالم بن يسار في وقعة الفاروق، أياد قتل الحجاج بن يونس بالنهروان على شاطىء الفرات مع أبي السرايا، قال أبو الهنبس: فلم أدر على أي شيء أحسده، على معرفته بالأنساب، أم على بصره بأيام الناس، أم حفظه للسير.

عزّى رجل رجلًا بابنه فقال له في الجواب: رزقنا الله مكافأتك.

قال الحسن بن يسار: قلت لبعضهم أن فلانًا ليس يعدك شيئًا، فقال: والله لو كنت أنا أنا، وأنا ابن مَن أنا منه، لكنت أنا أنا وأنا ابن مَن أنا منه فكيف وأنا وأنا ابن مَن أنا منه.

سمع بعض الحمقى قومًا يتذاكرون الموت وأهواله فقال: لو لم يكن في الموت إلا أنك لا تقدر أن تتنفس لكفى.

قال ثمامة لخادمه: اذهب إلى السوق واحمل كذا وكذا، فقال: يا سيدي أنا ناقة، وليس في ركبتي دماغ، فقال ثمامة: ولا في رأسك.

ورُئِيَ أعمى يمشي في الطريق ويقول: يا منشيء السحاب بلا مثال.

دخل رجل على المعتضد فقال: يا أمير المؤمنين، إن فلانًا العامل ظلمني، قال: ومن فلان؟ قال: والله لا أدري اسمه ولكن في خده الأيمن خال أو تؤلول أو أثر لطمة أو أثر حرق نار أو أثر مسمار أو في خده الأيسر، وكان له مرة غلام يقال له جرير أو نجم إلا أن في اسمه طاء أو لام، فضحك المعتضد، وقال: كأنه موسوس؟ قال: سلني عما شئت حتى أجيبك، قال: كم أصبع لك؟ قال: ثلاثة أرجل فأمر بإخراجه، فقال: ما أقول لبنتي إذا دخلت وقد فتحت حجرها لأطرح فيه ألجوز يوم العيد؟ فأمر المعتضد أن يحمل معه إلى منزله طعام وجائزة.

دخل بعضهم إلى المستراح فأراد أن يحل لباسه فحل أزاره وخرى في لباسه.

حُكِيَ أن جماعة من أهل حمص تذاكروا في حديث الأعضاء ومنافعها فقالوا: الأذن للشم والفم للأكل واللسان للكلام فما فائدة الأذنين! فلم يتوجه لهم في ذلك شيء، فأجمعوا على قصد بعض القضاة ليسألوه، فمضوا فوجدوه في شغل، فجلسوا على باب داره، وإذا هناك خياط فتل خيوطًا ووضعها على أُذنه، فقالوا: قد أتانا الله بما جئنا نسأل القاضي عنه، وإنما خلقت للخيوط، وانصرفوا مسرورين مما استفادوه.

قال الجاحظ: مررت بحمص فمرّ عنز يتبعه جمل، فقال رجل لرجل معه: هذا الجمل من هذا العنز؟ فقال له: لا ولكنه يتيم في حجرها.

عرض هشام بن عبد الملك الجند فأتاه رجل حمصي بفرس، كلما قدمه نفر، فقال هشام: ما هذا؟ قال الحمصي: يا سيدي هو جيد، لكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر.

اجتاز أهل حمص بشيخ لهم، لم يكن فيهم أعقل منه ولا أكمل مع ابنين له معروفين عندهم بالعقل والكمال، فأوفدهم إلى الرشيد لمظلمة كانت بهم، فلما وردوا الباب وأذن لهم دخل الشيخ فقال: السلام عليك يا أبا موسى، فعلم أنه أحمق وأمره بالجلوس، ثم قال: أحسبك قد طلبت العلم وجالست العلماء؟ قال: نعم يا أبا موسى، قال: مَن جالست من العلماء؟ قال: أبي، قال: وما كان يقول في عذاب القبر، قال: كان يكرهه، فضحك الرشيد ومَن حضر ثم قال: يا شيخ مَن حفر البحار فيما سمعت؟ فسكت الشيخ، فقال أحد ولديه، قد حفرها موسى حين طرق له، قال: فأين طينها؟ فقال الولد الثاني: الجبال، ففرح الشيخ بحسن جواب ولديه، وقال: والله ما علمتهما، ما هو إلا إلهام من الله تعالى وله الحمد.

وفد على الرشيد ثلاثة من حمص، فدخل أحدهم فرأى غلامًا على رأسه فظنّه جارية، فقال: السلام عليك يا أبا الجارية، فصفع وأخرج، فدخل الثاني فقال: السلام عليك يا أبا الغلام، فصفع وأخرج، فدخل الثالث فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له: كيف صحبت هذين الأحمقين؟ قال: يا أمير المؤمنين لا تتعجب منهم فإنهم لما رأوك بهذا الزي ورأوا لحيَتك طويلة قدروا أنك أبو فلان، فقال الرشيد: أخرجوه، قبّح الله بلدة هؤلاء خيارهم.

قال بعضهم: رأيت رجلًا ألحى قائمًا في حلقة قاص يقص مقتل عثمان بن عفان، فلما فرغ قال الألحى: أعيذك بالله ما أحسن ما تروي كلام منصور بن عمار.

قال الجاحظ: مررت بمنجد في (قنطرة بردان) طويل اللحية وامرأة تطالبه بشيء لها عنده وهو يقول: رحمك الله، متاعك جاءني يحتاج إلى حشو كثير وأنت من العجلة تمشين على أربع.

قال أبو حاتم: سأل رجل أبا عبيدة عن اسم رجل فقال: ما أعرف اسمه فقال له بعض أصحابه: أنا أعرف الناس به، اسمه خراش أو خداش أو رياش أو شيء آخر.

خرج عبادة ذات يوم يريد السوق، فنظر في بعض طرقه إلى شيخ طويل اللحية كلما، أراد أن يتكلم بادرته لحيته، فمرة يدسها في جيبه ومرة يجعلها تحت ركبته فقال له عبادة: يا شيخ لم تترك لحيتك هكذا؟ قال: فتريد أن أنتفها حتى تكون مثل لحيتك! قال عبادة: فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: الآيتان ٩، ١٠] وقال ﷺ: - «أحفوا الشارب واعفوا اللحى» - ومعنى عفو اللحى أن يزال أثرها، فقال الشيخ: صدق الله ورسوله، سأجعلها كما أمر الله ورسوله، فحلق لحيته وجلس في دكانه، فكان كل مَن رآه وسأله عن خبره قرأ عليه الآية وروى له الحديث.

قيل لمريض: كيف نجدك! فقال: أنا علة، قيل: وما معنى علة؟ قال: أليس يقال للصحيح ليس به علة؟ قالوا: نعم، قال: أنا كما قيل، أنا علة.

قيل لرجل: عندك مال وليس لك إلا والدة عجوز، أن مت ورثت مالك وأفسدته، فقال: إنها لا ترثني، قيل: وكيف؟ قال: أبي طلّقها قبل أن يموت.

قال أبو الأسود لابنه: يا بني إن ابن عمك يريد أن يتزوج ويجب أن تكون أنت الخاطب فتحفظ خطبة، فبقي الغلام يومين وليلتين يدرس خطبة، فلما كان في الثالث قال أبوه: ما فعلت؟ قال: قد حفظتها قال: وما هي؟ قال: اسمع الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح؛ فقال له أبوه: أمسك لا تقم الصلاة فإني على غير وضوء.

أسلم رجل ولده إلى الكتاب، فلما كان بعد حين قال له والده: تعلمت شيئًا من الحساب؟ قال: نعم، قال: فخذ خمسين وخمسين كم تعد؟ قال: أربعين، قال: يا مشؤوم، ثلاث خمسينات ما يحصل معك منها خمسين؟ ثم حبسه عن الكتاب وقال: لا أفلحت.

مرض صديق لحامد بن العباس فأراد أن ينفذ ابنه إليه ليعوده فأوصاه وقال: يا بني إذا دخلت فاجلس في أرفع المواضع، وقل للمريض: ما تشكو؟ فإذا قال: كذا وكذا، فقل له: سليم إن شاء الله، وقل مَن يجيئك من الأطباء، فإذا قال: فلان فقل: ميمون، وقل: ما غداؤك؟ فإذا قال: كذا وكذا فقل: طعام محمود، فذهب فدخل على العليل وكان بين يديه منارة، فجلس عليها لارتفاعها فوقعت

على صدر العليل فأوجعته، ثم قال للمريض: ما تشكو فقال: أشكو علة الموت، فقال سليم: إن شاء الله، فمن يجيئك من الأطباء؟ قال: ملك الموت، قال مبارك ميمون، فما غذاؤك؟ قال: سم الموت، قال: طعام طيب محمود.

تقدم رجل إلى معلم ابنه فسأله أن لا يعلّمه سوى النحو والفقه، فعلّمه مسألتين من النوعين (ضرب زيد عمرًا) ارتفع زيد بفعله وانتصب عمرو بوقوع الفعل عليه، والأخرى من الفقه (رجل مات وخلف أبويه فلأمه الثلث ولأبيه الباقي) فقال له: أفهمت؟ قال: نعم، فلما انصرف إلى البيت قال له أبوه: ما تقول في (ضرب عبد الله زيدًا)؟ قال: أقول ارتفع بفعله وما بقي للأب.

كان لبعض التجار المياسير ابن أبله، فقضي أن صار الأب إلى حانوته يومًا فوجد اللصوص قد أخذوا صندوقًا له كان فيه صامت كثير وأسباب جميلة، فجلس الرجل والناس يعزونه ويدعون له بالخلف، فبينما هم كذلك إذ أقبل ابنه، فلما قرب من حانوت أبيه ورأى الناس سأل عن الخبر، فقالوا: دخل اللصوص حانوت أبيك وأخذوا الصندوق الذي كان فيه ما كان، فضحك وقهقه وقال: لا بأس ما فاتنا شيء، فظنّ الناس أنه خبّأه أو يعرف خبره، فأسرعوا إلى أبيه فبشروه بأن ابنه قال: كذا، فقال له أبوه: ما الخبر وأي شيء عندك في هذا الأمر؟ قالوا: مفتاح الصندوق عندي فلا يقدرون أن يفتحوه، فقال أبوه: عجبت والله أن يكون عندك فرح.

قال بعضهم: دخلت على نصر الرصيفي في منزله، فإذا ابنه يصايحه في شيء وقد ارتفعت أصواتهما، فقلت: ما هذا؟ فقال: هذا يزعم أن عليّ بن أبي طالب هاشمي فقلت أنا: بل علوي، فاحكم بيننا فقلت أنا: هو علوي، ألا ترى إلى اسمه (علي)، فقال لي: ابصق في وجهه؟ فقلت: كلاكما يستحق ذلك.

كان بسجستان شيخ يتعاطى النحو، وكان له ابن فقال لابنه: إذا أردت أن تتكلم بشيء فاعرضه على عقلك، وفكر فيه بجهدك، حتى تقومه ثم أخرج الكلمة مقومة، فبينما هما جالسان في بعض الأيام في الشتاء والنار تتقد وقعت شرارة في جبّة خز كانت على الأب وهو غافل والابن يراه، فسكت ساعة يفكر ثم قال: يا أبت أريد أن أقول شيئًا فتأذن لي فيه؟ قال أبوه: إن حقًا فتكلم، قال أراه حقًا، فقال قل: قال إني أرى شيئًا أحمر قال: وما هو؟ قال: شرارة وقعت في جبتك،

فنظر الأب إلى جبته وقد احترق منها قطعة، فقال للابن: لم لم تعلمني سريعًا؟ قال: فكّرت فيه كما أمرتني، ثم قوّمت الكلام وتكلّمت فيه، فحلف أبوه بالطلاق أن لا يتكلم بالنحو أبدًا.

دقّ رجل باب دار نحوي فقال: مَن ذا؟ فقال: أنا الذي أبو عمرو الجصاص عقد طاق باب هذه الدار، فقال النحوي: ما ترى لك في صلة الذي شيئًا، فانصرف راشدًا.

جاءت امرأة إلى جارة لها تستعير منها إزارًا لتمضي في حاجة وترده من ساعتها فقالت: قد غزلت من إزاري عشرة أساتير، فاصبري حتى أتم غزله وأسلمه إلى الحائك ويفرغ منه وأعطيك إياه ولا تمري بمسمار فإنه جديد وقالت امرأة لأخرى: اليوم مشيت إلى قبر أحمد فدخل في رجلي مسمار، فقالت لها: وكان الخف الجديد في رجلك؟ قالت: لا، قالت لها: فاحمدي الله.

قال بعضهم: مررت بسوق وقد اجتمع فيه قوم على رجل يضربونه، فقلت: ما ذنب هذا؟ قالوا: شتم معاوية بن أبي سفيان، صديق النبيّ ﷺ ومَن صلّى معه أربعين سنة على طهر واحد، وكان من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان، وسمى خال المؤمنين لأنه كان أخا حواء من أمها وأبيها.

قال بعضهم: مررت على قوم قد اجتمعوا على رجل يضربونه، فتقدمت إلى شيخ كان يجيد قتله، فقلت: يا شيخ ما قصة هذا؟ قال: لا تكونن منهم، هذا رافضي يقول: نصف القرآن مخلوق ونصفه لا، وليس في القوم خير من النبيّ ﷺ وبعده الخضر، فبادرني الضحك فرددته مخافة الضرب وقلت: يا شيخ زده فإنك مأجور.

قال: ومررت بقوم قد اجتمعوا على رجل يضربونه، فقلت: لرجل يجيد ضربه: ما حال هذا؟ قال: والله ما أدري ما حاله، ولكنني رأيتهم يضربونه فضربته معهم لله عزّ وجلّ وطلبًا للثواب.

قال بعضهم: رأيت رجلًا يبيع الرمان في الأسواق ويطعمه أهل سوقه، ويسألونه عن مسائل تقع لهم في الفقه وهو يكنّى أبا جعفر، فجاءته امرأة فقالت: يا أبا جعفر، مريم بنت عمران كانت نبيّة؟ قال: لا يا غافلة، قالت: وإيش كانت؟ قال: من الملائكة.

قال الجاحظ: دخلت واسط فبكّرت يوم الجمعة إلى الجامع، فقعدت، فرأيت على رجل لحية لم أرَ أكبر منها، وإذا هو يقول لآخر: إلزم السنة حتى تدخل الجنة، فقال له الآخر: وما السنة؟ قال: حب أبو بكر بن عفان وعثمان الفاروق وعمر الصديق وعلي بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي شيبان؟ قال: ومَن معاوية بن أبي شيبان! قال: رجل صالح من حملة العرش وكاتب النبيّ ﷺ وختنه على ابنته عائشة.

قال بعضهم: مررت على قوم اجتمعوا على رجل يضربونه، فقلت لشيخ منهم: ما ذنب هذا؟ قال: يسب أصحاب الكهف، قلت: ومَن أصحاب الكهف؟ قال: لست مؤمنًا، قلت: بلى ولكني أحب الفائدة. قال أبو بكر وعمر ومعاوية بن أبي سفيان، ومعاوية هذا رجل من جملة سرادق العرش، فقلت له: يعجبني معرفتك بالأنساب والمذاهب، فقال: نعم خذ العلم عن أهله، فقال واحد منهم لآخر: أبو بكر أفضل أم عمر، قال: لا بل عمر، قال: وكيف علمت؟ قال: لأنه لما مات أبو بكر جاء عمر إلى جنازته، ولما مات عمر لم يجيء أبو بكر لجنازته.

مرض بعض المغفلين فأتي بطبيب فقال الطبيب: إذا كان غدًا فاحفظوا البول حتى أجيء وأنظره، فلما خرج الطبيب من عنده بقي لا يبول إلى الغد، فلما جاء الطبيب قال له المريض: يا عبد الله قد كادت مثانتي تنشق من إحباسي البول فلماذا تأخرت، فقال: إنما أمرتك أن تحفظ البول في إناء، فلما كان الغد جاء الطبيب فإذا هو قد أخذ برنية خضراء، فقال الطبيب: ما هذا، أخطأت ألم يكن في الدنيا شيء من الزجاج كنت تأخذ في قارورة أو في قدح، فلما كان من الغد، أخذ البول في قدح من الخشب فعرضه عليه، فقال له: أنت في حرج، ألا نظرت إلى هذا الماء فاصدقني في أمري هل يخاف عليّ من هذه العلة؟ قال: أما إذ حلفتني فلا بد أن أقول: أنا خائف أن تموت من هذا العقل لا من هذه العلة.

دخل بعض الحمقى من الأطباء على عليل، فشكا إليه العليل ما يجد فقال: خذ مثل رأس الفأرة كلنجبين وصبّ عليه مقدار محجمة ماء واضربه حتى يصير مثل المخاط واشربه، فقال العليل: قم لعنك الله، فقد قذرت إلى كل دواء في الأرض. كان طبيب أحمق قد أعطى رجلًا من جيرانه شربة فأقامته قيامًا حتى مات منه، فجاء الطبيب يتعرّف خبره فوجده قد مات فقال: لا إلـٰه إلا الله من شربة ما كان أقواها، لو عاش ما كان يحتاج إلى أن يشرب الدواء سنة أخرى.

سرقت ثياب رجل من الحمام فخرج عريانًا وعلى باب الحمام طبيب أحمق، فقال له: ما قصتك؟ فقال: سرقت ثيابي قال: بادر وافتصد تخف عنك حرارة الغم.

أصيب بعضهم بأمه فقعد يبكي ويقول: يا أمي أماتني الله قبلك، أمي زانية إن لم تدخل الجنة، لا دخلتها امرأة أبدًا.

مات ولد لرجل فقيل له: ادع فلانًا يغسله، فقال: لا أريد، لأن بيني وبينه عداوة فيعنّف بابني في الغسل حتى يقتله.

اجتمع رجلان في طريق الحج، فقال أحدهما للآخر: كم قد حججت؟ قال: مع هذه التي نحن فيها واحده.

ماتت جارية لرجل فلما دفنها قال: لقد كنت تقومين بحقوقي، فلأكافئنك، اشهدوا على أنها حرة.

وقفت سائلة على باب قوم، فقال لها رجل اذهبي يا زانية، فقالت: إذا لم تعطني فلم تسبني؟ قال: والله ما أردت بهذا إلا الخير، أردت أن تؤخّري وآثم.

حُكِيَ أن بعض المغفلين اشترى بقطعة شيرجًا في غضارة، فامتلأت الغضارة، فقال البقال: قد بقي لك من الشيرج في أي شيء تأخذه، فقلب الغضارة وقال في هذه وأشار إلى كعبها، فطرح البقال الباقي في ذلك الكعب، فأخذه الرجل ومضى، فلقيه رجل فقال: بكم اشتريت هذا الشيرج؟ فقال: بقطعة، فقال هذا القدر فقط؟ فقلبها وقال: هذا أيضًا.

كان لرجل على رجل أربعة دراهم، فجاء يومًا يقتضيه فقال: غدًا أعطيك، فقال: لا أذهب حتى تحلف لي أنك تعطنيها غدًا، فحلف له إنك إن جئت (لا تذهب إلا وهي معك) وأشهد عليه بذلك ومضى، فجاء من الغد فقال له: ما عندي شيء، وإنما حلفت إنك لا ترجع إلا وهي معك أعني (لحيتك) فأشهد عليه بهذا القول وذهب سريعًا إلى الحجام وحلق لحيته وجاء إليه، وما برح حتى أخذ دراهمه.

وقال قوم لغلام: املأ بيت الماء، فنقل ماء كثيرًا وأبطأ عليهم، فقالوا: ما هذا الإبطاء، فصعدوا إليه فإذا به يقلب الماء في بيت الماء، فقال: كلفتموني أن أملأ هذا وما أظنه يمتلىء في شهر.

حكى لي بعض أصدقائنا قال: كان عندنا رجل أُتهم بسرقة، فأُخذ وجرت له قصة، فجاءني بعد أيام فقال لي: عندك الخبر، مضيت إلى المنجم فأعطيته قطعة فحسب لي وقال، والله إنك بريء مما اتهمت به وإنك ما سرقت شيئًا.

رأى بعضهم جنازة قد أقبلت فقال: ربي وربك الله لا إلـه إلا الله، فقال آخر: أخطأت، إذا رأيت جنازة فقل: اللهم البسنا العافية، فتشاجرا في ذلك فاحتكما إلى آخر فقال: إذا رأيتم جنازة فقولوا: «سبحان الله مَن يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته».

قال منجم لرجل من أهل طرسوس: ما نجمك؟ قال: (التيس)، فضحك الحاضرون وقالوا: ليس في النجوم والكواكب تيس، قال: بلى، قد قيل لي وأنا صبي منذ عشرين سنة نجمك (الجدي) فلا شك أنه قد صار تيسًا منذ ذلك الوقت.

كان لبعض الكتَّاب غلام، فأمسى السيد عند بعض أصدقائه، فقال للغلام: اذهب إلى البيت هات شمعة، فقال: يا سيدي أنا لا أجسر أذهب وحدي في هذا الوقت، فأحب أن تقوم معي حتى أحمل الشمعة وأجيء معك.

وقال رجل لغلام: هات نارًا وأشعلها، قال: يا مولاي لأي شيء تزيد النار؟ قال: أريد أتخذ عصيدة، فقال: يا مولاي لقمني حتى أجيء بالعجلة.

لَكَمَ رجلٌ رجلًا فصاح: أدميتني، فلم ير دمًا فقال: أين الدم؟ فقال: أنا أرعف من داخل.

وقع رجلان على قافلة فيها ستون رجلًا، فأخذوا مالهم وثيابهم، فقيل لبعضهم: كيف غلبكم رجلان وأنتم ستون؟ فقال: أحاط بنا واحد وسلبنا الآخر كيف نعمل؟

كلم رجل رجلًا بشيء يغضبه فقال: أتقول لي هذا وأنا رجل من (الأنصار)؟ قال له: النصارى واليهود عندنا في الحق سواء.

عن ابن الرومي قال: قال طبيب لتلميذه: إذا دخلت إلى مريض فانظر إلى أثر ما عنده من طعام أو شراب، فانهه عما لا يصلح من ذلك، فدخل الغلام يومًا على مريض فنظر إلى حداجة جمل في الدار فقال للمريض: أنا والله لا أصف لك

دواء، قال: ولِمَ؟ قال: لأنك قد أكلت جملًا، قال: لا والله ما أكلت جملًا قط، فقال: هذه الحداجة من أين؟

عن إبراهيم بن القعقاع: انتبه قوم ليلة في رمضان وقت السحور فقالوا لأحدهم: انظر هل تسمع أذانًا؟ فأبطأ عنهم ساعة ثم رجع فقال: اشربوا، فإني لم أسمع أذانًا إلا مَن مكان بعيد.

كتب رجل من آل أبي رافع على خاتمه أنا فلان ابن فلان رحم الله مَن قال آمين.

مرض رجل مرة، فلما اشتد به المرض أمر بجمع العيدان والطنابير والمزامير إلى بيته، فأنكروا عليه ذلك فقال: إنما فعلت ذلك لأني سمعت أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه شيء من آلات الملاهي والفجور، فإن كان ملك الموت من الملائكة دفعته عني بهذه الأشياء.

غصب رجل رجلًا شيئًا وتصدّق به، فقيل له في ذلك، فقال: أخذي إياه سيئة، وصدقتي به عشر حسنات، فمضت واحدة وبقيت لي تسعة.

سُئِلت امرأة عن حرفة زوجها فقالت: متولي إخراج المساكين من المسجد الجامع، وقد أرجعت له المقصورة.

قيل لبعضهم: كل، قال: ما بي أكل، لأني أكلت قليل أرز فأكثرت منه.

جاء قوم إلى رجل من الوجوه يسألونه كفنًا لجارية له ماتت فقال: ما عندي شيء فتعودون، قالوا: فنملحها إلى أن يتيسر عندك شيء.

سُئِل بعض المشايخ المغفلين، أتذكر إن حج الناس في رمضان؟ ففكر ساعة ثم قال: بلى أظن مرتين أو ثلاثة.

قيل لمغفل: كيف دملك سكن وجعه؟ قال: والله ما أرى اسألوا أمي.

قال بعض الناس لمملوكه: أخرج وانظر هل السماء مصحية أو مغيّمة، فخرج ثم عاد فقال: والله ما تركني المطر أنظر هل هي مغيّمة أم لا.

قال بعضهم لآخر وكان أحمق: المستشار مؤتمن، وأني أريد أن أغسل ثيابي غدًا، أفترى تطلع الشمس أم لا.

جاء رجل إلى أبي حكيم الفقيه وأنا حاضر، ومع الرجل ابنته ليزوجها من رجل، فقال له الشيخ: أبكر ابنتك أم ثيب؟ فقال: والله يا سيدي ما هي لا بكر ولا ثيب، ولكنها واسطة، فقال الشيخ: فأيش هي، عوان بين ذلك؟ فضحك الجماعة وذلك الوالد لا يدري.

عن أبي محمد بن معروف قال: كان يلزمني فتى نصراني حسن الخط مليح الشعر، إلا أنه كان سوداويًا، فحكم لنفسه أنه يموت في اليوم الفلاني، فجاء ذلك اليوم وهو صحيح، فخاصم امرأته وترقى الشر بينهما إلى أن أخذ عمود الهاون ودقّ به رأسها فماتت، فجزع جزعًا شديدًا فقال: قد علمت أنه يوم قطع عليّ ولا بد أن أموت فيه، والساعة يجيء أصحاب الشرطة فيأخذوني فيقتلوني، فأنا أقتل نفسي عزيزًا أحب إلي، فأخذ سكينًا فشقّ بها بطنه، فأدركته حلاوة الحياة، فلم يتمكن من تخريقها فسقطت السكين، فقال هذا ليس بشيء، فصعد إلى السطح فرمى نفسه إلى الأرض فلم يمت واندقت عظامه، فجاء صاحب الشرطة فأخذوه، فلما كان آخر الليل مات.

عن أبي الحسن علي بن نظيف المتكلم قال: كان يحضر معنا ببغداد شيخ، فحدّثنا أنه دخل على بعض مَن كان يعرفه بالتشيع قال: فوجدته وبين يديه سنور وهو يمسحها ويحك بين عينيها ورأسها، وعيناها تدمعان كما جرت عادة السنانير، وهو يبكي بكاء شديدًا، فقلت له: لم تبكي؟ فقال: ويحك ما ترى هذه السنور تبكي كلما مسحتها، هذه أمي لا شك، وإنما تبكي حسرة من رؤيتها إلي، قال: فأخذ يخاطبها بخطاب من عنده ظانًا أنها تفهم عنه وجعلت السنور تصيح قليلًا قليلًا، فقلت له: فهي تفهم عنك ما تخاطبها به؟ قال: نعم، فقلت له: أتفهم أنت عنها خطابها؟ قال: لا، قلت: فأنت إذن الممسوخ وهي الإنسان.

قال الجاحظ: مررت يومًا بقطان في الكرخ في دكانه وعليه لحية طويلة وقميص جديد غليظ، وكان يومًا صائفًا شديد الحر فتعجبت منه، فقال لي: ما وقوفك أعزّك الله؟ قلت: أتعجب من صبرك على هذا القميص الجديد في هذا الحر الشديد! قال: صدقت أعزّك الله، عندي غزل كثير، وعزمي أن أسلم منه إلى الحائك قميصًا خلقًا أتخفف به طول هذه الصيفية، فقلت: الصواب ما رأيت.

وقال: دخلت يومًا على بعض إخواني من التجار أعوده وكان طويل اللحية، فقلت له: ما أكلت؟ فقال: شووا لي خاسرة وأكلت، (يعني خاثرة).

وقال: أخبرت عن الأصمعي قال: عرض الرشيد خيل مصر فما مرّ به فرس إلا وعليه سمة (نتاج الفخر الجنيدي)، فقال: ويلكم من هذا الجنيدي الذي له كل هذا النتاج؟ وأمر بإشخاصه، فكتب إلى عامل مصر فأشخصه، فلما دخل عليه نظر إليه من أول الدار، فإذا عليه لحية قد أخذت لسرته طولًا ولآباطه عرضًا، وإذا هو مستعجل في مشيه ينظر إلى أعطافه، فلما رآه قال أحمق ورب الكعبة، فلما دنا منه قال: يا جنيدي من أين لك هذا الخيل؟ قال: من رزق الله وأفضاله، فلما رآه هالكًا قال: ما أحسن لحيتك يا جنيدي، قال: اقبلها يا أمير المؤمنين خلعة لك، والخيل معك فبك فداهما الله، فإن قدرك عندي أعظم القدور وكرامتك عندي عزيزة جدًّا، فصاح به أغرب عليك لعنة الله، ثم قال: أخرجوه، فقد أسمعني كل مكروه لعن الله هذا وخيله معه.

قال ابن قتيبة: حدث جار لأبي حية النميري قال: كان لأبي حية سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق، وكان يسميه «لعاب المنية» قال: فأشرفت عليه ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيت في داره وقد سمع حسًّا وهو يقول: أيها المغتر بنا والمجترىء علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة ضربته لا تخاف نبوته، أخرج بالعفو عنك لا أدخل بالعقوبة عليك؛ إني والله أن أدع قيسًا تملأ الفضاء خيلًا ورجلًا، يا سبحان الله ما أكثرها وأطيبها، ثم فتح الباب فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفاني حربًا.

قال الفضل: ابن مرزوق: أتدرون لأي شيء كثر مالي؟ قالوا: لا، قال: لأني سميت نفسي بيني وبين الله محمد، وإذا كان اسمي عند الله محمدًا فما أبالي ما قال الناس.

عن المزرودي قال: اشترى أحمد الجوهري كساء أبيضًا طبريًّا بأربعمائة درهم، وهو عند الناس فيما تراه عيونهم (قوهي) يساوي مائة درهم، قال: إذا علم الله أنه طبري فما علي من الناس.

قال الجاحظ: كان أبو خزيمة يكنّى (أبا جاريتين) فقلت له يومًا: كيف اكتنيت بهذه الكنية وأنت فقير لا تملك جاريتين: أفتبيعهما الساعة بدينار وتكنّى أي كنية شئت؟ قال: لا والله ولا بالدنيا وما فيها.

وقال عن ثمامة بن أشرس قال: كان رجل يقوم كل يوم فيأتي دالية لقوم، فلا يزال يمشي مع رجال الدالية على ذلك الجزع ذاهبًا وجائيًا في شدة البرد والحر حتى إذا أمسى نزل إلى النهر فتوضأ وصلّى وقال: اللهم اجعل لي من هذا فرجًا ومخرجًا ثم انصرف إلى البيت، فكان كذلك حتى مات.

قال: وحدّثني يزيد مولى إسحٰق بن عيسى قال: كنا في منزل صاحب لنا إذ خرج واحد منا ليقيل في البيت الآخر، فلم يلبث ساعة حتى سمعناه يصيح أواه، فنزلنا بأجمعنا إليه فزعين وقلنا: ما لك ما لك؟ وإذا هو على شقه الأيسر وهو قابض بيده على خصيتيه، فقلنا له: لم صحت؟ قال: إذا غمزت خصيتي اشتكيتها وإذا اشتكيتها صحت، فقلنا: لا تغمزها، قال: نعم إن شاء الله، جزاكم الله خيرًا.

قال: وحدّثني ثمامة، قال: مررت يومًا وإذا شيخ أصفر كأنه جرادة وزنجي يحجمه قد مصّ دمه حتى كاد يستفرغه، فقلت: يا شيخ لم تحتجم؟ قال: لمكان هذا الصفار الذي بي.

كان لرجل من أصدقائنا غلام، فأعطاه قطعًا ليشتري بها شيئًا، وكان فيها قطعة رديئة، فقال له: يا سيدي هذه ما يأخذها الرجل، فقال: اجتهد أن تصرفها كيف اتفق، فلما اشترى وجاء قال: وقد صرفتها، قال: كيف فعلت؟ قال: تركته يرن الذهب وتغفلته فرميتها في ميزانه.

حكى لي بعض إخواننا أن رجلًا أتى مفسر المنامات فقال: رأيت كأن معي رجلين ونحن نمضي إلى فلان في حاجة، فقال له: أتعرف الرجلين؟ قال: أعرف أحدهما ومنزله في باب البصرة، فأريد أسأل صاحبي عن ذلك الرجل الآخر.

سمع رجل في زماننا قومًا يتكلمون في القرآن، ويقول بعضهم: ليس بقديم، فقال: ما أبله هؤلاء قد تكلم الله بالقرآن منذ خمسمائة سنة فكيف لا يكون قديمًا.

اشترى رجل في زماننا من بقّال رطلين دبسًا، فأعطاه طاسًا ليجعله فيها، فغرف بالطاسة من التغار وترك صنجة الرطلين، فلما رآها ترجح صب من الدبس ثم أعادها إلى الميزان، فرجحت فجعل يصب ثم يعيدها وهي ترجح، فقال لصاحبها: ما أرى يبقى لك شيء فقال له صاحبها: هذه الطاسة فيها ثلاثة أرطال فإن أردت أن تستوي الميزان فاكسر من جانب الطاسة، وإلا ما تستوي.

قرأت بخط بعض المغفلين وقد نظر في كتاب ثم كتب عليه: «نظرت في هذا الكتاب والأقوات رخيصة، والكارة السميد تساوي دينارًا ودانقًا، والخشكار بثمانية عشر قيراطًا، فالله تعالى يديم ذلك».

وكتب آخر على كتاب: «نظر فيه فلان ابن فلان وأنا من ولد داود ابن عيسى ابن موسى وموسى هو أخو السفاح».

حدَّثني بعض إخواني أنه كان بتكريت وأن رجلًا اشترى من خباز مائتين وعشرين رطلًا من الخبز بدينار، ثم كان يأخذ كل يوم شيئًا إلى أن تحاسبا يومًا، فقال: قد أخذت مائة وعشرين رطلًا وبقي لك مائة وعشرين، فقال له: اندر هذه بهذه واعطني الدينار، فجعل الرجل يستغيث ويقول: كيف افعل بهذا؟ فيقول: أليس لك عندي مائة وعشرين ولي عندك مائة وعشرين؟ فيقول: بلى، فيقول: انذر هذه بهذه واعطني الدينار، فاجتمع الناس عليهم على ذلك إلى أن رفعت قصتهم إلى الأمير.

رجع بعض القريشيين إلى امرأته وكانت قريشية وقد حلقت شعرها، وكانت أحسن النساء شعرًا. فقال: ما خطبك؟ فقالت: أردت أن أغلق الباب فلمحني رجل ورأسي مكشوف فحلقته، وما كنت لأدع شعرًا رآه من ليس لي بمحرم. ومثل هذا بلغني عن بعض القصاص أنه قال لأصحابه: احلقوا اللحى التي تنبت في مواقف الشيطان.

حدّثني بعض العلماء أن رجلًا مغفلًا نظر في المصحف فقال: قد وجدت فيه غلطتين فأصلحوها، قالوا: وما هي؟ قال: (كل بناء وعواص) هذا غلط إنما يجب أن يكون ـ كل بناء وجصّاص ـ والأخرى (والتين والزيتون) إنما هي ـ والجبن والزيتون ـ.

حدّثني بعض الأصدقاء أن رجلًا وقف بباب داره يوم الجمعة والمطر يأتي سيلًا، فقال لرجل من المارّين: يا أخي هوذا الذي يجيء مطر؟ فقال له: أما ترى؟ فقال: أردت أن أقلّد غيري في انقطاعي عن الجمعة ولا أعمل بعلمي.

وروى أبو بكر الصولي عن إسحٰق قال: كنا عند المعتصم، فعرضت عليه جارية، فقال: كيف ترونها؟ فقال واحد من الحاضرين: امرأتي طالق إن كان الله عزّ وجلّ خلق مثلها، وقال الآخر: امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها، وقال

الثالث: امرأتي طالق وسكت، فقال المعتصم: إن كان ماذا؟ فقال إذا كان لا شيء، فضحك المعتصم حتى استلقى وقال: ويحك ما حملك على هذا؟ قال: يا سيدي هذان الأحمقان طلقا لعلة، وأنا طلقت بلا علة.

قيل لبعض البله وكان يتحرّى من الغيبة: ما تقول في إبليس؟ فقال: أسمع الكلام عليه كثيرًا والله أعلم بسريرته.

حكى لي بعض الإخوان أن بعض المغفلين كان يقود حمارًا، فقال بعض الأذكياء لرفيق له: يمكنني أن آخذ هذا الحمار ولا يعلم هذا المغفل، قال: كيف تعمل ومقوده بيده؟ فتقدم فحل المقود وتركه في رأس نفسه وقال لرفيقه: خذ الحمار واذهب، فأخذه، ومشى ذلك الرجل خلف المغفل والمقود في رأسه ساعة، ثم وقف فجذبه فما مشى، فالتفت فرآه، فقال: أين الحمار؟ فقال: أنا هو، قال: وكيف هذا؟ قال: كنت عاقًّا لوالدتي فمسخت حمارًا، ولي هذه المدة في خدمتك، والآن قد رضِيَت عني أمي فعدت آدميًا، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكيف كنت أستخدمك وأنت آدمي! قال: قد كان ذلك، قال: فاذهب في دعة الله، فذهب ومضى المغفل إلى بيته فقال لزوجته: أعندك الخبر؟ كان الأمر كذا وكذا، وكنا نستخدم آدميًا ولا ندري فبماذا نكفر وبماذا نتوب؟ فقالت: تصدق بما يمكن، قال: فبقي أيامًا، ثم قالت له: إنما شغلك المكاراة فاذهب واشتر حمارًا لتعمل عليه، فخرج إلى السوق فوجد حماره ينادي عليه، فتقدم وجعل فمه في أذنه وقال: يا مدبر عدت إلى عقوق أمك.

ماتت قريبة لأبي منصور بن الفرج، وكان رئيسًا فاجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم لقضاء حقه، وخرجت الجنازة وجعل النساء يلطمن ويقلن واستَّاه واستَّاه، على ما جرت به العادة، فأنكر زوج المرأة هذا وقال: لا ست إلا الله وصاح عليهن، فضحك الناس وصار المقام هزلًا بعد الحزن.

دخل على موسى بن عبد الملك يومًا صاحب خزانة السلاح فقال له: قد تقدم أمير المؤمنين ـ يعني المتوكل ـ ليبتاع ألف رمح طول كل رمح أربعة عشر ذراعًا، فقال: هذا الطول فكم يكون العرض؟ فضحك الناس ولم يفطن لما غلط فيه.

قال المبرد: قرأ ابن رباح بحضرة المنتصر «كتاب الصدقات» فقال: في كل ثلاثين بقرة تبيع، فقال المنتصر: ما التبيع؟ فقال أحمد بن الخصيب: البقرة وزوجها.

سمع أحمد بن الخصيب مغنية تغني:

إن العيون التي في طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فقال: هذا الشعر لأبي.

كان سهل بن بشر ممن ارتفع في الدول الديلمية وكان رقيعًا، فشتم فراشًا فرد عليه، فقام يعدو خلفه فوقعت عمامته، فأخذها سهل وما زال يعضّها ويخرقها ويقول: اشتفيت والله ثم عاد إلى مكانه.

شهد رجل عند بعض القضاة على رجل، فقال المشهود عليه: أيها القاضي تقبل شهادته ومعه عشرون ألف دينار ولم يحج إلى بيت الله الحرام؟ فقال: بلى حججت، قال: فاسأله عن زمزم، فقال: حججت قبل أن تحفر زمزم فلم أرها.

قال أبو الحسن بن هلال الصابي: أحضر إنسان بناء لمشاهدة حائط في داره قد عاب، فاتفق أن أمه تغسل الثياب فأخرج إلى البناء ترابًا من تراب ذلك الحائط في طشت وقال: ما يمكن أنك اليوم تدخل فهذا من ترابه فانظر إليه واعرف ما يريد، فقال: أنا أرجع إليك غدًا، فضحك منه وانصرف. قال وكان في جوارنا فقيه يعرف بالكشفلي من الشافعيين، تقدم في العلم حتى صار في رتبة أبي حامد الإسفراييني وقعد بعد موته مكانه، قال: فأهديت إليه عمامة عريضة قصيرة من خراسان، فقلت له: أيها الشيخ، اقطعها والفقها ليمكنك التعمم بها، فلما كان من الغد رأيتها على رأسه أقبح منظر، فتأملتها وإذا به قد قطعها عرضًا ولفقها، فصار عرضها أربعة عشر شبرًا وطولها نصف ما كان، فتعجبت منه ولم أراجعه.

أخبرني عيسى اللحام قال: جاءني رجل له منظر ليشتري مني إلية، فأخرجت له إلية صغيرة، فقال لي: أتهزأ بي؟ هذه إلية وأنا أريد إلية الضان، فقلت له: ليس للبقر إليه، فقال: حدث بهذا غيري ولا تستبلهني، فطالعت له غيرها فأعجبته ورضي بها.

وقع جرف في بعض السنين فقال بعض المغفلين: مات في هذه السنة مَن لم يمت قط.

الباب الخامس

قصص الملوك والخلفاء والوزراء والحجاب والولاة

قصص القضاة والقصاص

قصص العبيد والإماء والخدم

قصص الملوك والخلفاء والوزراء والحجّاب والوُلاة

في ذكر الوزراء

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾ [طه: الآية ٢٩]. فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة، فقال: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: الآيتان ٣١، ٣٢] دلّت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوّض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة، ثم قال: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾ [طه: الآيتان ٣٣، ٣٤] دلّت هذه الآية على أن يصحبه العلماء والصالحين أهل الخبرة والمعرفة، تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره[2] الخيل إلى السوط، وأحد الشفار إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله. وقال وهب بن منبه: قال موسى لفرعون: آمن ولك الجنّة ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان، فشاوره في ذلك، فقال له هامان: بينما أنت إلـٰه تُعبد إذ صرت تَعْبُد، فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالًا، ولبئس القرناء شر قرين لشر

---

(١) المستطرف: ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) أفره الخيل: أحسنها قوامًا ونشاطًا.

خدين[١]، وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة، وفي الأمثال: نعمَ الظهير الوزير. وأولى ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في انتخاب الوزراء واستنقاء الجلساء ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله، وبهذه الخلال[٢] يجمل في الخلق ذكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه، وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم.

وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان، وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، وفي كل صحيفة: ارحم المسكين واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه، ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحًا وإلى الماء محتاجًا، ومثل السلطان كمثل الطبيب، ومثل الرعية مثل المرضى، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير. وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدًا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل، فيقتله الملك، فمن هٰهنا شرط في الوزير أن يكون صدوقًا في لسانه عدلًا في دينه مأمونًا في أخلاقه بصيرًا بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضًا من أهل الأمانة والبصيرة، وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيمًا، فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه، واستخفّ بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل.

ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب، فوجد عنده رجلًا ذميًا كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشدًا:

يا ملكًا طاعتُهُ لازمه ... وحبّه مفترضٌ واجبُ
إن الذي شرّفت من أجله ... يزعم هذا أنّه كاذب

وأشار إلى الذمي، فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله، فلم يجد بدًا من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام.

(١) الخدين: الصديق.

(٢) الخلال: الصفات.

كان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتني غضبان، فادفع إليَّ رقعة بعد رقعة، وكان في الأولى أنك لست بإلـه، وأنك ستموت، وتعود إلى التراب، فيأكل بعضك بعضًا، وفي الثانية: ارحم مَن في الأرض يرحمك مَن في السماء، وفي الثالثة: اقضِ بين الناس بحكم الله، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك.

ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: لا تغتر بمودة الأمير إذا غشّك الوزير، وإذا أحبك الوزير، فنم لا تخش الأمير، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج[1] ومَن أتاها من غير بابها انزعج. وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر، فكما أن مَن لم ينظر في المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفًا بهم.

واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة، وإن استقلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرآة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدأ. كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه.

في ذكر الحجاب

قال في المستطرف[2]: قيل: لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لحاجبه: مَن بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له أن يدخل، فلما دخل قال: حدّثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَن ولي شيئًا من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامة»، فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب.

---

(١) ولج: دخل.

(٢) المستطرف: ص ١٠٤.

وكان خالد بن عبد الله القشيري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تحجبن عني أحدًا. فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئًا. وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك، ولا شيء أهيب لرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته.

وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها، قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له. ووقف عبد الله بن العباس العلوي على باب المأمون يومًا، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضًى كان الحمار مطيتي ... ولكنّ مَن يمشي سيرضى بما ركبْ

ثم انصرف، فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضربًا شديدًا وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.

قال الشاعر:

رأيت أناسًا يسرعون تبادرًا ... إذا فتح البواب بابك أصبعا

ونحن جلوسٌ ساكتون رزانةً ... وحلمًا إلى أن يُفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي[1] حينًا فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حجابٌ ... فما فضل الكريم على اللئيمِ

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريمُ قليلَ مالٍ ... ولم يعذر تعلّل بالحجابِ

وأبوابُ الملوك محجّباتٌ ... فلا تستنكرنّ حجاب بابي

---

(١) هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل من بني عجل بن لجيم، أمير الكرخ وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان، قلّده الرشيد أعمال الجبل، ثم كان من قادة جيش المأمون، وأخبار أدبه وشجاعته كثيرة، وللشعراء فيه مدائح كثيرة، وله مؤلفات كثيرة منها: «سياسة الملوك» و«البزاة والصيد». وهو من العلماء بصناعة الغناء، توفي ببغداد سنة ٢٢٦ هـ.

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلين حجابكم على أنه لا بدّ سوف يلينُ
خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها وإن لم تكن خانت فسوف تخونُ

وقال آخر:

ماذا على بوّاب داركم الذي لم يعطنا إذنًا ولا يُستأذنُ
لو ردّنا ردًّا جميلًا عنكمُ أو كان يدفع بالتي هي أحسنُ

وقال آخر:

أمرت بالتّسهيل في الإذن لي ولم يرَ الحاجب أن يأذنا
فلن تراني بعدها عائدًا ولن تراه بعد مستأذنا

وقال آخر:

ولقد رأيت بباب دارك جفوةً فيها لحسن صنيعك التكديرُ(١)
ما بال دارك حين تدخل جنّةً وبباب دارك منكرٌ ونكيرُ

وقال آخر:

إذا جئت ألقى عند بابك حاجبًا محيّاه من فرط الجهالة حالكُ
ومن عجبٍ مغناكَ جنّة قاصدٍ وحاجبها من دون رضوان مالكُ

وقال آخر:

سأترك بابًا أنت تملك إذنه ولو كنت أعمى عن جميع المسالكِ
فلو كنت بوابَ الجنان تركتها وحوّلت رجلي مسرعًا نحو مالكِ

وقال آخر:

ماذا يفيدك أن تكون محجّبًا والعبد بالباب الكريم يلوذ(٢)
ما أنت إلّا في الحصار معي فلا تتعبْ فكلّ محاصرٍ مأخوذُ

وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه على ما أرى حتى يلين قليلا

---

(١) التكدير: تعكير المودة.

(٢) يلوذ: يحتمي.

فما خاب من لم يأته متعمّدًا ولا فاز مَن قد نال منه وصولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعًا وجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب: قل له إن الكرى قد خطب إلى نفسي وإنما هي هجعة وأهب، فخرج الحاجب، فقال له الرجل: ما الذي قال لك؟ قال: قال كلامًا لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه وبذل طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة[1] والمسألة إلا أغلق الله أبواب السمٰوات دون حاجته وخلته ومسألته»، وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه، فقال:

سأصبر إن جفوت فكم صبرنا لمثلك من أميرٍ أو وزير
رجوناهم فلما أخلفونا تمادت فيهم غِيَر الدهور
فبتنا بالسلامة وهي غنمٌ وباتوا في المحابس والقبور
ولمّا لم ننل منهم سرورًا رأينا فيهمُ كلّ السرور

وأنشدوا في ذلك أيضًا:

قل للذين تحجبوا عن راغبٍ بمنازلٍ من دونها الحجّاب
إن حال عن لقياكم بوابكم فالله ليس لبابه بواب

معاوية وسعد بن مالك

واستأذن سعد بن مالك على معاوية، فحجبه، فهتف بالبكاء، فأتى الناس وفيهم كعب[2] فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة؟ فقال كعب: لا

---

(١) الخلة: الفقر.

(٢) هو كعب بن جعيل بن قمبر بن عجرة التغلبي، شاعر تغلب في عصره، مخضرم عرف في الجاهلية والإسلام، وكان لا ينزل بقوم إلا أكرموه وضربوا له قبة أدركه الأخطل في صباه وهاجاه، وكان في زمن معاوية وشهد معه «صفين» قال المرزباني هو شاعر معاوية بن أبي سفيان توفي حوالي سنة ٥٥ هـ.

تبك، فإن في الجنّة قصرًا من ذهب يقال له عدن أهله الصديقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله.

واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم، فحجبه فقال:

في كلّ يومٍ لي ببابك وقفةٌ أطوي إليك سائر الأبوابِ
وإذا حضرت رغبت عنك فإنه ذنبٌ عقوبتُهُ على البوّابِ

في ذكر الولاة

قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صَ: الآية ٢٦].

جاء في التفسير أن من اتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي في قلبك محبة خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناسًا من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه مع غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدًا.

ورُوِيَ عن عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمٰن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة عنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها».

وقال معقل بن يسار رضي الله عنه، سمعت النبيّ ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة».

وفي الحديث: «مَن ولي من أمور المسلمين شيئًا ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته، فليتبوأ[1] مقعده من النار». ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة، فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم، فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه، ثم يأمر الله تعالى بالعظام،

(١) فليتبوأ: فليأخذ وليقم.

فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعًا أخذ بيده، وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصيًا انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفًا»، فقال عمر رضي الله عنه سمعت من النبيّ ﷺ ما لم أسمع قال: نعم.

وكان سلمان وأبو ذر حاضرين، فقال سلمان: أي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفًا في واد يلتهب التهابًا، فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال: إنا لله وإنّا إليه راجعون. مَن يأخذها بما فيها، فقال سلمان أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود في السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي عريف على الماء، وإني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده، فقال النبيّ ﷺ «العرفاء في النار».

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة الإمام الجائر». وقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة».

وقال الحسن البصري إن النبيّ ﷺ دعا عبد الرحمـٰن بن سمرة يستعمله، فقال يا رسول الله خر لي فقال: «اقعد في بيتك». وقال أبو هريرة رضي الله عنه ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولًا، أنجاه عمله أو أهلكه.

وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فجار في حكمه، فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيّرون إليه في ألواحهم فلم ينظر إليها، وقال: هذا حكم لا أتولى حكمًا أبدًا. وقال أبو بكر بن أبي مريم: حج قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة، فلم يجدوا ماء، فأتاهم رجل فقالوا له: دلّنا على الماء. فقال: احلفوا لي ثلاثًا وثلاثين يمينًا أنه لم يكن صرافًا ولا مكاسًا[1] ولا عريفًا، ويروى ولا عرافًا، ولا بريدًا، وأنا أدلكم على

(١) المكاس: من المكوس وهي الضرائب والمكاس أي من جباة الضرائب.

الماء، فحلفوا له ثلاثًا وثلاثين يمينًا كما تقدم، فحلفوا له، فأعانهم على غسله، ثم قالوا له: تقدم فصلِّ عليه، فقال: لا، حتى تحلفوا لي ثلاثًا وثلاثين يمينًا كما تقدم، فحلفوا له فصلّى عليه، ثم التفتوا فلم يجدوا أحدًا، فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إني أحل لك ما أحب لنفسي، وإني أراك ضعيفًا، فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم».

الوزير المخلص

حُكِيَ أن ملكًا من ملوك الفرس يقال له أردشير، وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير، وكان ذا بأس شديد، وقد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسيّر أردشير مَن يخطبها من أبيها، فامتنع من إجابته، ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير، وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت، وليقتلنه هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة، فسار إليه أردشير في جيوشه، فقاتله، فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنًا وجمالًا وقدرًا واعتدالًا، فبهت أردشير من رؤيته إياها، فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية، وأن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرني في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر، فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني، وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي، فتركني لها، فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك، فقال أردشير: وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة.

ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال، فمالت نفسه إليها، فأخذها للتسري، وقال: هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها، فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يومًا، وقد رأته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك، فقال لها: ومَن أبوك؟ فقالت له: هو ملك بحر الأردن، وأنا ابنته التي خطبتها منه، وأنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني، فلا

يتهيأ لك قتلي، فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها، وخرج من عندها مغضبًا، وعوّل على قتلها.

ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قويًا على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع، فقال: أيها الملك إن الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأي الملك وحنثته[1] في يمينه لأجل شهوة النفس، ثم قال: أيها الملك إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها، وهي أولى بالستر، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق، فقال له الملك: نعم ما رأيت خذها غرقها.

فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلًا إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيّل إلى أن طرح شيئًا في البحر أوهم مَن كان معه أنها الجارية، ثم إنه أخفاها عنده، فلما أصبح جاء إلى الملك، فأخبره أنه غرقها، فشكره على ما فعل، ثم إن الوزير ناول الملك حقًا مختومًا وقال: أيها الملك إني نظرت مولدي، فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم، وإن لي أولادًا وعندي مال قد ادخرته من نعمتك، فخذه إذا أنا مت إن رأيت، وهذا الحقُ فيه جوهر اسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه إرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء ما اكتسبته منه إلا هذا الجوهر، فقال له الملك: يطول الرب في عمرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حيًا أو ميتًا، فألحّ عليه الوزير أن يجعل الحقُ عنده وديعة فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق.

ثم مضت أشهر الجارية، فوضعت ولدًا ذكرًا جميلًا حسن الخلقة مثل فلقة القمر، فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسمًا وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك، فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك، وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر، وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه

(١) الحنث باليمين: أي لم يف بها.

مملوك له اسمه شاه بور، إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن في السن وأقعده الهرم، فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى أني ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به.

فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد، وكان قد ولي بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت على تغريقها. ولو كنت أبقيتها حتى تضع، فلعل حملها يكون ذكرًا، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا، قال: أيها الملك إنها عندي حية ولقد ولدت ووضعت ولدًا ذكرًا من أحسن الغلمان خَلقًا وخُلقًا، فقال الملك: أحق ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوّة الأب وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن، لا يكاد ذلك ينخرم[1] أبدًا، وإنني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلامًا في سنه وهيئته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو. وإني أعطي كل واحد منهم صولجانًا وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم وشمائلهم، فكل مَن مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو.

فقال الملك: نعم التدبير الذي قلت، فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك، فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم، فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه، فلاحظ أردشير ذلك منه مرارًا، فقال: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور، فقال له: صدقت أنت ابني حقًا، ثم ضمه إليه وقبّله بين عينيه، فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والدًا بحضرة الملك، فتحقق الصدق في ذلك، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها، فقبّلت يد الملك، فرضي عنها.

فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى إحضار الحُق المختوم، فأمر الملك بإحضاره، ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فإذا فيه ذكر

(١) ينخرم: يخرق بباطل.

الوزير وأنثياه مقطوعة مصانه فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك، وأحضر عدولًا من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة، قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة، وشدة مناصحته، فزاده سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به، ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه، ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة، ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى.

قصص القضاة والقصاص

في ذكر القضاة

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صٓ: الآية ٢٦]. وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صٓ: الآية ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «مَن حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه، فلم يقض بينهما بالحق، فعليه لعنة الله» وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما، فسلّم عليه، فلم يرد عليه، فقال عمر لعبد الرحمٰن بن عوف: أخاف أن يكون وجد[2] عليَّ خليفة رسول الله ﷺ، فكلم عبد الرحمٰن أبا بكر، فقال: أتاني، وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلي عنهما وعما قالا وقلت.

وادعى رجل على علي عند عمر رضي الله عنهما وعليٌّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك، فتناظرا، وانصرف الرجل، ورجع عليّ إلى مجلسه، فتبيّن لعمر التغير في وجه عليّ، فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيرًا، أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنيتني بحضرة خصمي. هلا قلت يا علي قم، فاجلس مع خصمك، فأخذ عمر برأس عليّ رضي الله عنهما، فقبّله بين عينيه، ثم قال: بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور.

---

(١) المستطرف: ص ١٠٩.

(٢) وجد: غضب وحقد.

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحًا.

وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط، وليسجننه، فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب، فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليَّ من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة.

وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزًا، فكتبنا إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فكتب إلينا، لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح، فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلّة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير وكاتباه وقاضي الأرض داهنَ في القضاءِ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن إرم.

عن ابن أبي أوفى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار بريء الله منه ولزمه الشيطان».

وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع الناس إليه فكان لا يجبهم فلما ألحّوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك فقبض.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرّون على ظهورهم يوم القيامة».

وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضيًا، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيًا.

وقيل: أول مَن أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، كان أمير البصرة وقاضيًا فيها وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إليّ فأجد

أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له. وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيىٰ بن أكثم مع رجل ادّعى عليه بثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيىٰ: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بينة، فأراد أن يحلف المأمون فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة: إني تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحيىٰ بمال وأجزل عطاءه.

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل، فقال أبو يوسف: قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع، يا غلام ائتني بعمرو بن أبي عمرو النحاس فإنه إن قدم عليّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة، فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي، فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم.

وقال العكلي يمدح بعض القضاة:

رُفضتْ وعطلتْ الحكومة قبله ... في آخرين وملّها روّاضها
حتى إذا ما قام ألف بينها ... بالحق حتى جمعتْ أوفاضها[1]

وفي ضد ذلك قول بعضهم:

أبكي وأندب ملّة الإسلام ... إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادث ما علمت كبيرةٌ ... وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدمت امرأة إلى قاضٍ، فقال لها: جامعك شهودك، فسكتت فقال كاتبه: أن القاضي يقول لك جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطّت على لبّك ما رأيت ميتًا يقضي بين الأحياء غيرك. وقيل: المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف

(١) أوفاضها: الفرق من الناس. والأخلاط من قبائل شتى.

الأحكام، قاضي مِنًى وقاضي كسكر وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحٰق الصابي:

يـا ربَّ عـلجٍ أعـلج[١] مـثـل البـعـيـر الأهـوج
رأيـتـه مـطـلعًـا مـن خـلف بـابٍ مـرتَـج[٢]
وخـلـفـه عـذيـبـةٌ[٣] تـذهـب طـورًا وتـجـي
فـقـلـت مَـن هـذا تـرى فـقـيـل قـاضـي أيـدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيـت رأسًـا كـدبـه ولـحـيـةً كـالـمـذبـه[٤]
فـقـلت مَـن أنـت قـل لـي فـقـال قـاضـي شـلـبـه

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادّعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعي:

فُـتـن الـشـعـبيّ لـمـا رفـع الـطـرف إلـيـهـا
فـتـنـتـه بـبـنـان كـيف رؤيـا مـعـصـميـهـا[٥]
ومـشـت مـشـيًـا رويـدًا ثـم هـزّت مـنـكـبـيـهـا
فقضى جورًا على الخصم ولـم يـقـض عـلـيـهـا

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطًا.

وحكى ابن أبي ليلى قال: انصرف الشعبي يومًا من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول:

فـتـن الـشـعـبـي لـمـا

(١) علج: الغليظ الأحمق والكافر. (٢) مرتج: مقفل.
(٣) عذيبة: وهي مصغر عذبة العمامة والعذبة طرف الشيء.
(٤) المذبة: المروحة التي يطرد بها الذباب.
(٥) ورد عجز هذا البيت:

«كـيـف لـو رأى مـعـصـمـيـهـا»

وهو غير مستقيم الوزن.

وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبي وقال:

رفـع الـطـرف إلـيـهـا

ثم قال أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق، وأنشد بعضهم في أمين الحكم:

تتماوتن إذا مشيت تخشعًا حتى تصيب وديعةً ليتيم

في ذكر القصاص والمتصوفة

رُوِيَ عن خباب بن الأرت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا». ورُوِيَ أن كعبًا كان يقص، فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة، وقال ابن المبارك: سألت الثوري، من الناس؟ قال العلماء، قلت: فمَن الأشراف؟ قال: المتقون، قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الغوغاء؟ قال: القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام، قلت: فمَن السفهاء؟ قال: الظلمة.

قيل: وهب رجل لقاص خاتمًا بلا فص، فقال: وهب الله لك في الجنّة غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله عنها: إن أقوامًا إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال.

وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا، فهو كما قالوا. وكان بمرو قاص يبكي بمواعظه، فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورًا صغيرًا فيحركه ويقول: مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك، فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة، فقال: أكلة رقصة.

ووعظ عيسى عليه السلام بني إسرائيل، فأقبلوا يمزّقون الثياب، فقال: ما ذنب الثياب، أقبلوا على القلوب فعاتبوها.

في ذكر العبيد والإماء والخــدم

قال في المستطرف[1]: عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول مَن يدخل الجنة شهيدٌ وعبدٌ أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده».

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (رفعه) «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادمًا لخديجة رضي الله تعالى عنها، اشتري لها بسوق عكاظ، فوهبته لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ إن رضي بذلك فعلت، فسئل زيد فقال: ذل الرق مع صحابة رسول الله ﷺ أحب إليّ من عز الحرية مع مفارقته. فقال رسول الله ﷺ: إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوّجه أم أيمن، وبعدها زينب بنت جحش.

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي.

وعن ابن مسعود الأنصاري قال: ضربت غلامًا لي فسمعت مَن خلفي صوتًا: «اعلم يا أبا مسعود إن الله أقدر عليك منك عليك». فالتفت فإذا هو النبيّ ﷺ، فقلت يا رسول الله: هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار.

---

(١) المستطرف: ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

ورُوِيَ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تعفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت، فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدّثني أبو القاسم نبيّ التوبة ﷺ: «مَن قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حدًّا».

وقيل: أراد رجل بيع جاريته فبكت، فقال لها: مالك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت مني ما أخرجتك من يدي، فأعتقها وتزوجها.

وقال أبو اليقظان: إن قريشًا لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم، عليّ بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أتى ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيات، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح: واعمراه، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة، فقال عليّ رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر». إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن، فقومهن وأعطاهن أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن علي ومحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل: استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدي:

نهيتكموا أن تحملوا فوقَ خيلكم ... هجينًا لكم يوم الرهان فيدرك[1]
فتعثر كفّاه ويسقط سوطه ... ويخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوي المرآن هذا ابن حرّةٍ ... وهذا ابن أخرى ظهرها متشرّك[2]

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات:

فما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زادنا فيها السباء مذلةً ... ولا كلّفت خبزًا ولا طبخت قدرا

(١) هجينًا: اللئيم، أو مَن كانت أمه غير عربية وأبوه عربي.
(٢) متشرك: أي يشترك فيه عدة رجال «زانية».

وكم قد ترى فينا من ابن سبية إذا لقيَ الأبطال يطعنهم شزرا[١]
ويأخذ ريّان الطعان بكفّه فيوردها بيضًا ويصدرها حمرا[٢]

فقبّل رأسه وعينيه وقال: أحسنت يا بني ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس المال في آخر الزمان المماليك». وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمنن امرأة على سرّ ولا تطأ خادمًا تريدها للخدمة. ووصف بعضهم عبدًا فقال: يأكل فارهًا[٣] ويعمل كارهًا ويبغض قومًا ويحب نومًا. وقيل لبعضهم: ألك غلام؟ فقال:

وما لي غلامٌ فأدعو به سوى من أبوه أخو عمتي

وقال أكثم:

الحرُّ حرٌّ وإن مسّه الضرُّ والعبدُ عبدٌ وإن ألبسته الدرُّ

ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزل المرء حرّةٌ رأى خللًا فيما تولّى الولائد
فلا يتخذ منهنّ حرٌّ قعيدة فهنّ لعمر الله بئس القعائد

هذا طبيب وهذا حفّار

كان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يومًا يشتري له عنبًا وتينًا، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضي حاجتين، فمرض الرجل، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب، فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر، فسأله عنه فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضي حاجتين في حاجة، فجئتك بالطبيب، فإن شفاك الله تعالى، وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طبيب وهذا حفّار.

---

(١) شزرًا: مغضبًا وهو ينظر بطرف عينيه. (٢) ريان الطعان: أي الرمح المرن.
(٣) فارهًا: أي هو شديد الأكل.

عمرو الأعجمي والعبد الأسود

قيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند، فكتب إلى موسى الهادي أن رجلًا من أشراف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلامًا أسود فربّاه وتبنّاه، فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاه يومًا على غفلة منه من حيث لا يعلم، فإذا هو على صدر مولاته، فعمد إليه فجب ذَكَره وتركه يتشحط في دمه، ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برىء من علّته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ويدبر عليه أمرًا يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يومًا عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عالٍ، فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه، فرفع رأسه فرأى في شاهق مع الغلام فقال: ويلك عرّضت ابني للموت، قال: أجل والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذَكَرك مثل ما جببتني لأرمينّ بهما، فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك، قال: دع عذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه ويتضرّع له، وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه، فيدليهما من ذلك الشاهق، فقال أبوهما: ويلك، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت، ثم أسرع وأخذ مدة فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطّعا، وقال: إن جبّك لنفسك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام، وقال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود.

قصص متفرقة

عبد الملك بن مروان وملك الروم[1]

عن ابن أخي الأصمعي، عن عمه قال: وجه عبد الملك بن مروان عامر الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمر له، فاستكثر الشعبي فقال له: من أهل بيت الملك أنت؟ قال: لا، فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمله رقعة لطيفة وقال:

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٢.

إذا رجعت إلى صاحبك، فأبلغته جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا، فادفع إليه هذه الرقعة، فلما صار الشعبي إلى عبد الملك ذكر ما احتاج إلى ذكره ونهض من عنده، فلما خرج ذكر الرقعة، فرجع فقال: يا أمير المؤمنين، إنه حملني إليك رقعة نسيتها حتى خرجت، وكانت في آخر ما حملني فدفعها إليه ونهض، فقرأها عبد الملك قال: فأمر برده، فقال: أعلمت ما في هذه الرقعة؟ قال فيها: عجبت من العرب كيف ملكت غير هذا. أفتدري لِمَ كتب إليّ بمثل هذا؟ فقال: لا. فقال: حسدني عليك، فأراد أن يغريني بقتلك، فقال الشعبي: لو كان رآك يا أمير المؤمنين ما استكثرني، فبلغ ذلك ملك الروم، ففكر في عبد الملك، فقال: لله أبوه والله ما أردت إلا ذلك.

السفاح وعبد الله بن حسين(١)

عن سعيد الباهلي عن أبيه قال: حدّثني مَن حضر مجلس السفاح وهو أحسد ما كان لبني هاشم والشيعة ووجوه الناس، فدخل عبد الله بن حسين بن حسن ومعه مصحف، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف، فأشفق الناس أن يجعل السفاح بشيء إليه ولا يريدون ذلك في شيخ بني هاشم أو يعيا لجوابه، فيكون ذلك نقصًا عليه وعارًا، فأقبل إليه غير مغضب ولا منزعجَ فقال: إن جدك عليًا كان خيرًا مني وأعدل ولي هذا الأمرَ فأعطى جديك الحسن والحسين، وكانا خيرًا منك شيئًا، وكان الواجب أن أعطيك مثله، فإن كنت فعلت فقد أنصفتك، وإن كنت زدتك فما هذا جزائي منك، فما رد عبد الله إليه جوابًا وانصرف والناس يعجبون من جوابه له.

السفاح ورجل من آل أبي طالب(٢)

عن ابن الأعرابي قال: أول خطبة خطبها السفاح في قرية يقال لها العباسية، فلما صار إلى موضع الشهادة من الخطبة قام رجل من آل أبي طالب في عنقه مصحف، فقال: أذكرك الله الذي ذكرته ألا أنصفتني من خصمي وحكمت بيني وبينه بما في هذا المصحف، فقال له: ومَن ظلمك؟ قال: أبو بكر الذي منع فاطمة فدكًا. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. مَن؟ قال: عمر. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: مَنْ؟ قال:

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٢.

(٢) نفس المصدر ص ٤٣.

عثمان. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: مَنْ؟ قال: علي. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: فأسكت الرجل وجعل يلتفت إلى ورائه يطلب مخلصًا، فقال له: والله الذي لا إلـٰه إلّا هو لولا أنه أول مقام قمته، ثم لم أكن تقدمت إليك في هذا قبل لأخذت الذي فيه عيناك اقعد وأقبل على الخطبة.

المنصور وابن هرمة(١)

قال إسماعيل بن محمد قال: دخل ابن هرمة علي أبي جعفر، فأنشده فقال: سل حاجتك. قال: تكتب إلى عاملك بالمدينة متى وجدني سكران لا يحدني. قال: هذا حد ولا سبيل إلى إبطاله. قال: ما لي حاجة غير ذلك. قال: اكتب إلى عاملنا بالمدينة مَن أتاك بابن هرمة وهو سكران، فاجلده ثمانين واجلد الذي جاء به مائة. قال: فكان الشرطة يمرّون به وهو سكران، فيقولون: مَن يشتري ثمانين بمائة، فيمرون ويتركونه

المنصور والخائنة(١)

جلس المنصور في إحدى قباب مدينته، فرأى رجلًا ملهوفًا مهمومًا يجول في الطرقات، فأرسل مَن أتاه به، فسأله عن حاله، فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة فأفاد مالًا وأنه رجع بالمال إلى منزله، فدفعه إلى أهله، فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها ولم تر نقبًا ولا تسليقًا، فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال: أفبكرٌ هي تزوجتها؟ قال: لا. قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هي أم مسنّة؟ قال: بل حديثة، فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذه له حادّ الرائحة، غريب النوع، فدفعها إليه وقال له: تطيّب من هذا الطيب، فإنه يذهب همّك، فلما خرج الرجل من عند المنصور قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مرّ بكم فشممتم منه رائحة هذا الطيب وأشممهم منه، فليأتني به. وخرج الرجل بالطيب، فدفعه إلى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين، فلما شمته بعثت إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال إليه، فقالت له: تطيّب من هذا الطيب، فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي، فتطيب منه الرجل ومرّ مجتازًا ببعض أبواب المدينة،

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٣.

فشمّ الموكل بالباب رائحة الطيب منه، فأخذه فأتى به المنصور، فقال له المنصور: من أين استفدت هذا الطيب فإن رائحته غريبة معجبة؟ قال: اشتريته. قال أخبرنا ممن اشتريته، فتلجلج الرجل وخلط كلامه فدعا المنصور صاحب شرطته، فقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط من غير مؤامرة. فلما خرج من عنده دعا صاحب شرطته، فقال: هوّل عليه وجرّده ولا تقدمن بضربه حتى تؤامرني، فخرج صاحب شرطته فلما جرده وسجنه أذعن برد الدنانير وأحضرها بهيئتها، فأعلم المنصور بذلك، فدعا صاحب الدنانير، فقال له: رأيتك إن رددت عليك الدنانير بهيئتها أتحكمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: فهذه دنانيرك، وقد طلقت المرأة عليك وخبره خبرها.

مكيدة المنصور(١)

عن مبارك الطبري قال: سمعت أبا عبيد الله يقول: خلا أبو جعفر يومًا مع يزيد بن أبي أسيد، فقال: يا يزيد، ما ترى في قتل أبي مسلم؟ فقال: أرى أن تقتله وتقرب إلى الله بدنة، فوالله لا يصفو ملكك ولا تهنأ بعيش ما بقي، فنفر مني نفرة ظننت أنه سيأتي علي، ثم قال: قطع الله لسانك وأشمت بك عدوك أتشير عليّ بقتل أنصر الناس لنا، وأثقلهم على عدونا. أما والله لولا حفظي لما سلف منك، وإن أعدها هفوة من هفواتك لضربت عنقك قم لا أقام الله رجليك. قال: فقمت وقد أظلم بصري، وتمنيت أن تسيخ الأرض بي، فلما كان بعد قتله قال لي: يا يزيد: أتذكر يوم شاورتك؟ قلت: نعم. قال: فوالله لقد كان ذلك رأيًا وما لا أشك فيه، ولكن خشيت أن يظهر منك فتفسد مكيدتي.

المهدي وشريك بن عبد الله(٢)

عن عليّ بن صالح قال: كنت عند المهدي ودخل عليه شريك بن عبد الله القاضي، فأراد أن يبخره، فقام الخادم بالعود الذي يلهى به، فوضعه في حجر شريك، فقال شريك: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أخذه صاحب العسس البارحة، فأحببت أن يكون كسره على يد القاضي، فقال: جزاك الله خيرًا يا أمير

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٤. (٢) نفس المصدر ص ٤٥.

المؤمنين. فكسره، ثم أفاضوا في حديث حتى نسي الأمر، ثم قال المهدي لشريك: ما تقول في رجل أمر وكيلًا له أن يأتي بشيء بعينه، فأتى بغيره فتلف ذلك الشيء؟ فقال: يضمن يا أمير المؤمنين، فقال للخدام: اضمن ما تلف بقضيته.

المهدي ونعل رسول الله ﷺ[١]

عن حسن الوصيف قال: قعد المهدي قعودًا عامًا للناس، فدخل رجل، وفي يده نعل ملفوفة في منديل، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك، فقال: هاتها فدفعها إليه، فقبّل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم، فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه: أترون أني لم أعلم أن رسول الله ﷺ لم يرها فضلًا عن أن يكون لبسها، ولو كذبناه قال للناس: أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله ﷺ، فردّها علي وكان مَن يصدقه أكثر ممن يدفع خبره، إذ كان من شأن العامة ميلها إلى أشكالها والنصرة للضعيف على القوي، وإن كان ظالمًا اشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدقنا قوله، ورأينا الذي فعلنا أنجح وأرجح.

المأمون وابن أبي حفصة الشاعر[١]

قال المبرد: حدّثني عمارة بن عقيل، قال ابن أبي حفصة الشاعر: أعلمت أن أمير المؤمنين يعني المأمون لا يبصر الشعر، فقلت: مَن ذا يكون أفرس منه وإنا لننشد أول البيت فيسبق آخره من غير أن يكون سمعه. قال: فإني أنشدته بيتًا أجدت فيه، فلم أره تحرك له، وهذا البيت فاسمعه:

أضحى إمامُ الهُدى المأمون مشتغلًا ... بالدِّين والنَّاسُ بالدنيا مَشَاغِيلُ

فقلت له: ما زدته على أن جعلته عجوزًا في محرابها في يدها مسبحة، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولًا عنها، وهو المطوق لها. ألا قلت كما قال عمك جرير لعبد العزيز بن الوليد؟

فَلَا هو في الدُّنيا مُضَيِّعٌ نَصيبَه ... ولَا عرض الدُّنيا عن الدِّين شاغِلُه

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٥.

المعتضد بالله والقاسم بن عبيد الله[١]

عن أبي عبد الله محمد بن حمدون قال لي المعتضد بالله ليلة وقد قدم له عشاء: لقّمني، وكان الذي قدم له فراريج ودراريج، فلقمته من صدر فروج، فقال: لا. لقمني من فخذه، فلقمته لقمًا، ثم قال: هات من الدراريج، فلقمته من أفخاذها، فقال: ويلك. هو ذا تتنادر عليّ هات من صدورها، فقلت: يا مولاي ركبت القياس، فضحك فقلت: إلى كم أضحكك ولا تضحكني؟ قال: فَشِلْ المطرح وخذ ما تحته. قال: فشلته، فإذا دينار واحد فقلت: آخذها؟ قال: نعم، فقلت: بالله هوذا تتنادر أنت الساعة على خليفة يجيز نديمه بدينار، فقال: ويلك لا أجد لك في بيت المال حقًا أكثر من هذا، ولا تسمح نفسي أن أعطيك من مالي شيئًا، ولكن هوذا أحتال لك بحيلة تأخذ فيها خمسة آلاف دينار، فقبلت يده، فقال: إذا كان غد وجاءني القاسم يعني ابن عبيد الله، فهوذا أسارك خبر تقع عيني عليه سرارًا طويلًا التفت فيه إليك كالمغضب وانظر أنت إليه في خلال ذلك كالمتخالس لي نظر المترائي له، فإذا انقطع السرار، فاخرج ولا تبرح من الدهليز أو يخرج، فإذا خرجت خاطبك بخطاب جميل وأخذك إلى دعوته، ويسألك عن حالك، فأشك الفقر والخلّة وقلة حظك مني وثقل ظهرك بالدين والعيال وخذ ما يعطيك، واطلب كل ما تقع عينك عليه، فإنه لا يمنعك حتى تستوفي الخمسة آلاف دينار، فإذا أخذتها، فيسألك عما جرى بيننا، فاصدقه وإيّاك أن تكذبه وعرفه أن ذاك حيلة مني عليه حتى وصل إليك هذا، وحدّثه بالحديث كله على شرحه، وليكن إخبارك إياه بذلك بعد امتناع شديد وإحلاف منه بالطلاق والعتاق أن تصدقه، وبعد أن تخرج من داره كل ما يعطيك إياه تجعله في بيتك.

فلما كان الغد حضر القاسم، فحين رآه ابتدأ يسارني وجرت القصة على ما وضعني عليه، فخرجت فإذا القاسم في الدهليز ينتظرني، فقال: يا أبا محمد، ما هذا الجفاء لا تجيئني ولا تزورني ولا تسألني حاجة؟ فاعتذرت إليه باتصال الخدمة علي، فقال: ما يقنعني إلا أن تزورني اليوم وتتفرج، فقلت: أنا خادم الوزير، فأخذني إلى طيارة وجعل يسألني عن حالي وأخباري وأشكو إليه الخلة والإضاقة والدين والبنات وجفاء الخليفة وإمساك يده ويتوجع ويقول: يا هذا ما لي لك ولن

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٦.

نضيق عليك ما يتسع على أن نجاوزك نعمة حصلت لي. لو عرفتني لعاونتك على إزالة هذا كله عنك، فشكرته وبلغنا داره، فصعد ولم ينظر في شيء، وقال: هذا يوم أحتاج أن أختص فيه بالسرور بأبي محمد فلا يقطعني أحد عنه وأمر كتَّابه بالتشاغل بالأعمال وخلا بي في دار الخلوة، وجعل يحادثني ويبسطني وقدمت الفاكهة، فجعل يلقمني بيده وجاء الطعام، فكان هذا سبيله، فلما جلس للشرب وقع لي بثلاثة آلاف دينار، فأخذتها للوقت وأحضر ثيابًا وطيبًا ومركوبًا، فأخذت ذلك كله، وكان بين يدي صينية فضة فيها مغسل فضة وخردادي بلور وكوز وقدح بلور، فأمر بحمله إلى طيارتي، وأقبلت كلما رأيت شيئًا حسنًا له قيمة وافرة طلبته، وحمل إلي فرشًا نفيسًا وقال هذا للبنات، فلما تقوّض أهل المجلس خلا بي، وقال: يا أبا محمد، أنت عالم بحقوق أبي عليك ومودتي لك، فقلت: أنا خادم الوزير، فقال: أريد أن أسألك عن شيء وتحلف لي أنك تصدقني عنه، فقلت: السمع والطاعة فأحلفني بالله وبالطلاق والعتاق على الصدق، ثم قال لي: بأي شيء سارك الخليفة اليوم في أمري؟ فصدقته عن كل ما جرى حرفًا بحرف، فقال: فرجت عني ولكون هذا هكذا مع سلامة نيته أسهل عليّ فشكرته وانصرفت إلى بيتي، فلما كان من الغد باكرت المعتضد بالله، فقال: هات حديثك فسقته عليه، فقال: احفظ الدنانير ولا يقع لك إني أعمل مثلها بسرعة.

المعتضد بالله والغلام الأسود(١)

عن أبي القاسم عليّ بن المحسن، عن أبيه قال: بلغني أن المعتضد بالله كان يومًا جالسًا في بيت يُبنى له يشاهد الصناع، فرأى في جملتهم غلامًا أسود، منكر الخلقة، شديد المزح يصعد على السلاليم مرقاتين مرقاتين، ويحمل ضعف ما يحملونه، فأنكر أمره فأحضره وسأله عن سبب ذلك، فلجلجل، فقال لابن حمدون وكان حاضرًا: أي شيء يقع لك في أمره؟ فقال: ومَن هذا حتى صرفت فكرك إليه ولعله لا عيال له، فهو خالي القلب. قال: ويحك قد خمّنت في أمره تخمينًا ما أحسبه باطلًا إما أن يكون معه دنانير قد ظفر بها دفعة من غير وجهها أو يكون لصًا يتستر بالعمل في الطين، فلاحاه ابن حمدون في ذلك، فقال: عليّ بالأسود فأحضر، وقال مقارع فضربه نحو مائة مقرعة وقرره وحلف إن لم يصدقه ضرب

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٧.

عنقه وأحضر السيف والنطع، فقال الأسود: لي الأمان. فقال: لك الأمان إلَّا ما يجب عليك فيه من حد، فلم يفهم ما قال له، وظنّ أنه قد أمنه فقال: إني كنت أعمل في أتاتين الآجر سنين وكنت منذ شهور هناك جالسًا فاجتاز بي رجل في وسطه هميان فتبعته فجاء إلى بعض الأتاتين فجلس وهو لا يعلم مكاني فحل الهميان وأخرج منه دينارًا فتأملته فإذا كله دنانير فثاروته وكتفته وسددت فاه وأخذت الهميان، وحملته على كتفي وطرحته في نقرة الأتون وطينته، فلما كان بعد ذلك أخرجت عظامه، فطرحتها في دجلة والدنانير معي يقوي بها قلبي، فأمر المعتضد من أحضر الدنانير من منزله، وإذا على الهميان مكتوب لفلان بن فلان، فنودي في البلدة باسمه، فجاءت امرأة قالت: هذا زوجي ولي منه هذا الطفل خرج في وقت كذا ومعه هميان فيه ألف دينار، فغاب إلى الآن، فسلّم الدنانير إليها، وأمرها أن تعتد، وضرب عنق الأسود وأمر أن تحمل جثته إلى الأتون.

المعتضد بالله والصياد[1]

قال المحسن: وبلغنا عن المعتضد بالله أن خادمًا من خدمه جاء يومًا فأخبره أنه كان قائمًا على شاطىء الدجلة في دار الخليفة، فرأى صيادًا وقد طرح شبكته، فثقلت بشيء، فجذبها فأخرجها فإذا فيها جراب، وأنه قدره مالًا فأخذه وفتحه، فإذا فيه آجر وبين الآجر كف مخضوبة بحناء. قال: فأحضر الجراب والكف والآجر، فهال المعتضد ذلك، وقال: قل للصياد يعاود طرح الشبكة فوق الموضع وأسفله وما قاربه، قال: ففعل فخرج جراب آخر فيه رِجل قال: فطلبوا فلم يخرج شيء آخر، فاغتمّ المعتضد فقال معي في البلد مَن يقتل إنسانًا ويقطع أعضاءه ويفرقه ولا أعرف به ما هذا ملك. قال: وأقام يومه كله ما طعم طعامًا، فلما كان من الغد أحضر ثقة له، وأعطاه الجراب فارغًا وقال له: طف به على كل مَن يعمل الجرب ببغداد، فإذا عرفه منهم رجل، فسله على مَن باعه، فإذا دلّك عليه، فسل المشتري مَن اشتراه منه ولا تقر على خبره أحدًا. قال: فغاب الرجل وجاءه بعد ثلاثة أيام، فزعم أنه لم يزل يتطلب في الدباغين، وأصحاب الجرب إلى أن عرف صانعه، وسأل عنه فذكر أنه باعه على عطار بسوق بحي، وأنه مضى إلى العطار وعرضه عليه، فقال: ويحك. كيف وقع هذا الجراب في يدك؟ فقلت: أوَ تعرفه؟

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٨.

قال: نعم. اشترى مني فلان الهاشمي منذ ثلاثة أيام عشرة جرب لا أدري لأي شيء أرادها وهذا منها. فقلت له: ومَن فلان الهاشمي، فقال: رجل من ولد علي بن ريطة من ولد المهدي يقال له: فلان عظيم، إلّا أنه شر الناس وأظلمهم وأفسدهم لحرم المسلمين وأشدهم تشوّقًا إلى مكائِدهم، وليس في الدنيا مَن ينهي خبره إلى المعتضد خوفًا من شره ولفرط تمكنه من الدولة والمال، ولم يزل يحدّثني وأنا أسمع أحاديث له قبيحة إلى أن قال: فحسبك أنه كان يعشق منذ سنين فلانة المغنية جارية فلانة المغنية، وكانت كالدينار المنقوش وكالقمر الطالع في غاية حسن الغناء فساوم مولاتها فيها، فلم تقاربه، فلما كان منذ أيام بلغه أن سيدتها تريد بيعها على مشتر قد حضر بذلك فيها ألوف دنانير. ، فوجه إليها لا أقل من أن تنفذيها إليّ لتودعني، فأنفذتها إليه بعد أن أنفذ إليها جذرها لثلاثة أيام، فلما انقضت الأيام الثلاثة غصبها عليها وغيبها عنها، فما يعرف لها خبر وادّعى أنها هربت من داره. وقالت الجيران: أنه قتلها وقال قوم: لا، بل هي عنده، وقد أقامت سيدتها عليها المأتم وجاءت وصاحت على بابه وسوّدت وجهها، فلم ينفعها شيء، فلما سمع المعتضد سجد شكرًا لله تعالى على انكشاف الأمر له، وبعث في الحال مَن كبس على الهاشمي وأحضر المغنية، وأخرج اليد والرجل إلى الهاشمي، فلما رآهما امتقع لونه وأيقن بالهلاك واعترف، فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاتها من بيت المال وصرفها، ثم حبس الهاشمي، فيقال: إنه قتله. ويقال: مات في الحبس.

المعتضد بالله والقمار(١)

قال عبد الله محمد بن أحمد بن حمدون قال: كنت قد حلفت وعاهدت الله أن لا أعقد مالًا من القمار وأنه لا يقع في يدي منه شيء إلا صرفته في ثمن شمع يحترق، أو نبيذ يشرب، أو جذر مغنية، فجلست يومًا ألاعب المعتضد، فقمرته بسبعين ألف درهم، فنهض المعتضد يصلّي قبل العصر ركعتان من قبل أن يأمر لي بها، فجلست أفكر وأندم على ما حلفت عليه، وقلت: كم أشتري من هذه السبعين ألف شمعًا وشرابًا وكم أجذر وما كانت هذه العجلة في اليمين، ولو لم أكن حلفت كنت الآن قد اشتريت بها ضيعة، وكانت اليمين بالطلاق والعتاق

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٩.

وصدقة الملك، فلما سلَّم من السجود قال لي: في أي شيء تفكرت؟ فقلت: خير، فقال: بحياتي أصدقني، فصدقته، فقال: وعندك أني أريد أن أعطيك سبعين ألفًا في القمار، فقلت: أفتصغر؟ قال: نعم. قد صغرت. قم ولا تفكر في هذا. قال: ودخل في صلاة الفرض، فلحقني الغم أعظم من الأول وندمت على فوت المال، وجعلت ألوم نفسي لِمَ صدقته، فلما فرغ من صلاته قال لي: يا أبا عبد الله، بحياتي أصدقني عن هذا الفكر الثاني، فصدقته، فقال: أما القمار فقد قلت إني صغرت، ولكني أهب لك سبعين ألفًا من مالي ولا يكون عليَّ إثم في دفعها إليك، ولا عليك إثم في أخذها، وتخرج من يمينك فتشتري بها ضيعة حلالًا، فقبّلت يده وأخذت المال فاعتقدت به ضيعة، والله أعلم.

يحيىٰ البرمكي والتجارة الرابحة(١)

قال ابن الموصلي: حدّثني أبي قال: أتيت يحيىٰ بن خالد بن برمك، فشكوت إليه ضيقة اليد، فقال: ويحك وما أصنع بك ليس عندنا في هذا الوقت شيء، ولكن عليك هٰهنا أمر أدلّك عليه، فتكن فيه رجلًا قد جاءني خليفة صاحب مصر يسألني أن أستهدي صاحبه شيئًا وقد أبيت ذلك فألحّ علي، وقد بلغني إنك قد أعطيت بجاريتك فلانة آلاف دنانير، فهوذا أستهديه إياها وأخبره إنها قد أعجبتني وإياك أن تنقصها من ثلاثين ألف دينار وانظر كيف يكون. قال: فوالله ما شعرت إلا بالرجل قد أتاني فساومني الجارية، فقلت: لا أنقصها من ثلاثين ألف دينار، فلم يزل يساومني حتى بذل لي عشرين ألف دينار، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها، فبعتها وقبضت العشرين ألفًا، ثم صرت إلى يحيىٰ بن خالد، فقال لي: كيف صنعت في بيعك الجارية؟ فأخبرته فقلت: والله ما ملكت نفسي إن أجبت إلى العشرين ألفًا حين سمعتها. فقال: إنك لخسيس وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءني في مثل هذا، فخذ جاريتك، فإذا ساومك، فلا تنقصها من خمسين ألف دينار، فإنه لا بد أن يشتريها منك بذلك. قال: فجاءني الرجل فاستمت عليه خمسين ألف دينار، فلم يزل يساومني حتى أعطاني ثلاثين ألف دينار، فضعف قلبي على ردّها ولم أصدق بها، فأوجبتها له بها، ثم صرت إلى يحيىٰ بن خالد، فقال لي: بكم بعت الجارية؟ فأخبرته، فقال لي: ويحك. ألم

(١) كتاب الأذكياء ص ٥١.

تؤدبك الأولى عن الثانية؟ قلت: ضعفت والله عن رد شيء لم أطمع فيه. فقال: هذه جاريتك فخذها إليك. قال: فقلت: جارية أفدت بها خمسين ألف دينار ثم أملكها. أشهدك أنها حرة وإني قد تزوجتها.

الفضل بن الربيع وزير الرشيد(١)

عن الرشيد أنه رأى يومًا في داره حزمة خيزران فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ فقال: عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يرد أن يقول الخيزران لموافقته اسم أم الرشيد. وقال الفضل: إياكم ومخاطبة الملوك بما يقتضي الجواب، فإنهم إن أجابوكم شق عليهم وإن لم يجيبوكم شق عليكم. قال ثعلب: قلت للحسن بن سهل وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله ليس في السرف خير، فقال: بل ليس في الخير سرف. فرد اللفظ واستوفى المعنى.

أمان أبي الحسن بن الفرات(١)

أبو علي بن مقلة قال: كنت أكتب لأبي الحسن بن الفرات أخدم بين يديه، فأول شيء برزق عشرة دنانير في كل شهر وهو يخلف أخاه في ديوان السواد، ثم زادت حاله فرقاني إلى ثلاثين دينارًا في كل شهر، فكنت كذلك معه إلى أن تقلّد الوزارة الأولى، فحصل رزقي خمسمائة دينار في كل شهر، ثم أمر بقبض ما في دور المخالفين الذين بايعوا ابن المعتز، وكانت أمتعتهم تقبض وتحمل إليه فيراها وينفذها إلى خزانة المقتدر. فجاؤوه يومًا بصندوقين، فقالوا له: هذان وجدناهما في دار ابن المعتز، فقال: أفعلمتم ما فيهما؟ قالوا: نعم جرائد مَن بايعه من الناس بأسمائهم وأنسابهم، فقال: لا تفتح. ثم قال: يا غلمان هاتوا نارًا، فجاء الفراشون بفحم وأمرهم فأججوا النار، وأقبل عليّ وعلى مَن كان حاضرًا، فقال: والله لو رأيت من هذين الصندوقين ورقة واحدة لظنّ كل مَن له فيها اسم أني قد عرفته، فتفسد نيات العالم كلهم عليّ وعلى الخليفة وما هذا رأي حرقوهما، قال: فطرحا بأقفالهما في النار، فلما احترقا بحضرته أقبل عليّ، فقال: يا أبا علي قد أمنت كل مَن جنى وبايع ابن المعتز، وأمرني الخليفة بأمانة، فاكتب للناس الأمان مني ولا يلتمس منك أحد أمانًا كائنًا مَن كان إلا كتبته له وجئني به لأوقع فيه، فقد أفردتك لهذا العمل. ثم قال لمن حضر: أشيعوا ما قلته حتى يأنس المستترون بأبي

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٢.

علي ويكاتبونه في طلب الأمان، فشكرناه. ودعت الجماعة له وشاع الخبر وكتبت الأمانات، فكتب في ذلك مائة ألف أو نحوها.

عطر الرجال[(١)]

عن ابن المحسن عن أبيه قال: سمعت أبا القاسم الحسن بن علي بن مقلة يقول: كان أبو علي بن مقلة يومًا يأكل، فلما رفعت المائدة وغسل يده رأى على ثوبه نقطة صفراء من الحلوى التي كان يأكلها، ففتح الدواة واستمد منها نقطة على الصفرة حتى لم يبق لها أثر، وقال: ذاك أثر شهوة، وهذا أثر صناعتي، ثم أنشد:

إنَّما الزّعفرانُ عِطْرُ العذَارى وَمِدادُ الدّواةِ عِطْرُ الرِّجال

الملك والجاسوس[(١)]

وذكر أن ملكًا كانت أسراره تظهر كثيرًا إلى عدوه فيبطل تدبيره على العدو، فبلغ ذلك منه، فشكا إلى أحد نصحائه وقال له: إن جماعة يطلعون على أسرار لي لا بد من إظهارها لهم ولست أدري أيهم يظهرها، وأكره أن أنال البريء منهم بما يستحق الخائن، فدعا بكتاب فكتب فيه أخبارًا من أخبار المملكة، وجعلها كذبًا كلها ثم دعا برجل، رجل، كل واحد دون صاحبه ممن كان يفشي الملك إليه سره، فقال للملك: أخبر كل واحد منهم بخبر على حدة لا يظهر عليه سائر أصحابه، وأمر كل واحد بستر ما أسررت إليه، واكتب على كل خبر اسم صاحبه، فلم يلبث أن أظهر الخونة ما أفشي إليهم، وانكتمت أخبار الناصحين، فعرف الملك مَن يفشي سره فحذره.

عضد الدولة والعقد[(٢)]

قيل: إن رجلًا قدم إلى بغداد للحج، وكان معه عقد من الحب يساوي ألف دينار، فاجتهد في بيعه، فلم ينفق، فجاء إلى عطَّار موصوف بالخير، فأودعه إياه، ثم حجّ وعاد، فأتاه بهدية، فقال له العطار: مَن أنت وما هذا؟ فقال: أنا صاحب العقد الذي أودعتك، فما كلمه حتى رفسه رفسة رماه عن دكانه، وقال: تدعي عليّ مثل هذه الدعوى، فاجتمع الناس وقالوا للحاجي: ويلك هذا رجل خير ما لحقت من تدعي عليه إلّا هذا، فتحيّر الحاجي وتردد إليه فما زاده إلّا شتمًا

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٣.

(٢) نفس المصدر ص ٥٤.

وضربًا، فقيل له: لو ذهبت إلى عضد الدولة، فله في هذه الأشياء فراسة، فكتب قصته وجعلها على قصبة ورفعها لعضد الدولة، فصاح به فجاء، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة، فقال: اذهب إلى العطار غدًا، واقعد على دكانه، فإن منعك فاقعد على دكان تقابله، من الصبح إلى المغرب ولا تكلمه، وافعل هكذا ثلاثة أيام، فإني أمرّ عليك في اليوم الرابع وأقف وأسلّم عليك، فلا تقم لي ولا تزدني على رد السلام وجواب ما أسألك عنه، فإذا انصرفت فأعد عليه ذكر العقد، ثم أعلمني ما يقول لك فإن أعطاكه فجيء به إليّ.

قال: فجاء إلى دكان العطار ليجلس فمنعه، فجلس بمقابلته ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع اجتاز عضد الدولة في موكبه العظيم، فلما رأى الخراساني وقف وقال: سلام عليكم. فقال الخرساني ولم يتحرك: وعليك السلام، فقال: يا أخي تقدم فلا تأتي إلينا ولا تعرض حوائجك علينا، فقال: كما اتفق ولم يشبعه الكلام وعضد الدولة يسأله ويستخفي وقد وقف ووقف العسكر كله، والعطار قد أغمي عليه من الخوف، فلما انصرف التفت العطار إلى الحاجي فقال: ويحك متى أودعتني هذا العقد، وفي أي شيء كان ملفوفًا، فذكرني لعلي أذكره، فقال: مَن صفته كذا وكذا، فقام وفتش، ثم نقض جرة عنده فوضع العقد، فقال: قد كنت نسيت، ولو لم تذكرني الحال ما ذكرت. فأخذ العقد ثم قال: وأي فائدة لي في أن أعلم عضد الدولة، ثم قال في نفسه: لعله يريد أن يشتريه فذهب إليه فأعلمه، فبعث به مع الحاجب إلى دكان العطار، فعلّق العقد في عنق العطار وصلبه بباب الدكان ونودي عليه: هذا جزاء مَن استودع فجحد. فلما ذهب النهار أخذ الحاجب العقد فسلمه إلى الحاجي وقال: اذهب.

عضد الدولة والمتلصلص(١)

وعن عضد الدولة أنه كان في بعض أمرائه شاب تركي، وكان يقف عند روزنة ينظر إلى امرأة فيها، فقالت المرأة لزوجها: قد حرم عليّ هذا التركي أن أتطلع في الروزنة، فإنه طول النهار ينظر إليها وليس فيها أحد، فلا يشك الناس أن لي معه حديثًا، وما أدري كيف أصنع. فقال زوجها: اكتبي إليه رقعة وقولي فيها: لا معنى لوقوفك فتعال إليّ بعد العشاء. إذا غفل الناس في الظلمة، فإني

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٥.

خلف الباب، ثم قام وحفر حفرة طويلة خلف الباب ووقف له، فلما جاء التركي فتح له الباب، فدخل، فدفعه الرجل فوقع في الحفرة وطمّوا عليه، وبقي أيامًا لا يدري ما خبره، فسأل عنه عضد الدولة فقيل له: ما لنا فيه خبر، فما زال يعمل فكره إلى أن بعث يطلب مؤذّن المسجد المجاور لتلك الدار، فأخذه أخذًا عنيفًا في الظاهر، ثم قال له: هذه مائة دينار خذها وامتثل ما آمرك إذا رجعت إلى مسجدك فأذن الليلة واقعد في المسجد، فأول مَن يدخل عليك ويسألك عن سبب إنفاذي إليك، فأعلمني به، فقال: نعم. ففعل ذلك، فكان أول مَن دخل ذلك الشيخ، فقال له: قلبي إليك ولأي شيء أراد منك عضد الدولة؟ فقال: ما أراد مني شيئًا وما كان إلا الخبر، فلما أصبح أخبر عضد الدولة بالحال، فبعث إلى الشيخ فأحضره، ثم قال له: ما فعل التركي؟ فقال: أصدقك. لي امرأة ستيرة مستحسنة كان يراصدها ويقف تحت روزنتها، فضجّت من خوف الفضيحة بوقوفه، ففعلت به كذا وكذا، فقال: اذهب في دعة الله، فما سمع الناس ولا قلنا.

عضد الدولة وقطاع الطريق(١)

ذكر محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه أنه بلغ إلى عضد الدولة خبر قوم من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شاقة، فلا يقدر عليهم، فاستدعى أحد التجار ودفع إليه بغلًا عليه صندوقان فيهما حلوى قد شيبت بالسم، وأكثر طيبها، وترك في الظروف الفاخرة وأعطاه دنانير، وأمره أن يسير مع القافلة، ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء أمراء الأطراف. ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة، فنزل القوم وأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به مع جماعتهم إلى الجبل، وبقي المسافرون عراة، فلما فتح الصندوقين وجد الحلوى يضوع طيبها، ويدهش منظرها ويعجب ريحها، وعلم أنه لا يمكنه الاستبداد بها، فدعا أصحابه، فرأوا ما لم يروه أبدًا قبل ذلك، فأمعنوا في الأكل عقيب مجاعة، فانقلبوا فهلكوا عن آخرهم، فبادر التجار إلى أخذ أموالهم وأمتعتهم وسلاحهم، واستردوا المأخوذ عن آخره، فلم أسمع بأعجب من هذه المكيدة، محت أثر العاتين وحصدت شوكة المفسدين.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٥.

عضد الدولة وسارق المال(١)

قيل: إن بعض التجار قدم من خراسان ليحج، فتأهب للحج وبقي معه من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها، فقال: إن حملتها خاطرت بها، وإن أودعتها خفت جحد المودع، فمضى إلى الصحراء، فرأى شجرة خروع، فحفر تحتها ودفنها ولم يره أحد، ثم خرج إلى الحج وعاد، فحفر المكان فلم يجد شيئًا، فجعل يبكي ويلطم وجهه، فإذا سئل عن حاله قال: الأرض سرقت مالي، فلما كثر ذلك منه قيل له: لو قصدت عضد الدولة، فإن له فطنة، فقال: أو يعلم الغيب؟ فقيل له: لا بأس بقصده. فأخبره بقصته، فجمع الأطباء وقال لهم: هل داويتم في هذه السنة أحدًا بعروق الخروع؟ فقال أحدهم: أنا داويت فلانًا وهو من خواصك. فقال: عليّ به فجاء، فقال له: هل تداويت في هذه السنة بعروق الخروع؟ قال: نعم. قال: مَن جاءك به؟ قال: فلان الفراش قال: عليّ به، فلما جاء قال: من أين أخذت عروق الخروع؟ فقال: من المكان الفلاني، فقال: اذهب بهذا معك فأره المكان الذي أخذت منه. فذهب معه بصاحب المال إلى تلك الشجرة، وقال: من هذه الشجرة أخذت فقال الرجل: هٰهنا والله تركت مالي، فرجع إلى عضد الدولة فأخبره، فقال للفراش: هلم بالمال، فتلكأ فأوعده فأحضر المال.

عضد الدولة والسلامي(١)

روى أبو الحسن بن هلال بن المحسن الصابي قال: حكى السلامي الشاعر قال: دخلت على عضد الدولة، فمدحته فأجزل عطيتي من الثياب والدنانير وبين يديه حسام خرواني فرآني ألحظه، فرمى به إليّ وقال: خذه. فقلت: وكل خير عندنا من عنده. فقال عضد الدولة: ذاك أبوك فبقيت متحيّر لا أدري ما أراد، فجئت أستاذي فشرحت له الحال، فقال: ويحك قد أخطأت عظيمة، لأن هذه الكلمة لأبي نواس يصف كلبًا حيث يقول:

أنْـعَـتُ كـلبًـا أَهْـلَه فـي كـدّه قَـدْ سَـعُـدتْ جُـدودهـم بـجـدِّهِ
وكـلُّ خـيـرٍ عـنـده مِـنْ عِـنـدِهِ

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٦.

قال: فعدت متوشحًا بكساء فوقفت بين يدي الملك فقال: ما بك؟ فقلت حممت الساعة. فقال: هل تعرف سبب حماك؟ قلت: نظرت في ديوان أبي نواس، فقال: لا تخف لا بأس عليك من هذه الحمّى. فسجدت بين يديه وانصرفت.

جلال الدولة وسارق البطيخ(١)

روى أبو الحسن بن هلال بن المحسن الصابي في تاريخه قال: حدّثني بعض التجار وقال: كنت في المعسكر، واتفق أن ركب السلطان جلال الدولة يومًا إلى الصيد على عادته، فلقيه سوادي يبكي فقال: ما لك؟ فقال: لقيني ثلاثة غلمان أخذوا حمل بطيخ كان معي وهو بضاعتي. فقال: امضِ إلى المعسكر فهناك قبة حمراء، فاقعد عندها ولا تبرح إلى آخر النهار، فأنا أرجع وأعطيك ما يغنيك، فلما عاد السلطان، قال لبعض شرائه: قد اشتهيت بطيخًا ففتش العسكر وخيمهم على شيء منه، ففعل وأحضر البطيخ، فقال: عند مَن رأيتموه؟ فقيل: في خيمة فلان الحاجب، فقال: أحضروه. فقال له: من أين هذا البطيخ؟ فقال: الغلمان جاؤوا به. فقال: أريدهم الساعة، فمضى وقد أحس بالشر، فهرب الغلمان خوفًا من أن يقتلوا وعاد فقال: قد هربوا لما علموا بطلب السلطان لهم. فقال: أحضروا السوادي، فأحضر فقال له: هذا بطيخك الذي أُخذ منك؟ قال: نعم. قال: فخذه وهذا الحاجب مملوك لي وقد سلمته إليك ووهبته لك حتى يحضر الذين أخذوا منك البطيخ، ووالله لئن أخليته لأضربن رقبتك. فأخذ السوادي بيد الحاجب فأخرجه، فاشترى الحاجب نفسه بثلاثمائة دينار، فعاد السوادي إلى السلطان وقال: يا سلطان قد بعت المملوك الذي وهبته لي بثلاثمائة دينار، فقال: قد رضيت بذلك؟ قال: نعم. قال: اقبضها وامضِ مصاحبًا السلامة.

عمر بن عبد العزيز وأحد وُلاته(١)

قال الأصمعي: وفد فلان بن أبي بردة على عمر بن عبد العزيز وهو بحاضرة، فلزم سارية من المسجد يصلّي إليها بحسن الركوع والخشوع وعمر بن عبد العزيز ينظر إليه، فقال عمر للعلاء بن المغيرة وكان خصيصًا لعمر: إن يكن سرّ هذا كعلانيته، فهو فعل أهل العراق غير مدافع عن فضل. فقال له العلاء بن

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٧.

المغيرة: أنا آتيك يا أمير المؤمنين بخبره، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء، فقال له: اشفع صلاتك فإن لي حاجة، فلما سلم من صلاته قال له العلاء: تعرف منزلتي وموضعي من أمير المؤمنين، فإني إن أشرت عليه أن يوليك العراق ما تجعل لي؟ قال: عمالتي سنة، وكان مبلغها عشرين ومائة ألف، قال: فاكتب لي على ذلك خطًا، فقام من وقته فكتب له خطًا بذلك، فحمل ذلك الخط إلى عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب، وكان واليًا على الكوفة: أما بعد؛ فإن بلالًا غرّنا بالله فكدنا نغترّ به، ثم سبكناه فوجدناه خبثًا كله.

المنصور ومعن بن زائدة[(١)]

عن غياث بن إبراهيم أن معن بن زائدة دخل على أبي جعفر أمير المؤمنين، فقارب في خطوه، فقال له أبو جعفر: كبرت سنك يا معن، فقال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: وإنك لجلد. قال: على أعدائك، قال: وإن فيك لبقية، قال: هي لك.

المأمون وعبد الله بن طاهر[(١)]

الفضل الربعي قال: حدّثني أبي قال: قال المأمون لعبد الله بن طاهر: أيما أطيب مجلسي أو منزلك؟ قال: ما عدلت به يا أمير المؤمنين. قال: ليس لي إلى هذا، إنما ذهبت إلى الموافقة في العيش واللذة، قال: منزلي يا أمير المؤمنين. قال: ولِمَ ذلك؟ قال: لأني فيه مالك وأنا هٰهنا مملوك.

ابن طولون والقياس الصحيح[(١)]

عن محمد بن عبد الملك الهمداني أن أحمد بن طولون جلس يومًا في متنزه له يأكل، فرأى سائلًا في ثوب خَلِق[(٢)] فوضع يده في رغيف ودجاجة وفرخ وقطع لحم وقطعة فالوذج، وأمر بعض الغلمان بمناولته، فرجع الغلام وذكر أنه ما هش له، فقال ابن طولون للغلام: جئني به، فمثل به بين يديه، فاستنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيبته، فقال له: أحضرني الكتب التي معك وأصدقني عمن بعث بك، فقد صحّ عندي أنك صاحب خبر، واستحضر السياط فاعترف له

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٩.

(٢) ثوب خلق: أي ثوب بالٍ ممزق.

بذلك فقال بعض مَن حضر: هذا والله السحر، فقال أحمد: ما هو بسحر، ولكنه قياس صحيح رأيت سوء حال هذا، فوجهت إليه بطعام يسر إلى أكله الشبعان، فما هش له ولا مد يده فأحضرته فتلقاني بقوة جأش، فلما رأيت رثاثة حاله وقوة جنانه علمت أنه صاحب خبر.

ابن طولون والحمّال(١)

رأى ابن طولون يومًا حمّالًا يحمل صندوقًا وهو يضطرب تحته، فقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنقه وأنا أرى عنقه بارزة، وما هذا إلا من خوف ما يحمل، فأمر بحط الصندوق، فوجد فيه جارية قد قتلت وقطعت، فقال: أصدقني عن حالها، فقال: أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة. فضرب الحمال مائتي ضرب بعصا، وأمر بقتل الأربعة.

علم الكسائي(٢)

قال سهل بن محمد السجستاني: وفد علينا عامل من أهل الكوفة لم أرَ في عمال السلطان بالبصرة أبرع منه، فدخلت مسلمًا عليه، فقال يا سجستاني: من أعلمكم بالبصرة؟ قال: الزيادي أعلمنا بعلم الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهنا، والشاذكوني أعلمنا بالحديث، وأنا رحمك الله أنسب إلى علم القرآن، وابن الكلبي من أكتبنا للشروط، قال: فقال لكاتبه: إذا كان غد فاجمعهم إليَّ، قال: فجمعنا قال: أيكم المازني؟ قال: أبو عثمان: ها أنذا يرحمك الله، قال: هل يجزىء في الظهاري عتق عبد أعور، فقال المازني: لست صاحب فقه، أنا صاحب عربية، فقال: يا زيادي كيف تكتب بين بعل وامرأة خالعها زوجها على الثلث من صداقها(٣) قال: ليس هذا من علمي هذا من علم هلال الرأي، قال: يا هلال: كم أسند ابن عون عن الحسن؟ قال: ليس هذا من علمي هذا من علم الشاذكوني، قال: يا شاذكوني مَن قرأ ألا إنهم يثنون صدورهم، قال: ليس هذا من علمي هذا من علم أبي حاتم. فقال: يا أبا حاتم كيف تكتب كتابًا إلى أمير المؤمنين تصف فيه خصاصة أهل البصرة، وما أصابهم في الثمرة، وتسأله لهم

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٩. (٢) نفس المصدر ص ٦٠.
(٣) صداقها: مهرها أي ما كان من حقوق للزوجة بذمة زوجها.

النظر بالبصرة؟ قال: لست رحمك الله صاحب بدعة وكتابة أنا صاحب قرآن. قال: ما أقبح بالرجل يتعاطى بالعلم خمسين سنة لا يعرف إلا فنًّا واحدًا حتى إذا سئل من غيره لم يجل فيه، ولم يمر. لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا كله لأجاب.

الواثقي واللصوص[١]

قال الحسين بن الحسن بن أحمد بن يحيىٰ الواثقي: كان جدي يتقلّد شرطة بغداد للمكتفي بالله، فعمل اللصوص في أيامه عملة عظيمة، فاجتمع التجار يتظلموا إلى المكتفي بالله، فألزمه بإحضار اللصوص أو غرامة المال، فتحيّر حتى كان يركب وحده ويطوف بالليل والنهار إلى أن اجتاز يومًا في زقاق خال في بعض أطراف بغداد، فدخله فوجد فيه منكرًا ووجد فيه زقاقًا لا ينفذ، فدخله فرأى على بعض أبواب دور الزقاق شوك سمكة كبيرة، وعظم الصلب وتقدير ذاك أن تكون السمكة فيها مائة وعشرون رطلًا، فقال لواحد من أصحاب المسالخ: ويحك ما ترى عظام هذه السمكة كم تقدر ثمنها؟ قال: دينار، فقال: أهل هذا الزقاق[٢] لا تحمل أحوالهم شراء مثل هذه السمكة لأنه زقاق بين الاحتلال إلى جانب الصحراء لا ينزله من معه شيء يخافه، أو له مال ينفق منه مثل هذه النفقة، وما هي إلا بلية يجب أن يكشف عنها، فاستبعد الرجل هذا، وقال: هذا فكر بعيد، فقال: اطلبوا امرأة من الدرب أكلمها، فدق بابًا غير الباب الذي عليه الشوك واستسقى ماءً، فخرجت عجوز ضعيفة، فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي تسقيهم، والواثقي في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله، وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك إلى أن قال لها: فهذه الدار مَن يسكنها وأومأ إلى التي عليها عظام السمك؟ فقالت: والله ما ندري على الحقيقة من سكانها إلّا أن فيها خمسة شباب أعفار، كأنهم تجار قد نزلوا منذ شهر لا نراهم يخرجون نهارًا إلّا كل مدة طويلة، وإنا نرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعًا، وهم طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون ويلعبون بالشطرنج والنرد، ولهم صبي يخدمهم، وإذا كان الليل انصرفوا إلى دار لهم في الكرخ. ويدعون الصبي في الدار يحفظها، فإذا كان سحرًا بليل جاؤوا ونحن نيام لا نعقل بهم وقت مجيئهم، قال: فقطع الوالي استقساء الماء ودخلت

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٠.

(٢) الزقاق: الطريق الضيق.

العجوز، وقال للرجل: هذه صفة لصوص أم لا؟ فقال: توكّلوا بحوالي الدار ودعوني على بابها. قال: وأنفذ في الحال واستدعى عشرة من الرجال، وأدخلهم إلى سطوح الجيران، ودق هو الباب، فجاء الصبي ففتح فدخل والرجال معه، فما فاتهم من القوم أحد، وحملهم إلى مجلس الشرطة وقررهم، فكانوا هم أصحاب الخيانة بعينها، ودلّوا على باقي أصحابهم فتبعهم الواثقي، وكان يفتخر بهذه القصة.

ابن النسوي والأكل الحلال(١)

قيل إن رجلًا من جيران ابن النسوي كان يصلي بالناس دخل على ابن النسوي في شفاعة، وبين يديه صحن فيه قطائف فقال له ابن النسوي: كُلْ. فامتنع، فقال: كأنني بك وأنت تقول من أين لابن النسوي شيء حلال، ولكن كُلْ، فما أكلت قط أحل من هذا. فقال بحكم المداعبة: من أين لك شيء لا يكون فيه شبهة؟ فقال: إن أخبرتك تأكل؟ قال: نعم، فقال: كنت منذ ليال في مثل هذا الوقت، فإذا الباب يدق، فقالت الجارية: مَن؟ فقالت: امرأة تستأذن، فأذن لها، فدخلت، فأكبّت على قدمي تقبلها، فقلت: ما حاجتك؟ قالت: لي زوج ولي منه ابنتان لواحدة اثنتا عشرة سنة وللأخرى أربع عشرة سنة، وقد تزوّج عليّ وما يقربني والأولاد يطلبونه، فيضيق صدري لأجلهم، وأريد أن يجعل ليلة لي ولتلك ليلة، فقلت لها: صناعته؟ فقالت: خباز، قلت: وأين دكانة؟ قالت: بالكرخ، ويعرف بفلان ابن فلان. فقلت: وأنت بنت مَن؟ فقالت: بنت فلان، قلت: فما اسم بناتك؟ قالت: فلانة وفلانة... قلت: أنا أرده إليك إن شاء الله تعالى، فقالت: هذه شقة قد غزلتها أنا وابنتاي، وأنت في حل منها. قلت: خذي شقتك وانصرفي. فمضت فبعثت إليه اثنين وقلت: أحضراه ولا تزعجاه. فأحضراه وقد طار عقله، فقلت: لا بأس عليك إنما استدعيتك لأعطيك كراء طعام وعمالته تقيمه خبزًا للرحالة، فسكن روعه وقال: ما أريد له عماله. قلت: بلى، صديق مخسر عدو مبين. أنت مني وإليّ. كيف هي زوجتك فلانة تلك بنت عمي، وكيف بناتها فلانة وفلانة؟ فقال: بكل خير، قلت: الله الله لا أحتاج أن أوصيك بها لا تضيق صدرها فقبّل يدي، فقلت: امضِ إلى دكانك وإن كان لك حاجة

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٢.

فالموضع بحكمك فانصرف. فلما كان في هذه الليلة جاءت المرأة فدخلت، وهذا الصحن معها، وأقسمت عليَّ بالله أن لا أردّها، وقالت: قد جمعت شملي وشمل أولادي، وهذا والله من ثمن غزلي، فبالله لا ترده، فقبلته، فهل هو حلال؟ فقال: والله ما في الدنيا أحل من هذا. قال: فكُلْ، فأكل.

في قصور بَني أميَّة[١]

قال محمد بن أحمد المكِّي: حدّثني أبي قال: دخلتُ إلى عَلّوَيْهِ[٢] أعوده في علّةٍ اعتلّها ثم عُوفي منها. فجرى حديثُ المأمون فقال: كِدْتُ - علم الله - أذهبُ دفعة ذات يوم وأنا معه، لولا أن الله تعالى سلّمني ووهب لي حلمَه. فقلت: كيف كان السببُ في ذلك؟ فقال: كنتُ معه لما خرج إلى الشام، فدخلنا دمَشْق فطُفْنَا فيها، وجعل يطوفُ على قصور بني أمية ويَتَّبعُ آثارهم، فدخل صحنًا من صُحُونهم، فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كلّه، وفيه بِرْكَةُ ماء فيها سمك، وبين يديها بستانٌ على زواياه أربعُ سَرَوات[٣] كأنها قُصَّتْ بمقراض من التفافها، أحسنُ ما رأيتُ من السروات قدًّا وَقَدْرًا.

فاستحسَن ذلك وعزم على الصبُّوح، وقال: هاتُوا لي الساعةَ طعامًا خفيفًا، فأتى به بين ماء وورد، فأكل ودَعَا بشرابٍ، وأقبل عليَّ وقال: غَنِّنِي ونَشِّطْني، فكأن الله عزّ وجلّ أنساني الغناء كله إلا هذا الصوت:

لـو كـان حـولـي بـنـو أمـيَّـة لـمْ تَـنْـطِـقْ رجـالٌ أرَاهُـمُ نَـطَـقُـوا

فنظر إليَّ مُغضبًا، وقال: عليك وعلى بني أمية لعنةُ الله! ويلك! أقلتُ لك سُؤْني أو سُرَّني! ألم يكن لك وقتٌ تذكرُ فيه بني أمية إلا هذا الوقت؟ تُعَرِّض بي!

فتحيَّلْتُ[٤] عليه، وعلمتُ أني قد غلطت فقلت: أتلومُني على أن أذكر بني أمية! هذا مولاكم زِرْياب[٥] عندهم يركب في مائتي غلام مملوكٍ له ويملك

---

(١) الأغاني: ١٠ - ١٢٤.

(٢) هو علي بن عبد الله بن سيف، ويكنّى علوية أبا حسن، كان مغنيًا حاذقًا، ومؤدبًا حسنًا. وضاربًا متقدمًا جمع خفّة روح، وطيب مجالسة، وملاحة نوادر، علمه إبراهيم الموصلي وعنى به جدًا، فبرع، وعنى لمحمد الأمين، وعاش إلى أيام المتوكل.

(٣) السرو: شجر واحدته سروة. (٤) التحيّل: الاحتيال.

(٥) هو علي بن نافع، نابغة الموسيقى في زمنه، رحل إلى الأندلس وذاعت شهرته هناك، وفضله=

ثلاثمائة ألف دينار وهِبُوها له سوى الخيل والضِّيَاع والرقيق. وأنا عندكم أموت جوعًا؟ فقال: أوَلَم يكن لك شيء تُذَكرُني به نفسك غيرُ هذا؟ فقلت: هكذا حَضَرني حين ذكرتُه. فقال: اعْدِلْ عن هذا وغنني. فأنساني الله كلّ شيء أُحْسِنُه إلا هذا الصوت.

الْحَيْنُ[1] ساق إلى دِمَشْق ولم أكن أرْضَى دِمَشْقَ لأهلِنا بَلَدَا

فرماني بالقَدَح فأخطأني فانكسر القدح. وقال: قم عني إلى لعنة الله وحرِّ سَقَر. وقام فركب.

فكانت والله تلك الحال آخر عهدي به حتى مرض ومات.

ثم قال لي: يا أبا جعفر، كم تراني أحسنُ أغنِّي؟ ثلاثة آلاف صوت، أربعة آلاف صوت، خمسة آلاف صوت، أنا والله أغنِّي أكثر من ذلك. ذهب ـ علم الله ـ كلُّه، حتى كأني لم أعرفْ غيرَ ما غَنَّيْت. ولقد ظَنَنْتُ أنه لو كانت لي ألفُ رُوح ما بَحثْ منه واحدةٌ منها، ولكنه كان رجلًا حليمًا، وكان في العُمْرِ بقية!

في دَار الفَضْل بن الرّبيع[2]

قال أحمد بن يحيىٰ المكّي: دَعاني الفضل[3] بن الرّبيع ودعا عَلّوَيْه ومُخَارِقًا، وذلك في أيام المأمونِ بعد رجُوعه ورِضَاه عنه، إلا أن حالَه كانت ناقصةً مُتَضَعْضِعَة؛ فلما اجْتَمعْنَا عنده كتب إلى إسحٰقَ[4] الموصلي يسأله أن يصيرَ إليه ويُعلِمه الحالَ في اجتماعنا عنده. فكتب إليهم: لا تنتظروني بالأكل، فقد أكلتُ وأنا أَصِير إليكم بعد ساعة.

فأكلنا وجلسْنَا نشرب حتى قَرُب العصر، ثم وافى إسحٰقُ فجلس، وجاء غلامُه بِقَطْرَميز[5] نبيذٍ، فوضعه ناحِيةً، وأمرَ صاحبَ الشراب بإسْقَائِه منه، وكان

= عبد الرحمٰن بن الحكم على ما عداه، وأقام بقرطبة إلى أن مات سنة ٢٣٠ هـ.

(١) الحين: الهلاك.

(٢) الأغاني: ٥ ـ ٣٠٦.

(٣) كان الفضل بن الربيع وزيرًا للرشيد بعد زوال دولة البرامكة، وبعد موت الرشيد استوزر للأمين، ووقف معه ضد المأمون، وبعد قتل الأمين تشفع طاهر بن الحسين للفضل عند المأمون فرضي عنه؛ ومات سنة ٢٠٨ هـ.

(٤) إسحٰق الموصلي: من أشهر ندماء الخلفاء تفرد بصناعة الغناء وكان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ورواية الشعر وحافظًا للأخبار. توفي سنة ٢٣٥ هـ.

(٥) القطرميز: قلة كبيرة من الزجاج.

عَلّوَيْهِ يُغنّي الفضلَ بن الربيع في لَحْنٍ اقترحَه الفَضْلُ عليه وأعجبه، وهو:

فإن تَعْجَبي أو تُبصري الدهرَ طَمَّنِي[١] بأَحْداثه طَمَّ المقصَّصِ بالجلَمْ[٢]
فقد أترُكُ الأضيافَ تَنْدَى رحالُهم وأُكرِمُهم بالْمَحْضِ والتامكِ السَّنِمْ[٣]

فقال له إسحٰق: أخطأتَ يا أبا الحسن في أَدَاء هذا الصوت؛ وأنا أُصْلحه لك.

فجُنّ عَلّوَيْهِ واغتاظ، وقامت قيامتُهُ. ثم أقبل إسحٰق على عَلّوَيْهِ فقال له: يا حبيبي، ما أردتُ الوَضْعَ[٤] منك بما قلتُه لك، وإنما أردتُ تهذيبَك وتقويمك، لأنك منسوبُ الصوابِ والخطأ إلى أبي وإليَّ، فإن كرهتَ ذلك تركتُك؛ وقلتُ لك: أحسنتَ وأجْمَلْتَ. فقال له عَلّوَيْهِ: والله ما هذا أردتُ، ولا أردتُ إلا ما لا تتركُه أبدًا من سوء عِشرَتك! أخْبرني عنك حين تجيءُ هذا الوقت لمّا دعاك الأمير وعرّفك أنه قد نشِط للاصطباح: ما حملَك على الترفّع عن مُباكَرَته[٥] وخِدْمَته مع صَنَائِعِهِ عندك؟ وما كان ينبغي أن يَشْغلَك عنه شيء إلا الخليفة! ثم تجيئه ومعك قَطْرَمِيزُ نبيذ ترفُّعًا عن شرابه، كما ترفَّعتَ عن طعامه ومُجَالسته إلّا كما تَشْتَهِي وحين تَنْشَط، كما تفعل الأكفاء[٦]، بل تَزيد على فِعْلِ الأكفاء. ثم تعمِدُ إلى صوتٍ قد اشْتَهاه واقترَحَه، وسمِعَه جميعُ مَن حضر، فما عابَه منهم أحد، فتَعيبه ليَتمّ تنغيصُك إياه لذّتَه! أما والله لو الفضلُ بن يحيىٰ أو أخوه جعفر دعاك إلى مثلِ ما دعاك إليه الأمير، بل بعضُ أتباعهم؛ لبادرت وباكرت؛ وما تأخرتُ ولا اعتذرتَ. فأمْسَك الفضلُ بن الربيع عن الجواب إعجابًا بما خاطب به عَلّوَيْهِ إسحٰق.

فقال له إسحٰق: أمّا ما ذكرتَه من تأخّري عنه إلى الوقت الذي حضرتُ فيه، فهو يعلمُ أني لا أتأخرُ عنه إلا بعائقٍ قاطع، إنْ وَثِق بذلك مني، وإلا ذكرتُ له الحجةَ سرًّا من حيث لا يكون لك ولا لغيركَ فيه مَدْخَل. وأما ترفّعي عنه فكيف أترفّع عنه وأنا أنتسبُ إلى صنائعه، وأَستَمْنحه وأعيشُ من فَضْلِه مذ كنت؟ وهذا

---

(١) طمني: غمرني.
(٢) الجلم: الذي يجزّ به الشعر والصوف. والمقصص: الشيء الذي يقص.
(٣) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة. والتامك: العظيم السنام من الإبل، ومثله السنم.
(٤) الوضع: الضعة. (٥) باكره: أتاه بكرة: غدوة.
(٦) الأكفاء: النظراء المتماثلون.

تَضْرِيبٌ[١] لا أُبالي به منك، وأما حَملي النبيذ معي فإن لي في النبيذ شَرْطًا من طَعْمِه ورِيحه؛ وإن لم أجِده لم أقدِر على الشرب، وتنغَّصَ عليّ يومئذ، وإنما حملتُه ليتمّ نشاطي ويُنْتَفَعَ بي، وأما طَعْني على ما اختاره فإني لم أطعن على اختياره، وإنما أردتُ تقويمَك؛ ولستَ والله تراني متتبعًا لك بعد هذا اليوم، ولا مُقَوِّمًا شيئًا من خَطَئِكَ، وأنا أُغَنِّي له ـ أعزّه الله ـ هذا الصوتَ فيعلم وتعلم؛ ويعلمُ مَن حضر أنك أخطأتَ فيه وقصَّرت. وأما البرامكةُ ومُلازمتي لهم فأشهرُ من أن أجْحَدَه، وإني لحقيق فيه بالمعذرة، وأحرى أن أشكرهم على صَنيعهم، وبأن أذيعَه وأنشرَه؛ وذلك ـ والله ـ أقلُّ ما يستحقونه مني.

ثم أقبلَ على الفضل ـ وقد غاظه مدحُه لهم ـ فقال: اسمع مني شيئًا أُخبرك به مما فعلوه، ليس هو بكبير صنائعهم عندي ولا عند أبي قَبْلِي، فإنْ وَجَدْتَ لي عذرًا وإلا فَلُمْ: كنتُ في ابتداءِ أمرى نازلًا مع أبي في دَاره، فكان لا يزالُ يجري بين غِلماني وغلمانه وجواريّ وجواريه الخصومةُ؛ كما تجري بين هذه الطبقات فيشكونهم إليه؛ فأتبين الضجَرَ والتنكرَ في وجهه، فاستأجرتُ دارًا بقُرْبه؛ وانتقلتُ إليها أنا وغِلْماني وجواريّ، وكانت دارًا واسعةً، فلم أرْضَ ما معي من الآلة لها، ولا لمن يدخل إليّ من إخواني أن يروا مثلَه عندي.

ففكرت في ذلك، وكيفَ أصْنَع؛ وزاد فِكْري حتى خَطَر بقلبي قُبْح الأحْدوثة من نزول مثلي في دارٍ بأُجرة، وأني لا آمنُ في وقتٍ أن يَستأْذنَ عليَّ صاحبُ داري، وعندي من أَحْتَشم منه[٢] ولا يعلم حالي فيقال: صاحبُ دارك، أو يوجِّه في وقتٍ فيطلبَ أجرةَ الدار، وعندي مَن أحتشم منه؛ فضاقَ بذلك صَدْري ضيقًا شديدًا حتى جاوز الحدّ.

فأمرتُ غُلَامي بأن يُسْرِجَ لي حِمارًا كان عندي، لأمْضيَ إلى الصحراء أتَفَرّجُ فيها مما دخل على قلبي، فأسرَجَه وركبتُ برِداءٍ ونَعْلٍ، فأفْضَى بي المسير وأنا مفكِّرٌ لا أميِّز الطريق التي أسلكُ فيها، حتى هجم بي على باب يحيىٰ بن خالد، فتواثب غلمانُه إليّ، وقالوا: إلى أين؟ فقلت: إلى الوزير. فدخلوا فاستَأذنوا لي، وخرج الحاجبُ فأمرني بالدخول؛ وبقيتُ خَجِلًا، قد وقعتُ في أمرين فاضحَيْن: إنْ دخلتُ إليه برداءٍ ونعلٍ؛ وأعلَمْتُه أني قصدته في تلك الحال

---

(١) التضريب: الإغراء بين القوم. (٢) احتشم منه: استحيا.

كان سوءَ أدب، وإن قلتُ له كنتُ مجتازًا، ولم أقصِدْكَ فجعلتُكَ طريقًا كان قبيحًا.

ثم عزمتُ فدخلت؛ فلما رآني تبسّم وقال: ما هذا الزِّي يا أبا محمد! قد علمنا أنكَ جعلتنا طريقًا، فقلت: لا والله يا سيدي، ولكني أصْدُقك. قال: هاتِ. فأخبرتُه القصةَ من أولها إلى آخرها، فقال: هذا حق مستوٍ؛ أفهذا شَغَل قلبك؟ قلتُ: إي والله! وزاد فقال: لا تَشْغَلْ قلب بهذا. يا غلام. ردُّوا حماره، وهاتوا له خِلْعَةً. فجاءوني بخِلْعةٍ تامَّةٍ من ثيابه فلبستُها، ودعا بالطعام فأكلت، ووُضعَ النبيذ فشربت وشرب فغنَّيته، ودعا في وسَطِ ذلك بدَوَاةٍ ورُقْعة، وكتب أربع رقاع ظننتُ بعضَها توقيعًا لي بجائزة؛ فإذا هو قد دعا بعضَ وكلائه فدفع إليه الرِّقاع وسَارَّه بشيء، فزاد طَمَعِي في الجائزة، ومضى الرجلُ وجلسنا نشرب، وأنا أَنْتظر شيئًا فلا أراه إلى العَتَمة[1]، ثم اتّكأ يحيىٰ فنام. فقمت وأنا منكسر خائب، فخرجت وقُدِّم لي حماري.

فلما تجاوزتُ الدار قال لي غلامي: إلى أين تمضي؟ قلت: إلى البيت. قال: قد والله بِيعَتْ دارُك، وأُشهِدَ على صاحبها، وابتيع الدَّرْبُ كلُّه وَوَزنَ ثمنه، والمشتري جالسٌ على بابك ينتظرُك ليعرِّفَك، وأظنه اشتَرى ذلك للسلطان، لأني رأيتُ الأمر في استعجاله أمرًا سلطانيًا، فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن في حِسابي، وجئتُ وأنا لا أدري ما أعمل، فلما نزلتُ على باب داري إذا أنا بالوكيل الذي سارَّه يحيىٰ قد قام إليّ. فقال لي: ادخل - أيّدك الله - دارَك حتى أدخلَ لمخاطبتك في أمر أحتاجُ إليك فيه، فطابتْ نفسي بذلك، ودخلتُ، ودخل إليّ فأقْرأَني توقيعَ يحيىٰ: «يُطْلَقُ لأبي محمد إسحٰق مائةُ ألف درهم يُبتاع لهُ بها داره وجميعُ ما يجاورها ويلاصقها». والتوقيع الثاني إلى ابنه الفَضْل: «قد أمرتُ لأبي محمد إسحٰق بمائة ألف درهم يُبْتَاعُ له بها دارُه، فأَطلِقْ إليه مثلَها لينفقَها على إصلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهي». والتوقيع الثالث إلى جعفر: «قد أمرتُ لأبي محمد إسحٰق بمائة ألف درهم يُبتاع له بها منزلٌ يسكنه، وأمَر له أخوك بدَفْع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها ومَرَمَّتها على ما يريد، فأَطلِقْ له أنت مائة ألف درهم يَبتاع بها فرشًا لمنزله». والتوقيع الرابع إلى محمد: «قد أمرت لأبي محمد

(١) العتمة: وقت صلاة العشاء.

إسحٰق أنا وأخواك بثلاثمائة ألف درهم لمنزلٍ يبتاعه ونفقة ينفقُها عليه، وفرش يبتَذِلُه[(١)]، فمرْ له أنت بمائة ألف درهم يصرفها في سائر نفقته». وقال الوكيل: قد حملتُ المال واشتريتُ كل شيء جاورك بسبعين ألف درهم، وهذه كُتُب الابتياعات باسْمِي والإقرار لك، وهذا المال بُورِك لك فيه فاقْبِضْه.

فقبضتُه وأصبحتُ أحسن حالًا من أبي في منزلي وفَرْشِي وآلتي، ولا والله ما هذا بأكبرِ شيء فَعَلُوه لي أفألام على شكر هؤلاء!

فبكى الفضل بن الربيع وكلُّ مَن حضر. وقالوا: لا والله لا تُلام على شكر هؤلاء. ثم قال الفضل: بحياتي غَنِّ الصوتَ، ولا تبخل على أبي الحسن بأن تقوِّمه له! فقال: أفعل. وغناه فتبين عَلّوَيْهِ أنه كما قال: فقام فقبَّل رأسَه، وقال: أنت أستاذُنا وابن أستاذِنا وأولى بتقويمنا واحتمالنا من كل أحد، وردّه[(٢)] إسحٰق مراتٍ حتى استوى لعَلّوَيْهِ.

المعتَصِم في يَوم العِيد[(٣)]

قالَ حمدون بن إسماعيل النديم: حضر العيدُ، فعبّى المعتصم[(٤)] بالله خيلَه تعبية لم يُسْمَعْ بمثلها، ولم يُرَ لأحدٍ من ولدِ العباس شبيهٌ بها، وأمر بالطريق فمُسِح[(٥)] من باب قصره إلى المصلّى، ثم قسم ذلك على القواد، وأعطى كل واحد منهم مَصَافّه[(٦)].

فلما كان قبلَ الفِطْرِ بيوم حضر القوّادُ وأصحابُهم في أَجْمل زِيِّ وأحسن هيئة، فلزموا مصافّهم منذ وقت الظهر، إلى أن ركب المعتصمُ بالله إلى المصلّى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي بعد الحَرَسِي[(٧)] بحذاء مسجد الخوارزمي، وإبراهيمَ واقفٌ وأصحابُه في المصافّ.

---

(١) الابتذال: ضد الصيانة.
(٢) ردّه: أعاده، مثل ردّده.
(٣) المحاسن والمساوىء: ١٦٤.
(٤) هو أبو إسحٰق محمد بن هارون الرشيد، ولقب بالمعتصم بالله في اليوم الذي دعي له بالخلافة سنة ٢١٨ هـ.، وكان شجاعًا مقدامًا شديد البأس محبًّا للعمارة، منصرفًا إلى الجيش، وتوفي سنة ٢٢٧ هـ.
(٥) يقال: مسح الأرض، أي ذرعها.
(٦) المصف: موضع الصف، وجمعه مصاف.
(٧) الحرسي: واحد حرس السلطان.

فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتَّبوا في المصاف بالمصير إلى المصلَّى على التعبية التي حَدَّها، ولبس ثيابَه، وجلس على كرسي ينتظرُ مُضيّ القوّاد. فلما انقضى أمرهم تَقَدَّم إلى الرَّجَّالة في المسير بين يديه، فتقدم منهم سبعة آلاف ناشبٍ من الموالي، كلُّ ثلاثمائة منهم في زِيّ مخالف لزيّ الباقين، وأربعة آلاف من المغاربة، وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة، وعِدّتهم أربعة آلاف، وركبتُ لا أدري منزلتي أين هي، ولا أعرفُ مرتبتي، ولم أعلم أين أسيرُ من الموكب؟

فلما وضع رِجلَه في الركاب، واستوى على سَرْجه التفتَ إليّ، وقال: يا حمدون، كُنْ أنتَ خَلْفِي، فلزمتُ مؤخّرَ دَابَّتِه، فلما خرج من باب القصر تلقّاهُ القوّاد وأصحابُ المصافّ: يخرجُ الرجل من مصافّه، فإذا قرب نزل وسلّم عليه بالخلافة، فيأمره بالركوب ويمضي، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي فنزل وسلّم عليه بالخلافة فردّ عليه السلام، فقال: كيف أنتَ يا إبراهيم؟ وكيف حالُك؟ وكيف كنتَ في أيامك! اركب فركب فلما جاوزه التفت إليّ وقال: يا حمدون، قلت: لبيك يا أميرَ المؤمنين! قال: تذكر؟ قلت: إي والله يا سيدي! وأمسك.

فنظرتُ فيما قال فلم أجدني أذكر شيئًا في ذلك الموضع مما يشبه ما كنّا فيه! فنغص عليَّ يومي، وما رأيت من حسنه وسروره بالمرتبة التي أهّلني بها، وقلت: الخلفاءُ لا يعامَلون بالكذب، ولا يجوزُ أن يسألني عند انصرافي عن هذا الأمر، فلا يكونُ له عندي جواب ولا حقيقة! وتخوّفت أن ينالني منه مكروه، فلم أزلْ واجمًا في طريقي إلى وقتِ انصرافه، ثم أجمعتُ على مغالطته إن أمكنني، وإعمالِ الحيلة في التخلّص إن يسائلْني.

فلما استقرّ في مجلسه، وبُسط السِّماط[1]، وجلس القوّاد على مراتبهم للطعام أقبلتُ أخدم وأختلف، ليست لي همةٌ غير ما كان قد قاله لي، لا أغفلُ عن ذلك، حتى انقضى أمرُ السِّماط، ورفع الستر، ونهض أميرُ المؤمنين، ودخل الحجرة، ومضى إلى المرْقد، فلم ألبثْ أن جاء الخادم وقال: أَجِبْ أميرَ المؤمنين، فمضيتُ.

---

(١) السماط: ما يمد عليه الطعام.

فلما دخلتُ ضحك إليّ، وقال: يا حمدون رأيتَ؟ قلت: نعم يا سيدي قد رأيت! فالحمدُ لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرَانيه؛ فما رأيتُ ولا سمعتُ لأحدٍ من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أبهى ولا أحسن؟ قال: ويحك! أرأيتَ إبراهيم بن المهدي؟ قلت: نعم يا سيدي! قال: رأيتَ سلامَه عليَّ وردّي عليه، ونزولَه إليّ؟ قلت: نعم! فقال: إنه لما كان من أمره ما كان ـ يعني الخلافة ـ قسَّم الطريقَ في يوم عيدٍ من منزله إلى المصلَّى كقِسْمتي إياه في هذا اليوم بين قوّاده، فوقع موضعي منه الموضع الذي كان به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلتُ فسلّمت عليه، فردّ عليّ مثل ما رددتُ حرفًا حرفًا على ما قال لي.

فدعوتُ له، وانفرج عني ما كنتُ فيه، وتخلّى عني الغمُّ والكَرْب. ثم قال: يا حمدون؛ إني لم آكل شيئًا، وأنا أنتظر أن تأكل معي، فامضِ إلى حجرة الندماء؛ فإنك تجدُ إبراهيم هنالك، فاجلسْ إليه وعاتبه وضاحِكه، وأَجْرِ له هذا الحديث، وقل له: إنك رأيتَه في ذلك اليوم فَعل بي فِعْلي به في هذا اليوم؛ وانظرْ إلى وجهه وكلامه، وما يكون منه فعرِّفنيه على حقيقته، وأصدُقني عنه، وعجّل ولا تحتبس! قلت: نعم يا سيدي!

فمضيتُ، وقد دُفعت إلى أغلظَ مما كنتُ فيه؛ لعلمي بأن إبراهيم لو كان من حَجَرٍ لأثر فيه هذا القول وتغيّر، وظهر منه ما يُكرَه، وخِفْتُ أن يأتي بما يُسفَك به دَمُه، فمضيتُ حتى دخلْتُ الحجرة، فجلست إلى إبراهيم، وقلت: ما أمرَني به، وأنا مبادِرٌ خوفًا من خادم يلحقني، أو رسول، فلا يمكنني معه تحسين الأمر، وما يظهر لي منه؛ فقلتُ لإبراهيم: كيف رأيتَ يا سيدي هذا اليوم؟ أمَا أعجبك حسنُه؟ وما كان من تعبية أمير المؤمنين؟ قال: بلى والله إنه أعجبني! فالحمد لله الذي بلّغنيه وأرانيه، وأطنب في الدعاء للمعتصم.

فلما أمسَك قلت: يا سيدي؛ أذكرك، في أيامك، وقد ركبتَ فعبّيت شبيهًا بهذه التعبية، وقسَّمت الطريق مثل هذه القسمة؛ فوقع لأمير المؤمنين الموضع الذي وقع لك واجتزتَ به، فنزل إليك وسلّم، فرددتَ عليه كرده عليه في هذا الموضع.

فوالله ما قلتُ له ذلك حتى أربدّ لونه، وجفّ ريقُه، واعتُقِل لسانه، وبقي لا يتكلم بحَرْف، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم! فالحمد لله الذي رأيتُه لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل.

فتغنّمتُ[1] ذلك وقمت، وأنا ألتفتُ، ونهضتُ حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هِيه يا حمدون! فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ أتيتُ إبراهيم، وقلتُ له: ما أمرتني به، فأظهر سرورًا ودعاء، وقال: كيت وكيت. فقال: والله قال: بحياتي! قلت: وحياتِك يا أميرَ المؤمنين! قال: فكيفَ رأيتَ وجهه! فلم أدر ما أقولُ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، بالله لما تركتَني من وجه عمّكَ الذي لا يتبيّن فيه فرح ولا حزن. فاستضحك، ثم أمسك، ودعا بالطعام فأكلنا، ثم رقد.

فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائرِ الندماء، فشرب وبرّ إبراهيم وألْطَفَه.

رُسل الرُوم عِنْد النَاصِر[2]

رحل الناصر[3] لدين الله من قَصْرِ الزَهْرَاء[4] إلى قصر قُرْطَبة[5] لدخول وفود الروم عليه، وقعد لهم في بَهْوِ المجلس الزاهر قعودًا حسنًا نبيلًا، وقعد عن يمينه وليّ العهد من بَنِيه، وقعد عن يساره مُنْذِر بن سعيد؛ وحضر الوزراء على مراتبهم يمينًا وشمالًا، ووقف الحجّابُ من أهل الخِدْمَة من أبناء الوزراء والموالي وغيرهم، وقد بُسِطَ صَحْنُ الدار أجمع بعِتَاقِ البُسط، وكرائم الدَّرَانك[6]، وظُلِّلَتْ أبوابُ الدار وحنَايَاها بغَالي الديباج ورَفيع السُّتور.

فوصل رسلُ ملك الروم حائرين مما رأَوْه من بهجة الملك وفخامة السلطان، ودفعوا كتابَ ملكهم صاحب قُسْطَنْطِينية العظمى؛ وهو في رَقّ[7] مصبوغ بلونٍ سماوي، مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مُدْرَجَةٌ[8] مصبوغة أيضًا مكتوبة بِفِضَّة بخط إغريقي أيضًا، فيها وصفُ هديتهِ التي أرسل بها وعددُها، وعلى الكتابِ طابع ذهب وَزْنُه أربعة مثاقيل، على وجهٍ منه صورةُ المسيح وعلى الآخر صورةُ الملكِ وصورةُ ولده.

---

(١) تغنمه: انتهز غنمه، وعده غنيمة. (٢) نفح الطيب: ١٧٢١.

(٣) هو عبد الرحمٰن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس وأول مَن تلقب بالخلافة منهم؛ وكانت أيامه أيام جهاد، وكان عادلًا محسنًا محبًا للعلم، شغوفًا بالعمارة، توفي سنة ٣٥٠ هـ.

(٤) هي المدينة التي بناها الناصر.

(٥) قرطبة: حاضرة الخلافة بالأندلس، وكانت أخت بغداد عزًا وعلوًا وحضارة وفيها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمٰن الأموي سنة ٧٩٢ م، وهو الآن الكنيسة الكتدرائية.

(٦) الدرانك: الطنافس. (٧) الرق: ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق.

(٨) أدرجت الكتاب: طويته.

وكان الكتابُ بداخل دُرْج[١] فضة منقوش، عليه غطاءُ ذهب، فيه صورة الملك من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جَعْبة ملبَّسة بالديباج.

ولما احتفل الناصرُ لدين الله هذا الاحتفال أحبَّ أن يقوم الخطباءُ والشعراء بين يديه ليذكروا جَلالةَ مُلْكِه، وعظيمَ سلطانه، ويَصِفوا ما تهيَّأ من توطيد الخلافة في دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكم ابنِهِ ووليِّ عهده بإعداد مَن يقومُ بذلك من الخطباء؛ فأمرَ الحكمُ الفقيهَ محمد بن عبد البر الكَيْساني بالتأهّب لذلك، وإعداد خطبةٍ بليغةٍ يقومُ بها بين يدي الخليفة، وكان يَدَّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وُسع غيره. وحضر المجلسَ السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهَرَه هولُ المقام وأبَّهة الخلافة، فلم يهتدِ إلى لفظة، بل غُشي عليه، وسقط إلى الأرض.

فقيل لأبي علي القالي[٢] ـ وهو حينئذٍ ضيفُ الخليفة الوافدُ عليه من العراق، وأميرُ الكلام، وبَحْرُ اللغة: قم فارْقَع هذا الوَهْي، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم انقطع القولُ بالقالي، فوقف ساكتًا مفكرًا في كلام يدخل به إلى ذِكر ما أُريد منه. فلما رأى ذلك مُنْذِر[٣] بن سعيد قام، فوصل افتتاح أبي عليّ لأول خطبته بكلام عجيب، ونادى من الإحسان في ذلك المقام كلّ مجيب، يَسُحُّه سحًّا، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي فقال[٤]:

أما بعدَ حمد الله والثناءِ عليه والتعدادِ لآلائه، والشكرِ لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإنّ لكلّ حادثةٍ مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قمتُ في مقام كريم بين يدي ملكٍ عظيم، فاصغُوا إليَّ معشرَ الملإِ بأسماعكم، وألقوا إليَّ بأفئدتكم، إن من الحق أن يُقال

---

(١) أصل الدرج: السفط الصغير تضع فيه المرأة متاعها وطيبها.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم صاحب الأمالي، رحل إلى المغرب، ودخل الأندلس في أيام عبد الرحمٰن الناصر واستوطن قرطبة، توفي سنة ٣٥٦ هـ.

(٣) كان إمامًا فقيهًا خطيبًا شاعرًا فصيحًا، ولي القضاء بقرطبة أيام عبد الرحمٰن، وتوفي بقرطبة سنة ٣٣٥ هـ.

(٤) الخطبة بتمامها في نفح الطيب: ١ ـ ١٧٢ طبع المطبعة الأزهرية. ومعجم الأدباء: ١ ـ ١٧٦.

للمُحِقِّ صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل - تعالى في سمائه وتقدّس بصفاته وأسمائه - أمرَ كَلِيمَه موسَى أن يُذَكِّرَ قومَه بأيام الله عزّ وجلّ عندهم، وفيه وفي رسولِ الله أسوةٌ حسَنةٌ، وإني أذكِّركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمَّتْ شعثكم، وأمَّنَتْ سِرْبكم، ورفعت قُوَّتَكُمْ، بعد أن كنتم قليلًا فكثَّركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلّين فنصركم. . .

واستمرّ كذلك بكلام عجيب بهرَ العقولَ جزالةً، وملأ الأسماع جلالةً؛ فخرج الناسُ يتحدثون عن حسن مقامه وثباتِ جَنانه، وبلاغةِ لسانه؛ وكان الناصرُ أشدَّهم تعجبًا منه؛ فأقبل على ابنه الحكم؛ فسأله عنه؛ فقال له: هذا منذر بن سعيد البلوطي! فقال: والله لقد أحسن ما شاء، ولئن أخَّرني الله بعدُ لأرفعنَّ مِن ذِكْرِه، فضَعْ يدك يا حكمُ عليه، واستخلصه وذكِّرني بشأنه؛ فما للصنيعة مذهبٌ عنه. ثم ولّاه الصلاةَ والخطابةَ في المسجد الجامع بالزَّهراء.

لَيلَة بمَالَقَة(١)

قال أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد التُّجيبيّ: كنتُ بمدينة مَالَقَة(٢) من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، فاعتَلت بها مدّة انقطعتُ فيها عن التصرُّف، ولزمتُ المنزل، وكان يمرّضُني(٣) حينئذٍ رفيقان كانا معي، يَلُمّان من شَعَثي، ويَرْفُقَان بي.

وكنتُ إذا جنّني الليل اشتدَّ سهري، وخَفَقَتْ حولي أوتارُ العيدان والطنابير والمعازف من كلّ ناحية، واختلطت الأصواتُ بالغناء؛ فكان ذلك شديدًا عليّ، وزائدًا في قَلَقي وتألّمي؛ فكانت نفسي تَعافُ تلك الضروبَ طبعًا، وتكره تلك الأصواتَ جِبِلّة، وأودّ لو أجدُ مَسْكَنًا لا أسمعُ فيه شيئًا من ذلك، ويتعذّر عليّ وجودُه لغلَبَةِ ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم.

وإني لساهرٌ ليلةً بعد إغفَاءَةٍ في أول ليلتي، وقد سكنتْ تلك الألفاظُ المكروهة، وهدأت تلك الضروبُ المضطربة، وإذا ضربٌ خفيّ معتدِل حسن لا

---

(١) شرح المختار من شعر بشار ١٤.
(٢) مدينة بالأندلس كانت ثغرًا حصينًا على بحر الروم، أسسها الفينيقيون، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين، وكان بها بنو حمود من ملوك الطوائف.
(٣) مرّضه: قام عليه في مرضه.

أسمعُ غيرَه، فكأن نفسي أنِست به، وسكنَتْ إليه، ولم تنْفِرْ منه نِفَارها من غيره، ولم أسمعْ معه صوتًا، وجعل الضرب يرتفعُ شيئًا فشيئًا، ونفسي تَتْبعه، وسَمْعِي يُصْغِي إليه، إلى أن بلغَ في الارتفاع إلى ما لا غاية وراءَه، فارتحتُ له، ونسيتُ الألم، وتداخلني سرورٌ وطَرَب، وخُيِّلَ إليَّ أن أرضَ المنزل ارتفعتْ بي، وأن حيطانه تَمُورُ[1] حولي، وأنا في كل ذلك لا أسمعُ صوتًا.

فقلتُ في نفسي: أمَّا هذا الضربُ فلا زيادةَ عليه؛ فليت شِعري كيف صوتُ الضارب! وأين يقع من ضرْبه؟ ولم ألبثْ أن اندفعتْ جاريةٌ تغنّي في هذا الشعر بصوتٍ أنْدَى من النّوّار، غِبّ القِطَار[2]، وأحلى من البارد العَذْب، على كبد الهائم الصَّبّ؛ فلم أملك نفسي أن قُمْتُ ورفيقايَ نائمان، ففتحتُ الباب؛ وتبعتُ الصَّوْت، وكان قريبًا مني؛ فاطلعت من وسط منزلي على دار فسيحة، وفي وسط الدار بستانٌ كبير، وفي وسط البستان شَرْب[3] نحو من عشرين رجلًا، قد اصطفّوا وبين أيديهم شراب وفاكهة، وجوارٍ قيامٌ بِعِيدان وطنابير وآلات لهْو، ومزامير لا يحرّكْنَها، وجاريةٌ جالسةٌ ناحية، وعودُها في حِجْرِها، وكلٌّ يرمقها ببصره، ويُوعِيها سمعَه، وهي تغنّي وتَضْرِبُ، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يرونني، وكلما غنّت بيتًا حفظتُه؛ إلى أن غنّت عدة أبيات وقطعتْ؛ فعُدتُ إلى موضعي، يشهدُ الله وكأنما أُنْشِطْتُ من عِقَال، وكأن لم يكن بي ألم، وقد وَعيتُ الأبيات وهي:

مـا بـالُ أنـجُـمِ هـذا الـليلِ حـائـرةً	أضلّتِ القَصْد، أم لَيْسَتْ على فَلَك؟
عـادتْ سَـوَاريهِ وقْـفًا لا حَـراكَ بـها	كـأنـمـا جُـثَّ صَـرْعَـى بـمُـعْـتَـرَكِ[4]
هل من بشيرٍ بنورِ الصبح، تُنقِذُني	بُـشْـرَاه مـن طُولِ وَجْدٍ غـيرِ متَّـرَكِ
فـقـد أجدّ الْتِـوَاءُ الـلـيـل لـي شـجَـنًـا	وأضجعتني تَبَارِيحي على الحَسَكِ[5]
خُـذْ يا شَـمُولُ كؤوسَ الراح مُتْرَعةً	فسقِّـنـيـهـا ولا تـسـألْ عـن الـدَّرَكِ[6]
وهـجْ بـألْحَـانـك الـطُّـنْـبُـورَ: إن لـه	على شُجُونِ المعنَّى سَطْوَةَ الملِك

(١) تمور: تتحرك وتذهب وتجيء.
(٢) القطار: جمع قطر، وهو المطر.
(٣) جمع شارب.
(٤) السورى: جمع سار.
(٥) تباريح الشوق: توهجه، والتباريح: الشدائد. الحسك: نبات ورقه كورق الرجلة وأدق، وعند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب.
(٦) شمول: أسم غلام صقلبي من صقالبة المنصور.

ثم انصرفتُ في صباح تلك الليلة، فلقيتُ صديقًا لي من أهل العلم قرطبيًّا سكَنَ مَالَقَةَ، فأخبرتُه الخبر، وأنشدتُهُ الشعْرَ، ووصفتُ له الدار، فاغرَوْرَقَتْ عيناه وقال: الدارُ للوزير فلان، والجاريةُ فلانة البغداديّة، إحدى المحْسِنات من جواري المنصور بن أبي عامر؛ وصارت إلى هذا الوزير بعد موت المنصور، وتَمَزُّقِ مُلكِهِ.

الشمعَة وَالسّرَاج[1]

وفد على عمرَ بنِ عبد العزيز بَرِيدٌ[2] من بعضِ الآفاق، فانتهى إلى بابِ عمر ليلًا؛ فقرع البابَ، فخرج إليه البوّاب، فقال: أَعْلِمْ أميرَ المؤمنين أنَّ بالباب رسولًا من فلان عامِله؛ فدخل فأَعْلم عُمَر ـ وقد كان أراد أن ينام ـ فقعد، وقال: ائْذَن له!

فدخل الرسولُ فدعَا عمرُ بشَمْعَة غليظةٍ فأجّجَتْ نارًا، وأُجْلِس الرسول، وجلس عمر، فسأله عن حال أهل البلد ومَنْ بها من المسلمين وأهلِ العهد، وكيف سيرةُ العاملِ؟ وكيف الأسعارُ؟ وكيف أبناءُ المهاجرين والأنصار، وأبناءُ السبيل والفقراء؟ وهل أعْطَى كلَّ ذي حقّ حقَّه؟ وهل له شاكٍ؟ وهل ظَلَم أحدًا؟

فأنْبَأه بجميع ما عَلِم من أمرِ تلك المملكة، يسأله فيُحْفِي[3] السؤال، حتى إذا فَرَغَ عمرُ من مَسْألته قال له: يا أميرَ المؤمنين، كيف حالكُ في نفسك وبَدَنك؟ وكيف عِيالك وجميع أهل بيتك ومن تُعْنى بشأنه؟ فنفخ عمر الشمعة فأطْفَأها بنَفْختِه، وقال: يا غلام، عليَّ بسراجٍ، فأتى بفَتِيلة لا تكاد تضيء، فقال: سَلْ عما أحببتَ، فسأله عن حاله، فأخبره عنْ حال ولده وأهل بيته.

فعجب البريدُ للشمعة وإطفائِه إياها، وقال: يا أمير المؤمنين، رأيتُك فعلتَ أمرًا ما رأيتُك فعلتَ مثله! قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إيَّاك عن حالك وشأنِك. فقال: يا عبد الله، إن الشمعةَ التي رأيتَني أطْفأْتُها من مال الله ومال المسلمين، وكنت أسألُك عن حوائجهم وأمرهم، فكانت تلك الشَّمْعةُ تَقِدُ بين يديَّ فيما يُصلحهم، وهي لهم. فلما صرتَ لشأني وأمْرِ عيالي ونفسي أطفأتُ نار المسلمين!

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٦١. (٢) رسول.

(٣) أحفى سؤاله: ردده.

حَديث عمر بنَ عبد العَزيزَ مع ابنه عَبد المَلك حين احتُضر[١]

كان عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز مِنْ أَحَبِّ الناسِ إلى أبيه، فمرض فاشتد مرضُه، فأُخبر أبوه بذلك، فأتاه فوقف عليه، وقال: يا بُني! كيف تجدك؟ قال: أجِدُني صالحًا ـ وكتمه ما به كراهةَ أن يَغُمّه ـ قال: يا بني، اصدُقْني عن نفسك، فإن أحبَّ الأمور إليَّ فيك لموضعُ القضاء. قال: أجِدُني يا أبتِ أموت! فولّى عمر إلى قِبْلَته، فبينما هو في صلاته إذ مات عبد الملك، فأتاه مُزاحم، فقال: يا أمير المؤمنين؛ تُوُفِّي عبدُ الملك، فخرَّ مغشيًّا عليه.

فلما دُفِن عبد الملك قال مزاحم ـ وكان قد عهد إليه إذا رأى منه أمرين مختلفين أن يخبرَه بذلك: يا أمير المؤمنين، رأيتُ منك عَجبًا، أتيتَ عبدَ الملك فسألتَه عن حاله فكَتَمَك ما به فقلتَ له: يا بني، اصدقني عن نفسك، فإن أحبَّ الأمور إليّ فيك لموضع القضاء؛ فأخبرك أنه يموت. فلمّا مات خررتَ مَغشيًّا عليك. قال: قد كان ذلك يا مُزاحم! فقد علمتُ أنَّ مَلَكَ الموت قد دخل إلى منزلي؛ فأخذَ بَضْعَةً مني، فراعني ذلك فأصابني ما قد رأيتَ!

المنصُور وَأهله[٢]

قال أحمد بن أسماعيل: كان أبي ومشايخُ أهلي يَجلسون مع أبي جعفر المنصور، وكان أحداثُنا يجلسون دُونَ ذلك، وكان يتفقّدُ من أُمورنا ما كان يتفقَّده من أُمور ولده، حتى يَسْتقريَ[٣] أحدَنا، ويسألَه ما بَلغ من القرآن، وكُنا نَصِلُ الغَدَاة[٤] والعَشِيّ[٥] فنجلسُ في مجلسه، حتى يخرجَ إلينا.

وإنّا صِرْنا في مجلسه ذاتَ يوم كعَادتنا، فجلسنا ننتظرُ خروجهُ، وأفاض أبي وعمومتي في اسْتِبطَائه واستِئثاره عليهم، فأطْنبُوا في ذلك، وكان الموكَّلُ بالباب ـ سليم الأسود ـ يرفع الستر إذا جاء، فحانت من سليم غَفلة، وجاء أبو جعفر وهو يتسمَّعُ عليهم، ففهم ما همْ فيه، ووثَب سليم ليرفعَ السِّتر، فأمسك بيده ومنعه من رَفْعه حتى استوعب سَمْعه جميعَ ما كانوا فيه.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٦١. (٢) غرر الخصائص: ١٦٧.
(٣) استقري: تتبع.
(٤) الغداة: ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس.
(٥) العشى من صلاة المغرب إلى العتمة.

فلما انقضى كلامهم أمر برَفْع الستر ودخل، فقاموا له كنَحْو ما كانوا يفعلون، فقال: ما هذا؟ إنما ينبغي أن تفعلوا هذا بحضْرَةِ العامة، لتَشدُّوا بذلك سُلْطانكم، فأما مجالسُ الخَلْوَة فنحنُ فيها إخوة.

ثم أمرهم بالجلوس، وأقْبَلَ عليهم، وقال: يا عمومتي، ويا إخوتي، قد سمعتُ ما كنتُم فيه، وقولَكم: استأثر علينا، ولَعمْرِي لقد كان ذلك، وما استئثاري عليك إلا لَكُم، وإشفاقًا من ذهاب سلطانكم، وزوال أموالكم، وإنما أبكي لكم رِقَّةٍ عليكم، فكأنّي بالرجل منكم ومن أبنائكم، أو من أبناء أبنائكم بين يَدَي الرجلِ من وَلَدِي أو وَلَد ولدي، ينتسبُ له فلا يعرفهُ، بل لعله يبلغ عليّ بن عبد الله بن العباس، فذهبوا ليتكلَّموا، فقال: أقسمت عليكم لما سكتّم، أفيضوا بنا في غير هذا الحديث.

قال أحمد: وضرب الدهرُ ضَرَبانَهُ[1]، وماتَ المنصور، وَوَلِي المهديّ ومات، وَوَلى الهادي ثم مات، ووَلِي الرشيد، وخرج إلى الرقّة، ونالَتْنا جَفْوَة، ولزِمني دَيْن فخرجتُ إليه، فكان أول ما لقيتُ موكبًا عظيمًا، فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: هذا وَليَّا العهد: الأمِين والمأمون.

فترجَّلْتُ وسلَّمْتُ عليهما، فقالا: مَن أنتَ؟ قلت: أحمد بن إسماعيل بن عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وبكيتُ، فانتهى الخبرُ من ساعتِه إلى الرشيد، فلم أصلْ إلى منزلي حتى لَقِيني رسولُه يدعوني.

فلمّا دخلتُ عليه، قال لي: ممَّ بكيتَ؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كان من القصَّة كَيْتَ وكيت، وسُقْتُ إليه خبرَ المنصور، فبكيتُ إذ كنتُ المبتلَى بذلك دون مَن حَضَره، فقال لي: هما ابْنَا أخيك، وهي عَوْرةٌ فاسْتُرها، ولن تُسْأَل عن نَسَبِك بعد اليوم، ما أقدمَك؟ قلت: دينٌ لزمني. قال: وكم هو؟ قلت: عشرون ألفَ دينار. فقال: يا غلامُ، احملها إليه الساعةَ، واجعل معها خمسة آلاف دينار لحِفْظِه الحديثَ عن المنصور. هل من حاجةٍ لك غير ذلك؟ قلت: أودِّع أميرَ المؤمنين، وانصرفت.

---

(١) ضرب الدهر ضربانه ومن ضربانه: مر، وذهب بعضه.

هَذا بُغَيه أمير المؤمِنين[١]

أَهدر أميرُ المؤمنين المنصورُ دَمَ رجلٍ، كان يَسْعى بفسادِ دَوْلته مع الخوارج، من أهل الكوفة. وجَعَل لمن دلَّ عليه، أو جاء به مائةَ ألف درهم. ثم إنّ الرجلَ ظهرَ في بغداد، فبينما هو يمشي مُتخفيًا في بعض نواحيها، إذ بَصُر به رجلٌ من أهل الكوفة، فعرفه؛ فأخذ بمجامع ثيابه، وقال: هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين.

فبينما الرجلُ على هذه الحال إذ سَمع وقْعَ حوافر الخيل، فالتفَت فإذا معْن بن زائدة[٢]، فاستغاث به؛ وقال: أَجِرْني أجارَك الله! فالتفَت مَعْنٌ إلى الرجل المتعلِّق به، وقال: ما شأنُكَ وهذا؟ فقال: إنه بُغْيَةُ أمير المؤمنين الذي أَهْدَرَ دَمه وجعل لمن دلّ عليه مائةَ ألف درهم. فقال: دَعْهُ. وقال لغلامه: انزل عن دابّتك، واحمل الرجلَ عليها.

فصاح الرجلُ المتعلِّقُ به وصرخ واستجار بالناس، وقال: أيُحَالُ بيني وبين بُغية أمير المؤمنين؟ فقال له مَعْن: اذهب فقل لأميرِ المؤمنين، وأخبره أنه عندي.

فانطلق الرجلُ إلى المنصور وأخبره، فأمر المنصور بإحضار مَعْن في الساعة؛ فلما وصل أمرُ المنصور إلى مَعْن دعا جميعَ أهل بيته ومواليَه وأولادَه وأقاربَه وحاشيته، وجميعَ مَن يلوذُ به؛ وقال لهم: أقسم عليكم ألّا يصلَ إلى هذا الرجل مكروه أبدًا؛ وفيكم عين تَطْرف.

ثم أنه سار إلى المنصور؛ فدخل وسلَّم عليه، فلم يردّ عليه المنصورُ السلام، ثم قال له: يا مَعْن؛ أتتجرّأُ عليَّ؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين! فقال المنصور: ونعم أيضًا! وقد اشتدّ غضبه. فقال مَعْن: يا أميرَ المؤمنين؛ كم من مرة تقدّم في دولتكم بلائي، وحُسْنُ غَنائي[٣]؟ وكم من مرة خاطرتُ بدمي؟ أفما رأيتموني أهلًا لأنْ يُوهَب لي رجلٌ واحد اسْتجارَ بي بين الناس، يوهمه أني عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين، وكذلك أنا! فمرّ بما شئت، وهأنَذا بين يديك!

---

(١) ذيل ثمرات الأوراق للحموى: ١٦٧، غرر الخصائص: ١٧.

(٢) كان معن بن زائدة جوادًا شجاعًا، جزيل العطاء، كثير المعروف ممدحًا مقصودًا، وكان في أيام بني أمية متنقلًا في الولايات ومتقطعًا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، فلما كانت أيام المنصور اتصل به بعد أحداث، وصار من خواصه، وتوفي سنة ١٥٨ هـ.

(٣) الغناء: النفع.

فأطرق المنصورُ ساعة، ثم رفع رأسه، وقد سكَنَ ما به من الغضبِ، وقال له: قد أجَرْناه لك يا مَعْن. فقال له مَعْن: إنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يجمعَ بين الأجْرَين فأمر له بصلة أَحْيَاه وأغْناه.

فقال المنصورُ: قد أمَرْنا له بخمسين ألف درهم. فقال معن: يا أميرَ المؤمنين؛ إن صلاتِ الخلفاء على قَدْرِ جِنَايات الرعية، وإن ذنبَ الرجل عظيم، فأجْزِلْ له صِلَته. قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم. فقال له معن: عَجِّلْها يا أميرَ المؤمنين، فإنّ خيرَ البرِّ عاجلُه، فأمر بتعجيلها؛ فحملها وانصرف؛ وأتى منزله؛ وقال للرجل: يا رجلُ؛ خُذْ صلَتكَ والحقْ بأهلك؛ وإياك ومخالفَة الخلفاء في أمورهم بعد هذه.

مَعن بن زائدَة والأسود(١)

قال معنُ بن زائدة: لما هربتُ(٢) من المنصور خرجتُ من باب حرب، بعد أن أقمتُ في الشمس أيامًا، وخفّفْتُ لحيتي وعارضيّ، ولبِسْتُ جُبَّةَ صوفٍ غليظة، وركبتُ جَملًا، وخرجتُ عليه لأمضِيَ إلى البادية، فتَبِعني أسود متقلّدٌ سيفًا، حتى إذا غِبْتُ عن الحرس، قبض على خطَام(٣) الجمل فأناخَه، وقَبَضَ عليّ، فقلت: ما شأنُك؟ فقال: أنتَ بُغيةُ أمير المؤمنين! فقلتُ له: ومَنْ أنا حتى يطلبَني أميرُ المؤمنين؟ فقال: معنُ بن زائدة. فقلت: يا هذا، اتقِ الله! وأين أنا من مَعْن؟ فقال: دَعْ هذا عنكَ، فأنا والله أعرفُ بك. فقلت له: فإن كانت القصَّةُ كما تقول، فهذا جوهرٌ حملتُه معي بأضعافِ ما بذلَه المنصور لمن جاءه بي، فخذه ولا تَسْفِك دمي.

فقال: هاتِه، فأخرجْتُه إليه، فنظر إليه ساعةً؛ وقال: صدقتَ في قيمتِه، ولستُ قابلَه حتى أسألك عن شيء، فإن صدقْتني أطْلَقْتُكَ؛ فقلت: قلْ، فقال: إن الناس وصَفُوك بالجود، فأخبرني: هل وهبتَ قطّ مالَك كلّه؟ قلتُ: لا، قال: فنصفَه؟ قلت: لا، قال: فثلثَه؟ قلت: لا؛ حتى بلغ العشْر، فاستحيَيْتُ، وقلتُ:

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ١١، عصر المأمون ٢ ـ ١٩٧.

(٢) كان سبب غضب المنصور أن معنا كان منقطعًا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة في عهد بني أمية، فلما كان عهد المنصور وجرى القتال بين المنصور ويزيد انضم معن إلى يزيد وأبلى بلاءً حسنًا حتى قتل يزيد، فهرب معن وطلبه المنصور ثم عفا عنه بعد ذلك.

(٣) خطام الجمل: كل حبل يعلق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه.

أظنّ أني قد فعلتُ هذا! فقال: ما ذاك بعظيم! أنا والله رَاجل[١] ورزقِي من أبي جعفر عشرون درهمًا، وهذا الجوهرُ قيمته ألفُ دينار، وقد وهبته لك، ووهبتُك لنفسك، ولجودِك المأثور بين الناس! ولتعلمَ أنَّ في الدنيا مَن هو أجودُ منك، فلا تعجبك نفسك، ولتُحقِّر بعد هذا كلَّ شيء تفعلُه، ولا تتوقف عن مكْرُمة، ثم رمى بالعدل إليّ، وخلى خطامَ الجمل وانصرف.

فقلت: يا هذا! قد فَضَحْتَني، ولسَفكُ دَمي أهونُ عليّ مما فعلتَ، فخُذْ ما دَفعتُه إليك، فإني عنه في غنى؛ فضحك، ثم قال: أردتَ أن تكذبني في مقامي هذا! فوالله لا آخذُه، ولا آخذ لمعروف ثمنًا أبدًا، ومضى.

فوالله لقد طلبته بعدأن أمِنتُ، وبذلتُ لمن يجيء به ما شاء، فما عرفتُ له خبرًا، وكأن الأرض ابتلعته.

أموي عِندَ الَرشيد[٢]

رُفع إلى هارون الرشيد أن رجلًا بدمشق من بقايا بني أمية عظيمُ المال، كبير الجاه، مطاع في البلد، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل، يوحملون السلاح، ويغزون الروم، وأنه سمحٌ جواد، وأنه لا يُؤمَن منه، فعظُم ذلك على الرشيد.

فقال لخادمه منارة: اخرج الساعة وابْدَأ بالرجل فقيِّده وجئني به، واجعله في مَحمل تقعد أنت في شِقّه وهو في الآخر، وتَفَقَّدْ دارَه، واحفظ ما يقوله الرجل حرفًا بحرف.

قال منارة: فأتيتُ بيتَ الرجل، ودخلتُ بغير إذنه، فلما رأى القومُ ذلك سألوا بعضَ مَنْ معي عني، فلما صرتُ في صَحْنِ الدار نزلتُ، ودخلتُ مجلسًا رأيت فيه قومًا جلوسًا، فظننتُ أن الرجلَ فيهم، فقاموا ورحّبوا بي، فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: نحن أولاده وهو في الحمّام، فقلت: استعجلوه، فمضى بعضُهم يستعجله، وأنا أتَفَقّد الدارَ والأحوالَ والحاشية؛ فوجدتُها ماجَتْ موجًا كبيرًا. فلم أزل كذلك حتى خرج الرجلُ بعد أن طال مكثُه، واستربتُ به، واشتدّ خوفي وقلقي من أن يتوارى، إلى أن رأيتُ شخصًا بزيّ الحمام يمشي في صَحْن

---

(١) الراجل: سد الفارس.

(٢) ذيل ثمرات الأوراق: ١٨١.

الدار، وحواليه جماعة كُهول وأحداثٌ وصبيان، وهم أولاده وغلمانه، فعلمتُ أنَّه الرجل.

فجاء وسلّم وسألني عن أمير المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة، فقال: تقدَّم يا منارة وكل معنا. فقلت: ما لي إلى ذلك من سبيل، فلم يعاودني وأكل هو ومَنْ معه، ثم جاءوا بمائدة حسنة، فقال: يا منارة؛ ساعِدْنا على الأكل، فامتنعتُ عنه، فما عاودني.

فلما فرغ من أكله قام إلى الصلاة فصلّى وأكثرَ من الدعاء والابتهال، ثم قال لي: ما أقدَمَك يا منارة؟ فأخْرجتُ كتابَ أمير المؤمنين فدفعتُه إليه ففضّه وقرأه، ثم أمر أولاده بالانصراف، وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين، ولست أُقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة، هاتِ قيودَك يا منارة، فدعوتُ بها وقيَّدْتُه وحملته.

وسرتُ بالرجل، وليس معه أحدٌ، حتى صِرْنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدّثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغُوطة، فقال لي: أترى هذا؟ قلتُ: نعم، قال: إنه لي، وفيه من غرائب الأشجار كيتَ وكيتَ، ثم انتهى إلى آخر، فقال: مثلَ ذلك، ثم انتهى إلى مزارعَ حسان وقُرى، فقال: مثل ذلك.

فاشتدَّ غيظي منه وقلتُ: ألستَ تعلم أن أمير المؤمنين أهمّه أمرُك حتى أرسلَ إليك مَن انتَزَعَك من بين أهلك ومالِك وولدِك، وأخرجَك فريدًا مقيَّدًا لا تدري إلى ما يصيرُ إليه أمرُك؛ ولا كيف يكون! وأنتَ فارغُ القلب من هذا حتى تصفَ ضياعَك وبساتينك بعد أن جئتُك؟

فقال لي مجيبًا: إنّا لله وإنا إليه راجعون! أخطأتْ فِراستي فيك. لقد ظننتُ أنَّكَ رجُلٌ كامل العقل، وأنك ما حللتَ من الخلفاء هذا المحلَّ إلا لما عرفوك بذلك، فإذا بكلامك يشبه كلام العوام، والله المستعان!

أمَّا قولُك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه، فإني على ثقةٍ من الله عزّ وجلّ الذي بيده ناصيةُ أمير المؤمنين، ولا يملكُ أميرُ المؤمنين لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا بإذن الله عزّ وجلّ؛ ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافُه. وبعد، إذا عرف أَميرُ المؤمنين أمري، وعرف سلامتي، وصلاح ناحيتي سرَّحني مكرَّمًا؛ فإن الحُسَّادَ والأعداء رَمَوْني عنده بما ليس فيَّ، وتقوَّلوا عليَّ الأقاويلَ،

فلا يستحل دمي؛ وسيردّني مكرَّمًا، ويقيمني ببلاده معظَّمًا مبجَّلًا؛ وإن كان قد سبقَ في علم الله عزّ وجلّ أنه يبدرُ إليَّ منه بادرةُ سوءٍ، وقد حضر أجلي، وكان سَفْكُ دمي على يده، فإني أحسنُ الظَّنَّ بالله الذي خَلَق ورزق، وأحيا وأَمَاتَ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى مَن يَمْلِكُ الدنيا والآخرة! وقد كنتُ أحسب أنك تعرفُ هذا فإذْ عرفتُ مبلغَ فَهْمِكَ فإني لا أكلمُك بكلمة واحدة حتى يفرِّق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى!

قال مَنَارة: ثم أَعرض عني فما سمعتُ منه لفظةً غير التسبيح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارَفْنا الكوفة.

ودخلتُ على الرشيد وقبّلتُ الأرض بين يديه، ووقفتُ، فقال: هات ما عندك يا منارة، فسُقْتُ الحديث من أوله إلى آخره، فلما جئتُ على آخره قال: صَدَق والله! ما هذا الرجل إلا محسودُ النعمة مكذُوبٌ عليه، ولعمري لقد أزْعَجْناه وآذيناه وروَّعنا أهلَه، فبادِرْ بنَزْعَ قيوده وائتني به؛ ففعلت وأدخلته على الرشيد.

فما هو إلا إن رآه حتى رأَيتُ ماءَ الحياءِ يَجُول في وَجْه الرشيد، فدنا الأموي وسلم بالخلافة ووقف؛ فردَّ عليه الرشيد ردًا جميلًا، وأمره بالجلوس فجلس، فأقبل عليه الرشيدُ وسأله عن حاله، ثم قال له: بلغنا عنك فضلُ هيئة وأمورٌ أَحبَبنا معها أن نراك، ونسمعَ كلامك ونُحْسِنَ إليك؛ فاذكر حاجتك؛ فأجاب الأموي جوابًا جميلًا، وشكر ودعا. ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ أن تردّني إلى بلدي وأهلي ووَلدي، قال: نفعل ذلك، ولكن سلْ ما تحتاج إليه في مصالح جَاهِك ومعاشك، فإنّ مثلك لا يخلو أن يَحْتَاج شيئًا من هذا، فقال: يا أمير المؤمنين؛ عمّالُك مُنْصفون، وقد استغنيتُ بعَدْلهم عن مسألتي، فأُموري مستقيمة، وكذلك أهلُ بلدي بالعَدْل الشامل في ظلّ أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: انصرف محفوظًا إلى بلدك، واكتبْ إلينا بأَمرٍ إن عرض لك؛ فودَّعه الأمويّ وانْصَرَف.

قال منارة: فلمّا ولّى خارجًا قال الرشيدُ: يا منارة؛ احمله من وقتك وسرْ به راجعًا كما جئتَ به، حتى إذا وصلتَ إلى مجلسه الذي أخذتَه منه فدَعْه وانصرِف!

المَأمُون يَعفُو عَن الحسَين بن الضحَاك[١]

قال محمد بن أبي الأزهر:

كنتُ بين يدي المأمون واقفًا، فأَدْخَلَ عليه ابنُ البوّاب الحاجبُ رقعةً فيها أبيات، وقال: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذَنَ لي في إنْشادِها! فَظَنَّها له فقال: هاتِ، فأنشده:

أجِزْني فإني قد ظَمِئتُ إلى الوَعْدِ متى تُنْجِز الوَعْدَ المؤكَّدَ بالعَهْدِ
أُعِيذُك من خُلْفِ الملوك وقد بَدَا تَقَطُّعُ أنْفَاسي عليك من الوَجْدِ
أَيبْخلُ فَرْدُ الحُسنِ عني بنائلٍ قليلٍ، وقد أَفْرَدْتُه بهوى فردِ

إلى أن بلغ إلى قوله:

رَأى اللهُ عبدَ اللهِ خيرَ عبادِه فملّكه، واللهُ أعلم بالعبدِ
أَلَا إنما المأمونُ للناس عِصْمَةٌ مميِّزَةٌ بين الضَّلالةِ والرُّشْدِ

فقال المأمون: أحسنتَ يا عبد الله. فقال: يا أمير المؤمنين؛ بل أَحْسَنَ قائلُها! قال: ومَنْ هو! قال: عبدك الحسين بن الضحاك[٢]! فَغَضِب، ثم قال: لا حيَّا الله من ذكرتَ ولا بَيَّاه ولا قرَّ به، ولا أَنْعَمَ به عينا! أليس هو القائل:

أَعينيَّ جُودَا وابْكيا لي محمدًا ولا تَذْخَرا دَمعًا عليه وأَسْعِدا
فلَا تمَّتِ الأشياء بعد محمد ولا زال شملُ الملكِ فيه مُبَدَّدا
ولا فرح المأمونُ بالمُلْكِ بعدَه ولا زال في الدنيا طريدًا مُشرَّدا

هذا بذاك، ولا شيءَ له عندنا! فقال له ابنُ البوَّاب: فأين فضلُ أمير المؤمنين وسَعَةُ حلمه، وعادتُه في العفو!

فأمره بإحضاره، فلما حضر سلّم فردَّ عليه ردًا جافيًا؛ ثم أقبل عليه، فقال: أخبرني عنك؛ هل عرفتَ يومَ قُتِل أخي محمد ـ رحمه الله ـ هاشميّةً قُتِلَتْ أو

---

(١) الأغاني: ٧ ـ ١٦٥، الفرج بعد الشدة: ١ ـ ٦٢.

(٢) هو مولى باهلة، ولد بالبصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بني العباس وكان خليعًا فاسدًا، ولكنه كان حسن التصرف في النظم، ولشعره قبول ورونق. مات سنة ٢٥٠ هـ.

هُتِكت! قال: لا، قال: فما معنى قولك:

وسِرْبُ ظِباءٍ من ذُؤابةِ هاشمٍ هَتَفْنَ بدعوى خير حيّ وميِّتِ
أَرُدُّ يدًا منِّي إذا ما ذكرتُه على كبدٍ حَرَّى وقلب مُفَتَّتِ
فلَا باتَ ليلُ الشَّامِتين بِغبْطَةٍ ولا بَلَغَتْ آمالُهُمْ ما تَمَنَّتِ

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعَةٌ غَلبتني، وروعةٌ فاجأتني، ونعمةٌ فقدتُها بعد أن غَمَرَتْني، وإحسانٌ شكرتُه فأنطقني، وسيّدٌ فقدتُه فأقلقني، فإن عاقبتَ فبحقِّك، وإن عفوتَ فبفضلك.

فدمعت عينا المأمون وقال: قد عفوتُ عنك، وأمرتُ بردّ أرزاقك، وإعطائك ما فات منها، وجعلتُ عقوبةَ ذنبك امتناعي من استخدامك!

شبَّ عَمرُو عَن الطَّوْق(١)

كان جَذِيمة(٢) الأبرشِ ملكُ الحيرة قد جمع غِلْمانًا من أبناء الملوك يخدُمُونه؛ منهم عديٌّ بن نَصر بن ربيعة اللَّخمِيّ، وكان له حظٌّ من الجمال؛ فقالت له رَقَاشِ أخت جَذيمة: إذا سَقَيْتَ الملك فسكر فاخْطُبني إليه؛ فسقى عديٌّ جَذيمةَ ليلة، وألطفَ له في الخدمة، ولما أسرعت الخمرُ فيه، قال له: سَلْنِي ما أحْبَبْتَ، فقال: أسألُك أن تزوجني رَقَاشِ أختَك. قال: ما بها عنك رغبةٌ، قد فعلت!

فدخل بها، وأصبح في ثياب جُدُدٍ وطيب. فلما رآه جَذِيمةُ قال: يا عديّ؛ ما هذا الذي أرى؟ قال: زَوَّجْتَني أختك رقاشِ البارحةَ، قال: ما فعلت! ثم وضع يده في التراب، وجعل يضرب بها وجهه ورأسه، وأقبل على رَقاش فقال:

حدثيني وأنت غيرُ كذوب أبحُرٌّ زَنَيْتِ أم بهَجين
أم بِعَبْدٍ وأنت أهلٌ لعبدٍ أم بدُونٍ وأنت أهلٌ لدون

(١) الأمثال: ٢ ـ ٧٥، القاموس المحيط ـ مادة طوق، بلوغ الأرب: ٢ ـ ١٧٧، المسعودي: ١ ـ ٧٥.

(٢) جذيمة الأبرش ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق، عاش في الجاهلية عمرًا طويلًا، وكان يقال له الوضاح والأبرش لبرص فيه، وهو الذي جاء إلى الزباء فقتلته بثأر أبيها.

فأجابَته رقاش:

أنتَ زَوّجتَني وما كنتُ أدري وأتاني النساء للتزيين
ذاك من شُرْبِك المُدَامة[1] صِرْفًا وتماديك في الصِّبا والمجُون[2]

فأطرق جَذيمة، فلما رآه عديٌّ قد فعل ذلك خافه على نفسه فهرب منه، ولحِقَ بقومه وبلاده، فمات هناك.

ثم ولدت رَقاش غلامًا، فسماه جَذيمة عمرًا وتبنّاه، وأحبّه حبًا شديدًا ـ وكان جذيمة لا يولَد له.

فلما بلغ الغلامُ ثمانين سنين كان يخرج في عدةٍ من خدم الملك يجتنون له الكَمْأَة، فكانوا إذا وجدوا كمأَةً خيارًا أكلوها وراحوا بالباقي إلى الملك. وكان عمرو لا يأكلُ مما يَجْني، ويأتي به جذيمة فيضعه بين يديه، ويقول:

هذا جَنَاي وخيارُه فيه إذْ كلُّ جانٍ يدُهُ إلى فيه

ثم إنه خرج يومًا وعليه ثيابٌ وحَلْيٌ، فاسْتُطير وفُقِد زمانًا، وَضُرِبَ في الآفاق فلم يوجد، وأتى على ذلك ما شاء الله.

ثم وجد مَالك وعَقيلٌ ابنا فارجٍ، وهما رجلان كانا متوجهين إلى الملك بهدايا وتُحَف، فبينما هما بوادٍ في السَّماوَة انتهى إليهما عمرُو بنُ عَديّ، وقد عَفَتْ[3] أظفارُهُ وشَعره، فقالا له: مَن أنت؟ قال: ابنُ التَّنُوخيَّة؛ فَلَهَيَا عنه، وقالا لجارية معهما: أطعمينا فأطعمتهما؛ فأشار عمرو إلى الجارية أن أطعميني فأطعمته، ثم سقتهما، فقال عمرو: اسقيني. فقالت الجارية: لا تُطعم[4] العبْدَ الكُرَاعَ فيَطمع في الذراع[5].

ثم إنهما حملاه إلى جَذيمة فعرفه، ونظر إلى فتى ما شاءَ من فتى! فضمَّه وقبَّله وقال لهما: حكّمتُكما. فسألاه منادمته، فلم يزالا نَدِيمَيْه حتى فرَّق الموت

---

(١) المدامة: الخمر. وصرف: غير ممزوج. (٢) المجون: الهزل.
(٣) عفا الشعر وغيره: كثر. (٤) ذهبت مثلاً.
(٥) الكراع في البقر والغنم كالوظيف في الفرس والبعير وهو مستدق الساق. والذراع أفضل من الكراع لأنه في اليد، والكراع في الرجل.

بينهم؛ وبعث عمرًا إلى أمه، فأدخلته الحمّاح، وألبسَتهُ ثيابه، وطوّقته طوْقًا كان له من ذهب، فلما رآه جذيمة قال: كَبرَ عمرو عن الطوق[1]!

تأديبُ عُمَر بن الخطّاب لِعمّالهِ[2]

كان عمرُ بن الخطاب جالسًا في المسجد فمرَّ به رجل فقال: ويلٌ لك يا عمر من النار! فقال: قرّبوه إليّ. فدنا منه، فقال: لِمَ قلتَ ما قلت؟ قال: تستعملُ عُمَّالَك وتشترط عليهم، ثم لا تنظر: هل وَفَوْا لك بِشَرْطٍ أم لا؟ قال: وما ذاك؛ قال: عاملك على مصر اشترطتَ عليه فتركَ ما أمرته به، وارتكب ما نهيته عنه؛ ثم شرح له كثيرًا من أمره.

فأرسل عمر رجلين من الأنصار، فقال لهما: انتهيا إليه فاسْألا عنه، فإن كان كذَب عليه فأَعْلماني، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تُمَلِّكاه من أمره شيئًا، حتى تَأْتيا به.

فذهبا فسألا عنه، فوجداه قد صدق؛ فجاءا إلى بابه، فاستأذنا عليه، فقال صاحبه: إنه ليس عليه اليوم إذْنٌ. قالا: ليَخرجَنَّ إلينا أو لنحرِقنَّ عليه بابه، وجاء أحدُهما بشُعْلَةٍ من نار.

فدخل الآذِنُ فأخبره؛ فخرج إليهما، فقالا: إنا رسولا عمر إليك لتأتيه، قال: إن لي حاجة، تمهلانني إلى أن أتزوّد. قالا: إنه عَزَم علينا ألا نُمْهلك.

فاحتملاه وأتيا به عُمَرَ، فلما أتاه سلّم عليه فلم يعرفه، وقال له: مَن أنت؟ وكان رجلًا أسمر، فلما أصاب من رِيف[3] مصر ابيضَّ وسمن - فقال: أنا عاملك على مصر، أنا فلان. قال: وَيْحَك! ركبتَ ما نهيت عنه، وتركتَ ما أُمِرتَ به، واللهِ لأعاقبنك عقوبةً أُبْلِغ إليك فيها.

آتوني بكساء من صوف وعصا وثلاثمائةِ شاة من غَنَم الصدقة؛ ثم قال له: الْبس هذه الدُّرّاعة[4]؛ فقد رأيتُ أباك، وهذه خير من دُرّاعته، وخُذْ هذه العصا فهي خير من عصا أبيك، واذهب بهذه الشِّيَاه فارْعَها في مكان كذا - وذلك في يوم

(١) ذهبت مثلًا، يضرب للابس ما هو دونه.
(٢) ابن أبي الحديد: ٣ - ٩٨.
(٣) الريف هنا: أرض فيها زرع وخصب.
(٤) الدراعة: جبة مشقوقة من المقدم.

صائف[١] ـ ولا تمنع السَّابِلَة[٢] من ألبانها شيئًا إلا آل عمر، فإني لا أعلم أحدًا من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئًا.

فلما ذهب ردَّه، وقال: أفهمتَ ما قلتُ؟ فضرب بنفسه الأرض، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ لا أستطيعُ هذا، فإن شئت فاضربْ عنقي. قال: فإن ردَدْتُك فأي رجل تكون؟ قال: والله لا يبلغك بعدما إلا ما تحبّ. فردّه فكان نعمَ الرجل!

تَنصَّرَتِ الأَشرَاف مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ[٣]

رُوِيَ أن جَبْلَة[٤] بن الأيهم بن أبي شَمِر الغَسَّاني لما أراد أن يُسلم، كتب إلى عمر بنِ الخطاب من الشام يُعْلِمه بذلك ويستأذنه في القدوم عليه، فَسُرّ بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه: أن أقدم ولك ما لنا وعليك ما علينا.

فخرج جَبَلة في خمسمائة فارسٍ من عَكّ وجَفْنة؛ فلما دنا من المدينة ألبَسهم ثياب الوَشْي المنسوج بالذهب والفِضّة، ولبس يومئذٍ جبلةُ تاجَه وفيه قرطُ مارية ـ وهي جَدَّته ـ ودخل المدينة فلم يبق بها أحدٌ إلا خرج يَنظُر إليه حتى النساء والصِّبْيَان؛ فلما انتهى إلى عمر رحَّب به وأدنى مجلسه! ثم أراد الحج، فخرج معه جَبَلة.

فبينا هو يطوف بالبيت إذ وَطِيء على إزارِه رجلٌ من بني فَزارة فحلّه، فالتفت إليه جَبَلة مُغضبًا، فلطَمَه فهشَمَ أنفه، فاستعدى عليه الفَزَاري عمرَ بنَ الخطاب؛ فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جَبَلة إلى أن لَطَمْت أخاك هذا الفَزاري فهشمَت أنفَه! فقال: إنه وَطِيء إزاري فحلّه؛ ولولا حُرْمةُ البيت لضربتُ الذي فيه عيناه[٥]. فقال له عمر: أمّا أنتَ فقد أقررت؛ فإما أن ترضيه، وإلا أَقَدْتُه منك. قال: أتُقِيده مني وأنا ملك وهو سُوقَة!!

---

(١) يوم صائف: شديد الحر.

(٢) السابلة: أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم.

(٣) الخزانة: ٤ ـ ٢٩٨، الأغاني: ١٤ ـ ٤، العقد: ٢ ـ ٥٦، طبعة لجنة التأليف.

(٤) جبلة بن الأبهم آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، عاش زمنًا في العصر الجاهلي، ولما ظهر الإسلام أسلم في أيام عمر، ثم ارتدّ وعاد إلى الشام ومنها إلى القسطنطينية حيث أقام عند هرقل إلى أن توفي سنة ٢٠ هـ.

(٥) يريد رأسه.

قال عمر: يا جَبَلَة! إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فما تَفْضُله بشيء إلا بالتقوى والعافية، قال جبلة: والله لقد رجوتُ أن أكونَ في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية. قال عمر: دَعْ عنك هذا، فإنك إن لم تُرْضِ الرجل أَقَدْتُه منك، قال جبلة: إذن أتنصّر. قال: إن تنصرتَ ضربتُ عنقك. واجتمع قومُ جبلة وبنو فَزَرة فكادت تكون فِتنة. فقال جبلة: أَخِّرني إلى غدٍ يا أمير المؤمنين. قال: ذلِكَ لك.

ولما كان جُنْح الليل خرج جبلةُ وأصحابه من مكة، وسار حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصر، وأقام عنده؛ وأعْظَمَ هرقلُ قدومَ جبلة، وسُرَّ بذلك، وأقطعه الأموال والأرَضين والرِّباع[1]، وجعله من محدِّثيه وسُمّاره.

فلما بعث عمر بن الخطاب رسولًا[2] إلى هِرَقْل يدعوه إلى الإسلام، وأجابه إلى المصالحة على غيرِ الإسلام، أراد أن يكتبَ جوابَ عمر، وقال للرسول: ألقيتَ ابنَ عمك هذا الذي ببلدنا ـ يعني جبلة ـ الذي أتانا راغبًا في ديننا؟ قال: ما لقيتُه، قال: الْقَه، ثم ائتني أعطك جواب كتابك.

وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القَهَارمة والحجَّاب والبَهْجَة وكثرة الجمع مثلُ ما على باب هِرَقْل. قال الرسول: فلم أزل أتلطّف في الإذن حتى أُذِن لي، فدخلت عليه، فرأيت رجلًا أَصْهَب[3] اللحية ذا سِبَال[4]، وكان عهدي به أسمر أسودَ اللحية والرأس، فنظرت إليه فأنكرتُه، فإذا هو قد أتى بسُحالَةِ[5] الذهب، فذرَّها في لحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعد على سرير من قوارير[6]، قوائمه أربعة أُسُود من ذهب.

فلما عرفني رفعني معه في السرير، ورحّب بي، ولامني على تَرْكي النزولَ عنده، ثم جعل يسائلني عن المسلمين، فذكرتُ خيرًا وقلت: قد أُضعفوا[7] أَضعافًا على ما تعرف؛ فقال: كيف تَركتَ عمَر بن الخطاب؟ قلت: بخير، فرأيت الغمَّ قد

(١) الرباع جمع ربع: الدار.
(٢) هو جثامة بن مساحق الكناني.
(٣) الصهبة: حمرة يعلوها سواد.
(٤) السبال: جمع سبلة وهي ما على الشارب من الشعر.
(٥) السحالة: ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا بردا.
(٦) القوارير: شجر تعمل منه الرحال والموائد والقوارير من الزجاج أيضًا.
(٧) أضعف الشيء: زيد على أصله فيجعل مثلين أو أكثر.

تبيّن فيه، لما ذكرتُ له من سَلَامة عمر. ثم انحدرتُ عن السرير، فقال: لِمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؟ قلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا. قال: نعم، ﷺ، ولكن نقِّ قلبَك من الدَّنس ولا تبالِ علام قعدْتَ. فلما سمعتُه يقول: ﷺ طَمِعتُ فيه، فقلت له: ويحك! يا جبلة، ألا تُسلم وقد عرفتَ الإسلام وفَضْلَه. قال: أبْعَدَ ما كان مني؟ قلت: نعم: قد فعل رجُلٌ من فَزارة أكثرَ مما فعلت: ارتدَّ عن الإسلام، وضرب وجوهَ المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام، وقُبِل ذلك منه، وخلَّفته بالمدينة مسلمًا. قال: ذَرْني مِنْ هذا، إن كنتَ تضمن لي أن يزوّجني عمر ابنتَه، ويولِّيني الإمرة بعده رجعتُ إلى الإسلام. قال: ضمنت لك التزويج، ولم أضمن لك الإمرة. قال: لا.

فأومَأ إلى خادم بين يديه، فذهب مسرعًا، فإذا خَدَم قد جاؤوا يحملون الصناديق فيها الطعامُ، فوضِعت ونُصبت موائدُ الذهب وصِحَاف الفضة، وقال لي: كُلْ فقبضت يدي، وقلت: إنّ رسول الله ﷺ نهى عن الأكل في آنية الذهب والفخار، فقال: نعم، ﷺ، ولكن نَقِّ قلبك وكُلْ فيما أحببت. وأكل في الذهب والفضة، وأكلت في الخليج[1].

فلما رُفع الطعام جيء بطِسَاس[2] الفضة وأباريق الذهب، وأومأ إلى خادم بين يديه، فمرّ مسرعًا، فسمعت حِسًّا، فالتفتُّ، فإذا خدَمٌ معهن الكراسي مرصَّعة بالجوهر، فوُضِعَت عشرة عن يمين، وعشرةٌ عن يَساره، ثم سمعت حِسًّا، فإذا عشر جوار قد أقْبلن مَطْمُوماتٍ[3] الشعر متكسراتٍ في الحَلْي، عليهن ثياب الدِّيباج، فلم أرَ وجوهًا قطّ أحسنَ منهن، فأقعدهن على الكراسي عن يمينه، ثم سمعت حسًّا فإذا عشر جوارٍ أخرى فأجلسهن على الكراسي عن يساره، ثم سمعت حسًّا، فإذا جاريةٌ كأنها الشمس حسنًا وعلى رأسها تاجٌ، وعلى ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه، وفي يدها اليمنى جَامَةٌ[4] فيها مسك وعَنْبر، وفي يدها اليسرى جَامَة فيها ماء ورد، فأومأتْ إلى الطائر، فوقع في جَامَةِ ماء الورد فاضطرب فيه، ثم أومأت إليه فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة، فلم يزل يُرَفرف حتى

---

(١) الخليج: الجفنة.

(٢) الطساس: جمع الطس، وهو الطست.

(٣) طمت شعرها: عقصته وهو مطموم، والعقص: أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها، ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها.

(٤) إناء من فضة.

نفض ما في ريشة عليه؛ وضحك جبلةُ من شدة السرور، حتى بدتْ أنيابه، ثم التفت إلى الجواري التي عن يمينه، فقال: بالله أَطْرِبْنني. فاندفعن يتغَنّين يخفقن بعيدانهن ويَقُلْن(١):

لله درُّ عِصَابَةٍ نادَمْتُهم ... يومًا بجلَّقَ(٢) في الزمانِ الأوَّلِ
يَسْقُون مَنْ وَرَدَ البريص عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفَّق بالرحيق السَّلْسَلِ(٣)
أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهمُ ... قبرِ ابن مارية الكريم المُفْضِلِ
يُغْشَوْن حتى ما تهرُّ كلابهم(٤) ... لا يَسألون عن السواد المقبل
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهمُ ... شمُّ الأنوف مِنَ الطِّراز الأوّل

فضحك حتى بدت نَوَاجِذُه، ثم قال: أتدري مَنْ قائل هذا؟ قلت: لا، قال: قائلُه حسانُ بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، ثم التفت إلى الجواري اللاتي عن يساره، فقال: بالله أبكيننا. فانْدَفَعْنَ يتغنين، وهنّ يخفقن بعيدانهن.

فبكى حتى جعلت الدموعُ تسيل على خدَّيه، ثم قال: أتدري مَن قائل هذا الذي تغنّين به؟ قلت: لا أدري، قال: حسان بن ثابت، ثم أنشأ يقول:

تنصرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمَةٍ ... وما كان: فيها ـ لو صبرتُ لها ضَرَرْ
تكنَّفَنِي منها لَجاجٌ ونَخْوَةٌ ... وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فيا ليت أُمّي لم تلدني وليتني ... رجَعتُ إلى الأمر الذي قال لي عُمَرْ
ويا ليتني أَرْعَى المَخَاض(٥) بِقَفْرَةٍ ... وكنتُ أسيرًا في ربيعة أو مُضَرْ
ويا ليتَ لي بالشام أدنَى معيشةٍ ... أجالسُ قَوْمي ذاهبَ السمع والبَصَرْ

ثم سألني عن حسان: أحيٌّ هو؟ قلت: نعم، تركتُه حيًّا. فأمر لي بكُسوة ومال، ونُوق مُوقرة بُرا، ثم قال لي: إن وجدتَه حيًّا فادفع إليه الهديَّة، وأَقْرِئْه سلامي، وإنْ وجدته ميتًا فادفعها إلى أهله، وانحر الجمالَ على قبره.

---

(١) الشعر لحسان بن ثابت. (٢) جلق: دمشق.
(٣) البريص: نهر بدمشق. وبردى: نهرى بدمشق أيضًا. وتصفيق الشراب: مزجه، الرحيق: الخمر. سلسل: لين.
(٤) تهر كلابهم: هرير الكلب: صوته دون النباح.
(٥) المخاض، نوق مخاض: حوامل.

فلما قدمتُ على عمر وأخبرتُه خبر جَبَلة، وما دعوته إليه من الإسلام، والشرْط الذي شَرطه، وأني ضَمنت له التزويج، ولم أضمن له الإمرة قال: هلَّا ضمنت له الإمرة؟ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحكمه عزّ وجلّ! ثم ذكرتُ له الهديَّةَ التي أهداها إلى حسان بن ثابت. فبعث إليه، وقد كُفَّ بصره فأُتِي به، وقائدٌ يقوده. فلما دخل قال: يا أمير مؤمنين؛ إني لأَجِد رياح آل جَفْنَة عندك. قال: نعم؛ هذا رجل أقبل من عند جبلة، قال: هات يا ابنَ أخي؛ إنه كريم من كرامِ مَدحتُهم في الجاهلية، فحلف أنْ لا يَلْقَى أحدًا يعرفني إلا أهْدى إليّ معه شيئاً: فدفعتُ إليه الهدية: المال، والثياب، وأخبرته بما كان أمر به في الإبل إن وُجد ميتًا. فقال: وددت أني كنتُ ميتًا فنُحِرَت على قبري؛ وانصرف يقول:

إنّ ابن جَفْنة من بقيّة مَعْشَر ... لم يَغْذُهم آباؤهم باللّومِ
لم يَنْسني بالشام إذ هو ربُّها ... مَلِكًا ولا مُتَنَصِّرًا بالرُّومِ
يُعْطِي الجزيلَ ولا يراه عنده ... إلا كبعض عَطيَّةِ المذمومِ

فقال له رجل كان في مجلس عمر: أتذكرُ ملوكًا كَفَرة أبادهم الله وأفناهم؟ قال: ممن الرجل؟ قال: مُزَنيّ. قال: والله لولا سوابقُ قومك مع رسول الله ﷺ لطوَّقْتُك طَوْقَ الحمامة.

قال: ثم جهّزني عُمَر إلى قيصر، وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به، فلما قَدِست القسطنطينية وجدتُ الناس منصرفين من جنَازته، فعلمت أن الشَّقَاء غَلَب عليه في أُمِّ الكتاب.

بَصِيرة العَبَّاس(١)

كان بين العباس(٢) بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب مُباعدة، فلقي ابنُ عباس عليًّا، فقال: إن كان لك في النظر إلى عمك حاجةٌ فأْتِه، وما أراك تلقاه بعدها لها. فقال عليٌّ: تَقَدَّمْني واستأذِنْ. فتقدم ابنُ عباس واستأذن لِعَليّ، فأُذن له ودخل، فاعتنق كلُّ واحد منهما صاحبه، وأقبل عليٌّ على يد العباس ورِجْله

(١) ابن أبي الحديد: ١ ـ ١٣١.
(٢) كان من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، كان سديد الرأي، واسع العقل، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، ثم هاجر إلى المدينة وشهد موقعة حنين وفتح مكة، توفي سنة ٣٢ هـ.

يقبّلهما، ويقول: يا عمّ؛ ارْضَ عني ـ رضي الله عنك ـ قال: قد رضيت عنك. ثم قال: يا ابن أخي؛ قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبلْ، ورأيت في عاقبتها ما كرهتَ، وهأنذا أشيرُ عليك برأيٍ رابع، فإن قبلتَه وإلا نالك ما نالك مما كان قبله. قال: وما ذاك يا عمّ؟ قال: أشرتُ عليك في مرض رسول الله ﷺ أَنْ تسأَله فإن كان الأمرُ فينا أعطاناه، وإن كان في غيرنا أَوْصى بنا، فقلتَ: أخشى إن مَنَعَناه لا يعطيناه أحد، فمضتْ تلك!

فلما قبض رسولُ الله ﷺ أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن نُبَايِعْك، وقلتُ: ابسط يديك أبايْعك ويبايْعك هذا الشيخ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحدٌ من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قُرشِي، وإذا بايَعَتْك قريش لم يختلف عليك أحدٌ من العرب. فقلتَ: لنا بجهاز رسول الله ﷺ شُغلٌ، وهذا الأمر لا يُخْشى عليه، فلم نلبثْ أن سمعنا التكبير من سقيفة بني سَاعِدَة[1]، فقلت: يا عم ما هذا؟ قلتُ: ما دَعَوْناك إليه! فأبيتَ وقلتَ: سبحان الله! أو يكون هذا؟ قلتُ: نعم، قلتَ: أفلا يُرَدّ! قلتُ لك: وهل رُدَّ مثل هذا قط.

ثم أشرتُ عليك حين طُعِن عمر، فقلتُ: لا تُدْخِل نفسك في الشورى؛ فإنك إن اعتزلتهم قَدَّموك، وإن ساويتَهم تقدَّموك، فدخلت معهم، فكان ما رأيت.

ثم أنا الآن أُشيرُ عليك برأي رابع، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله: إني أرى أنَّ هذا الرجل ـ يعني عثمان ـ قد أُخِذ في أمورِ الله؛ وكأني بالعرب قد سارت إليه حتى يُنحرَ في بيته كما يُنْحَر الجمل، والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة لزمك الناسُ به، فإذا كان ذلك لم تنل من الأمر شيئًا إلا من بعد شرٍّ لا خير معه.

قال ابنُ عباس: فلما كان يوم الجمل عرضتُ لعليٍّ، وقد قُتِل طلحة؛ وقد أكثر أهلُ الكوفة في سَبّه وغَمْصِه[2]. فقال عليّ: أما والله لئن قالوا ذلك لقد

---

(١) السقيفة: هي المكان المظلل، واسمها الصفة، وسقيفة بني ساعدة هي التي بويع فيها لأبي بكر بعد حوار طويل بين المهاجرين والأنصار.

(٢) غمصه: احتقره، وعابه، وتهاون بحقه.

كان كما قال:

فتى كان يُدْنيه الغِنَى من صديقه إذا ما هو استغنى ويُبْعِدهُ الفقرُ

ثم قال: لكأن عمي ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، والله ما نلتُ من هذا الأمر شيئًا إلا بعد شرٍّ لا خيرَ معه!

أَثَــرُ المعْرُوف[1]

وفد أهلُ الكوفة على معاوية في دمشق حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده، وفي أهل الكوفة هانيء بن عُروة المُراديّ[2]، وكان سيّدًا في قومه، فقال يومًا في مسجد دمشق، والناسُ حوله: العجبُ لمعاوية يريد أن يَقْسِرَنا[3] على بَيْعَة يزيد، وحالُه حالُه، وما ذاك والله بكائن.

وكان يجلس في القوم غلامٌ من قريش، فتحمَّل[4] الكلمة إلى معاوية، فقال معاوية: أنت سمعتَ هانئًا يقولُها؟ قال: نعم! قال: فاخرج فأْتِ حَلْقَتَه، فإذا خفَّ الناسُ عنه، فقل له: أيها الشيخ، قد وصلَتْ كلمتُك إلى معاوية، ولست في زمن أبي بكر وعُمَر، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام، فإنهم بنو أمية، وقد عرفتَ جُرْأَتَهم وإقْدَامهم، ولم يَدْعُني إلى هذا القول لك إلا النصيحةُ والإشفاق عليك. ثم انظر ما يقول، فأْتِني به.

فأَقبل الفتى إلى مجلس هانيء، فلما خفّ مَنْ عنده دنا منه، فقصّ عليه الكلام، وأخرجه مُخْرَج النصيحة به، فقال هانيء: والله يا ابن أخي ما بلغتْ نصيحتُك كلَّ ما أسمع، وإن الكلام لكلامُ معاوية أعرفه. فقال الفتى: وما أنا ومعاوية؟ والله ما يعرفني. قال: فما عليك! إذا لقيته فقل له: يقول لك هانيء: والله ما إلى ذلك من سبيل، انهض يا ابن أخي راشدًا.

فقام الفتى فدخل على معاوية، فأعلمه، فقال: نستعين بالله عليه.

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد: ارفعوا حوائجكم، وهانيء فيهم، فعرض عليه كتابه فيه ذكرُ حوائجه. فقال: يا هانيء؛ ما أراك صنعت شيئًا؛ زِدْ. فقام هانيء

---

(١) ابن أبي الحديد: ٤ ـ ٣٢٧.
(٢) هانيء بن عروة المرادي: أحد سادات قريش وأشرافهم، قتله عبد الله بن زياد سنة ٦٠ هـ.
(٣) يكرهنا عليها. (٤) تحمل: بمعنى حمل.

فلم يَدَع حاجة عرضت له إلا ذكرَها. ثم عرض الكتاب عليه، فقال: أراك قصَّرْت فيما طلبت. زِدْ، فقام هانىء، فلم يدع حاجة لقومه، ولا لأهل مصره إلا ذكَرَها، ثم عرض عليه الكتاب، فقال: ما صنعتَ شيئًا، زِدْ! فقال: يا أمير المؤمنين؛ حاجة بقيت! قال: ما هي؟ قال: أن أتولى أخْذَ البيعة ليزيد ابنِ أمير المؤمنين بالعراق! قال: افعلْ، فما زلتَ لمثل ذلك أهلًا.

فلما قدم هانىء العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شعبة وهو والي العراق يومئذٍ.

لَا أَحْمدُ إلّا اللهَ(١)

أُتي الحجاجُ بقوم ممن خرجوا عليه، فأمر بهم فضُربت أعناقُهم، وأقيمت صلاةُ المغرب وقد بقي من القوم واحد، فقال لِقُتَيْبة بنِ مسلم: انصرف به معك حتى تَغْدُو به عليّ.

قال قُتيبة: فخرجتُ والرجلُ معي، فلما كنّا ببعض الطريق قال لي: هل لك في خير؟ قلت: وما ذاك؟ قال: إني والله ما خرجتُ على المسلمين، ولا استَحلَلت قِتَالهم؛ ولكن ابتُليتُ بما ترى، وعندي ودائع وأموال، فهل لك أن تُخَلِّيَ سبيلي، وتأذنَ لي حتى آتيَ أهلي، وأرُدَّ على كل ذي حقٍّ حقَّه، وأُوصي؛ ولك عليَّ أن أرجعَ حتى أضعَ يدي في يدك؟ فعجبتُ له، وتضاحَكْتُ لقوله، ومَضَيْنا هُنَيهة، ثم أعادَ عليّ القول، وقال: إني أعاهدُك الله، لك عليَّ أن أعودَ إليك. فما ملكتُ نفسي حتى قلت له: اذهبْ!

فلما توارى شَخْصُه أُسْقِط في يدي، فقلت: ماذا صنعتُ بنفسي؟ وأتيتُ أهلي مهمومًا مغمومًا؛ فسألوني عن شأني فأخبرتهم، فقالوا: لقد اجترأْتَ على الحجاج.

فبتْنا بأطولِ ليلة، فلما كان عند أذَان الفجر إذا الباب يُطْرَق، فخرجتُ فإذا أنا بالرجل، فقلت: أَرجعْتَ؟ قال: سبحان الله! جعلتُ لك عهدَ الله عليّ، فأخونُك ولا أرجع! فقلت: أما والله إن استطعتُ لأنفعنَّك. وانطلقتُ به حتى أجلسْتُه على باب الحجاج، ودخلت!

---

(١) غرر الخصائص: ٢٠.

فلما رآني قال: يا قُتيبة؛ أين أسيرُك؟ قلت: أصلح الله الأمير ـ بالباب، وقد اتَّفق لي معه قصةٌ عجيبة، قال: ما هي؟ فحدثتُه الحديث، فأَذن له فدخل، ثم قال: يا قتيبةُ، أتحبُّ أن أهبَه لك؟ قلت: نعم! هو لك! فانصرفْ به معك.

فلما خرجتُ به قلت له: خذ أيَّ طريقٍ شئتَ، فرفع طرْفه إلى السماء وقال: لك الحمدُ يا رب، وما كلّمني بكلمة، ولا قال لي أحسنتَ ولا أسأتَ! فقلت في نفسي: مجنون والله! فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءني، وقال لي: جزاك الله خيرًا، أما والله ما ذهبَ عني ما صنعت، ولكن كرهتُ أن أُشرِك مع حَمْد الله حمدَ أحد!

لَا أَسْأَلُكُم عَلَيهِ أَجْرًا[1]

قال عثمان بن عطاء الخرسانيّ: انطلقت مع أبي نُريد هشام بن عبد الملك، فلما قَرُبْنا إذا بشيخ على حمارٍ أسود عليه قميص دَنِس، وجُبّة دِنِسة، وقلنسوة لاطِئةٌ[2] دنسة، وركاباه من خشب؛ فضحكت منه، وقلت لأبي: مَن هذا الأعرابي! قال: اسكت! فهذا سيدُ فقهاء الحجاز عَطَاء بن أبي رباح[3].

فلما قرب منا نزل أبي عن بَغْلته، ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام؛ فما استقرَّ بهما الجلوس حتى أذن لهما.

فلما خرج أبي قلتُ له: حدِّثْني ما كان منكما. قال: لما قيل لهشام: إن عَطَاء بن أبي رباح بالباب أَذِن له؛ فوالله ما دخلتُ إلا بسببه.

فلما رآه هشام قال: مرحبًا مرحبًا! هـٰهنا، هـٰهنا، ولا زال يقولُ له: هـٰهنا هـٰهنا، حتى أَجْلَسه معه على سريره، ومسَّ بركبته ركبته ـ وعنده أشرافُ الناس يتحدثون فسكتوا. فقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أهل الحرمين أهلُ الله وجيرانُ رسوله تُقَسَّم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم. قال: يا غلام اكْتُب لأهلِ مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لِسنَة.

(١) غرر الخصائص: ١١٧.
(٢) لاطئة: لازقة.
(٣) تابعي من أجلاء الفقهاء، ولد باليمن ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها، ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٥ هـ.

ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد! قال: نعم، يا أمير المؤمنين، أهلُ الحجاز وأهلُ نجد هم أصلُ العرب، وقادةُ الإسلام، تردُّ فيهم فضولَ صدقاتهم. قال: نعم! يا غلام اكتب بأن تُردّ فيهم فضول صدقاتهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أميرَ المؤمنين؛ أهلُ الثغور يَرُدّون من ورائكم، ويقاتلون عدوّكم، تُجْرِي لهم أرزاقًا تدرّها عليهم؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور. قال: يا غلام؛ اكتب بحمل أرزاقهم إليهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أهل ذمتكم لا يُكلّفون ما لا يطيقون؛ فإن ما تَجْبونه منهم معونة لكم على عدوكم. قال: نعم، يا غلام؛ اكتب لأهل الذمة بألا يكلّفوا ما لا يطيقون! هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، اتّق الله في نفسك؛ فإنك خُلِقْتَ وحدك، وتموت وحدك، وتُحْشر وحدك، وتحاسَبُ وحدك، ولا يشبه ما معك ممن ترى أحدًا!

فأكبَّ هشام يَنْكُت[1] في الأرض، وهو يبكي؛ فقام عطاء.

فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه؛ فقال: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا. فقال: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ، فوالله ما شرب عنده قَطْرَة ماء.

خَليفَة بَين يَدَيْ قَاض[2]

قال العُتْبي: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد بن طلحة، وصاحب حَرَس هشام[3]، حتى قعدا بين يديه؛ فقال الحرسيّ[4]: إن أمير المؤمنين جَرّاني في خصومة بينه وبين إبراهيم!

فقال القاضي: شاهِدَيك على الجرَاية[5]!

قال: أَتُراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل! وليس بيني وبينه إلا هذه السُّتْرة[6]!

---

(١) النكت: قرعك الأرض بعود أو بإصبع، وهو فعل المفكر المهموم.

(٢) العقد: ٤ ـ ٤٤٧، (طبعة لجنة التأليف).

(٣) هشام بن عبد الملك من ملوك الدولة الأموية، ولد في دمشق وبويع له فيها وتوفي سنة ١٣٥.

(٤) الحرسي: واحد حرس السلطان. (٥) الجراية: الوكالة.

(٦) السترة: ما يستر به.

قال: لا، ولكنه لا يثبت الحقُّ لك، ولا عليك، إلا ببيّنة.

فقام الحَرَسِي فدخل إلى هشام فأخبره؛ فلم نلبث أن قَعْقَعت الأبواب، وخرج الحرسيّ، فقال: هذا أمير المؤمنين!

فقام القاضي فأشار إليه هشام فقعد، وبسط له مُصَلى، فقعد عليه هو وإبراهيم، وكنا حيثُ نسمع بعض كلامهما، ويخفى علينا بعضُه!

فتكلما، وأحضرا البينة، فقضى القاضي على هشام؛ فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخُرْق[1]؛ فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظُلْمَك!

فقال هشام: لقد هممتُ أن أضرب عنقك ضربةً ينتثر منها لَحْمُك عن عَظْمك. قال: أما والله لئن فعلتَ لفعلَته بشيخ كبير السن، قريب القرابة، واجب الحق!

فقال هشام: اسْتُرها عليّ يا إبراهيم! قال: لا ستَر الله عليَّ ذنبي يوم القيامة إن سترتُها!

قال: فإني مُعْطِيك عليها مائة ألف! قال إبراهيم: فسترتها عليه طولَ حياتِه.

العَهد لعمَر بن عَبد العزيز[2]

كان لسليمانَ بن عبد الملك ابنٌ يقال له أيوب بن سليمان، فعقَد له ولايةَ العهدِ من بعده؛ ثم إن أيوبَ تُوُفّي قبل سليمان، ولم يبقَ لسليمان إلا ولدٌ صغير.

فلما حضرته الوفاةُ أراد أن يستخلفَ، فحضره عمرُ بنُ عبد العزيز ورجاء بن حَيْوة، فقال لرجاء: اعرض عليّ ولدي في القُمُص والأرْدِية، فعرضهم عليه، فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القُمُص والأردية، يسحبونها سحبًا. فنظر إليهم وقال: يا رجاء؛

إن بَـنِـيّ صِـبْـيَـةٌ صِـغَـارُ   أَفْـلحَ مَـنْ كـان لـه كِـبـارُ

فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أميرَ المؤمنين؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ[3] ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥]».

---

(١) الخرق: الحمق.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٢٩.
(٣) تزكى: تطهر من الشرك والمعاصي.

ثم قال: يا رجاء، اعرض عليّ بَنيّ في السيوف، فقلَّدُوهم السيوف، ثم عرضهم عليه، فإذا هم صِغار لا يحملونها، يجرُّونها جرًّا؛ فنظر إليهم وقال:

إن بَنيّ صِبْيَةٌ صَيفيُّون   أفلح مَنْ كانَ لَهُ رِبعِيُّونْ[١]

فقال له عمر بن عبد العزيز: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥].

فلما لم يَرَ في ولده ما يريدُ حدَّثَ نفسه بولايةِ عمر بن عبد العزيز[٢]؛ لِمَا كان يعرف من حَاله؛ فشاور رَجَاء فيمن يعْقِد له، فأشار عليه بعمر، وسدّد له رأيه فيه، فوافق ذلك سليمان، وقال: لأعقدنَّ عقدًا لا يكون للشيطان فيه نَصيب.

فلما اشتدَّ به وجَعُه عَهِد عَهدًا لم يُطْلِعْ عليه أحدًا إلا رجاء بن حَيْوَةَ الكِنْديّ، استخلف فيه عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر.

فدخل سعيدُ بن خالد مع عُمَر بن عبد العزيز وبعضِ أهل بيته يعودون سليمان؛ فرأَوْا به الموت، فمشى عمر وسعيد بن خالد ورجاء بن حَيْوَة، ثم تخلّف عمر كأنه يعالج نَعْلَيْه، حتى أدركه رَجَاء، فقال له: يا رجاء، إني أرى أمير المؤمنين في الموت، ولا أحسبه إلا سيَعْهَد، وأنا أُناشدك الله إن ذكرني بشيء من ذلك إلا صَدَدْتَه عني، وإن لم يذكرني ألّا تذكرني له في شيء من ذلك. فقال رجاء لعمر: لقد ذهب ظنُّك مذهبًا ما كنتُ أَحْسَبك تذهبه، أتظنُّ بني عبد الملك يدخلونك في أمورهم! وقد كان سليمان فرَغ من ذلك ولكنه أراد إخفاءَه عن عمر!

فلما احْتُضِر[٣] سليمان، واشتدَّ ما به أمر بالبيعة لمن كان في كتابه ممن عهد إليه، فبايع الناس ولا يعلمون مَنْ في كتابه.

ثم قضى الله على سليمان بالموت، فلما مات كتم موتَه رجاء بن حَيْوَة، ثم خرج إلى الناس فقال: إن أمير المؤمنين يأمرُكم بتجديد البيعةِ لمن كان عهدَ إليه،

---

(١) يقال: أصاف الرجل، إذا ولد له على كبر سنه وولده صيفيون. وأربع الرجل: إذا ولد له في فناء سنه، وولده ربعيون.

(٢) هو الخليفة الصالح العادل، ولد بالمدينة ونشأ بها، وبويع له بالخلافة سنة ٩٩ هـ وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة توفي سنة ١٠١ هـ.

(٣) احتضر: حضره الموت.

وقد أصبح بحمد الله صالحًا. فقالوا: أوصِلْنا إلى أمير المؤمنين لننظرَ إليه، ونُنَفِّذَ أمره؛ فدخل وأمر به فأسند بالوسائد وأقام عنده خادمًا، وأمر بالناس فأُدخلوا عليه، فيقفون عند الباب فيسلِّمون من بعيد، وهم يَرَوْن شخصه، فيردّ الخادم عنه ردّ المريض وهم ينظرون إليه.

ثم قال: يأمرُكم أميرُ المؤمنين أن تُبَايعوا لمن عهد إليه، وتسمعوا له وتُطِيعوا، فخرجوا إلى المسجد والناسُ مجتمعون: وجوهُ بني مَرْوَان وبني أمية، وأشرافُ الناس، فبايعوا، حتى إذا رضى رَجَاء من ذلك نظر فإذا هو لا يرى عمر؛ فخرج يلتمسهُ في المسجد حتى رآه قاصيًا، فوقف عليه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته! قُمْ إلى المنبر، فقال: أنشدك الله يا رَجَاء، فقال رجاء: أناشدك الله أن يضطربَ بالناس حَبْل، فقد لقي سليمانُ رَبّه، وقضى الله عليه بالموت.

فقام عمر حتى جلس على المنبر، فنعى للناس سليمان، وفتح الكتاب، فإذا فيه استخلاف عمر ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر.

فلما قَرَأَ ذِكْرَ عمر جَثَا هشام بن عبد الملك على ركبتيه وقال: هاهْ[1]! فَسَلَّ رجلٌ من أهل الشام سَيْفَه، وقال: تقول لأمرٍ قد قَضَاه أمير المؤمنين هاهْ؟ فلما قرأ: «ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر» قال هشام: سمعنا وأَطَعْنا. فسمع الناس وأطاعوا، وقاموا فبايعوا لعُمَر.

عُمَر بن عَبد العَزيز يَحمل النّاس عَلى الحَق[2]

لما دُفِنَ سليمان، وقام عمر بن عبد العزيز قرِّبَتْ إليه المراكب، فقال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تُرْكَب قط يركبُها الخليفة أولَ ما يلي. فتركها وخرج يلتمسُ بَغْلَتَه، وقال: يا مُزاحِم؛ ضُمّ هذه إلى بيتِ مالِ المسلمين.

ونُصِبت له سُرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحدٌ قط، كانت تُضرب للخليفة أولَ ما يلي، فقال: ما هذه؟ فقالوا: سُرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفةُ أولَ ما يَلِي. قال: يا مُزاحم، ضُمَّ هذه إلى أموال المسلمين.

---

(١) هاه: وعيد.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٣٥.

ثم ركب بَغْلته، وانصرف إلى الفُرُش والوطَاء[١] الذي لم يجلس عليه أحد قط والذي يفرش للخليفة أول ما يكون، فجعل يَدْفَعُ ذلك برجله حتى يُفْضي إلى الحصير. ثم قال: يا مزاحم، ضُمّ هذا لِأَمْوَال المسلمين.

وبات عِيالُ سليمان يُفرِغون الأدهان والطيب، من هذه القارورة إلى تلك القارورة، ويلبسون ما لم يُلْبَس من الثياب حتى تتكسَّر - وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب، أو مسّ من الطيب كان لولده، وما لم يُلْبَس من الثياب وما لم يُمَس من الطيب فهو للخليفة بعده.

فلما أصبح عمر قال له أهلُ سليمان: هذا لك وهذا لنا. قال: وما هذا؟ وما هذا؟ قالوا: هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومسَّ من الطِّيب وهو لولده، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده، وهو لك.

قال عمر: ما هذا لي، ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يا مزاحمُ؛ ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين.

فتآمر الوزراءُ فيما بينهم، فقالوا: أما المراكبُ والسرادقات والحُجَر والشُّوَار[٢] والوِطَاء فليس فيه رَجَاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتُم، وبقيت خَصلة وهي الجواري، نعرِضهن فعسى أن يكون ما تريدون فيهن؛ فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده. فأُتي بالجواري فعُرِضْن عليه كأمثال الدُّمَى؛ فلما نظر إليهم جعل يسألهن واحدةً واحدةً: مَنْ أنتِ؟ ولمَن كنت؟ ومَن بعثَ بك؟ فتخبره الجاريةُ بأصلها، ولمَن كانت، وكيف أُخذت، فيأمر بردِّهن إلى أهلهن ويُحمَلْن إلى بلادهن، حتى فرغ منهن. فلما رأوا ذلك أيِسوا منه، وعلموا أنه سيحملُ الناسَ على الحق.

واحتجب عَنِ الناس ثلاثًا، لا يدخلُ عليه أحد، ووجوهُ بني مَرْوان وبني أمية، وأشرافُ الجنود والعرب، والقوادُ ببابه، ينظرون ما يخرجُ عليهم به. فجلس للناس بعد ثلاث، وحملهم على شريعةٍ من الحق فعرفوها؛ فردَّ المظالم، وأحيا الكتاب والسُّنَّة، وسار بالعدل، ورفض الدنيا، وزهد فيها، وتجرّد لإحياء أمر الله عزّ وجلّ، فلم يزل على ذلك حتى قُبِض[٣].

---

(١) الوطاء: ضد الغطاء.
(٢) الشوار: اللباس والزينة ومتاع البيت.
(٣) مات.

لَا تَلُومُوا إلّا أنفسكُم[١]

اجتمعتْ بنو أمية، فكلَّموا رجلًا أن يكلِّم عمر بن عبد العزيز في صلةِ أرحامِهم والعطفِ عليهم، وكان قد أمرَ لهم بعشرة آلاف دينار فلم تَقَعْ منهم.

فدخل عليه الرجلُ، فكلَّمَه وأعْلَمه بمقالتهم، فقال: أَجل! والله لقد قسمتُها فيهم، وقد ندِمتُ عليها ألّا أكون مَنَعْتُهم إياها، وقسمتُها فكانت تكفِي أربعة آلاف بيت من المسلمين.

فخرج إليهم الرجلُ وأعلمهم بمقالته، وقال: لا تلوموا إلَّا أنفسكم يا معشر بني أمية؛ عَمَدتم إلى صاحبكم فزوّجتموه بنت ابن عُمَر[٢]، فجاءتكم بعمرَ ملفوفًا في ثيابه، فلا تلوموا إلا أنفسكم.

ذَكَّرتني الطَّعْن وكنتُ نَاسيًا[٣]

لما وَلِيَ عمرُ بن عبد العزيز الخلافة ردَّ المظالمَ والقطائع. وكان سليمانُ بن عبد الملك قد أمر لعَنْبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار، فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم، فلم يبقَ إلا قَبْضُها، فتُوُفِّيَ سليمان قبل أن يقبضَها.

وكان عنبسة صديقًا لعمرَ بن عبد العزيز؛ فغدا يريدُ كلامَ عمر فيما أمر له به سليمان؛ فوجد بني أميةَ حضورًا بباب عمر، يريدون الإذْنَ عليه ليكلِّموه في أمورهم، فلما رأوا عَنْبَسَة قالوا: ننظر ما يصنعُ به قبل أن نكلِّمَه، وقالوا له: أَعْلِم أميرَ المؤمنين مكانَنَا، وأَعلمنا ما يَصْنَعُ بك في أمورك.

فدخل عَنْبَسة على عمر، فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ إن أميرَ المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار، حتى انتهت إلى ديوان الختم، ولم يبقَ إلا قَبْضها، فَتُوفِّيَ على ذلك، وأميرُ المؤمنين أولى باسْتتمام الصنيعة عندي، وما بيني وبينه أعظمُ مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان.

قال له عمر: كم ذلك؟ قال: عشرون ألف دينار. قال عمر: عشرون ألف دينار تُغْني أربعةَ آلاف بيتٍ من المسلمين وأدفعها إلى رجل واحد! والله ما لي إلى ذلك من سبيل.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٥٠.
(٢) عمر بن الخطاب.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٥٨.

قال عَنْبَسة: فرمَيْتُ بالكتاب الذي فيه الصَّك. فقال لي عمر: لا عليك أن يكونَ معك، فلعله أن يأتيَك مَنْ هو أَجْرأُ على هذا المال مني فيأمرَ لك بها.

قال عَنْبسة: فأخذته تبرُّكًا برأيه. وقلت له: يا أمير المؤمنين؛ فما بال جَبَل الورس؟ ـ وكان جبل الورس قطيعةً لعمر بن عبد العزيز ـ فقال عمر: ذكَّرْتَنِي الطَّعنَ وكنت ناسيًا! يا غلام: هاتِ ذلك القَفَص، فأُتي بقفص من جريد فيه قَطائع بني عبد العزيز، فقال: يا غلام؛ اقرأ عليّ، فكلما قرأ قطيعة قال: شُقَّها، حتى لم يبقَ في القفص شيءٌ إلّا شقّه.

قال عَنْبَسة: فخرجتُ إلي بني أُميّة، وهم قوقفٌ بالبابِ، فأعلمتُهم ما كان من ذلك، فقالوا: ليس بعد هذا شيء، ارجع إليه فاسْأَله أن يأذنَ لنا أن نلحق بالبُلْدَان.

فرجعت إليه فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ إن قومك بالباب يسألونك أن تُجْري عليهم ما كان مَنْ قَبْلَك يُجرِي عليهم، فقال عمر: والله ما هذا المال لي، وما إلى ذلك من سبيل. قلت: يا أميرَ المؤمنين؛ فيسألونك أن تَأْذنَ لهم يضربون في البُلْدَان.

قال: ما شاءوا، ذلك لهم، وقد أذنت لهم. قلت: وأنا أيضًا؟ قال: وأنت أيضًا قد أَذِنتُ لك، ولكني أرى لك أن تقيمَ فإنك رجلٌ كثير النَّقْد، وأنا أبيعُ تركةَ سليمان، فعلّك أن تشتريَ منها ما يكون لك في ربحه عِوَضٌ مما فاتك.

فأقمت تبرّكًا برأيه، فابتعت من تركةِ سليما بمائة ألف، فخرجتُ بها إلى العراق فبعتُها بمائتي ألف وحبست الصكّ.

فلما تُوفِّيَ عمر وولّي يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فأنفذ لي ما كان فيه.

الوَلَدُ سِرُّ أبيه(١)

كان بيدِ عُمَر بن عبد العزيز قبل الخلافة ضَيْعَتُه المعروفة بالسَّهلة، وكانت باليمامة. وكانت بها غَلّةٌ عظيمة كثيرة، عَيْشُه وعيشُ أهله منها.

---

(١) ابن أبي الحديد: ٤ ـ ١٤٧.

فلما وَلِيَ الخلافة قال لمُزَاحم مولاه: إني عزمتُ أن أردَّ السَّهلة إلى بيتِ مال المسلمين. فقال مُزاحم: أتدري كم وَلَدُك؛ إنهم كذا وكذا!

فذَرَفتْ عيناه، فجعل يمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى، ويقول: أَكِلُهم إلى الله، أكِلُهم إلى الله.

فمضى مُزَاحم، فدخل على عبد الملك ابنه، فقال له: ألا تَعْلَمُ ما قد عزم عليه أبوك، إنه يريدُ أن يردَّ السَّهْلَة. قال: فما قلتَ له؟ قال: ذكرتُ له ولدَه؛ فجعل يَسْتَدْمع ويمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى، ويقول: أكِلُهم إلى الله.

فقال عبد الملك: بئسَ وزيرُ الدين أنت! ثم وثَبَ وانطلق إلى أبيه، فقال للآذن: استأذن لي عليه. فقال: إنه قد وضع رأسه الساعةَ للقائلة[١]. فقال: استأذنْ لي عليه. فقال: أما ترحمونَه؟ ليس له من الليل والنهار إلا هذه الساعة. قال: استأذِنْ لي عليه، لَا أُم لك!

فسمع عمر كلامهما، فقال: ائذن لعبد الملك، فدخل فقال: عَلَامَ عزمتَ؟ قال: أرُدّ السهلة! قال: فلا تؤخّرْ ذلك. قم الآن، فجعل عمر يرفعُ يديه، ويقول: الحمد لله الذي جعل لي من ذرّيتي من يُعينني على أمر ديني. نعم، يا بنيّ؛ أصلّي الظهر، ثم أصعد المنبر، فأردّ! السَّهْلة علانية على رؤوس الناس.

قال: ومَن لك أن تعيشَ إلى الظهر، ثم مَن لك أن تَسْلَمَ نِيَّتُك إلى الظهر إن عشتَ!

فقام عمر، فصعد المنبر وخطب الناس، وردَّ السَّهْلَة.

أوَارث أنتَ بَني أمَيّة[٢]

قال أحمد بن موسى: ما رأيت رجلًا أَثْبَتَ جنانًا من رجل رُفع فيه عندَ المنصور[٣]، وقالوا: إنَّ عنده ودائعَ وأموالًا وسلاحًا لبني أمية. فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره، فأُحْضِر بين يديه.

---

(١) القائلة: نصف النهار، والنوم في الظهيرة. (٢) المختار من نوادر الأخبار.
(٣) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد، ثاني خلفاء بني العباس وأعظمهم شدة وبأسًا ويقظة وثباتًا توفي سنة ١٥٨ هـ.

فقال له المنصور: قد رُفِع إلينا أنَّ عندك ودائع وأموالًا وسلاحًا لبني أمية، فأَخْرِجْ لنا ما عندك، واحمل جميعَ ذلك إلى بيت المال. فقال الرجل: يا أميرَ المؤمنين؛ أنت وارثُ بني أميَّة؟ قال: لا. قال: فوصِيٌّ أنت؟ قال: لا. قال: فلِمَ تسألُ عن ذلك؛ فأطْرَقَ المنصور ساعة وقال: إنَّ بني أميَّة ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين، وأنا آخُذها فأردها إلى بيت المال للمسلمين. قال الرجل: يحتاج أميرُ المؤمنين إلى إقامةِ بيّنةٍ يقبلها الحاكم على أنَّ المال الذي لبني أمية هو الذي في يديّ، وأنه هو الذي اغتصبوه من الناس؛ وأميرُ المؤمنين يعلمُ أن بني أمية كانت معهم أموالٌ لأنفسهم غيرُ الأموال التي اغتصبوها على ما يزعمُ أمير المؤمنين.

فسكت المنصورُ ساعة ثم قال: يا ربيع؛ صدق الرجل ما يجب لنا عليه شيء، ثم قال للرجل: ألك حاجة؟ قال: نعم. قال: ما هي؟ قال: أن تجمعَ بيني وبين مَنْ سعى بي إليك؛ فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أميَّةَ عندي ودائع ولا مالٌ ولا سلاح؛ ولما حضرتُ بين يدي أمير المؤمنين، وعلمتُ ما هو عليه من العدل والإنصاف، واتباع الحق، واجتناب الباطل، أيقنتُ أن هذا الكلام الذي صدر مني هو أَنْجَحُ وأصلحُ لما سألني عنه وأقربُ إلى الخلاص.

فقال المنصور للربيع: اجمعْ بينه وبين الرجل الذي اتهمه. ولما جيء بالرجل عرفه، وقال: هذا غلامي أخذ لي خمسمائة دينار وهرب، ولي عليه كتاب بها، ثمَّ استنطق المنصور الغلام، فأقرّ أنه غلامه وأنه أخذ المال الذي ذكره مولاه، وأَبَقَ[1] به، وسعى بمولاه ليجريَ عليه أمرُ الله، ويَسْلَم هو من الوقوع في يده. فقال: يا أمير المؤمنين؛ فقد وهبتها له لأجلك؛ وأدفعُ له خمسمائة دينار أخرى لحضوره مجلس أمير المؤمنين.

فاستحسن المنصور فِعْلَه، وكان في كل وقت يقول: يا ربيع؛ ما رأيتُ مَنْ حاجّني مثله.

---

(١) أبق العبد: استخفى وذهب.

حذَر عِيسَى بن مُوسى[(١)]

لما خرج أبو جعفر المنصور يريدُ الحجَّ بالناس، قال لعيسى بن موسى[(٢)]: أنت تعلم أن الخلافةَ صائرةٌ إليك، وأريد أن أسلِّم لك عمي وعمَّك عبدَ الله بن عليّ؛ فخذْه واقتُلْه: وإياك أن تجبنَ في أمره.

ثم مضى المنصورُ إلى الحج، وكتب إليه من الطريق يستحثُّه على ذلك، فكتب إليه: قد أنفَذْتُ أمرَ أمير المؤمنين! فلم يشكَّ أبو جعفر أنه قَتَلَه.

ودعا عيسى بنُ موسى كاتبَه يونس؛ فقال له: إن المنصورَ دفع إليّ عمه، وأمرني بقتله. فقال له: إنه يريدُ أن يقتلَك به؛ فقد أمرك بذلك سرًّا، ويدّعي عليك به علانِيَة. والرأيُ أن تستره في منزلك، ولا تُطْلِع عليه أحدًا؛ فإن طلبه منك علانِيَة، دفَعته إليه، ولا تدفعه إليه سرًّا أبدًا! ففعل ذلك.

وقدم المنصور؛ فدسَّ على عمومته مَنْ يحركهم أن يسألوه أن يهبَ لهم أخاهم عبد الله؛ ففعلوا ذلك، واستشفعوا له. فقال: نعم، عليّ بعيسى بن موسى، فأتاه.

فقال: يا عيسى؛ كنتُ قد دفعتُ إليك عمي وعمّك عبد الله قبل خروجي إلى الحج، وأمرتُك أن يكونَ في منزلك مكرّمًا! قال: قد فعلتُ ذلك. قال:

قد كَلَّمني فيه عمومتك؛ فرأيتُ الصفح عَنه، فأْتني به.

قال: يا أمير المؤمنين؛ ألم تأمرْني بقَتْلِه قال: لاَ، بل أمرتُك بحبْسِه عندك.

ثم قال المنصور لعُمُومته: إن هذا قد أقرّ لكم بقَتْل أخيكم، وادّعى أني أمرتُه بذلك! وقد كذبَ! قالوا: دعْه لنا نقتله. قال: شأنكم.

فأخرجوه إلى صَحْن الدار، واجتمع الناس، واشتهر الأمر؛ فقام أحدُهم، وشَهَر[(٣)] سيفه، وتقدم إلى عيسى ليضربَه؛ فقال عيسى: لا تعجلوا؛ فإن عمّي حيّ، ردّوني إلى أميرِ المؤمنين، فردّوه إليه، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنما أردتَ

---

(١) المستطرف: ١ ـ ٦٥.

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد ونشأ بالحميمة من أرض الشام، وكان من فحول أهله وشجعانهم وذوي النجدة والبأس فيهم.

(٣) شهر سيفه: انتضاه فرفعه.

بقَتْله قتلي، هذا عمُّك حيّ، إن أمرتَني بدفعِه إليهم دفعتُه. قال: ائتنا به، فأَتى به، فجعله في بيت، فسقط عليه، فمات.

وركب المنصور بعد موته، وفي خدمته ابنٌ لعمه، وكان يحادثُه، فقال له: هل تعرفُ ثلاثة في أول أسمائهم عين قُتِلوا؟ قال: لا أعرف إلا ما تقولُ العامة يا أمير المؤمنين: إن عليًا قتل عثمان، وكذبوا والله، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير، وسقط البيتُ على عمّ أمير المؤمنين.

فضحك المنصور، وقال: إذا سقط البيتُ على عمي، فما ذَنْبي؟ قلت: ما قلت لك ذَنْبٌ يا أمير المؤمنين!

يَقَظَة المنصُور(١)

قال عُقْبَة الأزْدي: دخلتُ مع الجند على المنصور، فارتابني(٢)، فلما خرج الجُندُ أَدْنَاني، وقال لي: مَن أنت؟ فقلت: رجلٌ من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين، قدمت الآن مع عمرو بن حَفْص.

فقال: إني لأرَى لك هيبةً، وفيك نَجَابةً، وإني أريدُك لأمر، وأنا به مَعْنِيٌّ، فإن كفَيْتَنيه رَفَعْتُك. فقلت: إني لأرجو أن أصدقَ ظنّ أمير المؤمنين فيّ. فقال: أَخْفِ نفسك، واحْضر في يوم كذا.

فغِبتُ عنه إلى ذلك اليوم وحضرتُ، فلم يترك عنده أحدًا، ثم قال لي: اعلم أن بني عمّنا هؤلاء قد أبَوا إلا كيدَ ملكنا واغتيالَه، ولهم شِيعةٌ بخُرَسان بقرية كذا، يكاتبونهم ويرسلون إليهم الصدقات أموالهم وأَلْطَاف(٣) بلادهم، فخذ معك عَيْنًا(٤) من عندي، وألطافًا وكتبًا، واذهب حتى تأتي عبدَ الله بن الحسن، فاقْدَم عليه متخشعًا، واذكر له أن الكتبَ على أَلسنةِ أهلِ تلك القرية، والألطافَ من عندهم إليه. فإذا رآك فإنه سيردُّك ويقول: لا أعرفُ هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده، واكْشِف باطنَ أمرِه.

فأخذتُ كتبَه والعينَ والألطاف، وتوجّهتُ إلى جهة الحجاز، حتى قَدِمتُ على عبد الله بن الحسن، فلقيتُه بالكتُب، فأَنْكَرَها ونَهرَني، وقال: ما أعرفُ هؤلاء

---

(١) المستطرف: ٢ - ٩٤.
(٢) ارتبت فلانًا: اتهمته.
(٣) اللطفة: الهدية.
(٤) العين: المال، وما ضرب من الدنانير.

القوم. فلم أنصرفْ، وعاودتُه القول، وذكرتُ له اسمَ القرية وأسماءَ أولئك القوم، وأن معي ألطافًا وعَيْنًا.

فأَنِس بي، وأخذ الكُتُب، وما كان معي، فتركتُه ذلك اليوم، ثم سألتُه الجواب، فقال: أما كتابٌ فلا أكتب إلى أحدٍ، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرئهم السلام، وأخبرهم أن ابنيّ: محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقتَ كذا وكذا.

فخرجت من عنده؛ وسرتُ حتى قدِمتُ على المنصور، فأَخبرتُه بذلك، فقال لي: إني أريدُ الحج، فإذا صرتُ بمكان كذا وكذا، وتلقّاني بنو الحسن، وفيهم عبد الله، فإني أعظِّمه وأكرِمُه، وأرفعُه وأُحْضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرتُ إليه، فامثُلْ بين يديّ، وقِفْ قدّامه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدُرْ حتى تقفَ من ورائه، واغمز ظهره بإبهامك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرفْ عنه، وإياك أن يراكَ وهو يأكل.

ثم خرج المنصور يريدُ الحج، حتى إذا قارب البلاد، تلقّاه بنو الحسن، فأجلس عبدَ الله إلى جانبِه، فحادثَه ثم طلب الطعام للغَدَاء، فأكلوا منه، فلما فرغوا أمر برفعِهِ فرُفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن، وقال: يا أبا محمد، قد علمتَ أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدُني بسوء، ولا تكيدُ لي سلطانًا.

قال: فأنا على ذلك يا أميرَ المؤمنين.

ثم لَحظنِي المنصور بعَيْنه فقمتُ حتى وقفتُ بين يدي عبد الله بن الحسن، فأعرضَ عني، فدُرْت من خلفه، وغمزت ظَهْره بإبهامي، فرفع رأسه، وملأ عينيه مني، ثم وثَب حتى جَثا بين يدي المنصور، وقال: أقِلني يا أميرَ المؤمنين أقَالَكَ الله! فقال المنصور: لا أقالَني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه، وجعل يتطلّب ولديه محمدًا وإبراهيم، ويستعلم أخبارهما.

المنصُور فِي سَاحَةِ القضَاء[1]

قال نمَيْر المدنيّ: قَدِم علينا أميرُ المؤمنين المنصورُ المدينة، ومحمد بن عمران الطلحيّ يتَولّى القضاءَ بها وأنا كاتبه، فحضر جماعةٌ من الجَمَّالَة[2]،

---

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٠. (٢) الجمالة أصحاب الجمال.

واستعدَوْه على أمير المؤمنين المنصور في شيء ذكَرُوه، فأمرني أن أَكْتُبَ إلى المنصور بالحضُور معهم أو إنصافِهم. فقلت له: أعفني من ذلك فإنه يعرفُ خَطِّي. فقال: اكتب. فكتبتُ وختمتُ. فقال: والله ما يَمْضِي به غيرُك، فمضيتُ به إلى الربيع حاجبِه، وجعلتُ أعتذرُ إليه، فقال: لا بأسَ عليك! ودخل بالكتاب على المنصور.

ثم خرج الرَّبيع، فقال للناس ـ وقد حضر وجوهُ أهل المدينة والأشرافُ وغيرهم: إنَّ أميرَ المؤمنين يقرأُ عليكم السلام ويقول لكم: إني دُعِيتُ إلى مجلس الحكم، فلا أَحد منكم يقوم إذا خرجت، ولا تبدءُوني بالسلام.

ثم خرج وبين يديه المسيَّب[1] والربيع وأنا خَلْفه، وهو في إزار ورِدَاء، فسلَّم على الناس، فما قام إليه أحد، ثم مضى حتى بدأ بقبر النبيّ ﷺ، فسلَّم عليه، ثم التفتَ، فلما رآه ابن عمران القاضي أَطلق رداءه عن عاتقه، ثم اخْتَبى به، ودعا بالخصوم وهم الجمَّالة، ثم دعا بالمنصور، فادّعى عليه القوم، وقضى لهم عليه، ثم انصرف.

فلما دخل المنصور الدارَ قال للربيع: اذهب، فإذا قام القاضي من مَجْلِسه فاذعه. فلما دعاه ودخل على المنصور سلم عليه، فردّ عليه السلام. وقال له: جزاك الله عن دينك وعن نبيِّك وعن حسَبِك، وعن خليفتك، أحسنَ الجزاء، قد أمرتُ لك بعشرة آلاف، صِلةً لك فاقبضها.

فكانت عامَّةُ أموال محمد بن عمران من تلك الصلة.

نَبني كمَا كَانَت أَوَائِلنا تبني[2]

كان المنصور معجَبًا بمحادثة محمد بن جعفر، ولعظم قَدْره يفزَع الناسُ إليه في الشفاعات، فثقُل ذلك على المنصور، فحجبه مدَّة، ثم لم يصْبر عنه، فأمر الربيعَ حاجبه أن يكلِّمَه في ذلك، فكلمه وقال: أَعْفِ أميرَ المؤمنين، ولا تُثْقِل عليه في الشفاعات، فقبل ذلك منه.

(١) هو المسيب بن زهير، كان على شرط المنصور والمهدي ببغداد وولاه المهدي خراسان، ولم تطل فيها مدته، وتوفي ببغداد سنة ١٧٥ هـ.
(٢) المجاني: ٣ ـ ١٩٥.

فلما توجَّه إلى الباب اعترضه قومٌ من قريش، معهم رِقَاع[١]، فسألوه إيصالها إلى المنصور، فقصَّ عليهم القصةَ، فأَبَوْا إلا أن يأخذَها، فقال: اقذفوها في كُمّي.

ثم دخَل عليه، وهو مشرفٌ على مدينة السَّلَام، وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله، فقال له: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فيما آتاك، وهنّأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك! فما بَنَتِ العربُ في دولة الإسلام، ولا العَجَمُ في سالفِ الأيام أَحْصَنَ ولا أحسنَ من مدينتك، ولكن كرَّهَتْها في عيني خَصْلَةٌ! قال: وما هي؟ قال: ليس لي ضَيْعَة، فتبسَّم، وقال: قد حسَّنْتُها في عينك بثلاث ضياع قد أَقْطَعْتُكَها! فقال: لله دَرُّكَ يا أمير المؤمنين! إنك شريف الموارد، كريم المصادر؛ جعل الله تعالى باقيَ عمرك أكثرَ من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك.

فلما نهض ليقومَ بدتِ الرِّقَاع من كُمِّه، فجعل يردّها ويقول: ارجَعْنَ خائبات خاسرات.

فضحك المنصور، وقال: بحقِّي عليك إلّا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرِّقاع؛ فأعلمه، فقال: ما أتيتَ يا ابن مُعَلِّم الخير إلا كريمًا، وتمثّل بقول عبد الله بن معاوية:

لسنا وإن أحسابُنا كرُمت ... يومًا على الأحساب نتّكل
نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ثم تصفَّح الرقاع، وقضى حوائجَ أصحابها جميعًا.

هَمَداني بَينَ يَديّ المنصُور[٢]

بينما كان المنصورُ جالسًا في مجلسه المبنيِّ على أعالي باب[٣] خُراسان، من مدينته التي بناها، وأضافها إلى اسمه، مُشْرِفًا على دِجْلَة جاءه سَهْمٌ

(١) الرقاع: جمع رقعة: ما يكتب فيها. (٢) المسعودي: ٢ ـ ٢٣٢.
(٣) كان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة في الأعلى من طاقه المعقود مجلسًا يشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه، وكانت أربعة أبواب: فأولها باب خراسان أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان، ثم باب الشام، وهو تلقاء الشام، ثم باب الكوفة، وهو تلقاء الكوفة، ثم باب البصرة وهو تلقاء البصرة.

عَائِر[١] سقط بين يديه، فذُعِرَ منه ذُعْرًا شديدًا، ثم أخذه فجعل يقلّبه؛ فإذا مكتوب عليه بين الرِّيشتين:

أَتطْمَعُ في الحياةِ إلى التَّنادي[٢] وتحسَبُ أنّ مالك مِنْ نَفَاد
سَتُسْأَل عن ذنوبك والْخَطَايا وتُسْأَل بعد ذَاكَ عن العِبَاد

ثم قرأ عنْدَ الرِّيشة الأولى:

أحسنْتَ ظنّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالَمَتْكَ اللَّيالي فاغْتَرَرْتَ بها وعند صَفْوِ الليالي يَحْدُث الكَدَرُ

ثم قرأ عند الرِّيشَة الأخرى:

هي المقادِيرُ تَجْرِي في أَعِنَّتها فاصْبر فليس لها صَبرٌ على حَالِ
يومًا تُريك خَسِيسَ القومِ ترفعُه إلى السماء ويومًا تخفضُ العالي

وإذا على جانب السهم مكتوب: «هَمَذَان منها رجل مظلوم في حَبْسك»!

فبعث من فوره بعدَّةٍ من خاصَّته، ففتَّشوا الحُبُوسَ[٣]؛ فوجدوا شيخًا في بَنيّة من الحبس، مُوثَقًا بالحديد، متوجِّهًا نحو القبلة، يردّدُ قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧]؛ فسألوه عن بلده، فقال: هَمَذَان.

فَحُمِلَ ووُضع بين يدي المنصور فَسأَلَهُ عن حاله، فأخبره أنه رجلٌ من أبناء مدينة هَمَذان، ومن أرباب نِعَمِها، ثم قال له: إن وَالِيَك علينا دخل بلدنا، ولِي ضيعةٌ تساوي ألف ألف، فأراد أَخْذَها مني، فامتنعتُ، فكبَّلني بالحديد، وحملني وكتب إليك: إني عاصٍ؛ فطُرِحْت في هذا المكان.

فقال: مُنْذُ كم؟ قال: منذ أربعة أعوام. فأَمَر بِفَكِّ الحديد عنه، والإحسان إليه، وأَنْزَله أحسنَ منزل.

ثم رُدَّ إليه، وقال له: يا شيخ؛ قد رَدَدْنا عليك ضَيْعَتَكَ بخَرَاجِها ما عشتَ وعِشْنَا، وأما مدينتُك هَمَذَان، فقد ولّيناك عليها، وأما الوالي فقد حكمناك فيه،

---

(١) السهم العائر: الذي لا يدري مَن رماه. (٢) يوم التنادي: يوم القيامة.
(٣) الحبوس: جمع حبس.

وجعلنا أمره إليك؛ فجزاه خيرًا ودعا له بالبقاء، وقال: يا أمير المؤمنين؛ أما الضَّيْعَةُ فقد قَبِلْتُها، وأما الولاية فلا أصلح لها، وأما واليك فقد عَفَوْتُ عنه.

فأمر له المنصورُ بمالٍ جزيل، وبرٍّ واسع، وحمله إلى بلده مكرّمًا، بعد أن صرفَ الوالي وعاقَبَه على ما جنى من انحرافه عن سُنَّةِ العدل والحق، وسأل الشيخَ مكاتبتَه في أخبار بلده، وإعلامه بما يكون من وُلاته، ثم أنشأ الحضور يقول:

من يصحب الدهرَ لا يأمن تَصَرُّفَه يومًا، وللدهر إحْلَاءٌ وإمرار
لكل شيء، وإن دامت سلامته إذا انتهى فله لا بدَّ إقصار

أميرٌ في مَجْلِسِ القَضَاء(١)

أتت امرأةٌ يومًا شَرِيكَ(٢) بن عبد الله قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا باللهِ ثم بالقاضي! قال: مَنْ ظلمك؟ قالت: الأمير مُوسى بن عيسى عمُّ أمير المؤمنين؛ كان لي بُسْتَان على شاطىء الفرات، فيه نخلٌ ورِثْتُه عن أبي، وقاسمْتُ إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطًا، وجعلتُ فيه رجلًا فارسيًّا يحفظُ النَّخل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بنُ عيسى مِن جميع إخوتي، وسَاوَمَنِي ورغَّبني، فلم أبِعْه؛ فلما كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام، فاقتلعوا الحائط؛ فأصبحتُ لا أعرف من نَخْلِي شيئًا، واختلط بنَخْلِ إخوتي.

فقال: يا غلام! أحضر طِينَةً(٣)، فأحضرها فختمها، وقال: امضِ بها إلى بابه حتى يحضرَ معك؛ فأخذها الحاجب، ودخل على موسى، فقال: قد أعْدى(٤) القاضي عليك، وهذا خَتْمُه؛ فقال: ادعُ لي صاحب الشرطة فدعا به، فقال: امضِ إلى شريك، وقل: يا سبحان الله! ما رأيتُ أَعْجَبَ من أمرك! امرأة ادّعت دَعْوى لم تصح أعْدَيتها عليَّ! قال صاحبُ الشرطة: إن رأى الأميرُ أن يُعفيني من ذلك! فقال: امضِ، وَيْلَكَ! فخرج، وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا لي

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٢.
(٢) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي، عالم فقيه، اشتهر بقوة ذكائه، وسرعة بديهته، ولي قضاء الكوفة سنة ١٥٣ هـ، وكان مثالًا للعدل والنزاهة في قضائه، توفي سنة ١٧٧ هـ.
(٣) الطينة: القطعة من الطين.
(٤) أعدى عليه: أعان.

إلى حَبْس القاضي بِسَاطًا وفراشًا، وما تدعُو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شَرِيك، فلما وقف بين يديه أدّى إليه ما قاله موسى؛ فقال لغلام المجلس: خذ بيده فضَعْه في الحبس. فقال صاحب الشرطة: والله قد علمتُ أنك تحبسني، فقدمتُ ما أحتاج إليه في الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر؛ فوجّه الحاجبَ إليه، وقال له: رسولٌ أدّى رسالة أيُّ شيء عليه! فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه في الحَبْس، فحُبس.

فلما صلّى الأمير العصر بعث إلى إسحٰق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شَرِيك، وقال لهم: أَبْلِغُوه السلام، وأعلموه أنه استخفَّ بي. وأني لستُ كالعامَّة؛ فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم، قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في جمع من الناس، فكلمتموني؟ مَن هٰهنا من فِتْيَان الحي؟ فأجابه جماعة من الفتيان فقال: ليأخذْ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فِتنةٌ وجزاؤكم الحبس. قالوا له: أجادٌّ أنت؟ قال: نعمْ، حتى لا تعودوا لرسالةِ ظالم. فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى في الليلة إلى باب السجن، وفتح الباب، وأخرجهم كلهم، فلمّا كان من الغد، وجلس شريك للقضاء جاءه السجّان، فأخبره، فدعا بالقِمْطر[1] فختمه، ووجّه به إلى منزله، وقال لغلامه: الْحَقْ بثَقَلي[2] إلى بغداد، والله ما طلَبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعْزَازَ إذ تقلدْناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد، وبلغ الخبرُ إلى موسى بن عيسى، فركب في موكبه، فلحقه، وجعل يناشده الله، ويقول: يا أبا عبد الله؛ تثبّت، انظر إخواني، أتحبسهم! قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمرٍ لم يَجُزْ لهم المشي فيه، ولستُ ببارح أو يُردّوا جميعًا، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي، فاستعفيتُه مما قلدَني.

فأمر موسى بردّهم جميعًا إلى الحَبْس، وهو واقفٌ مكانه حتى جاء السجّان، فقال: قد رَجَعُوا جميعًا إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بلِجَام دابته بين يدي إلى مجلس الحكم، فمرّوا به بين يديه حتى أُدخِلَ المسجد وجلس في مَجْلس القضاء،

(١) القمطر: وعاء الكتب.

(٢) الثقل: المتاع.

فجاءت المرأة المتظلمة؛ فقال: هذا خَصْمُكِ قد حضر، فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كلِّ أمرٍ أنا قد حضرت، أولئك يخرجون من الحبْس، فقال شَريك: أما الآن فنعم! أَخْرِجوهم من الحبس، فقال: ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة؟ قال: صدَقَتْ، قال: تردُّ ما أخذتَ منها، وتبني حائطها سريعًا كما كان. قال: أفعل ذلك، قال لها: أَبَقِيَ لكِ عليه دعوى؟ قالت: لا، وبارك الله عليك، وجزاك خيرًا. قال: قومي، فقامت من مجلسه.

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأَجْلَسَه في مجلسه؛ وقال: السلام عليك أيها الأمير، أتأمرُ بشيء؟ فقال: بأَيّ شيء آمر؟ وضحك، فقال له شريك: أيها الأمير، ذاك الفعل حقُّ الشرع، وهذا القول الآن حق الأدب؛ فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه.

قاضٍ يطلب إقالَته مِنَ القضَاء[١]

نُقل أن عاقبةَ بنَ يزيد القاضي كان يَلِي القضاء ببغداد للمهديّ؛ فجاء في بعض الأيام وقتَ الظهر للمهديّ، وهو خال، فاسْتأذَنَ عليه، فلما دخل استأذنه فيمَنْ يُسَلِّمَ إليه القِمَطْر[٢] الذي فيه قضايا مجلس الحكم، واستعفاه من القضاء، وطلب منه أن يُقِيلَه من ولايته.

فظن المهدي أن بعضَ الأولياء قد عارضه في حُكْمه، فقال له في ذلك: إنه إن كان قد عارضك أحد نُنْكِر عليه. فقال القاضي: لم يكن شيء من ذلك. قال: فما سبب استعفائك من القضاء؟ قال: يا أمير المؤمنين؛ تقدّم لي خَصْمَان منذُ شهر في قضية مُشْكِلة، وكلٌّ يدّعي بينةً وشهودًا، ويُدْلي بحُجج تحتاج إلى تأمُّل وتلبُّث، فَرَددت الخصوم رجاء أن يَصْطَلِحوا وأن يظهرَ الفصل بينهما، فسمع أحدُهما أني أحبُّ الرُّطَب، فَعمد - في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب - فجمع رُطبًا لا يتهيّأ الآن جمعُ مِثْلِه لأمير المؤمنين، وما رأيت أحسنَ منه، ورشا بوّابي بدراهم على أن يُدْخِل الطَّبَق عليّ.

فلما أدخله عليّ أنكرتُ ذلك، وطردت بوّابي، وأمرتُ بردّ الطبق، فردّ عليه.

---

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٠.
(٢) ما تصان فيه الكتب.

فلما كان اليوم تقدَّم الخصمان إليَّ فما تَساويا في عيني ولا قلبي؛ فهذا يا أمير المؤمنين ولم[١] أقبل، فكيف يكون حالي لو قَبِلت، ولا آمن أن تقعَ عليَّ حِيلةٌ في ديني، وقد فسد الناس؛ فأَقِلْني يا أمير المؤمنين، أقالك الله، وأعفني، عفا الله عنك.

أبو دُلَامة وابن أبِي لَيلى القَاضِي[٢]

شهد أبو دُلامة لجارةٍ له عند ابن أبي ليلى[٣]. القاضي على أتانٍ نازعها فيها رجل، فلما فرغ من الشهادة، قال لابن أبي ليلى: اسْمَعْ ما قلتُ قبل أن آتِيَك، ثم اقْضِ بما شئت. قال: هاتِ، فأنشده:

إنِ الناسُ غَطَّوني تَغَطَّيْتُ عنهُمُ ... وإن بَحَثُوا عني ففيهم مَبَاحِثُ
وإن حَفَروا بئري حفرتُ بِئَارَهُمْ ... لِيُعْلَمَ يومًا كيف تلك النَّبَائِثُ[٤]

فأقبل القاضي على المرأة وقال: أَتَبيعِينَني الأتان؟ قالت: نعم. قال: بكم. قالت: بمائة درهم! قال: ادفعوها إليها، ففعلوا.

وأقبل على الرجل، فقال: قد وهبتُها لك. وقال لأبي دلامة: قد أمضيت شهادتك، ولم أَبْحَثْ عنك، وابتعتُ ممن شهدتَ له، ووهبت مِلكي لمن رأيتُ. أرضيتَ؟ قال: نعم، وانصرف.

صَاحِب شرطَة المهدي مَع الهَادِي[٥]

قال عبدُ الله بن مالك: كنت أتولّى الشرطة للخليفة المهدي، وكان يبعث إليّ في نُدماء ولده الهادي أن أضربَهم وأحبَسهم، صيانةً للهادي عنهم، فيبعث إليّ الهادي يسألني الرفْقَ بهم، والتخفيف في أمرهم، فلا ألتفتُ إلى ذلك، وأَمْضي لما يأمرُ به المهدي. فلما ولي الهادي الخلافة أيقنتُ بالتَّلف، فبعث إليّ يومًا، فحضرت ودخلتُ عليه متكفِّنًا مُتَحَنِّطًا، وإذا هو جالسٌ على كرسي والنِّطْعُ والسيفُ بين يديه، فسلّمتُ عليه، فقال: لا سَلَّم الله عليك، تذكر يومًا بعثتُ إليك في أمر

---

(١) جملة حالية، والمعنى: فهذا ما حصل عندي، مع أني لم أقبل منه الهدية.
(٢) معاهد التنصيص: ١ ـ ٢١١، الأغاني: ١٠ ـ ٢٣٨.
(٣) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمٰن قاضي الكوفة.
(٤) النبائث: ما يستخرج من تراب البئر إذا حفرت.
(٥) العقد الفريد للملك السعيد: ١٢٤، عصر المأمون: ١ ـ ١٠٧.

الحرّاني لَمَّا أمر أمير المؤمنين بضرْبه، فلم تُجِبني؟ وفي فلان وفلان ـ وجعل يعدِّدُ ندماءه.

قلتُ: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أفتأذنُ لي أن أتكلم؟ قال: نعم. قلت: أَنشَدْتُك الله! أيسرُّك أنّك ولّيتني ما ولّاني أبوك وأمرتني بأمر؛ فبعث إليّ بعضُ ولدك بأمرٍ يخالفُ أمرك فاتّبعتُ أمرَه، وعَصيت أمرك؟ قال: لا. قلت: فكذلك أنا لك، وكذلك كنتُ لأبيك.

فاستَدْناني فقبّلتُ يده، فأمر بخَلع أُفيضت عليَّ، وخرجتُ من عنده، وصرتُ إلى منزلي مفكرًا في أمره وأمري، وقلت في نفسي: قد يحدِّث القومَ بالأمر الذي عصيته فيه، وهم ندماؤه ووزراؤه وكتابه، فكأني بهم قد أزالوه عن رأيه فيَّ وحملوه في أمري على ما كنت أتخوفه.

قال: فإني لجالس وبين يديّ خُبْزٌ مَشْطُورٌ بكَامَخ(١)، وأنا أسخِّنه وأُطْعِمُهُ الصِّبْية، وإذا ضجَّةٌ عظيمة، حتى توهمتُ أن الدنيا قد اقتُلِعت وزُلزلت من شدة وَقْع حوافر الخيل والدواب، وكَثْرَةِ الضوضاء، فقلت: هاه! والله قد جاء الأمر، وإذاَ البابُ قد فُتِح، وإذا الخدمُ قد دخلوا، وأميرُ المؤمنين الهادي في وسطهم.

فلما رأيته وثبتُ من مجلسي مبادرًا، فقبَّلْتُ يده ورجلَه. فقال لي: يا عبد الله؛ إني فكرتُ في أمرك بعد انصرافك، فقلت: يَسْبق إلى قلبك أني إذا جلستُ وحولي أعداؤُك الذين أسأتَ إليهم أزالوا ما حَسُنَ من رأيي فيك، فأقلقكَ ذلك وأوحشك، ومنعك القَرار، فصرتُ إلى منزلك لأؤانسك، وأعلمك أن الوَحشة قد زالتْ عن قلبي، فهات فأَطْعِمْني مما كنتَ تأكل، وافعلْ فيه ما كنت تفعل، حتى تعلم أن الوَحْشة قد زالت، وقد تحرَّمتُ(٢) بطعامك، وأَنِستُ بمنزلك، ليزُولَ خوفُكَ ووحشتك.

فأَدْنَيت منه ذلك الرُّقَاق والسُّكُرُجة(٣) التي فيها الكَمَخ، فأكل؛ ثم قال: هاتوا ما أحضرتموه لعبد الله من مجلسي. فأُدْخِلَتْ بغالٌ كثيرة مُوقَرَةٌ(٤) دراهم

---

(١) الكامخ: نوع من الأدم.   (٢) تحرم منه بحرمة: تمنع وتحمى.

(٣) إناء صغير يؤكل فيه الشيخ القليل من الأدم، وهي فارسية، وأكثر ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها.

(٤) أوقر دابته: حملها.

وأطعمة، وقال: هذه لك فاستَعِنْ بها، وهذه البغال أيضًا، وقد ولَّتك ما كان أبي قد ولاك. ثم انصرف، وصِرتُ بعد ذلك أعَد من صَنَائِعِه.

لَا أفلَح قاضٍ لَا يقيم الحَق[١]

كان عبيد بن ظبيان[٢] قاضي الرشيد بالرَّقَّة ـ وكان الرشيد إذ ذاك بها ـ فجاء رجلٌ إلى القاضي، فاستعداه[٣] على عيسى بن جعفر، فكتب إليه القاضي ابن ظبيان: «أما بعد، أبقى الله الأمير وحفظه وأتمَّ نعمته، فقد أتاني رجل فذكر أنه فلان ابن فلان، وأن له على الأمير ـ أبقاه الله تعالى ـ خمسمائة ألف درهم، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحكم، أو يوكّل وكيلًا يناظر خَصْمَه، أو يرضيه فعله.

ودفع الكتابَ إلى رجل، فأتى بابَ ابن جعفر، فدفع الكتاب إلى خادِمه. فأوصلَه إليه، فقال له: قل له: كُل هذا الكتاب.

فرجع الرجل إلى القاضي؛ فأخبره، فكتب إليه: «أبقاك الله وأَمْتَع[٤] بك، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان، وذكر أنَّ له عليك حقًّا، فسِرْ معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى».

ووجَّه الكتابَ مع عَوْنين[٥] من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر، ودفعا الكتاب إليه فغضب، ورمى به. فانطلقا، فأخبراه فكتب إليه: «حفظك الله وأَمْتَعَ بك، لا بدَّ أن تصير أنت أو وكيلُك إلى مجلس الحكم، فإن أبيتَ أنهيتُ أمرك إلى أمير المؤمنين ـ إن شاء الله».

ثم وجّه الكتابَ مع رجلين من أصحابه، فقَعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع؛ فقاما إليه، ودفعا إليه كتابَ القاضي، فلم يقرأه، ورمى به، فعَادَا فأَبلغاه ذلك، فختم قِمَطْره[٦]، وأغلق بَابَه، وقعد في بيته.

فبلغ الخبرُ إلى الرشيد فدعاه، وسأَله عن أمره، فأخبره الخبر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أعفِني من هذه الولاية، فوالله لا أَفْلَحَ قاضٍ لا يُقيم الحقَّ على القويّ

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٤، (٢) قاضي الرقة.
(٣) استعديت القاضي على الظالم: طلبت منه النصرة.
(٤) أبقاك الله استمتع بك. (٥) العون: الظهير.
(٦) القمطر: ما يصان فيه الكتب.

والضعيف، فقال له الرشيد: مَنْ يمنَعُك من إقامةِ الحق؟ فقال: عيسى بن جعفر، فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان: سِرْ إلى دار عيسى بن جعفر، واخْتِم أبوابَه كلها، لا يخرج منها أحدٌ، ولا يدخل إليها أحد، حتى يخرجَ إلى الرجل من حقِّه، أو يسيرَ معه إلى مجلسِ الحكْم.

فأرسل إبراهيم إلى دارِ ابنِ جعفر بخمسمائة فارس، وأغلق الأبواب كلّها، فتوهَّم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأيٌ في قتله، ولم يعرف الخبر، فجعل يكلّم الأعوانَ من خَلْف الباب. وارتفع الصُّرَاخ في منزله، وضجّ النساء.

ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم: ادعُ لي أبا إسحـٰق لأُكَلِّمه. فاعلموه، فجاء حتى وقفَ على الباب، فقال له عيسى: وَيْحَك! ما حالُنا؟ فأخبره خبر القاضي ابن ظبيان، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأُحضرت، وأمر أن تُدْفَع إلى الرجل. فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره. فقال: إذا قبض الرجلُ ماله، فافتح أبوابه، وعرِّفه أنَّ ما رأيتَه من سيرتك مع القاضي؛ فإياك ومعارضته.

الغَادِر مَخذول[1]

قال عَمْرو بن حَفْص مولى الأمين: دخلت على محمد الأمين في جوف الليل، وكنتُ من خَاصَّتِه، أصِلُ إليه حيث لا يصل إليه أحد من مواليه وحشمه، فوجدته والشمعُ بين يديه، وهو يُفكّرُ، فسلّمتُ عليه فلم يردّ عليّ، فعلمت أنه في تدبير بعضِ أمُوره، فلم أزلْ واقفًا على رأسه، حتى مضى أكثرُ الليل. ثم رفع رأسَه إليّ فقال: أحْضِر لي خزيمة بن خازم[2]، فمضيتُ إليه فأحضرتُه، فلم يزل في مُنَاظرته حتى انقضى الليل؛ فسمعتُ خزيمة وهو يقول: أَنْشُدُكَ الله يا أمير المؤمنين ألَّا تكون أول الخلفاء نكثَ عهده، ونَقَض ميثاقه، واستخفَّ بيمينه، وردَّ رَأْيَ الخليفة قبله. فقال: اسكت؛ لله أبوك! فعبد الله بن خازم[3] كان أفضلَ منك رأيًا وأكملَ نظرًا حيث يجتمع فَحْلَان في هَجْمة[4].

(١) عصر المأمون: ١ ـ ٢٠٤.

(٢) والٍ من أكابر القواد في عصر الرشيد والأمين والمأمون، توفي سنة ٢٠٣ هـ.

(٣) عبد الله بن خازم: كان من أشجع الناس، له فتوح وغزوات، وولي إمرة خراسان لبني أمية، توفي سنة ٧٢ هـ.

(٤) الهجمة من الإبل: ما بين السبعين إلى المائة.

ثم جمع وُجوهَ القواد، فكان يعرضُ عليهم واحدًا واحدًا ما اعتزمه فَيَأْبَونَه، وربما ساعده قوم، حتى بلغ إلى خُزيمة بن خازم، فشاوره في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ لم ينصحْك مَنْ كَذَبك، ولم يغشك من صَدَقَك، لا تجرِّيء القوَّاد على الخَلْع فيخلعوك، ولا تَحْمِلهم على نَكْث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك؛ إن الغادر مخذول والناكث مَفْلول.

رَجُلٌ يُقَاضِي المَأْمُونَ[١]

دخل رجلٌ على المأمون[٢]، وفي يده رقعةٌ فيها مَظْلِمةٌ[٣] من أميرِ المؤمنين، فقال: أمظلِمةٌ مني! فقال الرجل: أفأُخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك!

قال: وما هي ظُلامتك؟ قال: إن سعيدًا وكيلَك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار. قال: فإذا اشتَرى سعيدٌ منك الجواهر تشكو الظُّلامة مني! قال: نعم، إذ كانت الوَكَالةُ قد صحَّتْ منك. قال: لعل سعيدًا قد اشترى منك الجوهر، وحَمَل إليك المال، أو اشْتَراه لنفسه؛ وعليه فلا يَلْزَمني لك حقٌّ، ولا أعرفُ لك ظُلَامة. فقال له: إن في وصيَّةِ عُمر بن الخطاب لقُضَاتكم: «البيِّنةُ على مَن ادَّعى، واليمينُ على مَن أَنْكَر».

قال المأمون: إنك قد عَدِمْتَ البيِّنة؛ فما يجبُ لك إلا حَلْفَةٌ، ولَئِن حَلَفْتُها لَأَنا صَادِقٌ؛ إذ كنتُ لا أعرفُ لك حقًّا يلزمني. قال: إذن أدْعوك إلى القاضي الذي نصبتَه لرعيَّتِك. قال: نعم! يا غلام، عليَّ بيحيىٰ بن أكْثم[٤]، فإذا هو قد مثَل بين يَدَيْه، فقال له المأمون: اقْضِ بيننا، قال: في حُكْمٍ وقضيَّة؟ قال: نعم، قال: إنك لم تجعلْ ذلك مجلسَ قضاء. قال: قد فعلت.

قال: فإني أبدأ بالعَامَّة أولًا ليَصْلُحَ المجلسُ للقضاء. قال: افعلْ.

---

(١) عصر المأمون: ١ ٣٤٦.

(٢) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد من أعاظم خلفاء بني العباس وعلمائهم وحكمائهم، كان كريم الخلق عظيم الحلم محبًا للعلم مؤثرًا للحكمة، توفي سنة ٢١٨ هـ.

(٣) المظلمة: ما تطلبه عند الظالم، وكذلك الظلامة.

(٤) يحيىٰ بن أكثم: قاض رفيع القدر، عالي الشهرة، من نبلاء الفقهاء، يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب، ولاه المأمون قضاى البصرة وهو شاب، ثم قلّده القضاء ببغداد. توفي سنة ٢٤٢ هـ.

ففتح الباب وقعد في ناحيةٍ، وأذِن للعامة، ثم دُعِي بالرجل المتظلِّم، فقال له يحيىٰ: ما تقول؟ قال: أقول: عليك أن تدعوَ بخَصْمي أميرِ المؤمنين المأمونِ. فنادى المنادي؛ فإذا المأمون قد خرج، ومعه غلام يحمل مُصَلّى، حتى وقف على يحيىٰ وهو جالس؛ فقال له: اجلس؛ فطرح المصلّى ليقعدَ عليها؛ فقال له يحيىٰ: يا أميرَ المؤمنين؛ لا تَأْخُذْ على خَصْمك شَرفَ المجلس، فطرح له مصلى ثم نظر في دَعْوى الرجل، وطالبَ المأمونَ باليمينِ فحلفَ، ووثب يحيىٰ بعد فراغ المأمون من يمينه، فقام على رجليه؛ فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنتُ في حقِّ الله عزّ وجلّ حتى أخذتُه منك، وليس الآن من حقي أن أَتَصَدَّر[١] عليك.

ثم أمر المأْمُونُ أن يُحصَر ما ادعى الرجل من المال، وقال له: خذه إليك، والله ما كنتُ أحلفُ على فَجْرَة[٢]؛ ثم أسمح لك بالمال فأُفْسِد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعتُ إليك هذا المال إلا خوفًا من هذه الرعية، لعلها ترى أَنّي تناولتُك من وَجْهِ القُدْرة، وإنها لتعلم الآن أني ما كنت أَسْمَحُ لك باليمين وبالمال.

لَا يَخلُو أَحَد مِنْ شَجَن[٣][٤]

دخل طاهر بن الحسين[٥] على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون ـ فيما قيل ـ في مجلس شراب، فأمر برِطْلَين من النبيذ، ثم بكى المأمون، واغْرَوْرَقَت عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين؛ لِمَ تبكي لا أَبْكَى الله عَيْنك! فوالله، لقد دانت لك البلاد، وأَذْعَن[٦] لك العباد، وصرتَ إلى المحبة في كل أمرك. فقال: أبكي لأمرِ ذكرهُ ذلٌّ، وسَتْرُه حزن، ولن يخلوَ أحدٌ من شَجَن، فتكلّمْ بحاجة إن كانت لك.

فما زال طاهر بعد ذلك يتّخذ الوسائل إلى معرفةِ السبَب، حتى وُفّقَ بالمال إلى إغراء ساقي المأمون أن يتعرف كنه ذلك السبب.

---

(١) أتصدر: أتقدم.

(٢) حلف على فجرة: إذا ركب أمرًا قبيحًا من يمين كاذبة أو كذب.

(٣) الشجن: الهم والحزن. (٤) عصر المأمون: ١ ـ ٢٧٠.

(٥) كان طاهر بن الحسين قائدًا من قوّاد المأمون، وهو الذي تولّى قتل الأمين ونصب رأسه سنة ١٩٨ هـ.

(٦) أي خضعوا لك.

فلما تغدّى المأمون ذات يوم قال لساقيه: يا حسين؛ اسْقِني، قال: لا والله لا أسقيك أو تقولَ: لم بكيتَ حين دخل عليك طاهر؟ قال: يا حسين؛ وكيف عُنيتَ بهذا حتى سألتَني عنه؟ قال: لِغَمِّي بذلك. قال: هو أمرٌ إن خرج من رأسك قَتَلْتُك، قال: يا سيدي؛ ومتى أخرجتُ لك سِرًّا! قال: إني ذكرت محمدًا أخي، وما ناله من الذلة، فخنقتني العَبْرَة فاسترحت إلى الإفاضة؛ وأن يفوتَ طاهرًا مني ما يكره.

فأخبر حسين الساقي طاهرًا بذلك فركب طاهرٌ إلى أحمد بن أبي خالد ـ وهو وزير المأمون ـ فقال له: إن الثناءَ مني ليس برخيص، وإن المعروفَ عندي ليس بضائع، فغيِّبني عن عين المأمون. فقال: سأَفعل؛ فبكّر عليَّ غدًا.

وركب ابنُ أبي خالد إلى المأْمون، فلما دخل عليه قال له: ما نمتُ الليلة، فقال له: ولِمَ وَيحَك! قال: لأنك وليتَ غسانَ خراسان، وهو ومَنْ معه أَكَلة رأس[1]، فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فيَصْطلمه[2].

قال: لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه. فَمنْ ترى؟ قال: طاهر بن الحسين. قال: ويلك يا أحمد! قال: أنا الضامن له. قال له: فأنْفِذْه[3].

فدعا بطاهر من ساعته، وجعله حاكمًا على خراسان.

كَيف يَعتذِرُ إنسَانٍ مِن كَلام تكلّم بهِ[4]

حدَّث أحمد بن أبي خالد الأحول أنه سمع المأمونَ يومًا ـ وعنده عليّ بن هشام، وأخواه ـ ذكر عَمْرَو بن مسعدة[5]، وقال: أيحسَبُ عَمْرو أني لا أعرف أخبارَه، وما يُجْبَى إليه، وما يعاملُ به الناس! بلى والله، ونهض وانصرفنا.

فقصدتُ عَمْرًا من ساعتي، فخبَّرتُه بما جرى، وأُنْسيتُ أن أستحلّه من حكايته عنّي، فراح عمرو إلى المأمون، فظنَّ المأمونُ أنه لم يحضُرْ إلا لأمرٍ مهمّ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة، فأَذِن له.

---

(١) يريد أن عددهم قليل، يشبعهم رأس واحد. (٢) اصطلمه: استأصله.
(٣) المراد: أرسله، ونفذ رأيك. (٤) عصر المأمون: ١ ـ ٣٤٢.
(٥) وزير المأمون وأحد الكتّاب البلغاء توفي سنة ٢١٧ هـ.

فلما دخل عليه وضع سَيْفَه بين يديه، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنا عائذٌ بالله من سُخْطِه، ثم عائذ بك من سُخْطك يا أمير المؤمنين، أنا أقلُّ من أن يشكوَني أميرُ المؤمنين إلى أحد، أو يُسِرَّ عليَّ ضِغْنًا يبعثُه بعضُ الكلام على إظهار ما يظهر منه.

فقال: وما ذاك؟ فخبَّره عمرو بما بلَغَه، ولكنه لم يُسَمِّ له مُخْبرَه. فقال المأمونُ: لم يكن الأمرُ كما بَلَغك، وإنما كانت جملةً من تفصيلٍ كنتُ عَلَى أن أُخبرك به، وإنما أخرج مني ما خرج معنًى تَجارَيْنَاه، وليس عندي إلا ما تحبُّ، فليُفْرِخ رَوْعُك[1]، ولْيَحْسُنْ ظنُّك. فأعدت الكلام، فما زال يسكُنُ مني، ويطيِّب من نفسي، حتى ذَهب بعضُ ما كان في قلبي، ثم بدأ فضمَّني إلى نفسه، وقبَّلت يده، فأهْوَى ليعانقَني؛ فشكرته، وتبيَّنتُ في وجهه الحَيَاء والخجل مما تأدَّى إليّ.

قال أحمد: فلما غدوتُ على المأمون، قال لي: يا أحمد؛ أما لمجلسي حُرْمَةٌ! فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين؛ وهل الحُرَم إلا لما فصل عن مجلسك! قال: ما أراكم تَرْضَوْن بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت: وأيةُ معاملةٍ يا أمير المؤمنين؟ هذا كلامٌ لا أعرفه؛ قال: بلى، أما سمعتَ ما كُنَّا فيه أمس من ذكر عمرو!

ذهب بعضُ مَن حضر من بني هاشم فخبّره به، فراح إليَّ عمرو مُظْهِرًا منه ما وجب عليه أن يُظْهِره، فدفعتُ منه ما أمكن دَفْعُه، وجعلتُ أعتذرُ إليه منه بعذرٍ قد تبيَّن فيَّ الخجلُ منه، وكيف يكونُ اعتذارُ إنسان من كلام قد تكلم به! ألا يتبيَّن في عينيه وشفتيه ووجهه! ولقد أعطيتُه ما كان يقنع مني بأقلَّ منه، وما حَدَاني عليه[2] إلا ما دخَلَني من الخسَاسة، وما كان قد نَطَق به اللسانُ من غير رويَّة ولا احتمال مكروه به.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أنا أخبرتُ عَمرًا به، لا أحدٌ من ولد هاشم؛ فقال: أنت! قلت: أنا، فقال: ما حملَك على ما فعلتَ؟ فقلت: الشكرُ لك

(١) ليفرخ روعك: ليذهب رعبك وفزعك، فإن الأمر ليس على ما تحاذر. قال الأزهري: كل مَن لقيته من اللغويين يقول: أفرخ روعه ـ بفتح الراء من روعه ـ إلا ما أخبرني به المنذري أنه كان يقال: إنما هو أفرخ روعه ـ بضم الراء.

(٢) ما حداني: ما بعثني وحملني.

والنصحُ والمحبة لأن تتمَّ نعمتُك على أوليائك وخَدَمك؛ أنا أعلمُ أن أميرَ المؤمنين يُحِبُّ أن يَصلُح له الأعداء والبُعَدَاء، فكيف الأولياءُ والأقرباء! ولا سيما مثل عمرو في دُنُوّه من الخدْمة وموقعِه من العمل، ومكانِه من رأيِ أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه!

سمعتُ أمير المؤمنين أَنْكَر منه شيئًا فخبَّرته به ليُصْلِحَه، ويقوِّمَ من نفسه أَوَدَها لسيّده ومولاه، ويتلافى ما فرَط منه، ولا يفسده مثله؟ وإنما يكون ما فعلتُ عَيبًا، لو أَشَعْتُ سرًّا فيه قدحٌ[١] في السلطان، أو نقضُ تدبيرٍ قد استتبّ، فأمّا مثلُ هذا فما حسبتُه يبلغ أن يكون ذنبًا عليّ.

فنظر إليّ مليًّا، ثم قال: كيف قلتَ؟ فأعدتُ عليه: ثم قال: أعِدْ، فأعدتُ، فقال: أحسنتَ والله يا أحمد، لمَا خبّرتني به أحبُّ إليّ من ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف.

وعقد خِنصَره وبِنصَرَه والوُسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلنَفْيِك عني سوءَ الظنّ - وأَطْلَق وُسطَاه - وأما ألف ألف فلِصِدْقك إيّاي عن نَفسْك - وأطلق البنصر - وأما ألف ألف فلِحُسْن جوابك - وأطلق الخِنْصَر - وأَمَرَ لي بمال.

غَرْسُ يَدي وَإِلْفُ أَدَبِي[٢]

قال رجل من إخوة المأمون للمأمون: يا أمير المؤمنين، إنَّ عبدَ الله بن طاهر[٣] يميل إلى ولد أبي طالب، وكذا كان أبوه قبله؛ فدفع المأمونُ ذلك وأنكره، ثم عاد بمثل هذا القول.

فدسّ المأمون إلى عبد الله بن طاهر رجلًا. ثم قال له: امْضِ في هيئة القُرَّاء والنّساك إلى مصر، فادْعُ جماعةً من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، واذكُرْ مناقبَه وعلمَه وفضائلَه، ثم صِرْ بعد ذلك إلى بعضِ بطانة عبد الله بنِ طاهر، ثم ائْتِه فادعُه ورَغِّبه في استجابته له، وابحثْ عن دَفِينِ نِيّتِه بحثًا شافيًا، وائتِني بما تسْمَعُ منه.

---

(١) قدح: عيب.

(٢) عصر المأمون: ١ - ٣٣٧.

(٣) عبد الله بن طاهر: من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولّاه المأمون خراسان، كان عالي الهمة شهمًا نبيلًا توفي سنة ٢٣٠ هـ.

ففعل الرجلُ ما قال له وأمره به، حتى إذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام قعد يومًا بباب عبد الله بن طاهر، ودفع رُقْعَة إلى الحاجب ليوصلها إليه، فأَذن له، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ما بينَه وبين الأرض غيره، وقد مدّ رجليه وخُفَّاه فيهما، فقال له: قد فهمتُ ما في رُقْعتك من جملة كلامك، فهاتِ ما عندك.

قال: ولي أمانُك وذمةُ الله معك؟ قال: لك ذلك.

فأظهر له ما أراد، ودعاه إلى القاسم فأخبره بفضائلِهِ وعلْمِهِ وزُهْده، فقال له عبد الله: أتُنْصِفُني؟ قال: نعم، هل يجب شكر الله على العبادة؟ قال: نعم، قال: فهل يجب شكرُ بعضِهِم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضل؟ قال: نعم.

قال؛ فتجيء إليّ وأنا في هذه الحال التي ترى؛ لي خاتم في المشرق وفي المغرب، وفيما بينهما أمري مُطَاع وقولي مقبول، ثم ما التفتُّ يميني ولا شمالي وورائي وقدامي إلا رأيتُ نعمةً لرجل أنْعَمَهَا عليَّ، ومنّةً طوّق بها رقبتي، ويدًا لائحةً بيضاء ابتدأني بها تفضلًا وكرمًا، فتدعونَني إلى الكُفْرِ بهذه النعمة وهذا الإحسان! وتقول: اغْدِر بمن كان أوّلًا لهذا وآخرًا! واسْعَ في سفك دَمِه! تراك لو دعوتَني إلى الجنة عيانًا من حيث أعلم، أكان الله يُحِبُّ أن أغْدِر به وأَكْفُرَ بإحسانه ومنّته، وأنْكُثَ بَيْعته!

فسكت الرجل، فقال له عبد الملك: أما إنه قد بلغني أمرُك، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذا البلد؛ فإن السلطانَ الأعظم إن بلغه أمرُك ـ وما آمن ذلك عليك ـ كنتَ الجانيَ على نفسك ونفسِ غيرِك.

فلما يئس الرجل مما عنده جاء إلى المأمون فأخبره الخبر، فاستبشر وقال: ذلك غرسُ يدي وإلفُ أدبي.

غَسّان بن عَبّاد وعَلِيّ بن عِيسى[1]

كان بين غسان بن عباد وعلي بن عيسى عداوةٌ عظيمة، وكان عليّ بن عيسى ضامنًا[2] أعمالَ الخراجِ والضّياع ببلده؛ فبقيت عليه بقيّة مبلغها أربعون ألف دينار،

(١) ثمرات الأوراق: ٢ ـ ٣٠.
(٢) ضمن الشيء: كفله.

فألحّ المأمون عليه بطَلبِها، إلى أن قال لعليّ بن صالح الحاجب: أمْهِلْهُ ثلاثة أيام؛ فإن أحضَر المالَ وإلا فاضْرِبه بالسياط حتى يؤدّيَ المال أو يَتْلف.

فانصرف عليّ بن عيسى من دار المأمون آيسًا من نفسه، وهو لا يدري وجهًا يتَّجِه إليه، فقال له كاتبه: لو عرّجت على غسان بن عباد وعرَّفْتَه خبرك لرجوت أن يعينك على أمرك، فقال له: عَلَى ما بيني وبينه من العداوة! قال: نعم، فإن الرجلَ أَرْيَحِيٌّ كريم.

فدخل على غَسَّان، فقام إليه وتلقاه بالجميل، وأوفاه حقه من الخدمة، ثم قال له: الحالُ الذي بيني وبينك كما علمت، ولكن دخولُك إلى داري له حرمةٌ توجب بلوغ ما رجوته مني، فإن كانت لك حاجةٌ فاذْكُرهَا.

فقصّ عليه القصّة؛ فقال: أرجو أن يكفيكه الله تعالى، ولم يزد على ذلك شيئًا.

فنهض عليّ بن عيسى، وخرج آيسًا نادِمًا على قَصْدِ غسَّان، وقال لكاتبه: ما أَفَدْتَني بالدخول على غَسَّان غيرَ تعجيل الشماتةِ والهوان.

فلم يصل عليّ بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتبُ غسان ومعه البغالُ عليها المال، فتقدّم وسلمه.

وبكّر إلى دار أمير المؤمنين، فوجد غسان قد سبقَه إليها، ودخل على المأمون وقال: يا أمير المؤمنين؛ إن لعليّ بن عيسى بحضرتك حرمةً وخدمةً وسالفَ أصل، ولقد لحقه من الخسران في ضمانه ما تعارَفَه الناس؛ وقد توعَّدته بضَرْبِ السياط بما أطار عقله وأذهب لُبّه؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجيزني على حُسْنِ كرمه ببعض ما عليه؛ فهي صنيعة يجددها عليَّ تَحْرُسُ ما تَقَدَّمها من إحسانه؛ ولم يزل يتلطّف إلى أن حطَّ عنه النصف، واقتصر على عشرين ألف دينار.

فقال غسان: على أن يجدِّدَ عليه أميرُ المؤمنين الضمان، ويشرِّفَهُ بخِلْعَةٍ تقوِّي نفسه، وتُرْهِف عزمه، ويعرف بها مكان الرِّضا عنه. فأجابه المأمون إلى ذلك.

قال: فيأذن أميرُ المؤمنين أن أحملَ الدواةَ إلى حضرته ليوقِّع بما رآه من هذا الإنعام! قال: افعل، فحمل الدواة إلى أمير المؤمنين، فوقّع بذلك. وخرج على ابن عيسى بالخِلْعَةِ، والتوقيعُ بيده.

فلما حضر عليّ بن عيسى إلى داره حمل من المال عشرين ألف دينار، وأرسلها إلى غسان، وشكر له جميلَ فعله معه. فقال غسان لكاتبه: والله ما شفعتُ عند أمير المؤمنين إلا لتُوَفَّر عليه وينتفعَ بها؛ فامضِ بها إليه، فلما ردَّها كاتبه إلى عليّ بن عيسى علم قدر ما فعل معه غسان، فلم يزل يعرفها له إلى آخر العمر.

فِطـنَـــة[1]

كان المعتضد[2] يومًا جالسًا في بيت يُبنَى له، وهو يشاهد الصُّنَّاع، فرأى في جملتهم عبدًا أسودَ مُنكَر الخَلْق، شديدَ المَرَح، يصعد على السلاليم مِرقاتين[3] مِرقاتين، ويحمل ضعف ما يحمل غيره. فأنكر أمرَه، وأحضره، وسأله عن سبب ذلك، فَلَجْلَجَ[4]. فقال لوزيره: قد خمَّنْتُ[5] في هذا تخمينًا ما أحسبه باطلًا، إما أنْ يكونَ معه دنانيرُ قد ظَفِر بها من غَيْرِ وجهها، أو يكون لِصًّا يتستَّر بالعمل. ثم قال: عليَّ بالأسود، فأحضره وضربه، وحلف إن لم يصدقه ليَضْرِبَنَّ عنقه. فقال الأسود: ولي الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، إلا ما كان من حدّ؛ فظنَّ أنه قد أمَّنه.

فقال: كنتُ أعمل في أتون الآجُر منذ سنين، فأنا منذ شهور جالس إذ مرَّ بي رجل في وسطه كيس، فتبعتُه وهو لا يعرف مكاني، فحلّ الهِمْيَان[6]، وأخرج منه دينارًا، فتأملْتُه فإذا كلُّه دنانير، فكتَفْتُه، وسدَدْتُ فاه، وأخذت الهِمْيَان، وحملته على كتفي، وطرحته في التَّنور، وطيَّنْتُ عليه. فلمّا كان بعد أيام أخرجتُ عظامه وطرحتها في دجلة، والدنانير معي تقوي قلبي.

فأرسل المعتضد من أحضر الدنانير، وإذا على الكيس: «لفلان ابن فلان» فنادى في المدينة، فحضرت امرأته، وقالت: هذا زوجي، وقد ترك طفلًا صغيرًا، خرج في وقت كذا ومعه كيس فيه ألف دينار، فغاب إلى الآن، فسلّم الدنانير إليها، وضرب عنق الأسود، وأمر أن يوضع في الأتُّون.

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ١٥٠.

(٢) بويع المعتضد للخلافة سنة ٢٧٧ وتوفي سنة ٢٨٠ هـ.

(٣) السلاليم: جمع سلم، والمرقاة: الدرجة.

(٤) اللجلجة: التردد.

(٥) التخمين: القول بالحدس والظن.

(٦) الهميان: وعاء للدراهم.

لا يتَّبع الهَوَى(١)

قال عبد الرحيم بن القاضي أسماعيل بن إسحٰق: كان في حِجْر أبي يتيم فبلغ، وله أمٌّ، وأختُها في دار الخليفة المعتضد بالله، فقالت أمُّ اليتيم لأختها: كلِّمي أمير المؤمنين حتى يرفعَ إسماعيلُ القاضي الحجْرَ عن وَلدي. فكلَّمته، فدعا المعتضد عبيد اللهبن سليمان بن وهب وزيرَه، وقال له: قُلْ لإسماعيل القاضي يفكُّ الحجرَ عن فلان. فقال القاضي: حتى أسألَ عنه، وقام فسأل عنه، فلم يُخْبَر عنه، برُشْد، فتركه.

ومضت على ذلك أيام، فرجعت والدة الصبيّ إلى أُختها، وسألتها أن تعاود أميرَ المؤمنين، وكان المعتضد لا يُعَاوَدُ لخشونته، فعاودته فقال: ألستُ قد أمرت! فقالت: لم يُرْفَع عنه الحجْرُ بعد، فدعا وزيره عبيد الله ثانيًا، وقال: أمرتُك أن تأمر إسماعيل القاضي بأن يَرْفع الحجْر عن فُلان! فقال: قد كنت قلت له ذلك، فقال: حتى أسأل عنه. فقال: قل له يرفع الحجر عنه. فدعاه الوزير ثانيًا، وقال له: أميرُ المؤمنين يأمرُك أن ترفعَ الحجْر عن فلان.

فأطرق القاضي ساعةً، ثم استعدى دَوَاة ورقة، وكتب شيئًا وخَتَمه، فاستعظم الوزيرُ أن يَخْتَمَ عنه كتابًا، ولم يقلْ له شيئًا لمحلّ إسماعيل من الوَرع والعلم ثم دفع ذلك للوزير، وقال له: توصَّل هذا إلى أمير المؤمنين فإنه جوابُه.

فأخذه الوزير ودخل على المعتضد، وقال: زَعَم أنَّ هذا جوابُ أمير المؤمنين! ففتح المعتضد الكتاب، وقرأه وألْقَاه، وقال: لا تعاودْه في هذا. فأخذ عبيد الله الوزير الكتاب، وإذا فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحقِّ، وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ اللهِ».

هِشام بن عَبد الرحمٰن الدَاخِل وأحَد صنَائعه(٢)

كان هشام(٣) بن عبد الرحمٰن الداخل قاعدًا لراحته في عُلِّيَّة(٤) على النهر في

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٨. (٢) نفح الطيب: ١ ـ ١٥٧.

(٣) ولد هشام سنة ١٣٩ هـ وتوفي سنة ١٨٠ هـ، وكان من أشرف الناس نفسًا، وأكرمهم طبعًا، وأكملهم مروءة، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام صباه، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز.

(٤) العلية: بالضم والكسر: الغرفة.

حياة والده، فنظر إلى رجل كنانيّ من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان[١]، قد أقبل يوضِعُ[٢] السير في الهاجرة؛ فأنكر ذلك، وقدَّر شرًّا وقع به من قِبلِ أخيه سليمان ـ وكان واليًا على جَيَّان ـ فأمر بإدخاله عليه، فقال: مَهْيَمْ[٣] يا كناني! فلأمرٍ ما قدمت! وما أحسبك إلا مزعَجًا لشيء دَهَمَك.

فقال: نعم يا سيدي، قَتلَ رجلٌ من قومي رجلًا خطأ، فقصدني أخوك بالاعتداء؛ إذ عرف مكاني منك.

فمدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قِلَادةً كانت في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كنانيّ، وشراؤه عليّ ثلاث آلاف دينار، فلا تُخْدعَنّ عنه، وبِعه وأدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تُمَكِّنِ الرجل من اهتضامك[٤].

فقال: يا سيّدي؛ لم آتِكَ مُسْتَجدِيًا، ولا لضيق المال عما حُمِّلَتُه، ولكني قُصِدْتُ بظلم صُرَاح أحببت أن يظهر عليّ عِزُّ نصرك؛ وأثَرُ ذَبِّكَ وامتعاضك فأتَمَاجَدُ[٥] بذلك عند مَن يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجهُ ذلك؟ فقال: أن تكتبَ إلى أخيك في الإمساك عني والقيام بذمَّتك لي. فقال: أَمْسِك العِقْد، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أَنْكره، فانزعج، وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمر مُقْلِق، ائذنوا له.

فلما دخل سلّم عليه: ومثَلَ قائمًا بين يديه، فقال له: اجلس يا هشام، فقال: أصلح الله سيدي الأميرَ! وكيف جلوسي بهمٍّ وذُلٍّ مُزْعَج! وحَقٌّ لمن قام مقامي ألّا يجلس إلا مطمئنًا، ولن يُقْعِدَني إلا طيبُ نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلا رجعتُ على عَقِبِي. فقال له: حَاشَ لك من انقلابك خائبًا، فاقعد مُجابًا مشَفَّعًا؛ فجلس، فقال له أبوه: فما الحدَثُ المُقْلِق؟ فأعلمه؛ فأمر بحَمْلِ الدية عنه، وعن عشيرته من بيت المال؛ فسُرَّ هشام وأطنب في الشكر، وكتب الأميرُ إلى ولده سليمان في ترك التعرّض لهذا الكنانيّ.

---

(١) جيان: بلد بالأندلس. (٢) أوضع: أسرع.
(٣) مهيم: كلمة استفهام: أي ما حالك وما شأنك أو ما وراءك؟
(٤) هضم فلانًا واهتضمه: ظلمه وغصبه. (٥) تماجد: تفاخر، وأظهر المجد.

ولما دخل الكنانيّ لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزتُ بك حد الأمنية، وبلغتُ غايةَ النصر، وقد أغنى الله عن العِقْد المبذول، فتعيده إلى صاحبته؛ فأبى ذلك وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا.

قَاضٍ لَا يقبَل شهَادَة خَليفَة[١]

وكّل سَعِيدُ بن عبد الرحمٰن الداخل عند ابنِ بشير القاضي وكيلًا يُخَاصِمُ عنه لشيء اضطر إليه، وكانت بيده وثيقةٌ فيها شهادات شهود قد ماتوا، ولم يكن فيها من الأحياء إلا الأمير الحكم وشاهدٌ آخر، فشهد لسعيد ذلك الشاهدُ وضُرِبت على وكيله الآجال في شاهد ثان، وجدّ به الخصام، فدخل سعيد بالكتاب على الحكم، وأراه شهادته في الوثيقة ـ وقد كان كتبها قبل الخلافة في حياة أبيه ـ وعرّفه حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفًا من بُطْلان حقه.

وكان الحَكَم يعظّم سعيدًا عمَّه ويلتزم مبرّته، فقال له: يا عم؛ إنا لسنا من أهل الشهادات، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تَجْهَلُه، وتخشى أن توقفنا مع القاضي مَوْقِف مَخْزَاةٍ كنّا نَفْديه بملكنا، فصِرْ في خِصامِك حيث صيّرك الحق إليه، وعليه رَدُّ ما انْتَقَصَك.

فأبى عليه وقال: سبحان الله! وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك، وأنت وليْته، وهو حسنةٌ من حسناتك! وقد لزمَك أن تشهدَ لي بما علمتَه، ولا تكتمنّي ما أخذ الله عليك.

فقال: بلى؛ إن ذلك مِنْ حقك كما تقول، ولكنك تُدْخِل علينا به داخلة، فإن أعفيتَنا منه فهو أحبُّ إلينا، وإن اضطررتنا لم يمكنّا عقوقُك.

فعزم عليه عزمَ مَنْ لم يشك أن قد ظفر بحاجته، فأَرسل الحكم عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه، وخطَّ شهادتَه بيده في قِرْطَاس، وختم عليها بخاتمه، ودفعها إلى الفقيهين، وقال لهما: هذه شهادتي بخَطّي، فأدّياها إلى القاضي.

فأتياه بها إلى مجلسه وقتَ قُعودِه للسماع من الشهود، فأدّيَاها إليه؛ فقال لهما: قد سمعتُ منكما، فقومَا راشدَيْن في حفظ الله!

(١) نفح الطيب ١: ٣٩١.

وجاء وكيل سَعِيد، وتقدم إليه مُدِلّاً واثِقًا، وقال له أيها القاضي: قد شهدَ عندك الأميرُ ـ أصلحه الله تعالى ـ فما تقول؟ فأخذ كتابَ الشهادة ونظر فيه، ثم قال للوكيل: هذه شهادةٌ لا تُقْبَلُ عندي، فجِئْني بشاهد عَدْل.

فدهش الوكيل، ومضى إلى سَعِيد فأعلمه، فركب من فَوْرِه إلى الحكَم، وقال: ذهب سُلْطَاننا، وأزيل بهاؤنا؛ أوَ يجترىء هذا القاضي على ردّ شهادتك، والله ـ سبحانه ـ قد استخلفك على عباده، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك! هذا ما يجب أن تَحْمِلَه عليه. وجعل يُغْرِيه بالقاضي ويحرِّضُه على الإيقاع به.

فقال له الحكَم: وهل شككتُ أنا في هذا يا عمّ! القاضي رجل صالح، لا تأخذه في الله لومةُ لائم، فعلَ ما يجبُ عليه ويلزمه؛ وسدّ دونه بابًا كان يصعب عليه الدخول منه، فأحسنَ الله جزاءه.

فغضب سعيد وقال: هذا حسبي منك! فقال له: نعم قد قضيتُ الذي كان لكَ عليّ، ولستُ ـ والله ـ أعارِضُ القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قَبْض يَدِ مِثله.

الباب السادس

قصص الفصحاء والبلغاء

قصص الخطب والخطباء

قصص الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة

قصص الشعر والشعراء وسرقاتهم

قصص الكتابة والكتاب

قصص الفصحاء والبلغاء

في البيان والبلاغة

قال في المستطرف[1]: أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن: الآيات ١ - ٤] وقال ﷺ: «إن من البيان لسحرًا». قال ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حده فقد قال الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى.

وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطّلاق: الآية ٢]. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ [القَلَم: الآية ٣٩]. أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية. وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندي: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندي: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ فقال: أقلهم لفظًا، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم». وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة. وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي، والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة. وقال البحتري: خير الكلام

---

(١) المستطرف: ص ٤٨.

ما قل وجل ودل ولم يمل. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان.

وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدانٌ نشأت به وكلّنا بقصور عنك نعترفُ
مَهِّد لي العذر نظم بعثت به من عنده الدرّ لا يُهدي له الصَّدفُ

وقال الثعالبي: البليغ مَن يحول الكلام على حسب الأمالي، ويخيط الألفاظ على قدر المعاني. والكلام البليغ ما كان لفظه فحلًا، ومعناه بكرًا. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه في حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة. وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحدة في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح.

وقال يحيىٰ بن خالد: ما رأيت رجلًا قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحًا عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني.

وقد اختلف الناس في الفصاحة، فمنهم مَن قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم مَن قال: إنها لا تخص الألفاظ وحدها واحتجّ مَن خصّ الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلًا يقول: هذا معنى فصيح، فدلّ على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني، وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف في كلام الناس، والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه

صحيحًا حسنًا. ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنتَ كنتَ كتمت الحبّ كنت كما كـنّـا وكـنـت ولـكـن ذاك لـم يـكـن

وكقول بعضهم أيضًا:

ولا الـضـعـف حـتـى يـبـلـغ الـضـعـف ضـعـفـه
ولا ضـعـف ضـعـف الـضـعـف بـل مـثـلـه ألـف

وكقول الآخر:

وقـبـر حـرب بـمـكـان قـفـر ولـيـس قـرب قـبـر حـرب قـبـرُ

قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلًا في النطق به. وقيل: مَن عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الخفي من أمره والمستور.

قال الشاعر:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ولم يبق إلّا صورة اللحمِ والدمِ

وسمع النبيّ ﷺ من عمه العباس كلامًا فصيحًا فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك. أي فصاحتك.

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيناء[1] يستجيزها أحمد الله كثيرًا. فقالت: حيث أنشأك ضريرًا. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها. وقال فيلسوف: كما أن الآنية تمتحن بأطيانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه.

(١) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي بالولاء، أديب فصيح من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جوابًا، كان ذكيًا جدًا وحسن الشعر ومليح الكتابة والترسل كف بصره وهو في الأربعين، توفي بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ.

وقال المبرد قلت للمجنون أجزني هذا البيت:

أرى اليوم يومًا قد تكاثف غيمهُ وإبراقه فاليوم لا شك ماطر

فقال:

وقد حجبت فيه السحائبُ شمسَه كما حجبت وردَ الخدود المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدّثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضًا. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت يعني كلامًا وصوابًا، قال: يا بني، ما رأيت موعوظًا أحق بأن يكون واعظًا منك. وقال الشعبي: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثك أحب إليَّ منها. وقال ابن عيينة: الصمت منام العلم، والنطق يقظته، ولا منام إلا بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام. قال ابن المبارك:

وهذا اللسان بريدُ الفؤاد يدلّ الرجالَ على عقلهِ

ومرّ رجل بأبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه، ومعه ثوب، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت ألسنتكم، هلا قلت لا ورحمك الله.

ومنه: ما حُكِيَ أن المأمون سأل يحيىٰ بن أكثم عن شيء، فقال: لا، وأيّد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال: اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم، وقال بعضهم شعرًا:

سحبان يقصر عن بحور بيانه عجزًا ويغرق منه تحت عبابِ

وكذاك قسٌّ ناطقٌ بعكاظه يعيا لديه بحجةٍ وجواب

قيل: إنه حجّ مع ابن المنكدر شابان، فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا: قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن، فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة وكانت قبيحة، فقال ابن المنكدر: بل صاعقة.

وكان أصحاب أبي علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حجة، فعرضت لهم قبيحة، فقالوا: داحضة[1].

وكتب إبراهيم بن المهدي: إياك والتتبع لو حشي الكلام طمعًا في نيل البلاغة، فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفل.

ويقال: القول على حسب همة القائل يقع والسيف بقدر عضد الضارب يقطع.

وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم، ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة.

وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت بابًا فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت بابًا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته.

ذكاء وفصاحة أسير

حُكِيَ أن رجلًا كان أسيرًا في بني بكر بن وائل وعزموه على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم، فجاؤوا بعبد أسود، فقال له: أتعقل ما أقوله لك، قال: نعم إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل. قال: ما أراك إلّا عاقلًا، ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كل كثير، فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلانًا يعني أسيرًا كان في أيديهم من بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا وشكت النساء، وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب بأمارة ما أكلت معكم حيسًا، واسألوا عن خبري أخي الحرث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملًا أصهب، ثم دعوا بأخيه الحرث فقصّوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم، أما قوله: قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا

(١) داحضة: باطلة.

ولبسوا السلاح وأما قوله: شكت النساء أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أعروا ناقتي الحمراء أي ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجمل الأصهب، أي الجبل. وأما قوله: أكلت معكم حيسًا، أي أن أخلاطًا من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا.

الزم الفرقدين

أسرت طيّىء غلامًا من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشترطوا عليه، فقال أبوه: والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيىء ما عندي غير ما بذلته ثم انصرف، وقال: لقد أعطيته كلامًا إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال له الزم الفرقدين يعني في هروبك على جبل طيىء، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجى.

فصاحة علية بنت المهدي

وكانت علية بنت المهدي تهوَى غلامًا خادمًا اسمه طل، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها، فاطلع الرشيد يومًا عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة، فإن لم يصبها وابل، فالذي نهى عنه أمير المؤمنين ومن ذلك قولهم: تركت فلانًا يأمر وينهي وهو على شرف الموت، أي يأمر بالوصية وينهى عن النوح، ويقال: ما رأيت فلانًا، أي ما ضربته في رئته، ولا كلمته أي ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعًا، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافرًا ولا فاسقًا، فالكافر السحاب والفاسق الذي تجرّد من ثيابه، وما رأيت فلانًا راكعًا ولا ساجدًا ولا مصليًا، فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلي الذي يجيء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجًا، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورًا. فالبقرة العيال الكثيرة. يقال: جاء فلان يسوق بقره، أي عياله، والثور القطعة الكبيرة من الأقط.

معاوية والأحنف بن قيس

حُكِيَ أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام

خطيبًا، وكان آخر كلامه أن لعن عليًا رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليًا رضي الله تعالى عنه، فلقد لقي ربّه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته، فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعًا أو كرهًا، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك وإن تجبرني على ذلك، فوالله لا تجري شفتاي به أبدًا، فقال: قم فاصعد، قال: أما والله لأنصفنك في القول، والفعل، قال: وما أنت قائل إن أنصفتني، قال: أصعد المنبر، فأحمد الله وأثني عليه، وأصلي على نبيّه محمَّد ﷺ ثم أقول: أيّها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًا، ألا وإن معاوية وعليًا اقتتلا فاختلفا، فادعى كل واحد منهما أنه مبغي عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهمّ العنهم لعنًا كثيرًا أمنوا رحمكم الله. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفًا ولو كان فيه ذهاب روحي. فقال معاوية: إذًا نعفيك يا أبا بحر.

الكلام إلى نيّة المتكلم

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليًا قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال: أفعل، فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه ﷺ: أيّها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن عليّ بن أبي طالب، فالعنوه فعليه لعنة الله، ثم نزل، فقال له معاوية: إنّك لم تبين مَن لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرفًا ولا نقصت حرفًا، والكلام إلى نية المتكلم.

فصاحة امرأة

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت، فقال لها: مَن تكونين أيتها المرأة. فقال: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من

أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرًا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية ٤٤] وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصُهُ ... ترقَّبْ زوالًا إذا قيل، تمَّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: الآية ١٥]، فتعجبوا من ذلك.

حُسن التخلص

حُكِيَ أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى، فقال له: أطال الله بقاءك، وأقرّ عينك، وجعل يومي قبل يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك، فأحسن إليه، وأجازه على دعائه، وأمر له بصلة، وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله: أطال الله بقاءك، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية، وأما قوله: وأقرّ عينك، فمعناه سكن الله حركتها أي أعماها، وأما قوله: وجعل يومي قبل يومك، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنّة قبل يومك الذي تدخل فيه النار، وأما قوله: إنه ليسرني ما يسرك، فإن العافية تسرّه كما تسرّ الآخر.

حماد الراوية والقرآن

وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن، فكلّفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف، فصحف في نيف وعشرين موضعًا من جملتها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: الآية ٦٨] بالغين المعجمة والسين المهملة، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: الآية ١١٤] بالباء الموحدة ليكون لهم عدوًا وحزنًا بالباء الموحدة. وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: الآية ٣٢] بالجيم والباء الموحدة. وقوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: الآية ٧٤] بالزاي وترك الهمزة. وقوله: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] بالسين المهملة. وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: الآية ١٣٨] بالنون والعين المهملة. وقوله: ﴿سَلَٰمٌ

عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي﴾ [القَصَص: الآية ٥٥] بإسقاط التاء. وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [صَ: الآية ٢] بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة، وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

المأمون يمتحن واليًا له

حُكِيَ أن المأمون ولّى عاملًا على بلاد، وكان يعرف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلًا من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه، فأكرم نزله وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتابًا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتابًا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين: أما بعد، فقد قدمنا على فلان، فوجدناه آخذًا بالعزم، عاملًا بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوى في أقضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله: آخذًا بالعزم، أي إذا عزم على ظلم أو جور، فعله في الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته، أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير، وقوله: عمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئًا من الدنيا، ومعنى قوله: يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم. فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته، وولّى عليهم غيره.

كتاب القاضي الفاضل

حُكِيَ أن القاضي الفاضل كان صديق خصيص به، وكان صديقه هذا قريبًا من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر، فغضب عليه، وهمّ بقتله، فتسحب إلى بلاد التتر، وتوصل إلى أن صار وزيرًا عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه، فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل: اكتب إليه كتابًا عرفه فيه أنني أرضى عليه، وأستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر، فإذا حضر قتلته، واسترحت منه، فتحيّر الفاضل بين الاثنين، صديقه يعز عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب

إليه كتابًا واستعطفه غاية الاستعطاف، ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبيّ ﷺ وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب، فشدد «إنّ» ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه، فقرأه في غاية الكمال وما فهم إنّ، وكان قصد الفاضل أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلًا، فلما أراد أن ينهي الكتاب، ويكتب إن شاء تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفًا وأراد بذلك إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة، ثم أوقف الملك على الجواب بخطه، ففرح بذلك.

إخلاص زوجة

حُكِيَ أن بعض الملوك طلع يومًا إلى أعلى قصره يتفرّج، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤن أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه، فقال لها: لمنْ هذه؟ فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فنزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها، فاستدعى بفيروز، وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامضِ به إلى البلد الفلانية، وائتني بالجواب، فأخذ فيروز الكتاب، وتوجّه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهّز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالبًا لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعًا وتوجه متخفيًا إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعًا خفيفًا، فقالت امرأة فيروز: مَن بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا، فقال: زائر. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن فيها خيرًا، فقال لها: ويحك إنني الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتني فقالت: بل عرفتك يا مولاي، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ[1] … وذاك لكثرة الورّاد فيه
إذا سقط الذباب على طعامٍ … رفعت يدي ونفسي تشتهيه

(١) ورد: أي من غير أن أتذوقه وأشربه.

وتجنب الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلاب وَلَغْنَ[1] فيه
ويرتجع الكريم خميصَ بطنٍ[2] ... ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قلْ للذي شَفَّهُ الغرامُ بنا ... وصاحبِ الغدر غير مصحوب
واللهِ لا قال قائلٌ أبدًا ... قد أكلَ الليثُ فضلةَ الذيبِ

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه، قال: فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها، فنسي نعله في الدار، هذا ما كان من الملك. وأما ما كان من فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب، فلم يجده معه في رأسه، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلامًا، وأخذ الكتاب، وسار إلى حاجة الملك، فقضاها، ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى فيروز إلى السوق، واشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة وأتى إلى زوجته، فسلّم عليها، وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك، قالت: حبًّا وكرامة، ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهر، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها، فأتى إليه أخوها، وقال له يا فيروز: إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تركت لها عليّ حقًّا، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسًا إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيّد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستانًا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بئره، فالتفت القاضي إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده. قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يومًا من الأيام، فوجدت فيه أثر

(١) ولغن: شربن.

(٢) خميص بطن: جائعًا.

الأسد، فخفت أن يغتالني، فحرمت دخول البستان إكرامًا للأسد، قال: وكان الملك متكئًا فاستوى جالسًا، وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمنًا مطمئنًا، فوالله أن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرًا، ولا التمس منه ورقًا، ولا ثمرًا ولا شيئًا، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، ووالله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازًا من حيطانه على شجره، قال: فرجع فيروز إلى داره، ورد زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم.

من مـــاء

رُوِيَ في غزوة بدر أن النبيّ ﷺ كان سائرًا بأصحابه يقصد بدرًا، فلقيهم رجل من العرب فقال: ممّن القوم؟ فقال له النبيّ ﷺ: «من ماء» أخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبيّ ﷺ بأصحابه لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله، فإن الله عزّ وجلّ قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: الآيتان ٥، ٦].

لو كان الأمر بالكبر

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبيًّا، فلست بأصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: أحطت بما لم تحط به، ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى.

غلام يعظ عمر بن عبد العزيز

لما أفضَت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبي صغير السن، وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم مَن هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد تحمد الله الذي مَنّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر

رضي الله عنه: عظني يا غلام. فقال: يا أمير المؤمنين إن أناسًا غرّهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢١]. فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأنشدهم عمر رضي الله تعالى عنه:

تعلَّمْ فليس المرءُ يولد عالمًا ... وليس أخو علم كمنْ هو جاهلُ
فإنَّ كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفّتْ عليه المحافل[1]

درواس بن حبيب وهشام بن عبد الملك

حُكِيَ أن البادية قحطت في أيام هشام، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلّموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليَّ إلا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقًا فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرًا وطيًا، وإنه لا يعرف ما في طيّه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه، وقال له: أنشره لله درّك، فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم.

المرء بأصغريه

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجثة، اقتحمته عينه ويتنقصه، فقال:

---

(١) المحافل: جمع محفل وهو الجماعة من الناس.

مهلًا أيها الملك إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشأ يقول:

يا أيّها الملك المرجوّ نائله ... إنّي لمن معشرٍ شُمِّ الذرى[١] زهرِ
فلا تغرنّك الأجسامُ إنّ لنا ... أحلام عادٍ وإن كنّا إلى قصرِ
فكم طويل إذا أبصرت جثته ... تقول هذا غداة الروع[٢] ذو ظفر
فإن ألمّ به أمر فأفظعه ... رأيته خاذلًا بالأهل والزّمر[٣]

فقال: صدقت، فهل لك علم بالأمور، قال: إني لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للدهر بصاحب مَن لا ينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة وقال له: يا سعد إن أقمت واسيناك، وإن رحلت وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه، وجعله من أخص ندمائه.

أسئلة هرقل وأجوبة ابن عباس

حُكِيَ أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنّة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القمر.

فقيل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل.

---

(١) شم الذرى: كرام الأصل، هم من أهل المجد ومن ذروته، والزهر: البياض في الفعال والنسب.

(٢) الروع: الحرب، والروع: الخوف. (٣) الزمر: الجماعات.

فكتب إليه، فأجابه، أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]. وأما لا شيء فإنها الدُّنيا تبيد وتفنى، وأما دين لا يقبل الله غيره، فلا إلـه إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنّة، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له، فآدم عليه السلام، وأما القبر الذي جرى بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر. وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل. وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فنادى منادٍ إن قبلتم التوراة كشفته عنكم ولا ألقيته عليكم، فأخذوا التوراة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧١]. وأما الشجرة التي تنبت من غير ماء، فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي يتنفس بلا روح، فالصبح. قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: الآية ١٨]. وأما اليوم، فعمل، وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمل. وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد، فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القمر، فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: الآية ١٢]. ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له، فقال: تمم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

أسئلة الحجاج وأجوبة الغضبان بن القبعثري

حُكِيَ أن الحجاج سأل يومًا الغضبان بن القبعثري عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له: مَن أكرم الناس؟ قال: أفقههم في الدين وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للمهانين، وأطعمهم للمساكين.

قال: فمن ألأم الناس؟ قال: المعطي على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان.

قال: فمَن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة.

قال: فمَن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحيف.

قال: فمَن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف.

قال: فمَن أثقل الناس؟ قال: المتفنن في الملام، الضنين بالسلام، المهذار في الكلام، المقبقب على الطعام.

قال: فمَن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحسانًا وأقومهم ميزانًا، وأدومهم غفرانًا، وأوسعهم ميدانًا.

قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسيب هو أم غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلّك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداورته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهله، فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند مَن لا يعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة.

فقال الحجاج: لله أبوك، فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هذرًا، ولا ينظر شزرًا، ولا يضمر غدرًا، ولا يطلب عذرًا، والجاهل هو المهذر في كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه.

قال: لله أبوك، فما الحازم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه، قال: العاجز؟ قال: المعجب بآرائه الملتفت إلى ورائه.

قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى. إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت،

ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة، فمن داراهن انتفع بهن وقرّت عينه، ومَن شاورهن كدرن عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة.

فقال له الحجاج: يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث وافد، فما أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه، فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني، وأجريه في ميداني.

قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان، فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينًا عليه أي جاسوسًا، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له: إن الحجاج قد همّ بخلعك وعزلك، فخذ حذرك، وتغدّ به قبل أن يتعشّى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعًا، فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر القيظ وهي رملة شديدة الرمضاء، فضرب قبته فيها، وحط عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابيٍ من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدًا نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظمىء ظمأ شديدًا، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟

قال: أصابتني الرمضاء وشدة الحر والظمى، فيممت قبتك أرجو بركتها، قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتهن تعني؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث. قال: تلك لا يوصل إليها. قال: إن هذه أمنع منها، فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ، فقال: وما تعطي؟ قال: أكره أن يكون لي اسمان. قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض. قال: فأين تريد؟ قال: أمشي في مناكبها، فقال الأعرابي وهو يرفع رجلًا ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة، فقال: يا هذا ائذن لي أن أدخل قبتك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقني حر الشمس، قال: ما لي عليها من سلطان، فقال: الرمضاء أحرقت قدمي، قال: بل عليها تبرد، فقال: إني لا أريد طعامك، ولا شرابك، قال: لا تتعرض لما لا تصل إليه، ولو تلفت روحك، فقال الأعرابي: سبحان الله. قال:

نعم من قبل أن تطلع أضراسك، فقال الأعرابي: ما عندك غير هذا؟ قال: بلى. هراوة أضرب بها رأسك.

فاستغاث الأعرابي يا جار بني كعب. قال الغضبان: بئس الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث، فقال الأعرابي: ما رأيت رجلًا أقسى منك أتيتك مستغيثًا فحجبتني وطردتني، خلا أدخلتني قبتك وطارحتني القريض؟ قال: ما لي بمحادثتك من حاجة، فقال الأعرابي: بالله ما اسمك، ومَن أنت؟ فقال: الغضبان بن القبعثري. فقال: اسمان منكران خلقا من غضب. قال: قف متوكئًا على باب قبتي برجلك هذه العوجاء، فقال: قطعها الله إن لم تكن خيرًا من رجلك هذه الشنعاء، قال الغضبان: لو كنت حاكمًا لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة، فقال الأعرابي: إني لأظنك حروريًّا. قال: اللهمّ اجعلني ممن يتحرّى الخير ويريده، فقال: إني لأظن عنصرك فاسدًا. قال: ما أقدرني على إصلاحه، فقال الأعرابي: لا أرضاك الله ولا حيّاك ثم ولّى، وهو يقول:

لا باركَ الله في قومٍ تسودُهم إنّي أظنّكَ والرحمٰن شيطانا
أتيتُ قبّتَهُ أرجو ضيافته فأظهر الشيخُ ذو القرنين حرمانا

فلما قَدِمَ الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابي قال له الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش، بها ضعاف هؤلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلّوا ضاعوا.

فقال له الحجاج: ألست صاحب الكلمة التي بلغتني أنّك قلت لابن الأشعث تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشّى بك، فوالله لأحبسنك عن الوساد، ولأنزلنك عن الجياد، ولأشهرنك في البلاد.

قال: الأمان أيها الأمير، فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، فقال له: ألم أقل لك كأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، اذهبوا به إلى السجن، فذهبوا به، فقيّد وسجن، فمكث ما شاء الله.

ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة، نضرة

بهجة، قليل عيبها كثير خيرها، قال: لِمَ لم تخبروني بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان، فبعث إلى الغضبان، فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبناءها؟ قال: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك، ولا تبقى لك، وما أنت لها بباقٍ، فقال الحجاج: قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن، فلما حملوه قال: سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، فقال: أنزلوه، فلما أنزلوه قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٢٩] فقال: اضربوا به الأرض، فلما ضربوا به الأرض قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية ٥٥] فقال: جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: الآية ٤١] فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاءً وخبثًا، ثم عفا عنه، وأنعم عليه، وخلّى سبيله.

محمد بن عبد الملك والمأمون

حدّث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أُخذت، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له في الكلام، فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إلـٰه إلّا الله رب العرش العظيم، وصلّى الله والملائكة على محمد خاتم النبيّين، ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تعفو أثاره، ولا ينهدم مناره، ولا ينبت حبله، ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين. هذا المقام مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكَلَب الدهر، وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائه الطيّبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامي هذا متوسلًا إليك بآبائك الطيّبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور منكل الظالمين، ومحمّد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفًا إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصني واحتنكت بها سني، وريّش بها جناحي، متعوّذًا من شماتة الأعداء وحلول البلاء، ومقارفة

الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وعرفه، وقد أثبت الله الحق في نصابه، وأقرّه في داره، وأربابه، يا أمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال، وقد يقلب حالًا بعد حال فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرًا بعد صفو، ومرًّا بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللّاتي غذتنا صغارًا وكبارًا وشبابًا وأشياخًا وأمشاجًا في الأصلاب، ونطفًا في الأرحام، وقدمنا في القرابة حيث قدمنا الله منك في الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنث لطاعتك، فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهّل بك الوعور وجلا بك الديجور وملأ من خوفك القلوب والصدور، بك يرع الفاسق ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عندك بالعفو والإحسان فإن كل راعٍ مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر. وقد قال الله جلّ ثناؤه، وتعالت قدرته: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: الآية ٢٢] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي ومنعه الكافي ثم أنشد يقول:

أمير المؤمنين أتاك ركبٌ ... لهم قُربى وليس لهم تلاد[1]
هم الصدر المقدّمُ من قريشٍ ... وأنت الرأس تتبعك العباد
لقد طابت بك الدُنيا ولذّت ... وأرجو أن يطيبَ بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عينٍ ... وكيف يقلّ سؤددك البلاد

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه وقرب منزلته وأناده، ودفع إليه من المال ما أغناه.

حروف المعجم في بدن الإنسان

حُكِيَ أن عبد الملك بن مروان جلس يومًا وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليّ ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة، فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير

(١) التلاد: المال والموروث.

المؤمنين. أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة، وجه يد، وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين.

فقام بعض أصحاب عبد الملك، وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثًا، فقال: هات ولك ما تتمناه، فابتدأ يقول: أنف أسنان أذن، بطن بنصر بزة، ترقوة تمرة تينة، ثغر ثنايا ثدي، جمجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دبر دماغ دراديره، ذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة، زند زردمة زب، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه، ساق سرة، سبابة، شفة شفر شارب، صدر صدع صلعة، ضلع ضفيرة ضرس، طحال طرة طرف، ظهر ظفر ظلم، عين عنق عاتق، غبب غلصمة غنة، فم فك فؤاد، قلب قفا قدم، كف كتف كعب، لسان لحية لوح، منخر مرفق منكب، نغنوغ ناب نن، هامة هيئة هيف، وجه وجنة ورك، يمين يسار يافوخ. ثم نهض مسرعًا، فقبّل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئًا أعطوه ما يتمناه، ثم أجازه وأنعم عليه، وبالغ في الإحسان إليه.

الحجاج يدخل العراق

حُكِيَ عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده، وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمن العباد.

فسكت القوم، ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومَن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف. قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك، فلست هناك.

ثم قال: ما لي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة، فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق، ومطفىء نار النفاق، قال: ومَن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، آفة الكفر والريبة، قال: إليك عني، وذاك، فلست هناك.

ثم قال: مَن للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار والبسط، والازورار والإدناء، والإبعاد والجفاء، والبر والتأهب، والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومَن نازعني قصمته، ومَن خالفني نزعته، ومَن دنا مني أكرمته، ومَن طلب الأمان أعطيته، ومَن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني، فإن كنت للأعناق قطاعًا، وللأموال جماعًا، وللأرواح نزاعًا، ولك في الأشياء نفاعًا، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن مَن يقوم بهذا الأمر قليل.

فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيىء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته، ثم دعا الخازن، فأمره بمثل ذلك، فخرج الحجاج قاصدًا نحو العراق.

قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال: هذا الحجاج قدم أميرًا على العراق، فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثمًا بها، ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غصّ المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال: وكان في المسجد يومئذٍ عمير بن صابىء التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: اكفف حتى نسمع ما يقول، فأبى ابن صابىء وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميرًا كما هو ما كان بشيء،

والحجاج ساكت ينظر يمينًا وشمالًا، فلما رأى المسجد قد غصّ بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئًا، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه، ونهض قائمًا فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤوسًا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عودًا، وأصلبها مكسرًا، فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلًا في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقيل وقال وكان ويكون، يا أهل العراق: إنّما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربّها، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا ولا تميلوا، وتابعوا، وبايعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم، وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلًا يتخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه، يا غلام: اقرأ كتاب أمير المؤمنين.

فقرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئًا، فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئًا عليه؟ هذا أدبكم الذي تأدبتم به، أما والله لأؤدبنكم أدبًا غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام، فقرأ حتى بلغ قوله: سلام عليكم فلم يبد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته، ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار، أفتقبله بديلًا مني؟ فقال: نقبله أيها الشيخ، فلما ولي قال له قائل: أتدري مَن هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا

ابن صابىء الذي يقول:

هممت ولَمْ أفعلْ وكدتُ وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله[(١)]

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول، فوطىء في بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه، فقال الحجاج: ردوه فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار؟ إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحًا للمسلمين. يا سياف اضرب عنقه، فضرب عنقه.

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب

من حكايات الحجاج ما حُكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال، بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فشقّ عليه، وكتب إليه، أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء، وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالديّة، وفي العمد بالقود، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله تعالى، ونحن أمناؤه، فإن كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك عني أمران: لين وشدة، فلا يؤمننك إلا الطاعة، ولا يوحشنك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله عزّ وجلّ الظفر، فلا تقتلن جانحًا، ولا أسيرًا، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أمورًا كرهتها ... وتطلب رضائي بالذي أنا طالبُهْ

فإن تَرَ مِنّي غفلةً قرشيةً ... فيا ربما قد غصّ بالماء شاربهْ

وأن ترَ منّي وثبةً أمويةً ... فهذا وهذا كلّ ذا أنا صاحبهْ

فلا تأمننّي والحوادثُ جمةً ... فإنّك تجزي بالذي أنت كاسبُهْ

فلا تعدُ ما يأتيك منّي وإنْ تعد ... يقمن به يومًا عليك نوادبهْ

فلا تمنعنّ الناس حقًا علمته ... ولا تعطين ما ليس للناس واجبهْ

فإنك أنْ تعطي الحقوق فإنّما ... النّوافل شيءٌ لا يثيبك واهبهْ[(٢)]

(١) حلائله: جمع حليلة، وهي الزوجة.

(٢) النوافل: جمع نافلة، وهي ما تفعله مما لا يجب عليك فعله. يثيبك: يجزيك.

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد، فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلي العصاة إسرافًا وإعطائي المطيعين تبذيرًا، فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدًا فأقاديهم ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي ... إذاك فليلي لا توارى كواكبه
وما لامرئ بعد الخليفة جنّة[1] ... تقيه من الأمر الذي هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئةً ... لقامت عليه بالصباح نوادبه
إذا أنا لم أدنِ الشفيق لنصحه ... واقصِ الذي تسري إليَّ عقاربه
وأعط المواسي في البلاء عطيةً ... لردّ الذي ضاقت عليَّ مذاهبه
فمن يتّقي بؤسي ويرجو مودتي ... ويخشى غدًا والدهر جمٌّ نوائبه
وأمري إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقله لم أقلْ ما يقاربُهْ
ومهما أردت اليوم مني أردته ... وما لم ترده اليوم إنّي مجانبه
وقف بي على حدِّ الرضا لا أجوزه ... مدى الدهر حتى يرجع الدرّ حالبه[2]
وإلّا فدعني والأمورَ فإنّني ... شفيقٌ رفيقٌ أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فمن يلومني على محتبه، يا غلام اكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عينًا بما هناك.

وفي مروج الذهب للمسعودي أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام، ولدته مشوّهًا لا دبر له، فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدي وأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصور له في صورة الحرث بن كلدة حكيم العرب، فسألهم عن ذلك، فأخبره مخبر من أهله، فقال لهم: اذبحوا له تيسًا وألعقوه من دمه، وأولغوه فيه، ثم أطلوا به وجهه، ففعلوا ذلك، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصبر على سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا

---

(١) جنة: درع.

(٢) أجوزه: أي أتجاوزه، والدر: اللبن.

يقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث بن كلدة، فدخل عليها يومًا في السحر، فوجدها تخلل أسنانها فطلقها، فسألته لمَ فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة، وإن كان بقايا طعام بفيّك، فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك، فقال: قضي الأمر، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج. وقيل إن الحجاج تقلّد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة، وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل على ما لا يبلغه وصف، أحصي من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفًا، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد، وقيل للشعبي: أكان الحجاج مؤمنًا؟ قال: نعم بالطاغوت، وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم.

عالِمة بالأنساب

حُكِيَ عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يومًا مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قاعدة النهد، كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتها وحملتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر، فانحلّ وكاؤها[1] فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاهًا قد غلبني فوهًا لا طاقة لي بفيّها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب، قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أوَ عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم. قال لها: أنا من مضر الحمراء، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسبًا، وأعظمها حسبًا، وخيرها

---

(١) الوكاء: رباط القربة والوعاء والكيس.

أمًا وأبًا، وممن تهابه مضر كلها قالت: أظنك من كنانة، قال: أنا من كنانة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولدًا وأشرفها محتدًا[١] وأطولها في المكرمات يدًا، ممن تهابه كنانة وتخافه، فقالت: إذن أنت من قريش، قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكرًا وأعظمها فخرًا، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم، قالت: من أي هاشم، قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه، فعند ذلك قبّلت الأرض، وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة ربّ العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طربًا عظيمًا وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاحقته العساكر، فنزل هناك، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورًا، وهي والدة ولده العباس.

هند بنت النعمان والحجاج

وحُكِيَ أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فوصف للحجاج حسنها، فأنفذ إليها يخطبها، وبذل لها مالًا جزيلًا، وتزوّج بها، وشرط لها عليه بعد الصدق مائتي ألف درهم ودخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

وما هندٌ إلّا مهرةٌ عربيةٌ ... سليلة أفراسٍ تحلّلها بغلُ
فإن ولدت فحلًا فلله درّها ... وإن ولدت بغلًا فجاء به البغلُ

فانصرف الحجاج راجعًا ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين، ولا تزد عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت: اعلم يا ابن طاهر: أنا والله كنا فما حمدنا، وبنا فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

---

(١) المحتد: الأصل.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتابًا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت: ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشيًا حافيًا بحليته التي كان فيها أولًا، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكًا شديدًا، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفي لي سجف المحمل، فكشفته، فوقع وجهها في وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طولَ ليلةٍ تركتك فيها كالقباءِ المفرّجِ

فأجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مالٍ ومن نشب[1]
فالمال مكتسبٌ والعز مرتجعٌ إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم، فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يجد إلا دينارًا، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوّضنا الله دينارًا، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جوابًا، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان، فتزوج بها.

(١) نشب: المال من خيل وإبل وغيره.

فطنة وفصاحة جارية

حُكِيَ أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتّاب، فعبر يومًا تحت جوسق بستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها، فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء. وكتب إليها رقعة عرض إليها بالزيارة في جوسقها، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبرًا، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل، وقالت للعجوز: هذا جواب رقعته، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه، وتحيّر في أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباها متحيّرًا في ذلك قالت له: يا أبت أنا علمت معناه قال: وما هو لله درك؟ قالت:

أهدتْ لك العنبرَ في جوفهِ ... زرٌ من التبر خفي اللحامِ

فالزر والعنبر معناهما ... زُرْ هكذا مختفيًا في الظلام

قال: فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها.

أخــذت بثأرها

حُكِيَ أن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة، فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال: لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون؟ فقالت: ولمَ لا نكتني وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال: أفعل إن شاء الله، فخجلت من قوله وتغيّر وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها، فقالت له: هل تحسن شيئًا من العروض؟ قال: نعم. قالت: قطع لي:

حوّلوا عنا كنيستكم ... يا بني حمالة الحطب

فقطعه، فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه، وأضحكت أصحابه، فقال: ويحك لم تبرحي حتى أخذت ثأرك.

كُثَيِّر عَزَّة والعجوز

وقيل: بينما كُثَيِّرُ عَزَّة مار بالطريق يومًا إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها: تنحي عن الطريق، فقالت له: ويحك ومَن تكون؟ قال:

أنا كُثَيِّرُ عَزَّة[١]. قالت: قبّحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: ولِمَ؟ قالت: ألست القائل:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها[٢]
بأطيب من أردانِ عَزَّةَ موهنًا إذا أُوقِدتْ بالمجمر اللدنٌ نارها[٣]

ويحك يا هذا! لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها، لم لا قلت مثل سيدك امرىء القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقًا وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جوابًا.

الحجاج والخارجية

قيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيرًا من وزرائك يا حجاج. قال: ومَن هو صاحبي؟ قالت: فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوارج، فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلمك، وأنت لا تنظرين إليه، فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى مَن لا ينظر الله إليه.

امرأة أصابت ورجل أخطأ

حكى ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقه أزواج النبيّ ﷺ خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه أربعمائة درهم، فأدّى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها، فصعد المنبر وحمد الله

---

(١) كُثَيِّر عَزَّة بن عبد الرحمٰن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة، وكان مفرط القصر دميمًا في نفسه شمم وترفع، أخباره مع عزة بنت جميل الضمرية كثيرة، وكان عفيفًا في حبه لها، توفي بالمدينة وله ديوان شعر مطبوع.

(٢) جثجاثها وعرارها: الجثجاث نبات وكذلك العرار.

(٣) أردان: أصل الكم أو طرفه الواسع.

تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم، فمن زاد أُلقيت زيادته في بيت مال المسلمين، فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة في يدها طول، فقالت له: كيف يحل لك هذا، والله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: الآية ٢٠] فقال عمر رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

شكوى امرأة

وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فقال لها: نِعْمَ الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعبًا، فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب: عليَّ بزوجها، فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك، قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك، فأنشدت المرأة تقول:

يا أيّها القاضي الحكيمُ أنشده ... ألهي خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقدُهُ ... فلستُ في أمر النساء أحمدُه

فأنشأ الزوج يقول:

زهّدني في فرشها وفي الحلل ... أنّي امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطوَل ... وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي:

إنَّ لها عليك حقًّا لم يزل ... في أربع نصيبها لمن عقل
فعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة، فقال عمر رضي الله عنه: لا أدري من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما اذهب فقد وليتك البصرة.

حكاية المتكلّمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجًّا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على

الطريق، فتميّزت ذاك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يٓس: الآية ٥٨]، قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٦]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: الآية ١]، فعلمت أنها قد قضت حجها، وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنتِ منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٠]، فقلت: ما أرى معك طعامًا تأكلين؟ قالت: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشُعَراء: الآية ٧٩] فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: الآية ٤٣؛ المائدة: الآية ٦]، فقلت لها: إن معي طعامًا، فهل لك في الأكل، قالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البَقَرة: الآية ١٨٧]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان. قالت: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرة: الآية ١٥٨]، فقلت: قد أُبيح لنا الإفطار في السفر. قالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرة: الآية ١٨٤]، فقلت: لِمَ لا تكلميني مثل ما أكلمك؟ قالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [قٓ: الآية ١٨]، فقلت: فمن أي الناس أنت؟ قالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل، قالت: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة، قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البَقَرة: الآية ١٩٧] قال: فأنخت ناقتي، قالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٠] فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشُورى: الآية ٣٠] فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩] فعقلت الناقة وقلت لها: اركبي فلما ركبت قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: الآيتان ١٣، ١٤] قال: فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ﴾ [لقمان: الآية ١٩] فجعلت أمشي رويدًا رويدًا وأترنم بالشعر، فقالت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [المُزمّل: الآية ٢٠]

فقلت لها: لقد أوتيت خيرًا كثيرًا، قالت: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩] فلما مشيت بها قليلًا قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٠١] فسكت، ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: الآية ٤٦] فعلمت أن لها أولادًا فقلت: وما شأنهم في الحج؟ قالت: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النّحل: الآية ١٦] فعلمت أنه أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٥] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٦٤] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: الآية ١٢] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيىٰ فإذا أنا بشبّان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقرّ بهم الجلوس قالت: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: الآية ١٩] فمضى أحدهم فاشترى طعامًا فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقّة: الآية ٢٤] فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمٰن، فسبحان القادر على ما يشاء، فقلت: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: الآية ٤] والله أعلم بالصواب وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

عوائد العرب في الخطابة

قال الألوسي في «بلوغ الأرب»:

كان للعرب اعتناء بالخطيب في الجاهلية، أكثر من اعتنائهم بها في إسلامهم، وكانت لهم فيها عوائد غريبة، وشؤون عجيبة. فمن عوائدهم فيها أنهم كانوا يتخيرون لها أجزل المعاني وينتخبون لها أحسن الألفاظ تحصيلًا لغرضهم ونيلًا لمقصدهم فإن الألفاظ الرائقة والمعاني الجزلة أَوْقَعُ في النفوس، وأشدُّ تأثيرًا في القلوب، ولذلك قيل: إن في البيان لسحرًا ومن عوائدهم فيها أن الخطيب منهم إذا خطب في تفاخر وتنافر وتشاجر، رفع يده ووضعها، وأدّى كثيرًا من مقصاده بحركات يده؛ فذاك أعون له على غرضه وأرهب للسامعين له، وأوجب لتيقظهم، وهو التشذُّر المذكور في قول لبيد:

غُلْبٍ تَشَذَّرُ بالذُّحولِ كأنها   جنُّ البَدِيِّ رواسيًا أقدامُها

التشذُّر رفع اليد ووضعها كما سبق والذُّحول هي الأحقاد يقول: هم رجال غلاظ الأعناق كالأسود. أي خلقوا خلقة الأسود يهدد بعضهم بعضًا بسبب الأحقاد.

ومن عوائدهم فيها أخذ المِخْصَرَة بأيديهم. وهي ما يتوكأ عليها كالعصا ونحوه أو ما يأخذ الملك يشير به إذا خاطب، والخطيب إذا خطب، فلا يخطبون إلا بالمخاصر. وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسي، ويشيرون بالعصا والقنا. ومنهم مَن كان يأخذ المخصرة في خطب السلم، والقسيَّ في الخُطَب عند الخطوب والحروب.

واستشهد الجاحظ في كتاب البيان بكثير من شعرهم.

واستحسن العرب في الخطيب أن يكون جهير الصوت، ولذلك مدحوا سعة الفم، وذمُّوا صغره، حتى قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورحبُ الشدق، وبُعدُ الصوت. وقال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق:

تشادَقَ حتى مال بالقولِ شِدْقُهُ وكلُّ خطيب لا أبالك أَشْدَقُ

وأنشد أبو عبيدة:

وصُلْعُ الرؤوس عظامُ البُطُونِ رِحابُ الشِّداقِ طِوالُ القَصَرْ(١)

وقال العجير السلولي في شدة الصوت:

لدى كل موثوقٍ به عند مثلها له قدمٌ في الناطقين خطيرُ
جهيرٌ وممتدُّ العنان مُناقِلٌ يصيرُ بعورات الكلام خبيرُ
فظلَّ رداءُ العَصْبِ ملقى كأنَّهُ سَلَى فرسٍ تحت الرجال عقيرُ(٢)
ولو أن الصخور الصُّم يسمعن صَلْقَنَا لرُخْنَ وفي أعراضهنَّ فُطورُ(٣)

وقال مهلهل:

ولولا الريحُ أُسْمِعُ أهْلَ نجدٍ صليلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذكور(٤)

وكان شبيب يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوي أحد على أحد. وقال الشاعر فيه:

أن صاحَ يومًا حسِبْتَ الصخرَ منحدرًا والريحَ عاصفةً والموج يلتطمُ

والشعر كثير في ذلك. والمقصود أن جهارة الصوت مما يُمدحُ بهِ الخطيب وتكون من محاسنه.

ومن عوائدهم في الخطاب أن يكون الخطيب على زي مخصوص في العمامة واللباس تنويهًا بشأنه وأَدْخَلَ في تحصيل الغرض والمقصود. وقد أطنب

(١) القَصَر: الأعناق.
(٢) العصب: بُرْد يصبغ ثم ينسج. والسَّلَى: الجلدة التي يكون فيها الولد من الناس والمواشي.
(٣) الصلق: شدة الصوت، والفطور: الشقوق.
(٤) الذكور: السيوف التي عملت من حديد غير أنيث. وقيل: أول كذب سُمع في الشعر هذا البيت.

الجاحظ القول في البيان والتبيين على خطب العرب، وبيان عوائدهم فيها، وما أورده من الشعر شاهدًا على دعواه مما يُغني عن ذكره في هذا المقام.

قال الألوسي:

وخطباء العرب في الجاهلية كثيرون كثرة شعرائهم. غير أن البعض منهم كان يغلب عليه قول الشعر فيعد من الشعراء. وينتظم في سلكهم، وآخرين يغلب عليهم منثور الكلام وفصيح البيان. فيعد من رجال الخطابة شأن كل مَن غلب عليه معرفة فن من الفنون. فمن نظم الشعر لا يعجزه إنشاء الخطاب، وكذلك خطباء كثيرون يعدّون من مفلّقي الشعراء.

انتهى كلام الألوسي[١].

خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادي

خطب قُسْ بن ساعدة الإيادي بسوق عُكاظ، فقال:

أيها الناس: اسمعوا وعُوا. مَن عاش ماتْ، ومَن ماتَ فاتْ، وكلُّ ما هو آتٍ آتْ. ليلٌ داجْ، ونهارٌ ساجْد وسماءٌ ذاتُ أبراجْ، ونجومٌ تَزْهَرْ، وبحارٌ تَزْخَرْ، وجبالٌ مُرْساةْ، وأرضٌ مُدْحاةْ، وأنهارٌ مُجْراةْ. إن في السماءِ لخبرا، وإن في الأرض لعِبرا. ما بالُ الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ يُقسم قُسٌّ بالله قسمًا لا إثم فيه: إن للهِ دينًا هو أرضَى له، وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه. إنكم لتأتون من الأمر منكرًا.

ويروى أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذاهبينَ الأوّلينَ من القرونِ لنا بصائرْ

لمّا رأيتُ مواردًا ... للموت ليس لها مصادِرْ

ورأيتُ قومي نحوها ... يسعى الأكابرُ والأصاغِرْ

لا يرجع الماضي إليّ ... ولا من الباقين غابِرْ

أيقنتُ أني لا محالةَ ... حيث صار القومُ صائرْ[٢]

---

(١) بلوغ الأرب: ٣/ ١٥٢ ـ ١٥٥.

(٢) جمهرة خطب العرب: ١/ ٣٨ ـ ٣٩.

خطبة عبد المطلب بين يدي سيف بن ذي يزن

لما ظفر سيف بالحبشة، وذلك بعد مَولد النبيّ ﷺ بسنتين، أتته وفود العرب وأشرافها تُهنّئهُ وتمدحه فأتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد، في ناس من وجوه قريش، فأتوه وهو في قصرٍ يقال له غُمدان، فأخبره الآذن بمكانهم، فأذِن لهم، فدخلوا عليه وهو على شرابه، وعن يمينه ويساره الملوك والمقاول، وبين يديه الشعراء يمدحونه.

فدنا عبد المطلب فاستأذنه بالكلام، فقال له سيف بن ذي يزن: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنَّا لك. فقال عبد المطلب:

إنَّ الله قد أحلَّك، أيها الملك محلًّا رفيعًا، صعبًا منيعًا، شامخًا باذخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزَّتْ جرثومته، في أكرم موطن، وأطيب معدن. فأنت - أبيت اللعن - ملِكُ العرب، وربيعها الذي به تُخصب. وأنت أيها الملك رأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. فسلفك خير سلف، وأنت خير خلف، فلن يخمل مَن أنت سلفه، ولن يهلك مَن أنت خلفه. نحن أهل حرم، الله وسدنة بيته، أشخَصَنَا إليك الذي أنهجك لكشف الكرب الذي فَدَحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

قال سيف: وأيُّهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطَّلب بن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم. فأدناه حتى أجلسه إلى جنبه، ثم أقبل على القوم وعليه وقال: مرحبًا وأهلًا، وناقةً ورحلًا، ومستناخًا سهلًا، وملكًا رِبَحْلًا[1]، يُعطي عطاءً جَزْلًا. قد سمع الملكُ مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأهلُ الشرف والنباهة أنتم، ولكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا ظعنتم.

قال الراوي: ثم استنهِضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأُجريت عليهم الأنزال. فأقاموا ببابه شهرًا لا يصلون إليه ولا يأذن لهم في الانصراف. ثم انتبه إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم فخلا به وأوفى مجلسه وقال: يا عبد المطلب، إني مفوّض إليك من سرّ علمي أمرًا لو يكون غيرك لم أبح به إليه، ولكني رأيتك موضعه فأطلعتك عليه. فليكن عندك مطويًا حتى يأذن الله فيه، فإن

(١) رِبَحْلًا: عظيم الشأن.

الله بالغُ أمره. إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبرًا عظيمًا، وخطرًا جسيمًا فيه شرفُ الحياة، وفضيلة الوفاة للناس كافة ـ ولرهطك عامة، ولنفسك خاصة.

قال عبد المطلب: مثلك أيها الملك من برّ وسرَّ وبَشَّر، ما هو؟ فِداكَ أهلُ الوبر، زُمَرًا بعد زُمَر.

قال ابن ذي يزن: إذا ولد مولود بتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة، إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أيها الملك، لقد أُبتُ بخيرٍ ما آب بمثله وافد، ولولا هيبة الملك وإكرامه، وإعظامه لسألته أن يزيدني في البشارة ما ازداد به سرورًا.

فقال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جدُّهُ وعمه. قد وجدناه مرارًا، والله باعثه جهارًا، وجاعل له منَّا أنصارًا، يُعزُّ بهم أولياءه، ويُذلُّ بهم أعداءه، يضرب بهم الناس عن عُرْض[1]، ويستبيح بهم كرائم الأرض ويُخمد النيران، ويدحر الشيطان، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمٰن. قوله فَصْل، وحكمه عدل؛ يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويُبْطله.

فقال عبد المطلب: أيها الملك، عزَّ جَدُّك[2]، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك فهل الملك مخبري بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطُّنُب، والعلاماتِ والنُّصُب، إنك يا عبد المطلب، لجدُّه من غير كذب.

فخرَّ عبد المطلب ساجدًا، فقال له: ارفع رأسك، أثلج الله صدرك، وعلا أمرك فهل أحسَسْتَ شيئًا مما ذكرته لك؟ قال عبد المطلب: أيها الملك كان لي ابن وكنت به معجبًا ـ وعليه رفيقًا، زوَّجتُه كريمة من كرائم قومي، اسمها آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سمَّيْتُهُ محمدًا، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه. قال: الأمر كما قلت، فاحفظ ابنك، واحذر عليه من اليهود، فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلًا. واَطْو ما ذكرتُ لك عن الرهط الذين معك، فإني لستُ آمَنُ

---

(١) عن عُرْض: عن قوة.

(٢) الجَدُّ: المكانة والمنزلة عند الناس.

أن تدخلهم النَّفاسة(١) من أن تكون لكم الرياسة، فيبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أني أعلم أن الموت مُجتاحي قبل مبعثه، لسرتُ بخيلي وَرَجْلي حتى أصير بيثرب. فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار هجرته وبيت نُصْرته. ولولا أني أتوقَّى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ على حداثة سنّه أمره، وأوطأت أقدام العرب عَقِبَه. ولكني صارفٌ إليك ذلك عن غير تقصير مني بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد، وعشر إماء سود، وخمسة أرطال فضة، وحلّتين من حُلل اليمن، وكَرِش(٢) مملوءة عنبرًا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئني بما يكون من أمره.

فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجلٌ منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاد، ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكره وفخره لعقبي. فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين(٣).

ومن خطبة لكعب بن لؤي وهو الجد السابع للنبيّ ﷺ

«اسمعوا وعُوا، وتعلَّموا تعلموا، وتفهَّموا تفهموا. ليل ساج، ونهارٌ ضاج، والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين. كل ذلك إلى بلاء، فصِلوا أرحامكم، وأصلحوا أحوالكم.

فهل رأيتم هالكًا رجع، أو ميتًا نُشِر؟ الدار أمامكم، والظَّنُّ خلاف ما تقولون. زيِّنوا حرمكم وعظِّموه، وتمسكوا به لا تفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم، ثم قال:

نهارٌ وليلٌ واختلاف حوادثٍ سواءٌ علينا حُلْوُها ومريرها
يئوبان بالأحداثِ حتى تأوَّبا وبالنِّعَم الضافي علينا ستورُها
صروفٌ وأنباءٌ تقلَّبَ أهلُها لها عُقدٌ ما يستحيلُ مريرها
على غفلةٍ يأتي النبيُّ محمدٌ فيخبر أخبارًا صدوقًا خبيرها

---

(١) النفاسة: الحَسَد. ونَفَس بهذا الشيء على فلان: حسده عليه ولم يره أهلًا له.
(٢) الكَرِش: وعاء الطيب.
(٣) العقد الفريد: ١/٢٨٩ ـ ٢٩٣.

نعيم بن ثعلبة الكناني

كان يخطب العرب في الموسم، وينقادون لأوامره ويمتثلونها وينتهون عما نهى. وهو أول مَن نسأ الشهور. قال أبو بكر الأنباري:

كانوا إذا صدروا من «مِنى» قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة من بني كنانة فقال: أنا الذي لا أُعاب، ولا يردّ لي قضاء؛ فيقولون: أَنسِئنا شهرًا، أي أخِّرْ عنّا حرمة المحرم فاجعلها في صفر. وذلك أنّهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة فيحل لهم المحرم ويحرم عليهم صفرًا، فإذا كان في السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحلّ صفرًا. فقال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التّوبَة: الآية ٣٧].

قال الشاعر:

وكنّا الناسئين على معدٍ ... شهورَهُمُ الحرامَ إلى الحَليل

وقال آخر:

ألسنا الناسئين على معدٌ ... شهور الحِلّ نجعلها حراما؟

وقال آخر:

نسأوا الشهور بها وكانوا أهلها ... من قبلكم والعزُّ لم يتحوَّلِ(١)

خطبة سعد بن عبادة يوم السقيفة

لمّا قُبض النبيّ ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا: نُولِّي هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام. سعد بن عُبادة، وأخرجوا سعدًا إليهم وهو مريض. فلما اجتمعوا قال لابنه أو لبعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي، ولكن تلقَّ من قولي فأَسمِعْموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قولَه؛ فيرفع صوته فيسمع أصحابه. فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب. إن محمدًا عليه الصلاة والسلام لبثَ بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمٰن ـ وخلع الأندادِ والأوثان، فما آمن به من قومه إلّا رجال قليل

---

(١) بلوغ الأرب: ٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ولا أن يعزُّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيمًا عُمُّوا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة، وخصَّكم بالنِّعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدَّ الناس على عدُوِّه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا، وأعطى البعيدُ المقادة صاغرًا داخرًا(١)، حتى أثخن(٢) الله عزّ وجلّ لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفّاه الله وهو عنكم راضٍ، وبكم قريرُ عين. استبدُّوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس».

فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّقْتَ الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدوَ ما رأيت نوَلِّيك الأمر. وأتى عمر إلى أبي بكر فقال: «أما علمت أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ـ يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة، وأحسنُهم مقالةً مَن يقول: منا أمير ومن قريش أمير.

فمضيا مسرعين نحوهم، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح، فتماشوا إليهم ثلاثتهم. فجاؤوهم مجتمعون، فقال عمر: أتيناهم وقد كنت زَوَيْتُ(٣) كلامًا أردت أن أقوم به فيهم، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدىء المنطق، فقال لي أبو بكر: رويدًا حتى أتكلم، ثم أنطق بعدُ بما أحببت فنطق.

فقال عمر: فما شيء، كنت أردت أن أقوله إلّا وقد أتى به أو زاد عليه(٤).

خطبة النبيّ ﷺ في حجّة الوداع

«الحمد لله بحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومَن يهدِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلـه إلّا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أُبيِّنْ لكم؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى

---

(١) داخرًا: ذليلًا.
(٢) أثخنه: أوهنه وأخضعه.
(٣) زويتُ كلامًا: أعددتُ كلامًا.
(٤) جمهرة خطب العرب: ١/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلَّغت؟ اللهم أشهد! فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى مَن ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإنّ أول ربًا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[١]. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السِّدانة والسِّقاية. والعَمْدُ قَوَد[٢]، وشِبْهُ العَمْد ما قُتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقّرون من أعمالكم. أيها الناس: إنما النَّسيءُ زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلّونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عِدَّةَ ما حرَّم الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰواتِ والأرض، وإن عِدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض، منها أربعة حُرُم، ثلاثةٌ متواليات، وواحد فمد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جُمادَى وشعبان. ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهنَّ حق. لكم عليهن إلا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإنَّ الله قد أذِن لكم أن تعضُلوهنَّ[٣] وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساءُ عندكم عَوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئًا. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله. في النساء، واستوصوا بهنَّ خيرًا، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه إلا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد!

---

(١) كان مسترضَعًا في بني ليث فقتلته بنو هذيل.

(٢) القود: القصاص. أي مَن قتل عمدًا يُقتل. (٣) العضل: الحبس والتضييق.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضلٌ إلّا بالتقوى، ألا هل بلّغت،؟ اللهم أشهد! قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارثٍ وصية، ولا يجوز وصيةٌ في أكثر من الثلث.

والولد للفراش وللعاهر الحَجَر[١]، مَن ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدل[٢]. والسلام عليكم ورحمة الله[٣].

خطبة الحسن بن علي بن أبي طالب بعد وفاة أبيه

خطب الحسن بن علي (ع) بعد وفاة والده فنعاه فقال:

«لقد قتلتم الليلة رجلًا في ليلة فيها أنزل القرآن، وفيها رفِعَ عيسى ابن مريم عليه السلام، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام. واللهِ ما سبقهُ أحدٌ كان قبلَه. ولا يُدركه أحدٌ يكونُ بعده. واللهِ إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه في السريَّة وجبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره. واللهِ ما ترك صفراءَ. ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله» ثم خنقته العبر فبكى وبكى الناس معه. ثم قال:

«أيها الناس: مَن عرفني فقد عرفني. ومَن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلّى الله عليه وآله.

أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرَهُم تطهيرًا، والذين اقترض الله مودتهُمْ في كتابه إذ يقول: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: الآية ٢٣] فاقتراف الحسنة مودتُنا أهل البيت».

(١) العاهر: الزاني. أي لا حق له في النسب ولا حظّ له في الولد، وإنما هو لصاحب الفراش أي لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها. وهو كقوله الآخر: له التراب، أي لا شيء له.

(٢) الصرف: التوبة. والعدل: الفدية. وقيل: الصرف القيمة، والعدل المِثْل.

(٣) جمهرة خطب العرب: ١/ ١٥٥ ـ ١٥٨.

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة، قام عبيد الله بن العباس بين يديه فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا وقالوا: ما أحبَّهُ إلينا وأحقَّه بالخلافة! فبايعوه ثم نزل من المنبر(١).

وخطبته بعد الصلح مع معاوية

روى المدائني، قال: سأل معاوية الحسن بن علي (ع) بعد الصلح أن يخطب الناس فامتنع. فناشده أن يفعل، فوضع له كرسي فجلس عليه ثم قال:

«الحمد لله الذي توحَّدَ في مُلكِه، وتفرَّدَ في ربوبيته، يؤتي الملك مَن يشاء، وينزعُهُ عمَّنْ يشاء، والحمد لله أكرمَ بنا مؤمنكم، وأخرج من الشِّركِ أوَّلَكم، وحقن دماء آخِرِكم، فبلاؤنا عندكُم قَديمًا وحديثًا أحسن البلاء، أن شكرتم أو كفرتم.

أيها الناس: إن ربَّ عليٍّ كان أعلم بعليٍّ حينَ قبضهُ إليه، ولقد اختصَّهُ بفضلٍ لم تعتدّوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقتِه، فهيهات هيهات، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها، جرَّعكم رنقًا(٢)، وسقاكم علقًا، وأذلَّ رقابكم، وأشرقكم بريقكم، فلستم بملُومين على بُغْضِه. وأَيْمُ الله لا ترى أمةُ محمد خَفْضًا ما كانت سادتهم وقادتهم بني أميَّة. ولقد وجّه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا، لطاعتكم طواغيتكم، وانضوائكم إلى شياطينكم. فعند الله احتسب ما مضى، وما ينتظر من سوء دَعَتكم، وحيفِ حكمِكُم؟ ثم قال:

«يا أهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهمٌ من مرامي الله، صائب على أعداء الله، نكالٌ على فُجّارِ قريش، لم يزل آخذًا بحناجرها، جاثمًا على أنفاسها، ليس بالملومة في أمر الله، ولا بالسَّروقة لمال الله، ولا بالفَروقة(٣) في حرب أعداء الله، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه، دعاه فأجابه، وقاده فاتبعه، لا تأخذه في الله لومة لائم، فصلوات الله عليه ورحمته».

فقال معاوية: أخطأ عَجيلٌ أو كاد، وأصاب مُتَثَبِّتٌ أو كاد. ماذا أردتُ من خطبة الحسن؟(٤)

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٧ ـ ٨.

(٢) ماء رنق: كدر.

(٣) الفروق والفروقة: الشديد الفزع.

(٤) جمهرة خطب العرب: ٢/ ١٣.

ومن أقوال الحسن عليه السلام:

اعلموا أن الحلم زين، والوقار مودَّة، والصلة نعمة، والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسَّفَه ضعف، والقلق ورطة، ومجالسة أهل الدنائة شَيْن، ومخالطة أهل الفسوق ريبة(١).

خطبة الحسين بن علي عليه السلام

خطب الإمام الحسين بن علي (ع) وأصحاب الحرِّ الرياحي بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أيها الناس، وإن رسول الله ﷺ قال: «مَن رأى سلطانًا جائرًا مستحلًا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقًّا على الله أن يدخله مُدْخله».

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرَّموا حلاله، وأنا أحقُّ من غير، وقد أتتني كتبكم، وقدِمت عليَّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم علي بيعتكم تصيبوا رشدكم؛ وأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم فيَّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم. والمغرور من اغترَّ بكم. فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومَن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغنيني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(٢).

ما قاله الإمام الحسين (ع) غداة يوم مقتله

«يا عباد الله، اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر؛ فإن الدنيا لو بقيت على أحد أو بقي عليها لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء، وأولى بالرضا، وأرضى بالقضاء. غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء، فجديدُها بال، ونعيمها مضمحل،

(١) صبح الأعشى: ١/ ٢١٥.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٨.

وسرورها مكفهر، والمنزل تَلْعة والدار قُلْعة[١] فتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلّكم تفلحون»[٢].

خطبة معاوية بن يزيد بن معاوية

كان صبيًا ضعيفًا، ملك أربعين يومًا، وقيل: ثلاثة أشهر. ثم أمر بالصلاة جامعة، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد؛ فإني قد نظرتُ في أمركم فضعفتُ عنه، فابتغيتُ لكم رجلًا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيتُ لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له مَن أحببتم؛ فما كنتُ لأتزوّدها ميتًا، وما استمتعتُ بها حيًا.

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس، وتغيّب حتى مات. قيل: دُسَّ إليه فسُقي السمّ، وقال بعضهم: طُعن. وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: إحدى وعشرين سنة[٣].

خطبة محمد ابن الحنفية

خطب عبد الله بن الزبير فقال من الإمام علي (ع) فبلغ ذلك ابنه محمد بن الحنفية، فأقبل حتى وُضِعَ له كرسي قرب المنبر فعلاه وقال: «يا معشر قريش، شاهت الوجوه، أينتقص عليٌّ وأنتم حضور؟ إنَّ عليًا كان سهمًا صادقًا، أحدَّ مرامي الله على أعدائه، يقتلهم لكفرهم، ويتهوّعهم[٤] مآكلهم، فثقل عليهم، فرموه بصِرْفة الأباطيل[٥].

وإنَّا معشرٌ له على نهج من أمره بنو الحسْبة[٦] من الأنصار. فإن تكن لنا الأيام دولة ننثر عظامهم، ونحسر عن أجسادهم، والأبدان يومئذٍ بالية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧].

---

(١) منزل تلعة: مخوف لأنه يكون في مجرى الماء من أعلى إلى أسفل وهو التلعة. ودار قلعة: ليس بمستوطن ولا ندري متى نتحول عنه.

(٢) الجمهرة: ٢/ ٥١.

(٣) الجمهرة: ٢/ ١٩٠؛ والفخري ص ١١٨.

(٤) هوّعه ما أكل: قيّأه إياه.

(٥) صِرْفة الأباطيل: الأباطيل الخالصة الصِرْفة.

(٦) الحسبة: الاحتساب. أي طلب الأجر من الله على الأعمال الصالحات.

فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال:

«عذرت بني الفواطم يتكلمون فما بال بني الحنفية؟».

فقال محمد:

«يا ابن أم رومان[١]، وما لي لا أتكلم؟ أليست فاطمة بنت محمد ﷺ حليلةَ أبي وأمَّ إخوتي؟ أوليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتي وأم أبي؟ أوليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبي؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركتُ في بني أسد عظمًا إلَّا هشَّمته، وإن نالتني فيه المصائب صبرت»[٢].

وصية عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب لابنه

وصَّى عبد الله بن الحسن ابنه محمدًا النفس الزكية (أو إبراهيم) فقال:

أي بُنيّ، إني مؤدٌ حق الله في تأديبك، فأدِّ إليّ حقَّ الله في الاستماع مني.

«أيْ بني، كُفَّ عن الأذى، وأرفض البذاء، واستعِنْ على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تَدعوك فيها نفسك، فإن للقول ساعات يضرُّ فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب. واحذر مشورة الجاهل، وإنْ كان ناصحًا، كما تحذر مشورة العاقل. إذا كان غاشًا، لأنه يورطك بمشورتهما - فيسبق إليك مكر العاقل - وغرارة الجاهل».

يرديك بمشورته. واعلم يا بنيّ أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائمًا، ووجدت هواك يقظان. فإياك أن تستبدّ برأيك، فإنه حينئذٍ هواك، ولا تفعل فعلًا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا تُرديك وأن نتيجته لا تجني عليك»[٣].

من أخبار أهل الخطابة والبلاغة

إياس بن معاوية

دخل إياس بن معاوية المزني الشام وهو غلام، فتقدم خصمًا له - وكان الخصم شيخًا كبيرًا - إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان. فقال القاضي: أتتقدم شيخًا كبيرًا؟ قال: الحق أكبر منه. قال: اسكتْ. قال: فمن ينطق بحجتي؟

---

(١) أم رومان بنت عامر، هي زوج أبي بكر رضي الله عنه وأم السيدة عائشة.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٩٠. (٣) جمهرة خطب العرب: ٣/ ٣٩.

قال: لا أظنك تقول حقًا حتى نقوم. قال: لا إلـه إلا الله، أحقًا هذا أم باطلًا؟ فقام القاضي فدخل على عبد الملك وأخبره الخبر. فقال له: اقضِ حاجتَه وأخرجه من الشام، لا يفسد علينا الناس. وكان هذا الغلام أياس بن معاوية، فكيف وقد كبر!

قال الجاحظ: أبو وائلة أياس بن معاوية المزني، وصاحب الزكن: أي المعروف بقوة الفراسة. ولكثرة كلامه قال له عبد الله بن شبرمة: أنا وأنت لا نتفق. أنت لا تشتهي أن تسكت. وأنا لا أشتهي أن أسمع.

وأتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس. ورأوه أحمر دميمًا. باذَّ الهيئة فاستهانوا به. فلما عرفوه اعتذروا له وقالوا: الذنب مقسوم بيننا؛ أتيتنا في زيٍّ مسكين تُكلمنا كلام الملوك.

وقيل له: ما فيك من عيب غير أنك معجبٌ بقولك. قال: فما أعجبكم قولي؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أحقُّ بأن أعجَبَ بما أقول. وبما يكون مني منكم.

عون بن عبد الله

كان عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، من الخطباء.، وكان مع ذلك راوية ناسبًا شاعرًا. ولما رجع عن قول المرجئة إلى الشيعة قال:

وأول ما تفارق غير شكٍّ ... نفارق ما يقول المرجؤنا
وقالوا: مؤمنٌ من آل جورٍ ... وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا: مؤمنٌ دمه حلالٌ ... وقد حَرُمَتْ دماءُ المؤمنينا

لزم عون عمر بن عبد العزيز. وكان ذا منزلة منه وفيه يقول جرير:

يا أيها الرجل المرخي عمامتَهُ ... هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتَنا إنْ كنت لاقيَهُ ... إني لدى الباب كالمشدود في قرنِ
وقد رآك وفود الخافقين معًا ... ومذ وليت أمورَ الناس لم ترني[1]

(١) البيان والتبيين: ١٧٤.

من خطبة البرزخ للإمام علي بن أبي طالب

قال ابن أبي الحديد في تقديم هذه الخطبة:

أقسم بمن تُقسم به الأمم كلها: لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين وإلى الآن أكثر من ألف مرة وما قرأتها إلّا أحدثتْ عندي روعًا وخوفًا وعظةً ـ فمن تأمل فصولها علم صدق معاوية في قوله فيه: «والله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيره» وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس، وتليت عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرقاع:

«قـلمٌ أصـاب مـن الـدُّواة مـدادهـا»

فلما قيل لهم: لما سجدتُم؟ قالوا: إنا نعرف مواضع السُّجود للشعر، كما تعرفون مواضع السجود في القرآن. وهذه مقتطفات منها:

سلكوا في بطون البرزخ سبيلًا سُلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربتْ من دمائهم، فأصبحوا في فجوات قبورهم جمادًا لا ينتمون، وضِمارًا[١] لا يوجدون. جيران لا يتأنّسون، وأحبَّار لا يتزاورون، بُليت بينهم عُرى التعارف، وانقطعت منهم أسبابُ الإخاء، فكُلُّهُم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجر وهم أخلَّاء، لا يتعارفون للّيْل صباحًا، ولا للنهار مساءً، أيُّ الجديدين ظعنوا[٢] فيه كان عليهم سرمدًا. شاهدوا من أخطار دارهم أفظع ممَّا خافوا، ورأوا من آياتها أعظم مما قدَّروا فكلتا الغايتين مُدَّت لهم إلى مباءةٍ فأتت مبالغ الخوف والرجاء.

فلو مثلتهم بعقلك، أو كُشِفَ عنهم محجوب الغطاء لك، وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكَّتْ، واكتحلَتْ أبصارهم بالتراب فخسفت، وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وهمدت صدورهم بعد يقظتها».

البرزخ: الحاجز بين شيئين ـ والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث. فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع هو القبر ـ لأنه حاجز بين الميت وأهل الدنيا كالحائط المبني بين اثنين ـ فإنه برزخ بينهما ـ ويجوز أن يراد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور[٣].

(١) الضمار: الغائب.
(٢) ظعن في المكان: أقام فيه. والجديدان: الليل والنهار.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/١٣٦.

ومن خطبة له عليه السلام تسمَّى «البرزخ» وهي من الخطب العجيبة

الحمد لله الذي علا بحَوْله، ودنا بطَوْله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة وأزل[١]. أحمده على عواطف كرمه، وسوابغ نعمه، وأومن به أوّلًا باديًا، وأستهديه قريبًا هاديًا، وأستعينه قاهرًا قادرًا، وأتوكل عليه كافيًا ناصرًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله لإنفاذِ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره».

وقد نظر البحتري إلى معنى قوله عليه السلام: «علا بحوله، ودنا بطَوْله». فقال:

دنوتَ تواضعًا وعلوتَ قدرًا ... فشأناك انخفاضٌ وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تُسامى ... ويدنو النور منها والشعاع

ويقول عليه السلام:

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضَربَ الأمثال، ووقّت لكم الآجال، وألبسكم الرياش، وأرفغ[٢] لكم المعاش، وأحاط بكم الأحصاء، وأرصد لكم الجزاء، وآثركم بالنعم والسوابغ، والرفد الروافغ، وأنذركم بالحجج البوالغ، فأحصاكم عددًا ـ ووظف لكم مددًا[٣].

ومن الخطباء البلغاء عبد الله بن عباس

قالوا: خطبنا بمكة، وعثمان محاصر، خطبةً لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا. وذَكَرَه حسان بن ثابت. فقال فيه:

إذا قال لم يترك مقالًا لقائل ... بملتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع ... لذي إربة في القول جدًا ولا هزلا
سموتَ إلى العليا بغير مشقةٍ ... فنلت ذراها لا دنيًّا ولا غلّا

وكان عبد الله بن عباس، أول مَن عُرفَ بالبصرة، يصعد المنبر فيقرأ سورة البقرة وآل عمران ويفسّرهما حرفًا حرفًا. وكان يسمى «البحر» و«حبر قريش».

---

(١) الأزْل: شدة الزمان، وضيق العيش.
(٢) أرفغه: جعله رفيغًا، أي واسعًا مخصبًا.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/٢٤٧.

وقال النبيّ ﷺ: «اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل» وقال عمر: غائصٌ غوّاص[١].

فتنة المدينة ووقعة الحرَّة

خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري وقد علم بقدوم جيش الشام إلى المدينة. (قتل سنة ٦٣ هـ) لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعه، ووثبوا على مَن كان في المدينة من بني أمية وحصروهم وأخافوهم، وأخرجوهم ومنهم مروان بن الحكم وكبراء بني أمية وحلفوهم عند منبر الرسول ﷺ لئن لقوا جيش يزيد ليردونهم عنهم إن استطاعوا فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ـ فحلفوا على ذلك.

فوجه يزيد جيشًا من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرّي ـ ونمى إليهم خبر مقدمه عليهم فجمعهم عبد الله بن حنظلة فقال: «تبايعونني على الموت، وإلا فلا حاجة في بيعتكم» فبايعوه على الموت ـ ثم صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله:

«أيها الناس: إنما خرجتم غضبًا لدينكم، فأبلوا إلى الله بلاءً حسنًا، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته، ويحل بكم رضوانه، واستعدُّوا بأحسن عُدتكم، وتأهّبوا بأكمل أهبتكم، فقد أُخبرت بأن القوم نزلوا بذي خُشُب ومعهم مروان بن الحكم، والله إن شاء الله مهلكه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله ﷺ».

فتصايح الناس، وجعلوا ينالون منه ويسبّونه ـ فقال لهم: «إن الشتم ليس بشيء ونصدقهم اللقاء، والله ما صدق قطُّ قوم إلا نُصروا»[٢].

فتنة البصرة

لما قتل محمد بن أبي بكر في مصر وظهر معاوية عليها سنة ٣٨ هـ دعا عبد الله بن عامر الحضرمي فقال له: «سرْ إلى البصرة فإن جُلّ أهلها يرون رأينا في عثمان، ويُعظِّمون قتله، وقد قُتلوا في الطلب بدمه. فهم موتورون حنقون لما أصابهم، ودُّوا لو يجدون مَن يدعوهم ويجمعهم، وينهض بهم في الطلب بدم

(١) البيان والتبيين: ١٧٥، ومروج الذهب ٢/ ٢٦.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٤٥ وجمهرة خطب العرب: ٢/ ٣٢٧.

عثمان. ودفع إليه كتابًا وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس. فمضى حتى نزل البصرة في بني تميم فسمع بقدومه أهل البصرة، فجاءه كل مَن يرى رأي عثمان فاجتمع إليه رؤوس أهلها.

خطبة عبد الله بن عامر

فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«أما بعد أيها الناس، فإن إمامكم، إمام الهدى عثمان بن عفان، قتله علي بن أبي طالب ظلمًا، فطلبتم بدمه، وقاتلتم مَن قتله، فجزاكم الله من أهل مصر خيرًا وقد أصيب منكم الملأ الأخيار، وقد جاءكم الله بأخوان لكم، فساعدوهم وتذكروا ثأركم، لتشفوا صدوركم من عدوكم».

خطبة الضحاك بن عبد الله الهلالي

فقام إليه الضحاك بن عبد الله الهلالي فقال:

«قبّح الله ما جئتنا به، وما دعوتنا إليه ـ جئتنا والله بمثل ما جاء به صاحباك طلحة والزبير. أتيانا وقد بايعنا عليًا واجتمعنا له، فكلمتُنا واحدة، ونحن على سبيل مستقيم، فدَعوانا على الفرقة، وقاما فينا بزخرف القول، حتى ضربنا بعضنا البعض عدوانًا وظلمًا فاقتتلنا على ذلك. وأيم الله ما سلِمنا من عظيم وبال ذلك، ونحن الآن مجتمعون علي، بيعة هذا العبد الصالح، الذي أقال العثرة، وعفا عن المسيء وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا، أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أغمادها، ثم يضرب بعضنا بعضًا، ليكون معاوية أميرًا، وتكون أنت وزيرًا. ونعدل بهذا الأمر عن علي؟ والله ليومٌ من أيام علي مع رسول الله ﷺ خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ما الدنيا باقية.

خطبة زياد بن أبيه

ثم إن الناس أقبلوا إلى ابن الحضرمي وكثر أتباعه ـ وكان بالبصرة يومئذٍ زياد ابن أبيه، استخلفه عبد الله بن عباس وقدم الكوفة على عليّ عليه السلام يعزّيه عن محمد بن أبي بكر ـ فأفزع ذلك زيادًا وهاله، وخلّى قصر الإمارة واستجار بالأزد فأجاروه وأعدوا له منبرًا وسريرًا وشرْطًا. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«يا معشر الأزد: إنكم كنتم أعدائي، فأصبحتم أوليائي وأولى الناس بي، وإني لو كنت في بني تميم، وابن الحضرمي فيكم، لم أطمع فيه أبدًا، وأنتم دونه، فلا يطمع ابن الحضرمي فيَّ وأنتم دوني، وليس ابن آكلة الأكباد ـ في بقيَّة الأحزاب وأولياء الشيطان ـ بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وقد أصبحتُ فيكم مضمونًا، وأمانة مؤدَّاة، وقد رأينا وقعتكم يوم الجمل، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل، فإنكم لا تُحمدون إلَّا على النجدة ولا تعذرون على الجبن». وكان معاوية لم يلحق زياد بنسبه بعد.

فقام شيّمان الأزدي، ولم يكن شهد يوم الجمل وكان غائبًا ـ فقال:

«يا معشر الأزد: ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلَّا سوء الذكر، وقد كنتم أمس على عليّ عليه السلام، فكونوا اليوم له ـ واعلموا أن إسلامكم[1] له ذل، وخذلانكم إياه عار، وأنتم حيٌّ مضماركم الصبر، وعاقبتكم الوفاء. فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم، وإن استمدّوا معاوية فاستمدّوا عليًّا عليه السلام، وإن وادعوكم فوادعوهم».

ثم قال أبو صبره شيمان الأزدي فقال:

«يا زياد، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل رجوت إلَّا يقاتلوا عليًّا، وقد مضى الأمر بما فيه، وهو يوم بيوم، وأمرٌ بأمر، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسيء، والتوبة مع الحق، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء واستئناف الأمور، ولكنها جماعة دماؤها حرام وجروحها قصاص، ونحن معك تحبُّ ما أحببت»[2].

من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي[3]

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير صعد المنبر متلثّمًا، فحطّ عنه اللثام وقال:

«موجُ ليل التطم، وانجلى بضوء صبحه. يا أهل الحجاز كيف رأيتموني! ألم أكشف الجور، وطخية الباطل بنور الحق؟

---

(١) إسلامكم له: خذلانكم له.
(٢) جمهرة خطب العرب: ١/ ٤٣٣ ـ ٤٤٠.
(٣) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٩٢.

والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق، وعَطْفة رحم، وَوَصْلَ قرابة، فإياكم أن تزلّوا عن سنن أقمناكم عليه؛ فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار، وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار». ثم نزل وهو يقول:

أخو الحرب إن عضَّتِ الحرب عضها وإن شمَّرت عن ساقها الحرب

وقال وقد ارتجّت مكة بالبكاء:

ألا إن ابن الزبير كان من أخبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله. ولو كان شيء مانعًا للعصاة، لمنع آدمَ حرمةُ الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده. فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدمُ على الله أكرمُ من ابن الزبير، والجنةُ أعظمُ حُرمةً من الكعبة».

وخطب الحجاج لما قدم البصرة يتهدَّد أهل العراق ويتوعدهم فقال:

«أيها الناس: مَن أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومَن استطال أجله ـ فعليَّ أن أعجله ومَن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومَن استطال ماضي عمره قصَّرتُ عليه باقيه. إن للشيطان طيفًا، وللسلطان سيفًا؛ فمن سُقمتْ سريرته صحَّتْ عقوبته، ومَن وضعه ذنبه رفعه صَلْبُه، إني أحذِّر ثم لا أعذِر ـ وأتوَعَّد ثم لا أعفو. إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي، فقائمه في يديه، ونجاده في عنقي، وذُبابه قلادة لمن عصاني.

والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد. فيخرج من الباب الذي يليه إلَّا ضربتُ عنقه».

وأشهر خطب الحجَّاج خطبته حين ولي العراق سنة ٧٥ هـ.

حدَّث عبد الملك بن عمير الليثي قال:

بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهلُ الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آتٍ، فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرًا على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتمًا بعمامة قد غطَّى بها أكثر وجهه، متقلدًا سيفًا، متنكبًا قوسًا، يؤمُّ المنبر. فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبَّح اللهُ بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق؟ حتى قال عمير بن ضابىء البرجمي: ألا

أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهلّ حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه أحسر اللثام عن فيّه، ونهض، فقال:

أنـا ابـن جَـلَا وطـلّاعُ الـثـنـايـا   متى أضع العمامةَ تعرفوني[١]

يا أهلَ الكوفة! أما واللهِ إني لأحملُ الشرَّ بحمله، وأحذو بنعله، وأجزيه بمثله. وإني لأرى أبصارًا طامحة، وأعناقًا متطاولة، ورؤوسًا قد أينعت وحانَ قطافُها، وإني لصاحبُها. وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرقُ - ثم أنشد:

هـذا أوانُ الـشَّـدِّ فـاشـتـدّي زِيَـمْ   قـد لـفَّـهـا الـلـيـلُ بـسـوَّاق حُـطَـمْ
لـيـس بـراعـي إبـلٍ ولا غَـنَـمْ   ولا بـجـزَّارٍ عـلـى ظـهـر وَضَـمْ[٢]
قـد لـفَّـهـا الـلـيـلُ بـعَـصْـلَـبـيِّ   أَرْوَعَ خـــرَّاجٍ مـــن الـــدَّوِّيِّ
مـهـاجـرٍ لـيـس بـأعـرابـيِّ[٣]
قـد شـمَّـرت عـن سـاقـهـا فـشُـدُّوا   وجـدَّت الـحـرب بـكـم فـجـدُّوا
والـقـوسُ فـيـهـا وَتَـرٌ عُـرُدُّ   مـثـلُ دراع الـبَـكْـرِ أو أشـدُّ
لا بُـدَّ مـمـا لـيـس مـنـه بُـدُّ[٤]

إني والله يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوىء الأخلاق، ما يُقَعْقَع لي بالشِّنان[٥]، ولا يُغمز جانبي كتُغْماز التين، ولقد فُرِزْتُ[٦] عن ذكاء، وفُتِّشتُ عن تجربة، وجَرَيْتُ إلى الغاية القصوى. وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كِنانته بين يديه، فعجم عيدانها[٧]، فوجدني أمرَّها عودًا وأصلبها

(١) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي. وهو مثل يُضرب للرجل الشهير المتعالم.

(٢) الشعر لرويشد بن رميض العنبري. والشدّ: العدو. وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب. والحطم: الراعي الظلوم للماشية. والوضم: خشبة يقطع عليها اللحم.

(٣) العصلبيّ: الشديد القوي. والأروع: الذكي والشجاع. الدوّيّ: الفلاة الواسعة التي تسمع لها دويًا في الليل. والمهاجر: الذي خرج من البدو إلى المدن.

(٤) عُرُدٌ: شديد. والبَكْر: الفتى من الإبل. ولا بد من كذا: لا محيد عنه.

(٥) الشّنان: جمع شَنّ، وهو القِربة البالية يحرّكونها إذا أرادوا حثّ الإبل على السير لتفزع فتسرع. وهو مثل يُضرب لمن لا يخيفه ما لا حقيقة له.

(٦) فَرّ الدابة: فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنّها. وفرّ عن الأمر: بحث عنه.

(٧) الكنانة: جعبة السهام. وعجم العود: عضّه ليعرف صلابته.

مكسرًا، فرماكم بي، لأنكم طالما أَوْضَعْتُم[١] في الفِتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغيّ. أما والله لألْحُونَّكم[٢] لَحْوَ العصا، ولأقرعنَّكم قَرْعَ المَرْوَة[٣]، ولأعصبنَّكم عَصْبَ السَّلَمة[٤]، ولأضربنَّكم ضَرْبَ غرائبِ الإبل[٥]. فإنكم لكأهلِ قريةٍ كانت آمنةً مطمئنة، أتيها رزقُها رغدًا من كل مكان، فكفرتْ بأنعُم الله، فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله لا أَعِدُ إلا وَفَيْت، ولا أهمّ إلا أمضيت، ولا أَخْلَق إلا فَرَيْت[٦]. فإيايَ وهذه الشُّفَعَاء، والزَّرافات والجماعات، وقالًا وقيلًا[٧]، وما تقول؟ وفيم أنتم وذاك؟ أما واللهِ لتستقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شُغْلًا في جسده! وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجّهكم لمحاربة عدوكم مع المهلّب بن أبي صُفْرة[٨]. وإني أُقسم بالله لا أجد رجلًا تخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكتُ دمه وأنهَبْتُ[٩] ماله وهدمتُ منزله».

من عَمَر دنياه وأَخْرَب آخرته

لما ولي سليمان بن عبد الملك، بعد وفاة أخيه الوليد، دخل المسجد وصعد المنبر فحمد الله وأثنى وقال:

«الحمد لله الذي ما شاء منع، وما شاء رفع، وما شاء وضع. أيها الناس إن الدنيا دار غرور ومنزل باطل، تضحك باكيًا، وتبكي ضاحكًا، وتخيف آمنًا، وتؤمّن خائفًا، وتثري فقيرًا وتفقر مثريًا، ميالة غرارة. عباد الله اتخذوا كتاب الله إمامًا وارضوا به حكمًا، واجعلوه لكم هاديًا ودليلًا، فإنه ناسخ ما قبله ولا ينسخه ما

(١) أوضع في سيره: أسرع. (٢) لحا العصا: قشرها.
(٣) المرو: حجارة بيض برّاقة تُوري النار.
(٤) السلمة: شجر كثير الشوك. تُعصب أغصانها ثم تُخبط بالعصيّ لسقوط الورق وهشيم العيدان.
(٥) قال الجاحظ في البيان والتبيين: وهي إبل تُضرب عند الهرب وعند الخلاط وعند الماء أشدَّ الضرب.
(٦) أخلق: أقدر. وفريت: قطعت.
(٧) الزرافات: الجماعات من الناس. القال والقيل والقالة: هي الكلام في الشر. والقول: هو الكلام في الخير.
(٨) هو قائد الجيوش الذي حارب الخوارج والأزارقة وكسر شوكتهم.
(٩) أنهب ماله: جعله نهبًا يُغار عليه.

بعده. واعلموا عباد الله أنه يجلو عنكم كيد الشيطان ومطامعه كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس وظلام الليل إذا عسعس».

ثم نزل. وكان سليمان فصيحًا بليغًا يرغب في مجالسة الحكماء والعلماء، فدخل عليه أبو حازم الأعرج فقال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم. فأنتم تكرهون الانتقال من العمران إلى الخراب[1].

خطابة مَن والاه ومالأه على ذلك

قال خالد بن عبد الله القسري في مكة مقارنًا بين الرسولَ والخليفة ـ وقد غالى في ذلك:

«أيها الناس، أيُّهما أعظم؟ أخليفَة الرجل على أهله، أم رسوله إليهم؟ الله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلّا أن إبراهيم خليل الرحمٰن استسقى ربه فسقاه ملحًا أجاجًا ـ واستسقاه الخليفة فسقاه عذبًا فراتًا».

ويعني بهذا بئرًا حفرها الوليد بن عبد الملك بالثنيتين: ثنية طُوى، وثنية الحجون مكان يُنقل ماؤها، فيوضع في حوض من أدم إلى جانب زمزم ليُعرف فضله على زمزم، وأن ماءها أفضل من ماء زمزم.

صعد خالد المنبر في يوم جمعة ـ وكان واليًا على مكة ـ فذكر الحجاج، فحمد طاعته وأثنى عليه.

فلما كان في الجمعة الثانية ورد كتاب سليمان بن عبد الملك، يأمره فيه شتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«إن إبليس كان ملكًا من الملائكة، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى به له فضلًا، وكان الله قد علم مدى غِشّه وخُبثه، ما خفي على ملائكته. فلما أراد فضيحته أمره بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه».

---

(١) تاريخ دول الإسلام: ١/ ٦١.

وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلًا، وكان الله قد أطلع الأمير من غشه وخُبثه على ما خفي علينا، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فالعنوه![1].

خطبة الكميت عند هشام بن عبد الملك

كان الكميت بن زيد الأسدي يمدح بني هاشم ويعرّض ببني أمية، فطلبه هشام بن عبد الملك، فهرب منه عشرين سنة، لا يستقرُّ به القرار من خوف هشام. وكان مسلمة بن عبد الملك له على هشام حاجةٌ في كل يوم يقضيها له ولا يردُّه فيها. فلما خرج مسلمة يومًا إلى بعض صيده، أقبل اناس يسلمون عليه، وأتاه الكميت بن زيد فيمن أتى، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

قِفْ بالديار وقوفَ زائرْ ... وتأنَّ، إنك غير صاغرْ

حتى انتهى إلى قوله:

يا مسلم بن أبي الوليد لميِّتٍ ... إن شئت ناشِرْ
عَلِقتْ حبالي من حبالك ... ذمَّةَ الجار المجاوز
فالآن صرتُ إلى أميَّة ... والأمور إلى المصايرْ
والآن كنت به المصيبَ ... كمهتدٍ بالأمس حائرْ

قفال مسلمة: سبحان الله من هذا الهندكي الجِلْحاب الذي أقبل مني أخريات الناس، فبدأ بالسلام ثم أما بعد. ثم بالشعر؟

وقيل له: هذا الكميت. فأعجب به لفصاحته وبلاغته. فسأله مسلمة عن خبره وما كان فيه طول غيبته، فذكر له سخط أمير المؤمنين عليه، فضمن له مسلمة أمانهُ.

ولما توجه مسلمة إلى الشام أخذ الكميت معه وأدخله على هشام ـ وهشام لا يعرفه ـ فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ـ الحمد لله. قال هشام: نعم، الحمد لله، يا هذا!

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٣٢٣.

قال الكميت: مبتدئي الحمد ومبتدعه، الذي خصَّ بالحمد نفسه، وأمر به ملائكته وجعله فاتحة كتابه، ومنتهى شكره، وكلام أهل جنَّته، أحمُدُهُ حمدَ مَن عَلِمَ يقينًا، وأبصر مستبينًا، وأشهدُ أن محمدًا عبده العربي، ورسول الأميِّ، أرسله والناسِ في هَبَوات[1] حَيرة، ومُدْلهماتِ ظلمة، عند استمرار أبهة الظلال، فبَلَّغ عن الله ما أُمر به، ونصح لأمته، وجاهد في سبيله، وعبد ربه ـ حتى أتاه اليقين ﷺ».

ثم إني يا أمير المؤمنين، تهتُ في حَيْرة، وحِرْتُ في سكْرَة، ادلأَمَّ[2] بي خطرها وأهاب بي داعيها، وأجابني غاويها، فاقطوطَيتُ[3] إلى الضلالة، وتسكَّعْتُ[4] في الظلمة والجهالة، جائرًا عن الحق، قائلًا بغير صدق، فهذا مقامُ العائذ[5]، ومنطق التائب، ومبصر الهدى بعد طول العمر. يا أمير المؤمنين. كم من عاثرٍ. أقلتم عثرته ومجترم عفوتم عن جرمه.

فقال له هشام ـ وأيقن أنه الكميت: ويحك! مَن سنَّ لك الغواية وأهاب بك في العماية[6]؟ قال: الذي أخرج أبي آدم من الجنة. فَنَسيَ ولم يجدْ له عزمًا. وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارتْ سحابًا متفرقًا، فلفقتْ بعضه إلى بعض، حتى التحم فاستحكم هَدْرُ رعدهِ، وتلألؤ برقه، فنزل الأرض فرَوِيَتْ، وأخضلت[7]، واخضرَّت. وأُسقيت، فروي ظمآنها، وامتلأ عطشانها فكذلك نُعدُّك يا أمير المؤمنين».

ولما أتمَّ الخطبة رضيَ عنه هشام وأمر له بجائزة.

كان سبب غضب هشام على الكميت: أن حكيم بن عباس الكلبي كان ولعًا بهجاء مضر والكميت مضري، فكانت شعراء مضر تهجوه ويجيبهم، وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم. قالوا: فأجب الرجل، قال: إن خالد بن عبد الله القسري ـ والي العراق وهو يمني ـ محسنٌ إليّ، فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك عن الهجا ـ وأنشدوه ذلك فحمي الكميت لعشيرته، فقال: «قصيدته المذهبة». وبلغ ذلك خالدًا فقال: والله

---

(١) الهبوات: الغبرات، وإذا سطعت في الجو وانتشرت عميت بها المسالك.
(٢) ادلأمّ الليل: ادلهمّ، اسودّ وأظلم. (٣) اقطوطى: قارب في مشيه إسراعًا.
(٤) تسكع: مشى مشيًا متعسفًا لا يدري إلى أين. (٥) العائذ: اللاجىء المستجير.
(٦) العماية: الغواية. (٧) اخضلَّت: ابتلّت.

لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيّرهن نهاية في الحسن والكمال والأدب، فروّاهُنَّ الهاشميات ـ وهي مدائح وقصائد قالها الكميت في مدح بني هاشم، وكان معروفًا بالتشيع لهم مشهورًا بذلك، وتعدُّ هذه القصائد من جيِّد شعره ومختاره وهي مطبوعة مشهورة.

فدسّ خالد الجواري مع نخّاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعًا، فلما أنس بهن استنطقهن ـ فرأى فصاحة وأدبًا، فاستقرأهن القرآن فقرأن، واستنشدهن الشعر، فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكُنْ! من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي، قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق ثم في الكوفة، فكتب إلى خالد عامله بالعراق: ابعث إليَّ برأس الكميت، فبعث إليه خالد في الليل، فأخذه وأودعه السجن، وعزم لينفُذَنَّ أمر الخليفة فيه، وأعمل الكميت الحيلة في الفرار.

فبعث إلى زوجته حُبِّي، فلما دخلت عليه هي وخادمتها، لبس ثيابها، وتنقَّبَ نقابها وأقامها مكانه، وخرج متنكرًا، وظل متواريًا مدة حتى حدث واستجار بهشام. كما مرّ(١).

أسلوب أكثم بن صَيفيّ
في إرسال الحكمة والوصية والخطابة

كان أكثم بن صيفي من حكماء العرب في الجاهلية وأحد المعمرين. أدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق وأسلم مَن بلغ المدينة من أصحابه. وهو المعني بالآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النّساء: الآية ١٠٠].

وكان يزيد بن المهلب يسلك طريقة الأكثم بن صيفي في خطبه فمن ذلك ما أوصى به ابنه مخلدًا حين استخلفه على جرجان وهو قوله:

يا بُني قد استخلفتك على هذه البلاد، فانظر هذ الحي من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر:

إذا كنت مرتادَ الرجال لنفعهم فَرِشْ واصطنعْ عند الذين بهم ترمي(٢)

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/٤٢٨ ـ ٤٣٠.

(٢) رأس الصديق: أطعمه وسقاه وكساه. والاصطناع: المبالغة في إصلاح الشيء.

وانظر هذا الحي من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك، فاقضِ حقوقهم.

وانظر هذا الحي من تميم فأمطرهم ولا تزْهُ لهم، ولا تُدنهم فيطمعوا، ولا تقصهم فيقطعوا. وانظر هذا الحي من قيس فإنهم أكفاء قومك في الجاهلية، ومُناصفوهم لمنابر في الإسلام، ورضاهم منك البشر.

يا بني إن لأبيك صنائع فلا تفسدها، فإنه كفى بالمرء نقصًا أن يهدم ما بنى أبوه. وإياك والدماء فلا بُقْية معها.

وإياك وشتم الأعراض فإن الحُرَّ لا يرضيه عن عِرْضه عِوَض. وإياك وضرب الأبشار فإنه عار باق ووتر مطلوب...

وأستودعك الله فلا بد للمودّع أن يسكت، وللمشيع أن يرجع، وما عفّ من المنطق وقلّ من الخطيئة. أحبُّ إلى أبيك[١].

بنو الكــوّاء

ومن أصحاب الخطب والأخبار والنسب، والحكم عند أصحاب النفورات: بنو الكواء وإياهم يعني مسكين الدارمي حين ذكر أهل هذه الطبقة فقال:

كلانا شاعرٌ في حيٍّ صدقٍ ... ولكنَّ الرَّحى فوق الثقالِ
وحكِّم دغفلًا وأرحل إليه ... ولا تُرِحِ المطيَّ من الكلالِ
تعال إلى بني الكواء يقضوا ... بعلمهم بأنساب الرجالِ
تعال إلى ابن مذعورٍ شهاب ... يُنَبِّي بالسوافل والعوالي
وعند الكيِّس النمري علمٌ ... ولو أضحى بمنحرف الشمالِ[٢]

خطبة داود بن علي، وقد أُرْتِج[٣] على السفّاح

رُوِيَ أنه لما قام أبو العباس السفاح في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقةِ المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فنهض داود بن عليّ حتى صعد المنبر.

---

(١) بلوغ الأرب: ٢/ ١٧٢. (٢) البيان والتبيين: ١/ ١٨٦.
(٣) أُرْتِجَ عليه: استغلق عليه الكلام. ومثله حَصِير القارىء والخطيب: لم يقدر على الكلام.

فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضيتُ سيفي، وغطّيته بثوبي وقلت: إن فعل ناجزتَه. فلما رقي غَتَبا استقبل الناس بوجهه دون أبي العباس ثم قال:

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قولُه فعلَه، ولأثَرُ الفعال أجدى عليكم من تشقيق المقال، وحسبُكم بكتاب الله ممتثلًا فيكم ـ وابن عمر رسول الله ﷺ خليفةً عليكم، والله ـ قسمًا برًا لا أريد به إلّا الله ـ ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله ﷺ أحقُّ به من عليٍّ بن أبي طالب (ع) وأمير المؤمنين هذا فيلظُنَّ ظانُكم، ولَيَهمسَن هامِسُكم».

قال أبو جعفر: ثم نزل وغَمدتُ سيفي.

وروى السيد المرتضى في أماليه قال:

أراد أبو العباس السفاح يومًا أن يتكلم بأمر من الأمور بعدما أفضت الخلافة إليه وكان فيه حياءٌ مفرط ـ فارتُجَّ عليه. فقال داود بن عليٍّ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس، إنَّ أمير المؤمنين الذي قلّده الله سياسة رعيَّته ـ عُقل مَن لسانه، عندما يعهَد من بيانه ـ ولكل مُرتقٍ بُهرٌ ـ حتى تنفُّسه العادات، فأبشروا بنعمةِ الله في صلاح دينكم ـ ورغد عيشكم».

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملَكه بنو العباس فقال:

شكرًا شكرًا، إنَّا والله ما خرجنا لنحْفِر فيكم نهرًا، ولا لنبني فيكم قصرًا. أظنَّ عدوُّ الله أن لن نقدر عليه، أن رُوخي له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه؟ فالآن حيث أخذ القوسَ باريها، وعادت النَّبْلُ إلى النزعة، ورجع الملك في نصابه من أهل بيت النبوَّة والرحمة ـ والله لقد كنا نتوجَّع لكم ونحن في فُرُشنا ـ أمن الأسود الأحمر، لكم ذمةُ الله، لكم ذمة رسول الله ﷺ لكم ذمة العباس. لا وربِّ هذه البِنيَّة ـ وأومأ بيده إلى الكعبة ـ لا نهيج منكم أحدًا»[1].

رَوْح بن زنباع ومعاوية

ولَّى معاوية روح بن زنباع، فعتب عليه بجناية، فكتب إليه بالقدوم، فلما قدم أمر بضربه بالسياط، فلما أقيم ليُضرب قال:

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٣/ ١١ ـ ١٤.

«نشدتك الله يا أمير المؤمنين، أن تهدمَ منِّي ركنًا أنت بنيته، أو تضع مني خَسيسة أنت رفعتها، أو تُشمت بي عدوًّا أنت وقمته. وأسألك بالله إلَّا أتى عفوك وحلمك دون إفساد صنائعك».

فقال معاوية: «إذا الله سَنَّى عقد أمرٍ تيسرًا خلّوا سبيله»[١].

يكره يوم الجمعة!

قيل أن عبد ربه اليشكري كان عاملًا لعلي بن موسى على المدائن فصعد المنبر يومًا فحمد الله وأثنى عليه ـ ثم أُرْتج عليه فسكت ثم قال:

والله أني لأكون في بيتي فتجيء على لساني ألف كلمة، فإذا قمت على أعواد منابركم هذه جاءني الشيطان فمحاها كلها من صدري. ولقد كنت وما في الأيام يوم أحبُّ إليَّ من يوم الجمعة، فصرت وما في الأيام يوم أبغض عليّ من يوم الجمعة، وما ذاك إلا لخطبتكم هذه[٢].

حسن التخلُّص

كان عامر الشعبي ممن خرج مع ابن الأشعث، فلما أتى الحجاج بأسرى الجماجم أتى فيهم بالشعبي موثقًا ـ وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أسرى دير الجماجم أن يعرضهم على السيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلَّى سبيله، ومَن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه.

قال الشعبي: فلما جئت باب القصر لقيني زيد بن أبي مسلم كاتبه، فقال: إنّا لله يا شعبي، لما بين دفتيك من العلم، وليس اليوم بيوم شفاعة!

قلت له: فما المخرج؟ قال: بؤ للأمير بالشرك والنفاق على نفسك وبالحريّ أن تنجو. ثم لقيني محمد بن الحجاج، فقال لي مثل مقالة زيد، فلما دخلت على الحجاج قال لي:

وأنت يا شعبي ممن ألّب علينا ابن الأشعث؟ أشهد على نفسك بالكفر!

قلت: أصلح الله الأمير نبا بنا المنزل، وأجدب بنا الجناب، واستحلْنا الخوف، واكتحلنا السهر، وضاق المسلك، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء

(١) جمهرة الخطيب: ٢/ ٣٩٤.

(٢) العقد الفريد: ١/ ١٥١ و٣/ ١٢.

ولا فجرة أقوياء. قال: صدقت، والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم، خلوّا سبيل الشيخ[١].

خطبة السفاح بأهل الشام لما قتل مروان بن محمد

لما قتل مروان بن محمد ـ آخر خلفاء بني أمية ـ خطب السفاح ـ فقال:

«ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرًا، وأحلُّوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس المصير».

نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتهورون بكم مداحِضَ[٢] الزَّلق، يطئون بكم حَرَم الله[٣]، وحَرم رسوله[٤]. ماذا يقول زعماؤكم غدًا يقولون: «ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذابًا ضِعْفًا من النار».

إذن يقول الله عزّ وجلّ:

«لكلٌّ ضِعفٌ ولكن لا تعلمون» أما أمير المؤمنين فقد ائتنف[٥] بكم التوبة، واغتفر الزلّة، وبسط لكم الإقالة[٦]، وعاد بفضله على نقصكم، وبحلمه على جهلكم، فليَفرِخْ رُوعكم[٧]، ولتطمئن قلوبكم، وليُقْطَع مصارعُ أوائلكم، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا»[٨].

خطبة داود بن علي، وقد أُرْتج عليه

خطب داود بن علي بن عبد الله بن العباس عم السفاح، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمد وآل محمد ـ فلما قال: أما بعد، امتنع عليه الكلام، ثم قال:

«أما بعد، فقد يجد المُعسِر، ويُعسر الموسِر، ويُفلُّ الحديد، ويَقْطع الكليل، وإنما الكلام بعد الإفحام، كالإشراف بعد الإظلام، وقد يعزُبُ البيان، ويُعقَمُ

---

(١) العقد الفريد: ١/ ١٥١ و٣/ ١٢.
(٢) مداحض: جمع مدحضة، وهي المنزلة.
(٣) يشير إلى ما كان من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير، ورميه الكعبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان.
(٤) يشير إلى وقعة الحرّة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية.
(٥) ائتنف: استأنف وابتدأ.
(٦) أقال عثرته: رفعه من سقوطه.
(٧) أي ليخرج الفزع من قلبكم. والرُّوع (بالضم) هو القلب.
(٨) جمهرة الخطب: ٣/ ١٢ ـ ١٣.

الصواب، وإنما اللسان مضغة من الإنسان، يفتر بفتوره إذا نَكَل، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل. ألا وإننا لا ننطق بَطَرًا، ولا نسكت حَصَرًا، بل نسكت معتبرين، وننطق مرشدين، ونحن بعد أمراءُ القول، فينا وشجت أغراقه، وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهدَّلت ثمرته، فنتخيّر منه ما احلولى وعذب، ونطّرح منه ما املولح وخبُث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام، يُعرف فيها فضل البيان، وفصل الخطاب والله المستعان» ثم نزل[١].

خالد بن صفوان وأخوال السفّاح

وروى الجاحظ قال:

كان خالد بن صفوان الأهتمي من سُمّار أبي العباس السفاح، وأهل المنزلة عنده، ففخر عليه ناس من بني الحارث (بلحارث) وأكثروا القول، فقال أبو العباس: لم لا تتكلم يا خالد؟ فقال: أخوال أمير المؤمنين وعَصَبته. قال: فأنتم أعمام أمير المؤمنين «عصبته» قال خالد: وما عسى أن أقول لقوم، كانوا بين ناسج بُرد، ودابغ جلد، وسائس قِرْد، وراكب عُرْد[٢]، دلَّ عليهم هدهد، وغرّقتهم فأرة[٣]، وملكتهم امرأة[٤].

يشير بذلك إلى حديث الهدهد مع سليمان (ع) - في قوله تعالى:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: الآيات ٢٠ - ٢٤] الآيات. وأما قوله: «أخوال أمير المؤمنين»...

فقد كانت أم السفاح من بني الحارث بن كعب، واسمها ريطة بنت عبيد الله ابن عبد الله بن عبد الملك بن الديان الحارثي، ولذا كان يقال للسفاح: ابن الحارثية[٥].

---

(١) جمهرة الخطب: ٣/ ١٢ - ١٣. (٢) العَرْد: الحمار.

(٣) يشير إلى ما يزعمه المؤرخون من أن سيل العرم الذي ضرب اليمن كان سببه قرض الجرذ لسد مأرب.

(٤) هي بلقيس ملكة سبأ. (٥) الجمهرة: ٣/ ٢٢ - ٢٣.

خطبة للمأمون

خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله وأنتم في مهل، بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل، فكأني بالموت قد نزل، فشغلت المرء شواغله، وتولّت عنه فواصله، وهيئت أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي، فهو في التراب عفير، وإلى ما قدم فقير. وقال الشعبي: ما سمعت أحدًا يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطىء ما خلا زيادًا فإنه لا يزداد إكثارًا إلا ازداد إحسانًا.

خطبة لعلي رضي الله عنه

خطب علي رضي الله عنه فقال في خطبته: عباد الله الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجا النجا والوحا الوحا، فإن وراءكم طالبًا حثيثًا وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه يومًا يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحجّ: الآية ٢]. ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة، قال: فبكى المسلمون بكاءً شديدًا، ثم قال: إلا وإن وراء ذلك اليوم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

خطبة للحجاج

خطب الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو، وكل صمت في غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن في أضغاث أحلام. قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرًا ثم قال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك، فهذا وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة

قال في المستطرف[1]: قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] وقال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: الآية ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: الآية ٧١]. ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾[آل عمران: الآية ١١٤]. والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمّة منشورة.

وروينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وقال شيخنا محيي الدين النووي رحمة الله تعالى عليه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: الآية ١٠٥]. إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أُرمتم به لا يضركم ضلالة من ضل.

(١) المستطرف: ص ٨٨ ـ ٩١.

ومن جملة ما أُمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المَائدة: الآية ٩٩].

وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جنود الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر.

ومن كلام عليّ رضي الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب.

وأنشد الجاحظ:

وليس يزجركم ما توعظون به والبُهم يزجرها الراعي فتنزجر

وصية صديق

كتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستح من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك والسلام. وقيل: مَن كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، وقال لقمان: الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك إن أتيتني بعبد آبق[1] كتبتك عندي حميدًا، ومن كتبته عندي حميدًا لم أعذبه بعدها أبدًا، وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عظني وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين: هل أحد أحب إليك من نفسك، قال: لا. قال: إن أردت أن لا تسيء إلى مَن تحب فافعل، وقال النبيّ ﷺ في بعض خطبه: «أيها الناس الأيام تطوى، والأعمار تفنى، والأبدان في الثرى تبلى، وأن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد[2]، ويقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات.

عظة الحسن البصري

لما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعظني، فقرأ الحسن البصري: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٣]، ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

(١) آبق: هارب. (٢) البريد: الدواب.

يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٠٥ - ٢٠٧]. فقال عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتني أحسن موعظة.

وصية علي بن أبي طالب

لما ضرب ابن ملجم لعنه الله عليًا رضي الله عنه، دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق، فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وقال: أوصيكم بتقوى الله تعالى، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان. افعلا الخير وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم عونًا، ثم دعا محمّدًا ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى. قال: فإني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمرًا دونهما، ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيرًا، فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه، فأحباه.

ثم قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعَدوّ، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يا بني ما شرّ بعده الجنّة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنّة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني مَن أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومَن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته، ومَن سلّ سيف البغي قتل به، ومَن حفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومَن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه، ومَن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومَن أُعجب برأيه ضلّ، ومَن استغنى بعقله زلّ، ومَن تكبّر على الناس ذل، ومَن خالط الأنذال احتقر، ومَن دخل مداخل السوء اتهم، ومَن جالس العلماء وقر، ومَن مزح استخفّ به، ومَن أكثر من شيء عرف به، ومَن كثر كلامه كثر خطؤه وقلّ حياؤه، ومَن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومَن قلّ ورعه مات قلبه، ومَن مات قلبه دخل النار. يا بني الأدب ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين، يا بني العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء، يا بني زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر. يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب[1].

---

(١) النصب: الشقاء والتعب.

وصية هشام بن عبد الملك

لما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة، نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له.

عظة الأوزاعي للمنصور

قال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك[1] بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام. فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي بيدك؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبًا، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم، يا أمير المؤمنين: إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيًا من غير تعمد. يا أمير المؤمنين: لو أن ذنوبًا من النار صب، ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوبًا من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلسل بها، ويرد فضلها على عاتقه.

عظة زيد بن أسلم لجعفر بن أبي طالب

روى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان والي المدينة: احذر أن يأتي رجل غدًا ليس له في الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح، وامرأة لوط أولى بفرعون، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطىء به نسبه.

عظة ابن طاوس للمنصور

روى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن

(١) يستاك: من السواك، وهو العود الذي تنظف به الأسنان من بقايا الأطعمة.

اجلسا فجلسنا، فأطرق زمانًا طويلًا ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك. قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور في حكمه». فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال: ما لك؟ فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس، ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قومًا عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي. قال: ما لك، فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

عظة كعب الأحبار لعمر بن الخطاب

رُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لكعب الأحبار: يا كعب خوفنا. قال: أوَليس فيكم كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين اعمل، فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيًا، لازدريت عملهم مما ترى، فنكس عمر رضي الله عنه رأسه، وأطرق مليًا، ثم رفع رأسه، وقال: يا كعب خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنّم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه، حتى يسيل من حرّها، فنكس عمل عمر ثم أفاق، فقال: يا كعب زدنا، فقال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة، فلا يبقى ملك مقربٌ ولا نبيّ مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

عظة أبي بكر الطرطوشي للأفضل ابن أمير الجيوش

قال الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام على نحو ما سلمت ردًا جميلًا، وأكرمني إكرامًا جزيلًا، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلّك محلّا عليًا شامخًا، وأنزلك منزلًا شريفًا باذخًا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان. قال

الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣]د واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَن كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير. قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [الحِجر: الآيتان ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧]، واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام، فسخّر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخّر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [صٓ: الآية ٣٩]، فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجًا من الله تعالى، ومكرًا به. فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النَّمل: الآية ٤٠]. فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف، أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفًا للملهوف وأمانًا للخائف. ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت[١] البلاد شرقًا وغربًا، فما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولذّت[٢] لي الإقامة فيها غير هذه المملكة، ثم أنشدته:

والناس أكيسُ[٣] من أن يحمدوا رجلًا ... حتى يروا عنده آثار إحسان

عظة الفضيل بن عياض للرشيد

قال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد سنة من السنين، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب، فقلت: مَن هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم، فانظر لي رجلًا أسأله عنه، فقلت: هٰهنا سفيان بن عيينة، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: مَن هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: جد لما جئنا له، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك

(١) جبت: زرت ورحلت.
(٢) لذت: طابت وحليت.
(٣) الكيس: الظرافة والعقل.

دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقضِ دينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، فانظر لي رجلًا أسأله، فقلت: هٰهنا عبد الرزاق بن همام، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: مَن هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: جد لما جئنا به، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقضِ دينه، ثم انصرفنا.

فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، فانظر لي رجلًا أسأله، فقلت: هٰهنا الفضيل بن عياض، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها، فقرعت عليه الباب، فقال: مَن هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أما تجب عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال: أواه من كف ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله تعالى؟ فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي، فقال: جد لما جئنا له رحمك الله تعالى، فقال: وفيمَ جئت حملت على نفسك، وجميع مَن جميع حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصًا[1] من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبًا لك أشدهم هربًا منك. ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ. فعدّ الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فبرّ أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت، وإني لأقول هذا، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم مَن يأمرك بمثل هذا.

---

(١) الشقص: النصيب، والقطعة من الشيء.

فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق يا أمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا، ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكا إليه سهرًا، فكتب له عمر يقول: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبدان، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائمًا ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبدًا حتى ألقى الله عزّ وجلّ، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال: زدني.

قال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبيّ ﷺ جاء إليه، فقال: يا رسول الله أمرني إمارة، فقال له النبيّ ﷺ: «يا عباس، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها. إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال: زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبيّ ﷺ قال: «مَن أصبح لهم غاشًا لم يرح رائحة الجنّة»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل إن سألني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي، قال هارون: إنما أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أو إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريَات: الآيات ٥٦ - ٥٨]. فقال له هارون: هذه ألف دينار، فخذها وأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادة ربّك، فقال: سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم.

في ذكر الشعر والشعراء وسـرقاتهم

قال في المستطرف[1]: قيل: ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي، والمكان الخضر الخالي، وقيل: أمسك على النابغة الجعدي أربعين يومًا فلم ينطق بالشعر، ثم إن بني جعدة غزوا، فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام الشعر، فذلّ له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رُويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وقال: الرجال الشعراء أمراء الكلام يتصرّفون فيه كيف شاؤوا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده، وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرضت القريض؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال: لا. فكتب إلى عبد الله أبا زياد بارك الله لك في ابنك فأروه الشعر، فقد وجدته كاملًا، وإني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقي مساويها، وتعلموا الأنساب فرب رحم مجهولة قد وصفت بعريان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين، فما ثبتني إلا قول القائل:

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... مكانك تُحمدي أو تستريحي[2]

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر، كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن فحولهم، ثم تنسك، فكان

---

(١) المستطرف: ص ٦٨ ـ ٧٣.

(٢) جشأت وجاشت: أي اضطربت نفسه من حزن أو خوف.

يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالًا جزيلًا على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، فقيل له: في ذلك، فقال: خير مالك ما وقيت به في عرضك، وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله؟ فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيًا» ولم ينطق به موزونًا، فقال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه: أشهد أنك رسول الله حقًّا وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى﴾ [يٓس: الآية ٦٩].

نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم

بين قيس بن الخطيم وطرفة

فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها[١]:

وما المال والأخلاق إلّا معارةٌ فما استطعت من معروفها فتزوّد

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها:

لعمرك ما الأيام إلّا معارةٌ فما استطعت من معروفها فتزودِ

بين عبدة بن الطيب وامرىء القيس

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب:

فما كان قيسٌ هلكُهُ هلكُ واحدٍ ولكنهُ بنيانُ قومٍ تهدّما

أخذه من قول امرىء القيس:

فلو أنها نفسي تموت شريتها ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

(١) هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي أبو يزيد شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية، أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما، أدرك الإسلام فقتل قبل أن يدخل فيه، شعره جيد، له ديوان شعر مطبوع.

بين كُثَيِّر والحطيئة

ويقال مَن سرق شيئًا واسترقه، فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه   حَصَانٌ عليها عقد در يزينها

أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروي:

إذا ما أراد الغزو لم يثنِ همه   حصانٌ عليها لؤلؤ وشنوفُ(١)

بين جرير وزهر

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضل قومٍ   على قومٍ لكان لنا الخلودُ

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو:

فلو كان حمدٌ يخلد المرء لم يمتْ   ولكنَّ حمد المرء غير مخلد

بين الشماخ وآخر

وقد قال الشمّاخ:

وأمرٍ ترجّي النفس ليس بنافعٍ   وآخر تخشى ضيرَهُ لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجّي النفوسُ الشيءَ لا تستطيعه   وتخشى من الأشياء ما لا يضيرُها

بين أبي تمام والأخطل

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نور تُفتِّحه الصبا   بياض العطايا في سواد المطالبِ

أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضًا في سوادٍ كأنه   بياض العطايا في سواد المطالبِ

---

(١) الحصان: المرأة العفيفة. والشنوف: الحلي التي تعلق بالأذان.

من سقطات الشعراء

أبو العتاهية

ما قيل: إن أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط، رُوِيَ أنه لقي محمد بن مبادر بمكّة، فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية، فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

لقلت كثيرًا ولكني أقول:

ابن عبد الحميد يوم توفى هدّ ركنًا ما كان بالمهدودِ
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفافٍ وجودِ

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكاد أبو العتاهية يموت غمًّا وأسفًا.

بشار بن برد

وكان بشّار بن برد يسمّونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظم سليمى حبتي قصبُ السكر لا عظم الحملْ
وإذا أدنيت منها بصلًا غلب المسك على ريح البصلْ

هذا مع قوله:

إذا قامت لمشيتها تثنّت[1] كأن عظامها من خيزران

ومع قوله في الفخر:

كأنّ مثار النّقع[2] فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضًا:

---

(١) تثنت: تمايلت.
(٢) مثار النقع: أي الغبار.

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

أبو الطيب المتنبي

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعاني وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيءٍ ظنّه رجلًا

وغير شيء معناه المعدوم، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجّه الأسماع قوله:

تقلقلت بالهمّ الذي قلقل الحشا قلاقل عشٍ كلّهن قلاقل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:

إن كان مثلك كان أو هو كائنٌ فبرئت حينئذٍ من الإسلامِ

ومن معانيه المسروقة قوله:

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

سكينة بنت الحسين والشعراء

قال أبو عبد الله الزبيري: اجتمع راوية جرير، وراوية كثير، وراوية جميل، وراوية الأحوص، وراوية نصيب، فافتخر كل منهم وقال: صاحبي أشعر، فحكّموا السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله تعالى عنهما بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها، وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدةُ القلوبِ وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق! قبّح الله صاحبك وقبّح شعره فهلا قال: فادخلي بسلام. ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول:

يقرّ بعيني ما يقرّ بعينها وأحسن شيء ما به العين قرّت

وليس شيء أقرّ بعينها من النكاح، أيحب صاحبك أن ينكح! قبّح الله صاحبك وقبّح شعره. ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله. قبّح الله صاحبك وقبّح شعره. ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت ... فواحزني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا مَن يتعشقها بعده. قبحه الله وقبّح شعره هلا قال:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت ... فلا صلحت دعد لذي خِلّة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا ... ليلًا إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم ليلة وألذها ... حتى إذا وضح الصباح تفرّقا

قبّحه الله وقبّح شعره. هلا قال: تعانقا. فلم تثن على واحد منهم، وأحجم رواتهم عن جوابها رضي الله عنها.

عمر بن عبد العزيز والشعراء

روى ابن الكلبي قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدي بن أرطأة[1] عليه وكان منه بمكانة فتعرّض له جرير وقال:

ياأيّها الرجل المزجي مطيّته[2] ... هذا زمانك إنّي قد خلا زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أنّي لدى الباب كالمشدود في قرن[3]
لا تنسى حاجتنا لاقيت مغفرة ... قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

---

(١) هو عدي بن أرطأ الغزاري أبو وائلة، أمير من أهل دمشق، كان من العقلاء الشجعان، ولّاه عمر بن عبد العزيز البصرة سنة ٩٩ هـ. فاستمرّ إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط في فتنة أبيه «يزيد» بالعراق سنة ١٠٢ هـ.

(٢) المزجي مطيته: أي السائق والمستحث لها. (٣) القرن: الحبل وما يربط به.

فقال: نعم يا أبا عبد الله، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وألسنتهم مسمومة، وسهامهم صائبة، فقال عمر رضي الله عنه: ما لي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم، قال: صدقت، فمَن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي ... شممت الذي ما بين عينيك والفمِ
وليت طهوري كان ريقك كلهُ ... وليت حنوطي من مشاشك والدم[١]
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي ... هنالك أو في جنّةٍ أو جهنّمِ

فليته عدوّ الله تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عملًا صالحًا، والله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمَن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال جميل بن معمر العذري قال: أليس هو القائل:

ألا ليتنا نحيا جميعًا فإن نمتْ ... يوافى لدى الموتى ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغبٍ ... إذا قيل قد سوّي عليها صفيحها[٢]
أظلّ نهاري لا أراها وتلتقي ... مع الليل روحي في المنام وروحها

والله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عهدتهم ... يبكون من حذر الفراق قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها ... خرّوا لعزّة رُكّعًا وسجودا

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمَن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأحوص الأنصاري قال: أبعده الله، والله لا يدخل عليَّ أبدًا، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بيني وبين سيِّدها ... يفرّ منّي بها وأتبعه

---

(١) المشاش العظم اللين.
(٢) الصفيح: القبر.

فمَن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله:

هـمـا دلّيـانـي مـن ثـمـانـيـن قـامـة كما انقضّ بازٌ ليّنُ الريش كاسرُه
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا أحيٌّ فيرجى أم قتيلٌ نحاذره
فقلت ارفعوا الأجراس لا يفطنوا بنا وولّيت في أعقاب ليلٍ أبادره

والله لا دخل عليَّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغلبي. قال: أليس هو القائل:

ولست بصائمٍ رمضان عمري ولست بآكلٍ لحم الأضاحي
ولست بزاجرٍ عيسًا بكورًا إلى أطلال مكّةَ بالنجاحِ
ولست بقائم كالعبد يدعو قبيل الصبح حيّ على الفلاحِ
ولكنّي سأشربها شمولًا وأسجد عند منبلج الصباح(١)

أبعده الله عني، فوالله لا دخل عليَّ أبدًا، ولا وطيء لي بساطًا، وهو كافر، فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلامِ

فإن كان ولا بد، فهذا، فأذن له قال عدي بن أرطأة: فخرجت فقلت: ادخل يا جرير، فدخل وهو يقول:

إنّ الذي بعث النبيّ محمّدًا جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووقاره حتى ارعووا وأقام ميل المائل(٢)
إني لأرجو منه نفعًا عاجلًا والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال: يا جرير اتقِ الله ولا تقل إلا حقًّا، فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممّن بعدلك يُكْفيَ فقد والده كالفرخ في العشّ لم يدرج ولم يطر

---

(١) منبلج الصباح: أي ظهوره وطلوعه.
(٢) ارعووا: انصرفوا وامتنعوا عن الضلالة. وأقام: سوى وعدل وجلس.

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني ما بلّغت من خبري
إنّا نرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
إن الخلافة جاءته على قدرٍ كما أتى ربّه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير ما دلّت حيًّا لا يفارقنا بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين دينارًا فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحل مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوءكم خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإنّني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الجنّ لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن واقيا

سقطة الأحنف بن قيس

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد: قال الأحنف الشريف: من عدت سقطاته، وقلّت عثراته، وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو، وكان الأحنف بن قيس حليمًا سيّدًا يضرب به المثل، وقد عدت له سقطة وهو أن عمرو بن الأهتم دسّ إليه رجلًا يسفهه فقال: يا أبا بحر ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيّدهم، ولم يتخلّف عنهم، فرجع إليه ثانيًا، ففطن أنه من قبل عمرو بن الأهتم، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوّة ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجًا.

في الكتابة والكتّاب

قيل في هذا المجال:

أهدى بعض الكتّاب إلى صديقٍ له دفترًا وكتب معه: هديّتي هذه، أعزّك الله، تزكو على الإنفاق، وتربو على الكدّ. لا تفسدها العواري، ولا تخلقها كثرة التقليب. وهي أنسٌ في الليل والنهار، والسفر والحضر. تصلح للدنيا والآخرة، وتؤنس في الخلوة، وتمنع من الوحدة. محدِّثٌ مطاوع، ونديمٌ صادق.

قال بعض الحكماء:

الكتب بساتين العلماء. وقال آخر: ذهبت مكارم الأخلاق إلا في الكتب.

قال المنصور العباسي بن المهدي للمأمون: أيحسن بنا طلب العلم والأدب؟ قال: والله لأن أموت طالبًا للأدب خيرٌ لي من أن أعيش قانعًا بالجهل. قال: فإلى متى يحسن ذلك؟ قال: ما حسُنت الحياة لك.

قال علي بن أبي طالب (ع) لكميل بن زياد في العلم والمال:

يا كميل؛ العلم أفضلُ من المال بسبعة: إن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة. والعلم لا ينقص بالنفقة، والمال ينقص بها. المال يحتاج إلى الحافظ والعلم يحفظه. العلم يدخل الكفن، والمال لا يدخل. المال يحصل للمؤمن والكافر، والعلم لا يحصل إلا للمؤمن خاصة. جميع الناس يحتاجون إلى العلم في أمر دينهم، ولا يحتاجون إلى المال. العلم يقوّي الرجل على المرور على الصراط، والمال يمنعه.

وقال الجاحظ:

الكتاب وعاء مُلىء علمًا، وظرفٌ حُشي ظرفًا، وإناءٌ شُحن مزاحًا. إن شئت كان أعيا من باقل[(١)]، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل[(٢)]، وإن شئت سرَّتك نوادره وشجتك مواعظه.

مَن لك بواعظ مثله، وبناسك فاتك، وناطق أخرس. ومَن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغثّ والسمين؟

وبعد، فما رأيت بستانًا يُحمل في رُدْن، وروضةً تُنقلُ في حجر. ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحلام. ومَن لك بمونسٍ لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى. آمنُ من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السرّ، واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة.

قيل لبعض الحكماء: ما مبلغ سرورك بكتبك؟

فقال: هي إن خلوت لذاتي، وإن اغتممت سلوتي. فإن قلت إن زهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار ويمتعان بحسنهما الألحاظ، فإن بستان الكتب يجلو العقل ويشحذ الذهن، ويحيي القلب، ويقوي القريحة، ويعين الطبيعة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويؤنس الوحشة بنوادره، ويسرّ بغرائبه، ويفيد ولا يستفيد، ويعطي ولا يأخذ.

ومما قاله بعض الأدباء عن الكتاب:

إن وعظ أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن أبكى أدمع. يفيدك ولا يستفيد منك، ويزيدك ولايستزيد. قبر الأسرار، ومخزن الودائع.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العَلق: الآيات ٣ - ٥]. وصف نفسه تبارك وتعالى بأن علّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم. واعتدَّ ذلك من نِعَمِهِ العظام، ومن أياديه الجسام.

(١) مثل يُضرب في العيّ، وهو عجز في المنطق والكلام. وباقل رجل من إياد اشترى ظبيًا بأحد عشر درهمًا، فسُئل عن الثمن فأشار بأصابعه ودلع لسانه فشرد الظبي.

(٢) مثل يضرب في البلاغة. وقد خطب سحبان وائل في صلح بين حيّين من العرب لساعات طوال فما أعاد كلمة.

قال أحمد شوقي:

أنا من بدَّل بالكُتْبِ الصحابا لم أجد لي وافيًا إلا الكتابا
صاحبٌ إن عِبْتَهُ أو لم تعِبْ ليس بالواجد للصاحبِ عابا[١]
صحبةٌ لم أشكُ منها ريبَةً ووِدادٌ لم يكلِّفني عتابا

قال مصعب بن الزبير[٢]: إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون. فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال فإنك لا ترى ولا تسمع إلّا مختارًا لؤلؤًا.

وقال لقمان لابنه: يا بني، نافس في طلب العلم؛ فإنه ميراثٌ غير مسلوب، وقرين غير مغلوب، ونفيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب.

أول مَن وضع الكتابة

أول مَن وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب، آدم عليه السلام، قبل موته بثلاثمائة سنة: كتبه في الطين ثم طبخه؛ فلما انقضى ما كان أصاب الأرض من الغرق وجد كل قوم كتابهم فكتبوا به، فكان إسماعيل عليه السلام وجد كتاب العرب.

وروى أبو ذر أن النبيّ ﷺ قال: إن إدريس عليه السلام هو أوّل مَن خط بالقلم بعد آدم ﷺ.

وعن ابن عباس أن أوّل مَن وضع الكتابة العربية: إسماعيل بن إبراهيم (ع) وكان أوّل مَن نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه.

وعن عمرو بن شبة بأسانيده، أن أول مَن وضع الخط العربي، أبجدُ وهوّز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت. وهم قوم من الجبلّة[٣] الآخرة ـ وكانوا نزولًا مع عدنان بن أدد، وهم من طسم وجديس.

---

(١) العاب: العيب.
(٢) والي البصرة من قبل أخيه عبد الله بن الزبير. قتله المختار الثقفي سنة ٧١ هـ.
(٣) الجبلّة: الأمة.

وحُكِيَ أنهم وضعوا الكتب على أسمائهم. فلما وجدوا حروفًا في الألفاظ ليست في أسمائهم ألحقوها بهم وسمّوها الروادف؛ وهي: الثاء، والخاء، والذال، والضاد، والظاء، والغين، على حسب ما يلحن في حروف الجمل.

وعنه أن أول مَن وضع الخط: نفيس، ونصر، وأتِمَا، وبنو إسماعيل بن إبراهيم. وضعوه متصل الحروف بعضها ببعض حتى فرقه. نَبَت وهميسع وقيذر.

وقيل: إن «أبجد هوّز...» هي أسماء ملوك؛ وهم من ولد المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم. وقد كانوا عدة ملوك تفرّقوا في ممالك منفصلة. فمنهم المسمّى بأبي جاد «أبجد»، وكان ملك مكة وما يليها من الحجاز. وكان هوّز وحطي ملكين ببلاد «وجّ» وهي أرض الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد. وكان كلمن وسعفص وقرشت ملوكًا بمدين - وقيل: ببلاد مصر. وكان كلمن على ملك مدين. ومن الناس مَن رأى أنه كان ملكًا على جميع من سمينا مشاعًا متصلًا، وأن عذاب «يوم الظلّة»[1] كان في ملك كلمن.

وحكوا أن ثلاثة نفر من طيىء اجتمعوا ببقعة، وهم: مرامر بن مرة، وأسلم ابن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قوم من الأنبار.

وقال المسعودي:

قيل: سار عبد ضخم بن أرم بن نوح بولده ومَن تبعه فنزلوا الطائف، فهلك هؤلاء من غوائل الدهر، وذكرتهم الشعراء وفيهم يقول الأزدي:

وعبد ضخم إذا نسبتهم ... أبيضّ أهل الحي بالنّسب
ابتدعوا منطقًا يجمعهم ... فبيّن الخط قمة العرب

وذكروا أن هؤلاء أول مَن كتب بالعربية - ووضع حروف المعجم وهي: أ، ب، ت التسعة والعشرون - وقد قيل غير ذلك.

---

(١) في التنزيل العزيز: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٨٩]. قيل: هي سحابة أظلّتهم فلجأوا إلى ظلها من شدّة الحر فأطبقت عليهم وأهلكتهم.

وسار بعد عبد ضخم بن إرم، جرهم بن قحطان بولده ومَن تبعه وطافوا البلاد حتى أتوا مكة فنزلوها. وفي ذلك يقول: مضاض بن عمرو الجرهمي:

هذا سبيلٌ كسبيل يعرب البادىء القول المبين المعرب
يا قوم سيروا عن فعال الأجنب جُرهُمٌ جدي وقحطان أبي

الكتابة في الإسلام

عندما جاء الإسلام لم يكن أحد يكتب بالعربية، غير سبعة عشر، هم: عليّ بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد/ أخوه، وأبو حذيفة بن عتبة، ويزيد بن أبي سفيان، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعبد الله بن أبي سرح، وحويطب بن عبد العُزّي، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية ولده، وجهيم بن الصلب بن مخرمة.

استفتاح الكتب

لم تزل تستفتح الكتب: باسمك اللهم، حتى أنزلت سورة «هود» وفيها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: الآية ٤١] فكتبَ بسم الله.

ثم نزلت سورة الإسراء: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: الآية ١١٠] فكُتِبَ بسم الله الرحمٰن. ونزلت بسورة النمل: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النّمل: الآية ٣٠] فاستفتح النبيّ بها وصارت سُنَّة.

وكان النبيّ ﷺ يكتب إلى أصحابه وأمراء جنوده: من محمد رسول الله إلى فلان.

وكذلك كانوا يكتبون إليه، يبدؤون بأنفسهم فمن كتب إليه وبدأ بنفسه: أبو بكر، والعلاء بن الحضرمي وغيرهما. وكذلك كتب الصحابة والتابعين. ثم لم تزل حتى ولي الوليد بن عبد الملك، فعظَّم الكتاب وأمر أن لا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضًا، فجرت به سُنَّة الوليد إلى يومنا هذا، إلا ما كان من

عمر بن عبد العزيز، ويزيد الكامل، فإنهما عملا بسنّة الرسول ﷺ ثم رجع الأمر إلى الوليد والقوم عليه إلى اليوم(١).

كُتّاب النبيّ ﷺ

كان حنظلة بن الربيع بن المرقع بن صيفي - ابن أخ أكثم بن صيفي الأسدي - خليفة كل كاتب من كتّاب النبيّ إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب. وكان يضع عنده خاتمة فقال له الزمني وأذكرني بكل شيء أنا فيه.

وكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة أيام إلّا أذكره، فلا يبيت ﷺ وعنده منه شيء.

ومرَّ رسول الله يومًا بامرأة مقتولة يوم الفتح - فتح مكة - فقال لحنظلة: إلحق خالدًا وقل له: لا تقتلنَّ ذرّية ولا عسيفًا(٢). ومات حنظلة بمدينة الرُّها، فقالت: فيه امرأة؛ وحُكِيَ أنه من قول الجن وهذا محال:

يا عجيب الدهر لمحزونة ... تبكي على ذي شَيْبةٍ شاحب
إن تسأليني اليوم ما شفَّني ... أخبرك قيلًا ليس بالكاذب
إن سواد العين أودى به ... وجْدي على حنظلة الكاتب

وكان الحصين بن نمير من بني عبد مناة شهد بيعة الرضوان، ودعاه النبيّ ليكتب صلح الحديبية فأبى سهيل بن عمرو ذلك وقال: لا يكتب إلّا رجل منا. فكتب عليّ بن أبي طالب.

وكان عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان يكتبان الوحي، فإن غابا كتب أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت. فإن لم يشهد واحد منهما، كتب غيرهما.

وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه.

وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس، وكانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا.

---

(١) العقد الفريد ٤/٢٣٩ - ٢٤٤.

(٢) العسيف: الأجير.

وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء. وربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك عن النبيّ ﷺ.

وكان زيد بن ثابت يكتب في عهد الرسول ﷺ إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي. وقيل إنه تعلّم بالفارسية من رسول كسرى، وبالرومية من حاجب النبيّ ﷺ، وبالحبشية من خادم النبيّ ﷺ وبالقبطية من خادمه.

وروى زيد بن ثابت قال: كنت أكتب بين يدي الرسول ﷺ يومًا فقام لحاجة، فقال لي: ضع القلم على أذنك فإنه أذْكَرُ للمُمْلي وأقضى للحاجة.

أيام أبي بكر رضي الله عنه

كان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت. ورُوِيَ أن عبد الله بن الأرقم كتب له، وأن حنظلة بن الربيع كتب له أيضًا. ولما تقلّد الخلافة دعا زيد بن ثابت، وقال له: أنت شاب عاقل لا نتّهمك على رسول الله ﷺ كنت تكتب الوحي. فتتبّع القرآن فاجمعه. وفيه يقول حسان بن ثاتب:

فمن للقوافي بعد حسّان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كتب لعمر بن الخطاب: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن خلف الخزاعي. وكتب له على ديوان الكوفة أبو جبيرة بن الضحاك ثم حبيب بن سعد القيسي.

أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه

كان يكتب لعثمان مروان بن الحكم. وكتب له عبد الملك بن مروان على ديوان المدينة، وأبو حبترة على ديوان الكوفة، وعبد الله بن الأرقم على بيت المال. وكتب له أيضًا أبو غطفان بن عوف، ومولياه أهيب وحُمران.

أيام عليّ بن أبي طالب عليه السلام

كان يكتب له سعيد بن نمران الهمذاني. وكتب له عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن أبي رافع، وسماك بن حرب. ورُوِيَ أن عبد الله بن حسن كتب له[1].

(١) العقد الفريد ٤/٢٤٦.

الكتابة قبل التاريخ

أقدم الرموز التصويرية المعروفة هي تلك التي وجدت في «فلندرز يثرى» على قطع من فخار وآنية على قطع الحجر، مما كُشف عنه في مقابر ما قبل التاريخ في مصر وإسبانيا والشرق الأدنى. وهذه الرموز التي وجدت في حوض البحر المتوسط ـ تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز ومعظمها متشابه في جميع الأرجاء جمع عهدها إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولم تكن هذه الرموز صورًا بل كانت في معظمها علامات تجارية. ولم تكن العلامة حروفًا ـ لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها.

الكتابة الهيروغليفية

ما جاءت سنة ٣٦٠٠ ق.م ـ وقد يكون قبل ذلك التاريخ ـ حتى كانت عيلام وسومرر ومصر قد طوَّرت مجموعة من الصور التي يُعبِّرون بها عن أفكارهم، وأطلقوا عليها اسم «الكتابة الهيروغليفية» لأن معظم مَن قام بها كان من الكهنة. وظهرت مجموعة أخرى من هذه الصور شبيهة بتلك في كريت سنة ٢٥٠٠ ق.م.

وقد استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التي تمثل كلَّ صورة منها فكرة ـ استحالت بخطأ الاستعمال بما تناولها من تنسيف وتنظيم عرفي إلى مقاطع، أو مجموعة من الرموز، يدل كل منها على مقطع. ثم إنها استخدمت العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله، بل على أول ما فيه من أصوات وبهذا أصبحت حروفًا. وربما كان تاريخ الكتابة الهيروغليفية يرتد إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في مصر.

أحرف الهجاء قبل الميلاد

ظهرت في كريت حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م أن الفينيقيين لم يخلقوا أحرف الهجاء ولكنهم اتخذوا منها سلعة للبيع والشراء. فقد أخذوها فيما نظن من مصر وكريت، وأدخلوها جزءًا جزءًا في صور وصيدا وبيبلوس، ثم أصدروها إلى كل مدينة من مدن البحر الأبيض المتوسط. ثم في عصر هومر، أخذ اليونان هذه الأحرف ـ ويطلقون عليها الاسمين الساميَّين للحرفين الأولين وهما: ألفا بيتا.

أصول اللغة البشرية

إن اللغات البدائية كانت تنحصر في حدود الحس والجزء. وهي بصفة عامة فقرة من الأسماء الكلية المجردة. وفي أكثر القبائل لا تجد ألفاظًا تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملونة، ولا تجد عندها كلمات لتدل على مجردات مثل: نغمة، جنس، نوع، غريزة، عقل، كمية، أمل، خوف، مادة الخ... فمثل هذه الألفاظ المجردة تتكون وتتزايد فيما يظهر مع تقدم الفكر، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبب. وهي بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير، ورموزًا تدل على الحضارة(١).

الكتابة البابلية

كان البابليون يكتبون بالخط المسماري على ألواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي أو الأسفين. فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو أحرقوه، فكان بذلك مخطوطًا غريبًا طويل البقاء. وإذا كان المكتوب رسالة نثر على التراب الناعم. ووضعت في مظروف من الطين ـ وبصمت بخاتم مرسلها الأسطواني. وكانت الألواح الطينية المحفوظة في جرار مصنفة ومرتبة على رفوف تملأ عددًا كبيرًا من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها. وقد ضاعت هذه المكتبات؛ ولكن واحدة من أعظمها، وهي مكتبة بورسبا، قد نسخت وحفظت في مكتبة أشور بانيبال، وكانت ألواحها البالغ عددها ٣٠,٠٠٠ لوح أهم مصدر استقينا منه معلومات عن الحياة البابلية.

الحروف البابلية

لقد حيّرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن حل رموزها. لكن جورج جروتفند أستاذ اللغة اليونانية في جامعة جوتنجن أبلغ المجمع العلمي في تلك المدينة عام ١٨٠٢م أنه ظل عدة سنين يواصل البحث في بعض المخطوطات المسمارية التي فصلت إليه من بلاد فارس القديمة، وأنه استطاع آخر الأمر أن يتعرّف على ثمانية من الاثنين والأربعين حرفًا المستعملة في هذه النقوش وأنه ميّز ثلاثة من أسماء الملوك المدوّنة فيها.

---

(١) سيد قطب؛ النقد الأدبي ص ٨٣ ـ ٨٤.

وفي عام ١٨٣٥م استطاع - هنري رولنس - أحد موظفي السلك السياسي البريطاني في إيران - على غير علم منه بما توصّل إليه جروتفند - أن يقرأ ثلاثة أسماء هي (هشبس - ودارا - وحشيارشاي) في نقش مكتوب بالخط الفارسي القديم وهو خط مسماري مشتق من الكتابة البابلية وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها في آخر الأمر.

حجر رشيد بابلي

لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن هي البابلية نفسها. وقد بقي على رولنس أن يعثر على حجر رشيد بابلي كما عثر شمبليون على حجر رشيد مصر، أي على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية. وهذا ما عثر عليه في مكان يعلو عن سطح الأرض نحو ثلاثمائة قدم. وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون في جبال ميديا، حيث أمر دارا الأول الحفارين أن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات: الفارسية القديمة، والأشورية والبابلية. وظل رولنس يومًا بعد يوم يرقى هذه الصخرة مُعرِّضًا بذلك حياته لأشد الأخطار - وكثيرًا ما كان يشد نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة حتى لقد كان أحيانًا يطبع النقش كله على عجينة لينة.

وبعد جهد دام اثنتي عشرة سنة كاملة، نجح في ترجمة النصين البابلي والآشوري (١٨٤٧).

اللغة البابلية

اللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكد. وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مرّ الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) وربع الألواح التي عثر عليها المنقبون في المكتبة الملكية بنينوى هي معاجم في اللغات السومرية والبابلية والأشورية وكتب في نحوها وصرفها. وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل في القدم هو عهد سرجون ملك أكد. وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات كتبت فيها حكم أخلاقية تحث على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفي عام.

كان البابليون، كالفينيقيين، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية. ولذلك لم يضيعوا كثيرًا من طينهم في كتابة الأدب. ونجد في ألواحهم قصصًا منظومة على لسان الحيوان. وهي نوع من أنواع لا حصر لها من القصص الخرافية، ونجد عندهم كثيرًا من كتب التاريخ. ذلك أن المؤرخين الرسميين كانوا يسجلون تواريخ الملوك ـ وما يصيب كل هيكل من عوادي الدهر. ويقصّ علينا بروسس أشهر المؤرخين البابليين تفاصيل وافية عن خلق العالم وتاريخ الإنسان في عهده الأول. ويقول إن الله اختار أول ملك من ملوك بابل ليتولّى حكمها، وإنه حكمها ستة وثلاثين ألف عام. كما يقدر في دقة الزمن الذي مضى من خلق الأرض إلى أيام الطوفان الأعظم بستمائة وواحد وتسعين ألفًا ومائتين من السنين[١].

أوغـاريـت

ـ مهد الكتابة الهجائية ـ وصانعة حروف الهجاء

أوغاريت حضارة ومدنية قديمة... ولكن آثارها بقيت طي المجهول حتى سنة ١٩٢٩ فلا المؤرخون ولا علماء الآثار عرفوا أي شيء عن أوغاريت التي ظهرت حضارتها في الألف السابعة وازدهرت في الألف الثانية قبل الميلاد. فحتى سنة ١٩٢٩ ظلت الكتابة الهجائية لغزًا من الألغاز المستعصية.... فهي اختراع أوغاريتي كنعاني ولا ريب.... نشره الفينيقيون وأخذه عنهم أهل الغرب والشرق.

ولكن الفضل لابتكار الأبجدية إنما يعود إلى الكنعانيين الساميين، الذين استوطنوا أوغاريت واستقرّوا فيها قرونًا عديدة قبل أن يرتحلوا عنها إلى شواطىء لبنان حيث تقوم الآن صيدا وصور وجبيل وغيرها.

والأوغاريتيون هم من الكنعانيين والساميين، وهم سكان المنطقة الأصليين، سكان سوريا ولبنان وفلسطين وما إليها. انتشرت جموعهم في أرجائها، وسادت حضارتهم وذلك في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ـ وكانت أوغاريت بالتحديد إحدى المدن الكنعانية.

---

(١) قصة الحضارة: ٢/ ٢٣٨.

أقدم أثر للكتابة من أيام السومريين

أول صورة ظهرت فيها الكتابة لم تزد على نقوش ساذجة؛ يصورها كاتب أو ينحتها ناحت على صخر، ثم أصبحت نقشًا بمسمار على أقراص من الطُغال (الطين اليابس) وقد وجدت في كلوديا، ووجد على أحدهما قصة الطوفان ـ ولعلها أقدم أثر مكتوب.

أقدم كتاب

أقدم كتاب انتهى إلينا علمه «كتاب الموتى» الذي دُوِّنَ في عصر بناء الهرم الأكبر، ولا تزال نسخة منه محفوظة في المتحف البريطاني. وفيه دعوات للآلهة وأناشيد وصلوات، ثم وصْف لما تلاقيه أرواح الموتى في العالم الآخر من حساب، وما يلحقها من عقاب وثواب. وهناك الدعوات وهي ما يدافع به الميت عن نفسه.

أوراق البردي

البردي نبات مائي ينمو في مصر. تؤخذ سوقُهُ وتضغط وتجفَّفُ ثم تضع منها الأوراق. وكانت مصر تبعث بهذه الأوراق البردية إلى اليونان وروما وغيرهما من البلدان.

وعلى هذه الأوراق كتبت روائع الأدب اليوناني واللاتيني ـ حتى أن كتب فرجيل وهومير ـ كُتبت على ورق البردى. ومن قبل كانت الكتابة على جلود الجواميس والبقر والغنم.

وكانت العرب تكتب في أكتاف الإبل وفي العسب ـ وهي جريدة النخل ـ كما كانوا يكتبون في الجلد. وفي هذا كله كتب القرآن الكريم، أول ما نزل على النبيّ ﷺ، فكانوا يكتبون الآيات في العسب واللخاف وعظام الأكتاف والأضلاع والأدم والجلد.

وقد أرسل النبيّ محمد ﷺ رسالة إلى المقوقس يدعوه للإسلام على جلد حيوان ولا تزال في المتحف الإسلامي في إستنبول.

الـــورق

استخدم المصريُون الورق من سيقان البردى ٤٣٠ ق.م ـ واستمرّت هذه الصناعة حتى سنة ١٢ ق.م حيث قام الصينيون بتجربة جديدة لصناعة الورق باليد، من أشجار التُوب والخرق مع بعض الأدوات.

وحتى عام ٧٥١ م كانت صناعة الورق لا تزال وقفًا على الصينيين حتى أقيم أول مصنع للورق في بغداد عام ٩٧٣ ـ في عهد هارون الرشيد، ثم امتدت صناعته إلى فارس ومصر وبلاد المغرب ومنها إلى اسبانيا ثم امتدت إلى فرنسا ـ كما وصلت بعد ذلك إلى صقلية خلال الفتح العربي ـ ومنها إلى النمسا وإيطاليا وجنوب إلمانيا في القرن الثالث عشر ـ وإلى أميركا عام ١٦٦٠ م.

وسنة ١٧٩٧ توصّل العالم الفرنسي ـ لويس روبرت ـ إلى اختراع آلة لصناعة الورق.

وأول مصنع للورق أُنشيء في البلاد العربية كان سنة ١٩٠٢ في القاهرة(١).

أول ما استخدم المسلمون الورق

كان المسلمون حتى أوائل القرن الثالث للهجرة يكتبون على الرقوق أو البردى. وقد رُوِيَ أن بعض الطروس التي انتُهبتْ في أثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون محيَتْ الكتابة عنها ـ وبيعت ثانية لتُستعمل من جديد.

بعد القرن الثالث أخذ الورق الصيني يرد إلى العراق، إلَّا أن صناعة الورق ما لبثتْ أن أتقنها أهل البلاد أنفسهم من طريق الأسرى الصينيين الذين أدخلوا إلى البلاد الإسلامية سنة ٧٥١ م.

استعمل العباسيون الأسرى الصينيين، وكان بينهم أحد العلماء، في صنع الورق من القنَّب والكتّان وألياف الحشيش. ولعل اسم الورق العربي القديم ـ كاغد ـ هو لفظ صيني الأصل جاء عن طريق الفارسية. ومن سمرقند تطرّقت هذه الصناعة إلى العراق. وكان أول مَن أدخلها إلى بغداد الفضل بن يحيىٰ البرمكي الذي كان عامل خراسان سنة ٧٩٤م.

ثم قام أخوه فاستعمل الورق بدل الرقوق في دواوين الحكومة. وسلكت مدن أخرى سبيل بغداد، فانشأت مصانع الورق على الأصول المنيعة في سمرقند.

ونشأ معمل في تهامة لصنع الورق من ألياف الحشيش. وكان ورق سمرقند في زمن المقدسي لا يزال أفخر ما يُصنع.

---

(١) انظر تاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ.

وفي القرن الحادي عشر للميلاد - ظهرت أنواع من الورق الفاخر كانت تُصنع في سوريا، كطرابلس مثلًا. وقد سرت هذه الصناعة في أواخر القرن التاسع من غربي آسية إلى الدلتا حيث كان يُستعمل الكتابة بالقراطيس.

وما أتى القرن العاشر حتى حلّ الورق محل البردى والرقوق في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي.

المعتصم وبناء المعامل

يقال أن المعتصم بالله الخليفة العباسي - ينسب إليه الفضل في إنشاء معامل الصابون والزجاج في بغداد وسامراء وسواهما - وقد نشط الورق أيضًا وصناعته.

وإن أقدم ما تحدّر إلينا من المخطوطات العربية المكتوبة على الورق - مخطوطة «غريب الحديث» لأبي القاسم ابن سلام - المتوفى ٨٧٧ م - وقد كتبت في ذي القعدة سنة ٢٥٢ هـ وهي محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني لبحث اللاهوت تأليف - أبي قرة - وهي أول مخطوطة محفوظة لمؤلف نصراني - ونرى أن صناعة الورق دخلت أخيرًا أوروبا المسيحية عن طريق الأندلس وإيطاليا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر - وفي أوروبا حيث تمّ اختراع الطباعة المتحركة ١٤٥٠ م تمكن الاثنان الورق والطباعة من نشر العلوم والمعارف التي تتمتع بها أوروبا وكذلك أميركا[(١)].

الكتابة العربية

الكتابة: خطية وإنشائية

الكتابة الخطية: كان الخط في مبدأ الإسلام هو الخط الأنباري الحميري المسمى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازي، وهو أصل النسخ. وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة، فلما انتصر النبيّ ﷺ على قريش يوم بدر، وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب، فقبل الفداء من أمييهم، وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة، فانتشرت الكتابة بين المسلمين، وحضّ النبيّ ﷺ على تعلّمها. ومن أشهر كتاب الصحابة: زيد بن

(١) تاريخ العلوم عند العرب؛ عمر فروخ.

ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام.

ولما فتح المسلمون الممالك، ونزلت جمهرة الكتاب منهم الكوفة، عنوا بتجديد الخط العربي وهندسة أشكاله حتى صار خط أهل الكوفة ممتازًا بشكله على الخط الحجازي، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفي)، وبه كانت تكتب المصاحف وحلى القصور والمساجد وسك النقود.

وكان الصحابة وتابعوهم يكتبون بلا إعجام ولا شكل إلّا قليلًا اعتمادًا منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة واكتفائهم بالرمز القليل في قراءة اللفظ، فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم وظهر اللحن والتحريف (اتفق المسلمون على تحريف كلم الكتاب الكريم). فوضع أبو الأسود الدؤلي علامات في المصاحف بصبغ مخالف. فجعل الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة أسفله، والضمة نقطة من الجهة اليسرى، وجعل التنوين نقطتين.

ووضع نصر بن عاصم ويحيىٰ بن يعمر بأمر الحجاج نقط الإعجام بنفس المراد الذي يكتب به الكلام، حتى لا يختلط بنقط أبي الأسود. وكان ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، ثم شاع في الناس بعد.

أما الكتابة الإنشائية: فهي كتابة رسائل ودواوين، وكتابة تدوين وتصنيف.

التدوين والتصنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يدوَّن فيه كتاب إلا ما كان من أمر كتابة المصحف ـ وكان مرجع الناس في أمر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنّة رسوله. فإذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة.

ثم لما انتشر الإسلام في زمن بني أمية واختلطت العرب والعجم، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربي، وفشا اللحن، وأشفقوا على القرآن من التحريف، دوَّنوا النحو. وكان أول مَن كتب فيه أبو الأسود الدؤلي. وقد تلقى مبادئه عن الإمام عليّ، وأخذ عنه فتيان البصرة، وخصوصًا الموالي إذ كانوا أحوج الناس إلى النحو. واشتغل به أهل الكوفة بعد أن فشا في البصرة.

ولم ينقض هذا العصر حتى اشتغل به طبقتان من البصريين وطبقة من الكوفيين. ثم لما حدثت الفتن وتعددت المذاهب والنحل وكثرت الفتاوى والرجوع

فيها إلى الرؤساء ومات أكثر الصحابة، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم، ويتركوا سنة الرسول، فأذن عمر بن عبد العزيز، لأبي بكر محمد بن عمرو بن حزم في تدوين الحديث. وانقضى هذا العهد ولم يدوّن فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث ـ وبعض التفسير. أما العلوم الأخرى فيروى أن خالد بن يزيد بن معاوية تُرجم له بعض كتب اليونان ووضع كتبًا في الطب وأن معاوية استقدم عبيد بن شبرمة من صنعاء فكتب له كتاب «الملوك وأخبار الماضي ـ وأن وهب بن منبه الزهري وموسى بن عقبة كتبا في ذلك أيضًا، وأن زياد ابن أبيه وضع لابنه كتابًا في مثالب قبائل العرب، وأن ماسَرْجويه متطبِّب البصرة تولّى في الدولة المروانية ترجمة كتاب أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية وأن يونس الكاتب ابن سليمان ألّف كتابًا في الأغاني ونسبتها إلى مَن غنى بها، ولم يبلغ التصنيف شأوًا يذكر.

الكتابة الخطية في العهد العباسي

تنوّع في هذا العصر الخط الكوفي إلى أنواع أربت على خمسين نوعًا ومن أشهرها: المحرَّر، والمشجَّر، والمربع، والمدور، والمتداخل ـ وبقي مستعملًا في المباني والسكة إلى حدود الألف، ثم نسي جملة.

وقد جددت منه أنواع في عصرنا. أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث في آخر الدولة الأموية أن استنبط (قطبةُ) المحرر من الخط الكوفي والحجازي خطًا هو أساس الخط الذي يُكتب الآن به، واخترع القلم الجليل الذي يكتب به على المباني ونحوها وقلم الطومار (الورقة الكبيرة). وهو أصغر أنواع الجليل، وحسن عمله غيره من كتاب صدر الدولة العباسية حتى ظهر إبراهيم الشحري وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثاني. فولّد إبراهيم من الجليل قلم الثلثين، وولد يوسف من الجليل القلم الرياسي ـ وهو قلم التوقيع ـ وعن إبراهيم أخذ الأحول المحرر واخترع قلم النصف.

هذه هي أشهر الخطوط. وقد تولد منها نحو ٢٠ خطًا يختصّ كل منها بغرض خاص، واتفقوا على أن طول الألف يعتبر معيارًا لارتفاع بقية الحروف، وأن يكون طول الألف مربعًا مقدار قطة القلم.

وعن الأحول أخذ مُهندس الخط الأعظم، الوزير «أبو علي محمد بن مقلة، وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ. وهما اللذان تم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التي نعرفها الآن، وأتما العمل الذي بدأه قطبة فهندسا الحروف وقدَّرا مقاييسها وأبعادها وضبطها ضبطًا محكمًا واخترعا له القواعد. وعن الوزير ابن مقلة أخذ أبو عبد الله بن أسد القارىء المتوفي سنة ٤١٠ هـ، وعنه أخذ أبو الحسن علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ وهو الذي أكمل قواعد الخط واخترع عدة أقلام ـ وإليه انتهت الغاية.

وكل مَن جاء من بعده فهو تابع لطريقته، كأمين الدين ياقوت المكي المتوفى سنة ٦١٨ هـ كاتب السلطان ملِكشاه السلجوقي. أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبأوا بهذا الاصطلاح وبقوا يكتبون على طريقة الخط الحجازي إلى الآن بنوع من التعديل. واخترع الجليل الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واوًا تكتب فوق الحروف، والفتحة ألفًا، والكسر باء، والشدة رأس شين، والسكون رأس خاء، وهمزة القطع رأس عين، ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن(١).

أشهر كُتَّاب الدولة العباسية

هم: أبو سَلمة الخلال، ويحيىٰ بن خالد البرمكي، وابناه جعفر والفضل، ثم محمد بن الزيات في زمن المعتصم والواثق، وابن المقفع، وإسماعيل بن صبيح، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، والحسن بن وهب، وعليّ بن الفرات، وابن مقلة، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبو بكر الخوارزمي، والبديع، والصابي، والعماد الكاتب، والقاضي الفاضل.

ومن أشهر كتاب الأندلس: ابن شهيد، وأبو المطرف بن عميرة، وابن زيدون، ولسان الدين بن الخطيب.

ابن مقلـــة

هو الوزير أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة إمام الخطاطين، وأحد كبار الكتّاب البارعين. أخذ الخط عن الأحول المحرَّر صنيعة البرامكة، وتم على

(١) جواهر الآداب ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢.

يديه ويدي أخيه الحسن نقل الخط من الكوفي إلى الشكل المعروف في زماننا. وكان ابن مقلة يتولّى في أول أمره بعض أعمال فارس، يجبي خراجها. وتنقلت به الأحوال إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله العباسي ٢١٦ هـ ـ ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنة ٢١٨ هـ ونفاه إلى فارس.

ثم وزر للراضي فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعزل. ثم أطمعه نحسه أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة، فقبض عليه ابن رائق وقطع يمينه ثم عاد فقطع لسانه أيضًا ـ فمات سنة ٢٢٨ هـ ومن قوله في تلك الحوادث:

إذا ما مات بعضك فابكِ بعضًا ... فإن البعض من بعضٍ قريب

وقوله:

ما سئِمتُ الحياة لكن ... توثَّقتُ بأيمانهم فبانت يميني
بعتُ ديني لهم بدنياي حتى ... حرموني دنياهمو بعد ديني
ولقد حُطْتُ ما استطعت بجهدي ... حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيشٍ ... يا حياتي بانت يميني فبيني[1]

كتابة الرسائل في العصر العباسي الثاني

يمتاز القرن الرابع الهجري بنهضة أدبية مباركة. فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان من بينهم طائفة من الوزراء، وذاع استعمال السجع في الرسائل. وقد وصف ـ متز ـ هذه الرسائل في هذه العبارة فقال: «إن رسائل القرن الرابع الهجري هي آية الفن الإسلامي، ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون وهي اللغة. ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن، لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق، وامتلاكهم ناصية البيان في أصعب صورة، وتلاعبهم بذلك لعبًا. وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وإعلامه. لذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة بأن تُنشر كتبًا للناس.

---

(١) جواهر الأدب: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

وكان من أولئك الوزراء: الخصيبي، وابن مقلة، والمهلبي، وابن العميد، والصاحب بن عياد، والإسكافي وزير السامانيين، وإبراهيم بن هلال الصابي الذي تقلّد ديوان الإنشاء في بغداد سنة ٣٤٩ هـ.

أبو إسحٰق إبراهيم بن هلال الصابي (٣٢٠ ـ ٣٨٤ هـ)

يعتبر أبو إسحٰق إبراهيم بن هلال الصابي الحراني من أشهر رجال الأدب في هذا العصر، وقد ولد ببغداد، ووصفه الثعالبي في هذه العبارة فقال: «أوحد العراق في البلاغة، ومَن به تثنى الخناجر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة».

وقد تقلّد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ، في عهد معز الدولة بن بويه ثم في عهد ابنه عز الدولة بختيار. وأثار كراهة عضد الدولة برسائله اللاذعة على لسان بختيار فحقد عليه واعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق على أثر قتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ ثم أطلقه في سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه وأمره أن يضع كتابًا في أخبار بني بويه سماه «التاجي». وقد قيل إن عمال السوء سعوا بالصابي عند عضد الدولة وأوغروا صدره وأثاروا سخطه وحركوا ضغنه عليه ـ على الرغم من أنه أكب على تأليف هذا الكتاب، وأخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه. ورفع إلى عضد الدولة أن صديقًا للصابي دخل عليه يومًا فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبييض، فسأله عما يعمله من ذلك فقال: أباطيل أنمقها وأكاذيب أُلفِّقها، فأمر عضد الدولة أن يلقى تحت أرجل الفيلة. فأكب نصر بن هارون ومطهر بن عبد الله، وعبد العزيز بن يوسف على الأرض يقبلونها بين يديه ويستنفعون إليه في أمره ويتلطفون في استيهاب دمه إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه وعلى أمواله.

وكان هلال بن الصابي متمسكًا بدينه على الرغم مما بذله الخلفاء والسلاطين والوزراء من جهود لتحويله إلى الإسلام، حتى أن بختيار عرض عليه الوزارة إذا أسلم، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويساعدهم على صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظًا يدور على طرق لسانه وسن قلبه(١).

---

(١) عن تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن.

بديع الزمان الهمذاني

كان زعيم هذا النوع من الكتابة ـ أحمد بن الحسين الهمذاني المعروف ببديع الزمان توفي سنة ٣٩٨ وكما وصفه الثعالبي: «معجزة همذان ونادرة الفلك، وبكر عطارد[١]، وفرد الدهر، وغرة العصر، ومَن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف النفس وصفاء الذهن وقوة النفس. ومَن لم يدرك في ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكهته، ولم يُر ولم يروَ أن أحدًا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب. فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي يسمعها، وهي أكثر من خمسين بيتًا، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفًا ولا يخلُّ بمعنى. وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدة خفيفة، ثم يهذّها[٢] عن ظهر قلبه ويسردها سردًا».

كان يُقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة.

«اتصل بديع الزمان بالصاحب بن عباد. وأخذ عنه، كما اتصل بأبي بكر الخوارزمي. ومن رقعة له: «يعزّ عليّ ـ أيّد الله الشيخ ـ أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي قبل وصولي، ويرد مشرع الأنس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة؟:

وعــليّ أن أســعــى ولــيـــــس عــليّ إدراكُ الــنــجــاحِ

وقد حضرتُ داره وقبّلتُ جداره، وما بي حبُّ الحيطان ولكن شغفٌ بالقطان، ولا عشقٌ للجدران ولكن شوقٌ إلى السكان».

وكان بديع الزمان بخلاف الخوارزمي، سنيًا مغاليًا في عقائد هذا المذهب، وكان على أثر ذلك أن دبَّ الخلاف بينهما، فتقارعا وتساجلا، وكانت الغلبة لبديع الزمان الذي ذاع صيته خاصة بعد موت الخوارزمي.

---

(١) قال الأزهري: عطارد كوكب الكتّاب. ومعناه أن الذين يولدون في طلوع عطارد يكونون ذوي حظ في الأدب والكتابة والشعر.

(٢) الهذّ: السرعة في القراءة.

ومن قول بديع الزمان في تعزية: «الموت خطبٌ قد عظُم حتى هان، وأمرٌ قد خشُن حتى لان، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنَتْ حتى صار الحِمام أصغر ذنوبها. فلتنتظر يمنة هل ترى إلا محنة؟ ثم لتعطف يسرة هل ترى إلا حسرة؟»(١).

أبو الفتح البُسْتي

وهناك رجل آخر من رجال الرسائل المشهورين، هو أبو الفتح عليّ بن محمد البستي الذي اشتهر بخدمته في الشعر والنثر. وقد أمر سبكتكين أبو السلطان محمود الغزنوي بإحضاره حين فتح مدينة ـ بست ـ فدخل في خدمة سبكتكين وأصبح كاتب الرسائل في ديوانه وشاعر بلاطه، ثم خدم ابنه محمودًا بعد وفاته، ومات في منفاه ببخارى سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م. وقد حذق الصناعة البديعة التي اشتهرت في زمانه على يد ابن العميد والصاحب وغيرهما. وكانت له طريقة جميلة في التجنيس خاصة.

فمن ألفاظه البديعة قوله: «مَن صلح فاسده أرغم حاسده، ومَن أطاع غضبه أضاع أدبه. عادات السادات سادات العادات. من سعادة جدك وقوفك عند حدِّك. الرشوة رشاء الحاجات. أجهل الناس مَن كان للإخوان مُذلّا وعلى السلطان مُدِلّا. الفهم شعاع العقل. المنية تضحك من الأمنية. حد العفاء الرضا بالكفاف. ما لخرق الرقيق ترقيع».

وقد ذاعت أشعار البستي في زمانه وحفظها الناس وتناقلوها. وكثير منها كان يروى على ألسنة الرواة في مجالس القاهرة ومقاهيها، من ذلك القصيدة التي مطلعها:

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسرانُ

ومنها:

أحسِنْ إلى الناس تستعبد قلوبهمُ ... فطالما أستعبد الإنسان إحسانُ

---

(١) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن.

اللغة العربية في مالطة

كتب أحمد فارس الشدياق في القرن الماضي بعد أن عاش في مالطة أربع عشرة سنة كتابًا أسماه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» يحتوي دراسة شيّقة حول لماذا اندثرت اللغة العربية من صقلية وسردينيا والأندلس وجنوب فرنسا وبقيت في مالطة... ويسلّم بأن اللغة المالطية لغة عربية فاسدة. ويجيب بعد ذلك أن أصل لغة تلك البلاد اللاتينية، أما لغة مالطة فكانت الفينيقية.

وعندما دخلها اليونانيون لم يخرجوا منها الفينيقية، وأنها لم تتغير زمن القرطاجيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضًا فينيقية. ويضيف: ... والفينيقية كانت أخت العربية. وعندما جاءتهم العربية كانت كأنها نزلت في وطنها، وثبتت فيها ثباتًا لم يزلزله خروج المسلمين.

يضاف إلى ذلك أنه حتى في عصر الفرسان شكّل الفرسان طبقة معزولة مميّزة عن الشعب المالطي الذي استمرّ يتحدث لغته.

قصص متفرقة

بَنُو أسَد وَامرؤ القَيس(١)

قَدِمَ على امرىء القيس بن حُجْر الكِنْدِيّ بعد مَقْتَلِ أبيه رجالاتٌ من بني أسَد، فيهم المُهَاجر بن خِدَاش، وعَبيد بن الأبرص، وقَبيصة بن نُعَيْم؛ وكان رجلًا مقيمًا في بني أسد، ذا بصيرة بمواقع الأمور وِرْدًا وإصدارًا، يَعْرِف ذلك له مَن كان محيطًا بأكناف بلده من العرب.

فلمّا علم امرؤ القيس بمكانهم أمر بإنزالهم، وتَقَدَّمَ في إكرامهم والإفضال عليهم، واحتجَب عنهم ثلاثًا.

فقالوا لِمَنْ ببابه من رجال كِنْدَة: ما بالُ الرجل لا يخرجُ إلينا؟ فقيل لهم: هو في شُغْل بإخْرَاج ما في خزائن حُجْر من العُدَّة والسلاح. فقالوا: اللهم غَفْرًا! إنّما قدمنا في آمرٍ نتناسى به ذكرَ ما سلف، ونستدرك به ما فرَط؛ فلْيُبَلِّغْ ذلك عنّا.

---

(١) الأغاني: ٩ ـ ١٠٣ (طبعة دار الكتب)، صبح الأعشى: ٣ ـ ١٢٦.

فخرج إليهم بعد ثلاثٍ في قَبَاء وخُفٌ وعِمامة سوداء - وكانت العرب لا تعتمُّ بالسَّواد إلَّا في التِّرات[(١)] - فلما رأَوْهُ نهضوا له، وبَدَر إليه قَبيصة فقال:

إنك في المحَلّ والقدْر والمعرفة بتصرُّف الدهر، وما تحدِثه أيامه، وتتنقَّلُ به أحواله بحيث لا تحتاجُ إلى تبصيرِ واعظٍ، ولا تذكِرة مُجَرّب، ولك من سؤدُدِ مَنْصبك، وشرف أَعْرَاقك[(٢)]، وكرم أصلك في العرب مُحْتَمَلٌ يَحتمِلُ ما حُمِّل عليه من إقالة العَثْرَة، والرجوعِ عن الهفْوَةِ؛ ولا تَتَجاوزُ الهِمَمُ إلى غايةٍ إلّا رَجعتْ إليك؛ فوجدتْ عندك من فضيلة الرأي، وبَصِيرةِ الفَهْم، وكَرَمِ الصّفح ما يُطوِّل رَغَباتها، ويستغرق طَلباتها.

وقد كان الذي كان من الخَطْبِ الجليل، الّذِي عمَّت رزيَّتُه نِزَارًا واليَمَن، ولم تخْصَصْ به كِنْدَةُ دونَنا؛ للشّرفِ البارع الذي كان لحُجْر. ولو كان يُفْدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بَخِلَتْ كرائمُنا[(٣)] على مثله ببذْلِ ذلك، ولفديناه منه، ولكنْ مَضَى به سبيلٌ لا ترجع أُولاه على أُخْراه، ولا يَلْحَقُ أقصاهُ أدْنَاه.

فأَحْمَدُ الحالات في ذلك أن تعرفَ الواجبَ عليك في إحدى خلال ثلاث: إمّا أن اخترتَ من بني أسدٍ أشرفَها بيتًا، وأعلاها في بناء المكرُمات صوْتًا، فَقُدْناه إليك بِنِسعَة[(٤)] تذهب مع شَفَرات حُسَامك بباقي قَصَدَتِه[(٥)]، فيقال: رجل امتُحِن بِهُلْك عزيز عليه؛ فلم تُسْتَلَّ سخيمتُه إلّا بتَمْكِينه من الانتقام؛ أو فداء بما يرُوح[(٦)] على بني أسدٍ من نَعَمها، فهي أُلوف تجاوِزُ الحِسْبَة، وكان ذلك فداءً ترجع به القُضُب[(٧)] إلى أجفانها، لم يَرْدُدْه تسليط الإحَن على البراء؛ وإمّا أن توادعنا حتى تضَع الحواملُ فتُسْدَلَ الأُزُر، وتُعْقدَ الخُمُر فوق الرايات.

فبكى امرؤُ القيس ساعة، ثم رفع طرْفَه إليهم فقال: قد علمتِ العربُ أن لا كُفْءَ لحُجْرٍ في دم، وأنّى لن أعتاض به ناقةً أو جملًا فأَكْتَسِب بذلك سُبَّة الأبد،

---

(١) الترات: جمع ترة؛ وهي في الأَلّ مصدر وتر؛ أي نقص، واستعمل في الثأر.
(٢) الأعراق: جمع عرق، وهو أصل كل شيء.
(٣) الكرائم: خيار الأموال وقد يراد بها النفوس أو النساء.
(٤) النسعة: السير من الجلد يجعل زمامًا للبعير فيقاد به.
(٥) القصدة: العنق. (٦) يروح: يرجع.
(٧) القضب: السيوف.

وفَتَّ العَضُد؛ وأمّا النَّظرة فقد أوجبَتْها الأجنّةُ في بطون أمهاتها، وإني لن أكون لعَطبها سببًا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حنَقًا، وفوق الأسنَّة عَلَقًا[١].

إذا جالتِ الخيلُ في مأزِقٍ[٢] تُصافِحُ فيه المنايا النّفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوإ الاختيار؛ لِحرب وبليّة، ومكروه وأذيَّة! ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول متمثّلًا:

لعلك أن تَسْتَوخِمَ الموتَ إن غدت كتائِبُنا في مأزق الموت تُمْطِر

فقال امرؤ القيس: لا والله، لا أستوخمه ولكن أستعذِبُه؛ فرويدًا ينكشف لك دُجَاهَا عن فُرسان كندة وكتائبِ حِمْير، ولقد كان ذكرُ غير هذا أولَى بي، إذ كنتَ نازلًا برَبْعي، ومتحرّمًا بذِمامي، ولكنك قلتَ فأَجَبْتُ.

قال قَبيصة: إنّ ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب[٣]، قال امرؤ القيس: هو ذاك!

نِهَايَة الأعْشى[٤]

وفد الأعشى إلى النبيّ عليه السلام، وقد مدحه بقصيدته التي أولها:

ألم تغتمضْ عيناك ليلةَ أرمدَا وعادك ما عاد السليمَ المُسَهَّدَا
وما ذاك من عِشْقِ النّساء وإنما تناسيتَ قبل اليوم خُلّةَ مَهْدَدَا

وفيها يقول لناقته:

فآليتُ لا أرْثِي لها من كَلالةٍ ولا من حفًا حتى تَزُورَ محمدَا
نبيٌّ يَرى ما لا تَرَوْنَ وذكرُه أغار لعمري في البلاد وأنجدَا
متى ما تُنَاخِي عند باب ابن هاشمٍ تُرَاحِي وتَلْقَى من فواضله يَدَا

فبلغ خبرُه قريشًا؛ فرصدوه على طريقه وقالوا: هذا صَنَّاجَةُ العرب، ما مدح أحدًا قط إلا رفع في قدره.

---

(١) العلق: الدم. (٢) المأزق: المضيق.
(٣) الإعتاب والعتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب.
(٤) الأغاني: ٩ ـ ١٢٥ (طبعة دار الكتب)، سيرة ابن هشام: ١ ـ ٢٣١.

فلما ورد عليهم قالوا له: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردتُ صاحبكم هذا لأُسْلِم. قالوا: إنه نهاكَ عن خلال ويحرّمها عليك، قال: وما هي؟ فقال أبو سفيان بن حرب: الزّنا. قال: لقد تركني الزّنا وتركتُه، ثم ماذا؟ قالوا: القِمار، قال لَعَلّي إن لقيتُه أن أصيب منه عوضًا من القمار، ثم ماذا؟ قالوا: الرّبا. قال: ما دِنْتُ ولا ادَّنْتُ؛ ثم ماذا؟ قالوا: الخمر. قال: أوّهْ! أَرْجِعُ إلى صُبَابةٍ قد بقيت في المِهْراس[1] فأشربُها.

فقال له أبو سفيان: هل لك في خيرٍ مما همتَ به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن وهو الآن في هُدْنة، فتأخذ مائة من الإبل، وترجع إلى بلدك سنَتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا. فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خَلَفًا، وإن ظهر علينا أتيتَه. فقال: ما أكرهُ ذلك. فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى! والله لئن أتى محمدًا واتبعه ليُضرمَنّ عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا، فأخذها وانطلق إلى بلده. فلما كان بقاع مَنْفُوحَة[2] رَمَى به بعيرُ فقتله.

رثَاء فَوقَ قَبْر[3]

كان عامر بن الطُّفيل أفرسَ أهلِ زمانِه وأسودَهم، فلما مات ودُفِن مَرَّ على قبره حيَّان بنُ سلمى ـ وقد غاب عند موته ـ فقال: ما هذه الأنْصَاب؟ فقالوا: نَصَبناها على قبر عامر، فقال: ضيَّقْتم على أبي عليّ، وأفْضَلْتم منه فضلًا كثيرًا.

ثم وقف على قَبْره وقال: أنْعم ظلامًا أبا عليّ! فوالله لقد كنت تَشُنُّ الغارة، وتحمي الجارَة، سريعًا إلى المولَى بوعْدِك، بطيئًا عنه بوعيدك؛ وكنت لا تضلّ حتى يضلّ النجم، ولا تَهَابُ حتى يهابَ السيل، ولا تعطش حتى يعطشَ البعير؛ وكنتَ والله خيرَ ما تكون حين لا تظنّ نفسٌ بنفس خيرًا.

ثم التفتَ إليهم، فقال: هلَّا جعلتم قَبر أبي عليّ ميلًا في ميل!

---

(١) المهراس: حجر منقور يسع كثيرًا من الماء. (٢) منفوحة: قرية مشهورة من نواحي اليمامة.
(٣) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٣.

بمِثل هَذا فَلْيُثْنَ عَلى المُلُوك[١]

قال حسان بن ثابت: قدِمت على عَمْرو بن الحارث، فاعتاص عليّ الوصولُ إليه، فقلت للحاجب بعد مدَّة: إن أذنتَ لي عليه وإلّا هجوتُ اليمنَ كلّها ثم انقلبتُ عنكم. فأذِن لي، فدخلتُ عليه فوجدتُ عنده النابغَة وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عبدة وهو جالس عن يساره، فقال لي: يا ابن الفُرَيْعة؛ قد عرفت عيصَك[٢] ونسبك في غسَّان، فارجع فإنّي باعث إليك بصِلَةٍ سنيَّة، ولا أحتاج إلى الشعر، فإنّي أخافُ عليك هذين السَّبُعين - النابغة وعلقمة - أن يفضحاك؛ وفضيحتُك فضيحتي، وأنت والله لا تُحْسِنُ أن تقول:

رِقَاق النعالِ طيِّب حُجُزاتُهمْ ... يُحَيَّوْنَ بالرَّيحان يومَ السَّبَاسِبِ[٣]

فأبيتُ وقلت: لا بدّ منه، فقال: ذاك، فقال: إلى عمَّيك، فقلت لهما: بحقِّ الملك إلّا قدّمتماني عليكما! فقالا: قد فعلنا، فقال عمرو بن الحارث: هات يا ابن الفُرَيعة، فأنشأت:

لله دَرّ عصابة نادَمْتُهُم ... يومًا بجلّق[٤] في الزّمان الأوّل
أولادُ جفنة عند قبر أبيهمُ ... قبرِ ابن ماريةَ الكريم المُفْضِل
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البريص عليهم ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ
يُغْشَوْنَ حتى ما تهرُّ كلابُهمْ ... لا يَسألون عن السواد المقبِلِ
بيضُ الوجوهِ كريمة أحسابُهم ... شمُّ الأنوف من الطّراز الأوَّلِ
فلبثتُ أزمانًا طوالًا فيهمُ ... ثم ادّركْتُ كأنني لم أفعَلِ

قال: فلم يزل عمرو بن الحارث يَزْحل عن موضعه سُرُورًا، وهو يقول: هذا وأبيك الشعر؛ لا ما يُعَلِّلَاني به منذ اليوم! هذه والله البتَّارة التي قد بترتْ المدائح!

---

(١) الأغاني: ١٤ - ٢٢.
(٢) العيص: الأصل، والفريعة: أمه.
(٣) رقاق النعال: أي أن نعالهم رقيقة لا يخصفونها طباقًا، وذلك كناية عن قلة مشيهم، لأنهم ملوك. بل يركبون الخيل غالبًا، وحجزة الأزار والسراويل مجمع شدها على الوسط من الجسم، كناية عن عفتهم، والسباسب: يوم الشعانين، وهو يوم عيد عند النصارى، وكان الممدوح نصرانيًا.
(٤) جلق: دمشق.

أحسنت يا ابن الفُرَيْعة! هات له يا غلام ألفَ دينار مَرْجُوحَة، فأُعطِيتُ ذلك، ثم قال: لك عليّ في كل سنة مثلُها.

ثم أقبل على النابغة فقال: ثم يا زياد، فهاتِ الثناء المسجوع، فقام النابغة فقال: ألا أنعم صباحًا أيّها الملك المبارك! السماء غطاؤك، والأرض وطاؤُك، ووالدي فداؤك، والعرب وفاؤك، والعجم حماؤك، والحكماء جلساؤك، والمَدارِهُ[(١)] سمَّارك، والمقَاوِل إخوانك والعقْل شِعارك، والحلم دَثارك، والسكينة مِهادك، والوقار غشاؤك! والبِرُّ وِسادك، والصدق رداؤك، واليُمن حذاؤك، والسخاء ظهارتك، والحميَّة بطانتك، والعَلَاءُ غايتك وأكرمُ الأحياء أحياؤك، وأشرفُ الأجداد أجدادُك، وخيرُ الآباء آباؤك، وأفضلُ الأعمام أعمامُك، وأسرى الأخوال أخوالك، وأعفُّ النساء حلائلك، وأفخرُ الشباك أبناؤك، وأطهر الأمهاتِ أُمهاتك، وأَعْلى البنيان بنيانك، وأعذب المياه أمواهُك، وأفيحُ الدارات[(٢)] دارتُك، وأنزهُ الحدائق حدائقك، وأرفع اللباس لباسك، قد حالفَ الإضرِيجُ[(٣)] عاتقك، ولاءم المِسْكُ مَسْكَك[(٤)]، وحاور العنبرُ ترائِبَك[(٥)]، وصاحبَ النعيمُ جَسَدَك.

العسجد آنيتُك، واللُّجين صِحَافك، والعَصْب[(٦)] مناديلك، والحُوَّارَى[(٧)] طعامك، والشهد إدامك، والخُرطُوم[(٨)] شَرَابك، والأشراف مناصِفك[(٩)]، والخير بفنائك، والشر بساحة أعدائك، والنصر منوطٌ بلوائك، والخِذلان مع ألوية حُسَّادك، والبِر فعلك. قد طَحْطَحَ[(١٠)] عدوَّك غضبُك، وهزم مَقَانبهم[(١١)] مشهدُك، وسار في الناس عدلك، وسكن قوارعَ الأعداء ظَفْرك.

الذهب عطاؤك، والدواة رمزُك، والأوراق لَحظُك، والغنى إطراقك، وألف دينار مرجوحة إيماؤك.

---

(١) المداره: جمع مدره، وهو السيد الشريف، والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة.
(٢) الدارة: المحل يجمع البناء.
(٣) الإضريج: الخز.
(٤) المسك: الجلد.
(٥) الترائب: عظام الصدر.
(٦) العصب: نوع من البرود.
(٧) الحواري: لباب الدقيق.
(٨) الخرطوم: أول ما يجري من العنب قبل أن يداس.
(٩) جمع منصف وهو الخادم.
(١٠) طحطح: كسر وفرق وبدد إهلاكًا.
(١١) المقنب من الخيل: ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

أيفاخرك المنذر اللخميّ! فوالله لقَفَاك خيرٌ من وجهه، ولَشمالك خير من يمينه ولأخمَصك خيرٌ من رأسه، ولخطؤك خيرٌ من صوابه، ولصمتُك خيرٌ من كلامه، ولأمك خير من أبيه، ولخدمُك خير من قومه. فهب لي أُسَارى قومي، واستَرْهِنْ بذلك شكري، فإنك من أشراف قَحْطان، وأنا من سَرَوات عَدنان.

فرفع عمرو رأسه إلى جارية كانت قائمة على رأسه، وقال: بمثل هذا فليُثْنَ على الملوك، ومثل ابن الفَريعة فليمدحهم. وأطلق له أسرى قومه.

عُتبة وأعرابيّ(١)

حجّ عتبة سنة إحدى وأربعين، والناسُ قريبٌ عهدُهم بفتنة، فصلّى بمكة الجمعة، ثم قال: أيها الناس؛ إنا قد وَلِينَا هذا المقام الذي يُضَاعف فيه للمُحْسن الأجرُ، وعلى المسيء فيه الوِزْر، ونحن على طريق ما قَصَدنا؛ فلا تَمُدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا؛ فإنها تنقطع دوننا، وربّ مُتَمَنٍّ حَتْفُه في أُمنيَّته؛ فأقبلوا العافية ما قَبِلْنَاها فيكم وقبلْنَاها منكم؛ وإياكم ولَوًّا فإنها أتْعَبَتْ مَنْ كان قبلكم، ولن تُريحَ مَنْ بَعْدَكم؛ وأنا أسألُ الله أن يعين كُلّاً على كُلّ.

فصاحَ به أعرابيّ: أيها الخليفة! فقال: لستُ به ولم تُبْعِدْ. فقال: يا أخاه. قال: سمعتُ فقل. قال: تاللهِ إن تحسنوا ـ وقد أسأنا ـ خير من أن تسيئوا وقد أحْسَنَّا؛ فإن كان الإحسانُ بكم دوننا فما أحقكم باسْتتمامه، وإن كان منا فما أوْلاكم بمكافأتنا! رجل من بني عامر بن صَعْصعة يلقاكم بالعُمُومَةِ، ويقرُب إليكم بالخؤولة، قد كَثَرَهُ العيال، ووَطئه الزمان، وبه فقر، وفيه أجر، وعنده شكر.

فقال عتبة: أستغفرُ الله منكم، وأستعينه عليكم، قد أمَرْنا لك بغِنَاك، فليت إسْرَاعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك!

إن مِن البَيَان لَسِحرا(٢)

وفد إلى رسول الله ﷺ الزِّبْرِقان بن بدر وعمرو بن الأهتم؛ فقال الزبرقانُ: يا رسولَ الله، أنا سيدُ تميم، والمطاعُ فيهم، والمجابُ منهم، آخذ لهم بحقهم،

---

(١) الأمالي: ١ ـ ٢٣٦.

(٢) زهر الآداب: ١ ـ ٥. مجمع الأمثال: ١ ـ ٧.

وأمنعهُم من الظلم؛ وهذا يعلمُ ذلك ـ يعني عمرًا. فقال عمرو: أجل يا رسولَ الله! إنه مانع لحَوْزَتِه، مطاعٌ في عشيرته، شديدُ العارضة فيهم.

فقال الزِّبرقان: أما إنه والله قد علم أكثرَ مما قال، ولكنه حسدني شرفي! فقال عمرو: أما والله لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيِّق العطن زَمِر المروءة، أحمق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى!

فرأى الكراهة في وجه رسولِ الله ﷺ لما اختلف قوله، فقال يا رسول الله: رضيتُ فقلت أحسنَ ما علمتُ، وغضبتُ فقلتُ أقبحَ ما علمتُ، وما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية!

فقال رسول الله ﷺ: «إن منَ البيان لَسِحْرًا».

عَبد الله بن عَبَّاس وَالحطِيئة(١)

بينا ابنُ عباس جالسٌ في مجلسِ رسول الله ﷺ بعد ما كُفَّ بَصرُه، وحوله ناسٌ من قريش، إذ أقبل أعرابي يَخْطِرُ، وعليه مُطْرَفٌ وجُبَّة وعمامة خزّ، حتى سلّم على القوم، فردّوا عليه السلام، فقال: يا ابنَ عمِّ رسول الله؛ أَفتِني، قال: فِيمَ؟ قال: أتخاف عليّ جُنَاحًا إن ظلمنِي رجل فظلمته، وشتمني فشتمتُه، وقصَّر بي فقصرتُ به؟ فقال: العفوُ خيرٌ، ومَن انتصر فلا جُنَاح عليه.

فقال: يا ابن عمّ رسول الله؛ أرأيت امرأً أتاني فوعدني وغرّني ومنّاني، ثم أخلَفَني واستخفّ بحُرمتي، أيسعني أن أهجُوه؟ قال: لا يصلحُ الهجاء؛ لأنه لا بدَّ لك من أن تهجُوَ غيره من عَشِيرته، فتظلمَ مَن لم يظلمْك، وتشتُمَ مَن لم يشتِمك، وتبغي على مَن لم يبْغِ عليك، والبغيُ مرتعُه وخيم، وفي العفو ما قدم علمتَ من الفَضْل؛ قال: صدقتَ وبَررتَ.

فلم يَنْشَبْ أن أقبل عبد الرحمٰن بنُ سَيْحان المُحَاربيّ حليفُ قريش، فلمَّا رأى الأعرابيَّ أجلّه وأعظَمه وألطف في مَسألته، وقال: قرَّب الله دارَك يا أبا مُليكة، فقال ابن العباس: أجَرْوَل؟ قال: جرول! فإذا هو الحطيئة، فقال ابن عباس: لله أنت! أي مِرْدَى(٢) قِذاف، وذائدٍ عن عشيرة، ومُثْنٍ بعارفةٍ تُؤْتاها أنت يا

(١) الأغاني: ٢ ـ ١٩٢.

(٢) المردى: في الأصل حجر يُرمَى، ويطلق على الرجل الشجاع فيقال: مردى حروب.

أبا مليكةَ! والله لو كنتَ عركتَ[١] بجَنْبك بعض ما كرهتَ من أمر الزِّبْرِقان كان خيرًا لك، ولقد ظلمتَ من قومه مَن لم يظلمْك، وشتمت مَن لم يشتِمْك، قال: إنّي والله بهم يا أبا العباس[٢] لعالم؛ قال: ما أنتَ بأعلمَ بهم من غيرك، قال: بلى والله! يرحمك الله! ثم أنشأ يقول:

أنا ابنُ بجدَتهمْ[٣] عِلْمًا وتجربةً ... فسَلْ بسعدٍ تجدني أعلمَ الناس
سعدُ بن زيدٍ كثيرٌ إن عددتَهمُ ... ورأسُ سعد بن زيد آلُ شَمَّاس
والزبرقان ذُنَاباهم[٤] وشرُّهم ... ليس الذّنابي أبا العباس كالرَّاسِ

فقال ابن عباس: أقسمت عليك ألّا تقولَ إلا خيرًا، قال: أفعل.

ثم قال ابن عباس: يا أبا مُلَيكة؛ مَن أشعرُ الناس؟ قال: أمن الماضين أم من الباقين؟ قال: من الماضين، قال: الذي يقول:

ومَن يجعلِ المعروف من دونِ عِرْضِه ... يَفِرْهُ، ومَن لا يَتَّقِ الشر يُشْتَمِ

وما بدونه الذي يقول:

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلمُّه ... على شَعَثٍ، أيُّ الرجال المهذَّبُ!

ولكنَّ الضراعة أفسدَتْه كما أفسدتْ جَرْولًا - يعني نفسه - والله يا ابنَ عمّ رسول الله لولا الطمعُ والجشعُ لكنتُ أشعرَ الماضين، فأما الباقون فلا تشكَّ أني أشعرهم وأصْرَدُهم[٥] سهمًا إذا رَميت!

طَـرِيدُ لِسَانه[٦]

لما وُلّي سعيدُ بن عثمان بن عفّان خُراسان أراد أَنْ يستَصْحِبَ يزيد بن ربيعة بن مفرّغ، فأبى عليه، وصَحب عبّادَ بن زياد، فقال له سعيد: أمّا إذْ أبيت أن تصحبَنِي وآثرت عبَّادًا فاحفَظْ ما أُوصيكَ به: إنّ عبادًا رجلٌ لئيمٌ، فإياك والدَّالةَ عليه، وإن دعاك إليها من نفسه، فإنها خُدْعة منه لك عن نفسك، وأقلِلْ زيارتَه،

(١) عرك جنبه ما كان من صاحبه: احتمله. (٢) كنية عبد الله بن العباس.
(٣) البجدة: دخلة الأمر وباطنه، والمراد: أنا العالم بالشيء.
(٤) ذناباهم: ذنبهم. (٥) أنفذهم.
(٦) تاريخ الطبري: ٦ - ١٧٧، الأغاني: ١٧ - ٥٥ (طبعة الساسي).

فإنه طرِفٌ[١] مَلُولٌ، ولا تُفَاخره، وإنْ فاخرك، فإنه لا يحتمل لكَ ما كنت أحتمِله.

ثم دعا سعيد بمال فدفعه إلى ابن مفرّغ وقال: اسْتَعِن به على سفرك؛ فإن صَحّ لَكَ مكانُك من عبّاد، وإلا فمكانُك عندي مُمَهّد فأتني.

ثم سار سعيد إلى خُراسان وتخلّف ابن مفرّغ عنه، وخرج مع عبّاد بن زياد.

قال الراوي: فلما بلغ عبيدَ الله بن زياد صحبةُ ابن مفرّغ أخاه عبّادًا شقّ عليه، ولما عزم عبّادٌ على السير إلى سِجِستان، جاء عبدُ الله يودعه، فَدَعا ابن مفرّغ وقال له: إنّكَ سألت عبّادًا أن تصحبه وأجابك إلى ذلك وقد شقّ عليّ.

فقال له ابن مفرّغ: ولم أصلحك الله؟ فقال: لأنَّ الشاعر لا يُقْنِعه من الناس ما يُقْنِعُ بعضهم من بعض؛ لأنه يظنُّ فيجعل الظنّ يقينًا، ولا يعذر في مَوْضع؛ وإن عبّادًا يقدم على أرض حرب فيشتغلُ بحروبه وخَراجِه عنك، فلا تعذِره أنت وتكسبنا شرًّا وعارًا.

فقال له: لستُ كما ظنّ الأمير، وإن لمعروفه عندي لشكرًا كثيرًا، وإنّ له عندي ـ إنْ أغفلَ أَمري ـ عذرًا مُمَهّدًا.

قال عبيد الله: لا، ولكنْ تضمن لي إن أبطأ عنك ما تحبّه ألّا تعجَل عليه حتى تكتب إليّ! قال: نعم، قال: امضِ على الطائر المَيْمُون.

قال الراوي: فلمّا قدم عبّاد سِجِسْتَان، واشتغل بحربه مع التّرْكِ وخراجه استبطأه ابن مفرّغ، ولم يكتب إلى عبيد الله بن زياد يشكوه كما ضمن له، ولكن بَسَط لسانه، فذمَّه وهجاه؛ وكان عبّاد عظيم اللحية كأنها جُوالَق[٢]، فدخلت الريح فنفشتها، فضحك ابن مفرّغ وقال لرجل كان إلى جنبه:

ألا ليت اللّحَى كانَتْ حشيشًا فنعلفَهَا خُيولَ المُسْلمينا![٣]

فسعى به الرجل إلى عبّاد، فغضب من ذلك غضبًا شديدًا وقال: لا يجملُ بي عقوبتُه في هذه السرعة مع الصحبة لي، وما أُؤَخِّرُها إلّا لأشْفِيَ نفسي منه.

---

(١) الطرف: مَن لا يثبت على صاحب. (٢) الجوالق: الوعاء.
(٣) كان قد أصاب الجند مع عباد ضيق في أعلاف دوابهم.

وبلغ الخبرُ ابنَ مفرّغ فقال: إني لأجِدُ ريحَ الموت من عبّاد؛ ثم دخل عليه فقال: أيها الأمير؛ إني كنت مع سعيد بن عثمان، وقد بلغك رأيُه فيّ، وجميلُ أثرِه عليّ، وإني اخترتُكَ عليه فلم أظفر منك بطائل؛ وأريد أن تأذَنَ لي في الرجوع؛ فلا حاجةَ لي في صحبتك.

فقال له: أمّا اختيارُك إيّاي فإني اخترتُك كما اخترتني، واستصحبتُك حين سألتني، وقد أعْجلتني عن بلوغِ مَحبّتي فيك؛ وطلبتَ الآن أن ترجع إلى قومك فتفضَحَني فيهم، وأنت على الإذن قادرٌ بعد أن أقضي حقّك. فسكت ابنُ مفرّغ.

ثم أجرى عبّاد الخيلَ يومًا، فجاء سابقًا، فقال ابن مفرّغ يهزأ به: سبق عبّاد وصلَّتْ[1] لحيته. فبلغ ذلك عبّادًا، وبلغه أنه لا يزال يسبّه ويذكره، فطلَبَ عليه العِلل، ودسّ إلى قوم كان لهم عليه دين، فأمَرهم أن يقدّموه إليه، ففعلوا فحبسه وأضَرَّ بِهِ.

ثم بَعث إليه: أن بِعْني الأراكة[2] وبُرْدًا، فبعث إليه ابن مفرّغ مع الرسول: أيبيعُ المرءُ نفسه أو ولده! ثم ضَرَّ بِهِ عبّاد حتى باعَهما لرجل من أهل خُراسان، فقال ابن مفرّغ:

شريتَ بردًا ولو ملكت صفْقَتَهُ ... لما تطلبتُ في بيعٍ له رَشَدَا
لولا الدّعيُّ ولولا ما تعرَّضَ لي ... من الحوادث ما فارقته أبدَا
أمّا الأرَاكُ فكانتْ من مَحَارِمِنا ... عيشًا لذيذًا وكانت جنَّة رغدَا
كانت لنا جَنَّةً كنا نعيشُ بها ... نَغْني بها إن خشينَا الأزْل والنّكَدَا[3]
يا ليتني قبلَ ما ناب الزمانُ به ... أهلي لقيتُ على عُدْوانه الأسدَا
قد خَانَنا عيشُ مَن لم نخْشَ عَثْرَته ... مَنْ يأمن اليوم أمّن ذا يعيش غدَا!
لامتنيَ النفس في بُردٍ فقلت لها: ... لا تهلكي إثر بُرْد هكذا كمَدا
كم من نعيم أصَبْنَا من لذاذته ... قلنا له إذ تولّى: ليته خَلَدَا!

---

(١) المصلّي في الخيل: هو الذي يتلو السابق.
(٢) كانت الأراكة قينة لابن مفرغ، وبرد غلامه، رباهما، وكان شديد الضن بهما.
(٣) الأزل: الضيق والشدة.

ثم قال عبّاد لحاجبه: ما أرى هذا يبالي بالمقام في الحبس، فبِعْ فرسه وسلاحه وأثاثه، واقسم ثمنها بين غُرَمائه. ففعل ذلك وقسم الثمن بينهم، وبقيتْ عليه بقيَّةٌ حبسه بها.

وعلم ابنُ مفرّغ أنه إن أقام على ذمّ عباد وهجائه، وهو في محبسه، زاد نفسه شرًّا، فكان يقول للناس ـ إذا سألوه عن حبسه ما سبَبُه ـ رجلٌ أدَّبه أميره ليُقوِّم من أَوَدِه، أو يكفَّ من غَرْبه، وهذا لَعَمْرِي خيرٌ من جرِّ الأمير ذيلَه على مُداهنةِ صاحبه.

فلمّا بلغ ذلك عبَّادًا من قوله رقّ له، وأَخْرَجه من السجن، فهربَ حتى أتى البَصْرَة، ثم خرج منها إلى الشام، وجعل ينتقل في مُدُنها هاربًا، ويهجو زيادًا وولده، وأشعارهُ فيهم ترد البصرة وتنتشر وتبلغهم، ثم تعدَّى ذلك إلى أبي سُفيان فقذفه وسبّ وَلَدَه.

ولما تمادى في ذلك جاء عبَّاد إلى أخيه عبيد الله بالبصرة، فوجده وافدًا على معاوية، فكتب إليه ببعض ما هجا به آل زياد وأبا سفيان.

فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية، ثم استأذنه في قتل ابن مفرّغ، فأبَى عليه أن يقتله وقال: أدِّبه ولا تبلغ به القتل.

ثم جعل ابن مفرّغ ينتقل من بلد إلى بلدٍ، فإذا شاعَ خبره انتقل حتى لَفَظَتْه الشام؛ فأتى البصرة، ونزل على الأحنف بن قيس فالْتَجأَ واسْتَجارَ به، فقال له الأحنف: إني لا أجير على ابن سُمَيَّة(١)، إنما يجير الرجل على عشيرته، فأما علَى سلطانه فلا.

ثم أتى خالدَ بن عبد الله فاستجار به، فأبى أن يجيره، فأتى عمر بن عبد الله فوعده، وأتى طلحة الطلحات فوعده، ثم أتى المنذر العبْديّ فأجاره، وكان عبيد الله بن زياد زوجًا لبنته، وكان من أكرم الناس عليه، فاغترّ بذلك، وأدَلّ بموضعه منه وطلبه عبيدُ الله فقيل له: قد أَجارَه المُنذر.

فبعث عبيدُ الله إلى المنذر فأتاه، فلمّا دَخل عليه بعث بالشُّرَط، فكبسوا دارَ المنذر وأتوه بابن مفرّغ، فلم يشعر المنذر إلا بابن مفرّغ قد أقيم على رأسه. فقام

(١) سمية: أم زياد.

إلى عبيد الله فكلّمه فيه وقال: أذكِّرُك اللهَ أيها الأمير، لا تَخْفِرْ جواري فإني قد أجرْته.

فقال عبيد الله: يا منذر، ليمدحَنَّ أباك ولَيَمْدَحَنَّك، ولقد هجاني وهجا أبي ثم تجيره عليّ! والله لا يكون ذلك أبدًا، ولا أغفرُها له. فغضب المُنذر، فقال له عبيد الله: لعلك تدلّ بكريمتك عندي، إن شئت والله لأبينَّها بتطليق البتَّة.

فخرج المُنذر من عنده، وأقبل عبيدُ الله على ابن مفرّغ، وقال له: بئسما صحبتَ به عبَّادًا! فقال: بئسما صحبني به عبَّاد! اخترته على سعيد بن عثمان، وأنفقتُ على صحبته كلَّ ما أفدتُه وكلّ ما أملكه، ثم عاملني بكلّ قبيح، وتناولني بكلّ مكروه، من حبْس وغُرْم، وشَتْم وضرْب، فكنتب كمن شَامَ برقًا خلَّبًا في سحاب جَهام، فأراق ماءه طمعًا فيه فمات عطشًا، وما هرَبت من أخيك إلّا لما خفت أن يُجرِي فيّ ما يَنْدم عليه، وقد صرتُ الآن في يدك، فشأنك فاصنع بي ما أحببتَ.

فأخذ عبيدُ الله في تعذيبه، وأمر أن يُطاف به، بحالة سيئة، وقُرن بهرّة وخنزيرة، والصبيان حوله يصيحون به ويلحّون عليه، ثم رُدَّ إلى السجن، وسُقِي فيه من ألوان العذاب والنَّكال. فقال: يذكر ما فُعل به وإهمال قريش إيَّاه:

دَارَ سَلْمَى بالخبْت ذِي الأطلال … كيف نومُ الأسيرِ في الأغلال!
أيْنَ منّي السَّلَامُ من بعد نأيٍ … فارجعي لي تحيَّتي وسُؤالي!
أيـنَ منّـي نَـجائِبي وجِـيـادي … وغَزَالي، سقى الإلـٰه غزالي!
أين، لا أين جُنَّتِي وسِلَاحِي … ومَطايا سيَّرتُها لارْتِحَالي!
هَـدم الـدَّهـرُ عرشَنَـا فتـداعَـى … فـبَـلينَـا إذْ كـلُّ عـيـشٍ بـال
إذْ دَعَـانـا زوالـهُ فـأجَـبْـنَـا … كـلُّ دنـيـا ونـعـمـةٍ لـزوال
أم قضينَا حاجاتِنا فإلى المو … تِ مصيـرُ المـلوك والأقْيَال
لا وصَـوْمِـي لـرَّبنـا وزكـاتـي … وصلاتي أدعو بها وابْتِهالي
مـا أتـيـتُ الـغـداة أمرًا دَنِـيًّا … ولَدى اللهِ كـابـرُ الأعـمـال
أيُّها المالك المرهَّب بالقَتْـ … ـلِ بلغتَ النكالَ كلَّ النَّكالِ
فاخْشَ نارًا تقذف الوجوه ويَوْمًا … يقذف الناس بالدَّواهي الثِّقال

قد تعدّيتَ في القصاص وأدركـ ـتَ ذُحُولا[١] لـمـعـشـر أقْـتَـالِ
وكسرت السنَّ الصحيحة مِنِّي لا تُـذِلْنـي فَـمُـنْـكـرٌ إذْلَالِي
وقَـرَنـتُـمْ مـع الـخـنـازيـر هـرًّا ويَـمـيـنـي مـغـلـولـةٌ وشـمـالـي
وأطـلـتـم مـع الـعـقـوبـةِ سِـجْـنَـا فكم السجن؟ أو مَتَى إرسالي!
يغسلُ الماءُ ما صنعتَ، وقولي راسخ منك في العظام البوالِي
لو قبلتَ الفِدَاء أو رُمتَ مالي قلت: خذه، فداء نَفسيَ مالي
لو بغيْري من معشرٍ لَعِبَ الدهـ ـر لما ذمَّ نصرتي واحتيالي
كم بكاني من صاحب وخليلٍ حافظ الغيبِ حامدٍ للخصال!
ليت أني كنت الحليف للَخمٍ وجُـذَام أو طـيِّـىءِ الأجْـبـالِ
بـدلًا مـن عـصـابـةٍ مـن قـريـشٍ أسلموني للخصم عند النِّضالِ
خَـذَلـونـي وهـم لـذاك دعَـوْنـي لـيـس حـامي الـذِّمار بـالـخـذَّالِ
لا تـدَعْـنـي، فِـدَاك أهـلـي ومـالـي إنَّ حَبْليك من متين الحبال
حـسـرتـا إذ أطـعـتُ أمـر غُـواتـي وعصيت النَّصيح، ضَلَّ ضَلَالِي!

ولكن عبيد الله أرسله إلى أخيه عبَّاد بسِجسْتان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية؛ فأرسل رسولًا إلى عبّاد أن يحمل إليه ابنَ مفرّغ، فحُمل من عنده، وقال في طريقه:

عَـدَسْ مـا لـعـبَّـادٍ عـلـيـك إمـارةٌ نجوتِ، وَهَذَا تحمِلين طليق[٢]
لعمري لقد نجَّاك من هُوَّةِ الرَّدَى إمـامٌ وحـبْـلٌ لـلأنـام وثـيـق
سأشكر ما أوليتَ من حسن نعمةٍ ومِثْلِي بشكر المنعمين حقيقُ

فلما دخل على معاوية بكى وقال: رِكِب مني ما لم يركبْ من مسلم، على غير حَدَث ولا جريرة! قال أولست القائل:

أَلَا أبْـلـغ مـعـاويـة بـن حـربٍ . . . .
أفلم تقل:
فأشهدُ. . . . .

(١) الذحل: الثأر.
(٢) عدس: اسم زجر البغال.

في أشعار كثيرة هجوت بها زيادًا! اذهب فقد عفونا عن جُرْمك، أما لو إيَّانا تعامل لم يكن مما كان شيء؛ انطلق، وفي أي أرض شئتَ فانزل. فنزل الموْصِل.

عَبد الله بن الزبَير ومَقتل أخيه مَصعَب[١]

قال شيخ من أهل مكة: لما أتى عبدَ الله بن الزبير قتلُ مُصعبٍ أخيه أضرب عن ذِكْرِه أيامًا حتى تحدَّثَتْ به إماءُ مكةَ في الطرق، ثم صعِد المنْبَر، فجلس عليه مليًا لا يتكلم، فنظرتُ إليه والكآبةُ على وجهه، وجبينُه يَرْشَحُ عرقًا، فقلت لآخر إلى جنبي: ما له لا يتكلم؟ أتراه يَهاب المنطق! فوالله إنه لخطيب، فما تراه يَهاب! قال: أراه يذكر قتل مصعب سيِّدِ العرب، وهو بفَظِيع تذكّرِه غيرُ ملوم. فقال: «الحمد لله الذي له الخلقُ والأمر وملْكُ الدنيا والآخرة، يُعِزُّ مَنْ يشاء ويذِلُّ مَن يشاء؛ ألا إنه لم يذِلّ - والله - مَنْ كان الحقُّ معه وإن كان مُفردًا ضعيفًا، ولم يعزّ مَن كان الباطل معه، وإن كان في العُدَّة والعَددِ والكثرة».

ثم قال: «إنه قد أتانا خبرٌ من العِراق، بلدِ الغَدْرِ والشقاق، فساءنا وسرَّنا؛ أتانا أنّ مُصعبًا قُتِل - رحمة الله عليه ومغفرته! فأما الذي أحزننا من ذلك فإنَّ لِفراقِ الحميم لذعةً يجدُها حميمُه عند المصيبة، ثم يَرْعَوِي من بعدُ ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر، وأما الذي سرَّنا منه، فإنا قد علمنا أن قتْلَهُ شهادةٌ له، وأنه عزّ وجلّ جاعل ذلك لنا خيرةً إن شاء الله تعالى.

إنّ أهل العراق أسلموه وباعوه بأقل ثمن، لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه وكانوا خيارَ الصالحين؛ إنَّا واللهِ ما نموتُ حتف أنوفنا؛ ما نموت إلا قتلًا قَعْصًا[٢] بالرماح، وتحتَ ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مَرْوَان؛ والله ما قُتِل منهم رجلٌ في جاهليّة ولا إسلام قط؛ وإنّما الدنيا عارية من المَلِك القهّار، الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا عليّ لا آخذها أخذ الأشِر البَطِر، وإن تُدْبر عني لا أبكي بكاء المُهتَر[٣]». ثم نزل!

---

(١) الأغاني: ١٧ - ١٦٦.

(٢) قعصه: قتله مكانه.

(٣) المهتر: الذي فقد عقله من الكبر أو المرض أو الحزن.

عمَر بن أبي رَبيعَة وجَميل[1]

اجتمع عمرُ بن أبي ربيعة، وجميل بن عبد الله العُذْرِيّ، فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها:

لقدْ فرِحَ الواشون أن صَرَمتْ حبلى
بُثَيْنَةُ أو أبدتْ لنا جانب البُخْلِ
يقولون: مهلًا يا جميل، وإنّني
لأقسِمُ مَالِي عن بثينةَ من مَهْل
خليليّ فيما عشتُما هل رأيتُمَا
قتيلًا بكى من حبِّ قاتله قبلِي!
أبيتُ مع الهُلّاكِ[2] ضيفًا لأهلها
وأهلي قريب مُوسِعُون ذوو فضلِ
أفِقْ أيّها القلب اللَّجُوجُ عن الجهلِ
ودع عنك «جُمْلًا»[3] لا سبيلَ إلى جُمْلِ
فلو تركتْ عقلي معي ما طلبتُها
ولكن طِلَابِيهَا لِما فات من عقلي

حتى أتى على آخرها. ثم قال لعمر: يا أبا الخطّاب، هل قلتَ في هذا الرويّ شيئًا؟ قال: نعم، قال: فأنشدْنيه، فأنشده:

جرى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينها
فقرَّبني يوم الحِصَاب إلى قَتْلِي
فلمَّا تواقفنَا عرفت الذي بها
فقرَّبني يوم الحصَاب إلى قَتْلِي
فقلْنَ لها: هذا عِشَاءٌ وأهلُنا
قريبٌ ألمَّا تَسْأمِي مركبَ البَغْلِ!

---

(١) الأغاني: ١ ـ ١١٥ (طبعة دار الكتب)، زهر الآداب: ٢ ـ ٢٤٠.

(٢) الهلاك: الصعاليك الذين ينتابون الناس ابتغاء معروفهم.

(٣) جمل: علم على امرأة، وهو يقصد بها بثينة.

فقالت: فما شِئْتُنَّ قُلْنَ لها: انزلي
فَللأرضُ خير من وقوفٍ على رَحْلِ
نُجُومٌ دراريٌّ تكنَّفنَ صورة
من البدر، وافتْ غيرَ هُوجٍ[1] ولا عُجْلِ
فسلّمتُ واستأنستُ خيفةَ أن يَرَى
عدوٌّ مقامِي أو يرى كاشحٌ فِعْلي
فقالت - وأرخت جانب السِّتْر: إنما
معي - فتكلم غير ذي رقْبةٍ - أهلي
فقلت لها: ما بي لهم من تَرَقُّبٍ
ولكنّ سرِّي ليس يحمله مثلِي
فلمّا اقتصرنا دونهنَّ حديثنا
وهنّ طبيبات بحاجة ذي الشِّكْلِ[2]
عرفْن الذي تهْوي فقلن ائذني لَنا
نَطُفْ ساعة في بَرْد ليلٍ وفي سَهْلِ
فقالت: فَلَا تَلْبثن قلن: تحدّثي
أتَيْنَاك، وانسبْن انسياب مَها الرمل
فقمنَ وقد أفهمن ذا اللّب أنّمَا
أتينَ الذي يأتين من ذاك من أجلي

فقال جميل: هيهات يا أبا الخطّاب! لا أقول والله مثل هذا سَجِيسَ الليالي[3]، والله ما يخاطب النساء مخاطبتك أحد، وقام مشمِّرًا.

لِشعر عُمر بن أبِي رَبيعَة نَوْطه بالقَلب[4]

ذُكر شِعرُ الحارث بن خالد وشعرُ عمرَ بن أبي ربيعة عند أبي عتيق في

---

(١) هوج: جمع هوجاء، وهي المتعجلة في السير كأن بها هوجًا وحمقًا.

(٢) الشكل: دل المرأة وغزلها.

(٣) أي لا أقول مثل هذا أبدًا، وهي كلمة تستعمل للتأبيد.

(٤) الأغاني: ١ - ١٠٨ (طبعة دار الكتب)، الأمالي: ٢ - ١٧.

مجْلس رجلٍ من ولد خالد بن العاص بن هشام، فقال: صاحبُنا - يعني الحارثَ بن خالد - أشعرُهما.

فقال له ابن أبي عتيق: بَعْضَ قولك يا ابنَ أخي! لِشعر عمرَ بن أبي ربيعة نَوْطَةٌ في القلب، وعُلُوقٌ بالنفس، ودَرَكٌ للحاجة ليست لشعر الحارث، وما عُصِيَ اللهُ عزّ وجلّ بشعرٍ كثَر مما عُصِي بشعر عمر بن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك: أشعرُ قريش مَنْ دَقَّ معناه، ولَطُفَ مَدْخَلُه، وسَهُل مَخْرجه، ومَتُن حَشْوُه، وتعطّفتْ حواشيه، وأنارتْ معانيه، وأعرب عن حاجته!

فقال المفضّل للحارث: أليس صاحبُنا الذي يقول:

إنّي وما نَحَروا غَدَاة مِنًى ... عند الجمار يَئُودها العَقْل
لو بُدِّلَتْ أعلى مساكِنها ... سُفلًا، وأصبح سُفْلها يَعْلُو
فيكاد يعرفها الخبيرُ بها ... فيردُّه الإقْوَاء والمَحْلُ[1]
لعرفتُ مغْنَاهَا بما احتملتْ ... مني الضُّلوعُ لأهلها قَبْلُ

فقال له ابنُ أبي عتيق: يا ابنَ أخي: استُرْ على نفسك، واكتمْ على صاحبك، ولا تشاهدِ المحافل بمثل هذا؛ أما تَطيَّر الحارثُ عليها حين قلبَ ربعَها، فجعل عاليَه سافلَه، ما بقي إلّا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارةً من سجِّيل[2]؛ ابن أبي ربيعة كان أحسنَ صُحْبةً للرَّبْع من صاحبك، وأجملَ مخاطبة حيث يقول:

سائلَا الرّبع بالبُليّ[3] وقُولَا ... هجتَ شوقًا لِيَ الغداة طويلا
أين حيٌّ حَلُّوك إذ أنت محفو ... ف بهم آهلٌ أراكَ جميلا!
قال: سارُوا فأمعنوا واسْتقلُّوا[4] ... وبرغْمِي لو استطعتُ سبيلا
سَئِمُونا وما سئمْنا مُقامًا ... وأحبُّوا دَماثةً وسُهُولا

فانصرف الرجُل خَجِلًا مُذْعِنًا.

(١) أقوت الدار: أقفرت وخلت من أهلها، والمحل: الجدب.
(٢) السجيل: الطين المتحجر. (٣) البلى: تل قصير.
(٤) استقلوا: واصلوا السير وجدّوا في الارتحال.

ابن المسيِّب يَفخر بصَاحبهِ(١)

قال بعض الرواة:

دخلتُ مسجدَ رسولِ الله ﷺ مع نَوْفل بن مُساحِق؛ وإنّه لمعتَمد على يديَّ إذ مرَرْنا بسَعيد بن المسيّب في مجلسه، فسلّمنا عليه، فردَّ سلامنا ثم قال لنوفل: يا أبا سعيد؛ مَن أشعر؟ أصاحبنا أم صاحبُكم؟ يعني عبيد الله بنَ قيس الرقيَّات أو عمر بن أبي ربيعة ـ فقال نوفل: حين يقولان ماذا؟ فقال: حين يقول صاحبنا:

خليليَّ ما بالُ المطيِّ كأنَّما نراها على الأدبار بالقوم تنْكُصُ
وقد أبْعَدَ الحادي سُرَاهُنَّ وانتحى بهِنَّ فما يَألُو عَجُول مقلّصُ
وقد قُطِعَتْ أعناقُهن صَبابةً فأنفُسُنا مما تكلّفُ شُخَّصُ
يزِدْنَ بنا قُرْبًا فيزدادُ شَوْقنا إذ زاد طولُ العهدِ، والبعدُ يَنقُصُ

ويقول صاحبكم ما شئت! فقال له نوفل: صاحبكم أشهرُ بالقول في الغزل ـ أمتع الله بك ـ وصاحبُنا أكثر أفانين شعر.

قال: صدقت؛ فلما انقضى ما بينهما من ذِكرِ الشعر، جعل سعيد يستغفر الله ويعقد بيده، ويُعده بالخمس كلِّها، حتى وفَّى مائة.

قال الراوي: فلما فارَقْنَاه قلت لنوفل: أتراه استغفر الله من إنشاده الشعر في مسجد رسول الله ﷺ! قال: كلا! هو كثير الإنشاد والاستشهاد للشعر، ولكني أحسبهُ للفخر بصاحبه!

أعشى همَدان يهجو ويَمدح(٢)

كان أعشى هَمْدانَ شاعرَ أهل اليمن بالكوفة وفارسَهم، وكان مع خالد بن عتّاب بن وَرْقاء الرِّياحيّ بالرَّيّ، فلما قدم خالدٌ من مَغزاه خرج جواريه يتلقّيْنه، وفيهنّ أمُّ ولدٍ له كانت رفيعةَ القَدْر عنده؛ فجعل الناس يمرُّون عليها إلى أن جَازَ بها الأعشى، وهو على فرسه يميل يمينًا ويسارًا من النُّعاس، فقالت أم ولد خالد لجواريها: إن امرأة خالد لَتفَاخرني بأبيها وعمِّها وأخيها، وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المُرْتَعِش!

(١) الأغاني: ٥ ـ ٩٢ (طبعة دار الكتب). (٢) الأغاني: ٦ ـ ٤٢.

وسمعها الأعشى فقال: مَنْ هذه؟ فقال له بعضُ الناس: هذه جاريةُ خالد، فضحك وقال لها: إليك عني يا لكْعَاء؛ ثم أنشأ يقول:

وما يُذريك ما فرسٌ جَرُورٌ ... وما يُذريك ما حَمْلُ السلاحِ!
وما يدريك ما شيخٌ كبير ... عَدَاه الدهرُ عن سَنَنِ المِراح
فأقسمُ لو ركبتِ الوزْدَ يومًا ... وليلتَه إلى وَضَحِ الصباحِ
إذن لنظرت........... ....

فأصبحت الجاريةُ، فدخلت إلى خالد فشكتْ إليه الأعشى، وقالت: والله ما تُكْرَم، ولقد اجتُرِىء عليكَ! فقال لها: وما ذاك؟ فأَخبرَته أنها مرّت برجل في وجه الصبح، ووصفْته له وأنه سَبَّها، فقال: ذلك أعشى هَمْدان، فأيّ شيء قال لك؟ فأنشدته الأبياتَ، فبعث إلى الأعشى، فلما دخل عليه قال له: ما تقول هذه؟ زعمت أنّك هَجَوْتَها، فقال: أساءت سمعًا؛ إنما قلت:

مررت بنسوةٍ مُتعَطّراتٍ ... كضَوْء الصُّبْح أو بَيْضِ الأدَاحي[1]
عَلَى شُقي البغال فَصِدْنَ قلبي ... بحسن الدَّلِّ والحدَق المِلاح
فقلتُ: مَنِ الظباءُ؟ فقُلْنَ: سِرْبٌ ... بدا لَكَ مِن ظباءِ بني رِياح

فقالت: لا، والله، ما هكذا قال... وأعادت الأبيات.

فقال له خالد: أما لولا أنها قَدْ وَلَدَتْ مني لوهبتُها لك، ولكني أفْتَدِي جنايتَها بمثل ثمنها، فدفعه إليه وقال له: أقسمتُ عليك يا أبا المصبّح أن لا تعيد في هذا المعنى شيئًا بعد ما فَرَط منك.

أشجَع النّاس شِعرًا[2]

سأل يومًا عبدُ الملك بن مروان: مَن أشجعُ الناس شعرًا؟ فقيل: عمرو بن معدِ يكرب. فقال: كيف وهو الذي يقول:

فجاشَتْ إليَّ النَّفسُ أوّلَ مرةٍ ... فَرُدَّت على مكْرُوهِها فاسْتَقَّرَتِ

---

(١) الأداحي: جمع أدحية وهي مبيض النعام في الرمل.
(٢) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٢.

قالوا: فعمرو بن الإطْنابة. فقال: كيف وهو الذي يقول:

وقوْلي كلما جَشأَتْ وجاشت مكانَكِ تُحْمَدِي أو تستريحي

قالوا: فعامر بن الطُّفيل. قال: كيف وهو الذي يقول:

أقولُ لِنَفْسٍ لا يُجَادُ بمثلها: أقلِّي مِراحًا إنني غيرُ مدبرِ

قالوا: فمن أشْجَعُهم عند أمير المؤمنين؟ قال: أربعة، عباس بن مرداس السُّلَمِيّ، وقيس بن الخطيم الأوسيّ، وعنترة بن شدّاد العبسيّ، ورجل من بني مُزَينة.

أما عباس فلقوله:

أشدُّ على الكتيبة لا أُبالي أفيها كان حَتْفِي أم سواها

وأما قيس بن الخطيم فلقوله:

وإني لَدَى الحرب العَوَان موكّل بتقديم نفسٍ لا أريد بَقَاءها

وأما عنترة بن شداد فلقوله:

إذ تتقُون بي الأسِنَّةَ لم أَخِمْ[١] عنها ولكن قد تضَايق مقْدَمي[٢]

وأما المزني فلقوله:

دعوتُ بني قُحافة فاسْتَجَابوا فقلت: رِدُوا فقد طابَ الوُرود

الحجّاج عَلى قَبرِ ابنه[٣]

لما هلك أَبَانُ بنُ الحجاج، وأمه أم أبان بنت النعمان بن بشير، ودفنه الحجاج قام على قبره؛ فتمثّل بقول زياد الأعجم:

الآن لمّا كُنْتَ أكملَ مَن مَشَى وافترَّ نابُك عن شَبَاةِ القَارِحِ
وتكاملَتْ فيك المروءةُ كلُّها وأعنْتَ ذلك بالفعَالِ الصالحِ!

(١) أخم: أجبن.
(٢) تضايق مقدمي: تضايق الموضع الذي هو قدامي من أن يدنوه أحد.
(٣) ذيل الأمالي: ٧.

فلما انصرف إلى منزله قال: أرسِلوا خلف ثابت بن قيس الأنصاري؛ فأتاه فقال: أنشدني مرثيتَك في ابنك الحسن، فأنشده:

قد أكْذَب اللهُ من نَعَى حَسَنًا ليس لتكذيبِ موتِه ثَمَنُ
أَجُولُ في الدار لا أراك وفي الـ ـدار أُناس جِوَارهم غَبَنُ
بُدّلتُهم منك ليتَ أنهم أضحَوْا وبيني وبينهم عَدَنُ!

فقال له الحجاج: ارْثِ ابني أبان. فقال له: لا أجد به ما كنتُ أَجدُ بحسن، قال: وما كنت تَجدُه؟ قال: ما رأيتُه قطُّ فشَبِعت من رؤيته، ولا غاب عني قطُّ إلا اشتقتُ إليه.

فقال الحجاج: كذلك كنت أجدُ أبان!

إن صَدّقناك أغضَبناك[1]

شَكا الحجّاج يومًا سوءَ طاعة أهل العراق وسَقَم مذهبهم، وسَخَط طريقتهم فقال له جامع المحاربيّ - وكان شيخًا صالحًا خطيبًا لَسنًا: أمَا إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك[2] لنسبك، ولا لبلدك، ولا لِذَاتِ نفسك، ولكنهم نَقَموا أفعالك؛ فدعْ ما يُبعدهم عنك إلى ما يُدْنيهم منك، والتمس العافية ممّنْ دونك تُعطَها ممَّن فوقك، وليكن إيقاعُك، بعد وعيدك، ووعيدُك[3] بعد وعدك.

فقال له الحجّاج: والله ما أرى أن أردّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف!

فقال جامع: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار!

فقال الحجاج: الخيارُ يومئذ لله! قال جامع: أجل، ولكن لا تدري لمن يجعله الله!

فغضب الحجاج وقال: يا هناه[4]، إنك من محارب!

---

(١) زهر الآداب: ٤ - ٤٨، البيان والتبيين: ٢ - ٦٨، العقد الفريد: ٢ - ١٥١، عيون الأخبار: ٢ - ٢١٢.

(٢) شنئوك: أبغضوك.

(٣) الوعيد في الشعر، والوعد في الخير.

(٤) يا هناه: يا فلان.

فقال جامع:

وللحربِ سُمِّينا وكان محاربًا إذا ما القَنَا أمسى من الطَّعْن أحمرَا

فقال له الحجاج: والله لقد هممتُ أن أخْلَعَ لسانك، وأضربَ به وجهك.

فقال جامع: إن صَدَقْنَاك أغضبناك، وإن كَذَبناك أغضبْنَا الله، وغَضَبُ الأمير أهونُ علينا من غَضب الله.

فقال الحجاج: أجل! وسَكَن واشتغل ببعض الأمر، فخرج جامع، وانسلَّ من صفوف الناس.

جَميل أشعَر النَّاس[1]

حدّث أحد الرواة فقال:

دخلَ علينا كُثيِّر يومًا وقد أخذ بطرف رَيْطَتِهِ، وألقى طرَفها الآخر وهو يقول: هو واللهِ أشعرُ الناس حيث يقول:

وخبّرْتُماني أنَّ تَيْماء منزلٌ لليلى إذا ما الصَّيفُ ألقى المَراسِيَا
فهذي شهور الصيفِ عني قد انقضتْ فما لِلنَّوى تَرْمِي بليلى المراميَا!

ويجرُّ رَيْطته حتى يبلغ إلينا، ثم يولّي عنا ويَجرُّها ويقول: هو والله أشعرُ الناس حيث يقول:

وأنتِ التي إن شئتِ كدّرتِ عِيشتي وإن شئت بعد الله أنعمت باليَا
وأنت التي ما مِنْ صديقٍ ولا عِدًا يرى نِضْوَ ما أبقيتِ ألّا رَثَى لِيَا

ثم يرجع إلينا ويقول: هو والله أشعر الناس؛ فقلنا: مَنْ تعني يا أبا صخر؟ فقال: ومَنْ أعني سِوَى جميل! هو والله أشعر حيث يقول هذا.

مَن أشعَر النَّاس؟[2]

قال عبد الملك بن مسلم: كتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج: إنه لم

(١) الأغاني: ٨ ـ ١٢٥ (طبعة دار الكتب).

(٢) أمالي المرتضى: ٣ ـ ١٠١، خزانة الأدب: ٢ ـ ١١٨ (المطبعة السلفية)، الأغاني: ٩: ١٦٢ (طبعة الساسي).

يبق شيء من لَذَّة الدنيا إلا وقد أصبتُ منه، ولم يَبْقَ لي إلا مُناقَلَةُ[١] الإخوان الأحَاديث؛ وقِبَلك عَامرٌ الشّعبيّ، فابعث به إليّ يحدِّثني.

فدعا الحجاج بالشعبيّ وجهَّزَه، وبعث به إليه، وأطْرَاهُ في كتابه.

فخرج الشّعبيُّ، حتى إذا كان ببابِ عبد الملك قال للحاجب: استأذِنْ لي، فقال: ومَنْ أنت؟ قال: عَامر الشعبيّ، قال: حَيَّاك الله! ثم نهض، وأجلسه على كرسيّه، فلم يلبث أن خرج إليه فقال: ادخل.

قال الشعبيّ: فدخلت فإذا عبد الملك جالس على كرسيّ، وبين يديه رجل أبيضُ الرَّأس واللحية على كرسيّ، فسلّمتُ فردَّ السلام، ثم أَوْمَأ إليَّ، فقعدتُ عن يساره، ثم أقبل على الذي بين يديه فقال: ويحك! مَن أشعر الناس؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين! فأظْلم عليّ ما بيني وبين عبد الملك، ولم أصْبِر أن قلت: ومَنْ هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس؟ فَعجِب عبدُ الملك من عَجَلتي قبل أن يسألني عن حَالي، ثم قال: هذا الأخطل! فقلت: يا أخطل، أشْعَرُ منك الذي يقول:

هــذا غــلامٌ حــسَــنٌ وجــهــه ... مقتبل الخير سريع التمامْ
للحارث الأكبر والحارث الأصـ ... ـغـرِ والأعـرج خـيــر الأنَـامْ
ثـم لـهـنْـدٍ ولـهـنـد، فـقَـدْ ... يَنْجَعُ في الرّوضاتِ ماءُ الغمامْ
خـمـسـة آبـاء هُـمُ مـا هُـمُ ... هُمْ خَيْرُ مَنْ يشربُ صَوْبَ المدامْ

فقال عبد الملك: ردِّدها عليّ، فرددتُها حتى حفظها؛ فقال الأخْطَل: مَنْ هذا يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: هذا الشَّعْبيّ، قال: صدق والله، النابغة أشعر مني!

قال الشعبيّ: ثم أقبلَ عليّ عبد الملك فقال: كيف أنت يا شعبيّ؟ قلت: بخير - قال: لا زلتَ به - ثم ذهبتُ لأصنعَ معاذيري لما كان من خِلافِي على الحجاج مع عبد الرحمٰن بن محمد الأشعث.

فقال: مَهْ! فإنا لا نحتاج إلى هذا المنطق، ولا تراه منا في قولٍ ولا فعل حتى تُفارِقَنا، ثم أقبل عليّ فقال: ما تقول في النابغة؟ قلت: يا أميرَ المؤمنين، قد

---

(١) المناقَلة في المنطق: أن تحدثه ويحدثك.

فَضّله عمرُ بن الخطاب في غير موطن على جميع الشعراء، وذاك أَنَّهُ خَرَج يومًا وببابه وَفْد غَطفان، فقال: يا مَعشر غطفان، أيّ شعرائكم الذي يقول:

حَلَفْتُ فلم أَترُكْ لنفسكَ ريبةً ... وليس وَراء الله للمرءِ مَذْهَبُ
أَلَمْ تَرَ أن الله أعطاك سَوْرَةً ... ترى كلّ مَلك دونها يتذبذبُ
كأنك شمس والملوك كَواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ
لئن كنت قَد بُلّغتَ عني خيانة ... لمبلِغك الواشِي أغشُّ وأكذبُ
ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمُّه ... على شعثٍ؛ أي الرجال المهذب!

قالوا: النابغة؛ قال: فأيّكم الذي يقول:

فإنّكَ كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلتُ أن المنتأى عنكَ واسعُ
خطاطيف[1] حُجْنٌ في حبال متينة ... تُمَدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ

قالوا: النابغة؛ قال أيّكم الذي يقول:

إلى ابن مُحَرِّقٍ أَعْمَلتُ نفسي ... وراحلتي وقد هدتِ العُيُون
أتيتُكَ عاريًا خَلَقًا ثيابي ... على خوفٍ تُظَنُّ بيَ الظُّنُونُ
فألفيت الأمانةَ لم تَخُنْها ... كذلك كان نوحٌ لا يَخُونُ

قالوا: النابغة، قال: هذا أشعر شعرائكم. ثم أقبل عبدُ الملك على الأخطل فقال: أتحبّ أنَّ لك قياضًا[2] بشعرك شعر أحد من العرب، أو تحبّ أنك قلته، فقال: لا والله، إلا أني وددت أني كنت قلت أبياتًا قالها رجل منّا؛ كان والله مُغْدِف[3] القناع، قليل السماع، قصير الذراع، قال: وما قال؟ فأنشده:

إنّا محيُّوك فاسلَمْ أيُّها الطلَلُ ... وإن بليتَ وإن طَالَت[4] بك الطِّوَلُ
ليس الجديدُ بهِ تَبْقَى بَشاشَتُه ... إلّا قليلًا ولا ذو خَلّةٍ يصلُ
والعيشُ لا عيشَ إلا ما تَقَرُّ به ... عينٌ، ولا حالَ إلا سوفَ تنتقلُ
والناسُ مَنْ يَلقَ خيرًا قائلون له ... ما يشتهي؛ ولأمّ المخطىء الهَبَلُ
قد يدرِك المتأنّي بعض حاجتِهِ ... وقد يكون مع المُسْتَعْجِل الزَّلَلُ

---

(١) الخطاف: حديدة حجناء تعقل بها البكرة، والحجن: الاعوجاج.
(٢) المقايضة: المبادلة والمعاوضة. (٣) أغدف قناعه: أرسله على وجهه.
(٤) يقال: طال طولك أي عمرك.

قال الشعبيّ: فقلت: قد قال القَطَاميُّ أفضلَ من هذا، قال: وما قال؟ قلت: قال:

طرقَتْ جنوبُ رحالنَا منْ مَطْرِقِ ... ما كنتُ أحسبُه قريب المَغْنقِ

حتى أتيتُ على آخرها، فقال عبد الملك: ثكلَتِ القطاميَّ أُمُّه! هذا والله الشعر، ثم قال: يا شعبيّ، أيّ شعراء الجاهليَّة كان أشعر من النساء؟ قلت: الخَنْساء. قال: ولِمَ فَضَّلْتَها على غيرها؟ قلت: لقَوْلِها:

وقائلةٍ والنّعشُ قد فاتَ خَطْوَهَا ... لندركَه: يا لهْفَ نفسي على صَخْر!
ألا ثكِلتْ أمُّ الذين غَدَوْا به ... إلى القبر، ماذا يحملون إلى القَبْرِ!

فقال عبد الملك: أشعر والله منها ليلى الأخيليّة حيث تقول:

مُهَفْهَفُ الكشح والسِّربال مُنْخَرِقٌ ... عنه القميصُ لسيْرِ اللّيْلِ مُحْتَقِرُ
لا يأمَنُ الناسُ مُمْسَاه ومُصْبَحَهُ ... في كلِّ حَيٍّ، وإنْ يَغْزُوه يُنْتَظَرُ

ثم قال: يا شَعْبيّ، لعلّه شقّ عليك ما سمعتَه! فقلت: إي والله يا أمير المؤمنين أشدّ المَشقّة، إني قد حدّثتُك فلم أُفِدْك إلا أبيات النّابغة في الغلام.

ثم قال عبد الملك: يا شَعْبيّ، إنما أعلمناك هذا، لأنه بلغني أن أهلَ العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون: إن كانوا غلبونَا على الدّولة، فلَنْ يغلبونا على العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق. ثم رَدَّدَ عليَّ أبياتَ ليلى حتى حفظتُها، وأذن لي فانصرفت، فكنت أوَّلَ داخل وآخر خارج.

الشعبيّ عِنْدَ عَبد الملك بن مروَان(١)

قال الشعبيُّ: دخلت على عبدِ الملك بن مروان في عِلَّتِه التي مات فيها، فقلتُ: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ فقال: يا شعبيّ؛ أصبحت كما قال عَمْرو بن قميئة:

كأني وقد جاوزتُ تِسعين حِجَّةً ... خلعتُ بها عنّي عِنَانَ لجامي
رمَتْني بناتُ الدهر من حيثُ لا أرى ... فكيف بمن يُرمى وليس برَام!
فلو أنني أرمَى بنبْلٍ رميتُها ... ولكنني أُرْمَى بغيرِ سِهَامِ

(١) الأغاني: ١٦ ـ ١٥٩ (طبعة الساسي)، مهدي الأغاني: ٢ ـ ٦٢.

وأهلكني تأصلُ يومٍ وليلةٍ وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعامِ
على الرّاحتين تارة وعلى العصا أَنُوءُ ثلاثًا بَعْدَهنَّ قيامي

فقلت: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لَبيد، وقد بلغ سبعين حجة:

كأني وقد جاوزتُ سبعين حجةً خلعتُ بها عن منكِبيَّ رِدَائِيَا

فلما بلغ سبعًا وسبعين سنةً قال:

باتت تَشَكَّى إليَّ النفسُ مُجْهِشَةً وقد حملتك سبعًا بعد سبعينا
فإن تُزَادى ثلاثًا تَبْلُغي أملًا وفي الثلاثِ وفاءٌ للثمانِينا

فلما بلغ مائةَ سنة قال:

ولقد سئمتُ من الحياةِ وطولها وسؤالِ هذا الخَلْق كيف لبيد!

فلما بلغ مائةَ سنة وعشرًا قال:

أليس ورائي إن تراخت مَنِيَّتي لزوم العصا تُحْنَى عليها الأصابع
أخبّر أخبار القرون التي خَلَتْ أَدِبّ كأني كلّما قمت راكع

فلما بلغ ثلاثين ومائة سنة، وقد حضَرتْهُ الوفاة قال:

تمنّى ابْنَتَايَ أن يعيشَ أبوهما وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ!
فإن حان يومًا أن يموت أبوكما فلا تَخْمِشا وَجْهًا ولا تحلقا الشَّعَرْ
وقولا: هو المرءُ الذي لا صَدِيقَه أضاع، ولا خَانَ الخليلَ ولا غَدَرْ
إلى الحوْل ثم اسمُ السّلامِ عليكما ومن يَبْكِ حولًا كامِلًا فقد اعْتَذَر[1]

قال الشعبيّ: فتبسّم عبد الملك وقال: لقد قويت من نفسي بقولك يا عامر، وإنّي لأجد خِفًّا وما بي من بأس، وأمر لي بصِلة. وقال لي: اجلس يا شعبيّ؛ فحدّثني ما بينك وبين الليل. فجلست فحدّثته حتى أُمسيتُ وخرجت من عنده، فما أصبحت حتى سمعت الواعية في داره[2].

---

(١) اعتذر: أتى بعذر.

(٢) الواعية: الصراخ والصوت.

تلطُّف عَبد الله بن الحجّاج[١]

كان عبد الله بن الحجاج شجاعًا فاتكًا صُعلوكًا من صعاليك العرب، وكان متسرّعًا إلى الفِتَن، فكان ممّن خرج مع عمرو بن سعد على عبد الملك بن مروان.

فلمّا ظفر به عبد الملك هرب إلى ابن الزّبير، فكان معه حتى قُتِل، ثم جاء إلى عبد الملك متنكّرًا، واحتال حتى دخل عليه، وهو يطعم الناس، وجلس حَجْرَةً[٢]، فقال له: ما لك يا هذا لا تأكل! قال: لا أستحلُّ أنْ آكل حتى تأذنَ لي. قال: إني قد أذنت للناس جميعًا، قال: لم أعلم، أفآكل بأمرك؟ قال: كلْ. فأكل وعبد الملك ينظر إليه ويَعْجب من فعله.

فلما أكل الناس جلس عبد الملك في مجلسه، وجلس خواصُّه بين يديه، وتفرّق الناس، فجاء عبد الله ووقف بين يديه، واستأذنه في الإنشاد فأذن له، فأنشد:

أبلغ أميرَ المؤمنين فإنني   مما لقيت من الحوادث مُوجَع
مُنِعُ القرار فجئت نحوك هاربًا   جيش يُجَرُّ، ومَقْنَبٌ يتلمع[٣]

فقال عبد الملك: وما خوفُك لا أمّ لك! فقال عبد الله:

إن البلادَ عليّ وهي عريضةٌ   وَعِرتْ مذاهبُها، وسُدَّ المطلع

فقال عبد الملك: ذلك بما كسبت يداك، وما الله بظلّام للعبيد، فقال عبد الله:

إنّ الذي يَعصيك منّا بعدها   من دينه وحياته متودع
آتى رضاك ولا أعود لمثلها   وأطيع أمرك ما أمرتَ وأسمع

فقال له عبد الملك: هذا لا نقبله منك إلّا بعد المعرفة بك وبذنبك، فإذا عرفت الحَوْبة[٤] قبلت التوبة؛ فقال عبد الله:

ولقَد وطئتَ بني سعيدٍ وطأَةً   وابنَ الزبير فعرشُه متضعضعُ

---

(١) الأغاني: ١٢ ـ ٢٥ (طبعة الساسي). (٢) حجرة: منفردًا في ناحية.
(٣) المقنب: جماعة الخيل تجتمع للغارة، ويتلمع: يضيء.
(٤) الحوبة: الإثم.

فقال عبد الملك: لله الحمد والمنّة على ذلك، فقال عبد الله:

ما زلت تضرب منكبًا على منكبٍ … تعلو ويَسْفُل غيركم وما يُرفع
لا يستوي خاوي نجومٍ آفِلٌ … والفجر منبلجًا إذا ما يطلعُ
وُضِعَتْ أمية واسطين لقومهم … وَوُضِعْتَ وسْطَهمُ فنعم الموضع
بيتٌ أبو العاصي بناه بربْوةٍ … عالي المشارف عزه ما يُدفَعُ

فقال له عبد الملك: إن توريتك عن نفسك لَتريبني، فأيُّ الفسقة أنت! وماذا تريد؟ فقال:

حَرَبَتْ[1] أُصَيْبِيَتي يدٌ أرسلتَها … وإليك بعد مَعادها ما ترجع
وأرى الذي يرجُو تُراثَ محمد … أفَلَتْ نجومهمُ ونجمُك يَسْطَعُ

فقال عبد الملك: ذلك جزاء أعداء الله، فقال عبد الله:

فارحم أصيبيتي الذين كأنهم … حَجْلَى تَدرَّج بالشربَّةِ وُقَّعُ[2]

فقال عبد الملك: لا أنعشهم الله، وأجاع أكبادهم، ولا أبقى وليدًا من نسلهم، فإنهم نسل كافر فاجر لا يبالي ما صنع، فقال عبد الله:

مال لهم ممّا يُضَنّ جمعته … يوم القَليبِ فحيزَ عنهمْ أَجْمَعُ

فقال له عبد الملك: لعلك أخذته من غير حلّه وأنفقته في غير حقّه، وأرصدت به لمشاقّة أولياء الله، وأعددته لمعاونة أعدائه، فنزعه منك إذا استظهرتَ به على معصية الله، فقال عبد الله:

أَدْنُو لترحَمني وتَجبُر فاقتي … فأراكَ تَدفَعُني، فأينَ المَدْفَع!

فتبسم عبد الملك وقال له: إلى النار! فمَن أنت؟ قال: أنا عبد الله بن الحجاج؛ وقد وطئت دارَك، وأكلت طعامَك، وأنشدتُك، فإن قتلتني بعد ذلك فأنت وما تراه، وأنت بما عليك في هذا عارف! ثم عاد إلى إنشاده فقال:

ضاقت ثياب الملبِسين وفضلهم … عنّي، فألبسني فثوبك أَوْسَعُ

فنبذ عبد الملك إليه رداءً كان على كتفه، وقال: البسه لا لبست! فالتحف به، ثم قال له عبد الملك: أولى لك! والله لقد طاولتك طمعًا في أن يقوم بعض

---

(١) حربه: سلب ماله، وأصيبية: تصغير صبية. (٢) الحجلى: حيوان، والشربة: موضع بنجد.

هؤلاء فيقتلك. فأبى الله ذلك، فلا تجاورني في بلد، وانصرف آمنًا، وأقم حيث شئت!

نُصيب عِندَ عَبد العَزيز بن مَروَان[١]

قال نُصَيْب: قلت الشعر وأنا شابّ فأعجبني قولي؛ فجعلت آتي مَشْيخة من بني ضَمْرة، ومَشْيخةً من خُزاعة، فأنشِدهم القصيدةَ من شعري، أَنْسُبُهَا إلى بعضِ شعرائهم الماضين فيقولون: أحسن والله! هكذا يكونُ الكلام! وهكذا يكون الشعر.

فلما سمعتُ ذلك منهم علمت أني مُحسِن؛ فأزمعوا وأزمعت الخروجَ إلى عبد العزيز بنِ مروان، وهو يومئذٍ بمصر؛ فقلت لأختى أُمَامة ـ وكانت عاقلةً جَلْدة: أي أُخَيَّة؛ إنّي قد قلتُ شعرًا، وأنا أريد عبد العزيز بنَ مروان، وأرجو أن يُعْتِقَك اللهُ به وأُمَّكِ ومَن كان مَرْقُوقًا من أهل قَرَابَتي.

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون! يا ابن أُمَّ، أتجتمع عليك الخَصْلتان: السوادُ، وأن تكون ضُحْكةً للناس! قلت: فاسمعي. فأنشدتها فسمعت، فقالت: بأبي أنت! أحسنت والله! في هذا رجاءٌ عظيم، فاخرُجْ على بركة الله.

فخرجت على قَعُودٍ لي حتى قدِمتُ المدينة فوجدت بها الفرزدق في مسجد رسول الله ﷺ، فعرَّجت إليه فقلت: أُنْشِدُهُ وأَسْتَنْشِدُهُ، وأعرِض عليه شعري. فأنشدته، فقال لي: ويلك! أهذا شعرك الذي تطلب به الملوك! قلت: نعم. قال: فلستَ في شيء. إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل! فانْفَضَخْتُ[٢] عرقًا!

فصحبني رجل من قريش كان قريبًا من الفرزدق، وقد سمع إنشادي، وسمع ما قالَ لي الفرزدق؛ فأومأ إليّ؛ فقمت إليه، فقال: ويحك! أهذا شعرُك الذي أنشدتَه الفرزدق؟ قلت: نعم. فقال: قد والله أصبتَ، ولئن كان هذا الفرزدق شاعرًا لقد حَسَدَكَ، فإنّا لنعرف محاسنَ الشعر؛ فامضِ لوجهك، ولا يكسرنّك.

فسرَّني قوله، وعلمت أنه قد صَدَقني فيما قال، فاعتزمتُ على المضيّ، فمضيت!

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٣٢٥ (طبعة دار الكتب). (٢) انفضخت عرقًا: تدفقت عرقًا.

فقدمت مصرَ وبها عبدُ العزيز بنُ مرْوان، فحضرتُ بابه مع الناس، فَنُحِّيتُ عن مجلس الوجوه، فكنتُ وراءهم، ورأيتُ رجلًا جاء على بغْلة، حسنَ الشّارة، سهل المدخل، يُؤْذَن له إذا جاء. فلما انصرف إلى منزله انصرفت معه أماشي بَغْلَتَه، فلما رآني قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم! أنا رجلٌ من أهل الحجاز، شاعر، وقد مدحتُ الأمير، وخرجتُ إليه راجيًا معروفَه، وقد ازدُريت فطردت من الباب، ونُحِّيتُ عن الوجوه. قال: فأنشِدني، فأنشدته، فأعجَبَه شعري، فقال: ويحك! أهذا شعرك؟ فإياك أن تَنتَحِل! فإن الأمير روايةٌ عالم بالشعر، وعندهُ رُواةٌ، فلا تَفْضَحْني ونفسَك، فقلت: والله ما هو إلا شعري. فقال: ويحك! فقل أبياتًا تذكر فيها حَوف[1] مصر وفضلَها على غيرها، والْقني بها غدًا.

فغدوت عليه من غد فأنشدته قولي:

سَرَى الهمُّ تَثْنيني إليك طلائِعُه ... بمصر وبالحَوْف اعترتْني روائعهْ
وبات وسادي ساعدٌ قلّ لحمه ... عن العظم حتى كاد تَبْدُو أشَاجِعُه[2]

قال: وذكرتُ فيها الغيث فقلت:

وكم دون ذاك العارض البارق الذي ... له اشْتَقْتُ من وجهِ أُسيلَ مَدَامعهْ
تمشّى به أفْناءُ[3] بكر ومذحجٍ ... وأفناء عمرو، وهو خِضْبٌ مرابعهْ
فكلُّ مسيلٍ من تهامةَ طيبٌ ... دميثُ الرُّبا تَسْقِي البحارَ دَوَافِعُه[4]
أَعِنّي على برق أُريك وميضَه ... تضيء دُجُنّاك الظلام لوامِعُه
إذا اكتحلتْ عينَا محبٍّ بضوئه ... تجافت به حتى الصباح مضاجعُه

فقال: أنت والله شاعر! احْضُرْ بالباب حتى أذْكُركَ للأمير.

قال: فجلستُ على الباب ودخل، فما ظننتُ أنه أمكنه أن يذكرني حتى دعا بي، فدخلت على عبد العزيز، فسلّمت، فصعّد فيّ بصره وصوَّبَ، ثم قال: أنت شاعر، ويلك! قلت: نعم أيها الأمير! قال: فأنشدني فأنشدته فأعجَبه شعري.

---

(١) الحوف: بمصر حوفان؛ الشرقي والغربي وهما متصلان.
(٢) الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.
(٣) أفناء بكر ومذحج: أخلاط الناس. (٤) الدوافع: مسايل الماء.

وجاء الحاجب فقال: أيها الأمير، هذا أيمن بن خُرَيم الأسدي بالباب. قال: ائذنْ له، فدخل فاطمأنّ، فقال له الأمير: يا أيمن، كم ترى ثمن هذا العبد؟ فنظر إليّ فقال: والله لنعم الغادي في أثَرِ المخاض[1]، هذا أيها الأمير؟ أرى ثمنه مائة دينار. فقال: فإن له شعرًا وفصاحة! فقال لي أيمن: أتقول الشعر؟ قلت: نعم. قال: قيمته ثلاثون دينارًا. قال: يا أيمن، أرْفَعُه وتخفضه أنت؟ قال: لكونه أحمق أيها الأمير، ما لهذا وللشعر؟ مثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعرًا؟ فقال: أنشده يا نصيب، فأنشدته.

فقال له عبد العزيز: كيف تسمع يا أيمن؟ قال: هو أشعر أهل جِلْدته. قال: هو والله أشعرُ منك. قال: أَمِنِّي أيها الأمير! قال: إي والله منك. قال: والله أيّها الأمير إنك لَمَلُولٌ طَرِفٌ[2]. قال: كذبت، والله ما أنا كذلك، ولو كنت كذلك ما صبرت عليك، تنازعني التحية، وتواكِلني الطعام، وتتّكيء على وسائدي وفرُشي، وبك ما بك! وكان بأيمن بياض.

قال: ائذن لي أن أخرج إلى بِشر بالعراق[3]، واحملني على البريد. قال: قد أذنت لك، وأمر به فحمل على البريد إلى بشر. فقال فيه يمدحه ويعرض بأخِيه عبد العزيز:

ركبتُ من المقطّم في جُمَادى ... إلى بشر بن مَرْوان البريدَا
ولو أعطاك بشرٌ ألف ألفٍ ... رأى حقًّا عليه أن يزيدَا
أميرَ المؤمنين أقم ببِشْرٍ ... عمودَ الحقّ إنّ له عمودَا
ودَعْ بشرًا يقوِّمُهمْ ويحدثْ ... لأهل الزيغ إسلامًا جديدَا
كأن التاجَ تاج بني هِرَقلٍ ... جَلوْهُ لأعظم الأيام عيدَا
على ديباجِ خدّيْ وجه بشرٍ ... إذا الألوان خالفتِ الخدودا[4]

قال: فأعطاه بشر مائة ألف درهم.

---

(١) المخاض: الحوامل من النوق، وهو يريد: لنعم هذا العبد يرعى الإبل.
(٢) يقال رجل طرف: إذا كان لا يثبت على عهد.
(٣) بشر بن مروان: أخو عبد العزيز بن مروان.
(٤) في قوله هذا يعرض بكلف كان بوجه عبد العزيز بن مروان.

سُليمَان بن عَبد الملك وسُميَّة[١]

أقْبَلَ على سليمان بنِ عبد الملك فتى من بني عبس، وَسِيمٌ: فأعجبه، فقال: ما اسمك؟ قال: سليمان، قال: ابنُ مَنْ؟ قال: ابنُ عبد الملك! فأعرض عنه؛ وجعل يُفْرِضُ لِمَنْ دونه، فعلم الفتى أنه كره موافَقة اسمه واسم أبيه.

فقال: يا أمير المؤمنين، لا عدمتَ اسْمَك، ولا شقى اسمٌ يوافق اسمَك، فارْضَ؛ فإنما أنا سيفٌ بيدك، إن ضرَبْتَ به قطعْتَ، وإن أمرْتَني أَطَعْتُ؛ وسهمٌ في كنانتك أشتدُّ إن أُرسلتُ، وأنفُذُ حيث وجُهت.

فقال له سليمان وهو يختبره: ما قولك يا فتى لو لقيتَ عدوًا؟ قال: أقول: حسبي الله ونعم الوكيل! قال سليمان: أكنتَ مكتفيًا بهذا لو لقيت عدوَّك دون ضربٍ شديد؟

قال الفتى: إنما سألتَني يا أمير المؤمنين: ما أنت قائل؟ فأخبرتُك، ولو سألتني: ما أنت فاعل؛ لأنبأتُك، إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيفِ حتى يتعقَّف، ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصَّف!

فأعْجب به سليمان وألْحقَه في العطاء بالأشْراف، وتمثل:

إذا ما اتَّقى اللهَ الفتى ثم لم يكن ... على قومه كَلًّا فقد كمل الفتى

عَقيد النَّـدى[٢]

قال الحارث بن سليمان: شهدت مجلس أمير المؤمنين سليمانَ بنِ عبد الملك، وأتاه سعيدُ بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أتيتُك مُسْتَعْدِيًا. قال: ومَنْ بكَ؟ قال: موسى شَهَوَات. قال: وماله؟ قال: سَمَّعَ بي، واستطال في عِرْضي.

فقال: يا غلام؛ عليَّ بموسى، فأْتِنِي به، فأُتِيَ به، فقال: ويلك! أَسمَّعْتَ به واستَطَلْتَ في عِرْضِهِ؟ قال: ما فعلتُ يا أمير المؤمنين، ولكنِّي مدحتُ ابنَ عمه فغضب هو.

---

(١) ابن أبي الحديد: ١ ـ ٣٢٢.

(٢) الأغاني ٣:٣٥٣ (طبعة دار الكتب).

قال: وكيف ذلك؟ قال: أردتُ شراءَ جاريةٍ لم يبلغ ثمنها جِدَتِي، فأتيتُه وهو صديق، فشكوتُ إليه ذلك، فلم أصب عنده شيئًا، فأتيتُ ابنَ عمه سعيدَ بن خالد، فشكوت إليه ما شكوتُه إلى هذا. فقال: تَعُودُ إليَّ؛ فتركته ثلاثًا ثم أتيتُه، فَسَهَّلَ مِنْ إذْني، فلما استقرّ بي المجلس قال: يا غلام؛ قل لقَيِّمي: هاتِ ودِيعَتي.

فَفَتَحَ بابًا بَيْنَ بَيْتَيْنِ، وإذا بجارية، فقال لي: أهذِه بُغْيَتُك؟ قلت: نعم، فِدَاكَ أبي وأُمي! قال: اجلس. ثم قال: يا غلام؟ قل لقيِّمتي: هاتي ظَبْيَة[١] نَفَقتي، فَأُتِيَ بظَبْيَة، فنُثِرَتْ بين يديه، فإذا مائةُ دينار، فَرُدَّتْ في الظَّبْيَةِ. ثم قال: عتيدَةَ طيبى[٢]، فأُتيَ بها؛ ثم قال: مِلْحَفَةَ[٣] فراشي، فأُتيَ بها؛ فصيَّرَ ما في الظبية وما في العتيدة في حواشي المِلحفة، ثم قال: شأنك بالجارية واستعن بهذا.

فقال له سليمان بن عبد الملك: فذلك حين تقولُ ماذا؟ قال: قلت:

أبـا خـالـدٍ - أَغْـنِـي سـعـيـد بـن خـالـد
أخـا الـعُـرف، لا أعـنـي ابـنَ بـنـت سـعـيـدِ
ولـكـنـنـي أَعْـنِـي ابـنَ عـائـشـةَ الـذي
أَبُـو أبـويـه خـالـدُ بـن أَسِـيـدِ
عـقـيـدُ[٤] الـنـدى مـا عـاش يـرضَـى بـه الـنـدى
فـإن مـات لـم يـرضَ الـنـدى بـعَـقِـيـد
دَعُـوهُ دعـوه إنـكـم قـد رقـدْتُـمُ
ومـا هـو عـن أحـسـابـكـم بـرَقُـودِ
قَـتَـلْتَ أنـاسًـا هـكـذا فـي جـلودهـم
مـن الـغـيـظ لـم تـقـتـلهـمُ بـحـديـدِ

فقال سليمان: عليَّ يا غلام بسعيد بن خالد، فأُتِيَ به، فقال: أَحَقٌّ ما وصفك به موسى؟ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فأعاد عليه. فقال: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فما طوَّقَتْكَ هذه الأفعال؟ قال: دَيْن ثلاثين ألف

(١) الظبية هنا: جراب صغير من جلد ظبي.
(٢) العتيدة: الحقة يكون فيها طيب الرجل أو العروس.
(٣) الملحفة: الملاءة.
(٤) عقيد الندى: حليف الكرم.

دينار. فقال له: قد أمرت لك بمثلها وبمثلها وبثلث مثلها، فحملت إليه مائة ألف دينار.

قال الحارث: فلقيت سعيدَ بن خالد بعد ذلك فقلت له: ما فعل المال الذي وصلك به سليمان؟ قال: ما أصبحتُ والله أَمْلِكُ منه إلا خمسين دينارًا. قلتُ: ما اغْتَاله! قال: خَلَّةٌ(١) من صديق، أو فَاقةٌ من ذي رَحِم.

إيجَاز فِي المقَال وَبلَاغَة فِي البَيَان(٢)

قال سُفْيان القرشي: كنا عند هشام بن عبد الملك، وقد وفد عليه وفدُ أهل الحجاز ـ وكان شباب الكتَّاب إذا قدم الوفد حضروا لاسْتماع بلاغةِ خطبائهم ـ فحضرتُ كلامَهم.

وكان محمد بن أبي الجَهْم أعظمَ القوم قدرًا، وأكبرَهم سنًا، وأفضلَهم رأيًا وحلمًا؛ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين! إنّ خطباءَ قريش قد قالت فيك ما قالت، وأكثرت وأطنبتْ، والله ما بلغ قائلُهم قدرَك، ولا أحصَى خطيبُهم فضلَك، وإن أذنتَ في القول قلت. قال: تكلّم، قال: أفأُوجز أم أطنب؟ قال: بل أَوْجِزْ.

قال: تولّاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزيَّنك بالتَّقْوى، وجَمَع لك خيرَ الآخرة والأولى، إنّ لي حوائجَ أفأذكرها؟ قال: هاتِها، قال: كَبِرَتْ سنّي، ونالَ الدهرُ منّي، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يَجْبُر كَسْرِي، وينفي فَقْري فعل!

قال: وما الذي ينفِي فقرَك، ويجبُر كسرَك! قال: ألفُ دينار، وألفُ دينار، وألفُ دينار!

فأطرق هشام طويلًا، ثم قال: هيهات يا ابنَ أبي الجَهْم! بيت المال لا يحتملُ ما ذكرت، فقال: إن الله آثرك لمجلسك، فإن تعطِنا فَحقًّا أدَّيت، وإن تمنعْنا فنسأل الذي بيده ما حويت يا أمير المؤمنين. إنّ الله جعل العطاء محبّة، والمنع مَبْغَضَة؛ والله لأنْ أُحِبّك أحبُّ إليّ من أن أُبغِضَك!

قال: فألف دينار لماذا؟ قال: أقضي بها دينًا فَدَحَنِي(٣) قضاؤه، وقد عنَّانِي حَمْلُه، وأضرَّ بي أهلُه. قال: فلا بأس؛ تُنَفِّس كُرْبة، وتؤدي أمانة. وألفُ دينار

(١) الخلة: الحاجة والفقر.

(٢) العقد الفريد: ٣ ـ ١٨٦، الأمالي: ١ ـ ١٤٧، صبح الأعشى: ١ ـ ٢٦٤.

(٣) فدحني: أثقلني.

لماذا؟ قال: أزوِّج بها مَن أدرَك من ولدي. قال: نِعْمَ المسلكُ سلكتَ، أغْضضْت بصرًا، وأعففت وَلدًا، ورفعت نسلًا. وألف دينار لماذا؟ قال: اشترى بها أرضًا يعيش بها ولَدي، وأستعين بفضلها على نوائب دهري، وتكون ذُخْرًا لمن بقي بعدي.

قال: فإنّا قد أمرنا لك بما سألت. قال: فالمحمود الله على ذلك، وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحم خيرًا! ثم خرج.

فأتبعه هشام بصره، وقال: تالله ما رأيت رجلًا ألطفَ في سؤال، ولا أرفق في مقال من هذا، هكذا فليكن القرشيّ. أما والله إنّا لنعرف الحقّ إذا نَزَل، ونكرهُ الإسراف والبَخَل، وما نعطِي تبذيرًا، ولا نمنع تقتيرًا، وما نحن إلا خُزّانُ الله في بلاده، وأُمناؤه على عباده، فإذا أَذِن أعطينا، وإذا منع أبَيْنَا، ولو كان كل قائل يَصْدُق، وكلّ سائل يستحق، ما جَبَهنا[1] قائلًا، ولا رَدَدْنا سائلًا، ونسأل الذي بيده ما استحفظَنا أن يُجريه على أيدينا، فإنّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويَقدِر[2]؛ إنه كانَ بعباده خبيرًا بصيرًا! فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ لقد تكلّمت فأبلغت، وما بلغ في كلامه ما قَصَصْت؛ قال: إنه مبتلًى، وليس المبتلَى كالمُعتَلِي!

هَذا الذي تعرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأَتَه[3]

حجّ هِشامُ بن عبد الملك في خلافة الوليد أخيه، ومعه رؤساءُ أهلِ الشام، فجهِد أن يستلِم الحجر، فلم يقدر من ازدحام الناس، فنُصب له منبر فجلسَ عليه ينظر إلى الناس، وأقبل عليُّ بن الحسين ـ وهو أحسنُ الناسِ وجهًا، وأنظفُهم ثوبًا، وأطيبهم رائحة ـ فطاف بالبيت، فلما بلغ الحجر الأسود تنحّى الناسُ كلُّهم، وأخلَوْا له الحجر ليستلمه هيبَةً وإجلالًا.

فغاظ ذلك هشامًا، وبلغ منه، فقال رجل لهشام: مَنْ هذا أصلح الله الأمير! قال: لا أعرفه ـ وكان به عارفًا ـ ولكنه خاف أن يَرْغَبَ فيه أهل الشام، ويسمعوا منه، فقال الفرزدق ـ وكان لذلك كله حاضرًا: أنا أعرفه، فسلني يا شاميّ. قال:

---

(١) جبهه: لقيه بما يكره. (٢) يقدر: يقسم.

(٣) الأغاني: ١٤ ـ ٧٥ (طبع الساسي)، المحاسن والمساوىء: ٣٢١ (طبع ليبزج).

ومَن هو؟ قال:

هذا الّذي تعرف البَطْحَاءُ[١] وَطْأَتَهُ والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهمُ هذا التقيُّ النقيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلها: إلى مكارمِ هذا ينتهي الكرمُ
يكادُ يُمسكُه عِرفَانَ[٢] راحته رُكْنُ الحَطيم[٣] إذا ما جاءَ يستَلِمُ
فليس قولك: مَن هذا بضائره العُرْب تعرفُ مَن أنكرتَ والعجَمُ

فحبسه هشام فقال في حبسه:

أتحبسني بين المدينة والَّتي إليها قلوب الناس يهوى منيبُها!
يقلّبُ رأسًا لم يكُنْ رأس سيِّدٍ وعينًا له حولاء بادٍ عيوبُها

فبعث إليه هشام فأخرجه، ووجّه إليه عليُّ بن الحسين عشرة آلاف درهم، وقال: اعذِر يا أبا فراس، فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثرُ من هذا لوصلناك به، فردّها، وقال: ما قلتُ ما كان إلا لله، وما كنتُ لأرْزَأ[٤] عليه شيئًا، فقال له عليّ: نحن أهل بيت إذا أنفذنا شيئًا ما نرجع فيه.

وَاعِظُ المُلُوك[٥]

قال خالد بن صفوان بن الأهتم: أوفدني يوسفُ بن عمرَ الثقفي إلى هشام بن عبد الملك في وفد أهل العراق فقدِمتُ عليه، وقد خرج بقَرابته وحَشمه وغاشِيته[٦] وجلسائه، فنزل في أرض قاع صَحْصَح[٧]، تنائف أفْيَح[٨]، في عام قد بكر وسْمِيُّه، وتتابع وَلِيُّه[٩]، وأخذَت الأرض فيه زينتها على اختلاف ألوان نَبتِها؛ من

(١) البطحاء: مسيل واسع فيه دقاق الحصى. (٢) عرفان: منصوب على أنه مفعول له.
(٣) الحطيم: حجر الكعبة أو جدارها، أو ما بين الركن وزمزم والمقام.
(٤) رزأه ماله: أصاب من ماله شيئًا.
(٥) الأغاني: ٢ ـ ١٥٣ (طبعة دار الكتب). معجم الأدباء: ١١ ـ ٢٧.
(٦) غاشية الرجل: مَن ينتابه من زواره وأصدقائه.
(٧) القاع الصحصح: الأرض الجرداء المستوية، والتنائف: جمع تنوفة، وهي أرض لا أنيس بها ولا ماء.
(٨) الأفيح: الواسع.
(٩) الوسمي: مطر الربيع الأول، والولي: المطر الذي يلي الوسمي.

نَوْرِ رَبيعٍ مُونِق(١)، فهو في أحسن منظر ومَخْبَر، وأحسن مُسْتَمطَر، بصَعِيد(٢) كأن ترابه قطَعُ الكافور. وقد ضُرب له سُرادِق من حِبَرٍ(٣)، كانَ يوسفُ بن عمَرَ صنعه له باليمن، فيه فُسْطَاطٌ فيه أربعة أفرشةٍ من خَزٍّ أحمر، مِثلُها مَرافِقُها، وعليه دُرَّاعة(٤) من خزّ أحمرَ مِثلُها عمامَتُها، وقد أخذ الناس مجالسهم.

فأخرجت رأسي من ناحية السّماط(٥)، فنظر إليّ شِبْهَ المُستَنطق لي! فقلت: أتمّ الله عليك يا أمير المؤمنين نِعمه، وجعل ما قلّدك من هذا الأمر رُشْدًا، وعاقبةَ ما يَؤُول إليهِ حَمْدًا؛ وأَخْلَصَه لك بالتُّقى؛ وكثّره لك بالنماء، ولا كدّرَ عليك منه ما صَفَا، ولا خالَطَ سرورَه بالرَّدى، فقد أصبحتَ للمسلمين ثِقَة، إليك يَقصدون في أمورهم، ويفزَعُون في مظالمهم، وما أجدُ شيئًا ـ يا أمير المؤمنين ـ هو أبلغُ في قضاء حقِّك وتوقِير مجلسك، وما منَّ الله عليّ به من مُجَالستِك، من أن أُذَكِّرَك نِعَمَ اللهِ عليك، وأنبّهكَ لشُكْرِها؛ وما أجد في ذلك شيئًا هو أبلغُ من حديث من سَلَف قبلَك من الملوك؛ فإن أذِن أمير المؤمنين أخبرته به.

فاسْتَوى هشامٌ جالسًا ـ وكان مُتّكئًا ـ ثم قال: هات يا ابن الأهتم! فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن مَلِكًا من الملوك قبلَك خرج في عامٍ مثل عامك هذا إلى الخوَرْنَق والسَّدِير(٦) في عام قد بَكَر وَسْمِيُّه، وتتابَع وَلِيُّه، فهو في أحسنِ مَنْظر، وأحسن مُستمطر، بصعيد كأن ترابه قطع الكافور، وكان قد أُعْطِيَ فتَاء(٧) السنّ، مع الكثْرة والغلبة والقَهْر، فنَظَرَ فأبْعَدَ النظر؛ ثم قال لجلسائه: لمَن هذا؟ هل رأيتم مثلَ ما أنا فيه؟ وهل أحدٌ أُعْطِي مثلَ ما أعطيت؟

وكان عنده رجل من بقايا حَمَلة الحُجّة(٨)، والمضيّ على أدبِ الحقّ ومناهجه ـ ولم تخلُ الأرض من قائم لله بالحجة في عباده ـ فقال: أيّها الملك؛ إنّك سألت عن أمرٍ، أفتأذنُ لي في الجواب عنه؟ قال: نعم، قال: أرأيت(٩) هذا الذي أنتَ فيه أشيءٌ لم تَزَلْ فيه، أم شيءٌ صار إليك ميراثًا وهو زائلٌ عنك وصائرٌ

(١) مونق: معجب. (٢) الصعيد: التراب أو وجه الأرض.
(٣) الحبر: جمع الحبرة، وهي نوع منسوج من اليمن فيه نقط.
(٤) الدراعة: الثوب المشقوق من الأمام.
(٥) السماط: جمع سمط، وهو الصف من الناس وغيرهم.
(٦) الخورنق والسدير: قصران بالحيرة. (٧) الفتاء: الشباب.
(٨) الحجة: البرهان. (٩) أرأيت: أخبرني.

إلى غيرك، كما صار إليك من لَدُنْ غيرك؟ قال: كذلك هو! قال: فما أراك إلا أُعجبتَ بشيءٍ يسيرٍ تكونُ فيه قليلًا، ويغيبُ عنك طويلًا، وتكون غدًا بحسابه مُرتهَنًا. قال: ويحك! فأين المَهرَبُ؟ وأيْنَ المطلَب؟ فقال: إمّا أن تقيم في مُلْكِك فتعملَ بطاعة الله ربّك على ما ساءك وسرَّك، وأمضّك[١] وأرْمَضك[٢]، وإمّا أن تضعَ تاجَك، وتخلع أطْمارَك[٣]، وتلبَس أمسَاحك[٤]، وتعبد ربّك، حتى يأتيَك أجلُك!

قال الملك: فإذا كان السَّحَر فاقرَع عليَّ بابي؛ فإني مُختَارٌ أحَدَ الرأيين، فإن اخترتُ ما أنا فيه كنتَ وزيرًا لا يُعْصَى، وإن اخترتُ فَلَوَاتِ الأرض وقَفْرَ البلاد كنتَ رفيقًا لا يخالف.

فلما كان السحر قرع عليه بَابَه، فإذا هو قد وضع تاجَه، وخلع أَطْمَارَه، ولبس أمْساحه، وتهيأ للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما، فذلك حيث يقول عدي بن زيد، أخو بني تميم:

أيُّها الشامتُ المعيِّر بالدهـ ـرِ أأنتَ المُبرَّأُ الموفُور!
أم لديكَ العهد الوثيق من الأيّـ ـامِ بل أنتَ جاهل مغرور!
مَن رأيتَ المنونَ خلدْنَ أمْ مَنْ ذا عليه من أن يُضَام خفير!
أين كسرى، كسرى الملوك أنو شِرْ وَان، أم أين قبله سابُورُ!
وبنو الأصفَر الكرامُ ملوك الرّ وم، ولم يبقَ منهمُ مَذكُورُ
وأخو الحضرِ[٥] إذا بناهُ وإذ دجـ ـلةُ تُجْبَى إليه والخابورُ[٦]
شاده مزمرًا وجلّله كِلْـ ـسًا[٧] فللطيْرِ في ذرَاه وكُورُ
لم يهبهُ رَيْبُ المنون فباد الْـ ـمُلك عنه، فبابهُ مهجورُ
وتذكّرْ ربّ الخورنَقِ إذْ أشْـ ـرف يومًا وللهُدَى[٨] تفكيرُ

(١) يقال أمضني: أحرقني وشق عليّ. (٢) أرمضك: أوجعك.
(٣) الطمر: الثوب الخلق.
(٤) المسح: الكساء من الشعر الغليظ ويجمع على أمساح على قلة.
(٥) الحضر: قصر بجبال تكريت بين دجلة والفرات بناه الضيزن بن معاوية، ملك الجزيرة.
(٦) الخابور: نهر بالجزيرة. (٧) الكلس: ما يدهن به النزل وغيرها.
(٨) يريد بهذه الجملة: أن التفكير طريق الهدى.

سـرَّهُ مـالُه وكـثـرةُ مـا يـمـ ـلكُ والبحرُ مُعْرِضًا[1] والسديرُ
فـارعـوَى قـلبُه فـقـال: ومـا غِبْـ ـطَةُ حيٍّ إلى الممـاتِ يصيرُ!
ثم بعد الفلاحِ والملك والإمّـ ـةِ[2] وَرَاتْـهُـمُ هُـنـاك الـقـبـورُ
ثـم صـاروا كـأنـهـم ورقٌ جَـفَّ فـألـوَتْ[3] بـه الصَّبَا والدَّبُورُ

فبكى هشام حتى اخضلَّتْ[4] لحيته، وبُلَّتْ عمامته، وأمر بنَزْع أبنيته، ونقل قَرَابته وحَشَمِه وغاشيته وجلسائه، ولزِمَ قصره.

فأقبلت الموالي والحشم عليّ فقالوا: ما أردتَ بأمير المؤمنين! أفسدتَ عليه لذَّته، ونَغَّصْتَ عليه مَأْدُبته. فقلت: إليكم عني، فإني عاهدت الله عزّ وجلّ ألا أخلُوَ بملك إلا ذكّرته الله عزّ وجلّ!

إنَّ خَالِدًا أدلّ فأملّ[5]

قال خالد بن صفوان: دخلتُ على هشام بن عبد الملك، وذلك بعد عزْله خالدَ بن عبدِ الله القسْريّ، فألفيتُه جالسًا على كرسيّ في بِرْكَةٍ، ماؤها إلى الكعبين، فدعا لي بكُرْسيٍّ فجلستُ عليه، فقال: يا خالد؛ ربَّ خالدٍ جلسَ مجلسك، كان أَلْوَط بقلبي، وأحبَّ إليّ!

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن حِلْمك لا يضيقُ عنه، فلو صفحتَ عن جُرْمه! فقال: إن خالدًا أدلّ فأملّ، وأوْجفَ فأجْحف، ولم يَدَع لراجع مَرْجعًا، ولا لعودةٍ موضعًا، ثم قال: ألا أخبرُك عنه يا ابنَ صفْوان؟ قلت: نعم، قال: إنه ما بَدَأني بسؤال حاجةٍ قطُّ مذ قَدِمَ العراق حتى أكونَ أنا الذي أبدؤه بها فقلت: فذاك أحْرَى أن تَرْجعَ إليه، فقال متمثّلًا:

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيءِ لم تكَدْ إليـهِ بـوجـهٍ آخـرَ الـدّهْـرِ تـقْـبـلُ

قال خالد: ثم قال لي هشام: حاجتَك، فقلت: تزيدُني في عطائي عشرة دنانير. فأطرَق ثم قال: ولم؟ وفيم؟ ألعبادةٍ أحدثتَها فنعينَك عليها، أم لبلاء حسن أبليتَه عند أمير المؤمنين، أم لماذا يا ابن صفوان! إذن يكثُر السؤّال ولا يحتملُ

---

(١) معرضًا: متسعًا.
(٢) الإمة: العمة.
(٣) ألوت: ذهبت.
(٤) أخضلت: ابتلت.
(٥) أمالي المرتضى: ٤ ـ ١٧٢.

ذلك بيتُ المال! فقلت: يا أمير المؤمنين، وفّقك الله وسدّدك، أنت والله كما قال أخو خُزاعة:

إذا المال لم يوجبْ عليك عطاءَهُ ... قرابةُ قُربَى أو صديقٌ توافِقُه
مَنعتَ وبعضُ المنع حَزْمٌ وقوّةٌ ... ولم يفتلتْك[1] المالَ إلا حقائقُه

فلما قَدِمَ خالد البصرة، قيل له: ما الذي حملك على تزيين الإمساك له؟ فقال: أحببتُ أن يمنَع غيري فيكثرَ مَنْ يلومُه!

أبو النجم عِندَ هِشَام بنَ عَبد المَلك[2]

ورد أبو النّجم[3] على هشام بن عبد الملك في الشعراء، فقال لهم هشام: صفوا لي إبلًا فَقَطِّروها[4] وأوْرِدوها وأصْدِروها؛ حتى كأني أنظر إليها؛ فأنشدوه، وأنشده أبو النجم:

الحمدُ لله الوَهُوبِ الْمُجْزِلِ

حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال: «وهي على الأفق كعين...» وأراد أن يقول: «الأحول»، ثم ذكر حَوْلَةَ هشام؛ فلم يتمَ البيت وأرْتج عليه.

فقال هشام: أَجِزِ البيت؛ فقال: «كعين الأحول» وأتمّ القصيدة، فأمر هشام فَوُجِيء[5] عنقه، وأُخْرج من الرُّصافة؛ وقال لصاحب شرطته: يا ربيع؛ إيّاك وأن أرى هذا! فكلّم وجوهُ الناس صاحب الشرطة أن يقرَّه ففعل.

قال أبو النجم: ولم يكن أحدٌ بالرُّصافة يُضِيف إلا سُلَيم بن كَيْسان الكلبيّ وعَمْرو بن بِسْطام التّغلبيّ، فكنتُ إتي سُلَيمًا فأتغدّى عنده، وآتي عمرًا فأتعشّى عنده، وآتي المسجد فأبيت فيه.

قال: فاهتمّ هشام ليلةً، وأمسى لَقِسَ النفس، وأراد محدّثًا يحدّثه؛ فقال لخادم له: ابغِني محدّثًا أعرابيًا شاعرًا يروي الشعر.

---

(١) افتلت الشيء: أخذته في سرعة، ويتعدى إلى مفعولين.
(٢) الأغاني: ١٠ ـ ١٥٥ (طبعة دار الكتب)، رغبة الآمل: ٦ ـ ٢٣٩.
(٣) اسمه الفضل بن قدامة أحد رجال الإسلام الفحول المقدمين، وفي الطبقة الأولى منهم.
(٤) قطر الإبل: قرب بعضها من بعض على نسق.
(٥) وجيء: وجأه باليد وبالسكين إذا ضربه.

فخرج الخادم إلى المسجد فإذا هو بأبي النَّجم، فضربه برجله، وقال له: قم أجب أمير المؤمنين. قال: إني رجل أعرابي غريب. قال: إيّاك أبغي، فهل تروي الشعر؟ قال: نعم، وأقوله.

فأقبل به حتى أدخله القصر، وأغلق الباب، فأيقن بالشر، ثم مضى به، فأدخله على هشام في بيت صغير، والشمع بين يديه يَزْهَر(١).

فلما دخل قال له هشام: أبو النجم؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين طريدك! قال: اجلسْ، فسأله وقال له: أين كنت تأوي؟ ومَن كان يُنزلك؟ فأخبره الخبر. قال: وكيف اجتمعا لك؟ قال: كنت أتغدّى عند هذا، وأتعشّى عند هذا. قال: وأين كنت تبيت؟ قال: في المسجد حيث وجدني رسولك. قال: وما لك من الولد والمال؟ قال: أمّا المال فلا مال لي، وأما الولد فلي ثلاث بنات وبُنَيّ يقال له: شَيْبان.

فقال: هل زوّجْت من بناتك أحدًا؟ قال: نعم؛ زوّجت اثنتين، وبقيت واحدة تَجْمِزُ(٢) في أبياتنا كأنها نعامة.

قال: وما وصيت به الأولى؟ فقال:

أوْصَيْتُ من بَرَّةَ(٣) قلبًا حُرًّا ... بالْكَلْبِ خيرًا والحماةِ شَرًّا
لا تَسْأَمِي ضَرْبًا لها وَجَرًّا ... حتى ترى حُلْوَ الحياةِ مُرًّا
وإن كَسَتْكِ ذَهَبًا ودُرًّا ... والحيّ عُمّيهم بشرّ طُرًّا

فضحك هشام، وقال: فما قلت للأخرى؟ قال: قلت:

سُبّي الحماةَ وابهتِي(٤) عليها ... وإن دَنَتْ فازْدَلِفِي إليها
وأوجعي بالفِهْرِ(٥) ركبتيها ... ومِرْفقيْهَا واضربي جَنْبَيْهَا
وظاهري النُّذْرَ لها عليها ... لا تخبري الدّهرَ به ابنتيْهَا

قال: فضحك هشام حتى بدت نواجِذُه، وسقط على قَفَاه. فقال: ويحك! ما هذه وصية يعقوب ولدَه! فقال: وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين. قال: فما

(١) يزهر: يتلألأ.
(٢) تجمز: تعدو وتسرع.
(٣) كان اسمها برة.
(٤) بهته: قذفه بالباطل، وقال عليه ما لم يفعل.
(٥) الفهر: الحجر يملأ الكف.

قلت للثالثة؟ قال: قلت:

أوصيكِ يا بنتي فإني ذاهبُ أوصيكِ أن تَحْمَدَكِ القرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريمُ الساغِبُ لا يرجعُ المسكينُ وهو خائبُ
ولا تني أظفارُك السَّلَاهب[1] منهنّ في وجه الحماة كاتبُ
والزّوجَ إن الزّوج بئس الصاحبُ

قال: فكيف قلت لها هذا ولم تتزوج؟ وأي شيء قلت في تأخير تزويجها!
قال: قلت فيها:

كأن ظلَّامَة أُختَ شَيْبَانْ يتيمةٌ ووالداها حَيَّانْ
الرأسُ قملٌ كلُّه وصِئْبَانْ[2] وليس في الرجلين إلا خَيطَانْ
فهي التي يُذْعَرُ منها الشّيطانْ

فقال هشام لحاجبه: ما فعلتِ الدنانيرُ المختومةُ التي أمرتُك بقبضها! قال: هي عندي، ووزنها خَمْسمائة! قال: فادفعها إلى أبي النجم؛ ليجعلها في رجْلَيْ ظَلَّامةَ مكان الخيطين!

لَا يعرَف الكلَام إلّا بنَشرِهِ[3]

قحطت البادية في أيام هشامِ بن عبد الملك، فقدمت العرب من أحياء القبائل، فجلس هشام لرؤسائهم فدخلوا عليه، وفيهم دِرْوَاس بن حبيب وله أربع عشرة سنة، عليه شَمْلتان وله ذؤابه. فأحْجَم القومُ وهابوا هشامًا، ووقعت عينُ هشام على دِرْوَاس فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاء أحدٌ أنْ يَصِل إليَّ إلا وصل حتى الصبيان!

فعلم درواس أنه يريده، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن دخولي لم يُخِل بك شيئًا، ولقد شرَّفني، وإن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه، وإن الكلامَ نَشْر، والسكوت طيّ، ولا يعرف الكلام إلا بنشره. فقال هشام: فانْشر لا أن لك!! وأعجبه كلامه.

---

(١) السلاهب: الطويلة.
(٢) الصئبان: جمع الصؤابة وهي: بسنة القمل؛ جمعه صئبان.
(٣) لباب الآداب: ٣٥٣.

فقال: أصابتنا ثلاث سنين، فَسَنَةٌ أذابت الشَّحم. وسنة أكلت اللحم، وسنة نَقَت[١] العظم، وفي أيديكم فضول أموال؛ إن كانت لله ففرّقوها على عباده المستحقين لها، وإن كانتْ لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يُضيع أجرَ المحسنين. واعلم يا أمير المؤمنين أن الواليَ من الرعية كالروح من الجسد، لا حياة إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذرًا. وأمر أن يقسَّم في باديته مائة ألف درهم، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم. فقال: يا أمير المؤمنين؛ ارددها إلى أعطية أهل باديتي فإني أكره أن يعجِز ما أمر لهم به أميرُ المؤمنين عن كفايتهم. قال: فما لك من حاجة تذكرها لنفسك؟ قال: ما لي من حاجة دون عامة المسلمين!!

ولما عاد درواس إلى منزله بعثَ إليه هشام بمائةِ ألف درهم، ففرقها في تسعة أبطن من العرب، لكل بطن عشرة آلاف، وأخذ هو عشرة آلاف، فقال هشام: إن الصنيعة عند درواس لتضعف على سائر الصنائع[٢].

أنجحت وَفادتك وَوجبَتْ ضِيَافتك[٣]

وفد سعدُ بن مرة بن جُبَير ـ وكان شاعرًا ـ على الوليد بن يزيد، فعرض له في يوم من أيامِ الربيع، وقد خرج إلى متنزَّهٍ له، فصاح به: يا أمير المؤمنين؛ وَافِدُكَ وزائرك ومؤمِّلُك! فَتَبَادَرَ إليه الحرس ليصدّوه عنه، فقال: دعوه، ادْنُ إليّ. فدنا إليه، فقال: مَن أنت؟ قال: أنا رجلٌ من أهل الحجازِ، شاعر، قال: تريد ماذا؟ قال: تسمع مني أربع أبيات، قال: هاتِ؛ فقال:

شِمْنَ[٤] المَخَايِلَ نحوَ أرْضِك بالحيَا[٥]
ولَقِينَ ركبانًا بعُرْفِك قُفَّلَا

---

(١) النقي: مخ العظام وشحمها، ونقى العظم: استخرج نقيه.
(٢) جمع صنيعة، وهي المعروف والإحسان. (٣) الأغاني: ٧ ـ ٢٤ (طبعة دار الكتب).
(٤) شمت مخايل الشيء: إذا تطلعت نحوه ببصرك منتظرًا له.
(٥) الحيا: الخصب والمطر.

قال: ثم مَهْ؟ قال:

فعمَدْن نحوكَ لم يُنَخْنَ لِحَاجةٍ		إلا وقوعَ الطير حتى ترْحلا

قال: إن هذا السيرَ حثيث، ثم ماذا؟ قال:

يعمِدْن نحو موطِّيءِ حجراتِه		كرمًا، ولم تعدِل بذلك مَعْدِلَا

قال: قد وصلت إليه فمه؟ قال:

لاحت لها نيرانُ حَيّيْ قَسْطَلٍ		فاختَرْنَ نَارك في المنازل منزلا

قال: فهل غيرُ هذا؟ قال: لا، قال: أنجحتْ وفادتُك، ووجَبَتْ ضيافتك، أعطوه أربعة آلاف دينار، فقبضها وَرَحَل!

شَاعر بَنِي هَاشِم(١)

لمّا قال الكُميت بن زيد الأسديّ الهاشميات قدم البصرة، فأتى الفرزدق، فقال: يا أبا فِراس؛ إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك! قال: ومَن أنتَ؟ فانتَسب له. فقال: صدقتَ، فما حاجتك؟ قال: نُفِثَ عَلَى لساني، فقلتُ شعرًا، وأحببتُ أن أعرضَ عليك ما قلتَ، فإن كان حسنًا أمرْتَنِي بإذاعته، وإن كان غيرَ ذلك أمرتني بسَتْره، وسترتَه عليّ. فقال: يا ابن أخي؛ أحسب شعرك على قَدْر عقلك، فهاتِ ما قلتَ راشدًا، فأنشده:

طربتُ ـ وما شوقًا إلى البيض أطرَبُ		وما لعبًا منّي، وذو الشيب يَلْعَبُ!

قال: بلى؛ فإنك في أوان اللعب فالْعَبْ. فقال:

ولم يُلْهِنِي دار ولا رسمُ مَنْزِلٍ		ولم يَتَطَرَّبْني بنانٌ مُخَضَّبُ

قال: فما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

وما أنا ممن يزجرُ الطَّيرَ هَمُّه		أصاحَ غرابٌ أم تعرَّض ثعلبُ

قال: فما أنت؟ ويحك! وإلى مَن تَسْمُو؟ فقال:

ولا السانحاتُ(٢) البارحات عشيّةً		أمرّ سليمُ القرنِ أو مَرَّ أعضَبُ

---

(١) خزانة الأدب: ٤ ـ ٢٣٧ (الطبعة الأميرية)، المسعودي: ٢ ـ ١٩٠.

(٢) السانح: ما ولاك ميامه، والبارح: ما ولاك مياسره، وكان أهل نجد يتيمنون بالأول ويتشاءمون بالثاني، وأهل العالية على العكس. والأعضب: الثور المكسور القرن، وكانوا يتشاءمون به.

قال: أمَّا هذا فقد أحسنتَ فيه، فقال:

ولكن إلى أهلِ الفضائل والنُّهَى وخيرِ بني حوَّاء والخيرُ يُطْلب

قال: مَن هم! ويْحَك! قال:

إلى النَّفَرِ البيض[1] الذين بحبِّهم إلى اللهِ فيما نابني أتقرّبُ

قال: أرحْنِي؛ ويحك! مَنْ هؤلاء؟ قال:

بني هاشمٍ رَهْطِ[2] النبيّ فإنني بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضب

قال: لله درُّ بني أبيك! أصَبْتَ وأحسنت؛ إذْ عدلت عن الزعانف والأوباش؛ إذَن لا يَصْرَد[3] سهمُك، ولا يكذب قولك.

ثم مرَّ فيها، فقال له: أظهر ثم أظهر؛ فأنت واللهِ أشعر مَنْ مضى، وأشعرُ مَن بقي.

فقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين، فأذِنَ له لَيْلًا، وأنشده، فلمّا بلغ من الميمية قوله:

وقتيلٌ بالَّطف[4] غُودِرَ منهم بين غوغاءِ أمةٍ وطَغَام

بكى أبو جعفر، ثم قال: يا كُميت! لو كان عندنا مالٌ لأعطيناك، ولكن لك ما قال رسول الله لحسَّان بن ثابت: لا زلت مُؤَيدًا بروح القدس ما ذَبَبْتَ عنا أهلَ البيت!

فخرج من عنده فأتَى عبدَ الله بن الحسن بن علي فأنشده فقال له: إن لي ضيعةً أُعطيتُ فيها أربعة آلاف دينار، وهذا كتابُها، وقد أشهدتُ لك بذلك شُهودًا، وناولَه إياه!

فقال: بأبي أنت وأمي! إنّي كنتُ أقولُ الشعر في غيركم أريد بذلك الدنيا والمال، ولكني ـ والله ـ ما قلتُه فيكم إلا للهِ، وما كنت لآخذَ على شيء جعلتُه لله مالًا ولا ثمنًا؛ فألحّ عبدُ الله عليه، وأبى من إعفائه.

---

(١) البيض هنا: المشهورين من الأشراف. (٢) الرهط: القوم والقبيلة.
(٣) صرد السهم: أخطأ.
(٤) الطف: موضع قرب الكوفة، وقتيل الطف هو الحسين عليه السلام.

فأخذ الكميت الكتاب ومضى، فمكث أيامًا، ثم جاء إلى عبد الله فقال: بأبي أنت وأمّي؛ يا ابنَ رسول الله! إنّ لي حاجة؟ قال: وما هي، وكلّ حاجة لك مقضية؟ قال: كائنة ما كانت؟ قال: نعم! قال: هذا الكتاب تقبلُه، وترتجعُ الضَّيعة. ووضَع الكتابَ بين يديه، فقبله عبد الله.

ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، فأخذ ثوْبًا، فدفعه إلى أربعة من غلمانه، ثم جعل يدخل دور بني هاشم ويقول: يا بني هاشم، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صَمَت الناسُ عن فَضْلكم، وعرض دمه لبني أمية، فأَثيبُوه بما قدرتم! فيطرح الرجل في الثوب ما قدر عليه من دراهم ودنانير؛ وأُعْلِم النساءُ بذلك؛ فكانت المرأةُ تبعث ما أَمْكَنها، حتى إنها لتخلع الحُليّ عن جسدها. فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمتُه مائةَ ألف درهم.

فجاء بها إلى الكميت فقال له: أتيناك بجهد المُقِلّ، ونحن في دولة عدوِّنا، وقد جمعنَا هذا المال، وفيه حلي النساء كما ترى، فاسْتَعِنْ به على دهرك. فقال: بأبي أنت وأُمي! قد أكثرتُم وأطيبتم، وما أردت بمدحي إياكم إلا الله ورسولَه، ولم أكُ لآخذ لذلك ثمنًا من الدنيا، فارْدُده إلى أهله، فجهد به عبد الله أن يقبَله بكلّ حيلة فأبى، فقال: إن أبيتَ أن تقبل فإني رأيت أن تقول شيئًا يغضب منه بعض الناس؛ لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعضُ ما يجب.

فابتدأ الكميت، وقال قصيدته التي يذكُر فيها قومه مناقب من مضر، وربيعة وإياد وأنمار، ويكثر فيها من تفضيلهم، ويطنب في وصفهم، وأنهم أفضل من قحطان.

فثارت العصبية في البدو والحضر، وانحرف أهل اليمن إلى الدعوة العباسية، وأعقب ذلك انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم.

إن يُمْنِي يَغلِب شؤمَك(١)

لما تُوفّي السفاح دخل أبو دُلَامة على المنصور، والناسُ عنده يعزُّونه فقال:

أَمسيتَ بالأنبَارِ يا ابنَ محمّدٍ لم تستطع عن عُقْرِها تحويلا
ويلي عليك وويل أهلي كلّهم وَيْلًا وعَوْلًا في الحياة طويلا

(١) الأغاني ١٠ ـ ٢٤٠ (طبعة دار الكتب)، معاهد التنصيص: ٢ ـ ٢١٠.

فَلتَبكِيـنَّ لـك السمـاءُ بِعَبْـرةٍ وَلـيَبْكِيـنَّ لـك الـرِّجَـالُ عـويـلا
مات النَّدى إذ مِتَّ يا ابنَ محمدٍ فجعلتَه لك في التراب عديلا
إني سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم فوجدتُ أسمحَ مَن سألت بخيلا
ألشقْوَتي أُخِّرْتُ بعدَك لِلَّتي تَدَع العزيز من الرجال ذليلا؟
فـلأحـلفـنّ يـمـيـنَ حـقٍ بـرَّةً تـاللهِ مـا أُعـطِيـتُ بـعـدك سُـولا

فأبكى الناسَ قولُهُ؛ فغضب المنصور غضبًا شديدًا، وقال: لئن سمعتُك تنشد هذه القصيدة، لأقطعنَّ لسانك، قال: يا أمير المؤمنين؛ إن أبا العباس أميرَ المؤمنين كان لي مُكرِمًا وهو الذي جاء بي من البَدْو، كما جاء اللهُ بإخوة يوسف إليه، فقل كما قال يوسف لأخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢].

فسُرِّي عن المنصور، وقال: قد أقلْناك يا أبا دُلامة، فسَلْ حاجتك! قال: يا أمير المؤمنين؛ قد كان أبو العباس أمرَ لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبًا، وهو مريض، ولم أقبضْها؛ فقال المنصور: ومَنْ يَعْلمُ ذلك؟ قال: هؤلاء - وأشار إلى جماعة ممَّن حضر.

فوثب سليمان بن مُجالد، وأبو الجَهْم؛ فقالا: صدق أبو دُلامة، نحن نعلم ذلك. قال المنصور لأبي أيوب الخازن - وهو مَغِيظ: يا سليمان، ادفعْها إليه، وسيِّره إلى هذا الطاغية - يعني: عبد الله بن علي، وكان قد خرج بالشام، وأظهرَ الخلاف - فوثب أبو دُلامة، وقال: يا أميرَ المؤمنين، أُعيذك بالله أن أخرجَ معهم، والله إني مشؤوم!

قال المنصور: امضِ، فإن يُمْني يغلبُ شؤمك. فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما أُحِبُّ أن يُجرّب ذلك مني على مثل هذا العسكر؛ فإني لا أدري أيُّهما يغلب: يُمْنُك أم شؤمي؟ إلا أني بنفسي أوثَق وأعرف وأطولُ تجربة.

فقال: دَعني وهذا؛ فما لك من الخروج بُدّ. قال: فإني أَصْدُقُك الآن، شهدتُ والله تسعةَ عشر عسكرًا، كلُّها هُزِمَت، وكنتُ سببها، فإن شئتَ الآن - على بصيرة - أن يكونَ عسكرك تمام العشرين فافعَل.

فضحك المنصور، وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة.

قَتَلَهم الشِّعْر(١)

كان أبو العباس جالسًا في مجلِسِه على سريره، وبنو هاشم دونه على الكراسي، وبنو أميّة على الوسائد، قد ثُنِيَتْ لهم - وكانوا في أيام دَوْلتهم يجلسون هم والخلفاءُ منهم على السرير، ويجلس بنو هاشم على الكراسيّ - فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين؛ بالباب رجلٌ حجازيٌّ أسود راكبٌ على نجيب، مُتلثِّمٌ(٢)، يستأذن ولا يُخبِر باسمه، ويحلف ألّا يَحْسر اللثام عن وجهه حتى يرَاك؛ قال: هذا مولاي سُدَيف، يدخل؛ فدخل، فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أميّة حوله، حَدَر(٣) اللِّثام عن وجهه ثم سلم، ودنا وقبّل يده، ثم انصرف إلى خلفه، فقام مقام مثله، وأنشأ يقول:

أصبح المُلكُ ثابتَ الآساسِ ... بالبَهَالِيل(٤) من بني العبّاسِ
بالصُّدُور المُقدَّمِين قديمًا ... والرُّؤوس القماقِم(٥) الرُّوَّاسِ(٦)
يا أمير المطَهّرين من الذَّ ... مّ ويا رأس مُنتَهَى كلّ راسِ
أنت مهديُّ هاشم وهُدَاها ... كم أناسٍ رَجَوْك بعد إياسِ
لا تُقِيلَنَّ عبدَ شمس عِثارًا ... واقْطَعَنْ كلّ رَقْلَةٍ(٧) وغِراس
أنزِلُوها بحيث أَنْزَلها الله ... بدار الهوان والإنعاسِ
خوفُهمْ أظهر التودُّدَ منهم ... وبهم منكمُ كحزِّ المواسي
أَقْصِهِمْ أيها الخليفةُ واحسِمْ ... عنك بالسيف شَأْفَةَ(٨) الأرجاس
واذكرنْ مصرعَ الحسين وزيدٍ(٩) ... وقتيلٍ(١٠) بجانب المِهْرَاسِ

---

(١) الأغاني: ٤ - ٣٤٥ (طبعة دار الكتب)، المحاسن والمساوىء: ٤١٠، (ليبزج).
(٢) تلثم الرجل: وضع اللثام؛ وهو رد العمامة على الوجه.
(٣) حدر اللثام: حطه من علو إلى سفل.
(٤) البهاليل: جمع بهلول وهو العزيز الجامع لكل خير.
(٥) القمقام: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل.
(٦) الرؤاس: الولاة والحكام.
(٧) الرقلة: النخلة الطويلة التي تفوت اليد.
(٨) الأرجاس: جمع رجس؛ وهو القذر.
(٩) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قتل في أيام هشام بن عبد الملك.
(١٠) المهراس: ماء بأحد، ويعني بالقتيل حمزة بن عبد المطلب، قتله يوم أحد غلام لجبير بن مطعم؛ اسمه وحشي.

والإمام[١] الذي بحَرّام أمسى رَهْنَ قبرٍ في غُرْبَةٍ وتناسي
فلقد سَاءني وسَاء سَوائِي قربُهمْ من نَمَارقٍ وكراسي

فتغيّر لون أبي العباس، وأخذه زَمَع[٢] ورِعدة؛ فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجلٍ منهم، وكان إلى جَنْبه، فقال: قتلنا والله العبد، ثم أقبل أبو العباس عليهم، فقال: أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذّذون في الدنيا، خذوهم؛ فأخذتهم الخُراسانية وضربوهم فأهمِدوا؛ إلا ما كان من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بداود بن علي، وقال له: إن أبي لم يكن كآبائهم، وقد علمتَ صَنيعَتَه إليكم؛ فأجاره واستوْهَبَهُ من السفاح، وقال له: قد علمتَ يا أميرَ المؤمنين صنيعَ إبيه إلينا. فوهبه له، وقال له: لا تريني وجهه، وليكن بحيث تأمَنُه، وكتب إلى عماله في النواحي بقَتْل بني أميه.

المنصور أحَق بشِعْر طرَيف[٣]

قال أبو بكر الهذليّ: سرتُ مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكةَ وسايرتُه يومًا، فعرضَ لنا رجل على ناقةٍ حمراء تذهبُ في الأرض، وعليه جُبّةُ خَزّ وعمامةٌ عَدَنية، وفي يده سوط يكادُ يمسُّ الأرض، سريّ الهيئة.

فلما رآه أمرني أن أدعوَهُ، فدعوتُه فجاء، فسأله عن نسبه وبلاده وباديةِ قومه وعن ولَاة الصدقة، فأحسنَ الجواب؛ فأعجبه ما رأى منه، فقال: أنشدني. فأنشده شعرًا لأوس بن حَجَر وغيره من الشعراء، وحدَّثه حتى أتى على شعر لطريف بن تميم العَنْبَريّ؛ وهو قوله:

إن قناتي لنَبْعٌ[٤] لا يؤيِّسُهَا[٥] غَمْزُ الثِّقَاف[٦] ولا دُهْنٌ ولا نارُ
متى أُجِرْ خائفًا تأمَنْ مسارحُه[٧] وإن أُخِفْ آمنًا تَقْلَقْ به الدَّارُ
إنّ الأمورَ إذا أوردتَها صَدَرَتْ إنْ الأمور لها وِرْدٌ وإصدار

(١) الإمام الذي بحران: هو إبراهيم الإمام، رأس الدولة العباسية؛ قتله مروان بن محمد صبرًا وحبسًا.
(٢) الزمع: شبه الرعدة تأخذ الإنسان.
(٣) الطبري: ٩ ـ ٢٩٨.
(٤) النبع: شجر من أشجار الجبال؛ تتخذ منه القسي.
(٥) التأييس: التذليل والتأثير؛ أي لا يؤثر فيها شيء.
(٦) الثقاف: ما تقوم به الرماح.
(٧) المسارح جمع مسرح: وهو الموضع الذي تسرح إليه الماشية بالغداة للرعي.

فقال: ويحك! ما كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر؟ قال: كان أثقلَ العرب على عدوِّه وطأةً، وأدركَهم بثأر، وأيمنَهم نقيبةً[١]، وأصلبَهم قناةً لمنْ رام هَضْمه، وأقراهم لضيفه وأحوطَهم من وراء جاره؛ اجتمعت العربُ بعكاظ فكلُّهم أقرّ له بهذه الخِلال، غير أنَّ امرأً أراد أن يقصِّر به فقال: والله ما أنت ببعيد النُّجعة[٢] ولا قاصد الرَّميَة[٣]؛ فدعاه ذلك إلى أن جعل على نفسه ألَّا يأكل إلا لحم قَنَص يقْتَنصه، ولا ينزع كلَّ عام عن غزوة يبعد فيها أثره.

قال: يا أخا تميم، لقد أحْسَنْتَ إذ وصفت صاحبك، ولكني أحقُّ ببيتيه منه، أنا الذي وَصف، لا هو!

المحبَّة مُفتَاح كلّ خَير[٤]

دعا المنصور بالربيع[٥] فقال: سَلْنِي ما تريد! فقد سكتَّ حتى نطقت، وخففت حتى ثَقَّلْت، وأقللتَ حتى أكْثَرت!

فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما أرهبُ بُخلَك، ولا أسْتَصْغِرُ فضلَك، ولا أغتنم مالك، وإنّ يومي بفضلك عليّ أحسنُ من أمْسي، وغدَك في تأميلي أحسنُ من يومي! ولو جاز أن يَشْكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سبقني لذلك أحد.

قال: صدقت علمي بهذا منك أحلَّك هذا المحل، فَسَلْني ما شئت!

قال: أسألك أن تقرِّبَ عبدك الفضل[٦]، وتؤثِره وتُحبَّه! قال: يا ربيع؛ إنّ الحبَّ ليس بمال يوهَب، ولا رُتْبةٍ تُبْذَل، وإنما تُؤَكِّدُه الأسباب! قال: فاجْعَلْ له طريقًا إليه بالتفضُّل عليه!

قال: صدقتَ، وقد وصلتُه بألف درهم! ولم أَصِلْ بها أحدًا غير عُمومتي؛ لتعلمَ ماله عندي؛ فيكونَ منه ما يستدعي به محبتي.

---

(١) النقيبة: النفس؛ وميمون النقيبة: مبارك النفس.

(٢) النجعة: المذهب في طلب الكلأ. (٣) قصد الرمية: أصابها.

(٤) زهر الآداب: ٢ ـ ٢٩٩.

(٥) هو الربيع بن يونس، خدم المنصور، ثم تدرج في المناصب عنده إلى أن استوزره، وكان جليلًا نبيلًا عارفًا بخدمة الخلفاء، مات سنة ١٧٠ هـ.

(٦) هو ابنه الفضل بن الربيع، وقد وزر للرشيد بعد البرامكة؛ ولابنه الأمين.

ثم قال: فكيف سألتَ له المحبة يا ربيع؟ قال: لأنها مِفتَاحُ كلّ خير، ومِغْلَاقُ كل شر؛ تُسْتَرُ بها عندك عيوبُه، وتصير حسناتٍ ذنوبُه!

قال: صدقت.

المنصُور وَالشعَرَاء[١]

قال الربيع بن يونس يومًا لأبي جعفر المنصور: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ الشعراءَ ببابك، وهم كثير، وقد طالت أيّامُهم، ونفدَت نفقاتهم، فقال: اخرُجْ إليهم، وسلّم عليهم، وقل لهم: مَنْ مَدَحنا منكم؛ فلا يصف الأسد؛ فإنما هو كلْبٌ من الكلاب، ولا الحيّة؛ فإنما هي دُوَيْبَةٌ مُنتِنَةٌ تأكل التّراب؛ ولا الجبل؛ فإنه حجر أصمّ، ولا البحرَ؛ فإنه عَطِنٌ لَجِبٌ[٢]؛ فمن ليس في شعره شيءٌ من هذا فليدخل، ومَنْ كان في شعره شيء منه فلْينصرف، فأبلغهم؛ فانصرفوا كلّهم إلا إبراهيم[٣] بن هَرْمَة، فقال: أنا له يا ربيع، فأدْخلني عليه.

فأدخله، فلما مَثَلَ بين يديه، قال له: يا ربيع؛ قد علمتُ أنه لا يجيبُك غيرُه، فأنشدَه قصيدته التي منها:

له لَحظاتٌ عن حِفَافَي[٤] سَرِيرِه إذَا كرها[٥] فيها عُقَابٌ ونائلُ
فأمُّ الذي أمّنْتَ آمنةُ الرَّدى وأم الذي خوّفْتَ بالثُّكْل ثاكلُ

فقال له المنصور: أما لقد رأيتك في هذه الدار قائمًا بين يدي عبد الواحد بن سليمان تُنشده قولك فيه:

وجدنا غالبًا كانت جنَاحًا وكان أبوك قادمةَ الجنَاحِ

فقُطِع بابن هَرْمة حتى ما قدر على الاعتذار، فقال له المنصور: أنت رجل شاعر طالب خير، وكلّ ذلك يقول الشاعر، وقد أمر لك أمير المؤمنين بثلاثمائة دينار.

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ٣٠٦، العقد الفريد: ١ ـ ١٦٥، ذيل زهر الآداب: ٨٤، الغرر: ١٨٥، الأغاني: ٦ ـ ١٠٩ (طبعة دار الكتب).

(٢) لجب: ذو لجب، وبحر ذو لجب: إذا سمع اضطراب أمواجه.

(٣) هو إبراهيم بن عليّ بن هرمة المنتسب إلى قريش؛ نشأ بالمدينة، وأخذ عن الرواة والمتقدمين والمتأدبين كثيرًا، وقال الشعر وأجاده. وتوفي سنة ١٥٠ هـ.

(٤) الحفافان: الجانبان. (٥) كرّها: أرجعها، والنائل: العطاء.

فقام إليه الحسن بن زيد فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنَّ ابن هَرْمة رجلٌ منفَاق متْلاف لا يبقي شيئًا؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمر له بها، يُجرَى عليه منها ما يكفيه، ويكفي عياله، ويكتب بذلك فَعل.

فقال: افعلوا ذلك به.

المؤمّل يَمدح المهْدِي[1]

وفد المؤمِّل بن أَمِيل على المَهديّ بالرَّي فامتدحه، فأمر له بعشرين ألف درهم، فاتَّصل الخبر بالمنصور، فكتب إليه أن يعذُله ويقول: إنما كان سبيلُك أن تأمرَ للشاعر بعد أن يقوم ببابك سنة بأربعة آلاف درهم! وكتب إلى كاتب المهدي بإنفاذ الشاعر إليه. فسأل عنه. فقيل له: قد شَخَص إلى مدينة السلام.

فكتب إلى المنصور بِخبَره، فأنفذ المنصور قائدًا من قوّاده إلى النَّهْرَوَان يتصفَّح وجوه الناس رجلًا رجلًا ممّن يمرَ به حتى يظفر بالمؤمِّل.

وسار القائد حتى انتهى إلى القافلة التي فيها المؤمِّل، فسألَه مَن أنتَ؟ قال: أنا المؤمِّل بن أمِيل المحاربيّ الشاعر، أحدُ زوَّار الأمير المهدي، فقال: إيّاك طلبتُ.

قال المؤمِّل: فكاد قلبي يَنْصدع خوفًا من أبي جعفر، وقبض عليّ؛ ثم أتى بي وأسْلَمني إلى الربيع، فأدخلني إلى أبي جعفر، فسلَّمتُ تَسْليمَ مُروَّع، فردَّ السلام، وقال: أتيتَ غلامًا غِرًّا كريمًا فخدعتَه، قال: يا أمير المؤمنين، إنما أتيتُ ملكًا جوادًا كريمًا فمدحته فحملتهُ أريحِيَّتُه على أن وصلني وبرَّني؛ فكأنَّ ذلك أعجبه، فقال له: أنشدني ما قلتَ فيه، فأنشده:

هو المهديّ إلا أنَّ فيه ... مَشَابِهَ[2] صورةِ القمرِ المنيرِ
تشابهَ ذا وذا فَهُمَا إذَا مَا ... أنَارَا يُشْكِلَان على البَصِير
فهذا في الضّياء سراجُ عَدْلٍ ... وهذا في الظلام سراجُ نُورِ
ولكنْ فضَّل الرحمنُ هذا ... على ذا بالمنابرِ والسريرِ

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ٣٠٧، مهذب الأغاني: ٤ ـ ١٣٥، أمالي الزجاجي: ٢٦، ذيل زهر الآداب: ٨٤، الغرر: ١٨٥، المحاسن والمساوىء: ٢٧٠، معجم الأدباء: ٩ ـ ٢٠٣.
(٢) مشابه: جمع شبه على غير قياس.

وبالمُلْكِ العزيزِ فذا أميرٌ ... وماذا بالأميرِ ولا الوَزيرِ
ونَقْصُ الشهرِ يُخْمِدُ ذا، وهذا ... مُنِيرٌ عند نُقْصَان الشهور
فيا ابْنَ خليفة الله المُصَفَّى ... به تَعْلُو مُفَاخَرَةُ الفَخُورِ
لئن فُتَّ الملوكَ وقد تَوَافَوْا ... إليك من السُّهولةِ والوعُور
لقد سبق الملوكَ أبوك حتّى ... تَرَاهُم بينَ كَابٍ أو حَسِيرِ
وجئتَ وراءه تجري حَثيثًا ... وما بك حين تَجْرِي من فتُورِ
فقال الناس: ما هذان إلّا ... بمنزلة الْخَليقِ من الجَدير
فإن سبق الكبيرُ فأَهلُ سَبْقٍ ... له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ ... فقد خُلِقَ الصغيرُ مع الكبيرِ

فقال: أحسنت! ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم، ثم قال له:

أين المال؟ قال: هاهو ذا! قال: يا ربيعُ؛ أَعْطِهِ منه أربعة آلاف درهم، وخذ الباقي.

قال المؤمل: فأخذ مني ستة عشر ألفًا، فآليت على نفسي ألا أدخل العراق وللمنصور بها ولاية.

فلما صارت الخلافةُ إلى المهدي رفعتُ إليه رقعة ذكرت فيها قصَّتِي، فلمّا قرأها ضحك حتى استلقى، وقال: هذه مظلمة أنا بها عارف؛ ردُّوا عليه ماله، وزيدوا له عشرين ألفًا، فأخذتها وانصرفت.

مَدَائِح وَعَطَايا(١)

أُهْدِيَتْ جارية يمانية إلى أبي جعفر المنصور، فأنشدته شعرًا لمرْوان بن أبي حَفْصة يمدح به السريّ بن عبد الله، ويذكر فيه وراثة العباس، فسألها: لمَن هذا الشعر؟ فأخبرته، فأمر بإحضار مروان، فوافاه بالرَّبَذَة حاجًا، فلقي الربيع بن يونس والمنصورُ عليل؛ العلّة التي مات فيها. فقال: كُنْ قريبًا حتى ندعوَ بك، فلم تزل العلّة تشتد به حتى مات قبل أن يصل إليه مروان، فقال له الربيع: إلحقْ بالمهدي ولا تتخلف عنه؛ وانصرفَ مَرْوَانُ إلى اليمامة، فجعلها طريقًا، وعليها بِشْرُ بن المنذر واليًا، فأوفده بشر فيمن أوفده، وأعطى كلَّ رجل ألفَ درهم، فقدم مروان

(١) المحاسن والمساوىء: ٢٤٠ (طبع ليزج)، الفرج بعد الشدة: ١ ـ ٧٣.

على المهدي؛ وقد مدحه بأربع قصائد. فأعطاه المهديّ ثلاثين ألف درهم، فانصرف إلى اليَمامَة.

ثم عاد بعد لك، فطلب الوصول بيعقوب بن دَاود، فأقام نحوًا من سنة، وغضب المهديّ على يعقوب بن داود.

قال مروان: بينا أنا واقف على باب المهدي إذ خرج خالد بن يزيد بن منصور فقال: يا ابن أبي حفصة؛ ذَكرك أمير المؤمنين آنِفًا؛ وهو يراك أشعرَ الناس، غير أَنه يقول: لا حاجةَ لنا فيما قِبَلك؛ فانصرف عن بابنا.

فانصرفتُ مغمومًا؛ ثم تذكّرتُ رجلًا أتحدّث عنده، وآنسُ لديه؛ فأتيت يزيدَ بن مَزْيَد، فشكوت إليه ما قال لي خالد بن يزيد. فقال: أدلُّك على رجل صدوقٍ، له رِقّةٌ، لعله ينفعُك! قلت: ومَن هو؟ قال: الحسن الحاجب، فغدوت إلى الحسن، فشكوت إليه ما حكاه خالد مِنْ رأي أمير المؤمنين؛ فقال: بل ذلك من يعقوب بن داود. فقلت: بأَبي أنت وأُمي! أنت ترجو أن يكون ذلك مفتاحًا لما أنا فيه! قال: ذاك كما أقول لك، فانصرفتُ؛ وقلت:

أَتاني من المهديِّ قولٌ كأنما
به احتزَّ أنفي مُذمِنُ الضِّغْنِ جادعُ
وقلتُ ـ وقد خِفتُ الّتي لا شَوَى لها[1]
بِلَا حَدَثٍ: إنّي إلى الله راجعُ
ومَا لي إلى المهديِّ لو كنتُ مُذْنبًا
سوى حِلْمِهِ الصَّافِي من الناسِ شافعُ
ولا هو ـ عند السُّخْط منه ولا الرِّضا ـ
بغَيْر الذي يَرْضى بهِ اللهُ صانعُ
عليه من التقوى رداءٌ يكنُّهُ
وللحقّ نورٌ بينَ عينيْهِ ساطعُ
يُغَضُّ لهُ طَرْفُ العيون وطَرْفُهُ
على غيرِهِ مِنْ خَشْيَةِ الله خاشعُ

(١) لا شوى لها: لا برء لها.

هل البابُ مُفْضٍ بي إليك ابنَ هاشم
فَعُذْرِيَ إن أفضى بيَ البابُ ناصعُ
أتيتُ امرَأً أطْلَقْتَهُ مِنْ وَثَاقِهِ
وقد أُنْشِبَتْ في أَخْدَعَيْهِ الجوامعُ[1]
وَجَلَّى ضَبَابَ العُدم عنه وراشَهُ
وأنْهَضَهُ مَعْرُوفُكَ المتتابعُ
فقلت: وزيرٌ ناصحٌ قد تتابَعَتْ
عليه بإنعَامِ الإمامِ الصنائعُ
وما كان لي إلا إليك ذريعةً
وما مَلِكٌ إلا إليه الذرائعُ
وإن كانَ مطويًّا على الغَدْرِ كَشْحُهُ
فلم أدرِ منه ما تُجِنُّ الأضالعُ

وقلت في قصيدة أخرى:

سَيُحْشَرُ يعقوب بن داوُدَ خائبًا ... يَلُوحُ كتابٌ بينَ عَيْنَيْهِ كافِرُ
بَدا منْكَ للمهديِّ كالصُّبْحِ ساطعًا ... من الغِشِّ ما كانتْ تُجِنُّ الضمائرُ
وهل لبياضِ الصُّبْحِ إنْ لَاحَ ضَوْءُهُ ... فجَاب الدُّجَا من ظُلْمَةِ الليل ساتِرُ!
أمَنزلةٌ فوق التي كنتَ نِلْتَهَا ... تعاطَيْتَ! لا أفلحت ممّا تُحَاذِرُ

ثم أتيت الحسنَ بعد يومين، فقال: ما صنعتَ؟ فأنشدتهما إيّاه، فقال: اكتبهما لي. فقلت: قد فعلت. فقال: هاتهما، فتناولهما، وقال: لست واضعهما من يدي حتى أضَعَهما في يد المهدي، ثم مضى.

وأتيتُه من الغدِ، فقال: ما وضعتُهما من يدي حتى وضعتُهما في يد المهدي! فقرأهما فرقَّ لك وأمر بإدخالك عليه؛ فاحضر يوم الاثنين.

فحضرت، فخرج عليّ؛ فقال: قد علم أميرُ المؤمنين بمكانك، وقد أحبَّ أن يجعلَ لك يومًا يشرّفُك فيه ويبلغ بك، قلت: فمتى؟ بأبي أنت وأُمي! قال: يوم الخميس.

(١) الجوامع: جمع الجامعة: الغل.

فعدتُ إليه يوم الخميس، فإذا وجوهُ بني العباس يدخلون على المهديّ، فلما تَتَامَّ المجلس دعاني فدخلتُ فسلّمتُ فردَّ السلام، وقال: إنما حبَسك عن الدخول انقطاعك إلى يعقوب بن داود، فافتتحت النشيد بما قلت في يعقوب، فأنشدته، ثم أنشدته:

طرقَتْكَ[1] زائرةً فحيِّ خيالَها ... بيضاء تخلِطُ بالجمال دَلَالَها
قادَتْ فؤادَك فاستقاد ومثلُها ... قاد القلوبَ إلى الصِّبا[2] فأمالَها

فأنصت الناس حتى بلغت إلى قولي:

هل تَطْمِسُون من السماءِ نُجُومَها ... بأكفِّكم أو تستُرون هِلَالَها!
أو تَجْحَدُون مَقَالةً عن ربِّكم ... جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالها
شَهِدَتْ من الأنفال آخر آية ... بتُراثِهم[3] فأردتُم إبطالها

فأعجِبَ بذلك، وقال: جزاك الله خيرًا! فقلت: اشهدوا، هذا والله الشرف، أمير المؤمنين يجزيني خيرًا، ثم أنشدته:

أعادَكَ من ذِكْرِ الأحِبَّةِ عائدُ

حتى صرت إلى قولي:

أيادي بني العباسِ بيضٌ سوابغ ... على كلّ قوم باديات عوائِدُ
فهم يعدِلون السَّمْك من قُبَّةِ الهدَى ... كما يَعْدِلُ البيتَ الحرامَ القواعدُ
سَوَاعِدُ عِزِّ المسلمينَ، وإنما ... يَنُوءُ بِصَوْلاتِ الأكفِّ السواعِدُ
يَزِينُ بني ساقي الحجيجِ[4] خليفةٌ ... على وَجْهِه نورٌ من الحقِّ شاهِدُ
يكون غِرَارًا نومُه من حِذَارِهِ ... على قُبَّةِ الإسلامِ والخَلْقُ راقِدُ
كأنّ أميرَ المؤمنين محمدًا ... لرأفتِهِ بالنّاسِ لِلنّاسِ والِدُ
على أنه مَنْ خالفَ الحقَّ منهمُ ... سَقَتْهُ يدُ الموتِ الحتوفُ الرَّواصِدُ

---

(١) طرق القوم: أتاهم ليلًا. (٢) استفاد: انقاد، والصبا: الشوق.
(٣) التراث: ما يتركه الميت لورثته، ويعني بآخر آية من سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].
(٤) يشير إلى سقاية الحاج، وهي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس بن عبد المطلب، جد الخلفاء العباسيين.

فأشار إليّ، فأمسكتُ. فقال: يا بني العباس، هذا شاعركم المنقطعُ إليكم، المعادَى فيكم، فأعطوه ما يسرُّه. فقلت: ينبغي إذ سمعوا كلام أمير المؤمنين، وعرفوا رأيه أن يصلوني من أموالهم، فقال: أنا فارضٌ عليهم لك مالًا، ففرضَ على موسى ابنه خمسة آلاف درهم، وعلى هارون خمسة آلاف، ثم فرض على القوم على قدْرِ حالاتهم، حتى فرض عليهم سبعة وثلاثين ألف درهم، والربيعُ يكتبُ كلّ ما فرُض على كل رجل منهم.

فقال واحد ممن حضر: يا أمير المؤمنين؛ إنما نحن من أهلك، فأدْخِلْنا فيما أدخَلْتَهُم فيه؛ فجعل عليه ألفًا، وعلى الربيع ألفين؛ فتمّت أربعين ألفًا.

فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ مَنْ لي بهذا المال؟ قال: هذا ـ وأشار إلى الربيع.

ثم قال: إن أمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله. فأمر لي بثلاثين ألف درهم في ثلاث بِدَر[1] فجيء بهنّ؛ فَطُرِحْن قريبًا، فدعوتُ وشكرتُ، فقال: يا ابن أبي حفصة؛ ستجيئك صِلاتي وبرِّي، ويأتيك منّي ما يؤدّيك إلى الغنى.

قلت: يا أمير المؤمنين؛ قد رأيتُ من قبُولك وبشرِك وسرورك مما سمعتَ مني ما سأزدادُ به شعرًا، وستسمعُ ويبلغك، وقلت: يا أمير المؤمنين؛ لا يبلغ ما أعطيتني لشاعرٍ بعدي، قال: أجل! قلت: وآذِنّي في زيارتك؛ قال: نعم.

قلت: يا أمير المؤمنين، لي عدوٌّ فيك، وفي أهل بيتك، فإن رأى أمير المؤمنين ألا يَجْعَلَ لأحدٍ عليَّ سلطان دونه! قال: لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين، فقلت: اكتبْ إليّ بذلك كتابًا، فأَمر بالكتاب بذلك! فانصرفت.

فلما صرتُ خَلْفَ السِّتْرِ خرج إليّ خادم بمنديل فيه أربعة أثواب وشي وثوب خَزّ[2] وجُبّة وقميص. فقال: ألبسوه وأعيدوه إليّ؛ فلبست الخزَّ والوَشْيَ على الثياب التي كانت عليّ، وألقيتُ القميصَ على أحدِ مَنْكِبيّ والجبّة على المَنْكِب الآخر. فقال لي: يا ابنَ أبي حَفْصة؛ أتدخلُ على أمير المؤمنين هكذا، وقد مَثَّلْتَ بنفسك! فقلت: والله لو كانت كرامةُ أمير المؤمنين أُحُدًا ما خلعت منها شيئًا أطيق حمْلَه.

(١) البدرة: كيس فيه عشرة آلاف. (٢) الخز: الحرير.

ثم دخلت فلما رآني تبسّم، ثم قال: مُطْرَف[١]، فأَبطؤوا به، فقال: المُطْرَف ـ وأنا قائم ـ، ثم قال الثالثة: المطْرَف. فلما أبطؤوا انصرفت، وقعدت خلف السِّتر، فلم ألبث أن رُفع السّتْرُ، وخرج أميرُ المؤمنين على دابّةٍ فقمتُ إليه فلمّا رآني قال: المُطرَف، فما برح حتى أُتِيَ به؛ فَنُشِرَ عليّ بين يديه، وأمر لي بعشرة من خدم الروم، وجائزة سنية، وبِرْذَوْن[٢] بسرجه ولجامه.

فَصَاحَةُ نُصَيب[٣]

وجَّه المهدي نُصيبًا الشاعرَ مولاه إلى اليمن في شراء إبل مَهْرِيّة، ووجّه معه رجلان من الشِّيعة، وكتب معه إلى عامل اليمن بعشرين ألف دينار، فمدَّ يده في الدنانيرِ ينفقها في الأكل والشرب، وشراء الجواري والتزويج، فكتب الشِّيعيّ بخبره إلى المهدي، فكتب في حَمْله موثقًا في الحديد، فلما دخل على المهدي أنشده شعرًا، قال:

تأوّبني ثِقْلٌ من الهمّ مُوجِع
فأرّق عيني؛ والخَليُّون هُجّعُ

هموم توالت لو أطاف يسيرُها
بسَلْمَى لظلّتْ صُمُّهُ تَتَصَدَّعُ

وعادتْ بلادُ الله ظلماءَ حِنْدِسًا
فخِلْتُ دُجا ظلمائها لا تَقَشَّعُ

إليك أميرَ المؤمنين ولم أَجد
سواك مُجِيرًا منك يُدْني ويَمْنَعُ

تلمّست: هل من شافع لي؟ فلم أَجد
سوى رحمةٍ أعطاكها الله تَشفعُ

لئن جلّت الأجْرام مني وأفْظَعَتْ
لَعَفْوُكَ عن جرمي أجلُّ وأوسعُ

---

(١) المطرف: ثوب في طرفيه علمان. (٢) البرذون: الدابة.
(٣) الأغاني: ٢٠ ـ ٢٦ (طبعة الساسي).

لـئـن لـم تَـسَـعْـنِـي يـا ابـنَ عـمّ مـحـمـدٍ
فـمـا عـجـزتْ عـنّـي وسـائـل أربَـعُ
طُـبـعْـتَ عـلـيـهـا صِـبْـغَـةً ثـم لـم تَـزَل
عـلى صـالـح الأخـلاق والـديـن تُـطْـبَـعُ
تَـغَـابِـيـك عـن ذي الـذنْـبِ تـرجـو صلاحَـه
وأنـت تـرى مـا كـان يـأتـي ويَـصْـنَـعُ
وعـفـوُك عـمـن لـو تـكـون جـزيـتَـه
لـطـارتْ بـه فـي الـجـوّ نـكـبـاءُ زَعـزَعُ
وأنـك لا تـنـفـكّ تَـنْـعَـشُ عـاثـرًا
ولـم تـعـتـرضـه حـيـن يـكـبـو ويَـخْـمَـعُ[١]
وحـلـمـك عـن ذي الـجـهـل مـن بـعـد مـا جـرى
بـه عَـنَـقٌ[٢] مـن طـائـش الـجـهـل أشـنـعُ
وإنـيَ لَولاك الـذي إن جـفـوتَـهُ
أتـى مـسـتـكـيـنًـا راهـبًـا يـتـضـرّع
وإنـي لَـمَـوْلاك الـضـعـيـف فـأغـفِـنـي
فـإنـي لـعـفـوِ مـنـك أهـلٌ ومـوضـعُ

ثم تشفّع له الهادي وأعْتَقَهُ، وأمضى المهديُّ ذلك له، وأمر بحديده ففُكّ عنه، وخلع عليه عدّةً من الخِلَع، ووصله بألفي دينار، وأمر له بجارية يقال لها جعفرة، جميلة فائقة، فقال له سالمٌ قَيّم الرقيق: لا أدفعها إليك أو تعطيني ألف درهم، فعاد إلى المهدي وأنشده:

ما زلتَ تبذلُ لي الأموالَ مجتهدًا ... حتى لأصبحتُ ذَا أهل وذا مالِ
زَوّجْتَنِي يا ابنَ خير النّاس جاريةً ... ما كان أمثالها يُهْدَى لأمثالي
زَوْجتني بضّةً بيضاء ناعمةً ... كأنها دُرّةٌ في كفّ لآل[٣]
حتى توهمتُ أن الله عجّلها ... يا ابْنَ الخلائِفِ ـ لي من خير أعمالي

---

(١) الخمع: الظلع.
(٢) العنق في الأصل: نوع من السير.
(٣) اللآل: بائع اللؤلؤ.

فَسَألني[1] سالم ألفًا فقلت له: أنى ليَ الألفُ؛ يا قُبِّحتَ من سَال!
هيهات ألفك إلّا أنْ أجيء بها من فضلِ مولًى لطيف المنِّ مِفْضال

فأمر له المهدي بألف دينار، ولسالم بألف درهم.

أتته الخِلَافَة[2]

جلس المهديُّ للشعراء يومًا فأذِن لهم، وفيهم بشار وأشجعُ؛ وكان أشجعُ يأخذُ عن بشّار ويُعظِّمه، وكان في القوم غيرَ هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشارٌ كلامَ أبي العتاهية قال: يا أخا سُليم؛ أهذا ذلك الكوفيّ الملقّب؟ قلت: نعم! قال: لا جزى الله خيرًا مَنْ جَمَعنَا معه. ثم قال له المهديّ: أنشد، فقال: ويحك! أَوَيُسْتَنشد أيضًا قَبْلنا! فقلتُ: قد تَرى، فأنشد:

ألَا ما لسيِّدتي مالَها أدلّا فأحمِلَ إدلالَها!
وإلا ففيم تجنَّتْ وما جنيتُ سقَى الله أطْلالَها
ألا إن جاريةً للإمَا م قد أُسْكنَ الحسنُ سِربَالها
مشتْ بين حورٍ قصار الخطا تُجاذِبُ في المشي أكْفَالَها
وقد أتْعَبَ الله نفسي بها وأتْعبَ باللَّوْم عذّالها

قال أشجع: فقال لي بشار: ويحك يا أخا سُليم! ما أدْري مِنْ أي أمْرَيْه أعجب: أمن ضعف شِعْره، أم من تشبيبه بجارية الخليفة، وهو يسمع ذلك بأذنه! حتى أتى على قوله:

أتتْهُ الخلافةُ منقادةً إليه تجرِّرُ أذيالَها
فلم تكُ تصلحُ إلّا لَهُ ولم يكُ يصلحُ إلّا لها
ولو رَامَها أحد غيرُه لزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها
ولو لم تُطِعْه بنات[3] القلوب لَمَا قَبِلَ الله أعمالَها
وإنَّ الخليفة من بُغْض «لا» إليه لَيُبْغِضُ مَنْ قالها

قال أشجع: فقال لي بشار، وقد اهتزّ طربًا: ويحك يا أخا سُلَيم! أترى الخليفة لم يطِر عن فراشِه طربًا لما يأتي به هذا الكُوفيّ.

---

(١) سالني: سألني.
(٢) الأغاني: ٤ ـ ٣٣ (طبعة دار الكتب).
(٣) يريد النبات.

صَرِيعُ الغَوَانِي[1]

خرج مُسْلِمُ بن الوليد ذات يوم، فلقي يزيد بن منصور الحِمْيريّ بباب الرّشيد، فسلم فردّ عليه السلام، ورحّب به، وسأله عن شأنه فخبّره، وسأله أن يقرِّبَه من الخليفة، وأن يحتال حتى يُعَدَّ في مُمَازِحيه، ومَنْ يجري عليه أرزاقَه! فقال له الحميريّ: سأتأتّى لوصولك إلى أمير المؤمنين.

فدخل الحميريّ، فأصاب أميرَ المؤمنين لقِسَ النفس[2]، قد اشتمل عليه الفكرُ في سرعة تقضِّي أمور الدنيا، وأنه لا يُتَشَبّثُ منها بشيء إلا كان كالظلِّ الزائل، والسراب الخادع! فقال له جعفر بن يحيىٰ: يا أميرَ المؤمنين؛ أفتظنُّ أنّ هذا الفكر يحبسُ عليك الأيام، ويمنعك مما لا يستمتع به؛ إنما هذا الذي أنتَ فيه عارض عرض لك، وقد كان ملِك من الملوك حكيمًا يقول: الهمُّ مفْسَدة للنفس، ومَضلّةٌ للفهم، ومَشْدَهَة للقلب، ومن أعظمِ الخطأ التشاغلُ بما لا يمكن دفعُه.

وقال له سليمان بن أبي جعفر: يا أميرَ المؤمنين؛ قد قال لقمان الحكيم: مَن يملك يستأثر، ومَن لا يَسْتَشِرْ يندمْ، والهمُّ نصف الهرمِ، والفقرُ الموتُ الأكبر.

فكأن الرشيد نَشِط، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم إليه الحميريّ، وقال: يا أمير المؤمنين؛ خلّفتُ بالباب آنفًا رجلًا من أخوالك الأنصار، متقدمًا في شعره وأدبه وظَرْفه؛ أنشدني قصيدة يذكر فيها أُنسه ولَهْوه ولعبه ومحادثته إخوانَه، ويذكر مجالسَ اتصلت له بأبلغ قولٍ وأحسن وصف وأقرب رَصْف، يبعثُ والله على الصَّبَابة والفرح، ويباعد عن الهمّ والتَّرَح، وكأنه قد وفِّق ـ بيُمن أمير المؤمنين، وسعادة جدّه ـ لأن يكون مُبْرِئًا من هذه الشكوى، زائدًا في سرور أمير المؤمنين، مستدعيًا له صِلةَ رَحِمه، والتشرُّف بخدمته.

فاستفزّه السرورُ والقلق إلى دخوله، واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسل بعضهم في أثر بعض، حتى دخل، وكان حُلوَ الشمائل، فوصل إليه في وقتٍ قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرَّته، ولم يكن في عداد مَن اضطرب سنًّا،

---

(١) المحاسن والمساوىء: ٢٥٣ (طبع ليبزج). (٢) يقال: لقست نفسه من الشيء: انصرفت.

وكان ـ ناهيك من رجل! معه فهمٌ وتجربة وتمييز ومعرفة، فأُمْهِل حتى سكن، ثم أُذِن له في الجلوس، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التي يقول فيها:

أدِيرَا عَلَيَّ الكأْسَ لا تَشْرَبا قَبْلي ... ولا تطلُبَا من عند قاتلتي ذَحْلي[1]
فما جَزَعِي أنّي أموتُ صبابةً ... ولكنْ على مَنْ لا يَحِلُّ لها قَتْلِي
أُحِبُّ التي صَدَّتْ وقالت لِتِرْبِهَا: ... دَعِيهِ؛ الثُّرَيَّا منه أقربُ من وَصْلِي!
بلى رُبما وكَّلتُ عيني بنظرةٍ ... إليها تزيدُ القلبَ خَبْلًا على خَبْلِ
كتمتُ تباريحَ الصبابةِ عاذِلي ... فلم يدرِ ما بي، واسترحتُ من العَذْلِ
إذا ما عَلَتْ منا ذُؤَابةُ واحدٍ ... تمشّتْ به مَشْيَ المقيَّدِ في الوَحْلِ
فلا نحنُ مِتْنَا موتةَ الدهر بغتةً ... ولا هِيَ عادتْ بعدَ عَلّ ولا نهل
سأنقاد لِلّذاتِ متّبعَ الهوَى ... لأُمْضِيَ همًّا أو أُصِيبَ فتى مِثْلِي
هل العيشُ إلّا أن تَرُوحَ مع الصِّبَا ... وتَغْدُو صَريعَ الكأس والأعْيُنِ النُّجْلِ!

فجعل الرشيدُ يتطاول لها، ويستحسن ما حكاه من وصف شرابٍ ولهو وغَزَلٍ وسهولة ألفاظ؛ فأمر له بمال، وأمر أن يتخذ له مجلس يتحوّل إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسمّاه يومئذ ـ بآخِر بيت من شعره: صريع الغواني!

الرّشيد وَابن منَاذر[2]

قال ابنُ مناذر: حج الرشيدُ بعد إيقاعه بالبرامكة، وحجّ معه الفضلُ بن الربيع، فهيّأتُ فيه قولًا أجدْتُ تنميقَه، وتَتَوَّقْتُ فيه، فدخلتُ إليه في يوم التَرْوِية، وإذا هو يسألُ عني ويطلبني؛ فبدَرني الفضلُ بن الربيع قبل أن أتكلم فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا شاعر البرامكة ومادحُهم ـ وكان البِشْر ظهر لي في وجهه لما دخلتُ ـ فتنكّرَ وعبس في وجهي، فقال الفضل: مُره يا أمير المؤمنين أن يُنشدك قولَه فيهم:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فقال: أنشدني، فأبيت، فتوعَّدني وأكرهني فأنشدته:

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ ... فياطيبَ أخبارٍ ويا حسنَ منظرِ!

---

(١) الذحل: الثأر.

(٢) الأغاني: ١٧ ـ ٢٥ (طبعة الساسي).

إذا وردوا بطْحَاءَ مكة أشرَقَتْ بيحيىٰ وبالفضل بن يحيىٰ وجعفر
فتُظلم بغداد ويجلو لنا الدُّجى بمكة - ما حجُّوا - ثلاثة أَقْمُرِ
فما صلَحت إلا لجود أكفهم وأرجُلهم إلا لأعوَادِ منبرِ
إذا راض يحيىٰ الأمر ذلّتْ صعَابُه وحسبُك من راعٍ له ومدبّرِ
ترى الناس إجلالًا له وكأنهمْ غَرانيقُ[1] ماءٍ تحت بازٍ مصرصِر[2]

ثم أتبعتُ ذلك بأن قلت: كانوا أولياءَك يا أمير المؤمنين أيّام مدحتهم، وكانوا في طاعتك، لم يلحقهم سَخَطُك، ولم تحْلُلْ بهم نِقْمتك، ولم أكن في ذلك مبتدِعًا، ولا خَلا أحدٌ من نظرائي من مَدْحِهم، وكانوا قومًا قد أظلّني فضلهم، وأغناني رِفدُهم، فأثنيت بما أَوْلَوْا.

فقال: يا غلام؛ الطمْ وَجْهَهُ، فلُطِمت والله حتى سَدِرْتُ[3] وأظلم ما كان بيني وبين أهل المجلس. ثم قال: اسحبوه على وجْهه، والله لأحرمنّك، ولا تركتُ أحدًا يعطيك شيئًا في هذا العام! فسُحِبتُ حتى أُخرجت.

وانصرفت وأنا أسوأُ الناس حالًا في نفسي وحالي، وما جرى عليّ؛ لا والله ما عندي ما يكفي عِيَالي لعيدهم، فإذا بشاب قد وقف عليّ؛ ثم قال: أعزِزْ عليَّ والله يا كبيرَنا بما جرى عليك، ودفع إليّ صُرَّة، وقال: تَبلَّغْ بما في هذه! فظننتها دراهم، فإذا هي ثلاثمائة دينار؛ فقلت: مَن أنت؟ جعلني الله فداك! قال: أنا أخوك أبو نواس، فاستعنْ بهذه الدنانير واعْذِرني، فقبلتها وقلت: وَصَلك الله يا أخي، وأحسن جزاءَك!

رَبيعَة الرَّقى يَمدَح فَلا يُثَاب[4]

امتدح رَبِيعةُ الرَّقّي العباس بنَ محمد بن علي؛ بقصيدة لم يُسْبَق إليها، يقول فيها:

لو قيل للعباسِ: يا ابنَ محمدٍ؛ قل: «لا» وأنتَ مُخلَّدٌ ما قالها
ما إن أَعُدُّ من المكارم خَصْلَةً إلا وجدتُكَ عَمَّها أو خَالَها

(١) الغرانيق: جمع غرنوق؛ وهو طائر أبيض من سبور الماء.
(٢) المصرصر: مَن يرجع الصوت.
(٣) سدر بصره: أظلم ولم يبصر.
(٤) الأغاني: ١٥ - ٣٨ (طبعة الساسي)، نهاية الأرب: ٣ - ٢١٥، معجم الأدباء: ١١ - ١٣٤.

وإذا الملوكُ تسايرتْ في بَلْدَةٍ — كانوا كواكبَها وكنتَ هِلالَها
إنّ المكارم لم تَزَلْ مَعْقولةً — حتى حَلَلتَ براحتَيْكَ عِقالَها

فبعث إليه العباس بدينارين، وكان يقدّر فيه ألفين، فلما نظر إلى الدينارين كاد أن يُجَنَّ غضبًا، وقال للرسول: خذ الدينارين فَهُمَا لكَ على أن تردّ إليّ الرقعةَ من حيث لا يدري العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة وأمر مَنْ كتب في ظهرها.

مدحتُكَ مِدْحَةَ السَّيْفِ المُحَلَّى — لتجريَ في الكرام كما جَرَيتُ
فهَبْهَا مِدْحَةً ذَهَبتْ ضَياعًا — كذبتُ عليك فيها وافْتريتُ

ثم دفعها إلى الرسول، وقال: ضَعْها في الموضع الذي أخذتَها منه، ففعل.

فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها، فلما قرأ الأبياتَ، غَضِب، وقام من فَوْرِه، فركب إلى الرشيد ـ وكان أَثِيرًا[1] عنده يبجّله ويقدمه، وكان قد همّ أن يخطبَ إليه ابنته ـ فرأى الرشيد الكراهةَ في وجهه، فقال: ما شأنك؟ قال: هجاني ربيعةُ الرَّقي.

فأحضره الرشيد، وقال له: أتهجو عمي وآثرَ خلقِ الله عندي! لقد هممتُ أن أضربَ عنقك! فقال: يا أمير المؤمنين؛ والله لقد امتدحته بقصيدةٍ ما قال أحدٌ مثلَها من الشعراء في أحدٍ من الخلفاء، ولقد بالغتُ في الثناء، وأكثرتُ من الوصف؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ بإحضارها فعل.

فلا سمع الرشيد ذلك سَكَن غضبُه، وأحبَّ أن ينظر في القصيدة، فأمر العباس بإحضارها، فتلكّأ عليه، فقال له الرشيد: سألتُك بحق أمير المؤمنين إلا أمرتَ بإحضارها. فأُحضرت، فإذا فيها القصيدةُ بعينها؛ فاستحسنها واستجادها، وأُعْجِب بها، وقال: والله ما قال أحدٌ من الشعراء في أحدٍ من الخلفاء مثلَها، ولقد صدق ربيعةُ فبرّ.

ثم قال للعباس: كم أثَبْتَهُ عليها؟ فسكتَ العباس، وتغيَّر لونُه، وغُصَّ بريقه، فقال ربيعةُ: أثابني عليها بدينارين يا أمير المؤمنين! فتوهَّم الرشيد أنه قال ذلك من

---

(١) أثيرًا: مكرمًا.

المَوْجِدَة[1] عليه، فقال: بحياتي يا رَقى كم أثابك؟ فقال: وحياتِك يا أمير المؤمنين ما أثابني إلا بدينارين.

فغضب الرشيد غضبًا شديدًا، ونظر في وَجْه العباس، وقال: سوءة لك! أيّة حال قعدت بك عن إثابته؟ أقلة مال؟ فوالله لقد مَوَّلتُك جهدي[2]، أم انقطاع المادة عنك؟ فوالله ما انقطعت، أم أصلك؟ فهو الأصل الذي لا يُدانيه شيء، أم نفسُك؛ لا ذنبَ لي! بل نفسُك واللهِ فعلتْ بك ذلك حتى فضحْتَ أجدادك وفضحتَني وفضحْتَ نفسك، فنكسَ العباس رأسه، ولم ينطق.

فقال الرشيد: يا غلامُ؛ أعْطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم وخِلْعةً، واحمله على بغلة.

ثم قال له: بحياتي لا تذكره في شيء من شِعرك تَعْريضًا ولا تصريحًا، وفَتَر الرشيد عما كان قد عمّ به من أن يتزوج إليه، وأظهر له بعد ذلك جَفاءً واطّراحًا.

شَاعِرٌ بَيْن يَدَيّ الرشيد[3]

قال أحمد بن سَعِيد الباهلي: كنتُ عند الرشيد، فدخل عليه أَشْجَع السلمي وَمَنصور النمريّ، فأنشده أشجع:

قَـصْـرٌ عَـلـيـه تـحـيّـة وسـلام ... ألـقـتْ عـليه جـمـالَها الأيـام
قصر سُقُوف المُزْنِ دون سقوفِه ... فـيـه لأعْـلَامِ الـهُـدَى أعـلامُ
فيه اجتلى الدنيا الخليفةُ والتقتْ ... لـلـمـلك فـيـه سَـلَامَـةٌ وسـلامُ
نَشَرَتْ عليه الأرض كُسْوَتها التي ... نسج الرّبيع وزَخْرَفَ الإرْهَام[4]
أذبـتـك مـن ظـل الـنـبيّ وصيَّةٌ ... وقَرَابَةٌ وشَجَتْ[5] بها الأرحام
برقتْ سماؤك في العدو وأمطرتْ ... هـامًا لـهـا ظـل السيوف غـمـامُ
وإذا سيوفك صافَحَتْ هامَ العدَا ... طارت لَهُنّ عن الرؤوس الـهـامُ
تـثـنـى عـلى أيّـامـك الأيـام ... والـشـاهـدان: الـحـلُّ والإحـرامُ

---

(١) الموجدة: الغضب. (٢) موّله: أعطاه مالاً كثيرًا، والجهد: الطاقة.
(٣) أمالي المرتضى: ٤ ـ ١٧٨، الأغاني: ١٢ ـ ١٩، ١٧ ـ ٣٢ (طبعة الساسي).
(٤) الرهمة: المطر الضعيف الدائم، والجمع رهم (كعنب)، وأرهمت السماء: أتت بالرهم.
(٥) وشجت: علقت.

ولما بلغ قوله:

وعلى عدوّك يا ابن عم محمدٍ رَصَدَانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ والإظلامُ
فإذا تنبّه رُعْتَه وإذا غفا سلّتْ عليه سيوفَك الأحلامُ

فاستحسن ذلك الرشيد؛ وأومأتُ إلى أشْجَع أن يَقْطَعَ الشِّعر؛ إذْ علمتُ أنه لا يأتي بمثلها فلم يَفْعل. ولمّا أنشده ما بعْدَهما فتَر الرشيد وضرب بمِخْصَرَة[1] كانت بيده الأرض، واستنشد منصورًا النمريّ، فمَرّ واللهِ في قصيدةٍ قلّما تقولُ العربُ مثلَها، ومطْلعُها:

ما تنقضي حَسْرَةٌ مني ولا جَزَعُ إذا ذكرْتُ شبابًا ليس يُرْتَجَعُ
بَانَ الشبابُ وفاتتني بلذّته صروفُ دهرٍ وأيام لها خُدَعُ

ولما بلغ إلى قوله:

ما كنتُ أُوفي شبابي كُنْهَ غِرّته حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ

قال الرشيد: أحسن والله! لا يتهنّى أحدٌ يعيش حتى يخطر في رداء الشباب.

ولما بلغ إلى قوله:

أيُّ امرىء بات من هارون في سخط فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ
إن المكارم والمعروف أودية أحَلّكَ الله منها حيث تُنْتَجَعُ
إذا رفعْتَ امرأ فالله رافِعُهُ ومَنْ وَضَعْتَ مِنَ الأقْوَامِ مُتَّضِعُ
نفسي فدَاؤك والأبطالُ مُعْلِمَةٌ يوم الوغى والمنايا بينَهُمْ قُرَعُ

رمى الرشيد بالْخِوان بين يديه، وصاح وقال: هذا والله أطيبُ من كل طعام؛ وأعطاه سبعة آلاف دينار.

قال أحمد بن سعيد: فلمّا خرجنا قلت لأسجع: غمزتُك أن تقطع فلم تفعل، ويلك! ولم تأت بشيء، فهلّا متّ بعد البيتين أو خرست، فكنت تكون أشعر الناس!

---

(١) المخصرة: ما يتوكأ عليه: كالعصا ونحوها، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب والخطيب إذا خطب.

بِبَابك أنزلتُ حَاجتِي[١]

قصد أعرابيٌّ مالكَ بن طَوْق التغلبي صاحب الرَّحْبَة، وكان رثّ الهيئة، زَرِيَّ الحال، فَمنع من الدخول عليه مدة، إلى أنْ خرج مالك ذات يوم يريد النّزهة حول مدينته؛ فاعترض له الأعرابيّ، فردّه رجالُه ازدراءً به، فلم يَنثنِ؛ بل اقترب منه حتى أخذ بعِنان فرسه، ثم قال: أيها الأمير؛ أنا عائذ بك من شر حَرَسك! فَنَهْنَهَهُمْ[٢] عنه، وقال له: ما حاجتُك؟ قال: أن تُصْغِيَ إلى كلامي بسمعك، وتنظر إليّ بطَرْفك، وتُقْبِلَ عليّ بوجهك، ثم أنشد:

ببابك دون الناس أنْزَلْتُ حاجتي ... وأقبلتُ أَسْعَى نحوه وأطُوف
ويمنعني الحجّابُ والليلُ مُسْبِلٌ ... وأنت بعيدٌ والرجال صفُوف
يطوفون حولي عابسين كأنهم ... ذئابٌ جياعٌ بينهنّ خروف
فكيف وقد أبصرتُ وجهك مقبلًا ... تَرُدّ امرأ وافاك وهو لهيف
وما لِيَ في الدنيا سواك وما لمن ... تركتُ ورائي مَربَع[٣] ومصيف
فجئتُك أبغَى الخيرَ منك فراعني ... ببابك من ضَرْبِ العبيد صنُوفُ
فلا تَجْعَلَنْ لي نحو بابك عودةً ... فقلبيَ من صُنْعَ القسَاة مخوف

فضحك مالك، ثم قال لحراسه: مَنْ يعطيه درهمًا بدرهمين؟ فما أتمّ كلمته حتى نُثِرَت الدراهم على الأعرابي من كل جانب حتى تحيّر، واختلط لديه الحابلُ بالنابلِ؛ لكثرَةِ ما أُعطِي.

فعند ذلك التفت إليه مالك، وقال له: هل بقيتْ لك حاجة يا أخا العرب؟ قال: أمّا إليك فلا. فقال: وإلى مَن؟ قال: إلى الله أن يبقيَك للعرب؛ فإنهم لن يزالوا بخير ما بقيتَ لهم!

النكث في البَيع خَير مِن خِيَانةِ الشَريك[٤]

جلس مالك بن طوْق في قصره، في شُبَّاك مطل على رَحَبَتِه، ومعه جلساؤه؛ فأقبل أعْرابي تَخُبُّ[٥] به ناقته. فقال: إيايَ أراد، ونحوي قصد، ولعل منه أدبًا يُنتفع به. ثم أمر بإدْخَاله.

---

(١) غرر الخصائص: ١٦٨.
(٢) نهنههم: زجرهم وكفهم.
(٣) المربع: منزل القوم في الربيع خاصة.
(٤) ذيل زهر الآداب: ٢٨٢.
(٥) الخبب: نوع من السير.

فلما مَثَلَ بين يديه قال: ما أقدمك يا أعرابي؟ قال: سَيْبُ[١] الأمير، ورجاءُ نائله؛ قال: هل قدّمتَ أمام رَغْبتك وسيلة؟ قال: نعم! أربعة أبيات قلتُها بظَهْر البرية، فلما رأيت ما بباب الأمير من الهَيْبَة والجلال استحقرتُها واستَصْغَرْتُها. قال: فهل ذلك أن تُنْشِدَنا أبياتَكَ على أن تجيزك عليها ألفَ درهم؛ فإن كنت ممن أحسَن رَبحنا، وإلا فقد نِلْتَ مُرادك، وربحتَ! قال: رضيتُ، وأنشده:

وما زلت أَخْشَى الدهرَ حتى تَعلَّقَتْ ... يداي بمن لا يَتَّقِي الدَّهر صاحبُهْ
فلما رآني الدهرُ تحت جناحه ... رأى مرتقى صعبًا مَنيعًا مطالبُهْ
رآني بحيث النجم في رأس باذخ[٢] ... تُظِلُّ الورى أكنافُه وجوانبُهْ
فتى كسماءِ الغيث والناسُ حولَه ... إذا قُحِطُوا[٣] جادت عليهم سحائبُهْ

فقال: والله ظَفرْنا يا أعرابي، ورُزِقْنا الفَلج[٤] عليك، والله ما قيمتُها إلا عشرةُ آلاف درهم. قال: فإن لي صاحبًا شاركتُه فيها، وما أراه يرضى بَيْعي. قال: أتراك حدَّثَتْك نفسك بالنَّكْثِ[٥]؟ قال: نعم! وجدت النَّكث في البيع خيرًا من خيانة الشريك، فأمر له بعشرة آلاف دينار.

بَاتَت تعَيِّرني الإقتَارَ والعَدمَا[٦]

قال الأصمعي: لقيت أعرابيًا بالبادية فاسترشدتُه إلى مكان، فأرشدني وأنشدني:

ليس العمى طولَ السؤال وإنّما
تَمام العمى طولُ السكوت على الجهل
فكُنْ سائلًا عمَّا عَناك فإنّما
خلقتَ أخا عَقْل لتسأل بالعقل

ثم رجعتُ إلى البَصرة فمكثت بها حينًا؛ ثم قدمتُ البادية، فإذا بالأعرابي جالس بين ظَهْرَاني قوم، وهو يقضي بينهم، فما رأيتُ قضيّةً أخطأت قضيّةَ الصالِحين من أقضيته، ثم جلستُ إليه وقلت: يرحمك الله، أمَا من رِشْوة! أما من

---

(١) السيب: العطاء والمعروف.
(٢) باذخ: عال.
(٣) قحطوا: أصابهم القحط، وهو الجدب.
(٤) الفلج: الفوز والظفر.
(٥) ينقض العهد.
(٦) أمالي المرتضى: ٢ ـ ١٤٠.

هدية! أما من صِلَة! فقال: إذا جاء هذا ذهب التوفيق. فشكوتُ إليه ما ألقى من عَذْل حليلةٍ لي إياي في طلب المعيشة، فقال: لستَ فيها بأَوْحد، وإني لَشريكُك، ولقد قلت في ذلك شِعْرًا، قلت: أنشِدْنيه، فأنشدني:

باتتْ تُعيّرني الإقتار والعَدَمَا ... لمّا رأتْ لأخيها المال والخَدَمَا
عُنُفٌ لرأيكِ ما الأرزاق من جَلَدٍ ... ولا من العجزِ بل مَقْسومة قسمَا
يا أمَةَ الله إني لم أدَعْ طلبًا ... للرزق ـ قد تعلمين ـ الشَّرْق والشأمَا
لو كان من جَلدٍ ذا المالُ أو أدَبٍ ... لكنتُ أكثرَ من نَمْل القُرَى نَعَما
أرضَى من العيش ما لم تحوجي مَعَهُ ... أن تَفْتحي لسؤال الأغنياء فَمَا
واستشعري الصبْر علّ الله خالقَنا ... يومًا سيكشِفُ عَنَّا الضُّر والعَدمَا
لا تُحوجيني إلى ما لو بذلتُ له ... نَفْسِي لأعْقَبك التهمامَ والندما
بالله سَرَّك أن الله خَوَّلني ... مَا كَان خَوَّله الأعراب والعجما
ما سرَّني أنّني خُوِّلتُ ذاك وَلَا ... ألّا أقولَ لِباغِي حاجةٍ نَعَما
وأنّني لم أُفِدْ عَقْلًا ولا أدبًا ... ولا إرثُ والدي مَجْدًا ولا كَرَمَا
فَعُسْرة المرء أحْرى في معاشِك مِنْ ... أمرٍ يجرُّ عليكِ الهمَّ والألَمَا

قال: فوالله ما أنشدْتُها زوجي حتى حَلَفتْ ألا تَعْذُلني أبدًا.

سَكَنت عَنِيَ والله الحُمَّى(١)

قال الأصمعي: نزلت ليلةً في وادي بني العَنْبَر؛ وهو إذْ ذاك غانٍ(٢) بأهله، فإذا فتيةٌ يريدون البصرة، فأحببت صُحبتَهم، وأقمتُ ليلتي تلك، وإني لَوَصِبٌ(٣) محمومٌ، أخاف ألّا أسْتَمْسك على راحِلتي، فلما أقاموا ليرحَلُوا أيقظوني، فلمَّا رأوا حالي حملوني، وركبَ أحدهم ورائي يُمْسكني، فلما أمعنوا السير تَنَادَوْا: ألا فتى يَحْدُو بنا أو ينشدنا؟ فإذا منشدٌ في سواد اللّيل يُنشد بِصوْتٍ ندٍ حزين:

لعمْرك إني يومَ بانوا فلم أَمُتْ ... خُفاتًا(٤) على آثارهمْ لصَبُور
غداة المُنقَّى(٥) إذ رميتُ بنظرةٍ ... ونحنُ على مَتْنِ الطريق نسيرُ

(١) أمالي المرتضى: ٢ ـ ١٤٢.
(٢) غان: آهل.
(٣) الوصب: المرض.
(٤) يقال: مات خفاتًا؛ أي فجأة.
(٥) المنقى: طريق للعرب إلى الشام؛ كان في الجاهلية يسكنه أهل تهامة.

فقلت لقلبي حينَ خفّ به الهوى — وكاد من الوجد المُبرّ[١] يطير:
فهذا ولمّا تمض للبين ليلةٌ — فكيف إذا مَرّتْ عليك شُهُورُ!
وأصبحَ أعلامُ الأحبة دُونها — من الأرضِ غَول[٢] نازِحٌ ومسير
وأصبحت نجديّ الهوى مُتْهِمَ النَّوى — أزيد اشتياقًا أنْ يَحِنَّ بعيرُ
عسى الله بعد النأي أن يُسعف النّوى — ويُجْمَعَ شملٌ بعدها وسرُورُ

قال: فسكنت والله عنّي الحمّى ما أحِسّ بها؛ وقلت لرفيقي: انزل يرحمك الله إلى راحلَتِك فإني مُتمَاسك، وجزاك الله عن الصحبة خَيْرًا!

عَجُوز تُنشد الأصمَعيّ شعرًا[٣]

قال الأصمعي: إني لفي سوق، وقد نزلتُ على رجلٍ من بني كِلَاب، كان متزوِّجًا بالبصرة؛ إذ أقبلت عجوز على ناقةٍ لها، حسنةُ البِزَّة، فيها باقي جمال، فأناخَتْ وعَقَلَتْ ناقَتها، وأقبلتْ تتوكّأُ على مِحْجَن[٤] لَهَا، فجلست قريبًا منّا، وقالت: هل من مُنْشد؟ فقلت للكلابي: أيحضرك شيء؟ قال: لا، فأنشدتُها شعرًا لبشر بن عبد الرحمٰن الأنصاري:

وقصيرةِ الأيام[٥] وَدَّ جَليسُها
لو باع[٦] مجلسَها بفَقْدِ حَمِيم
من مُخْذِيات[٧] أخي الهوى غُصَص الجوى
بدَلَال غانية ومُقْلة رِيم
صفراءُ من بَقَر الجِوَاء[٨] كأنمَا
خَفَرُ الحياء بها رُدَاعُ سقيمِ[٩]

---

(١) المبر: الشديد.
(٢) الغول: بعد الشقة.
(٣) أمالي المرتضى: ٢:١٣٨.
(٤) المحجن: العصا المعوجّة.
(٥) يريد: أن أيام جليسها تقصر، إذ أن أيام السرور موصوفة بالقصر.
(٦) باع: اشترى، وهو من الأضداد.
(٧) يقال: أحذيت الرجل؛ أعطيته.
(٨) الجواء: موضع.
(٩) الرداع: الوجع في الجسد، وكأنه أراد أنها منقبضة منكسرة من الحياء كما يتغير لون السقيم.

قال: فجثَتْ على ركبتيها، وأقبلتْ تَحرش[1] الأرضَ بمخجنها وأنشأتْ تقول:

قفي يا أميمَ القلبِ نقرأ تحيّةً ... ونَشْكُ الهوى ثم افعلي ما بدا لَكِ
فلو قلتِ: طَأْ في النار أعْلَمُ أنّهُ ... هَوًى لك أو مُدْنٍ لنا من نوالِكِ
لقدّمتُ رحلي نحوها فوطئتُها ... هُدًى مِنْكِ لي أو ضَلّةً من ضَلَالِك
سلي البانة العَلْيَاء بالأجرع الذي ... به البانُ هل حيّيْتُ أطْلَالَ دارِك؟
وهل قمتُ في أطلالِهن عشيّةً ... مقام أخي البأسَاءِ واخترتُ ذَلكِ؟
ليهنئك إمساكي بكَفي على الحَشَى ... ورقراق عيني خشيةً من زِيالك[2]

قال الأصمعي: فأظلمت عليّ والله الدنيا بحلاوة منطقها، وفصاحة لهجتها، فدنوتُ منها وقلت: أنشدتك الله لَما زدتني من هذا! فرأيت الضحك في عينها وأنشدت:

ومستخفياتٍ ليس يُخفين زُرْنَنا ... يسحُبْن أذيَال الصّبابة والشُّكل[3]
جَمَعْن الهوى حتى إذا مَا مَلَكْنهُ ... نزعْن وقد أَكْثرنَ فينَا من القَتْل
مريضات رجع الطَّرف خُرْس عن الخنا ... بخَتْلِ ذوي الألباب بالجدِّ والهَزْلِ
يعنِّفُني العُذَّال فيهن، والهَوَى ... يحذِرُني من أن أطيعَ ذوي العَذْلِ

الأصمَعيّ وَبعض الأعرَاب[4]

قال بعض الرواة: كنا مع أبي نصر راوية الأصمعي، في رياض من المذاكرة، نَجتْنِي ثمارها، ونَجْتَلِي أنوارها، إلى أن أفضنا في ذكر أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، فقال: رحم الله الأصمعي! إنه لمعدنُ حِكَم، وبحرُ علم، غيرَ أنه لم نرَ قط مثل أعرابي وقف بنا فسلّم، فقال: أيكم الأصمعي؟

(١) تحرش الأرض: تخدشها. (٢) الزيال: المفارقة.
(٣) الشكل (بالفتح والكسر): دل المرأة وغزلها. (٤) زهر الآداب: ٢ ـ ١٠٠.

فقال: أنا ذاك! فقال: أتأذنون بالجلوس؟ فأذنا له، وعجبنا من حُسن أدَبه، مع جفاء أدب الأعراب!

قال: يا أصْمعي؛ أنت الذي يزعمُ هؤلاء النفر أنك أثقبُهم معرفة بالشعر والعربية، وحكايات الأعراب! قال الأصمعي: منهم مَنْ هو أعلم مني، ومَنْ هو دوني!

قال: أفلا تنشدني من بعض شعر أهل الحضر حتى أقيسه على شعر أصحابنا! فأنشده شعرًا لرجل امتدح به مسلمةَ بن عبد الملك:

أمسلمَ أنت البحر إن جاء واردٌ ... وليثٌ إذا ما الحرب طار عُقابها[1]
وأنت كسيف الهندوانيّ[2] إن غَدَتْ ... حوادثُ من حرب يعبُّ عُبابها
وما خُلقت أُكرومة[3] من امرىء له ... ولا غاية إلّا إليك مآبُها
كأنك ديّانٌ عليها مُوكَّلٌ ... بها، وعلى كفّيك يجري حِسَابُها
إليك رحلنا العِيسَ[4] إذ لم نجد لها ... أخا ثقة يُرجى لديه ثوابُها

فتبسَّم الأعرابي، وهزّ رأسه؛ فظننَّا أن ذلك لاستحسانه الشعر، ثم قال: يا أصمعي! هذا شعرٌ مُهَلْهلٌ، خَلَق النسج، خطؤه أكثرُ من صوابه، يغطي عيوبه حسنُ الرَّوِي ورواية المنشد! يشبهون الملك إذا امْتُدِح بالأسد، والأسد أمْخر شتيم[5] المنظر، وربما طرده شِرْذِمَة من إمَائِنا، وتَلَاعَب به صِبْيانِنا! ويشبهونه بالبحر، والبحرُ صعبٌ على مَنْ رَكبه، مُرٌّ على مَنْ شربه! وبالسيف، وربما خان في الحقيقة، ونبا عن الضريبة! ألا أنشَدْتني كما قال صبيٌّ من حيّنا!

قال الأصمعي: وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده:

الموت يكره أن يلقى منيَّته ... في كرِّه عند لفِّ الخيلِ بالخيلِ
وراحم الشمسَ أبْقى الشمس كاسفة ... أو راحم الصمَّ ألجَاها إلى الميْلِ
أمْضَى من النجم إنْ نَابَتْهُ نائبةٌ ... وعند أعدائه أجْرَى من السيلِ

---

(١) طار عقابها: كناية عن اشتداد الحرب.
(٢) الهندواني: منسوب إلى رجال الهند.
(٣) الأكرومة: فعل الكرم.
(٤) العيس: الإبل يخالط بياضها شقرة.
(٥) شتيم: كريه.

لا يستريح إلى الدنيا وزينتها ولا تراه إليها صاحبَ الذيْلِ
بقصر المجدُ عنه في مكارِمِه كما يقصّر عن أفعاله قولي!

قال أبو نصر: فأبهَتَنَا والله ما سَمِعْنا من قوله.

ثم قال الأعرابي: ألا تنشدني شعرًا ترتاح إليه النفس، ويسكن إليه القلب؟ فنشده لابن الرِّقاع العاملي:

وناعمةٍ تجلو بعودِ أراكةٍ مؤشّرَة[1] يَسْبي المُعانقَ طيبُها
أراك إلى نجدٍ تَحِنُّ وإنما مُنَى كلِّ نفسٍ حيثُ كان حبيبُها

فتبسم الأعرابي، وقال: يا أصمعي؛ ما هذا بدون الأول، ولا فوقه؛ ألا أنشدتني كما قلتُ؟ قال الأصمعي: وما قلتَ جُعِلْتُ فداك! فأنشده:

تعلّقْتها بِكْرًا وعُلّقْتُ حبها فقلبي عن كل الورى فارغٌ بكرُ
إذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها وتكفيك ضوءَ البدر إن حُجِب البدر
وما الصبر عنها ـ إن صبرتَ ـ وجدته جميلًا، وهل في مثلها يَحْسُن الصبرُ!
ولو أن جلد الذر[2] لامسَ جلدها لكان لِمَسِّ الذرّ في جلدها أثْرُ

فقال لنا الأصمعي: اكتبوا ما سمعتم، ولو بأطراف المُدى في رقاق الأكباد. وأقام عندنا شهرًا؛ فجمع له الأصمعي خمسمائة دينار! وكان يتعاهدُنا في الحين بعد الحين، حتى مات الأصمعي وتفرّق أصحابنا!

شِعْرٌ مُرتَجَل[3]

جلس جعفر بن يحيىٰ بالصَّالِحِيَّة، يشرب على مُسْتَشْرَف له فجاءه أعرابي من بني هلال، فاشتكى واسْتَماح[4] بكلام فصيح، ولفظٍ مثلُه يعطف المسؤول.

فقال له جعفر: أتقول الشعر يا هلاليّ؟ فقال: كنت أقوله وأنا حَدَثٌ أتملّحُ به، ثم تركته لمَّا صرتُ شيخًا، قال: فأنشِدْنا لشاعركُم حُميد بن ثور، فأنشده قوله:

لِمَن الديار بجانب الْخَمْسِ كمحطّ ذي الحاجاتِ والنّفس

(١) تأشير الأسنان: تحزيزها.
(٢) الذر: صغار النمل.
(٣) الأغاني ١٧ ـ ٢ (طبعة الساسي).
(٤) استماح: طلب العطاء.

حتى أتى على آخرها ـ وكان أشجَع السُّلَميّ حاضرًا المجلس ـ فاندفع يُنشد مديحًا في جعفر، قاله لوقته على الوزن والقافية:

ذهَبتْ مكارم جعفرٍ وفعَالُه ... في الناس مثلَ مذاهب الشمس
ملك تسوسُ له المعالي نفسه ... والعقل خير سياسة النَّفْسِ
فإذا تراءته الملوك تَرَاجَعُوا ... جهر الكلام بمنطق هَمْس
سَادَ البرامك جعفرٌ وهمُ الألى ... بعد الخلائف سادةُ الأنسِ

فقال له جعفر: صِفْ موضعنا، فقال:

قُصُور الصالحية كالعذارَى ... لبِسْنَ ثيابَهُنَّ ليوم عُرْسِ
مُطِلَّاتٌ على بَطْنٍ كستْهُ ... أيادي الماء وشْيًا نسج غَرْسِ
إذا مَا الطَّل أثَّرَ في ثراهُ ... تنفَّسَ نَوْرُه من غير نَفْسِ
فتغْبقُه[1] السماء بِصبْغ وَرْسٍ ... وتَصْبَحُهُ بأكْؤُس عين شمس

فقال جعفر للأعرابيّ: كيف ترى صاحبنا يا هلالي؟ فقال: أرى خاطرَه طوع لسانه، وبيان الناس تحت بيانه، وقد جعلتُ له ما تَصِلُني به؛ فقال: بل نصلك يا أعرابيّ ونرضيه، وأمر للأعرابي بمائة دينار؛ ولأشجع بمائتين.

هوّنت عَلى العَزْل[2]

ولّى الرشيد جعفر بن يحيىٰ خُراسان، فدخل عليه الناسُ يُهنئونه، ثم دخل عليه الشعراءُ، فقام أشجع السلمى آخرهم، واسْتَأْذن في الإنشاد، فأُذنَ له فأنشد:

أتصبرُ للبيْن أم تجزَعُ ... فإنّ الديارَ غدًا بلْقَعُ
غدًا يتفرّق أهلُ الهوى ... ويكثُر باكٍ ومُسْترجِعُ
وتَفنى الطلُول ويبْقَى الهوى ... ويَصْنَعُ ذو الشوق ما يَصْنَعُ

حتى انتهى إلى قوله:

ودَوِّيَّةٍ[3] بين أقطارها ... مقاطيعُ أرضينَ لا تُقطعُ

(١) الغبوق: شراب العشي، والصبوح: شراب الصباح.
(٢) الأغاني: ١٧ ـ ٧ (طبعة الساسي). (٣) الدوية: الفلاة.

تـجـاوزتُـهـا فـوق رَيـعَـانَـةٍ[١] مـن الـريـح فـي سـيـرِهـا أسـرَعُ
إلـى جـعـفـرٍ نـزعـث رغـبـةٌ وأي فـتـى نـحـوَه تـنـزعُ!
فـمـا دونـه لامـرِىء مـطـمَـعٌ ولا لامـرىء غـيـرِه مَـقْـنَـعُ
ولا يـرفـعُ الـنـاسُ مَـنْ حـطَّـه ولا يـضـعـون الـذي يـرفَـعُ
يـريـد الـمـلـوكُ مَـدَى جـعـفَـرٍ ولا يـصـنَـعُـون كـمـا يَـصْـنَـعُ
تـلـوذُ الـمـلُـوك بـأبـوابِـهِ إذا نـالـهـا الـحَـدَثُ الأفـظَـعُ
بـديـهـتُـه مـثـلُ تَـدبـيـره مـتـى رُمْـتَـه فـهـو مـسـتـجـمـعُ
وكـم قـائـلَ إذْ رأى ثـروتـي، ومـا فـي فـضـول الـغِـنَـى أصْـنَـعُ
غَـدا فـي ظِـلَال نَـدَى جـعـفـرٍ يـجـرُّ ثـيـابَ الـغِـنـى أشْـجـعُ
فـقـل لـخـراسـانَ: تَـحـيَـا فَـقَـدْ أتاها ابنُ يحيىٰ الْفتى الأرْوَعُ[٢]

فأقبل عليه جعْفَرٌ ضاحكًا، واستحسن شعرَه، وجعل يخاطِبُه مُخَاطبة الأخ أخاه، ثم أمَرَ له بألف دينار.

قال الراوي: ثم بدا للرَّشيد في ذلك التدبير، فعزل جعفرًا عن خُراسَان بعد أن أعطاه العهد والكتاب. وعقد له العقْد، وأَمَر ونَهَى، فوجم لذلك جعفر، فدخل عليه أشجع وقال:

أمْـسَـتْ خُـراسـانُ تُـعَـزَّى بـمـا أخـطـأهـا مـن جـعـفـر الـمـرتـجـى
كـان الـرشـيـدُ الـمـعـتـلـى أَمْـرُه ولـي عـلـيـه الـمُـشـرِقَ الأبـلـجـا
ثـــم أراه رأيُـــه أنـــه أمْـسَـى إلـيـه مـنـهـمُ أحـوجـا
فـكَـمْ بـهِ الـرحْـمَـٰن مـن كُـرْبـةٍ فـي مـدة تَـقْـصـر قـد فـرجـا

فضحك جعفر وقال: لقد هوَّنت على العَزل، وقمتَ لأمير المؤمنين بالعذْر؛ فسلْني ما شئت، فقال: قد كفاني جودُك ذِلة السؤال، فأمر له بألف دينار أخرى.

(١) الريعانة: الناقة الكثيرة اللبن.
(٢) الأروع: مَن يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته.

أرَى الأيّام لَا تُدنِي الذي ارتَجى(١)

قال محمد بن أمية: كنت جالسًا بين يدي إبراهيم بن المهدي، فدخل إليه أبو العتاهية، وقد تَنَسّك ولَبِس الصوف، وترك قولَ الشعر إلا في الزهد. فرفعه إبراهيم، وسُرَّ به، وأقبل عليه بوجهه.

فقال له أبو العتاهية: أيها الأمير؛ بلغني خبرُ فَتًى في ناحِيتك ومن مواليك يُعرف بابْن أمية، يقول الشعر، وأنشدتُ له شعرًا فأعجبني، فما فعل! فضحك إبراهيم، ثم قال: لعلّهُ أقربُ الحاضرين مجلسًا منك.

فالتفت إليَّ فقال: أنت هو فَدَيْتُكَ؟ فقلت له: أنا محمد بن أمية جُعِلْتُ فداءك! وأما الشعر فإنما أنا شاب أعبَثُ بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبَثُ الشاب. فقال لي: فَديتك؛ ذاك واللهِ زمانُ الشعر وإبّانُه، وما قيل فيه فهو غُرَرُه وعيونُه، وما زَال يُنشطني ويؤنِسُني حتى رأى أني قد أنِستُ به.

ثم قال لإبراهيم بن المهدي: إنْ رَأى الأمير ـ أكرمَهُ الله ـ أن يأمرَه بإنْشَادي ما حضر من الشعر! فقال لي إبراهيم: بحياتي يا محمد أنشده، فأنشدته:

رُبَّ وعْدٍ منك لا أنساه لي ... أوجبَ الشكرَ وإن لم تَفْعلِ
أقطعُ الدهرَ بظنٍّ حسن ... وأُجَلِّي غمرةً ما تَنْجَلِي
كلما أمّلتُ يومًا صالحًا ... عَرَضَ المكروهُ لي في أمَلِي
وأرى الأيّامَ لا تُدنِي الذي ... أرْتَجِي منك وتدني أجَلِي

فبكى أبو العتاهية حتى جرت دموعه على لحيته، وجعل يردِّد البيت الأخيرَ منها وينتحب، وقام فخرج وهو يردِّده ويبكي، حتى خرج إلى الباب!

حَديثٌ عَن دِعْبِل(٢)

قال عمرو بن مَسْعَدة: حضرتُ أبا دُلَف عند المأمون ـ وقد قال له: أيَّ شيء تَرْوِي لأخي خُزاعة؟ فقال: وأيّ خُزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال: ومَنْ تعرف فيهم شاعرًا؟ فقال: أمّا مِنْ أنفسهم؛ فأبو الشِّيص ودِعْبل وابن أبي الشِّيص، وداود ابن أبي رَزِين؛ وأمّا من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله.

---

(١) الأغاني: ١١ ـ ٣٠ (طبعة الساسي). (٢) الأغاني: ١٨ ـ ٤٤ (طبعة الساسي).

فقال: ومَنْ عسى في هؤلاء أن يُسأَل عن شعره سوى دعبل! هات؛ أي شيء عندك فيه؟ فقال: وأيّ شيء أقول في رجل لم يترك أهلَ بيته حتى هَجاهم، فَقَرَن إحسانَهم بالإساءة، وبذْلَهم بالمنع، وجودَهم بالبخل، حتى جعل كل حسنةٍ منهم بإزاء سيئة! قال: حين يقول ماذا؟ قال: حين يقول في المطلب بن عبد الله بن مالك ـ وهو أصدقُ الناسِ له، وأقربُهم منه: وقد وفد إليه في مصر، فأعطاه الجزيل، وولّاه؛ ولم يمنعه ذلك أن قال فيه:

اضرِبْ نَدَى طَلْحَة الطَّلْحَات مُتّئِدًا ... بلؤم مُطَّلِبٍ فينا وكُنْ حَكما
تَخْرج خُزاعة من لؤم ومن كَرَم ... فلا تحِسّ له لؤمًا ولا كرمَا

فقال المأمون: قاتله الله! ما أغْوَصَه وألطفه وأذهاه! وجعل يضحك.

ثم دخل عبدُ الله بن طاهر، فقال له: أيّ شيء تحفظ يا عبدَ الله لدِعبل؟ فقال: أحفظُ أبياتًا له في أهل بيت أمير المؤمنين، قال: هاتِها، ويحك! فأنشده عبد الله قولَه:

سَقْيًا وَرَعيًا لأيام الصبَّاباتِ ... أيامَ أَرْفُلُ في أثوابِ لذَّاتي
أيام غُصْني رطِيبٌ من لَيَانَتِه ... أَصْبو إلى غير جارات وكَنَّاتي[١]
دَعْ عنك ذكر زَمانٍ فَاتَ مطلبُه ... واقذفْ برحْلِك عَنْ مَتن الجَهَالاتِ
واقْصِدْ بكل مديحٍ أنت قائلُه ... نحو الهداة بني بيت الكراماتِ

فقال المأمون: إنه قد وجد والله مقالًا فقال: ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله في وصف غيرهم.

ثم قال: لقد أحْسَنَ في وصف سفَرٍ سافَرَه، فطال ذلك السفرُ عليه، فقال فيه:

ألم يَأْنِ[٢] للسَّفْرِ الذين تحمَّلوا ... إلى وطن قبل المماتِ رجوعُ؟
فقلتُ ـ ولم أَمْلِكْ سوابِقَ عَبْرَةٍ: ... نَطَقْنَ بما ضُمَّتْ عليه ضلوعُ[٣]
تَبَيَّنْ فكم دار تفرَّقَ شملُها ... وشملٍ[٤] شتيتٍ عادَ وهو جميعُ

(١) الكنة: امرأة الابن أو الأخ. (٢) يأن: يقرب ويحضر. والسفر: المسافرون.
(٣) العبرة: الدمعة، وما ضمت عليه الضلوع: الحزن والشوق إلى الوطن والأهل.
(٤) الشمل: ما اجتمع من أمر أو ما تفرق منه، والشتيت: المتفرق، والجميع: المجتمع.

كذاكَ اللّيَالي صَرْفُهُنّ[١] كما ترى ... لـكـل إنـاس جَـذبـةٌ وربـيـعُ[٢]

ثم قال: ما سافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهِجِّيراي ومسلِّيتي حتى أعودَ!

دِعْبِل عِندَ وَالِي مصر[٣]

قال دِعْبَل بن علي: حججتُ أنا وأخي رَزِين، وأخذنا كتبًا إلى المطَّلِب بن عبدِ الله بن مالك، وهو بمصر يتولّاها.

فصِرْنا من مكة إلى مصر، فصحبنا رجلٌ يعرف بأحمد بن السرّاح، فما زال يحدِّثُنا ويؤنسنا طولَ طريقنا، ويتولّى خِدْمَتنا، كما يتولّاها الرُّفقاء والأتباع، ورأيناه حَسَن الأدب - وكان شاعرًا ولم نعلم - وكتَمَنا نَفْسَهُ، وقد علم ما قصدنا له؛ فعرضنا عليه أن يقول في المطلب قصيدةً نَنْحَلُهُ إياها، فقال: إن شئتمْ، وأرانا بذلك سرورًا وتقبُّلًا له، فعملنا قصيدة، وقلنا له: تُنْشِدُها المطلب، وإنك تنتفع بها، قال: نعم.

ووَرَدْنا مِصْرَ به، فدخلنا إلى المطلب، وأوصلنا إليه كتبًا كانتْ معنا، وأنشدناه، فسُرَّ بموضعنا ووصفنا له أحمد بن السرّاج هذا، وذكرنا له أمره، فأذن له، فدخل عليه، ونحن نظنُّ أنه سيُنْشِدُه القصيدة التي نحلْناه إياها، فلما مَثَل بين يديه عَدَل عنها وأنشده:

لـم آت مُـطَّـلِبًـا إلّا بـمـطَّـلـب ... وهـمـةٍ بـلغـت بـي غـايـةَ الـرتـب
أفـردتُـه بـرجـاءٍ أن تـشـاركـه ... فيَّ الوسائل أو ألقاه في الكتب
رحَلتُ عيسى إلى البيت الحرام على ... ما كان من وَصَبٍ فيها ومن نَصَبَ
ألْقى بها وبوجهي كلَّ هاجرة[٤] ... تكاد تَقْدَحُ بين الجلد والعَصَب
حتى إذا ما قضت نسكي ثنيتُ لها ... عَطْفَ[٥] الزِّمام فأمّت سيدَ العرب
فـأمّـمَـتْـكَ[٦] وقد ذابتْ مفاصلُها ... من طول ما تعبٍ لاقت ومن نقَبِ[٧]

---

(١) صرف الليالي: أحداثها.
(٢) جدبة وربيع: حالتا خير وشر.
(٣) الأغاني: ١٨ - ٤٧ (طبعة الساسي).
(٤) الهاجرة: إنما تكون في القيظ نصف النهار.
(٥) عطف الشيء: جانبه.
(٦) يقال: أمه وأممه يعني قصده.
(٧) نقب البعير: إذا حفي.

فصاح مُطّلب: لبيك لبيك! ثم قام إليه، فأخذه بيده وأجلسه معه، وقال: يا غلام؛ البِدَر[١] فأُحضرَت، ثم قال: الخلَع، فنشرتْ، ثم قال: الدوابّ، فقِيدَتْ، فأمر له من ذلك بما ملأ عينَه وأعيننا وصدورنا، وحسدناه عليه؛ وكان حسدُنا له بما اتّفَقَ له من القَبُول وجودة الشعر، وغيظُنا بكتمه إيانا نفسه واحتيالِه علينا أكثر وأعظم، فخرج بما أمر له، وخرجنا صِفرًا.

قال الراوي: ومكث دعبل أيامًا، ثم ولّاه المطلب أسْوان، ولكن دعبلًا كان قد هجاه غيظًا منه فقال:

أمطّلبٌ أنت مستعذبٌ ... حُمَيًّا[٢] الأفاعي ومستقتلُ
ستأتيك إمّا وَرَدْتَ العراق ... صحائفُ يأثِرُها دِعبِلُ
مُنَمَّقَةٌ بين أثنائها ... مخازٍ تُخَطُّ فلا ترحَلُ
وضعْتَ رجالًا فما ضرَّهُمْ ... وشرَّفتَ قومًا فلم ينبُلوا[٣]
إذا الحربُ كنتَ أميرًا لها ... فحظّهمُ منك أن يُقْتَلُوا
شِعَارُك في الحرب يوم الوَغَى ... إذا انْهَزَمُوا: عجِّلوا عجِّلوا!
هزائِمُكَ الغُرُّ مشهورة ... يُقَرْطِسُ[٤] فيهنَّ مَنْ يَنْضِلُ
فأَنْتَ إذا ما التقوا آخرٌ ... وأنت إذا انهزموا أولُ[٥]

وبلغ المطلبَ هجاؤه إياه بعد أن ولّاه؛ فعزله عن أسوان، وأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له، وقال: انتظره حتى يصعد المِنْبر يوم الجمعة، فإذا علاه فأَوْصل الكتابَ إليه، وامنعه من الخطبة وأنزِله عن المنبر، واصعد مكانه؛ فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكتاب، فقال له دِعْبِل: دعني أخطب فإذا نزلتُ

---

(١) البدر: جمع بدرة (بفتح الباء) وهي عشرة آلاف.
(٢) الحميا من كل شيء: شدته.
(٣) روى هذا البيت:
وعاديت قومًا فما ضرهم ... وقدمت قومًا فلم ينبلوا
(٤) قرطس: أصاب القرطاس، أي الغرض.
(٥) قال دعبل: قال لي المطلب: ما تفكرت في قولك قط:
إن كاثرونا جئنا بأسرته ... أو واحدونا جئنا بمطلب
إلا كنت أحب إلي، ولا تفكرت والله في قولك لي:
وعاديت قومًا فما ضرهم ... وقدمت قومًا فلم ينبلوا
إلا كنت أبغض الناس إليّ.

قرأتُه، قال: لا، قد أمرني أن أمنعَك الخطبة حتى تقرأه. فقرأه، وأنزله عن المنبر معزولًا.

دَعْبِل وَعَليّ الرِّضَا[١]

قال دِعْبِل بن علي: دخلتُ على عليّ بن موسى الرضا ـ عليه السلام فقال لي: أَنشِدْني شيئًا ممّا أحدثتَ، فأنشدته:

مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوَةٍ ... ومنزل وَحْيٍ مُقْفِر العَرَصَاتِ
لآل رسول الله بالخَيْفِ من منًى ... وبالرُّكْنِ والتَّعْريف والجَمَرَاتِ
ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ ... وحمزة والسجّاد ذي الثَّفِنَات

حتى انتهيتُ إلى قولي:

بنفسيَ أنتمْ من كهولٍ وفتيةٍ ... لفكِّ عُنَاةٍ أو لحَمْلِ دِيَاتِ
أحبّ قصيّ الرّحْم من أجل حبّكم ... وأهجرُ فيكم أُسْرَتي وبناتي
وأكتُمُ حُبِّيكمْ مخافةَ كاشحٍ ... عنيدٍ لأهل الحقِّ غيْرِ مُوَاتِ
لقدْ حَفَّتِ الأيّامُ حولي بشرِّها ... وإني لأرجو الأمْنَ بعد وفاتي
ألَمْ تَرَ أنّي من ثلاثين حِجّةً ... أروحُ وأغدو دائم الحسراتِ
أرى فيئَهُمْ في غيرِهم متقسَّما ... وأيديهمُ من فَيْئِهِمْ صَفِراتِ
فآلُ رسول الله نحفٌ جسومُهمْ ... وآل زياد حُفَّلُ القَصَرَاتِ[٢]
إذا وُتروا[٣] مَدُّوا إلى أهل وِتْرِهِمْ ... أكفًا عن الأوتار منقبضاتِ

فبكى حتى أغمي عليه، وأومأ إليّ خادم كان على رأسه: أن اسكت، فسكتُّ ساعة. ثم قال لي: أعِدْ، فأعدتُ حتى انتهيتُ إلى آخرها، فقال لي: أحسنتَ، ثلاث مرات، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم مما ضُرِب باسمه، ولم تكن وقعتْ لأحدٍ بعد، وأمر لي مَنْ في منزله بحلّي كثير أخرجه الخادمُ إليّ.

---

(١) الأغاني: ١٨ ـ ٤٢ (طبعة الساسي)، معجم الأدباء ١١، ١٠٨.
(٢) القصرات: جمع قصرة (بالتحريك) وهي أصل العنق، وحفل: ممتلئة، والمعنى أن أعناقهم مملوءة غلظة من طول النعيم.
(٣) الوتر: الثأر، أو الظلم فيه، والمقصود: أنهم إذا اعتدى عليهم لا يستطيعون رد الاعتداء.

فقدِمتُ العراق، فبعتُ كلّ درهم منها بعشرة دراهم، اشتراها منِّي الشيعة، فحصل لي مائة ألف درهم، فكان أول مالٍ اعتقدته(١).

قال حُذيفة بن محمد: ثم استوهب دِعْبل من الرضا ثوبًا قد لبسه ليجعلَه في أكفانه، فخلع جُبَّةً كانت عليه، فأعطاها إياها، وبلغ أهلَ قُمّ خبرُها، فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم فلم يفعل، فخرجوا عليه في طريقه، فأخذوها منه غصْبًا، وقالوا له: إن شئتَ أن تأخذ المال فافعل، وإلا فأنت أعلم، فقال لهم: إني والله لا أعطيكم إياها طوعًا، ولا تنفعكم غصبًا، وأشكوكم إلى الرضا؛ فصالحوه على أن أعطَوْه ثلاثين ألف درهم، وفَرْدَ كُمٍّ من بِطانتها، فرضي بذلك!

سَجَدُوا لشِعْرِهِ(٢)

حدّث دِعْبِل الشاعر: أنه اجتمع هو ومُسْلِم وأبو الشِّيص وأبو نُواس في مجلس، فقال لهم أبو نواس: إن مجلسَنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم ما بعده، فليأتِ كلُّ واحدٍ منكم بأحسنِ ما قال فليُنْشِده، فأنشد أبو الشِّيص:

وَقَف الهوى بي حيثُ أنتِ فليس لي ... متأخَّر عنه ولا متقدَّمُ
أجد المَلامَةَ في هواكِ لذيذة ... حبًّا لذكرك فليَلُمْنِي اللُّوّم
وأهنتِنِي فأهنتُ نفسي صاغرًا ... ما مَنْ يهون عليك ممن يُكْرَمُ!
أشبهت أعدائي فصرتُ أُحبُّهمْ ... إذا كان حظِّي منك حظِّيَ منهمُ

فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه، ثم أنشد مسلم أبياتًا من شعره الذي يقول فيه:

فأقْسَمْتُ أنْسَى الداعيات إلى الصبا ... وقد فاجأتها العينُ والستر واقِع
فغطَّت بأيديها ثمارَ نحورها ... كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

قال دِعبل: فقال لي أبو نواس: هات أبا علي، وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة فأنشدته:

أينَ الشبابُ؟ وأيَّةً سلَكا؟ ... أم أين يطلب؟ ضلّ بَلْ هلكا

---

(١) اعتقدته: اقتنيته.

(٢) العقد الفريد: ٤ ـ ٢، مهذب الأغاني: ٧ ـ ٢٢٤، ديوان مسلم: ٢٠٩ (طبعة أوربا).

لا تَعْجَبي يا سَلْمُ من رجلٍ ضحِكَ المشيبُ برأسه فبكى
يا ليت شعري كيف صَبْرُكما يا صاحبيْ إذا دَمِي سُفِكا!
لا تطلبا بظُلامتي[1] أحدًا قلبي وطَرْفي في دمي اشتركا

ثم سألنا أبا نواس أن يُنْشد، فأنشد:

لا تَبْكِ هندًا ولا تطرب إلى دَعْدِ واشرب على الوِرْد[2] من حمراء كالوَرْدِ
كأسًا إذا انحدرتْ في كفّ شاربها أخذت بحمرتها في العينِ والخدِّ
فالخمر ياقوتةٌ، والكأسُ لؤلؤةٌ في كفّ جاريةٍ ممشوقةِ القدِّ
تَسقيك من عينها خمرًا ومن يدها خمرًا، فما لك من سُكْرَيْنِ من بُدِّ
لي نشوتان وللنُّدمان واحدةٌ شيء خصصت به من بينهم وَحْدي

فقاموا كلهم، فسجدوا! فقال: أفعلتموها أعجمية؟ لا كلمتكم ثلاثًا.

إنّما الدّنيا أبو دُلَف[3]

قال المأمون يومًا لبعض جلسائه: أُقسم على مَنْ حَضَرَ مِمَّن يحفظُ قصيدة عليّ بن جَبَلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلّا أنشدها؛ فقال بعضُ الجلساء: قد أقسم أميرُ المؤمنين، ولا بدّ من إبْرار قَسمه، وما أحفظها، ولكنها مكتوبة عندي. قال: قم فجئني بها. فمضى وأتاه بها، وأنشده:

ذادَ وِرْدَ الغيِّ عن صَدَرِهْ وارْعَوَى واللهْوُ مِنْ وطَرِهْ
وأبَتْ إلا البكاء له ضحكات الشيب في شعرهْ
نَدمي أن الشباب مَضَى لم أبلّغه مَدَى أشَرهْ

---

(١) الظلامة: ام احتمله من الظلم، والمراد هنا موته عشقًا من أثر النظر بعينه والحب بقلبه.
(٢) الورد: الماء الذي يورد.
(٣) الأغاني: ٨ ـ ٢٥٩ (طبعة دار الكتب).

حَسَرَتْ عنِّي بشاشتُه وذَوَى المحمودُ من ثمرِهْ
ودمٍ أهدرتُ من رَشَإٍ لم يُرِدْ عَقْلًا على هَدَرِهْ
دَعْ جَدًا قحطان أَوْ مُضرٍ في يمانِيهِ، وفي مُضرِهْ
وامتدحْ من وائلٍ رجلًا عُصُرَ الآفاق في عُصرِهْ
المَنَايَا في مَقَانِبِهِ[1] والعطايا في ذَرَا حُجَره
مَلِكٌ تَنْدَى أنامِله كانبلاجِ النَّوْء عن مَطَرِهْ
مستهِلٌّ عن مواهِبِهِ كابتسام الرَّوْض عن زَهَرِهْ
جَبَلٌ عزَّتْ مناكِبُه أَمِنَتْ عَدْنانُ في نَفَرِهْ
إنما الدنيا أبو دُلَفٍ بين مَبْدَاهُ ومحتضرِهْ
فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ ولَّتِ الدنيا على أثرِهْ
كلُّ مَنْ في الأرض من عَرَبٍ بين باديهِ إلى حَضرِهْ
مستعير منه مكْرُمَةً يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِهْ

فغضب المأمون واغتاظ، وقال: لستُ لأبي إن لم أقطعْ لسانه أو أسفك دمه. ثم قال: اطلبوه حيث كان؛ فطُلب فلم يقدر عليه. ولما اتّصَلَ به الخبر هرَبَ إلى الجزيرة، فكتب إلى الآفاق في طلبه، فهرب من الجزيرة إلى الشام، وظفروا به هناك، وأُخِذَ وحُمِلَ إلى المأمون.

ولما وصل إليه سبّه، وقال له: أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كلُّ مَنْ في الأرض من عَرَبٍ بين باديه إلى حَضرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمة يكتسيها يوم مفتَخره

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه! فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ أنتم أهل بيت لا يُقَاس بكم أحدٌ؛ لأن الله جلَّ وعزَّ فضّلكم على خلقه، واختاركم لنفسه، وإنما عنيت بقولي في القاسم أشكالَ القاسمِ وأقرانَه، فقال: والله ما استثنيتَ أحدًا، ولست استحلّ دمك لذاك، ولكني أستحلّه بقولك وكفْرك في شعرك، حيث تقول

(١) المقانب: جمع مقنب؛ وهو جماعة الخيل تغير.

القول الذي أشركت فيه:

أنتَ الذي تُنْزِل الأيام مَنزلها وتَنْقُلُ الدهر من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مَدَى طرْفٍ إلى أحدٍ إلا قضيْتَ بأرزاقٍ وآجالِ

كذبت... ما يقدر على ذلك أحدٌ إلا الله عزّ وجلّ، الملك الواحد القهار، ثم أمر بعقابة!

مِدحَة شاعِر وَعَطِية أمير[١]

قال عليّ بن جَبَلة: زرتُ أبا دُلَفٍ بالجبل[٢]، فكان يُظْهِر من إكرامِي وبرّي والتحفّي[٣] بي أمرًا مفرطًا، حتى تأخّرت عنه حينًا حياءً؛ فبعث إليّ مَعْقِلَ بن عيسى، فقال: يقول لك الأمير: قد انقطعت عنّي وأحسبك استقللتَ برِّي بك، فلا يغضبنّك ذلك فسأزيد فيه حتى ترضى. فقلت: والله ما قطعني إلا إفراطُه في البر، وكتبتُ إليه:

هجرتُكَ لم أهجُرْكَ من كفرِ نعمةٍ وهل يُرْتَجى نيلُ الزيادةِ بالكفرِ!
ولكنني لما أتيتُك زائرًا فأفرطتَ في برّي عجزتُ عن الشكر
فَمِلْآن[٤] لا آتيك إلّا مسلِّمًا أزورُك في الشهرين يومًا أو الشهرِ
فإن زدتَني برًّا تزايدتُ جفوةً ولم تلقني طولَ الحياةِ إلى الحشْر!

فلما قرأها مَعقل استحسنها، وقال: أحسنتَ والله! أما إن الأمير لتعجبُه هذه المعاني.

فلما أوصلها إلى أبي دُلَف قال: قاتله الله! ما أشعره وأدقّ معانيَه! وأعجبتْه وأجابني لوقته ـ وكان حسن البديهة حاضر الجواب:

ألَا ربّ ضيفٍ طارقٍ قد بَسَطتُه وآنستُه قبل الضِّيافةِ بالبِشْرِ
أتاني يرجِّيني فما حال دونه ودون القِرَى والعُرْف من نائلي سِتْري
وجدتُ له فضلًا عليَّ بقصْدِه إليَّ، وبرا زاد فيه على برّي
فزوَّدته مالًا يقل بقاؤه وزوَّدني مدحًا يدوم على الدَّهْرِ

(١) الأغاني: ٧ ـ ٢٥٦ (طبعة دار الكتب).
(٢) بلاد الجبل: مدن بين أذربيجان والعراق.
(٣) تحفّى به: بالغ في أكرامه.
(٤) يريد فمن الآن.

وبعث إليّ بالأبيات مع وصيف له، وبعث إليّ بألف دينار؛ فقلت حينئذٍ:

إنما الدنيا أبو دُلف بين مبداه ومحتضره

بَين أبي تَمام وَعَبد الله بن طَاهِر[(١)]

لما شَخَص أبو تمام إلى عبدِ الله بن طاهر وهو بِخُراسان، أقبل الشتاء وهو هناك: فاستثْقَل البلد، وكان عبد الله وَجِد عليه، وأبطأ بجائزته؛ لأنه نثر عليه ألف دينار، فلم يمْسَسْها بيده ترفعًا عنها، فقال: يحتقر فعلي، ويترفّع عليّ! فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء كالقوت. فقال أبو تمام:

لـم يـبْـقَ لـلصَّـيْـفِ رسْـمٌ ولا طَـلَـلُ ولا قشيبٌ فَيُسْتَكْسى ولا سَملُ
عدلٌ من الدمع أن يَبْكِي المصيفَ كما يُبكَى الشبابُ ويُبكَى اللَّهوُ والغَزَلُ
يمْنَى الزمانِ انْقضَى معروفُها وغَدَتْ يُسْراه وَهْيَ لنا من بعدها بَدَلُ

فبلغت الأبيات أبا العميثل شاعرَ آلِ طاهر، فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبد الله بن طاهر.

ثم دخل إلى عبد الله فقال: أيها الأمير؛ أتتهاون بمثل أبي تمام، وتجفوه! فوالله لو لم يكن له مَا لَه من النباهة في قَدْره، والإحسان في شعره، والشائع من ذكره، لكان الخوف من شره، والتَّوقِّي لذمّه يُوجبُ عليّ مثلك رعايتَه ومراقبتَه، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن، وفراقِه السكن الشفيع! وقد قصدك عاقدًا بك أمَله، مُعْمَلًا إليك ركابَه، متعبًا فيك فكره وجسمَه، وفي ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى يَنْصرف راضيًا، ولو لم يأت بفائدة، ولا سُمِع فيك منه ما سُمِع إلا قوله:

يَقولُ في قُومِسٍ[(٢)] صحبي وقد أخذت
مِنَّا السُّرى وخُطَا المَهْرِيَّة[(٣)] القُودِ[(٤)]
أمطلعَ الشمس تبغي أن تؤمَّ بنا؟
فقلت: كلَّا! ولكنْ مطلعَ الجودِ

(١) الأغاني: ١٥ ـ ١٠٢ (طبعة الساسي). (٢) قومس: إقليم في طبرستان.
(٣) الإبل المهرية: تنسب إلى مهرة: حي في العرب.
(٤) القود: جمع أقود وهو الطويل العنق.

لكفى! فقال له عبد الله: لقد نَبَّهْتَ فأحسنت، وعاتَبْتَ فأوجعت، ولك ولأبي تمام العُتْبَى[1]. ادعه يا غلام فدعاه. فنادمه يومَه، وأمر له بألفي دينار وما يَحْمِله من الظَّهر، وخلع عليه خِلْعة تامة من ثيابه، وأمر ببَذْرَقَتِه[2] إلى آخر عمله.

لَا يعجبنَّكَ مَنْ يَصُونُ ثيابه خَوفَ الغبَار وَعِرْضه مبذول[3]

ارتاح محمد بن عبد الله بن طاهر يومًا للمنادمة، وقد حضره ابنُ طالوت، وكان وزيرَه وأخصَّ الناسِ به وأحضرَهم لخَلَواته، فأقبل عليه، وقال: لا بد لنا اليومَ من ثالث تَطِيبُ لنا به المعاشرة، وتلذ بمُنَادمته المؤانسة؛ فَمَنْ ترى أن يكون؟ وأعفنا أن يكونَ شريرَ الأخلاق، أو دَنِس الأعراق، أو ظاهر الإملاق.

قال ابنُ طالوت: فأعملت الفِكْر، وقلت: أيها الأمير؛ خطَر ببالي رجلٌ ليس علينا من مجالسته مؤونة، وقد برىء من إبرام المجالسين، وخلا من ثقل المؤانسين، خفيفُ الوطأة إذا أدنيته، سريع الوَثْبة إذا أمَرْته.

قال: ومَن ذلك؟ قلت: ماني المُوَسْوس. قال: أحسنت والله! فما بأسرع من أن اقْتنصه صاحبُ الشُّرطة؛ فصار به إلى الأمير، فأُخِذ ...
الحمام، وألبس ثيابًا نظافًا، وأُدخل عليه، فقال: السلام عا ...
محمد: وعليك السلام يا ماني. أما آن لك أن تزو...
ومنازعة قلوب منا نحوك؟ فقال: الشوق ...
والحجاب صعب، والبواب فظٌّ؛ ...
فقال: ألطفتَ في الاستئذان، فليلطف لك في الإذن؛ لا ...
من ليل أو نهار.

ثم أَذِن له في الجلوس فجلس، ودعا بالطعام فأكل، ثم غسل يديه، وأخذ مجلسه. وكان محمدٌ قد تشوّق إلى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدي فأحضرت، فكان أول ما غنّت به:

ولست بناسٍ - إذ غدوا فتحملوا - دموعي على الخدين من شدة الوجد
وقولي، وقد زالت بليل حمولهم بواكر تُحدى: لا يكنْ آخر العهد

(1) أعتبه: سره بعد ما ساءه، والاسم العتـ...
(3) الأغاني ٢٠ : ١ ...

فقال ماني: أحسنتِ! وبحق الأمير إلا ما زدتِ فيه:

وقمت أناجي الفكرَ والدمعُ حائر ... بمقلة موقوف على الضُرِّ والجَهْدِ[1]
ولـم يُـغْـدِنـي هـذا الأمـيـرُ بـعَـذْلِهِ ... على ظالمٍ قد لجَ في الهجْرِ والصَّدِّ

فاندفعت تغنيه، فقال له محمد: أعاشق أنت؟ فاستحيا، وغمزه ابن طالوت ألَّا يبوح له بشيء فيسقط من عينيه، وقال: مَبْلغُ طرب وشوق كان كامنًا فظهر؛ وهل بعد الشيب صَبْوة!

ثم اقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت:

حـجَّـبُـوهـا عـن الـرِّيـاح لأنـي ... قلت: يا ريح بلغيها السلاما
لو رَضُوا بالحجاب هانَ ولكن ... مـنـعـوهـا عـن الـريـاح الـكَـلَامـا

فغنّته؛ فطرب محمد، ودعا برطل فشرب، فقال ماني: ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه:

فـتـنـفَّـسْـتُ، ثـم قـلـت لَطَـيـفِـي: ... آه إن زُرْتَ طـيـفَـهـا إلـمـامـا
خُصّه بالسلام مني فأخشى ... يـمـنـعـوهـا لـشِـقْـوَتـي أن تـنـامـا

لكان أثقبَ[2] لزَنْدِ الصبابة بين الأحشاء، وأشد تغلغلًا إلى الكبد[3] الصادية من زلال الماء، مع حسن تأليف نظمه، والانتهاء بالمعنى إلى نهاية تمامه؛ فقال محمد: أحسنت! ثم أمر مؤنسة بإلحاقهما بالبيتين الأولين، والغناء بهما، ففعلت. ثم غنّت بهذين البيتين:

يـا خـلـيـلـيّ سـاعـةً لا تَـرِيـمـا[4] ... وعـلـى ذي صـبـابـة فـأقـيـمـا
مـا مَـرَرْنـا بـدار زيـنـب إلَّا ... هَـتَـك الـدمـعُ سِـرَّنـا الـمـكـتـومـا

فاستحسنه محمد، فقال ماني: لولا رهبةُ التَّعدي لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يَرِدَانِ على سَمْعَ ذي لُب فيصدران إلا عن استحسانٍ لهما، فقال محمد: يا ماني؛ الرغبة في حسنِ ما تأتـ[illegible] [illegible] [illegible] دون كل رهبة، فهات

---

(١) [illegible] الجهد: المشقة.

[illegible] النار وهو الأعلى.

ما عندك! فقال:

ظبيةٌ كالهلال لو تلحظ الصخـ ـرَ بطَرْفٍ لغادَرَتْهُ هشيما
وإذا ما تبسَّمَتْ خِلْتَ إيما ضَ بُروق أو لؤلؤًا منظوما

فقال: أحسنت يا ماني! فأجِز[1] هذا الشعر:

لم تطلب اللذات إلا بمن طابَتْ بها اللذات ما نوسه
غنت بصوت أطلقت عَبْرةً كانت بسجن الصبر محبوسه

فقال ماني:

وكيف صبر النفس عن غادة أظلِمها إن قلتُ: طاوسه!
وجُرت إن شبهتُها بانةً[2] في جنة الفردوس مَغْروسه
وغيرُ عدل إن عدَلْنا بها جوهرةً في البحر مَغْموسة

ثم سكت، فقال محمد: ما عدا في وصفه لها، فقال ماني:

جلّت عن الوصف فما فكرة تُلحِقها بالنعت محسوسه

فقال محمد: أحسنت! فقالت مؤنسة: وجب شكرك يا ماني. نساعدَك الدهر، وعطف عليك إلفك، وقارنك سرورك، وفارقك محذورك، والله يُديم لنا ذلك ببقاء مَن به اجتمع شملُنا، فقال لها ماني ـ عند قولها: «وعطف عليك إلفك» ـ مجيبًا:

ليس لي إلفٌ فيعطفني فارقَتْ نفسي الأباطيلُ
أنا موصول بنعمة من حَبْلُه بالمجدِ موصول
أنا مغبوط بنعمة من طبعهُ بالمجد مأمول

فأومأ إليه ابن طالوت بالقيام فنهض، وهو يقول:

ملك قلَّ النظير له زانه الغُرّ البهاليل
طاهريٌّ في مواكبه عُرفُه في الناس مبذول

(١) الإجازة في الشعر: أن تتم شعر غيرك. (٢) البان: ضرب من الشجر.

فقال محمد: وجب جزاؤك لشُكْرك على غير نعمةٍ سبقتْ، ثم أقبل على ابن طالوت، فقال: ليست خساسة المرء، ولا اتِّضَاع دهره، ولا نُبُوّ العين عن الظاهر بمُذْهِبٍ ما ركب فيه من الأدب، وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حين يقول:

لا يعجبنّك من يصونُ ثيابه ... خوفَ الغبارِ وعرضُه مبذول
فلربما افتقر الفتى فرأيتَه ... دَنِس الثياب وعرضه مَغْسُول

فلم يزل محمد مُجْرِيًا عليه رزقه حتى توفي!

سِعَايَة(١)

سُعِي بأبي الحسن عليّ بن محمد العلويّ إلى المتوكل، وقيل له: إن في منزله سلاحًا وكُتُبًا وغيرَها من شيعته، فوجّه إليه ليلًا مَنْ هجم عليه في منزله على غفلة مِمَّن في داره، فوُجد في بيتٍ وحده، مغلقٍ عليه، وعليه مِدْرَعة من شعر، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى، وعلى رأسه مِلْحَفة من الصوف، متوجهًا إلى ربه يترنّم بآياتٍ من القرآن في الوَعْدِ والوعيد.

فأُخِذ على ما وُجِدَ عليه، وحُمل إلى المتوكل في جوفِ الليل؛ فَمَثَلَ بين يديه والمتوكلُ يشرب، وفي يده كأسٌ؛ فلما رآه أعْظَمه وأجْلَسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه، ولا حالُه يُتَعَلَّلُ عليه بها؛ فناوله المتوكلُ الكأس التي في يده، فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما خامر لَحْمِي ودمي قط! فأعفني منه، فأعفاه، وقال: أنشدني شعرًا أستَحْسِنُه، فقال: إني لقليل الرِّواية للأشعار؛ فقال: لا بد أن تنشدني فأنشده:

باتوا على قُلَلِ الأجبال تحرسُهم ... غُلْبُ الرجال فما أغنتهم القُلَلُ
واستُنزلوا بعد عزٍّ من معاقلهم ... فأودعوا حُفَرًا، يا بئسَ ما نزلوا!
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِرُوا: ... أين الأسرّةُ والتيجانُ والحُللُ!
أين الوجوه التي كانت منعمةً ... من دونها تُضرَبُ الأستار والكِلَلُ!
فأفصَح القبر عنهم حين ساءلهم: ... تلك الوجوهُ عليها الدودُ يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهرًا وما شَبِعُوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا
وطالما عَمَرُوا دُورًا لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

(١) ابن خلكان: ١ ـ ٣٢٢.

وطالما كنزوا الأموالَ وادَّخروا فخلّفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفرًا معطلةً وساكنوها إلى الأجْدَاث قد رحلوا

فأشفَقَ مَنْ حضر على عليّ، وظنُّوا أن بادرةً تبدر منه إليه، ولكن المتوكل بكى بكاءً طويلًا، حتى بلّت دموعُه لحيته وبكى مَنْ حَضره، ثم أمر برفع الشراب، وقال: يا أبا الحسن؛ أعليك دين؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار! فأمر بدفعها إليه، وردّه إلى منزله من ساعته مكرّمًا.

ابن جَاخ ينشد المعتضد بن عباد شعره[1]

ورد ابن جاخ الشاعر على المعتضد بن عباد، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء فسألوه، فقال: إني شاعر! فقالوا: أنشدنا مِنْ شعرك؛ فأنشدهم شعرًا ضحكوا منه وازْدَرَوْه.

فقال بعض عقلائهم: دعوه، فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخلَ مع الشعراء ويندرجَ في سِلْكِهم؛ فلم يُبَالوا كلام الرجل.

فبقي معهم، وكان لهم في تلك الدولة يومٌ مخصوص، لا يدخلُ فيه على الملك غيرُهم، فقال بعضٌ لبعض: هذه شُنْعَةٌ بنا أن يكون مثلُ هذا البادي يُقَدَّم علينا، ويجترىء على الدخول.

فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، وقدَّروا أن يقول مثلَ ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حسمًا لعلة إقدام مثله عليهم.

فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطانُ في مجلسه، ونُصِبَ الكرسي لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادمُ أولَ متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك فصعد الكرسي، وانتظرُوا أن ينشد مثل ذلك الشعر المضحك، فقال:

قطّعتَ يا يومَ النوى أكباديْ وحرمت عن عيني لذيذ رُقَادِي
وتركتني أرعى النجوم مُسَهَّدًا والنارُ تُضرَمُ في صميم فؤادي
فكأنما آلى الظلامُ أليَّةً لا ينجلي إلّا إلى ميعاد

(١) نفح الطيب: ٢ ـ ٤٦٨.

ولربّ خرْق[١] قد قطعت نياطه ... والليل يرفلُ في ثياب حداد
بِشِمِلَّة[٢] حَرْفٍ[٣] كأنّ ذَميلَها ... سَرْحُ[٤] الرياح، وكلُّ برق غادي
والنجمُ يحدوها وقد ناديتها: ... يا ناقتي عُوجي على عَبَّادِ
ملك إذا ما أُضرِمَت نار الوغى ... وتلاقت الأجناد بالأجناد
فترى الجسوم بلا رؤوس تنثني ... وترى الرؤوس لَقًى[٥] بلا أجساد
يا أيها الملك المؤمَّلُ والذي ... قُدُمًا سما شرفًا على الأنداد
إن القريض لكاسدٌ في أرضنا ... وله هنا سوقٌ بغير كساد
فجلبت من شعري إليك قوافيًا ... يَفْنَى الزمان وذِكْرُها متمادي
مِنْ شاعرٍ لم يضطلع أدبًا ولا ... خَطَّتْ يداه صحيفةً بمداد

فقال له الملك: أنت ابن جاخ؟ فقال: نعم! فقال: اجلس، فقد وليتك رياسةَ الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك لأحدٍ بعده!

لَولَا فَصَاحَتُهم لضَربتُ أعنَاقهُم[٦]

أمر الحجاج صاحبَ حرَسِه أن يطوف بالليل؛ فمن رآه بعد العشاء سكران ضربَ عنقه؛ فطاف ليلةً من الليالي، فوجد ثلاثةَ فتيانٍ يتمايلون، وعليهم أمارات السكْر؛ فأحاطت بهم الغِلمان، وقال لهم صاحبُ الحرس: مَن أنتم حتى خالفتم أمر أمير المؤمنين، وخرجتم في مثل هذا الوقت! فقال أحدهم:

أنا ابنُ مَن دانتِ الرقابُ له ... ما بين مخزومِها وهاشِمِها
تأتيه بالرغْمِ وهي صاغرةٌ ... يأخذ من مالِها ومن دَمِها

فأمسك عنه، وقال: لعله من أقارب أميرِ المؤمنين! ثم قال للآخر: وأنت مَنْ تكون؟ فقال:

أنا ابنُ لمن لا تَنْزِلُ الدهرَ قِدْرُهُ ... وإن نزلت يومًا فسوف تعود
ترى الناس أفواجًا إلى ضوءِ ناره ... فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ

---

(١) الخرق: القفر والأرض الواسعة.
(٢) الشملة: السريعة.
(٣) الحرف: الناقة الضامرة.
(٤) سرح الرياح: إرسالها.
(٥) اللقى: ما طرح.
(٦) مجاني الأدب: ٣ ـ ١٥.

فأمسك عنه، وقال: لعله ابن أشرف العرب. ثم قال للآخر: وأنت مَنْ تكون؟ فأنشد على البديهة:

أنا ابنُ لمن خاضَ الصفوف بعَزْمِهِ وقوّمها بالسَّيْفِ حتى استقامتِ
ورَكْبَاهُ لا ينفك رِجْلَاهُ منهما إذا الخيلُ في يوم الكريهة وَلَّتِ

فأمسك عنه أيضًا، وقال: لعله ابن أشجع العرب؛ واحتفظ عليهم.

فلما كان الصباح رفَع أمرهم إليه؛ فأحضرهم، وكشف عن حالهم؛ فإذا الأول ابن حجّام، والثاني ابن فوّال، والثالث، ابن حائك!

فتعجب من فصاحتهم، وقال لجلسائه: علّموا أولادكم الأدب، فوالله لولا فصاحتهم لضربْتُ أعناقهم.

الباب السابع

قصص الحِيَل والخداع

قصص اليقظة والتبصّر في الأمور

قصص الحِيَل والخداع

قال في المستطرف[1]:

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد سُئِلَ بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال: علمكم الله ذلك فإنه قال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[2] فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ[3]﴾ [صٓ: الآية ٤٤]. وكان ﷺ إذا أراد غزوة، ورَّى بغيرها، كان يقول: «الحرب خدعة».

عمر بن الخطاب والهرمزان

لما أراد عمر رضي الله عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدح فيه ماء، فأمسكه في يده واضطرب فقال له عمر لا بأس عليك حتى تشربه، فألقى القدح من يده فأمر عمر بقتله: فقال: أولَمْ تؤمني؟ قال: كيف أمنتك. قال: قلت لا بأس عليك حتى تشربه وقولك لا بأس عليك أمان ولم أشربه، فقال عمر: قاتلك الله أخذت مني أمانًا ولم أشعر.

وقيل: كان دهاة العرب أربعة، كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال: ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها. وقال الضحاك بن مزاحم النصراني: لو أسلمت، فقال: ما زلت محبًا للإسلام إلا أنه يمنعني منه حبي للخمر، فقال: أسلم

---

(١) المستطرف: ص ٣٦٢ ـ ٣٦٧.

(٢) ضغثًا: العشب أو نحوه جمعه واختلط بعضه ببعض.

(٣) تحنث: من الحنث وهو عدم الوفاء بالقسم.

واشربها، فلما أسلم قال له: قد أسلمت، فإن شربتها حديناك وإن ارتددت قتلناك، فاختر لنفسك، فاختار الإسلام وحسن إسلامه، فأخذه بالحيلة.

سلسلة صخرة بيت المقدس

وقيل: دليت من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومَن كان كاذبًا لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، فارتفعت، وذلك أن رجلًا أودع رجلًا جوهرة، فخبأها في مكانه في عكازة، ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها فتحاكما عند السلسلة، فقال المدعي: اللهم إن كنت صادقًا فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسّها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي وقال: اللهم إن كنت تعلم إني رددت الجوهرة إليه، فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسّها.

فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم الخديعة.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: (أن احكم بين الناس بالبينة واليمين). فبقي ذلك إلى قيام الساعة.

حيلة المختار بن أبي عبيدة

كان المختار بن أبي عبيدة الثقفي من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب، قيل: إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد، ثم دعا برجل من خواصه، فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فارسلها، ثم قال للناس: إني لأجد في محكم الكتاب، وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعاب، تأتي في صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة، فأرسلها، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة وحملوا، فانتصروا وقتلوا ابن زياد.

حنكة سليمان بن داود عليه السلام

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصما في الصبي الباقي

إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتنا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: ائتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منكما نصف، فقالت الصغرى أتشقه يا نبيّ الله؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل ونصيبي فيه للكبرى، فقال: خذيه، فهو ابنك، وقضى به لها.

وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وقال: يا نبيّ الله إن لي جيرانًا يسرقون أوزي، فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال في خطبته: وإن أحدكم ليسرق أوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه، فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

زواج المغيرة بن شعبة

خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شابًا جميلًا، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب، وعاين جماله علم أنها تؤثره عليه، فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيت جمالًا، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك مع أهلك؟ قال: ما يخفى عليَّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردل. فقال المغيرة: لكني أضع البدرة في بيتي، فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليَّ من هذا الذي يحصي عليَّ مثقال الذرة، فتزوجت المغيرة.

حيلة عضد الدولة

بلغ عضد الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم، فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلًا عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء، ففعل التاجر ذلك، وسار أمام القافلة، فنزل القوم، فأخذوا الأمتعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل، وصعد به الجبل، فوجد به الحلوى، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه، فاستدعاهم، فأكلوا على مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

اللص قوي القلب

أُتي لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة، فأقامهما بين يديه، ثم دعى بشربة ماء، فجيء له بكوز، فرماه بين يديه، فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سبيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال، وتلذذت به، وتهدده فأقر، فسئل عن ذلك، فقال: إن اللص قوي القلب، والبريء يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه.

حيلة القاضي إياس

قصد رجل الحج، فاستودع إنسانًا مالًا، فلما عاد طلبه منه، فجحده المستودع، فأخبر بذلك القاضي أياسًا، فقال: أعلم بأنك جئتني قال: لا، قال: فعد إليَّ بعد يومين، ثم إن القاضي إياسًا بعث إلى ذلك الرجل، فأحضره، ثم قال له: اعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سفرًا بعيدًا وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين منزلك، فقال: حبًّا وكرامة.

قال: فاذهب وهيىء موضعًا للمال وقومًا يحملونه، فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة. فقال له القاضي إياس: امضِ إلى صاحبك، وقل له: ادفع إليَّ مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس، فلما جاء، وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه، فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمّالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي ترك السفر امضِ لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك.

مقتول يأخذ بثأره من قاتله

ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله: إني لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقك عليَّ. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر، فأخرج الصندوق فإذا فيه حقّ فيه حب، ورقعة مكتوب فيها: مَن تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أبكار وكان لشيرويه غرام في الباه، فتناول منه حبة فهلك من ساعته، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

بيعة في عنقي إلى قيام الساعة

لما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلّف رجل مذكور من الفقهاء، فقال له الرشيد: لِمَ تخلّفت؟ فقال: عاقني عائق، فقال: اقرؤوا عليه كتاب البيعة، فقال: يا أمير المؤمنين هذه البيعة في عنقي إلى قيام الساعة، فلم يفهم الرشيد ما أراد، وظنّ أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس.

رأيت رجلًا يقبّلها

قال المغيرة بن شعبة: لم يخدعني غير غلام من بني الحرث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، فقلت: ولـمَ؟ قال: رأيت رجلًا يقبّلها، فاعرض عنها، فتزوجها الفتى، فلمته، وقلت: ألم تخبرني أنك رأيت رجلًا يقبّلها؟ قال: نعم رأيت أباها يقبّلها.

لطم سيد بني تميم

أتى رجل إلى الأحنف، فلطمه، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جُعِل لي جعل على أن ألطم سيد بني تميم، فقال: لست بسيدهم عليك بحارثة بن قدامة، فإنه سيّدهم، فمضى إليه، فلطمه، فقطعت يده.

عبد الملك وملك الروم

قال الشعبي: وجهني عبد الملك إلى ملك الروم، فقال لي: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا، ولكني رجل من العرب، فكتب إلى عبد الملك رقعة ودفعها إليّ، فلما قرأها عبد الملك قال لي: أتدري ما فيها؟ قلت: لا، قال فيها: «العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره». قال: أتدري ما أراد بهذا؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك، فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئًا إلا سألني عنه، وأنا أجيبه، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي. فقال: لله أبوه ما عدا ما في نفسي.

بشر بن مروان ورَوح بن زنباع

لما ولّى عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا الكوفة، وكان شابًا ظريفًا غزلًا، بعث معه روح بن زنباع وكان شيخًا متورّعًا، فثقل على بشر مرافقته، فذكر ذلك

لندمائه، فتوصّل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلًا في خفية، فكتب على حائط قريب في مجلسه هذه الأبيات:

يـا روحُ مـن لـبـنـيّـات وأرمـلـة   إذا نعاكَ لأهلِ المغرب الناعي
إن ابن مروان قد حانت منيّته   فاحتلْ بنفسك يا روح بن زنباع

فتخوّف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك، قال: ثقلت على بشر وأصحابه، فاحتالوا لك.

حيلة الحجاج بن علاط السلمي

ومن الحيل الطريفة: ما حُكِي أن النبيّ ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية، وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمي، وكان أول مَن أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال يا رسول الله: إن لي بمكة مالًا عند صاحبتي أم شيبة ولي مال متفرّق عند تجار مكة، فأذن لي يا رسول الله في العود إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلي أخلصه.

فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ: قل، وأنت في حل، قال الحجاج: فخرجت، فلما انتهيت إلى التثنية ثنية البيضاء وجدت بها رجالًا من قريش يتسمعون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمدًا ﷺ قد سار إلى خيبر، قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم، قال: فأحدقوا حول ناقتي يقولون: إنه يا حجاج؟ قال: فقلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وأسر محمد وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم.

قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم. قال: فقلت أعينوني على جمع مالي من غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فقاموا معي، فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب.

فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل عليَّ حتى وقف إلى جانبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: فقلت وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله قال: قلت استأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت على الخروج، لقيت العباس، فقلت له: احفظ عليَّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى أن يتبعوني، فاكتم عليَّ ثلاثة أيام، ثم قل ما شئت. قال: لك عليَّ ذلك.

قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروسًا على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيبر، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت: أي والله، ولقد أسلمت، وما جئت إلا مسلمًا لآخذ مالي خوفًا من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة، فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب.

قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروسًا على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: مَن جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلمًا وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمدًا وأصحابه ليكون معهم. قالوا: تفلّت عدو الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصّل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

الحرب خدعة

لما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة، وتظاهروا وهم في جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان، وقبائل العرب وبني النضير، وبني قريظة من اليهود، ونازلوا رسول الله ﷺ ومَن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١]. فجاء نعيم بن مسعود بن عامر

الغطفاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله: خذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديمًا لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، فإن البلد بلدكم وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاؤوا الحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وأموالهم، وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم، وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديهم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا.

قالوا: أشرت بالرأي، ثم أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان بن حرب: وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومَن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودي لكم، وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحًا لكم، فاكتموه عليَّ. قالوا: نعم، قال: اعلموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه يقولون: إنّا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على مَن بقي منهم، فنستأصلهم، فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود بني قريظة يلتمسون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم: إنّا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاعتدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنّا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتدّ عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجال في بلدنا ولا

طاقة لنا به، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدّثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون: إنا لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنّا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا، فأبوا عليهم.

فخذل الله تعالى بينهم، وأرسل عليهم الريح، فتفرّقوا وارتحلوا. وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التي عمّ نفعها وحسن وقعها.

إسلام الهرمزان(١)

محمد بن سعد قال: كان الهرمزان من أهل فارس، فلما انقضى أمر جلولاء خرج يزدجرد من حلوان إلى أصبهان، ثم أتى اصطخر، ووجهه الهرمزان إلى بلدة تستر، فضبطها وتحصّن في القلعة، وحاصرهم أبو موسى، ثم نزل أهل القلعة على حكم عمر، فبعث أبو موسى بالهرمزان ومعه اثنا عشر أسيرًا من العجم عليهم الديباج ومناطق الذهب وأسورة الذهب، فقدم بهم المدينة في زيِّهم ذلك، فجعل الناس يعجبون، فأتوا بهم منزل عمر، فلم يصادفوه فجعلوا يطلبونه، فقال الهرمزان بالفارسية: قد ضلّ ملككم، فقيل لهم: هو في المسجد، فدخلوا فوجدوه نائمًا متوسدًا رداءه، فقال الهرمزان: إن هذا ملككم قالوا: هذا الخليفة. قال: أما له حاجب ولا حارس؟ قالوا: الله حارسه حتى يأتي عليه أجله. فقال الهرمزان: هذا الملك الهني، فقال عمر: الحمد لله الذي أذل هذا وشيعته بالإسلام، فاستسقى الهرمزان، فقال عمر: لا يجمع عليك القتل والعطش، فدعا له بماء، فأمسك بيده، فقال عمر: اشرب لا بأس عليك إني غير قاتلك حتى تشربه، فرمى بالإناء من يده، فأمر عمر بقتله، فقال: أولَم تؤمني؟ قال: وكيف؟ قال: قلت لي لا بأس عليك، فقال الزبير وأبو سعيد: صدق. فقال عمر: قاتله الله أخذ أمانًا ولا أشعر، ثم أسلم بعد ذلك الهرمزان.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٠.

رأيت رجلًا يقبّلها[1]

عن عبد الملك بن عمير قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: ما خدعني قط غير غلام من بني الحرث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم وعندي شاب من بني الحرث، فقال: أيها الأمير إنه لا خير لك فيها. فقلت: ولِمَ؟ قال: رأيت رجلًا يقبّلها، فأقمت أيامًا، ثم بلغني أن الفتى تزوّج بها، فأرسلت إليه فقلت: ألم تعلمني أنك رأيت رجلًا يقبّلها؟ قال: بلى. رأيت أباها يقبّلها، فإذا ذكرت الفتى وما صنع غمني ذلك.

سعيد بن عثمان والمهدي[2]

عن داود بن الرشيد، قال: قلت للهيثم بن عدي: بأي شيء استحق سعيد بن عثمان أن ولّاه المهدي القضاء، وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة؟ قال: إن خبره في اتصاله بالمهدي ظريف، فإن أحببت شرحته لك. قال: قلت: والله قد أحببت ذلك. قال: اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدي، فقال: استأذن على أمير المؤمنين، فقال له الربيع: مَن أنت وما حاجتك؟ قال: أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين رؤيا صالحة، وقد أحببت أن تذكروني له، فقال له الربيع: يا هذا، إن القوم لا يصدقون ما يرونه لأنفسهم، فكيف ما يراه لهم غيرهم، فاحتلّ بحيلة هي أرد عليك من هذه. فقال له: إن لم تخبره بمكاني سألت مَن يوصلني إليه، فأخبرته أني سألتك الإذن عليه، فلم تفعل، فدخل الربيع على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين: إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم، فقد اختاروا لكم بكل ضرب. قال له: هكذا صنع الملوك فما ذاك؟ قال: رجل بالباب يزعم أنه قد رأى لأمير المؤمنين رؤيا حسنة، وقد أحب أن يقصّها عليه، فقال له المهدي: ويحك يا ربيع إني والله أرى الرؤيا لنفسي، فلا تصح لي فكيف إذا ادعاها من لعله قد افتعلها؟ قال: والله قلت له مثل هذا، فلم يقبل. قال: هات الرجل، فأدخل إليه سعيد بن عبد الرحمـٰن وكان له رؤية وجمال ومروءة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان، فقال له المهدي: هات بارك الله عليك. ماذا رأيت؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين آتيًا أتاني في منامي، فقال لي: أخبر أمير المؤمنين المهدي أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة، وآية ذلك أنه يرى في ليلته هذه في منامه كأنه

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٠.

(٢) نفس المصدر ص ٩١.

يقلّب يواقيت، ثم يعدها، فيجدها ثلاثين ياقوتة، كأنها قد وهبت له، فقال المهدي: ما أحسن ما رأيت، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا به، فإن كان الأمر على ما ذكرته أعطيناك ما تريد، وإن كان الأمر بخلاف ذلك، لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقت وربما اختلفت. قال له سعيد: يا أمير المؤمنين، فما أنا أصنع الساعة إذا صرت إلى منزلي وعيالي، فأخبرتهم أني كنت عند أمير المؤمنين ثم رجعت صفرًا؟ قال له المهدي: فكيف نعمل؟ قال: يعجل لي أمير المؤمنين ما أحب وأحلف له بالطلاق إني قد صدقت، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وأمر أن يؤخذ منه كفيل ليحضره من غد ذلك اليوم، فقبض المال، وقيل: مَن يكفل بك، فمدّ عينيه إلى خادم فرآه حسن الوجه والزي، فقال: هذا يكفل بي، فقال له المهدي: أتكفل به؟ فاحمر وخجل وقال: نعم. وكفله وانصرف، فلما كان في تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفًا حرفًا وأصبح سعيد في الباب واستأذن فأذن له، فلما وقعت عين المهدي عليه قال: أين مصداق ما قلت لنا؟ قال له سعيد: وما رأى أمير المؤمنين شيئًا؟ فضجع في جوابه. فقال سعيد: امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئًا. قال له المهدي: ويحك ما أجرأك على الحلف بالطلاق. قال: لأنني أحلف على صدق. قال له المهدي: فقد والله رأيت ذلك مبينًا. فقال له سعيد: الله أكبر، فأنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني، قال له: حبًا وكرامة ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت ثياب من كل صنف، وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة، فأخذ ذلك وانصرف، فلحق به الخادم الذي كان كفل به، وقال له: سألتك بالله هل كان لهذه الرؤيا التي ذكرتها من أصل؟ قال له سعيد: لا والله. قال الخادم: كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له. قال: هذه من المخاريق الكبار التي لا يأبه لها أمثالكم، وذلك أني لما ألقيت إليه هذا الكلام خطر بباله، وحدَّث به نفسه، وأسرَّ به قلبه، وشغل به فكره، فساعة نام خيل له ما حلّ في قلبه، وما كان شغل به فكره في المنام. قال له الخادم: فقد حلفت بالطلاق. قال: طلّقت واحدة، وبقيت معي على ثنتين فأرد في مهر عشرة دراهم، وأتخلّص وأتحصّل على عشرة آلاف درهم، وثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت من أصناف الثياب، وثلاثة مراكب. قال: فبهت الخادم في وجهه وتعجّب من ذلك، فقال له سعيد: قد صدقتك وجعلت صدقي لك مكافأتك على كفالتك بي، فاستر عليّ ذلك، ففعل ذلك، فطلبه المهدي لمنادمته، فنادمه وحظي عنده وقلّده القضاء على عسكر المهدي، فلم يزل كذلك حتى مات المهدي.

حدّثني مائة حديث(١)

قال ابن أبي ذر: كان الحاج إذا ورد جلس سفيان بن عيينة بباب بني هاشم على موضع عالٍ ليرى الناس، فجاء رجل من أصحاب الحديث، فقعد بين يديه، فقال: يا أبا محمد، حدّثني فحدّثه أحاديث، فقال: زدني فزاده، فقال: زدني فزاده، فدفعه في صدره، فوقع إلى الوادي، فتفاشى ذلك، فاجتمع الحاج وقال: سفيان بن عيينة قتل رجلًا من الحاج، فلما كثر ذلك أشفق سفيان، فنزل إلى الرجل، فترك رأسه في حجره وقال: ما لك؟ أي شيء أصابك؟ فلم يزل يركض رجليه ويزبد من فيّه. قال: وكثر الضجيج، سفيان بن عيينة قتل رجلًا، فقال له: قم ويالك أما ترى الناس يقولون؟ فقال له وهو يخفي صوته: لا والله لا أقوم حتى تحدّثني مائة حديث عن الزهري وعمرو بن دينار ففعل فقام.

ردّ فضائل قريش عليها(١)

قال المحسن بن علي التنوخي، عن أبيه قال: حججت في موسم اثنين وأربعين، فرأيت مالًا عظيمًا وثيابًا كثيرة تفرق في المسجد الحرام، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: بخراسان رجل صالح عظيم النعمة والمال يقال له علي الزراد أنفذ عام أول مالًا وثيابًا إلى هٰهنا مع ثقة له، وأمره أن يعتبر قريشًا، فمن وجده منها حافظًا للقرآن دفع إليه كذا وكذا ثوبًا. قال: فحضر الرجل عام أول، فلم يجد في قريش البتة أحدًا يحفظ القرآن إلّا رجلًا واحدًا من بني هشام، فأعطاه قسطه، وتحدّث الناس بالحديث ورد باقي المال إلى صاحبه، فلما كان في هذه السنة عاد بالمال والثياب، فوجد خلقًا عظيمًا من جميع بطون قريش قد حفظوا القرآن، وتسابقوا إلى تلاوته بحضرته، وأخذوا الثياب والدراهم، فقد فنيت وبقيت منهم مَن لم يأخذ، وهم يطالبونه. قال: فقلت: لقد توصّل هذا الرجل إلى رد فضائل قريش عليها بما يشكره الله سبحانه له.

حيلة سائلين(٢)

عليّ بن المحسن، عن أبيه قال: أخبرني جماعة من شيوخ بغداد أنه كان بها في طرف الجسر سائلان أعميان. أحدهما يتوسّل بأمير المؤمنين علي، والآخر

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٣.
(٢) نفس المصدر ص ٩٤.

بمعاوية، ويتعصّب لهما الناس، ويجمعان القطع، فإذا انصرفا فيقتسمان القطع، وكانا يحتالان بذلك على الناس.

تــزويــر(١)

أبو الحسن بن عباس القاضي قال: رأيت صديقًا على بعض زوارق الجسر ببغداد جالسًا في يوم شديد الريح، وهو يكتب رقعة، فقلت: ويحك في هذا الموضع وهذا الوقت. قال: أريد أن أزور على رجل مرتعش ويدي لا تساعدني، فتعمدت الجلوس هٰهنا لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجيء خطي مرتعشًا فيشبه خطه.

دية قتيل لم يقتل(٢)

قال المحسن: وحدّثني أبو الطيب بن عبد المؤمن قال: خرج بعض حذاق المكيدين من بغداد إلى حمص ومعه امرأته، فلما حصل بها قال: إن هذا بلد حماقة وأريد أن أعمل حيلة فتساعديني، فقالت: شأنك. قال: كوني بموضعك ولا تجتازي بي البتة، فإذا كان كل يوم فخذي لي ثلثي رطل زبيب وثلثي رطل لوز آنيًا، فاعجنيه واجعليه وقت الهاجرة على آجرة جديدة نظيفة لأعرفها في الميضاة الفلانية، وكانت قريبة من الجامع. ولا تزيديني على هذا شيئًا ولا تمري بناحيتي، فقالت: أفعل وجاء هو فأخرج جبة صوف كانت معه، فلبسها وسراويل صوف ومئزر، وجعلها على رأسه، ولزم اسطوانة يمر الناس عليها، فصلّى نهاره أجمع وليلته أجمع لا يستريح إلَّا في الأوقات المحظور فيها الصلاة، فإذا جلس فيها سبح ولم ينطق بلفظة، فتنبّه على مكانه، وروعي مدة، ووضعت العيون عليه، فإذا هو لا يقطع الصلاة ولا يذوق الطعام، فتحيّر أهل البلد في أمره، وكان لا يخرج من الجامع إلا في وقت الهاجرة في كل يوم دفعة إلى تلك الميضاة فيتبرز فيها، ويعد إلى الآجرة وقد عرفها وعليها ذاك المعجون، وقد صار منحلًا وصورته صورة الغائط. فمن يدخلها ويخرج لا يشك أنه غائط، فيأكله فيقيم أوده ويرجع، فإذا كان وقت صلاة العتمة أو في الليل شرب من الماء قدر كفايته، وأهل حمص يظنون أنه لا يطعم الطعام ولا يذوق الماء، فعظم شأنه

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٤.

(٢) نفس المصدر ص ٩٥.

عندهم فقصدوه وكلّموه فلم يجبهم، وأحاطوا به، فلم يلتفت، واجتهدوا في خطابه، فلزم الصمت، فزاد محلة عندهم حتى أنهم كانوا يتمسحون بمكانه، ويأخذون التراب من موضعه، ويحملون إليه المرضى والصبيان، فيمسح بيده عليهم، فلما رأى منزلته، وقد بلغت إلى ذلك، وكان قد مضى على هذا السمت سنة اجتمع مع امرأته في الميضاة وقال: إذا كان يوم الجمعة حين يصلي الناس فتعالي فاعلقي بي والطمي وجهي وقولي: يا عدو الله يا فاسق قتلت ابني ببغداد وهرب إلى هٰهنا تتعبد وعبادتك مضروب بها وجهك، ولا تفارقيني واظهري أنك تريدين قتلي بابنك، فإن الناس سيجتمعون إليك، وأمنعهم أنا من أذيتك وأعترف بأني قتلته وتبت وجئت إلى هٰهنا للعبادة والتوبة والندم على ما كان مني، فاطلبي قودي بإقراري، وحملي إلى السلطان، فيعرضون عليك الديّة فلا تقبليها حتى يبذلوا لك عشر ديّات، أو ما استوى لك بحسب ما ترين من زيادتهم وحرصهم، فإذا تناهت أعطيتهم في افتدائي إلى حد يقع لك أنهم لا يزيدون بعده شيئًا، فاقبلي الفداء منهم، واجمعي المال وخذيه واخرجي من يومك إلى بغداد ولا تقيمي بالبلد، فإني سأهرب وأتبعك.

فلما كان من الغد جاءت المرأة فتعلّقت به وفعلت به ما قال، فقام أهل البلد ليقتلوها وقالوا: يا عدوة الله هذا من الأبدال، هذا قوّام العالم، هذا قطب الوقت، فأومأ إليهم أن اصبروا ولا تناولوها بشر فصبروا، وأوجز في صلاته ثم سلّم، وتمرّغ في الأرض طويلًا ثم قال: أيها الناس! هل سمعتم لي كلامة منذ أقمت عندكم؟ فاستبشروا بسماع كلامه وارتفعت ضجة عظيمة وقالوا: لا. قال: إني إنما أقمت عندكم تائبًا مما ذكرته، وقد كنت رجلًا في دعة وخسارة، فقتلت ابن هذه المرأة وتبت، وجئت إلى هٰهنا للعبادة، وكنت محدثًا نفسي بالرجوع لها لتقتلني خوفًا من أن تكون توبتي ما صحت، وما زلت أدعو الله أن يقبل توبتي ويمكنها مني إلى أن أجيبت دعوتي باجتماعي بها وتمكينها من قودي، فدعوها تقتلني وأستودعكم الله. قال: فارتفعت الضجة والبكاء، وهو مار إلى والي البلد ليقتله بابنها. فقال الشيوخ: يا قوم، لقد ض[illegible]ـم عن مداواة هذه المحنة وحراسة بلدكم بهذا العبد الصالح، فارفقوا بالمرأة واسألوها قبول الديّة نجمعها من أموالنا، فطافوا بها وسألوها. فقالت: لا أفعل. فقالوا: خذي ديتين، فقالت: شعرة من ابني بألف ديّة، فما زالوا حتى بلغوا عشر ديّات، فقالت: اجمعوا المال، فإذا رأيته وطاب

قلبي بقبوله فعلت، وإلّا قتلت القاتل، فجمعوا مائة ألف درهم وقالوا: خذيها. فقالت: لا أريد إلّا قتل قاتل ابني في نفسي أثر، فأقبل الناس يرمون ثيابهم وأرديتهم وخواتيمهم والنساء حليهن، فأخذت ذلك وأبرأته من الدم وانصرفت، وأقام الرجل بعد ذلك في الجامع أيامًا يسيرة حتى علم أنها قد بعدت، ثم هرب في بعض الليالي وطلب فلم يوجد ولا عرف له خبر، حتى انكشف لهم أنه كان حيلة بعد مدة طويلة.

ناقة بدرهم(١)

قيل: كان بالكوفة امرأة قد ضاق بزوجها المعاش، فقالت له: لو خرجت فضربت في البلاد وطلبت من فضل الله تعالى، فخرج إلى الشام لكسب ثلاثمائة درهم، فاشترى بها ناقة فارهة وكانت زعرة، فأضجرته واغتاظ منها ومن زوجته حيث أمرته بالخروج، فحلف بالطلاق ليبيعها يوم يدخل الكوفة بدرهم، ثم ندم وأخبر زوجته، فعمدت إلى سنور فعلقتها في عنق الناقة وقالت: أدخلها السوق وناد عليها مَن يشتري هذا السنور بثلاثمائة درهم والناقة بدرهم ولا فرق بينهما، ففعل فجاء أعرابي يدور حول الناقة ويقول: ما أحسنك ما أفرهك لولا هذا السنور الذي في عنقك.

أبو دلامة والمهدي(١)

عن أبي دلامة أنه دخل على المهدي، فأنشده قصيدة فقال له: سلني حاجتك. فقال: يا أمير المؤمنين تهب لي كلبًا، فغضب وقال: أقول لك سلني حاجتك، فتقول: تهب لي كلبًا، فقال: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك؟ قال: لا بل لك. قال: فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد، فأمر له بكلب، فقال: يا أمير المؤمنين هبني خرجت إلى الصيد أعدو على رجلي، فأمر له بدابة، فقال: يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها، فأمر له بغلام. فقال: يا أمير المؤمنين فهبني قصدت صيدًا وأتيت به المنزل، فمن يطبخه، فأمر له بجارية، فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء أين يبيتون فأمر له بدار، فقال: يا أمير المؤمنين، قد صيّرت في عنقي كفًّا أي جمعًا من عيال، فمن أين ما يتقوّت به

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٦.

هؤلاء؟ قال: فإن أمير المؤمنين قد أقطعك ألف جريب عامرًا وألف جريب غامرًا، فقال: أما العامر فقد عرفته، فما الغامر؟ قال: الخراب الذي لا شيء فيه.

قال: فأنا أقطع أمير المؤمنين مائة ألف جريب بالدو، ولكنني أسأل أمير المؤمنين من ألفي جريب جريبًا واحدًا عامرًا. قال: من أين؟ قال: من بيت المال، فقال المهدي: حولوا المال وأعطوه جريبًا، فقال: يا أمير المؤمنين إذا حولوا منه المال صار غامر، فضحك منه وأرضاه.

خرج الجني منها(١)

عن عقبة الأزدي أنه أتي بجارية قد جنت في الليلة التي أراد أهلها أن يدخلوها إلى زوجها، فعزم عليها، فإذا هي قد سقطت، فقال لأهلها: أخلو بي بها، فقال لها: أصدقيني عن نفسك وعلى خلاصك، فقالت: إنه قد كان لي صديق وأنا في بيت أهلي، وأنهم أرادوا أن يدخلوا بي على زوجي ولست ببكر، فخفت الفضيحة. فهل عندك حيلة في أمري؟ فقال: نعم، ثم خرج إلى أهلها، فقال: إن الجني قد أجابني إلى الخروج منها، فاختاروا نم أي عضو تحبّون أن أخرجه من أعضائها، واعلموا أن العضو الذي يخرج منه الجني لا بد أن يهلك ويفسد، فإن خرج من عينها عميت وإن خرج من أذنها صمّت، وإن خرج من فمها خرست، وإن خرج من يدها شلّت، وإن خرج من رجلها عرجت، وإن خرج من فرجها ذهبت عذرتها. فقال أهلها: ما نجد شيئًا أهون من ذهاب عذرتها، فأخرج الشيطان من فرجها، فأوهم أنه قد فعل، ودخلت المرأة على زوجها.

الحائك الطبيب(٢)

قال الشيخ: حكى لنا أبو محمد الخشاب النحوي قال: حاز بعض الحاكة على طبيب، فرآه يصف لهذا النقوع ولهذا التمر هندي، فقال: مَن لا يحسن مثل هذا؟ فرجع إلى زوجته فقال: اجعلي عمامتي كبيرة، فقالت: ويحك أي شيء قد طرأ لك؟ قال: أريد أن أكون طبيبًا. قالت: لا تفعل فإنك تقتل الناس فيقتلوك،

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٧.

(٢) نفس المصدر ص ٩٨.

قال: لا بد، فخرج أوّل يوم فقعد يصف للناس، فحصل قراريط، فجاء فقال لزوجته: أنا كنت أعمل كل يوم بحبة، فانظري ايش يحصل. فقالت: لا تفعل. قال: لا بد، فلما كان في اليوم الثاني اجتازت جارية، فرأته فقالت لسيدتها، وكانت شديدة المرض، اشتهيت هذا الطبيب الجديد يداويك قالت: ابعثي إليه فجاء، وكانت المريضة قد انتهى مرضها ومعها ضعف، فقال: عليَّ بدجاجة مطبوخة فجيء بها، فأكلت، فقويت، ثم استقامت، فبلغ هذا إلى السلطان، فجاء به فشكا إليه مرضًا يشتكيه، فاتفق أنه وصف له شيئًا أصلح به، فاجتمع إلى السلطان جماعة يعرفون ذاك الحائك، فقالوا له: هذا رجل حائك لا يدري شيئًا. فقال السلطان: هذا قد صلحت على يديه وصلحت الجارية على يديه، فلا أقبل قولكم. قالوا: فنجربه بمسائل قال: افعلوا، فوضعوا له سمائل وسألوه عنها، فقال: أن أجبتكم عن هذه المسائل لم تعلموا جوابها، لأن الجواب لهذه المسائل لا يعرفه إلا طبيب، ولكن أليس عندكم مارستان؟ قالوا: بلى، قال: أليس فيه مرضى لهم مدة؟ قالوا: بلى، قال: فأنا أدوايهم حتى ينهض الكل في عافية في ساعة واحدة، فهل يكون دليل على علمي أقوى من ذلك؟ قالوا: لا، فجاء إلى باب المارستان وقال: اقعدوا لا يدخل معي أحد، ثم دخل وحده وليس معه إلا قيِّم المارستان، فقال للقيم: إنك والله إن تحدثت بما أعمل صلبتك، وإن سكت أغنيتك قال: ما أنطق. قال: فاحلفه بالطلاق، ثم قال: عندك في هذا المارستان زيت؟ قال: نعم. قال: هاته، فجاء منه بشيء كثير، فصبّه في قدر كبير، ثم أوقد تحته، فلما اشتد غليانه صاح بجماعة المرضى، فقال لأحدهم: إنه لا يصلح لمرضك إلا أن تنزل إلى هذا القدر، فتقعد في هذا الزيت فقال المريض: الله الله في أمري، قال: لا بد، قال: أنا قد شفيت، وإنما كان بي قليل من صداع، قال: ايش يقعدك في المارستان وأنت معافى؟ قال: لا شيء. قال: فاخرج وأخبرهم، فخرج وأخبرهم، فخرج يعدو ويقول: شفيت بإقبال هذا الحكيم، ثم جاء إلى آخر، فقال: لا يصلح لمضرك إلا أن تقعد في هذا الزيت، فقال: الله الله أنا في عافية. قال: لا بد، قال: لا تفعل فإني من أمس أردت أن أخرج. قال: فإن كنت في عافية فاخرج، وأخبر الناس بأنك في عافية، فخرج يعدو ويقول: شفيت ببركة الحكيم وما زال على هذا الوصف حتى أخرج الكل شاكرين له، والله الموفّق.

وطأها أمام زوجها[(١)]

قيل إن امرأة كان لها عشيق، فحلف عليها إن لم تحتالي حتى أطأك بمحضر من زوجك لم أكلمك، فوعدته أن تفعل ذلك، فواعدها يومًا وكان في دارهم نخلة طويلة، فقالت لزوجها: أشتهي اصعد هذه النخلة فأجتني من رطبها بيدي، فقال: افعلي، فلما صارت في رأس النخلة أشرفت على زوجها وقالت: يا فاعل مَن هذه المرأة التي معك؟ ويلك أما تستحي تجامعها بحضرتي، وأخذت تشتمه وتصيح وهو يحلف أنه وحده وما معه أحد، فنزلت فجعلت تخاصمه ويحلف بطلاقها أنه ما كان إلا وحده، ثم قال لها: اقعدي حتى أصعد أنا، فلما صار في رأس النخلة استدعت صاحبها، فوطئها فاطّلع الزوج، فرأى ذلك فقال لها: جعلت فداك لا يكون في نفسك شيء مما رميتيني به، فإن كل مَن يصعد هذه النخلة يرى مثل ما رأيت.

حيلة الفرزدق[(١)]

ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى: أن الفرزدق مرّ بامرأة وعليه ثوب وشيء فتعرّض لها، فقالت جاريتها: ما أحسن هذا البرد، فقال: هل لك أن أقبل مولاتك وأهب لها هذا البرد، فقالت الجارية لمولاتها: ماذا يضرّك من هذا الأعرابي الذي لا يعرفه الناس، فأذنت له فقبّلها وأعطاها البرد، ثم قال للجارية: اسقني ماء، فجاءته الجارية بماء في قدح زجاج ولما وضعته في يده ألقاه من يده، فانكسر، فقعد الفرزدق مكانه إلى أن جاء صاحب الدار فقال: يا أبا فراس ألك حاجة؟ قال: لا، ولكني استسقيت من هذه الدار ماء، فأتيت بقدح من زجاج، فوقع الإناء من يدي فانكسر، فأخذوا بردي رهنًا، فدخل الرجل فشتم أهله وقال: ردّوا على الفرزدق برده.

معاوية والنواقيس[(٢)]

قال إبراهيم: لما أسنّ معاوية اعتراه أرق وكان إذا هو نام أيقظته النواقيس، فلما أصبح ذات يوم ودخل الناس عليه، قال: يا معشر العرب! هل فيكم مَن يفعل ما آمره به وأعطيه ثلاث ديّات أعجلها له وديّتين إذا رجع؟ فقام فتى من غسان

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٩.

(٢) نفس المصدر ص ١٠٠.

فقال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: تذهب بكتابي إلى ملك الروم، فإذا صرت على بساطه أذنت قال: ثم ماذا؟ قال: فقط. قال: لقد كلّفت صغيرًا وأعطيت كثيرًا، فلما خرج وصار على بساط قيصر أذن، فحارت البطارقة واخترطوا سيوفهم، فسبق إليه ملك الروم، فجثى عليه وجعل يسألهم بحق عيسى وبحقه عليهم حتى كفّوا، ثم ذهب إلى سريره حتى صعد به، ثم جعله بين رجليه، فقال: يا معشر البطارقة إن معاوية قد أسن ومن أسن أرق، وقد آذته النواقيس، فأراد أن يقتل هذا على الأذان فيقتل مَن ببلاده على ضرب النواقيس، وبالله ليرجعن إليه على خلاف ما ظن فكساه وجمله، فلما رجع إلى معاوية قال له: أوقد جئتني سالمًا؟ قال: أما من قبلك فلا.

ويقال: ما ولي المسلمين أحدًا إلا وملك الروم مثله إن حازمًا وإن عاجزًا، وكان الذي ملكه على عهد عمر بن الخطاب هو الذي دوّن لهم الدواوين ودوّخ لهم العدو، وكان الذي على عهد معاوية يشبه معاوية في حزمه وعمله.

الجندي والراهب(١)

قال رجل من الجند: خرجت من بعض بلدان الشام أريد قرية من قراها، فلما صرت في الطريق، وقد سرت عدة فراسخ تعبت وكنت على دابة وعليه خرجي ورحلي، وقد قرب المساء، فإذا بحصن عظيم وفيه راهب في صومعة، فنزل إليّ واستقبلني، وسألني المبيت عنده، وأن يضيفني ففعلت، فلما دخلت الدير لم أجد فيه غيري، فأخذ بدابتي وجعل رحلي في بيت وطرح للدابة الشعير، وجاءني بماء حار، وكان الزمان شديد البرد والثلج يسقط، وأوقد بين يدي نارًا عظيمة، وجاء بطعام طيب فأكلت، ومضت قطعة من الليل فأردت النوم، فسألته عن طريق النوم، ثم سألته عن طريق المستراح فدلّني على طريقه، وكان في غرفة فمشيت، فلما صرت على باب المستراح إذا بارية عظيمة، فلما صارت رجلاي عليها نزلت، فإذا أنا في الصحرة، وإذا البارية كانت مطروحة على غير سقف، وكان الثلج تلك الليلة يسقط سقوطًا عظيمًا، فصحت فما كلّمني، فقمت وقد تجرح بدني، إلا أني سالم، فجئت فاستظللت بطاق عند باب الحصن من الثلج، فإذا حجارة لو جاءتني وتمكنت من دماغي طحنته، فخرجت أعدو وأصيح،

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٠.

فشتمني فعلمت أن ذلك من جانبه، وطمع في رحلي، فلما خرجت وقع الثلج عليَّ وبلَّ ثيابي، ونظرت، فإذا أنا تالف بالبرد والثلج، فولد لي الفكر أن طلبت حجرًا فيه نحو ثلاثين رطلًا، فوضعته على عاتقي وأقبلت أعدو في الصحراء شوطًا طويلًا حتى أتعب، فإذا تعبت وحميت وعرقت طرحت الحجر، وجلست استريح، فإذا سكنت وأخذني البرد تناولت الحجر وسعيت كذلك إلى الغداة، فلما كان قبل طلوع الشمس، وأنا خلف الحصن إذ سمعت صوت باب الدير قد فتح، وإذا أنا بالراهب قد خرج وجاء إلى الموضع الذي قد سقطت منه، فلما لم يرني قال: يا قوم ما فعل؟ وأنا أسمعه وأظنه المشوم قد رأى بقربه قرية، فقام يمشي إليها كيف أعمل؟ قال: وأقبل يمشي، فخالفته أنا إلى البابَ ودخلت الحصن، وقد مشى هو من ذاك المكان يطلبني حوالي الحصن، فحصلت أنا خلف باب الحصن، وقد كان في وسطي سكين لم يعلم بها الراهب، فوقفت خلف الباب، فطاف الراهب، فلما لم يقف لي على أثر عاد ودخل وأغلق الباب، فحين خفت أن يراني آثرت إليه ووجأته بالسكين فصرعته وذبحته، وأغلقت باب الحصن، وصعدت إلى الغرفة واصطليت بنار كانت موقودة هناك، وطرحت علي من تلك الثياب، وفتحت خرجي ولبست منه ثيابًا، وأخذت كساء الراهب، فنمت فيه، فما أفقت إلا قريب العصر، ثم انتبهت فطفت الحصن حتى وقعت على طعام، فأكلت وسكنت نفسي، ووقعت بمفاتيح بيوت الحصن، وأقبلت أفتح بيتًا بيتًا، وإذا بأموال عظيمة من عين وورق وأمتعة.وثياب وآلات، ورحال قوم وأخراجهم وحمولاتهم، وإذا الراهب من عادته تلك الحال مع كل مَن يجتازه وحيدًا ويتمكن منه فلم أدر كيف أعمل في ثقل المال، فلبست من ثياب الراهب شيئًا ووقفت في صومعته أيامًا أترآى لمن يجتاز بي في الموضع من بعيد لئلا يشكُّوا فيَّ أني أنا هو، فإذا قربوا لم أبرز لهم وجهي إلى أن خفي خبري، ثم نزعت تلك الثياب وأخذت جوالقين مما كان في الدير من تلك الأمتعة وملأتها مالًا، وجعلتهما على الدابة وسقتها إلى أقرب قرية كانت، واكتريت فيها منزلًا ولم أزل أنقل منه الصامت حتى حملته كله، ثم ماخت وكثرت قيمته، حتى لم أدع إلا الأمتعة الثقيلة، واكتريت عدة أحمال وحمير ورجَّالة، وجئت بهم دفعة واحدة وحملت كل ما قدرت عليه وسرت في قافلة عظيمة لنفسي بغنيمة هائلة، حتى قدمت بلدي، وقد حصل لي عشرة آلاف درهم ودنانير كثيرة مع قيمة الأمتعة، وغصت في الأرض فما عرفت خبري.

انعكست الحيلة على نفسه[١]

عن عليّ بن الحسن عن أبيه حدّثنا جماعة من أهل جند نيسابور فيهم كتَّاب وتجَّار وغير ذلك أنه كان عندهم في سنة نيف وأربعين وثلاثمائة، شاب من كتَّاب النصارى، وهو ابن أبي الطيب القلانسي، فخرج إلى بعض شأنه في الرستاق، فأخذته الأكراد وعذّبوه وطالبوه أن يشتري نفسه منهم، فلم يفعل، وكتب إلى أهله انفذوا لي أربعة دراهم أفيون واعلموا أني أشربها، فتلحقني سكتة، فلا تشك إلى الأكراد أني قد مت فيحملوني إليكم، فإذا حصلت عندكم، فادخلوني الحمام واضربوني ليحمي بدني وسوكوني بالأيارج، فإني أفيق.

وكان الفتى متخلقًا وقد سمع أنه مَن شرب أفيونًا أسكت، فإذا دخل الحمام وضرب وسوك بالأيارج برىء، فلم يعلم مقدار الشربة من ذلك، فشرب أربعة دراهم فلم يشك الأكراد في موته، فلفّوه في شيء وأنفذوه إلى أهله، فلما حصل عندهم أدخلوه الحمام وضربوه وسوكوه، فما تحرّك وأقام في الحمام أيامًا، ورآه أهل الطب، فقالوا: قد تلف. كم شرب أفيونًا؟ قالوا: وزن أربعة دراهم. فقالوا لهم: هذا الوشوي في جهنم ما عاش إنما يجوز أن يفعل هذا بمن شرب أربعة دوانيق أفيونًا أو وزن درهم أو حواليه، فأما هذا، فقد مات، فلم يقبل أهله ذلك فتركوه في الحمام حتى أراح وتغيَّر فدفنوه، وانعكست الحيلة على نفسه.

بلال بن أبي بردة والحجاج[١]

قال المحسن: وقد رُوي قديمًا أن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان في حبس الحجاج، وكان يعذبه وكان كل مَن مات من الحبس رفع خبره إلى الحجاج، فيأمر بإخراجه وتسليمه إلى أهله، فقال بلال للسجّان: خذ مني عشرة آلاف درهم وأخرج اسمي إلى الحجاج في الموتى، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربت في الأرض، فلم يعرف الحجاج خبري، وإن شئت أن تهرب معي فافعل وعلي غناك أبدًا، فأخذ السجّان المال ورفع اسمه في الموتى، فقال الحجاج: مثل هذا لا يجوز أن يخرج إلى أهله حتى أراه هاته، فعاد إلى بلال فقال: اعهد. قال: وما الخبر؟ قال: إن الحجاج قال: كيت وكيت، فإن لم أحضرك إليه ميتًا قتلني،

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٢.

وعلم أني أردت الحيلة عليه، ولا بد أن أقتلك خنقًا فبكى بلال وسأله أن لا يفعل، فلم يكن إلى ذلك طريق فأوصى وصلّى، فأخذه السجّان وخنقه، وأخرجه إلى الحجاج، فلما رآه ميتًا قال: سلّمه إلى أهله فأخذوه، وقد اشترى القتل لنفسه بعشرة آلاف درهم ورجعت الحيلة عليه.

المنصور وعيسى بن موسى(١)

ذكر ابن جرير وغيره أن المنصور دفع عبد الله بن علي إلى عيسى بن موسى سرًا بالليل قال: يا عيسى، إن هذا أراد أن يزيل نعمتي ونعمتك، وأنت ولي عهدي بعد المهدي، والخلافة صائرة إليك، فخذه فاضرب عنقه، وإياك أن تخور أو تضعف، ثم كتب إليه: ما فعلت فيما أمرتك به، فكتب إليه: قد أنفذت ما أمرتني به، فلم يشك في أنه قتله، وكان عيسى قد أخبر كاتبه بالحال، فقال: إنما أراد قتلك وقتله لأنه أمرك أن تقتله سرًا ثم يدعيه عليك علانية فيقيدك به، قال: فما الرأي؟ قال: أن تستره في منزلك، فإن طلبه منك علانية أظهرته علانية.

ثم إن المنصور دسَّ على عمومته مَن يحركهم على مسألة عن عبد الله بن عليّ ويطمعهم في أنه سيفعل وكلّموه ورافعوه، فقال: عليَّ بعيسى بن موسى، فأتاه، فقال: يا عيسى، قد علمت أني دفعت إليك عبد الله بن عليّ، وقد كلّموني فيه فأتني به، فقال: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله؟ ثم قال لعمومته: قد أقرّ لكم بقتل ابن أخيكم فادّعى أني أمرته بقتله وكذب، قالوا: فادفعه إلينا نقيّده. قال: شأنكم به فخرجوه إلى الرحبة، واجتمع الناس، فشهر أحدهم سيفه، وتقدم إلى عيسى ليضربه، فقال له عيسى: أقاتلي أنت؟ قال: أي والله قال: ردّوني إلى أمير المؤمنين، فردّوه، فقال: إنما أردت بقتله أن تقتلني. هذا عمك حي سوي فأتاه به.

الحارثي والطبيب المحتال(١)

قال الحارثي: اجتزت ببغداد في أيام المقتدر، وأنا أحدث مع جماعة من مجان أصحاب الحديث، وإذا بخادم خصي جالس على دكة في الطريق وبين يديه أدوية ومكاحل ومباضع، وعلى رأسه مظلة خرق كما يكون الطبيب، فقلت

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٣.

لأصحابنا: ما هذا؟ فقالوا: خادم طبيب يصف للناس ويعالج ويأخذ الدراهم، وهذا من عجائب بغداد، فقلت: أنا أحب أن أخاطبه لأنظر كيف فهمه، فقال واحد منهم: فهمه لا أدري ولكن نحب أن تعبث به، فتقدّم إليه وتغاشى وتماوت وتمارض وقال: يا أستاذ يا أستاذ دفعات؛ فضجر الخادم وقال: قولي لا شفاك الله أيش أصابك أي طاعون ضربك؟ قال: فقال له: يا أستاذ؛ أجد ظلمة في أحشائي ومغصًا في أطراف شعري، وما آكله اليوم يخرج غدًا مثل الجيفة، فصف لي صفة لما أنا فيه، قال: وكان الخادم قد أعدّ الجواب، فقال أما ما تجدين من مغص في أطراف شعرك فاحلقي رأسك ولحيتك حتى يذهب مغصك، وأما ظلمة في أحشاك، فعلقي على باب حجرك قنديلًا يضيء مثل الساباط، وأما ما تأكيله اليوم يخرج غدًا مثل الجيفة فكلي خراك واربحي النفقة. قال: فعطعط بنا العامة القيام، وضحكوا بنا، وانقلب الطنز الذي أردنا بالخادم، وصار طنزًا بنا، فصار أقصى إرادتنا الهرب، فهربنا.

الباقلاني وملك الروم(١)

الحسين بن عثمان وغيره: أن عضد الدولة بعث القاضي أبا بكر الباقلاني في رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره وبين له محله من العلم، فأفكر الملك في أمره، وعلم أنه لا يفكر له إذا دخل عليه كما جرى رسم الرعية أن يقبِّل الأرض بين يدي الملك، فنتجت له الفكرة أن يضع سريره الذي يجلس عليه وراء باب لطيف لا يمكن أحد أن يدخل منه، إلا راكعًا ليدخل القاضي منه على تلك الحال عوضًا من تفكيره بين يديه، فلما وصل القاضي إلى المكان فطن بالقصة، فأدار ظهره وحنى رأسه، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه، وقد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه، ثم رفع رأسه ونصب وجهه وأدار وجهه حينئذٍ إلى الملك، فعلم الملك من فطنته وهابه.

الألحى والكوسج(١)

كان مهيار الشاعر ألحى والمطرز الشاعر كوسجًا، فمرّا بأبي الحسن الجهرمي فقال:

اضْرِطْ على الكَوْسَجِ والألحى وزِدْهُمـا إن غَـضِبَـا سِـلْحـا

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٤.

وأراد أن يتهماه، فقال له المطرّز: فكيف وقع لك أن تذكر عليّ بن أبي عليّ حاجب القادر بالله، والحسن بن أحمد صاحب القادر بعد عليّ بن أبي عليّ، وكان عليّ ألحى والحسن كوسجًا، فانزعج الجهرمي وخاف أن يبلغه ذلك، فيقابل عليه، فكتب إلى مهيار الديلمي يستعطفه:

أبا الحَسَن اصْفِحْ إنَّ مثلي مَنْ جَنَى ومِثْلكَ مَنْ أعفى من العدوِ أو عَفَا
أئِن طَوَّحَتْ بي هَفْوَةٌ قلت جَفْوَةً وَحَمَّلْتُ سَمْعي مِن عِتَابك ما حَفَا

أبو بكر الخطاط(١)

أبو بكر الخطاط قال: كان رجل فقيه خطه في غاية الرداءة، فكان الفقهاء يعيبونه بخطه، ويقولون: لا يكون خط أردأ من خطك، فيضجر من عيبهم إياه، فمرّ يومًا بمجلد يباع فيه خط أردأ من خطه، فبالغ في ثمنه، فاشتراه بدينار وقيراط، وجاء به ليحتجّ عليهم إذا قرأوه فلما حضر معهم أخذوا يذكرون قبح خطه، فقال لهم: قد وجدت أقبح من خطي وبالغت في ثمنه، حتى أتخلّص من عيبكم، فأخرجه فتصفحوه، وإذا في آخره اسمه وأنه كتبه في شبابه، فخجل من ذلك.

عمر وشارب الخمر(٢)

ذكر أن عمر بن الخطاب رضيَ الله تعالى عنه استعمل رجلًا من قريش على عمل، فبلغه أنه قال:

اسْـقـنـي شُـربـةً ألـذّ عـلـيْـهـا واسـقِ بـالله مِـثْـلها ابـنَ هِـشَامِ

فأشخصه إليه، وذكر أنه إنما أشخصه من أجل البيت، فضم إليه آخر فلما قدم عليه قال: ألست القائل:

اسـقـنـي شـربـةً ألـذّ عـلـيـهـا واسـق بـالله مـثـلهـا ابـن هـشـام

قال: نعم يا أمير المؤمنين:

لـعلّه عسلًا باردًا بـماءِ سَحَاب إنّـنـي لا أحـبّ شـربَ الـمَـدَام

قال: الله الله، قال: ارجع إلى عملك.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٤.
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٦.

شقائق النعمان(١)

عن عبيد راوية الأعشى قال: خرج النعمان إلى ظهر الحيرة، وكان معشابًا، وكانت العرب تسميه خد العذراء فيه نبت الشيح والقيصوم والخزامي والزعفران وشقائق النعمان والأقحوان فمرّ بالشقائق، فأعجبته فقال: مَن نزع من هذا شيئًا فانزعوا كفه، قال: فسمّيت شقائق النعمان. قال: فإنه ليسير فيها يومًا فانتهى إلى وهدة في طرف النجف، وإذا شيخ يخصف نعلًا، فوقف عليه وقد سبق أصحابه، فقال: ممن أنت يا شيخ؟ قال: من بكر بن وائل، فقال: يا شيخ مالك هـٰهنا؟ قال: طرد النعمان الرعاة فأخذوا يمينًا وشمالًا، ووجدت وهدة خالية فنتجت الإبل وولدت الغنم وسالت السمن، فقال: أو ما تخاف النعمان؟ قال: وما أخاف منه، والله لربما لمست بيدي هذه ما بين سرة أمه وعانتها، كأنه أرنب جاثم. قال: أنت أيها الشيخ؟ قال: نعم. قال: فهاج وجهه غضبًا وطلعت أوائل خيله، فقالوا: حييت أبيت اللعن قال: وحسر عن رأسه فإذا خرزات ملكه فقال النعمان: أيها الشيخ كيف قلت؟ قال: أبيت اللعن لا يهولَنَّكَ ذاك، والله لقد علمت العرب أنه ليس بين لابتيها أكذب مني فضحك ثم مضى.

الرجل المشؤوم(٢)

وعن الأصمعي عن أبيه قال: أتي عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعض مَن خرج عليه، فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك. قال: وما جزاؤك؟ قال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادّعيت وكنت لك خيرًا من مائة ألف معك، فضحك وخلى سبيله.

خالد بن صفوان والسفاح(٢)

قال إسحـٰق بن إبراهيم الموصلي، قال شبيب بن شيبة: دخل خالد بن صفوان التميمي على أبي العباس وليس عنده أحد، فقال: يا أمير المؤمنين إني والله ما زلت منذ قلّدك الله خلافته أطلب أن أصير إلى مثل هذا الموقف في هذه الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ فعل. قال: فأمر

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٧.

الحاجب بذلك، فقال: يا أمير المؤمنين! إني فكرت في أمرك وأجلت الفكر فيك، فلم أر أحدًا له مثل قدرك اتساعًا في الاستمتاع بالنساء منك، ولا بأضيق فيهن عيشًا، إنك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين، واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت وإن عركت عركت، وحرمت يا أمير المؤمنين نفسك من التلذذ بأطراف الجواري، ومعرفة اختلاف أحوالهم والتلذذ بما يشتهى منهم. إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة التي تُشتَهى لجسمها، والبيضاء التي تحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك، وما يشتهى من نظافتهن، وتخلل خالد بلسانه فأطنب في صفات ضروب الجواري وشوقه إليهن، فلما فرغ قال: ويحك والله ما سلك مسامعي كلام أحسن من هذا، فأعد عليَّ كلامك فقد وقع مني موقعًا فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم انصرف وبقي أبو العباس مفكرًا، فدخلت عليه أم سلمة، وكان قد حلف أن لا يتخذ عليها ووفى، فلما رأته مفكرًا قالت: إني لأذكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث شيء تكرهه وأتاك خبر أرتعت له؟ قال: لا، فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد. قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ فقال لها: ينصحني وتشتميه، فخرجت إلى مواليها فأمرتهم بضرب خالد، فخرجت من الدار مسرورًا بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة، فبينما أنا واقف أقبلوا يسألون عني فحققت الجائزة، فقلت لهم: ها أناذا، فاستبق إليَّ أحدهم بخشبة، فغمزت برذوني ولحقني فضرب كفله، وركضت ففتهم واستخفيت في منزلي أيامًا، ووقع في قلبي أني أتيت من قبل أم سلمة، فما أشعر إلا بقوم قد هجموا عليَّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فسبق إلى قلبي أنه الموت، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. لم أر دم شيخ أضيع من دمي، فركبت إلى دار أمير المؤمنين، فلقيته خاليًا، فنظرت في المجلس بينا عليه ستور رقاق، وسمعت حسًّا خلف الستر، فقال: ويحك وصفت لأمير المؤمنين صفة فأعدها، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن النساء أكثر من واحدة إلا ضرر وتنغص، فقال له أبو العباس: لم يكن هذا للعرب إنما اشتقت اسم الضرتين من الضرر، وإن أحد لم يكن عنده من في الحديث. قال: بلى يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن في القدر يغلي عليهن، قال: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك ولا مرَّ في حديثك. قال: وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبه يشيبنه ويهرمنه. قال: لا والله

ما سمعت هذا منك. قلت: بلى والله. قال: أفتكذبني؟ قلت: أفتقتلني؟ نعم، والله يا أمير المؤمنين إن أبكار الأماء رجال إلا أنه ليست لهن خصي. قال خالد: فسمعت ضحكًا من خلف الستر، ثم قلت: نعم والله وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش، وأنت تطمح بعينك إلى النساء والجواري، قال: فقيل من وراء الستر: صدقت والله يا عمّاه بهذا حدثته، ولكنه غيَّر حديثك، ونطق من لسانك، فقال أبو العباس: ما لك قاتلك الله. قال: وانسللت، فبعثت إليَّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتخت وثياب.

نصيب والزوجة الثانية(١)

رجل من بني نوفل بن عبد مناف قال: لما أصاب نُصيب من المال ما أصاب، وكان عنده أم محجن وكانت سوداء اشتاق إلى البياض، فتزوج امرأة سرية بيضاء، فغضبت أم محجن وغارت عليه، فقال لها: والله يا أم محجن ما مثلي يغار عليه. إني شيخ كبير، وما مثلك يغار إنك لعجوز كبيرة، وما أحد أكرم عليَّ منك ولا أوجب حقًّا، فجوزي هذا الأمر ولا تكدريه عليَّ. فرضيت وقربت ثم قال لها بعد ذلك: هل لك أن أجمع إليك زوجتي الجديدة، فهو أصلح لذات البين، وألم للشعث وأبعد للشماتة؛ فقالت: نعم افعل وأعطاها دينار، وقال لها: إني أكره أن ترى بك خصاصة أن تفضل عليك، فاعملي لها إذا أصبحت عندك غدًا بهذا الدينار، ثم أتى زوجته الجديدة، فقال لها: إني أردت أن أجمعك إلى أم محجن غدًا، وهي مكرمتك وأكره أن تفضل عليك أم محجن، فخذي هذا الدينار فأعدي لها به إذا أصبحت عندها غدًا لئلا ترى بك خصاصة، ولا تذكري لها الدينار، ثم أتى صاحبًا له يستنصحه فقال: إني أريد أن أجمع زوجتي الجديدة إلى أم محجن غدًا، فأتني مسلمًا، فإني سأستجلسك للغداء، فإذا تغديت فسلني عن أحبهما إليَّ، فإني سأنفر وأعظم ذلك، فإذا أبيت عليك أن لا أخبرك فاحلف عليَّ، فلما كان الغد زارت زوجته الجديدة لأم محجن، ومرّ به صديقه، فاستجلسه، فلما تغديا أقبل الرجل عليه، فقال: يا أبا محجن أحب أن تخبرني عن أحب زوجتيك إليك. فقال: سبحان الله! أتسألني عن هذا، وهما يسمعان ما سأل عن مثل هذا أحد. قال: فإني أقسم عليك

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٨.

لتخبرني، فوالله لا عذرتك ولا أقبل إلا ذاك. قال: أما إذا فعلت فأحبهما إليّ صاحبة الدينار والله لا أريد على هذا شيئًا، فأعرضت كل واحدة منهما تضحك ونفسها مسرورة، وهي تظن أنه عناها بذلك القول.

كل زوجة لي وراء هذا الباب طالق ثلاثًا(١)

القاضي أبو الحسين بن عتبة قال: كانت لي ابنة عم موسرة وتزوجتها، فلم أوثرها لشيء من الجمال، ولكنني كنت أستعين بمالها وأتزوج سرًا، فإذا فطنت بذلك هجرتني وطرحتني وضيّقت عليّ إلى أن أطلّق من تزوجتها، ثم تعود إليّ، فطال ذلك عليّ، وتزوجت صبية حسناء موافقة لطباعي مساعدة على اختياري، فمكثت معي مدة يسيرة وسعي بها إلى ابنة عمي، فأخذت في المناكدة والتضييق عليّ، فلم يسهل عليّ فراق تلك الصبية فقلت لها: استعيري من كل جارة قطعة من أخر ثيابها، حتى يتكامل لك خلعة تامة الجمال. وتبخري بالعنبر واذهبي إلى ابنة عمي فابكي بين يديها، وأكثري من الدعاء لها والتضرّع إليها إلى أن تضجريها، فإذا سألتك عن حالك، فقولي لها: إن ابن عمي قد تزوجني، وفي كل وقت يتزوج عليّ واحدة، وينفق مالي عليها، وأريد أن تسألي القاضي معونتي وإنصافي منه، فإني أقدمه إليه، فإنها سترفعك إليّ ففعلت فلما دخلت عليها واتصل بكاؤها رحمتها، وقالت لها، فالقاضي شر من زوجك، وهكذا يفعل بي وقامت فدخلت علي، وأنا في مجلس لي وهي غضبى ويد الصبية في يدها، فقالت: هذه المشؤومة حالها مثل حالي، فاسمع مقالها واعتمد إنصافها، فقلت: ادخلا، فدخلتا جميعًا، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: فذكرت ما وافقتها عليه، فقلت لها: هل اعترف ابن عمك بأنه قد تزوج عليك؟ فقالت: لا، والله. وكيف يعترف بما يعلم إني لا أقاره عليه. قلت: فشاهدت أنت هذه المرأة وقفت على مكانها وصورتها، فقالت: لا والله. فقلت: يا هذه اتقي الله ولا تقبلي شيئًا سمعته، فإن الحساد كثير والطلاب لإفساد النساء كثير والحيل والتكذيب، فهذه زوجتي قد ذكر لها أني تزوجت عليها، وكل زوجة لي وراء هذا الباب طالق ثلاثًا، فقامت ابنة عمي فقبّلت رأسي وقالت: قد علمت أنه مكذوب عليك أيها القاضي، ولم يلزمني حنث لاجتماعهما بحضرتي.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٩.

سراقة بن مرداس والمختار(١)

عن أبي الحسن المدائني أن أحمد بن سميط أسر خمسمائة فأتى بهم المختار، فقتل مائتين وأربعين وحبس بعضًا، ومنَّ على بعض، فكان ممن حبس من الأسرى سراقة بن مرداس البارقي، ثم أمر بقتله فقال: لا والله لا تقتلني، حتى أنقض معك داري حجرًا حجرًا. قال: وما يدريك؟ قال: الأخبار الصادقة التي جاءت بها الكتب الناطقة، فأقبل المختار على عبد الله بن كامل وعلى أبي عمرة، فقال: مَن يظهر أسرارنا، فأمر بتخليته، فقالْ سراقة: إنا قد أسرنا قوم لا نراهم. قال: هم هؤلاء وهم شرط الله. قال: لا والله لقد أسرنا قوم عليهم عمائم حمر على خيل بلق تطير بين السماء والأرض. قال: هذه الملائكة، فاعلم الناس ذلك يا سراقة. قال: فصعدت منارة وأعلمت الناس وحلفت لهم، فخلّى سبيلي.

الأصمعي والرشيد(١)

عن عبد الرحمٰن ابن أخي الأصمعي، عن عمه قال: بعث إليَّ الرشيد، فدخلت فإذا صبية، فقال: مَن هذه الصبية؟ فقلت: لا أدري. قال: هذه مواسة بنت أمير المؤمنين، فدعوت لها وله. قال: نعم، فقبِّل رأسها، فقلت إن أطعته أدركته الغيرة، فقتلني، وإن أنا عصيته قتلني بمعصية، فوضعت كمي على رأسها وقبلت كمي، فقال: والله يا أصمعي لو أخطأتها لقتلتك. أعطوه عشرة آلاف درهم.

واصل بن عطاء والخوارج(٢)

عن ابن البهلول أن أبا حذيفة واصل بن عطاء خرج يريد سفرًا في رهط، فاعترضهم جيش من الخوارج فقال واصل: لا ينطقن أحد ودعوني معهم، فقصدهم واصل، فلما قربوا بدأ الخوارج ليوقعوا، فقال: كيف تستحلون هذا وما تدرون مَن نحن ولا لأي شيء جئنا؟ فقالوا: نعم. فما أنتم؟ قال: قوم من المشركين جئناكم لنسمع كلام الله. قال: فكفّوا عنهم، وبدأ رجل منهم يقرأ عليهم القرآن، فلما أمسك قال واصل: قد سمعنا كلام الله، فأبلغنا مأمننا حتى ننظر فيه،

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١١٠.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١١.

وكيف ندخل في الدين، فقال: هذا واجب. سيروا، فسرنا والخوارج والله معناه يحمونا فراسخ، حتى قربنا إلى بلد لا سلطان لهم عليه. فانصرفوا.

الحجاج والمصروع(١)

قال أبو إسحٰق الجهمي: لما صرف الحجاج قال لغلام له: تعال نتنكر وننظر ما لنا عند الناس، فتنكروا وخرجا، فمرا على المطلب غلام أبي لهب، فقالا: يا هذا! أي شيء على الحجاج؟ قال: على الحجاج لعنة الله. قالا: فمتى يخرج؟ قال: أخرج الله روحه من بين جنبيه ما يدريني. قال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج بن يوسف. قال المطلب: أتعرفني أنت؟؟ قال: لا. قال: أنا المطلب غلام أبي لهب معروف أصرع في كل شهر ثلاثة أيام أولها اليوم، فتركه ومضى.

الحجاج والبستاني(١)

حكى أبو الحسن بن هلال الصابي أن الحجاج انفرد يومًا من عسكره، فمرّ ببستاني يسقي ضيعته، فقال: كيف حالكم مع الحجاج؟ فقال: لعنه الله المبيد البر، الحقود عجل الله الانتقام منه، فقال له: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج، فرأى أن دمه قد طاح، فرفع عصا كانت معه، فقال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي وأزبد وأرغى وهاج، وأراد أن يضرب رأسه بالعصى، فضحك منه وانصرف.

أبحث عن مفسّر لرؤياي(٢)

يُحكَى أن مزيدًا كان يدخل على بعض ولاة المدينة، فأبطأ عليه ذات يوم، ثم جاء، فقال: ما أبطأك عني؟ قال: جارة لي كنت أهواها منذ حين، فظفرت بها ليلتي وتمكنت منها، فغضب الوالي، وقال: والله لآخذنك بإقرار، فلما رأى الجد منه، قال: فاسمع تمام حديثي، قال: وما هو؟ فلما أصبحت خرجت أطلب مفسرًا يفسر لي رؤياي، فلم أقدر عليه إلى الساعة. قال: ذلك في المنام رأيت؟ قال: نعم. فسكن غضبه.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١١١.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٢.

أبو دلف والمأمون[١]

عن أبي الفضل الربعي عن أبيه قال: قال المأمون يومًا وهو مغضب لأبي دلف أنت الذي يقول فيك الشاعر:

إنَّما الدُّنيا أبو دلف　　بين باديه ومُحتضرِهِ
فإذا ولَّى أبو دلفِ　　ولَّتِ الدُّنيا على أثرهِ

فقال: يا أمير المؤمنين، شهادة زور، وقول عزور وملق معتاف وطلب عرف، وأصدق منه ابن أخت لي حيث يقول:

دعيني أجوبُ الأرضَ في طَلَبِ الغِنَى　　فلَا الكرخ الدُّنيا ولا الناسُ قاسِمَ

فضحك المأمون وسكن غضبه.

عَـزَّة وبثينة[١]

رُوِيَ أن عزة وبثينة اجتمعتا فتحدثتا، فأقبل كثيِّر، فقالت بثينة: أتحبين أن أبين لك أن كثيِّرًا غير صادق في محبتك؟ قالت: نعم. قالت: ادخلي الخباء، فدخلت فدنا كثيِّر فوقف على بثينة، فسلَّم عليها فقالت له: ما تركت عزة فيك مستمعًا لأحد، فقال كثيِّر والله لو أن عزة أمة لوهبتها لك، فقالت: إن كنت صادقًا فقل في هذا شعرًا فأنشأ يقول:

رَمَتْني عَلى عَمْدٍ بثينة بعدَما　　تولَّى شبابي وارجحنَ شبابُها
بعينينِ نَجْلاوينِ لو رَقْرَقَتهما　　لنوء الثريّا لاستهلَّ سَحَابُها

فبادرت عزة وكشفت الحجاب، وقالت له: يا فاسق! قد سمعت البيتين، فقال لها: فاسمعي الثالث. قالت: وما هو؟ قال:

ولكنَّما ترمين نفسًا سقيمةً　　لعزّة مِنها صفوها ولبابُها

فاستحسنت عذره.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١١٢.

أبو العجب والبلبل الميت[١]

ذكر هلال بن المحسن أن رجلًا كان يقال له أبو العجب لم ير مثله فيما كان يعمل من الشعبذة[٢]. دخل يومًا إلى دار المقتدر بالله، فرأى خادمًا من خواصه يبكي على بلبل مات له، فقال له: ما عليك أيها الأستاذ إن أحييته؟ فقال: ما تريد، فأخذ البلبل الميت، فأدخله كمه وأدخل رأسه، وأخرج بعد ساعة بلبلًا حيًا، فماجت الدار وعجب الحاضرون، فاستدعاه علي بن عيسى وقال: والله إن لم تصدقني عن حقيقة الأمر لأضربن عنقك، فقال: إني شاهدت الخادم يبكي على بلبله، فطمعت بما آخذه منه، مضيت في الحال إلى السوق، وابتعت بلبلًا وخبأته في كمي وعدت إلى الخادم، فقلت ما قلته، وأخذت البلبل الميت، وأدخلت رأسه في كمي وأكلته، وأخرجت الحي، فلم يشك أنه بلبله، وهذا رأس الميت.

ابن المعتز المؤدب[٣]

قال ابن عرابة المؤدب حكى لي محمد بن عمر الضبي أنه حفظ ابن المعتز وهو يؤدبه (والنازعات) وقال له: إذا سألك أمير المؤمنين أبوك في أي شيء أنت؟ فقل له: في السورة التي تلي (عبس) ولا تقل أنا في النازعات. قال: فسأله أبوه في أي شيء أنت؟ قال: في السورة التي تلي عبس، فقال: مَن علّمك هذا؟ قال: مؤدبي. قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم. . .

حيلة ناجحة[٣]

قال عبد الواحد بن نصر المخزومي قال: أخبرني مَن أثق به أنه خرج في طريق الشام مسافرًا يمشي وعليه مرقعة، وهو في جماعة نحو الثلاثين رجلًا كلهم على هذه الصفة، فصحبنا في بعض الطريق رجل شيخ حسن الهيئة ومعه حمار فاره يركبه، ومعه بغلام عليهما رجل وقماش ومتاع فاخر، فقلنا له: يا هذا إنك لا تفكر في خروج الأعراب علينا، فإنه لا شيء معنا يؤخذ وأنت لا تصلح لك صحبتنا مع ما معك، فقال: يكفينا الله، ثم سار ولم يقبل منا، وكان إذا نزل يأكل استدعى أكثرنا فأطعمه وسقاه، وإذا عيي الواحد منا أركبه على أحد بغليه، وكانت

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٢.

(٢) الشعبذة: أي الأعمال السحرية.

(٣) كتاب الأذكياء ص ١٣٧.

جماعة تخدمه وتكرمه وتتدبر برأيه إلى أن بلغنا موضعًا، فخرج علينا نحو ثلاثين فارسًا من الأعراب، فتفرقنا عليهم ومانعناهم، فقال الشيخ: لا تفعلوا، فتركناهم ونزل، فجلس وبين يديه سفرته، ففرشها وجلس يأكل، وأظلتنا الخيل، فلما رأوا الطعام دعاهم إليه، فجلسوا يأكلون، ثم حلّ رحله وأخرج منه حلوى كثيرة وتركها بين يدي الأعراب، فلما أكلوا وشبعوا جمدت أيديهم وخدرت أرجلهم ولم يتحركوا، فقال لنا: أن الحلو مبنج، أعددته لمثل هذا وقد تمكن منهم وتمت الحيلة. ولكن لا يفك البنج إلا أن تصفعوهم، فافعلوا فإنهم لا يقدرون لكم على ضرر ونسير، ففعلوا فما قدروا على الامتناع، فعلمنا صدق قوله، وأخذنا أسلحتهم وركبنا دوابهم وسرنا حواليه في موكب، ورماحهم على أكتافنا، وسلاحهم علينا، فما نجتاز بقوم إلا يظنونا من أهل البادية فيطلبون النجاة منا، حتى بلغنا ما مننا.

أعمى في يده سراج(١)

قال بعضهم: خرجت في الليل لحاجة، فإذا أعمى على عاتقه جرة، وفي يده سراج، فلم يزل يمشي حتى أتى النهر وملأ جرته وانصرف راجعًا، فقلت: يا هذا، أنت أعمى والليل والنهار عندك سواء، فقال: يا فضولي حملتها معي لأعمى القلب مثلك يستضيء بها، فلا يعثر بي في الظلمة فيقع علي فيكسر جرتي.

الرشيد وإبراهيم الموصلي(١)

روى أبو الحسن الأصفهاني أن إبراهيم الموصلي دخل على الرشيد وبين يديه جارية كأنها خوط بان، فقال لها الرشيد: غني فغنت:

تـوهّـمـه قـلبـي فـأصـبـح خـدّهُ   وفيه مكانُ الوهْم مِنْ نظري أثرُ
ومرّ بـوهـمي خاطـرًا فـجرحته   ولـم أرَ جسمًا قطَ يَجْرحه الفِكْرُ

قال إبراهيم: فذهبت والله بعقلي حتى كدت افتضح، فقلت: مَن هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه التي يقول فيها الشاعر:

لـهـا قَـلبـي الـغُـدَاة وقـلبُـهـا لـي   فَـنَـحْـنُ كَـذاكَ فـي جَـسَـديْـن روحُ

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٨.

ثم قال: غنّي يا إبراهيم فغنّيت:

تَشَرَّبَ قلبي حبّها ومشى بها ... تمشي حميّا الكأسِ في جِسْمِ شارِبِ
ودبّ هواها في عظامي فشفّها ... كما دبَّ الملسُوعِ سُمّ العَقَارِبِ

قال: ففطن بتعريضي، وكانت غلطة مني، فأمرني بالانصراف، ولم يدعني شهرًا، ثم دسّ إليّ خادمًا ومعه رقعة فيها مكتوب:

قد تخوّفت أن أموتَ من الوجْدِ ... ولم يدر من هويت بحالي
يا كتابي اقرأ السّلَام على مَنْ ... لا أسمي وقل له يا كتابي
إن كفا إليك قد كتبتني ... في شقاءٍ مواصل وعذابِ

فأتاني الخادم بالرقعة، فقلت له: ما هذا؟ قال: رقعة من فلانة الجارية التي غنتك بين يدي أمير المؤمنين، فأحسست بالقصة، فشتمت الخادم وقمت إليه فضربته ضربًا شفيت منه نفسي، وركبت إلى الرشيد من فوري، فأخبرته بالقصة وأعطيته الرقعة، فضحك حتى كاد يستلقي وقال: على عمد فعلت ذاك لأمتحنك وأعرف مذهبك وطريقتك، ثم دعا لي الخادم، فخرج فلما رآني قال: قطع الله يديك ورجليك ويلك قتلتني، فقلت: القتل بعض حقك لما وردت به عليَّ ولكني أبقيت عليك، وأخبرت أمير المؤمنين ليأتي في عقوبتك ما تستحقه، فأمر لي الرشيد بصلة سنية، والله يعلم أني ما فعلت ما فعلته عفافًا بل خوفًا.

عمر بن الخطاب والهرمزان(١)

حدّثنا زياد بن جبير رضي الله عنه قال: أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل من المشركين، يقال له الهرمزان، فأسلم، فقال: فإني مستشيرك في مغازي هذه فأشر عليّ، فقال: نعم يا أمير المؤمنين: الأرض مثلها ومثل مَن فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له رأس وجناحان وله رجلان، فإن انكسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح وبالرأس، وإن انكسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس، فإن انشَج الرأس ذهبت الرجلان والجناحان، فالرأس كسرى والجناح قيصر والجناح الآخر فارس، فَمُرْ المسلمين، فلينفروا إلى كسرى.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٥.

من حِيَل الإسكندر(١)

رُوِيَ أن الإسكندر رأى في عسكره سميًا له لا يزال ينهزم فقال له: أما أن تغيّر اسمك أو فعلك.

وخرج يومًا في الحرب من صف أصحابه وأمر مناديًا فنادى: يا معشر الفرس، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات، فمن كان على الوفاء فليعتزل عن العسكر، وله منا الوفاء بما ضمناه، فاتهمت الفرس بعضها بعضًا، وكان أول اضطراب حدث فيهم.

وفي رواية إنه لما صادف دارًا أمر مناديًا في عسكر دارا: أيها الناس أما نحن فقد فعلنا ما اتفقنا عليه، فكونوا من وراء ما ضمنتم فاستشعر دارًا أن عسكره قد عزموا على تسليمه إلى الإسكندر وكان ذلك سبب هزيمته.

ولمّا شخص عن فارس إلى الهند تلقاه ملكها في جمع عظيم، ومعه ألف فيل عليها السلاح والرجال، وفي خراطيمها السيوف والأغمدة، فلم تقف لها دواب الإسكندر، فهزم وعاد إلى مأمنه، فأمر باتخاذ فيلة من نحاس مجوفة وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها، ثم أمر فملئت نفطًا وكبريتًا وألبسها الدروع وجرت على العجل إلى المعركة، وبين تمثالين منها جماعة من أصحابه، فلما نشبت الحرب أمر بإشعال النار في جوف التماثيل، فلما حميت انكشف أصحابه عنها وغشيتها الفيلة فضربتها بخراطيمها فتشيطت وولّت مدبرة راجعة على أصحابها وصارت الدائرة على ملك الهند.

قال: ونزل مرة على مدينة حصينة، فتحصّن أهلها منه، فأخبر أن عندهم من الميرة قدر كفايتهم، فدسّ تجارًا متنكرين وأمرهم بدخول المدينة، ورحل عنها وأمدهم بمال ومتاع، فباعوا ما معهم وابتاعوا الميرة، فلما أكنزوا كتب أن أحرقوا ما عندكم من الميرة واهربوا ففعلوا، فزحف إلى المدينة فحاصرها أيامًا يسيرة، فأخذها وكان إذا أراد محاصرة بلد شرد من حولها من القرى، فهربوا إليها فيسرعون في أكل الميرة، فتقل فيحاصرهم فيفتحها.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٥.

من حِيَل كسرى بن هرمز(١)

وحُكِيَ عن كسرى بن هرمز أنه كان بعث الأصبهبد إلى الروم في جيش عظيم، فأعطى من الظفر ما لم يعطه أحد قبله، وأخذ الأصبهبد خزائن الروم ووجهها على هيئتها إلى كسرى، ففطن كسرى أن مال الأصبهبد من الظفر، وأن هذا يغيره عليه، ويوجب له كبرًا، فبعث إليه رجلًا ليقتله وكان المبعوث عاقلًا، فلما رأى الأصبهبد وتدبيره وعقله قال: ما يصلح قتل هذا بغير جرم، ثم أخبره بالذي جاء له، فأرسل الأصبهبد إلى قيصر إني أريد أن ألقاك. قال: إذا شئت فنلتقيا. فقال لهم: إن هذا الخبيث قد همّ بقتلي ووجه إليَّ رجلًا بذلك، وإني أريد هلاكه كالذي أراد مني والبادي أظلم، فاجعل لي من نفسك ما أطمئن إليه وأعطيك من بيوت أمواله مثل الذي أصبت منك، ومثل الذي أنت منفقه في مسيرك هذا، فأعطاه من المواثيق ما اطمأن إليه، وسار قيصر في أربعين ألفًا، فنزل بكسرى، فعلم كسرى كيف جرى الأمر، فاحتال لفض جنود قيصر، فدعا قسًّا متنصر في دينه، فقال: إني كاتب معك كتابًا لطيفًا في حريرة لتبلغه الأصبهبد، فلا تطلعنّ على ذلك أحدًا وأعطاه ألف دينار، وقد علم كسرى أن القسّ يوصل كتابه إلى قيصر لأنه تحته هلاك الروم، وكان في الكتاب: إلى الأصبهبد، إني كتبت إليك وقد دنا مني قيصر، فقد أحسن الله إلينا وأمكن منهم بتدبيرك لا عدمت صواب الرأي، وقد فرّقت عليهم وأنا ممهله حتى يقرب من المدائن، ثم أغافله في يوم كذا فغره عليَّ من قتلك إياي، فإني أستأصلهم، فخرج القسّ بالكتاب، فأوصله إلى قيصر، فقال قيصر: هذا الحق وما أراد إلّا هلاكنا، فتولّى منصرفًا وأتبعه كسرى إياس بن قبيصة الطائي، فقتل أصحابه ونجا قيصر في شرذمة قليلة.

جذيمة الأبرش والزبّاء(١)

قال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كان جذيمة بن مالك ملكًا على الحيرة وما حولها من السواد ملك ستين سنة، وكان به وضح، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد، فنهيت العرب أن يقولوا الأبرص، فقالوا: الأبرش فغزا مليح بن برء، وكان ملكًا على الحضر وهو الحاجز بين الروم

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٦.

والفرس، وهو الذي ذكره عدي بن زيد في قصيدة منها هذا البيت:

وأخُو الحَضَرِ إذْ بَنَاهُ وإذْ دِجْلَة تُجْبى إليه والخَابُورُ

فقتله جذيمة وطرد الزباء إلى الشام، فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان، حسنة البيان، شديدة السلطان، كبيرة الهمة.

قال ابن الكلبي: لم يكن في نساء عصرها أجمل منها، وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جللها، فسميت الزباء. قال الكلبي: وبعث عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها، فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها وملكتها، فأزالت جذيمة الأبرش عنها، وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرقي الفرات ومن غربيه، وجعلت بينهما نفقًا تحت الفرات، وكان إذا راهقها الأعداء آوت إليه وتحصّنت به، وكانت قد اعتزلت الرجال، فهي عذراء وكان بينها وبين جذيمة بعد الرحب مهادنة، فحدث جذيمة نفسه بخطبتها، فجمع خاصته فشاورهم في ذلك وكان له عبد يقال له قصير بن سعد، وكان عاقلًا لبيبًا وكان خازنه وصاحب أمره وعميد دولته، فسكت القوم وتكلّم قصير، فقال: أبيت اللعن أيها الملك إن الزباء امرأة قد حرمت الرجال، فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال ولها عندك ثأر والدم لا ينام، وإنما هي تاركتك رهبة وحذار دولة، الحقد دفين في سويداء القلب له كمون ككمون النار في الحجر إن اقتدحته أورى، وإن تركته توارى، وللملك في بنات الملوك الأكفّاء متسع، ولهن فيه منتفع، وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظم شأنك فما أحد فوقك. فقال جذيمة: يا قصير الرأي ما رأيت والحزم فيما قلته، ولكن النفس توّاقة إلى ما تحب وتهوى، ولكل امرىء قدر لا مفر له منه ولا وزر، فوجه إليها خاطبًا، وقال: ائت الزباء فاذكر لها ما يرغبها فيه وتصبو إليه، فجاءتها خطبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: أنعم بك عينًا وبما جئت به وله، وأظهرت له السرور به والرغبة فيه وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنت أضربت عن هذا الأمر خوفًا أن لا أجد كفؤًا، والملك فوق قدري وأنا دون قدره، وقد أجبت إلى ما سأل ورغبت فيما قال، ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرت إليه ونزلت عليه، وأهدت إليه هدية سنية ساقت العبيد والإماء والكراع والسلاح والأموال والإبل والغنم، وحملت من الثياب والعين والورق، فلما رجع إلى خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى

من اللطف، وظن أن ذلك لحصول رغبة، فأعجبته نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصير خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي، وهو أول ملوك الحيرة من لخم، وكان ملكه عشرين ومائة سنة، وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي وردته، وقد شب ونبر، فقالت أمه: ألبسوه الطوق، فقال خاله جذيمة: شب عمرو على الطوق فصارت مثلًا فاستخلفه وسار إلى الزباء، فلما صار ببقة نزل وتصيّد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه، فسكت القوم وافتتح الكلام قصير بن سعد قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيد بحزم. قال لي: أف ما يكون كونه فلا تثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فيفسد، ولا الحزم بالمنى فيبعد، والرأي عندي للملك أن يعتقب أمره بالتثبت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمت على الملك عزمًا بتًا أن لا يفعل، فأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك وصوّبوا رأيه وقووا عزمه. فقال جذيمة: الرأي للجماعة والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدر يسابق الحذر ولا يطاع لقصير أمر. فأرسلها مثلًا.

وسار جذيمة، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يحمل إليه الإنزال والعلوفات، وقالت لجندها: وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيتها تلقوا سيدكم وملك دولتكم.

وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيرًا، فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم. قد زادت بصيرتي فيه، أفأنت على عزمك؟ قال: نعم وقد زادت رغبتي فيه. فقال قصير: ليس للأمور بصاحب، من لم ينظر في العواقب وقد يستدرك الأمر قبل فواته، وفي يد الملك بغية هو بها مسلط على استدراك الصواب، فإن وثقت بأنك ذو ملك وعشيرة ومكان، فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك، وألقيتها في يدي مَن لست آمن عليك مكره وغدره، فإن كنت ولا بدّ فاعلًا ولهواك تابعًا، فإن القوم إن تلقوك غدًا فرقًا وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم، فالأمر بعده في يدك والرأي فيه إليك، وإن تلقوك رزدقًا[١] واحدًا وأقاموا لك صفين حتى إذا توسطتهم انقضوا

(١) رزدقًا: أي جمعًا واحدًا.

عليك من كل جانب، فأحدقوا بك، فقد ملكوك وصرت في قبضتهم، وهذا العصا لا يشق غبارها، وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجاري الرياح. يقال العصا، فإذا كان كذلك، فتملك ظهرها فهي ناجية بك إن ملكت ناصيتها، فسمع جذيمة كلامه ولم يرد جوابًا وسار، وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة غدًا فتلقوه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم، فتعرضوا عليه. من كل جانب حتى تحدقوا به، وإياكم أن يفوتكم، وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القوم رزدقًا واحدًا أقاموا له صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأحدل على فريسته فأحدقوا به وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسايره فأقبل عليه، وقال: صدقت يا قصير، فقال قصير: أيها الملك! أبطأت بالجواب، حتى فات الصواب. فأرسله مثلًا. فقال: كيف الرأي الآن؟ قال: هذه العصا فدونكها لعلك تنجو بها، فأنف جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه، فصار على ظهر العصا وأعطاها عنانها وزجرها، فذهبت تهوي به هوى الريح، فنظر إليه جذيمة وهي تطاول به، وأشرفت الزباء من قصرها، فقالت: ما أحسنك من عروس تجلى عليَّ وتزف إليَّ، حتى دخلوا به إلى الزباء، ولم يكن معها في قصرها إلّا جوارٍ أبكار أتراب.

وكانت جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفة كل واحدة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي، وهي بينهن كأنها قمر قد حفت به النجوم تزهو، فأمرت بالأنطاع[1] فبسطت، وقالت لوصائفها: خذوا بيد سيدكن وبعل مولاتكن، فأخذن بيده فأجلسنه على الأنطاع بحيث يراها وتراه، وتسمع كلامه ويسمع كلامها، ثم أمرت الجواري فقطعن رواهشه[2]، ووضعت الطشت تحت يده، فجعلت تشخب في الطشت، فقطرت قطرة على النطع، فقالت لجواريها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يحزنك دم أراقه أهله، فلما مات قالت: والله ما وفى دمك ولا شفى قتلك، ولكنه غيض من فيض، ثم أمرت به، فدفن.

وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر، ويقتفي الأثر عن خاله، فخرج ذات

---

(١) الأنطاع: مفردها نطع. وهو مصنوع من جلد الثور.

(٢) رواهشه: أي شرايينه.

يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوي به فرسه هوى الريح، فقال: أما الفرس ففرس جذيمة، وأما الراكب فكالهيمة لأمر ما جاءت العصا، فأشرف عليهم قصير، فقالوا: ما وراءك؟ قال: سعى المقدر بالملك إلى حتفه على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب بثأرك من الزباء، فقال عمرو: وأي ثأر من الزباء، وهي أمنع من عقاب الجو، فقال قصير: قد علمت نصحي كان لخالك وكان الأجل رائده، والله لا أنا عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أدرك به ثأرًا أو تخترم نفسي فأعذر، ثم أنه عمد إلى أنفه فجدعه، ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي، فقيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك، فأذنت له، فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصير وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام! لقد أتيت فيما يؤتى مثلك في مثله، ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه وقد جئتك مستجيرًا بك من عمرو بن عدي فإنه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه بالمسير إليك، فجدع أنفي وأخذ مالي، وحال بيني وبين عيالي وتهددني بالقتل، وإني خشيت على نفسي، فهربت منه إليك، أنا مستجير بك ومستند إلى كهف عزك، فقالت: أهلًا وسهلًا، لك حق الجوار وذمة المستجير وأمرت به فأنزل وأجرت له الإنزال ووصلته وكسته وأخدمته وزادت في إكرامه، وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصر مشيّد على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها، فقال لها قصير يومًا: إن لي بالعراق مالًا كثيرًا وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك، وإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيتني شيئًا أتعلّل به في التجارة وأجعله سببًا للوصول إلى ما لي أتيتك بما قدرت عليه من ذلك، فأذنت له وأعطته مالًا، فقدم العراق وبلاد كسرى، فأطرفها من طرائفه وزادها مالًا إلى مالها كثيرًا وقدم عليها، فأعجبها ذلك وسرّها وترتب له عندها منزلة، وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك ظرفًا من الجواهر والبز والخز والديباج، فازداد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه، ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه، ثم خرج ثالثة فقدم بأكثر من الأولتين ظرائف ولطائف، فبلغ مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهماتها وملماتها، واسترسلت إليه وعولت في أمورها عليه، وكان قصير رجلًا حسن العقل والوجه حصيفًا لبيبًا أديبًا، فقالت له يومًا: أريد أن أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخرج إلى العراق فأتني بكذا وكذا من السلاح والكراع والعبيد والثياب،

فقال قصير: ولي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكراع والعبيد والثياب وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك، وكنت أتربص به المنون، وأنا أخرج متنكرًا من حيث لا يعلم، فآتيك بها مع الذي سألت، فأعطته من المال ما أراد. وقالت: يا قصير، الملك يحسن لمثلك وعلى يد مثلك يصلح أمره.

ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إيراده وإصداره إليك وما تقصر يدك عن شيء تناله يدي، ولا يقعد بك حال ينهض بي، فسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسد خادر، وليث ثائر قد تحفز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكنه من قلبها قال: الآن طاب المصاع وخرج من عندها، فأتى عمرو بن عدي، فقال: قد أصبت الفرصة من الزباء، فانهض فعجل الوثبة، فقال له عمرو: قل أسمع، ومُرْ أفعل، فأنت طبيب هذه القرحة، فقال: الرجال والأموال. قال: حكمك فيما عندنا مسلط، فعمد إلى ألفي رجل من فتيان قومه وصناديد أهل مملكته، فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود، وألبسهم السلاح والسيوف والجحف، وأنزلهم في الغرائر، وجعل رؤوس المسوح من أسفالها مربوطة من داخل، وكان عمرو فيهم، وساق الخيل والعبيد والكراع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلحين بالسيوف والجحف، وقال: إذا توسطت الإبل المدينة، فالإمارة بيننا كذا وكذا فاخترطوا الربط. فلما قربت العير من مدينة الزباء في قصرها، فرأت الإبل تتهادى بأحمالها، فارتابت بها، وقد كان وُشي بقصير إليها وحذرت منه، فقالت للواشي به إليها: إن قصيرًا اليوم منا، وهو ربيب هذه النعمة وصنيعة هذه الدولة، وإنما يبعثكم على ذلك الحسد ليس فيكم مثله، فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها فقالت:

ما لِلْجِمَال مَشْيَها وئيدًا[1] أَجَنْدَلًا يحمِلنَ أو حديدًا
أم صرفانًا باردًا شديدًا أم الرجال في المُسوح سُودَا

ثم أقبلت على جواريها، فقالت: أرى الموت الأحمر في الغرائر السود فذهبت مثلًا، حتى إذا توسطت الإبل المدينة وتكاملت ألقوا إليهم

(١) وئيدًا: على مهل. أي أن الجمال تتمايل في مشيها من ثقل حمولتها.

الأمارة[١] فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراع بألفي باتر[٢] طالب ثأر القتيل غدرًا، وخرجت الزباء تمصع[٣] تريد النفق، فسبقها إليه قصير، فحال بينها وبينه، فلما رأت أن قد أحيط بها ومُلِكت، التقمت خاتمًا في يدها تحت فصّه سمّ ساعة، وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو، فأدركها عمرو وقصير، فضرباها بالسيف حتى هلكت وملكا مملكتها، واحتويا على نعمتها، وخطَّ قصير على جذيمة قبرًا، وكتب على قبره هذه الأبيات يقول:

مَلِكٌ تمتّع بالعَسَاكِرِ والقَنَا — والمشرفيّة عزّه ما يوصفُ
فَسَعَتْ منيّته إلى أعدائه — وهُو المتوّج والحُسَام المرهفُ

حيلة شمر ذي الجناح[٤]

قيل إن ملكًا كان يقال له شمر ذو الجناح سار إلى سمرقند، فحاصرها، فلم يظفر منها بشيء، فطاف حولها بالحرس، فأخذ رجلًا من أهلها، فاستمال قلبه وسأله عن المدينة، فقال: أما ملكها فأحمق الناس ليس له همّ إلّا الشراب والأكل والجماع، ولكن له بنت هي التي تقضي أمر الناس، فبعث منه هدية إليها، وقال: أخبرها إني لم أجيء لالتماس المال، فإن معي من المال أربعة آلاف تابوت ذهبًا وفضة، وأنا دافعها إليها وأمضي إلى الصين، فإن كانت لي الأرض كانت امرأتي، وإن هلكت كان المال لها، فلما بلغتها رسالته قالت: قد أجبته فليبعث بالمال، فأرسل إليها أربعة آلاف تابوت في كل تابوت فارس، وجعل شمر العلامة بينه وبينهم أن يضرب بالجلجل، فلما صاروا في المدينة ضرب بالجلجل، فخرجوا، فأخذوا الأبواب، ونهض شمر في الناس، فدخل المدينة، فقتل أهلها وحوى ما فيها، ثم سار إلى الصين.

حيلة كسرى[٤]

قد كان كسرى من الذكاء على غاية، فروينا عنه أنه نم إليه رجل بصديق له فكتب كسرى للنام قد اخترنا نصحك وذممنا صاحبك لسوء اختياره الإخوان.

---

(١) الأمارة: العلامة، أو الإشارة التي كانت بين قصير وجنوده.
(٢) باتر: أي السيف القاطع.
(٣) تمصع من الشيء؛ أراد الهروب منه.
(٤) كتاب الأذكياء ص ١٥٢.

قال منجِّمو كسرى: إنك تقتل، فقال: لأقتلن مَن يقتلني، فأمر بسم فخلط في أدوية، ثم كتب عليه دواء الجماع مجرب من أخذ منه وزن كذا جامع كذا وكذا مرة، فلما قتله ابنه شيرويه وفتش خزائنه مرّ به، فقال في نفسه هذا الدواء الذي كان يقوى به على السراري، فأخذ منه. فقتله وهو ميت.

إن شيرويه لما أراد قتل أبيه بعث إليه مَن يقتله، فلما دخل عليه قال: إني أدلّك على شيء لوجوب حقك يكون فيه غناك. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فذهب الرجل إلى شيرويه، فأخبره الخبر، فأخرج الصندوق وفيه حق فيه حب، وثمَّ مكتوب من أخذ منه واحدة افتضّ عشرة أبكار، فطمع شيرويه في صحة ذلك، فأخذه وعوض الرجل منه، ثم أخذ منه حبة، فكان هلاكه، وكان كسرى أول ميت أخذ بثأره من حي.

حِيَل متفرقة(١)

هزم بعض الملوك، فنثر لطالبيه زجاجًا ملوّنًا شبيهًا بالجوهر الأحمر والأخضر، ودنانير صفرًا مطليّة بالذهب، فتشاغل طالبوه بلقطها، فنجا.

علم بعض الملوك بعسكر يطلبه، فأخذ شعيرًا فطبخه بالماء مع قضبان الدفلي، ثم جففه ثم جربه في دابة، فلما أكلته نفقت من يومها، فخرج هو وعسكره ناحية ونثر الشعير والميرة، فلما سار القوم إليه ترك ما في معسكره وتنحّى، فجاؤوا فأطلقوا دوابهم في الشعير، فهلكت كلها.

حارب قوم ومعهم فيلة، فقهروا عدوهم، فأشار على العدو رجل أن يحملوا خنزيرًا وأن يضربوه، فلما سمعت الفيلة صوته هربت.

جاء رجل معه هر تحت حضنه ومشى بسيفه إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه، فأدبر الفيل هاربًا، وتساقط مَن كان فوقه فكبّر المسلمون وكان سبب الهزيمة.

قيل لأسلم بن زراعة: إن انهزمت من أصحاب مرداس بن أدية يغضب عليك الأمير عبيد الله بن زياد، قال: يغضب علي وأنا حي أحب من أن يرضى عني وأنا ميت.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٣.

خرج أمير ومعه رجل فيه ذكاء، فبينما هم على الغداء قال للأمير: اركب فقد لحقنا العدو. قال: كيف وما يرى أحد؟ قال: اركب عاجلًا، فإن الأمر أسرع مما تحسب، فركب وركب الناس، فلاحت الغبرة وطلع عليهم سرعان الخيل، فعجب الأمير، وقال: كيف علمت؟ قال: أما رأيت الوحش مقبلة علينا، ومن شأن الوحوش الهرب منا، فعلمت أنها لم تدع عاداتها إلا لأمر قد دهمها. والله الموفق.

اللصّ الفقيه(١)

قال يموت بن المزرع، عن المبرد: حدّثني أحمد بن المعدل البصري قال: كنت جالسًا عند عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، فجاءه بعض جلسائه، فقال: أعجوبة. قال: ما هي؟ قال: خرجت إلى حائطي بالغابة، فلما أن أصحرت وبعدت عن البيوت بيوت المدينة تعرض لي رجل، فقال: اخلع ثيابك. فقلت: وما يدعوني إلى خلع ثيابي؟ قال: أنا أولى بها منك. قلت: ومن أين؟ قال: لأني أخوك وأنا عريان وأنت مكس. قلت: فالمواساة؟ قال: كلا قد لبستها برهة، وأنا أريد أن ألبسها كما لبستها. قلت: فتعريني وتبدي عورتي. قال: لا بأس بذلك قد روينا عن مالك أنه قال: لا بأس للرجل أن يغتسل عريانًا. قلت: فيلقاني الناس فيرون عورتي؟ قال: لو كان الناس يرونك في هذه الطريق ما عرضت لك فيها، فقلت: أراك ظريفًا، فدعني حتى أمضي إلى حائطي وأنزع هذه الثياب، فأوجه بها إليك. قال: كلا أردت أن توجه إليَّ أربعة من عبيدك، فيحملوني إلى السلطان، فيحبسني، ويمزق جلدي، ويطرح في رجليَّ القيد، قلت: كلا. أحلف لك إيمانًا أني أوفي لك بما وعدتك ولا أسوءك. قال: كلا إنا روينا عن مالك أنه قال: لا تلتزم الإيمان التي يحلف بها اللصوص. قلت: فأحلف إني لا أحتال في إيماني هذه. قال: هذه يمين مركبة على اللصوص. قلت: فدع المناظرة بيننا، فوالله لأوجهن إليك هذه الثياب طيبة بها نفسي، فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: تدري فيم فكرت؟ قلت: لا، قال: تصفحت أمر اللصوص من عهد رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا، فلم أجد لصًا أخذ تسئمه، وأكره أن أبتدع في الإسلام بدعة يكون علي

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٦.

وزرها ووزر مَن عمل بها بعدي إلى يوم القيامة. اخلع ثيابك. قال: فخلعتها ودفعتها إليه، فأخذها وانصرف.

حيلة لصّ (١)

علي بن الحسن التنوخي، عن أبيه أن أبا القاسم عبيد الله بن محمد الخفاف حدّثه أنه شاهد لصًا قد أخذ، وأشهد عليه أنه كان يفتش الأقفال في الدور اللطاف التي لجيراننا، فإذا دخل حفر في الدار حفرة لطيفة، كأنها بئر النرد، وطرح فيها جوزات، كأن إنسانًا يلاعبه، وأخرج منديلًا فيه نحو مائتي جوزة، فتركه إلى جانبها، ثم حار، فكور كل ما في الدار مما يطيق حمله، فإن لم يفطن به أحد خرج من الدار، وحمل ذلك كله، وإن جاء صاحب الدار ترك عليه قماشه، وطلب المفالتة والخروج، وإن كان صاحب الدار جلدًا فواثبه ومانعه وهم بأخذه وصاح اللصوص، واجتمع الجيران أقبل عليه وقال: ما أبردك أنا أقامرك بالجور منك شهور قد أفقرتني، وأخذت مني كل ما أملكه وأهلكتني لأفضحك بين جيرانك لما قامرتك الآن تصيح فما يشك أحد في قوله وأنت تدعي علي باللصوصية بلعب بارد بيني وبينك دار القمار التي تعارفنا فيها قد صنعت هذا حتى أخرج وأدع عليك قماشك، وكلما قال الرجل: هذا لص. قال الجيران: إنما يريد أن لا يفضح نفسه بالقمار، فقد ادّعى عليه اللصوصية ولا يشكون في أنه صادق، وأن صاحب الدار مقامر، فيلعنوه ويحولون بينه وبين اللص حتى ينصرف ويأخذ الجوز ويفتح الباب وينصرف، ويفتضح الرجل بين جيرانه.

الجنيد واللصّ (١)

قال محمد بن عمر المتكلم ويلقب جنيد: حدّثني رجل من الدقاقين قال: أورد علي رجل غريب سفتجة بأجل، فكان يتردد عليَّ إلى أن حلّت السفتجة، ثم قال لي: أدعها عندك آخذها متفرقة، فكان يجيء كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفذت، فصارت بيننا معرفة، وألف الجلوس عندي، وكان يراني أخرج من صندوق لي، فأعطيته منه فقال لي يومًا: إن قفل الرجل صاحبه في سفره وأمينه في حضره وخليفته على حفظ ماله، والذي ينفي الظنة عن أهله وعياله، وإن لم يكن وثيقًا تطرقت الحيل إليه وأرى قفلك هذا وثيقًا، فقل لي: ممن ابتعته لأبتاع مثله

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٧.

لنفسي، فقلت: من فلان الأقفالي. قال فما شعرت يومًا وقد جئت إلى دكاني، فطلبت صندوقي لأخرج منه شيئًا من الدراهم، فحمل إليَّ ففتحه، وإذا ليس فيه شيء من الدراهم، وقلت لغلامي، وكان غير متهم عندي: هل انكسر من الدراب شيء؟ قال: لا. قلت: ففتش هل ترى في الدكان نقبًا؟ ففتش، فقال: لا، فقلت: فمن السقف حيلة؟ قال: لا، قلت: فاعلم أن دراهمي قد ذهبت، فقلق الغلام فسكته وأقمت من نومي لا أدري أي شيء أعمل، وتأخر الرجل عني، فاتهمته وتذكرت مسألته لي عن القفل، فقلت للغلام: أخبرني كيف تفتح دكاني وتقفله. قال: أحمل الدراب من المسجد دفعتين ثلاثة، فأقفلها ثم هكذا أفتحها. قلت: فعلى من تخلي الدكان إذا حملت الدراب؟ قال: خاليًا. قلت: من هٰهنا دهيت، فذهبت إلى الصانع الذي ابتعت منه القفل، فقلت له: جاءك إنسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل؟ قال: نعم ورجل من صفته كيت وكيت فأعطاني صفة صاحبي، فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء لما انصرفت أنا وبقي الغلام يحمل الدراب، فدخل هو إلى الدكان فاختبأ فيه ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه يقع على قفلي، وأنه أخذ الدراهم وجلس طول الليل خلف الدراب، فلما جاء الغلام ففتح داربين وحملها ليرفعها خرج، وأنه ما فعل ذلك إلا وقد خرج من بغداد، قال: فخرجت ومعي قفلي ومفتاحه، فقلت: ابتدىء بطلب الرجل بواسط، فلما صعدت من السميرية طلبت خانًا أنزله، فصعدت. فإذا بقفل مثل قفلي سواء على بيت، فقلت لقيم الخان: هذا البيت من ينزله؟ قال: رجل قدم من البصرة أمس. قلت: ما صفته فوصف صفة صاحبي، فلم أشك أنه هو وإن الدراهم في بيته، فاكتريت بيتًا إلى جانبه ورصدت حتى انصرف قيم الخان، ففتحت القفل، ودخلت، فوجدت كيسي بعيد، فأخذته وخرجت، وأقفلت الباب ونزلت في الوقت، وانحدرت إلى البصرة، وما أقمت بواسط إلا ساعتين من النهار، ورجعت إلى منزلي بمالي بعينه.

ردّوا عليّ فوطتي[(١)]

قال علي بن الحسن، عن أبيه: حدّثني عبد الله بن محمد الصروي، حدّثني ابن الدنانير النمار، حدّثني غلام لي قال: كنت ناقدًا بالأبلة لرجل تاجر، فاقتضيت

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٨.

له من البصرة نحو خمسمائة دينار وورقًا ولففتهما في فوطة، وأمسيت عن المسير إلى الأبلة، فما زلت أطلب ملاحًا، فلا أجد إن رأيت ملاحًا مجتازًا في خيطية خفيفة فارغة، فسألته أن يحملني، فخفف علي الأجرة وقال: أنا أرجع إلى منزلي بالأبلة، فانزل فنزلت، وجعلت الفوطة بين يدي وسرنا، فإذا رجل ضرير على الشط يقرأ أحسن قراءة تكون، فلما رآه الملاح كبر فصاح هو بالملاح، احملني، فقد جنني الليل، وأخاف على نفسي، فشتمه الملاح، فقلت له: احمله فدخل إلى الشط فحمله، فرجع إلى قراءته، فخلب عقلي بطيبها، فلما قربنا من الأبلة قطع القراءة، وقام ليخرج في بعض المشارع بالأبلة، فلم أر الفوطة، فاضطربت وصحت واستغاث الملاح، وقال: الساعة تنقلب الخيطية، وخاطبني خطاب مَن لا يعلم حالي، فقلت: يا هذا، كانت بين يدي فوطة فيها خمسمائة دينار، فلما سمع الملاح ذلك لطم وبكى وتعرّى من ثيابه وقال: لم أدخل الشط ولا لي موضع أخبأ فيه شيئًا فتتهمني بسرقة ولي أطفال وأنا ضعيف، فالله الله في أمري، وفعل الضرير مثل ذلك وفتشت السميرية فلم أجد فيها شيئًا، فرحمتهما وقلت: هذه محنة لا أدري كيف التخلّص منها، وخرجنا، فعملت على الهرب وأخذ كل واحد منا طريقًا، وبت في بيت ولم أمضِ إلى صاحبي، فلما أصبحت عملت على الرجوع إلى البصرة لأستخفي بها أيامًا، ثم أخرج إلى بلد شاسع، فانحدرت وخرجت في مشرعة بالبصرة، وأنا أمشي وأتعثر وأبكي قلقًا على فراق أهلي وولدي، وذهاب معيشتي وجاهي، فاعترضني رجل، فقال: ما لك؟ فأخبرته. فقال: أنا أرد عليك مالك. فقلت: يا هذا أنا في شغل عن طنزك بي. قال: ما أقول إلَّا حقًا اَمْضِ إلى السجن ببني نمير، واشتر معك خبزًا كثيرًا وشواء جيدًا وحلوًا، وسل السجان أن يوصلك إلى رجل محبوس هناك يقال له: أبو بكر النقاش قل له أنا زائره، فإنك لا تمنع، فإن منعت فهب للسجان شيئًا يسيرًا يدخلك إليه، فإذا رأيته فسلِّم عليه ولا تخاطبه حتى تجعل بين يديه ما معك، فإذا أكل وغسل يديه، فإنه يسألك عن حاجتك، فأخبره خبركَ، فإنه سيدلك على مَن أخذ مالك ويرتجعه لك، ففعلت ذلك ووصلت إلى الرجل، فإذا شيخ مكبل بالحديد، فسلمت وطرحت ما معي بين يديه، فدعا رفقاء له، فأكلوا فلما غسل يديه قال: ما أنت وما حاجتك؟ فشرحت له قصتي، فقال: امضِ الساعة إلى بني هلال، فادخل الدرب الفلاني حتى تنتهي إلى آخره، فإنك تشاهد بابًا شعثًا، فافتحه وادخله بلا استئذان، فتجد دهليزًا طويلًا يؤدي إلى بابين، فادخل الأيمن منهما فسيدخلك إلى دار فيها بيت فيه أوتاد

وبواري، وكل وتد إزار ومئزر، فانزع ثيابك وألقها على الوتد وائتزر بالمئزر واتشح بالإزار واجلس، فسيجيء قوم يفعلون كما فعلت، ثم يؤتون بطعام فكل معهم، وتعمد موافقتهم في سائر أفعالهم، فإذا أتي بالنبيذ فاشرب، وخذ قدحًا كبيرًا واملأه وقم قائمًا وقل: هذا ساري لخالي أبي بكر النقاش، فسيفرحون ويقولون: أهو خالك؟ فقل: نعم، فيسقومون ويشربون لي، فإذا جلسوا فقل لهم: خالي يقرأ عليكم السلام ويقول: يا فتيان بحياتي ردوا على ابن أختي المئزر الذي أخذتموه بالأمس في السفينة بنهر الأبلة، فإنهم يردونه عليك، فخرجت من عنده ففعلت ما أمر، فردت الفوطة بعينها وما حل شدها، فلما حصلت لي قلت يا فتيان: هذا الذي فعلتموه معي هو قضاء لحق خالي، ولي أنا حاجة تخصني قالوا: مقضية. قلت: عرفوني كيف أخذتم الفوطة، فامتنعوا ساعة، فأقسمت عليهم بحياة أبي بكر النقاش، فقال لي واحد منهم: أتعرفني؟ فتأملته جدًّا فإذا هو الضرير الذي كان يقرأ، وإنما كان متعاميًا، وأومأ آلى آخر فقال: أتعرف هذا؟ فتأملته فإذا هو الملاح، فقلت: كيف فعلتما؟ فقال الملاح: أنا أدور المشارع في أول أوقات المساء، وقد سبقت بهذا المتعامي، فأجلسته حيث رأيت، فإذا رأيت مَن معه شيء له قدر ناديته، وأرخصت له الأجرة وحملته، فإذا بلغت إلى القاري وصاح بي شتمته حتى لا يشك الراكب في براءة الساحة، فإن حمله الراكب فذاك وإلَّا رققته عليه حتى يحمله، فإذا حمله وجلس يقرأ ذهل الرجل كما ذهلت، فإذا بلغنا الموضع الفلاني، فإن فيه رجلًا متوقعًا لنا يسبح حتى يلاصق السفينة، وعلى رأسه قوصرة فلا يفطن الراكب به، فيسلب هذا المتعامي الشيء بخفية، فيليه إلى الرجل الذي عليه القوصرة، فيأخذه ويسبح إلى الشط، وإذا أراد الراكب الصعود وافتقد ما معه عملنا كما رأيت، فلا يتهمنا ونفترق، فإذا كان من غد اجتمعنا واقتسمناه، فلما جئت برسالة أستأذنا خالك سلمنا إليك الفوطة قال: فأخذتها ورجعت.

لصٌّ تائب(١)

قال لصٌّ تائب: دخلت مدينة، فجعلت أطلب شيئًا أسرقه، فوقعت عيني على صيرفي موسر، فما زلت أحتال حتى سرقت كيسًا له، وانسللت فما جزت

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٠.

غير بعيد إذا أنا بعجوز معها كلب قد وقعت في صدري تبوسني وتلزمني وتقول: يا بني، فديتك والكلب يبصبص ويلوذ بي، ووقف الناس ينظرون إلينا، وجعلت المرأة تقول: بالله انظروا إلى الكلب قد عرفه، فعجب الناس من ذلك وتشككت أنا في نفسي وقلت: لعلها أرضعتني، وأنا لا أعرفها. وقالت: معي إلى البيت أقم عندي اليوم، فلم تفارقني حتى مضيت معها إلى بيتها، وإذا عندها أحداث يشربون وبين أيديهم من جميع الفواكه والرياحين، فرحبوا بي وقربوني، وأجلسوني معهم، ورأيت لهم بزة حسنة، فوضعت عيني عليها، فجعلت أسقيهم وأرفق بنفسي إلى أن ناموا ونام كل مَن في الدار، فقمت وكورت ما عندهم وذهبت أخرج، فوثب عليَّ الكلب وثبة الأسد وصاح، وجعل يتراجع ويفج إلى أن انتبه كل نائم، فخجلت واستحييت، فلما كان النهار فعلوا مثل فعلهم أمس وفعلت أيضًا أنا بهم مثل ذلك، وجعلت أوقع الحيلة في أمر الكلب إلى الليل، فما أمكنني فيه حيلة، فلما ناموا رمت الذي رمته، فإذا الكلب عارضني بمثل ما عارضني به، فجعلت أحتال ثلاث ليال، فلما أيست طلبت الخلاص منهم بإذنهم، فقلت: أتأذنون لي فإني على وفز فقالوا: الأمر إلى العجوز فاستأذنتها فقالت: هات الذي أخذته من الصيرفي وامضِ حيث شئت ولا تقوم في هذه المدينة، فإنه لا يتهيأ لأحد فيها معي عمل، فأخذت الكيس وأخرجتني ووجدت مناي أن أسلم من يدها، وكان قصراي أن أطلب منها نفقة، فدفعت إليَّ وخرجت معي حتى أخرجتني عن المدينة والكلب معها حتى جزت حدود المدينة ووقفت ومضيت والكلب يتبعني حتى بعدت، ثم تراجع ينظر إليَّ ويلتفت وأنا أنظر إليه حتى غاب عني.

حمار بسمك(١)

قال سهل الخلاطي: بلغني أن محتالين سرقا حمارًا ومضى أحدهما ليبيعه، فلقيه رجل معه طبق فيه سمك، فقال له: تبيع هذا الحمار؟ قال: نعم، قال: امسك هذا الطبق حتى أركبه، وانظر إليه، فدفع إليه الطبق فيه السمك، فركبه ورجع ثم ركبه ودخل زقاقًا ففرّ به. فلم يدر أين ذهب، قال: فرجع المحتال فلقيه رفيقه، فقال: ما فعل الحمار؟ قال: بعناه بما اشتريناه وربحنا هذا الطبق من السمك.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧١.

لصٌّ يسرق لص(١)

كان ببغداد رجل يطلب التلصص في حداثته، ثم تاب فصار بزازًا. قال: فانصرف ليلة من دكانه وقد غلقه، فجاء لص محتال متزي بزي صاحب الدكان في كمه شمعة صغيرة ومفاتيح، فصاح بالحارس، فأعطاه الشمعة في الظلمة، وقال: إشعلها وجئني بها، فإن لي الليلة بدكاني شغلًا فمضى الحارس يشعل الشمعة وركب اللص على الأقفال، ففتحها ودخل الدكان، وجاء الحارس بالشمعة، فأخذها من يده، فجعلها بين يديه، وفتح سفط الحساب، وأخرج ما فيه وجعل ينظر الدفاتر ويرى بيده أنه بحسب الحارس يتردد ويطالعه، ولا يشك في أنه صاحب الدكان إلى أن قارب السحر، فاستدعى اللص الحارس، وكلمه من بعيد، وقال: اطلب لي حمالًا، فجاء بحمال، فحمل عليه أربع رزم مثمنة، وقفل الدكان وانصرف معه الحمال وأعطى الحارس درهمين، فلما أصبح الناس جاء صاحب الدكان ليفتح دكانه، فقام إليه الحارس يدعو له ويقول: فعل الله بك وصنع كما أعطيتني البارحة الدرهمين، فأنكر الرجل ما سمعه وفتح دكانه، فوجد سيلان الشمعة وحسابه مطروحًا وفقد الأربع رزم، فاستدعى الحارس، وقال له: من كان حمل الرزم معي من دكاني قال: أما استدعيت مني حمالًا فجئتك به؟ قال: بلى، ولكن كنت ناعسًا وأريد الحمال، فجئني به، فمضى الحارس فجاء بالحمال وأغلق الرجل الدكان وأخذ الحمال معه ومضى، فقال له: إلى أين حملت الرزم معي البارحة، فإني كنت منقبذًا. قال: إلى المشرعة الفلانية، واستدعيت لك فلانًا الملاح، فركبت معه، فقصد الرجل المشرعة، وسأل عن الملاح، فحضر وركب معه، وقال: أين رقيت أخي الذي كان معه الأربع الرزم، قال: إلى المشرعة الفلانية. قال: اطرحني إليها فطرحه، قال: مَن حملها معه؟ قال: فلان الحمال، فدعا به، فقال له: امشِ بين يدي فمشى، فأعطاه شيئًا واستدله برفق إلى الموضع الذي حمل إليه الرزم، فجاء به إلى باب غرفة في موضع بعيد من الشط قريب من الصحراء، فوجد الباب مقفلًا، فاستوقف الحمال وفش القفل ودخل، فوجد الرزم بحالها، وإذا في البيت بركان معلق على حبل، فلفّ الرزم فيه ودعا بالحمال، فحملها عليه وقصد المشرعة، فحين خرج من الغرفة استقبله اللص، فرآه وما معه، فأبلس فاتبعه إلى الشط، فجاء إلى المشرعة ودعا الملاح ليعبر، فطلب الحمال مَن

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧١.

يحط عنه، فجاء اللص فحطّ الكساء كأنه مجتاز متطوع، فأدخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها، وجعل البركان على كتفه وقال له: يا أخي، استودعك الله قد ارتجعت رزمك، فدع كسائي فضحك. وقال: انزل فلا خوف عليك، فنزل معه واستتابه ووهب له شيئًا وصرفه ولم يسيء إليه.

أكل معهم وسرقهم(١)

عن أبي القاسم التنوخي، عن أبيه: أن رجلًا من بني عقيل مضى ليسرق دابة. قال: فدخلت الحي، فما زلت أتعرّف مكان الدابة فاحتلت حتى دخلت البيت، فجلس الرجل وامرأته يأكلان في الظلمة، فأهويت بيدي إلى القصعة وكنت جائعًا، فأنكر الرجل يدي وقبض عليها، فقبضت على يد المرأة بيدي الأخرى، فقالت المرأة: مالك ويدي؟ فظن أنه قابض على يد امرأته فخلى يدي، فخليت يد المرأة، وأكلنا، ثم أنكرت المرأة يدي فقبضت عليها، فقبضت على يد الرجل، فقال لها: ما لك ويدي، فخلت عن يدي، فخليت عن يده، ثم نام وقمت، فأخذت الفرس.

وقد رويت هذه الحكاية على صفة أخرى: فأنبأنا محمد بن أبي طاهر، أنبأنا التنوخي، عن أبيه، حدّثنا أبو الحسن محمد بن أحمد الكاتب، حدّثني محمد بن يزمع العقيلي أحد قوادهم ووجوههم في الحي، وكان ورد إلى معز الدولة، فأكرمه وأحسن إليه. قال: رأيت رجلًا من بني عقيل وظهره كله مشرطات الحجام، إلا أنها أكبر، فسألته عن ذلك، فقال إني كنت هويت ابنة عم لي، فخطبتها فقالوا: لا نزوجك إلا أن تجعل في الصداق «الشبكة»(٢) فرس سابقة كانت لبعض بني أبي بكر، فتزوجتها على ذلك وخرجت في أن احتال أن أسل الفرس من صاحبه لأتمكن من الدخول بابنة عمي، فأتيت الحي الذي فيه الفرس وما زلت أداخلهم، فمرة أجيء إلى الخباء الذي فيه الرجل كأني سائل إلى أن عرفت بيت الفرس من الخباء الذي فيه الرجل وأخبئت حتى دخلت من خلفه، وحصلت خلف النضد نحت، وكانوا تفشوه ليغزل، فلما جاء الليل وافى صاحب البيت، وقد زاولت له المرأة عشاء وجلسا يأكلان، وقد استحكمت الظلمة ولا مصبح لهم، وكنت جائعًا فأخرجت يدي وأهويت إلى

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٢.

(٢) الشبكة: اسم الفرس.

القصعة[1]، فأكلت معهما وأحس الرجل بيدي فأنكرها، فقبض عليها فقبضت على يد المرأة، فقالت له المرأة: ما لك ويدي؟ فظن أنه قابض على يد امرأته فخلى يدي فخليت يد المرأة، وأكلنا ثم أنكرت المرأة يدي فقبضت عليها فقبضت على يد الرجل، فقال لها: ما لك ويدي؟ فخلت عن يدي فخليت عن يده، وانقضى الطعام واستلقى الرجل نائمًا، فلما استثقل وأنا مراصدهم والفرس مقيدة في جانب البيت والمفتاح تحت رأس المرأة، فوافى عبد له أسود فنبذ حصاة، فانتبهت المرأة، فقامت إليه وتركت المفتاح مكانه، وخرجت من الخباء إلى ظاهر البيت، فإذا هو قد علاها، فأخذت أنا المفتاح ففتحت القفل، وكان معي لجام شعر، فأجزته الفرس وركبتها، وخرجت عليها من الخباء، فقامت المرأة من تحت العبد، ودخلت الخباء وصاحت وذعر، الحي فأحسوا بي وركبوا في طلبي وأنا أكد الفرس وخلفي خلق منهم، فأصبحت وليس ورائي إلا فارس واحد برمح، فلحقني وقد طلعت الشمس، وأخذ يطعنني، فهذه آثار طعناته في جسدي لا فرسه يلحقه بي حتى يتمكن من طعنته إياي ولا فرسي ينجيني إلى حيث لا يمسني الرمح حتى وافينا إلى نهر عظيم، فصحت بالفرس، فوثبه وصاح الفارس بالتي تحته، فقصرت ولم تثب، فلما رأيته عاجزًا عن العبور وقفت لأريح الفرس وأستريح، فصاح بي، فأقبلت عليه بوجهي، فقال: يا هذا أنا صاحب الفرس التي تحتك، وهذه ابنتها.وإذ قد ملكتها، فلا تخدعن فيها، فإنها تساوي عشر ديّات، وما طلبت عليها شيئًا قط إلا لحقته، ولا طلبني عليها أحدًا إلَّا فته، وإنما سميت الشبكة لأنها لم ترد شيئًا إلا أدركته، فكانت كالشبكة في صيدها، فقلت له: إذ نصحتني، فوالله لأنصحنك. كان من صورتي البارحة كيت وكيت، فقصصت عليه قصة امرأته والعبد وحيلتي في الفرس، فأطرق ثم رفع رأسه، فقال ما لك لا جزاك الله من طارق خير طلقت زوجتي وأخذت فرسي وقتلت عبدي.

سرق وهو في السجن[2]

قال أبو القاسم التنوخي، عن أبيه: حدّثني أبو الحسين عبد الله بن محمد البصري، حدّثني أبي قال: كان بالبصرة رجل من اللصوص يلص بالليل، فاره جدًّا مقدام. يقال له عباس بن الخياطة قد غلب الأمراء وأشجى أهل البلد، فلم يزالوا

(١) القصعة: وعاء يوضع فيه المرق من الطعام. (٢) كتاب الأذكياء ص ١٧٤.

يحتالون عليه إلى أن وقع وكبِّل بمائة رطل حديد وحبس، فلما كان بعد سنة من حبسه أو أكثر دخل قوم بالأبلة على رجل تاجر كان عنده جوهر بعشرات ألوف الدنانير، وكان مستيقظًا جلدًا، فجاء إلى البصرة يتظلم وأعانه خلق من التجار وقال للأمير: أنت دست على جوهري وما خصمي سواك، فورد عليه أمر عظيم وخلا بالبوابين وتوعدهم، فاستنظروه فأنظرهم، وطلبوا واجتهدوا، فما عرفوا فاعل ذلك، فعنفهم الرجل فاستجابوا مدة أخرى، فجاء أحد البوابين إلى الحبس، فتخادم لابن الخياطة ولزمه نحو شهر، وتذلل له في الحبس فقال له: قد وجب حقك عليَّ. فما حاجتك؟ قال: جوهر فلان المأخوذ بالأبلة لا بد أن يكون عندك منه خبر، فإن دماءنا مرتهنة به، وحدّثه الحديث، فرفع ذيله، وإذا سفط الجوهر تحته، فسلّمه إليه وقال: قد وهبته لك، فاستعظم ذلك وجاء بالسفط إلى الأمير، فسأله عن القصة، فأخبره بها. فقال: عليَّ بعباس. فجاؤوا به، فأمر بالإفراج عنه وإزالة قيوده وإدخاله الحمام وخلع عليه وأجلسه في مجلسه مكرمًا واستدعى الطعام، فواكله وبيّته عنده، فلما كان من الغد خلا به، وقال: أنا أعلم أنك لو ضربت مائة ألف سوط ما أقررت كيف كانت صورة أخذ الجوهر، وقد عاملتك بالجميل ليجب حقي عليك من طريق الفتوة، وأريد أن تصدقني حديث هذا الجوهر. قال علي: إنني ومَن عاونني عليه آمنون، وإنك لا تطالبنا بالذين أخذوه؟ قال: نعم، فاستحلفه. فقال له: إن جماعة اللصوص جاؤوني الحبس، وذكروا حال هذا الجوهر، وإن دار هذا التاجر لا يجوز أن يتطرق عليها نقب ولا تسليق، وعليها باب حديد، والرجل متيقظ وقد راعوه سنة، فما أمكنهم وسألوني، فساعدتهم، فدفعت إلى السجان مائة دينار وحلفت له بالشطارة والإيمان الغليظة، أنه إن أطلقني عدت إليه من غد، وأنه إن لم يفعل ذلك اغتلته، فقتلته في الحبس، فأطلقني فنزعنا الحديد وتركته وخرجت المغرب، فوصلنا إلى الأبلة العتمة، وخرجنا إلى دار الرجل، فإذا هو في المسجد وبابه مغلق، فقلت لأحدهم: تصدق من الباب، فتصدق، فلما جاؤوا ليفتحوا قلت له: اختفي ففعل ذلك مرات، والجارية تخرج، فإذا لم تر أحدًا عادت إلى أن خرجت من الباب، ومشت خطوات تطلب السائل، فتشاغلت بدفع الصدقة إليه، فدخلت أنا إلى الدار، فإذا في الدهليز بيت فيه حمار، فدخلته. ووقفت تحت الحمار وطرحت الجل[1] عليّ وعليه، وجاء الرجل

(١) الجل: هو ما يوضع على ظهر الحمار للركوب عليه.

فغلق الأبواب وفتش ونام على سرير عال والجوهر تحته، فلما انتصف الليل قمت إلى شاة في الدار، فعركت أذنها فصاحت، فقال: ويلك أقول لك أفتقديها. قالت: قد فعلت. قال: كذبت، وقام بنفسه ليطرح لها علفًا، فجلست مكانه على السرير، وفتحت الخزانة، وأخذت السفط وعدت إلى موضعي وعاد الرجل، فنام. فاجتهدت أن أجد حيلة أن أنقب إلى دار بعض الجيران، فأخرج فما قدرت، لأن جميع الدار مؤزرة بالساج ورمت صعود السطح، فما قدرت، لأن الممارق مقفلة بثلاثة أقفال، فعملت على ذبح الرجل، ثم استقبحت ذلك، وقلت: هذا بين يدي إن لم أجد حيلة غيره، فلما كان السحر عدت إلى موضعي تحت الحمار وانتبه الرجل يريد الخروج، فقال للجارية: افتحي الأقفال من الباب ودعيه متربسًا، ففعلت وقربت من الحمار فرفس، فصاحت فخرجت أنا ففتحت المترس[1] وخرجت أعدو حتى جئت إلى المشرعة، فنزلت في الخيطية ووقعت الصيحة في دار الرجل، فطالبني أصحابي أن أعطيهم شيئًا منه، فقلت: لا. هذه قصة عظيمة، وأخاف أن يتنبه عليها، ولكن دعوه عندي فإن مضى على الحديث ثلاثة أشهر وافتكم، فصيروا إليَّ أعطيكم النصف، وإن ظهر خفت عليكم وعلى نفسي، وجعلته حقنًا لدمائكم، فرضوا بذلك، فأرسل الله هذا البواب بليلة يخدمني، فاستحييت منه وخفت أن يقتل هو أصحابه، وقد كنت وضعت في نفسي الصبر على كل عذاب، فدخلتم عليَّ من طريق أخرى لم أستحسن في الفتوة معها إلَّا الصدق، فقال له الأمير: جزاء هذا الفعل أن أطلقك، ولكن تتوب فتاب، وجعله الأمير من بعض أصحابه وأسنى له الرزق، فاستقامت طريقته.

يستدين سرقة[2]

قال أبو الحسين: وحدّثني أبي عن طالوت بن عباد الصيرفي قال: كنت ليلة نائمًا بالبصرة في فراشي وأحراسي يحرسونني وأبوابي مقفلة، فإذا أنا بابن الخياطة ينبهني من فراشي، فانتبهت فزعًا. فقلت: مَن أنت؟ فقال: ابن الخياطة، فتلفت. فقال: لا تجزع قد قمرت الساعة خمسمائة دينار أقرضني إياها لأردها عليك،

---

(١) المترس: أي المزلاج وهو يستعمل في إغلاق الباب بدون القفل.
(٢) كتاب الأذكياء ص ١٧٥.

فأخرجت خمسمائة دينار، فدفعتها إليه، فقال: نم ولا تتبعني لأخرج من حيث جئت، وإلا قتلتك. قال: وأنا والله أسمع صوت حراسي ولا أدري من أين دخل، ولا من أين خرج، وكتمت الحديث خوفًا منه، وزدت في الحرس ومضت ليال، فإذا أنا به قد أنبهني على تلك الصورة، فقلت: مرحبًا ما تريد؟ قال: جئت بتلك الدنانير تأخذها مني، فقلت: أنت في حل منها، فإن أردت شيئًا آخر فخذ، فقال: لا أريد من نصح التجار أشاركهم في أموالهم، ولو كنت أردت أخذ مالك باللصوصية فعلت، ولكنك رئيس بلدك ولا أريد أذيتك، فإن ذلك يخرج عن الفتوة، ولكن خذها، فإن احتجت إلى شيء بعد هذا أخذت منك، فقلت: أن عودك لا يفزعني، ولكن إذا أردت شيئًا فتعال إليَّ نهارًا أو رسولك، فقال: افعل، فأخذت الدنانير منه وانصرف، وكان رسوله يجيئني بعلامة بعد ذلك، فيأخذ ما يريده بعد مدة، فما انكسر لي عنده شيء إلى أن قبض عليه.

قطعة صابون تتحول آجرًا(١)

حكى أبو محمد عبد الله بن علي بن الخشاب النحوي: أن رجلًا اشترى من مخاطي قطعة صابون ومضى إلى النهر لغسل ثيابه، فلما وصل أخرجها، فإذا هي قطعة آجر، فصعب الأمر عليه، وقال: هذا يبيع الناس آجرًا وصابونًا، فمضى إليه ليردها، فلما وصل قال: ويحك أتبيع الناس آجرًا وصابونًا قال: كيف أبيع آجرًا؟ فأخرجها من كمه، فإذا هي قطعة صابون، فاستحى ورجع إلى النهر، فأخرجها فإذا هي آجر، فعاد إليه ووبخه، وأخرجها فإذا هي قطعة صابون مرة أخرى كذلك حتى ضجر، فقال له المخاطي: لا يضيق صدرك، فإن لنا ولدًا قد أخرجناه نعلمه أن يبطأ ويحتال وأنك كلما مضيت فعل هذا، فإذا رآك قد عدت لردها أعادها في كمك وأنت لا تعلم.

ما أنحس هذه الليلة(١)

دخل لص بيت رجل، فأخذ متاعه وخرج، فصاح الرجل: ما أنحس هذه الليلة؟ فقال اللص: على كل أحد.

---

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٦.

لصٌّ رحوم(١)

قال أبو الفتح البصري: اجتمع جماعة من اللصوص اجتاز عليهم شيخ صيرفي معه كيسه. فقال أحدهم: ما تقولون فيمن يأخذ كيس هذا؟ قالوا: كيف تفعل؟ قال: انظروا ثم تبعه إلى منزله، فدخل الشيخ، فرمى كيسه على الصفة(٢) وقال للجارية: أنا حاقن، فألحقيني بماء في الغرفة، وصعد فدخل اللص فأخذ الكيس، وجاء إلى أصحابه، فحدّثهم، فقالوا: ما علمت شيئًا. تركته يضرب الجارية ويعذبها وما ذا مليح؟ قال: فكيف تريدون؟ قالوا: تخلص الجارية من الضرب وتأخذ الكيس. قال: نعم، فمضى فطرق الباب، فإذا به يضرب الجارية، فقال: مَن قال: غلام جارك في الدكان، فخرج، فقال: ماذا تقول؟ فقال: سيدي يسلّم عليك ويقول لك قد تغيرت. ترمي كيسك في الدكان وتمضي، ولولا أننا رأيناه كان قد أُخذ، وأخرج الكيس، وقال: أليس هذا هو؟ قال: بلى والله صدق، ثم أخذه، فقال له: بل أعطنيه وادخل فاكتب في رقعة قد تسلمت الكيس، حتى أتخلص أنا ويرجع إليك ومالك، فناوله إياه ودخل ليكتب، فأخذه ومضى.

العجوز واللص(١)

قال أبو جعفر محمد بن الفضل الضميري: كان في بلدنا عجوز صالحة كثيرة الصيام والصلاة، وكان لها ابن صيرفي منهمك على الشرب واللعب، وكان يتشاغل بدكانه أكثر نهاره، ثم يعود إلى منزله، فيخبىء كيسه عند والدته، فدخل إلى الدار لص وهو لا يعلم، فاختبأ فيها، وسلم الابن كيسه إلى أمه وخرج وبقيت هي وحدها في الدار، وكان لها في دارها بيت مؤزر بالساج عليه باب من حديد تجعل قماشها فيه والكيس، فخبأت الكيس فيه خلف الباب وجلست فأفطرت بين يديه، فقال اللص: الساعة تقفله وتنام، وأنزل وأقلع الباب وآخذ الكيس، فلما أفطرت قامت تصلي ومدت الصلاة ومضى نصف الليل وتحير اللص، وخاف أن يدركه الصبح، فطاف في الدار فوجد إزارًا جديدًا وبخور فاتزر بالإزار، وأوقد البخور وأقبل ينزل على الدرجة، ويصيح بصوت غليظ ليفزع العجوز، وكانت جلدة، ففطنت أنه لص، فقالت: مَن هذا؟ بارتعاد وفزع. فقال: أنا جبريل رسول رب

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٧.

(٢) الصفة: أي المصطبة.

العالمين أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه وأعامله بما يمنعه عن ارتكاب المعاصي، فأظهرت أنها قد غشي عليها من الفزع، وأقبلت تقول: يا جبريل سألتك ألا رفقت به، فإنه وحيدي، فقال اللص: ما أرسلت لقتله. قالت: فبم أرسلت؟ قال: لآخذ كيسه وأؤلم قلبه بذلك، فإذا تاب رددته عليه، فقالت: يا جبريل، شأنك وما أمرت به، فقال: تنحي عن باب البيت، وفتح هو الباب ودخل ليأخذ الكيس والقماش، واشتغل في تكويره فمشت العجوز قليلًا قليلًا وجذبت الباب وجعلت الحلقة في الرزة، وجاءت بقفل فقفلته، فنظر اللص إلى الموت ورام حيلة، نقب أو منقذ، فلم يجد، فقال: افتحي لأخرج فقط اتعظ ابنك، فقالت: يا جبريل، أخاف أن أفتح الباب، فتذهب عيني من ملاحظة نورك، فقال: إني أطفىء نوري حتى لا يذهب بعينيك. فقالت: يا جبريل، ما يعوزك أن تخرج من السقف أو تخرق الحائط بريشة من جناحك ولا تكلفني أنا لتغوير بصري، فأحس اللص أنها جلدة، فأخذ يرفق بها ويداريها ويبذل التوبة، فقالت: دع عنك هذا لا سبيل إلى الخروج إلّا بالنهار، وقامت فصلّت، وهو يسألها حتى طلعت الشمس، وجاء ابنها وعرف خبرها، وحدثته الحديث، فأحضر صاحب الشرطة وفتح الباب وقبض على اللص.

حيلة أبي حنيفة(١)

قيل إن رجلًا ابتلي بمحبة امرأة، فأتى أبا حنيفة، فأخبره أن ماله قليل، وأنهم إن علموا بذلك لم يزوجوه، فقال له أبو حنيفة: أتبيعني أحليلك باثني عشر ألف درهم؟ قال: لا. قال: فأخبر القوم أني أعرفك، فمضى فخطبها، فقالوا: مَن يعرفك، فقال: أبو حنيفة، فسألوا أبا حنيفة عنه، فقال: ما أعرفه إلّا أنه حضر عندي يومًا فساوم في سلعة له باثني عشر ألف درهم، فلم يبع، فقالوا: هذا يدل على أنه ذو مال، فزوجوه، فلما تيقنت المرأة حاله قالت: لا يضيق صدرك وهذا مالي بحكمك، ثم مضت إلى أبي حنيفة في حليها وحللها فقالت: فتوى، فدخلت فأسفرت عن وجهها، فقال: تستري، فقالت: ما يمكن قد وقعت في أمر لا يخلصني منه إلّا أنت. أنا بنت هذا البقال الذي على رأس الدرب، وقد بلغت عمرًا واحتجت إلى الزوج وهو لا يزوجني، ويقول لمن يخطبني ابنتي عوراء قرعاء

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٣.

شلاء، ثم حسرت عن وجهها ورأسها ويديها. ويقول: ابنتي زمنة وكشفت عن ساقيها وأريد أن تدبرني، فقال: ترضين أن تكوني لي زوجة؟ فقبلت قدميه وقالت: من لي بغلامك، فقالت: امضي في دعة الله، فخرجت، فحضر البقال ودفع إليه خمسين دينارًا وقال: زوجني ابنتك، فكتب كتابًا بمائة دينار، فقال البقال: يا سيدي، استر ما ستر الله أنا لي بنت أزوجك. قال: دع هذا عنك رضيت بابنتك القرعاء الشلاء الزمنة، فزوجه على المائة والخمسين ومضى، فحدث زوجته فقالت: والله لا كان إلا يكون هذا إلا على يد أبي حنيفة، فلما كان عشية تلك الليلة أجلسها أبوها في صن وحملها بينه وبين غلامه، فلما رآها أبو حنيفة قال: ما هذا؟ فقال البقال: أشهد على أمها إن كانت لي بنت غيرها، فقال أبو حنيفة: هي طالق ثلاثًا أعد عليَّ الكتاب، ثم جاءت تلك المرأة إليه، فقال: ما حملك على ما فعلت؟ فقالت: وأنت ما حملك على أن غررتنا برجل فقير.

حيلة امرأة(١)

قال أبو الحَسن البيني مؤذن المسترشد بالله قال: حدّثني بعض التجار المسافرين قال: كنا نجتمع من بلاد شتى في جامع عمرو بن العاص نتحدث، فبينما نحن جلوس يومًا نتحدث، وإذا بامرأة بقربنا في أصل سارية، فقال لها رجل من التجار من البغداديين: ما شأنك؟ فقالت: أنا امرأة وحيدة غاب عني زوجي منذ عشر سنين، ولم أسمع له خبرًا، فقصدت القاضي ليزوجني، فامتنع وما ترك لي زوجي نفقة، وأريد رجلًا غريبًا يشهد لي هو وأصحابه أن زوجي مات أو طلقني لأتزوج أو يقول أنا زوجها، ويطلقني عند القاضي لأصبر مدة العدة، وأتزوج، فقال لها الرجل: تعطيني دينارًا حتى أصير معك إلى القاضي وأذكر له أني زوجك، وأطلقك، فبكت وقالت: والله ما أملك غير هذه، وأخرجت أربع رباعيات، فأخذها منها ومضى معها إلى القاضي، وأبطأ علينا، فلما كان من الغد لقيناه، فقلنا: ما أبطأك؟ فقال: دعوني فإني حصلت في أمر ذكره فضيحة. قلنا أخبرنا. قال: حضرت معها إلى القاضي فادعت عليَّ الزوجية والغيبة عشر سنين، وسألت أن أخلي سبيلها، فصدقتها على ذلك، فقال لها القاضي: أتبرئينه؟ قالت: لا. والله لي عليه صداق ونفقة عشر سنين، وأنا أحق بذلك، فقال لي القاضي:

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٣.

أديها حقها ولك الخيار في طلاقها أو إمساكها، فورد عليَّ ما بلسني، ولم أتجاسر أن أحكي صورتي معها، فلا أصدق، فتقدم القاضي بتسليمي، إلى صاحب الشرطة، فاستقر الأمر على عشرة دنانير أخذتها مني وغرمت للوكلاء وأعوان القاضي الأربع رباعيات التي أعطتني، ومثلها من عندي، فضحكنا منه، فخجل وخرج من مصر، فلم يعرف له خبر.

مستحلة(١)

ونقل من خط الشيخ أبي الوفاء بن عقيل قال: حكى لي بعض الأصدقاء أن امرأة جلست على باب دكان بزار أعزب إلى أن أمست، فلما أراد غلق الدكان تراءت له، فقال لها: ما هذا المساء؟ فقالت: والله ما لي مكان أبيت فيه. فقال لها: تمضين معي إلى البيت؟ فقالت: نعم، فمضى بها إلى بيته، وعرض عليها التزويج، فأجابت فتزوجها، وبقيت عنده أيامًا، وإذا قد جاء في اليوم الرابع رجل ومعه نسوة، فطلبوها، فأدخلهم وأكرمهم، وقال: مَن أنتم منها؟ فقالوا: أقاربها ابن عم وبنات عم، وقد سررنا بما سمعنا من الوصلة غير أنا نسألك أن تتركها تزورنا لعرس بعض أقاربنا، فدخل إليها. فقالت: لا تجبهم إلى ذلك واحلف بطلاقي إنك لا خرجت من داري شهر ليمضي زمن العرس، فإنه أصلح لي ولك، وإلا أخذوني وأفسدوا قلبي عليك، فإني كنت غضبى وتزوجت إليك بغير مشاورتهم، ولا أدري مَن قد دلهم إليك، فخرج فحلف كما ذكرت له فخرجوا مأيوسين، وأغلق الباب وخرج إلى الدكان وقد علق قلبه بالمرأة، فخرجت ولم تستصحب من الدار شيئًا، فجاء فلم يجدها، فقال قائل: ترى ما الذي قصدت؟ قال أبو الوفاء لعلها مستحلة به لأجل زوج طلقها ثلاثًا، فليتخوف الإنسان من مثل هذا، وليطلع به على غوامض حيل الناس.

مِن حِيَل الكُرمَاء(٢)

أهدى معاوية إلى عُبيد الله بن العبّاس حُلَلًا كثيرة، ومُسْكًا وآنِيَةً من ذهبٍ وفِضّة، ووجَّهها إليه مع حاجِبِه؛ فلما وضَعَها بين يديه نظر إلى الحاجبِ ـ وهو يُطِيلُ النَّظَرَ فيها ـ فقال: هل في نفسِك منها شيءٌ؟ قال: نعم، والله إنّ في نفسي منها ما كان في نَفْس يعقوبَ من يوسف!

---

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٤.

(٢) ثمرات الأوراق للحموي: ١ ـ ١٢٩.

فضحك عُبيد الله وقال: فشأنكَ بها؛ فهي لك! قال: جُعِلتُ فداك! أنا أخاف أنْ يبلغَ ذلك معاويةَ؛ فيغضبَ لذلك. قال: فاختمها بخاتمك، وادفعْها إلى الخازِن، وهو يحملُها إليك ليلًا. فقال الحاجب: واللهِ إنَّ هذه الحيلةَ في الكرماءِ أكثرُ من الكرمِ؛ ولَوَدِدْتُ أني لا أموت حتى أراكَ مكانَه ـ يعني معاوية.

فظنَّ عبيدُ الله أنها مَكِيدةٌ منه؛ فقال: دَعْ هذا الكلام؛ إنّا من قومٍ نَفِي بما عَقَدْنَا، ولا ننقضُ ما أكّدْنا!

دَهَاء عمَار بن تميم اللخمي(١)

كان الحجاج حسودًا لا تتمُّ له صنيعةٌ حتى يفسدَها، فوجّه عمارةَ بن تميم اللخمِي إلى عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث؛ فظفر به، وصنع به ما صنع، ورجع إلى الحجّاج بالفتح، فلم ير منه ما أحبّ، وكره مُنَافرته، وكان عاقلًا رفيقًا، فجعل يترفّق به ويداريه، ويقول: أنت ـ أيها الأمير ـ أشرفُ العرب، فمن شرَّفْته شرف، ومَن وضَعتَه اتضع، ومَنْ ينكرُ ذلك، مع رفقك ويمْنِك ومشورتك ورأيك؟ وما كان هذا كلُّه إلا بصنع الله عزّ وجلّ وتدبيرك، وليس أحدٌ أحقَّ بشكر صنيعك مني، ومَن ابنُ الأشعث؟ وما خَطَرُه؟

ثم عزم الحجاج عَلَى المضيّ إلى عبد الملك فأخرج عمارةَ معه، فلم يزل يلطفه بالحجاج في مسيره، ويعظِّمه، حتى قدموا على عبد الملك.

فلما قامت الخطباءُ بين يديه، وأثنت على الحجاج، قام عُمارة، فقال: يا أميرَ المؤمنين، سَل الحجّاجَ عن طاعتي ومُنَاصَحتي وبلائي! فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، صنع وصنع، ومن بأسه ونجدته وعقله ومكيدته كذا وكذا، هو أيمنُ الناس نقيبة، وأعلمهُم بتدبيرِ وسياسة، ولم يُبْقِ غايةً في الثناء عليه.

فقال عُمارة: أرضيتَ يا أمير المؤمنين! قال: نعم! فرضي الله عنك، حتى قالها ثلاثًا، في كلها يقول: قد رضيت!

فقال عمارة: فلا رضى الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين، ولا حفظه ولا عافاه، فهو ـ والله ـ السيِّئُ التدبير، الذي قد أفسد عليك أهلَ العراق، وألّبَ

(١) المحاسن والمساوىء: ١٤٩، طبع ليبزج.

عليك الناس، وما أُوتيت إلا من قلة عقله، وضعف رأيه، وقلة بصره بالسياسة. ولك والله أمثالها، إن لم تَعزله.

فقال الحجاج: مَه يا عمارة! فقال: لا مَهْ ولا كرامة يا أميرَ المؤمنين! كلّ مملوك له حرٌّ إن سار تحت راية الحجاج أبدًا! فقال عبدُ الملك: ما عندنا أَوْسَعُ لك!

فلما انصرف عُمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال له: أنا أعلم أنه ما خرج هذا عنك إلا عن مَعْتبة[1]، ولك عندي العُتْبى[2]، ولك ولك! فأرسل إليه: ما كنت أظنُّ أن عقلك على هذا! أرْجِعُ إليك بعد الذي كان من طعني وقولي عند أمير المؤمنين! لا، ولا كرامة لك.

كَيفَ رَأيتم فِرَاستِي فِي الأعرابِي[3]

قدم على الحجاج ابنُ عم له من البادية، فنظر إليه يولّي الناس؛ فقال له: أيها الأمير؛ لم لا تُوَليني بعضَ هذا الحضر؟ فقال الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبُون وأنت لا تحسُبُ ولا تكتب!

فغضب الأعرابي، وقال: بلى، إني لأحسب منهم حَسْبًا[4]، وأكْتُبُ منهم كَتْبا! فقال الحجاج: فإن كان كما تزعمُ فاقْسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس، فما زال يقول: ثلاثة دراهم بين أربعة؛ ثلاثة بين أربعة، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء! كم هم أيُّها الأمير؟ قال: هم أربعة، قال: نعم! أيها الأمير، قد وقَفْتُ على الحساب، لكلِ واحد منهم درهم، وأنا أعطي الرابعَ منهم درهمًا من عندي! وضرب بيده إلى تِكَّتِه[5]، فاستخرج منها درهمًا، وقال: أيكم الرابع؟ فوالله ما رأيت كاليوم زُورًا مثل حساب هؤلاء الحَضرِيين!

فضحك الحجاج ومَن معه، وذهب بهم الضحكُ كلّ مذهب، ثم قال الحجاج: إن أهل أصبهان أخروا خراجهم ثلاث سنين، كلما أتاهم والٍ أعجزوه، فلأرمينهم بهذا، فأَخْلق به أن يُنجب!

---

(١) المعتبة: العتاب.
(٢) العتبى: الرضا.
(٣) المسعودي: ٢ ـ ١٦٠.
(٤) حسابًا.
(٥) التكة: رباط السراويل.

فكتب له عَهْدَه على أصبهان!

فلما خرج استقبله أهل أصبهان واستبشروا به وأقبلوا عليه يقبِّلون يده ورجله وقالوا: أعرابي بدويّ! ما يكون منه!

فلما أكثروا عليه، قال: أما يَشْغَلكُم ما أَخْرَجني له الأمير؟

فلما استقرَّ في داره بأَصْبَهان جمع أهلها، فقال: ما لكم تعصون ربكم وتُغْضبون أميرَكم، وتُنْقِصون خراجكم؟ فقال قائلهم: جَوْرُ مَن كان قبلك، وظلم مَن ظلم! قال: فما الأمر الذي فيه صلاحُكم؟ فقالوا: تؤخِّرُنا بالخراج ثمانية أشهر، ونجمعه لك! قال: لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضمناء.

فأتَوْه بهم، فلما توثق منهم أمهلهم؛ وكلما قَرُب الوقت رآهم غيرَ مكترثين لما نُدِبوا[1] إليه من الأجل! وطال به ذلك، فجمع الضُّمنَاء؛ وقال لهم: المال! فقالوا: أصابنا من الآفة نقض ذلك!

فلما رأى ذلك منهم آلى ألا يفطر ـ وكان في شهر رمضان ـ حتى يُجمَع مالُه أو يضربَ أعناقهم!

ثم قدَّم أحدهم وضرب عُنُقه، وكتب عليه. فلان ابن فلان أدَّى ما عليه! وجعل رأسه في بَدْرة[2]، وختم عليها! ثم قدَّم الثاني ففعل به مثل ذلك!

فلما رأى القوم الرؤوس تجزّ، وتجعل في الأكياس بدلًا من البِدَر، قالوا: أيها الأمير؛ توقف علينا حتى نحضر لك المال؛ ففعل، فأحضروه في أسرع وقت!

فبلغ ذلك الحجاج فقال: إنا معاشر آل محمد ـ يعني جدّه ـ ولدنا نجيب، فكيف رأيتم فراستي[3] في الأعرابي؟!

ولم يزل واليًا عليها حتى مات الحجاج!

من بَدَائه الشعَرَاء[4]

أُتِي سليمانُ بن عبد الملك بأسارى، وكان الفرزدق حاضرًا، فأمره سليمانُ بضَرْبِ واحدٍ منهم فاستعفاه فأبى، وقد أُشِير إلى سيفٍ غيرِ صالح للضرب

(١) ندب القوم إلى الأمر ندبًا: دعاهم وحثهم. (٢) البدرة: كيس يوضع فيه عشرة آلاف درهم.
(٣) الفراسة: البصر بالشيء والعلم به.
(٤) أدب الدنيا والدين: ٧، بلوغ الأرب: ١ ـ ٢٠.

ليستعملَه فقال الفرزدق: بل أضربُ بسيف أبي رَغْوَان[١] سيفِ مُجاشعٍ ـ يعني نفسه ـ وكأنه قال: لا يَسْتَعْمِل ذلك السيفَ إلا ظالم أو ابنُ ظالم، ثم ضرب بسيفه الأسيرَ، واتَّفق أن نبا السيف، فضحك سليمان ومَن حوله؛ فقال الفرزدق:

أيعجبُ الناسُ أن أضحكتُ سيّدهم ... خليفةَ اللهِ يُستَسقَى به المطرُ
لم ينبُ[٢] سيفيَ من رُعْب ولا دَهَش ... عن الأسير، ولكن أخّر القَدَرُ
ولن يقدّمَ نفسًا قبل ميتَتِها ... جمعُ اليدين ولا الصَّمْصامة[٣] الذَّكَرُ

ثم أغمد سيفه وهو يقول:

ما إن يُعَاب سيدٌ إذا صَبَا ... ولا يُعَاب صارمٌ إذا نَبَا
ولا يعاب شاعرٌ إذا كبا

ثم جلس يقول: كأني بابن المَرَاغَةِ[٤] قد هجاني، فقال:

بسيْفِ أبي رَغوانَ سيفِ مُجَاشع ... ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالم

وقام وانصرف.

وحضر جرير، فخُبِّر الخبر، ولم يُنْشد الشعر، فأنشأ يقول:

بسيف أبي رغوانَ سيفِ مجاشع ... ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابن ظالم

فأعْجَب سليمان ما شاهد! ثم قال جرير: يا أمير المؤمنين، كأني بابن القَيْنِ[٥] قد أجابني فقال:

ولا نقتل الأسرى، ولكن نفكُّهم ... إذا أثقل الأعناق حملُ المغارمِ

ثم أخبر الفرزدق بالهَجْوِ دون ما عداه، فقال مجيبًا:

كذاك سيوفُ الهند تَنبُو ظُباتها[٦] ... وتقطعُ أحيانًا مَنَار التمائِم

(١) رغوان: لقب مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة، لقب به لفصاحته وجهارة صوته، ويقال: قالت امرأة سمعته: ما هذا إلا يرغو، فلقب رغوان.
(٢) لم ينب: لم يكل عن الضريبة.
(٣) الصمصامة: السيف لا ينثني، والذكر أيبس الحديد وأجوده وأشده.
(٤) يريد جرير.
(٥) القين: العبد والحداد، وهو يريد الفرزدق.
(٦) الظباة: جمع ظبة، وهي حد السيف.

ولن نقتل الأسرى ولكن نفكّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارِمِ
وهل ضربةُ الروميِّ جاعلةً لكُمْ أبًا عن كُلَيْب أو أخًا مثل دارم

وشاع حديثُ الفرزدق بهذا حتى كان زمان المهدي[١]، فأُتيَ بأسْرى من الروم، وأَمَر بقتلهم ـ وكان عنده شبيب[٢] بن شيبة ـ فقال له: اضرب عُنق هذا العلجِ[٣]، فقال: يا أمير المؤمنين، قد عَلِمْت ما ابْتلى به الفرزدق فعُيِّر به قومُه إلى اليوم. فقال: إنما أردتُ تشريفك وقد أعفيتُك. وكان شعر حاضرًا فقال:

جزِعتَ من الروميِّ وهو مقيَّدٌ فكيف ولو لا قَيْتَه وهو مُطْلَقُ
دعاك أميرُ المؤمنين لِقَتْلِهِ فكاد شبيبٌ عند ذلك يَفْرَقُ[٤]
فَنحِّ شبيبًا عن قِراع كتيبةٍ وأَذْنِ شبيبًا من كلام يُلَفَّقُ

قوة حجّة[٥]

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عديّ بن أَرْطاة: أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجَوْشَنيّ، فولِّ القضاء أنْفَذهما.

فجمع بينهما، فقال له أياس: أيُّها الرجل سَلْ عني وعن القاسم فقيهي البصرة: الحسنَ البَصْري، وابنَ سِيرين.

وكان القاسمُ يأتي الحسنَ وابن سيرين، وكان إياسٌ لا يأتيهما، فعلم القاسمُ أنه إن سألهما عنه أشارَا به؛ فقال: لا تسألْ عني ولا عنه؛ فوالله الذي لا إلـٰه إلا هو، إن إياس بن معاوية أَفْقَهُ مني وأعلم بالقضاء. فإن كنتُ كاذبًا فما ينبغي أن تَوَليني، وإن كنتُ صادقًا فينبغي لك أن تقبلَ قولي!

فقال له إياس: إنك جئتَ برجلٍ فأَوْقَفْتَه على شفير جهنّم، فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة، يستغفرُ الله منها، وينجو مما يخاف.

فقال له عديّ: أما إذا فهمتها فأنت لها، فاسْتَقْضاه.

(١) انظر صفحة ٢٦٢.
(٢) خطيب البصرة في زمانه، كان في حاشية المهدي حينما كان واليًا للعهد وبقي كذلك حتى ولي الخلافة فكان من سماره المقربين، توفي سنة ١٧٠ هـ.
(٣) العلج: الواحد من كفار العجم.
(٤) يفرق: يخاف.
(٥) العقد الفريد: ١ ـ ١١.

أذبتني فَتَأَذَّبت[١]

كان أبو سلمة حفص بن سليمان وسليمان بن كثير ـ وهما سيّدا دعاة الدولة العباسية ـ يَفِدان كلّ عام على إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فيأتيانه بهذا يا أَهْلِ الدعوة، وكُتُبهم، ولم يكن أحد من آل إبراهيم يعرفُهما، ولا يعرف الأمرَ الذي يأتيانِ له، فقدِمَا سنةً من السنين فرأيَا العباس وأبا جعفر، فأعجباهما، وهما إذ ذاك غُلَامان، فقال سليمانُ بن كثير لأبي سَلَمة: إني مسرّ إليك مهما من أمر الدين والدنيا، فاحْلِفْ لي على كِتْمانه، فحلف له أبو سلمة بأيمان رضيها منه، فقال له سليمان: إني أرى عند هذين الصبيين من أمارات الاستقلال بالخلافة، ما لا كِفَاء له[٢]، فقال له أبو سلمة: هما والله أولى بالأمر من صاحبنا ـ يعني إبراهيم الإمام ـ فقال سليمان: ما منعني من ذكر هذا إلا التَّسَتُّر.

وبينا هما يتفاوضان في هذا الأمر إذ مرَّ أبو العباس وأبو جعفر وهما يضربان كُرة، فدعاهما أبو سَلَمة فأتياه، فقال لهما: إني أنشدت صاحبي هذا شعرًا أنا مُعْجَبٌ به، فلم يرضه، وقد رضينا بحكمكما فيه. فقالا: أنشده، فأنشدهما:

أمسلمُ إني يا ابْنَ كل خليفة ... ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض[٣]
شكرتك إن الشكرَ حَبْلٌ من التقى ... وما كل مَن أوليتَه نعمةً يَقْضِي[٤]
وشَيَّدت[٥] من ذكرى وما كان خاملًا ... ولكن بعض الذكر أنْبَه من بعض[٦]

فقال أبو جعفر: مَنْ قال هذا؟ فقال: قاله أبو نُخيلة، فعضّ أبو جعفر على إصبعه، ثم قال أآمِنٌ هذا العبدُ أن تَدُول[٧] لبني هاشم دولة فيُولِغُوا[٨] الكلابَ دمه؟ فقال له أبو العباس: مَهْ[٩] يا أخي، فإنه يقال: مَن ظَهَرَ غَضَبُه ضَعُفَ كيدُه.

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٩٥.
(٢) لا كفاء له: لا مثل له يكافئه.
(٣) أمسلم: يريد أمسلمة.
(٤) حبل من التقى: سبب منه وعهد، والعهد: الحبل.
(٥) شيدت: رفعت.
(٦) أنبه: أرفع.
(٧) الدولة: الانتقال من حال إلى حال.
(٨) أولغت الكلب: إذا جعلت له شيئًا يولغ فيه.
(٩) مه: اسم فعل، معناه: اكفف.

ثم أقبل أبو العباس على أبي سَلمة، وقال له: هذا شعرُ أحمق في أحمق! كيف يقول لرجل هو في سلطان غيره، وتابع له: يا جَبَلَ الأرض؟ أليس جبَلُ الأرض هو مُرْسِيها، ولا يصلح أن يخاطبَ بهذا من هو تابع لغيره، وأين تفخيمه وتعظيمه من نقص اسمه، إذ يُنَاديه: «أمسلم» وهو مسلمة؟

ثم إن العباس ولّى، فقال له أبو جعفر: هلمَّ يا أخي نلْعب، فقال له أبو العباس: هل أولغت[1] الكلابَ دم أبي نخيلة؟ فقال: لا، ولكنك أدَّبتني فتأدَّبت، وذهبا!

فقال أبو سلمة لسليمان بن كثير: بمثل هذا يُطْلب الملك، ويُدْرك الثأر!

حَذَرُ إبراهيم بن هَرْمَة[2]

وجّه المنصورُ رسولًا إلى ابن هرْمة[3]، ودفع إليه ألفَ دينار وخِلعة، ووصفَه له وقال: امْضِ إليه، فإنك تراه جالسًا في موضِع كذا من المسجد، فانتسبْ له إلى بني أمية أو مَواليهم، وسَلْه أن يُنشدك قصيدته الحائية التي يقول فيها يمدح عبد الواحد بن سليمان:

وجدْنا غالبًا كانت جَنَاحًا   وكان أبوك قادمة الجَنَاح

فإذا أنشدكها فأخْرجه من المسجد واضربْ عُنقَه وجئني برأسه، وإن أنشدك قصيدتَه اللامية التي يَمْدَحُني فيها فادفعْ إليه الألف الدينار والخِلْعة؛ وما أراه يُنشدُك غيرَها ولا يعترفُ بالحائية.

فأتاه الرسولُ فوجده كما قال المنصور، فجلس إليه واستنشده قصيدته في عبد الواحد؛ فقال: ما قلتُ هذه القصيدة قط ولا أعرفها، وإنما نَحَلها إيّايَ منْ يُعَاديني، ولكنْ إن شئتَ أنشدتك أحسنَ منها قال: قد شئتُ فهاتِ، فأنشده:

سَرى ثوبَه عنك الصّبا المُتَخايل[4]

(١) معناه: هل شفيت غيظك حتى نلعب. (٢) الأغاني: ٦ ـ ١١٢.
(٣) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة ـ شاعر غزل من سكان المدينة رحل إلى دمشق ومدح الوليد الأموي فأجازه.
(٤) سرى عنه الثوب: كشفه.

حتى أتى على آخرها[١]؛ ثم قال له هاتِ ما أمرك أميرُ المؤمنين بدَفْعه إليّ؛ فقال: أيَّ شيء تقول يا هذا؟ وأي شيء دَفَع إلي؟ فقال: دَعْ ذا عنك، فوالله ما بعثك إلا أميرُ المؤمنين ومعك مالٌ وكسوة إلي، وأمرك أن تسألني عن هذه القصيدة، فإن أنشدتُك إياها ضربتَ عُنُقي وحملتَ رأسي إليه، وإن أنشدتُك هذه اللاميَّة دفعتَ إليّ ما حمّلك إياه، فضحك الرسولُ، ثم قال: صدقتَ لعمري! ودَفع إليه الألف الدينار والخلْعة.

المنصور وَدَليلَة بالمدينَة[٢]

لما حجَّ أبو جعفر المنصور قال للربيع: ابْغِ لي فتًى من أهل المدينة أديبًا ظريفًا، عالمًا بقديم ديارها، ورُسُوم آثارها؛ فقد بَعُدَ عهدي بديار قومي، وأريدُ الوقوفَ عليها.

فالتَمَس له الربيعُ فتًى من أعلم الناس بالمدينة، وأعرفهم بظريف الأخبار، وشريف الأشعَار؛ فعجب المنصور منه؛ وكان يسايره أحسنَ مُسايرة، ويحَاضِرُه أزينَ محاضرة، ولا يَبْتَدِئهُ بخطاب إلا على وجه الجواب، فإذا سأله أتى بأوضح دَلَالة، وأفصح مَقَالة.

فأُعْجِب به المنصور غايةَ الإعجاب، وقال للربيع: ادفع إليه عشرة آلاف درهم، وكان الفتى مُمْلِقًا[٣] مضطَرًا. فتشاغل الربيع عنه، فاجتاز مع المنصور بدار عَاتِكة. فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا بيت عاتكةَ بنت يزيد بن معاوية الذي يقول فيه الأحوص بن محمد:

يا بيتَ عاتكة الذي أتَعَزَّلُ[٤] حذرَ العِدَا وبه الفؤادُ مُوَكَّلُ

قال المنصور: ما هاج منه ما ليس هو طبعه؛ من أن يُخْبر بما لم يُسْتَخْبَر عنه ويجيب بما لم يُسأَل عنه؟ ثم أقبل يردِّدُ أبياتَ القصيدة في نفسه

---

(١) منها:

له لحظات عن حفافي سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل
فأم الذي أمنت آمنة الردى وأم الذي خوفت بالشكل ثاكل

وحفاف الشيء: جانبه.

(٢) ذيل زهر الآداب: ٥٨.

(٣) الإملاق: الافتقار.

(٤) تعزل الشيء وتعزل عنه: تنحى.

إلى أن بلغ إلى:

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ، وبعضُهم مَذِق اللسان يقولُ ما لا يفعل[١]

فدعا بالربيع وقال له: هل دفعتَ للمدنيّ[٢] ما أَمَرْنا به؟ فقال: أخَّرتْني عِلّةٌ يا أمير المؤمنين. قال: أضْعِفْها له وعجّلها.

فطنَة كَاتِب المنصُور[٣]

قال أبو جعفر المنصور للمهدي يومًا: قد عزمتُ على أن أوليك الأمرَ وأردّه إليك، فقد كبرتُ وعجَزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها، وأحببتُ الراحة والدَّعة. فخرج المهديّ إلى أبي عبيد الله[٤] مستبشرًا، وعرَّفه ما عرضه عليه أبو جعفر، فقال له أبو عبيد الله: اتّق الله ولا تظهِر لأمير المؤمنين قَبُولًا لما ذاكرك به، وإذا عاودكَ فقل له: لا والله، لا أتعرَّضُ لهذا الأمر ما أبقى الله أمير المؤمنين؛ ولا أنهضُ له، فإنه إنما سَبَرك[٥] بما عَرَض عليك.

فلما دخل المهديّ على أبي جعفر قال له: يا أبا عبد الله، هل فكرتَ فيما قلتُه لك، أو شاورتَ أحدًا فيه؟ فقال: ما بي من قوة على ذلك، ويُبقي الله أمير المؤمنين، ويمتعنا بحياته. فقال له: سبحان الله! مَن صدّك عنه ومَن ناظرت فيه؟ فقال له: شاورتُ معاوية[٦]. قال: فأيّ شيء قال لك؟ فعرّفه ما قال له، فأطرق هُنيهة ثم قال: عليَّ بمعاوية.

فلما دخل عليه قال له: ما هذا الذي ناظَرَك[٧] فيه ابن عبد الله[٨]؟ وكيف رأيت ألا يَقْبل؟ قال: أأصدُقك وأنا آمن؟ فقال له: هات ولم لا تصدُقني؟ فقال له: إنه والله ما عرضتَ عليه ما عرضتَه وأنت تريدُ أن تولّيه، وإنما أردتَ أن تختبر عقله، وما كنتَ لتطيب نفسًا بتَرْكِ ما أنت فيه.

---

(١) رجل مذاق: كذوب.
(٢) النسبة إلى مدينة الرسول: مدني، وإلى مدينة المنصور مديني.
(٣) الوزراء والكتاب: ١٢٨.
(٤) هو أبو عبيد معاوية بن عبيد الله بن يسار من أهل فلسطين. كان كاتب أبي جعفر في الإنفاق والتصرف في بيت المال وقد ضمه إلى المهدي حين أنفذه إلى الري.
(٥) سبر الجرح: نظر ما غوره. (٦) هو أبو عبيد الله.
(٧) المناظرة: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه.
(٨) اسم المهدي محمد بن عبد الله.

فقال له: وكيف توهمتَ ذلك؟ قال: لأني سمعتك تقول: إني أستيقظ بالليل فأدعو بالكتب، فأضعها بين يدي، وأدعو بوصيف فآمره أن يَمْرَخ[1] ظهري بالدّهن، فيفعلَ ذلك، وأنا مقبلٌ على كتبي وتدبيري، والنظرِ في أموري؛ فعلمتُ أنك لا تدعُ شيئًا يكون موقعهُ منك هذا الموقع وتُؤثِر به غيرك.

فقال: ما كنتُ أرى أن أحدًا يتفقّد ما تفقّدتَه، وقد أصبتَ الرأي وأحسنت. بارك الله عليك!

الأمينَ والمأمُون بَين يَديّ الرّشيد[2]

قال محدّث: إنّ الرشيد ناظر يحيىٰ بن خالد؛ أي ولديه يعهد إليه، وعلم يحيىٰ بن خالد ميله إلى أمّ جعفر وإيثاره هواها؛ فقال: أميرُ المؤمنين أعلم بولده، وكان المأمون والأمين حاضرين، فأغرى[3] كلَّ واحد منهما بالآخر، فأسرع[4] الأمين وحَلُم المأمون، ثم أمرهما بالمصارعة، فوثب الأمينُ، وثبت المأمونُ جالسًا. فقال له الرشيد: مالك اليوم يا عبد الله! أخِفتَ ابنَ الهاشميّة؟ أما إنه لأيّد[5]، فقال المأمون: هو كما ذكر أمير المؤمنين، ولكنني لم أخفْه، ولكن قبض يدي عنه ما قبض لساني حين نال مني. فقال الّرشيدُ: وما الذي قبض يدك ولسانك عنه؟ قال: قول الأمويّ لبنيه متمثّلًا[6]:

انْفُوا الضَّغَائن[7] بينكم وتواصلوا ... عند الأباعد والحضور الشهّدِ
فصلاحُ ذات البين طولُ بقائكم ... وَدَمارُكم بتقطّع وتفرّد
إن القداحَ إذ جُمعنَ ورامها ... بالكسر ذو خَنقٍ وبَطْشٍ أيّدِ
عزّت ولم تُكسر وإن هي بددت ... فالوهن والتكسير للمتبدِّدِ
فلمثل رَيْبِ الدهر ألف بينكم ... بتعاطفٍ وتراحُمٍ وتودّدِ
حتى تلينَ جلودُكم وقلوبكم ... لمسوّد منكم وغير مسوّدِ

فرّق الرشيد رقةً شديدة، واغرورقت عيناه بالدموع، ثم تشدّد وكَفْكَفَها[8] وأقبل عَلى الأمين، وقال: يا محمد؛ ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمرَ هذه

---

(١) يمرخ: يدهن.
(٢) أنباء نجباء الأبناء: ١١٣.
(٣) أغرى بينهم: سلط أحدهم على الآخر.
(٤) أسرع: أي أسمعه قولاً مكروهًا.
(٥) أيد: شديد. والأيد: القوة.
(٦) الأبيات أنشدها عبد الملك يوصي بها ولده.
(٧) الضغائن: الأحقاد.
(٨) كفكفها: كفها.

الأمة؟ قال: أكون مهديها يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد: إن تفعل فأنت أهلٌ لذلك.

ثم أقبل عَلى المأمون وقال له: يا عبد الله؛ ما أنت صانع إن صَرَف الله إليك أمرَ هذه الأمة؟ فابتدرت دموعُ المأمون، وفطَن الرشيد لما أبكاه، فلم يملك عينيه فأرسلهما، وبكى يحيىٰ؛ فلما قَضَوْا من البكاء أرَبًا[١] بكى الأمين لبكائهم، فأعاد الرشيدُ المسألة للمأمون. فقال: أعفِني يا أميرَ المؤمنين من ذلك. فقال: عزمتُ عليك لتقولنّ، فقال: إن قدَّر الله ذلك أجعل الحزن شعارًا[٢]، والحزم دِثَارًا، وسيرة أمير المؤمنين مَشعرًا لا تستَحلّ حرماته، وكتابًا لا تبدَّل كلماته.

فأشار إليهما بالانصراف، فذهبا، ثم أقبل على يحيىٰ بن خالد فأنشد بيت صَخْر بن عمرو بن الشريد السُلَمِيّ أخي الخنْسَاء، وهو قوله:

أَهُمُّ بأمر الحزْم لو أستطيعُهُ وقد حِيلَ بين العيرِ والنَّزَوانِ[٣]

فقال يحيىٰ بن خالد: هيأ الله لأمير المؤمنين من أمره رَشدًا.

قَمَرَا مَجْدٍ فَرْعَا خِلَافه[٤]

قال الكِسائيّ[٥]: دخلتُ على الرشيد، فلما قضيتُ حقَّ التسليم والدعاء، وَثَبْتُ للقيام، فقال: اقعُد، فلم أزل عنده حتى خف عامَّةُ منْ كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصَّتُه، فقال لي: يا عليُّ؛ ألا تحبُّ أن ترى محمدًا وعبد الله[٦]! قلت: ما أشوَقني إليهما يا أميرَ المؤمنين، وأسرَّني بمعَاينة نعمة الله على أميرِ المؤمنين فيهما.

---

(١) الأرب: الحاجة.

(٢) الشعار: ما ولي الجسد من الثياب، والدثار: ما فوق ذلك.

(٣) العير: حمار الوحش. النزوان: الوثوب. والبيت مثل، وأول من قاله صخر.

(٤) المسعودي: ٢ ـ ٢٧١، معجم الأدباء: ١٣ ـ ١٧٣، المحاسن والمساوىء: ٤٤٠.

(٥) اسمه علي بن حمزة وأصله من فارس أشهر نحاة الكوفة وأحد القراء السبعة، استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم، وألف كثيرًا من الكتب في النحو والقراءات والأدب والنوادر، توفي سنة ١٨٩ هـ.

(٦) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد.

فأمر بإحضارهما، فلم ألبثْ أن أقبلا كوكبيّ أُفُق، يزينهما هدوء ووقار، وقد غَضّا أبصارَهما، وقاربا خطوَهما، حتى وقفا على باب المجلس، فسلّما على أبيهما بالخلافة؛ ثم قالا: تمّم الله على أمير المؤمنين نعمه، وشفعها بشكره، وجعل ما قلّده من هذا الأمر أحمد عاقبة، ولا كدَّر عليه ما صفا، فقد صرت للمسلمين ثقة؛ إليك يفزَعون في أمورهم، ويقصدون في حوائجهم.

فأمرهما بالدنوّ منه؛ فصيَّر محمدًا عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثُمَّ التفت إليّ فقال: يا عليّ؛ ما زلتُ ساهرًا مفكّرًا في معاني أبياتٍ قد خفيتْ عليّ! قلت: أن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها! فأنشدني:

قَدْ قُلْتُ قولًا للغراب إذا حَجَلْ عليك بالْقُودِ المسانيفِ الأوَلْ
تَغدَّ ما شئتَ على غَيرِ عَجلْ

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ إن العِير[1] إذا فَصَلْت من خَيْبر، وعليها التمرُ، يقع الغرابُ على آخر العِير فيطرُدُها السَّواق؛ يقول: تقدّم إلى أوائل العير؛ فكلْ على غير عجل. والقُود: الطّوال الأعناق. والمسَانيف: المتقدّمة.

ثم أنشدني:

وإنّي وإنْ عشَّرْتُ من خَشيةِ الردَّى نُـهَـاقَ حـمـار إنّـنـي لـجـزوعُ[2]

قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ كان الرجل من العرب إذا دخل خَيْبَر أكبَّ على أربع، وعشّر تعشيرَ الحمار؛ وهو أن يَنْهَق عشر نهقات متتابعات، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حُمّى خيبر.

ثم أنشدني قول الآخر:

أجـاعِـلٌ أَنـتَ بـيـقُـورا مُـضـرَّمـةً ذريـعـةً لـك بـينَ اللهِ والـمـطـرِ[3]

قلت: نعم، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدَّت العُشَر[4] والسَّلَع، وهما ضربان من النبت في أذناب البقر وألهبوا فيه النار، وشرَّدوا البقرة تفاؤلًا بالبرق والمطر.

---

(١) العير: الإبل التي تحمل الميرة. (٢) البيت لعروة بن الورد.
(٣) اسم جمع لبقرة، وفي اللسان: «مسلعة» بدل مضرمة، والبيت للورل الطائي.
(٤) شجر لم يقتدح الناس في أجود منه.

ثم أنشدني لرجل آخر.

وسِرْبِ مِلاحٍ قد رأيتُ وجوهَهمْ إنـاثٌ أَدَانِـيـهِ، ذُكـورٌ أواخِـرُهْ

فقلت: إنه يعني الأضراس.

ثم أنشدني قول الآخر:

فإني إذَن كالثور يُضْرَبُ جَنْبُه إذا لم يَعَفْ شرْبًا وعافَتْ صَواحِبُه

قلت: نعم، كانت العرب إذا أوردت البقرَ، فشربت الثيران وأبتِ البقر ضربت الثيران حتى تشربَ البقر، وهو كما قال: «كالثور يُضربُ لما عافت البقر».

ثم أنشدني:

بِمُنْحَدرٍ من رَأْسِ بَرْقَاءَ حَطُّهُ تَـذَكـرُ بَـيْـنِ حـبـيـب مُـزَايـلِ

قلت: نعم، يعني الدموع. والبرقاء: العين؛ لأن فيها سوادًا وبياضًا. وحطّه: أساله، وحبيب: محبوب، ومزايل: مفارق.

فوثب الرشيد فجذبني إلى صدره، وقال: لله درّ أهل الأدب! ثم دعا بجارية، فقال لها: احملي إلى منزل الكسائي خَمْسَ بِدَر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خِدْمته.

ثم قال لي: استنشدهما - يعني ابنيه - فأنشده محمد الأمين:

وإنّي لعَفُّ الفقْرِ مُشْتَرِكُ الغنَى وَتَارِكُ شَكْلٍ لا يُوافِقُه شَكْلِي
وَشَكْلِي شكلٌ لا يقُوم بمثْله من الناس إلا كلُّ ذي نيقَة مِثْلِي[1]
ولي نيقةٌ في المجد والبذْل لم يكن تأنَّقَها فيما مضى أحدٌ قبْلِي
وأجعلُ مالي دُونَ عِرْضي جُنّةً لنفسي وأسْتَغني بما كان من فضلي

وأنشدني عبد الله المأمون:

بكَرَتْ تلومُك مَطلعَ الفجرِ ولقد تلُومُ بغيرِ ما تَدْرِي
ما إن ملكتُ مصيبةً نزلَتْ إذ لا يُحكِّم طائعًا أمْري[2]

(١) النيقة اسم من تنوق في الأمر: تجود وتأنق فيه.
(٢) حكم الأمر: أحكمه.

مَـلكُ الـمـلوكِ عـليّ مُـقْـتـدِرٌ ... يـعـطـي إذا مـا شـاء مـن يُـسْـرِ
فَـلربَّ مُـغـتـبـطٍ بـمَـرزِئَـةٍ ... ومُـفَـجَّـعٍ بـنـوائـبِ الـدهْـرِ
ومُـكـاشِـحٍ لـي قـد مَـددت لـه ... نَـحـرًا بـلا ضَـرَعٍ ولا غـمـرِ[١]
حـتـى يـقـول لـنـفـسـه لـهـفًـا ... فـي أيّ مـذْهـبِ غـايـةٍ أجـرِي
وتـرى قَـنَـاتـي حـيـن يـغْـمِـزُهـا ... غَـمْـزَ الـثِّـقَـاف بـطـيـئـةَ الـكـسـرِ

ثم أمرني أن أسألهمَا، ففعلت؛ فما سألتُهما عن شيء إلا أحسنَا الجوابَ فيه والخروج منه، فسُرَّ بذلك الرشيد، حتى تبيَّنته فيه، ثم قال: يا عليُّ؛ كيف ترى مذهبَهما وجوابهما؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ هما كما قال الشاعر:

أرى قمريْ مجدٍ وفرعيْ خلافةٍ ... يـزينـهـمـا عـرْقٌ كـريـم ومَـحْـتـدُ
يَـسُـدّان آفـاقَ الـسـمـاءِ بِـشـيـمـةٍ ... يـؤيِّـدُهـا حـزمٌ وعَـضْـبٌ مُـهـنَّـدُ
سَليلي أمير المؤمنين وحائزَيْ ... مواريث ما أبقى النبيُّ محمدُ

يا أمير المؤمنين، هما فرعٌ زَكا أصله، وطاب مَغْرِسه، وتمكنت في الثرى عرُوقه، وعذُبتْ مشاربه، أبوهما ملكٌ أغرّ، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، فهما يستضيئان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلَّبان في سعادته، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما! فما رأيت أحدًا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذْرَبَ[٢] منهما لسانًا، ولا أعذبَ كلامًا، ولا أحسنَ ألفاظًا، ولا أشدَّ اقتدارًا على تأدية ما حفظا ورويا؛ ودعوتُ لهما دعاء كثيرًا، وأمَّن الرشيد على دعائي، ثم ضمهما إليه، وجميع يدَيه عليهما فلم يبسطها حتى رأيتُ الدموع تنحدر على صدره؛ رقةً عليهما وإشفاقًا. ثم أمرهما بالخروج.

فلمّا خَرجا أقبل عليّ، فقال: كأنك بهما ـ وقد حُمَّ القضاءُ، ونزلت مقاديرُ السماء، وبلغ الكتابُ أجله، وانتهى الأمرُ إلى وقته المحدود، وحينه المسطور، الذي لا يدفعه دافع، ولا يمنع منه مانع ـ قد تشتَّت أمرهما، وافترقت كلمتهما، وظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفكَ الدماء، وتكثر القتلى، وتُهتك

(١) الضرع: من ضرع: إذا ذل وخضع. والغمر: من لم يجرب الأمور، وبالتحريك: الحقد.
(٢) الذرب: الحديد اللسان.

سُتور النساء، ويتمنّى كثيرٌ من الأحياء أنهم في عداد الموتى! قلت: أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رأيته، أو لرؤيا؛ أو لشيء تبيَّن لك في أصل مولدهما، أو لأثر وقع لأمير المؤمنين في أمرهما؟ فقال: لا؛ بل أثر صحيح؛ حملته العلماء، عن الأوصياء عن الأنبياء!

قَـرَّتَا عَيْـن(١)

قال محمد بن عبد الرحمٰن الهاشمي(٢): كانت أمُّ جعفر بن يحيىٰ تزورُ أمّي؛ وكانت لبيبةً من النساء، حازمة فصيحة بَرْزَة(٣) يُعجبني أن أجدَها عند أمّي فأستكثرَ من حديثها؛ فقلت لها يومًا: يا أمّ جعفر؛ إن بعضَ الناس يفضّل جعفرًا على الفضل، وبعضهم يفضّل الفضل على جعفر، فأخبريني. فقالت: ما زلنا نعرفُ الفضلَ للفضل. فقلت: إنّ أكثرَ الناس على خلاف هذا. فقالت: سأحدّثك واقضِ أنت ـ وكان ذلك الذي أردتُ منها.

قالت: كانا يومًا يلعبان في داري، فدخل أبوهما فدعا بالغِذاء وأحضرهما، فطعما معه، ثم آنسهُما بحديثه وقال لهما: أتلعبان بالشِّطْرَنج؟ فقال جعفر ـ وكان أجْرَأَهما: نعم! قال: فهل لاعبتَ أخاك بها! قال جعفر: لا. قال: فالعبا بها بين يديّ لأرى لمن الغَلَب، فقال جعفر: نعم! وكان الفضلُ أبصرَ منه بها، فجيء بالشِّطْرَنج، فصُفَّتْ بينهما، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل.

فقال له أبوه: ما لك لا تُلاعب أخاك؟ فقال: لا أحبُّ ذلك. فقال جعفر: إنه يرى أنه أعلم بها منّي فيأنف من مُلاعبتي؛ وأنا ألاعبه مُخَاطرة(٤).

فقال الفضل: لا أفعل. فقال أبوه: لاعبْه وأنا معك. فقال جعفر: رضيتُ، وأبى الفضل واستعفى أباه فأعفاه.

ثم قالت لي: قد حدّثتُك فاقضِ، فقلت: قد قضيتُ بالفضل لجعفر على أخيه. فقالت: لو علمتُ أنك لا تحسن القضاء لما حكّمتك، أفلا ترى أن جعفرًا

(١) أنباء نجباء الأبناء: ١٣٠.
(٢) هو محمد بن عبد الرحمٰن صاحب صلاة الكوفة.
(٣) البرزة من النساء: التي تظهر للناس ويجلس إليها القوم، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة.
(٤) المخاطرة: المراهنة.

قد سقط أربع سقطات تنزّه الفضلُ عنهنّ. فسقط حين اعترفَ على نفسه بأنه يلعب بالشِّطرنج، وكان أبوه صاحب جِدّ. وسقط في التزام مُلاعبة أخيه، وإظهار الشهوة لغلَبه، والتعرُّض لغضبه. وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرْص على مال أخيه. والرابعة قاصِمة الظَّهر حين قال أبوه لأخيه: لاعبه وأنا معك، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعَم؛ فناصب[1] صفًّا فيه أبوه وأخوه.

فقلت: أحسنت والله، وإنك لأقضَى من الشَّعْبيّ[2]! ثم قلت لها: عزمت عليك أخبريني؛ هل خفِيَ مثل هذا على جعفر وقد فَطن له أخوه؟ فقالت: لولا العَزْمةُ[3] لما أخبرتك، إن أباهما لما خرج قلتُ للفضل خاليةً به: ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك؟ فقال: أمران: أحدهما لوْ لاعبتُه لغلبتُه فأخجلتُه، والثاني قول أبي: لاعبه وأنا معك؛ فما يسرُّني أن يكون أبي معي على أخي. ثم خلوْت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشُّطرنج فيصمُتُ أخوك وتعترفُ، وأبوك صاحبُ جِدّ! فقال: إني سمعت أبي يقول: نعْم لَهْو البال المكدود[4]! وقد علم ما نلقاه منكدُ التعلّم والتأدُّب، ولم آمن أن يكون بلغه أنّا نلعبُ بها وأن يُبادر فينكر، فبادرتُ بالإقرار إشفاقًا على نفسي وعليه؛ وقلت: إن كان توبيخٌ فدَيتُه من المواجهة به.

فقلت له: يا بُنيَّ؛ فلمَ تقول ألاعبه مخاطرة؟ كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله! فقال: كلّا، ولكنه يستحسن الدواة التي وَهبها لي أميرُ المؤمنين فعرضتُها عليه؛ فأبى قبولها، وطمِعتُ أن يلاعبني فأخاطره عليها، وهو يغلبني فتطيبُ نفسه بأخذها.

فقلت لها: يا أمّاه؛ ما كانتْ هذه الدواة؛ فقالت: إن جعفرًا دخل على أمير المؤمنين فرأى بين يديه دواةً من العقيق الأحمر محلاةً بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظرُ إليها فوهبها له. فقلت: إيهِ.

فقالت: ثم قلت لجعفر: هبك اعتذرتَ بما سمعتُ؛ فما عذرُك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال: لاعبه وأنا معك؟ فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا.

---

(١) ناصب الصف: وقف إزاءه وعاداه. (٢) الشعبي: أحد رجال الحديث والقضاء.
(٣) عزم عليه: أقسم، وعزمت عليك: أي أمرتك أمرًا جدًّا، وهي العزمة.
(٤) كده: أجهده وأتعبه.

فقال: عرفتُ أنه غالبي، ولو فتر لعبُه لتغالبتُ معه، مع ما له منَ الشرف والسرور بتحيُّز أبيه إليه.

قال محمد بن عبد الرحمٰن: فقلت: بخ بخ[١]! هذه والله السيادة! ثم قلت لها: يا أمّاه، أكان منهما مَن بلغَ الحُلُم؟ فقالت: يا بني، أين يُذهبُ بك؟ أُخبرك عن صبيين يلعبان فتقول: أكان منهما مَن بلغ الحلم! لقد كنّا ننهي الصبيَّ إذا بلغ العشر وحضر مَن يُستحى منه أن يتَبَسم!

حيــلَة وَالٍ[٢]

بلغ الرشيد أن موسى بن عيسى[٣] ـ وكان أميرًا عَلَى مصر من قِبَله ـ عازم على خَلعه، فقال: والله لأعزلنَّه بأخَسِّ مَنْ على بابي! وقال ليحيـىٰ بن خالد[٤]: اطلب لي كاتبًا عفيفًا يصلح لعمل مصر، واكتم خبره، فلا يشعر به موسى حتى يَفْجَأَه، فقال: قد وجدته، قال: مَن هو؟ قال: عمر بن مهران[٥].

فكتب له بخطه كتابًا إلى موسى بتسليم العلم إليه، فسار وليس معه غيرُ غلام أسود على بغل استأجره؛ ومعه خُرْجٌ فيه قميص وطَيْلسان[٦] وخُفّ!

فلمّا وصل إلى مصر نزل خانًا، فأقام فيه ثلاثةَ أيام يبحث عن أخْبار البلد، وعمَّن فيه من العمال؛ وأخبر مَن كانوا بجواره في الخان أنه قد وُلّي مصر؛ واستعمل منهم كاتبًا وحاجبًا وصاحبَ شرطة، وقلّد آخر بيت المال؛ وأمر مَن تبعه ووَثق به أن يدخلَ معه على موسى، فإذا سمعوا حركة في دار الإمارة قبضوا على الديوان.

فلما أبرمَ أمره بكر إلى دار الإمارة؛ فأذن موسى للناس إذنًا عامًا، فدخل في جملتهم ومَن اتَّفق معهم، وموسى جالس في دَسْته[٧]، والقوّادُ بين يديه، وكلُّ منْ

---

(١) يقال: بخ بخ، إعجابًا بالشيء وإظهارًا للسرور به.
(٢) غرر الخصائص: ٤٤، النجوم الزاهرة: ٢ ـ ٧٨.
(٣) هو موسى بن عيسى الأمير العباسي، ولي إمرة مصر على الصلاة سنة ٢٧١ هـ، ثم عزله الرشيد وولاه ثانية سنة ١٧٤ هـ وعزل سنة ١٧٦ هـ، وكان عاقلًا جوّادًا ممدوحًا.
(٤) يحيىٰ بن خالد: وزير هارون الرشيد.
(٥) كان عمر قائدًا للجيش كاتبًا للخراج كما كان مديرًا لأملاك الدولة.
(٦) الطيلسان: نوع من الأكسية. (٧) الدست: صدر البيت.

قُضِيتْ حاجتُه ينصرف. وعمرُ جالس، والحاجبُ ساعة بعد ساعة يسأله عن حاجته، وهو يَتَغَافَلُ، حتى خفّ الناس، فتقدَّم، وأخرج كتابَ الرشيد ودفعه لموسى؛ فقبّلَه ووضعه على رأسه، ثم فَتحه وقَرأه فانْتُقِعَ[1] لَوْنُه؛ وقال: السمع والطاعة.

ثم قال: أقرىء أبا حفص السلام، وقل له: كُنْ بموضعك حتى نتّخذَ لك منزلًا، ونأمر الجند يستقبلونك! أنا عمر بن مهران، وقد أمرني أميرُ المؤمنين أن أُقيمك للناس وأُنصِف المظلوم منك، وأنا فاعل ما أمرني به أميرُ المؤمنين!

فقال له موسى: أنت عمر بن مهران! قال: نعم! قال: لعن الله فرعون حيث قال: أليس لي ملكُ مصر؟ واضطرب المجلس.

فقَبض على الديوان؛ ونزل موسى عن فرشه، وقال: لا إلـٰه إلا الله! هكذا تقوم الساعة! ما ظننتُ أن أحدًا بلغ من الحيلة والحزم ما بلغت؛ تسلمت مني العمل، وأنت في مجلسي!

ثم نهض عمر إلى الديوان، ونظر فيه، وأمر ونهى، وعزل وولّى.

أعطِني على قَدرِي[2]

دخل رجلٌ بدويٌّ عليه شَعَثُ السفر، على داود[3] المهلبي ـ وكان إذا حضرَ الطّعَامُ يتقدّمُ بِصَرْف البوّابين، ولا يمنعُ من الوصول إلى طعامه ـ فلما فرغ من الطعام وثب قائمًا وأومى إليه، وقال: مَن أنتَ يا فتى؟ قال: شاعر قَصَدْتُكَ بأبياتٍ من الشعر. قال داود: مهلًا قليلًا، ثم دعا بقوس فأَوْتَرها[4]، وأومى إليه، وقال له: قل، فإن أنت أحسنتَ خلعتُ وأَجزَلْتُ وإن أخطأتَ رميتُك بهذا السهم يقع في أي موضعٍ يقع فيه؛ فتبسّم البدوي، وقال:

أمِـنـتُ بـداودٍ وجُـودِ يـمـيـنـه ... من الحَدثِ المرهوب والبؤسِ والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بداود نَبْوَةً ... ولا حَدَثَـانًا إن شَدَدْتُ بـه أَزْرِي

(١) انتقع لونه: تغير.
(٢) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.
(٣) هو داود بن يريد بن حاتم المهلبي أمير من الشجعان العقلاء، كان واليًا على إفريقية، وبقي في إمارتها تسعة أشهر، ثم ولّاه الرشيد السند، فاتسقت له أمورها، واستمر بها إلى أن توفي سنة ٢٠٥ هـ.
(٤) أوتر قوسه: جعل لها وترًا.

لـه حـكـمُ لُقْمَانٍ وصورةُ يوسف ومُـلكُ سليمـانٍ وصـدقُ أبـي ذَرّ
فتى تهرُب الأموال من جُودِ كَفّه كمـا يهرُب الشيطانُ من لَيْلَةِ القَدْرِ
فَقَوْسُك قوسُ الجود، والوترُ الندى وسَهْمُك فيه الموت، فاقتل به فَقْري

فضحِك داود ورمَى بسهمه مع القوس من يده، وقال: يا فتى العرب؛ بالله هل كان ذكرُ القوس في الأبيات؟ فقال: لا والله! ففرح بذلك، وقال: يا فتى العرب؛ بالله أيما أحبّ إليك: أُعطيك على قَدْرِك أم على قَدْرِي؟ قال: بل على قَدْري! قال: كم على قَدْرك؟ قال: مائة ألف درهم، فأمر له بها.

ثم قال: ما منعك أن تقولَ على قدري؟ فقال: أيها الأمير؛ أردتُ أن أقول ذلك، فإذا الأرض لم تُسَاوِ قَدْرَ الأمير، فطلبتُ على قدري! فقال: لله درُّك! والله إنَّ نَثْرَك لأحسنُ من نظْمِك! وأمر له بمائة ألفٍ ثانية، وأمره ألا يَنْقَطِعَ عنه.

طَاهِر بن الحسَين وَالمَأمُون[١]

لما انقبضَ طاهرٌ[٢] بن الحسين بخراسان عن المأمون، وأخذ حِذره أدَّبَ له المأمون وَصِيفًا[٣] بأحسنِ الآداب، وعلّمه فنونَ العلم، ثم أهداه إليه مع ألطاف كثير من طرائف العراق، وقد واطأه على أن يَسُمَّه، وأعطاه سُمّ ساعة، ووعده على ذلك بأموالٍ كثيرة.

فلما انتهى إلى خراسان، وأوصل الهديَّةَ قَبل طاهر الهديّة، وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجْرَى عليه ما يحتاجُ إليه من التَّوْسعة؛ وتركه أشهرًا.

فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه:

يا سيدي؛ إن كنتَ تقبلني فاقْبلني، وإلا فردَّني إلى أمير المؤمنين!

فأرسل إليه، وأمر بإدخاله؛ فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لِبْدٍ أبيض وقَرَعَ[٤] رأسه، وبين يديه

(١) العقد الفريد: ١ ـ ٢٥٩.
(٢) كان طاهر بن الحسين أكبر من اشتهر في عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة وبعد الصيت، وهو الذي قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ولاه المأمون خراسان، وكان مستقلًا بها، يؤدي الخراج عن عمله بها، وتغير عليه المأمون حينما بلغه أنه امتنع عن الدعاء له على المنبر، وتوفي بمرور سنة ٢٠٧ هـ.
(٣) الوصيف: الخادم والخادمة.
(٤) قرع رأسًا: ضربه بالعصا.

مصحفٌ منشور، وسيفٌ مسلول. فقال: لقد قبلنا ما بعثَ به أميرُ المؤمنين غيرَك؛ فإنا لا نقبلك، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، وليس عندي جوابٌ أكتُبه إلا ما ترى من حالي، فأبلغ أميرَ المؤمنين السلام؛ وأعلمه بالحال التي رأيتَني فيها.

فلمّا قدم الوصيف على المأمون، وكلّمه ما كان من أمره، ووصف له الحال التي رآه فيها شاور وزراءه في ذلك؛ وسألهم عن معناه فلم يعلَمْه واحدٌ منهم، فقال المأمون: لكني قد فهمت معناه: أمّا تقريعه رأسه جلوسه على اللِّبْدِ الأبيض فهو يخبرنا أنه عبد ذليل. وأما المصحفُ المنشور فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا، وأما السيفُ المسلول فإنه يقول: إن نكثتَ تلك العهود فهذا يحكم بيني وبينك. أغلقوا عنّا بابَ ذكره، ولا تهيجوه في شيءٍ؛ فلم يهجه المأمون حتى مات!

مَلك لَا تَعْتَصِم الطيُور مِنه[1]

قصد المنصورَ بن عامر رجل جوهريّ من تجّار المشرق من مدينة عَدَن، بجوهر كثير وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه؛ ودفع إلى التاجر الجوهري صُرَّته ـ وكانت قطعة يمانيَة ـ فأخذ التاجرُ في انصرافه طريقَ الرَّملَة على شطِّ النهر، فلمّا توسَّطها واليومُ قائظ؛ وعرقُه منصبٌ، دعته نفسه إلى التَّبَرُّدِ في النهر، فوضع ثيابَه وتلك الصُّرَّةَ على الشطّ، فمرت حِدَأَة فاختطفت الصُّرّة، تحسبها لحمًا، وطارت في الأفق ذاهبةً بها.

فقامت قيامةُ التاجر؛ وعلم أنه لا يقدرُ أن يستدفعَ ذلك بحيلة، فأسرَّ الحزنَ في نفسه، ولحقه لأجل ذلك عِلةٌ اضطرب فيها، واستبان للمنصور ما بالرّجل مِن المهانة والكآبةِ، وفَقْد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة، فسأله المنصورُ عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هَلّا أتيتَ إلينا حين وقوع الأمر فكنا نستظهرُ على ذلك بالحيلة! فهل هُديت إلى الناحية التي أخَذَ الطائرُ إليها! قال: مَرَّ شرقًا على سَمْت[2] هذا الجبل الذي يلي قصرَك ـ يعني الرّملة.

فدعا المنصورُ شرطيَّه الخاصّ به، فقال: جئني بمشيَخة أهل الرملة الساعة؛ فمضى وجاء بهم سريعًا. فأمرهم بالبحث عمن غيّر حالَ الإقْلال[3] منهم سريعًا،

---

(١) نفح الطيب: ١ ـ ١٩٢.
(٢) السمت: الطريق.
(٣) الإقلال: الفقر.

وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا؛ ما نعلم إلا رجلًا من ضعفائنا كان يعملُ هو وأولادُه بأيديهم، ويتناولون السّبق بأقدامهم؛ عَجْزًا عن شراء دابّة، فابتاع اليوم دابّةً واكتسى هو وولدُه كُسوةً متوسّطة.

فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجرَ بالعدوّ إلى الباب فحضر الرجلُ بين يدي المنصور فاستَدْناه، والتاجرُ حاضر. وقال له: سببٌ ضاع منا وسقَطَ إليك، ما فعلتَ به؟ قال: ها هو ذا يا مولاي ـ وضرب بيده إلى حُجْزَة[1] سراويله، فأخرج الصُّرة بعينها ـ فصاح التاجر طربًا، وكاد يطير فرحًا.

فقال له المنصور: صِفْ لي حديثها. فقال: بينا أنا أعمل تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتُها، وراقني منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرك لقُرْبِ الجوار، فاجتزتُ بها، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل كانت معها مصرورة، وقلت: أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجِب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خُذْ صُرَّتك، وانظرها، واصدقني عن عددها. ففعل، وقال: وحَقِّك يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتُها له.

فقال له المنصور: نحنُ أولى بذلك منك ولا نُنَغِّص عليك فرحَك، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا عن دنانيره، وللرّجل بعشرة دنانير ثوابًا له، وقال: لو بَدَأَنا بالاعتراف قبل البحث لأوْسعْناهُ جزاءً!

فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطُه. وقال: لأبثّنّ في الأقطار عِظَمَ ملكك، ولأبيّننّ أنك تملك الطير، فلا تعتصم منك، ولا تؤذي جارك!

فضحك المنصور، وقال: اقصِد في قولك يغفر الله لك! فعجب الناس من تلطُّف المنصور في أمره وحيلته في تفريج كُرْبته!

صبيٌّ يَهجو صَبيًّا[2]

كان أبو بكر بن المنخّل وأبو بكر الملّاح متآخِيَيْن متصافِيَيْن، وكان لهما ابنان صَغيران قد بَرعَا في الطلب، وحازا قَصَب السَّبق في حَلْبَة الأدب؛ فتهاجَى الابنان

(١) الحجزة من السراويل: موضع التكة. (٢) نفح الطيب: ٢ ـ ٣٠١.

بأقذعِ الهجاء، فركب ابن المنخّل في سَحَر من الأسحار مع ابنه عبد الله، فجعل يعتبُ عليه على هجاء الملّاح، ويقول له: قد قطعتَ ما بيني وبين صديقي وصفيِّي أبي بكر في إقْذاعك بابنه!

فقال له ابنه: إنه بدأني والبادِي أظلم، وإنما يجب أن يُلْحَى[1] مَنْ بالشرّ تَقَدَّم؛ فعذَره أبوه.

فبينما هما كذلك إذ أقبلا على واد تَنِقُّ فيه الضفادع، فقال أبو بكر لابنِه أجِزْ:

تــنــق ضــفــادعُ الــوادِي

فقال ابنه:

بــصــوت غــيــرِ مــعــتــاد

فقال الشيخ:

كــأنَّ نَــقِــيــقَ مِــقــوَلِهــا

فقال ابنه:

بــنــو الــمَــلّاحِ فــي الــوادي

فلما أحسّتِ الضّفادع بهما صمتَتْ، فقال أبو بكر:

وَتَــصْــمُــتُ مــثــلَ صَــمْــتــهِــمْ

فقال ابنه:

إذا اجــتــمــعُــوا عــلى زاد

فقال الشيخُ:

فــلا غــوث لِمَــلْهُــوفِ

فقال الابنُ:

ولا غــيــثٌ لــمــرتــاد!

(١) يلحى: يلام ويعنف.

رَسُولَان[1]

أقبل المستكفي يومًا على محمد بن محمد بن يحيىٰ الكاتب، فقال له: أتعرِفُ خبر الحجّاج بن يوسف مع أهل الشام؟ قال: لا يا أمير المؤمنين! قال: ذَكَرُوا أنّ الحجّاجَ كان قد اجْتَبى[2] قومًا من أهلِ العراق وَجَدَ عندهم من الكِفَاية ما لم يَجِدْ عند مخْتَصِيِّه من الشاميّين؛ فشقَ ذلك على الشاميّين، وتكلّموا فيه.

فبلغ إليه كلامُهم؛ فركب في جماعة من الفريقين، وأوغَل بهم في الصحراء، فلاح لهم من يُعد قِطارُ[3] إبل، فدعا برجلٍ من أهل الشام، فقال له: امضِ فاعرف ما هذه الأشباح؟ واستَقْصِ خَبَرها. فلم يلبَثْ أن جاء وأخبره أنها إبل، فقال: أمحمّلةٌ هي أم غيرُ محمّلة؟ قال: لا أدري؛ ولكنِّي أعود وأتعرَّفُ ذلك!

وقد كان الحجّاج أَتْبعه برجلٍ آخر من أهل العراق، وأمره بمثل ما كان قد أمر به الشاميّ، فلمّا رجع العِرَاقيّ، أقبل عليه الحجّاجُ ـ وأهل الشام يسمعون ـ فقال: ما هي؟ قال: إبل، قال: وكم عددُها؟ قال: ثلاثون. قال: وما تحمل؟ قال: زَيْتًا. قال: من أين صَدَرتْ؟ قال: مِنْ موضع كذا. قال: ومَن رَبُّها! قال: فلان.

فالتفتَ إلى أهل الشام فقال:

أُلَامُ على عَمْرو ولو مات أوْ نأَى لَقَلَّ الذي يُغْنِي غَناءك يا عَمْرو

فقال ابنُ يحيىٰ: قد قال يا أميرَ المؤمنين بعضُ أهل الأدب في هذا المعنى:

شرُّ الرسولين من يحتاجُ مُرْسِلُه منه إلى العَوْدِ، والأمْران سِيَّانِ

كذاك ما قال أهل العلم في مَثَلٍ: طريقُ كلِّ أخي جَهْلٍ طريقان

ثم قال المستكفي: ما أحسن ما وصف البحتريّ الرسولَ بالذكاء بقوله:

وكأنَّ الذَّكاء يَبْعَثُ منه في سَوَادِ الأمور شُعْلَةَ نار

(١) المسعودي: ٢ ـ ٥٤١.
(٢) اجتباه: اختاره.
(٣) القطار: أن تشد الإبل على حق، واحدًا حلف واحد.

أعجَب السَّرِقات[١]

قال أبو الهَيْثَم: اجتمع مالكُ بن[٢] الرَّيب وأَبُو حَرْدَبَة وشِظَاظ يومًا، فقالوا: تَعَالَوْا نتحدث بأعجب ما عمِلْنَاه في سرقتنا، فقال أبو حَرْدَبَة:

أعجبُ ما صنعتُ وأعجب ما سرقتُ أني صحِبْتُ رفقةً، فيها رجلٌ على رَحْلٍ فأعجبني، فقلت لصاحبي: والله لأسرقنَّ رَحْلَهُ، ثم لا رضيتُ أو آخذ عليه جِعَالَةً[٣].

فرمقْتُه حتى رأيته قد خَفَقَ برأسه، فأخذت بخطَام[٤] جمله فقُدْتُه، وعدلت به عن الطريق، حتى إذا صيَّرْته في مكان لا يغاث فيه إن استغاث أَنَخْتُ البعير وصرعتُه، فأوثقتُ يديه ورجليه وقدتُ الجمل فغيَّبته، ثم رجعتُ إلى الرُّفقة، وقد فقدوا صاحبهم فهم يسترجعون[٥]، فقلت: ما لكم؟ فقالوا: صاحبٌ لنا فقدناه؛ فقلت: أنا أعلمُ الناس بأثره؛ فجعلوا لي جعالة، فخرجت بهمْ أتبع الأثر حتى وقفوا عليه فقالوا: ما لك؟ قال: لا أدري، نَعَسْتُ، فانتبهتُ لخمسين فارسًا قد أخذوني؛ فقاتلتُهم فغلبوني!

قال أبو حَرْدَبة: فجعلت أضحك من كذبه، وأعطوني جِعَالتي، وذهبوا بصاحبهم.

وأعجب ما سرقت: أنه مرّ بي رجلٌ معه ناقة وجمل وهو على الناقة، فقلت: لآخذنّهما جميعًا، فجعلت أُعارضه وقد رأيته قد خفَق برأسه، فدُرْت فأخذتُ الجمل فحللتُه وسقته، فغيبته في القَصيم[٦]، ثم انتبه فالتفتَ فلم ير

---

(١) الأغاني: ١٩ ـ ١٦٣ (طبعة الساسي).

(٢) هو مالك بن الريب كان من أجمل العرب وأبينهم، ومر به سعيد بن عثمان بن عفان ـ لما ولاه معاوية خراسان، ومالك في نفر من أصحابه ـ فقال له: ويحك يا مالك! ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق؟ قال: أصلح الله الأمير؛ العجز عن مكافأة الإخوان، قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل؟ قال: نعم أكف كأحسن ما كفّ أحد. فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار، وكان معه حتى قتل بخراسان، ثم مكث مالك بخراسان حتى مات هناك.

(٣) الجعالة: ما يفرض على العمل. (٤) الخطام: الزمام.

(٥) استرجع عند المصيبة: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) القصيم: الموضع الذي كانوا يسرقون فيه.

جمله، فنزل وعقل راحلته، ومضى في طلب الجمل، ودُرْتُ؛ فحللت عقال ناقته، وسُقتها!

فقالوا لأبي حردبة: ويحك! فحتّام تكون هكذا؟ قال: اسكتوا فكأنكم بي قد تُبْتُ، واشتريت فرسًا وخرجتُ، فبينما أنا واقفٌ إذ جاءني سهمٌ كأنه قطعة رِشاء[١] فوقع في نحري فمتُّ شهيدًا.

قال الراوي: فكان كذلك؛ تاب وقدم البصرة، فاشترى فرسًا، وغزا الرومَ فأصابه سهمٌ في نحره؛ فاستشهد!

ثم قالوا لشِظَاظ: أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت في لصوصيتك ورأيت فيها؟ فقال: نعم، كان فلان (رجلٌ من أهل البصرة) له بنت عم ذاتُ مال كثير، وهو وليُّها، وكانت له نسوة، فأبت أن تتزوجَه، فحلف ألا يزوّجها من أحدٍ ضِرَارًا لها، وكان يخطبها رجلٌ غني من أهل البصرة، فأبى أن يزوجَها منه، ثم إن وليّ الأمر حجَّ، حتى إذا كان بالدوّ[٢] مات فدفن برابية وشيد على قبره، فتزوجت الرجل الذي كان يخطبها.

قال شظاظ: وخرجت رفقةٌ من البصرة معهم بُرٌّ ومتاع، فتبصرتهم وما معهم واتبعتهم حتى نزلوا، فلما ناموا بيَّتُّهم[٣] وأخذتُ من متاعهم. ثم إن القوم أخذوني وضربوني ضربًا شديدًا وجرَّدوني، وذلك في ليلة قَرَّة[٤]، وسلبوني كل قليل وكثير؛ فتركوني عُريانًا وتماوتُّ لهم، وارتحل القوم، فقلت: كيف أصنع؟ ثم ذكرت قَبْر الرجل، فأتيتُه فنزعت لوحًا ثم احتفرتُ فيه سَرَبًا[٥]؛ فدخلت فيه؛ ثم سَدَدْتُ عليّ باللوح، وقلت: لعلّي الآن أدفأ فأتبعهم.

ومر الرجلُ الذي تزوج بالمرإة في الرُّفْقة. فمر بالقبر الذي أنا فيه فوقف عليه وقال لرفيقه: والله لأنزلنَّ إلى قبر فلان، حتى أنظر هل يحمي الآن فلانة!

قال شظاظ: فعرفتُ صوته فقلعت اللوح، ثم خرجتُ عليه بالسيف من القبر، وقلتُ: بلى ورب الكعبة لأحمينَّها، فوقع والله مغشيًّا عليه لا يتحرك ولا يعْقِل، فجلستُ على راحلته، وعليها كل أداة وثياب ونَقْدٍ كان معه، ثم وجهتها

---

(١) الرشاء: رسن الدلو. (٢) الدو: مكان على مرحلة من البصرة.

(٣) بيت فلان بني فلان: إذا أتاهم ليلًا، فكبسهم وهم فارون.

(٤) ليلة قرة: باردة. (٥) السرب: بيت في الأرض.

قصد مطلع الشمس هاربًا من الناس فنجوتُ بها؛ فكنتُ بعد ذلك أسمعُه يحدّث الناس بالبصرة ويحلفُ لهم أن الميتَ الذي كان منعه من تزويج المرأة خرج عليه من قبره، والناسُ يعجبون منه؛ فعاقِلُهم يكذِّبه، والأحمق منهم يصدقه، وأنا أعرف القصةَ فأضحك منهم كالمتعجب!

قالوا: فزدنا. قال: فأن أزيدكم أعجب من هذا وأحمق من هذا: إني لأمشي في الطريق أبتغي شيئًا أسرقُه فلا والله ما وجدتُ شيئًا، وإذا أنا بشجرة ينام من تحتها الركبان في مكان ليس فيه ظلٌّ غيرها، وإذا أنا برجلٍ يسير على حمار له.

فقلت له: أتسمع! قال: نعم. قلت: إن المَقِيلَ الذي تريدُ أن تَقيله يُخْسَفُ بالدواب فيه، فاحذره. فلم يلتفت إلى قولي، ورمقتُه حتى إذا نام أقبلتُ على حماره فاستَقْتُه، حتى إذا برَّزْتُ به قطعت طَرَف ذنبه وأذنيه، وأخذت الحمار فخبأْته وأبصرته حين استيقظ من نومه، فقام يطلب الحمار ويَقْفُو أثره؛ فبينما هو كذلك إذ نظر إلى طَرَف ذنبه وأذنيه، فقال: لَعمري لقد حُذِّرْتُ لو نفعني الحذر؛ واستمر هاربًا خوف أن يخسف به. فأخذت جميع ما بقي من رحله فحملته على الحمار!

حَدِيث عَن الغَرِيّين[1]

قال المهدي ذات ليلة ـ وكان أميرًا على الرَّي من قِبَل أبيه المنصور: يا شرقيّ[2]، أَرِحْ قلبي بشيء يُلهيه! قال: نعم أصلح الله الأمير: ذكروا أنه كان في ملوك[3] الحيرة ملك له نديمان: قد نزلا من قلبه منزلة مكينةً، وكانا لا يفارقانه في لَهْوه ومنامه ويقظته، وكان لا يقطعُ أمرًا دونهما، ولا يصدرُ إلَّا عن رأيهما، فغبر بذلك دهرًا طويلًا.

فبينما هو ذات ليلة في شُرْبه ولَهْوِه إذْ غلب عليه الشراب؛ فأزال عَقْلَه، فدعا بسيْفِه وانْتَضَاه، وشدّ عليهما فقتلهما، وغلبَتْه عيناه فنام.

---

(١) مروج الذهب: ٢ ـ ٢٥٢، معجم البلدان: ٦ ـ ٢٨٣.

(٢) هو الشرقي بن القطامي: شاعر كلبي، كان وافر الأدب، عالمًا بالنسب، وكان المنصور قد ضمه إلى المهدي حين خلفه بالري، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب، ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار، وقراءة الأشعار.

(٣) ذكروا أنه النعمان بن المنذر.

فلما أصبح سأل عنهما فأُخبر بما كان منه؛ فأكبَّ على الأرضِ؛ عاضًا لها؛ تأسُّفًا عليهما، وجزَعًا لفراقهما، وامتنع من الطعام والشراب، ثم حلف لا يشرب شرابًا يُزْعج قلبه ما عاش! وواراهما وبنى على قبريهما بناءين، وسماهما الغَرِيَّين[1]، وسنّ ألا يمرَّ بهما أحدٌ من الملِك فَمنْ دونه إلا سَجد لهما، وكان إذا سنَّ الملِكُ سنة توارثوها، وأحيَوْا ذكرها ولم يُميتوها، وجعلوها عليهم حكمًا واجبًا وفرضًا لازمًا، وأوصَى بها الآباءُ أعقابَهم.

فغَبر الناس بذلك دهرًا طويلًا، لا يمرُّ أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما؛ فصار ذلك سنّة لازمة كالشريعة والفريضة، وحُكِمَ فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يُحْكم له بخصلتين يُجاب إليهما كائنًا ما كان!

فمر يومًا قصّار[2] معه كَارة[3] ثياب، وفيها مِدَقتُه[4]، فقال الموكلون بالغَرِيين للقصَّار: اسجد! فأبى أن يفعل. فقالوا له: إنك مقتول إن لم تفعل؛ فأبى.

فرفعوه إلى الملك، وأخبروه بقصته، فقال: ما منعك أن تسجد؟ قال: سجدت ولكن كذبوا عليّ! قال: الباطلَ قلتَ: فاحتَكِم في خصلتين؛ فأنت مجابٌ إليهما، وإني قاتلك! قال: لا بدَّ من قتلي بقول هؤلاء؟ قال: لا بد من ذلك، قال: فإني أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقتي هذه! قال له الملك: يا جاهل؛ لو حكمت على أن أُجرِي على مَن تُخلِّف وراءك ما يعينهم كان أصلح لهم!

قال: ما أحْكم إلا بضَرْبةٍ لرقبة الملك! فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيما حكم به هذا الجاهل؟ قالوا: نرى أن هذه سنة، وأنت أعلم بما في نَقْض السنن من العار والنار وعظم الإثم، وأيضًا إنك متى نقضت سنة نقضت أخرى، ثم يكون ذلك لِمن بعدك كما كان لك، فتبطل السنن!

قال: فارغبوا إلى القَصَّار أن يحكم بما شاء ويعفيني من هذه؛ فإني أجيبه إلى ما شاء، ولو بلغ حكمه شَطْرَ ملكي! فرغبوا إليه، فقال: ما أحكم إلا بضربة في عنق الملك!

---

(١) الغريان: بناءان بالكوفة؛ قيل: سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بدم مَن يقتله.
(٢) قصر الثوب: صوره ودقه، وسمى القصار لأنه يدق الثياب بالقصرة، وهي قطعة من الخشب.
(٣) الكارة: ما يحمل على الظهر من الثياب. (٤) المدق: ما يدق به.

فلما رأى الملكُ ذلك وما عزم عليه القَصَّار، قعد مقعدًا عامًا، وأحضر القصَّار، فأبدى مِدَقَّته، وضرب بها عنق الملك؛ فأوهنه وخرَّ مغشيًا عليه!

فأقام يشكو ما به سنة، فلما أفاق وتكلَّم، وأكل وشرب سألَ عن القصار، فقيل: إنه محبوس؛ فأمر بإحضاره فحضر؛ فقال: لقد بقيتْ لك خصلة فاحْكم بها، فإني قاتلك لا محالة؛ إقامةً للسنة! قال القصّار: فإذا كان لا بد من قتلي فإني أحكم أن أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى!

فلما سمع الملكُ ذلك خَرَّ على وجهه من الجزع، وقال: ذهبتْ[1] والله نفسي إذَن. ثم للقصار: ويلك دَعْ عنك ما لا ينفعك، فإنه لم ينفعك منه ما مضى، واحكُم بغيره وأنَفِّذه لك كائنًا ما كان! قال: ما أرى حقي إلا ضربة أخرى!

فقال الملك لوزرائه: ما ترون؟ قالوا: هذا حقه! قال: ويلكم! إن ضُرِب الجانب الآخر ما شربت الماءَ البارد أبدًا!؛ لأني أعلم ما قد نالني.

قالوا: فما عندنا حيلة!

فلما رأى ما قد أشرف عليه قال لِلْقصار: أخبرني. ألم أكن قد سمعتك تقول يوم أَتَى بك الموكَّلون بالغرِيينِ: إنك قد سجدت، وإنهم كذبوا عليك؟ قال: قد كنتُ قلتُ ذلك فلم أصدَّق! قال: فكنت سجدت؟ قال: نعم! فوثب من مجلسه، وقبل رأسه، وقال: أشهد أنك صادق، وأنهم كذبوا عليك، وقد وليتك موضعهم، وجعلت إليك أمرهم.

فضحك المهدي حتى فحص برجليه، وقال: أحسنت! ووصله.

مسلم يَحتَال عَلى قُريش[2]

أسلم الحجاج[3] بن عِلاطِ السَّلَمِي، ولم تعلم قريش بإسلامه؛ فاستأذن رسولَ الله ﷺ يوم خَيْبر في أن يصيرَ إلى مكة، فيأخذَ ما كان له من مال ـ وكانت له أموالٌ متفرقة هناك، وهو رجل غريب بينهم ـ فأذِن له النبيّ، فقال: يا رسول الله؛ إني أحتاجُ أن أقول[4]. قال: فقل؛ فصار إلى مكة.

---

(١) ذهبت نفسي، أي هلكت.

(٢) الكامل للمبرد: ١ ـ ٢٠٧.

(٣) وفد على النبيّ ﷺ وهو بخيبر، فأسلم.

(٤) يريد: أقول على جهة الاحتيال.

فقالت قريش: هذا لعمرُ الله عنده الخبر. قال: فقولوا. فقالوا: بلغنا أن القاطع[١] قد خرج إلى أهل خَيْبر. فقال الحجاج: نعم! فقتلوا أصحابه قتلًا لم يُسْمع بمثله، وأخذوه أسيرًا، وقالوا: نرى أن نُكارِم[٢] به قريشًا؛ فندفعه إليهم؛ فلا تزالُ لنا هذه اليدُ في رقابهم، وإنما بادرتُ لجمع مالي؛ لعلي أصيبُ به من فَلّ[٣] محمد وأصحابه قبل أن يسبقني إليه التجار، ويتصل بينهم الحديث.

فاجتهدوا في أن جمعوا إليه ماله أسرعَ جمع، وسُرُّوا أكثر السرور، وقالوا بلا رُغْم[٤]!

وأتاه العباس بن عبد المطلب وهو كالمرأة الوَالِه[٥]، فقال: وَيْحك يا حجاج! ما تقول؟ فقال: أكاتمٌ عليّ خبري؟ فقال: إي والله. فقال: فالبَثْ[٦] عليّ شيئًا حتى يخفّ موضعي.

ثم سار إليه، فقال له: الخبرُ والله على خلاف ما قلتُ لهم؛ خلّفْتُ رسول الله ﷺ، وقد فتح خَيْبَر، وخلّفْتُه مُعْرِسًا بابنة ملكِهم[٧]، وما جئتك إلا مسلمًا؛ فاطْوِ الخبر ثلاثًا، حتى أُعْجِزَ[٨] القومَ، ثم أَشِعْهُ، فإنه والله الحق.

فقال العباس: ويحك! أحقٌّ ما تقول؟ قال: إي والله. فلما كان بعد ثلاثة تخلّق[٩] العباسُ وأخذ عصاه، وخرج يطوف بالبيت؟ فقالت قريش: يا أبا الفضل، هذا والله التجلدُ، فقال: كلا ومن حلفتم به، لقد فتح رسول الله خَيْبر، وأَعْرَسَ بابنة ملكهم! فقالوا: مَنْ أتاك بها الحديث؟ فقال: الذي أتاكم بخلافه، ولقد جاءنا مسلمًا.

ثم أتت الأخبار من النواحي بذلك! فقالوا: أفلتنا الخبيث، أولى له[١٠]!

---

(١) يريدون رسول الله ﷺ البار الواصل رحمه، وكانوا يرمونه - سفهًا - بالقاطع، أي القاطع رحمه.

(٢) كارمه: غلبه في الكرم.

(٣) يريد من غنائم ذلك الفل.

(٤) وقالوا بلا رغم: يريد وفعلوا ذلك بلا كره، العرب تجعل القول عبارة عن الفعل، وتطلقه على غير الكلام.

(٥) الوله: ذهاب العقل والتحيّر من شدة الوجد، ويقال امرأة واله ورجل واله.

(٦) امكث، وهو يريد اصبر.

(٧) يريد صفية بنت حي بن أخطب.

(٨) أعجز القوم: صيرهم عاجزين.

(٩) الخلوق: الطيب، وتخلق: طلى ثوبه به.

(١٠) أولى له: كلمة تهديد وتوعد.

دَهَاء عَمْرو بن العَاص(١)

لما نزل عليٌّ بنُ أبي طالب الكوفةَ بعدَ فراغهِ من أَمْرِ البصرة كتب إلى معاويةَ كتابًا يدعوه إلى البيعة، وأرسلَ جريرَ بن عبد الله البَجلي، فقدم عليه به الشام، فقرأه فاغتـمّ بما فيه وذهبت أفكارُه كلَّ مذهب؛ وطاول جريرًا بالجواب عن الكتاب، حتى كلَّمَ قومًا من أهلِ الشام في الطلب بدم عثمان بن عفّان فأجابوه ووثّقُوا له.

وأحبّ الزيادة في الاستظهار، فاسْتَعَان بأخيه عُتْبَة بن أبي سُفْيان؛ فقال: استعن بعمرو بن العاص؛ فإنه مَن قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمانَ بن عفان في حياته، وهو لأمرك أشدُّ اعتزالًا، إلّا أن يُثَمَّنَ له دِينُه، فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية: أما بعد، فإنه كان من أمر عليٍّ وطلحة والزبير ما قد بلغَك، وقد سقط إلينا مَرْوَان بن الحكم في نفر من أهل البَصْرَة، وقِدمَ علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبستُ نفسي عليك، فأقبِلْ أذاكِرْك أمورًا لا تَعْدَمُ مَغَبَّتَها إن شاء الله.

فلما قدِم الكتاب على عمرو استشار ابنيه: عبد الله بن عمرو، ومحمد بن عمرو؛ فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبد الله: أرى أن رسولَ الله ﷺ قُبِضَ وهو عنك راضٍ، والخليفتان بعده، وقُتِل عثمان وأنت غائب عنه؛ فَقَرّ في منزلك فلستَ مجعولًا خليفة، ولا تزيدُ على أن تكون حاشيةً لمعاوية، على دنيا أوشكتما أن تهلكا وتفارقاها.

وقال محمدٌ: أَرَى أَنَّكَ شَيْخُ قريش وصاحبُ أمرِها، وإن تصرَّم هذا الأمرُ ـ وأنت فيه غافل ـ تَصَاغر أمرُك؛ فالحقّ بجماعة أهل الشام، وكُنْ يَدًا من أيديها، طالبًا بدمِ عثمان، فإنه سيقومُ بذلك بنو أمية.

فقال عمرو: أنت يا عبد الله قد أمَرْتني بما هو خير لي في دِيني، وأمّا أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا أنظر.

---

(١) ابن أبي الحديد: ١ ـ ١٣٥، رغبة الآمل من كتاب الكامل: ٣ ـ ٢٠٨.

ثم دعا عمرٌو غلامه وَرْدان ـ وكان داهيةً ماردًا ـ فقال: ارْحَلْ يا وَرْدان، ثم قال: احطط يا وَرْدان! ثم قال: ارحل يا وَرْدان، احطط يا وَرْدان. فقال له وَرْدان: خلطتَ أبا عبد الله، أما إنك إن شئت أنبأتُك بما في قلبك، قال: هاتِ، ويحك! قال: اعتركتِ الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: عليٌّ معه الآخرة في غيرِ دنيا، وفي الآخرة عوضٌ عن الدنيا ومعاويةُ معه الدنيا بغير آخرة، وليس في الدنيا عرضٌ من الآخرة، وأنت واقف بينهما.

قال: قاتلك الله! ما أخطأتَ ما في قلبي، فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيمَ في بيتك؛ فإن ظهر أهلُ الدين عشتَ في عَفْو دينهم، وإن ظهرَ أهلُ الدنيا لم يَسْتَغْنُوا عنك، قال: الآن لما شهرت العرب سَيْرِي إلى معاوية!

ثم ارتحل حتى قدم على معاوية، وعرف حاجته إليه، فباعده من نفسه، وكايد كل واحد منهما صاحبَه.

فقال له معاوية يوم دخل عليه: أبا عبد الله؛ طرقَتْنا في ليلتنا ثلاثةُ أخبار ليس فيها وِرْد ولا صدَر. قال: وما ذاك؟ قال: منها أن محمد بن أبي حذَيفة كسر سِجْنَ مصر، فخرج هو وأصحابه، وهو منْ آفات هذا الدين؛ ومنها أن قيصر زحف بجماعة الروح ليغلبَ على الشام؛ ومنها أن عليًا نزل الكوفة؛ وتهيَّأ للمسير إلينا.

فقال عمرو: ليس كلُّ ما ذكرت عظيمًا؛ أما ابنُ أبي حُذَيفة فما يتعاظَمُك(١) من رجل خرج في أشباهه أنْ تبعثَ إليه رجلًا يقْتله، أو يأتيك به، وإن قاتلَ لم يضرك؛ وأما قيصر فأهْدِ له الوصائف وآنيةَ الذهب والفضة، وسَلْهُ الموادعةَ فإنه إليها سريع؛ وأما عليّ، فلا والله يا معاوية، ما يسوِّي العربيُّ بينك وبينه في شيء من الأشياء، وإن له في العرب لحظًا، ما هو لأحدٍ من قريش، وإنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمَه.

قال معاوية: يا أبا عبد الله؛ إني أدعوك إلى جهادِ هذا الرجل الذي عصى الله وشقَّ عصا المسلمين، وقتل الخليفة وأَظْهرَ الفتنة، وفرق الجماعة وقطع الرحم.

---

(١) لا يعظم عليك.

فقال عمرو: والله يا معاوية، ما أنت وعليّ عِدلَا بعير، ليس لك هِجْرته ولا سابقتُه، ولا صُحْبَتُه ولا جهاده، ولا فقههُ، ولا علمه؛ والله إن له مع ذلك لحظًّا في الحرب ليس لأحد غيره، ولكني قد تعوّدت من الله تعالى إحسانًا وبلاءً جميلًا، فما تجعل لي إن شايعتُك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغَرر والخطر؟ قال: حُكْمُكَ فقال: مصر طعمة، فتلكأ معاوية وقال: يا أبا عبد الله؛ إني أكْرَهُ لك أن تتحدثَ العربُ عنك أنك إنما دخلتَ في هذا الأمر لغَرَض الدنيا! قال عمرو: دَعْني عنك، فقال معاوية: إني شئتُ أن أمنّيَك وأَخْدَعك لفعلت. قالَ عمرو: لعمرُ الله ما مثلي يُخْدَع، لأنَا أكْيَسُ من ذلك، فقال معاوية: ادنُ مني أسارّك. فدنا منه عمرو ليساره، فعضَّ معاوية أذنه، وقال: هذه خدعة، هل ترى في البيت أحدًا غيري وغيرك! ثم تَلَكّأَ عليه وانصرف عمرو.

فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عمرًا بمصر؟ فقال معاوية: يا عتبة؛ بت عندنا الليلة. فلما جَنَّ الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية وقال:

أيها المانع سيفًا لم يهزّ ... إنما ملت على خزٍّ وقزّ
أعط عمرًا إن عمرًا تاركٌ ... دينَه اليوم لدنْيَا لم تُحز
أعط مصرَ وزِدْه مثلَها ... إنما مصرٌ لمن عزّ فبزّ
واترك الحرص عليها ضلةً ... واشبب النار لمقرور يُكَز
إن مصر لعليٍّ أو لنا ... يُغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع معاوية قول عُتْبَة أرسل إلى عمرو فأعطاه مصر، وكتب له كتابًا بها.

خدْعَة لمعَاويَة[1]

سمع يزيدُ بن معاوية بن أبي سفيان بجمال زينب بنت إسحٰق زوج عبد الله بن سَلَام القرشي؛ وكانت من أجْمَلِ النساء في وقتها، وأحسنهِنَّ أدبًا، وأكثرِهنَّ مالًا؛ فَفُتِنَ بها؛ فلما عِيلَ صبرُه ذكر ذلك لبعض خاصَّةِ أبيه، واسمه رفيق، فذكر ذلك لمعاوية، وقال له: إنَّ يزيد قد ضاق ذَرْعُه بها.

(١) نهاية الأرب: ٦ ـ ١٨٠.

فبعث معاويةُ إلى يزيد، فاستفسره عن أمره؛ فبَثَّ له شأنَه؛ فقال: مهلًا يا يزيد؛ فقال له: عَلَام تأمرني بالمَهَل وقد انقطع منها الأمَلُ؟ فقال له معاوية: فأين مُرُوءتك وحِجَاك وتُقَاك؟ فقال: قَدْ عِيلَ الصبرُ، ولو كان أحدٌ ينتفع فيما يُبْتَلَى به من الهوى بتُقَاه، أو يَدْفَعُ ما أَقْصَدَهُ[١] بحِجَاه، لكان أَوْلَى الناس به داود[٢] حين ابْتُلِيَ به.

فقال: اكْتُم يا بُنَيّ أمرك؛ فإنّ البَوْحَ به غيرُ نافعك؛ والله بالغُ أمره فيك، ولا بُدَّ مما هو كائن.

وأخذ معاويةُ في الاحتيالِ في تَبْليغ يزيد مُنَاه؛ فكتب إلى زوجها عبدِ الله بن سلَام ـ وكان قد استعمله على العراق: أن أقبل حين تنظرُ كتابي لأمر فيه حَظُّك إن شاء الله تعالى، فلا تتأخر عنه.

فأَغَذَّ[٣] السيرَ وقَدِم؛ فأنزله معاوية منزِلًا كان قد هُيّيء له، وكان عند معاوية يومئذٍ بالشأم أبو هُرَيرة وأبو الدرْدَاء، فقال لهما معاوية: إن الله قد قَسَم بين عباده قسمًا، ووهبهم نِعمًا أوجب عليهم فيها شكره، وحتّم عليهم حفظَها، فحباني منها عزّ وجلّ بأتمّ الشرف وأفضلِ الذّكر، وأَوسعَ عليَّ الرزق، وجعلني راعِيَ خُلقه، وأمينَه في بلاده، والحاكِمَ في أمرِ عبادِهِ، لِيَبْلُوَنِي أَأَشكر أَم أَكْفُر! وأوَّلُ ما ينبغي للمرء أن يتفقّدَ وينظرَ من استرعاه اللهُ أَمْرَه، ومن لا غنى به عنه.

وقد بلغتْ لي ابنة أريد زواجها والنظر في اختيار مَن يُبَاعلها[٤]، ولعل مَن يكون بعدي يقتدي فيه بهَدْيِي، ويتْبع فيه أثري؛ فإنه قد يلي هذا الملكَ بعدي من يغلب عليه الشيطان، ويحمله على تعضيل البنات[٥]؛ فلا يرون لها كفئًا ولا نظيرًا. وقد رضيتُ لها ابن سلَام القرشي؛ لدينه وشرفه، وفضله ومروءته وأدبه؛ فقالا له: إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها، وطلب مرضاته فيما اختصه لأنت.

---

(١) أقصده: أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطىء مقاتله.

(٢) يشير إلى داود عليه السلام، حينما تزوج من خطيبة أحد جنوده، ولقد عاتبه الله في ذلك، فاستغفره، فغفر له.

(٣) أغذ السير وفيه: أسرع.

(٤) يباعلها: يتخذها زوجًا وبعلاً.

(٥) تعضيل البنات: حبسهن عن الزواج ظلمًا.

فقال لهما معاوية: فاذكُرَا له ذلك عني! وقد كنْتُ جعلتُ لها في نفسي شُورَى، غير أني أرجو ألا تخرج مِنْ رأيي إن شاء الله.

فخرجا من عنده، وأتيا عبد الله بن سلَام، وذكَرَا لَهُ القصة.

ثم دخل معاويةُ على ابنته، وقال لها: إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلَام، وحضّاك على المسارعة إلى اتباع رأيي فيه؛ فقولي لهما: إنه كفء كريم، وقريب حميم، غير أن تحته زينب بنت إسحٰق، وأخاف أن يعرض لي من الغَيرة ما يعرض للنساء؛ فأتناول منه ما يسخَط الله تعالى فيه، فيعذبني عليه، ولستُ بفاعلةٍ حتى يفارقَها.

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله، وأعلماه بقول معاوية، ردهما إليه يخطُبان له منه، فأتياه؛ فقال: قد علمتما رضائي به، وحِرْصي عليه، وكنت قد أعلمتكما الذي جعلتُ لها في نفسها من الشورى؛ فادْخُلَا عليها، واعْرِضا عليها الذي رأيتُ لها.

فدخلا عليها وأعلماها، فقالت لهما ما قاله معاوية لها؛ فرجعا إلى ابن سلَام، وأعلماه بما قالته.

فلما ظنّ أنه لا يمنعها منه إلا فراقُ زينب أشهدهما بطلاقها، وأعادهما إلى ابنة معاوية.

فأَتَيَا معاوية، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجتَه؛ رغبةً في الاتصال بابنته؛ فأظهر معاويةُ كراهةَ فعله، وفراقَه لزينب، وقال: ما اسْتَحْسَنْتُ له طلاقَ امرأته، ولا أحببتُه؛ فانصَرِفا في عافية، ثم عودا إليها، وخُذا رضاها.

فقاما ثم عادا إليه؛ فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها؛ وقال: لم يكن لي أن أُكرِهَها، وقد جعلْتُ لها الشُورَى في نفسها.

فدخلا عليها فأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأتَه ليَسُرَّها؛ وذكرا من فضله وكمال مروءته وكرم مَحْتِدِه؛ فقالت لهما: إنه في قريش لرفيعُ القدر، وقد تعرفان أنَّ الأناةَ في الأمور أرفق لما يُخَافُ من المحذور؛ وإني سائلة عنه حتى أعرفَ دِخْلَة أمره، وأعلمكما بالذي يُزيِّنه الله لي، ولا قوة إلا بالله، فقالا: وفّقك الله، وخَارَ لك: وانصرَفَا عنها، وأعلما عبد الله بقولها، فأنشد:

فإن يك صدرُ هذا اليوم ولَّى ... فإنَّ غدًا لناظرِه قريبُ

وتحدّث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب، وخِطبَته ابنة معاوية، وَلامُوهُ على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه.

ثم استحثّ عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء؛ فأتياها وقالا لها: اصنعي ما أنتِ صانعة واستخيري الله، فإنَّهُ يهدي مَن استهداه؛ فقالت: أرجو أن يكونَ الله قد خارَ لي، وقد استبرأتُ[١] أمره، وسألتُ عنه فوجدتُه غيرَ ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي.

ولقد اختلف مَن استشرته فيه، فمنهم الناهي عنه، ومنهم الآمر به، واختلافهم أولُ ما كرهت.

فلما بلّغاه كلامَها علم أنه مَخْدوع، وقال: ليس لأمر الله رَادٌّ، ولا لما لا بدَّ منه صادٌّ؛ فإن المرءَ وإن كَمُلَ حِلْمُه، واجتمع له عقله، واستدّ رأيه، ليس بدافع عن نفسه قَدَرًا برأيٍ ولا كيد، ولعل ما سُرّوا به واستجذلوا له لا يدوم لهم سرُوره، ولا يصرف عنهم محذوره.

وذاع أمره، وفشا في الناس. وقالوا: خَدَعه معاوية حتى طلق امرأته! وإنما أرادها لابنه، وقبحوا فعله.

فتمت مكيدته تلك، لكن المقادير أتَتْ بخلافِ تدبيره؛ وذلك أنه لما انقضت أقْرَاء[٢] زينب، وجه معاويةُ أبا الدرداء إلى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد؛ فخرج حتى قدم الكوفة، وبها يومئذ الحسين بن عليّ رضي الله عنهما؛ فبدأ أبو الدرداء بزيارته، فسلّم عليه الحسين، وسأله عن سبب مقدمه؛ فقال:

وجّهني معاويةُ خاطبًا على ابنه يزيد زينبَ بنت إسحٰق؛ فقال له الحسين: لقد كنت أردتُ نكاحها، وقصدت الإرسال إليها إذا انقضت أقراؤها، فلم يمنعني من ذلك إلا تخيّر[٣] مثلك؛ فقد أتى الله بك؛ فاخطب ـ رحمك الله ـ عليّ وعليه، لتتخير من اختاره الله لها، وهي أمانةٌ في عُنقك حتى تؤديَها إليها، وأعطيها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه؛ فقال: أفعلُ إن شاء الله.

---

(١) المعنى أنها استقصت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة.
(٢) المراد عدتها. (٣) التخير: الانتقاء.

فلما دخل عليها أبو الدرداء، قال: أيتها المرأة؛ إن الله خلق الأمور بقدرته، وكوّنها بعزّته، فجعل لكل أمر قدَرًا، ولكل قدَرٍ سببًا؛ فليس لأحدٍ عن قدَرِ الله مَحِيص، ولا للخروج عن أمره مَهْرب؛ فكان مما سبق لكِ، وقُدّر عليك، الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إياك، ولعل ذلك لا يضرّك، ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا؛ وقد خطبكِ أميرُ هذه الأمة وابنُ ملكها، ووليّ عهده والخليفةُ من بعده: يزيد بن معاوية، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، وسيِّدُ شباب أهل الجنة، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما، وقد جئتك خاطِبًا عليهما فاختاري أيَّهما شئت.

فسكتت طويلًا، ثم قالت: يا أبا الدرداء؛ لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشْخَصْتُ فيه الرسل إليكَ، واتبعتُ فيه رأيك، ولم أقتطعه دونك؛ فأما إذ كنتَ أنت المرسل؛ فقد فوّضتُ أمري بعد الله إليك وجعلتُه في يديك؛ فاخْتَرْ لي أَرْضاهما لديك، والله شاهد عليك، فاقْضِ في أمري بالتحرّي، ولا يصدنَّك عن ذلك اتباعُ هوى، فليس أمرهما عليك خفيًّا، ولا أنت عما طوّقتك غبيًّا.

فقال أيتها المرأة؛ إنما عليّ إعلامُك، وعليك الاختيار لنفسك. قالت: عفا الله عنك! إنما أنا ابنة أخيك، ولا غِنى لي عنك، فلا تمنعْك رهبةُ أحدٍ عن قَوْل الحق فيما طوَّقتك، فقد وجب عليك أداءُ الأمانة فيما حمّلتك؛ والله خير مَن رُوعِي وخِيف، إنه بنا خبير لَطِيف.

فلما لم يجد بُدًّا من القول والإشارة قال: أي بنية؛ إن ابنَ بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ وأَرْضَى عندي، والله أعلم بخيرهما لكِ.

قالت: قد اخترتُه وأردتُه ورضيتُه.

فتزوَّجها الحسين، وساق لها مهرًا عظيمًا. فبلغ ذلك معاوية، فتعاظَمه ولام أبا الدرداء لومًا شديدًا، وقال: مَن يرسل ذا بَلَهٍ وعمًى يركب خلاف ما يهوَى.

ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام، وقطع عنه جميع رَوَافِده، لسوءِ قوله فيه، وتهمته أنه خدعه، ولم يزل يَجْفُوه حتى عِيلَ صبره، وقلَّ ما في يده.

فرجع إلى العراق، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالًا عظيمًا، ودُرًّا كثيرًا؛ فظن أنها تَجْحَده؛ لسوء فِعْله بها، وطلاقها من غير شيء كان منها.

فلقي حسينًا فسلّم عليه، ثم قال: قد علمتَ ما كان من خبري وخبر زينب، وإني كنتُ قد استودعتها مالًا، ولم أقبضه ـ وأثنى عليها ـ وقال له: ذَاكِرْها أمري، واحضـضْها على ردّ مالي.

فلما انصرف الحسين إليها، قال لها: قد قَدِم عبد الله بنُ سلام، وهو يُحْسِن الثناء عليك، ويحمل النَّشرَ عنك في حسن صحبتك، وما آنسَه قديمًا من أمانتك؛ فسرَّني ذلك وأعجبني، وذكر أنه كان قد استودعكِ مالًا، فأدِّي إليه أمانته، ورُدي عليه ماله، فإنه لم يقل إلا صدقًا، ولم يطلب إلا حقًّا.

فقالت: صدق، اسْتَوْدَعني مالًا لا أدري ما هو، فادفعه إليه بطابَعه، فأثنى عليها حسين خيرًا، وقال: ألا أُدخله إليكِ حتى تَبَرَّئي إليه منه كما دفعه إليك؟

ثم لقي عبد الله وقال: ما أنكرتْ مالَكَ، وإنها زعمتْ أنه بطابَعك فادْخُلْ إليها، وتسلم مالك منها.

فقال: أوَ ما تأمر مَن يدفعه إليَّ؟ قال: لا؛ بل تقبضه منها كما دفعته إليها.

ودخل عليها حسين، وقال: هذا عبد الله قد جاء يطلبُ وديعته؛ فأخرجت إليه البِدَر، فوضَعَتْها بين يديه، وقالت: هذا مالك، فشكر وأثنى.

وخرج حسين عنهما، وفضَّ عبد الله بن سلام خواتم بدرَة[١]، وحثى لها من ذلك، وقال: خُذِي فهو قليل مني؛ فاستَعْبَرَا جميعًا، حتى عَلَتْ أصواتهما أسفًا على ما ابتُلِيَا به، فدخل الحسين عليهما، وقد رقَّ لهما، فقال:

أشهد الله أني طلقتها؛ اللهم إنك تعلم أني لم أتزوجها رغبة في مالها ولا جمالها، ولكني أردت إحلالها لبَعْلِها.

فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساقه إليها من مهر؛ فأجابته إلى ذلك؛ فلم يقبله الحسين، وقال: الذي أرجوه من الثواب خيرٌ لي.

فلما انقضت أقراؤها تزوجها عبد الله، وحرمَها الله يزيدَ بن معاوية.

---

(١) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف.

مِن حِيَلِ الحَجّاج[١]

دخل عمرُ بن عبد العزيز قبل أن يُستخلف على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن عندي نصيحةً، فإذا خلا لك عقلُك، واجتمع فهمُك فسلْني عنها؛ قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنتَ أعلم أنه إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم.

فمكث أيامًا ثم قال: يا غلامُ؛ مَنْ بالباب؟ فقال له: ناسٌ وفيهم عمرُ بن عبد العزيز، فقال: أَدْخِلْهُ، فدخل عليه فقال: نصيحَتَكَ يا أبا حفص، فقال عمر: إنه ليس بعد الشِّرْك إثمٌ أعظمُ عند الله من الدم وإن عمَّالَك يقتلون، ويكتبون: إن ذنبَ المقتول كذا وكذا، وأنتَ المسؤول عنه والمأخوذُ به، فاكتب إليهم: ألّا يَقْتُل أحدٌ منهم أحدًا حتى يكتب إليكَ بذَنْبِهِ، ثم يُشهد عليه، ثم تأمر بأَمْرِكَ على أمرٍ قد وضح لك. قال: بارك الله فيك يا أبا حفص.

فكتب إلى الأمصار فلم يَحْرَج[٢] من ذلك إلا الحجاج، فإنه أَمَضَّه[٣]، وشقَّ عليه وأقلقَه، وظن أنه لم يُكتب به إلى أحدٍ غيره، فبحث عن ذلك فقال: من أين دُهِينا؟ ومَنْ أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأُخْبِرَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز هو الذي فعل ذلك، فقال: هيهات! إن كان عمر فلا نقضَ لأمره.

ثم إن الحجاجَ أرسل إلى أعرابي حَرُورِيّ[٤] جافٍ من بكر بن وائل، ثم قال له: ما تقول في معاوية؟ فنالَ مِنه. قال له: ما تقول في يزيد؟ فسبّه. قال: فما تقول في عبد الملك؟ فظلَّمه[٥]. قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أَجْوَرُهم حين وَلَّاك، وهو يعلم عَدَاءك[٦] وظُلْمَكَ. فسكت عنه الحجاج، وافترصها[٧] منه.

ثم بعث إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوَط لديني وأرعى لما استرْعيتَني، وأحفظُ له من أن أَقْتُل أحدًا لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنتُ أقتلُ على هذا الرأي، فشأنك وإياه.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٣٩.
(٢) حرج: ضاق.
(٣) أمضه: آلمه وأوجعه.
(٤) الحرورية: فرقة من الخوارج؛ ينسبون إلى حروراء، موضع بظاهر الكوفة، كان به أول اجتماعهم.
(٥) ظلمه: نسب إليه الظلم.
(٦) العداء: تجاوز الحد في الظلم.
(٧) افترصها: انتهزها.

فدخل الحَرُورِيّ على الوليد، وعنده أشرافُ أهل الشام وعُمَرُ فيهم، فقال له الوليد: ما تقول فيّ؟ قال: ظالم جائر جبَّار! قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال: جبّار عَاتٍ، قال: فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم.

قال الوليد لابن الريّان: اضرب عنقه، فضرب عنقَه، ثم قام فدخل منزله، وخرج الناسُ من عنده، فقال: يا غلام: اردد عليّ عمر، فردّه عليه فقال: يا أبا حفص: ما تقول في هذا؟ أَصَبْنَا فيه أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبتَ بقتله، ولَغَيْرُ ذلك كان أرشد وأَصْوَب، كنتَ تسجُنه حتى يراجعَ الله عزّ وجلْ، أوتدركه منيتهُ. فقال: شَتَمَنِي وشتم عبد الملك، وهو حَرُورِي؛ أفتستحلُّ ذلك؟ قال: لعمري ما أستحلُّه؛ لو كنتَ سجنتَه ـ إن بَدا لك ـ أو عفوت عنه كان أرشد! فقام الوليد مغضَبًا، فقال ابنُ الريان لعمر: يغفرُ الله لك يا أبا حفص، لقد راددتَ أمير المؤمنين حتى ظننتُ أنه سيأمرني بضرب عنقك! فقال عمر: ولو أمرك كنتَ تفعل؟ قال: إي لعمري!

خــدْعَــة[1]

لما ذهب الرشيد لغَزْوِ الروم أخذ يفتحُ المدن والحصون ويخربها، حتى أناخ على هرِقْلَة[2]، وهي أوثقُ حصن وأعزُّه جانبًا، وأمنعُه رُكْنًا، فتحصَّن أَهْلُها ـ وكان بَابُها يُطِلُّ على وادٍ، ولها خندق يُطيفُ بها ـ ولما ألحَّ عليهمْ بالمجَانِيق والسّهام والعرَّادات[3] فُتِح الباب، وإذا برجل من أهلها كأكمل الرجال، قد خرج في أكمل السّلاح فنادى: قد طالت مُوَاقَعتكم إيَّانا، فلْيبْرز إليّ منكم رجلان. ثم لم يزل يَزِيدُ حتى بلغ عشرين رجلًا، فلم يجبه أحد؛ فدخل وأغلق باب الْحِصْن.

وكان الرّشيدُ نائمًا فلم يعلم بخبره إلا بعدَ انصرافه؛ فغضب ولام خَدمَهُ وغِلمانه على تَرْكهم إنباهه[4]، وتأسف لفَوْته. فقيل له: إن امتناع الناس منه سيُقَوِّيه ويطغيه، وأحْرِ به أن يخرجَ في غد، فيطلبَ مثل ما طلبَ؛ فطالت على الرشيد ليلتُه، وأصبح كالمنتظر له، ثم إذا هو بالباب قد فُتح، وخرج طالبًا للمبارزة، وذلك في يوم شديد الحر، وجعل يدعو بأنه يثبت لعشرين منهم.

---

(١) الأغاني: ١٧ ـ ٤٦. (٢) مدينة ببلاد الروم.
(٣) المنجنيق والعرادة: آلتان من آلات الحروب ترمى بها الحجارة.
(٤) أنبهه: أيقظه من النوم.

فقال الرشيد: مَنْ له؟ فابتدره جملةُ القوّاد كَهرثمة، ويزيد بن مزْيَد، وعبد اللهبن مالك وغيرهم؛ فعزم على إخراج بعضهم؛ فضجَّت المطّوِّعة[1] حتى سَمع ضجيجهم، فأَذِنَ لعشرين منهم، فاستأذنوا في المشورة، فأذِن لهم، فقال قائلهم: يا أمير المؤمنين؛ قوادُك مشهورون بالبَأس والنَّجْدة وعلوّ الصيت ومُدَارَسة الحروب، ومتى خرج واحد منهم فقَتلَ هذا العِلج[2] لم يكبر ذلك. وإن قَتَلَهُ العِلْج كانت وضيعة على العسكر عجيبة، وثُلْمة لا تسد. فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يخلّينا نختارُ رجلًا فنخرجُه إليه! فإن ظفر عِلم أهلُ الحصن أن أميرَ المؤمنين قد ظفِر بأعزِّهم على يدِ رجلٍ من العامَّة ومن أَفْناء[3] الناس، ليس ممن يُوهِنُ قتلُه ولا يُؤَثِّر، وإن قُتِلَ الرجلُ فإنما استشهد رجل، ولم يؤثّر ذهابُه في العسكر، ولم يَثْلِمْه، وخرج إليه رجل بعده مثله حتى يمضيَ إليه ما شاء.

قال الرشيد: لقد استصوبتُ رأيكم هذا؛ فاختاروا رجلًا منهم يعرف بابن الْجزَرِي، وكان معروفًا في الثغْرِ بالبَأْس والنَّجْدة، فقال الرشيد: أتخرج؟ قال: نعم! وأستعينُ الله. فقال: أَعْطُوه فرسًا ورُمْحًا وسيفًا وتُرْسًا. فقال: يا أمير المؤمنين: أنا بفرسي أوثقُ، ورمحي بيدي أشدّ؛ ولكني قد قبلتُ السيفَ والتُّرْس.

فلبِسَ سلاحَه، واستدناهُ الرشيدُ فودَّعه واستَتْبَعَهُ الدعاء، وخرج معه عشرون رجلًا من المطَّوِّعة: فلما انقضَّ في الوادي، قال لهم العِلْج وهو يعدُّهم: إنما كان الشرْط عشرين وقد زدتُمْ رجلًا. ولكن لا بأس، فنادَوْه: ليس يخرج إليك منا إلا رجل واحد. فلما فَصَلَ منهم ابن الجزري تأمّله الرُّومي، وقد أشرف أكثرُ الروم من الحصن، يتأمّلون صاحبَهم والقِرْن، حتى ظنوا أنه لم يبقَ في الحصن أحدٌ إلا أشرف. ثم أخَذَا في شأنهما فاطَّعَنَا[4] حتى طال الأمرُ بينهما، وليس يخدِشُ واحدٌ منهما صاحبه.

ثم تحاجزا بشيء فزجَّ كل منهما برُمْحِه، وأُصْلَتَ[5] سَيْفَه، فتَجَالدا مَليًّا، واشتد الحرُّ عليهما وتبلَّدَ[6] الفَرَسان، وجعل ابن الجزري يضرب الرومي الضربَةَ التي يرى أنه قد بلغ فيها فيتّقيها الرومي، وكان ترْسُه حديدًا، فيسمع لذلك صوت مُنْكر.

(١) المطوعة: الذين يتطوعون بالجهاد.
(٢) العلج: الرجل من كفار العجم.
(٣) لا يعلم مَن هو.
(٤) تطاعنا.
(٥) أصلت السيف: جرده من غمده.
(٦) التبلد: ضد التجلد.

فلما يئس كلٌّ واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابنُ الجزري فدخلت المسلمين كآبةٌ لم يكتئبوا مثلَها قط، وعَطْعَطَ الروم[1] اختيالًا وتطاولًا، وإنما كانت هزيمتُه حيلةً منه. فاتَّبَعَه العِلْج وتمكّن منه ابنُ الجزريَ فرماه بوَهَق[2]، فوقع في عنقه وما أخطأه، ورَكَضَ فألقاه عن فرسه، ثم عطف عليه، فما وصل إلى الأرض حيًّا حتى فارقه رأسه. فكبَّر المسلمون أعلى تكبير، وانْخَذَلَ الروم، وبادروا الباب يُغْلقونه، واتَّصل الخبرُ بالرشيد فصاح بالقوَّاد: اجعلوا النار في المجَانِيق، وارمُوها فليس عنْد القوم دَفْع. ففعلوا وجعلوا الكتان والنِّفط على الحجارة وأضرموا فيها النار، ورمَوْا بها السُّور فكانت النار تلصق به، وتأخذ الحجارة وقد تصدعت فتهافتت. فلما أحاطت بها النيران فتحوا الباب مستأمنين ومستقبلين.

---

(١) العطعطة: تتابع الأصوات واختلاطها في الحرب وغيرها.

(٢) الوهق بفتح الهاء وإسكانها: الحبل يرمى أنشوطة، فتؤخذ به الدابة.

ما جاء في التيقّظ والتبصّـر في الأمـور

قالت الحكماء: مَن أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفّظ أيس عدوه من كيده له وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشي، فمن تدرّع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر. وقيل: إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلعًا في خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تفحصًا وبحثًا عن أسرار الصدور، وكان يبث العيون على الرعايا والجواسيس في البلاد ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه الإحسان، ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيبته.

تيقّظ وتبصّر عمر بن الخطاب

رُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتًا من الشعر مضروبًا، فلم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلًا قاعدًا، فدنا منه وقال له: مَن الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق. قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا.

فانطلق عمر لرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء رضي الله عنهما: هل لك في أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن

شئت، قال: فخذي معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن، وائتني بقدر وشحم وحبوب. فجاءت به، فحمل القدر، ومشت خلفه حتى أتى البيت.

فقال: ادخلي إلى المرأة، ثم قال للرجل: أوقد لي نارًا، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضي الله عنها: بشِّر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: مَن ولي شيئًا من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره، فإنه عنها مسؤول ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة.

ثم قام عمر رضي الله عنه، وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم، وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضي الله عنه للرجل: قم إلى بيتك وكُل ما في البرمة، وفي غدٍ ائت إلينا، فلما أصبح جاءه، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

وكان رضي الله عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعس بنفسه، ويباشر أمور الرعية سرًّا في كثير من الليالي، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثًا، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبدًا أسود قدامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة، فهمّ بالدخول من الباب، فلم يقدر من تحصين البيت، فتسور على السطح ونزل إليهم من الدرجة، ومعه الدرة، فلما رأوه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الأسود، فقال له يا أمير المؤمنين: قد أخطأت وإني تائب، فاقبل توبتي، فقال: أريد أن أضربك على خطيئتك. فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت في واحدة، فأنت قد أخطأت في ثلاث: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢] وأنت تجسست، قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: الآية ١٨٩] وأنت أتيت من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النُّور: الآية ٢٧]، وأنت دخلت وما سلّمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود، فاستتوبه، فاستحسن كلامه.

وله رضي الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك، وكان زياد ابن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلًا كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زيادًا لا يعرفه، فقال: أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له: أتتعرف إليَّ، وأنا أعرَفُ بك منك بنفسك؟. والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك وجدتك، وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان، وقد أعارك إياها، فبهت الرجل وارتعد، حتى كاد يغشى عليه.

ثم جاء بعدهم مَن اقتدى بهم وهو: عبد الملك بن مروان، والحجاج، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق، واقتفى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس ولي الخلافة بعد أخيه السفاح، وهي في غاية الاضطراب فنصب العيون، وأقام المتطلعين، وبث في البلاد والنواحي مَن يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور، ودانت له الجهات ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه، وأرادوا خلعه، وتمردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف مَن انطوى على خلافه فعالجه بإتلافه، واطلع على عزائم المعاندين فقط رؤوس عنادهم بأسيافه، وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلّت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

تيقّظ وفطنة المنصور

فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لي: مَن أنت؟ فقلت: رجل من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إني لأرى لك هيبة وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر وأنا به معني، فإن كفيتنيه رفعتك، فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين.

فقال: أخف نفسك واحضر في يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم، وحضرت، فلم يترك عنده أحدًا، ثم قال لي: اعلمْ أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم

بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم، فخذ معك عينًا[١] من عندي، وألطافًا[٢]، وكتبًا، واذهب حتى تأتي عبد اللهبن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فأقدم عليه متخشعًا، والكتب على ألسنة أهل تلك القرية والألطاف من عندهم إليه، فإذا رآك، فإنه سيردك ويقول: لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده وقل له: قد سيروني سرًا، وسيروا معي ألطافًا وعينًا، وكلما جبهك وأنكر اصبر عليه، وعاوده، واكشف باطن أمره.

قال عقبة: فأخذت كتبه والعين والألطاف، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن، فلقيته بالكتب، فأنكرها ونهرني وقال: ما أعرف هؤلاء القوم قال عقبة: فلم أنصرف، وعاودته القول وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم، وأن معي ألطافًا، وعينًا، فأنس بي، وأخذ الكتب وما كان معي.

قال عقبة: فتركته ذلك اليوم، ثم سألته الجواب، فقال: أما كتاب، فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فاقرئهم السلام واخبرهم أن ابنيّ محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا.

قال عقبة: فخرجت من عنده، وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لي المنصور: إني أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن وفيهم عبد الله، فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه، وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرت إليه، فتمثل بين يدي، ووقف قدامه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه وحادثه، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه، فلما فرغوا أمر برفعه، فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال: يا أبا محمد قد علمت أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطانًا، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين.

قال عقبة: فلحظني المنصور بعينه، فقمت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن، فأعرض عني، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي، فرفع رأسه وملأ عينيه مني ثم وثب حتى جثى بين يدي المنصور وقال: أقلني يا أمير المؤمنين

---

(١) عينًا: جاسوسًا وحارسًا.
(٢) ألطافًا: هدايا وطعام وحسنات.

أقالك الله. فقال له المنصور: لا أقالني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمد وإبراهيم ويستعلم أخبارهما.

قال علي الهاشمي صاحب غدائه، دعاني المنصور يومًا فإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقيني، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتيني لأصلن رحمه ولأتبعن البر إليه. وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهي تقول: لا أعرف له مكانًا، فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها، فقال: كفّوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شم الطيب وصب الماء البارد على وجهها وأن تسقى السويق، ففعلوا بها ذلك، وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقت سألها عنه، فقالت: لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة، فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك من بني سليم قال: صدقت. هي والله أمتي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها وصيفها من عندي سيرتها، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم.

ثم قال لها: أتعرفين فلانًا البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان، قال: صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالًا، وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة، وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء، وحوائج، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد بن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب. فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحدثته بكل ما أراد.

فهرس المحتويات

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

قصص العرب

موسوعة تراثية جامعة لقصص ونوادر وطرائف العرب في العصر الجاهلي والإسلامي

إعداد

إبراهيم شمس الدين

الجزء الثالث

يحتوي على :

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلميـة
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شـارع البحتري، بنايـة ملكـارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبـنـان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X
90000>
9782745134233

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

الباب الثامن

قصص المغنِّين والمغنِّيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في ذكر المغنِّين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء في مجالس الرؤساء

قال في المستطرف[١]: قيل: إن أول مَن غنّى في العرب قينتان للنعمان يقال لهما: الجرادتان، ومن غنائهما:

ألا يا قينُ ويحك قمْ فهينمْ لعلّ الله يسقينا غماما[٢]

وإنما غنتا هذا حين حبس الله عنهم المطر، وقيل: أول مَن غنّى في الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذي علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنّى أبا عبد النعيم، ومن غنائه، وهو أول صوت غنى به في الإسلام هذا البيت:

قدْ براني الشوق حتى كدتُ من وجدي أذوبُ[٣]

ثم نجم بعد طويس ابن طنبور، وأصله من اليمن، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء، ومن غنائه:

وفتيان على شرب جميعًا دلفتُ لهم بباطية هدورِ[٤]
فلا تشربْ بلا طربٍ فإنّي رأيت الخيل تشربُ بالصفير

ومنهم حكم الوادي، ومن غنائه:

إمدحِ الكأسَ ومَنْ أعْمَلَهَا واهجِ قومًا قتلونا بالعطشْ
إنما الراح ربيع باكر فإذا ما وافت المرءَ انتعشْ

---

(١) المستطرف: ص ٤٢٤ ـ ٤٣٣.
(٢) الهينمة: الصوت الخفي.
(٣) براني: أنحلني، والوجد: الحب الشديد.
(٤) دلفت لهم بباطية هدور: دلفت لهم: أي قدمت وناولت، والباطية إناء كبير من زجاج يوضع فيه الشراب، وهدر الشراب أي غلا.

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم: إبراهيم الموصلي، وابن جامع السهمي وغيرهما، وكان له زامر يقال له: برصوما، وكان إبراهيم أشدهم تصرفًا في الغناء، وابن جامع أحلاهم نغمة، فقال الرشيد يومًا لبرصوما: ما تقول في ابن جامع؟ قال: يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من حيثما ما ذقته فهو طيب. قال: فإبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه جميع الأزهار والرياحين، وكان ابن محرز يغني كل إنسان بما يشتهيه كأنه خلق من قلب كل إنسان، وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

وأذكرُ أيام الحمى ثمّ أنثني على كبدي من خشية أن تصدّعا
فليست عشيات الحمى برواجعٍ عليك ولكن خل عينيك تدمعا
بكت عيني اليسرى فلما نهيتها عن الجهل بعد العلم اسبلّتا معا

قال: فاستخف الرشيد الطرب، فأمر له بمائة ألف درهم.

ابـن عائشــة

حدّث ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء وأنبههم فيه، وكان من أضيق الناس خلقًا إذا قيل له غنِّ قال: لمثلي يقال غنِّ عليَّ عتق رقبة إن غنيت يومي هذا، فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق، فلم يبق في المدينة مخبأة ولا مخدرة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره.

وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني وهو معتجر بفضل ردائه، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهم ساريتان يمشيان أمام دابته، فقال لهما: أقسم بالله إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما، فقالا: يا مولانا قل ما أمرتنا به، فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا. قال: فاذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه فامسكاه، فإن لم يفعل ما آمره به وإلا فاقذفا به في العقيق. قال: فمضيا والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه، فقال: مَن هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة، فقال: لبيك وسعديك بابي أنت وأمي قال: اسمع مني ما أقول لك، واعلم أنك مأسور في أيديهما، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك في العقيق.

قال: فصاح ابن عائشة: وا ويلاه وا عظم مصيبتاه، فقال له الحسن: دعنا من صياحك وخذ فيما ينفعنا. قال: اقترح وأقم مَن يحصي، ثم أقبل يغني، فترك الناس العقيق، وأقبلوا عليه، فلما تمت أصواته مائة كبّر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجّت لها أقطار الأرض، وقالوا للحسن: صلى الله على جدك حيًّا وميتًا، فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت، فقال له الحسن: ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة، فقال ابن عائشة: والله ما مرت بي شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائي، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أشد يوم مر عليك؟ يقول: يوم العقيق.

المشدود ودبيس ورقيق

حدّث أبو جعفر البغدادي قال: حدّثني عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبي عكرمة قال: خرجت يومًا إلى المسجد الجامع، فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل، فإذا على بابه المشدود، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعلي أستفيد حكمة أكتبها، فقال: ادخل بنا إلى أبي عيسى. قلت: أمثل أبي عيسى في قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن؟

فقال للحاجب: أعلم أمير المؤمنين بمكان أبي عكرمة، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إليَّ فحملوني حملًا، فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أظرف منها هيئة فلما نظرت إلى أبي عيسى قال لي: ما يعيش من يحتشم اجلس، فجلست، فأتينا بطعام كثير، فلما انقضى أتينا بشراب، وقامت جارية تسقينا شرابًا كالشعاع في زجاجة كأنها كوكب درّي، فقلت: أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه ولا سلبه ما وهبه. قال: فدعا إبو عيسى بالمغنين وهم المشدود ودبيس ورقيق. ولم يكن في ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء، فابتدأ المشدود وغنى يقول:

لما استقلّ بأردافٍ تجاذبُه ... واخضرّ فوق بياض الدرِّ شاربُه
وأشرق الوردُ من نسرين وجنته ... واهتزّ أعلاه وارتجّت حقائبه[1]
كلّمته بجفونٍ غير ناطقةٍ ... فكان من ردّه ما قال حاجبه

---

(١) ارتجّت حقائبه: الحقب: شيء تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحلي، والمعنى أن خصره تمايل فسمعت أصوات الحلي فيه.

ثم سكت وغنّى دبيس:

الـحـبُّ حـلو أمـرَّتـه عـواقـبُـهُ وصـاحـبُ الـحـبِّ صـبُّ الـقـلـب ذائـبُـه
استـودع الله مـن بـالـطـرف ودّعـنـي يـوم الـفـراق ودم الـعـيـن سـاكـبُـهُ
ثم انصرفت وداعي الشوق يهتفُ بي إرفـقْ بـقـلـبـك قـد عـزّت مـطـالـبُـهُ

ثم سكت وغنّى رقيق:

بـدر مـن الإنـس حفّـته كـواكـبـه قـد لاح عـارضـه واخـضـرّ شـاربـه
إن يوعد الوعد يومًا فهو مخلقُهُ أو ينطق القول يومًا فهو كاذبه
عـاطـيـتـه كـدم الأوداج صـافـيـةً فقام يشدو وقد مالت جوانبه[١]

ثم سكت، وابتدأ المشدود يقول:

يـا ديـرَ حـنّـة مـن ذلات الأكـيـراح من يصحُ عنك فإنّي لستُ بالصاحي

ثم سكت وغنى دبيس:

دع الـبـسـاتـيـن مـن آسٍ وتـفّـاح واعدل هديت إلى شيخ الأكيراح
واعدلح إلى فتيةٍ ذابت لحومهم مـن الـعـبـادة إلّا نـضـو أشـبـاح
وخـمـرةٍ عُـتِّـقـت في دنّـها حـقـبًا كـأنّـهـا دمعة في جفن سيّاح[٢]

ثم سكت وغنى رقيق:

لا تــحــفــلــن بــقــول الــلائــم الــلاحــي
واشـرب عـلى الـورد مـن مـشـمـولـة الـراح[٣]
كـأسًـا إذا انـحـدرت فـي حـلـق شـاربـهـا
أغـنـاه لألاؤهـا عـن كـل مـصـبـاح
مـا زلـت أسـقـي نـديـمـي ثـم ألـثـمـه
والـلـيـل مـلـتـحـفٌ فـي ثـوب أمـسـاح[٤]

---

(١) عاطيته كدم الأوداج صافيته: أي احتسى معه الخمرة الحمراء الصافية.
(٢) السياح: الذي يسح الدمع بكثرة وهو الزاهد المتعبد.
(٣) اللاحي: اللائم، والراح: الخمرة.
(٤) أمساح: من المسوح وهو ثوب الراهب الأسود.

فـقـام يـشـدو وقـد مـالـت سـوالـفـه
يـا ديـر حـنّـة مـن ذات الأكـيـراح

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غنِّ لي شعري فغناه:

يا لجّة الدمع هل للغمض مرجوعْ ... أم للكرى من جفون العين ممنوعُ
ما حيلتي وفؤادي هائمٌ دنفٌ ... بعقرب الصدغ من مولاي ملسوع
لا والذي تلفت نفسي بفرقته ... فالقلب من فرق الأحزام مصدوع(١)
ما أرّق العينَ إلا حبٌّ مبتدعٍ ... ثوبُ الجمالِ على خدّيه مخلوع

قال أبو عكرمة: فوالله لقد حضرت من المجالس ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، فما حضرت مثل ذلك المجلس ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

هاشم بن سليمان

حُكِيَ عن الرشيد أنه قال يومًا للفضل بن الربيع: مَن بالباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بني أمية، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه. قال: فأذن له وحده، فدخل، فقال: هات يا هاشم، فغناه من شعر جميل حيث يقول:

إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا ... جرى الدمع من عيني بثينة بالكحلِ
فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها ... ويا ويح عقلي ما أصبت به أهلي
خليليَّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلًا بكى من حبِّ قاتله قبلي

قال: فطرب الرشيد طربًا شديدًا، وقال: أحسنت لله أبوك، قلّده عقدًا نفيسًا، فلما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكيك يا هاشم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثًا عجيبًا إن أذن لي الأمير حدثته به، فقال: قد أذنت لك.

قال يا أمير المؤمنين: قَدِمت يومًا على الوليد وهو على بحيرة طبرية، ومعه قينتان لم ير مثلهما جمالًا وحسنًا، فلما وقعت عينه عليَّ قال: هذا أعرابي قد ظهر من البوادي ادعو به لنسخر به، فدعاني، فسرت إليه، ولم يعرفني، فغنّت إحدى

---

(١) الفرق: الخوف. ومصدوع: مشقق ومجروح.

الجاريتين بصوت هو لي، فأخطأته الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت، ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابي يعيب علينا غناءنا؟ فنظر إليَّ كالمنكر، فقلت: يا أمير المؤمنين أنا أبين لك الخطأ، فلتصلح وتر كذا، ووتر كذا، ففعلت وغنت شيئًا ما سمع منها إلا في هذا اليوم، فقامت الجارية مكبة عليَّ وقالت: أستاذي هاشم ورب الكعبة.

فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وكشفت عن وجهي، وأقمت معه بقية يومنا، فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في بر أستاذي؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعته في عنقي، وقالت: هو لك، ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب في السفينة، وطلعت معه إحدى الجاريتين، وأتبعتها صاحبتي، فأرادت أن ترفع رجلها، وتطلع السفينة فسقطت في الماء، فغرقت لوقتها، وطلبت، فلم يقدر عليها، فاشتد جزع الوليد عليها، وبكى بكاء شديدًا، وبكيت أنا عليها أيضًا بكاء شديدًا، فقال لي: يا هاشم ما نرجع عليك مما وهبناه لك، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به، فبعني إياه، فعوضني عنه ثلاثين ألف درهم، فلما وهبتني العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته، وهذا سبب بكائي.

فقال الرشيد: لا تعجب، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم.

دحمــان الأشقر

قال علي بن سليمان النوفلي: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يومًا فأنشده:

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا ... كفى لمطايانا برؤياك هاديا[1]

ذكرتك بالديزين يومًا فأشرفت ... بنات الهوى حتى بلغن التراقيا[2]

إذا ما طواكِ الدهرُ يا أمَّ مالكِ ... فشأن المنايا القاضيات وشأنيا

قال: فطرب الرشيد طربًا شديدًا واستعاده منه مرات، ثم قال له: تمنّ عليَّ. قال: أتمنى الهنيء والمريء وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار في كل سنة،

---

(١) أدلجنا: سرنا في الليل المظلم.

(٢) التراقيا: جمع ترقوة وهي العظمة التي بين ثغرة النحر والعاتق. في أعلى الصدر.

فأمر له بهما، فقيل له: يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما، فقال الرشيد: لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت، ولكن احتالوا في شرائهما منه، فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار، فرضي بذلك، فقال الرشيد: ادفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين في إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها.

إسحـٰق الموصلي والواثق بن المعتصم

من ذلك ما حكى إسحـٰق الموصلي قال: كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الألحان العجيبة ويغني بها شعره، وشعر غيره، فقال له يومًا: يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر في كل شيء، فغني شعرًا أرتاح إليه، وأطرب عليه يومي هذا، قال إسحـٰق: فغنيته هذه الأبيات:

ما كنت أعلم ما في البين من حرقٍ حتى تنادوا بأن قد جيء بالسفن
قالتْ تودّعني والدمع يغلبها فهمهمتْ بعض ما قالت ولم تبنِ
مالتْ إليَّ وضمّتني لترشفني كما يميل نسيم الريح بالغصنِ
وأعرضت ثم قالت وهي باكية يا ليت معرفتي إيّاك لم تكنِ

قال: فخلع عليَّ خلعة كانت عليه وأمر لي بمائة ألف درهم، وقال وغنيته يومًا:

قفي ودِّعينا يا سعادُ بنظرةٍ فقد حان منا يا سعاد رحيلُ
فيا جنّة الدنيا ويا غاية المنى ويا سؤل نفسي هل إليك سبيلُ
وكنت إذا ما جئت جئت لعلةٍ فأفنيت علّاتي فكيف أقول(١)
فما كل يومٍ لي بأرضك حاجةٌ ولا كل يومٍ لي إليك وصول

فقال: والله لا سمعت يومي غيره وألقى عليَّ خلعة من ثيابه، وأمر لي بصلة ما أمر لي قبلها بمثلها.

---

(١) العلة: الحاجة.

جعفر بن يحيىٰ والرشيد

من حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم: ما حكي عن إبراهيم بن المهدي قال: قال جعفر بن يحيىٰ يومًا لبعض ندمائه: إني قد استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غدًا، فهل من مساعدة؟ فقلت: جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمشاهدتك، فقال: بكر بكور الغراب، قال: فأتيته عند الفجر، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرني في الميعاد، فما زلنا في أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة علينا من أفخر الطعام وأطيبه، فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم خلعت علينا ثياب المنادمة، وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الستائر وغنت الفتيات فظللنا بأنعم يوم ثم إنه داخله الطرب، فدعا بالحاجب وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه.

فاتفق بالأمر المقدّر أن عمّ الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا في ذلك الوقت وكان صاحب جلالة رهيبة ورفعة، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه، فلما قدم دخل به الحاجب علينا فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا وقمنا إجلالًا له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا، وزاد بنا الحياء، فقال: لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه، ثم صاح بغلام، فدفع له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم.

قال: فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم وقدمت إليه موائد الطعام والشراب، فطعم وشرب الشراب لساعته، ثم قال: خففوا عني فإنه شيء ما فعلته والله قط قال: فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك، فقال له: جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت قال: بلى إن في قلب أمير المؤمنين بعض تغير عليَّ، فتسأله الرضا عني، فقال جعفر: قد رضي عنك أمير المؤمنين قال: وعليَّ عشرة آلاف دينار، فقال جعفر: هي حاضرة لك من مالي ولك من مال أمير المؤمنين مثلها، قال: أريد أن أشد ظهر ابني إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين قال: قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال: وقد ولّاه أمير المؤمنين مصر، فانصرف عبد الملك بن صالح وبقيت متعجبًا

من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا إلا المصاهرة.

قال: فلما كان من الغد بكّرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعي بأبي يوسف القاضي ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر الرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كل مَن في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح، قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك، قلنا: هو كما ظننت.

قال: لمّا دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح فكان متكئًا فاستوى جالسًا، وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين، قال: بم أجبته؟ قلت: قد رضي عنك أمير المؤمنين، قال: قد رضيت عنه، ثم ماذا قلت، وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار، قال: فبم أجبته؟ قلت: قد قضاها عنك أمير المؤمنين، قال: وقد قضيتها عنه، ثم ماذا قلت، ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه قال: فبم أجبته؟ قلت: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية، قال: قد أجبته إلى ذلك، ثم ماذا قلت؟ قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه، قال: فبم أجبته؟ قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر، قال: قد وليته إياها، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته.

قال إبراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أي الثلاثة أكرم وأعجب فعلًا ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر، فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

العبد الأسود المغني

حكى أبو العباس عن عمر الرازي قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في جمد من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت: والله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود، فقلت له: أعد عليَّ ما سمعت فقال: والله لو كان عندي قري أقريكه لفعلت، ولكني أجعله قراك، فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا

جائع فأشبع، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروى، ثم اندفع يغني ويقول:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها ... أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدُها
من الخفرات البيض ودَّ جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها[١]

قال عمر: فحفظته منه، ثم تغنيت به على الحالات التي وصفها إليَّ فإذا هي كما ذكر.

الغناء والحداء عند العرب

تَغَنَّ بالشعر إن كنت قائله ... إنَّ الغناء لهذا الشعر مِضمارُ

يقولون: فلان يتغنّى بفلان أو فلانة، إذا صنع في أحدهما شعرًا. قال ذو الرمة:

أحبُّ المكان القَفْرَ من أجل أنني ... به أتَغنَّى باسمِها غيرَ مُعجمِ

وكذلك يقولون: حدا به، إذا عمل فيه شعرًا. قال المرار الأسدي:

ولو أني حدوت به ارفأنَّت[٢] ... نعامته وأبصرَ ما يقولُ

الحداء عند العرب

يقال: إن أول مَن أخذ في ترجيع الحداء مضر بن نزار بن معد بن عدنان: سقط عن جمل فكسرت يده فحملوه وهو يقول: وايداه! وايداه! وكان أحسن خلق الله تعالى صوتًا وجرمًا، فأصغت إليه الإبل وجدَّت في السير.

فجعلت العرب مثالًا لقوله: ها يدا! ها يدا! يحدون في الإبل.

وزعم ناس من مضر أن أول مَن حدا رجل منهم: كان في إبله أيام الربيع، فأمر غلامًا له ببعض أمره، فاستبطأه، فضربه بالعصا، فجعل يشتد في الإبل ويقول: وايداه! يا يداه! فقال له: إلزم، إلزم! فاستفتح الناس الحداء من ذلك.

---

(١) الخفرات البيض: أي الفتيات البيض اللاتي تظهر في وجوههن حمرة الخجل.
(٢) ارفأنَّ: ضعف واسترخى. وسكن بعد نفور.

حكى الزبير بن بكار قال: إن رسول الله ﷺ قال لقوم من بني غفار حين سمع حاديهم بطريق مكة ليلًا فمال إليهم فقال: «إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعائه فوجد إبله قد تفرّقت فأخذ عصًا فضرب بها كف غلامه فعدا بالوادي وهو يصيح: وايداه! وايداه! فسمعت الإبل ذلك فعطفت عليه واجتمعت إليه.

فقال مضر: لو اشتق مثل هذا انتفعت به الإبل واجتمعت، فاشتق الحداء[١].

أصل الغناء ومعدنه

قال أبو المنذر بن هشام الكلبي: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب، والسناد، والهزج. فأما النصب فغناء الركبان والقينات. وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات. وأما الهزج فالخفيف كله، وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم.

كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرًا فاشيًا؛ وهي المدينة، والطائف، وخيبر، ووادي القرى، ودومة الجندل، واليمامة. وهذه القرى مجامع أسواق العرب.

صانع العود

قيل إن أول مَن صنع العود لامِك بن آدم، وبكى به على ولده. ويقال: إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقي، وهو كتاب اللحون الثمانية.

أول مَن غنّى عند العرب

كان أول مَن غنّى قينتان لعاد يقال لهما الجرادتان، ومن غنائهما:

ألا يا قَيْلُ ويحك قُمْ فهينم لعلَّ الله يُصبحنا غماما

وإنما غنّتا بهذا اللحن حين حُبس المطر عن قوم عاد. وكانت العرب تسمى القينة: الكرينة، والعود: الكران، والمزهر أيضًا هو العود، وهو البربط.

أول مَن غنّى في الإسلام

كان أول مَن غنى في الإسلام الغناء الرقيق: طويس؛ وهو علّم ابن سريج، والدلال، ونئومة الضحى. وكان يكنى أبا عبد المنعم. ومن غنائه وهو

---

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٣٦٩.

أول صوت غني في الإسلام:

قد براني الشوق حتى كدتُ من شوقي أذوبُ

طويس وبكر وسعيد

كان طويس أول مَن غنّى في الإسلام، وكان في أيام عثمان بن عفان.

قيل: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الحج وهو والي المدينة، وخرج الناس معه، وكان ممن خرج: بكر بن إسماعيل الأنصاري، وسعيد بن عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت. فلما انصرفا راجعين مرًّا بطويس المغني، فدعاهما للنزول عنده، فقال بكر بن إسماعيل: قُدِ البعير إلى منزلك. فقال له سيعد بن عبد الرحمٰن: أتنزل على هذا المخنث؟

فقال: إنما هو منزل ساعة ثم نذهب. واحتمل طويس الكلام عن سعيد، فأتيا منزله، فإذا هو قد نظفه ونجَّده، فأتاهما بفاكهة الشام فوضعها بين أيديهما؛ فقال له أبو بكر بن إسماعيل: ما بقي منك يا طويس؟ قال: بقي كلّي، يا أبا عمرو! قال: أفلا تسمعنا من بقاياك؟ قال: نعم.

ثم دخل خيمته، فأخرج خريطة، وأخرج منها دفًّا ثم نقر وغنَّى:

يا خليلي نابني سُهُدي لم تنم عيني ولم تكدِ
كيف تلحوني على رجلٍ مؤنسٍ تلتذُّهُ كبدي
مثل ضَوءِ البدر صورتهُ ليس بالزُّمَّيْلةِ النكِدِ[1]
من بني آل المغيرة لا خاملٍ نَكْسٍ ولا جَحْدِ
نظرت عيني فلا نظرت بعده عيني إلى أحَدِ

ثم ضرب بالدفّ الأرض والتفت إلى سعيد بن عبد الرحمٰن فقال: يا أبا عثمان، أتدري مَن قائل هذا الشعر؟ قال: لا، قال: قالته خولة ابنة ثابت عمتك في عمارة بن الوليد بن المغيرة. ونهض، فقال له بكر: لو لم تقل ما قلته لم يُسمعك ما أسمعك. وبلغت القصة عمر بن عبد العزيز. فقال: واحدة بواحدة والبادي أظلم[2].

(١) الزُّمَّيْل والزُّمَّيْلة: الضعيف الجبان الرَّذْل. والنكد: الشحيح القليل النفع.
(٢) العقد الفريد: ٧/ ٢٨ ـ ٣١.

الفرزدق والأحوص

قيل: إن الفرزدق قَدِم المدينة، فنزل على الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح صاحب النبيّ ﷺ وهو الذي حمتْ لحمه الدُّبُر، فقال له الأحوص: ألا أسمعك غناءً؟ قال: تغنَّ. فغناه:

أتنسى إذْ تودِّعُنا سليمى ... بعودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ البَشامُ
فنفسي من تجنَّبهُ عزيزٌ ... عليَّ ومن زيارتُهُ لمامُ
ومن أُمسي وأُصبح لا أراه ... ويطرُقني إذا هجع النيام

قال الفرزدق: لمن هذا الشعر؟ قال: لجرير. ثم غناه:

إن الذين غدوا بلبك غادروا ... وَشَلًا بعينك ما يزال مَعينا
غيَّضْنَ من عَبَراتهنَّ وقلنَ لي ... ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

فقال: لمن هذا؟ قال: لجرير. ثم غنَّاه:

أسري لخالدة الخيال ولا أرى ... شيئًا ألذَّ من الخيال الطارق
إن البَليَّة من يُمَلُّ حديثه ... فانقعْ فؤادك من حديث الوامق

فقال: لمن هذا الشعر؟ قال: لجرير.

قال: ما أحوجه مع عفافه إلى خنوثة شعري، وما أحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره.

الأحوص ومعبد وعقيلة

قال الأحوص يومًا لمعبد: امضِ بنا إلى عقيلة حتى نتحدث إليها ونسمع من غنائها وغناء جواريها، فمضيا، فألفيا على بابها معاذًا الأنصاري وابن صيّاد، فاستأذنوا فأذنت لهم إلّا الأحوص، فإنها قالت: نحن على الأحوص غضاب.

فانصرف الأحوص وهو يلوم أصحابه على استبدادهم بها وقال:

ضَنَّت عقيلة عنك اليوم بالزاد ... وآثرت حاجة الثاوي على الغادي
قولا لمنزلها: حُيِّيت من طللٍ ... وللعقيق: ألا حُيِّيتَ من وادِ
إني وهبت نصيبي من مودتها ... لمعبدٍ ومعادٍ وابن صيَّاد[1]

---

(١) العقد الفريد: ٧/ ٢٢.

الرشيد وعبثر

حضر مسامرة الرشيد يومًا عبثر المغني، وكان فصيحًا متأدبًا، وكان مع ذلك يغني الشعر بصوت حسن، فتذاكروا رقَّة شعر المدينين، فأنشد بعض جلسائه أبياتًا لابن الدمينة حيث يقول:

وأذكُرُ أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشيةٍ أن تصدَّعا
وليست عشياتُ الحمى برواجعٍ عليك ولكن خَلِّ عينيك تدمعا
بكت عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

فأعجب الرشيد برقة الأبيات، فقال له عبثر: يا أمير المؤمنين، إن هذا الشعر مدني رقيق قد غذي بماء العقيق حتى رقَّ وصفا؛ فصار أصفر من الهواء. ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ما هو أرقُّ من هذا وأحلى، وأصلب وأقوى، لرجل من أهل البادية. قال: فإني أشاء. قال: فإني أشاء. قال: وأترنم به يا أمير المؤمنين. قال: وذلك لك. فغنى لجرير:

إن الذين غدوا بلُبِّك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غَيَّضْنَ من عبراتهنَّ وقلن لي ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا
راحوا العشيَّة روحة «مذكورة» إن حزَنَ حرنا أو هدينَ هدينا
فرموا بهنَّ سواهما عُرض الفلا إن مِتْنَ مِتنا أو حُيين حيينا

قال: صدقت يا عبثرة - وخلع عليه وأجازه[١].

زريــاب

كان لإبراهيم الموصلي عبدٌ أسود يقال له زرياب، وكان مطبوعًا على الغناء علَّمه إبراهيم. وكان ربما حضر به مجلس الرشيد يغني فيه، ثم إنه انتقل إلى القيروان إلى بني الأغلب، فدخل على زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، فغناه بأبيات عنترة بن شداد، حيث يقول:

فإن تكُ أمي غُرابيَّةً من أبناء حامٍ بها عبتني

(١) العقد الفريد: ٧/ ٣٠.

فإني لطيفٌ ببِيضِ الظبا وسُمر العوالي إذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى لقُدْتك في الحرب أو قدتني

فغضب زيادة الله، وأمر بصفع قفاه وإخراجه، وقال له: إن وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك. فجاز البحر إلى الأندلس، فكان عند الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم[١].

جرير والشعراء

قَدِم جرير المدينة، فأتاه الشعراء وغيرهم وأتاه أشعب فيهم، فسلّموا عليه وحادثوه ساعة ثم خرجوا، وبقي أشعب، فقال له جرير: أراك قبيحًا وأراك لئيم الحسب ففيم قعودك وقد خرج الناس؟ فقال: أصلحك الله؛ إنه لم يدخل عليك اليوم أحد أنفع لك مني. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني آخذ رقيق شعرك فأزيّنه بحسن صوتي. فقال له جرير: فقُل: فاندفع يغنيه:

يا أختَ ناجيةَ السلام عليكمُ قبل الرحيل وقبل لوم العُذَّلِ
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلتُ ما لم أفعلِ

قال: فاستخفَّ جرير الطرب لغنائه بشعره، حتى زحف إليه واعتنقه وقبّل ما بين عينيه وسأله عن حوائجه فقضاها له[٢].

إبراهيم بن المهدي والمأمون

كان إبراهيم بن المهدي ـ وهو الذي يقال له ابن شكلة ـ داهيًا عاقلًا عالمًا بأيام الناس شاعرًا مغلّقًا، وكان يصوغ فيجيد. وقد خالف على المأمون ودعا لنفسه، فظفر به المأمون فعفا عنه. وقال لما ظفر به المأمون:

ذهبتُ من الدنيا كما ذهبتْ مني هوى الدهر بي عنها وأهوى بها عني
فإن أبْكِ على نفسي أبكِ عزيزةً وإن أحتبِيها أحتبِيها على ظنِّ

فلما فتحت له أبواب الرضا عند المأمون، غنى بهما بين يديه، فقال له المأمون: أحسنت والله يا أمير المؤمنين! فقام إبراهيم رهبة من ذلك، وقال: قتلتني والله يا أمير المؤمنين! لا والله إن جلست حتى تسمِّيني باسمي. قال:

---

(١) العقد الفريد: ٧/ ٣١.
(٢) العقد الفريد: ٧/ ٥٠.

اجلس يا إبراهيم. فكان بعد ذلك آثر الناس عند المأمون، ينادمه ويسامره ويغنيه.

فحدّثه يومًا فقال: بينا أنا مع أبيك يا أمير المؤمنين بطريق مكة، إذ تخلفتُ عن الرفقة وانفردت وحدي، وعطشت وجعلت أطلب الرفقة، فأتيت إلى بئر، فإذا حبشي نائم عندها، فقلت له: يا نائم، قم فاسقني. فقال: إن كنت عطشان فانزل واستقِ لنفسك. فخطر ببالي صوت، فترنمت به وهو:

كفِّناني إن متُّ في درع أروى　　　واسقياني من بئر عروةَ ماءَ

فلما سمع قام نشيطًا مسرورًا، وقال: والله هذه بئر عروة، وهذا قبره. فعجبت يا أمير المؤمنين لما خطر ببالي في ذلك الموضع، ثم قال: أسقيك على أن تغني. قلت: نعم. فلم أزل أغنيه وهو يجبذ الحبل، حتى سقاني ورَوَّى دابَّتي، ثم قال لي: أدلُّكَ على موضع العسكر على أن تغنيني؟ قلت: نعم.

فلم يزل يعدو بين يدي وأنا أغنيه حتى أشرفنا على العسكر فانصرف، وأتيت الرشيد فحدثته بذلك فضحك.

ثم رجعنا من حجنا فإذا هو قد تلقاني وأنا عديل الرشيد، فلما رآني قال: مغنّ والله! قيل له: أتقول هذا لأخي أمير المؤمنين؟ قال: أي لعمر الله، لقد غنَّاني، وأهدى إليَّ أقطًا(١) وتمرًا، فأمرت له بصلة وكسوة، وأمر له الرشيد بكسوة أيضًا.

فضحك المأمون، وقال: غنِّني الصوت، فغنّيته فافتتن به؛ فكان لا يقترح عليَّ غيره(٢).

أشعب وهاشمي وشعر ابن أبي ربيعة

كان يقال قديمًا: إذا قسا عليك قلب القرشي من تهامة، فغنِّه بشعر عمر بن أبي ربيعة وغناء ابن سريج. وكذا فعل أشعب برجل من أهل مكة من بني هاشم، وكان أشعب قد انتجع أهل مكة من المدينة.

---

(١) الأقط: لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويطبخ.

(٢) العقد الفريد: ٧/ ٣٢.

قال أشعب: فلما دخلت غنيته بغناء أهل المدينة وأهل العقيق، فلم ينجح ذلك فيه ولم يحركْ من طربه ولا أريحيَّته. فلما عيل صبري غنيته بغناء ابن سريج المكي وقول ابن أبي ربيعة القرشي:

نظرتُ إليها بالمحصَّب من منى ... ولي نظرٌ لولا التحرُّجُ عارمُ
فقلت أشمسٌ أم مصابيحُ راهبٍ ... بدت لك تحت السَّجْف أم أنت حالمُ
بعيدةُ مهوى القُرْط إما لنوفلٍ ... أبوها وإما عبد شمسٍ وهاشمُ

قال: فحركتُ والله طربه، وكان كالذي أردت. ثم غنيته لابن أبي ربيعة القرشي أيضًا:

ولولا أن يقول لنا قريشٌ ... مقال الناصح الأدنى الشفيقِ
لقُلتُ إذ التقينا قبليني ... وإن كنا بقارعةِ الطريقِ

فقال: أحسنَ والله! هكذا يطيب التَّلقِّي ـ لا بالخوف التَّوَقِّيُ ـ قال: فلما رأيته قد طرب للصوتين ولم يندَّ لي بشيء، قلت: هو الثالث وإلا فعليه السلام. قال: فغنيته الثالث من غناء ابن سريج قول عمر بن أبي ربيعة، ويقال إنها لجميل:

ما زلت أمتحنُ الدساكرَ دونها ... حتى ولجتُ على خفيِّ المُولِجِ
فوضعت كفي عند مقطعِ خصرها ... فتنفَّستْ نفسًا ولم تتلهَّجِ
قالت: وحقِّ أخي وحرمَة والدي ... لأنبهنَّ الحي إن لم تخرجِ
فخرجتُ خيفة قولها فتبسمت ... فعلمتُ أن يمينها لم تخرجِ
فرشفتُ فاها آخذًا بقرونها ... رشف النزيف ببردِ ماءِ الحشرجِ

فصاح الهاشميّ: أوَّه! أحسن والله وأحسنت. وأمر لي بألف درهم وثلاثين حلة وخلعة كانت عليه(١).

من شعر المتوكل

ومن شعر المتوكل بن عبد الله بن نهشل ـ وكان كوفيًا في عصر معاوية ـ وهو القائل:

«لا تنهِ عن خُلق وتأتي بمثله»

---

(١) العقد الفريد: ٧/ ٧٤.

يقـول:

قـفـي قـبـل الـتـفـرق يـا أمـامـا ... ورُدِّي قـبـل بـيـنـكـم الـسـلامـا
تـرجِّـيـهـا وقـد شـطـت نـواهـا ... ومـنَّـتـك الـمـنـى عـامًـا فـعـامـا
فـلا وأبـيـك لا أنـسـاك حـتـى ... تـجاوبَ هامتي في القبر هاما

ومما يُغنّى به لعدي بن الرقاع:

تُــزجـي أغــنَّ كــأن إبــرة روقِــهِ ... قـلمٌ أصـاب مـن الـدواة مـدادهـا
ولـقـد أصبتُ مـن الـمعيشة لـذَّةً ... ولقيتُ من شظف الخطوب شدادها
وعـلـمـت حـتـى مـا أسـائـلُ عـالـمًـا ... عـن حـرف واحـدة لـكـي أزدادهـا[1]

من رقائق الغناء

قال الزبير بن بكار: سألت إسحٰق: هل تغنّى من شعر الراعي شيئًا؟ قال: وأين أنت من قوله:

فلم أرَ مظلومًا على حال عِزَّةٍ ... أقـلَّ انـتـصـارًا بـالـلسـان وبـالـيـد
سوى ناظرٍ ساجٍ بعين مريضةٍ ... جرَتْ عبرةٌ منها ففاضت بإثمدِ

ومن شعر ابن الدمينة ـ وهو عبد الله بن عبيد الله، والدمينة أُمّه، وهو من أرقّ شعراء المدينة بعد كثير عزة وقيس بن الخطيم:

بـنـفـسي وأهـلي من إذا عـرضـوا لـه ... بـبـعـضِ الأذى لـم يـدر كـيـف يـجـيـبُ
ولـم يـعـتـذر عُـذر الـبـريء ولـم تـزل ... لـه بـهـتـة حـتـى يـقـال مُـريـبُ
جرى السَّيل فاستبكانيَ السيل إذ جرى ... وفـاضــت لــه مُـقْـلَـتـيَّ غــروبُ
ومــا ذاك إلّا أن تــيــقــنــتُ إنــه ... يــمــرُّ بــوادٍ أنــت مــنــه قــريــبُ
يـكـون أجـاجًـا قـبـلـكـم فـإذا انـتـهـى ... إلـيـكـم تـلـقـى طـيـبـكـم فـيـطـيـبُ
أيـا سـاكـنـي شـرقـيَّ دجـلـة كـلُّـكـم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

ومن قول يزيد بن الطثرية ـ وغنى به ابن صيّاد المدني وغيره:

بـنـفـسيَ مـن لـو مـرَّ بـردُ بـنـانـه ... عـلـى كـبـدي كـانـت شـفـاءً أنـامـلُهْ
ومـن هـابـنـي فـي كـلِّ شـيء وهِـبْـتُـهُ ... فـلا هـو يـعـطـيـني ولا أنـا سـائـلُهْ

---

(١) العقد الفريد: ٧/ ٧٥.

ومما غنّى به نومة الضحى:

يا موقد النار قد أعْيَتْ قوادِحُهُ　　اقْبِسْ إذا شئتَ من قلبي بمقياسِ
ما أوحش الناسَ في عيني وأقبحهم　　إذا نظرت فلم أبصرك في الناسِ

ومما يُغنّى به من شعر ذي الرمة وهو أرقُّ شعر:

لئن كانت الدنيا عليَّ كما أرى　　تباريحَ من ذكراك فالموت أَرْوَحُ

وأكثر ما كان يغنّي به معبد بشعر الأحوص، ومن جيد شعره:

كأني من تذكُّر أمِّ حفصٍ　　وحبلُ وصالها خَلَقٌ رِمامُ
صريعُ مدامةٍ غلبت عليه　　تموتُ له المفاصل والعظامُ
سلام الله يا مطرٌ عليها　　وليس عليك يا مطرُ السلام
فإن يكنِ النكاح أحلَّ شيءٍ　　فإن نكاحها مطرًا[1] حرامُ[2]

طويس والنعمان بن بشير

قال الأصمعي: حدّثني رجل من أهل المدينة، قال: كان طويس يتغنّى في عرس رجل من الأنصار، فدخل النعمان بن بشير الأنصاري العرس وطويس يغني:

أجدّ بعمرة عتبانها　　فتهجر أم شأننا شأنها
وعمرةُ من سروات النساء　　تنفح بالمسك أردانها

فقيل له: اسكت! اسكت! لأن «عمرة» أمّ النعمان بن بشير. فقال النعمان: إنه لم يقل بأسًا، وإنما قال:

وعمرةُ من سروات النساء　　تنفَحُ بالمسك أردانها

الغريض وختان

قال إسحٰق الموصلي: شهد الغريض ختانًا لبعض أهله، فقال له بعض القوم: غنِّ. فقال: هو ابن الزانية إن غنى! فقال له مولاه: فأنت والله ابن زانية، فغنِّ. قال: أكذلك أنا عندك؟ قال: نعم. قال: أنت أعلم. فغنّى:

وما أنسَ م الأشياء لا أنسى شادنًا　　بمكة مكحولًا لا أسيلًا مدامعُه
تشرَّب لَونَ الرَّازقيِّ بياضهُ　　أو الزعفران خالطَ المسك رادعه

(١) مطر: اسم رجل.

(٢) العقد الفريد: ٧/٨٦ ـ ٨٧.

فلوت الجن عنقه فمات. وقال غير إسحٰق: بل غنّى:

أمِـن مـكـنـونـةَ الـطَّـلـلُ يـلـوح كـأنـه خَـلَـلُ
لـقـد نـزلـوا قـريـبًـا مـنـ ـك لـو نـفـعـوك إذ نـزلـوا
تـحـاولـنـي لـتـقـتـلـنـي ولـي بـعـيـنـهـا حَـوَلُ

طويس وابن سريج والدلال ونومة للضحى

كان مع طويس بالمدينة: ابن سريج، والدلال، ونومة الضحى، ومنه تعلموا. ثم نجم بعد هؤلاء سلم الخاسر، وكان في صحبة عبد الله بن عبد الله بن جعفر، وعنه أخذ معبد الغناء. ثم كان ابن أبي السمح الطائي، وكان يتيمًا في حجر عبد الله بن جعفر، وأخذ الغناء عن معبد، وكان لا يضرب بعود، وإنما يغنّي مرتجلًا. فإذا غنّى لمعبد صوتًا حققه، ويقول: قال الشاعر فلان، ومططه معبد، وخففته أنا. ومن غنائه:

نـام صـبـحـي ولـم أنـم لـخـيـالٍ بـنـا ألـمّ
إنَّ فـي الـقـصـر غـادة كـحـلـت مُـقـلـتـي بـدَمْ

الغـــزيِّـل

كان بالشام أيام الوليد بن يزيد مُغَنٍّ يقال له الغزيِّل، ويكنى أبا كامل، وفيه يقول الوليد بن يزيد:

مَـن مُـبـلغٍ عـنـي أبـا كـامـلِ أنـي إذا مـا غـاب كـالـهـابـلِ

ومن غناء الغزيِّل:

أمـدحِ الـكـأس ومـن أعـمـلـهـا وأهْـجُ قـومًـا قـتـلـونـا بـالـعـطَـشْ
إنـمـا الـكـأسُ ربـيـعٌ بـاكـرٌ فـإذا لـم نـذقـهـا لـم نَـعِـشْ(١)

المأمون لم يسمع الغناء بعد خلافته عشرين شهرًا

قال إسحٰق الموصلي: لما أفضت الخلافة إلى المأمون، أقام عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الغناء. ثم كان أول مَن تغنّى بحضرته أبو عيسى، ثم واضب

(١) العقد الفريد: ٧/ ٣٢ ـ ٣٤.

على السماع. وسأل عني فجرَّحني عنده بعض من حسدني فقال: ذلك رجل يثيبه على الخلافة.

فقال المأمون: ما أبقى هذا من التيه شيئًا. وأمسك عن ذكري، وجفاني كل مَن كان يصلني لما ظهر من سوء رأيه، فأضرَّ ذلك بي، حتى جاءني عَلُّويه، فقال لي: أتأذن لي اليوم في ذكرك، فإني اليوم عنده؟

فقلت: لا، ولكن غنّه بهذا الشعر - فإنه سيبعثه على أن يسألك من أين هذا؟ فينفتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء. فمضى علوية؛ فلما استقرّ به المجلس غنّاه الشعر الذي أمرته به، وهو:

يا مشرع الماء قد سُدَّت مسالكه أما إليك سبيلٌ غير مسدودِ
لِحائِم حار حتى لا حياة به مُشرَّدٍ عن طريق الماء مطرودِ

فلما سمعه المأمون قال: ويلك! لمن هذا؟ قال: يا سيدي، لعبدٍ من عبيدك جفوته واطرحته. قال: إسحٰق؟ قلت: نعم. قال: ليحضر الساعة.

قال إسحٰق: فجاءني الرسول، فسرتُ إليه؛ فلما دخلتُ قال: ادنُ مني! فدنوت، فرفع يديه مادَّهما، فاتكأت عليه، فاحتضنني بيديه، وأظهر من إكرامي وبرِّي ما لو أظهره صديق لي مواس لسرَّني.

قِنْد

كان في المدينة في الصدر الأول مغنٍّ يقال له قِند. وهو مولى سعد بن أبي وقاص، وكانت عائشة أم المؤمنين تستظرفه، فضربه سعد، فحلفت عائشة لا تكلمه حتى يرضى عنه قند. فدخل عليه سعد فاسترضاه، فرضي عنه، وكلمته عائشة.

وكان معاوية يُعقب بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص على المدينة. ويستعمل هذا سنة وهذا سنة. وكانت في مروان شدَّة وغلظة، وفي سعيد لين عريكة وحلم وصفح. فلقي مروان بن الحكم قندًا المغني، وهو معزول عن المدينة وبيده عكازة؛ فلما رآه قال:

قلْ لقندٍ يشيِّع الأظعانا ربما سرَّ عيننا وكفانا

فقال قند: لا إلـه إلا الله! ما أسمجك واليًا ومعزولًا[1].

سليمان ومغن في سكره

كان سليمان بن عبد الملك مفرطًا في الغيرة، فسمع مغنيًا في عسكره. فقال: اطلبوه! فجاؤوا به فقال له: أعد ما تغنَّيتَ به. فأعاد واحتفل، فقال لأصحابه: والله لكأنها جرجرة الفحل في الشوَّل. وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صَبَتْ إليه. ثم أمر به فخُصي.

وذُكر لابن أبي العتيق أن المخنثين خُصوا، وأنه خُصيَ فلان فيهم ـ لواحدٍ منهم يعرفه ـ فقال ابن أبي عتيق: إنا لله وإنا إليه راجعون! لئن خصيَ لقد كان يحسن:

لـمـن ربـعٌ بـذات الـجـيـ ـشِ أمـسـى دارسًـا خـلـقـا

ثم استقبل ابن أبي العتيق القبلة، فلما كبر سلم، ثم قال لأصحابه: أما إنه كان يحسن خفيفه؛ فأما ثقيله فلا، ثم كبَّر.

أول مَن عمل العود في المدينة

قيل: أول مَن عمل العود في المدينة وغنّى به هو سائب خاثر. وكان مولى لبني ليث، وأصله من فيء كسرى، واشتراه عبد الله بن جعفر.

وكان عبد الله بن عامر بن كُريز سبى إماء صنّاجات، فأتى بهنَّ المدينة، فكنَّ يلعبن في يوم الجمعة ويسمع الناس منهنَّ، فأخذ عنهنَّ. وقدم رجل فارسيّ يُعرف بنشيط، فغنّى، فعجب عبد الله بن جعفر به ـ فقال له سائب خاثر: أنا أضع لك غناء هذا الفارسي بالعربية. ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد عمل:

لِـمـن الـديـارُ رسـومـهـا قَـفْـرُ لـعـبـت بـهـا الأرواح والـقَـطْـرُ
وخـلا لـهـا مـن بـعـد سـاكـنـهـا حـجـجٌ مَـضَـيْـنَ ثـمـانٍ أو عـشـرُ
والـزعـفـران عـلـى تـرائـبـهـا شـرقٌ بـه الـلَّـبـات والـنـحـرُ

قال ابن الكلبي: هو أول صوت غُنيَّ به في الإسلام من الغناء العربي المتقن الصنعة. ثم قال: اشترى عبد الله بن جعفر نشيطًا بعد ذلك، فأخذ عنه

(١) العقد الفريد: ٧/ ٣١ ـ ٣٢.

سائب خاثر الغناء العربي، وأخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم.

وكان سائب موسرًا يبيع الطعام بالمدينة، وكان عنده أربع نسوة، وكان انقطاعه لعبد الله بن جعفر. وهو في ذلك يخالط سروات الناس وأشرافهم، لظرفه وحلاوته وحسن صوته. وكان قد آلى على نفسه ألَّا يغنِّي أحدًا سوى عبد الله بن جعفر، إلَّا أن يكون خليفة أو وليَّ عهد ابن خليفة، فكان على ذلك حتى قُتل.

وكان مقتل سائب خاثر يوم الحرَّة. قال: وكان يخشى على نفسه من أهل الشام، فخرج إليهم وجعل يقول: أنا مغنٍّ، ومن حالي ومن قصيَ كذا. وقد خدمتُ أمير المؤمنين معاوية، ويزيد ابنه. فقالوا له: غنِّ لنا. ففعل. فقام أحدهم فقال: أحسنت والله، ثم ضربه بالسيف فقتله. وبلغ يزيد خبره ومرَّ به اسمه في أسماء من قُتِلَ فلم يعرفه وقال: إنا لله! أو بلغ القتلُ إلى سائل خاثر وطبقته؟! ما أرى أنه بقي أحد في المدينة. وقال: قبَّحكم الله يا أهل الشام![1].

أول من قصَّدَ القصائد الطوال

المهلهل

قال أبو عبيدة: اسمه عديّ وقال يعقوب بن السكيت: اسمه امرؤ القيس. وهو ابن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب، يصل نسبه لتغلب.

وإنما لُقِّبَ مهلهلًا لطيب شعره ورقَّته. وكان أحد من غنَّى العرب بشعره. وقيل: إنه أول من قصَّد القصائد، وقال الغزل. فقيل: قد هلهل الشعر، أي أرقَّه.

وهو أول مَن كذب في شعره. وهو خال امرىء القيس بن حجر الكندي. وكان فيه خنث ولين. وكان كثير المحادثة للسناء، فسماه أخوه كليب: زير النساء. وفي ذلك يقول:

ولو نُبِشَ المقابرُ عن كليبٍ ... فيعلم بالذنائب أيُّ زيرِ

(١) الأغاني: ١٨٨/٧. ونهاية الأرب: ٢٤٤/٤.

وأما البيت الذي كذب فيه فقوله:

كـأنـمـا غـدوةً وبـنـي أبـيـنـا بـجـنـب غـنـيـزةٍ رَحَـيَـا مُـدبـر
ولـولا الـريـح أسـمـع مـن بـحـجـرٍ صـلـيـل الـبـيـض تُـقـرعُ بـالـذّكـورِ

فقتالهم كان بالجزيرة، وحجر قصبة باليمامة، وبين الموضعين مسافة بعيدة.
وقيل: سمي المهلهل لقوله:

لما توغَّر في الكراع هجينهم هَلْهَلْتُ أثأر جابرًا أو صِنْبِلا[١]

طويس أول من غنّى بالعربية في المدينة

طويس أول مَن غنَّى بالعربية في المدينة وهو أول مَن ألقى الخنث بها، وكان طويلًا يكنّى أبا عبد المنعم. كان لا يضرب بالعود بل ينقر بالدف. وكان ظريفًا عالمًا بأمر المدينة وأنساب أهلها.

وكان الناس يضربون به المثل فيقولون: أهزج من طويس. وهو أول مَن غنّى المتقن من المخنثين، وأول مَن صنع الهزج في الإسلام.

وطويس لقب، واسمه طاوس، مولى بني مخزوم.

طويس وأبان بن عثمان

وفد أبان بن عثمان على عبد الملك بن مروان فأمَّرهُ على الحجاز، فأقبل حتى إذا دنا من المدينة استقبله أهلها، وخرج إليه أشرافها، فخرج معهم طويس. فلما رآه سلّم عليه، ثم قال له: أيها الأمير إني كنت أعطيتُ الله عهدًا لئن رأيتك أميرًا لأخضبنَّ يدي إلى المرفقين، ثم أَزْدو[٢] بالدفِّ بين يديك. ثم أبدى عن دُفِّه وتغنَّى بشعر ذي جَدَن الحميري:

مـا بـالُ أهـلكِ يـا ربـابُ خُـزْرًا كـأنَّـهُـمُ غـضـابُ

قال: فطرب أبان حتى كاد يطير. ثم جعل يقول له: حسبك يا طاوس - ولا يقول يا طويس، لنبله في عينه. ثم قال له: اجلس. فجلس.

---

(١) الأغاني: ٥/٥٦. والشعر والشعراء: ٢١٥. وأمالي القالي: ٢/ ١٣٠.
(٢) أزدو: أضرب.

فقال له أبان: قد زعموا أنك كافر. فقال: جُعلت فِداءك! والله إني لأشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأصلي الخمس، وأصوم شهر رمضان وأحجُّ البيت.

فقال: أفأنت أكبر أم عمرو بن عثمان؟ وكان عمرو أخا أبان لأبيه وأمه.

فقال طويس: أنا والله ـ جُعلت فداك ـ مع جلائل نساء قومي، أمسك بذيولهن يوم زُفَّتْ أمك المباركة إلى أبيك الطيب. قال: فاستحيا أبان ورمى بطرْفِهِ إلى الأرض.

وقد علَّق ابن عبد ربه في العقد الفريد (ج ٣ صفحة ٢٤٢) بعد أن ساق هذه القصة. وقال: انظر إلى حذق طويس ورقة أدبه كيف لم يقل «أمك الطيبة وأبوك المبارك». وقد فسرها الجاحظ أيضًا فقال:

«لو قال طويس: شهدت زفاف أمك الطيبة، لم يحسن؛ لأن قولك «طيب» إنما يدل على قدر ما اتصل بها من الكلام... وقد قال الشاعر:

«والطيبون معاقد الإزر»

فقد يخلو الرجل بالمرأة فيقول: وجدتها طيبة، أي لذيذة.

وقيل إن أبان قال لطويس: يقولون إنك مشؤوم! قال: وفوق ذلك. قال: وما بلغ من شؤمك؟ قال: ولدتُ ليلة توفي النبيّ ﷺ وفُطمتُ ليلة مات أبو بكر الصديق، قال أبان: فاخرج عني عليك الدَّبار![1].

ذو جَدَنَ أول مَن غنّى في اليمن

هو عَلَسُ بن زيد بن الحارث بن الغوث. وهو ملك من ملوك حمير. ولُقِّب ذا جَدَن لحسن صوته. والجدن الصوت بلغتهم. ويقال إنه أول مَن تغنّى باليمن.

قال رجل من صنعاء إنهم حفروا حفيرًا في زمن مروان، فوقفوا على أزجٍ[2] له باب، فإذا هم برجل على سرير كأعظم ما يكون من الرجال، عليه خاتم من ذهب وعصابةٌ من ذهب، وعند رأسه لوحٌ مكتوب فيه:

---

(١) الأغاني: ٤/٢١٩ ـ ٢٢١. والعقد الفريد: ٧/٣٠.

(٢) الأزج: بناء مستطيل مقوس السقف.

«أنا عَلَس ذو جَدَن القَيْل[١]، لخليلي منّي النَّيل، ولعدوّي مني الويل. طلبت فأدركت وأنا ابن مائة سنة من عمري، وكانت الوحش تأذن[٢] لصوتي، وهذا سيفي ذو الكفِّ عندي، ودرعي ذات الفروج، ورُمحي الهزبري، وقوسي الفجواء[٣]، وقرني[٤] ذات الشر، فيها ثلاثمائة حَشْر[٥] من صفة ذي نَمِرَ[٦]، أعددتُ ذلك لدفع الموت عني فخانني».

قال: فنظرنا فإذا جميع ذلك عنده.

ويرجع نسب ذي جدن إلى الهميسع بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ومن شعره وقد غناها المغنون في أيام العباسيين:

مـــا بـــالُ أهـــلك يـــا ربـــابُ   خُـــزْرًا كـــأنـــهـــمُ غـــضـــابُ
إن زُرْتُ أهـــــلك أوعـــــدوا   وتـــهـــرُّ دونـــهـــمُ الـــكـــلابُ[٧]

ابن سريج والغناء

قيل: إن رجلًا من أشراف قريش قال لابن سريج يعاتبه على الغناء: لو أقبلت على غيره من الآداب لكان أزينَ لك ولمواليك. فقال: جُعلتُ فداك! امرأته طالق إن أنت لم تدخل الدار.

فقال الشيخ: ويلك، ما حملك على هذا؟ قال: جُعلت فداك، قد فعلت. فالتفت النوفلي إلى بعض مَن كان معه متعجبًا مما فعل. فقال له القوم: قد طُلِّقَتْ امرأته إن أنت لم تدخل الدار. فدخل ودخل معه القوم. فلما توسطوا الدار قال: امرأته طالق إن أنت لم تسمع غنائي.

قال: اغرُبْ عن وجهي يا لكع. ثم بدر الشيخ ليخرج، فقال له أصحابه: أتطلق امرأته وتحمل وِزر ذلك؟

---

(١) القَيْل: من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم. والجمع: أقيال.
(٢) تأذن: تأنس. (٣) القوس الفجواء: التي بان وترها.
(٤) القَرَن: الجعبة.
(٥) الحشر من السلاح: الدقيق المحدد. ومن السهام: المستوي الريش.
(٦) ذو نمر: واد بنجد في ديار بني كلاب. (٧) الأغاني: ٢١٨/٤.

قال: فوزر الغناء أشدُّ. قالوا: كلا، ما سوَّى الله بينهما. فأقام الشيخ مكانه. ثم اندفع ابن سريج يغني من شعر عمر بن أبي ربيعة في زينب:

أَلَيْسَتْ بالتي قالت ... لمولاةٍ لها ظهرا
أشيري بالسلام لهُ ... إذا هو نحونا خطرا
وقولي في ملاطفةٍ ... لزينب نوِّلي عمرا
وهذا سحرك النسوان ... قد خبَّرنني الخبرا

فقال الشيخ للجماعة: هذا والله حسن! وما بالحجاز مثله ولا في غيره. وانصرفوا[1].

التلبية في الحج لأبي نواس

أبو نواس الحسن بن هانىء ثامن مشاهير الشعراء العباسيين. ولد في الأهواز بفارس سنة ١١٤ هـ وهي السنة التي أسس فيها أبو جعفر المنصور العباسي مدينة بغداد. وكان أبوه دمشقيًا من جنود مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين.

في عصر أبي نواس بدأ يزدهر كل ما استنبت في العصور السابقة من غروس الحضارة، خيرها وشرها، جدها وهزلها، يقينها وشكّها. وكان أبو نواس بحكم نشأته ومزاجه أميل إلى اللهو، فتغنّى في شعره بكل تيارات عصره ولا سيما تياراته اللاهية، وتطرف في مجونياته كَكُثر من معاصريه وفي مقدمتهم الشعراء.

ولمّا كانت النفس الإنسانية لا تطيق الاستمرار في لذائذها المادية، فإن أبا نواس كان يستشعر الندم على إفراطه في مجونه، فيعود إلى التوبة والاستقامة في فتراته ولا سيما في شيخوخته. ومن هنا كان أكثر من النظم في الزهد وزجر النفس عن المعاصر والتوبة إلى الله، وله في ذلك نحو خمسين قصيدة ومقطوعة لا تقل حرارة عن زهديات أبي العتاهية الذي اشتهر بشعره في الزهد.

وقد حج كثير من الشعراء إلى بيت الله، ولكننا لا نعرف أحدًا منهم نظم «التلبية» التي يدعو بها الحاج منذ يتحرك للحج حتى ينتهي حجه غير أبي نواس.

(١) الأغاني: ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

ومن صيغ التلبية: «لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك لبيك! إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك!».

يقول أبو نواس:

إلــٰهــنـــا، مـــا أعــدلَكْ   مــليـــكَ كـــل مَــنْ مَـــلَكْ
لــبـيــك، قــد لــبَّـيــتُ لَكْ   لــبـيــكَ، إن الــحــمــدَ لَكْ
والــمــلكَ، لا شــريــكَ لــكْ
مــا خــاب عــبــدٌ أمَّــلكْ   أنــت لــه حــيــث سَــلَكْ
لـــولاك يـــا ربُّ هـــلَكْ   لــبيــكَ، إنَّ الــحــمــدَ لَكْ
والــمــلكَ، لا شـــريــكَ لَكْ
كـــل نـــبـــيٍّ ومَـــلَكْ   وكـــلُّ مـــن أهـــلَّ لَكْ
وكـــلُ عـــبــدٍ ســـألَكْ   ســبَّــح، أو لـــبَّـى فَــلَكْ
لــبــيــكَ إن الــحــمــد لَكْ
والــمــلكَ، لا شـــريــكَ لَكْ
والــلــيــلِ لــمـــا أنْ حَــلَكْ   والــسـابــحـاتِ فــي الــفَــلَكْ
عــلى مـجـاري الـمُـنْـسَـلَكْ   لــبــيــكَ إنَّ الــحَــمــد لَكْ
والــمــلكَ، لا شـــريــكَ لَكْ
يـــا خـــاطـــئًا مـــا أغـــفـــلَكْ   اعـــمـــلْ، وبـــادِرْ أجـــلَكْ
واخـــتـــمْ بـــخـــيـــرٍ عـــمـــلَكْ   لــبــيــكَ، إن الــحــمــدَ لَكْ
والــمــلكَ، لا شـــريــكَ لَكْ

التلبية في الحج قبل الإسلام

كانت العرب، إذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كلّ قبيلة عند ضمها وصلُّوا عنده ثم تقدَّموا إلى مكة، فكانت تلبياتهم مختلفة:

وكانت تلبية قريش: لبَّيك، اللهمَّ لبَّيك! لبَّيْكَ، لا شريك لَكْ! تملكه وما ملك!

وكانت تلبية كنانة: لبَّيك اللهمَّ لبَّيك! اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف.

وكانت تلبية بني أسد: لبَّيْك اللهم لبَّيْك! يا ربِّ أقبلت بنو أسد، أهل التواني والوفاء والجلد، إليك.

وكانت تلبية بني تميم: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيك! لبَّيكَ لبَّيْكَ عن تميم قد تراها، قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءَها.

وكانت تلبية قيس عيلان: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْك! لبَّيك أنت الرحمٰن! أتتك عيلان، راجلها والركبان.

وكانت تلبية ثقيف: لبَّيكَ اللهمَّ! إن ثقيفًا قد أتوك، وأخلفوا المال وقد رجوك[1].

في ذكر القينات والأغاني

محبــوبـة

حكى علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر من خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت في الجمال والأدب وأجادت قول الشعر، وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة، ثم أنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء، فهجرها.

قال عليّ بن الجهم، فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظني، فقال: يا علي قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: قد رأيت الليلة في منامي كأني رضيت على محبوبة وصالحتها، فقلت: خيرًا رأيت يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك إنما هي جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله إنا لفي حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة. فقال: قم بنا يا علي ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هي تضرب بالعود وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحدًا ... أشكو إليه ولا يكلّمني
كأنّني قد أتيت معصيةً ... ليس لها توبةٌ تخلّصني

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٤.

فهل شفيعٌ لنا إلى ملكٍ قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباح لاح لنا عاد إلى هجره وصارمني[١]

قال: فصاح أمير المؤمنين، فلما سمعته تلقته، وأكبت على رجليه تقبلهما، فقال: ما هذا؟ قلت: يا مولاي رأيت في منامي هذه الليلة كأنك قد رضيت عني، فأنشدت ما سمعت، قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك، ثم قال: يا علي هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان.

حوار بين مغني ومغنية

قيل: وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد في موضعه الذي شرب فيه ومَن كان معه من ندمائه ولم يخرج، فشرب يومًا وخرج مَن كان عنده إلا مغنيًا واحدًا أظهر التراقد فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلال المجلس كتب المغني رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إني رأيتك في المنام ضجيعتي مسترشفًا من ريقِ فِيكِ البارد[٢]
وكأنّ كفّك في يدي وكأنّنا بتنا جميعًا في لحافٍ واحدِ
ثم انتبهت ومنكباك كلاهما في راحتي وتحت خدّكِ ساعدي
فقطعت يومي كلّه متراقدًا لأراك في نومي ولست براقدِ

فكتبت إليه على ظهرها تقول:

خيرًا رأيت وكل ما أمّلته ستناله منّي برغم الحاسد
وتبيت بين خلاخلي ودمالجي وتحل بين مراشفي ونواهدي[٣]
ونكون أنعم عاشقين تعاطيا مُلَحَ الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدّت يدها لترمي إليه بالرقعة رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال: ما هذا؟ فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ولا كتاب ولا رسول إلا أن العشق قد خامرهما قال: فأعتقها من وقتها وزوجها به، وقلت: خذها ولا تقربنا بعد اليوم.

---

(١) صارمني: قاطعني وفارقني. (٢) الضجيعة: أي نائمة معه في فراش واحد.
(٣) دمالجي: الحلي التي توضع في الساعدين.

أبو نواس وكاعب

كان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها كاعب وكانت بكرًا ناهدًا بنت ثلاث عشرة سنة قال: فتلاعب عليها أبو نواس، فتمنعت فوقع في قلبه منها ما وقع وأحبته هي أيضًا، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت، فظفر بها ليلة من الليالي في ناحية من القصر، فأمسكها، فبكت وقالت له: يا سيدي الموت دون ذلك، فقال أبو نواس: هذا جزع الأبكار، فاتفق أنه خرج يومًا من القصر وقد ترقرق الدجا فوجدها نائمة في سدلة وهي سكرى لا تفيق، فتقرب منها وحل سراويلها ووقع عليها فإذا هي خالية من البكارة، فارتاع وظن أن يكون أتاها دم، فلم يجد، فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول:

وناهدة الثديين من خدم القصر
مرقوقةُ الخدّين ليليّةُ الشعر
كلفتُ بها دهرًا على حسن وجهها
طويلًا وما حبُّ الكواعب عن أمري[1]
فما زلت بالأشعار حتى خدعتها
وروّضتها والشعرُ من خدع السحر
أطالبها شيئًا فقالت بعبرةٍ
أموت ولا هذا ودمعتها تجري
فلما تعارضنا توسّطت لجّةً
غرقتُ بها يا قوم في لجج البحر[2]
فصِحْتُ أغثني يا غلامُ فجاءني
وقد زلقت رجلي وصرت إلى الصدر
ولولا صياحي بالغلام وإنه
تداركني بالحبل صرت إلى القعر
فأقسمت عمري لا ركبت سفينةً
ولا سرت طول الدهر إلا على ظهر

(١) الكواعب: الفتيات اللاتي بلغن سن الإدراك.
(٢) تعارضنا: تقابلنا والتقينا على الفراش.

أبو نواس وقينة

حدّث الشيباني قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها، وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شابًا يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات:

ومظهرةٍ لخلق الله ودًا ... وتلقي بالتحية والسّلام
أتيت لبابها أشكو إليها ... فلم أخلصْ إليه من الزّحام
فيا من ليس يكفيها خليلٌ ... ولا ألفا خليلٍ كلَّ عام
أراك بقيةً من قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام

الزلفاء وسنان

قال أبو سويد: حدّثني أبو زيد الأسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها، وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت.

فقلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، وكان مطرقًا، فرفع رأسه، وقال: أبا زيد في مثل هذا حين تصاحبنا، فقلت: أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ قال: نعم على أهل المحبة، ثم أطرق مليًا ورفع رأسه وقال: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أصلح الله الأمير قهوة حمراء في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة الفاء أشربها من كفها وأمسح فمي بخدها، فأطرق سليمان مليًا لا يرد جوابًا تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق، فلما رأت الوصائف ذلك تنحيّن عنه، ثم رفع رأسه، فقال: أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك والله لأضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك.

قلت: نعم أصلح الله الأمير كنت جالسًا عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب إسكندراني يبين منه بياض بدنها وتدوير سرتها ونقش تكتها، وفي رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان

إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها، وعينان مملوءتان سحرًا، وأنف كأنه قصبة بلور، وفم كأنه جرح يقطر دمًا وهي تقول: عباد الله من لي بدواء ما لا يشتكى وعلاج ما لا يسمى طال الحجاب وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس، رحمة الله على قوم عاشوا تجلدًا وماتوا كمدًا، ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمرًا جميلًا، ثم أطرقت طويلًا ورفعت رأسها.

فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية؟ فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك، فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترني، ثم قالت: أعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند، ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعامًا طيبًا إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسنًا إلا سمج في عيني لحسنها فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستفزني والصبا يعاودني والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت. اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيتها هي الذلفاء التي قيل فيها:

إنّما الذلفاء ياقوتةٌ   أخرجت من كيس دهقان(١)

شراؤها على أخي ألف ألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها والله إن مات ما يموت إلا بحبها ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة وفي توقع الموت نهيه، قم أبا زيد في دعة الله تعالى.

ثم قال: يا غلام نفله ببدر، فأخذتها وانصرفت، قال: فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغنٍ يقال له: سنان، به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه، فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: نريد قرًا أصلحك الله، قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع، قال: أما

---

(١) الدهقان: التاجر أو رئيس الإقليم.

الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاختاروا صوتًا واحدًا أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا، فرفع صوته يغني بهذه الأبيات:

محجوبة سمعتْ صوتي فأرَّقها ... من آخر الليل لما نبّه السحرُ
في ليلة البدر ما يدري مُضاجِعُها ... أوجهُهَا عنده أبهى أم القمر
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق ... فدمعها لطروق الصوت منحدر(١)
لو مُكِّنت لمشت نحوي على قدمٍ ... تكاد من لينها في المشي تنفطر(٢)

قال: فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئًا من حسن خلق ولطافة قد إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها، فحرك ذلك ساكنًا من قلبها، فهملت عيناها، وعلا نحيبها، فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال: ما هذا يا ذلفاء؟ فقال:

ألا ربَّ صوتٍ رائعٍ من مشوّهٍ ... قبيحِ المحيا واضعِ الأبِ والجدِّ(٣)
يروعك منه صوته ولعله ... إلى أمةٍ يُعزى معًا وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام عليَّ بسنان، فدعت الذلفاء خادمًا لها، فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان، فحذرته، فلك عشرة آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان، فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال: يا سنان. ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده، فليفعل، قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل دقّت له الحجرة، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك إياك والعود إلى ما كان منك، فيطول غمّك.

---

(١) غلق: ستائر وموانع. (٢) تنفطر: تتقصف.
(٣) واضع الأب: أي حقيرة ووضيعة.

أنا عندك الليلة

حُكِيَ أن الرشيد فصد يومًا فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحًا فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه جميلة الطلعة بديعة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات:

فصدْتَ عرقًا تبتغي صِحّةً ... ألبسك الله به العافية[١]
فاشرب بهذا الكأس يا سيدي ... واهنأ به من كفِّ ذي الجاريه
واجعل لمن أنفذه خلوةً ... تحظى بها في الليلة الآتيه

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح فاستحسنها، فافتضها، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك، فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات:

بعثتُ الرسولَ فأبطأ قليلًا ... على الرغم منّي فصبرًا جميلا
وكنت الخليلَ وكان الرسولُ ... فصرت الرسولَ وصار الخليلا
كذا من يوجّه في حاجةٍ ... إلى مَن يحبُّ رسولًا جميلا

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة.

جارية المهدي

أهدى داود بن روح المهلبي إلى المهدي جارية، فحظيت عنده، فواعدته المبيت عنده ليلة، فمنعها الحيض، فكتب إليها يقول:

لأهجرنّ حبيبًا خان موعده ... وكان منه لصفو العيش تكديرُ

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجرن حبيبًا خان موعده ... ولا تذمنّ وعدًا فيه تأخير
ما كان حبسي إلا من حدوث أذًى ... لا يُستطاع له بالقول تفسيرُ

وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمست تُباع ولو تباعُ بوزنها ... درًّا بكى أسفًا عليها البائع

---

(١) الفصد: إخراج الدم من الجسد بآلة حادة كالشفرة مثلًا.

حسبي حُسني

كان للمأمون جويرية من أحسن الناس، وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده، فحسدها الجواري وقلن: لا حسب لها، فنقشت على خاتمها حسبي حسني، فازداد بها المأمون عجبًا، فسمتها الجواري، فماتت، فجزع عليها المأمون جزعًا شديدًا وقال:

اختُلستْ ريحانتي من يدي ... أبكي عليها آخر الأبد(١)
كانت هي الأنس إذا استوحشتْ ... نفسي من الأقرب والأبعد
وروضةً كان بها مرتعي ... ومنهلًا كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي ... فاختلس الدهر يدي من يدي

وللمتوكل في قينة:

أمازحها فتغضبُ ثم ترضى ... فكلّ فعالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسنُ ذي دلالٍ ... وإن رضيت فليس لها عديل(٢)

رشا وجؤذر

حدَّث أبو عبد الله بن عبد البر قال: حدّثني إسحٰق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي قال: كان في المدينة رجل من بني هاشم وكان له قينتان يقال لأحداهما رشا وللأخرى جؤذر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين، فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفي لذتك ولا لذة لي قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لي نبيذًا، فإنه لا يطيب لي عيش إلا به.

فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمي وغمز جاريتيه عليه، فما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال في نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيبتي أين المرحاض؟ فقالت

(١) اختلست: اختطفت خلسة.

(٢) عديل: أي لا يعادلها شيء، ومثيل.

إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

رحضت فؤادي فخلّيتني أهيم من الحب في كل وادي(١)

فاندفعتا تغنيانه: فقال في نفسه: والله ما أظنهما فهمتا عني، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج، فقال: يا حبيبتي أين المخرج؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

خرجت لها من بطن مكّة بعدما أقام المنادي بالعشي فأعتما

فاندفعتا تغنيانه، فقال في نفسه لم يفهما عني، وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب، فقال: يا حبيبتي أين المذاهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول حبيبنا؟ قالت: يقول غنياني:

ذهبتِ من الهجران في كل مذهبِ ولم يك حقًّا كل هذا لتجنبِ(٢)

فغنتاه الصوت، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني، وما أظن القحبتين إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حبيبتي أين بيت الخلاء؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

خلا علي بقاع الأرض إذا ظنوا من يظن مكة واسترعائي الحزنُ

قال: فغنتاه، فقال: إنا لله وإنَّا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش، فقال: يا حبيبتيّ أين الحشوش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

أوحشوني وعزّ صبري فيهم ما احتيالي وما يكون فعالي

قال: فاندفعتا تغنيانه فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف، فقال لهما: يا حبيبتيّ أين الكنيف؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحًا من هذا الرجل، قالت: ما يقول؟ قالت: يسأل أن تغني له:

تكنّفني الهوى طفلًا فشيّبني وما اكتهلا(٣)

---

(١) رحضت: أبلت من البلاء وحطمت. (٢) التجنب: الابتعاد.

(٣) تكنفني: أحاط بي من كل جانب.

فقال: واويلاه، واعِظَم مصيبتاه، هذا والهاشمي يتقطع ضحكًا فقال لهما: يا زانيتان إن لم تعلماني به أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش، فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك، وقال: ويلك ما هذا تسلح على وطائي؟ فقال الرجل: حياة نفسي أعز عليَّ من وطائك، وقيل: إنه لما قيل له: ويلك ما هذا؟ قال المضحك هذه الأبيات:

تكنّفني الملاحُ وأضجروني على ما بي بُنيّات الزواني[1]
فلما قلّ عن ذاك اصطباري قذفت به على وجه الغواني

قال: فانبسط الهاشمي ودفع إليه مالًا ومضى إلى سبيله.

علي بن الجهم وقينة

قال علي بن الجهم قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلةً تدني إليك فإنَّ الحبَّ أقصاني

قالت: تأتي من باب الذهب وأنشدت:

اجعل شفيعك منقوشًا تُقدّمه فلم يزل مدينًا من ليس بالدّاني

أشعب وقينة

كان أشعب يختلف قينة بالمدينة، فجلس عندها يومًا يطارحها الغناء فلما أراد الخروج قال لها: ناوليني خاتمك أذكرك به قالت: إنه من ذهب، وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود، فلعلك أن تعود، وناولته عودًا من الأرض.

مَن يشتري ذا علّة بصحيح

كان بعض القينات من الجمال والحُسْن بجانب ثم أصابتها علة فتغير حالها، فكانت تنشد:

ولي كبد مقروحة مَنْ يبيعني بها كبدًا ليست بذات قروح[2]
أباها عليَّ الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علةٍ بصحيحِ

---

(١) بنيات الزواني: أي بنات الزنا.

(٢) مقروحة: أي بها قروح وآلام، عليلة.

حنين المعتصم

كان المعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها في بعض الطريق، فاشتاق إليها، فغلبه الوجد، فدعا مغنيًا له وقال: ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة بنت فلان، فأقلقني الشوق إليها فعسى أن تغنيني شيئًا في معنى ما ذكرته لك، فأطرق مليًّا ثم غناه:

وددت من الشوق المبرّح أنّني أُعَارُ جناحيّ طائرٍ فأطيرُ
فما لنعيمٍ ليس فيه بشاشة وما لسرور ليس فيه سرور
وإنّ امرءًا في بلدٍ نصف قلبه ونصف بأخرى غيرها لصبور

قصص متفــرقة

حَيَاة آل جَفْنَة[1]

قال خارِجَة بن زيد: دُعينا إلى مَأْدُبَة[2]. فحضرتُها وحسانُ[3] بنُ ثابت قد حضرَها، فجلسنا جميعًا على مائدةٍ واحدة، وهو يومئذ قد ذهب بصرُه، ومعه ابنُه عبد الرحمٰن، فكان إذا أتى طعام سأل ابنه: أطعام يدٍ أم يدين؟ (يعني باليد الثريد وباليدين الشِّواء لأنه يُنهشُ نهشًا). فإذا قال: طعام يديْن أمسك يده. فلما فرغوا من الطعام أتُوا بجاريتين: إحداهما رائقة، والأخرى عَزَّة، فجلستا وأخذتا مِزْهَريها[4] وضربتا ضربًا عجيبًا، وغَنَّتا بقول حسان:

انظُرْ خَليلِي بِبَطْنِ جِلِّقَ هَلْ تُونِسُ[5] دُون البَلْقاءِ من أَحَدِ

فسُمع حسان يقول: قد أراني بها سميعًا بصيرًا، وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا سكت عنه البكاء، وإذا غنَّتا بكى، فكنتُ أرى ابنَه عبد الرحمٰن إذا سكتتا يشيرُ إليهما أن تغنيا فيبكي أبوه!

(١) الأغاني: ١٦ ـ ١٤.
(٢) المأدبة: كل طعام يصنع لدعوة أو عرس.
(٣) هو شاعر رسول الله، وقد نشأ في الجاهلية ونبه شأنه فيها، وعاش طويلًا في الإسلام، ومات في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ.
(٤) المزهر: عود يضرب به.
(٥) تونس: تبصر: اللسان مادة ـ عجب. ومادة ـ بلق. وجلق بكسرتين وتشديد اللام وقاف: اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل: قرية من قراها. وقيل: دمشق نفسها (المراصد).

فلما انقلب حسان من المأدبة إلى منزله استلقى على فراشه، ووضع إحدى رجليه على الأخرى، وقال: لقد أذكَرَتْني رائقةُ وصاحبتُها أمرًا ما سمعَتْه أُذنايَ بُعَيْد ليالي جاهليتنا مع جَبَلَةَ بن الأيْهَم، ثم تبسم وجلس فقال: لقد رأيت عَشْرَ قِيان؛ خمسٌ روميات يغنين بالرومية بالبَرابط[١]، وخمسٌ يغنين غناء أهل الحِيرة أهداهُنَّ إليه إياس بن قَبِيصة، وكان يفَدِ إليه من يغنِّيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشربِ فُرِش تحته الآسُ والياسمين وأصنافُ الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأُتيَ بالمسك الصحيح في صحاف الفضة، وأوقد له المنَدَّى إن كان شاتيًا، وإن كان صائفًا أُتي هو وأصحابه بكِساء[٢] صيفية يتفضّلون[٣] بها، وفي الشتاء يؤتى بفراء الفَنَك[٤] وما أشبهه، ولا والله ما جلستُ معه يومًا قط إلا خلع عليَّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيري من جلسائه، هذا مع حِلْم عمن جَهِل وضحك؛ وبَذْلٍ من غير مسألة، مع حُسْنِ وجه وحسن حديث، ما رأيت منه خَنًا قط ولا عَرْبدة، ونحن يومئذ على الشِّرك.

فجاء الإسلام فَمَحَا الكفر وتركْنا الخمر وما كَره. وأنت اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر، والفَضيخ[٥] من الزهر والرطب؛ فلا يشرب أحدُكم ثلاثة أقداح حتى يذهب بعقله ودينه؛ أفلا تنتهون!

حَفْل غِناء[٦]

خرجت جميلةُ[٧] حاجَّةً، فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ، وحجَّ معها من القيان مُشَيِّعَاتٍ لها ومعظِّماتٍ لِقَدْرها ولِحَقِّها خمسون قيْنَة وَجَّهَ بهِنَّ مواليهنّ معها؛ وَأَعطَوْهُنّ النفقاتِ وحَملوهنّ على الإبل في الهوادج والقِباب وغير ذلك؛ فأبتْ جميلةُ أن تُنفِقَ واحدةٌ منهنّ درهمًا فما فوقه حتى رَجَعْنَ. وتخايَر مَن خرج معها في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظَّريف

(١) البربط: العود. (٢) الكساء: جمع كسوة.
(٣) التفضل: التوشح؛ وأن يخالف المرء بين أطراف ثوبيه.
(٤) الفنك: دابة فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها.
(٥) الفضيخ: شراب يتخذ من بسر. (٦) الأغاني: ٨ ـ ٢٠٩، نهاية الأرب: ٥: ٤٣.
(٧) هي جميلة مولاة بني سليم، كانت أصلًا من أصول الغناء، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريبًا.

والهوادج والقِباب، فلم يَرَ أهلُ المدينة مثل ذلك الجمع سَفْرًا[١] طَيِّبًا، وحُسنًا ومَلاحة.

ولما قاربوا مكة تلقّاهم سَعيدُ بن مِسْجَح وابنُ سُرَيْج والغريضُ وابنُ مُحْرِز والهُذَليُّون وجماعة من المغنين من أهل مكة وقِيَانٌ كثيرٌ، ومَن غير المغنين عمرُ بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد المخزوميّ والعَرْجي، وجماعةٌ من الأشراف.

فدخلت جميلةُ مكة وما بالحجاز مُغَنٍّ حاذقٌ ولا مغنيةٌ إلا وهو معها وجماعةٌ من الأشراف ممن سمّينا وغيرهم من الرجال والنساء. وخرج أبناءُ أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جَمْعها وحُسْنِ هيئتهم.

فلما قَضَتْ حجَّها سألها المكِّيُّونَ أن تجعل لهم مجلسًا؛ فقالت: للغناء أم للحديث؟ قالوا: لَهُمَا جميعًا. قالت: ما كنتُ لأَخْلِطَ جِدًّا بهَزْل، وأبت أن تجلسَ للغناء. فقال عمر بن أبي ربيعة: أقسمتُ على مَن كان في قلبه حبٌّ لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج، فعزَم القوم كلُّهم على الخروج، فخرجَتْ في جمعٍ أكثرَ من جمعها بالمدينة.

فلما قَدِمَت المدينةَ تلقَّاها أهلها وأشرافُهم من الرجال والنساء؛ فدخلت بأحسنَ مما خرجتْ منها، وخرج الرجالُ والنساءُ من بيوتهم فوقفوا على أبواب دُورهم ينظرون إلى جَمْعِها وإلى القادمين معها. فلما دخلت منزلها وتفرَّقَ الجمعُ إلى منازلهم، ونزل أهلُ مكة على أقاربهم وإخْوانهم أتاها الناسُ مُسَلِّمينَ، وما اسْتَنْكَفَ من ذلك كبيرٌ ولا صغيرٌ.

فلما مضى لِمَقْدَمِها عشرةُ أيام جلستُ للغناءِ، فقالت لعمر بن أبي ربيعة: إني جالسةٌ لكَ ولأصحابك وإذا شئتَ فَعِدِ الناس لذلك اليوم، فَغَصَّتِ الدارُ بالأشراف من الرجال والنساء، فابتدأت جميلةُ فغنَّت صوتًا بشعر عُمَر[٢]:

هيهاتَ من أَمَةِ الوَهَّاب منزِلُنا ... إذا حَلَلْنا بسيفِ[٣] البحر من عَدَنِ

(١) السفر: المسافرون.

(٢) كان الحارث بن أبي ربيعة ينهى أخاه عن قول الشعر فيأبى أن يقبل منه، فأعطاه ألف دينار على ألا يقول شعرًا، فأخذ المال وخرج إلى أخواله بلحج وأبين مخافة أن يهيجه مقامه بمكة على قول الشعر، فطرب يومًا فقال هذا الشعر!

(٣) سيف البحر: ساحله.

واحْتَلَّ أهْلُكِ أجْيادًا[١] وليس لنا إلا التذكُّرُ أو حظٌّ من الحَزَنِ
لو أنها أبصرتْ بالجِزْعِ عَبرتَهُ مِنْ أنْ تَغَرّدَ قُمْريٌّ على فَنَنِ
إذَنْ رَأَتْ غيرَ ما ظَنَّتْ بصاحبها وأيقنتْ أنَّ لَحْجًا[٢] ليس من وطني
ما أَنْسَ لا أَنْسَ يوم الخَيْفِ[٣] موقِفَهَا وموقِفي وكلانا ثَمَّ ذو شَجَنِ
وقولَها للثريا وهي باكيةٌ والدمعُ منها على الخدين ذو سَنَنِ[٤]
باللهِ قولي له في غير مَعتَبةٍ: ماذا أرَدْتَ بطولِ المُكْث في اليمنِ؟
إن كنت حاولتَ دنيا أَوْ نَعِمْت بها فما أصبتَ بتركِ الحجِّ من ثَمن

فكلهم استحسنَ الغِناء وضَجَّ القومُ من حُسْن ما سمعوا؛ ودَمَعتْ عينُ عمر حتى جرى الدمع على ثيابه ولحيته، ثم أقبلتْ على ابن سُرَيج فقالت: هاتِ، فاندفع يُغنّي ورفعَ صوتَه بشعر عمر:

أَليسَتْ بالتي قالتْ لمولاةٍ لها ظُهُرَا
أشيري بالسلام لهُ إذا هوَ نحوَنا نظَرَا
وقولي في مُلاطفةٍ لزَينبَ نَوِّلي عُمَرَا
وهذا سِحْرُكَ النِّسْوا نَ قد خَبَّرْنني الخبَرَا

فسُمع من ابن سُرَيج في هذا اللَّحْن من الحسن ما يقال إنه ما سُمعَ مثلُه. ثم قالت لسعيد بن مِسجَح: هات يا أبا عثمان، فاندفع فغنّى:

قد قُلْتُ قبل البَيْنِ لما خَشِيتُه لِتُعْقِبَ وُدًّا أو لتعلمَ ما عندي
لكِ الخيرُ هَلْ من مصدرٍ تصْدُرينَه[٥] يُريحُ كما سَهَّلْتِ لي سُبلَ الوِرْدِ
فلما شَكَوتُ الحبَّ صدّتْ كأنما شكوتُ الذي ألْقَى إلى حَجَرٍ صَلْدِ

فاستُحْسِن ذلك منه وبرع فيه. ثم قالت: يا معبد، هاتِ؛ فغنَّى:

أحاربُ مَنْ حاربتَ من ذي عداوةٍ وأحْبسُ مالي إن غَرِمتَ فأعقلُ[٦]

(١) أجياد: موضع بمكة.
(٢) لحج: فخلاف باليمن.
(٣) الخيف: موضع بمنى.
(٤) ذو سنن: ذو طرائق.
(٥) يقال: صدر هو، وصدر غيره وأصدره.
(٦) يريد فأعقل عنه، وعقل عنه: إذا غرم ما لزمه من دية.

وإني أخوكَ الدائمُ العهدِ لم أَحُلْ إنَ ابْزَاكَ[١] خصمٌ أو نبا بكَ منزلُ
ستقطعُ في الدنيا إذا ما قطعتَني يمينَك فانظر أيَّ كَفٍّ تبدَّلُ

قالت جميلة: أحسنتَ يا مَعْبَدُ اختيار الشعر والغناء.

ثم قالت: هاتِ يا ابنَ مُحْرِز؛ فإني لم أُؤخِّرْك لخساسةٍ بك؛ ولا جهلًا بالذي يجب في الصناعةِ؛ ولكنني رأيتُك تحبُّ من الأمور كلِّها أوسطَها وأعدلَها؛ فجعلتك - حيث تحبّ - واسطةً بين المكِّيين والمدنيين، فغنَّى.

ثم قالت للغريض: هات، فاندفع يغني بشعر عَمْرو بن شاس:

فواندمي على الشباب وَوَانَدَمْ نَدِمْتُ وبان اليومَ مني بغير ذَمْ
وإذ إخوتي حَوْلي وإذ أنا شائخٌ وإذ لا أُجِيبُ العاذِلاتِ من الصَّمَم
أرادت عَرَارًا[٢] بالهوان ومن يُرِدْ عَرارًا لَعَمْرِي بالهوَانِ فقد ظَلَمْ

قالت جميلة: أَحْسَنَ عَمْرُو بن شأس ولم تحسن؛ إذ أفسدتَ غِناءَك بالتَّعريض؛ والله ما وَضَعْنَاكَ إلا موضِعَك، ولا نَقَصْنَا من حظك، فبماذا أَهَنَّاكَ!

ثم أقبلت على الجماعة فقالت: يا هؤلاء، اصدُقوه وعرِّفوه نفسَه ليقنعَ بمكانه؛ فأقبل القوم عليه، وقالوا له: قد أخطأتَ إن كنتَ عرَّضت. فقال: قد كان ذلك! ولستُ بعائدٍ. وقام إلى جميلة فقبَّلَ طرفَ ثوبها واعتذر، فَقَبِلَتْ عُذْرَه، وقالت له: لا تَعُدْ.

ثم أقبلت على ابن عائشة فقالت: يا أبا جعفر؛ هاتِ، فتغنَّى بشعر النابغة:

سقى الغيثُ قبرًا بين بُصْرَى[٣] وجاسم
عليه من الوَسْمِيِّ[٤] جَوْدُ ووابلُ

---

(١) لم أحل: لم أتغير. أبزاك خصم: قهرك. والشعر لمعن بن أوس، وهو شاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام.

(٢) هو عرار بن عمرو بن شأس، وهو من أمة لعمرو سوداء، وكان بينه وبين زوج أبيه نزاع وخصام، فقد كانت تؤذيه وتعيره وتشتمه، وحاول عمرو أن يصلح ما بينهما فلم يفلح فطلقها.

(٣) بصرى وجاسم: موضعان بالشام.

(٤) الوسمي: اول المطر لأنه يَسِم النبات.

قالت جميلة: حَسَنٌ ما قلت يا أبا جعفر. ثم أقبلت على نافع وبُدَيحِ فقالت: أحب أن تُغَنِّيَاني صوتًا واحدًا؛ فغنّيا جميعًا بصوتٍ واحد ولحنٍ واحد:

أَلا يَا مَنْ يلومُ على التصابي ... أَفِقْ شيئًا لتسمعَ من جوابي
بَكرْتَ تَلُومُني في الحبِّ جَهلا ... وما في حبٍّ مثلي من مَعَاب[١]
أليسَ من السعادة غيرَ شَكٍّ ... هَوَى متواصلَين على اقتراب
كريمٌ نال وُدًّا في عفافٍ ... وسَتْر من مُنَعَّمَةٍ كَعَابِ[٢]

فقالت جميلة: هَوَاكُمَا والله واحد، وغِناكما واحد، وأنتما نُحتِمًا من بقية الكرم وواحدِ الشرف: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

ثم أقبلت على الهذليِّين الثلاثةِ فقالت: غَنُّوا صوتًا واحدًا، فاندفعوا فَغَنَّوْا بشعر عنتَرَةَ العبسيّ:

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقادَمَ عهدُهُ ... أقْوَى وأقْفَرَ بعدَ أُمِّ الهيْثمِ
كيفَ المزَارُ وقد تربَّع أهلُها ... بعُنيزَتَيْنِ وأهلُنا بالغَيْلَمِ[٣]
إن كنتِ أزمعتِ الفراقَ فإنما ... زُمَّتْ[٤] ركابكُم بليلٍ مُظلمِ

قالت: ما رأيتُ شيئًا أشبهَ بغنائكم من اتّفاق أرواحكم.

ثم أقبلت على نافعِ بن طُنْبُورة، فقالت: هاتِ يا نَقْشَ الغَضَار[٥]، ويا حَسَنَ اللسان، فاندفع يغني:

يا طُولَ ليلي وبتُّ لم أَنَمِ ... وِسادِيَ الْهَمُّ مُبْطِنٌ سَقَمي
أَنْ قُمْتُ يومًا على البَلاط[٦] فأبْـ ... ـصرتُ رَقاشًا وليت لم أَقُمِ

فقالت جميلة: حسنٌ والله!

ثم قالت: يا مالك؛ هاتِ؛ فإني لم أؤخرك لأنك في طبقة آخرهم، ولكني أردتُ أن أختمَ بك يومنا تَبَرُّكًا بك، وكي يكونَ أولُ مجلسنا كآخره، ووسطُه

---

(١) معاب: عيب؛ وهو مصدر ميمي. (٢) كعاب: ناهدة الثدي.
(٣) عنيزتين: موضع، والغيلم: موضع في ديار بني عبس.
(٤) زم البعير: خطمه.
(٥) الغضار: الطين اللازج الأخضر، وهو لقب له.
(٦) البلاط: الأرض، وقيل: الأرض المستوية الملساء.

كطرَفه، فإنك عندي ومعبدًا لفي طريقةٍ واحدةٍ ومذهب واحد، لا يدفع ذلك إلا ظالمٌ، ولا ينكرُه إلا عاضلٌ[١]، الحقَّ أقولُ، فمن شاه فلْينكرِ، فسكت القوم كلهم إقرارًا لما قالت؛ واندفع يغنّي:

عـدوٌّ لـمنْ عـادَتْ وسَلْمٌ لِسَلْمِـهـا ... ومـن قَـرَّبَـتْ سـلْمَـى أَحَـبَّ وقَـرَّبَـا
هَـبِـيـنـي امـرَأً إمـا بـريـئًا ظـلمـتِـه ... وإمـا مُـسـيـئًا تـاب بـعـدُ وأعْـتـبـا
أقـول ـ الـتـماسَ العذرِ لـمَّـا ظلمتنِي ... وحَـمَّـلْتِـنِـي ذنـبًا ومـا كـنـتُ مُـذْنـبَا
لِيَـهْـنِـئْك إشـمـاتُ الـعـدوِّ بـهَـجـرنـا ... وقطعُك حبل الوَصل حتى تَقَضَّبا[٢]

قالت جميلة: ليتَ صوتَك يا مالك قد دام لنا ودُمْنا له! وقطعت المجلس؛ وانصرف عامةُ الناس وبقي خواصُّهم.

فلما كان اليومُ الثاني حضر القوم جميعًا، فقالت لطُوَيس: هاتِ يا أبا عبد النعيم، فابتدأ طويس فغنّى.

قـد طـال لَيـلي وعـادَ لِي طَـرَبـي ... من حُبِّ خَوْدٍ[٣] كريمةِ الحسبِ
غَــرّاءَ مــثــل الــهــلالِ آنــســةٍ ... أو مثـلِ تـمـثـالِ صـورة الـذَّهـبِ
صادتْ فـؤادي بـجـيـدِ مُغْزِلَة[٤] ... تَـرْعَـى رِيـاضًـا مُـلْتَـفَّـةَ الـعُـشُـبِ

فقالت جميلة: حسنٌ والله يا أبا عبد النعيم!

ثم قالت للدَّلَال: هاتِ يا أبا يزيد، فاندفع فغنّى:

قــد كــنــتُ آمُـلُ فـيـكُـمُ أمـلًا ... والـمـرءُ لـيـس بـمـدرَكٍ أمَـلُهْ
حـتـى بَـدَا لِي مـنـكُـم خُـلُـفٌ ... فـزجَـرْتُ قـلبي فـارْعَـوَى جَـهَـلُهْ
لـيـسَ الـفـتـى بـمُـخَـلَّدٍ أبـدًا ... حَـيًّـا، ولـيـسَ بـفـائـتٍ أجَـلُهْ

قالت: حسنٌ والله يا أبا يزيد! ثم قالت لهِيتٍ: إنّا نُجلُّكَ اليومَ لِكِبر سِنّك ورِقَّةِ عظمِكَ. قال: أجل!

ثم قالت لبرْدِ الفؤادِ ونَوْمَةِ الضُّحَى: هاتيا جميعًا لحنًا واحدًا فغنَّيَا:

إنــي تــذكــرتُ فــلا تَــلْحَـنِـي ... لــؤلــؤة مــكــنــونــة تَــنْــطِــقُ

---

(١) العضل: المنع.
(٢) تقضب: تقطع.
(٣) الخود: الحسنة الخلق الشابة.
(٤) المغزلة: الظبية ذات الغزال.

فقالت جميلة: أحسنتما.

ثم قالت لفِند ورحمة وهبَة الله: هاتوا جميعًا صوتًا واحدًا؛ فإنكم متفقون في الأصوات والألحان؛ فاندفعوا فَغَنَّوْا:

أشاقَكَ من نحو العَقيقِ بُرُوقُ ... لوامعُ تَخْفَى تارة وتَشُوقُ
وما لِيَ لا أَهْوَى جَوارِيَ بَرْبَرٍ ... ورُوحي إلى أرواحهنّ تَتُوقُ
لهنَّ جمالٌ فائقٌ ومَلاحةٌ ... وَدَلٌّ على دَلّ النساءِ يَفُوقُ

وكان بَرْبَرٌ حاضرًا، فقال: جواريّ والله على ما وصفْتُمْ؛ فمن شاءَ أقرّ ومن شاء أنْكَرَ. فقالت جميلة: صَدَقَ. ثم غَنَّتْ جميلة بشعر الأعشى:

بَانَتْ سُعَادُ وَأَمْسَى حبلُها انْقَطَعَا ... وَاحْتَلَّتِ الغَوْرَ فَالْجَدَّيْنِ فالفَرَعا[1]
واستنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ ... من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا
تقولُ بِنتي وقد قَرَّبتُ مُرْتَحلا: ... يا رَبّ جَنِّبْ أبي الأَوْصابَ والوَجَعا
وكان شيءٌ إلى شيء فغيَّره ... دَهْرٌ مُلِحٌّ على تَفْرِيقِ ما جمَعا

فلم يُسْمَعْ شيءٌ أحسنُ من ابتدائها بالأمس وخَتْمِها في اليوم الثاني، وقطعت المجلسَ، فانصرف قوم وأقام آخرون.

فلما كان اليومُ الثالث اجتمع الناسُ، فضربتْ سِتارة وأجلست الجواريَ كلَّهن فضرَبْنَ وضرَبتْ. فضرَبْنَ على خمسين وترًا، فتزلزلتِ الدارُ؛ ثم غنَّت على عودها؛ وهنَّ يضربن على ضربها بهذا الشعر:

فإن خَفِيتْ كانتْ لعَيْنكَ قُرَّةً ... وإن تَبْدُ يومًا لم يُعَمِّمك[2] عارُها
من الخِفرَاتِ البيضِ لم تَرَ غِلْظةً ... وفي الحسب الضخم الرفيع نجَارُها
فما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طيبةُ الثرى ... يمجُ الندى جَثْجَاثُها[3] وعَرَارُها
بأَطيب من فيها إذا جئتَ طارقًا ... وقد أُوقِدَتْ بالمنْدَلِ[4] الرطبِ نارُها

---

(١) الجدان والفرح: موضعان. (٢) لم يعممك: لم يلحقك.
(٣) الجثجاث: من أحرار الشجر، له زهرة صفراء طيبة. والعرار: نبت طيب الريح وهو النرجس البري.
(٤) المندل: أجود العود.

فدمَعتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بلُّوا ثيابهم وتنفَّسوا الصُّعدَاء، وقالوا: بأنفسنا أنت يا جميلة، ثم قالت للجواري: اكفُفْنَ، فكَفَفْنَ؛ وقالت: يا عزُّ؛ غنّي، فغنَّت بشعر لعمرَ:

تـذكـرتَ هـنـدًا وأعـصـارَهـا[(١)] ولـم تـقْـضِ نـفـسُـك أوطـارَهـا
تَـذَكَّـرَتِ الـنـفـسُ مـا قـد مَـضـى وهـاجتْ على العين عُـوَّارها[(٢)]
لِتَـمْـنـحَ رامـةَ مـنَّـا الـهـوى وتَــرْعَــى لِرَامــةَ أســرارَهــا
إذا لــم نَــزُرْهــا حِـذَارَ الـعِـدَا حَـسـدْنـا عـلى الـزَّوْرِ زُوَّارهـا

فقالت جميلة: يا عَزَّ، إنكِ لباقيةٌ على الدهر، فهنيئًا لكِ حسنُ هذا الصوت مع جَوْدَةِ هذا الغناء!

ثم قالت لِحَبابَةَ وسَلَّامَةَ: هاتيا لحنًا واحدًا، فغنَّتا:

كفى حَزنًا أني أغِيب وتَشْهَدُ وما نَلْتَقي والقلبُ حَرَّانُ مُقْصَدُ[(٣)]
ومن عجبٍ أني إذا الليل جَنَّني أقومُ من الشوق الشديد وأقعدُ
أَحِنُّ إليكم مثلَ ما حَنَّ تائِقٌ إلى الوِرْدِ عطشانُ الفؤاد مصرَّدُ[(٤)]
ولي كَبِدٌ حَرَّى يعذِّبها الهوَى ولي جَسَدٌ يَبْلى ولا يتجَدَّدُ

فاستُحْسن غناؤهما.

ثم أقبلت على خُلَيْدَة، فقالت لها: بنفسي أنت! غَنِّي، فغنّت:

ألا يـا مَنْ يلومُ عل التَّصَابي أَفِقْ شيئًا لِتَسْمَعَ من جوابي
بكرْتَ تلومُني في الحبِّ جَهْلًا وما في حبِّ مثلي من مَعَابِ
أَليس من السعادة غير شكٍّ هوَى مُتَوَاصِلَين على اقترابِ
كـريـمٌ نـال وُدًّا فـي عَـفـافٍ وسَـتـرٍ من مُـنَـعَّـمـةٍ كَـعَـابِ

(١) الأعصار: جمع عصر، يريد الأوقات التي كان يجتمع معها فيها.
(٢) العوار: ما عار في العين من القذى والرمد فأوجعها.
(٣) مقصد: مجروح. (٤) التصريد: سقي دون الري.

فاستُحسن منها ما غنّت. ثم قالت لعُقَيلَة والشَّمّاسية: هاتيا فغنّتا:

هجرتِ الحبيبَ اليومَ في غير ما اجْترَمْ وقطَّعْتِ من ذي وُدِّكِ الحبلَ فانصرمْ
أَطعتِ الوشاةَ الكاشحين ومَنْ يُطِع مقالةَ واشٍ يَقْرَع السنَّ من نَدَمْ

ثم قالت لِفَرْعة وبُلْبُلَة ولذةِ العيش: هاتين فغنِّينَ، فاندفعن بصوت واحد:

لعَمْرِي لئن كان الفؤادُ من الهوَى بَغَى سقَما إني إذنْ لسَقِيمُ
عليَّ دماءُ البُدْن إن كان حُبُّها على النأي في طول الزمان يَرِيمُ
تُلمُّ مُلمَّاتٌ فيُنْسَيْنَ بَعدهَا ويُذْكَرُ منها العهدُ وهو قديمُ
فأقسمُ ما صافيتُ بعدكِ خُلَّةً[١] ولا لكِ عندي في الفؤاد قَسيمُ

قالت: أحسَنْتُن، وهو لَعَمْري حسنٌ!

وقالت لسُعْدَةَ والزرقاء: غنيَا، فغنتا، فاستُحْسِن غناؤهما.

ثم قالت للجماعة: غنّوا جميعًا؛ فغنَّوْا، وانفضَّ المجلسُ، وعاد كل إنسان إلى وطنه. فما رُئيَ مجلس ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام!

الغِنَاء يُحيِي القَلْب[٢]

حدَّث مَن يفهم الغناء، قال:

بلغني أن جميلةَ قعدتْ يومًا على كرسيّ لها وقالت لآذِنَتها: لا تحجُبي عنا أحدًا اليوم، واقعُدِي بالباب، فكلُّ من يمُرُّ بالباب فاعرِضي عليه مجلسي؛ ففعلت ذلك حتى غَصَّتْ الدارُ بالناس؛ فقالت جميلة: اصعَدوا إلى العَلَالِيّ[٣]؛ فصعِدت جماعةٌ حتى امتلأت السطوح.

فجاءتها بعضُ جواريها فقالت لها: يا سيدتي؛ إنْ تَمَادَى أمْرُكِ على ما أرَى لم يبقَ في دارِكِ حائطٌ إلا سقط، فأظْهِرِي ما تريدين؟ قالت: اجلسي!

فلما تعالى النهار واشتدّ الحر استسقى الماءَ الناسُ، فدعَتْ لهم بالسَّوِيق[٤]، فشرب مَنْ أراد، ثم قالت: أقسمتُ على كل رجل وامرأة دخل منزلي إلا شرب، فلم يَبْقَ في سُفْلِ الدار ولا عُلْوِها إلّا شَرِبَ، وقام على رؤوسهم الجواري

(١) الخلة: الخليلة.
(٢) الأغاني: ٨ ـ ٢٢٤.
(٣) العلالي: جمع علية، وهي الغرفة.
(٤) السويق: شراب يتخذ من الحنطة والشعير.

بالمناديل والمرَاوح الكبار، وأمرت جوَاريَها فَقُمْنَ على كراسيّ صِغَارٍ فيما بين كل عشرةٍ جارية تُروِّح.

ثم قالت لهم: إني قد رأيت في منامي شيئًا أفزعني وأرْعَبني، ولستُ أعرفُ ما سببُ ذلك، وقد خفتُ أن يكون قربَ أجلي، وليس ينفعني إلا صالحُ عملي، وقد رأيتُ أن أتركَ الغناء كراهَةَ أن يَلْحَقني منه شيء عند ربي!

فقال قوم منهم: وفَّقكِ الله وثبَّتَ عزمَكِ! وقال آخرون: لا حَرَج عليكِ في الغناء. وقال شيخ منهم ذو سِنٍّ وعلمٍ وفِقْهٍ وتجربة: قد تكلمتِ الجماعة، وكلٌّ حزْبٍ بما لديهم فَرِحُون، ولم أعترضْ عليهم في قولهم، ولا شَرِكْتُهُمْ في رأيهم فاسْتَمِعوا الآن لقولي، وأَنْصِتوا ولا تَشْغَبُوا(١) إلى وقت انقضاء كلامي، فمن قَبِلَ قولي فالله موَفِّقُهُ، ومَن خالفني فلا بأسَ عليه إذ كنتُ في طاعة ربي.

فسكت القومُ جميعًا، وتكلّم الشيخُ فحَمِدَ الله وأثنى عليه وصلّى على محمد النبيِّ ﷺ. ثم قال: يا معشرَ أهلِ الحجاز، إنكم متى تخاذلتم فشلتم، ووثبَ عليكم عَدُوّكم، وظفِر بكم، ولا تُفْلِحوا بعدها أبدًا. . . إلى أن قال: إن الغِناءَ من أكبر اللذات، وأَسَرُّ للنفوس من جميع الشَّهوات، يُحيي القلب، ويزيد في العقل، ويَسرُّ النفس، ويَفْسَحُ في الرأي، ويتيسّر به العسيرُ، وتُفْتح به الجيوش، ويذلّل به الجبارون حتى يمتهنوا أنفسهم عند استماعه، ويُبرىء المرضى ومَن مات قلبُهُ وعقلُه وبصرُه، ويزيدُ أهل الثروة غنًى وأهلَ الفقر قناعة ورضًا باستماعه، فَيَعزِفُون(٢) عن طلب الأموال. مَن تمسّك به كان عالمًا، ومَن فارقه كان جاهلًا؛ لأنه لا منزلة أرفعُ، ولا شيءَ أحسنُ منه، فكيف يُسْتَصْوَبُ تركه، ولا يُستعان به على النشاط في عبَادَةِ ربنا عزّ وجلّ! وكلام كثيرٌ غير هذا.

فما ردَّ عليه أحد، ولا أنكَرَ ذلك منهم بَشرٌ، وكلٌّ عاد بالخطأ على نفسه، وأقرّ بالحق له!

ثم قال لجميلة: أوَعَيْت ما قلتُ؟ ووقع من نفسك ما ذكرتُ؟ قالت: أجل! وأنا أستغفرُ الله. قال لها: فاختمي مجلسَنا وفرِّقي جماعتنا بصوتٍ فقط، فغنَّت:

أَفي رَسْمِ دارٍ دمْعُك المترقرقُ سَفَاهًا! وما استنطاقُ ما ليس يَنطِقُ

(١) شغبت على القوم: هيجت الشر عليهم.
(٢) عزفت نفسي عن الشيء: تركته وزهدت فيه وانصرفت عنه.

بحيثُ الْتَقى جمْعٌ وأقصى مُحَسِّرٍ[(١)] مَغَانِيه قد كادتْ عن العهد تَخْلُقُ
مُقامٌ لنا بعد العِشاء ومَنزلٌ به لم يكدِّرْهُ علينا مُعَوِّقُ
فأحسنُ شيء كان أولُ ليلنا وآخِرُهُ حُزنٌ إذا نتفرَّقُ

فقال الشيخ: حَسنٌ واللهِ! أمثلُ هذا يُتْرك! لا والله ولا كرامةَ لمن خالف الحق. ثم قام وقام الناسُ معه، وقال: الحمد لله الذي لم يفرّق جماعتَنا على اليأس من الغناء ولا جحودِ فضيلته، وسلامٌ عليكِ ورحمة الله يا جميلة.

ضَرب مِنَ التمثِيل[(٢)]

قال أبو عبد الله: جلستْ جَمِيلةُ يومًا ولَبِسَتْ بُرْنُسًا[(٣)] طويلًا، وألْبَسَتْ مَنْ كان عندها بَرَانِسَ دونَ ذلك، وكان في القوم ابنُ سُرَيْج، وكان قبيحَ الصَّلع، قد اتخذ وَفْرَةَ[(٤)] شَعْر يضعُها على رأسه، وأحَبّتْ جميلةُ أن ترى صَلَعَتَهُ[(٥)]، فلما بلغ البرنسُ إلى ابن سُرَيج قال: دبّرْتِ عليّ وربِّ الكعبة! وكشف صَلعته ووضع القُلَنْسِيَةَ[(٦)] على رأسه، وضحك القوم من قُبْح صَلَعته.

ثم قامت جميلةُ ورقَصَتْ، وضربتْ بالعودِ، وعلى رأسه البُرْنُسُ الطويل، وعلى عاتقها بُرْدَةٌ يمَانيةٌ، وعلى القوم أمثالُها، وقام ابن سُرَيج يرقُص ومَعْبَد والغَريض وابن عائشةَ ومالكٌ، وفي يد كل واحدٍ منهم عُودٌ يضربُ به عَلَى ضَرْب جميلة ورَقْصِهَا، فَغَنَّتْ وغَنَّى القوم على غنائها:

ذهب الشبابُ وليتَه لم يَذْهَبِ وعَلَا المَفارقَ وقعُ شَيْبٍ مُغْرِبِ[(٧)]
والغانِيَاتُ يُرِدْن غيركَ صاحبًا وَيَعِذْنَكَ الهِجْرَانَ بعد تَقَرُّبِ
إنـي أقـول مقالةً بتجاربٍ حَقًّا، ولم يُخْبِرْكَ مثلُ مُجَرِّبِ:
صَافِ الكريمَ وكنْ لِعِرْضِكَ صائِنًا وعن اللئيم ومثلِه فتنكَّبِ

---

(١) جمع: علم للمزدلفة. ووادي محسر: موضع بين منى والمزدلفة.
(٢) الأغاني: ٨ ـ ٢٢٦.
(٣) البرنس: قلنسوة طويلة، أو كل ثوب رأسه منه، دراعة كان أو جبة أو ممطرًا.
(٤) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس.
(٥) الصلعة: بفتح اللام وسكونها: موضع الصلع.
(٦) القلنسية: القلنسوة: ما يلبس في الرأس. (٧) مغرب: أبيض.

ثم دَعَتْ بثياب مُصَبَّغَةٍ ووَفْرة شعرٍ مثل وَفْرة ابن سُرَيج فوضعتها على رأسها، ودعت للقوم بمثلِ ذلك فلبسوا، ثم ضربت بالعود وتمشَّت وتمشَّى القوم خَلْفَهَا، وغنَّتْ وغنّوا بغنائها بصوت واحد:

يَمشين مَشيَ قَطَا البطَاح تأَوُّدًا[1] قُبَّ[2] البُطون رواجحَ الأكْفَالِ
فيهنَّ آنسةُ الحديثِ حَيِيَّةٌ ليست بفاحشةٍ ولا مِتْفَال[3]
وتكون ريقتُها[4] إذا نبّهْتَهَا كالمسك فوق سُلَافة الجِرْيَالِ[5]

ثم نَعَرَتْ[6] ونَعَر القومُ طربًا، ثم جَلَست وجلسوا وخلعوا ثيابهم، ورجعوا إلى زِيِّهم، وأذِنَتْ لمن كان ببابها فدخلوا، وانصرف المُغَنُّون، وبقي عندها من يطارِحُها من الجواري!

وفُود ابن مِسْجح عَلى عَبد الملك بن مروَان[7]

قال دَحْمان الأشقر: كنتُ عاملًا لعبد الملك بن مرْوان بمكة، فنُمِيَ إليه أنَّ رجلًا أسودَ يقال له: سَعِيدُ بنُ مِسْجَح[8] أفسدَ فِتْيان قريش، وأنفقوا عليه أموالَهم؛ فكتب إليَّ: أن اقبض ماله وسيِّره، ففعلتُ.

فتوجّه ابنُ مسجح إلى الشام، فصحبه رجلُ له جَوَارٍ مُغَنِّياتٌ في طريقه، فقال له: أين تُريد؟ فأخبره خبرَه، وقال له: أريدُ الشام. قال له: فتكونُ معي؟ قال: نعم.

فصحِبه حتى بلغا دِمَشق، فدخلا مسجدَها، فسألا: مَنْ أَخَصُّ الناس بأمير المؤمنين؟ فقالوا: هؤلاءِ النفَرُ من قريش، فوقف ابن مِسْجَح عليهم وسلّم، ثم قال: يا فِتيانُ؛ هل فيكم من يُضيف رجلًا غريبًا من أهل الحجاز! فنظر بعضُهم إلى بعض ـ وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قَينة يقال لها: «بَرْقُ الأُفق» ـ فتثاقلوا

(١) تأود الشيء: تعوج، وتثنى.
(٢) قب البطون: ضامري البطون.
(٣) المتفال: المتغيرة الريح لترك التطيب.
(٤) الريق: ماء الفم ويؤنث في الشعر.
(٥) الجريال: من أسماء الخمر.
(٦) نعر الرجل: صاح، وصوت بخيشومه.
(٧) الأغاني: ٢ ـ ٢٧٢.
(٨) سعيد بن مسجح. أحد الموالي، مكي أسود، مغن مقتدر، كان أول مَن غنّى الغناء العربي بمكة، وهو الذي علم ابن سريج والغريض.

به إلا فتى منهم تَذَمَّم[١]؛ فقال: أنا أُضيفك. وقال لأصحابه: انطلقوا أنتم، وأنا أذهب مع ضيفي. قالوا: لا، بل تجيء أنتَ وضيفُك.

فذهبوا جميعًا إلى بيت القَيْنة؛ فلما أتُوا بالغَداء قال لهم سعيد: إني رجل أسود، ولعل فيكم مَن يَقْذَرُني[٢]، فأنا أجلسُ وآكلُ ناحيةً، وقام. فاستحْيَوْا منه، وبعثوا إليه بما أكل، فلما صاروا إلى الشراب قال لهم مثلَ ذلك، ففعلوا به كما فعلوا في المأكل. وأخرجوا جاريتين فجلستا على سرير قد وُضِعَ لهما فغنَّتَا إلى العشاء. ثم دخلتا، وخرجت جاريةٌ حسنَةُ الوجه والهيئةِ، وهما معها، فجلست على السرير وجلستا أسفلَ منها عن يمين السرير وشِمَاله، قال ابن مسجح: فتمثَّلْتُ هذا البيت:

فـقـلـت أشـمـسٌ أم مـصـابـيـحُ بِـيـعـةٍ[٣]
بَـدَتْ لـك خـلف الـسَّجِـف[٤] أم أنـت حـالـمُ!

فغضبت الجاريةُ، وقالت: أيضرِبُ هذا الأسود بي الأمثالَ! فنظروا إليَّ نظرًا مُنْكرًا، ولم يزالوا يسكِّنُونها، ثم غنّت صوتًا. فقلت: أحسنتِ والله؛ فغضب مولاها، وثال: أمثلُ هذا الأسود يُقدِمُ على جاريتي! فقال لي الرجل الذي أنزلني عنده: قم فانصرف إلى منزلي؛ فقد ثَقُلْتَ على القوم. فذهبتُ أقُوم فتذمَّم القوم، وقالوا لي: بل أقِم وأحْسن أدبك، فأقمت وغنّت. فقلت: أخطأتِ والله وأسأتِ! ثم اندفعتُ فغَنَّيتُ الصوت. فوثبتِ الجارية وقالت لمولاها: هذا والله أبو عثمان سعيدُ بن مُسْجح! فقلت: والله أنا هو، والله لا أُقيم عندكم! فوثب القُرشيون؛ فقال هذا: يكونُ عندي. وقال هذا: يكون عندي. وقال هذا: بل عندي! فقلت: والله لا أُقيم إلا عند سيِّدكم ـ يعني الرجلَ الذي أنزله منهم.

ثم سألوه عمّا أقدَمه؛ فأخْبَرهم الخبر، فقال له صاحبه: إني أَسْمُرُ الليلةَ مع أمير المؤمنين؛ فما تُحْسِنُ أن تَحْدُوَ؟ قال: لا! ولكني أَسْتَعْمِلُ حُدَاء.

قال: فإن منزلي بحذَاء منزل أمير المؤمنين؛ فإن وافقتُ منه طيبَ نفس أرسلتُ إليك.

---

(١) تذمم: خشي الذم واللوم.
(٢) قذرت الشيء: استقذرته وكرهته.
(٣) البيعة: كنيسة النصارى.
(٤) السجف ـ بالفتح ويكسر: الستر.

ومضى إلى عبد الملك، فلما رآه طيِّب النّفْس أرسل إلى ابن مِسْحَج، فأخرَجَ رَأْسَه من وراء شُرَفِ القصر، ثم حَدَا:

إنكَ يا مُعَاذُ يا ابنَ الفُضَّلِ   إن زُلْزِلَ الأقدامُ لم تَزَلْزَلِ
عن دين موسى والكِتابِ المُنْزَلِ   تُقيمُ أَصْدَاغَ القرونِ المُيَّلِ[1]
لِلحقّ حتى يَنْتَحُوا للأَعْدَلِ

فقال عبد الملك للقرشي: مَن هذا؟ قال له: رجل حجازي قَدِمَ عليَّ. قال: أحْضره. فأحضره وقال له: احْدُ مُجِدًّا، ثم قال: هل تغني غناء الرُّكْبان؟ قال: نعم. قال: غنّه. فتغنّى. فقال له: فهل تغني الغناء المُتقَن؟ قال: نعم. قال: غنّه، فتغنى.

فاهتزَّ عَبْدُ الملك طَرَبًا. ثم قال: أُقْسم إن لك في القوم لأسْماء كثيرةً! مَن أنت؟ ويلك! قال له: أنا المظلوم، المقبوض مالُه، المسَيَّر عن وطنه سعيد بن مُسْجَح، قَبضَ مالي عاملُ الحجاز ونَفَاني!

فتبسّم عبد الملك. ثم قال له: قد وضح عُذْرُ فتيان قريش في أن يُنفقوا عليك أموالهم. وأمّنه ووصله، وكتب إلى عامله بردِّ ماله عليه وألّا يعرِض له بسُوء.

الشِّعْر والغِنَاء[2]

كان معاويةُ يَعيبُ على عبد الله بن جعفر سماعَ الغناء، فأقبل معاوية عامًا حاجًّا؛ فنزل المدينة، فمرَّ ليلة بدار عبد الله بن جعفر، فسمع عنده غناءً على أوتار، فوقف ساعةً يستمع، ثم مضى وهو يقول: أستغفر الله، أستغفر الله!

فلمَّا انصرف من آخر الليل مرَّ بداره أيضًا، فإذا عبدُ الله قائم يصلِّي، فوقف ليسمع قراءته، فقال: الحمد لله، ثم مضى وهو يقول: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ».

(١) الصدغ: ما بين العين والأذن. والقرنان: جانبا الرأس، والصدغ: الميل، ومنه: «لأقيمن صدغك، أي ميلك».

(٢) العقد الفريد: ٤ ـ ٩٨، الأغاني: ٢ ـ ١٤٧.

فلما بلغ ابنَ جعفر ذلك أَعدَّ له طعامًا، ودعاه إلى منزله، وأحضر ابن صياد المُغَنّي، ثم تقدم إليه وهو يقول: إذا رأيتَ معاويةَ واضعًا يده في الطعام، فحرِّكْ أوتارك وغَنِّ؛ فلما وضع معاوية يَدَهُ في الطعام حرّك ابنُ صياد أوتاره وغنّى بشعر عَدِيّ بن زيد ـ وكان معاويةُ يعجب به:

يا لُبَيْنَى أَوْقِدِي النَّارَا ... إنّ مَنْ تهوينَ قد حارَا
ربَّ نارٍ بِتُّ أَرْمُقُها ... تَقْضِمُ الهِنْدِيَّ والنَارَا
عندها ظَبيٌ يُؤَجِّجها ... عاقِدٌ في الخصر زُنَّارا(١)

فأعجب معاويةَ غناؤه حتى قبضَ يده عن الطعام، وجعل يضرِبُ برجله الأرض طَرَبًا؛ فقال له عبدُ الله بن جعفر: يا أميرَ المؤمنين؛ إنما هو مختار الشعر يركَّب عليه مختار الألحان، فهل ترى به بأسًا؟ قال: لا بأس بحكمة الشعر مع حِكمة الألحان.

قُل للكِرَام بِبَابِنَا يلِجُوا(٢)

بَيْنَا عبد الله بن جعفر في أزقّة المدينة إذ سمع غناء، فأَصْغَى إليه، فإذا بصوتٍ شَجِيّ رقيق لقَيْنَةٍ تغني:

قُلْ للكرام ببابنا يَلِجوا ... ما في التَّصَابي على الفتى حَرَجُ

فنزل عبدُ الله عن دابَّتِه: ودخل على القوم بلا إِذْن؛ فلما رأوه قاموا إليه إجْلالًا، ورفعوا مجلسه؛ ثم أقبل عليه صاحبُ المنزل، فقال: يا ابن عم رسول الله؛ دخلتَ منزلنا بلا إذن، وما كنتَ لهذا بخليق! فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. قال: ومنْ أذنَ لك؟ قال: قَيْنَتُكَ هذه، سمعتُها تقول:

قل للكرام ببابنا يَلِجُوا . . .

فإن كنَّا كرامًا فقد أُذِنَ لنا، وإن كنا لئامًا خرجنا مذمومين؛ فضحك صاحبُ المنزل وقال: صدقتَ، جُعلت فِدَاك! ما أنت إلا مِنْ أكرم الأكرمين.

---

(١) الزنار: أعلى وسط النصارى والمجوس، وقد روي هذا البيت في الأغاني:
عندها ظبي يؤرثها ... عاقد في الجيد نقصارا
يؤرثها: يوقدها ويكثر حطبها. والنقصار: القلادة.
(٢) العقد الفريد: ٤ ـ ٩٩.

ثم بعث عبدُ الله إلى جاريةٍ من جَوَاريه، فقال لها: غنّي، فغنَّت؛ فطَرِبَ القوم، وطرب عبد الله، فدعا بثياب وطِيْبٍ؛ فكسا القومَ وصاحب المنزل، وطيّبهم، ووهب له الجاريةَ، وقال له: هذه أحذق بالغناء مِنْ جاريتك.

عَبد الله بن جَعفَر ضَيف طوَيس[١]

كان عبد الله بن جعفر معه إخْوَان له في عَشِيَّةٍ من عَشَايا الربيع، فراحت عليهم السماء بمطرٍ جَوْد[٢]، فأسَالَ كلَّ شيء، فقال عبد الله: هل لكم في العَقيق[٣]؟ فركبوا دوابهم، ثم انتَهَوْا إليه، فوقفوا على شاطئه، وهو يرمي بالزَّبَد مثل مَدِّ الفُرَات. وإنهم لينظرون إذ هاجتِ السماءُ، فقال عبد الله لأصحابه: ليس معنا جُنَّةٌ[٤] نَسْتَجِنُّ بها، وهذه سماءٌ خليقةٌ أن تَبُلَّ ثيابنَا، فهل لكم في منزل طُويس[٥] فإنه قريب منا فنستكنَّ فيه ويحدّثَنا ويُضحِكَنا ـ وطويس في النَّظَّارَةِ يسمع كلامَ عبد الله بن جعفر.

فقال له عبدُ الرحمٰن بن حسان بن ثابت: جُعلت فداك! وما تريد من طوَيس عليه غضب الله! هو يَشِينُ مَنْ عَرَفَه! فقال له عبد الله: لا تقلْ ذلك فإنه مليح خَفِيف لنا فيه أُنْس.

فلما استوفى طُوَيْسٌ كلامَهم تعجَّلَ إلى منزله فقال لامرأته: ويحك! قد جاءنا عبدُ الله بن جعفر سيّدُ الناس، فما عندك؟ قالت: نذبحُ هذه العَناق[٦] ـ وكانت عندها عُنَيِّقة قَدْ رَبَّتْهَا باللبن ـ وأَختبز خُبْزًا رُقاقًا. فبادر فذَبَحها، وعَجَنَتْ هي.

ثم خرج فتلقَّاه مُقبِلًا إليه؛ فقال له طُوَيس: بأبي أنتَ وأُمي! هذا المطرُ، فهل لك في المنزل فنستكِنَّ فيه إلى أن تكفَّ السماء؟ قال: إياك أُريد. قال: فامْضِ يا سيِّدِي على بركةِ الله. وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا، فتحدَّثُوا حتى أَدركَ الطعام، فقال: بأبي أنت وأمي! تُكرمني إذا دخلتَ منزلي بأن تتعشّى عندي؛

(١) الأغاني: ٣ ـ ٣٢.
(٢) الجود: المطر الغزير، أو ما لا مطر فوقه.
(٣) العقيق: متنزه أهل المدينة في أيام المطر والربيع.
(٤) الجنة: ما استترت به.
(٥) اسمه عيسى بن عبد الله، وطويس لقب غلب عليه، وهو أول مَن غنى في الإسلام، وكان ظريفًا عالمًا بأمر المدينة وأنساب أهلها.
(٦) العناق: الأنثى من ولد المعز.

قال: هات ما عندك. فجاء بعَنَاقٍ سمينةٍ ورُقاق. فأكل وأكل القوم حتى تملَّئُوا[(١)]، فأعجبه طِيبُ طعامِه؛ فلما غسلوا أيديَهم قال: بأبي أنت وأمي! أتمَشَّى معك وأُغَنِّيك؟ قال: افعلْ يا طُوَيس، فأخذ مِلْحَفَةً فأتزر بها، وأخرى لها ذَنَبَيْن، ثم أخذ المُرَبَّع[(٢)] فتمشى، وأنشأ يغنّي:

يا خليليّ نابني سُهُدِي ... لم تنَمْ عيني ولم تَكَدِ
فشرابي ما أُسِيغُ وما ... أشتكي ما بي إلى أحَدِ
كيف تَلْحُوني[(٣)] على رَجُلٍ ... آنِسٍ تَلْتَذُّه كَبِدي
مثلُ ضوء البَدْرِ طلعتُه ... ليس بالزُّمَّيلَةِ النَّكِدِ[(٤)]
من بني آل المغيرة لا ... خاملٍ نِكْسٍ ولا جَحِدِ[(٥)]
نظرَتْ يومًا فلا نظرَتْ ... بعدَه عيني إلى أحَدِ

فطرب القوم، وقالوا: أحسنت والله يا طُوَيس! ثم قال: يا سيدي؛ أتدري لمن هذا الشعر؟ قال: لا، والله ما أدري لمَنْ هو. إلا أني سمعت شعرًا حسنًا. قال: هو لفارعةَ بنت ثابت أخت حسان بن ثابت في عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام المخزومي. فنكَّس القومُ رؤوسَهم، وضرب عبد الرحمٰن برأسه على صَدْرِه[(٦)]، فلو شُقتِ الأرض له لدخل فيها.

سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغَنِّ[(٧)]

جلس عبدُ الله بن جعفر يومًا عند عبد الملك بن مروان، فحدّثه عن إقلالِ[(٨)] ابن أبي عَتِيق وكثرةِ عياله؛ فأمره عبد الملك أن يبعث به إليه، فأتاه ابنُ جعفر فأعْلَمَه بما دار بينه وبين عبد الملك وبَعَثَه إليه.

فدخلَ ابنُ عتيق على عبد الملك؛ فوجده جالسًا بين جاريتين قائمتين عليه تَمِيسان[(٩)] كغُصْنَيْ بَانٍ، بيد كل جارية مِرْوَحة، تروّح بها عليه، مكتوب

---

(١) تملئوا: امتلئوا من كثرة الأكل.
(٢) المربع: آلة من آلات الطرب.
(٣) لحاه يلحوه: لامه.
(٤) الزميلة: الجبان الضعيف.
(٥) النكس: الضعيف لا خير فيه. والجحد: القليل الخير.
(٦) ضرب برأسه على صدره: أطرق استحياء وخجلًا، وهو يريد بعبد الرحمٰن عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت.
(٧) العقد الفريد: ٤ ـ ٩١.
(٨) فقر.
(٩) تميسان: تتبختران.

بالذهب في المِرْوَحة الواحدة:

إنــــي أَجْـلِبُ الــريــا ح وبي يـلعب الـخَجِلْ
وحـجـابٌ إذا الـحـبـيــ ـبُ ثنى الـرأسَ لـلقُبَلْ
وغِــيــاث إذا الــنـديــ ـمُ تـغـنّـى أو ارْتــجــل

وفي المروحة الأخرى:

أنـا فـي الـكـفّ لَطيـفـه مسكنِي قـصرُ الـخليفهْ
أنــــا لا أَصْــــلُح إلّا لـظـريـفٍ أو ظـريـفـه
أو وصيـفٍ حَسَنِ القَـ ـدِّ شبيـهٍ بـالـوصيـفَـه

قال ابنُ أبي عتيق: فلما نظرتُ إلى الجاريتين هوَّنتا الدنيا عليَّ، وأَنْسَتَاني سوءَ حالي، ثم قلت: إنّ كانَتَا من الأنس فما نساؤنا إلّا من البهائم، فلما كررتُ بصري فيهما تذكرت الجنة، فإذا تذكرت امرأتي ـ وكنت لها مُحِبًّا ـ تذكرت النار، وبدأ عبد الملك يتوجَّع لي بما حكى له ابنُ جعفر عنّي، ويخبرني بما لِي عنده من جميل الرأي؛ فأكذبْتُ له كلَّ ما حكاه له ابنُ جعفر عني، ووصفت له نفسي بغايةِ المَلَا والجِدَة[1]؛ فامتلأ عبد الملك سرورًا بما ذكرت له وغمًّا بتكذيب ابن جعفر.

فلما عاد إليه ابنُ جعفر عاتبه عبد الملك على ما حكاه عني، وأخبره بما حَلَّيْتُ[2] له نفسي، فقال: كذب، والله يا أمير المؤمنين، وإنه أحوجُ أهل الحجاز إلى قليلِ فَضْلِك، فضلًا عن كثيره.

ثم خرج عَبْدُ الله فلقيني، فقال: ما حملك على أن كذَّبتني عند أمير المؤمنين؟ قلت: أفكنت تراني وقد أجلسني بين شمس وقمر، ثم أَتَفَاقَرُ[3] عنده! لا والله، ما رأيت ذَلك لنفسي، وإنْ رأيته لي.

فلما أعلم بذلك عبدُ الله بن جعفر عبد الملك بن مروان قال: فالجاريتان لـه.

---

(١) الملا: سعة العيش. والجدة: الغنى. (٢) حلى نفسه: وصف حليته.
(٣) تفاقر: أظهر الفقر.

قال ابنُ أبي عَتِيق: فلمَّا صارتا إليَّ زرتُ عبد الله بن جعفر فوجدتُه قد امتلأ فرحًا وهو يشرَبُ، وبين يديه عُسّ(١) فيه عسل ممزوج يمسكُ وكافور، فقال: مَهيَمْ(٢)؟ قلت: قد والله قبضتُ الجاريتين، قال: فاشرب، فتناولت العُسّ، فجرعت منه جَرْعة، فقال لي: زِدْ، فأبيتُ عليه، فقال لجارية له عنده تُغَنّيه: إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين فخذي في نَعتهما، فحركت الجارية العود ثم غنّت:

عهدي بها في الحيّ قد جردت صفراء مثل المهرة الضامِرِ
قد حَجَم(٣) النَّدْيُ على نحرها في مشرق ذي بَهْجَةٍ ناضر
لو أسندت مَيْتًا إلى صدرها قام ولم ينقل إلى قابر(٤)
حتى يقول الناس مما رأوا: يا عجبًا للميتِ الناشر

فلما سمعتُ الأبيات طَرِبت، ثم تناولتُ العُسّ، فشربت عَللًا(٥) بعد نَهَل، ورفعت عقيرتي أغني:

سَقَوْني وقالوا: لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا جبال حُنَيْنٍ ما سَقوْنِي لغَنَّتِ

عَبد الله بن جَعفَر عِندَ جَميلة(٦)

جلستْ جميلةُ(٧) يومًا للوِفادةِ عليها، وجعلت على رؤوسِ جواريها شُعورًا مُسْدَلَةً كالعناقيد إلى أعجازهنَّ، وألبستهنّ أنْوَاع الثياب المصبَّغة، وَوَضَعت فوق الشعور التيجانَ، وزيَّنَتْهُنَّ بأنواع الْحُليّ.

ووجَّهتْ إلى عبد الله بن جعفر تَسْتَزيره، وقالت لكاتب أملتْ عليه: «بأبي أنت وأمي! قَدْرُك يَجِلُّ عن رسالتي، وكرمُك يحتَمِلُ زَلّتي، وذَنْبِي لا تقَالُ عَثْرَتُهُ، ولا تُغْفَرُ حَوْبَتُه(٨)؛ فإن صَفَحْتَ فالصفحُ لكم معشرَ أهلِ البيت يُؤْثَر، والخير

(١) العس: القدح العظيم.
(٢) كلمة استفهام: أي ما حالك وما شأنك؟ أو ما وراءك؟ أو أحدث لك شيء؟
(٣) حجم الثدي: نهد. (٤) قبره يقبره: دفنه، أي إلى دافن.
(٥) العلل: الشربة الثانية، أو الشرب بعد الشرب تباعًا، والنهل: الشرب الأول.
(٦) الأغاني: ٨ ـ ٢٢٧.
(٧) هي جميلة مولاة بني سليم، كانت أصلًا من أصول الغناء، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريبًا.
(٨) الحوبة: الإثم.

والفضلُ كلّه فيكم مُدَّخَر، ونحن العبيدُ وأنتم الموالي. فطُوبَى لمن كان لكم مُجَاوِرًا، وبعِزّكم قاهرًا، وبضيائِكُمْ مُبْصرًا! والويلُ لمن جَهِلَ قدركم، ولم يَعْرِف ما أَوْجَبَهُ اللهُ على هذا الخَلْقِ لكم! فصغيرُكم كبيرٌ، بل لا صغيرَ فيكم، وكبيركم جليلٌ، بلِ الجَلَالَةُ التي وهبها الله عزَّ وجلَّ للخلق هي لكم، ومقصورةٌ عليكم؛ وبالكتابِ نسألُك، وبحقِّ الرسول ندعوك ـ إن كنت نشيطًا ـ لمجلسٍ هَيَّأْتُه لك، لا يحسنُ إلا بك، ولا يتمُّ إلا مَعَك، ولا يصلح أن يُنْقَل عن موضعه، ولا يُسْلَك به عن طريقه».

فلما قرأ عبدُ الله الكتاب قال: إنا لنعرفُ تعظيمها لنا، وإكرامَها لصغيرِنا وكبيرنا، وقد علمتُ أنها قد آلَتْ أَلِيَّةً[١] ألا تغَنّي أحدًا إلا في مَنزلها. وقال للرسول: والله قد كنتُ على الركوب إلى موضع كذا، وكان في عزمي المرورُ بها؛ فأمَّا إذ وافَقَ مُرَادها فإني جاهلٌ بعد رجوعي طريقي عليها.

فلما صار إلى بابها أدخلَ بعضَ مَن كانَ معه إليه وصرفَ بعضهم. فنظر إلى ذلك الحُسْنِ البارع والهيئةِ الباذَّةِ[٢]، فأعجبه ووقَعَ من نفسه؛ فقال: يا جميلة؛ لقد أُتيتِ خيرًا كثيرًا! ما أحسن ما صنعتِ! فقالت: يا سيدي؛ إن الجميل للجميل يَصْلُح، ولك هيَّأْتُ هذا المجلس.

فجلس عبد الله بن جعفر، وقامت على رأسه، وقامت الجواري صَفَّيْن؛ فأقسم عليها فجلستْ غيرَ بعيدٍ. ثم قالت: يا سيدي؛ ألا أُغَنّيكَ، فقال: بلى! فغنَّت:

بني شَيْبَة[٣] الحمدِ الذي كان وجهُهُ ... يُضِيء ظلامَ الليل كالقَمَرَ البَدْرِ
كُهُولُهمُ خيرُ الكهول ونَسْلُهم ... كنسلِ الملوكِ لا يَبُورُ ولا يَحْرِي[٤]
أبوكم قُصَيٌّ كان يُدْعى مُجَمِّعًا ... به جَمَّعَ الله القَبائلَ من فِهْر

فقال عبد الله: أحسنتِ يا جميلة! بالله أَعِيديه علي، فأعادته؛ فجاء الصوت أحسنَ من الارتجال. ثم دعت لكل جارية بعودٍ، وأمرتْهُنَّ بالجلوس على كراسي صغار قد أعدَّتها لهنّ، وغنت عليهن هذا الصوت وغنى جواريها على غنائها.

---

(١) آلت: أقسمت يمينًا. (٢) الهيئة الباذة: الغالبة الفائقة.
(٣) شيبة الحمد: لقب عبد المطلب بن هاشم، وهو جد عبد الله بن جعفر.
(٤) يبور: يهلك، ويحري: ينقص.

فلما ضربن جميعًا قال عبد الله: ما ظننت أنَّ مثل هذا يكون! وإنه لمِمَّا يفتِن القَلْبَ!

ثم دعا ببغلته فركبها وانصرف إلى منزله ـ وقد كانت جميلة أعدت طعامًا كثيرًا ـ فقال لأصحابه: تخلّفُوا للغداء فتغدَّوا وانصرفوا مسرورين.

بَيتَانِ مِنَ الشِّعْرِ[١]

قال أبو عبّاد: أتيتُ جميلةَ يومًا، وقد ظننت أني سبقتُ الناسَ إليها، فإذا مجلسها غاصّ؛ فسألتُها أن تعلِّمني شيئًا، فقالت لي: إنّ غيرَك قد سبقك، ولا يجمُلُ تقديمُك على مَنْ سواك. فقلت: جُعِلْت فداك! متى تَفْرُغين ممن سَبَقَني؟ قالت: هو ذاك، الحقُّ يَسَعُك ويسعُهم.

فبينا نحن كذلك إذ أقبل عبدُ الله بن جعفر ـ وإنه لأوّلُ يوم رأيته وآخره ـ وكنت صغيرًا كيِّسًا[٢]، وكانت جميلةُ شديدَة الفرح ـ فقامت وقام الناس، فتلقّتْهُ وقبلتْ رجليه ويديه، وجلس في صَدْر المجلس على كَوْم[٣] لها، وتَحوّق[٤] أصحابه حوله، وأشارت إلى مَنْ عندها بالانصراف، وتفرّق الناس، وغَمَزَتْني ألا أبرَحَ، فأقمتُ. وقالت: يا سيدي وسيّد آبائي ومواليّ؛ كيف نَشطْتَ إلى أن تنقل قدميك إلى أمَتِك؟ قال: يا جميلة؛ قد علمتُ ما آليتِ على نفسك ألا تغني أحدًا إلّا في منزلك، وأحببتُ الاستماع. قالت: جُعِلْتُ فِداك! فأنا أَصيرُ إليك وأُكَفِّرُ. قال: لا أكلِّفك ذلك، وبلغني أنك تُغنِّين بيتين لامرىء القيس تجيدين الغناء فيهما، وكان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت. قالت: يا سيدي، نعم! فاندَفَعَتْ تُغَنِّي، فغنَّت بِعُودِها؛ فما سمعتُ منها قبلَ ذلك، ولا بعد إلى أن ماتت، مثلَ ذلك الغناء، فسبَّح عبد الله بن جعفر والقومُ معه، وهما:

ولما رأَتْ أنَّ الشريعةَ همُّها ... وأن البياضَ من فرائِصها دَامِي
تَيمَّمتِ العينَ التي عند ضَارِجٍ ... يفيءُ عليها الظلُّ، عَرْمضُها طَامِي

فلما فرغت قالت جميلة: أي سَيّدي؛ أزيدك؟ قال: حسبي. فقال بعض مَن كان معه: بأبي جُعلت فداك! وكيف أنقذ الله من المسلمين جماعةً بهذين البيتين؟

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ١٩٨.
(٢) كيس: عاقل.
(٣) الكوم: المواضع المشرفة، واحدتها كومة.
(٤) تحوق القوم حوله: استداروا وأحاطوا به.

قال: نعم، أقْبَل قومٌ من أهل اليمن، يريدون النبيّ ﷺ؛ فضلُّوا الطريق، ووقعوا على غيرها، ومكثوا ثلاثًا لا يقدرون على الماء، وجعل الرجل منهم يَسْتَذْري بِفيءِ السَّمُرِ والطَّلْحِ يائسًا من الحياة إذ أقبلَ راكبٌ على بعير له، وأنشد بعضُ القوم هذين البيتين، فقال:

ولما رَأَتْ أن الشريعةَ هَمُّها وأن البياضَ من فرائضها دَامِي
تيمَّمتِ العينَ التي عند ضَارِجٍ يفيءُ عليها الظلُّ عَرْمَضُها طَامِي

فقال الراكبُ: مَنْ يقول هذا؟ قال: امرؤ القيس. قال: والله ما كذب، هذا ضارجٌ عندكم، وأشار لهم إليه، فحَبَوا على الرُّكَب فإذا ماء عذْب، وإذا عليه العَرْمضُ والظل يفيءُ عليه، فشربوا منه رِيَّهم، وحملوا ما اكْتَفَوا به حتى بلغوا الماء.

فأتوا النبيّ ﷺ فأخبروه وقالوا: يا رسولَ الله؛ أحْيَانَا الله عزّ وجلّ ببيتين من شعر امرىء القيس، وأنشدوه الشعر. فقال رسول الله ﷺ: ذلك رجل مذكور في الدنيا شريفٌ فيها، منْسيٌّ في الآخرة، خاملٌ فيها، يجيءُ يوم القيامة مَعَهُ لواءُ الشعراء إلى النار. فكلٌّ استحسن الحديث. ونهض عبد الله بن جعفر، ونَهَضَ القوم معه؛ فما رأيت مجلسًا كان أحْسَنَ من مجلسه.

مَاذا فعَلت بزاهِد مُتَعَبِّد[١]

قال الأصمعي: قدم عراقي بعدلٍ[٢] من خُمُر العراق إلى المدينة، فباعها كلها إلا السّود؛ فشكا ذلك إلى الدارمي[٣]، وكان قد تنسّك وترك الشِّعْر ولزِمَ المسجد، فقال: ما تجعلُ لي على أَنْ أحتَال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك؟ قال: ما شئت! فعمدَ الدَّارمي إلى ثياب نُسُكه، فألقاها عنه، وعاد إلى مثل شأنه الأول، وقال شعرًا رفعه إلى صديق له من المغنين، فغنّى به، وكان الشعر:

قُلْ للمليحة في الخِمار[٤] الأسود ماذا فعلتِ بزاهِدٍ متعبِّدِ

(١) العقد الفريد: ٤ ـ ٩٦.
(٢) العدل: نصف الحمل.
(٣) هو ربيعة بن عامر، ولقبه مسكين، ويصل نسبه إلى دارم بن مالك، كان شاعرًا شريفًا من سادات قومه، وقد غلب شعره في مدح معاوية، توفي سنة ٩٠ هـ.
(٤) الخمار: النصيف، وما تغطى به المرأة رأسها.

قـد كـان شـمَّـر لـلصـلاة ثـيـابَـه حتى خطرْت له ببابِ المسجدِ
رُدِّي عـلـيـه صـلاتَـه وصـيـامَـه لا تـقْـتُـلـيـه بـحـقِّ دِيـنِ مـحـمـدِ

فشاع هذا الغناء في المدينة، وقالوا: قدْ رجع الدارمي، وتعشق صاحبة الخِمار الأسود، فلم تبق مليحةٌ بالمدينة إلا اشترت خِمارًا أسود، وباع التاجر جميعَ ما كان معه، فجعل إخوانُ الدارمي من النسَّاك يَلْقوْن الدارمي فيقولون: ماذا صنعت؟ فيقول: ستعلمون نبأه بعد حين، فلما نَفِدَ ما كان مع العراقي رجع الدارمي إلى نسكه ولَبِسَ ثيابه!

دُعَابَة ابن أبي عتيق(١)

لما دخلَ المدينةَ عُثمان بن حَيَّان المرِّي واليًا عليها اجتمع الأشرافُ عليه من قريشٍ والأنصار؛ فقالوا له: إنك لا تعملُ عملًا أجْدَى ولا أولى من تحريم الغناء والرِّثاء، ففعل وأجّل أهلها ثَلاثًا يخرجون فيها من المدينة.

فقدمَ ابنُ أبي عتيق في الليلة الثالثة؛ فحطَّ رحلَه بباب سَلَّامةَ، وقال لها: بدأتُ بكِ قبل أن أصيرَ إلى منزلي؛ فقالت: أوَ ما تدري ما حدَث؟ وأخبَرَتْه الخبر! فقال: أقيمي إلى السَّحر حتى ألْقاهُ! فقالت: إنا نخاف ألّا تُغْني شيئًا، ونُنْكَظَ(٢). فقال: إنه لا بأسَ عليك!

ثم مضى إلى عثمان فاستأذنَ عليه، فأذِنَ له وسلَّم عليه، وذكر له غيبتَه، وأنه جاء ليقضي حقه، وقال له: إن من أفْضَل ما عملتَ تحريمَ الغناء والرثاء. قال: إن أهلكَ قد أشاروا عليّ بذلك. قال: فإنك قد وُفِّقْتَ! ولكني رسولُ امرأةٍ إليك تقول: قد كانتْ هذه صناعتي فتُبْتُ إلى اللهِ منها، وأنا أسألك أيُّها الأمير ألّا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبيّ ﷺ.

فقال عثمان: إذن أدعها لك ولكلامك. قال: لا يَدَعُكَ الناسُ؛ ولكن تدعو بها وتسمع كلامها، وتنظر إليها، فإن كانت ممن يُتْرَك تركْتَها، قال: فادْعُ بها.

فأمرها ابنُ أبي عتيق، فتخشّعَتْ، وأخذتْ سُبْحَةً في يدها، وصارت إليه، وحدثته؛ فإذا هي من أعلم الناس بالناس؛ فأُعجب بها، وحدثته عن آبائه

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ٣٤١، الكامل: ١ ـ ٣٨٠، ذيل زهر الآداب: ٤٤.

(٢) ننكظ: تنالنا شدة.

وأمورهم، ففكِهَ(١) لذلك، فقال لها ابن أبي عتيق: اقْرَئي للأمير؛ فقرأت له. فقال لها: إحدِي للأمير، فحرّكهُ حُدَاؤها(٢). ثم قال لها: غَبِّرِي(٣) للأمير؛ فجعل يُعَجَبُ بذلك عثمان، فقال له ابن أبي عتيق: فكيف لو سَمِعتَها في صناعتها! فقال: قل لها فلتقل فأمرها فغنّتْ:

سَدَدْنَ خَصَاصَ(٤) الخَيم(٥) لما دَخَلْتَهُ
بِكُلِّ لَبَانٍ(٦) واضِحٍ وجَبِينِ

فنزل عثمان بن حيَّان عن سريره، حتى جلس بين يديها، ثم قال: والله ما مثلك يخرج عن المدينة!

فقال له ابنُ أبي عتيق: يقول الناس أَذِنَ لسلّامة في المُقام وأخرج غيرها؛ فقال له عثمان: قد أذِنتُ لهم جميعًا!

لَحْنٌ لِجَميلَةَ(٧)

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: حدّثتني عَمَّتِي ـ وكانت أَسَنَّ من أبي وعُمِّرَتْ بعده ـ قالت: كان السببُ في طلب أبيك الغناءَ والمواظبةِ عليه لحنًا سمعه لجميلةَ في منزلِ يونسَ بنِ محمد الكاتب، فانصرف وهو كئيبٌ حزينٌ مهمومٌ، لم يَطْعَمْ(٨) ولم يُقْبِلْ علينا بوجهه كما كان يفعل. فسألته عن السبب فأمسك، فألْحَحْتُ عليه فانْتَهَرَني، وكان لي مُكْرِمًا؛ فغضِبتُ وقمتُ من ذلك المجلس إلى بيتٍ آخر؛ فتَبِعني وترضَّاني، وقال لي: أحدِّثُكِ ولا كتمانَ منكِ! عشقتُ صوتًا لامرأة قد ماتت، فأنا بها وبصوتها هائمٌ، إن لم يَتَدَارَكْنِي الله منه برحمته. فقلت: أتظنُّ أن اللهَ يُحيِي لك ميتًا! قال: لا. قلت: فما تعليقك قلبك بما لا يُعطاه أحد! وأمَّا عشقُك الصوت فهو أن تَحْذِقَهُ وتُغَنِّيَهُ عشرَ مرارٍ، فَتَمَلهُ ويذهبَ عشقُك له!

---

(١) فكه لها: طابت نفسه. (٢) الحداء: غناء خلف الإبل تنشط به.
(٣) التغبير: ضرب من الغناء اتخذه المتصوفة يتواجدون على أنغامه.
(٤) الخصاص: خروق واسعة في الخيم قدر الوجه، الواحدة خصاصة، وهو يصف نساء تطلعن منها.
(٥) الخيم: أعواد تنصب في القيظ، وتجعل لها عوارض، وتظلل بالشجر، فتكون أبرد من الأخبية.
(٦) اللبان: الصدر. (٧) الأغاني: ٨ ـ ٢٢٠.
(٨) لم يطعم: لم يتناول الطعام.

فكأنه ارعوى ورجع إلى نفسه، وقام فقبّل رأسي ويديّ ورجليّ، وقال لي: فَرّجْتِ عني ما كنتُ فيه من الكَرْب والغَمّ، ثم تَمَثَّلَ:

حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ

ولزم بيت يونُسَ حتى حَذَق الصوتَ، ولم يمكُثْ إلا زمنًا يسيرًا حتى مات يونس، وانضمَّ إلى سِيَاطٍ[1]، وكان من أحذق أهل زمانِه بالغناء وأحسنهم أداءً عَمَّن مضى.

قالت عمتي: فقلت لإبراهيم: وما الصَّوْتُ؟ فأنشدني الشعر ولم يُحسن أَدَاءَ الغِناء:

مِنَ البَكَرَاتِ عِرَاقِيَّةٌ ... تُسَمَّى سُبَيْعَةَ أَطْرَيْتُهَا
من آل بَكْرَةَ الأكْرَمِين ... خَصَصْتُ بِوُدِّي فأَصْفَيْتُهَا
ومن حُبّها زُرْتُ أهلَ العراق ... وأَسْخَطْتُ أَهْلِي وأَرْضَيْتَهَا
أموتُ إذا شَحَطَتْ دَارُها ... وأَحْيَا إذا أنا لا قَيْتَهَا
فأُقسمُ لو أنَّ ما بي بها ... وكنتُ الطبيبَ لداويتُها

قالت عمتي: هذا شِعْرٌ حسنٌ، فكيفَ به إذا ما قُطِّعَ ومُدِّدَا! فما مضتِ الأيامُ والليالي حتى سمعتُ اللحنَ مؤدّى؛ فما خرق مسامعي شيءٌ قطُّ أحسنُ منه؛ ولقد أذْكَرَني بما يُؤْثَر من حُسْنِ صوتِ داودَ وجمالِ يوسف.

فبينا أنا يومًا جالسةٌ، إذ طلع عليّ إبراهيمُ ضاحكًا مستبشرًا؛ فقال لي: ألا أحدِّثُكِ بعَجَب؟ قلت: وما هو؟ قال: إن لي شريكًا في عشق صوت جميلة! قلت: وكيف ذلك؟ قال: كنت عند سِياط في يومنا هذا، وأنا أُغَنِّيه الصوت، وقد وقَّفَني فيه على شيء لم أكُنْ أَحْكَمْتُهُ عن يونس، وحضر عند سِياط شيخ نبيل، فسبَّح[2] على الصوت تَسْبيحًا طويلًا؛ فظننت أنه فعل ذلك لاستحسانه الصوت. فلما فرغتُ أنا وسِياطٌ من اللحن قال الشيخ: ما أعجبَ أمرَ هذا الشعر، وأحسَنَ ما غُنّي به، وأحسنَ ما قال قائله!

---

(١) اسمه عبد الله، مكي من موالي خزاعة، وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلي، وكان مقدمًا في الغناء، رواية وصنعة، مات في أيام الهادي.

(٢) سبح: قال: سبحان الله!

فقلت له دُونَ القوم: وما بلغ من العَجَب به؟ قال: نعم! حَجَّتْ سُبَيْعَةُ من ولد عبد الرحمٰن بن أبي بَكْرَةَ، وكانت من أجملِ النساء، فأبصرها عمر بنُ أبي ربيعة، فلما انْحَدَرَتْ إلى العراق اتَّبَعَها يُشَيِّعها حتى بلغ معها موضعًا يقال له: الخَوَرْنَقُ. فقالت له: لو بلغتَ إلى أهلي، وخطبْتَني لزوَّجوك. فقال لها: ما كنتُ لأخلِط تَشْييعي إيَّاك بِخِطْبَةٍ، ولكن أرجعُ ثم آتيكم خاطبًا؛ فرجع ومَرَّ بالمدينة، فقال فيها:

مِـــن الـــبَـــكَـــرَاتِ عِـــرَاقِـــيَّـــةٌ تُـــسَـــمَّـــى سُـــبَـــيْـــعَـــةَ أَطْـــرَيْـــتُـــهَـــا

ثم أتى بيتَ جميلة، فسألها أن تغَنِّي بهذا الشعرِ ففعلتْ. فأعجبه ما سمعَ من حُسْنِ غنائها وجودةِ تأليفها؛ فحسُن موقعُ ذلك منه؛ فوجَّه إلى جارية له كانت تطلبُ الغناء أن تأتيَ جميلة، وتأخذَ الصوتَ منها، فطارحتْها إياه أيامًا حتى حَذَقَتْ ومَهرتْ به، فلما رأى ذلك عمر قال: أرى أن تَخْرُجي إلى سُبيعة وتغنّيها هذا الصوتَ وتبلِّغيها رسالتي؛ قالت: نعم، جعلني الله فِدَاكَ.

فأَتَتْها فرَحَّبَتْ بها، وأعلمتْها الرسالةَ، فحيصتْ وأَكْرَمَتْ، ثم غنَّتْها فكادتْ تموت فرحًا وسرورًا لحسن الغناء والشعر.

ثم عادتْ رسول عمر، فأعلَمَتْه ما كان، وقالتْ له: إنها خارجةٌ في تلك السنة.

فلما كان أوانُ الحج استأذَنتْ سُبَيعة أباها في الحج، فأبى عليها، وقال لها: قد حَجَجْتِ حُجَّةَ الإسلام. قالت له: تلك الحجة هي التي أَسْهَرَتني ليلي، وأطالت نهاري، وتوَّقَتْنِي إلى أن أعودَ وأزورَ البيتَ والقبرَ؛ وإن أنتَ لم تأذنْ لي مِتُّ كَمَدًا وغمًّا.

فلما رأى ذلك أبوها رقَّ لها، وقال: ليس يَسَعُني منعها لِمَا أرى بها؛ فأذن لها ووافى عمرُ المدينة ليعرف خبرَها؛ فلما قدمت علم بذلك، وسألها أن تَأْتِي منزل جميلة، وقد سبقَ إليها عمرُ، فأكرمَتْها جميلة، وسُرَّتْ بمكانها. فقالت لها سُبيعة: جعلني الله فِدَاكِ! أقلقني وأسهرني صوتُكِ بشعر عمرَ فِيَّ، فأسمعيني إياه. قالت جملة: وغَزَازَةً لوجْهِكِ الجميل! فغنَّتْها الصوت؛ فأُغْمي عليها ساعةً حتى رُش على وجهها الماء، وثاب إليها عقلُها. ثم قالتْ: أعيدي عليَّ، فأعادت الصوت مرارًا في كل مرة يُغْشَى عليها.

ثم خرجت إلى مكة وخرج معها. فلما رجعتْ مَرَّت بالمدينة وعُمَرُ معها؛ فأتت جميلة فقالت لها: أعيدي عليَّ الصوتَ ففعلت؛ وأقامت عليها ثلاثًا تسألها أن تعيد الصوت، فقالت لها جميلة: إني أريد أن أُغنيك صوتًا فاسْمعيه. قالت: هاتيه يا سيدتي، فغنتها:

أبتِ المليحةُ أنْ تُوَاصِلَنِي ... وأَظُنُّ أنِّي زائرٌ رَمْسِي[١]
لا خيرَ في الدنيا وزينتِها ... ما لم تُوَافِقْ نفسُها نَفْسِي
لا صَبْرَ لي عنها إذا حَسَرَتْ ... كالبَدْرِ أو قَرْنٍ من الشمس

قالت سُبيعة: لولا أن الأوَّل شعر عمر لقدَّمْتُ هذا على كل شيء سمعتُه.

فقال عمر: فإنه والله أحسنُ من ذلك؛ فأما الشعر فلا. قالت جميلة: صدقت والله!

فِي أيّام الحَجّ[٢]

حجّ عمرُ بن أبي ربيعةَ في عامٍ من الأعوام على نجيبٍ له، مَخْضوبٍ بالْحِنَّاء مشهرَّ الرَّحل بقِرابٍ[٣] مُذْهَبٍ[٤]، ومعه عُبَيْدُ بن سُرَيْج على بَغْلَةٍ له شَقراء، ومعه غلامه جَنَّاد[٥]، يقودُ فرسًا له أدْهَمَ أغرَّ مُحَجَّلًا وكان عمر بن أبي ربيعة يسميه «الكوكب» في عنقه طوق ذَهَب. ومع عُمَرَ جماعةٌ من حَشَمِهِ وغلْمانه ومواليه، وعليه حُلة مَوشيَّة يمانية وعلى ابن سُرَيج ثوبان هَرَوِيَّانِ[٦] مرتفعان، فلم يمرُّوا بأحدٍ إلا عجِبَ من حسن هيئتهم وكان عُمَرُ من أَعْطَر الناس وأحسنهم هيئة، فخرجوا من مكّةَ يوم التَّروية[٧] بعد العصر يريدون مِنًى.

فمروا بمنزل رجل من بني عبد مناف بمِنًى، قد ضُرِبَتْ عليه فَسَاطِيطُه[٨] وخِيَمهُ، ووافى الموضعَ عمرُ فأبصر بنتًا للرجل قد خرجتْ من قُبّتها، وستر

---

(١) الرمس: القبر.
(٢) الأغاني ١:٢٥٩.
(٣) القراب: جراب السيف يصنع من الجلد.
(٤) الإذهاب: الطلاء بالذهب.
(٥) في جناد يقول عمر:

فقلت لجناد خذ السيف واشتمل ... عليه برفق وارقب الشمس تغرب
وأسرج لي الدهماء واعجل بممطري ... ولا تعلمن خلقًا من الناس مذهبي

(٦) ثوب هروي: منسوب إلى هراة.
(٧) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة لأن الماء كان قليلًا بمنى فكانوا يرتوون من الماء لما بعد.
(٨) الفسطاط: ضرب من الأبنية، وجمعه فساطيط.

جواريها دون القُبة لئلا يراها من مَرَّ، فأشرف عمرُ على النَّجيب، فنظر إليها، وكانت من أحسن النساء وأجملهن، فقال لها جوارِيها: هذا عمرُ بن أبي ربيعة، فرفعت رأسها فنظرت إليه، ثم سَتَرَتْهَا جواريها ووَلَائِدُها[١] عنه، حتى دخلت، ومضى عمرَ إلى منزله وفسَاطيطه بمنى، وقد نظر من الجارية إلى ما تيّمه، ومن جمالها إلى ما حيره؛ فقال فيها:

نـظـرتُ إلـيـهـا بـالـمـحَـصَّـبِ[٢] مـن مِـنًـى
ولـي نَـظَـرٌ - لـولا الـتـحـرُّج - عَـارمُ[٣]
فـقـلـت: أشـمـسٌ أم مـصـابـيـحُ بِـيْـعَـةٍ[٤]
بـدَتْ لـيَ خَـلْـفَ الـسـجـفِ أم أنـت حـالِمُ
بـعـيـدة مَـهْـوَى[٥] الـقُـرْطِ إمـا لـنـوْفَـلٍ
أبـوهـا وإمـا عـبـدُ شـمـس وهـاشـم
ومَـدَّ عـلـيـهـا الـسَّـجـفَ يـوم لـقـيـتـهـا
عـلى عَـجَـلٍ تُـبَّـاعُـهـا والـخـوادِمُ
فـلـم أسـتَـطِـعْـهـا غـيـرَ أَنْ قـد بَـدَا لـنـا
عـلى الـرغْـم مـنـهـا كـفُّـهـا والـمـعـاصِـمُ
مَعَاصمُ لـم تـضرِبْ على البهْم[٦] بالضُّحَى
عـصـاهـا وَوَجْـهٌ لـم تَـلحْـهُ الـسـمـائـم
نَـضِـيـر تـرى فـيـه أَسـاريـعَ مـائـه[٧]
صَـبـيـحٌ تُـغـادِيـه الأكُـفُّ الـنـواعِـمُ
إذا مـا دَعَـتْ أتـرابَـهَـا فـاكْـتَـنَـفْـنَـهَـا
تـمـايَـلْنَ أو مـالَـتْ بـهـن الـمـآكـمُ[٨]

---

(١) الوليدة: الأمة وجمعها ولائد.
(٢) المحصب: موضع رمي الجمار بمنى.
(٣) عارم: حاد.
(٤) البيعة: كنيسة النصارى.
(٥) بعيدة مهوى القرط: كناية عن طول العنق.
(٦) البهم: جمع بهمة، وهي الصغير من أولاد الضأن.
(٧) أساريع الماء: طرائقه، والمراد أنه يترقرق فيه ماء الشباب.
(٨) المآكم: جمع مأكمة وهي العجيزة.

طَـلبـنَ الـصِّـبـا حـتـى إذا مـا أَصَـبْـنَـهُ
نَـزَعْـنَ وهـن الـمُـسْـلِمَـاتُ الـظَّـوَالِمُ

ثم قال لابن سُرَيج: يا أبا يحيىٰ؛ إني تفكرْتُ في رجوعنا مع العِشّية إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار وجَلَبَةِ الحاج، فثَقُل عليّ؛ فهل لك أن نَرُوح رَواحًا طيبًا معتزلًا، فنرى فيه من راح صادرًا إلى المدينة من أهلها، ونرى أهلَ العراق والشام، ونتعلّل[١] في عشيتنا وليلتنا ونستريح؟ قال: وأنّى ذلك يا أبا الخطاب؟ قال: على كَثِيب أبي شَحْوَة[٢]، المشرفِ على بَطْنِ يأْجَجَ[٣] بين مِنًى وسَرِف، فنُبْصر مرورَ الحاجّ بنا ونراهم ولا يَرَوْننا. قال ابنُ سُرَيج: طَيّبٌ والله يا سيدي.

فدعا بعضَ خدَمِه فقال: اذهبوا إلى الدار بمكة، فاعملوا لنا سُفْرَة[٤]، واحملوها مع شراب إلى الكَثِيب، حتى إذا أَبْرَدْنا[٥]، ورَمَيْنَا الجَمْرة[٦] صِرْنا إليكم.

فصارا إليه فأكلا وشربا، فلما انتشيا أخذ ابنُ سُرَيْج الدُّف فنقره، وجعل يغنِّي، وهم ينظرون إلى الحاجّ، فلما أمسيا رفع ابن سُرَيج صوتَه فغنّى في الشعر الذي قاله عمر، فسمعه الرُّكْبَان فجعلوا يَصيحون به: يا صاحبَ الصوت؛ أما تتقي الله فقد حَبَسْتَ الناس عن مناسكهم! فيسكُتُ قليلًا، حتى إذا مضَوا رفع صوته، وقد أخذ فيه الشراب؛ فيقف آخرون، إلى أن مرَّت قطعة من الليل؛ فوقفَ عليه في الليل رجلٌ على فرس عَتِيق[٧] عربي مَرِح مُسْتَنّ[٨]، فهو كأنه ثَمِل، حتى وقف بأَصل الكثيب وثنَى رجلَه على قَرَبُوسِ[٩] سَرْجِه، ثم نادى: يا صاحب الصوت؛ أيسهلُ عليك أن تَرُدَّ شيئًا مما سمعته؟ قال: نعم ونَعمةَ عيْن[١٠]، فأَيها

(١) نتعلل: نتلهى ونتسلى.
(٢) موضع على خمسة أميال من مكة.
(٣) يأجج: موضع قرب مكة.
(٤) السفرة: طعام يتخذ للمسافر.
(٥) أبردنا: دخلنا في آخر النهار.
(٦) الجمرة: واحدة جمرات المناسك وهي ثلاث جمرات.
(٧) العتيق: الفرس الرائع الكريم.
(٨) يقال استن الفرس، جرى في نشاطه على سننه في جهة واحدة.
(٩) القربوس: مقدم السرج ومؤخره.
(١٠) أفعل ذلك إنعامًا لعينك وإكرامًا.

تريد؟ قال: تعيد عليَّ[١]:

أَلَا يا غُرابَ البينِ مالك كُلَّمَا نَعَبتَ بِفِقْدَانِ عليَّ تحُومُ
أَبِالْبَيْن من عَفْرَاءَ أنت مُخَبِّرِي عَدِمْتُكَ من طيرٍ أنت مَشُومُ

فأعاده، ثم قال له ابن سُرَيْج: ازدد إن شئت، فقال: غَنِّني:

أمسلَمَ[٢] إني ـ يا ابنَ كلِّ خليفةٍ ويا فارسَ الهيْجَا ويا قمرَ الأرضِ ـ
شكرتُكَ إن الشُّكْرَ حَبْلٌ من التُّقَى وما كلُّ من أقرضْتَهُ نعمةً يَقْضِي
ونَوَّهتَ لي باسمي وما كان خاملًا ولكنَّ بعضَ الذكرِ أَنْبَهُ من بعض

فغنّاه، فقال له: الثالث، ولا أستزيدك، فقال: قل ما شِئْتَ، فقال: تغنيني[٣]:

يا دارُ أَقْوَتْ[٤] بالجَزْعَ فالكَثَبِ[٥] بين مَسِيلِ العُذَيْبِ[٦] فالرُّحَبِ[٧]
لم تَتَقَنَّعْ بِفَضْلِ مِئْزَرِها دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ في العُلَبِ

فغنّاه، فقال له ابن سُرَيْج: أَبَقِيَتْ لك حاجة؟ قال: نعم، تنزل إليّ لأخاطبكَ شِفَاهًا بما أريد، فقال له عمر: انزل إليه، فنزل، فقال له: لولا أني أريدُ وَدَاعَ الكعبة وقد تقدَّمني ثَقَلِي[٨] وغلماني لأطلتُ المُقام معك، ولنزلت عندكم: ولكني أخافُ أن يَفْضَحَنِي الصبح، ولو كان ثَقَلي معي لما رضيتُ لك بالهُوَيْنَى[٩]، ولكن خُذْ حُلَّتِي هذه وخاتمي ولا تُخْدَعَ عنهما، فإن شراءهما

(١) الشعر لقيس بن ذريح.
(٢) يريد مسلمة بن عبد الملك. والشعر لأبي نخيلة الحماني.
(٣) نسب هذا الشعر في اللسان ـ مادة (دعد) ـ لجرير وورد فيه كما يأتي:

يا دار أقوت بجانب اللبب بين تلاع العقيق فالكثب
حيث استقرت نواهم فسقوا صوب غمام مجلجل لجب
لم تتلفع بفضل مئزرها دعد ولم تغذ دعد بالعلب

والتلفع: الاشتمال بالثوب كلبسة نساء الأعراب. والعلب؛ أقداح من جلود، الواحد علبة يحلب فيه اللبن ويشرب، أي: ليست دعد هذه ممن تشتمل بثوبها وتشرب اللبن بالعلبة كنساء الأعراب الشقيات ولكنها ممن نشأ في نعمة، وكسي أحسن كسوة.
(٤) أقوت الدار: خلت. والجزع: منعطف الوادي.
(٥) الكثب: موضع بديار طيىء. (٦) العذيب ـ كزبير: ماء، أربعة مواضع.
(٧) موضع. (٨) الثقل: متاع المسافر.
(٩) الهويني: الأهون والأيسر.

ألفٌ وخَمْسُمائة دينار، ثم قال له: بالله أنت ابن سُرَيج؟ قال: نعم، قال: حيّاك الله. وهذا عمرُ بن أبي ربيعة؟ قال: نعم؛ قال: حيّاك الله يا أبا الخطاب! فقال له: وأنت فحيَّاك الله! قد عرفْتَنا فعَرِّفْنا نفسك، قال: لا يمكنني ذلك، فغضِبَ ابنُ سُرَيج وقال: والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد، فقال له: أنا يزيد بن عبد الملك! فوثب إليه عُمَرُ فأعظمه، وابنُ سريج فقبَّلَ ركابه، ثم مضى يزيد إلى ثَقَلِه، ودفع ابن سريج الحلة والخاتم إلى عمر فأعطاه إياهما، وقال له: إن هَذَيْنِ بك أشبه منهما بي، فأعطاه عمر ثلاثمائة دينار وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناس، وجعلوا يتعجبون ويقولون: كأنهما والله حلّة يزيد بن عبد الملك وخاتمه، ثم يسألون عمر فيخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك!

فِي وَادِي العَقِيق(١)

كان ابن عائشةَ(٢) من أَحْسَنِ الناس غناء، وأنبههم فيه، وأضيقهم خلقًا: إذا قيل له غَنِّ، يقول: أوَلمثلي يُقال هذا؟ عليَّ عِتْقُ رقبة إن غنَّيت يومي هذا! فإن غنَّى وقيل له: أحسنتَ، قال: ألمثلي يقال أحسنت؟ عليَّ عِتقُ رقبة إن غنيت سائر يومي هذا.

فلما كان في بعض الأيام سال وادِي العقيق، فجاء بالعَجب، فلم يَبْقَ بالمدينة مُخَبَّأَة ولا شابّة ولا شاب، ولا كَهْل إلا خرج يُبْصرهُ، وكان فيمن خرج ابنُ عائشة المغنِّي، وهو مُعْتجرٌ(٣) بفضل ردَائه، فنظر إليه الحسنُ بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وكان فيمن خرج إلى العقيق - وبين يديه أَسْوَدَانِ كأنهما سارِيتان يمشيان بين يديه أمام دابَّتِه، فقال لهما: اذهبا إلى الرجل المعتَجِر بفضلِ ردائه فخُذَا بضَبْعيْهِ(٤)، فإن فعل ما آمرُه به، وإلا فاقْذِفَا به في العقيق.

فمضيا والحسَنُ يقْفُوهما، فلم يشعر ابنُ عائشة إلا وهما آخِذَان بضَبْعَيْهِ، فقال: مَن هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة، قال: لبيك وسَعْدَيك!

---

(١) العقد الفريد: ٤ - ١١٠.

(٢) هو محمد بن عائشة: من المقدمين في صناعة الغناء، ووضع الألحان في العصر الأموي، توفي نحو سنة ١٠٠ هـ.

(٣) الاعتجار: لف العمامة.

(٤) أخذ بضبعيه: أي بعضديه.

وبأبي أنت وأمي! قال: اسمع مني ما أقول، واعلم أنك مأسور في أيديهما، فغنّ مائةَ صوت أو يطْرَحاك في العقيق، وإن لم يفعلا ذلك لأقطعن أيديَهما!

فصاح ابنُ عائشة: يا وَيْلَاه! واعظيم مُصِيبتاه! قال: دَعْ صياحَك، وخُذْ فيما ينفعنا. قال: اقترح، وأقِم مَنْ يحصي؛ وأقبل يغنّي، فترك الناسُ العقيق؛ وأقبلوا عليه؛ فلما تمَّت أصواته مائة كبّر الناسُ بلسان واحد تكبيرة واحدة، ارتجَّتْ لها أقطار المدينة، وقالوا للحسن: صلّى الله على رُوحك حيًّا وميتًا! فما اجتمع لأهل المدينة سرورٌ قط إلا بكم أهل البيت.

فقال له الحسن: إنما فعلتُ هذا بك يا ابنَ عائشة لأخلاقك الشكِسَة، قال له ابن عائشة: والله ما مرّت عليَّ مصيبة أعظمُ منها.

فكان ابنُ عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أَشَدُّ ما مرَّ عليك؟ قال: يوم العقيق.

مِن أيْن صبَّك الله عَليّ[1]

خرج ابنُ عائشةَ من عند الوليد بن يزيد وقد غنَّاه:

أبعدَك مَعْقِلًا أَرْجُو وَحِصْنًا   قَد أعْيَتْنى المعاقِلُ والحُصونُ

فَأَطْرَبَه؛ فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارَةِ القَصَّار[2] كُسوة.

فبينا ابنُ عائشة يسيرُ إذ نظر إليه رجلٌ من أهلِ وادي القرَى كان يشتهي الغِناءَ ويشربُ النبيذَ؛ فدنا من غلامه وقال: مَنْ هذا الراكب؟ قال: ابن عائشة المغني، فدنا منه وقال: جُعِلْتُ فداءَك! أنت ابن عائشة أم المؤمنين؟ قال: لا، أنا مَوْلًى لقريش، وعائشةُ أُمي، وحسبُك هذا، فلا عليك أن تُكْثِر؛ قال: وما هذا الذي أراه بين يديك من المال والكُسوة؟ قال: غنَّيتُ أمير المؤمنين صوتًا فأطربته فأمر لي بهذا المال وهذه الكُسوة. قال: جُعلت فداءك؟ فهل تمنُّ عليّ بأن تُسْمِعني ما أسمعتَه إياه؟ فقال له: وَيْلَك أمثلي يكلّم بمثل هذا في الطريق! قال: فما أصنع؟ قال: الحقني بالباب.

---

(١) الأغاني: ٢ ـ ٢٢٧.

(٢) كارة القصار: الثياب التي يجمعها ويحملها. والقصار: محور الثياب.

وحرَّك ابنُ عائشة بَغْلَةً شقراء كانت تحتَه لينقطعَ عنه، فعَدَا معه حتى وافَيَا الباب كَفَرَسَي رِهان، ودخل ابنُ عائشة فمكث طويلًا طمعًا في أن يَضْجر فينصرف؛ فلم يفعل؛ فلما أعياه قال لغلامه: أَدْخِله، فلما دخل، قال له: وَيْلَكَ! من أينَ صبَّك الله عليّ؟ قال: أنا رجلٌ من أهل وادي القرَى، أشتهي هذا الغناء؛ فقال له: هل لك فيما هو أنفعُ لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرِفُ بها إلى أهلك؛ فقال له: جُعِلت فداءك؟ والله إن لي لبُنَيَّة ما في أُذنها ـ علم الله ـ حَلْقه من الوَرِق فضلًا عن الذهب، وإن لي لزوجة، ما عليها ـ يشهدُ الله ـ قميصٌ؛ ولو أعطيتَني جميعَ ما أمر لك به أميرُ المؤمنين على هذه الخَلَّة[1] والفقر اللذين عرَّفْتُكَها؛ وأضْعَفْتَ لي ذلك، لكان الصوتُ أعجبَ إليّ ـ وكان ابنُ عائشة تائهًا[2] لا يغني إلا لخليفةً أو لذي قَدْرٍ جليل من إخوانه ـ فتعجَّب ابنُ عائشة منه ورَحمه ودَهَا بالأداة[3] ـ وكان يغني مرتجلًا ـ فغنَّاه الصوت؛ فطرب له طربًا شديدًا، وجعل يحرِّك رأسه حتى ظنّ أن عُنُقَهُ سينقصف. ثم خرج من عنده.

وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد، فسأل ابنَ عائشة عنه، فجعل يَغِيبُ عن الحديث؛ ثم جدَّ الوليد به فصدقَه عنه. وأمر بطَلبِ الرجل فطُلِبَ حتى أُحضر؛ ووصله صِلةً سنيَّة، وجعله في ندمائه، ووكَّله بالسَّقْي، فلم يَزَلْ معه حتى مات.

ارجع إلى عَملك رَشدًا[4]

أتى رجلٌ من العراق المدينة في طلب جاريةٍ ـ وُصِفت له ـ قارئةٍ قَوَّالةٍ؛ فسأل عنها فوجدها عند قاضي المدينة، فأتاه وسأله أن يَعْرِضها عليه، فقال: يا عبد الله، لقد أَبْعَدت الشقَّة في طلب هذه الجارية فما رغبتك فيها؟ قال: إنها تُغَنِّي فتجيد، فقال القاضي: ما علمتُ بهذا، فألحَّ عليه في عَرْضِها، فعُرِضت بحضرة مولاها القاضي!

فقال لها الفتى: هاتي، فغنَّت:

إلى خالدٍ حتى أَنَخْنَ بخالد ... فنعم الفتى يُرْجى ونعمَ المؤمّل!

---

(١) الخلة: الحاجة والخصاصة.
(٢) من التيه، وهو الصلف والكبر.
(٣) الأداة: آلة من آلات الغناء.
(٤) المسعودي: ٢ ـ ١٧٠.

ففرح القاضي بجاريته، وسرَّ بغنائها، وغَشِيه من الطرب أمر عظيم، وقال: هاتي شيئًا بأبي أنت؛ فغنّت:

أروح إلى القُصَّاصِ[١] كلَّ عشية   أرجِّي ثواب الله في عَدَدِ الخطا

فزاد الطرب على القاضي، ولم يدر ماذا يصنع، فأخذ نعله فعلَّقها في أذنه، وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف أذنه، والنعل معلّقة فيها ويقول: أهدوني إلى البيت الحرام، فإني بَدَنَة[٢]! حتى أَدْمَى أذنه!

فلما أمسكَتْ أقبل على الفتى فقال: انصرف! قد كنّا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول، فنحن الآن فيها أرغب. فانصرف الفتى.

وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز؛ فقال: قاتله الله! لقد استرقَّه الطرب، وأمر بصَرْفِه عن عمله.

فلما صُرِف قال: لو سمعها عمر لقال: ارْكَبُوني فإني مطيّة! فبلغ ذلك عمر، فأشْخَص[٣] القاضي والجارية؛ فلما دخلا عليه، قال: أَعِدْ ما قلت! قال: نعم! فأعاد ما قال، فقال للجارية: قولي؛ فغنّت[٤]:

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُونِ[٥] إلى الصفا
أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامِرُ
بلى! نحنُ كنَّا أهلَها فأَبَادَنا
صروفُ اللَّيالي والجدودُ العَوَاثرُ

فما فرغتْ من الشعر حتى طَرِب عمر طربًا بيّنًا، وأقبل يستعيدها ثلاثًا، وقد بلت دموعُهُ لحيته، ثم أقبل على القاضي، فقال: ارجع إلى عَمَلك راشدًا!

---

(١) القصاص: جمع قاص، وكانوا يجلسون في صدر الإسلام في المسجد يفصلون ما في كتاب الله من قصص الأنبياء، ابتغاء العبرة.
(٢) البدنة: من الإبل والبقر ما تهدى إلى مكة.
(٣) أشخص: الشخوص: السير من بلد إلى بلد.
(٤) قائل البيتين: عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو يتأسف على البيت.
(٥) الحجون: جبل بمكة.

الأحوص يحتالَ حَتى تسمَع سلّامة غناء الغريض[١]

وجَّه يزيدُ بن عبد الملك إلى الأحْوص في القُدوم عليه، وكان الغَرِيض معه، فقال له: اخْرُجْ معي حتى آخذ لك جائزةَ أمير المؤمنين وتُغَنِّيه؛ فإني لا أحمل إليه شيئًا هو أحب إليه منك، فخرجا.

فلما قدم الأحوص على يزيد جلس له ودَعا به؛ فأنشده مدائح فاستحسنها، وخرج مِن عنده؛ فبعثتْ إليه سَلامَة جارية يزيد بلَطَف. فأرسل إليها: إنَّ الغريض عندي قدمتُ به هديةً إليك. فلما جاءها الجواب اشتاقت إلى الغريض وإلى الاستماع منه.

فلما دعاها أميرَ المؤمنين تمارضتْ وبعثت إلى الأحوص: إذا دعاك أمير المؤمنين فاحتلْ له في أن تذكر له الغريضَ.

فلما دعا يزيد الأحوص قال له يزيد: ويحك يا أحوص! هل سمعت شيئًا في طريقك تُطْرِفُنَا به! قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ مررت في بعض الطريق فسمعتُ صوتًا أعجبني حُسْنُه وجودةُ شعره؛ فوقفتُ حتى استقصيت خبرَه، فإذا هو الغريض، وإذا هو يغني بأحسن صوت وأشْجَاه.

ألا هـاج لـتـذَكّـرُ لـي سَـقَـامـا ... ونُكسَ[٢] الداءِ والوجَع الغَرَامَا[٣]
سـلامَـةُ إنـهـا هَـمِّـي ودائـي ... وشرُّ الداءِ ما بَطَنَ العِظَامَا[٤]
فقلت له ـ ودمعُ العين يجري ... على الخدَّين أربعةً سِجَامَا[٥]:
عليك لـهـا الـسـلامُ فمن لِصَبٍّ ... يبيتُ الليل يَهْذِي مُستَهَاما

قال يزيد: ويلك يا أحوص! أنا ذاك في هوى خليلتي، وما كنت أحسب مثلَ هذا يتَّفِق، وإن ذاك لمما يزيد لها في قلبي. فما صنعتَ يا أحوص حين سمعتَ ذاك؟ قال: سمعت ما لم أسمع يا أمير المؤمنين أحسن منه، فما صبرتُ حتى أخرجت الغريض معي وأخفيت أمره، وعلمتُ أن أميرَ المؤمنين يسألني عما رأيتُ في طريقي.

(١) الأغاني: ٨ ـ ٣٤٤.
(٢) النكس: عود المرض بعد النقه.
(٣) الغرام: الملازم الشديد.
(٤) بطن: دخل.
(٥) يريد اللحاظين والموقين للعينين.

فقال له يزيد: ائتني بالغريض ليلًا وأَخْفِ أمْره؛ فرجع الأحوص إلى منزله، وبعث إلى سلامة بالخبر. فقالت للرسول: جُزِيت خيرًا. قد انتهى إليّ كلُّ ما قلت، وقد تلطفتَ وأحسنت.

فلما وَارَى الليلُ أهلَه بعث إلى الأحوص أن عَجِّلْ المجيء إليّ مع ضيفك.

فجاء الأحوص مع الغريض فدخلا عليه. فقال: غَنِّني الصوت الذي أخبرني أنه سمعه منك ـ وكان الأحوصُ قد أخبر الغريضَ الخبرَ، وإنا ذلك شعر قاله الأحوص يريد أن يحركه به على سلامة، ويحتال للغريض في الدخول عليه ـ فلما غنَّاه الغريض دمعت عَيْنُ يزيد، وأمر بإحضار سلّامة فحضرت، وضُرِبَ لها حجابٌ فجلست، وأعاد عليه الغريض الصوت؛ فقالت: أحسن والله يا أمير المؤمنين، فاسمعه مني، فأخذت العود فضربتْه وغنّت الصوت، فكاد يزيد يطير فرحًا وسُرُورًا، وقال: يا أحوص: إنك لَمُبارك! يا غريض؛ غنِّني في ليلتي هذا الصوت، فلم يزل يغنيه حتى قام يزيد وأمر لهما بمال، وبعثت سلّامة إليهما بكُسْوَةٍ ولَطَف كثير.

غِنَاء فِي خِتَان[1]

قال عبد الرحمن بن إبراهيم المخزومي: أرسلتني أمي وأنا غلام أسأل عَطاء[2] بن أبي رَبَاح عن مسألة، فوجدته في دارٍ يقالُ لها دار المعلّى، وعليه مِلْحَفَة مُعصفرة، وهو جالس على مِنْبر، وقد خُتِنَ ابنُه والطعام يوضع بين يديه، وهو يأمرُ به أن يُفرَّق في الخَلْق، فَلَهَوْتُ مع الصبيان ألعب بالجوز حتى أكل القومُ وتفرَّقُوا، وبقي مع عطاء خاصَّتُه، فقالوا: يا أبا محمد، لو أذنتَ لنا، فأرسلنا إلى الغريض وابن سُرَيج! فقال: ما شئتمُ. فأرْسَلُوا إليهما، فلما أتَيَا قاموا معهما، وثبتَ عطاء في مجلسه فلم يدخل، فدخلوا بهما بيتًا في الدار فَغَنَّيَا وأنا أسمع، فبدأ ابن سريج فنقر بالدُّفِّ، وتغنّى بشعر كثير:

بـلَيْـلَى وجَـارَاتٍ لـليـلى كـأنـهـا نِعَاجُ الملا[3] تُحْدَى بهنّ الأباعرُ

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٢٧٨.

(٢) هو عطاء بن أسلم بن صفوان، تابعي من أجلاء الفقهاء ولد في اليمن، ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٥ هـ.

(٣) الملا: الصحراء.

أَمُنْقَطِعٌ يا عزّ ما كانَ بيننا ... وشاجرني يا عزّ فيك الشَّواجر[١]
إذا قيلَ هذا بيتُ عزّةَ قادني ... إليه الهوى واسْتَعْجَلتني البَوادِرُ[٢]
أصدُّ وبي مثلُ الجُنون لكي يَرى ... رُوَاةُ الخَنَا أني لِبَيْتِكِ هَاجِرُ
ألَا ليتَ حَظّي منك يا عزُّ أنني ... إذا بنتِ باع الصبرَ لي عَنْكِ تاجِرُ

فكأن القوم نزل عليهم السُّبَات، وأدركهم الغَشْيُ، فكانوا كالأموات، ثم أَصْغَوْا إليه بآذانهم، وشخصت إليه أعينهم، وطالت أعناقُهم. ثم غنّى ابن سُريج ووقّع بالقضيب، وأخذ الغريضُ الدُّفَّ، فغنّى بشعر الأخطل:

فقلتُ أصْبَحُونا[٣] لا أبا لِأبيكُمُ ... وما وضعوا الأثْقَالَ إلا ليَفْعَلُوا
وقلت: اقتلوها[٤] عنكُمُ بمزَاجها ... فأَكْرِمْ بها مقتولة حين تُقْتَلُ
أناخوا فجرُّوا شاصياتٍ[٥] كأنها ... رجالٌ من السودان لم يَتَسَرْبَلُوا

فوالله ما رأيتهم تحركوا ولا نطقوا إلا مستمعين لما يقول.

ثم غنّى الغريض بشعر آخر وهو:

هل تعرف الرسمَ والأطلالَ والدِّمَنَا ... زِدْنَ الفؤاد على ما عِنْدَهُ حزنا
دارٌ لأسماءَ إذ كانت تحُلُّ بها ... وإذ ترى الوصل فيما بيننا حسنا
إذ تَسْتَبِيكَ بمَصْقُولٍ عَوَارِضه[٦] ... ومَثْلَتَيْ جُوْذَرٍ لم يَعْدُ أن شَدَنا

ثم غنّى الغريض في شعر عمر بن أبي ربيعة وهو قوله:

كفى حَزَنًا أن تجمع الدارُ شَمْلَنَا ... وأُمْسِي قريبًا لا أزوركِ كَلْثَمَا
دَعِي القلبَ لا يَزْدَدْ خَبالًا مع الذي ... به منكِ أو دَارِي جَوَاه المُكَتَّما
ومَنْ كان لا يَعْدُو هواه لسانَه ... فقد حلَّ في قلبي هواكِ وخيَّما
وليس بتَزْوِيقِ[٧] اللِّسان وصَوْغه ... ولكنّه قد خالَطَ اللحْمَ والدَّمَا

(١) الشواجر: جمع شاجر؛ شجره عن الأمر: صرفه عنه.
(٢) البوادر: الدموع.
(٣) أصبحونا: ايتونا بالصبوح، وهو ما يشرب في الغداة إلى القائلة.
(٤) قتل الخمر: مزجها بالماء. (٥) الشاصيات: الزقاق المملوءة الشائلة القوائم.
(٦) العوارض: الثنايا، أو هي الأسنان التي تبدو من الفم عند الضحك.
(٧) التزويق: التحسين والتزيين.

قال الراوي: وما زالا يغنّيان وعطاءٌ يسمع على منبره ومكانه، وربما رأيت رأسه قد مال وشفتيه تتحركان حتى بلغتْه الشمس، فقام يريد منزله، فما سمع السامعون شيئًا أحسن منهما، وقد رفعا أصواتهما، وتغنيا.

ولما بلغت الشمس عطاءَ قام وهم على طريقةٍ واحدة في الغناء، فاطَّلع في كُوَّةِ البيتِ، فلما رأوه قالوا: يا أبا محمد؛ أيهما أحسنُ غناءً؟ قال: الرقيق الصوت. يَعْني ابنَ سُرَيْج!

يَضطرب حِين سَمع الغِنَاء(١)

لقي عَطَاءُ بنُ أبي رَبَاحٍ ابنَ سُرَيج(٢) بذي طُوَى(٣)، وعليه ثيابٌ مصبَّغَة، وفي يده جَرَادةٌ مشدودةُ الرِّجل بخيط يطيِّرُها ويجذبها به كلّما تخلّفتْ، فقال له عطاء: يا فَتّان؛ ألَا تكفّ عما أنتَ عليه! كفى اللهُ الناسَ مؤونَتك. فقال ابنُ سريج: وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجَرَادتي؟ فقال له: تفتنُهم بأَغانيك الخبيثةِ، فقال له ابنُ سُريج: سألتُكَ بحقِّ مَنْ تبعتَه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبحقِّ رسول الله ﷺ، إلَّا ما سمعت مني بيتًا من الشعر، فإن سمعتَ مني مُنكرًا أمرتني بالإمساك عما أنا عليه، وأنا أقسم بالله وبحق هذه البَنِيَّة(٤) لئن أمرتني بعد استماعك مني بالإمساك عمَّا أنا عليه لأفْعَلَنَّ ذلك.

فأطمع ذلك عطاءَ في ابن سُريج، وقال: قل، فاندفع يغنّي بشعر جرير:

إن الـذيـن غَـدَوْا بِـلُبِّـكَ غـادروا   وشَلًا(٥) بعينك لا يزالُ مَعِينَا(٦)

غيّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لي   ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمع عطاء الغناء اضطربَ اضطرابًا شديدًا ودخلته أريحيَّة، فحلف ألّا يكلّم أَحَدًا بقيَّةَ يومه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كلُّ مَنْ يأتيه سائلًا عن حَلَالٍ أو حرامٍ أو خبرٍ من الأخبار، لا يجيبه إلا بأن

(١) الأغاني: ١ ـ ٥٦، نهاية الأرب: ٤ ـ ٢٤٥.
(٢) هو عبيد بن سريج، كان من أحسن الناس غناء، وهو أول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة، انقطع إلى عبد الله بن جعفر، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك.
(٣) ذو طوى: موضع بمكة.
(٤) البنية: الكعبة.
(٥) الوشل: الدمع الكثير.
(٦) المعين: الجاري السائل.

يضرب إحدى يديه على الأخرى، وينشد هذا الشعر حتى صلّى المغرب، ولم يعاود ابنَ سُرَيج بعدها ولا تعرَّض له.

فِي قَصرِ الوَليد بن يَزيد[1]

اشتاق الوليدُ بنُ يزيدَ إلى مَعْبد[2]، فوجَّه إليه إلى المدينة فأُحْضِر، وبلغ الوليدَ قدومُه؛ فأمر بِبْرِكَةٍ بين يَدَيْ مجلسِه فمُلئت ماءَ ورد قد خُلِط بمسْك وزَعْفران، ثم فُرش للوليد في داخل البيت على حافَةِ البِرْكة، وبُسِط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معهما ثالثٌ، وجيء بمعبد فرأى سِتْرًا مُرْخًى ومجلسَ رجل واحد. فقال له الحُجّاب: يا معبد؛ سلِّم على أمير المؤمنين واجلِسْ في هذا الموضع، فسلَّم فَردَّ عليه الوليدُ السلامَ مِنْ خَلْفِ السِّتْر؛ ثم قال له: حيَّاك الله يا معبد! أتدري لِمَ وَجّهْتُ إليك؟ قال: الله أعْلم وأميرُ المؤمنين. قال: ذكرتك فأحببتُ أن أسمع منك. قال معبد: أأُغَنِّي ما حضر أم ما يقترحُه أمير المؤمنين؟ قال: بل غَنِّني:

ما زال يَغْدُو عليهم ريبُ دهرِهمُ ... حتى تفانَوْا وريْبُ الدّهْر عدَّاءُ
أبْكَى فِراقُهُمُ عيني وأرَّقَها ... إن التفرق للأحباب بكّاءُ

فغنَّاه، فما فرغ منه حتى رفع الجواري السّجْفَ، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه في البركة فغاص فيها، ثم خرج منها فاستقبله الجواري بثيابٍ غير الثياب الأولى، ثم شرب وسقى معبدًا، ثم قال له: غنِّني يا معبد:

يا رَبْعُ مالك لا تُجِيبُ متيَّما ... قد عَاجَ نحوكَ زائرًا ومسلِّما
جادتكَ كلُّ سحابةٍ هَطّالةٍ ... حتى تُرَى عن زَهْرَةٍ مُتَبَسِّمَا
لو كنتَ تَدْرِي مَنْ دعاك أجبتَه ... وبكيت من حُرَقٍ عليه إذَنْ دَما

فغنّاه؛ وأقبل الجواري فرفَعْنَ السِّتْرَ، وخرج الوليد فألقى نفسَه في البركة فغاص فيها ثم خرج، فلبس ثيابًا غير تلك، ثم شرِب وسقى معبدًا، ثم قال له:

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٥٣.

(٢) هو معبد بن وهب، فحل المغنين، وإمام أهل المدينة في الغناء. اشتغل في أول أمره بالتجارة، ورعى الغنم، واختلف إلى نشيط الفارسي وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت، مات بدمشق في أيام الوليد بن يزيد.

غنّني. فقال: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: غنّني:

عَـجِـبَـتْ لـمّـا رَأَتْـنِـي ... أنـدبُ الـربـعَ الـمُـحِـيـلا[١]
واقـفًـا فـي الـدار أبـكـي ... لا أرى إلا الـطـلـولا
كـيـفَ تـبْـكـي لا نـاسٍ ... لا يـمـلّون الـذَّمِـيـلا[٢]
كـلَّمَـا قـلـتُ اطـمـأنّـتْ ... دارُهـم قـالـوا الـرَّحِـيـلا

فلما غنّاهُ رمى بنفسه في البركة ثم خرج فَرَدُّوا عليه ثيابه، ثم شرب وسقى معبدًا، ثم أقبل عليه الوليد فقال له: يا معبد؛ مَن أراد أن يزداد عند الملوك حُظْوَةً فليكْتُمْ أسرارَهم، فقلت: ذلك ما لا يحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصائي به، فقال: يا غلام؛ احمل إلى معبدٍ عشرةَ آلاف دينار تُحَصِّلُ له في بلده، وألفي دينار لنفقة طريقه، فحُمِلَتْ إليه كلّها، وحُمِل على البريد من وَقْتِه إلى المدينة.

مَعْبَد فِي مكّة[٣]

قال معبد: غنَّيْتُ فأعجبني غنائي، وأَعجبَ الناسَ، وذهبَ لي به صيتٌ وذِكْرٌ، فقلت: لآتينَّ مكة فلأسْمَعَنَّ من المغنِّين بها، ولأُغَنِّيَنَّهُمْ، ولأَتَعَرَّفَنَّ إليهم.

فابتعتُ حمارًا، فخرجتُ عليه إلى مكة، فلما قدِمْتها بعتُ حماري، وسألتُ عن المغنّين: أين يجتمعون؟ فقيل: بقُعَيقعَان[٤]، في بيت فلان.

فجئت إلى منزله بالغَلَسِ[٥]، فقرعتُ الباب، فقال: مَن هذا؟ فقلت: انظرْ عافاك الله؛ فدنا وهو يسبِّحُ ويستعيذ كأنه يخاف، ففتح، فقال: مَن أنت عافاك الله؟ قلت: رجل من أهل المدينة. قال: فما حاجتك؟ قلت: أنا رجل أشتهي الغناء. وأزعم أني أعرف منه شيئًا، وقد بلغني أن القوم يجتمعون عندك، وقد أحببت أن تُنزلني في جانب منزلك وتخلطَني بهم، فإنه لا مؤونة عليك ولا عليهم.

---

(١) المحيل: الذي أتت عليه أحوال فغيرته. (٢) الذميل: السير اللين.
(٣) الأغاني: ١ ـ ٥٧.
(٤) قعيقعان: اسم قرية بها مياه وزروع ونخيل قرب مكة.
(٥) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بظلمة الصباح.

فلوى[١] شيئًا ثم قال: انزل على بركة الله. فنقلت متاعي فنزلت في جانب حُجرته.

ثم جاء القوم حين أصبحوا واحدًا بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكروني، وقالوا: مَنْ هذا الرجل؟ قال: رجل من أهل المدينة ضيفٌ يشتهي الغناء، ويطرب عليه، ليس عليكم منه عَنَاء ولا مكروه. فرحّبوا بي وكلمتهم، ثم انْبَسَطُوا وشربوا وغَنَّوْا، فجعلت أُعْجَبُ بغنائهم وأظهر ذلك لهم، ويعجبهم مني حتى أقمنا أيامًا، وأخذتُ من غنائهم ـ أصواتًا وأصواتًا وأصواتًا؛ ثم قلت لابن سُرَيج: أَمْسِك عليَّ صوتك:

قُـل لـهـنـد وتِـرْبِـهَـا[٢] قبل شَحْطِ[٣] النَّوَى غَدا
إنْ تَـجُـودِي فـطَـالـمـا بِـتُّ لـيـلي مُـسَـهَّـدَا

قال: أو تحسن شيئًا؟ قلت: تَنَظَّرْ[٤]، وعسى أن أصنعَ شيئًا، واندفعت فيه فغنّيته؛ فصاح وصاحوا، وقالوا: أحسَنْتَ! قاتلك الله! قلت: فأَمْسِكْ عليّ صوت كذا؛ فأمسكوه عليّ فغنيتُه؛ فازدادوا عجبًا وصِياحًا، فما تركت واحدًا منهم إلا غنيتُه من غنائه أصواتًا قد تخيّرتها؛ فصاحوا حتى علتْ أصواتُهم؛ وهَرَفُوا بي[٥]، وقالوا: لأنت أحسنُ بأداء غنائنا عنَّا مِنّا. قلت: فأمسكوا عليّ ولا تضحكوا[٦] بي حتى تسمعوا من غِنائي. فأمسكوا عليّ فغنّيت صوتًا من غِنائي، فصاحوا بي، ثم غنيتهم آخر وآخر؛ فوثبوا إليّ وقالوا: نحلف بالله إن لك لصيتًا واسمًا وذِكْرًا، وإن لك فيما هنا لسهمًا عظيمًا، فمن أنت؟ قلت: أنا معبد؛ فقبّلوا رأسي، وقالوا: لَفَّقْتَ[٧] علينا وكنا نَتَهَاوَنُ بك، ولا نعدُّك شيئًا، وأنت أنت! فأقمت عندهم شهرًا آخذ منهم ويأخذون مني ثم انصرفتُ إلى المدينة.

مَعْبَد فِي السّفينَة[٨]

كان مَعْبَد قد علّم الغِناءَ جاريةً من جواري الحجاز تدعى ظَبْيَة وعُنِي بتَخْرِيجها؛ فاشتراها رجلٌ من أهل العراق، فأخرجها إلى البصرة، وباعها هناك،

(١) فلوى شيئًا: فتمكث قليلًا.
(٢) الترب: اللذة، وهو من يماثلك في سنك.
(٣) الشحط: البعد، والشعر لعمر بن أبي ربيعة.
(٤) تنظر: تأنّ وتلبث.
(٥) هرف به: مدح حتى جاوز القدر في الثناء والإطراء.
(٦) ضحك به ومنه بمعنى.
(٧) لفقت علينا: أي سترت علينا أمرك.
(٨) الأغاني: ١ ـ ٤٨.

فاشتراها رجلٌ من أهل الأهْواز فأُعْجِبَ بها، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده بُرْهَةً من الزمان، وأخذ جواريه أكثَرَ غنائها عنها، فكان لمحبته إياها وأَسَفِهِ عليها لا يزال يسألُ عن أخبار مَعْبد وأين مستقَرُّه، ويُظهرُ التعصب له والميل إليه، والتقديمَ لغنائه على سائر أغاني أهلِ عَصْره إلى أن عرف ذلك منه.

وبلغ معبدًا خبرُه، فخرج من مكة حتى أتى البصرة، فلما وَرَدَها صادف الرجلَ، وقد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز فاكْتَرى سفينة، وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز، فلم يجد غير سفينة الرجل، وليس يعرف أحد منهما صاحبه، فأمر الرجلُ الملّاحَ أن يُجلسه معه في مؤخَّر السفينة، ففعل وانحدروا.

فلما صاروا في فم نهر الأُبُلَّة تغدّوا وشربوا، وأمر جواريه فغنين، ومعبد ساكت، وهو في ثياب السفر، وعليه فروٌ وخُفّان غليظان وزِيٌّ جاف من زِيّ أهل الحجاز، إلى أن غنّت إحدى الجواري:

بانت سُعَادُ وأَمْسى حبلُها انْصَرَمَا ... واحتلَّتِ الغَوْرَ والأجْراعَ من إضَمَا
إحدى بَلِيٍّ وما هام الفؤادُ بها ... إلّا السَّفَاهَ وإلا ذِكرةً حُلُما[1]

فلم تُجِدْ أداءَه، فصاح بها مَعْبَد: يا جارية؛ إن غناءك هذا ليس بمستقيم. فقال له مولاها ـ وقد غضب: وأنتَ ما يُدْرِيك الغناء ما هو! إلَا تُمسِكُ وتلزم شأنَك! فأمسك.

ثم غنّت أصواتًا من غناء غيره، وهو ساكت لا يتكلم، حتى غنّت:

يا ابنَةَ الأزْدِيّ قلبي كئيبُ ... مُسْتَهَامٌ عندها ما يُنيبُ
ولقد لاموا فقلت: دَعُوني ... إن من تَنْهَوْنَ عنه حَبِيبُ
إنما أَبْلَى عظامي وجسمي ... حبُّها، والحبُّ شيء عجيبُ
أيها العائبُ عندي هواها ... أنت تَفْدِي من أراكَ تَعيبُ

فأَخَلَّتْ ببَعْضِه؛ فقال لها معبد: يا جارية؛ لقد أخللتِ بهذا الصوت إخلالًا شديدًا؛ فغضب الرجل وقال له: ويلك! ما أنت والغناء! ألا تكفّ عن هذا

(١) بلى: اسم قبيلة، والسفاه: الطيش، والذكرة بالكسر والضم: نقيض النسيان.

الفضول! فأمسك وغنى الجواري مليًا؛ ثم غنّت إحداهن:

خليليّ عُوجَا فابكيا ساعةً معي على الرَّبْع نَقْضي حاجة ونودّع
ولا تـعـجِـلَانـي أن ألِمَّ بِـدِمْـنَـةٍ لـعـزّة لاحـتْ لـي ببـيـداءَ بَـلْقَـعِ
وقولا لقلبٍ قد سَلَا: راجع الهوى وللعين: أذْرِي من دموعكِ أودَعِي
فلا عيش إلا مثلُ عيش مَضَى لنا مَصِيفًا أقَمْنَا فيه من بعد مَرْبع

فلم تصنع فيه شيئًا، فقال لها معبد: يا هذه؛ أما تقومينَ على أداء صوت واحد؟ فغضب الرجل وقال له: ما أراك تدعُ هذا الفضول بوجهٍ ولا حيلةٍ، فأقسم بالله لئن عاودتَ لأُخرجنَّك من السفينة!

فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجواري سكتة اندفع يغني الصوت الأول حتى فرغ منه؛ فصاح الجواري: أحسنتَ والله يا رجل؛ فأَعِدْه، فقال: لا والله ولا كرامة! ثم اندفع يغني الثاني، فقلن لسيدهن: ويحك والله! إن هذا أحسن الناس غناءً، فسَلْه أن يعيده علينا ولو مرة واحدة، لعلنا نأخذه عنه؛ فإنه إنْ فاتَنَا لم نجد مثله أبدًا. فقال: قد سمعتُنَّ سوءَ ردّه عليكن، وأنا خائف مثلَه منه، وقد أسلفناه الإساءة فاصبرْنَ حتى نُدَارِيَه. ثم غنّى الثالث، فزلزل الأرض، فوثب الرجل وقبّل رأسه وقال: يا سيدي؛ أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك. فقال له: فهبك لم تعرف موضعي، قد كان ينبغي لك أن تَتَثَبَّت ولا تسرع إليّ بسوء العِشْرَة وجفاء القول! فقال له: قد أخطأتُ، وأنا أعتذر إليك مما جرى، وأسألك أن تنزل إليّ، وتختلط بي، فقال له: أما الآن فلا.

فلم يزل يَرْفُق[1] به حتى نزل إليه. فقال الرجل: ممن أخذتَ هذا الغناء؟ قال: من بعض أهل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك؟ فقال: أخذنه عن جارية كانت لي، ابْتَاعها رجلٌ من أهل البصرة من مكة، وكانت قد أخذت عن مَعْبَد، وعُنِي بتخريجها، فكانت تحل مني محلّ الروح من الجسد، ثم استأثر الله عزَّ وجلَّ بها، وبقي هؤلاء الجواري وهنَّ مِن تعليمها، فأنا إلى الآن أتعصَّب لمعبد، وأُفضّله على المغنين جميعًا، وأفضل صَنْعَته على كل صنعة.

---

(١) يترفق به.

فقال له معبد: أو إنك لأنت هو؟ أفتعرفني؟ قال: لا. فصكَّ[١] معبدٌ بيده صَلْعَته ثم قال: فأنا والله معبد وإليك قدمتُ من الحجاز، ووافيتُ البصرة ساعةَ نزلت السَفينة لأقصدَك بالأقواز؛ ووالله لا قَصّرْتُ في جواريك هؤلاء، ولأجعلنّ لك في كل واحدة منهن خلفًا من الماضية.

فأكبّ الرجل والجواري على يديه ورجليه يقبلونها، ويقولن: كتَمْتَنا نفسك طولَ هذا الوقت حتى جَفَوْناك في المخاطبة، وأسأنا عِشرتك وأنت سيدنا ومَنْ نتمنى على الله أن نلقاه.

ثم غيَّر الرجلُ زِيّهُ وحاله وخلع عليه عدة خلع وأعطاه ثلاثمائة دينار وطيبًا وهدايا بمثلها، وانحدر معه إلى الأهواز، فأقام عنده حتى حذق جواريه ما أخذنه عنه، ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز.

وَفَاء مَالِك بن أبِي السَّمح لمَعْبَد[٢]

كان مالكُ[٣] بن أبي السَّمْح المغني من طيّىء، فأصابتهم حَطْمَةٌ[٤] في بلادهم بالجبلين؛ فقدِمَتْ به أُمُّه وبأخوةٍ له وأخواتٍ أيتام لا شيء لهم، فكان يسألُ الناسَ على باب حمزة بن عبد الله بن الزُّبير ـ وكان معبدٌ منقطعًا إلى حمزة يكون عنده في كل يوم يغنّيه ـ فسمع مالكٌ غناءَه فأعجبه واشتهاه.

فكان لا يفارق باب حمزة، يسمعُ غناء معبد إلى الليل، فلا يطوف المدينة ولا يطلب من أحدٍ شيئًا ولا يَرِيمُ[٥] موضعه، فينصرف إلى أمه، ولم يكتسب شيئًا فتَضْرِبه، وهو مع ذلك يترنم بألحان معبد، يؤدّيها دَوْرًا دَوْرًا، في مواضع صيحاته ونَبَراته[٦] نغمًا بغير لفظ ولا رواية شيء من الشعر؛ وجعل حمزةُ كلما غَدَا وراح ملازمًا لبابه فقال لغلامه يومًا: أَدْخِل هذا الغلام الأعرابي إليّ؛ فأدخله، فقال له: مَنْ أنت؟ فقال: أنا غلام من طيىء أصابتنا حَطْمَةٌ بالجبلين فحطَّتْنَا إليكم، ومعي أم لي وإخوة، وإني قد لزمتُ بابك فسمعت من دارك صوتًا أعجبني فلزمت بابك من

---

(١) صك: ضرب.
(٢) نهاية الأرب: ٤ ـ ٣٨١، الأغاني: ٥ ـ ١٠٢.
(٣) أخذ مالك الغناء عن جميلة ومعبد وأدرك الدولة العباسية، وانقطع إلى بني سليمان بن علي، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور.
(٤) الحطمة: السنة والجدب.
(٥) يريم موضعه: يفارقه.
(٦) نبرة المغني: رفع صوته عن خفض.

أجله، قال: فهل تعرفُ منه شيئًا؟ قال: أعرفُ لحنه كله؛ ولا أعرف الشعر. فقال: إن كنت صادقًا فإنك لَفَهِم.

ودعا بمعبد، فأمره أن يُغَنِّي فغنّاه، ثم قال لمالك: هل تستطيع أن تقوله؟ قال: نعم، قال: هاتِه، فاندفع فغناه، فأدّى نَغَمه بغير شعر، يؤدي مَداتِه ولَيَّاتِه، وعَطَفَاتِه وَنَبَرَاتِه، لا يَخْرِمُ حرفًا.

فقال لمعبد: خُذْ هذا الغلام إليك وخرِّجه فَلَيكوننَّ له شأن؛ قال معبد: ولِمَ أفعل ذلك؟ قال: لِتَكُونَ محاسنه منسوبةً إليك.

فقال: صدق الأمير، وأنا أفعل ما أمرتَني به. ثم قال حمزةُ لمالك: كيف وجدت مُلَازمتك لبابنا؟ قال: أرأيت لو قلتُ فيك غير الذي أنت له مستحقٌّ من الباطل أكنتَ تَرْضَى بذلك؟ قال: لا. قال: وكذلك لا يسرُّك أن تُحْمَد بما لم تفعل؛ قال: نعم. قال: فوالله ما شبِعْتُ على بابك شَبْعَةً قط، ولا انقلبتُ منه إلى أهلي بخير. فأمر له وَلأمِّه وَلإخْوته بمنزل؛ وأجرى لهم رزْقًا وكُسْوَة، وأمر لهم بخادم يخدمُهم، وعَبْدٍ يسقيهم الماء، وأجلس مالكًا معه في مجالسه، وأمر معبدًا أن يُطَارِحه، فلم يَنْشَبْ[١] أن مَهَرَ وحَذَق، وكان ذلك بعَقِب مقتل هُدْبَةَ بن خَشْرَم؛ فخرج مالك يومًا، فسمع امرأةً تنوحُ على زيادة الذي قتله هُدْبة بن خشرم بشعر أخي زيادة:

أبعد الذي بالنَّعْفِ[٢] نعفِ كُوَيكبٍ ... رهينةَ رَمْسٍ ذي تُرابٍ وجَنْدَلِ
أُذَكِّرُ بالبُقْيَا على مَنْ أصابني ... وبُقْيَايَ أني جاهد غير مُؤْتَلِ[٣]
فلا يَدْعُنِي قومي لزيدِ بن مالك ... لئن لم أُعَجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ
وإلا أَنَلْ ثَأري من اليوم أو غدٍ ... بني عمِّنا فالدهرُ ذو مُتطَوَّلِ
أَنَخْتُمْ علينا كَلْكَلَ الحربِ مَرَّةً ... فنحن مُنِيخُوها عليكم بكَلْكَلِ

(١) لم ينشب: لم يلبث.
(٢) النعف: ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مجرى السيل.
(٣) غير مؤتل: غير مقصر، والبقيا: الاسم، من أبقيت عليه إذا رعيت عليه ورحمته. وقد ورد هذا البيت في اللسان منسوبًا إلى أبي القمقام الأسدي هكذا:

أذكر بالبقوى على ما أصابني ... وبقواي أني جاهد غير مؤتل

فغنّى في هذا الشعر لَحْنين: أحدهما نحَا فيه نَحْوَ المرأة في نَوْحها ورَقَّقَهُ وأصلحه، وزاد فيه، والآخر نحا فيه نَحْوَ معبد في غِنائه.

ثم دخل على حمزة فقال له: أيها الأمير؛ إني قد صَنَعْتُ غنَاء في شعرٍ سمعتُ بعض أهل المدينة ينشده. وقد أعجبني؛ فإن أذن الأمير غنَّيْتُه فيه. قال: هَاتِهِ؛ فَغَنَّاه اللَّحْنَ الذي نحا فيه نَحْوَ مَعْبَد؛ فطرب حمزة، وقال له: أحسنتَ يا غلام! هذا الغناء غناء معبد وطريقته، فقال: لا تَعْجَل أيها الأمير، واسمع مني شيئًا ليس من غناء مَعْبَدٍ ولا طريقته. قال: هات، فغنّاه اللحنَ الذي تشبَّه فيه بنوح المرأة؛ فطرب حمزة حتى ألقى عليه حُلَّة كانت عليه قيمتُها مائة دينار.

ودَخل معبد فرأى حُلة حمزة عليه، فأنكرها، وعلم حمزة بذلك، فأخبر معبدًا بالسبب، وأمر مالكًا فغنّاه الصوتين؛ فغضب معبد لما سمع الصوت الأول، وقال: قد كرِهتُ أن آخذ هذا الغلام فيتعلم غنائي فيدعيه لنفسه. فقال له حمزة: لا تعجلْ واسمع غناءَ صنَعَه ليس من شأنِك ولا غنائك، وأمره أن يُغَنِّي الصوت الآخر فغنَّاه فأطرق معبد، فقال له حمزة: والله لو انْفَرَدَ بهذا لضاهاك، ثم يتزايدُ على الأيام، وكلما كبِرَ وزاد شِخْتَ أنت ونقصتَ، فَلأَنْ يكون منسوبًا إليك أجملُ.

فقال له معبد ـ وهو منكِرٌ: صدق الأمير! ثم أمر حمزة لمعبد بخلْعَةٍ من ثيابه وجائزة حتى سكن وطابت نفسه، فقام مالك فقبلَ رأس معبد، وقال له:

يا أبا عباد؛ أساءَكَ ما سمعتَ منّي؟ والله لا أُغنِّي لنفسي شيئًا أبدًا ما دمتَ حيًا، وإن غَلَبَتْنِي نفسي فغنيتُ في شعر استحسنتُه لا نسبتُه إلا إليك، فطِبْ نفسًا وارضَ عني. فقال له معبد: أو تفعلُ هذا وتَفِي به؟ قال: إي والله وأَزِيد.

فكان مالِكٌ بعد ذلك إذا غنَّى صوتًا وسئِلَ عنه قال: هذا لمعبد ما غنّيت لنفسي شيئًا قطّ، وإنما آخُذُ غناءَ معبد فأنقله إلى الأشعار وأحسّنه وأزيدُ فيه وأُنْقِص منه.

مَالك بن أنس يغَنّي(١)

قال حُسين بن دَحْمَان الأشْقَر: كنتُ بالمدينة، فخَلا لي الطريقُ وَسَط النهار فجعلتُ أتغَنّى:

مـا بـالُ أهـلِك يـا ربـابُ خُـزْرًا(٢) كـأنـهـمُ غِـضـابُ

(١) الأغاني: ٤ ـ ٢٢٢.
(٢) الخزر: النظر بلحاظ العين.

قال: فإذا خَوْخَة[١] قد فُتِحتْ، وإذا وَجْهٌ قد بدا تتبعه لحيةٌ حَمْراء، فقال: يا فاسق، أسأتَ التَّأدِية، ومنعتَ القائلة[٢]، وأذَعت الفاحشة؛ ثم اندفع يغنيه، فظننتُ أن طُوَيسًا قد نُشِرَ بعينه.

فقلت له: أصلحك الله! من أين لك هذا الغناء؟ فقال: نشأت وأنا غلام حَدَث أَتَتَبّع المغنِّين، وآخُذُ عنهم؛ فقالت لي أمي: يا بني؛ إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفَتْ إلى غنائه؛ فدَع الغناء واطلب الفِقْه فإنه لا يضرُّ معه قُبْحُ الوجه، فتركت المغنين واتَّبعت الفقهاء، فبلغ الله بي عزّ وجلّ ما ترى. فقلت له: فأعِدْ، جُعِلتُ فداءك! قال: لا! ولا كرامة، أتريد أن تقول: أخذتُه عن مالك بن أنس! وإذا هو مالك[٣] بن أنس ولم أعلم.

أفسَدَ آخرًا مَا أصْلَحَ أوّلًا[٤]

قدم ابنُ جامع السَّهمي مَكَّةَ بمالٍ كثير، ففرَّقهُ في ضُعفاء أهلها؛ فقال سُفْيان[٥] بن عُيَيْنَة: بلغني أن هذا السهميّ قدِم مال كثير! قالوا: نعم، قال: فعلامَ يُعْطَى؟ قال: يغني الملوك فيعطونه. قال: وبأيّ شيء يغنيهم؟ قالوا: بالشعر. قال: فكيف يقول؟ فقال له فتى من تلاميذه: يقول:

أَطَوِّفُ بالبيت مَعْ مَنْ يَطُوفُ   وأرفعُ من مئزري المسْبلِ

قال: بارك الله عليه، ما أحسنَ ما قال! ثم ماذا؟ قال:

وأسْجد بالليل حتى الصباح   وأتلو من المُحْكَمِ المُنْزِل

قال: وأَحْسَن أيضًا، أحسن الله إليه، ثم ماذا؟ قال:

عسى فارِجُ الهمّ عن يوسف   يُسَخِّرُ لي ربَّة المحمل

قال: أَمسِكْ، أمسِكْ! أفْسَدَ آخرًا ما أصلحَ أولًا!

---

(١) الخوخة: البويب، أو الباب الصغير في الباب الكبير.

(٢) القائلة: القيلولة.

(٣) مالك بن أنس، أحد الأئمة الأربعة بعد أهل السنة كان صلبًا في دينه بعيدًا من الأمراء والملوك، وهو صاحب كتاب الموطأ، توفي سنة ١٧٩ هـ.

(٤) العقد الفريد: ٤ ـ ٩٣.

(٥) محدّث الحرم، كان حافظًا ثقة، واسع العلم، ولد بالكوفة ومات بمكة سنة ١٩٨ هـ.

ابن جَامِع فِي دَار الخلَافَة(١)

قال إسماعيلُ بن جامع السَّهمي(٢): ضَمَّنِي(٣) الدهر ضمًّا شديدًا بمكة، فانتقلتُ منها إلى المدينة، فأصبحتُ يومًا وما أَمْلِكُ إلا ثلاثةَ دراهم، فهي في كُمّي إذا أنا بجارية حُمَيْرَاء على رقبتها جَرّة تريد الرَّكِيّ(٤) تسعى بين يَديَّ، وتُرَنِّمُ بصوتٍ شَجِيّ تقول:

شَكَوْنا إلى أحْبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا: ما أقصر الليلَ عندنا!
وذاك لأنَّ النوم يَغْشَى عيونَهُمْ ... سِرَاعًا وما يغْشي لنا النّومُ أعيُنَا
إذا ما دنا الليلُ المُضِرُّ لِذِي الهوى ... جَزِعنا وهمْ يَستبشرون إذا دَنَا
فلو أنهم كانوا يُلَاقُون مثلَ ما ... نُلاقِي لكانوا في المضاجع مِثْلَنَا

فأخذ الغناءُ بِقَلْبي، ولم يَدُرْ لي منه حرف. فقلت: يا جارية؛ ما أدْري أوجهُك أحسن أن غناؤُك! فلو شئتِ أعدتِ. قالت: حبًّا وكرامة. ثم أسنَدَتْ ظهرها إلى جِدَار قَرُب منها ووضعت إحدى رجليها على الأخرى، ووضعت الجرّةَ على ساقيها، ثم انبعثت تُغَنّيه؛ فوالله ما دار لي منه حرف. فقلت: أحسنتِ! فلو شئتِ أعدتِ مرة أخرى! فَفَطِنت وكَلَحَتْ(٥) وقالت: ما أعجبَ أمركم! أَحَدُكُمْ لا يزال يجيء إلى الجارية عليها الضَّريبة فيشْغلها! فضربتُ بيدي إلى الثلاثة الدراهم فدفعتُها إليها، وقلتُ: أقيمي بها وجهك اليوم إلى أن نَلْتقي. فأخذتْها كالكارهة وقالت: أنت الآن تريد أن تأخذ مني صوتًا أحسبك ستأخذُ به ألفَ دينار وألف دينار وألف دينار؛ وانبعثتْ تُغَنِّي؛ فأعملتُ فِكْرِي في غِنائها حتى دار لي الصوتُ وفهمتُه، وانصرفتُ مسرورًا إلى منزلي أَرَدِّدُه حتى خَفَّ على لساني.

ثم إني خرجتُ أُريد بَغْدَاد فدخلتُها، فنزل بي المُكَارِيّ على باب مُحَوَّل(٦)؛ فبقيت لا أدري أين أتوجَّه ولا مَنْ أقْصِد! فذهبتُ أمشي مع الناس، حتى أتيتُ

---

(١) الأغاني: ٦ ـ ٣١١.
(٢) اشتهر ابن جامع بالغناء، ولكنه كان من أحفظ خلق الله لكتاب الله، وكان ورعًا تقيًّا يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة، فيصلي الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس، ولا يصلي الناس الجمعة حتى يختم القرآن، ثم ينصرف إلى منزله.
(٣) ضمني: ضغطني واشتد علي، من شدة الفقر.
(٤) الركي: جمع الركية، وهي البئر.
(٥) كلح: تكشر في عبوس.
(٦) باب محول: محلة كبيرة من محال بغداد.

الجِسْرَ فعبرتُ معهم، ثم انتهيتُ إلى شارعِ المدينة، فرأيت مسْجِدًا بالقرب من دار الفَضْل بن الربيع مرتفعًا، فقلت: مسجد قوم سرَاة؛ فدخلتُه وحضرتُ صلاةَ المغرب، وأقمتُ بمكاني حتّى صلَّيْتُ العِشاء الآخرة على جوعٍ وتعب، وانصرفَ أهلُ المسجد، وبقي رجل يُصلِّى، خَلْفَه جماعةٌ: خدم وخَوْلٌ ينتظرون فراغه، فصلّى مليًّا ثم انصرف؛ فرآني فقال: أَحْسِبك غرِيبًا. قلت: أجل. قال: فمتى كنتَ في هذه المدينة؟ قلت: دخلتُها آنفًا، وليس لي بها منزلٌ ولا معْرِفة، وليست صناعتي مما يُمَتُّ بها إلى أهل الخير. قال: وما صناعتُك؟ قلت: أتغنّى. فوثب مُبادِرًا، ووكَّل بي بعضَ مَن معه، فسألتُ الموَكَّل بي عنه، فقال: هذا سلَّام الأبْرش[1].

قال ابنُ جامع: وإذا رسولٌ قد جاء في طلبي، فانتهى بي إلى قصرٍ من قصورِ الخِلَافة، وجازَ بيٍ مقصورةً إلى مقصورة، ثم أُدْخِلْتُ مقصورة في آخر الدِّهْلِيز، ودعا بطعام فأُتِيتُ بمائدة عليها من طعام الملوك، فأكلتُ حتى امتلأتُ.

فإني لكذلك إذ سمعتُ رَكْضًا في الدِّهليز وقائلًا يقول: أين الرجل؟ قيل: هو ذا، قال: ادعوا له بِغَسول[2] وخِلْعَةٍ وطِيبٍ. ففُعِل ذلك بي، فَحُمِلْتُ على دابّةٍ إلى دار الخلافة - وعرفتُها بالحرَس والتَّكْبير والنِّيران - فجاوزتُ مقاصيرَ عِدَّة، حتّى صِرْتُ إلى دارٍ قَوْرَاء[3] فيها أسِرّة في وسطها، قد أُضيف بعضُها إلى بعض.

فأمرني الرجلُ بالصعود فَصَعِدتُ، وإذا رجلٌ جالس، عن يمينه ثلاثُ جَوارٍ في حجورهنّ العيدان، وفي حِجْرِ الرجل عود، فرحّب الرجلُ بي، وإذا مجالسُ حِيالَه كان فيها قومًا قد قاموا عنها، فلم أَلْبَثْ أنْ خرج خادمٌ من وراء الستر؛ فقال للرجل: تَغَنَّ، فانبعث يغنِّي بصوتٍ لي وهو:

لم تَمْشِ مِيلًا ولم تركبْ على قَتَب ... ولم تر الشمسَ إلا دونها الكِلَلُ[4]

تَمْشِي الهُوَيْنى كأنَّ الريحَ تَرْجِعُها ... مَشْيَ اليعَافيرِ في جَيْئَاتها الوَهَلُ[5]

---

(١) سلام الأبرش: خدم المنصور وتولى المظالم للمهدي وعاصر الهادي والرشيد.
(٢) الغسول: الماء يغتسل به. (٣) الدار القوراء: الواسعة.
(٤) الكلل: جمع كلة، وهي ستر يخاط كالبيت. (٥) اليعافير: الظباء، والوهل: الفزع.

فغنّى بغير إصابة، وبأوتار ودساتينَ[١] مختلفة، ثم عاد الخادمُ إلى الجارية التي تلي الرجل، فقال لها: تغنيْ، فغنَّتْ أيضًا بصوتٍ لي، كانتْ فيه أحسنَ حالًا من الرجل، وهو:

يا دارُ أضحَتْ خَلاءً لا أَنِيسَ بها ... إلا الظِّباءُ ولا النَّاشِطُ[٢] الفَرِدُ[٣]
أينَ الذين إذا ما زرتُهُمْ جَذِلُوا ... وطار عن قلبيَ التَّشْوَاق والكَمَدُ!

ثم عاد الخادم إلى الجارية التي تليها، فانبعثت تُغَنّي:

فوالله ما أَدْري أَيُغْلِبُنِي الهوَى ... إذا جدّ وَشْكُ البَيْنِ أم أنا غالبُهْ؟
فإن أستطِعْ أَغلبْ، وإن يغلب الهوَى ... فمثلُ الذي لاقيتُ يُغْلَبُ صاحبُه

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فغنّت:

مَرَرْنا على قَيْسيَّةٍ عامِريَّة ... لها بشَرٌ صافي الأدِيم هجانِ[٤]
فقالت، وألقتْ جانبَ الستْر دونها: ... مِنَ ايةِ أرض أو مَنِ الرجُلان؟
فقلت لها: أمّا تميمٌ فأسرتي ... هُديتِ، وأما صاحبي فَيَمَانِ
رفيقان ضَمَّ السَّفْرُ بيني وبينه ... وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

ثم عاد إلى الرجل فغنّى صوتًا فشبَّه[٥] فيه وهو:

أَمسى بأسماءَ هذا القلبُ معمودًا ... إذا أقول صحا يعتادُه عِيدَا
أجْرِي على موعدٍ منها فتخلُفني ... فما أَمَلُّ ولا تُوفِي المواعيدا
كأنّ أَحْوَرَ من غِزْلَان ذي بقَرِ[٦] ... أعارها شَبَه العينين والجِيدَا
قامت تَرَاءَى وقد جدّ الرحيلُ بنا ... لِتَنْكَأ القرحَ من قلب قد اصْطِيدا
بمشرقٍ كشُعَاع الشمس بهجتُه ... ومُسْبَكِرٍ[٧] على لبّاتها سُودا

ثم عاد إلى الجارية، فتغنّتْ:

تُعَيِّرنا أنّا قليلٌ عَدِيدِ يدُنا ... فقلت لها: إن الكرامَ قليلُ

---

(١) الدساتين: الرباطات التي توضع الأصابع عليها، واحدها دستان.
(٢) الناشط: الثور الوحشي.
(٣) الفرد: المنفرد.
(٤) الهجان: الأبيض: الخالص من كل شيء.
(٥) شبه: خلط فيه ولم يحسن أداءه.
(٦) ذو بقر: قرية في ديار بني أسد.
(٧) شعر مسبكر: مسترسل.

وما ضَرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا ... عَزيزٌ وجارُ الأكثيرين ذليلُ
وإنّا لَقَوْمٌ ما نرى القتلَ سُبَّةً ... إذا ما رَأَتْهُ عامرٌ وسَلُولُ
يُقَرِّبُ حبُّ الموت آجالَنا لنا ... وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

وتغنّتِ الثانية:

وَدِدْتكِ لَمّا كان وُدُّكِ خالصًا ... وأعرضتُ لَمّا صِرْتِ نهبًا مقسَّمَا
ولا يلبثُ الحوضُ الجديدُ بناؤُه ... على كثرةِ الوُرَّادِ أن يتهدّما

وتغنّتِ الثالثة:

وما كرَّ إلا كان أوّلَ طاعنٍ ... وما أبصرتْهُ الخيْلُ إلّا اقْشَعَرَّتِ
فيُدْرِك ثأرًا وهو لم يُخْطِهِ الغِنَى ... فمثلُ أخي يومًا به العينُ قَرَّتِ
فلستُ أُرَزًّا بعده بزريَّةٍ ... فأذكره إلّا سَلتْ وتَجلَّتِ

وغَنّى الرجلُ:

لحى الله صُعلوكًا مُناه وهمّهُ ... من الدهر أن يلْقَى لَبُوسًا ومَطْعَما
ينامُ الضُّحَا حتى إذا ليلُهُ انتهى ... تنبّه مَثْلوجَ الفؤاد مُوَرَّمَا[1]
ولكنّ صعلوكًا يساوِرُ همّه ... ويمضي على الهَيْجاءِ ليثًا مقدَّما
فذلك إن يَلْقَ الكريهة يَلْقَهَا ... كريمًا، وإن يستغْن يومًا فربَّمَا

وتغنَّتِ الجارية:

إذا كنتَ رَبًّا للقَلُوصِ فَلَا يكن ... رفيقُك يمشي خلْفَهَا غيرَ راكبِ
أنِخْهَا فأَرْدِفْهُ فإنْ حملتْكما ... فذاك، وإن كان العِقَابُ[2] فَعاقبِ

وتغنّت الثانية:

أَلَمْ ترَ لمّا ضمني البلد القَفْرُ ... سمعتُ نداءً يَصْدَعُ القلبَ يا عَمْرُو!
أغِثْنَا فإنّا عُصْبَةٌ مَذْحِجيَّةٌ ... نُزَارُ على وَفْرٍ وليس لنا وَفْرُ

---

(١) مورمًا: أي منتفخًا بادنًا لعدم ما يشغله من أمور الحياة.
(٢) العقاب: هو أن تركب الناقة مرة، ويركبها صاحبك مرة أخرى.

وتغنّتِ الثالثة:

فلما تواقَفْنَا وسلّمتُ أسْفَرَتْ وجوهٌ زهاها الحُسْنُ أن تَتَقَنَّعَا
تبالَهْنَ بالعِرْفَان لَمَّا عَرَفْنَني وقُلْنَ امرؤٌ باغٍ أكَلَّ وأوضَعَا[١]
ولما تَنَازَعْنَ الأحاديثَ قلنَ لي أخِفْتَ علينا أن نُغَرّ ونُخْدَعا!

قال ابن جامع: وتوقَّعْتُ مجيءَ الخادم إليَّ، فقلتُ للرجل: بأبي أنت! خُذ العودَ، فشُدَّ وَتَرَ كذا وارفع الطبقة، وحُطّ دُسْتان كذا، ففعل ما أمرتُه.

وخرج الخادم فقال لي: تَغَنَّ، عافاك الله! فتغنَّيتُ بصَوتِ الرجل الأول على غير ما غنّاه، فإذا جماعةٌ من الخَدَم يحضُرُون حتى استَنَدُوا إلى الأسرّة، وقالوا: وَيْحَك! لِمَن هذا الغناء؟ قلت: لي. فانصرفوا عني بتلك السرعة، وخرج إليّ الخادم وقال: كذبت! هذا الغناء لابن جامع. ودارَ الدور، فلما انتهى الغناء إليَّ قلتُ للجارية التي تَلِي الرجل: خذي العود فعَلِمَتْ ما أريد، فسوّت العودَ على غنائِهَا للصوت الثاني فتغنّيتُ به؛ فخرجت الجماعة الأولى من الخَدَم فقالوا: وَيْحَك! لمن هذا؟ قلت: لي، فرجعوا وخرج الخادم فقال: كذبت، ثم تغنيتُ بصوتِ لي، فلا يُعرف إلا بي، وهو:

عُوجِي عليَّ فسلِّمي جَبْرُ فيمَ الصدودُ وأنتمُ سفْرُ
ما نلتقي إلا ثلاثَ مِنًى حتى يُفَرّق بيننا الدّهرُ

فتزلزلَتْ والله الدَّارُ عليهم، وخرج الخادمُ فقال: وَيْحَك! لمَنْ هذا الغناء؟ قلت: لي. فرجع، ثم خرج فقال: كذبتَ! هذا غناءُ ابن جامع، فقلت: فأنا إسماعيل بن جامع.

فما شعرتُ إلا وأميرُ المؤمنين وجَعْفَر بن يحيىٰ قد أقبلَا مِنْ وراء السِّتْرِ الذي كان يخرجُ منه الخادم. فقال لي الفضل بن الربيع: هذا أمير المؤمنين قد أقبل إليك؛ فلما صَعِد السريرَ وثَبْتُ قائمًا، فقال لي: ابنُ جامع؟ قلت: ابن جامع، جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين! قال: ويحك! متى كنتَ في هذه البلدة؟ قلت: آنِفًا، دخلتُها في الوقت الذي علم بي أميرُ المؤمنين. قال: اجلس، ويحك يا ابن جامع!

---

(١) أكل: أعيا. وأوضع: أسرع؛ يريد أنه أوضع فأكل، ولكن قدم وأخر.

ومضى هو وجعفر، فجلسا في بعض تلك المجالس، وقال لي: أبشِرْ وابْسُط أَمَلك؛ فدعوتُ له. ثم قال: غنِّني يا ابنَ جامع، فخطر بقلبي صوتُ الجارية الحُمَيْراء، فأمرتُ الرجلَ بإصلاح العودِ على ما أردتُ من الطبقة، فعرف ما أردتُ، فوزن العود وَزْنًا، وتعاهدَهُ حتى استقامت الأوتار، وأخذت الدساتينُ مواضعَها، وانبعثتُ أغني بصوت الجارية الحُمَيراء:

شكَوْنَا إلى أحبابنا طولَ ليلِنا ... فقالوا لنا: ما أقصرَ الليل عندنا!

وذاك لأنَّ النومَ يَغْشَى عيونَهم ... سِرَاعًا وما يَغشي لنا النوم أعْيُنا

إذا ما دَنا الليلُ المُضِرُّ لذي الهَوَى ... جَزِعنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنهمْ كانوا يلاقُون مثل مَا ... نُلَاقِي لكانوا في المضاجع مِثْلَنَا

فنظر الرشيد إلى جعفر وقال: أسمعتَ مثل هذا قَط؟ فقال: لا والله ما خَرَقَ مسامعي قطّ مِثْلُه. فرفع الرَّشيد رأسَه إلى خادم بالقُرْبِ منه، ودعا بكيس فيه ألفُ دينار، فجاء ورَمَى به إليّ، فصيَّرتُه تحت فخذي ودعوتُ لأمير المؤمنين.

فقال: يا ابنَ جامع؛ رُدَّ على أمير المؤمنين هذا الصوت، فرددته، وتزيَّدْتُ فيه؛ فقال له جعفر: يا سيِّدي؛ أما تراه كيف يتزيَّد في الغناء! هذا خلاف ما سمعناه أولًا، وإن كان الأمر في اللحن واحدًا.

فرفع الرشيدُ رأسَه إلى ذلك الخادم، ودعا بكيس آخر فيه ألفُ دينار، فجاءني به، فصيَّرتُه تحت فخذي، وقال: تَغَنَّ يا إسماعيل ما حَضرَك، فجعلتُ أقصد الصوتَ من بعد الصوت؛ مما كان يبلغني أنه يشتري عليه الجواري فأغنِّيه، فلم أزلْ أفعلُ ذلك إلى أن عَسْعَسَ[١] الليل. فقال: أَتْعَبْناك يا إسماعيل هذه الليلةَ بالغناء؛ فأعِدْ على أمير المؤمنين الصوت (يعني صوت الجارية) فتغنّيت؛ فدعا الخادمَ وأمره فأحضر كيسًا ثالثًا فيه ألفُ دينار؛ فذكرتُ ما كانت الجارية قالت لي، فتبَسَّمْتُ، ولحظني؛ فقال: مِمَّ تبسَّمت؟ فجَثَوْت على ركبتي وقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ الصدقُ مَنْجاة.

فقال لي بانتهار: قُلْ! فقصَصْتُ عليه خَبَر الجارية، فلما استوعبه[٢] قال: صدقْتَ، قد يكون هذا؛ وقام.

---

(١) عسعس الليل: أقبل ظلامه. (٢) عرفه كله.

ونزلتُ من السرير ولا أدري أيْنَ أقْصِد، فابتدَرَني فَرَّاشان فصارا بي إلى دارٍ قد أمر بها أميرُ المؤمنين، فَفُرِشَتْ وأُعِدَّ فيها جميعُ ما يكون في مثلها من آلة جلساء الملوك وندمائهم، ومن كلّ آلة وخَوَل[1] إلى جوارٍ ووُصَفاء، فدخلت بغداد فقيرًا وأصبحت من جِلةِ[2] أهلها ومَيَاسيرهم!

ابن جَامِع وَأبو يُوسف القَاضِي[3]

قدِم ابن جامع قَدْمَةً له من مكّة على الرشيد ـ وكان ابنُ جامع حسنَ السَّمْتِ كثيرَ الصلاة، قد بَانَ أَثَرُ السجودُ في جَبْهته، وكان يَعْتَمُّ بعمامة سوداء على قَلَنسُوَة طويلة، ويلبس لباسَ الفُقَهَاء ويركب حمارًا مِرِّيسِيًا[4] في زِيّ أهل الحجاز.

فبينا هو واقفٌ على باب يحيىٰ بن خالد يلتمس الإذنَ، إذ أقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهلِ القَلَانس، فلما هجمَ على الباب نظر إلى رجل يقفُ إلى جانبه ويحادِثهُ، فوقعت عَيْنُه على ابن جامع، فرأى سَمْتَهُ وحلاوة هيئَتِه؛ فجاءَ فوقف إلى جانبه، ثم قا له: أَمْتَعَ الله بك! توسَّمْتُ فيك الحجازية والقرشيّة، قال: أصبْت، قال: فمن أيِّ قريش أنتَ؟ قال: من بني سَهم. قال: فأيُّ الحرمين منزلُك؟ قال: مكّة، قال: ومَنْ لقيتَ من فقهائهم؟ قال: سَلْ عمن شئتَ، ففاتَحه الفقه والحديثَ فوجده عنده ما أحبّ؛ فأُعْجبَ به، ونظر الناسُ إليهما فقالوا: هذا القاضي أبو يوسف قد أقبل على المُغَنِّي ـ وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع! فقال أصحابه: لو أخبرناه عنه! ثم قالوا: لا، لعله لا يعودُ إلى مواقفته بعد اليوم فَلِمَ نَغُمّه!

فلما كان الإذنُ الثاني ليحيىٰ غَدَا عليه الناسُ وغدا عليه أبو يوسف، فنظر يطلبُ ابنَ جامع فرآه، فذهب فوقف إلى جانبه، فحادثه طويلًا كما فعل في المرَّةِ الأولى، فلما انصرف قال له أصحابُه: أيُّها القاضي؛ أتعرف هذا الذي تُوَاقِف[5] وتحادِثُ؟ قال: نعم؛ رجلٌ من قريش من أهل مكة من الفقهاء. قالوا: هذا ابنُ جامع المَغنّى، قال: إنا لله! قالوا: إن الناسَ قد شَهَرُوك بمُوَاقفته، وأنكروا ذلك من فِعْلك.

(1) الخول: الخدم.
(2) الجلة جمع جليل: عظيم.
(3) الأغاني: ٦ ـ ٢٩١.
(4) مريسي: نسبة إلى مريسة وهي قرية بمصر مشهورة بالحمير.
(5) واقفه: سأله الوقوف.

فلما كان الإذْنُ الثالثُ جاء أبو يوسف ونظر إليه فتَنَكَّبه، وعرف ابنُ جامع أنه قد أُنْذِرَ به، فجاء فوقف فسلّم عليه، فردّ عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذي كان يَلْقَاهُ به، ثم انحرف عنه.

فدنا منه ابنُ جامع، وعرف الناسُ القِصَّة، وكان ابنُ جامع جهيرًا، فرفع صوته. ثم قال: يا أبا يوسف، مالك تَنْحَرِفُ عني! أيَّ شيء أنكرت؟ قالوا لك: إني ابنُ جامع المغني، فكرهتَ مُوَافَقَتي! أسألك عن مسألة ثم اصنع ما شئت ـ ومال الناسُ فأقبلوا نحوهما يستمعون ـ فقال: يا أبا يوسف، لو أن أعرابيًّا جِلْفًا وقف بين يديك فأنشدك بجفاءٍ وغِلْظة من لسانه وقال:

يا دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاء فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وطال عليها سَالِفُ الأمَدِ

أكنتَ ترى بذلك بأسًا؟ قال: لا، قد رُوِي عن النبيّ ﷺ في الشعر قولٌ ورُوِي في الحديث.

قال ابنُ جامع: فإن قلتُ أنا هكذا... ثم اندفع يتغنّى فيه حتى أتى عليه، ثم قال: يا أبا يوسف؛ رأيتني زِدْتُ فيه أو نقصْتُ منه؟ قال: عافاك الله؛ أَعْفِنا من ذلك. ثم قال: يا أبا يوسف؛ أنتَ صاحبُ فُتْيا، ما زدتُه على أن حسَّنته بألفاظي، فحسُن في السماع، ووصل إلى القلب! ثم تنحّى عنه ابنُ جامع!

سَرِقَة الغِنَاء(١)

قال الرشيدُ يومًا لجعفر بن يحيىٰ: قد طال سماعُنا هذه العصابةَ على اخْتِلاطِ الأمرِ فيها، فهلُمّ أُقاسِمْك إياها وَأُخَايِرْكَ؛ فاقتسما المغنّين، على أنْ جعلا بإزاءِ كل رجلٍ نظيرَه؛ وكان ابنُ جامع في حَيّزِ الرشيد وإبراهيم الموصليّ في حيّز جعفر بن يحيىٰ، وحضر النُّدماءُ لِمِحْنَة(٢) المغنّين.

وأمرَ الرشيدُ ابنَ جامع فغنّى صوتًا أَحْسَنَ فيه كلَّ الإحسان، وطرِب الرشيدُ غايةَ الطرب، فما قطعه، قال الرشيدُ لإبراهيم: هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنّه. فقال: لا والله يا أميرَ المؤمنين ما أَعْرِفُه؛ وظهر الانكسارُ فيه، فقال الرشيدُ لجعفر: هذا واحدٌ.

(١) الأغاني: ٥ ـ ٢٠٦.

(٢) المحنة: الاختبار.

ثم قال لإسماعيل بن جامع: غنِّ يا إسماعيلُ؛ فغنّى صوتًا ثانيًا أحسن من الأول، فلما استوفاه قال الرشيدُ لإبراهيم: هاته يا إبراهيم، قال: ولا أعرف هذا! فقال: هذان اثنان! غَنِّ يا إسماعيل؛ فغنَّى ثالثًا يتقدّم الصوتين الأولين ويفضُلُهما. فلما أتى على آخره قال: هاتِهِ يا إبراهيم، قال: ولا أعرف هذا أيضًا. فقال له جعفر: أَخْزَيتنا أَخزَاكَ الله.

وأتمَّ ابنُ جامع يَوْمَه، والرشيدُ مسرورٌ به، وأجازه بجوائز كثيرة، وخلَعَ عليه خِلَعًا فاخرة، ولم يزل إبراهيم مُنْخَذِلًا منكسرًا حتى انصرف. ومضى إلى منزله، فلم يستقِرّ فيه حتى بعث إلى محمد المعروف بالزَّف[1] ـ وكان من المغنين المحسنين، وكان أسرعَ مَنْ عُرِف في أيامه في أَخْذِ صوتٍ يريدُ أَخْذَه، وكان الرشيدُ قد وَجَدَ[2] عليه في بعض ما يجدُه الملوكِ على أمثاله، فألزمه بيتَه وتناساه ـ فقال إبراهيم للزَّف: إني اخْتَرْتُكَ على مَنْ هو أحبُّ إليّ منك لأمرٍ لا يصلح له غيرُك، فانظر كيف تكون! قال: أَبْلغُ في ذلك مَحَبَّتَك، إن شاء الله تعالى. فأدَّى إليه الخبر، وقال: أريدُ أن تمضيَ الساعةَ إلى ابن جامع، فتُعلمه أنك صِرْتَ إليه مهنِّئًا بما تهيَّأَ له عليّ وتَتَنَقَّصُني وتَثْلِبني[3] وتَشْتِمُني، وتحتال في أن تسمعَ منه الأصواتَ وتأخذها منه، ولك ما تُحِبُّه من جهتي مِنْ عرَض من الأعراض مع رضا الخليفة إن شاء الله.

فمضى واستأذنَ على ابن جامع فأذِن له، فدخل وسلّم عليه وقال: جئتُك مُهنِّئًا بما بلغني مِنْ خبرك، والحمد لله الذي أَخْزَى ابنَ الجُرْمُقانِيَّة[4] على يدك، وكشف الفضلَ في محلك من صناعتك، قال: وهل بلغك خبَرُنا؟ قال: هو أشهرُ من أن يَخْفَى على مثلي، قال: ويحك! إنه يقصُرُ عن العِيان. قال: أيها الأستاذ؛ سُرّني بأن أسمَعه مِنْ فِيكَ حتى أرويَهُ عنك؛ قال: أَقِمْ عندي حتى أَفْعَل، قال: السمع والطاعة.

---

(١) هو محمد بن عمرو مولى بني تميم، كوفي الأصل والمولد، والزف لقب غلب عليه، كان مغنيًا ضاربًا، طيب المسموع، صالح الصنعة، مليح النادرة، أسرع خلق الله أخذًا للغناء. وأصحهم أداء له كان يتعصب لابن جامع، مات في خلافة الرشيد.

(٢) وجد عليه: غضب. (٣) ثلبه: عابه وتنقصه.

(٤) الجرمقاني واحد الجرامقة: وهم قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام.

فدعا له ابنُ جامع بالطعام فأكَلا ودَعَا بالشراب، ثم ابتدأ فحدّثه بالخبر حتى انتهى إلى خَبرِ الصوت الأول. فقال له الزّف: وما هو أيُّها الأستاذ؟ فغنَّاه ابنُ جامع إياه، فجعل محمد يُصَفِّق وينقر ويشربُ وابنُ جامع مجتهد في شأنه حتى أخذه عنه، ثم سأله عن الصوت الثاني فغنَّاه إياه. وفعل مثلَ فِعْلِه في الصوت الأول، ثم كذلك في الصوت الثالث.

فلما أخذ الأصواتَ الثلاثة وأحكمها، قال له: يا أستاذ؛ قد بلغتُ ما أحبُّ فتأذن لي في الانصراف؟ قال: إذَا شئْتَ.

فانصرف محمدٌ من وجهه إلى إبراهيم، فلما طلع من باب داره قال له: ما وراءَك؟ قال: كلُّ ما تحبّ؛ ادْعُ لي بعُودٍ، فدعا له به؛ فضَرَب وغنَّاه الأصوات. قال إبراهيم: وأبيك هي بصُوَرِها وأعيانها؛ ردِّدْها عليَّ الآن، فلم يزل يردّدها، حتى صحّت لإبراهيم، وانصرف الزّفُّ إلى منزله.

وغَدَا إبراهيم إلى الرشيد، فلما دعا بالمُغَنِّين دخل فيهم، فلما بَصُرَ به قال له: أو قد حضرت! أما كان ينبغي لك أَنْ تجلسَ في منزلك شهرًا بسبب ما لقيتَ من ابن جامع! قال: ولِمَ ذلك يا أميرَ المؤمنين؟ جعلني الله فداك! والله لئن أذنتَ لي أن أقولَ لأقولَنَّ، قال: وما عساك أَنْ تقول! قل. فقال: إنه ليس ينبغي لي ولا لغيري أَنْ يراك نشيطًا لشيء، فيعارضك، ولا أن تكونَ متعصِّبًا لحيِّزٍ وجَنْبة[1] فيغالبَك؛ وإلا فما في الأرض صَوْتٌ لا أعرفه. قال: دَعْ ذا عنك قد أقررتَ أمس بالجهالة بما سمعتَ من صاحبنا، فإن كنتَ أمسكتَ عنه بالأمس على معرفةٍ كما تقول فهاتِهِ اليوم، فليس هٰهنا عَصَبِيَّة ولا تمييز.

فاندفع فأمرَّ الأصواتَ كلها، وابنُ جامع مُصْغ يسمع منه، حتى أتى على آخرها، فاندفع ابنُ جامع فحلف بالأيمان المُخْرِجة أنه ما عرفها قط ولا سَمِعها، ولا هي إلا مِنْ صَنْعَته، ولم تَخْرُج إلى أحد غيره، فقال له: ويحك! فما أحدثْتَ بعدي؟ قال: ما أحدثْتُ شيئًا.

فقال: يا إبراهيم؛ بحياتي، أصدقني. فقال: وحياتك لأصْدُقَنَّكَ؛ رميتُه بحَجَره[2]، فبعثت إليه بمحمد الزَّف وضمنتُ له ضماناتٍ، أوَّلها رضاك عنه؛

(١) الجنبة: الناحية.
(٢) رمى فلان بحجره: إذا قرن بمثله.

فمضى فاحتال لي عليه حتى أخذها عنه ونقلتُها حتى سقط الآن اللومُ عني بإقراره؛ لأنه ليس عليَّ أن أعرفَ ما صنعه هو ولم يُخْرِجُه إلى الناس، وهذا بابٌ من الغيب، وإنما يلزمني ألّا يعرف هو شيئًا من غناء الأوائل وأجهله أنا، وإلا فلو لزمني أَنْ أَرْوي صنعتَه للزمه أن يرويَ صنعتي، ولزم كلَّ واحدٍ منّا لِسَائِرِ طبقته ونظرائه مثلُ ذلك، فمن قصر كان مذمومًا ساقطًا.

فقال له الرشيد: صدقتَ يا إبراهيم ونَصَحتَ[١] عن نفسك، وقمت بحجّتك.

ثم أقبل على ابن جامع، فقال له: يا إسماعيل؛ أُتيت أُتيت! دُعيت دُهيت! أبطل عليك الموصلي ما فعلتَه به أمس، وانْتَصَف اليومَ منكَ، ثم دعا بالزُّف فرَضِيَ عنه.

أنا وَالصبح كَفَرَسَيْ رِهَان[٢]

قال إبراهيم[٣] الموصلي: قال لي الرشيدُ يومًا: يا إبراهيم؛ بكِّر عليّ غدًا حتى نصْطَبح؛ فقلتُ له: أنا والصُّبحُ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، فبكّرت فإذا أنا به خاليًا، وبين يديه جاريةٌ كأنها خوط[٤] بَانٍ، حُلْوَةُ المنظر، دَمِثَةُ الشمائل، وفي يدها عود، فقال لها: غَنِّي، فغنّتْ في شِعْرِ أبي نواس وهو:

تَوهَّمَهُ قلبي فأصبح خَدُّه ... وفيه مكانَ الوهْم من نظري أثْرُ[٥]
ومرَّ بفِكْرِي خاطرًا فجرحتُه ... ولم أر جِسمًا قطّ يَجْرَحُه الفِكْرُ
وصافحه قلبي فآلم كفَّهُ ... فمِنْ غَمْزِ قلبي في أنامِله عَقْرُ[٦]

قال إبراهيم: فذهبَتْ والله بعقْلي حتى كِدْتُ أن أفتضِحَ، فقلت: مَن هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه التي يقول فيها الشاعر:

لها قلبي الغداةَ وقلبُها لي ... فنحنُ كذاك في جَسَدَيْن رُوح

(١) نضح عن نفسه: دفع عنها بالحجة. (٢) الأغاني: ٥ ـ ٢٢٨.
(٣) أوحد زمانه في الغناء واختراع الألحان، اتصل بالخلفاء فكانت له عندهم منزلة حسنة، ومات في بغداد سنة ١٨٨ هـ.
(٤) الخوط: الغصن، والبان: نوع من الشجر، لحب ثمره دهن طيب.
(٥) أثر الجرح: أثره يبقى بعدما يبرأ. (٦) العقر: الجرح.

ثم قال لها: غَنّي، فغنّت:

تقول غداةَ البين إحدى نسائهم: لِيَ الكَبِدُ الحَرَّى فسِرْ ولك الصَّبْر(١)
وقـد خَـنَـقْـتَـهـا عَـبْـرَةٌ فـدمُـوعُـهـا على خدِّها بيضٌ وفي نحرها صُفْرُ

قال: فشرب وسقاني ثم سقاها، ثم قال: غَنّ يا إبراهيم؛ فغنَّيت حسبَ ما في قلبي غير مُتَحفظٍ من شيء:

تـشـرَّبَ قـلـبـي حـبّـهـا ومَـشَـى بـه تَمَشَّى حُمَيَّا الكأس في جسم شاربِ
ودبَّ هـوَاهـا فـي عِـظَـامـي فـشـفَّـهـا كما دبَّ في الملسوع سُمُّ العقاربِ

قال: ففطِن بتعريضي - وكان جهالةً منّي - وأمرني بالانصراف، ولم يدعُني شهرًا، ولا حَضَرْتُ مجلسَه.

فلما كان بعد شهر دسَّ إليّ خادمًا معه رقعةٌ، فيها مكتوب:

قد تخوَفْتُ أَنْ أموت من الوَجْـ ـدِ ولم يدرِ مَنْ هويتُ بما بِي
يا كتابي فاقْرَ السَّلامَ على مَنْ لا أسـمِّـي وقـل لـه يـا كـتـابـي
إنّ كـفّـا إلـيـك قـد بَـعَـثَـتْـنـي فـي شـقَـاءٍ مُـوَاصِـلٍ وعَـذَابِ

فأتاني الخادم بالرُّقْعَة؛ فقلت له: ما هذا؟ قال: رقعة الجارية فلانة التي غنَّتْك بين يدي أمير المؤمنين؛ فأحسست القصة فشتَمتُ الخادم ووثبتُ عليه وضربتُه ضربًا شَفَيْتُ به نفسي وغَيْظي.

وركبتُ إلى الرشيدِ من فوري فأخبرته القصةَ وأعطيتُه الرقعة؛ فضحك حتى كاد يَسْتَلْقي، ثم قال: على عَمْدٍ فعلتُ ذلك بك لِأَمْتَحِن مَذْهَبَك وطريقتك، ثم دعا بالخادم، فلما خرج رآني فقال لي: قطع الله يديك ورجليك، ويحك! قَتَلتَني؛ فقلت: القَتْلُ والله كان بعضَ حقك لما وردتَ به عليّ، ولكن رَحِمْتُك فأبقيتُ عليك، وأخبرتُ أمير المؤمنين ليأتي في عقوبتك بما تستحقه: وأمر لي الرشيد بصلَةٍ سَنِيَّةٍ.

مَا هَذا بجزَائي مِنك!(٢)

قال الأصمعي: مررتُ بدار الزُّبَيْر بالبَصْرَة، فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير، يكنّى أبا رَيْحَانة، جالس بالباب عليه شَمْلَة تستره؛ فسلمْتُ عليه؛

(١) الشعر لأبي الشيص.
(٢) زهر الأداب: ١ - ١٥٦.

وجلستُ إليه؛ فبينما أنا كذلك إذا طلعت علينا سُوَيْدَاء، تحمل قِرْبة، فلما نظر إليها لم يتمالكْ أَنْ قام إليها، فقال لها: بالله غَنّي صوتًا! فقالت: إن مَوالي أَعْجلوني؛ فقال: لا بدَّ من ذلك! قالت: أمَا والقربةُ على كتفي فلا! قال: فأنا أحْمِلها؛ فأُخذ القِرْبَة منها؛ فاندفعتْ تُغَنّي:

فؤادٌ أسيرٌ لا يُفَكّ ومُهْجَتِي تَفِيضُ، وأحزاني عليك تَطُول
ولي مقْلَةٌ قَرْحَى لطول اشتياقها إليك، وأجفاني عليك همُول
فَدَيْتُك! أعدائي كثيرٌ، وشُقَّتي بعيدٌ، وأشْياعي لديك قليلُ

فطرب، وصرخ صرخةً، وضرب بالقِرْبَة إلى الأرض فشقّها!

فقامت الجارية تبكي، وقالت: ما هذا بجزائي منك! أسْعَفْتُك بحاجتك فعرّضتَني لما أَكْرَهُ من موالي!

قال: لا تَغْتَمِّي؛ فإن المصيبةَ عليّ حَصَلَتْ! ونزع شمْلته، وابتاع لها قِرْبَةً جديدة! وقَعَد؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد عليّ بن أبي طالب؛ فعرف حالَه، فقال: يا أبا رَيْحَانة؛ أحسبك من الذين قال الله فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦].

قال: لا، يا ابنَ رسول الله، ولكني من الذين قال الله فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: الآيتان ١٧، ١٨]!

فضحك وأمر له بألف درهم.

مَا نَفَعنِي الغِنَاء إلّا ذَلِكَ اليَوم(١)

قال إبراهيمُ بن المهدي: حججتُ مع الرشيد، فبينا نحنُ في الطريق وقد انفردتُ أَسِيرُ وَحْدِي؛ وأنا على دابّتي إذ حملتْني عيناي، فسلَكَتْ بي الدَّابةُ غيرَ الطريق، فانتبهتُ وأنا على غير الجادَّةِ، فاشْتَدَّ بي الحرّ، فعطشت عطشًا شديدًا، فارْتَفَعَ لي خِبَاءٌ فقصدته، فإذا بقُبَّةٍ، وبجنبها بِئْرُ ماء، بقرب مزرعة ـ وذلك بين مكة والمدينة ـ ولم أر بها إنسيًا، فاطلعت في القبة؛ فإذا أنا بأَسْود نائم، فأحسّ بي، ففتح عينيه ثم اسْتَوَى جالسًا، فإذا هو عظيمُ الصورة. فقلت: يا أَسْود؛ اسقني من هذا الماء، فقال: يا أَسْود؛ اسقني من هذا الماء؛ مُحَاكيًا لي. وقال:

(١) المسعودي: ٢ ـ ٢٧٠.

إن كنتَ عطشان فانزلْ واشرب، وكان تحتي بِرْذَون خبيث نَفُور، فخشيتُ أن أنْزِل عنه؛ فَيَنْفِرَ، فضربتُ رأس البِرْذَون.

وما نَفَعني الغِناءُ قطّ إلا في ذلك اليوم، وذلك أني رفعتُ عَقيرتي وغنَّيت.

فرفع الأسْوَدُ رأسَه إليَّ، وقال: أيّما أحب إليك، أن أسقيَك ماء وحدَهُ، أو ماء وسَويقًا؟ قلت: الماء والسويق. فأخرج قَعْبا له، فصَبَّ السويق في القدح فسقاني، وأقبل يضرب بيده على رأسه وصَدْرِه، ويقول: واحَرَّ صَدْرَاه! يا مولاي؛ زِدْني وأنا أزيدك، وشَربتُ السويق، ثم قال لي: يا مولاي؛ إنّ بينك وبين الطريق أَمْيالًا، ولست أشكُّ أنك تعطش؛ لكني أملأ قِرْبتي هذه وأحمِلها قُدّامك، فقلتُ: افعل.

فملأ قِرْبته؛ وسار قُدَّامي وهو يحجل في مِشْيَته غَيْرَ خارج عن الإيقاع، فإذا أمسكت لأسْتريحَ أقبل عليّ، فقال: يا مولاي؛ عطشتَ فأُغَنّيه إلى أَنْ أوقفني على الجَادَّة، ثم قال لي: سِرْ رعاك الله، ولا سَلَبَك ما كساك من هذه النِّعم - بكلام عجميّ، معناه هذا الدعاء - فلحقتُ بالقافلة، والرشيد قد فقدني، وقد بثّ الخيلَ في طلبي، فسُرَّ بي حين رآني، فأتيته فقصَصْتُ عليه الأمرَ، فقال: عليّ بالأسود، فما كان إلا هُنَيْهَة حتى مَثل بين يديه، فقال له: وَيْلَك! ما حَرُّ صدرك؟ فقال: يا مولاي، ميمونة؟ قال: ومَنْ ميمونة؟ قال: حَبَشِيَّة يا مولاي؛ فأمر من يستفهمه، فإذا الأسود عبدٌ لبني جعفر الطيار، وإذا السوداء التي يَهْوَاها لقوم مَن وَلَدِ الحسن بن علي؛ فأمر الرشيدُ بابتياعها له، فأبى مواليها أن يقبلوا لَها ثمنًا، ووهبوها للرشيد، فاشترى الأسْوَدَ وأَعتقه، وزوَّجه منها، ووهب له من ماله بالمدينة حديقتين وثلاثمائة دينار.

طُفَيْلِيّ وَلكنّه ظَرِيفٌ[(١)]

حدّث إسحٰق[(٢)] الموصليّ قال: غدوْتُ يومًا وأنا ضَجِرٌ من مُلَازمة دارِ الخلافة والخِدْمةِ فيها؛ فخرجتُ وركبتُ بُكْرَةً[(٣)]، وعزمتُ على أن أطوفَ الصحراءَ

(١) الأغاني: ٥ - ٤٢٣.

(٢) إسحٰق الموصلي: من أشهر ندماء الخلفاء، تفرد بصناعة الغناء، وكان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، وراوية للشعر وحافظًا للأخبار، توفي ٢٣٥ هـ.

(٣) باكـرًا.

وأتفرّج. فقلت لغِلْمَاني: إنْ جاء رسولُ الخليفة أو غيرُه فعرِّفوه أني بَكَّرْتُ في بعض مُهِمَّاتي، وأنكم لا تعرفون أين توجَّهت!

ومضيتُ وطُفْتُ ما بَدَا لِي، ثم عدتُ وقد حَمِيَ النهار. فوقفتُ في الشارع المعروف بالمُخَرَّم(١) في فناءٍ ثَخين الظل، وجنَاحٍ رحْبٍ عَلَى الطريق لأَسْتَريح.

فلم أَلْبَثْ أن جاء خادمٌ يقودُ حِمارًا فَارِهًا عليه جاريةٌ راكبة، تحتها منديلٌ دَبيقِيّ(٢)، وعليها من اللباس الفاخرِ ما لا غايةَ بعده. ورأيت لها قَوامًا حسنًا وشمائل حسنةً.

فَخَرَصْتُ(٣) أنها مُغَنّية، فدخلتِ الدارَ التي كنتُ واقفًا عليها.

ثم لم أَلْبَثْ أن جاءَ رجلان شابان، فاستأذنَا فأُذِن لهما، فنَزلا ونزلتُ معهما ودخلت؛ فظنَّا أن صاحبَ الدار دَعانِي وظنَّ صاحب الدار أني معهما؛ فجلسْنَا وأُتِي بالطعام فأكلنا وبالشراب فَوُضع، وخرجت الجارية وفي يدها عودٌ فغنَّتْ وشرِبْنا؛ وقُمْتُ قومةً، فسأل صاحبُ المنزل الرجلين عنِّي، فأخبراه أنهما لا يعرفانِي؛ فقال: هذا طُفيليّ ولكنه ظَريف، فأَجْمِلوا عِشْرته، وجئتُ فجلستُ؛ وغَنّت الجارية في لَحْنٍ لي، فأدَّته أداءً صالحًا؛ ثم غنَّتْ أصواتًا شتى، وغنَّت في أضعافها من صَنْعَتِي:

الطُّلولُ الدَّوَارِسُ فَارَقَتْها الأوَانِسُ
أوحشَتْ بعد أَهْلِها فهي قَفْرٌ بَسَابِسُ(٤)

فكان أمرُها فيه أصلحَ منه في الأول؛ ثم غنَّت أصواتًا من القديم والحديث، وغنَّتْ في أثنائها من صَنْعتي:

قُل لِمَنْ صَدّ عاتِبًا ونأى عنكَ جانبًا
قد بلغتَ الذي أَرَدْ تَ وإن كنتَ لَاعِبًا

(١) المخرم: محلة ببغداد.
(٢) ديبقي: منسوب إلى ديبق، وهي بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر، وتنسب إليها الثياب.
(٣) خرصت: ظننت.
(٤) بسابس، لغة في السباسب: الصحارى.

فكان أصلح ما غنَّته. فاستعدتُه منها لأصَحِّحَه لها. فأقبل عليَّ رجلٌ من الرجلين، وقال: ما رأيتُ طُفيليًا أصفَقَ وجهًا منك! لم ترضَ بالتَّطفيل حتى اقترَحْتَ، وهذا غاية المثل: «طُفَيْلِيٌّ مُقترِح»؛ فأطرقْتُ ولم أجِبه. وجعل صاحبُه يَكفُّه عني فلا يَكُفُّ. ثم قاموا للصلاة وتأخرتُ قليلًا، فأخذتُ عودَ الجارية، ثم أصلحتُه إصلاحًا مُحْكَمًا، وعدْتُ إلى موضعي فصلَّيت. وعادوا ثم أخذ ذلك الرجلُ يُعَنِّفُني وأنا صامت.

ثم أخذَتِ الجارية العودَ فجسَّته وأنكرتْ حاله، وقالت: مَنْ مسَّ عودي؟ قالوا: ما مَسَّهُ أحدٌ، قالت: بلى والله لقد مسَّهُ حاذقٌ متقدّم وأصلَحهُ إصلاحَ متمكِّن من صناعته، فقلت لها: أنا أصلحته؛ قالت: فبالله خُذْه واضرب به؛ فأخذته وضربتُ به مبدأ ظريفًا عجيبًا صعبًا، فيه نَقَرَاتٌ متحركة. فما بقي أحدٌ منهم إلا وَثب على قدميه وجلس بين يديّ.

ثم قالوا: بالله يا سيدنا؛ أتُغَنِّي؟ فقلت: نعم، وأعرّفكم نفسي: أنا إسحٰق بن إبراهيم الموصلي، ووالله إني لأَتِيهُ على الخليفة إذا طلبني، وأنتم تُسمعونني ما أكره منذ اليوم لأني نَزَلْتُ بكم! فوالله لا نَطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى تُخرجوا هذا المُعَرْبدَ[1] المَقيتَ[2] الغثّ. فقال له صاحبهُ: مِنْ هذا حَذِرْتُ عليك. فأخذ يعتذر؛ فقلت: والله لا نَطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى يخْرُج فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا.

فبدأتُ وغنَّيت الأصواتَ التي غنَّتْها الجاريةُ من صَنْعَتي، فقال لي الرجل: هلْ لك في خَصْلَة؟ قلت: ما هي؟ قال: تقيمُ عندي شهرًا والجارية والحمارُ لك مع ما عليها من حُلِيّ؛ قلت: أفعل. فأقمتُ عنده ثلاثين يومًا لا يدري أحدٌ أين أنا، والمأمون يَطْلُبني في كل موضع فلا يعرِفُ لي خبرًا.

فلما كان بعد ثلاثين يومًا أَسْلَمَ إليَّ الجاريةَ والحمارَ والخادم فجئتُ بذلك إلى منزلي، وركبتُ إلى المأمون مِن وَقْتي، فلما رآني قال: إسحٰق! ويحك! أين تكون؟ فأخبرتُه بخبري. فقال: عليَّ بالرجل الساعة؛ فدلَلْتهُمْ على بيته فأُحضر. فسأله المأمون عن القِصَّة فأخبره. فقال له: أنت رجلٌ ذُو مروءة، وسبيلُك أن

---

(١) المعربد، رجل معربد: يؤذي نديمه في سكره.

(٢) المقيت: المكروه.

تُعاوَنَ عليها. وأمر له بمائة ألف درهم، وأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال: أَحْضِرْني الجاريةَ. فأحضرتُها فغنَّته. فقال لي: قد جعلتُ لها نَوْبةً في كلّ يوم ثلاثاء تُغَنِّيني وراءَ السّتْر مع الجواري. وأمرَ لها بخمسين ألف درهم، فربحتُ والله بتلك الرَّكْبَةِ وأَرْبَحْتُ.

زِرْيَاب وَإسحـٰق المُوصَليّ[1]

كان زرياب[2] تلميذًا لإسحـٰق الموصلي ببغداد، فتلقف من أغانيه استراقًا وهُدِيَ من فَهْم الصناعة وصِدْق العقل، مع طِيبِ الصوت، إلى ما فاق به إسحـٰق وإسحـٰقُ لا يشعُرُ بما فُتح به عليه، إلى أن اقترح الرشيدُ عليه أَنْ يأتيه بمغنٍّ غريبٍ مُجيدٍ للصنعة، لم يشتهر مكانه إليه؛ فذكر له تلميذَه هذا، وقال: إنه مَوْلًى لكم، وسمعتُ له نَزَعاتٍ حسنة، ونغماتٍ رائقة مُلْتَاطَةً[3] بالنفس، وهو من اختراعي واسْتِنْبَاطِ فكري، وأَحْدِسُ[4] أن يكون له شَأْن.

فقال الرشيد: هذا طَلِبتي، فأَحْضِرْنيه، لعلَّ حاجتي عنده. فأحضره فلما كلمه الرشيدُ أَعْرَب عن نفسه بأحسن منطق، وأَوْجَز خطاب؛ وسأله عن معرفته بالغِنَاء، فقال: نعم، أُحْسِنُ ما يُحْسِنُه الناس، وأكثر ما أُحْسِنه لا يحسنونه، مما لا يَحْسنُ إلا عندك، ولا يُدَّخَرُ إلا لك؛ فإن أذنتَ غنيْتُك ما لم تسمعه أُذُنٌ قبلك.

فأمر بإحْضار عودِ أُستاذِه إسحـٰق؛ فلما أُدْنِيَ إليه وقف عن تناوُلِه، وقال: لي عودٌ نحتُّه بيدي، وأرهفْته بإحكامي، ولا أرْتضِي غيره، وهو بالباب، فليَأْذَنْ لي أمير المؤمنين في استدعائه؛ فأمر بإدخاله إليه.

فلما تأمّله الرشيدُ ـ وكان شبيهًا بالعود الذي دفعه إليه ـ قال: ما منعك أن تستعمِلَ عودَ أُستاذِك؟ فقال: إنْ كان مولاي يرغبُ في غِناء أستاذي غنَّيْتُه بعوده، وإن كان يرغبُ في غِنَائي فلا بدَّ لي من عودي! فقال له: ما أراهما إلا واحدًا؛ فقال: صدقتَ يا مولاي؛ ولا يؤدِّي النظرُ غيرَ ذلك، ولكنَّ عُودي وإن كان في

(١) نفح الطيب: ٢ ـ ١٠٩.
(٢) كان زرياب مع علمه بصناعة الغناء عالمًا بالنجوم، شاعرًا أديبًا حلو الحديث، لطيف المعاشرة، ماهرًا في خدمة الملوك، توفي سنة ٣٣٠ هـ.
(٣) التاط بالقلب: لزق به.
(٤) الحدس: الظن والتخمين.

قَدْر جِسمِ عوده، ومن جِنس خَشَبِه، فهو يقع نم وزنه في الثُّلث؛ ووصَفَه وَصْفًا استبرعه الرشيد، وأمره بالغناء، فجسَّ ثم اندفع فغنّاه:

يا أيها الملك الميمونُ طائرُه هارُون راح إليك الناسُ وابتكروا[١]

فلما أتمَّ طار الرشيد طربًا، وقال لإسحٰق: والله لولا أني أعلم من صِدْقِك وتصديقه لك؛ من أنك لم تَسْمَعْه قَبْلُ لأنزلتُ بك العقوبة؛ لِتَرْكِك إعلامي بشأنه؛ فخذه إليك واعتنِ به، حتى أفرغَ له؛ فإن لي فيه نظرًا.

فسُقِط في يد إسحٰق، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره، فخلا بزِرْيَاب، وقال: يا عليّ؛ إن الحسدَ أقدمُ الأدواء[٢]، والدنيا فتّانة، والشركةُ في الصناعة عداوةٌ، ولا حِيلَةَ في حَسْمِها؛ وقد مكرتَ بي فيما انطويتَ عليه من إجادتك، وعلوّ طبقتك؛ وقصدتُ منفعَتك، فإذا أنا قد أتيتُ نفسي من مأمَنِها بإدْنَائك، وعن قليل تسقط منزلتي، وترتقي أنتَ فَوْقِي، وهذا ما لا أُصاحبك عليه ولو أنك وَلَدِي؛ ولولا رَعْيي لذمَّةِ تربيتك لما قدّمتُ شيئًا على أن أُذْهِبَ نفسك، ويكونُ في ذلك ما يكون.

فتخَيَّرْ في ثِنْتيْنِ لا بدَّ لك منهما: إما أن تذهبَ عني في الأرض العريضة، لا أسمعُ لك خبرًا، بعد أن تعطيَني على ذلك الأيمان الموثقة؛ وأنا أُنهِضُك لذلك بما أردتَ من مالٍ وغيره. وإما أن تقيمَ على كُرْهي ورَغْمي مُسْتَهدِفًا إليَّ؛ فخذ الآن حِذْرَك مني، فلستُ ـ والله ـ أُبقِي عليك، ولا أَدَعُ اغْتيَالك، باذِلًا في ذلك بَدَني ومالي، فاقْضِ قضاءَك!

فخرج زِرْياب لوقته، وعلم قدرتَه على ما قال، واختار الفِرَار، فأعانه إسحٰق على ذلك سريعًا، ورَاشَ[٣] جناحَه، فرحل عنه ومضى يبغي مغرب الشمس، واستراح قلبُ إسحٰق منه.

وتذكّره الرشيد بعد فَرَاغِه من شغل كان منغمسًا فيه، فأمر إسحٰق بإحضاره فقال: ومَنْ لي به يا أمير المؤمنين! ذاك غلام مجنون، يَزْعُم أن الجِنَّ تكلِّمُه، وتطارِحُه ما يُزْهَى[٤] به من غِنائه، فما يرى في الدنيا مَن يَعْدِله،

(١) ابتكروا: أتوه بكرة، والبكرة: الغدوة. (٢) جمع داء.
(٣) راشه: إذا أحسن إليه، وراش صديقه: إذا أطعمه وسقاه وكساه.
(٤) زهى به: أعجب به.

وما هو إلا أن أبطأَتْ عليه جائزةُ أمير المؤمنين، فقدّر التقصير به، والتهوينَ بصِناعته، فرحل مُغاضِبًا[١] ذاهبًا على وجهه، مستخفيًا عني، وقد صنع الله تعالى ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لَمَمٌ[٢] يغْشَاه، وقد كان يفرط خَبَلُه، فيُفْزِع مَن رآه.

فسكن الرشيدُ إلى قول إسحٰق، وقال: على ما كان به، فقد فاتنا منه سرورٌ كثير!

ومضى زرياب إلى المغرب[٣]، وعلم عبد الرحمٰن بن الحكم بخبره؛ فكتب إلى عُمَّاله على البلاد أن يُحْسِنوا إليه، ويوصلوه إلى قُرْطُبة، وأمر مَنْ يتلقَّاه ببغال وآلاتٍ حسنة.

فدخل هو وأهلُه ليلًا، وأنزله في دار من أَحْسَنِ الدور، وحمل إليها جميعَ ما يحتاج إليه، وخَلَع عليه. ثم أجرى عليه راتبًا، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها، ومن الضِّياع ما يقوَّم بأربعين ألف دينار، فلما قضى له سُؤْلَه، وأنجز موعِدَه، وعلم أن قد أَرْضاه، وملك نفسه استدعاه، ولما سمع غناءه اطّرح كلَّ غِنَاء سواه، وأحبّه حبًّا شديدًا، وقدّمه على جميع المغنِّين.

فِي مَسجِد رَسُول الله تَتغَنى؟[٤]

قال إبراهيم الحراني: حججتُ مع أمير المؤمنين الرشيد، فدخلتُ مسجد رسول الله ﷺ؛ فبينا أنا بين القَبر والمِنْبَر إذا أنا برجل حسنِ الهيئة خَاضِب، ومعه رجلٌ في مِثْل حاله، فحانتْ مني التِفَاتة؛ فإذا هو يقوّس حاجبيه، ويفتح فَاهُ، ويَلْوِي عنقَه، فتجوَّزتُ[٥] في صلاتي، ثم سلَّمت فقلت: أفي مسجد رسول الله تَتغَنَّى! فقال: ما أَجْهَلَك! أما في الجنةِ غِناء! قلت: بلى! لعمري، فيها ما تَشْتهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأعين! قال: أمَا نحن في رَوْضَةٍ من رياض الجنة؟ قلت: نعم! قال: واحَرَبَاه! أتردُّ على رسول الله قولَه: «بين قَبْري ومنبري روضةٌ من رياض الجنة»! فنحن في تلك الرّوضة. قلت: قبّح اللهُ شيخًا ما أسفهه! قال: بالقبر والمنبر لَمّا[٦]

---

(١) مغاضبًا: غاضبت الرجل: أغضبته وكرهته.
(٢) اللمم: الجنون.
(٣) يريد الأندلس.
(٤) ذيل زهر الآداب: ٤٨.
(٥) تجوز في صلاته: خفف.
(٦) لما: إلا.

أنصتّ إليّ! فتخوّفت ألّا أُنصت. فاندفع يغني بصوت يخفيه:

وليسَتْ عَشِيّاتُ الحِمَى برواجعٍ إليك، ولكنْ خلِّ عينيك تَدْمَعَا
بكتْ عَيْنِيَ اليُسرى فلما زجرتُها عن الجهل بعد الحلم أَسْبَلَتَا معا

فوالله إنْ قمتُ إلى الصلاة لِمَا دخل قلبي! فلما رأى ما نزل بي، قال: يا ابن أم؛ أرى نفسَك قد استَجَابت وطَابت، فهل لك في زيادة؟ قلت: ويحك! في مسجد رسول الله!! قال: أنا والله أعرفُ بالله ورسوله منك! فدعْنا من جهلك، ثم تغنّى:

فلو كان واشٍ باليمامةِ دَارُه ودَارِي بأقصى حَضْرمَوت اهتدى لِيَا
وماذا لهم - لا أحسنَ الله حفظهم - من الشأن في تَضرِيم[1] لَيْلَى حِبَالِيَا

فقال له صاحبُه: يا ابن أمّ، أحسنْتَ والله، وعِتْق ما أمْلِكُ لو كان أميرُ المؤمنين الرشيد حاضرًا لخلع عليك ثيابَه مشقوقةً طَربًا.

فقمت، وهما لا يعلمان مَنْ أنا؟ فدخلتُ على أمير المؤمنين فأعلمتُه الخبر فقال: أَدْرِكْهُمَا لا يفوتاك!

فوجهتُ مَن جاء بهما. فلما دخلا عليه دخلا بوجوه قد ذهبَ ماؤُها، وأنا قائمٌ على رأسه؛ فقال: يا إبراهيم؛ هذان هما؟ قلت: نعم! فنظر إليّ المغني منهما، وقال سِعَايةٌ[2] في جوار رسول الله! فَسُرِّي عن أمير المؤمنين بعضُ غَضَبه، وتبسّم، فقال: ما كنْتُما فيه؟ قالا: في خير! قال: فما الخير؟ فسكَتَا.

فقال للمغني منهما: مَن أَنْتَ؟ فابتدره جماعة فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ إنه ابنُ جُرَيْج[3] فقيهُ مكة! فقال: فقيه مكة يتغنّى في مسجد رسول الله!

قال: يا أمير المؤمنين؛ لم يكن ذلك مني بالقَصْد للغناء، ولكني كنتُ أسْمعت هذا المخزومي - يغني صاحبه - صوتين، فلم يزالا في قلبي حتى الْتقينا، فأحببتُ أن يأخذَهما عني، فأخذهما، وحلف أني أحسنتُ، وأنه لو كان في الموضع أميرُ المؤمنين لخلع عليَّ - وسكت.

(١) صرمته، وصارمته: قاطعته. (٢) سعاية: وشاية.
(٣) ابن جريج: وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، ويكنّى أبا الوليد.

فقال الرشيد: تركتَ من الحديث شيئًا؟ قال: ما تركتُ شيئًا يا أمير المؤمنين! قال: والله لتقولَنَّ. قال: يا أمير المؤمنين؛ زعم أنك لو كنتَ في موضعهِ لخلعت عليّ ثيابًا مشقوقة طَرَبًا!

فتبسّم، وقال: أمَّا هذا فلا، ولكن نخلعُها عليك صحيحة، فهي خير لك!

ثم دعا بثياب فلبسها ونَبذَ إليه ثيابَه، وأمر له بعشرين ألف درهم ولصاحبه بعَشْرَة آلاف درهم!

وقال: لا تعودَنّ لهذا. فقال صاحبُه: إلا أن يحجَّ أمير المؤمنين ثانية. فضحك وقال: أَلْحِقُوه بصاحبه في الجائزة!

شِـعْرٌ رَقِيـق[١]

قال إسحٰق الموصليّ: حضر مسامرةَ الرشيد عَبْثَرُ المغنيّ ـ وكان فصيحًا متأدبًا، عَلِيَّ الشِّعْرِ، ذا صوتٍ حسَنٍ ـ فتذاكروا رِقَّةَ شِعْرِ المدنيِّين، فأنشد بعضُ جلسائه أبياتًا لابن الدُّمَيْنَة حيث يقول:

وأذْكُر أيامَ الحِمَى ثم أَنْثَنِي ... على كبدي من خشيةٍ أَنْ تَصَدَّعا[٢]
ولَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى برواجعٍ ... عليك، ولكِنْ خلِّ عينيك تدمعَا
بكَتْ عينيَ اليمنى فلما زجرتُهَا ... عن الجهل بعد الحِلم أسْبَلَتَا معا

فأُعجِبَ الرشيد برقةِ الأبيات، فقال له عَبْثَر: يا أمير المؤمنين؛ إن هذا الشعر مدنيٌّ رقيق، قد غُذِي بماء العقيق، حتى رقَّ وصَفَا، فصار أصفى من الهواء؛ ولكِنْ إنْ شاء أميرُ المؤمنين أنشدته ما هو أرقّ من هذا وأَحْلى، وأصلبُ وأقوى لرجل من أهل البادية! قال: فإني أشاء. قال: وأترنَّمُ به يا أميرَ المؤمنين؟ قال: وذلك لك، فغنّى لجرير:

إنَّ الذين غَدَوْا بلُبِّكَ غَادَرُوا ... وشَلًا[٣] بعَيْنِك لا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضْنَ[٤] مِنْ عَبَراتِهِنَّ وقلْنَ لي: ... ماذا لقيتَ من الهوى ولَقِينا!

قال: صدقتَ يا عَبْثَر، وخلع عليه وأجازه.

---

(١) العقد الفريد: ٤ ـ ١٠٩. (٢) أصله تتصدعا.
(٣) الوشل: القليل من الدمع والكثير منه.
(٤) غيضن من عبراتهن: سيلن دموعهن حتى تزفنها، ومن هنا للتبعيض أو زائدة.

صَوْتٌ بِدِرهَمَين[١]

قَدِم إسماعيل[٢] بن الهِرْبِذ على الرّشيد من مكة، فدخل إليه وعنده ابنُ جامع وإبراهيم وابنه إسحٰق وفُلَيْح وغيرُهم، والرشيد يومئذ خَاثِر[٣]، فغنّى ابنُ جامع ثم فُلَيْح ثم إبراهيم ثم إسحٰق، فما حرّكه أحدٌ منهم ولا أَطْرَبه؛ فاندفع ابن الهِرْبِذ يُغَنّي، فعجبوا من إقدامه في تلك الحال على الرشيد، فغنّى:

يا راكبَ العِيسِ[٤] التي   وفدتْ من البلد الحَرَامِ
قـل لـلإمـام ابـنِ الإمـا   م أخي الإمام أبي الإمام
زيـنِ الـبـريـةِ إذْ بـدا   فيهم كمصباح الظلامِ
جعل الإلٰـهُ الهربذيّ   فِداك مِن بينِ الأنامِ

فكاد الرشيد يرقُص، واستخفّه الطرب حتى ضربَ بيديه ورجليه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم. فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ إن لهذا الصوت حديثًا؛ فإنْ أَذِنَ مولاي حدَّثته به؛ فقال: حَدّث.

قال: كنتُ مملوكًا لرجل من ولد الزبير؛ فدفع إليّ درهمين أَبْتَاع بهما لحمًا، فرُحْتُ فلقيت جاريةً على رأسها جرَّةٌ مملوءةٌ من ماء العقيق، وهي تُغَنّي هذا اللَّحن في شعرٍ غير هذا الشعر على وزنه ورويّه،فسألتها أن تعلّمنيه؛ فقالت: لا وحقِّ القبر إلا بدرهمين؛ فدفعت إليها الدرهمين وعلّمتنيه، فرجعتُ إلى مولاي بغير لحم، فضربني ضربًا مبرِّحًا شُغِلْتُ معه بنفسي فأنسيتُ الصوت.

ثم دفع إليّ درهمين آخرين بعد أيام أبتاع له بهما لحمًا، فلقيتني الجاريةُ فسألتُها أَنْ تعيدَ عليّ الصوت؛ فقالت: لا والله إلا بدرهمين، فدفعتُهما إليها، وأعادته عليَّ مرارًا حتى أَخَذْته.

فلما رجعتُ إلى مولاي أيضًا ولا لَحْمَ معي، قال: ما القصَّةُ في هذين الدرهمين؟ فصدَقته القصة، وأَعَدْتُ عليه الصوت، فقبّل بين عينيَّ وأعتقني؛ فرحلتُ إليك بهذا الصوت: وقد جعلت ذلك اللَّحْنَ في هذا الشعر، فقالت: دَعِ

(١) الأغاني: ٧ ـ ١٠٤.

(٢) إسماعيل بن هربذ: مولى آل الزبير بن العوام، أدرك آخر أيام بني أمية، وغنى للوليد بن يزيد، وعمر إلى آخر أيام الرشيد.

(٣) خثرت نفسه: غثت وثقلت واختلطت.   (٤) العيس: الإبل.

الأول وتَنَاسَه، وأقم على الغناء بهذا اللحن في هذا الشعر، فأما مولاك فسأَدفع إليه بَدَل كل درهم ألف دينار، ثم أمر له بذلك فحُمِلَ إليه.

أمُّ جعفرٍ تنوح عَلَى الرَّشيد[١]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: سمِعْتُ نائحةً تنوحُ بهذا الشعر[٢]:

قد لعمري بتُّ ليلى كأخِي الداءِ الوجيعِ
ونَجِيُّ الهمِّ مِنِّي بات أدنى من ضُلوعي
كلما أبصرتُ رَبْعًا دَرِسًا[٣] فاضت دُمُوعي
مُقْفِرًا من سَيِّد كا ن لنا غيرَ مُضِيعِ

فلما سمعتُه منها استحسنته واشتهيتُه، ولهِجتُ به، فكنتُ أترنَّمُ به كثيرًا، فسمع ذلك مني أبي، فقال: ما تصنعُ بهذا؟ قلت: شِعْرٌ قاله الأَحْوَص وصنعه مَعْبَد لسَلّامة، وناحت به سلّامة على يزيد.

ثم ضرب الدّهر[٤]؛ فلما مات الرشيدُ إذا رسول أمِّ جعفر قد وافاني فأمرني بالحضور. فسِرْتُ إليها؛ فبعثتْ إليَّ: إني قد جمعتُ بنات الخلفاء وبناتِ هاشم لنَنُوحَ على الرشيد في ليلتنا هذه؛ فقل الساعةَ أبياتًا رقيقة، وَاصْنَعْهن صنعةً حسنة حتى أنوحَ بهنّ.

فأردتُ نفسي على أن أقول شيئًا فما حضرني، وجعلتْ ترسل إلي تَحُثُّني، فذكرتُ هذا النَّوْح، فأَريتُ أني أصنع شيئًا، ثم قلت: قد حضَرَني القول، وقد صنعتُ فيه ما أمرت، فبعثَتْ إليَّ بكُنَيْزَة وقالت: طارِحْهَا حتى تُطَارِحَنِيه، فأخذتْ كنيزَةُ العودَ وردّدْتُه عليها حتى أخذتْه، ثم دخلت فطارحته أم جعفر، فبعثت إليَّ بمائة ألف درهم ومائة ثوب.

أما إليك سَبيل غَير مَسدودًا[٥]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصليّ: لما أفضَت الخلافةُ إلى المأمون أقام عشرين شهرًا لم يسمع حَرْفًا من الغِنَاء؛ ثم كان أولَ مَن تغنَّى بحضرته أبو عيسى،

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ٣٤٨.
(٢) الشعر للأحوص والنوح لمعبد، وكان صنعه لسلامة، وناحت به سلامة على يزيد بن عبد الملك.
(٣) الدارس: العافي الذي امحى.
(٤) ضرب الدهر بيننا: فرقنا.
(٥) العقد الفريد: ٤ ـ ١٠٩.

ثم واظبَ على السماع، وسأل غني، فجرَّحَنِي عنده بعضُ مَنْ حسَدني؛ فقال: ذلك رجل يَتِيهُ على الخلافةِ؛ فقال المأمون: ما أَبْقَى هذا من التِّيهِ شيئًا، وأمسك عن ذِكْري.

وجفَاني كلُّ مَن كان يَصِلُني لِمَا ظهر من سُوءِ رأيه؛ فأضرَّ ذلك بي حتى جاءني يومًا عَلَّويْهِ، فقال لي: أتأذنُ لي اليوم في ذِكْرك، فإني اليوم عنده؟ فقلت: لا، ولكنْ غنِّه بهذا الشعر؛ فإنه سيبعَثُه على أن يسألَك: مَنْ أين هذا؟ فينفتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء؛ فمضى عَلَّوَيْه، فلما استقرَّ به المجلس غنَّاه الشعر الذي أمرتُه به، وهو:

يا مَشْرَعَ الماء قد سُدَّت مسالِكُه ... أَمَا إليك سبيلٌ غيرُ مسدود!
لِحَائمٍ حارَ حتَّى لا حياةَ به ... مشرّدٍ عن طريقِ الماءِ مَطْرُود

فلما سمعه المأمون قال: ويلك! لِمَنْ هذا؟ قال: يا سيدي، لعبدٍ من عبيدك، جَفَوْتَه واطَّرَحْتَه، قال: إسحٰق؟ قال: نعم؛ قال: ليحضر الساعة.

قال إسحٰق: فجاءني الرسولُ، فسرتُ إليه، فلما دخلتُ قال: ادْنُ، فدنوتُ فرفع يديه وقد مدَّهما، فاتكأْتُ عليه؛ فاحتضنني بيديه؛ وأظهر من إكرامي وبِرِّي ما لو أظهره صديقٌ له مُوَاسٍ لسرَّني.

عِندَ مُخَـارِق(١)

قال بعضُ الرُّوَاة: كنتُ عند مُخَارِق(٢) أنا وهارون بن أحمد بن هشام، فلعب مع هارون بالنَّرْدِ، فَقَمَرَهُ(٣) مُخارق، ومرّ بهارون فَصِيلٌ(٤) ينادَى عليه، فاشتراه بأربعة دنانير، ووجّه به إلى مخارق، وقال: أطعِمْنا من هذا الفَصِيل.

فاجتمعنا وطبخ مخارق بيده جَزُورِيَّة، وعمل من سَنَامه وكبده طعامًا شُوِي في التَّنُّور، وعمل من لَحمه لونًا يُشْبِه الهَريسة بشعير مُقَشَّر في نهاية الطيب، فأكلنا وجلسنا نشرب؛ فإذا نحن بامرأة تصيحُ من الشَّطِّ: يا أبا المهنأ، الله، الله فيّ!

---

(١) الأغاني: ٢١ ـ ١٥١.

(٢) هو أبو المهنأ بن يحيىٰ، منشؤه بالمدينة، وكان أبوه جزارًا، فكان وهو صبي ينادي على ما يبيعه أبوه، فلما بان طيب صوته علمته مولاته طرفًا من الغناء ثم اشتهر أمره وغنى الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، توفي أيام المتوكل.

(٣) غلبه.

(٤) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

حَلَف زوجي بالطلاق أن يسمع غناءك ويشربَ عليه، فقال: اذْهبي وجيئي به، فجاء فجلس، فقال له: ما حَملك على ما صَنعت؟ فقال له: يا سيِّدي؛ كنتُ سمعتُ صوتًا من صَنْعتك فطربتُ عليه حتى استخفّني الطَّرب، فحلفْتُ أن أَسْمَعه منك ثقةً بإجابتك رغبةَ زوجتي؛ فقال: وما هذا الصوت؟ فقال:

بكرتْ عليك فهيَّجَتْ وجْدا ... هُوجُ[1] الرياحِ واذْكرت نَجْدا
أَتَحِنُّ مِنْ شَوْقٍ إذا ذُكِرتْ ... نجدٌ وأنت تركتَها عمدا!

فغنّاه إياه، وسقاه رطلًا، وأَمَرَهُ بالانصراف، ونهاه أن يعاوِد؛ فخرج.

قال الراوي: فما لبثنا أن عادت المرأةُ تَصْرخ: اللهَ، اللهَ فيَّ يا أبا المهنّأ! قد أعاد زوجي المشؤوم اليمين؛ أنْ تغنّيَه صوتًا آخر؛ فقال لها: أحضريه، فأحضرتْه أيضًا، فقال له: ويلك! مالِي ولك؟ ما قِصتُك؟ فقال له: يا سيِّدِي؛ أنا رجل طروب، وكنت قد سمعتُ صوتًا لك آخر فاسْتَفَزَّني الطرب إلى أن حلفْتُ بالطَّلاق ثلاثًا أني أسْمَعه منك، قال: وما هُوَ؟ قال: لحنُك:

أبلغ سلامةَ أنَّ البَيْنَ قد أفِدَا ... وأنّ صَحْبَك عنها رائحون غدا
هذا الفراقُ يقينًا إن صَبَرت له ... أَوْ لَا فإنك منها ميِّتٌ كَمَدا
لا شكّ أن الذي بي سوف يُهلِكني ... إنْ كان أهْلَكَ حُبٌّ قبلَه أحدا

فغنَّاه إياه مخارق، وسقاه رطلًا وقال له: احذَرْ، ويلك أن تعاد.

قال الراوي: ولم تلبث أن عاوَدَتِ الصِّياحَ تَصْرخ: يا سيدي! قد عاود اليمين، الله الله فيّ وفي أولادي! قال: هاتيه، فأحضرتْه، فقال لها: انصرفي أنت؛ فإن هذا كلما انصرف حلف وعاد، فدَعِيه يقيم يومه كلّه، فتركته وانصرفت، فقال له مخارق: ما قِصَّتُك أيضًا؟ قال: قد عرّفْتُك يا سيدي أنني رجل طروب، وكنت سمعت صوتًا من صنْعتك استخفني الطرب له، فحلفت أني أسمعه منك، قال: وما هو؟ قال:

أَلِفَ الظَّبْيُ بِعَادِي ... ونَفَى الهمُّ رُقَادِي
وعَدَا الهَجْرُ على الوصْـ ... ـلِ بأسيافٍ حِدَادِ
قل لمن زيَّن وُدّي: ... لستَ أهلًا لودادي

(١) هوج الرياح: شديد الرياح.

فغنَّاه إياه وسقاه رطلًا، ثم أمر به فبُطِح، وأمر بضربه خمسين مِقْرَعة[١]، وهو يستغيث، ثم قال له: احْلِفْ أنك لا تذكرني أبدًا، وإلَّا كان هذا دأبك إلى الليل، فحلف على ما أمر به، ثم أقيم فأخرج عن الدار، فجعلنا نضحك بقية يومنا من حُمقه.

مُخَارِق يُغَنّي لأبِي العتَاهِيَة في شعرهِ[٢]

حدّث مخارق، قال: جاءني أبو العتاهية، فقال: قد عزمتُ على أن أتزوَّد منك يومًا تَهَبُه لي فمتى تنشَط؟ قلت: متى شِئْتَ وإن طلبني الخليفة، فقال: يكون ذلك في غد؟ فقلت: أفعل.

فلما كان من غد باكَرني رسولُه فجئته، فأدخلني بيتًا له فيه فَرْشٌ نظيف، ثم دعا بمائدة عليها خُبْز سَمِيذ[٣] وخَلّ وبَقْل وملح وجَدْيٌ مَشْوِيّ، فأصبنا منه حتى اكتفينا، ثم دعا بَحَلْوَاء فأصبنا منها، وغسلنا أيدينا، وجاؤونا بفاكهة ورَيْحَان وألوان من الأنبِذَة، فقال: اخْتَرْ ما يصلُح لك منها، فاخترت وشَرِبتُ؛ قدَحًا ثم قال: غنِّني في قولي:

أحمدٌ قال لي ولم يَدْرِ ما بي أتحبّ الغَداةَ عُتْبَةَ حقًّا!

فغنّيته، فشرب قَدَحًا وهو يبكي أَحَرَّ بكاء، ثم قال: غنني في قولي:

ليس من لبست له حِيلةٌ موجودةٌ خيرٌ من الصَّبرِ

فغنّيْتُه وهو يبكي ويَنْشِج[٤]، ثم شرب قدحًا آخر، ثم قال: غَنِّني فديتك في قولي:

خليليّ ما لي لا تزالُ مَضَرَّتي تكون مع الأقْدَار حتمًا من الحَتمِ

فغنيتُه إياه، وما زال يقترح عليَّ كلَّ صوت غُنِّيَ به في شعره فأغنيه ويشرب ويبكي حتى العَتَمة[٥]، فقال: أحبُّ أن تصبر حتى ترى ما أصنعُ. فجلست، فأمر ابنَه وغلامه فكسَّرَ كلَّ ما بأيدينا من النبيذ وآلِته والملاهي، ثم أمر بإخراج كلّ ما

(١) أصل المقرعة ما تقرع به الدابة.
(٢) الأغاني: ٤ ـ ١٠٧.
(٣) السميذ: الدقيق الأبيض.
(٤) نشج الباكي: غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.
(٥) العتمة: وقت صلاة العشاء.

في بيته من النبيذ وآلِته، فأخرِج جميعُه، فما زال يكسِّره ويصبّ النبيذ، وهو يبكي حتى لم يَبْقَ من ذلك شيء، ثم نزع ثيابه واغتسل، ثم لبس ثيابًا بِيْضًا من صوف، ثم عَانَقَنِي وبكى، ثم قال: السلام عليك يا حبيبي سلامَ الفراق الذي لا لِقَاءَ بعده، وجعل يبكي وقال: هذا آخرُ عَهْدِي بك. فظننتُ أنها بعضُ حَمَاقاته.

فانصرفتُ وما لقيتُه زمانًا، ثم تشوّقتُ إليه فأتيته، فاستأذنت عليه، فأَذِن لي، فدخلت فإذا هو قد أخذ قوصرّتين[١]، وثَقَب إحداهما، وأدخل رأسه ويديه فيها، وأقامها مقام القميص، وثقب أخرى، وأخرج رجليه منها، وأقام مقام السراويل.

فلما رأيته نسيتُ كلَّ ما كان عندي من الغمّ عليه والوَحْشةِ لعشرته، وضحكت والله ضحكًا ما ضحكت مثله قط. فقال: من أيّ شيء تضحك؟ فقلت: أسخَن[٢] الله عينَك! هذا أيّ شيء هو؟ من بَلَغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزُّهّاد والصحابة والمجانين! انْزِعْ عنك هذا يا سخينَ العين! فكأنه استَحْيَا مني.

ثم بلغني أنه جلس حجّامًا، فجهدتُ أنْ أراه بتلك الحال، فلم أره، ثم مرض فبلغني أنه اشتهى أن أُغَنِّيَهُ، فأتيتُه عائدًا؛ فخرج إليّ رسول يقول: إن دخلت إليّ جددتَ لي حزنًا، وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتُها عليه، وأنا أستودعك الله، وأعتذرُ إليك من عدم اللقاء، ثم كان آخر عهدي به.

المغنُّون عِنْدَ الوَاثِق[٣]

تناظر المغنُّون يومًا عند الواثق، فذكروا الضُّرَّاب وحِذْقَهم؛ فقدَّم إسحٰق زَلْزَلًا[٤] على ملاحظ، ولملاحظ في ذلك الرياسة على جميعهم، فقال له الواثق: هذا حَيْفٌ وتَعَدٍّ منك؛ فقال إسحٰق: يا أمير المؤمنين؛ اجمع بينهما وامتحنهما؛ فإنَّ الأمرَ سينكشف لك فيهما، فأمر بهما فأحضرا؛ فقال له إسحٰق: إن للضُّرَّاب أصواتًا معروفة، أفأمتحنهما بشيء منها؟ قال: أجل، افْعَلْ، فسمَّى

(١) القوصرة: وعاء من قصب يوضع فيه التمر. (٢) أسخن الله عليه: أبكاه وأحزنه.

(٣) الأغاني: ٥ ـ ٢٨٠.

(٤) كان زلزل من سواد أهل الكوفة، وقفه إبراهيم الموصلي على الغناء العربي، وأراه وجوه النغم وثقفه، ثم أصبح بعد ذلك من حذاق الضراب.

ثلاثة أصوات كان أولها:

عُلِّقَ قلبي ظَبْيَةَ السَّيبِ[١] جهلًا فقد أُغْرِي بتعذيبي
نَمَّتْ عليها حين مرَّتْ بنا مَجَاسِدٌ[٢] يَنْفَحْنَ بالطِّيبِ
تَصُدُّ عَنَّا عجوزٌ لهَا مُنْكَرَةٌ[٣] ذاتُ أعاجيبِ
فكلَّمَا هَمَتُ[٤] بإتيانها قالت: توقَّى عذوةَ الذِّيبِ

فضربا عليه، فتقدَّم زلزل وقصَّرَ عنه ملاحِظ، فعجِبَ الواثق من كشفه عمّا ادعاه في مجلس واحد. فقال له ملاحظ: فما بَاله يا أمير المؤمنين يُحيلك على الناس! ولم لا يضرب هو! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنه لم يكن أحد في زماني أضربَ مني إلا أنكم أعفيتموني؛ فتفلّت مِني، على أن معي بقيّة لا يتعلق بها أحدٌ من هذه الطبقة.

ثم قال: يا ملاحظ؛ شَوِّشْ عودَك وهاتِه، ففعل ذلك ملاحظ، فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا يخلّط الأوتار تخليط متعنّت، فهو لا يألو إفسادَها، ثم أخذ العود فجَسَّه ساعة حتى عرف مواقِعَه، ثم قال: يا ملاحظ؛ غَنِّ أيَّ صوتٍ شئت، فغنّى ملاحظ صوتًا، وضرب عليه إسحٰق بذلك العود الفاسد التسوية، فلم يخرجْه عن لَحْنِه في موضع واحد حتى استوفاه عن نقرةٍ واحدة، ويده تصعد وتنحدر على الدَّساتين[٥]، فقال له الواثق: لا والله ما رأيتُ مثلك ولا سمعتُ به! اطرح هذا على الجواري.

فقال: هيهات يا أمير المؤمنين! هذا لا تعرفه الجواري ولا يصلحُ لهنّ، إنما بلغني أن الفهليذ ضرب يومًا بين يدي كِسْرَى فأحسن، فحسده رجلٌ من حُذَّاق أهل صَنْعَته، فترقبه حتى قام لبعض شأنه، ثم خالفه إلى عود فشوّش بعض أوتاره، فرجع فضربَ وهو لا يدري، والملُوك لا تُصْلَحُ في مجالسها العيدان، فلم يزل يضرب بذلك العودِ الفاسد إلى أن فَرَغَ، ثم قام على رجله فأخبر الملك بالقصّة، فامتحن العودَ فعرف ما فيه، ثم قال: «زهْ زهْ[٦] وزهانْ زِه»، ووصله بالصلة التي

(١) السيب: كورة من سواد الكوفة.
(٢) المجاسد: القمصان التي صبغت بالزعفران.
(٣) منكرة: مبغضة مكروهة.
(٤) همت: هممت، وهم بالشيء: أراده ونواه.
(٥) الدساتين: ما عيله أطراف أوتار العود من مقدمه.
(٦) كلمة فارسية معناها أحسنت أحسنت.

كان يصل بها مَنْ خاطبه هذه المخاطبة؛ فلما تواطأت الروايةُ بهذا أخذت نفسي ورُضْتُها عليه، وقلتُ: لا ينبغي أن يكون الفهليذُ أقوى على هذا مِنّي، فما زلتُ أستنبطه بضع عشرةَ سنة حتى لم يَبْقَ في الأرض موضعٌ على طبقةٍ من الطبقاتِ إلا وأنا أعرِف نَغْمَتَه كيف هي، والمواضع التي يخرج النَّغم كلها منه فيها، من أعاليها إلى أسافلها، وكلّ شيء منها يُجَانس شيئًا غيره كما أعرف ذلك في مواضع الدساتين، وهذا شيء لا تفي[1] به الجواري. قال له الواثق: صدقتَ، ولئن مُتَّ لتموتَنَّ هذه الصناعة معك، وأمر له بثلاثين ألف درهم.

فِي دَارِ الوَاثِق[2]

حدث ابن بُسْخُتر، قال: كانت لي نَوْبة في خِدْمة الواثق في كلِّ جمعة إذا حضرتْ ركبتُ إلى الدار؛ فإن نَشِط أقمتُ عنده، وإن لم يَنْشط انصرفتُ، وكان رسْمُنَا ألَّا يحضُرَ أحدٌ منا إلا في يوم نَوْبَتِه.

فإنّي لفي منزلي في غير يوم نَوْبَتِي إذا رُسُل الخليفةِ قد هجموا عليّ، وقالوا لي: احضر! فقلت: أَلَخير؟ قالوا: خير، فقلت: إن هذا يومٌ لم يُحْضِرْنا فيه أمير المؤمنين قطّ، ولعلكم غَلِطْتُمْ. فقالوا: الله المستعان! لا تطوِّل وبادِرْ، فَقَدْ أُمِرْنا ألا نَدَعك تستقرُّ على الأرض. فداخلني فزعٌ شديد، وخفْتُ أن يكونَ ساعٍ قد سَعى بي أو بَلِيَّةٌ قد حَدَثَتْ في رَأْيِ الخليفة عليّ.

فركبتُ حتى وافيتُ الدار؛ فذهبتُ لأدخلِ مِنْ حيث كنت أدخل فَمُنِعْتُ، وأخذ بيدي الخدَمُ فأدخلوني وعَدَلوا بي إلى مَمَرَّاتٍ لا أعرفها، فزاد ذلك في جزَعِي وغَمِّي، ثم لم يزل الخدمُ يُسلمونني من خدم إلى خدم، حتى أَفْضَيْت إلى دار مَفروشة الصَّحْنِ، ملبّسة الحِطيانِ بالوشْيِ المنسوج بالذهب، ثم أفضيت إلى رواقٍ أرضُه وحيطانه ملبَّسةٌ بمثل ذلك، وإذا الواثقُ في صدْرِهِ على سرير مُرصّع بالجوهر، وعليه ثيابٌ منسوجةٌ بالذهب وإلى جانِبِه فَريدة[3]، جاريتُه، عليها مثلُ ثيابه، وفي حِجْرِها عُود. فلما رآني قال: إلينا إلينا! فقبَّلت الأرضَ ثم قلت: يا أمير المؤمنين؛ خيرًا! قال: خيرًا، أما تَرَانا! أنا طلبتُ والله ثالثًا يُؤْنِسنا فلم أر أحقَّ

(١) لا تأتي به وافيًا.
(٢) الأغاني: ٤ ـ ١١٥.
(٣) فريدة: كانت جارية مغنية محسنة، أهداها عمرو بن بانة إلى الواثق، وكانت حسنة الوجه، حسنة الغناء، حادة الفطنة والفهم.

بذلك منك، فبِحَيَاتي بادِرْ فكلْ شيئًا وبادِرْ إلينا. فقلتُ: قد واللهِ يا سيدي أكلتُ وشربتُ أيضًا، قال: فاجلسْ، فجلست. قال: هاتوا لمحمدٍ رِطْلًا في قَدَح، فأحضر ذلك، واندفعت فريدةُ تغنّي:

أهابُكِ إجلالًا وما بكِ قدرةٌ ... عليَّ ولكنْ ملءُ عَيْنٍ حبيبُها
وما هجرَتْكِ النفسُ يَا لَيْل أَنها ... قَنَتْكِ ولا أنْ قلّ منكِ نصيبُها

فجاءت والله بالسِّحْر، وجعلت تُغَنّي الصوت بعد الصوت، وأغَنّي أنا في خلال غِنائها؛ فمرَّ لنا أحسنُ ما مرَّ لأحَدٍ.

فإنّا لكذلك إذ رفع رِجْلَهُ فضرب بها صَدْر فريدة ضربةً تَدَحْرَجَتْ منها من أعلى السرير إلى الأرض وتَفَتَّتَ عودُها، ومرت تَعْدُو وتصيح، وبقيت أنا كالمنزوع الروح، فأطرق ساعةً إلى الأرض مُتحيِّرًا، وطرقتُ أتوقَّع ضَرْبَ العنق.

فإنّي لكذلك إذ قال لي: يا محمد؛ فوثبتُ. فقال: ويحك! أرأيت أغرب مما تهيَّأ لنا؟ فقلت: يا سيدي؛ الساعة والله تَخْرُجُ روحي. فعلى مَنْ أصابنا بالعين لعنةُ الله! فما كان السبب! أَلِذَنب؟ قال: لا والله ولكن فَكَرْتُ أن جَعْفَرا يَقْعُد هذا المقعد، ويقعد معها كما هي قاعدةٌ معي، فلم أطق الصبر، وخامرني ما أخرجني إلى ما رأيت. فَسُرِّي عَنّي وقلت: بل يَقْتلُ الله جعفرًا ويحيا أميرُ المؤمنين أبدًا، وقَبَّلت الأرض وقلت: يا سيدي؛ الله الله! ارحمها ومُرْ بِرَدِّها. فقال لبعض الخدم الوقوف: مَنْ يجيء بها! فلم يكن بأسرع من أن خرجتْ في يدها عودُها، وعليها غيرُ الثياب التي كانت عليها. فلما رآها لاطَفَها، فبكتْ وجعل هو يبكي، واندفعتُ أنا في البكاء، فقالت: ما ذنبي يا مولاي وسيدي؟ وبأي شيء استوجبت هذا؟ فأعاد عليها ما قاله وهو يبكي وهي تبكي! فقالتْ: سألتك بالله يا أمير المؤمنين إلا ضربتَ عنقي الساعة وأَرَحْتَني من الفكر في هذا، وأَرَحْتَ قلبك من الهمِّ بي؛ وجعلَتْ تبكي ويبكي، ثم مَسَحَا أعينهما، ورجعَتْ إلى مكانها.

وأومأ إلى خَدَم وقوف بشيء لا أعرفه؛ فمضوا وأحضروا أكياسًا فيها عَيْن ووَرِق[١] ورزَمًا فيها ثياب كثيرة، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عِقدًا ما رأيتُ قطّ مثل جوهر كان فيه، فألبَسها إياه، وأُحْضِرَت بَدْرَة فيها عشرة آلاف

---

(١) العين: الذهب المضروب، والورق: الدراهم المضروبة من الفضة.

درهم، فجُعِلت بين يدي، وخمسة تخوت فيها ثياب، وعُدْنا إلى أمرنا وإلى أحسن ممَّا كنا فيه، فلم نزل كذلك إلى الليل.

ثم تفرقنا وضرب الدَّهْرُ ضَرْبَه[١]، وتقلَّد المتوكل، فوالله إني لفي منزلي بعد يوم نَوْبتي إذ هجم عليّ رُسُل الخليفة، فما أمْهَلوني حتى ركبتُ وصرْتُ إلى الدار، فأُدْخِلْتُ والله الحجرة بعينها، وإذا المتوكّلُ في الموضع الذي كان فيه الواثق على السرير بعينه وإلى جانبه فَريدة، فلما رآني قال: ويحك! أما ترى ما أنا فيه من هذه! أنا منذ غُدوة أطالبها بأَنْ تغنيني فتَأْبى ذلك! فقلت لها: يا سبحان الله! أتخالفين سيدَك وسيدَنا وسيِّد البشر! بحياته غَنِّي، فعرِفَتْ، والله ثم اندفعت تُغَنِّي:

مقيمٌ بالمجازة[٢] من قَنَوْنَي[٣] وأهلُك بالأجَيفرِ فالثّماد[٤]
فلا تبْعَدْ فكل فَتَى سيأتي عليه الموت يَطْرق أو يُغَادي

ثم رمَتْ بالعُودِ الأرضَ، ورَمَتْ بنفسها عن السرير، ومرت تعدو وتصيح: واسيِّدَاه!

فقال لي: ويحك! ما هذا؟ فقلت: لا أدري والله يا سيّدي. فقال: فما ترى؟ فقلت: أرى أَنْ أنصرفَ أنا وتحضر هذه ومعها غيرها؛ فإنَّ الأمر يؤولُ إلى ما يريدُ أميرَ المؤمنين. قال: فانْصَرف في حفظِ الله، فانصرفتُ؛ ولم أدر ما كانت القصَّة!

مَحبوبَة جَارِيَة المتَوكّل[٥]

قال عليّ بن الجَهْم: كانت محبوبةُ أُهديتْ إلى المتوكل، أهداها إليه عبدُ الله بن طاهر في جملةِ أربعمائة جارية، وكانت بارعةَ الحسن والظَّرْف والأدبِ، مغنّيةً محسنة، فحظِيت عند المتوكل حتى إنه كان يُجْلسها خَلْفَ ستارة وراء ظهره إذا جلس للشرب، فيُدْخِل رأسه إليها ويحدثها ويراها في كل ساعة؛ فغاضَبَها يومًا، وهجرها، ومنع جواريَه جميعًا من كَلَامِها، ثم نازعته

(١) يقال: ضرب الدهر من ضربه، أي مر من مروره وذهب بعضه.
(٢) المجازة: منزل من منازل طريق مكة.
(٣) قنونا: واد من أودية السراة يصب إلى البحر.
(٤) الأجيفر والثماد: موضعان.
(٥) نهاية الأرب: ٥:١٠٩.

نفسُه إليها، وأَرَاد ذلك، ثم منعتْه العِزَّةُ منها، وامتنعتْ من ابتدائه إدلالًا عليه بمحلّها منه!

قال ابنُ الجهم: فبكَّرتُ إليه يومًا فقال لي: يا علي؛ إني رأيتُ البارحة محبوبةَ في نومي كأني قد صالحتُها، فقلت: أَقرَّ الله عينيك يا أمير المؤمنين، وأَنَامَك على خَيْر، وأيقظك على سرور، وأرجو أن يكونَ هذا الصلحُ في اليقظة.

فبينا هو يحدِّثني وأجيبه إذا بوصيفةٍ قد جاءته فأسرّتْ إليه شيئًا، فقال لي: أتدري ما أسرّت هذه إليّ؟ قلت: لا. قال: حدّثتْني أنها اجتازتْ محبوبة الساعة، وهي في حجرتها تُغَنِّي! أفلا تعجبُ إلى هذا! إني مغاضِبُها وهي متهاونة بذلك؛ لا تبدؤوني بصلح، ثم لا ترضى حتى تُغني في حُجْرتها! قم بنا يا عليّ حتى نسمعَ ما تغني، ثم قام، وتبعتُه حتى انتهى إلى حجرتها، فإذا هي تغني وتقول:

أَدُور في القَصْر لا أرى أحدًا ... أشكو إليه ولا يكلِّمني
حتى كأني ركبتُ معصيةً ... ليست لها توبةٌ تخلّصني
فهل لنا شافعٌ إلى ملكٍ ... قد زارني في الكَرَى[1] فصالحني
حتى إذا ما الصَّباحُ لاحَ لنا ... عاد إلى هَجْره فصارَمَني[2]

فطرب المتوكل، وأحسّتْ بمكانه، فخرجت إليه، وتنحّيتُ، فحدثتْه أنها رأتْه في منامها، وقد صالحها فانتبهت، وقالت هذه الأبيات، وغنّت فيها؛ فحدّثها هو أيضًا برؤياه، واصطلحا، وبعث إليّ بجائزة وخِلْعة.

ولما قُتِل تسلَّى عنه جميعُ جواريه غيرها، فإنها لم تزل حزينةً، هاجرةً لكل لذةٍ حتى ماتت.

قَينة تحنُّ إلى بَغدَاد[3]

قال أبو علي بن الأسكري المصري: كنتُ من جُلَّاسِ تميم بن أبي تميم ومِمَّنْ يخِفّ عليه، فأُتِيَ من بغدادَ بجاريةٍ رائعة فائقة الغناء، فدعا جُلَّاسه ومُدَّت السِّتَارة وأمرها فغنّتْ:

وبَدَا له من بعدما انْدَمَل الهوى ... بَرْقٌ تألّق مَوْهِنًا لمَعَانُه

(١) الكرى: النوم. (٢) الصرم: القطع والهجر.
(٣) شرح مقامات الحريري: ١ ـ ٣٢٣.

يبدُو كحاشيةِ الرِّداء ودونه صعب الذُّرا متمنّع أركانُه
وبدا لينظرَ كيف لاح فلم يُطِق نظرًا إليه وصدّه أشجانُه
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضلوعُه والماءُ ما سحّتْ به أجفانُه

فأحسنتْ ما شاءت، وطرب تميم ومَنْ حضر، ثم غَنَّتْ:

ستُسْليك عما فات دولة مُفضِلٍ أوائلُه محمودة وأواخرُه
ثَنَى الله عِطْفَيْه وألَّف شَخْصه على البرِّ مذ شُدَّتْ عليه مآزرُه

فطرب تميم ومَنْ حضر طربًا شديدًا، ثم غنّتْ:

أستودع اللهَ في بغدادَ لِي قمرًا بالكرْخ من فَلك الأزرار مَطْلَعُه

فأفرط تميم في الطرب جدًّا، ثم قال لها: تَمَنَّيْ ما شئتِ فلك مُنَاك، فقالت: أتمنَّى عافيةَ الأمير وسعادتَه، فقال: لا بدّ والله! فقالت: عَلَى الوفاء أَتمنى أيها الأمير؟ فقال: نعم، فقالت: أتمنّى أن أغَنِّي هذه النَّوبة ببغداد. . . فتغيّر وجهُ تميم، وتكدّر المجلس، وقُمْنا؛ فلحقني بعضُ خدمه فردَّني، فلمّا وقفتُ بين يديه قال لي: وَيْحكَ! أرأيتَ ما امْتُحِنَّا به؟ ولا بُدَّ من الوفاء، وما أثق في هذا بغيرك، فتأهّبْ لتحملَها إلى بغداد، فإذا غنّت هناك فاصْرِفها. فقلت: سمعًا وطاعة.

فأَصْحَبها جاريةَ سوداء تخدمها وتُعادِلها[1]، وأمر لي بناقةٍ وبجمل عليه هَوْدَج، فأُدْخِلْتُ فيه، وسرنا مع القافلة إلى مكَّة، فقضينا حجّنا، ثم لما وردنا القادسيّة، أَتَتْنِي السوداء فقالت لي: تقول لك سيدتي: أين نحن؟ فقلت: نحن نُزُولٌ بالقادسية، فأخبرتُها، فسمعتُ صوتها قد ارتفع بالغناء:

لَمّا نزلنا القادِسيَّـ ـةَ حيثُ مُجتمعُ الرفاق
وشممتُ من أرض الحجا ز نسيمَ أنفاسِ العراق
أيقنتُ لي ولمن أُحِـ ـبُ بجَمْعِ شملٍ واتفاق
وضحكتُ مِنْ فَرح اللقا ء كما بكيتُ من الفراق

فصاح الناس من أقطارِ القافلة: أعيدي، أعيدي؛ فما سُمِع لها كلمة.

---

(١) تركب معها.

فلما نزلنا اليَاسِريّة ـ على خمسة أميال من بغداد في بساتين متصلة يبيتُ النّاسُ بها ثم يبكِّرُون لبغداد ـ بتْنَا هناك، ولما قَرُب الصباح إذا بالسوداء قد أَتَتْنِي مذعورةً، فقالت: إن سيِّدتي ليست بحاضرة، ووالله لا أدري أين هي؟ فطلبتُها فلم أجدها، ولا وجدتُ لها ببغداد خبرًا، فقضيتُ حوائجي ببغداد، وانصرفتُ إلى تميم، فأخبرتُه خبرَها، فلم يَزَلْ واجِمًا[1] عليها!

عـمَـــــارة[2]

كانت عند عبد الله[3] بن جعفر جاريةٌ مُغَنِّية يقال لها عُمارة، وكان لها منه مكان لم يكنْ لأحدٍ من جواريه.

فلما وفَد عبد الله بن جعفر على معاويةَ خرج بها معه، فزاره يزيدُ ذاتَ يوم فأخرجها إليه، فلما نظر إليها وسمع غناءها وقَعَتْ في نفسه، وجعل لا يمنعه من أن يبوحَ بما يجدُ بها إلا مكانُ أبيه، مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يكاتمُ الناس أمرها إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمرُ إليه، فاستشار بعضَ مَن قدم عليه من أهل المدينة وعامة مَنْ يثق به في أمرها، وكيف الحيلةُ فيها، فقيل له: إن أمْر عبد الله بن جعفر لا يُرام، ومنزلتَه من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت، وأنت لا تستجيز إكراهه، وهو لا يبيعها بشيء أبدًا، وليس يُغْنِي في هذا إلا الحيلة.

فقال: انظروا لي رجلًا عِراقيًا له أدبٌ وظَرْفٌ ومعرفة، فطلبوه فأتَوْه به؛ فلما دخل رأى بيانًا وحلاوة وفهمًا، فقال يزيد: إني دعوتك لأمرٍ إن ظَفِرْتَ به فهو حظُّكَ آخر الدهر، ويدٌ أكافئُك عليها إن شاء الله؛ ثم أخبَره بأمْره، فقال له عبد الله بن جعفر: ليس يُرام ما في قلبه إلا بالخدِيعَة، ولن يقدر أحدٌ على ما سألت، فأرجو أن أكونه والقوةُ بالله، فأَعِنِّي بالمال. قال: خذ ما أحببت.

فأخذ من طُرَف الشام وثياب مصر، واشترى متاعًا للتجارة من رقيقٍ ودوابَّ وغير ذلك؛ ثم شخص إلى المدينة، فأناخ بعَرْصة[4] عبد الله بن جعفر، واكترى

---

(١) حزينًا.
(٢) مصارع العشاق: ٣١٠.
(٣) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان كريمًا جوادًا، يميل إلى سماع الغناء، وأخباره في الكرم والسماع كثيرة، توفي سنة ٩٠ هـ.
(٤) العرصة: كل بقعة بين الدور ليس بها بناء.

منزلًا إلى جانبه، ثم توسَّل إليه، وقال: إني رجلٌ من أهل العراق قدمتُ بتجارة، وأحببتُ أن أكون في عزِّ جوارك وكَنفك، إلى أن أبيع ما جئتُ به.

فبعث عبدُ الله بن جعفر إلى قَهْرَمانه: أن أكرم الرجل، ووسِّع عليه في نُزُله[1]. فلما اطمأنَّ العراقي سلّم عليه أيامًا، وعرَّفه نفسه، وهَيَّأ له بغلةً فارِهة، وثيابًا من ثياب العراق وألطافًا؛ فبعث بها إليه، وكتب معها: «يا سيدي؛ إني رجلٌ تاجرٌ، ونعمةُ الله عليَّ سابغة، وقد بعثتُ إليك بشيء من تحف، وثياب وعطر، وبعثتُ ببَغلة خفيفة العنان، وطيئةِ الظهر؛ فاتخِذْهَا لركوبك؛ فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ وآله إلّا قبلتَ هديّتي، فإن أعظم أملي في سفرتي هذه أن أستفيدَ الأُنس بك، والتحرم بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقَبْضِ هديته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مرَّ بالعراقي في منزله فقام إليه، وقبّل يده، واستكثر منه، فرأى أدبًا وظرفًا وفصاحة، فأُعجب به وسُرَّ بنزوله عليه، فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بهدية طريفة. فقال عبد الله: جزى الله ضيفنا هذا خيرًا، فقد ملأنا شكرًا، وما نقدر على مكافأته.

وإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله، ودعا بعُمارة في جواريه، فلما طاب لهما المجلس وسمع غناءَ عمارة، تعجب وجعل يزيد عجبه، فلما رأى ذلك عبد الله سُرّ به إلى أن قال له: هل رأيت مثل عمارة؟ قال: لا والله يا سيدي، ما رأيتُ مثلَها وما تصلح إلا لك، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه الجارية: حُسْن وجه، وحُسْن عمل. قال: فكم تساوى عندك؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة، قال: تقول هذا لِتزيِّن لي رأيًا فيها، وتجتلب سروري! قال له: يا سيدي؛ والله إني لأحب سرورك، وما قلت لك إلا الجد، وبعد فإني تاجرٌ أجمع الدراهم إلى الدراهم، طلبًا للربح ولو أعطيتُها بعشرة آلاف دينار لأخذتُها، فقال له عبد الله: عشرة آلاف؟ قال: نعم ـ ولم يكن في ذلك الزمان جارية بهذا الثمن ـ فقال له عبد الله: أنا أبيعكها بعشرة آلاف. قال: قد أخذتُها. قال: قد وجب البيع. وانصرف العراقي.

فلما أصبح عبدُ الله لم يشعر إلا بالمال قد جيء به، فقيل لعبد الله: قد بعث العراقيّ بعشرة آلاف دينار، وقال: هذا ثمن عمارة فردّها، وكتب إليه: إنما كنتُ

---

(١) النزل: ما هُيِّىء للضيف أن ينزل فيه.

أمزح معك، ومما أُعلمك أن مثلي لا يبيع مثلَها، فقال له: جُعِلت فداءك! إن الجد والهزل في البيع سواء، فقال له عبد الله: ويحك! ما أعلم جاريةً تساوي ما بذلْتَ، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك، ولكني كنت مازحًا، وما أبيعُها بملك الدنيا لحرْمَتها بي، وموضعها من قلبي. فقال العراقي: إن كنتَ مازحًا فإني كنتُ جادًّا، وما اطلعتُ على ما في نفسك، وقد ملكتُ الجارية، وبعثتُ إليك بثمنها، وليست تحل لك، وما لي مِنْ أخذها من بُدّ.

فمانعه إياها، فقال له: ليست لي بيّنَة، ولكني أسْتَحْلِفك عند قبر رسول الله ﷺ، ومنبره، فلما رأى عبدُ الله الجدَّ قال: بئس الضيفُ أنت! ما طرقَنَا طارق، ولا نزل بنا نازل، أعظمُ بليةً منك، أتحلفني فيقول الناس: اضطهد عبدُ الله ضيفَه وقَهَرَه، وألجأَه إلى أن استحلفه، أما والله لتعلمن أني سأعتصم في هذا الأمر بالصبر وحسنِ العزاء.

ثم أمر قَهْرَمانه بقَبْضِ المال منه، وبتجهيزِ الجاريةِ بما يُشْبهها من الخدم والثياب والطيب، فجُهِّزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار.

فقبض العراقي الجارِية، وخرج بها؛ فلما برز من المدينة، قال لها: يا عُمارة: إني والله ما ملَكْتك قط، ولا أنت لي، ولا مثلي يَشْتري جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنتُ لأقدم على ابن عم رسول الله ﷺ وآله فأسلبه أحبّ الناس إليه لنفسي، ولكني دَسِيسٌ[1] من يزيدَ بن معاوية، وأنتِ له، وفي طلبك بعثَ بي، فاسْتَتري مني.

ثم مضى بها حتى وردَ دمشق، فتلقَّاه الناسُ بجنازة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد؛ فأقام الرجلُ أيامًا، ثم تلطَّف للدخول عليه، فشرح له القصة ـ ولم يكن أحدٌ من بني أمية يعدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلًا ونُسْكًا ـ فلما أَخْبَره قال: هي لك، وكل ما دفعه إليك من أمرها فهو لك، وارحل من يومك فلا أسمعُ بخَبرك في شيءٍ من بلاد الشام.

فرحل العراقي، ثم قال للجارية: إني قلتُ لك ما قلت حين خرجتُ بك من المدينة؛ فأخبرتُك أنك ليزيد، وقد صرتِ لي، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن جعفر، وأني قد ردَدْتُك عليه، فاسْتَتِري مني.

---

(١) دسيس: مَن تدسّه ليأتيك بالأخبار.

ثم خرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريبًا من عبدِ الله، فدخل عليه بعضُ خدمه، فقال له: هذا العراقي ضيفُك الذي صنع بنا ما صنع، وقد نزل العَرْصة لا حيَّاه الله! فقال عبدُ الله: مَهْ! أَنْزِلوا الرجل وأكرموه! فلما استقرَّ بعث إلى عبد الله: جعلت فداءك! إنْ رأيتَ أن تأذنَ لي لأُشَافهكَ بشيءٍ فعلت؛ فأذِن له؛ فلما دخل سلم عليه، وقبَّل يده فقرَّبه عبد الله، ثم اقتصّ عليه القصة حتى إذا فرغ، قال: قد والله وهبتُها لك قبل أن أراها وأضع يدي عليها، فهي لك ومردودة عليك، وقد علم الله تعالى أني ما رأيتُ لها وجهًا إلا عندك.

فبعث إليها، فجاءَت، وجاء بما جهزها به مُوَفّرًا، فلما نظرتْ إلى عبد الله، خرَّت مغشيًّا عليها، وأهوى إليها عبد الله، وخرج العراقي وتصايَح أهلُ الدار: عُمارة! عمارة! فجعل عبدُ الله يقول، ودموعه تجري: أحلمٌ هذا؟ أحقٌّ هذا؟ ما أصدِّق بهذا! فقال له العراقي: جعلت فداءك! قد ردها عليك إيثارك الوفاء، وصبرُك على الحق، وانقيادك له.

فقال عبد الله: الحمد لله، اللهم إنك تعلم أني تصبَّرت عنها، وآثرت الوفاء، وأسْلَمت لأمرك! فرددتَها علي بمنّك؛ فلك الحمد. ثم قال: يا أخا العراق؛ ما في الأرض أعظم منَّةً منك، وسيجازيك الله تعالى.

وأقام العراقيّ أيامًا وباع عبدُ الله غنمًا لهُ بثلاثة عشر ألف دينار، وقال لقَهْرمانه: احملها إليه، وقل له: اعذر، واعلمْ أني لو وصلتك بكل ما أملك لرأيتك أهلًا لأكثر منه؛ فرحل العراقي محمودًا وافر المال.

الباب التاسع

قصص نساء العـرب

قصص نساء العرب

مَصرَع الزبَّاء(١)

كان جَذيمة قد ملك ما على شاطىء الفرات، وكانت الزَّبّاء ملكة الجزيرة، وكان جَذيمة قد وَتَرها بقتل أبيها، فلما استجمع أمرُها، وانتظم شملُ مُلْكها، أحبَّت أن تغزوَ جَذيمة. ثم رأت أن تكتبَ إليه: أنها لم تجد مُلْكَ النساء إلا قُبْحًا في السَّماع، وضَعْفًا في السلطان، وأنها لم تجد لمُلْكِها موضعًا، ولا لنفسها كفئًا غيركَ؛ فأقبِلْ إليَّ لأجمع مُلْكِي إلى مُلْكك، وأصِل بلادي ببلادِك، وتتقلّد أمري مع أمرك.

فلما أتى كتابُها جَذيمةَ، وقدِم عليه رسلُها استخفَّه ما دعتْه إليه، ورغب فيما أطمَعَتْهُ فيه؛ فجمع أهلَ الحِجا والرأي من ثِقَاتِه ـ وهو يومئذ ببَقَّة من شاطىء الفرات ـ وعرض عليهم ما دعَتْهُ إليه وعرضت عليه؛ فاجتمعَ رأيُهم على أن يسيرَ إليها فيستوليَ على ملكها.

وكان فيهم قَصِير ـ وكان أَرِيبًا حازمًا عند جَذيمة ـ فخالفهم فيما أشاروا به، وقال: رأيٌ فاتر، وغَدْرٌ حاضر. ثم قال لجَذيمة: الرأيُ أن تكتبَ إليها، فإن كانت صادقة في قولها فلتُقْبِلْ إليك، وإلا لم تمكّنها من نفسك، ولم تقع في حِبَالِها، وقد وَتَرْتها وقتلتَ أباها؛ فلم يوافق جَذيمة وقال له: رأيُك في الكِنّ لا في الضّحّ.

---

(١) مجمع الأمثال: ١ ـ ٢١٣، جمهرة الأمثال: ٦٢.

ودعا جَذيمة عمرو بن عدي ابن أخته فاستشاره فشجّعه على المسير، وقال: إن قومي مع الزبّاء ولو رأوك صاروا معك، فأحبَّ جَذِيمة ما قاله، وعَصَا قصيرًا، فقال قصير: لا يُطاعُ لقصيرٍ أمر[١].

واستَخْلف جَذِيمة عَمْرو بن عديّ على مُلْكه وسلطانه، وسار في وُجُوه أصحابه، فأخذ على شاطىء الفرات من الجانب الغربي، فلما نزل دعا قصيرًا فقال: ما الرأي يا قصير؟ فقال قصير: ببَقَّة خلَّفْتُ الرأي[١]. قال: وما ظنُّك بالزَّبَّاء؟ قال: القولُ رِدَاف، والحَزْمُ عثراته تُخَاف[١].

واستقبلتهُ رُسُل الزباء بالهدايا والألطَاف، فقال: يا قصير؛ كيف ترى؟ قال: خَطْبٌ يسير في خطب كبير[١]. وسَتَلْقاك الجيوش؛ فإن سارت أمامك فالمرأةُ صادقة، وإن أخذَتْ جَنَبَتَيْك، وأحاطت بك من خَلْفك فالقوم غادرون بك، وإذن فاركب العَصَا[٢] فإنها لا يسبق غبارها ـ وكانت العصا فرسًا لجذيمة لا تُجَارى ـ وإني راكبها ومُسَايرُك عليها.

فلقيَتْه الخيولُ والكتائب، فحالت بينه وبين العصا؛ فركبها قصير، ونظر إليه جذيمةُ على متْن العصا موليًا، فقال: ويل أمِّه حَزْمًا على متن العصا[١]! وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفَقَتْ، وقد قطعَتْ أرضًا بعيدة.

وسار جذيمةُ وقد أحاطَتْ به الخيلُ حتى دخل على الزَّباء. فلما رأته قالت: أشَوار[٣] عروس ترى؟ فقال: أمر غَدْرٍ أرى! ثم دعت بالسيف والنِّطْع، وقالت: إن دماء الملوك شِفاء من الكلَب، فأمرت بطَسْت من ذهب قد أعدَّتْه له وسقَتْه الخمر حتى سكر، وأخذتْ منه الخمرُ مَأْخَذَها، فأمرت براهِشَيه[٤] فقُطعا، وقدّمت إليه الطَّسْت ـ وقد قِيل لها: إنْ قَطر من دمه شيء في غير الطَّسْت طُلِب بدمه ـ فلما ضَعُفَتْ يداه سقَطتَا فقطر من دمه شيء في غير الطَّسْت؛ فقالت: لا تُضَيِّعُوا دمَ الملك. فقال جذيمة: دَعُوا دمًا ضيّعه أهلُه[١]. وهَلَك جذيمة.

وخرج قصير من الحيّ الذي هلكت العصا بين أَظْهُرهم، حتى قدم على عمرو بن عدي ـ وهو بالحيرة ـ فقال له قصير: أثائر أنت؟ قال: بل ثائرٌ سائر[١].

---

(١) ذهبت أمثالًا.
(٢) العصا: اسم الفرس.
(٣) الشوار: الهيئة والزينة.
(٤) الراهشان: عرقان في باطن الذراعين.

ووافَق قصيرٌ الناس وقد اختلفوا، فأصلح بينهم، ثم قال لعَمْرو بن عدي: تهيَّأ واسْتَعِدّ ولا تُطِلّنّ[١] دمَ خالك. قال: وكيف لي بها وهي أمنعُ من عُقَاب الجو[٢]!

وكانت الزباءُ سألت كاهنةً لها عن هلاكها؛ فقالت: أرى هلاككِ بسبب غلام مهين غير أمين، وهو عمرو بن عدي. ولن تموتي بيده، ولكنّ حَتْفَك بيدك، ومِن قِبَله ما يكون من ذلك.

فحَذِرَتْ عمرًا، واتّخذَتْ لها نَفَقًا من مجلسها الذي كانت تجلسُ فيه إلى حصْن لها في داخل مدينتها، وقالت: إن فاجأني أمرٌ دخلتُ النّفق إلى حِصْني. ودعَتْ رجلًا مُصوِّرًا من أجود أهل بلاده تصويرًا، وأحسنهم عملًا، فجهَّزَتْه وأحسنت إليه، وقالت: سِرْ حتى تَقْدم على عمرو بن عدي متنكّرًا، فتخلو بحشَمِه فتنضمّ إليهم وتخالطهم وتعلّمهم ما عندك من العلم بالصور، ثم أثْبِت[٣] لي عَمْرَو بن عدي معرفة؛ فصوِّره جالسًا وقائمًا وراكبًا ومُتَفضِّلًا[٤] ومتسلحًا بهيئته ولِبْسَته ولونه، فإذا أَحْكَمْت ذلك فأَقْبل إليّ.

فانطلق المصوّر حتى قدم على عمرو بن عَدِيّ، وصَنَع الذي أَمَرَتْهُ به الزّبّاء، وبلغ من ذلك ما أوصتهُ به، ثم رجع إلى الزباء بِعِلْم ما وجهتهُ لهُ من الصورة على ما وصفَتْ وأرادتْ أن تعرف عمرو بن عدي، فلا تَراهُ على حال إلا عرفَتْه وحذرَتْه وعلمت علْمَه.

وقال قصير لعمرو بن عديّ: اجْدَع أنْفي[٥]، واضرب ظَهْري، ودَعْني وإيّاها. فقال عمرو: ما أنا بفاعل، وما أنت لذلك مستحقًا عندي. فقال قصير: خلِّ عنّي إذَنْ وخَلاكَ ذمّ[٢]! فقال له عمرو: فأنت أَبْصَر. فجدع أنفه وأثر آثارًا بظهره؛ فقالت العرب: لأمرٍ ما جَدَع قصير أَنْفَه[٢].

ثم خرج قصير كأنه هارب، وأظهر أن عمرًا فعل ذلك به، وأنه زعم أنه مَكَر بخاله جَذِيمة وغرّه؛ فسار حتى قَدِم على الزبّاء، فقيل لها: إن قصيرًا بالباب.

---

(١) طل دمه: هدر أو ألا يثأر به. (٢) ذهبت أمثالاً.
(٣) أثبته: عرفه حق المعرفة.
(٤) المتفضل: مَن يلبس ملابس النوم وهي لبسة المتفضل.
(٥) جدع أنفه: قطعها.

فأمرت به فأُدخل، فإذا أَنفُه قد جُدِع، وظهره قد ضُرِب؛ فقالت: ما الذي أرى بك يا قصير؟ قال: زعم عمرو أني قد غررتُ خاله وزيَّنْتُ له المصير إليك وغَشَشْتُه ومالأْتُك؛ ففعل بي ما تَريْن؛ فأقبلْتُ إليكِ. فأَكرمَتْه، وأصابت عنده من الحزْم والرأي ما أرادت.

فلما عرف أنها استرسلت إليه، ووثقت به قال: إن لي بالعراق أموالًا كثيرة وطرائف وثيابًا وعِطْرًا، فابعثيني إلى العراق، لأحملَ مالي وأحملَ إليك من بزّها[١] وطرائفها وطِيبها، لتصيبي من ذلك أرباحًا عظيمة، وبعضَ ما لا غنى للملوك عنه. وكان أكثر ما يُطْرفها[٢] من الصَّرَفان[٣]، وكان يُعجبها؛ فلم يزل يُزين ذلك حتى أذنت له، ودفعت إليه أموالًا، وجهزت معه عبيدًا.

فسار قصير بما دفعتْ إليه حتى قَدِم العراق، وأتي الحيرة متنكرًا، فدخل على عمرو بن عديّ فأخبره الخبر، وقال: جهزني بصنوف البَزّ والأمتعة؛ لعلّ الله يمكنُ من الزبّاء؛ فتصيبَ ثأرك، وتقتلَ عدوّك. فأعطاه حاجته.

فرجع بذلك إلى الزّباء؛ فأعجبها ما رأت وسرّها، وازدادت به ثقةً، وجهّزَته ثانيةً؛ فسار حتى قدم على عمرو فجهّزَه وعاد إليها.

ثم عاد الثالثة وقال لعمرو: اجمع لي ثقات أصحابك، وهيّيء الغرائر واحمل كل رجلين على بعيرٍ في غِرارتين، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتُك على باب نفَقِها، وخرجت الرجالُ من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة، فَمَن قاتَلهم قتلوه؛ وإن أقبلتِ الزباء تريد النَّفَق جَلّلْتها بالسيف.

ففعل عمرو ذلك، وحمل الرجال في الغرائر بالسلاح، وسار يكمن النهار ويسْري بالليل، فلما صار قريبًا من مدينتها تقدّم قصير فبشّرها؛ وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف؛ وقال لها: آخر البَزّ على القَلُوص[٤]. وسألها أن تخرج فتنظر إلى ما جاء به. وقال لها: جئت بما صَاءَ وصَمَت[٥].

---

(١) البز: الثياب. (٢) يطرفها: يعطيها.

(٣) الصرفان: تمر رزين صلب.

(٤) ذهبت مثلًا، والبز: الثياب، والقلوص: الأنثى الشابة من الإبل.

(٥) أراد بما صاء: الشاء والإبل، وبما صمت: الذهب والفضة، وهو يريد أنه جاء بكل شيء، وقد ذهبت مثلًا.

ثم خرجت الزّبّاء فأبصرت الإبل تكادُ قوائمُها تَسُوخ في الأرض من ثقل أحمالها، فقالت يا قصير:

ما للجِمال مَشْيُها وئيدا أَجَنْدلًا يَحملن أم حديدا
أم صَرَفانًا تارزًا شديدا[1]

فقال قصير في نفسه:

بل الرجالُ قُبَّضًا قعودًا

فدخلت الإبل المدينةَ؛ حتى كان آخرُها بعيرًا مرّ على بوّاب المدينة، وكانت بيده منْخَسةٌ؛ فنخس الغرارة، فأصابت خاصرة الرجل الذي فيها، فسمع له صوتًا، فقال: شرٌّ في الْجُوالق[2]!

فلما توسطت الإبلُ المدينةَ أُنيختْ، ودلَّ قصير عمرًا على باب النَّفَق الذي كانت الزبّاء تدخله، وأرَتْه إياه قبل ذلك وخرج الرجال من الغرائر، فصاحوا بأهل المدينة، ووضعوا فيهم السلاح، وقام عمرو على باب النُّفَق، وأقبلت الزبّاء تريده، فأبصرت عمرًا فعرفَتْه بالصورة التي صُوِّرت لها؛ فمصَّتْ خاتمها ـ وكان فيه السم ـ وقالت: بيدي لا بيد عمرو[2]. وتلقّاها عمرو فجلّلها بالسيف وقتَلها، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلِها؛ وانكفأ راجعًا إلى العراق.

قبّح الله جَمالًا لَا نَفع فيهِ[3]

كانت عَثْمة بنت ابن مطرود البَجَليَّة ذات عقل ورأي مستَمع في قومها، وكانت لها أخت يقال خَوْد؛ ذات جمال ومِيْسم وعقل. ثم إن سبعةَ إخوة من الأزد خطبوا خَوْدًا إلى أبيها، فأتوه وعليهم الحُلَل اليمانية، وتحتهم النَّجائِبُ الفُرْه[4]. فقالوا: نحن بنو مالك بن غُفَيْلَة. فقال لهم: انزلوا على الماء، فنزلوا ليلتهم ثم أصبحوا غادين في الحُلَل والهيئة، ومعهم ربيبة[5] لهم كاهنة يقال لها: الشعثَاء.

(١) التازر: اليابس.
(٢) ذهبت مثلاً.
(٣) مجمع الأمثال: ١ ـ ٩٠.
(٤) فره: جمع فاره، وهو من الدواب الجيد السير النشيط الخفيف.
(٥) الربيبة: الحاضنة.

فمرّوا بوصيدها[١]، يتعرّضون لها، وكلهم وسيمٌ جميل، وخرج أبوها فجلسوا إليه، فرحب بهم، فقالوا: بلغنا أن لك بنتًا، ونحن كما ترى شباب. وكلُّنا يمنع الجانب، ويمنح الراغب. فقال أبوها: كلكم خيار. فأقيموا حتى نرى رأينا.

ثم دخل على ابنته فقال: ما ترَيْن؟ فقد أتاك هؤلاء القوم. فقالت: زوِّجني على قَدْري، ولا تشطط في مهري؛ فإن تخطئني أحْلَامُهم فلا تخطئني أجسامهم. لعلي أصيب ولدًا، وَأُكثِر عددًا.

فخرج أبوها، فقال: أخبروني عن أفضلكم، قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة: اسمع أُخبِرْك عنهم: هم إخوة، وكلهم أُسوة. أما الكبيرُ فمالك، جريءٌ فاتك، يتعبُ السنابكَ[٢]، ويستصغر المهالك. وأما الذي يليه فالعَمْرو، بحر غَمْر[٣]، يقصر دونه الفخر، نَهْدٌ[٤] صقر. وأما الذي يليه فعلقمة، صليبُ[٥] المَعْجَمة، مَنِيعُ المَشْتَمة، قليل الجَمْجَمَة[٦]. وأما الذي يليه فعاصم، سيِّدٌ ناعم، جَلْدٌ صَارِم، أبيٌّ حازم، جيشه غانم، وجارُه سالم. وأمّا الذي يليه فَثَواب، سريع الجواب، عَتِيد الصواب، كريمُ النصاب[٧]؛ كلَيثِ الغاب. وأما الذي يليه فَمُدْرِك، بذُولٌ لما يملك، عَزوبٌ[٨] عَمَّا يُتْرَك، يُفْنِي ويُهْلِك.

وأما الذي يليه فجندل، لِقِرْنِه مُجَدِّل[٩]، مُقلّ لما يحمِل، يُعطي ويَبْذُل، وعن عدوِّه لا يَنْكُل[١٠].

فشاورت أختَها عَثْمَة فيهم، فقالت: ترى الفتيان كالنَّخْل، وما يدريك ما الدَّخْل[١١]، اسمعي مني كلمة: إن شَرَّ الغَريبة يُعْلَن، وخيرَها يُدفَن، تزوَّجي في قومك، ولا تَغْرُرْكِ الأجسام.

فلم تقبل منها، وبعثَتْ إلى أبيها: زوّجني مُدْرِكًا، فتمَّ ذلك على مائةِ ناقةٍ ورُعاتِها. وحَمَلها مُدْرك، فلم تلبثْ عنده إلا قليلًا حتى صَبَّحَهُمْ فوارسُ من بني

(١) الوصيد: الفناء.
(٢) السنابك: أطراف حوافر الخيل.
(٣) الغمر: معظم البحر.
(٤) النهد: الأسد والكريم.
(٥) الصليب: الشديد.
(٦) قليل الجمجمة: كلامه بين.
(٧) النصاب: الأصل.
(٨) عزوب: بعيد.
(٩) جدله: صرعه على الجدالة (الأرض).
(١٠) لا ينكل: لا يجبن.
(١١) ذهبت مثلًا. يضرب لمن يكون منظره خير من مخبره.

مالك بن كِنانة، فاقتتلوا ساعة. ثم انكشف عنها زوجُها وإخوته وعشيرته. فَسُبِيَتْ فيمن سُبِين من النساء!

فبينا هي تسير بَكَتْ، فقالوا: ما يبكيك؟ أعلى فراق زوجك؟ قالت: قبَّح الله جمالًا لا نَفْعَ معه، إنما أبكي على عِصْياني أختي في قولها: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الخدل!»، وأخبرتهم كيف خطبوها.

فقال لها رجل منهم - يكنى أبا نُوَاس - شابٌّ أسود أَفْوَهُ(١) مضطرب الخَلْق - أتَرْضيْن بي على أن أمنعَك من ذِئاب العرب؟ فقالت لأصحابه: أكذلك هو؟ قالوا: نعم، إنه مع ما ترين ليَمْنَع الحَلِيلَةَ(٢)، وتتقِيهِ القبيلة.

قالت: هذا أجمل جمال وأكمل كمال؛ قد رضيتُ به. فزوَّجوها منه.

أفضَلُ النسَاء وَأفضَلُ الرّجَال(٣)

خرجت العجْفاءُ بنتُ عَلْقَمة السّعديّ وثلاثُ نسوةٍ من قومها، وتواعَدْن رَوْضةً يتحدَّثْن فيها، فوافيْن بها ليلًا في قَمَرٍ زَاهِر، وليلة طَلْقةٍ ساكنة، وروضة مُعشِبَةٍ خَصبة.

فلما جلسْنَ قُلْنَ: ما رأينا كالليلة ليلةً، ولا كهذه الروضةِ روضة أطيَبَ ريحًا ولا أَنْضَرَا! ثم أَفَضْنَ في الحديث، فقلن: أيُّ النساءِ أفضل؟ قالت إحداهنّ: الخَرُود(٤) الوَدُود الوَلُود. قالت الأخرى: خيرهنّ ذات الغَنَاء، وطِيبِ الثناء، وشدّة الحَياء. قالت الثالثة: خيرُهن السَّمُوع(٥)، النَّفوع، غير المنُوع. قالت الرابعة: خيرُهنّ الجامعةُ لأهلها، الوَادِعَة، الرافعة لا الواضعة.

قلن: فأيّ الرجال أفضل؟ قالت إحداهنّ: إن أبي يُكرمُ الجار، ويُعْظِمُ النار، وينحَر العِشَار(٦) بَعْدَ الحُوار(٧)، ويحمل الأمورَ الكِبَار، ويأْنَفُ من الصَّغَار.

(١) رجل أفوه: عظيم الفم.
(٢) الحليلة: الزوجة.
(٣) مجمع الأمثال: ٢: ٧٢.
(٤) الخرود: الحيية الطويلة السكوت.
(٥) السموع: التي تسمع القول.
(٦) العشار: جمع عشراء، وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر.
(٧) الحوار: ولد الناقة ساعة تضعه، أو إلى أن يفصل عن أمه.

فقالت الثانية: إن أبي عظيمُ الخَطَر، منيع الوَزَر[١]، عزيز النَّفَر، يُحمَد منه الوِرْد[٢] والصَّدَر.

فقالت الثالثة: إن أبي صَدُوق اللسان، حَدِيد الجَنَان[٣]، كثير الأَعْوان يُروى السِّنَان عند الطِّعان.

قالت الرابعة: إن أبي كريم النِّزَال، مُنيف[٤] المَقَال؛ كثيرُ النَّوَال، قليلُ السؤال، كريمُ الفَعال.

ثم تنَافَرْنَ[٥] إلى كاهنةٍ معهنَّ في الحيِّ، فقلن لها: اسمعي ما قلنا، واحكمي بيننا وَاعْدِلي؛ ثم أَعَدْن عليها قولَهنَّ، فقالت لهن: كلُّ واحدةٍ منكن مارِدَة[٦]، بأبيها وَاجدة[٧]، على الإحسان جاهدة، لصواحباتها حاسدة، ولكن اسمعْنَ قَوْلي: خير النساء المُبْقيةُ على بَعْلها، الصابرةُ على الضرَّاء مخافة أن ترجِعَ إلى أهلها؛ فهي تُؤثِر حَظَّ زوجها على حَظِّ نفسها، فتلك الكريمة الكاملة. وخير الرجال الجواد الْبَطَل، القليلِ الفَشل، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العِلَل، كثيرَ النَّفل[٨]، ثم قالت: «كلُّ فَتَاةٍ بأَبيها مُعْجَبَة»[٩].

نَكْبَة جَلِيلَة[١٠]

كانت جليلةُ بنت مُرة أختُ جَسّاس زوجًا لكُليب بن ربيعة؛ فلما قَتل جَسّاس كليبًا اجتمع نساء الحي للمأْتَم، فقُلْن لأخت كُلَيب: رَحِّلِي جليلةَ عن مأْتمك؛ فإنَّ قيامَها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب؛ فقالت لها: يا هذه؛ اخْرُجي عن مَأْتمنا، فأنتِ أُخْتُ واتِرنا وشقيقةُ قاتِلنا؛ فخرجَتْ وهي تجرُّ أعطافَها؛ فلقيَها أبوها مُرَّة، فقال لها: ما وراءَك يا جليلةُ؟ قالت: ثُكل العَدد، وحُزْنُ الأبدِ، وفَقْد حليل، وقَتْلُ أَخٍ عن قليل، وَبَين ذَيْنِ غَرْس الأحقاد، وتفتّت الأكباد؛ فقال لها: أو يكُفُّ

(١) الوزر: الملجأ.
(٢) الورد: الورود على الماء، والصدر: العودة من الاستقاء.
(٣) الجنان: القلب.
(٤) منيف المقال: مرتفع.
(٥) تنافرن. ذهبن وتحاكمن.
(٦) ماردة: عاتية قد بلغت الغاية.
(٧) وجد به: أحبه.
(٨) النفل: العطية.
(٩) ذهبت مثلًا.
(١٠) الأغاني: ٥ ـ ٦٣ (طبعة دار الكتب)، نهاية الأرب: ٥ ـ ٢١٤، ابن الأثير: ١ ـ ٢١٦، مهذب الأغاني: ١ ـ ٨٥.

ذلكَ كرَمُ الصفْح وإغلاءُ الدِّيات؟ فقالت جليلة: أُمْنِيّة مخدوع وربِّ الكعبة! أبا لبُدْن تَدَعُ لك تَغلبُ دمَ ربِّها!

ثم بلغ جليلةَ أنّ أخت كليب قالت حين رحلت: رِحْلَةُ المعتدي وفِراق الشامت! ويلٌ غدًا لآل مُرّة؛ من الكَرّة بعد الكرَّة! فقالت: وكيف تَشْمَت الحُرَّة بهتكِ سِترها، وترقب وترِها! أسعدَ الله جَدَّ أختي، أفلا قالت: نَفْرَة الحياة، وخَوْف الاعتداء! ثم أنشأت تقول:

يا ابْنةَ الأقوامِ إنْ شِئتِ فَلَا | تعجلي باللَّوْم حتى تسْأَلي
فإذا أنتِ تَبَيَّنْتِ الّذي | يُوجِبُ اللومَ فَلُومي واعْذُلي
إن تكن أختُ امرئٍ ليمَتْ عَلَى | شَفَقٍ منها عليه فافْعَلِي
جَلَّ عندِي فعلُ جَسَّاسٍ فيَا | حَسْرتي عمّا انْجلَتْ أو تنْجَلِي!
فعلُ جَسَّاسٍ على وجْدِي به | قاطعٌ ظهري ومُدْنٍ أجَلِي
تحملُ العَيْن قَذى العَين كَمَا | تحمل الأمّ أذى ما تَفْتَلِي[١]
يا قتيلًا قَوَّضَ الدهرُ بهِ | سقْفَ بيتي جميعًا من عَلِ
هَدَمَ البيتَ الذي اسْتحدثْتُه | وانثَنى في هَدْمِ بيتي الأوّل
يا نسائي دونكُنّ اليوم قَدْ | خَصَّني الدَّهْرُ برُزْءٍ مُعضلِ
خَصَّني قتْلُ كُلَيبٍ بلظَى | من ورائي ولظَى مُسْتَقْبلي
ليس مَنْ يبكي ليومين كمَنْ | إنما يبكِي ليوم ينجَلِي
يشتفي المدرِكُ بالثأرِ، وفي | دركي ثأريَ ثُكلُ المُثْكِلِ[٢]
ليتَهُ كانَ دَمِي فاحتَلبُوا | بدلًا منه دمًا من أكحَلِي[٣]
إنّني قاتلة مقتولَةٌ | ولعلّ الله أن يرتاحَ لي!

كأنما تَزوجتَ بنت قَيس بن خَالِد![٤]

كان زُرَارة بن عُدُس رجلًا شريفًا، فنظر ذاتَ يوم إلى ابنِه لَقِيط، فرأى منه خُيَلَاء وَنشاطًا، وقد جعل يضربُ غلْمَانه ـ وهو يومئذ شابّ ـ فقال له: لقد

(١) تفتلي: تربى.
(٢) المثكل: التي لازمها الحزن.
(٣) الأكحل: عرق في الذراع يفصد.
(٤) الأغاني: ٩ ـ ١٣٠ (طبعة الساسي)، مجمع الأمثال: ٢ ـ ١٥٣.

أصبحْتَ تصنعُ صنيعًا كأنما جئتَني بمائةٍ من هِجَان(١) ابن المنذر بن ماء السماء، أو تزوّجت بنت قيس بن خالد! قال لقيط: لله عليّ ألا يمسَّ رأسي غُسل، ولا آكل لحمًا ولا أشرب خمرًا حتى أجمَعهما جميعًا أو أموت.

فخرج لقيط ومعه ابنُ خال له يقال له القراد بن إهَاب، وكلاهما كان شاعرًا شريفًا، فسارا حتى أتَيا بني شَيْبان، فسلّما على ناديهم، ثم قال لَقيط: أفيكم قيس بن خالد؟ - وكان سيِّد ربيعة يومئذ - قالوا: نعم. قال: فأيّم هو؟ قال قيس: أنا قيس، فما حاجتك؟ قال: جئتك خاطبًا ابنتَك - وكانت على قيس يمينٌ ألّا يخطبَ إليه أحد ابنته عَلَانِية إلا أصابَه بشرٌ، وسمّع(٢) به - فقال له قيس: ومَن أنت؛ قال: لَقيط بن زُرارة بن عُدُس. قال قيس: عجبًا منك! هلّا كان هذا بيني وبينك؟ قال: لَمَ يا عمّ؟ فوالله إن فيك لرَغْبَة، وما بي من عَيْب، ولئن ناجَيْتُك لا أخدعُك، ولئن عَالنْتُك لا أفضَحُك. فأَعجبَ قيسًا كلامُه وقال: كُفءٌ كريم، إني قد زوّجتك ومهرتك مائة ناقة؛ ليس فيها نَابٌ ولا كَزُوم(٣)، ولا تبيت عندنا عَزَبًا ولا مَحْرُومًا.

ثم أرسل إلى أمّ الجارية: إني قد زوّجت لَقيط بن زُرَارة ابنتي فلانة فاصْنعِيها، واضربي لها ذلك البَلَقَ(٤)؛ فإنّ لِقيط بن زرارة لا يبيت فينا عَزَبًا.

وجلس لقيط يتحدَّث معهم. فذكروا الغَزْوَ، فقال لقيط: أمّا الغزو فأرْدَاها لِلّقاح، وأهزلُها للجمال، وأما المقام فأسمنُها للجمال، وأحبُّها للنساء. فأعجب ذلك قيسًا، وأمر لقيطًا فذهب إلى البَلَق فجلس فيه، وبعثتْ إليه أمُّ الجارية بمجْمرة وبخور، وقالت للجارية: اذهبي إليه فوالله لئن رَدَّها ما فيه خير؛ فلمّا جاءته الجارية بالمجمرة، بخّر شَعْرَه ولحيته. ثم ردّها عَلَيها، فلما رجعت الجارية إليها خبَّرتْها بما صنع، فقالت: إنه لخليق لِلْخيْر.

فلمّا أمسى لقيظ أُهديت الجاريةُ إليه، فمازحها بكلام اشمأزّت منه، فنام وطرح عليه طرف خميصة(٥)، وباتت قريبًا منه.

(١) إبل هجان: بيض كرام. (٢) سمع به: فضحه وشتمه.
(٣) الناب: الناقة المسنة، والكزوم. ناقة ذهبت أسنانها هرمًا.
(٤) البلق: الفسطاط. (٥) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان.

فلما استثقل انسلّت فرجعت إلى أمها، فانتبه لقيطٌ فلم يرَها، فخرج حتى أتى ابنَ خاله قُرَادًا وهو في أسفل الوادي، فقال: ارْحَلْ بَعِيرَكَ[١]، وإيَّاكَ أن يُسْمَع رُغاؤها.

فتوجّها إلى المنذر بن ماء السماء، وأصبح قيس ففقد لقيطًا، فسكت ولم يدْر ما الذي ذَهَب به، ومضى لقيط حتى أتى المنذر، فأخبره ما كان من قول أبيه وقوله، فأعطاه مائةً من هَجَائِنِه[٢]، فبعث بها قُرَاد إلى أبيه زرارة، ثم مضى إلى كِسرَى فكساه وأعطاه جوهرًا، ثم عاد إلى قيس بن خالد فجهّز بنته، ولما أرادت الرحيل قال لها: يا بنية، كوني لزوْجك أَمَةً يكنْ لك عبدًا؛ وليكن أكثرُ طِيبك الماءَ فإنك إنما يذهب بك إلى الأعداء، واعلمي أن زوجك فارس مُضر، وأنه يُوشِكُ أن يقتل أو يموت، فلا تخمشي عليه وجهًا ولا تحلقي شعرًا، قالت له: أما والله لقد ربَّيْتني صغيرة، وأقصيتني كبيرة، وزوّدتني عند الفراق شرَّ زَاد!

وارتحل بها لَقيط، فجعلت لا تمرّ بحيٍّ من أحياء العرب إلا قالت: يا لَقيط، أهؤلاء قَومُك؟ فيقول: لا، حتى طلعت على محلة بني عبد الله بن دارم، فرأت القِبابَ والخيل العراب؛ فقالت: يا لقيطُ، أهؤلاء قومك؟ قال: نعم. فأقام أيامًا يُطعم ويَنْحَر، ثم أقامت عنده حتى قُتِل يوم جَبَلة[٣].

فبعث إليها أبوها أخًا له لِتُحْمَلَ إليه، فلما ركبتْ أقبلت حتى وقفت على نادي بني عبد الله بن دارم، فقالت: يا بني دارم؛ أوصيكم بالغرائب خيرًا، فوالله ما رأيتُ مثلَ لقيط لم تخمش عليه امرأةٌ وَجهًا، ولم تحلق عليه شعرًا، فلولا أني غريبة لخمشت وحلقت. فأثنوا عليها.

مَا وَراءَكَ يَا عِصَام[٤]

لما بلغ الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدة جمالُ ابنة عوف بن مُحَلِّم الشَّيْبانيّ، وكمالها وقوة عقلها، دعا امرأة من بني كِنْدة يقال لها عصام، وذات عَقْلٍ ولسان وأَدَب وَبَيَان، وقال لها: اذهبي حتى تَعْلَمي لي علمَ ابنة عَوْف.

---

(١) البعير: الجمل البازل أو الجذع، وقد يكون للأنثى، ورحل البعير: حط عليه الرحل.

(٢) هجائنه، أي هجانه.

(٣) جبلة: هضبة حمراء بين الشريف والشرف، وهما ماءان لبني نمير وبني كلاب، وكان اليوم بين عبس وذبيان ابني بغيض.

(٤) مجمع الأمثال: ٢ ـ ١٩٢، العقد الفريد: ٣ ـ ٢٢٣.

فمضتْ حتى انتهتْ إلى أمها، فأعلمتْها ما قدمت له، فأرسلتْ إلى ابنتها، وقالت: أي بُنيّة؛ هذه خالتك أتتك لتنظرَ إليك، فلا تستري عنها شيئًا أرادت النظر إليه من وَجْهٍ وخلْقٍ، وناطقيها إن استنطَقَتْك.

فدخلَتْ عصامُ إليها، فنظرت إلى ما لم تَرَ عينُها مثله قطُّ بَهْجَةً وحُسنًا وجمَالًا؛ فإذا هي أكملُ الناس عقلًا وأفصحهمْ لسانًا؛ فخرجت من عندها وهي تقول: تركَ الخِداعَ من كَشفَ القناع.

ثم أقبلت إلى الحارث، فقال لها: ما وراءكِ يا عصام؟ قالت: صَرَّحَ المخضُ عن الزُّبد. قال: أخبريني. قالت: أُخْبِرُك صِدْقًا وحقًّا.

رأيت جبهةً كالمرآة الصقيلة، يزينُها شعر حالكٌ كأذناب الخيل المَضْفورَة، إن أرسلتهُ خِلْتَه السلاسل، وإن مَشَطتْهُ قلت عنا قيدُ كرم جَلاها الوَابل، وحاجبين كأنما خُطّا بقلم أو سُوِّدا بحُمَم، قد تقوَّسَا على عين الظَبْيةِ العَبْهَرةِ[١]، التي لم يَرُعْها قانصٌ ولم يَذْعَرْها قسْورة[٢]، بينهما أنفٌ كحدّ السيف المصقول، لم يخْنِس[٣] به قِصَر، ولم يَمْضِ به طول، حُفّتْ به وَجْنَتَانِ كالأُرْجُوَان[٤] في بياض مَخْض كالجُمانِ[٥]، شُقّ فيه فمٌ كالخاتَم، لذيذ المبْتَسَم فيه ثنايا غُرّ، ذوات أُشُر[٦]، وأسنان تبدو كالدُّرر، يتقلّبُ فيه لسانٌ ذو فصاحة وبيان، يحرِّكُه عقلٌ وافر، وجوابٌ حاصر[٧]... إلى أن قالت: فأمّا ما سوى ذلك فتركْتُ أن أسفه. غير أنه أَحْسن ما وصفه واصفٌ بنظم أو نَثر. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها، فزوّجه إياها.

فلما حُمِلتْ إلى زوجها؛ قالت لها أمها، أُمامة بنت الحارث:

أي بُنَيَّة؛ إن الوصيَّةَ لو تُركت لفَضْلِ أدب، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرةٌ لغافل؛ ولو أن امرأةً استغنَت عن الزوج لغَنَى أبَويها، وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه، وسكنَّ النِّساء خُلِقْن للرجال، ولهنَّ خُلِقَ الرجال.

---

(١) العبهرة: الرقيقة البشرة الناصعة البياض. (٢) القسورة: الرماة من الصيادين.
(٣) خنس: تأخر، والخنس: الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.
(٤) الأرجوان: صبغ أحمر. (٥) الجمان: اللؤلؤ.
(٦) أشر الأسنان: التحريز الذي فيها. (٧) انظر بقية الوصف في مراجع القصة.

أي بُنَيّة؛ إنكِ فارَقْتِ الجوّ الذي منه خرجْتِ، وخَلّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لم تَعْرِفِيهِ، وقرينٍ لم تَألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومَليكًا، فكوني له أَمَةً يَكُنْ لك عبدًا وشيكًا(١).

يا بنيّة احْمِلي عني عَشْرَ خصال تكن لك ذُخْرًا وذكرًا: الصُّحبة بالقناعة، والمُعاشرة بحُسْن السمع والطاعة، والتعهّد لموقع عَيْنِه، والتفقّد لموضع أنفِه؛ فلا تقع عينُه منك على قبيح، ولا يَشَمّ منك إلّا أطيبَ ريح، والكُحْل أحسن الحُسْن، والماءُ أطيبُ الطيبِ المفقود، والتعهّد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه؛ فإنَّ حرارةَ الجوع مَلْهَبَة، وتنغِيص النوم مَغْضبة. والاحتفاظ بِبَيْتِه ومالِه، والإرعاء(٢) على نفسه وحَشَمِه وعياله، فإنَّ الاحتفاظ بالماء حسنُ التقدير، والإرعاءَ على العِيَال والحَشَم جميلُ حسن التدبير؛ ولا تُفْشِي له سرًّا، ولا تَعْصِي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيتِ سرَّه لم تأمني غَدْرَه، وإن عصَيْتِ أمره أوغَرْتِ صدْرَه؛ ثم اتقي مع ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحًا، فإنَّ الخَصْلَةَ الأولى من التقصير، والثانيةَ من التكْدير، وكوني أشد ما تكونين له إعْظامًا يكن أشدّ ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقَةً يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنكِ لا تصلين إلى ما تُحِبِّين حتى تُؤثِري رضَاه على رضاك، وهَوَاهُ على هواكِ فيما أحببتِ وكرهت: والله يَخيرُ لكِ!

لَا أتَزَوَّج إلّا مِن كَرِيم(٣)

كانت امرأةٌ من العرب من بَنَات ملوكِ اليمن ذاتَ جمالٍ وكمال، وحَسَب ومال، فآلت ألّا تزوّجَ نفسها إلا من كريم، ولئن خطبها لئيمٌ لَتَجْدَعنَّ أنفه؛ فتحَامَاها الناسُ حتى انْتَدَب(٤) إليها زيد الخيل، وحاتم بن عبد الله، وأوسُ بن حارثة الطائيّون، فارتحلوا إليها.

فلما دخلوا عليها قالت: مرحبًا بكم، ما كنتُم زُوارًا؛ فما الذي جاءَ بكم؟

---

(١) الوشيك: السريع. (٢) الإرعاء: الإبقاء.

(٣) الخزانة: ٤ ـ ١٦٠ (طبعة السلفية)، ذيل الأمالي: ١٥٤ (طبعة دار الكتب)، سرح العيون: ٧٥.

(٤) انتدب إليها: أسرع وخف.

قالوا: جئْنَا زُوّارًا خُطّابًا، قالت: أَكْفاءُ كرام. ثمّ أَنْزَلتهم وفرقت بينهم، وأسبغت لهم القِرَى، وزادَتْ فيه.

فلما كان اليوم الثاني بعثت بعضَ جواريها متنكرةً في زِيٍّ سائلة تتعرّضُ لهم؛ فدفع إليها زَيد وأوس شَطْر ما حمل إلى كل واحدٍ منهما. فلما صارت إلى رَحْل حاتم دفع إليها جميعَ ما كان من نَفَقَتِه، وحمل إليها جميع ما حمل إليه.

فلما كان اليوم الثالث دخلوا عليها، فقالت: ليصفْ كلٌّ واحد منكم نفسه في شِعْره؛ فابتدر زيد وأنشأ يقول:

هلَّا سألتِ بني ذُبيان: ما حَسَبي ... عند الطِّعان إذا ما احْمَرَّتِ الحدَق![1]
وجاءتِ الخيلُ محمَرًّا بوَادِرها[2] ... بالماء يَسْفَحُ من لبَّاتِها العلَقُ[3]
والجارُ يعلم أنّي لست خاذِلَه ... إن نابَ دَهرٌ لعظْم الجار معترِقُ[4]
هذا الثناءُ، فإن ترضَيّ فراضيةٌ ... أو تسخَطي فإلَى من تُعْطَفُ العُنق!

وقال أوس بن حارثة: إنّك لتعلمين أنّا أكرمُ أحسابًا، وأشهرُ أفعالًا من أن نَصِفَ أنفسنا لكِ؛ أنا الذي يقول فيه الشاعر:

إلى أوس بن حارثةَ بن لأمٍ ... ليَقْضيَ حاجَتِي ولَقَد قضَاهَا
فما وطِىءَ الحصَى مثلُ ابنِ سُعْدَى ... ولا لبِسَ النعالَ ولا احتَذَاها

وأنا الذي عقَّتْ عقيقته[5]، وأعتقت عن كلّ شعرةٍ فيها عنه نَسَمة، ثم أنشأ يقول:

فإن تَنْكِحي ماويَّة الخير حاتمًا
فما مثلُه فينا ولا في الأعاجمِ
فتًى لا يزالُ الدهرَ أكبرُ همِّه
فكاكُ أسيرٍ أو معونةُ غارمِ

---

(١) إذا ما اشتد الحرب.
(٢) البادرة: اللحمة التي بين المنكب والعنق، وهي تحمر من الدم الذي يسيل عليها من فرسانها.
(٣) العلق: الدم.
(٤) اعترقه: أكل ما عليه من اللحم.
(٥) العقيقة: شعر كل مولود من الناس.

وإن تنكحي زيدًا ففارسُ قَوْمه
إذا الحربُ يومًا أقعدتْ كلَّ قائمِ
وإن تنكحيني تَنْكِحي غَيرَ فاجرٍ
ولا جارفٍ جَرْفَ العشيرةِ هادم
ولا متّقٍ يومًا - إذا الحربُ شمّرَتْ -
بأنفسها نَنْسي، كفِعل الأشائمِ[1]
وإن طارقُ الأضياف لاذَ برَحْله
وجدتِ ابنَ سُعْدى للقِرَى غير عَاتِم[2]
فأيّ فتى أَهْدَى لكِ الله فاقبلي
فإنّا كرامٌ من رُؤُوسٍ أكارمِ

وأنشد حاتم يقول:

أماوِيّ قد طال التَّجَنُّبُ والهجْرُ
وقد عَذَرَتْني[3] في طِلابِكم عُذْرُ[4]
أماويَّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ
ويَبْقَى من المال الأحاديثُ والذِّكُرُ
أَمَاويّ إني لا أقُول لسائلٍ
إذا جاء يومًا: حَلَّ في مَالِنا النَزْرُ[5]
أَماوِيّ إمَّا مَانِع فمُبَيِّنٌ
وإما عَطَاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ[6] الزّجْرُ
أماويَّ ما يُغْني الثَّرَاءُ عَنِ الفَتَى
إذا حَشْرَجَتْ[7] يومًا وضاقَ بها الصّدْرُ

(١) الأشائم: جمع أشأم وهو ضد الأيامن.
(٢) عتم الرجل عن الشيء: كف عنه بعد المضي فيه.
(٣) عذرتني: أي رفعت عني اللوم ومحيت الإساءة وطمستها.
(٤) العذر: جمع عذير، والعذير هو الحال. (٥) النزر: القلة.
(٦) نهنهه: منعه. (٧) الحشرجة: الغرغة عند الموت.

أماويَّ إن يُصْبِحْ صَدَايَ[١] بقَفْرةٍ
منَ الأرض لا ماءٌ لديّ ولا خَمْرُ
ترى أنَّ ما أنفقتُ لم يَكُ ضَائِري
وأنَّ يَدِي مما بَخِلْتُ به صِفْرُ
أماويّ إني رُبَّ وَاحِدِ أمّه
أخذتُ فلا قَتْلٌ عليه ولا أَسْرُ
وقد عَلِمَ الأقوامُ لو أنَّ حاتمًا
أرادَ ثراءَ المال كانَ له وَفْرُ
أماوِيّ إنَّ المالَ مالٌ بَذَلْتُه
فأوّله شكرٌ وآخره ذِكْرُ
وإنّيَ لَا آلو[٢] بمالي صنيعةً
فأوّله زادٌ وآخره ذُخْرُ
يُفَكُّ به العَانِي[٣] ويُؤْكَلُ طَيّبًا
وما إنْ يعرّيه القِداحُ[٤] ولا القَمْرُ
ولا أَظْلِمُ ابنَ العمِّ إن كان إخوتي
شهودًا وقد أودَى بإخوتِهِ الدَّهْرُ
غنينَا[٥] زمَانًا بالتَّصعلُك والغِنَى
وكلّا سَقَاناهُ بكأسيهما الدّهر
فما زادَنا بَأْوًا[٦] على ذي قرابةٍ
غِنَانا، ولا أَزْرَى بأحسابنا الفقرُ
وما ضَرّ جارًا يا ابْنَةَ القوم فاعْلَمي
يُجاوِرُني ألا يكون له سترُ
بعينيّ عن جاراتِ قومِيَ غَفْلَةٌ
وفي السمعِ منّي عن أحاديثها وَقْرُ

(١) الصدى: ما يبقى من الميت في قبره.
(٢) لا آلو: لا أقصر.
(٣) العاني: الأسير.
(٤) القداح: قداح الميسر. القمر: المقامرة.
(٥) غنينا: غني بالمكاو: أقام به.
(٦) البأو: الكبر والفخر.

فقالت: أمّا أنت يا زيد فقد وَترْتَ العرب، وبقاؤك مع الحُرّةِ قليل، وأمَّا أنت يا أَوْس فرجل ذو ضَرَائر، والدخولُ عليهنّ شَديد؛ وأماأنت يا حاتم فمرضيُّ الأخلاق، محمود الشِّيم، كريم النفس، وقد زوَّجْتُك نفسي!

سبيَّه عُرْوَة بن الوَرد(١)

أصاب عُرْوَةُ بن الوَرْد امرأة من بني كنانةَ، يقال لها سَلْمى، فأَعْتَقَها واتّخذها لنفسه، فمكثتْ عنده بِضْعَ عشرة سنة وولدتْ له أولادًا، وهو لا يشكُّ في أنها أرغبُ الناس فيه، وهي تقول له: لو حَججتَ بي، فأمُرُّ على أهلي وأراهم! فحَجّ بها، فأتَى مكة، ثم أتى المدينة، وكان يُخالِط من أهل يثربَ بني النّضير، فيُقْرِضُونه إن احْتَاج، ويُبايعهم إذا غَنِم.

وكان قومُها يُخالطون بني النَّضِير، فأتَوْهم وهو عندهم، فقالت لهم سلمى: إنه خارجٌ بي قبل أن يخرجَ الشهرُ الحرام، فتعالَوْا إليه، وأَخْبِرُوه أنكم تستحيُون أن تكونَ امرأة منكم معروفةُ النسب صحيحتُه سبيَّةً، وافْتَدُوني منه، فإنه لا يرَى أني أُفارِقُه، ولا أختارُ عليه أحدًا؛ فأتَوْهُ فسَقَوْه الشراب، فلما ثَمِلَ قالوا له: فادِنا بصاحبتنا؛ فإنَّها وَسِيطَةُ النسبِ فينا؛ معروفةٌ، وإن علينا سُبّةً أن تكونَ سبيّة، فإذا صارتْ إلينا، وأردتَ مُعاودتَها، فاخطُبْها؛ فإننا نزوِّجك؛ فقال لهم: ذاك لكم؛ ولكن لي الشرط فيها أن تخيِّروها، فإن اختارتْني انطلقتْ معي إلى وَلَدِها، وإن اختارتْكم انطلقتُم بها؛ قالوا: ذاك لك. قال: دعُوا ذلك إلى غَدٍ.

فلما كان الغد جاؤوه فامتنَع من فِدَائها، فقالوا له: فادَيْتنا به منذ البارِحة؛ وشَهِدَ بذلك جماعةٌ مِمّن حضر، فلم يَقْدِر على الامتناع وفاداها، فلما فادَوْهُ خَيَّرُوها فاختارتْ أهلَها؛ ثم أقبلَتْ عليه، فقالت: يا عُرْوَةُ، أما إني أقول فيك ـ وإن فارقْتُك ـ الحقَّ: والله ما أعلمُ امرأةً من العرب ألقت سِتْرَها على بَعْلٍ خير منك، وأغضَّ طرفًا، وأقلَّ فُحشًا، وأجودَ يدًا، وَأَحْمَى لِحَقِيقةٍ(٢). وما مَرَّ عليَّ يومٌ منذ كنتُ عندك إلا والموتُ فيه أحبُّ إليّ من الحياة بين قومك، لأني لم أكن أشاءُ أن أسمع امرأةً من قومك تقول: قالَتْ أَمَةُ عُرْوَةَ كذا وكذا؛ ووالله لا أنظرُ في وَجْه عَطَفانيّةٍ أبدًا(٣)، فارجِع راشدًا إلى وَلَدِكَ وأَحْسِنْ إليهم!

---

(١) الشعر والشعراء: ٢٦، الأغاني: ٣ ـ ٧٦ (طبعة دار الكتب).

(٢) الحقيقة: ما يجب على الرجل أن يحميه. (٣) غطفان: هم قوم عروة.

ثم تزوَّجها رجلٌ من بني عمِّها، فقال لها يومًا: يا سلمى؛ أثنِي عليَّ كما أثنيتِ على عُرْوَة - وقد كان قولُها فيه شُهِر - فقالت له: لا تكلِّفْني ذلك؛ فإني إن قلتُ الحقَّ غَضِبْتَ، ولَا واللاتِ والعَزَّى لا أكذب؛ فقال: عزمْتُ عليكِ لتأتِيِنِني في مجلس قومي فَلَتُثْنِينّ عليَّ بما تعملين.

وخرج فَجلَسَ في نَدِيّ القوم، وأقبَلَتْ فرمَاها القومُ بأبصراهم، فوقفَتْ عليهم وقالت: أنعِمُوا صباحًا، إن هذا عَزَم عليّ أن أُثْنِيَ عليه بما أعلمُ. ثم أقبلتْ عليه فقالت: والله إنّ شُربكَ لَاشْتِفاف[1]، وإنكَ لتنامُ ليلةَ تخاف، وتشبعُ ليلةَ تُضَافُ، وما تُرْضِي الأهْلَ ولا الجانب[2]. ثم انصرَفَتْ. فَلَامَهُ قومُه، وقالوا: ما كان أغناكَ عن هذا القولِ منها.

لَو كَان النسَاء كَمِثل هَذِي[3]

قال الحارث بن عَوْف يومًا لخارجة بن سِنان المُرّيّ: أَتُراني أخطبُ إلى أَحَدٍ فيردّني؟ فقال له: نعم! قال: ومَنْ ذاك؟ قال: أَوْسُ بن حارِثة الطائيّ؛ فقال الحارث لغلامه: ارْحلْ بنا. ففعل، وركبا حتى أَتَيَا أَوْسَ بن حارثة في بلاده، فوجداه في فِنَاء منزله، فلما رأى الحارثَ بنَ عَوْف قال: مَرْحبًا بك يا حارث، قال: وَبِكَ، قال: ما جاء بك؟ قال: جئتُك خاطبًا، قال: لستَ هناك!

فانصرف ولم يكلّمْه، ودخل أَوْس على امرأته مُغْضَبًا - وكانت من عبس - فقالت: مَنْ رجلٌ واقف عليكَ فلم يُطل، ولم تكلِّمْه؟ قال: ذاك سيّدُ العربِ الحارث بن عوف، قالت: فما لَكَ لم تستَنْزِلْه؟ قال: إنه اسْتحْمَق. قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطبًا. قالت: أفتريدُ أن تزوِّجَ بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تزوِّجْ سيدَ العرب فمَنْ! قال: قد كان ذلك. قالت: فتَدَارَك ما كان منك. قال: بماذا؟ قالت: تَلْحَقُه فتردُّه، قال: وكيف وقد فَرَط مني ما فَرط إليه! قالت: تقولُ له لقيتَني مُغْضَبًا بأمْرٍ لم تُقدِّم فيه قولًا، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت. عُدْ ولكَ عندي كلُّ ما أحببت، فإنَّه سَيَفْعلُ. فركب في أثرهما.

قال خارِجَة بن سنان: فوالله إني لأسيرُ مع الحارث إذ حانَتْ منِّي التفاتةٌ فرأيت أوسًا، فأقبلتُ على الحارث - وما يكلّمني غمًّا - فقلت له: هذا أَوْسُ بن

(١) الاشتفاف: شرب كل ما في الإناء. (٢) الجانب: الغريب، والمراد به الضيف.
(٣) الأغاني: ١٠ - ٢٩٤ (طبعة دار الكتب)، المستطرف: ٢ - ٢٢٢.

حارثة في أثرنا، قال: وما نصنعُ به؟ امضِ. فلمّا رآنا لا نقفُ عليه صاح: يا حارث! ارْبَعْ[١] عليَّ ساعةً، فوقفنا له، فكلّمتهُ بذلك الكلام، فرجع مسرورًا.

ودخل أوس منزلَه، وقال لزوجتِه: ادْعِي لي فلانة - لأكْبَرِ بناتِه - فأتَتْه، فقال: يا بُنيّة، هذا الحارثُ بن عوف سيدٌ من سادات العرب، قد جاءني طالبًا خاطبًا، وقد أردتُ أن أزوّجك منه، فما تقولين؟ قالت: لا تَفْعَل، قال: ولِمَ؟ قالت: لأني امْرَأة، في وجهي رَدَّةٌ[٢]، وفي خُلُقي بَعْضُ العُهْدة[٣]، ولست بابنةِ عمّه فيَرْعَى رَحِمي، وليس بجارك في البلد فيستَحِي منك، ولا آمَنُ أن يَرَى مِنّي ما يَكْرَه فيطلّقنِي، فيَكونَ عليّ في ذلك مَا فِيه.

قال: قومي، بارك الله عليك، ادعِي لي فلانة - لابنته الوُسْطَى - فدَعَتها، ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابتْه بمثل جوابها، وقالت: إني خَرْقَاء[٤]، وليست بيدي صناعة، ولا آمَنُ أن يَرَى مني ما يكره، فيطلّقَني، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم، وليس بابنِ عمّي فيرعى حقّي، ولا جارك في بلدك فيستَحْييك[٥]، قال: قومي، بارَكَ الله عليك، ادْعَى لي بُهَيْسَة - صُغْرَى بناتِه - فأتى بها، فقال لها كما قال لهما، فقالت: أنتَ وذَاك فقال لها: قد عَرَضْتُ ذلك على أختيك فأبَتَاه، فقالت - ولم يذكر لها مقالتَيْهما -: لكني والله الجميلةُ وجهًا، الصَّنَاع يَدًا، الرفيعَة خلقًا، الحسيبةُ أبًا، فإن طلّقني فلا أخْلَفَ اللهُ عليه بخير! فقال: بارك الله عليك. ثم خرج إلى الحارث فقال: زوجتُك يا حارِث بُهَيسةَ بنت أوْس؛ قال: قبلت، فأمر أُمّها أن تُهيّئها؛ وتُصْلح من شأنها؛ ثم أمر ببيتٍ فضُرب له؛ وأنزله إياه؛ فلما هُيئت بُعث بها إليه.

قال خارِجة بن سنان: فلما أدخلتْ إليه لَبِثَ هُنيهة ثم خرج إليّ، فقلت: أفَرَغْتَ من شَأْنِك؟ قال: لا والله. قلت: وكيف ذاك؟ قال: لـمَّا دخلت إليها قالت: مَهْ! أعِنْدَ أبي وإخوتي؟ هذا والله مَا لَا يكون. قال خارجة: ثم أمر بالرِّحلة؛ فارتحلنا ورَحلْنا بها معنا؛ فَسِرْنا ما شاء الله، ثم قال لي: تقدَّم، فتقدمت، وعَدل بها عن الطريق؛ فما لبث أَنْ لَحِق بي؛ فقُلت: أفرغت؟ قال: لا

(١) ربع عليه: وقف له، أو مال إليه.
(٢) الردة: شيء من قبح.
(٣) العهدة: العيب.
(٤) خرقاء: امرأة غير صناع.
(٥) فيستحييك: يستحي منك.

والله، قلتُ: ولِمَ؟ قال: قالت لي: أكما يُفعل بالأمة الجَليبَة[١] أو السَّبِية الأخِيذَة[٢]! لا والله، حتى تَنْحر الجزُر[٣] وتَذْبح الغنم، وتدعوَ العرب، وتَعْمَل ما يُعْمَل لمثلي! قلت: والله إني لأرَى هِمّةً وعَقْلًا، وأرجو أن تكونَ المرأةُ مُنْجِبةً إن شاء الله.

قال خارجة: فرحلْنا حتى جئْنا بلادنا، فأحْضَرَ الإبلَ والغنم، ثم دخل عليها، وخرج إليّ، فقلت: أفرغت؟ قال: لا، قلت: ولم؟ قال: دخلتُ عليها، وقلتُ لها: قد أحضَرْنا من المال ما قد تَرَيْن، فقالت: والله لقد ذكرت لي من الشَّرف ما لا أراه فيك! قلت: وكيف؟ قالت: أتَفرغُ للنساء ـ والعربُ تَقْتُل بعضها بعضًا[٤]! قلت: فيكونُ ماذا؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصْلِحْ بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتكَ ما تريد، فقلت: واللهِ إني لأرَى همَّةً وعقلًا، ولقد قالت قولًا...

قال خارجة: ثم قال الحارث: اخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح، فاصطَلَحُوا على أن يحتَسبوا القتلى، فيُؤخَذ الفضلُ مِمن هو عليه، فحملْنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين، فانصرفنا بأجمل الذكر! فمدح بذلك وقال فيه زهير قصيدته:

أمِنْ أُمِّ أوفَى دِمنَة لم تكلَّمِ

بنت حَاتِم الطّائي[٥]

قال عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام: يا سبحان الله! ما أزهَد كثيرًا من الناس في الخير! عجبتُ لرجل يجيئُه أخوه في حاجةٍ فلا يرى نفسَه للخير أهلًا! فلو كنّا لا نرجو جَنة ولا نخافُ نارًا، ولا ننتظر ثوابًا، ولا نَخْشى عقابًا لكان ينبغي لنا أن نطلبَ مكارمَ الأخلاق؛ فإنها تدل على سبيل النجاة.

فقام إليه رجل فقال: فِدَاك أبي وأمي يا أمير المؤمنين! أسمعتَه من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، وما هو خيرٌ منه؛ لما أُتِيْنا بسبَايَا طيّىء كانت في النساء جاريةٌ

---

(١) الجليبة: المجلوبة. (٢) الأخيذة: المأخوذة.
(٣) جمع جزور؛ وهو البعير.
(٤) كان ذلك في أيام حرب عبس وذبيان، وهي المعروفة بحرب داحس والغبراء.
(٥) الأغاني: ١٦ ـ ٩٠٣ (طبعة الساسي)، سرح العيون: ٧٣.

حَمَّاء[١]، حوْراءُ العينين[٢] لَعْسَاء[٣]، لَميَاء[٤] عَيْطَاء[٥]، شماء الأنف، مُعْتدِلةُ القامة.

فلما رأيتها أُعْجبت بها؛ فقلت: لأطلبنَّها إلى رسول الله ﷺ ليجعلها من فَيْئي[٦]، فلما تكلَّمَتْ أُنسيتُ جمالَها لما سمعتُ من فصاحتها، قالت: يا محمد، هلك الوَالد، وغاب الوافد؛ فإن رأيتَ أن تخلِّيَ عني، فلا تُشْمِت بي أحياءَ العرب! فإني بنتُ سيدِ قومي؛ كان أبي يَفكُّ العَاني، ويحمِي الذِّمَار؛ ويَقْري الضيف، ويُشْبع الجائع، ويفرِّجُ عن المكروب، ويُطعمُ الطعام، ويُفشي السلام، ولم يَردّ طالبَ حاجة قط؛ أنا بنتُ حاتم طيء. فقال لها رسول الله ﷺ: يا جارية؛ هذه صفاتُ المؤمن، ولو كان أبوك إسلاميًّا لترحَّمْنا عليه، خَلُّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق!

أيّتهمَا أعظمُ العَرب مُصيبَة؟[٧]

لما كانت وَقْعَةُ بدر قُتل فيها عُتْبَة بن ربيعة، وشَيْبَة بن ربيعة، والوليد بن عُتْبة، فأقبلَتْ هندُ بنتُ عتبة تَرْثِيهم، وبلغها تَسْوِيمُ[٨] الخنْسَاء هَوْدَجَها في الموسم، ومعاظَمتُها العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشَّريد وأخويها صَخْرٍ ومعاوية، وأنها جعلتْ تَشْهدُ الموسم وتبكيهم، وقد سوَّمت هودَجَها براية، وأنها تقول: أنا أعظمُ العربِ مصيبةً؛ وإن العرب قد عرفَتْ لها بعض ذلك.

فلما أُصيبتْ هند بما أصيبت به وبلَغها ذلك، قالت: أنا أعظَمُ من الخنساء مصيبةً، وأمرتْ بهوْدجها فسُوِّم برايةٍ، وشهدَت الموسمَ بعُكَاظ ـ وكانت سوقًا يجتمع فيها العرب ـ فقالت: اقرِنوا جملي بجمل الخنساء، ففعلوا؛ فلما أن دَنَتْ منها قالت لها الخنساء: مَنْ أنت يا أخيَّة؟ قالت: أنا هند بنتُ عُتبة أعظم العرب مصيبة، وقد بلغني أنكِ تُعَاظمين العرب بمصيبتك، فَبِمَ تعاظمينهم؟ فقالت

(١) حماء: سوداء.
(٢) الحور: سواد العين كلها؛ مثل الظباء، ولا يكون في بني آدم، بل يستعار لها.
(٣) جارية لعساء: في شفتها أدنى سواد، مشربة بحمرة.
(٤) اللمى: سمرة في الأنف. (٥) امرأة عيطاء: طويلة العنق.
(٦) الفيء: الغنيمة.
(٧) الأغاني: ٤ ـ ٢١٠ (طبعة دار الكتب)، معاهد التنصيص: ١ ـ ١١٧.
(٨) سوم الشيء: جعل له سومة وعلامة ليُعرَف ويتميز.

الخنساء: بعمرو بن الشَّرِيد، وصَخْر، ومعاوية ابني عمرو. وبِمَ تعاظمينهم أنتِ؟ قالت: بأبِي عُتبة بن ربيعة، وعمِّي شيبة بنِ ربيعة، وأخي الوليد؛ قالت الخنساء: أوَ سواءٌ عنك؟ ثم أنشأت تقول:

أبكِّي أبِي عَمْرًا بعينٍ غزيرة ... قليلٍ إذا نام الْخَلِيُّ هُجُودُها
وصِنْوَيَّ، لا أنْسَى معاويةَ الذي ... له من سَرَاةِ الحرَّتَيْنِ[١] وُفُودُها
وصَخْرًا، وَمَنْ ذَا مِثلُ صخرٍ إذا غَدَا ... بساهمةِ الآطال قُبًّا[٢] يَقُودُها!
فذلكِ يا هند الرزيّةُ فاعلمي ... ونيرانُ حَرْبٍ حين شبَّ وقودها

فقالت هند تُجيبُها:

أُبكِّي عَمِيدَ الأبْطَحَيْنِ[٣] كليهما ... وحَامِيَهَا من كلِّ باغٍ يُرِيدُها
أبي عتبةَ الخيرات وَيْحَكِ فاعلمي ... وشيبةُ والحامي الذِّمار وليدُها
أولئك آل المجدِ من آل غالب ... وفي العزّ منها حين يُنْمِي عديدُها[٤]

ثم قالت:

مَنْ حَسَّ لي الأخَوَيْن كالـ ... ـغُصْنَين أو من رَاهُمَا[٥]!
قَرْمان لا يَتَظَالما ... ن ولا يُرَامُ حِمَاهما
ويْلِي على الأخَوَيْن والقـ ... ـبْرِ الذي وَارَاهما
لا مثل كهلي في الكهو ... ل ولا فتًى كفتاهُما
أسَدان لا يتذلّلا ... ن ولا يرامُ حِماهُما
رُمْحَان خَطّيان في ... كبد السماء سناهما
ما خَلّفا إذ وَدّعا ... في سُودَدٍ شَرْوَاهما[٦]
سادا بغيرِ تكلُّفٍ ... عفوًا يفيضُ نَدَاهُما

(١) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود. والمراد حرة بني سليم، وحرة بني هلال بالحجاز. أي هو مقصد الأشراف تأتيه وفودها فيما يلي بها.
(٢) الساهمة: الدقيقة، والآطال: جمع إطل وهو الخاصرة، والقب: جمع أقب، وهي الفرس الدقيقة الخصر، الضامرة البطن.
(٣) الأبطحان تريد بطحاء مكة وسهل تهامة.
(٤) عديدها: جموعها.
(٥) راهما: أصله رآهما.
(٦) شرواهما: مثلهما.

شجَاعة صَفيّة بنت عَبد المطلب[١]

قالت صفيّةُ بنت عبد المطلب: كان حسانُ بن ثابت معنا في حصن فَارع يوم الخَنْدَق، ومعنا النساء والصِّبْيان، فمرّ بنا رجلٌ من يهود، فجعل يطيف بالحِصْن؛ فقلت: يا حسان؛ إن هذا اليهوديّ ـ كما ترى ـ يُطيف بالحصن، وأنا والله لا آمنُ أن يَدُلّ علينا مَن وَرَاءَنا من يهود، ورسول الله قد شُغل عنا؛ فانزْل إليه واقْتُلْه. فقال: يغفرُ الله لكِ يا ابنةَ عبد المطلب، لقد عرفتِ ما أنا بصاحب شجاعة!

قالت: فلما قال لي ذلك ولم أرَ عنده شيئًا، اعتَجَرْتُ، ثم أخذتُ عمودًا، ونزلتُ إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته؛ فلما فرغتُ منه رجعت إلى الحصن، وقلت: يا حسان؛ انزلْ إليه، فاسْلُبْه فإنه لم يمنعني من سلبِه إلا أنه رجل! فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب!

الخَنسَاء عِند عَائِشَة[٢]

دخلت الخنساء على عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، وعليها صِدار[٣] من شَعر، قد استَشْعرته إلى جلدها؛ فقالت لها: ما هذا يا خنساءَ؟ فوالله لقد تُوُفِّيَ رسول الله ـ ﷺ ـ فما لبستُه.

قالت: إنَّ له معنًى دعاني إلى لباسه؛ وذلك أن أبي زوّجني سيد قومه، وكان رجلًا مِتْلَافًا، فأَسْرَفَ في ماله، حتى أنفَدَه، ثم رجع إلى مالي، فأَنْفَده أيضًا.

ثم التفت إليّ فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صَخْر، فأتيناه، فقسم ماله شَطْرين[٤]، ثم خيّرنا في أحسن الشطرين، فرجَعْنا من عنده على حال حسنة؛ فلم يزل زوجي حتى أذهب جميعه.

ثم التفت إليّ، فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر، فرحلنا إليه فقسَّم ماله شطرين، وخيَّرنا في أفضل الشطرين.

---

(١) الغرر: ٢٢٥، معاهد التنصيص ١ ـ ٧٤ الأغاني ٤ ـ ١٦٥ (طبعة دار الكتب).
(٢) العقد الفريد: ١ ـ ٢٢، سرح العيون: ٢٩٩.
(٣) الصدار: ثوب رأسه كالمقنعة. وأسفله يغشى الصدر والمنكبين، وكانت المرأة إذا فقدت حميمها فأحدت عليه لبست صدارًا من صوف.
(٤) شطر الشيء: نصفه.

فقالت له زوجته: أما ترضى أن تشاطرَهم مالك حتى تخيّرهم بين الشطرين! فقال:

والله لا أمنحُها شِرارها ... فلو هلكْتُ قدّدتْ(١) خِمَارهَا
واتّخَذت من شعرٍ صِدَارها

فآليتُ ألّا يفارق الصِّدَارُ جسدي ما بقيت!

إلـهُ عُمر يعْلم(٢)

نهى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته عن مَذْق(٣) اللَّبنِ بالماء، فخرج ذات ليلة في حَواشي المدينة، فإذا بامرأةٍ تقولُ لابنةٍ لها: ألا تَمْذُقين لبنك فقد أصبَحْت؟ فقالت الجارية: كيف أَمْذُق وقد نهى أميرُ المؤمنين عن المَذق!

فقالت: قد مذَق الناسُ فامذُقي فما يدرِي أميرُ المؤمنين؟ فقالت: إن كان عمرُ لا يعلم فإله عمرَ يعلم، ما كنتُ لأفعله وقد نهى عنه.

فوقعت مقالتُها من عمر. فلما أصبح دعا عاصمًا ابنه، فقالت: يا بنيَ؛ اذهب إلى موضع كذا وكذا فاسأل عن الجارية - وَوَصَفَها له - فذهب عاصم، فإذا جاريةٌ من بني هلال. فقال عمر: اذهب يا بني فتزوجها، فما أحراها أن تأتيَ بفارس يَسُودُ العرب، فتزوّجها عاصم بن عمر، فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فتزوجها عبد العزيز بن مروان؛ فأتت بعمر بن عبد العزيز!

كَذَلِكَ الدّهْر!(٤)

لما قَدِمَ سعد بن أبي وقَّاص القادسيّة، أتَتْه حُرَقَة بنت النعمان بن المنذر في جَوَارٍ كلُّهن في مثل زِيِّها، يطلبْنَ صِلَتَه.

فلما وقَفْنَ بين يديه قال: أيّتكنّ حُرَقة؟ قلن: هذه. قال لها: أنت حُرَقة؟ قالت: نعم، فمَا تكرَارُكَ في السؤال؟ إن الدنيا دارُ زوال، لا تدومُ على حال؛ إنا

(١) قددت: قدت.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٧، نهاية الأرب: ٣ - ٢٣٨. مجمع الأمثال ٢ - ١٣٨، ابن أبي الحديد: ٣: ١١٠.
(٣) المذق: الخلط.
(٤) خزانة الأدب: ٣ - ١٨١ (المطبعة الأميرية).

كنّا ملوكَ هذا المِصْر، يُجبَى إلينا خَرَاجُه، ويُطِيعنا أهلُه مَدَى الإمْرَةِ وزمان الدولة، فلما أدْبر الأمر وانقضى، صاح بنا صائح الدهر فصدع عَصَانا، وشتَّت مَلأَنا. وكذلك الدهر يا سعد؛ إنه ليس يأتي قومًا بمَسرَّةٍ إلَّا ويُعقِبهم حسرة. ثم أنشأت تقول:

بينا نَسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نَتَنَصَّفُ
فأُفٍّ لدُنْيَا لا يدومُ نعيمُها تَقَلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصرَّفُ!

فقال سعد: قاتل الله عديّ بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول:

إنَّ الدهر صولةً فاحْذَرَنْها لا تبيتَنَّ قد أمنْتَ الدهورا
قد يبيتُ الفتى مُعَافًى فَيَرْدَى ولقد كان آمنًا مسرورا

ودخل عمرو بن معديكرب ـ وكان من قُصَّاد النعمان ـ وهي بين يدي سعد، فلما نظر إليها قال: أنت حُرَقه؟ قالت: نعم. قال: فما دَهَمَك؟ أين تتابُع نِعَمِك، وسطوات نِقَمِك؟ فقالت: يا عَمْرو، إن للدهر عَثَراتٍ تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفِضهُم بعد رِفْعةٍ، وتُفْرِدُهُمْ بعد مَنعةٍ، وتُذلّهم بعد عِزّ. إن هذا الأمر كنا ننتظره فلما حلْ لم نُنْكِره.

فلما انصرفت من لَدُنْ سعد لقيها نساء القادسيّة فقلن لها: ما فعل بك الأمير؟ قالت: أَكْرَم وجهي، وإنما يُكرِم الكريمَ الكريمُ.

لَا تَذهَبِي بنَفسِكِ عَن الحَقّ(١)

قال عليّ بن أبي رافع: كنتُ على بيتِ مالِ عليّ بن أبي طالب وكاتبه، فكان في بيت ماله عِقْدُ لؤلؤ كان أصابه يومَ البصرة، فأرسلَتْ إليّ بنتُ عليّ بن أبي طالب؛ فقالت لي: إنَّه قد بلغني أن في بيت مالِ أمير المؤمنين عِقْدَ لؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أحبُّ أَن تُعِيرَنيه، أتجمّلُ به في يوم الأضحى.

فأرسلتُ إليها: عاريةٌ مضمونة، مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنتَ أمير المؤمنين. فقالت: نعم! عارية مردودة بعد ثلاثة أيام.

(١) مجاني الأدب: ٢ ـ ١٧٣.

فدفعتُه إليها وإذا أميرُ المؤمنين رآه عليها فعرفَه؛ فقال لها: من أين جاء إليك هذا العِقْد؟ فقالت: استعَرْتُهُ من أين أبي رافع خازنِ بيتِ مال أمير المؤمنين؛ لِأتَزَيَّنَ به في العيد، ثم أرُدَّه.

فبعث إليّ أميرُ المسلمين فجئته؛ فقال لي: أتَخُون المسلمين يا ابن أبي رافع؟ فقلت: معاذ الله أن أخونَ المسلمين! فقال: كيف أعَرْتَ بنت أميرِ المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاهم! فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ إنها بنتك؛ وسألَتني أن أُعِيرَها العِقْدَ تتزين به فأعَرْتُها إياه عاريةً مضمونة مردودة على أن تردَّه سالمًا إلى موضعه؛ فقال: رُدَّه من يومك، وإياك أن تعود إلى مثله؛ فتنالك عقوبتي. ثم قال: ويلٌ لابنتي! لو كانت أخذت العقد على غير عاريَةٍ مردودة مضمونة لكانت إذن أولَ هاشمية قُطِعَت يَدُها في سرقة.

فبلغت مقالته ابنته، فقالت له: يا أميرَ المؤمنينَ؛ أنا ابنتك وبَضْعَةٌ[١] منك، فمن أحقُّ بلُبْسِه مني! فقال لها: يا بنت أبي طالب؛ لا تذهبي بنفسك عن الحق! أكلُّ نساء المهاجرين والأنصار يتزيَّنَّ في مثل هذا العيد بمثل هذا!

فقبضته منها ورددتُه إلى موضعه.

المغيرَة يخطُب بنت النعمَان[٢]

سار المغيرة بن شعبة ـ حينما كان واليًا على الكوفة ـ إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر، وهي فيه عمياءُ مُتَرهِّبة، فاستأذَنَ عليها، فقيل لها: أميرُ هذه المدَرَةِ بالباب! فقالت: قولُوا له: أمِنْ وَلَدِ جَبَلَة بن الأيهم أنت؟ قال: لا. قالت: أفَمِنْ ولد المُنْذِر بن السماء؟ قال: لا. قالت: فمن أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفي! قالت: فما حاجتك؟ قال: جئتُكِ خاطبًا! قالت: لو كنتَ جئتنِي لجمالٍ أو لِمالٍ لأطْلَبْتُك، ولكنك أردتَ أن تتشرّف بي في محافل العرب، فتقول: تزوَّجْتُ ابنةَ النُّعمان بن المنذر، وإلا فأيُّ خير في اجتماع أعور وعمياء؟

فبعث إليها: كيف كان أمرُكم؟ فقالت: سأختصِرُ لك الجوابَ: أمسَيْنَا مساء وليس في الأرض عَرَبيٌّ إلا وهو يرغب إلينا وَيَرْهَبُنا، ثم أصبحنا وليس في الأرض عربي إلا ونحن نرغبُ إليه ونرهبُه.

---

(١) بضعة، أي قطعة.

(٢) الكامل للمبرد: ١ ـ ١٧٧، المسعودي: ٢ ـ ٦٨.

وَلَقد أَبِيت على الطَّوَى[1]

قال تميم بن عديّ اليَرْبُوعيّ:

كنتُ مع عبد الله بن العبَّاس عند مُنصرَفه من دمشق، فسألته في بعض الأيام وقلتُ له: بماذا يتمُّ عقلُ الرجل؟ فقال: إذا صنع المعروفَ مبتدِئًا به، وجادَ بما هو محتاجٌ إليه، وتجاوز عن الزَّلة، وجازى على المكْرُمة، وتجنَّبَ مواطنَ الاعتذار؛ فقد تمَّ عقْله. فحفظتُ ذلك منه، وألصقْته بقلبي.

ثم بعد أيام نزلْنا منزلًا، فطلبْنا طعامًا فلم نجده، ولا قَدَرنا عليه ـ فإنَّ زيادًا كان قد نزل بذلك المنزل قَبْلنَا بأيام قليلة في جَمْع كثير؛ فأتَوْا على ما كان فيه من الطعام ـ فقال عبدُ الله لوكيله: اخرُج إلى هذه البَرِّيةِ، فلعلّك تجِدُ بها راعيًا معه طعام، فمضى الوكيلُ ومعه غِلْمان؛ فأطالوا التوقّف، فلما كادوا يرْجِعونَ لَاحَ لهم خِبَاء، فأمُّوه؛ فوجدوا فيه عجوزًا، فقالوا لها: هل عندك طعامٌ نبتاعه منك؟ فقالت: أمَّا طعامُ بيع فلا؛ ولكن عندي أَكْلة لي، وبأولادي إليها أمسُّ حاجة، قالوا: وأين أولادُكِ؟ قالت: في رَعْيِهم، وهذا وقتُ عَوْدَتهم. قالوا: فما أعددتِ لهم؟ قالت: خُبزة[2] تحت مَلَّتِها[3] أنتظرُ بها أنْ يجيئوا، قالوا لها: فجودي لنا بنصفها، قالت: لا؛ ولكن بها كلِّها. قالوا: ولم مَنْعتِ النصف وجُدتِ بها كلّها، ولا خُبزَ عندك غيرها؟ قالت: إنَّ إعطَاء الشَّطر[4] من خُبزَةٍ نقيصة؛ فأنا أمنع ما ينقصني، وأجودُ بما يرفعني، فأخذوا الخبْزَة لفَرْطِ حاجتهم إليها. وانصرفوا؛ ولم تسأل: مَنْ هم؟ ولا من أين جاؤوا!

فلما أتَوْا عبدَ الله، وأخبروه خبرَ العجوز عجِب من ذلك، وقال: ارجعوا إليها فاحملوها في دَعَةٍ، وأحضروها؛ فرجعوا إليها، وقالوا لها: إن صاحبنا أحبَّ أن يَرَاكِ. قالت: ومَنْ صاحبُكم؟ قالوا: عبد الله بن العباس. قالت: ما أعرف هذا الاسم. قالوا: العباس بن عبد المطلب، وهو عمُّ النبيّ. قالت: والله هذا الشرف العالي وذِرْوته الرفيعة، وماذا يريد منّي؟ قالوا: يريدُ أن يكافئَك على ما كان منك. قالت: لقد أفسَدَ الهاشميّ ما أثّل له ابنُ عمّه عليه السلام! والله لو كان ما فعلتُ معروفًا ما أخذتُ عليه ثَوَابًا؛ وإنّما هو شيء يجبُ على كلّ إنسان أن يَفْعله.

---

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٣.

(٢) الخبزة: عجين يوضع في الملة حتى ينضج.

(٣) الملة: الرماد الحار والجمر.

(٤) شطر الشيء: نصفه.

قالوا: فإنّه يحبُّ أن يراكِ ويسمعَ كلامَك. قالت: أصيرُ إليه؛ لأنّي أحبُّ أن أرى رجلًا من جَناح النّبيّ وعضوًا من أعضائه.

فلمّا سارت إليه رحَّب بها وأدنى مَجلسَها، وقال: مِمّن أنْتِ! قالت: من كلْب. قال: كيف حالُك؟ قالت: لم يبْقَ من الدنيا ما يفرِح إلا وقد بلغتُه، وإنّي الآن أعيشُ بالقنَاعة، وأصونُ القرابة، وأنا أتوقَّع مفارقةَ الدنيا صباحًا ومساءً. قال: أخبريني، ما الذي أعددتِ لأولادكِ عند انصرافهم بعد أخذنا الخُبزة؟ قالت: أعددتُ لهم قولي العربيّ:

ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأظلُّهُ حتّى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فأعجبه قولها؛ وقال لبعض غلمانه: انْطلق إلى خِبَائها، فإذا أقبل بنوها، فجيءْ بهم. فقالت للغلام: انطلق، فكن بفنَاء البيت، فإنّهم ثلاثة، فإذا رأيتهم تجد أحدَهم دائم النظر نحو الأرض، عليه شِعار الوَقار، فإذا تكلّم أفْصح، وإذا طُلب أنجح. والآخر حدِيد النَّظر، كثير الحذَر، إذا وَعَد فعل، وإن ظُلِمَ قَتل. والآخر كأنه شُعلة نار وكأنه يطْلب بثَار، فذاك الموتُ المائت والداءُ الكابت، فإذا رأيت هذه الصفة فيهم، فقُلْ لهم عنّي: لا تجلسوا حتى تأتوني.

فانطلق الغلام، فأخبرهم الخبر، فما بَعُدَ أمدُه حتى جاؤوا، فأدناهم عبد الله وقال: إني لم أبعثْ إليكم وإلى والدتكم إلا لأصْلح من أمركم، وأصنع ما يجبُ لكم؛ فقالوا: إن هذا لا يكونُ إلا عن مسألة أو مكافأة فعلٍ جميل تقَدَّم، ولم يصدر منا واحدةٌ منهما؛ فإن كنت أردت التكرُّم مبتدئًا فمعروفك مشكور، وبرُّك مقبول مبرور. فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعَشرٍ من النوق؛ فقالت لهم العجوز: ليقلْ كل واحد منكم بيتًا من قوله:

فقال الأكبر:

شهدتُ عليكَ بحُسْنِ المقالِ وصدقِ الفعَال وطيبِ الخبرْ

وقال الأوسط:

تبرّعتَ بالبَذْل قبل السُّؤالِ فَعَالَ كريمٍ عظيمِ الخَطَرْ

وقال الأصغر:

وحقّ لمن كان ذا فعلُه أن يَسْتَرقَّ رقابَ البَشرْ

وقالت العجوز:

فَـعَـمَّـركَ الله مـن مـاجـدٍ وَوُقِّيت - ما عشتَ شرَّ القدرْ

ثم ودَّعوه وانصرفوا.

قال تميم اليَرْبُوعيّ: فالتفت إلي وقال لي: يا تميم؛ وودت لو وَجَدْتُ مَزيدًا في ابْتِدَاء المعروف إلى هذه المرأة وبنيها، وجعل يتأوَّه من تقصيره عن مراده في ذلك. فقلت له: لقد أحسنتَ وَأَرْجَحْتَ وقد شهد فعلُك بما سبقَ من قولك، فأَنْتَ أتمُ الناسِ عقلًا، وأكملُهم مُرُوءةً!

أبو الأسود الدُّؤلي وزَوجه[١]

قال أبو محمد القُشَيْرِيّ:

كان أبو الأسود الدُّؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن أبي سُفيان، وأقرِبهم مجلِسًا، وكان لا ينطِقُ إلا بعقْل، ولا يتكلّمُ إلا بَعْدَ فهْم.

فبينما هو ذاتَ يوم جالسٌ، وعنده وجوهُ قريش وأشرافُ العرب، إذ أقبلتْ امرأة أبي الأسود حتى حاذتْ معاوية وقالت: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته؛ إنَّ الله جعلك خليفةً في البلاد، ورَقيبًا على العباد؛ يُسْتَسْقَى بك المَطَرُ، ويُسْتَنْبَتُ بك الشَّجَر، وتُؤلَّفُ بك الأهْواء، ويأمَنُ بك الخائف، وَيُرْدَع بك الجَانِفُ[٢]، فأنت الخليفة المُصْطَفى، والإمامُ المُرْتضى، فأسألُ الله لك النّعمة في غير تغيير، والعافيةَ من غير تغْذِير[٣]. قد ألجأني إليك يا أميرَ المؤمنين أمرٌ ضاق عليّ فيه المَنْهَجُ، وتفاقَم عليّ منه المخْرَج، لأمرٍ كرهتُ عارَه، لمّا خشيتُ إظهارَه؛ فليُنْصِفُنِي أميرُ المؤمنين من الخَصْم، فإني أعوذُ بعَقُوته[٤] من العارِ الوَبِيلِ، والأمر الجليل؛ الذي يشتدُّ على الحرائر ذات البعول الأجائر[٥].

فقال لها معاوية: ومَنْ بعلُك هذا الذي تَصِفِين من أمره المنكر؛ ومن فِعْلِه المشهَّر؟ فقالت: هو أبو الأسود الدُّؤليّ.

---

(١) بلاغات: النساء: ٥٣.
(٢) الجانف: المائل.
(٣) تعذير: نقص.
(٤) العقوة في الأصل: ما حول الدار.
(٥) البعول: جمع بعل، وهو الزوج، والأجائر: جمع أجور؛ تفضيل من جار.

فالتفت إليه وقال: يا أبا الأسود؛ ما تقول هذه المرأة؟ فقال أبو الأسود: هي تقولُ من الحق بعضًا، ولن يستطيعَ أحدٌ عليها نَقْضًا، أما ما ذكرتْ من طَلَاقها فهو حقّ؛ وأنا مُخْبرٌ عنه أميرَ المؤمنين بالصِّدْق؛ والله يا أميرَ المؤمنين ما طلَّقْتُها عن رِيبَةٍ طهرتْ، ولا لأيِّ هفوةٍ حضرتْ؛ ولكِن كرهت شمائلَها؛ فقطعتُ عني حَبائلَها.

فقال معاوية: وأيّ شمائلها يا أبا الأسود كَرِهْتَ؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّك مهَيِّجُها عليَّ بجواب عَتِيدٍ[١] ولسانٍ شديد.

فقال معاوية: لا بدَّ لك من محاورتها، فارْدُدْ عليها قولَها عند مراجعتها. فقال أبو الأسود: يا أميرَ المؤمنين؛ إنها كثيرةُ الصَّخَب، دائمة الذَرَب[٢]، مهينةٌ للأهل، مُؤذية للبَعْل، مُسِيئةٌ إلى الجار، مُظهِرَة للعار، إنْ رأت خيرًا كتمتْه، وإن رأَتْ شرًّا أذاعته.

فقالت: والله لولا مكانُ أميرِ المؤمنين، وحضورُ مَن حضره من المسلمين، لرَدَدْتُ عيك بَوَادِرَ كلامِك، بنوافذَ أَقْرَعُ بها كَلّ[٣] سِهَامِك؛ وإنْ كان لا يجملُ بالمرأة الحرَّة أن تَشْتمَ بَعْلًا، ولا أن تُظهر لأحد جَهلًا.

فقال معاوية: عزَمْتُ عليكِ لما أَجَبْتِهِ. فقالت: يا أميرَ المؤمنين ما علمتُه إلا سَؤُولًا جَهُولًا، مُلِحًّا بخيلًا[٤]، إن قال فشرُّ قائل، وإن سكت فذُودَ غَائل[٥]، ليثٌ حين يَأْمَن، وثعلب حين يخاف، شَحِيح حين يُضَاف، إذا ذُكِرَ الجود انْقَمَع؛ لما يعرف من قِصَرِ رِشَائه[٦]، ولؤم آبائه، ضَيْفُه جائع، وجارُه ضائع؛ لا يحفَظُ جارًا؛ ولا يَحْمي ذِمَارًا، ولا يُدْرِك ثارًا، أكرمُ الناس عليه مَنْ أهانه، وأهونُهم عليه مَن أكرمه.

فقال معاوية: سبحانَ اللهِ لما تأتي به هذه المرأة من السَّجْع! فقال أبو الأسود: أصلح الله أميرَ المؤمنين؛ إنها مطلَّقة، ومَنْ أكثر كلامًا من مُطلَّقة! ثم قال لها معاوية: إذا كان رَوَاحًا[٧] فتعالى أَفصل بينكِ وبينه بالقضاء.

(١) عتيد: حاضر. (٢) الذرب: حدة اللسان.
(٣) يقال: كل السيف؛ إذا لم يقطع، فهو كل وكليل.
(٤) اشتهر أبو الأسود بالبخل، وله في ذلك نوادر.
(٥) الدغائل: جمع دغيلة، والدغيلة: دخل في الأمر مفسد.
(٦) الرشاء في الأصل: الحبل. (٧) الرواح: العشي.

فلما كان الرَّوَاح جاءت ومعها ابنها قد احْتَضَنَتْهُ؛ فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتَزِعَ ابنه منها، فقال له معاوية: يا أبا الأسود، لا تُعْجِل المرأة أَنْ تنطِق بحُجَّتها.

قال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنا أحقُّ بحملِ ابني منها، فقال له معاوية: يا أبا الأسود دَعْها تَقُلْ. فقال: يا أميرَ المؤمنين، حملتهُ قبل أن تَحْمِلَه. فقالت: صدق والله يا أميرَ المؤمنين، حَمَله خِفا وحملتُهُ ثِقْلًا، إنَّ بطني لوِعاؤُه، وإن ثَدْيي لَسِقاؤُه، وإن حِجْري لَفِناؤُه. فقال معاوية: سبحَان الله لما تأتين به! ثم قال لأبي الأسود: إنها قد غَلَبَتْك في الكلام، فتكلّف لها أبياتًا لعلك تغلبُها؛ فأنشأ يقول:

مَرْحبًا بالتي تجورُ علينا ... ثم سَهْلًا بالحامِل المحمولِ
أَغلقتْ بابها عليَّ وقالت: ... إن خيرَ النساء ذاتُ البُعولِ
شغلت نفسها على فراغًا ... هل سمعتم بالفارغ المشغولِ!

فأجابته:

ليس مَنْ قال بالصواب وبالحـ ... ـقّ كَمَن جار على مَنَارِ السبيل
كان قديي سقاءَه حين يُضْحى ... ثم حِجْري فناءَه بالأصيل
لست أبغي بواحدي يا ابن حَرْبٍ ... بدلًا ما علمته والخليلِ(١)

فقضى لها معاوية عليه، واحتملَتْ ابنها وانصرفت.

إنّ قُرَيشًا تُحَدث أنكَ مِن أحْلمِها(٢)

كتب معاوية إلى وَالِيهِ بالكُوفَة أن يحملَ إليه أمَّ الخيرِ بنت الحُرَيْش البارِقيَّة بِرَحْلَها، وأعلمه أنه مُجَازِيهِ بقولها فيه؛ بالخير خيرًا وبالشرِّ شرًّا.

فلما ورَدَ عليه كتابُه ركب إليها فأقْرأها إياه؛ فقالت: أمَّا أنا فغيرُ زائغةٍ عن طاعةٍ، ولا مُعْتَلَّةٍ بكَذِب! ولقد كنتُ أُحِبُّ لقاء أميرِ المؤمنين لأمورٍ تخْتَلِجُ(٣) في صَدْري.

---

(١) تريد بالخليل محمدًا رسول الله.

(٢) العقد الفريد: ١ ـ ٢١٧، بلاغات النساء: ٤١.

(٣) تختلج في الأمر: تتردد فيه.

فلما حملها وأراد مفارقَتَها، قال لها: يا أمَّ الخير، إن أميرَ المؤمنين كتب إليّ: إنه يجازِيني بقولك فيّ بالخير خيرًا وبالشرّ شرًّا، فما عندك؟ قالت: يا هذا؛ لا يُطْمعنَّك بِرُّك بي أن أسُرَّك بباطل، ولا تؤيسَنّك معرفتي بك أن أقولَ فيك غَيْرَ الحق؟

فسارت خيرَ مسيرٍ، حتى قَدِمت على معاوية، فأنْزَلها مع جريمه ثلاثًا، ثم أَذِنَ لها في اليومِ الرابع، وعنده جُلَساؤه؛ فقالت: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته؛ قال لها: وعليك السلام يا أُمَّ الخير، وبالرَّغْمِ منكِ دعوتني بهذا الاسم. قالت: مَهْ[1] يا أميرَ المؤمين! لكلّ أجل كتاب.

قال: صدقتِ، فكيف حالُكِ يا خالة؟ وكيفَ كنتِ في مسيرِكِ؟ قالت: لم أزل في عافيةٍ وسلامةٍ حتى صرتُ إليكَ؛ فأنا في عيشٍ أنيق، عند ملكٍ رفيق؛ قال معاوية: بحِسنِ نيتي ظفرتُ بكم وأُعنتُ عليكم! قالت: يا أمير المؤمنين؛ أعيذُك باللهِ من دَحْضِ[2] المَقَالِ وما تُرْدِي عاقِبَتُه، قال: ليس لهذا أرَدْناك. قالت: إنما أَجْري في ميدانك؛ فاسأل عمَّا بَدَا لكَ! قال: أخبرِيني كيف كان كلامُك يوم قُتل عَمَّار بن يَاسِر؟ قالت: لم أكنْ والله زَوَّرْتهُ[3] قبلُ، ولا رَوَيْتُه بعدُ، وإنما كانت كلماتٌ نَفَثهنّ لساني حين الصّدْمة، فإن شئت أن أُحْدِث لك مقالًا غيرَ ذلك فَعَلْتُ. قال: لا أشاءُ ذلك.

ثم التفتَ إلى أصحابه فقال: أيكم يَحْفَظُ كلامَ أمّ الخير؟ فقال رجلٌ من القوم: أنا أحفظُه يا أميرَ المؤمنين كحفظي سورةَ الحمد. قال: هاتِه؛ قال: نعم! كأنيّ بها يا أميرَ المؤمنين في ذلك اليوم، عليها بُرْدٌ زَبيديّ كَثيفُ الحاشِية، وهي على جمل أَرْمَك[4] وقد أُحيطَ حولَها حِوَاء[5]؟ وبيدها سَوْطٌ مُنْتَشِر الضَّفْر[6]، وهي كالفحل يهدِر في شِقْشِقَته[7] تقول:

يا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنْ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيءٌ عَظيمٌ! إن الله قد أوْضَحَ الحقَّ، وأبَان الدليل، ونَوَّر السبيل، ورفعَ العَلَم، فلم يَدَعْكم في عمْياءَ مُبْهمة! ولا

(١) مه: كف. (٢) دحض المقال: باطله.
(٣) زور الكلام: أعده؛ تريد أنها قالته ارتجالًا. (٤) أرمك: لونه لون الرماد.
(٥) الحواء: ما يعمل كالوسادة للراكب على رحل الجمل بدون هودج.
(٦) ضفر الشعر: لوى بعضه على بعض.
(٧) الشقشقة: شيء يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

سوداءَ مُدْلَهِمَّة[١]، فإلى أين تُريدون رحمكم الله! أفرارًا عن أمير المؤمنين، أم فرَارًا من الزَّحْف، أم رهبةً عن الإسلام أم ارْتِدادًا عن الحق! أَمَا سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: الآية ٣١].

ثم رَفعتْ رأسها إلى السماء وهي تقول:

قد عِيلَ الصَّبْرِ، وضَعُف اليقين، وانتشر الرُّعْب، وبيدك يا ربّ أزِمَّة القلوب، فاجمع الكلمةَ على التقوى، وأَلِّف القلوبَ على الهُدَى، وارْدُد الحق إلى أهله. هَلمُّوا رحمكم الله إلى الإمامِ العادلِ، والوصيّ الوفيّ، والصديقِ الأكبر. إنها إحَنٌ بَدْرية[٢]، وأحقادٌ جاهلية، وضَغائِنُ أُحُديّة[٢]، وثَبَ بها معاوية حين الغَفْلة ليدركَ بها ثاراتِ بني عبد شمس[٣].

ثم قالت: قاتلوا أئِمَّةَ الكفرِ، إنّهم لا أَيْمَانَ لَهُمَ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ، صبرًا معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتِلُوا على بَصِيرةٍ من ربكم، وثباتٍ من دينكم، وكأني بكم غدًا قد لقيتم أهل الشأم كحُمُر مُسْتَنْفِرَة[٤]، فرَّتْ من قَسْوَرة[٥]، لا تَدْري أين يُسْلَك بها من لِجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادمين، حين تَحُلُّ بهم النَّدَامة، فيطلبون الإقالة! إنه والله مَنْ ضَلَّ عن الحق وقع في الباطل، ومَن لم يسكن الجنة نزل في النار.

أيّها الناس، إن الأكْيَاسَ[٦] استقصروا عُمرَ الدنيا فرفضوها، واستبطأوا مُدَّة الآخرة فسعَوْا لها؛ فاللهَ اللهَ أيُّها الناس قبلَ أن تَبطُل الحقوق، وتُعطَّل الحدود، ويظهَر الظالمون، وتَقْوَى كلمةُ الشيطان. فإلى أين تريدون ـ رحمكم الله ـ عن ابْنِ عمّ رسول الله ﷺ وزوجِ ابنته وأبي ابنيه[٧] خُلِق من طِينته، وتَفرّع عن نَبْعته،

(١) ادلهم الظلام: كثف، وأسود مدلهم، مبالغة.
(٢) بدر وأحد: واقعتان بين النبي والمشركين.
(٣) قوم معاوية. لأن عليًا قتل كثيرًا منهم في وقعتي بدر وأحد.
(٤) مستنفرة: نافرة.
(٥) القسور: الأسد، والجمع قسورة.
(٦) الأكياس: جمع كيس، وهو العاقل.
(٧) تريد الحسن والحسين وهما ابنا فاطمة.

وخصَّه بسرِّه، وجعلَه بابَ مدينتِه[١]، فلم يَزَلْ كذلك يؤيِّدُه الله بمعونته، ويمضي على سُنَنِ استقامته لا يُعَرِّج[٢] لراحة اللذات.

وهو مُفَلِّق الهام، ومُكَسِّر الأصنام، إذْ صلّى والناس مُشْرِكون، وأطاع والناسُ مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قَتَل مُبَارِزي بَدْر، وأفنى أَهلَ أُحُد، وفرَّق جَمْعَ هَوازن، فيا لها وقائع زَرَعَتْ في قلوب قوم نِفَاقًا، ورِدَّةً وشقاقًا! وقد اجتهدتُ في القَوْلِ، وبالغتُ في النصيحة، وبالله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: واللهِ يا أُمَّ الخير ما أَردتِ بهذا إلا قَتْلي! والله لو قتلتُكِ ما حَرِجْتُ[٣] في ذلك.

قالت: والله ما يسوءُني يا ابنَ هنا أن يُجْرِيَ اللهُ ذلك على يَدَيْ مَن يُسعدني الله بشقائِه، قال: هيهات، يا كثيرةَ الفضول! ما تقولين في عثمان بنِ عفان؟ قالت: وما عَسَيْتُ أن أقولَ فيه! استَخْلَفَهُ الناسُ وهم كارهون، وقتلوه وهم رَاضُون، فقال: إيهًا يا أُمَّ الخير، هذا ثناؤك الذي تَثْنِين؟ قالت: لكنّ الله يشهد، وكفى بالله شهيدًا، ما أردتُ بعثمان نَقْصًا، ولقد كان سبّاقًا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة.

قال: فما تقولين في طَلْحَة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقولَ في طلحة؟ اغتِيل مِن مَأمَنه، وأُتِيَ من حيث لم يَحْذَر؛ وقد وعده رسولُ الله ﷺ الجنةَ. قال: فما تقولين في الزُّبيْرِ؟ قالت: يا هذا؛ لا تَدَعْني كرَجيع الصَّبيغ يُعْرَكُ في المرْكَنِ[٤]، قال: حقًّا لتقولِنَّ ذلك، وقد عزمتُ[٥] عليك. قالت: وما عَسَيتُ أن قولَ في الزبير ابنِ عمة رسول الله ﷺ وحَوارِيّه[٦]؟ وقد شهد له رسولُ الله ﷺ بالجنةِ، ولقد كان سبَّاقًا إلى كل مكْرُمة في الإسلام. وإني أسألكَ بحقِّ الله يا معاوية، فإن قريشًا تُحَدِّثُ أنكَ من أحلمها ـ أن تسَعَني بفَضل حلْمك، وأن تُعْفيني

---

(١) لعلها تشير إلى ما يروى عن النبيّ: أنا مدينة العلم وعلى بابها.

(٢) لا يعرج: لا يميل. (٣) ما حرجت: ما أثمت.

(٤) المركن: الإناء يغسل فيه الثياب. ويعرك. ويحك. والرجيع: المردود، أي لا تجعلني كالثوب المصبوغ، يحك في الإناء مرة أخرى لأخراج صبغه منه؛ تشبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما في نفسها بما يغسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها.

(٥) أقسمت عليك. (٦) الحواري: ناصر الأنبياء.

من هذه المسائل، وامْضِ لما شئتَ من غيرها. قال: نَعَمْ وكرامةً، قد أعفيتُك. وردَّها مكرّمة إلى بلدها.

سوْدة بنت عمَارة عِند معَاويَة(١)

وفدت سَوْدةُ بنت عُمارة على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذَنَتْ عليه فأَذِنَ لها. فلما دخلتْ سلَّمت عليه، فقال لها: كيف أنتِ يا سَوْدَة؟ قالت: بخير يا أميرَ المؤمنين، قال لها: أنتِ القائلةُ يوم صِفِّين(٢):

شَمِّر كفعل أبيك يا ابنَ عُمارةٍ ... يوم الطِّعانِ ومُلْتَقى الأقرانِ(٣)
وانصُرْ عليًّا والحسينَ وَرَهْطَهُ ... واقْصِدْ لهندٍ وابنِها بهوانِ(٤)
إنَّ الإمامَ أخا النبيِّ محمدٍ ... عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإيمان
فَقِهِ الحُتُوفَ وسِر أمامَ لوائِه(٥) ... قُدُمًا بأبيضَ صارم وسنَان(٦)

قالت: إي والله، ما مثلي مَنْ رغب عن الحق، أو اعتذر بالكذب! قال لها: فما حملك على ذلك؟ قالَتْ: حبّ عليّ، واتباعُ الحقّ. قال: فوالله ما أرى عليك من أثر عليّ شيئًا. قالت: أنشدك الله يا أميرَ المؤمنين؛ مات الرأس، وَبُتِر الذَّنَب، فدَعْ عنك إعادةَ ما مضى، وتذكَار ما قد نُسي! قال: هيهات! ليس مثلُ مقام إخيكِ يُنسى! وما لقيت من أحد ما لقيتُ من قومك وأخيك! قالت: صدق فُوكَ والله يا أميرَ المؤمنين؛ ما كان أخي ذميمَ المقام، ولا خفيَّ المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإنَّ صَخْرًا لتأْتمُ الهُدَاةُ به ... كأنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسه نَارُ

وبالله أسأل يا أميرَ المؤمنين إعْفائي مما استعفيتُ منه! قال: قد فعلت، فقولي حاجتك! قالت: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّكَ أصبحت للناس سيّدًا، ولأمورهم متقلِّدًا، والله سائلك عمّا افترض عليك من حقّنا، ولا تزال تُقَدِّم علينا مَن ينهض بعزِّك، ويبطش بسُلْطانك، فيَحْصُدُنا حَصَادَ السُّنْبُل، ويَدُوسنا دياسَ البقر، ويسومُنا

---

(١) العقد الفريد: ١ ـ ٢١١، بلاغات النساء: ٣٥.
(٢) هو يوم من أيام الحرب بين علي ومعاوية. (٣) الأقران: الأكفاء.
(٤) هند: أم معاوية. (٥) الحتوف: المنايا.
(٦) الصارم: السيف القاطع، والسنان: سنان الرمح.

الخسِيسعة، ويَسْلُبُنا الجليلة؛ هذا ابن أرْطَاةَ[١] قدم علينا من قِبلك فقتل رجالي، وأخذ مالي، يقول لي: فُوهِي بما أستَعْصِمُ الله منه، وألجأ إليه فيه[٢]، ولولا الطاعةُ لكان فينا عزٌّ ومَنعة! فإما عزلتَه فشكرناك، وإمَّا لا فعرفناك!

فقال معاوية: إيّاي تهدِّدين بقومك! والله لقد هممت أن أردَّك إليه على قتَبٍ أشْرَس[٣]، فينفِّذ حكمه فيك. فأطرقَتْ تبكي، ثم أنشأت تقول:

صلّى الإلـه على روحٍ تضمَّنه ... قبرٌ فأصبحَ فيه العدلُ مدفونا
قد حَالَفَ الحقَّ لا يبغي به بَدَلا ... فصار بالحقِّ والإيمان مَقْرُونا

قال لها: ومَنْ ذلك؟ قالت: عليّ بن أبي طالب رحمه الله تعالى، قال: وما صنع بك حتى صار عندَكِ كذلك! قالت: أتيته يومًا في رجل ولّاه صَدَقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغثّ والسمين، فوجدته قائمًا يصلّي، فانفتلَ عن الصلاة[٤]، ثم قال برأفة وتعطُّف: ألكِ حاجة؟ فأخبرتُه خبرَ الرجل، فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنّكَ أنتَ الشاهدُ عليّ وعليهم، إنّي لم آمرُهُم بظلم خَلْقك، ولا بِترْكِ حقك؛ ثم أَخْرَج من جيبه قطعةً من جراب، فكتب فيه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا[٥] النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥]. إذا أتاكَ كتابي هذا فاحْتَفِظْ بما في يديك حتى يأتيَ من يَقْبِضُه منك، والسلام.

فأخذْتُهُ منه يا أميرَ المؤمنين، ما خَزَمَه بخِزَام، ولا ختمه بختام.

فقال معاوية: اكتُبُوا بالإنصاف لها والعدل عليها. قالت: أَلِي خاصة أم لقومي عامة؟ قال: وما أنتِ وغيرك! قالت: هي والله إذَنْ الفحشاء واللؤم؛ إن كان عدلًا شاملًا وإلّا يَسَعني ما يسعُ قومي.

---

(١) ابن أرطاة: بسر بن أرطاة كان معاوية سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة علي ويأخذ البيعة له.

(٢) تعني أنه يطلب منها أن تسب عليًا.

(٣) القتب: الإكاف على قدر سنام البعير، والمراد نفس البعير بدليل الصفة بعده، وأشرس: لم يرض.

(٤) انفتل عن صلاته: انصرف.

(٥) القسط: العدل، والبخس: النقص والظلم.

قال: هيهات، لَمَّظَكُم[١] ابن أبي طالب الجرأة، وغرّكم قوله:

فلو كنتُ بوّابًا على باب جنَّةٍ   لقلتُ لهمْدَان ادخلوا بسلام

اكتبوا لها ولقومها.

مثلكَ منْ قدَر فعفا[٢]

لما وَلِيَ معاويةُ الخلافةَ، وانتظمت إليه الأمور، وامتلأَت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، وساعده الله في مُراده، استحضر ليلةً خواصّ أصحابه، وذاكرهم وقائعَ أيام صِفّين، ومَنْ كان يتولّى كِبْرَ الكريهةِ من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض، وآلَ حديثهم إلى مَنْ كان يجتهدُ في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض. فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمَّى الزَّرْقاء بنت عديّ، كانت تعتمِدُ الوقوفَ بين الصفوف، وترفعُ صوتها صارخة: يا أصحابَ عليّ؛ تسمِعهم كلامًا كالصوارم، مستحثّةً لهم بقول لو سَمعه الجبانُ لقاتل، والمدّبرُ لأقبل، والمسالِمُ لحَارَب، والفارُّ لكرّ، والمتزلزل لاستقرّ.

فقال لهم معاوية: أيّكم يحفظُ كلامها؟ قالوا: كلُّنا نحفظه. قال: فما تشيرون عليَّ فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية: بئْس ما أشرتُم به، وقُبْحًا لما قلتم: أيحسن أن يَشْتهر عني أننِي بعد ما ظفرت وقدرتُ قتلت امرأةً قد وفَتْ لصاحبها! إني إذنْ للئيم، لا والله لا فعلتُ ذلك أبدًا.

ثم دعا بكاتبه فكتب كتابًا إلى واليه بالكوفة: أن أَنفِذْ إليّ الزرقاء بنت عديّ، مع نفرٍ من عشيرتها وفُرسانٍ من قومها، ومهِّدْ لها وِطاء ليّنًا ومركبًا ذَلُولًا.

فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأه عليها. فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزَائِغَةٍ عن الطاعة. فحملها في هَوْدجٍ، وجعل غِشاءه خَزًّا مبطَّنًا، ثمّ أحسن صُحْبتَها.

فلما قدمت على معاوية، قال لها: مرحبًا وأهلًا! خيرَ مَقْدَم قَدِمه وافدٌ. كيف حالك يا خالة؟ وكيف رأيت سيرك؟ قالت: ربيبة[٣] بيتٍ أو طفلًا ممهدًا.

(١) لمظه: ذوقه.

(٢) العقد الفريد: ١ ـ ٢١٢، بلاغات النساء: ٣٧.

(٣) الربيب: الملك والسيد.

فقال: بذلك أمرناهم. هل تعلمين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: وأنّى لي بعلم ما لم أعلم! لا يعلم الغيبَ إلّا الله سبحانه وتعالى. قال: ألستِ الراكبة الجمل الأحمر يوم صِفِّين وأنتِ بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتُحرِّضين على القتال! قالت: نعم. قال: فما حملِك على ذلك؟ قالت: يا أميرَ المؤمنين، إنه قد مات الرأس وبُتِرَ الذَّنَبُ، ولن يعودَ ما ذهب، والدَّهرُ ذو غيرٍ، ومن تفكّر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

فقال: صدقتِ، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله، ولقد أنسيته. قال: للهِ أبوكِ! فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس، ارعَوُوا وارجعوا! إنكم أصبحتُم في فتنة غشتكم جَلَابِيبَ الظلم، وجارت بكم عن قَصْدِ المحَجّة، فيا لها فتنة عمياء صماء بكماء، لا تسمع لناعِقِهَا، ولا تسلس لقائدها!

إن المصباح لا يضيءُ في الشمس، وإن الكواكبَ لا تنيرُ مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يُقطع الحديدُ إلا بالحديد، أَلَا مَنِ استرشَدَنا أرشَدْناه، ومَن سألنا أخبرناه!

أيها الناس، إن الحقَّ كان يطلب ضالّتَهُ فأصابها. فصبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص! فكأنكم وقد الْتأَمَ شملُ الشَّتَات، وظهرت كلمة العدل، وغَلَبَ الحقُّ باطله. فإنه لا يستوي المحق والمبطل. أفمَنْ كان مؤمنًا كَمَنْ كان فاسقًا! لا يَسْتَوُن. فالنِّزَال النِّزالَ، والصبرَ الصبرَ! ألا إن خِضَابَ النساء الْحِنَّاءُ، وخِضَابَ الرجال الدماء. والصبرُ خيرُ الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين؛ فهذا يومٌ له ما بعده!

ثم قال: يا زَرقاء، أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك! قال: لقد شاركتِ عليًا في كلّ دَم سفكه. فقالت: أحسن الله بشارتك أمير المؤمنين، وأدام سلامتك، فمثلك مَنْ بَشَّر بخير، وسَرَّ جليسه.

فقال معاوية: أويسرُّكِ ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرّني قولك، وأنّى لي بتصديق الفعل! فضَحِك معاوية وقال: والله لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندي من حبكم له في حياته؛ اذكُري حاجتك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين؛ إني آليت على نفسي ألّا أسأل أحدًا أَعنتُ عليه أبدًا. فقال: قد أشار على بعض من عرفك بقَتْلِك. فقالت: لُؤْمٌ من المشير، ولو أطعته لشاركْتَه. قال: كلّا، بل نعفو عنك،

ونحسن إليك ونَزْعاك. فقالت: يا أميرَ المؤمنين، كرمٌ منك ومثلُك من قَدَرَ فعفا، وتجاوز عمن أساء، وأعطى من غير مسألةٍ.

فأعطاها كُسْوَة ودراهم، وأقطعها ضيعة تُغِلّ(١) لها في كل سنةٍ عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمةً، وكتب إلى وَالِي الكوفةِ بالوصية بها وبعشيرتها.

نبّهكم عَليّ!(٢)

يُروى أن عِكْرِشَةَ بنتَ الأطرش دخلت على معاوية مُتَوَكِّئَةً على عُكّازٍ لها، فسلّمتْ عليه بالخلافة، ثم جلست، فقال لها معاوية: الآن صِرْتُ عندكِ أمير المؤمنين! قالت: نعم، إذْ لا عليٌّ حيّ؟ قال: أَلَسْتِ المتقلدةَ حمائلَ السيف بصفّين وأنت واقفةٌ بين الصفَّين تقولين:

أيُّها الناس، عليكم أنفسكم لا يضرُّكم مَنْ ضلّ إذا اهتديتم؛ إنَّ الجنة لا يَحْزَن من قَطَنها، ولا يَهْرَم من سَكَنها، ولا يموتُ من دخلها؛ فابْتَاعوها بدارٍ لا يدومُ نعيمُها، ولا تَنْصَرِم همومُها. وكونوا قومًا مُسْتَبْصِرين في دِينهم، مسْتَظهرين على حقِّهم.

إنّ معاوية دَلَفَ إليكم بعَجم العرب، لا يفقَهون الإيمان، ولا يَدْرُون ما الحكمة، دعاهم إلى الباطل فأَجَابوه، واسْتَدْعاهم إلى الدنيا فلَبُّوه، فالله اللهَ عباد الله في دينِ الله! وإياكم والتّواكلَ فإنَّ ذلك يَنْقُضُ عُرَا الإسلام، ويُطفىء نورَ الحق. هذه بَدْرٌ الصُّغْرَى، والعقَبَةُ الأخرى. يا معشر المهاجرين والأنصار؛ امضوا على بصيرتكم، واصبِروا على عزيمتكم، فكأنّي بكم غدًا وقد لقيتم أهلَ الشأْم كالحُمر الناهقة، تَقْصَع قصعَ البعير.

ثم قال: فكأني أراكِ على عَصَاكه هذه قد انكفأَ(٣) عليكِ العَسْكَران يقولون: هذه عِكْرِشَة بنت الأطرش، فإن كدتِ لَتَفُلّين(٤) أهلَ الشأم لولا قَدَرُ الله، وكان أمرُ اللهِ قَدَرًا مقدورًا، فما حملكِ على ذلك؟

(١) تغل: تنتج.
(٢) بلاغات النساء: ٤١، العقد الفريد: ١ ـ ٢١٦.
(٣) انكفأ: رجع.
(٤) فل الجيش: هزمه.

قالت: يا أميرَ المؤمنين؛ يقول الله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة: الآية ١٠١]. وإن اللبيبَ إذا كَرِه أمرًا لا يحبُّ إعادتَه.

قال: صَدَقْتِ، فاذكُري حاجتك. قالت: كانت صدقاتُنا تُؤخَذ من أغنيائنا فتُرَدُّ على فقرائنا، وقد فَقَدْنا ذلك، فما يُجْبَرُ لنا كسير، ولا يُنْعَشُ لنا فقيرٌ، فإن كان عن رَأيكِ فمِثْلُكَ من انتبه من الغفلةِ وراجع التَّوْبة، وإن كان من غيرِ رأيِكَ فما مِثْلُكَ مَن اسْتَعَانَ بالخَوَنةِ، ولا اسْتَعْمَلَ الظَّلَمةَ.

قال معاوية: يا هذه؛ إنه يَنُوء بنا عن أُمُورِ رعيَّتِنَا ثُغُورٌ تتفتّق؛ وبحورٌ تتدفّقُ. قالت: سبحانَ الله! واللهِ ما فرض اللهُ لنا حقًّا فجعل فيه ضرَارًا لغيرنا وهو علّامُ الغُيُوب. قال معاوية: هيهات يا أهلَ العراق! نبّهكم عليٌّ فلن تُطَاقُوا.

ثم أمر بردِّ صدَقاتِهم فيهم وإنْصَافِهم.

وَهَل أحُلُّ عندَك محَل عليّ(١)

حجّ معاوية سنةً من سنِيه، فسأل عن امرأة من بني كِنانة كانت تَنْزِلُ بالحَجُون(٢)، يقال لها: دارِميَّة الحَجونيَّة، وكانت سوداء كثيرةَ اللحم، فأُخبر بسلامتها، فبعث إليها فجيء بها. فقال: ما حالك يا ابْنَةَ حام؟ فقالت: لست لحامٍ إن عِبْتَني؛ إنما أنا امرأة من بني كنانة ثُمَّتَ من بني أبيك. قال: صدقتِ، أتدرينَ لِمَ بعثتُ إليك؟ قالت: لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ. قال: بعثتُ إليك لأسألك: عَلامَ أحببتِ عليًا وأبغضتِني، وواليتِه وعاديتِني؟ قالت: أوَتعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أُعفيك. قالت: أما إذ أبيت، فإني أحببتُ عليًا على عَدْلِه في الرعية، وقَسْمه بالسّوية، وأبغضتك على قتال مَنْ هو أولى منك بالأمر، وطِلْبَتِك(٣) ما ليس لك بحق، وواليتُ عليًا على ما عقد له رسول الله من الولاء، وعلى حبِّه المساكين، وإعظامِه لأهل الدين؛ وعاديتك على سفكك الدماء، وشقِّك العصا، وجَوْرك في القضاء، وحكمك بالهوى.

(١) العقد الفريد: ١ ـ ١٣٢، صبح الأعشى: ١ ـ ٢٥٩، بلاغات النساء: ٦٧.
(٢) الحجون: جبل بمكة. (٣) الطلبة: الطلب.

قال: فلذلك انتفخ بطنُك! قالت: يا هذا؛ بهند[١] والله كان يُضرب المثل في ذلك لأبِي. قال معاوية: يا هذه، اربَعي[٢]، فإنا لم نقل إلا خيرًا. فرجعت وسكنتْ.

فقال لها: يا هذه، هل رأيتِ عليًا؟ قالت إي والله لقد رأيته. قال: فكيف رأيتِه؟ قالت: رأيتُه والله لم يَفْتِنه المُلْكُ الذي فَتنَك، ولم تَشْغَله النعمة التي شغلتك. قال: هل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم والله، كان يَجْلُو القلوب من العمى، كما يجلو الزيتُ الصدأ.

قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أوَتفعل إذا سألتك؟ قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فَحْلُها وراعيها. قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذو بألبانها الصغّار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر. قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أَحُلُّ عندكِ محلّ علي؟ قالت: ماء ولا كَصَدَّاء[٣]، ومَرْعًى ولا كالسَّعْدان[٤]، وفتى ولا كمالِك[٥]، سبحان الله! أو دُونه؟ فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعُدْ بالحلم مني عليكمُ فمن ذا الذي بعدي يُؤمِّل للحِلم!
خذيها هنيئًا، واذكري فعلَ ماجدٍ جزاك على حرب العداوة بالسِّلْمِ

ثم قال: أما والله لو كان عليٌّ حيًا ما أعطاك منها شيئًا، قالت: لا والله ولا وَبَرَةً واحدة من مال المسلمين!

نَبَحَتنِي كلابك[٦]

استأذنت بكّارة الهلاليّة على معاويةَ بن أبي سفيان فأذن لها ـ وهو يومئذٍ بالمدينة ـ وعنده مَرْوان بن الحكم، وعمرو بن العاص ـ فدخلت عليه، وكانت امرأةً قد أسنَّت، وعَشِيَ[٧] بصرها، وضَعُفَتْ قوَّتُها، تَرْعَشُ بين خادمين لها،

(١) هند: أم معاوية. (٢) ربع: وقف وانتظر وتحبس.
(٣) صداء: عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها.
(٤) السعدان: نبت ذو شوك، وهو من أفضل مراعي الإبل.
(٥) قاله متمم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة، والأمثال الثلاثة تضرب للشيء يفضل على أقرانه.
(٦) بلاغات النساء: ٤٠، العقد الفريد: ١ ـ ٢١٢.
(٧) عشي بصرها: ضعف.

فسلّمتْ وجلستْ، فردّ عليها معاوية السلام. وقال: كيف أنتِ يا خالة؟ فقالت: بخير يا أمير المؤمنين! قال: غَيَّرَكِ الدَّهرُ. قالت: كذلك هو ذُو غِير[١]، مَنْ عاش كَبِر، ومَن مات قُبر! قال عمرو بن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين يوم صِفّين:

يا زيدُ دونك فاحتفر من دارنا سيفًا حُسامًا في التراب دفينا[٢]
قد كنتُ أذْخَرُهُ ليوم كريهةٍ فاليومَ أبْرَزَهُ الزمانُ مَصُونا[٣]

قال مروان: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هندٍ للخلافةِ مالكًا هيهات ذاك - وإن أراد - بعيدُ[٤]
منَّتْك نفسك في الخلاء ضلالةً أغْرَاك عمرو للشقَا وسعِيدُ

قال سعيد بن العاص: هي والله القائلة:

قد كنتُ أطمعُ أن أموتَ ولا أرى فوقَ المنابر من أميَّةَ خاطبا
فالله أخّر مُدَّتي فتطاولتْ حتى رأيتُ من الزمان عجائبا
في كلّ يوم للزمان خطيبُهم بين الجميع لآل أحمدَ عائبا

ثم سكتوا! فقالت بكّارة: نَبَحَتْني كلابك يا أمير المؤمنين واعتَوَرتني[٥]، فقصُر مِحْجَني[٦]، وكثر عَجَبي، وعَشيَ بصري.

وأنا والله قائلةٌ ما قالوا، لا أدفع ذلك بتكذيب، وما خفي عليك مني أكثر، فامضِ لشأنك، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين. فضحك معاوية، وقال: ليس يمنعُنا ذلك من برّك. اذكري حاجتك: قالت: أما الآن فلا.

أروى بنت الحَارث[٧]

دخلت أرْوَى بنتُ الحارثِ بن عبد المطلب على معاوية، وهي عجوز، فلما رآها معاويةُ قال: مرحبًا بكِ وأهلًا يا عمّة! فكيف كنتِ بعدنا؟ قالت: يا ابْنَ

(١) غير الدهر: أحواله المتغيرة.
(٢) احتفر الشيء: نقاه كما تحفر الأرض بالحديدة.
(٣) أدخره. (٤) أي معاوية.
(٥) اعتورتني: تناوبتني. (٦) المحجن: العصا المعقوفة الرأس.
(٧) العقد الفريد: ١ - ٢١٩، بلاغات النساء: ٣٢.

أخي؛ لقد كفرتَ بالنعمة، وأسأتَ لابن عمّك[١] الصُّحبة، وتسمَّيت بغير اسمك، وأخذتَ[٢] غيرَ حقك، من غير بلاءٍ كان منك ولا من آبائك، ولا سابقةٍ في الإسلام، بعد أن كفرتُمْ برسول الله ﷺ، فأتعس[٣] اللهُ منكم الجُدود، وأَضْرَع منكم الخدود، وردّ الحقَّ إلى أهله، ولو كَرِه المشركون!

وكانت كلمتُنا هي العليا، ونبينا ﷺ هو المنصور على مَن ناوأه، ولو كره المشركون؛ فكنا ـ أهلَ البيت ـ أعظمَ الناس في الدين حظًّا ونصيبًا وقدرًا، حتى قبض الله نبيه، فوُليتم علينا من بعده، وتحتجُّون بقرابتكم من رسول الله، ونحن أقربُ إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون؛ وكان عليُّ بن أبي طالب ـ رحمه الله ـ بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى؛ فغايتُنا الجنةُ، وغايتكُم النار.

وقال لها عمرو بن العاص: كُفِّي أيتُها العجوز الضالّة! وأَقصِري عن قولك، وغُضِّي من طَرْفِك!

فقالت: وأنت يا عمرو تتكلّم! اغْنَ بشأن نفسك؛ فوالله ما أنت من قريش في اللُّباب من حَسَبِها، ولا كريم منصبِها. وأمُّك كانت أشهرَ امرأةٍ تُغَنِّي بمكة، وآخَذهنّ لأجرة!

فقال مروان: كُفِّي أيتها العجوز أقصري لما جئتِ له. فقالت: وأنتَ أيضًا يا ابنَ الزرقاء تتكلم! ثم التفتتْ إلى معاوية فقالت: والله ما برأ عليّ هؤلاء غيرُك! وإن أُمَّك القائلة في قَتْل حمزة:

نحن جَزَيْنَاكُمْ بيومِ بَدْرِ ... والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعْرِ[٤]
ما كان عن عُتبة لي من صبرِ ... أبي وعمي وأخي وصِهْرِي[٥]
شفيتَ وحْشِيُّ غليلَ صدري ... شفيتَ نفسي وَقضيتَ نَذْرِي[٦]
فشُكرُ وَحشيٌّ عليَّ دهري ... حتى تَرِمَّ أعظُمي في قبري

(١) تريد علي بن أبي طالب.
(٢) تشير إلى أخذه الخلافة.
(٣) أتعس: أهلك، أو أعثر. والجدود: الحظوظ.
(٤) ذات سعر؛ من سعر الحرب: أوقدها.
(٥) تشير إلى مَن قتل من بني أمية يوم بدر.
(٦) وحشي: قاتل حمزة يوم أحد.

فقال معاوية لمروان وعمرو: ويلكما! أنتما عرضتماني لها وأسمعتماني ما أَكْرَه، ثم قال لها: يا عمّة! اقصدي قَصْد حاجتك، ودعي عنكِ أساطير النساء، قالت: تأمر لي بألفي دينار، وألفي دينار، وألفي دينار! قال: ما تصنعين يا عمة بألفي دينار؟ قالت: أشتري بها عينًا خَرْخَارة[1] في أرضٍ خوَّارة[2]، تكون لولد الحارث بن عبد المطلب! قال: نعم الموضعُ وضعتها؛ فما تصنعين بألفي دينار؟ قالت: أستعين بها على عُسْر المدينة، وزيارة بيت الله الحرام! قالت: نعم الموضعُ وضعتِها! فما تصنعين بألفي دينار؟ قالت: أُزَوِّج بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم. قال: نعم الموضعُ وضَعْتِها! هي لكِ!

ثم قال لها: والله لو كان عليٌّ ما أمر لكِ بها! قالت: صدقت! إن عليًا أدّى الأمانة؛ وعمل بأمر الله، وأخذ به، وأنتَ ضيّعت أمانتك، وخُنْتَ الله في ماله، فأعطيت مال الله مَن لا يستحقُّه، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها وبَينها، فلم تأخذ بها؛ ودعانا عليّ إلى أخذ حقنا الذي فرضَ الله لنا فشُغِلَ بحربك عن وضع الأمور مواضعها! وما سألتك من مالك شيئًا! فتَمُنَّ به؛ إنما سألتك من حقنا، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا: أتذكرُ عليًا قضّ الله فاك! ثم علا نحيبها وقالت:

أَلَا يا عينُ ويحكِ أَسعدينا ... ألا وابكي أميرَ المؤمنينا
رُزينا خَير مَنْ ركب المطايا ... وفارسها ومَنْ ركب السفينا[3]
ومن لبس النعال أو احتذاها ... ومن قرأ المثاني والمثينا[4]

فأمر لها بستة آلاف دينار وقال لها: يا عمّة؛ أنفقي هذه فيما تحبّين، فإذا احتجتِ فاكتبي إلى ابنِ أخيك يُحسن صَفَدَكِ[5] ومعونتك إن شاء الله!

أُم سِنَان تشكو مروَان[6]

حَبَس مرْوان بن الحكم، وهو والي المدينة غلامًا من بني ليث، في جناية جناها بالمدينة، فأتَتْه جدَّةُ الغلام ـ وهي أمُّ سنان بنت خَيْثمة المَذْحجيّة ـ فكلمته

(١) خرخارة: عين ماء جارية.
(٢) خوارة: منخفضة، والمراد: أرض للزراعة ليست وعرة.
(٣) رزينا: أصبنا. (٤) المثني: آيات القرآن.
(٥) الصفد: العطاء.
(٦) العقد الفريد: ١ ـ ٢١٤، بلاغات النساء: ٦٨.

في الغلام، فأغْلَظ لها؛ فخرجت إلى معاوية، فدخلت عليه فانتسبتْ له فعرفَها، فقال لها: مرحبًا يا بنت خَيْثمة؛ ما أقدمكِ أرضَنا وقد عهدتك تشنئين[١] قُرْبي، وتحضّين[٢] عليّ عدوّي!

قالت: يا أمير المؤمنين! إن لبني عبد مناف أخلاقًا طاهرة، وأحلامًا وافرة، لا يَجهَلُون بعد علم، ولا يَسْفَهون بعد حِلْم، ولا ينتقمون بعد عَفْو، وإن أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت. قال: صدقتِ! نحن كذلك، فكيف قولك[٣]:

عَزَب الرُّقادُ، فمقْلتِي لا تَرْقُدُ ... والليلُ يُصْدِرُ بالهموم ويُوردُ[٤]
يا آل مَذْحِجَ لا مُقامَ فشمِّروا ... إنّ العدوَّ لآلِ أحمدَ يَقْصِدُ
هذا عليٌّ كالْهلالِ تحفُّه ... وَسْط السماءِ من الكواكب أسْعُد[٥]
خيرُ الخلائِق وابنُ عم محمدٍ ... إن يَهْدِكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مُذْ شَهِد الحروبَ مظفَّرًا ... والنصرُ فوق لِوائه ما يُفْقَد

قالت: قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين؛ وأرجو أن تكون لنا خَلفًا! فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وهي القائلة أيضًا؟

إمَّا هلكتَ أبا الحسين فلم تَزَلْ ... بالحقّ تُعرَف هاديًا مَهْدِيًّا
فاذهب، عليك صلاةُ ربك ما دَعَتْ ... فوقَ الغصون حمامةٌ قمريًّا[٦]
قد كنتَ بعد محمدٍ خَلَفًا كما ... أوصى إليك بنا، فكنتَ وفيًّا
فاليوم لا خلَفٌ يُؤَمَّل بعده ... هيهات نَأمُل بعده إنسيًّا

قالت: يا أمير المؤمنين؛ لسانٌ نَطق، وقول صَدَق، ولئن تحقّق فيك ما ظننَّا، فحظّك الأوفر، والله ما وَرَّثَك الشنآن[٧] في قلوب المسلمين إلّا هؤلاء، فأَدْحِض مقالتَهم؛ وأبعِدْ منزلتهم، فإنّك إن فعلتَ ذلك تَزْدَد من الله قربًا، ومن المؤمنين حُبًّا.

---

(١) تشنئين قربي: تبغضين. (٢) تحضين: تحرضين.
(٣) يذكرها بقولها في الحرب التي كانت بينه وبين عليّ بن أبي طالب لأنها كانت من شيعة علي.
(٤) عزب: بعد.
(٥) سعود النجوم عشرة: منها سعد الذابح وسعد السعود. وهي تشير إلى صحابة علي.
(٦) القمري: نوع من الحمام. (٧) الشنآن: البغض.

قال: وإنّك لتقولين ذلك؟ قالت: يا سبحان الله! والله ما مثلك مُدِح ببال، ولا اعْتُذِر إليه بكذب؛ وإنّك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلوبنا.

كان والله عليّ أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك. قال: ممن؟ قالت: من مرْوان بن الحكم، وسعيدِ بن العاص. قال: وبم استحققتُ ذلك عندك؟ قالت: بسَعة حلْمك، وكريم عفوك. قال: فإنهما يَطمَعَان في ذلك؟ قالت: هما والله من الرأي على مثل ما كنتَ عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى(١).

قال: والله لقد قاربتِ؛ فما حاجتك؟ قالت: يا أمير المؤمنين؛ إن مروان تَبنَّك(٢) بالمدينة تَبنُّك مَنْ لا يريدُ منها البَراح، لا يحكمُ بعدل، ولا يقضي بسُنَّةٍ، يتتبَّعُ عثراتِ المسلمين، ويكشفُ عَوْرات المؤمنين، حبس ابن ابني فأتيتُه، فقال: كنتِ وكنتِ، فألْقَمتُه أخشنَ من الحجر، وألعقتُه أمَرّ من الصَّبر، ثم رجعتُ إلى نفسي باللائمة، وقلت: لم لا أصرف ذلك إلى مَن هو أولى منه بالعفو عنه!

فأتيتُك يا أميرَ المؤمنين؛ لتكون في أمري ناظرًا، وعليه مُعْدِيًا(٣). قال: صدقتِ، لا أسألكِ عن ذنبه، ولا عن القيام بحُجَّته، اكتبوا لها بإطلاقه.

قالت: يا أميرَ المؤمنين، وأنّى لي بالرَّجْعة(٤)! وقد نفِد زادي، وكلَّت راحلتي! فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم.

لَيلى الأخيليَّة عِندَ معَاوِيَة(٥)

بينا معاوية يسير إذ رأى راكبًا؛ فقال لبعض شُرَطه: ائتني به، وإيّاك أن ترَوِّعه(٦) فأتاه فقال: أجب أميرَ المؤمنين، فقال: إياه أردتُ.

فلما دنا الراكبُ حَدَرَ(٧) لِثامَه، فإذا ليلى الأخيليّة(٨)، فأنشأت تقول:

معاوي لم أكَدْ آتيك تَهوِي ... برحْلٍ نحو ساحَتِك الركابُ

(١) تريد أنهما يأملان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان.
(٢) تبنك: أقام. (٣) معديًا: معينًا ناصرًا.
(٤) الرجعة: الرجوع.
(٥) الأغاني: ١٠ ـ ٧٤، مهذب الأغاني: ٤ ـ ٢٣٩، زهر الآداب: ٤ ـ ٧٣.
(٦) تروعه: تفزعه. (٧) حدر الشيء: أنزله.
(٨) هي ليلى الأخيلية بنت عبد الله؛ من بني الأخيل بن عامر؛ من النساء المتقدمات في الشعر، هويها توبة بن الحمير، وخطبها إلى أبيها، فأبى أن يزوجها إياه. توفيت نحو سنة ٨٠ هـ.

تجوبُ الأرضَ نحوك ما تأنّى[١] إذا ما الأكُمُ[٢] قَنّعها السرابُ
وكنتَ المرتجى، وبك استعاذت لِتُنعِشَها إذا بخل السحابُ

فقال: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يطلبُ إلى مثلِك حاجة، فتخيّر أنت. فأعطاها خمسين من الإبل، ثم قال: أخبريني عن مضر. قالت: فاخِرْ بمضَر، وحارب بقيس، وكاثِرْ بتميم، وناظر بأسد. فقال: ويحك يا ليلى؟ أكما يقولُ الناس كان تَوبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ليس كلُّ النّاسِ يقولون حقًّا! الناس شجرة بَغْيٍ، يحسدون النِّعم حيث كانت، وعلى مَنْ كانت، ولقد كان يا أمير المؤمنين سَبْط[٣] البَنَان، حديدَ اللسان، شجًى للأقران، كريم المخْبَر، عفيف المِئزَر، جميل المنظر، وهو يا أميرَ المؤمنين كما قلتُ له. قال: وما قلتِ له؟ قالت: قلتُ ولم أتعدّ الحق وعِلمِي فيه:

بعيد المدَى لا يبلغ القوم شَأْوَه ألدّ[٤] مِلَدٌّ يغلب الحقّ باطلُهْ
إذا حلّ ركب في ذراه وظلِّه ليمنعهم مما تخاف نوازله
حماهُمْ ينصل السيف من كلّ فادحٍ يخافونه حتى تموتَ خصائلُه[٥]

فقال معاوية: ويحك يا ليلى! يزعم الناس أنه كان عاهرًا فاجرًا! فقالت من ساعتها مرتجلة:

معاذ النُّهي قد كان ـ والله ـ توبةٌ جوادًا على العَلّات جمًّا نوافِلُه[٦]
أغرَّ خَفَاجيًا يَرَى البُخْل سُبَّة[٧] تُحَالِف كفّاه الندى وأناملُه
عفيفًا بعيد الهمّ صُلْبًا قناتُه جميلًا محيَّاه قليلًا غَوَائِله
وكان إذا ما الضيفُ أرغَى بعيره لديه، أتاه نَيْلُه وفواضله
وقد علم الجوع الذي كان ساريًا على الضيف والجيران أنك قاتِلُه
وأنك رَحْبُ البَاعِ يا توبَ بالقِرَى إذا ما لئيمُ القومِ ضافت مَنازله!
يبيت قرير العينِ مَنْ كان جارَه ويُضْحِي بخيرٍ ضيفه ومُنازله

---

(١) تأنى: تتأنى.
(٢) الأكم: جمع أكمه: الموضع يكون أشد ارتفاعًا من غيره.
(٣) سبط البنان: سخي.
(٤) اللدد: شدة الخصومة.
(٥) الخصيلة: كل لحمة فيها عصب.
(٦) جوادًا على العلات: أي على كل حال.
(٧) خفاجة: حيّ من بني عامر.

فقال لها معاوية: ويحك يا ليلى! لقد جُزتِ بتوبة قدره؛ فقالت: يا أمير المؤمنين والله لو رأيتَه وخبرته لعلمت أني مقصرة في نعته؛ لا أبلغ كُنْهَ ما هو أهله! فقال لها معاوية: في أي سنّ كان؟ فقالت: يا أمير المؤمنين:

أتته المنايا حين تمَّ تمامُه ... وأقْصر عنه كل قِرْن يُصاولهْ
وصار كليث الغاب يحمي عرينَه ... فترضى به أشبالُه وحلائلُه
عطوف حليم حين يطلب حِلْمه ... وسمّ زُعاف لا تصاب مقاتلُه

فأمر لها بجائزة، وقال: أيٌّ ما قلت فيه أشعر؟ قالت: يا أمير المؤمنين؛ ما قلت فيه أشعر؟ قالت: يا أمير المؤمنين؛ ما قلت شيئًا إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدْتُ حيث أقول:

جزى الله خيرًا ـ والجزاء بكفّه ... فتى من عُقَيْلٍ ساد غَير مكلّف
فتًى كانت الدنيا تَهُونُ بأسْرِها ... عليه فلم ينفكّ جمّ التصرفِ
ينالُ علياتِ الأمور بهَوْنة ... إذا هي أعْيَتْ كلّ خِرْق مُشَرَّفِ[1]

أُمّ[2]

دخل ابنُ الزّبير[3] على أُمّه[4] حين رأى من الناس ما رأى من خِذْلانهم، فقال: يا أُمّه؛ خَذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبقَ معي إلّا اليسير مِمّن ليس عنده مع الدفع أكثرُ من صبر ساعة، والقومُ يُعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيُكِ؟

فقالتْ: أنت والله يا بنيّ أعلم بنفسك؛ إن كنتَ تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعُو فامْضِ له، فقد قُتِلَ عليه أصحابُك، ولا تمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمانُ بني أُمية، وإن كنتَ إنما أردتَ الدنيا فبئس العبدُ أنت! أهلكتَ نفسَك وأهلكْتَ من

(١) الهونة: الرفق والسهولة. الخرق: السخي أو الظريف في سخاوة. مشرف: جعل له شرف.
(٢) تاريخ الطبري: ٧ ـ ٢٠٣، بلاغات النساء: ١٣٠، العقد الفريد: ٢ ـ ٢٧١.
(٣) عبد الله بن الزبير بن العوام؛ طلب الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، وبويع له في الحجاز والعراق واليمن، ومكث خليفة تسع سوات، ثم حاصره الحجاج بمكة. وقتل سنة ٧٣ هـ.
(٤) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهي من قريش، من فضليات نساء العرب، وأخت عائشة لأبيها توفيت سنة ٧٣ هـ. وهذه المحاورة كانت حين حاصر الحجاج ابن الزبير في مكة، وحين خذل عبد الله أعوانه.

قُتِل معك. وإن قلتَ: كنتُ على حق، فلما وَهَن أصحابي ضعفتُ؛ فهذا ليسَ فعلَ الأحرار، ولا أهل الدّين... وكم خلودُك في الدنيا! القتلُ أحسن! والله لضَرْبةٌ بالسيف في عِزٍّ أحبُّ إليّ من ضربةٍ بسوط في ذلّ. قال: إني أخاف إن قتلوني أن يُمثِّلوا بي! قالت: يا بنيّ؛ إن الشاة لا يضرُّها سلخُها بعد ذبحها.

فدنا ابنُ الزّبير، فقبّل رأسَها، وقال: هذا واللهِ رأيي؛ والَّذي قمتُ به داعيًا إلى يومي هذا، ما ركَنْتُ إلى الدنيا، ولا أحببتُ الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ أن الله تُسْتَحَلَّ حُرَمه، ولكنِّي أحببتُ أن أعلم رأيَكِ، فزدتنِي بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمّهْ فإنّي مقتول من يومي هذا، فلا يشتدّ حزنك، وسلِّمي لأمر الله؛ فإن ابنَك لم يعتمدْ إتيانَ منكَر ولا عملًا بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم الله، ولم يغدِرْ في أمان، ولم يتعمّد ظُلْم مسلم ولا مُعاهَد، ولم يبلغني ظلمٌ عن عمالي فرضيتُ به، بل أنكرتُه؛ ولم يكن شيءٌ آثرَ عندي من رضا ربي؛ اللَّهمَّ إني لا أقول هذا تزكيةً مني لنفسي؛ أنتَ أعلمُ بي ولكن أقوله تعزيةً لأمي لتسلوَ عني.

فقالت أمُّه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدَّمْتَني، وإن تقدَّمتُك فَفِي نفسي حَرَجٌ حتى أَنْظُرَ إلامَ يصير أمرُكَ. قال: جزاكِ الله يا أمّه خيرًا؛ فلا تَدَعِي الدُّعَاءَ لي قبلُ وبعدُ. فقالت: لا أدَعه أبدًا، فمن قتِل على باطل فقد قُتِلْتَ على حق! ثم قالت: اللهم ارحم طولَ ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبِرَّه بأبيه وبي، اللهم قد سلمتُه لأمرك فيه، ورضيتُ بما قضيتَ فأَثِبْنِي في عبد الله ثوابَ الصابرين الشاكرين.

ثم ودّعها وخرج، ولم يلبث أن قُتل رحمه الله!

التّلَطُّف فِي السُّؤَال[1]

دخلت امرأةٌ من هوازن على عبيد الله بن أبي بكرة[2]، فوقفت بين السِّماطَين[3]، وجعلت تُظْهِر وجهها مرة، وتستره أخرى؛ فلما أبصرها علم أنّ لها حاجةً؛ فقال لجلسائه: ما عليكم أن تقوموا حتى تقولَ هذه المرأة حاجتَها.

(١) غرر الخصائص الواضحة: ١٦٥.

(٢) عبيد الله بن أبي بكرة كان أجمل الناس وأشجعهم، ولاه الحجاج سجستان سنة ٧٨ هـ، ومات هناك.

(٣) السماطان: الصفان.

فتقدَّمت، وقالت: أصلح الله الأمير إني أتيتُك من أرضٍ شاسعةٍ، ترفعني رافعةٌ، وتخفضني واضعة؛ لملمّاتٍ قد أكلْن لحمي، وبَرَيْنَ عظمي فضاقَ بي البلدُ العريض. وقد جئتُ بلدًا لا أعرف فيه أحدًا، لا قرابة تكنفُني، ولا عشيرة تعرفني، بعد أن سألتُ أحياءَ العرب: مَنِ المرجوُّ نائلُه، المُعطَى سائلُه؛ فأُرسِلْتُ إليك، ودُللتُ عليك؛ وأنا - أصلحك الله - امرأةٌ قد هَلك عنها الوالد، وذهب عنها الطارف والتَّالِد، ومثلُك يسد الخلَّة، ويزيح العِلّة؛ فإما أن تُحسن صَفَدي[1] وتقيم أَوَدي، وإما أن تردّني إلى بلدي! فقال: بل أجمع لكِ كل ما ذكرت.

ثم أمر لها بعشرة آلاف درهم، وزادٍ وكسوة وراحِلَة.

نِسَاء بَنِي تميم[2]

قال الشَّعْبي: قال لي شُرَيح[3]: يا شَعبيّ؛ عليكم بنساء بني تميم، فإنّهنّ النساء! قلت: وكيف ذاك؟ قال: انصرفتُ من جنازة ذات يوم مُظْهِرًا[4]، فمررت بدور بني تميم، فإذا امرأة جالسة في سقيفة[5] على وسادة، وتُجاهها جارية رُؤْدة[6]، ولها ذُؤَابة على ظهرها كأحسن مَنْ رأيت من الجواري، فاستسْقيتُ - وما بي من عطش - فقالت: أيُّ الشراب أعجب إليك؟ ألنبيذ أم اللبن أم الماء؟ قلت: أيّ ذلك تيسّر عليكم. قالت: اسقوا الرجل لبنًا فإني إخالُه غريبًا. فلمّا شربت نظرت إلى الجارية فأعجبتني، فقلت: مَنْ هذه؟ قالت: ابنتي، فقلت: ومِمَّن؟ قالت: زينب بنت حُدير، إحدى نساء بني تميم. قلت: أفارغة أم مشغولة؟ قالت: بلْ فارغة. قلت: أتزوجينيها؟ قالت: نعم، إن كنت كفئًا؛ ولها عمٌّ فاقصِدْه.

---

(١) الصفد: العطاء.

(٢) مهذب الأغاني: ٣ - ٨٠، المستطرف: ٢ - ١٩، العقد الفريد: ٤ - ٨٠، الأغاني: ١٦ - ٣٦ (طبعة الساسي).

(٣) هو شريح بن الحارث. أدرك الجاهلية، واستقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة، فأقام بها قاضيًا مدة طويلة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير امتنع من القضاء فيها، وكان أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء ومعرفة، وعقل وإصابة؛ كما كان شاعرًا محسنًا. توفي سنة ٨٧ هـ.

(٤) أظهر: دخل في الظهيرة، والظهيرة: حد انتصاف النهار.

(٥) السقيفة: الموضع المظلل.

(٦) الرؤدة: الشابة الحسنة.

وانصرفت إلى منزلي لأقيل فيه، فامتنعت منّي القائلة[١]، فأرسلتُ إلى إخواني القُرَّاء[٢]، ووافيتُ معهم صلاة العصر، فإذا عمُّها جالس، فقال: أبا أميّة! حاجتَك، قلت: إليك. قال: وما هي؟ قلت: ذُكِرتْ لي بنتُ أخيك زينب، فقال: ما بها عنك رغبة، ثم زوَّجنيها. وما بلغتُ منزلي حتى ندمتُ وقلت: تزوجت إلى أغلظ العرب وأجفاها! ثم هممت بطلاقها، ولكن قلت: أجمعُها إليّ، فإن رأيت ما أحبّ وإلّا طلقتها.

ثم مكثت أيامًا حتى أقبل نساؤها يُهادينها[٣]، ولما أدخلتْ قلت: يا هذه؛ إن من السنَّة إذا دخلت المرأة على الرجل أن يُصلّيَ ركعتين وتصلّي ركعتين، ويسألا الله خيرَ ليلتهما ويتعوَّذا به من شرِّها. فتوضّأتُ فإذا هي تتوضّأ بوضوئي، وصلّيت فإذا هي تصلّي بصلاتي، ولما قضينا الصلاة قالت لي: إنّي امرأة غريبة، وأنتَ رجل غريبٌ لا علمَ لي بأخلاقك، فبيّن لي ما تحبّ فآتيَه، وما تكره فأنزجرَ عَنه. فقلت: قدمْت خير مَقدَم؛ قدمت على أهل دارٍ، زوجُك سيد رجالهم، وأنت سيّدة نسائهم، أُحبُّ كذا وأكرهُ كذا، وما رأيتِ من حسنةٍ فابثثيها، وما رأيت من سيئة فاستريها.

قالت: أخبرني عن أُخْتَانك[٤] أتحبّ أن يزوروك؟ فقلت: إني رجل قاضٍ وما أحبّ أن تملُّوني. قالت: فمَنْ تحبّ من جيرانك يدخلُ دارك آذنُ له، ومَنْ تكرهُه أكرهُه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

وأقمت عندها ثلاثًا؛ ثم خرجتُ إلى مجلس القضاء؛ فكنت لا أرى يومًا إلا وهو أفضل من الذي قبله؛ حتى إذا كان رأس الحَوْل دخلتْ منزلي امرأة عجوز تأمر وتنهى. قلت: يا زينب؛ مَنْ هذه؟ قالت: أمي فلانة. قلت: حيَّاك الله بالسلام، قالت: أبا أمية؛ كيف أنت وحالُك؟ قلت: بخير، أحمدُ الله. قالت: أبا أميَّة، كيف زوجُك؟ قلت: كخير امرأة، قالت: إن المرأة لا تُرى في حال أسوأ خُلُقًا منها في حالين: إذا حظيت عند زوجها، وإذا ولدت غلامًا، فإن رابَك منها

---

(١) القائلة: نصف النهار، وقال قيلًا: نام فيه.
(٢) جمع قارىء، وهم الذين يقرؤون القرآن ويتلونه.
(٣) يقال: تهادت المرأة إذا تمايلت في مشيتها، وكل من فعل ذلك بأحد فهو يهاديه.
(٤) الختن: الصهر، أو كل من كان من قبل المرأة.

ريب فالسَّوط، فإن الرجال ما حازت ـ والله ـ بيوتُهم شرًّا من الورهاء[١] المتدللة[٢].

قلت: أشهد أنها ابنتُك، فقد كفيتِيني الرياضة، وأحسنت الأدب. قالت: أتحب أن يزورك أَخْتانُك؟ قلت: متى شاءوا.

قال شريح: فكانت كل حولٍ تأتينا وتوصي تلك الوصية، ثم تنصرف. ومكثتُ مع زينب عشرين عامًا، فما غضبتُ عليها قط إلا مرّة كنت لها فيها ظالمًا.

لَيلى الأخيليَّة عِندَ الحجّاج[٣]

قال مولًى من الموالي: كنت أدخل مع عَنْبَسَةَ بن سعيد بن العاص إذا دخل على الحجاج؛ فدخل يومًا، فدخلتُ إليهما، وليس عند الحجاج أحدٌ إلا عَنْبَسَة؛ فأقْعَدني، فجيء إلى الحجاجِ بِطَبَقٍ فيه رُطَب، فأخذ الخادمُ منه شيئًا، فجاءني به ثم جِيء بطبق آخر، حتى كَثُرَت الأطباق، وجعل لا يأتون بشيء إلَّا جاءني منه بشيء، حتى ظننتُ أن ما بين يديَّ أكثرُ مما عندهما.

ثم جاء الحاجبُ؛ فقال: امرأةٌ بالباب؛ فقال له الحجاج: أدْخِلها، فدخلت، فلما رآها الحجاج طَأْطَأَ رأسه حتى ظننتُ أن ذقنَه قد أصاب الأرض؛ فجاءتْ حتى قعدت بين يديه؛ فنظرتُ فإذا امرأةٌ قد أسنّت، حَسَنَةُ الخَلْق، ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلى الأخيلية.

فسألها الحجاج عن نسبها فانتَسبَتْ له؛ فقال لها: يا ليلى؛ ما أتى بك؟ فقالت: إخلافُ[٤] النجوم، وقلّةُ الغيوم، وكَلَبُ[٥] البَرْدِ، وشدّة الجَهد؛ وكنتَ لنا بعد الله الرِّفد[٦].

---

(١) الورهاء: الحمقاء.

(٢) يقال: تدللت المرأة على زوجها؛ إذا رأته جراءة عليه كأنها تخالفه وما بها خلاف.

(٣) الأمالي: ١ ـ ٨٦: زهر الآداب: ٤ ـ ٧٦، مصارع العشاق: ١٨٥، الأغاني: ١٠ ـ ٧٨ (طبعة الساسي)، فوات الوفيات: ٢ ـ ١٧٦، المحاسن والأضداد: ٢٤٦، سمط اللآلي: ١ ـ ٢٨٠، أشعار النساء: ٣ ـ ٣٧.

(٤) إخلاف النجوم؛ تريد: أخلفت النجوم التي بها يكون المطر فلم تأت بمطر.

(٥) كلب المطر: شدته.

(٦) الرفد: المعونة والعطية.

فقال لها: صِفي لنا الفِجَاجَ[(١)]، فقالت: الفِجَاج مُغْبرَّة، والأرض مُقْشَعِرّة، والمَبركُ[(٢)] معْتَلّ، وذو العيال مُخْتلّ[(٣)]، والهالك لِلْقلّ[(٤)]، والناس مُسْنِتُون[(٥)]، رحمةَ الله يَرْجُون؛ وأصابَتْنا سِنون مُجْحِفة[(٦)] مبْلِطة[(٧)]، لم تَدَعْ لنا هُبَعًا[(٨)] ولا رُبَعًا، ولا عافِطَةً[(٩)] ولا نافِطة، أَذْهبتِ الأموال؛ ومزّقت الرجال، وأهلكت العيال.

ثم قالت: إنّي قلت في الأمير قَولًا، قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أحجَّاج لا يُفْلَلْ سلاحُك[(١٠)] إنّها الـ — ـمنايا بكفّ الله حيثُ تَراها
أحجّاجُ لا تُعْطِ العُصاةَ مُنَاهُمُ — ولا اللهُ يُعْطِي للعصاة مُناها
إذا هبط الحجاجُ أرضًا مريضةً — تتبّع أقْصى دائِها فَشفاها
شفاها من الداء العُضَال الذي بها — غلامٌ إذا هَزَّ القناةَ سقاها
سقاها فروَّاها بشرْب سِجَاله[(١١)] — دماءَ رجالٍ حيث مال حَشَاها
إذا سمع الحجاج رِزَّ[(١٢)] كتيبة — أعدَّ لها قبل النزول قِرَاها
أعدَّ لها مسمومةً فارسيَّة — بأيدي رجال يَحْلُبون صَرَاها[(١٣)]
فما ولَدَ الأبكار والعونُ[(١٤)] مثلَه — ببحرٍ ولا أرضٍ يجفُّ ثراها

فلما قالت هذا البيت، قال الحجاج: قاتلَها الله! والله ما أصاب صفتي شاعرٌ مذ دخلتُ العراق غيرها.

ثم التفتَ إلى عنبسة بن سعيد، فقال: والله إني لأعدُّ للأمر عُدَّته، عسى ألّا يكون أبدًا. ثم التفت إليها، فقال: حسبك!

---

(١) الفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين.
(٢) المبرك: أرادت الإبل؛ فأقامت المبرك مكانها.
(٣) ذو العيال مختل: أي محتاج، والخلة: الحاجة.
(٤) الهالك للقل: من أجل القلة. (٥) مسنتون: مقحطون.
(٦) السنة المجحفة: التي تجحف بالقوم قتلًا وإفسادًا للأحوال، أو مضرة بالمال.
(٧) مبلطة: ملزقة بالبلاط؛ تريد مهلكة.
(٨) الهبع: ما نتج في الصيف، والربع: ما نتج في الربيع.
(٩) العافطة: الضأن، والنافطة: الماعزة. (١٠) السلاح: يذكر ويؤنث.
(١١) السجال: جمع سجل، وهو الدلو العظيمة. (١٢) الرز: الصوت تسمعه من بعيد.
(١٣) الصرى: البقية. قال في السمط عند تفسير هذا البيت: تعني نصال الرماح والسهام كأنها مسقية، من أصابته لم ينج دنها.
(١٤) العون: جمع عوان، وهي التي كان لها زوج.

قالت: إنّي قد قلت مَن هذا! قال: حسبك، ويحك! حسبك.

ثم قال: يا غلام؛ اذهب إلى فلان؛ فقل له: اقطعْ لسانها، فذهب بها، فقال له: يقولُ لك الأمير: اقطعْ لسانها!

فأمر بإحضار الحجّام؛ فالتفتت إليه فقالت: ثكِلَتْكَ أُمُّك! أما سمعتَ ما قالت! إنما أمرك أن تقطعَ لساني بالصلة، فبعث إليه يستَثْبِته؛ فاستشاط الحجاج غضبًا، وهمَّ بقطعِ لسانه، وقال: ارْدُدْها. فلما دخلَتْ عليه قالت: كاد والله يقْطع مقْولي، ثم أنشأتَ تقول:

حــجَّــاجُ أنــت الــذي مــا فــوقَــه أحــدُ
إلا الــخــلــيــفــةُ والــمــســتَــغــفَــرُ الــصَّــمَــدُ
حــجّــاجُ أنــت شــهــابُ الــحــرب إن لَقِــحــت[1]
وأنــت لــلــنــاس نــورٌ فــي الــدُّجــا يَــقِــدُ

ثم أقبلَ الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون مَنْ هذه؟ قالوا: لا والله أيُّها الأمير، إلا أنَّا لم نرَ قطُّ أفصح لسانًا، ولا أحسنَ محاورة، ولا أملحَ وجهًا، ولا أرصنَ شعرًا منها.

فقال: هذه ليلى الأخيلية، التي مات تَوْبة الخفاجيُّ من حبها، ثم التفتَ إليها؛ فقال: أنشدينا يا ليلى بعضَ ما قال فيك توبة.

قالت: نعم أيّها الأمير، هو الذي يقول:

وهل تَبْكِيَنْ ليلَى إذا مُتّ قبلَها وقام على قبري النساءُ النوائحُ؟
كما لو أصاب الموتُ ليلى بكَيْتُهَا وجادَ لها دمعٌ من العين سافحُ[2]
وأُغْبَطُ من لَيْلَى بما لا أنالُه بلى، كلّ ما قرَّت به العينُ طائح
ولو أنَّ لَيْلَى الأخْيَلِيَّة سلّمتْ عَلَيّ؛ ودوني جَنْدَلٌ وصفائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقا إليها صدًى من جانب القبر صائح

(١) أصله من لقحت الإبل؛ إذا حملت. والحرب إذا عظمت تتولد عنها الأمور التي لم تكن تحتسب (الخزانة ـ ١ :٤٢٦).
(٢) سافح: منصب.

فقال: زيدينا من شعره يا ليلى، قالت: هو الذي يقول:

حمامةَ بَطْنِ الوَادِيَيْنِ ترنَّمي ... سقاكِ من الغُرّ الغوادي[١] مَطِيرها
أَبِيني لنا، لا زَالَ ريشُكِ ناعمًا ... ولا زلتِ في خضراءَ غضٌّ نَضِيرُها
وكنتُ إذا ما زرتُ ليلى تَبَرْقَعَتْ ... فقد رابني منها الغَدَاةَ سُفُورُها
وقد رابني منها صدودٌ رأيتُه ... وإعراضُها عن حاجتي وبُسُورُها[٢]
وأُشْرِف بالقُورِ[٣] اليَفَاع لعلّني ... أرى نارَ ليلى أو يراني بصيرُها
يقول رجالٌ: لا يضيرُك نَأْيُها ... بلى! كل ما شفَّ[٤] النفوس يَضِيرُها
بلى! قد يضيرُ العينَ أن تكثِرَ البُكا ... ويُمْنَعَ منها نومُها وسرورُها
وقد زعمتْ ليلى بأنّيَ فاجرٌ ... لنَفْسي تُقَاها، أو[٥] عليها فُجُورُها

فقال الحجّاج: يا ليلى؛ ما الذي رَابَه من سُفورك؟ فقالت: أيّها الأمير؛ كان يُلم بي كثيرًا؛ فأرسل إليَّ يومًا: إني آتيكِ، وفَطِن الحي؛ فأرصدوا له، فلمّا أتاني سَفَرْت عن وجهي، فعلم أن ذلك لشرّ؛ فلم يزد على التسليم والرجوع.

فقال: للهِ درُّك! فهل رأيتِ منه شيئًا تكرهينه؟ فقالت: لا والذي أسأله أن يصلحك، غير أنّه قال مرة قولًا ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر، فأنشأتُ أقول:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَه ... وأنت لأخرى صاحبٌ وخليل

فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ما رأيتُ منه شيئًا، حتى فرَّق الموت بيني وبينه. قال: ثم مَه؟ قالت: ثم لم يلبث أن خرج في غزاةٍ له، فأوصى ابنَ عمّ له: إذا أتيت الحاضر من بني عبادة، فنادِ بأعلى صوتك:

عفا الله عنها، هل أبيتَنَّ ليلةً ... من الدهر لا يسري إليَّ خيالها!

---

(١) الغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة.
(٢) بسورها: عبوسها.
(٣) القور: جمع قارة، وهي الأرض ذات الحجارة السوداء: والبقاع كسحاب: التل.
(٤) شفه الهم: هزله.
(٥) أو هنا بمعنى الواو.

وأنا أقول:

وعنه عفا ربي وأحسن حاله　　فعزّت علينا حاجةٌ لا ينالُها

قال: ثم مه! قالت: ثم لم يلبث أن مات؛ فأتانا نَعْيُه.

فقال: أنشدينا بعض مَرَاثيك فيه، فأنشدت:

لتَبْكِ العَذَارَى من خفاجةَ نِسْوَةٌ[١]　　بماء شؤون العَبْرَة المتَحَدِّرِ

قال لها: فأنشدينا؛ فأنشدته:

كأن فتى الفتيان تَوْبَة لم يُنِخْ　　قلائصَ يفحصن الحصى بالكَرَاكرِ[٢]

فلما فرغت من القصيدة، قال محصن الفَقْعَسي[٣] - وكان من جلساء الحجاج: من الذي تقول هذه هذا فيه؟ فوالله إني لأظنها كاذبة! فنظرت إليه، ثم ردّت عليه ردًّا شديدًا، فقال الحجاج: هذا وأبيكَ الجواب، وقد كنتَ عنه غنيًّا.

ثم قال لها: سلي يا ليلى تُعْطَيْ، قالت: أعْطِ، فمثلُكَ أعطى فأحسن، قال: لك عشرون، قالت: زد فمثلك زاد فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد فمثلك زاد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت: زد، فمثلك زاد فتمّم، قال: لك مائة، واعلمي أنها غنم، قالت: معاذ الله أيها الأمير! أنت أجْوَدُ جُودًا، وأمجد مجدًا، وأوْرَى زَنْدًا، من أن تجعَلها غنمًا. قال: فما هي؟ ويحك يا ليلى! قالت: مائة من الإبل برُعاتها. فأمر لها بها.

ثم قال: ألك حاجة بعدها؟ قالت: تدفع إليَّ النابغة الجعدي، قال: قد فعلت، وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك؛ فخرج هاربًا عائذًا بعبد الملك. فاتبعته إلى الشام، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخُراسان، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فماتت بقُومِس[٤].

---

(١) نسوة: تبيين، وارتفاعه بفعل مضمر، كأنها قالت تبكيه نسوة. وفي هامش الأمالي: «لعله المتحادر بالألف قبل الدال لتستقيم القافية».

(٢) الكركرة: رحى زور البعير، أو صدر كل ذي خف، وتفعل الإبل ذلك في شدة الحر يطلبن برد الماء لينلنه.

(٣) كان محصن الفقعسي من جلساء الحجاج.　(٤) صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل.

الحجّاج يُخالِف سَجَاياه(١)

خرج زيد بن شبيب الشيبانيّ في أيام عبد الملك بن مرْوان، فظفر به الحجاجُ وبأصحابه، وجَعَل يقتل كل مَقْدُور عليه منهم، فلمّا كان آخر الأمر قُدّم إليه رجلٌ منهم، له سَمْت ورُواء وهيئة.

فلما همّ الحجاج بقتْله سمع ضجةً بالباب؛ فقال لحاجبه: ما هذه الضجّة؟ قال: نِسوة في الباب يسأَلْن الدخولَ على الأمير. فقال الحجاج: ائذن لهنّ بالدخول؛ فدخلْنَ وهنّ ثلاث وعشرون امرأة، كلُّهن أهل بيت هذا الرجل الذي همَّ الحجاج بقتله، فقال لهن الحجاج: ما حاجتكنّ؟ فتقدمت امرأةٌ منهنّ فقالت: أصلحَ اللهُ الأمير! إن رأيت أن تجود باستماع ما أقول! فقال لها: قولي ما أحببت، فقالت:

أحـجّـاجُ إمّـا أَنْ تـمـنَّ بِـتَـرْكـه ... عـلـيـنـا وإمّـا أن تُـقَـتِّـلَـنَـا مَـعَـا
أحجاج لـو تـشـهـد مقام بـنـاتـه ... وعـمّـاتِـه يـنـدبَـنـه الـلـيـل أجـمـعَـا
أحـجـاج لا تـفـجـع بـه إن قـتـلـتَهُ ... ثـمـانًـا وتـسـعًـا واثـنـتـيـن وأربـعَـا
فَـمـنْ رجـلٌ دانٍ يـقـومُ مَـقَـامَـه ... علينا فمهلًا لا تَزِدْنَا تَضَعْضُعَا

فلانَ الحجاج لقولها، ووجد رقةً عليهن، وعفا عنه وأطلقه، وزَاد في عطائه مائة دينار، وكتب كتابًا إلى عبد الملك يذكرُ له خبرَه وخبرَ النسوة والمرأة وشِعْرَها، وأنه قد رَقَّ لهن، وأطلقَه وزاد في عطائه مائة دينار.

فكتب إليه عبد الملك يحمده على ذلك، وأمره أن يزيدَه مائة أخرى في عطائه.

أَسَدٌ عَليَّ وَفِي الحُروب نَعامةٌ(٢)

قَدِمَ الحجاج على الوليد بن عبد الملك؛ فدخل وعليه دِرْع وعمامة سوداء، وقَوْس عربيّة وكنانة، فبعثت إليه أمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فقالت: مَنْ

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١١٨، المحاسن والمساوىء: ٦٠٢ (طبع ليبزج)، المستطرف: ١ ـ ١٩٥.

(٢) ابن أبي الحديد: ٢ ـ ٤٠، بلاغات النساء: ١٢٤، عيون الأخبار: ١ ـ ١٦٩.

هذا الأعرابي المُسْتَلْئِم[١] في السلاح عندك، وأنتَ في غِلالة[٢]! فبعث إليها: إنّه الحجاج.

فأعادت الرسول إليه، فقال: تقول لك: والله لأَنْ يخلُوَ بك ملكُ الموت أَحَبُّ إليَّ من أن يخلوَ بك الحجّاج! فأخبره الوليد وهو يمازحه؛ فقال: يا أميرَ المؤمنين: دَعْ منك مُفَاكَهة النساء بزخْرف القول؛ فإنّما المرأة ريحانة، وليست قَهرَمانة[٣]؛ فلا تُطْلعها على سرِّك، ومكايدة عدوِّك.

فلما دخل الوليد أخبرَها بمقالة الحجاج؛ فقالت: يا أمير المؤمنين؛ حاجتي إليك أن تأمره غدًا بأن يأتيني مُسْتلئمًا، ففعل ذلك.

وأتاه الحجاج؛ فحجبته ثم أدخلته ولم تأذنْ له في القعود، فلم يزلْ قائمًا، ثم قالت: إيه يا حجّاج! أنت الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتال ابنِ الزُّبير وابْنِ الأشعث! أما والله لولا أن الله عَلِمَ أنك شرُّ خَلْقِهِ ما ابْتَلَاكَ برمي الكعبة الحرام، ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين[٤]؛ أوّل مولود في الإسلام.

وأمّا نهيُك أميرَ المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ أوطاره، فإن كُنَّ يَلِدْنَ مثلكَ فما أحقه بالقبول منك، وإن كن يلدْن مثله فهو غير قابل لقولك. أمَا والله لقد نَفَضَ نساءُ أميرِ المؤمنين الطيبَ من غدائرهن والْحَلْيَ من أيديهن وأرجلهن فبِعْنَه في أعطية أهل الشام، حين كنتَ في أضيقَ من القَرَن[٥]، فقد أظَلَّتك رماحهم، وأثخنك[٦] كفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهم؛ فأنجاك اللهُ من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه؛ قاتل الله القائل حين نظر إليك وسِنان غَزَالة[٧] بين كتفيك:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نَعَامةٌ فَتْخَاءُ تنفِرُ من صفير الصّافرِ[٨]
هلّا كرَرْت على غَزَالة في الْوَغَى بل كان قَبْلُكَ في جَوَانحِ طائر

(١) استلأم الرجل؛ إذا لبس ما عنده من عدة: رمح وبيضة ومغفر وسيف ونبل.
(٢) الغلالة: شعار تحت الثوب.
(٣) القهرمان: هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس.
(٤) ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر، سميت بذلك لأنها شقت نطاقها ليلة خروج النبيّ ﷺ إلى الغار، فجعلت واحدة لسفرة النبيّ، والأخرى عصامًا لقربته.
(٥) القرن هنا: الجعبة من جلود تكون مشقوقة ثم تخرز.
(٦) أثخن: غلب وقهر.
(٧) غزالة: امرأة شبيب الخارجي.
(٨) يقال ناقة فتخاء: ارتفعت أخلافها قبل بطنها؛ وهو ذم.

ثم قالت لجواريها: أَخْرِجْنَه؛ فأُخرج!

فدخل على الوليد، فقال: ما كنتَ فيه يا حجاج؟ قال: يا أمير المؤمنين: ما سكتت حتى ظننت نفسي قد ذهبت، وحتى كان بطن الأرض أحبَّ إليّ من ظهرها، وما ظننت أن امرأة تبلغ بلاغتها، وتحسن فصاحتها! قال: إنها بنت عبد العزيز!

الشعَراء عِندَ سكينَة بنت الحسَين[١]

اجتمع الفرزدقُ وجميل وجرير ونُصيب وكُثيّر في موسم من المواسم، فقال بعضهم لبعض: والله لقد اجتمعنا في هذا الموسم، وما ينبغي لنا أن نتفرّق إلّا وقد تابعَ لنا في الناس شيء نُذْكَرُ به. فقال جرير: هل لكم في سُكينة بنت الحسين، نقصدها فنسلمَ عليها؛ فلعل ذلك يكون سببًا لبعض ما نريد! فقالوا: امضُوا بنا. فمكثوا أيامًا، ثم أذنت لهم، فدخلوا عليها وقعدت لهم حيث تراهم ولا يَروْنها، ثم أخرجت لهم وصيفة لها وضيئة، وقد رَوَتِ الأشعار والأحاديث، فأَقرأها كلّ منهم السلام فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت الذي تقول:

أبِيتُ أُمَنّي النفسَ أَنْ سوف نلْتقي ... وهلْ هُوَ مَقْدُورٌ لنفسي لقاؤها
فإن أَلْقَهَا أو يجمعِ الدهرُ بيننا ... ففيها شفاءُ النفس منها ودَاؤها

قال: نعم! قالت: قولُك أحسنُ من منظرك! وأنت القائل:

ودَّعْـنَـنِـي بـإشـارةٍ وتـحـيَّـةٍ ... وتـركْـنَـنِـي بـيـن الـديـارِ قـتـيـلَا
لـم أَسْتطعْ ردَّ الـجوابِ عليهمُ ... عـنـد الـوَدَاعِ ومـا شَـفَـيْـنَ غَـلِـيـلَا
لو كنتُ أملِكُهُمْ إذنْ لم يبرَحُوا ... حـتـى أُوَدِّعَ قَـلْـبـيَ الـمـخـبـولَا

قال: نعم، قالت: أحسنتَ، أحسنَ اللهُ إليك! وأنت القائل:

هُـمَـا دَلّتَـانـي مـن ثـمـانـيـن قـامـةً
كـمـا انـقـضّ بـازٍ أقـتـمُ الـريـشِ كـاسِـرُهْ[٢]

---

(١) المحاسن والمساوىء: ٢٣٤ (طبع ليبزج)، مصارع العشاق: ٢٧٢، الأغاني: ١٤ ـ ١٩٦ (طبعة الساسي)، الموشح: ١٥٩.

(٢) كسر الطائر جناحية: إذا ضم منهما شيئًا، وهو يريد الوقوع أو الانقضاض.

فلما استوتْ رجلايَ في الأرضِ نَادَتَا:
أحيٌّ فيُرْجَى أم قتيلٌ نحاذِرُهْ!
فقلت: ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا
وولّيتُ في أَغْقَابِ ليلٍ أبادِرُهْ

قال: نعم، قالتْ: سَوْءَةً لك! فما دعاك إلى إفشاءِ سرِّها وسرِّك! هلا سترتَ عليها وعلى نفسك! فضرب بيده على جَبْهَتِهِ، وقال: نعم، فسوءة لي!

ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت: أيّكم جرير؟ فقال: هأنذا؛ قالت: أنت القائل:

رُزِقْنَا به الصَّيْدَ الغزيرَ ولم نكُنْ كَمنْ نَبلُهُ محرومة وحبائِلُهْ
فهيهات هيهات العقيقُ ومَنْ به وهيهات حيٌّ بالعقيق نوَاصِلُهْ

قال: نعم، قالت: أحسنَ اللهُ إليك، وأنتَ القائل:

كأنّ عيونَ المُجتَلين تعرَّضَتْ وشمْسًا تجَلَّى يوم دَجْنٍ سَحَابُها[1]
إذا ذُكرَتْ لِلْقَلْب كاد لذِكْرِهَا يطيرُ إليها واعْتَرَاهُ عذابُها

قال: نعم، قالت: أحسنتَ! وأنت القائل:

سَرَتِ العمومُ فبتْنَ غيرَ نِيامِ وأخُو الهموم يَرَومُ كلّ مَرامِ
ذُمَّ المنازِلَ بعد منزلةِ اللّوى والعيشَ بعد أولئك الأيّامِ
طَرَقَتكَ صائدةُ القلوبِ وليسَ ذا وقتَ الزيارةِ فارْجِعي بسلَامِ
لو كان عَهْدُكِ كالذي حدَّثتني لَوَصَلْت ذاك فكان غير رِمامِ
تُجْرِي السِّواك على أغرَّ كأَنَّهُ بَرَدٌ تحدَّرَ من مُتُونِ غَمَامِ

قال: نعم، قالت: سوءة لك! جعلتَها صائدةَ القلوب، حتى إذا أناخت ببابك جعلتَ دونها حجابًا! ألا قلت:

طَرَقَتْكَ صَائدَةُ القلوب فمرحبًا نفسي فداؤك فادْخُلي بِسَلامِ

قال: نعم! فسوءةً لي!

(١) الدجن: المطر الكثير.

ودخلت على مولاتها وخرجتْ، وقالت: أيّكم كثيّر؟ فقال: هأنذا! فقالت: أنت القائل:

وأَعْجَبَني يا عزَّ منك خلائِقٌ — حسانٌ إذا عُدَّ الخلائقُ - أَرْبَعُ
دُنُوُّكِ حتى يطمَع الصبُّ في الصِّبا — وقطْعُكِ أسْبابَ الصِّبَا حين تُقْطَعُ
وأنك لا تدري غريمًا مَطَلْتِهِ — أيشتَدُّ إن قاضاكِ أم يتضرَّعُ!
وأنك إن واصلت أَعْلَمْتِ بالذي — لديك فلم يُوجَدْ لكِ الدَّهْرَ مَطْمَعُ

قالت: نعم، قالت: أعطاك الله مُنَاكَ! وأنت القائل:

هنيئًا مريئًا غيرَ داءٍ مُخامر — لعزّةَ من أعراضنا ما اسْتَحَلّتِ
فما أنا بالدّاعي لعزّةَ بالجوى — ولا شامتٍ إنْ نَعْلُ عزَّةَ زلّتِ
وكنتُ كذي رجليْنِ رجلٍ صحيحةٍ — ورِجْل رَمى فيها الزمَانُ فَشلّتِ

قال: نعم، قالت: أحسن الله إليك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، وقالت: أيكم نُصَيْب؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت القائل:

ولولا أن يقالَ: صَبَا نُصَيْبٌ — لقلت: بِنفسِيَ النَّشأُ الصِّغَارُ[1]

قال: نعم! قالت: أحسنت وكرمت، إلا أنك صبوت إلى الصغار، وتركت الناهضات بأحمالها.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، وقالت: أيُّكم جميل؟ قال: أنا، قالت: أنتَ القائل:

لقد ذَرَفَتْ عيني وطَالَ سُفُوحُها — وأصبحَ منْ نَفْسِي سقيمًا صَحيحُها
ألا لَيتنا كُنَّا جميعًا وإن نَمُتْ — يُجَاوِرُ في المَوْتَى ضَرِيحي ضَرِيحُها
أظلُّ نَهَارِي مُسْتَهَامًا ويَلْتَقي — مع الليل رُوحي في المَنام ورُوحُها
فهل لِيَ في كِتْمانِ حُبِّيَ رَاحَةٌ! — وهل تَنْفَعَنّي بَوْحَةٌ لو أَبُوحُها؟

(١) النشأ: جمع ناشيء للمذكر وللمؤنث، وهو الحدث الذي جاوز حد الصغر.

قال: نعم! قالت: بارك الله عليك؛ وأنت القائل:

خليليَّ فيما عِشْتُما هل رأَيْتُمَا قتيلًا بكَى من حُبِّ قاتلِهِ قَبْلِي؟
أبيتُ مع الهُلَّاكِ ضيفًا لأهلها وأهْلِي قريبٌ مُوسِعُون ذَوُو فَضْلِ
فيا ربِّ إن تَهلِكْ بُثَيْنَةُ لا أَعِشْ فوَاقًا[١]، ولا أفرحْ بمالي ولا أهْلي
ويا ربِّ إن وَقَّيْتَ شيئًا فوقِّها حُتُوق المَنَايا، ربِّ واجمَعْ بها شَمْلي

قال: نعم! قالت: أحسنت. أحسن الله إليك، وأنت القائل:

ألَا ليتَ شِعْري هل أبيتنَّ ليلةً بوادِي القُرَى إني إذنْ لَسعِيدُ
لكلِّ حديث عندهُنَّ بَشَاشَةٌ وكلُّ قتيلٍ بينهنَّ شهيدُ
ويا ليتَ أيام الصِّبا كنَّ رُجَّعًا ودَهْرًا تولَّى يا بُثَيْنَ يَعُودُ
إذا قلتُ: ما بي يا بُثينةُ قاتلي من الحبِّ قالت: ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلتُ: رُدِّي بعض عقلي أعشْ به تناءتْ وقالت: ذاك منْكَ بعيدُ
فما ذُكِرَ الخِلَّان إلا ذكرْتها ولا البخلُ إلا قلتُ سوف تجودُ
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالبًا ولا حُبُّها فيما يبيدُ يبيدُ
يموت الهوَى مني إذا ما لقَيتُها ويحيا إذا فارقْتُها ويزيدُ

قال: نعم، قالت: لله أنت! جعلت لحديثها مَلَاحة وبشاشة، وقتيلها شهيدًا، وأنت القائل:

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودُني بثينةُ لا يخفى عليّ مكانُها

قال: نعم، قالت: قد رضيتَ من الدنيا أن تقودك بثينة وأنت أعمى أصم! قال: نعم.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، ومعها مُدْهُنٌ فيه غالية[٢]، ومنديل فيه كسوة، وصرةٌ فيها خمسمائة دينار فصبت الغالية على رأس جميل، حتى سالت على لحيته، ودفعت إليه الصرة والكسوة، وقالت: ابسط لنا العذر؛ أنت أشعرهم، وأمرتْ لأصحابه بمائة مائة.

---

(١) فواقًا: فترة. (٢) الغالية: الطيب.

الفَرزدق وَسكينة بنت الحسَين[١]

خرج الفرزدق حاجًّا؛ فلما قضى حجّه عدَل إلى المدينة، فدخل إلى سُكينة بنت الحسين، فسَلَّم، فقالت له: يا فرزدق، مَنْ أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، أشعرُ منك الذي يقول:

بنفسيَ مَنْ تجَنُّبُه عزيزٌ … عليّ ومَنْ زيارتُه لِمَامُ
ومَنْ أُمْسى وأُصبح لا أراهُ … ويطرُقُني إذا هجع النيامُ

فقال: أما والله لو أذنتِ لي لأسمعتُك أحسنَ منه. قالت: أقيموه؛ فأُخرج. ثم عاد إليها من الغد، فدخل عليها؛ فقالت: يا فرزدق، مَنْ أشعرُ الناس؟ فقال: أنا، قالت: كذبت، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول:

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ … ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ
كانت إذا هجر الضّجيعُ فراشها … كُتم الحديثُ وعفتِ الأسرار
لا يلبث القُرَنَاء أن يتفرّقوا … ليلٌ يكُر عليهمُ ونهارُ

فقال: والله لئن أذنتِ لي لأسمعنك أحسنَ منه، فأمرتْ به فأخرج.

ثم عاد إليها في اليوم الثالث، وحولَها موَلَّدَاتٌ لها كأنهن التماثيل؛ فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعْجِب بها، وبُهت ينظر إليها. فقالت له سكينة: يا فرزدق مَن أشعرُ الناس؟ قال: أنا؛ قالت: كذبت؛ صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إنّ العيون التي في طرفها مرَضٌ … قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يصْرعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَرَاك به … وهُنَّ أضعفُ خَلْقِ الله إنسانا

فقال: لئن تركتني لأسمعنَّك أحسنَ منه، فأمرت بإخراجه.

فالتفت إليها، وقال: يا بنت رسول الله، إن لي عليك حقًّا عظيمًا. قالت: وما هو؟ قال: ضربتُ إليك آباط الإبل من مكّة إرادَة التسليم عليك، فكان جزائي من ذلك تكذيبي وطَرْدي، وتفضيلَ جرير عليّ، ومنعك إياي أن أُنشدَك شيئًا من

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ٣٨ (طبعة دار الكتب)، مصارع العشاق: ٧٤، المحاسن والمساوىء: ٢٣٣ (طبع ليبزج).

شعري، وبي ما قد عيلَ منه صبري؛ وهذه المنايا تغدو وتروح، ولعلّي لا أفارقُ المدينة حتى أموت، فإذا أنا متّ فمُري بي أن أُدرَج في كفني، ثم أُدفَن في ثياب هذه الجارية[١].

فضحكت سُكَينة وأمرت له بالجارية، فخرج بها آخِذًا بريْطَتِها[٢]؛ ثم قالت له: يا فرزدق، احتفظ بها وأحْسِنْ صحبتها، فإني آثرتُك بها على نفسي، بارك الله لك فيها.

قال الفرزدق: فلم أزل والله أرى البركة بدعائها في نفسي وأهلي ومالي.

يَوم عِندَ امرأة مِن بَنِي أميّة[٣]

خرج النُّصِيب هو وكُثَيِّر والأحوصُ غِبَّ يوم أمطرتْ فيه السماءُ، فقال: هل لكم في أن نركبَ جميعًا فنسيرَ حتى نأتي العَقيقَ، فَنُمَتِّعَ فيه أبصارَنا؟ فقالوا: نعم؛ فركبوا أفضَلَ ما يقدِرُون عليه من الدواب، ولبسوا أحسنَ ما يقدرون عليه من الثياب، وتنكروا ثم سارُوا حتى أتَوا العقيقَ، فجعلوا يتَصفَّحُون ويرون بعض ما يشتَهُون، حتى رُفِعَ لهمْ سوادٌ عظيم فأمُّوه، فإذا وصائفُ ورجالٌ من الموالي ونساءٌ بارزاتٌ، فسألْنَهم أن ينزلوا فاستحْيَوْا أن يُجيبوهنَّ من أول وهلةٍ؛ فقالوا: لا نستطيع أو نمضي في حاجةٍ لنا، فحلَّفْنهمْ أن يَرْجِعُوا إليهنَّ، ففعلوا أوتوْهنَّ فسألْنَهم النزول فنزلوا.

ودخلت امرأةٌ من النّساء فاستأذنتْ لهم، فلم تلبث أن جاءت المرأة فقالت: ادخلوا.

قال النُّصيب: فدخلنا على امرأة جميلة برْزَةٍ على فرشٍ لها، فرحَّبَتْ، وحَيَّتْ؛ وإذا كراسيُّ موضوعةٌ، فجَلَسْنا جميعًا في صفٍّ واحدٍ كلُّ إنسانٍ على كرسي، فقالت: إن أحببتم أن ندعوَ بصبيّ لنا فَنُصَيِّحه ونَعْرُكَ أُذنَه فعلنا، وإن شئتم بدأنا بالغَدَاء، فقلنا: بل تَدْعِين بالصبيّ، ولن يفوتَنا الغدَاء.

فأومأت بيدها إلى بعض الخدم، فلم يكن إلا كلَا ولَا حتى جاءت جارية جميلةٌ قد سُتِرتْ بمُطْرَفٍ، فأمسكوه عليها حتى ذهل بُهْرُها[٤]، ثم كُشِفَ عنها،

---

(١) يشير إلى الجارية التي أعجبته. (٢) الريطة: الملاءة.

(٣) الأغاني: ١ ـ ٣٥٦ (طبعة دار الكتب).

(٤) البهر في الأصل: انقطاع النفس من الإعياء، ويراد هنا: الخجل والروع.

وإذا جارية ذات جمالٍ، قريبةٌ من جمال مَوْلَاتِها، فرحَّبَتْ بهم وحَيَّتْهم، فقالت لها مولاتُها: خُذَي العود ويحك! وغني من قول النّصيب، عافَى الله أبا مِحْجَن!

أَلَا هل من البَيْنِ المُفَرق من بُدٌّ وهل مثلُ أيام بمُنْقطع[1] السَّعْدِ!
تَمَنَّيْتُ أَيَّامي أُولئكَ والمُنَى على عهد عادٍ ما تُعِيدُ[2] ولا تُبْدِي

فغنَّتْهُ، فجاءت به كأحسن ما سمعتُه قط؛ بأحلى لفظ وأشجى صوت، ثم قالت لها: خُذِي أيضًا من قول أبي مِحْجَن، عافى الله أبا محجن!

أرقَ المحبُّ وعاده سَهَدُهْ لِطَوارقِ الهمِّ التي تردُهْ
وذكرتُ من رقَّتْ له كبدي وأبَى فليس ترقُّ لي كبدُه
لا قَوْمُه قومي، ولا بلَدِي ـ فنكُونَ حينًا جيرةً ـ بلَدُهْ
ووجَدْتُ وجْدًا لم يكن أحدٌ قبْلِي منَ أجْلِ صبابةٍ يجِدُهْ
إلّا ابن عَجْلَانَ[3] الذي تبَلَتْ هندٌ ففاتَ[4] بنفسه كمَدُهْ

قال: فجاءت به أحسن من الأول، فكدت أطيرُ سرورًا، ثم قالت لها: ويحك! خذي من قول أبي محجن، عافى الله أبا محجن!

فيا لكَ من ليلٍ تمتّعتُ طُولَه وهل طائفٌ من نائم مُتَمَتَّعُ!
نعم إنّ ذا شَجْوٍ ـ متى يلقَ شجْوَه ولو نائمًا مُستعتبٌ[5] أو مودَّعُ
له حاجةٌ قد طَالمَا قد أسَرَّها من الناسِ في صدْرٍ بها يتصدَّعُ
تحمّلَها طُولَ الزمانِ لعلّها يكونُ لها يومًا من الدهرِ مَنْزِعُ
وقد قُرِعَتْ في أمّ عمرو لِيَ العصا قديمًا، كما كانت لذي الحِلْم تُقْرَعُ[6]

قال: فجاءت والله بشيء حيَّرني وأذهلني طربًا لحسن الغناء، وسرورًا باختيارها الغناء في شعري، وما سمعتُ فيه من حُسن الصَّنْعة وجَوْدتها وإحكامها.

---

(١) منقطع المكان: حيث ينتهي، والسعد: موضع قرب المدينة.
(٢) أي لا فائدة منها.
(٣) هو عبد الله بن عجلان، شاعر جاهلي عاشق؛ عشق هند بنت كعب بن عمر ومات في سبيلها، فضرب المثل بعشقه (تزيين الأسواق: ٢ ـ ٧٦).
(٤) أي أن الكمد أهلكه وذهب بنفسه. (٥) الاستعتاب: طلب العتبى وهو الرضا.
(٦) يشير إلى المثل: «إن العصا قرعت لذي الحلم» يضرب لمن إذا نبه انتبه، والمعنى أنه قد ليم قديمًا في حبها.

ثم قالت لها: خُذِي أيضًا من قول أبي محجن، عافى الله أبا محجن:

يا أيُّها الرّكبُ إني غيرُ تابعكمْ ... حتى تُلِمُّوا وأنتم بي مُلِمُّونا
فما أرى مثلكُمْ ركبًا كَشَكلكمُ ... يدعوهُمُ ذُو هوًى إلا بَعُوجُونا
أم خَبِّرُوني عن دائي بعلمكُم ... وأعلمُ الناسِ بالداء الأطَبُّونا[1]

قال نصيب: فوالله لقد زُهيتُ بما سمعت زهْوًا، خيّل إليّ أني من قُريش، وأن الخلافة لي، ثم قالت: حَسْبُكِ يا بُنيَّة، هاتِ الطعام يا غلام؛ فوثب الأحوصُ وكثيِّرٌ، وقالا: والله لا نَطْعَم لكِ طعامًا، ولا نجلس لكِ في مجلس، فقد أسأْتِ عِشْرَتَنا واستَخْفَفْتِ بنا، وقدَّمتِ شعر هذا على أشعارنا، واستمعت الغناء فيه؛ وإن في أشعارنا لَمَا يَفْضُل شعرَه، وفيها من الغناء ما هو أحسنُ من هذا، فقالت: على معرفةٍ كلُّ مَا كان منيّ!

ثم خرجا مُغْضَبَيْنِ واحْتَبَسَتْنِي. فتغدّيت عندها، وأمرتْ لي بثلاثمائة دينار وحُلّتَيْنِ وطيبٍ، ثم دفعتْ إليَّ مائتي دينار، وقالت: ادفعها إلى صاحبيك، فإن قَبِلَاها وإلا فهي لك.

فأتيتُهما منازلَهما فأخبرتهما القصة، فأمّا الأحوص فقَبِلها، وأما كثُيِّر فلم يقبلها وقال: لعن الله صاحبتَك وجائزتها ولعنك معها، فأخذتها وانصرفتُ.

قال الراوي: فسألتُ النصيب: مِمَّن المرأةُ؟ قال: من بني أميّة، ولا أذكر اسمها ما حييتُ لأحد.

حَديث عَائِشة بنت طلحَة مَع النُّمَيرِي[2]

لمّا تَأَيَّمَتْ[3] عائشةُ بنتُ طلحة كانت تقيم بمكّة سنةً وبالمدينة سنة؛ وتخرج إلى مالٍ[4] عظيم لها بالطائف، وقصرٍ كان لها هناك فتتنزّه فيه، وتجلس بالعشيّات، فيتناضَلُ بين يديها الرُّماة.

---

(١) الأطبون: البارعون في الطلب. (٢) الأغاني: ٦ - ٢٠٣ (طبعة دار الكتب).

(٣) تأيّمت المرأة: إذا مات عنها زوجها ولم تتزوج. وقد كانت عائشة عند عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر فهلك عنها فتزوجها بعده مصعب بن الزبير فقتل عنها، ثم تزوجها عمر بن عبد الله بن معمر، فمات عنها، فلم تتزوج بعده. توفيت سنة ١١٠.

(٤) المال: ما ملكه الإنسان من كل شيء.

فمرّ بها النُّميريّ الشاعر[١]، فسألتْ عنه فنُسب لها، فقالت: ائتوني به فأتَوْها به. فقالت له: أَنْشِدْني ممّا قلت في زينب[٢]؛ فامتنع عليها وقال: تلك ابنةُ عمّي، وقد صارت عظامًا بالية، قالت: أقسمتُ عليك بالله إلّا فعلتَ؛ فأنشدها قوله:

تَضَوّعَ مِسكًا بطنُ نَعْمان[٣] إذ مشت ... به زينبٌ في نسوةٍ عَطِراتِ
تهادَيْنَ ما بين المُحَصَّبِ[٤] من مِنًى ... وأقبلْنَ لا شُعثًا ولا غَبِرَاتِ
أعَان الذي فوق السمٰوات عرشُه ... مَواشيَ بالبطحاء مُؤْتَجِرَاتِ[٥]
مرَرْنَ بفخٍّ[٦]، ثم رُحْنَ عشيَّةً ... يلبّين للرّحمٰن مُعْتمراتِ
يخبِّئْن أطرافَ البَنَان من التّقى ... وَيَقْتُلن بالألحاظ مُقْتَدِراتِ
تقسّمن لُبّي يوم نَعْمان إنّني ... رأيت فؤادي عارِم[٧] النّظَراتِ
جَلَوْنَ وُجُوهًا لم تَلُحْها سمائمٌ ... حَرُورٌ، ولم يُسْفَعْن بالسَّبَرات[٨]
ولمّا رأتْ ركْب النميريّ راعَها ... وكنّ مِنَ إنْ يلقَيْنَه حذراتِ
فأَدْنَيْن حتى جاوز الركبُ دونَها ... حجابًا من القَسّيّ[٩] والحِبَرَاتِ
فكِدْتُ اشتياقًا نحوها وصبابةً ... تقطّعُ أنفاسي إثْرَها حَسَراتِ
فراجعتُ نفسي والحفيظةَ بعدمَا ... بلَلْتُ رداء العَصب[١٠] بالعِبرات[١١]

---

(١) هو محمد بن عبد الله، من ثقيف، شاعر غزل مولد من شعراء الدولة الأموية. توفي سنة ٩٠ هـ.
(٢) هي زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج الثقفي، وللنميري فيها أشعار كثيرة: شبب بها في حياتها ورثاها بعد موتها.
(٣) بطن نعمان: موضع بين مكة والطائف. (٤) المحصب: موضع بين مكة ومنى.
(٥) مؤتجرات: طالبات للأجر. (٦) فخ: موضع؛ بينه وبين مكة ثلاثة أميال.
(٧) عارم النظرات: شديدها.
(٨) لاحته الشمس: لفحته وغيرت وجهه، والسمائم: جمع سموم وهي ريح حارة، وسفعته: غيرته. والسبرات: جمع سبرة وهي شدة البرد.
(٩) القسي: نوع من الثياب، والحبرات: ضرب من برود اليمن.
(١٠) العصب: برود يصبغ غزلها ثم تنسج.
(١١) رُوِيَ أن هذه القصيدة حينما بلغت عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج: «قد بلغني قول الخبيث في زينب، فاله عنه، وأعرض عن ذكره؛ فإنك إن أدنيته أو عاتبته أطمعته، وإن عاقبته صدقته».

فقالت: والله ما قلتَ إلّا جميلًا، ولا ذكرتَ إلا كرمًا وطيبًا، ولا وصفتَ إلا دِينًا وتقًى! أعطوه ألف درهم.

فلما كانت الجمعة الأخرى تعرّض لها؛ فقالت: عليّ به، فأحضر. فقالت له: أنشدني من شعرك في زينبَ، فقال لها: أو أُنشِدُك من شعر الحارث بن خالد فيك؟ فوثب مواليها إليه؛ فقالت: دعوه فإنه أراد أن يَسْتَقِيد[1] لبنت عمّه؛ هات مِمّا قال الحارث فيّ فأنشدها[2]:

ظعَنَ الأميرُ بأحسنِ الخلْق ... وغدا بلبّك مَطْلَع الشَّرْق

في البيت ذي الحسب الرفيع ومِنْ ... أهل التُّقَى والبرِّ والصّدق

ما صبَّحَتْ أحدًا برؤيتها ... إلّا غدا بكواكب الطَّلْقِ[3]

فقالت: والله ما ذكر إلّا جميلًا؛ ذكر أنّي إذا صبَّحتُ زوجي بوجهي غدا بكواكب الطَّلق، وأنّي غدوتُ مع أمير تزوَّجني إلى الشّرق، وأنّي أحْسَنُ الخلق في البيتِ ذي الحسبِ الرفيع؛ أعطوه ألف درهم واكْسُوه حلّتيْن، ولا تَعُدْ لإتْياننا بعد هذا يا نميريّ.

أتريد أن تقتلنِي![4]

أقبل أبو العباس السفاح على أخي أمّ سلمة بنت يعقوب، فسأله التزويج بها فزوجه إياها، فأصْدَقها خَمْسمائة دينار، وأهدى مائتي دينار، ودخل عليها من ليلته، وحظِيت عنده، وحلف ألا يتزوج عليها ولا يَتَسَرّى، وغلبت عليه غلبةً شديدة حتى ما كان يقطعُ أمرًا إلا بمشورتها وبأمرها، ثم أفضت الخلافةُ إليه، فوفَى لها بما حلف.

فلما كانَ ذات يوم في خلافته خلا به خالدُ بن صفوان؛ فقال: يا أمير المؤمنين إني فكرت في أمرك، وسعة ملكك، وقد ملّكْتَ نفسك امرأةً واحدة، فإن

---

(١) يأخذ بثأرها.

(٢) قال الحارث بن خالد هذه الأبيات حين تزوج مصعب بن الزبير عائشة، ورحل بها إلى العراق. والحارث بن خالد: أحد شعراء قريش المعدودين الغزلين، وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة في شعره، لا يتجاوز الغزل إلى المديح والهجاء إلا نادرًا.

(٣) يقال: يوم طلق؛ أي مشرق معتدل، وهو يريد: أن من تصبحه برؤيتها يرى اليوم طيبًا سعيدًا.

(٤) المحاسن والمساوىء: ٤٣٠ (طبع ليبزج)، ثمرات الأوراق: ٢ ـ ٢٩٢، المسعودي: ٢ ـ ٢١٥.

مرِضتْ مرضتَ، وإن تألمتْ أَلِمتَ، وحرمت نفسك الجواري، والتمتُّع بما تشتهي منهنّ؛ فإنَّ منهنّ ـ يا أمير المؤمنين ـ الطويلةَ الغَيْدَاء، وإنّ منهن الغضّةَ، والدقيقةَ السمراء، من مولدّات المدينة؛ ولو رأيتَ يا أميرَ المؤمنين الطويلة البيضاء، والسمراء اللَّعْسَاء[1]، من مولدّات البصرة والكوفة، وذوات الألسن العذبة والقُدُود المهفهفة، وحسن زيِّهنّ وزينتهنّ، وشكلهنّ لرأيت شيئًا حسنًا.

وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار، والنظر إلى ما عندهنّ من الحياء والتخفُّر!

وجعل خالد يجيد في الوصف، ويجدُّ في الإطناب، بحلاوة لفظه وجودة وصفه.

فلمّا فرغ قال له أبو العباس: ويحك يا خالد! ما صَكَّ مسامعي ـ والله ـ قطّ كلام أحسنُ مما سمعته، فأَعِدْ عليّ كلامك؛ فقد وقع مني موقعًا. فأعاد عليه خالد الكلام أحسن مما ابتدأه، ثم انصرف.

وبقي أبو العباس مفكرًا فيما سمع منه، فدخلت عليه أمّ سلمة امرأته. وكانت تبرّه كثيرًا، وتتحرى مسرّته وموافقته في جميع ما أراده ـ فقالت له: إني لأُنْكِرُك يا أمير المؤمنين؛ فهل حدث أمر تكرَهُه؟ أو أتاك خَبَر فارتعتَ له؟ قال: لم يكن من ذلك شيء!

قالت: فما قصَّتك؟ فجعل ينزوي عنها؛ فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له، فقالت: فما قلت له؛ إنه... قال: سبحان الله ينصحني وتشتمينه!

فخرجت من عنده مغضبة، وأرسلت إلى خالد بعض خدمها، وأمرتهم ألّا يتركوا منه عضوًا صحيحًا.

قال خالد: فانصرفتُ إلى منزلي، وأنا مسرور بما رأيتُ من أمير المؤمنين؛ وإعجابه بما ألقيته إليه. ولم أشكّ أن صلته ستأتيني، فلم ألبث حتى صار إليّ أولئك الخدم، وأنا قاعد على باب داري؛ فلما رأيتُهم قد أقبلوا نحوي أيقنتُ بالجائزة، حتى وقفوا علي؛ فسألوا عنّي؛ فقلت: هأنذا خالد؛ فسبق إليّ أحدهم بهراوة كانت معه، فلما أهوى بها إليّ وثبتُ فدخلتُ منزلي، وأغلقتُ الباب عليّ

---

(١) اللعس: سواد مشرب بحمرة.

واستترتُ، ومكثت أيامًا على تلك الحال لا أخرجُ من منزلي، ووقع في خَلدي أني أُتيتُ من قِبَل أمّ سلمة.

وطلبني أبو العباس طلبًا شديدًا، فلم أشعر ذات يوم إلّا بقومٍ قد هجموا عليَّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأيقنتُ بالموت.

ولما وصلت إلى الدار أومأ إليَّ بالجلوس، ونظرتُ فإذا خلف ظهري بابٌ عليه ستور قد أُرْخِيَت، وحركةٌ خلفها! فقال: يا خالد: لم أرك منذ ثلاث. قلت: كنتُ عليلًا يا أميرَ المؤمنين. قال: ويحك! إنك وصفت لي في آخر دَخْلَةٍ من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قطّ؛ فأَعِدْه عليّ.

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أنّ العرب اشتقّت الضَّرَّة من الضّرِّ، وأن أحدهم ما تزوج من النساءَ أكثرَ من واحدة إلا كان في جَهْدٍ[1]، فقال: ويحك! لم يكن هذا في الحديث، قلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأَثَافِيِّ[2] القدر يغلي عليهنّ. قال أبو العباس: برئتُ من قرابتي من رسول الله إن كنتُ سمعتُ هذا منك في حديثك! قلت: وأخبرتك أن الأربعة من النساء شرٌّ لصاحبهن يُشَيِّبْنَهُ ويُهَرِّمْنَه ويُسْقِمْنه. قال: ويلك! والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت. قلت: بلى والله، قال: وتلك! أَوَتكَذِّبني! قلت: وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين!

قال خالد: فسمعت الضحك من وراء الستر. قلت: نعم، وأخبرتك أيضًا أن بني مخزوم ريحانةُ قريش، وأنت عندك ريحانة من الرياحين، وأنت تطمع لعينيك إلى حرائر النساء وغيرهنّ من الإماء.

فقيل لي من وراء الستر: صدقتَ والله يا عمّاه وبَررت، بهذا حدَّثْتَ أميرَ المؤمنين، ولكنه بدّل وغيَّر، ونطق عن لسانك!

فقال أبو العباس: مالك قاتلك الله وأخزاك، وفعل بك وفعل!

فتركته وخرجت، وقد أيقنتُ بالحياة، فما شعرت إلا برسل أمّ سلمة قد صاروا إليَّ، ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت[3] وبِرْذَوْن وغلام.

(١) الجهد: المشقة.
(٢) الأثافي: جمع أثفية: وهي ما يوضع عليه القدر.
(٣) التخت: وعاء يصان فيه الثياب.

بَعدَ أن ذَهب الملك[١]

كانت الْخَيزُران أم الهادي والرشيد في دارها، وعندها أمّهاتُ أولادِ الخلفاء وغيرُهنّ من بنات بني هاشم؛ فبينما هي كذلك إذ دخلت عليها جارية من جواريها، فقالت: أعز الله السيدة! بالباب امرأةٌ ذاتُ حسنٍ وجمال، في أطمارٍ رثّة، وليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية، تأبى أن تُخبرَ باسمها، وهي تروم الدخول.

فقالت الخيزران للجارية: أدخليها، فإنه لا بد من فائدة أو ثواب، فدخلت امرأة ذاتُ بهاء وجمال، في أطمارٍ رثّة؛ فوقفت بجنب عُضَادة الباب ثم سلّمتْ متضائلة، وتكلمت فأوضحت عن بيان ولسان. فقالت: مَن أنت؟

قالت: أنا مزنة زوج مروان بن محمد، وقد أصارني الدهر إلى ما ترين، ووالله ما الأطمارُ الرثّةُ التي عليّ إلا عارية، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر، وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطةَ العامة ـ على ما نحن فيه من الضرر ـ على بَادِرَة إلينا تزيل موضع الشرف؛ فقصدناكم لنكونَ في حجابكم على أية حال كانت؛ حتى تأتيَ دَعوة مَن له الدعوة.

فاغرورقتْ عينا الخيزران بالدموع، ونظرت إليها زينب[٢] بنت سليمان بن علي فقالت: لا خفَّفَ الله عنك يا مُزْنة! أتذكرين وقد دخلتُ إليك وأنت على هذا البِساط بعينه، فكلمتُك في جثة إبراهيم الإمام، فانتهرْتِينِي، وأمرت بإخراجي، وقلتِ: ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم! فوالله لقد كان مَرْوانُ أرْعَى للحقّ منك! لقد دخلتُ إليه فحلَف إنّه ما قتَله ـ وهو كاذب ـ وخيّرني بين أن يدفنَه، أو يدفعَ إليّ جُثّته، وعرض عليّ مالًا فلم أقْبله.

فقالت مزنة: والله ما أدّاني إلى هذه الحال التي ترينها إلّا تلك الفِعال التي كانت مني، وكأنكِ استحسنْتِها، فحرضتِ الخيزران على مثلها؛ إنما كان يجب أن تحضّيها على فعلِ الخير، وتركِ المقابلة بالشر؛ لتُحْرزَ بذلك نعيمها، وتصونَ دينها

(١) ثمرات الأوراق: ١ ـ ٢١٨، المسعودي: ٢ ـ ٢٤٩.

(٢) كان المهدي قد تقدم إلى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان، وقال لها: اقتبسي من آدابها، وخذي من أخلاقها، فإنها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا.

ثم قالت لزينب: يا بنت عم؛ كيف رأيت صَنيع الله بنا في العقوق، أفأحببتِ التأسي بنا! ثم ولّت باكية.

فأشارت الخيزران إلى جاريةٍ من جواريها، فعدلت بها إلى بعض المقاصير، وأمرت بتغيير حالها والإحسان إليها.

فلما دخل المهدي عليها ـ وقد انصرفت زينب ـ قصّت الخيزران عليه قصتها، وما أمرت به من تغييرِ حالها؛ فدعا بالجارية التي ردَّتها، فقال لها لمَّا رددتِها إلى المقصورة: ما الذي سمعتِها تقوله؟ قالت لحقتُها: وهي تبكي في خروجها، وتقرأ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: الآية ١١٢].

ثم قال للخيزرانُ: والله لو لم تفعلي بها ما فعلت ما كلمتك أبدًا، وبكى بكاءً كثيرًا، وقال: اللهمّ إني أعوذ بك من زوال النعمة!

ثم بعث جارية إلى مقصورتها التي أخْلِيَتْ لها، وقال للجارية: اقرئي عليها السلام، وقولي لها: يا بنت عم؛ إن أخواتك قد اجتمعن عندي، ولولا أني ابن عمك لجئناك!

فلما سمعت الرسالة علمت مرادَ المهدي، فجاءت تسحب أذيالها فأمرها بالجلوس، ورحّب بها ورفع منزلتها.

ثم تذكروا أخبار أسلافهم، وأيام الناس والدولة وتنقّلها؛ فما تركت لأحد في المجلس كلامًا!

فقال لها المهدي: يا بنت عمّ؛ والله لولا أني لا أحب أن أجعلَ لقوم أنتِ منهم في أمرنا شيئًا لتزوّجتك، ولكن لا شيء أصْون لك من حجابي، وكونُك مع أخواتك في قصْري؛ لك ما لهنّ، وعليك ما عليهنّ، إلى أن يأتيك أمرُ مَنْ له الأمر فيما حكم به على الخلق.

ثم أخْدَمها[١] وأجَازها، فأقامت في قصره إلى أن قضَى المهدي والهادي، ومضى صَدْر من أيام الرشيد وماتت في خلافته؛ فجزع عليها جزعًا شديدًا.

---

(١) أخدمت فلانًا. أعطيته خادمًا يخدمه.

أُمّ أمير المؤمنين بالبَاب(١)

كانت أُم جعفر بن يحيىٰ أرضعت الرشيد مع جعفر، لأنه كان رُبِّي في حِجْرها، وغذِّي برِسْلِها إذْ أنّ أمه ماتتْ عن مَهْدِه، فكان الرشيد يشاورها، مُظهرًا لإكرامها، والتبرُّك برأيها. وكان آلى - وهو في كَفالتها - ألّا يحجبَها، ولا استشفعته لأحد إلّا شفّعها، وآلت عليه أم جعفر ألّا دخلتْ عليه إلّا مأذونًا لها، ولا شفعت لأحدٍ مقترف ذَنْبًا، فكم أسيرٍ فكّت، ومُبْهَم عنده فتحتْ، ومستغلق منه فَرَّجَت!

وتغيّر الرشيد على البرامكة، فقتل جعفرًا، وسجن يحيىٰ والفضل، وسجن معهما أقاربهما، واستصفى ضياعهم وأموالهم. ثم احتجب عن الناس، فسعت إليه أم جعفر، وطلبت الإذنَ عليه ومتَّت بوسائلها إليه، فلم يأذن لها، ولا أمر بشيء فيها، فلما طال ذلك بها خرجتْ كاشفةً وجهها، واضعةً لثامها، محتفية في مشيها، حتى صارتْ بباب قصر الرشيد.

فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب، فقال: ظئرُ أمير المؤمنين بالباب، في حالةٍ تقلب شماتة الحاسد، إلى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد: ويْحك يا عبد الملك! أو ساعية؟ قال: نعم يا أميرَ المؤمنين وحافية! قال: أدخلها يا عبد الملك، فربَّ كبد غذَّتْها، وكُربةٍ فرّجّتها، وعَوْرَة سترتها!

ودخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محتفية، قام محتفيًا حتى تلقَّاها بين عَمَد المسجد، وأكب على تقبيل رأسها، ثم أجلسها معه؛ فقالت: يا أمير المؤمنين؛ أيَعْدو علينا الزمان، ويجفونا خوفًا لك الأعوان، ويُحردك(٢) بنا البهتان، وقد ربّيتُك في حجري، وأخذت برضاعك الأمان من عدوِّي ودهري! فقال لها: وماذا يا أمَّ الرشيد؟ قالت ظِئْرُك(٣) يحيىٰ وأبوك، ولا أصِفُه بأكثرَ مما عرّفه به أميرُ المؤمنين؛ مِنْ نصيحته له، وإشفاقِه عليه. . .

فقال لها: يا أمَّ الرشيد، أمرٌ سَبق، وقضاء حُمّ(٤)، وغضب من الله نفذ.

---

(١) العقد الفريد: ٣ - ٣٣.
(٢) يحردك: يغضبك.
(٣) الظئر: من يعطف على ولد غيره. للذكر والأنثى.
(٤) حم: نزل ووقع.

فقالت: يا أميرَ المؤمنين ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرّعد: الآية ٣٩].

فقال: صدقتِ، فهذا مما لم يَمْحُه الله. فقالت: الغيبُ محجوبٌ عن النبيّين، فكيفَ عنك يا أميرَ المؤمنين! فأطرق الرشيد مَلِيًّا، ثم قال:

وإذا المنيّةُ أنشَبَتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنْفَعُ(١)

فقالتْ بغير رَوِيَةٍ: ما أنا ليحيىٰ بِتَميمةٍ يا أميرَ المؤمنين، وقد قال الأول(٢):

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجِدْ ذُخْرًا يكون كصالح الأعمالِ

هذا بعد قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤].

فأطرق الرشيد ثانية، ثم قال: يا أُم الرشيد، أقول:

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تَكَدْ إليه بوجهٍ آخِر الدهر تُقبِل

فقالت: يا أمير المؤمنين، وهو يقول أيضًا(٣):

ستَقْطَعُ في الدنيا ـ إذا ما قطعتَني ـ يمينَكَ، فانظر أيَّ كف تبدَّلُ!

فقال هارون: رضيت! فقالت: هَبْهُ لي يا أمير المؤمنين، فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ترَكَ شيئًا، لم يُوجِدْه الله لفقده»، فأكبَّ مليًا، ثم رفع رأسه وقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الرُّوم: الآية ٤]. فقالت: يا أمير المؤمنين، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: الآيتان ٤، ٥]، واذكر يا أمير المؤمنين أَلِيَّتكَ(٤): مَا استشفعتُ إلّا شفَّعتني! فقال: واذكري يا أمَّ الرشيد أَلِيَّتَكِ ألّا شفعتِ لمقترف ذنبًا. فلمّا رأته قد صرَّح بمنعها، ولَاذَ عن مطلبها، أخرجت حُقًّا من زُمُرُّدَةٍ خضراء فوضعته بين يديه، فقال الرشيد: ما هذا! ففتَحتْهُ، وأخرجت منه ذَوائبه وثناياه، وقد غَمَسَتْ جميع ذلك في المسك.

---

(١) التميمة: خرزة كان العرب في جاليتهم يعلقون العدد منها على أولادهم وقاية لهم من العين، والبيت لأبي ذؤيب.

(٢) البيت للأخطل.

(٣) هذا البيت والذي قبله لمعن بن أوس.

(٤) الألية: الحلفة.

فقالت: يا أميرَ المؤمنين، أستشفع إليك، وأستعين بالله عليك، وبما صار معي من كريم جسدك، وطيّب جوارحك أن تشفّعني في عبدك يحيىٰ.

فأخذ هارون ذلك، ولثمه، ثم بكى طويلًا، فأبكى أهلَ المجلس، وذهب البشيرُ إلى يحيىٰ وهو لا يظنُّ إلا أن البكاء رحمةٌ له ورجوعٌ عنه. فلما أفاق رمى جميعَ ذلك في الحُقّ، وقال لها: لَحَسَنٌ ما حفظتِ الوديعة. فقالت: وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين.

فسكت وأقفل الحُقّ، ودفعه إليها، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النِّساء: الآية ٥٨]. فقالت: والله يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النِّساء: الآية ٥٨]، ويقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ [النّحل: الآية ٩١]. ثم قال: وما ذاك يا أمّ الرشيد؟ قالت: أو ما أقسمت ألا تحجبني ولا تمتهنني.

فقال: أحب يا أمّ الرشيد أن تبيعيني ذلك محكّمة فيه. فقالت: أنصفتَ يا أمير المؤمنين، وقد فعلتُ غير مستقيلة لك، ولا راجعة عنك. فقال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يُسْخِطكَ. فقال: يا أمَّ الرشيد؛ أمالي من الحقِّ عليك مثلُ الذي له! قالت: بلى! أنت أعزّ عليَّ وهو أحبُّ إلي. قال: فتحكّمي في تَمْنيَةٍ بغيره. فقالت: قد وهَبْتُكه وجعلتك في حِلٍّ منه؛ وقامت عنه غضبَى، وبقي مبهوتًا، ما يُحير لفظة.

كريم يجمَع بَين زَوجَين(١)

قال إبراهيم بن ميمون: حججتُ في أيام الرشيد، فبينا أنا بمكة أجول في سكَكِها إذا أنا بسوداء قائمة ساهية، فأنكرتُ حالها، ووقفت أنظر إليها، فمكثتْ كذلك ساعةً ثم قالت:

أعـمـرٌو عـلامَ تَـجَـنَّـبـتَـنِـي ... أخـذتَ فـؤادي فـعـذَّبـتـنـي!
فـلو كـنـتَ يـا عـمـرو خَـيَّـرْتـنـي ... أخـذْتُ حـذارِي فـمـا نِـلْـتَـنـي

فدنوت منها، فقلت: يا هذه؛ مَن عمرو؟ فارتاعت من قولي، وقالت: زوجي. فقلت: وما شأنُه؟ قالت: أخبرني أنه يهواني وما زال يدس إليَّ، ويعلق

(١) مصارع العشاق: ١٥٩.

بي في كُلِّ طريق، ويشكو شدةَ وَجْدِه حتى تزوّجني، فلبث معي قليلًا، وكان له عندي من الحبّ مثل الذي كان لي عنده، ثم مضى إلى جُدّة، وتركني قلت: صفِيه لي، فقالت: أَحْسَنُ من تراه، وهو أسمرُ حلو ظريف.

قلت: فخبّريني، أتحبين أن أجمع بينكما؟ قالت: فكيف لي بذلك! وظننتني أهْزِل بها.

فركبتُ راحلتي، وصرت إلى جُدة، فوقفت في المرقى أتبصَّرُ منْ يعمل في السفن، وأُصوِّت يا عمرو! يا عمرو! فإذا به خارجٌ من سفينة وعلى عنقه صَنٌّ[1]، فعرفته بالصِّفَة.

فقلت: «أعمرو، علام تجنّبْتَني!» فقال: هيه! هيه! رأيتَها، وسمعتَه منها! ثم أطرق هنيهة، واندفع يغنّيه، فقلتُ: ألا ترجع! فقال: بأبي أنت! ومَنْ لي بذلك؟ ذلك والله أحبُّ الأشياء إليَّ، ولكن منعَ منه طلبُ المعاش. قلت: كم يكفيك كلَّ سنة؟ قال: ثلاثمائة درهم، فأعطيته ثلاثة آلاف درهم، وقلت: هذه لعشر سنين، وردَدْتُه إليها، وقلت له: إذا فَنِيتْ أو قاربتِ الفناء قدِمت عليّ وأعطيتُك، وإلّا وجهت إليك. وكان ذلك أحبَّ إليَّ من حَجِّي.

أعرَابيّةٌ عَلَى قَبرِ زَوْجهَا[2]

قال الأصمعيّ: دخلتُ بعضَ مقابر الأعراب، ومعي صاحبٌ لي، فإذا جارية على قبر كأنّها تمثال، وعليها من الحَلْيِ والحلل ما لم أر مثله، وهي تبكي بعين غزيرة، وصوتٍ شَجِيّ! فالتفتُّ إلى صاحبي؛ فقلت: هل رأيتَ أعجبَ من هذه؟ قال: لا والله، ولا أحسبني أرَاه!

ثم قلتُ: يا هذه، إني أراك حزينة وما عليكِ زِيّ الحزن! فأنشأت تقول:

فإن تسألاني: فِيمَ حزني؟ فإنّني ... رهينةُ هذا القبر يا فتيانِ
وإني لأستحيِيه والتربُ بيننا ... كما كنتُ أَستحيِيه حين يراني

ثم اندفعت في البكاء، وجعلت تقول:

يا صاحب القبر، يا مَنْ كان ينعم بي ... بَالًا، ويكثِرُ في الدنيا مُواساتي

---

(١) الصن: شبه السلة المطبقة؛ يجعل فيها الطعام والخبز.
(٢) العقد الفريد: ١ ـ ٢٦.

قد زرتُ قبركَ في حَلْيِي وفي حُلَلي كأنني لستُ من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنتُ أعرفُه أنْ قد تسرُّ به من بعض هيئاتِي
فمن رَآني رَأَى غَيْري مولَّهة عجيبة الزّي تَبْكي بين أمواتِ!

علَى قبُورِ الذّاهِبين(١)

قال الأصمعيّ: دَفَعتُ يومًا في تَلَمُّسي بالبادية إلى وادٍ خَلَاء، لا أنيسَ به إلا بيت مُعْتَنز(٢)، بفنائه أعنز، وقد ظمِئتُ، فيمَّمْتُه فسلّمت، فإذا عجوزٌ قد برزت كأنها نعامة رَاخِم(٣)، فقلت: هل من ماء؟ فقالت: أو لَبَن! فقلتُ: ما كان بُغيتي إلا الماء، فإذا يسّرَ الله اللبن فإني إليه فقير.

فقامت إلي قَعْب فأفرغت فيه ماء، ونظّفت غَسْله، ثم جاءتْ إلى الأعنز فتغيَّرتهُنّ(٤) حتى احتلبتُ قُراب(٥) مِلْء القَعْب، ثم أفرغت عليه ماءً حتى رَغَا، وطفت ثُمَالته(٦)، كأنها غمامةً بيضاء، ثم ناوَلَتْني إياه فشربت حتى تحبَّبت(٧) رِيًّا، واطمأنَنْتُ.

فقلت: إني إركِ مُعتنزةً في هذا الوادي الموحش، والحِلّة(٨) منك قريب، فلو انضممتِ إلى جَنَابهم(٩) فأنستِ بهم. فقالت: يا ابن أخي! إني لأَنَسُ بالوَحْشة وأستريح إلى الوحدة، ويطمئنُّ قلبي إلى هذا الوادي الموحش، فأتذكر مَنْ عهِدتُ فكأني أخاطبُ أعيانهم، وأتراءى، أشباحَهم، وتَتَخَيّل لي أندية رجالهم، وملاعبُ وِلْدانهم، ومندى أموالهم.

والله يا ابنَ أخي، لقد رأيتُ هذا الوادي بَشع(١٠) اللّديدين(١١) بأهل أدواح(١٢) وقِباب، ونَعَمٍ(١٣) كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون

(١) الأمالي: ٢ ـ ٧.
(٢) معتنز: منفرد.
(٣) الراخم: التي تحضن بيضها.
(٤) تغيرتهن: احتلبت العنز وهو بقية اللبن في الصرع.
(٥) قراب: قريب.
(٦) الثمالة: الرغوة.
(٧) تحببت: امتلأت.
(٨) الحلة؛ وجمعها حلال: بيوت الناس.
(٩) الجناب: فناء الدار.
(١٠) بشع: ملآن.
(١١) اللديدان: الجانبان.
(١٢) الأدواح: الأشجار العظيمة.
(١٣) الهضاب: الجبال الصغار.

الرياح، ويحمون الصَّبَاح، فأحال عليهم الجَلَاءَ قَمًّا[١] بغرفة، فأُصبحتِ الأثارُ دارسة، والمحالُّ طامسة، وكذلك الدهر فيمن وثِق به.

ثم قالت: ازمِ بعينك في هذا الملا[٢] المُتَباطن[٣]. فنظرت فإذا قبور نحوِ أربعين أو خمسين. فقالت: أتَرَى تلك الأجداث؟ قلت: نعم. قالت: ما انطوتْ إلا على أخ أو ابن أخ أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمات[٤] عليهم الأرض، وأنا أترقب ما غَالَهمْ! انْصَرِفْ راشدًا رحمك الله.

الحَقّ أنطَقهَا وأخْرَسَه[٥]

قال الشَّيبَانيّ: جلس المأمونُ يومًا للمظالم، فكان آخرُ مَنْ تقدم إليه وقد هَمَّ بالقيام ـ امرأة عليها هيئةُ السّفَر، عليها ثياب رَثَّة.

فوقفت بين يديه وقالت: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمونُ إلى يحيىٰ بن أكثم. فقال لها يحيىٰ: وعليك السلام يا أمَةَ الله، تكلّمي في حاجتك؛ فقالت:

يا خيرَ منْتَصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَدُ ... ويا إمَامًا به قد أشرَقَ البلَدُ
تشكو إليك عميدَ القوْمِ أرْملةٌ ... عَدَا عليها فلم يُتْرَك لها سَبَدُ
وابْتزَّ مني ضيَاعي بعدَ منْعَتها ... ظُلْمًا وفُرِّقَ مني الأهلُ والولدُ

فأطرق المأمونُ حينًا، ثم رفع رأسه إليها، وهو يقول:

في دُونِ ما قُلْتِ زال الصبر والجلدُ
عني؛ وقُرِّح منِّي القلبُ والكبِدُ
هذا أوانُ صلاةِ العصرِ فانصرِفي
وأحضري الخصمَ في اليوم الذي أعِدُ
والمجلس السبتُ إن يُقْضَ الجلوس لنا
نُنْصِفْكِ منه؛ وإلَّا المجلس الأحد

(١) قما: كنسا.
(٢) الملا: ما اتسع من الأرض.
(٣) للتباطن: التطامن.
(٤) ألمأت: احتوت.
(٥) العقد: ١ ـ ١٥، المحاسن والمساوىء: ٣٥٠ (طبع ليبزج).

فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أوَّلَ مَن تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليكِ السلام، أين الخصمُ؟ فقالت: الواقفُ على رأسك يا أميرَ المؤمنين - وأومأتْ إلى العباس ابنه.

فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذْ بيده فأَجْلسه معها مجلس الخصوم. فجعل كلامُها يعلو كلامَ العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمةَ الله؛ إنكِ بين يدَيْ أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك، فقال المأمون: دَعْها يا أحمد، فإنّ الحق أنْطَقَها وأخرسه. ثم قضى لها برد ضَيْعتِها إليها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغِر لها[1] ضيعتها ويُحْسِن معاونتها، وأمرَ لها بنفقة.

أجَارها ثم تزوّجَها[2]

قال إبراهيم بن المدبر: جاءني يومًا محمد بن صالح بعد أن أُطْلقَ من الحبس، فقال لي: إني أريد المقام عندك اليوم على خَلْوَة لأبثَّك من أمري شيئًا لا يصلحُ أن يسمعه غيرُنا. فقلت: أفعل؛ فصرفتُ مَن كان بحَضْرَتي وخَلَوْت معه.

فلما اطمأنَّ وأكلنا واضطجعنا قال لي: إني خرجت في سنة كذا وكذا، ومعي أصحابي على القافلة فقاتَلْنا مَن كان فيها فهزمناهم وملكنا القافلة؛ فبينما أنا أَحُوزُها وأُنِيخُ الجمالَ إذ طلعت عليَّ امرأة، ما رأيتُ قطُّ أحسنَ منها وجْهًا ولا أحلى منطقًا. فقالت: يا فتى؛ إنْ رأيتَ أن تدعوَ لي بالشريف المتولّي أمر هذا الجيش؟ فقلت: قد رأيتِه وسمِع كلامكِ! فقالت: سألتك بحق اللهِ وحقِّ رسوله؛ أنتَ هو؟ فقلت: نعم وحقِّ الله وحقِّ رسوله إني لهو. فقالت: أنا حمدونة بنت عيسى بن موسى؛ ولأبي محل من سلطانه، ولنا نعمة إنْ كنتَ ممن سمعَ بها فقد كفاك ما سمعتَ، وإن كنتَ لم تسمع بها فسلْ عنها غيري! وواللهِ لا استأثرت عنك بشيء أملكه، ولك بذلك عهدُ الله وميثاقهُ عليَّ. وما أسألك إلا أن تصونَني وتَسْتُرَني، وهذه ألفُ دينار معي لنفقتي، فَخُذْها حالًا، وهذا حلْيٌ عليَّ ثمنه خمسمائة دينار فخذه؛ وما شئت بعده آخذه لك من تجارِ المدينة أو مكةَ أو أهل المَوْسم، فليس

---

(١) أوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج.

(٢) الأغاني: ١٥ ـ ٨٧ (طبعة الساسي).

منهم أحدٌ يمنعني شيئًا أطلبه، وادفعْ عني واحْمِني من أصحابك ومن عارٍ يلحقني. فوقع قولها من قلبي موقعًا عظيمًا. فقلت لها: قد وهب الله لك مالك وحَلْيَكِ وجاهك، ووهب لك القافلة بجميعِ ما فيها.

ثم خرجتُ، فناديتُ في أصحابي فاجتمعوا، فناديت فيهم: إني قد أجَرْت هذه القافلة وأهلها وخَفَرْتُها وحَمَيْتُها، ولها ذِمَّةُ الله وذمة رسوله وذمتي؛ فمن أخذ منها خيطًا أو عقالًا فقد آذنته بحَرْبٍ. فانصرفوا معي وانصرفت.

فلما أُخِذْتُ[1] وحبِستُ جاءني يومًا السجان، وقال لي: إنْ بالباب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك، وقد حُظِرَ عليَّ أن يدخلَ عليك أحدٌ؛ إلّا أنهما أعطتاني دُمْلَج ذهب، وجعلتاه لي إن أوصلتهما إليك، وقد أذِنتُ لهما وهما في الدِّهليز. فاخرجْ إليهما إن شئت.

ففكرت فيمن يجيئني في هذا البلد وأنا به غريب لا أعرف أحدًا. ثم قلت: لعلهما من وَلد أبي أو بعض نساء أهلي. فخرجتُ إليهما فإذا بصاحبتي، فلما رأتني بكَتْ لما رأتْ من تغيير خلقي وثقل حديدي، فأقبلت عليها الأخرى فقالت: أهو هو! فقالت: إي والله إنه لَهُوَ هُوَ! ثم أقبلت عليّ فقالت: فداك إبي وأمي! والله لو استطعت أن أَقِيك مما أنت فيه بنفسي وأهلي لفعلت وكنت بذلك مني حقيقًا، ووالله لا تركت المعاونة لك والسعي في حاجتك وخلاصك بكل حيلة ومالٍ وشفاعة. وهذه دنانير وثياب وطيب فاستعِنْ بها على موضعك، ورسولي يأتيك في كل يوم بما يصلحك حتى يُفرِج الله عنك. ثم خرجت إليّ كسوة وطيبًا ومائتي دينار.

وكان رسولُها يأتيني كلَّ يوم بطعام نظيف، ويتواصل برُّها بالسجَّان، فلا يمتنع من شيء أريدُه. ثمَّ مَنَّ الله بخلاصي فخطبتُها؛ فقالت: أمّا من جهتي فأنا مُتَابِعةٌ مطيعةٌ والأمر إلى أبي. فأتيتُه فخطبتها إليه، فردَّني فقمتُ من عنده منكسرًا مستحييًا.

قال إبراهيم بن المدبر: فقلت له: إن عيسى صنيعةُ أخي وهو لي مطيع وأنا أكفيك أمره. فلما كان من الغد لقيت عيسى في منزله وقلت له: قد جئتُك في

---

(١) حبسه المتوكل محمد بن صالح حين خرج عليه ثلاث سنين، ثم عفا عنه لشعر مدحه به.

حاجةٍ لي، فقال: مقضيَّة؛ ولو كنتَ استعملتَ ما أُحِبُّه لأمرتني فجئتك، وكان أَسَرَّ إلي. فقلت له: قد جئتُك خاطبًا إليك ابنتك، فقال: هي لك أَمَةٌ وأنا لك عبدٌ وقد أجبتك. فقلت: إني خطبتها على مَن هو خير مني أبًا وأمًا، وأشرف لك صهرًا: محمد بن صالح العلوي. فقال لي: يا سيّدي؛ هلا كان غير هذا! فلم أزل أرفق به حتى أجاب. وبعثت إلى محمد بن صالح فأحضرته وما برحت حتى زوّجته، وسقتُ الصداقَ عنه.

كيفَ ربّت ابْنَها[1]

قال الفضل بن يزيد: نزل علينا بنو ثَعلبة في بعض السنين، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب، أحبُّ أن أسمَعها وأجمَعها. فبينما أنا أدُور في بعض أحيائهم، إذا بامرأة واقفة في فناء خبَائها، وهي آخذةٌ بيد غلام. قَلّما رأيتُ مثلَه في حُسنه وجماله، وهي تعاتِبُه بلسان رطب، وكلام عذب، تَحِنُّ إليه الأسماع، وترتاح إليه القلوب. وأكثر ما أسمع منها: أيْ بنيّ، وهو يبتسم في وجهها، قد غلب عليه الحياءُ والخجل، لا يردّ جوابًا؛ فاستحسنتُ ما رأيت، واستحليت ما سمعت، ثم دنوت منه وسلّمت عليه، فردّ عليَّ السلام، فوقفت أنظر إليهما.

فقالت: يا حضريّ، ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع، والسرور بما أرى من هذا الغلام. فقالت: يا حضريّ، إن شئت سقتُ إليك من خبره ما هو أحسن ممَّا شاهدتَ من أدَبه، فقلت: قد شئتُ - يرحَمُك الله! فقالت: حملتُه والرزق عَسِر، والعيش نكِد، حملًا خفيفًا، حتى إذا مضت له تسعة أشهر وَلَدْتُه؛ فوَربك ما هو إلّا أن صار ثالثَ أبويه حتى أفضَل الله عزّ وجلّ وأعطى، وأتى من الرزق بما كفى وأغنى؛ ثم أرضعتُه حَوْلَين كاملَيْن، فلما استتمّ الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فنشأ كأنه شِبل أسد، أقيه برد الشتاء وحرّ الهجير، حتى إذا مضت له خمسُ سنين أسلمتُه إلى المؤدب، فحفظهُ القرآن فتلَاه، وعلّمه الشعر فَرَوَاه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده، فلما أن بلغ الحلُمَ، واشتدّ عَظمه، وكمل خلقه، حملتُه على عِتَاق الخيل فتفرّس وتمرّس[2]، ولبس السلاح،

(١) المستطرف: ١ - ٢٢٧.

(٢) تفرس: تثبت ونظر، ورأى الناس أنه فارس، وتمرس: عالج الأمور، واحتك بها.

ومشى بين بُوَيْتَاتِ الحيّ الخُيَلاء، فأخذ في قِرَى الضيف، وإطعام الطعام، وأنا عليه وَجِلة، أُشفق عليه من العيون أن تصيبه.

ثم اتفق أن نزلنا بمنْهَل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيانُ الحيّ في طلب ثَأرٍ لهم، وشاء الله أن أصابته وَعْكة[1] شغلته عن الخروج، وأمعن القوم، ولم يبق في الحيّ غيره، ونحنُ آمنون وادعون، ثم أدبر الليل، وأسفر الصباح، فطلعت علينا غُرر الجياد، وطلائع العدوّ، وما هو إلا هُنَيْهَة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألُني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه وضنًّا به.

ولما عَلَتِ الأصوات، وبرزت المخدّرات[2]، رَمى دِثاره[3]، وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمَةَ حربه، وأخذ رُمحه بيده، ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله؛ فانصرفت وجوه الفرسان، ثم رأوه صبيًا صغيرًا لا مدَدَ وراءه، فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيوت، ونحنُ ندعو الله عزّ وجلّ له بالسلامة، حتى إذا مدّهم وراءه، وامتدوا في أثره عطف عليهم، ففرّق شملهم، وشتّت جمعهم، وقلّل كثرتهم، ومَزّقهم كلّ مُمَزّق، ومَرَق كما يمرُقُ السهم. وناداهم: خلّوا عن المال! فوالله لا رجعت إلا به أو أهلِكَ دونه!

فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفُرْسان، وحملوا عليه، وقد رفعوا إليه الأسنّة، وعطفوا عليه بالأعنّة، فوثب عليهم وهو يهْدِرُ كما يهدِر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يعطف على ناحية إلا حطّمها، ولا كتيبة إلا مزّقها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه.

ثم ساق المال وأقبل به؛ فكبّر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته. فوالله ما رأينا قطّ يومًا كان أسمَحَ صباحًا، وأحسن رواحًا من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيات الحي هذه الأبيات:

تأمّلْن فعلي هل رأيتُنَّ مثلَه
إذا حَشرَجَتْ نفسُ الجبان من الكرب!

(١) الوعكة: الألم من شدة التعب. (٢) المخدرات: المحجوبات من النساء.
(٣) الدثار: ما فوق الشعار من الثياب.

وضــاقــت عــلـيــه الأرضُ حــتــى كــأنــه
مـن الـخـوف مـسـلوب الـعـزيـمـة والـقـلْب
ألــم أعــط كــلّا حــقَّــه ونــصــيــبَــه
من السَّمْهريّ اللّدن والـمُرهف العَضْبِ[١]
أنـا ابـنُ أبـي هـنـد بـن قـيـس بـن مـالـكٍ
سـلـيـل الـمـعـالـي والـمـكـارم والـسـيّـب[٢]
أنَــى لِيَ أن أعــطـي الـظُّـلامـة مُـزْهَـفٌ
وطِـرْف[٣] قـويّ الـظّـهـر والـجوف والـجنْب
وعـزمٌ صـحـيـح لـو ضـربـت بـحـدّه الـ
ـجبـالَ الـرواسـي لانـحـطـطْـن إلـى الـتّـربِ
وعِــرضٌ نــقــيّ أتّــقــي أن أعــيــبَــهُ
وبـيـتٌ شـريـف فـي ذُرَا ثَـغـلب الـغُـلْبِ[٤]
فــإن لــم أقــاتــل دونــكُــنَّ وأحــتــمــي
لـكـنَّ، وأحـمـيـكُـنَّ بـالـطـعـن والـضـرب
فــلا صــدق الــلاتــي مــشــيــنَ إلــى أبــي
يــهــنِّــيــنَــه بــالــفــارسِ الْبَـطَـلِ الـنَّـدْب[٥]

خَائف وَجَدَ مَأمنًا[٦]

قال وهب بن ناجية الرُّصافيّ: كنت أحد مَنْ وقعت عليه التهمةُ في مال مصر أيامَ الواثِق، فطلبني السلطان طلبًا شديدًا، حتى ضاقتْ عليّ الرُّصافة[٧] وغيرُها، فخرجت إلى البادية مرتادًا رجلًا عزيزَ الدار، منيعَ الجار، أعوذُ به، وأنزلُ عليه.

(١) السمهري: الرمح، وهو منسوب إلى سمهر؛ رجل كان يثقف الرماح، والمرهف: السيف الرقيق الحد، والعضب: القاطع.
(٢) السيب: العطاء.
(٣) الطرف: الكريم من الخيل.
(٤) ثعلب: أصله ثعلبة وهي قبيلة الغلام، والغلب جمع أغلب، وهو الأسد؛ يريد أنهم شجعان.
(٥) الندب: الخفيف في الحاجة.
(٦) محاضرات الأبرار: ٢ ـ ١١٦.
(٧) الرصافة: محلة ببغداد.

فبينما أنا أسيرُ إذا رأيت خيامًا، فعدلتُ إليها، فملتُ إلى بيت منها مضروب، وبِفِنائه رُمْحٌ مركوز، وفرس مرْبوط؛ فدنوتُ فسلّمت، فردّ عليّ نساءٌ من وراء السّجف[1]، وقالت لي إحداهنّ: اطمئنّ يا حضَريّ، فنعم مناخُ الضيفان بَوَّأكَ القدَر، ومهّدك السفر. قلت: وأنّى يطمئنُّ المطلوب، أو يأمنُ المرغوب، من دون أن يأوي إلى جَبَلٍ يعصِمُه، أو مأمنٍ أو مفزع يَمْنَعه! وقليلًا ما يهجع مَن السلطان طالبهُ، والخوفُ غالبه! قالت: لقد تَرجم لسانك عن ذَنْبٍ عظيم، وقلبٍ صغير، وايمُ الله لقد حللتَ بفناءِ رجل لا يُضَام بفنائه أحدٌ، ولا يجوع بساحته كَبِد، هذا الأسودُ بن قنان، أخواله كعب، وأعمامه شيبان، صُعلوكُ[2] الحيّ في ماله، وسيّدُهم في حاله، وسندُهم في فعاله[3]، صدوق الجوار، وقود النار؛ وبهذا وصفته أمامة بنت خزرج حيث تقول:

إذا شئتَ أن تلقى فتًى لو وَزَنْتَه ... بكلّ معديٍّ وكل يَماني
وفَى بهما فضْلًا وجودًا وسُودَدا ... ورأيا، فذاك الأسود بن قنان
فتًى لا يُرى في ساحةِ الأرض مثله ... ليوم ضِرَابٍ أو ليوم طِعَان

قال: فقلت: يا جارية، وأنّى لي به! فقالت: يا خادم، مولاكَ! فلم تلبث أن جاءت وهو معها في جماعةٍ من قومه، وقال: أيّ المُنعمين علينا أنت؟ فسبقَتْني المرأة، وقالت: هذا رجل نَبَتْ به أوطانُه، وأزعَجه زمانُه، وأوحشه سلطانُه؛ وقد ضِمِنَّا له ما يُضْمَن لمثله على مثلك، قال: بلَّ اللهُ فاك، أشهدكم يا بَنِي عمّي أنَّ هذا الرجلَ في جواري وفي ذِمَّتي، فمن آذاه فقد آذاني، ومَن كاده فقد كادني.

وأمر ببيتٍ فضُرب إلى جانبه، وقال: هذا بيتك وأنا جارك، وهؤلاء رجالك فلم أزلْ بينهم في خفضٍ وسَعَةٍ إلى أن سِرتُ عنهم.

تحنُّ إلى وَطَنِهَا[4]

هَوى بعضُ خُلَفَاءِ بني العباس أعرابيةً فتزوَّج بها، فلم يوافقْها هَوى المدن، فلم تزل تعتلّ وتتأوّه، مَعَ ما هي عليه من النّعيم والرَّاحة، والأمرِ والنهي؛ فسألها

(١) السجف: الستر.
(٢) أصل الصعلوك الفقير. والمراد أنه ينفق حتى يصير فقيرًا.
(٣) الفعال: (بالفتح) الفعل الحسن من فاعل واحد، وإذا كان من فاعلين فهو الفعال (بالكسر).
(٤) محاضرات الأبرار: ٢ ـ ٢٤٨.

عن شأنها، فأخبرتهُ بما تجد من الشوقِ إلى البراري وأحاليبِ[١] الرّعاء، وورُودِ المياه التي تعودتْ؛ فبنى لها قصرًا على رأس البرية بشاطىء دجْلَة[٢]، وأمر بالأغنام والرّعَاء أن تَسْرَح بين يديها وتتراءى لها؛ فلم يزدها ذلك إلا اشتياقًا إلى وطنها.

ثم مرَّ بها يومًا في قصرها من حيث لا تشعر بمكانه، فسمعها تنتحبُ وتبكي، حتى ارتفعَ صوتُها، وعلا نحيبُها، ثم قالت:

وما ذنبُ أعرابيةٍ قذَفَتْ بها ... صروفُ النَّوَى من حيثُ لم تك ظَنَّتِ
تمنّتْ أحاليبَ الرُّعاةِ وخيمةٍ ... بنجد فلم يُقْضَ لها ما تمنّتِ
إذا ذكَرَتْ ماءَ العُذَيبِ[٣] وطيبَه ... وبردَ حَصَاهُ آخر الليل أَنَّتِ
لها أنَّة عند العشاء وأنَّةٌ ... سحيرًا، ولولا أنَّتاها لَجُنَّتِ

فخرج عليها الخليفة، وقال: قد قُضي ما تمنيت، فالحقى بأهلك من غير فراق؛ فما مرّ عليها وقتٌ أسرّ من ذلك، وسرى ماءُ الحياة في وجهها من حِينِها، والتحقت بأهلها بجميع ما كان عندها في قصرها، وظلّ الخليفة يزورُها في أهلها بين الحين والحين.

سَئمتُ حيَاتِي حِين فَارقت قَبْرَه[٤]

قال محدّث: سألت أبا الندى[٥] - وكان من أعلم مَنْ شاهدتُ بأخبار العرب: هل تعرف من شعر الذّلفاء بنت الأبيَض في ابن عمها نجْدَة بن الأسْوَد؟ قال: نعم، كنتُ فيمن حضرَ جنازة نَجْدَةَ، حتى وضعناه في قبره، وأهَلْنَا عليه التراب، وصَدَرْنا[٦] عنه غير بعيد، فأقبلتْ نسوةٌ يتهادَيْنَ[٧]، فيهنَّ امرأة قد فاقتْهُنَّ طولًا، كالغصن الرطب، وإذا هي الذّلفاء؛ فأقبلت حتى أكبّتْ على القبر، وبكتْ

(١) الإحلابة: أن يحلب لأهله وهو في المرعى لبنًا، ثم يبعث به إليهم، وجمعه أحاليب، والرعاء جمع راع.
(٢) دجلة: نهر بالعراق.
(٣) العذيب: موضع.
(٤) معجم الأدباء: ١٧ - ١٦٠.
(٥) محمد بن أحمد أبو الندى الغندجاني اللغوي: رجل واسع العلم، راجح المعرفة باللغة وأخبار العرب وأشعارها.
(٦) رجعنا عنه.
(٧) يتمايلن في مشيتهن.

بكاءً مُحْرِقًا، وأظْهَرَتْ من وجْدَها ما خِفْنَ معه على نفسها، فقلن لها: يا ذلفاء؛ إنه قد مات الساداتُ من قومك قبل نجدةَ، فهل رأيتِ نساءَهم قتلْنَ أنفسهنَّ عليهم؟ فلم يزلْنَ بها حتى قامت، فانصرفَتْ عن القبر، فلمّا صارت منه غير بعيد عطفتْ بوجهها عليه، وقالت:

سئمتُ حياتي حين فارقْتُ قبرَه ... ورُحْتُ وماءُ العينِ ينهلُّ هَامِلُه[1]
وقالت نساء الحيّ: قد مات قبلَهُ ... شريفٌ فلم تَهْلِكْ عليه حلائلُه[2]
صدقْنَ، لقد، مات الرجالُ ولم يَمت ... كنَجْدَةَ مِنْ إخوانه من يُعَادِلُهْ
فتًى لم يَضِقْ عن جِسْمِهِ لحدُ قَبْرِهِ ... وقد وسِعَ الأرضَ الفضاءَ فضائلُه

قال: فقلت: أحسنْتَ والله يا أبا الندى وأحسنَتْ! فهل تعرف من شعرها شيئًا آخر؟ قال: نعم! كنتُ ممَّنْ حضرَ قبرَ نَجدةَ عند زيارتها إياه لتمام الحول، فرأيتها قد أقبلت حتى أكبَّتْ على القبر، وبكَتْ بكاء شديدًا، ثم أنشأت تقول:

يا قبرَ نَجْدَةَ لم أهْجُرْكَ مقْلِيَةً ... ولا جفوتُكَ من صَبْرِي ولا جَلَدي
لكِنْ بكيتُكَ حتى لم أجد مَدَدًا ... من الدموعِ ولا عونًا من الكَمَد
وآيَسَتْنِي جفوني من مَدَامِعها ... فقلت للعين: فِيضي من دم الكَبِدَ
فلم أزَلْ بدَمي أبكيك جاهدةً ... حتى بقيتُ بلا عينٍ ولا جَسَدِ
والله يعلمُ لولا الله ما رضيتْ ... نَفْسِي عليكَ سوى قَتَلٍ لها بيدِي

قال: فقلت: أحسنتَ والله يا أبا الندى وأحسنَتْ! فهل تعرف من شعرها شيئًا آخر؟ قال: نعم، حضرنا في زمن الربعي ونحنُ في رياضٍ خَضِرَةٍ مُعْشِبَةٍ، فركبَ الفتيانُ، وعقدوا العَذَبَ[3] الصُّفْرَ، في القنا الْحُمر، وجعلوا يتجاولون. فلما أردنا الانصراف، قال بعضنا لبعض: ألا تجعلون طريقكم على الذلفاء! لعلها إذا نظرت إليكم تسلتْ بمن بقي عمن هلكَ!

قال: فخرجنا نؤمُّها فأصبناها بارزةً من خبائها، وهي كالشمس الطالعة، إلا أنه يعلُوها كسوفُ الحزن، فسلّمنا عليها، وقلنا: يا ذلفاء؛ إلى متى يكون هذا

(١) ينهل: ينصب؛ وهامله: دمعه الفائض. (٢) أي زوجاته.
(٣) أي الرايات، والقنا الحمر: الرماح.

الوَجْد على نجْدَةَ! أما آن لكِ أن تتسلّيْ بمن بقِيَ من بني عمّك عمّنْ هَلَكَ؟ ها نحن أُولاء سادات قومك وفتيانهم ونجومهم، وفينا السادة والذّادَة[١]؛ والبأس والنّجدةُ؛ فأطرقتْ مليًا، ثم رفعت رأسها باكية وهي تقول:

صدقتمْ إنكمْ لنجومُ قومي ... لُيوثٌ عند مُخْتَلَفِ العَوَالي[٢]
ولكنْ كان نجدةُ بدرَ قومي ... وكَهْفَهُمْ المنيفَ على الجبال!
فما حسنُ السماءِ بلا نجومٍ ... وما حسن النجوم بلا هلال!

ثم دخلت خباءها، وأرسلتْ سِتْرَها، فكان آخرَ العهد بها!

عمَر بن أبِي رَبيعَة فِي مَضرب فَاطِمة بنت عَبد الملك[٣]

كان عمرُ بن أبي ربيعة جالسًا بمنًى في فناء مضربِه، وغِلْمانُه حولَه إذ أقبلتْ امرأة بَرْزَة[٤] عليها أثَر النعمة؛ فسلمتْ فردّ عليها عمرُ السلام، فقالت له: أنت عمرُ بن أبي ربيعة؟ فقال لها: أنا هو؛ فما حاجتَك؛ قالت له: حيّاك الله وقرَّبَك؛ هل لك في محادثةِ أحسنِ الناس وجهًا، وأنمّهم خَلْقًا، وأكْمِلهم أدَبًا وأشرفهم حسبًا! قال: ما أحبَّ إليَّ ذلك! قالت: على شَرْط! قال: قولي، قالت: تُمْكِنني من عينيك فأَشُدُّهما وأقودُك، حتى إذا تَوَسَّطَتْ الموضعَ الذي أريدُ حَلَلْتَ الشدّ، ثم أفْعلُ ذلك بك عند إخراجك حتى أنْتهيَ بك إلى مضربك، قال: شأنَكِ. ففعلت ذلك به.

قال عمر: فلما انتهتْ بي إلى المضْرب الذي أرادتْ كَشَفَتْ عن وجهي فإذا أنا بامرأةٍ على كرسي لم أَرَ مثلها قَطُّ جمالًا وكمالًا، فسلّمتُ وجلستُ، فقالت: أأنتَ عمر بن أبي ربيعة؟ قلت: أنا عمر، قالت: أنت الفاضح للحرائر؟ قلت: وما ذاك ـ جعلني الله فداءك! قالت: ألست القائل:

قالت: وعَيْشِ أخي ونعمةِ والدي ... لأنَبِّهنّ الحيَّ إنْ لم تَخْرُجِ
فخرجتُ خَوْفَ يمينها فتبسّمتْ ... فعلمتُ أن يمينها لم تَخْرُجِ[٥]

---

(١) الذادة: المدافعون، جمع ذائد.
(٢) العوالي: جمع عالية، وهي أعلى القناة أو النصف الذي يلي السنان.
(٣) الأغاني: ١ ـ ١٩٠.
(٤) برزة: بارزة الجمال.
(٥) لم تخرج: لم تضق ولم تكن جادة في حلفها.

فتناولتْ رأسي لتعرف مَسَّهُ بِمُخَضّبِ الأطراف غير مُشَنَّجِ[١]
فلثِمتُ فاهَا آخِذًا بقرونها شُرْبَ النزيف[٢] ببرد ماءِ الحَشْرَجِ[٣]

ثم قالت: قم فاخرج عني، ثم قامتْ من مجلسها وجاءت المرأة فشدَّتْ عينيّ، ثم أخْرجَتْني حتى انتهتْ بي إلى مضربي وانصرفتْ وتركتِني، فحللتُ عينيّ وقد دخلني من الكآبة والحُزْن ما الله به أعلم؛ وبتُّ ليلتي؛ فلما أصبحت إذا أنَا بِهَا، فقالت: هل لك في العَوْد؟ فقلت: شأنَكِ، ففعلت بي مثلَ فِعْلِها بالأمسِ حتى انتهتْ بي إلى الموضع، فلما دخلتُ إذا بتلك الفتاة على كرسيّ، فقالت: إيهِ يا فضَّاح الحرائر! قلت: بماذا ـ جعلني الله فداءك؟ قالت: بقولك: «وناهدة الثديين».

ثم قالت: قم فاخرج عنّي.

فقمت فخرجت ثم رُدِدْتُ، فقالت لي: لولا وَشْكَ الرحيل، وخوفُ الفَوْتِ، ومحبَّتِي لِمُنَاجاتك، والاستكثارِ من محادثتك لأقصيتُك، هات الآن كلِّمْني وحدِّثني وأَنْشِدني، فكلمتُ آدب الناس وأعلمتهم بكل شيء، ثم نهضتْ وأبطأت العجوز وخَلَا لِيَ البيت، فأخذت أنظر، فإذا أنا بتوْر[٤] فيه خَلُوق[٥]، فأدخلتُ يدي فيه ثم خبَأْتُها في رُدْني[٦]؛ وجاءت تلك العجوز فشدَّت عيني ونهضتْ بي تقودني، حتى إذا صرتُ على باب المضرب، أخرجت يدي فضربتُ بها على المضْرب ثم صرت إلى مضْربي، فدعوت غِلْماني فقلت: أيكم يقفني على باب مضرب عليه خَلُوق، كأنه أثر كف فهو حرٌّ وله خَمْسمائة درهم.

فلم ألبثْ أن جاء بعضُهم فقال: قم، فنهضت معه فإذا أنا بالكفِّ طرّية؛ وإذا المضرب مضربُ فاطمة بنتِ عبد الملك بن مروان، فأخذتُ في أُهْبَةِ الرحيل، فلما نفرتُ نفرتُ معها فبصرتُ في طريقها بقِبابٍ ومضرب وهيئةٍ جميلةٍ، فسألتْ عن ذلك، فقيل لها: هذا عمرُ بن أبي ربيعة، فساءها أمره؛ وقالت للعجوز التي كانت

---

(١) مشنج: متقبض.
(٢) النزيف: المنزوف، وهو من عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه.
(٣) الحشرج: النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.
(٤) النور: إناء صغير. (٥) الخلوق: نوع من الطيب.
(٦) الردن: الكم.

تُرسلها إليه: قولي له: نَشَدْتُك الله والرحمَ ألّا تصحَبني، وَيْحك! ما شأنُكَ؛ وما الذي تُريد؟ انصرف ولا تفضحني وتُشيط[١] بدمك.

فسارت العجوز إليه فأدَّتْ إليه ما قالت لها فاطمة، فقال: لست بمنصرف أو تُوَجِّه إليّ بقميصها، فوجهت إليه بقميص من ثيابها، فزاده ذلك شَغَفًا؛ ولم يزل يتبعهم ولا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف، وقال في ذلك:

ضاق الغَدَاة بحاجتي صدري ويئستُ بعد تَقارب الأمر
وذكرتُ فاطمةَ التي عُلِّقْتُها عَرَضًا فيا لِحَوادث الدهرِ
وكأنَّ فاهَا عند رَقْدَتها تجري عليه سُلَافَةُ الخمر
فسبَت فؤادي إذ عرضْتُ لها يومَ الرحيل بساحةِ القصرِ
بمزيّن رَدْعُ[٢] العبير به حسَن الترائب[٣] واضح النحر
وبجِيد آدمَ[٤] شادِنٍ[٥] خَرِق[٦] يَرْعَى الرياضَ ببلدةٍ قَفْرِ
لما رأيتُ مطيّها حِزَقًا[٧] خفقَ الفؤادُ وكنتُ ذا صبرِ
وتبادَرَتْ[٨] عيناي بعدهمُ وانهلَّ دمعُهما على الصَّدْرِ
ولقد عصيت ذوي القرابة فيكم طُرًّا وأهلَ الوُد والصِّهرِ
حتى لقد قالوا وما كذبوا: أجننتَ أم بك داخل السِّحر!

---

(١) أشاط بدمه: أهدره.
(٢) الردع: أثر الطيب في الجسد.
(٣) الترائب: جمع تريبة، وهي موضع القلادة من الصدر.
(٤) الآدم: الأسمر.
(٥) شدن الظبي: ترعرع وشبّ.
(٦) الخرق: الخائف المتحير.
(٧) حزقًا: جماعات.
(٨) تبادرت: سالت دموعها.

الباب العاشر

قصص العرب في الجاهلية وأوابدهم

قصص الكهانة، والقيافة، والزجر، والعرافة، والفأل، والطيرة، والفراسة، والنوم والسهر، والرؤيا

العرب والأساطير

قصص العرب في الجاهلية وأوابدهم

قال في المستطرف[1]: للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلًا، وقد دلّ على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المَائدة: الآية ١٠٣].

قال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكرًا بحروا أذنها أي شقوا أذنها وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا أعتق عبدًا وقال هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث.

وأما الوصيلة ففي الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم.

وأما الحام، فالذَّكر من الإبل، كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يُحمَل عليه ولا يُمنَع من ماء ولا مرعى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٩٠]، فالخمر ما خامر العقل، ومنه سميت الخمر خمرًا، والميسر القمار، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان وإحداها نصب، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرني ربي وعلى بعضها نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفرًا أو أمرًا يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهي لم يمضِ.

---

(١) المستطرف: ص ٣٥٠ ـ ٣٦١.

ومن أوابدهم وأد البنات أي دفنهن أحياء. كانوا في الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم وجهه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: الآية ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٣١]. وقد قيل: إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار. وبمكة جبل يقال له: أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات. وقيل: إن صعصعة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل.

وفاخر الفرزدق رجلًا عند بعض خلفاء بني أمية فقال: أنا ابن محيي الموتى، فأنكر الرجل ذلك، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: الآية ٣٢].

الرّفادة في الحج

فكانت خرجًا تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم إلى قصي، فيصنع به طعامًا للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصيًّا فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم، فيدفعونه إليهم.

وقيل: أول مَن أقام الرفادة عبد المطلب وهو الذي حفر بئر زمزم وكانت مطمومة، واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلي وسبعة أسياف وخمسة دروع سوابغ، فضرب من الأسياف باب الكعبة وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب وجعل الآخر في الكعبة.

سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد وابن سماك الأسدي

واعلم وفّقني الله وإياك إنه لم يسمع بعجب[1] أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمي وابن سماك الأسدي الذين ضرب بهم المثل. فأما

(١) العجب: الخيلاء والكبر.

سعيد بن زرارة فقيل: إنه مرت به امرأة فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا، فقال لها: يا هنتاه مثلي يكون من عبيد الله؟

وأما عبد الله بن زياد التميمي، فقيل: إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز، فنودي من نواحي المسجد كثّر الله فينا مثلك، فقال: لقد كلفتم الله شططًا.

وأما ابن سماك، فإنه أضلّ راحلته فالتمسها فلم توجد فقال: والله لئن لم يرد راحلتي عليَّ لا صليت له أبدًا. فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر، فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصل، فقال: إنما كانت يميني يمينًا قصدًا. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثًا مستبشعًا ومثلًا بين العالمين مستبشعًا، نعوذ بالله من الخذلان المؤدي إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حُكِيَ عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قيل: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل إن الله أظفرني بأناس بلغني الأمل فيهم، وأعانني على الانتقام منهم، فكنت أتقرّب إليه بدمائهم، فقيل له: مَن هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قلت في جنب سيئاته. والله تعالى أعلم.

أديان العرب في الجاهلية

كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكانت اليهودية في نمير وبني كنانة وبني الحرث بن كعب وكندة، وكانت المجوسية في بني تميم منهم زرارة بن عدي وابنه علي وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسيًا.

وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة وكانت بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنمًا من حيس فعبدوه دهرًا طويلًا، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه. وقد قيل: إن أول مَن غيّر الحنيفية عمرو بن لحي أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فأعجبه ذلك، فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال: أعطوني منها صنمًا أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنمًا يقال له هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأحجار في بني إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا في البلاد، وما من أحد إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوه من الحجارة، ثم خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال. وكانت قريش قد اتخذت صنمًا على بئر في جوف الكعبة يقال له هُبل، وأيضًا اتخذوا أسافًا ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون.

وكان أساف ونائلة رجلًا وامرأة، فوقع أساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه فإذا أراد الرجل سفرًا تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله.

واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها وكانت لقريش وبني كنانة العزّى، وكان حجابها بني شيبة. وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان حجابها بني مغيث من ثقيف.

وكانت مناة للأوس والخزرج ومَن دان بدينهم. وأما يغوث ويعوق ونسر، فقيل: إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام وكانوا أتقياء عبادًا فمات أحدهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته في قبلة مسجدهم ليذكروه إذا أنظروه، فكرهوا ذلك، فقال: اجعلوه في مؤخر المسجد، ففعلوا وصوره من صفر ورصاص. ثم مات آخر، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم، فصورهم هناك، وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله، فقالوا له: مَن نعبد؟ قال: آلهتكم المصورة في مصلاكم فعبدوها إلى أن بعث الله نوحًا عليه الصلاة والسلام، فنهاهم عن عبادتها، فقالوا: كما أخبر الله عنه: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نُوح: الآية ٢٣]. ولما عم الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زمانًا طويلًا، فأخرجها الشيطان لمشركي العرب فعبدوها.

وذكر الواحدي في الوسيط أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسوّل الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوّروا صورهم ليكون أنشط وأشوق للعبادة كلما رأوهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها. وأن مَن سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم. وقال الواقدي: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، والله تعالى أعلم أي ذلك كان.

أوابـد العرب

الرتم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصنًا منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحل قال: قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حالته قال: لم تخني.

الرئيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدوا عينيها حتى تموت. يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها.

التعمية والتفقئة: كان الرجل إذا بلغت إبله ألفًا قلع عين الفحل. يقولون إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا ازدادت على الألف فقأ عينه الأخرى.

العرداء: يصيب الإبل شبه الجرب، كانوا يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرىء داء العر.

ضرب الثور عن البقر، كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب.

الهامة: كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة، فلا يزال يصيح على قبره اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره.

وكان للعرب مذاهب في الجاهلية في النفس وتنازع في كيفياتها، فمنهم مَن زعم أن النفس هي الدم وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نفسه. وقالوا: إن الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد في الحياة مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات ذهبت حرارته وحل به اليبس

والبرودة. وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصورًا في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشًا له وفي ذلك يقول بعضهم:

سُلِّطَ الموتُ والمنونُ عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ[1]

ثم جاء الإسلام، والعرب ترى صحة أمر الهام، حتى قال النبيّ ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام». وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرًا ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ، ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت. والصفر زعموا أن الإنسان إذا جاع عض على شرسوفه الصفر وهي حية تكون في البطن. تثنية الضربة: زعموا أن الحية تموت في أول ضربة، فإذا تثنيت عاشت.

الغيلان والتغوّل للعرب

في الغيلان والتغوّل أخبار وأقاويل، يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم وأنه خرج منفردًا لم يستأنس وتوحش، وطلب القفار، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار في أوقات الخلوات وفي الليل.

وحُكِيَ أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رآه في سفره إلى الشام فضربه بالسيف. وقال الجاحظ: الغول كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون في ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف، وقالوا: إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى. وأما القطرب في قولهم، فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر في أكناف اليمن وصعيد مصر في أعاليه، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه، فيدود دبره فيموت. وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحي التي ذكرناها أمنكوح هو أو مذعور؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه، وإن كان قد ذعر سكن روعه وشجع قلبه، وآذا رآه الإنسان وقع مغشيًا عليه، ومنهم مَن يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه.

(١) هام: طائر يقال أنه يخرج من رأس الميت ويعرف «بالصدى».

ذكر الهواتف

أما الهواتف: فقد كانت كثرت في العرب وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وإن مَن حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي.

هاتــف

ومن عجيب ما حُكِيَ من أمر الهواتف: ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال: خرجنا حجاجًا، فصاحبنا رجل وجعل يقول في طريقه: ليت شعري هل بغت علي. فلما انصرفنا من مكة قالها في بعض الطريق، فأجابه صوت في الظلام: نعم نعم وناكها حجية. وهو رجل أحمر ضخم في قفاه كيه. فسكت الرجل، فلما سرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قال: دخل جيراني يسلمون عليَّ فإذا فيهم رجل أحمر ضخم في قفاه كيه، فقلت لأهلي من هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا، فجزاه الله خيرًا، فسألتها عن اسمه، فقالت حجية، فقلت: إلحقي بأهلك.

وأما بكاء المقتول، فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمي السّنّ، فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر، فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وإبهامه، وقال: أبدليني بأحسن منها، فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية: فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأما جزّ النواصي: فكانوا إذا أسروا رجلًا ومنُّوا عليه، وأطلقوه جزوا ناصيته.

وأما الالتفات: فكانوا يزعمون أن مَن خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجن تهرب من الأرانب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن. ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلًا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق

عليه برقعها فسد حبهما. ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية، فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها.

ويزعمون أن الحرقوص وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل في فروج الأبكار فتفتضهن. ويزعمون أن الرجل إذا ضل، فقلب ثيابه اهتدى. وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن.

وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السلوان. ونكاح المقت من سنتهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض أخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال.

في الكهانة والقيافة
والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة
والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

الكهـانة

كانت الكهانة فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام، فلم يُسمَع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها وللكهنة أخبار.

سـطيح

فمنهم: سطيح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله، وذلك أن الموبذان رأى إبلًا صعابًا تقود خيلًا عرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح أعلَمَ كسرى بذلك، فتصبر كسرى تشجعًا، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريره وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران وارتجاس الإيوان فازدادوا غمًّا على غمهم، فكتب كسرى كتابًا إلى النعمان بن المنذر: أما بعد: فوجه إليَّ رجلًا عالمًا بما أريد أن أسأله عنه.

فوجّه إليه عبد المسيح الغساني، فقال له كسرى أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرني الملك فإن كان عندي علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه به، فأخبره بما رآه الموبذان فقال علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له سطيح. قال: فأته فاسأله عما سألتك وائتني بالجواب.

فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح، فسلم عليه وحياه ولم يخبر عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعرًا يذكر فيه أنه

جاء برسالة من قبل ملك العجم ولم يذكر له السبب فرفع رأسه وقال: عبد المسيح على جمل يسيح إلى سطيح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلًا صعابًا تقود خيلًا عرابًا قطعت الدجلة وانتشرت في بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وفاض وادي سماوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاما ولا العجم لعبد المسيح مقامًا، يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب، يملك منهم ملوكًا وملكات بعدد الشرافات وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه، فثار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

شق وسطيح

حُكِيَ. . . أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى منامًا هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته ما يفسره لك إلا شق وسطيح فأحضرهما، وقال لسطيح: إني رأيت منامًا هالني فإن عرفته فقد أصبت تفسيره، فقال: رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض نهمة فأكل منها كل ذات جمجمة، فقال له الملك: ما أخطأت شيئًا ما تفسيره.

قال: ليهبطن بأرضك الحبش وتملك ما بين أبين إلى جرش، فقال الملك: إن هذا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفي زماني أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هاربين.

قال: ومَن ذا الذي يملك بعدهم؟ قال: أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحدًا باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومَن يقطعه؟ قال: نبي زكي يأتيه الوحي من العلي، قال: وممن يكون هذا النبي؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون في قومه الملك إلى آخر الدهر.

قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون. قال: أو حق ما تخبر قال: والشفق والقمر إذا اتسق أن ما أنبأتك به لحق.

ثم دعا بشق فقال مثل ما قاله سطيح.

الخزاعي الكاهن

حُكِيَ أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفاخرة، فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة، فرضي أمية بذلك وجعل بينهما الخزاعي الكاهن حكمًا، فخبؤوا إليه شيئًا وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا: قد خبأنا لك خبيًا فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك. فقال: لقد خبأتم لي كيت وكيت، قالوا: صدقت أحكم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتًا ونسبًا، فقال: والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو طائر وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ولأمية أواخر.

فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين، ويقال: إنها أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية.

هند بنت عتبة والكاهن

حُكِيَ. . . أن هند بنت عتبة بنت ربيعة كانت تحت الفاكه(١) بن المغيرة وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت ضيافة خارجًا عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه، فلما رأى هندًا رجع هاربًا، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله وقال لها: مَن هذا الذي خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحدًا قط وما انتبهت حتى أنبهتني، قال: فارجعي إلى بيت أبيك.

وتكلم الناس فيها فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فإن يكن الرجل صادقًا دسّيت عليه مَن يقتله لينقطع كلام الناس، وإن يك كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو علي بصادق. فقال له: يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني إلى بعض كهّان اليمن.

فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم وخرج أبوها في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة، فلما شارفوا البلاد قالوا: غدًا نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إني أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه

---

(١) كانت تحت الفاكه: أي زوجة له.

عندك، فقالت: لا والله، ولكن أعرف أنكم تأتون بشرًا يخطىء ويصيب ولا آمنه أن يسمني[١] بسيما تكون علي سبّة[٢]. فقال لها: لا تخشي فسوف أختبره، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل في إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم، ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئناك في أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها، قال: خبأتم لي تمرة في كمرة. قال: إني أريد أن أبين من هذا. قال: حبة بر في إحليل مهر.

قال: فانظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها: انهضي حتى بلغ هندًا فقال: انهضي غير رسحاء[٣] ولا زانية وستلدين ملكًا اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده وقالت: إليك عني فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضي الله تعالى عنه.

القيـــافـة

وأما القيافة: فهي على ضربين قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفرًا فيلحقه بأحدهم.

حُكِيَ عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكبًا على بعيره يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد، قال: ولد التاجر فوقع في نفسي من ذلك شيء فلما رجعت إلى أمي ذكرت لها القصة.

فقالت: يا ولدي إن أباك كان شيخًا كبيرًا ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ما له فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك، ولولا أن هذا شيء ستعلمه غدًا في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا.

وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف وقد اختصّ به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا

(١) يسمني: يلطخني ويطيعني. (٢) السبة: العار.
(٣) الرسحاء: قليلة لحم العجز والفخذين «القبيحة».

آثار قدمه حتى يظفروا به. ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن. ويذكر أن في قطبة وثغر البرلس أقوامًا بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبيّ ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صم ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ بما كان من نسيج العنكبوت وما لحق القائف من الحيرة، وقوله إلى هٰهنا انتهت الأقدام. هذا ومعهم الجماعة من قريش أبصارهم سليمة ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعني في علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى.

وقيل: القيافة لبني مدلج في أحياء مضر.

أصابا جميعًا

واختلف رجلان من القافة في أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هي ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم، فوجداه خنثى فأصابا جميعًا.

ومنهم مَن كان يخطّ الرمل في الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتي بعده.

خراش القائف

قال رجل: شردت لي إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها، فأمر بنته أن تخط لي في الأرض فخطت ثم قامت فضحك خراش ثم قال: أتدري قيامها لأي شيء؟ قلت: لا، قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها، فاستحيت ثم خرجت فوجدت إبلي ثم تزوجتها. وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غازيين، فمرا بامرأة وهي تخط للناس في الأرض فضحك منها مالك هزوًا وقال: ما هذا؟ فقالت: أما والله لا تخرج من سجستان حتى تموت ويتزوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت.

الزّجر والعرافة

وأما الزّجر والعرافة: فأحسنه ما روي أن كسرى أبرويز بعث إلى النبيّ ﷺ حين بعث زاجرًا ومصورًا، فقال للزاجر: انظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال

للمصور: ائتني بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك.

وبعث صاحب الروم إلى النبيّ ﷺ رسولًا وقال له: انظر إليه ومل إلى جانبه وانظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة، فقدم الرسول فرأى النبيّ ﷺ على نشز عال واضعًا قدميه في الماء وعن يمينه علي رضي الله عنه فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: تحول فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر فقال: ليعلون أمره وليملكن ما تحت قدمي، فتفاءل بالنشز العلو وبالماء الحياة.

وقال المدايني: وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان، حين أتاها فخرج هاربًا ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك، فقال: أواه ما أظن أني أرجع إلى الفسطاط. فمات ولم يرجع.

وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة: اذهبي فانظري إليها، فذهبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلها ولكني رأيت تحت سرتها خالًا ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها فطلقها معاوية، وتزوجها بعده رجلان حبيب بن مسلمة والنعمان بن بشير فقتل أحدهما ووضع رأسه في حجرها. وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان.

وكان هناك عرّاف، وقيل: قياف، فقام فتبعه ثوبان مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندي واضح البرهان، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان.

علي والعـرّاف

روى المدايني أن عليًا رضي الله عنه بعث معقلًا، في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقة وذلك في وقعة صفين، فسار حتى نزل الحديبية فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين ينتطحان فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشًا فذهب به، فقال

شداد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر: إنكم لتصرفون من موجهكم هذا لا تُغلَبون ولا تَغلبون أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرقا ولا فضل لأحدهما على الآخر.

الإسكندر والعرافة

حُكِيَ أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوبًا فلما رأته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكًا ذا طول وعرض ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت: ستعزل من الملك، قال: فغضب عند ذلك فقالت له: لا تغضب فإنك في المرة الأولى دخلت علي والشقة بيدي أدير طولها وعرضها، ودخلت علي الآن والشقة في يدي أريد قطعها لأني قد فرغت من نسجها فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوي: فكان كذلك.

سيف بن ذي يزن وزهير العرّاف

حُكِيَ أن سيف بن ذي يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم، فخرج إليهم ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم، قال: وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره: اصبر لتنظر ما يكون من أمره، فقال: فتحول مسروق من الفيل إلى جمل فقال: اصبر، فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار لما أنه استصغرهم واستحقرهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من إعلى إلى أدنى وقال: احملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

عـرّاف بغدادي

حُكِيَ أنه كان عراف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يسأل عنه فلم يخطيء فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق، قال: نعم ويخلع عليه. قال: فقلت له بأي شيء عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتني التفت يمينًا وشمالًا فوجدت رجلًا على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس وتفريق بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلعة، قال: وكان الأمر كذلك.

الفــــأْل

وأما الفأْل: فقد رُوِيَ أن النبيّ ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن. ورُوِيَ أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له يا بشار ويا سالم فقال ﷺ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار.

وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأْل فقال: هو أن يكون مريض فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واجد وما أشبه ذلك.

الطِّيــرة

وأما الطِّيرة: فقد كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة. وقيل: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: مَن عرض له من هذه الطيرة شيء، فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إلـٰه غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وعنه ﷺ أنه قال: ليس منا مَن تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهّن له.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (رفعه) من افتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة[1] من السحر. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: مَن أتى كاهنًا فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضًا في دبرها فقد بريء مما نزل على محمد. وأنشد المبرد[2] هذه الأبيات يقول:

لا يعلم المرء ليلًا ما يصبحه   إلا كواذب ما يجري به الفالُ
والفال والزجر والكهان كلّهم   مضللون ودون الغيب أقفالُ[3]

وقال لبيد:

لعمري ما تدري الطوارق بالحصى   ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

---

(١) شعبة: ناحية وجانبًا.

(٢) المبرد: ٢١٠ ـ ٢٨٦ هـ. ٨٢٦ ـ ٨٩٩ م. محمد بن الأزدي أبو العباس المعروف بالمبرد إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه «الكامل» و«المذكر والمؤنث» و«التعازي والمرائي» و«شرح لامية العرب».

(٣) الفأل والزجر: الفال: ما يتفاءل فيه الإنسان والزجر إطلاق الطائر، فإن طار يمينًا حصل التفاؤل وإن طار شمالًا حصل التشاؤم.

وقال آخر:

تعلّم أنّه لا طير إلّا   على متطيّر وهو الثبور(١)
بل شيءٌ يوافق بعض شيءٍ   أحايينًا وباطله كثير

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس. وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها وكانوا إذا أرادوا سفر خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها، فإن أخذت يمينًا أخذوا يمينًا وإن أخذت شمالًا أخذوا شمالًا، ومنه قول امرىء القيس:

وقد اغتدى والطير في وكناتها   بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ
مِكَرًّ مِفَرًّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ معًا   كجلمود صخرٍ حطّه السيل من عَلِي

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه حاتمًا لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير بصرًا، وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غراب البين صاح فقل به   ترفّق رماك الله يا طيرُ بالبعدِ
لأنتَ على العشّاق أقبح منظرٍ   وأبشع في الأبصار من رؤية اللّحدِ
تصيح ببينٍ ثم تعثر ماشيًا   وتبرز في ثوبٍ من الحزن مسودِّ
متى صحت صحّ البين وانقطع الرجا   كأنّك من يوم الفراق على وعد

وأعرض بعضهم عن الغراب وتطيّر بالإبل، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال مَن ارتحل. وفي ذلك قال بعضهم مفردًا أجاد:

زعموا بأن مطيّهم سبب النوى   والمؤذنات بفرقة الأحباب

وقالوا: مَن تطيّر من شيء وقع فيه.

المأمون وإبراهيم بن المهدي

حُكِيَ عن إبراهيم بن المهدي قال: أرسل إلي محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف مقمرة يقول: يا عم إني مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا، فجئته وقد

---

(١) الثبور: الهلاك.

بسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبي جعفر وجاريته نعيم فقال لها: غنينا شيئًا فقد سررت بعمومتي فغنت وهي تقول هذه الأبيات:

همو قتلوهُ كي يكونوا مكانه كما فعلتْ يومًا بكسرى مرازبه(١)
بني هاشمٍ كيف التواصلُ بيننا وجند أخيه سيفه ونجائبه(٢)

قال: فغضب وتطير وقال لها: ما قصتك ويحك انتبهي وغني ما يسرني. فغنت تقول:

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصرًا وأكثر حزمًا منك ضرِّج بالدم

فقال لها: ويحك ما هذا الغناء في هذه الليلة غنّي غيره فغنت تقول هذه الأبيات:

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عدّاءُ
تبكي فراقهم عيني فأرقّها إنّ التفرّق للمشتاق بكاءُ

قال: فانتهرها وقال لها: قومي إلى لعنة الله فقالت: والله يا مولاي لم يجر على لساني غير هذا وما ظننت إلا أنك تحبه.

ثم إنها قامت من بين يديه وكان بين يديه قدح بلور وكان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدي: فالتفت إلي وقال: يا عمي أرى أن هذا آخر أمرنا، فقلت: كلا بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرك فسمعت هاتفًا يقول: قضي الأمر الذي فيه تستفيان. فقال لي: أسمعت ما سمعت يا عم؟ فقلت: ما سمعت شيئًا وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا فقال: يا عم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال: انصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدي به.

أبو الشمقمق وخالد بن يزيد

وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل، فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه في أول درب منها فتطير لذلك فأنشده أبو

(١) مرازبه: عند الفرس «الرؤساء».
(٢) النجائب: الكريم الفاضل النسيب من الإنسان والحيوان.

الشمقمق يقول:

ما كان مندقّ اللواء لريبةٍ   تخشى ولا أمرٍ يكون مبذّلا[١]

لكنّ هذا الرمح ضعّف متنه   صغر الولاية فاستقلّ الموصلا

فسُرَّ خالد وأمر لأبي الشمقمق بعشرة آلاف درهم.

الحجاج بن يوسف والطيرة

دخل الحجاج الكوفة متوجهًا إلى عبد الملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال: شاهت الوجوه وتبت الأيدي ويؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، وإني على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع وأشأم من يوم نحس مستمر، وإني لأعجب من لوط وقوله لو أن لي بكم قوة أو آوى إلي ركن شديد، فأي ركن أشد من الله تعالى أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين وقد وليت عليكم أخي محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذًا في أهل اليمن فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أمرته أن يسيء إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

أيّنا أشأم

وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول مَن استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيدًا كثيرًا فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال فقال: لا حاجة لي به لكن ائذن لي في الكلام، فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وحبستني وتلقيتك فصدت وسلمت فأينا أشأم صباحًا على صاحبه؟ فضحك منه وأمر له بصلة.

---

(١) مبذال: محقرًا ومبتذلًا هينًا.

طيرة صاحب قرطبة

حُكِيَ أيضًا أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هذي الليالي علمنا أنْ ستطوينا   فشعشعينا بماء المزن واسقينا

قال: فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

نور الدين وهمام الدين

حُكِيَ أن نور الدين محمود وهمام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرج، فتجاولا في الكلام ثم قال محمود: يا مَن درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: قل هل نعيش إلى آخر هذا الشهر، فإن العام كثير قال: فأجرى الله على منطقهما ما كان مقدرًا في الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام.

الفراسة

وأما الفراسة: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحِجر: الآية ٧٥]. وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على علي رضي الله تعالى عنه بشيء فلم يعمل به، ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته فأنفت نفسي منه، فتفرس ذلك مني فقرأ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٥] فندمت واستغفرت الله في قلبي فتفرس ذلك أيضًا فقرأ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشّورى: الآية ٢٥].

وحُكِيَ عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلًا فقال أحدهما: إنه نجار وقال الآخر: أنه حداد، فسألاه عن صنعته فقال: كنت حدادًا وأنا الآن نجار.

رائحة الكفر

حُكِيَ أن شخصًا من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: اجلس فإني أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية قال: من رآه: ولقد رأيته متكئًا على دكة وبيده مروحة يروح بها عليه، فقلت: السلام عليكم يا فلان، فسلم علي وتعارفنا ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باقٍ على حاله أم لا؟ فقال له: لا أذكر منه إلا آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحِجر: الآية ٢]. قال: فبكيت عليه وتركته وانصرفت.

كان الحسن ابن السقاء من موالي بني سليم ولم يكن في الأرض أحزر منه، كان ينظر إلى السفينة فيحزر ما فيها فلا يخطىء وكان حزره للمكيول والموزون والمعدود سواء. كان يقول في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطىء.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء ما عند الله خير وأبقى فاعلم إن جواره وليمة ولم يدع إليها، وإذا رأيت قومًا يخرجون من عند قاض وهم يقولون: ما شهدنا إلا بما علمنا، فاعلم أن شهادتهم لم تقبل.

وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شيء، فاعلم أن امرأته قبيحة، وإذا رأيت إنسانًا يمشي ويلتفت، فاعلم أنه يريد أن يحدث. وإذا رأيت فقيرًا يعدو ويهرول فاعلم أنه في حاجة غني.

وإذا رأيت رجلًا خارجًا من عند الوالي وهو يقول يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع. ويقال عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون عظم الجبين يدل على البله، وعرضه يدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها دليل الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها يدل على السمع والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان.

وكانت الفرس إذا تقول فشا الموت في الوحوش دل على ضيقه، وإذا فشا في الفأر دل على الخصب، وإذا نعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب، وإذا

قوقت دجاجة فجاوبها غراب خرب العمار. والله أعلم بكل شيء عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد أو عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

النوم والسهر

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما: فقد رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل». ورُوِيَ أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن صاحب النوم يجيء يوم القيامة مفلسًا، وكان زمعة بن صالح يسهر ليلًا طويلًا فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيها الركب المعرّسونا أكلّ هذا الليل ترقدونا[1]

فيتواثبون بين باك وداع ومتضرع فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى. (وأنشدوا):

يا أيها الراقد كم ترقدُ قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخذ من الليل وساعاته حظًّا إذا ما هجع الرقّدُ
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوي الألباب أهل التقى قنطرة الحشر لكم موعد

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون وأنشد بعضهم:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى غمومًا ونومات العصير جنون

وعن ابن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يومًا بابنه وهو نائم نومة الضحى فوكزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينك أتنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أو ما سمعت ما قالت العرب إنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة.

(١) المعرسونا: النازلون للاستراحة.

والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الخرق ونومة الخلق ونومة الحمق، فنومة الخرق نومة الضحى ونومة الخلق هي التي أمر النبيّ ﷺ بها أمته فقال: قيلوا فإن الشياطين لا تقيل، ونومة الحمق النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون.

وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطبح بالنوم فإنه شؤم ونكد. وقال الثوري لطبيب: دُلّني على شيء إذا أردت النوم جاءني، فقال: ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله، وكان طاوس يقول لأن تختلف السياط على ظهري أحب إلي من أن أنام يوم الجمعة، والإمام يخطب. وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على المقلى ويقول: اللهم إن النار منعتني النوم وأنشدوا في المعنى:

غيرت موضع مرقدي ... يومًا ففارقني السكونُ
قل لي فأوّل ليلتي ... في حفرتي أنى أكونُ

وأنشد أبو دلف:

أمالكتي ردّي عليَّ رقاديا ... ونومي فقد شرَّدته عن وساديا
أما تتقين الله في قتل عاشقٍ ... أمتِّ الكرى عنه فأحيا اللياليا

وأنشد أبو غانم الثقفي:

رقدت رقاد الهيم حتى لو أنني ... يكون رقادي مغنمًا لغنيت(١)

فقيل: لمن هذا؟ فقال: لرقاد من رقاد العرب. وقيل: إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبدًا أسود قيل إنه نام أسبوعًا وقيل إنه تماوت على أهله وقال: اندبوني لأعلم كيف تندبوني إذا أنا مت فسجى ونام وندب فإذا هو قد مات.

الـــرؤيـا

وأما الرؤيا: فقد قيل فيها أقاويل وهو أنهم قالوا إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم مَن رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح.

---

(١) رقاد الهيم: نوم الإبل العطاش.

ومنهم مَن زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع. وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط وإن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، فالذي يغلب عليه الصفراء يرى بحورًا وعيونًا ومياهًا كثيرة ويرى أنه يسبح ويصيد سمكًا، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أجداثًا وأمواتًا مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة. ومَن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهي والثياب المصبغة.

والذي يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزء من النبوة، وكان النبيّ ﷺ أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين فمنهم مَن يرى رؤيا فتجيء على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم مَن يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له.

رؤيا النبيّ ﷺ

فمن ذلك ما حُكِيَ أن النبيّ ﷺ رأى في الجنة غرفًا فقال: لمن هذه؟ فقيل لأبي جهل بن هشام فقال ما لأبي جهل والجنة والله لا يدخلها أبدًا. قال: فأتاه عكرمة ولده مسلمًا، فتأولها به وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلبًا أبقع(١) يلغ في دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عامًا وكذلك حين قال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه إني رأيت كأني رقيت أنا وأنت درجًا في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله اقبض بعدك بسنتين ونصف. ورأت عائشة رضي الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها فأولها أبوها بموته وموت النبيّ ﷺ وموت عمر رضي الله تعالى عنهما ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك.

رؤيا أُم الشافعي

وحُكِيَ أن أم الشافعي رضي الله تعالى عنه لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق في كل بلد قطعة، فأول عالم يكون بمصر وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك.

---

(١) الأبقع: الذي اختلف لونه، أو كان فيه سواد وبياض.

عمر بن الخطاب وصاحب الرؤيا

وحُكِيَ أيضًا: أن عاملًا أتى عمر رضي الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتتلا، فقال له عمر مع من كنت؟ قال: مع القمر، فقال: مع الآية الممحوة والله لا وليت لي عملًا فعزله. ثم اتفق أن عليًا رضي الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية.

ابن سيرين

وأما من مهر في تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين. جاءه رجل فقال له: رأيت كأني أسقي شجرة زيتون زيتًا، فاستوى جالسًا فقال: ما التي تحتك؟ قال: علجة اشتريتها، وفي رواية جارية، وأنا أطؤها فقال: أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدها أمه. وجاءه رجل فقال: رأيت كأن في يدي خاتمًا أختم به فروج النساء وأفواه الرجال، فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء.

وجاءه رجل فقال: رأيت جارة لي قد ذبحت في بيت من دارها، فقال هي امرأة نكحت في ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم لذلك ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة وجامع زوجته في ذلك البيت.

وجاءه رجل معه جراب فقال له: رأيت في النوم كأني أسد الزقاق سدًا وثيقًا شديدًا، فقال له: أنت رأيت هذا؟ قال: نعم، فقال لمن حضره: ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان وربما تكون في جرابة آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتارًا وحلقًا فسلموه إلى السلطان.

وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت في النوم كأن القمر دخل في الثريا، ونادى منادٍ من خلق أن ائتني ابن سيرين فقصّ عليه، فتقلصت يده وقال: ويلك كيف رأيتي هذا؟ فأعادت عليه فقال لأخته: هذه تزعم أني أموت لسبعة أيام وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ومات بعد سبعة أيام.

وجاءه رجل فقال: رأيت كأني آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه وألقي صفاره، فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان ذلك.

وحُكِيَ أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي، وقال: يموت الحسن وأموت بعده. وهو أشرف مني فمات الحسن ومات بعده بمائة يوم.

وحُكِيَ أن رجلًا رأى عيسى عليه السلام قال له: يا نبي الله صلبك حق، قال: نعم، فعبره على بعضهم، فقال: تكذب رؤياك بقوله تعالى: وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم. ولكن هو عائد على الرائي فكان كذلك. وأتى ابنة مغيث آتٍ في المنام فقال لها:

لك البشيرى بولد أشبه شيء بالأسد إذا الرجال في كبد[1]
تغالبوا على بلد كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة.

وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كأني بلت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا، قال: هو عبد الملك، فقال: يلي أربعة من صلبه الخلافة. وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: رأيت عليًّا رضي الله تعالى عنه في المنام فقال لي: ناولني كتبك فناولته إياها فأخذها وبددها فأصبحت أخا كآبة، فأتيت الجعد فأخبرته فقال: سيرفع الله شأنك وينشر علمك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: مَن رآني في منامه فقد رآني حقًّا، فإن الشيطان لا يتمثل بي، وجاء إلى النبيّ ﷺ فقال: رأيت كأن رأسي قد قطع وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال: بأي عين كنت تنظر إلى رأسك فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي وأولوا رأسه بنبيه ونظره إليه باتباع سنته.

وقال رجل لعلي بن الحسين: رأيت كأني أبول في يدي، فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: رأيت كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك سألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها. قال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك ﷺ.

---

(١) الكبد: التعب.

وقال النبيّ ﷺ الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك. إنه سألني عن عقال بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقي الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين.

العرب والأساطير

كانت العرب تمرُّ في الجاهلية بضعف في التعليل. أعني عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول.

مثلًا: يمرضُ أحدُهُم فيصفون لهُ علاجًا فيفهم نوعًا عامًا من الارتباط بين الداء والدواء، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذي يتفلسف! يفهم أن عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء. لذا لا يرى عقله بأسًا من أن يعتقد أن دَمَ الرئيس يشفي الكَلَب! أو أن سبب المرض روحٌ شرير حلّ فيه فيداويه بما يطردُ هذه الأرواح. أو أنه خِيفَ على الرجل الجنون فنجوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى إلى كثير من ذلك.

ولا يستنكر شيئًا لأن القبيلة تفعله. لأن منشأ الاستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه، وما يزيل هذه العوارض. وهذه الدرجة لا يصل إليها العقل في طوره الأول.

وقد مُلِئَتْ كتبُ الأدبِ بالخرافاتِ والأساطيرِ التي كانت العرب تعتقدها. فهم يحدثوننا عن سدِّ مأربَ وسبب خرابه.

كان بين ثلاثة جبال تحصر ماء السيل والعيون، وليس للماء مخرج إلَّا من جهة واحدة، فسدَّ الأوائلُ تلك الجهة بالرصاص والحجارة الصلبة.

فكانوا إذا أرادوا سَقْيَ زَرْعِهم فَتحوا من ذلك السدِّ بقدرِ حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة، فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدُّونه إذا أرادوا.

ثم يحدثوننا أن سبب خرابه جُرذان حُمْر كنَّ يحفرنَ السَّد الذي يليها بأنيابها، فتقتلع الحَجرِ الذي لا ينقله مائة رجل ثم تدفعهُ بمخاليب رجليها حتى تسدَّ الوادي من الناحية التي يجتمع فيها الماء. ويُفتح من ناحية السد.

وقد عجزوا عن أن يفهموا أن ليس هناك ارتباط صحيح بين هذه الجرذان الخرافية وخراب السد. وأن السبب الصحيح هو إهمال تعهد السد وصيانته، بحيث لم يعد يقوى على تحمل السيل.

وكذلك قالوا: إن الذي بنى الخورنق هو النعمان بن امرىء القيس. بناه له رجل من الروم يقال له: سنَّمار. فلما أتمَّهُ قال له سنمار:

إني أعلم موضع آجُرَّة لو زالت لسقط القصر كله. فقال النعمان: أيعرفها غيرك؟ قال: لا. قال: لا جَرَم، لأدعنَّها وما يعرفها أحد. ثم أمر بقذفه من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع. فضرب به المثل، وقيل: «جزاه جزاء سنمار».

وقد صدَّق الناس هذه الخرافة مع استحالة تركيز القصر على آجرة واحدة. وكذلك قصة لقمان بن عاد. لما بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها فلما هلكوا خُيِّر لقمان بين أن يبقى بقاء سبع بقرات سمر، من أضب عفر، في جبل وعر، لا يمسها قطر.

أو بقاء سبع أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر. فكان آخر نسوره اسمه لبد. وقد ذكرته الشعراء، فقال النابغة:

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

ويطول القول عن هذا القبيل في كتب التاريخ، من حوادث تتعلق بالقبائل البائدة: كعادٍ وجديس وطسم، أو بالحوادث البعيدة عن زمن الهجرة كجذيمة الأبرش والزبَّاء.

ولم يكن هذا شأن العرب وحدهم، بل شاركهم فيه غيرهم من الأمم في طَوْرِ مثل طَوْرهم كاليونان، وأصبحت هذه الأشياء وغيرها موضوعًا لما يسمى «علم الميثولوجيا».

أسطورة شداد بن عاد

حدَّث شيخ من أهل اليمن بصنعاء عام الردة، وكان معمرًا عالمًا بملوك بني حمير وأمورها قال: كان باليمن رجل من عاد بن قحطان، وهو عاد الأصغر ـ وأما

عاد الأكبر فلم يبق منهم أحد. قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحَاقَّة: الآية ٨]، وأن هذا الرجل العادي كان يقال له الهميسع بن بكر، وكان جسورًا لا يهاب أمرًا، وكانت الصعاليك تقصده من آفاق الأرض، وكان أكثر طلبه المغاور والكهوف يطلبها في جبال اليمن وعمان والبحرين. فأتاه رجل من عبس وآخر من خزاعة وكانا صعلوكين جسورين فقالا له: يا هميسع خذنا معك أين ما أردت فإنَّا نبلغ مرادك.

فمضى معهما حتى أتى بهما جبلًا وعليه غابة فيها الثعابين لا تُرام، والهميسع أمامهم وكان قد أتى الجبل مرارًا وحده، وكان إذا عاين الثعابين يجزع ويرجع. فلما أتى ومعه الصعلوكان جَسَر بهما وتشجع، فلم يزل يتزايا للثعابين وتهرب منه حتى بلغ باب كهف عظيم كأنه جبل، فسمعوا من داخل الكهف دويًا عظيمًا وهينمة، وعلى باب الكهف نقشٌ بالحميري فقالا له: اقرأ يا هميسع. فقرأه فإذا مكتوب هذين البيتين:

لا يدخل البيت إلّا ذو مخاطرةٍ أو جاهلٍ بدخول الكهف مغرور
إن الذي عنده الآجال حاضرةً موكلٌ بالذي يغشاه مأمورُ

فغلب الخوف والجزع على الخزاعي في أول أمره. ثم إن الجزع غلب أيضًا على العبسي فاستدرك نفسه العبسي وثبت. فقال الخزاعي: يا هميسع قد عاش في الدنيا كثير ممن لم تبلغ نفسه هذا المبلغ. ثم قال له: يا هميسع لقد بعْتَ نفسكَ من دهرك بأبخس ثمن. فقال الهميسع: نمضي بالكهف أم لا؟

قالا له: نمضي. فسارا قليلًا فوجدا بابًا مكتوب عليه بالخط الحميري:

انظر لرحلِك لا يساق فإنه حتم الحمام إلى العرين يساقُ
يا ساكني جبليْ شمام لعله يُدني بما أجنبتما الميثاقُ
قوموا إلى الإنسيّ إن محلَّهُ يدعو إلى يوم الفراق فراقُ

قال: فولّى العبسي هاربًا عنه، وناداه الهميسع فلم يلتفت له. ومضى وهو يقول: قاتل الله أخا عاد ما أجسره.

قال: فهمَّ الهميسع أن يفر، ولكنه حمل نفسه على الأصعب، ومضى حتى بلغ إلى باب هو أعظم هولًا وأشدُّ وحشةً وعليه نقش بالقلم الحميري -

فقرأه الهميسع فإذا فيه:

قد كان فيما قد مضى واعظٌ لنفسك البيِّنة المسمعهْ
إن جهل الجاهل ما قد أتى وكان حينًا قلبه في دَعَهْ

فدخل الباب الثالث فسمع دويًا عظيمًا كالرعد وهدَّةً عظيمة، فبينما هو كذلك إذ برز إليه تنين أحمر العينين فاتحًا فاه، فلما رآه الهميسع رجع هاربًا إلى خلفه فسكن التنين. فوقف العادي وقال في نفسه: قد رآني، ولو كان حيوانًا لم يدعني وما هو إلَّا طلسم، فأخذ حذره من صدمته ـ وأقبل يمشي قليلًا قليلًا ويُخفف وطأ قدميه، حتى وضع قدمه في موضع فتحرك التنين ودوى.

فأخذ قدومًا كان معه فحفر على الموضع حتى ظهرت له سلاسل على بكرات، فأجنه الليل فأسرع الخروج من الكهف وجمع حطبًا من الغيضة وأضرمها نارًا وبات عند باب الكهف. فلما غشيه الليل سمع بكاءً عظيمًا وحنينًا داخل الكهف، فلم يزل ينتظر ويرتقب وينظر حتى نظر إلى نار عظيمة خارجة إليه من داخل الكهف. فلما رآها لم يبرح من موضعه حتى غشيته، فصبر لها فلم تؤلم فيه شيئًا. ثم أتته أخرى ثانية أكبر من الأولى، فصبر لها كذلك. فلما مالت عنه أخذ مقياس النيران التي أضرمها وأقبل يضرب بها حيطان الكهف يمينًا وشمالًا حتى سمع نداءً من داخل الكهف يهتف:

يا هميسع لا حاجة لنا في دخولك. فأقام حتى أصبح، فدخل الكهف إلى أن وصل إلى الباب الذي رأى فيه التنين، ثم حفر على بقية حد التنين حتى قلعه.

وسقط التنين، فسار إليه الهميسع وقلع عينيه، فإذا هما ياقوتتان حمراوان لا قيمة لهما. وسار حتى انتهى إلى باب هو أعظم هولًا وأشدُّ وحشة. فلما همَّ أن يفتحه سمع دويًا عظيمًا، وبدا له أسد عظيم، فرجع أيضًا إلى خلفه، فرجع عنه الأسد بدويّ عظيم. فحفر على موضع حركته كما صنع بالتنين حتى أبطل حركته، وقلع عينيه فإذا هما ياقوتتان.

ثم دخل بابًا فإذا هو بدار عظيمة، وفيها بيت في وسطه سرير من ذهب وعليه شيخ على رأسه لوح من ذهب فيه مكتوب:

أنا شداد بن عاد، عشت خمسمائة عام، وقتلت ألف مبارز، وتزوجت ألف امرأة، وركبت ألف جواد من عتاق الخيل. وتحته مكتوب:

من ذاك يا شداد عاد أصبحت ... آماله مهزومة الأقدام
يا من رآني إنني لك عبرةً ... من بعد ملكِ الدهر والأعوام
فكأنني ضيفٌ ترحل مسرعًا ... وكأنني حلم من الأحلام
احذر تصاريف الزمان وريبه ... لا تأمننَّ حوادث الأيام

قال: ثم ملت إلى الركن الذي عن يمينه، فإذا هو سريرٌ من ذهب وعليه جاريتان فوق رأسيهما في الحائط لوح من ذهب ـ أو قال من عاج ـ فيه مكتوب: «أنا حبة، وهذه لبَّة بنت شداد بن عاد. أتت علينا أزمان أنفقنا فيها الطارف والتليد، ثم طلبنا صاعًا من بُرٍّ بصاع من دُرّ فلم نجده. فمن رآنا فلا يثق بالزمان وليكن على بيان، فإنه يُحدث العز والهوان».

قال: فأخذ الهميسع الألواح ـ وما بالبيت من درٍّ وجوهر وياقوت وخرج.

لما مات شداد بن عاد صار الأمر إلى أخيه لقمان بن عاد ـ وكان الله أعطى لقمان ما لم يعط غيره من الناس في زمانه. أعطاه حاسة مائة رجل، وكان طويلًا لا يقاربه أهل زمانه(١).

قصة لقمان بن عاد والنسور السبعة

أُعطي لقمان بن عاد ما لم يُعطه غيره من الناس في زمانه. أعطاه الله حاسة وقوة مائة رجل. وكان حكيمًا.

كان لقمان بن عاد بعد كل صلاة يدعو بطول العمر، وقد دعا بذلك في الكعبة. فأتاه صوت وهو في الكعبة: يا لقمان بن عاد؛ أطلب تُجَبْ. فطلب طول العمر وقال: «اللهم يا رب البحار الخضر، والأرض ذات النبتِ بعد القطر، أسألك طول العمر، وعمرًا فوق عمر».

فنودي: قد أجيبتْ دعوتك، وأُعطيتَ سؤلك، ولا سبيل إلى الخلود، واختر: إن شئت بقاء سبع بقرات عُفر، في جبل وعْر، لا يمسَّهُنَّ ذُعر. وإن

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير، ص ٧٧ ـ ٧٨.

شئت سبع نوايات من ثمر، مستودعات في صخر، لا يمسَّهُنَّ ندى ولا قطر. وإن شئت سبعة نسور، كلما هلك نسر عقب بعده نسر. فقال: أنا أختار سبعة نسور.

فكان يأخذ فرخ النسر من وكره ويربيه حتى يموت. وكان آخرهم لُبَد.

النسر الأول: المصون

بينما لقمان يدور ذات يوم في جبل قبيس بمكة إذ سمع مناديًا لا يرى شخصه، وهو يقول: يا لقمان بن عاد المغرور ببقاء النسور، اطلع إلى رأس «ثبير» ليس يعد وقدرك المقدور.

فطلع رأس ثبير فإذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلَّقتا عن فرخيهما، فاختار لقمان أحد الفرخين، ثم عقد في رجليه سيرًا ليعرفه وسماه: المصون. ثم قال: المصون الخالص المكنون، من بيت المصون، ومحذور السنون، وغبط العيون، والباقي بعد الحصون، آلى آخر الدهر الخؤون.

فكان لا يغفل عن إطعامه حتى صار طائرًا مسخرًا له، يدعوه فيجيبه، حتى أدركه الكبر فضعف ومات، فجزع لقمان جزعًا شديدًا، وقال: هذا بلاء.

النسر الثاني: عِوَض

كان لقمان بالطائف يبكي نسره مصون، إذ سمع مناديًا يناديه: يا لقمان بن عاد دونك البدل، رأس الجبل، مرعى الوعل، رأس السرماج المعتزل، مأمورٌ بطاعتك كالأول.

طلع لقمان إلى رأس الجبل فوق مرعى الوعل، فإذا بوكر نسر فيه بيضتان تفلقتا عن فرخيهما، فاختار أحد الفرخين، فسماه عوض، ثم قال: أنت العوض، المبرأ من تلف العَرَض، وآفات المرض، وتعواج الجرض، وحقك عليَّ أفضل مفترض، أوديه كلما عرق نبض.

ولما كبر وأدركه الضعف. دعاه لقمان يومًا تحت شجرةٍ ومعه لحم ليطعمه، فأقبل النسر كاسرًا بجوزه غصون الشجر فخرّ ميتًا. فهال لقمانَ موته هولًا عظيمًا.

النسر الثالث: الخلف

كان لقمان بالسراة، فبينما هو سائر حزينًا على نسره عوض، سمع هاتفًا يهتف: يا لقمان بن عاد، اطلع الصفا، تجد عند العرثون شرفًا، تصادف فيه خلفًا، واسمه خلف، وأقبلْ بالحياة نَصَفا.

فطلع لقمان رأس الجبل، فوجد وكر نسر فيه بيضتان تفلقتا على فرخيهما، فاختار أحد الفرخين، وقال:

أنت الخَلَف، كما وصفك من وصف، احترازًا من التلف، وأبقى مما قد سلف، ولك عندي أفضل النَصَف. وكان يطعمه ويذلك، حتى كبُر وضعف ولم يقدر أن يطير، فصنع له قفصًا كان يأخذه فيه أينما ذهب. وكان مرةً في عكاظ، إذ اجتمع إليه من حضر من العرب وطلبوا إليه أن يريهم نسره. فبينما هم يقلبونه وينظرون إليه إذ مات النسر في أيديهم وبينهم. فاغتمَّ لقمان لموته وجزع عليه جزعًا شديدًا. ويقال إن لقمان هو أول مَن حمل نسرًا في قفص.

النسر الرابع: المغيَّب

وتوجه لقمان إلى جبل قريب وهو حزين على نسره خلف، إذ سمع مناديًا ينادي: يا لقمان بن عادٍ، اطلع الجبل، تلق عند السهور[1] ذي الرتب، في تلة العربون المنتصب، مغيبًا لم تغيب، من حلول موت قد كتب، على أهل المشرق والمغرب.

فطلع لقمان ذلك الجبل حيث وصف الذي ناداه، فإذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهما، فاختار أحد الفرخين، وسماه مغيبًا، ثم قال:

أنت المغيَّب، وقد سماك مَن لا يكذب، عيشك معي العيش المخصب، ويزاح عنك المكدر المخرب، وأنا عليك حدب، في بقائك مرتقب، فكن أبقى ممن ذهب. فكان لقمان لا يغفل عن إطعامه. ودعاه يومًا من رأس جبل فلم يجبه فطلع إليه فوجده ميتًا، فهاله موته هولًا شديدًا وبكى بكاءً مرًا.

(١) كذا في الأصل.

النسر الخامس: ميسرة

لما كان لقمان يبكي على النسر، سمع صوتًا يقول: يا لقمان بن عاد، لك في الجبل الأيسر، بين منبت الشيث والعرعر، فوق الشاهق الأغرّ، فأخرجه منه واستبشر، فبطاعتك قد أُمر، وإلى الموت يصير البشر. فطلع لقمان فوجد عشًّا فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخين، فاختار أحد الفرخين وعقد في رجله سيرًا ليعرفه، وسماه ميسرة. ثم قال: أنت الميسر المحبب إليك اليسر، إنك النسر الباقي بقاء الدهر. وكان لقمان يطعمه ويربيه، ودعاه يومًا ليطعمه فوجده ميتًا، فهاله موته وجزع جزعًا شديدًا.

النسر السادس: أنس

بينما لقمان يبكي على نفسه ذات يوم، لأن ذهاب النسور أنقص من عمره، إذ سمع مناديًا يقول: يا لقمان بن عاد، لك الصفا الأسود، حيث الشجر المتلبد، خلصة بيت الرشد، فرخٌ به وفاء الوعد، مأمور بطاعتك فاصعدْ.

فصعد لقمان فوجد وكرَ نسر فيه بيضتان قد انشقتا وتفلقتا عن فرخيهما، فاختار أحد الفرخين وسماه أنسًا، ثم قال: أنت الأنس من الروعات والدحس، والدهر غير التعس، وحياتك ببقاء النفس. وكان لقمان لا يعدل عن إطعامه حتى نهض طائرًا مسخَّرًا له، يدعوه إلى المأكل فيجيبه، حتى كبر وضعف. فبينما لقمان سائرًا من الطائف إلى مكة ومعه لحم قد بضعه له، والنسر يحوم فوقه إذ دعاه إلى الأكل، فانقض كاسرًا فوقع فمات، فاغتمَّ لقمان غمًّا شديدًا وبكى.

النسر السابع: لُبَد

وبينما لقمان يبكي نفسه، إذ بصوتٍ يناديه يقول: يا لقمان بن عاد، لك فوق الصيف الأسود، حيث الشجر المتلبد، خلصة بيت الرشد، فرخ به وفاء الوعد، مأمور بطاعتك فاصعدْ.

فصعد لقمان فوجد وكر نسرٍ فيه بيضتان قد انشقتا وتفلقتا عن فرخيهما، فاختار أحد الفرخين. وعقد في رجله عقدة، وسماه لُبَد. وقال: أنت لُبَد، الباقي المخلد، إلى الآخر الأبد، عيشك معي رغد، ويزاح عنك النكد، ويوفق لك الرشد، وعمرك لا ينفد.

وكان لا يغفل عنه أبدًا. وجاء رجل إلى لقمان من عاد الآخرة. فقال: يا عم، ما بقي لك من عمرك إلّا هذا النسر. فقال لقمان: يا بني، هذا لُبَد! ولُبَد في لغة العرب معناه الدهر.

فلما دنا أجل لقمان وبلغ الميقات، أقبل ذلك النسر لبد حتى وقع على شجرة، فدعاه لقمان، فأراد أن يقوم فلم يستطع. فناداه مرعوبًا حتى قام تحته وهو يقول: انهض لبد، أنت الأبد، لا يقطع بي الأمد، نهضا شدد، نهض المجرد، الحارث بن ذي شدد. فلم يطق لبد أن ينهض، وتفسخ ريشه ومات. فهال ذلك لقمان وجاء لينهضه، فاضطربت عروق ظهره وخرَّ ميتًا.

وكان منظرهما هذا بمرأى رجل من العمالقة. يقال له: المثنَّى بن عمليق ـ والعمالقة سكان السراة والحجاز كلها. فقال وهو يبكي على لقمان ويرثيه:

فنيت وأفنى الله نسلك من نسر هلكت وأهلكت من عاد وما تدري

فمن ذا ينجي بعد لقمان فكره يخلصه يا قوم من تلف الدهر

وذهب المثنى إلى ناس من قومه العماليق فأخبرهم بأمر لقمان ونسره فانطلقوا ودفنوهما. ويقول ربيعة الكلابي شعرًا بذلك:

لما رأى لبد النسور تطايرت رفع القوادم كالعقير الأعزلِ

من تحته لقمان يرجو نهضه ولقد رأى لقمان أن لا يأتلي

ولقد جرى لبد فأدرك شأوه ري المنون وكان غير مغفلِ

غلب الليالي خلف آل محرق وكما فعلن بتبّع وبهرقل

وغلبن أبرهة الذي ألفيته قد كان يخلد فوق غرفة موكلِ

والحارث الحراب كانت داره دارًا أقام بها ولم يتحمّلِ

تجري مواهبه على مَن نابه جَرْيَ الفرات على قرار الجدول

وعاش كل نسر مائة عام، وكان لقمان عاش قبل النسور زمنًا ورأى عذاب قوم هود، وكان من وفد عاد الذين ذهبوا إلى مكة ليستسقوا قبل أن يحل بهم العذاب[١].

---

(١) انظر كتاب التيجان ص ٣٧٠ ـ ٣٨١.

قصة العنقاء والنبي سليمان في القضاء والقَدَر

عاتب سليمان الطير في بعض عتابه فقال: إنك تأتين كذا وتفعلين كذا. فقالت: والله رب السماء والثرى، إنّا لنحرص على الهدى، ولكن قضاء الله يأتي إلى منتهى علمه وقَدَره. قال سليمان: صدقت. لا حيلة لنا بالقضاء والقدر.

قالت العنقاء: لست أومن بهذا. قال لها سليمان: أفلا أخبرك بأعجب العجب؟ قالت: بلى. قال: إنه يولد الليلة غلام في المغرب، وجارية من الشرق، هذا ابن ملك وهي بنت ملك، يجتمعان في أمنع المواضع وأهولها على سفاح يقدّر الله تعالى فيهما.

قالت العنقاء: يا نبيَّ الله قد ولدا؟ قال: نعم الليلة. قالت: فهل أخبرتني بهما وما اسمهما يا نبيَّ الله، فإني أفرق بينهما وأبطل القدر.

قال: إنك لا تقدرين. قالت: بلى. وكفلتها البومة. فأشهد سليمان عليهما الطير.

العنقاء والفتاة

حلّقت العنقاء في الهواء وأشرفت على الدنيا وأبصرت كل بيت حتى أبصرت الجارية تنام في مهدها وفي قصر والديها. فاختطفتها وطارت بها إلى جبل شاهق أصله في جوف البحر وعليه شجرة عالية لا ينالها طائر إلا بجهد. فاتخذت لها وكرًا واسعًا وأرضعتها وحضنتها حتى كبرت. وكانت العنقاء تغدو إلى سليمان كل يوم. ولم تعلم أحدًا بذلك.

لقاء الشاب والفتاة

وبلغ الغلام مبلغ الرجال وكان ملكًا من ملوك الدنيا. وكان يلهو بالصيد ويحبه. فقال يومًا لأصحابه: قد تمكنت من كل صيد البر. فما رأيكم إن ركبنا البحر فننال من صيده الكثير؟

وركب الملك وقرَّ في البحر يتصيد حتى سار مسيرة شهر. فأرسل الله تعالى على سفينته ريحًا عاصفًا خفيفة ساقتها حتى وصلت بها إلى جبل العنقاء الذي فيه الجارية.

وأصبح الملك فرأى سفينته راكدة. فأخرج رأسه من السفينة، فرأى الجبل ورأى شجرة جميلة أعجبه منظرها.

سمعت الفتاة التي في عش العنقاء صوتًا وجلبة ولم تكن قد سمعت شيئًا من قبل، فأطلت رأسها، فرأى الملك وجهًا جميلًا وشعرًا أجمل. فأخذه القلق فناداها: مَن أنت؟ فأفهمها الله لغته وقالت: لا أدري ما تقول ولا من أنت، إلا أني أراك بشبه وجهك وجهي وكلامك كلامي. وإني لا أعرف إلا العنقاء أمي.

فقال لها الملك: وأين أمك العنقاء؟ قالت: في نوبتها. تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلم عليه وتعود في الليل، وتجيء تحدثني عنه، وإنه لملك عظيم.

قال لها: أرأيت إن هاجت الريح وأزعجتك من وكرك فمن يمسكك أن تقعي في البحر؟ قالت: أفزعتني بكلامك. وكيف يكون معي إنسيٌّ مثلك يحدّثني ويحميني؟

قال الملك: أوَلا تعلمين أن الله الذي اتخذ سليمان نبيًا وسخَّر له الطير والرياح، هو الذي رحِمَكِ وساقني إليك صاحبًا وأنيسًا وإني ملك من أبناء الملوك.

قالت: كيف تصير إليَّ وأصير إليك؟ قال لها: عندما تأتي العنقاء تكثرين من وحشتك وبكائك. فإذا قالت ماذا تريدين، أخبريها بحديثك. فلما جاءت العنقاء وجدتها حزينة باكية فقالت: ما بك يا بنية؟ قالت: الوحدة والوحشة! فقالت لها: يا بنية لا تخافي سأستأذن سليمان أن آتيه يومًا وأتخلّف يومًا.

ثم عاد الملك ثانية، فأخبرته الفتاة بما قالت والدتها العنقاء، فقال لها: سأنحر من دوابي هذه فرسًا وأبقر بطنه وأجوفه وأثيره وأدخل فيه وألقيه على رأس السفينة هذه. فإذا جاءت العنقاء فقولي لها: إني أرى عجبًا، حلقة ملقاة على هذه السفينة. فلو اختطفتِها وحملتِها إلى وكري هذا فأنظر واستأنس بها، كان أحب إلي من كينونتك معي وتركك زيارة سليمان.

وهكذا لما جاءت العنقاء قالت لها الفتاة ما علّمها الملك. فانقضت العنقاء إلى السفينة واختطفت الفرس والملك في جوفها. ففرحت الفتاة، فقالت العنقاء: لو علمت أن هذا يفرحك كنت آتيك به منذ حين.

وذهبت العنقاء إلى نوبتها عند سليمان، وخرج الملك من جوف الفرس.

وجلس مع الفتاة يلاعبها ويقبلها. وفرح كل واحد منهما بصاحبه.

في مجلس النبيّ سليمان

وجاء الخبر إلى سليمان باجتماعهما من قبل الريح - وكان مجلس سليمان يومئذٍ مجلس الطير - فدعا بعرفاء الطير وأمرهم أن لا يدعوا طائرًا إلا حشروه، ففعلوا، وكانت العنقاء بينهم. فأول سهم خرج في تقديم الطير: سهم الحدأة، ثم جاء سهم العنقاء فسألها سليمان: ما قولك في القَدَر؟

قالت: يا نبيّ الله، إن لي من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وآتي بالخير. قال لها: وأين شرطك الذي بيني وبينك عن الجارية والغلام؟ قالت: قد فرقت بينهما. قال سليمان: الله أكبر! فائتني بها الساعة والخلق شهود لأعلم تصديق ذلك. وأمر العريف أن لا يفارقها أبدًا.

فعادت العنقاء إلى العش. وكان الملك إذا سمع حفيف جناحيها اختبأ بجوف الفرس. ولما وصلت قالت للفتاة: إن سليمان أمرني أن أحضرك لمجلسه. قالت الفتاة: فكيف ستحملينني؟ قالت: على ظهري. قالت: أخاف أن أنظر إلى أهوال البحر فأقع. أدخل في جوف الفرس ثم تحملين الفرس على ظهرك أو في منقارك فلا أر شيئًا ولا أفزع. قالت: أصَبْتِ!

فدخلت الفتاة في جوف الفرس وحملتها العنقاء وطارت حتى وقفت بين يدي سليمان وقالت: يا نبيّ الله هذه الفتاة في جوف الفرس. فنظر إليها طويلًا وقال لها: أتؤمنين بقدر الله تعالى وقضائه، وأنه لا حيلة لأحد في دفع قضاء الله تعالى وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشر؟ قالت العنقاء: أؤمن بالله وأقول: إن المشيئة للعباد والقوة. فمَن شاء فليعمل خيرًا، ومَن شاء فليعمل شرًّا. قال سليمان: كذبتِ! ما جعل الله من المشيئة إلى العباد شيئًا. ولكن مَن شاء الله أن يكون سعيدًا كان سعيدًا، ومَن شاء أن يكون كافرًا كان كافرًا. فلا يقدر أحد أن يرد قضاء الله وقدره بحيلة ولا بفعل ولا بعلم. وإن الولد الذي قد وُلِد بالمغرب والجارية التي ولدت بالمشرق قد اجتمعا الآن وفي مكان واحد على سفاح. وقد حملت منه الجارية ولدًا. قالت العنقاء: لا تقل ذلك يا نبيّ الله، فإن الجارية معي في جوف فرسي هذا. قال سليمان: الله أكبر! أين البومة المتكفلة بالعنقاء؟ قالت: ها أنا. قال سليمان: على مثل قول العنقاء أنت؟ قالت: نعم. قال: يا قدر الله

السابق قبل الخلف، أخرجهما على قضاء الله وقدره! قال: فأخرجهما جميعًا من الفرس.

أما العنقاء فتاهت وفزعت فطارت في السماء وأخذت نحو المغرب واختفت في بحر من بحار المغرب وآمنت بالقدر وحلفت ألَّا تنظر في وجه طير ولا ينظر طير في وجهها.

وأما البومة فلزمت الآجام والجبال وقالت: أما بالنهار فلا خروج ولا سبيل إلى المعاش. فهي إذا خرجت نهارًا وبَّخَتْها الطير واجتمعت عليها وقالت: يا قدرية! فهي تخضع لهذا(١).

خبر الرجل الذي قُبض بأرض الهند

قال الكسائي: كان سليمان عليه السلام قد سأل الله تعالى أن يريه ملك الموت، فأراه إياه.

وكان يعوده ويأتيه كل خميس. فأتاه في بعض الأيام على صورة البشر وجعل يطيل النظر إلى رجل في مجلس سليمان حتى أرعب ذلك الرجل. فلما خرج ملك الموت قال الرجل لسليمان: يا نبيَّ الله لقد أفزعني هذا الرجل الذي كان بمجلسك من نظره إلي، فمن هو؟

قال: هو ملك الموت. قال الرجل: يا نبيَّ الله أسألك أن تأمر الريح أن تحملني إلى أرض الهند. فأمر سليمان الريح فحملته من مجلسه ووضعته بأرض الهند.

ثم جاء ملك الموت إلى سليمان. فقال له: قد كنت اليوم عندي وأنت تنظر إلى ذلك الرجل نظرًا سافيًا حتى خاف منك.

قال: يا نبيَّ الله، إني كنت قد أمرتُ بقبض روحه في موضع من الهند في هذا اليوم. فلما رأيته عندك عجبت متى يصل هذا الرجل إلى الهند، فإذا الريح قد جاءت به فألقته في البقعة التي أمِرتُ بقبض روحه فيها، فقبضت روحه هناك، فعجب سليمان من ذلك.

---

(١) نهاية الأرب: ١٤/٦٦ ـ ٦٨.

حكايا عن النبيّ سليمان

زوال ملكه أربعين يومًا

حكى الثعلبي في خبر الفتنة: سمع سليمان (ع) أن في جزيرة من جزائر البحر رجلًا يقال له «صيدون»، ملكًا عظيم الشأن لم يكن لأحد من الناس عليه سبيل لمكانه في البحر.

فخرج سليمان إلى الجزيرة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنود من الجن والإنس، فقتل ملكها وسبى ما فيها.

وأصاب بنت الملك وكان اسمها «جرادة» لم ير الناس أجمل منها، فتزوجها وطلب منها أن تسلم فأسلمت على جفاء منها وقلة ثقة. وقيل: إنه عندما طلب إليها أن تسلم قالت له: إن أكرهتني على الإسلام قتلتُ نفسي. فخاف سليمان أن تقتل نفسها، فتزوج بها وهي مشركة أربعين يومًا وكانت تعبد صنمًا لها في خفيةٍ عن سليمان، إلى أن أسلمت. فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يومًا لأنه سكن مع امرأة كافرة.

صخر الجنّي

وجمع سليمان عليه السلام عفاريت الجن والشياطين وأمرهم بإحضار صخر الجني، فقالوا: يا نبيّ الله، إنَّ الله قد أعطاه قوة جماعة منا، ويصعب علينا حمله إليك، وما لنا إلا أمر واحد وهو أنه يأتي في كل شهر إلى عين في جزيرة فيشرب ماءها. والرأي أن ننزف الماء ونملأها خمرًا. فإذا جاء وشرب وسكر ذهبت قوته فنحمله إليك.

ثم خرجوا ففعلوا ذلك واختفوا في تلك الجزيرة. فجاء صخر ليشرب فاشتم رائحة الخمر وقال: أيتها الخمرة، إنك لطيبة، غير أنك تسلبين عقلي وتجعلين من الحليم جاهلًا، وأمرك كلُّهُ ندامة. وانصرف ولم يشرب.

ثم عاد في اليوم الثاني وقد أجهده العطش فقال: ما من قضاء يأتي من الله إلّا كان مبرمًا. ثم عزل على العين فشرب حتى امتلأ. ثم قام ليخرج فسقط، فتبادرت العفاريت إليه ومعهم طابع سليمان، فلما رآه ذلَّ وخضع، فحملوه حتى وقّفوه بين يدي سليمان وهو يخرج من فمه لهيب النيران، ومن منخريه الدخان.

فلما عاين ضعفت قوته وخرّ ساجدًا على وجهه، ثم رفع رأسه وقال: يا نبيّ الله، ما الذي أحوجك إليّ وأنا بعيد عن الآدميين؟ فقال له سليمان: إن الناس اشتكوا من وقع الحديد وصوته على الحجر.

قال صخر: يا نبيّ الله عليك بوكر العقاب وعشّه وبيضه، فليس شيء بالطيور أبصر منه. فأتي به فوضعه في البرية وغطاه بمعدن شديد الصفاء، وضعه على عش العقاب.

وجاء العقاب فلم يجد عشه. فطار في الهواء حتى نظر إلى عشِّهِ في تلك البرية، فانقضَّ عليه وضرب الصفحية برجله ليكسرها فلم يقدر على ذلك. فطار وتعلّق بالهواء وغاب يومه وليلته. ثم أقبل صبيحة اليوم الثاني وفي منقاره قطعةٌ من حجر السامور. فانقضَّ على الجام بذلك الحجر فضربه به، فانشق المعدن نصفين ولم يسمَع له صوت. وأخذ العقاب عشه وبيضه، وترك حجر السامور هناك، فأخذه صخر وهو في صفاء المرآة وحرِّ النار.

فدعا سليمان بالعقاب وسأله عن حجر السامور[1] من أين احتمله، فأخبره أنه من جبل شامخ. فبعث سليمان الجن والشياطين فحملوا ما قدروا. فكان يقطع به الأحجار والصخور والجَزْع من غير أن يسمع صوت.

الجنّي يسرق خاتم سليمان

قال الكسائي: وكان لسليمان جارية اسمها «الأمينة» فكان إذا أراد الدخول إلى الصلاة والوضوء أو إلى الحمام سلَّمَ الخاتم إليها، فإذا اغتسل أخذ خاتمه منها.

وفي أحد الأيام دخل سليمان الحمام وسلَّم خاتمه إلى الأمينة، فجاء صخر الجني بصورة سليمان وأخذ الخاتم من الجارية. ولما صار الخاتم في يده لم يستقر في يده لأنه شيطان، فرماه في البحر، فجاء الحوت بإذن الله فابتلعه ومضى صخر وهو على صورة سليمان فجلس على كرسيه ومعه الناس وهم يظنون أنه سليمان. فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صۤ: الآية ٣٤]. قيل: الجسد هو صخر الجني.

---

(١) هو الألماس.

لما خرج سليمان من الخلاء، وقد غيّر الله صورته إلى صورة صخر، فطلب الخاتم، فقالت الجارية: أعوذ بالله منك، قد دفعت الخاتم إلى سليمان فعلم سليمان أن الله قد أوقع به البلية. فخرج يريد القصر ويقول للناس: أنا سليمان فلم يصدقه أحد.

وهام سليمان أن يدور في الأحياء وهو يقول: إلـٰهي إني تائبٌ إليك من خطيئتي. فلم يزل كذلك أربعين يومًا لم يطعم شيئًا. ثم وجد قرصة يابسة ملقاة، فأخذها ولم يقدر على أكلها ليُبسها. فأقبل إلى ساحل البحر وقعد يبل القرصة فأخذها الموج من يده. فقال: إلـٰهي رزقتني بعد أربعين يومًا قرصة يابسة، فأخذها البحر من يدي فارزقني فأنت الرزاق الكريم.

وجعل يمشي وهو يبكي، فإذا بصيادين فسألهم شيئًا من الطعام فمنعوه وطردوه وقالوا: انصرف عنا، فما رأينا أوحش من وجهك! اذهب وحق سليمان إنْ قمنا لأوجعناك ضربًا!

قال: يا قوم، أنا والله سليمان. فضربه رجل منهم على رأسه وقال: أتكذب على نبيّ الله؟ فبكى وبكت الملائكة لبكائه. ورحمه أولئك القوم فناولوه سمكة وأعطوه سكينًا. فشق بطنها لينظفها... فخرج الخاتم من بطنها فلبسه في إصبعه وعاد إليه حسنه وجماله. فسار يريد قصره، وجعل يمر بتلك القرى التي أنكرته. فكل من أنكره عرفه وسجد له. وبلغ ذلك صخرًا الجني فهرب وعاد سليمان إلى قصره واجتمع له الإنس والجن والطير والشياطين والسباع. كما كانوا أول مرة. فبعث العفاريت في طلب صخر فأتوه به. فأمر أن ينقروا له صخرتين وصفده بالحديد وجعله بينهما وأطبقهما عليه، وختم عليه بخاتمه وطرحه في بحيرة طبرية. فيقال: إنه فيها إلى يوم القيامة.

ثم أمر الله الرياح أن تحشر له سائر الشياطين فحُشِرَت له. فصفد مَرَدتهم بالحديد وحبسهم.

سليمان يطوف الأرض

قال الكسائي: ملك سليمان شرق الأرض ومغربها وطاف أقطارها حتى انتهى إلى جبل قاف، فوقف هناك ثم قال للريح: هل جريت هناك؟ قالت: لا يا نبيّ

الله، وإنه لآخر الدنيا وليس وراءه إلا علم الله تعالى. ثم أمر الريح فاحتملته حتى نظر إلى التنين المحدق بالعالم، فسار أيامًا على طرفٍ من أطراف الأرض فإذا هو بملك يقول: يا ابن داوود إن هذا التنين محيط بالعالم الذي هو مسيرة خمسمائة عام. ثم ارتفع إلى مستقر الغمام ونظر إلى مجمع القطر، ونزل من هناك إلى مسكن الليل والنهار. فإذا هو بملك يقول: «اللهم أعط كل منفقٍ خَلَفًا وكل ممسكٍ تلفًا».

سليمان وشجرة الخرّوب

ثم أمر الريح أن تحط بساطه إلى الأرض المقدسة. وكانت مدة غيبته مائة وثلاثين يومًا. وكان طول سفرته هذه يرى شخصًا بين يديه يسبق كل شيء، فسأله مَن هو؟ فأخبره أنه ملك الموت، فوقعت عليه الرعدة وتغيّر لونه وجعل ابنه رحبعم خليفته وأوصى الناس بالسمع والطاعة له.

وأخذ بالصوم والصلاة طول ليله. فإذا أصبح خرج من محرابه إلى روضة هناك فيها نبات حسن يتسلى به.

فخرج في بعض الأيام فرأى نبتًا غريبًا لم يكن قد رآه قبل ذلك. فقال: أيها النبت ما أنت؟ قال: أنا الخرنوب الذي لا أنبت في موضع إلّا خربته.

قال سليمان: فما تضع هٰهنا فلست من نبات هذه الرياض؟ قال: قد أمرت أن أنبت هنا. فعاد سليمان من الغد وهو على حاله وقد زاد نبته. فقال له: ألم آمرك أن تلحق بموضعك من البراري. قال الخروب: يا نبيّ الله أن هذا الموضع سيخرب عن قريب. فسكت سليمان.

ذكر حَشْر الطير لسليمان بن داود

قال الكسائي: لما أتى الله الملك والنبوة لسليمان (ع) أحبَّ أن يستنطق الطير فحشرت له. فكان جبرائيل يحشر طير المشرق والمغرب من البر، وكان ميكائيل يحشر طير الهواء والجبال.

نظر سليمان إلى عجائب خلقها، وجعل يسأل كل واحد منها عن مسكنه ومعاشه فيخبره. وكان بين يديه سبعة ألوية من ألوية الأنبياء، يمسكها سبعة من الملائكة.

قال: ولما حشرت الطير له جاءته فوجًا فوجًا، فسلمت عليه الخطَّافة بثلاث لغات وقالت: يا نبيّ الله، أنا ممن اختارني نوح وحملني في السفينة ومنيّ تناسل كل خُطَّافة في الدنيا، ودعا لي آدم وقال: إنك تدركين من أولادي مَنْ خلافته مثل خلافتي، وتحشر له الطير والوحوش والمردة. فإذا رأيتِهِ فاقرأيه مني السلام. ثم قالت له: يا نبيّ الله، إن معي سورة تعجب الملائكة من نورها ما أعطيَت لأحدٍ من بني آدم غير أبيك إبراهيم، فإنها نزلت كرامة له يوم أُلقيَ في النار فهل لك أن تسمعها مني؟ قال: نعم.

فقرأت سورة (الحمد) حتى بلغت ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فمدَّت صوتها بآمين، وسجدت، وسجد معها سليمان عليه السلام.

ثم تقدم النسر، وهو يومئذٍ في صورة عظيمة، قال: السلام عليك يا نبيّ الله يا ملك الدنيا. ما رأيت ملكًا أعظم من مُلكك! وإني قد صحبتُ آدم (ع) وساعدته على كثرة حزنه، وأنا أول مَن علِمَ بهبوطه إلى الأرض. وكنت معه إلى أن تاب الله عليه. وقال لي: إنه يكون من ذريتي من يُحشر له الطير، فإذا رأيته فأقرئهُ مني السلام وقد أدّيت إليك وديعته. فاصطنعني يا نبيَّ الله، فإني عليم بمعادن الأرض وجبالها. ومعي آية عظيمة لا يفتر لساني عنها، وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ [النِّساء: الآية ٨٧].

ثم سجد، فسجد معه سليمان. فلما رفع رأسه جعله سليمان ملكًا على الطير.

ثم تقدمت العقاب، فوقفت بين يديه وسلَّمَتْ عليه وقالت: يا نبيّ الله، إن خلقي كان أعظم من هذا، ولكن حزني على هابيل يوم قتله قابيل صيرني إلى ما أنا عليه. ولقد توحشت الأرض والجبال يوم قتل، ومعي آية أعطانيها ربي وهي: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥] ثم قالت له: سلّطني على مَن شئت فإني قوية سميعة.

ثم تقدمت العنقاء، وهي يومئذٍ شديدة البياض، وصدرها كالذهب الأحمر ووجهها كوجه إنسان، ولها ذوائب، ورجلان صفراوان؛ ولها تحت جناحيها يدان كل يد فيها ثلاثون إصبعًا. فوقفت بين يديه وسلَّمتْ وقالت: إنَّ الله فضَّلك على كثير من الملوك حين أبرزني إليك بصورتي هذه، فمرني ما شئت. فوالله ما نطقت

لأحد إلّا لصفوة الله آدم. فإني وقفت بين يديه وتعجب من حسن صورتي، وقال: ماأشبهك بطيور الجنان!. فمنذ كم خلقك ربك؟ قلت: من ألفي عام. ثم تبخترت بين يديه فقال: أيها الطائر إنك معجب بنفسك وبخلقك، والعجب يهلك صاحبه. لقد فاز المفلحون وخسر المبطلون.

ثم تقدم الغراب، فسلم وقال: يا نبيّ الله لقد فضلك الله على كثير من ولد آدم، وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيمًا.

وإني كنت أبيض قبل ذلك، فصرت أسود كما ترى، لمَّا سمعتهم يقولون: اتَّخذَ الرحمٰن ولدًا، وما ينبغي للرحمٰن أن يتخذ ولدًا. ولقد دعا لي أبوك آدم ونوح بطول. وسمعت أباك إبراهيم يتلو آية يخضع لها كل شيء وهي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدَّثِّر: الآية ٣٨].

ثم تقدمت الحمامة، فسلّمت عليه وقالت: يا نبيّ الله، أنا الحمامة التي أختارني أبوك آدم لنفسه إلفًا وأنيسًا، وكنت آنس به وبتسبيحه. وكان إذا ذكر الجنَّة يصيح صيحةً عظيمة ويقول: أتراني أعود إليها؟ وإن لم أرجِع إليها لأكوننَّ من الخاسرين.

واعلم يا نبيَّ الله أنه قد علّمني كلمات حفظتها عنه وهي: الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله سيد الأولين والآخرين. وقد أقبلت إليك طائعة لأمرك. فمرني بما شئت.

ثم تقدم الهدهد، فسلّم عليه وسجد بين يديه وقال: ما أحببت أحد كما أحببتك يا نبيَّ الله، لأني أرى الدنيا ضاحكة لك. وقد أعطاك الله ملكًا عظيمًا، فاتخذني رسولًا آتيك بالأخبار وأدلك على مواضع الماء. فقال له: أراك أكْيَسُ الطيور، وأرى فخاخ بني إسرائيل تصطادك، ولا تغني عنك كياستك شيئًا. قال الهدهد: يا نبي الله. الحيلة لا تنفع مع القضاء والقدر. قال: صدقت.

وادي النمل

قيل: لما سار سليمان لقصد الغزو مرَّ في طريقه بوادي النمل (وهو وادي السدير بالطائف) فنظر إليهم فإذا هم يزيدون على مئة ألف كردوس مثل السحاب. فقال سليمان: إني أرى سحابة في الأرض لا أعلم ما هي. فحملت الريح إليه قول النملة كما أخبر الله تعالى في كتابه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: الآيتان ١٨، ١٩].

ونزل سليمان ونزل الناس معه فقال: أتدرون ما هذا السواد؟ هذه أمة من الأمم يقال لها النمل. وأخبرهم بقول النملة، وسجد لله وسجدوا معه ودخلت النمل مساكنها زمرًا زمرًا والنملة تناديهم: الوحا الوحا! فقد وافتكم الخيل. فصاح سليمان وأراها الخاتم، فجاءته خاضعة، فوقفت بين يديه وسجدت ثم قالت: يا نبيَّ الله ما سجدتُ قبلك إلا لأبيك إبراهيم وها أنا أسجد بين يديك.

قال لها: ما الذي تكلمت به قبل وصولي إليك؟ قالت: يا نبيّ الله، إني رأيتك في موكبك وعسكرك، فناديت النمل أن يدخلوا مساكنهم لئلا يحطمهم جندك وأنا كمثل غيري من الملوك أريد الصلاح لقومي. فقال لها: كم عددكم؟ وما تأكلون وما تشربون؟

قالت: يا نبيّ الله، لو أمرت الجن أن يحشرونا إليك لعجزوا. وليس على وجه الأرض وادٍ ولا جبل ولا غابة إلا وفي أكنافها مثل سلطانك كراديس من النمل. ولقد خلقنا قبل أبيك آدم وإنا لنأكل رزق ربنا ونشكره. فأمرها أن تعرض النمل عليه فنادتهم، فمرُّوا زمرة زمرة، وسلَّموا عليه بلغاتهم وهو ينظر إليهم. فقالت ملكة النمل: يا نبيَّ الله، منَّا في الجبال، ومنَّا ما يأوي قرب المياه والأشجار والزرع وفي الهواء ـ وهي الطيارة ـ فإذا نبتت أجنحتها هلكت واختطفها الطير. والنملة لا تموت حتى تلد كراديس من النمل. وإنها لتجمع في صيفها ما يملأ بيتها وهي مع ذلك تظن أنها لا تشبع. وفي تسبيحها تسأل ربها أن يوسِّع عليها الرزق.

قال الثعلبي: اسم النملة التي كلمت سليمان: طاحية.

سليمان وملك الموت

قال سليمان ذات يوم لأصحابه: قد أتاني الله المُلْك كما ترون، وما مرّ علي يوم في ملكي بحيث صفا لي من الكدر، وقد أحببت أن يكون لي يوم واحد يصفو لي إلى الليل ولا أغتم فيه، وليكن غدًا. فلما كان الغد دخل قصرًا له وأمر بإغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ورفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئًا يسوؤه.

ثم أخذ عصاه بيده وصعد فوق قصره واتكأ عليه ينظر في ممالكه، فإذا بشاب حسن الوجه عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب قصره فقال: السلام عليك يا سليمان. فقال سليمان: وعليكم السلام؛ كيف دخلت هذا القصر وقد مُنعتَ من دخوله؟ أما منعك البوّاب والحجاب؟ أما هبتني حين دَخلت قصري بغير إذني؟

فقال ملك الموت: أنا الذي لا يحجبني حاجب ولا يمنعني بوّاب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرشا، وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن.

فقال له سليمان: فمن أذِن لك في دخوله؟ قال: ربي! فارتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت، فقال له: أنت ملك الموت؟ قال: نعم. قال: فيم جئت؟ قال: جئت لأقبِضَ روحك.

قال: يا ملك الموت، هذا يوم أردت أن يصفو لي وما أسمع فيه ما يغمني. قال له: يا سليمان إنك أردت يومًا يصفو لك فيه عيشك حتى لا تغتم فيه، وذلك اليوم لم يُخلق في الدنيا، فارضَ بقضاء ربك فإنه لا مَردّ له. فقبض ملك الموت روحه وهو متكىء على عصاه.

وبقي سليمان على حالته لم يسقط إلى الأرض ولم يتحرك ولا مال. فهابوه وما جسروا أن يتقدموا. ولم تزل الأنس والجن والشياطين والوحش والطير في الطاعة والأعمال حتى مضت سنة. ثم وقعت الأرَضَة في أسفل العصا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: الآية ١٤] فخرَّ سليمان عند ذلك. كالخشبة اليابسة. وكانت الجن قبل ذلك تدّعي علم الغيب. وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سَبَأ: الآية ١٤] أي في تلك السنة في نقل الصخور والبنيان وغير ذلك(١).

خطيئة داود

كان داود عليه السلام قسم أيامه ثلاثة أقسام: يومًا للعبادة ويومًا للناس يقضي فيه، ويومًا يخلو فيه بنسائه وأهله.

---

(١) نهاية الأرب: ١٣/ ١٢٥ ـ ١٢٩.

وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحٰق ويعقوب، فقال: يا رب إن الخير كلَّه ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي!

فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ابتلوا ببلايا لم تُبْتَلَ بها فصبروا عليها. ابتُلِيَ إبراهيم بالنمرود وبذبح ابنه، وابتلي إسحٰق بالذبح وبذهاب بصره، وابتُلِيَ يعقوب بالحزن على يوسف؛ وأنك لم تبتل بشيء من ذلك.

فقال داود: ربّ فابتلني بمثل ما ابتليتهم وأعطني مثل ما أعطيتهم. فأوحى الله تعالى إليه: إنك مبتلًى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس.

دخل داود محرابه وأغلق بابه، وجعل يصلّي ويقرأ الزبور. فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان بصورة حمامةٍ من ذهب، فيها كل الحسن، فوقعت بين رجليه. فمد يده ليأخذها. فلما أهوى عليها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها. فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة فنظر داود من الكوّة فأبصر امرأة في بستان على شطِّ بركة لها تغتسل، وكانت من أجمل النساء خلقًا، فعجب من حسنها. وحانت منها التفاتة، فأبصرته، فنفضت شعرها فتغطى بدنها، فزاده إعجابًا بها. فسأل: مَن هي؟ قالوا: هي بتشايع بنت سايع، وهي زوجة أوريا بن حنانا وزوجها في غزاة في البلقاء، بُعِثَ مع أيوب أبي حروية أخت داود.

بعث داود إلى ابن أخته أن أبعث أوريا إلى موضع كذا وقدمه قبل التابوت. وكان كل من قُدِّم قبل التابوت لا يحلُّ له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد. فبعثه أيوب وقدمه فقتل أوريا. فلما انقضت عِدَّة المرأة تزوجها داود؛ وهي أم سليمان.

تزوج عليه السلام بامرأة أوريا، ولم يلبث إلا يسيرًا حتى بعث الله عزّ وجلّ ملكين في صورة البشر يطلبان أن يدخلا عليه، فوجداه في عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه فتسوراه المحراب عليه فما شعر وهو يصلي إلَّا وهما بين يديه جالسان. فذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صٓ: الآيتان ٢١، ٢٢] أي تجُرْ ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] أي وسط الطريق. ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [صٓ: الآية ٢٣]، قال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ

نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [صَ: الآية ٢٤].

ولما ذهب الرجلان انتبه داود أنه أخطأ؛ فهو له تسع وتسعون زوجة ولأوريا زوجة واحدة. ولما علم داود أنه ابتلي سجد فمكث أربعين ليلة ساجدًا باكيًا حتى نَبَتَ الزرع من دموعه، وأكلت الأرض من جبينه، وهو يقول في سجوده: ربّ داود، زلّ داود زلّةً أبعد مما في المشرق والمغرب. ربِّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثًا في الخلوق من بعده.

ثم جاء جبرائيل فقال: يا داود إن الله تعالى غفر لك الهم الذي هممت به(١).

سحرة فرعون

رغم أن فرعون وهامان كانا من أمهر السحرة وأنهما بسحرهما استوليا على الناس فإن فرعون بعث يجمع السحرة لديه وأمرهم بمعارضة موسى (ع) في الأجل المضروب.

قالوا له: أيها الملك قد علمت أنه ليس في الدنيا أقدر منا على السحر، فإذا كانت الغلبة لنا على موسى فما الذي يكون لنا عندك في الجزاء؟ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٤٢] أدنيكم مني وأشارككم في ملكي. ثم قالوا: وأن غلبنا موسى وأبطل سحرنا علمنا أن ما جاء به ليس من السحر ولا حيلة لنا عندئذٍ إلا أن نؤمن به ونصدقه. فقال فرعون: إن غلبكم موسى صدقته أنا أيضًا معكم. ولكن اجمعوا كيدكم وحيلتكم. وأخيرًا حان يوم الموعد وكان يوم السبت وهو يوم سوق لهم. ووافق أنه أول يوم في السنة عندهم وكانوا يحتفلون به ويتخذونه يوم الزينة ـ وقيل: أن المكان كان في الإسكندرية. فاجتمع في الموعد حشود الناس والآلاف المؤلفة، حتى ضاقت بهم البلدة وساحتها. وكان لفرعون تجاه تلك الساحة منصة فوقها قبة من حديد يطل منها على الجموع وينظر إليهم. ولما ارتفع النهار أقبل فرعون في زينته وقد حفّت به أشراف قومه، وأشرفوا على الجموع، وأقبل السحرة تحمل ستون بعيرًا عصيهم وحبالهم، وامتلأت الساحة بالجموع التي لا تحصى.

(١) نهاية الأرب: ١٤/ ٦٥.

ثم أقبل موسى (ع) متكئًا على عصاه ومعه أخوه هارون لا غير، حتى انتهى إلى المجتمع الهائل. وبعد أن توقف هنيهة جعل ينظر إلى السماء فهال الناس ذلك وجعلوا يتساءلون عن معناه وأثره. ولما تقابل مع السحرة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طـه: الآية ٦١].

فازداد السحرة في كلامه رغبة ودهشة. وأخذوا يتناجون بينهم فيقول بعضهم لبعض: ما هذا قول ساحر. ويقول آخرون: إن الرجل ينظر إلى السماء ونحن لم يبلغ سحرنا السماء. فكاد شملهم يتشتت وجمعهم يتفرق. وأبى فريق منهم إلا الجحود والإصرار.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٤٤]، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طـه: الآية ٦٦].

فأوحى الله تعالى إلى موسى ووعده النصر والغلبة وأمره بإلقاء العصا فقال له: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طـه: الآية ٦٩]، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧].

فهجم الثعبان بعدما استوى على جميع ما في الميدان مما يراه الناس حيات وأفاعي وجعل يلتقفها بكل سرعة حق أتى على آخرها، ولم يترك منها شيئًا أصلًا كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١١٧ - ١١٩].

ولما ظهر ثعبان موسى (ع) واتجه يبلع أفاعي السحرة، انهزمت جموع الناس وأفواج الخلائق هاربين وقد انخلعت أفئدتهم فزعًا ورعبًا وتسابقوا إلى الفرار ووطىء بعضهم بعضًا. وانهزم معهم فرعون بمن معه وقد انقطع فؤاده وعزب عقله، خاصة حين اتجه الثعبان نحو الناس بعد أن ابتلع أفاعي السحرة وقصد منصَّة فرعون، فأوحى الجليل إلى رسوله العزيز: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [طه: الآية ٢١].

فتقدم موسى (ع) وأدخل يده في فم الثعبان فعاد عصًا من خشب عادية. أما السحرة فلما عاينوا ذلك وهم اثنان وسبعون شيخًا من علماء السحرة ورؤسائهم

المهرة الذين أفنوا أعمارهم في إتقان مهنتهم. وكان رؤساؤهم أربعة، فأسرعوا فورًا بعدما تبيّن لهم الهدى ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٢٠ - ١٢٢] وتبعهم بقية السحرة فآمنوا كلهم، وآمن معهم جمع كثير من الناس وشهدوا لله تعالى بالوحدانية ولموسى وهارون بالنبوة وانصرفت بقية الناس مدهوشين مما شاهدوا يتذاكرون في محافلهم ذلك(١).

حكايا وأساطير عن الإسكندر

استنادًا إلى بعض الأوراق من مخطوطة لا نعلم لها عنوانًا ولا تاريخًا وهي تتعلق بمواقف غريبة ومفاجئات عجيبة حدثت للإسكندر واضطرته للعودة قسرًا وجبرًا؛ وهي مفاجآت بعضها عسكري وآخر معنوي، ولعله الأهم. وحتى نفهم القصة لا بد من التذكير بأن الهند والصين كانتا في زمان الإسكندر وحتى قرون طويلة بعده تشتمل كل منهما على ممالك عديدة، وهما ما زالتا حتى اليوم، لم تستكمل أي منهما وحدتها القومية التامة. وذلك لأسباب أهمها سلطة الاستعمار أو عملائه. والآن فلنقرأ قصة الإسكندر في الشرق.

قصة الإسكندر وملك الهند

تقول القصة: رُوِيَ عن الملك الإسكندر أنه أخضع الملوك حتى انتهى إلى مطلع الشمس من العمران، فبلغه أنه بأقصى أرض الهند ملكًا ذا حكمة وديانة، قاهرًا لقوته الغضبية، زاهدًا في الدنيا وشهواتها، يتحلى بكل خُلق كريم ومنقبة رفيعة فأرسل له الإسكندر كتابًا يقول فيه: إذا وصلك كتابي وكنت واقفًا فلا تقعد أو كنت ماشيًا فلا تجلس حتى تأتيني، وإلا مزقت مُلْكك وألحقته بمن مضى.

فكتب إليه ملك الهند الجواب بأحسن خطاب، ولقبه بملك الملوك العادلة، وأخبره أن عنده أربع هدايا ليست موجودة عند أحد من ملوك الأرض.

الأولى: ابنته التي لم تطلع الشمس على أجمل منها منظرًا.

الثانية: قدح إذا ملأته ماءً شرب عسكرك كله ولم ينقص منه شيء.

الثالثة: طبيب لا يعجزه مرض إلّا مرض الموت.

(١) ماذا في التاريخ، ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

الرابعة: فيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأل عنه. ثم قال: إني لَمُهْدٍ هذه الهدايا إلى ملك الملوك إذا عفَّ عن هذا المطلب.

فلما وصل كتاب الملك للإسكندر قلق قلقًا عظيمًا لهذه الهدايا وأرسل أربعة من الحكماء يستقصون صدقها فيأتوه بها.

فلما وصل الحكماء إلى ملك الهند، أخذ يباحثهم في العلم والهندسة والكيمياء وعلم النجوم وما أشبه ذلك، حتى ملأ صدورهم حكمة. وبعد أن استضافهم لثلاثة أيام خيّرهم في البقاء أو الرجوع، فاختاروا الرجوع حسب أمر الملك لهم. فلما برزت ابنة الملك عليهم ما وقع نظر أحد منهم عليها إلا علق بها.

لما وصلوا إلى الإسكندر، وكان من أعظم الملوك هيبة وشهرة، وما إن نظر إلى ابنة الملك حتى شغف بها شغفًا عظيمًا وأمر بإنزالها مع حرمه ثم أمر بالقدح فشرب منه وسقى عساكره فلم ينقص منه شيء وهو قدح أبينا آدم عليه السلام، وهو مضروب من الخواص الروحانية. ثم شاهد من الطبيب ما بهر عقله، وأمر بإنزال الفيلسوف في دار الضيافة، فبعث إليه مع خادمه قدحًا مليئًا بالسمن وأمره أن لا يكلمه البتة... فأخذ القدح وتأمله بحدقتيه وبصيرته، وتناول إبرًا كثيرة وأغرزها في السمن حتى أصبح وجه السمن كالقنفذ وأرجعها إلى الإسكندر.

فأخذ الإسكندر الإبر وذوّبها وجعلها كالكرة وأرجعها للفيلسوف. فلما وصلت إلى الفيلسوف بردخها وطرقها وأزال درنها حتى أصبحت كالمرآة وأعادها للإسكندر.

فلما وصلت إلى الإسكندر وضعها في طاسة ماء حتى رسب، وأرسلها إلى الفيلسوف. فلما وصلت إلى الفيلسوف كوَّرها حتى طافت على وجه الماء وأعادها إلى الإسكندر.

فلما وصلت للإسكندر ثقبها وملأها ترابًا وأرجعها للفيلسوف. فلما وصلت إليه دمعت عيناه وتغيّر لونه وأرجعها على حالها. فأمر الإسكندر بمثوله بين يديه.

فلما مثل بين يديه حيّاه بتحية الملوك، فنظر إليه الإسكندر وتأمله فوضع الفيلسوف أصبعه على أنفه. فقال له الإسكندر: لماذا وضعت يدك على أنفك؟

فأجابه الفيلسوف: لأنك لما نظرت إليّ وتأملتني فكرت أن حكمة هذا الشاب ليست على قدر صورته، فوضعت إصبعي على أنفي لأخبرك أنه كما أن الأنف زائد على الوجه، كذلك أنا ليس في بلاد الهند مثلي. أما خطر ببالك هكذا؟ قال الإسكندر: صدقت أيها الرئيس.

ثم قال له الإسكندر: والآن اجلس أيها الفيلسوف وأخبرني عن معنى ما جرى بيني وبينك من المراسلة. فقال له: أيها الملك، لقد بعثت لي قدحًا مليئًا بالسمن؛ فخبرني أنك قد امتلأت من الحكمة كما امتلأ هذا القدح بالسمن. فلا يزاد عليه شيء كما لا يزاد على حكمتك شيء، فأخذت الإبر وغرزتها في السمن لأعلمك أن عندي من لطائف الحكمة ما يخرق حكمتك كما تخرق الإبر السمن.

فأخذت الإبر وجعلتها كرة، لتخبرني أن نفسك من قتل الأعداء وسفك الدماء صارت كهذه الكرة.

فأخذتها وبردختها حتى صارت كالمرآة لأخبرك أنك بالتوبة إلى الله تعالى تتجوهر نفسك وتنصقل حتى تصير مثل هذه المرآة فتشرف على الموجودات بصفائها وقوة صقلها. فوضعتها في طست ماء لتخبرني أن الأيام والليالي قد عجزت عن ذلك، فكوّرتها حتى طافت على وجه الماء لأخبرك أنه في الوقت القصير قد يجري بها أكثر مما جرى لها في الوقت الطويل.

فثقبتها وملأتها ترابًا لتخبرني بالموت. فأنا أخضع مثلك للموت ولا أغيره. ضاق عند ذلك صدر الإسكندر وذهب هائمًا على وجهه حتى وصل إلى وادٍ وفي ذلك الوادي غار مهجور.

فدخل فيه، وإذا بتقدير العزيز الحكيم موجود في ذلك الغار ملك محنط مسجى في نعشه عن يمينه مفاتيح خزائنه ولوح نحاس مكتوب فيه: «بهذا ملكناه». وعلى يسارة لوح نحاس مكتوب فيه: «وبهذا تركناه».

حكمة من الصين

وهذه قصة أخرى لا تقل في عبرتها عن الأولى تدلنا على عظمة الشرق وغناه بالنبالات العظيمة والنفوس السامية والعقول النيِّرة.

قيل إن الإسكندر لما أصبح قريبًا من بلاد الصين وشعرت ملوكها بالخطر، أتاه حاجبه ذات ليلة وقد مضى من الليل جانب فقال له: إن رسول ملك الصين يستأذن بالدخول عليك.

قال له: مُرْهُ بالدخول. فلما دخل وقف بين يديه وقبّل الأرض أمامه وطلب أن يخلي له المجلس.

فأمر الإسكندر أن ينصرف مَن بحضرته. ثم أمر أن يفتشوه ـ ولم يعلم أنه ملك الصين ـ فلم يجدوا معه شيئًا من السلاح.

فلما خلي لهما المكان قال له: أنا ملك الصين وقد حضرت بين يديك لأسألك عما تريده مني. فإن كان مما يمكن الانقياد إليه ولو كان بأصعب الوجوه جئت به إليك واستغنيت عن حربك.

فقال الإسكندر: ما الذي أمكنك مني وأهجمك عليّ؟ قال: لعلمي أنك رجل عاقل، وليس بيني وبينك عداوة، ولعلمي أن أهل مملكتي متى قتلتني لا يسلمونك أمرهم، ولا يمنعهم ذلك من تنصيب أحد أولادي ملكًا عليهم ثم ينسبوك إلى الجهل وقلّة الحزم.

فأطرق الإسكندر مفكرًا ثم رفع رأسه إليه وقد تبيّن صدقه. وقال له: أريد منك ارتفاع مالك لثلاث سنوات، ثم نصف ارتفاعه كل سنة. فقال له ملك الصين: وهل تريد غير هذا؟ قال: لا. قال: قد أجبتك. فقال الإسكندر: وأنا رفعت عنك ذلك لأجل مجيئك. فشكره وانصرف.

لما أصبح الصباح وطلعت الشمس إذا بجيشٍ يحيط بجيش الإسكندر فتواثب رجال الإسكندر إلى خيولهم. فبينما هم كذلك، إذا بملك الصين قد أقبل وهو راكب على فيل عظيم، وعلى رأسه التاج، فلما وصل قبالة الإسكندر ترجل ومشى إليه، وقبّل الأرض بين يديه. فقال له الإسكندر: لقد غدرت ما هذا الجيش العظيم الذي جئت به؟ قال ملك الصين: أردت أن أعلمك أني أطعتك لا لقلّة ولا لذلّة. وأن الذي غاب من جيشي أكثر بكثير مما هو حاضر منه. وعلما أن مَن حارب الإلـه قهر وغلب. فأردت طاعته بطاعتك.

ثم قدم للإسكندر هدايا وتحفًا أضعاف ما كان يأمله الإسكندر، فقبلها وهو معجب بحكمته وحسن سياسته.

ملكة صينية

هذه القصة بطلتها ملكة لبيبة. قيل إنه لما توغل الإسكندر في أطراف الأرض سمعت به ملكة إحدى مقاطعات الصين، فأحضرت عندها مَن يحسن الرسم وأمرته أن يرسم لها الإسكندر. فرسمه على البسط والأواني والحيطان وهي تنظر إلى رسومه حتى استقرّت في نفسها صورته.

فلما أصبح الإسكندر على أطراف بلدها، قال لأحد مستشاريه: أريد أن أدخل هذا البلد متنكرًا لأرى كيف أمره وأمر ملكته. فقال له مستشاره: افعل ما تريد. فدخل متنكرًا إلى عاصمة المملكة، ونظرت إليه الملكة من حصنها فعرفته بالصورة التي عندها.

فأمرت بإحضاره. فلما مثل بين يديها وتأكدت منه، أمرت أن يؤخذ فيترك يومين بلا أكل ولا شرب حتى كادت قوته تسقط وروحه تزهق واضطرب العسكر لغيبته.

فلما كان اليوم الثالث. مدت الملكة سماطًا طوله مئة ذراع ووضعت عليه آنية من الذهب وضروب الجواهر وأنواع التحف وما في ذلك شيء يؤكل أو يشرب.

وأمرت أن يوضع في آخر السماط رغيف خبز وقدح ماء في أحد زوايا السماط. فأتى إليها وأكل الرغيف وشرب الماء. ثم رجع وجلس في مكانه. فخرجت الملكة إليه وقالت له: ما أصدَّ عنك الذهب ولا الجواهر غائلة الجوع وصائدة العطش وقد أغناك عن كل هذا ما قيمته درهم واحد. فما لك وللتعرض إلى أموال الناس وأنت بهذه المثابة؟

فقال: لك ملكك وبلادك، ولا بأس عليك بعد اليوم.

ما قيل عند نعش الإسكندر

من أنفس العبارات التي قيلت فوق نعش الإسكندر عند التأبين، قول أحد الحكماء:

قد كان هذا الملك يخزن الذهب واليوم هو خزين فيه.

وقال آخر: كم قد أمات هذا الشخص لئلّا يموت، فكيف لم يدفع الموت عن نفسه بالموت؟!

وقال أفلاطون الثاني: أيها الساعي المتوثّب، لقد جمعت ما خذلك. فلما تولّى عنك لزمتك أوزاره، وعاد على غيرك جناه وثماره.

وقال ميلاطوس: خرجنا إلى الدنيا جاهلين، وأقمنا فيها غافلين، وفارقناها كارهين(١).

أسطورة بناء الإسكندر لمدينة الإسكندرية

ذكر أن الإسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده سار يختار أرضًا صحيحة الهواء والتربة والماء، حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية، فوجد في موضعها آثار بناء عظيم، وعمدًا كثيرة من الرخام، في وسطها عمود عظيم كتب عليه بالقلم المسند ـ وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد: «أنا شداد بن عاد، شددت بساعدي البلاد، وقطعت عظيم العماد، من الجبال والأطواد، وأنا بنيت إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هٰهنا كإرم، وأنقل إليها كل ذي إقدام وكرم، من جميع العشائر والأمم، وذلك إذ لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقم. فأصابني ما أعجلني، وعما أردت قطعني، مع وقوع ما أطال همّي وشجني، وقلّ نومي وسكني، فارتحلت بالأمس عن داري لا لقهر ملك جبار، ولا لخوف جيش جرار، ولا عن رهبة ولا عن صَغَار، ولكن لتمام المقدار، وانقطاع الآثار، وسلطان العزيز الجبار. فمن رأى أثري، وعرف خبري، وطول عمري، ونفاذ صبري، وشدة حذري، فلا يغترّ بالدنيا بعدي، فإنها غرّارة، تأخذ منك ما تعطي وتسترجع ما تولي». وكلام كثير يُري فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون إليها.

نزل الإسكندر متفكرًا، يتدبر هذا الكلام ويعتبره. ثم بعث فجمع الصناع من البلاد، وخط الأساس، وحشد العمد والرخام، وأتته المراكب بأنواع الرخام، وأنواع المرمر من جزيرة صقلية وبلاد إفريقية وأقاصي بحر الروم مما يلي مصبه. وحمل إليه أيضًا من جزيرة رودس.

(١) سر الأسرار، ص ٤٤ وما بعدها.

لما بنيت الإسكندرية وشيّدت، أمر الإسكندر أن يكتب على أبوابها: «هذه الإسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح، واليمن والسعادة والسرور، والثبات في الدهور، فلم يرد الباري عزّ وجلّ ملك السمٰوات والأرض ومفني الأمم أن يبنيها كذلك، فبنيتها وأحكمت بنياتها، وشيّدت سورها، وآتاني الله من كل شيء علمًا وحكمًا، وسهّل لي العلم.

وجوه الأسباب، فلم يتعذّر عليَّ شيء في العالم مما أردته، ولا امتنع عني شيء مما طلبته، لطفًا من الله عزّ وجلّ، وصنعًا بي، وصلاحًا لي ولعباده من أهل عصري، والحمد لله رب العالمين، لا إلٰه إلا الله رب كل شيء.

ورسم الإسكندر بعد هذه الكتابة وكل ما يحدث ببلده من الأحداث بعده في مستقبل الزمان: من الآفات، والعمران، والخراب، وما يؤول إليه إلى وقت دثور العالم. وكان بناء الإسكندرية طبقات، وتحتها قناطر مقنطرة، عليها دور المدينة، يسير تحتها الفارس بيده رمح، ولا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة، وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق وتنفسات للضياء ومنافذ للهواء.

وكانت الإسكندرية تضيء بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر، وأسواقها وشوارعها مقنطرة بالآجر لئلا يصيبها المطر.

وكانت آفات البحر وسكانه ـ على ما زعم الأخباريون من المصريين والإسكندرانيين ـ تختطف بالليل أهل المدينة، فيصبحون وقد فقد منهم الكثير.

ولما علم الإسكندر بذلك اتخذ الطلسمات على أعمدة هناك تدعي المسالَّ، وهي باقية إلى هذه الغاية، وكل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السَّرْوة، وطول كل واحدة منها ثمانون ذراعًا، على عمد من نحاس، وجعل تحتها صورًا وأشكالًا وكتابة، وذلك عند انخفاض درجة من درجات الفلك وقربها من هذا العالم. وعند أصحاب الطلسمات من المنجمين والفلكيين أنه إذا ارتفع من الفلك درجة وانخفض أخرى في مدة يذكرونها من السنين نحو ستمائة سنة تأتي في هذا العالم فعل الطلسمات النافعة المانعة والدافعة. وقد ذكر هذا جماعة من أصحاب الزيجات والنجوم وغيرهم من مصنفي الكتب في هذا المعنى، ولهم في ذلك سرّ من أسرار الفلك.

منارة الإسكندرية

أما منارة الإسكندرية فذهب الأكثر من المصريين والإسكندرانيين ـ ممن عنيَ بأخبار بلدهم ـ إلى أن الإسكندر بن فيلبس المقدوني هو الذي بناها.

ومنهم مَن رأى أن دلوكة الملكة هي التي بنتها، وجعلتها مرقبًا لمن يرد من العدو إلى بلدهم، ومنهم مَن رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها، ومنهم مَن رأى أن الذي بنى مدينة رومية هو الذي بنى مدينة اسكندرية ومنارتها والأهرام بمصر، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لشهرته بالاستيلاء على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به[1].

سليمان وملكة سبأ

لما أخبر الهدهد النبيّ سليمان أن في سبأ قومًا تحكمهم ملكة ويعبدون الشمس، كتب إليها سليمان كتابًا وأرسله مع الهدهد، فانطلق حتى أتاها وصار بحذاء رأسها وهي على سرير ملكها تنظر إلى طائر من فوقها فألقى الكتاب في حجرها فنظرت إليه ونظر الناس إلى طائر رمى إليها الكتاب، فجمعت أهل الرأي وقالت ما ذكر الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: الآيات ٢٩ - ٣١] فأجابوها: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: الآيات ٣٣ - ٣٥] فبعثت وفدًا، أربعين رجلًا من رجالها، وبعثت معهم بمائة وصيفة ووصيف ولدوا في شهر واحد، لهم ذوائب وقصاص، والزي واحد، وختمت عل سراويلهم.

وبعثت بمائة فرس نتجت في يوم واحد ألوانها واحدة.

وبعثت بحق رصاص فيه من الجوهر والزمرد والياقوت الأحمر والأصفر والأبيض والأسود. ملحم لا يوصل إليه ولا ينكسر.

---

(١) مروج الذهب: ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧٥.

وبعثت بخرزة غير مثقوبة، وكتبت إليه: اثقب هذه الخرزة بغير حديد ولا علاج أنس أو جن. وبعثت إليه بخرزة مثقوبة ثقبًا ملتويًا وسألته أن يدخل فيه خيطًا. وقالت للوفد: إن قبل الهدية فهو ملك من الملوك ويهون علينا محاربته، وإن رده ولم يقبلها فهو نبيّ، وقد كتبت إليه كتابًا، فادفعوه إليه واسألوه عما في الحُقّ، وأن يفصل بين الذكر والأنثى من الوصائف والوصفاء، وأن يميز الخيل وأيها نتج قبل صاحبه، وعن الولاء وعن قرابة ما بين ذلك.

فلما قدم الوفد إلى سليمان قرأ الكتاب وقال لعلمائه:

مَن يميّز بين الجواري والغلمان ولا ينزع ثيابهم؟ فأعلموه أنه لا علم لهم بهم. واشتد إعجابه بما جاءه من قبلها وشقّ عليه بعض ما سألته عنه.

وعلّمه الله من حكمته، فدعا بالغلمان والجواري، فأمر بطشت فملىء ماء ودعاهم واحدًا بعد واحد وقال: اغسلوا أيديكم. فكان الغلمان إذا غسلوا أيديهم حدروا الماء حدرًا والجواري يصببن الماء صبًّا، فميّزهم على ذلك.

ودعا بالخيل، فقال: نتجن في يوم واحد. وقال: هذا خال هذا وهذا عم هذا، وهذا ابن عم هذا وابن أخ لهذا.

ثم دعا بالخرزة التي لم تثقب فوضعها بين يديه ثم قال لمن حضر: مَن يثقبها؟ فتكلمت دودة بين يديه فقالت: يا نبيّ الله أنا أثقبها على أن تجعل رزقي في الخشب. قال: نعم، فلزمت الدودة الخرزة تثقبها حتى خرجت من الجانب الآخر في ثلاثة أيام، ثم انطلقت لرزقها.

ثم دعا بالحُقّ فحركه، ثم قال: فيه جوهر، عدة الجوهر كذا وكذا، والزمرد كذا وكذا، والياقوت الأحمر كذا، والياقوت الأصفر كذا والأبيض كذا. حتى فرغ من جميع ذلك والوفد ينظرون.

ثم دعا بالخرزة الملوي ثقبها وقال لمن بحضرته: أيكم يأخذ هذه الخرزة الملوي ثقبها فيدخل فيها خيطًا؟ فأجابته دودة تكون في الصفصاف وقالت: أنا أدخله فيها على أن تجعل رزقي في الخشب. قال سليمان: ذلك لك فأخذت خيطًا فأوثقته في رأسها ودخلت في الخرزة من ثقبها حتى خرجت من الجانب الآخر ثم انطلقت إلى رزقها في الخشب.

ثم أن سليمان ردّ جميع ما أمرت به إليها وقال كما ذكر الله ذلك في كتابه؟

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: الآيتان ٣٦، ٣٧].

ثم قال سليمان حين ولّى الوفد إليها:

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: الآيتان ٣٨، ٣٩].

وكان سليمان إذا أصبح جلس بجلسائه مجلسًا يقضي فيه بين الناس ويأمرهم بأمره، فلا يزال فيه حتى يؤذيه حر الشمس.

قال سليمان: أريد أعجل من هذا، قال رجل من الإنس، يقال له آصف بن برخيا: قد علمت اسم الله الأكبر وأنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك.

لما دخلت بلقيس ملكة سبأ على سليمان، تركها ثلاثة أيام، فقال لها قومها: ما تقولين في أمر هذا الرجل؟ أتدخلين في طاعته أم تحاربينه؟ وهل تيقنت أنه نبيّ؟ قالت: سأعلمكم منه ما تعرفون أهو نبيّ أم ملك من هذه الملوك. انظروا إليه، إذا أنا دخلت عليه فأمرني بالجلوس فهو ملك، فإن الملوك لا يُجلس عندهم إلى بإذنهم. وإن لم ينهني ولم يأمرني فإنه نبي. وإني سأسأله عن ثلاثة أشياء لا أشك فيها، فإن أخبرني بها فإنه نبيّ، وأنا داخلة في أمره ولا طاقة لكم به، وإن لم يخبرني فليس بنبيّ.

فلما دخلت عليه سلّمت عليه وحيّته بتحية الملوك، ثم قامت بين يديه لا يأمرها بالجلوس ولا ينهاها عن القيام، حتى إذا طال ذلك عليها رفع سليمان رأسه لها وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]؛ فمن شاء فليجلس ومَن شاء فليقم. قالت: الآن علمت أنك نبيّ.

سليمان والنملة

رُوِيَ أن سليمان (ع) كان على ساحل البحر ينتظر بعض جنوده فأبصر نملة تحمل حبة حنطة وهي تسعى نحو الماء فتعجب من قصدها الماء مع أنها تهرب منه إن وقعت فيه قهرًا فما أن وصلت إلى شاطىء البحر حتى خرجت ضفدع فدنت

من النملة ثم فتحت فاهًا فدخلت النملة في فيها باختيارها فأطبقت الضفدع فمها وغاصت في البحر وما لبثت إلا برهة يسيرة ثم عادت الضفدع فقفزت إلى البر ثم فتحت فاهًا فخرجت النملة من فيّها وليس معها حبة الحنطة.

فلما نظر سليمان النملة تقدم إليها وسألها عن شأنها مع الضفدع وأين ذهبت معها وكيف أرجعتها وأين وضعت الحبة.

فقالت النملة: اعلم يا نبيّ الله أنه يوجد في قعر هذا البحر صخرة مجوفة في وسطها دودة عمياء لا تستطيع الخروج منها لطلب المعاش. وقد وكّلني الله تعالى برزقها وسخرني مع هذه الضفدع لتأمين معاشها.

فأنا أحمل لها طعامها من البر وهذا الحيوان ينقلني في فمه إليها فإذا وصل بي إلى الصخرة وضع فمه على ثقبها ثم قذفت بي إلى داخلها فأوصل الحبة إلى الدودة فأضعها في فمها ثم أعود إلى البر مع هذا الحيوان.

فدهش سليمان (ع) من تلك القصة وزاد تسبيحًا ثم سألها هل سمعت لها تسبيحًا قالت: نعم سمعتها تردد هذا الدعاء:

«يا من لا ينساني في جوف هذه الصخرة تحت هذه اللجة من رزقه، لا تنس عبادك المؤمنين من رحمتك الواسعة».

عوج بن عنق

تمر الأجيال وتنطوي الأيام ولا تلد النساء مثل عوج بن عنق. ذلك الرجل الذي يحق للتاريخ إن صدقت الأخبار أن يدوّن اسمه ويحتفظ بما يؤثر عنه ليكون عظة المغرورين بقواهم.

قيل: أرسل نبيّ بني إسرائيل سبعة أشخاص إلى العمالقة يدعوهم إلى الله تعالى فرآهم أحد العمالقة، فحملهم في مكة، وأتى بهم إلى الملك، وألقاهم أمامه. وحينما علم بخبرهم سخر منهم. وكان عوج حاضرًا، فغضب لكرامة قومه وأخذته الحمية. وسألهم الملك عن قومهم وسعة بلدهم، فاقتطع صخرة بقدرها وحملها على رأسه، وجاء ليلقيها عليهم فيهلكهم عن آخرهم فدعا عليه نبيهم فأرسل الله من السماء طائرًا عظيمًا نقرها فمزقها، فهبطت في عنقه، فأصبحت طوقًا، فجعل يعالجه فجاء موسى (ع) وكان طوله عشرة أذرع وطول عصاه مثلها،

فقفز عن الأرض وضربه بعصاه، فأصابه في عقبه وهو مشغول بنفسه فوقع على الأرض، وأكلته السباع والهوام، ولم يستطع دفع ما ألَمَّ به.

وقيل: إنه كان قبل الطوفان، وإنه تعلّق بسفينة نوح وهمَّ بأن يغرقها فكلمه (ع) فيها، فقال:

ما أردت سوءًا، وإنما أريد أن أهتدي بها كي لا أعثر ببعض الجبال أثناء سيري في الماء.

وقيل: إنه كان يأخذ السمكة من البحر فيشقها ويرفعها إلى كبد السماء حتى تشوى في حرارة الشمس.

وقيل: إن أمه تشبهه، وإن بينه وبين آدم آحاد، وأنه بقي إلى زمان موسى، والله أعلم بذلك كله.

ومن حكايات العجائز التي كانوا يروونها لنا ونحن صغار، أن عوج بن عنق عندما كان مريضًا مرض الموت مرَّ به أناس عند رأسه فقال لهم:

أرجوكم أن تطردوا الذباب عن رجلي فإني أشعر بهم. ولما وصلُوا إلى مكان رجليه وجدوا أن الذي ينهش رجليه وحوش لا ذباب ولكنه لطوله لم يشعر بالألم من ذلك كثيرًا.

في أبيات لخَّص فيها المعري قصة «جلقر في بلاد العمالقة والأقزام» فقال:

زعموا رجالًا كالنخل جسومهم ... ومعاشرًا قاماتهم أشبارُ
إن يصغروا أو يعظموا فبقدرةٍ ... ولِربِّنا الإعظام والإكبار
يستصغر الحيُّ الحقير وتحته ... أممٌ توهم أنه الجبارُ[1]

قصة عبد الله بن جدعان والكنز

كان عبد الله بن جدعان صعلوكًا ترب اليدين شريرًا فاتكًا يجني الجنايات، فيعقل عنه أبوه وقومه، حتى أبغضته عشيرته، ونفاه أبوه وحلف أن لا يؤدي عنه ديّة أو يؤويه.

(١) رسالة الغفران: ١/ ٣٤.

فخرج في شعاب مكة حائرًا ثائرًا يتمنّى الموت أن ينزل به. فرأى شقًّا في جبل فظن أن به حية، فتعرض للشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم ير شيئًا. فدخل فإذا ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين. فحمل عليه الثعبان فأفرج له، فانساب عنه مستديرًا. ثم خطا خطوة أخرى فصفر الثعبان وأقبل إليه كالسهم، فزاغ عنه. ثم وقف ينظر إليه ويفكر في أمره فوقع في نفسه أنه مصنوع وليس حيًّا. فأمسكه بيده فإذا هو مصنوع من ذهب، وعيناه ياقوتتان. فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت فإذا جثث طوال على سُررٍ لم يُرَ مثلهم طولًا وعظامًا، وعند رؤوسهم لوحٌ من فضة فيه تاريخهم. وإذا هم رجال من ملوك جرهم، وآخرهم موتًا هو الحارث بن مضاض صاحب الغيبة الطويلة. وإذا عليهم ثياب من وشيٍ لا يمسُّ منها شيء ألا انتثر كالهباء من طول الزمان. ومكتوب في اللوح عظات.

قال ابن هشام: كان اللوح من رخام. وكان فيه: «أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان ابن نبيّ الله هود عليه السلام. عشت خمسمائة عام، وقطعت غوْر الأرض، ظاهرها وباطنها في طلب الثروة والمجد والملك، فلم يكن ذلك ينجيني من الموت» وتحت مكتوب:

قد قطعت البلاد في طلب الثروة ... والمجد قالصَ الأثواب
وسريت البلاد قفرًا لقفرٍ ... بقناة وقوة واكتساب
فأصاب الردى بنات فؤادي ... بسهام من المنايا صياب
فانقضت مدتي وأقصر جهلي ... واستراحت عواذلي من عتابي
ودفعت السفاه بالحلم لما ... نزل الشيبُ محل الشباب
صاح هل رأيت أو سمعت براعٍ ... ردَّ في الضَرْعِ ما قرى في الحلاب

وإذا وسط البيت كومٌ عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد، فأخذ منه ما أخذ، ثم علم على الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة. وأرسل إلى أبيه المال الذي خرج به وأنفق على قومه وعشيرته.

وجعل ينفق على الناس، ويفعل المعروف، ويطعم كل مَن يحتاج. وقال في القاموس كانت له جفنة يأكل منها الراكب لعظمها، بل كانت جفنة يأكل منها الراكب على البعير(١).

(١) بلوغ الأرب: ٨٩/١.

يوسف وزليخا

كانت زليخا زوجة العزيز فرعون مصر ـ وقصتها معروفة بالقرآن عندما أحبت يوسف عليه السلام.

لما مات العزيز فرعون مصر، وافتقرت زليخا وعمي بصرها، جعلت تتكفف للناس، فقيل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك، فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه. ثم قيل لها: لا تفعلي لأنه ربما يذكرك بما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسيء إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه. فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه.

فجلست على رابية في طريق خروجه ـ وكان يوسف يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته ـ فلما أحسّت زليخا به قامت ونادت: «سبحان مَن جعل الملوك عبيدًا لمعصيتهم، والعبيد ملوكًا بطاعتهم!». فقال: مَن هذه؟ مَن أنت؟ قالت: أنا التي خدمتُكَ بنفسي، وأكرمتُ مثواك بجهدي، وكان مني ما كان، وذقت وبال أمري، وذهبت قوتي، وتلف مالي، وعمي بصري، فصرتُ أسأل الناس؛ فمنهم مَن يرحمني. ومنهم مَن لا يرحمني. وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها، صرت مرحومتهم، وهذا جزاء المفسدين.

فبكى يوسف (ع) بكاءً شديدًا وقال لها: هل في قلبك من حبك لي شيء؟ قالت: نعم، والذي اتخذ إبراهيم خليلًا لنظرة إليك أحبُّ إليَّ من ملء الأرض ذهبًا وفضة. فأرسل إليها يوسف أنه يريد الزواج بها، فقالت للرسول: أنا أعرف أنه يستهزىء بي. هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي فكيف يقبلني الآن، وأنا عجوز عمياء؟! فتزوجها وصلّى إلى الله باسمه العظيم الأعظم أن يردّ إليها ما فقدته، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيأتها يوم راودته عن نفسه.

وولدت زليخا له: أفرائيم ومنشا، وطاب في الإسلام عيشهما حتى فرّق الموت بينهما. وكان يوسف وهو ملك على خزائن الأرض يجوع ويأكل خبز الشعير فقيل له: لما تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع[(١)].

(١) قصص الأنبياء: .١٢٥ وتواريخ النساء: ١٦٩.

بساط سليمان

قال الكسائي: كان سليمان إذا ركب الريح تقدم أمام بساطه البعوض ثم الزنابير وكل ما يطير بالهواء ثم الشياطين. وكان إذا أراد أن يركب الريح دعا الرياح الثمانية: الشمال، والجنوب، والصبا، والدَّبور، والصرصر، والعقيم، والكرس، والراكي.

فيبسط بعضها على بعض، ثم يبسط بساطه على هذه الرياح؛ وكان من السندس الأخضر، أخضر البطن أحمر الظهر، أهداه الله تعالى إليه من الجنة، لا يعلم طوله ولا عرضه إلا الله.

وكان سليمان إذا ركبه جعل اللون الأخضر ما يلي الأرض، فإذا رفع الناس رؤوسهم إليه يرونه على لون السماء. وكان يجلس على كرسيه وعن يمينه ويساره القضاة والعلماء والأحبار على كراسي معدة لهم، وهو جالس في وسط البساط والريح في يده. ويتغدّى ويتعشّى على مسيرة شهر. قال الله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سَبَأ: الآية ١٢].

خاتم سليمان

قيل: أوحى الله إلى جبرائيل أنه قد سبق في علمي أني أمّلك سليمان الدنيا، ليعلم الجن والأنس أني لم أخلق خلقًا هو أفضل من ذريَّة آدم. وأمره أن يأخذ الخاتم من الجنة ويأتيه به. فجاء جبرائيل إلى سليمان ومعه الخاتم وهو يضيء كالكوب الدريّ، ورائحته كالمسك، وعليه كتابة «لا إلـه إلا الله محمد رسول الله»، فأعطاه لسليمان وقال له: هنيئًا لك يا ابن داود.

حشر الجنّ لسليمان

قال الكسائي: أمر الله عزّ وجلّ جبريل أن يحشر الجن، فنادى: أيتها الجن والشياطين، أجيبوا سليمان بن داود. فاجتمعت الجن وهي تقول: لبيك يا حجة الله. فحشرها سليمان طائعة ذليلة تسوقها الملائكة، فوقفت بأجمعها بين يدي سليمان، فنظر في عجائب خلقها وسجد لله شاكرًا. ثم قام على قدميه والخاتم في إصبعه. فلما نظرت إليه الجن خرَّت ساجدة ثم رفعت رؤوسها وقالت: يا ابن داود، قد حشرنا إليك وأمرنا بطاعتك. فختم على أكتافهم بخاتمه وجندهم وصفد مردتهم بالحديد ولم يتخلَّف إلا صخر الجني، تغيَّبَ في جزيرة.

وفرق سليمان الأعمال عليهم من الحديد والنحاس وقطع الصخور وعمارة القرى والمدن والحصون. قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سَبَأ: الآية ١٣][١].

قصة سواد بن قارب الدَّوْسي

كان سواد بن قارب من أعلم أهل الكهانة والشعر، وأطولهم باعًا في جميع المكارم. وقد وفد على النبيّ ﷺ فأسلم. وكان رئيُّه من الجن قد أتاه ثلاث ليالٍ في حال سِنتِهِ يضربه برجله ويقول: قم يا سواد بن قارب، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث نبيٌّ من لؤي بن غالب. وقد أورد قصته هذه مفصّلة جمعٌ من الثقات منهم الإمام الماوردي في كتابه «أعلام النبوة»، قال: بينما كان عمر بن الخطاب ذات يوم جالسًا إذ مرَّ به رجل فقيل له: أتعرف هذا المارُّ يا أمير المؤمنين؟ قال: مَن هو؟ قالوا: هذا سواد بن قارب الدوسي رجل من أهل اليمن. وكان له رئيٌّ من الجن. فأرسل إليه عمر فقال:

أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: أنت الذي أتاك رئيُّك بظهور النبيّ ﷺ قال: نعم يا أمير المؤمنين. بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئيٌّ من الجن فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالي؛ واعقل إن كنت تعقل. إنه قد بعث رسول من لؤيّ بن غالب. يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته. وأنشأ يقول:

عجبتُ للجن وتطلابها ... وشدِّها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكّة تبغي الهدى ... ما صادقُ الجنِّ ككذّابها
فارحل إلى الصفوة من هاشمٍ ... ليس قُداماها كأذنابها

قلت له: دعني فإني أمسيت ناعسًا، ولم أرفع بما قال رأسًا. فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل. إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته، وأنشأ يقول:

عجبتُ للجنِّ وتخبارها ... وشدِّها العيس بأكوارها

---

(١) نهاية الأرب: ١٤/ ٩٥.

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنوا الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوةِ من هاشمٍ ... بين روابيها وأحجارها

فقلت: دعني قد أمسيتُ ناعسًا، ولم أرفع بما قال رأسًا. فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله، وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل، فقد بعث رسولٌ من لؤي بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته. وأنشأ يقول:

عجبتُ للجن وتجساسها ... وشدِّها العيس[1] بأحلاسها[2]
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما خيِّروا الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... وأسْمُ بعينيك إلى راسها

قال: فلما أصبحت وقد امتحن الله قلبي للإسلام، فرحلت على ناقتي وأتيت المدينة، فإذا رسول الله ﷺ فقلتُ: اسمع مقالي يا رسول الله! قال: هات، فأنشأت أقول:

أتاني رئيٌّ بعد هَدْءٍ ورقدةٍ ... ولم أكُ فيما قد بلوتُ بكاذبِ
ثلاثُ ليالٍ قوله كلُّ ليلة ... أتاكَ رسولٌ من لؤيِّ بن غالب
فشمرتُ عن ذيلي الإزار ووسَّطت ... بي الذِّعْلِبُ الوجناء بين السباسب
فأشهد أن الله لا شيء غيره ... وأنَّك مأمون على كلِّ غائِب
وأنك أدنى المرسلين وسيلةً ... إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسلٍ ... وإن كان فيما جئت شيبُ الذوائب
وكن لي شفيعًا يوم لا ذو شفاعةٍ ... بمُغْنٍ فتيلًا عن سواد بن قارب

ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحًا شديدًا حتى رؤي الفرح في وجوههم. قال: فوثب إليه عمر فالتزمه وقال: قد كنت أحب أن أسمع منك هذا الحديث، فهل يأتيك رئيك اليوم؟ فقال: مذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن.

---

(١) العيس: الإبل البيض.
(٢) الأحلاس: جمع حلس: وهو كساء على ظهر البعير.

أسطورة بناء تدمر

تدمر بلدة قديمة ببادية الشام من أعمال حمص ـ وعلى شرقيها وأرضها سباخ وكان فيها شجر ونخيل وزيتون.

وفيها آثار عظيمة قديمة من أعمدة وصخور. وكان لها سور وقلعة. وقدم العرب الأقدمون. وكانت منزل آل ربيعة ملوك الشام.

واختلف في بانيها بعض المؤرخين. فقال: إن سليمان الحكيم عليه السلام قد بناها له الجن بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأشقر. وفي ذلك يقول النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر:

ولا أرى فاعلًا في الناس يشبهُهُ ... وما أُحاشي من الأقوام من أحدِ
ألا سليمان إذ قال الإله لهُ ... قم في البرية فاصدُدْها عن الفنِدِ
وجَيِّشَ الجن أني قد أذِنتُ لهم ... يبنُون تدمر بالصفَّاحِ والعمدِ
فمن أطاع فأعقبْه معاقبةً ... كما أطاعك وادلِلْهُ على الرشدِ
ومَن عصاك فعاقبه معاقبةً ... تُنهي الظلوم ولا تقعد على ضمدِ
ألَا مثلك أو من أنت سابقُهُ ... سبْقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ

ذكر الثعالبي في تفسيره:

وهذا مذهب من مذاهب العرب على سبيل المبالغة لا الحقيقة، كما كانوا يزعمون أن عبقر مدينة للجن، فينسبون إليه كل شيء عجيب. فزعموا أن تدمر من بناء الجن لما يرون من قوتها الباهرة وصنعها العجيب. وقال بعضهم: إنها من أبنية العرب الأقدمين.

العنكبوت في الأسطورة

تحكي الأسطورة الإغريقية أنه كان في سالف الأزمان عذراء جميلة تسمى «أراكن» تجيد فن التطريز والحياكة، ولها صيت ذائع في هذا المجال وقد وصل بها الغرور أن تحدَّتْ إله الحكمة والفنون والصنائع النسوية عند الإغريق ـ الإله أثينا ـ ودعته إلى مسابقة تقام بينهما في فن التطريز. وتمادت في هذا التحدي بأن أعلنت على الملأ أنها سوف تفوز على الإله أثينا. وعندما سمع ما قالته أراكن، قام بتمزيق كل ما قامت العذراء بحياكته من لوحات فنية عقابًا لها على فعلتها. وعندما

رأت أراكن ما حدث لغزلها حزنت حزنًا شديدًا، وقامت بشنق نفسها بتعليق رقبتها بأحد الخيوط التي تستعملها في الحياكة.

وعندما علم الإلـٰه أثينا بذلك ندم على ما فعله بغَزْل العذراء ندمًا شديدًا وقام بفك الخيط من رقبة أراكن، وحوله إلى خيط من الحرير، ثم قام بتحويل الجسد الميت إلى عنكبوت، وأسبغ عليها صفة البراعة في التطريز بخيوط الحرير التي تملكها، وأن تظل قادرة على الحياكة حتى آخر يوم في حياتها حتى لا تحزن مرة أخرى على ما أصابها من فعله.

واليوم نرى العنكبوت تقوم بعمل تصاميم رائعة من الحرير الذي تنتجه من جسمها.

والعناكب من الحيوانات التي حيك حولها كثير من الخرافات والأساطير. فكثيرون يعتقدون أنه إذا ما مشت العنكبوت على الثوب القديم الممزق فإنها تعمل على إصلاحه وإعادة حياكته. وإذا قتلت العنكبوت أثناء سيرها على الأثواب فإن تلك الأثواب سوف تصبح ممزقة وبها ثقوب كبيرة.

والإنجليزي يردد قولًا مأثورًا مفاده: إذا أردت أن تعيش بسلام فدع العنكبوت تعيش بسلام. وهو يتفاءل إذا وجد عنكبوتًا تمشي على ملابسه، لأن ذلك يعني هبوط ثروة مالية على صاحب الثوب.

وهنود النيفاكو في الولايات المتحدة الأميريكة ماهرون في الحياكة، ويشيع بينهم أن خبراتهم تلك قد تعلمها الأجداد على يد عنكبوت تحولت إلى امرأة لتدربهم على فن الحياكة. ويهدد هؤلاء أطفالهم بأن المرأة العنكبوت ستعاقبهم إذا لم يكفّوا عن الشغب والشيطنة.

أما حكايات العنكبوت في الإسلام فقد قصتها كتب الهجرة النبوية. فعنكبوت الغار هي أحد أسباب نجاة الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق من الكفار الذين لاحقوه عند هجرته من مكة إلى المدينة. وقد كرّم الله العنكبوت بتسمية سورة كاملة باسمها في القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤١] والمعروف أن أُنثى العنكبوت هي التي تقوم بالحياكة وليس الذكر.

من أساطير كاتمندو ـ في نيبال

إنسان الثلج

يقولون: ثلاثة في حكم المستحيل: الغول، والعنقاء والخلُّ الوفي. ولكن إذا كان هذا الحكم ما زال ينطبق على المستحيلين الآخرين، إلا أن الأول لم يعد مستحيلًا.

أهل نيبال يؤكدون أن الغول ـ وهو بالنسبة لهم «الجيتي» أو «البيتي» كما ينطقونه، ويعني إنسان الثلج الوحشي ـ ما زال يعيش في جبال هملايا، وهم ينسجون حوله الأساطير، ويتناقلون عنه الحكايات خلال جلوسهم حول المدفأة في الشتاء.

حتى الذين كتبوا عن نيبال وجبال هملايا تحدثوا في كتبهم عن أوصاف الوحش البشري ذي الشعر الأشعث الذي التقى به جندي أوروبي عام ١٤٠٠ م تمامًا كما رآه المستكشفان البريطانيان الميجور واديل والكولونيل هوارد بري، حيث كانا يرأسان حملة المتسلقين في الجانب الشمالي من أفرست.

وذكر الاثنان أنهما تبعاه وتوقفا عند آثار قدميه البشرية الضخمة على ثلوج السفح. ويقول النيباليون أن جسده الضخم يغطيه شعر كثيف من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، وإنه يسير معتدل القامة.

يقولون: إن الجبل كان مليئًا بعدد كبير من هذه الوحوش البشرية، وأن رهبان التبت تآمروا للتخلص منهم، فاتفقوا على أن يقيموا حفلًا ساهرًا على السفح حيث يختفي المئات من هذه الغيلان خلف المغارات. وخلال الحفل تظاهروا بتناول الخمر المصنوع من منقوع الأرز. وحين بدا كأنهم سكروا حتى الثمالة راحوا يتبادلون الطعان بسكاكين زائفة. ومع انتهاء الحفل بدأوا يبتعدون واحدًا وراء الآخر. وهنا خرجت الوحوش البشرية من مغاورها، وراحوا يقلّدون الرهبان في اكتراع كل ما تركوه من خمر حتى انتشوا، ثم راحوا يضربون بعضهم بالسكاكين الحقيقية التي تركها الرهبان عن قصد. وكانت المعركة من العنف والشدة بحيث تساقط الجميع ولم يبق منهم سوى واحد فقط ـ هو الذي ما يزال يجوب سفوح الهملايا ويشاهده الناس بين الحين والآخر.

ورواية ثانية يحكيها أحد الحمالين الذين يساعدون الرحالة والمتسلقين إلى قمم هملايا، مفادها أن أحد تجار الفيروز كان يعبر الممر الجبلي حين فوجىء بالوحش الرهيب يوقفه ويرغمه على الذهاب معه إلى مغارة في عمق الجبل، حيث كانت أنثاه تستلقي وتصرخ بعد أن سدت حلقها قطعة كبيرة من العظم حتى تعذّر عليها التنفس. وطلب الوحش من التاجر أن يشفيها وإلا قتله. وفي رعشة الخوف من الرجل مدّ يده المرتجفة ليضرب الأنثى على ظهرها بقوة، فانقذفت قطعة العظم من حلقها وتنفست الصعداء.

ومكافأة له أعطاه الوحش كيسًا مقفلًا وطلب منه أن لا يفتحه إلا بعد أن يصل إلى داره. وإذ فتح الكيس وجده مليئًا برؤوس بشرية، ومن كل شعرة تتدلى حبة فيروز. وكانت الحصيلة هائلة كسب التاجر من ورائها ثروة ضخمة.

ومن أجل الحصول على ثروة مماثلة يجوب رجال «الشرباس» سفوح الجبل حاملين أحمال المتسلقين على أمل أن تتاح لهم فرصة مماثلة بلقاء إنسان الثلج ـ كما يسمونه[(١)].

حديث هلاك عاد

قيل: لما توالت ثلاث سنوات على عاد بأزمتها وقحطها، وهم في ذلك غير تائبين ولا مطيعين لنبيهم هود عليه السلام، قام رجل من أشرافهم وذوي أنسابهم، يقال له: زميل بن عنز، أخو القيل بن عنز؛ وكان القيل رأس عاد وسيدها.

فقال زميل: يا قوم إني فكرت لما نزل بكم من هذا القحط، ورأيت رأيًا، وقلت فيه قولًا، وأنا عارضٌ ذلك عليكم. فقالت الجماعة: إن رأيك أصيل، وإن فعلك جميل، فقل نسمع ما تقول. فقام زميل وقال:

ألا نزلت بنا حجج ثلاثٌ ... على عادٍ فما تحتال عادُ
فدمعُهُمُ يَبل الترب منها ... وما يدرون ما بهم يرادُ
وقد علمت بنو عاد بن عوصٍ ... بأن مشورتي لهم سدادُ
وإني عارضٌ رأيي عليهم ... وما منّي به فيه انفرادُ
بأن يتخيّروا وفدًا يسيروا ... إلى البيت العتيق لهم سدادُ

(١) مجلة العربي، العدد ٣٢٦، سنة ١٩٨٦.

فَيَسْتَسْقُوا المليك البرَّ غيثًا به تحيي البرية والعبادُ
وقد جربتم ذاكم فعرفي لديه في بدايته السدادُ
لأن الله مقتدرٌ حكيم غفورٌ رازقٌ برٌّ جوادُ
فإن يسمع مقالتنا سقانا فقد نزلت بنا أزمٌ شدادُ
وإن تهلك فأمر الله ماضٍ له منا المقادة والقيادُ

وفد عاد

وسارت عاد إلى مكة وقد جهزوا من عظمائهم وأشرافهم وذوي أحسابهم سبعين رجلًا، ثم وضعوا على رأسهم أربعة منهم وهم:

قيل بن عنز، ولقمان بن عاد ـ صاحب النسور، وأبو سعيد مرثد بن سعد ـ وهو خيرُ النفر، وجلهمة بن الخيبري فساروا إلى مكة ـ وسكانها يومئذٍ من العماليق ـ وهم يومئذٍ ملوك الحجاز وأرضها. فنزلوا على رجل يقال له بكر بن معاوية قد تزوج امرأة من عاد وهي أخت جلهمة بن الغيبري فولدت ابنه معاوية ـ وكان منزلهم بظهر مكة خارجًا عن الحرم. ففرحوا بالوفد وأكرموهم. وكان معاوية قد كبر وضعف، وكانت الرياسة لابنه بكر بن معاوية فأنزل بكر أخواله عنده شهرًا يأكلون اللحم ويشربون الخمر وتغنيهم قينتان يقال لهما الجرادتان.

ويقال إنه أول مَن اتخذ القيان في الأرض للغناء، وكان أكثر العرب مالًا في زمانه. فأقبل الوفد على اللهو والشراب وتركوا ما جاؤوا من أجله.

لما رأى ذلك معاوية بن بكر غمه ذلك وقال: إن تركت أخوالي وأصهاري، إنَّها لَهَلْكتهم وهلك مَن خلفوا من أهلهم وقومهم في بلادهم. وهم أيضًا ضيوفي ووجوه قومي وأنا أستحي أن آمرهم بالشخوص لما قدموا له. ثم قال شعرًا وحفظه للجرادتين، وأمرهما إذا انتشى القوم وأخذ فيهم الشراب أن تقوما على رأس كبيرهم وشريفهم قَيل بن عنز وتغنياه. ولما انتشوا قامت الجاريتان على رأس قيل بن عنز وأنشأتا تقولان:

ألا يا قَيْلُ ويحك قم فهينم لعل الله يصبحنا غماما
فيسقي آل عادٍ إن عادًا قد أضحوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فلا تراهم ولا الشيخ الكبير ولا الغلاما

وإن الوحش تأتيهم نهارًا — فما تخشى لعاديٍّ سهاما
وقد كانت نساؤهم بخير — فقد أمست نساؤهم أيامى
وأنتم هٰهنا فيما اشتهيتهم — نهاركم وليلكم نياما
فقبح وفدكم من كل وفدٍ — ولا لقوا التحية والسلاما

فلما سمعوا شعر الجرادتين وَرَعَته أسماعهم فزعوا لذلك وتركوا ما هم فيه من اللهو وقال بعضهم: يا قوم إنما بعثكم قومُكم لهذا البلاء الذي قد نزل بهم، ولكم منذ شهرها هنا، فانطلِقوا إلى بيِّنة ربكم واطلبوا الغوث من ربكم لقومكم.

أبو سعيد المؤمن ينصح عادًا

فقال لهم أبو سعيد المؤمن: يا قوم حلمكم لأمر أدعوكم إليه تُذكرون به حاجتكم وتغيثون به قومكن. قالوا: وما ذاك؟ قال: تؤمنون بنبيكم هود عليه السلام، وتؤمنون بربكم، فذلكم خير لكم. قال: فكرهوا قوله وردوا النصيحة. فقال في ذلك أبو جلهمة:

أبا سعيد كأنك من قبيل — سوى عادٍ وأمك من ثمود
أتأمرنا لنترك دين وفد — ورَمْلَ وآل قدٍّ والعنود
أنترك دين أقوام كرامٍ — ذوي حسب ونتبع دين هود
وأنا لا نطيعك ما حيينا — ولسنا فاعلمنَّ على عهود

قال: فغضب من ذلك رجل من الوفد من قوم أبي سعيد فأجابه:

فمرثد مخُّ عادٍ في ذراها — وأنت لساقطٍ وغْدٍ كَنودِ
نماه يا زنيم إلى المعالي — من أخوال وأعمامٍ صمودِ
وأفضلُ قوم عادٍ بعد هود — وخيرهم الكريمُ أبو سعيدِ

سير الوفد إلى الكعبة

ثم سار الوفد إلى الكعبة. وقبل مسيرهم طلبوا من بكرٍ وابنه أن يحبسوا أبا سعيد المؤمن ففعلا، وكلماه في ذلك، فقال: نعم. ووقف عنهم هو ولقمان بن عاد.

ومضى سائر الوفد إلى البيت يتقدمهم قيل بن عنز. وصفّ الوفد حوله ولاذ بالكعبة ودعا وتضرع فسمع مناديًا ينادي من السماء يقول: يا قيل بن عنز، ما جئت تطلب، فاسألْ تُعْطَ فقال: جئت أطلب القطر الذي ينبت الشجر، ويكثر الثمر، ويحيي به البشر، ويصلح به قومي وبلادي. فأنشأ الله ثلاث سحابات بيضاء وحمراء وسوداء. ثم قيل له: اختر أيها شئت. قال: أما البيضاء فجهام ليس فيها مطر ولا لغيثها روي. وأما الحمراء فجهام غير أتيّ، ينفي السرَّاء ويأتي بالضراء. ولا حاجة لنا فيها.

وأما السوداء فكثيرة الماء والروي، معقبة الرخاء، مبلغة المنى، غائظة الأعداء، وقد أخذتها لقومي وبلادي.

فناداه المنادي: رمادًا أرمدًا، لا يبقي من عاد بن عوص أحدًا، لا والدًا ولا ولدًا، إلَّا القبيل الأبعدا. ويعني بقوله: إلَّا القبيل الأبعدا: من أولاد عملوق بن لاوذ ـ وهي أخت بكر بن معاوية كما ذكرنا، هزيلة العملوقية زوجة أبي سعيد المؤمن. وكانت امرأة مؤمنة فاضلة، آمنت بهود وكانت محبة له ولأصحابه، وكانت تلطف بهم وتوسع عليهم مالها. فنجاها الله من العذاب وولدها، وكانوا هم عاد الآخرة.

هزيلة العملوقية تصف كارثة قوم عاد

لما هلكت عاد لم يسلم إلا هزيلة بنت هزيل من العماليق وبنوها، وهم: عمر وعامر وعمير. وهي زوجة أبي سعيد المؤمن. فإن الله نجاهم من العذاب بإيمان أصحابهم، وأمر الله سبحانه وتعالى فحملتهم الريح برفق وشفقة هي وولدها، ولم تؤذهم ولم تضرهم، حتى أتت مكة فألقتهم في بيت بكر بن معاوية الذي فيه وفد عاد.

فبينما القوم في لهوهم ولذَّتهم إذ أقبلت هزيلة ببنيها حتى هجمت على عمها الشيخ بكر بن معاوية في منزله، فقال: ويحك! ما بك؟ فاستعبرت هزيلة باكية وقالت: الخبر أفظع وأوجع وأجزع من أن أصفه لك. فقال لها: ويحك خبريني، لقد أكثرتِ وجدي! قالت هزيلة: إن الخبر أفظع من أن أسمعكموه قِيلًا، ولكني سأقوله شعرًا وأرويه للجرادة فتقوله: فقالته الجرادة:

إن عـــادًا آثـــرت حـــقًّـــا   عـــلى الـــرشـــد الـــصـــدودا

لم تقل في غيِّها حين ... عَتَتْ قولًا سديدا
بل طغتْ بغيًا وقالت ... لن نطيع الدهر هودا
كذَّبوا عبدًا تقيًّا ... مسلمًا برًا رشيدا
وعصوا ربًّا عظيمًا ... قاهر البطشِ مجيدا
فدعا هودٌ مليكًا ... مبديًا لهم معيدا
أن يذلَّهُمُ بأيدٍ ... يقمعُ العاصي النكودا
فاستجاب له إلٰه ... عز مقتدرًا حميدا
جلَّ ربًّا ذا اقتدارٍ ... منعمًا عدلًا أبيدا
كي يتوبوا فأراهم ... ما يردُّ الصدُّ قودا
عابدين من ضلالٍ ... صنمًا يدعى الصَّمُودا
يطلبون الغيث منه ... بعد ما خَرّوا سجودا
الذي يحوي سفاهًا ... سألوا منه رفودا
أفكوا من حيث طاعوا ... فيه شيطانًا مريدا
ثم قال لهم زميلٌ ... بعد ما ذاقوا الجهودا
اسمعوا قولي ورأيي ... وابعثوا وفدًا جنودا
نحو بيت الله كيما ... يسألوا الربَّ ودودا
أن يغيث القوم منا ... متهمًا ثم النجودا
بعثوا سبعين كهلًا ... تبعوا قيلًا جليدا
بعثوا لقمان رأسًا ... وأبا سعد مزيدا
وأبا جلهمة القرم ... فتى الحي الجلودا
ثم قيلًا نجل عنزٍ ... قائدًا ليس مقودا
ثم ساروا بسوادٍ ... نحو خَشْداءِ أسودا
فأتوا مكة شحًّا ... بين خزٍّ وبرودا
أحسن الناس اعتدالًا ... ووجوهًا وخدودا
كلهم أكرم عادٍ ... أمهاتٍ وجدودا
نزلوا بالمرء بكرٍ ... وابنه شهرًا جديدا
يشربون الخمر صرفًا ... لا يملُّون الركودا

ثم هبُّوا بعدما هيًّا … لهم بكرٌ نشيدا
ثم غنَّتهم بصوتٍ … فينةً تسمى الجرودا
نهضوا إذ سمعوها … كأنهم كانوا رقودا
فأتوا بيت مليكٍ … لم يزل للخلق عيدا
فدعوا فاختار لقمان … فتى الحي الخلودا
ببقا عمرِ نسورٍ سب … عةٍ دهرًا أبيدا
وحبا الله أبا سعدٍ … تقاه والسعودا
فنجا بالبرِّ زادًا … ثم تقوى الله زيدا
وأرى قيلًا ثلاثًا … من سحاباتٍ فرودا
قطعةً بيضاء كانت … ما بها في الغيث جودا
ثم حمراء لم يردها … ظنَّها غيثًا ثميدا
فارتضى السوداء التي … صاورت بها الأقطار سودا
أبصرت مهد على الر … يح مطيعين ركودا
في أكفهم لها لجم … يخيلن الوقودا
قالت الويل لعاد … ويلها ويلًا جديدا
ليلة حلت به الد … هر على عاد الصدودا
أن نرى السبعة منهم … كلهم كانوا حسودا
كل قرم مثل طودٍ … لابسٍ فيها الحديدا
كي يردوها ومن ذا … يستطيع لها ردودا
خلفت أجسامهم في … الجو والقفر بديدا
عَذبت سبع ليالٍ … أمة كانت يهودا
ثم أيامًا ثمانًا … ما هبوطًا ما صعودا
تحسب الأصوات إن … يهوون في الجو رعودا
ثم خرّوا في قصور … صيرت فلقًا بديدا
استباح الدهر صدًّا … ومنافًا والخلودا
وجهارًا لم تذره … وهباءً والعنودا
قيل فانظر أين عاد … ثم دع عنك السمودا

لـــن تـــراهـــم آخـــر الـــدهـــر كـــمـــا كـــانـــوا قـــعـــودا
ثـــم نـــجّـــانـــي إلـــٰهـــي وبـــنـــي جـــدي الأبـــيـــدا
قـــد تـــفـــاتـــوا ثـــم بـــادوا فـــي ديـــارهـــم حـــصـــيـــدا
حـــمـــلـــتـــنـــي وبـــنـــيَّ نـــحـــوكـــم ريـــح بـــرودا
ونـــجـــا هـــود وأصـــحـــا ب لـــه خـــرّوا ســـجـــودا
مـــعـــه ثـــم ثـــلاثـــون يـــقـــيـــمـــون الـــحـــدودا[1]

كتابة «باسمك اللهمّ»

قال المسعودي: ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس وأخبار من سلف أن السبب في كتابة قريش واستفتاحها في أوائل كتبها: «باسمك اللهمّ» هو أن أمية بن أبي الصّلْت الثقفي خرج إلى الشام في نفرٍ من ثقيف وقريش في عير لهم، فلما قفلوا راجعين نزلوا مكانًا، واجتمعوا لعشاقهم، إذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم، فحصبها بعضهم بشيء في وجهها، فرجعت، فشدّوا سفرتهم ثم قاموا وارتحلوا من مكانهم.

فأشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصاها فقالت: ما منعكم أن تطعموا رحيمة، الجارية اليتيمة، التي جاءتكم عشية؟ قالوا: ومَن أنت؟ قالت: أنا أم العوام، أويمْتُ منذ أعوام. أما وربِّ العباد، لتفترقُنَّ في البلاد. ثم ضربت بعصاها الأرض فأثارت بها الرمل. وقالت: أطيلي إيابهم، وأنفري ركابهم. فوثبت الإبل، فكأنَّ على ذروة كل بعير شيطانًا، حتى افترقت في البوادي.

قال: فجمعناها في آخر النهار إلى غد، ولم نكد. فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز فعادت بالعصا كفعلها أولًا، وعادت إلى مقالتها الأولى: ما منعكم أن تطعموا رحيمة، الجارية اليتيمة. أطيلي إيابهم، وأنفري ركابهم. فخرجت الإبل ما تملك منها شيئًا، فجمعناها من آخر النهار إلى غد، ولم نكد فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز. ففعلت مثل فعلتها الأولى والثانية، فتفرّقت الإبل وأمسينا في ليلة مقمرة، وقد يئسنا من ظهورنا.

---

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير: ص ٣٥٣ ـ ٣٥٨، وفي الشعر كثير من التحريف والألفاظ المبهمة في الأصل رسمًا أو معنى ـ فتأمل.

فقلنا لأمية بن أبي الصلت: أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك؟ فتوجَّهَ إلى الكثيب الذي كانت تأتي العجوز منه؛ حتى هبط من ناحية أخرى، ثم صعد كثيبًا آخر حتى هبطَ منه، ثم وجد بيتًا فيه قناديل، وإذا رجل جالس أبيض الرأس واللحية. قال أميَّة: فلما وصلت إليه رفع رأسه إلي وقال: إنك لمتبوع[١]. قلت: أجل. قال: فمن أين يأتيك صاحبك؟

قلت: من أذني اليسرى. قال: فبأي الثياب يأمرك؟ قلت: بالسواد. قال: هذا خطب الجن. كدتَ ولم تفعل، ولكن صاحب هذا الأمر يكلمه في أذنه اليمنى، وأحبُّ الثياب إليه البياض، فما جاء بك؟ وما حاجتك؟ فحدثته حديث العجوز. قال: صدقت وليست بصادقة. هي امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لا تزال تضع بكم هذا حتى تهلككم إن استطاعت. قال أمية: فما الحيلة؟ قال: اجمعوا ظهوركم، فإذا جاءتكم وفعلت ما كانت تفعل فقولوا لها: «سبعًا من فوق وسبعًا من أسفل، باسمك اللهم» فإنها لا تضركم. فرجع أمية إلى أصحابه فأخبرهم بما قيل له. فجاءتهم وفعلت كما كانت تفعل، فقالوا لها: سبعًا من فوق وسبعًا من أسفل باسمك اللهم. فلم تضرهم. فلما رأت الإبل لم تتحرك، قالت: قد عرفتُ صاحبكم؛ لَيَبْيَضنَّ أعلاه، ويسودَّنَّ أسفله». فلما أدركنا الصبح، نظرنا إلى أمية قد بَرِصَ في عذاريه ورقبته وصدره، واسودَّ أسفله.

قال المسعودي: وكان أمية أول مَن كتب «باسمك اللهمّ»، إلى أن جاء الله عزّ وجلّ بالإسلام، فرفع ذلك وكتب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم»[٢].

قصص متفرقة

قَوم عَاد يُستسقُون بمَكّة[٣]

لما كذَّبت عادٌ هودًا ـ عليه السلام ـ توالت عليهم ثلاثُ سنوات، لم يرَوْا فيها مطرًا. فبَعثوا من قومهم وفدًا إلى مكة؛ ليستسقوا لهم، ورَأّسُوا[٤] عليهم

(١) أي أن له رئيًا يحدّثه. والرئيّ هو الجنيّ الذي يعرض للإنسان ويطلعه على ما يزعم من الغيب.
(٢) مروج الذهب: ١/ ٧١ ـ ٧٣.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير: ١ ـ ١٢٦، مجمع الأمثال: ١٠ ـ ١١٥، المسعودي: ١ ـ ٣٢١، ٢: ٤٥٦.
(٤) رأسوه: جعلوه رئيسًا.

قَبْلَ بن عُنُق ولُقَيْمَ بن هَزَّال، ولقمان بن عاد، وكان أهل مكة إذ ذاك العماليق، وكان سيِّدَهم بمكة معاوية بن بكر.

فلما قدموا نزلوا عليه؛ لأنهم كانوا أخوالَه وأصهاره؛ فأقاموا عنده شهرًا، وكان يكرِمُهم، والجرَادَتَان[1] تُغنيانهم؛ فنسُوا قومَهم؛ فقال معاوية: هلك أخوالي، ولو قلتُ لهؤلاء شيئًا ظنوا بي بخْلًا، فقال شعرًا، وألقاه إلى الجَرادتين، فأنشدتاه، وهو:

ألا يا قَيْلُ[2] وَيْحَك قم فَهيْنِمْ[3] لـعـلَّ الله يـبـعـثُـهـا غَـمَـامـا!
فـيـسـقـي أرضَ عـاد؛ إنّ عـادًا قدَ أمْسَوْا لا يُبينون الكلاما
من العَطَشِ الشديد فليس نرجو به الشيخَ الكبير ولا الغلاما
وقـد كـانـت نـسـاؤهـمُ بـخـيـر فقد أمست نساؤهم أيَامَى[4]
وإن الـوحـشَ يـأتـيـهـم جـهـارًا ولا يـخـشـى لـعـاديّ سِـهَـامـا
وأنـتـم هـٰهـنـا فـيـمـا اشـتـهـيـتـم نـهـاركـم ولـيـلـكـم الـتـمـامـا[5]
فـقُـبِّـح وَفْـدُكـم مـن وفْـدِ قـومٍ ولا لُقُّوا الـتـحـيـةَ والـسـلامـا

فلما غنَّتهم الجرادتان بهذا قال بعضُهم لبعض: يا قوم؛ إنما بعثَكم قومُكم يتغوّثون[6] بكم!

فقاموا ليدعُوا، وتخلّف لقمان، وكانوا إذا دَعَوْا جاءهم نداءٌ من السماء: أَنْ سَلُوا ما شئتم، فتعطَوْن ما سألتم! فدعَوْا ربهم، واستَسْقَوا لقومهم، فأنشأ الله ثلاث سَحَابات: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى منادٍ من السماء: يا قَيْلُ، اختر لقومك ولنفسك واحدةً من هذه السحائب!

فقال: أما البيضاءُ فَجفْل[7]، وأما الحمراءُ فَعارِض[8]، وأما السوداء فهُطْل، وهي أكثر ماء، فاختارها!

---

(١) الجرادتان: مغنيتان لمعاوية المذكور، كانتا بمكة.
(٢) قيل: هو رئيسهم من عاد. (٣) الهينمة: الصوت الخفي، والمراد الدعاء.
(٤) الأيامى: جمع الأيم: وهي مَن لا زوج لها. (٥) الالتمام: النزول.
(٦) غوث الرجل واستغاث: صاح واغوثاه. (٧) الجفل: السحاب هراق ماءه ومضى.
(٨) العارض: السحابة المعترضة في الأفق.

فنادى مُنَادٍ: قد اخترتَ لقومك رَمَادًا رِمدِدًا[١]، لا تَذَر من عاد أحدًا، ولا والدًا ولا ولدًا!

وسيّر الله السحابةَ التي اختارها إلى عاد ونُودي لقمان سَلْ، فسأل عُمْرَ ثلاثة[٢] أنسر، فأُعطي ذلك!

وكان يأخذ فرخ النسر من وَكْرِه، فلا يزال عنده حتى يموت! وكان آخرُها لُبَدَ، وهو الذي يقول فيه النابغة:

أضحتْ خَلَاءً وأضحى أهلُها احتَملوا أَخْنَى عليها الذي أَخْنى على لُبَدِ

زَيد بن عَمرُو يتَلمَّس الدِّين الصَّحيح[٣]

خرج زيدُ[٤] بن عَمْرو إلى الشام يسأل عن الدِّين ويتَّبعه، فلقي عالمًا من اليهود، فسأله عن دِينهم، فقال: لعلِّي أدين بدينكم فأخبرْني به؛ فقال اليهوديّ: إنك لا تكونُ على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من غَضب الله. فقال زيد بن عمرو: لا أَفِرُّ إلّا من غضب الله، وما أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا وأنا أستطيع، فهل تدلّني على دينٍ ليس فيه هذا؟ قال: ما أعلَمُه إلا أن يكون حَنيفًا، قال: ومَا الحنيف؟ قال: دينُ إبراهيم. فخرج من عنده وتركهُ.

فأتى عالمًا من علماء النصارى، فقال له نحوًا ممّا قال لليهوديّ. فقال له النصراني: إنّك لَنْ تكون على ديننا حتى تأخذَ بنصيبِك من لَعْنَة الله، فقال: إني لا أحملُ من لعنةِ الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا وأنا أستطيع، فهل تدلُّني على دينٍ ليس فيه هذا؟ فقال له نحوًا مما قال اليهودي؛ لا أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. فخرج من عندهما وقد رضي بما أخبرَاه واتّفقا عليه من دينِ إبراهيم، فلما برزَ رفع يدَه، وقال: اللهمّ إني على دِينِ إبراهيم.

(١) الرمدد بالكسر: المتناهي في الدقة. (٢) يقال سبعة.
(٣) الأغاني: ٣ ـ ١٢٦.
(٤) كان زيد بن عمرو أحد مَن اعتزل عبادة الأوثان وامتنع من كل ذبائحها وكان يقول: يا معشر قريش، أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحوها لغيره! توفي سنة ١٧ ق.هـ.

النعمَان بن المنْذر يَتنصَّر(١)

خرج النعمان بن المنذر إلى الصيد ومعه عَدِيُّ بن زيد، فمرّوا بشجرة، فقال له عديّ بن زيد: أيُّها الملكُ، أتدري ما تقولُ هذه الشجرة؟ قال: لا، قال: تقول:

رُبَّ ركْبٍ قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالِ
عصفَ الدهرُ بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهرُ حالًا بعد حالِ

ثم جاوز الشجرةَ فمرّ بمقْبَرةٍ، فقال له عديّ: أيها الملك، أتدري ما تقولُ هذه المقبرة؟ قال: لا، قال: تقول:

أيـهـا الـركـبُ الـمـخِـبُّـو ... نَ على الأرض الـمـجِـدُّونْ
فــكــمــا أنــتــمُ كــنَّــا(٢) ... وكــمــا نــحــن تــكــونُــونْ

فقال له النعمان: إن الشجرةَ والمقبرة لا تتكلّمان وقد علمتُ أنك إنما أردت عِظَتي، فما السبيلُ التي تُدْرَكُ بها النجاةُ؟ قال: تدعُ عبادةَ الأوثان وتعبدُ الله، وتَدِينُ بدين المسيح عيسى ابن مريمَ، قال: أوَفي هذا النجاة؟ قال: نعم، فتنصَّر يومئذ!

طِريفة الكَاهِنَة(٣)

كانت العمارةُ في أرض سَبَأٍ أزيد من مَسيرة شَهْرَيْن للراكب المجدّ، وكان أهلُها يقتبسون النارَ بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر، ثم مُزِّقُوا كلَّ مُمزَّق.

وكان أولَ مَن خرجَ من اليمن في أوّل الأمر عَمْرُو بن عامر مُزَيْقِيَاء(٤)، وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجةٌ كاهنةٌ، يقال لها طَريفة الخير، وكانت رأت في

---

(١) الأغاني: ٢ ـ ٩٦.

(٢) جاء في الأغاني: أن الشعر من مجزوء الرمل المسبغ وتقطيعه:

فـاعـلاتـن فـاعـلاتـن ... فـاعـلاتـن فـاعـلاتـان

فيكون على هذا غير موزون.

(٣) شرح مقامات الحريري: ١ ـ ٢٦٥، بلوغ الأرب: ٣ ـ ٢٨٣، مجمع الأمثال: ١ ـ ٢٥٢، المسعودي: ١ ـ ٢٤٤، معجم البلدان: مأرب.

(٤) ملك اليمن، ومزيقياء: لقبه، فقد كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشي، يكره العود فيهما، ويأنف أن يلبسهما غيره.

منامها أنّ سحابةً غَشِيتْ أرضَهُم، فأرعدتْ وأبرقتْ، ثم صَعَقتْ[١] فأحرقت كلَّ ما وقعتْ عليه. ففزِعت طريفةُ لذلك فزعًا شديدًا وأتت المَلِك عَمْرًا، وهي تقول: «ما رأيت كالبرق أزال عني النومَ! رأيتُ غيمًا أَرْعَدَ وأبرق، وزَمْجَرَ وأصعق، فما وقع على شيء إلا أحرق». فلما رأى ما داخلها من الفزع سكّنَها.

ثم إن عمرًا دخل حديقةً له، ومعه جاريتان مِنْ جَواريه؛ فبلغ ذلك طريفة، فخرجتْ إليه وخرج معها وَصِيف[٢] لها اسمه سِنان؛ فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاثُ مَنَاجد[٣] منتصِبات على أرجلهنّ، واضعات أيديهنّ على أعينهنّ، فقعدت إلى الأرض واضعةً يديها على عينيها، وقالت لوصيفها: إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني. فلما ذهبتْ أخبرها، فانطَلَقتْ مُسرعة، فلما عارضَها الخليج الذي في حديقة عمرو وَثَبَتْ من الماء سُلَحفاة، فوقعت في الطريق على ظهرها، وجعلت تَرُوم الانقلابَ فلا تستطيع، وتستعين بذَنبها فَتَحْثُو الترابَ على بطنها من جَنَباته، وتقذِف بالبول قَذْفًا.

فلمّا رأتها طريفةُ جلست إلى الأرض، فلما عادت السلحفاةُ إلى الماء مضت طريفةُ إلى أن دخلتْ على عمرو، وذلك حين انتصف النهار في ساعة شديدٍ حرّها؛ فإذا الشجرُ يتكَفّأ[٤] من غير ريح، فلما رآها استحيا منها، وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية؛ ثم قال لها: هلُمّي يا طريفة، فكَهَنَتْ[٥] له، وقالت: «والنورِ والظَّلماء، والأرضِ والسماءِ؛ إن الشجرَ لَهَالِك، وليعودَنَّ الماءُ كما كان في الزمن السَّالك».

قال عمرو: مَنْ أَخبرك بهذا؟ قالت: أخبرني المناجد، بسنينَ شدائد، يَقطع فيها الولدُ الوالد. قال: ما تقولين؟ قالت: «أين قولَ النَّدْمان لَهْفا، لقد رأيت سُلَحْفا[٦]، تجرِفُ الترابَ جَرْفًا، وتقذِفُ البول قَذْفًا»؛ فدخلتُ الحديقة، فإذا الشجر من غير ريح يتكَفّأ!

---

(١) أصابت بصاعقة: وهي نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد.
(٢) الوصيف: الخادم، غلامًا كان أو جارية.
(٣) هي دواب تشبه اليرابيع، واليربوع: دويبة نحو الفأرة، لكن ذنبه وأذنيه أطول منها، ورجليه أطول من يديه.
(٤) يميل.
(٥) كهن له: قضى له بالغيب.
(٦) السلحفاة.

قال: ما تَرَيْنَ في ذلك؟ قالت: هي داهية دَهْيَاء[١] من أُمور جسيمة، ومصائبَ عظيمة! قال: وما هو ويلك! قالت: «أجل؛ إن فيه الويل، ومالَك فيه من قَيْل[٢]، وإنّ الويل فيما يجيءُ به السيل»!

فألقى عمرو نفسه عن فراشه، وقال: ما هذا يا طَرِيفة! قالت: «خَطْبٌ جليل، وحُزْنٌ طويل، وخَلَف[٣] قليل!» قال: وما علامةُ ما تذكرين؟ قالت: «اذهب إلى السدّ، فإذا رأيت جُرَذًا[٤] يُكْثِرُ بيديه في السدّ الْحَفر، ويقلّب برجليه من أجَلِّ الصخر، فاعلم أن غَمَرَ الغَمْرُ[٥]، وأن قد وقع الأمر».

قال: وما الذي تَذْكرين أنه يقع؟ قالت: «وعدٌ من الله تعالى نزل، وباطل بَطل، ونَكالٌ بنا نَكل؛ فبغيرك يا عمرو يكون الثّكل[٦]»!

فانطلق عمرو فإذا الْجُرَذ يقلب برجليه صخرةً ما يقلبُها خمسون رجلًا، فرجع إلى طَرِيفة فأخبرها الخبر، وهو يقول:

أبصرتُ أمْرًا عادني منه أَلَمْ ... وهاج لي من هَوْله بَرْحُ السَّقَمْ[٧]
من جُرَذٍ كفَحل خنزير الأُجُمْ[٨] ... أو كَبْش صِرْم[٩] من أفاريق[١٠] الغَنَمْ
يَسْحَبُ صَخْرًا من جلاميد العَرِمْ ... له مخاليبُ وأنيابٌ قُضُم[١١]
ما فاتَه سَحْلًا[١٢] من الصخر قَصَمْ[١٣]

فقالت طَرِيفة: وإن علامة ذلك الذي ذكرتُه لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضعَ بين يديك فإن الريحَ تملؤُها من تراب البَطْحَاء من سِهْلَةِ[١٤] الوادي ورَمْله، وقد علمتَ أن الجِنانَ مُظَلَّلَةٌ لا يدخلها شمسٌ ولا ريح.

(١) داهية دهياء: شديدة.
(٢) قال قيلًا: نام في القائلة، وهي نصف النهار، والمراد الإقامة والمكث.
(٣) الخلف: ما استخلفته من شيء.
(٤) ضرب من الفئران.
(٥) الغمر: الماء الكثير.
(٦) الثكل: كسبب وقفل: الموت والهلاك.
(٧) البرح: الشدة.
(٨) الأجم: جمع أجمة، وهو الشجر الكثير الملتف.
(٩) الصرم: الجماعة.
(١٠) الأفاريق: الفريق تجمع على فرق، وجمعت في الشعر على أفارق وجمع الجمع أفراق وجمعه أفاريق.
(١١) قضم قضمًا: أكل بأطراف أسنانه.
(١٢) سحله: قشره ونحته.
(١٣) قصم: كسر.
(١٤) السهلة: تراب كالرمل يجيء به الماء.

فأمر عَمْرو بزجاجة فوُضِعَتْ بين يديه، ولم تمكث إلا قليلًا حتى امتلأت من التراب، فأخبرها بذلك، وقال لها: متى يكونُ ذلك الخراب الذي يَحْدث في السدّ؟ قالت: فيما بيني وبينك سبع سنين! قال: ففي أيها يكون؟ قالت: لا يعلم بذلك إلا الله تعالى، ولو علمهُ أحدٌ لعلمتُه، وإنه لا تأتي عليّ ليلة فيما بيني وبين سبع السنين إلا ظننتُ هلاكَه في غَدِها أو مَسائها!

ثم رأى عمرو في منامه سيلَ العَرِم[1]، وقيل له: إن آيةَ ذلك أن ترى الحَصْباء قد ظهرت في سعف النخل؛ فنظر إليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها، فعلم أنه واقعٌ، وأن بلادَهم ستخرَب.

فكتم ذلك، وأجمع على بَيْعِ كلّ شيء له بأرضِ مَأرِب، وأن يخرج منها هو وولده؛ ثم خشيَ أن تُنْكِرَ الناسُ عليه ذلك، فأَمر أَحدَ أولادِه إذا دعاه لِمَا يدعوه إليه أَنْ يتأَبّى عليه[2]، وأن يفعلَ ذلك به في الملأ من الناس؛ وإذا لطمَه يرفعُ هو يده، ويَلْطِمُه.

ثم صنع عمرو طعامًا، وبعث إلى أهل مَأْرِب: إن عمرًا قد صنع طعامًا يوم مَجْدٍ وذكر، فاحضَروا طعامه!

فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنُه الذي أمره بما قد أمره، فجعل يأمره فيتأَبّى عليه؛ فرفع عمرٌو يده فلطمه، فلطمه ابنُه؛ فصاح عمرو: واذلّاه يوم فخرِ عمرو! يهيجُهُ صَبِيٌّ ويَضْرِبُ وجهه! وحلف ليقتلنّه، فلم يزالوا به حتى تركه، وقال: والله لا أقيمُ بموضع صُنِع هذا بي فيه! ولأبيعنَّ أموالي حتى لا يرِثَ بعدي منها شيئًا!

فقال الناسُ بعضهم لبعض: اغتنموا غَضْبَةَ عمرو، واشتروا منه أمواله قبل أن يَرْضَى؛ فابتاع الناسُ منه كلَّ ماله بأَرض مَأْرِب، وفشا بعضُ حديثه فيما بلغه من شأن سَيْلِ العَرِم، فقام ناسٌ من الأَزْدِ فباعوا أموالَهم؛ فلما أكثروا البيعَ استنكر الناسُ ذلك فَأمسكوا عن الشراء! فلما اجتمعت إلى عمرو أموالُه أخبر الناسَ بشأن السيل وخرج، فخرج لخروجه منها بَشَرٌ كثير.

---

(١) العرم: السيل الذي لا يطاق، وقيل: هو المطر الشديد. وقيل: هو اسم واد.

(٢) تأبى عليه: امتنع.

عُفَيْرَاء وَمَرْثَد بن عبْد كُلَال[١]

فقفل مَرْثَد[٢] بن عبد كُلال من غَزَاةٍ غزاها بغنائمَ كثيرة، فوفدَ عليه زعماءُ العرب وشعراؤُها وخطباؤُها يهنئونه؛ فرفع الحجابَ عن الوافدين، وأوسعهم عطاءً، واشتدَّ سُرُوره بهم.

فبينما هو كذلك إذ نام يومًا؛ فرأى رُؤْيا في المنام أَخافَتْهُ وأذْعَرتْهُ، فلما انْتَبَهَ أُنسِيهَا، حتى لم يذكر منها شيئًا، وثبت في نفسه ارتياعُه بها، فانْقَلَبَ سرورُه حزنًا، واحتجب عن الوفود، حتى أساءُوا به الظنَّ.

ثم إنه حَشَر الكُهَّانَ: فجعل يخلو بكاهنٍ بعد كاهنٍ، ثم يقول له: أخبرني عما أُريدُ أن أَسأَلَك عنه! فيجيبه الكاهنُ: بأَن لا علمَ عندي! حتى لم يَدَعْ كاهنًا عَلِمَه إلا كان إليه منه ذلك! فتضاعفَ قَلَقُهُ، وطالَ أَرَقُه، وكانت أُمُّهُ قد تكهّنَتْ[٣]، فقالت له: أبيتَ اللعن أيُّها الملك! إن الكواهنَ[٤] أَهْدَى إلى ما تسأَلُ عنه، لأنَّ أتْبَاعَ الكَواهن من الجانِ، أَلطفُ وأظرف من أتباع الكهان.

فأمر بحشر الكواهن إليه، وسألهنَّ كما سأل الكهان، فلم يجدْ عند واحدة منهنَّ علمًا مما أراد عِلْمَه، ولما يئس من طَلِبَتِهِ سَلَا عنْها، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيَّد، فأَوْغَل[٥] في طَلَب الصيد، وانفرد عن أصحابه، فرُفعت له أبياتٌ من ذَرَا[٦] جبل، وكان قد لَفَحه[٧] الهَجِيرُ، فعدَل إلى الأبيات، وقصد بيتًا منها منفردًا عنها، فبرزتْ إليه منه عجوز، فقالت له: انزِلْ بالرّحْب والسَّعة، والأَمْن والدَّعة، والجَفْنة المُدعْدَعة[٨]، والعُلْبة[٩] المُتْرَعَة.

---

(١) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٢٩٦، الأغاني: ١٠ ـ ٢١.

(٢) هو أخو تبع بن حسان لأمه، وكان ذا رأي وبأس وجود، وملك إحدى وأربعين سنة.

(٣) تكهنت: قضت بالغيب. (٤) الكواهن: جمع كاهنة.

(٥) أوغل في طلب الصيد: بالغ في ذلك وأمعن.

(٦) ذر الجبل: كنفه وستره.

(٧) لفحه: أحرقه، والهجير: نصف النهار وشدة الحر.

(٨) الحفنة: القصعة، والمدعدعة: التي ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص ما فيها، ثم ملئت بعد ذلك.

(٩) العلبة: إناء من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيها، والمترعة: المملوءة.

فنزل عن جَوَادِه، ودخلَ البيت، فلما احتجبَ عن الشمس، وخفقت عليه الأرْواح[١]، نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهَجِيرُ، فجلس يمسحُ عينيه، فإذا بين يديه فتاةٌ لم يرَ مثلها قَوَامًا ولا جمالًا؛ فقالت: أبيت اللعن أيُّها الملك الهُمَام! هل لك في الطعام؟ فاشتدّ إشفاقُه، وخاف على نفسه لَمَّا رأى أنها عرفته، وتصامّ عن كلمتها، فقالت له: لا حَذَر، فِدَاكَ البَشر، فجدُّك الأكبر، وحظُّنا بك الأوْفَر.

ثم قرَّبت إليه ثريدًا وقديدًا وحَيْسًا[٢]، وقامت تَذُبُّ عنه حتى انتهى أكلُه، ثم سقته لبنًا صَرِيفًا وضَرِيبًا[٣]، فشرب ما شاء، وجعل يتأمَّلها مُقبِلةً مُدْبِرة، فملأت عينه حُسْنًا، وقلبَه هوًى، فقال لها: ما اسمُكِ يا جارية؟ قالت: اسمي عُفَيراء، فقال لها: يا عُفَيراء، مَنِ الذي دعوتهِ بالملك الهمام؟ قالت: مَرْثد العظيم الشّان! حاشرُ الكواهن والكُهّان، لِمُعضِلة[٤] بَعُدَ عنها الجان!

فقال: يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك! إنها رؤيا مَنام، ليست بأَضغاث أَحْلام!

قال الملك: أصبتِ يا عفيراء! فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيتَ أعاصيرَ[٥] زوابع، بعضُها لبعض تابع، فيها لَهَبٌ لامع. ولها دُخَان ساطع[٦] يقفوها نهرٌ مُتدَافِع، وسمعتَ فيما أنتَ سامع، دعاءَ ذي جَرْس[٧] صادع: هلموا إلى المشارع[٨]؛ فرَوِيَ جارع[٩]، وغَرِق كارع[١٠]!

فقال الملك: أَجَلْ! هذه رؤياي! فما تأويلُها يا عُفيراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع ملوك تبَابع[١١]. والنهر علم واسع. والداعي نبيٌّ شافع. والجارع وليٌّ تابع والكارع عدو منازع!

(١) الأرواح: جمع ريح.
(٢) القديد: اللحم المقدد، والحيس: تمر وأقط وسمن.
(٣) الصريف: اللبن آن الحلاب يصرف عن الضرع إلى الشارب. والضريب: اللبن الذي يحلب من عدة لقاح في إناء واحد فيضرب بعضه ببعض.
(٤) العضلات: الشدائد. وبعد عنها الجان: لم يطيقوها.
(٥) الأعاصير الزوابع: هي من الرياح ما يثير التراب فيعليه في الجو ويديره.
(٦) ساطع: مرتفع. (٧) الجرس: الصوت.
(٨) المشارع: جمع مشرعة وهي التي ينحدر إليها الماء.
(٩) أي من شرب جرعًا روي. (١٠) أي ومن أمض في الشرب غرق.
(١١) التبابع جمع تبع، وهو لقب لملوك اليمن.

فقال الملك: يا عفيراء، أَسِلْمٌ هذا النبيُّ أم حرب؟ فقالت: أُقْسِمُ برافع السماء؛ ومُنزلِ الماءِ من العَمَاء[١]، إنه لَمُطِلٌ[٢] الدماء، ومُنَطِّقُ[٣] العقائل نُطُقَ الإماء.

فقال الملك: إلَامَ يدعو يا عفيراء؟ قالت: إلى صلاةٍ وصيامٍ، وصلةِ أَرْحَامٍ، وكَسْرِ أصنام، وتعطيل أَزْلَام[٤]، واجْتناب آثام!

فقال الملك: يا عُفَيْرَاء؛ إذا ذبحَ قومُهُ فمن أعضادُه[٥]؟ قالت: أعضادُه غَطَاريفُ[٦] يَمَانُون، طائرُهم به ميمون، يُغْزِيهم فيَغْزون؛ ويُدَمِّثُ[٧] بهم الحُزُون، وإلى نَصْرِه يَعْتَزُون!

فأطرق الملك يُؤَمِرُ[٨] نَفْسَه في خطبتها؛ فقالت: أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعي غَيور، ولأمري صَبُور، والكَلَفُ بي ثُبُور[٩].

فنهض الملك، وحَالَ[١٠] في صَهْوَةِ اجواده وانطلق؛ فبعث إليها بمائة ناقة كَوْماء[١١]!

كَاهِنَة بَنِي سَعْد[١٢]

نذَر عبد المطلب بن هاشم أنه متى رُزق عشرة أولاد ذكورًا، ورآهم بين يَدَيْهِ رجالًا أن ينحرَ أَحَدَهم عند الكَعْبَةِ شكرًا لربه!

فلما استكمل وَلَدُه العَدد، وصاروا مِنْ أَظْهَر العُدَد، قال لهم: يا بَنِيَّ؛ كنتُ نذَرْتُ نَذْرًا علمتموه قبل اليوم، فما تقولون؟

---

(١) العماء: السحاب الكثيف. (٢) طل دمه: هدر، أو ألا يثأر به.

(٣) منطق العقائل: الكرائم من النساء؛ أي يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن كالإماء للمهنة والخدمة.

(٤) الأزلام: سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية؛ أي يطلبون معرفة ما قسم لهم.

(٥) الأعضاد: الأنصار: أي إذا قطعوه وتركوا نصرته.

(٦) الغطاريف: السادة، وتريد الأنصار وهم من أهل اليمن.

(٧) يدمث: يسهل. (٨) يؤامر نفسه: يشاور.

(٩) ثبور: هلاك.

(١٠) حال أي وثب واستوى، والصهوة: مقعد الفارس من ظهر فرسه.

(١١) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.

(١٢) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٤٦، ابن هشام: ١ ـ ١٠٣، الطبري: ٢ ـ ١٧٤.

قالوا: الأمرُ لك وإليك. ونحنُ بين يديك! فقال: لينطلقْ كلُّ واحدٍ منكم إلى قِدْحِه[١]، وليكتبْ عليه اسمه، ففعلوا؛ ثم أَتَوْه بالقِدَاح فأخذها.

ثم دعا بالأمين الذي يَضْرِبُ بالقداح، فدفع إليه قِدَاحَهم، وقال: حرّك ولا تَعْجَلْ.

وكان أحبّ ولد عبد المطلب إليه عبدُ الله. فضرب صاحبُ القِداح السهمَ، فخرج على عبد الله؛ فأخذ عبد المطلب الشَّفْرَةَ[٢]، وأتى بعبد الله وأضجعه بين إسَاف[٣] ونَائِلَة.

وهَمّ بذبحه، فوثب إليه ابنُه أبو طالب، وكان أخا عَبْدِ الله لأبيه وأمّه، وأمسك بيده عن أخيه.

فلما سمعت بنو مخزوم بذلك ـ وكانوا أخواله ـ وثَبُوا إلى عبد المطلب، فقالوا: يا أبا الحارث، إنا لا نُسلم إليك ابنَ أختنا للذبح، فاذبحْ منْ شئتَ مِنْ ولدك غيره!

فقال: إني نذرتُ نذرًا، وقد خرج القِدْح، ولا بدّ من ذبحه! قالوا: كلّا! لا يكونُ ذلك أبدًا، وفينا رُوح؛ وإنا لنفْدِيه بجميع أموالنا من طارفٍ وتَالد.

ثم وثب الساداتُ من قريش إلى عبد المطلب، فقالوا: يا أبا الحارث؛ إن هذا الذي عزمْتَ عليه لعظيم، وإنك إن ذبحتَ ابنَك لم تَتَهنَّأ بالعيش من بعده، ولكن تثبّتْ حتى نصيرَ معك إلى كاهنةٍ بني سعد، فما أمرتْك من شيء فامْتَثِلْهُ.

فقال عبد المطلب: لكم ذاك.

ثم خرج في جماعةٍ من بني مَخْزُوم نحو الشام[٤] إلى الكاهنة؛ فلما دخلوا عليها أخبرَها عبدُ المطلب بما عزَم عليه من ذَبْح ولده. فقالت الكاهنةُ: انصرفوا عني اليوم. فانصرفوا.

(١) القدح: السهم. (٢) الشفرة: السكين العظيم.

(٣) إساف ونائلة: صنمان كانا لقريش، وضعهما عمرو بن حي على الصفا والمروة، وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة.

(٤) في سيرة ابن هشام والطبري: فانطلقوا حتى قدموا المدينة.

وعادوا من الغَدِ، فقالت: كم دِيَةُ الرجلِ عندكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلدكم، وقرّبوا هذا الغلام الذي عزمتم على ذبحه، وقدّموا معه عشرًا من الإبل، ثم اضربوا عليه وعلى الإبل القِدَاح، فإن خرج القِدْحُ على الإبل فانحروها، وإن خرج على صاحبكم فزِيدوا على الإبل عشرًا عشرًا حتى يَرْضَى ربكم.

فانصرف القومُ إلى مكةَ؛ وأقبلوا عليه يقولون: يا أبا الحارث؛ إن لكَ في إبراهيمَ أسوةً حسنة؛ فقد علمْتَ ما كان من عَزْمه على ذبح ابنه إسماعيل وأنت سيدُ ولد إسماعيل، فقدّم مالَك دون ولدك!

فلما أصبحَ عبدُ المطلب قرّبَ عَبْدَ الله وعشرًا من الإبل، ثم دعا بأمينِ القِدَاح وجعل لابنه قِدْحًا، وقال: اضرب ولا تَعْجَلْ، فخرج القِدْحُ على عبد الله، فجعلها عشرين، فضرب فخرج على عبد الله؛ فجعلها ثلاثين فضرب فخرج القِدْح على عبد الله؛ فجعلها أربعين،... وكلما خرج القِدْح على ابنه زادها عشرًا، حتى جعلها مائة، فضرب فخرج القِدْح على الإبلِ، فكبّر عبدُ الله وكبّرت قريش، وقالت: يا أبا الحارث؛ إنه قد رَضِيَ رَبُّك، وقد نجَا ابنُك من الذبح.

فقال: لا والله حتى أضرَب عليه ثلاثًا! فضرب الثانيةَ فخرج على الإبل، فضرب الثالثة فخرج على الإبل، فعلم عبدُ المطلب أنه قد بلغ رِضَا ربه في فِدَاء ابنه.

فقُرّبت الإبلُ، وهي مائةٌ من جِلّة إبلِ عبد المطلب، فنُحِرَت كلها، فداءً لعبد الله، وتُرِكَتْ في مواضعها، لا يُصَدُّ عنها أحدٌ ينتابها ممن دبّ ودرَج[١]؛ وانصرف عبد المطلب بابنه عبد الله فرحًا.

مَصْرع العُزَّى[٢]

كانت العُزَّى شيطانةً تأتي ثلاث سَمُراتٍ[٣] ببطن نَخْلَة[٤]. فلما افتتح النبيّ ﷺ مكةَ بعث خالدَ بن الوليد، فقال له: إيت بطنَ نخلة؛ فإنك تجد ثلاثَ

(١) درج: مشى. ودب: مشي على هينته، والمقصود كل واحد.
(٢) الأصنام لابن الكبي: ٢٥.
(٣) سمرات: جمع سمرة، وهي نوع من الشجر.
(٤) بطن نخلة: قريبة من المدينة.

سمُراتٍ فاعضدِ[١] الأولى! فأتاها فعضَدَها. فلما جاء إليه ـ عليه السلام ـ قال: هل رأيتَ شيئًا؟ قال: لا. قال: فاعضِدِ الثانية! فأتاها فعَضَدها. ثم أتى النبيَّ عليه السلام، فقال: هل رأيت شيئًا؟ قال: لا. قال: فاعضدِ الثالثة! فأتاها، فإذا هو بحبشيَّة نافشةٍ شعرَها، واضعةٍ يديْها على عاتقها، تَصرِف[٢] بأنيابها، وخَلْفَها دُبَيّة بن حَرَمى الشَّيْباني وكان سادِنَها[٣] ـ فلما نظر إلى خالد قال:

أعُـزَّاء شُـدِّي شَـدَّةً لا تُـكَـذِّبـي ... على خالدٍ! ألقي الخِمَارَ وشَمِّري!
فـإنـك إلّا تَـقْـتُـلِ الـيـومَ خـالـدا ... تُـبُـوئي بـذُلٍّ عـاجـلًا وتَـنَـصَّـري

فقال خالد:

يـا عُـزُّ كـفـرانَـك لا سـبـحـانَـكِ ... إنــي رأيــتُ الله قــد أهــانَــكِ!

ثم ضربها ففلقَ رأْسَها، فإذا هي حُمَمَةٌ[٤]. ثم عضَدَ الشجرة، وقتل دُبَيّة السّادِن. ثم أتى النبيّ ﷺ، فأخبرهُ. فقال: «تلك العُزَّى، ولا عُزَّى بعدها للعرب! أما إنها لن تُعْبَد بعد اليوم».

أُمَيَّةُ بنُ أَبِي الصَّلْت وَرؤيَا شَقّ الصّدر[٥]

دخل يومًا أميّة[٦] بن أبي الصَّلْت على أُخْتِهِ، وهي تهيّئ أدَمًا[٧] لها، فأدركه النَّوْم؛ فنام على سَرِيرٍ في ناحية البيت، ثم انشقَّ جانبٌ من السقف في البيت، وإذا بطائرَيْن قد وقع أحدُهما على صَدْرِه؛ ووقف الآخرُ مكانه، فشقَّ الواقعُ صدرَه فأخرج قلبَه فشقّه، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: أَوَعَى؟ قال: وَعَى، قال: أَقَبِلَ؟ قال: أَبَى. قال: فرُدَّ قلبَه في موضعه. ثم نهض فأتبعهما أمية طَرْفَهُ، وقال:

لـبَّـيـكُـمـا لـبـيـكـمـا ... هــأنــذا لَدَيْــكُــمــا

لا بريءٌ فأعتذر، ولا ذو عشيرة فأَنْتَصر.

(١) فاعضد: فاقطع.
(٢) تصرف: تصوت.
(٣) السادن: خادم الكعبة وبيت الأصنام.
(٤) الحمم: الفحم، واحدته بهاء.
(٥) الأغاني: ٤ ـ ١١٧.
(٦) كان أمية قد نظر في الكتب وقرأها قبل بعثة النبيّ ﷺ ولبس المسوح تعبدًا، وحرم الخمر، وشك في الأثان. ولما بعث النبيّ ﷺ قال: «إنما كنت أرجو أن أكونه». ولم يسلم.
(٧) تهيئه وتقدره قبل القطع وتقيسه لتقطع منه مزادة أو قربة أو خفًا.

فرجَع الطائر فوقع على صدره فشقّه، ثم أخرج قلبَه فشقه؛ فقال الطائر الأعلى: أوَعى؟ قال: وَعَى، قال: أقَبِل؟ قال: أبي؛ ونهض، فأتبعهما أمية بصرَه وقال:

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما

لا مالٌ يغنيني؛ ولا عشيرةٌ تحميني. فرجَع الطائر فوقع على صدره فشقّه؛ ثم أخرج قلبه فشقَّه. فقال الطائر الأعلى: أوَعَى؟ قال: وَعى. قال: أقبِلَ؟ قال: أبي. ونهض فأتبعهما أمية بصره، وقال:

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما

محفوفٌ بالنعم، محوط من الرِّيَب. فرجع الطائرُ فوقع على صدره فشقَّه، وأخرج قلبه فشقّه، فقال الأعلى: أوَعَى؟ فقال: وَعى. قال: أقبِل؟ قال: أبى. ونهض فأتبعهما أمية بَصَرَه، وقال:

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما
إن تَغفِرِ اللهم تَغفِر جمًّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا[١]

قالت أخته: ثم انطبقَ السقف؛ وجعل أُمية يمسح صدرَه، فقلت: يا أخي، هل تجدُ شيئًا؟ قالَ: لا، ولكني أجد حرًّا في صدري، ثم أنشأ يقول:

ليتنى كنتُ قبلَ ما قد بدا لي في قِنَان[٢] الجبال أرْعى الوُعُولا
اجعَلِ الموتَ نُصْبَ عينيك واحذَرْ غَوْلَةَ الدهرِ إن للدهر غُولَا[٣]

أم العَوّام![٤]

خرج ركبٌ من ثَقِيف إلى الشام، وفيهم أُميةُ بنُ أبي الصَّلت، فلما قَفلوا راجعين نزلوا منزلًا ليتعشَّوْا بعَشَاء، إذْ أقبلت عَظَايةٌ[٥] حتى دَنَتْ منهم، فَحَصَبَها بعضُهم بشيء في وَجْهِها، فرجعت، وكفَتُوا[٦] سُفْرَتَهُمْ، ثم قاموا يرحَلون مُمْسين، فطلعت عليهم عجوزٌ من وراء كثيبٍ مقابلٍ لهم تتوكَّأ على عصا، فقالت: ما

(١) ألم: ارتكب اللمم، وهو صغار الذنوب. (٢) القنان: أعالي الجبال، واحدها قنة.
(٣) كل ما اغتال الإنسان فأهلكه. (٤) الأغاني: ٤ ـ ١٢٥.
(٥) العظاية: دريبة ملساء، تشبه سام أبرص، من طبعها أنها تمشي مشيًا سريعًا ثم تقف.
(٦) كف الشيء: ضم بعضه إلى بعض. والسفرة: ما يبسط تحت الخوان من جلد أو غيره.

منعكم أن تُطعِمُوا رَحيمةَ، الجاريةَ اليتيمةَ، التي جاءتكم عَشِيّة! قالوا: ومن أَنْتِ؟ قالت: أنا أمّ العوّام، إمْتُ[١] منذُ أعوام؛ أما وربِّ العباد، لتَفترقُنّ في البلاد! وضربَت بعصاها الأرْضَ، ثم قالت: بَطِّئي إيابَهم، ونَفِّري ركابَهم؛ فوثبتِ الإبلُ كأنَّ على ذِرْوَةِ كلِّ بعير منها شيطانًا، ما يُمْلَكُ منها شيء، حتى افترقت في الوادي.

قال الراوي: فجمعناها في آخرِ النهار من الغَدِ ولـم نَكَدْ، فلما أنخْنَاها لنُرحِلَها طلعت علينا العجوزُ، فضربت الأرضَ بعصاها، ثم قالت كقولها الأول، ففعلت الإبلُ كفِعلها بالأمس، فلم نَجْمعها إلا الغَدَ عشية؛ فلما أنخْنَاها لنُرحِلها أقبلت العجوز، ففعلت كفعلها في اليومين، ونفَرت الإبل.

فقلنا لأُميَّة: أَينَ ما كنتَ تُخبرنا به عن نفسك؟ فقال: اذهَبُوا أنتم في طلب الإبل ودَعُوني؛ فتوجّه إلى ذلك الكثيبِ الذي كانت العجوزُ تأتي منه حتى عَلَاه، وهبطَ منه إلى وادٍ؛ فإذا فيه كنيسةٌ وقناديل، وإذا رجلٌ أبيضُ الرأسِ واللحية مُضْطَجع معترض على بابها؛ فلما رأى أميةَ قال: إنك لَمَتْبُوع، فمن أين يأتيك صاحبُك؟ قال: من أُذني اليسرى؛ قال: فبأي الثياب يأمُرك؟ قال: بالسَّوَاد؛ قال: هذا خَطيب الجنّ، كدتَ والله أَنْ تَكُونَه ولم تفعل؛ إن صاحبَ النبوّة يأتيه صاحبُه من قِبَل أذنِه اليُمنى، ويأمُره بلباس البياض، فما حاجتُك؟ فحدَّثَه حديثَ العجوز؛ فقال: هي امرأةٌ يهودية من الجن، هلك زوجُها منذ أعوام، وإنها لن تزالَ تصنعُ ذلك بكم حتى تُهلِككم إن استطاعت.

فقال أمية: وما الحيلةُ؟ فقال: جمّعوا ظَهْرَكم[٢]؛ فإذا جاءتكم ففعلتْ كما كانت تفعلُ فقولوا لها: «سَبْع من فوق، وسَبْع من أسفل، بِاسْمِك اللهمّ»! فلن تضرّكم.

فرجع أميّةُ إليهم وقد جمّعوا الظّهر؛ فلما أقبلت قال لها ما أمرَه به الشيخ، فلم تضرّهم. فلما رأتِ الإبلَ لم تَتَحرَّك قالت: قد عرفتُ صاحبَكم، وليَبْيَضنَّ أعلاه، وليَسْوَدَّنَّ أسفلُه؛ فأصبح أمية وقد برص في عِذارَيْه واسودّ أسفلُه.

---

(١) آمت المرأة: إذا فقدت زوجها.

(٢) الظهر: الركاب التي تحمل عليها الأثقال في السفر.

فلما قدِموا مَكة ذكروا لهم هذا الحديث؛ فكان ذلك أولَ ما كَتَبَ أهلُ مكة: «باسْمِك اللهم» في كُتُبهم!

عُمَارة بن الوَليدَ وَالسَّوَاحِر[١]

كان عُمَارَةُ[٢] بن الوليد المخزومي قد خرج هو وعَمْرو بن العاص بن وائل السَّهْمي ـ وكانا كلاهما تاجرين ـ إلى النجاشي، وكانت أرضُ الحبشة لقريش مَتْجَرًا وَوَجْهًا، وكلاهما مُشرِك شاعر فاتك وهما في جاهليَّتِهما؛ وكان عُمارة مُعْجَبًا بالنساء صاحبَ مُحادثة، فركبا في السفينة لياليَ. وحذِر عمرٌو على زوجته من عُمارة، فجعل إذا شرب معه أَقَلَّ عمرٌو من الشراب، وأرَقَّ لنفسه بالماءِ؛ مخافةَ أن يسكر فيغلبَه عُمَارةُ على أهله.

ثم إن عَمْرًا جلس إلى ناحية السفينة، فدفعه عُمَارة في البحر. فلما وقع فيه سبح حتى أخذ بالقَلْس[٣]، فارتفع فظَهرَ على السفينة. فقال له عُمَارة: أما والله لو علمتُ يا عمرو أنك تُحْسن السِّباحة ما فعْلتُ؛ فاضطَغَنَها عمرو، وعلم أنه أراد قتله.

فمضيا على وجههما ذلك، حتى قدِما أرضَ الحبشة ونزلاها، وكتب عمرو بن العاص إلى أبيه العاص: أن اخْلَعْني[٤]، وتبرّأ من جَرِيرتي[٥] إلى بني المُغيرة وجميع بني مخزوم. وذلك أنه خشي على أبيه أن يُتْبَع بجريرته وهو يَرْصُدُ[٦] لعُمارة ما يَرصد.

فلما ورد الكتابُ على العاص بن وائل مشى في رجالٍ من قومه إلى بني المغيرة وغيرهم من بني مخزوم؛ فقال: إن هذين الرجُلَيْنِ قد خرجا حيث علمتُم، وكلاهما فاتكٌ صاحبُ شَرّ، وهما غَيرُ مأمونَيْن على أنفسهما، ولا ندري ما يكون؛ وإني أَبْرَأُ إليكما من عَمْرٍو من جَرِيرته، وقد خلعتهُ.

---

(١) الأغاني: ٩ ـ ٥٦.

(٢) عمارة بن الوليد: هو الذي دفعت به قريش إلى أبي طالب حين طلبوا إليه أن يسلم إليهم محمدًا ﷺ ويأخذه عوضًا عنه.

(٣) القلس: حبل غليظ من حبال السفن.

(٤) يقولون: إنا خلعنا فلانًا، فلا تأخذ أحدًا بجناية تجنى عليه، ولا نؤاخذ بجناياته التي يجنيها.

(٥) جريرتي: جنايتي. (٦) رصيده رصدًا: رقبه.

فقالت بنو المغيرة وبنو مخزوم: أنت تخاف عَمْرًا على عُمارة! وقد خلَعْنا نحن عُمَارةَ، تبرأنا إليك من جَرِيرته، فَخَلِّ بين الرجلين.

فقال السَّهمِيُّون[١]: قد قَبِلنا؛ فابعثوا مُنَادِيًا بمكة: إنّا قد خلعناهما، وتَبَرَّأَ كلُّ قوم من صاحبهم ومما جرَّ عليهم. فبعثوا مناديًا يُنَادِي بمكة بذلك. فقال الأسود بن المطَّلب: بَطَلَ والله دمُ عُمَارة بن الوليد آخرَ الدهر!

فلما اطمأنّا بأرض الحبشة لم يلبث عُمارة أن دَبّ لأمرأةٍ عند النجاشي فأدخَلَتْه فاختلف إليها. وجعل إذا رجع يُخْبِر عَمْرو بن العاص بما كان من أمره. فجعل عمرو يقول: ما أُصدِّقُ أنك قدَرتَ على هذا الشأن! إن المرأة أرفعُ من ذلك.

فلما أكثر على عمرو بما كان يخبرُه قال له: إن كنتَ صادقًا فقل لها: تَدْهُنُك من دُهْنِ النجاشي الذي لا يدَّهنُ به غيرُه فإني أعرفه، لو أتيتَني به لصدَّقتُك! ففعل عُمارةُ فجاء بقارورة من دُهْنِه؛ فلما شمَّه عَرَفه. فقال له عمرو عند ذلك: أنت صادق! لقد أصبتَ شيئًا ما أصاب أحدٌ مثلَه قطُّ من العرب، ونلتَ من المرأة شيئًا؛ ما سمعنا بمثل هذا ـ وكانوا أهلَ جاهلية ـ ثم سكت عنه؛ حتى إذا اطمأنّ دخل على النجاشي فقال: أيها الملك! إن ابن عمي سفيهٌ. وقد خشيتُ أن يَعُرَّني[٢] عندك أمرُه، وقد أردتُ أن أعلِمك شأنَه؛ ولم أفعل حتى استبنتُ أنه قد دخَل على بعض نسائك، وهذا من دُهْنِك قد أُعْطِيَه وَدَهنني منه.

فلما شمَّ النجاشي الدُّهن قال: صدَقتَ. هذا دُهني الذي لا يكون إلا عندي. ثم دعا بِعُمَارةَ ودعا بالسَّوَاحِر فجرَّدوه من ثيابه فَنفخْنَ فيه، ثم خلَّى سبيله؛ فخرج هاربًا.

فلم يزل بأرض الحبشة حتى كانت خلافةُ عمرَ بنِ الخطاب؛ فخرج إليه عَبْدُ الله بن أبي ربيعة، فرَصَده على ماءٍ بأرض الحبشة، وكا يَرِدُه مع الوحش فورَد، فلما وجد رِيحَ الإنسِ هرَب، حتى إذا أجهده العطشُ ورَد فشرِب حتى تملّأ[٣] ونفر، فخرجوا في طلبه.

(١) السهميون: قوم عمرو بن العاص. (٢) عره: لطمه بعيب.
(٣) امتلأ.

قال عبدُ الله بن ربيعةَ: فسعيتُ إليه فالتزمته؛ فجعل يقول لي: يا بَحِير[١]؛ أرْسِلْني! يا بحير أرسلني، إني أموت إن أمسكتموني.

قال عبد الله: وضغطْتُه فمات في يدي مكانه. فواريتُه ثم انصرفت، وكان شَعرُه قد غطى كل شيء منه.

فِي حَفرِ زَمزَم[٢]

قال عبدُ المطَّلب بن هاشم: إني لنائم في الحِجْرِ[٣] إذ أتاني آتٍ، فقال: احفِر طِيْبَة[٤]، قلت: وما طِيبَة؟ فذهب عني. فلما كان من الغدِ رجعت إلى مَضْجَعي، فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احْفِر بَرَّة[٥]، فقلت: وما برَّة؟ فذهب عني. فلما كان الغَدُ رجعتُ إلى مضجَعي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احْفِر المضْنُونة[٦]، فقلت: وما المضنونة؟ فذهب عني. فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي، فنمتُ فيه فجاءني، فقال: احْفِر زمزم، إنك إن حفرتها لا تندم. فقلت: وما زمزم؟ قال: لا تُنْزَفُ أبدًا ولا تُذَم[٧]، تَسقي الحَجِيجَ الأعظم، وهي بين الفَرْثِ والدم[٨]، عند نُقْرَة الغُرَاب الأعْصم[٩]، عند قَرْيَةِ[١٠] النمل.

---

(١) كان اسم عبد الله في الجاهلية بحيرًا، وسماه رسول الله ﷺ عبد الله.

(٢) سيرة ابن هشام: ١ ـ ٩٨، البداية والنهاية لابن كثير: ٢ ـ ٢٢٤.

(٣) الحجر: ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال.

(٤) طيبة ـ بكسر الطاء: اسم زمزم، قيل: سميت بذلك لأنها للطيبين والطيبات من أولاد إسماعيل. أما طيبة بفتح الطاء فهي اسم لمدينة الرسول.

(٥) برة: اسم لزمزم أيضًا. قال في الروض الأنف: هو اسم صادق عليها لأنها فاضت للأبرار.

(٦) المضنونة: سميت المضنونة، لأنه ضنّ بها على غير المؤمنين.

(٧) لا تذم: من قول العرب: بئر ذمة، أي قليلة الماء، والمعنى أن ماءها لا ينقطع أبدًا.

(٨) روى أنه لما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب ولم ير الفرث والدم، فبينا هو كذلك ندت بقرة من جازرها، فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام، فنحرها في الموضع الذي رسم لعبد المطلب، فسال هناك الفرث والدم، فحفر عبد المطلب حيث رسم له.

(٩) الغراب الأعصم: الذي في جناحيه بياض.

(١٠) شبه مكة ـ مكان زمزم ـ التي يرد إليها الحجيج والعمار من كل جانب فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك، وهي لا تحرث ولا تزرع، بقرية النمل التي لا تحرث ولا تزرع ولا تبذر، وتجلب إليها الحبوب من كل جانب.

قال ابن إسحٰق: فلما بيَّن له شأنَها، ودلّه على موضعها، وعرف أنه قد صدق غدا بمعْوله، ومعه ابنُه الحارثُ بنُ عبد المطلب، ليس معه يومئذ ولد غيره، فحفر فيها.

فلما بدا له الطَّوِيُّ[1] كبَّر، فعرَفتْ قريش أنه قد أدرك حاجتَه، فقاموا إليه، فقالوا: يا عبدَ المطلب؛ إنها بئرُ أبينا إسماعيل؛ وإنّ لنا فيها حقًّا، فأشْرِكنا معك فيها. قال: ما أنا فاعل؛ إن هذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونكم، وأُعطِيتُه من بينكم. فقالوا له: فأَنْصِفنا؛ فإنّا غيرُ تاركيكَ حتى نخاصِمَك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم مَن أُحَاكِمُكُم إليه. قالوا: كاهِنَةُ بني سَعْد. قال: نعم ـ وكان بالشام.

فركب عبدُ المطلب ومعه نَفَرٌ من بني أمية من بني عَبْد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ ـ والأرض إذ ذاك مَفَاوز ـ فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فَنيَ ماءُ عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهَلَكة، فاستَسقوْا مَن معه من قبائل قريش، فأبَوْا عليهم؛ وقالوا: إنّا بمفَازة ونحن نَخْشَى على أنفسنا مِثْلَ ما أصابكم.

فلما رأى عَبْدُ المطلب ما صَنع القوم؛ وما يتخوَّفُ على نفسه وأصحابه قال: ماذا تَرَوْن؟ قالوا: ما رأْينا إلا تَبعٌ لرأيك، فمرْنا بما شئتَ. قال: فإني أرى أن يَحْفِرَ كلُّ رجل منكم حُفرَتَه لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجلٌ دَفعه أصحابُه في حُفْرَة، ثم وَاروه حتى يكونَ آخرُكم رجلًا واحدًا؛ فضيْعَةُ رجلٍ واحد أَيسَرُ من ضَيْعَةِ رَكْب جميعه. قالوا: نِعْمَ ما أمرتَ به! فقام كلُّ واحد منهم فحفر حُفْرَته؛ ثم قعد ينتظر الموت عطشًا.

ثم إن عبدَ المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءَنا بأيدينا هكذا للموت ـ لا نضربُ في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا ـ لَعَجْزٌ، فعسى الله أن يرزقَنَا ماءً ببعض البلاد، ارْتحلوا. فارتحلوا حتى إذا فرغوا، ومَن معهم من قبائل قريش ينظرون إلى ما هم فاعلون، تقدَّم عبد المطَّلب إلى راحلته فركبها؛ فلما انبعثت به انفجرتْ من تحت خُفّيها عيْنٌ من ماءٍ عذب، فكبّر عبد المطلب وكَبَّر أصحابُه؛ ثم نزل فشربَ وشربَ أصحابُه، واستقُوا حتى مَلئوا أسقيتهم.

---

(١) الطوي: البئر المطوية بالحجارة.

ثم دعا القبائلَ من قُرَيش؛ فقال لهم: هَلُمُّوا إلى الماءِ فقد سقَانا اللهُ؛ فاشربوا واستقوا. فجاءُوا فشربوا واسْتَقَوْا؛ ثم قالوا: والله قد قُضِي لك علينا يا عبدَ المطلب؛ والله لا نخاصِمُك في زمزم أبدًا؛ إن الذي سقاك هذا الماءَ بهذه الفَلَاة لَهُوَ الذي سقاك زَمْزَم! فارْجع إلى سِقَايَتِكِ رَاشِدًا. فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلّوا بينه وبينها!

سَيْفُ بن ذِي يَزن وَالبِشَارة بِرَسُولِ الله[١]

لما ظَفِر سَيفُ[٢] بنُ ذي يَزَن بالحبشة؛ أتى وفودُ العرب: خطباؤها وأشرافُها وشعراؤُها لتَهنئَتِهِ ومَدْحِه، وذِكْرِ ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه. وقدم إليه وفدُ قريش، وفيهم عبدُ المطلب بن هاشم، وأميّةُ بنُ عبد شمس، وعبدُ الله بن جُدْعان، وأسَد بن خُوَيلد بن عَبد العُزّى، في ناسٍ من أشراف قريش. فلما قدموا عليه وجَدُوه في رَأس قَصْرٍ يقال له غُمدان، فاستأذنوا عليه، فأذن لهم؛ فدخلوا عليه، فإذا الملك مُضَمّخٌ بالعَنْبَر[٣]، يُرَى وَبِيضُ الطيبِ من مَفرِقِهِ[٤]، عليه بُرْدَان ومُؤْتَزِرٌ بأحدها، مُرْتَدٍ بالآخر، سيفُه بين يديه، وعن يمينه وعن يساره الملوكُ وأبناءُ الملوك والمقاول[٥].

فدنا عبدُ المطلب واستأذن في الكلام؛ فقال له: إنْ كنتَ مِمّنْ يَتكلّمُ بين يدي الملوك فتكلَّمْ، فقد أَذنّا لك. فقال عبد المطلب: إن الله أحلّك ـ أيها الملك ـ محلًا رفيعًا، صَعْبًا مَنِيعًا، شامخًا باذخًا، وأنبَتَك مَنْبِتًا طابت أَرُومَتُه[٦]، وعزَّت جُرْثُومَته[٧]، وثبت أصلُه، وبَسَقَ فَرْعُه[٨]. في أكرم مَوْطن، وأطيب مَعْدِن، وأنت ـ أبيتَ اللعن[٩] ـ مَلِكُ العرب وربيعُها الذي به تُخصِب، وأنت ـ أيها الملك ـ رَأسُ العَرب الذي إليه تنقاد، وعَمودها الذي عليه العِماد، ومَعْقلُها الذي تلجأ إليه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٢ ـ ٣٢٨، الأغاني: ١٦ ـ ٧٥، طبعة بولاق، العقد: ١ ـ ١٧٥، بلوغ الأرب: ٢ ـ ٢٦٦، المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.

(٢) هو ملك اليمن من قبل كسرى أنو شروان، كان يكاتبه ويصدر عن رأيه إلى أن قتل بيد الأحباش قبيل الإسلام.

(٣) التضميخ: لطخ الجسم بالطيب حتى كأنه يقطر.

(٤) الوبيض: اللمعان، ومفرق الرأس حيث يفرق فيه الشعر.

(٥) المقاول: جمع مقول، وهو الرئيس دون الملك.

(٦) الأرومة: الأصل.

(٧) الجرثومة: الأصل.

(٨) بسق: طال.

(٩) من تحيات ملوك العرب في الجاهلية.

العِبَاد، سَلفك خيرُ سلف، وأنت لنا منهم خيرُ خَلَف، ولن يَخْملَ ذِكرُ مَن أنتَ سَلَفُه، ولن يهلِك مَنْ أنتَ خَلَفُه. ونحن ـ أيها الملك ـ أهلُ حَرَم الله وسَدَنَةُ بيته، أَشْخَصَنَا إليك الذي أبْهَجَنَا؛ لكشف الكَرْب الذي فدَحنا؛ فنحنُ وفدُ التَّهْنئَةِ لا وفدُ المَرْزِئَة[1].

فقال ابنُ ذي يزن: فأيّهم أنت أيُّها المتكلم؟ فقال: أنا عبد المطلب بن هاشم. قال: ابنُ أختنا؟ قال: نعم ابنُ أختكم. قال: ادْنُ، فأدْنَاه وقال: مرحبًا وأهلًا، وناقةً ورَحْلًا، ومُسْتَنَاخًا سَهْلًا، ومَلِكًا رِبَحْلًا[2]، يُعْطى عطاءً جزلًا، قد سمع الملكُ مَقالَتَكُم، وعرف قرابتَكم، وقَبِلَ وَسِيلتَكم، فأنتم أهلُ الليل والنهار، لكم الكَرامَةُ ما أقمتُم، والحِبَاءُ[3] إذا ظعنتم. ثم اسْتُنْهِضُوا إلى دار الضيافة والوفود؛ فأقاموا شَهْرًا لا يُؤذَنُ لهم ولا يَصِلُون إليه.

ثم انتبه انتباهةً؛ فأرسل إلى عبد المطلب، فأخْلاه[4] وأدنى مجلسه، وقال: يا عبدَ المطلب؛ إني مُفْضٍ إليك مِنْ سِرّي وعلمي ما لو كان غيرُك لم أَبُحْ له؛ ولكنّي رأيتُكَ مَعدِنَهُ، فَأطلَعتك عليه؛ فليَكنْ عندك مطويًّا حتى يأذنَ الله فيه؛ فإنّ الله بالغُ أمْرَه. إني أجدُ في الكتاب المكنون، والعلْم المخزون، الذي اختزنّاه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبرًا عظيمًا، وخطرًا جسيمًا، فيه شرفُ الحياة، وفضيلةُ الوَفَاة، وهو للناس عامة، ولرهطك كافّة، ولك خاصّة.

قال عبدُ المطلب: أيّها الملك؛ فمثلُك مَنْ سَرَّ وبرَّ، فما هو، فِدَاك أهلُ الوَبَر، زُمَرًا بعد زُمَر، قال: إذا وُلِدَ بتِهامة غلام بين كتفيه شَامَة، كانت له الإمامَةُ ولكم به الزَّعَامة، إلى يوم القيامة.

فقال له عبدُ المطلب: أبيتَ اللعن! لقد أُتيتُ بخبرٍ ما أُتِيَ بمثله وافد، فلولا هيبةُ الْمَلِكِ وإجلاله وإعظامُه، لسألتهُ مِنْ كَشف بشارته إياي ما أزْدَادُ به سرورًا.

قال ابنُ ذِي يَزَن: نبيٌّ هذا حِينهُ الذي يولَدُ فيه ـ أو قد وُلِدَ ـ اسمه أحمد؛ يموت أبوه وأمه، ويكفله جدُّه وعمُّه، والله باعثهُ جهارًا، وجاعل منّا له أنصارًا، يُعِزُّ بهم أولياءَه، ويُذِلّ بهم أعداءَه؛ يُكَسِّر الأوثان، ويخْمِد النيران، ويعبد

---

(١) رزأه ماله: أصاب منه شيئًا ورزأه رزءًا ومرزئة: أصاب منه خيرًا، أي لسنا وافدين للعطاء.
(٢) الربحل: الكثير العطاء. (٣) الحباء: العطاء.
(٤) أخلاه: خلا به.

الرحمـٰن، ويزجر الشيطان؛ قولُه فصلٌ، وحكمُه عَدْل؛ يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

قال عبد المطلب: أيها الملك: عزَّ جَدُّك، وعلا كَعْبُك، وطاب مُلْكك، وطال عُمْرك! فهل الملك سَارِّي بإفصاح؛ فقد أَوْضَح بعض الإيضاح!

فقال ابن ذي يَزَن: والبيتِ ذي الحُجُب، والعلامات والنُّصُب[١]، إنك يا عَبْد المطّلب، لجدُّه غير الكَذِب. فخرَّ عبد المطلب ساجدًا ثم رفع رأسه؛ فقال له ابن ذي يَزَن: ارفع رأسك، ثَلِجَ صدرك، وعَلا أمرُك! فهل أحسستَ شيئًا مما ذكرتُ لك؟ فقال: نعم؛ أيها الملك! كان لي ابنٌ وكنتُ عليه شفيقًا، وبه رفيقًا؛ فزوّجْتُه كريمةً من كرائم قَوْمِي، وهي آمنةُ بنتُ وَهْب بنِ عبد مناف؛ فأتت بغلام سَمّيْتُه محمدًا، مات أبوه وأمّه، وكفلتُه أنا وعَمّه، بين كتفيه شَامَة، وفيه كلُّ ما ذَكر الملكُ من علامة.

قال ابنُ ذي يَزَن: إن الذي قلتُ لك لكما قلتُ؛ فاحتفظ بابْنِك، واحذر عليه من اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعلَ الله لهم عليه سبيلًا، والله مظهرٌ دَعْوَتَه، وناصرٌ شِيعته؛ فاطْوِ ما ذكرتهُ لك دون هؤلاء الرَّهط الذين معك، فإني لستُ آمنُ أن تُدَاخِلهم النَّفاسَة[٢]، من أن تكونَ لك الرياسة؛ فَيَبْغُونَ له الغوائل. وينسبون له الحبائلَ، وهم فاعلون ذلك، أو أبناؤهم؛ ولولا أني أعلم أن الموتَ يَجْتَاحُنِي قبل مَبْعَثِه لسِرتُ بخَيْلي ورَجلِي حتى أصيرَ بيَثْرِبَ دارِ مُلْكه؛ فأكونَ أخاه ووزيره، وصاحبَه وظهيره؛ فإني أجدُ في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، أنَّ في يثربَ استحكامَ أَمْرِه، وأَهْلَ نُصْرَته، وارتفاعَ ذكره؛ وموضعَ قَبْرِه، ولولا الذِّمَامة[٣] لأظهرتُ أَمْرَه، وأوطأتُ العرب كَعْبَه، على حداثةِ سنّه؛ ولكني صارفٌ ذلك إليك، عن غير تقصير بك.

ثم أمر لكل رجُلٍ من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء سُود، وحُلّتين من حُلل اليمن، وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فِضّة، وكَرِشٍ مملوءةٍ بالعنبر. ولعبد المطلب بعشرة أمثال ذلك.

(١) النصب: كل ما عبد من دون الله، جمعه أنصاب.

(٢) النفاسة: الحسد، نفس عليك فلان ينفس نفسًا ونفاسة: حسدك.

(٣) الذمامة: كل حرمة تلزمك ـ إذا ضيعتها ـ المذمة.

وقال له: إذا حال الحَوْلُ فأْتني بأمره وما يكونُ من خبرَه. فمات ابنُ ذي يزن قبل أن يَحُولَ الحَوْلُ!

فكان عبدُ المطلب كثيرًا ما يقول: يا معشرَ قريش؛ لا يَغْبِطَنّي رَجُلٌ منكم بجزيل عطاءِ الملك، وإن كان كثيرًا، فإنه إلى نَفَاد، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولِعَقبي ذكرُه وفَخْره وشَرَفه.

فإذا قيل له: وما ذاك؟ قال: ستعلمون ما أقولُ لكم بعدَ حِين!

بِشَارة بحِيرَى[١]

خرج أبو طالب[٢] بن عبد المطلب في رَكْبٍ إلى الشام تاجرًا، فلمّا تهيّأ للرحيل وأجمع المسير، صَبَّ[٣] به رسولُ الله ﷺ فيما يزعمون، فرقّ له وقال: والله لأخرجنّ به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا. فخرج به.

فلما نزل الرّكب بُصْرَى[٤] مرّوا ببَحِيرَى[٥] - وكانوا كثيرًا ما يمرّون به قبل ذلك فلا يكلِّمُهم، ولا يعرض لهم - حتى كان ذلك العام، فلمّا نزلوا به قريبًا من صَومعته صنع[٦] لهم طعامًا كثيرًا، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعتُ لكم طعامًا يا معشر قريش، وأُحِبُّ أن تحضروا كلُّكم صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحرُّكم. قال له رجل منهم: والله يا بَحيرى إنَّ لكَ لَشأنًا اليوم! ما كنتَ تصنع هذا بنا وقد كُنّا نمرُّ بك كثيرًا! فما شأنُك اليوم؟ قال له بَحيرى: صدقت، قد كان ما تقولُ؛ ولكنكم ضَيْف[٧]، وقد أحببتُ أنْ أُكرِمكم وأصنعَ لكم طعامًا، فتأكلوا منه كلُّكم.

---

(١) ابن هشام: ١ - ١١٨.

(٢) كان أبو طالب هو الذي ولي أمر رسول الله ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب.

(٣) الصبابة: رقة الشوق، يقال: صببت (بكسر الباء) أصب، وكانت سن رسول الله ﷺ إذ ذاك تسع سنين فيما ذكر بعض مَن ألف في السير، وقال الطبري: كانت سنة اثنتي عشرة سنة.

(٤) بصرى: من أرض الشام.

(٥) كان بحيرى يقيم في صومعة له هناك وكان إليه علم أهل النصرانية.

(٦) زعموا أنه رأى رسول الله وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة تظلله من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله حتى استظل تحتها.

(٧) الضيف: يطلق على الواحد والجمع.

فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسول الله من بين القوم لحداثة سنّه، في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بَحيرى في القوم، ولم ير الصفةَ التي يعرفُ ويَجِدُها عنده قال: يا مَعْشَرَ قُريش، لا يتخلفَنّ أحدٌ منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرَى، ما تخلّفَ عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلا غلامًا، وهو أحدثُ القوم سنًّا. فقال: لا تفعلوا، ادْعُوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللّاتِ والعُزّى إن كان لَلؤْم بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعامٍ من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه، وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بَحِيرى، جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده ـ وقد كان يجدها عنده من صِفَتِه ـ حتى إذا فرغ القومُ من طعامهم، وتفرّقوا؛ قام إليه بَحيرى فقال: يا غلام؛ أسألُك بحقِّ اللّاتِ والعُزّى إلّا ما أخبرتني عما أسألك عنه ـ وإنما قال له بَحِيرى ذلك لأنه سمع قومَه يحلفون بهما.

قال الراوي: زعموا أن رسولَ الله ﷺ قال: لا تسألني باللات والعُزَّى شيئًا، فوالله ما أبغضتُ شيئًا قطّ بغضَهما! فقال له بَحيرى: فبالله إلّا ما أخبرتَني عمّا أسألك عنه! فقال له: سلْني عمّا بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسولُ الله يُخْبِرُه؛ فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتمَ النبوّة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عَمّه أبي طالب، وقال له: ما هذا الغلامُ منك؟ قال: ابني. قال له بَحِيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا! قال: فإنه ابنُ أخي. قال: فما فَعَلَ أبوه؟ قال: مات وأمّه حُبْلَى به. قال: صدقت! فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يَهود، فوالله لئن رأَوْه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنّه شرًّا، فإنّ لابْنِ أخيك هذا شأنًا عظيمًا، فأَسْرِع به إلى بلدك. فخرج به أبو طالب سريعًا حتى أقدمَه مكة حين فرغ من تجارته بالشام!

فِي بعثَةِ رَسُول الله(١)

قال العباس بن عبد المطلب:

خرجتُ في تجارة إلى اليمن، في ركْبٍ منهم أبو سفيان بن حَرب، فقدِمتُ اليمنَ، كنتُ أصنعُ يومًا طعامًا وأنصرفُ بأبي سفيان وبالنَّفَر، ويصنع أبو سفيان

(١) الأغاني: ٦ ـ ٣٤٩، والبداية والنهاية لابن كثير: ٢ ـ ٣١٨.

يومًا، فيفعل مثلَ ذلك. فقال لي في يوم الذي كنتُ أصنعُ فيه: هل لك يا أبا الفضل أن تنصرفَ إلى بيتي وتُرسلَ إلى غَدائك؟ فقلت: نعم، فانصرفتُ أنا والنفَرُ إلى بيته وأرسلْتُ إلى الغداء.

فلما تغدَّى القوم قاموا واحتبسني فقال لي: هل علمتَ يا أبا الفضل أن ابنَ أخيك يزعمُ أنه رسولُ الله؟ قلت: وأيُّ بَنِي أخي؟ قال أبو سفيان: إياي تكتم! وأيُّ بني أخيك ينبغي أن يقولَ هذا إلا رجلٌ واحد! قلت: وأيُّهم هو على ذلك؟ قال: محمد بن عبد الله. قلت: ما فعل! قال: بلى قد فعل! ثم أخرج إليّ كتابًا من ابنه حَنْظلة بن أبي سفيان فيه: «إن محمدًا قام بالأَبْطح[1] غُدْوَةً فقال: أنا رسولُ اللهِ أدعوكم إلى الله».

قلتُ: يا أبا حَنْظَلة، لعلَّه صادق! قال: مهلًا يا أبا الفضل؛ فوالله ما أُحبُّ أن تقولَ مثلَ هذا، وإني لأَخْشَى أن تَكون على بَصَرٍ من هذا الأمر. ثم قال: يا بني عبد المطلب، إنه والله ما برِحتْ قريشٌ تزعُمُ أن لكم يُمْنَةً وشؤمةً، كلّ واحدة منهما عامّةٌ، فنشدتُك الله يا أبا الفضل هل سمِعْتَ ذلك؟ قلت: نعم. قال: فهذه والله إذَنْ شُؤمتكم. قلت: فلعلّها يُمْنَتُنا!

فما كان بعد ذلك إلا ليال حتى قدِم عَبْدُ الله بن حُذَافة السَّهميّ بالخبر وهو مُؤمِنٌ، فَفَشَا ذلك في مجالس أهلِ اليمن يتحدّث به فيها، وكان أبو سفيان يجلسُ إلى حَبْرٍ من أَحْبَار اليمن، فقال له اليهودي: ما هذا الخبر الذي بلغني؟ قال: هو ما سمعت، قال: أيْنَ فيكم عَمُّ هذا الرجل الذي قال ما قال؟ قال أبو سفيان: صَدَقوا، وأنا عمّه. قال اليهوديّ؛ أأخو أبيه؟ قال: نعم. قال: حَدِّثني عنه. قال: لا تسألني، فما كنتُ أحسب أن يَدَّعي هذا الأمر أبدًا، وما أُحِبُّ أن أعيبَه وغيرُه خيرٌ منه. قال اليهوديّ: فليس به أذًى؛ ولا بأس على يهودَ وتوراةِ موسى منه.

قال العباس: فتأدَّى إليَّ الخبرُ فحَمِيتُ وخرجتُ حتى أجلسَ إلى ذلك المجلس من غَدٍ، وفيه أبو سفيان والحَبْر. فقلت للحَبْر: بلَغني أنك سألتَ ابنَ عمِّي هذا عن رجلٍ منّا يزعم أنه رسولُ الله فأخبركَ أنه عمُّه؛ وليس بعمّه، ولكنه ابن عمّه وأنا عمّه أَخو أبيه. فقال: أأخو أبيه؟ قلتُ: أخو أبيه.

---

(١) أبطح مكة: مسيل واديها.

فأقبل على أبي سفيان فقال: أَصَدَق؟ قال: نعم صدَق. قال: فقلت: سَلْنِي عنه، فإن كذبتُ فليردد عليَّ. فأقبل عليَّ فقال: أنشدُك الله، هل فشَتْ لابن أخيك صَبْوَةٌ أو سَفْهَةٌ؟ قلت: لا وإلٰه عبد المطّلب، ولا كذب ولا خَانَ، وكان اسمهُ عند قريش الأمين. قال: فهل كتب بيده؟ قال عبّاس: فظننتُ أنه خيرٌ له أن يكتبَ بيده، فأردتُ أن أقولَها، ثم ذكرتُ مكانَ أبي سفيان، وأنه مُكَذِّبي ورادٌّ عليّ، فقلت: لا يكتب. فذهب الحَبْر وتَرَك رِداءَه وجعل يصيح: ذُبحتْ يهود! قُتِلَتْ يهود!

قال العباس: فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان: يا أبا الفضل، إن اليهوديّ لَفَزِعٌ من ابن أخيك. قلت: قد رأيت ما رأيتَ! فهل لك يا أبا سفيان أن تُؤمِن به، فإن كان حقًّا كنتَ قد سبَقْت، وإن كان باطلًا فمعك غيرُك من أكْفائك؟ قال: لا والله ما أومِن به حتى أرى الخَيْلَ تطلعُ مِنْ كَدَاء[1]! فقلت: ما تقول؟ قال: كلمةٌ والله جاءت على فمي ما ألقيتُ لهَا بالًا، إلا أني أَعْلَمُ أنَّ الله لا يتركُ خيلًا تطلُع من كَدَاء.

قال العباس: فلما فتح رسولُ الله ﷺ مكةَ ونظرنا إلى الخيل قد طَلَعت مِنْ كَدَاء، قلتُ: يا أبا سفيان، أتذكُر الكلمة؟ قال لي: والله إني لذاكرُها! فالحمْدُ لله الذي هداني للإسلام!

تطيّر المنصُور[2]

قال الربيع[3]: نام المنصورُ[4] ليلةً ـ وكان في قصره في بغداد ـ فانْتَبَهَ مرعوبًا، ثم عاوده النومُ فانتبه كذلك فَزِعًا مرعوبًا، ثم راجع النوم فانتبه كذلك، ثم قال: يا ربيع! فقلت: لَبَّيك يا أمير المؤمنين! قال: لقد رأيت في منامي عجبًا، قلت: ما رأيتَ، جعلني الله فداك! قال: رأيتُ كأنَّ آتيًا أتاني، فهَيْنَمَ[5] بشيء لم

---

(١) كداء: جبل بمكة.
(٢) محاضرات الأبرار: ١٤٢.
(٣) هو الربيع بن يونس، كان يخدم المنصور، ثم تدرج في المناصب عنده إلى أن استوزره وكان جليلًا نبيلًا عارفًا بخدمة الخلفاء، مات سنة ١٧٠ هـ.
(٤) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي ثاني خلفاء بني العباس وأعظمهم شدة وبأسًا ويقظة وثباتًا. توفي سنة ١٥٨ هـ.
(٥) الهينمة: الصوت الخفي.

أفهمه؛ فانتبهتُ فَزِعًا، ثم عاوذتُ النوم فعاودني يقولُ ذلك الشيء، ثم عاودني يقولُه حتى فهمتُه وحفظته وهو:

كأن بهذا القصرِ قد باد أهلُه ... وعُرِّي منه أهلُه ومنازِلُهْ
وصار رئيسُ القوم من بعد بهْجَةٍ ... إلى جَدَثٍ تُبْنَى عليه جنادِلُهْ

وما أحسبني يا ربيعُ إلا حانَتْ وفَاتي، وحضر أَجَلِي، ومالي غيرُ ربّي! قُمْ فاجعل لي غُسْلًا(١). ففعلت فاغتسل وصلّى ركعتين، وقال: أنا عازم على الحج، فهيء لي آلة الحج، فخرج وخرَجْنا، حتى إذا انتهى إلى الكُوفَةِ، ونزل النَّجَف(٢) أقام أيامًا، ثم أمر بالرحِيل، فتقدمتْ جنودُه، وبقيتُ أنا وهُوَ القصر، فقال لي: يا ربيع؛ جئني بِفَحْمَةٍ من المطبخ، وقال لي: اخرج فكن مع دابتي إلى أن أخرج، فلما خرج وركب رجعتُ إلى المكان كأني أطلب شيئًا، وجدته قد كتب على الحائط بالفحمة:

المرءُ يهوى أن يعيـ ... ـش وطولُ عيش قد يَضُرُّه
تَفْنَى بشاشتُه ويبْـ ... ـقى بعد حُلْوِ العيش مرُّه
وتخونُه الأيامُ حتى ... ما يَرى شيئًا يسرُّه
كَم شامتٍ بي إن هلكـ ... ـتُ وقائل: للهِ دَرُّه!

المنصُور تُنْعِي إليهِ نَفسه(٣)

قال الفضلُ بن الربيع: كنتُ مع المنصور في السفر الذي مات فيه، فنزل منزلًا من المنازل، فبعث إليّ وهو في قُبَّةٍ، ووجهُه إلى الحائط، فقال لي: ألم أنْهَكَ أن تدَعَ العامة يدخلون هذه المنازل، فيكتبوا مالَا خيرَ فيه؟

قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: أما ترى على الحائط مكتوبًا:

أبا جعفرٍ حانت وفاتُك، وانقضتْ ... سِنُوك وأمرُ الله لا بدَّ نازلُ
أبا جعفرٍ هل كاهنٌ أو مُنَجِّمٌ ... يردُّ قضاءَ اللهِ أم أنتَ جاهلُ!

---

(١) الغسل: بالضم والكسر الماء الذي يغتسل به.

(٢) النجف: التل. أو النجفة التي يظهر الكوفة، وهي تمنع السيل أن يعلو منازل الكوفة وقبورها. والنجفة أيضًا: موضع بين البصرة والبحرين.

(٣) المسعودي: ٢ ـ ٣٤٥.

فقلت: والله ما أرى على الحائط شيئًا! وإنه لنقيٌّ أبيض! قال: إنها والله إذَنْ نفسي نُعِيَت إليّ، الرّحيلَ! بادرْ بي إلى حَرَمِ ربي وأمْنه، لأهربَ من ذنوبي، وإسْرَافِي على نفسي، فرحلنا وقد ثقل، حتى إذا بلغنا بئر مَيْمُون تُوفي بها!

رُؤيَـا الرَّشيد[١]

قال جبريل بن بَخْتَيْشُوع:

كنتُ مع الرشيد[٢] بالرَّقة[٣]، وكنتُ أولَ مَنْ يدخلُ عليه في كلّ غَدَاة، فأتعرَّف حاله في ليلته، فإن كان أنكر شيئًا وصفَه، ثم يَنْبَسِط فيحدثني بحديث جواريه وما عمل في مجلسه، ثم يسألني عن أخبار العامة وأحوالها؛ فدخلتُ عليه في غَداة يوم، فسلّمتُ فلم يكَدْ يرفَعُ طَرْفه، ورأيته عابسًا مفكرًا مهمومًا؛ فوقفتُ بين يديه مَلِيًّا، وهو على تلك الحال.

فلمّا طال ذلك أقدمتُ عليه فقلت: يا سيّدي؛ جعلني الله فِدَاك! ما حالُك هكذا! أعلّة! أخبِرْني عنها فلعله يكونُ عندي داؤُها؛ أو حادثة في بعض مَن تحبّ فذلك ما لا يُدْفع ولا حيلة فيه إلا بالتسليم، والغمُّ لا دَرْكَ فيه؛ أو فَتْقٌ وَرَدَ عليك في مُلْكِك، فلم تَخْلُ الملوك من ذلك، وأنا أَوْلَى مَنْ أفضَيْتَ إليه بالخبر، وتَرَوَّحْتَ إليه بالمشورة.

فقال: وَيْحَك يا جبريل! ليس غَمّي وكرْبي لشيء مما ذكرتَ، ولكن لرؤيا رأيتُها في ليلتي هذه، وقد أفزعَتْني، وملأتْ صَدْري، قلت: فَرَّجتَ عنِّي يا أمير المؤمنين! فدنوتُ منه فقبّلت رِجْلَه، وقلت: أهذا الغمُّ كله! الرُّؤيَا إنما تكون من خاطرٍ أو غيره؟ وإنما هي أضغاثُ أحلام!

بعد هذا كله قال: فأقصُّها عليك: رأيتُ كأني جالس على سريري هذا إذ بدَتْ من تحتي ذِرَاعٌ أعرِفها، وكفٌّ أعرِفها، وأفهمُ اسمَ صاحبها، وفي الكف تُربةٌ

---

(١) الطبري: ١٠ ـ ١١٠.

(٢) هو هارون الرشيد بن محمد المهدي، كان دينًا محافظًا، كثير الجهاد، توفي سنة ١٩٣ هـ. وجبريل هو طبيب هارون الرشيد وجليسه توفي سنة ٢١٣ هـ.

(٣) الرقة: مدينة مشهورة على الجانب الأيسر للفرات بولاية حلب، ويقال لها: الرقة البيضاء، وبقربها كانت واقعة صفين المشهورة.

حمراء، فقال لي قائلٌ أسمَعه ولا أرى شَخْصه: هذه التربةُ التي تُدْفَنُ فيها؛ فقلْتُ: وأين هذه التربة؟ قال: بِطُوس[١]. وغابت اليَدُ وانقطع الكلام وانتبهتُ.

فقلت: يا سيِّدي؛ هذه والله رؤيا بعيدةٌ ملتبسة، وأحسبُك أخذتَ مضجعك، ففكّرت في خُرَاسان وحروبها، وما قد وَرَدَ عليك من انتقاض بعضها. قال: قد كان ذلك.

قلت: فلذلك الفِكْرُ خالَطَك في منامك ما خالَطَك؛ فولَد هذه الرؤيا، فلا تحفلْ بها ـ جعلني الله فداك ـ واتْبِعْ هذا الغمّ سرورًا يخرجُه من قلبك.

وما برحتُ أطيِّبُ نَفْسَه بضروبٍ من الحيل حتى سَلَا وانبسط، وأمر بإعْداد ما يشتهيه ويزيدُ في ذلك اليوم من لهوه.

ومرّت الأيامُ فنسيَّ ونسينا تلك الرؤيا فما خطرتْ لأحدٍ منا ببالٍ، ثم قدِّر مسيرُه إلى خُراسان حين خرج رَافِع[٢]، فلما صار في بعض الطريق ابتدأت به العلّة، فلم تزل تتزايدُ، حتى دخلنا طُوس؛ فبينما هو يُمَرَّضُ في بستان إذ ذكر تلك الرؤيا؛ فوثب متحاملًا يقوم ويسقط، فاجتمعنا إليه، كلٌّ يقول: يا سيدي ما حالك؟ وما دَهَاك؟

فقال: يا جبريل! تذكرُ رؤياي بالرّقة؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور، فقال: جئني بشيء من تربة هذا البستان؛ فمضى مسرور فأتى بالترْبة في كفِّه حاسرًا عن ذراعه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه والله الكفّ بعينها، وهذه والله التربة الحمراء، ما خرمتُ شيئًا، وأقبل على البُكاء والنحيب، ثم مات بها ـ والله ـ بعد ثلاثة، ودفن في ذلك البستان!

تطيّــر الأمِين[٣]

قال إبراهيم بن المهدي: خرج الأمينُ[٤] ذات ليلة يريد أن يتفرَّجَ من الضيق

---

(١) طوس: مدينة بخراسان، وبها مات الرشيد.

(٢) هو رافع بن الليث، خرج إليه الرشيد سنة ١٩٢ هـ حينما استفحل أمره فيما وراء النهر.

(٣) الطبري ١٠ ـ ١٩٥، المحاسن والمساوىء: ٣٦١ ـ طبع ليبرج، المسعودي: ٢ ـ ٣٠١.

(٤) الأمين: هو محمد بن هارون الرشيد، اتخذ الفضل بن الربيع وزيرًا، فأغرى الفضل بينه وبين المأمون فنصب محمد ابنه موسى لولاية العهد بعده، وأخذ له البيعة، وجعله في حجر علي بن عيسى، وأمر عليًا بالتوجه إلى خراسان لمحاربة المأمون سنة ١٩٥ هـ ووجه المأمون طاهر بن=

الذي هو فيه، فصار إلى قَصْرٍ له، ثم أرسل إليّ، فحضرت عنده، فقال: ترى طيبَ هذه الليلة، وحسنَ القمر في السماء، وضوءَه في الماء على شاطىء دِجْلة! فهل لك في الشراب؟ فقلت: شأنك! فشرب رطلًا، وسقاني آخر، ثم غنّيتهُ ما كنتُ أعلم أنه يحبُّه؛ فقال لي: ما تقولُ فيمن يضربُ عليك؟ فقلت: ما أحوجني إلى ذلك!

فدعا بجارية متقدّمة عنده اسمها «ضَعْف»، فتطيَّرْتُ من اسمها ونحن على تلك الحال[1]، فقال لها: غني؛ فغنّت بشعر الجَعْدِي:

كُليبٌ لَعمرِي كان أكثر ناصرًا وأيْسَرَ جُرْمًا منك ضُرِّج بالدَّم

فاشتدّ ذلك عليه، وتطيَّر منه، وقال: غَنِّي غَيرَ ذلك، فغنّت:

أَبكي فِراقَهُمُ عيني فَأَرَّقها إنّ التفرُّقَ للأحباب بَكَّاءُ
ما زال يَعدو عليهم ريبُ دهرِهم حتى تَفَانَوْا ـ وريبُ الدَّهرِ عدَّاءُ

فقال لها: لعنك الله! أما تعرفين من الغناء غيرَ هذا؟ فقالت: ما تغنَّيتُ إلا ما ظننتُ أنك تُحِبُّه! ثم غنَّت:

أما وربِّ السكُونِ والحرَكِ إن المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ
ما اختلفَ الليلُ والنهارُ، وما دارَتْ نجومُ السماءِ في الفَلكِ
إلا لنَقْلِ النعيم مِنْ مَلِكٍ قد زال سلطانُه إلى مَلِكِ
ومُلْكُ ذِي العرشِ دائمٌ أبدًا ليس بِفَانٍ ولا بمشتَرَكِ

فقال لها: قُومي، غَضِبَ الله عليك ولعنك!

وكان له قَدَحٌ من بلَّوْرٍ حسَنُ الصَّنعة، وكان موضوعًا بين يديه، فَعثرت الجارية به فكسرتهُ، فقال: ويحك يا إبراهيم! أما ترى ما جاءت به هذه الجارية؟ ثم ما كان من كَسْرِ القَدَح! والله ما أظن أمري إلا قد قَرُب. فقلت: يُدِيمُ الله مُلكك، ويُعِزّ سلطانك، ويَكْبِتُ عدوك! فما استتمّ الكلام حتى سمعنا صوتًا: «قُضِيَ الأمرُ الذي فيهِ تَسْتَفْتِيَان». فقال: يا إبراهيم، أما سمعتَ؟ قلتُ: ما سمعت

= الحسين، فالتقيا بالري فاقتتلا، ولم يزل القتال بينهما حتى قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ.

(١) كان الأمين قد حاصره طاهر بن الحسين من قبل المأمون.

شيئًا، وكنتُ قد سمعْتُ؛ قال: تسمع حسًّا! فدنوت من الشط فلم أرَ شيئًا، ثم عاوَدْنا الحديث، فعاد الصوتُ بمثله.

فقام مُغْتَمًّا إلى مجلسه بالمدينة. فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قُتِل!

ذنب لَا يَطمع صَاحبه فِي غُفرَانِه(١)

قال يوسف الكوفي ـ وكان قد رَوَى الأشعارَ والأحاديث:

حججتُ ذاتَ سنةٍ، فإذا أنا برجلٍ عند البيت، وهو يقول: اللهم اغفرْ لي وما أراك تَفْعَلُ! فقلت: يا هذا؛ ما أعجبَ يأْسَك مِنْ عَفْو الله! قال: إن لي ذنبًا عظيمًا! فقلت: أخبرني.

قال: كنتُ مع يحيىٰ بن محمد بالمَوْصِل، فأمَرَنا يومَ جمعة؛ فاعترضْنا المسجد؛ فقتلنا ثلاثين ألفًا؛ ثم نادى مناديه: من عَلق سَوْطه على دار فالدارُ وما فيها له، فعلقت سوطي على دار ودخلتُها، فإذا فيها رجلٌ وامرأة وابنان لهما، فقدَّمْتُ الرجلَ فقتلتُه، ثم قلتُ للمرأة: هاتي ما عندك! وإلا ألحقتُ ابنيكِ به؛ فجاءتني بسبعة دنانير: فقلتُ: هاتي ما عندك؟ فقالت: ما عندي غيرها، فقدّمتُ أحد ابنيها فقتلتُه. ثم قلت: هاتي ما عندك وإلا ألحقْتُ الآخر به، فلما رأت الجدّ مني قالت: ارْفُق! فإنَّ عندي شيئًا كان أوْدعنيه أبوهما، فجاءتني بِدِرْع مُذهبة لم أر مثلها في حُسْنها؛ فجعلتُ أقلّبها فإذا عليها مكتوب بالذهب:

إذا جـارَ الأمـيـرُ وحـاجِـبَـاه ... وقاضي الأرض أسرفَ في القضاء

فـويـلٌ ثـم ويـلٌ ثـم ويـلٌ ... لقاضِي الأرْضِ من قاضي السماء

فسقط السيفُ من يدي وارتعدتُ، وخرجت من وجهي إلى حيث ترى.

طيرَة ابن الرُّومِي(٢)

قال عليُّ بن إبراهيم: كنتُ بِدَارِي جالسًا؛ فإذا حجارةٌ سقطَتْ بالقرب مني، فبادرْتُ هاربًا؛ وأمرتُ الغلامَ بالصعود إلى السَّطْح، والنظرِ إلى كلّ ناحية، من أين تأتينا الحجارة؟ فرجع إليَّ وقال لي: امرأة من دار ابن

(١) أمال الزجاجي: ٣٥.

(٢) زهر الآداب: ٢ ـ ١٧٧، ذيل زهر الآداب: ٢٢٣، معجم الأدباء: ١٣ ـ ٢٩٦.

الرومي[١] الشاعر! قد تشوفَتْ[٢]، وقالت: اتقوا الله فينا، واسقُونا جرَّةً من ماء! وإلا هلكنا، فقد مات مَنْ عندنا عطَشًا!

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذاتِ عقل ومعرفة: أن تصعدَ إليها وتخاطبَها، ففعلتْ وبادرت بالجرَّة، وأتبعَتْها شيئًا من الطعام، ثم عادتْ إليَّ فقالت: ذكرتِ المرأةُ أن البابَ عليها مُقْفَلٌ منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابنِ الرومي؛ وذلك أنه يلبس ثيابَه كلَّ يوم ويتعوَّذُ؛ ثم يصير إلى الباب، والمِفتاح معه؛ فيضعُ عينَه على ثَقْبٍ في خشبِ الباب، فتقعُ على جارٍ له كان نازلًا بإزائه؛ وكان أحدَب يقعدُ كل يوم على بابه؛ فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابَه، وقال: لا يفتح أحدٌ الباب!

فعجبتُ لحديثها، وبعثتُ بخادمٍ لي كان يعرِفُه، فأمرتُه أن يجلسَ بإزائه - وكانت العينُ تميل إليه - وتقدّمتُ إلى بعض أعواني أن يدعوَ الجارَ الأحدب. فلما حضر عندي أرسلتُ وراءَ غلامي، لينهضَ إلى ابن الرومي، ويستدعيه. فإني لجالسٌ، ومعي الأحدب؛ إذ وافى أبو حُذَيفة الطَّرَسُوسِي؛ ومعه بِرْذَعَة المَوَسْوس، صاحبُ المعتضد؛ ودخل ابنُ الرومي؛ فلما تخطّى عتبةَ باب الصَّحْن عَثَر؛ فانقطع شِسْعُ[٣] نَعْله، فدخل مذعورًا! وكان إذا فاجأَهُ الناظرُ رأى منه منظرًا يدل على تغيّر حاله.

فدخل، وهو لا يرى جاره المتطيّر منه؛ فقلت له: يا أبا الحسن، أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم، ونظرك إلى وجهه الجميل؟ فقال: قد لحقني ما رأيتَ من العَثْرَة، لأني فكرتُ أنَّ به عاهةً! وهي قَطْع أُنْثَيَيْه[٤]! قال بِرْذَعَة: وشيخُنا يتطيّر؟ قلت: نعم ويُفْرِط! قال: ومَنْ هو؟ قلت: علي بن العباس[٥]. قال: الشاعر؟ قلت: نعم! فأقبل عليه وأنشده:

ولـما رأيـتُ الـدهـرَ يُـؤْذِنُ صَـرْفُـه   بتَفْرِيقِ ما بيني وبين الحبَائبِ[٦]

---

(١) هو أبو الحسن علي بن العباس الرومي، ولد ببغداد وعاش فيها متأثرًا بالأدب اليوناني وبالثقافة العربية كذلك، فكان شعره صورة طريفة في الأدب العربي من حيث الابتكار والتنسيق المنطقي والاستقصاء في أسلوب جزل متين، ومات سنة ٢٨٣ هـ.

(٢) تشوفت: نظرت وتطاولت.

(٣) الشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الإصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام.

(٤) يعني أنه مجبوب. (٥) هو اسم ابن الرومي.

(٦) الحبائب: مفرده حبيبة.

رجعتُ إلى نفسي فوطَّنْتُها على ... ركوبِ جميلِ الصبرِ عند النَّوَائِبِ!
ومَنْ صحِبَ الدنيا على جَوْرِ حُكْمِها ... فأيّامُه محفوفةٌ بالمصائبِ
فَخُذْ خُلْسةً مِنْ كلِّ يومٍ تَعِيشُه ... وكُنْ حَذِرًا من كامِنَاتِ العَوَاقِبِ
وَدَعْ عنكَ ذِكْرَ الفأل والزَّجْرِ واطّرِح ... تَطَيُّرَ جارٍ أو تفاؤلَ صاحبِ!

فبَقِيَ ابنُ الرومي باهتًا ينظر إليه! ولم أدرِ أنه قد شَغَلَ قلبه يحفظ ما أنشده، ثم نهض أبو حذيفة وبِرْذَعَة معه.

فحلف ابنُ الرومي لا يتطيَّرُ أبدًا مِنْ هذا ولا مِنْ غيره، وعجب من جودة الشعر ومعناه؛ وحُسْن مَأتاه، فقلت له: لَيْتَنا كَتَبْنَاه! قال: اكْتُبْهُ فقد حفِظتُه وأَمْلَاهُ عليّ!

تطيُّر الرشيد بن المعتَمد[1]

قال ابنُ اللّبانة[2]: كنتُ بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس أُنسه، فورد الخبر بأَخْذِ يوسف بن تاشفين غَرْنَاطة، فتفجَّع وتلهَّف، واسترجع[3] وتأسّف، وذكر قصر غَرْنَاطة، فدعَوْنا لقصره بالدوام، ولملكِه بتراخي الأيام، وأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء؛ فغنّى:

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ[4] وطال عليها سَالِفُ الأمَدِ

فاستحالَتْ[5] مَسَرّته، وتجهَّمت أسِرَّتُه، وأمر بالغناء من ستارته فَغُنِّي:

إنْ شئتَ ألّا ترى صَبْرًا لمصطَبِر ... فانظر على أي حالٍ أصْبحَ الطَّلَلُ

فتأكَّد تطيُّره؛ واشتدَّ ازْبِدادُ وجهه وتغيُّره، وأمر مغنيةً أخرى بالغناء، فغنّت:

يا لَهف نفسي على مالٍ أُفرِّقُه ... على المُقلِّين[6] من أهلِ المروءاتِ
إنَّ اعتذاري إلَى مَن جاءَ يسألُني ... ما لستُ أملِك، من إحدى المُصيباتِ

---

(١) نفح الطيب: ٢ ـ ٣٩٢.
(٢) هو أبو بكر الداني، ويعرف بابن اللبانة، وقد قال عنه في المطمح ص ٢٥٦: المديد الباع، لفريد الانطباع الذي ملك للمحاسن مقادًا، وغدا له البديع منقادًا...
(٣) استرجع عند المصيبة: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٤) أقوت: خلت. (٥) استحالت: تغيرت.
(٦) أقل: افتقر.

فتلافيتُ الحال بأَنْ قلت:

مـــحـــل مَـــكـــرمَـــة لا هُـــدَّ مَـــبْـــنـــاه
وشَـــمْـــل مَـــأثـــرةٍ لا شَـــتَّـــتَ اللهُ
الـــبـــيـــت كـــالـــبـــيـــت لـــكـــن زاد ذَا شـــرفًـــا
أنّ الـــرشـــيـــدَ مـــع الـــمـــعـــتـــدّ رُكـــنـــاهُ
ثـــاوٍ عـــلـــى أَنْـــجُـــم الـــجَـــوْزَاءِ مـــقـــعـــدهُ
ورَاحِـــلٌ فـــي ســـبـــيـــل الـــسَّـــعْـــدِ مَـــسْـــرَاهُ
حـــتـــم عـــلـــى الـــمَـــلْـــكِ أن يَـــقْـــوَى وقـــد وصـــلـــت
بـــالـــشـــرق والـــغَـــرْبِ يُـــمْـــنَـــاه ويُـــسْـــرَاه

فلعمري لقد بَسَطتْ من نفسه، وأعادَتْ عليه بَعْضَ أُنْسِه. على أني وقعتُ فيما وقعوا فيه لقولي: «البيت كالبيت».

وأمر إثر ذلك أبا بكر بالغناء، فغنّى:

ولـما قَضَيْنَا مِنْ منًى كلَّ حاجةٍ ولم يَبْقَ إلا أن تُزَمّ[1] الرَّكائب

فأيقنّا أن هذا التطيّر يعقبُه التغيّر!

رُؤيَـــــا[2]

قال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حُجَّاجًا، فإذا أنا برَجُلٍ من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب؛ وقد رفضَ الدنيا، وأقبل على الآخرة، فجمعتني وإياه الطريقُ، فأنِسْتُ به؛ وقلتُ له: هل لك أن تعادِلَني[3]؛ فإنَّ معي فضلًا من راحِلتي! فحزاني خيرًا، ثم أنِسَ إليّ؛ فجعل يحدِّثني؛ فقال:

أنا رجلٌ من وَلَدِ العباس، كنت أسكنُ البَصْرَةَ، وكنت ذا كِبْرٍ شديد؛ ونعمةٍ طائلة، ومالٍ كثير، وبَذَخٍ زائد. فأمرت يومًا خادمًا لي أن يحشوَ لي فِرَاشًا من حرير ومخدّة بورْدٍ نَثِير! ففَعل.

(١) زم البعير: خطمه.
(٢) مجاني الأدب؛ ٤ ـ ٢٠.
(٣) عادله في المحمل: ركب معه.

فإني لنائم إذا بقِمَع وَرْدَةٍ قد نَسِيَه الخادم، فقمتُ إليه، فأوجعته ضربًا؛ ثم عُدْتُ إلى مَضْجَعي بعد إخراج القِمَع من المُخَدَّة؛ فأتاني آتٍ في منامي في صورةٍ فظيعةٍ، فهزَّني؛ وقال: أَفِقْ من غَشْيتِك، وانتبه من رَقْدتك، ثم أنشأ يقول:

يـا خِـلُّ، إنّـك إن تـوَسَّـدْ لَيِّـنـا وُسِّدْتَ بعدَ اليَوْمِ صُمّ الجَنْدَلِ
فامْهَدْ لِنَفسِكَ صالحًا تَسْعَدْ به فَـلَتَـنْـدَمَـنَّ غـدًا إذا لـم تَـفْـعَـلِ

فانْتَبَهْتُ مرعوبًا، وخرجتُ من ساعتي هاربًا إلى ربي!

فراسَة أبنَاء نزَار[١]

لما حضرتْ نِزَارًا الوفاةُ جَمعَ بَنِيه: مُضَرَ وإيادًا وربيعة وأنمارًا، وقال لهم: يا بَنِيّ؛ هذه القبّةُ الحمراء ـ وكانت من أدَم[٢] ـ لمضر، وهذا الفرسُ الأدهم[٣] والخباءُ[٤] الأسود لربيعة، وهذه الخادم ـ وكانت شَمطاء[٥] ـ لإياد، وهذه النَّدوة[٦] والمجلس لأنمار يجلس فيه؛ فإن أشكل عليكم كيف تَقْتَسِمُون فَأتوا الأفْعَى الجُرْهمي، ومنزلُه بنَجْران[٧]. فلما ماتَ تشاجرُوا في ميراثه، فتوجَّهوا إلى الأفعى الجرهمي.

فبينما هم في مسِيرهم إليه، إذ رأى مُضَرُ أَثَرَ كَلأً قد رُعِي؛ فقال: إن البعير الذي رَعَى هذا لأعْوَر! قال ربيعة: إنه لأزْوَر[٨]! قال إياد: إنه لأبْتر[٩]! قال أنمار: إنه لَشَرُود[١٠]!

ثم ساروا قليلًا فإذا هم برجل يُنْشِدُ[١١] جملَه، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهوَ أعْوَر؟ قال: نعم، قال ربيعة: أهو أزْور؟ قال: نعم، قال إياد: أهو أبْتَر؟ قال: نعم. قال أنمار: أهو شَرُود؟ قال: نعم! وهذه والله صِفَةُ بعيري

(١) مجمع الأمثال: ١ ـ ١٥، بلوغ الأرب: ٣ ـ ٢٦٤، المسعودي: ١ ـ ٣٠٢.
(٢) الأدم: الجلد.
(٣) الأدهم: الأسود.
(٤) الخباء: يكون من وبر أو صوف أو شعر.
(٥) شمطاء: برأسها شيب يخالط السواد.
(٦) الندوة: مجلس القوم نهارًا.
(٧) نجران: مدينة شهيرة باليمن، جرت فيها حوادث قصة «أصحاب الأخدود».
(٨) الأزور: مَن يمشي على شق.
(٩) الأبتر: مقطوع الذنب.
(١٠) الشرود: النافر.
(١١) أنشد الضالة: طلبها.

فدُلُوني عليه. قالوا: والله ما رأيناه، قال: هذا والله الكذب! وتعلق بهم، وقال: كيف أصدّقكم وأنتم تَصِفُون بعيري بصفَتِه! فساروا حتى قدموا نَجْرَان.

فلما نزلوا نادى صاحبُ البعير: هؤلاء أخذُوا جَمَلِي، ووصفوا لي صِفتَه، ثم قالوا: لم نَره.

فاختصموا إلى الأفعى الجرهمي ـ وهو حَكَم العرب ـ فقال الأفعى: كيف وصفتُموه ولم ترَوْه؛ قال مُضَر: رأيته رَعَى جانبًا وترك جانبًا؛ فعلمت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيتُ إحدى يديه ثابتةَ الأثَر والأخرى فاسدتَه؛ فعلمت أنه أزور؛ لأنه أفسده بشدة وَطْئه لازوِرَاره. وقال إياد: عرفتُ أنه أبْتَر باجتماع بَعْرِه، ولو كان ذَيَّالًا[١] لَمَصَعَ به[٢]. وقال أنمار: عرفتُ أنه شَرُود، لأنه كان يَرْعَى في المكان الملتفِّ نبتُه، ثم يَجوزُه إلى مكانٍ أرقّ منه وأخبثَ نبتًا؛ فعلمتُ أنه شَرُود. فقال للرجل: ليسوا بأصحابِ بعيرك فاطلبه!

ثم سألهم: مَن أنتم؟ فأخبروه، فرحّب بهم، ثم أخبروه بما جاء بهم، فقال: أتحتاجون إليّ وأنتم كما أرى! ثم أنزلهم، فذبح لهم شاة، وأتاهم بخمْر، وجلس لهم الأفعى، حيث لا يُرى وهو يَسْمَعُ كلامهم. فقال ربيعة: لم أرَ كاليوم لحمًا أطيبَ منه، لولا أن شَاتَهُ غُذِيتْ بلبن كَلْبة، فقال مضر: لم أر كاليوم خمرًا أطيبَ منه لولا أن حُبْلَتَها[٣] نبتَتْ على قَبْر، فقال إياد: لم أر كاليوم رجلًا أسرى[٤] منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يُدْعَى له، فقال أنمار: لم أرَ كاليوم كلامًا أنفع في حاجتنا من كلامنا؛ وكان كلامُهم بأُذُنِه، فقال: ما هؤلاء إلا شياطين!

ثم دعا القَهْرَمان[٥] فقال: ما هذه الخمر؟ وما أمرُها؟ قال: من حُبْلَةٍ غرسْتها على قَبْرِ أبيك لم يكن عندنا شَرَابٌ أطيبُ من شرابها، وقال للراعي: ما أَمْرُ هذه الشاة؟ قال: هي شاةٌ صغيرة أرضعتها بِلَبنِ كَلْبة، وذلك أن أُمَّها كانت قد ماتت ولم يكن في الغنم شاةٌ وُلِدت غيرها.

(١) ذيالًا: له ذيل طويل.
(٢) مصع به: يقال مصعت الدابة بذنبها؛ أي حركته.
(٣) الحبلة: الكرم أو أصل من أصوله. (٤) السرو: المروءة في شرف.
(٥) القهرمان: القائم بأمور الرجل.

ثم أتى أمّه فسألها عن أبيه فأخبرتُه أنها كانت تحت ملك كثير المال، وكان لا يُولَدُ له، قالت: فخِفْتُ أن يموتَ ولا وَلَدَ له فيذهبَ المُلْكُ!

فخرج الأفعى عليهم، فقصَّ القومُ عليه قصتَهم، وأخبروه بما أوصى به أبوهم، فقال: ما أشْبَهَ القُبَّةَ الحمراء من مال فهو لمضر، فذهب بالدنانير والإبل الحُمْر، فسمى مُضر الحمراء لذلك. وقال: أما صاحبُ الفرَس الأدْهم والخِباء الأسود فله كل شيء أسود، فصارت لربيعة الخيلُ الدهْم، فقيل: ربيعة الفرس. وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد، فصارت له الماشية البلق من الْحَبَلَّق[١] والنَّقَد[٢]، فسمى إياد الشمطاء، وقَضَى لأنمار بالدراهم وبما فَضَل، فسُمّي أنمار الفضل، وصَدَرُوا[٣] من عنده على ذلك!

ارعَيْ واحْذَرِي[٤]

خرج أعرابيٌّ مكفوفُ البصر، ومعه ابنةُ عَمٍّ له لرَعْيِ غنم لهما، فقال الشيخ: أجدُ ريحَ النسيم قد دنا، فارفعي رأسَك فانظرِي، قالت: أراها كأنها رَبْرَب[٥] معزى هَزْلى، قال: ارعَيْ واحْذَرِي.

ثم قال لها بعد ساعة: إني أجدُ ريح النسيم قد دنا، فارفعي رأسك فانظري. قالت: أراها كأنها بغَالٌ دُهْم، تجرُّ جِلَالها؛ قال: ارْعَيْ واحْذَرِي.

ثم مكث ساعة، ثم قال: إني لأجدُ ريح النسيم قد دنا فانظري. قالت: أراها كأنه بطنُ حمارٍ أصْحَر[٦]. فقال: ارعَيْ واحْذرِي. ثم مكث ساعة، فقال: إني لأجدُ رِيح النسيم فما تَرَيْن؟ قالت: أراها كما قال الشاعر[٧]:

دانٍ مُسِفٌّ[٨] فُوَيْقَ الأرض هَيْدَبُهُ[٩] ... يَكادُ يَدْفَعُه مَنْ قَام بالرَّاحِ
كأنما بين أعلاه وأسْفَلِهِ ... رَيْطٌ[١٠] مُنَشرةٌ أو ضَوْءُ مصباحِ

---

(١) الحبلق: غنم صغار لا تكبر، أو قصار المعز ودمامها.
(٢) النقد: جنس من الغم قبيح الشكل.
(٣) صدروا: رجعوا.
(٤) الأغاني: ١١ ـ ٧١.
(٥) الربرب: القطيع.
(٦) الصحرة: حمرة في غبرة.
(٧) هو عبيد بن الأبرص.
(٨) المسف: الذي قد أسف على الأرض، أي دنا منها.
(٩) الهيدب: السحاب يقرب من الأرض كأنه متدل.
(١٠) الريط: جمع ريطة وهي كل ملاءة غير ذات لفقين، كلها نسج واحد.

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ[١] كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ[٢]   والمسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحِ[٣]

فقال: انْجِي، لا أبالك! فما انقضى كلامُه حتى هطلت السماء عليهما!

حَديث قُس بن سَاعدَة مَع مَلك الرّوم[٤]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: حضرتُ مجلسَ المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين؛ ألَا أُحَدِّثُك عن الفضلِ بن يحيىٰ؟ قال: بلى! فقلت: دخلتُ دار الرشيد، وإذا الفضلُ بن يحيىٰ وإسماعيل بن صبيح، وعبدُ الملك بن صالح في بعض تلك الأرْوِقَة يتحدّثون؛ فلما بَصُرَ بي الفضلُ أوْمأ إليّ، وقال: يا إسحٰق؛ انتظرْنَاك منذ الغَدَاة؛ لتساعدَ على ما نحنُ فيه من المُذاكرة! فقلت: يا سيدي؛ أنا السُّكَيْتُ[٥] إذا أُجْرِيت الجِيَاد، وفاز السابق والمُصَلِّي! فقال عبد الملك: مدحتَ نفسك، ولما تكذّب.

ولما فرغ عبدُ الملك من حديثه قال الفضل: إن لقُسٍّ[٦] حديثًا سمعتُه من الخليل بن أحمد؛ فهل عند واحدٍ منكم له ذِكْرٌ؟ فسكت القومُ، فقلتُ: يا سيدي؛ ما نعرفُ له حديثًا إلا حديثَ خُطبته بعُكاظ! قال: ذاك شيءٌ قد فَهِمَتْه العامَّةُ واختَبَرَتْه الخاصة. ثم أطْرَقَ ساعة، فقلنا: إن رأيتَ أَنْ تحدّثنا؟ فقال:

حدَّثني الخليل بن أحمد: أنَّ قيصر ملك الروم بعث إلى قُسّ بن ساعدة أسْقف نَجْرَان ـ وكان حكيمًا طبيبًا بليغًا في مَنْطِقه؛ فلما دخل عليه ومثَل بين يديه حمِد الله وأثنى عليه، فأمره بالجلوس، فجلس ورحَّبَ به؛ وأدْنَى مجلسه، وقال: ما زِلْتُ مشتاقًا إليك لِمَا سمعتُ من مُنَاظَرتِكَ في الطب.

(١) النجوة: المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاؤك.

(٢) العتوة: ساحة الدار.

(٣) القرواح: أرض قرواح: واسعة. والقرواح أيضًا: البارز الذي لا يبرزه عن السماء شيء.

(٤) المحاسن والمساوىء: ٣٥١ ـ طبع ليبزج.

(٥) السكيت: الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل.

(٦) هو قس بن ساعدة خطيب العرب قاطبة، والمضروب به المثل في البلاغة والحكمة، والموعظة الحسنة. كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث ويدعو العرب إلى نبذ الأوثان، في المحافل العامة، ومواسم الأسواق وسمعه النبيّ قبل البعثة يخطب بعكاظ، فعجب من حسن كلامه وأثنى عليه، وعمر طويلًا ومات قبيل البعثة.

فكان أول ما سأله عن الشراب، فقال: أيُّ الأشربة أفضل عاقبةً في البدن؟ قال: ما صَفَا في العَيْنِ، واشتدَّ على اللسان، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكَرْم. قال: فما تقول في مطبوخه؟ قال: مرعًى ولا كالسَّعدان[١]! قال: فما تقول في نَبِيذ الزبيب؟ قال: مَيّت أُحْيي، وفيه بعضُ المُتْعة وما كاد يَقْوى شيءٌ بعد الموت! قال: فما تقول في نبيذ العسل؟ قال: نِعْم شرابُ الشيخ للمعدة الفاسدة. قال: فما تقول في أنبذة التمر؟ قال: أوساخ يطيبُ مذاقها في اللَّهَوَات، وتسوءُ عاقبتُها في البدن، وتولّد الأرواح[٢] في البَطْنِ لرقّتها.

قال: فمن أي شيء يكون الثمَل الذي يُذهب الغمّ ويطيّب النفس؟ قال: زعموا أنَّ العقلَ تُصَعِّده سَوْرَةُ الشراب إلى الدِّماغ؛ فإذا صعدت السَّوْرَة إلى الدماغ الذي هو أصله، احتجب البصرُ بغير عمى، والسمع بغير صَمَم، واللسانُ بغير خَرَس؛ فلا يزال العقلُ كذلك محتجبًا حتى تفكّه الطبيعة من إسَارِ السكر، إمّا بقوة فيعجل، وإما بضَعْفٍ فيبطيء.

قال: فمِنْ أيِّ شَيْءٍ الخُمَار[٣] من بَعْدِ صَحْوِ السكران؟ قال: من إعْيَاء الطبيعة عن مُجَاهَدة السَّورة في افتكاك العَقْلِ وتخلصه، حتى يردّها النومُ إلى هُدُوءٍ وما أشبهه. قال: الصِّرْف أفضلُ أم الممزوج؟ قال: الصِّرْفُ سلطانٌ جائر، والجائر مذموم، والممزوج سلطانٌ عادل، والعادل محمود.

قال: فصِفْ لي الأطعمةَ. قال: الأطعمةُ كثيرة مختلفة. وجملةُ ما آمرُك به الإمساكُ عن غاية الإكثار، فإن ذلك من أفضل ما بَلَوْنَاه من الأدوية، ورأسُ ما نأمرُ به من الحِمْيَةِ. قال له: عَمَّنْ حملتَ الحكمة؟ قال: عن عِدةٍ من الفلاسفة. قال: فما أفضلُ الحكمة؟ قال: معرفةُ المرء بقَدْرِه. قال: فما تقولُ في الحلم؟ قال: حلمُ الإنسان ماءُ وجهه. قال: فما تقول في المال وفضله؟ قال: أفضلُ المال ما أُعطي منه الحق. قال: فما أفضلُ العطيّة؟ قال: أن تُعْطِيَ قبل السؤال.

---

(١) السعدان: نبت ذو شوك، وهو من أنجع المرعى، وهذا مثل يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله.

(٢) الأرواح: جمع ريح.

(٣) الخمار: بقية السكر.

قال: فأخبرني عما بَلَوْتَ[١] من الزمان وتصرّفه، ورأيتَ من أخلاقِ أهْلِه. قال: بَلَوْنا الزمانَ فوجدناهُ صاحبًا يخونُ صاحبَه، ولا يعتِبُ مَن عاتبه، ووجدنا الناسَ صورةً من صُوَر الحيوان، يتفاضلون بالعقول، ووجَدْنَا الأحسابَ ليست بالآباء والأمهات، ولكنّها في أخلاقٍ محمودة، وفي ذلك أقول:

لـقـد حَـلَبْـتُ الـزمـانَ أشْـطُـرَهُ ... ثم مَخَضْتُ[٢] الصريحَ[٣] مِنْ حَلَب

فـلم أرَ الـفَـضْـلَ والـمَـعَـالِيَ فـي ... قَـوْلِ الـفـتـى: إنّـنـي مِـن الـعَـرَبِ

حـتـى نَـرَى سـامـيًـا إلـى خُـلُق ... يَـذُودُ مـحـمُـودُهُ عـن الـنَّـسَـبِ

مـا يـنـفـعُ الـمـرءَ فـي فُـكـاهَـتِـهِ ... مـن عَـقْـلِ جَدٍّ مـضَـى وعَـقْـلِ أبِ

مـا الـمـرءُ إلا ابـنُ نَـفْـسِـه فَـبِـهَـا ... يُـعْـرَفُ عـنـد الـتـحـصـيـل لـلنُّـوَبِ

ووجدنا أبلغَ العظاتِ النظرَ إلى محلِّ الأموات، وأحمَد البلاغة الصمتَ، ووجدنا لأهل الحَزْم حذارًا شديدًا، وبذلك نجَوا من المكروه، والكرمُ حسنُ الاصطبار، والعزُّ سُرعَةُ الانتصار، والتجربةُ طولُ الاعتبار.

قال: خبرني هل نظرتَ في النجوم؟ قال: ما نظرتُ فيها إلا فيما أردتُ به الهِدَاية، ولم أنظر فيما أردتُ به الكَهانة، وقد قلت في النجوم:

علم النجوم على العقول وَبَالُ ... وطِلَابُ[٤] شيءٍ لا يُنالُ ضَلَالُ

ماذا طِلابُك علمَ شيءٍ أُغْلِقَتْ ... مـن دُونـه الأفـلاكُ لـيس يُـنـالُ

هـيـهـاتَ مـا أحدٌ بـغـامـض قَدْرِه ... يـــدري كـم الأرزاقُ والآجـــالُ

إلا الـذي فـوق الـسـمـاء مـكـانـه ... فـلـوَجْـهِـهِ الإكـرامُ والإجـلالُ

قال: فهل نظرتَ في زَجْر[٥] الطير؟ قال: نحن معاشرَ العرب مولَعون بزَجْرِ الطير. قال: فما أعجبُ ما رأيتَه منه؟ قال: شَخَصتُ أنا وصاحبٌ لي من العرب إلى بعض الملوك، فألفيناهُ يريد غَزو قوم كانوا على دين النصرانية، فخرج حتى إذا كان على فراسخَ من مدينته أمر بضرب فَساطيطه وأزْوقَتِه لتتَوافى إليه جنودُه، وضُرب له فُسطاط على شاطىء نهر، وأمر بخباءٍ فضُرِب لي ولصاحبي، فبينا نحن

(١) بلوت: خيرت.
(٢) مخض اللبن: أخذ زبده.
(٣) الصريح: الخالص.
(٤) طلاب: طلب.
(٥) الزجر: ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان.

كذلك إذ أقبل طائران: أسود وأبيض، وأنا وصاحبي نرمُقُهما، حتى إذا كانا على رأسه رَفْرَفا، ثم غابا، ثم رجعا أيضًا، حتى إذا كانا قريبًا منه طوَيَاه، ثم أقبلا نحونا فوقعا ثم رَتَعَا[١]. فقال صاحبي: ما رأيتُ كاليوم طائرين أعجبَ منهما، فأيهما أنتَ مختار؟ فقلت: الأسود. قال: الأبيض أعجبهما إليّ، فما تأوّلتَهما؟ قلت: الليل والنهار يطويان هذا الرجلَ في سفره فيموت، وتأوّلت اختيارك الأبيض أنك تنصرف بيد بيضاء مُخْفِقَةٍ[٢] من المال. فإذا هو قد غضب.

فلما جَنَّ الليل بعثَ إلينا الملك لنَسْمُر عنده، فإذا صاحبي قد أخبره بالخبر، فسألني فأخبرته وصدقْتُه. فغَضِب، وقال: هذه حميّةٌ منك لأهلِ دينك! فقلت: أما أنا فقد صدقْتُك. فأمر بحَبسي ومضى لوجهه. فلم يتجاوزْ إلا قليلًا حتى مات! فأوْصَى لي بعشرين ناقة، وقال: قاتل الله قُسًّا! لقد مَحَضني النصيحة. فانصرفتُ من سفَري ذلك بعدَّةٍ من الإبل، وانصرف مُخْفِقًا من المال.

قال الملك: وما رأيتَ أيضًا من الزجر أعجب؟ قلت: ما رأيتُ مرةً عند الملك الهُمَام أبي قَابُوس، وقد خرج عليه خارجٌ من مُضَر يريد مُلْكه، وقد حشد له، فبعث إلى بعض عمّاله في توجيه أربعمائة فارس، ووجّهني مع الرسول، وأمرنا بالشدّ على أيديهم في جَمْع الخيلِ والرجال ـ وكان الرسولُ شاعرًا، فبينا نحن نسير إذ سنحت لنا ظباء فيها تَيس[٣] يقدُمُها، وكان أبو قابوس يواعد للقائه في يوم كذا وكذا، فنحن نقول: إن كان الملكُ خرج في يوم كذا فهو اليوم في موضع كذا، وقد أقبلنا، ونحن نقود جيشًا عرمْرَمًا، فأنشأ الرسول يقول:

ألا لَيتَ شعْرِي ما تقولُ السَوانحُ   أغادٍ أبو قَابُوس أمْ هُو رائحُ؟

فنظرت إلى التَّيس عند فراغه من هذا البيت، فوجدته قد دخل في مَكنِسِه[٤] حتى توارى فيه، فدخلني من ذلك ما لم أقدر على أنْ أُمْسك نفسي؟ حتى استرجعت، فقال لي رفيقي: مالك؟ قلت: إن صَدَق الزجر فصاحبُك قد ثَوَى في التراب، والتحفَتْ عليه أطباقُ الثَّرى! قال: كيف ذلك؟ قلت: وافَقَ فراغُك من البيت دخولَ التيس في مَكْنِسه، فأعْرَض عني.

---

(١) الرتع: الأكل والشرب رغدًا في الريف.   (٢) محفقة: خالية.
(٣) التيس: الذكر من الظباء والمعز والوعول.
(٤) المكنس ـ بكسر النون: مولج الوحش من الظباء والبقر تسكن فيه من الحر.

فلما أصبحتُ في اليوم الذي واعدَنا للقائه لم يُوَافِ، ولم يكن بأَوْشَك من أن أتانا الخبرُ بهلاكه وقُعود ابنه.

فأكرمه قَيْصَر وأحسنَ جائزته.

قلنا: أيَّد الله الوزير! لقد بلغْتَ ما بلغْتَ باستحقاق، ولقد حُزْتَ قصبة الرهان في كل مَنْقَبة، فتبسَّم وقال: عِزُّ الشريف أدبُه، وإذا رسولُ الرشيد قد وافاه فنهض نحوه، وتصدَّع المجلس وانصرفنا.

فلما مضى من الليل بعضُه إذا أنا بطارق قد طرقني، وبين يديه غلمان على أعناقهم البِدَرُ[1]، وإذا رسولُ الفَضْل وقد حمل إليّ مائة ألف درهم، وقال: الوزيرُ يقرأ عليك السلام. ويقول: ضجرتَ باستماع الأحاديث، وأوجبْتَ عليّ بذلك مِنّة، وهذا عطاء وَتِحٌ[2] في جنب قَدْرِك عندي، فخذه ولا تعتدَّ به.

فقلت: سبحان الله الذي خلق هذا الرجل! وَجَبَلَه على كرم بذَّ به من مَضَى ومَنْ غَبَر. وإذا هو قد وجَّه إلى أصحابي الذين كانوا معي بمثل الذي وجَّه به إليَّ، فغدوتُ إليه وأردتُ أن أشكره، فقال: والله لئن ذهبتَ تكشفُ ما سَتَر الله لأَجْفُوَنّك! فكأنما ألقمني حجرًا. واحتبسني عنده، فطعِمْت وشربت، ورُحْت وقد حملني على عِدَّة أفراس بِسُروج ولُجُم مُذْهَبَة، ووجَّه معي بعشرة تخوت[3] ثياب وعشر بِدَرٍ.

فقال المأمون: وَيْحك يا إسحٰق! ثوابُ حديثك ضعفُ ما أمر لك به الفضل، وقد أمَرتُ لك بمائة ألف درهم.

فقبضْتُ ذلك وانصرفت.

فِي مَوتِ رَسُول الله ﷺ[4]

قال أبو ذُؤَيب الهذَلي[5]: بلغَنَا أن رسولَ الله ﷺ عليل؛ فأوجس أهلُ الحيِّ

(١) البدر: جمع بدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم.
(٢) وتح: قليل. (٣) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.
(٤) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٣١٥، نهاية الأرب: ٣ ـ ١٤٢، معاهد التنصيص: ١ ـ ١٩٣.
(٥) أبو ذؤيب الهذلي: شاعر مقدم من شعراء هذيل، كان في جند عبد الله بن سعد حينما فتح إفريقية وعاد إلى مصر ومات بها.

خِيفةً عليه، فبتُّ بليلةٍ ثابتةِ النجوم، طويلةِ الأناة، لا ينجابُ دَيْجورها[١] ولا يَطْلُع نورُها، حتى إذا قَرُب السَّحَر غَفوْتُ، فهتَف لي هاتفٌ يقول:

خَطْبٌ أجَلُّ أناخَ بالإسلامِ ... بين النخيل ومَعْقد الآطامِ[٢]
قُبضَ النبيُّ محمد فعيونُنا ... تُذْرِي الدموعَ عليه بالتَّسْجَامِ[٣]

فوثبْتُ من يومي فَزِعًا؛ فنظرتُ إلى السماء فلم أر إلا سَعْد الذابح[٤]؛ فتفاءلتُ به ذَبْحًا يقع في العرب، وعلمتُ أن النبيّ ﷺ قد مات، أو هو ميِّت من علّته.

فركبتُ ناقتي وسِرْتُ حتى أصبحتُ، فطلبتُ شيئًا أزْجره، فعنَّ لي شَيْهَمٌ[٥] قد أرَمَ[٦] على صِلٍّ[٧]، وهو يتلوَّى، والشَّيْهم يَقْضَمهُ حتى أكله، فزجرتُ ذلك شيئًا مُهِمًّا؛ فقلت: تَلوِّي الصّلِّ انفتالُ[٨] الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله ﷺ، ثم أوَّلتُ أكْلَ الشَّيْهم إياه: غَلَبة القائم على الأمر.

فحَثَثْتُ ناقتي حتى إذا كنْتُ بالعِلْيَةِ[٩] زجرتُ الطير فأخبرني بوفاته. ونعب غرابٌ سانِحًا[١٠] بمثل ذلك، فتعوَّذت من شرّ ما عَنَّ لي في طريقي، ثم قدمتُ المدينة، ولأهلها ضَجِيجٌ كضجيج الْحَجيج، أهلّوا جميعًا بالإحرام، فقلت: مَهْ! قالوا: قُبض رسول الله ﷺ، فجئتُ المسجد فأصَبتُه خاليًا، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فأصبتُ بابه مُرتجًا[١١]، وقد خَلَا به أهلهُ، فقلت: أينَ الناس؟ فقيل: في سقيفة بني ساعِدة، وصارُوا إلى الأنصار.

---

(١) الديجور: الظلام.
(٢) الأطم: القصر وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح، جمعه آطام.
(٣) سجم الدمع: قطر وسال قليلًا أو كثيرًا.
(٤) منزل من منازل القمر.
(٥) الشيهم: ذكر القنافذ.
(٦) أرم عليه: عض.
(٧) الصل: الحية.
(٨) انفتل عن الشيء: انصرف.
(٩) علية القوم: جلتهم.
(١٠) نعب الغراب: صاح. والسانح: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك. والعرب تختلف في العيافة، فمنهم مَن يتيامن بالسانح: ويتشاءم بالبارح، ومنهم مَن يخالف ذلك.
(١١) أرتج الباب: أغلقه.

فجئتُ السقيفةَ، فوجدتُ أبا بكر وعمَر رضي الله عنهما، وأبا عُبَيْدَة وسالمًا، وجماعة من قريش، ورأيتُ الأنصارَ فيهم سَعْدُ بن عبادة ومعهم شعراؤهم، وأمامهم حسانُ بن ثابت، في مَلأً منهم، فأويت إلى الأنصار، فتكلموا فأكثروا، وتكلّم أبو بكر، فلِلّه من رجل لا يُطيل الكلام، ويعلم مواضِعَ الفَصْل.

والله لقد تكلّم بكلام لم يسمعْه سامعٌ إلا انْقادَ له ومال إليه. وتكلم بعده عمرُ رضي الله عنه بكلام دونَ كلامه، ومدَّ يَدَه فبايَعَه، ورجع أبو بكر رضي الله عنه، ورجعت معه؛ فشهدْتُ الصلاةَ على رسول الله ﷺ، وشهدْتُ دفْنَه!

عِيَافَة لِهْب[1]

تعشق كُثَيِّر[2] امرأةَ من خُزاعة يقال لها أمّ الحُوَيْرِث؛ فشبّب بها فكرِهَتْ أن يُسَمِّع بها ويفْضَحها كما سَمَّع بِعَزَّة، فقالت له: إنك رجل فقير لا مالَ لك فابْتَغِ مالًا، ثم تعالَ فاخطبْني كما يخطبُ الكِرامُ، قال: فاحلفي وَوَثِّقي أنك لا تتزوَّجين حتى أَقْدَمَ عليك، فحلفَتْ ووثّقتْ له. فمدح عبدَ الرحمٰن بن إبريق الأزْديّ وخرج إليه، فلقي ظباءً سوانح[3]، ولقي غُرابًا يفحصُ التراب بوجهه، فتطيَّر من ذلك، حتى قدم على حيّ من لِهْب[4]، فقال: أيُّكم يَزْجُر[5]؟ قالوا: كلّنا! فمن تريد؟ قال: أعْلَمكم بذلك! قالوا: ذلك الشيخ المنْحني الصُّلْب، فأتاه فقصّ عليه القصَّة فكرِه ذلك له، وقال: قد ماتت أو تزوجتْ رجلًا من بني عمّها؛ فقال كُثَيِّر:

تيمَّمْت لِهْبًا أَبْتَغِي العلم عندهم ... وقد رُدَّ علمُ العائفينَ إلى لِهْبِ
فيمَّمتُ شيخًا منهمُ ذَا بَجالَةٍ[6] ... بصيرًا بزَجْرِ الطير مُنْحَنِيَ الصُّلْبِ!
فقلتُ له: ماذا ترى في سَوانحٍ ... وصوتِ غرابٍ يفحص الوَجْه بالتُّرْبِ

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ١٤٠، الأغاني: ٩ ـ ٣٤.

(٢) كثير بن عبد الرحمٰن: من الشعراء الغزليين، ولكنه كان دعيًا في الحب غير مرغوب فيه لقبح صورته وهوان شخصيته فوق نفاقه السياسي، وتردده بين الشيعة وبني أمية. فأخذ يشهر بعزة بنت حميد الضمري حتى عرف بها، وكانت وفاته سنة ١٠٥ هـ.

(٣) السانح: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك.

(٤) لهب: قبيلة من اليمن معروفة بالعيافة وزجر الطير.

(٥) الزجر: ضرب من التكهن، وهو اليمن والتشاؤم بالطير وغيرها.

(٦) يبجله الناس: يعظمونه.

فقال: جرى الطيرُ السَّنِيحُ بِبَينِهَا ... ونـادَى غُـرَابٌ بـالـفـراقِ وبـالـسَّـلْبِ
فإلَّا تَكنْ ماتت فقد حَالَ دونـها ... سِوَاكَ خليلٌ باطنٌ من بني كَعْبِ

ثـم مدح الرجلَ الأزديّ فأصاب منه خيرًا، ثـم قدِمَ عليها، فوجدها قد تزوَّجتْ رجلًا من بني عمِّها، فأخذه الهُلَاس[١]، فَكُشِحَ[٢] جَنْبَاه بالنار، فلما انْدَمَل[٣] من عِلّته، وضع يدَه على ظهره؛ فإذا هو برَقْمتين[٤]؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: أخذكَ الهُلَاس، وزعم الأطباء أنه لا عِلَاجَ لك إلا بالكَشْحِ بالنار، فكُشِحْتَ بها، فأنشأ يقول:

عفا اللهُ عن أمْ الحُوَيْرِثِ ذَنْبَها ... عَلَامَ تُعَنِّيني وتكْمِي[٥] دَوَائيا؟
ولو آذَنُوني قبل أن يرقُموا بها ... لقلتُ لـهم: أُمُّ الحُوَيْرِث دَائيا

أبو النَّشْنَاش وَلِهْب[٦]

كـان أبـو النَّشْنَاش من لُصوص بني تميم، وكان يعترضُ القوافلَ في شُذَّاذٍ[٧] من العرب بين طريق الحجاز والشام، فَيَجْتاحُها، فظَفِر به بعضُ عمال مروان بن الحكم، فحبسه وقيّده مدة، ثم استطاع أن يهرُب في وقت غِرَّة، فهرب، ومرَّ بغُرَاب على بَانَة[٨]، يَنْتِفُ ريشه وينعَب، فجزِع من ذلك، ثم مرَّ بحيٍّ من لِهْب، فقال لهم: رجل كان في بلاءٍ وشر، وحَبْس وضيق، فنجا من ذلك، ثم نظر عن يمينه فلم يرَ شيئًا، ونظر عن يساره فرأى غرابًا على شجرة بَانٍ، ينتف ريشه، وينعَب! فقال له اللِّهبي: إن صدَقتِ الطيرُ يُعادُ إلى حَبْسه وقَيْده، ويطول ذلك به، ويُقْتَل ويُصلب، فقال له: بِفِيكَ الحَجَر! قال: لا، بل بفيك! وأنشأ يقول:

وسـائـلةٍ أيـن الـرحـيـلُ وسـائـلٍ ... ومَنْ يسأل الصُّعلوك أينَ مَذَاهِبه؟

---

(١) الهلاس: الضمور، أو مرض السل. (٢) كشح: كوى.
(٣) اندمل: برئ.
(٤) المرقوم من الدواب: الذي يكون على أوظفته كيات صغار، وكل واحدة منها رقمة، والمراد أنه وجد أثر كيتين.
(٥) كمى الشيء: ستره وكتمه.
(٦) الأغاني: ١١ ـ ٤٢، ديوان الحماسة: ١ ـ ٣١.
(٧) الشذاذ: الذين لم يكونوا في حيهم ومنازلهم.
(٨) البان: شجر لحب ثمره دهن طيب.

مـذاهـبـه أن الـفِـجـاج عـريـضـة إذا ضَـنَّ عـنـه بـالـنَّـوَالِ أقـاربـه
إذا المرءُ لم يَسْرَح[١] سَوَامًا ولم يُرِحْ سَوامًا ولم يَبْسُط له الوجهَ صاحبُه
فلَلْمَوْتُ خيرٌ للفتى من قعوده عديمًا ومِن مَوْلًى تُعَافُ مشاربُه
ودَوِّيَة[٢] قَفْرٍ يحارُ بها القطا[٣] سَرَتْ بأبي النَّشْنَاشِ فيها ركائبُه
ليُدْرِكَ ثأرًا أو ليكسب مَغْنَمًا ألا إن هذا الدهرَ تَتْرَى عجائبُه
فلم أرَ مثلَ الفقر ضاجَعَهُ الفتى ولا كَسَواد الليل أخفقَ طالبُه
فعِش مُعْدِمًا[٤] أو مُتْ كريمًا فإنني أرى الموتَ لا يُبقى على مَنْ يُطَالِبُه

غرَاب يُبَشّر بمَوتِ الحجّاج[٥]

قال مُحدّث: كنتُ في حَبْس الحجاج؛ فحُبِس معنَا رجل، فأقام حِينًا لا نسمعهُ يتكلمُ بكلمة، حتى كان اليوم الذي مات الحجاجُ في الليلة التي تليه، فأقبل غراب في عشيَّةٍ ذلك اليوم، فوقع على حائط السجن فنعق[٦]، فقال الرجل: ومَنْ يقدرُ على ما تقدرُ عليه يا غراب؟ ثم نعق الثانية فقال: مثلُك مَنْ بشَّر بخير يا غراب! ثم نعق الثالثة فقال: منْ فِيك إلى السماء يا غراب!

فقلت له: ما سمعناك تكلّمتَ مذ حُبِست إلى الساعة، فما دعاك إلى ما قلت؟ قال: إنه نعق فقال: إني وقعْتُ على سِرّ الحجاج، فقلت: ومَن يقدرُ على ما تقدر عليه؟ ثم نعق الثانية، فقال: إن الحجاج أصابه وَجَع، فقلت: مثلُك مَنْ بشّر بخير! ثم قال في الثالثة: الليلة يموت! فقلت: مَنْ فِيك إلى السماء.

ثم قال الرجل: إن انْسَلخ[٧] الصبحُ قبل أن أخرجَ فليس عليَّ بأس، وإن دُعيتُ قبل الصبح فستُضْرَبُ عنقي، ثم تلبثون ثلاثًا لا يدخلُ عليكم أحد، ثم يُدْعَى بكم في اليوم الرابع، فيهتف على رؤوسكم بالكفالة، فمن وَجَدَ له كفيلًا خلّى سبيله، ومَن لم يَجِدْ له كفيلًا فويلٌ له طويلًا.

---

(١) يقال سرح الماشية سرحًا: أخرجها بالغداة إلى المرعى، والسوام والسائمة: الإبل أرسلت لترعى، وأراح الماشية: ردها من العشي إلى مراحها ليلًا.
(٢) الدوية: منسوبة إلى الدو وهو الفلاة البعيدة الأطراف.
(٣) يضرب المثل بالقطا في الهداية فيقال: أدل من قطاة.
(٤) المعدم: الذي افتقر.
(٥) الفرج بعد الشدة: ١ ـ ١١٤.
(٦) نعق الغراب: تعب وصاح.
(٧) انسلخ النهار من الليل: خرج منه خروجًا لا يبقى معه شيء من ضوئه.

فلما دخل الليل سمعنا الصراخَ على الحجاج، ثم أُخْرِج الرجل قبل الصبح، فضُربَ عنقه، ثم لم يدخل علينا أحد ثلاثًا، ثم دُعِي بنا وطلب منا الكفالة، ثم صار الأمر إليّ، فمكثتُ طويلًا حتى خِفت أن أُرَدَّ إلى الحبس، ثم تقدم رجل فضمِنني، فقلت له: يا عبدَ الله؛ مَن أنْتَ حتى أشكرك؟ فقال لي: اذهَبْ، ولستُ بمسؤولٍ عنكَ أبدًا، فانطلقت.

صَـدقَ الزاجر[1][2]

كان المنصورُ ألزمَ خالدَ بْنَ برمك ثلاثَة آلاف درهم، ونذَرَ دَمَه فيها، وأجّلَه ثلاثة أيام، فقال خالدٌ ليحيىٰ ابنه: إني قد طُولبتُ بما ليسَ عندي، وإنما يُرَادُ بذلك دمي، فانصرفْ إلى أهلك فما كنتَ فاعلًا بعد موتي فافعله، ثم قال: يا بُنيّ؛ ولا يمنعنَّك ذلك من أن تَلْقَى إخوانَنا، فتُعلِمهم حالنا.

قال يحيىٰ: فأتيتُ إخوانَ والدي، فمنهم مَن جَبَهَني[3] بالرد، ثم بعث إليّ بمالٍ جليلٍ، ومنهم مَن لم يأذنْ لي، وبعَثَ بمالٍ في أَثَرِي لكيلا يُخْبر به المنصور.

فدخلتُ على عُمَارة[4] بن حَمْزَة، وهو متّجِهٌ بوجهه إلى الحائط، فسلّمتُ فردَّ ردًّا ضعيفًا، فضاقت بي الأرضُ، ثم كلمتُه فيما كنتُ أتيتُه فيه، فقال: إن أمكننا شيء فسيأتيك. فانصرفتُ عنه، وصِرْتُ إلى أبي، فأعلمتُه ذلك، وقلتُ: أراكَ تَثِقُ من عُمَارة بما لا يُوثَقُ به.

فوالله إني لفي ذلك الحديث، إذ طلع رسولُ عُمَارة بمائة ألف درهم، ورسولُ صاحب المصلى بمائة ألف درهم، ورسول مبارك التركي بمائتي ألف درهم، فجمعنا في يومين ألفي ألف درهم، وبقِيَتْ ثلاثمائة ألف درهم، فتعذَّر ذلك، فوالله إني لمارّ بالجسر مهمومًا مغمومًا، إذ وَثَب إليَّ زاجرٌ، فقال: قف أخبرك، فلم ألتفت إليه، فلحقَني وتعلقَ بي، فقلت: وَيْحك! اذهبْ عني، فإني مشغولٌ عنك، فقال: أنت والله مهموم، والله ليُفرجنَّ همك، ولتمرنّ غدًا في هذا

---

(١) الزجر: العيافة والتكهن. (٢) المحاسن والمساوىء: ٣٤٩.

(٣) جبهه: رده عن حاجته واستقبله بما يكره.

(٤) عمارة بن حمزة: من الولاة الأجواد الشعراء جمع له بين ولاية البصرة وفارس والأهواز والرمة والبحرين، وله في الكرم أخبار عجيبة، وتوفي نحو سنة ١٨٠ هـ.

الموضع واللواءُ بين يديك، فأقبلتُ أعجب من قوله، فقال لي: إن كان ذلك فلي عليك خمسةُ آلاف درهم! قلت: نعم! ولو قال خمسين ألف درهم لقلت: نعم؛ لِبُعْدِ ذلك عني!

ثم مضيتُ؛ فوالله ما انصرفتُ حتى وردَ على المنصور الخبرُ بانتقاض أَمْرِ الموصل، وانتشار الأكراد بها؛ فقال المنصور: ويحكم؟ مَنْ لها؟ ـ وكان المسيّبُ[1] بن زُهير عند المنصور. وكان صديقًا لخالد ـ فقال: عندي ـ والله ـ مَنْ يكفيكه، وأنا أعلمُ أنك ستلقاني بما أكره، ولكني لا أَدَعُ على حالٍ نُصْحَك! فقال المنصور: ويحك! قل، فلستُ أردّ عليك. قال: يا أمير المؤمنين، ما ترميها بمثل خالد! فقال المنصور: ويحك! وتراه يصلُهُ لنا بعد ما آتيناه به؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وأنا زعيمه بذلك، والضامنُ عليه.

فتبسمَ المنصورُ، وقال: صدقتَ. والله ما لها غيرُه، فليحضر غدًا! فأُحْضِر، فصفح عما بقي عليه، وعقد له.

قال يحيىٰ: فمرَزْنَا واللهِ بالزاجر واللواءُ بين يديّ، فلما رآني قال: أنا هٰهنا أنتظرك منذ غُدوة.

فتبسمتُ إليه وقلتُ: امضِ، فمضى معي، ودفعتُ إليه خمسة آلاف الدرهم!

وُفودُ الفَارابِي عَلَى سَيْف الدَّولة[2]

نزل أبو نَصْر الفارابي[3] بدمَشْق، ودخل على سيف الدولة[4] بن حَمْدان، وهو إذ ذاك سلطانها، ووقف بين يديه؛ فقال له سيفُ الدولة: اجلس! قال: أَجْلِس حيث أنا أو حيث أَنْتَ؟ فقال: حيث أنت.

فتخطّى رقابَ الناس حتى انتهى إلى مُسند[5] سيفِ الدولة، وزاحمه فيه، حتى أخرجه عنه.

---

(١) كان المسيب بن زهير على شرطة المنصور والمهدي العباسيين، وتوفي ببغداد سنة ١٧٥ هـ.

(٢) ثمرات الأوراق للحموي: ٩٧.

(٣) نشأ الفارابي بالشام واشتغل فيها، وكان فيلسوفًا كاملًا، بارعًا في كل فن، وألّف كتبًا كثيرة في مواضع لم يسبقه إليها أحد، توفي سنة ٣٣٩ هـ.

(٤) سيف الدولة: هو علي بن عبد الله، صاحب المتنبي وممدوحه. وهو أول مَن ملك حلب من بني حمدان، توفي سنة ٣٥٦ هـ.

(٥) كل شيء أسندت إليه شيئًا فهو مسند بالضم؛ وكذلك ما يسند إليه يسمى مسندًا بكسر الميم.

وكان على رأس سيف الدولة مماليكُ؛ وله معهم لسانٌ خاص يسارُهم به؛ فقال لهم بذلك اللسان: إن هذا الشيخَ قد أساء الأدب؛ وإني سائلُه عن أشياء، إن لم يعرفْها فاخرجُوا به!

فقال له أبو نَصْر بتلك اللغة: أيها الأمير؛ اصبر؛ فإن الأمورَ بعواقبها. فعجِبَ سيفُ الدولة منه، وعَظُم عنده.

ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين في كل فن، فلم يزل كلامُه يعلو وكلامُهم يسفل، حتى صمَتُوا، وبقيَ يتكلم وحده.

ثم أخذوا يكتبون ما يقول؛ فصرفهم سيفُ الدولة، وخَلَا به، فقال له: هل لك في أن تأكلَ؟ قال: لا؛ قال: فهل لك أن تشرَب؟ قال: لا. فقال: هل تسمع؟ قال: نعم.

فأمر سيفُ الدولة بإحضار القِيَان، فحضر كلُّ ما هو في الصَّنْعة، فخطَّأ الجميع، فقال له سيفُ الدولة: هل تحسنُ هذه الصنعةَ؟ قال: نعم.

ثم أخرج من وَسطِه خريطة[١] ففتحها، فأخرج منها عيدانًا وركَّبها، ثم لعب بها؛ فضحك كلُّ مَن في المجلس؛ ثم فكّها وركبها تركيبًا آخر؛ فبكى كلُّ مَن في المجلس؛ ثم فكّها وغير تركيبها، فنام كلُّ مَن في المجلس، فتركهم نيامًا وخرج!

صَحِيفَة المتَلَمِّس[٢]

وفد المُتَلَمِّسُ[٣] هو وابن أخته طَرفة بن العبد[٤] على عمرو بن هِند[٥]، فنزلا منه في خاصَّته، وكانا يركبان معه للصيد، فيركضانِ طولَ

(١) الخريطة: مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تشد على ما فيها بالعرا.

(٢) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٣٧٤، مجمع الأمثال: ١ ـ ٣٦٤.

(٣) المتلمس: لقب غلب عليه، واسمه جرير، وهو خال طرفة بن العبد، من شعراء الجاهلية المقلين وضعه، ابن سلام في الطبقة السابعة من شعراء الجاهلية.

(٤) طرفة: هو أبو عمرو، طرفة بن العبد البكري، أحد فحول شعراء الجاهلية. مات أبوه وهو صغير. وربّاه أعمامه، ومال إلى البطالة وقول الشعر، ومات ولم تزد سنّه على ست وعشرين سنة.

(٥) عمرو بن هند: آل إليه الملك بعد قتل أبيه، وقد ولي إمارة الحيرة من سنة ٥٦٣ ـ ٥٧٨ م.

النهار، فيتعبان، وكان يشربُ فيقِفان على بابه النهار كلّه لا يصلان إليه؛ فضجر طرفة فقال فيه:

فليتَ لنا مكانَ الملكِ عَمْرو ... رَغُوثًا[١] حَوْلَ قبّتنا تخور

وكان طَرفة عدوًّا لابن عمه عبد عمرو ـ وكان كريمًا على عمرو بن هند ـ فهجاه طَرَفة فقال:

ولا خيرَ فيه غيرَ أنَّ له غنًى ... وأن له كَشْحًا إذا قام أَهْضما[٢]

تظَلُّ نساء الحيِّ يعكُفن حولَه ... يقُلْنَ عَسِيبٌ من سرَارة مَلَهَما[٣]

فهمَّ عمرو بقتل طرَفة، وخاف من هجاء المتلمس له؛ لأنهما كانا خليلين، فقال لهما: لعلَّكما قد اشتقتُما لأهلِكما، وسرَّكما أن تنصرفا! فقالا: نعم! فكتب لهما بصحيفتين وخَتَمهما، وقال لهما: اذهبا إلى عاملي بالبحرين، فقد أمرتُه أن يَصِلكما بجوائز!

فذهبا فمرّا في طريقهما بشيخ لم يرُقْهما أمرُه؛ فقال المتلمّس: ما رأيت شيخًا كاليوم أحمقَ من هذا! فقال الشيخ: ما رأيتَ من حمقى؟ وإنّ أحمق منّي مَنْ يحمل حَتفَه بيده، وهو لا يدري!

فاسْتَراب[٤] المتلمّس بقوله، وطلع عليهما غلامٌ من أهل الحيرة، فقال المتلمّس: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم! ففضّ الصحيفةَ، وقرأها فإذا فيها:

«إذا أتاك كتابي مع المتلمس فاقطعْ يديه ورجليه وادّفنه حيًّا»!

فقال لطرفه: ادفعْ إليه صحيفتك، فإنّ فيها مثلَ هذا! فقال: كلا! لم يكن ليجترىء عليّ فقذف المتلمسُ بصحيفته في نهر الحيرة، وقال:

وأَلْقيتُها بالثِّني من جَنْب كافرٍ[٥] ... كذلك أَقْنُو[٦] كلَّ قِطّ مُضلَّلِ

رضيت لها بالماء لما رأيتُها ... يجولُ بها التيَّار في كلّ جَدْوَلِ

---

(١) الرغوث: كل مرضعة. وتخور: تصيح. (٢) الكشح: الخصر، والأهضم: الدقيق.

(٣) العسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها، وسرارة الروضة: خير منابتها. وملهم: موضع كثير النخل، شبه كشحه الأهضم بجريدة نخل من خيار نخل هذا المكان.

(٤) استراب: شك. (٥) كافر: نهر بالجزيرة.

(٦) أقنو: أجاري وأكافىء، والقط: الصك (لسان العرب ـ مادة قنا).

ثم مضى المتلمّس حتى لحق بملوك بني جَفْنة بالشام؛ وذهب طرَفة إلى عامل البَحْرين، فأعطاه صحيفته، ففصده من أكْحَلِه؛ فَنَزَفَ[١] حتى مات!

إن العَصَا قُرِعَت لِذي الحِلْم[٢]

لقي النعمانُ بن المنذر سعدَ بن مالك، ومعه خيل بعضُها يُقاد، وبعضها أَعْرَاء مُهملة، فلما انتهى إلى النعمان سأله عنها، فقال سعدٌ: إني لم أَقُدْ هذه لأمْنعها، ولم أعَرِّ هذه لأضيِّعها[٣].

فسأله النعمان عن أرضه: هل أصابه غَيْثٌ يحمد أثره، ويروي شجره؟ فقال سعد: أمّا المطر فغزير، وأما الورق فشكير[٤]، وأما النافذة فساهرة[٥]، وأما الحازرة[٦] فشَبعى نائمة.

فقال النعمان ـ وحسده عَلَى ما رأى من ذَرَب لسانه: وأبيك إنك لمفوَّةٌ، فإن شئتَ أتيتُك بمَا تعيا عن جوابه. فقال: شئت، إن لم يكن منك إفراط.

فأمر النُّعمان وَصيفًا فلَطمه ـ وإنما أراد أن يتعدّى في القول فيقتله ـ فقال: ما جوابُ هذه؟ فقال سعد: سفيهٌ مأمور[٧]؛ قال النعمان للوصيف: الْطمه أخرى. فلطمه؛ وقال: ما جواب هذه! قال: لو نُهيَ عن الأولى لم يَعُدْ للأخرى.

فقال النعمان: الْطمه أخرى ففعل. فقال: ما جواب هذه؟ فقال: ربٌّ يؤدبُ عبدَهُ. فقال: الْطِمه أخرى، ففعل. فقال: ما جواب هذه؟ فقال: ملكتَ فأسجِحْ[٨]؛ فقال النعمان: أصبتَ فاقعد؛ فمكث عنده ما مكث.

ثم بدا للنعمان أن يبعثَ رائدًا يرتادُ له الكلأ؛ فبعث عمرو بن مالك أخا سعد بن مالك، فأبطأ عليه فأغضبه ذلك. فأقسم لئن جاء حامدًا للكلأ أو ذامًّا ليقتلنَّه.

---

(١) نزف دمه: سال حتى أفرط. والأكحل: عرق في اليد يفصد.
(٢) الأمثال: ١ ـ ٣٣، بلوغ الأرب ١ ـ ٣٣. (٣) لأهبها.
(٤) شكير: صغير لم يكبر. (٥) النافذة: التي نفذت من الهزال.
(٦) الحازرة: حزرة المال: خياره. (٧) سارت أمثالاً.
(٨) الإسجاح: حسن العفو.

فلما قدم عمرو دخل على النعمان؛ وعنده الناس وسَعْدٌ قاعدٌ لديه مع الناس، وكان قد عرف ما أقسم به النعمان من يمينه؛ فقال سعد: أتأذنُ لي فأُكلّمه؟ قال: إن كلّمتَه قطعتُ لسانك. قال: فأُشير إليه؟ قال: إن أشرتَ إليه قطعت يدك. قال: فأُومي إليه؟ قال: إذن أنزع حدقتيْك. قال: فاقرع له العصا؟ قال: اقرعْ.

فتناول عصا من بعض جلسائه فوضعها بين يديه؛ وأخذ عصاه التي كانت معه وأخوه قائم؛ فقرع بعصاه العصا الأخرى قرعة واحدة، فنظر إليه أخوه، ثم أومأ بالعصا نحوه، فعرف أنه يقول له: مكانك، ثم قرع العصا قرعةً واحدة؛ ثم رفعها إلى السماء، ثم مسح عصاه بالأخرى؛ فعرف أنه يقول: قل له: لم أجد جدبًا. ثم قرع العصا مرارًا بطرف عصاه ثم رفعها شيئًا؛ فعرف أنه يقول: ولا نباتًا. ثم قرع العصا قرعة، وأقبل بها نحو النعمان، فعرف أنه يقول: كلّه.

فأقبل عمرو بن مالك حتى وقف بين يدي النعمان. فقال له النعمان: هل حَمدْت خِصْبًا، أو ذممت جَدبًا؟ فقال عمرو: لم أذمم جدبًا، ولم أحمد بقْلًا، الأرض مُشكلة لا خصبها يُعرف، ولا جدبها يوصف، رائدها واقف، ومنكرها عارف؛ وآمنها خائف.

فقال النعمان: أولى لك! بذلك نجوتَ، فنجا!

فِطـرَة[1]

اجتمع المهاجرون والأنصار عند رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: وعيشِك يا رسولَ الله ما سجدتُ لصنم قطّ، فغضب عمر بن الخطاب، وقال: تقولُ: وعيشك يا رسول الله ما سجدتُ لصنم قط، وقد كنت في الجاهليّة كذا وكذا سنة؟ فقال أبو بكر: ذلك أني لما ناهزتُ الحلم أخذني أبو قحافة[2] بيدي، فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشمّ العوالي، فاسجدْ لها، وخلّاني وذهب.

فدنوتُ من الصنم، وقلتُ له: إني جائع فأطعمني، فلم يُجبني. فقلت: إني عطشان فاسقني، فلم يجبني. فقلتُ له: إني عارٍ فاكْسُني. فلم يجبني. فأخذتُ

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٤٢.

(٢) أبوه.

صخرة، وقلت: إني مُلْقٍ هذه الصخرةَ عليك، فإن كنت إلـهًا فامْنع نفسك، فلم يجبني. فألقيت عليه الصخرةَ، فخرَّ لوجهه، فأقبلَ والدي، وقال: ما هذا يا بني؟ فقلتُ: هو الذي ترى!

فانطلق بي إلى أمّي؛ فأخبرها؛ فقالت: دَعْه فهذا الذي ناجاني به الله! فقلتُ: يا أمّاه، ما الذي ناجاك به الله؟ فقالت: ليلة جاءني المخاض لم يكن عندي أحد؛ فسمعتُ هاتفًا يهتف، فأسمع الصوت ولا أرى الشخص؛ وهو يقول: يا أمةَ الله، أبشري بالولد العتيق، اسمه في السماء صديق!

حَدِبٌ عَلى إخوَتِه[١]

لما ولد لسعيد بن العاص[٢] عَمْرٌو، وترعرع[٣]، تفرّس فيه النجابة، وكان يفضّله على ولده، فجمع بنيه - وكانوا يومئذ أكثر من خمسةَ عشرَ رجلًا - ولم يعدُ عمرًا معهم؛ وقال: يا بَنيّ، قد عرفتم خِبْرَة الوالد بولده، وإن أخاكم عمرًا لذو همة واعدة[٤]، يسمو جَدّه؛ ويبعد صيته، وتشتدّ شكيمتُه، وإنّي آمركم إن نزل بي من الموت ما لا محيص عنه أن تُظَاهُروه وتوازِروه وتعزّزوه، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألَّف بكم الكرام، ويخسأ[٥] عنكم اللئام، ويلبسكم عِزًّا لا تنهجُه[٦] الأيّام.

فقالوا جميعًا: إنك تُؤْثره علينا، وتحابيه دوننا. فقال: سأريكم ما ستَره البغي عنكم؛ وصرفهم ثم أمهلهم، حتى ظَنّ أن قد ذَهِلوا عمّا كان.

وراهق عمرو البلوغ، واستدعاهم دونه، فلما حضروا قال: يا بَنيَّ؛ ألم تروا إلى أخيكم عمرو، فإنه لا يزال يُلْحِفُ في مسألتي مالي، فأُحْسِن عليه لصغره، إلى أن ستثبت أن أمه باعثته على ذلك، فزجرتُها فلم تكُفّ، وقد جاء يسألني الصَّمْصَامة[٧] كأن لا ولد لي غيره، وقد عزمتُ على أن أقَسِّم مالي فيكم دونه!

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٩٩.

(٢) سعيد بن العاص: صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين، ولاه عثمان الكوفة وهو شاب، وكان قويًا فيه تجبر وشدة، توفي سنة ٥٩ هـ.

(٣) ترعرع: شب.

(٤) رجي خيرها، ويقال شجرة واعدة: إذا ظهر لرائيها أن قد حان إثمارها.

(٥) يخسأ: يبعد ويطرد. (٦) لا تخلقه.

(٧) الصمصامة: يريد سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي يضرب به المثل، وكان فيما يقال قد صار إلى سعد بن العاص.

فقالوا كلّهم: يا أبانا، هذا عملُك بإيثارك له علينا، واختصاصك إيّاه دوننا.

فقال: يا بنيّ؛ والله ما آثرته دونكم بشيء من مالي قطّ، وما كان ما قلته لكم إلا اختلافًا، تساهلت فيه لمَا أمّلته من صلاح أمركم.

ثم قال: ادخلوا المخْدع. فدخلوا، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره، فلما حضر قال: يا بُنيّ؛ عليك حَدِب مُشْفِق لصغر سنك، ونفاسة إخوتك على مكانك إني مني، وإني لا آمنُ بغتةَ الأجل، ولي كنزٌ ادّخرْته لك دون إخوتك، وهأنذا مُطْلِعُك عليه؛ فاكتم أمره.

فقال: يا أبت؛ طال عمرك، وعلا أمرك، وإني لأرجو أن يطيلَ بك الإمتاع، فأما ما ذكرته من شأن الكنز؛ فما يعجبني أن أقطعَ دون إخوتي أمرًا، وأزدرع في صدرهم غَمْرًا[1].

فقال: انصرف يا بُنيّ، فِدَاك أبوك! فوالله مالي من كنز، ولكني أردتُ أن أَبلُوَ رأيك في إخوتك؛ وبني أبيك.

فانطلق عمرو، وخرج إخوته من المخدع، فاعتذروا إلى أبيهم وأعطَوْه موْثقًا على اتّبَاع مشورته!

فِرَاسَــة أعرَابي[2]

قال أبو السَّمْراء:

خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجّهين إلى مصر، حتى إذا كنّا بين الرَّمْلَة[3] ودمشق إذا نحن بأَعْرابيّ قد اعترض، فإذا شيخٌ فيه بقيّة، على بعير له أوْرَق[4]، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام، وكان معنا إسحٰق بن إبراهيم الرافقي، وإسحٰق بن أبي ربعيّ، ونحن نسايرُ الأمير، وكنا يومئذ أفْرَه[5] من الأمير دَوَابَّ، وأجودَ منه كُسًا[6].

(١) الغمر: الضغن والحقد. (٢) عصر المأمون: ١ ـ ٤١٣.
(٣) الرملة: خمسة مواضع، أشهرها بلد بالشام.
(٤) الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد، هو من أطيب الإبل لحمًا لا سيرًا.
(٥) دابة فارهة: نشيطة حادة قوية. (٦) جمع كسوة.

فجعل الأعرابيّ ينظرُ في وجوهنا، فقلت: يا شيخُ؛ قد ألححتَ في النظر! أعرفتَ شيئًا أم أنكرته؟ قال: لا، والله ما عرفتكم قبل يومي هذا، ولا أنكرتكم لسوءٍ أراه فيكم؛ ولكنّي رجلٌ حسنُ الفِرَاسة في الناس، جيّدُ المعرفة بهم؛ فأشرتُ له إلى إسحٰق بن أبي رِبْعيّ، فقلت: ما تقول في هذا؟ فقال:

أرى كاتبًا دَاهِي الكتابة بينٌ   عليه وتأديبُ العراق منيرُ
له حركاتٌ قد يشاهدْنَ إنه   عليم بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحٰق بن إبراهيم الرافقي، فقال:

ومُظهر نُسْكٍ ما عليه ضميره   يحبُّ الهدايا بالرجال مَكور
إخال به جبنًا وبُخْلًا وشيمةً   تُخبّر عنه إنه لَوَزِير

ثم نظر إليّ؛ وأنشأ يقول:

وهذا نديمٌ للأمير ومُؤنس   يكونُ له بالقرب منه سرورُ
وأحسبه للشعرِ والعلم راويًا   فبعض نديم مرةً وسميرُ

ثم نظر إلى الأمير؛ وأنشأ يقول:

وهذا الأمير المرتجى سَيْبُ[1] كَفِّه   فما إن له فيمن رأيتُ نظيرُ
عليه رداءٌ من جمال وَهَيْبَةٍ   ووجهٌ بإدراك النجاح بشير
لقد عُصِمَ الإسلامُ منه بذائد[2]   به عاش معروفٌ ومات نكيرُ
ألا إنما عبد الإلٰهِ بن طاهر   لنا والدٌ برٌّ بنا وأمير

فوقع ذلك مِن عبد الله أحسنَ موقع، وأعْجبه ما قال الشيخ، فأمر له بخمسمائة دينار، وأمره أن يصحبه!

البُحْتُرِي وَأبو تَمّام[3]

حدَّثَ البُحْتُريّ[4] قال: أول ما رأيتُ أبا تمام[5] أنّي دخلتَ على أبي سعيد

(١) السيب: العطاء. (٢) الذائد: الحامي.
(٣) الأغاني: ١٨ ـ ١٦٩.
(٤) هو الوليد بن عبادة الطائي، كان شارعًا مطبوعًا، قيل: إنه أشهر مَن استحق لقب شاعر بعد أبي نواس. مات سنة ٢٨٤ هـ.
(٥) هو حبيب بن أوس، كان يعد رأس الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين، ولّاه الحسن بن وهب=

محمد بن يوسف، ود مدحتُه بقصيدة فسُرَّ أبو سعيد، وقال: أحسنت يا فتى، وأجدتَ!

وكان في مجلسه رجلٌ نبيلٌ رفيعُ المجلس فوق مَن حضر عنده تكاد تمسُّ ركبتُه ركبتَه فأقبلَ عليَّ، ثم قال: يا فتى؛ أمَا تَسْتَحِي مني! هذا شعرٌ لي تَنْتَحِله وتنشدُه بحضرتي! قال أبو سعيد: أحقًّا تقول؟ قال: نعم! وإنما أخذه منّي فسبقني به إليك وزاد فيه. ثم اندفع فأنشد أكثر هذه القصيدة حتى شكّكني - علم الله - في نفسي وبقيتُ متحيّرًا.

فأقبل عليّ أبو سعيد فقال: يا فتى؛ قد كان في قرابتك لنا وودِّنا لك ما يغنيك عن هذا! فجعلتُ أحلفُ له بكل مُحْرِجة من الأيمان أن الشِّعرَ لي ما سبقني إليه أحدٌ، ولا سمعته منه ولا انْتَحَلْته. فلم ينفعْ ذلك شيئًا.

وأطرق أبو سعيد، ثم دنا مني حتى تمنيْتُ أني سُخْتُ في الأرض؛ فقمت مُنْكَسِرَ البال أجرُّ رجليَّ وخرجت.

فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردُّوني. فأقبل عليَّ الرجل فقال: الشعرُ لك يا بنيّ، والله ما قلتُه قطّ، ولا سمعتُ إلا منك؛ ولكنني ظننتُ أنك تهاوَنتَ في موضعي؛ فأقدمتَ عَلَى الإنشاد بحضرتي، من غير معرفة كانت بيننا، تريدُ بذلك مضاهاتي ومكاثرتي حتى عرَّفني الأمير نسبك وموضعك. ولوَدِدت ألّا تلدَ أبدًا طائيّةٌ إلا مثلك.

وجعل أبو سعيد يضحك، ودعاني أبو تمام وضمَّني إليه وعانقني وأقبل يقرِّظُني. ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه، واقتدَيتُ به.

فِرَاسَة عَضد الدّولَة[1]

قدم رجل إلى بغداد للحجّ، وكان معه عِقد يساوي ألفَ دينار، فاجتهد في بيعه، فلم يَنْفُق[2]؛ فجاء إلى عطّار موصوف بالخير، فأودعه إياه، ثم حجَّ، وعاد، فأتاه بهدية، فقال له العطار: مَن أنت؟ وما هذا؟ فقال: أنا صاحب العِقد الذي أودعتك إياه؛ فما كلَّمه حتى رَفسهُ رَفسةً رماه عن دُكّانه، وقال: تدَّعي عليَّ مثل هذه الدعوى!

= بريد الموصل، فأقام بها إلى أن مات سنة ٢٣١ هـ.

(١) الأذكياء: ٣١.

(٢) نفق ينفق (بضم الفاء): إذا كثر مشتروه.

فاجتمع الناس، وقالوا للحاج: ويلك! هذا رجل خير، وما وجدت مَنْ تدَّعي عليه إلا هذا! فتحيّر الحاج وتردَّد إليه، فما زاده إلا شتمًا وضربًا. فقيل له: لو ذهبتَ إلى عضد الدولة؛ فله في هذه الأشياء فراسة!

فكتب قصته، ورفعها لعضد الدولة، فصاح به فجاء، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة، فقال: اذهب إلى العطَّار بكْرة، واقعد على دكَّته[1]، فإن منعك فاقعد على دكةٍ تقابله من بُكرة إلى المغرب ولا تكلمه، وافعل هكذا ثلاثة أيام، فإني سأمرُّ عليك في اليوم الرابع، وأقفُ وأسلّم عليك، فلا تقُم لي ولا تزِدْني على ردّ السلام، وجوابِ ما أَسْأَلُكَ عنه، فإذا انصرفتُ فأعِدْ عليه ذكر العقد، ثم أعلمني ما يقولُ لك، فإن أعطاكه فجيء به إليَّ.

فجاء إلى دُكّانِ العطار ليجلس فمنعه، فجلس على دكّةٍ تقابله ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع اجتاز عضُد الدولة في موكبه العظيم؛ فلما رأى الخراسانيَّ وقف وقال سلامٌ عليكم؛ فقال الخراساني ـ ولم يتحرَّك: وعليكم السلام. فقال: يا أخي؛ تقدمُ فلا تأتي إلينا ولا تعرضُ حوائجك علينا! فقال: كما اتفق، ولم يشبعه الكلام، وعَضد الدولة يسأله، ويُحفى[2] وقد وقف، ووقف العسكر كله، والعطّار قد أُغمي عليه من الخوف.

فلما انصرف التفت العطار إليه. فقال: ويحك! متى أودعتني هذا العقد؟ وفي أيّ شيء كان ملفوفًا؟ فذكّرني لعلي أذكره؛ فقال: مِنْ صفته كذا وكذا، فقام وفتش، ونفض جرّةً عنده، فوقع العقد، فقال: قد نسيتُ، ولو لم تذكّرني الحال ما ذكرت؛ فأخذ العقد، ثم قال: وأي فائدة لي في أن أعلم عضد الدولة؟ ثم قال في نفسه: لعله يريدُ أن يشتريه! فذهب إليه فأعلمه، فبعث به مع الحاجب إلى دُكان العطار، فعلق العقد في عُنق العطّار، وصلبه بباب الدكان، ونودي عليه: هذا جزاء مَن استودع فجحد[3]، فلمّا ذهب النهار أخذ الحاجب العقد، فسلّمه إلى الحاج، وقال: اذهب به!

---

(١) الدكة: بناء يسطح أعلاه للقعود.
(٢) أحفى السؤال: ردده.
(٣) جحد: أنكر.

الباب الحادي عشر

قصص الجن والشياطين

في خلق الجن وصفاتهم

قال في المستطرف[1]: رُوِيَ عن الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب أنه قال: قرأت في بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نار السموم وخلق من مارجها خلقًا سمّاه جانًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: الآية ٢٧] وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٥] وقيل: إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، والجان من لهبها والشياطين من دخانها، وقد جاء في بعض الأخبار أن نوعًا من الجن في قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكانًا في الأرض قد طبقوها برًا وبحرًا، سهلًا وجبلًا، وكان فيهم الملك والنبوة والدين والشريعة، وكانوا يطيرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خبر ما في السماء، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جندًا من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أممًا كثيرة.

قبائل الجن وطرد إبليس

ذكر المسعودي أن الفرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم مَن يسترق السمع، ومنهم مَن ينط مع لهب النار، ومنهم مَن يطير، ولكل قبيلة ملك، وكان من جملتهم إبليس لعنه الله، ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا وملكوا عليهم ملوكًا، وأقاموا على ذلك مدة طويلة.

---

(١) المستطرف: ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤.

ثم تحاسدوا على الملك، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ويختلط بالملائكة، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة، فهزم الجن، وقتلهم، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد بل يلقح كالطير، ويبيض ويفرخ قيل: إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان، فيسلّطهم على الخلق، وأقربهم إليه وأدناهم منه، ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق. وفي الحديث: إن إبليس لعنه الله قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وطردتني وجعلتني رحيمًا فاجعل لي مسكنًا قال: مسكنك الأسواق قال: فاجعل لي طعامًا، قال: ما لم يذكر اسمي عليه. قال: فاجعل لي شرابًا قال: كل مسكر. قال: فاجعل لي مؤذنًا. قال: المزامير. قال: فاجعل لي صيدًا، أو قال مصائد قال: النساء.

في مكايده لعنه الله

منها: أنه كان في بني إسرائيل عابد يدعى برصيصًا وله جار له بنت فحصل لها مرض، فقال له جيرانه: لو حملتها إلى جارك برصيصًا ليدعو لها، قال: فجاء إبليس إلى العابد، وقال: إن لجارك عليك حق الجوار، وإن له بنتًا مريضة، فما ضرك لو جعلتها عندك في جانب البيت ودعوت الله لها عقب عبادتك، فعسى أن تشفى من مرضها.

قال: فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد: دعها وانصرف. قال: فتركها عنده مدة حتى شفيت، فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها، فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه الله فقال له: اقتلها لئلا تفتضح قال: فقتلها، ودفنها. قال: فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك، فجاؤوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه، فعارضه إبليس اللعين في الطريق، فقال له: إن سجدت لي خلصتك منهم، فسجد له، فعند ذلك تبرّأ منه ومات الرجل كافرًا.

ومن ذلك ما اتفق أن بني إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها، فعارضه إبليس لعنه الله، وقال له: تركت عبادتك

وجئت لشيء لا يعود عليه نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه، فصرعه العابد، وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك في كل يوم إلى ثلاثة إيام، فلما رآه لا يرجع قال له: اترك قطعها، وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك، وعاهده على ذلك، فرجع. قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم دينارين، ثم قطع ذلك عنه. فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة، فعارضه إبليس في الطريق، وتحاور معه، وتجاذبا، فصرعه إبليس وجلس على صدره، وقال له: إن لم ترجع عن قطعها، وإلا ذبحتك، فقال له العابد: خل عني، وأخبرني كيف غلبتني، فقال له: لما غضبت لله غلبتني، ولما غضبت لنفسك غلبتك.

ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محل استيفائها. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٠].

في المتشيطنة وهم أنواع كثيرة

منها: الولهان يوجد في جزائر البحار على صورة الإنسان.

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب، وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم، وأخذ بعض مَن في المركب.

ومنها السعلاة يُحكَى أن صنفًا منها يتزيَا بزيّ النساء، ويتراءى للرجال.

وحُكِيَ أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولادًا ذكورًا وإناثًا، فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح، فنظرت، فرأت نارًا من بعد عند الجبانة، فاضطربت، وقالت: ألم تر نيران السعالى، وتغيّر لونها، وقالت: بنوك وبناتك أوصيك بهم خيرًا، ثم طارت ولم تعد إليه.

ومنها نوع يقال له: المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم.

وحُكِيَ أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها، فأتاه شخص بسراج وطعام، فتعجب العابد من ذلك، فقال له شخص بالصومعة: إنه المذهب يريد أن يخيل

لك أن ذلك من كرامتي، والله إني لأعلم أنه شيطان، وقال بعض الصوفية: المذهب أصناف منهم مَن يحمل الفانوس بين يدي الشيخ، ومنهم مَن يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم مَن ينشد الشعر.

ومن حكاياتهم

وقال بعض المسافرين: أبق لي غلام، فخرجت في أثره، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجرير، قال: فدنوت منهم، وسلّمت عليهم، فقالوا: ألك حاجة؟ فقلت: لا، فقال بعضهم: تريد غلامك قلت: وما أعلمك بغلامي؟ قال: كعلمي بجهلك، قلت: أوَ جاهل أنا؟ قال: نعم، وأحمق.

قال: ثم غاب وأتاني بالغلام مقيّدًا، فلما رأيته غشي عليَّ، فلما أفقت قال: أنفخ في يده، ففعلت، فانفرج القيد عنه وصرت لا أنفخ في شيء من ذلك ولا في وجع من الأوجاع إلا برىء وخلص صاحبه.

ومنها نوع يقال له: العفريت يخطف النساء، يقال: إن رجلًا اختطفت ابنته في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

وقال بعض المسافرين: بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لي قضاء الحاجة، فانفردت عن رفقتي، وضللت عنهم، فبينما أنا سائر في أثرهم إذ رأيت نارًا عظيمة وخيمة، فجئت إلى جانبها، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها، فسألتها عن حالها، فقالت: أنا من فزارة اختطفني عفريت يقال له ظليم وجعلني هٰهنا، فهو يغيب عني بالليل، ويأتيني بالنهار، فقلت لها: امضي معي، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا، فيأخذني ويقتلك، فقلت: لا يستطيع أخذك ولا قتلي، وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت، فأنخت لها ناقتي، فركبتها، وسرت بها حتى طلع الفجر، فالتفت، فإذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان في الأرض، فقالت: ها هو قد أتانا، فأنخت ناقتي وخططت حولها خطًا، وقرأت آيات من القرآن، وتعوّذت بالله العظيم، فتقدم وأنشد يقول:

يا ذا الذي للحين يدعوه القدر
خل عن الحسناء ثم سرْ
وإن تكن ذا خبرةٍ فينا اصطبر(١)

(١) الحين: الموت والقضاء. وخل: أي تخلى عنها. ورسلًا: رفقًا وتحببًا، وعلى رسلك: =

قال، فأجبته:

يا ذا الذي للحين يدعوه الحمق

خل عن الحسناء رسلًا وانطلقْ

ما أنت في الجنّ بأوّل من عشق

قال: فتبدّى لي في صورة أسد، وجاذبني وجاذبته ساعة، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس مني قال: هل لك في جز ناصيتي، أو إحدى ثلاث خصال؟ قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخدمك أيام حياتي، أو ألف دينار الساعة، وخلٍّ بيني وبين الجارية، فقلت: لا أبيع ديني بدنياي، ولا حاجة لي بخدمتك، فاذهب من حيث أتيت. قال: فانطلق، وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها، وتزوجت بها، وجاءني منها أولاد.

وقيل: لما سخّر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام: أيها الجن أجيبوا نبيّ الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى، قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والغيران والأودية والفلوات والآجام وهم يقولون: لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعي للغنم حتى حشرت بين يدي سليمان عليه الصلاة والسلام طائعة ذليلة، وكانوا إذ ذاك أربعًا وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها، فإذا هي سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس أسد وبدنه بدن الفيل، ومنهم مَن له خرطوم وذنب، ومنهم مَن له قرون وحوافر، وغير ذلك من الأنواع. قال: فعند ذلك تعجّب نبيّ الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال، وسجد شكرًا لله تعالى، وقال: إلـٰهي ألبسني هيبة من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم، وهم يجيبونه، ثم فرّقهم في الصنائع: من قطع الصخور والأحجار والأشجار والغوص في البحار، وأبنية الحصون، وفي استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [صَ: الآية ٣٩].

= أي تمهل.

في ذكر عجائب المخلوقات

قال الشيخ عبيد الله، صاحب كتاب تحفة الألباب:

دخلت إلى باشقرد[١] فرأيت قبور عاد فوجدت سنَّ أحدهم طوله أربعة أشبار كلوح الرخام ـ قال: ولقد رأيت في بلغار سنة ٥٣٠ هـ من نسل عاد رجلًا طويلًا، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعًا كان يسمَّى دنقي أو دبقي. كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير. وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل.

وكان هذا العملاق قد اتخذ له درعًا تحمل على عجلة، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله.

وكان خيِّرًا متواضعًا، وكان إذا لقيني يسلم عليَّ ويرحب بي ويكرمني. وكان رأسي لا يصل إلى ركبته، رحمه الله تعالى.

وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات في بلغار. وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، وكان أقوى أهل بلده. قيل: إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته[٢].

عَوْج بن عَنَق

ورُوِيَ أن عوج بن عنق كان من أحسن الناس وأجملهم، إلا أنه كان لا يوصف طوله. قيل: كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعًا. وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطَّى أحدكم الجدول الصغير وعمَّره الله دهرًا طويلًا حتى أدرك موسى (ع). وكان جبارًا في أفعاله يسير في الأرض برًّا وبحرًا ويُفسد ما شاء.

ويقال: إنه لما حُصِر بنو إسرائيل في التِّيه، ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم، فبعث الله طيرًا في منقاره حجر مدوَّر فوضعه على الحجر الذي على رأسه فانثقب من وسطه وانخرق في عنقه.

---

(١) باشقرد: بلاد بين القسطنطينية وبلغار. (٢) المستطرف: ٢/١٥٩.

وأخبر الله عزّ وجلّ موسى بذلك، فخرج إليه وضربه بعصاه فقتله.

ويقال: إن موسى كان طوله عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع. وقفز في الهواء عشرة أذرع، وضرب عوج بن عنق، فلم يصل إلى عرقوبه! فتبارك الله أحسن الخالقين.

عَنَق أمُّ عوج بن عنق

وقيل: إن أم عوج اسمها عَنَق بنت آدم (ع). وكانت مفردة بغير أخ. وكانت مشوهة الخلقة لها رأسان، وفي كل يد عشرة أصابع، ولكل إصبع ظفران كالمنجلين. وقيل: هي أول مَن بغى في الأرض، وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي، واستخدم الشياطين. وصرفهم في وجوه السحر. وكان قد أنزل الله على آدم أسماء عظيمة يرد الشياطين بها، وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها. فغافلتها عنق وسرقتها واستخدمت بها الشياطين، وتكلّمت بشيء من الكهانة فدعا عليها آدم، وأمنت على ذلك حواء، فأرسل الله عليها أسدًا أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها، وذلك بعد ولادتها عوجًا بسنتين[١].

قومٌ يرون الجنّ

قال ابن الأعرابي:

قال لي أعرابي مرةً ـ وقد نزلت عندهم: ما أطيب ماءكم هذا، وأعذى[٢] منزلكم! قلت: نعم؛ وهو بعيد من الخير كلِّه، بعيدٌ من العراق واليمامة والحجاز، كثير الحيَّات، كثير الجَان. فقلت: أترون الجن؟ قال: نعم، مكانهم في هذا الجبل ـ وأشار بيده إلى جبل يقال له: سُواج ـ ثم حدَّثني بأشياء[٣].

. . . ويسمعون حِسَّها

قال عبيد بن أوس الطائي في أخت عَديٍّ بن أوس:

هل جاء أوسًا ليلتي ونعيمها ... ومقام أوسٍ في الخباء الحشرجِ[٤]

---

(١) المستطرف: ٢/١٥٩.

(٢) عذا البلد غدوًا: طاب هواؤه.

(٣) كتاب الحيوان: ٤ ـ ٧/٤١٨.

(٤) الخباء الحشرج: الذي ضُمّت أجزاؤه بعضها إلى بعض.

ما زلتُ أطوي الجن أسمع حِسَّهُم ... حتى دفعت إلى ربيبة هَوْدَج
فوضعت كفِّي عند مقطع خصرها ... فتنفست بهرًا ولمَّا تنهج[(١)]
فتناولت رأسي لتعرف مسَّهُ ... بمخضَّبِ الأطراف غير مشنَّج
قالت بعيشِ أخي وحرمةِ والدي ... لأنبهنَّ الحي إن لم تخرج
فخرجتُ خيفة قومها فتبسَّمتْ ... فعلمتُ أن يمينها لم تلجج[(٢)]
فلثمتُ فاها قابضًا بقرونها ... شرِبَ النزيف ببردِ ماءٍ مثلج[(٣)]

الجنّ تبني مدينة تدمر

كان أهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان (ع) بأكثر مما بيننا اليوم وبين سليمان فأما القوارير والحمامات، فذلك مما لا شكَّ فيه. وقال البَعيث[(٤)]:

بني زيادٌ لذكر الله مصنعةً ... من الحجارة لم تعمل من الطين
كأنها غير أن الإنس تعرفها ... مما بنتْ لسليمان الشياطين

وقال النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال الإلهُ لهُ ... قُمْ في البريَّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ[(٥)]
وخَيِّسِ الجنَّ إني قد أذِنْتُ لهم ... يبنون تدمُرَ بالصفَّاح والعَمَدِ[(٦)(٧)]

الحرقانة

كان وادي الجن من أرض الجوّ حرمًا عند العرب، لا ينزلونه أبدًا، حتى أتى رهط من بني حلوان بن لحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير، فنزلوه. فبينما هم نائمون في جوف الليل إذ سمعوا دويًا وهينمة، وناداهم منادٍ: «إنما هذا محرمُ الراهب وحمى أبرهة».

---

(١) تنفست بهرًا: انقطع نفسها من الإعياء. ونهج نهجًا ونهيجًا: تتابع نفسه من الإعياء.
(٢) أي لم تكن يمينًا كاذبة.
(٣) النزيف: العطشات حتى يبست عروقه وجفَّ لسانه.
(٤) هو خداش بن بشر بن خالد، المعروف بالبعيث المجاشعي. خطيب شاعر، من أهل البصرة توفي سنة ١٣٤ هـ/ ٧٥١ م.
(٥) الفَنَد: الباطل.
(٦) خيِّس الجن: ذلّلها وليّنها.
(٧) كتاب الحيوان: ٤ ـ ٧/ ٤١٨.

وأتتهم نار عظيمة فأكلت أموالهم، وأكلت أناسًا، فولَّوا هاربين، فسمي ذلك الموقع بالحرقانة.

والرابع: هو ملك من الجن تزوَّج ابنتَهُ ـ العَيوف ـ الملكُ أبرهة ذو المنار، فقال له الرابع: أيها الملك، منزلي وادي الجن من أرض جَوّ (وهي أرض اليمامة اليوم) فتتعرى نساؤنا لرجالكم، ونساؤكم لرجالنا. فقال له أبرهة: أنا أتدبر لك الأمر، أُصدرُ أمرًا إليهم وأمنعهم من أن ينزلوا بوادي الجن. وهم لا ينزلون فيه إلى اليوم[١].

الحيَّة ذات الرأسين

وهي حية تسمَّى الزمرّدة، تسكن في الرمل ولها رأسان في طرفيها. وهي من الخفة تضرب بطرفيها. وما أكل بهذا الرأس ألْقتهُ بالآخر. وتعمى في الليل لأن جميع حيوان الأرض يخاف منها ولا يستطيع عليها لخفتها، ويسري سمُّها في الأبدان كسير البرق في الهواء.

وتقول الأساطير: إن الملك أبرهة بن ذي مراثد ـ وكان عند مروره في حنو قراقر بأرض العراق ـ ظهرت الزمردة لجيشه وأضرَّت بعساكره كثيرًا. فكان ينام في النهار ويسير في الليل، لأنها هي لا تظهر في الليل. وكان يوقد النيران ليرى الجيش الطريق أمامه. وهو أول منار جُعِلَ في الدنيا. وسُمي أبرهة ذو المنار.

أسماء الغول عند العرب

قال الجاحظ: كانوا يسمّون مَن يجاور منهم الناس «عامرًا» والجمع عمار؛ فإن تعرَّض للصبيان فهو «رَوْح»؛ فإن خبث فهو «شيطان»؛ فإن زاد على ذلك فهو «مارد»؛ فإن زاد على ذلك فهو «عفريت»؛ فإن ظهر ولُطف وصار خيرًا كله فهو «ملك».

وكانوا يفاضلون بينهم ويعتقدون مع كل شاعر شيطانًا، ويسمونهم بأسماء مختلفة قال الجاحظ:

(١) بلوغ الأرب: ٢/ ٢٤٣.

وفي النهار ساعات يُرى فيها الصغير كبيرًا، أو يوجد لأوساط الفيافي والرمال مثل الدويّ، وهو طَبْع ذلك الوقت.

قال ذو الرمة:

إذا قال حادينا لترنيم نبأةٍ صهٍ ... لم يكن إلّا دويُّ المسامعِ[١]

عِموا ظلامًا!

ومن هتاف الجن وأشعارهم ما رواه الجاحظ لسمير بن الحارث الضبيّ[٢]:

ونارٍ قد حظأتُ بُعَيْدَ وهنٍ ... بدارٍ لا أريد بها مقاما[٣]

سوى تحليل راحلةٍ وعينٍ ... أكالئها مخافة أن تناما[٤]

أتوا ناري فقلت: منونَ أنتم؟ ... فقالوا الجن، قلت عموا ظلاما[٥]

تغوُّل الغيلان

زعموا أن عمر بن ضُبيعة رأى غلمانًا ثلاثة يلعبون نهارًا. فوثب غلام منهم فقام على عاتِقَيْ صاحبه، ووثب الآخر فقام على الأعلى منهما. فلما رآهم كذلك حمل عليهم فصدمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يضحكون. فقال عمير بن ضبيعة: فما مررت بشجرة يومئذ إلا وسمعت من تحتها ضحكًا فلما رجع إلى منزله مرض أربعة أشهر.

وكان العرب يزعمون أن الغول يتغوّل[٦] لهم في الخلوات، ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور، فيخاطبونها، وربما ضيّفوها.

وقال: تأبط شرًّا يصف الغول ويذكر أنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه فقتلها:

فأصبحتُ والغولُ لي جارةٌ ... فيا جارتا أنتِ ما أَهْوَلا

---

(١) النبأة: الصوت ليس بالشديد ولا بالمسترسل.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٤١٤ ـ الحيوان: ٤ :٤٨١.

(٣) حضأ النار: ألهبها وسعّرها. (٤) أكالئها: أراقبها.

(٥) مَنون أنتم: من أنتم. وهو من الشاذ.

(٦) تغوَّل الأمرُ: تناكر وتشابه، أي أشكل. وتغوّلت المرأة: تشبّهت بالغول في تنكّرها. وتغوّلت الغيلانُ القومَ: ضلّتهم عن المحجّة.

وطالبتُها بُضْعَها فالتوث ... فكان من الرأي أن تُقتلا
وكنتُ إذا هممتُ اعتزمتُ ... فَأَحْرِ إذا قلتُ أن أفعلا
فجلَّلْتُها مرهفًا صارمًا ... أبانَ المرافِقَ والمفصلا
فطار بقحف ابنةِ الجن ذو ... شقاشِقَ قد أخلق المحملا
فمن يكُ يسألُ عن جارتي ... فإن لها باللِّوَى منزلا
عظاءَةُ قفرٍ لها حُلَّتا ... نِ من ورقِ الطَّلْح لم تُغزلا

وكان يزعم أنه يرافق الغول وللسعلاة ويبيت مع الذئاب والأفاعي[(١)].

حكايات عن الغول

رِجْلُ عَنْز

كانوا يزعمون أن رجلي الغول كرجلي العنز. وكانوا إذا اعترضهم الغول في الفياء يرتجزون ويقولون:

يا رجلَ عنزٍ انهقي نهيقا ... لن نترك السبب والطريقا

وقد وصفها أحدهم:

وحافر العنز في ساقٍ مدملجةٍ ... وجفنِ عينٍ خلاف الأنس بالطولِ

تلوُّن الغول

وذلك أنهما كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها، وتنبههم. وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القصد. فإذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال.

وقد ذكر جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب، أنه شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشام، وأن الغول كانت تتغوّل له، وأنه ضربها بسيفه؛ وذلك قبل ظهور الإسلام. وهذا مشهور عندهم[(٢)].

---

(١) الحيوان: ٦/ ١٦٧. وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٤١٦.
(٢) بلوغ الأرب: ٢/ ٣٤١.

عَلامٌ من الغيلان

حكى الأصمعي عن بعضهم أنه خرج هو وصاحب له يسيران، فإذا غلامٌ على الطريق. فقال له: مَن أنت؟ قال: أنا مسكين قد قُطع بي. فقال أحدهما لصاحبه: أَرْدِفْهُ خلفك. فأردفه. فالتفت الآخرُ إليه فرأى فمه يتأجج نارًا، فشدَّ عليه فذهبت النار، ففعل ذلك مرارًا. فقال ذلك الكلام: قاتلكما الله ما أجلدكما! واللهِ ما فعلتُها بآدميّ إلا وانخلع فؤاده. ثم غاب فلم يريا أثره(١).

تزوج الغول وأولدها بنين

قالوا: إن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين، ومكثت عنده دهرًا، فكانت تقول له: إذا لاح البرق من جهة بلادي - وهي جهة كذا - فاستره عني. فإني إن لم تستره عني تركت ولدك عليك، وطرتُ إلى بلاد قومي. فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطَّى وجهها بردائه فلا تبصره. وإلى هذا المعنى إشار أبو العلاء المعري في قوله يذكر الإبل وحنينها إلى البرق:

طَرِبْنَ لضوءِ البارق المتعالي ... ببغداد وَهْنًا ما لهنَّ ومالي
سمَتْ نحوه الأبصارُ حتى كأنها ... بنارَيْهِ من هنًا وثمَّ(٢) صوالي

إلى أن يقول:

إذا لاح إيماضٌ سترتُ وجوهها ... كأنِّيَ عمرٌو والمطيُّ سَعالي
وكم هَمَّ نِضوٌ أن يطير مع الصبًا ... إلى الشام لولا حبسُه بعقالِ

قالوا: فغفل عمرو بن يربوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يستر وجهها، فطارت وقالت له وهي تطير:

أمسِكْ بنيكَ عمرو إنيّ آبِقُ ... بَرقٌ على أرض السعالي آلِقُ

---

(١) بلوغ الأرب: ٢/ ٣٤١.

(٢) من هَنًا وثَمّ: من هنا وهناك.

قال: فبنو عمرو بن يربوع ظلوا يُدعون بني السعلاة. ولذلك قال الشاعر يهجوهم:

يا قبح الله بني السعلاةِ عمرو بن يربوع شرار النّاتِ
ليسوا بأخيارٍ ولا أكياتِ[(١)(٢)]

ومن شعرهم في الغول، قال تأبَّط شرًّا:

لهانَ على جُهَيْنةَ ما أُلاقي من الرَّوْعات يوم رَحَا بِطانِ[(٣)]
لقيتُ الغول تسري في ظلامٍ بسهبٍ بالعباءة صَحْصَحَانِ[(٤)]
فقلتُ لها: كلانا نِقْضُ أرضٍ أخو سَفَرٍ فخلّي لي مكاني[(٥)]
فشدَّتْ شدَّةً نحوي فأهوى لها كفي بمصقولٍ يماني
فقالت: زِدْ فقلتُ: رُويدَ إني على أمثالها ثَبْتُ الجِنانِ

وفي رواية أخرى:

ألا من مبلغٌ فتياتِ جَهْمٍ بما لا قَيْتُ عنْدَ رَحا بطانِ
بأني قد لقيتُ الغولَ تلوي بمَرْتٍ كالصحيفة صحصحانِ[(٦)]
فصدَّت فانتحيتُ لها بعَضْبٍ حُسامٍ غير مؤْتَشبٍ يماني[(٧)]
فقدَّ سراتها والبَرْكَ منها فخرَّتْ لليدينِ وللجرانِ[(٨)]
فقالت: ثنِّ قلتُ لها: رويدًا مكانك إنني ثَبْتُ الجنان
ولم أنفك مضطجعًا لديها لأنظر مصبحًا ماذا دهانيَ

---

(١) قوله «النات» و«أكيات» يريد: «الناس» و«أكياس»، فجعل السين تاء لتكون مع تاء السعلاة. وهذا من عيوب الشعر.
(٢) شروح سقط الزند: ١١٦٢ ـ ١١٦٧. ونوادر أبي زيد: ١٤٦.
(٣) رحابطان: موضع في بلاد هذيل.
(٤) الصحصحان: ما استوى من الأرض.
(٥) النِّقض: المهزول. وفي رواية أخرى «كلانا نضو دهر» وهما بمعنى واحد.
(٦) المرت: قفر لا نبات فيه.
(٧) العضب: السيف القاطع. وغير مؤتشب: أي صريح في انتسابه إلى بلاد اليمن.
(٨) سراة الفرس: أعلى متنه. والبرك: الصدر. الجران: باطن العنق. وخرّت لليدين وللجران: أي خرّت على يديها وعنقها، كما تقول: وخرّت لليدين وللفم.

إذا عــيــنــان فــي رأسٍ دقــيــق   كرأس المـهـر مشقوقِ اللسانِ
وسـاقـا مُـخْـدِجٍ ولـسـانُ كـلـبٍ   وثـوبٌ مـن عـبـاء أو شِـنـانِ(١)

وقال بعضهم:

وصار خليلُ الغول بعد عداوةٍ   صفيًا وربَّتُه القفارُ البسابسُ(٢)

وقال آخر:

فـللّه دَرُّ الـغـول أيُّ رفـيـقـةٍ   لصاحبِ قَفْرٍ في المهامِهِ يُذْعَرُ(٣)
أرَنّتْ بلحنٍ بعد لحنٍ وأوقدت   حواليَّ نيرانًا تلوح وتزهر(٤)

سعدة بنت جرهم الساحرة

روى محمد بن هشام أن رجلًا قال:

خرجنا أنا وأبي إلى صحراء عدن ـ وكان جدي قد دفن مالًا معها وأوصى أبي أنه إذا احتاج إلى المال ما عليه إلا أن يأتي إلى موضع كذا من الصحراء. ولما قعد بنا الدهر سرت مع أبي حتى أصبنا ثلاث روابي متقابلات. فقال لي: لقد اشتبه عليَّ الموضع، ما أدري أي هذه الروابي هي؟ فما رأيك؟ فقلت له: لا بد من الحفر إن كنت تعلم أن المال في إحداهن. ثم لاح له أمر وعلامة. فقال لي: احفر هٰهنا. فحفرت فكنت إذا حفرت وأعييت حفر مكاني أبي حتى انتهينا إلى بلاطة عظيمة، فحرصنا على قلعها فعجزنا عن قلعها. ثم حفرت الثانية فوصلت إلى بلاطة أخرى فأعجزتنا. فحفرنا الثالثة فقال لي أبي: ما ترى يا بني؟ قلت له: أنت شيخ كبير لا تستطيع شيئًا، فهل لك أن تخلفني هٰهنا وتمضي فتأتي ببعير وعبد من عبيدنا؟

فقال أبي: يا بني، الموضع مهول وأخشى عليك الوحشة وغُلظ البلد. قلت له: دع عندي من الشراب والطعام ما يكفيني. وخرج على وجهه، فبات عني ليلتين. فلما كان في الليلة الثالثة ـ وأنا قائم أصلي، وكنت كثير التلاوة

---

(١) المخدج: التي ألقت ولدها قبل تمام حمله. والشنان: جمع شَنّ، وهو القربة فيها الماء البارد.

(٢) البسابس: الخالية. (٣) المهامه: المفازات المقفرة والبلاد البعيدة.

(٤) بلوغ الأرب: ٢/ ٣٤٤. وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٤١٥. ومعجم البلدان: ٣/ ٣١.

للقرآن ـ فلم أشعر إلا ورجل جميل الوجه نقيُّ الثياب طيب الريح يمشي وهو يقول:

لولا تلاوتُك القرآنَ ما امتسكت ... بالأرض رجلاك فاعلم أيها الرجلُ
في بلدة لعُتاة الجن ماردة ... في كل أفق لها من همسها زَجَلُ
لك النصيحةُ عندي وهي واجبةٌ ... على ذوي الدين إن لم يسبق الأَجَلُ
فاستوقر[١] اليوم من رزق خُصصتَ به ... ولا تَعُدْ راجعًا ينأى بك الأجلُ

قال: فحفظت الشعر. وطلع أبي والعبد معه والبعير، فأخبرته بما كان، وأتينا المكان إلى ما حفرنا أولًا، وقلعنا الحجر فإذا بشيخ يده مغلولة إلى عنقه بغلٍّ من حديد في هامته، وأصبنا عند رأسه ورقةً من ذهب عليها كتابةٌ لا نعرفها. فأخذنا الورقة، وأعدنا البلاطة إلى موضعها، وأهلنا التراب على البلاطة حتى رجعت كما كانت. ثم أتينا البلاطة الثانية، فإذا تحتها عجوز مسودة الذوائب واضعة إحدى يديها على رأسها والأخرى على عورتها، وإلى جانبها كتاب في لوح لا ندري ما هو. فأخذنا اللوح وأعدنا البلاطة وأهلنا التراب.

ثم قلعنا البلاطة الثالثة، فإذا تحتها سرداب دقيق ضيق، فدخلناه فأصبنا خابيتين مكشوفتين فيهما رجلان متقاربة أسنانهما متشابهة، عليهما حلل مرصعة بالذهب ورأينا كتابًا على الجرتين لا نعرف ما هو.

وأصبنا مالًا كثيرًا وذهبًا وفضة وغير ذلك من الدر والياقوت ما لم يُرَ مثله قط.

فقال لي أبي: وثقنا بالغنى والحبور. فقلت له: يا أبي، وكيف الخلود مع الفناء! لا خير فيما يفنى، وإن مالنا من هذا قليل في حياة قصيرة؟

وأوقرنا جملنا ثم حملنا نحن ما نستطيع فلم نقدر أن ننهض به. فلم نزل ننقص منه ونريد النهوض، فلم نستطع حتى أخذنا في أيدينا درة وياقوتة فلم نقدر نهوضًا بهما.

---

(١) استوقِرْ: احملْ حملًا ثقيلًا. وأوقر جمله: حمَّله حِملًا ثقيلًا.

فقال لي أبي: أَلْقِ ما معك يا بني، فقد أخذنا رزقنا. فعلمنا أننا منعنا غير ما صار إلينا وأعتق أبي العبد وكثرت نعمنا ووهب للعبد مالًا جسيمًا. وقد حذرناه هو والعامل من أن يعود أحد إلى هذا المكان.

ولكن العبد أخذ لذلك الموضع ما يصلحه، فأخذ معه عونين وسار لأنه يعرف علامات الموضع. فلما نال من الغار توارى عن عَوْنيه ليقضي أربه، وبات عوناه أرقين قد ذعرهما ما يريان من وحشة ذلك الموضع وهوله.

فحدّثني العونان قالا: سمعنا في جوف الليل حسًّا وذعرًا وحركة شديدة من ناحية العبد واضطرابًا، فجزعنا من القيام إليه لخوف دَاخَلَ قلوبنا.

فلما أصبحنا وجدناه ميتًا وفي حلقه آثار وفي ثيابه أخداش. فحفرنا له وأوريناه ولينا هاربين لئلا يدركنا الليل في ذلك الموضع.

قال: ومكثت الورقة واللوح عندنا سنين لا نجد أحدًا يعلم ما فيهما. فبينما أنا في موضع إذا برجل من أهل نجران من بني الحارث بن كعب، نبيل جميل، وهو يسأل[١]. فقلت له: يا عبد الله، إنك لجميل وخليق بالخبر فما اضطرك للمسألة؟

قال لي: يا عبد الله، الحمد لله الذي أحسن إليك، وأغناك عن خلقه ومنعك عن هذا المقام. وحدّثني كيف تغيّرت أحواله بعد أن كان من أعز الناس.

قلت له: إنك لفقيه، فما دينك؟ قال: الإسلام. قلت: فهل تقرأ؟ قال: نعم، بثلاثة ألسن. فوقع في نفسي أمر الورقة واللوح فأخرجتهما إليه فإذ هو يقرأ ذلك الكتاب، وإذا هو بالمسند[٢] قد كتب.

وأما الشيخ المغلولة يده إلى عنقه والمضروب في رأسه، فقد كان عمرو بن لحي أول من غيّر دين إسماعيل، وعَبَدَ اللّات (الأصنام). وقرأ اللوح الثاني الذي كان مع العجوز فإذا فيه: هذه سعدة بنت جرهم، جلبت السحر من ديناوند وتعلمته، وسحرت سبعة أخوة من خيار جرهم فصيرتهم وحوشًا لا يَقَرُّون[٣] مع

(١) أي يتسوّل ويطلب الصدقة.

(٢) المسند: خط قديم لحمير في بلاد اليمن مخالف لخطنا هذا.

(٣) لا يَقَرّون مع الإنس: لا يألفونهم ولا يستقرون بينهم.

الإنس ولا يطمئنون إلى دعة ويرعون مع الوحش كما ترعى فأتت أمهم إلى نابت بن قيذار بن إسماعيل في الشهر الأصمّ[١] فقالت له: يا ولي الله، إن سعدة الساحرة أتلفت أولادي عني وما أحوج ما كنت إليهم. فأنا مؤمنة وهي كافرة، فهل أدعو الله عليها؟ فقال لها: افعلي. فقالت: ربِّ إنه الشهر الأصمُّ، حرَّمتُ ما حرَّمتَ فيه، فانتقم ممن لم يُحرِّمْ حرامك ولم يُحِلَّ حلالك.

قال نابت: اللهم افعل! قال: فأنساها الله السحر، وهتك عنها الستر، ستر الحياء، فما لبست ثوبًا حتى ماتت.

ورجع السبعة النفر إلى نابت فأعلموه بما كان يتخايل لهم في أعينهم وقلوبهم، فدعا عليها نابت فهلكت وكُفِّنت، فلم تقبلها الأرض حتى غرقت. وذلك مقام الظالمين[٢].

قتلتهما الجنّ
(حرب بن أمية ومرداس بن أبي عامر)

كان حرب بن أمية يوم عكاظ. ويقال إن سبب وفاته أن الجن قتلته وقتلت مرداس بن أبي عامر السلمي لإحراقهما شجر القرية وازدراعهما إياها وهذا شيء قد ذكرته العرب في أشعارها وتواترت الروايات بذكره، فذكرته والله أعلم.

وذلك أن حرب بن أمية لما انصرف من حرب عكاظ هو وأخوته مر بالقُرَيَّة[٣] وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتفّ لا يرام. فقال له مرداس بن أبي عامر: أما ترى هذا الموضع؟ قال: بلى! قال: نعم المزدرع هو، فهل لك أن نكون شريكين فيه ونحرق هذه الغيضة ثم نزرعه بعد ذلك؟ قال: نعم.

فأضرم النار في الغيضة. فلما استطارت وعلا لهبها سُمِع من الغيضة أنين وضجيج كثير ثم ظهرت منها حيَّات بيض تطير حتى قطعتها وخرجت منها ـ وقال

(١) الشهر الأصمّ: هو شهر رجب. سمي بذلك لأنهم كانوا لا يتصايحون فيه بحرب.

(٢) كتاب التيجان: ص ٢١٧.

(٣) القُريَّة: وهي أربعة مواضع: محلة ببغداد، وموضع في جبل طيء، وموضع بنواحي المدينة، ومن أشهر قرى اليمامة.

مرداس بن أبي عامر في ذلك:

إني انتخبت لها حربًا وإخوتَهُ ... إني بحبل وثيق العقد دسَّاسُ
إني أُقَوِّمُ قبل الأمر حجَّتهُ ... كيما يقال وليُّ الأمر مِرْداسُ

قال: فسمعوا هاتفًا يقول لما احترقت الغيضة:

ويلٌ لحرب فارسا ... مطاعنًا مخالسا[(١)]
ويل لعمرو فارسا ... إذ لبسوا القوانِسا[(٢)]
لتقتلَنْ بقتله ... جحاجحًا عنابسا[(٣)]

ولم يلبث حرب بن أمية ومرداس بن أبي عامر أن ماتا. فأمَّا مرداس فدُفِنَ بالقرية. ثم ادعاها بعد ذلك كليب بن أبي عهمة السلمي، ثم الظّفري. فقال في ذلك عباس بن مرداس:

أكليب مالك كل يوم ظالمًا ... والظّلم أنكد وجهِهِ ملعونُ
قد كان قومك يحسبونك سيدًا ... وأخال أنك سيدٌ معيونُ[(٤)]

إلى أن يقول:

وأفعل بقومك ما أراد بوائل ... يوم الغدير سميُّك المطعونُ[(٥)]
وإخال أنك سوف تلقى مثلها ... في صفحتيك سنانها المسنون
إن القُرَيَّة قد تبيّن أمرها ... إن كان ينفع عندك التبيين
حيثُ انطلقت تَخُطُّها إلى ظالمًا ... وأبو يزيدَ بجوها مدفون[(٦)(٧)]

ابن الحمارس والجن

قال شرقي بن القطامي: كان رجل من كلب، يقال له عبيد بن الحمارس، شجاعًا، وكان نازلًا بالسماوة. فلما حسر الربيع وقلّ ماؤه وأقلعت أنواؤه، تحمَّل

(١) المخالس: الذي يختلس الطعنة اختلاسًا.
(٢) القوانس: جمع قونس، وهو بيضة الحديد توضع على الرأس أثناء القتال.
(٣) الجحاجح: الأسياد الكرام. والعنابس: الأسود.
(٤) المعيون: الحسن المنظر في ما تراه العين، ولا عقل له. والذي أصابته عين.
(٥) يشير إلى تحكم كليب وائل بموارد الماء ونفيه بكر بن وائل عنها حتى كان يقتلهم عطشًا.
(٦) أبو يزيد هو مرداس بن أبي عامر. (٧) الأغاني: ٦/٣٤٣.

إلى وادي تُبَل، فرأى روضة وغديرًا، فقال: روضةٌ وغدير، وخطبٌ يسير، وأنا لما حَوَيْتُ مُجير. فنزل هناك وله امرأتان: اسم إحداهما الرباب، والأخرى خوله. فقالت له خوله:

أرى بلدةً قفرًا قليلًا أنيسها ... وإنّا لنخشى إن دجا الليلُ أهلها

وقالت الرباب:

أرتك برأيٍ فأستمع عنك قولها ... ولا تأمَنَنْ جنَّ العزيق وجهلَها

فقال مجيبًا:

أَلَستُ كميًا في الحروب مُجرَّبا ... شُجاعًا إذا شَبَّتْ له الحربُ مُخْرِبا
سريعًا إلى الهيجا إذا حمي الوغا ... فأقسم لا أعدو الغدير منكّبَا

ثم صعد إلى تُبَلْ، فرأى هشيمة ـ وهي الأنثى من القنافذ ـ فرماها فأقعصها[1]، ومعها ولدها، فارتبطه. فلما كان الليل هتف به هاتفٌ من الجن:

يا ابن الحمارس قد أسأتَ جوارنا ... وركبتَ صاحبنا بأمرٍ مفظع
وعقرتَ لَقْحَتَهُ وقُدْتَ فصيلها ... قَوْدًا عنيفًا في المنيع الأرفعِ[2]
ونزلت مرعى شائنًا وظلمتنا ... والظلم فاعله وخيمُ المرتعِ
فلنطرقنَّك بالذي أوليتنا ... شرٌّ يجئك وماله من مَدْفَعِ

فأجابه ابن الحمارس:

يا مدَّعي ظلمي ولستُ بظالِمٍ ... أسمع لديك مقالتي وتسَمَّعِ
أن كنتم جنّاً ظلمتم قنفذًا ... عُقِرَتْ فشرُّ عقيرةٍ في مصرعِ
لا تطمعوا فيما لديَّ فمالكم ... فيما حَوَيْتُ وحُزْته من مَطْمَعِ

فأجابه الجنيّ:

يا ضارب اللَّقْحة بالعَضْب الأفلّ ... قد جاءك الموت وأوفاهك الأجلْ[3]
وساقك الحَيْنُ إلى جنِّ تُبَلْ ... فاليوم أقويت وأعيتك الحِيَلْ

---

(١) قعصه بالرمح، وأقعصه: ضربه ضربة سريعة.

(٢) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن. والفصيل: ولد الناقة.

(٣) العضب والأفلّ: السيف القاطع.

فأجابه ابن الحمارس:

يا صاحب اللَّقحة هل أنت بَجَلْ مُستمعٌ مني فقد قلتَ الخَطَلْ[1]
وكثرةُ المنطق في الحرب فشلْ هيَّجْتَ قمقامًا من القوم بطلْ[2]
لـيـثَ لُيـوثٍ وإنْ هَـمَّ فَـعَـلْ لا يَرْهبُ الجنَّ ولا الإنس أجلْ
مـن كـان بـالـعـفـو مـن جـنٍ تُـبَـلْ

قال: فسمعها شيخ من الجن، فقال: لا والله لا نرى قتل إنسانٍ مِثلَ هذا، ثابت الجنان ماضي العز، فقام ذلك الشيخ وحمِدَ الله ثم أنشد:

يا ابن الحُمارِس قد نزلتَ بلادنا فـأصبت مـنـهـا مـشربًا ومـنـامـا
فـبـدأتـنـا ظـلمًا بـعـقـر لـقـوحـنـا وأسـأت لـمـا أن نـطـقـت كـلامـا
فاعمد لأمرِ الرُّشْدِ واجتنب الردى إنَّـا نـرى لـك حـرمـةً وذمـامـا
واعـزم لـصـاحـبـنا لقوحًا متبعًا فـلـقـد أصبـت بـمـا فـعـلـت إثـامـا

فأجابه ابن الحمارس:

الله يـعـلـم حـيـث يـرفـع عـرشـه أنـي لأكـره أن أُصـيـب إثـامـا
أمـا ادّعـاؤك مـا ادَّعـيـتَ فـإنـنـي جـئـت الـبـلاد ولا أريـد مـقـامـا
فـأقـمـتُ فـيـهـا مـالـنـا ونـزلـتـهـا لأريـح فـيـهـا ظـهـرنـا أيـامـا
فـلـيـغـدُ صـاحـبـكـم علينا نُـعـطِـه مـا قـد سـألـت ولا نـراه غـرامـا

ثم غرِمَ للجن لقومًا متبعًا للقنفذ وولدها.

وهذه الحكاية وإن كانت كذبًا إلا أنها تتضمن أدبًا. وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها. ويقال أن الشرقي القطامي كان يصنع أشعارًا وينحلها غيره[3].

(١) بَجَلْ: نعم. والخطل: الكلام الفاسد المضطرب.
(٢) القمقام: السيّد الجامع للسيادة.
(٣) بلوغ الأرب: ٣٥٦/٢؛ وشرح نهج البلاغة: ٤٢٢/١٩.

عبيد بن أيوب العنبري
رفيق الغول والسعلاة

قال عبيد بن أيوب[(١)] ـ وكان جوّالًا في مجهول الأرض، لمَّا اشتدّ خوفه، وطال ترْدده، وأبعد في الهرب؛ وكان يكنَّى أبا المطراب أو أبا المطراد:

لقد خفتُ حتى لو تمرُّ حمامةٌ ... لقلت عدوٌّ أو طليعة معشرِ
فإن قيل: أمْن، قلت: هذي خديعةٌ ... وإن قيل: خوْف، قلتُ: حقًّا فشمِّرِ
فللَّه دَرُّ الغول أي رفيقةٍ ... لصاحب قفرٍ خائفٍ متنفِّرِ
أرنَّتْ بلحنٍ بعد لحنٍ وأوقدتْ ... حواليَّ نيرانًا تلوح بأزهَرِ
وأصبحتُ كالوحشيّ يتبع ما خلا ... ويطلب مأنوسَ البلاد المبعثَرِ

وقال عبيد بن أيوب أيضًا:

تقول وقد ألْمَمْتُ بالإنس لمَّةً ... مُخَضَّبَةُ الأطراف خُرْسُ الخلاخلِ[(٢)]
يهذا خليل الغول والذِّئبِ والذي ... يهيم بربَّات الحجال الهراكلِ[(٣)]
رأتْ خَلَقَ الأدراس أشعثَ شاحبًا ... على الجدب بسَّامًا كريمَ الشمائلِ[(٤)]
تعوَّدَ من آبائه فتكاتِهم ... وإطعامَهم في كل غبراءَ شامِلِ[(٥)]

حكاية النُّورَة[(٦)]
وتآمر الجنّ على زواج سليمان من بلقيس

عندما قرر النبيّ سليمان الزواج من بلقيس، ملكة سبأ، اجتمعت الجن وقالوا: إن هو تزوج منها أتته بولد تجتمع فيه فطنة الإنس والجن وكيد النساء، فلا

(١) من شعراء العصر الأموي. كان لصًّا حاذقًا. أباح السلطان دمه وبرىء منه قومه فهرب في مجاهل الأرض واستصحب الوحوش وأنس بها. وكان يزعم أنه يرافق الغول والسعلاة ويبايت الذئاب والأفاعي.
(٢) ألَمَّ بالإنس لمَّةً: التقى بهم لقاءً يسيرًا.
(٣) الهراكل: جمع هركلة، وهي المرأة الحسنة الجسم والخلق والمشية. وربات الحجال: النساء.
(٤) الأدراس: الثياب الخلقة البالية.
(٥) كتاب الحيوان: ٤ ـ ٤١٨/٧.
(٦) النُّورة: أخلاط تُضاف إلى الكلس، من زرنيخ وغيره، تستعمل لإزالة الشعر.

نصيب راحة ولا نأمن على أنفسنا الهلكة، وينحجب عنا كل خير وينزل بنا كل سوء وشر. تعالوا فلنزهّده فيها، فإنه قد ذكر أنه يريد الزواج منها.

فقال عفريت من الجن يقال له زوبعة: أنا أكفيكم سليمان. ثم أتاه فقال: يا نبيّ الله، بلغني أنك تريد الزواج من بلقيس، وأمُّها من الجن، ولم تلد جنيّةٌ من إنسيّ ولدًا قط إلا كانت رجله كحافر الحمار وساقه شعراء[١]، حادَّ النفس حارَّ الجسم. قال سليمان: فكيف لي أن أنظر إلى ذلك منها، وأعلم من غير أن تعلم ما أريد؟

قال زوبعة: أنا أكفيك ذلك. وصنع زوبعة لسليمان قصرًا من زجاج أبيض ووضع سريره في صدره، ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره. ثم قال زوبعة لسليمان: أرسل في طلبها، فلتدخل عليك فإنك ترى الذي تريد.

فبعث إليها سليمان وهو على كرسيه، ليس في البيت مجلس غيره. فلما رأت الماء والسمك تسبح فيه، حسبته لُجّةً[٢] فكشفت عن ساقيها لتخوض الماء. فلما رآها سليمان ونظر إلى بياض ساقيها وعليهما شعر كثير أسود، قال لها: لا تكشفي عن ساقيك ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النَّمل: الآية ٤٤]. فنظرت فإذا مُلكها ليس بشيء عند الله. ولما سمعت ذلك استترت، وتعجبت منه واستدلّت به على التوحيد والنبوّة. وقالت: يا نبيَّ الله، لقد ظهر الحقُّ وذهب الباطل.

ثم قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النَّمل: الآية ٤٤].

ثم تردَّد سليمان في أمر بلقيس شهرًا، فقال له رجل صالح من الجن، كان يحب ما يوافق سليمان: هل كرهتَ منها غير ذاك الشعر؟ قال: كلَّا! قال: فإني سأجعلها لك مثل الفضة من غير ريب. قال سليمان: وكيف؟ قال: سوف ترى. فصنع لها الجنيُّ حمَّامًا ونُورَة، وهي كانت أول نورة عملها مخلوق وأول حمام من صنع ذلك الجنّي[٣].

---

(١) شعراء: كثيرة الشعر. (٢) اللجّة: البحر.

(٣) عن كتاب التيجان؛ والتفسير الكبير للرازي: ٢٤/ ١٧٢.

شياطين الشعراء

كان من مذاهب العرب أن لكل شاعر شيطانًا يُلقي إليه الشعر.

قال بعضهم:

إنـي وإن كـنـتُ صـغـيـرَ الـسـنّ وكـان فـي الـعـيـن نُـبُـوٌّ عـنّـي
فـإن شـيـطـانـي أمـيـرُ الـجـنّ يـذهـب فـي الـشـعـر كـلَّ فـنّ

وقال آخر:

لـقـد كـان جـنّـيُّ الـفـرزدق قُـدوةً وما كان فينا مثلُ فَحْل المخبَّلِ
ولا في القوافي مثل عمروٍ وشيخه ولا بعد عمروٍ شاعرٌ مثَل مِسْحلِ[1]

وقال الفرزدق يصف قصيدة له:

كـأنـهـا الـذهـبُ الـعـقـيـان حـبَّـرهـا لـسـانُ أشـعـرِ خـلـقِ الله شـيـطـانـا

وقال أبو النجم[2]:

إنـي وكـلُّ شـاعـرٍ مـن الـبـشـرْ شـيـطـانُـه أنـثـى وشـيـطـانـي ذَكَـرْ

وقال الأعشى:

دعوتُ خليليَ مِسْحلًا ودعوا له جُهُنَّامَ جَذْعًا للهجين المذمَّمِ[3]

وقال كُثَيِّر[4] عَزَّة:

ما قلتُ الشعر حتى قُوِّلتُه. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: بينا أنا يومًا نصفَ النهار، أسير على بعير لي بالغميم أو بقاع حمدان[5]، إذا براكب قد دنا مني حتى صار إلى جانبي. فتأملته فإذا هو من صُفْرٍ[6]، وهو يجرّ نفسه في الأرض جرًّا.

---

(١) «عمرو» هو اسم شيطان المخبَّل السعدي. و«مِسْحَل» اسم شيطان الأعشى.

(٢) هو الفضل بن قدامة العجلي، أبو النجم. من أكابر الرجّاز ومن أحسن الناس إنشادًا للشعر. نبغ في العصر الأموي، وتوفي سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م.

(٣) جُهُنَّام هو تابع أو شيطان الشاعر الذي كان يهاجي الأعشى.

(٤) هو كُثَيِّر بن عبد الرحمٰن الخزاعي. اشتهر بحبّه العذري لعزّة بنت حُميل الضمرية، وشعره فيها عذب كثير. توفي سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م.

(٥) الغميم وبقاع حمدان: موضعان.

(٦) الصُفر: النحاس.

فقال لي: قُل الشعر؛ وألقاه عليّ. قلت: مَن أنت؟ قال: أنا قرينُك من الجن. فقلت الشعر بعد ذلك[١].

شيطان حسان بن ثابت الأنصاري

قال حسان[٢]:

إذا ما ترعرع فينا الغلام فما إنْ يقال له: من هُوَهْ؟
إذا لم يَسُدْ قبل شَدِّ الإزار فذلك فينا الذي لا هُوَهْ
ولي صاحبٌ من بني الشَّيْصَبان فطَوْرًا أقولُ وطورًا هُوَهْ

ولهذا الشعر قصة طريفة رواها صاحب «لسان العرب» قال:

الشيصبانُ، والبَلْأَزُ، الجَلْأَزُ، والجانُ، والقازُ، والخيتعور: كلها من أسماء الشيطان. والشيصبان أبو حيّ من الجن. قال: وكانت السعلاة لقيت حسان بن ثابت في بعض أزقة المدينة، فصرعته وقعدت على صدره وقالت له: أنت الذي يأمل قومك أن تكون شاعرهم؟ فقال: نعم. قالت: والله لا ينجيك مني إلا أن تقول ثلاثة أبيات على رويّ واحد. فقال حسان هذه الأبيات. وفيها روايات أخرى[٣].

شيطان الأعشى

ذكروا أن هاجس الأعشى (أي شيطان شعره) كان اسمه مِسْحَل بن أُثاثة. ويروون عن الأعشى أنه قال:

خرجتُ أريد قيس بن معد يكرب بحضرموت، فضللت في أوائل أرض اليمن، لأني لم أكن سلكت ذلك من قبل فأصابني مطر، فرميت ببصري أطلب مكانًا ألجأ إليه. فوقعت عيني على خباء من شعر، فقصدت نحوه وإذا على باب الخباء رجل، فسلَّمت عليه، فردَّ عليَّ السلام، وأدخل ناقتي خباء آخر كان بجانب البيت، فحططت رحلي وجلست، فقال: مَن أنت؟ وأين تقصد؟

---

(١) الأغاني: ٩/ ٢٤.
(٢) هو حسان بن ثابت الأنصاري؛ الصحابي، شاعر النبيّ ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام.
(٣) لسان العرب: ١/ ٤٩٥.

قلت: أنا الأعشى، أقصد قيس بن معد يكرب. فقال: حيَّاك الله! أظنُّك امتدحته بشعر؟ قلت: نعم قال: فأنشدنيه، فابتدأت مطلع القصيدة:

رَحَلَتْ سُميَّةُ غُدْوةً أجمالها غضبًا عليك، فما تقولُ بدالها؟

فلما أنشدته هذا المطلع منها قال: حسبُك! أهذه القصيدة لك؟ قلت: نعم. فنادى: يا سميّة أخرجي. وإذا جارية خماسية قد خرجت، فوقفت، وقالت: ما تريد يا أبتِ؟ قال: أنشدي عمَّك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن معد يكرب ونسيتُ بك في أولها. فاندفعَتْ تنشد القصيدة حتى أتيت على آخرها لم تخرم منها حرف. فلما أتمتها قال: انصرفي، ثم قال: هل قلتَ شيئًا غير ذلك؟ قلت: نعم، كان بيني وبين ابن عم لي ـ يقال له يزيد بن مسهر ويكنَّى أبا ثابت ـ ما يكون بين بني العم، فهجاني وهجوته فأفحمته. قال: ماذا قلت فيه؟ قلت: قلت:

ودِّعْ هريرةَ إنَّ الرَّكب مرتحِلُ وهل تطيق وداعًا أيها الرجل؟

فلما أنشدته البيت الأول قال: حسبك! ومن هريرة هذه التي نسبت فيها؟ قلت: لا أعرفها، سبيلها سبيل التي قبلها.

فنادى: يا هريرة! فإذا جارية قريبة السِّن من الأولى خرجت، فقال: انشدي عمَّك قصيدتي التي هجوتِ بها أبا ثابت يزيد بن مسهر. فأنشدتها، من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفًا.

فأُسقط في يدي، وتحيّرت، وتغشَّتني رعدة، فلما رأى ما نزل بي قال: ليُفْرخ[١] رُوعك يا أبا بصير! أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر فسكنت نفسي، ورجعت إليَّ. ثم دلّني على الطريق، وأراني سَمْتُ مقصدي وقال: لا تَعُجْ[٢] يمينًا ولا شمالًا حتى تصل بلاد قيس[٣].

دِعْبل الخزاعي ورجلٌ من الجنّ

وزعم دِعْبل الخزاعي[٤] أن رجلًا من الجن استنشده قصيدته «مدارس آيات خلت». قال:

---

(١) أفرخ رُوعه: خلا قلبه من الهم. (٢) عاج: مال وانحرف يمينًا أو شمالاً.

(٣) بلوغ الأرب: ٣٦٨/٢. وشرح مقامات البديع: ٢٧٣.

(٤) هو دعبل بن علي الخزاعي. شاعر هجّاء. هجى الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. توفي=

لما هربت من الخليفة المتوكل العباسي بتُّ ليلة في نيسابور وحدي، وعزمت على أن أعمل قصيدة في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة. فإني لفي ذلك إذ سمعتُ والباب مردود علي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أَنَجُ يرحمك الله! فاقشعر بدني من ذلك، ونالني أمر عظيم.

فقال: لا تُرَعْ عافاك الله؛ فإني رجل من إخوانك الجن من ساكني اليمن طرأ إلينا طارىء من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك.

مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحي مقفرُ العرصات

فأحببت أن أسمعها منك.

قال: فأنشدته إياها، فبكى حتى خرَّ، ثم قال: رحمك الله! ألا أحدِّثك حديثًا يزيد في نيّتك ويعينك على التمسّك بمذهبك؟ قلت: بلى. قال: مكثتُ حينًا أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام، فصرتُ إلى المدينة فسمعته يقول:

حدَّثني أبي عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: عليٌّ وشيعتُه هم الفائزون.

قال دعبل:

ثم ودَّعني لينصرف، فقلت له: يرحمك الله. إن رأيت أن تخبرني باسمك فافعل.

قال: أنا ظبيان بن عامر(١).

عبيد بن الأبرص وشجاع الجنّي

سافر عبيد بن الأبرص(٢) في ركب من بني أسد، فبينا هم سائرون إذا بحيوان فاتحًا فاه من العطش. وكانت مع عبيد فضلة من ماء ليس معه غيرها، فنزل فسقى الحيوان حتى رويَ وانتعش، فانساب بالرمل. فلما كان الليل ونام

= سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م.

(١) الأغاني: ٢٠/١٤٣.

(٢) شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها. عاصر امرأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات. عُمّر طويلًا حتى قتلته النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم نحسه.

القوم، ندَّتْ[١] رواحلهم، فلم يُرَ لشيءٍ منهم أثر. فقام كل واحد يطلب راحلته فتفرقوا.

وبينا عبيد كذلك، وقد أيقن على الهلاك والموت إذا بهاتف يهتف:

أيها الساري المضلُّ مذهَبَهُ دونك هذا البكرَ فاركَبْهُ

وبكرُكَ الشاردُ أيضًا فاجنِبْهُ حتى إذا الليلُ تجنَّى غَيْهَبُهُ[٢]

فحُطَّ عنه رحله وسيِّبْهُ

فقال له عبيد: أيهاذا المخاطب، نشدتك الله إلَّا أخبرتني من أنت؟ فأنشأ يقول:

أنا الشجاعُ الذي ألفَيْتَهُ رَمِضًا في قفرةٍ بين أحجارٍ وأعقادِ[٣]

فجُدْتَ بالماء لما ظنَّ حامِلَهُ وزدت فيه ولم تبخل بإنكادَ[٤]

الخيرُ يبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ من زاد

فركب البكر وأجنب بكره، فبلغ أهله مع الفجر. فنزل وحلَّ راحلته وخلّاه فغاب عن عينيه، ثم جاء من سَلِم من القوم بعد ثلاثة أيام[٥].

تَأبّط شرًا يَقتل الغُول[٦]

قال عمرو بن أبي عَمْرو الشيباني: نزلت على حيٍّ من فَهْم، فسألتهم عن خبر تأبّطَ شرًّا، فقال لي بعضهم: وما سؤالك عنه؟ أتريدُ أن تكون لِصًّا! قلت: لا، ولكن أريد أن أعرف أخبارَ هؤلاء العدَّائين فأتحدثَ بها. فقالوا: نُحدّثك بخبره:

إنَّ تأبط شرًّا كان أَعْدَى ذِي رِجْلين وذي ساقين وذي عَيْنَيْن، وكان إذا جاع لم تقمْ له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء فينْتَقي على نظره أَسْمَنَها، ثم يجري خلفه فلا يفوتُه حتى يأخذَه فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله.

---

(١) ندَّ البعير: نفر وشرد.
(٢) البكر: الفتيّ من الإبل. وجنبه جنبًا: قاده إلى جنبه.
(٣) الرمض: الذي احترق جوفه من شدة العطش. ألفيته: وجدته.
(٤) الإنكاد: قلة العطاء. (٥) الأغاني: ١٩/ ١٧٢.
(٦) الأغاني: ٨ ـ ٢٠٩. البلدان: ٤ ـ ٢٣١.

وإنما سمي تأبط شرًّا؛ لأنه فيما حُكِيَ لنا: لقي الْغُولَ في ليلة ظلماء في موضع يقال له: رحى بِطَان[1]، في بلاد هُذَيل، فأخذتْ عليه الطريق، فلم يزلْ بها حتى قَتَلَها، وبات عليها. فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه، فقالوا له: لقد تأبط شرًّا، وقال في هذا:

ألا مَـنْ مُـبْـلِـغٌ فـتـيـانَ فَـهْـمٍ ... بـمـا لاقـيـتُ عـنـد رَحَـى بِـطـانِ
وأنـي قـد لـقـيـتُ الـغُـولَ تَـهْـوِي ... بسُهْبٍ كالصحيفة صَحْصَحَانِ[2]
فقلتُ لـهـا: كِلَانَا نِضْوُ أَيْـنٍ[3] ... أخـو سـفَـرٍ فَـخَـلِّي لـي مـكـانِ
فـشـدت شَـدَّةً نـحـوي فـأهـوَى ... لـهـا كـفّـي بـمـصـقـولٍ يَـمـانـي
فـأضـربـهـا بـلا دَهَـشٍ فَـخَـرَّتْ ... صـريـعًـا لـلـيـديـن ولـلـجِـرَانِ[4]
فقالت: عُدْ فقلت لها: رويدًا[5] ... مـكـانَـكِ! إنـنـي ثَـبْـتُ الـجـنَـانِ
فـلـم أنْـفَـكَّ مـتـكـئًـا عـلـيـهـا ... لأنـظـرَ مُـصْـبِـحًـا مـاذا أتَـانـي
إذا عـيـنـان فـي رأسٍ قـبـيـحٍ ... كـرأس الـهـرّ مـشـقـوق الـلـسـانِ
وسـاقًـا مُـخْـدَجٍ وشَـواة كـلـبٍ[6] ... وثـوبٌ مـن عَـبَـاءٍ أو شـنـانِ

رئيّ[7] الأعشى[8]

قال جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ: سافرتُ في الجاهلية فأقبلتُ على بَعيري ليلةً أريد أن أسْقيهُ، فجعلت أُريدُهُ على أن يتقدم، فوالله ما يتقدَّم، فتقدمت فدنوتُ من الماء وعَقَلتهُ، ثم أتيتُ الماء فإذا قومٌ مشوَّهُون عند الماء فقعدت.

فبينا أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشدُّ تشويهًا منهم فقالوا: هذا شاعرُهم. فقالوا له: يا فلان؛ أنشدْ هذا فإنه ضفٌ؛ فأنشد:

ودِّعْ هـريـرةَ إن الـركـب مُـرتـحِـلُ

(١) رحى بطان: موضع لهذيل. (٢) الصحصحان: ما استوى من الأرض واتسع.
(٣) الأين: الإعياء والتعب.
(٤) الجران للبعير: مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره.
(٥) زعمت العرب أن الغول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت بها، فإذا ضربت ضربة أخرى عاشت.
(٦) مخدج: ناقص الخلق، والشواة: جلدة الرأس، والشنان: جمع شن وهو القربة الخلق.
(٧) الرئي: الجنى. (٨) الأغاني: ٩ ـ ١٥٦.

فلا والله ما خرم منها بيتًا واحدًا، حتى انتهى إلى هذا البيت:

تسمع للجَلْي وَسْواسًا إذا انصرفتْ كما استعانَ بريحِ عِشْرِقٌ زَجِلُ[(١)]

فأعجِب به. فقلت: مَن يقول هذه القصيدة؟ قال: أنا. قلت: لولا ما تقول لأخبرتك أن أعشى بني ثعلبة أنشدنيها عامًا أوّلَ بنجْران. قال: فإنك صادق، أنا الذي ألقيتُها على لسانه، وأنا مِسْحَل صاحبه، مَا ضاع شعر شاعر وضعه عند مَيْمون بن قيس!

هَاجِس الأعشى[(٢)]

قال الأعشى[(٣)]: خرجتُ أريدُ قَيْس بن مَعْدِ يَكرب بحضرموت، فضَلَلْتُ في أوائل أرْضِ اليمن؛ لأني لم أكُنْ سلكتُ ذلك الطريقَ قبلُ، فأصابني مطر، فرميتُ ببصري أطلبُ مكانًا ألجأُ إليه، فوقعتْ عيني على خِبَاء[(٤)] من شعَر، فقصدتُ نحوَه، وإذا أنا بشيخ على بَابِ الخِبَاء، فسلَّمتُ عليه، فردّ عليّ السلام، وأدخل ناقتي خِباءً آخر كانَ بجانب البيت، فحططتُ رَحْلِي وجلست، فقال: مَنْ أنت؟ وإلى أين تقصد؟ قلت: أنا الأعشى، أَقْصِد قَيْس بن مَعْدِ يكرب فقال: حيّاك الله! أظنُّك امْتَدَحته بشعر؟ قلت: نعم، قال: فأنْشِدْنيه، فابتدأْتُ مطلع القصيدة:

رَحَلَتْ سُمَيَّة غُدْوَةً أجمالها غَضَبًا عليك فما تقولُ بدَا لَها!

فلما أنشدتُه هذا المطلع قال: حسبك! أهذه القصيدة لك؟ قلت: نعم، قال: مَن سُمَيَّة التي تَنْسُبُ بها؟ قلت: لا أعرفها، وإنما هو اسم أُلْقِيَ في رُوعِي[(٥)]؛ فنادى: يا سُمية؛ اخْرُجي، وإذا جارية خماسيّة[(٦)] قد خرجتْ، فوقفتْ وقالت: ما

---

(١) الوسواس: صوت الحلى، والعشرق: شجيرة مقدار ذراع، لها أكمام فيها حب صغار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب، فسمع له خشخشة على الحصى. شبه وسواس حليها بصوته إذا ضربته الريح. والزجل: رفع الصوت بالطرب، والزجل بالكسر: صفة منه.

(٢) خزانة الأدب: ٣ ـ ٥٤٩ (طبعة بولاق).

(٣) هو أبو بصير ميمون الأعشى بن قيس بن جندل القيسي من فحول شعراء الجاهلية، وطال عمره حتى كان الإسلام، فأعد قصيدة يمدح بها النبيّ وقصده بالحجاز فلقيه كفار قريش وصدوه عن وجهه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حمراء، ويرجع إلى بلده ففعل، ولما قرب من اليمامة سقط عن ناقته فدقت عنقه ومات.

(٤) الخباء من الأبنية: يكون من وبر أو صوف أو شعر.

(٥) الروع: القلب والعقل.

(٦) خماسية: طولها خمسة أشبار.

تريد يا أبتِ؟ قال: أنشِدِي عمك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن معد يكرب، ونسَبْتُ بكِ في أولها، فاندفعت تُنشِدُ القصيدة حتى أتت على آخرها لم تَخْرِمْ منها حرفًا، فلما أتمَّتْها قال: انْصَرفي، ثم قال: هل قلتَ شيئًا غير ذلك؟ قلت: نعم، كان بيني وبين ابن عمٍّ لي يقال له يزيد بن مُسْهِر، ما يكون بين بني العم، فهجاني وهجوته فأفْحَمتُه. قال: ماذا قلت فيه؟ قال: قلت:

ودع هُريرَةَ إن الركبَ مُرتحلُ وهل تُطيقُ وَدَاعًا أيُّها الرَّجُلُ!

فلما أنشدته البيتَ الأول، قال: حَسْبُكَ! مَن هُريرةُ هذه التي نَسَبْتَ بها؟ قلت: لا أعرفها وسبيلها سبيل التي قبلها؛ فنادى: يا هريرة؛ فإذا جاريةٌ قريبة السنّ من الأولى خرجتْ، فقال: أنشدي عمك قصيدتي التي هجوتُ بها يزيدَ بنَ مسهر، فأنشدَتْها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفًا، فَسُقِط في يدي وتحيّرت وتغشّتني رِعْدة.

فلما رأى ما نزل بي قال: ليُفْرِخْ رَوْعُك[1] يا أبا بصير؛ أنا هاجسُك مِسْحَل بن أُثَاثة، الذي أَلْقى على لسانك الشعر.

قال الأعشى: فسكنَتْ نفسي ورجعت إليّ، وسكن المطر، فدلّني على الطريق، وأراني سَمْتَ مقصدي، وقال: لَا تَعُجْ يمينًا ولا شمالًا حتى تقع ببلاد قَيس.

عَبِيد بن الأبرص وَالشّجَاع[2]

قال القاضي يحيىٰ بن أكثم: دخلت يومًا على هارون الرشيد، وهو مطرق مفكر، فقال لي: أتعرف قائل هذا البيت:

الخير أبْقَى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص! فقال: أخبرني عنه. فقلت: يا أمير المؤمنين؛ حدث عَبيد قال:

كنتُ في بعض السنين حاجًّا، فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعتُ ضجّة عظيمة في القافلة ألحقَتْ أولها بآخرها، فسألتُ عن القصة، فقال لي

(١) ليفرخ روعك: ليذهب رعبك وفزعك، فإن الأمر ليس على ما تحاذر.

(٢) المختار من نوادر الأخبار (مخطوط)، الأغاني: ١٩ ـ ٨٦، المستطرف: ١ ـ ٢٤٤.

رجل من القوم: تقدم ترَ ما بالناس. فتقدّمتُ إلى أول القافلة فإذا أنا بشُجاع[١] أسود فاغِرٍ فَاه كالجِذْع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرُغاء البعير؛ فهالني أمرُه، وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع؛ فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضَنا ثانيًا؛ ولم يجسُر أحد من القوم أن يَقْربه، فقلتُ: أفدي هذا العالم بنفسي، وأتقرّب إلى الله تعالى بخلاصِ هذه القافلة منه.

فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللتُ سيفي، فلما رآني قَربتُ منه سكَن، وبقيت متوقعًا منه وثبة يبتلعني فيها، فلما رأى القِربة فتح فاه، فجعلت فم القربة في فيّه، وصببتُ الماء كما يُصبّ في الإناء. فلما فرغت القرية تسيّب في الرمل ومضى؛ فتعجبت من تعرُّضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا، ومضينا لحجّنا.

ثم عُذْنا في طريقنا ذلك، وحططنا في منزلنا ذلك، في ليلة مظلمة مُدْلهِمّة، فأخذت شيئًا من الماء وعدلتُ إلى ناحية عن الطريق، فأخذتني عيني؛ فنمتُ مكاني؛ فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسًّا، وقد ارتحلوا، وبقيتُ منفردًا لم أر أحدًا، ولم أهتدِ إلى ما أفعلُه، وأخذتني حيرة، وجعلت أضْطَربُ، وإذا بصوت هاتف أسمعُ صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخصُ المضلُّ مركبُه   ما عنده من ذي رشادٍ يصحبُه
دونك هذا البَكْر منا تركبه   وبَكْرُك الميمون حقًّا تَجْنبه[٢]
حتى إذا ما الليل زال غَيهبُه[٣]   عند الصباح في الفلَا تسيّبه[٤]

فنظرت فإذا بِبَكْرٍ قائم عندي وبَكْري إلى جانبي، فأتختُه وركبته، وجنبتُ بكري؛ فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولي فتحولت إلى البكْر، وقلت:

يا أيها البَكر قد أنجيتَ من كَربٍ   ومن همومٍ تضل المدْلج الهادي
ألا فَخَبِّرْنيَ بالله خالقِنا   من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حميدًا فقد بلّغتنا مِننا   بوركتع من ذي سنام رائح غادي

(١) الشجاع: الذكر من الحيات.
(٢) جنب البعير: قاده إلى جنبه.
(٣) الغيهب: شدة سواد الليل.
(٤) سيب الشيء: تركه.

فالتفت البكر إليّ، وهو يقول:

أنا الشجاعُ الذي أَلْفَيتَني رَمِضًا ... والله يكشفُ ضرَّ الحائر الصَّادي
فجدتَ بالماء لمّا ضنّ حامِلُه ... نصف النهار على الرّمْضَاء في الوادي
الخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به ... والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ
هذا جزاؤك مِنّا لا يُمنُّ به ... لك الجميلُ علينا إنك البادي

فعجب الرشيدُ من قوله، وأمر بالقصة والأبيات فكُتبت، وقال: لا يضيع المعروف أين وُضع!

ومَن عِبِيد لولا هَبيد[1]

قال رَاوٍ:

خرجتُ على بعيرٍ لي صعب يمرّ لا يُملّكُني من أمر نفسي شيئًا، حتى مرّ على جماعةِ ظباء في سفحِ جبل، على قُلّتهِ رجل عليه أطْمَار[2]، فلما رأتني الظباء هربت، فقال: ما أردت إلى ما صنعت؟ إنكم لتعرضون بمن لو شاء قدَعكم[3] عن ذلك! فداخلني عليه من الغيظ ما لم أقدِر أن أحمله، فقلت: إن تَفْعل بي ذلك لا أرضى لك؛ فضحك، ثم قال: امضِ ـ عافاك الله ـ لبَالِك.

فجعلت أردّد البعير في مراعي الظباء، لأُغضبه، فنهض وهو يقول: إنك لجليد القلب؛ ثم أتاني فصاح ببعيري صيحة، ضرب بجِرَانه[4] الأرض، ووثبتُ عنه إلى الأرض، وعلمت أنه جَانٌّ، فقلت: أيها الشيخ؛ إنك لأَسْوَأُ مني صنيعًا؛ فقال: بل أنت أظلم وألأم، بدأتَ بالظلم، ثم لَؤُمت في تركك المضي، فقلت: أجل! عرفتُ خطئي، قال: فاذكر الله فقد رُعْناك، وبذكر الله تطمئن القلوب، فذكرت الله تعالى، ثم قلت دهشًا: أتروي من أشعار العرب شيئًا؟ فقال: نعم، أروي وأقول قولًا فائقًا مبرّزًا، فقلت: فأرني من قولك ما أحببت؛ فأنشأ يقول:

طافَ الخيالُ علينا ليلةَ الوادي ... من آل سلْمى ولم يُلْمِمْ بميعاد

---

(١) الجمهرة: ٢٣.
(٢) الأطمار: جمع طمر، وهو الثوب الحلق.
(٣) قدعكم: كفكم ومنعكم.
(٤) جران البعير: مقدم عنقه من مذبحه إلى منخره.

إني اهتديت إلى مَنْ طال ليلُهُمُ — في سَبْسَبٍ[١] ذات دَكْدَاك وأَعْقَادِ[٢]
يكلّفون سُرَاها كل يَعْمَلةٍ[٣] — مثل المَهَاةِ إذا ما حثَّها الحادي
أبلغ أبا كَربٍ[٤] عني وأسرتَه — قولًا سَيَذْهَبُ غَوْرًا بعد إنجاد
يا عَمْرو؛ ما راح من قومٍ ولا ابتكروا — إلا وللموتِ في آثارهم حادي
لا أعرفنَّك بعد اليوم تندُبني — وفي حياتيَ ما زوَّدتني زادِي
أمّا حِمَامُك يومًا أنتَ مُدركه — لا حاضِرٌ مُفْلِتٌ منه ولا بادِي

فلما فرغ من إنشاده قلت: لهَذا الشعر أشهر في معدّ بن عدنان من ولد الفرس الأبلق[٥] في الدُّهم[٦] العِراب[٧]، هذا لعَبيد بن الأبرص الأسدي، فقال: ومن عَبيد لولا هَبيد! فقلت: ومَن هَبيد؟ فأنشأ يقول:

أنا ابنُ الصّلادم أُدْعى الهبيد — حبوت القوافي قَرْمَى[٨] أسد
عبيدًا حبوتُ بمأثورةٍ — وأنطقت بِشْرًا[٩] على غير كَدْ
ولاقى بمُدرك رهطُ الكُمَيت[١٠] — ملاذًا عزيزًا ومجدًا وجَدْ
منحناهمُ الشعر عن قُدْرة — فهل تشكرُ اليومَ هذا مَعَد!

فقلت: أما عن نفسك فقد أخبرتني، فأخبرني عن مُدْرك، فقال: هو مُدْرك بن واغم صاحب الكُميت، وهو ابن عمي، وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن. ثم قال: لو أنك أصبت من لبنٍ عندنا! فقلت: هات، أريد الأُنْسَ به، فذهب فأتاني بعُسٍّ[١١] فيه لبن ظبي، فكرهته لزُهومته[١٢]، فقلت: إليك! ومَجَجْتُ ما كان في فمي منه، فأخذه ثم قال: امضِ راشدًا مصاحبًا، فوليت

---

(١) السبسب: المفازة.
(٢) الدكداك: أرض فيها غلظ، الأعقاد: جمع عقد، ما تعقد من الرمل.
(٣) اليعملة: الناقة النجيبة.
(٤) أبو كرب: عمرو بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار.
(٥) الأبلق: ما فيه سواد وبياض.
(٦) الدهم: السود.
(٧) العراب: الأصيلة.
(٨) القرم: السيد، ويريد بقرمى أسد عبيدًا وبشرًا فهما من قبيلة أسد.
(٩) بشرًا: هو بشر بن أبي خازم الشاعر.
(١٠) الكميت: هو الكميت بن زيد الأسدي.
(١١) عس: إناء.
(١٢) الزهومة: رائحة منتنة غير مقبولة.

منصرفًا، فصاح بي من خلفي؛ أما إنك لو شربت ما في العُس، لأصبحت أشعر قومك.

قال: فندِمت على أني لم أشرب ما في عُسِّه في جوفي على ما كان من زُهومته، وأنشأت أقول في طريقي:

أسفت على عُسِّ الهِبيد وشربه   لَقَدْ حَرَمَتْنِيه صروف المقادِرِ
ولو أنني إذْ ذَاك كنتُ شربته   لأصبحتُ في قومي لهم خيرَ شاعر

لَافظ بن لاحظ![1]

حدّث أحد الرواة قال: خرجت في طلب لِقَاح[2] لي على فَحْلٍ كأنه فَدَن[3]، يمرُّ بي يسبق الريح، حتى دفعت إلى خيمة وإذا بفِنائها شيخٌ كبير، فسلّمت فلم يردّ عليّ، فقال: من أين؟ وإلى أين؟ فاستحمقته؛ إذ بَخِل بردِّ السلام، وأسرعَ إلى السؤال، فقلت: مِنْ هنا! وأشَرْتُ إلى خلفي، وإلى هٰهنا! وأشرت إلى أمامي؛ فقال: أمَّا مِنْ هٰهنا فنعم، وأما إلى هٰهنا فوالله ما أراك تبتهج بذلك، إلا أن يسهل عليك مُدَاراة من تَرد عليه! قلت: وكيف ذلك أيها الشيخ؟ قال: لأن الشكلَ غير شكلِك، والزيَّ غيرُ زيك، فضرب قلبي أنه من الجن، وقلتُ: أتروي من أشعار العرب شيئًا؟ قال: نعم وأقول، قلت: فأنشِدْني - كالمستهزىء به! فأنشَدَني قول امرىء القيس:

قفا نَبْك من ذِكْرى حبيبٍ ومَنْزِلِ   بسِقْط[4] اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمَلِ

فلما فرغ قلت: لو أن امرأ القيس يُنْشَر لرَدَعك عن هذا الكلام. فقال: ماذا تقول؟ قلت: هذا لامرىء القيس، قال: لستُ أولَ مَن كُفِر نعمة أسداها! قلت: ألا تستحي أيها الشيخ، أَلِمثلِ امرىء القيس يقال هذا؟ قال: أنا والله منَحْتُه ما أعجبك منه! قلتُ: فما اسمك؟ قال: لافظ بن لاحظ، فقلت: اسمان منكَران! قال: أجل! فاستحمقتُ نفسي له، بعد ما استحمقته لها، وأنِسْتُ به لطول محاورتي إياه، وقد عرفت أنه من الجنّ، فقلت له: مَنْ أشعرُ

(١) الجمهرة: ٢٣.
(٢) اللقاح: الإبل.
(٣) الفدن: القصر.
(٤) سقط اللوى والدخول وحومل: مواضع بنجد.

العرب؟ فأنشأ يقول:

ذهب ابنُ حُجْر[١] بالقريض وقولِهِ ولقد أجاد فما يُعَاب زياد[٢]
لله هاذر إذْ يجودُ بقوله إنّ ابن ماهر بعدَها لجوادُ

قلت: مَن هاذر؟ قال: صاحب زياد الذُّبياني وهو أشعر الجن، وأضنهم بشعره، ولقد علّم بنيةً لي قصيدة له من فيه إلى أذنها، ثم صرخ بها: اخْرُجي فدًى لك ما وَلَدَتْ حوّاء! فقلت له: ما أنصفتَ إيها الشيخ، فقال: ما قلتُ بأسًا، ثم رجعت إلى نفسي فعرفتُ ما أراد، فسكتَ، ثم أنشدتني الجارية:

نأتْ بسعادَ عنك نوًى شَطُون[٣] فباتَتْ والفؤادُ بها حزين

حتى أتت على قوله منها:

كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

قال: لو كان رأيُ قوم نوحٍ فيه كَرَأْيِ هاذر ما أصابهم الغَرق! فحفظت البيتين، ثم نهض بي الفَحْل فعدتُ إلى لقاحي.

تَابع زهَير بن أبِي سَلمى[٤]

قال عليّ بن الجَهم القُرشي: دخلتُ على المتوكل يومًا، وهو جالسٌ وحدَه، فسلمتُ عليه فردّ السلام؛ وأجلَسني، فحانت مني التفاتة، فرأيتُ الفتحَ بن خاقان[٥] واقفًا في غير رتبته التي كان يقوم فيها، متكئًا على سيفه مُطْرِقًا، فأنكرت حاله، فكنت إذا نظرتُ إليه نظر إليّ الخليفة، فإذا صرفتُ وجهي نحو الخليفة أطرق.

فقال: يا عليّ، أنكرت شيئًا؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! فقال: ما هو؟ قلت: وقوفُ الفتحِ في غير رُتْبَتِه التي كان يقومُ فيها!

---

(١) ابن حجر: امرؤ القيس.
(٢) زياد: النابغة الذبياني.
(٣) شطون: بعيدة.
(٤) معجم الأدباء: ١٦ ـ ١٨٠.
(٥) هو الفتح بن خاقان بن أحمد القائد، كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب، وكان من أولاد الملوك، اتخذه المتوكل أخًا، وكان يقدمه على جميع أولاده وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ وهو غير الفتح بن خاقان الأندلسي.

قال: سوءُ اختياره أقامَه ذلك المُقَام. قلت: ما السببُ يا أمير المؤمنين؟ قال: خرجتُ من عند قَبيحَة[١] آنفًا، فأسرَرْتُ إليه سرًّا، فما عداني السرُّ إذْ عادَ إليّ! قلت: لعلَّك أسْرَرْتَه إلى أحد غيره يا أمير المؤمنين! قال: ما كان هذا؟ قلت: فلعل مُسْتَمِعًا استمعَ عليكما! قال: ولا هذا أيضًا.

فأطرقْتُ مليًّا؛ ثم رفعتُ رأسي، فقلت: يا أمير المؤمنين، قد وجدتُ له مما هو فيه مخرجًا! قال: ما هو؟ قلت: حدّثنا الفضل بن دُكَيْنٍ، قال أبو الجوزاء: طلّقْتُ امرأتي في نفسي، وأنا في المسجد، ثم انصرفْتُ إلى داري، فقالتْ لي امرأتي: أطلّقْتنِي يا أبا الجوزاء؟ قلتُ: من أين لك هذا؟ قالت: خبّرتني جارتي الأنصارية! قلت: ومَنْ خبّرها بذلك؟ قالت: ذكرت أنّ زوجَها خبّرها بذلك!

فغدوتُ على ابن عباس فقصصت عليه القصة؛ فقال: علمتُ أن وَسْوَاسَ[٢] الرجل يحدّث وَسْواس الرجل، فمِنْ هٰهنا يَفْشو السر.

قال أبو نُعَيْم: فكان في نفسي من هذا شيء حتى حدّثني حمزة الزيات، قال: خرجت سنة من السنين أريد مكة، فلما جُزْتُ في بعض الطريق ضلَّت راحلتي، فخرجتُ أطلبُها، فإذا باثنين قد قبضَا عليّ، أحِسّ حسَّهما؛ وأسمعُ كلامهما، ولا أرى شخصَهما! فأخذاني وجاءَا بي إلى شيخ قاعدٍ على تَلْعَةٍ[٣] من الأرض، حسن الشَّيْبَةِ؛ فسلّمت عليه فردّ السلام؛ فأفرخ[٤] رُوعي؛ ثم قال: مِنْ أين؟ وإلى أين؟ فقلت: من الكوفة أريد مكة.

قال: ولم تخلَّفْتَ عن أصْحَابك؟ فقلتُ: ضلَّت راحلتي فجئتُ أطلبُها!

فرفع رأسَه إلى قوم على رأسه؛ فقال: زامِلَة[٥]؛ فأُنيخَتْ بين يديّ؛ ثم قال لي: أتقرأ القرآن! قلت: نعم! قال: هاته! فقرأت حتى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩].

---

(١) قبيحة: جارية المتوكل.
(٢) وسواس الرجل: الشيطان الذي يوسوس له. والوسوسة: الصوت الخفي والهمس.
(٣) التلعة: ما ارتفع من الأرض.
(٤) الروع: القلب، وأفرخ: أخرج ما به من خوف.
(٥) منادى محذوف منه حرف النداء، اسم ناقته.

فقال لي: على رِسْلِكَ! تدري كم كانوا؟ قلت: اللهم لا! قال: كنا أربعة؛ وكنتُ المخاطِبَ لهم فقلت: «يا قومنا أجيبوا داعيَ الله».

ثم قال لي: أتقول الشعر؟ قلت: اللهم لا! قال: أفَتَرْويه؟ قلت: نعم! قال: هاته! فأنشدته قصيدة:

أَمِنْ أمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بحَوْمانةِ الدَّرَّاج فالمُتَثَلَّمِ[1]

فقال: لمن هذه؟ قلت: لزهير بن أبي سُلْمَى! قال: الجني؛ قلت: بل الإنسي! مرارًا.

فرفع رأسه إلى قوم على رأسه، فقال: زهيرُ! فأتى بشيخ كأنه قطعة لحم؛ فأُلقِيَ بين يديه، فقال له: يا زهير! قال: لبيك! قال: «أمِنْ أمّ أوفى» لمن؟ قال: لي! قال: هذا حمزة الزياتُ يذكرُ أنها لزهير بن أبي سلمى الإنسي، قال: صدَق هو، وصدقتَ أنت!

قال: وكيف هذا؟ قال: هو إلْفِي من الإنس، وأنا تابعُه من الجنّ، أقول الشيء فألقيه في وَهْمِه، ويقولُ الشيء فآخذه عنه؛ فأنا قائلها في الجن، وهو قائلها في الإنس.

قال أبو نعيم: فصدّق عندي هذا الحديثُ حديثَ أبي الجوزاء إن وَسواس الرجل يحدث وَسْواس الرجل! فمن هٰهنا يفشو السر!

فاستفرغ[2] المتوكل ضحكًا، وقال: إليَّ يا فتحُ! فصبّ عليه خلعًا[3]، وحُمِل على شيء من الظَّهْر، وأمر له بمال، وأمر لي بدون ما أمر له به.

فانصرفت إلى منزلي، وقد شاطرني الفتح ما أخذ، فصار الأكثر إليَّ، والأقلّ عنده.

---

(١) أم أوفى: على حذف مضاف، أي أمن منازل أم أوفى، والدمنة ما بقي من آثار الديار، وحومانة الدراج: ماء في طريق البصرة إلى مكة، والمتثلم: موضع أول أرض الصمان.

(٢) بذل جهده في الضحك.

(٣) ما يخلع على الإنسان من الثياب وغيره.

حَاتِم يَقْرِي الضّيف بَعْد مَوته[١]

مرّ نفرٌ من عبد القيس بقبر حاتم[٢]، فنزلوا قريبًا منه، فقام إليه رجل يقال له أبو الخَيْبَرِي[٣]، وجعل يركض[٤] برجله قَبْرَه؛ ويقول: اقْرِنا، فقال له بعضهم: ويلك! ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات؟ إن طيًّا تزعم أنه ما نزل به أحدٌ إلا قرَاه، ثم أجنَّهم الليل، فناموا.

فقام أبو الخيبري فزعًا، وهو يقول: واراحلتاه! فقالوا له: مالك؟ قال: أتاني حاتم في النوم؛ وعقَر ناقتي بالسيف؛ وأنا أنظرُ إليها، ثم أنشدني شعرًا حفِظته، يقول فيه:

أبا الخَيْبَرِيّ، وأنت امرؤٌ ... ظلومُ العشيرة شتَّامُها
أتيتَ بصحبك تَبْغي القِرَى ... لدَى حُفرةٍ قد صَدَتْ[٥] هامُها
أَتبْغِي لي الذمّ عند المبيت ... وحَوْلك طيٌّ وأنعامها
فإنَّا لنشبعُ أضيافنا ... وتأتي المطيّ فَنَعْتَامُها[٦]

فقاموا، وإذا ناقة الرجل تَكُوس[٧] عقيرًا، فانتحروها وباتوا يأكلون، وقالوا: قَرانا حاتم حيًّا وميتًا!

وأردفوا صاحبهم، وانطلقوا سائرين، وإذا برجلٍ راكب بعيرًا وهو يقود آخر، قد لحقه، وهو يقول: أيكم أبو الخَيْبَرِيّ؟ قال الرجلُ: أنا! قال: فخذ هذا البعير؛ أنا عدي بن حاتم؛ جاءني حاتم اليوم في النوم، وزعم أنه قراكم بناقتك، وأمرني أن أحملك؛ فشأنك والبعير[٨]!

---

(١) بلوغ الأرب: ١ ـ ٧٤.
(٢) هو حاتم بن عبد الله من قبيلة طيء، وهو من أجواد العرب، وله أخبار كثيرة في السخاء مشهورة، حتى جرى ذكره مجرى الأمثال، وكان مع ذلك شاعرًا وشجاعًا، توفي سنة ٥٠٦ م.
(٣) قال في القاموس: كأنه ولد بخيبر. وخيبر: حصن قرب المدينة.
(٤) ركض الرجل ركضًا من باب قتل: ضرب برجله.
(٥) صدت: صوتت. والهامة: طير تزعم العرب أنه يصيح على قبر الميت القتيل، فلا يفتأ ينادي بثأره حتى يؤخذ به.
(٦) نعتامها: عتمت الإبل، واعتمت، واستعتمت: إذا حلت عشاء.
(٧) تكوس: كاس البعير، مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب.
(٨) إلى هذه القصة أشار ابن دارة الغطفاني في قوله يمدح عدي بن حاتم:
أبوك أبو سفانة الخير لم يزل ... لدن شب حتى مات في الخير داعيا =

ودفعه إليهم وانصرف.

جَارُ مَالِك بن حَرِيم[١]

خرج مالك بن حَرِيم في نفر من قومه يريدون عُكاظ، فاصطادوا ظَبْيًا، وأصابهم عطش شديد، فانتهوْا إلى موضع، فَقَصَدُوا الظَّبْي، وجعلوا يشربون من دمه من العطش، فلما ذهب دمُه ذبحوه، وخرجوا في طلب الحطب، وكَمَنَ مالك في خِبائه فأثار بعضُهم شُجاعًا[٢]، فأقبل منسابًا حتى دخل رَحْل مالك، فلاذَ به، وأقبل الرجل في أثره؛ وقال: يا مالك، استيقظ فإن الشجاع عندك؛ فاستيقظ مالك، ونظر إلى الشُّجاع، فإذا هو يلُوذُ[٣] بخ؛ فقال للرجل: عزمتُ عليك إلّا تركته، فكفّ عنه وانسَابَ الشُّجاع إلى مأمنه، وأنشأ مالك يقول:

وأوصاني الحريم بعزِّ جاري ... وأمنعه وليس به امتناع
وأدفع ضَيْمَه وأذُبُّ عنه ... وأمنعه إذا منع المَتَاع

ثم ارتحلوا واشتدّ بهم العطش، وإذا بهاتف يهتف بهم ويقول:

يا أيها القوم لا ماءَ أمامكم ... حتى تسوموا المطايا يومها التعبَا
ثم اعدلوا شَامَةً فالماءُ عن كثبٍ ... عينٌ رَواء وماء يذهب اللّغَبا[٤]
حتى إذا ما أصبتم منه ريَّكم ... فاسقوا المطايا ومنه فاملئوا القِرَبا

فعدلوا شامة، فإذا هم في عين خَرّارة في أصل جبل، فشربوا وسقوا إبلهم. وحملوا ريّهم حتى أتوْا عُكاظ، ثم أقبلُوا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع، فلم يروا شيئًا، وإذا بهاتف يقول:

يا مالِ عني جزاك الله صالحةً ... هذا وداعٌ لكم مني وتسليمُ
لا تزهدنْ في اصطناع الخير مع أحدٍ ... إن الذي يحرم المعروفَ محرومُ
من يفعل الخير لا يَعْدَمْ مغبته ... ما عاش، والكفر بعد الغبّ مذموم

= به تضرب الأمثال في الشعر ميتا ... وكان له إذ ذاك حيا مصاحبا
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ... ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

(١) بلوغ الأرب: ٢ ـ ٣٦٢.
(٢) الشجاع: الذكر من الحيات.
(٣) يقال: لاذ به: لجأ إليه.
(٤) الشامة: ضد اليمنة، والكثب: القرب، واللغب: التعب.

أنا الشجاع الذي أنجيتَ من رهقٍ　　شكرتُ ذلك إن الشكر مقوم

ثم طلبوا العين فلم يجدوها.

الجنَ وابن الحَمَارس[١]

كان عبيد بن الحُمارِس الكلبي رجلًا شجاعًا، وكان نازلًا بالسَّماوَةِ[٢]، أيام الربيع، فلما حَسَرَ الربيع، وقلَّ ماؤه، وأقلعت أنواؤه، تحمل[٣] إلى وادي تُبَل[٤] فرأى روضة وغديرًا، فقال: روضة وغدير وخطب يسير، وأنا لما حويتُ مُجير.

فنزل هناك، وله امرأتان: اسم إحداهما الرَّباب، والأخرى خَوْلة؛ فقالت له خَوْلة:

أرى بلدةً قفرًا قليلًا أَنيسُها　　وإنا لَنَخْشَى - إن دجا الليلُ - أهْلَها

وقالت له الرَّباب:

أرَتْك برأيي، فاستمعْ عنك قولَها　　ولا تأْمَنن جنَّ الغَريف[٥] وجَهلها

فقال مجيبًا لهما:

ألستُ كميًّا[٦] في الحروب مجرّبًا
شجاعًا إذا شُبَّتْ له الحرب مِحْرَبا[٧]
سريعًا إلى الهيجا[٨] إذا حَمِس[٩] الوغى
فأُقسم لا أغدو الغدير مُنَكّبا[١٠]

ثم صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَمة[١١]، فرماها فأقْعَصَها[١٢]، ومعها ولدها فارتبطه؛ فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن:

يا ابن الحُمَارس قد أسأْتَ جوارنا　　وركبت صاحبنا بأمر مُفْظع

(١) بلوغ الأرب: ٢ ـ ٣٥٥، ابن أبي الحديد: ٤ ـ ٤٤٨.
(٢) السماوة: بادية قرب الشام.
(٣) تحمل: سافر.
(٤) تبل: واد على أميال يسيرة من الكوفة، وأعلاه متصل بسماوة كلب.
(٥) الغريف: الجلفاء.
(٦) الكمى: الشجاع.
(٧) المحرب: صاحب الحرب.
(٨) الهيجاء: الحرب.
(٩) حمس: اشتد وصلب في القتال.
(١٠) نكب: عدل.
(١١) الشيهمة: الأنثى من القنافذ.
(١٢) أقصعها: قتلها مكانها.

وعقَرْتَ لَقْحَتَهُ[١] وقُدْتَ فصيلها ... قودًا عنيفًا في المنيف الأرفع
ونزلت مَرْعى شائنًا وظلمتنا ... والظلمُ فاعلُهُ وخيم المَرْتَع
فلنطرقنَّك بالذي أَوْلَيْتَنا ... شَرًّا يجيك وماله من مَدْفع

فأجابه ابن الحُمارس:

يا مُدَّعي ظُلْمي، ولستُ بظالمٍ ... اسْمَعْ لديك مقالتي وتسمّع
لا تطمعوا فيما لديّ فما لكم ... فيما حويتُ وحُزْتُهُ من مطمع

فأجابه الجنى:

يا ضاربَ اللَّقْحَة بالعضب[٢] الأفل[٣] ... قد جاءك الموتُ ووافاك الأجلْ
وساقك الحَيْن إلى جِنٍّ تُبَل ... فاليوم أقويت[٤] وأَعْيَتْكَ الحِيَلْ

فأجابه ابن الحمارس:

يا صاحب اللَّقْحَة هل أنت بجل ... مستمع مني فقد قُلْتَ الخَطَلْ
وكثرةُ المنطق في الحرب فشل ... هيجت قُمْقامًا[٥] من القوم بَطَلْ
ليث ليوث، وإذا همّ فعل ... لا يرهبُ الجنَّ ولا الإنسَ أَجَلْ
من كان بالعَقْوَة[٦] من جِنّ تُبَلْ

فسمعها شيخ من الجن؛ فقال: لا والله لا نرى قَتلَ إنسان مثل هذا، ثابتِ القلب، ماضي العزيمة! فقام ذلك الشيخ فأنشد:

يا ابن الحُمَارس قد نزلت بلادَنا ... فأصبت منها مَشْرَبًا ومناما
فبدأْتَنا ظلمًا بعقر لقُوحنا ... وأسأت لَمَّا أن نطقتَ كلاما
فاعمد لأمرِ الرشد واجْتَنِبِ الردى ... إنا نرى لك حرمةً وذِمامًا
واغرم لصاحبنا لقوحًا مُتْبَعًا ... فلقد أصبتَ بما فعلتَ أثاما[٧]

---

(١) اللقحة: الناقة.
(٢) العضب: السيف.
(٣) الأفل: المثلم.
(٤) أقوى: افتقر.
(٥) القمقام: السيد.
(٦) العقوة: المحلة.
(٧) الأثام: الإثم.

فأجابه ابن الحُمارس:

الله يعلم حيث يرفع عرشه إني لأكرهُ أن أُصِيبَ أثامَا

أما ادّعاؤكَ ما ادّعيتَ فإنني جئتُ البلاد ولا أريد مقاما

فأَسَمت[١] فيها مالنا ونزلتُها لأريح فيها ظهرَنا أياما

فَلْيَغْدُ صاحبكم علينا نُغطه ما قد سألتَ ولا نراه غراما

ثم غرم للجن لقوحًا متبعًا[٢].

حَارِس مَال ابن الخَشْرَم[٣]

خرجَ نُجَيح اليَرْبُوعي يومًا إلى الصيد، فعرض له حمارُ وَحْشٍ فاتّبعه، حتى دفع إلى أَكَمَة، فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد في أَطْمَارٍ[٤]، بين يديه ذهب وفضة ودُرّ وياقوت. فدنا منه نجيح؛ فتناول منها بعضها، فلم يستطع أن يحرّك يده حتى ألقاها؛ فقال: يا هذا؛ ما الذي بين يديك؟ وكيف تستطيعُ حملَه؟ أَلَكَ هو أمْ لِغيرك؟ فإني أعجب مما أرى، أجواد أنت فتجود لنا، أم بخيل فأعذرك؟ فقال الأعمى: كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين، وهو سعد بن خَشْرَم، فأْتِني بسعد يعطك ما تشاء.

فانطلق نُجيح مسرعًا، قد استطير فُؤاده، حتى وصل إلى مَحَلّته[٥]، ودخل خِباءه، فوضع رأسه، ونام لما به من الغم؛ لا يدري مَنْ سعد!

فأتاه في منامه آتٍ؛ فقال له: يا نُجيح؛ إنّ سَعْد بن خشرم في حي مُحَلِّم من ولد ذُهْل بن شيبان؛ فخرج وسأل عن بني مُحَلِّم، ثم سأل عن خَشْرَم، فإذًا هو بشيخ قاعد على باب خِبائه، فحيّاه نُجيح، فردّ عليه، فقال له نُجيح: مَن أنت؟ قال: خَشْرَم بن شمَّاس. قالَ: وأين ابنُك؟ قال: خرج في طلب نُجيح اليَرْبُوعي؟ وذلك أن آتيًا أتاه في منامه، فحدّثه أن مالًا له في نواحي بني يَرْبوع لا يعلم به إلا

---

(١) أسام المال: أرعاه. والمال (هنا): الإبل.

(٢) قال ابن أبي الحديد بعد إيراده هذه القصة في شرح نهج البلاغة: وهذه الحكاية وإن كانت كذبًا إلا أنها تتضمن أدبًا، وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها.

(٣) المحاسن والأضداد: ٦٩.

(٤) الأطمار: الملابس البالية.

(٥) المحلة: منزل القوم.

نُجيح، فضرب نجيح بطن فرسه، وهو يقول:

أيطلبني مَنْ قد عَناني طِلَابُه فياليتني ألقاك سعدَ بنَ خَشْرَمِ
أتيتَ بني يَرْبوع تبغي لقاءنا وقد جئتُ ـ كي ألقاك ـ حيَّ مُحَلِّمِ

فلما دنا من محلَّته استقبل سعدًا، فقال له: أيها الراكب؛ هل لقيت سعدًا في بني يربوع؟ فقال: أنا سعد؛ فهل تدلُّني على نُجيح؟ قال: أنا نجيح! وحدّثه بالحديث؛ ثم قال: الدالُّ على الخير كفاعله.

فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان؛ فتوارى الرجل الأعمى حين أبصرهما، وترك المال، فأخذه سعد كله، فقال له نجيح: يا سعد؛ قاسمني، فقال له: اطوِ عن مالي كشحًا! وأبى أن يعطيه شيئًا، فانتضى نجيح سيفه، وجعل يضربه، حتى برد: فلما وقع قتيلًا تحوَّل الرجل الحافظ للمال سِعْلَاةً[١]، وأعاد المال إلى مكانه؛ فلما رأى نجيح ذلك ولّى هاربًا إلى قومه!

فِي مَوتِ أميّة بن أبِي الصَّلت[٢]

لما بُعث النبيّ ﷺ أخذ أمية بِنْتَيْه وهرَب بهما إلى أقصى اليمن، ثم عاد إلى الطائف، فبينما هو يشرب مع إخوان له في قصر غَيْلان هناك إذ سقط غراب على شُرْفة في القَصْر، فَنَعَب نَعْبةً؛ فقال أمية: بفيك الكَثْكَث[٣]! فقال أصحابه: ما يقول؟ قال: يقول: إنك إذا شربت الكأس التي بيدك مِتّ. فقلت: بفيك الكثكث، ثم نعب نَعْبَةً أخرى، فقال أمية نحوَ ذلك، فقال أصحابه: ما يقول؟ قال: زعم أنه يقع على هذه المزْبَلة[٤] أسفل القصر، فيستثير عظمًا فيبتلعه فيشجي به فيموت، فقلت نحو ذلك. فوقع الغرابُ على المزْبَلة، فأثار العظم، فيشجى به فمات.

فانكسر أمية، ووضع الكأس من يده، وتغيّر لونه، فقال له أصحابه: ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا وكان باطلًا! ثم ألحُوا عليه حتى شرب الكأس، فمال وأُغْمِيَ عليه، ثم أفاق، ثم قال: لا بريءٌ فأَعتذر، ولا قويٌّ فأنتصر، ثم خرجت نفسه.

---

(١) السعلاة: الغول أو ساحرة الجن.
(٢) الأغاني: ٤ ـ ١٣٣.
(٣) الكثكث: التراب.
(٤) موضع السرجين.

فِي بَحْر الخَزَر[١]

قال ميمون الآمدي: ركبت بحر الخَزَر أريد بلدًا حتى إذا ما كنت منه غير بعيد لُجّج[٢] مركبنا، فاستاقته ريحُ الشمال شهرًا في اللُّجة، ثم انكسر بنا، فوقعتُ أنا ورجل من قريش إلى جزيرة في البحر ليس بها أنيس.

فجعلنا نطوف حتى أَشْرَفْنَا على هُوَّة، وإذا بشيخ مستندٍ إلى شجرةٍ عظيمة، فلما رآنا تَحَشْحَش[٣] وأناف إلينا! ففزِعْنا منه، ثم دنونا نحوه، وقلنا: السلام عليك أيها الشيخ! قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فأَنِسْنا به، فقال: ما خطْبُكُما؟ فأخبرناه، فضحك وقال: ما وطيء هذا الموضع أحد من ولد آدم قط، فمن أنتما؟ قلنا: من العرب، قال: بأبي وأُمي العرب، فمن أَيِّها؟ قلت: أما أنا فرجل من خُزاعة، وأما صاحبي فمن قريش. قال: بأبي قريشٌ وأَحْمَدُها! قال: يا أخا خُزاعة، هل تدري مَن القائل:

كَأَنْ لم يَكُنْ بين الحَجُونِ[٤] إلى الصَّفَا
أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سَامرُ
بلى نحن كُنَّا أهلَها فأبادَنا
صُروفُ الليالي والجُدُودُ العواثر

قلت: نعم، ذلك الحارث بن مضاض الجُرهمي قال: ذلك مُؤدِّيها، وأنا قائلها في الحرب التي كانت بينكم معشر خُزاعة وبين جُرْهم.

يا أخا قريش؛ أَوُلِد عبد المطلب بن هاشم؟ قلت: أين يذهبُ بك، رحمك الله، فرَبَا وعظم وقال: أرى زمانًا قد تقارب إبَّانه، أَفَوُلِد ابنه عبد الله؟ قلنا: وأينَ يذهبُ بك، إنك لتسألُنا مسألةَ مَنْ كان في الموتى.

قال: فتزايد، ثم قال: فابنه محمد الهادي؟ قلت: هيهات! مات رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة.

---

(١) الجمهرة: ٢٦.
(٢) لججت السفينة: خاضت اللجة: ولجة البحر: معظمه.
(٣) تحشحش: تحرك، أناف: أشرف.
(٤) الحجون: جبل بمكة ومقبرة.

فشهق حتى ظننا أن نفسه قد خرجت، وانخفض حتى صار كالفرخ، وأنشأ يقول:

ولـرُبَّ راجٍ حِيـلَ دون رجـائـه ومُـؤمِّـلٍ ذهـبـت بـه الآمـالُ

ثم جعل ينوح ويبكي، حتى بلّ دمعُه لحيته، فبكينا لبكائه، ثم قال: ويحكما! فمن ولي الأمر بعده؟ قلنا: أبو بكر الصديق، وهو رجل من خير أصحابه قال: ثمّ مَن؟ قلنا: عمر بن الخطاب، قال: أفمن قومه؟ قلنا: نعم. قال: أما إن العرب لا تزال بخير ما فعلت ذلك!

نجّي[1] سَوَاد بن قَارِب[2]

وفدَ سَوَادُ بنُ قارب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فسلّم عليه فردّ السلام، فقال عمر: يا سواد! قال: لبيك يا أميرَ المؤمنين! قال: ما بقيَ من كهانتك؛ فغضب ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ ما أظنك اسْتَقْبَلْتَ بهذا الكلام غيري؛ فلما رأى عمرُ الكراهية في وجهه قال: يا سواد؛ إن الذي كنّا عليه من عبادةِ الأوثان أعظم من الكهانة، فحدّثني بحديث كنتُ أشتهي أن أسمعَه منك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينما أنا في إبلي بالسَّرَاة، وكان لي نجيٌّ من الجن؛ إذ أتاني في ليلةٍ وأنا كالنائم، فَرَكَضَنِي برجله، ثم قال: ثم يا سواد، فقد ظهر بتِهامة نبيٌّ يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم، قلت: تنحَّ عني فإني ناعس؛ فولّى عني وهو يقول:

عـجـبـت لـلجِـنّ وتَـطْـلابـهـا وشـدِّهـا الـعـيـسَ بـأكـوارهـا[3]
تـهـوى إلى مكة تـبـغي الـهـدى مـا مـؤمـنـو الـجـنّ كـكـفـارهـا
فارحل إلى الصَّفوَة من هاشم بـيـن روابـيـهـا وأحـجـارهـا

ثم لما كان في الليلة الثانية أتاني؛ فقال مثل ذلك القول، فقلت: تنحّ عني فإني ناعس، فولّى عني وهو يقول:

عَـجِـبْـتُ لـلجـنّ وتَـخْـبَـارِهـا وشَـدِّهـا الـعِـيسَ بـأقـتـابـهـا[4]

---

(١) النجي: مَن يلقى بالقول السر.
(٢) بلوغ الأرب: ٢ ـ ٣٠٣، الجمهرة: ٢٥.
(٣) الأكوار: جمع كور، وهو الرحل.
(٤) الأقتاب: جمع قتب، وهو ما يوضع على سنام البعير.

تهوى إلى مكةَ تبغي الهدى ما مؤمنو الجنّ ككفّارها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشم ليس قداماها كأذنابها

ثم أتاني في الليلة الثالثة، فقال مثلَ ذلك، فقلت: إني ناعس، فولّى عني وهو يقول:

عجبت للجنّ وإيجاسها[١] وشدّها العِيس بأحلاسها[٢]
تهوى إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها
فارْحَلْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشمٍ واسمُ بعينيك إلى رَاسِها

قال سَوَاد: فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلتُ لناقةٍ من إبلي، فشددتُ عليها، وأتيتُ النبيّ ﷺ فأسلمتُ وبايعت، وأنشأتُ أقول:

أتاني نجيٌّ بعد هَدْءٍ[٣] ورَقْدَةٍ ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذب
ثلاث ليالٍ قولُهُ كل ليلةٍ أتاك رسولٌ من لؤيّ بن غالب
فشمّرت عن ذيلي الإزار وأرْقَلَتْ[٤] بي الذِّعْلب[٥] الوجْناء بين السَّباسب
فأشهد أنَّ الله لا ربَّ غيره وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنكَ أدنى المرسلين وسيلةً إلى الله يا ابْنَ الأكْرَمين الأطَايِبِ
فمرْني بما أحببتَ يا خيرَ مُرْسَلٍ وإن كان فيما قلتَ شيبُ الذوائب
وكن لي شفيعًا يوم لا ذو شفاعةٍ بمغنٍ فتيلًا عن سَوادِ بن قارب

ففرح رسول الله وأصحابه بمقالتي فرحًا شديدًا حتى رئي الفرح في وجوههم؛ فوثب إليه عمر فالتزمه، وقال: قد كنت أحبُّ أن أسمع هذا الحديث منك، فهل يأتيك رئيّك اليوم؟ فقال: منذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن!

---

(١) أوجس: وقع في نفسه الخوف.
(٢) الحلس: كساء رقيق يكون تحت البرذعة بمنزلة المرشحة.
(٣) الهدء: السكون. (٤) أرقلت: أسرعت.
(٥) الذعلب: الناقة السريعة شبهت بالذعلبة وهي النعامة لسرعتها (اللسان مادة ذعلب)، والوجناء: الشديدة. والسباسب، جمع سبسب: المفازة.

لَيلى الأخيليّة عَلى قَبر توبَة[(١)]

مَرَّت ليلى الأخيليةُ[(٢)] مع زوجها بقَبْرِ توبة بن الحميّر، فقال لها: هذا قبرُ الكذّاب الذي قال:

ولـو أنّ لـيـلى الأخـيـليّة سلّمَتْ ... عـليَّ ودونـي جَـنْـدَلٌ وصـفـائِحُ
لسَلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زقَا ... إليها صدًى من جانب القبرِ صائِح

فقالت: دَعْه، فقال: أقسمتُ عليك إلا ما دنوتِ منه فَسلَّمتِ عليه فأبت، فكرر عليها ذلك، فلما تقدّمتْ إلى القبْر، وقالت: السلام عليك يا توبة، طار من جانب القبر طائر كان هناك، وزقًا ونفر منه جمل ليلى، فوقعت من أعلاه فاندقّت عنقها وماتت من وقتها!

جَان يختَطِف فَتَاة[(٣)]

حدّث زياد بن النَّضْر الحارثي قال: كنا على غَدِيرِ لنا في الجاهلية، ومعنا رجلٌ من الحيّ يقال له: عمرو بن مالك، معه بنية له شابة، على ظهرها ذُؤابة، فقال لها أبوها: خذي هذه الصَّحْفة، ثم ائتي الغدير، فجيئينا بشيء من مائه.

فانطلقت فوافقها عليه جان فاختطفها، فذهب بها؛ فلما فقدناها نادى أبوها في الحيّ، فخرجنا على كل صَعْب وذَلول[(٤)]، وقصدنا كل شِعْبٍ[(٥)] ونَقْب، فلم نجد لها أثرًا؛ ومضت على ذلك السنون، حتى كان زمنُ عمرَ بن الخطاب، فإذا هي قد جاءت، وقد عفَا[(٦)] شَعْرها وأظفارها، وتغيّرت حالها، فقال لها أبوها: أي بنية؛ أنّى كنت؟ وقام إليها يقبّلها، ويَشم ريحها، فقالت: يا أبت؛ أتذكرُ ليلَة الغدير؟ قال: نعم! قالت: فإنه واقفني عليه جان، فاختطفني، فذهب بي، فلم أزلْ فيهم، حتى إذا كان الآن غزا هو وأهله قومًا مشركين، أو غزاهم قوم مشركون

---

(١) ديوان الصبابة: ١٨٤.
(٢) هي ليلى بنت عبد الله من بني الأخيل بن عامر، من النساء المتقدمات في الشعر، وكان توبه بن الحمير يهواها، وقال فيها الشعر الكثير ثم تزوجها، توفيت سنة ٨٠ هـ.
(٣) المنتقى من أخبار الأصمعي: ١٣.
(٤) الصعب: الجمل العصي، والذلول: الجمل الهادىء.
(٥) الشعب: الطريق في الجبل، ومسيل الماء في بطن أرض، أو ما انفرج بين الجبلين.
(٦) عفا شعرها: كثر وطال.

فجعل لله تبارك وتعالى نذرًا إن هم ظفروا بعدوّهم أن يعتقني ويردّني إلى أهلي فظفروا؛ فحملني فأصبحتُ عندكم، وقد جعل بيني وبينه أَمَارةً، إن احتجتُ إليه أن أوَلْوِل بصوتي، فإنه يحضرني.

فأخذ أبوها من شعرها وأظافرها، وأصلح من شأنها، وزوّجها رجلًا من أهله؛ فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبَعْلها فعيَّرها؛ وقال: يا مجنونة! والله؛ إن نشأتِ إلا في الجن.

فصاحت ووَلولت بأعلى صوتها، فإذا هاتفٌ يهتف: يا معشر بني الحارث؛ اجتمعوا وكونوا حيًّا كرامًا، فاجتمعنا فقلنا: ما أنت ـ رحمك الله؟ فإنا نسمع صوتًا ولا نرى شخصًا! فقال: أنا رابُّ[1] فلانة، رعيتُها في الجاهلية بحسبي؛ وصُنْتُها في الإسلام بديني، والله إن نلتُ منها محرّمًا قط! واستغاثت في هذا الوقت، فحضرتُ فسألتها عن أمرها، فزعمت أن زوجها عيّرها بأنْ كانت فينا، ووالله، لو كنت تقدمت إليه لفقأتُ عينيه! فقلنا: يا عبد الله؛ لك الحِباء والجزاء والمكافأة! فقال: ذلك إليه (يعني الزوج)!

فقامتْ إليه عجوز من الحيِّ، فقالت: أسألك عن شيء، فقال: سَلِي! قالت: إن لي بنيةً أصابتها حَصْبة[2]، فتمزَّقَ رأسها، وقد أخذتها حُمَّى الرِّبْع[3]؛ فهل لها من دواء؟ قال: نعم! اعمِدي إلى ذباب الماء الطويل القوائم الذي يكون على أفواه الأنهار، فخذي منه واحدة، فاجعليها في سبعة ألوان عهن[4]، من أصفرها وأحمرها وأخضرها وأسودها، وأبيضها وأكحلها وأزرقها، ثم افْتلي ذلك الصوف بأطراف أصابعك، ثم اعقديه على عضدك؛ ففعلت أمها ذلك، فكأنما نَشطتْ من عِقَال!

لَا بقَاء للإنسَان[5]

لبس سليمان[6] بن عبد الملك يوم الجمعة في ويلاته لباسًا شُهِر به، وتعطَّر

(١) راب: كافل.
(٢) الحصبة: بثر يخرج بالجسد.
(٣) الربع في الحمى: أن تأخذ يومًا وتدع يومين، ثم تجيء في اليوم الرابع.
(٤) العهن: الصوف.
(٥) مروج الذهب: ١ ـ ١٦٣.
(٦) سليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية، كانت أيامه أيام فتح وغزو وكان فصيحًا بليغًا، إلا أنه كان نهمًا، توفي سنة ٩٦ هـ.

ودعا بتَخْت[١] فيه عمائم، وبيده مرآة، فلم يزل يعتمّ بواحدة بعد أخرى حتى رضي بواحدةٍ منها، فأرخى من سُدولها، وأخذ بيده مُخْصَرة[٢]، وعلا المنبر ناظرًا في عِطفيه، وجمع جمعه، وخطب خطبته التي أرادها، فأعجبته نفسه، فقال: أنا الملك الشاب، السيد المُهاب، الكريم الوهَّاب، فتمثّلَتْ له جاريةٌ من بعض جواريه، فقال لها: كيف ترين أمير المؤمنين؟ قالت: أراه مُنى النفس، وقرّة العين، لولا ما قال الشاعر! قال: وما قال الشاعر؟ قالت:

أنت نعم المتاع لو كنتَ تَبْقَى غير أن لا بقاء للإنسان

أنت من لا يريبنا منك شيء علم الله ـ غير أنك فان ـ

فدمعتْ عيناه وخرج على الناس باكيًا، فلما فرغ من خُطبته وصلاتِه دعا بالجارية، فقال لها: ما دعاك إلى ما قلت لأمير المؤمنين؟ قالت: والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم، ولا دخلتُ عليه؟ فأكْبرَ ذلك، ودعا بقيِّمَةِ جواريه، فصدقتها في قولها، فراع ذلك سليمان، ولم ينتفع بنفسه، ولم يمكث بعد ذلك إلا مدَّةً حتى تُوفي.

الغَرِيض يَتلقّى غَنَاءَه عَن الجن[٣]

قال مولى لآل الغَرِيض[٤]:

حدّثني بعض مَوْلَيَاتي وقد ذَكَرْنَ الغَريض فترحّمن عليه وقلن: جاءنا يومًا يحدّثنا بحديث أنْكَرْناه عليه، ثم عَرَفْنا بعد ذلك حقيقته، وكان من أحسن الناس وجهًا صغيرًا وكبيرًا، وكنا نَلْقَى من الناس عَنَتًا بسببه، وكان ابنُ سُريج في جوارنا فدفعناه إليه فلقِنَ الغناء، وكان من أحسن الناس صوتًا ففتن أهل مكة بِحُسْن وجهه مع حسن صوته؛ فلما رأى ذلك ابن سُرَيج نحّاه عنه، وكان بعضُ مولياته تعلّمه النِّياحة، فبرّز فيها، فجاءني يومًا فقال: نهتني الجنّ أن أنوح، وأسمعتني صوتًا

---

(١) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.

(٢) المخصرة: ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب، والخطيب إذا خطب.

(٣) الأغاني: ٢ ـ ٣٧٣.

(٤) اسمه عبد الملك، والغريض لقبه، كان يضرب بالعود، وينقر بالدف أخذ الغناء عن ابن سريج ثم فاق عليه، وتوفي في خلافة سليمان بن عبد الملك.

عجيبًا، فقد ابتنيتُ عليه لحنًا فاسمعيه مني، واندفع فغنّى بصوت عجيب في شعر المرّار الأسدي:

حلفتُ لها بالله ما بين ذي الغَضَا وهضب القَنَانِ[1] من عَوَانٍ ولا بِكْرِ
أَحَبُّ إلينا منك دَلّا وما نرى به عند لَيْلَى من ثوابٍ ولا أجرِ

فكذّبناه وقلنا: شيءٌ فكّر فيه وأخرجه على هذا اللّحن، فكان في كل يوم يأتينا فيقول: سمعتُ البارحة صوتًا من الجن بترجيع وتقطيع قد بنيت عليه صوتَ كذا وكذا بشعر فلان، فلم يزل على ذلك ونحن نُنْكِرُ عليه؛ فإنا لكذلك ليلة وقد اجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكة في جمع سَمَرْنا فيه ليلتنا، والغريض يغنينا بشعر عمر بن أبي ربيعة:

أمِنْ آل زينب جَدَّ البُكُور نعم فلأَيٍّ هواها تَصِيرُ

إذ سمعنا في بعض الليل عَزيفًا عجيبًا وأصواتًا مختلفة ذعرتنا وأفزعتنا، فقال لنا الغريض: إن في هذه الأصوات صوتًا إذا نمتُ سمعتُه، وأُصْبِحُ فأبني عليه غِنائي، فأَصْغَيْنَا إليه، فإذا نغمته نغمة الغريض بعينها، فصدّقناه تلك الليلة.

شَيطَان أَبِي نُوَاس[2]

قال رَزِين الكاتب: اجتمعنا يومًا أنا وأبو نواس[3] وعلي بن الخليل في سوق الكَرْخ[4]، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدث بها، فقال أبو نواس: أدْبَرَ مَن كان في نفسي، وكان أَسْرَع الخَلْقِ في طاعتي؛ فما أدري ما أَحْتَال له؟ فقال علي بن الخليل يمازحه: يا أبا علي؛ سل شيخك وأستاذَك يُعطِّفْه عليك؛ فقال له أبو نواس: من تَعْنِي؟ قال: مَن أنت في طاعته ليلَك ونهارك ـ يعني إبليس ـ، فإن لم يَقْضِ لك هذه الحاجة، فما ينبغي لك أن تسأله مسألة، ولا أن تُقِرَّ عينه بمعصية. فقال: هو أسدُّ رأيًا من أن يُخِلَّ بي أو يَخْذُلني، وانقضى مجلسنا ذلك.

(١) القنان: جبل لبني أسد.
(٢) المأمون: ٣ ـ ٢٣٣.
(٣) هو الحسن بن هانىء، رحل إلى بغداد، واتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، وهو أول مَن نهج للشعر طريقته الحضرية، وأخرجه من اللهجة البدوية، توفي سنة ١٩٢ هـ.
(٤) من أسواق بغداد.

فلما كان بعدَ أيام اجتمعنا في ذلك الموضع، وأخذنا في أحاديثنا، فضحك أبو نواس، فقلنا له: ما أضحكك؟ فقال: ذكرت قول علي بن الخليل يومئذ: سَلْ شيخَك يعطفه عليك، حينئذٍ قد سألتُه يا أبا الحسن، فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثةٌ حتى أتاني من غير أن أبعثَ إليه ومن غير أن أستزيره، فعاتبني واسْتَرْضَاني، وكان الغضب مني والتجني، وأحسب الشيخَ - يعني إبليس - كان يتسمَّع علينا في وقت كلامنا، وقد قلت أبياتًا في ذلك؛ فقلنا: هاتها، فأنشد:

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتْ ... عنّي الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدّ شوقي فكاد يَقْتُلني ... ذكرُ حبيبي والهمُّ والفِكَرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلت له ... في خَلْوَةٍ والدموعُ تنحدرُ:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد ... أَقرح جَفْني البكاءُ والسهرُ
إن أنتَ لم تُلْقِ لي المودّةَ في ... صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قُلْتُ شعرًا ولا سمعتُ غِنا ... ولا جرى في مفاصِلي السَّكَرُ[1]
فما مضتْ بعد ذاك ثالثة ... حتى أتاني الحبيبُ يعتذرُ
فيا لها مِنَّةً لقد عظُمَتْ ... عندي لإبليس مالها خَطَرُ

إبليس فِي ضيَافَةِ إبرَاهيم الموصلّي[2]

قال إبراهيم بن إسحٰق الموصلي:

سألتُ الرشيد[3] أن يَهبَ لي يومًا في الجمعة لا يبعثُ فيه إليَّ بوجه وَلا بسبب لأَخْلُوَ فيه بجَواريَّ وإخواني، فأذن لي في يوم السبت، وقال لي: هو يوم أَسْتَثْقِله، فالْهُ فيه بما شئت؛ فأقمت يوم السبت بمنزلي وتقدمتُ في إصلاح طعامي وشرابي بما احتجتُ إليه، وأمرتُ بوّابي فأغلق الأبوابَ، وتقدمتُ[4] إليه ألا يأذنَ عليَّ لأحد.

فبينما أنا في مجلسي والخدم قد حَفُّوا بي وَجَواريّ يتردَّدْن بين يدي، إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال، عليه قميصان ناعمان وخُفَّان قصيران، وعلى رأسه قَلَنْسُوَةٌ

---

(١) السكر: السكر.
(٢) الأغاني: ٥ ـ ٢٣١، ذيل زهر الآداب: ٢٦٤.
(٣) أعظم خلفاء بني العباس، وأكبرهم شأنًا، كان محافظًا كثيرًا لجهاد وافر العطاء. توفي سنة ١٩٣.
(٤) تقدمت إليه: أمرته.

لاطِئة[١]، وبيده عُكازة مُقَمَّعة بِفِضة، وروائحُ المسك تفوح منه حتى ملأ البيتَ والدار، فداخلني بدخوله عليّ - مع ما تقدمت فيه - غيظٌ ما تداخلني قطُّ مثلُه وهممتُ بطرد بوّابي ومَنْ حجبني لأجله، فسلّم عليّ أحسنَ سلام؛ فرددتُ عليه، وأمرته بالجلوس فجلس، ثم أخذ بي في أحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سَلَّى ما بي من الغضب، وظننت أن غلماني تَحَرَّوْا مسَرَّتي بإِدْخَالهم مثله عليَّ لأدبه وظَرْفه.

فقلتُ: هل لك في الطعام، فقال: لا حاجةَ لي فيه، فقلت: هل لك في الشراب، فقال: ذلك إليك، فشربتُ رطلًا وسقيتُه مثلَه، فقال لي: يا أبا إسحٰق؛ هل لك أن تُغني لنا شيئًا من صَنْعتك وما قد نَفقْتَ[٢] به عند الخاصّ والعام؟ فغاظني قولُه، ثم سهَّلتُ على نفسي أمرَه، فأخذتُ العود فجسَسْتُهُ ثم ضربت فغنّيتُ، فقال: أحسنت يا إبراهيم! فازداد غيظي وقلت: ما رضي بما فعله من دخوله عليّ بغير إذن واقتراحه أن أُغَنّيه حتى سمَّاني ولم يُكَنِّنِي ولم يُجمِل مخاطبتي! ثم قال: هل لك أن تزيدنا؟ فَتَذَمَّمْتُ[٣] فأخذتُ العود فغنَّيتُ، فقال: أَجَدْتَ يا أبا إسحٰق! فأَتِمَّ حتى نكافِئَك ونُغنّيك، فأخذت العود وتغنّيت وتحفّظتُ وقمتُ بما غنيتهُ إياه قيامًا تامًّا ما تحفَّظت مثلَه، ولا قمتُ بغناء كما قمتُ به له بين يَدَيْ خليفة قطُّ ولا غيره، لقوله لي: أكافئك، فطرِب وقال: أحسنتَ يا سيِّدي، ثم قال: أتأذن لعبدك بالغناء؟ فقلت: شأنكَ، واستضعفتُ عقلَه في أن يغنيني بحضرتي بعد ما سمعه مني، فأخذ العود وجسّه فوالله لَخِلْتُه ينطق بلسان عربي لِحُسْنِ ما سمعتُه من صوته ثم تَغَنّى:

ولي كَبِدٌ مقروحةٌ مَنْ يَبِيعُنِي ... بها كبِدًا ليستْ بذات قُرُوحِ
أباها عليَّ الناسُ لا يشترونها ... ومَنْ يشتري ذا عِلَّةٍ بصحيحِ؟
أئِنُّ من الشوق الذي في جوانبي ... أَنِينَ غَصيصٍ بالشراب جَريح

قال إبراهيمُ: فوالله لقد ظننتُ الحيطانَ والأبوابَ وكلَّ ما في البيت يجيبه ويُغَنّي معه من حُسن غنائه، حتى خِلتُ والله أني أسمعُ أعضائي وثيابي تُجَاوِبه؟

(١) اللاطئة: قلنسوة صغيرة تلزق بالرأس. (٢) نفقت: يريد سار ذكرك به.
(٣) تذمم الرجل: استنكف، ويقال: لو لم أترك الكذب تأثمًا لتركته تذممًا.

وبقيتُ مبهوتًا لا أستطيعُ الكلام ولا الجواب ولا الحركةَ لِمَا خالَطَ قلبي، ثم غنّى:

ألا يا حماماتِ اللِّوَى عُدْنَ عَوْدةً ... فإني إلى أصواتكنّ حزينُ
فعُدْن فلمّا عُدْن كِدْن يُمِتْنَني ... وكدتُ بأسراري لهن أُبينُ
دَعَوْن بتَرْدَاد الهَدير كأنما ... سُقِينَ حُمَيًّا أو بهنَّ جُنُونُ
فلم تَرَ عيني مثلهن حمائما ... بكَينَ ولم تَدْمَع لهن عيونُ

فكاد، والله أعلم، عقلي أن يذهب طربًا وارتياحًا لما سمعتُ، ثم غنَّى:

ألا يا صَبا نجدٍ متى هِجْتِ من نجدِ ... لقد زادني مَسْراك وَجْدًا على وَجِد
أَأَنْ هتفتْ وَرْقَاءُ في رونق الضُّحَا[1] ... على فَنَن غضّ النبات من الرَّنْد[2]
بكيتَ كما يبكي الحزينُ صبابةً ... وذُبْتَ من الحزن المبرِّح والجهْد
وقد زعموا أن المحبَّ إذا دنا ... يُمَلُّ وأنَّ النأي يَشْفِي من الوَجْد
بكلّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا ... على أنّ قرب الدار خيرٌ من البعد
على أنّ قرب الدار ليسَ بنافِع ... إذا كان من تَهواه ليس بذِي عَهْد

ثم قال: يا إبراهيم؛ هذا الغناء فخذه وانح نحوه في غنائك وعلِّمه جَوارِيَك، فقلتُ: أعِدْه عليّ، فقال: لستَ تحتاج، قد أخذتَه وفرغتَ منه، ثم غاب من بين يديّ، فارتعتُ وقمتُ إلى السيف فجرّدته، وعدتُ نحو أبواب الحرَم فوجدتُها مُغْلقةً، فقلتُ للجواري: أيّ شيء سمعتنّ عندي؟ فقلت: سمِعنا أحسنَ غناءٍ سُمِعَ قَطّ، فخرجتُ متحيّرًا إلى باب الدار، فوجدته مُغْلقًا؛ فسألتُ البوّابَ عن الشيخ. فقال لي: أي شيخ هو؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد، فرجَعتُ لِأتأمّل أمري، فإذا هو قد هَتف بي من بعض جوانب البيت: لا بأس عليك يا أبا إسحٰق، أنا إبليس وأنا كنتُ جليسَك ونديمَك اليومَ، فلا تُرَعْ.

فركبت إلى الرشيد وقلت: لا أُطرفه أبدًا بطُرْفة مثل هذه، فدخلتُ إليه فحدّثته بالحديث، فقال: وَيْحك! تأمّلْ هذه الأصواتَ، هل أخذتها؟ فأخذت العود أمتحنُها، فإذا هي راسخة في صدري كأنها لم تزل، فطرب الرشيد وجلس يشرب ولم يكن عزَم على الشراب، وأمر لي بصلةٍ وحُمْلانٍ وقال: الشيخ كان

(١) رونق الضحا: حسنة وإشراقه.
(٢) الرند: شجر طيب الرائحة.

أعلم بما قال لك من أنك أخذتَها وفرغتَ منها، فلَيته أمْتَعنا بنفسه يومًا واحدًا كما أَمْتعك!

دِعبَل بن عَلي وَرَجُل مِنَ الجِن[١]

قال دعبل[٢] بن عليّ: لما هربتُ من الخليفة بتُّ ليلةً بنيسابور وحدي، وعزمتُ على أن أعملَ قصيدة في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة؛ فإني لفي ذلك؛ إذ سمعتُ ـ والباب مرودٌ عليّ ـ مَن يقول: السلام عليكم ورحمة الله، انْجُ يرحُمك الله، فاقشعرَّ بدني من ذلك، ونالني أمرٌ عظيم، فقال لي: لا تُرعْ، عافاك الله، فإني رجل من إخوانك من الجن من ساكني اليَمن، طرأ إلينا طارىء من أهل العراق، فأنشدَنا قصيدتك:

مَدارسُ آيات خلتْ من تلاوةٍ ومنزل وحْي مُقْفِر العَرَصَاتِ

فأحببتُ أن أسمعها منك، قال: فأنشدته إياها، فبكى حتى خرّ، ثم قال: رَحِمَكَ الله، ألا أحدِّثُك حديثًا يَزيد في نيّتك، ويُعينك على التمسُّك بمذهبك؟ قلت: بلى، قال: مكثتُ حينًا أَسْمَع بذكر جعفر بن محمد، فصرت إلى المدينة فسمعتُه يقول: حدّثني أبي عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «عليٌّ وشيعتُه هم الفائزون»، ثم ودَّعَني لينصرف، فقلت له: يرحمُك الله، إن رأيت أن تخبرني باسمك فافعل، فقال: أنا ظبيان بن عامر!

---

(١) الأغاني: ٧ ـ ٣٩.

(٢) شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذي نباهة أحسن إليه أم لم يحسن، توفي سنة ٢٤٦ هـ.

الباب الثاني عشر

قصص شجعان العرب وفرسانهم

في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال

في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس

قال في المستطرف[1]: قد أثنى الله تعالى على الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصَّف: الآية ٤]. وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء. والرأي في الحرب إمام الشجاعة.

قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم في سبيله أو قطرة دمع في جوف ليل من خشيته». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنّة تحت ظلال السيوف»، فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله، قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن[2] سيفه، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قتل.

وكتب أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلم أن عليك عيونًا من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدوّ فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نورًا يوم القيامة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين انتهينا إلى خيبر: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وعن رفعه: «الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». وعن ابن مسعود رفعه:

---

(١) المستطرف: ص ٢٢٧ ـ ٢٤٠.

(٢) جفن السيف: غمده.

«إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنّة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل».

وقيل: إن أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك رضي الله عنه لم يشهد بدرًا، فلم يزل متحسرًا يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، فلما كان يوم أُحد قال: «واها لريح الجنّة دون أحد». فقاتل حتى قتل، فوجد في بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه. وعن فضالة بنت عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمّى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر». وعن سهل بن حنيف رفعه: «مَن سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة.

في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومَن فقدها لم تكمل فيه فضيلة. ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله في ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران، وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي: هل من مبارز. والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه، يكون رابط الجأش[1] ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش[2] ولا تأخذه الحيرة، فينقلب تقلب المالك لأموره القائم على نفسه. والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة[3] ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويرجّي الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كبا به فرسه حماه، حتى ييأس العدو منهم، وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

(١) الجأش: النفس والقلب. (٢) الدهش: الحيرة والذهول.
(٣) الساقة: مؤخر الجيش.

وحكى أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه في كتابه سراج الملوك قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا، قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار، ثم افترقوا، فوجدوا في المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته من الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها في جاهلية ولا إسلام، فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم، فكانوا إذا عيّروا بانهزامهم يقولون: لقينا أقوامًا هذا ضربهم، فيرحل أبطال الروم إليها ليروها. قالوا: ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلًا، ولا يغفل عنه وإن كان حقيرًا، فكم برغوث أسهر فيلًا، ومنع الرقاد ملكًا جليلًا. قال الشاعر:

فلا تحقرنْ عدوًّا رماك ... وإنْ كان في ساعديه قِصَرْ
فإنّ السيوف تحز الرقاب ... وتعجز عمّا تنال الإبر

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتبًا ورتبوا فيها ترتيبًا، ولنصف منها أشياء نبدأ منها أولًا بما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] فقوله تعالى: ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ مشتمل على كل ما هو مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة.

وفسّر النبيّ ﷺ القوة حين مرّ على أُناس يرمون، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي». وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملًا صالحًا من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وأمثال ذلك. والشأن كل الشأن في استجادة القواد، وانتخاب الأمراء، وأصحاب الألوية، فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة، والشجاعة والجرأة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، ممن قد توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران وقارع الأبطال عارفًا بمواضع الفرص خبيرًا بمواضع القلب والميمنة والميسرة من الحروب، فإنه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعًا كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهًا وإلّا ردَّ الغنم إلى الزريبة.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء، وكان عظماء الترك يقولون: ينبغي للعاقل العظيم للقياد أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم، شجاعة الديك،

وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركي، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء. وكان يقال: أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقي الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهم. اللهمّ إنَّا نعوذ بك من الهمّ والحزن.

ومن الحيل في الحرب أن يبث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم، وذوي الشجاعة منهم، فيدس إليهم، ويعدهم وعدًا جميلًا، ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهمات الفخيمة والولايات السنية، وإن رأى وجهًا عاجلهم بالهدايا وسامهم إما الغدر بصحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخبارًا مزورة، ويرمي بها في جيوشهم. واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالًا عليها، وإذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة. ويغلب الضعف بإقبال دولته كما يغلب القوي ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب[1] أن تكون حماة الرجال، وكماة الأبطال في القلب، فإنه إذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصنًا للجناحين يأوي إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان.

مثال ذلك: أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجّى عودته ولو بعد حين، وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان. وقلَّ عسكرٌ انكسر قلبه فأفلح أو تراجع، اللهمَّ إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلي القلب قصدًا وتعمدًا، حتى إذا توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطلق عليه الجناحان. فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب، ويقال: حبب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا.

ويقال: الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه.

---

(١) سواس الحروب: خبراءها ومجربوها.

ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتي ثبات قلبي، وإصابة رأيي، ونصل سيفي، ونصرة خالقي.

وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب، فأنشده مسلمة قول الحطيئة:

قومٌ إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا. فقام إليه مسلمة، فقبّله بين عينيه.

وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملّكوا عليهم رجلًا من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو الملك. ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما، فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلهما جميعًا، وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه، وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يومًا، وهو مردف حظيّة[1] له كان يعشقها، فعرضت له ظباء، فقال: في أي موضع تريدين أن أضع هذا السهم؟ فقالت: أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث وأناثها بالذكران، فرمى ظبيًا ذكرًا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين، ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك، فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه. ويقال: إن من أعظم المكايد في الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمي الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندًا منشورًا، ويسمع صوت الطبل، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه. وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الأبطال ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمر عنى[2]

بل قد جرب ذلك، فوجد الواحد خيرًا من عشرة آلاف.

---

(١) مردف حظية: أي مركب خلف حصانه عشيقة له.

(٢) أمر عنى: ألم وحصل.

شجاع واحد يربح المعركة

لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان العسكران كالمتكافئين، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل. فحدث من حضر الوقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء. قال الطاغية ابن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومَن غاب منهم ومَن حضر، فذهب، ثم رجع، فقال له: فيهم فلان وفلان، فعد سبعة رجال. فقال له: انظر مَن في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومَن غاب منهم، فعدهم، فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون، فقام الطاغية ضاحكًا مسرورًا، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم، فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره، ولا تزحزح عن مقامه، حتى فني أكثر العسكرين، ولم يفر واحد منهم، قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة، ثم حملوا علينا جملة وداخلوا مداخلة، ففرقوا بيننا، وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا، فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه، وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة. فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرًا، وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد.

شجاعة فارس

حكى أبو بكر الطرطوشي[(١)] رحمة الله تعالى عليه قال: سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيىٰ قال: بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه، ومن

(١) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي، ويقال له ابن أبي رندقة، أديب، من فقهاء المالكية من أهل طرطوشة بشرق الأندلس. رحل إلى المشرق وزار أكثر دياره، وأدّى مناسك الحج، واستقرّ في الإسكندرية إلى أن مات سنة ٤٧٦ هـ. من كتبه: «سراج الملوك»، و«التعليقة في الخلافيات» خمسة أجزاء، و«بر الوالدين»، و«الفتن»، وغير ذلك.

خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر، وهو رجل يعرف بابن المضجعي، فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعًا كثيرًا وجيشًا واسعًا كبيرًا، فقال له المنصور: ما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعي. قال له المنصور: ما سكوتك، أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا، فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا، فحنق المنصور، ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا، قال: أفيهم خمسون رجلًا من الأبطال؟ قال: لا، قال: فسبه المنصور، وأغلظ عليه، وأمر به، فأخرج على أسوأ حال.

فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم، وتصاف الجمعان، فبرز علج من الروم بين الصفين شاكي[1] السلاح، وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، ففرح المشركون، وصاحوا. واضطرب المسلمون لها، ثم جعل العلج[2] يموج بين الصفين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، وجعل يكر ويحمل، وينادي ويقول: هل من مبارز؟ ثلاثة لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فقتله العلج، فصاح المشركون، وذل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة.

فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجعي؟ فبعث إليه، فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أن تكفي المسلمين شره. قال: الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى، ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالًا، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل في حليته، ونفسه غير متصنع، فقال له ابن المضجعي: ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال: قد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفي المسلمين شره. قال: حبًا وكرامة.

ثم إنه وضع القربة بالأرض، وبرز إليه غير مكترث به، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجًا إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العلج

(١) شاكي السلاح: متأهب للقتال. (٢) العلج: الكافر.

يلعب بها في يده، ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور، فقال له ابن المضجعي: عن هؤلاء الرجال أخبرتك. قال: فرد ابن المضجعي إلى منزلته، وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

شجاعة أبي الوليد بن فتحون

حُكِيَ أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه، وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت جيوش الكفار تهابه، وتعرف منه الشجاعة، وتتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لِمَ لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء. فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فوشوا به عند المستعين، فأبعده ومنعه من عطائه.

ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفًا، ثم برز علج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله الرومي، فصاح المشركون سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفين وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين، فقتله الرومي، فصاح الكفار سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يجترىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه.

وبقي الناس في حيرة، فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون، فدعاه، وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد: أما ترى ما يصنع هذا العلج؟ فقال: ها هو بعيني، قال: فما الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفي المسلمين شره، فلبس قميص كتان، واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطًا طويلًا، في طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فتعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط، فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه، وجاء به يجرّه حتى ألقاه بين يدي المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في

صنعه مع أبي الوليد بن فتحون، فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالغ في الإنعام عليه، ورده إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وينبغي لقائد الجيش أن يخفي العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعمل حيلته وألوان خيله ورايته، ولا يلزم خيمته ليلًا ولا نهارًا، وليبدل زيّه ويغيِّر خيمته كي لا يلتمس عدوه غرة منه، وإذا سكن الحرب، فلا يمشي في النفر اليسير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوه متجسسة عليه، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشي خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرج وهو نائم في قبته، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو، فقتل الملك، وكان الفتح.

شجاعة ألب أرسلان

وبمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك، ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشًا يقل أن يجمع لغيرهم من يعدهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف، كتائب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس[(١)] يتلو بعضها بعضًا، لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق، والآلات المعدة للحروب، وفتح الحصون بما لا يحصى، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعود قد خدمتهم.

ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت[(٢)] أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام، فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان، وهو الذي يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم، فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين، وقالوا لألب أرسلان: غدًا يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقي المسلميون وجلين لما دهمهم، فلما

---

(١) كراديس: جماعات من الفرسات الخيالة. (٢) تواترت: اتصلت.

أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعد المسلمين، فبلغوا اثني عشر ألفًا فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود، فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين، والنظر في العواقب، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي، فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء، فتوادع القوم وتحاللوا وناصحوا الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء، وقالوا لألب أرسلان: بسم الله نحمل عليهم، فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون المنابر، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلّوا، ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم إذ ذاك.

وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه، ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلي، ويتبع أثري، ويضرب بسيفه، ويرمي سهمه حيث أضرب بسيفي، وأرمي بسهمي، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا مَن كان دونها، ووصلوا إلى الملك، فقتلوا مَن كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا، وتمزقوا كل بمزق، وعمل السيف فيهم أيامًا، وأخذ المسلمون أموالهم، وغنائمهم، وأتوا بالملك أسيرًا بين يدي ألب أرسلان والحبل في عنقه.

فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني؟ قال: وهل تشك أنني كنت أقتلك، فقال له ألب أرسلان: أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به، فبيعوه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحبل في عنقه، وينادي عليه مَن يشتري ملك الروم، وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين، وينادون عليه بالدراهم والفلوس، فلم يدفع فيه أحد شيئًا، حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذه الذي ينادي عليه، وأخذ الكلب، وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبذل أحد فيه شيئًا سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب، فقال: قد أنصفك إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه وذهب إلى القسطنطينية، فعزلته الروم، وكحلوه بالنار.

في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

عمّ رسول الله ﷺ، أسد الله وأسد رسوله ﷺ. قتل في غزاة أُحد، رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع، وبطلها غير ممانع، وعظم قتله على النبيّ ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلًا من قريش، وكبّر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة.

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه

آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيد بالتأييد الإلٰهي، كاشف الكروب ومجليها، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف. رُوِيَ عنه رضي الله عنه أنه قال: والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من موتة على فراش. وقال بعض العرب ما لقينا كتيبة فيها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض.

وقال رضي الله عنه لمعاوية: قد دعوت الناس إلى الحرب، فدع الناس جانبًا واخرج إليَّ ليعلم أينا المران على قلبه، والمغطى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخًا[1] يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي.

وقيل له كرّم الله وجهه: إذا جالت الخيل، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتموني. وقيل له: كيف تقتل الأبطال؟ قال: لأني كنت ألقى الرجل، فأقدر أني أقتله، ويقدر هو أني قتلته، فأكون أنا ونفسه عونًا عليه.

وقال مصعب بن الزبير: كان عليّ رضي الله عنه حذرًا في الحروب شديد الروغان[2] لا يكاد أحد يتمكن منه، وكانت درعه صدرًا لا ظهر لها، فقيل له: أما

---

(١) شدخًا: شدخه بالسيف أي قطعه من رأسه إلى وسطه.
(٢) الروغان: الحذر والانتباه.

تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك، فقال: إذا مكنت عدوي من ظهري، فلا أبقى الله عليه إن أبقى عليّ. قتله عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي لعنة الله تعالى عليه، غدره وهو في صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمٰن بن ملجم لعنه الله تزوج بقطام بنت علقمة، وكانت خارجية، فقالت له: لا أقنع إلا بصداق(١) أسميه وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل عليّ بن أبي طالب. فقال لها: لك ما سألت إلا عليّ بن أبي طالب، وكيف لي به؟ قالت: تغتاله، فإن سلمت أرحت الناس من شره، وأقمت مع أهلك، وإن أصبت دخلت الجنّة. فقال:

ثــلاثــة آلافٍ وعــبــدٍ وقــيــنــةٍ ... وضرب علي بالحسام المخذّمِ(٢)
فلا مهر أغلى من علي وإن علا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجمِ

قيل: إنه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس، وذلك في تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين. كفن رضي الله عنه في ثلاثة أثواب، ودفن في الرحبة مما يلي باب كندة من أبواب المسجد.

قالوا: ولما ضربه ابن ملجم لعنه الله. ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم، فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، فأخذه، فأومأ علي رضي الله عنه إلى المغيرة أن صلّ بالناس، فصلّى بهم الفجر وأقبلت همدان، فدخلوا على عليّ، فقالوا: يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى، فقال: لا تفعلوا إنما النفس بالنفس.

قال: ثم إن الحسن رضي الله عنه صلّى الفجر وصعد المنبر، فأراد الكلام فخنقته العبرة، ثم نطق، فقال: الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ وإني أحتسب عند الله عزّ وجلّ مصابي بأفضل الآباء رسول الله القائل ﷺ: «من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته فيَّ» فإنها أعظم المصائب، والله الذي لا إلٰه إلا هو الذي أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ولا يدركه الآخرون. فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ. فوالله لا أقول اليوم إلا حقًّا، لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر، والدواب. ولقد قبض في الليلة التي رفع فيها عيسى ابن مريم

(١) الصداق: المهر.
(٢) المخذم: السيف القاطع.

عليهما السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه في السرية، ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عزّ وجلّ على يديه، وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله، ألا إن أمور الله تعالى تجري على أحوالها، فما أحسنها من الله، وأسوأها من أنفسكم. إلا أن قريشًا أعطت أزمّتها شياطينها، فقادتها بأعنتها إلى النار، فمنهم مَن قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليه، ومنهم مَن أسرّ الضغينة حتى وجد عن النفاق أعوانًا. رفع الكتاب، وجف القلم، وأمور تقضي في كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن، فبكى الناس بكاءً شديدًا.

ثم نزل، فجرد سيفه، ودعا بابن ملجم، فأقبل يخطر[1] واضعًا شعره على أدنيه حتى قام بين يديه، فقال: يا حسن إني ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به. عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته، فإن تخلني أقتل معاوية، فإن أنا قتلته أضع يدي على يدك، وإن أُقتل، فهو الذي تريد. فقال الحسن رضي الله عنه: أما والله لا سبيل إلى بقائك، ثم قام إليه فضربه بالسيف، فاتقاه ابن ملجم بيد، ثم أسرع بالسيف فيه فقتله.

خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي رضي الله عنه

سيف الله وسيف رسوله ﷺ بطل مذكور، وفارس مشهور في الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله. وكان الفتح لخالد يوم اليمامة، وهو الذي فتح دمشق، وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة في الروم. أيّد الله بها الإسلام. مات على فراشه، وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا أزحفًا، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي لا نامت عين الجبان. وكان ينشد ويرتجز ويقول:

لا ترعبونا بالسيوف المبرقهْ ... إنّ السّهامَ بالردى مفرّقهْ
والحرب دونها العقالُ مطلقهْ ... وخالدٌ من دينه على ثقهْ[2]

رضي الله عنه.

(١) يخطر: يمشي مختالًا.

(٢) العقال: الأسر أو ما يمنع من الحراك.

الزبير بن العوام رضي الله عنه

حواري رسول الله ﷺ وابن عمته بطل شجاع لا يمارى، وشهم لا يحاول. قتله عمرو بن حرموز، اغتاله وهو في الصلاة.

عمرو بن معديكرب الزبيدي

فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه قال: الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرًا.

رُوِيَ عنه رضي الله عنه أنه سأله يومًا، فقال له: يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب؟ قال: فعن أيها تسأل؟ قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يخطىء ويصيب، قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك. قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الدائر، وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة.

وقيل: إنه نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إنني عابر على هذا الجسر قال: فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عرفني القوم، وأنا قائم بينهم. وإن بطأتم وجدتموني قتيلًا بينهم. ثم انغمس فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن أنكم تدركونه حيًّا، فحلوه فانتبهوا إليه، وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم، فأمسكها والفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلى فرسه، فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونني. فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمي بنشابة، فغار وشب فصرعني.

ويُروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل، فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقتل رستم وانهزمت العجم. وقتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمّر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين،

وفيه يقول العباس بن مرداس[١]:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئي زبيدًا فقد أوى بنجدتها عمرو

طلحة الأسدي رضي الله عنه

كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلامًا، ثم ارتد وتنبأ، وجمع جمعًا عظيمًا، قفل خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح.

والمقداد بن الأسود رضي الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوي الجنان رابط الجأش، وله في الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضي الله عنه وأرضاه.

وسعد بن أبي وقاص الزهري الأنصاري رضي الله عنه كان فارسًا بطلًا راميًا، وهو أول مَن رمى في سبيل الله بسهم، ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل، ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف أنفه.

أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه الذي خرج يتبختر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع.

والمثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه هو أول مَن فتح حرب الفرس.

وأبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف في حرب القادسية.

وعمار بن ياسر رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «الحق يدور مع عمار حيث دار»، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية، فقتل بصفين مع عليّ رضي الله عنه.

هاشم بن عتبة رضي الله عنه من أكابر الشجعان، صاحب راية عليّ رضي الله عنه بصفين.

---

(١) هو العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، من مضر، أمه الخنساء الشاعرة. أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم، كما كان بدويًا قحًا، لم يسكن مكة ولا المدينة، وهو ممن ذم الخمر في الجاهلية وحرمها. ومات في خلافة عمر سنة ١٨ هـ له ديوان شعر مطبوع.

مالك بن الحرث النخعي الأشتر رضي الله عنه، مات مسمومًا في شربة من عسل، فقال معاوية: إن لله جنودًا منها العسل.

القمقاع بن عمرو طاعن الفيل في عشية القادسية رضي الله عنه.

عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه

قاتل جرجير ملك إفريقية الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة: صف لي عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلدًا قط ركب على لحم ولا لحمًا على عصب ولا عصبًا على عظم مثل جلده، ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفسًا بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه. ولقد قام يومًا إلى الصلاة، فمرّ حجر من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدره، فوالله ما خشع له بصره وقطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج، ألا إلى الله تصير الأمور.

أبو هاشم محمد بن عليّ بن أبي طالب بن الحنفية رضي الله عنه

كان أبوه يلقيه في الوقائع ويتقي به العظائم، وهو شديد البأس، ثابت الجنان، قيل له يومًا: ما بال أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه يقحمك[1] الحروب دون الحسن والحسين رضي الله عنهما؟ فقال: لأنهما كانا عينيه وكنت أنا يديه، فكان يتّقي عينيه بيديه. وقيل: إن أباه عليًّا رضي الله عنه اشترى درعًا فاستطالها، فأراد أن يقطع منها، فقال له محمد: يا أبت علّم موضع القطع، فعلم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها، فقطعها من الموضع الذي حده أبوه.

وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدّث بها الحديث غضب. مات حتف أنفه[2] بشعب رضوى.

عبد الله بن حازم السلمي رضي الله عنه والي خراسان شجيع مضر وفارسها في عصره، قتله وكيع بن أبي سويد بخراسان في الفتنة.

---

(١) يقحمك: يدفعك.

(٢) حتف أنفه: أي على الفراش من غير قتل ولا ضرب.

وكيع بن أبي سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فاتك أهوج ولي خراسان. قيل: لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه.

مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد، جاد بماله وبنفسه، قتله عبيد الله بن زياد في الحروب التي كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان.

عمير بن الحباب السلمي فارس الإسلام قتله بنو تغلب في الحرب التي كانت بينهم وبين قيس.

مسلمة بن عبد الملك بن مروان. فحل بني أمية وفارسها ووالي حروبها، قيل: إنه جلس يومًا ليقضي بين الناس بمصر، فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها، فقالت: ما رأيت أقل حياء من هذا قط، فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات. فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن، والله لو أخّرت رجلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن، وما منعني من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تنحليني قلّته[1].

المعتصم بطل شجاع، فارس صنديد لم يكن في بني العباس أشجع منه ولا أشد قلبًا. قال ابن أبي داود: كان المعتصم يقول لي: يا أبا عبد الله عضّ على ساعدي بأكثر قوتك، فأقول والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك، فيقول: إنه لا يضرني فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنّة، فكيف تعمل فيه الأسنان، ويقال: إنه طعنه بعض الخوارج، وعليه درع، فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين. وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقًا في العنق.

إبراهيم بن الأشتر النخعي

كان من الشجعان المعدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو في أربعة آلاف، وعبيد الله في سبعين ألفًا، فظهر به وقتله بيده وهزم جيشه.

عبد الله بن الحر الجعفي، شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة، وأخباره في الشجاعة مشهورة.

---

(١) تنحليني قلته: أي تعطيني وترميني به.

جحدر بن ربيعة العكلي، كان بطلًا شجاعًا فاتكًا مغيرًا شاعرًا، قهر أهل اليمامة، وأبادهم، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه، ويأمر بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيرًا، فوجّه العامل إليه فتية من بني حنظلة، وجعل لهم جعلًا عظيمًا إن هم قتلوا جحدرًا أو أتوا به أسيرًا، فتوجه الفتية في طلبه حتى إذا كانوا قريبًا منه أرسلوا يقولون له: إنهم يريدون الانقطاع إليه والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يومًا إذ وثبوا عليه فشدوه وثاقًا، وقدموا به على العامل، فوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جحدر؟ قال: نعم. أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك على ما بلغني عنك؟ قال: أصلح الله الأمير: كلب الزمان، وجفوة السلطان وجرأة الجنان. قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلاني[1] الأمير، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه، قال: فتعجب الحجاج من ثبات عقله، ومنطقه.

ثم قال: يا جحدر إني قاذف بك في حاجر فيه أسد عظيم، فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قتلته عفونا عنك. قال: أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى، فأمر به، فصفدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسدًا ويحمله إليه، فتحيل العامل وارتاد له أسدًا كان كاسرًا خبيثًا قد أفنى عامة المواشي، فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه على عجل، فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقي في الحاجر ولم يطعم شيئًا ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه، فأعطوه سيفًا وأنزلوه إليه مقيّدًا، وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر، فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ووثب وتمطّى وزعق زعقة دويت منها الجبال، وارتاعت أهل الأرض، فشد عليه جحدر، وهو ينشد ويقول:

ليثٌ وليثٌ في مجالٍ ضنْكِ ... كلاهما ذو قوةٍ وسفك[2]
وصولة وبطشةٍ وفتكِ ... إن يكشف الله قناع الشكِّ
فأنت لي في قبضتي وملكي

---

(١) ابتلاني: اختبرني.
(٢) ضنك: ضيق وشدة.

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته، فكبّر الناس وأعجب الحجاج ذلك، وقال: لله درّك ما أنجبك، ثم أمر به، فأخرج من الحاجر وفك عنه قيوده وقال له: اختر إما أن تقيم معنا فنكرمك، ونقرب من منزلتك وإما أن نأذن لك، فتلحق ببلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثًا، ولا تؤذي بها أحدًا، قال: بل أختار صحبتك أيها الأمير، فجعله من سمّاره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولّاه على اليمامة. وكان من أمره ما كان.

المهلب بن أبي صفرة كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكنًا، وكان المهلب يقول: ما شهد معي المغيرة حربًا إلا رأيت البشرى في وجهه، وحمل عليه بعض الشجعان، وفي يديه شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج، وحمل من تحتها فبراها بسيفه. وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكليبة، وأحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكليبة مصعب بن الزبير، وأحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر ما لقي خيلًا قط إلا فرّقها. وراكب البغلة عباد بن الحصين ما كان قط في كربة إلا فرجها وهو من الإسلام. وكان للمهلب في الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيدًا كريمًا، مات حتف أنفه، وكذلك ابنه المغيرة، وفيه يقول زياد الأعجم[1]:

مات المغيرة بعد طول تعرّضٍ ... للقتل بين أسنّةٍ وصفائحِ

أبو بلال مرداس

وكان في الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم يطول، ويخرج عما أردناه. فمنهم: أبو بلال مرداس خرج في أربعين فهزم ألفين. وشبيب الخارجي الذي غرق في الفرات، نذرت امرأته غزالة أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى البقرة وفي الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع، ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها، والحجاج في الكوفة في خمسين ألفًا. ومنهم قطري بن الفجاءة كان رأس الخواج، وخاطبوه بأمير

(١) هو زياد بن سليمان، أو سليم الأعجم. أبو أمامة مولى بني عبد القيس من شعراء الدولة الأموية، جزل الشعر، فصيح الألفاظ، ولد ونشأ في أصفهان، وانتقل إلى خراسان، فسكنه وطال عمره، ومات حوالي سنة ١٠٠ هـ وأكثر شعره في مدح أمراء عصره، وهجاء بخلائهم.

المؤمنين، وعظموه وبجلوه، وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها، قُتل في بعض وقائع الخوارج.

معن بن زائدة الشيباني

قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي.

الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن مزيد.

عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة، نقل عنه أنه كان يتصيد، فتتبع حمار وحش وما زال يركض إلى أن حاذاه، فجمع رجليه ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين في يده حتى قتله أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق في غيره، طعن فارسين رديفين، فأنفذ الرمح من ظهريهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنة ... يوم اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو كان مدّ قناتِهِ ... ميلًا إذًا نظم الفوارس ميلا[1]

وسأله يومًا رجل شيئًا، فقال له: أتسأل وجدك القائل:

ومَن يفتقر منّا يعشْ بحسامِهِ ... ومَن يفتقر من سائر الناس يسألِ
وإنّا لنلهو بالسيوف كما لهتْ ... فتاةٌ بعقدٍ أو سخاب قرنفلِ

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه في طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقتله، فبلغ الخبر أبا دلف فقال: دعوه، فإني علمته على نفسي.

بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة.

مما جاء في مدح السيف

قال رسول الله ﷺ: «الخير في السيف والخير مع السيف والخير بالسيف».
وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب، وممن تمثل به نهشل، فقال:

أخٌ ماجدٌ ما خانني يوم مشهدٍ ... كما سيف عمرٍو لم تخنه مضاربُه

---

(١) مد قناته: طولها. ونظم الفوارس: سلكها في رمحه جميعًا.

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خليلي لم أخنه ولم يخنّي ... إذا ما صاب أوساط العظامِ
خليلي لم أهبه من قلاه ... ولكنّ المواهب للكرامِ
حبوت به كريمًا من قريشٍ ... فسرّ به وصِينَ عن اللئامِ
وودّعت الصّفيَّ صفيَّ نفسي ... على الصمصام أضعاف السلام[1]

ولم يزل في آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه، فلم يزل عند بني مروان، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدي، فلم يجدوه، فجد الهادي في طلبه حتى ظفر به، وكان مكتوبًا عليه هذا البيت:

ذكرٌ على ذكرٍ يصول بصارمٍ ... ذكرٌ يمانٍ في يمين يماني[2]

وقال ابن الرومي:

لم أر شيئًا حاضرًا نفعه ... للمرء كالدرهم والسيفِ
يقضي له الدرهم حاجاته ... والسيف يحميه من الحيفِ[3]

وقال زيد بن عليّ رضي الله عنهما:

السيف يعرفُ عزمي عند هزّته ... والرمح لي خبرٌ والله لي وَزَرُ[4]
إنّا لنأمل ما كانت أوائلنا ... من قبلُ تأمله إن ساعد القدر

وقال عبد الله بن طاهر:

يبيتُ ضجيعي السيف طورًا وتارةً ... يعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاهُ في الروع صاحبًا ... وفوق رضاه أنني أنا صاحبه
وليس أخو العلياء إلا فتًى له ... بها كلفٌ ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله، فطلب منه سيف الزبير، وقال له: رده عليَّ، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ

---

(١) الصمصام: السيف القاطع.
(٢) الذكر: السيف القاطع، والذكر: الرجل.
(٣) الحيف: الظلم.
(٤) الوزر: الملجأ.

له يوم حنين، فقال له عبد الملك: أوَتعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك. أعرفه بقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فلولٌ من قراع الكتائبِ[١]

وقال الأجدع الهمداني[٢]:

لقد علمت نسوان همدان أنّني ... لهنّ غداة الروع غيرُ خذولِ
وأبذل في الهيجاء وجهي وإنّني ... له في سوى الهيجاء غيرُ بذولِ

وقال آخر:

عشرون ألف فتّى ما منهم أحدٌ ... إلّا كألف فتّى مقدامةٍ بطلِ
راحت مزاودهم مملوءةً أملًا ... ففرّغوها وأوكوها من الأجل[٣]

غلام شجاع

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد: قال: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسبج[٤] المنظوم، وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها أي بني، وهو يبتسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر لا يرد جوابًا.

فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، فدنوت منه وسلّمت، فرد عليّ السلام، فوقفت أنظر إليها، فقالت: يا حضري ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام. فقالت يا حضري: إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئت يرحمك الله.

---

(١) فلول: ثلمات.

(٢) هو الأجدع بن مالك بن أمية بن جعفر بن سلمان بن معمر الوادعي الهمداني اليماني، فارس همدان، وشاعرها في عصره، كان قبيل الإسلام ووقير ابنه «مسروق» على عمر في خلافته.

(٣) مزاودهم: المزود، وعاء يوضع فيه الزاد. وأوكوها: أي بعد أن فرغوها ملؤها من الأجل وهو الموت وشدوا الرباط عليها.

(٤) السبج: الخرز الأسود الذي يصنع منه العقد.

فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد حملًا خفيفًا حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عزّ وجلّ أن أضعه، فوضعته خلقًا سويًا، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عزّ وجل، وأعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربي كأنه شبل أسدٍ أقيه برد الشتاء، وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب، فحفظه القرآن، فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده.

فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل[١] فتفرّس وتمرّس ولبس السلاح ومشى بين بويتات الحي الخيلاء، فأخذ في قري الضيف وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه، فاتفق أن نزلنا بمنهل[٢] من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحي في طلب ثأر لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم، ولم يبق في الحي غيره، ونحن آمنون وادعون، ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه وضنًا به، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات[٣] رمى دثاره وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان، فرأوه صبيًا صغيرًا لا مدد وراءه فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيوت، ونحن ندعو الله عزّ وجلّ له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم، ففرق شملهم وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خلوا عن المال، فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه، فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنّة، وعطفوا عليه بالأعنّة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها حتى لم يبق من القوم إلا مَن نجا به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل

---

(١) عتاق الخيل: كريمها. (٢) منهل: مشرب.

(٣) المخدرات: أي النساء، والخدر: الستر.

به، فكبّر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يومًا كان أسمح صباحًا وأحسن رواحًا من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيان الحي هذه الأبيات:

تأمّلن فعلي هل رأيتُنّ مثلَهُ
إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب(١)
وضاقت عليه الأرض حتى كأنّه
من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعطِ كلا حقّه ونصيبه
من السمهري اللدن والمرهف العضب(٢)
أنا ابن أبي هند بن قيس بن مالك
سليل المعالي والمكارم والسيب(٣)
أبى لي أن أعطي الظلامة مرهفٌ
وطرفٌ قويُّ الظهر والجوف والجنب
وعزمٌ صحيحٌ لو ضربت بحدّه الـ
ـجبال الرواسي لانحطَطْن إلى التربِ
وعرضٌ نقي أتّقي أن أعيبه
وبيتٌ شريفٌ في ذرى ثعلب الغلب(٤)
فإن لم أقاتل دونكنّ وأحتمي
لكنْ وأحميكنّ بالطعن والضرب
فلا صدّق اللاتي مشين إلى أبي
يهنّينه بالفارس البطل الندب

---

(١) حشرجت: غصت واختنقت.
(٢) السمهري: الرمح. اللدن: الطري الرخص، والمرهف العضب: السيف القاطع.
(٣) والسيب: الكرم.
(٤) ثعلب الغلب: ثعلب: اسم قبيلة، والغلب: صفة لهم تدل على غلبهم وانتصارهم.

وقال الشاعر:

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم ... في الحادثات إذا دجون نجوم(١)
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم(٢)

وقال آخر:

فوارسُ قوالون للخيل أقدمي ... وليس على غير الرؤوس مجال
بأيديهُمُ سمرُ العوالي كأنّما ... تشيب على أطرافهن ذُبال(٣)

وقال آخر:

قومٌ إذا اقتحموا العجاج رأيتهم ... شمسًا وخلت وجوههم أقمارا(٤)
لا يعدلون برفدهم عن سائلٍ ... عدَلَ الزمانُ عليهم أو جَارا(٥)
وإذا الصريخ دعاهم لملمّةٍ ... بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

قَوْس حَاجب بن زُرارة(٦)

توالت على مُضر الجدُوبة والقَحْط سبعَ سنين؛ حتى كادوا يَهلِكون، فلما رأى حاجِبُ بن زُرَارة الجَهْدَ والجدْبَ على قومه جمع بني زُرارة فقال: إني قد أزمعتُ على أن آتيَ الملكَ فأطلبَ إليه أن يأذنَ لقومنا فيكونُوا تحت هذا البَحْر حتى يُحْيوْا، فتلكأ بعضُهم عليه، وقال بعضهم: رَشَدْتَ فافعلْ؛ غيرَ أنَّا نخاف عليك بكْرَ بن وائل لِمَا كان بيننا وبينهم، ولا بدَّ لك من وُرود مياههم. فقال: ما مِنهُمْ وَجْهٌ من الناس ولا شريفٌ إلَّا ولي عنده يدٌ خَضْرَاء إلا ابن الطَّويلة التيْمي، وأنا أرجو أن أداريَه؛ ثم ارْتَحل.

فجعل لا يأتي على ماءٍ لبكرٍ إلا أكرمه سيدُهم، ونحرَ له وقَرَاهُ، حتى نزل قُضوَان، وعليه ابنُ الطويلة التيمي، فلمَّا أضاء الصُّبح، وناديهم قريب من منزل حاجب الذي حلَّ فيه، دعا حاجبٌ بِنِطْع، ثم أمر فصُبّ عليه التمر؛ ثم نادى حيَّ على الغَدَاء. فنظر ابنُ الطويلة، فإذا هو بحاجب، فقال لأهل المجلس: أجيبوه؛

---

(١) دجون: أظلمن.
(٢) رجوم: ما ترجم به الشياطين لتطرد.
(٣) ذبال: الذبالة: الفتيلة، والذبل: أول الشباب.
(٤) العجاج: غبار الحرب.
(٥) لا يعدلون برفدهم: أي لا يمنعون عطاءهم.
(٦) نقائض جرير والفرزدق: ١ ـ ٤٦٢.

فإنه سيدُ قومه، فأتوْه فأكلوا، وأهدى إليه ابنُ الطويلة جَزورًا وشِيَاهًا، فنحر وأكل وأطعم.

ولما أراد حاجب أن يَرتحل قال له ابنُ الطويلة: إني معك حتى تبلغَ مأْمَنك؛ فإني لا أدري ما يعرِض لك أمَامَك. فقال حاجب؛ ليس أمامي أحد أخافُه عليّ.

وارتحل حاجبٌ حتى أتى كسرى؛ فلما شكا إليه الْجَهْد في أنفسهم وأموالهم، وطلب أن يأذن لهم فيكونوا في حَدِّ بلاده حتى يعيشوا ويُحْيَوْا قال له: إنكم ـ معشرَ العرب ـ حُرَصاء على الفَسادِ، فإن أذنتُ لهم أفسدوا البلاد وأغاروا على الرّعيّة وآذوهم. قال له حاجب: فإني ضامنٌ للملك ألّا يفعلوا، قال: ومَنْ لي بأن تَفِيَ بما تقول؟ قال: أَرْهَنُك قوْسي بالوفاء بما ضمنتُ لك.

ولما جاء حاجب بقَوْسِه ضحك القوم الذين كانوا حول الملك لمّا رأوا قوسه، وقالوا: بهذه العصا تَفى للملك بما ضمنتَ له. فقال الملك لهم: ما كان لِيُسْلِمها لشيء أبدًا. وأمرَهم فقبضوها، وأذن للعرب في أن يدخلوا الرِّيْفَ[1].

ومكث بنو زُرارة في الريف مدة، ثم مات حاجب، وبعدها زال القحط، وخرج أصحابُ حاجب إلى بلادهم وارتحل عُطَارِد بن حاجب إلى كسرى ليطلبَ قوس أبيه، ولما دخل عليه وكلّمه في القوس قال له كسرى: ما أنت بالذي وضعتَها عندي. قال: أجلْ أيُّها الملك! ما أنا بالذي وضعتُها. قال: فما فعل الذي وضعَها؟ قال: هَلَك، وهو والدي، وقد وَفَى لك أيها الملك بما ضمن لك عن قومه، ووفى هو بما قال للملك؛ قال كسرى: ردُّوا عليه قَوْسَه؛ وكساه.

فَتكَة البَرَّاض[2]

كان البرَّاضُ بن قَيْس الكناني رجلًا فاتكًا خليعًا[3]، يَجْني الجنايات على أهله، فخلعه قومُه، وتبرَّؤوا من صَنِيعه، ففارقهم، وقدم مكةَ، فحالف حرَب بن

(١) الريف: الأرض فيها الزرع والخصب.
(٢) المضاف والمنسوب: ١ ـ ١٠١، مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٣، الكامل لابن الأثير: ١ ـ ٣٦٠.
(٣) البراض بن قيس الكناني: فاتك جاهلي يضرب بفتكة المثل، تبرأ منه قومه ففارقهم وقدم مكة، ثم رحل إلى العراق. وبسببه هاجت حرب الفجار بين خندف وقيس.

أمية، ثم نَبَا به المقام بمكة أيضًا، ففارق أرض الحجاز إلى أرض العراق، وقدِم على النعمان بن المنذر الملك ـ وكان النعمان يبعث كلَّ عام بلَطِيمةٍ[١] للتجارة إلى عُكَاظ[٢] تباعُ له هناك ـ فقال يومًا، وعنده البرَّاض وعُروة بن عُتْبة بن جعفر المعروف بالرَّحَّال[٣]: مَن يُجيز لي لطيمتي هذه حتى يُبَلِّغَهَا عُكاظ؟ فقال البرّاض: أَبيتَ اللعن! أنا أُجيزها على كِنانة. فقال النعمانُ: إنما أريدُ منْ يجيزُها على كِنانة وقَيس. فقال عروة: أكلْبٌ خليع[٤] يجيزها! أبيْتَ اللعن! أنا أجيزها على أهل الشِّيح والقَيْصُوم[٥] من أهل تهامة وأهل نجد! فقال البراض ـ وقد غضب: وعلى كِنانة[٦] تجيزُها يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم!

فدفع النعمانُ اللطيمةَ إلى عُروة الرحال، وأمره بالمسير بها، وخرج البراض يَتْبَعُ أثره وعُروة يَرى مكانَه ولا يخشى منه، حتى إذا كان عُروة بين ظَهْرَانَيْ[٧] قومه أدركه البرَّاضُ بن قيس، فأخرج قِداحه يَسْتَقْسِمُ[٨] بها في قتل عُروة، فمرَّ به عروة فقال: ما تصنع يا برَّاض؟ فقال: أَسْتَقْسِمُ في قتلك، أيؤذن لي أم لا؟ فقال عروة: هِمَّتُكَ أضعف من ذلك! فوثب إليه البرَّاض بالسيف فقتله.

فلما رآه الذين يقومون على العِير[٩] والأحمال قتيلًا انهزموا فاستاق البرَّاضُ العِير، وسارَ على وجهه إلى خَيْبَر، وتبعه رجلان ليأخذاه: أحدهما غَنَوِيٌّ والآخر غَطَفَانيّ، وسارا حتى لقيهما البرَّاض بخيْبر، فقال لهما: مَنِ الرجلان؟ قالا: نحن من قَيْس، قدِمنا لنقتل البرَّاض، فأنزلهما وعَقَل راحلتيْهما ثم قال: أيّكما أجْرَأ عليه

---

(١) اللطيمة: العير التي تحمل الطيب وبز التجار.

(٢) عكاظ: موضع كان بين نخلة والطائف، كانت تقام من أول ذي القعدة إلى اليوم العشرين منه، وكان يجتمع بها أكثر أشراف العرب للمتاجرة ومفاداة الأسرى والتحكيم في الخصومات والمفاخرة والمنافرة بالشعر والخطب.

(٣) لقب بالرحال لكثرة رحلته إلى الملوك.

(٤) كان في الجاهلية إذا قال قائل: هذا ابني خلعته لا يؤخذ بجريرته.

(٥) الشيح والقيصوم: نباتان مما يطلع في السهل، ويريد على العرب كلهم.

(٦) كنانة: هم قوس البراض.

(٧) بين ظهراني قومه: أي في وسطهم.

(٨) الاستقسام: كانوا إذا أراد أحدهم سفرًا أو تزويجًا أو نحو ذلك من المهام ضرب بالقداح، وكان على بعضها مكتوب: أمرني ربي، وعلى بعضها الآخر: نهاني ربي، والباقي غفل، فإن خرج أمرني ربي مضى لشأنه، وإن خرج نهاني ربي، أمسك، وإن خرج الغفل أجالها، وضرب بها أخرى إلى أن يخرج الأمر أو النهي.

(٩) العير: الإبل تحمل الميرة، ولا واحد لها من لفظها.

وأجودُ سيفًا؟ قال الغَطَفانيّ: أنا، فأخذه ومشى معه لِيَدُلّه ـ بزعمه ـ على البرَّاض، ثم قال للغَنَويّ: احفظ راحلتيكما، ففعل.

وانطلق البرَّاض بالغَطَفَاني حتى أخرجه إلى خَرِبةٍ[1] في جانب خَيْبر، وقال له: هو في هذه الخَربة يأوي إليها، فأمهلني حتى أنظر أهُوَ فيها؟ فوقف، ودخلَ البراض؛ ثم خرج فقال: هو فيها وهو نائم، فأرِني سيفَك حتى أنظر إليه: أضاربٌ هو أم لا، فأعطاه سيفَه، فضربه به حتى قتله، ثم أخفى السيف وعاد إلى الغَنَويّ، فقال له: لمْ أرَ رجلًا أجبنَ من صاحبك، تركتُه في البيت الذي فيه البرَّاض وهو نائم فلم يُقْدِم عليه! فقال: انظر لي مَن يحفظ الراحلتين حتى أمضي إليه فأقتله، فقال: دَعْهُما وهما عليّ، ثم انطلقا إلى الخربة، فقتله وسار بالعِير إلى مكة.

عِنْدَ كسرى[2]

خرج أبو سفيان في جماعةٍ من قريش، يريدون العراق بتجارة؛ فلما ساروا ثلاثًا جمعهم أبو سفيان؛ فقال لهم: إنا من مَسيرنا هذا لعلى خَطَرٍ، لقد قَدِمْنا على ملك جبّار، لم يأذنْ لنا في القدوم عليه، وليستْ بلادُه لنا بِمَتْجَر، ولكن أيُّكم يذهبُ بالعِير، فإن أُصيبَ فنحنُ بُرَآء من دمه، وإن غَنِمَ فله نصفُ الربح. فقال غَيلان[3] بن سَلَمة: دعوني إذَنْ، فأنا لها.

فلما قَدِمَ بلاد كسرى تَخلَّق[4]، ولبسَ ثوبين أصفرين، وشهرَ أمرَه، وجلس بباب كسرى حتى أُذِن له، فدخل عليه، وخرج إليه التَرْجُمان[5] وقال له: يقولُ لك الملك: ما أدخَلَك بلادي بغير إذني!

فقال: قل له: لستُ من أهل عداوةٍ لكَ، ولا أتيتُكَ جاسوسًا لِضِدٍّ من أضدادكَ؛ وإنما جئتُ بتجارة تَسْتَمْتِعُ بها؛ فإن أردتَهَا فهيَ لكَ، وإنْ لم تُردْها، وَأَذِنْتَ في بَيْعِها لرعيَّتِك بعتُهَا؛ وإن لم تأذن في ذلك رَدَدْتُهَا؛ وجعل يتكلم،

---

(١) الخربة: موضع الخراب.

(٢) بلوغ الأرب: ١ ـ ٣٢٠، العقد الفريد: ١ ـ ١٧٥.

(٣) غيلان بن سلمة الثقفي شريف شاعر جاهلي، كانت له ثلاثة أيام: يوم يحكم فيه بين الناس، ويوم ينشد فيه شعره: ويوم ينظر فيه إلى جماله، وأسلم بعد فتح الطائف.

(٤) تخلق: تطيب.

(٥) الترجمان: بضم التاء المشددة وفتحها: المفسر.

فإذا سمع صوتَ كسرى سجد. فقال له الترْجُمَان: يقولُ لك الملكُ: لِم سجدت؟ فقال: سمعتُ صوتًا عاليًا، حيث لا ينبغي لأحد أن يعلوَ صوتُهُ إجلالًا للملك، فعلمتُ أنه لم يُقْدِم على رفع الصوتِ هناك غيرُ الملك؛ فسجدتُ إعظامًا له.

فاستحسنَ كسرى ما فعل؛ وأمرَ له بِمِرْفَقَةٍ[1] توضع تحته. فلما أُتِيَ بها رأى عليها صُورَةَ الملك؛ فوضعها على رأسه؛ فاستجْهله كسرى واستحمقه. وقال للترجمان: قل له: إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها. قال: قد علمتُ، ولكني لما أُتيتُ بها رأيتُ عليها صورةَ الملك، فلم يكن من حقّ مثلي أن يجْلِس عليها؛ ولكن كان حقُّها التعظيم؛ فوضعتها على رأسي؛ لأنه أشرف أعضائي وأكرمُها عليّ!

فاستحسنَ فعله، ثم قال له: ألك ولد؟ قال: نعم! قال: فأيُّهُمْ أحبُّ إليك! قال: الصغير حتى يكبرَ، والمريضُ حتى يَبْرَأَ، والغائب حتى يئوبَ. فقال كسرى: زِهْ! ما أذخلَك عليَّ، ودلّك على هذا القول والفعل إلا حظُّكَ! فهذا فعلُ الحكماء وكلامُهم، وأنت من قومٍ جُفاة لا حكمة فيهم؛ فما غذاؤك؟ قال: خبر البُرّ. قال: هذا العقل من البُرّ لا منَ اللبن والتمر.

ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها، وكساه، وبعث معه من الفُرس مَن بَنى له أُطُمًا[2] بالطائف، فاكن أوَّلَ أُطمٍ بُنِيَ بها.

عِنْـدَ النجَاشِي[3]

قال عمرو[4] بن العاص: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخَنْدَق جمعتُ رجالًا من قريش كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون ـ والله ـ أني أرى محمدًا يعلو الأمور عُلُوًّا منكرًا؛ وإني قد رأيت أمرًا فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحَق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، وإن ظهر قومُنا فنحن مَنْ قد عَرَفُوا، فلن يأتينا منهم إلا

(١) المرفقة: المخدة.
(٢) الأطم: القصر، وجمعه آطام.
(٣) الروض الأنف: ٢ ـ ١١٢.
(٤) هو عمرو بن العاص بن وائل أحد دهاة العرب وفصائحهم وساستهم وفاتح مصر على عهد عمر بن الخطاب، توفي سنة ٤٣ هـ.

خير. قالوا: إن هذا لرأي! قلت: فاجمعوا لنا ما نُهْدِيه له، وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدَم.

فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنَّا لَعِنده، إذ جاءه عمرو بن أمية الضَّمْري ـ وكان رسولُ الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر[١] وأصحابه. قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضَّمْري، لو قد دخلتُ على النجاشي فسألتُه إياه فأعطانيه، فضربت عنقه! فإذا فعلتُ ذلك رأتْ قريش أني قد أجْزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمد.

قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا بصديقي؛ أهديتَ إليَّ من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم أيها الملك؛ قد أهديت إليك أَدَمًا كثيرًا؛ ثم قربتُه إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلتُ له: أيها الملك؛ إني قد رأيتُ رجلًا خرج من عندك؛ وهو رسولُ رجلٍ عدوٌّ لنا، فأَعْطِينه لأقتلَه، فإنه قد أصاب من أشارفنا وخِيارنا.

فغضب؛ ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره؛ فلو انشقَّت لي الأرض لدخلتُ فيها[٢] فرَقًا منه! ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتُكَه! قال: أتسألني أن أُعطيك رسولَ رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لِتَقْتُله؟ قلت: أيها الملك، أكذاكَ هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطِعْنِي واتّبعه، فإنه واللهِ لَعَلى الحقّ، وليظهرنَّ على مَنْ خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعتهُ على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حالَ[٣] رأيي عما كان عليه؛ وكتمتُ أصحابي إسلامي. ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ، فلقيتُ خالدَ بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح، وهو مقبلٌ من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المِيسم، وإن الرجلَ لنبيّ، اذهب والله فأسْلم فحتى متى؟ قلت: والله ما جئتُ إلا لأسْلم.

(١) هو جعفر بن أبي طالب، وكان قد هاجر إلى الحبشة.
(٢) فرقًا: خوفًا. (٣) حال رأيي: تغير.

فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدَّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوتُ فقلت: يا رسولَ الله، إني أبايعك على أن يُغفرَ لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر. فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو، بايعْ فإن الإسلام يَجبُّ[١] ما كان قبله، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان، فبايعته ثم انصرفت.

رسُولُ الله ﷺ فِي سُوق عُكَاظ[٢]

رَوى عبدُ الرحمٰن العامري عن أشياخٍ من قومه، قالوا:

أتانا رسولُ الله ﷺ، ونحنُ بسوق عُكاظ؛ فقال: ممَّن القوم؟

قلنا: من بني عامر بن صَعْصَعَة! قال: من أيِّ بني عامر؟ قلنا: بنو كعب بن ربيعة. قال: كيف المَنَعَةُ فيكم؟ قلنا: لا يُرام ما قِبَلنا، ولا يُصْطلى بنارنا! فقال: إني رسول الله؛ فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلِّغ رسالةَ ربي، ولم أُكْرِه أحدًا منكم على شيء؟ قالوا: ومن أيِّ قريش أنت؟ قال: من بني عبد المطلب؟ قالوا: فأين أنت من بني عبد مناف؟ قال: هم أولُ من كذّبني وطرَدني! قالوا: ولكنا لا نطرُدك ولا نؤمن بك، ولا نمنعك أنْ تبلِّغَ رسالةَ ربك.

فنزل إليهم والقوم يتسوَّقون[٣] إذ أتاهم بُجْرة بن قيس القُشيري؛ فقال: مَن هذا الذي أراده عندكم أنكره! قالوا: هذا محمدُ بن عبد الله القرشي. قال: وما لكم وله؟ قالوا: زعم لنا أنه رسول الله ويطلب إلينا أن نمنَعه حتى يبلغ رسالةَ ربه. قال: فماذا رددتم عليه؟ قالوا: قلنا: في الرحب والسعَة؛ نخرجك إلى بلادنا؛ ونمنعك مما نمنع منه أنفسَنا. قال بُجرة: ما أعلم أحدًا من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشرَّ من شيء ترجعون به، بدأتم لتُنَابِذَكم الناس، وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومُه أعلمُ به؛ لو آنسوا منه خيرًا لكانوا أسعدَ الناس به، تعمِدون إلى مرَهَّقٍ[٤] قد طرده قومُه وكذبوه فتؤوونه! فبئس الرأيُ ما رأيتم!

ثم أقبل على رسول الله فقال: قم؛ الحَق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربتُ عنقك! فقام رسول الله إلى ناقته فركبها. فغمزها بُجرة[٥] فَقَمَصَتْ[٦]

(١) يجب ما قبله: يقطع.
(٢) أسواق العرب: ٢١٧.
(٣) تسوق القوم: إذا باعوا واشتروا.
(٤) فلان مرهق: أي متهم بسوء وسفه.
(٥) في تاريخ الطبري صفحة ٢٣٢ من الجزء الثاني: بجيرة بن فراس.
(٦) قمصت: وثبت.

برسول الله فألقته، وعند بني عامر يومئذ ضُباعَةُ بنت عامر بن قُرْط، وكانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها، فقالت: يا آل عامر، أيُصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم! فقام ثلاثة من بني عمها إلى بجرة وثلاثة أعانوه، فأخذ كل رجل منهم رجلًا، فجَلَد[1] به الأرض، ثم جلس على صدره، فقال رسول الله: اللهم بارك على هؤلاء، والْعنْ هؤلاء.

فلما صدَر الناسُ رجعتْ بنو عامر إلى شيخ لهم، قد أدركته السنّ حتى لا يقدر أن يوافيَ معهم المَوْسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون في ذلك الموسم. فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم حدّث أنه أحدُ بني عبد المطلب، يزعم أنه نبيّ يدعونا إلى أن نمنعه ونقومَ معه، ونخرج به معنا إلى بلادنا! فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يا بني عامر! هل لها من تَلَاف؟ هل لذُناباها[2] تطَلُّب؟ فوالذي نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيليٌّ قط، ألَا إنها الحق، فأين كان رأيكم!

زُفَر بن الحَارِث يُجِير خَالِد بن عتّاب[3]

استعمل الحجاجُ خالدَ بن عتَّاب على الرَّي، وكانت أمه أمَّ ولد؛ فكتب إليه الحجاج يسبُّ أُمّه، ويقول: أنت الذي هربتَ عن أبيك حتى قُتل ـ وقد كان حلف ألّا يسبَّ أحدٌ أمّه إلا أجابه كائنًا من كان.

فكتب إليه خالد: كتبتَ إليّ تشتمُ أمي، وتزعمُ أني فرَرْتُ عن أبي حتى قُتل؛ ولعمري لقد فرَرتُ عنه، ولكن بعد أن قُتل، وحين لم أجد لي مقاتِلًا. ولكن أخبرني عنك يا لئيم حين فررتَ أنت وأبوك يوم الحَرَّة[4] على جملٍ ثَفَال[5]، أيُّكما كان أمامَ صاحبِهِ.

فقرأ الحجاج الكتاب وقال: صدق!

---

(١) جلد به الأرض: ضربها.
(٢) أصل الذنابي: الذنب.
(٣) الأغاني: ١٦ ـ ٤٠.
(٤) كانت وقعة الحرة أيام يزيد. وهي موضع بظاهر المدينة، وقعت في ذي الحجة من سنة ٦٢ هـ.
(٥) الثفال: البطيء من الإبل.

أنـا الـذي فَـرَرْتُ يـوم الـحـرَّه ثـم ثـنـيـتُ كَـرَّة بـفَـرَّه
والـشـيـخُ لا يـفِـرُّ إلا مـرّه

ثم طلبه ففرَّ إلى الشام، وسلم بيتَ المال، ولم يأخذ منه شيئًا.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بما كان منه. وقدم خالد الشام، فسأل عن خاصةِ عبد الملك فقيل له: رَوْح بن زِنبَاع. فأتاه حين طلعت الشمس، فقال: إني جئتُك مستجيرًا. فقال: إنني أجرتك إلا أن تكون خالدًا. قال: فإني خالدٌ. فتغيَّر، وقال: أنشدُك الله إلا خرجتَ عني، فإني لا آمَنُ عبدَ الملك! فقال: أنْظِرني[1] حتى تغربَ الشمس. فجعل رَوح يُراعيها حتى خرج خالد!

فأتى زُفر بن الحارث الكلابي، فقال: إني جئتك مستجيرًا. قال: قد أجرتك. قال: أنا خالد بن عتَّاب. قال: وإن كنتَ خالدًا.

فلما أصبح دعا ابنين له؛ فتهادَى بينهما ـ وقد أسنَّ ـ فدخل على عبد الملك وقد أَذِن للناس؛ فلما رآه دعا له بكرسي، فجُعِل عند فراشه. فجلس، ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ إني قد أجرتُ عليك رجلًا فأجره. قال: قد أجرتُه إلا أن يكون خالدًا. قال: فهو خالد. قال: لا ولا كرامة!

فقال زفر لابْنَيْهِ: أنهضَاني. فلما ولى قال: يا عبد الملك؛ أما والله لو كنتَ تعلم أن يدِي تُطيق حَمْل القناة لأجرتَ من أجرتُ! فضحك، وقال: قد أَجزْناه.

وأرسل إلى خالد بألفي درهم.

احْتَكِمُوا وأكثِرُوا[2]

استعمل الوليدُ[3] بنُ عبد الملك عُثمانَ بن حيَّانَ المرّي على المدينة، وأمَرهُ بالغِلظة على أهل الظُّنَّة[4]، فلما استُخْلِفَ سليمان بن عبد الملك أخذه بألفي ألف درهم، فاجتمعت القَيْسِيّةُ في ذلك، فتحمَّلُوا شَطْرَها[5]، وضاقوا ذَرْعًا بالشَّطر

(١) أمهلني.
(٢) العقد الفريد: ١ ـ ١٥٤.
(٣) الوليد بن عبد الملك: من ملوك الدولة الأموية ولي الخلافة سنة ٨٦ هـ، وكانت وفاته بدير مران سنة ٩٦ هـ.
(٤) التهمة.
(٥) الشطر: النصف.

الثاني، ووافقَ ذلك استعمال سليمانَ يزيدَ بن المهلب على العراق، فقال عمرُ بنُ هُبَيْرة: عليكم بيزيدَ بن المهلب، فما لها أحدٌ غيره.

فتحمَّل إلى يزيد عمرُ بن هبيرة، والقعقاع بن حبيب، والهذيل بن زفر بن الحارث، وسار معهم عثمان؛ فاستأذنَ لهم يَحْيىٰ حاجِبُه؛ فخرج يزيدُ إلى الرُّواق[1] فقرَّب ورحَّب، ثم دعا بالغَداء، فَأُتُوا بطعام ما أَنْكَروا منه أَكْثَرُ مما عرفوا.

فلما تَغَدَّوْا تكلم عثمانُ بن حيان ـ وكان لَسِنًا مُفَوَّهًا ـ فقال: زادَكَ الله في توفيقك أيها الأمير؛ إن الوليدَ وجّهني إلى المدينة عاملًا عليها، وأمرني بالغِلْظَة على أهل الظِّنَّة، وإنّ سليمان أغرمني[2] غُرْمًا ـ والله ـ ما يَسَعهُ مالي، ولا تحمِلُه طَاقَتي؛ فأَتَيْنَاك لتحملَ من هذا المال ما خفَّ عليك، وما بقي ـ والله ـ ثقيلٌ عليّ.

ثم تكلمَ كلّ منهم بما حَضَره؛ فقال يزيد بن المهلب: مرحبًا بكم وأهلًا، إنَّ خيرَ المال ما قُضِي فيه الحقوق، وحُمِلَتْ به المغَارِم؛ وإنما لي من المال ما فَضَلَ عن إخواني، وايمُ الله لو علمتُ أن أحدًا أَمْلأَ بحاجتكم مني لهديتكُم إليه! فاحْتَكِمُوا وأَكْثِرُوا!

فقال عثمان بن حيّان: النصف ـ أصلح اللهُ الأمير. قال: نعم وكرامة! اغْدُوا على مالكم فخُذُوه؛ فشكروا له، وقاموا فخرجوا.

فلما صاروا على باب السرادق، قال عمر بن هُبيرة: قبَّحَ الله رأيكم، والله ما يُبَالي يزيد؛ أنصفَها تحمَّل أم كلَّها؛ فمنْ لكم بالنصف الباقي؟

قال القوم: هذا والله الرَّأيُ! وسمِع يزيدُ مُناجاتهم؛ فقال لحاجبه: انظر يا يحيىٰ، إن كان بقي على القوم شيءٌ فلْيَرْجِعُوا!

فرجعوا إليه، وقالوا: أقِلْنَا! قال: قد فعلتُ! قالوا: فإن رأيتَ أن تَحْمِلَها كلّها؛ فأنتَ أهلُها، وإن أبيتَ فما لها أحدٌ غيرك! قال: قد فَعَلْتُ.

وغَدَا يزيدُ بن المهلب إلى سليمان، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أتاني عثمان بن حَيّان وأصحابه. قال: أَمَسَّكَ في المال؟ قال: نعم. قال سليمان:

---

(١) الرواق: سقف في مقدم البيت أو الفسطاط. (٢) أغرمني: غرمني.

والله لآخُذَنَّهُ منهم! قال يزيد: إني قد حملتُه! قال: فأَدِّه! قال يزيد: والله ما حملتُه إلا لأؤدِّيه.

ثم قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إن هذه الحَمَالة[١] وإنْ عَظُمَ خطبُها، فَحَمْدُها والله أعظمُ منها، ثم غدا يزيدُ بالمال على الخُزّان فدفعه إليهم.

فدخلوا على سليمان فأخبروه بقَبْضِ المال؛ فقال: وَفَتْ يمينُ سليمان؛ احْمِلوا إلى أبي خالد مالَه.

أنتَ أخو النّدى وحَلِيفُه[٢]

قال بعضُ مَشْيَخَةِ قريش: أَذِنَ الوليدُ بنُ عبد الملك يومًا للناس، فدخلوا عليه، وأَذِنَ للشعراء؛ فكان أولَ من بَدَرَ بين يديه عُوَيْفُ[٣] القَوافي الفَزَاري فاستأذَنَهُ في الإنشاد، فقال: ما بقَّيْتَ لي بعد ما قلتَ لأخي بني زُهْرَة؟ قال: وما قلتُ له مع ما قلتُ لأمير المؤمنين؟ قال: ألستَ الذي تقول:

يا طلحُ أنتَ أخو الندى وحليفُه ... إنَّ النّدى من بعد طلحةَ ماتا
إن الفَعَال[٤] إليك أَطْلَقَ رَحْلَهُ ... فبحيثُ بِتَّ من المنازل باتا

ألستَ الذي تقول:

إذا ما جاء يومُك يا ابنَ عوفٍ ... فلا مَطَرَتْ عَلَى الأرضِ السَّمَاءُ
تَسَاقى الناسُ بعدَك يا ابنَ عوفٍ ... ذَرِيعَ[٥] الموتِ ليس له شِفَاءُ

ألم تقمْ علينا الساعةُ يومَ قامتْ عليه؟ لا والله لا أسمعُ منك شيئًا، ولا أنفعُك بنافعة أبدًا. أخرِجوه عني!

فلما أُخرج قال له القرشيون والشّاميون: وما الذي أعطاك طلحةُ[٦] حين استخرج هذا منك؟ قال: أمَا واللهِ لقد أعطاني غيرُه أكثرَ من عطيته، ولكن لا والله

(١) الحمالة: الغرم يحمل عن القوم. (٢) الأغاني: ١٧ ـ ١٠٨.
(٣) هو عويف بن معاوية من قيس عيلان، كان شاعرًا مقلًا من شعراء الدولة الأموية وبيته كان أحد البيوتات المقدمة الفاخرة في العرب.
(٤) الفعال: الفعل الحسن، أو الكرم. (٥) موت ذريع: سريع.
(٦) هو طلحة بن عبد الله بن عوف من بني زهرة أحد الأجواد المقدمين، كانت عادته إذا أصاب مالًا أن يفتح بابه ليغشاه أصحابه والناس فيطعم ويجيز حتى ينفد ما عنده فيغلق الباب فلا يقصده أحد، توفي سنة ٩٧ هـ.

ما أعطاني أحدٌ قطُّ أَحْلى في قلبي، ولا أبقى شكرًا، ولا أجدرَ ألَّا أنساها من عطيته! قالوا: وما أعطاك؟ قال:

قَدِمتُ المدينة ومعي بُضيّعةٌ[١] لي، لا تبلغ عشرة دنانير، أريد أن أبتاعَ قَعُودًا من قِعْدَان الصَّدَقة. فإذا برجل في صحْنِ السُّوق على طِنْفِسة قد طُرحتْ له، وإذا الناسُ حوله، وإذا بين يديه إبلٌ؛ فظننتُ أنه عاملُ السوقِ، فسلّمت عليه فأثبتني[٢] وجهلْتُه؛ فقلتُ: رَحمكَ اللهُ! هل أنتَ مُعيني على قَعُودٍ من هذه القِعْدَان تَبْتاعه لي؟ فقال: نعم! أومَعَكَ ثَمَنُهُ؟ فقلت: نعم!

فأهْوى بيده إليَّ فأعطيته بُضيِّعتي؛ فرفع طِنْفِسَتَهُ وألقاها تحتها، ومكث طويلًا، ثم قمتُ إليه فقلت: رحمكَ الله! انظرْ في حاجتي. فقال: ما منعني منك إلا النسيان، أمَعك حَبْل؟ قلت: نعم. قال: أفرجوا، فأفرجوا عنه حتى استقبل الإبل التي بين يديه، فقال: اقرن هذه وهذه وهذه، فما برحتُ حتى أمر لي بثلاثين بَكْرَة، أَدْنى بكرة منها خيرٌ من بضاعتي! ثم رفع طنفسَته فقال: وشأنك ببضاعتك فاستَعنْ بها على مَن ترجعُ عليه.

فقلتُ: رحمك الله! أتدري ما تقول؟ فما بَقي أَحَدٌ عنده إلا نهرَني وشتمني!

ثم بعث معي نفرًا فاطْرَدوها[٣] حتى أطْلعُوها من رأس الثنيةِ، فوالله لا أنْساه ما دمتُ حيًا أبدًا.

ثَابـت الجنَان[٤]

قـال أحـمـد بـن داود: مـا رأيـت رجـلًا عُـرِض عـلى الـمـوت، ورأى النِّـطْـع مفروشًا والسيفَ مسلولًا، ولـم يكترثْ لذلك؛ ولا عَدَل به عما أراد إلّا تميمَ بنَ جميل؛ وقد كان خرج على المعتصم في أيام دولته، ونزع يدَه من الطاعة؛ وانقطع إلى بعض النواحي؛ وكان قد عظم أمره على المعتصم؛ ولقد رأيتُه وقد جيء به مكتوفًا أسيرًا، وقد اجتمع الناسُ من الآفاق والنواحي ينظرون كيف يقتُله المعتصم، وكان المعتصم قد جلس له مجلسًا؛ وأمر الناس بالدخول.

---

(١) البضاعة: القطعة من المال الذي يتجر فيه، والبضيعة تصغيرها.

(٢) أثبتني: عرفني حق المعرفة.

(٣) أطردت الإبل: أي أمرت بطردها، وطرد الإبل: ضمها من نواحيها.

(٤) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط، نهاية الأرب: ٦: ٦١.

ودخل تميم، وحضر السيّاف وفرش النِّطْع، وكان تميمُ جميلَ الوَجه تامَّ الخلْقة عذْب المنطق، فرآه المعتصم غيرَ دَهِش ولا مُكترِث لما نزل به. فأراد أن يستنطقه ليعلمَ أين عقله في ذلك الوقت! فقال له: يا تميم؛ إن كان لك عذْر فأْت به، فقال:

أما إذا أذِن أميرُ المؤمنين؛ فالحمد لله الذي جبَر بك صَدْعَ[1] الدين، ولَم بك شَعثَ[2] المسلمين، وأنار بك سبيل الحقِ، وأخْمَد بك شِهاب الباطل؛ إنّ الذنوبَ يا أَميرَ المؤمنين تُخْرِس الألسنةَ الفصيحة، وتُعيِي الأفئدة الصحيحة، ووالله لقد كُبر الذنب، وعَظُمت الجريرة، وانقطعت الحجَّة، وساءَ الظن، ولم يبق إلا عفوُك أو انتقامك، وأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه وأليق، ثم أنشد:

أرى الموتَ بين السيف والنِّطْع كامنًا ... يُلاحظني مِن حيثما أتلفّتُ
وأكبرُ ظنِّي أنك اليوم قاتلي ... وأيُّ امرىء مما قضى الله يفْلتُ[3]
وأيُّ امرىء يأتي بعذْرٍ وحُجَّة ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصلَت[4]
وما جَزَعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أنّ الموتَ شيء مُؤقَّتُ[5]
ولكنّ خلفي صبيةً قد تركتُهمْ ... وأكبادُهم من حَسْرَةٍ تتفَتَّتُ
كأنّي أراهم حين أنعى إليهمُ ... وقد خمَشُوا[6] تلك الوجوه وصوّتوا
فإنْ عشْتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ ... أذُودُ الرَّدى عنهم، وإن مُتُّ موتوا[7]

قال: فبكى المعتصم حتى ابتلّت لحيته وقال: إن من البيات لسِحْرًا، ثم قال: يا تميمُ؛ كاد السيفُ أن يسبقَ العفو، وقد وهبتك لله تعالى ولصِبيتك، وغفرت لك الصَّبوة[8]، ثم أمر بفكّ قيوده؛ وعقد له الولاية على موضعه الذي كان خرج منه، ووصله بشيءٍ كثير.

---

(١) الصدع: الشق.
(٢) الشعث: انتشار الأمر.
(٣) أفلت: تخلص ونجا.
(٤) أصلت السيف: استلّه من غمده.
(٥) مؤقت: مقدر.
(٦) خمش وجهه: لطمه.
(٧) موتوا: كثر فيهم الموت.
(٨) الصبوة: الزلة.

تَأَبّط شرًّا وابن بَرّاق[١]

أغار تأبط شرًّا ومعه ابن[٢] برّاق على بجيلَة، فأطردا لهما نعمًا، ونذِرت[٣] بهما بَجِيلة فخرجتْ في آثارهما، ومضيا هاربيْن في جبال السّرَاة، وركبَا الحَزْن، وعارضتهما بجيلةُ في السهل، فسبقوهما إلى الوَهْط[٤]، فدخلوا لهما في قصبة العين، وجاءا ـ وقد بلغ العطش منهما ـ إلى العين.

فلما وقعا عليها، قال: تأبط شرًّا لابن براق: أقلّ من الشرب فإنها ليلة طرْد، قال: وما يدريك؟ قال: والذي أعْدُوا بطيْرِه[٥]، إني لأسمع وجيبَ[٦] قلوب الرجال تحت قدميّ ـ وكان من أسمع العرب وأكيدهم ـ فقال له ابن براق: ذاك وجيبُ قلبك. فقال له تأبط شرًّا: والله ما وجبَ قط ولا كان وجّابًا، وضرب بيده عليه، وأصاخ نحو الأرض يستمع، فقال: والذي أعدو بطيره؛ إني لأسمع وجيب قلوب الرجال. فقال له ابن براق: فإني أنزل قبلك.

فنزل فبرك وشرب، وكان أكلّ القوم عند بجيلة شوْكةً، فتركوه وهم في الظلمة. ونزل ثابت[٧]، فلما توسط الماء وثبُوا عليه، فأخذوه وأخرجوه من العين مكتُوفًا، وابن براق قريبٌ منهم لا يطمعون فيه لما يعلمون من عَدْوه. فقال لهم ثابت: إنه من أصلف الناس وأشدهم عُجْبًا بعدْوه، وسأقولُ له استأْسر[٨] معي، فسيدعوه عُجْبه بعدوه إلى أن يعدوَ بين أيديكم، وله ثلاثة أطلاق[٩]؛ أولها كالريح الهابّة، والثاني كالفرس الجواد، والثالث يكبو فيه ويعثر. فإذا رأيتم منه ذلك فخذوه؛ فإني أحبُّ أن يصير في أيديكم كما صرتُ إذ خالفني، قالوا: فافعل.

فصاح به تأبط شرًّا: أنت أخي في الشدّة والرخاء، وقد وعدني القوم أن يمنّوا عليك وعليّ، فاستأسرْ ووَاسني بنفسك في الشدة كما كنت أخي في الرخاء؛ فضحك ابنُ براق، وعلم أنه قد كادهم، وقال: مهلًا يا ثابت، أيستأسرُ من عنده هذا العدو؟ ثم عدا، فعدا أول طلق مثلَ الريح كما وصف لهم، والثاني كالفرس

(١) الأغاني: ١٨ ـ ٢١١ (طبعة الساسي)، بلوغ الأرب: ٢ ـ ١٤٣.
(٢) اسمه عمرو بن براق.
(٣) نذر به: علم.
(٤) الوهط: ماء بالطائف.
(٥) يقال: طير الله لا طيرك. أي فعله وحكمه.
(٦) وجب القلب: اضطرب.
(٧) ثابت: اسم تأبط شرًّا.
(٨) استأسر: كن أسيرًا.
(٩) الطلق: الشوط.

الجواد، والثالث جعل يكْبو ويعثر ويقعُ على وجهه؛ فقال ثابت: خذوه؛ فعدوْا بأجمعهم، فلما أن نفّسوا عنه شيئًا عدا تأبط شرًّا في كتافه، وعارضه ابنُ براق فقطع كتافه وأفلَتَا جميعًا، فقال تأبط شرًّا قصيدته القافية في ذلك:

يا عيدُ[١] مالك من شوقٍ وإيراق ومرّ طيفٍ على الأهوال طَرّاق
يسرى على الأيْنِ[٢] والحيات محتفيًا نفسي فداؤك من سارٍ على ساقِ

أتتك بحَائِنٍ رِجْلَاه[٣]

كان المنذر بن ماء السماء[٤] ينادِمُه رجلان من العرب: خالد بن المضَلَّل، وعمرو بن مسعود الأسديان، فشرب ليلةً معهما، فراجعاه الكلام، فأَغْضبَاه، فأمر بهما فقُتِلا وجُعِلا في تابوتَيْن، ودُفنَا بظاهر الكوفة.

فلما أصبح وصَحَا سأل عنهما فأُخبر بذلك، فندِم وركبَ حتى وقف عليهما؛ فأمر ببُنيان الغَرِيّين[٥]، وجعل لنفسه في كل سنة يومين: يوم بؤس، ويوم نعيم.

فكان يضع سريره بينهما؛ فإذا كان يومُ نعيمه فأولُ مَنْ يطلعُ عليه ـ وهو عَلَى سريره ـ يعطيه مائةً من إبل الملوك، وأولُ مَنْ يطلع عليه في يوم بؤسه يعطيه رأس ظِربان[٦] ويأمر به فيذبح، ويُغَرّي بدمه الغريّان.

فلم يزل كذلك ما شاء الله.

فبينما هو ذات يوم من أيام بؤسه، إذ طلع عليه عَبِيد بن الأبرَص[٧]، فقال له الملك: ألا كان الذِّبحُ[٨] غيرك يا عبيد! فقال: أتتك بحَائِنٍ رجلاه.

---

(١) العيد: ما اعتاده الإنسان من هم أو شوق أو مرض، ومالك من شوق: يعني ما أعظمك، والإيراق مصدر آرقه، وطراق: أي يأتي ويطرق في الليل.

(٢) الأين: الذكر من الحيات، ومحتف: حاف غير متنعل.

(٣) مهذب الأغاني: ٢ ـ ٢٠٧، بلوغ الأرب: ١ ـ ١٢٨، ذيل الأمالي ١٩٩ (الطبعة الأميرية) الشعر والشعراء: ١٤٤ (طبعة أوربا).

(٤) في كتاب المعارف أن الذي قتل عبيدًا هو النعمان بن المنذر، وهو صاحب الغريين (راجع صفحة ٢٨٣، وانظر القصة رقم ٦٥ من الجزء الأول من هذا الكتاب).

(٥) الغريان: سميا بذلك لأنه كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه.

(٦) دويبة شبه الكلب أصم الأذنين طويل الخرطوم منتن الرائحة.

(٧) عبيد بن الأبرص: شاعر جاهلي قديم من المعمرين: كان شاعر بني أسد غير مدافع.

(٨) الذبح: ما يذبح.

فقال له الملك: أو أجلٌ قد بلغ إنَاه! ثم قال يا عبيد: أَنْشدني فقد كان يعجبني شِعْرُك، فقال: حال الجَريضُ دون القرِيض[١]، وبلغ الحزامُ الطُّبْيَين[٢]، فقال: أنشدني:

أَقْفَر من أهْلِه مَلْحُوب[٣] فالقطَبِيَّات[٤] فالذَّنُوب[٥]

فقال:

أَقْفر مِنْ أهله عبيدُ فاليومَ لا يُبدى ولا يُعِيد
عَنَّت له مِعَنَّةٌ[٦] نَكُود وحَان له منها وُرُود

فقال: أنشدني هبلتْكَ أمُّك! فقال: المنَايا عَلَى الحوايا[٧]. فقال بعضُ القوم: أنشد الملك؛ هبلتك أمُّك! فقال: لا يرْحلُ رَحْلكَ مَنْ ليس معك.

فقال له آخر: ما أشدَّ جزعك من الموت! فقال:

لا غَرْوَ من عيشة نافده وهل غيرُ ما ميْتَةٍ واحده
فأبلغْ بَنيَّ وأعمامَهُمْ بأنَّ المنايا هي الرَّاصدَه
لها مُدَّةٌ فنفُوس العباد إليها، وإن كَرِهَتْ، قاصده
فلا تجزعوا لحِمَامٍ دنا فَلِلْموتِ ما تلدُ الوالده

فقال له المنذر: لا بدَّ من الموت! ولو عرض لي أبي في هذا اليوم لم أجد بُدًّا من ذبْحه. فأما إذ كنتَ لها وكانت لك، فاخْترْ خصلة من ثلاث خصال: إن شئتَ من الأكحل[٨]، وإن شئت من الأبجل[٩]، وإن شئتَ من الوريد[١٠].

---

(١) مثل يضرب لأمر يعوق دونه عائق. والجريض: الغصص. والقريض: الشعر.
(٢) مثل يضرب إذا اشتد الأمر وتفاقم. والطبي: حلمات الضرع.
(٣) ملحوب: موضع.
(٤) القطبيات: جمع قطبية، وهي ماء.
(٥) الذنوب: موضع.
(٦) أصل المعنة: المرأة تعترض في كل شيء.
(٧) الحوية: كساء يحوى حول سنام البعير ثم يركب، ومعناه: قد تأتي المنية الشجاع وهو على سرجه.
(٨) الأكحل: عرق في اليد.
(٩) الأبجل: عرق غليظ في الرجل أو في اليد بإزاء الأكحل.
(١٠) الوريد: عرق في العنق.

فقال: ثلاث خصال؛ مَقادُها شرُّ مقاد، وحاديها شرُّ حاد، ولا خيرَ فيها لمُرْتاد؛ فإن كنت لا بدّ قاتلي فاسقني الخمرَ حتى إذا ذَهِلَتْ لها ذَوَاهلي، وماتت لها مفَاصلي؛ فشأنك وما تريد!

فأمر المنذر له بحاجته من الخمر، فلما أخذتْ منه وقُرّب ليُذْبح قال:

وخيّرني ذو البؤس في يوم بُؤسه خِلالًا أرَى في كلها الموت قد بَرَقْ
كما خُيِّرت عادُ من الدهر مرّة سحائبَ ما فيها لذِي خيرةٍ أَنَقْ[١]
سحائب ريحٍ لم توكَّلْ ببلدة فتَتْرُكَها إلا كما ليلةِ الطَّلَقْ[٢]

وأمر به ففُصد، فلما مات طُلي بدمه الغريان.

السُلَيك بن السُلَكَة وَرَفيقَاه[٣]

كان السُلَيْك[٤] من أشدّ رجال العرب وأنكَرهم[٥] وأشعرهم، وكان أدَلَّ الناس بالأرض، وأعلمهم بمسالكها، وأشدَّهم عدوًا على رجليه لا تعلق به الخيل، وكان يقول: اللهم إنك تهيىء ما شئتَ لما شئتَ إذا شئتَ، اللهم إني لو كنتُ ضعيفًا كنتُ عبدًا، ولو كنتُ امرأة كنت أمَةً، اللهم إني أعوذُ بك من الخَيبة، أما الهيبة فلا هيبة[٦].

ذكروا أنه أَمْلق[٧] مرَّة حتى لم يبق له شيء فخرج على رجليه رجاء أن يصيب غِرَّة من بعض من يمرُّ به، فيذهب بإبله، حتى أمسى في ليلة من ليالي الشتاء باردة مقمرة، فاشتمل الصمَّاء[٨]، ثم نام.

---

(١) الأنق: الإعجاب بالشيء.
(٢) الطلق: سير الليل لورود الغب، وهو أن يكون بين الإبل وبين الماء ليلتان؛ فالليلة الأولى يخلي الراعي إبله إلى الماء ويتركها مع ذلك ترعى وهي تسير ليلتها، فهي ليلة الطلق، والليلة الثانية ليلة القرب، وهو السوق الشديد.
(٣) الأغاني: ١٨ ـ ١٣٤ (طبعة الساسي)، الأمثال: ١ ـ ٤١٨.
(٤) كان السليك من تميم، وأمه أمة سوداء اسمها السلكة، وهو من أشد رجال العرب وأنكرهم، وأكثرهم علمًا بالأرض وأعلمهم بمسالكها، وله في ذلك أخبار كثيرة. قتله أسد بن مدرك سنة ١٧ ق هـ تقريبًا.
(٥) النكارة: الدهاء.
(٦) أي لا أهاب أحدًا.
(٧) أملق: افتقر.
(٨) اشتمل الصماء: اشتمال الصماء أن يرد فضلة ثوبه على عضده اليمنى ثم ينام عليها.

فبينما هو نائم إذ جثم عليه رجل فقعد على جنبه، وقال: استأسر[١]! فرفع السُّليك إليه رأسَه، وقال: الليلُ طويل وأنت مقمرٌ[٢]؛ فجعل الرجل يَلْهَزُه[٣] ويقول: يا خبيث، استأثر، فلما آذاه بذلك أخرج السليك يده، وضم الرجلَ إليه ضمَّة صرخ منها، وهو فوقه، ثم قال: مَن أنت؟ فقال: أنا رجل افتقرتُ، فقلت: لأخرجنّ فلا أرجعُ إلى أهلي حتى أستغني فآتيهم وأنا غَنيّ. قال الرجل: انطلقْ معي.

فانطلق فوجدا رجلًا قِصَّتُه مثل قصتهما، فاصطحبوا جميعًا حتى أتوا الجوفَ[٤]؛ جَوْف مراد، فلما أشرفُوا عليه إذا فيه نَعَمٌ[٥] قد ملأ كلّ شيء من كثْرَتِه، فهابوا أن يغيروا فيطْردوا[٦] بعضها، فيلحقهم الطلب، فقال لهما سُليك: كُونَا قريبًا مني حتى آتي الرِّعاء[٧]، فأعلم لكما علم الحيِّ: أقريب أم بعيد، فإن كانوا قريبًا رجعتُ إليكما، وإن كانوا بعيدًا قلت لكما قولًا أُوحي إليكما به فأغيرا.

فانطلق حتى أتى الرِّعاء فلم يزل يتسقَّطُهم[٨] حتى أخبروه بمكان الحي، فإذا هم بعيد، إن طُلِبُوا لم يُدْركوا؛ فقال السليك للرِّعاء: ألا أغنّيكم؟ فقالوا: بلى! غنّنا، فرفع صوته وغنّى:

يا صاحبيّ ألا لا حيّ بالوادي ... سوى عبيدٍ وآمٍ بين أذْوَادِ[٩]
أتنظرانِ قريبًا ريثَ غَفْلَتِهم ... أم تغدوان فإن الرِّبحَ للغادي

فلما سمعا ذلك أتيا السُّليك، فأطردوا الإبل، فذهبوا بها، ولم يبلغ الصَّريخ[١٠] الحي؛ فيأتوهم بالإبل.

---

(١) استأسر: كن لي أسيرًا.
(٢) ذهبت مثلًا، وأقمر الرجل: ارتقب طلوع القمر.
(٣) يلهزه: يلكمه.
(٤) موضع بأرض مراد.
(٥) النعم: واحد الأنعام، وهي الإبل والشاء.
(٦) قال في اللسان: طردت الإبل: أي ضممتها من نواحيها.
(٧) الرعاء: الرعاة.
(٨) تسقطه: عالجه ليبوح بما عنده.
(٩) أذواد: جمع ذود، ثلاثة أبعرة إلى عشرة.
(١٠) الصريخ: المستغيث كالصارخ.

السُّلَيْك يَقتُل وَيَنهَب[١]

زعموا أن السُّلَيْك بن السُّلَكَةِ خرج يريد أن يغير في ناسٍ من أصحابه؛ فمرّ على بني شيبان، في ربيع، والناس مخصبون في عَشِيَة فيها ضباب ومطر؛ فإذا هو ببيت قد انفرد عن البيوت عظيم، وقد أمسى.

فقال لأصحابه: كونوا بمكان كذا وكذا حتى آتي هذا البيت، فلعلي أصيبُ خيرًا، أو آتيكم بطعام. فقالوا له: افعل.

فانطلق إليه وجَنَّ عليه الليل فإذا البيت بيت يَزيدَ الشيباني، وإذا الشيخ وامرأتُه بفناء البيت؛ فاحتال السليك حتى دخل البيت من مؤخره؛ فلم يلبث أن أراح[٢] ابنُ الشيخ بإبله في الليل، فلما رآه الشيخ غضب، وقال: هلا كنت عشيتها ساعةً من الليل! فقال ابنه: إنها أبتِ العشاء! فقال يزيد: إن العاشية تهيجُ الآبية[٣]!

ثم نفض الشيخ ثوبَه في وجهها، فرجعت إلى مراتعها، وتبعها الشيخ حتى مالت لأدنى روضة؛ فرتعت فيها، وقعد الشيخ عندها يتعشى، وقد خَنس[٤] وجهُه في ثوبه من البَرد.

وتبعه السليك حين رآه انطلق؛ فلما رآه مُعتنِزًا[٥] ضربه من ورائه بالسيف، فأطار رأسَه، وأطْرد إبله.

وبقي أصحاب السليك ـ وقد ساء ظنُّهم، وخافوا عليه، فإذا به يُطْرِد الإبل، فأطردوها معه!

السّخِيُّ العَدّاء[٦]

قال رجلٌ من بني تميم:

كنتُ عند المهاجر بن عبد الله وَالِي اليمامة؛ فأُتِيَ بأَعْرابي قد كان معروفًا بالسّرَق[٧]؛ فقال له: أخبرني عن بعضِ عجائبك. قال: إنها لكثيرةٌ، ومن أَعْجَبِهَا:

---

(١) الأمثال: ١ ـ ٤١٧.
(٢) الإراحة: رد الإبل والغنم من العشي إلى مراحها، حيث تأوي إليه ليلًا، وقد أراحها راعيها.
(٣) أي إذا رأت التي تأبى الرعي التي تتعشى هاجتها للرعي، فرعت معها.
(٤) خنس: قبض.
(٥) اعتنز: تنحى.
(٦) عيون الأخبار: ١ ـ ١٨٧.
(٧) السرق: السرقة.

أنه كان لي بعير لا يُسْبَق؛ وكانت لي خيلٌ لا تُلْحَقُ، فكنتُ لا أخرج فأرجع خائبًا، فخرجتُ يومًا، فاحتَرَشْتُ[١] ضَبًّا، فعلّقته على قَتَبي[٢]، ثم مررت بخِباء سَرِيٍّ[٣] ليس فيه إلا عجوز، فقلت: أَخْلِق بهذا الخباء أن يكون له رائحةٌ من غَنم وإبِل، فلما أمسيْت إذ بإبلٍ مائة، فيها شيخ عظيم البَطْن، مُئدّن[٤] اللحم، ومعه عبد أسود وَغْد[٥].

فلما رآني رحب بي، ثم قام إلى ناقة فاحْتَلَبَها، وناولني العُلْبة فشربت ما يَشربُ الرجل، فتناولَ الباقي، فضرب به جَبهتَه، ثم احْتَلَبَ تسع أَيْنق، فشرب ألبانهنّ، ثم نحر حُوَارًا[٦] فطبخَه، ثم ألقى عظامه بيضًا، وحَثَا كُومَةً من بَطحاء[٧] وتوسّدها، وغطّ غطيطَ البَكْر.

فقلت: هذا واللهِ الغنيمة! ثم قمت إلى فَحْل إبله فخطمتُه[٨]، ثم قرنْتُه إلى بعيري، وصِحْتُ به، فاتّبعني الفحل، واتّبعته الإبل، فسارت خَلْفي كأنها حبل ممدود، فمضيتُ أبادر ثنِيّةً بيني وبينها مسيرةُ ليلة للمُسْرِع، فلم أزل أضربُ بعيري بيدي مرة، وأقرَعُه برجلي أخرى، حتى طلَع الفجر.

فأبصرت الثنيَّة، فإذا عليها سَوَاد، فلما دنَوْتُ إذا أنا بالشيخ قاعدًا وقوسُهُ في حِجْره، فقال: أضيفُنَا؟ قلت: نعم! قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا.

فأخرج سهمًا كأنّ نصلَه لسانُ كلب، ثم قال: أَبْصِرْ بين أذني الضبّ، ثم رماه فصدَع عَظْمَه عن دماغه، وقال: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيي الأول!

قال: انظُر هذا السهم الثاني في فَقْرَةِ ظهره الوسطى! ثم رمى به؛ فكأنما قدّره بيده، ثم وضعه بإصبعه، ثم قال: أرأيت؟ قلت: إني أُحِب أن أستَثبتَ.

---

(١) احترش الضب: اصطاده.
(٢) القتب: الإكاف الصغير على قدر سنام البعير.
(٣) السرى: من له مروءة في شرف.
(٤) مئدن اللحم: كثيره.
(٥) الوغد: الدنيء الذي يخدم ببطنه.
(٦) الحوار: ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه.
(٧) البطحاء: مسيل واسع فيه دقاق الحصي.
(٨) خطمه: وضع فيه الخطام: وهو ما وضع في أنف البعير ليقاد به.

قال: انظر هذا السهم الثالث في عُكْوة[1] ذَنَبه، والرابع والله في بَطْنِكَ. ثم رماه فلم يخطىء العُكْوَة، فقلت: أنزلُ آمنًا؟ قال: نعم. فنزلتُ؛ فدفعت إليه خِطَام فَحْله، وقلت: هذه إبلك لم يذهب منها وبرَة ـ وأنا أنتظر متى يرميني بسهم ينتظمُ قلبي. فلما تنحّيت قال لي: أقْبِل، فأقبلتُ والله خوفًا من شره، لا طمعًا في خيره.

فقال: أيْ هذا؛ ما أحسبك جَشِمْتَ الليلةَ ما جشِمتَ إلا من حاجة. قلت: أجل! قال: فاقْرُن من هذه الإبل بعيرين وامضِ لِطِيَّتك، قلت: أما واللهِ حتى أخبرك عن نفسك قبلًا!

ثم قلت: والله ما رأيت أعرابيًا قط أشدَّ ضِرْسًا، ولا أعدى رِجْلًا، ولا أرْمى يدًا، ولا أكرم عفوًا، ولا أسخَى نفسًا منك!

زَيْـد الخَيْل[2][3]

أخبر شيخ من بني نَبْهان قال: أصابت بني شيبان سَنَةٌ ذهبت بالأموال؛ فخرج رجلٌ منهم بعِياله حتى أنزله الحِيرة، فقال لهم: كونوا قريبًا من الملك يُصبكم خيره حتى أرجعَ إليكم، وآلى ألِيَّة[4]؛ لا يرجع حتى يكسبهم خيرًا أو يموت.

فتزوَّد زادًا ثم مشى يومًا إلى الليل، فإذا هو بمُهْرٍ مقيّد، حول خِباء، فقال: هذا أولُ الغنيمة. وذهب يحُلُّه ويركبه، فنودي: خلِّ عنه واغنم نفسك. فتركه.

ومضى سبعة أيام حتى انتهى إلى عَطَن[5] إبل مع تطفيل[6] الشمس، فإذا خِباء عظيم وقُبَّة من أَدَم، فقال في نفسه: ما لهذا الخِباء بُدٌّ من أهل، وما لهذه القبة بُدٌّ من رَبّ، وما لهذا العَطَن بُدٌّ من إبل. فنظر في الخِباء فإذا شيخٌ كبير قد اختلفت تَرْقُوَتَاه كأنه نَسْر.

---

(١) العكوة: أصل الذنب. (٢) الأغاني: ١٦ ـ ٤٧ (طبعة الساسي).

(٣) هو زيد بن مهلهل، كان فارسًا مغوارًا مظفرًا شجاعًا بعيد الصيت في الجاهلية، وكان شاعرًا محسنًا خطيبًا لسنًا، كريمًا، وأدرك الإسلام، ووفد إلى النبيّ ﷺ سنة تسع، وسرّ به وقرطه وسماه: زيد الخير. وسمي في الجاهلية بزيد الخيل لكثرة خيله. توفي سنة ٩ هـ.

(٤) آلى آلية: حلف يمينًا. (٥) العطن: مبرك الإبل.

(٦) تطفيل الشمس: ميلها للغروب.

قال: فجلست خَلْفه. فلما وجبتِ[١] الشمس إذا فارس قد أقبل لم أرَ فارسًا قطّ أعظمَ منه ولا أجسم، ومعه أسودان يمشيان جنبيه، وإذا مائة من الإبل مع فحْلها، فبرَكَ الفحل، وبرَكت حوله، ونزل الفارس؛ فقال لأحد عَبْدَيه: احلُب الفُلانة[٢]، ثم اسقِ الشيخ، فحلب في عُسٍّ حتى ملأه ووضعه بين يدي الشيخ، وتنحّى، فكرع منه الشيخ مرة أو مرتين ثم نَزع[٣]، فَثُرت إليه فشربته، فرجع إليه العبد فقال: يا مولاي؛ قد أتى على آخره. ففرح بذلك وقال: أحلُب الفُلانة، فحلبها، ثم وضع العُسّ بين يدي الشيخ، فكرع منه واحدة، ثم نزع، فثُرت إليه فشربت نصفه، وكرهت أن آتي على آخره فأتهم، فجاء العبد فأخذه، وقال لمولاه: قد شرب، فقال: دَعْه.

ثم أمر بشاة فذبحت، وشوى للشيخ منها: ثم أكل هو وعبداه. فأمهلت حتى إذا ناموا وسمعت الغطيط[٤] ثُرتُ إلى الفحل، فحللت عِقاله ورِكبتُه، فاندفع بي وتبعتْه الإبل. فمشيتُ ليلتي حتى الصباح.

فلما أصبحتُ نظرتُ فلم أر أحدًا، فسللتها سلًّا عنيفًا، حتى تعالى النهار، ثم التفتُّ التفاتة، فإذا أنا بشيء كأنه طائر، فما زال يدنو حتى تبيَّنْتُه، فإذا هو فارس على فرس، وإذا هو صاحبي بالأمس، فعقلتُ الفحل، ونثلتُ كنانتي، ووقفت بينه وبين الإبل، فقال: احْلُلْ عِقال الفَحْل. فقلتُ: كلا والله، لقد خلّفت نُسَيَّاتٍ بالحيرة، وآليتُ أليّة لا أرجع حتى أفيدهن خيرًا أو أموت، قال: فإنّك لَمَيِّت؛ حلَّ عقاله لا أمَّ لك! فقلت: ما هو إلا ما قلت لك. فقال: إنك لمغرور، انصب لي خِطامه، واجعل فيه خمس عُجَر[٥]؛ ففعلت، فقال: أين تريد أن أضع سهمي؟ فقلت: في هذا الموضع. فكأنما وضعه بيده.

ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم، فرددت نَبلي[٦]، وحططت قوسي، ووقفتُ مستسلمًا؛ فدنا مني وأخذ السيف والقوس ثم قال: ارتَدِفْ[٧] خلفي، وعرف أني الرجل الذي شربتُ اللبنَ عنده؛ فقال: كيف ظنُّك بي؟ قلت: أحسن ظن. قال: وكيفَ؟ قلت: لما لقيت من تعب ليلتك وقد أظفرك

---

(١) وجبت الشمس: مالت للغروب.
(٢) الفلانة: كناية عن غير الإنسان.
(٣) نزع: انتهى.
(٤) غطيط النائم: نخيره.
(٥) العجرة: العقدة.
(٦) النبل: السهام العربية، ولا واحد لها.
(٧) المرتدف: الراكب خلف الراكب.

الله بي. فقال: أترانا كنا نهيجك وقد بتّ تنادم مهلهلًا[١]! قلت: أزيد الخيل أنت؟ قال: نعم، أنا زيد الخيل، فقلت: كُنْ خيرَ آخذ. فقال: ليس عليك بأس. ومضى إلى موضعه الذي كان فيه. ثم قال: أما لو كانت هذه الإبل لي لسلَّمْتُها إليك، ولكنها لبنت مهلْهل، فأقم عليَّ فإني على غارة.

فأقمتُ أيامًا، ثم أغار على بني نمير فأصاب مائة بعير، فقال: هذه أحبُّ إليك أم تلك؟ قلت: هذه. قال: دونكها، وبعث معي خفراء من ماء إلى ماء حتى وردوا بي الحيرة، فلقيني نَبَطِيّ فقال: يا أعرابي، أيسرُّك أن لك بإبلك بُسْتانًا من هذه البساتين؟ قلت: وكيف ذاك؟ قال: هذا قُرْبُ مخرج نبيٍّ يخرج، فيملك هذه الأرض، ويحول بين أربابها وبينها، حتى إن أحدهم لبيتاع البستان من هذه البساتين بثمن بعير.

قال: فاحتَملتُ بأهلي حتى انتهيتُ إلى موضع، فبينما نحن على ماء لنا، جاءنا رسول الله ﷺ فأسْلَمْنا، وما مضت أيامٌ حتى اشتريتُ بثمن بعير من إبلي بستانًا بالحيرة.

جَحْـــدَر[٢]

كان جَحْدَر بن ربيعة من لصوص العرب وشياطينهم، يُغير على أحيائهم فينهَبُها، وربما فتك بمن تعرّض له؛ واشتدَّ شَرُّهُ في أيام الوليد بن عبد الملك، حتى أباد خَلْقًا كثيرًا.

فبلغ أمرُه الحجَّاجَ[٣]؛ فكتب إلى عامِله باليمامة، يؤنِّبه لعجزه عن الضرب على يديْ ذلك الفاتك، وأمره أن يُوقِعَ به، أو يحملَه إليه أسيرًا.

فأوطأ[٤] العاملُ جماعة من فِتْيَة بني حَنْظَلة، وجعل لهم الجعائل[٥] العظيمة إن هم أتَوْه به مَغْلولًا[٦] أو مقتولًا!

(١) مهلهل: أبو زيد الخيل.
(٢) المستطرف: ١ ـ ٢٢٤، المحاسن والمساوىء: ٧٧ (طبع ليبزج).
(٣) نشأ بالطائف، وولي العراق والمشرق، وهلك بواسط سنة ٩٥ هـ.
(٤) أوطأ جماعة: اتفق معهم.
(٥) الجعالة ما جعل للإنسان من شيء على فعل.
(٦) الغل: طوق من الحديد يجعل في العنق.

فأرسلوا إليه يقولون: إنهم يريدون الانقطاع إليه، والخضوع لأمره؛ فأَخْلَد جَحْدَر إلى قولهم، وأدخلهم في صُحبته. فأخذوا ينهبون تحت لوائه، إلى أن صادفوا منه غِرَّة[١]، فشدُّوا وِثاقه، وقدموا به إلى العامل الذي وجّههم به إلى الحجاج.

فلما مَثَلُوا بين يديه قال الحجاج: أنت جَحْدر؟ قال: نعم، فقال: وما جرّأك على ما بلغني عنك؟ قال: جَوْر الزمان، وجراءة الجنَان! قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلانِي الأمير، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه.

فقال: يا جحدر؛ إني قاذفٌ بك إلى حفيرة بها سبعٌ شرِس، فإن قتلك كفانَا مؤُونتك، وإن قتلتَه عفونا عنك لشجاعتك! فقال: أصلح الله الأمير! لقد قرُب الفرج!

فأمر الحجاج بحبْسه، وكتب إلى العامل أن يرتاد[٢] له سَبُعًا عَتِيًّا[٣]، ويحمله إليه. فارتاد له أسدًا خبيثًا، كريه المنظر، قد أفنى جميع ما باليمامة من حيوان، ووضعه في قفص من حديد، وأنفذه إلى الحجاج.

فأمر أن يُلْقى في الحفيرة، ولا يُطعم شيئًا ثلاثة أيام، حتى إذا ما اشتد به الجوع، أُخرج إليه جحدر، وما أُعطي إلا سيفًا، والحجاجُ مشرف على الحفيرة؛ والناسُ حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بفريسته!

فلما رُفع[٤] له نهض وزرأ زئيرًا رجّ الجبال، وراع الحاضرين، فأنشد جحدر:

لـيثٌ ولـيثٌ فـي مجالٍ ضنك   كـلاهـمـا ذو قـوّةٍ وسَـفْـكِ
وصـولـةٍ وبـطـشـةٍ وفَـتْـك   إن يـكـشـفِ الله قـنـاعَ الـشـكّ
فـأنـتَ لـي فـي قـبضـتي ومِلْكي

---

(١) الغرة: الغفلة. (٢) يرتاد: يطلب.
(٣) العتي: ما جاوز الحد، ويقصد: الشديد الهائل.
(٤) رفع: ظهر من بعيد.

ثم أدْلِيَ به، فوقع عليه وقوعَ الصاعقة، فصرخ الأسدُ عند رُؤيته صرخة عظيمة، فأجابه هو بأعظم منها، وضربه بسيفه ضربة فلقَتْ هامته؛ فكبّر الناس، وأعجب به الحجاج، وقال: لله دَرُّك[١]! ما أنجدك[٢]!

ثم خيّره بين أن يُقيم عنده مكرمًا، أو يلحقَ ببلاده على ألّا يؤذيَ أحدًا، ولا يحدث حدثًا؛ فاخْتَارَ جحدر الإقامة معه، وأحسن أدبه، حتى حَظِي عنده وجعله من سُمّاره وخواصه؛ وبعد ذلك بزمن غير طويل ولّاه اليمامة، ومكث فيها مدة، قام فيها بأعباء الولاية خيرَ قيام.

صَديقا ابن سُريج على قبره[٣]

حدَّث إسحٰق بن يعقوب عن أبيه قال:

إنَّا لبِفِناء دار عمرو بن عثمان بالأبطح في صُبْح خامسة من الثمان[٤]، فما إنْ دَرَيْتُ إلا برجل على راحلة، على رَحْلٍ جميل وأَدَاةٍ حسنة، مع صاحبٌ له على راحِلَةٍ قد جَنَبَ[٥] إليها فرسًا وبغْلًا، فوقفا عليَّ وسألاني، فانتسبتُ لهما عُثمانيًا، فنزلا وقالا: رجلان من أهلِك أقدَمَتْنا حاجةٌ نحبُّ أن نقضيها قبل أن نُشْدَه[٦] بأمر الحج؛ فقلت: ما حاجتُكما؟ قالا: نريد إنسانًا يَقِفُنا على قبر عُبيد بن سُريج!

قال: فنهضت معهما حتى بلغتُ بهما مَحلَّةَ بني قارة من خُزَاعة بمكة، وهم موالي عُبَيْد بن سريج[٧]، ثم التسمتُ لهما إنسانًا يصحَبُهُما حتى يَقِفَهَما على قبره بدَسْم[٨]، فوجدتُ ابنَ أبي دُبَاكِل فأنْهَضْتُهُ معهما. ثم أخبرني بعدُ: أنه لما أوقَفَهما علىَ قبره نزلَ أحدُهما فحسرَ عمامته عن وجهه، فإذا هو عبد الله بنُ سعيد بن عبد الملك بن مَرْوان، فعقَرَ ناقته، واندفع يندبُه بصوتٍ شجيٌ كليلٍ حَسَن:

وقفنا على قبرٍ بدسْمٍ فهاجَنَا وذكَّرَنا بالعيش إذ هو مُصْحِبُ[٩]

---

(١) الدر: العمل من خير أو شر؛ ولله درك أي لله عملك؛ يقال لمن يمدح ويتعجب من عمله.

(٢) ما أنجدك: ما أشجعك فيما يعجز عنه غيرك.

(٣) الأغاني: ١ ـ ٣٢٠ (طبعة دار الكتب). (٤) أي من أيام الحج.

(٥) جنب فرسًا: أي قاده إلى جنبه. (٦) نشده: نشغل.

(٧) كان عبيد بن سريج مغنيًا من أهل مكة، كان يغني مرتجلًا ويوقع بقضيب، ويضرب بالعود؛ غنى في خلافة عثمان بن عفان، وتوفي في خلافة هشام بن عبد الملك، مات نحو سنة ٩٨ هـ.

(٨) دسم: موضع قرب مكة. (٩) المصحب: الذليل المنقاد بعد صعوبة.

فجالت بأرجاءِ الجفون سَوَافحٌ ... من الدَّمْعِ تستتْلِي الذي يَتَعَقَّبُ
إذا أبطأتْ عن ساحة الخدِّ ساقها ... دمٌ بعد دمع إثْرَهُ يَتَصَبَّبُ
فإن تُسْعِدَا نندُب عُبيدًا بِعَوْلَةٍ[١] ... وقَلَّ له مِنَّا الْبُكا والتَّحَوُّبُ[٢]

ثم نزل صاحبُه فعقر ناقَتَه. وقال له القُرَشِيُّ: خُذْ في صوت أبي يحيىٰ؛ فاندفع يُغَنّي:

أسعِداني بعبرة أسْرَابِ[٣]
من دُموعٍ كثيرةِ التسْكابِ
إنَّ أهلَ الحِصَاب[٤] قد تركوني
مولَهًا مولَعًا بأهلِ الحِصابِ
أهلِ بيتٍ تتايعوا[٥] للمنايا
ما على الموتِ بعدَهمْ من عِتَابِ
فارَقوني وقد علمتُ يقينًا
ما لمنْ ذاقَ مِيتَةً من إياب
كم بذاك الحَجُون[٦] من سَحيٍّ صدق
من كهولٍ أعِفةٍ وشبابِ
سكنوا الجزْعَ جَزْعَ بيت أبي مو
سى إلى النخل من صُفِيِّ السِّبَابِ[٧]
فَلِيَ الوَيلُ بعدهم وعليهمْ
صِرْتُ فردًا وملنِي أصحابي

قال ابنُ أبي دُبَاكِل: فوالله ما تمَّمَ صاحبُه منها ثلاثًا حتى غُشِيَ على صاحبه، وأقبل يصلِحُ السرج على بغلته وهو غير مُعَرِّج عليه. فسألته مَن هو؟ فقال: رجلٌ

(١) أعول: ارتفع بكاؤه، والاسم العولة. (٢) التحوب: التوجع.
(٣) أسراب: جمع سرب وهو الماء السائل. (٤) الحصاب: موضع الجمار.
(٥) التتابع: الوقوع في الشر من غير فكر ولا روية.
(٦) الحجون: جبل بأعلى مكة عند مدافن أهلها.
(٧) صفي السباب: موضع بمكة، والمراد بأبي موسى أبو موسى الأشعري.

من جُذَام. قلتُ: بمن تعْرَفُ. قال: بعبد الله بن المنْتَشِر. قال: ولم يَزَل القرشيُّ على حاله ساعة، ثم أفاق.

ثم جعل الجُذَامي يَنْضَحُ الماء على وجهه، ويقول كالمعاتب له: أنت أبدًا مَضْبُوبٌ[١] على نفسك، ومَنْ كلَّفك ما ترى! ثم قرب إليه الفرس؛ فلما علاه استخرج الجُذاميّ من خُرْج على بِغْلٍ قدحًا وإدَاوَةَ ماءٍ، فجعل في القدح ترابًا من تراب قبر ابن سريج وصبَّ عليه ماء من الإدَاوة. ثم قال: هاك فاشرب هذه السَّلْوَة[٢]، فضرب. ثم فعل هو مثل ذلك وركب البغل وأرْدَفني.

فخرجا والله ما يعرِّضان بذكر شيء مما كانا فيه، ولا أرى في وجوههما شيئًا مما كنتُ أرى قبل ذلك.

فلما اشتمل علينا أَبْطَح مكة قالا: انزل يا خزاعي! فنزلت وَأَوْمأَ الفتى إلى الجُذامي بكلامٍ، فمدَّ يده إليَّ وفيها شيء فأخذتُه فإذا هو عشرون دينارًا، ومضيا.

فانصرفت إلى قبره ببعيرين فاحتملتُ عليهما أداةَ الراحلتين اللتين عقراهما فبعتُهما بثلاثين دينارًا!

قوَّة وبَطش[٣]

كان هلال[٤] فارسًا شجاعًا شديد البأس والبطش، أكثَرَ الناس أكْلا، وأعظَمهم في حرب غَناءٍ. وكان يَرِدُ مع الإبل فيأكلُ ما وجد عند أهله، ثم يَرْجع إليها ولا يتزود طعامًا ولا شرابًا حتى يرجعَ يوم وردها، لا يذوقُ فيما بين ذلك طعامًا ولا شرابًا، وكان عاديَّ الخَلق[٥]، لا تُوصفُ صِفَتُه.

وكان يومًا في إبل له، وذلك عند الظهيرة في يوم شديدِ وَقْعِ الشمس، مُحْتدِم الهاجِرة[٦]، وقد عمد إلى عصاه فطرح عليها كساءه، ثم أدخل رأسه تحت كسائه من الشمس؛ فبينما هو كذلك إذ مرَّ به رجلان: أحدهما من بني نَهشل،

---

(١) مصبوب على نفسك؛ أي محثوث على اتباعها تستغويك فتسلس لها القياد.
(٢) السلوة: أين يؤخذ من تراب قبر ميت فيذر على الماء ويسقاه العاشق ليسلو.
(٣) الأغاني: ٣ ـ ٥٣ (طبعة دار الكتب).
(٤) هلال بن الأسعر: شاعر اشتهر في العصر الأموي، وكان فارسًا شجاعًا، مات نحو سنة ١٣ هـ.
(٥) عادي الخلق: عملاق ضخم الجسم، نسبة إلى عاد.
(٦) الهاجرة: نصف النهار.

والآخر من بني فُقَيْم، كانا أشدَّ تمِيميَّيْنِ في ذلك الزمان بَطْشًا، وقد أقبلا من البحرين، ومعهما[١] أنْوَاط من تمر هَجَر[٢]، وكان هِلَالٌ بناحية الصِّعَاب[٣].

فلما انتهيا إلى الإبل ـ ولا يعرفان هِلَالًا بوجهه، ولا يعرفان أن الإبل له ـ نَادَيَا: يا راعي، أعندك شرابٌ تسقِينا؟ وهما يظنانه عبدًا ـ فناداهما هلال ورأسُه تحت كسائه: عليكما بالناقة التي صفتُها كذا في موضع كذا، فأنيخَاها؛ فإن عليها وَطْبَيْنِ[٤] من لبن، فاشربا منهما ما بَدَا لكما. فقال له أحدهما: وَيْحَكَ! انهضْ يا غلام فأتِ بذلك اللبن! فقال لهما: إن تَكُ لكما حاجة فستأتيانها، فَتَحْدرانِ[٥] الوطْبَين فتشربان.

فقال أحدُهما: إنك لغَليظ الكلام، قم فاسْقِنا ثم دنا من هلال وهو على تلك الحال، فقال لهما ـ حيث قال له أحدهما: إنك لغليظ الكلام ـ أراكما والله ستَلْقيان هَوانًا وَصغَارًا؛ وسَمِعَا ذلك منه؛ فدنا أحدُهما فأَهْوى له ضربًا بالسَّوْط على عَجُزِه وهو مضطجع، فتناول هِلَالٌ يدَه فاجتذبه إليه، ورماه تحت فَخِذه، ثم ضغطه ضَغْطَةً، فنادى صاحبَه: ويحك! أَغِثْني قَد قتلني! فدنا صاحبُه منه، فتناوله هلال أيضًا فاجتذَبه فرمى به تحت فخذه الأخرى. ثم أخذ بِرقابهما فجعل يَصُكُّ برؤوسهما بعضًا ببعض؛ لا يستطيعان أن يمتنعا منه.

فقال أحدهما: كُنْ هلالًا ولا نبالي ما صنعتَ! فقال لهما: أنا والله هلال، ولا والله لا تفلتان مني حتى تُعْطياني عهدًا وميثاقًا لا تخِيسان به[٦]؛ لتأتيانِّ المِرْبد[٧] إذا قدمتما البصرة، ثم لتناديانِّ بأعلى أصواتكما بما كان منّي ومنكما.

فعاهداه وأعطياه نَوْطًا من التمر الذي معهما وقدما البصرة، فأتيا المِرْبد، فناديا بما كان منه ومنهما.

---

(١) أنواط: جمع نوط، والنوط: أحلة صغيرة فيها التمر ونحوه.

(٢) هجر: قاعدة البحرين، مشهورة بالتمر، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر.

(٣) الصعاب: جبل بين اليمامة والبحرين. (٤) الوطب: سقاء اللبن خاصة.

(٥) حدر الشيء: أنزله من علو. (٦) لا تخيسان به: لا تغدران به ولا تنكثان.

(٧) المربد: موضع بالبصرة؛ كان سوقًا للإبل، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء.

لَا تعرضُوا لهذا الشيطان[١]

حدَّث خالد عن كُنَيف بن عبد الله المازنيّ قال: كنتُ يومًا مع هِلَال، ونحن نبغِي إبِلًا لنا. فَدَفَعْنَا إلى قومٍ من بَكْر بن وائل، وقد لغِبْنَا[٢] وعَطِشْنَا، وإذا نحن بفتْيةٍ شباب عند رَكِيَّةٍ[٣] لهمْ، وقد وَرَدَتْ إبِلُهم، فلمّا رأوْا هِلالًا استَهْوَلُوا خَلْقه وقامته.

فقام رجلان منهم إليه، فقال له أحدهما: يا عبدَ الله، هل في الصِّراع؟ فقال له هلال: أنا إلى غير ذلك أحوج. قال: وما هو؟ قال: إلى لبن وماء؛ فإنني لَغِبٌ ظمْآن، قال: ما أنت بذائق من ذلك شيئًا حتى تعطيَنا عهدًا؛ لتُجِيبَنَّنا إلى الصراع إذا أَرَحْت[٤] ورَوِيتَ.

فقال لهما هلال: إنّني لكم ضيف، والضيفُ لا يُصارع ربَّ منزله، وأنتم مكتَفون من ذلك بما أقولُ لكم: اعمِدوا إلى أشَدِّ فحل في إبلكم وأَهْيَبِه صولة، وإلى أشدِّ رجلٍ منكم ذِراعًا؛ فإن لم أقبض على هامَةِ البعير وعلى يد صاحبكم فلا يمتنعُ الرجلُ ولا البعير حتى أُدْخِلَ يد الرجل في فم البعير، فإن لم أفعل ذلك فقد صرعتموني، وإن فعلتُه علمتم أن صراع أحدكم يسرُ من ذلك.

فعجبوا من مَقَالته تلك، وَأَوْمئوا إلى فَحْلٍ في إبلهم هائج صائل قَطِم[٥]، فأتاه هلال ومعه نفرٌ من أولئك القوم وشيخٌ لهم، فأخذ بهَامَة الفحل مما فوق مِشْفَره، فضغطها ضَغْطَةً جَرجرَ[٦] الفَحْلُ منها واسْتَخْذَى[٧] وَرَغَا. وقال: ليُعْطِني من أَخْبَثُم يده أولِجها في فم هذا الفحل.

فقال الشيخ: يا قوم، تنكَّبوا هذا الشيطان، فوالله ما سمعتُ الفلان[٨] - يعني هذا الفحل - جَرجرَ منذ بَزَلَ[٩] قبل اليوم، فلا تعرضوا لهذا الشيطان. وجعلوا يَتْبَعونه وينظرون إلى خَطْوه ويَعْجَبون منه حتى جَاوزَهم.

---

(١) الأغاني: ٣ - ٥٥ (طبعة دار الكتب).
(٢) لغب: تعب وأصابه الإعياء.
(٣) الركية: البئر.
(٤) أراح الرجل: رجعت إليه نفسه بعد الإعياء.
(٥) القطم: الهائج الذي صعب ركوبه.
(٦) جرجر: ردد صوته في حنجرته.
(٧) استخذى: خضع.
(٨) الفلان والفلانة: كناية عن غير الآدميين، تقول: ركبت الفلان وركبت الفلانة، أما فلان وفلانة فهما كناية عن أسماء الآدميين.
(٩) بزل البعير فهو بازل، أي: دخل في سنته التاسعة.

هلَال يُصَارع عَبدًا جبَّارًا[١]

حدّثَ مَن سمع هلالًا يقول: قَدِمْتُ المدينةَ، وعليها رجلٌ من آل مرْوان، فلم أزلْ أَضَعُ عن إبلي، وعليها أحمالٌ للتّجار، حتى أُخِذَ بيدي، وقيل لي: أَجِبِ الأمير.

قلت لهم: ويلكم! إبلي وأحمالي! فقيل: لا بأس على إبلِك وأحمالك.

فانطُلِقَ بي حتى أُدخِلْتُ على الأمير، فسلّمتُ عليه، ثم قلت: جُعِلْتُ فداك! إبلي وأمانتي، فقال: نحن ضامِنُون لإبلك وأمانتك حتى نؤدِّيَها إليك؛ فقلت عند ذلك: فما حاجة الأمير إليَّ؟ جعلني الله فداه! فقال لي - وإلى جنبه رجلٌ أصفر، ما رأيت رجلًا قَط أشد خَلْقًا منه، ولا أغلظَ عنقًا، ما أدري أطولُه أكثر أم عَرْضه -: إنّ هذا العبد الذي ترى، ما ترك بالمدينة عربيًّا يُصارَع إلا صَرَعهُ، وبلغني عنك قوّةٌ فأردتُ أن يُجرِي الله صَرْعَ[٢] هذا العبد على يدك؛ فتُدْرِكَ ما عنده من أوتار العرب.

فقلت: جعلني الله فداء الأمير، إني لَغِبٌ جائعٌ، فإن رأى الأمير أن يَدَعني، حتى أضَع عن إبلي، وأؤدي أمانتي، وأُريحَ يومي هذا وأجيئَه غدًا - فلْيفعل.

فقال لأعوانه: انطلقوا معه فأعينوه على الوَضْع عن إبله وأداءِ أمانته، ثُمَّ انطلِقوا به إلى المطبخ فأشْبِعُوه. ففعلوا جميعَ ما أمرهم به. فظلِلْت بقيَّة يومي ذلك، وبتُّ ليلتي تلك بأحسن حال شِبَعًا وراحةً وصلاح أمر؛ فلما كان من الغد غدوت عليه وعليَّ جُبَّة لي صوف وَبَتٌّ[٣]، وليس عليَّ إزارٌ، إلا أني قد شددتُ بعمامتي وسطي. فسلّمتُ عليه فردَّ عليَّ السلام. وقال للأصفَر: قم إليه، فقد أرى الله أتاك بما يُخزِيك. فقال العبد: ائتزرْ يا أعرابيّ، فأخذتُ بَتِّي فَأْتَزَرْتُ به على جُبَّتي؛ فقال: هيهات! هذا لا يثبُت، إذا قبضْتُ عليه جاء في يدي؛ فقلت: واللهِ مَا لِي من إزَار.

فدعا الأمير بِملْحَفَةٍ ما رأيت قبلها، ولا عَلَا جلدي مثلُها، فشددتُ بها على حَقْوِي[٤] وخلعت الجُبَّة.

---

(١) الأغاني: ٣ - ٥٦ (طبعة دار الكتب).
(٢) صرعه، أي قتله.
(٣) البت: كساء غليظ مهلهل مربع أخضر.
(٤) الحقو: الخصر.

وجعل العبدُ يدور حولي ويريد خَتْلي وأنا منه وَجِل، ولا أدري كيف أصنع به! ثم دنا مني دَنْوَةً، فَنَقَدَ[١] جَبْهتي بظُفره نَقْدَةً ظننت أنه قد شجَّني وأَوْجَعني. فغاظني ذلك، فجعلت أنظر في خَلْقِهِ؛ بِمَ أقبِضُ منه. فما وجدت في خلْقِه شيئًا أصغر من رأسِهِ، فوضعتُ إبهامي في صُدْغيه وأصابع الأُخَر في أصل أذنيه. ثم غمَزْتُه غمزة صاح منها: قتلتَني! قتلتَني! فقال الأمير: اغمسْ رأس العبد في التراب. فقلت له: ذلك عليَّ.

فغمستُ والله رأسَه في التراب، ووقع شبيهًا بالمغشِيِّ عليه. فضحك الأمير حتى اسْتَلْقى، وأمر لي بجائزة وصِلَةٍ وكُسوة، وانصرفت.

أجبَنُ الناسَ وأحيل الناسَ وأشجَع الناس[٢]

دخل عَمْرو[٣] بن معديكرِب على عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عُمَر: يا عَمْرو؛ أخبرني عن أشجع مَن لَقِيت. فقال: والله يا أمير المؤمنين لأخبرنك عن أجبن الناس وأحيل الناس، وأشجع الناس: خرجت مرةً أريدُ الغارةَ، فبينما أنا أسيرُ بفرس مشدودٍ، ورُمْحٍ مَرْكُوز، وإذا رجلٌ جالس، وهو كأعظم ما يكون من الرجال خَلْقًا، وهو مُحْتَبٍ بسيف.

فقلت له: خُذْ حِذْرك فإني قاتِلُك. فقال: ومَن أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرِب، فشهِق شهقة، فمات. فهذا أجبنُ مَنْ رأيتُ يا أمير المؤمنين.

وخرجتُ يومًا حتى انتهيتُ إلى حيٍّ، فإذا أنا بفرسٍ مشدودٍ، ورُمْحٍ مركوز، وإذا صاحبُه في وَهْدَة يقضي حاجة.

فقلت: خذ حِذْرك فإني قاتلك. قال: مَنْ أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرِب. قال: أبا ثور[٤]، ما أنصفْتَنِي! أنتَ على ظهرِ فرسك، وأنا في بئر، فأعطني عهدًا أنك لا تقتلني حتى أركبَ فرسي، وآخذَ حذْرِي؛ فأعطيتُه عهدًا ألّا أقتلَه حتى يركب فرسه، ويأخذ حِذْره.

---

(١) نقد الشيء: نقره بإصبعه. (٢) نهاية الأرب: ٢ ـ ١٧٦، الغرر: ٢٢٧.

(٣) عمرو بن معديكرب: فارس مشهور صاحب وقائع مذكورة، في الجاهلية والإسلام. توفي سنة ٢١.

(٤) أبو ثور: كنية عمرو.

فخرج من الموضع الذي كان فيه، حتى احْتَبى بسيفه وجلس. فقلت له: ما هذا؟ فقال: ما أنا براكبِ فرسي، ولا بمقاتلك، فإن نكثت عهدك فأنت أعلم، فتركتُه ومضيت.

فهذا يا أمير المؤمنين أحْيَلُ من رأيت!

ثم إني خرجْتُ يومًا آخر؛ حتى انتهيْتُ إلى موضعٍ كنت أقطع فيه، فلم أرَ أحدًا، فأجريت فرسي يمينًا وشمالاً، فظهر لي فارس.

فلما دنا مني إذا هو غلام قد أقبل نحو اليَمامة. فلما قَرُب مني سلَّم؛ فردَدْت عليه وقلت: مَنِ الفتى؟ قال: أنا الحارث بن سَعْد، فارس الشهباء[1]؛ فقلت له: خُذْ حِذْرك، فإني قاتلك، فقال: الويلُ لك! مَنْ أَنْتَ؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرِب قال: الحقير الذليل؟ والله ما يمنعني مِنْ قَتْلك إلا استصغارُك، فتصاغَرتْ نفسي إليَّ وعظُم عندي ما استقبلني به.

فقلت له: خُذْ حِذْرك، فوالله لا ينصرف إلا أَحَدُنا. قال: اغْرُبْ[2]، ثَكِلَتك أمك! فإني من أهل بيت ما نَكَلْنا[3] عن فارسٍ قط! فقلت: هو الذي تسمع. قال: اخْتَرْ لنفسك: إما أن تُطْرِدَ[4] لي، وإما أن أُطْرِد لك؛ فاغتنمتها منه، فقلت: أطْرِد لي. فأطرد، وحملت عليه، حتى إذا قلت: إني وضعتُ الرُّمْحَ بين كتفيه، إذا هو قد صار حِزامًا لفرسه، ثم اتَّبعني، فَقَرع بالقناة رأسي، وقال: يا عَمْرو؛ خُذْها إليك واحدة، فوالله لولا أني أكره قتلَ مثلِك لقتلتُكَ؛ فتصاغرتْ إليّ نفسي، وكان الموتُ - والله يا أميرَ المؤمنين - أحبَّ إليَّ مما رأيت، فقلت: والله لا ينصرفُ إلا أحدُنا، فقال: اختر لنفسك؛ فقلت: أطرد لي.

فأطرد لي؛ فظننتُ أني قد تمكّنْتُ منه، واتّبعته حتى إذا قلت: إني قد وضعتُ الرمح بين كتفيه؛ فإذا هو قد صار لَبَبًا[5] لفرسه، ثم اتبعني فقرع رأسي بالقَناة، وقال: يا عَمرو؛ خُذْها إليك ثانية. فتصاغرتُ إليّ نفسي؛ فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدُنا.

---

(١) الشهباء: علم على فرس.
(٢) اغرب: تنح.
(٣) ما نكلنا: ما جبنا.
(٤) أطردت الرجل: جعلته طريدًا لا يأمن.
(٥) اللبب: ما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل.

فقال: اختَرْ لنفسك. فقلت: أطْرِد لي. فَأَطْرَدَ حتى إذا قلت: إني وضعتُ الرمْحَ بين كتفيه وثب عن فرسه؛ فإذا هو على الأرض؛ فأخطأتُه ومضَيت. فاستوى على فرسه، واتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال: يا عمرو؛ خذها إليك ثالثة. ولولا أني أكره قَتْل مثلك لقتلتُك.

فقلت له: اقتُلني، فإن الموت أحبّ إليّ مما أرى بنفسي، وأن تسمع فتيان العرب بهذا. فقال: يا عمرو؛ إنما العفو ثلاث، وإني إن استمكنت منك الرابعة قتلتك وأنشأ يقول:

وكَّـذت أغـلاظًـا مـن الأيـمـانِ   إن عُذت يا عمرو إلى الطِّعَانِ
لـتـوجـرَنَّ[1] لَهَـبَ الـسِّـنَـان[2]   أوْلَا، فلستُ من بني شيبانِ!

فلما قال هذا كرهتُ الموت، وهِبْتهُ هيبةً شديدة، وقلت: إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قلت: أكون لك صاحبًا، ورضيتُ بذلك يا أمير المؤمنين! قال: لستَ من أصحابي. فكان ذلك والله أشدَّ عليَّ وأعظمَ مما صنع.

فلم أزَلْ أطلبُ إليه حتى قال: ويحك! وهل تدري أين أريد؟ قلت: لا. قال: أريدُ الموت عيَانًا. فقلت: رضيتُ بالموت معك. فقال: امْضِ بنا؛ فسِرْنَا جميعَ يومنا وليلتنا حتى جنّنا الليل، وذهب شَطْرُه.

فوردنا على حيّ من أحياء العرب، فقال لي: يا عَمْرو، في هذا الحي الموت. ثم أومأ إلى قُبّة في الحي، فقال: وفي تلك القُبّةِ الموتُ الأحمر؛ فإما أن تمْسك عليَّ فرسي؛ فأنزل، فآتي بحاجتي، وإما أنْ أُمسِكَ عليك فرسك؛ فتنزل فتأتي بحاجتي. فقلت: لا. بل انزل أنت؛ فأنت أعرفُ بموضع حاجتك؛ فرمى إليَّ بعِنان الفرس ونزل، فرضيتُ لنفسي يا أمير المؤمنين أن أكون له سائسًا.

ثم مضى حتى دخل القُبَّة؛ فاستخرج منها جارية، لم ترى عيناي قط مثلَها حسنًا وجمالًا؛ فحملها على ناقة، ثم قال: يا عَمْرو. قلت: لبيك! قال: عليك بزِمَامِ الناقة.

وسرنا بين يديه، وهو خَلْفَنَا حتى أصبحنا، فقال لي: يا عَمْرو. قلت: لبّيك! ما تشاء؟ قال: التفِتْ، فانظر هل ترى أحدًا؟ فالتفتُّ، وقلت: أرى جمالًا،

(١) أوجره الرمح: طعنه به في فيّه.   (٢) السنان: طرف الرمح.

قال: أغذّ السير[١]، ثم قال لي: يا عَمْرو. قلت: لبّيك! قال: انظر، فإن كان القوم قليلًا، فالجلد والقوة والموت. وإن كانوا كثيرًا فليسوا بشيء. فالتفتّ، فقلت: هم أربعة أو خمسة. قال: أغِذَّ السير، وسمع وَقْعَ الخيل؛ فقال لي: يا عَمْرو، قلت: لبَّيك! قال: كُنْ على يمين الطريق، وقِفْ، وحوّل وجوه دوابّنا إلى الطريق؛ ففعلت، ووقفت على يمين الرّاحلة ووقف هو عن يَسَارِها.

ودنا القومُ منا؛ فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ، وهو أبو الجارية وأخواها وهما غلامان شابان؛ فسلّموا فرددنا السلام، ووقفوا عن يسار الطريق.

فقال الشيخ: خلِّ عن الجارية يا ابنَ أخي؛ فقال: ما كنت لأُخَلِّيها، ولا لهذا أخذتُها! فقال لأصْغَرِ ابنيه: اخرج إليه؛ فخرج وهو يَجُرُّ رمحه، وحمل عليه الحارث، وهو يقول:

مِنْ دُونِ ما تَرْجُوه خَضْبُ الذابل[٢]   من فارس مُسْتَلْئِم[٣] مقاتل،
يُنْمي إلى شَيْبانَ خيرِ وائلِ   ما كان سَيْرِي نحوها بباطِلِ!

ثم شدَّ عليه؛ فطعنه طعْنَةً، دقّ منها صلبه؛ فسقط ميتًا.

فقال الشيخ لابنه الآخر: اخرج إليه يا بني، فلا خيرَ في الحياة على الذل، فخرج إليه وأقبل الحارث يقول:

لقد رأيتَ كيف كانت طعنتي!   والطعْنُ للقِرْن الشديد هِمّتي
والموتُ خير من فراقِ خُلّتي   فقَتْلتي اليوم ولا مَذلّتي!

ثم شدّ عليه، فطعنه طعنةً، سقط منها ميتًا.

فقال له الشيخ: خلِّ عن الظّعينة[٤] يا ابن أخي؛ فإني لستُ كمن رأيتَ. قال: ما كنت لأخلّيَها ولا لهذا قصدت. فقال له الشيخ: اختَرْ يا ابن أخي، فإن شئت طاردتك، وإن شئت نازلتك؛ فاغتنمها الفتى ونزل. ونزل الشيخ، وهو يقول:

ما أَرْتَجِي بعد فناءِ عُمْرِي؟   سأجعل السّنينَ مثل الشهر

---

(١) أغذ السير: أسرع فيه.
(٢) الذابل: القنا الرقيق، ويقصد بخصبه غمسه في الدم.
(٣) استلأم الفارس: لبس اللأمة؛ وهي الدرع. (٤) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج.

شيخٌ يحامي دون بيضِ الخِدْر[١] إنَّ استباحَ البِيض قَصْمُ الظَّهر
سوف ترى كيف يكونُ صَبْري

فأقبل الحارث، وهو يقول:

بعد ارْتِحالي وطويلِ سَفْرِي وقد ظفِرتُ وشفَيْتُ صَدْرِي
والموتُ خيرٌ من لباسِ الغَدْرِ والعار أُهْديه لحَيٍّ بكر

ثم دنا، فقال له الشيخ: يا ابْنَ أخي؛ إن شئت نازلتك، وإن بقيت فيك قوة ضربتني؛ وإن شئت فاضربني؛ فإنْ بقيت فيّ قوة ضربْتُك.

فاغتنمها الفتى، فقال: وأنا أبدؤك. قال: هات. فرفع الحارثُ السيفَ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه، ضرب بطنه ضربةً فقدَّ مِعَاه، ووقعت ضربةُ الحارث في رأسه؛ فسقطا ميتين.

فأخذتُ يا أمير المؤمنين أربعة أفراس، وأربعة أسياف. ثم أقبلت إلى الناقة فعقدتُ أعنّة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودُها. فقالت الجارية: يا عمرو؛ إلى أين؟ ولست لي بصاحب، ولستَ كمن رأيت، ولو كنت صاحبي لسلكت سبيلهم! فقلت: اسكتي؛ قالت: فإن كنتَ صادقًا فأعطني سيفًا ورمحًا؛ فإن غلبتَني فأنا لَكَ، وإن غلبتُك قتلتُك.

فقلت لها: ما أنا بمعطيك ذلك، وقد عرفت أصلك، وجُرأةَ قومك وشجاعتهم، فرمَتْ بنفسها عن البعير، وهي تقول:

أَبَعْدَ ما شَيْخِي وبَعْدَ إخْوتي أطلبُ عيشًا بعدهم في لذّةِ؟
هَلْ لا تكُونُ قبل ذَا مَنِيّتي؟

وأهوتْ إلى الرُّمح، فكادت تنتزعُه من يدي. فلما رأيت ذلك خفْتُ إن هي ظَفرت بي أَنْ تقتلني، فقتلتُها.

فهذا أشدُّ ما رأيته يا أمير المؤمنين. فقال عمر بن الخطاب: صدقت يا عمرو!

(١) بيض الخدر: يريد به النساء.

خَلِّ سَبيلَ الحُرَّةِ المنِيعَة[١]

خرج دُرَيدُ[٢] بن الصِّمَّة في فوارس بني جُشَم يريد الغارةَ على بني كِنانة، فلما كان بِوادٍ لبني كنانة رُفِع له رجلٌ من ناحية الوادي معه ظَعينة[٣]. فلما نظر إليه قال لفارسٍ من أصحابه: صِحْ به أن خلِّ عن الظغينة وانجُ بنفسك - وهو لا يعرفه - فانتهى إليه الرجل وألَحّ عليه؛ فلما أبى ألقى زمام الراحلة، وقال للظعينة:

سيري على رِسْلِكِ سيرَ الآمنِ   سَيْرَ رَدَاحٍ[٤] ذاتِ جأش ساكِن
إنّ انْثِنَائي دون قِرْني[٥] شائني[٦]   أَبْلِي بلائي واخبُرِي وعايِنِي

ثم حمل على الفارس فصرَعه، وأخذ فرسه فأعطاه الظَّعينة. فبعث دُريد فارسًا آخر لينظرَ ما صنع صاحبُه؛ فرآه صريعًا، فصاح به، فتصامَّ عنه فظنّ أنه لم يسمع فغَشِيَه، فألْقَى زمام الراحلة إلى الظعينة! ثم حمل على الفارس فصرعه، وهو يقول:

خَلِّ سبيلَ الحُرَّةِ المَنِيعَهْ   إنكَ لاقٍ دونها رَبيعَه
في كفِّه خَطِّيّة[٧] مُطِيعَه   أوْلَا فَخُذْها طعنةً سَرِيعَه
فالطعنُ مِنِّي في الوَغَى شَرِيعَه

ثم حمل عليه فصرعه.

فلما أبطأ على دُريد بعثَ فارسًا آخر؛ لينظُرَ ما صنعا، فانتهى إليهما، فرآهما صَريعين، ونظر إليه يَقُود ظعينَته، ويجرُّ رُمْحَ، فقال له الفارس: خلّ عن الظعينة. فقال لها ربيعة: اقصدي قَصْدَ البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ماذا تريد من شَتِيم[٨] عابس   ألم ترَ الفارِسَ بَعْدَ الفارس
أرْدَاهما عاملُ رُمْحٍ يابسِ

(١) الأغاني: ٤ - ١٢٩، الأمالي: ٢ - ٢٧١، السمط: ٢ - ٩١٠، العقد الفريد: ٣ - ٣٢٤.
(٢) دريد بن الصمة: سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، كان مظفرًا ميمون النقيبة، غزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها، وأدرك الإسلام ولم يسلم. توفي سنة ٨ هـ.
(٣) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج.
(٤) امرأة رداح: عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق.
(٥) القرن: الكفء.   (٦) شائني: يعيبني.
(٧) يريد رمحًا، والرماح تنسب إلى الخط، ثغر بالبحرين.
(٨) الشتيم: الأسد العابس.

ثم طعنه فصرعه، فانكسر رمحه.

فارتاب دُريد، وظنَّ أنهم قد أخذوا الظعينةَ وقتلوا الرجل، فلحق بهم فوجد ربيعة[١] بن مكدّم لا رُمح معه وقد دنا من الحيّ، ووجد أصحابه قد قُتِلُوا، فقال له دريد: أيُّها الفارس؛ إن مثلك لَا يُقْتل، وإن الخيلَ ثائرةٌ بأصحابها، ولا أرى معك رُمحًا، وأراكَ حديثَ السنّ فدونك هذا الرمح، فإني راجعٌ إلى أصحابي، فمثبِّطهم عنك.

فأتى دريدٌ أصحابه، فقال: إن فارسَ الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم وانتزع رُمحي ولا طمعَ لكم فيه؛ فانصرف القوم، وقال دريد:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... حامي الظعينةِ فارسًا لم يُقْتَل
أرْدَى فوارسَ لم يكونوا نُهْزَة[٢] ... ثم استَمَرَّ كأنه لم يَفْعَل
متهلّلًا تَبْدُو أسِرَّةُ وَجْهِه ... مثل الحُسامِ جَلَتْهُ أَيْدِي الصَّيْقَل[٣]
يُزْجي ظعينتَه ويسحبُ رُمحه ... متوجّهًا يمناه نحوَ المنزل
وترى الفوارِسَ من مخافةِ رُمحِه ... مثلَ البُغاث[٤] خَشِينَ وَقْعَ الأجْدَل[٥]
يا ليت شِعْري مَنْ أبوه وأُمُّه؟ ... يا صاحِ مَن يكُ مثلَه لا يُجْهَل

فقال ربيعة:

إن كان يَنْفَعُك اليقينُ فسَائِلي ... عَنِّي الظعينةَ يَوْمَ وادي الأخْرَم
إذ هِي لأوَلِ مَنْ أتاها نهزةٌ ... لولا طِعَانُ ربيعةَ بن مُكَدَّم
إذْ قال لي أدْنَى الفوارسِ مِيتَةً: ... خَلِّ الظَّعينةَ طائعًا لا تَنْدَم
فصرفتُ راحلة الظعينةِ نحوه ... عَمْدًا ليعلمَ بعضَ ما لم يعلم
وهتكتُ بالرمحِ الطويلِ إهابَه[٦] ... فهوى صريعًا لليدين وللفم
ومنحتُ آخَرَ بعده جيّاشةً ... نجلاءَ فاغرةً كشِدْقِ الأضْجَم[٧]
ولقد شفَعْتُهما بآخر ثالثٍ ... وأبَى الفِرارَ لِيَ الغَداةَ تكرُّمِي

---

(١) ربيعة بن مكدم: هو أحد فرسان مضر المعدودين، وشجعانهم المشهورين. توفي سنة ٥٥٨ م.
(٢) النهزة: الشيء الذي هو لك معرض كالغنيمة، يقال: فلان نهزة المختلس، أي صيد لكل أحد.
(٣) الصيقل: جلاء السيوف وشحاذها. (٤) البغاث: طائر أغبر.
(٥) الأجدل: الصقر. (٦) إهابه: جلده.
(٧) الضجم: عوج في الفم، وميل الشدق. ويشبه الجرح الواسع بالفم الأضجم.

ثم لم يلبث بعد ذلك بنو مالك بن كنانة رهط ربيعةَ بن مُكَدَّم أنْ أغارُوا على بني جُشَم رهطِ دريد، ففتكوا وأَسَرُوا وغنموا، وأسروا دُرَيد بن الصمة، فأخفى نسبَه، فبينا هو عندهم إذا جاء نسوة يتهادَيْنَ إليه، فصرخَتْ امرأةٌ منهن فقالت: هلكتم وأهلكتم، ماذا جرَّ علينا قومُنا؟ هذا والله الذي أعطى ربيعةَ رُمْحَهُ يومَ الظعينة، ثم ألقتْ عليه ثوبها وقالت: يا آلِ فراسٍ، أنا جارةٌ له منكم، هذا صاحِبُنَا يوم الوادي، فسألوه: مَن هو؟ فقال: أنا دُريد بن الصِّمَّة، فما فعل ربيعة بن مُكدَّم؟ قالوا: قتلته بنو سُلَيم، قال: فمن الظعينة التي كانت معه؟ قالت المرأة: رَيْطَة بنتُ جِذْل وأنا هي، فحبسه القوم، وآمروا أنفسهم[1] وقالوا: لا ينبغي أن تُكْفَرَ نعمةُ دريد عندنا، وقال بعضهم: والله لا يخرجُ من أيدينا إلا برضا المُخَارق الذي أسره. فانْبَعَثَتِ المرأة في الليل فقالت:

سنَجْزي دُرَيدًا عن ربيعةَ نِعْمةً ... وكلُّ فتًى يُجْزَى بما كان قَدَّما
فإن كان خيرًا كان خيرًا جزاؤُه ... وإنْ كان شرًّا كان شرًّا مذممًّا
سَنَجْزيه نُعْمَى لم تكن بصغيرةٍ ... بإعطائه الرُّمْحَ السديد المقَوَّمَا
فقد أدركتْ كفَّاه فينا جَزاءه ... وَأَهْلٌ بأن يُجْزَى الذي كان أَنْعَمَا
فلا تكفروه حقَّ نُعْمَاهُ فيكمُ ... ولا تركبوا تلكَ الذي تَمْلأُ الفَمَا
فإنْ كان حيًا لم يَضِقْ بثوابهِ ... ذِرَاعًا غنيًّا كان أو كان مُعْدِما
فَفُكُّوا دُرَيدًا من إسَار مخارقٍ ... ولا تجعلوا البُؤْسَى إلى الشرِّ سُلَّمَا

فأصبح القوم، فتعاونوا بينهم فأطلقوه، وكسَتْهُ رَيْطة وجهَّزته، ولحق بقومه، ولم يزل كافًا عن غزْوِ بني فِرَاسٍ حتى هَلَك.

كأن لم يكُن بَيْنَ الحَجُونِ إلى الصَّفَا
أنيسٌ وَلَم يَسمُر بمكة سَامِرُ[2]

حدّث بعضُ أهل العلم، أن سيْلًا جاء فدخَلَ البيت فانْهَدَمَ، فأعادته جُرْهم على بناء إبراهيم، ثم استخفّت جرهم بحقِّ البيت، وارتكبوا فيه أمورًا عِظامًا، وأحدثوا فيه أحداثًا قبيحة، وكانت للبيت خِزَانة، وهي بئر في بطنه يلقى فيها المتاع الذي يُهدى له، وهو يومئذٍ لا سَقْفَ عليه، فتَوَاعد خمسة من جُرهم أن يسرقوا

(١) آمروا أنفسهم: تشاورا.
(٢) الأغاني: ١٣ ـ ١٠٤.

كلَّ ما فيها، فقام على كل زاوية من البيت رجلٌ منهم، واقتحم الخامس، فجعل الله عزّ وجلّ أعلاه أسفله، وسقط منكّسًا فهلك، وفرّ الأربعة الآخرون.

فلما كثر بغْيُ جُرْهم بمكة قام فيهم مُضاض بن عمرو فقال: يا قوم؛ احذروا البَغْيَ فإنه لا بقاء لأهله، وقد رأيتم مَنْ كان قبلكم من العماليق اسْتَخَفُّوا بالحَرَم، ولم يعظِّموه، وتنازعوا بينهم، واختلفوا حتى سلَّطكم الله عليهم فاجتحْتُموهم، فتفرقوا في البلاد، فلا تستخفوا بحق الحرَم وحرمةِ بيت الله، ولا تظلموا مَنْ دَخَله، وجاءه معظِّمًا لحرُماته، أو خائفًا ورغب في جواره، فإنكم إن فَعَلْتُمْ ذلكم تخوفتُ أن تخرجوا منه خروج ذُلٍّ وصَغار، حتى لا يقدر أحدٌ منكم أن يصل إلى الحَرم، ولا إلى زيارة البيت الذي هو لكم حِرْزٌ وأمْن، والطيرُ تأمَن فيه.

فقال قائل منهم: ومَن الذي يُخرجنا منه؟ ألسنا أعزَّ العرب وأكثر مالًا وسلاحًا! فقال مُضاض: إذا جاء الأمر بطل ما تَذْكرون، فقد رأيتم ما صنع الله بالعماليق... بَغَتْ في الحرم فسلَّط الله عليهم الذَّرَّ[1] فأخرجهم منه، ثم رُمُوا بالجَذْب من خلفهم حتى ردّهم الله إلى مساقط رؤوسهم. ثم أرسَلَ عليهم الطوفان.

فلما رأى مُضاض بن عمرو بَغْيَهم ومقامهم عليه عمِد إلى كنوز الكعبة وهي غَزَالان من ذهب، وأسياف قَلَعيّة[2] فحفر لَهَا ليلًا في موضع زمزم ودفنها.

فبينا هُمْ على ذلك إذْ سارت القبائل من أهل مَأْرِب، وعليهم مُزيقياء، وهو عَمْرو بن عامر، فلما انتَهوْا إلى مكة وأهلِها أرسل إليهم ابنَه ثعلبة فقال لهم: يا قوم؛ إنا قد خرجنا من بلادنا، فلم ننزل بلدة إلا أفسح أهلُها لنا، فنقيم معهم حتى نرسل رُوَّادًا فيرتادُوا لنا بلدًا يحملنا. فأفسِحُوا لنا في بلادكم حتى نقيمَ قَدْر ما نستريح، ونرسلَ رُوّادًا إلى الشام وإلى الشرق فحيثما بلغنا أنه أمْثل لَحِقْنا به، وأرجو أن يكون مقامنا معكم يسيرًا.

فأَبَتْ ذلك جُرْهم إباءِ شديدًا؛ واستكبروا في أنفسهم، وقالوا: لا والله، ما نحبُّ أن ينزلوا فيضيّقوا علينا مرابعَنا ومواردنا، فارْحَلُوا عنا حيث أحببتم، فلا حاجة لنا بجواركم.

---

(١) الذر: صغار النمل.

(٢) قلعية: نسبة إلى قلعة، وهي بلد بالهند، إليها ينسب الرصاص والسيوف.

فأرسل إليهم: أنه لا بد من المقام بهذا البلد حولًا حتى ترجعَ إليّ رُسُلِي التي أرسلت، فإن أنزلتموني طَوْعًا نزلت وحمدتُكم وآسَيْتُكم[١] في الرغْي والماء، وإن أبيتُم أقمت على كُرْهِكم، ثم لم ترتعوا معي إلا فضلًا، ولا تشربوا إلا رَنْقًا[٢]، وإن قاتلتموني قاتلتكم، ثم إن ظهَرْتُ عليكم سبَيتُ النّساء، وقتلتُ الرجال، ولم أترك منكم أحَدًا ينزل الحرَم أبدًا.

فأَبَتْ جُرهم أن تُنْزِله طوعًا، وتهيَّأَتْ لقتاله، فاقتتلوا ثلاثة أيام أُفرِع عليهم فيها الصبر، ومُنِعُوا النصر، ثم انهزمت جُرْهم، فلم يُفلت منهم إلا الشديد، وكان لمُضَاض بن عمرو قد اعتزل حربهم، ولم يعنْهم في ذلك وقال: قد كنت أحذِّركم هذا.

ثم رحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قَنَوْني[٣] وما حوله.

فلما حازت خُزاعة أمر مكة، وصاروا أهلها جاءهم بنو إسماعيل - وقد كانوا اعتزلوا حرب جُرْهم وخُزاعة، فلم يدخلوا في ذلك - فسألوهم السُّكْنى معهم وحولهم، فأذِنوا لهم، فلما رأى ذلك مُضَاض - وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة أمر عظيم - أرسل إلى خُزاعة يَستَأْمِنها، ومَتَّ إليهم برأْيه وتَوْريعه[٤] قومَه عن القتال، وسوء العِشْرة في الحرم، واعتزاله الحرب، فأَبَتْ خُزاعة أن يُقِرُّوهم ونَفَوْهم عن الحرم وقالوا: مَن دخله منهم فدمُه هَدر[٥].

فنزعت بل لمضاض من قَتَوْنَى تريد مكة، فخرج في طلبها حتى وجدها قد دخلتْ مكة، فمضى إلى الجبال نحو أَجْيَاد حتى ظهر على أبي قُبَيْس يتبصَّر الإبل في بطن وادي مكة، فأبصر الإبل تُنْحَر وتؤكل لا سبيل له إليها، فخاف إن هبط الوادي أن يُقْتَل، فولّى منصرفًا إلى أهله وأنشأ يقول:

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصّفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكةَ سامرُ
ولم يتربّعْ واسطًا فجنوبَه ... إلى المنحنَى من ذي الأراكة حاضرُ
بل نحنُ كنَّا أهلَها فأبادَنا ... صروفُ الليالي والجدودُ[٦] العواثِرُ

---

(١) آسيتكم: شاركتكم.
(٢) الرنق: الكدر من الماء.
(٣) قنوني: واد يصب في البحر في أوائل أرض اليمن.
(٤) التوريع: الكف عن الشيء.
(٥) أي باطل ليس فيه قود.
(٦) الجدود: الحظوظ.

وأبـدلـنـا رَبِّـي بـهـا دارَ غُـرْبـةٍ ... بها الذئبُ يعوِي والعدوُّ المُخَامِرُ
أقـول إذا نـام الـخـليُّ ولـم أَنَـمْ ... إذَا العرشِ لا يَبْعد سهيلٌ وعامِرُ[١]
وبُدِّلتُ منهم أَوْجَهًا لا أريدها ... وحِميرُ قد بدّلتها واليُحابِرُ[٢]
فهل فرجٌ آتٍ بشيء تحبُّه ... وهل جزع منجيك مما تحاذِرُ!

مقتَل كلَيب[٣]

كان كُلَيب[٤] قد عزَّ وساد في رَبيعة؛ فبَغى بَغْيًا شديدًا، وكان هو الذي يُنزلهم منازلَهُمْ ويرحِّلُهم، ولا ينزلون ولا يرحلُون إلّا بأمره، فضرب به المثلُ في العِزّ؛ فقيل: أَعَزُّ من كليبِ وائل! وكان لا يُجير أحدٌ من بكر وتَغْلِب إلا بإذنه، ولا يُحْمَى حمًى إلا بأمْره، وكان إذا حَمَى حمًى لا يُقْرب.

وكان لمُرَّة بن ذُهل بن شيبان عشرة بنين، جسَّاس أصغرهم، وكانت أختهم عند كليب.

وكان لجساس[٥] خالة تُعرف بالبَسُوس؛ فجاءت فنزلت على ابن أختها جسّاس، فكانت جارةً لبني مرة، ومعها ابنٌ لها، ولها ناقة خَوَّارة[٦]، ومعها فَصِيل، فرأى كُلَيب الناقة فأنكرها، فقال: لمن هذه؟ قالوا: لخالَةِ جسّاس، قال: أَوَقَدْ بلَغَ من أمر ابن السَّعْدِية أن يُجِيرَ عليَّ بغير إذني! ازمِ ضَرْعها يا غُلام، فأخذ القوسَ فرمى ضَرْع الناقة، فاختلط دَمها بلبنها.

وراحت الرُّعاة على جسَّاس فأخبره بالأمر، فقال: احلبوا لها مِكْيالَيْ لبن، ولا تذكروا لها من هذا شيئًا.

وسكت جَسّاس ثم مَرَّت بَكْرٌ على نِهْيٍ[٧] يقال له: شُبَيْث، فنفاهم كليب عنه، وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على نِهْيٍ آخر يقال له: الأحص،

---

(١) أذا العرش: أي ياذا العرش. (٢) يحابر: اسم قبيلة.
(٣) الأغاني: ٥ ـ ٣٤، الأمثال: ١ ـ ٣٤١، العقد الفريد: ٣ ـ ٣٤٨، نهاية الأرب: ٥ ـ ٢١٤، الكامل لابن الأثير: ١ ـ ٣١٢.
(٤) كليب بن ربيعة، سيد الحيين: بكر وتغلب في الجاهلية، ومن الشجعان الأبطال وقتل نحو سنة ١٣٥ ق.هـ.
(٥) جساس بن مرة من بني بكر بن وائل، شجاع شاعر من أمراء العرب في الجاهلية، وقتل في أواخر الحرب نحو ٨٥ ق.هـ.
(٦) ناقة خوارة: رقيقة حسنة. (٧) النهي: الغدير.

فنفاهم عنه، ثم مروا على بَطْن الجُرَيب[١] فمنعهم إياه، حتى نزلوا الذَّنائب[٢]، وتبعهم كليبٌ وحيه حتى نزلوا عليه.

ثم مرّ عليه جساس وهو واقف على غَدير الذَّنائب، فقال: طردتَ أهلنا عن المياه حتى كِدْتَ تقتلُهم عطشًا! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلّا ونحنُ له شاغلون. فقال له جسّاس: هذا كفعلك بناقةِ خَالتي! فقال له: أَوَقَدْ ذكرتَها! أما إني لو وجدتُها في غير إبلِ مُرّة لاستحللتُ تلك الإبلَ بها!

فعطف عليه جسّاسٌ فرسه، فطعنه برُمْح فأَنْفَذ حِضْنَيه[٣]، فلما تَدَاءَمه[٤] الموتُ قال: يا جسّاسُ؛ اسقِني من الماء، قال: ما عَقَلْتَ استسقاءَك الماء منذ وَلَدَتْك أمُّك إلّا ساعتَك هذه! ثم أمال يدَه بالفرس حتى انتهى إلى أَهْله.

فقالت أختُه ـ حين رأَتْه ـ لأبيها: إن ذا جَسّاسٌ؛ أني خارجةٌ رُكْبتاه، قال: واللهِ ما خَرَجَتْ ركبتاه إلّا لأمرٍ عظيم.

فلما جاء قال: ما وراءك يا بني؟ قال: ورائي أنّى قد طعنتُ طَعْنَة لتُشْغَلَنَّ بها شيوخُ وائل زمنًا؟ قال: أَقَتلتَ كليبًا؟ قال: نعم! قال: ودِدْتُ أنك وإخوتَك كنتم مُتُّم قبل هذا، ما بي إلا أن تَتَشاءَم بي أبناء وائل! فقال جساس:

تأَهَبْ عنك أُهْبةَ ذي امتناعِ ... فإنَّ الأمْر جَلَّ عن التَّلَاحِي[٥]
فإني قد جنيتُ عليك حربًا ... تُغِصّ الشيخ بالماء القَرَاح

فأجابه أبوه:

فإنْ تكُ قد جنيتَ عليَّ حربًا ... فلا وانٍ ولا رثّ السلاح
سألبَسُ ثوبها وأذُبُّ عنّي ... بها يوم المذلّة والفِضَاحِ[٦]

وكان هَمّام[٧] بن مُرْةَ آخى مهلهلًا[٨] وعاقدَه ألّا يكتمه شيئًا، فجاءت أمَةٌ له فأسرّت إليه قتلَ جساس كليبًا، فقال له مهلهل: ما قالت؟ فلم يخبره، فذكره العهد بينهما، فقال: أخبرتني أن جساسًا قَتل كُليبًا، فلم يصدق مهلهل الخبر.

---

(١) الجريب: واد عظيم.
(٢) الذنائب: موضع بنجد.
(٣) الحضن: ما دون الإبط إلى الكشح.
(٤) تداءمه الأمر: تراكم عليه.
(٥) التلاحي: المنازعة.
(٦) فضحه: كشف مساوئه، والاسم الفضاح، وفي الأغاني: إن هذا الشعر لأخيه نضلة.
(٧) همام: أخو جساس.
(٨) مهلهل: أخو كليب.

واجتمع نساء الحي للمأتم، فقلن لأخت كليب: رحِّلي جليلة - زوج كليب وأخت جساس - عن مأتمك؛ فإن قيامَها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب، فقالت لها: يا هذه؛ اخرُجي عن مأتمنا؛ فأنتِ أختُ واترنا وشقيقةُ قاتلنا. فخرجت وهي تجرُّ أعطافها، فلقيها أبوها مُرّة فقال: ما وراءك يا جليلة؟ فقالت: ثُكْلُ العدد وحزنُ الأبد، وفقد خليل، وقتل أخٍ عن قليل، وبين ذَيْن غَرْسُ الأحقاد، وتفتُّت الأكباد. فقال لها: أو يكفُّ ذلك كَرَمُ الصفح وإغلاءُ الدِّيات؟ فقالت جليلة: أُمنية مخدوعٍ ورب الكعبة! أبا لبُدْنِ[1] تَدَعُ لك تَغْلِبُ دمَ ربها!.

ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب: رِحْلةُ المعتدي، وفراق الشامت! ويلٌ غدًا لآل مرّة، من الكرَّة بعد الكرّة، فبلغ قولها جليلة، فقالت: وكيف تشمَت الحرة بهَتْكِ سِترِها وتَرَقُّبِ وِترها! أسعد الله جدَّ أختي، أفلا قالت: نفرة الحياءُ، وخوف الاعتداء! ثم أَنْشَأَتْ تقول:

يـا ابـنـةَ الأقـوام إن شـئـتِ فَـلَا ... تـعْـجَـلِي بـالـلَّوْم حتـى تَـسـألـي
فـإذا أنـت تَـبَـيَّـنْـتِ الـذي ... يُـوجِـبُ الـلَّوْمَ فَـلُومِـي واعـذُلـي
إن تكن أُختُ امْرِىءٍ لِيمتْ عَلَى ... شَـفَـقٍ مِـنـهـا عِـلَـيْـهِ فـافْـعـلِي
جَلَّ عِـنـدِي فـعـلُ جَـسَّـاسٍ فـيـا ... حَسْرَتي عما انْجَلَتْ أو تَنْجَلِي
فـعـلُ جَـسَّـاسٍ عـلـى وَجْـدِي بِـه ... قَـاطَـعٌ ظَـهْـري ومُـدْنٍ أَجـلِـي
لـو بـعـيـنٍ فُـقِـئَـتْ عـيـنـي سـوى ... أخـتِـهـا فـانْـفَـقَـأَتْ لـم أَحْـفـلِ
تـحـمـل الـعـينُ قَـذَى الـعـين كـمـا ... تـحـمـل الأمُّ أذى مـا تَـفْـتِـلي[2]
يـا قـتـيـلًا قـوَّض الـدَّهـرُ بـه ... سَقْـفَ بيـتيَّ جـمـيـعًـا من عَـلِ
هـدمَ الـبـيـتَ الـذي اسـتـحـدثُـته ... وانـثـنـى فـي هـدم بـيـتـي الأوّلِ
ورمـانـي قـتـلُه مـن كَـثَـبٍ[3] ... رميةَ المُصْمى[4] به المُسْتَأصِلِ
يـا نـسـائـي دونـكـنَ الـيـوم قـدْ ... خَـصَّـنـي الـدهـر بِـرُزْءٍ مُـعـضـلِ
خـصَّـنـي قـتـلُ كـلـيـب بـلظَـى ... مـن ورائِي ولَظَـى مُـسْـتَـقـبـلِي
لـيـس مَـنْ يـبكـي لـيـومـين كـمـن ... إنـمـا يـبـكـي لـيـوم يَـنْـجَـلِي

---

(١) المراد الإبل.

(٢) تفتلي: تربي.

(٣) كثب: قرب.

(٤) أصماه: قتله في مكانه.

يَشْتَفِي المدرِكُ بالثَّأر وفي   دَركي ثأريَ ثُكْلُ المُثْكل[١]
ليته كان دَمِي فاحتلبوا   بَدَلًا منه دمًا من أَكْحَلي[٢]
إنني قاتلة مقتولة   ولعل الله أن يرتاحَ لي!

ثم قال بنو تَغلِب بعضهم لبعض: لا تَعْجَلوا على إخوتكم حتى تُعْذِروا[٣] بَيْنَكم وبينهم، فانْطلق رَهْطٌ من أشرافهم وذوي أسْنانهم حتى أتوا مُرّة بن ذُهْل، فعظّموا ما بينهم وبينه وقالوا: اخْتَرْ منّا خِصَالًا: إما أنْ تَدْفَع إلينا جَسَّاسًا فنقتلَه لصاحبنا؛ فلم يَظْلِمْ من قتل قاتلَه، وإما أن تَدْفع إلينا هَمَّامًا، وإما أن تُقِيدَنا من نَفْسك.

فسكت وقد حضرتْه وجوهُ بني بكر بن وائل، فقالوا: تكلمْ غيرَ مَخْذول، فقال: أمّا جساس فغلامٌ حديثُ السنّ ركب رأسه، فهرب حين خاف، فلا عِلْمَ لي به؛ وأما هَمّامٌ فأبو عشرة، وأخو عشرة، ولو دفعتُه إليكم لصيّح[٤] بنوه في وجهي، وقالوا: دفعت أبانا لِلْقتل بجريرة غَيْره؟ وأما أنا فلا أتعجّل الموت، وهل تزيدُ الخيل على أن تجولَ جَوْلَةً فأكون أولَ قتيل.

ولكن هل لكم في غير ذلك؟ هؤلاء بَنِيَّ، فذونَكم أحدَهم فاقتلوه به، وإن شئتم فلكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل، فغضبوا وقالوا: إنا لم نَأتك لتُرْذِلَ[٥] لنا بنيك، ولا لتسومَنا اللبن؛ فتفرقوا ووقعت الحرب.

الهِجْرس بن كلَيب يثأر لأبيهِ[٦]

ولدت جليلة زوج كليب غلامًا فسمته الهِجْرس، وربّاه خاله جسّاس، فكان لا يعرف أبًا غيره، وزوّجه ابنته. فوقع بين الهِجْرِس وبين رجل من بني بكر بن وائل كلامٌ؛ فقال له البكريّ: ما أنت بمُنْتَهٍ حتى نُلْحِقَكَ بأبيك! فأمسك عنه ودخل على أمه كئيبًا، فسألْته عما به، فأخْبَرَها الخبر.

فلما أَوَى إلى فراشه، ونام إلى جَنْب امرأته وضعَ أنفه بين ثديها، فتنفّسَ تَنفُّسةً تَنَفَّطَ[٧] ما بين ثديها من حرارتها، فقامت الجارية فَزِعةً، قد أَقَلّتها رِعْدةٌ

---

(١) المثكل: التي لازمها الحزن. (٢) الأكحل: عرق في الذراع يقصد.
(٣) تعذروا: أي تعملوا على ألا يكون بينكم وبينهم ما يوجب الاعتذار.
(٤) صيح: صاح. (٥) لترذل لنا بنيك: أي تعطينا رذال بنيك.
(٦) الأغاني ٥١ ـ ٦١. (٧) تنفط: قرح.

حتى دخلت على أبيها، فقصت عليه قصَّةَ الهجْرِس، فقال جسّاس: ثائرٌ وربِّ الكَعْبَة!

وبات جسّاسٌ على مثل الرَّضْف[١] حتى أصبح، فأرسل إلى الهِجْرِس فأتاه فقال له: إنما أنت ولدي ومنّي بالمكان الذي قد علمتَ، وقد زوّجتُك ابنتي، وأنت معي، وقد كانت الحربُ في أبيك زمانًا طويلًا حتى كدنا نتنافى، وقد اصطلحنا وتحاجَزْنا، وقد رأيتُ أن تدخلَ فيما دخل الناس فيه من الصلح، وأن تنطلق حتى نأخذَ عليك مثل ما أُخِذَ علينا وعلى قومنا.

فقال الهِجْرِس: أنا فاعل؛ ولكنّ مثلي لا يأتي قومه إلا بَلأمته وفرسه، فحمله جسّاس على فرسه وأعطاه لأَمَةً[٢] ودِرْعًا، فخرجا حتى أَتَيَا جماعةً من قومهما. فقصّ عليهم جسّاس ما كانوا فيه من البلاد وما صاروا إليه من العافية، ثم قال: وهذا الفتى ابن أختي قد جاء ليدخلَ فيما دخلتم فيه ويَعْقِدَ ما عقدتم. فلما قَرّبوا[٣] الدمَ، وقاموا إلى العَقْد أخذ الهجْرسُ بوسَط رُمحه، ثم قال: وفَرَسي وأُذُنَيْه، ورمحي ونَصْلَيْه، وسيفي وغَرَّيْه[٤]، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه، ثم طعن جسّاسًا فقتله، ولَحَق بقومه، فكان آخر قتيل في بكر بن وائل.

قرّبا مِربط النعَامة مني[٥]

لما قَتَلَ جساسٌ البكريّ كليبًا التغلَبيّ، وهاجت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل ـ وهي حَرْبُ البسوس ـ اعتزلهما الحارث بن عُبَاد[٦] وقال: هذا أمر لا ناقة لي فيه ولا جمل؛ فقال سعد بن مالك معرِّضًا به:

يـا بُـؤْسَ لـلحـربِ الـتـي وَضَعتْ[٧] أراهطَ فاستراحوا

---

(١) الرضف: الحجارة التي حميت بالشمس أو النار يسخن بها اللبن، واحدتها رضفة.

(٢) اللأمة: السلاح.

(٣) كان من عادة العرب أن يحضروا في جفنة طيبًا أو دمًا أو رمادًا فيدخلوا فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم باشتراكهم في شيء واحد.

(٤) غر السيف: حده، وكذلك غراره.

(٥) الأمثال: ١ ـ ٣٤١، العقد: ٣ ـ ٣٤٨، خزانة الأدب: ١ ـ ٤٢٣، الكامل لابن الأثير: ١ ـ ٣٢٣.

(٦) الحارث بن عباد: من بكر، حكيم جاهلي، كان شجاعًا من السادات، شاعرًا، وانتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب مات نحو سنة ٥٠ ق.هـ.

(٧) وضعت: حطت وأسقطت، وأراهط: جمع أرهط الذي هو جمع رهط، والرهط: عدد يجمع=

والـحـربُ لا يـبـقـى لـجَـا ... جِـمِـهـا[١] الـتَّـخَـيُّـلُ والـمِـرَاحُ
إلا الـفـتـى الـصَّـبّـار فـي ... الـنَّـجَـدَات والـفـرسُ الـوقـاحُ[٢]
بِـئْسَ الـخـلائـفُ بـعـدَنَـا ... أولادُ يَـشْـكُـرَ والـلقَـاحُ[٣]
مَـنْ صَـدَّ عـن نـيـرانـهـا ... فـأنـا ابـن قَـيْـسٍ لا بَـرَاحُ[٤]
الـمـوتُ غـايـتُـنـا فـلا ... قـصْـرٌ[٥] ولا عـنـه جِـمَـاحُ[٦]
وكـأنـمـا وِرْدُ الـمـنـيَّـ ... ـة عـنـدنـا مـاءٌ وراحُ

ولكن الحارثَ لم يحفل بذلك، وتُنحَّى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه، ولم يَزَل مُعْتَزِلًا، حتى إذا كان في آخر وقائعهم خرج ابنُ أخيه بُجَيْر[٧] بن عمرو بن عُبَاد في إثر إبلٍ له نَدَّتْ يَطْلبُها، فعرض له مُهَلْهل في جماعة يطلبون غِرَّةَ بكر بن وائل. فقال لمهلهل امرؤ القيس بنُ أبان ـ وكان من أشراف بني تغلب، وكان على مُقَدِّمَتهم زمانًا طويلًا: لا تفعل؛ فوالله لئن قتلته ليُقْتَلَن به منكم كَبْشٌ لا يُسْأَلُ عن خاله: من هو! وإياك أن تحقِرِ البغْيَ؛ فإنّ عاقبته وخيمة، وقد اعتزلنا عمُّهُ وأبوه وأهلُ بيته وقومه. فأبى مهلْهل إلا قَتْلَه، فطعنه بالرمح فقتله وقال: «بُؤْبِشِسْعِ نعْل كليب[٨]».

فبلغ فعلُ مهلهل عمَّ بُجَير ـ وكان من أحلم أهل زمانه، وأشدّهم بأسًا ـ فقال الحارث: نعم القتيل قتيل أصلحَ بين ابني وائل! فقيل له: إنما قتله بِشِسْع نعل كليب، فلم يقبلْ ذلك، وأرسل إلى مهلهل: إن كنتَ قتلت بجيرًا بكُلَيب، وانقطعت الحربُ بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسي بذلك. فأرسل إليه

= من ثلاثة إلى عشرة.

(١) جاحمها: مثبرها وموقدها، والتخيل: التكبر من الخيلاء، والمراح: النشاط والبطر، أي أن الحرب تكف خدة البطر النشيط، وهو تعريض بالحارث.

(٢) الصبار: مبالغة صابر، والنجدة: الشدة، والوقاح: الفرس الذي حافره صلب شديد.

(٣) أي إذا ذهبنا وبقيت يشكر وحنيفة فبئس الخلائف هم منا، لا يحمون حريمًا، ولا يأبون ضيمًا، وكانت بنو حنيفة تقلب: اللقاح لأنهم لم يدينوا لملك، وهو يذم الحيين لقعودهما عن بكر في حروبهم.

(٤) لا براح: لا ريب.

(٥) القصر: الحبس.

(٦) الجماح: الهروب.

(٧) قيل: هو ابن الحارث.

(٨) يقال: أبأت فلانًا بفلان فباء به: إذا قتلته به، ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثاني كفء له، والشسع: السير الذي يدخل بين الإصبعين.

مهلهل: إنما قتلته بِشِسْع نعل كليب! فغضب الحارث، ودعا بفرسه ـ وكانت تسمى النعامة ـ فجزَّ ناصيتها. وهَلَب[١] ذَنَبَهَا، وقال:

قرِّبا مِرْبط[٢] النعامة مني — لقِحتْ[٣] حربُ وائل عن حِيالِ
لا بجيرٌ أغنى قتيلًا ولا رهـ — ـطُ كليب تَزَاجَرُوا عن ضَلال
لم أكن من جُناتها علم اللّـ — ـهُ وإني بحرّها اليومَ صالِي
قرِّبا مِرَبط النعامة منّي — إنَّ قَتْل الغُلَامِ بالشِّسْع غالي

ثم ارتحلَ الحارثُ مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل، وعليهم يومئذٍ الحارثُ بن همام بن مرّة، فقال الحارث بن عُباد له: إنّ القوم مستقلون قومك، وذلك زادهم جراءة عليكم، فقاتِلْهم بالنساء، قال له الحارث بن همام: وكيف قتالُ النساء! قال: قلِّد كل امرأة إدَاوةً من ماء؛ وأَعْطِها هِراوة؛ واجعل جمعهنّ من ورائكم؛ فإنّ ذلك يزيدكم اجتهادًا؛ وعلِّموا أنفسكم بعلامات يَعْرِفْنها؛ فإذا مرّت امرأة على صريع منكم عرفَتْه بعلامته، فسقته من الماء ونَعَشَتْهُ، وإذا مرّت على رجل من غيركم ضربته بالهِرَاوة فقتلته، وأتتْ عليه.

فأطاعوه، وحلقت بنو بكر يومئذٍ رؤوسها استِبْسَالًا للموت، وجعلوا ذلك علامةً بينهم وبين نسائهم، واقتتل الفُرسان قتالًا شديدًا، وانهزمت بنو تغلب، ولحقت بالظُّعُن بقية يومها وليلتها، وأتْبَعهم سَرَعان[٤] بكر بن وائل، وتخلف الحارث بن عباد، فقال لسعد بن مالك: أتراني ممن وَضَعَتْه[٥]؟ قال: لا، ولكن لا مخبأ لِعِطْرٍ بعد عَرُوس[٦].

(١) هلب الذنب: نتف شعره، ويقولون: إن الحارث هو أول مَن فعل ذلك.
(٢) المربط: ما ربطت به الدابة، والنعامة: اسم فرس كانت للحارث بن عباد.
(٣) لقحت: حملت، وعن بمعنى بعد، والحيال: أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل، وهذا مثل ضربه، وإنما يعظم أمر الحرب لما تولد عنها من الأمور التي لم تكن تحتسب، والمراد أن حرب وائل هاجت بعد سكون.
(٤) سرعان الناس: أوائلهم المستبقون إلى الأمر.
(٥) يشير إلى قوله:
يا بؤس للحرب التي — وضعت أراهط فاستراحوا
(٦) يريد: إن لم تنصر قومك الآن، فلمن تدخر نصرك؟

ثم إن الحارث بن عباد أسر مهلهلًا، وهو لا يعرفه، فقال له: دُلّني على المهلهل؛ قال: ولي دَمي؟ قال: ولك دمك؛ قال: ولي ذمّتُك وذمةُ أبيك؟ قال: نعم ذلك لك. قال: فأنا مهلهل. قال: دُلَّني على كُفْءٍ لبُجير، قال: لا أعلَمُه إلا امرأ القيس بن أبان، هذاك عَلَمُه؛ فجزّ ناصيته، وقصد قَصْدَ امرىء القيس فشدّ عليه فقتله، وقال الحارث في ذلك:

لَهْفَ نفسي على عَدِيٍّ ولم أعْـ ـرفْ عديًا إذْ أمكنتْني اليدان
طُلَّ[1] من طُلَّ في الحروب ولم أو تِـرْ بُـجَـيْـرًا أبَـأْتـه[2] ابـنَ أبـان
فارسٌ يضرب الكتيبة بالسّيـ ـفِ وتسمو أمامَه العينان

ضَيّعني صَغيرًا، وحَمّلني دَمه كَبيرًا![3]

كان حُجْر في بني أَسَد، وكانت له عليهم إتاوة في كل سنة مؤقّتة، فَغَبَر[4] ذلك دهرًا، ثم بعث إليهم جابِيَه الذي كان يَجْبيهم، فمنعوه ذلك ـ وحُجْرٌ يومئذٍ بتِهامة ـ وضربوا رسله، وضَرَجُوهم[5] ضَرْجًا شديدًا قبيحًا.

فبلغ ذلك حُجْرًا فسار إليهم بجند من ربيعة وقيس وكنانة، فأتاهم وأخذ سَرَاتهم، فجعل يقتّلهم[6] بالعَصَا، وأباح الأموال، وصيّرهم إلى تِهَامة، وآلى بالله ألّا يُسَاكنوهم في بلد أبدًا، وحبس منهم عمرو بن مسعود الأسديّ، وكان سيّدًا وعبيد بن الأبرص الشاعر، فسارت بنو أسد ثلاثًا.

ثم إن عبيد بن الأبرص قام فقال: أيّها الملك؛ اسمع مقالتي:

يـا عَـيْـنُ فـابْـكِـي مـا بـنـي أسـدِ فـهـم أهـلُ الـنَّـدَامـهْ
أهـل الـقِـبـابِ الـحـمـر والـنّـ ـعَـم الـمـؤبَّـل[7] والـمُـدَامَـهْ
وذوي الـجـيـادِ الـجُـرْدِ والْـ أَسَـلِ الـمُـثَـقَّـفَـةِ الـمُـقـامَـه
حِـلًّا[8] أبـيـت الـلعـن حَـلًّا إن فـيـمـا قـلـتَ آمَـةْ[9]
فـي كـلّ وادٍ بـيـن يـثْـ ـرِب فـالـقـصـور إلـى الـيـمـامَـهْ

(١) ظل دمه: ذهب هدر.
(٢) أباء القتيل بالقتيل: قتله به.
(٣) الأغاني: ٩ ـ ٨٧.
(٤) غبر: لبث وبقي.
(٥) ضرجه: أدماه.
(٦) سموا لذلك عبيد العصا.
(٧) المؤبل: المقتنى.
(٨) حلًّا: أي تحلل من يمينك.
(٩) الآمة: العيب.

تَـطْـريـبُ عـانٍ أو صـيـا ... ح مُـحَـرَّقٍ أو صـوتُ هـامَـهْ
ومـنـعـتـهـم جـدًا فـقـد ... حَـلُّوا عـلى وجَـلٍ تِـهَـامَـه
بَـرِمَـتْ بـنـو أسـدٍ كـمـا ... بَرِمَـتْ ببيضتـها الحمامَهْ
جـعـلَتْ لـهـا عـوديـن مِـنْ ... بَـشَـمٍ وآخـر مـن ثـمَـامَـهْ[1]
إمـا تـركـتَ تـركـت عَـفْـ ... ـوًا أو قـتـلتَ فـلا مَـلَامَـهْ
أنـت الـمـلـيـكُ عـلـيـهـمُ ... وهـم الـعـبـيـدُ إلى الـقـيـامَـهْ
ذَلّوا لـسَـوْطِـكَ مـثـلَ مـا ... ذلّ الأشَـيْـقِـر[2] ذو الـخِـزامَـهْ

فرقّ لهم حُجْرٌ حين سمع قوله؛ فبعث في أَثَرهم فأَقْبلوا، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهِنُهم[3] فقال لبني أسد: مَنِ الملك الأصْهب، الغلّاب غير المُغَلّب، في الإبل كأنها الرّبْرَب[4]، لا يعلَق رأسه الصّخَب! هذا دمُه ينثعب[5]، وهذا غدًا أول من يُسْلب.

قالوا: مَنْ هو! قال: لولا أن تجيشَ نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجْرٌ ضاحية.

فركبوا كل صَعب وذَلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبّته، وهزموا أصحابه وأسروه فحبسوه، وتشاور القوم في قتله؛ فقال لهم كاهنٌ من كهنتهم بعد أن حَبسوه ليرَوا رأيهم فيه: أي قوم! لا تعجلوا بقتل الرجل حتى أزْجُر لكم.

فانصرف عن القوم لينظرَ لهم في قتله؛ فلما رأى ذلك عِلْباء بن الحارث الكاهليّ خشي أن يتَوَاكلوا في قتله، فدعا غلامًا من بني كاهِل - وكان ابن أخته[6] - فقال: يا بنيّ؛ أعندك خير فتثأر بأبيك، وتنال شرف الدهر، وإن قومك لن يقتلوك!

---

(١) البشم: شجر جبلي تتخذ منه القسي، والثمامة: نبت بالبادية.
(٢) الأشيقر: تصغير الأشقر: الأحمر من الدواب، والخزامة: حلقه من شعر تحمل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام.
(٣) هو عوف بن ربيعة.
(٤) الربرب: القطيع من بقر الوحش.
(٥) ينثعب: يجري.
(٦) كان حجر قد قتل أبا زوج أخت علباء، وقيل بل كان حجر قتل أبا علباء نفسه.

فلم يزل بالغلام حتى حَرَّبه[١]، ودفع إليه حديدة قد شَحَذَها، وقال: ادخُلْ عليه مع قومك، ثم اطعنْه في مَقْتَله.

فعمَد الغلامُ إلى الحديدة فخبأَها، ثم دخل على حُجْر في قبَّته التي حُبِس فيها.

فلما رأى الغلام غَفْلةً وثب عليه فقتله، فوثب القوم على الغلام فقالت بنو كاهل: ثأرنا وفي أيدينا!

فقال الغلام: إنما ثأرتُ بأبي، فخلّوْا عنه.

وأقبل كاهِنُهم المزدَجِر فقال: أي قوم! قتلتموه! مُلْك شَهْر، وذُلّ دهر، أما والله لا تحظَوْن عند الملوك بعده أبدًا.

ولما طعن الغلام حُجْرًا ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له: انطلق إلى ابني نافع ـ وكان أكبر ولده ـ فإن بكى وجَزِع فالْهُ عنه، واستَقْرِهم واحدًا واحدًا، حتى تأتي امرأ القيس[٢] ـ وكان أصغرَهم ـ فأيُّهم لم يجزَع، فادفع إليه سلاحي وخَيْلي وقُدُوري ووصيّتي، وبيِّن في وصيته مَنْ قتله، وكيف كان خبرُه.

فانطلق الرجلُ بوصيته إلى نافع ابنه، فأخذ التراب فوضعه على رأسه، ثم استَقْرأهم واحدًا واحدًا، فكلُّهم فعل ذلك، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشربُ الخمرَ ويُلاعبه بالنَّرْد؛ فقال له: قُتِل حُجْر؛ فلم يلتفِتْ إلى قوله، وأمْسَك نديمهُ. فقال له امرؤ القيس: اضربْ فضرب، حتى إذا فرغ قال: ما كنتُ لأفسد عليك دَسْتك.

ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله، فأخبره، فقال: الخمرُ عليّ والنساء حرام، حتى أقتلَ من بني أسدٍ مائةً وأجُزّ[٣] نواصي مائة.

وكان امرؤُ القيس قد طردَه أبوه حُجْر، وآلى ألّا يقيمَ معه أَنفَةً من قوله الشِّعْرَ ـ وكانت الملوك تأنَف من ذلك ـ فكان يسير في أَحْياء العرب ومعه أَخْلَاطٌ

(١) حربه: حرشه.
(٢) أشهر شعراء العرب، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، وقال الشعر وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، ومات سنة ٨٠ ق.هـ.
(٣) يريد حتى أقتل منهم مائة وآسر مائة.

من شُذّاذ[١] العرب، من طيّىء وكلْب وبكر بن وائل؛ فإذا صادفَ غَديرًا أو رَوْضة أو موضعَ صَيْدٍ أقام فذبح لمن معه في كلّ يوم، وخرج إلى الصيد فتصيّد فأكل وأكلوا معه، وشربَ الخمر وسقاهم وغنَّتْه قِيانُه.

ولا يزال كذلك حتى يَنْفَد ماءُ ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره. فأتاه خبرُ أبيه ومَقْتَله وهو بدَمُّون من أرض اليمن، فقال:

تطاوَل الليلُ على دَمُّونْ　　　دمُّونُ إنا معشرٌ يَمَانُونْ
وإنّنا لأهلنا مُحِبُّونْ

ثم قال: ضيَّعني صغيرًا، وحمَّلني دمَه كبيرًا. لا صَحْوَ اليوم، ولا سُكْرَ غدًا، اليوم خمر، وغدًا[٢] أمر. ثم قال:

خليليّ لا في اليوم مَصْحًى لشاربٍ　　　ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْربُ

ثم شرب سَبْعًا، فلما صَحَا آلى ألّا يأكلَ لحمًا، ولا يشربَ خمرًا، ولا يَدَّهِن بدُهن، ولا يصيبَ امرأةً حتى يُدْركَ بثأره؛ فلما جنه الليل رأى بَرْقًا، فقال:

أَرِقتُ لبرقٍ بليلٍ أَهَلّ　　　يضيءُ سَناهُ بأَعلى الجَبلْ
أتاني حديثٌ فكذَّبْتُه　　　بأمر تَزَعْزَعُ[٣] منه القُلَلْ
بقتل بني أسدٍ ربَّهُم　　　ألا كلُّ شيءٍ سِواه جَلَلْ[٤]
فأين رَبيعةُ عن ربِّها　　　وأين تميمٌ وأين الخَوَلْ[٥]
ألا يَحْضُرون لدى بابه　　　كما يحضرون إذا ما أكَلْ

وارتحل امرؤ القيس حتى نزل بَكْرًا وتغلب، فسألهم النصر، وبعث العيون على بني أسد، فلما كان الليل قال لهم عِلْبَاءُ: يا معشرَ بني أسد، تعلمون والله أن عيون امرىء القيس قد أتتكم، ورجعتْ إليه بخبركم، فارْحَلُوا بليل ولا تُعلموا بني كنانة. ففعلوا.

---

(١) شذاذ العرب: الذين لم يكونوا في حيهم ومنازلهم.
(٢) ذهبت مثلًا.　　(٣) أصله: تتزعزع.
(٤) جلل: هين.
(٥) الخول: جمع خولي: وهو الراعي الحسن القيام على المال.

وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتَغْلِب، حتى انتهى إلى بني كِنَانة، وهو يحسَبُهُم بني أسد، فوضع السِّلَاح فيهم، وقال: يا لثارات الملِك! يا لثارات الهُمَام! فخرجت إليه عجوزٌ من بني كنانة فقالت: أبيتَ اللَّعْنَ! لسنا لك بثأر، نحن من كنانة، فدونك ثأرَك فاطلبهم، فإن القوم ساروا بالأمس.

فتبع بني أسد، ففاتوه ليلتهم تلك، فقال:

أَلَا يـا لَهـفَ هِـنْـدٍ إِثْـرَ قَـوْمٍ ... هـمُ كـانـوا الشفاءَ فـلم يُصَـابُـوا

وقـاهـم جـدُّهـمْ ببني أبـيـهـم ... وبـالأشْـقَيْـنَ[1] مـا كـان العِقَـابُ

وَأَفْـلَتَـهُـنَّ عِـلْـبَـاءٌ جَـرِيـضًـا[2] ... ولـوْ أَدْرَكْـتَـهُ صَـفِـر الـوِطـابُ[3]

وأدركهم ظُهْرًا، وقد تقطعتْ خيلُه، وقطع أعناقهم العطشُ، وبنو أسدٍ جامّون[4] على الماء، فنهد إليهم فقاتَلَهُم، حتى كثُرَت الجرحى والقتلى فيهم، وحجَزَ الليلُ بينهم، وهربت بنو أسد.

فلما أصبحت بكر وتغلب أَبَوْا أن يتبعوهم، وقالوا له: قد أصبتَ ثأرك. قال: والله ما فعلتُ ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحدًا. قالوا: بلى، ولكنك رجلٌ مشؤوم، وكرِهُوا قتالهم، وانصرفوا عنه، فمَضى هاربًا لوجهه حتى لحق بحمِيْر.

فاستأجر من قبائل العرب رجالًا، فسار بهم إلى بني أسد، ومرّ بِتَبَالَة[5]، وبها صنم للعرب تُعظِّمه، فاستَقسمَ[6] عنده بِقِدَاحه، وهي ثلاثة: الآمر، والناهي والمتربِّص. فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، فجمعها فكسرها وضرب بها وَجه الصنم، وقال: لو أبوك قُتل ما عُقْتَنِي، ثم خرج فظفر ببني أسد.

---

(١) الجد: الحظ، والأشقين: جمع أشقى، ويقصد بهم بني كنانة.
(٢) أي بعد جهد ومشقة والضمير في «أفلتهن» و«أدركنه» للخيل التي كروا بها عليهم.
(٣) صفر الوطاب، أي لو أدركوه قتلوه وساقوا إبله فصفرت وطابه من اللبن.
(٤) أي مجتمعون مستريحون.
(٥) موضع بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة.
(٦) الاستقسام: طلب معرفة ما قسم للمرء مما لم يقسم.

وألحَّ المنذر[١] في طلب امرىء القيس، ووجَّه الجيوشَ في طلبه من إياد وبَهْراء وتنُوخ، وأمدّه أنو شَرْوان بجيشٍ من الأساورة فسرّحهم في طلبه، فلم يكن لامرىء القيس بهم طاقةٌ، وتفرّقتْ حمير ومَن كان معه عنه، فَتَجافى عُصْبَةٍ من بني آكل المُرَار، ونزل ببعض رؤساء القبائل يستجيرُ بهم، وصار يتحوّل عنهم إلى غيرهم، حتى نزل برجل من بني فَزَارة، يقال له: عمرو بن جابر بن مَازن، فطلب منه الجوار، حتى يرى ذات عَيْبه[٢].

فقال له الفَزَاريّ: يا ابنَ حُجر، إني أَرَاكَ في خَلَل من قومك، وأنا أَنْفَسُ[٣] بمثلك من أهل الشرف، وقد كِدتَ بالأمس تُؤكل في دار طيىء، وأهلُ البادية أهلُ وبر، لا أهل حصون تمنعهم، وبينك وبين أهل اليمن ذُؤبانٌ من قيس، أفلا أدلُّك على بلد! فقد جئتُ قيصرَ، وجئتُ النعمان؛ فلم أرَ لضيفٍ نازل ولا لمجْتَدٍ[٤] مثلَه ولا مثلَ صاحبه.

قال: مَن هو وأين منزله؟ قال: السموءل بِتَيْماء، هو يمنع ضَعفك حتى ترى ذات عيبك، وهو في حصن حَصِين وحسبٍ كبير.

فقال له امرؤ القيس: وكيف لي به؟ قال: أُوَصِّلُكَ إلى مَن يوصلك إليه.

فصحِبَه إلى رَجُل من بني فَزَارَة يقال له: الرّبيع بن ضَبُع الفزاريّ، ممن يأتي السموءل فيَحْمِلُه ويعطيه.

فلما صار إليه قال له الفَزاريّ: إن السموءل يُعْجِبهُ الشعر، فتعالَ نتناشد له أشعارًا؛ فقال امرؤ القيس: قل حتى أقول. فقال الربيع:

قل للمنية أيّ حينٍ نلْتَقي ... بفناء بَيْتِك في الحضيض المَزلقِ[٥]
ولقد أتيتُ بني المضَاضِ مفاخِرًا ... وإلى السموءل زُرْته بالأبْلَقِ[٦]
فأتيتُ أفضلَ مَنْ تخمل حاجةً ... إن جئتَه في غارِمٍ أو مُرْهَق
عرفتْ له الأقوامُ كلَّ فضيلة ... وحوى المكارم سابقًا لم يُسْبق

---

(١) كانت في نفس المنذر موجدة على آل امرىء القيس؛ لأن الحارث جد امرىء القيس زاحم المناذرة ملوك الحيرة عند كسرى في النيابة عنه على ملك الحيرة، وقت أن شجر الخلاف بين المناذرة وكسرى قباذ.
(٢) أي ينظر في أمره، ويصلح من شأنه.
(٣) أنفس بك: أضمن بك.
(٤) طالب عطاء.
(٥) المزاق: الموضع الذي لا تثبت عليه قدم.
(٦) الأبلق: حصن السموءل.

فقال امرؤ القيس:

طرقَتْكَ هندٌ بعد طول تجنُّبِ وَهْنًا ولم تكُ قبل ذلك تَطْرُق[(١)]

ثم مضى القومُ حتى قدموا على السموءل، فأنشده الشعر، وعرف لهم حقهم، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني ليوصّله إلى قيصر.

ومضى حتى انتهى إلى قيصر، فقَبِلَهُ وأكرمه، وكانت له عنده منزلة.

ثم إنّ قيصر ضمّ إليه جيشًا كثيفًا، فيه جماعةٌ من أبناء الملوك، فلما فَصَل[(٢)] قال لقيصر قومٌ من أصحابه: إن العرب قومُ غَدر، ولا تأمنُ أن يظفرَ بما يريد، ثم يغزوك بمن بعثتَ معه.

فبعث إليه حينئذٍ بحُلّة وشي مسمومةٍ منسوجة بالذهب، وقال له: إني أرسلتُ إليك بحُلّتي التي كنت ألبَسُها تَكْرِمةً لك؛ فإذا وصلت إليك فالْبَسْها باليُمْن والبركة، واكتب إليّ بخبرك من منزلٍ منزل.

فلما وصلتْ إليه لبِسَها، واشتدّ سروره بها؛ فأسرع فيه السُّمّ وسقط جلْدُه فقال:

لقد طمَحَ الطّمّاحُ من بُعْدِ أرضه لِيُلْبِسَنِي مما يلبّسُ أبْؤُسَا
فلو أنها نفسٌ تموتُ سَوِيَّةً ولكنها نفسٌ تسَاقَط أنْفُسَا

فلما صار إلى بلدةٍ من بلاد الروم تدعى أَنْقِرَة احتُضِرَ بها فقال:

رب جَفْنةٍ مُثْعَنْجِرَهْ[(٣)] وطَعْنةٍ مُسْحَنْفِرَهْ[(٤)]
تبقى غَدًا بأَنْقِرَهْ

ورأى قَبْرَ امرأةٍ من أبناء الملوك ماتت هناك، فدُفِنَتْ في سفح جبلٍ يقال له: عَسِيب، فسأل عنها، فأُخْبِرَ بقصتها، فقال:

أجارتَنا إنَّ المَزَارَ قريبُ وإني مقيمٌ ما أقام عَسِيبُ
أجارَتنا إنّا غريبان ههنا وكلُّ غريبٍ للغريب نَسِيبُ

(١) يقول صاحب الأغاني: أظن أن هذه القصيدة منحولة.
(٢) فصل: رحل.
(٣) المثعنجرة من الجفان: التي يفيض ودكها.
(٤) مسحنفرة: متسعة.

ثم مات فدُفن هناك.

مَا كَانَ لَولَا غَرَّةُ اللّيل يُغْلَب[١]

ورد شَأْس بن زهير من عند النعمان بن المنذر، وقد حَبَاه أفْضل الحُبْوَة: مِسْكًا وكُسًا وقُطُفًا[٢] وطَنَافس؛ فأناخ ناقته في يوم شَمالٍ[٣] وقُرّ[٤] على رَدْهَة[٥] في جبل رياح بن الأَسَك الغَنَوي، وليس على الرّدْهة غيرُ بيته بالجبل، فألقى ثيابه بفنائه، ثم قعد يُهَرِيق[٦] عليه الماء، وامرأةُ رياح قريبةٌ منه، وإذا هو مثلُ الثور الأبيض، فقال رياح لامرأته: أعْطيني قوْسي، فمدَّت إليه قوسَه وسَهْمًا، وانتزعت المرأة نَصْلَه لئلا يقتله، فأهوى عجلانَ إليه، ووضع السهم في مُسْتَدَقّ الصلب، بين فَقَارتين[٧] ففصلهما، وخرَّ سَاقِطًا، وحفر له حفرًا، فهدمه عليه، ونحر جمله وأكله، وأدخل متاعه في بيته.

وفُقِد شأس، وقُصَّ أثره ونُشد؛ وركبوا إلى الملك، فسألوه عن حاله، فقال لهم: حَبَوْته وسرّحْته. فقالوا: وما مَتَعْتَ[٨] به؟ قال: مسك ونُطُوع وقُطُف، فأقبلوا يقصّون أثره، فلم تَتَضح لهم سبيلُه، فمكثوا كذلك ما شاء الله، حتى انقطع ذكره.

قال الراوي: ثم إن الناسَ أصابتهم جائحةٌ وجُوع، فنحر زُهير[٩] بن جذيمة - أبو شأس - ناقته، فأعطى امرأةً من شحمها وسَنامها، وقال: اشتري لي الهدب والطِّيب، فخرجت بذلك الشحم والسنام تبيعه حتى دفعت إلى امرأة رياح، فقالت: إن معي شحمًا أبيعهُ في الهدب والطِّيب، فاشترت المرأة منها؛ ثم أتت المرأة زهيرًا بذلك، فعرف الهدب، وذهب إلى غنيّ، فقالوا: نعم، قتله رياح بن الأسكّ ونحن براء منه، وقد لحق بخاله من بني الطَّمَّاح.

---

(١) الأغاني: ٨ - ١٠، ابن الأثير: ١ - ٣٣٧، مهذب الأغاني: ٢ - ٨.
(٢) القطيفة: دثار مخمل، جمعه قطف (بضمتين).
(٣) الشمال: الريح التي تهب بين مطلع الشمس وبنات نعش، ويكون اسمًا وصفة.
(٤) القر: البرد.
(٥) الردهة: النقرة يجتمع فيها ماء السماء.
(٦) هراق الماء: أراقه.
(٧) الفقرة والفقارة: ما انتضد من عظام الصلب.
(٨) متع الرجل: جاد.
(٩) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، أمير عبس، وأحد سادات العرب المعدودين في الجاهلية، قتله خالد بن جعفر العامري نحو سنة ٥٠ ق.هـ.

ولما تبيَّن لزُهير أن رياحًا ثأرُه قال يرثي شاسًا:

بكيتُ لِشأسٍ حين خُبِّرْتُ أنه ... بماء غنيٍّ آخِرَ الليل يُسلَب
لقد كان مَأْتَاه الرَّدَاةَ[1] لحَتْفِهِ ... وما كان لولا غِرَّةُ الليل يُغْلبُ
قتيل غنيٍّ ليس شكلٌ كشكلِهِ ... كذاك لعمري الحيْنُ[2] للمرء يُجْلبُ
سأبكي عليه إن بكيت بعبْرةٍ ... وحقّ لِشاسٍ عَبْرةٌ حين تسكبُ
وحزنٌ عليه ما حييتُ وعَوْلة ... على مثل ضوءِ البدر أو هو أعجبُ
إذا سِيمَ ضيمًا كان للضَّيْم مُنْكِرًا ... وكان لَدَى الهيجاءِ[3] يُخشى ويُرهَبُ
وإنْ صوّت الداعي إلى الخير مرةً ... أجاب لما يدعُو له حين يكْرَبُ
ففرَّج عنه ثم كان وليَّه ... فقلبي عليه لو بدا القلب مُلْهَبُ

ثم انصرف إلى قومهِ من بني عَبْس، فكان لا يقدر على غَنَوِيٍّ إلّا قتله.

وتجهَّز بنو عَبْس لغَزْو غَنيٍّ قبل أن يطلبوا قَوَدًا أو دِيَةً، وتولّى رياستهم الحصينُ بن زهير، أخو شأس، والحصينُ بن أسيد بن جذيمة، ابن أخي زهير، فقيل ذلك لغَنيّ، فقالت لرياح: انجُ لعلّنا نُصالح على شيء أو نرضيهم بِدَيةٍ وفداء.

فخرج رياحٌ رديفًا[4] لرجل من بني كلاب، فبينما هُمَا سائران إذا هما بالقوم أدْنَى ظلام[5]، وقد كانا يظنان أنهما خَالفَا وِجْهة القوم، قال صاحب رياح: اذْهب فإني آتِي القوم أشاغلهم عنك، وأحدّثهم حتى تُعْجزهم، ثم أنا ماضٍ إنْ تركوني. فانْحَدر رياح عن عَجُز الجمل فأخذ أدْراجه، وعدا إثْرَ الراحلة حتى أتى ضَفّة، فاحتفَر تحتها مثل مكان الأرنب، فَوَلَج فيه، ثم أخذ نعليه، فجعل إحداهما على سرّته، والأخرى على صَفَنِه[6]، ثم شدَّ عليهما العمامة، ومضى صاحبه حتى لقي القوم، فسألوه، فحدّثهم، وقال: هذه غنيٌّ كاملة، وقد دنوتُ منهم، فصدّقوه وخلّوا سِرْبَه[7].

---

(١) الرداة: الصخرة.
(٢) الحين: الهلاك.
(٣) الهيجاء: الحرب.
(٤) الرديف: الذي تحمله خلفك على ظهر الدابة.
(٥) أدنى ظلام: أدنى شيء.
(٦) الصفن: وعاء الخصية.
(٧) خلوا سربه: أي طريقه.

فلما ولى رؤوا مركَب الرَّجل خلفه، فقالوا: من هذا الذي كان خَلْفك؟ قال: لا مكْذُبة! ذلك رياح في الأُوَل من السَّمُرات، فقال الْحُصَيْنَان لمن معهما: قِفُوا علينا حتى نَعْلَمَ علمه، فقد أمكننا الله من ثأرنا ولم يريدا أن يشركهما فيه أحد، فمضيا ووقف القوم عنهما، فلما رآهما رياح رمى الأول منهما فبترَ صلْبَه، وطعنه الآخر قبل أن يرميَه، وأراد السُّرة فأصاب الرَّبْلة(١)، ومَرَّ الفرس يهوي به، فاستدبره رياح بسهم رشق به صلبه فانفقر منحني الأوصال، ونَدَّت فرساهما فلحقتا بالقوم، وانطلق رياح حتى ورد رَدْهة، عليها بيت أنمار بن بغيض، وفيه امرأة، ولها ابنان قريبان منها، وجملٌ لها راتعٌ في الجبل، وقد مات رِياح عطشًا، فلما رأته يسْتَدْمِي(٢) طمِعَتْ فيه، ورجتْ أن يأتيَها ابناها، فقالت له: اسْتَأْسِر، فقال لها: دعيني ـ وَيحَكِ ـ أشرب! فأبت، فأخذ حديدة فجَذَم بها رَوَاهِشها(٣)، وعَبّ في الماء حتى نهل، ثم قال فيها وفي الحُصَيْنَيْن:

قالت ليَ استَأْسِرْ لتَكْنُفَنِي(٤) … حينًا ويعلوَ قولُها قولي
ولأنت أَجْرَأُ من أُسَامة أو … مِنّي غَدَاةَ وقفتُ للخيْل
إذ الحصين لدى الحصين كما … عَدَل الرِّجَازَةُ(٥) جانبَ الميْلِ

لأَقْتلَنّه وَلو كَان حِجْر النعمَان(٦)

لما قتل خالدُ بن جعفر بن كلاب زهيرَ بن جذيمة العبسي ضاقت به الأرضُ، وعلم أن غطفانَ غيرُ تاركيه؛ فخرج حتى أتي النعمانَ فاستجار به فأجاره، ومعه أخوه عُتْبَةُ بنُ جعفر.

ونهض قيس بن زهير فتهيَّأ لمحاربة بني عامر، وهجمَ الشتاء؛ فقال الحارثُ بن ظالم: يا قيسُ؛ أنتم أعلم وحربكم، وأنا راحلٌ إلى خالد حتى أقتلَه، قال قيس: قد أجاره النعمان، قال الحارث: لأَقْتُلَنَّهُ ولو كان في حِجْره!

---

(١) الربلة: أصل الفخذ. (٢) استدمى الرجل: طأطأ رأسه يقطر منه الدم.

(٣) جذم: قطع. الرواهش: عروق طاهر الكف. (٤) كنفه: أحاط به وآواه.

(٥) الرجازة: شيء يكون مع المرأة في هودجها فإذا مال أحد الجانبين وضعته في الناحية الأخرى ليعتدل.

(٦) الأمثال: ٢ ـ ٢٣٤، عيون الأخبار: ١ ـ ١٨٣.

وكان النعمان قد ضرب على خالد وأخيه قُبَّةَ، وأمرهما بحضور طَعَامِه ومُدَامِه[١].

فأقْبَل الحارثُ ومعه تابعٌ له من بني محارب فأتى بابَ النعمان، فاستأذَن فأَذِن له النعمان وفرح به. فدخل الحارث، وكان من أحسن الناس وَجْهًا وحديثًا، وأعلم الناس بأيام العرب؛ فأقبَل النعمانُ عليه بوجهه يحدِّثُه، وبين أيديهم تَمْرٌ يأكلونه.

فلما رأى خالدٌ إقبالَ النعمان على الحارث غاظه ذلك، فقال: يا أبا ليلى؛ ألا تشكُرني! قال: عَلَامَ؟ قال: قتلتُ زهيرًا فَصِرْتَ بعده سيِّدَ غطفان ـ وفي يد الحارث تمراتٌ؛ فاضْطَرَبت يده، وجعل يُرْعَد ويقول: أنت قتلتَه!! والتمرُ يسقط من يده.

ونظر النعمان إلى ما به من الزَّمَع[٢]، فنَخَس خالدًا بعصاه، وقال: هذا يقتلك! فقال: أبيْت اللعن! فوالله لو كنت نائمًا ما أيقظني! وافترق القوم، وبقي الحارثُ عند النعمان، وأَشْرَج[٣] خالدٌ قُبَّته عليه وعلى أخيه ونَامَا.

وانصرف الحارثُ إلى رَحْلِه، فلمَّا هدأتِ العيون خرج بسيفه حتى أتى قُبَّة خالد فَهَتَكَ شَرَجَها[٤] بسيفه، فدخل فرأى خالدًا نائمًا وأخوه إلى جنبه، فأيقظ خالدًا فاستوى قائمًا، فقال له الحارث: يا خالد؛ أظننتَ أن دم زهير كان سائغًا لك! وعَلَاه بسيفه حتى قتله، وانْتَبَه عُتْبَة، فقال له الحارث: لئن نَبَسْتَ[٥] لأُلْحِقَنَّكَ به!

وانصرفَ الحارثُ، وركب فرسَه ومضى على وجهه، وخرج عُتْبَةُ صارخًا حتى أتى باب النعمان، فنادى: يا سوء جوَاراه! فأُجيب: لا رَوْع عليك! فقال: دخل الحارثُ على خالد فقتله، وأَخْفَرَ[٦] الملِك.

فوجّه النعمانُ فوارسَ في طلبه فلحقوه سَحَرًا، فعَطَف[٧] عليهم، فقتلَ جماعةً منهم وكَثُرُوا عليه، فجعل لا يقصد لجماعة إلا فرَّقَها، ولا لفارس إلّا قَتَلَه.

---

(١) المدام: الخمر.
(٢) الزمع: شبه الرعدة تأخذ الإنسان.
(٣) أشرج الخيمة: أدخل بعض عراها في بعض بين أشراجها.
(٤) الشرج: عرا الخيمة.
(٥) نبس: أقل الكلام.
(٦) أخفر الملك: نقض عهده وغدره.
(٧) عطف: مال.

فارتدع القوم عنه، وانصرفوا إلى النعمان.

فقال عَمْرو بن الإطنابة:

عَـلِّلانـي وعَـلِّلا صـاحـبَـيَّـا   واسْـقِـيَـانِـي مـن الـمُـرَوَّق رِيّـا
إنَّ فـيـنـا الـقِـيَـانَ يَـعْـزِفْـنَ بـالـضَّـرْ   بِ لـفِـتْـيَـانِـنَـا وعَـيْـشًـا رَضِـيَّـا
يـتـنـاهَـيْـنَ فـي الـنـعـيـم ويَـضْـرِبْـ   ـنَ خِـلَالَ الـقُـرُون مِـسْـكًـا ذَكـيَّـا
أَبْلِغَا الحارثَ بن ظالمَ الرِّعْـ[1]   ـديـدَ والـنـاذِرَ الـنـذُور عَـلَـيَّـا
إنـمـا تَـقْـتُـلُ الـنِّـيـامَ ولا تـقـ   ـتل يـقـظـانَ ذا سلاحٍ كـمـيًّـا[2]

وكان عَمْرو قد آلى[3] ألّا يدعوَه رجلٌ بليل إلا أجابه، ولا يسأله عن اسمه. فأتاه الحارثُ ليلًا فهتف به، فخرج إليه، فقال: ما تريد؟ قال: أَعِنِّي على إبلٍ لبني فلان، وهي منك غيرُ بعيدة، فإنها غنيمة باردة!

فدعا عمرو بفرسه، وأراد أن يركب حاسرًا، فقال له: البَسْ عليك سلاحك، فإني لا آمن امتناعَ القوم، فاستلأمَ[4] وخرج معه، حتى إذا بَرَزَا قال له الحارث: أنا أبو ليلى فخُذْ حِذْرَك يا عمرو، فقال له: امْنُنْ عليَّ. فجزّ ناصِيَتَه، وقال:

عَـلِّلَانـي بـلـذّتـي قَـيْـنَـتَـيَّـا   قـبـلَ أن تـبـكـيَ الـعـيـونُ عـلَـيَّـا
قـبـل أن تـذكـر الـعـواذلُ أبـي   كـنـتُ قِـدْمًـا لأمـرهـنَّ عَـصِـيّـا
مـا أبـالـي إذا اصـطَـبَـحْـتُ ثـلاثًـا   أرشـيـدًا دعـونَـنـي أم غَـوِيَّـا
غـيـرَ ألا أُسِـرَّ للهِ إثـمًـا   فـي حـيـاتـي ولا أخـونَ صَـفِـيَّـا
بـلَغْـتـنـي مـقـالـةُ الـمـرء عـمـرو   بـلـغَـتْـنـي وكـان ذاك بَـدِيَّـا
فـخـرجـنـا لـمـوعـدٍ فـالـتَـقَـيْـنَـا   فـوجـدنـاه ذا سـلاحٍ كَـمِـيَّـا
غـيـر مـا نـائـمٍ يُـرَوّع بـالـلّيْـ   ـلِ مُـعِـدًّا بـكـفّـهِ مـشـرَفِـيَّـا
فـرجـعـنـا بـالـمـنِّ مِـنَّـا عـلـيـه   بـعـد مـا كـان مـنـه مـنّـا بـديَّـا

(١) الرعديد: الجبان.
(٢) الكمي: الشجاع.
(٣) آلى: حلف.
(٤) استلأم: لبس اللامة: الدرع.

وَفَـاء وَغَدر[١]

سار المنذر بنُ ماء السماء ملكُ العرب الحيرة في مَعَدٍّ كلِّها حتى نزل بعَيْنِ أُبَاغ، وأرسل إلى الحارث[٢] بن أبي شمِر ملك العرب بالشام، وقال له: إما أن تُعطيَني الفِدْيَة فأنصرفَ عنك بجنودي، وإما أن تَأْذَن بحَرْب.

فأرسل إليه الحارث: أَنظِرْنا نَنْظُر في أمرنا. وجمع عساكِرَه، وسار نحو المنذر، وأرسل إليه يقول له: إنا شيخان فلا تُهلِكْ جنودي وجنودَك، ولكن يخرج ولدٌ من ولدي ورجل من ولدك فمن قُتِل خرجَ عِوَضَه آخرُ، وإذا فَنِي أولادُنا خرجتُ أنا إليك، فمَنْ قتلَ صاحبَه ذهب بالملك، فتعاهدا على ذلك.

فعمَد المنذر إلى رجل من شُجْعان أصحابه، فأمره أن يخرج فيقفَ بين الصفين، ويُظهِر أنه ابنُ المنذر، فلما خرج أَخْرَج إليه الحارث ابنه أبا كرِب، فلما رآه رجع إلى أبيه، وقال: إن هذا ليس بابنِ المنذر، إنما هو عبدُه أو بعضُ شُجْعَان أصحابه، فقال: يا بني، أجَزِعت من الموت! ما كان الشيخ ليَغْدِرَ[٣]! فعاد إليه وقاتلَه فقَتَله الفارس، وألقى رأسَه بين يدي المنذر وعاد.

فأمر الحارث ابنًا له آخر بقتاله والطلبِ بثأر أخيه، فخرج إليه، فلما واقفَه[٤] رجع إلى أبيه؛ وقال: يا أبت؛ هذا والله عبدُ المنذر، فقال: يا بني؛ ما كان الشيخ ليغدِر! فعاد إليه، فشدّ عليه فقتله.

فلما رأى ذلك شمر بن عمر، وكانت أمه غسَّانية وهو مع المنذر، قال: أيُّها الملك؛ إن الغَدْرَ ليس من شِيَمَ الملوك ولا الكرام، وقد غدرتَ بابن عمك دفعتين، فغضبَ المنذر، وأمر بإخراجه، فلحق بعسكر الحارث فأخبره، فقال له: سَلْ حاجتك، فقال له: حُلّتك وخُلَّتك.

فلما كان الغد عبّى الحارث أصحابه وحرَّضهم، وكانوا في أربعين ألفًا واصطفوا للقتال، فاقتتلوا قتالًا شديدًا؛ فقُتِل المنذر وهُزِمت جيوشه، فأمر الحارث

---

(١) الكامل لابن الأثير: ١ ـ ٣٢٦.

(٢) في كتاب الأعلام للزركلي أن الحارث لقب عام لملوك الغسانيين، كقيصر عند الروم، وكسرى عند الفرس؛ وهو أشهر ملوك غسان ذكرًا، وكان جوادًا كثير الهبات دام ملكه نحو ٣٠ عامًا، ومات نحو سنة ٤٠ ق.هـ.

(٣) يغدر: ينقض العهد.

(٤) الموافقة: أن تقف معه ويقف معك في حرب أو خصومة.

بابنيه القتيلين فحُمِلا على بعير بمنزلة العَدْلين، وجُعِلَ المنذر فوقهما فردا، وقال: «يا لِعَلاوَةٍ[١] دُونَ العِدْلَيْنِ!لا وسار إلى الحيرة فأَنْهبَها[٢] وأحرقها، ودفن ابنيه بها، وفي ذلك يقول الشاعر:

كم تركْنَا بالعين عَيْن أُباغٍ ... من ملوك وسوقةٍ أكفاء
أمطرتهمْ سحائب الموت تَتْرَى ... إنّ في الموت راحةَ الأشقياء
ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ ... إنّما الميتُ ميّتُ الأحياء

يَثــأر لأبيهِ وجَدّه[٣]

كان من حديث قَيْس بن الخَطِيم[٤] أن جدَّه عديَّ بنَ عمرو قتله رجلٌ من بني عمرو بن عامر يقال له: مالك، وقتل أباه الخطيمَ بنَ عدي رجل من عبد قيس ممن يسكن هَجَر، وكان قيسٌ يوم قُتِل أبوه صبيًّا صغيرًا، وقُتل الخطيم قبل أن يَثأَرَ بأبيه عديّ، فخشيتْ أُمُّ قيس على ابنها أن يخرجَ فيطلب بثَأْرِ أبيه وجدِّه فَيَهْلِك.

فعمَدَت إلى كومة من تراب عند باب الدار، فوضعت عليها أحجارًا وجعلت تقول لقيس: هذا قبرُ أبيك وجدِّك، فكان قيس لا يشكُّ في ذلك.

ونشأ أَيِّدًا[٥] شديدَ الساعدين؛ فنازع يومًا فَتًى من فِتْيَان بني ظفَر؛ فقال له ذلك الفتى: والله لو جعلتَ شدةَ ساعديك على قاتل أبيك وجدِّك لكان خيرًا لك من أن تُخْرجَها عليّ؛ فقال: ومَنْ قاتلُ أبي وجَدّي؟ قال: سَلْ أمّك تخبرْك.

فأخذ السيف ووضع قائِمَة على الأرض، وذُبَابَه[٦] بين ثدييه؛ وقال لأمّه: أخبريني مَنْ قتل أبي وجدي؟ قالت: ماتا كما يموتُ الناس، وهذان قبراهما بالفِناء. فقال: والله لتُخْبِرِنني مَنْ قتلهما، أو لأتحامَلَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظَهْري! فقالت: أما جدُّك فقتله رجلٌ من بني عمرو بن عامر بن ربيعةَ يقال له: مالك، وأما أبوك فقتله رجلٌ من عبد قيس ممّن يسكن هَجَر.

---

(١) العلاوة: ما يحمل على البعير وغيره، وهو ما وضع بين العدلين.
(٢) أنهبها: أباحها لمن شاء.
(٣) الأغاني: ٣ ـ ٣.
(٤) قيس بن الخطيم: شاعر الأوس، وأحد صناديدها في الجاهلية، أدرك الإسلام وتريث في قبوله، ثم قتل قبل أن يدخل فيه نحو سنة ٢ ق.هـ.
(٥) أيدا: شديدًا قويًا.
(٦) ذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

فقال: والله لا أَنْتَهِي حتى أَقتلَ قاتلَ أبي وجدّي؛ فقالت: يا بنيَّ؛ إنّ مالكًا قاتِلَ جَدِّك من قوم خِدَاش بنِ زُهير، ولأبيك عند خِدَاش نعمةٌ هو لها شاكر، فأْتِه فاستَشِرْه في أمرك واستَعِنْه يُعِينْكَ.

فخرج قيسٌ من ساعته حتى أتى ناضِحه[1] وهو يَسْقِي نخلَه، فضربَ الجرير[2] بالسيف فقطعه، فسقطت الدلوُ في البئر، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غِرَارتيْن[3] من تمر، وقال: مَن يكفيني أمرَ هذه العجوز؟ يعني أمّه ـ فإن متُّ أَنْفَقَ عليها من هذا الحائط[4] حتى تموتَ ثم هُوَ لهُ، وإن عشتُ فمَا لِي عائد إليّ وله منه ما شاء أن يأكل من ثمره؟ فقال رجلٌ من قومه: أنا له، فأعطاه الحائط.

ثم خرج يسأل عن خِداش بن زُهير حتى دُلَّ عليه بمَرِّ الظَّهْرَان[5]، فسار إلى خبائه فلم يجده، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافُه، ثم نادى امرأةَ خِداش: هل من طعام؟ فأَطْلَعَتْ إليه، فأعجبها جمالُهُ، وكان من أحسن الناس وجهًا؛ فقالت: والله ما عندنا من نُزْلٍ[6] نرضاه لك إلا تمرًا؛ فقال: لا أبالي، فأَخْرِجي ما عندكِ؛ فأرسلتْ إليه، بقُبَاع[7] فيه تمر، فأخذ منه تمرة فأكل شِقّها وردَّ شِقّها الباقيَ في القُباع، ثم أَمَر بالقباع فأُدخل على امرأة خداش بن زهير، ثم ذهب لبعض حاجاته.

ورجع خِدَاش فأخبرته امرأتُه خبرَ قَيْس، فقال: هذا رجلٌ مُتَحَرِّم[8] وأقبل قيس راجعًا. فلما رأى خِدَاش رِجْلهُ وهو على بعيره قال لامرأته: هذا ضيفُكِ؟ قالت: نعم؛ قال: كأن قدمه قدم الخَطِيم صديقي اليَثْرِبيّ؛ فلما دنا منه قرعَ طُنُبَ[9] البيت بسِنان رمحه، واستأذن، فأذن له خِداش، فدخل إليه، فنسبه[10] فانتسب، وأخبره بالذي جاء له، وسأله أن يُعينه، وأن يشيرَ عليه في أمره، فرحّب به خداش، وذكر نعمة أبيه عنده، وقال: إن هذا الأمر ما زلتُ أتوقّعه منذ حين.

---

(١) الناضح: البعير يستقي عليه الماء. (٢) الجرير: الحبل.
(٣) الغرارة: الكيس. (٤) الحائط: البستان.
(٥) الظهران: واد قرب مكة عند قرية يقال لها: «مر» تضاف إليه فيقال مر الظهران.
(٦) النزل: ما يهيأ للضيف من قرى. (٧) القباع: المكيال الضخم.
(٨) متحرم: له عندنا حرمة وذمة.
(٩) الطنب: بضمتين وسكون الثاني لغة: الحبل تشد به الخيمة ونحوها، والجمع أطناب.
(١٠) نسبه: طلب إليه أن ينتسب.

فأما قاتلُ جدّك فهو ابن عمّ لي وأنا أُعينك عليه، فإذا اجتمعنا في نادينا جلستُ إلى جانبه وتحدّثت معه، فإذا ضربتُ فخذَه فثِبْ إليه فاقتله.

قال قيس: فأقبلت معه نحوه حتى قمتُ على رأسه لمَّا جالَسه خِدَاش، فحين ضرب فخِذه ضربتُ رأسه بسيف يقال له: ذو الْخِرْصَيْنِ؛ فثار إليّ القومُ ليقتلوني، فحَال خداشٌ بينهم وبيني، وقال: دَعُوه فإنه والله ما قتلَ إلا قاتلَ جدّه.

ثم دعا خداش بجملٍ من إبله فركبه، وانطلق مع قيس إلى العَبْدِيّ الذي قتل أباه، حتى إذا كانا قريبًا من هَجَر، أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسألَ عن قاتل أبيه، فإذا دُلَّ عليه قال له: أن لصًّا من لصوص قومك عارضني فأخذ مني متاعًا لي. فسألت: مَن سيِّدُ قومه؟ فَدُلِلْتُ عليك؛ فانطلقْ حتى تأخذ متاعي منه، فإن اتَّبعك وحده فستنال ما تريد منه، وإن أخرج معك غيره فاضحك، فإن سألك مِمَّ ضحكتَ؟ فقل: إنّ الشريف عندنا لا يصنعُ كما صنعتَ إذا دُعي إلى اللص من قومه، إنما يخرج وحده بِسَوْطه دون سيفه، فإذا رآه اللص أعطى كل شيء أخذه، هيبةً له، فإن أمر أصحابه بالرجوع فذلك خير لك، وإن أبى إلا أن يمضوا معه فائتني به، فإني أرجو أن تقتلَه وتقتلَ أصحابه.

ونزل خِدَاش تحت ظل شجرة، وخرج قيس حتى أتى العَبْدِيَ، فقال له: ما أمره خداش فأَحْفَظَهُ[1]؛ فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس؛ فلما طلع على خِدَاش، قال له: اخترْ يا قيس؛ إما أن أُعِينَك وإما أن أكفيَك، قال: لا أريدُ واحدةً منهما، ولكن إن قتلني فلا يُفْلِتَنَّكَ؛ ثم ثار إليه فطَعَنه قيس بالحرْبة في خاصِرَته فأَنفذها من الجانب الآخر؛ فمات مكانه.

فلما فرغ منه قال له خِداش: إنا إن فرَرْنا الآن طلبَنا قومُه، ولكن ادخل بنا مكانًا قريبًا من مَقْتَلِه، فإنَّ قومه لا يظنّون أنك قتَلْتَه، وأقمتَ قريبًا منه؛ ولكنهم إذا افتقدوه[2] اقْتَفَوْا أثرَه، فإذا وجدوه قتيلًا خرجوا في طلَبنا في كل وجه، فإذا يئسوا رجعوا.

قال: فدخلا في دَاراتٍ من رمالٍ هناك، وفقَدَ العبْدِيَّ قومُه فاقْتَفَوْا أثره فوجدوه قتيلًا، فخرجوا يطلبونها في كل وجه ثم رجعوا، فكان من أمرهم ما قال

(١) أحفظه: أغضبه. (٢) افتقدوه: طلبوه عند غيبته.

خدَاش، وأقاما مكانهما أيامًا ثم خرجا، حتى أتَيَا منزلَ خِداش ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله، ففي ذلك يقول قيس:

تـذكَّـر لـيـلَى حـسـنـهـا وصـفـاءَهـا ... وبـانَـتْ فـمـا إن يـسـتـطـيـع لِقَـاءَهـا
ومثلُكِ قد أَصْبَيْتُ ليست بكَنَّةٍ[1] ... ولا جـارةٍ أفـضَـتْ إلـيّ خِـبـاءهـا
إذا ما اصطبحتُ أربعًا خط مِئْزَرِي[2] ... وأَتْبَعْتُ دَلْوي في السماح رشاءَها[3]
ثـأَرْتُ عـديًّـا والـخـطـيـمَ فـلم أُضِـعْ ... وصـيَّـةَ أشـيـاخٍ جُـعِـلْـتُ إزاءهـا

بَعد طعن عُمَر بن الخطّاب[4]

خرج عمرُ[5] بن الخطاب يومًا يطوفُ في السُوق، فلقيَه أبو لُؤْلُؤَةَ غلامُ المغيرة بن شعبة ـ وكان نَصْرَانيًا ـ فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أعْدِني[6] على المُغيرة بن شُعبَة، فإنَّ عليَّ خرَاجًا كثيرًا. قال: وكم خرَاجُك؟ قال: دِرهمان في كل يوم. قال: ما صِناعتك؛ قال: نجّار، نقّاش، حدّاد، قال: فما أرى خراجَك بكثير على ما تصنعُ من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردتُ أن أعمل رحًا تطحن بالريح فعلت، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحًا. قال: لئن سلمتُ لأعملَنَّ لك رحًا يتحدث بها مَن بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه.

فقال عمر: لقد تَوَعَّدَني العبد آنفًا، ثم انصرف عمر إلى منزله، فلما كان من الغد جاءه كعبُ الأحْبار فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ اعْهَدْ، فإنك ميِّتٌ في ثلاثة أيام، قال: وما يُدريك؟ قال: أجدُه في كتاب الله عزّ وجلّ، التوراة. قال عمر: اللهَ! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة! قال: اللهم لا؛ ولكني أجد صِفَتَك وحِلْيَتك، وأنه قد فَنِي أجلُك ـ وعمر لا يحس وجَعًا ولا ألمًا.

---

(١) الكنة: امرأة الابن أو الأخ.
(٢) يريد أنه إذا شرب أربعًا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء.
(٣) يريد أنه بلغ في السماح نهاه، يقال: أتبع الدلو رشاءها، وأتبع الفرس لجامها، إذا بذل آخر مجهوده.
(٤) تاريخ الطبري: ٥ ـ ١٢، العقد الفريد: ٢ ـ ٢٥٦.
(٥) عمر بن الخطاب: ثاني الخلفاء الراشدين، المضروب بعدله المثل، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر، وقتل سنة ٢٣ هـ.
(٦) أعداه: أعانه.

فلمّا كان من الغد جاء كعْب، فقال: يا أمير المؤمنين: ذهبَ يوم، وبقي يومان، ثم جاءه من غد، فقال: ذهب يومان؛ وبقي يوم وليلة، وهي لك إلى صبيحتها.

فلما كان الصبحُ خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكِّل بالصفوف رجالًا، فإذا استوَتْ جاء هو فكبَّر، ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنْجَر له رأسان، نِصَابُهُ[١] في وسطه، فضرب عمرَ ستّ ضربات؛ إحداهن تحت سُرَّته، وهي التي قتلته.

فلما وجَدَ عمر حرَّ السلاح سقط وقال: أفي الناس عبدُ الرحمٰن بن عوف؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين؛ هو ذا. قال: تقدَّم فصَلِّ بالناس. فصلَّى عبد الرحمٰن بن عوف، وعُمر طريح، ثم احتُملَ، فأدخِلَ دارَه.

ولما أَحَسَّ الناسُ قربَ موته قالوا له: يا أمير المؤمنين؛ لو استخلفت! قال: إنْ تركتُكم فقد ترككم مَن هو خيرٌ مني، وإن استخلفتُ فقد استخلف عليكم مَنْ هو خيرٌ مني، ولو كان أبو عُبيدة بن الجرّاح حيًّا لاستخلفتُه، فإن سألني ربي، قلت: سمعتُ نبيّك يقول: «إنه أمينُ هذه الأمة». ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لاستَخْلَفْتُه، فإن سألني ربي قلت: سمعتُ نبيك يقول: إن سالمًا يحب الله حُبًّا، لو لم يَخَفْه ما عصَاه[٢].

قيل له: فلو أنك عهدتَ إلى عبد الله بن عمر؛ فإنّه لذلك أهلٌ؛ لدينه وفضله وقديم إسلامه، فقال: بِحَسْبِ آل الخطاب أن يحاسَبَ منهم رجلٌ واحد عن أمةِ محمد، ولوددت أني نجوتُ من هذا الأمر كَفَافًا[٣]، لَا لِي ولا عَلَيَّ.

ثم رَاحُوا فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ لو عهدت! فقال: قد كنتُ أَجْمَعتُ[٤] بعد مَقَالتي لكم أن أُوَلِّي رجلًا أمرَكم أرجو أن يحمِلَكم على الحق ـ وأشار إلى علي ـ ثم رأيتُ أَلَّا أَتَحَمَّلَها حيًّا وميتًا. فعليكم بهؤلاء الرَّهْط الذين تُوفِّيَ رسول

---

(١) نصاب السكين: ما يقبض عليه.

(٢) هذه الجملة تدل على تقرير عدم العصيان على كل حال، وعلى أن انتفاء المعصية مع ثبوت الخوف أولى (المغني ص ٢٠٢ ج ١).

(٣) الكفاف: الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه، وهو نصب على الحال، وقيل: أراد مكفوفًا عني شرها.

(٤) أجمعت: عزمت.

الله وهو عنهم رَاضٍ: سعدُ بن أبي وقاص، وعبدُ الرحمٰن بن عوف، وعليُّ بن أبي طالب؛ وعثمانُ بن عفان، والزبيرُ بن العوّام؛ وطلحةُ الخير.

وقال لعبد الرحمٰن ادْعُ عليًّا وعثمان والزبير وسعدًا وقال: انتظروا أخاكم طلْحة ثلاثًا ـ وكان غائبًا ـ فإن جاء وإلا فاقضُوا أمرَكم. أنشدُك الله يا عليّ إن وليتَ من أمور الناس شيئًا أن تحملَ بني هاشم على رِقاب الناس! أنشدُك الله يا عثمان إن وليتَ من أمور الناس شيئًا أن تحملَ بني أبي مُعيط على رِقاب الناس! أنشدك الله يا سعد إن وليتَ من أمور الناس شيئًا أن تحمل أقارَبك على رقاب الناس؛ قُوموا فتَشَاوَرُوا، ثم اقْضُوا أمرَكم، ولْيُصَلِّ بالناس صهيب.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاريّ، فقال: قمْ على بابهم فلا تدَعْ أحدًا يدخلُ إليهم، وأُوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبَوَّءُوا الدار والإيمان: أن يحسِن إلى مُحْسنهم، وأن يعفُوَا عن مسيئهم، وأُوصي الخليفة من بعدي بالعرب؛ فإنهم مادَّةُ الإسلام؛ أن يأخذ من صدقاتهم حقَّها فتوضع في فقرائهم، وأُوصي الخليفة من بعدي بذمَّة محمد رسول الله؛ أن يُوفي لهم بعَهْدهم، اللّهُم هل بلّغت! تركتُ الخليفة من بعدي على أنْقَى من الراحة.

يا عبد الله بن عمر؛ اخرج فانظر مَنْ قتلني؟ فقال: يا أمير المؤمنين؛ قتلك أبو لؤلؤة غلامُ المغيرة بن شعبة، قال: الحمد لله الذي لم يجعل مَنِيَّتِي بيد رجل سجدَ لله سَجْدَةً واحدة، يا عبد الله بن عمر؛ اذهب إلى عائشة، فسلْها أن تأذنَ لي أنْ أُدفن مع رسول الله وأبي بكر، يا عبد الله بن عمر؛ إن اختلف القوم فكُنْ مع الأكثر، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة فاتَّبع الحزب الذي فيه عبد الرحمٰن، يا عبدَ الله؛ ائذن للناس.

فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلّمون عليه ويقول: أَعَنْ ملأٍ[1] منكم كان هذا؟ فيقولون: معاذ الله! ودخل في الناس كعب، فلما نظر إليه عمر قال:

فأوعدني كعبٌ ثلاثًا أعدّها ... ولا شكّ أن القول ما قال لي كعبُ
وما بي حذارُ الموت إنّي لميّتٌ ... ولكن حذارُ الذنب يتبعه الذنبُ

ثم فاضت روحه، رحمه الله.

---

(١) أي مشاورة من أشرافكم وجماعتكم.

المؤتمِرُون بعَلي وَمُعَاوِيَة وعَمْرو[١]

لما قتلَ عليٌّ أهلَ النّهرَوَان، وكان بالكوفة زُهاء ألفين من الخوارج ممّنْ لم يخرج مع عبد الله بن وهب، وقومٌ ممن اسْتَأْمَنَ[٢] إلى أبي أيوب الأنصاري؛ فتجمّعُوا وأمَّرُوا عليهم رجلًا من طيّء؛ فوجَّه إليهم عليٌّ رجلًا وهم بالنُّخَيْلَةِ[٣] فدعاهم ورفَق بهم فأَبَوْا، فعاودهم فأبَوْا، فاقتتلوا جميعًا.

فخرجت طائفةٌ منهم نحو مكَّة؛ فوجّه معاوية مَنْ يقيمُ للناس حجَّهم؛ فنَاوَشَهُ هؤلاء الخوارج؛ فبلغ ذلك معاوية؛ فوجّه بُسْرَ بن أَرْطَاةَ أحدَ بني عامر بن لؤي فتوقّفُوا وتَراضَوْا بعد الحرب بأن يصلّي بالناس رجلٌ من بني شيبة؛ لئلا يفوتَ الناسَ الحجُّ.

فلمَّا انقضى نظرت الخوارجُ فى أمرها فقالوا: إن عليًّا ومعاويةَ قد أفسدا أمْرَ هذه الأمة، فلو قتلناهما لعاد الأمرُ إلى حقه.

وقال رجلٌ من أَشْجَع: والله ما عمرو دونهما؛ وإنه لأَصْلُ هذا الفساد! فقال عبد الرحمٰن بن مُلْجَم: أنا أقتل عليًّا! فقالوا: وكيف لك به؟ قال: أَغْتَاله!

فقال الحجاج بن عبد الله الصّرِيميّ: وأنا أقتلُ معاوية! وقال زَاذَوَيْه مولى بني العَنْبَرِ: وأنا أقتلُ عَمْرًا!

فأجمَع رأْيُهُم على أن يكون قتْلُهم في ليلةٍ واحدة؛ فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان.

فخرج كلّ واحد منهم إلى ناحية: فأتى ابنُ ملجَم الكوفةَ، فأخْفَى نفسه، وأراد أن يتزوَّجَ من امرأةٍ يقال لها قَطَامِ بنت علقمة؛ وكانت ترى رَأيَ الخوارج[٤]؛ فقالت له: لا أقنعُ منك إلا بصدَاقٍ أُسَمِّيه لك وهو ثلاثة آلاف درهم وعبدٌ وأمَةٌ، وأن تقتلَ عليًّا! فقال لها: لكِ ما سألتِ! فكيف لي به؟ قالت: ترومُ ذلك غِيلة؛

---

(١) المسعودي: ٢ - ٤٠، ابن أبي الحديد: ٢ - ٤٢، ٢ - ١٤٤، الكامل: ٢ - ١٢٥، رغبة الآمل: ٧ - ١١٨.

(٢) رفع على راية الأمان مع أبي أيوب، فنادى: مَن جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومَن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن فهو آمن.

(٣) النخيلة: موضع قرب الكوفة.

(٤) كان على قتل أباها وأخاها يوم النهروان، وكانت أجمل أهل زمانها.

فإن سَلِمتَ أرحت الناس من شرّ وأقمتَ مع أهلك، وإن أُصِبْتَ صِرْتَ إلى الجنة ونعيم لا يزول! فأنْعَمَ[١] لها، وخرج من عندها وهو يقول:

ولم أرَ مَهرًا ساقَهُ ذو سماحةٍ كَمَهْرِ قَطَام من فصيح وأعْجَم
ثلاثة آلاف وعبدٌ وقينةٌ وضربُ عليّ بالحُسَام المصمِّم[٢]
فلا مَهرَ أغلى مِنْ عليٍّ وَإن غَلَا ولا فَتْك إلّا دُونَ فتك ابنِ مُلْجَمِ

ثم أقام ابن مُلجَم؛ فلامته امرأته، وقالت: ألا تمضي لما قصَدْتَ! لشدّ ما أحببْتَ أهلك! قال: إني قد وعدتُ صاحبيّ وقتًا بعينه.

ثم واطأ رجلًا من أشجع يقال له شَبيب بن بحيرة على ذلك.

فلما كانت ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان خرج ابن مُلْجَم وشبيبٌ الأشجعي فاعتَوَرَا[٣] البابَ الذي يدخل منه عليّ رضي الله عنه مغلّسًا[٤] ويوقظ الناس للصلاة؛ فخرج كما كان يفعل، فضربه شبيب فأخطأه، وأصاب سيفُه الباب، وضربه ابن مُلْجَم على صلْعَتِهِ وهو يقول: للهِ الحكم لا لك يا عليّ. فقال عليّ: فُزتُ[٥] ورب الكعبة! شأنكم بالرجل!

وحمل ابن مُلْجَم على الناس بسيفه، فأفرجوا له، وتلقّاه المغيرةُ بن نَوْفل بن الحارث بن عبد المطلب بقطيفة، فرمى بها عليه، واحتمله فضرب به الأرض - وكان المغيرة أَيِّدًا[٦] - فقعد على صدره.

وأما شبيب فانتزع السيفَ منه رجل من حَضْرَمَوْت، وصرعه، وقعد على صدره؛ وكثر الناس، فجعلوا يصيحون: عليكم صاحبَ السيف؛ فخاف الحضرمي أن يُكِبُّوا عليه، ولا يسمعوا عذره؛ فرمى بالسيف، وانسلّ شبيب بين الناس.

فدُخلَ على عليّ رضي الله عنه، فأومر فيه فاختلف الناس في جوابه، فقال عليّ: إن أعِشْ فالأمرُ إليّ، وإن أُصَبْ فالأمر لكم، فإن آثرتُمْ أن تقتصوا فضربةٌ بِضَرْبة، وأن تعفوا أقرب للتقوى.

(١) أنعم لها: قال لها: نعم. (٢) المصمم من السيوف: الذي يمر في العظام.
(٣) اعتوروا الشيء: تداولوه فيما بينهم.
(٤) التغليس: السير بغلس، والغلس: ظلمة آخر الليل.
(٥) قار الشيء: قطعه من وسطه خرقًا مستديرًا. (٦) الأيد: القوى.

وأقام عليٌّ يومين؛ فسمع ابن ملجم الرَّنَّة من الدار، فقال له مَن حضره: أي عدوَّ اللهِ، إنه لا بأس على أمير المؤمنين، فقال: أما والله لقد اشتريتُ سيفي بألف درهم، وما زلت أعرِضه فما يعيبه أحدٌ إلا أصْلحتُ ذلك العيب، ولقد سقيْتُهُ السُّمَّ حتى لفظه، ولقد ضربْتهُ ضربةً لو قُسِّمَتْ على مَنْ بالمشرق لأتَتْ عليهم.

ومات عليٌّ رضي الله عنه، في اليوم الثالث.

فدعا به الحسنُ رضي الله عنه فقال ابن مُلجم: إنّ لي عندك سرًّا! فقال الحسن: أتدرون ما يريد مني؟ يريد أن يقرب من وجهي فيعضّ أُذني فيقْطَعها!

فقال: أما والله لو أمكنتني منها لاقتلعتُها من أصلها! فقال الحسن: كلا والله لأضربنَّك ضربة تؤدي بك إلى النار! فقال: لو علمتُ أن هذا في يديك ما اتخذت إلـٰهًا غيرك! فقال عبد الله بن جعفر: يا أبا محمد؛ ادفعه إليَّ أشْفِ نفسي منه؛ فأحْمَى له مِيلين وكحله بهما فجعل يقول: إنك يا ابن أخي لتكْحِلُ عمك بملْمُولين[1] مضاضيْن[2]. ثم قتله.

وأما الحجاجُ بن عبد الله الصَّريميّ فإنه ضرب معاوية مُصَلّيًا، فأصاب مَأْكَمَتَه[3]، وكان معاوية عظيمَ الأوْرَاكِ فقطع منه عِرْقًا، فجاء الطبيب إليه فنظر إلى الضربة، فقال: إن السيف مسموم، فاخترْ إما أن أحميَ لك حديدة فأجعلها في الضربة، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك! فقال: أما النار فلا أطيقها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تقرُّ به عيني، وحسبي بهما. فسقاه الدواء، فعُوفِي وعالج جرحه حتى التأم، فلم يُولَدْ لمعاوية بعد ذلك ولد.

فلما أُخِذَ قال: الأمان والبشارة؛ قُتِلَ عليّ في هذه الصبيحة، فاسْتُؤْنيَ[4] به حتى جاء الخبر، فقطع معاوية يده ورجله؛ فأقام بالبصرة؛ فبلغ زيادًا أنه قد ولد له، فقال: أيولد له وأميرُ المؤمنين لا يولد له فقتله.

وأما زَاذَوَيه فإنه أرْصَدَ لعمرو، واشتكى عمرو بطنه فلم يخرُجْ للصلاة وخرج خارجة[5]، فضربه زاذويه فقتله.

---

(١) الملمول: المكحال.
(٢) مض الكحل العين: آلمها.
(٣) المأكمة: لحمة على رأس الورك.
(٤) استأنى: تأنى وتثبت.
(٥) هو خارجة بن خذافة أحد بني عامر بن لؤي.

فلما دُخِلَ به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرة، قال: أو ما قتلتُ عمرًا! قيل: لا؛ إنما قتلت خارجةَ. قال: أردتُ عمرًا. وأراد الله خارجة!

وأُوقِفَ الرجل بين يدي عمرو فسأله عن خبره، فقصّ عليه القصّة، وأخبره أن عليًا ومعاوية قُتِلا في هذه الليلة، فقال: لا بد من قتلك؛ فبكى، فقيل له: أجزعًا من الموت مع هذا الإقدام! فقال: لا والله؛ ولكن غمًّا أن يفوزَ صاحبيّ بقتل علي ومعاوية، ولا أفوز أنا بقتلَ عمرو! فضرب عنقه وصُلِب.

بَين عَبد المَلك بن مروَان وعَمرُو بن سعيد(١)

لما أراد عبدُ الملك بن مروان الخروجَ إلى العراق لقتال مُصعب بن الزبير، وأخذ في جِهَازه أقبلت عاتكة ابنة يزيد بن معاوية، امرأته، في جواريها، وقد تزينتْ بالْحُلِيّ، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ لو قعدتَ في ظلال مُلكك، ووجّهت إليه كلْبًا من كلابك لكفاك أمرَه، فقال: هيهات! أما سمعت قول الأول:

قومٌ إذا ما غزَوْا شَدُّوا مآزِرَهم ... دونَ النساء ولو بَاتَتْ بأطْهَارِ

فلما أبى عليها وعزم، بكت وبكى معها جواريها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي ربيعة؛ كأنه ينظر إلينا حيث يقول:

إذا ما أراد الغزوَ لم يَثْنِ همَّهُ ... حَصَانٌ عليها نَظْمُ دُرّ يَزينُها
نَهَتْهُ فلمّا لم تَرَ النَّهْيَ عاقَهُ ... بكتْ فبكَى مما دهَاها قَطينُها(٢)

ثم خرج يُريد مُصعب، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغْلَق عمرُو بن سعيد دمشق، وخالف عليه، فقيل له: ما تصنع؟ أتريدُ العراق وتَدَعُ دمشق؟ أهلُ الشام أشدُّ عليك من أهل العراق. فرجع مكانه، وحاصر أهل دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده، وأن له مع كل عامل عاملًا ففتح له دمشق، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد، فأرسل إليه عبد الملك: أن أَخْرِج للحرس أرزاقهم. فقال: إذا كان لك حرس فإن لنا حرسًا أيضًا، فقال عبد الملك: أَخْرِج للحرس أرزاقهم.

فلمّا كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصفَ النهار. أن ائتني أبا أُمَيَّة حتى أُدَبِّرَ معك أمورًا، فقالت امرأته: يا أبا أُميّة؛ لا تذهَبْ إليه،

(١) العقد الفريد: ٣ ـ ١٥٣، الأمالي: ١ ـ ١٤. (٢) القطين: الخدم.

فإنني أتخوَّفُ عليك منه، فقال: والله لو كنتُ نائمًا ما أيقظني! قالت: والله ما آمَنُه عليك، وإنّي لأجِدُ ريحَ دمٍ مَسْفُوح؛ فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجَّها.

فخرج وخرج معه أربعةُ آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يُقدر على مثلهم، مسلَّحين، فأحدقوا بخَضْرَاء دمشق، وفيها عبدُ الملك، فقالوا: يا أبا أُمية؛ إن رَابك ريبٌ فأسْمِعْنَا صوتَك، ثم دخل، فجعلوا يصيحون: يا أبا أميّة؛ أسْمِعْنا صوتك - وكان معه غلام أَسْحَمُ[١] شجاع - فقال له: اذهب إلى الناس فقل لهم: ليس عليه بأس؛ فقال له عبد الملك: أمكرًا عند الموت أبا أميّة! خذوه، فأخذوه ثم قال له عبد الملك: إني أقسمتُ إن أمكنَتْنِي منك يد أن أجعل في عنقك جَامِعة[٢]، وهذه جامعة من فضة، أريدُ أن أَبَرَّ بها قسمي، وطَرَح رقبتَه في الجامعة، ثم نَتَرَهُ[٣] إلى الأرض بيده، فانكسرت ثَنِيَّتُه[٤]، فجعل عبد الملك ينظر إليه، فقال عمرو: ولا عليك يا أمير المؤمنين، عظم انكسر.

وجاء المؤذّنون فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين - لصلاة الظهر - فقال لعبد العزيز بن مروان: اقتُله حتى أرجعَ إليك من الصلاة، فلما أراد عبد العزيز أن يضربَ عنقه، قال له عمرو: نَشدتك[٥] الرَّحِم يا عبد العزيز ألّا تقتلني من بينهم، فجاء عبد الملك، فرآه جالسًا. فقال: ما لك لم تقتله؟ لعنك الله، ولعن أمًّا ولدتك! ثم قال: قدِّموه إليّ، فأخذ الحرْبَة بيده فقال: فعلتها يا ابنَ الزرقاء، فقال له عبد الملك: إنّي لو علمت أنك تبقى ويصلحُ لي ملكي لفديتُك بدم الناظر، ولكن قلما اجتمع فحلان في ذَوْد[٦] إلا عَدَا أحدُهما على الآخر، ثم رفع إليه الحربة فقتله وقَعَدَ يَرْعَد، ثم أمر به فأُدْرِج في بساط وأُدخل تحت السرير.

وأرسل إليه قَبيصة[٧] بن ذؤيب الخُزاعيّ فدخل عليه، فقال: كيف رأيْك في عمرو بن سعيد الأشدق، فقال - وقد أبصر قبيصةُ رِجْلَ عمرو تحت السرير: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين، واطرح رأسَه، وانثُر على النّاس الدنانير يتشاغلون بها، ففعل، وافترق الناس.

---

(١) الأسحم: الأسود. (٢) الجامعة: الغل.
(٣) النتر: الجذب بجفاء.
(٤) الثنية من الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.
(٥) نشدتك: سألتك. (٦) الذود من الإبل: ما بين الثلاث إلى العشر.
(٧) صحابي من الفقهاء الوجوه، كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام، وتوفي بدمشق=

الأخطَل يفرُق مِن الجحّاف(١)

كان الجحّافُ بن حكيم السُّلَميّ(٢) من فُتَّاك العرب، وكان من خبر ابن عمّه عُمير بن الحُباب السُّلَميّ أنه نهض في الفِتْنَة التي كانت بالشام بين قيس وكلْب بسبب الزُّبيرية والمرْوانيّة، فلقى في بعض تلك المُغَاوَرات(٣) خيلًا لبني تَغْلب؛ فقتلوه؛ فلما اجتمع الناس على عبد الملك بن مَرْوان، ووضَعتْ تلك الحرب أوزارَها دخل الجحّاف على عبد الملك والأخطلُ عنده، فالتفت إليه الأخطل فقال:

أَلَا سائل الجحّاف هل هو ثائرٌ لِقَتْلَى أُصِيبَتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ!

فقال الجحَّاف مجيبًا له:

بلى، سوفَ أبكِيهمْ بكلّ مُهَنَّدٍ وأبكى عميرًا بالرِّماح الخوَاطِرِ(٤)

ثم قال: يا ابنَ النصرانيّة؛ ما ظننتُك تجترىء عليّ بمثل هذا ولو كنتُ مأسورًا! فحُمَّ الأخطل فَرقًا(٥) من الجَحّاف، فقال عبد الملك: لا تُرَع، فإنّي جَارُك منه. فقال الأخطل: يا أمير المؤمنين؛ هَبْكَ تُجيرني منه في اليقظة، فكيف تجيرني في النوم!

ثم نهض الجحَّاف من عند عبد الملك يسحبُ كِسَاءه، فقال عبد الملك: إن في قفاه لَغَدْرَة، ومرّ الجحَّافُ لِطَّيته(٦)، وجمع قومه وأتى الرّصَافَة، ثم سار إلى بني تَغْلِب فصادف في طريقه أربعمائة منهم فقتلهم، ومضى إلى البِشْر(٧) فصادف عليه جَمْعًا من تغلب، فقتل منهم خمسمَائة رجل، وتعدَّى الرجال إلى قَتْل النساء والوِلْدَان(٨)، فنادتْه عجوز منهم، وقالت: يا جَحَّاف؛ أتقتل النساء! فانخذل ورجع.

= سنة ٥٠٦.

(١) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٤، معجم البلدان: ٢ ـ ١٨٦.

(٢) فاتك، ثائر، شاعر كان معاصرًا لعبد الملك بن مروان، توفي نحو سنة ٩٠ هـ.

(٣) غاورهم: أغار عليهم وأغاروا عليه، والمغاورة مفاعلة.

(٤) المهند: السيف. خطر الرمح: احتز. (٥) فرقًا: خوفًا.

(٦) يقال: مضى لطيته، أي لوجهه الذي يريده، ولنيته التي انتواها.

(٧) البشر. ماء لبني تغلب.

(٨) الوليد: المولود، والصبي والعبد؛ جمعه الولائد والولدان.

فبلغ الخبرُ الأخطل، فدخل على عبد الملك، وقال:

لقد أوقع الجحَّاف بالبِشْر وقعَةً إلى الله منها المُشْتَكى والمعَوَّلُ

فأهدر[١] عبد الملك دعم الجحَّاف. فهرب إلى الروم، فكان بها سبع سنين، ومات عبد الملك، وقام الوليد بن عبد الملك، فاستُؤمن للجحّاف، فأمَّنه، فرجع.

قَد أخَرتُ الإذن عَلَيْهِ لِتَقتلُوه فَلَم تَفعَلُوا[٢]

قال عُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيَّات[٣]: خرجتُ مع مُصْعَب بن الزبير حين بلغه شُخُوص عبدِ الملك بنِ مروان إليه. فلما نزل مُصْعَب بمَسْكِن[٤]، ورأى معالمَ الغَدْرِ ممن معه، دعاني ودعا بمالٍ ومَنَاطِقَ[٥]، فملأ المناطقَ من ذلك المال وَألْبَسني منها، وقال لي: انطلق حيث شئت فإني مقتول؛ فقلت له: والله لا أرِيم[٦] حتى أرى سبيلَك، فأقمتُ معه حتى قُتل.

ثم مضيتُ إلى الكوفة، فأول بيت صرتُ إليه دخلتُه، فإذا فيه امرأةٌ لها ظَبْيَتان، فرَقِيتُ في درجةٍ لها إلى مَشْربَة[٧]، فقعدت فيها، فأمرتْ لي المرأة بما أحتاجُ إليه من الطعام والشراب والفَرْشِ والماء للوُضوء، فأقمتُ كذلك عندها أكثرَ من حَوْل، تُقيمُ لي ما يصلحني، وتغدو عليّ في كل صباح فتسألني بالصباح والحاجة[٨]، ولا تسألني من أنا، ولا أسألها من هي! وأنا في ذلك أسمعُ الصياح فيّ والجُعْل.

فلمّا طال بي المقام، وفقدتُ الصِّياحَ فيّ، وغَرِضْتُ[٩] بمكاني غَدَتْ عليّ تسألني بالصباح والحاجة، فعرَّفتها أني قد غرِضتُ وأحببت الشخُوص إلى أهلي؛ فقالت لي: نَأتيك بما تحتاجُ إليه إن شاء الله تعالى.

---

(١) أهدر دمه: أبطله؛ أي أباح قتله. (٢) الأغاني: ٥ ـ ٧٦.

(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات: شاعر قريش في الإسلام، ولقب الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعًا رقية.

(٤) مسكن: موضع على نهر دجيل (شعب من دجلة) بالكوفة، به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان، ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢ هـ وبه قتل مصعب.

(٥) المنطقة: ما يشد على الوسط. (٦) لا أبرح.

(٧) المشربة: الغرفة والعلية. (٨) أي تقول: كيف أصبحت؟

(٩) غرضت: مللت.

فلمّا أمسيتُ، وضرب الليل برواقِه رَقِيَتْ إليّ وقالتْ: إذا شئت، فنزلت وقد أعَدَّتْ راحلتين عليهما ما أحتاجُ إليه، ومعهما عبد، وأعطت العبد نفقةَ الطريق، وقالت: العَبْدُ والراحلتان لك.

فركبت وركب العبد معي حتى طرقتُ أهل مكة، فدققت منزلي؛ فقالوا لي: منْ هذا؟ فقلت: عبيد الله بن قيس الرقيّات، فوَلْوَلُوا وبَكَوْا، وقالوا: ما فارقَنا طلبُك إلا في هذا الوقت؛ فأقمت عندهم حتى أَسْحَرْتُ[1].

ثم نهضتُ ومعي العبد حتى قَدِمْتُ المدينة، فجئتُ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عند المساء، وهو يُعَشِّي أصحابه، فجلستُ معهم، وجعلت أتعاجم وأقول: ياريار[2] بن طيّار[3]! فلما خرج أصحابُه كشفتُ له عن وجهي، فقال: ابن قيس؟ فقلت: ابن قيس، جئتُك عائذًا بك؛ قال: ويحك! ما أجدَّهم في طلبك! وأَحْرَصهم على الظَّفَر بك! ولكني سأكتبُ إلى أم البنين بنتِ عبد العزيز بن مروان فهي زوجةُ الوليد بن عبد الملك، وعبد الملك أرقُّ شيء عليها. فكتب إليها يسألها أن تشفعَ له إلى عمها، وكتبَ إلى أبيها يسأله أن يكتبَ إليها كتابًا يسألها الشفاعة.

فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعلُ وسألها: هل من حاجة؟ فقالت: نعم لي حاجة؛ فقال: قد قضيتُ كلّ حاجة لك إلا ابن قيس الرقيّات؛ فقالت: لا تَسْتَثْنِ عليّ شيئًا! فَنَفح[4] بيده، فأصاب خدّها، فوضعتْ يدها على خدّها؛ فقال لها: يَا ابْنَتي؛ ارفعي يدك، قد قضيتُ كلّ حاجة لك، وإن كانت ابنَ قيس الرقيّات؛ فقالت: إن حاجتي ابنُ قيس الرقيات تؤمّنه، فقد كتب إليّ أبي يسألني أنْ أسألك ذلك؛ قال: فهو آمِن فَمُريه يحضر مجلسي العشية.

فحضر ابنُ قيس وحضر الناسُ حين بلغهم مجلسُ عبد الملك، فأخّر الإذْنَ، ثم أذِن للناس، وأخّرَ إذنَ ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم، ثم أَذِنَ له؛ فلما دخل عليه قال عبد الملك: يَا أهلَ الشام؛ أتعرفون هذا؟ قالوا: لا؛ فقال:

---

(١) أسحر: دخل في وقت السحر.
(٢) ربار: كلمة فارسية، ومعناها: الصاحب والشفيق والمعين.
(٣) الطيار: لقب جعفر بن أبي طالب، والد عبد الله هذا.
(٤) نفح بيده: ضرب بها ضربة خفيفة.

هذا عبيد الله بن قيس الرقيّات الذي يقول:

كيف نومي على الفراش ولمّا تشمل الشامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهِلُ الشيخ عن بنيه وتُبْدِي عن خِدَام العقيلة العذراءُ[١]

فقالوا: يا أمير المؤمنين، اسْقِنا دمَ هذا المنافق! قال: الآن وقد أمَّنتُه وصار في منزلي وعلى بِسَاطي! قد أخَّرْت الإذن له لتَقْتلوه فلم تفعلوا. فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه فأَذِنَ له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

عادَله من كَثيرَةَ[٢] الطَّرَبُ[٣] فعينه بالدموع تَنْسكِبُ
كوفيَّةٌ نازحٌ مَحَلَّتُهَا لا أَمَمٌ[٤] دارها ولا صَقَبُ[٥]
والله ما إن صَبَتْ إليّ ولا يُعْرَفُ بيني وبينها سَبَبُ
إلا الذي أوْرَثَتْ كَثِيرَةُ في القـ ـلب، وللحبِّ سَوْرَةٌ[٦] عَجَبُ

حتى قال فيها:

إن الأغرّ الذي أبوه أبو الـ ـعاصي عليه الوقارُ والحُجُبُ
يعتدِل التاجُ فوق مَفْرِقِه على جبينٍ كأنه الذهبُ[٧]

فقال له عبد الملك: يا ابن قيس؛ تمدحني بالتّاج كأني من العجم، وتقول في مُصعب:

إنما مُصْعَبٌ شِهَابٌ من الـلّـ ـه تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ ليسَ فيه جَبَرُوتٌ منه ولا كبرياءُ

أمّا الأمان فقد سبق لك؛ ولكن لا تأخذْ مع المسلمين عطاءً أبدًا.

---

(١) الخدام: جمع خدمة (بالتحريك) وهي الخلخال: قال في اللسان: أراد وتبدى عن خدام العقيلة، وخدام هنا في نية عن خدامها، وعدى تبدى بعن لأن فيه معنى تكشف.
(٢) كثيرة هي التي تزل بدارها عبد الله بن قيس فآوته وأصبح بعد ذلك يذكرها كثيرًا في شعره.
(٣) الطرب هنا: الحزن.
(٤) لا أمم دارها: ليست قريبة.
(٥) الصقب: الملاصقة.
(٦) السورة: شدة الأمر.
(٧) وفي هذه القصيدة:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب

فذهب ابنُ قيس إلى عبد الله بن جعفر، وقال له: ما نفعني أماني، تُرِكت حيًّا كميّتٍ، لا آخذ مع الناس عطاءً أبدًا!

فقال له عبد الله: كم بلغتَ من السن؟ قال: ستين سنة. قال: فعمِّرْ[١] نفسك، قال: عشرين سنة من ذي قَبَل[٢]، فذلك ثمانون سنة، قال: كم عطاؤك؟ قال: ألفا درهم، فأمر له بأربعين ألف درهم، وقال: ذلك لك عليَّ إلى أن تموتَ على تعميرِك نَفْسك، فعند ذلك قال عُبَيْد الله بن قيس الرقيّات يمدح عبد الله بن جعفر:

تَقَدَّتْ بي الشهباءُ نحو ابن جعفرٍ[٣] ... سواء عليها ليلُها ونهارُها
تَزُور امرأً قد يعلم الله أنه ... تجودُ له كفٌّ قليلٌ غِرَارُها[٤]
أتيناك نُثْنِي بالذي أنت أهلُهُ ... عليك كما يُثْنِي على الرَّوْض جارُها
فواللهِ لولا أن تزورَ ابنَ جعفر ... لكان قليلًا في دِمَشقَ قَرَارُهَا
إذا مُتَّ لم يوصَلْ صديق ولم تُقَمْ ... طريقٌ من المعروف أنتَ مَنَارُها
ذكرتك إن فاضَ الفراتُ بأرضنا ... وفاض بأعلى الرَّقَّتَيْنِ[٥] بحارُها

آبِــي الضَّيم[٦]

قال المفضل الضبّي:

كان إبراهيمُ بن عبد الله بن الحسن[٧] متواريًا عندي بالبصرة، وكنت أخرج وأتركه، فقال لي: إذا خرجتَ ضاق صدري، فأخْرِج إليّ شيئًا من كتبك أتفرّجُ به، فأخرجتُ له كتبًا من الشعر، فاختار منها القصائد التي صدّرتُ بها كتاب المفضليات، ثم أتممتُ عليها باقي الكتاب.

(١) عمر نفسه: قدر لها قدرًا محدودًا.
(٢) يقال: أفعل ذلك من ذي قبل: أي أفعله في المستقبل.
(٣) تقدت: أي سارت سيرًا ليس بعجل ولا مبطىء، ولزمت سنن الطريق.
(٤) قليل غرارها: أي أن منعها المعروف قليل، وأصل الغرار أن تمنع الناقة درتها، ثم يستعار في كل ما أشبه ذلك، أو الغرار: المثال.
(٥) الرقتان: يراد بهما الرقة والرائقة، وهما مدينتان، والتثنية من باب التغليب.
(٦) ابن أبي الحديد: ١ ـ ٣٢٤، الأغاني: ١٠ ـ ٥.
(٧) أحد الأشراف الشجعان، خرج بالبصرة على المنصور العباسي، وكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة إلى أن قتل سنة ١٤٥ هـ.

فلما خرج خرجتُ معه، فلما صار بالمِرْبد، مربدِ سليمان بن عليّ، وقف عليهم، واستسقى ماء، فأُتِيَ به، فشرب، فأُخْرج إليه صبيان من صبيانهم، فضمَّهم إليه، وقال: هؤلاء والله منا ونحن منهم لحمنا ودمنا، ولكن آباءهم انتزَوْا[١] على أمرنا، وابتزُّوا حُقوقنا، وسفكوا دماءنا، ثم تمثّل:

مهلًا بني عمِّنا ظلامتنا ... إن بنا سورةً[٢] من الغلق[٣]

لمثلكم[٤] نحمل السيوف ولا ... نغمز أحسابنا من الرَّقَق[٥]

إني لأُنْمَى[٦] إذا انتميتُ إلى ... عِزٍّ عزيزٍ ومعشر صُدق

بيض سِبَاطٍ[٧] كأنَّ أعينهمْ ... تكحل يوم الهياج بالعَلق[٨]

فقلت له: ما أجود هذه الأبيات وأفحلَها! فلمنْ هي؟ فقال: هذه يقولها ضِرار بن الخطاب الفهريّ يوم عَبَر الخَنْدق على رسول الله صلّى الله عليه وسلم وآله، وتمثَّل بها عليّ بن أبي طالب يوم صفِّين، والحسين يوم الطَّفّ[٩]، وزيد بن عليّ يوم السَّبَخَة[١٠]، ويحيىٰ بن زيد يوم الجُوزجان[١١]، فتطيّرتُ له مِنْ تمثّله بأبيات لم يتمثّل بها أحدٌ إلا قُتل.

ثم سرنا إلى بَاخْمَرَا[١٢]، فلمّا قرب منها أتاه نَعْيُ أخيه محمد، فتغيّر لونه، وجرِض[١٣] بريقه، ثم أجهش باكيًا، وقال: اللهم إن كنتَ تعلم أنَّ محمدًا خرج يطلبُ مَرْضاتك، ويُؤْثِر أن تكون كلمتُك العليا، وأمرُك المتَّبَع المطاع، فاغفر له، وارحمه وارضَ عنه، واجعلْ ما نقلته إليه من الآخرة خيرًا مما نقلته عنه من الدنيا، ثم انفجر باكيًا، ثم تمثلّ:

أنا المُنَازِل يا خيرَ الفوارسِ مَن ... يُفْجَعْ بمثلك في الدنيا فقد فُجعا

---

(١) انتزى إلى الشر: توثب. (٢) السورة: الوثوب.
(٣) الغلق: الضجر.
(٤) المراد: أننا نحمل لكم السيوف، لأنكم أكفاؤنا.
(٥) الرقق: الضعف. (٦) أُنسب.
(٧) السباط: جمع سبط، وهو حسن القد والاستواء.
(٨) العلق: الدم، يريد أن عيونهم حمر لشدة الغيظ والغضب، فكأنها كحلت بالدم.
(٩) الطف: ضاحية الكوفة، وبها قتل الحسن. (١٠) السبخة: موضع بالبصرة.
(١١) جوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وبها قتل يحيىٰ بن زيد.
(١٢) باخمرا: موضع بين الكوفة وواسط. (١٣) جرض بريقه: ابتلعه بالجهد على مضض.

اللهُ يعلمُ أنّي لو خشيتهمُ ... أو آنسَ القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا
لم يقتلوك ولم أُسْلِمِ أَخِي لهمُ ... حتى نعيشَ جميعًا أو نموتَ معًا

قال المفضّل: فجعلت أُعَزِّيه وأعاتبُه على ما ظهر من جَزعه، فقال: إني والله في هذا كما قال دُرَيْد بن الصِّمة:

تقول: ألَا تبكي أخاك وقد أرى ... مكان البُكا، لكن بُنيتُ[1] على الصبرِ
لمقتل عبد اللهِ والهالك الذي ... على الشّرف الأعلى قتيلِ[2] أبي بكر
وعبدِ يغوث[3] أو خَليليَ خالدِ[4] ... وجَلّ مصابًا حَثْوُ قبرٍ على قبرِ!
فإمّا تَرَيْنَا لا تزالُ دماؤُنا ... لَدَى واترٍ يَشْقَى بها آخرَ الدهر
فإنّا لَلَحْمُ السيف غيرَ نَكِيرةٍ[5] ... ونُلْحِمُه[6] طورًا وليس بذي نكرِ
يُغَارُ علينا واترين فيُشْتَفَى ... بنا إن أُصِبْنَا، أو نُغير على وِتْرِ
بذاك قَسَمْنَا الدهر شَطْرين قِسْمةً ... فما ينقضي إلا ونحنُ على شطر

قال المفضّل: ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثلُ الجراد، فتمثّل إبراهيم:

إن يقتلوني[7] لا تُصِب أرْماحُهم ... ثأري ويسعى القوم سَعْيًا جاهدا
نبِّئتُ أن بني جَذِيمة أجمعتْ ... أمرًا تُدبِّره لِتَقْتُلَ خالدا
أزمِي[8] الطريقَ وإن رُصِدت بِضيقِه ... وأنازلُ البطل الكَمِيَّ الحارِدَا[9]

قلت له: مَن يقول هذا الشعر يا ابن رسول الله؟ فقال: يقوله خالد بن جعفر بن كِلاب يوم شِعْب جَبَلَة.

---

(١) بنيت: خلقت.
(٢) قتيل أبي بكر هو أخوه قيس، قتله بنو أبي بكر بن كلاب يرأسهم عمرو بن سفيان الكلابي.
(٣) أخوه أيضًا قتله بنو مرة. (٤) خالد أخوه أيضًا قتله بنو الحارث بن كعب.
(٥) التنكر: التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها، والاسم النكيرة.
(٦) ألحمته سيفي: قتلته، وأصل ألحمه: أطعمه اللحم.
(٧) المعنى: أنهم إن قتلوني، ثم حاولوا أن يصيبوا رجلًا آخر مثلي يصلح أن يكون لي نظيرًا وسعوا في ذلك سعيًا جاهدًا، فإنهم لن يجدوا.
(٨) يقول: أسلك الطريق الضيق، ولو جعل لي فيه الرصد لقتلي.
(٩) الحارد: المنفرد في شجاعته، الذي لا مثل له.

ثم أقبلت عساكر أبي جعفر المنصور، فطعن رجلًا وطعنه آخر، فقلت له: أتباشر القتال بنفسك! وإنما العسكر منوط بك، فقال: إليك يا أخا بني ضبّة، فإني لكما قال عويف القوافي:

ألـمّـت سـعـاد، وإلـمـامُـهـا ... أحـاديـثُ نـفـسٍ وأحـلامُـهـا
مـحـجّـبـةٌ مـن بـنـي مـالـكٍ ... تَـطَـاول فـي الـمـجـد أعـلامُـهـا
وإنّ لـنـا أصـلَ جُـرثـومـةٍ ... تـردّ الـحـوادثَ أيـامُـهـا
تـردّ الـكـتـيـبـةَ مَـفْـلولـةً ... بـهـا أفْـنُـهـا وبـهـا ذامُـهـا[1]

والتحمت الحرب واشتدّت، فقال يا مفضّل: احكنِي بشيء، فذكرت أبياتًا لعُوَيف القوافي لما كان ذَكَرُه هو من شعره فأنشدته:

ألا أيُّها النّاهي فَزارةَ بعدَما ... أجدّت لسَيْرٍ، إنّما أنت ظالمُ
أبَى كلُّ حرٍّ أن يبيت بِوِتْره ... وتمنعَ منه النومَ إذ أنت نائمُ
أقول لفتيان كرام تروّحوا ... على الجُرْدِ في أفواههن الشكائمُ:
قِفوا وقفةً، مَنْ يَحْيَ لا يُخْزَ بعدها ... ومَن يُخْتَرمْ لا تتَّبْعه اللوائمُ
وهل أنت إنْ باعدتَ نفسك عنهمُ ... لتسلَم فيما بعد ذلك، سالم!

فقال: أعد وتبيّنْتُ من وجهه أنه يستقتل، فانتهيت وقلت: أو غير ذلك! فقال: لا، بل أَعِد الأبيات، فأعدتها، فتمطّى في ركابَيْه فقطعهما، وحمل فغاب عني، وأتاه سَهْمٌ عائرٍ[2] فقتله، وكان آخر عهدي به.

مَصرَع الوَليد بن طَرِيف[3]

كان الوليدُ بن طَريف الشيبانيّ[4] رأسَ الخوارج وأشدَّهم بأسًا وصَوْلة، واشتَدَّتْ شوْكتُه، وطالت أيامُه، فوجَّه إليه الرشيد يزيدَ بنَ مزيد الشيبانيّ[5]، فجعل يخاتِله ويماكره ـ وكانت البرامكة منحرفةً عن يزيد ـ فأغْرَوْا به أميرَ المؤمنين، وقالوا: إنما يتجافى عنه للرَّحِم، وإلا فَشَوْكَة الوليد يَسيرة.

---

(١) الأفن: النقص، والذام: العيب. (٢) العائر من السهام: ما لا يعرف راميه.

(٣) الأغاني ١١ ـ ٩، معاهد التنصيص: ٢:٥١.

(٤) ثائر من الأبطال، خرج في خلافة الرشيد، فأرسل إليه الرشيد جيشًا قائده يزيد بن مزيد الشيباني فقتله بعد معركة شديدة سنة ١٧٩ هـ.

(٥) أمير من القادة الشجعان، توفي سنة ١٨٥ هـ.

فوجّه إليه الرشيد كتابَ مُغْضَب يقول فيه: ولو وجَّهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تَقُوم به، ولكنك مُدَاهِن مُتَغَضِّب؛ وأميرُ المؤمنين يُقسمُ بالله لئن أخرتَ مناجزة الوليد لَيُوَجِّهَنَّ مَن يَحْمِلُ رأسَك إلى أمير المؤمنين...

فلقيَ الوليدَ عشيّة خميس في شهر رمضان، وقال لأصحابه، فِدَاكم أبي وأمي! إنما هي الخوارج ولهم حَمْلَة، فاحملوا فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا، فكان كما قال: حملوا حَملَة وثبت يزيد ومَن معه من عشيرته وأصحابه؛ ثم حمل عليهم فانكشفوا واتبع يزيد الوليد بن طَرِيف فلحقه بعد مسافة وألْفَاه يقول:

أنا الوليدُ بن طَرِيف الشاري[١] قَسْوَرَة[٢] لا يُصْطَلى بناري

جَوْركم أخْرَجني من داري

فأخذ يزيد رأسَه. ولما سمعتْ بهذا أختُه ليلى بنت طَرِيف صبَّحتهم مستعدة عليها الدِّرعْ والجَوْشن[٣]، فجعلت تحمل على الناس فَعُرفت، فقال يزيد: دَعُوها، ثم خرج إليها فضرب بالرمح قَطَاة[٤] فرسها، ثم قال: اغربي[٥] أغْرَبَ الله عينيك، فقد فَضَحْتِ العشيرة، فاستَحْيَتْ وانصرفتْ وهي تقول:

بِتَلِّ نُباتَي[٦] رسمُ قبرٍ كأنّه على عَلَم فوق الجبال مُنِيفِ
تضمَّن جوادًا حاتميًا ونائلًا وسَوْرةَ مِقْدام وقلبَ حصيفِ
فإنْ يَكُ أرْدَاه يزيدُ بنُ مَزْيدٍ فيَا رُبَّ خَيلٍ فَضَّها وصُفُوفِ!
أَلَا يا لَقومي للنوائب والرَّدى ودَهْرٍ مُلِحٍّ بالكرام عَنِيفِ!
وللبدر من بين الكواكب إذْ هَوى ولِلشَّمس همَّت بعده بكسوفِ
ولِلَّيْثِ كلّ الليث إذ يحملونه إلى حُفْرَة مَلْحودة وسَقِيفِ[٧]
أيا شجَرَ الخَابُورِ[٨] ما لَكَ مُورِقًا كأنك لم تجزَعْ على ابنِ طَرِيفِ!
فتًى لا يحبُّ الزادَ إلا من التُّقَى ولا المال إلا من قَنًا وسيوفِ

(١) الشاري: الخارجي، وهم الشراة. (٢) القسورة: العزيز يقتسر غيره، أي يقهره.
(٣) الجوشن: الحديد الذي يلبس من السلاح، وقيل: زرد يلبسه الصدر.
(٤) القطاة: العجز.
(٥) يقال: أغرب عني أي تباعد، ويقال: غربت العين إذا ورم مأقها.
(٦) نباتي كسكارى: موضع بالبصرة. (٧) السقيف: السقف.
(٨) نبت، ونهر، وواد.

فلا تجزَعا يا بني طَرِيفٍ فإنّني أرى الموت نزّلًا بكلّ شريفِ
فقدناك فِقدَان الربيع ولَيْتَنا فَدَيْنَاك من دَهْمَائِنا بأُلوف

ولما انصرف يزيد بالظَّفر حُجِب برأي البرامكة، وأظهر الرشيد السخْطَ عليه؛ فقال: وحقّ أمير المؤمنين لأصيِّفنّ وأشْتُوَنّ على فرسي أو أدخل.

فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد، فأذن له، فدخل؛ فلما رآه أميرُ المؤمنين ضحك وسُرَّ، وأخذ يصيح: مَرْحبًا بالأعرابي حتى دخل وأجلسه وأكرمه، وعرف بلاءه ونقاء صَدْره[١].

كِلَاب بن أميَّة وَأبَوَاه[٢]

حدَّث عُرْوَة بن الزبير قال: هاجر كلابُ بنُ أميّة بن الأسكر إلى المدينة في خلافةِ عمر بن الخطاب، فأقام بها مدة، ثم لَقِيَ ذات يوم طلحةَ بن عبد الله والزبير بن العوّام، فسألهما: أيّ الأعمال أفضلُ في الإسلام؟ فقالا: الجهاد. فسأل عمر فأَغْزَاه في جيش، وكان أبوه قد كبر وضعف، وخرج معه أخٌ له آخر؛ فانْبَعَثَ أمية يقول:

يا أمَّ هيثمَ؛ ماذا قلتِ أبلاني رَيْبُ المَنُون وهَذَانِ الجَدِيدَانِ[٣]
إمّا تَرَى حَجَري قَدْ رَكَّ[٤] جانبهُ فقد يسرُّك صُلْبًا غيرَ كذَّانِ[٥]
إمَا ترينِيَ لا أَمْضِي إلى سَفرِ إلّا معي واحدٌ منكمْ أو اثْنان
يا بْنَيْ أُميةَ، إني عنكما غَانِي وما الغِنَى غير أنّى مُرْعَشٌ فانِي

---

(١) ولما عفا عنه الرشيد مدحه الشعراء، فكان ممن مدحه مسلم بن الوليد، ومن أحسن ما ورد في شعره قوله:

يفتر عند افترار الحرب مبتسمًا إذا تغيّر وجه الفارس البطل
موف على مهج، في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل
يقرى المنية أرواح العداة كما يقري الضيوف شجوم الكوم والبزل
يكسو السيوف رؤوس الناكثين به ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
إذا انتضى سيفه كانت مسالكه مسالك الموت في الأبدان والقلل

(٢) المحاسن والمساوىء: ٥٨٨، (طبع ليبزج)، ذيل الأمالي: ١٠٨.
(٣) الجديدان: الليل والنهار. (٤) رك: ضعف.
(٥) الكذان: الرخو.

يا بُنَيْ أميةَ، إلّا تَشْهَدَا كِبَرِي فـإنّ نَـأْيَـكُـمَـا والـثُّـكْـل مِـثْـلَانِ
إذ يَحْمِلُ الفرسُ الأحْوَى[1] ثلاثَتَنا وإذْ فِـرَاقُـكُـمـا والـمـوتُ سِـيّـانِ
أصبحتُ هُزءًا لِرَاعي الضَّأْنِ أُعْجِبُهُ ماذا يَرِيبُكَ مِنْي رَاعِيَ الضَّان!
انْعَقْ بضأنك في نَجْمٍ[2] تُحَفِّرُه من الأبَاطح واحْبِسْها بِجُمْدَان[3]
إنْ تَرْعَ ضَأْنًا فإنِّي قد رعَيْتُهُم بِيضَ الوُجوه بَني عمي وإخْوَاني

فلما طالت غيبةُ كلاب عنه قال:

لمنْ شَيْخَانِ قد نَشَدَا كِلَابا[4] كـتـاب الله إنْ رقَـبَ الْكِـتـابـا
نُـنَـفّـضُ مَـهْـدَه شـفَـقًـا عـلـيـه ونَـجْـنُـبُـهُ أبَـاعِـرنـا[5] الـصِّـعـابـا
إذا هـتـفـتْ حـمـامـةُ بَـطْـنِ وادِ عـلـى بَـيْـضـاتـهـا دَعَـوَا كـلابـا
تـركْـتَ أبـاكَ مُـرْعَـشَـةً يـدَاه وأمَّـكَ مـا تُـسِـيـغ لـهـا شـرابـا
أُنـــاديـــه وولّانِـــي قَـــفَـــاهُ فـلا وأبـى كـلابٌ مـا أصَـابَـا
فـإن مُـهَـاجِـرَيْـنِ تـكـنَّـفَـاهُ لـيـترُكَ شَـيْـخَـهُ؛ خـطِـئًا وخَـابَـا
وإنَّ أبـاك حـيـن تـركـتَ شـيـخٌ يُـطَـارِدُ أيْـنُـقًـا شُـسُـبًـا[6] طِـرابـا
إذا بـلغ الـرَّسـيـم[7] فـكـان شـدًّا[8] يَـخِـرُّ؛ فـخـالـط الـذَّقَـنُ الـتُّـرَابـا

فبلغت أبياته عمر، ولم يَرُدّ كِلَابا، فاهتز أمية واخْتَلَطَ[9] جَزَعًا عليه، وتغنّت الرُّكْبَان بشعر أبيه فبلغه، فأنشأ يقول:

لـعـمـركَ مـا تـركـتُ أبـا كـلابٍ كـبـيـرَ الـسـنِّ مُـكْـتَـئِـبًـا مُـصَـابَـا
وأمَّـا لا يـزالُ لـهـا حـنـيـنٌ تـنـادِي بـعـد رَقـدَتِـهـا كِـلَابَـا
لِكَسْبِ المال أو طلبِ المعَالِي ولـكـنّـي رجـوتُ بـه الـثّـوابَـا

(١) الأحوى: الأسود.
(٢) النجم: ما نجم من النبات على غير ساق.
(٣) جمدان: جبل بطريق مكة، وواد.
(٤) نشدا: طلبا.
(٥) الأباعر: جمع بعير.
(٦) الشسب: جمع شاسب وهو النحيف اليابس.
(٧) الرسيم: سير للإبل.
(٨) الشد هنا: العدو.
(٩) اختلط: فسد عقله.

ثم أتاه يومًا وهو في مسجد الرسول، وحولَه المهاجرون والأنصار، فوقف عليه ثم أنشأ يقول:

أعاذلُ قد عذلْتِ بغير عِلْمٍ ... ولا تَدْرِين عَاذِلُ ما أُلاقِي
فإمَّا كنتِ عاذلتي فردّي ... كلابًا إذ توجَّه للعراقِ
ولم أقض اللُّبانة من كلابٍ ... غداة غدٍ وآذَن بالفراق
فتَى الفتيان في عُسْرٍ ويسرٍ ... شدِيد الركْن في يوم التَّلاقي
فلا والله ما باليت وَجْدِي ... ولا شَفقي عليك ولا اشتياقي
سأسْتَعْدِي على الفاروق رَبًّا ... له حجّ الحجيج على اتِّسَاقِ
وأدعُو الله مجتهدًا عليه ... ببطن الأخْشَبَين[1] إلى دُفاق[2]

فلما أنشدها عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقّاص: أن رحّل كلابًا، فرحّله.

فلما قدم دخل إليه فقال: ما بلغ من بِرّك بأبيك؟ قال: كنتُ أبرّه وأكْفيه أمرَه، وكنت أعتمد ـ إذا أردت أن أحلب لبنًا ـ أَغْزَرَ ناقة في إبله وأسمنَها فأسقيه لبنها.

فبعث عمر إلى أميّةَ مَنْ جاء به إليه. فأدخله يتهادى، وقد ضَعُف بصره وانحنى. فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟ قال: كما تراني يا أمير المؤمنين؛ قال: فهل لك من حاجة؟ قال: نعم، أشتهي أن أرى كلابًا، فأشمه شمَّةً، وأضمه ضَمَّة قبل أن أموت. فبكى عمر ثم قال: ستبلغ من هذا ما تحبُّ إن شاء الله تعالى.

ثم أمر كلابًا أن يحتلبَ لأبيه ناقة كما كان يفعل، ويبعث إليه بلبنها. ففعل، فناوله عمرُ وقال: دونك هذا يا أبا كلاب. فلما أخذه وأدناه إلى فمه، قال: نعم والله يا أمير المؤمنين، إني لأشَم رائحةَ كلاب من هذا الإناء. فبكى عمر وقال: هذا كلابٌ عندكَ حاضرًا قد جئناك به. فوثب إلى ابنه وضمَّه إليه وقبّله.

وجعل عمر يبكي ومَنْ حضره، وقال لكلاب: الزم أبويك فجاهِدْ فيهما ما بَقِيا، ثم شأنك بنفسك بعدهما؛ وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه.

---

(١) الأخشبان: جبلا مكة: أبو قبيس والأحمر، وجبلا منى.

(٢) دفاق: موضع أو واد.

ثم قُتل كلاب مع عليّ بن أبي طالب بصِفِّين، وعاش أبوه أُمَيَّة دهرًا طويلًا، حتى خَرِف، فمرّ به غلام له كان يرعى غنمه، وأميَّةُ جالس يَحْثُو على رأسه التراب؛ فوقف ينظر إليه، فلما أفاق بصر الغلام، فقال:

أصبحتُ لهوًا لراعي الضَّأنِ أُعْجِبُهُ ماذا يَرِيبكَ مني رَاعي الضَّانِ!
انْعقْ بضأنِك إني قد فقدتُهُمُ بيضَ الوُجوهِ بني عمِّي وأخْواني

فِي يَوْم اليَرمُوك[١]

شهد اليرموك ألفُ رجل من أصحاب رسول الله فيهم نحو مائة من أهل بَدْر، وكان أبو سفيان يسير فيقفُ على الكَرَادِيس[٢] فيقول: اللهَ اللهَ؛ إنكم ذَادَةُ[٣] العرب وأنصارُ الإسلام، وإنهم ذَادَةُ الروم وأنصار الشرك؛ اللهم إنَّ هذا يومٌ من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

وأمر خالد عِكْرِمَة[٤] والقَعْقَاع[٥]، فأَنْشَبَا القتال، وارتجز القعقاعُ وقال:

يا ليتني ألقاكَ في الطِّرَاد قبل اعْتِرَام[٦] الجَحْفلِ الورَّادِ
وأنتَ في حَلْبَتِكَ الورادِ[٧]

وقال عكرمة:

قد علمتْ بهْكَنَةُ[٨] الجوارِي أنِّي على مَكْرُمَةٍ أُحامِي

فَنَشِبَ القتال، والْتَحَمَ الناس، وتطارد الفرسان؛ فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول، وسألوه الخبر، فلم يخبرهم إلا بسلامة، وأخبرهم عن إمداد؛ وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله، وتأمير أبي عبيدة.

(١) الطبري: ٤ ـ ٣٤. (٢) الكردوسة: القطعة العظيمة من الخيل.
(٣) ذادة: جمع ذائد، وهو المدافع.
(٤) من صناديد قريش في الإسلام، كان هو وأبوه من أشد الناس على النبيّ، وأسلم في يوم الفتح فشهد الوقائع، وولي الأعمال لأبي بكر واستشهد سنة ١٥ هـ.
(٥) أحد فرسان العرب وأبطالهم شهد اليرموك، وكان شاعرًا فحلًا مات نحو ٤٠ هـ.
(٦) الاعترام: الاشتداد وفي حديث على «على حين فترة من الرسل واعتزام من الفتن».
(٧) الحلبة: جماعة الخيل، والوراد جمع ورد، وهو الفرس بين الكميت والأشقر.
(٨) البهكنة: الفتاة الغضة.

فأبلغوه خالدًا فأخبره خبر أبي بكر أسرَّه إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند؛ فقال: أحسنت فقِفْ؛ وأخذ الكتاب، وجعله في كِنَانَتِه؛ وخاف إنْ هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند؛ فوقف مَحْمِيَة بن زُنَيْم - وهو الرسول - مع خالد وخرج جَرَجَة[1] حتى كان بين الصفين، ونادى: لِيَخْرجْ إليّ خالد.

فخرج إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه، فواقَفَهُ بين الصفَّيْنِ حتى اختلفت أعناق دابتيهما، وقد أمّن أحدهما صاحبه؛ فقال جَرَجَة: يا خالد؛ اصدقني ولا تكذبني فإن الْحُرّ لا يَكْذِبُ، ولا تُخادِعني فإن الكريم لا يُخَادع، هل أنزل الله على نبيّكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلا هَزَمْتَهم؟ قال: لا! قال: فيم سُمِّيتَ سيفَ الله؟ قال: إن الله عزّ وجلّ فينا نبيّه، فدعانا فَنَفَرْنا عنه؛ ونَأينا جميعًا؛ ثم إن بعضَنا صدّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذّبه، فكنتُ فيمن كذّبه وباعده وقاتَله؛ ثم إنّ الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابَعْنَاه، فقال: أنت سيفٌ من سيوف الله سلّه اللهُ على المشركين، ودعا لي بالنّصْر، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك؛ فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين، قال: صَدَقْتَنِي!

ثم أعاد عليه جَرَجَة: يا خالد؛ أخبرني إلَامَ تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا عبدُه ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله؛ قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالْجِزْيةُ ونمنعه! قال: فإن لم يُعْطِها؛ قال: نُؤْذِنه بحرب ثم نقاتله! قال: فما منزلةُ مَن يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضِيعنا وأولنا وآخرنا.

ثم أعاد عليه جَرجَة: هل لمن دَخَل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذّخْر؟ قال: نعم، وأفضل، قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه! قال: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبيّنا وهو حيّ بين أظهرنا تأتيه أخبارُ السماء، ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحُقّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسْلِمَ ويُبَايع، وإنكم أنتم لم تَرَوْا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا.

قال جرجة: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تَأَلَّفْني. قال: بالله لقد صدقتُك وما بي إليك ولا إلى أحدٍ منكم وَحْشة، وإن الله لوليُّ ما سألتَ عنه.

---

(١) جرجة: مقدم عسكر الروم يوم اليرموك.

فقال: صدقتني، وقلَب التُّرْسَ ومال مع خالد، وقال: علِّمني الإسلام؛ فمال به خالدٌ إلى فُسْطَاطه[١] فشنّ عليه قِرْبَةً من ماء وصلّى ركْعتين!

فِي يَوْم القَادِسِيّة[٢]

كان أبو مِحْجَن الثَّقَفيّ[٣] من المُعاقرين للخمر، المحدودين في شُرْبها، أقام عليه عمر بن الخطاب الحدَّ مرارًا، وهو لا ينتهي؛ فنفاه إلى جزيرةٍ في البحر، وبَعثَ معه حَرَسيًّا[٤]، فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص، وهو في حربه مع الفرس وكانت حربَ القادسية.

ولما بلغ ذلك عمر كتب إلى سعد بحبْسِه، فحبسه في القصر، وتطلَّع أبو مِحْجَن إلى الحرب، فرآها مُشْتَعِلةً، فذهب إلى سَلْمى بنت أبي حفص - زوج سعد، فقال لها: هل لكِ في خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تُخَلِّينَ عني وتُعِيرينني البَلْقَاء[٥]؛ فَلِلَّهِ عليّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك حتى تَضَعِي رِجْلي في قَيْدِي؛ فقالت: وما أنا وذاك؟ فرجع يرسُفُ في قُيُوده، ويقول:

كفى حَزَنًا أن تَرْدِيع الخيلُ بالقَنَا ... وأُتْـرَكَ مـشـدودًا عـليَّ وثـاقِـيـا
إذا قمتُ عنّانِي الحديد وغُلِّقَتْ ... مصاريعُ مِنْ دوني تُصِمُّ المُنَاديا
وقـد كـنـتُ ذا مـال كـثـيـرٍ وإخْـوَةٍ ... فـقـد تـركـونـي واحـدًا لا أخَـالِيَـا
وقد شفّ جسمي أنني كلَّ شارقٍ[٦] ... أُعالج كَبْلًا[٧] مُصْمتًا قَدْ بَرَانِيَا
فـلله دَرِّي يـوم أُتْـرَكُ مُـوثـقًـا ... وتَـذْهَـلُ عـنـي أسْـرَتـي ورِجـالـيـا!
حَبِيسًا عن الحرب العَوَان وقد بدَتْ ... وإعـمـال غـيـري يـومَ ذاك الـعَـوَالـيَـا
ولله عـهـدٌ لا أخـيـسُ[٨] بـعـهـدِه ... لـئـن فرّجـت ألّا أزورَ الـحـوَانـيا[٩]

---

(١) الفسطاط: الخيمة.

(٢) مهذب الأغاني: ٢ - ٤٨، الخزانة: ٣ - ٥٥٣، الأغاني: ٢٠ - ١٣٨، الكامل لابن الأثير: ٢ - ٢٣٢، المسعودي: ١ - ٤٢٣.

(٣) أبو محجن اسمه وكنيته على المشهور، أسلم سنة ٩ هـ، وسمع من النبيّ ﷺ وروى عنه، وكان جوّادًا كريمًا من الفرسان المشهورين في الجاهلية والإسلام مات سنة ٤٠ هـ.

(٤) الحرسي: واحد حرس السلطان.

(٥) البلقاء: فرس سعد بن أبي وقاص.

(٦) أصل الشارق: اليوم الذي فيه الشمس، والمراد كل يوم.

(٧) الكبل: القيد.

(٨) خاس بالعهد: غدر ونكث.

(٩) الحانية: الدكان، وهو يريد أمكنة بيع الخمر.

فقالت له سَلْمَى: إني استَخَرْتُ الله ورضيتُ بعهدك، وأطلقَته.

فاقتاد أبو مِحْجَن الفرسَ، وأخرجها ثم ركبها، ودبّ عليها، وفي ذلك اليوم أظهر من شجاعته عَجَبًا. ولما تحاجزَ أهلُ العَسكرَين أقبل أبو محجن حتى دخل القصر، ووضع نفسه عن الدابة، وأعاد رجليه في القيد وقال:

لقد عَلِمَتْ ثقيف غيرَ فخرٍ   بأنّا نحنُ أكرمُهُم سيوفَا
وأكثرُهم دروعًا سابغات   وأصبرُهم إذا كَرِهوا الوقوفا
فإن أُحْبَس فقد عرفوا بلائِي   وإن أُطْلق أجرِّعْهم حُتُوفا

فقالت له سَلْمى: يا أبا مِحْجَن؛ في أيّ شيء حبسك هذا الرجل؟ فقال: أما والله ما حبسني بحرام أكلْته ولا شربْتُه، ولكني كنتُ صاحبَ شراب في الجاهليّة؛ وأنا امرؤ شاعر، يدبّ الشعر على لساني، فينفِثُه أحيانًا، فحبسني لأني قلت:

إذا مِتّ فادفِنّي إلى أصلِ كَرْمةٍ   تروّى عِظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنَنّي بالفَلاة[1] فإنني   أخافُ إذا ما مِتُّ ألّا أذُوقها

فذهبت إلى سعد وأخبرته خبر أبي مِحْجن، فدعا به وأطلقه، وقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعَلَه؛ فقال: والله لا أجبت لساني إلى قبيح أبدًا.

فِي فَتح نِهَاوَند[2]

بعث عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه السائبَ بن الأقْرع مولى ثَقِيف، وكان رجلًا كاتبًا حاسبًا، فقال: الحق بهذا الجيش ـ جيش المسلمين بنِهَاوَند ـ فكن فيهم، فإن فتح الله عليهم فاقسم على المسلمين فيئهم، وخذ خمسَ الله وخمس رسوله، وإنْ هذا الجيشُ أُصيب فاذهب في سَوَادِ الأرض فبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها.

قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائمَ عظامًا، فوالله إنّي لأقسِم بين الناس إذ جاءني عِلْج من أهلها، فقال: أتؤمّنني على نفسي وأهلي

(١) الفلاة: الأرض المهلكة.
(٢) الطبري: ٤ ـ ٢٣٢.

وأهل بيتي على أن أدلّك على كُنوز آل كسرى تكون لك ولصاحبك ولا يَشْرَكك فيها أحد؟ قلت: نعم! قال: فابعث معي من أدلّه عليها، فبعثت معه، فأتى بسَفَطيْنِ عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزَّبَرْجَدُ والياقوت.

فلمّا فرغت من قَسْمي بين الناس احتملتهما معي، ثم قدمتُ على عمر بن الخطاب فقال: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خيرًا يا أمير المؤمنين؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح، واستُشهِد النعمان[1] بن مُقَرّن رحمه الله، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم بكى فَنَشَجَ[2].

فلمّا رأيت ذلك قلت: والله يا أميرَ المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يُعْرَف وجهه!

ثم قام ليدخل، فقلت: إن معي مالًا عظيمًا قد جئتُ به، ثم أخبرتُه خبر السَّفَطين، فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك، فأدخلتهما بيت المال، وخرجت سريعًا إلى الكوفة.

وبات تلك الليلة التي خرجتُ فيها، فلما أصبح بعثَ في أَثَرِي رسولًا، فوالله ما أدركني حتى دخلتُ الكوفة، فأَنَخْتُ بعيري وأناخ بعيره على عُرْقُوبَيْ بعيري، فقال: الحق بأمير المؤمنين؛ فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلا الآن! قلت: ويلك! ماذا؟ ولماذا؟ قال: لا أدري والله.

فركبتُ معه حتى قدمتُ عليه؛ فلما رآني قال: مالي ولابن أمّ السائب؟ بل ما لابن أم السائب ومالي؟ قلت: وماذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ويْحَك! والله ما هو إلا نِمْتُ في الليلة التي خرجتَ فيها فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان نارًا، يقولون: لنكوينّك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين، فخذهما عني لا أبا لك، والحق بهما فبعهما في أعطيات المسلمين وأرزاقهم!

فخرجتُ بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، فابتاعهما مني عمرو بن حُرَيث المخزوميّ بألفي درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف.

---

(١) صحابي فاتح من الأمراء القادة الشجعان، فتح القادسية، وولاه عمر إمرة الجيش فغزا أصبهان ففتحها، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها سنة ٢١ هـ.

(٢) نشج الباكي: غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.

عَمرُو بن العَاص وَأحدَ كفّار العَجَم(١)

لما فتح عمرو بن العاص قَيْسَارِيَة(٢) سار حتى نزل غزّة؛ فبعث إليه عِلْجُها(٣): أن ابعث إليّ رجلًا من أصحابك أكلِّمه؛ ففكّر عمرو وقال: ما لهذا أحد غيري.

فخرج حتى دخل على العِلْج فكلَّمه؛ فسمع كلامًا لم يسمعْ قطُّ مثله، فقال العِلْج: حدّثني؛ هل من أصحابك أحدٌ مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا! إني هيّن عليهم؛ إذ بعثوا بي إليك، وعرَّضوني لما عرضوني له، ولا يدرون ما تصنعُ بي.

فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مرَّ بك فاضربْ عنقه، وخذ ما مَعَه.

فخرج من عنده؛ فمرّ برجل من نصارى غسّان، فعرفه، فقال: يا عمرو قد أحسنتَ الدخول فأحسن الخروج! ففَطِن عمرو لما أراده، فرجع! فقال له الملك: ما ردّك إلينا؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتني، فلم أجدْ ذلك يَسَعُ بني عمي، فأردت أن آتيكَ بعشرة منهم، تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفُك عند عشرة خيرًا من أن يكونَ عند واحد! فقال: صدقتَ، اعْجلْ بهم! وبعثَ إلى البواب: أنْ خلّ سبيله!

فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أَمِن، قال: لا عدتُ إلى مثلها أبدًا!

فلما صالحهُ عمرو ودخل عليه العِلْج، قال له: أنت هو؟ قال: نعم، على ما كان من غَدْرك!

عُمَر بن الخطّاب وَغَنائِم المسْلِمين(٤)

بعث عُمَرُ سلمة بن قيس الأشْجَعيّ إلى طائفةٍ من الأكراد كانوا على الشِّرْك؛ فخرج إليهم في جيش أَرْسَلَهُ معه من المدينة.

فلما انتهى إليهم دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجِزْية، فأَبَوْا، فقاتلهم فنصره اللهُ عليهم؛ فقتل المقاتلة؛ وسَبَى الذُّرِّية، ووجد حِلْيَةَ وفصوصًا وجواهر،

(١) العقد الفريد: ١ ـ ١٤٦.
(٢) بلدة بفلسطين.
(٣) العلج: الرجل من كفار العجم.
(٤) ابن أبي الحديد: ٣:١٥٧.

فقال لأصحابه: أتطيبُ أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين؛ فإنه غيرُ صالحٍ لكم، إنَّ على أمير المؤمنين لمؤونةً وأثقالًا، قالوا: نعم، قد طابت أنفسنا.

فجعل الجواهر في سَفَط[١]، وبعث به مع واحد من أصحابه، وقال له: سِرْ فإذا أتيتَ البَصْرَة فاشتر راحلتين فأَوْقِرْهما[٢] زادًا لك ولغلامك، وسِرْ إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت فأتيتُ عمر وهو يُغَذِّي الناس قائمًا متكئًا على عصا كما يصنع الراعي، وهو يدور على القصاع؛ فيقول: يا يَرْفَأ[٣]، زِدْ هؤلاء لحمًا، زد هؤلاء خُبْزًا، زد هؤلاء مَرَقة.

فجلستُ في أَدْنى الناس، فإذا طعامٌ فيه خُشُونة، طعامي الذي معي أطيبُ منه. فلما فرغ أَدْبَرَ فاتّبعْتُهُ، فدخل دارًا فاستأذنت، ولم أُعلِم حاجبه من أنا، فأذن لي، فوجدته في صُفَّةٍ[٤] جالسًا على مِسْحٍ[٥] متكئًا على وسادتين من أَدَم[٦] محشوَّتين ليفًا، وعليه سِتْر من صوف، فنبذ إليّ إحدى الوسادتين، فجلست عليهما.

فقال: يا أُمَّ كلثوم، ألا تُغدُّوننا؟ فأخرجت إليه خُبْزَة[٧] بزيت في عَرْضها مِلْحٌ لم يُدَق، فقال: يا أمَّ كلثوم، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا؟ فقالت: إني أسمعُ عندك حِس[٨] رجل، قال: نعم، ولا أراه من أهل هذا البلد. فقالت: لو أردتَ أن أخرجَ إلى الرجال لكسوتني كما كسا الزبيرُ امرأته، وكما كسا طلحةُ امرأته!

قال: أو ما يكفيك أنك أمُّ كلثوم ابنةُ عليّ بن أبي طالب، وزوجةُ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب؟ قالت: إن ذاك عندي لقليل الغناء! ثم قال: كُلْ، فلو كانت راضيةً لأطعَمَتْك أطْيَبَ من هذا. فأكلتُ قليلًا، وطعامي الذي معي أطيبُ منه. وأكل، فما رأيت أحدًا أحسنَ أكْلا منه، ما يَتَلَبَّثُ[٩] طعامُه بيده ولا فمه.

(١) السفط: كالجوالق أو كالقفة، جمعه أسفاط. (٢) أوقر الدابة: حملها.
(٣) يرفأ: مولى عمر بن الخطاب. (٤) الصفة من البنيان: شبه البهو الواسع.
(٥) المسح: ثوب من الشعر غليظ. (٦) الأدم: جمع للأديم: وهو الجلد.
(٧) الخبزة: عجين يوضع في الملة حتى ينضج، والملة: الرماد والتراب الذي أوقد فيه النار.
(٨) الحس: الصوت الخفي. (٩) لا يتوقف.

ثم قال: اسْقونا؛ فجاءوا بعُسٍّ[١] من سُلْتٍ[٢]، فقال: اشْرَبْ، فشربتُ قليلًا، وإنَّ سَوِيقي الذي معي لأطيب منه، ثم أخذه فشربه حتى قرع القدحُ جبهتَه.

ثم قال: الحمدُ لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأَرْوَانا؛ إنّك يا هذا لضعيف الأكل ضعيفُ الشرب.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن لي حاجة، قال: ما حاجتك! قلت: أنا رسول سلمة بن قيس قال: مرحبًا بسلمة ورسولِه، فكأنما خرجت من صُلْبِهِ ـ حَدِّثْني عن المهاجرين كيف هم؟ قلت: كما تحبُّ ـ يا أميرَ المؤمنين ـ من السلامة والظفَر والنَّصر على عدوهم. قال: كيف أسعارُهم؟ قلت: أرخص أسعار؛ قال: كيف اللحم فيهم فإنه شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا على شجرتها؟ قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا. ثم قلت: سِرْنا يا أمير المؤمنين حتى لقِينا عدوًّنا من المشركين، فدعوناهم إلى الذي أمرتَ به من الإسلام فأَبَوْا، فدعوناهم إلى الخَرَاج فأَبَوْا؛ فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم، فقَتَلْنَا المقاتِلَة، وسبينا الذُّرِّية، وجمعنا الثروة، فرأى سلمة في الأموال حِلْيَةً، فقال للناس: أتطيبُ أنفسكم أن أبعثَ بها إلى أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم! ثم استجرتُ سَفَطي ففتحتُه.

فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأخضر وأصفر، وثب وجعل يده في خاصرته يصيح صياحًا عاليًا ويقول: لا أشبع الله إذنْ بطنَ عمر ـ يُكَرِّرُها!

فظنَّ النساء أني جئت لأغْتَاله، فجئنَ إلى الستر فكشَفْنَه، فسمعنه يقول: لفَّ ما جئتَ به؛ يا يَرْفَأ، جَأْ عنقَه[٣]! فأنا أصلح سَفَطِي، ويرفأ يَجَأُ عنقي!

ثم قال: النجاء النَّجاء! قلت: يا أميرَ المؤمنين فاحملني! فقال: يا يرفأ، أَعْطِه راحلتين من إبلِ الصدقة، فإذا لقيتَ أحدًا أفقر إليهما منك فادفعهما إليه.

وقال: أظنك سَتُبْطِىء، أما والله لئن تفرَّق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يُقَسَّمَ هذا فيهم لأفعلنَّ بك وبصاحبك الفَاقِرَة[٤]!

(١) العس: القدح العظيم.
(٢) السلت: الشعير.
(٣) وجأت عنقه: ضربته.
(٤) الفاقرة: الداهية.

قال: فارتحلتُ حتى أتيتُ إلى سلمة بن قيس، فقلت: لا بارك الله فيما اخْتَصَصْتَنِي به! اقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإيَّاك فَاقِرة، فقسّمه فيهم، فكان الفصُّ يُبَاعُ بخمسة دراهم وبستّة وهو خير من عشرين ألفًا.

عِنــدَ مَلك الصّين[١]

أوْغَل قُتَيْبَة[٢] بن مسلم حتى قَرُب من الصين. فكتب إليه ملكُ الصين. أن ابعث إلينا رجلًا من أشرَف مَنْ معكم يخبرنا عنكم ونُسَائله عن دينكم.

فانتخب قُتَيْبَةُ من عسكره اثني عشر رجلًا، لهم جمال وأجسام وأُلْسُن وشعور وبأس، فكلّمهم قتيبة وفَاطَنهم[٣]، فرأى عقولًا وجمالًا؛ فأمر لهم بعُدّة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الوَشْي والرقيق والنعال والعطر، وحملهم على خيول مُطَهّمة تقَادُ معهم ودوابَّ يركبونها.

وكان هُبيرة[٤] بن المُشَمْرَج الكلابيّ مفوَّهًا، فقال له: يا هُبيرةُ؛ ماذا أنت صانع؟ قال: أصلح الله الإمير! قلّ ما شئت أَقُلْهُ وآخذ به؛ قال: سيروا على بركة الله وبالله التوفيق، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت ألّا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأجْبي خراجهم.

فساروا عليهم هبيرة بن المُشَمْرَج، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، دخلوا الحمّام ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضًا تحتها الغَلائل، ثم مسوا الغالية[٥]، ولبسوا النِّعال والأردية، ودخلوا عليه، وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا، فلم يكلمهم هو ولا أحدٌ من جلسائه، فنهضوا.

فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قومًا ما هم إلّا نساء، ما بقي منا أحدٌ حين رآهم إلا وجد رائحتهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٨ ـ ١٠٠.
(٢) أمير فاتح من رجال العرب، اتصل بالوليد بن عبد الملك فولّاه خراسان، وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية، واستمرت ولايته ١٣ سنة وقتل سنة ٩٦ هـ.
(٣) فاطنه في الكلام: راجعه.
(٤) كان مع قتيبة حين غزا الصين وتوفي بفارس سنة ٩٦ هـ.
(٥) الغالية: الطيب.

فلما كان الغد أرسل إليهم، فلبسوا الوَشْيَ وعمائم الخزّ والمَطَارف[١]، وغَدَوْا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أَشبهُ بهيئة الرجال.

فلما كان اليومُ الثالث أرسل إليهم فشدّوا عليهم سلاحهم، ولبسوا البَيْضَ والمغَافر[٢]، وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وتنكَّبُوا[٣] القسيَّ، ورَكبوا خيولهم وغدوا! فنظر إليهم صاحبُ الصين، فرأى أمثال الجبال مقبلةً، فلما دنوْا رَكَزُوا رماحهم، ثم أقبلوا مشمرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا: ارجعوا، لما دخل قلوبهم من خوفهم.

فانصرفوا فركبوا خيولهم وَحملوا رماحهم، ثم دفعوا خير لهم كأنهم يتطاردون بها، فقال الملك لأصحابه: كيف تَرَوْنهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط!

فلما أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إليّ زعيمكم وأفضلكم، بعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه: قد رأيتُم عظيمَ ملكي، وأنه ليس أحدٌ يمكنكم مني وأنتم في بلادي، وإنما أنتم بمنزلة البَيْضَة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم. قال: سَلْ، قال: لِمَ صنعتم ما صنعتم من الزّي في اليوم الأول والثاني والثالث؟ قال: أما زيّنا الأول فلبَاسُنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومُنا الثاني فإذا أتينا أمراءَنا، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لعدوّنا، فإذا هاجنا هَيْجٌ وفَزَعٌ كنا هكذا. قال: ما أحسن ما دَبَّرْتم دَهْرَكم! فانصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له: ينصرف؛ فإني قد عرفتُ حِرْصَه وقِلّةَ أصحابه، وإلا بعثتُ عليكم مَنْ يهلككم ويهلكهُ.

قال له: كيف يكون قليلَ الأصحاب مَن أولُ خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصًا من خلّف الدنيا قادرًا عليها وغَزَاك؟ وأمّا تخويفُك إيانا بالقتل فإن لنا آجالًا إذا حضرت فأكْرمُها القتل، فلسنا نكرهُه ولا نخافُه.

---

(١) المطرف: رداء من خز مربع ذو أعلام، وجمعه مطارف.

(٢) البيضة: الخوزة، وجمعه بيض، والمغافر: جمع مفغر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح.

(٣) تنكب قوسه: ألقاه على منكبه.

قال: فما الذي يُرْضي صاحبك؟ قال: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويُعطي الجزْية. قال: فإنا نخرجه من يمينه ونبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فَيطؤُه، ونبعث إليه بجِزْية يرضاها؛ ثم دعا بِصِحَاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب، ثم جزاهم فأحسن جوائزهم؛ فساروا فقدموا بما بعث به فقبل قُتَيْبَة الْجِزْية وَوَطِىء التراب.

إنّــك إبنِي[1]

قال رجل من أهل الكوفة: كنا مع مَسْلمة[2] بن عبد الملك ببلاد الرّوم، فسبى سَبْيًا كثيرًا، وأقام ببعض المنازل، فعرض السَّبْي على السيف، فقتل خَلْقًا كثيرًا، حتى عرض عليه شيخٌ ضعيف، فأمر بقتله.

فقال: ما حاجتك إلى قَتْلِ شيخ مِثْلي؛ إن تركتني جئتُك بأسيرين من المسلمين شابين. فقال: ومَنْ لي بذلك؟ قال: إني إذا وعدتُ أوفيتُ. قال: لستُ أَثِق بك. قال: فدَعْني أطوفُ في عسكرك، لعلي أعرفُ من يكْفلُني إلى أن أمضي وأَجِيء بالأسيرين. فوكلَ به مَن طاف معه في عسكره، والاحتفاظ به.

فما زال الشيخ يطُوف ويتصفَّحُ الوجوه، حتى مرَّ بفتى من بني كلاب قائمًا يحسّن فرسه، فقال: يا فتى، اضمنّي من الأمير؛ وقصَّ عليه قصته. قال: أفعل.

وجاء الفتى معه إلى مَسْلَمة فضمنه، فأطلقه مسلمة. فلما مضى قال: أتعرفه؟ قال: لا والله. قال: ولِمَ ضمنته؟ قال: رأيته يتصفح الوجوه، فاختارني من بينهم، وكرهت أن أُخْلِفَ ظنه.

فلما كان من الغد عاد الشيخُ، ومعه أسيران من المسلمين شابان، دفعهما إلى مسلمة وقال: يأذَنُ الأمير في هذا الفتى أن يصيرَ معي إلى حِصْني لأكافئه على فعله معي. قال مسلمة: إن شئتَ فامْض معه.

فلما مضى وصار معه إلى حِصْنِه، قال له: تعلم والله يا فتى أنك ابني؟ قال: وكيف أكونُ ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت من الروم نصراني؟

(١) الفرج بعد الشدة: ١ ـ ٨٢.

(٢) أمير قائد من أبطال عصره، ولاه أخوه يزيد إمرة العراقين، ثم أرمينية، ومات بالشام سنة ١٣٠ هـ.

قال: أخبرني عن أمك مَنْ هي؟ قال: رومية. قال: فإني أصفُها لك، فبالله إن صدقتُ إلا صدقتني. قال: أفعل.

فأقبل الروميّ يصفُ أمه ما خرم من صفتها شيئًا. فقال: هي كذلك فكيف عرفت أني ابنها؟ قال: بالشبه وتَعَارُفِ الأرواح وصِدْق الفراسة. ثم أخرج إليه امرأة. فلما رآها الفتى لم يشكّ في أنها أمه لشدة شبَهها بها، وخرجت معها عجوز كأنها هي، فأقبلْنَ يُقَبِّلْنَ رأس الفتى، فقال له الشيخ: هذه جدتك، وهذه خالتك.

ثم خرج من حِصْنه، فدعا بشباب في الصحراء، فأقبلوا فكلمهم بالرومية، فجعلوا يقبّلون رأس الفتى ويديه ورجليه، فقال: هؤلاء أخوالك وبنو خالتك، وبنو عم والدتك؛ ثم أخرج إليه جلَبًا[1] كثيرًا وثيابًا فاخرة؛ فقال: هذا لوالدتك عندنا منذ سُبِيت، فخذه معك، فادفعه إليها، فإنها ستعرفه، ثم أعطاه لنفسه مالًا كثيرًا، وثيابًا جليلة، وحمله على عدة دواب وبغال وألْحَقَه بعسكر مسلمة وانصرف.

فأقبلَ الفتى قافلًا حتى دخل منزله، فأقبل يخرج الشيءَ بعد الشيء مما عرّفه الشيخ أنه لأمّه، فتراه فتبكي، فيقول لها: قد وهبته لك!

فلما أكثر هذا عليها، قالت: يا بنيّ؛ أسألك بالله؛ من أي بلد صارت إليك هذه الثياب؟ وهل قتلتم أحدًا من أهل هذا الْحِصْن الذي كان هذا فيه؟ فقال لها الفتى: صفةُ الحصن كذا وكذا، وصفةُ البلد كذا وكذا، ورأيت فيه قومًا من حالهم كذا وكذا، ووصف لها أمها وأختها وأولادهما وهي تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: الشيخ والله أبي، والعجوز أمي، وتلك أختي! فقصّ عليها الخبر، وأخرج بقيةَ ما كان معه مما أنفذه أبوها إليه، فدفعه لها.

ذكر الجُبْن والجبناء وما جاء عنهم

استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

(١) الجلب: كل ما جلب من خيل أو غيرها.

نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ويكفيك أن يقال في وصف الجبان: إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذبابة، إذا نظر إليه شزرًا أغمي عليه شهرًا يحسب خفوق الرياح قعقعة السلاح.

قال الشاعر:

إذا صوّت العصفورُ طارَ فؤادُهُ وليثٌ حديدُ النابِ عند الثرائد[1]

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه من الجبناء، رُوِيَ عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان في قاع أطم مع النساء يوم الخندق، فأتاهم في ذلك اليوم يهودي يطوف بالحصن، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود، فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قال: فاعتجرت[2] صفية، ثم أخذت عمودًا ونزلت من الحصن، فضربته بالعمود حتى قتلته، ورجعت إلى الحصن، فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه، فإنه ما منعني من سلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

ضرط وغشي عليه خوفًا من الفأرة

وقيل: كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب، وكان يحبها حبًّا شديدًا، فأصابته إضاقة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها، فحملها إلى العراق، وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه، فأنزله قريبًا منه، وأحسن إليه، فدخل على الحجاج، والجارية تكبسه، وكان الفتى جميلًا، فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج بها، فوهبها له، فأخذها وانصرف.

فباتت معه ليلتها وهربت بغلس[3] فأصبح لا يدري أين هي، وبلغ الحجاج ذلك، فأمر مناديًا أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا، أو

---

(١) الثرائد: جمع ثريد طعام من خبز مبلول بمرق.
(٢) اعتجرت: أي تسترت. (٣) غلس: ظلام.

لم يحضرها، فلم يلبث أن أُتي له بها، فقال لها الحجاج: ياعدوة الله كنت عندي من أحب الناس إليَّ، فاخترت ابن عمي شابًا حسن الوجه، ورأيتك تسارقينه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك. فقالت يا سيدي: اسمع قصتي، ثم اصنع بي ما شئت. قال: هاتي ولا تخفي شيئًا.

قالت: كنت للفتى القرشي، فاحتاج إلى ثمني، فحملني إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا مني فوقع عليَّ، فسمع زئير الأسد، فوثب واخترط سيفه وحمل عليه، وضربه، فقتله، وأتى برأسه، ثم أقبل عليَّ وما برد ما عنده، ثم قضى حاجته، وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إليَّ، فلما علا بطني وقعت فأرة من السقف، فضرط، ثم غشي عليه، فمكث زمانًا طويلًا وأنا أرش عليه الماء، وهو لا يفيق، فخفت أن يموت، فتتهمني به، فهربت فزعًا منك. فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدًا. قالت: على أن لا تردني إليه. قال: لك ذلك.

الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفانا حربًا

وحدث جار لأبي حنيفة النميري قال: كان لأبي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه، وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حسًا في داره، وهو يقول: أيها المغتر بنا المجترىء علينا بئس، والله ما اخترت لنفسك خير قليل، وسيف صقيل، وهو لعاب المنية الذي سمعت به. أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، ثم فتح الباب على وجل، فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفانا حربًا.

قبح الله الجبان

وخرج المعتصم يومًا إلى بعض متصيداته، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه: أفيك خيرًا يا رجل؟ قال: لا، فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان.

سُمِّي الإسكندر

ورأى الإسكندر سميًا له لا يزال ينهزم، فقال له: يا رجل إما أن تغير فعلك، وإما أن تغير اسمك. ووقع في بعض العساكر ضجة، فوثب خراساني إلى

دابته ليلجمها، فصيّر اللجام في الذنب من الدهش، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت، فناصيتك كيف طالت.

جُبْن أسلم بن زرعة

وخرج أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس، وكان مرداس في أربعين، فانهزم أسلم منه، فلاموه على ذلك، وذمه ابن أبي زياد، فقال: لأن يذمني ابن أبي زياد حيًّا أحب أليَّ من أن يمدحني ميتًا. وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك، فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن أبي زياد، فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفي ذلك يقول بعضهم شعرًا:

يقول جبانُ القومِ في حال سكرهِ ... وقد شرب الصهباء هل من مبارزِ
وأين الخيول الأعوجيات في الوغى ... أنازل منهم كلّ ليثٍ مناهزِ[1]
ففي السكر قيسٌ وابن معدي وعامر ... وفي الصحو تلقاء كبعض العجائزِ

(١) الأعوجيات: نوع من جياد الخيل.

فهرس المحتويات

الباب الثامن
قصص المغنِّين والمغنِّيات

الباب التاسع
قصص نساء العـرب

الباب العاشر

الباب الحادي عشر

قصص الجن والشياطين

الباب الثاني عشر

قصص شجان العرب وفرسانهم

قصص العرب

موسوعة تراثية جامعة
لقصص ونوادر وطرائف العرب
في العصر الجاهلي والإسلامي

إعداد

إبراهيم شمس الدين

الجزء الرابع

يحتوي على:

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X
9782745134233 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

الباب الثالث عشر

قصص الفخر والمفاخرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

قال في المستطرف[1]: فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨]. نزلت في عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وعقبة بن أبي مغيط، وكانا تفاخرا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٠]. نزلت في أبي جهل، وعمار بن ياسر، والنسب إلى سيّدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣]. فالفخر في الإسلام بالتقوى. وقال رسول الله ﷺ: «إن نبيّكم واحد، وإن أباكم واحد، وإنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى»، ألا هل بلغت؟

تواضع زين العابدين

قال الأصمعي: بينما أنا أطوف بالبيت ذات لية إذ رأيت شابًا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول:

يا مَن يجيب دعا المضطر في الظّلم ... يا كاشفَ الضر والبلوى مع السقمِ
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت يا حيّ يا قيومُ لم تنمِ
أدعوك ربي حزينًا هائمًا قلقًا ... فارحمْ بكائي بحق البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفهٍ ... فمن يجود على العاصين بالكرمِ

---

(١) المستطرف: ص ١٤١ ـ ١٤٦.

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد يقول:

ألا أيّها المقصود في كلّ حاجتي شكوت إليك الضرّ فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمالٍ قباحٍ رديئةٍ وما في الورى عبدٌ جنى كجنايتي[1]
أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشيًا عليه، فدنوت منه، فإذا هو زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، فرفعت رأسه في حجري وبكيت، فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال: مَن هذا الذي يهجم علينا؟ قلت: عبيدك الأصمعي، سيدي ما هذا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة؟ أليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣].

فقالت: هيهات هيهات يا أصمعي إن الله خلق الجنّة لمن أطاعه، ولو كان عبدًا حبشيًا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرًا قرشيًا، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾ [المؤمنون: الآيات ١٠١ - ١٠٣].

والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية ومجته[2] العقول الذكية إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعًا لا تكلفًا، وجبلة[3] لا تعلمًا، ولم يكن لهم مَن ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينبه على مناقبهم سواهم، وكان كعب بن زهير إذا أنشد شعرًا قال لنفسه: أحسنت وجاوزت ولله الإحسان، فيقال له: أتحلف على شعرك؟ فيقول: نعم لأني أبصر به منكم. وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها، ويقول عند إنشادها: أي علم بين جنبي وأي لسان بين فكي. وقال الجاحظ، ولم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب، ولما أبدع ابن المقفع في رسالته التي سماها باليتيمة تنزيهًا لها عن المثل،

(١) جنى كجنايتي: إثم كآثامي.
(٢) مجته: استثقلته وردته.
(٣) الجبلة: الطبع.

سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله.

أنا أحق ببيته منه

قال أبو بكر الهذلي: سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوي الفلاة وعليه جبة حمراء وعمامة عدنية، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته، وسألته عن نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب، فأعجبه ما رأى منه، فقال أنشدني شعرًا، فأنشده شعرًا لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم، وحدّثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمور إذا أوردتُها صدرت إن الأمور لها وِرْدٌ وإصدارُ

فقال: ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت؟ قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيفه، وأحوطهم[1] من وراء جاره، اجتمعت العرب بعكاظ، فكلهم أقروا له بهذه الخلال، فقال له: والله يا أخا بني تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان:

وإنّي من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبُهْ
نجوم سماءٍ كلّما غاب كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه[2]
وما زال فيهم حيث كان مسوّدًا[3] تسير المنايا حيث سارت ركائبه

بين الحسن بن علي ومعاوية

لما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: من ابن عليّ رضي الله تعالى عنه؟ فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عزّ وجلّ لم يبعث بعثًا إلا جعل له عدوًّا من المجرمين، فأنا ابن علي وأنت ابن صخر وأمك هند وأمي فاطمة وجدتك قيلة وجدتي خديجة، فلعن الله ألأمنا حسبًا وأخملنا ذكرًا

---

(١) أحوطهم: أكثرهم حيطة ورعاية.
(٢) الجزع ثاقبه: أي استطاع ثاقب الخرز من تنظيمه في عقود.
(٣) مسودًا: أي سيدًا عليهم.

وأعظمنا كفرًا وأشدنا نفاقًا، فصاح أهل المسجد آمين آمين، فقطع معاوية خطبته ودخل منزله.

ورُوِيَ أن معاوية خرج حاجًّا فمرّ بالمدينة ففرق على أهلها أموالًا ولم يحضر الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية مرحبًا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا، فقال له الحسن: ولم ينفد ما عندك وخراج الدنيا يجيء إليك، فقال معاوية: إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند، فقال الحسن: قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة.

بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية

دخل الحسين يومًا على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذّن المؤذّن فلما قال: أشهد أن محمدًا رسول الله قال الحسين: يا يزيد جد من هذا؟ فخجل يزيد ولم يرد جوابًا. وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة ... بمطِّ خدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا ... عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتًا والشهيد بفضلنا ... عليهم جهير الصوت من كل جامع

وله أيضًا:

إني وقوميَّ من أنساب قومهم ... كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابن عاشرة ... إلا وهمته أمضى من السيف

بين العباس وطلحة وعلي

تفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعليّ بن أبي طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعي مفتاحه فقال عليّ: ما أدري ما تقولان أنا صلّيت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر، فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [التوبة: الآية ١٩].

تفاخر بأبيه المسلم

تفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان ابن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين، فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أما الذي عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم في النار، والذي انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنّة. قال سلمان الفارسي:

أبــي الإســلام لا أبَ لــي ســواه إذا افـتـخـروا بـقـيـسٍ أو تـمـيـم

بين جرير والفرزدق

تفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق: أنا ابن محيي الموتى، فأنكر سليمان قوله، فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المَائدة: الآية ٣٢] وجدي فدى الموءودات فاستحياهن، فقال سليمان إنك مع شعرك لفقيه. وكان صعصعة جد الفرزدق أول مَن فدى الموءودات. وللعباس بن عبد المطلب:

إن الـقـبـائـل مـن قـريـش كـلّهـا لـيـرون أنـا هـامُ أهـلِ الأبـطـح
وتـرى لـنـا فـضـلًا عـلى سـاداتـهـا فضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمٰن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

ألسنا بني مروان كيف تبدلت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولـد الـمـولـود مـنـا تـهـللت له الأرض واهتزت إليه المنابر

وكتب إليه كتابًا يهجوه فيه ويسبه، فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام.

بين إبراهيم بن مخرمة وخالد بن صفوان

كانَ أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضًا، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخرمة الكندي وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا في الحديث وتذاكروا مصر واليمن، فقال إبراهيم بن مخرمة: يا أمير

المؤمنين إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكًا ورثوا الملك كابرًا عن كابر وآخرًا عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان كل يأخذ سفينة غصبًا وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا وإن نزل بهم ضيف قروه، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة.

فقال أبو العباس: ما أظن التميمي رضي بقولك، ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال: إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت، قال: تكلم ولا تهب أحدًا، وقال: أخطأ المقتحم[1] بغير علم، ونطق بغير صواب، وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت لها سنّة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيِّدنا محمَّد عليه الصلاة والسلام، فللّه المنّة به علينا وعليهم، فمنا النبيّ المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم، والحطيم، والمقام، والحجابة، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر، ومنا الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء، وبنا عرفوا الدين، وأتاهم اليقين، فمَن زاحمنا زاحمناه ومَن عادانا اصطلمناه.

ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندكم؟ قال: الجمجمة، قال: فما اسم السن؟ قال: الميدن، قال: فما اسم الأذن؟ قال: الصنارة، قال: فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتير، قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع، قال: أفعالم أنت بكتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: نعم. قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يُوسُف: الآية ٢] وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٩٥] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: الآية ٤]، فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥] ولم يقل، والجمجمة بالجمجمة، وقال تعالى: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥] ولم يقل والميدن بالميدن. وقال تعالى: ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥] ولم يقل والصنارة بالصنارة، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: الآية ١٩] ولم يقل

(١) المقتحم: المتطاول.

شناتيرهم في صناراتهم، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يُوسُف: الآية ١٧] ولم يقل الكنع.

ثم قال لإبراهيم: إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت، قال: وما هن؟ قال: الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم. قال: فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال: عليكم. قال: فالمنبر فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم؟ قال: لكم. قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم إلا سائس قرد، أو دابغ جلد أو ناسج برد، قال: فضحك أبو العباس، وأقرّ لخالد وحباهما جميعًا.

الأعشى وَالمُحْلَّق(١)

قال بعض أهل البادية: كان لأبي المحلَّق(٢) شرفٌ، فمات وقد أتلف مالَه، وبقي المحلَّق وثلاثُ أخواتٍ له ولم يترك لهم إلّا ناقةً واحدة وبُرْدَيْن كان يشهدُ فيهما الحُقوق.

فأقبل الأعشى(٣) من بعض أسفاره يريد منزلَه باليمامة، فنزل الماءَ الذي به المحلَّق فقَراهُ أهلُ الماء وَأحسنوا قَرَاه. ثم أقبلت عمةُ المحلَّق، فقالت: يا ابن أخي، هذا الأعشى قد نزل بمائنا، وقد قِراهُ أهلُ الماء والعربُ تزعم أنه لم يمدَحْ قومًا إلا رَفَعَهُم، ولم يَهْجُ قومًا إلا وضَعهم، فانظر ما أقولُ لك واحتَلْ في زِقٍّ من خمر من عند بعض التجار، وأَرْسِل إليه بهذه الناقة والزِّقِّ وبُرْدَى أبيك، فوالله لئن اعتَلَجَ(٤) الكَبِدُ والسَّنام والخمرُ في جوفه، ونظر إلى عِطْفَيْهِ في البُرْدَين، ليقولَنَّ فيك شعرًا يرفعك به. قال: ما أملك غيرَ هذه الناقة، وأنا أتوقَّع رِسْلَها(٥).

ثم أَقْبَلَ يدخل ويخرج ويَهُمُّ ولا يفعل، فكلما دخلَ على عمته حضَّته، حتى دخل عليها فقال: قد ارتحل الرجلُ ومضى. قالت: الآن والله أحسن ما كان القِرَى؛ تُتْبِعه ذلك مع غلام أبيكَ ـ وهو مولى له أسود شيخ ـ فإذا لحقَه أخبرَهُ

(١) الأغاني: ٩:١١٣، بلوغ الأرب: ٢:١٦٢.

(٢) المحلق: لقب عبد العزى بن حنتم من كلاب بن ربيعة، ولقب بذلك يوم عضه حصان في وجنته فترك بها أثرًا على شكل الحلقة.

(٣) هو أعشى قيس، واسمه ميمون بن قيس، أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم، وهو أول مَن سأل بشعره وانتجع به أقاصي البلاد، أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم. توفي سنة ٧ هـ.

(٤) اعتلج: اختلط.

(٥) الرسل: اللبن.

عنك أنك كنتَ غائبًا عن الماء عند نزوله إياه، وأنك لما وردتَ الماءَ فعلمتَ أنه كان به كَرِهتَ أن يَفوتك قِراه؛ فإنَّ هذا أحسنُ لموقِعِهِ عنده. ولم تزل تحضّه حتى أتى بعضَ التجار فكلمه أن يُقرضه ثمنَ زقِّ خمرٍ، وأتاه بمن يضمَنُ ذلك عنه فأعطاه. ثم وَجَّهَ بالناقة والخمر والبُرْدين مع مولى أبيه، فخرج يتبعه؛ فكلما مرَّ بماء قيل: ارتحل أمسِ عنه، حتى صار إلى منزل الأعشى بمَنْفُوحَةِ[١] اليمامة؛ فوجد عنده عدةً من الفِتيان قد غدَّاهم بغير لحم، وصَبَّ لهم فضيخًا[٢]؛ فهمْ يشربون منه. وقرع الباب فقال: انظروا مَن هذا؟ فخرجوا فإذا رسولُ المحلَّق يقول كذا وكذا؛ فدخلوا عليه وقالوا: هذا رسول المحلَّق الكِلَابي أتاكَ بكيتَ وكيتَ. فقال: ويحكم! أعرابي والذي أرسل إليّ لا قَدْرَ له! والله لئن اعتلج الكَبِدُ والسَّنَامُ والخمرُ في جوفي لأقولَنَّ فيه شعرًا لم أقل قطُّ مِثْلَه. فواثبه الفِتْيان وقالوا: غبتَ عنَّا فأطلتَ الغيبةَ، ثم أتيناك فلم تُطعمنا لحمًا وسقيتَنا الفضيخَ؛ واللحمُ والخمرُ ببابك، لا نرضى بذا منكَ. فقال: ائذنوا له؛ فدخل فأدَّى الرسالة، وقد أناخ الجزورَ بالباب، ووضع الزِّق والبُرْدين بين يديه؛ فقال: أَقْرِه السلام، وقل له: وَصَلَتْك رَحم، سيأتيكَ ثناؤُنا.

وقام الفِتيان إلى الجزور فنحروها وشقُّوا خاصرتَها عن كَبدها وجلدَها عن سَنامِها، ثم جاءُوا بهما، فأقبلوا يَشْوُون، وصَبُّوا الخمر فشربوا، وأكل معهم وشرب؛ ولبس البردين؛ ونظرَ إلى عِطْفَيْه فيهما؛ فأنشأ يقول:

أَرِقْتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ ... وما بِيَ من سُقْمٍ وما بيَ مَعشقُ[٣]

وفيها يقول:

نَفَى الذمّ عن آلِ المحلَّقِ جَفْنَةٌ ... كَجابيةِ[٤] الشيخ العراقي تَفْهَقُ[٥]
ترى القومَ فيها شارِعِيْنَ وبينهم ... مع القوم وِلْدَان من النسل دَرْدَقُ[٦]
لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرة ... إلى ضوء نارٍ باليَفَاع[٧] تَحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَليانها ... وبات على النار النَّدى والمحلقُ

(١) منفوحة: قرية في نواحي اليمامة؛ يسكنها الأعشى وفيها قبره.
(٢) الفضيخ: شراب يتخذ من بسر.
(٣) معشق: عشق.
(٤) الجابية: حوض ضخم.
(٥) فهق الإناء: امتلأ.
(٦) الدردق: الصبيان الصغار.
(٧) اليفاع: التل.

رضيـعـيْ لِبَـانِ ثَـدْيَ أُمٍّ تَـقَـاسَـمَـا   بِأَسْحَمَ[١] داجٍ عوضُ لا نتفرَّقُ
ترى الجودَ يجري ظاهرًا فوق وجهه   كما زانَ مَتنَ الهُنْدُوَانِيِّ رَوْنَقُ[٢]
يداهُ يدَا صِدْقٍ، فكَفٌّ مُبيدَةٌ   وكفٌّ إذا ما ضُنّ بالمالِ تُنْفِقُ

وسار الشعر وشاع في العرب. فما أتت على المحلَّق سنة حتى زوَّج أخواته الثلاث، كل واحدة على مائة ناقة؛ فأيسرَ وشَرُف.

احتِكَام الشّعَرَاء في عُكَاظ[٣]

حُكِيَ عن نابغة بني ذُبيان[٤] أنه كانت تُضْرَبُ له قُبَّةٌ من أَدَم بسوق عُكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء، فدخل إليه حسانُ بن ثابت، وعنده الأعشى، وقد أنشده شعره، وأنشدتْه الخَنْساء قولها:

قَذًى بعينك أم بالعين عُوَّارُ   أمْ ذَرَّفَتْ[٥] إذْ خلَتْ من أهْلِهَا الدارُ

حتى انتهت إلى قولها:

وإنَّ صخرًا لتأتَمُّ الهُداةُ به   كأنه عَلَمٌ[٦] في رأسه نارُ
وإنَّ صَخْرًا لمَوْلانا وسيِّدُنا   وإن صَخْرًا إذا نَشْتُو[٧] لنحَّارُ

فقال: لولا أن أبا بَصِير[٨] أنشدني قبلَكِ لقلتُ: إنكِ أشعرُ الناس. أنتِ واللهِ أشعرُ من كل أنثى! قالت: والله ومن كل رجل.

فقال حسان: أنا والله أشعرُ منكَ ومنها. قال: حيثُ تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجفَناتُ الغُرُّ يَلمَعْنَ بالضُّحا   وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجْدَةٍ دَمَا

---

(١) الأسحم: الأسود؛ والمراد الليل، ودجا الليل: أظلم. وعوض: أبدًا.
(٢) الهندواني: السيف عمل ببلاد الهند، ورونق السيف: ماؤه وحصنه.
(٣) الأغاني: ٩: ٣٤٠، الشعر والشعراء: ١٢٣.
(٤) هو أبو أمامة زياد بن معاوية، أحد فحول شعراء الجاهلية وحكمهم بعكاظ، ولقب بالنابغة لنبوغه في الشعر فجاءه وهو كبير بعد أن امتنع عليه وهو صغير، وهو من أشراف ذبيان، وعمر طويلًا ومات قبل البعثة.
(٥) العوار: كل ما أعل العين. وذرفت: قطرت.
(٦) العلم: الجبل.
(٧) شتا القوم: أجدبوا في الشتاء.
(٨) أبو بصير: كنية الأعشى.

ولدْنا بني العَنْقَاءِ[١] وابنَيْ محرِّقٍ فأكْرِمْ بنا خالًا وأكرِمْ بنا ابْنَمَا

فقال: إنك شاعر لولا أنك قلت: «الجفنات» فقلّلتَ العدد، ولو قلت: «الجِفان» لكان أكثر. وقلت: «يَلمعن في الضّحا»، ولو قلتَ: «يَبْرُقْنَ بالدُّجا» لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثرُ طروقًا. وقلتَ: «يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دمًا» فدلَلْتَ على قِلّةِ القتل، ولو قلتَ: «يَجْرِينَ» لكان أكثر لانصِبَابِ الدم، وفَخَرْتَ بما وَلَدْتَ، ولم تَفْخَرْ بمن وَلَدَكَ.

فقام حسان منكسرًا منقطعًا!

سَبَق السَّيفُ العَزَل[٢]

كان للنعمان بن ثَواب العبدي بنون ثلاثة: سعد وسعيد وساعِدَة، وكان ذا شرف وحكْمة، يوصي بنيه، ويحملُهم على أدبه.

أما ابنه سعد فكان شجاعًا بَطَلًا من شياطين العرب، لم تفتْه طَلِبَتُه قط، ولم يفرّ عن قِرْن.

وأما سعيد فكان يُشْبه أباه في شرَفه وسُودَدِه.

وأما ساعِدَة فكان صاحبَ شراب وندَامى[٣] وإخوان.

فلما رأى الشيخُ حال بنيه دعا سعدًا ـ وكان صاحب حرب ـ فقال: يا بُنيَّ، إن الصارِمَ ينبُو، والجوادَ يكبو، والأثر يعفو، فإذا شهدْت حربًا، فرأيتَ نارها تستعر، وبطلَها يخطر، وبحرَها يزخر، وضعيفها يُنصر، وجبانها يجسر، فأقلل المكثَ والانتظار، فإن الفرار غيرُ عار إذا لم تكن طالب ثَار، وإياك أن تكون صيد رماحها، ونطيحَ نطاحها.

وقال لابنه سعيد ـ وكان جوادًا ـ: يا بنيّ؛ لا يبخل الجواد، فابذُل الطارفَ والتِّلاد[٤]، وأقللِ التلاحَ[٥]، تُذْكر عند السماحِ، وابلُ إخوانك، فإنّ وَفيّهم قليل، واصنع المعروفَ عند مُحْتَمِله.

---

(١) العنقاء: ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء. ومحرق: هو الحارث بن عمرو مزيقيا. وكان أول مَن عاقب بالنار.
(٢) الأمثال: ١ ـ ٦٤.
(٣) جمع ندمان، وهو النديم الذي يرافقك ويشاربك.
(٤) الطارف من المال: المستحدث وهو ضد التالد.
(٥) التلاحي: التشاتم.

وقال لابنه ساعدة ـ وكان صاحبَ شراب ـ يا بُنيّ، أن كثرةَ الشراب تفسدُ القلب، وتقلّلُ الكسبَ؛ فأبصر نديمك، واحمِ حريمك، وأعِن غريمَك، واعلم أنّ الظمأَ القَامِح[1] خيرٌ من الرِّيِّ الفاضح، وعليكَ بالقَصْدِ فإنَّ فيه بلاغًا.

ثم إن أباهم النعمان بن ثَوَاب توفي، فقال ابنه سعيدٌ ـ وكان جوادًا سيدًا: لآخُذَنَّ بوصية أبي، ولأبْلُوَنّ إخواني وثقَاتي.

فعمد إلى كبْش فذبحه، ثم وضعه في ناحية من خِبائه وغشّاه ثوبًا، ثم دعا بعض ثِقَاته، فقال: يا فلان، إن أخاك من وفى لك بعهدِه، وحاطك برِفْدِه، ونصرك بوُده. قال: صدقت! فهل حدَثَ أمر؟ قال: نعم! إني قتلتُ فلانًا ـ وهو الذي تراه في ناحية الخبَاء ـ ولا بدَّ من التعاون عليه، حتى يُوارَى! فما عندك؟

قال: يا لَهَا سوْأة وقعتَ فيها! قال: فإني أريدُ أن تُعينني عليه حتى أُغيّبه! قال: لستُ لك في هذا بصاحب! وتركه وخرج. فبعث إلى آخرَ من ثِقَلته، فأخبره بذلك، وسأله معونته فردّ عليه مثل ذلك! حتى بعث إلى عدد منهم، كُلُّهم يردُّ عليه مثلَ جواب الأول.

ثم بَعَثَ إلى رجلٍ من إخوانه يقال له: خُزَيم بن نَوْفل، فلما أتاه، قال له: يا خُزَيم، مالي عندك؟ قال: ما يَسرُّك، وما ذاك؟ قال: إني قتلتُ فلانًا، وهو الذي تراه مُسَجًّى! قال أيسرُ خطب! فترُيدُ ماذا؟ قال: أريد أن تُعينني حتى أغيّبه! قال: هَانَ ما فَزِعتَ فيه إلى أخيك!

وكان غلامٌ لسعيد قائمًا بينهما، فقال خُزَيم: هل اطَّلَع على هذا الأمر أحدٌ غير غلامك هذا؟ قال: لا! قال: انظر ما تقولُ! قال: ما قلت إلا حقًّا. فأهوى خُزَيم إلى غلامه، فضربه بالسيف فقتله، وقال: ليس عبدٌ بأخٍ[2] لك.

فارتَاع سعيد، وفزع لقتل غلامه، وقال: ويحك! ما صنعت! وجعل يلومه. فقال خزيم: إن أخاك من وَاسَاك[2]!

---

(١) الظمأ القامح: الشديد، والمعنى: العطش الشاق خير من ري يفضح صاحبه (اللسان، مادة قمح).

(٢) ذهبت أمثالاً.

قال سعيد: فإني أردتُ تجربتك! ثم كشفَ له عن الكبش، وخبره بما لقي من إخوانه وثقَاته، وما ردّوا به عليه، فقال خزيم: سَبَقَ[١] السيفُ العذل[٢]!

إيثار ابنِ مَامَة الإيَادِي[٣]

خرج كَعب[٤] بن مامَة الإيادي في قَفَلٍ[٥] معهم رجلٌ من بني النَّمِر بن قاسط، وكان ذلك في حرِّ الصيف، فضلوا وشحّ ماؤُهم، فكانوا يتَصافَنُون[٦] الماء ـ وذلك أن يُطَرَح في القعب[٧] حَصَاة، ثم يُصبَّ فيه من الماء بِقَدْرِ ما يَغْمُرُ الحصاة؛ فيشرب كلُّ واحدٍ منهم قَدْرَ ما يشربُ الآخر.

ولما نزلوا للشُّرْب، ودَارَ القعب بينهم، حتى انتهى إلى كعب، رأى الرجلَ النَّمَري يُحِدّ النظرَ إليه، فآثره بمائه على نفسه، وقال للساقي: اسق أخاك النمَرِي، فشرب النّمري نصيب كعب من الماء ذلك اليوم!

ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر، فتصافَنُوا بقيةَ مائهم؛ فنظر إليه كنظره أمس وَقال كعب كقولهِ أمس، وارتحل القوم، وقالوا: يا كعب، ارتحل، فلم يكن له قوة للنهوض، وكانوا قد قربوا من الماء، فقالوا له: رِدْ يا كعبُ، إنك وارد، فعجز عن الجواب. ولما أيسُوا[٨] منه خيَّموا عليه بثوبٍ يمنعهُ من السبع أن يأكله وتركوه مكانه، فمات ونجا رفيقُه!

وَفَاء السَّموءَل[٩]

لما أراد امرؤ القيس المضيَّ إلى قيصر ملك الروم، أودع عند السَّمَوْءَل[١٠] دروعًا وسلاحًا وأمتعة، تساوي جملةً كثيرة؛ فلما مات امرؤ القيس أرسلَ ملكُ

---

(١) ذهبت أمثالًا. (٢) العذل: اللوم، ويضرب لما قد فات.

(٣) بلوغ الأرب: ١ ـ ٨١، المحاسن والمساوىء: ٢٠٥ ـ طبعة ليبزج، الأمثال: ١ ـ ١٦٧.

(٤) هو كعب بن مامة بن عمر بن ثعلبة الإيادي، الذي يضرب المثل بجوده، وكان أبوه ملك إياد.

(٥) القفل (بفتح الفاء): اسم جمع القافل، أي راجع.

(٦) تصافنوا الماء: اقتسموه بالحصص. (٧) القعب: القدح يروي الرجل.

(٨) يئسوا.

(٩) المستطرف: ١ ـ ٢٠١، الغرر: ١٩، بلوغ الأرب: ١ ـ ١٣٦.

(١٠) هو السموءل بن غريض بن عادياء شاعر جاهلي حكيم أشعر شعره لاميته التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

ويضرب المثل بوفائه. توفي نحو سنة ٦٥ ق.هـ.

كنْدَةَ يطلب الدروع والأسلحة المُودعةَ عند السموءل، فقال السموءل: لا أدفعُها إلا إلى مستحقِّها، وأبى أن يدفعَ إليه منها شيئًا؛ فعادوه، فأبى؛ وقال: لا أغدِر بذمَّتي، ولا أخونُ أمانتي، ولا أتركُ الوفاء الواجبَ عليّ.

فقصده ذلك الملكُ من كندة بعسكره، فدخل السموءل في حِصنه[1]، وامتنع به، فحاصره ذلك الملك. وكان ولدُ السموءل خارجَ الحِصْنِ، فظفِر به الملك، وأخذه أسيرًا، ثم طاف حول الحصن، وصاح بالسموءل، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدَكَ قد أسرتُه، وهو ذا معي، فإن سلّمتَ إليّ الدروع والسلاح رحلت عنك، وسلّمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحتُ ولدكَ وأنت تنظرُ! فاخْترْ أيهما شئت.

فقال له السموءَل: ما كنت لأُخْفِرَ ذِمَامي[2]، وأُبطل وَفَائي؛ فاصْنَعْ ما شئت! فذبح ولده، وهو ينظر. ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبًا، واحتسَب السموءَلُ ذَبْح ولده، وصبر محافظةً على وفائه؛ فلما جاء الموسم وحضر ورثةُ امرىء القيس، سلّم إليهم الدروعَ والسلاح، ورأى حِفْظَ ذِمامه، ورعايةَ وفائه أحبَّ إليه من حياة ولده وبقائه! وقال في ذلك:

وفيــتُ بــأدرُع الـكِـنْـدِيّ إنــي إذا مــا خَــانَ أقــوامٌ وفــيــتُ

لا حُرَّ بوَادِي عَوْف[3]

لما مات لَيْثُ بن مالك أخذت بنو عبس فرسَه وسَلَبه[4] ثم مالوا إلى خِبائه فأخذوا أهلَه، وسلبوا امرأته خُمَاعةَ بنتَ عَوْف بن مُحَلّم، وكان الذي أصابها عَمْرو بن قارب وذُؤاب بن أسماء؛ فسألها مروان[5] القرَظ بن زنباع: مَن أنت؟

---

(١) هذا الحصن يسمى الأبلق الفرد، وقد بناه أبوه بتيماء وفيه يقول السموءل:

لـنـا جـبـل يـحـتـلـه مـن نـجـيـره مـنـيـع يـرد الـطـرف وهـو كـلـيـل
هـو الأبـلـق الـفـرد الـذي شـاع ذكـره يـعـز عـلـى مَـن رامـه ويـطـول
رسـا أصـلـه تـحـت الـثـرى وسـمـا بـه إلـى الـنـجـم فـرع لا يـنـال طـويـل

(٢) أخفر الذمة: إذا لم يف بالعهد.

(٣) الأمثال: ٢ ـ ٢٩٩، بلوغ الأرب: ١ ـ ١٢٥.

(٤) السلب: ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون معه وعليه من سلاح ودابة.

(٥) سمي مروان القرظ: لأنه كان يغزو اليمن وهي منابت القرظ، ويضرب به المثل في العز، فيقال: أعز من مروان القرظ.

فقالت: أنا خُمَاعة بنت عوف بن محلّم، فانتزعها من عمرو وذؤاب، لأنه كان رئيسَ القوم، وقال لها: غَطِّي وجهك، والله لا ينظر إليه عربيٌّ حتى أردَّك إلى أبيك، وضمَّها إلى أهله! حتى إذا دخل الشهرُ الحرام أحسنَ كُسوتها وأخْدمها وأكرمها وحملها إلى عُكاظ.

فلما انتهى بها إلى منازل بني شَيْبَان قال لها: هل تَعْرِفين منازلَ قومك ومنزلَ أبيك؟ فقالت: هذه منازلُ قومي، وهذه قُبةُ أبي! قال: فانطلقي إلى أبيك؛ فانطلقت فخبَّرت بصَنِيع مروان.

ثم إن مروان غزَا بكرَ بن وائل فقصُّوا أثرَ جيشه؛ فأسره رجلٌ منهم، وهو لا يعرفُه، فأتى به أمَّه، فلما دخل عليها قالت له أمّه: إنك لتخْتَالُ بأسيرك كأنك جئْتَ بمَرْوان القرظ! فقال لها: وما تَرْتَجِين من مروان؟ قالت: عَظَمَ فِدَائه. قال: وكم ترتجين من فِدَائه؟ قالت: مائة بِعير! قال مروان: ذلك لكِ على أن تؤديني إلى خُمَاعة بنت عوف بن محلّم!

فَمَضَتْ به إلى عوف[١] بن محلّم، فبعث إليه عمرو ابن هند أن يأتيَه به ـ وكان عمرو وَجَد[٢] على مروان في أمر، فَآلى ألّا يعفو عنه حتى يضعَ يده في يده؛ فقال عوف ـ حين جاءه الرسول: قد أجارتْه ابنَتي! وليس إليه سبيل، فقال عمرو بن هند: قد آليتُ ألا أعفوَ عنه أو يضع يَدَه في يدي. قال عوف: يضع يَدَه في يدك على أن تكونَ يدي بينهما! فأجابه عمرُو ابن هند إلى ذلك.

فجاء عوف بمروان فأدخله عليه، فوضع يده في يده، ووضع يده بينهما، فعفا عنه. وقال عمروٌ: لا حُرَّ بوادي[٣] عوف.

مـرُوءَة حَاتِم[٤]

كان عَبْدُ قَيْس بن خفاف البُرْجُمِيّ أتى حاتم طيىء[٥] في دِماءٍ حملها عن

(١) من أشراف العرب في الجاهلية، كان مطاعًا في قومه، قويًا في عصبيته، وكانت تضرب له قبة في عكاظ، توفي نحو سنة ٤٥ ق.هـ.

(٢) وجد: غضب.

(٣) أي لا سيد به يناوئه.

(٤) الأغاني: ٨ ـ ٢٤٦، ذيل الأمالي: ٢٢، السمط: ١٢.

(٥) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي من أشهر أجواد العرب في الجاهلية، مات نحو سنة ٤٥ ق.هـ.

قومه، فأسْلمُوه فيها، وعجزَ عنها؛ فقال: واللهِ لآتِيَنَّ من يحمِلُها عني، وكان شريفًا شاعرًا شُجاعًا.

فلما قَدِم عليه قال: إنه وقعتْ بيني وبين قومي دماء فَتَوَاكَلُوها[١]، وإني حملتُها في مالي وأهْلي، فقدّمت مالي وأخّرْتُ أهلي، وكنتَ أملي، فإن تَحَمَّلْتَهَا فرب حقٍّ قد قضيتَهُ، وهمٍّ قد كَفَيْتَه، وإن حال دون ذلك حائِلٌ لَمْ أذْمُم يومك، ولم أيأس من غَدِك، ثم أنشأ يقول:

حملتُ دماءَ للبَرَاجِم جَمّةً ... فجئتُك لمّا أسلمَتْنِي البراجِمُ[٢]
وقالوا سَفَاهًا: لِمْ حَمَلتَ دِماءنا ... فقلت لهم: يكفي الحمالةَ حاتِمُ
متى آتِهِ فيها يَقُلْ لِيَ مَرْحبًا ... وأهلًا وسهلًا أخْطأتك الأشائِمُ[٣]
فيحملها عني، وإن شئتُ زادني ... زيادةَ مَنْ حلّتْ عليه المكارمُ
يعيشُ النَّدَى ما عاشَ حاتمُ طيِّئٍ ... فإن مات قامتْ للسخاء مَآتمُ
يُنَادينَ: مات الجودُ معْك فلا ترى ... مُجيبًا له ما حامَ في الجوِّ حائِمُ
وقال رجالٌ: أنْهبَ العامَ مَالَه ... فقلتُ لهم: إني بذلكَ عالمُ
ولكنّه يُعْطي مِنَ امْوال طيِّىء ... إذا جَلّفَ[٤] المالَ الحقوقُ اللوازمُ
فيُعطي التي فيها الغنَى وكأنه ... لتصغيره تلك العطيةَ جارم[٥]
بذلك أوصَاهُ عَدِيٌّ وحَشْرَجٌ ... وسَعْدٌ وعبد الله تلك القَمَاقم[٦]

فقال له حاتم: إني كنتُ لأحِبُّ أن يأتيَني مثلُك من قومك، هذا مِرْباعِي[٧] من الغارة على بني تميم فخُذه وافرًا؛ فإن وَفَى بالحمالةِ، وإلا أكْملتُها لك، وهو مائتا بعير سوى نِيبِها وفِصالها، مع أني لا أُحِبُّ أن تؤبِّسَ[٨] قومَك بأموالهم.

---

(١) تواكلوا: اتكل بعضهم على بعض.
(٢) أسلمه: خذله، والبراجم: قوم من أولاد حنظلة بن مالك.
(٣) الأشائم: ضد الميامن. (٤) جلف: ذهب به واستأصله.
(٥) جارم: مذنب.
(٦) القماقم: جمع قمقام وهو السيد العظيم، وهؤلاء الذين وردوا في البيت هم أجداد حاتم.
(٧) المرباع: ما يأخذه الرئيس من الغنيمة خاصة دون أصحابها وهو ربع الغنيمة.
(٨) تؤبس: تروع.

فضحك أبو جُبَيْل، وقال: أيّ بعير دفعتَه إليّ، وليس ذنبَه في يَدِ صاحبه فأنت منه بريءٌ، فدفعها إليه وزادَه مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعًا إلى قومه؛ فقال حاتم في ذلك:

أتـانـي الـبُـرْجُـمـيُّ أبـو جُـبَـيـلِ ... لـهـمٍّ فـي حَـمَـالَـتِـهِ طـويـلِ
فـقـلـت لـه: خـذِ الـمِـرْبـاه مِـنْـهَـا ... فـإنـي لـسـتُ أرْضَـى بـالـقـلـيـلِ
عـلـى حـالٍ ولا عـوّدتُ نـفـسـي ... عَـلَـى عِـلاّتِـهَـا عِـلَـلَ الـبَـخـيـلِ
فـخـذهـا إنـهـا مـائـتَـا بـعـيـرٍ ... سوى الناب الرَّذِيَّةِ[1] والفَصِيل[2]
فـلا مَـنٌّ عـلـيـك بـهـا، فـإنـي ... رأيـتُ الـمـنَّ يُـزْرِي بـالـجـمـيـلِ
فـآبَ الـبُـرجُـمـيُّ ومـا عـلـيـه ... مِـنَ اغـبـاء الـحَـمَـالـةِ من فَـتـيـلِ
يَـجُـرُّ الـذَّيْـلَ يـنـفُـضُ[3] مَـذرَوَيْـهِ ... خفيفَ الظهر من حِمْل ثَقيلِ!

مَاوِيّة تَتَحدّث عَن كَرم حَاتِم[4]

قالت ماوِيّة امرأة حاتم:

أصابتْنا سَنَةٌ اقشعرَّتْ لها الأرضُ، واغبَرَّ أُفُق السماء، وراحت الإبلُ حُدْبًا حَدَابِير[5]، وضَنّتِ المراضعُ على أولادها، فما تَبِضُّ[6] بقَطْرة، وحلَقَتْ[7] السَّنَةُ المال، وأيْقَنَّا بالهلاك. فوالله إنا لفي ليلةٍ صِنَّبْر[8]، بعيدةٍ ما بين الطرفين، إذ تَضَاغى[9] صِبْيَتُنا جوعًا: عبدُ الله، وعَدِيّ، وسَفّانَة. فقام حاتم إلى الصَّبِيَّيْن، وقمتُ أنا إلى الصَّبِيَّةِ. وأقبل يعلّلني بالحديث؛ فعرفتُ ما يريد، فتناومتُ.

---

(١) الرذية: الهزيلة الضعيفة. (٢) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

(٣) قال في القاموس: جاء ينفض مذرويه: باغيًا متهددًا، والمذروان: ناحيتا الرأس مثل الفودين، ثم استعير للمنكبين والإليتين والطرفين.

(٤) العقد الفريد: ١ ـ ١٠٨، أمثال الميداني: ١ ـ ١٢٣.

(٥) الحدب: جمع أحدب وهو صفة للجمل عند الجوع، والحدابير: جمع حدبار وهي الناقة الضامرة.

(٦) تبض: تسيل قليلًا قليلًا.

(٧) أي أهلكته واستأصلته كما تستأصل الموس الشعر.

(٨) صنبر: باردة. (٩) تضاغوا: تصايحوا.

فلما تَهوَّرت[١] النجوم، إذا شيءٌ قد رَفَع كِسْرَ البيت[٢] ثم عاد. فقال حاتم: مَنْ هذا؟ قالت: جارتُك فلانةُ، أتيتُك من عند صِبْيَةٍ يتعاوَوْن عُواءَ الذئاب، فما وجدتُ مُعوَّلًا إلّا عليك يا أبا عديّ. فقال: أعْجِليهم، فقد أشبعك الله وإياهم!

فأقبلت المرأةُ تحمل اثنين، ويمشي بجانبها أربعة، كأنها نعامة حَوْلها رِئالُها[٣].

فقام حاتمٌ إلى فرسه فوَجأ[٤] لَبَّته بمُدْية فخرَّ، ثم كشَطَه عن جِلْده، ودفع المديةَ إلى المرأة، فقال لها: شأنَك! فاجتمعنا على اللحم نَشْوي ونأكل. ثم جعل يمشي في الحيّ يأتيهم بيتًا بيتًا، فيقول: هُبُّوا أيُّها القوم، عليكم بالنار! فاجتمعوا والْتَفَع في ثوبه، وجلس في ناحية ينظر إلينا. فوالله إنْ ذَاقَ منه مُزْعة[٥]، وإنه أحوجُ إليه منا! فأصبحنا وما على ظَهْرِ الأرض من الفرس إلا عَظْمٌ وحافر؛ فأنشأ حاتم يقول:

مـهـلًا نَـوَارُ[٦] أقِـلِّي الـلومَ والـعـذَلا
ولا تَـقُـولـي لـشـيءٍ فَـاتَ: مـا فـعـلَا
ولا تَـقُـولـي لـمـالٍ كـنـتُ مُـهْـلِكَـه
مـهـلًا وإن كـنـتُ أُعـطـي الإنْـسَ والـخَـبَـلَا[٧]
يـرى الـبـخـيـلُ سـبـيـلَ الـمـالِ واحـدةً
إنَّ الـجـوادَ يـرى فـي مـالِه سُـبُـلَا

بَيـنَ حَاتِم وَمَاوِيَة[٨]

لما تزوَّج حاتم ماويَّةَ، وكانت من أحسنِ النساء؛ لبثت عنده زمنًا؛ ثم إنَّ ابن عم له ـ يقال له مالك ـ قال لماويّة:

ما تَصْنعين بحاتم؟ فوالله لئن وجدَ شيئًا ليُتْلِفَنّه، ولئن لم يجدْ ليتكلّفَنّ، ولئن مات ليتركَنَّ ولدَه عِيالًا على قومه؛ طلّقي حاتمًا وأنا أتزوجُ بك، فأنا خيرٌ لكِ منه

(١) تهورت: انحدرت إلى المغرب.
(٢) الكسر: الشقة السفلى من الخباء.
(٣) الرئال: أولاد النعام.
(٤) وجأ: طعن.
(٥) المزعة: القطعة من اللحم، وإن نافية، بمعنى ما.
(٦) هي امرأة حاتم.
(٧) الخبل: الجن.
(٨) ذيل الأمالي: ١٥٣.

وأكثرُ مالًا، وأنا أمسك عليك وعلى ولدك. فقالت ماوية: صدقت، إنه لكذلك، فلم يزل بها حتى طلّقت حاتمًا.

وكانت النساءُ أو بعضُهنَّ يطلِّقْنَ الرجال في الجاهلية، وكان طلاقُهن أنهن يحوِّلْنَ أبوابَ بُيوتهنَّ، إن كان البابُ إلى المشرق جعَلْنَه إلى المَغْرب؛ وإن كان البابُ قِبلَ اليمنِ جعَلْنَه قِبلَ الشّام؛ فإذا رأى ذلك الرجلُ علم أنها قد طَلَّقَتْه.

فأتى حاتمٌ فوجدها قد حوّلَتْ باب الخباء، فقال لابنه: يا عديّ، ما ترى أمّك؟ ما عَدَا عليها؟ قال: لا أدري! غير أنها غيَّرت باب الخِباء ـ وكأنّه لم يَلْحَن[1] لِمَا قال؛ فدعاه فهبط به بَطْنَ واد.

وجاء قومٌ فنزلوا على بابِ الخباء، كما كانوا ينزلون فَتَوافَى خمسون رجلًا، فضاقت بهم ماويّة ذَرْعًا؛ فقالت لجاريتها: اذهبي إلى مالك، فقولي له: إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلًا، فأَرْسِل إلينا بنابِ نَقْرهم ولبَنٍ نَغْبُقهُمْ[2].

وقالت لجاريتها: انظري إلى جَبينه وفَمِه، فإن شافَهَكِ بالمعروف فاقبَلي منه؛ وإن ضرب بلَحْيَيْهِ[3] على زَوْرِه؛ فارجعي ودَعِيه.

فلما أتت مالكًا وجدته متوسِّدًا وَطْبًا[4] من لبَن، فأيْقَظَتْهُ وأبلغته الرسالة؛ وقالت: إنما هي الليلة حتى يعلمَ الناس مكانك؛ فأدخل يده في رأسه، وضربَ بلَحْيَيْهِ على زَوْرِه، وقال لها: أقرِئي عليها السلام، وقولي لها: هذا الذي أمرتُكِ أن تُطَلِّقي حاتمًا من أجله، فما عندي من كبيرةٍ قد تَرَكَتِ العمل، وما كنتُ لأنحرَ صفيَّة[5] غزيرة بشحم كُلَاها، وما عندي لبن يكفي أضيافَ حاتم!

فرجعتِ الجارية فأخبرتها بما رأتْ منه، وأعلمتها بمقالته؛ فقالت لها: ويلك! ائتي حاتمًا فقولي له: إن أضيافَك قد نزلوا الليلَة بنا، ولم يعلموا بمكانك، فأرسل إلينا بنابٍ ننحرها ونَقْرِهم، وبلبَنٍ نسقهم، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك.

---

(١) لم يلحن: لم يفطن.

(٢) الغبوق: الشرب بالعشي، وغبقه: سقاه إياه في هذا الوقت.

(٣) اللحى: منبت اللحية، وهما لحيان. (٤) الوطب: سقاء اللبن، وهو من جلد.

(٥) الصفية: الناقة الغزيرة.

فأتت الجاريةُ حاتمًا فصرخَتْ به. فقال حاتم: لبيكِ قريبًا دعوت! فقالت: إن ماويَّةَ تقرأُ عليك السلام؛ وتقول لك: إن أضيافَك قد نزلوا بنا الليلة، فأرسِلْ إليهم بنابٍ ننحرها لهم ولبن نسقهم. فقال: نعم وأبي! ثم قام إلى الإبل فأطلق ثنيَّتين[١] من عِقَالَيهما، ثم صاح بهما حتى أتى الخباء، فضرب عَرَاقيبهما[٢]، فطفقت ماويةُ تصيحُ وتقول: هذا الذي طلَّقتك فيه! تترك ولدَك وليس لهم شيء!

مـــرُوءَة وَوفَـــاء[٣]

خرج النعمانُ[٤] بنُ المنذر يومًا يتصيَّد على فرسِه اليَحْمُوم[٥]، فأجراه على أثَرِ عَيْر[٦]؛ فذهب به الفرسُ في الأرض، ولم يَقْدِر عليه، وانفردَ عن أصحابه، وأخذَتْهُ السَّمَاء[٧]؛ فطلب ملجأ يلجأ إليه، فَدَفع إلى بناءٍ، فإذا فيه رجل من طيّء يقال له حَنْظَلة، ومعه امرأةٌ له؛ فقال لهما: هل منْ مَأوى؟ فقال حَنْظَلة: نعم! وخرج إليه، فأنزله، ولم يكن للطائي غيرُ شاة، وهو لا يعرفُ النعمان؛ فقال لامرأته: أرى رجلًا ذا هيئة، وما أخلَقَهُ أن يكونَ شريفًا خطيرًا، فما الحيلةُ؟ قالت: عندي شيءٌ من طَحِين كنتُ ادّخرتُه، فَاذْبح الشاة لأتَّخذَ من الطحين خُبْزَ مَلّة[٨].

وأخرجتِ المرأةُ الدقيقَ، فخبزَتْ منه، وقام الطائيّ إلى شاتِه فاحْتَلبها، ثم ذبحها؛ فاتَّخذ من لحمها مَرَقَةً مَضِيرة[٩]، وأطْعَمَه من لحمها، وسقاه من لبنها، واحتال حتى وجد له شرابًا فَسَقَاه، وجعل يُحَدِّثُه بقيةَ ليلته.

---

(١) الثنية: الناقة الطاعنة في السادسة.
(٢) العرقوب من الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها.
(٣) أمثال الميداني: ١ ـ ١٤٦، المستطرف: ١ ـ ١٩٩، الأغاني: ١٩ ـ ٨٨، معجم البلدان: ٦ ـ ٢٨٥، المحاسن والأضداد: ٥٨، بلوغ الأرب: ١ ـ ١٢٧، المحاسن والمساوىء: ١١٧، طبعة ليبزج.
(٤) من ملوك الحيرة، تولى الملك بعد عمرو بن هند، ويكنّى أبا قابوس، وهو ممدوح النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، وحاتم الطائي؛ ومات نحو سنة ٨ ق.هـ.
(٥) اليحموم: الأسود وهو اسم فرس كان للنعمان.
(٦) العير: الحمار الوحشي. (٧) المطر.
(٨) الملة: الرماد الحار. وخبز الملة: ما يصنع فيها.
(٩) المضيرة: أن يطبخ اللحم باللبن البحت الصريح حتى ينضج اللحم وتختر المضيرة.

فلما أصبح النعمانُ لبس ثيابَه، وركب فرسَه، ثم قال: يا أخا طَيء؛ اطلبْ ثوابك، أنا الملك النعمان! قال أفعَلُ إن شاء الله.

ثم لحق الخيلَ، فمضى نحو الحِيرَة، ومكث الطائيُّ بعد ذلك زمانًا حتى أصابَتْه نَكْبَة وجَهْدٌ، وساءَتْ حالُه؛ فقالت له امرأته: لو أتيت الملكَ لأحْسَن إليك؟ فأقبل حتى انتهى إلى الحِيرةِ، فوافق يَوْمَ بُؤْسِ النعمان، فإذا هو واقفٌ في خَيله في السلاح.

فلما نظر إليه النعمانُ عرفه، وساءه مكانُه، فوقف الطائيُّ - المَنْزُول به - بين يدي النعمان، فقال له: أنت الطائيُّ المنزولُ به؟ قال: نعم. قال: أَفَلا جئتَ في غير هذا اليوم! قال: أبيتَ اللعن! وما كان عِلْمي بهذا اليوم؟ قال: والله لو سَنَح لي في هذا اليوم قَابُوس[1] لم أجد بدًّا من قَتْله، فاطلبْ حاجتَك من الدنيا، وسَلْ ما بَدَا لك فإنكَ مقتول! قال: أبيْتَ اللعن! وما أصنعُ بالدنيا بعد نَفْسي؟ قال النعمان: إنه لا سبيلَ إليها. قال: فإن كان لا بدَّ فأَجِّلْني حتى أُلِمَّ بأهلي، فأُوصي إليهم، وأهيِّء حالهم، ثم أنصرف إليك. قال النعمان: فأَقِم لي كَفِيلًا بمُوافاتك. فالتفتَ الطائي إلى شريك[2] بن عمرو، وهو واقفٌ بجنبِ النعمان. فقال له:

يَا شَرِيكٌ يَا ابْنَ عَمْرِو هَلْ مِنَ الْمَوْتِ مَحَالَه[3]
يا أخَا كلِّ مُصَابٍ يا أخا مَنْ لا أَخَا لَه
يا أخا النعمان فُكَّ الْـ ـيَوم ضَيْفًا قد أَتَى لـه

فأبى شريك أن يتكفَّلَ به؛ فوثب إليه رجلٌ من كَلْب يقال له قُرادُ بنُ أجدع، فقال للنعمان: أبيتَ اللعن! هو عليَّ! قال النعمان: أفعلتَ؟ قال: نعم! فضمَّنه إياه، ثم أمر للطائي بخمسمائة ناقة؛ فمضى الطائي إلى أهله، وقد جعل الأجلَ حوْلًا من يومه ذلك إلى مِثلِ ذلك اليوم مِنْ قابل، فلما حال عليه الحول، وبقي من الأجَلِ يوم، قال النعمان لقُرَاد: ما أراك إلا هالكًا غدًا، فقال قراد:

فإن يكُ صدرُ هذا اليوم وَلّى فإنّ غدًا لِنَاظِره قريبُ

---

(١) قابوس: ابن النعمان.
(٢) كان شريك هذا رديف النعمان، يجلس عن يمينه ويشرب بعده ويخلفه إذا غزا.
(٣) حيلة.

فلما أصبح النعمان ركب في خَيْله ورَجْلِه[١] مُتَسَلِّحًا كما كان يفعل حتى أتى الغَرِيَّين[٢] فوقف بينهما؛ وأخرج معه قُرادًا، وأمر بقتْله، فقال له وزراؤُه: ليس لك أن تقتلَه حتى يستوفي يومَه، فتركه؛ وكان النعمانُ يشتهي أن يَقتل قُرادًا ليُفلِت الطائيُّ من القَتْل؛ فما كادت الشمسُ تَجِبُ[٣] وقرادُ قائم على النِّطْع[٤]، والسَّيافُ إلى جنبه حتى أقبلت امرأته وهي تقول:

أيا عينُ بكى لي قُرادَ بنَ أجدعا رهينًا لقتلٍ لا رهينًا مُوَدَّعَا

فبينما هم كذلك إذ رُفع لهم شخص من بعيد، وقد أمر النعمانُ بقتل قُراد، فقيل له: ليس له أن تقتلَه حتى يأتيَك الشخص فتعلم مَن هو؟ فكفَّ حتى انتهى إليه الرجل، فإذا هو الطائيّ!

فلما نظر إليه النعمان شقّ عليه مجيئُه، فقال له: ما حَملَك على الرجوع بعد إفْلاتك من القتل؟ قال: الوفاء، قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: ديني. قال النعمان: وما دينُك؟ قال: النصرانية. قال النعمان: فاعْرِضْها عليّ، فعرضَها عليه؛ فتنصَّر النعمان وأهلُ الحيرة أجمعون، وترك القتلَ منذ ذلك اليوم؛ وأبطلَ تلك السنة، وأمر بهدم الغرِيَّين، وعفا عن قُراد والطائي؛ وقال: والله ما أدْري أيّهما أوْفى وأكْرم؛ أهذا الذي نجا من القَتْل فعاد، أم هذا الذي ضَمِنه؟ والله لا أكونُ ألأمَ الثلاثة؛ فأنشأ الطائي يقول:

ما كنتُ أُخْلِفُ ظنَّه بعد الذي أسْدى إلى من الفَعَال[٥] الخالِي
ولقد دعتْني للخِلَاف ضَلَالتي فأبيتُ غير تمجُّدِي وفَعالي!

مَكْـــرمَـة[٦]

حدّث عمرو بن العلاء فقال: جلس النعمانُ بن المنذر وعليه حُلّةٌ مرصَّعةٌ بالدرّ، لم يُرَ مثلُها قبل ذلك اليوم. وأَذِنَ للعرب في الدخول عليه، وكان فيهم

(١) الخيل: الفرسان، والرجل اسم جمع للراجل، وهو ما لا ظهر له في سفره يركبه.
(٢) الغريان: مثنى غري، بناءان طويلان، يقال هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش وسميا بذلك، لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه.
(٣) تجب الشمس: تغيب. (٤) النطع: بساط من جلد.
(٥) الفعال ـ بالفتح: الفعل الكريم. (٦) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.

أوسُ بن حارثة(١)، فجعلت العرب تنظرُ إلى الحُلَّةِ، وكلٌّ منهم يقول لصاحبه: ما رأيتُ مثلَ هذه الحلّة قطّ، ولا سمعت أن أحدًا من الملوك قدَر على مثلها ـ وأوسُ بن حارثة مُطْرِق لا ينظر إليها ـ فقال له النعمان: ما أرى كلَّ مَنْ دخل عليّ إلا اسْتَحْسَن هذه الحلّة، وتحدَّثَ مع صاحبه في أمرها إلا أنت؛ ما رأيتُك استحسنتها ولا نظرتَها.

قال أوس: أسعد الله الملك! إنما تُسْتَحْسن الحلّةُ إذا كانت في يد التاجر، وأما إذا كانت على الملك، وأشرق فيها وجههُ فنَظَرِي مقصور عليه لا عليها! فاسترجح عقلَه.

فلما عزموا على الانصراف قال لهم النعمانُ: اجتمعوا إليّ في غد فإني مُلْبِسٌ هذه الحلّةَ لسيد العرب منكم، فانصرف العربُ عنه، وكلٌّ يزعم أنه لابس الحلة.

فلما أصبحوا تزينوا بأفخر الملابس وتقلّدوا بأحسن السيوف، وركبوا أجودَ الخيل، وحضروا إلى النعمان؛ وتأخر عنه أوسُ بن حارثة؛ فقال له أصحابه: مالك لا تَغْدُو مع الناس إلى مجلس الملك، فلعلك تكونُ صاحبَ الحُلة. فقال أوس: إن كنتُ سيد قومي فما أنا بسيِّد العرب عند نفسي، وإن حضرتُ ولم آخذها انصرفتُ منقوصًا، وإن كنتُ المطلوبَ لها فسيُعْرَف مكاني، فأمسكوا عنه.

ونظر النعمانُ في وُجُوهِ القوم، فلم يَرَ أَوْس بن حارثة؛ فاستدعى بعضَ خاصته، وقال: اذهب لتعرفَ خبرَ أوس، فمضى رسولُ النعمان، واستخبر بعض أصحابه؛ فأخبره بمقالته، فعاد إلى النعمان، فأخبره بذلك، فبعث النعمانُ إليه رسولًا، وقال: احضُر آمنًا مما خِفْتَ عليه، فحضر أوس بثيابه التي حضر بها بالأمس، وكانت العربُ قد استبشرت بتأخره خوفًا من أن يكون هو الآخذَ للحُلة.

فلما حضر وأخذ مجلسه، قال له النعمان: إني لم أرك غيّرتَ ثيابَك في يومك؛ فالبس هذه الحلة لتتجملَ بها، ثم خَلَعَها وألبسه إياها. فاشتدّ ذلك على العرب وحسدوه؛ وقالوا: لا حِيلةَ لنا فيها؛ إلا أنْ نرغَبَ إلى الشعراء أن يهجوه

---

(١) أوس بن حارثة: من أجداد العرب في الجاهلية، بنوه بطن من بني مزيقياء، وهم إحدى قبيلتي الأوس والخزرج، أصلهم من اليمن، ونزلوا يثرب وجاء الإسلام وهم بها.

بقبيح الفعل؛ فإنه لا يخفض رفعته إلا الشعر. فجمعوا فيما بينهم خمسمائة ناقة، وأتوا بها إلى رجلٍ يقال له جرْوَل(١)، وقالوا له: خذ هذه، واهْجُ لنا أوس بن حارثة.

وكان جَرْوَل يومئذ أشعرَ العرب وأقواهم هجاء؛ فقال لهم: يا قوم؛ كيف أهجو رجلًا حَسِيبًا لا يُنْكَر بيته، كريمًا لا ينقطع عطاؤه، فَيْصلًا(٢) لا يُطْعَن على رأيه، شجاعًا لا يُضَام نزِيلُه، محسنًا لا أرى في بيتي شيئًا إلا مَنْ فضله!

فسمع بذلك بشر بن أبي خازم ـ وكان شاعرًا ـ فرغب في البَذْل؛ وأخذ الإبل وهجاه، وذكر أمّه سُعْدى. فسمع أوس بذلك؛ فوجّه في طلبه، فهرب وترك الإبل؛ فأتوا بها إلى أوس بن حارثة، فأخذها وشدّ في طلبه؛ وجعل بشر بن أبي خازم يطوف في أحياء العرب يلتمس عزيزًا يجيره على أوس، وكل مَن قصده يقول: قد أجَرْتُك إلا من أوس بن حارثة، فإني لا أقدر أن أُجِير عليه ـ وكان أوس قد بثَّ عليه العيون؛ فرآه بعضُ مَن كان يرصُده، فقبض عليه، وأتى به إلى أوس، فلما مَثَل بين يديه قال له: ويلك! أتذكر أمي وليس في عصرنا مثلها؟ قال: قد كان ذلك أيها الأمير؟ فقال: والله لأقتلُنّك قتلَةً تحيا بها سُعْدَى ـ يعني أمه.

ثم دخل أوس إلى أمه سُعْدى، وقال: قد أتيتُك بالشاعر الذي هجاك، وقد آليتُ لأقتلنّه قِتْلةً تحيين بها! قالت: يا بني؛ أو خيرٌ من ذلك! قال: وما هو؟ قالت: إنه لم يَجِدْ ناصرًا منك، ولا مُجيرًا عليك، وإنا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس، فبحَقِّي عليك إلا أطلقتَه، ورددتَ عليه إبلَه، وأعطيتَه من مالك مثل ذلك، ومِنْ مالي مثلَه، وأَرجِعه إلى أهله سالمًا؛ فإنهم أَيِسوا(٣) منه!

فخرج له أوسٌ، وقال: ما تقول أني فاعل بك؟ قال: تَقْتُلُني لا محالة! قال: أفتستحقُّ ذلك؟ قال: نعم؟ قال: إن سُعْدى التي هجوتَها قد أشارت بكذا وكذا، وأمر بحلِّ كِتَافه(٤)، وقال له: انصرف إلى أهلك سالمًا، وخُذْ ما أمرْتُ لك به!

فرفع بِشْر يده إلى السماء وقال: اللهم أنت الشاهد عليّ ألّا أعود إلى شعرٍ إلا أن يكون مَدْحًا في أوسِ بن حارثة.

---

(١) هو الحطيئة.
(٢) فيصل: حاكم.
(٣) يئسوا.
(٤) الكتاف: هو حبل يشد به.

أجارَه مِن الموت![1]

أتى الأعشى الأسودَ العَنْسِي[2] وقد امتَدَحه فاستَبْطأ جائزَته. فقال الأسود: ليس عندنا عَيْنٌ، ولكن نُعطيك عَرَضًا، فأعطاه بخمْسِمائة مثقال دُهنًا، وبخمسمائةِ حُلَلًا وعَنبرًا.

فلما مرّ ببلاد بني عامر خافَهم على ما مَعَه، فأتى عَلْقَمةَ[3] بن عُلَاثَة فقال له: أجِرْني؛ فقال: قد أَجَرْتُك. قال: من الجنّ والإنس؟ قال: نعم! قال: ومن الموت؟ قال: لا!

فأتَى عامرَ بن الطُّفَيْل، فقال: أَجِرْني؛ قال: قد أجرتُك. قال: من الجنّ والإنس؟ قال: نعم! قال: ومن الموت؟ قال: نعم! قال: وكيف تُجيرني من الموت! قال: إن متَّ وأنتَ في جِوَاري بعثتُ إلى أهلك الدِّيةَ. فقال: الآن علمتُ أنك أجرتَني من الموت. ثم مدح عامرًا وهجا عَلقمةَ؛ فقال علقمة: لو علمتُ الذي أراد كنت أعطيتُه إياه!

يَزيد بن عَبد المَدَان عِند الحَارِث بن جَفْنه[4]

قدم يزيد[5] بن عبد المَدَان وعمْرُو بن معديكرب ومَكْشُوح المُرَاديّ عَلَى ابن جَفْنَة[6] زُوَّارًا، وعنده وجوهُ قيس: مُلَاعِب الأسنّة، ويزيد بن عمرو، ودُريد بن

---

(١) الأغاني: ٩ ـ ١٢٠.

(٢) الأسود العنسي: هو عبهلة بن كعب بن غوث، خرج بعد حجة الوداع في عامة مذحج، وادعى النبوة وكان كاهنًا قتله فيروز وداذويه وقيس غيلة. والأعشى: هو ميمون بن قيس من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، عاش عمرًا طويلًا، وأدرك الإسلام ولم يسلم، ومات في اليمامة سنة ٧ هـ.

(٣) علقمة بن علاثة: والٍ من الصحابة، كان في الجاهلية من أشراف قومه وكان كريمًا، توفي نحو سنة ٢٠ هـ.

(٤) الأغاني: ١٠ ـ ١٣٩، مهذب الأغاني: ١ ـ ٥٧.

(٥) كان يزيد سيد مذحج شاعرًا من أشراف اليمن وشجعانها، وفد على بني جفنة ـ أمراء بادية الشام، وعاد إلى اليمن فأقام بنجران إلى أن كان يوم الكلاب الثاني فقتل فيه نحو سنة ٨ ق.هـ.

(٦) كان بنو جفنة يقيمون بالشام ملوكًا عليه وعلى ما يليه من بادية العرب ولكنهم كانوا عمّالًا لملوك الروم، وظلوا حتى انقاد آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم إلى الإسلام في عهد عمر بن الخطاب.

الصِّمة. فقال ابن جفنة ليزيد بن عبد المَدَان: ماذا كان يقول الدّيان[١] إذا أصبح؟ فقال: كان يقول: آمنتُ بالذي رفع هذه (يعني السماء)، ووضع هذا (يعني الأرض) وشقّ هذه (يعني أصابعه)، ثم يخرّ ساجدًا؛ فإذا رفع رأسه قال:

إن تغفر اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جمَّا وأيّ عبدٍ لك ما ألمّا

فقال ابنُ جَفْنة: إن هذا لذُو دِينٍ، ثم مال على القيسيِّين وقال: ألا تحدثونني عن هذه الرياح: الجَنُوب، والشمال، والدَّبور، والصَّبا، والنَّكْبَاء؛ لم سمِّيت بهذه الأسماء؛ فإنه قد أعياني علمُها؟ فقال القوم: هذه أسماء وجدنا العرب عليها لا نعلمُ غير هذا! فضحك يزيد. ثم قال لابن جفنة: يا خيرَ الفتيان، ما كنتُ أحسب أن هذا يسقطُ علمُه عن هؤلاء، وهم أهل الوَبر! إن العربَ تضْرب أبياتَها في القبلة مطلع الشمس لتُدْفِئهم في الشتاء، وتزول عنهم في الصيف؛ فما هبّ من أمامه فهي الصّبَا، وما هبّ من خلفه فهي الدَّبُور، وما استدار من الرياح بين هذه الجهات فهي النَّكْبَاء...

فقال ابنُ جفنة: إن هذا لَلْعِلْمُ يا ابن عبد المَدَان!

وأقبل ابنُ جَفْنَة على القيسيين يسألهم عن النعمان بن المنذر، فعابوه وصغروه، فنظر ابنُ جفنة إلى يزيد وقال له: ما تقولُ يا ابنَ عبد المدان؟ فقال: يا خير الفتيان، ليس صغيرًا من منَعك العراق، وشَرِكَك في الشام، وقيل له: أبيت اللعن! وقيل لك: يا خير الفِتيان! وألْفى أباه مَلِكاكما ألفيتَ أباك ملكًا؛ فلا يسرُّك مَنْ يغرُّك، فإنَّ هؤلاء لو سألهم عنك النعمان لقالوا فيك مثلَ ما قالوا فيه، وايمُ الله! ما فيهم رجلٌ إلا ونعمةُ النعمان عنده عظيمة...

فغضب عامرُ بن مالك وقال: يا ابن الدّيّان، أما والله لنحتلبن بها دمًا! فضحك يزيد وقال: ما لهم والله جرأةُ بني الحارث، ولا فتك مُراد، ولا بأس زُبيد، ولا مغَارُ طيء، وما هم ونحن - يا خير الفتيان - بسواء؛ ما قتلنَا أسيرًا قط، ولا اشتهينا حرَّةً قط، ولا بكينا قتيلًا نُبيء به، وإن هؤلاء ليعجزون عن ثأرهم حتى يُقتل السَّميُّ بالسَّمِيّ والجار بالجار... ثم قال:

تمالَى على النعمان قومٌ إليهم مواردُه في ملكه ومصَادِره

---

(١) الديان: جد يزيد.

على غير ذنب كان منه إليهم سوى أنه جادتْ عليهمْ مَوَاطره
فباعَدَهم من كل شرٍّ يخافه وقَرَّبَهُمْ من كلِّ خير يبادره
فظنوا، وأعراضُ المنون كثيرةٌ، بأن الذي قالوا من الأمر ضائره
فلم ينقُصُوه بالذي قيلَ شعرةً ولا فلَّلَتْ أنيابُه وأظافره
وللحَارثُ الجَفْنِيُّ أعلمُ بالذي يبوءُ به النعمان إن حَفّ(١) طائره
فيا حارِكمْ فيهم لنعمانَ نعمة من الفضلِ والمنِّ الذي أنا ذاكِره
ذُنوبًا عفا عنها، ومالًا أفاده، وَعظمًا كسيرًا قوَّمته جَوَابِرُه
ولو سالَ عنك العائبين ابنُ منذر لقالوا له القولَ الذي لا يُحَاذِرُه

فلما سمع ابنُ جفنة هذا القول عظمَ يزيدُ في عينه، وأجلسه معه على سريره، وسقاه بيده، وأعطاه عطيةً لم يُعطِها أحدًا ممن وفد عليه قط؛ ولما قرَّبَ يزيدُ ركائبه ليرتحلَ سمع صوتًا إلى جانبه وإذا هو برجل يقول:

أما مِنْ شفيعٍ من الزائرينَ يُحِبُّ الثَّنَا زَنْدُهُ ثاقبُ
يريدُ ابنُ جفنةَ إكرامَه وقد يمسحُ الضَّرَّةَ(٢) الحالبُ
فينقذَني من أظافيره وإلا فإني غدًا ذاهبُ
فقد قلتُ يومًا على كُرْبة وفي الشربِ في يثربٍ غالبُ:
ألا ليتَ غسان في ملكها كلحمٍ وقد يخطىء الشاربُ
وما في ابن جفنةَ من سُبَّةٍ وقد خَف حملًا بها الغاربُ
كأني قريبٌ من الأبعدين وفي الحلق مني شجى ناشبُ

فقال يزيد: علي بالرجل، فأتى به، فقال: ما خطبك! أنت تقول هذا الشعر! قال: بل قاله رجل من جُذام جفاه ابنُ جفنة، وكانت له عند النعمان منزلة، فشرب، فقال له عَلَى شرابِه شيئًا أنكره عليه ابنُ جفنة، فحبسه، وهو مُخرجه غدًا فقاتلُه. فقال يزيد: أنا أُغِيثُك، فقال له: ومَن أنتَ حتى أعرفك؟ فقال: أنا يزيدُ بن عبد المدان؛ فقال: أنت لها وأبيك! قال: أجل؟ فقد كفيتك أمرَه، فلا يسمعنّك أحدٌ تنشِدُ هذا الشعر.

---

(١) حف: طار.
(٢) الضرة: الضرع.

وغدا يزيد على ابن جفنة ليودعه، فقال له: حَيّاك الله يا ابن الديان، حاجَتَك! قال: تلحق قُضاعة بالشام، وتؤثر من أتاك من وفود مذحج، وتَهَبُ الجُذاميّ الذي لا شفيع له إلا كرمك. قال: قد فعلتُ، أما أني حبسته لأهبه لسيّد ناحيتك وكنتَ ذلك السيد، ووهبه له، فاحتمله يزيدُ معه!

إغَـاثَـة[1]

جاور[2] رجلان من هَوَازِن في بني مرّة بن عوف، وكان قد أصابا دمًا في قومهما. ثم إن قَيْس بنَ عاصم المِنْقَري[3] أغار على بني مُرَّة، فأصاب واحدًا منهما في عِدَّة أسارى كانوا عندهم، ففَدى كلُّ قومٍ أسيرَه من قيس بن عاصم، وتركوا الهوازنيّ، فاستغاث أخوه بوجوه بني مرة: سنان بن أبي حارثة، والحارث بن عوف، والحارث بن ظالم، وهاشم بن حرملة، والحصين بن الحِمام، فلم يغيثوه.

فركب إلى موسم عُكاظ، فأتى منازل مَذْحِج ليلًا، ونادى:

دعوتُ سنانًا وابنَ عوفٍ وحارثًا وعاليتُ دَعْوى بالْحُصَيْنِ وهاشم
أعيذهمُ في كلّ يوم وليلةٍ بتركِ أسيرٍ عند قيس بن عاصم
حليفُهم الأدنى، وجارُ بيوتِهمْ ومن كانَ عما سرّهم غيرَ نائِم
فصَمُّوا، وأحداثُ الزمان كثيرة وكم في بني العَلّات[4] من مُتَصَامِمِ!
فيا ليت شعري مَنْ لإطلاق غِلْمةٍ ومن ذا الذي يُحْظَى به في المواسمِ!

فسمع صوتًا من الوادي ينادي بهذه الأبيات:

ألا أيّهذا الذي لم يُجَبْ عليكَ بحيٍّ يجلّي الكُرَبْ
عليك بذا الحيِّ من مَذْحجٍ فإنهمُ للرِّضا والغَضَبْ
فنادِ يزيدَ بن عبد المَدان، وقيسًا، وعَمْرو بن مَعْدِيكربْ

(١) مهذب الأغاني: ٥ ـ ٦٠.
(٢) جاوره مجاورة وجوارًا: صار جاره.
(٣) منقر: بطن من تميم، وقيس بن عاصم: كان سيد تميم، ولما وفد على النبيّ ﷺ بسط له رداءه وقال: هذا سيد الوبر، ولما توفي قال فيه الشاعر:
وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما
(٤) بنو العلات: هم بنو رجل واحد من أمهات شتى.

يـفـكّـوا أخَـاكَ بـأمـوالـهـمْ وأَقْـلِلْ بـمـثـلهـم فـي الـعَـرَبْ!
أولاكَ الـرؤوسُ فـلا تَـعـدُهـم ومن يجعلِ الرأسَ مثلَ الذنب!

فاتّبع الصوتَ فلم يرَ أحدًا! فغدا على المكْشوح قيس بن عبد يغوث المُرَاديّ فأخبره خبره، فقال له: والله إن قيس بن عاصم ما قارضتُه معروفًا قطّ، ولا هو لي بجارٍ، ولكن اشْتَرِ أخاكَ منه وعليَّ الثمن، ولا يمنعنك غلاؤه.

ثم أتى عمرو بن معديكرب فقال له عمر: هل بدأت بأحدٍ قبلي؟ فقال: نعم، بقيس بن عبد يغوث، قال: عليك بمَنْ بدأتَ به، فتركه وأتى يزيد بن عبد المدان فأخبره بقصته، فقال له يزيد: مرحبًا بك وأهلًا، أَبْعَثُ إلى قيس بن عاصم، فإن هو وَهب لي أخاك شكرتُه وإلّا أغرتُ عليه حتى يتَّقِيني بأخيك، فإن نلتُها وإلا دفعتُ إليك كلَّ أسيرٍ من بني تميم بنجران، فاشتريتَ به أخاك! فقال: هذا الرضا. فأرسل يزيد إلى قيس بن عاصم بهذه الأبيات:

يا قيسُ أَرْسِل أسيرًا من بني جُشَمٍ[1] إنـي بـكُـلّ الـذي تـأْتِـي بـه جـازِي
لا تأمَنِ الدهرَ أنْ تشجَى بغُصَّتِه فاخترْ لنفسك إحمادِي وإعزازي
فافكك أخا مِنْقَرٍ عنه، وقُلْ حسنا فـيـمـا سُـئِلتَ وعـقِّـبْـه بـإنـجـازي

وبعثَ بالأبيات رسولًا إلى قيس بن عاصم، فأنشده إياها، ثم قال له: يا أبا عليّ: إن يزيد بن عبد المدان يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «إن المعروف قُروض، ومع اليوم غد، فأطلق لي هذا الجُشميّ، فقد استعان بأشراف بني مرَّة، وبعمرو بن معديكرب، وبمكشوح المُرَادي، فلم يُصِب عندهم حاجته، فاستجار بي، ولو أرسلتَ إليّ في جميع أسارى مضر لقضيتُ حاجتك».

فقال قيس بن عاصم لِمَنْ حَضَرَه من بني تميم: هذا رسولُ يزيدَ بن عبد المدان سيد مَذْحِج وابن سيّدها، ومن لا يزال له فيكم يد، وهذه فرصة لكم فما ترَون؟ قالوا: نرى أن نغليه عليه ونحكم فيه شطَطًا، فإنه لن يَخذُله أبدًا ولو أتى ثمنُه على ماله. فقال قيس: بئسما رأيتم! أما تخافون سِجالَ الحروب، ودولَ الأيام، ومجازاة القروض!

---

(١) جشم: بطن من هوازن.

فلما أَبَوْا عليه قال: بيعُونِيه. فأغْلوْه عليه، فتركه في أيديهم ـ وكان أسيرًا في يد رجل من بني سَعد[١] ـ وبعث إلى يزيد فأعلمه بما جرى، وأن الأسير لو كان في يده أو يد مِنْقَر لأخذه وبعث به؛ ولكنه في يد رجل من بني سعد.

فأرسل يزيد إلى السَّعديّ: أن سِرْ إليَّ بأسيرك ولك فيه حكمك، فأتى السعديُّ يزيدَ، فقال له: احتكمْ، فقال: مائة ناقة ورعاؤها، فقال له يزيد: إنك لقصيرُ الهمة، قريبُ الغنى، جاهلٌ بأخطار بني الحارث! أما والله لقد غَبَنْتُكَ يا أخَا بني سعد! ولقد كنتُ أخاف أن يأتي ثمنه على جل أموالنا؛ ولكنكم يا بني تميم قوم قصارُ الهمم. وأعطاه ما احْتكم؛ فجاوره الأسير وأخوه حتى ماتَا بنَجْران.

زعيم العَجم وَعُمر بن الخَطّاب[٢]

لما أُتي بالهُرْمزان أسيرًا إلى عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، قيل له: يا أميرَ المؤمنين؛ هذا زعيمُ العَجَم، وصاحب رُستم[٣]؛ فقال له عمر رضي الله عنه:

أَعْرِضُ عليك الإسلامَ نُصْحًا لك في عاجِلك وآجلك. فقال: إنما أعتقدُ ما أنا عليه، ولا أرغَبُ في الإسلام رهبةً. فدعا عمرُ بالسيف؛ فلما همّ بقتله، قال: يا أميرَ المؤمنين، ضَرْبةٌ من ماءٍ هي أفضلُ من قتلي على الظَّمأ؛ فأمر له بشربة من ماء، فلما أَخَذَها الهُرْمُزَان قال: يا أمير المؤمنين، أنا آمِنٌ حتى أَشْرَبها؟ قال: نعم؛ فرمى بها، وقال: الوفاء ـ يا أمير المؤمنين ـ نورٌ أبلج! قال: صدقتَ! لك التوقُّف عنك، والنظر فيك، ارفعوا عنه السيف!

فقال: يا أمير المؤمنين، الآن أشهدُ أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا عبدُه ورسوله، وما جاء به حقٌّ من عنده. فقال عمر: أسلمتَ خيرَ إسلام، فما أخَّرَك؟ قال: كرِهتُ أن يُظَنُّ بي أني إنما أسلمتُ خوفًا من السيف، فقال عُمَر: ألَا إنّ لأهل فارسَ عقولًا استحقّوا بها ما كانوا فيه من المُلْك، ثم أمر ببِرِّه وإكْرامِه!

(١) سعد: بطن من تميم. (٢) نهاية الأرب: ٦ ـ ٧٧.

(٣) رستم: كان من أعظم رجال فارس، وقائد جيوش وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون أيام عمر بن الخطاب، وقتل رستم في هذه الموقعة.

أبو سُفْيَان عِنْدَ هِرَقل(١)

قال أبو سُفيان(٢) بن حَرْب:

كُنّا قومًا تجارًا، وكانت الحربُ بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حَصَرتْنا حتى نهكتْ أموالنا. فلما كانت الهدنةُ ـ هُدْنة الحُديْبيةِ ـ بيننا وبين رسول الله ﷺ، خرجتُ في نفرٍ من قريش إلى الشام، وكان وجهُ مَتْجَرنا منه غَزّة، فقدِمْناها حين ظهرَ هِرَقْل على مَن كان بأرضه من الفرس، فأخرجهم منها، وانتزع منهم صَليبه الأعظمَ، وكانوا قد استلبوه إيّاه.

فلما بِلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبَه قد اسْتُنْقِذَ منهم، وكانت حِمْصُ منزلَه، خرج منها يمشي على قدميه شكرًا للهِ حين رَدّ عليه ما ردّ، ليصلّي في بيت المقدس، تُبْسط له البُسُط وتُلْقَى عليها الرّياحين.

فلما انتهى إلى إيلياء فقضى فيها صلاتَه، وكان معه بطارقُته وأشْرَافُ الروم، أصبح ذاتَ غُدْوَة مهمومًا يقلّب طَرْفه إلى السماء. فقال له بطارقتُه: والله لكأنّك أصبحتَ الغداةَ مهمومًا.

فقال: أجل! رأيتُ البارحةَ أن مُلْك الخِتان ظاهر. فقالوا: أيّها الملك، ما نعلم أمّةً تختَتن إلا اليهود، وهم في سلطانك وتحت يدك، فابعث إلى كل مَنْ لك عليه سلطان في بلادك فَمُرْه فليضرب أعناقَ مَنْ تحت يدِك منهم من يَهود، واسْتَرِحْ من هذا الهمّ.

فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبّرونه إذا أتاه رسولُ صاحب بُصْرَى(٣) برجل من العرب يَقُوده ـ وكانت الملوك تَتَهادى الأخبارَ بينهم ـ فقال: أيها الملك؛ إن هذا رجلٌ من العرب من أَهْل الشّاء والإبل يحدِّث عن أمر حَدث فاسْأله.

فلما انتهى به إلى هِرَقْل رسولُ صاحب بُصْرَى؛ قال هرقلُ لمن جاء به: سَلْه عن هذا الحديث الذي كان ببلده، فسأله، فقال: خرج بين أَظْهُرنا رجلٌ يزعُم أنه

---

(١) الأغاني: ٦ ـ ٣٤٥.

(٢) هو صخر بن حرب، من سادات قريش في الجاهلية، كان من رؤساء المشركين يوم الأحزاب ويوم أحد، وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ. وتوفي سنة ٣١ هـ.

(٣) بلد من أعمال دمشق.

نبيٌّ، وقد اتّبعه ناسٌ فصدّقوه وخالفَه آخرون، وقد كانت بينهم مَلاحِمُ في مواطنَ كثيرةٍ وتركتُهم على ذلك!

فلمّا أخبره الخبرَ قال: جرِّدوه؛ فإذا هو مختونٌ. فقال: هذا والله النبيّ الذي رأيتُ، لا ما تقولون؛ أعطوه ثيابه ويَنْطلق، ثم دعا صاحبَ شُرْطته فقال له: اقلب الشامَ ظهرًا لبطن حتى تأتيَني برجل من قوم هذا الرجل.

فإنّا لَبِغَزَّةَ إذ هجم علينا صاحبُ شُرطتِه فقال: أنتم من قوم الحجاز؟ قلنا: نعم، قال: انطلِقوا إلى الملِك، فانطلَقوا بنا. فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رَهْطِ هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم. قال: فأيُّكم أمَسُّ به رَحِمًا؟ قال أبو سفيان: قلت: أنا، قال: ادنُ، ثمّ أقْعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي، وقال لهم: إني سأَسْأله، فإن كذَب فردُّوا عليه.

قال: فوالله لقد علِمتُ أنْ لو كذبتُ ما ردُّوا عليَّ، ولكني كنتُ امرأً سيدًا أتبرَّم من الكذب، وعرفتُ أن أيسرَ ما في ذلك إن أنا كَذَبْتُه أن يحفظوه عليّ؛ ثم يحدِّثوا به عني، فلم أكذِبْه.

وقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يَدَّعي ما يدَّعي. فجعلتُ أزَهِّد له شأنَه وأُصغِّرُ له أمرَه، وأقول له: أيّها الملك، ما يهمُّك من شأنه! إن أمرَه دون ما بلَغك. فجعل لا يلتفتُ إلى ذلك مني. ثم قال: أنبئْني فيما أسألك عنه من شأنه. قلت: سَلْ عما بَدَا لك.

قال: كيفَ نَسَبُهُ فيكم؟ قلتُ: مَحْضٌ، هو أوسَطنَا(١) نسبًا. قال: أخْبرني، هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبّهُ به؟ قلت: لا. قال: هل كان له فيكم مُلْك فسلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه مُلكه؟ قلت: لا. قال: أخبرني عن أتباعه منكم مَن هُمْ؟ قلت: الضعفاء والمساكينُ والأحداثُ من الغلمان والنساء، فأما ذَوُو الأسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد. قال: فأخبرني عَمنْ يتبعه أيحبُّه ويَلْزمُهُ، أم يقْلبه(٢) ويفارِقه؟ قلت: قلّما يتبعه أحد فيفارقه. قال: فأخبرني كيف الحربُ بينكم وبينه؟ قلتُ: سِجال يُدَال علينا ونُدَالُ عليه(٣).

---

(١) أي خيرنا وأفضلنا نسبًا. (٢) يبغضه.

(٣) يدال علينا وندال عليه: أي نغلبه مرة ويغلبنا أخرى.

قال: فأخبرني هل يَغْدِر؛ فلم أجد شيئًا أغتمزُ فيه غيرَها؛ فقلت: لا، ونحن منه في مُدة[١] ولا نَأمنُ غدرَه. قال: فوالله ما التفتَ إليها منّي.

ثم كرَّرَ الحديث فقال: سألتك عن نسبه فيكم؛ فزعمتَ أنه محض من أوسطكم نسبًا فكذلك يأخذُ الله النبيَّ لا يأخذُه إلا من أوْسط قومه نسبًا، وسألتك: هل كان أحد من أهل بيته يقولُ مثلَ قوله فهو يتشبه به؟ فزعمتَ أن لا. وسألتك: هل كان له مُلكٌ فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب مُلكه؟ فزعمتَ أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمتَ أنهم الضعفاء والأحْدَاثُ والمساكين والنساء، وكذلك أتْباعُ الأنبياء في كلّ زمان. وسألتك عَمَّنْ يتبعه أيحبُّه ويَلزَمه أم يَقلبه ويفارقه؟ فزعمتَ أنه لا يتبعه أحدٌ فيفارقه، فكذلك حلاوةُ الإيمان لا تدخلُ قلبَ رجل فتخرج منه.

وسألتك عن الحرب بينكم وبينه، فزعمتَ أنها سجَالٌ تُدَالون عليه ويُدَالُ عليكم، وكذلك حربُ الأنبياء، ولهم تكونُ العاقبةُ. وسألتُك: هل يَغدِر؟ فزعمتَ أن لا: فلئن كنتَ صَدَقتني عنه فَلَيغْلبَنَّ على ما تحتَ قَدَمَيَّ هاتين، ولَوَدِدْتُ أني عنده فأغسلُ قدميه! انطلقْ لشأنك.

فقمتُ من عنده وأنا أضربُ بإحدى يَدَيَّ على الأخرى وأقول: يا لعباد الله! لقد أَمِرَ[٢] أمْرُ ابن أبي كَبْشَةَ[٣]! أصبحتْ ملوكُ بني الأصفر[٤] يَهابونه في مُلكهم وسلطانهم!

إسلَامُ أَبِي ذَرّ[٥]

قال أبو ذرّ[٦]: كنت رجلًا من غِفَار، فبلغنا أن رجلًا قد خرج بمكة يزعمُ أنه نبيّ، فقلتُ لأخي: انطلِقْ إلى هذا الرجل وكلّمه، وائتني بخبره؛ فانطلقَ فلقيَه،

(١) في مدة: يعني بها مدة صلح الحديبية. (٢) أمر: عظم.
(٣) أبو كبشة: رجل من خزاعة خالف قريشًا في عبادة الأوثان، وعبد الشعري العبور، فسمى المشركون النبيّ ﷺ ابن أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى، تشبيهًا له بأبي كبشة الذي خالفهم إلى عبادة الشعري.
(٤) بنو الأصفر لقب ملوك الروم. (٥) الزبيدي: ٢ ـ ٥٤.
(٦) هو من غفار، وهي قبيلة من كنانة، وأسلم أبو ذر بمكة ولم يشهد بدرًا ولا أحدًا ولا الخندق، لأنه حين أسلم رجع إلى بلاد قومه، حتى مضت هذه المشاهد ثم قدم المدينة على رسول الله ﷺ، ومات بالربذة سنة ٣٢ هـ.

ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيتُ رجلًا يأمر بالخير، وينهى عن الشرِّ؛ فقلت له: لَمْ تشْفني من الخبر!

فأخذتُ جِرابًا وعَصا، ثم أقبلتُ إلى مكة؛ فجعلت لا أَعرِفهُ، وأكرهُ أن أسأَل عنه، وأشربُ من ماء زمزم، وأكون في المسجد؛ فمرّ بي عليٌّ، فقال: كأنَّ الرجلَ غريب؟ قلت: نعم! فانطلقَ إلى المنزل وانطلقتُ معه لا يسألني عن شيءٍ ولا أُخبرهُ.

فلما أصبحتُ غدوتُ إلى المسجد لأسألَ عنه، وليس أحدٌ يخبرني عنه بشيء؛ فمرَّ بي عليٌّ، فقال: أما آنَ للرجل أن يعرفَ منزله بعد؟ قلت: لا، قال: انطلق معي، ثم قال: ما أمْرُكَ؟ وما أقدَمك هذه البلدة؟ فقلت: إن كتمتَ عليَّ أخبرتُكَ! قال: فإني أفعل. قلت له: بلغَنا أنه خرج هـٰهنا رجلٌ يزعمُ أنه نبيّ، فأرسلتُ أخي ليكلّمهُ، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردتُ أن ألقاه. فقال: أما إنك قد رُشِدت، هذا وجْهي إليه فاتّبعْني، ادْخُلْ؛ حيث أدْخل؛ فإني إنْ رأيتُ أحدًا أخافُه عليك قمتُ إلى الحائط كأني أُصلح نَعْلِي، وامضِ أنت.

فمضى ومضيتُ معه حتى دخل، ودخلت معه على النبيّ ﷺ، فقلت له: اعْرِض عليَّ الإسلام، فعرضَه، فأسلمتُ مكاني، فقال لي: يا أبا ذرّ، اكتُمْ هذا الأمر، وارجعْ إلى بلدك، فإذا بلغك ظُهُورُنا فأقْبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأَصْرُخَنَّ به بين أظهرهم.

فجاء إلى المسجد، وقريشٌ فيه، فقال: يا معشرَ قريش؛ إني أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء[1]، فقاموا فضُرِبْتُ لأموت، فأدركني العباس، فأكبّ عليّ، ثم أقبلَ عليهم، فقال: ويلكم! تقتلون رجلًا من غِفَار ومَتْجرُكم وممرُّكم على غِفار! فأقلعوا عني.

فلمّا أن أصبحتُ في الغد رجعتُ فقلت مثلَ ما قلتُ بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء، فَصُنِع بي مثلُ ما صُنِع بالأمس! وأدركني العباس فأكبَّ علي، وقال مِثْلَ مَقَالَتهِ بالأمس!

---

(١) صبأ: خرج من دين إلى دين.

جُود عثمان بن عفّان(١)

أصاب الناسَ قَحْطٌ في خِلَافة أبي بكر، فلما اشتدَّ بهم الأمرُ جاءوا إلى أبي بكر وقالوا: يا خليفةَ رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرضَ لم تنْبت، وقد توقَّع الناسُ الهلاكَ؛ فما نَصْنَع؟ فقال لهم: انصرفوا واصْبِروا، فإني أرجو الله ألا تُمسُوا حتى يُفرِّج الله عنكم.

فلمّا كان في آخر النهار وردَ الخبرُ بأن عيرًا لعثمان بنِ عفان جاءت من الشام. فلما جاءت خرج الناس يتلقَّوْنها، فإذا هي ألفُ بعير مُوسَقة بُرًّا وزَيْتًا وزبيبًا، فأناخت بباب عثمان، فلما جعلها في داره جاء التجَّار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنّك لتعلم ما نريدُ! بِعْنا من هذا الذي وصَلَ إليك، فإنّك تعلمُ ضرورةَ الناس إليه! قال: حُبًّا وكرامة. كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين. قال: أُعْطيتُ زيادةً على هذا. قالوا: أربعة. قال: أعطيت زيادةً على هذا. قالوا: خمسة. قال: أعطيت أكثرَ من هذا. قالوا: يا أبا عمرو، ما بقي في المدينة تجارٌ غيرنا وما سبقَنا إليك أحدٌ، فمن ذا الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة. أعندكم زيادة؟ قالوا: لا. قال: فإني أشهدُ الله أني جعلتُ ما حملتْ هذه العيرُ صدقةً لله على المساكين وفقراء المسلمين.

لبيد وَالوَليد بن عُقْبَة(٢)

كان لَبِيدُ(٣) بنُ ربيعة جوادًا شريفًا في الجاهلية والإسلام، وكان قد آلَى في الجاهلية أن يُطعم ما هبتِ الصَّبَا. ثم أدام ذلك في إسلامه، وكانت له جَفْنَتَان يغْدُو بهما ويَرُوح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم، ونزل لَبيدٌ الكوفَة، وأميرُها الوليدُ بن عُقْبة، فبينا هو يخطبُ الناسَ إذ هبت الصَّبا، فقال الوليد في خطبته على المنبر: قد علمتُم حالَ أخيكم أبي عَقِيل، وما جعل على نفسه: أن يُطعم ما هبّت الصَّبَا وهذا يومٌ من أيامه. وقد هَبَّت ريحها، فأعينوه، وأنا أول مَن فَعَل.

---

(١) غرر الخصائص: ١٥٣.
(٢) الجمهرة: ٣٩، المستطرف: ٢ ـ ٥٠، الأغاني ١٤ ـ ٩٣، بلوغ الأرب: ٣ ـ ٩٢.
(٣) لبيد بن ربيعة العامري: أحد أشراف الشعراء المجيدين والقواد الفرسان المعمرين وهو من أصحاب المعلقات لما ظهر الإسلام أسلم وحسن إسلامه، ومات سنة ٤١ هـ.

ثم انصرف الوليد، فبعث إليه بماءةٍ من الجزُر، وبهذه الأبيات:

أرى الجزّارَ يَشحَذ شَفرَتَيه إذا هبّت رياحُ أبي عَقيل
أشمُّ الأنفِ أصْيَدُ[1] عامريٌّ طويلُ الباعِ كالسيفِ الصقيل
وَفى ابنُ الجَعْفَري بما نَوَاه على العلّاتِ[2] والمالِ القليلِ
بنَحْر الكُوم[3] إذ سحَبتْ إليه ذيول صَبًا تَجَاذَبُ بالأصيل

فلما وصلت الهديةُ إلى لَبيد شكره، وقال: إني تركتُ الشعر منذ قرأت القرآن؛ ثم قال لابنته: أجيبيه، فلعمري لقد عشتُ دهرًا وما أعيا بجواب شاعر، فقالت:

إذا هبّتْ رياح أبي عَقِيلٍ دعَوْنَا عند هبَّتِها الوليدَا
أشمَّ الأنف أصيدَ عَبْشَمِيًّا[4] أعان على مُروُءَتِهِ لَبِيدا
بأمثال الهِضَاب[5] كأنّ ركْبًا عليها من بني حام قُعودًا
أبا وَهْبٍ جزَاكَ الله خيرًا نحرْناها وأطعمْنا الوُفُودا
فَعُدْ، إن الكريمَ له مَعادٌ وظنّي بابنِ أرْوَى أنْ يعودا

فقال لبيد: أجَبتِ وأحسنتِ، لولا أنكِ سألتِ في شعرك. قالت: إنه أميرٌ وليس بسُوقَةٍ، ولا بأسَ بسؤاله، ولو كان غيره ما سألناه! قال: أجَل، إنه على ما ذكرت، وأنتِ يا بنيّةُ في هذا أشعر!

الحُطيئة والزبرقان بن بَدر[6]

قدِم الزِّبْرِقانُ على عمرَ في سنِ مُجْدِبة، ليؤديَ صدقاتِ قومه، فلقيَه الحُطيئة بقَرْقَرَى[7]، ومعه ابناه أوْسٌ وسَوَدَةُ وبناتُه وامرأتُهُ، فقال له الزِّبرقان ـ وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة ـ أين تُريد؟ قال: العِرَاقَ، فقد حَطَمَتْنا هذه السَّنةُ،

---

(١) الأصيد: رافع رأسه كبرًا.
(٢) على العلات: على كل حال.
(٣) الكوم: القطعة من الإبل.
(٤) نسبة إلى عبد شمس.
(٥) الهضاب: جمع هضبة، وهي ما ارتفع من الأرض، والمعنى: أعان بجمال ضخام أمثال الهضام لضخامتها، وقد شبهت أسنمتها بقوم سود قاعدين عليها، وهم بنو حام أي السودان.
(٦) الأغاني: ٢ ـ ١٨٠، نهاية الأرب: ٣ ـ ٢٩٧، ذيل زهر الآداب: ٢٢٧، ابن أبي الحديد: ٣ ـ ١٠٣، الكامل: ١ ـ ٣٤٨، ٣٥٤.
(٧) قرقرى: أرض باليمامة فيها قرى وزروع كثيرة ونخيل.

قال: وتصنعُ ماذا؟ قال: ودِدْت أن أصادفَ بها رجلًا يكفيني مؤونةَ عيالي، وأُصْفِيه مَدْحِي أبدًا.

فقال له الزّبرقان: قد أصبته، فهل لك فيه يُوسِعُك لبنًا وتمرًا، ويجاورُك أحسنَ جوار وأكرمه؟ فقال له الحطيئة: هذا وأبيكَ العيشُ، وما كنتُ أرجو هذا كلَّه. قال: فقد أصبتَه. قال: عند مَنْ؟ قال: عندي. قال: ومَن أنتَ؟ قال: الزِّبرقانُ بن بدر[1]. قال: وأين محلُّك؟ قال: اركبْ هذه الإبل، واستقبلْ مَطْلَعَ الشمس، وسلْ عن القمر حتى تأتيَ منزلي.

ثم كتب إلى أمّه ـ وكان اسمها أم شَذْرَة: أن أحسني إليه، وأكثري له من التَّمر واللبن. وكان الحطيئةُ دميمًا، لا تأخذُه العينُ، ومعه عيالٌ كذلك؛ فلما رأتْ أم شذرة حالَه هان عليها وقصَّرَتْ به[2].

ونظر بَغِيض[3] وبنو أَنْفِ الناقة إلى ما تضعُ به أمُّ شَذْرة، فأرسلوا إليه: أنِ ائتنا؛ فأبى عليهم وقال: إن من شأنِ النساء التقصيرَ والغَفْلة، ولستُ بالذي أحملُ على صاحبها ذَنْبَها؛ فلما ألحّ عليه بنو أنف الناقة قال لهم: لستُ بحاملٍ على الرجل ذنْبَ غيره، فإن تُرِكْتُ وجُفِيتُ تحوّلتُ إليكم، فأطمعوه ووعدوه وعدًا عظيمًا.

فلما لم يجبهم دَسُّوا إلى عُنيدة زوجة الزبرقان: أن الزِّبرقان إنما يريد أن يتزوج ابنتَه مُليكة ـ وكانت جميلةً كاملة ـ فظهرت من المرأة للحطيئة جَفْوَةٌ، وهي في ذلك تُدَارِيه. ثم أرادوا النُّجْعَة[4]، فقالت له أم شذرة: قد حضرت النجعة، فاركب أنت وأهلك هذا الظهر إلى مكان كذا وكذا، ثم ارْدُدْه إلينا حتى نلحَقَك، فإنه لا يَسَعُنَا جميعًا. فأرسل إليها: بل تقدَّمي أنت فأنتِ أحقّ بذلك، ففعلتْ.

وتثاقلت عن ردّهِ إليه، وتركته يومين أو ثلاثة، وألحّ بنو أنف الناقةِ عليه، وقالوا له: قد تُرِكتَ بمضيعة، فلما ألحّوا عليه أجابهم، فقال: أما الآنَ فنعم! أنا

(١) الزبرقان: البدر، وسمي به الحصين بن بدر لحسنه، وكان رسول الله قد استعمل الزبرقان على صدقات قومه وأقره أبو بكر. وتوفي أيام معاوية سنة ٤٥ هـ.

(٢) قصرت به: لم تكرمه ولم تبلغ ما يرضيه.

(٣) كان بغيض وبنو أنف الناقة ينازعون الزبرقان الشرف، وكانوا أشرف من الزبرقان؛ إلا أنه قد كان استعلاهم بنفسه.

(٤) النجعة: طلب الكلأ في موضعه.

صائر معكم؛ وتحمل معهم. فضربوا له قُبَّة، وربطوا بكل طُنُب من أطنابها جُلَّةً[١] هَجَرِية، وأراحوا[٢] عليه إبلهم، وأكثروا له من التمر واللبن، وأعطَوْه لقاحًا[٣] وكُسوة.

فلما قدِم الزبرقان سألَ عنه، فأُخبر بقصته، فركب فرسه، وأخذ رُمْحَه، وسار حتى وقف على نادي القُرَيْعِيِّين، فقال: رُدُّوا عليّ جاري! فقالوا: ما هو لك بجارٍ، وقد اطَّرحتَه وضَيَّعْتَه، فألَمَّ[٤] أن يكونَ بين الحيَّيْن حربٌ؛ فحضرهُم أهلُ الحِجَا من قومهم، ولامُوا بَغِيضًا وقالوا: اردُدْ على الرجل جارَه، فقال: لستُ مُخْرِجَه وقد أَويتُه، وهو رجلٌ حرٌّ مالكٌ لِأَمْرِه، فخيِّروه، فإن اختارني لم أُخْرِجه، وإن اختاره لم أُكرِهْهُ.

فخيّروا الحطيئةَ، فاختارَ بَغِيضًا ورهْطَه، فجاء الزِّبرقان ووقفَ عليه، وقال له: يا أبا مُلَكية؛ أفارقتَ جوَاري عن سُخْطٍ وذم؟ قال: لا؛ فانصرفَ وتركه.

وجعل الحطيئة يمدح القُرَيْعِيِّين من غير أن يَهْجُو الزِّبْرِقان، وهم يحضُّونه على ذلك ويُحرِّضونه فيأبى ويقول: لا ذنبَ للرجل عندي، حتى أرسلَ الزبرقانُ إلى رجلٍ من النَّمِر بن قاسط فهجا بَغِيضًا؛ فقال:

أرى إبلي بجوْف الماءِ حلَّت ... وأعْوَزَها به الماءُ الرَّوَاءُ[٥]
وقد وَرَدَتْ مياهَ بني قُرَيْعٍ ... فما وصلوا القَرَابة مُذْ أساءُوا
تُحَلَّأُ[٦] يومَ وِرْدِ الناس إبلي ... وتَصْدُر وهي مُخْنِقَةٌ[٧] ظِمَاءُ
ألَمْ أَكُ جارَ شمَّاس بن لأْيٍ ... فأسْلَمَني وقد نزَلَ البلاءُ
فقلت: تَحَوَّلي يا أمَّ بكرٍ ... إلى حيثُ المكارمُ والعَلاءُ
وجدنا بيت بَهْدَلَةَ بن عوْفٍ ... تعالى سَمْكُهُ وَدَحَا الفِناءُ[٨]
وما أضْحَى لِشَمَّاسِ بن لأْيٍ ... قديمٌ في الفَعَالِ[٩] ولا رَبَاءُ[١٠]

---

(١) الجلة: وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر يكتنز فيه.
(٢) إراحة الإبل: ردها في العشي.
(٣) اللقاح: جمع لقوح وهي الناقة الحلوب.
(٤) ألم: قرب.
(٥) الرواء: الكثير المروي.
(٦) تحلأ: تمنع.
(٧) محنقة: ضامرة.
(٨) دحا الفناء: عظم واتسع.
(٩) الفعال: اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه.
(١٠) الرباء: الطول والمنة والفضل.

سِوَى أنَّ الحطيئة قال قولًا فهذا من مقالتِه جزاءُ

فحينئذٍ قال الحطيئةُ يهجو الزِّبْرِقان، ويناضِلُ عن بَغِيضٍ - قصيدتَهُ التي يقولُ فيها:

واللهِ ما معشرٌ لامُوا امرأً جُنُبًا[(١)] في آل لأَيِ بن شمَّاسٍ بأكْيَاسِ[(٢)]
ما كان ذنبُ بَغيض، لا أبا لكمُ، في بائسٍ جاءَ يَحْدُو آخرَ النَّاسِ
لقد مَرَيْتُكُمْ[(٣)] لو أنَّ دِرَّتَكم[(٤)] يومًا يجيء بها مَسْحِي وإبْسَاسِي[(٥)]
وقد مدحتكُم عمدًا لِأُرْشِدَكُمْ كيما يكون لكم مَتْحِي[(٦)] وإمْراسي[(٧)]
لما بدا لِيَ منكم عَيْبُ أنفسِكم ولم يكن لجِرَاحي فيكمُ آسِي
أزْمَعْتُ يأسًا مُبِينًا من نَوَالِكُمُ ولن ترى طَارِدًا للحُرِّ كاليأسِ
ما كان ذنبُ بغيضٍ أنْ رَأَى رجلًا ذا فاقةٍ حلّ في مُسْتَوْعرٍ شَاسِي[(٨)]
جارًا لقومٍ أطالُوا هُونَ منزلِهِ وغادَرُوه مقيمًا بين أرْمَاسِ[(٩)]
مَلُّوا قِرَاه وهَرَّتْهُ[(١٠)] كلابُهُمُ وجرَّحُوه بأنيابٍ وأضراسِ
دعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِهَا واقْعُدْ فَإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ[(١١)] الكاسِي
مَنْ يَفْعَلِ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والناسِ
ما كان ذنبيَ أن فَلَّتْ معاوِلَكُم من آل لأيٍ صَفَاةٌ[(١٢)] أصلُها راسي
قد نَاضَلُوكَ فسلُّوا من كَنَائِنِهمْ مجدًا تليدًا ونَبْلًا غير أنْكَاسِ[(١٣)]

---

(١) الجنب: القريب.
(٢) جمع كيس: اللبيب الفطن، والمراد بالمعشر الزبرقان ورهطه.
(٣) مرى الناقة يمريها: مسح ضرعها، المراد مداراتهم ومدحهم ليدروا عليه بالعطاء.
(٤) الدرة: اللبن.
(٥) الإبساس: أن تدعو الناقة باسمها وتلاطفها لتدر.
(٦) المتح: أن يقف الرجل فوق البئر ليجذب الدلو.
(٧) الإمراس: وضع حبل البئر في البكرة بعد أن انزلق منها.
(٨) المستوعر: المكان الوعر، والشاسي: المكان الغليظ المرتفع.
(٩) الرمس: القبر، وجمعه أرماس. والهون: المذلة: أي تركوه كالميت.
(١٠) هرته الكلاب نبحته: وهو كناية عن أنه كان غريبًا بينهم.
(١١) الطاعم: المطعوم. والكاسي: المكسو. (١٢) الصفاة: الحجر الصلد الضخم.
(١٣) أنكاس: جمع نكس، وهو أضعف السهام. ومعنى البيت: إن العرب كانوا إذا أسروا أسيرًا خيروه بين التخلية، وجز الناصية، والأسر، فإن اختار جز الناصية جزوها له، وخلوا سبيله، ثم=

فاستَعْدَى عليه الزبرقانُ عمرَ بن الخطاب، فرفَعه عمرُ إليه واستنشده فأنشده، فقال عمر: ما أسمعُ هجاءً ولكنها معاتبة. فقال الزبرقان: أو تبلغُ مروءتي إلّا أن آكل وألبَس! فقال عمر: عليّ بحسّان، فجيء به، فسأله، فقال: أتراه هجاه؟ قال: نعم وسلَحَ عليه! فحبسه عمر، فقال في الحبس:

أعُـوذُ بـجـدّك إنـي امـرؤٌ ... سَقَتْني الأعادي إليك السِّجَالَا[1]
فـإنـك خـيـرٌ مـن الـزِّبـرقـان ... أشـدُّ نـكـالًا وَأَرْجَـى نـوَالَا
تـحـنَّـنْ عـليّ هـداك الـمـليكُ ... فـإن لـكـلٍّ مـقـام مَـقَـالَا
وَلَا تَـأْخُـذَنّـي بـقـولِ الـوُشَـاةِ ... فـإن لـكـلّ زمـانٍ رِجَـالَا
فـإنْ كـان مـا زَعَـمُـوا صـادقًـا ... فَسِيقتْ إليك نسائي رجالَا[2]
حـواسرَ لا يَشْتَكِيـن الـوَجَـا[3] ... يُـخَـفِّـضْـنَ آلَا[4] ويـرفـعـن آلَا

فلم يلتفت عُمَرُ إليه، حتى قال:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بِذِي مَرَخٍ[5] ... زُغْبِ الحَواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
أَلْقيتَ كاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَة ... فاغفِر عليكَ سلامُ الله يا عمرُ
أنتَ الإمامُ الذي من بَعدِ صاحبِه ... أَلْقَتْ إليك مقاليدَ النُّهَى البشرُ
لم يؤثِروك بها إذ قَدَّمُوك لها ... لكِنْ لأنفسهم كانتْ بك الأثرُ[6]
فامنُنْ على صِبيةٍ بالرمل مسكَنُهم ... بين الأباطح تَغْشاهم بها القِرَرُ[7]
أهلي فِدَاؤك كم بيني وبينهمُ ... من عَرْض دَاوِيةٍ[8] تَعْمَى بها الخُبُرُ

فبكى عُمر حين قال: «ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخٍ». فقال عمرو بن العاص: ما أظلّت الخضراء؛ ولا أقلت الغَبراء أعدلَ من رجلٍ يبكي على تركه الحطيئة! فقال عمر: عليّ بالكرسي، فأتى به؛ فجلس عليه، ثم قال: أشيروا عليّ

= جعلوا ذلك الشعر في كنائنهم، فإذا افتخروا أخرجوه وأروهم مفاخرهم.
(١) السجال: جمع سجل، وهو الدلو العظيمة مملوءة.
(٢) جمع رجلة، أي راجلة.
(٣) الوجا: الحفا، وقيل: شدته.
(٤) الآل: عمد الخيمة.
(٥) ذو مرخ: واد بالحجاز.
(٦) الأثر: واحدها أثرة، ومعناها الاستئثار والمكرمة.
(٧) القرر: جمع قرة، وهي البرد.
(٨) الداوية: الفلاة الواسعة.

في الشاعر فإنه يقول الهُجْرَ؛ ويَنْسِبُ بالحرَم، ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم. ما أراني إلا قاطعًا لسانه؛ ثم قال: عليّ بالطَّسْت، فأتى بها(١). ثم قال: عليّ بالمُخْصَف(٢)، عليّ بالسكين، لا؛ بل عليّ بالموسى فهو أَوْحى(٣)! فضَجَّ الحطيئة وقال: إني والله يا أميرَ المؤمنين قد هجوتُ أبي وأمي وامرأتي ونفسي، فتبسم عمر، ثم قال: ما الذي قلتَ؟ قال: قلت لأبي وأمي:

ولقد رأيتُكِ في النساء فسُؤتني ... وأبَا بَنِيكِ فساءني في المجلس

وقلت لأبي خاصة:

فبئس الشيخُ أنت لَدَى تميم ... وبئسَ الشيخُ أنت لَدَى المعالي

وقلتُ لأمي خاصة:

تنحّي واجلسي مني بعيدًا ... أراحَ اللهُ منكِ العالمينا!
أَغِرْبالًا(٤) إذا اسْتُودعت سرًّا ... وكانُونًا(٥) على المتحدثينا؟
حياتُكِ ما علمتُ حياةُ سوء ... ومَوْتُكِ قد يَسرُّ الصالحينا

وقلت لامرأتي:

أطوّف ما أطوّفُ ثم آوِي ... إلى بيتٍ قَعيدَتُه لَكاع(٦)

وقلت لنفسي:

أَبَتْ شفتايَ اليومَ إلا تكلما ... بسوء! فما أدري لمن أنا قائلُهْ
أرَى لِيَ وجهًا شوَّه اللهُ خَلْقَه ... فقُبِّحَ من وجهٍ وقبِّحَ حامِلُهْ

فقالوا: لا يعودُ يا أمير المؤمنين، وأشاروا إليه أن قلْ لا أعود، فقال: لا أعود يا أميرَ المؤمنين. فقال له: النَّجاء! ثم قال له عمر: يا حُطيئة، كأني بك عند

(١) الطست مؤنث، وقد تذكر. (٢) المخصف: مخرز الإسكافي.
(٣) أوحى: أسرع.
(٤) أصل الغربال: ما غربل به، وهو يريد أنها لا تحفظ سرًّا.
(٥) الكانون: الثقيل الوخم من الناس، وقيل: الكانون الذي يجلس حتى يتحصى الأخبار والأحاديث.
(٦) اللكاع: الأمة اللئيمة.

فتى من قريش، قد بسط لك نُمْرُقَةً[١]، وكَسَر لك أخرى وقال: غَنِّنا يا حطيئة، فَطِفقْتَ تغنّيه بأعراض الناس[٢]!

قال ابنُ أسْلم: فما انقضتِ الدنيا حتى رأيتُ الحطيئة عند عبيد الله بن عمر قد بسط له نُمْرقةً، وكسر له أخرى وقال: غنِّنا يا حطيئة، فجعل يغنيه، فقلت له: يا حطيئةُ، أتذكرُ قول عمر؟ ففزع وقال: يرحمُ الله ذلك المرء، أما إنه لو كان حيًّا ما فعلتُ!

قدُوم الحطيئة عَلى عُتَيبَة بن النَهاس[٣]

بينا سعيد بن العاص يُعَشِّي الناس بالمدينة، والناسُ يخرجون أوّلًا أولًا؛ إذ نُظِرَ على بساطه إلى رجل قبيحِ المنظَر، رثُّ الهيئة، جالسٍ مع أصحاب سمَرِه؛ فذهب الشُّرَطُ يقيمونه؛ فأبى أنْ يقومَ، وحانَتْ من سعيدٍ الْتِفَاتةٌ؛ فقال: دَعُوا الرجل، فتركوه، وخاضوا في أحاديث العرب وأشعارها مليًّا، فقال لهم الحطيئة[٤]: والله ما أصبتم جيدَ الشعر، ولا شاعر العرب، فقال له سعيد: أتعرفُ من ذلك شيئًا؟ قال: نعم، قال: فمن أشعرُ العرب؟ قال: الذي يقول:

لَا أَعُـدُّ الإقْـتَـارَ عُـدْمًـا ولـكِـنْ ... فَـقْـدُ مَـن رزِئْتُـه الإعـدَامُ

وأنشدَ القصيدة حتى أتى عليها.

فقال له: مَنْ يقولها؟ قال: أبو دُواد الإيادي، قال: ثم مَنْ؟

قال: الذي يقول:

أَفْلِحْ[٥] بما شئتَ فقد يُدْرَكُ بالْـ ... ـجَهْـلِ وقـد يُـخـدَّع[٦] الأريـبُ

(١) النمرقة: الوسادة.

(٢) يروى أن عمر رضي الله عنه لما أطلق الحطيئة أراد أن يؤكد عليه الحجة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعًا بثلاثة آلاف درهم، فقال الحطيئة في ذلك:

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع ... شتمًا يضر ولا مديحًا ينفع

ومنعتني عرض اللئيم فلم يخف ... ذمي وأصبح آمنًا لا يفزع

(٣) الأغاني: ٢ ـ ١٦٨.

(٤) الحطيئة: هو أبو مليكة جرول بن أوس بن مالك العبسي، أحد الهجائين والمداحين المجيدين، عاش مدة في الجاهلية وجاء الإسلام فأسلم، ومات سنة ٥٩ هـ.

(٥) أفلح: من الفلاح وهو البقاء، أي عش بما شئت من عقل وحمق، فقد يرزق الأحمق، ويحرم العاقل.

(٦) رجل مخدع: خدع مرارًا.

ثم أنشدها حتى فرغ منها؛ قال: ومَنْ يقولها؟ قال: عَبِيد بن الأبرص، قال: ثم مَنْ؟ قال: لحسْبُك بي عند رَغْبَةٍ أو رهبة إذا رفعتُ إحدى رجليّ على الأخرى، ثم عَوَيْتُ في إثْر القوافي عُواءَ الفَصِيل الصَّادي؛ قال: ومَن أنتَ؟

قال: الحطيئة، فرحَّبَ به سَعيد، ثم قال: أسأتَ بِكتْمانِنا نفسَك منذ الليلة، ووصلَه وكساه.

ومضى لوجهه إلى عُتَيْبَةَ بن النّهاس العِجْلي فسأله، فقال له: ما أنا على عمل فأعطيك منه، ولا في مالي فضلٌ عن قومي، قال له: فلا عليك! وانصرف.

فقال له بعضُ قومه: لقد عرَّضْتَنا ونفسَك للشر! قال: وكيف؟ قالوا: هذا الحطيئة، وهو هاجينا أخبثَ هجاء، فقال: ردّوه، فردوه إليه، فقال له: لِمَ كَتَمْتَنَا نفسك؟ كأنك تطلبُ العِلَلَ علينا؟ اجلس فلك عندنا ما يسرُّك، فجلس، فقال له: مَنْ أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

ومَنْ يَجْعَلِ المعروف من دون عِرْضِه يَفِرْهُ[1] ومَنْ لا يَتَّق الْشتْمَ يُشْتَمِ

فقال عُتيبة: إن هذا من مقدّمات أَفَاعِيك، ثم قال لوكيله: اذهب معه إلى السوق فلا يطلبُ شيئًا إلا اشتريتَه له. فجعل يعرض عليه الخَزَّ ورقيق الثياب فلا يريدها، ويُومِي إلى الكرابيس[2] والأكْسِيَة الغلاظ، فيشتريها له، حتى قضى أَرَبه[3]، ثم مضى.

فلما جلس عُتيبة في نادي قومه أقبلَ الحطيئة، فلما رآهُ عُتيبة قال: هذا مقامُ العائذِ بك يا أبا مُليكة من خيرك وشرك، قال: قد كنتُ قلتُ بيتين، فاسْمَعْهُما؛ ثم أنشأ يقول:

سُئلتَ فلم تبخل ولم تُعْطِ طائلًا
فسيّانِ لا ذمٌّ عليكَ ولا حمدُ
وأنت امرؤٌ لا الجودُ منك سجيةٌ
فتعطي، وقد يُعْدِي على النائلِ الوُجْدُ[4]

---

(١) يفره: يتمه ولا ينقصه، والبيت لزهير بن أبي سلمى.
(٢) الكرابيس: ثياب القطن. (٣) الأرب: الحاجة.
(٤) يعدي: يعين، والنائل: ما نلته من معروف إنسان. والوجد: اليسار والسعة.

ثم ركَضَ فرسه، فذهب!

فَقِير عِندَ سَعيد بن العاص(١)

قدِم سعيدُ(٢) بن العاص الكوفةَ عاملًا عليها؛ فكانت له موائدُ يغْشَاها الأشرافُ والقُرَّاء؛ فكان فيمن يَغْشَى موائدَه رجلٌ من القُرَّاء فقير؛ فقالت له امرأتهُ يومًا: وَيْحك! إنه يبلغُنا عن أميرنا هذا كرمٌ وجود؛ فاذكُرْ له بعضَ ما نحنُ فيه!

فتعشَّى عنده ذاتَ ليلة، فلما انصرف الناسُ ثبت الرجل، فقال له سعيد: إني قد أرى جلوسَك، وما جلستَ إلّا ولك حاجة، فاذكرها ـ رحمك الله! فتعقد الرجل وتلعثم. فقال سعيد لغلمانه: تنحَّوا، ثم قال له ـ رحمك الله ـ لم يَبْقَ إلا أنا وأنت، فاذْكُرْ حاجتَك، فتعقّد أيضًا وتعصّى، فنفخ سعيدٌ المصباح فأطْفَأَهُ، ثم قال له: رحمك الله ـ إنك لستَ ترى وَجْهِي، فاذكرْ حاجَتَك! قال: أصلح الله الأمير، أصَابتْنا حاجة فأحببتُ ذِكْرَها لك. قال له: إذا أصبحتَ فالْقَ فلانًا وَكِيلي!

فلما أصبح لَقِي الوكيلَ، فقال له: إنّ الأمير قد أمرني بشيءٍ؛ فهل جئتَ بمَنْ يحمل؟ قال: لا والله ما عندي مَنْ يَحْمِل! ورجع إلى امرأته، وجعل يَعْذلها ويلومُها. وقال لها: إن وكيلَه قال: جئتَ بمن يَحْمِل؟ وما هي إلا قَوْصَرَةٌ(٣) من تمر، أو قفيزٌ من بُر، ولو كانت دراهمَ أو دنانيرَ أعطانيها بيده! قالت: وَيحَكَ! ما كان من شيء فقوتُنا به. فمكثَ أيامًا، ثم لقِيَه الوكيل، فقال له: وَيحَكَ! أين تكون؟ أخبرتُ الأميرَ أنه ليس عندك مَنْ يحمل؛ فأمرني أن أوجّه معك مَنْ يحمل.

فوجّه معه بثلاثة من السودان يحمل كلُّ واحدٍ بَدْرةً على عاتِقه، حتى أوْرَدَهَا منزلَه.

فأطلق وِكَاء(٤) بَدْرَةٍ منها، ووهب لهم منها دُرَيْهمات، وقال: انصرفوا! قالوا: إلى أين؟ ما حَمل له مملوكٌ قطُّ هديةً؛ فرجع في ملكه!

---

(١) عين الأدب والسياسة: ١٩٠.

(٢) سعيد بن العاص: أحد أجواد العرب وكرمائهم، كان يأتيه الرجل يسأله فلا يكون عنده، فيقول: ما عندي ولكن اكتب علي به، فيكتب عليه كتابًا ثم يدفع له بعد ذلك، توفي سنة ٥٩ هـ.

(٣) القوصرة: وعاء يوضع فيه التمر.

(٤) الوكاء: الرباط.

قَصر سَعيد بن العَاص(١)

لما حضرتْ سعيدَ بن العاص الوفاةُ وهو في قصره قال له ابنهُ عمرو: لو نزلتَ إلى المدينة! فقال: يا بني؛ إن قومي لن يَضِنُّوا عليَّ بأن يحملوني على رقَابهمْ ساعةً من نهار! وإذا أنا مِتُّ فآذنْهم(٢)، فإذا واريتني فانطلقْ إلى معاويةَ فانعنى له، وانظر في دَيْني، واعلم أنه سيعرِض عليك قضاءه فلا تفعل، واعرض عليه قصري هذا؛ فإني إنما اتخذتُه نزهة وليس بمال.

فلما مات آذَن الناسَ به؛ فحملُوه من قصره حتى دُفِن بالبقيع(٣)، ورَوَاحلُ عمرو بن سعيدٍ مُناخةٌ، فعزَّاه الناسُ على قبره وودّعوه؛ وكان هو أول مَن نعَاه إلى معاوية، فتوجّع له وترحّم عليه؛ ثم قال: هل ترك دَيْنًا؟ قال: نعم! ثلاثمائة ألف، قال: هي عليَّ! قد ظنّ ذلك، وأمرني ألا أقبله منك، وأَنْ أعرضَ عليك بعضَ مالهِ فتبتَاعه؛ فيكون قضاءُ دينه منه. قال: فاعرض عليَّ. قال: قصْرَه، قال: قد أخذتهُ بدينهِ. قال: هو لك على أن تَحْمِلَها إلى المدينة وتجعلها بالوافية(٤) قال: نعم؛ فحملها له إلى المدينة، وفرَّقها في غُرَمائه، وكان أكثرُها عِدَات(٥).

فأتاه شاب من قريش بصكٍّ فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه، وشهادة مولى له عليه؛ فأرسلَ إلى المولى فأقْرَأه الصك؛ فلما قرأه بكى، وقال: نعم، هذا خطُّه! وهذه شهادتي عليه! فقال له عمرو: من أين يكونُ لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم، وإنما هو صُعْلوك من صعاليك قريش؟ قال: أُخْبِرك عنه: مرَّ سعيد بعد عزله، فاعترض له هذا الفتى، ومشى معه، حتى صار إلى منزِله، فوقف له سعيد، فقال: ألكَ حاجةٌ؟ قال: لا، إلا أني رأيتك تمشي وحدك؛ فأحببتُ أن أصل جناحَك. فقال لي: ائتني بصحيفة ما، فأتيتُه بهذه، فكتب على نفسه هذا الدَّين، وقال له: إنك لن تصادفَ عندنا شيئًا؛ فخُذْ هذا فإذا أتانا شيء فأْتِنا!

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٣٢. (٢) آذنهم: أعلمهم.
(٣) البقيع: مقبرة أهل المدينة.
(٤) الدرهم الوافي: درهم وأربعة دوانق، والدانق: سدس الدرهم.
(٥) عدات: عطايا وعدَ بها.

فقال عمرو: لا جَرَم! والله لَا يأخذها إلا بالوافية، أعطِه إياها، فدفع إليه عشرين ألف درهم!

مُعَاوِيَة وَسَعيد بن العَاص[١]

مرض سعيدُ بن العاص وهو بالشام، فعادَهُ معاوية، ومعه شُرَحبيل بن السمط ومسلم بن عقبة المرُّي، ويزيد بن شجرة الزهري؛ فلما نظر سعيدٌ معاوية وثبَ عن صدرِ مجلسه، إعظامًا له. فقال له معاوية: أقسمتُ عليك أبا عثمان ألا تتحرَّك فقد ضَعُفْتَ بالعلة، فسقط، فتبادر معاوية نحوه حتى حنَا عليه؛ وأخذ بيده، فأقعده على فراشه، وقعد معه، وجعل يسائله عن علَّته ومنامه وغذائه، ويصفُ له ما ينبغي أنْ يتوقاه، وأطال القعود معه.

فلما خرج التفتَ إلى شُرَحبيل بن السمط؛ ويزيد بن شجرة، فقال: هل رأيتما خللًا في مال أبي عثمان؟ فقالا: ما رأينا شيئًا ننكره؛ فقال لمسلم بن عقبة: ما تقول؟ قال: رأيتُ! قال: وما ذاك؟ قال: رأيتُ على حشمه[٢] ومواليه ثيابًا وَسخة، ورأيتُ صحن داره غير مكنوس، ورأيت التجار يخاصمون قهرْمانه[٣]! قال: صدقتَ! كلّ ذلك قد رأيته.

فوجه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف؛ فسبق رسوله يبشره بها؛ ويخبره بما كان؛ فغضب؛ سعيد، وقال للرسول: إنَ صاحبك ظنّ أنه أحسن فأساء، وتأوَّل فأخطأ؛ فأما وسخُ ثياب الحشم فمنْ كثرةِ حركتهم اتسختْ ثيابُهم، وأما كنسُ الدار فليست أخلاقنا أخلاقَ من جعل داره مرآته، وزينته لبسته[٤]، ومعروفة عطره، ثم لا يبالي بمن مات هزالًا من ذي لُحْمةٍ[٥] أو مُرْمًا، وأما منازعة التجار قهرَماني فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بدًا من أن يكون ظالمًا أو مظلومًا. وأما المالُ الذي أمر به أمير المؤمنين فقد قبلناه، وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف! ولشرْحبيل بمثلها، وليزيد بمثلها! وفي سعة الله وبسطِ يدِ أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلُنا!

فركب مسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه بذلك، فقال: صدق ابن عمي فيما قال، وأخطأتَ فيما انتهيت إليه، فاجعل نصيبك من المال لرُوح بن زنباع

---

(١) العقد الفريد: ١ ـ ١٥٠. (٢) الحشم: خدم الرجل.
(٣) القهرمان: هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده، القائم بأمور الرجل.
(٤) اللبسة: حالة من حالات اللبس. (٥) اللحمة: القرابة.

عقوبةً لك، فإنه من جنى جنايةً عوقب بمثلها، كما أنه من فعل خيرًا كوفيء عليه!

عِفّة جرير[١] وَفجُور الفَرزدق[٢]

قدِم الفرزدق[٣] على عمرَ بن عبد العزيز، وهو على المدينة وَالِيها من قِبَل الوليد بن عبد الملك، فأنزله عمر منزلًا قريبًا منه وأكرمَه، وأَحْسَنَ ضيافته، ثم إنّه بلغه عنه أنه صاحبُ فُجُور، فبعث إليه عمر بألْطَافٍ مع جاريةٍ له، وقال: اغسِلِي رأسه وألْطِفِيه جُهْدَكِ[٤] - وأراد اخْتبارَه بذلك ليعلم حاله.

فأتَتْه الجاريةُ، وفعلتْ ما أمرها به مولاها، ثم قالت له: أما تريدُ أن تَغْسِلَ رأسك؟ قال: بلى، فقَرَّبَتْ إليه الغِسْلَ[٥]، ثم ذهبت لتَغْسلَ رأسَه، فأقْبَل عليها، وذلك بعينِ عمر، وهو يتطلّع عليْهِ من خَوْخَةٍ[٦] له.

ولما خرجت الجاريةُ إلى عمرَ بعث إليه: أن اخْرُج عن المدينة، ولئن أخذتُك فيها - ما دام لي سلطان - لأعاقبنّك، ونفاه عن المدينة.

فلما خرج وصار على راحلته قال: قاتل الله ابنَ المَرَاغة[٧] كأنه كان ينظرُ إليّ حيث يقول:

وكـنـتَ إذا نـزلـتَ بـدارِ قـومٍ   رحلتَ بـخزْيَةٍ[٨] وتـركْـتَ عـارا

ثم قدم جريرٌ على عُمَرَ فأنزله في منزل الفرزدق، وبعث إليه بتلك الجارية بعينها، وأمرها أن تفعلَ بجرير ما فعلتْ بالفرزدق؛ فألْطَفَتْهُ، وفعلتْ به مثل ما فعلتْ بالفرزدق، وقالت له: قُمْ أيُّهَا الشيخ، فاغْسِلْ رأسك، فقام، وقال لها:

---

(١) جرير بن عطية الخطفي: أحد فحول الشعراء الإسلاميين، ولد باليمامة، ونشأ بالبادية وفيها قال الشعر ونبغ فيه، ولما عظم أمره اتصل بالحجاج ومدحه، ثم اتصل بعبد الملك بن مروان، وعد من مداح بني أمية. مات سنة ١١٠ هـ.

(٢) نقائض جرير والفرزدق: ١ - ٣٩٧، طبع ليدن.

(٣) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونبغ فيه، وتعرف بولاة البصرة ومدحهم وهجاهم، ثم رحل إلى خلفاء بني أمية بالشام ومحدهم ونال جوائزهم. مات سنة ١١٠ هـ.

(٤) الجهد: الطاقة.

(٥) الغسل: ما يغسل به الرأس.

(٦) الخوخة: كوّة في الجدار تؤدي الضوء.

(٧) ابن المراغة: هو جرير.

(٨) الخزية: البلية.

تَنَحَّ عني، قالت له الجارية: سبحان الله! إنما بعثني سيدي لأَخْدُمك، فقال: لا حاجةَ لي في خِدْمَتِك، ثم أخرجها من الحُجْرَةِ، وأغلق الباب عليه وأَتَزَر، فغسل رأسه، وعمر ينظرُ إليه من حين بعث بالجارية إلى أن خرجَتْ من عنده.

فلما راح[١] أهلُ المدينةِ من منازلهم إلى عمر حدّثهم بفِعْلِ الفرزدق وجرير، وما كان من أمْرِهما، ثم قال: عجبتُ لقوم يفضّلون الفرزدقَ على جرير مع عفَّة جرير وفُجور الفرزدق، وقلةِ وَرَعِه وخَوْفِه الله عزّ وجلّ!

عَبد الله بن طَاهِر[٢] وَالحصْنِي[٣]

قال محمدُ[٤] بن الفضل الخراساني:

لما قال عبدُ الله بن طاهر قصيدَتَه التي يفخرُ فيها بمآثِر أبيه وأهله ويفخرُ بقتلهم المخلوع[٥]، عارضهُ محمد بن يزيد الأمويّ الحِصْني، فأفرط في السبّ، وتجاوزَ الحدَّ في قُبْح الرد.

فلما ولي عبد الله مصر وَرُدَّ إليه تدبيرُ أمر الشام عَلم الحصْني[٦] أنه لا يُفْلِت منه إن هرب، ولا ينجو من يده حيث حلّ، فثبت في موضعه، وترك أمواله ودوابَّه، وكلَّ ما كان يملكه في موضعه، وفتح باب حِصْنه وجلس عليه، ونحن نتوقَّعُ من عبد الله بن طاهر أن يوقِع به.

فلما شارفْنَا بلده، وكنا على أن نصبّحه، دعاني عبيد الله في الليل، فقال لي: بتْ عندي الليلةَ، وليكن فرسُك معدًّا عندك. ففعلت.

فلما كان السَّحَر أمر غلمانَه وأصحابَه ألّا يرحلوا حتى تطلعَ الشمس؛ وركب وركبتُ معه أنا وخمسة من خواصّ غلمانه.

فسار حتى صبّح الحصْنِيَّ؛ فرأى بابَه مفتوحًا، ورآه جالسًا، فقصده. وسلَّمَ عليه ونزل عنده؛ وقال له: ما أجْلَسك هٰهنا وحملك على أن فتحتَ بابك، ولم

(١) رجع.
(٢) عبد الله بن طاهر: من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولّاه المأمون خراسان، وكان سيّدًا نبيلًا عالي الهمة شهمًا، وتوفي سنة ٢٣٠ هـ.
(٣) الأغاني: ١١ ـ ١٢.
(٤) محمد بن الفضل الخراساني كان من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله وكان أديبًا عاقلًا فاضلًا.
(٥) المخلوع: الأمين.
(٦) كان من ولد مسلمة بن عبد الملك.

تَتَحَصَّن من هذا الجيش المقبل، ولم تتنحّ عن عبد الله بن طاهر مع ما في نفسه عليك وما بلغه عنك؟ فقال: إنَّ ما قلتَ لم يذهب عني ولكني تأملتُ أمري، وعلمتُ أني أخطأتُ خطيئةً حَمَلني عليها نَزَقُ الشباب وغِرَّةُ الحداثة، وأني إن هربتُ منه لم أَفُتْهُ؛ فباعدتُ البنات والحرَم، واستسلمتُ بنفسي وكلٍّ ما أملك؛ وإني أثق بأن الرجلَ إذا قتلني، وأخذ مالي شفي غيظه، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، ولا يوجب جُرْمي أكثر مما بذلتُه.

قال: فوالله ما اتَّقَاه عبد الله إلا بدموعه تجري على لحيته. ثم قال له: أتَعْرِفُني؟ قال: لا والله! قال: أنا عبدُ الله بن طاهر، وقد أمَّن الله تعالى رَوْعَتَك وحَقن دمك؛ وصان حرمك، وحرس نعْمتَك، وعفا عن ذنبك، وما تعجلتُ إليك وحدي إلا لتأمَن هجوم الجيش، ولئلا يُخالِط عفوي عنك رَوْعَةٌ[1] تلحقك، فبكى الحصنيُّ وقام فقبّل رأسه وضمه عبد الله وأدناه؛ ثم قال له: أما الآن فلا بد من عتاب: يا أخي - جعلني الله فداك - قلتُ شعرًا في قومي أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبِك، ولا ادعيتُ فضلًا عليك، وفخَرتُ بقتل رجل - وإن كان من قومك - فهم القوم الذين ثأرك عندهم، فكان يَسَعُك السكوت!

فقال: أيها الأمير، قد عفوتَ فاجعل العفو الذي لا يخالطه تَثْريب[2]، ولا يكدِّرُ صفوَه تأنيب. قال: قد فعلت، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجبَ عليك حقًّا بالضيافة. فقام مسرورًا.

فأدخلنا. فأتى بطعام كان قد أعدَّه، فأكلنا وجلسنا نشربُ في مستشرف له.

وأقبل الجيش؛ فأمرني عبد الله أن أتلقَّاهم فأُرحلهم ولا ينزل أحدٌ منهم إلا في المنزل، وهو على ثلاثة فراسخ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه خراجَه ثلاث سنين، وقال له: إن نشطت لنا فالحقْ بنا، وإلّا فأقِم بمكانك. قال: فأنا أتجهز وألحقُ بالأمير. ففعل فلحق بنا بمصر؛ ولم يزل مع عبد الله لا يفارقه حتى رجل إلى العراق فودَّعه، وأقام ببلده!

(١) الروعة: الفزعة.

(٢) التثريب: الاستقصاء في اللوم.

نَافِرني إلى فَتَاك فإنه نَجيب[(١)]

كان العباسُ بن عبد المطلب نديمًا لأبي سفيان بن حَرْب في الجاهلية على شراب، ومعاوية يسقيهما وهو إذ ذاك غلامٌ، فلما أخذت الخمرُ منهما تغنّى بشعر ابن كعب الخزاعي ـ وكان قد جاور بني سَهْم في سَنَة شديدة، وله بنات، فبرِموا به، وأظهروا له ذلك، فخرج عنهم وتحوَّل هو وبناته يحملن الأثاث على ظهورهن؛ فقال:

ياأيُّها الرجلُ المحوّل رَحْلَهُ ... هلا نزلتَ بآل عبد مناف!
هَبِلتكَ أمُّك[(٢)] لو نزلت إليهم ... ضمنوك من جوعٍ ومن إقراف[(٣)]
الآخذون العهد من آفاقها[(٤)] ... والظاعنون لرحلةِ الإيلاف
والملحِقون فقيرَهم بغنيِّهم ... حتى يعودَ فقيرهم كالْكاف
والرائشون وليس يوجَد رائش[(٥)] ... والقائلون: هلمّ للأضياف
والضاربون الجيش يبرق بيضهُ[(٦)] ... والمانعون البيض بالأسياف[(٧)]
عمرو العلا هشم الثريدَ لقومه[(٨)] ... ورجالُ مكة مسنِتُون عِجاف[(٩)]
وإذا مَعَدٌّ حصَّلت أنسابها ... فهمُ لعمرك جوهرُ الأصداف

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٦٢.
(٢) الهبل: التلف والهلاك، والعرب تطلق هذه الكلمة ونظائرها، ولا تريد بها شرًا، وقد تجريها مجرى المدح عند استعظام الأمر، أو تجريها مجرى الحض على الفعل والقول.
(٣) الإقراف هنا: تغيير اللحم، وضؤولة الجسم.
(٤) أخذوا العهود من ملوك الشام، والحبشة، واليمن والعراق، فتوجهت قريش لتجارتها في هذه الوجوه.
(٥) الرائشون: الجاعلون لذوي الفاقة ريشًا، والريش والرياش: أصله اللباس، ثم استعمل للعطية المطلقة.
(٦) الأبيض السيف وجمعه بيض. (٧) بيضة كل شيء: حوزته.
(٨) كانت قريش قد أصابتها سنة فنالت منهم فارتحل هاشم بن عبد مناف ـ واسمه عمرو ـ إلى الشام، فأوقر عيرًا من الكعك وقدم بها مكة، ونحر الإبل وطبخ لحومها، ثم هشم ذلك الكعك فسمي هاشمًا وغلب على اسمه.
(٩) مسنتون: أصابتهم السنة، وهي الشدة والمجاعة.

فحمى أبو سفيان لما سمع هذا الشعر، وجعل يعدِّدُ مآثِرَ حَرْبِ بن أميّة؛ ومآثِرَ نفسه، وتناقلا[١] في المفاخرة إلى أن قال له العباس: نافرني[٢] إلى فتاك هذا، فإنه نجيب - يعني معاوية. فقال أبو سفيان: قد فعلت - هذا وهندٌ تسمع - فاهتبلت[٣] الفرصة؛ وأنشأت تقول مخاطبة لابنها معاوية:

اقْضِ - فَدَتك نفسي - لآل عبد شمس
فهم سَرَاةُ الحُمْس[٤] على قديم الْحَرْس[٥]

فقطع معاوية قولها، وقال:

صَهْ يا ابْنَةَ[٦] الأكارِم فعبدُ شمس[٧] هاشِم
هما برغم الراغم كانا كَغربَي[٨] صارِمِ

فلما سمع العباس وأبو سفيان مقالةَ معاوية ابتدراه أيُّهما يتناوله قبل صاحبه، فتعاوراه ضمًّا وتقبيلًا، وافترقا راضيَيْن.

أنا أعلَم بِقُريش مِن قُريش[٩]

لما قَدِم معاويةُ[١٠] المدينة منصرفًا من مَكة، بعث إلى الحسن والحُسين وعبد الله بن جعفر، وعبدِ الله بن عُمَر، وعبد الله بن الزّبير، وعبدِ الله بن صَفْوَان بن أميَّة بهدايا من كُسًا وطيبٍ وصِلاتٍ من المال؛ ثم قال لرِسُله: ليحفظْ كلُّ رجلٍ منكم ما يرى ويسمعُ من الرَّدِّ.

فلما خرج الرسلُ من عنده، قال لمن حَضرَ: إن شئتمْ أنبأَناكُمْ بما يكون من القوم، قالوا: أخبرنا يا أمير المؤمنين. قال: أمَّا الحسن فلعله ينيل نساءَه شيئًا من الطّيب، ويُنْهبُ ما بَقِيَ من حَضرَه، ولا ينتظر غائبًا.

---

(١) المناقلة في الكلام: أن يقول هذا مرة وهذا مرة فيتداول الكلام بينهما.
(٢) المنافرة: المحاكمة.
(٣) اهتبلت الفرصة: انتهزتها فبادرت إليها.
(٤) السراة: جمع سرى، وسراة القوم: خيارهم. والحُمْس: قريش وخزاعة، وكل مَن قارب مكة من قبائل العرب.
(٥) الحرس: الدهر.
(٦) صه: أمر بالسكوت.
(٧) يريد أنهما كالشيء واحد.
(٨) الغربان: الحدان، والصارم: السيف القطع.
(٩) عيون الأخبار: ٣ - ٤٠.
(١٠) أسلم معاوية عام الفتح، وكتب للنبيّ ﷺ وولى الشام لعمر وعثمان عشرين سنة وولي الخلافة سنة ٤١ هـ، وتوفي سنة ٦٠ هـ.

وأما الحسين فيبدأ بأيتامِ من قُتِل مع أبيه بصِفّين، فإن بقي شيء نَحَرَ به الجُزُر، وسقَى به اللبن.

وأما عبدُ الله بنُ جعفر فيقول: يا بُدَيح[١]، اقضِ به دَيني؛ فإن بقي شيء فأنفذ به عِدَاتي[٢].

وأمّا عبدُ الله بن عمر فيبدأ بفقراء عَدِيّ بن كعب، فإن بقي شيء ادّخره لنفسه، ومانَ[٣] به عياله.

وأما عبدُ الله بن الزبير؛ فيأتيه رسولي وهو يسبّح، فلا يلتفتُ إليه، ثم يعاوِده الرسولُ، فيقول لبعض كُفَاته: خذوا من رسول معاوية ما بعث به، وصَله اللهُ وجزاه خيرًا، لا يلتفتُ إليها، وهي أعظمُ في عينه من أُحُد، ثم ينصرف إلى أهْلِه، فيعرضُها على عينه، ويقول: ارفعوا؛ لعلي أعودُ بها على ابن هند يومًا ما.

وأما عبدُ الله بن صَفْوَان فيقول: قليلٌ من كثير، وما كلُّ رجلٍ من قريش وصلَ إليه كهذا، رُدّوا عليه؛ فإن ردّ قبِلْناها.

فرجع رسلُه من عندهم بنحوِ مما قاله معاويةُ. فقال معاوية: أنا ابنُ هند! أعلمُ بقريش من قريش.

الأحنف يُفحم مُعَاوِيَة[٤]

جلس معاويةُ يومًا، وعنده وجوهُ الناس، وفيهم الأحنف[٥]؛ فدخل رجلٌ من أهل الشام، فقام خطيبًا، فكان آخرَ كلامه أن لعن عليًا رضي الله عنه، فأطرَق الناس، وتكلم الأحنف، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن هذا القائل لو علِم أن رضاك في لَعْنِ المرسلين للعنَهم، فاتّقِ الله، ودَعْ عليًا؛ فقد لقي الله، وأُفرد في حُفْرَته، وخلا بعمله، وكان والله ـ ما علمنا ـ الطاهرَ في خُلقه، الميمونَ النقيبة، العظيم المصيبة.

قال معاوية: يا أحنفُ؛ لقد أغضيْتَ العينَ عَلَى القذى، وقلتَ بغير ما ترى، وايم الله لتَصعدَنَّ المنبر فلتَلعنه طائعًا أو كارهًا!

---

(١) بديح: اسم مولى كان لعبد الله بن جعفر. (٢) جمع عدة.
(٣) مانه: قام بكفايته. (٤) نهاية الأرب ٧: ٢٣٧.
(٥) الأحنف بن قيس: هو الضحاك بن قيس سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان المانحين يضرب به المثل في الحلم، ولد بالبصرة، وتوفي سنة ٦٧ هـ.

فقال الأحنف: إن تُعفِني فهو خيرٌ، وأن تجبرْني على ذلك فوالله لا تَجْري به شفتاي!

فقال معاوية: قم فاصعَد! قال: أما والله لأُنصفنك في القولِ والفعل.

قال معاوية، وما أنت قائل إن أنصفتني؟ قال: أصْعَدُ فأحمدُ الله وأُثني عليه، وأصلّي على نبيه، ثم أقول: أيها الناس؛ إن معاويةَ أمرني أن ألْعَنَ عليًا، ألا وإن عليًا ومعاوية اختلفا واقْتتلا، وادَّعى كل واحد منهما أنه مَبغِيٌّ عليه وعلى فئَته؟ فإذا دعوتُ فأمِّنوا رحمكم الله، ثم أقول:

اللهم العنْ أنت وملائكتُك وأنبياؤك ورسلُك وجميع خلقك الباغيَ منهما على صاحبه والفئةَ الباغيةَ على المبغيِّ عليها، آمين يا رب العالمين!

فقال معاوية: إذَنْ نعفيك يا أبا بَحْر[1]!

نُوطي عَلَيه يَا مُزَيْنُ التّمَائما[2]

كان لمعاوية ولد مضعوف[3] اسمه عبد الله، فبينما معاويةُ جالسٌ مع أم عبد الله مرت بهما أم يزيد ـ وهي مَيْسون بنت بَحْدل الكلبية ـ فهزئت بها أم عبد الله، فقال معاوية: أما والله إن ولدها خيرٌ من ولدك. فقالت: لا والله، ولكنك تحبُّ ولدها وتحابيه، فقال: سأريك ذلك عِيانًا. ثم أرسل إلى ابنها فجاء، فقال له: يا عبدَ الله، إني قاض لك كلَّ حاجة فاذكر حوائجك كائنة ما كانت، فقال: يا أمير المؤمنين، اشتر لي حمارًا، فقال له: يا بني، أنت حمار، وأشتَري لك حمارًا؟

ثم استحضر يزيد، فلما حضر قال: يا بني، إن أمير المؤمنين قد بسط لك أملَه، فاذْكر حاجتك إن كان لك حاجة. فاستقبل القبلةَ، ثم رفع رأسه، وقال: الحمدُ لله على جميل رأي أمير المؤمنين فيّ، ثم قال: يا أمير المؤمنين، اجعل إليّ العهد! فقال معاوية: نعم ونعَام[4] عين، ولَّيتُك عهدي.

(١) كنية الأحنف.

(٢) أنباء نجباء الأبناء: ١٠٥.

(٣) المضعوف: ما أضعف من شيء.

(٤) العرب تقول: نعم، ونعام عين: أي أفعل ذلك كرامة لك.

فسجد وحمد الله سبحانه، فقال معاوية: هل غير هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، تزيد كل رجل من أهل الشام عشرة دنانير في عطائه، وتُعلمهم أن ذلك بشفاعتي. قال: قد فعلت. فهل غير هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، يفْرِض أميرُ المؤمنين لأولاد من قُتل معه بصفِّين وغيرها. قال: قد فعلتُ. فهل غير هذا؟ فحمد يزيد الله تعالى، ثم قال: نعم، ويجعل أميرُ المؤمنين غزوَ هذا العام إليّ، لأفتتح أمري بتجهيز الجيوش في سبيل الله تعالى. قال: قد فعلت.

فلما رأت أمُّ عبد الله أن يزيد قد حصل على الخلافة قالت: إن أمير المؤمنين أعلم وأهْدى لولده، فأوصِه بي وبولدي يا أمير المؤمنين، ثم قام يزيد يدعو لوالدِه، وهو مولٍّ، فتمثل معاوية بقول القائل:

إذا مات لم تُفلِحْ مزينةُ بعده ... فنُوطِي[1] عليه يا مُزين التمائما

خَاطَرت عَلى حَسبِيَ وحَسَبِك[2]

خرج الحكَم بن أبي العاصي ومعه عِطْرٌ يريد الحِيرَة ـ وكان بالحِيرَة، سوقٌ يجتمع إليها الناس كلَّ سنة ـ فمرّ في طريقه بحاتم بن عبد الله الطائيّ[3]؛ فسأله الجوار في أرض طيّىء حتى يصيرَ إلى الحيرة، فأجاره. ثم أمر حاتم بجَزور فنحرت وطبخت، ثم دعاهم إلى الطعام فأكلوا، ولما فرغوا من الطعام طَيَّبَهم الحكَمُ من طيبه.

وكان النعمان بن المنذر قد جعل لبني لَامِ رُبْعَ الطريق طُعمة لهم؛ لأنَّ بنت سعد بن حارثة بن لأم كانت عنده.

ومرَّ سعد بن حارثة بحاتم ومعه قومُه من بني لأْم، فوضع حاتمٌ سُفْرَتَهُ وقال: اطعَمُوا حيّاكم الله! فقالوا: مَنْ هؤلاء الذين معك يا حاتم؟ قال: هؤلاء جيراني، قال له سعد: فأنت تُجِير علينا في بلادنا! قال له: أنا ابن عمِّكم وأحقّ من لم تَخْفُروا ذِمته. فقالوا: لستَ هناك! وأرادوا أن يَفضحوه، ووثبوا إليه، وتناول سَعْدٌ حاتمًا، فأهوى له حاتم بالسيف، فأطار أرْنَبَة أنفه، ورقع الشر حتى تحاجزوا، ثم قالت بنو لأم لحاتم: بيننا وبينك سوق الحيرة

(١) ناط الشيء ينوطه: علقه. (٢) الأغاني: ١٦ ـ ٩٥.
(٣) حاتم الطائي: فارس شاعر، جواد، يضرب المثل بجوده، توفي نحو سنة ٤٥ ق.هـ.

فنماجِدُك[١]؛ ثم وضعوا تِسْعة أفْراس رهنًا، ووضع حاتِمٌ فرسه رهنًا عند رجل من كلب، وخرجوا حتى انتهوْا إلى الحيرة.

وسمع بذلك إياسُ بن قَبِيصةَ الطائيّ؛ فخاف أن يُعينهم النعمانُ بن المنذر ويقوِّيهم بماله وسُلْطانه للصِّهْرِ الذي بينهم وبينه؛ فجمع رَهْطَه من بني حيّة، وقال: يا بني حيّة؛ إن هؤلاءَ القوم قد أرادوا أن يفضَحوا ابنَ عمكم في مُمَاجَدَتِه؛ فقال رجل منهم: عندي مائةُ ناقة سوداء، ومائة ناقة حمراء أدْمَاء[٢]؛ وقام آخر فقال: عندي عشرة حصن؛ على كل حِصَان منها فارس مُدَجَّج[٣] لا يُرَى منه إلا عيناه. وقال حسَّان بن جَبَلَة الخير: قد علمتم أن أبي قد مات وترك خيرًا كثيرًا، فعليّ كلُّ خمر ولحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحِيرة؛ ثم قام إياس فقال: عليّ مثلُ جميع ما أعطيتم كلُّكم - وحاتمٌ لا يعلم بشيء مما فعلوا.

وذهب حاتم إلى ابن عمه وَهْم بن عمرو - وكان مصارمًا له لا يكلِّمُه - فقالت له امرأته: أيْ وَهْم، هذا والله أبو سفَّانة - حاتم - قد طَلَع، فقال: مالنا ولحاتم! أثْبِتي النظر، فقالت: ها هو. قال: ويحك! هو لا يكلِّمُني، فما جاء به إليَّ؟ ثم نزل حتى سلّم عليه، فردّ سلامه وحيّاه، ثم قال له: ما جاء بك يا حاتم؟ قال: خاطرتُ على حَسَبِك وحسبي، قال: في الرّحْب والسَّعة، هذا مالي وعِدَّتُه تِسْعمائة بعير، فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيبَ ما تريد[٤].

ثم إن إياس بنَ قبيصةَ قال لقومه: احملوني إلى الملك - وكان به نِقْرِس[٥] - فَحُمِلَ حتى أُدْخِلَ عليه، فقال: أَنْعِمْ صباحًا، أبيتَ اللعن! فقال النعمان: وحيّاك إليك. فقال إياس: أتمُدُّ أَخْتانك[٦] بالمال والخيل، وجعلتَ بنيَ ثُعَل في قعر

---

(١) يقال: ماجده مجادًا: عارضه بالمجد فمجده، أي غلبه.
(٢) الأدمة في الإبل: لون مشرب سوادًا أو بياضًا، والأنثى: أدماء.
(٣) المدجج: الذي لبس سلاحه.
(٤) وفي وهم يقول حاتم:

ألا أبلغا وهم ابن عمرو رسالة ... فإنك أنت المرء بالخير أجدر
رأيتك أدنى الناس منا قرابة ... وغيرك منهم كنت أحبو وأنصر
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا ... بموت فكن ياوهم ذو يتأخر

وذو بمعنى الذي في لغة طيء.
(٥) النقرس: ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين.
(٦) أختان: جمع ختن، وهو الصم.

الكِنَانة! أظنّ أختانُك أن يَصْنَعُوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جُوَين[(١)] ولم يشعروا أن بني حيّة بالبلد! فإنْ شئتَ والله نَاجَزنَاك[(٢)] حتى يسفحَ الوادي دمًا، فليحضروا مجادهم[(٣)] غدًا بمجمع العرب.

فعرف النعمان الغضبَ في وجهه وكلامه، فقال له: يا أحْلَمنا، لا تَغْضَبْ فإني سأكفيك. وأرسل النعمان إلى سعد بن حارثة وإلى أصحابه، وقال: انظُرُوا ابن عمكم حاتمًا فأَرضوه، فوالله ما أنا بالذي أعطيكم مالي تبذِّرونه، وما أطيق بني حيّة.

فخرج بنو لأم إلى حاتم وقالوا له: اعرض عن هذا المِجَاد ندع أرْشَ[(٤)] أَنْفِ ابنِ عمِّنا. قال: لا والله لا أفعل حتى تتركوا فراسكم ويُغلَب مِجَادكم.

فتركوا أرشَ أنفِ صاحبهم وأفراسهم وقالوا: قبّحها الله وأبعدها! فعمد إليها حاتم فعقَرها وأطعمها الناس.

لَا تجعَلن هَوازنًا كمَذحِج[(٥)]

اجتمع يزيدُ بن عبد المدان وعامر بن الطُّفَيْل بموْسم عُكَاظ، وقدم أميَّة[(٦)] ابن الأسكر الكنانيّ، وتبعته ابنةٌ له من أجمل أهل زمانها؛ فخطبها يزيد وعامر فقالت أمّ كلاب امرأة أمية: مَنْ هذان الرجلان؟ فقال: هذا يزيد بن عبد المدان، وهذا عامر بن الطفيل، فقالت: أعرِفُ بني الدّيّان[(٧)]، ولا أعرف عامرًا. فقال: هل سمعتِ بمُلاعب الأسنة[(٨)]؟ فقالت: نعم، قال: فهذا ابنُ أخيه.

وأقبل يزيد يفاخر خَصْمه، فقال: يا أميّة، إنّ ابنَ الدَّيان صاحب الكتيبة ورئيس مذحِج، ومَنْ كان يصوب أصابعه فتنطُفُ[(٩)] دمًا، ويَدْلُك راحتيه فتُخْرجان ذهبًا.

---

(١) كانت بنو لأم فضحت عامر بن جوين في مماجدة.

(٢) المناجزة: المقاتلة.

(٣) ماجده مجادًا: عارضه بالمجد.

(٤) الأرش: الدية.

(٥) الأغاني: ١٠ ـ ١٣٨.

(٦) هو أمية بن حرثان بن الأسكر، ينتهي نسبه إلى نزار، وكان شاعرًا فارسًا مخضرمًا أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من سادات قومه وفرسانهم وله أيام مأثورة مذكورة.

(٧) بنو الديان: قبيلة يزيد.

(٨) ملاعب الأسنة: عامر بن مالك، فارس قيس، وأحد أبطال العرب في الجاهلية توفي نحو سنة ١٠ هـ.

(٩) تنطف: تسيل.

فقال أميّة: بخٍ بخٍ! مَرْعًى ولا كالسَّعْدَان[١]!

فقال يزيد: يا عامر؛ هل تعلم شاعرًا من قومي سار بِمِدحَةٍ إلى رجل من قومك؟ قال: اللهم لا!

قال: فهل تعلمُ أن شعراءَ قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي، قال: اللهم نعم!

قال: فهل لكم نَجْمُ يمان أو بُرْدُ يمان أو سَيْفُ يمان أو رُكن يمان؟ قال: لا، قال: فهل ملكناكم ولم تملكونا؟ قال: نعم.

فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطبًا أبا البنت:

أميّ يا ابن الأسكر بن مُدْلجِ[٢] لا تجعلنْ هوازنًا كمَذْحِجِ
إنك إن تلهج بأمرٍ تَلْجُجِ ما النَّبْعُ[٣] في مَغرسه كالعَوسَجِ
ولا الصريح المَحْض كالممزج

فزوّج أمية يزيد بن عبد المدان ابنته، ثم لجّ التَّهاجي بين الرجلين.

يتنَازَعان الزَعامَة[٤]

لما أَسَنّ أبو بَرَاء عامر بن مالك، تنازع في الرياسة عامرُ بن الطفيل[٥]، وعَلْقَمَةُ[٦] بن عُلاَثَة.

---

(١) ذهبت مثلًا، والسعدان نبت من أفضل مراعيهم.

(٢) بنو مدلج: قبلة من كنانة.

(٣) النبع شجر تتخذ منه القسي، ومن أغصانه السهام والعوسج: شجر من شجر الشوك.

(٤) الأغاني: ١٥ ـ ٥٠، مهذب الأغاني: ٢:٦٨، نهاية الأرب: ٣ ـ ٢٧٢، بلوغ الأرب: ١: ٢٨٦. وهذه القصة اختلفت رواياتها اختلافًا كثيرًا فجعلنا الروايات يكمل بعضها بعضًا.

(٥) من بني عامر بن صعصعة، فارس قومه، وأحد فتاك العرب وشعرائهم، ولد ونشأ بنجد، كريمًا شجاعًا، وفد على رسول الله يريد الغدر به ولم يسلم، فمات في طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ.

(٦) علقمة بن علاثة: كان في الجاهلية من أشراف قومه، أسلم، وارتد في أيام أبي بكر فانصرف إلى الشام، ثم عاد إلى الإسلام، توفي نحو سنة ٢٠ هـ.

فقال علقمة: كانت لجدِّي الأحْوَص وإنما صارت لعمّك بسببه، وقد قعد عمُّك عنها، وأنا أسترجعُها، فأنا أولى بها منك؛ فشَرِيَ[١] الشرُّ بينهما، وسارا إلى المنافرة.

فقال علقمةُ: إن شئتَ نافرتُك، فقال عامر: قد شئتُ، والله إنّي لأكْرَمُ منك حَسَبًا، وأثبتُ منك نَسَبًا، وأطولُ منك قصَبًا[٢].

فقال علقمة: والله لأنا خيرٌ منك ليلًا ونهارًا. فقال عامر: والله لأنا أَنْحَرُ منك للّقاح[٣]، وخيرٌ منك في الصباح، وأطْعَمُ منك في السّنة الشِّياح[٤].

فقال علقمة: أنا خيرٌ منك أثرًا، وأحدُّ منك بصرًا، وأعزّ منك نَفَرًا، وأشرف منك ذِكْرًا.

فقال عامر: ليس لبني الأحْوَص فضلٌ على بني مالك في العدد، وبصري ناقصٌ، وبصرُك صحيح، ولكني أُنَافِرك؛ وإني أسْمَى منك سُمّة[٥]، وأطولُ منكِ قمة، وأحسنُ منكَ لِمَّةً[٦]، وأجْعَدُ منك جُمّة[٧]، وأسرعُ منك رَحمة، وأبعدُ منك هِمّةً.

فقال علقمة: أنت رجلٌ جسيمٌ، وأنا رجلٌ قَضِيف[٨]، وأنت جميل، وأنا قبيح، ولكني أنافِرك بآبائي وأعمامي.

فقال عامر: آباؤك أعمامي، ولم أكنْ لأُنافرَك بهم، ولكني أنافرُك؛ أنا خيرٌ منك عِقبًا، وأطعم منك جَذْبًا.

فقال عَلْقمة: قد علمتُ أن لك عَقِبا، وقد أطعمت طيّبًا، ولكني أُنافرك؛ إني خيرٌ منك، وأولى بالخيرات منك.

فخرجت أمُّ عامر ـ وكانت تَسْمَعُ كلامهما، فقالت: يا عامر، نافِرْه أيكما أولى بالخيرات.

---

(١) شري: استطار.

(٢) يريد طول القامة، والقصب أيضًا ثياب تتخذ من كتان رقاق ناعمة، وهو كناية عن الرفاهية والنعمة ورغد العيش.

(٣) اللقاح: الإبل.

(٤) الشياح: القحط.

(٥) السمة: القرابة.

(٦) اللمة: الشعر المجاور شحمة الأذن.

(٧) الجمة: مجتمع شعر الرأس.

(٨) قضيف: نحيف.

قال عامر: والله إني لأرْكَبُ منك في الْحُمَاة، وأَقْتَلُ منك للكُمَاة[١]، وخيرٌ منك للمولى والمولاة.

فقال له علقمة: والله إني لَبَرٌّ وإنك لفاجر، وإني لَوَلُودٌ وإنك لعاقرٌ[٢]، وإني لعفٌّ وإنك لعَاهِر، وإني لوَفيٌّ وإنك لغادر، ففيم تُفَاخرني يا عامر؟

فقال عامر: والله إني لأنْزَلُ منك للقَفْرَة[٣]، وأنحرُ منك للبَكْرَة[٤]، وأطعمَ منكَ للهَبْرَة[٥]، وأطعنُ منك للثُّغْرَةِ.

فقال علقمة: والله إنك لكليلُ البصر، نِكدُ النظر.

فقال بنو خالد بن جعفر - وكانوا يدًا مع بني الأحْوَص على بني مالك بن جعفر: لن تطيقَ عامرًا؛ ولكن قل له أُنافِرُك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات.

فقال له علقمة هذا القول؛ فقال عامر: عَيْرٌ وتَيْس[٦] وتَيْسٌ وعَنْز. نعم، على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يُعْطاها الحكم أيُّنا نَفَرَ عليه صاحبُه أخرجَها؛ ففعلوا ذلك، ووضعوا بها رَهْنًا من أبنائهم على يدي رجل يقال له خزيمة بن عمرو، فسُمِّي الضَّمِين.

وخرج علقمة ومن معه من بني خالد، وخرج عامرٌ فيمن معه من بني مالك، وجعلا منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية، فلم يَقُل بينهما شيئًا، وكره ذلك لحالهما، وحال عشيرتهما، وقال: أنتما كرُكْبَتَي البعير الأدْرم[٧]. قالا: فأيُّنا اليمين؟ قال: كِلاكما يمين؛ وأبَى أن يقضيَ بينهما.

فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام، فأبى أن يحكم بينهما، وقد كانت العرب تحاكمُ إلى قريش، فأتيَا عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة، فأبى أن يقولَ بينهما شيئًا، فأتَيَا غَيْلَان بن سَلَمَة الثَّقَفِيّ، فردهما إلى حَرْمَلَة بن الأشعر المري، فأبى أن يقول شيئًا.

---

(١) الكماة: جمع كمي، وهو الشجاع.
(٢) رجل عاقر: لم يولد له ولد.
(٣) القفرة: الخلاء من الأرض.
(٤) البكرة: الفتية من الإبل.
(٥) الهبرة: القطعة المجتمعة من اللحم.
(٦) العير: الحمار، وغلب على الوحش، وهو أقوى من التيس، أي مثلي وإياك كالعير والتيس، أو على الأقل كالتيس والعنز، إذ التيس أقوى على النطاح من العنز.
(٧) درم العظم: واراه اللحم حتى لم يبن له حجم.

ثم تَدَاعَيا إلى هَرِم بن قُطْنَة ليحكم بينهما، فرحلا إليه، ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل: مائة يطعمها مَنْ تَبِعَه، ومائة يعطيها للحاكم، ومائة تُعْقَرُ إذا حكَمَ: فأبى هرم بن قُطْنة أن يحكم بينهما مخافة الشَّرِّ، وأبيَا أن يَرْتحلا، فقال هرِم: لعمري لأحكمنّ بينكما، ثم لأفْصلنّ، فأعطياني موثقًا أطمئنّ إليه أن تَرْضيَا بما أقول، وتُسَلِّما لما قضيتُ بينكما، وأمرهما بالانصراف ووعدَهما يومًا. فانصرفا حتى إذا بلغ الأجَلُ خرجا إليه، وأقام القومُ عنده أيامًا.

فخَلَا هرم بعَلْقمة، وقال له: أترجو أن ينفِّركَ[1] رجلٌ من العرب على عامرٍ فارسِ مضر؛ أنْدَى الناس كفًّا وأشجعِهم لقاء، لَسِنَانُ رُمْحِ عامرٍ أذْكَرُ في العرب من الأحوص، وعمُّه مُلَاعبُ الأسنة.

فقال له علقمة: أنشدك الله والرَّحِمَ ألا تُنَفِّر عليَّ عامرًا! اجْزُزْ ناصيتي، واحتِكْم في مالي، وإن كنتَ لا بد أن تَفْعل فسوٌّ بيني وبينه. فقال: انصرف، فسوف أرى رَأْيي؛ فخرج وهو لا يشكُّ أنه سيفضِّلُ عليه عامرًا.

ثم خلا بعامر فقال له: أعلَى علقمة تَفْخَر؟ أنت تناوئه! أعَلَى ابن عوف بن الأحوص؛ أعفّ بني عامر، وأيمنِهم نقيبة، وأحلمهم وأسودهم؟ وأنت أعورُ عاقر مَشْؤوم! أما كان لك رأيٌ يَزَعُكَ[2] عن هذا! أكنتَ تظن أن أحدًا من العرب يُنَفِّرُكَ عليه؟ فقال عامر: نَشدتك الله والرَّحم ألا تفضل عليّ علقمة! فوالله إن فعلتَ لا أُفلِح بعدها أبدًا، هذه ناصيتي فاجْزُزْها، واحتَكم في مالي، فإن كنتَ لا بدَّ فاعلًا فسوِّ بيني وبينه. قال: انصرف فسوف أرى رأيي، فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفِّرُه عليه.

ثم إن هَرِمًا أرسل إلى بنيه وبني أبيه: إني قائلٌ غدًا بين هذين الرجلين مقالة، فإذا فعلتُ فليطرد بعضكم عشر جَزَائر[3] فلينحرها عن علقمة، ويطرد بعضكم عشر جزائر لينحرها عن عامر، وفرّقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة.

فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قام هَرِم، وقال: يا بني جعفر، قد تحاكمتما عندي، وأنتما كرُكْبَتي البعير الأدْرَم، تقعان إلى الأرض معًا، وليس فيكما أحدٌ إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكِلَاكما سيِّدٌ كريم.

---

(١) نفره عليه: قضى له عليه بالغلبة. (٢) يزعك: يردك.
(٣) جزائر: جمع جزور.

وعمَد بنو هرِم وبنو أخيه إلى تلك الجزُر فنحروها حيث أمرهم هرم. وفرّقوا الناس، ولم يُفَضِّل هَرِم أحدًا منهما على صاحبه، وكره أن يفعل ـ وهما ابنا عم ـ فيجلب بذلك عداوة، ويوقع بين الحيين شرًّا.

فارتحلوا عن هَرِم لما أعياهم نحو عكاظ، فلقيهم الأعشى منحدرًا من اليمن ـ وكان لما أرادها قال لعلقمة: اعقد لي حَبْلًا[1]، فقال: أعقد لك من بني عامر! قال: لا يُغْني عني. قال: فمن قيس! قال: لا. قال: فما أنا بزائدك. فأتى عامرَ بن الطفيل، فأجاره من أهل السماء والأرض، فقيل له: كيف تُجيره من أهل السماء؟ قال: إن مات وَدَيْتُه[2] ـ فقال الأعشى لعامر: أَظْهِرْ أنكما حكَّمتُماني. ففعل؛ فقام الأعشى؛ فرفع عَقِيرته[3] في الناس فقال:

حَكَّمْتُمُوهُ فقضى بينكمْ أبْلَجُ مثْلُ القَمَرِ الزاهرِ
لا يأخذ الرِّشوةَ في حُكْمِه ولا يبالي خسَرَ الخاسِرِ
عَلقم لا؛ لستَ إلى عامر النَّـ ـاقض الأوتارِ والواتِرِ
واللابسِ الخيل بخيلٍ إذا ثارَ عَجَاجُ السكبة[4] النائر
إن تَسُد الحوصُ فلم تعدُهم وعامِرٌ ساد بني عامِر
ساد وأَلْفَى رَهْطَهُ سادةً وكابرًا سَادُوكَ عن كابِرِ

وشدَّ القومُ في أعراضُ الإبل المائة فعقروها، وقالوا: نُفِّرَ عامر وذهبت بها الغَوْغَاء، وجَهِدَ علقمة أن يردَّها فلم يقدر على ذلك، فجعل يتهدَّد الأعشى فقال:

أتاني وعيدُ الحُوص من آل عامرٍ
فيا عبد عمرٍو لو نَهَيْتَ الأحَاوِصَا!
فما ذنْبُنَا إن جاشَ بحرُ ابن عَمّكم
وبحرك ساجٍ[5] لا يواري الدَّعامِصَا[6]

---

(١) يريد جواره.
(٢) دفعت ديته.
(٣) عقيرته: صوته.
(٤) السكبة: الدفعة في القتال والحملة في الحرب.
(٥) سجى: سكن.
(٦) الدعموص: دويبة أو دودة سوداء تكون في الغدران إذا قل ماؤها.

كِلا أبويكم كان فَرْعَيْ دِعامَةً
ولكنهم زادوا وأصبحتَ ناقصَا
تبيتون في المَشْتَى مِلاءً بطونكم
وجاراتُكم غَرْثَى[١] يَبِتْنَ خَمَائصَا[٢]
يُرَاقِبنَ من جوع خِلَالَ مَخَافةٍ
نجوم العِشاءِ العاتماتِ الغَوَامصَا[٣]
رمى بك في أخراهُم تركك النَّدَى
وفضَّلَ أقوامًا عليك مراهِصَا[٤]
فعضَّ حديد الأرض إن كنت ساخطًا
بفيكَ وأحجَارَ الكُلاب الرَّوَهِصا[٥]

فبكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه في العار.

أنتَ لَه[٦]

قَدِمَ رَهْطٌ من بني جَعْفَر على النعمان بن المنذر، عليهم عامر بن مالك ملاعب الأسنّة، وفيهم لبيد[٧] بن ربيعة، وهو يومئذ غلامٌ له ذُؤابة، فضرب النعمان قُبَّةٌ وأجرى عليهم النُّزُل[٨]، فجعلوا يَغْدُون إلى النعمان ويَرُوحون ويتركون لبيدًا في رحالهم، يحفظُ أمتعتهم ويغدوا بإبلهم فيرعاها، فإذا أمسى المساء انصرفَ بها.

---

(١) غرث: جاع.
(٢) الخمائص: جمع خميصة، ضامرات البطن: أي من شدة الجوع.
(٣) الغميصاء: إحدى الشعريين، قال في القاموس: من أحاديثهم: إن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبورًا وبكت الأخرى على أثرها حتى غمصت، ويقال لها: الغموص أيضًا.
(٤) راهص غريمه: راصده؛ قال في القاموس: والمراهص لم يسمع بواحدها.
(٥) الكلاب: موضع، والرواهص من الحجارة التي تنكب الدواب، والصخور الثابتة.
(٦) الخزانة: ٤ ـ ١٧١، مجمع الأمثال: ٢ ـ ٤٢، الأغاني: ١٤ ـ ١٩٢، ١٦ ـ ٢٢، اللسان ـ مادة سمل.
(٧) لبيد بن ربيعة: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام، وعاش عمرًا طويلًا، وتوفي سنة ٤١ هـ.
(٨) النزل: الطعام.

وكان الربيعُ بن زياد العبسي يُنادمُ النعمان ويصادِقُه، ويتقدم على من سواه، فكان إذا خلا بالنعمان طعن في بني جعفر وذكر معايبهم لعداوةٍ قديمةٍ كانت بين عَبْس وبني جعفر، وفعل ذلك مرارًا حتى أثرَ في نفس النعمان، فنزع القبة عنهم، وقطع النُّزُولَ.

ودخلوا عليه يومًا، فرأوا منه جَفَاءً؛ فخرجوا من عنده غِضابًا، وهمُّوا بالانصراف.

وبينما هم يتذاكرون أَمْرَ الربيع سمعهم لبيد فقال لهم: ما لكم تتناجَوْن! فكتموه، وقالوا له: إليك عنَّا. قال: أخبروني، فلعلّ لكم عندي فَرَجًا، فزَجَرُوه؟ فقال: لا والله لا أحفظ لكم متاعًا، ولا أَسْرَحُ[1] لكم بعيرًا أو تخبروني.

فقالوا له: إن خالَك الربيع ـ وكانت أمُّ لبيد عبسية، وكانت يتيمة في حِجْرِ الربيع ـ قد غَلَبَنا على المَلِك، وصدَّ عنَّا وجْهه! فقال لهم: هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه غدًا حين يَقْعُدُ الملك، فأَرْجُزَ به رَجَزًا مُمِضًّا مُؤلِمًا، لا يلتفت إليه إنسان بعده أبدًا؟ قالوا له: وهل عندك ذلك؟ قال: نعم، قالوا: إنا نَبْلُوكَ بِشتْم هذه البَقْلة ـ وقُدَّامهم بَقْلَةٌ دقيقة القضبان[2]، قليلة الورق، لاصقةٌ فروعها بالأرض تُدْعى التَّرِبة[3].

فاقتلعها من الأرض، وأخذها بيده، وقال: هذه التربة التي لا تُذْكِي[4] نارًا، ولا تُؤْهِلُ دارًا، ولا تسُرُّ جارًا، عودُها ضئيل، وفرعها كليل[5]، وخيرها قليل وزهرها شاسع ونَبْتُهَا خاشع[6]، وآكِلها جائع، والمقيمُ عليها ضائع؛ أقصَرُ البقولِ زرعًا، وأخبثُها مرعى، وأشدُّها قَلْعًا، فَحَرْبًا له وجدعًا[7]! الْقوا بي أخا عَبْس، أرجعه عليكم بتعْس[8] ونُكس، وأتركه من أمره في لَبْس.

فقالوا: نُصْبِح فنرى فيك رأينا. فقال لهم عامر: انظروا إلى غلامكم هذا؛ فإن رأيتموه نائمًا فليس أمرُه بشيء، إنما يتكلمُ بما جرى على لسانه ويَهْذِي بما يهجس في خاطره، وإن رأيتموه ساهرًا فهو صاحبكم!

---

(١) سرح الماشية وسرحت بنفسها. (٢) القضبان: الأغصان.
(٣) التربة: نبت سهلي، والبقل: ما نبت من بزره لا من أرومة ، والبقلة واحدته.
(٤) أذكى النار: أوقدها. (٥) كليل: ضعيف غير صليب.
(٦) خاشع: دان من الأرض. (٧) جدعًا: قطعًا.
(٨) التعس: الهلاك.

فرمَقُوه بأبصارهم، فوجدوه قد رَكِبَ رَحْلًا يَكْدِمُ[١] واسطته حتى أصبح.

فلما أصبحوا قالوا: أنت والله صاحبُه. وحلقُوا رأسه، وتركوا له ذُؤابتين، وألبسوه حُلَّة، وغدوْا به معهم.

فدخلوا على النعمان، فوجدوه يتغدَّى ومعه الربيع، ليس معه غيره، والدارُ والمجالس مملوءة من الوفود.

فلما فرغ من الغداء ذكروا له حاجتهم؛ فاعترضهم الربيعُ في كلامهم، فقال لبيد ـ وقد دهن أحد شِقَّيْ رأسه، وأرْخَى إزاره، وانْتَعل نعلًا: أبيتَ اللعن! أتأذنُ لي في الكلام؟ فأذِنَ له، فأنشأ يقول[٢]:

لا تَزْجُرِ الفتيان عن سوءِ الرِّعَةْ[٣] ... يا ربَّ هَيْجا[٤] هي خيرٌ من دَعَةْ
في كل يوم هَامَتِي مُقَزَّعه[٥] ... نحن بنو أم البنين[٦] الأربعه
نحن خيارُ عامر بن صَعْصَه ... المطعِمون الجَفْنَةَ المدَعْدَعَهْ[٧]
والضاربون الهامَ تحت الخيْضَعه[٨] ... يا واهبَ المال الجزيل من سَعَه
إليك جاوزنا بلادًا مُسْبِعَهْ[٩] ... إذ الفلاة أوحشتْ في المَعْمَعَهْ

يخبرك عن هذا خبيرٌ فاسمعه

فقال النعمان: ما هو؟ فقال:

مهلًا أبيتَ اللَّعْنَ لا تأكل معهْ

فقال النعمان: ولم؟ فقال:

إن اسْتَهُ من بَرَصٍ مُلَمَّعَهْ

(١) كدمه: عضه بأدنى فمه أو أثر فيه بحديدة.
(٢) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٤٤ مع اختلاف الرواية.
(٣) الرعة: حالة الأحمق التي رضي بها. (٤) الهيجا: الحرب.
(٥) يقال هو مقزع ومتقزع: رقيق شعر الرأس.
(٦) بنو أم البنين الأربعة: هم خمسة: مالك بن جعفر، وطفيل بن مالك، وربيعة بن مالك. وعبيدة بن مالك، ومعاوية بن مالك، وهم أشراف بني عامر، فجعلهم أربعة لأجل القافية.
(٧) المدعدعة: المملوءة. (٨) الخيضعة: البيضة.
(٩) بلاد مسبعة: كثيرة السباع.

فقال النعمان: وما عَلَيَّ؟ فقال:

وإنـه يُـدْخِـل فـيـهـا إصْـبَـعَـه

يدخلها حتى يواري أشْجَعَه[١] كـأنـمـا يـطـلـب شـيـئًا ضَـيَّـعَـهْ

فلما سمع النعمان قوله أَفَّفَ[٢]، ورفع يده من الطعام، والتفت إلى الربيع يَرْمُقُه شَزَرًا، وقال: أكذلك أنت! قال: كذَب والله ابن الحَمِق[٣] اللئيم! فقال النعمان: لقد خبُث عليَّ طعامي.

ثم قضى النعمان حوائج الجعفريين، وانصرف الربيع إلى منزله، فبعث إليه النعمان بِضِعْفِ ما كان يَحْبُوه به، وأمره بالانصراف إلى أهله. فكتب إليه: «إني قد تخوَّفتُ أن يكون قد وقع في صَدْرِك ما قال لَبيد، ولست برائم[٤] حتى تبعثَ من يردّني؛ ليعلم مَنْ حضرك من الناس أني لست كما قال...».

فأرسل إليه: «إنك لست صانعًا بانتفائك مما قال لَبيد شيئًا، ولا قادرًا على ردّ ما زلّت به الألسن، فالْحَق بأهلك». فلحق بأهله.

ثم أرسل إلى النعمان:

لئنْ رَحَلْتُ جِمالي إنَّ لي سعةً ما مثلُها سَعَة عَرْضًا ولا طولا
ولو جَمَعْتَ بني لخم بأسرهُم لم يَعْدِلوا ريشةً من ريش سَمْويلا[٥]
تَرْعى الرَّوَائم[٦] أحرارَ البقول بها لا مثلَ رعيكُمُ مِلْحًا وغسْوَيلَا[٧]
فاثبت بأرضك بعدي واخل متّكئًا مع النّطاسيّ طورًا[٨] وابن نوفيلا

فأجابه النعمان:

شرِّدْ برحلِكَ حيث شئتَ ولا تكثر عليّ، ودَعْ عنك الأقاويلَا
فقد رُمِيتَ بداءٍ لست غاسلَه ما جاور السيلَ أهلُ الشام والنيلَا

---

(١) الأشاجع: عروق ظاهر الكف.
(٢) أفف: قال «أف».
(٣) الحمق: الأحمق.
(٤) رائم: بارع وراحل.
(٥) سمويل: أحد أجداد الربيع. وهو في الأصل اسم طائر، وقيل: بلد كثير الطير.
(٦) ناقة رؤوم ورائمة وروائم: عاطفة على ولدها.
(٧) الغسويل: نبت ينبت في السباخ.
(٨) النطاسي وابن نوفيل: اثنان كانا ينادمان النعمان أولهما طبيب وثانيهما تاجر.

فما انتفاؤك منه بعد ما قطعت هُوجُ[١] المطيِّ به أكناف شِمْليلَا[٢]
قد قيل ما قيلَ إن صدقًا وإن كذِبًا فـما اعتذارُك من قولٍ إذا قيلَا
فَالحَقْ بحيث رأيتَ الأرض واسعةً وانشُرْ بها الطرف إن عرضًا وإن طولَا

أنتَ اليَوم ذُو جَدَّين[٣]

قال الملك النعمان: لأُعْطِينَّ أفضلَ العرب مائةً من الإبل. فلما أصبح الناسُ اجتمعوا لذلك، ولم يك قيس بن مسعود فيهم، وأرادَه قَوْمُه على أن يَنْطلق معهم إليه، فقال: لا، لئن كان يُرِيدُ بها غيري لا أشهدُ ذلك، وإن كانَ يريدني بها لأُعطيَنَّهَا.

فلما رأى النعمانُ اجتماعَ الناس قال: ليس صاحبُها شاهدًا. فلما كان من الغدِ، قال له قومُه: انطلقْ؛ فانطلق فدفعها الملك إليه، فقال حَاجِب[٤] بن زُرَارة: أبيتَ اللَّعْن! ما هو بأحقَّ بها منِّي، فقال قيس بن مسعود: أُنَافِرُه[٥] عن أكرمنَا قَعِيدةً[٦]، وأحسنِنا أدبَ ناقة، وأكرم لئيم قوم.

فبعث معهما النعمانُ مَنْ ينظر في ذلك، فلما انتَهَوْا إلى بادية حاجب بن زُرَارة مَرُّوا على رجل من قومه، فقال حاجب: هذا أَلأمُ قومي، وهو فلان ابن فلان ـ والرجلُ عند حوضه يُورِدُ إبلَه ـ فأقبلوا إليه فقالوا: يا عبدَ الله؛ دَعْنَا فَلْنَسْتَق فإنا قد هلَكْنَا عَطَشًا، وأهلَكْنَا ظُهُورنَا[٧]، فَتَجَهَّمَ وأبى عليهم. فلما أعْياهم قالوا لحاجب: أسفِر، فَسَفَر، وقال: أنا حاجبُ بن زرارة فدعنا فلنشرب. قال: أنت! فلا مرحبًا بك ولا أهلًا؛ ثم أتَوْا بيته، فقالوا لامرأته: هل من منزل يا أمةَ الله؟ قالت: والله ما ربُّ المنزل شاهدًا وما عنده من منزل، وأرادوها على ذلك فأبَتْ.

ثم أتوا رجلًا من قوم قيس بن مسعود على ماءٍ يُورِد إبلَه، فقال قيس: هذا والله ألأَمُ قومي، فلما وقفوا عليه قالوا مثلَ ما قالوا للآخر، فأبى عليهم وهمَّ أن

---

(١) الهوجاء: الناقة المسرعة، جمعها هوج. (٢) شمليل: بلد.
(٣) بلوغ الأرب: ١ ـ ٢٨٦.
(٤) حاجب بن زرارة: من سادات العرب في الجاهلية، أدرك الإسلام وأسلم، وتوفي نحو سنة ٣ هـ.
(٥) أنافره: أحاكمه. (٦) القعيدة: المرأة.
(٧) يريد ما يركبون.

يضرِبَهم، فقال له قيس بن مسعود: ويلك! أنا قيسُ بن مسعود، فقال له: مرحبًا وأهلًا، أَوْرِدْ. ثم أتوا بيتَه، فوجدوا فيه امرأته قِدرُها تَغِطُّ[١]، فلما رأتْ الركب من بعيد أَنْزَلَتِ القِدْرَ وتروَّت، فلما انتهَوْا إليها قالوا: هل عندكِ يا أَمَةَ الله منزل؟ قالت: نعم! انْزِلُوا في الرَّحْب والسّعة. فلما نزلوا وطَعِمُوا وارتحلوا أخذوا ناقتيهما، فأَنَاخُوهما على قريتين للنمل، فأما ناقةُ قيس بن مسعود فتضوَّرَت[٢]، وتقلبت ثم لم تَثُرْ، وأما ناقة حاجب فمكثَتْ وثَبَتَتْ، حتى إذا قالوا: قد اطمأنَّتْ طفِقت هاربة. فأتوا الملك، فأخبروه بذلك، فقال له: قد كنتَ يا قيس ذا جَدّ[٣]، فأنت اليوم ذُو جَدَّين.

إن البلَاء مُوَكَّل بالمنطِق[٤]

خرج رسولُ الله ﷺ ومعه أبو بكر وعلي. قال عليّ: فدفَعْنَا إلى مجلس من مجالس العَرَب، فتقدّم أبو بكر ـ وكان نَسَّابة[٥] ـ فسلّم فردُّوا عليه السلام، فقال: مِمَّن القوم؟ قالوا: مِنْ ربيعة. فقال: من هَامتِها أم مِنْ لَهَازِمها[٦]؟ قالوا: من هامَتِها العُظمَى. قال: فأيّ هامتها العظمى أنتم؟ أنتم ذُهْل الأكبر؟ قالوا: نعم.

قال: أفمنكم عَوْف الذي يقال له: لا حُرّ بوَادِي عوف؟ قالوا: لا! قال: أفمنكم بِسْطَام[٧] ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا! قال أفمنكم جسّاس بن مرة حامي الذمار، ومانعُ الجار؟ قالوا: لا! قال: أفمنكم الحَوْفَزَان[٨] قاتل الملوك وسالبها أنْفُسَها؟ قالوا: لا! قال: أفمنكم المزدَلِف[٩] صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا! قال: فأنتم أخوال الملوك[١٠] من كِنْدَة؟ قالوا: لا! قال فأنتم

(١) تغظ: أي تصوت، وذلك عند اشتداد غليانها.
(٢) التضور: الصياح والتلوي عند الضرب أو الجوع.
(٣) الجد: العظمة، والحظ.
(٤) المحاسن والأضداد: ١٠٤، مجمع الأمثال: ١ ـ ١٢.
(٥) النساب: العالم بالنسب، وأدخلوا الهاء للمبالغة والمدح.
(٦) من هامتها أم من لهازمها: يريد أمن أشرافها أم من أوساطها؟
(٧) هو بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، أفرس فرسان بكر في الجاهلية.
(٨) الحوفزان: لقب الحارث بن شريك، لقبه به قيس بن عاصم حين حفزه بالرمح ففاته.
(٩) هو عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل الشيباني، سمي بذلك لازدلافه إلى العدو وحده بين الصفين، وكان إذا اعتم لا يجرؤ بكري أن يلبس مثل عمامته.
(١٠) هم كليب ومهلهل وأختهم فاطمة أم امرىء القيس.

أصهار الملوك من لَخمْ[١]؟ قالوا: لا! قال: فلستم ذُهْلًا الأكبر، أنتم ذُهْل الأصغر!

فقام إليه غلام منهم حين بَقَل[٢] وجهه يقال له دَغْفَل[٣] فقال:

إنَّ علـى سائلنا أن نسألَهْ والعبءَ لا تعرفُه أو تَحْمِلَهْ

يا هذا، إنك سألتنَا فلم نكتمْك شيئًا من أمْرنا، فممن الرجل؟ قال: رجل من قريش، قال: بَخٍ بَخٍ! أهل الشرفِ والرياسة، فمن أيّ قريش أنت؟ قال: من تَيْمِ بن مُرّة. قال: أفمنكم قُصَيّ بن كلاب الذي جمع القبائل من فِهْر وكان يدعى مجمِّعًا؟ قال: لا، قال: أفمنكم هِشَام الذي هَشَمَ الثَّرِيد لقومه ورجالُ مكة مُسْنِتُونَ عِجَاف[٤]؟ قال: لا، قال: أفمنكم شيبةُ الحمد مُطْعِم طير السماء الذي كأنَّ بوجهه قمرًا يضيء ليلَ الظلام الدَّاجِي؟ قال: لا، قال: أفمن المفيضين بالناس أنت[٥]؟ قال: لا! قال: أفمن أهل النَّدْوَة أنت؟ قال: لا! قال: أفمن أهل الرِّفادة[٦] أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الحِجَابة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل السِّقَاية[٧] أنت؟ قال: لا.

واجتذب أبو بكر زِمامَ ناقته ورجع إلى رسول الله، فقال دَغْفل:

صادف دَرَّ السيل دَرٌّ يدفَعُهْ يَرفعه حينًا وحينًا يضَعُهْ

أما والله لو ثبتّ لأخبرتُك أنك من زَمَعَات[٨] قريش، أو ما أنا دَغْلَل! فتبسّم رسول الله ﷺ. قال عليّ: قلت لأبي بكر: لقد وقعتَ من الأعرابي على بَاقِعَة[٩]، قال: أجل! إن لكل طامّة طامة، وإن البلاء مُوَكَّلٌ بالمَنْطق[١٠].

---

(١) هم النمر بن قاسط من ذهل بن شيبان، منهم ماء السماء أم المنذر أحد ملوك الحيرة.

(٢) بقل: ظهر ونجم.

(٣) هو دغفل بن حنظلة السدوسي النسابة.

(٤) مسنتون: مجدبون، والأعجف: الهزيل.

(٥) الإفاضة من مناقب قريش في الجاهلية، وكانت في آل صفوان، ثم انتقلت إلى عبد الدار وإليهم كانت السدانة.

(٦) كانت لبني نوفل.

(٧) كانت لبني هاشم في العباس بن عبد المطلب وكذلك الحجابة.

(٨) أصل الزمعات: الزوائد وراء الأرساغ.

(٩) داهية كيس.

(١٠) ذهبت مثلًا.

مُعَــــاقَــرَة(١)

أَسْنَتَ(٢) بنو تميم زمن عليّ بن أبي طالب؛ فانتجعوا أرضًا من أرض كَلْب من طرف السَّماوةِ، فصنعَ غالب بن صعصعة ـ وهو أبو الفرزدق ـ طعامًا، ونَحَر نحائِر، وجفَنَها(٣) في جفان، وجعل يُقَسِّمها على أهل المزايا(٤).

فأتت جَفْنَةٌ منها سُحَيم بن وَثيل الرياحيّ الشاعر، فكَفَأَها وضرب الخادم التي أتته بها، واحتفظ(٥) غالب من ذلك، فعاتب سحيمًا؛ فسرى القول بينهما حتى تداعَيَا إلى المعاقرة(٦) ـ وكان سُحيم رجلًا فيه شِنْغِيرَةٌ(٧) وأذًى للناس، وكان الناس شآفَى(٨) القلوب عليه ـ وكانت إبله خَوَامس(٩) لم ترِدْ.

ووردت إبلُ غالب؛ فطفق غالب يعقِرها، وطافت الوُغْدَان(١٠) والفتيان بالإبل، فجعلت تَحُوزُها من أطرافها إليه، ومع الفرزدق هِرَاوةٌ يردّ بها على أبيه، فيقول غالب: ردّ، أي بني، فيقول الفرزدق: اعقِرْ أبتِ؛ حتى نحر سائرها؛ وكانت مائتين.

فقال طارق بن دَيْسَق ـ وكان يهاجي سُحَيمًا:

أَبْلغْ سُحَيمًا إن عَرَضْتَ وجَحْدَرًا ... أن المخازيَ لا يَنَامُ قُرَادُها
أَقْدَحْتُما حتى إذا أَوْرَيْتُما ... للحرب نارَ كما خَبَا إيقادُها
لو كان شاهدَنا الجميلُ ومالكٌ ... لَحَبَتْ(١١) لِقَاحٌ وُلَّهٌ أولادُها
أَطْردتَها نِيبًا تَحِنُّ إفَالُها(١٢) ... من أن يكونَ لسَيْفِه إيرادُها

---

(١) ذيل الأمالي: ٥٢، بلوغ الأرب؛ ٣ ـ ٣٠. (٢) أسنت: أجدبوا.
(٣) جفن الناقة: نحرها وأطعم لحمها في الجفان.
(٤) أهل القدر. (٥) غضب.
(٦) المعاقرة: هي أن يتبارى الرجلان كل واحد منهما يجادل صاحبه، فيعقر هذا عددًا من إبله، ويعقر صاحبه، فأيهما كان أكثر عقرًا غلب صاحبه ونفره.
(٧) الشنغيرة: سوء الخلق والفحش والبذاءة. (٨) وغراء الصدور عليه.
(٩) الخمس من أظماء الإبل: أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع، والإبل خوامس.
(١٠) الوغدان: جمع وغد، وهو خادم القوم. (١١) اللحب: الطريق الواضح، ولحب الطريق:
(١٢) الإفال: جمع أفيل، الفصيل.

فأقبلت إبلُ سُحَيم حتى وردتْ عليه، فأوردها كُناسَةَ[١] الكوفة. وجعل يَعْقِرها وهو يقول:

كيف ترى جُحَيْدِرًا يرعاها   بالسَّيْفِ يُخْلِيها إذا استَخْلاها

ينثرُ الجَزِيزَ[٢] مِنْ ذُراها

فلم يَنْفَعْهُ عَقْرُهُ إياها، وقد سبقه غالبٌ بالعَقْر.

قَد كَان يَسُوءُنِي أن تَكُونَ أميرًا[٣]

دخل صَعَصعَة[٤] بن صُوحان على معاوية أول ما دخل عليه، وقد كان يبلغُ معاوية عنه كلام، فقال له معاوية: مِمّن الرجل؟ قال: رجل من نِزَار. قال: وما نِزَار؟ قال: إذا غزا احْترَش[٥]، وإذا انصرف انكمش، وإذا لَقِيَ افترش.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من ربيعة. قال: وما ربيعة؟ قال: كان يغزو بالخَيْل، ويُغير بالليل، ويجود بالنَّيْل.

قال: فمن أيِّ ولده أنت؟ قال: من أَسَد. قال: وما أسد؟ قال: كان إذا طلب أفضَى[٦]، وإذا أدرك أرضى، وإذا آب أنضى[٧].

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من جَدِيلة؟ قال: وما جَديلةُ؟ قال: كان يطيل النِّجَاد[٨]، ويُعدّ الجياد، ويجيد الجِلَاد.

قال: فمن أيّ ولده أنت؟ قال: من دُعْميّ. قال: وما دُعْميّ؟ قال: كانت نارًا ساطعًا، وشرًّا قاطعًا، وخيرًا نافعًا.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من أَفْصَى، قال: وما أفصى؟ قال: كان ينزل القارات[٩]، ويُكْثِر الْغارات؛ ويَحْمِي الجارَات.

---

(١) كناسة الكوفة: محلة بها.
(٢) أصل الجزيرة: خصلة من صوف.
(٣) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٢٠٥، صبح الأعشى: ١ ـ ٢٥٤، مروج الذهب: ٢ ـ ٧٧، الأمالي: ٢ ـ ٢٣٠.
(٤) صعصعة بن صوحان: كان خطيبًا بليغًا له شعر، شهد صفين مع عليّ، وله مع معاوية مواقف ومات نحو سنة ٦٠ هـ.
(٥) احترش: جمع وكسب.
(٦) أفضى إلى الشيء: وصل.
(٧) أنضى بعيره: هزله، وثوبه أبلاه.
(٨) النجاد: حمائل السيف.
(٩) القارات: جمع قارة؛ وهي الجبيل الصغير.

قال: فمن أيِّ ولده أنت؟ قال: من عبد القيس. قال: وما عبدُ القيس؟ قال: أبطالٌ ذَادَة، جَحَاجِحة[١] قَادَة، صناديدُ سادة.

قال: فمن أيِّ ولده أنت؟ قال: من أَفْصى. قال: وما أفصى؟ قال: كان ذا رِمَاح مُشْرَعة، وقدُور مُتْرَعة[٢]، وجفانٍ مُفْرغة.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من لُكَيْز. قال: وما لُكَيْز؟ قال: كان يُبَاشر القتال، ويعَانِق الأبطال، ويُبَدِّد الأموال.

قال: فمن أيّ ولده أنت؟ قال: من عجْل. قال: وما عجْل؟ قال: الليوث الضراغمة[٣]، الملوك القَماقمة[٤]، والقُرُوم القَشَاعمة[٥].

قال: فمن أيّ ولده أنت؟ قال: من كَعْب، قال: وما كعب؟ قال: كان يُسعِّر[٦] الحرب، ويجيد الضَّرْب، ويكشف الكَرْب.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من مالك. قال: وما مالك؟ قال: الهُمَام للهمام، والقَمقام للقَمقام.

قال معاوية: والله ما تركتَ لهذا الحي من قريش شيئًا! قال: بل تركتُ أكثَره وأحبَّه. قال: وما هو؟ قال: تركتُ لهم الوبَرَ والمدَرَ[٧]، والأبيض والأحمر، والصَّفا والمَشْعر[٨]، والقُبَّة والمفْخَر، والسرير والمِنْبر، والمُلْك إلى المحشَرْ.

فقال: أما والله لقد كان يسوءُني أن أرَاك أسيرًا. فقال: وأنا والله لقد كان يسوءُني أن أرَاك أميرًا. ثم خرج، فبعث إليه فردّه ووصَلَه وأكرمه.

لترجعَنّ بأكثرِ ممّا آبَ بهِ مَعَدّيّ[٩]

كان الوليدُ بن جابر بن ظالم الطائيّ ممن وفدَ على رسول الله، ثم صَحِب عليًا، وشهد معه صِفِّين[١٠]، وكان من رجاله المشهورين، ثم وفد على معاوية، فدخل عليه في جملة الناس.

---

(١) جحاجحة: جمع جحجح: السيد.
(٢) مترعة: مملوءة.
(٣) جمع ضرغام: الأسد.
(٤) جمع قمقام: السيد.
(٥) القرم: السيد، والقشعم: الأسد أو الرجل المسن، ويقصد المجرب.
(٦) سعر الحرب: أوقدها.
(٧) كناية عن البادية والمدن.
(٨) المشعر: موضع مناسك الحج.
(٩) ابن أبي الحديد: ٤ ـ ٤٩.
(١٠) موضع قرب الرقة بشاطىء الفرات كانت به الموقعة العظمى بين عليّ ومعاوية في صفر سنة ٣٧ هـ.

فلما انتهى إليه اسْتَنْسَبَه[١] فانْتَسَب له فقال له: أنت صاحبُ ليلة الهَرير[٢]؟ قال: نعم! قال: والله ما تخلو مسامعي من رَجَزِك تلك الليلة، وقد علا صوتُك أصواتَ الناس، وأنت تقول:

شُـدُّوا فـداءً لـكـم أمّـي وأبْ ... فـإنـمـا الأمـرُ غـدًا لـمـن غَـلَبْ
هذا ابنُ عم المصطفى والمنتخَبْ ... تـنـميـهِ لـلعـليـاء سـاداتُ الـعـربْ
ليس بموصوم إذا نُصَّ[٣] النَّسبَ ... أول مـن صـلّى وصَـامَ واقْـتـرَبْ

قال: نعم. أنا قائلها. قال: فلماذا قلتَها؟ قال: لأنا كنا مع رجل لا نَعْلم خصْلَةً تُوجب الخلافة ولا فضيلةً تصير إلى التقدِمة إلا وهي مجموعة له. كان أول الناس سِلْمًا[٤]، وأكثرَهم علمًا، وأرجَحهم حِلمًا، فَاتَ الجياد فلا يُشَقُّ غُبَارُه، وأوْضَح منهجَ الهدى فلا يبيدُ مَنَاره، وسلك القَصْدَ فلا تَدْرُسُ آثاره، فلما ابتلانا الله تعالى بافْتِقَاده، وحوّل الأمرَ إلى مَن يشاءُ من عباده دخلنا في جملةِ المسلمين؛ فلم نَنْزِعْ يدًا عن طاعة، ولم نَصْدَعْ صَفَاةَ جماعة.

على أنَّ لك منّا ما ظهر، وقلوبُنا بيدِ الله، وهو أملكُ بها منك؛ فاقبل صفوَنا، وأعْرِضْ عن كَدَرِنا، ولا تُثِرْ كوامِنَ الأحقادِ؛ فإن النار تُقْدَحُ بالزِّناد.

قال معاوية: وإنك لتهددني وأخا طيىء بأَوْبَاش[٥] العراق، أهل النفاق ومَعْدن الشِّقاق، قال: يا معاوية، هم الذين أَشْرَقوك بالريق، وحبسوك في المضيق، وذَادُوك عن سَنَنِ الطريق، حتى لُذْت منهم بالمصاحف، ودعوتَ إليها من صدّق بها وكذّبت، ومَنْ آمن بمُنزِلها وكفرت، وعَرَفَ مِنْ تأويلها ما أنْكَرْت.

(١) استنسبه: سأله أن ينتسب.
(٢) سفرت بين عليّ ومعاوية السفراء؛ ليصلحوا بين الفريقين ولكن ذهب سعيهم سدى، فابتدأ القتال ثانية في يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ هجرية من غير أن يقف كلا الجمعين وجهًا لوجه، بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال عليّ لجنده: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم يجمعنا! فباتوا يصلحون أمرهم، وفي الصباح زحف عليّ بجنوده، وزحف معاوية بجنوده، واقتتل الفريقان، ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم ولما أمسى المساء لم ينفصلا، بل استمر القتال شديدًا طول الليل، ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير.
(٣) كل ما أظهر فقد نص.
(٤) السلم: الإسلام.
(٥) الأوباش: الأخلاط.

فغضب معاوية، وأدار طَرْفَه فيمن حوله، فإذا جلُّهم من مُضَر ونفر قليل من اليمن، فقال: أيها الشقيُّ الخائن، لأخال أنّ هذا آخرُ كلامٍ تفوَّهْتَ به.

وكان عقير بن ذي يَزن بباب معاوية حينئذٍ فعرف موقفَ الطائيّ ومراد معاوية، فخافه عليه، فهجم عليه الدّار، وأقبل على اليمانية، فقال: شاهت الوجوه ذُلّا وقُلًّا[١]، وجَذْعًا وفَلّا!

ثم التفت إلى معاوية فقال: إي والله يا مُعَاوية، ما أقول قولي هذا حبًّا لأهل العراق، ولا جُنوحًا إليهم، ولكن الحفيظةَ[٢] تُذْهِب الغَضَب.

لقد رأيتُك بالأمس خاطبت أخا ربيعة ـ يعني صَعْصَعة بن صُوحان ـ وهو أعظمُ جُرْمًا عندك من هذا، وأذْكى لقلبك، وأقدح في صَفَاتك، وأجدُّ في عداوتك، وأشدُّ انتصارًا في حربك، ثم أثبْتَه وسرَّحتَه، وأنت الآن مُجْمعٌ على قَتْل هذا، زعمتَ استصغارًا لجماعتنا، وإنا لا نمِرُّ ولا نُحْلِي[٣]، ولعمري لو وكَلَتْك أبناء قَحْطَان إلى قومك لكان جدّك العاثر، وذكرك الداثر، وحدّك المَفْلُول، وعرشك المَثْلول، فارْبَعْ[٤] على ظَلْعِك، واطْوِنَا على بُلُلَاتِنا[٥]، ليسهل لك حَزْننا، ويطمئنّ لك شارِدنا، فإنا لا نُرَام بوقع الضّيْم، ولا نتلمَّظ[٦] جُرَع الخسف، ولا نغمر بغمار الفتن، ولا نَذِرُّ على الغضب.

فقال معاوية: الغضبُ شيطان، فارْبَعْ على نفسك أيّها الإنسان، فإنا لم نأت إلى صاحبك مكروهًا، ولم نرتكبْ له مُغْضِبًا، ولم ننتهك منه مَحْرَمًا، فدونَكه، فإنه لم يضق عنه حلمُنا ويَسَعَ غيره.

فأخذ غفير بيد الوليد، وخرج به إلى منزله، وقال له: والله لتئوبَنّ بأكثر مما آب به مَعَدِّيّ.

---

(١) القل: القلة. (٢) الحفيظة: الحمية.

(٣) يقال فلان ما يمر وما يحلي: أي لا يضر ولا ينفع.

(٤) أربع على طلعك: ارفق على نفسك فإنك ضعيف فانته عما لا تطيقه.

(٥) يقال: طويت فلانًا على بطلانه، وتفتح اللام أيضًا: إذا احتملته على ما فيه من الإساءة والعيب، وداريته وفيه بغية.

(٦) نتلمظ: نتذوق.

وجمع مَن بدمشق من اليمانية، وفرض على كلٍّ رجل دينارين في عطائه فبلغت أربعين ألفًا، فتعجّلها من بيت المال، ودفعها إلى الوليد، وردّه إلى العراق.

مَا تكشِف الأيّام مِنك إلّا عَن سَيفٍ صَقِيل[١]

وفد عبدُ الله بن عباس على معاوية مَرَّة، فقال معاوية لابنه يزيد ولزياد بن سُمَيَّة وعُتْبَةَ بن أبي سفيان ومروَان بن الحكم وعمْرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن بن أم الحكم: إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس، وما كان شَجَرَ بيننا وبينه وبين ابن عمّه[٢]، ولقد كان نصبَه للتحكيم فدُفِعَ عنه[٣]؛ فحرِّكوه على الكلام لنبلغ حقيقةَ صفته، ونقف على كُنْهِ مَعْرِفته؛ ونعرفَ ما صُرِفَ عنا من شَبَاحَدِه، ووُوري عنّا من دَهاءِ رأْيه؛ فربما وُصِف المرءُ بغير ما هو فيه، وأُعْطِيَ من النَّعْتِ والاسم ما لا يستحقُّه.

ثم أرسلَ إلى عبدِ الله بن عباس، فلما دخل واستقرَّ به المجلس ابتدأه ابنُ أبي سفيان، فقال: يا ابنَ عباس، ما منع عليًا أن يوجِّه بك حَكَمًا؟ فقال: أما والله لو فعل لَقَرَنَ عمرًا بصَعْبةٍ[٤] من الإبل يوجع كتفيه مِراسُهَا[٥]، ولأذهلتُ عقله، وأجْرَضْتُهُ بريقِه[٦] وقَدَحْتُ في سويداءِ قَلْبِهِ؛ فلم يُبْرِمْ أمرًا، ولم ينفض ترابًا إلّا كنتُ منه بمرأى ومسمع، فإن نَكَثه أَرَمْتُ[٧] قواه، وإن أرَمَهُ فَصَمْتُ[٨] عراه؛ بغَرْب مِقْوَل[٩] لا يُفَلُّ حدُّه، وأصالةِ رأي كَمُتَاحِ[١٠] الأجل لا وَزَرَ منه، أصدعُ به أديمَه، وأفُلُّ به شبا حَدِّه، وأشْحَذُ به عزائم المتقين، وأزيحُ به شُبَه الشاكِّينَ.

---

(١) ابن أبي الحديد: ٢ ـ ١٠٥.

(٢) يريد عليّ بن أبي طالب.

(٣) حينما خرج الخوارج على عليّ بن أبي طالب وأصرّوا على التحكيم أشار بابن عباس أو الأشتر حكمًا، ولكنهم أبو إلا تحكيم أبي موسى الأشعري.

(٤) الصعبة: مؤنث صعب، والصعب من الدواب نقيض الدلول.

(٥) مراسها: علاجها.

(٦) جرض بريقه: ابتلعه بجهد.

(٧) أرم قوته: أضعفها ولينها.

(٨) يقال أرم الجبل: فتله شديدًا، فصمت: حللت.

(٩) الغرب: حد كل شيء، والمقول: اللسان.

(١٠) الأجل المتاح: القدر.

فقال عمرو بن العاص: هذا والله يا أمير المؤمنين نُجومُ(١) أولِ الشرّ، وأفولُ آخرِ الخير، وفي حَسْمِه قطعُ مادته؛ فبادِرْه بالجملة، وانتهز منه الفُرْصَة، واردع بالتنكيل به غيرَه، وشَرِّدْ به مِنْ خلْفَه.

فقال ابنُ عباس: يا ابن النَّابغة؛ ضلَّ والله عقلك، وسَفِهَ حِلْمُكَ، ونطق الشيطانُ على لسانك! هلا توليت ذلك بنفسك يوم صفِّين، حين دُعيت نَزَال(٢)، وتكافح الأبطال، وكثُرَتْ الجراح، وتقصفت الرماح، وبرزت إلى أمير المؤمنين مُصاولًا، فانكفأ نحوك بالسيف حاملًا، فلما رأيت الكواثرَ(٣) من الموت أعددت حيلة السلامة قبل لقائه، والانكفاءَ عنه بعد إجابة دُعَائه، فمنحته ـ رجاء النجاة ـ عورتَك، وكشفت له ـ خوف بأسه ـ سوأَتَك؛ حذرًا أن يَصْطَلِمك بِسَطْوَته، أو يلتهمك بحملته:

ثم أشرتَ على معاوية كالناصح له بمبارزته، وحسَّنتَ له التعرضَ لمكافحته، رجاء أن تكفي مؤونته وتَعْدَم صورته؛ فعَلِمَ غِلَّ صدرك، وما انْحَنَتْ عليه من النِّفَاق أضْلُعك، وعرف مقرَّ سَهْمِكَ في غرضك؛ فاكْفُفْ غَرْبَ لسانك، واقْمعْ عَوْرَاء(٤) لفظك، فإنَّكَ بَيْنَ أسدِ خادِر، وبَحْرِ زاخر؛ إن تَبَرَّزْتَ(٥) للأسد افْتَرَسَك، وإن عُمْتَ في البحر قَمَسَك(٦).

فقال مروان بن الحكم: يا ابن عباس؛ إنك لتَصْرِفُ(٧) نابَك، وتُورِي نارَك، كأنك ترجو الْغَلَبَة، وتُؤَمِّلُ العافيةَ، ولولا حِلْمُ أميرِ المؤمنين عنكم لتناول لكم بأَقْصَرِ أنامله، فأوردكم منهلًا بعيدًا صَدَرُه(٨)؛ ولعمري لئنْ سَطَابكم ليأخُذَنَّ بَعْضَ حَقِّهِ منكم، ولئنْ عَفَا عن جَرائِركم(٩) فقديمًا نُسِبَ إلى ذلك.

فقال ابنُ عباس: وإنك لَتقولُ ذلك يا عدوّ الله، وطريدَ رسول الله، والمُباح دَمُه(١٠)، والداخل بين عثمان ورعيَّته بما حملهم على قَطْع أَوْدَاجه(١١) وركوب

(١) نجوم: ظهور.
(٢) أي حين قال الأبطال بعضهم لبعض: نزال.
(٣) الكواثر: جمع كوثر، وهو الكثير من كل شيء.
(٤) العوراء: الكلمة أو الفعلة القبيحة.
(٥) تبرز: برز وخرج إلى القفار.
(٦) القمس: الغلبة بالغوص.
(٧) الصريف: صوت الأنياب، يقال: صرف نابه وبنابه، إذا صوت بها.
(٨) الصدر: الرجوع.
(٩) الجريرة: الذنب.
(١٠) في فتنة عثمان.
(١١) جمع ودج، وهو العرق الذي يقطعه الذابح.

أثْبَاجِه[١]! أما والله لو طلبَ معاويةُ ثأره لأخذك به، ولو نظر في أمرِ عثمان لوجدك أوَّلَهُ وآخره. وأما قولُك لي: إنك لتصرف نَابَك وتُورِي نارك، فسَلْ معاوية وعمرًا يخبراك ليلة الهرير[٢]، كيف ثباتنا للمثُلَات[٣]، واستِخْفافنا بالمعضلات، وصدقُ جِلادنا عند المُصَاوَلة، وصبْرُنا على اللّأوَاء[٤] والمطاولة، ومصافحتُنا بجباهنا السيوفَ المُرْهفة، ومباشرتنا بنحورنا حدَّ الأسنة؛ هل خِمْنَا[٥] عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل مُهَجَنا للمتلف! وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود، ولا يومٌ مشهود، ولا أثَرٌ معدود، وإنهما شهدا ما لو شهدتَ لأقلقك؛ فاربَع[٦] على ظَلْعِكَ، ولا تتعرّضْ لما ليس لك؛ فإنك كالمغروز في صَفَد[٧]، لا يهبط برِجْل، ولا يَرْفأ[٨] بيد.

فقال زياد: يا ابن عباس؛ إني لأعلم ما منع حسنًا وحسينًا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سوّلتْ لهما أنفسهما، وغرَّهما به مَنْ هو عند البأساء يُسْلِمُهُما[٩]. وايمُ الله لو ولّيتهما لأدأَبَا[١٠] في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما، ولقلَّ بمكانهما لُبْثُهُمَا.

فقال ابنُ عباس: إذن والله يقصر دونهما باعك، ويضيق بهما ذراعك، ولو رُمْتَ ذلك لوجدتَ من دونهما فئةً صُدُقًا[١١] صُبُرًا على البلاء، لا يَخيمُونَ عن اللقاء، فلَعَرَكُوكَ بِكلاكِلِهم[١٢] وَوَطِئُوكَ بمَنَاسِمِهم[١٣]، وأَوْجَرُوكَ مَشْقَ[١٤] رماحهم وشِفَارَ سيوفهم، وَوَخْزَ أسِنَّتهمْ، حتى تشهدَ بسوءِ ما أتيت، وتتبيَّنَ ضياع الحزم فيما جنيتَ؛ فحذار حَذار من سوءِ النيّة؛ فإنها تردُّ الأمنيّة، وتكونُ سببًا

---

(١) الثبج: ما بين الكاهل إلى الظهر ووسط الشيء ومعظمه.
(٢) ليلة الهرير هي تلك الليلة التي استمر فيها القتال طول الليل بين أنصار معاوية وعليّ في حرب صفين وأوشك جيش علي أن تكون له الغلبة.
(٣) جمع مثلة (بضم الثاء وسكونها)، من مثلت بالقتيل إذا نكلت به.
(٤) اللأواء: الشدة.
(٥) خام عنه: نكص وجبن.
(٦) أربع على ظلعك: ارفق على نفسك واسكت على ما بك.
(٧) الصفد: الوثاق.
(٨) يقال: رفأ في الدرجة، أي صعد.
(٩) أسلمه: خذله.
(١٠) أدأبا: أجهدا.
(١١) أي ذات صدق وصبر.
(١٢) بكلاكلهم: بصدورهم.
(١٣) المنسم: خف البعير.
(١٤) يقال: أوجره الرمح، أي طعنه به في فيّه. والمشق: الطعن الخفيف السريع.

لفساد هذين الحيَّين بعد صلاحهما، وسعيًا في اختلافهما بعد ائتلافهما، حيثُ لا يضرّهما إبْسَاسُك، ولا يُغْني عنهما إيناسُك[١].

فقال عبد الرحمٰن بن أم الحكم: لله دَرُّ ابن مُلْجَم[٢]! فقد بَلَّغَ الأمل، وأمَّن الوَجِل، وأحَدّ الشُّفرَة، وألان المُهْرَة، وأدرك الثّار، ونفى العار، وفاز بالمنزلة العليا، ورَقِيَ الدرجة القُصْوَى.

فقال ابن عباس: أما والله لقد كَرَع كأس حَتْفِه بيده، وعَجَّلَ الله إلى النار برُوحه؛ ولو أبدى لأمير المؤمنين صفَحْتَه لألْعَقَهُ صابًا[٣]، وسقاه سِمامًا[٤]، وألحقه بالوليد وعتبة وحَنْظَلة[٥]، فكلُّهم كان أشدَّ منه شَكيمة، وأمضى عزيمة، ففَرَى بالسيف هامَهم[٦]، ورَمَّلَهم[٧] بدمائهم، وقَرَى الذئاب أشلاءهم[٨]، وفرّق بينهم وبين أحبائهم، أولئك حَصَبُ[٩] جهنم لها واردون فهل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[١٠]! ولا غَرْوَ إن خُتِلَ، ولا وَصْمَة إن قُتِلَ.

فقال المغيرة بن شعبة: أما والله لقد أشرتُ عَلَى عَليّ بالنصيحة، فآثَرَ رأْيَه، ومضى على غُلَوَائِه، فكانت العاقبةُ عليه لا لَهُ، وإني لأحسبُ أنَّ خلَفه يقتدون بمنهجه.

فقال ابنُ عباس: كان واللهِ أميرُ المؤمنين ـ عليه السلام ـ أعلَمَ بوجوه الرأي، ومَعَاقِد الحَزْم، وتَصْرِيف الأمور، من أن يقبلَ مشورتك فيما نهى الله عنه، وعنَّف عليه: قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢].

ولقد وقَفك على ذِكْرٍ مبين، وآية متلوة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: الآية ٥١]. وهل كان يسوغُ له أن يُحكِّمَ في دماءِ

---

(١) الإينساس أن يقال للناقة عند الحلب: بس بس، والإيناس: خلاف الإيحاش.
(٢) هو عبد الرحمٰن بن ملجم قاتل عليّ.
(٣) الصاب: عصارة شجر مر.
(٤) السمام: جمع سم.
(٥) هؤلاء قتلوا يوم بدر.
(٦) جمع هامة، وهي الرأس.
(٧) رملهم: لطخهم.
(٨) الأشلاء: جمع شلو، وهو العضو.
(٩) الحصب: ما يرمى في النار.
(١٠) الركز: الصوت الخفي.

المسلمين وَفْيءِ المؤمنين من ليس بمأمونٍ عنده، ولا موثوقٍ به في نفسه، هيهات هيهات! هو أعلم بفرضِ الله وسنَّةِ رسوله أن يُبْطِنَ خلافَ ما يظهر إلا للتقيَّة[١]، ولاتَ حينَ تَقِيَّة، مع وضوح الحق وثبوتِ الجنان، وكثرة الأنْصَار؛ يمضي كالسيف المُصْلَت[٢] في أمرِ الله، مُؤْثِرًا لطاعةِ ربه والتقوّي على آراء أهلِ الدنيا.

فقال يزيد بن معاوية: يا ابنَ عباس؛ إنك لتنطقُ بلسانٍ طَلْق[٣]؛ تنبىء عن مكنون قلْبٍ حَرق[٤]، فاطْوِ ما أنت عليه كَشْحًا، فقد محا ضوءُ حقِّنا ظلمةَ بَاطِلِكم.

فقال ابنُ عباس: مهلًا يزيد! فوالله ما صفَتِ القلوب لكم منذ تكدَّرَتْ بالعداوة عليكم، ولا دَنَتْ بالمحبة إليكم منذ نَأَتْ بالبغضاء عنكم، ولا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم، وإن تُدِلِ[٥] الأيامُ نستقصِ ما شذّ عنا، ونسترجع ما ابتُزَّ منا، كيلًا بكيل، ووَزْنًا بوزن؛ وإن تكن الأخرى فكفى بالله وليًا ووكيلًا على المعتدين علينا!

فقال معاوية: إن في نفسي منكم لحَزَازَات يا بني هاشم، وإني لخليق أن أُدركَ فيكم الثأر، وأتَّقِيَ العار؛ فإن دماءَنا قِبَلَكُمْ، وظلامتَنا فيكم.

فقال ابن عباس: والله إن رُمْتَ ذلك يا معاوية لتثيرنّ عليك أُسُدًا مُخْدَرَة[٦]، وأفاعي مُطْرِقة لا يَفْثُؤها[٧] كثرةُ السلاح، ولا تعضُّها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم، يضربون قُدُمًا قُدُمًا من ناوَأَهُمْ، يهون عليهم نُباح الكلاب، وعُواء الذئاب، لا يفاتون بوتر، ولا يسبقون إلى كريم ذِكْر، قد وطنوا على الموت أنفسهم، وسَمَتْ بهم إلى العَلْيَاء هممُهم كما قالت الأزديّة:

قـومٌ إذا شـهـدوا الـهِيَـاج فـلا ... ضَـرْبٌ يُـنَـهْـنِـهُـهُـمْ ولا زَجْـرُ
وكـأنـهـم آسـادُ غِـيـنَـةَ[٨] قـد ... غَـرِثَـتْ[٩] وبَـلَّ متـونَـهـا الـقَـطْـرُ

---

(١) التقية: المحافظة على النفس.
(٢) المصلت: المسلول.
(٣) طلق: ذلق.
(٤) حرق: محروق.
(٥) يقال: أداله الله من عدوه، نصره عليه.
(٦) أخدر الأسد: لزم الأجمة.
(٧) المراد: لا يسكنها.
(٨) الغينة: الأجمة.
(٩) غرثت: جاعت.

فلتكوننّ منهم بحيث أعددت ليلةَ الهرِير للهرب فرسَك، وكان أكبرُ هَمِّك سلامةَ حُشاشة نفسك، ولولا طَغَامٌ(١) من أهل الشام وقَوْك بأنفسهم، وبذلوا دونك مهجهم، حتى إذا ذاقوا وَخْز الشِّفَار، وأيقنوا بحلول الدمار، رفعوا المصاحف مستجبرين بها، وعائذين بعصمتها، لكنت شِلْوًا مطروحًا بالعَرَاء، تَسْفِي عليك رياحُها، ويعتورك ذِئَابُها.

وما أقول هذا أريد صَرْفَك عن عزيمتك، ولا إزالتَك عن معقود نيتك، لكن الرحمَ التي نعطف عليك، والأوامرَ التي توجب صَرْف النصيحة إليك!

فقال معاوية: لله دَرّك يا ابنَ عباس! ما تكشفُ الأيامُ منك إلا عن سَيْفٍ صقيل، ورأي أصيل؛ بالله لو لم يلد هاشمٌ غيرَك لما نقص عددهم، ولو لم يكن لأهْلك سواك لكان الله قد كثَّرهم.

ثم نهض ابنُ عباس وانصرف.

لَولَا مَا جعل الله لَنا فِي يَدك مَا أتينَاك(٢)

بينا معاويةُ جالس يومًا وعنده عمرُو بن العاص إذ قال الآذِن: قد جاء عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب، فقال عمرو: والله لأسوأنّه اليوم! فقال معاوية: لا تفعلْ يا أبا عبد الله، فإنك لا تنْتَصِفُ(٣) منه، ولعلك إن تفعل تظهر لنا من مَنْقَبَته(٤) ما هو خفيٌّ عنّا، وما لا نحب أن نعلمه منه.

وغشِيَهُم عبد الله بن جعفر، فأدْنَاه معاويةُ وقرّبه، فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية، فَنالَ من عَلَيٍّ جهارًا غير ساتر له، وثَلَبَهُ ثَلْبًا قبيحًا؛ فالْتمع لونُ عبد الله واعتراه أَفْكل(٥) حتى أُرْعِدتْ خَصَائِله(٦) ثم نزل عن السرير كالفَنِيق(٧)؛ فقال عمرو: مَهْ يا أبا جعفر! فقال عبد الله: مَهْ، لا أمَّ لك! ثم قال:

أظنُّ الحلم دلَّ عليَّ قومي ... وقد يتجهَّل الرجلُ الحليمُ

---

(١) الطغام: أوغاد الناس.
(٢) ابن أبي الحديد: ٢ ـ ٩٠٤.
(٣) انتصف منه: استوفى حقه منه كاملًا.
(٤) المنقبة: المفخرة.
(٥) الأفكل: الرعدة.
(٦) الخصلة: كل قطعة من لحم عظمت أو صغرت، وجمعها الخصائل.
(٧) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله.

ثم حَسَر عن ذراعيه، وقال: يا معاوية، حنّا نتجرع غيظك، وإلام الصبرُ على مكروه قولك وسيء أدبك، وذميم أخلاقك، هبلَتْك الهَبُول[١]! أما يزجرك ذِمامُ المجالسة عن القَذْع لجليسك إذا لم تكن حُرْمَةٌ من دينك تنهاك عما لا يجوزُ لك؟ أما والله لو عطفتك أواصِرُ الأرحام، أو حاميت على سهمك من الإسلام، ما أرعيتَ بني الإمام أعْراض قومك؛ وما يجعل موضع الصَّفْوة إلا أهل الجَفْوَة.

وإنك لتعرفُ قريشًا وصَفْوة غرائزها فلا يدعوَنَّك تصويبُ ما فرط من خطئك في سَفْكِ دماء المسلمين، ومحاربةِ أميرِ المؤمنين إلى التمادي فيما قد وضح لك الصوابُ في خلافه؛ فاقصِد لمنهج الحق؛ فقد طال عَمَهُك[٢] عن سبيل الرشد، وخبْطُك في دَيْجور ظُلْمَةِ الغيّ؛ فإن أبيت ألا تتابعنا فأَعْفِنا من سوء القالة فينا، إذا ضمنا وإياك النديّ[٣]، وشأنك وما تريد إذا خَلَوْت، والله حسيبك! فوالله لولا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك.

ثم قال: إنّك إن كلفتني ما لم أُطِقْ ساءك ما سُتِر مني من خُلُق.

فقال معاوية: يا أبا جعفر؛ نُغيِّر الخطأ، أقسمت عليك لتجلسنّ، لعن الله من أخرج ضَبَّ صدرك من وِجَاره[٤]، محمول لك ما قلت، ولك عندنا ما أمّلت، فلو لم يكن مَحْتِدك ومنصبك لكان خُلُقك وخَلْقك شافعيْن لك إلينا، وأنت ابنُ ذي الجناحيْن، وسيد بني هاشم.

فقال عبدُ الله: بل سيدُ بني هاشم: حَسَن وحسين، لا ينازعهما في ذلك أحد. فقال: يا أبا جعفر؛ أقسمتُ عليك لما ذكرتَ حاجةً لك إلا قضيتُها كائنة ما كانت! ولو ذهبتْ بجميع ما أَمْلك، فقال: أما في هذا المجلس فلا!

ثم انصرف فأتْبَعه معاويةُ بصرَه، فقال: والله لكأنه رسول الله في مِشْيَته وخُلُقِه وخَلْقه، وإنه لمن مِشْكاتِهِ[٥]؛ ولوددت أنه أخي بنفيس ما أملك.

ثم التفت إلى عَمْرو فقال: يا أبا عبد الله؛ ما تَراه منعه من الكلام معك! قال: ما لا خفاء به عنك! قال: أظنُّك تقول: إنه هابَ جوابك، لا والله، ولكنه

---

(١) هبل: ثكل، والهبول: هي من النساء التي لا يبقى لها ولد.
(٢) العمه: التردد في الضلال.
(٣) الندى: مجلس القوم.
(٤) الوجار: جحر الضبع وغيرها.
(٥) أي أنهما من شيء واحد.

ازْدَرَاك واستحقرك، ولم يرَك للكلام أهْلًا، أما رأيت إقباله عليّ دونك، ذاهبًا بنفسه عنك؟ فقال عمرو: فهل لك أن تسمع ما أعددته لجوابه؟ فقال معاوية: أرغبُ إليك يا أبا عبد الله؛ فلات حين جواب فيما يُرى اليوم، ونهض معاوية وتفرّق الناس.

ذَهَبت قريش بالمكَارمَ والعلَا[1]

شبَّبَ عبدُ الرحمٰن بن حسان برمْلَةَ بنت معاوية فقال:

رَمْلُ، هل تذكرين يوم غَزَالٍ إذ قطعنَا مَسِيرَنا بالتَّمَنِّي
إذ تقولين: عَمْرَك الله، هل شَيْ ءٌ وإن جلَّ سوف يُسْلِيك عني!

وبلغ ذلك يزيدَ بنَ معاوية؛ فغضب، وَدَخل على معاوية وقال: يا أمير المؤمنين؛ ألا ترى إلى هذا العِلْج[2] من أهل يثرب يتهكّم بأعراضنا، ويتشبّب بنسائنا! قال: ومَن هو؟ قال: عبد الرحمٰن بن حسان، وأنشده ما قال.

فقال: يا يزيد؛ ليست العقوبة من أحدٍ أقبحَ منها من ذوي القدرة؛ ولكن أمهل، حتى يقدَم وفدُ الأنصار، ثم ذَكِّرْني.

فلما قدم وفدُ الأنصار ذكَّره به، فلما دخلوا عليه قال: يا عبدَ الرحمٰن؛ ألم يبلغني أنك تشبّب برملة بنت أمير المؤمنين؟ قال: بلى، ولو علمتُ أن أحدًا أُشَرِّف به شعري أشرفَ منها لذكرتُه! قال: وأين أنت عن أختها هند؟ قال: وإن لها لأختًا! قال: نعم ـ وإنما أراد معاوية أن يشبِّبَ بهما جميعًا فيكذِّب نفسه ـ فلم يُرْضِ يزيدَ ما كان من معاويةَ.

فأرسل إلى كَعْب بن جُعَيْل فقال: اهجُ الأنصار، فقال: أَفْرَق[3] من أمير المؤمنين، ولكن أدلُّك على الشاعر الكافر الماهر، قال: ومَن هو؟ قال: الأخطل[4].

---

(١) الأغاني: ١٤ ـ ١٤٢. (٢) العلج: الرجل الشديد الغليظ.
(٣) أفرق: أخاف.
(٤) الأخطل: شاعر اشتهر في عهد بني أمية بالشام وأكثر من مدح ملوكهم، وتهاجى مع جرير والفرزدق فتناقل الرواة شعره، توفي سنة ٩٠ هـ.

فدعا به، فقال: اهج الأنصار، قال: أفْرَق من أميرِ المؤمنين، فقال: لا تخف شيئًا، أنا لك بذلك، فهجاهم فقال:

وإذا نسبت ابن الفُرَيْعَة[١] خِلْتَهُ   كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ
لعن الإلـه من اليهود عصابةً   بالجِزْعِ بين جَلَاجِلٍ وصرارِ[٢]
قومٌ إذا هَدَرَ العصيرُ رأيتهمْ   حمرا عيونهمُ من المُسْطار[٣]
خلُّوا المكارم لَسْتُمُو من أَهْلِها   وخذوا مَسَاحِيَكم[٤] بني النجّار
ذهبتْ قريش بالمكارم والعُلَا   واللؤمُ تحت عمائمِ الأنصار

فبلغ ذلك النعمانَ بن بشير؛ فدخل على معاوية فحَسَر عن رأسه عِمَامَته، وقال: يا أمير المؤمنين؛ أترى لؤمًا؟ قال: لا، أرى كرمًا وخَيْرًا، ما ذاك؟ قال: زَعَمَ الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا، قال: أو فعل! قال: نعم، قال: لك لسانُه.

وكتب فيه أن يُؤتى به، فلما أُتِيَ به، سأل الرسول ليدخلَ إلى يزيد أوّلًا، فأدخلَه عليه، فقال: هذا الذي كنتُ أخاف، قال: لا تخفْ شيئًا، ودخل على معاوية، فقال: عَلامَ أُرْسل إلى هذا الرجل وهو يرمي من وراء جَمْرَتِنا[٥]! قال: هجا الأنصار، قال: ومَنْ زَعَم ذلك؟ قال: النعمان بن بشير. قال: لا يُقْبَلُ قوله عليه، وهو يدّعي لنفسه، ولكن تدعوه بالبيِّنة، فإن أثبت شيئًا أخذتَ به له. فدعاه بالبيّنة، فلم يأت بها فخلّى سبيله، فقال الأخطل في يزيد:

صحَا القلبُ إلا من ظعائن فاتَنى   بِهنَّ أميرٌ مستبدٌ فأَصْعَدا[٦]
وقرّبْنَ للبَيْنِ الجمالَ وزُيِّنَتْ   بأحمر من لَكٍّ[٧] العراق وأسودَا
فطِرْنَ بوَحْشٍ[٨] ما تؤاتيك بعد ما   دنَتْ نَهْضَةُ الباري لأنْ يَتَصَيَّدَا
وإني غَدَاةَ استعبرتْ[٩] أمُّ مالكٍ   لراضٍ من السلطان أن يتهدَّدَا

---

(١) الفريعة: هي أم حسان بن ثابت. (٢) صرار: اسم جبل، وجلاجل: مكان.
(٣) المسطار من أسماء الخمر التي اعتصرت من أبكار العنب.
(٤) المساحي: جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد.
(٥) الجمرة: اجتماع القبيلة الواحدة على مَن ناوأها.
(٦) أصعد: سار في أرض مرتفعة. (٧) لك: أراد بها الجلود أو الثياب المصبوغة.
(٨) أراد بالوحش النساء، والبازي نفسه.
(٩) استعبرت: جرت عبرتها، وأم مالك: امرأ الأخطل.

ولـولا يـزيـدُ ابـن الـمـلوك وسَـيْبُـه تـجلّلتُ جِذْبارًا[١] من الشرّ أنْكَدَا
فكم أنقذتْني من جَرُورٍ[٢] حبالُكم وخَرْساء[٣] لو يرمى بها الفيلُ بَلّدَا[٤]!

إلى أن قال:

أبا خالدٍ؛ دافعتَ عني عظيمةً وأدركْتَ لحمي قبل أن يتبدّدا
وأطفأتَ عني نَارَ نُعْمان بعد ما أُغَـذّ لأمـر عـاجـزٍ وتـجـرّدَا[٥]
ولما رأى النعمانُ دوني ابن حُرَّةٍ طوى الكَشْحَ إذ لم يستطعني وعَرَّدَا[٦]
ولاقى امرأً لا يَنْقُض القومُ عهده أمرَّ القُوَى دون الوُشاة، وأَحْصَدا[٧]

لو ترِكَ القطَا لنَام[٨]

تزوج عبدُ الله بن الزبير[٩] أم عمرو ابنة منظور بن زَبّان الفَزَارِيّة، فلما دخل بها قال لها تلك الليلة: أَتَدْرِين مَنْ معك في حَجَلتك[١٠]! قالت: نعم! عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى، قال: ليس غير هذا؟ قالت: فما الذي تريدُ؟ قال: معكِ مَنْ أصبحَ في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس.

قالت: أما والله لو أن بَعْضَ بني عبد مناف حَضَرَك لقال لك خلَاف قولك. فغضب وقال: الطعامُ والشرابُ عليّ حرام حتى أُحْضرَكِ الهاشميين وغيرهم من بني عبد مناف فلا يستطيعون لذلك إنكارًا.

قالت: إن أطعتني لم تفعل، وأنت أعلمُ وشأنك.

---

(١) الحذبار: السنة المجدبة، ويستعار للأمر الصعب.
(٢) الجرور: البئر البعيدة الغور. (٣) الخرساء: الداهية.
(٤) بلد: لصق بالأرض.
(٥) النعمان بن بشير، والإغذاذ: سرعة السير، وأمر عاجز: شديد يعجز صاحبه.
(٦) طوى الكشح: أضمر العداوة، عرد: هرب.
(٧) أمر القوي: أحكم فتلها، وكذلك أحصد. (٨) ابن أبي الحديد: ٢ ـ ٥٠١.
(٩) عبد الله بن الزبير: أول مولود في المدينة بعد الهجرة بويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ بعيد موت يزيد بن معاوية وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة انتهت بقتله سنة ٧٣ هـ.
(١٠) الحجلة: موضع يزين بالثياب والستور.

فخرج إلى المسجد، فرأى حَلْقَةً فيها قومٌ من قريش، منهم عبد الله بن عباس وعبدُ الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال لهم ابن الزبير: أحِبُّ أن تنطلقُوا معي إلى منزلي، فقام القومُ جميعًا، حتى وقفوا على باب بيته. فقال ابن الزبير: يا هذه؛ اطرحي عليك سِتْرَك.

فلما أخذوا مجالسَهم دعا بالمائدة فتغذّى القوم، فلما فرغوا قال لهم: إنما جمعتُكم لحديثٍ رَدَّتْه عليّ صاحبةُ الستر، وزعمتْ أنه لو كان بعضُ بني عبد مناف حضرني لما أقرّ لي بما قلت. وقد حضرتُم جميعًا. وأنتَ يا ابنَ عباس، ما تقول؟ إني أخبرتُها أن معها في خدرها مَنْ أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس، فردّت عليّ مقالتي.

فقال ابنُ عباس: أراك قصدتَ قَصْدي؛ فإن شئتَ أن أقول قلت، وإن شئتَ أن أكفَّ كفَفْت، قال: بل قل، وما عسى أن تقول؟ ألستَ تعلم أن أبي الزبير حواريُّ رسول الله، وأن أُمي أسماء بنتُ أبي بكر الصديق ذات النِّطَاقَيْنِ، وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين، وأن صفيّة عمة رسول الله جدّتي وأن عائشة أم المؤمنين خالتي، فهل تستطيع لهذا إنكارًا!

قال ابنُ عباس: لا، ولقد ذكرتَ شرفًا شريفًا، وفخرًا فاخرًا؛ غير أنك تفاخر مَنْ بفخره فخرتُ، وبِفَضْله سَمَوْتُ. قال: وكيفَ ذلك؟ قال: لأنك لم تَذْكُرْ فخرًا إلا برسول الله وآلِه، وأنا أولى بالفَخْر به منك!

قال ابنُ الزبير: لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة. قال ابنُ عباس: قد أنصف القارةَ[١] من رَامَاها، نَشدتُكم الله أيها الحاضرون؛ أعبدُ المطلب أشرفُ أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطلب. قال: أفهاشم كان أشرفَ فيها أم أسد؟

---

(١) القارة: قبيلة، وفي اللسان. زعموا أن رجلين التقيا، أحدهما قاري والآخر أسدي، فقال القاري: إن شئت صارعتك، وإن شئت سابقتك، وإن شئت راميتك، فقال الأسدي: قد اخترت المراماة، فقال القاري: قد أنصفتني وأنشد:

قد أنصف القارة من راماها ... إنا إذا ما فئة نلقاها

نرد أولاها على أخراها

قالوا: بل هاشم! قال: أفعبد مناف كان أشرفَ أم عبد العُزّى؟ قالوا: عبد مناف، فقال ابن عباس:

تُنَافرني[١] يا ابنَ الزبير وقد قضى عليك رسولُ الله لا قَولَ هازلِ
ولو غيرَنا يا ابن الزبير فخرته ولكنّما ساميتَ شمسَ الأصائل

قضى لنا رسولُ الله بالفضل في قوله: «مَا افترَقَتْ فِرْقَتَانِ إلّا كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا»، فقد فارقنَاك من بعد قُصَيّ[٢] بن كلاب، أفنحن في فِرْقة الخير أم لا؟ إن قلت: نعم خُصِمْتَ[٣]، وإن قلت: لا كَفَرْت.

فضحك بعض القوم؛ فقال ابنُ الزبير: أما والله لولا تحرُّمك[٤] بطعامنا يا ابن عباس لأعْرَقْتُ جبينك قبل أن تقوم من مجلسك!

قال ابن عباس: ولِم؟ أبباطل! فبالباطل لا يَغْلِبُ الحق، أم بحق! فالحق لا يَخشَى من الباطل.

فقالت المرأة من وراء الستر: إنّي والله قد نهيتُه عن هذا المجلس فأبى إلّا ما تَرَوْن. فقال ابن عباس: مَهْ أيتها المرأة، اقنعي ببَعْلك، فما أعظمَ الخطَر، وما أكرم الخبر!

فأخذ القومُ بيد ابن عباس ـ وكان قد عميَ ـ فقالوا: انهض أيها الرجل فقد أفحمتَه غير مرة، فنهض وهو يقول:

ألا يا قومَنَا ارْتَحِلوا وسيروا فلو تُرِكَ القطَا لغَفَا ونَاما

فقال ابنُ الزبير: يا صاحبَ القَطَا؛ أقْبل عليّ، فما كنتَ لِتَدَعني حتى أقول، وايمُ الله لقد عرَف الأقوام أني سابق غير مسبوق، وابن حَواريّ[٥] وصدّيق، مُتَبَجِّح[٦] في الشرف الأنيق، خيرٌ من طلِيق[٧] وابن طليق.

---

(١) تحاكمني في الحسب وتفاخرني.
(٢) كان من أولاد قصي عبد العزّى (ومن سلالته ابن الزبير) وعبد مناف (ومن سلالته بنو هاشم).
(٣) خصمت: غلبت. (٤) تحرمك: احتماؤك.
(٥) الحواري في الأصل: كل مبالغ في نصرة آخر، وقد لقب الزبير بذلك. والصديق: أبو بكر، وهو أبو أسماء أم عبد الله بن الزبير.
(٦) التبجح: الافتخار والتعظم.
(٧) يعرض بالعباس بن عبد المطلب، وقد أسره المسلمون يوم بدر، وقد أطلقه رسول الله بعد أن=

فقال ابن عباس: هذا الكلام مردود من امرىء حَسُود، فإن كنت سابقًا فإلَى مَنْ سبقت؟ وإن كنت فاخرًا فبِمَنْ فخرت؟ فإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا فالفخرُ لك علينا، وإن كنت إنما أدركتَه بأسرتنا فالفخرُ لنا عليك، والكَثْكَثُ[1] في فمك ويديك.

وأما ما ذكرت من الطلِيق؛ فوالله لقد ابْتُلي فصبر، وأُنْعِم عليه فشكر، وإن كان ـ والله ـ وفيًّا كريمًا غير ناقض بيعة بعد توكيدها، ولا مسلم كتيبة بعد التأمّر[2] عليها.

فقال ابن الزبير: أتعيّر الزبير بالجبن! والله إنك لتعلَمُ منه خلافَ ذلك. قال ابن عباس: والله إني لا أعلم إلا أنه فرّ ومَا كَرّ، وحارب فما صبر، وبايع فما تمم، وقطع الرَّحِم، وأنكر الفضل، ورام ما ليس له بأهل.

وأدركَ منها بعضَ ما كان يرتجى ... وقَصَّر عن جَرْيِ الكرام وبلّدا[3]
وما كان إلا كالهَجِين أمامه ... عِتَاق[4] فجاراه العِتَاق فأُجْهِدا

فقال ابن الزبير: لم يَبْقَ يا بني هاشم غير المشاتمة والمُضَاربة. فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث: أقمناه عنك يا ابنَ الزبير، وتأبى إلا منازَعته! والله لو نازَعْتَهُ من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسَّغِب[5] الظمآن، يفتح فاه يستزيدُ من الريح، فلا يشبع من سَغَب، ولا يَرْوَى من عَطش، فقل: إن شئتَ أو فَدَعْ، وانصرف القوم.

مُفَاخَرة رَبيعَة[6]

قال عبدُ الملك[7] بن مروان يومًا لجلسائه: خبِّروني عن حيّ من أحياء العرب، فيهم أشدُّ الناس، وأسْخَى الناس، وأخطبُ الناس، وأطوع الناس في قومه، وأحلم الناس، وأحضرُهم جوابًا.

= أخذ منه الفدية.

(١) الكثكث: التراب.

(٢) يعرض بالزبير وقد بايع عليّ بن أبي طالب ثم نكص.

(٣) لم يتجه لشيء، وبخل ولم يجد.

(٤) العتاق: جمع عتيق وهو الكريم من الخيل، والهجين: ما ليس عتيقًا.

(٥) السغب: الجائع، (٦) العقد الفريد: ٢ ـ ٢٣٢.

(٧) عبد الملك بن مروان من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، استعمله معاوية على المدينة، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥، توفي بدمشق سنة ٨٦ هـ.

قالوا: يا أميرَ المؤمنين؛ ما تعرفُ هذه القبيلة، ولكن ينبغي أن تكونَ في قريش، قال: لا، قالوا: ففي حِمْيَر وملوكها، قال: لا. قالوا: ففي مضر، قال: لا.

قال مَصْقَلَةُ بنُ رقية العبديّ: فهي إذن في ربيعة، ونحن هم. قال: نعم. قال جُلَساؤه: ما نعرفُ هذا في عبد القيس، إلا أن تخبرَنا به يا أميرَ المؤمنين.

قال: نعم، أمَّا أشدُّ الناس فحكيم[١] بن جَبَلَة؛ كان مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقُطِعَتْ ساقُه، فضمَّها إليه، حتى مرَّ به الذي قطعها فرماه بها، فألقاه عن دابته، ثم حبا إليه فقتله، واتَّكأ عليه؛ فمرّ به الناس؛ فقالوا: يا حكيم؛ مَنْ قطع ساقَك؟ قال: وِسادي هذا! وأنشأ يقول:

يـــا ســـاقُ لا تُـــرَاعـــي إن مَـــعِـــي ذِرَاعـــي
أَحْـــمِـــي بـــهـــا كُـــرَاعـــي[٢]

وأما أسْخَى الناس فعبدُ الله بن سوّار؛ استعمله معاوية على السّند؛ فسار إليها في أربعة آلاف من الجند، وكانت تُوقَدُ معه نار حيثما سار فيطعم الناس؛ فبينما هو ذات يوم إذ أَبْصَرَ نارًا، فقال: ما هذه؟ قالوا: أصلح الله الأمير! اعتلّ بعضُ أصحابنا، فاشتهى خبيصًا[٣]، فعملنا له؛ فأمر خبّازَه ألا يطعمَ الناس إلا الخبيص، حتى صاحوا، وقالوا: أصلح اللهُ الأمير! رُدّنا إلى الخبز واللحم؛ فسمِّي مُطْعِمَ الخبيص.

وأما أطوعُ الناس في قومه فالجارُود[٤] بن بشر بن العلاء؛ لأنه لما قبِضَ رسول الله ﷺ، وارتدّت العرب، خطبَ قومه فقال: أيّها الناس، إن كان محمدٌ قد ماتَ فإن الله حيٌّ لا يموت؛ فاسْتَمْسِكُوا بدينكم، فمن ذهب له في هذه الرِّدَّة دينار أو درهم أو بعيرٌ أو شاة، فله عليّ مِثْلَاه؛ فما خالفه منهم رجل.

(١) حكيم بن جبلة: صحابي، اشترك في الفتنة أيام عثمان، ولما كان يوم الجمل قاتل مع أصحاب علي، وقتل في هذه الوقعة سنة ٣٦ هـ.
(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح. (٣) الخبيص: الطعام من التمر والسمن.
(٤) هو بشر بن عمرو سيد عبد القيس، كان شريفًا في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم وقتل شهيدًا سنة ٢٠ هـ.

وأما أحضرُ الناس جوابًا فصعصعةُ بن صُوحان؛ دخل على معاوية في وَفْدِ أهْل العراق؛ فقال معاوية: مرحبًا بكم يَا أهْلَ العراق، قدمتم أرضَ اللهِ المقدسة، منها المَنْشر وإليها المحشر، قَدِمْتم على خير أميرٍ يَبَرُّ كبيرَكم، ويرحَم صغيركم، ولو أنَّ الناس كلَّهم ولَدُ أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء.

فأشار الناس إلى صعصعة؛ فقام، فحمِدَ اللهَ، وصلَّى على النبيِّ ﷺ؛ ثم قال: أما قولُك يا معاوية: إنّا قدمنا الأرض المقدسة؛ فلَعمري ما الأرض تقدِّس الناس، ولا يقدِّسُ الناسَ إلا أعمالُهم، وأما قولُك: منها المَنْشَر وإليها المحشر فلعمري ما ينفع قُرْبها ولا يضر بُعْدُها مؤمنًا. وأما قولُك: لو أن الناس كلُّهم ولدُ أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء، فقد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان، آدم صلوات الله عليه، فمنهم الحليم والسفيهُ، والجاهل والعالم.

وأما أحلمُ الناس فإن وفدَ عبد القيس قدموا على النبيِّ ﷺ بصدقاتهم، وفيهم الأشجّ، ففرّقَها رسول الله، وهو أول عطاء فرّقه في أصحابه، ثم قال: يا أشجّ، ادْنُ مني، فدنا منه، فقال: إن فيك خلَّتين يحبّهما الله: الأناةَ والحلم، وكفى برسول الله شَاهِدًا.

أرَاكَ عَالمًا بقَومِكَ(١)

رُوِيَ أن عبد الملك بن مَرْوان لما قَدِمَ الكوفة بعد قتله مُصْعَب بن الزبير جلس لعَرْض أحياء العرب، فقام إليه مَعْبَدُ بن خالد الجَدَلِيّ ـ وكان قصيرًا دَميمًا ـ فتقدمه إليه رجلٌ حسنُ الهيئة.

قال مَعْبَد: فنظر عبد الملك إلى الرجل وقال: ممَّن أنت؟ فسكت ولم يقل شيئًا ـ وكان مِنَّا ـ فقلت مِنْ خَلْفِه: نحن يا أمير المؤمنين من جَدِيلة، فأقبل على الرجل وتركني وقال: مِن أيِّكم ذو الإصبع؟ قال الرجل: لا أدري، قلت: كان عَدْوَانِيًا، فأقبل على الرجل وتركَني وقال: لم سُمِّيَ ذَا الإِصْبَع؟ قال الرجل: لا أدري، فقلت: نَهَشَتْهُ حيّةٌ في إصبَعِه فيَبِسَتْ فأقبل على الرجل وتركني، ثم قال: وبِمَ كان يُسمَّى قبل ذلك؟ قال الرجل: لا أدري، قلت: كان يسمى حُرْثان، فأقبل

(١) الأغاني: ٣ ـ ٩١.

على الرجل وتركني، ثم قال: من أيِّ عَدْوَانَ كان؟ فقلت من خَلْفه: من بني ناجٍ، الذين يقول فيهم الشاعر:

وأمّا بنو ناجٍ فلا تَذْكُرَنَّهُمْ ... ولا تُتْبِعَنْ عَينيكَ ما كان هالكا
إذا قُلْتُ معروفًا لأُصلحَ بينهمْ ... يقول وُهَيْبٌ لا أُسَالِمُ ذَلِكَا
فأضحى كظهر الفحل جُبَّ سَنَامُهُ ... يدبُّ إلى الأعداء أَحْدَبَ باركَا

فأقبل على الرجل وتركني وقال: أنشدني قوله: «عَذِير الحيِّ من عَدوَان». قال الرجل: لستُ أَرويها؛ قلت: يا أميرَ المؤمنين؛ إن شئت أنشدتك. قال: ادنُ مني؛ فإني أراك بقومك عالمًا. فأنشدتُه:

وليس المرءُ في شيءٍ ... من الإبرام والنَّقْضِ
إذا أبرم أمْرًا خَا ... لَهُ يقضي وما يَقْضِي
يقولُ اليومَ أَمْضِيهِ ... ولا يملكُ ما يُمْضِي
عذيرَ الحيّ من عَدْوا ... نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ[١]
بغى بعضُهُم بعضًا ... فلم يُبْقُوا على بعض
فقد صاروا أحاديثَ ... بِرَفْعَ القول والخفضِ
ومنهم كانت الساداَ ... تُ والموفُونَ بالقَرْضِ
ومنهم حَكَمٌ يَقْضِي ... فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي
ومنهم من يُجِيزُ[٢] النَّا ... سَ بالسُّنَّةِ والفَرْضِ
وهم مَنْ وَلَدُوا أشْبَوْا[٣] ... بسرِّ الحَسَبِ المحْضِ
وممن ولدوا عامِـ ... ـرُ ذو الطّول وذو العَرْضِ
وهم بَوَّوْا[٤] ثَقِيفًا دا ... رَ لَا ذُلٌ ولا خَفْضِ

فأقبل على الرجل وتركني وقال: كم عطاؤك؟ فقال: ألفان. فأقبل على كاتبه وقال: اجعل الألفين لهذا والخمسمائة لهذا. فانصرفتُ بها.

(١) يقال: فلان حية الوادي أو الأرض أو البلد: أي داه خبيث.
(٢) كانت إجازة الحج لخزاعة، ثم انتقلت إلى عدوان، يقف رئيسهم في أيام الحج يخطب في الناس ثم ينفر ويتبعونه بعد ذلك.
(٣) يقال: أشبى فلان إذا ولد له ولد كيس.
(٤) بووا: أنزلوا.

لَقَد خِفْتُ أن تفخَر عليّ(١)

دخل رجل من بني سعد على عبد الملكِ بن مروان، فقال له: ممن الرجل؟ قال: من الذين قال لهم الشاعر:

إذا غَضِبَتْ عليك بنو تميم ... حَسِبْتَ الناسَ كلهمُ غضابا

فقال: فمن أيّهم أنت؟ قال: من الذينَ يقول فيهم القائل:

يزيدُ بنو سعدٍ على عَدَدِ الحَصى ... وأثقلُ من وزنِ الجبال حُلُومُها(٢)

قال: فمن أيهم أنت؟ قال: من الذينَ يقول لهم الشاعر:

ثيابُ بني عوفٍ طَهَارَى نقيةٌ ... وأوجُهُم بيض المَسَافِرِ غُرَّانُ(٣)

قال: فمن أيهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر:

فلا وأبيك ما ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... بأن يَبْنُوا المكارمَ حيث شَاءُوا

قال: فمن أيّهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر:

قوم هم الأنفُ والأذنابُ غيرهُمُ ... ومن يُسَوِّي بأنفِ الناقةِ الذَّنبا؟

قال: اجلس لا جلستَ! والله لقد خفْتُ أن تفخرَ عليّ.

عَبد الله بن جَعفَرَ وَالحجَّاج(٤)

أكْرَه الحجاجُ بن يوسف عبدَ الله بن جعفر على أن زوّجه ابنتَه، فاستأجَلَهُ(٥) في نَقْلِها سنة؛ ثم فكّرَ عبدُ الله في الانفكاك منه، فأُلْقِيَ(٦) في روعِ خالدُ بن يزيد، فكتب إليه يُعلمه ذلك ـ وكان الحجاجُ تزوَّجها بإذنِ عبد الملك ـ فورد على خالد كتابه ليلًا، فاستأذَنَ من ساعتِهِ على عبد الملك. فقيل: أفي هذا الوقت؟ فقال: إنه أمرٌ لا يُؤخّر.

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ٢٠٠. (٢) الحلوم: جمع حلم: وهو العقل.
(٣) يقال: رجل أغر الوجه إذا كان أبيض الوجه، من قوم غر وغران، والبيت لامرىء القيس (اللسان ـ غرر).
(٤) رغبة الآمل: ٥ ـ ٢٣، الكامل: ١ ـ ٢٠٥. (٥) طلب منه أن يؤجله إلى مدة.
(٦) في روعه: فكر فيه.

فأُعلِمَ عبدُ الملك بذلك، فأَذِن له. فلما دخل عليه قال له عبد الملك: فيم السُّرَى[١] يا أبا هاشم؟ قال: أمرٌ جليل لم آمَنْ أن أُؤَخِّره، فتحْدُث عليّ حادثة، فلا أكون قد قضَيْتُ حقَّ بَيْعتِك. قال: وما هو؟ قال: أتعلمُ أنه ما كان بين حيّيْنِ من العداوة والبغضاء ما كان بين آل الزبير وآل أبي سُفيان؟ قال: لا، قال: فإن تَزْويجي[٢] إلى آل الزبير أَذْهَبَ ما كان لهم في قلبي، فما أهل بيت أحبُّ إليّ منهم.

قال: فإنَّ ذلك لَيكون.

قال: فكيف أذِنْتَ للحجّاج أن يتزوّج في بني هاشم، وأنت تعلم ما يقولون ويُقَال فيهم؟ والحجَّاجُ من سلطانك بحيث علمت! فجزَاه خيرًا وكتب إلى الحجاج أن يطلِّقَها.

فطلّقها، وغدا الناس عليه يُعَزُّونه عنها؛ فكان ممن أتاه عمرو بن عُتْبَة بن أبي سفيان، فأوقعَ الحجاجُ بخالد؛ فقال: كان الأمر لآبائه فعجز عنه حتى انتُزِع منه. فقال له عمرو بن عُتبة: لا تَقُلْ ذا أيُّها الأمير؛ فإن لخالد قديمًا سبق إليه، وحديثًا لم يُغْلَبْ عليه، ولو طلب الأمر لطَلَبه بِجَدٍّ وجِدٍّ، ولكنه علم عِلْمًا، فسلّم العِلْمَ إلى أهله.

فقال الحجاج: يا آل أبي سفيان؛ أنتم تُحبُّون أن تَحْلُمُوا، ولا يكون الحِلْم إلا عن غضب؛ فنحن نُغْضِبُكم في العاجل؛ ابتغاءَ مَرْضَاتِكم في الآجل.

إنهَا قريش يُقَارِع بَعضَها بَعضًا[٣]

لما قُتِل ابنُ الزبير حَجّ خالد[٤] بن يزيد بن معاوية، فخطب رَمْلَةَ بنت الزبير بن العوام؛ فأرسل إليه الحجاج حاجبه عبيد الله، فقال له: ما كنتُ أراكَ تخطب إلى آل الزبير حتى تشاورني! وكيف خطبت إلى قوم ليسوا لك بأكفاء،

(١) السرى: السير بالليل.
(٢) كان خالد قد تزوج رملة بنت الزبير بن العوام.
(٣) الأغاني: ١٦ ـ ٨٤، بلوغ الأرب: ٢ ـ ٦.
(٤) خالد بن يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كان من رجالات قريش سخاء، وعارضة وفصاحة، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء، فأفنى بذلك عمره وأسقط نفسه.

وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة، ورموه بكل قبيحة، وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة!

فنظر إليه خالد طويلًا، ثم قال له: لولا أنك رسول ـ والرسولُ لا يعاقب ـ لقطعتك إرْبًا إرْبًا[1]، ثم طرحتك على باب صاحبك؛ قل له: ما كنتُ أرى أن الأمور بلغتْ بك إلى أن أشاورك في خِطْبة النساء. وأما قولك لي: قارَعُوا أباك، وشهدوا عليه بكلِّ قبيح، فإنها قريش يقارعُ بعضها بعضًا؛ فإذا أقرَّ الله عزّ وجلّ قَرَارَه كان تقاطعهم وتراحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم.

وأما قولك: إنهم ليسوا بأكفاء، فقاتلك الله يا حجاج! ما أقلّ علمك بأنساب قريش! أيكون العوَّام كفئًا لعبد المطلب بن هاشم بتزوجه صفية، ويتزوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد، و تراهم أهلًا لأبي سفيان!

فرجع الحاجب إليه فأعلمه!

تَسْتَجِير بقبْرِ أبيه[2]

لما ولَّى الحجاجُ تميمَ بن زيد القَيْنيّ السنْدَ دخل البصرة فجعل يُخْرِجُ من أهلها مَنْ شاء؛ فجاءت عجوزٌ إلى الفرزدق[3] فقالت: إني استجرتُ بقبر أبيك ـ وأتَتَ منه بحَصَيَاتٍ[4] ـ فقال لها: وما شأْنُك؟ قالت: إن تميمَ بنَ زيد خرج بابْنٍ لي معه، ولا قُرّة لعيني، ولا كَاسِبَ لي غيرُه: فقال لها: وما اسم ابنك؟ فقالت: خُنَيْس.

فكتب إلى تميم بن زيدٍ مع بَعْض من شَخَصَ:

تَميمُ بن زيدٍ لا تكونَنَّ حَاجَتي ... بظَهْرٍ، فلا يَعْيَا عليَّ جَوابُها
وَهَبْ لي خُنيْسًا واحْتَسِب فيه مِنّةً ... لِعَبْرَةِ أُمٍّ مَا يَسُوغُ شرابُها
أتتنِي فعاذَتْ يا تميمُ بِغَالِبٍ[5] ... وبالحُفْرَةِ السَّافي عليها ترابُها
وقد علِمَ الأقْوامُ أنك ماجِدٌ ... ولَيْثٌ إذا ما الحربُ شُبَّ شِهابها

---

(١) إربًا إربًا: عضوًا عضوًا. (٢) الكامل: ١ ـ ٢٩١.

(٣) الفرزدق: شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر. توفي سنة ١١٠ هـ.

(٤) الحصى: صغار الحجارة، الواحدة حصاة. (٥) غالب هو أبو الفرزدق.

فلما وردَ الكتابُ على تميم تشكك في الاسم، فقال: أحُبَيْش أم خُنَيْس؟ انظروا مَنْ له مثلُ هذا الاسم في عسكرنا. فأصيب ستة ما بين حبيس وخنيس، فوَجه بهم إليه.

الفَرَزدَق وَالأنصَار[١]

قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقّاص الزُّهري: قدمَ الفرزدقُ المدينةَ في إمارة أبَان بن عثمان؛ وإني والفرزدق وكثيّرًا لجلوسٌ في المسجد نتناشد الأشعار؛ إذ طلع علينا غلام شَخْتٌ[٢] آدَمُ في ثوبيْن مُمصَّرَين[٣]، ثم قصد نحْوَنَا حتى جاء إلينا فلم يسلِّم، فقال: أيُّكم الفرزدق؟ فقلت ـ مخافة أن يكون من قريش: أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها! فقال: لو كان كذلك لم أقل هذا له.

فقال له الفرزدق: ومن أنتَ لا أمَّ لك!

قال: رجل من بني الأنصار، ثم من بني النجار، ثم أنا ابنُ أبي بكر بن حَزْم. بلغني أنك تزعُمُ أنك أشعرُ العرب، وتزعم مُضَرُ ذلك لك، وقد قال صاحبُنا حسانُ شعرًا، فأردتُ أن أعرِضه عليك وأؤجِّلك سنةً، فإن قلت مثله فأنتَ أشعرُ العرب، وإلا فأنت كذابٌ مُنْتحل، ثم أنشده قول حسان:

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلْمَعن بالضُّحا ... وأسيافُنا يَقْطُرن من نجْدةٍ دمَا
متى ما تزرنا من مَعدٍّ عصَابةٌ ... وغسانَ[٤] نمنعْ حوضنا أن يُهَدَّمَا
أبى فعْلُنا المعروف أن ننْطِقَ الخَنَا ... وقائلنا بالعُرْف إلا تَكَلمَا
وَلَدْنا بني العَنْقَاء وابني مُحَرِّقٍ ... فأكْرِم بنا خالًا وأكرِمْ بنا ابْنَمَا

وأنشده القصيدة إلى آخرها، وقال له: إني قد أجّلتك فيها حولًا، ثم انصرف.

وانصرف الفرزدق مُغْضَبًا يسحبُ رداءَه ما يدري أيّ طريق يَسْلُك، حتى خرج من المسجد.

---

(١) الأغاني: ٩ ـ ٣٣٧.
(٢) الشخت: الدقيق الضامر، أصلاً، لا هزالاً.
(٣) ممصران: أي مصبوغان بصفرة غير شديد.
(٤) وغسان: الواو هٰهنا للقسم، لأن غسان لم تكن تغزوهم مع معد.

فأقبل كُثيّر عليَّ فقال: قاتل الله الأنصاريَ! ما أفْصَح لهجَته، وأوضح حَجَّته وأجود شعرَه! ثم لم نَزَلْ في حديث الفرزدق والأنصاري بقيّة يومنا، حتى إذا كان الغدُ خرجتُ من منزلي إلى مجلس الذي كنت فيه بالأمس؛ وأتاني كثيِّر فجلس معي؛ فإنّا لنتذاكر الفرزدق ونقول: ليت شعْرِي ما فعل! إذ طلع علينا في حُلة أفْوَافٍ[1] يمانيةٍ مُوَشَّاةٍ، له غديرتان، حتى جلس في مجلسه بالأمس، ثم قال: ما فعلَ الأنصاري؟ فنِلْنَا منه وشَتَمْنَاه؛ فقال: قاتله الله! ما رُمِيتُ بمثله ولا سمعتُ بمثل شعره؛ فارقتكما فأتيتُ منزلي، فأقبلتُ أُصَعِّد وأصَوّب في كل فنّ من الشعر، فكأني مُفْحَم، أو لم أقل قط شعرًا، حتى نادى المنادي بالفجر، فرحَلْتُ ناقتي، ثم أخذت بزمامها، فقدتها حتى أتيتُ ذِبابًا[2]، ثم ناديتُ بأعلى صوتي: أخاكم أبا لُبْنى! وجاش صدري كما يجيش المِرْجل، ثم عَقَلْتُ ناقتي، وتوسَّدْتُ ذراعها، فما قمتُ حتى قلتُ مائة وثلاثة عشر بيتًا.

فبينما هو يُنشدنا، إذ طلع علينا الأنصاريّ حتى انتهى إلينا فسلم، ثم قال: أما إني لم آتك لأعجلك عن الأجل الذي وقَّتُهُ لك، ولكني أحببت ألا أراك إلا سألتك عما صنعت، فقال: اجلس، ثم أنشده قصيدته:

عــزفــتَ بــأعــشَــاش[3] ومــا كــدتَ تــعــزفُ
وأنــكــرتَ مــن حَــذْرَاءَ مــا كــنــتَ تــعــرفُ
ولــجّ بــك الــعــجــران حــتــى كــأنــمــا
تــرى الــموتَ فــي الــبــيــت الــذي كــنــت تــألــفُ

ومنهــا:

لنـا العِزّةُ الغَلْبَاءُ والعددُ الذي ... عليه إذا عُدَّ الحَصَى يُتَحلّفُ[4]
ولا عــزَّ إلا عِــزُّنــا قــاهــرٌ لــه ... ويَسْأَلُنا النَّصَفَ الذليلُ فيُنْصَفُ[5]
ومنّا الذي لا ينطقُ الناسُ عندهُ ... ولكن هو المُسْتَأذَن المُتَنَصَّفُ[6]
تـراهُـمْ قـعـودًا حـولَه، وعـيـونُـهـم ... مُـكَـسَّـرَةٌ أطـرافُـهـا مـا تـصَـرَّفُ

---

(١) أفواف: جمع فوف وهو القطن.
(٢) ذباب: جبل بالمدينة.
(٣) أعشاش: موضع في بلاد بني تميم.
(٤) يتحلف: يحلف الناس أنه عدد الحصى.
(٥) النصف هنا: الإنصاف.
(٦) المتنصف: المطلوب منه الإنصاف.

إذا هبطَ الناسُ المُحَصَّبَ من مِنًى عَشِيَّةَ يومِ النحرِ من حيثُ عرّفُوا[١]

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحنُ أوْمأنا إلى الناس وقَّفُوا[٢]

فلما فَرِغ الفرزدقُ من إنشاده قام الأنصاريّ كئيبًا، فلما توارى طلع أبُوه في مَشْيَخة من الأنصار فسلّموا علينا وقالوا: يا أبا فِرَاس؛ قد عَرَفتَ حالَنا ومكاننا من رسول الله ووصيَّته بنا؛ وقد بلَغنا أن سفيهًا من سفهائنا تعرّض لك، فنسألك بالله لَمَّا حفِظت فينا وصيّة رسول الله ووهبتَنا له ولم تفضَحْنا. قال إبراهيم: فأقبلت أكلمه أنا وكُثيِّر، فلما أكثرنا عليه قال: اذهبوا فقد وهبتُكم لهذا القرشيّ.

الفَرزدَق عِندَ سلَيمان بن عَبد الملك[٣]

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك، فقال له: مَنْ أنت؟ وتجهّم له كأنه لا يعرفه، فقال له الفرزدق: أوَمَاتعرفني يا أميرَ المؤمنين؟! قال: لا، قال: أنا من قَوْمٍ منهم أوفى العرب، وأسود العرب، وأجودُ العرب وأحلمُ العرب، وأفرسُ العرب، وأشعرُ العرب.

قال: والله لتبيِّنَنَّ ما قُلْتَ أو لأُوجعَنَّ ولأَهْدِمَنَّ دارك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أما أوْفَى العرب فحاجبُ بن زُرَارة الذي رهن قوسَه عن جميع العرب فوَفَّى بها.

وأما أسْوَدُ العرب فقيس بن عاصم الذي وفد على رسول الله ﷺ فبَسط له رِدَاءه، وقال: هذا سيدُ الوَبَر.

وأما أحلمُ العرب فَعَتّاب بن وَرَقاء الرِّياحيّ.

وأما أفرس العرب فالحَريش بن عبد الله السَّعْدِي، وأما أشعر العرب فهأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين.

---

(١) المحصب: موضع رمي الجمار بمنى. وعرفوا: أي من حيث هبطوا من جبل عرفات.

(٢) كان الذي يؤم الناس ويدفع بهم من عرفات في الجاهلية من تميم، فيسيرون بسيره ويقفون بوقوفه.

(٣) العقد الفريد: ٢ ـ ١٩٣.

فاغتمَّ سليمانُ مما سمع من فَخْرِه ولم ينكره، وقال: ارجع على عَقِبيك، فما لك عندي شيء من خير. فرجع الفرزدق وقال:

أَتَيْنَاكَ لا مِنْ حاجة عَرضَتْ لنا إليك، ولا من قلَّةٍ في مُجَاشِع[(١)]

البَـاهِـليّ[(٢)]

قال أبو قَلابةَ الجَرْمِيُّ: حَجَجْنَا مرةً مع أبي جَزْءِ بن عمرو بن سعيد، وكُنا في ذَرَاه[(٣)]: وهو إذ ذاك بهِيٌّ وَضِيٌّ؛ فجلسنا في المسجد الحرام إلى أقوام من بني الحارث بن كعب، لم نَرَ أَفْصَحَ منهم؛ فرأوا هيئةَ أبي جَزْءٍ، وإعظامَنا إياه، مع جَمَاله؛ فقال قائل منهم: أمِنْ أَهْلِ بيت الخليفة أنتَ؟ قال: لا، ولكن رجلٌ من العرب. قال: ممَّن الرجل؟ قال: رجل من مُضَر. قال: أعْرَض ثوبُ المَلْبس[(٤)]! من أيِّها عافاك الله! قال: رجل من قَيْس. قال: أين يُرَاد بك؟ صِرْ إلى فَصِيلتك التي تُؤْويك. قال: رجل من بني سعد، قال: اللهم غَفْرًا! من أيها عافاك الله؟ قال: رجل من بني يَعْصُر. قال: من أيها؟ قال: رجل من باهلة. قال: قُمْ عنا.

قال أبو قِلَابة: فأقْبَلْتُ على الحارثيِّ فقلت: أتعرفُ هذا؟ قال: ذكر أنه باهليٌّ، فقلت: هذا أمير ابن أمير... وعددت خمسة. ثم قلت: هذا أبو جزء بن عمرو، وكان أميرًا، ابنِ سعيد، وكان أميرًا: ابنِ سلم، وكان أميرًا، ابنِ قتيبة وكان أميرًا.

فقال الحارثيّ؛ الأمير أعظمُ أم الخليفة؟ فقلت: بل الخليفة. قال: أفالخليفة أعظم أم النبيّ؟ قلت: بل النبيّ. قال: والله لو عددتَ له في النُّبَوَّةِ أضعاف ما عدَدْتَ له في الإمَارةِ، ثم كان باهِلِيًّا ما عَبَأَ[(٥)] الله به شيئًا.

فكادت نَفْسُ أبي جَزْءٍ تخرجُ؛ فقلت: انْهَض بنا، فإن هؤلاء أَسْوأُ الناس آدابًا.

---

(١) هو مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة من تميم.

(٢) الكامل: ٢ ـ ٢٤. (٣) ذراه: كنفه.

(٤) الملبس: ثوب اللبس، يريد اتسع وسار عريضًا، وهو مثل يضرب بين يقال للرجل: ممن أنت؟ فيقول: من مضر أو ربيعة أو اليمن ولم يخص، أي عممت ولم تخصص.

(٥) ما عبأ الله به شيئًا. يريد: لم يكن له قدر عنده.

كُلثُوم العَتابيّ[١]

كان أَخَوَان من قيس يَخْفُران قرية بالجزيرة، فطال مقامهما بها حتى أثْرَيا، فحسدهما قوم من ربيعة؛ وقالوا: يَخْفُران هذه الضياع في بلدنا! وجمعوا لهما جمعًا، وساروا إليهما، فقاتلوهما حتى قُتِل أحَدُهما؛ وعلى الجزيرة يومئذٍ عبد الملك بن صالح الهاشميّ[٢]، فشكا القَيسيُّ أمرَه إلى وجوه قيس، وعرّفهم قتلَ ربيعة أخاه.

فقالوا له: إذا جلس الأميرُ فادخل إليه، ففعل ذلك، ودخل على عبد الملك وشكا إليه ما لَحِقه، ثم قال له: وحسْبُ الأمير أنهم لما قتلوا أخي وأخذوا مالي قال قائل منهم:

لا يـحـوزَنَّ أمـرنَـا مُـضَـريٌّ   بـخـفـيـر ولا بـغـيـر خـفـيـرِ

فقال عبد الملك: أَتَنْدُبني[٣] إلى العصبية! وزَبَره[٤].

فخرج الرجل مغمومًا، وشكا ذلك إلى وُجُوه قَيْس، فقالوا: لا تُرَعْ، فوالله لقد قذفتها في سُوَيداء قلبه، فعاوِدْهُ.

فعاوده في المجلس الآخر فزبره، وقال له قولَه الأوّل، فقال له: إنّي لم آتكِ أنْدُبك للعصبيّة، وإنما جئتك مستعدِيًا[٥]. فقال له: حدّثني كيف فعل القوم؟ فحدّثه وأنشده فغضب، وقال: كذبت لعمري ليحوزَنَّ.

ثم دعا أحد قوّاده، وقال له: اخرج، وجرِّد السيف في ربيعة. فخرج وقتل منها مَقْتلة عظيمة، فقال كلثوم بن عمرو العتّابيّ - وهو من ربيعة - قصيدة فيها:

هَذِي يمينك في قُرْبَاكَ صائلةٌ   وصارم من سيوف الهند مشهورُ

إن كان منا ذَوُو إفكٍ ومارقةٌ[٦]   وعُصْبَةٌ دينُها العُدَوَان والزُّورُ

---

(١) الأغاني: ١٢ ـ ٨.

(٢) عبد الملك بن صالح: أمير من بني العباس، تولّى الموصل، ثم المدينة، وبلغ الرشيد أنه يطلب الخلافة فحبسه، وتوفي سنة ١٩٦ هـ.

(٣) ندبه لأمر: دعاه إليه.

(٤) زبره: زجره وانتهره.

(٥) استعديت الأمير: استعنت به.

(٦) الإفك: الكذب، والمارقة: الخارجون.

فإنّ منّا[١] الذي لا يستحثّ إذا   حُثَّ الجياد وضمنها المضامِيرُ[٢]
مستنبط عزمات القلب من فِكَرٍ   ما بينهن وبين الله مَعْمُور

وبلغت القصيدة عبدَ الملك، فأمر قائده بالكفّ عنهم.

ولما قدم الرشيد الرَّافِقة[٣] أنشده عبد الملك القصيدة، فقال: لِمَنْ هذه؟ فقال: لرجل من بني عتّاب يقال له: كُلْثوم بن عمرو، فقال: وما يمنعه أن يكون ببابنا؟ وأمر بإشخاصه من رَأْس عَيْن[٤].

فوافَى الرشيدَ، وعليه قميص غليظ وفَرْوَة وخُفّ، وعلى كتفه مِلْحَفَةٌ جافية؛ فلما رُفِع الخبرُ بقدومه أمر الرشيد بأن تُفْرَش له حجرة، وتقام له وظيفة؛ ففعلوا، فكانت المائدة إذا قُدِّمت إليه أخذ منها رقاقةً وملحًا وخلط الملح بالتراب فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدمُ يتعجبون من فعله، وسأل الرشيد عنه فأخبروه بأمره، فأمر بطَرْدِه.

فخرج حتى أتى يحيىٰ بن سعيد العقيليّ وهو في منزله؛ فسلّم عليه، وانتسب له، فرحّب به وقال له: ارتفع، فقال: لم آتك للجلوس، قال: فما حاجتك؟ قال: دابةٌ أبلغُ عليها إلى رأس عَيْن، فقال: يا غلام؛ أَعْطِه الفرس الفلانيّ، فقال: لا حاجة لي في ذلك، ولكن تأمر أن تُشترَى لي دابة أتبلغ عليها، فقال لغلامه: امضِ معه، فابتعْ له ما يريد. فمضى معه، فعدل به العتَّابي إلى سوق الحمير، فقال له: إنما أمرني أن أبتاع لك دابة، فقال كلثوم: إنه أرسلك معي ولم يُرْسِلْني معك فإن عملت ما أريد وإلا فانصرف. فمضى معه، فاشترى حمارًا بمائة وخمسين درهمًا وقال: ادفع ثمنه، فدفعه. فركب الحمار بمرْشَحَة[٥] عليه وبِرْذَعة، وساقاه مَكْشوفتان.

فقال له يحيىٰ بن سعيد: فضَحْتَني، أَمِثْلي يَحْمِلُ مثلك على هذا! فضحك وقال: ما رأيتُ قَدْرَك يستوجب أكثرَ من ذلك. ومضى إلى رأس عين، وكانت تحته امرأةٌ من بَاهِلة، فلامته وقالت: هذا منصور النمريّ قد أخذ

---

(١) يشير إلى عبد الله بن هشام بن بسطام التغلبي وكان أحد قوادهم.
(٢) المضمار: الموضع الذي تضمر فيه الخيل. (٣) بلدة على الفرات بناها المنصور.
(٤) الجزيرة.
(٥) المرشحة: ما يوضع تحت الميثرة، والميثرة: هنة تتخذ للسرج.

الأموال فحَلى نساءه، وبنى دَارَه، واشترى ضيَاعًا، وأنت هنا كما ترى؛ فأنشأ يقول:

تــلومُ عــلى تَــرْكِ الــغِــنَــى بــاهــليَّــةٌ
ذَوَى الــفــقــرُ عــنــهــا كــل طِــرْف وتــالــدِ[1]
رَأَتْ حــولــهــا الــنِّــسْــوان يــرفُــلْن فــي الــثرى[2]
مــقــلــدة أعــنــاقُــهــا بــالــقــلائــدِ
أســرّكِ أنــي نِــلْــتُ مــا نــال جــعــفَــرٌ[3]
مــن الــعــيــش، أو مــا نــال يــحــيــىٰ بــنُ خَــالــدِ!
وأن أمــيــرَ الــمــؤمــنــيــن أغَــصَّــنــي
مَــغَــصَّــهــمــا بــالــمُــرْهَــفَــات الــبــوارد
رأيــتُ رَفِــيــعــات الأمــور مَــشُــوبــةً
بــمــســتــودَعَــاتٍ فــي بــطــونِ الأسَــاود
دعــيــنــي تَــجِــئــنــي مــيــتــتــي مــطــمــئــنــةً
ولــم أتــجــشــمْ هَــوْلَ تــلــك الــمَــوَارِدِ!

أشعار في الفخر والمفاخرة

قال بشار بن برد يفتخر:

إذا نحن صلنا صولة مضريةً ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيدًا من قبيلةٍ ... ذُرا منبرٍ صلّى علينا وسلما

وقال السموأل بن عادياء:

إذا الــمــرء لــم يــدنــس مــن الــلؤم عــرضُــه
فــكــلّ رداءٍ يــرتــديــه جــمــيــلُ
وإن هــو لــم يــحــمــل عــلى الــنــفــس ضــيــمــهــا[4]
فــلــيــس إلــى حــســن الــثــنــاء ســبــيــلُ

(١) الطرف هنا: الحديث من المال، والتالد: غير الحديث من المال.
(٢) الثراء: جعفر البرمكي. (٣) جعفر البرمكي.
(٤) الضيم: الظلم والإذلال.

تعيّرنا أنّا قليل عديدنا
فقلت لها إنَّ الكرام قليلُ
وما قلّ من كانت بقاياه مثلنا
شبابٌ تسامى للعلا وكهولُ
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا
عزيزٌ وجار الأكثرين ذليل
لنا جبلٌ يحتلّه من بحيره
منيعٌ يردّ الطرف وهو كليل[(١)]
سرى أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرعٌ لا يزال طويلُ
وإنّا أناسٌ لا نرى القتل سبّة[(٢)]
إذا ما رأته عامر وسلولُ
يقرب حبّ الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطولُ
وما مات منّا سيِّدٌ حتف أنفه
ولا طلّ منا حيث كان قتيلُ
تسيل على حدّ الظّبات[(٣)] نفوسنا
وليست على غير الظّبات تسيلُ
ونحن كماء المزن ما في نصابنا
كهامٌ[(٤)] ولا فينا يعدّ بخيلُ
وننكر إن شئنا على الناس قولهمْ
ولا ينكرون القول حين نقولُ
إذا سيّدٌ منّا خلا قام سيّدٌ
قؤول بما قال الكرام فِعولُ

---

(١) كليل: تعب، والطرف: النظر. (٢) سبة: عارًا.
(٣) الظبات: الحد في السيف والرمح والسهم. (٤) الكهام: البطيء الكليل عن النصرة.

وما خـمـدت نـارٌ لـنـا دون طـارقٍ[١]
ولا ذمّـنـا فـي الـنـازلـيـن نـزيـل
وأيـامـنـا مـشـهـورةٌ فـي عـدوّنـا
لـهـا غـرر مـشـهـورةٌ وحـجـول[٢]
وأسـيـافـنـا فـي كـلّ شـرقٍ ومـغـربٍ
بـهـا مـن قـراع الـدارعـيـن[٣] فـلـول
مـعـوّدةٌ أن لا تـسـلّ نـصـالـهـا
فـتـغـمـد حـتـى يـسـتـبـاح قـتـيـلُ
سـلي إن جـهـلت الـنّـاس عـنّـا وعـنـهـم
فـلـيـس سـواءٌ عـالـمٌ وجـهـولُ
فـإنّـا بـنـي الـريـان قـطـبٌ لـقـومـهـم
تـدور رحـاهـم حـولـهـم وتـجـولُ

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم، خطب خطيبهم، فافتخر، فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت بن قيس فأحسن، ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر[٤] فقال:

نحن الملوك فلا حيّ يفاخرنا ... فينا العلاء وفينا تنصب البيع[٥]
ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا ... من العبيط[٦] إذا لم يؤنس الفزع
وننحر الكُوَم[٧] عبطًا في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
تلك المكارم حزناها مقارعةً ... إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

(١) الطارق: الذي يأتي ليلًا، وخمدت: انطفأت حتى لا يهتدي إليهم.
(٢) غرر وحجول: علامات بيضاء معروفة. (٣) الدارعين: اللابسين الدروع للحرب.
(٤) الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي من رؤساء قومه ولقب بالزبرقان «وهو من أسماء القمر» لحسن وجهه، وكان فصيحًا شاعرًا فيه جفاء الأعراب، توفي نحو سنة ٤٥ هـ.
(٥) البيع: التولية. وعقدها.
(٦) العبيط: الذبيحة التي تذبح وهي فتية سليمة من العلل.
(٧) الكوم: القطعة من الجمال.

ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم، فقام فقال:

إن الذوائبَ من فهرٍ[١] وإخوتهم ... قد بيّنوا سننًا للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك منهم غيرُ محدثةٍ ... إنَّ الخلائق فاعلمْ شرّها البدع
لو كان في الناس سبّاقون بعدهم ... فكل سبقٍ لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يضنّون عن جارٍ بفضلهم ... ولا يمسّهم في مطمعٍ طمع
خذ منهم ما أتوا عفوًا إذ عطفوا ... ولا يكن همّك الأمر الذي منعوا
أكرمْ بقومٍ رسول الله شيعتهم ... إذا تفرّقت الأهواء والشّيع

فقال التميميون عند ذلك: وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما انتصفنا ولا قاربنا، وقال شاعر من بني تميم:

أيبغي آل شدادٍ علينا ... وما يرعى لشدادٍ فصيل[٢]
فإن تغمد مناصلنا نجدها ... غلاظًا في أنامل من يصول

وقال سالم بن أبي وابصة:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله ... إن التخلق يأتي دونه الخلق
وموقف مثل حد السيف قمت به ... أحمي الذمار وترميني به الحدق
فما زلقتُ ولا أبديتُ فاحشةً ... إذا الرجال على أمثالها زلقوا[٣]

التفاضل والتفاوت

رُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قال: يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدوّ لله ولرسوله ﷺ.

---

(١) الذوائب من فهر: السادة والرؤوس: والذؤوابة: خصلة الشعر في مقدمة الوجه.
(٢) الفصيل: ولد الناقة. (٣) زلقت: زللت.

ومن كلام عليّ رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه: أما قولك إنّا بنو عبد مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب.

وقال أحمد بن سهل الرجال ثلاثة: سابق ولاحق وماحق، فالسابق الذي سبق بفضله، واللاحق الذي لحق بأبيه في شرفه، والماحق الذي محق شرف آبائه. وقيل: إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع وربتهما، قال أشعب: فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين، وقال أبو العواذل زكريا بن هارون:

عليّ وعبد الله بينهما أبٌ ... وشتّان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبد الله يلحى على الندى ... عليًا ويلحاه[١] عليٌ على البخل

وحج أبو الأسود الدؤلي بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبي ربيعة، فغازلها، فأخبرت أبا الأسود، فأتاه فقال:

وإنّي لينهاني عن الجهل والخنا[٢] ... وعن شتم أقوامٍ خلائق أربع
حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وأنّني ... كريمٌ ومثلي من يضرّ وينفع
فشتّان ما بيني وبينك إنني ... على كلّ حالٍ أستقيم وتضلع[٣]

وقال ربيعة الرقّي[٤]:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليمِ والأعزّ بن حاتم
يزيد سليمِ سالم المال والفتى ... فتى الأزد للأموال غير مسالم
فَهَمّ الفتى الأزدي إتلافُ ماله ... وهمّ الفتى القيسي جمعِ الدراهم
فلا يحسب القيسيّ أنّي هجوتُهُ ... ولكنني فضلت أهلَ المكارم

(١) يلحى: يلوم.
(٢) الخنا: الفحش.
(٣) تضلع: أي تتقوس كالضلع.
(٤) هو ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيذار الأسدي، أبو ثابت أو أبو شيانة الرقي، شاعر غزل مقدم كان ضريرًا يلقب بالغادي، وكان الرشيد يأنس به، وله معه ملح كثيرة، مولده في الرقة على الفرات وإليها نسبته، توفي سنة ١٩٨ هـ.

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين:

يقول أنا الكبير فعظموني ... ألا ثكلتك أمّكَ من كبير
إذا كان الصغير أعمّ نفعًا ... وأجلد عند نائبة الأمور
ولم يأت الكبير بيومِ خيرِ ... فما فضل الكبير على الصغير

الباب الرابع عشر

قصص عشّاق العرب

في ذكر العشق ومَن بُلِيَ به والافتخار بالعفاف وأخبار مَن مات بالعشق

في وصف العشق

قال في المستطرف[1]: قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، وقال أعرابي: العشق خفي أن يرى وجلي أن يخفى فهو كامن ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى، وقيل: أول العشق النظر وأول الحريق الشرر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته، والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولان إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما، وقال عبد بني الحسحاس:

وكم قد شققنا من رداءٍ محبّرٍ ... ومن برقعٍ عن طفلة غير عانس[2]

إذا شُقّ برد شُقّ بالبرد برقع ... من الحبِّ حتى كلّنا غير لابس

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حبك لفلانة؟ قال: إني لأذكرها وبيني وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك، وقيل: رأى شبيب أخو بثينة جميلًا عندها، فوثب عليه وآذاه، ثم إن شبيبًا أتى مكة وجميل فيها، فقيل لجميل: دونك شبيبًا، فخذ بثأرك منه فقال:

وقالوا يا جميل أتى أخوها ... فقلت أتى الحبيبُ أخو الحبيبِ

وأنشد الأخفش الحداد يقول:

مطارق الشوق منها في الحشى أثر ... يطرقن سندان قلبٍ حشوه الفكر[3]

---

(١) المستطرف: ص ٣٤٣ ـ ٤٤٥.

(٢) محبر: به وشي وألوان. الطفلة: أي الصغيرة في العمر، والعانس التي لم تجد لها بعلًا.

(٣) مطارق الشوق: جمع مطرقة وهي التي يستعملها الحداد والمقصود أن للشوق في قلبه وقع=

ونار كور الهوى في الجسم موقدة ومِبرد الحبِّ لا يبقى ولا يذر[١]

وفي الجليس الأنيس لأبي العالية الشامي قال: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيىٰ بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه ضيقة ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها وقوة تصريفها توارى عن الأبصار مدخله، وخفي في القلوب مسلكه.

وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال سليمان بن عمرو ومَن معه أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة ولكم حداء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قال: لا. قال: اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البليد، والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشريف الهمة وقال المجنون[٢]:

قالت جُنِنت على ذكري فقلت لها الحبُّ أعظم ممّا بالمجانين
الحبُّ ليس يفيق الدهرَ صاحبُهُ وإنّما يصرعُ المجنون في الحين

ابن بهرام جور وابنة المرزبان

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس مسيء الأدب، فغمه ذلك، فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يومًا، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه، قال: وما ذاك الذي حدث؟ قال: رأى ابنة فلان المرزبان، فعشقها، فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها.

= قوي مؤثر.

(١) الكور: منفخ من الجلد يستعمله الحداد. ولا يذر: أي لا يترك شيئًا.

(٢) المجنون: هو قيس بن الملوح العامري شاعر غزل من المتيمين من أهل نجد. لُقّب بالمجنون لهيامه في حب ليلى بنت سعد، حجبها أبوها عنه فهام على وجهه ينشد الأشعار. يقول الجاحظ: ما ترك الناس شعرًا مجهول القائل فيه ذكر ليلى إلا نسبوه إلى المجنون.

فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه، ثم دعا بأبي الجارية، فقال له: إني مسر إليك سرًّا، فلا يعدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها ومراسلته من غير أن يراها، وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره، فإن استعلمها علمته أنها لا تصلح إلا لملك، ثم لتعلمني خبرها وخبره، ولا تطلعهما على ما أسره إليك.

فقبل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب، والموكل بأدبه حضه وشجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء، وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك، وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه، فقال له: إن الموضع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة لا يدري به، فتقدم إليه وأمره أن يدفع أمرها إليَّ ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك، فرفع الفتى ذلك لأبيه، فدعا بأبيها وزوجه إياها وأمر بتعجيلها إليه، وقال: إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئًا حتى أصير إليك، فلما اجتمعا صار إليه، فقال: يا بني لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست في خبائك فإني أمرتها بذلك وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك، ففعل الفتى وعاش مسرورًا بالجارية، وعاش أبوه مسرورًا به وأحسن ثواب أبيها، ورفع منزلته لصيانة سره، وأحسن جائزة المؤدب لامتثال ما أمر به.

عبد الله بن عبيدة وجارية

وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية، فزارته يومًا، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق، فحان وقت الظهر، فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن، فقال: رويدك حتى تزول الشمس أي حتى تقوم الجارية، وقالت ليلى العامرية في قيسها:

لم يكن المجنون في حالةٍ إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسرِّ الهوى وإنني قد ذبتُ كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنّي ليرضيني المـمر ببابهـا وأقنع منها بالشتيمة والزجرِ(١)

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيُّها العاشقُ المعذب صبرًا فخطايا أخي الهوى مغفوره
زفرة في الهوى أحط لذنبٍ من غزاةٍ وحجّةٍ مبروره

وقال عمر بن أبي ربيعة: كنت بين امرأتين هذه تسارّرني وهذه تعضني فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه، وأنشد شيبان العذري يقول:

لو حُزَّ بالسيف رأسي في محبّتها لطار يهوي سريعًا نحوها رأسي

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: لو أمرني الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذابًا.

فيمن عشق وعفّ والافتخار بالعفاف

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من عشق فعف، فمات، فهو شهيد، وقال ﷺ: عفوا تعف نساؤكم.

وقال بعضهم: رأيت امرأة مستقبلة البيت في غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو، فقلت لها: هل من حاجة؟ فقالت: حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تـزوّد كـلُّ النـاس زادًا يـقـيـهـمُ وماليَ زاد والسلامُ على نفسي

فناديت كما أمرتني، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إليَّ، فقال: أنا الزاد، فمضيت به إليها، فما زاد على النظر والبكاء، ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت: امسك يا هذا. أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد؟ قال إبراهيم بن محمد المهلبي:

كما قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني منه الحياء وخوفُ الله والحذرُ
وكم خلوتُ بمن أهوى فيقنعني منه الفكاهة والتأنيس والنظر

---

(١) الزجر: المنع والدفع.

أهوى الملاحَ وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي في حرامٍ منهم وطر[(١)]
كذلك الحبُّ لا إتيان معصيةٍ ... لا خير في لذّةٍ من بعدها سقر[(٢)]

وقال بعض بني كلب:

إن أكن طامع اللحاظ فإنّي ... والذي يملك الفؤادَ عفيفُ

ونحو ذلك قول القائل:

فقالت بحق الله لا أتيتنا ... إذا كان لون الليل شبةَ الطيالسِ
فجئت وما في القوم يقظان غيرها ... وقد نام عنها كل واشٍ وحارسِ
فبتنا بليلٍ طيّبٍ نستلذُه ... جميعًا ولم أقلب لها كفَّ لامس

تظاهر بالعمى

نزل رجل على صديق له مستترًا خائفًا من عدو له، فأنزله في منزله وتركه فيه، وسافر لبعض حوائجه، وقال لامرأته: أوصيك بضيفي هذا خيرًا، فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف ضيفنا؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره.

جميل وبثينة

دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فقال لها: يا بثينة ما أرى فيك شيئًا مما كان يقوله جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إليَّ بعينين ليستا في رأسك، قال: فكيف رأيتيه في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والذي تسجدُ الجباه لهُ ... مالي بما تحت ذيلها خبرُ
ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلّا الحديث والنظرُ

وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت، فقال لي: يا أبا سهل إن رجلًا يلقى الله ولم يسفك دمًا، ولم يشرب خمرًا، ولم يأتِ فاحشة أفترجو له الجنة؟ قلت: أي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو

---

(١) الوطر: الغاية والحاجة. (٢) سقر: جهنم.

أن أكون ذلك، فذكرت له بثينة، فقال: إني لفي آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي بريبة قط. وعن عبد الله بن عبد المطلب أبي النبيّ ﷺ أنه دعته بغي إلى نفسها، وبذلت له مالًا، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله ﷺ، وكانت جميلة، فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبيّ ﷺ منها للنور الذي رأته بين عينيه، فأبى وقال:

أمّا الحرامُ فالحِمامُ دونه والحلُّ لا تأبى ونستدينه[١]
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

وقال آخر:

وأحورَ مخضوب البنان محجّب دعاني فلم أعرف إلى ما دعا وجها
بخلت بنفسي عن مقامٍ يشينها ولست مريدًا ذاك طوعًا ولا كرها

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزت، وقالت:

وذي حاجة قلنا له لا تبحْ بها فليس إليها ما حييت سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغي أنْ نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليلُ

وقال ابن ميادة:

موانع لا يعطين حبّة خردلٍ
وهنّ دوانٍ في الحديث أوانسُ
ويكرهن أن يسمعن في اللهو ريبةً
كما كرهت صوت اللجام الشوامس[٢]

وقال آخر:

حور حرائر ما هممن بريبة كظباء مكّة صيدهنّ حرامُ
يُحسبن من لين الكلام فواسقًا ويصدّهن عن الخنى الإسلام[٣]

---

(١) الحمام: الموت.
(٢) الشوامس: النوافر من المطي.
(٣) الخنى: الفحش.

وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف(١):

أتـأذنـون لـصـب فـي زيـارتـكـم ... فعندكم شهوات السمع والبصرِ
لا يظهر الشوق إن طال الجلوس به ... عفُّ الضمير ولكن فاسقُ النظر

إبراهيم بن المهدي وملك

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهويها إبراهيم، وكره أن يراودها عن نفسها، فغنى يومًا وهي قائمة على رأسه:

يـا غــزالًا لــي إلــيــه ... شــافــع مــن مــقــلــتــيــه
أنـا ضـيـف وجـزاء الـمـ ... ـضـيـف إحـسـان إلـيـه

ففهمت الجارية ما أراد، فحكت ذلك لمولاتها فقالت: اذهبي إليه، فاعلميه أني وهبتك له، فعادت إليه، فلما رآها أعاد البيتين، فأكبّت عليه، فقال لها: كفى، فلست بخائن، فقالت: قد وهبتني لك مولاتي وأنا الرسول، فقال: أما الآن فنعم، وأنشد المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ ... إلّا نهاني الحياءُ والكرمُ
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ... ولا مشت بي لزلةٍ قدمُ(٢)

وقال آخر:

يقولون لا تنظر فذاك بلية ... بل كل ذي عينين لا بدّ ناظر
وهل باكتحال العين بالعين ريبة ... إذا عفّ فيما بينهنّ السرائر(٣)

جمع بين رأسين بالحلال

كان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعرًا، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فبينما هو في الطواف يومًا إذ نظر إلى شاب يتحدث

---

(١) العباس بن أحنف: أبو الفضل، شاعر غزل رقيق قال فيه البحتري: أغزل الناس، أصله من اليمامة في نجد وكان أهله في البصرة، نشأ في بغداد وتوفي بها سنة ١٩٢ هـ. خالف الشعراء في طريقتهم فلم يمدح ولم يَهْجِ. له ديوان شعر مطبوع كله غزل.

(٢) الزلة: الخطأ.

(٣) السرائر: الضمائر وما تنطوي عليه الأنفس.

مع شابة جميلة الوجه، فقال له: يا هذا اتق الله أفي مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لخنى، ولكنها ابنة عمي وأعز الناس عليَّ وإن أباها منعني من تزوجها لفقري وفاقتي، وطلب مني مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب، ولم أقدر من ذلك. قال: فطلب الخليفة أباها، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر، فقالت له جارية من حظاياه: أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر، أفنسيت ما نذرت أم نراك قد هويت، فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقول وليدتي لما رأتني طربت وكنت قد أسليت حينا
أراك اليوم قد أحدثت عهدًا وأورثك الهوى داءً دفينا
بحقك هل سمعت لها حديثًا فشاقك أو رأيت لها جبينا
فقلت شكا إليَّ أخ محبٌّ كمثل زماننا إذ تعلمينا
وذو الشجو القديم وإن تعزّى محبٌّ حين يلقى العاشقينا

ثم عدّ الأبيات فإذا هي خمسة أبيات، فأعتق خمس رقاب، ثم قال: لله درّك من خمسة أعتقت خمسة، وجمعت بين رأسين في الحلال.

نصيب وزينب

رُوِيَ عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب[1]:

بزينبَ ألمِمْ قبل أن يرحل الركب وقل لا تملينا فما ملك القلب

فقالت: يا هذا أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب، فقالت: أتعرف زينبه؟ قلت: لا. قالت: أنا زينبه. قلت: حياك الله وحياك. قالت: أما والله إن اليوم موعده، وعدني العام الأول بالاجتماع في هذا اليوم، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه. قال: فبينما هي تكلمني إذ أنا براكب قالت: ترى ذلك الراكب؟ قلت: نعم. قالت: إني لأحسبه إياه، فأقبل فإذا هو نصيب، فنزل قريبًا من

(١) نصيب: توفي سنة ١٠٨ هـ. نصيب بن رباح أبو محجن مولى عبد العزيز بن مروان شاعر فحل مقدم في النسيب والمدائح له شهرة ذائعة وأخبار مع عبد العزيز بن مروان وسليمان بن عبد الملك والفرزدق وغيرهم. سُئِلَ عنه جرير فقال: أشهر أهل جلدته.

الخيمة، ثم أقبل فسلم، ثم جلس قريبًا منها، فسألته أن ينشدها، فأنشدها، فقلت في نفسي محبان قد طال التنائي بينهما، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمت إلى بعيري لأشد عليه، فقال: على رسلك إني معك، فجلست حتى نهض معي فسرنا وتسامرنا، فقال لي: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. قلت: نعم قد كان ذلك. قال: ورب البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلسًا هو أقرب من مجلسي هذا، فتعجبت لذلك، وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة.

وعن محمد بن يحيىٰ المدني قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولًا يفرح أن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم هو يشير إليها، وتشير إليه ويعدها وتعده، فإن التقيا لم يتشاكيا حبًّا ولم يتناشدا شعرًا بل يقوم إليها، ويجلس بين شعستيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة، وقال الأصمعي قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم؟ قالت: الضمة والغمزة والقبلة، ثم أنشأت تقول:

مـا الـحـبُّ إلَّا قـبـلة وغـمـزُ كـف وعـضـدْ
مـا الـحـبُّ إلَّا هـكـذا إن نـكـحَ الـحـبُّ فـسـدْ

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها ونفرق بين رجليها. قالت: لست بعاشق أنت طالب ولد، ثم أنشأت تقول:

قد فسد العشق وهان الهوى وصار مَن يعشق مستعجلا
يريد أن ينكح أحبابه من قبل أن يُشهِد أو ينحلا(١)

وقيل لرجل، وقد زفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرك أن تظفر بها الليلة؟ قال: نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها. قيل: فما كنت صانعًا بها قال: كنت أطيع الحب في لثمها وأعصي الشيطان في إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح أخباره إني إذن للئيم لم يلدني كريم.

---

(١) ينحلا: من النحلة وهي الصدقة والمهر والعطية. ويشهد: أي الشهود الذين يحضرون عقدة النكاح.

عمر بن الخطاب والشاكية بعد زوجها

مرّ سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في ليلة في بعض سكك المدينة، فسمع امرأة تقول:

ألا طال هذا الليل وازورّ جانبه ... وليس إلى جنبي خليلٌ ألاعبه[١]
فوالله لولا الله تُخشى عواقبُه ... لحرك من هذا السرير جوانبه
مخافةُ ربِّي والحياء يعفُّني ... وإكرام بعلي أن تُنالَ مراتبُه

قال: فسأل عمر رضي الله تعالى عنه عنها، فقيل له: إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر، فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر.

عمر بن الخطاب ونصر بن الحجاج

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب تلقيح فهوم الأثر عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمي عن أبيه عن جده قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمرٍ فأشربها ... أم من سبيلٍ إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبلٍ ... سهل المحيا كريم غير ملجاج[٢]
تنميه أعراق صدق حين تنسبه ... أخي وفاءٍ عن المكروب فرَّاج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه لا أرى معي بالمدينة رجلًا تهتف به العواتق في خدورهن. عليَّ بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتي بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهًا وأحسنهم شعرًا، فقال عمر عزيمة من أمير المؤمنين لنأخذن من شعرك، فأخذ من شعره، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال له: اعتم فاعتم، فافتتن الناس بعينيه، فقال له عمر: والله لا تساكنني في بلدة أنا فيها، فقال يا أمير المؤمنين: ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك، ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شيء فدست

(١) أزور: ضاق.

(٢) ملجاج: كثير الإلحاح والطلب «ثقيل».

إليه المرأة أبياتًا وهي:

قل للإمام الذي تخشى بوادره ... مالي وللخمر أو نصر بن حجاج
لا تجعلِ الظنّ حقًا أن تبيّنه ... إن السبيلَ سبيل الخائف الراجي
إن الهوى زمّ بالتقوى فتحبسه ... حتى يقرّ بإلجامٍ وإسراج(١)

قال: فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة، فخرجت أمه يومًا بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فإذا هو قد خرج في إزار ورداء وبيده الدرة، فقالت له: يا أمير المؤمنين والله لأقفن أنا وأنت بين يدي الله تعالى، وليحاسبك الله أيبيتن عبد الله وعاصم إلى جنبيك، وبيني وبين ابني الفيافي، والأودية، فقال لها: إن ابنيَّ لم تهتف بهما العوتق في خدورهن، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدًا إلى عتبة بن غزوان فأقام أيامًا ثم نادى عتبة: مَن أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين، فليكتب، فإن البريد خارج، فكتب نصر بن حجاج: بسم الله الرحمٰن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد، فاسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني ... وما نلت من عرضي عليك حرام
فأصبحت منفيًا على غير ريبةٍ ... وقد كان لي بالمكّتين مقام
لئن غنت الذلفاء يومًا بمنيةٍ ... وبعض أماني النساء غرام
ظننتَ بي الظن الذي ليس بعده ... بقاءٌ ومالي جرمةٌ فألام
فيمنعني ممّا تقول تكرّمي ... وآباءُ صدقٍ سالفون كرامُ
ويمنعها ممّا تقول صلاتها ... وحالٌ لها في قومها وصيامُ
فهاتان حالان فهل أنت راجعي ... فقد جبّ مني كاهلٌ وسنام(٢)

قال: فلما قرأ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الأبيات قال: أما ولي السلطان، فلا وأقطعه دارًا بالبصرة في سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) زم: أي ربط ومنع.
(٢) جب: قطع وغلب. والكاهل في القدم والسنام: الذي يعلو ظهر البعير. والمقصود: إن جسمه قد أصابه القطع والنحول.

في ذكر مَن مات بالحب والعشق[١]

صاحب آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحَديد: الآية ١٦]

قال أحمد بن أبي الحواري فيما ذكره الخطيب: بينما أنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة، فأقبلت نحوها فرأيت رجلًا مغشيًا عليه فقلت: ما بال هذا؟

فقالوا: سمع آية من كتاب العزيز.

فقلت: وما هي؟

فقال: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحَديد: الآية ١٦]، قال أحمد: فأفاق عند سماعها وهو يقول:

أَلَمْ يَأْنِ لِلْهِجْرَانَ أَن يَتَصَرَّمَا ... وَلِلْغُصْنِ غُصْنِ أَنْ يَتَكَلَّمَا
وَلِلْعَاشِقِ الصَّبِّ الَّذي ذَابَ وَانْحَنَى ... أَمَا آنَ أَنْ يُبْكَى عَلَيْهِ وَيُرْحَمَا
كَتَبْتُ بِمَاءِ الشَّوْقِ بَيْنَ جَوَانِحي ... كِتَابًا حَكَى نَقْش المُوَشَّا المْنَمْنَما

الوفية الباكية عند قبر محبوبها

قال الخرائطي: حدّثنا الزيادي حدّثنا أحمد بن إسماعيل المزني قال: سمعت امرأة عند قبر وهي تقول:

كَفَى حُزْنًا أَنِّي أَرُوحُ بِحَسْرة ... وَأَغْدُوا عَلَى قَبْر وَمَنْ فِيْهِ لا يَدْرِي
فَيَا نَفْسُ شُقِّي جَيْب عُمْرُك عِنْدَهُ ... ولا تَبْخَلِي بالله يا نَفْسُ بالعُمْري
فَمَا كَانَ يَأْبَى أَنْ يَجُودَ بِنَفسِهِ ... لِيَنْقذنِي لَوْ كُنْت صَاحِبَة القدْرِ

ثم لم تزل تبكي حتى ماتت.

أحمد بن كليب، وأسلم بن سعيد

قال محمد بن الحسن المذحجي الطبيب الأديب: كنت أختلف في النحو إلى محمد بن خطاب في جماعة، وكان معنا عنده أبو الحسن أسلم بن سعيد

(١) انظر المستطرف: ص: ٤٣٩ ـ ٤٤٥. والإسلام والعشق «الواضح المبين في ذكر مَن استشهد من المحبين لعلاء الدين مغلطاي المصري الحنفي.

الأسلمي قاضي قضاة الأندلس وكان أجمل مَن رأته العيون، وأحمد بن كليب وكان من أهل الأدب والشعر، فاشتد كلفُه بأسلم، وفارق صبره وصرف فيه القول متسترًا بذلك، إلى أن فشت أشعاره وجرت على الألسنة وتنوشدت في المحافل، فلعهدي بعرس في بعض شوارع قرطبة، والزامر يغني بقول أحمد بن كليب:

أَسْلَمَنِي فِي هَوَاهُ … أَسْلم هَذَا الرَّشَا
غَزَالٌ لَهُ مُقْلَةٌ … يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَا
وَشَى بَيْنَنَا حَاسِدٌ … سَيُسْئَلُ عَمَّا وَشَى
لَوْ شَاءَ أَنْ يَرْتَشِي عَلَى الوَ … ضَلِ رُوْحِي لارْتَشَا

ومغن حسن يسايره فيها.

قال: فلما بلغ هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ولزم بيته والجلوس على بابه.

وكان أحمد بن كليب لا شغل له إلا بالمرور على بابه سائرًا ومقبلًا نهاره كله. فامتنع أسلم عن الجلوس على باب داره فعيل صبر أحمد فتحيل في بعض الليالي ولبس جبّة من جباب أهل البادية، واعتمّ بمثل عمائهم، وأخذ بإحدى يديه دجاجًا، وبالأخرى قفصًا فيه بيض، وتحيّن جلوس أسلم عند اختلاط الظلام على بابه، فتقدم إليه، وقَبّل يده وقال: يا مولاي تأمر بقبض هذا. فقال أسلم: ومَن أنت؟

فقال: أجيرك في الضيعة الفلانية. وقد كان عرف أسماء ضياعه والعاملين فيها.

فأمر أسلم غلمانه بقبض ذلك منه على عادتهم في قبول هدايا العاملين في الضياع عند ورودهم منها.

ثم جعل يسأله عن الضيعة، فلما جاوبه أنكر الكلام، فتأمله فعرفه.

فقال له: يا أخي وَهْنًا بلغت بنفسك، وإلي هٰهنا تتبعُني؟ أما كفاك انقطاعي عن مجالس الطلب، وعن الخروج جملة، وعن القعود على بابي نهارًا، حتى قطعت عليّ جميع ما لي فيه راحة، فقد صرت كأني في سجن، والله لا فارقت بعد هذه الليلة قعر منزلي، ولا جلست بعدها على بابي ليلًا ولا نهارًا، ثم قام فانصرف أحمد بن كليب كئيبًا.

قال محمد بن الحسن: واتصل به ذلك، فقلنا لأحمد بن كليب: وخسرت دجاجك وبيضك؟

فقال: هات في كل ليلة قُبَلَة في يده وأخسر أضعاف ذلك. قال: فلما أيس من رؤيته البتة نهكته العلة وأضجعه المرض. قال محمد بن الحسن: فأخبرني شيخنا أبو عبد الله محمد بن الخطاب، أنه عاده، قال: فوجدته بأسوء حال، فقلت له: ألا تتداوى؟

فقال: دوائي معروف، وأما الأطباء فلا حيلة لهم فيّ البتة. فقلت له: ما دواؤك؟ قال: نظرة من أسلم، فلو سعيت في أن يزورني لأعظم الله أجرك بذلك، وكان هو والله أيضًا يؤجر. قال: فرحمته وتقطعت نفسي له، فنهضت إلى أسلم، فاستأذنت عليه، فأذن لي وتلقاني بما أحب. فقلت له: لي حاجة. قال: وما هي؟

قلت: قد علمت ما جمعك مع أحمد بن كليب من ذمام الطلب عندي. فقال: نعم، ولكن قد تعلم أنه بَرَّح بي وشَهَر اسمي، فآذاني. فقلت: كل ذلك يغتفر في مثل الحال التي هو فيها، فتعوده.

فقال لي: والله ما أقدر على ذلك، فلا تكلفني هذا. فقلت له: لا بد، فليس عليك في ذلك شيء وإنما هي عيادة مريض.

قال: فلم أزل حتى أجاب. قال: فقلت: قم الآن. فقال لي: لست والله أفعل ذلك إلا غدًا. فقلت: بلا خلاف؟ قال: نعم.

قال: فانصرفت إلى أحمد بن كليب فأخبرته بوعده حتى يأتيه، فسر بذلك سرورًا شديدًا.

فلما كان من الغد بكرت إلى أسلم، فقلت له: الوعد.

فوجم وقال: والله لقد تحملني على خطة صعبة عليَّ، وما أدري كيف أطيق ذلك؟

قال: فقلت له: لا بد أن تفي بوعدك لي. قال: فأخذ رداءه ونهض معي راجلًا.

قال: فلما أتينا منزل أحمد، وكان يسكن في آخر درب طويل، وتوسطنا الزقاق وقف، واحمر وخجل، وقال لي: يا سيدي الساعة والله أموت وما أقدر أنقل قدمي ولا أستطيع أن أعرض هذا على نفسي.

قال: فقلت: لا تفعل بعد أن بلغت المنزل تنصرف.

فقال: لا سبيل والله إليه، ورجع هاربًا، فاتبعته، فأخذت بردائه فتمادى، وخرق الرداء وبقيت قطعة منه في يدي لشدة إمساكي له.

ومضى ولم أدركه فرجعت، ودخلت على أحمد بن كليب.

قال: وقد كان غلامه دخل إليه إذ رآنا من أول الزقاق مبشرًا. قال: فلما رآني دونه تغيّر وجهه وقال: وأين أبو الحسن؟ قال: فأخبرته بالقصة.

قال: فاستحال من وقته وجعل يتكلم بكلام لا يعقل منه أكثر من التَّرَجُّح، فاستبشعت الحال، وجعلت أترجع وقمت. قال: فثاب إليه وجهه وقال لي: يا أبا عبد الله. قلت: نعم. قال: اسمع مني واحفظ عني، ثم أنشأ يقول:

أَسْلم يَا رَحَةَ العَلِيْل رِفْقًا عَلَى الهَائِم النَّحِيْلِ
وَصْلُكَ أَشْهَى إلَيَّ فُؤادِي مَنْ رَحْمَةِ الخَالِقِ الجَلِيْل

قال: فقلت له: اتقِ الله، ما هذه العظيمة؟ فقال لي: قد كان قال. فخرجت عنه، فوالله ما توسطت الزقاق حتى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا.

قال الحافظ أبو محمد: وهذه قصة مشهورة عندنا، ومحمد بن الحسن ثقة، ومحمد بن خطاب ثقة. وأسلم هذا من بني خلف، وكانت فيهم وزارة وحجابة.

وهو صاحب الديوان المشهور في غناز رباب، وكان شاعرًا، وابنه الآن يكنّى أبا الجهد.

قال أبو محمد: ولقد ذكرت هذه الحِكاية لأبي عبد الله محمد بن سعيد الخولاني الكاتب فعرفها وقال: لقد أخبرني ثقة أنه رأى أسلم هذا في يوم شديد المطر لا يكاد أحد يمشي في طريق وهو قاعدٌ على قبر أحمد بن كليب زائرًا له، وتحيّن غفلة الناس في مثل ذلك النهار.

وقال أبو محمد: وحدّثني قاسم بن محمد القرشي قال: كتب ابن كليب إلى محمد بن خطاب شعرًا يتغزّل فيه بأسلم فعرضه ابن الخطاب على أسلم.

فقال: هذا ملحون. وكان ابن كليب قد أسقط التنوين من لفظة في بيت الشعر.

قال: فكتب ابن خطاب إلى ابن كليب بذلك فكتب إليه ابن كليب مسرعًا:

أَلْحقْ لَنَا التَّنْويْنَ في مَطْمَع   فَإنَّني أُنسيْتُ إلْحَاقَهُ
لَا سِيَّمَا إذْ كَانَ في وَصْل مَنْ   كَدَّرَ لي في الحبِّ أَخلَاقَهُ

قال: وقد أهدى له كتاب الفصيح:

هَذَا كِتَابُ الفَصِيْحُ   بكُلِّ لَفظٍ مَلِيحْ
وَهَبْتَهُ لَكَ طَوْعًا   كَمَا وَهَبْتُكَ رُوحِي

فتيان من الكوفة

قال أبو محمد بن محمد الغنوي فيما ذكره في ذم الهوى: دخلت الكوفة، فجاءني ظرفاؤها، وقالوا: هنا فتيان تحابّا وقد اعتلّ أحدهما، فنريد أن نعوده، فذهبت معهم ليعودوا العليل، وأعود الصحيح، فوجدنا فتًى ملقى على سرير آخر، متكئًا عليه، يذبّ عنه، وينظر في وجهه، فلما رآنا فرّج لنا عن صاحبه، فجلس أصحابي حوله، وجلست بإزاء الصحيح، فكان العليل إذا قال: أوَّه، قال الصحيح: أوَّه، فإذا قال الصحيح: أوَّه من فخذي، قال العليل: أوَّاه من فخذي، وإذا قال: أوه من يدي، قال: أواه من يدي، إلى أن قالوا: قضى رحمه الله تعالى.

فشدّ أصحابي لحْيي العليل، وشددتُ لحيي الصحيح، وما برحنا حتى دفناهما.

الأعرابي، والسبع، والعشيقة

قال أحمد بن عمر الزهري: حدّثني عمي عن أبيه، فما ذكره أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان قال: خرجت في بغاء ضالة لي فآواني المبيت إلى خيمة أعرابي معه تَلْد من غنم. فقلت: هل من قِرًى. قال لي: انزل.

فنزلت فثنى لي وسادة، وأقبل عليّ يحدّثني، ثم أتاني بقرى، فأكلت فبينا أنا بين النائم واليقظان، إذا أنا بفتاة قد أقبلت، لم أر مثلها جمالًا وحسنًا، فجعلت تحدث الأعرابي ويحدثها ليس غير ذلك حتى طلع الفجر، ثم انصرفت.

فقلت: والله لا أبرح موضعي هذا حتى أعرف خبر الجارية والأعرابي.

قال: فمضيت في طلب ضالتي يومًا، ثم أتيته عند الليل، فأتى بقرى، فبينا أنا بين النائم واليقظان، وقد أبطأت الجارية عن وقتها وقد قلق الأعرابي فهو يذهب ويجيء ويقول:

مَا بَالَ مَيَّةَ لَا تَأْتِي كَعَادَتِهَا ... أَعَاجَهَا طَرَبٌ أَمْ صَدَّهَا شُغُلُ
لَكِنَّ قَلْبِي عَنكُم لَيْسَ يَشْغَلُهُ ... حَتَّى المَمَات وَمَالي غَيْرُكُم أَمَلُ
لَوْ تَعْلَمِيْنَ الَّذِي بي منْ فِرَاقِكُمُ ... لَمَا اعْتَذَرت وَلَا طَالَتْ لَكِ العِلَلُ
نَفْسِي فِدَاؤُكِ قَدْ أَحْلَلْتِ بِي سِقَما ... يَكَادُ مِنْ حَرِّهِ الأَعْضَاءُ تَنْفَصِلُ
لَوْ أَنَّ غَادِيَة مِنْهُ عَلَى جَبَل ... لَمَادَ وَانْهَدَّ مِنْ أَرْكَانِهِ الجَبَلُ

ثم أتاني فانبهني، ثم قال لي: إن خلّتي رأيت بالأمس قد أبطأت عليَّ وبيني وبينها غَيْضَة، فلست آمن السَّبُع عليها، فانظر ما هٰهنا حتى أعلم علمها ثم مضى فأبطأ قليلًا، ثم جاء بها يحملها، وإذا السبع قد أصابها، فوضعها بين يديَّ ثم أخذ سيفه ومضى، فلم أشعر إلا وقد جره مقتولًا وهو يقول:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْثُ الْمُحلَّ بِنَفْسِهِ ... هُبِلْتَ لَقَدْ جَرصتْ يَدَاكَ لَنَا شَرًّا
وأَخْلَفْتَنِي فَرْدًا وَحِيْدًا مُدَلَّهًا ... وَصَيَّرتَ آفَاقَ البِلَاد بِهَا قَبْرَا
أَأَصْحَبُ دَهْرًا خَانَنِي بِفَرَاقِهَا ... مَعَاذ إلٰهِي أَنْ أكُونُ لَهَا نَزْرا

ثم أقبل عليّ فقال: هذه ابنة عمي كانت من أحب الناس إليّ فمنعني أبوها أن أتزوجها وزوجها رجلًا من أهل هذه الأبيات، فخرجت من مالي كله، ورضيت بالمقام هنا على ما ترى، راعيًا إبلًا تُرعى لهم، لتأتيه ابنة عمه فيراها وتراه.

فكانت إذا وجدت خلوة أو غفلة من زوجها أتتني فَحَدَّثَتْني وحَدَّثْتُها ليس شيء غيره. وقد آليت على نفسي أن لا أعيش بعدها. فأسألك بالحرمة التي جرت بيني وبينك إذا أنا متّ فكفني وإياها في هذا الثوب، وادفنا في مكاننا هذا واكتب على قبرنا هذا الشعر:

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا والدَّهْرُ في مَهَلٍ ... وَالْعَيشُ يَجْمَعُنَا والدَّارُ وَالوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرَ بالتَّصْرِيفِ أُلْفَتَنَا ... فَاليَوْمَ يَجْمَعُنَا فِي بطْنِهَا الكَفَنُ

ثم اتكأ على سيفه فخرج من ظهره. فلففتهما كما قال، وكتبت الشعر عليه كما أمرني. وذكر العتبي أن جبلة بن الأسود حدّثه قال: وما رأيت شيخًا مثله. قال: ضلت لي إبل فذكره.

وفي آخره ثم رد الغنم التي معه على صاحبها، ثم نمت وإياه، فلما أصبحت وجدته ميتًا. ففعلت ما أمرني، ورددت الغنم على صاحبها، وأعلمته القصة، فحزن حزنًا شديدًا، أشفقت منه على نفسه أسفًا على ما فرَّط من عدم اجتماعهما.

شهيد التلاوة الذي مات عند قوله:
﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هُود: الآية ١٠٨]

قرأت على المسند المعمر فتح الدين الدَّبوسي عن أبي الحسن عن أبي الفضل الحافظ أنبأنا أبو العباس طراد أنبأنا البردعي أنبأنا ابن أبي الدنيا أنبأنا محمد بن الحسين عن إسحٰق بن إبراهيم الثقفي قال قرأت في المصلّى ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هُود: الآية ١٠٨] فتأوّه في الحلقة رجل فما صلّيت العصر حتى دفناه.

الفتـى الرافقـي

قال إسحٰق الرافقي فيما ذكره ابن الجوزي: كنت في مجلس بالرافقة مع عدة من الظرفاء والفتيان ومعنا فتّى كأهيأ ما رأيت من الفتيان، وعليه أثر ذلة الهوى يديم الأنين والبكاء.

فَغَنَّت ظريفة يومّاك

إنّـي لأبْـغَـضُ كُـلّ مُـصـطَـبـرٍ عَـنْ إلْفِـهِ فِي الـوَصْلِ وَالْهَـجْـرِ
الـصَّـبْـرُ مُـحْـسِـنٌ فِي مَـوَاطِـنِـهِ مَـا لِلْفَـتَـى الْمَـحـزُون وَالـصَّـبْـرِ

قال: فنظر إليها الفتى وتبادرت عبراته ثم وثب على قدميه ووضع يده على رأسها، وقال:

غَدًا يَكْثُرُ البَاكُونَ مِنَّا وَمِنْكُمُ وتَـزْدَادُ دَارِي مِـنْ ديَـارِكُـمْ بُـعْـدًا

ثم رمى بنفسه فسقط من قامته فحملناه ميتًا رحمه الله.

رجل من البحرين قتيل الموت

قال إبراهيم بن عيسى السكري: دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس، وتفرّغ لنفسه، فذكرته شيئًا من أمر الآخرة، وذكر الموت فجعل والله يسهو حتى خرجت نفسه وأنا أنظر إليه.

قال: فدخل الناس عليه، فقالوا: يا عبد الله ما أردت إلى هذا؟ لعلك أن تكون ذاكرته بشيء من أمر الموت؟ قال: قلت: أجل والله، لقد كان ذلك. قال: فبكى رجل من جيرانه، وقال: رحمك الله لقد خفت أن يقتلك ذكر الموت حتى والله لقد قتلك. قال: فأخذنا في تجهيزه ودفنه.

أسد بن صهلب

وبه إلى ابن أبي الدنيا قال: حدّثني أبو حاتم حدّثنا محمد بن عبد الكريم عن عبد الرحمٰن بن مصعب قال: كان عندنا بالكوفة رجل من البحرين يقال له: أسد بن صهلب، وكنا نكتمه جور العمال مخافة أن يقدم عليهم.

قال: فبينا هو على شاطىء الفرات، فسمع تاليًا يتلو: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٧٤] فتمايل.

قال: فلما قال التالي: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزّخرُف: الآية ٧٥] سقط في الماء فمات.

قال المينجالي: كان أسد عابدًا ثقة، وكان سفيان يقول: لا تقتله إلا آية من كتاب الله عزّ وجلّ، فقرئت عليه، ثم مات.

رجل أسـود

قال ميمون بن سياه: كنت أنا وخالد الربعي ونفر من أصحابنا نذكر الله فوقف علينا رجل أسود، فقال: هل ذكرتم الموت فيما كنتم فيه؟

قال: فقلنا: إنا لنذكره كثيرة، وما ذكرناه يومنا هذا.

قال: فبكى وقال: أغفلتم مَن لا يغفلكم، ونسيتم مَن يحصي عليكم الأنفاس، لقدومه عليكم.

قال: ثم مال لسقط، وسانده رجل من القوم قال: فخرجت نفسه، وأنا أنظر إليه.

قال: فنظرنا فلم نجد أحدًا يعرفه فغلسناه، وحنطناه، وكفناه، ودفناه.

امــرؤ القيس

ذكر ابن داود في كتاب الزهرة: أن فتًى يقال له امرؤ القيس هوى فتاة من حيِّه، فلما علمت بحبه لها هجرته، فزال عقله وأشفى على التلف، وصار رحمة الناس، فلما بلغها ذلك أتت، فأخذت بعضادتي الباب وقال: كيف تجدك يا امرؤ القيس؟ فقال:

أَتَتْ وَحِيَاضُ المَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِيْنَ لَا يَنْفَعُ الوَصْلُ

بشرة والأحوص بن محمد

قال ابن الأعرابي: خرج الأحوص بن محمد إلى دمشق ومعه جارية يقال لها: بشرة، وكان شديد الإعجاب بها لا يكاد أن يصبر عنها، وكانت هي أيضًا له من المحبة على أكثر من ذلك.

فاشتكى الأحوص واشتدت علته، وحضرته الفتاة، فأخذت رأسه فوضعته في حجرها، وجعلت تبكي فقطرت من دموعها على خده، فرفع رأسه إليها وقال:

مَا لِجَدِيْدِ المَوْتِ يَا بِشْرُ لَذَّةٌ وَكُلُّ جَدِيدٍ تُسْتَلَذُّ طَرَائِفُهْ
فَلَا ضَيْرَ إِنَّ اللهَ يَا بَشْرُ سَاقَنِي إِلَى بَلَدٍ جَاوَرْتُ فِيهِ خَلَائِفُهْ
فَلَسْتُ وَإِنْ عَيْشٌ تَوَلَّى بِجَازِعٍ وَلَا أَنَا مِمَّا حَمَّمَ المَوْتُ خَائِفُهْ

ثم مات من يومه، فجزعت عليه بِشْرَةُ جزعًا شديدًا ولم تزل تبكي وتند به إلى أن شهقت شهقة فماتت فدفنت إلى جانب قبره.

بطــة طيــر

قال محمد بن هارون، حدّثني أبي فيما ذكره السرّاج قال: اشتريت زوج بط، فذبحت الذكر فجعلت الأنثى تضطرب تحت المكبة، حتى كادت أن تقتل نفسها. فقلت: ارفعوا عنها المكبة. فرفعت، فجاءت فلم تزل تضطرب في دم الذكر حتى ماتت.

وقال أبو عبد الله محمد بن محمد التميمي في كتاب امتزاج النفوس: ليس في جميع الطير أوْفَى من: القمري والقمرية، الشفني، والشفنية.

وذلك أنه إذا مات أحد الزوجين تعزب الآخر بعده ولا يتأنس إلى غيره، ولا يألف رفيقًا ولا ساكنًا، ولا يزال باكيًا فرد إلى أن يلحق به.

أبو البلاد بشر بن العلاء الطهوي وسلمى

ذكر محمد بن خلف بن المرزبان: أن أبا البلاد الطُّهَوِيّ، واسمه بشر بن العلاء عشق ابنة عمه سلمى ابنة عمرو بن حنيف، وكان يهاب عمه أن يخطبها، فغاب غيبة فزوجها أبوها، أحد بني عمها، وبلغ ذلك بشرًا، فذهل عقله وأتى الخباء الذي فيه سلمى، كعادته، فرأت سلمى في وجهه صفرة وزمعًا، فحسبته جائعًا، فدفعت إليه من وراء الستر جفنة فجعل يأكل كالمجنون، فظنت به عارضًا من الحمى.

فخرجت من كسر البيت تريد بيت أختها ليلى فسمع حفيف ثوبها، فخرج معارضًا لها السيف فضربها على حبل عاتقها.

وسمعت ليلى الوجبة، فصرخت فخرج هاربًا، قال: وضربته ليلى بهراوة فتتعتع لها، وأنشد:

وَإنَّ لِلَيْلَى بيْنَ أُذنيَّ وَعَاتِقِي ... كَضَرْبَةِ سَلْمَى يَوْم نَعْفَ الشَقَائق

واستصرخ أبوها وأخواتها فهرب بشر وأوى إلى مغارة حذاء أبياتهم، يأوي فيها نهارًا، فإذا كان الليل نزل فرآها وهي تضطرب، وقد أوقدوا لها نارًا إلى أن ماتت، فقال أبو البلاد:

يَا مُوْقِد النَّار وَهَنًا مُوقِدَ النَّارِ ... بِجَانِبِ الشَّيْخ مِنْ قَرْصَاب اعْفَارِ
يَا مُوْقِدَ النَّار أَشْعِلْهَا بِعَرْفَجَةَ ... لِمَنْ تُنَوِّرُهَا مِنْ مَدَلَجٍ سَارِي
نَارٌ تُضِيءُ سَلَيْمَى وَهِيَ حاسِرَةٌ ... سُقْيًا لَمَوْقِدِ تَلْكَ النَّارِ مِنْ نَارِ

ولم يزل به وسواسه وهيامه حتى مات. وزعم السُّكَّرِي في كتاب النقائض: أنها كانت مشهورة بجمال فائق، ولم يكن يتخذ لها شبه وإن أبا البلاد لما خطبها إلى عمه، عيَّره بالفقر.

فذهب ليعمل ويجمع مهرًا، فلما أتى بالمال إلى عمه وجده يجهزها لغيره فقتلها وقال:

غُدِرْت أبَا البلَادِ بقَتْل سلْمَى ... وَكَنْتُ أبَا البِلَادِ فَتَى غَيُورا

بشــر، وهنــد

قرأت على المسند الرحالة شرف الدين المصري رحمه الله تعالى عن ابن بنت الجميزي عن شهدة أنبأنا أبو محمد بن أحمد الحافظ أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن بشران رحمه الله قراءة عليه أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن رزيق في شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة حدَّثنا أبو بكر بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي قراءة عليه سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، حدَّثنا أبو العباس أحمد بن مسروق حدَّثنا عمر بن عبد الحكم وجعفر بن عبد الله الوراق والقاسم بن الحسن عن أبي سعيد عن أبيه قال: ذكروا أنه كان في بدء الإسلام، وبعضهم يزيد على بعضهم يزيد على بعض في حديث بعض كان رجل شاب يقال له بشر، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ وكان من بني أسد بن عبد العزى وكان طريقه إذا غدا إلى رسول الله ﷺ، أخذ على جهينة، وإذا فتاة من جهينة يقال لها: هند نظرت إليه فعشقته، وكان لها من الحسن والجمال حظ عظيم.

وكان للفتاة زوج يقال له: سعد بن سعيد، وكانت الفتاة تقعد كل غداة لبشر حتى يجتاز بها لتنظر إليه، فلما أخذها حبه كتبت إليه:

تَمُرُّ بِبَابِي لَيسَ تَعْلَمُ مَا الَّذِي ... أُعَالِجُ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْكَ وَمِنْ جهْدِي
تَمُرُّ رِضي البَالُ مِنْ رَوْعَةِ الهَوَى ... وَأَنْتَ خَلِيّ الذّرْع ممَّا بَدا عِنْدِي
فَدَيْتُكَ فَانْظُرْ نَحْوَ بَابِيَ نَظْرَةً ... فَإِنَّكَ أحْظَى النَّاسِ كُلِّهِم عِنْدِي
فَوَالله لَوْ قَصَّرْت عَنَّا فَلَمْ تَكُنْ ... تَمُرُّ بِنَا أَصْبَحْتُ لَا شكَ فِي لَحْدِي

فأجابها الفتى بقوله:

عَلَيْك بِتَقْوَى الله وَالصَّبْرِ إِنَّهُ ... نَهَانَا عَنْ إتْيَانِ النِّسَاءِ التَّعَبّدُ
وَصَبْرًا لأمْرِ الله لَا تَقْرَبِي الَّذِي ... نَهَى الله عَنْهُ والنَّبِيُّ مُحَمَّدُ
فَوَالله لَا آتِي حَلِيلَةَ مُسْلِمٍ ... إِلَى أَنْ أُدَلَّ فِي القُبُورِ وَأُفْقَدُ
أُحَاذِرُ أَنْ أَصْلَى جَحِيمًا وَأَنْ أَكُنْ ... صَرِيعًا لِنَارِ حَرُّهَا يَتَوَقَّدُ
فَلَا تَطْمَعِي فِي أَنْ أَزُوْرَكِ طَائِعًا ... وَأَنْتِ لغَيْرِي فِي الخَبَاءِ تُعَوَّدُ

فأرسلت إليه:

أَمَرْتَ بِتَقْوَى الله وَالصَّبْرِ وَالتُّقَى ... فَكَيْفَ وَمَالِي مِنْ سَبيلٍ إِلَى الصَّبْرِ

وَهَلْ تَسْتَطِيعُ الصَّبْر حَرّي حَزِيْنَةٌ مُعَذَّبَةٌ بِالْحُبِّ مُوقُورَةُ الظَّهْرِ؟
وَوَاللهِ مَا أَدْعُوكَ يَا حبُّ لِلَّذِي تَظُنُّ وَلَكِنْ لِلْحَدِيْثِ ولِلشِّعْرِ
وَلَسْتُ فَدَتْكَ النَّفسُ أَبْغِيْكَ مُحَرَّمًا وما ذاكَ مِنْ شأنِي وَلَا ذَاكَ مِنْ أمري
وَمَا حَاجَتِي إِلَّا الحَدِيْث وَمَجْلسٌ يُسَكِّنَ دَمْعًا قَدْ يَسِيْلُ عَلَى النَّحْرِ

فأجابها بشر:

مَنَعَ الزِّيَارَة أَنْ أَزُورك طَائِعًا أَخْشَى الفَسَادَ إِذَا فَعَلْتُ فَنعْتَدِي
أَخْشَى دُنُوًّا مِنْكِ غَيْرُ مُحَلَّلٍ فَأَكُونَ قَدْ خَالَفْتُ دِيْنَ مُحَمَّدِ
وأخَافُ أَنْ يَهْوَاكِ قَلْبِي سَارِقًا فَيَكُونَ حَتْفِي بالَّذي كَسَبَتْ يَدِي
وَالصَّبْرُ خَيْرُ عَزِيْمَةٍ فَاسْتَخْصِنِي وَإِلَى إِلٰهك ذي المَعَارِجِ فَاقْصِدِي
وَإذَا أَتَتْكِ وَسَاوِسٌ وَتَفَكُّرُ وَتَذَكُّرٌ فَلِكُلِّ ذَلِكَ فَاطَرِدي
وَعَلَيْكَ يس فَإِنَّ قُرانَها يَنفِي الهُمُومَ وَذَاكَ نَفْسكِ عَوِّدِي

فكتبت إليه الفتاة:

لَعَمْرِكَ مَا يس تُغْنِي مِنْ الهَوَى وَقُرْبُكَ مِنْ يس أَشْهَى إِلَى قَلْبِي
فَدَعْ ذِكْرَ يس فَلَسْتَ بِنَافِعِي فَإنِّي فِي غَمْرِ الحَيَاةِ وَفِي كَرْبِ
تَحَرَّجتَ عَنْ أَتْيانِنَا وَحَدِيْثنا فَقَتْلِي إنْ فَكَّرتَ مِنْ أَعْظم الذَّنْبِ
وَإِتْيَانُنَا أَدْنَى إِلَى اللهِ زُلْفَةً وَأَحْسَنُ مِنْ قَتْلِ المُحِبِّ بِلَا عَتْبِ

فلما قرأ بشر هذه الأبيات غضب غضبًا شديدًا وحلف لا يمر بباب هند، ولا يقرأ لها كتابًا فلما امتنع من ذلك كتبت إليه:

سَأَلْتُ رَبِّي وَقَدْ أَصْبَحْتَ لِي شَجَنًا أَنْ تُبْتَلَى بِهَوى مَنْ لَا يُبَالِيْكَا
حَتَّى تَذُوقَ الَّذِي قَدْ ذُقْتُ مِنْ نَصَبٍ وَتَطْلُبَ الوَصْلَ مِمَّنْ لَا يُوَافِيْكَا
رَمَاكَ رَبِّي بِحُمَّاةٍ مُقَلْقِلَةٍ وبِامْتِنَاعِ طَبيْبٍ لا يُدَاوِيكَا
وَأَنْ تَظَلّ بِصَحْرَاءٍ عَلَى عَطَشٍ تُطَالِبُ المَاءَ مِمَّنْ لَيْسَ يَسْقِيْكَا

فلما لجّ بشر وترك الممر ببابها أرسلت إليه بوصيفة لها، فأنشدته هذه الأبيات فقال للوصيفة: الأمر كيت، فلما جاءت الوصيفة إليها أخبرتها بقول بشر، فكتبت إليه الفتاة:

كَفِّرْ يَمِيْنكَ إِنَّ الذَّنْبَ مَغفُورُ واعْلَم بِأَنَّكَ إنْ كَفَّرْتَ مَأْجُورُ

لَا تَطْرُدَنَّ رَسُوْلِي وَارْثِيَنْ لَهُ وَاعْلَم بِأَنَّ قَلِيْلَ الذَّنْب مَغْفُورُ
وَاعْلَمْ بِأَنِّي أَبِيْتُ اللَيْلَ سَاهِرَةً وَدَمْعُ عَيْنِي عَلَى خَدِّي مَحْدُورُ
ادْعُوهُ بِسْمِكَ فِي كَرْبٍ وَفِي تَعَبِ وَأَنْتَ لَاهٍ قَرِيْرُ العَيْنِ مَسْرُورُ

فلما لجّ بشر وترك الممر ببابها اشتد ذلك عليها، ومرضت مرضًا شديدًا، فبعث زوجها إلى الأطباء.

فقالت: لا تبعث إليّ طبيبًا، فإني قد عرفت دائي، قَهَرَني جنيٌّ في مغتسلي. فقال لي: تحوّلي عن هذه الدار، فليس لك في جوارنا خير. فقال لها زوجها: وما أهون هذا؟! فقالت: إني رأيت في منامي أن أسكن ببطحاء تراب.

قال: اسكني بنا حيث شئت، فاتخذت دارًا على طريق بشر، فجعلت تنظر إليه كل غداة إذا غدا إلى النبيّ ﷺ، حتى برئت من مرضها، وعادت إلى حسنها.

فقال لها زوجها: إني لأرجوا أن يكون لك عند الله خير لما رأيت في منامك: أن اسكني بطحاء تراب، فأكثري من الدعاء.

وكانت مع هند في الدار عجوز، فأفشت إليها أمرها، وشكَتْ ما ابتليت به، وأخبرتها أنها خائفة إن علم بشر بمكانها ترك المرور به.

فقالت لها العجوز: لا تخافي، فإني أعلم لك أمر الفتى، وإن شئت أقعدتك معه ولا يشعر بمكانك.

قالت: فليت ذاك قد كان فقعدت العجوز على طريق باب الدار فلما أقبل بشر. قالت له العجوز: يا فتى هل لك أن تكتب لي كتابًا إلى ابن لي بالعراق؟

قال بشر: نعم، فقعد يكتب والعجوز تملي عليه، وهند تسمع كلامهما.

فلما فرغ بشر قالت له العجوز: يا فتى إني لأظنك مسحورًا.

قال بشر: وما علمك بالعلّة؟

قالت لي: بذلك علم، فمن الذي يُتهم؟

قال لها: إني كنت أمر على جهينة، وإن قومًا منهم كانوا يُرسلون إليّ ويدعوني إلى أنفسهم، ولست آمنهم أن يكونوا قد فعلوا بي شيئًا.

فقالت له العجوز: انصرف عني اليوم حتى انظر في أمرك. فلما انصرف دخلت العجوز على هند. فقالت: هل سمعت ما قال لي؟

قالت: نعم. قالت: فأبشري فإني أراه فتًى حدثًا لا عهد له بالنساء، ومتى ما أتى زينتك وطيبتك، وأدخلتك عليه فتغلب شهوته وهواه دينه، فانظري أي يوم يخرج زوجك إلى شغله، فأخبريني. فسألت هند زوجها، فأخبرها أنه خارج يوم كذا وكذا فأخبرت العجوز.

فواعدت العجوز بشرًا ميعادًا تنظر له في نجمه، فلما كان في ذلك الوقت جاء بشر إلى العجوز. فقالت: إني شاكية لست أقدر على أن أَنْشُرك إلا في البيت وهو أستر عليك، فدخل معها البيت. وجاءت هند خلفها فدخلت البيت على بشر.

فلما دخلت خرجت العجوز، وأغلقت الباب عليهما. وقدم زوج هند من الخروج في ذلك اليوم إلى الضيعة، فجاء حتى دخل داره، فوجد مع امرأته رجلًا في البيت.

فطلق امرأته، ولبَّب الفتى، فذهب به إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله سَلْ هذا الرجل بأي حق دخل داري، وجامع زوجتي.

فبكى بشر، وقال: والله يا رسول الله ما كذبتك مذ صدقتك، وما كفرت بالله مذ آمنت بك، ولا زنيت مذ شهدت إن لا إلـٰه إلا الله، فقصّ على رسول الله ﷺ قصته، فبعث النبيّ ﷺ إلى العجوز، وهند، فأحضرهما، فأقَرَّتا بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: «الحمد لله الذي جعل من أمتي نظير يوسف الصديق عليه السلام».

ثم قال لهند: «استغفري لذنبك» وأدب العجوز، وقال لها: «أنت رأس الخطيئة» فرجع بشر إلى منزله، وهند إلى منزلها. فهاج ببشر حب هند فصبر حتى إذا قضت عدتها بعث إليها يخطبها.

فقالت: لا والله لا يتزوجني وقد فضحني عند رسول الله ﷺ، ثم مرض بشر من حبها، وعاد إليها الرسول فقال: إنه مريض، وإنك إن لم تفعل ليموتن.

فقالت: أماته الله، فطال ما أمرضني، قال: فزاد مرض بشر واشتد مرضه، وبلغ أصحاب النبيّ ﷺ خبره، فأقبلوا إليه يعودونه.

فقال بعضهم: أنا أرجو أن يعذب الله هند فأنشأ بشر يقول:

إلَـٰهِـي إنِّـي قَـدْ بُـلِيـتُ بِـحُـبِّـهَـا
وأَصْبَحْتُ يَا ذَا العَرْشِ في أشْغَلِ الشُّغلِ
أَكَابِدُ نَفْسًا قَدْ تَوَلَّى بِهَا الهَوَى
وَقَدْ مَلَّ إخْوَانِي وَقَدْ مَلَّنِي أَهْلي
وَقَد أيْقَنَتْ نَفْسِي بِأنِّي هَالِكٌ
بِهِنْدٍ وَأَنِّي قَدْ وَهَبْتُ لَهَا قَتْلِي
وإِنِّي وَإنْ كَانَتْ إلَيَّ مُسِيئَةٌ
يَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ تُعَذَّبَ مِنْ أَجْلِي

قال: وشهق شهقة فمات رحمه الله. وأقامت عليه أخته مأتمًا فقالت أخته تندبه، وجاءت هند إلى مأتمه وهي تقول:

وَابِشْرَاهُ مِنْ لَوْعَةِ الهَوَى قَدْ تَوَلَّى ... وَابِشَرَاهُ ذَا الحَاجَات لَا تُقْضَى
وابشْرَاهُ جَمَالُهُ مَا تَمَلَّا ... وابشْرَاهُ صَحِيْحًا قَدْ تَوَلَّى
وَابِشْرَاهُ لِكِتَابِهِ مَا أقْرا ... وَابْشْرَاهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مَا يَرَى
وَابِشْرَاهُ لِلضَّيْفِ مَا أقْرى ... وَابِشْرَاهُ مُعَجّلًا إلَى الغُرَبَا

قال: فلما سمعت ذلك هند صرخت ووقعت ميتة، رحمهما الله، فدفنت مع بشر.

فلما مضى لهما أيام جاءت العجوز إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا رأس الخطيئة كما قلت، أنا الذي كنت سبب الأمر، وقد خشيت أن لا يكون لي توبة، فقال عليه السلام: «استغفري لذنبك وتوبي، فإن الله عزّ وجلّ يقبل التوبة النصوح» انتهى.

وضّاح اليمن وأم البنين

قال أبو مسهر: كان وضاح اليمن، والمقنع الكندي، وأبو زبيد الطائي يردون مواسم العرب متبرقعين يسترون وجوههم خوفًا من العين، وحذرًا على أنفسهم من النساء لجمالهم وكان وضاح اليمن نشأ هو وأُم البنين بنت عبد العزيز صغيرين فأحبها وأحبته، فكان لا يصبر عنها حتى إذا بلغت حجبت عنه.

قال المرزباني: هو ابن إسماعيل بن عبد كلال بن يزداد بن أبي حمد من الأبناء، وكان من أجمل الناس وجهًا.

وقال الحافظ أبو موسى بن عساكر: وضاح لقب، واسمه عبد الله. وقال أبو الفرج الأصبهاني عبد الرحمٰن بن إسماعلي، وأمه من آل ذي قيقان، ثم من آل ذي جدن.

قال أبو مسهر: فلما زوجت أم البنين بالوليد بن عبد الملك، ذهب عقل وضاح، وذهب يذوب وينحل، فلما طال عليه البلاء خرج إلى الشام فجعل يطيف بقصر الوليد بن عبد الملك في كل يوم ولا يجد حيلة حتى رأى يومًا جارية صفراء، فلم يزل يأنس بها. فقال لها: هل تعرفين أُم البنين؟ قالت: إنك تسأل عن مولاتي.

فقال: إنها لابنة عمي، وإنها لتُسَرُّ بموضعي لو أخبرتها. قالت: نعم، فإني أخبرها. فمضت الجارية، فأخبرت أُم البنين، فقالت: ويلك، أَوَ حَيٌّ هو؟ قالت: نعم.

قال: قولي له: كن بمكانك حتى يأتيك رسولي. قال الخرائطي: حدّثنا محمد بن يحيىٰ الفريابي حدّثنا إسحٰق بن الضيف عن أبي مسهر أنه قال: فأدخلته في صندوق، فمكث عندها حينًا إذا أمنت أخرجته، فقعد معها، وإذا خافت عين رقيب أدخلته الصندوق.

فأهدي للوليد بن عبد الملك جوهر، فقال لبعض خدمه، خذ هذا الجوهر فامضي به إلى أُم البنين.

قال: فدخل الخادم من غير أن يستأذن، ووضاح معها، فلمحه، ولم تشعر أُم البنين، فأدّى الخادم الرسالة، وقال لها: هبي لي من هذا الحجر حجرًا.

فقالت: لا أُم لك، وما تصنع أنت بهذا؟ فخرج وهو عليها حنق.

فجاء إلى الوليد، فأخبره بما رأى، ووصف له الصندوق الذي رأى وضاحًا دخله. فقال له: كذبت لا أُم لك.

ثم نهض الوليد مسرعًا فدخل عليها وهي في ذلك البيت وفيه عدة صناديق، فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم.

فقال لها: يا أُم البنين، هبي لي صندوقًا من صناديقك هذه.

قال: يا أمير المؤمنين هي لك وأنا أيضًا. فقال: أريد هذا الصندوق الذي تحتي فقط.

فقالت: إن فيه شيئًا من أمور النساء. قالت: ما أريد غيره.

فقالت: هو لك. فأمر به فحمل.

ودعا بغلامين أعجمين، فأمرهما بحفر بئر فحفرا حتى إذا بلغ الماء وضع فمه على الصندوق وقال: أيها الصندوق قد بلغنا عنك شيء فإن كان حقًّا فقد دفنا خبرك، وإن كان كذبًا فما علينا في دفن صندوق من خشب حرج.

ثم أمر به فأُلقي في الحفرة وأمر بالخادم فقذف به فوقه، ثم طوى عليهما جميعًا التراب.

قال أبو مسهر: فكانت أُم البنين لا تزال توجد في ذلك المكان تبكي إلى أن وجدت فيه يومًا مكبوبة على وجهها ميتة.

زاد التميمي في كتاب امتزاج النفوس: فلما دفن وضّاح، أقام الوليد معها في ذلك البيت ثلاثًا لا يبرح.

قال: ويقال: إنه لم يجمعهما بعد ذلك اليوم فراش.

الجارية التغلبية النصرانية والغلام المسلم

ذكر التميمي في كتاب الامتزاج: عن أبي يزيد النحوي عن رجل من أصحاب الحديث قال: دخلت ديرًا في بعض المنازل، ذُكر لي أن فيه راهبًا حسن المعرفة بأخبار الناس وأيامهم فصرت إليه فوجدته في حجرة وعليه زي المسلمين، فسألته عن سبب إسلامه.

فحدّثني: أنه كان في هذا الدير جارية نصرانية من بني تغلب كثيرة الأموال. وأنها هويت غلامًا مسلمًا، وكانت تبذل له الأموال والرغائب، والغلام يأبى عليها.

فلما أعيتها الحيلة، أعطت رجلًا مصورًا مائة دينار على أن يصور لها صورة الغلام، ففعل ذلك، فما زالت تأتي كل يوم إلى تلك الصورة، فتلثم ما تحب منها، ثم تجلس بإزائها تبكي، فإذا أمست قبلتها وانصرفت.

فما زالت على ذلك مدة، فتوفي الغلام، فعملت مأتمًا عليه صارت به مثلًا.

ثم رجعت إلى الصورة، فلم تزل تلثمها وتقبلها وتبكي إلى أن أمست فباتت إلى جانبها، فلما أصبحنا وجدناها ميتة ويدها ممدودة على الحائط وقد كتبت عليه تقول:

يَا مَوْتُ دُوْنَكَ رُوْحِي بَعْدَ سَيِّدِهَا ... خُذْهَا إلَيْكَ فَقَدْ أَوْدَتْ بِمَا فِيْهَا
أَسْلَمْتُ رُوْحي للرَّحْمَـٰنِ مُسْلمَةً ... وَمِتُّ مَوْتَ حَبِيْبٍ كَانَ يَعْصِيْهَا
لَعَلَّهَا فِي جِنَانِ الخُلْدِ يَجْمَعُهَا ... يَوْمَ الحِسَابِ وَيَوْم البَعْث بَارِيْهَا
مَاتَ الحَبِيْبُ وَمَاتَتْ بَعْدَهُ كَمَدًا ... مُحِبَّةٌ لَمْ تَزَلْ تشْقي مُحِبِّيْهَا

قال: فشاع ذلك حتى بلغ المسلمون فاحتملوها ودفنوها إلى جانبه، وأخذوا مالها. فبت مغمومًا بما آل إليه أمرها، فرأيتها في المنام، فقلت: فلانة، ما فعل الله بك؟ فقالت:

أَصْبَحْتُ فِي رَاحَةٍ مِمّا أُكَابِدُهُ ... وَبِتُّ جَارَةَ فَرْدٍ وَاحِدٍ صَمَدِ
مَحَى الإِلَهُ ذُنُوبِي كلَّهَا وَغَدَا ... قَلْبِي خَاليًا مِنَ الأَحْزَانِ والكَمَدِ
لَمَّا قَدِمْتُ عَلَى الرَّحْمـٰنِ مُسْلِمَةً ... وَقُلْتُ إنَّكَ لَمْ تُوْلَدْ وَلَمْ تَلِدِ
أَثَابَنِي رَحْمَةً مِنْهُ وَأَسْكَنَنِي ... مَعَ مَنْ هَوَيْتُ جِنَانًا آخِر الأَبَدِ

فعلمت أن الذي صارت إليه خير من الذي أنا عليه، فأسلمت وأسلم معي أهل الدير وكانت رحمها الله تعالى السبب.

توبة بن الحمير بن حزم الخفاجي، وليلى الأخيلية

ذكر أبو الفرج الأصبهاني: توبة بن الحمير بن حزم بن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فقال: كان شاعرًا لصًّا، وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك.

وكان يهوى ليلى بنت عبد اللهبن الرحال وقيل الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية، وهو الأخيل، وهو فارس الهزاز.

وكان لا يراها إلا متبرقعة، فأتاها يومًا بعد ما شكاه قومها إلى السلطان، فأباحهم دمه حتى أتاهم فمكثوا له في الموضع الذي يلقاها فيه.

فلما علمت به خرجت إلى مسفرة حتى جلست في طريقه. فلما جاء ورآها مسفرة فطن لما أرادت وأنها لم تسفر إلا لأمر، فقال:

فَأَتْكَ بِلَيْلَى دَارَاهَا لَا تَزُورَهَا ... وَشَطَّ نَوَاهَا واسْتَمَرَّ مَرِيْرهَا
يَقُول رِجَال لا يَضُرُّكَ نَايُهَا ... بَلَى كُلّ مَا شَفّ النُّفوس يُضِيْرهَا
أظُنُّ بِهَا خَيْرًا وَأَعْلَمُ أَنَّهَا ... سَتَنْفَكُ يَوْمًا أَوْ يُفَك أَسِيْرُهَا
بَلَى قَدْ يَضرُ العَيْن أنْ تُكْثِرَ البُكَا ... وَيَمْنَعَ مِنْهَا نَوْمُها وسُرُوْرَهَا
أرَى اليَوْمَ يَأْتِي دَوْنَ لَيْلَى كَأَنَّمَا ... أَتَت حجَّة مِنْ دُوْنهَا وشُهُوْرهَا
حَمَامَة بَطْن الوَادِ بَيْنِ تَرَنَّمِي ... سَقَاكِ مِنْ الغرِ العذَابِ مَطِيرهَا
أَبِيْنِي لَنَا لَا زَالَ رِيْشُكِ نَاعمًا ... وَلَا زِلْتُ فِي خَضْراء عَالِ بَرِيْرَهَا
وأَشْرفُ بِالْقَودِ البِقَاعِ لَعَلَّني ... أرَى نَارَ لَيْلَى أَوْ يَرَانِي بَصيْرَهَا
وَكَنْتُ إذَا مَا جئْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ ... فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الغَدَاة سُفُورَهَا
عَلَيَّ دِمَاء الْبُدْنِ إنْ كَانَ بَعْلهَا ... يَرَى لِي ذَنْبًا غَيرَ أَنِّي أزُوْرَهَا
وَإِنِّي إذَا مَا زُرْتُهَا قُلْتُ يا اسْلمي ... وَيَأْبَى بِي قَوْلِ اسْلمي مَا يَضيْرَهَا
وَقَدْ زَعَمَتْ لَيْلَى بِأَنِّي فَاجِرٌ ... لِنَفْسِي تُقَاهَا أو عَلَيْهَا فُجُورَهَا

وقال فيها أيضًا:

وَلَوْ أَنْ لَيْلَى الأخْيَلِيَّة سَلَّمَتْ ... عَلَيَّ وَدُونِي جَنْدلٌ وصَفَائح
لَسَلَّمْت تَسْليم البَشَاشَة أوْرَقا ... إلَيْهَا صدًا منْ جَانب القَبْر صائحُ
وَلَوْ أنَّ لَيْلَى في السَّمَاء لأصعدَتْ ... بطَرْفي إلَى لَيْلَى العُيُونَ اللَّوَئحُ
اغبط من ليلى بما لا أناله ... أَلَا كُلَّمَا قَرَّتْ به العَيْنُ صَالحُ
وهَل تَبْكينَ لَيْلَى إذا متُّ قَبْلَهَا ... وَقَامَ عَلَى قَبْري النِّسَاء النَوَائحُ
كَمَا لَوْ أصَابَ الموْتُ بَكَيْتُهَا ... وَجَادَ لَهَا دَمْعٌ منَ العَيْن سافحُ

وهذا الشعر كان سبب موت ليلى. وذلك أن بعلها مرَّ هو وليلى بقبر توبة، فتجنبته ليلى.

فقال: ما رأيت رجلًا أكذب من صاحب هذا القبر. فردت عليه ردًا سيئًا، وقالت: ولِمَ؟ قال: لقوله: لسلَّمْتُ. والله لتسلمي عليه حتى يتبين كذبه.

فاستعصته، فأبى، وهي على بعير، فدنت من القبر وسلمت، وكان بجانب القبر بُومة، فلما رأتها نفرت فنفر منه البعير، فبردت ليلى.

فكان قبرها هناك، وقال المدائني: لما دخلت ليلى على الحجاج، قال لجلسائه: أتدرون هذه؟

قالوا: لا والله، أيها الأمير، إلا أننا لم نَرَ امرأة قط أفصح لسانًا، ولا أحسن محاورة، ولا أملح وجهًا، ولا أرصن شعرًا منها.

قال: هي ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها. ثم قال لها: يا ليلى، هل رأيت منه جنوحًا لبعض الأمر؟ قالت: لا والله غير أنه قال لي مرة قولًا ظننت أنه قد خضع فيه لبعض الأمر، فأنشأت أقول:

وَذِي حَاجَة قُلْنَا لَا تَبُح بِهَا ... فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيِّيْتُ سَبِيْلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُوْنَهُ ... وَأَنْتَ لأَخْرَى صَاحِب وَخَلِيْلُ

فلا والله ما رأيت منه شيئًا فَرَّقَ الموت بيني وبينه، ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له فحصل له ضعف، وتذكارٌ لأحبته فأوصى ابن عمه إذا أتيت الحاضر من بني عبادة فناده بأعلى صوتك.

عَفَى الله عنهَا هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً ... منَ الدَّهْرِ لَا يَسْرِي إليَّ خَيَالهَا

فخرجت وأنا أقول:

وَعَنْهُ عَفَى رَبِّي وأَحْسنَ حَالَهُ ... فَعَزّ عَلَيْنَا حَاجَةً لَا يَنَالهَا

قال الحجاج: ثم مه؟ قالت: ثم أتانا نعيه. وزعم الزجاجي في أماليه: أنه مات مقتولًا.

وسمعت غير واحد من أشياخي يزعم أنه مات عشقًا، والله علم.

قال: فأنشدينا بعض مراثيك، فأنشدت:

كَانَ فَتَى الفتيَان لَمْ ينخ ... قَلَائص يعركْنَ الحَصَى بالكَرَاكر
وَلَمْ يَثْن أَبرادًا عَيَّافًا لفتْنَة ... وَلَمْ يَتَرَحَّل قَبْلَهُم في الهَوَاجر
وَلَمْ يَنْجَلي للصُّبْح وعنه وبطنه ... لَطيْفٌ كَطَيّ السب لَيْسَ بحَاذر
فَتَى كَانَ للْمَوْلَى سَنَاء ورفعَة ... وَللطَّارق السَّاري قَويًّ غَيْر فَاتر

وَلَمْ يَدَعْ يَوْمًا للحفَاظ وَللنَّدَى وَللْحَرْب تَرْمي نَارَهَا بالشَّرَائر
وَللْبَاذل والكَرْمَاء يَرْعَوا جَوادهَا وَللْخَيْل يَغْدُوا بالْكَمَاة المشاعر
كَأَنَّكَ لَمْ تَقْطَعْ فَلَاة وَلَمْ تُنخ قلَاصًا لذي فاو منَ الأرْض عابر
جنوحًا بموماة كَأَنَّ ضُرُوعهَا صَرِيْف خَطَاطيْفُ الصَرى المُحَاور
فأَقْسَمْتُ أَبْكي بَعْدَ تَوْبَة هَالكًا وأَحْفَلُ مَنْ مَالَتْ صُرُوف المقَادر

فلما تم من إنشادها قال محصن الفقعسي للحجاج: من هذا الذي تقول هذه هذا فيه، فوالله إني لأظنها كاذبة.

فنظرت إليه ثم قالت: إن هذا القائل لو رأى توبة لسره أن لا يكون في داره عذراء إلا وهي حامل منه.

فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب الذي كنت عنه غنيًا.

وسأل معاوية بن أبي سفيان فقال: ويحك يا ليلى، أكما تقول الناس كان توبة؟

قالت: يا أمير المؤمنين، لقد كان سبط البنان، حديد السنان، عفيف، جميل المنظر، وهو كما قلت فيه:

بَعيْدُ الثَّرَى لَا يَبلُغُ القَوْمَ قَعْـ ـرَهُ أَلَدُّ مُلدٌّ يَغْلبُ الحَق بَاطله
إِذَا حَلَّ رُكْنٌ في دَارِهِ فَظلّه لَيمـ ـنَعهُم ممَّا يَخَافُ نَوَازِله
حَمَاهُمْ بِنصلِ السَّيْفِ مِنْ كُلِّ قَادِحٍ بِخَافِقٍ مُرْخِي المَنُون خَصَائِله

فقال: ويحك إنه يزعم الناس كان عاهرًا خاربًا؟

فقالت من ساعتها:

مَعَاذَ إِلَهِي كَانَ وَالله سَيِّدًا جَوَادًا عَلَى العِلَّاتِ جَمًّا نَوَافِلُه
أَغَرّ خَفَاجيًا يَرَى المَوْتَ سُبَّة تَخلبُ كَفَّاهُ النَّدَى وأَنَامِلُه
عَفِيْفًا بَعِيْدَ الْهَمِّ صَلْبًا قَنَاتُهُ جَميْلًا مُحَيَّاهُ قَلِيْلًا غَوَائِلُهُ
وَكَانَ إِذَا مَا الضَّيْفُ أرغَى بعيرهُ لَدَيْهِ أَتَتْهُ دِسَعَه ومَوَاصِلُه
وَقَدَ عَلِمَ الجُوْعُ الَّذِي بعاتَ سَارِيَا عَلَى الضَّيْفِ والجرَار أَنَّكَ قَاتِلُه

فقال لها معاوية: ويحك قد تجاوزت.

فقالت: والله يا أمير المؤمنين، لو رأيته لعلمت أني مقصرة في نعته لم أبلغ كنهه. وكان توبة لما دخل إلى الشام، مرَّ على بثينة في بني عذرة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك عليه.

فقال له جميل: مَن أنت؟ فقال: أنا توبة. فقال جميل: هل لك في الصراع؟ فقال: ذلك إليك.

فنبذت بثينة إلى توبة ملحفة مورسة فاتزر بها، ثم صارعه، فصرعه جميل، ثم قال له: هل لك في النصال؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه.

فضحك جميل، فقال له توبة: يا هذا إنك تفعل هذا بريح هذه الجالسة، ولكن اهبط بنا إلى الوادي بحيث لا تراها فهبطا، فصرعه توبة، وسبقه، ونصله وكان توبة كثير الغارة، وأهدى للطريق، وأشعر الناس.

التركي والجارية والرومية

هَيْهَاتَ مَا حُرِمَا وِصَالا زَائِلا إلَّا لِيَنْفَرِدا بِوَصْلٍ خَالِدِ

ذكر الشيرازي في كتابه: روضة القلوب: أنه رأى بحلب سنة خمس وستين وخمسمائة رجلًا تركيًا له جارية رومية يهواها.

وأنها أحبت شابًا خياطًا، فأعلمت حيلة في وصله، فلم تقدر.

فطلبت من سيدها أن يعتقها ويتزوجها ففعل.

ثم أراد تزوجها، فاستنظرته حتى آن تزويجها، أرسلت إلى الخياط فتزوجته عند القاضي محي الدين أبو حامد محمد بن محمد الشهرورزي.

فلما بلغ التركي ذاك، صاح صيحة عظيمة ثم اختلط ذهنه ووسوس فحمل إلى البيمارستان.

فأقام في الحديد خمسة أيام لم يأكل ولم يشرب حتى مات تلك الأيام.

الفتى العذري وابنة عمه

عن الأصمعي عن أبي عمرو قال: حدّثني رجل من بني تميم قال: خرجت في طلب ضالة لي، فبينا أنا أدور، أرض بني عذرة أنشد ضالتي إذا أنا ببيت معتزل عن البيوت، وإذا في كسر البيت فتى شاب مغمى عليه، وعند رأسه عجوز لها بقية من جمال ساهية تنظر إليه.

فسلمت، فردت السلام، فسألتها عن ضالتي، فلم يك عندها منها علم فقلت لها: أيتها العجوز، من هذا الفتى؟ قالت: ابني. ثم قالت: هل لك في أجر لا مؤنة فيه؟ فقلت: والله إني لأحب الأجر، وإن رزئت. فقالت: إن ابني هذا يهوى بنت عمه وكان علقها وهما صغيران، فلما كبر حجبت عنه فأخذه شبيه بالجنون، ثم خطبها إلى أبيها، فامتنع من تزويجه وخطبها غيره فزوجها إياه، فنحل جسم ولدي واصفر لونه وذهل عقله، فلما كان منذ شهرين، زفت إلى زوجها.

فهو كما ترى لا يأكل ولا يشرب مغمى عليه فلو وعظته؟

قال: فنزلت فلم أدع شيئًا عن المواعظ إلّا وعظته، حتى أني قلت له فيما أقول: إنهن صواحبات يوسف عليه السلام، الناقضات العهد، وقد قال فيهن كثير:

هَلْ وصلُ عزَّة إلّا وَصْلُ غَانِيَةٍ فِي وَصْل غَانِيَةٍ مِنْ وَصْلِهَا خَلَفُ

قال: فرفع رأسه محمرة، عيناه كالمغضب وهو يقول: إن كثير كان رجلًا مانقًا، وأنا رجل وامق، ولكني كأخي تميم حيث يقول:

أَلَا لَا يَضُر الحَبُّ مَا كَان ظَاهِرًا وَلَكِنّ مَا أَخْفَى الفُؤَادُ يُضِيرُ
أَلَا قَاتَلَ الله الهَوَى كَيْفَ قَادَنِي كَمَا قيّدَ مَغْلُولُ اليدَيْنِ أَسِيْرُ

فقلت له: فإنه قد جاء عن نبيّنا ﷺ أنه قال: «من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بي».

فأنشأ يقول:

أَلَا مَا لِلْمَلِيْحَة لَمْ تَعُدْني أَبُخْل بالْمَلِيْحَة أمْ صُدُوْدُ
مَرِضْتُ فَعادَنِي أَهْلِي جَمِيْعًا فَمَالَكِ لَمْ تُرَفي فِيْمَنْ يَعُوْدَ
وَمَا اسْتَطَابَ غَيْرُكَ فَاعْلِمِيْه وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحِمِي عَدِيْدُ
فَلَوْ كُنْتِ الْمَرِيضَ فَكُنْتُ أسْعَى إلَيْكَ وَمَا يُهَدِّدنِي الوَعِيْدُ

قال: ثم شهق شهقة وخفت فمات فبكت العجوز، وقالت: فاضت نفسه فدخلني أمر لم يدخلني مثله، فما رأت العجوز ما حل بي قالت: يا بني لا تراع مات والله ولدي بأجله، واستراح من بتاريخه وغصته.

ثم قالت: هل في استكمال الصنعية؟

قلت: قولي، إن أحببت؟

قالت: تأتي البيوت فتنعاه إليهم ليعاونوني على رمسه فإني وحيدة.

قال: فركبت نحو البيوت، فإذا أنا بجارية أجمل ما رأيت من النساء ناشرة شعرها حديثة عهد بعرس، فقالت: بفيك الحجر مَن تنعي؟

فقلت: أنعي فلانًا. قالت: أو قد مات؟

قلت: إي والله. قالت: فهل سمعت له قولًا؟

قلت: اللهم لا إلا شعرًا. قالت: وما هو؟

فأنشدتها قوله:

أَلَا مَا للْمَلِيْحَة لَمْ تَعُدْني الأبيات

فاستعبرت باكية، وأنشأت تقول:

عَـدَانِـي أنْ أَزُوْرَكَ يَـا مُـنَـايَ … مَـعَـاشِـر طُـهُـمُ بَـاغ حَـسُـودُ
أَشَاعُوا مَا عَلِمْتَ منَ الدَّوَاهِي … وَعَـابُـونَـا وَمَـا فـيْـهِـمْ رَشـيْـدُ
فَـلَـمَّـا أنْ ثُـويْـتَ الـيـوْمَ لَحْـدًا … وَكُـلّ الـنَّـاسِ دُوْنَـهـم لُحُـودُ
فَـلَا طَـابَـتْ لِيَ الـدُّنْـيَـا فَـوَاقًـا … وَلَا لَهُـم أَثْـرِي الـعَـديْـد

ثم شهقت شهقة خرّت مغشيًا عليها وخرج النساء من البيوت فاضطربت ساعة، ثم ماتت.

فوالله ما برحت الحي حتى دفنتهما جميعًا.

أخوان من ثقيف

قال عبد الملك بن عمير: كان أخوان من ثقيف، ممن بني كنه ـ يعني: عنة كنه بن خذيمة بن واثلة بن شاكر بن ربيعة بن ماكل بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن جشم بن خيران بن نوف بن همذان، ولهم ولادة في ثقيف. كذا قاله أبو عبيد ـ بينهما من التحاب والتواصل شيء لا يعلمه إلا الله.

كل واحد منهم عندهما عنده أخوه عدل نفسه، وأن الأكبر خرج إلى سفر ـ وله امرأة ـ فأوصى أخاه بحاجة أهله فبينما المقيم في دار الظاعن إذ مرت امرأة أخيه وكانت من أجمل البشر في درع تجوز من بيت إلى بيت فرآها، فرأى شيئًا

حَيَّرَهُ، فلما رأته وَلوَلت ووضعت يدها على رأسها ودخلت بيتها، ووقع حبها في قلبه، فجعل يذوب وينحل جسمه، وتغيّر لونه، وقدم أخوه فقال: يا أخي مالي أراك متغيّرًا؟ ما وجعك؟

قال: ما بي وجع.

فدعا له الأطباء، فلم يقع أحد على دائه غير الحارث بن كلدة، فقال: أرى عينين صحيحتين، وما أدري ما هذا وما أظنه إلا عشقًا.

فقال أخوه: سبحان الله أسألك عن وجه أخي وأنت تستهزىء؟!

قال: ما فعلت، وسأسقيه شرابًا عندي فإن يكن عاشقًا، فسيستبين لكم.

فأتاه بشراب، فجعل، يسقيه قليلًا قليلًا، فلما أخذ الشراب منه تهيّج وبكى، ثم قال:

يَهِيجُ ما يَهِيجُ ويذكر ... أيُّهَا القَلْبُ الحَزِيْنُ مَا يَكُنّه
أَلَمّا بي عَلَى الأبْيَا ... تِ مِنْ خَيفِ أزْزُهُنّه
غَزَالًا مَا رَأَيْتُ الْيَوْ ... مَ فِي دُوْرِ بَنِي كُنّه
غَزَالٌ أَحْوَرُ العَيْن ... وَفِي مَنْطِقِه غُنَّهْ

فقالوا له: أنت أطيب العرب، فمن؟ قال: سأعد له الشراب، فلعله يسمي. قال فأعد له الشراب، فقال:

أيُّهَا الحَيّ سَلِّمُوا ... وأَرْبَعُوا كَيْ تُكَلِّمُوا
وَتُغطوا لَبَانَة ... وتُحَيّوا وتَقِيْمُوا
أَخَذَ الحَيُّ حَظَّهم ... مِنْ فُؤَادي فَانْعَمُوا
خَرَجَت مُزْيَةٌ من البَحْر رَيّا تُحمْحمُوا ... هيَ مَا مُكْنَتي وتَزْعُمُ أنّي لهَا حمُوا

قالوا: فطلق أخوه امرأته. فقال: المريض على كذا وكذا إن تزوجتها. فمات من حبها، ولم يتزوجها. ذكره الخرائطي في كتاب حمزة.

ثم ثاب إليه ثائب من القوة ففارق الطائف خفرًا، وهام في البرية فما رئي بعد ذلك فمكث أخوه بعده أيامًا ثم مات كمدًا على أخيه، فضرب العرب به المثل فقالوا: أتيه من قتيل ثقيف.

فتـى اليمـامة

قال جبر بن حبيب البصري: أقبلت من مكة أريد اليمامة، فنزلت بحي من بني عامر، فأكرموا مثواي، فإذا أنا بفتى حسن الهيئة، جاءني فسلّم عليّ وقال: أين يريد الراكب؟ قلت: اليمامة. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من مكة. قال: فجلس إليّ فحدّثني أحسن حديث، ثم قال: أتأذن في صحبتك إلى اليمامة؟

قلت: أحب مصحوب.

فقام، فلم يلبث أن جاء بناقة كأنها قلعة بيضاء، وعليها أداة حسنة، فأناخها قريبًا من ميلتي، وتوسّد ذراعها.

فلما هممت بالرحيل أيقظته، فكأنه لم يكن نائمًا، فقام وأصلح رحله، وركبنا، فقصر عليّ يومي بصحبته، وقصر علي سفري، فلما رأينا قصور اليمامة، تمثل الشاب:

وَأَعْرَضَت اليَمَامَة وَاشمَخَرّتْ كَأَسْيَافٍ بأَيْدي مُصلِتينَا

وهو في ذلك كله لا ينشدني إلا بيتًا معجبًا في الهوى، فلما قربنا من اليمامة مال عن الطريق إلى أبيات قريبة منا.

فقلت له: لعلك تحاول حاجة في هذه الأبيات؟ قال: أجل. قلت: انطلق راشدًا. فقال: هل أنت موف حق الصحبة؟

فقلت: أفعل. قال: مِلْ معي. فملت معه، فلما رآه أهل الصرم ابتدروه.

وإذا فتيان لهو شارة.

قال: فأناخوا بنا، وعقلوا ناقتينا وأظهروا السرور، وأكثروا البر، ورأيتهم كأشد شيء له تعظيمًا.

ثم قال: قوموا إن شئتم وقمت لقيامه حتى صرنا إلى قبر حديث التطين، فألقى نفسه عليه، وأنشأ يقول:

لَئِنْ مَنَعُونِي فِي حَيَاتِي زِيَارة أَجَافي بِهَا نَفْسًا تَرَشَّقَهَا الحُبُّ
فَلَنْ يَمْنَعُوْنِي أَنْ أُجَاوِز لَحدهَا فَيَجْمَع جِسْمَيْنَا التَّجَاوُرُ والتُرَبُ

ثم أن أنات، فمات.

فأقمت مع الفتيان حتى احتفروا له ودفنوه، فسألت عنه، فقالوا: هو ابن سيد هذا الغامط، وهذه ابنة عمه، وكان بها مغرمًا، فماتت منذ ثلاث، فأقبل إلينا وقد رأيت إلى ما آل إليه أمره.

فركبت ناقتي وكأنني والله قد ثكلت حميمًا.

لَيْتَ الَّذي بَرَحَ بي حُبَه أَمَّ لِقَلْبي فيّه تَبْريْحُهُ
عَذري إذا متُّ جَوًى بَعْده يُغْني عَن التَّضريخ تَلْويْحُهُ
فَإنَّه رُوْحي وَهَلْ يُرتَجى بَقَاء جِسْم ذَهَبَتْ رُوْحهُ

ذكر هذا الخبر ابن دريد في أماليه عن الرياشي أنبأنا الأصمعي عن جبر.

أبو جهيز مسعود

قال إسماعيل بن نصر البغدادي: صاح صائح في مجلس صالح المري ليقم البكائون المشتاقون إلى الجنة. فقام أبو جهيز، فقال: يا صالح اقرأ. فقرأ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٢٣، ٢٤].

فقال: أعدها يا صالح، فأعادها، فما انتهى حتى مات أبو جهيز.

الشاب الذي راودته المرأة فأبى

قال جابر بن نوح: كنت بمدينة الرسول ﷺ جالسًا عند بعض أهل السوق، فمرّ بي شيخ حسن الوجه والثياب، فقام إليه البياع فسلّم عليه، وقال له: اسأل الله أن يعظم أجرك، وأن يربط على قلبك بالصبر. فقال الشيخ مجيبًا له:

وَكَانَ يَمْيني فِي الوَعي وَمُساعدي فَأَصْبَحْتُ قَدْ خَانَتْ يَميني ذِرَاعُهَا
فَأَصْبَحْتَ حَرَّانًا مِنَ الثّقلِ حَاسِرًا أَجَادِلُ مَنْ ضَاقَتْ عَلَيَّ رِباعُهَا

فقال البياع: الصبر معول المؤمن وإني لأرجو أن لا يحرمك الله الأجر على مصيبتك. فقلت للبياع: من هذا الشيخ؟ فقال: رجل منا من الأنصار، ثم من بني الخزرج. فقلت: وما قصته؟ فقال: أصيب بابنه وكان به بارًا قد كفاه جميع ما يعنيه. قال: وميتته أعجب ميتة. قلت: وما كان سببها؟ وما كان خبره؟ قال: أحبته امرأة من الأنصار، فأرسلت إليه تشكو حبها، وتسأله الزيارة وتدعوه إلى

الفاحشة، وكانت ذات بعل فأرسل إليها:

إنَّ الحَرَامَ سَبِيْلٌ لَسْت أسْلُكُهُ وَمَا أَمُرّ بِهِ مَا عِشْتُ فِي النَّاسِ
فَأَلقي العتَابَ فَإِنّي غير مُتَبع مَا تَشْتَهِيْنَ وَكُونِي مِنْهُ فِي يَأْسِ

قال: فلما قرأت الأبيات كتبت إليه:

دَعْ عَنْكَ هَذَا الّذِي أصْبَحْت تَذْكُرهُ وَصِرْ إلَى رَاحَتِي يَا أَيُّهَا القَاسِ

قال: فأفشى ذلك إلى صديق له.

فقال: لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظها وزجرها رجوت أن تكف عنك. ففعل، فأبت أن تنزجر عنه.

فقال: والله لا فعلت ولا صرت في الدنيا، وللعار في الدنيا وخير النار في الآخرة.

وقال: العَارُ فِي مُدَّةِ الدُّنْيَا وَقِلَّتَهَا يَفْنَى وَيَبْقَى الَّذِي بالنَّار يُؤذِيْنِي
وَالنَّارُ مَا تَنْقَضِي مَا دَامَ بي رَمَقٌ وَلَسْتُ ذَا مِيْتَةٍ فِيْهَا فَتُفْنِيني
لَكِنْ سَأَصْبِرُ صَبْرَ الحُرّ مُحْتسِبًا لَعَلَّ رَبّي مِنَ الفِرْدوسِ يُدْنِيْنِي

ثم أنه أمسك، فأرسلت إليه: إما أن تزورني وإما أن أزورك؟

فأرسل إليها: أربعي أيتها المرأة على نفسك ودعي عنك التسرع إلى هذا الأمر.

قال: فلما أيست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر، فجعلت لها الرغائب على أن تهيجه. قال: فعملت ما أمكنها.

قال: فبينا هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه، فهاج منه أمر لم يكن يعرفه من حبها، فاختلط عقله.

فقام بين يدي أبيه مسرعًا فصلّى، واستعاذ وجعل يبكي، والأمر يتزايد.

فقال له أبوه: يا بني ما قصتك؟ فقال: يا أبه، أدركني بقيد فما أراني إلا وقد غلب على عقلي.

قال: فجعل أبوه يبكي، ويقول: يا بني حدّثني بالقصة. قال: فحدّثه بقصته.

قال: فقام إليه فقيده وأدخله بيتًا، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ ساعة عند الباب، فإذا هو ميت وإذا الدم يسيل من منخريه.

جعفر بن أبي جعفر المنصور والجنية

ذكر أبو الفرج الأموي: أن جعفر بن أبي جعفر المنصور كان يعشق امرأة من الجن، فكبر ولعه بذلك، فصار يصرع في اليوم مرات حتى مات.

فحزن عليه أبو جعفر حزنًا شديدًا، وكان جعفر خليعًا ماجنًا.

ولما نهى المنصور مطيع بن إياس عن صحبة ابنه جعفر.

قال: وأي مستصلح فيه، وأي غاية لم يبلغها في الفساد والهلاك؟!

قال: ويلك، بأي شيء هذا؟ قال: يزعم أنه يعشق امرأة من الجن وهو مجتهد في خطبتها.

ودأبه جمع أصحاب العزائم عليها، وهم يعدونه ويغرونه ويمنونه، فوالله ما فيه فض لغير ذلك من جدل ولا هزل، ولا كفر ولا إيمان.

ومن شعره فيها، وقيل هو لغيره:

لابْنَـةِ الـجِـنِّ فِـي الـحَـيِّ طَـلَـلٌ دَارِسُ الآيَـاتِ عَـافٍ كـالـخَـلَـلِ

قال الثعالبي في فقه اللغة:

وزعموا أن التناكح قد يقع بين الإنس والجن لقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: الآية ٦٤][1].

لأن الجنيات إنما يعرضن لصرع الرجال من الإنس على جهة العشق وطلب الفساد، وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم.

جميل وبثينة

ذكر أبو الفرج: جميل بن عبد الله بن معمر بن ظبيان بن جرير بن ربيعة بن حزام بن ضبة بن عبد كثير بن عبد عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، فقال: وهو شاعر فصيح مقدم جامع للرواية والشعر، كان راوية هدبة بن خشرم، وكان هدبة راوية للحطيئة، وكان الحطيئة شاعرًا راوية لزهير وابنه.

---

(١) هذا استشهاد بالآية في غير وجهه، (الإسراء، الآية: ٦٤).

وآخر من اجتمع له الشعر والرواية كثير، لأنه كان راوية جميل.

وكان مقدمًا في النسب على أصحاب النسب صادقًا في الصبابة والعشق.

وكان قد عشق بثينة بنت حي بن ثعلبة بن الهون بن عمرو بن الأحب بن حي بن ربيعة بن حزام بن ضبة.

صغيرًا، فلما كبر خطبها فرد عنها، فقال الشعر فيها سرًّا.

وكان منزلها وادي القرى، فجمع له قومها جمعًا ليأخذوه إذا أتاها محذرته بثينة فاستخفى قال:

فَلَوْ أَنْ لَنَا دُوْنَ بُثَينَة كُلهم ... غَيَارَى وَكُل خَارِب مُزمِع قَتْلِي

لَحَاوَلْتهَا إمَّا نَهَارًا مُجَاهِرًا ... وَإمَّا سَرَى لَيْلى وَلَوْ قُطِعَتْ رجلي

وهجا قومها فاستعدوا عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ عامل المدينة، فنذر ليقطعن لسانه.

فلحق بجذام وقال:

أَتَانِي عَن مَروَان بالْغَيْب أَنَّهُ ... مُفند دَمي أَوْ قَاطعُ منّي لسَانيَا

فَفي الْعَيْش مَنْجاةٌ وَفي الأرْض مَهْرَبٌ ... إذَا نَحْنُ رَفْعَنَا لَهُنَّ الـمَثانيَا

فأقام هناك حتى عزل مروان عن المدينة، فانصرف إلى بلاده، وكان يختلف إليها سرًّا.

وكان لبثينة أخ يقال له جواس، فشبب بأخت جميل. فغضب جميل وتواعدا للمراجزة، فغلبه جميل.

ولما اجتمعوا لذلك قال أهل تيماء: قل يا جميل في نفسك ما شئت، فأنت الباسل الجواد الجميل ولا نقل في أبيك شيئًا، فإنه كان لصًّا بتيماء في شملة لا تواري أسته.

وقالوا لجواس: قل وأنت دونه في نفسك وفي أبيك ما شئت، فقد صحب النبيّ ﷺ. قال كثير، قال لي جميل يومًا: خذ لي موعدًا من بثينة. قلت: هل بينك وبينها علامة؟ قال: عهدي بهم وهم بوادي الدوم يرحضون[١] ثيابهم

(١) الرضح: الغسل. أي وهم يغسلون ثيابهم.

فأتيتهم فأجد أباها قاعدًا بالفناء فسلمت، فرد وحادثته ساعة حتى استنشدني فأنشدته:

وَقُلْتُ لَهَا عَزَّ أَرْسَلَ صَاحِبي ... عَلَى نَأْيَ دَار وَالـمُوكَّل مُرْسَلُ
بأَنْ تَجْعَلي بَيْني وَبَيْنَك يَوْم لَقيْتني ... بأَسْفَل وَادي الدَّوْم وَالثَّوْبُ يُغْسَلُ

فضربت بثينة جانب الستر وقالت أخاء فقال لها أبوها: مهيم؟ فقالت: كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء هذه الرابية.

قال: فأتيت جميلًا، فأخبرته أنها وعدته وراء الرابية إذا نوم الناس.

وخرج جميل مرة حتى انتهى إلى خباء بثينة، فأقبلت ومعها نسوة فقعدن وقعدا يتحدثان ساعة، ثم أخلوهما فلم يزالا يتشاكيان حتى غشيهما الصبح فودع كل واحد صاحبه، ثم وضع جميل رجله في الغرز، فمالت إليه بثينة، فقالت: يا جميل ادن مني فمال إليها برأسه فسارته فخرّ مغشيًا عليه، فلما أفاق قال:

فَمَا مُكْفَهرٌ في رَجَاء مُرَجَّحَة ... وَلَا مَا أَسَرّت في مَعَادنها النَّخْلُ
بأَحْلَى منَ القَوْل الَّذي قُلْت ... بَعْدَ ما تمكَّنَ في حَيْزُوم نَاقَتي الرَّحْلُ

وقال ابن عياش: خرجت من تيماء، فرأيت عجوزًا على أتان فقلت: مَن أنت؟

قالت: من عذرة. قلت: هل تروين عن جميل ومحبوبته شيئًا؟

قالت: نعم، إنا لعلى ماء بين الجناب، وقد اتقينا الطريق، واعتزلنا مخافة جيوش تجيء من الشام إلى الحجاز، وقد خرج رجالنا في سفر، وخلفوا عندنا غلمانًا أحداثًا، وقد انحدر الغلمان عشية إلى صرم لهم قريب منا ينظرون إليهم، ويتحدثون عند جوار فيهم فبقيت أنا وبثينة نستبرم غزلًا لنا إذ انحدر علينا منحدر من هضبة حذانا، فسلّم ونحن مستوحشون، فرددت السلام، ونظرت فإذا أنا برجل واقف شبهته بجميل، ودنا فأتيته، فقلت: أجميل؟ قال: إي والله.

قلت: والله لقد عرضتنا ونفسك شرًا فما جاء بك؟ قال: هذه الغول التي وراءك، وأشار إلى بثينة، وإذا هو لا يتماسك فقمت إلى قعب فيه إقط مطحون وتمر، وإلى عكة فيها شيء من سمن فعصرته على الإقط، وأدنيته منه.

فقلت: أصب من هذا، ففعل، وقمت إلى سقاء لبن فصببت له في قدح وصببت عليه ماء بارد وناولته فضرب فتراجع.

فقلت له: لقد جهدت فما أمرك؟ قال: أردت مصر، فجئت أودعكم وأسلم عليكم وأنا والله في هذه الهضبة التي ترين منذ ثلاث ليال انتظر أن أجد فرصة، حتى رأيت متحد فتيانكم العشية فجئت لأحدث بكم عهدًا، فحدثنا ساعة ثم ودعنا وانطلق فلم يلبث إلا يسيرًا حتى أتانا نعيه من مصر.

قال ابن عياش: فظننت قوله:

فَمَنْ كَانَ في حُبِّي بُثَيْنَة يَمْتَرِي فَيَرْقَى ذي ضَال عَلَيّ شَهِيْد

أنه أراد هذه الهضبة التي أقام فيها ما أكل وما شرب.

وفي أخبار المزنيين: أن قوم بثينة كانوا يقولون: إن جميلًا يتعشق وليدة لنا، فجاء جميل فبات معها وتركها وهي نائمة ليرى قومها أنها هي المعشوقة لا غيرها.

وقال سهل بن سعد الساعدي: لقيني رجل من أصحابي، فقال: هل لك في جميل، فإنه ثقيل؟

فدخلنا عليه وهو يكيد بنفسه، وما يخيل إليّ إلا أن الموت إلا يتكربه.

فقال: ما تقول في رجل لم يزن قط، ولم يشرب خمرًا قط، ولم يقتل نفسًا حرامًا قط يشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

قلت: أظنه قد نجى، فمن هذا الرجل؟ قلت: أنا. قلت: والله ما أراك سلمت، وأنت مذ عشرون سنة تشبب ببثينة.

قال: إني لفي آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة فلا تأتيني شفاعة محمد يوم القيامة إن كنت وضعت يدي عليها لريبة قط، فما قمنا حتى مات.

زاد ابن الختمي في كتاب الشامل المفيد: لم يكن بأكثر من أن كنت آخذ بيدها فأضعها على قلبي، فأستريح إليها. ثم أغمي عليه عند ذكر يدها، فمات.

قال ابن قتيبة في الطبقات: ذاكرت بهذا بعض مشايخنا، فقال: كيف هو القائل:

فَدَنَوْتُ مُخْتَفِيًا أمَرّ ببيْتها حَتَّى رَكَبْتُ عَلَى خَفي المَوْلج
قَالَتْ وَعَيْشُ أبي وَنعْمَةُ وَالدي لأنبئن الحَي إنْ لَمْ تَخْرج
فَخَرَجْتُ خيْفَة أهْلَها فَتبَسَّمَتْ فَعَلمْتُ أنْ هَيَّهَا لَمْ تُلَجْج
فَلَثَمْتُ فَاهَا أخْذِا بقُرُونهَا شُرْبَ الريف لشُرْب مَاء الحَشْرج

وقال جميل حين حضرته الوفاة:

بَكَّرَ النَّعيُّ وَمَا كَنى بجَميْل وَثَوَى بمصْر ثَواء غَيْر قَفُول
وَلَقَدْ أجرَى البَرْد في وَادي القُرى نَشْوَان بَيْنَ مَزَارع وَنَخيْل
قُوْمي بثينة فَانْدُبي بعَويْل وَابْكي خَليلك دُوْنَ كُلِّ خَليْل

ولما بلغ بثينة برزت كأنها فلقة قمر وهي تتعثر في مرطها حتى أتت المنشد فقالت: يا هذا لئن كنت صادقًا فلقد قتلتني، وإن كنت كاذبًا فلقد فضحتني؟

قال: قلت: والله إني لصادق، وأخرجت حلته، وكان أعطانيها لكي أنشدها فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها، وصكت وجهها واجتمع نساء الحي تبكين معها وتندبه حتى ضعفت فمكثت مغشيًا عليها ساعة، ثم قالت، ولا يحفظ لها غيره:

وَإنَّ سَلْوى عَنْ جَميْلِ لَسَاعَةِ مِنَ الدَّهْرِ مَا جَاءَتْ ولَا جَاءَ حِيْنهَا
سَوَاء عَلَيْنَا يَا جَمِيْلُ بن مَعْمر إذَا مِت بَأسَى الحَيَاة ولِيْنها

وجميل ممن رضي بالقليل في قوله:

أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ لَعَلَّهُ يُوَافِقُ طَرْفِي طَرْفَهَا حِيْنَ تَنْظر

ومثله قول المعلوط في الرضى بالقليل:

ألَيْسَ اللَّيْل يُجْمَعُ أُمّ عمرو وإيَّانَا وَذاكَ بنَا تَمدَاني
بَلَى وَتَرَى الهلَالَ كَمَا أرَاهُ ويَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَاني

ونحوه قول بعض الأعراب:

وَما نِلْتُ مِنهَا مُحَرَّمًا غَيْرَ أنَّني إذَا هِيَ بَالَتْ بُلْتُ حَيْثُ تَبُولُ

ومن الإفراط قول جميل:

وَلَوْ أَن جِلْدًا غَيْرَ جِلْدِك مَسَّني ... لَذَابَ مَضْجَعِي حَقًّا لِذَا التَّثْرِيْبُ
وَلَوْ أَنَّ رَاقِي الموت يَرْقَى جَنَازَتِي ... بِرِيْقِكِ يَوْمًا يا بُثَيْنُ حَيِيتُ

ويستجاد له في هذا الشعر:

خَلِيلَيَّ فيمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا ... قَتِيلًا يَبْكِي مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

وقال أيضًا: ويستجاد من شعره:

أَبُثَيْن إنَّك قَدْ مَلَكْت فَانْجحي ... وَخُذي بحَظِّك منْ كَرِيْم وَاصل
فَلَرُبَّ عَارضَه عَلَيْنَا وَصْلهَا ... وَبالجَدّ تَخْلطُه بقَوْل الهَازل
فأَجَبْتُهَا بالقَوْل بَعْدَ تَسَتُّر ... حُبِّي بُثَيْنَة عَنْ وَصالك شَاغلي
فَلَوْ كَانَ في قَلْبي لقَدْر ملَامَة فَضْلًا ... وَصَلْتك أوْ أَتَتْك رَسَائلي
وَيَقُلْنَ إنَّكَ قَدْ رَضيْت ببَاطلٍ منْهَا ... وَهَلْ لَك في اجْتنَاب البَاطل
وَلَبَاطل ممَّا أُحبّ حَديْثه ... أشْهَى إلَيَّ منَ البَغيض البَاذل
لَتَرْكتُ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يُضلّني ... إذَا هَوَيْتُ فَمَا هَوَايَ بزَائل
صَادَتَ فُؤَادي يَا بُثَيْن حبَالكُمْ ... يَوْم الحُجُون وَأَخْطَأتْك حَبَائلي
مَنَّيْتني فَلَوَيتُ مَا مَنَّيْتني ... وَجَعَلت مَا وَعَدْت كَآجلي
فَتَثَاقَلَتْ لَمَّا رَأتْ شَغَفي بهَا ... أحَبّ إلَيَّ منْ فَداك رَسَائلي
وَأَطَعْت فيّ عَوَاذلًا فَهَجرْتني ... وَعَصَيْتُ فيْك وَقَدْ جَهدتُ عَوَاذلي

وله أيضًا وهو من جيد شعره:

وَكَانَ طَارقُهَا عَلَى علل الكرى ... وَالنَّجمُ رَهْنًا قَدْ دَنَا لتُغُور
ليشَاف ريْح مُدَامَة مَعْلُولَة ... بذَكي مسْك أو سَحيْق العَنبَر
إنِّي لأحْفَظُ غَيْبَكم وَيَسُرّني ... لَوْ تَعْلَميْنَ بصَالح أنْ تُذْكَري
وَيَكُونُ يَوْم لَا أرَى لَك مُرْسَلًا ... أوْ نَلْتَقي فيْه عَلَيّ كَأَشْهُر
فَلْتَبْكني البَاكيَاتُ وَلَمْ أَبُحْ ... يَوْمًا بسرّي مُعلنًا لَمْ أعذر
يَا لَيْتني أَغْشَى المَنيَّة بَغتَةً ... إنْ كَانَ يَوْم لقَائكُمْ لَمْ يقدر
لَو أستَطيْع تَجَلُّدًا عَنْ ذكْركُمْ ... فَتَفيْقُ بَعْضَ صَبَابَتِي وَتَفَكُّر
لَوْ تَدَّعيْنَ كَمَا أُحبّ منَ الهَوَى ... لَعَذَرت أَوْ لَظَلَمْت إنْ لَمْ تَعْذُر

قال أبو الفرج: وَشَت جارية بثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما:

إن جميلًا عندها الليلة. فأتيا مشتملين على سيفيهما، فرأياه جالسًا حجرة منها يحدّثها ويشكو إليها بثة، ثم قال لها: يا بثينة، أرأيت ما بي من الشغف والعشق ألا تجربينه؟

قالت: بماذا؟ قال: بما يكون بين المتحابين. قالت له: يا جميل، أهذا تبغي؟ والله لقد كنت عندي بعيدًا منه وإن عاودت بريبة، لا رأيت وجهي أبدًا.

فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك، ولو علمت أنك تجيبنني إليه لعلمت أنك تجيبي غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي إن طاوعتني نفسي، أو لهجرتك أبدًا، أما سمعت قولي:

وَإنِّي لأَرْضَى منْ بُثَيْنَة بالَّذِي ... لَوْ أَبْصَرَهُ الوَاشِي لَقَرَّتْ بَلابِلُه
بلى وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب أمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقض ... أواخره لا نلتقي وأوائله

فقال أخوها لأبيها: قم فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من إتيانها.

وقال جميل أيضًا:

وَإنِّي لأستَحي منَ النَّاس أَنْ أُرى ... رَديفًا لوَصْلِ أَوْ عَلَيَّ رَديف
أَوْ أَشْرب ريقًا منك بَعْدَ مَوَدَّة ... وَأَرْضَ بوَصْل منك وَهُو ضَعيف
وَإنِّي للْمَاء المُخَالط للْقَذَى ... إذَا كَثُرَتْ وُرَّادُهُ لَعَيُوف

وقال أيضًا:

مَنَعَ النَّومُ شدّة الإشفَاق ... وَأذكَارُ الحَبيْب يَوْمَ الفرَاق
لَيتَ شعْري إذَا بُثَيْنَة بَانَتْ ... هَلْ لنا بَعْدَ بَيْنهَا منْ تَلَاقي
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ نَادَى المُنَادي ... مُسْتَحِثًا برَحْله وَانْطلَاق
لَيتَ ليَ اليَومُ بُثَيْنَة منكُمُ ... مَجْلسًا للْوَدَاع قَبْلَ فرَاق
حَيْثُمَا كُنْتُمْ وَكُنْتَ فَإنِّي ... غَيْر نَاس للْعَهْد وَالْميْثَاق

ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فرأى امرأة مولية خلقًا فقال لها: ما الذي رأى فيك جميل؟ فقالت: الذي رأى فيك الناس حين ولوك عليهم خليفة.

فضحك حتى بدت له سن سوداء كان يسترها. فقال ذاك الذي أردت. وقيل: إن هذا جرى لليلى الأخيلية معه.

ومن أغرب ما رأيت ما ذكره الزبير في أخبار جميل: أن بثينة كانت بنته.

الشاعر الذي مات خوفًا من النار

عن حذيفة قال: كان شاعرٌ على عهد النبيّ ﷺ يبكي عند ذكر النار، حتى حسبه ذلك في البيت، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ، فأتاه، فلما نظر إليه الشاب قام إليه فأعتقه، وخرّ ميتًا، فقال عليه السلام:

جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فلذ كبده، والذي نفسي بيده لقد أعاذنا الله تعالى منها، مَن رجى شيئًا طلبه، ومَن خاف شيئًا هرب منه.

عاشق القرآن الكريم

قال أبو عاصم إمام مسجد ابن جراد: كان عندنا رجل يشهد معنا الصلاة، ثم يدخل منزله، فلا نراه إلا في الصلاة الأخرى، فقال لي ذات يوم: أجد عندك مصحفًا؟ قلت: نعم، فأخرجت له مصحفًا لي فدفعته إليه، فلما مضى به سمعته يقول: ليكونن لي ولهذا المصحف نبأ.

قال: فأذّنت العصر، فلم أره، وكذلك المغرب، والعشاء.

فقلت: خدعني عن مصحفي، فجئت فدخلت البيت الذي كان له، فإذا هو ميت، وإذا المصحف على صدره وإذا ليس معه في البيت شيء فخرجت فصلّيت بهم الغداة وأنا أفكر من أين أجد له كفنًا، فلما سلمت، وإذا بمحمد بن واسع، وحسان بن أبي سنان، وحبيب أبو محمد وأظنه قال: ومالك بن دينار مع كل واحد منهم كفن وحنوط فقالوا: أتعرف هنا رجلًا مات البارحة؟ قلت ما أعرف أحدًا مات هنا إلا رجلًا غريبًا كان ينزل هنا.

قالوا: أنت أشقى من أن تعرف حجامًا، فدخلوا فتنافسوا في تكفينه وكفنوه واجتمع أهل البصرة، فصلّوا عليه ودفنوه.

عابد بني إسرائيل والغانية

روى الحسن البصري: أن امرأة من بني إسرائيل كانت أعطيت من الجمال عجبًا، قال: فبلغ من أمرها أنها كانت لا تمكن من نفسها إلا من أعطاها مائة دينار، فاتخذت من ذلك سريرًا من ذهب، وأنه أبصرها رجل من العابدين، فأعجبته، فانطلق فالتمس مائة دينار فأتاها بها قال: إني رأيتك فأعجبتني، فانطلقت، فتمحلت حتى جمعت لك مائة دينار. قالت: فادفعها إلى الجهيد حتى ينتقدها ففعل.

قال: فتهيأت كما كانت تتهيأ وجلست على سريرها، فلما جلس منها مكان الرجل من امرأته ذكره الله برحمته، فانتفضت إليه نفسه، فقام عنها.

وقال: المائة دينار لك وافتحي لي الباب. فقالت: ما بالك؟ ألست زعمت أنك رأيتني، فأعجبتك فتمحلت، وابتعت حتى جمعت هذه المائة دينار؟ فما رأيت؟ قال: ليس في الأرض أبغض إليّ الآن منك. قالت: ولِمَ؟

قال: هذا شيء لم أفعله قط. قالت: ما قال هذا لي أحد، ولئن كنت صادقًا، ما أريد زوجًا غيرك، فلي عليك أن تتزوجني. قال: نعم، فقنع رأسه، ورجع فلحق ببلده وقلبه مشتغل بها.

وأقبلت تبيع متاعها، ثم ارتحلت إليه، فانتهت إلى البلد الذي هو فيه فسألت عنه، فقيل لها: هو ذا في المسجد.

فقيل له: جاءت ملكة أرض كذا وكذا تسأل عنك. قال: فأتته، فلما نظر إليها نظرة مال ميتًا. فوجدت عليه وجْدًا شديدًا، ثم قالت: أما هذا فقد فاتني، هل له أخ أو قريب؟ فقيل: إن له أخًا ضعيفًا، يعني ليس في العبادة كأخيه، فتزوجته، فولدت منه سبعة أنبياء عليهم السلام.

مَن راودته الجارية في خلوته فخاف مقام ربه

عن الحسن قال: كان شاب على عهد عمر ملازمًا للمسجد والعبادة، فعشقته جارية فأتته في خلوة فكلمته. فحدث نفسه بذلك فشهق شهقة غشي عليه.

فجاء عمٌّ له، فحمله إلى بيته، فلما أفاق، قال: يا عم، انطلق إلى عمر رضي الله عنه، وأقره مني السلام، وقل له ما جاء مَن خاف مقام ربه؟

فانطلق عمه فأخبر به عمر. فقال: جنتان. فلما بلغه ذلك شهق شهقة مات بها شهيدًا.

أبو الحسين وصاحبه

قال أبو يحيىٰ التميمي: كان يختلف معنا فتى من النساك يقال له؛ أبو الحسين إلى مسعر بن كدام وكان يختلف معه فتًى حسن الوجه يفتن الناس، إذا رأوه.

فأكثر الناس القول فيه وفي صحبته إياه. فمنعه أهله صحبته وكلامه فذهل عقل أبي الحسين حتى خشي عليه التلف فبلغ ذلك مسعرًا، فقال: قولوا له لا يقربني، ولا يأتي مجلسي، فإني له كاره. فلقيته، فأخبرته بذلك فتنفس الصعداء، ثم أنشأ يقول:

يَا مَنْ بَدَائعُ حُسْنَ صُوْرَتِه ... تُثْني إلَيْه أعِنَّةَ الحدَق
لي منْكَ مَا للنَّاس كُلِّهم ... نَظَرٌ وَتَسْليمٌ عَلَى الطُّرُق
لَكنَّهُم سُعدُوا بأمْنهم ... وَشَقيْتُ حَيْنَ أَرَاكَ بالْفَرَق

ثم صرخ صرخة وشخص ببصره، فإذا هو ميت.

حبيشة وعبد الله بن علقمة

عن أبي حدرد الأسلمي قال: لما أرسل النبيّ ﷺ خالد بن الوليد إلى بني خزيمة كنت يومئذٍ في خيله، فقال لي فتًى من بني خزيمة هو في سني، وقد جمعت يداه إلى عنقه بزمة ونسوة مجتمعات غير بعيد منه يا فتى قلت: ما تشأ؟

قال: هل أنت آخذٌ بهذه الزمة، فقائدي إلى هؤلاء النسوة حتى أقضي إليهن حاجة، ثم تردني بعد فتصنعوا ما بدا لكم؟

قال: قلت: والله ليسير ما طلبت، فأخذت بزمته فقدته بها حتى أوقفته عليهن. فقال: أسلمى حبيش على بعاد العيش.

أرَأَيْتُك إذَا طَالَبْتُكُم فَوَجَدتكُم ... بِخَليةٍ أوْ ألْفَيْتكُم بِالخَوَانِقُ
أَلَمْ يَكُ أَهْلًا أَنْ يُنَوّل عَاشق ... تَكَلَّفَ إدْلَاجَ السُّرَى وَالوَادِقُ
وَلَا ذَنْب لِي إذْ قُلْت إذَا هلْنَا مَعًا ... أَثِيبي بوُدّ قَبْل إحْدَى الصَّفَائِقُ

أَتيني بِوُدَّ قَبْل أنْ يَشحط النَّوَى وَيُنادِي أسِيْرٌ بِالْحَبِيْبِ المُفَارِقُ
فَإِنِّي لَا ضَيَّعتُ سرًّا مَا سَمِعْتُهُ وَلَا رَاقَ عَيْني عَنْكِ بَعْدكِ رَائقُ
سَوَى أن مَا بَال العَشِيْرةُ شَاغَل عَنِ الوُدِّ إلّا أنْ يكون التَّوَامُقُ

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر تنكر البيتين الأخيرين منها له.

قال ابن إسحٰق: حدّثني يعقوب عن الزهري عن أبي حدرد قال: فقالت: وأنت حييت سبعًا وعشرًا وترًا وثمانيًا. قال: ثم انصرفت به، فضربت عنقه.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني أبو فراس الأسلمي عن أشياخ منهم عمن كان حضرها منهم قالوا: فقامت إليه حين ضربت عنقه، فأكبّت عليه، فما زالت تقبّله حتى ماتت عنده.

وعن ابن عباس: أن النبيّ ﷺ بعث سرية. قال: فغنموا، وفيهم رجل، فقال لهم: إني لست منهم عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم.

قال: فإذا امرأة طويلة أدماء. فقال لها: أسلمي حبيش قبل نفاذ العيش. قالت: نعم فديتك. قال: فقدموه فضربوا عنقه. فجاءت امرأة عليه فشهقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر قال: «أما كان فيكم رجل رحيم».

وقال في كتاب الإكليل: أنبأنا ابن بالويه حدّثنا محمد بن يونس حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا ابن عيينة عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن ابن عاصم المزني عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى بطن نخلة في سرية، فبينا نحن نسير في أرض تهامة، إذ لحقنا رجل معه ظعائن له يسوقهن أمامه، فقلنا له: أسلم. قال: وما الإسلام؟ قال: فعرضته عليه وهو لا يعرفه. فقال: أرأيتم أن لا أسلم فما أنتم صانعون؟ قلنا: نقتلك. قال: فهل أنتم تاركي حتى ألحق بهؤلاء الظعائن؟ فقلنا: افعل ونحن تاركوك لا محالة. قال: فأتى هودج ظعينة منهن وقد وصفنا للنبيّ ﷺ حسنها وجمالها ـ فقال:

أَرَأَيْتك إنْ طَالَبْتكُم فَوَجَدتَكُم بِمَكَّةَ أَوْ أدْرَكْتُم بالخَوَانق

الأبيات الأربعة.

قال: فقالت له: أسلم حبيش قبل انقطاع العيش. قال: فقال ما أسلم عشرًا أو تسعًا وترًا وثمانيًا تترًا. قال: فجاء فمد عنقه، فضربناه. فلقد رأيت تلك الظعينة نزلت من هودجها وحنت عليه حتى ماتت.

فأخبرنا النبيّ ﷺ خبره: فضحك حتى بدت نواجذه تعجبًا. ثم قال: هذه القصة في غزوة بني جذيمة كانت لا محالة.

وذكر الهيثم بن عدي في هذا الخبر زيادة تبين لك أصل حب الفتى للفتاة واسمه، فقال: حدّثني سعد بن سنان عن أبي مسعود عن أبيه قال:

نشأ فينا غلام يقال له: عبد الله بن علقمة، وكان جميلًا، فهوى جارية من غير فخذه يقال لها حبيشة، فكان يأتيها ويتحدث إليها.

قال: فخرج ذات يوم من عندها ومعه أمه فرأى في طريقه ظبية على رابية، فأنشأ يقول:

يَـا أُمَـتَّـا خَـبِّـرنـي غَـيْـر كَـاذبَـة وَلَا يُرِيدُ مَسْؤول الخُبْر بالكَذب
حُـبَـيْشُ أحْـسَـنُ أمْ ظَـبْـيٌ بِـرَابيَـة لَا بَلْ حُبَيْشَةُ منْ دُرٍّ وَمنْ ذَهَب

ثم انصرف من عندها مرة أخرى، فأصابته السماء، فأنشأ يقول:

وَمَـا أدري إذَا أبْـصَـرْتُ يَـوْمًـا أَصوبَ القَطْر أحْسَنُ أَمْ حُبَيْشُ
حُـبَـيْـشٌ وَالَّذي خَـلَـقَ الـهَـدَايَـا عَلَى أنْ لَيْسع عنْدَ حُبيْش عَيْشُ

فلما كثر ذلك منه واشتهر بها، قال قومه لأمه: إن هذا الغلام يتيم، وإن أهل هذه المرأة يرغبون بأنفسهم عنكم، فانظري جارية من قومك ممن لا يمتنع فزينيها واعرضيها عليه لعله يتعلقها، ويسلوا تلك.

ففعلت وحضر نساؤها، فجعلن يعرضن عليه نساء الحي، فقلن: يا عبد الله، كيف ترى؟

فيقول: إنَّها والله حسناء جميلة، إلى أن قالت قائل منهن: أهي أحسن أم حبيشة؟ فقال: مرعى ولا كالسعدان.

فلما يئسن من انصرافه عنها قال بعضهن لبعض: عليكن بحبيشة، وطمعن أن يأتي الأمر من قبلها. فقلن لها: والله لئن أتاك فلم تزرين وتتجهمينه وتقولين له: أنت أبغض الناس إليَّ فلا تقربني، ونحن بمرأى ومسمع لنفعلن بك ما يسوءك.

فأتاها، فلم تعلمه بشيء كما قالوا، ولم تزد على أن نظرت إليه ونظر إليها، ثم أرسلت عينها تبكي. فانصرف عنها وهو يقول:

وَمَا كَانَ حُبِّي عَنْ نَوَالٍ بَذَلْته ... وَلَيسَ بِمُسْليّ التَّجَهُّم وَالهَجْرُ
ثُمّ أنَّ دَائِي مِنْكِ دَاءُ مَوَدَّةٍ ... قَدِيْمًا وَلَمْ يُمْزَجُ كَمَا يُمْزَجُ الخَمْرُ
وَمَا أَنْسَ مَلي الأشْياء لا أَنْسِ دَمْعها ... وَمُقْلَتُهَا حَتَّى يُغيّبنِيَ القَبْرُ

فبينما هما على أشد ما كانا عليه من الهوى والصبوة إذا هجم عليهم جيش خالد بن الوليد يوم الغميصاء، فذكروا وداعه لها، وأنها قالت: حياك الله عشرًا وتسعًا وترًا وثلاثة تترًا، فلما أرى مثلك يقتل صبرًا.

وخرجت تشتد وعليها خمار أسود قد لاثته على رأسها، وكأن وجهها القمر ليلة البدر، فقال حين نظر إليها: أرأيتك. . . الأبيات.

وزاد:

فَهَا أَنَا مَأْسُوْرٌ لَدَيْكِ مُكَبَّل ... وَمَا أَنْ أَرَانِي بَعْدَهُ اليَوْم نَاطِقُ

فأجابته:

أرَى لَكَ أَسْبَابًا أظُنُّكَ مُخْرِجًا ... بِهَا النَّفْسُ مِنْ جَنْبِيَّ وَالرُّوحَ زَاهِقُ

فأجابها:

وَأَنْتِ الَّذي قَفَلْتِ جِسْمِي عَلَى دَمِي ... وَعَظْمِي وَأَسْبَلْتِ الدُّمُوع عَلى النَّحْرِ

فأجابته:

وَنَحْنُ بَكَيْنَا من فَراقكَ مَرَّةً ... وَأُخْرَى وَقاسَيْنَا لَكَ العُسْرَ بالْيُسْرِ
فَأَنْتَ فَلَا تَبعد فَأَنْتَ أَخُو النَّدَى ... جَمِيْلُ المُحيًا في المُرُؤَةِ والبِشْرِ

قال آسره، فلما سمعت ذلك منهما أدركتني الغيرة، فضربته ضربة قطعت بها يده وعنقه، فلما رأته قد سقط قالت لي:

ائذن لي أن أجمع بعضه إلى بعض. فأذنت لها فجمعته، وجعلت تمسح التراب عن وجهه بخمارها وتبكي، ثم شهقت شهقة خرجت منها نفسها، انتهى.

الحارث بن الشريد وعفراء بنت أحمر

قال السري بن عبد المطلب: كان الحارث بن الشريد مفتونًا بعفراء ابنة أحمر فبقي سقيمًا برهة من دهره وكانت تحبه، فلما أجهده الأمر كتب إليها فيما ذكره السامري:

صَبَرْتُ عَلَى كِتْمَانِ حُبّكِ بُرْهَةً وَلِي مِنْكِ فِي الأَحْشَاءِ أَصْدَقُ شَاهِدِ
هوَ الْمَوْتُ إِنْ لَمْ يَأتِنِي مِنْكِ رُقْعَة تَقُومُ لِقَلبي فِي مَقَام العَوَائِدِ

فكتبت إليه:

كُفّيتَ الَّذي تَخْشَى وَصِرْتَ إِلَى المُنى وَنلتَ الَّذي تَهوَى برَغْم الحَوَاسد
وَوَالله لَوْلَا أَنْ يُقَالُ تَظُنِّيا بيَ السُّوْءُ مَا جَانَبْتُ فعْلَ العَوَائد

فلما وصلت الرقعة إليه وضعها على وجهه، فلما شم رائحة يدها، وكانت من أعظم النساء في زمانها شهق شهقة قضى نحبه.

فقيل لعفراء ما كان يضرك لو روحت عن قلبه وأحييته بزورة؟

قالت: منعني من ذلك قولكم عفراء قد صبت إلى الحارث، ووالله لأقتلن نفسي على إثره من حيث لا يعلمن بي إلا الله تعالى ففعلت ذلك.

النجدي العامري

قال ابن داود: يروى أن الحكم بن عمرو الغفاري كان يسير ببعض كور خراسان وهو واليها فسمع رجلًا يتغنّى:

تَعزَّ بصَبْر لَا وَرَبّك لَا تَرَى سَنَامَ الحمَى أُخْرَى اللّيَاليَ الغَوَابر
كَأَنَّ فُؤَاديَ منْ تَذَكُره الحمَى وَأَهْل الحمَى يهفُونَه رِيْشَ طَائر

فوقف الحكم وقال: عَلَيَّ بالرجل. فلما أُتي به قال: من أين؟

قال: رجل من أهل نجد عامري؟ قال: فهل لك في الحِمَى؟

قال: ما لي إلى ذلك من سبيل، ولي بتلك البلاد أهل وولد.

قال: فإني أحملك إلى أهلك وبلدك. قال: لا حاجة لي في هذا.

قال: ليس من هذا بُدّ، وأمر به أن يحمل، فاضطرب في أيديهم حتى مات.

جارية المأمون

عن أبي حماد المراكبي فيما ذكره المعافى في كتاب الأنيس قال: وصفت للمأمون جارية بكل ما توصف امرأة من الكمال والجمال.

فبعث في شرائها، فأتي بها وقت خروجه إلى بلاد الروم، فلما هَمَّ ليلبس درعه خطرت بباله، فأمر فخرجت إليه، فلما نظر إليها أعجب بها وأعجبت به فقالت: ما هذا؟ قال: أريد الخروج إلى بلاد الروم. فقالت: قتلتني يا سيدي، ثم جرت دموعها على خدها كاللؤلؤ، وأنشأت تقول:

سَأَدْعُو دَعْوَةَ الْمُضْطَّرِ رَبًّا ... يُثِيبُ عَلَى الدُّعَاءِ وَيَسْتَجِيبُ
لَعَلَّ الله أَنْ يَكْفِيكَ حَرْبًا ... وَيَجْمَعُنَا كَمَا تَهْوَى الْقُلُوبُ

فضمها المأمون إلى صدره وأنشأ متمثلًا يقول:

فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلَهَا ... وَإِذْ هِيَ تُذْرِي الدَّمْعَ مِنْهَا الأَنَامِلُ
صَبِيْحَةَ قَلَتْ في العِتَابِ قَتَلْتَني ... وَقَتْلِي بِمَا قَالَتْ هُنَاكَ تُحَاوِلُ

ثم قال لخادمه: يا مسرور احتفظ بها وأكرم محلها، وأصلح لها كلما تحتاج إليه من المقاصير والخدم والجواري إلى وقت رجوعي.

فلولا ما قال الأخطل:

قَوم إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُم ... دُوْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ

لكان لي ولها شأن. ثم خرج فلم يزل يتعاهدها ويصلح ما أمر به، فاعتلت الجارية علة شديدة أشفق عليها منها.

وورد نعي المأمون، فلما بلغها ذلك تنفست الصعداء، وتوفيت، وكان مما قالت وهي تجود بنفسها:

إِنَّ الزَّمَانَ سَقَانَا مِنْ مَرَارَته ... بَعْد الحَلاوَة أَنْفَاسًا وَأَروَانَا
أَبْدَى لَنَا تَارَةً مِنْهُ فَأَضْحَكَنَا ... ثُمَّ انْثَنَى تَارَةً أُخْرَى فَأَبْكَانَا
إِنَّا إِلَى الله فِيمَا نَرَاكَ لَنَا ... مِنَ القَضَاء وَمِنْ تَلْوِيْن دُنْيَانَا
دُنْيَا تَرَاهَا بَرِئْنَا مِنْ تَصَرُّفَها ... مَا لَا يَدُوْمُ مُصَافَاةً وَأَحْزَانَا
وَنَحْنُ فِيْهَا كَأَنَّا لَا نُزَايِلُهَا ... لِلْعَيْش أَحْيَاؤُنَا يَبْكُوْنَ موْتَانَا

الأسدي الكوفي والجارية المبيعة للبغدادي

قال دعبل بن علي الخزاعي: كان بالكوفة رجل من بني أسد، عشق جارية لبعض أهل الكوفة، فتعاظم أمرها فكان يقول فيها الشعر.

ويذكر بعض أهل الكوفة: أنه مات من حبها وأنهم وضعوا له كتابًا في ذلك مثل كتاب جميل وبثينة، وعفراء وعروة، فباعها مولاها لرجل من أهل بغداد من الهاشميين.

فروى أنه مات حين خرجت من الكوفة وأنه لما بلغها موته ماتت أسفًا عليه فمن شعره فيها:

جَدّ الرَّحيْلُ وَحثَّني صُبْحي ... قَالُوا الرَّحِيْل فَطَيَّرُوا قَلْبي

وَاشْتَقْتُ شَوْقًا كَادَ يَقْتلني ... فَالنَّفْسُ مُشْرِفَةٌ عَلَى نَحْبي

لَا صَبْرَ لِي عِنْدَ الفَراقِ عَلَي ... فَقْد الحَبِيْب وَلَوْعَة الحُبّ

ابن الدوري الحمصي والصبي

ذكر الشيرازي في كتاب روضة القلوب: أنه رأى بحماة مؤدبًا يقال له: ابن الدوري من حمص وكان فاضلًا في فنه فافتتن بصبي من صبيانه وهام به.

فبلغ ذلك أباه فمنع الصبي من المضي إليه، وأرسله إلى مؤدب آخر كان عدوًا له. فكرب لذلك وأسف، فكتب إلى أبيه يستعطفه.

فأجابه بأنه متى ذكره شكاه إلى السلطان.

فلما قرأ الرقعة أطرق ساعة واحمرت عيناه ووجهه حتى كاد يقطر منه الدم، ثم خاست نفسه وجاءه القيء فخرج إلى باب المسجد فتقيأ قيئًا أسود، ومضى إلى بيته والدم يخرج من حلقه ساعة بعد ساعة فجيء له بطبيب فأخبر أن كبده انفطرت فعالجه ثلاثة أيام فلم ينقطع الدم ومات في اليوم الرابع.

الجارية ذات الأطمار وأسماك البحر

قال ذو النون المصري فيما ذكره أبو عبد الله محمد بن جعفر القنطري في أماليه: بينا أنا في ساحل البحر إذ بصرت بجارية عليها أطمار شعر، وإذا هي ناحلة ذابلة، فدنوت منها لأسمع ما تقول فرأيتها متصلة الأحزان فلما عصفت الرياح.

واضطربت الأمواج وظهرت الحيتان، فصرخت، ثم سقطت إلى الأرض، فلما أفاقت قالت: سيدي بك تقرب المتقربون في الخلوات ولعظمتك، سبحت الحيتان في البحار الزاخرات بجلال قدسك، تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سواد الليل وبياض النهار في الفلك الدوار، والبحر الزخار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك مقدار، لأنك الله العلي الغفار، ثم أنشأت تقول:

يَا مُؤْنس الأبْرارُ في خَلَوَاتهم   يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّتَ به النُزَّالُ
مَنْ ذَاقَ حُبّك لَا يَزَالُ مُتَيَّمًا   فَرِحَ الفُؤَاد وَحَشْوه بَلْبَالُ

فقلت لها: عسى أن تزيدينا من هذا. فقالت: إليك عني، ورفعت طرفها نحو السماء وقالت:

أُحبُّكَ حُبَّيْن حُبَّ الْوداد   وَحُبًّا لأنَّكَ أَهْلٌ لذاكَا
فَأَمَّا الَّذي هُوَ حُبّ الْوداد   فَحُبٌّ شُغلْتُ به عَنْ سُوَاكَا
وَأَمَّا الَّذي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ   فَكَشْفُكَ للْحُجْب حَتَّى أَرَاكَا
فَمَا الْحَمْدُ في ذَا وَلَا ذَاكَ لي   وَلكن لَكَ في ذَا وَذَاكَا

ثم شهقت شهقة، فإذا هي ميتة. فبقيت أتعجب مما رأيت منها، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن عليهن مدارع الشعر، فاحتملنها، فغيبنها عني فغسلنها، ثم أقبلن بها في أكفانها فقلن لي: تقدم فصل عليها، فصليت عليها فتقدمت فصليت عليها وهن خلفي، ثم احتملنها ومضين.

الغلام المنادي في الأسواق شوقًا وعبد الملك بن مروان

ذكر أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي عن أبي ريحانه أحد حجاب عبد الملك بن مروان قال: كان عبد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوسًا عامًا.

فبينما هو جالس في مستشرف له، وقد أدخلت عليه القصص، إذ وقعت في يده قصة غير مترجمة، فيها: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغنيني ثلاثة أصوات، ثم ينفذ فيّ ما يشاء من حكمه فعل. فاستشاط من ذلك غضبًا، وقال: عليّ بصاحب هذه القصة.

فخرج الناس جميعًا، فأدخل عليه غلام كما عذر كأهيأ الفتيان وأحسنهم. فقال له عبد الملك: يا غلام أهذه قصتك؟

قال نعم يا أمير المؤمنين. قال: وما الذي غرّك مني؟ والله لأمثلن ولأردعن بك نظراؤك من أهل الجسارة. ثم قال: عليّ بالجارية.

فجيء بها كأنها فلقة قمر بيدها عود فطرح لها كرسي، فجلست.

فقالت عبد الملك: مُرْها يا غلام.

فقال لها: غنّي يا جارية بشعر قيس بن ذريح:

لَقَدْ كُنْتُ حَسْبَ النَّفْسِ لَوْ دَامَ وُدّنَا وَلَكِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاع غُرُوْرِ
وَكُنَّا جَمِيْعًا قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الهَوَى بِأَنْعَمِ حَالِي غِبْطَةٍ وَسُرُوْرِ
فَمَا بَرِحَ الوَاشُوْنَ حَتَّى بَدَتْ لَنَا بُطُون الهَوَى مَقْلُوبة بِظُهُوْرِ

قال: فخرج الغلام من جميع ما كان عليه من الثياب تخريقًا.

فقال له عبد الملك: مرها تغنيك الصوت الثاني.

فقال: غنّي شعر جميل:

أَلَا لَيتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَة بِوَادِي القِرَى إِنِّي إِذًا لَبَعِيْدُ
إِذَا قُلْتَ مَا بِي يَا بُثَيْنَةَ قَاتِلِي مِنَ الحُبّ قَالَتْ ذَاكَ مِنكَ يَقِيْدُ
فَلَا أَنَا مَرْدُودٌ بِمَا جِئْت طَالِبًا وَلَا حُبّهَا فِيْمَا يَبِيْدُ يَبِيْدُ
يَمُوتُ الهَوَى مِنِّي إِذَا مَا لَقِيْتُهَا وَيَحْيى إِذَا فَارَقْتَهَا فَيَعُود

قال: فغنته الجارية فسقط الغلام مغشيًّا عليه ساعة، ثم أفاق.

فقال له عبد الملك: مُرْهَا فلتغنيك الصوت الثالث.

فقال: يا جارية غنّني بشعر قيس بن الملوح المجنون:

وَفِي الجِيْرَةِ الغَادِيْنَ مِنْ بَطْنِ وَجْرَةٍ غَزَال غَضِيْضُ المُقْلَتَيْنِ رَبِيْبُ
فَلَا تَحْسَبِي الغَرِيْبَ الَّذِي نَأَى وَلَكِنْ مَنْ تَنْأَيْن عَنْهُ غَرِيْبُ

فلما غَنَّته الجارية طَرَحَ الغلام نفسه من المستشرق فلم يصل إلى الأرض حتى تقطع.

فقال الملك عبد الملك: ويحه لقد عَجلَ عليَّ بنفسه، ولقد كان تقديري فيه غير الذي فعل. وأمر بالجارية، فأخرجت من قصره، ثم سأل عن الغلام.

فقالوا: غريب لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادي في الأسواق ويده على رأسه:

غَدًا يَكْثُر البَاكُوْنَ مِنَّا وَمِنْكُمُ ... وَتَزْدَاد دَارِي مَنْ دِيَارِكُمْ بُعْدَا

الفتى ابن صديق الريان بن علي الأديب

قال الريان بن علي الأديب في ما ذكره في عقلاء المجانين:

عشق فتى من أبناء بعض أصدقائي جارية فأنحله العشق وتيمه، فزال عقله، وأخذ في الهجر والهذيان.

فمررت به ذات يوم في بعض الخرابات فقلت له: يا فلان ما حالك؟

قال بأسوأ حال، عقل هائم، وغمٌّ لازم وفكر دائم، ثم أنشأ يقول:

تَيَّمَنِي حُبُهَا وَأَضْنَانِي ... وَفِي بحَارِ الهُمُوم أَلْقَانِي
كَيْفَ اختيَالِي وَلَيْس لِيَ جَلَدٌ ... وَدَفْعُ مَا بِي وَكَشْفُ أَحْزَانِي
يَا رَبَ فَاعْطِفْ بِقَلْبِهَا فَعَسى ... تَرْحم ضَعْفِي وَطول أشْجَانِي

ثم مررت به بعد أيام وهو يبكي ويتمرغ في التراب، فلما رآني قال:

يا عمّ إني ميت الليلة. فقلت: الله يكفيك، فقبض من ليلته.

ابن الرواس والمرأة الميتة

قال ابن الجوزي: كان ببغداد سنة ثمان وستين وأربعمائة غلام يقال له: ابن الرواس، يهوى امرأة فماتت، فحزن عليها وبقي أيامًا لا يطعم، ثم خنق نفسه فمات.

الفتى العابد والجارية المتعبّدة

قال رجاء بن عمرو النخعي فيما ذكره الخرائطي: كان بالكوفة فتًى جميل الوجه شديد البعد والاجتهاد، وكان أحد الزهاد فنزل في جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهم جميلة فهويها، وهام بها عقله. ونزل بها مثل الذي نزل به، فأرسل يخطبها من أبيها. فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها.

فلما اشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى أرسلت الجارية قد بلغني شدة محبتك لي، وقد اشتد بلائي لذلك مع وجدي بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي.

فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: الآية ١٥] أخاف نارًا لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهبها.

فلما انصرف الرسول إليها، فأبلغها ما قال.

قالت: وأراه مع هذا زاهدًا يخاف الله تعالى؟ والله ما أحدٌ أحق بهذا من أحدٍ، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظَهرها، ثم لبست المسوح وجعلت تتعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبًّا للفتى وأسفًا عليه حتى ماتت تشوّقًا إليه، فدفنت.

فكان الفتى يأتي قبرها فيبكي عنده ويدعو لها، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها، فرآها في منامه وهي في أحسن منظر.

فقال: كيف أنت وما لقيت بعدي؟ فقالت:

نِعْمَ الـمَحبَّةَ يَا حَبِيْبي حُبُّكَ حُبًّا يَقُوْدُ إِلَى خَيْرٍ وإحْسَانِ

فقال: على ذاك إلى ما صرت؟ فقالت:

إِلَى نَعِيْمٍ وَعَيْشٍ لَا زَوَالَ لَهُ في جَنَّةِ الخُلْدِ مُلْكٌ لَيْسَ بِالْفَانِي

فقال لها: أذكرتيني هناك، فإني لست أنساك؟

فقالت: ولا أنا والله ما أنساك، ولقد سألت قربك من مولاي ومولاك فأعنّي على ذلك بالاجتهاد، ثم ولّت مدبرة. فقال لها: متى أراك؟

قالت: ستأتينا عن قريب فترانا فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليالٍ حتى مات.

الجارية التي أقسمت على الربيع أن يقبرها مع حبيبها

وذكر عن الربيع بن زياد قال: رأيت جارية وهي تقول:

بنفسي فتًى أوْلَى البرِيَّة كُلِّهَا وَأَقْوَاهُمْ فِي المَوْتِ صَبْرًا عَلَى الحُبّ

فقلت: بما صار أقواهم وأوفاهم؟

قالت: هويني، فكان أهلي إذا جاهر بحبي لاموه، وإذا كتمه عنفوه، فلما أخذه الأمر قال بيتين من الشعر لم يزل يرددهما إلى أن مات.

قلت: وما هما؟ قالت: قوله:

يَقُوْلُونَ إنّ جَاهَرْت قَدْ عَضكَ الهَوَى ... وَإنْ لَمْ أَبُحْ بالْحُبّ قَالُوا تَصَبَّرا

فَمَا لِلّذي يَهْوَى وَيَكْتُمُ حُبَّهُ ... مِنَ الأَمْرِ إلّا أَنْ يَمُوتَ فَيُعْذَرَا

ووالله يا هذا لا أبرح أو يتصل قبرانا، ثم شهقت شهقة وتصايح النساء، وقلن: ما قضت.

قال الربيع: والذي اختار لها الوفاة، ما رأيت أسرع ولا أوفى من أمرها.

الرباب ابنة امرىء القيس والحسين بن علي

وذكر: أن الرباب ابنة امرىء القيس كان زوجها الحسين بن علي فأحبها حبًّا شديدًا.

قالت سكينة: فكنت أراه ينظر في وجهها، ثم يبتسم ويقبّلها، وقال فيها:

لَعَمْرُك إنَّني لأُحِبُّ دارًا ... تَحلُّ بِهَا سُكَيْنَة وَالرَّبَابُ

أُحِبُّهَمَا وَأَبْذُلُ جُلَّ مَالِي ... وَلَيْسَ لِعاذلِ عِنْدِي عِتَابُ

وكانت معه يوم أُصيب فرجعت إلى المدينة مصابة مع مَن رجع.

فخطبها الأشراف، فقالت: والله لا يكون لي حَمو بعد رسول الله ﷺ فعاشت بعده سنة لا يظلها سقف بيت حتى بليت، ثم ماتت كمدًا. ومن شعرها فيه:

إنَّ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ ... بِكَرْبَلَاء قَتِيْلًا غَيْر مَدْفُوْنِ

سَبْطَ النَّبِي جَزَاكَ الله صالحَة ... مِنْهُ وَجُنِّبْتَ خُسْرانَ المَوَازِيْن

قَدْ كُنتَ لِي جَبَلًا صَعْبًا ألُوْذُ بِهِ ... وَكُنْتَ تَصْحَبُنَا بالرَّسْمِ وَالدِّيْنِ

مَنْ لِلْيَتَامَى وَمَنْ للسَّائِلينَ وَمَنْ ... يُغْنِي ويأْوَى إليْهِ كُلّ مِسْكِيْن

وَاللهِ لَا أَبْتَغِي صِهْرًا بِصِهْرِكُمُ ... حَتَّى أُغيَّب بَيْنَ الرَّمْل والطِّيْنِ

زرعة بن رقيم الحميري ومفداة

قال أبو غلاب: كان بذمار فتى من حمير من أهل بيت شرف يقال له: زرعة بن رقيم وكان جميلًا شاعرًا لا تراه امرأة إلا صبت إليه وكان في ظهر ذمار رجل شيخ كثير المال وكانت له بنت تسمى مفداة بارعة الجمال حصيفة اللب ذات لسان مصلق، تفحم البليغ، وتخرس المنطيق.

وكان زرعة يتحدث إليها في فتية من الحي، وكان ممن يتحدث إليها فتى من قومها يقال له: حيي، ذو جمال وعفاف وحياء، وكانت تركن إلى حديثه، وتشمئز من زرعة لرهقه، فساء ذلك زرعة، وأحزنه.

فاجتمعا ذات يوم عندها، فرأى إعراضها عنه وإقبالها على حيي فقال:

صُدُوْدٌ وَإِعْرَاضٌ وَإِظْهَار بَغْضَةٍ   عَلَامَ وَلِم يَا بِنْتَ آلى العُذافِر

فقالت مجيبة له:

عَلَى غَيْر مَا سَوءٍ ولكِنَّكَ امْرُوءٌ   عُرِفْتَ بِغلِ المُومِسَات العَوَاهِرِ

فقال حيي:

جَمَالُك يَا زَرْع بن أَرْقَمَ إِنَّما   يُنَاجِي القُلُوبِ بِالْعُيُونِ النَواظِرِ

فقال زرعة:

فَإِنْ كَان ممَا خَس حُظي لأنّني   أُصَابِي فَتُصْيبني عُيُونُ القَصَائِرِ
فـإِنَّـني كَـريـمٌ لَا أُزَنّ بِـرِيـبَـةٍ   ولَا يَغْتَرِي ثَوْبِيَّ رَبيْن العَوَاهِرِ

فقالت المُفدَّاةُ:

كَذَاكَ فَكُنَّ يَسْلَمْ لَكَ العَرْضُ إِنَّهُ   جَمَالُ امْرِىءٍ أَنْ يُصْبِح العَرْضُ طَاهِر

فقال حي:

حَيَاءَ كَمَا لَا تَعْصِياهُ فَإِنَّمَا   يُضيْعُ الحَيَاءَ مَنْ لَا يُوَقَّى المَعَائرُ

فانصرف زرعة، وقد خامره من حبها ما غلب على عقله، فغبر أيامًا عنها ومنعه من الطعام والشراب، والقرار فقال:

أَيَا بُغْيَةَ أَهْدَتْ إِلى القَلْب لَوْعَةً   لَقَدْ خُبِئَتْ لي مِنْكَ إِحْدَى الدّهَارسِ

وَمَا كُنتُ أدرِي وَالعَطَايا مُظِلَّةٌ … بَأَنَّ حمامي يُخْفِ لَحظَ مَخالسِ
حَبَسْت عَلَى مَكْتُوبِهِ القَلْبَ طَائِعًا … فَيَا طَوْعَ مَحْبُوسٍ لأغنق حَابِسِ

فشاع هذا الشعر في الحي وبلغ المفداة، فاحتجبت عنه، وامتنعت عن محادثة الرجال.

فامتنع زرعة من الحركة والطعام فغبر بذلك حولًا، ومات عظيم من عظماء القبائل فبرز مأتم النساء، فبلغ زرعة أن المفداة في مأتم من تلك المآتم، فاحتمل حتى أتى نشزًا، واجتمع إليه لِداتُهُ يفندون رأيه، ويعذلونه.

فأنشأ يقول:

لَمْ يُلَمْ فِي الهَوَى مَنْ كَتَمَ الحُبّ … وَأغْضى عَلَى فُؤَادٍ لَهِيْدِ
صَابِنَا ذَاكَ لاسم مَنْ جَلَبَ … السّقْم عَلَيْهِ وَنَفَسُهُ فِي الوَرِيْد

ثم شهق شهقة فمات.

وتصايح أصحابه ونساؤه، وبلغ المفداة خبره، فقامت نحوه حتى وقفت عليه وقد تعفر وجهه بالتراب، وأهله ينضحونه بالماء، فهمت أن تلقي نفسها عليه، ثم تماسكت وبادرت خباءها فسقطت تائهة العقل تكلم فلا تجيب سحابة يومها، فلما جن عليها الليل رفعت عقيرتها فقالت:

بِنَفْسِي يا زَرْعَ بن أرْقَمَ لَوْعَةٌ … طَوَيْتُ عَلَيْهَا القَلْبَ والسِّرُّ كَاتِمُ
لَئِنْ لَمْ أَمُتْ حُزنًا عَلَيْكَ فَإِنَّنِي … لآلامُ مَنْ نَيْطَتْ عَلَيْه التَّمائم
لَئِنْ فُتَّنِي حَيًّا فَلَسْتَ بِفَائتي … جِوَارُكَ مَيْتًا حَيْثُ تَبْلى الرَّمَائمُ

ثم تنفست أنبه من حولها، فإذا هي ميتة.

فدفنت إلى جنبه فقالت امرأة من حمير أَشْبَلَتْ على ولدها بعد زوجها:

وَفَّيتُ لابْنِ مَالِكِ بن أزْطاه … كَمَا وَفَّتْ لِزُرْعَة المُفَدَّاة
وَالله لَا خِسْتُ بِهِ أَوْ أَلْقَاه … حَيْثُ تَلَاقَى وَامقٌ مَنْ يَهْوَاهُ
مِنْ مُمْتَطِي نَاحِيَةَ شَمَرْدَاه … وَعَاثِرٌ قَدْ خَذَلَتْهُ رِجلَاهُ

فتاة بني نهد وزوجها صائد الظبي

ذكر أبو الفرج الأموي عن الزبير بن بكار قال: انصرفت من عمرة المحرم، فبينا أنا ناحية العرج، إذا أنا بجماعة مجتمعة، فأقبلت إليهم، فإذا

برجل يقنص الظبي، وقد وقع ظبي في حبالته فذبحه، فانتفض في يده، فضرب بقرنه صدره، فنشب القرن فيه فمات فأقبلت كالمهاة، فلما رأت زوجها ميتًا شهقت ثم قالت:

يَا حُسْنُ لَوْ لَمْ يَطُلْ لَكِنَّهُ أَجَلٌ ... عَلَى الإثَابَةِ مَا أَوْدَى بِهِ بَطَلُ
يَا حُسْنَ جَمّع أَحْشَائِي وَقَلْقَلَهَا ... وَذَاكَ يَا حُسْنُ لولا غَيْره جَلَلُ
أَضْحَت فَتَاةُ بني نَهْدٍ علَانِيَةً ... وَبَعْلَها بَيْنَ أَيْدِي القَوْم مُحْتَمَلُ

ثم شهقت فماتت. فما رأيت أعجب من ثلاثة: الظبي مذبوح، والرجل ميت جريح، والفتاة ميتة جوى، فلما حدث بها أحمد بن عبد الله بن طاهر أعطى عشرة آلاف درهم وقال: ما استفدناه من الشيخ أكثر مما استفاده منا. فقلت: أي شيء هو؟

قال: قوله: علانية أي ظاهرة، وهذا حرف لم أسمعه في كلام العرب قبل هذا.

الفتى الخائف من الآخرة والمرأة المتعبدة على يديه

قال جعفر بن معاذ: أخبرني أحمد بن سعيد العابدي عن أبيه فيما ذكره السراج قال: كان عندنا بالكوفة شاب يتعبد لازمًا للمسجد ولا يكاد يخلو منه، وكان حسن الوجه والقامة والسمت، فنظرت إليه امرأة ذات يوم فشغفت به، وطال ذلك عليها، فلما كان ذات يوم وقفت له على طريقه وهو يريد المسجد.

فقالت له: يا فتى، اسمع مني كلمات أكلمك بها.

فأطرق وقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعًا.

فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة من أمرك، ومعاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على هذا هو أن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك.

قال: فمضى الشاب إلى منزله، وأراد أن يصلي، فلم يعقل كيف يصلي فأخذ قرطاسًا، فكتب كتابًا، ثم خرج من منزله، وكان في الكتاب: بسم الله الرحمٰن الرحيم.

اعلمي أيتها المرأة أن الله تبارك وتعالى إذا عصي حلم، فإذا عاود العبد المعصية ستره، فإذا لبس ملابسها غضب الله عزّ وجلّ غضبة تضيق بها السمٰوات والأرض والجبال والشجر والدواب، فمن ذا يُطيق غضبه؟

فإن كان ما ذكرت باطلًا، فإني أذكرك ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ [المعَارج: الآية ٨] وتجثوا الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟

وإن كان ما ذكرت حقًا، فإني أدلك على طبيب يداوي هذه الكلوم الممرضة والأوجاع، وهو رب العالمين، فاقصديه على صدق المسألة، فإني مشغول عنك بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: الآيتان ١٨، ١٩] فأين المهرب من هذه الآية؟

قال: فجاءت له بعد أيام. فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها. فقالت: يا فتى لا ترجع، فلا كان الملتقى بعد هذا أبدًا إلا بين يدي الرب عزّ وجلّ ثم بكت بكاءً شديدًا.

ثم قالت: أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك ثم تبعته فقالت: أمنن عَلي بموعظة أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل بها.

فقال لها: أوصيك بوصية نفسك من نفسك، وأذكرك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعَام: الآية ٦٠].

قال: فأطرقت وبكت بكاءً أشد من بكائها الأول، ثم فاقت فقالت:

والله مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلَا وَضَعَتْ   إنْسًا كَمِثْلِكَ في مِصْرِي وأَحْيَاء

وذكرت أبياتًا لم يحفظ منها إلا قولها:

لأَلْبَسَنَّ لِهَذَا الأمْر مَدْرَعَةً   وَلا رَكَنْتُ إلى لَذّات دُنْيَانَا

ثم لزمت بيتها وأخذت في العبادة.

قال: فكانت إذا أجهدها الأمر تدعو بكتابه فتضعه على عينها.

فيقال لها: وهل يغني هذا شيئًا فتقول: وهل لي دواء غيره.

بَاتَ كِتَابُ الحَبِيبِ نَدْمَانِي   مُحَدِّثِي تَارَةً وَرَيْحَانِي
أَضْحَكَنِي بِالْكِتَابِ أَوَّلُهُ   ثُمَّ تَمَادَى بِهِ فَأَبْكَانِي

وكان إذا جن عليها الليل قامت إلى محرابها فإذا صلت قالت:

يَا وَارِثَ الأَرْضِ هَبْ لِي مِنْكَ مَغْفِرَةً   وَحُلّ عَنّي هَوَى ذَا الهَاجِرِ الدَّانِي
وَانْظُرْ إلى خَلَّتِي يَا مُشْتَكَى حُزْنِي   بِنَظْرَةٍ مِنْكَ تَجْلُو كُلَّ أَحْزَانِي

ثم لم تزل على ذلك حتى ماتت كمدًا، فكان الفتى يذكرها بعد موتها، ثم يبكي عليها.

فيقال: مما بكاؤك وأنت قد أيستها؟ فيقول: إني ذبحت طمعها مني في أول أمرها وجعلت قطعها ذخيرة لي عند الله عزّ وجلّ وإني لأستحي من الله تعالى أن أسترد ذخيرة دخرتها عنده.

وفي رواية: فلما أخذت المرأة الورقة ابتليت ببلية في جسمها، فكان الطبيب يقطع من لحمها أرطالًا، وكان قد عرف حديثها مع الفتى، فكان إذا أراد أن يقطع من لحمها يحدثها بحديث الفتى فما كانت تجد لقطع ذلك اللحم ألمًا، ولا كانت تتأوّه، فإذا سكت عن ذكره تأوّهت وصرخت.

فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدًا.

رجل من ولد سعيد بن العاص، وقيل: من ولد عثمان بن عفان وجارية، وقيل: اسمها نفيسة السهمية

ذكر الزبير بن بكار أن رجلًا من ولد سعيد بن العاص عشق جارية مغنية بالمدينة فهام بها دهرًا وهو لا يُعلمها بذلك، ثم إنه ضجر.

فقال: والله لأباوحنها[١]، فأتاها عشية فقال لها: بأبي أنت أتغنين:

أُحِبكُم حُبًّا بِكُلِّ جَوَارِحِي   فَهَلْ لَكُمْ علْمٌ بِمَا لَكُمْ عِنْدِي؟
أَتَجْزُونَ بِالْوُدِّ المُضَاعَف مِثْلَهُ   فَإنَّ الكَرِيمَ مَنْ جَزَى الْودَّ بِالوُدِّ

(١) أي لأخبرنها بما أكنّه لها من حب وإعجاب واستلطاف.

قالت: نعم أغني أحسن منه، ثم غنت:

لِلَّذي وَدَّنَا الـمَـوَدَّة بِـالـضِّـعْـفِ ... وَفَـضْـل الـبَـادِي بِـهَـا لَا يُـجَـازَا
لَوْ بَـدَا مَـا بِـنَـا لَكُـمْ مَـلأَ الأَرْضَ ... وَأَقْـطَـارَ شَـامِـهَـا وَالـحِـجَـازَا

فازداد بها كلفًا وعشقًا، واتصل ما بينهما فبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة فابتاعها وأهداها له. فمكثت عنده سنة ثم ماتت.

فبقي مولاها شهرًا ثم مات أسفًا عليها وكمدًا.

فقال أبو السائب واسمه عبد الله: حمزة سيد الشهداء، وهذا سيد العشاق. فامضوا حتى نجزه كما كبر النبيّ ﷺ على حمزة سبعين تكبيرة.

قال الزبير وبلغ أبا حازم الخبر، فقال: أما مَن محب في الله يبلغ مبلغ هذا؟

وزعم أبو الفرج الأصبهاني في كتاب القيان: أن الرجل من ولد عثمان بن عفان، وأن الجارية اسمها نفيسة جارية سهمية، وكانت حسنة الوجه والغناء، وممن أخذ عن معبد، وأنه هويها وهويته حتى اشتهر أمرها، وعذله ذو النباهة من أهل بيته فلاموه، وهو مطرق، فرفع رأسه إليهم فقال:

إني والله كما قلت في نظرائكم لأمري منها وهي حاضرة فقلت:

أَنْت عُذْرُ الفَتَى إذا هُتِكَ السّتْر ... وإنْ كَـانَ يُـوْسُـفَ الـمَـعْـصُـومَـا
مَنْ يَلُمْ في هَوَاكِ يُؤْزَرُ عَلَى اللّوْمِ ... وَلَـمَّـا رآكِ كَـانَ الـمَـلُـومَـا

فبلغ خبره عمر بن عبد العزيز، وهو إذْ ذاك والي المدينة فاشتراها ووهبها له مع ما يصلح لها.

فمكثت عنده حولًا ثم ماتت فقال فيها:

قَـدْ تَـمَـنَّـيْـتُ جَـنّـةَ الـخُـلْد فِـي ... الدُّنْيَا فَأُعْطيتُهَا بِلَا اسْتمهَالِ
ثُمَّ أُخرتُ إذْ تَطَمَّعْتُ بالنِّعْمةِ ... فِـيْـهَـا فَـالْـمَـوْتُ أَحْـسـنُ حَـالِ

ثم مكث بعدها مدة يسيرة لا ينتفع بنفسه ثم مات، فدفن إلى جانب قبرها.

فقال أشعب: هذا سيد أهل الهوى في زمانه، ومضى وكبر على قبره سبعين تكبيرة.

سعدى وابن قومها

ذكر أبو بكر بن خلف بن المرزبان قال: هوي فتى من بني أسد فتاة من فخذة اسمها سعدى وكان أيسر منها وأغنى، وكان أبوه أغنى من أن يتزوجها ويريد أشرف منها وأيسر، ويعرض عليها غيرها فيأبى إلا هي فيمتنع أبوه من ذلك. وكان أبوها قد حبسها عليه رجاء أن يتزوجها، فلما طال على أبيها وأيس منه زوجها من غيره.

فلقيها الفتى يومًا فقال لها:

لَعَمْرِكِ يَا سُعْدَي لَطَالَ تَأَثُّمِي　　وَمَعْصِيَتِي شَيْخَيّ فِيْكِ كِلَاهُمَا

وَتَرَكِي ذَا الحَيَّيْنِ لَمْ أَبْغِ مِنْهُمَا　　سُوَاكِ وَلَمْ يَرْتَعْ هَوَايَ عَلَيْهِمَا

فقالت له الجارية:

حَبِيْبِي لَا تَعْجَل لتَفْهَم حُجْتِي　　كَفَى بِي مَا بِي مِنْ بَلَاءٍ وَمِنْ جَهْدِي

وَمِنْ عَبَرَاتٍ تَعْتَرِينِي وَزَفْرَة　　تَكَادُ لَهَا نَفْسِي تَسِيْلُ مِنَ الوَجْدي

غَلَبَتْ عَلَي نَفْسِي جِهَارًا وَلَمْ أطِقْ　　خِلَافًا عَلَي أَهْلي لِهَزْلٍ وَلَا جَدِيّ

قَلَنَّ يَمْنَعُونِي فِيِ أَنْ أَمُوتَ بِرَغْمِهِم　　غَدًا خَوْف هَذَا العَارِ فِي حَدْثٍ وجدِّي

فَلَا تَنْسَ أَنْ تَأْتِي هُنَاكَ فَتَلْتَمِسْ　　مَكَانِي فَتشْكُوا ما تَحَمَلْتُ من جَهْدِي

فلما كان في غدٍ أتاها حيث زعمت فوجدها ميتة فحملها وأدخلها شعبًا ثم التزمها فمات معها.

قال: فالتمسا حولًا فلم يقدر عليهما ولم يعلم لهما خبر.

فإذا هاتف يهتف على الجبل الذي هما فيه، وكان الجبل يدعى: أعراف:

إنَّ الكَرِيْمِيْنِ ذَوِي التَّصَافِي　　الذَّاهِبَيْنِ بِالْوَفَاءِ الصَّافِي

والله ما لَاقِيْتُ فِي تَطْوَافِي　　أَبْعَدُ مِنْ عُذْرٍ وَمِنْ إخْلَافِ

مِنْ مَيْتَيْنِ فِي ذِي أعْرافِ

قال: فصعد القوم الجبل فوجدوهما ميتين فواروهما.

العابد والمرأة المجهولة

ذكر ابن المرزبان في كتاب الذهول عن سعيد بن عبد الله بن ميسرة قال:

حدّثني شيخ من أهل الشام قال:

صحبني فتى في بعض أسفاري فكنت كثيرًا ما أسمعه ينشد:

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى رَكَائِبُ أَدْلَجَتْ وَأَدْرَكَتْ السَّارِي بِلَيْلٍ فا... (١)

وَفِي صُحْبَةِ التَّقْوَى غَنَاءَ وَثَرْوَةِ وَفِي صُحْبَةِ الأَهْوَاءِ ذُلّ مَعَ العَدَمِ

فَلَا تَصْحَب واهْجُرْ مُحِبَّهَا وَكُنْ للتَّقيّ إلْفًا تَكُنْ في الهَوَى عَلَم

فسألنا: لمن هذه الأبيات؟

فقال: كان لي أخ وكنت أحبه حبًّا شديدًا وما رأيت فتًى مع التقوى أمرح منه، فسأله أذلك للدنيا أم للآخرة؟

فقال: لا بل من أمر الدنيا ولست أبديه حتى يخرج الأمر من يدي فلا أستطيع رده.

وكان ينشد هذه الأبيات كثيرًا.

وضنى ضنًا شديدًا حتى سقط على الفراش ودخل الأطباء عليه بعضهم يقول: سُلٌ، وبعضهم يقول: غم، فلا يتكلم بغير هذه الأبيات حتى غلبَ على عقله وضاق به مكانه، فأدخلناه مكانًا فكان يصرخ الليل كله فإذا مَلّ وأمِنَ الصراخ أنَّ.

فأشاروا علينا بتخليته، فكان إذا أصبح خرج يقعد على باب داره فكل مَن مَرَّ به. سأله أين يريد؟ فيقول: أريد موضع كذا وكذا.

فيقول: اذهب محفوظًا لو كان طريقك على بغيتنا أودعناك كلامًا.

قال: فمر به يومًا بعض إخوانه فسأله. فقال: أريد حيث تحب، فهل لك من حاجة؟ قال: نعم. قال: وما هي؟ قال:

تُقْري السلام عَلَى الحَبِيْبِ تَحِيَّةً وَيَتِيْه بِمَطَاولِ الأسْقَام

وَتَقُلْ لَهُ إنَّ التُّقَى ذَمّ الهَوَى لَمَّا سَمَى مُسْتَعْولًا بِزِمَامِ

---

(١) هكذا بالأصل.

قال: نعم، فما كان بأسرع من أن رجع فقال: قد بلغتهم رسالتك، فقالوا:

لَئِنْ كَانَ تَقْوَى الله ذَمَّك أَنْ تَنَلْ أُمُورًا نَهَى عَنْهَا فَهُنَّ حَرَامِ
فَزُرْنَا لِنَقْضي مِنْ حَدِيثٍ لبانة وَتَسْعَى نُفُوسًا آذَنَتْ بِسِقَامِ

قال فوثب قائمًا ثم أنشأ يقول:

سَأَقْبَلُ مِنْ هَذَا وَفِيْهِ لِذِي الهَوَى شِفَاء وَقَدْ يَسْلُو الفَتَى جَدّ وَامِق
إِذَا اليَأْسَ حَلَّ القَلْبُ لَمْ يَنفَع البُكَا وَهَلْ يَنفُع المَعْشُوق دَمْعَةَ عَاشِق

قال: ومضى فقمت خلفه وحدي حتى أتى منزل رجل من أهل الفضل والرأي والنهي، وكانت له ابنة من أجمل النساء فوقف على الباب، وقال:

فَهَا أَنَا ذَا قَدْ جِئْتُ أَشْكُو صَبَابَتِي وأُخْبِرِكُمْ عَمَّا لَقِيْت مِنْ الحُبّ
وَأُظْهِرُ تَسْلِيْمًا عَلَيْكُم لِتَعْلَمُوا بِأَنِّي وَصُولٌ ثُمَّ ذَا فِيْكُم حَسبي

قال: فلما فهمت القصد وخشيت أن يظهر أمره. قلت له: ما جلوسك على باب القوم ولم يألك(١)؟ قال: بلى. قلت: وكيف وهم يقولون:

بِالله رَبِّك لَا تَمُرُّ بِنَا إِنَّا نَخَافُ مَقَالَةَ الحُسَّادِ
وَدَعِ التَّعَتُّبُ والتَّذَكُر إِنَّهُ بِنَقْلة عَنْكَ أَجِلَّة العُوَّاد؟

فقال: يا صالح قد قالوا هذا؟ قلت: نعم. فجعل يهذي ويقول:

إن كَانَ قَدْ كَرِهُوا زِيَارَةَ عَاشِقٍ فَلِرُبّ مَعْشُوق يَزُورُ العَاشِقَا

فلما رجعت سألوني عن قصته. قلت: ما أخطأ الجبال. فلزم بيته فلم يزل بزائل العقل حتى مات.

الفتى العربي التقي والمرأة السائلة

ذكر أبو بكر الأنباري عن سعيد بن عبد الله بن راشد قال:

علقت فتاة من العرب فتًى من قومها، وكان الفتى عاقلًا فاضلًا.

فجعلت تكثر التردد إليه فتسأله عن أمور النساء وما في قلبها إلا النظر إليه والاستمتاع بكلامه.

(١) أي لم يهتموا بك ولم يعيروك بالًا ولم ينزلوك منزلك أو لم يقدرك قدرك.

فلما طال ذلك عليها مرضت وتغيّر حالها واحتالت في أن خلا لها وجهه وقتًا فتعرضت ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه وتزايد المرض حتى سقطت على الفراش.

فقالت له أمه: إن فلانة مرضت ولها علينا حق. قال: فعوديها، وقولي لها يقول لك ما خبرك؟ فصارت إليها أمه فقالت لها: ما بك؟ ما علتك؟ فتنفست الصعداء وقالت:

يَا سائِلِي عَن عِلَّتي وَهُوَ عِلَّتِي عَجِيْبٌ مِنَ الأَنْبَاءِ جَاءَ بِهِ الخَبَرْ

فانصرفت أمه إليه، فأخبرته، وقالت: كنت أحب أن تسألها المصير إلينا لنقضي حقها ونلي خدمتها. قال: فسليها ذلك. قالت: قد أردت أن أفعله ولكن أحببت أن يكون عن رأيك.

فمضت إليها فذكرت لها ذلك فبكت وقبلت وقالت:

يُبَاعِدُنِي عَنْ قُرْبِهِ وَلِقَائِهِ فَلَمَّا أَذَابَ الجِسْمِ منَّ تَعَطَّفَا
فَلَسْتُ آتِي مَوْضِعًا فِيْهِ قَاتِلِي كَفِي بي سِقَمًا أَنْ أَمُوتَ كَذِي كَفى

فألحّت عليها فأبت وتزايدت العلة بها والمرض حتى ماتت كمدًا.

قاتل نفسه بالمذبة

ذكر ابن الجوزي عن سعيد بن أحمد قال: رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابًا في يده مذبة[١] وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله:

يَوْم الفِرَاق مِنَ القِيَامَةِ أَطْوَلُ وَالمَوْت مِنْ أَلَمِ التَّفَرُّق أَجْمَل
قَالُوا: الرَّحِيْل، فَقُلْت لسْت بِراحِل لَكِنَّ مُهْجَتِي الَّتِي تَتَرَحَّلُ

ثم بقر بطنه بالمذبة فمات.

فسألت عنه فقيل لي أنه كان يهوى فتًى لبعض الملوك فحجب عنه يومًا واحدًا ففعل هذا بنفسه.

(١) هو ما يسمى في أيامنا هذه: مضرب الذباب.

الطائي والطائية

ذكر العتبي عن الأخفش سعيد بن مسعدة صاحب النحو قال:

خرجت في سفر، فنزلنا على ماءٍ لطيء فبصرت بخيمة من بعيد، فقصدت نحوها، فإذا فيها شاب على فراش كأنه الخيال.

فلما بصرني أنشأ يقول:

أَلَا مَـالِ الـحَـبِـيْـبَـة لَا تَـعُـودُ ... أَبُـخْـلٌ بِـالـمـلِـيْـحَـةِ أَمْ صُـدُوْدُ
مَـرِضْـتُ فَـعَـادَنِـي عُـوادُ قَـوْمِـي ... فَـمَـالَكِ لَمْ تُـرِيْ فَـيْـمَـن يَـعُـوْدُ
فَلَوْ كُنْتِ الـمَرِيْضَ وَلَا تَكُوْنِي ... لَعَـدّتُـكُـم ولَوْ كَـثُـرَ الـوَعِـيْـدُ
وَمَـا اسْـتَـبْـطَـأْتُ غَـيْـرَكِ فَاعْلمِيْهِ ... وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحِمي عَدِيْدُ

قال: ثم أغمى عليه، فمات.

فوقعت الصيحة في الحي، فخرج من آخر الماء جارية كأنها فلقة قمر فتخطت رقاب الناس، حتى وقفت عليه فقبلته، وأنشأت تقول:

عَـدَانِـي أَنْ أَعُـودَكَ يَـا حَـبِـيْـبِـي ... مَـعَـاشِـرَ فِـيْـهِـمُ الـوَاشي الـحَـسُـودُ
أَذَاعُـوا مَـا عَـلِمْـتَ مِـنَ الـدَّوَاهِـي ... وَعَـابُـونَـا وَمَـا فِـيْـهـم رَشِـيْـدُ
فَـأَمَّـا أَن حَـلَلْتَ بِـبَـطْـنِ أَرضٍ ... وَقَـضْـر الـنَّـاسِ كُـلّهـم الـلُّحُـودُ
فَـلَا بَـقِـيَـتْ لـيَ الـدُّنْـيَـا فَـوَاقًـا ... وَلَا لَهُـمُ وَلَا أَثْـرى عَـدِيْـدُ

قال: فشهقت شهقة، فخرّت ميتة منها.

فخرج من بعض الأخبية شيخ، فوقف عليهما فترحم عليهما وقال: والله لئن لم أجمع بينكما حيين لأجمع بينكما ميتين، فدفنهما في قبر واحد احتفره لهما. فسألته، فقال: هذه ابنتي، وهذا ابن أخي.

سعاد، وابن عمّها الميت

ذكر الأصمعي: أنه خرج لبعض الأحياء ـ فيما ذكره ثعلب ـ قال:

فجنني الليل فآويت إلى جبانة، فتوسدت قبرًا، فسمعت في الليل قائلًا من القبر:

أَنـعَـمَ الله بـالـخَـيَـالـيـنِ عَـيْـنًـا ... وبِـمَـسْـراك يَـا سُـعَـادُ إِلَيْـنَـا
وَحْشَةٌ مَا لَقِيْتُ مِنْ خَلَلِ الْقَبْرِ ... عَـسَـى أَنْ نَـرَاكِ أَوْ أَنْ تَـرَيْـنَـا

قال: فأرقت ليلتي.

فما أصبحت دخلت الحي فإذا أنا بجنازة قد أقبلت فسألت عنها فقيل لي: هذه سعاد، كانت تحب ابن عم لها تعاقدا على الوفاء، فهلك فلم تزل باكية عليه، وها هي قد خفت به فتبعتهم حتى دفنت إلى جانب القبر الذي بت عنده، فإذا هو قبر ابن عمها.

فحدثتهم بما سمعت، فأكثروا التعجب من ذلك.

الشاب المكي الباكي تحت الميزاب والجارية البصرية

ذكر النوقاني عن ابن الأشدق قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت شابًا تحت الميزاب، قد أدخل رأسه في كسائه يئن كالمحموم.

فسلمت فرد السلام، ثم قال: من أين؟ قلت: من البصرة. قال: وراجع إليها؟ قلت: نعم. قال: إذا دخلت النباج، اخرج إلى الحي ثم ناد: يا هلال، تخرج إليك جارية، فأنشدها هذا البيت. قلت: وما هو؟ قال:

لَقَدْ كُنتُ أَهوَى أَنْ تَكُوْنَ مَنِيتي بِعيْنَيْكِ حَتّى تَنْظُرِي مَيِّتَ الحُبّ

ثم مات مكانه، قال ابن الأشدق: فلما دخلت النباج، أتيت الحي فناديت يا هلال.

فخرجت إلى جارية لم أر أحسن منها.

فقالت: ما وراءك؟ قلت: شاب بمكة أنشدني هذا البيت، فأنشدتها إياه. قالت: وما صنع الشاب؟ قلت: مات. فخرّت مكانها ميتة.

أبرويز وشيرين

أن شيرين كانت تعشق أبرويز ويعشقها من الصغر، وأنه لما تملك تزوجها بعد صعوبة شديدة وغيبة كبيرة عنه، أيس كل واحد منهما من الآخر.

فلما هلك عنها وكان شرط أن لا يطأ غيرها ولا يطأها غيره.

أراد القائم بعده وهو شيرويه تزويجها، فأبت عليه أشد الإباء فلما أعجزها فتحت ناوس أبرويز، واعتنقته ومصّت خاتمًا مسمومًا فماتت.

فلما أخبر بذلك شيرويه أسف عليهما أسفًا كثيرًا لما كان يحكى عنها من الجمال والعقل والأدب، وأنها كلما جومعت عادت بكرًا.

المتردية من السطح عند سماع التلاوة

قرأت على الرحلة يونس بن إبراهيم عن أبي الحسن البغدادي عن الحافظ السلامي أنبأنا أبو العباس الزينبي أنبأنا ابن صفوان حدّثنا أبو بكر بن عبيد القرشي حدّثنا محمد حدّثنا صالح بن عبد الله قال:

خرجت منذ نحو من ستين سنة، فلما صرنا عند الجبل في بعض تلك السكك ومعنا قارىء لنا يقرأ، فقرأ، وامرأة على السطح.

فصرخت ثم سقطت من السطح، فحملت وأدخلت دارًا، فما برحنا حتى ماتت.

قال: ونودي في أهل البصرة، فما رأيت يومًا أحسن ولا أكثر جمعًا من ذلك اليوم.

الخائف من مقام الحق

فاستأذنت فإذا امرأة من وراء الخص تقول: ادخلوا. فدخلنا، فإذا شيخ فانٍ جالس في مصلاه فسلّمنا فلم يعيل سلامنا.

فقلت بصوت عالٍ: إن للحق غدًا مقامًا قال الشيخ بين يدي من ويحك، ثم بقي مبهوتًا فاتحًا فاه شاخصًا ببصره يصيح بصوت له ضعيف، ثم انقطع.

فقالت امرأته: اخرجوا عنه فإنكم لا تنفعون به الساعة.

فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم، فإذا ثلاثة قد فاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى.

وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتًا متحيرًا لا يؤدي فرضًا، فلما كان بعد ثالثة عقل.

الصمة بن عبد الله القشيري وابنة عمه ريا

ذكر الشيرازي في كتاب روضة القلوب عن الهيثم:

أن الصمة بن عبد الله القشيري رأى ابنة عم له يقال لها: ريا فهويها فخطبها إلى أبيها، فأجابه على مائة ناقة فحمل أبوه له ما طلب، فلما عدها وجدها ناقصة فطلبها، فحلف الصمة أن لا يأتي بها، وحلف أبوها أن لا ينكحه إلا بها، فرحل عنهم مغاضبًا.

فلما رأته ريا راحلًا قالت: ما رأيت رجلًا أضعه أبوه وعمه ببعير إلا الصمة.

ثم توجه إلى العراق، وندم على ما صنع وتزايد به الوجد ولم يقدر على الرجوع، فقال:

أَمِن ذكرِ دارٍ بالرّقاشِين أعصَفَتْ بِهِ بارِحَاتُ الصَّيْف بَدْءً وَرَجَّعَا
حَنَنت إلَى رَيًّا وَنَفْسكَ بَاعَدَت مَزَاركَ مِنْ رَيًّا وشِعْبَاكُمَا مَعًا
فَيَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِي الأَمْرَ طَائعًا وَتَجْزَعَ إنْ دَاعِي الصَّبَابَة أسْمَعا
كَأنَكَ لَمْ تَسْمَعْ وَدَاعَ مُفَارِقٍ وَلَمْ تَرَ شعْبًا ضَاحِيَين تَقَطَعَا
بَكَتْ عَيْني اليُمْنى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْم أسْبَلَتَا معًا

ثم إن الصمة ضاقت به العراق فخرج إلى الثغور متشاغلًا.

فلما وصل طبرستان اشتد به الوجد ونهكه المرض، ولم يطق الوثوب على راحلته، فدخل بستانًا فاضطجع فيه وأنشأ يقول لرفيق معه:

تَعَزَّ تَصَبَّر لا وَجَدّكَ لَا يُرَى سَلَام الحِمَى إحْدَى اللّيَالي الغَوَائِرِ
كَأَنَّ لِسَانيَ مِن تَذَكُرِي الحِمَى وَأهْل الحِمَى تَهفُوا بِهِ رِيشَ طَائِرِ

ولم يزل يرددهما حتى مات.

فلما وصل الخبر ريا لم تزل باكية عليه حتى ماتت.

الجارية مغنية عبد الله بن جعفر والشاب الذي هويها

ذكر ابن الخيمي في كتاب الشامل الفيد: أن عبد الله بن جعفر كانت عنده جارية مغنية من أحسن الناس غناءً وصورة. فطلبها منه يزيد بن معاوية. فتأبى عليه زمانًا.

قال: فأتتني عجوز من عجائزنا، فذكرت أن شابًا من المدينة يهواها، وأنه يأتي كل يوم متنكرًا، فيقف بالباب ليسمع غناءها فيبيت ليله متقنعًا مستخفيًا، فدعوت قيمة الجارية فأمرتها بإصلاح شأنها وتعجيلها.

فلما جاءت بها إليَّ نزلت بها قابضًا على يدها وفتحنا الباب ثم حركت الرجل فانتبه مذعورًا.

فقلت: لا بأس عليك خذ بيد هذه الجارية فهي لك، وإذا هممت ببيعها فأرددها عليّ لأشتريها. فدهش الفتى وليط[١] به.

فقلت: ويحك قد أظفرك الله ببغيتك فانصرف بها إلى منزلك.

فإذا الفتى ميت كأنه لم يكن. فلم أر شيئًا أعجب من ذلك وهانت الجارية في عيني فمكثت مدة ثم ماتت ولا أظنها ماتت إلا كمدًا وأسفًا على الفتى.

عامر بن غالب المزني وجميلة المزنية

ذكر الأصمعي أنه رأى بالبادية رجلًا قد دق عظمه وضؤل جسمه، ورق جلده. فتعجبت منه ودنوت منه لأسأله عن حاله فقالوا له: اذكر له شيئًا من الشعر يكلمك فقلت:

سَبَقَ القَضَاءُ بِأَنَّنِي لَكَ عَاشِقٌ　　حَتَّى المَمَاتِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَذَاهِبِي

فشهق شهقة ظننت أن روحه قد فارقته ثم أنشأ يقول:

أَخْلُو بِذِكْرِكَ لَا أُرِيدُ مُحَدِثًا　　وَكَفَى بِذَلِكَ نِعْمَةً وَسُرُورَا
أَبْكِي فَيُطْرِبَنِي البُكَاءُ وَتَارَةً　　يَأتِي فَيَأْتِي مَنْ أُحِبُّ أَسِيْرَا
فَإِذَا أَنَا أَسْمَعُ بِفُرّقَةِ بَيْنَنَا　　أُعْقِبتُ مِنْهُ حَسْرة وَزَفِيْرَا

فقلت: أخبرني عنك؟

قال: إن كنت تريد علم ذلك، فاحملني وألقني على باب تلك الخيمة.

ففعلت، فأنشأ يقول بصوت ضعيف يرفعه جهده.

أَلَا مَا لِلْحَبِيْبَةِ لَا تَعُوْدُ　　أَبُخْلٌ ذَاكَ مِنْهَا أَمْ صُدُوْدُ؟
فَلَوْ كُنْتِ المَرِيْضَةَ كُنْتُ أَسْعَى　　إِلَيكِ وَلَمْ يَنهنِي الوَعِيْدُ

فإذا جارية مثل القمر، قد خرجت فألقت بنفسها عليه فاعتنقها، وطال ذلك فسترتهما بثوبي خشية أن يراهما الناس فلما خفت عليهما الفضحية فرّقتُ بينهما فإذا هما ميتان.

فسألت عنهما.

---

(١) أي أصابه الذهول والفزع والاضطراب الذي يؤدي بخلل في وعيه.

فقيل لي: هذا عامر بن غالب، وهذه جميلة بنت أميل.

قال الأصمعي: فتركتهما وانصرفت.

ذكره الحافظ أحمد بن محمد بن علي الأبنوسي في أخباره.

الفتى التميمي ويقال: اسمه عباس والجارية الشيبانية

قال أبو مسكين فيما ذكره الخرائطي: ضلت ناقة لفتى من بني تميم فخرج إلى حي من بني شيبان ينشدها، فإنه لكذلك إذ بصر بجارية كأنها الشمس حسنًا وجمالًا. فعشقها عشقًا مبرحًا، فرجع إلى قومه وقد أذهبت عقله. فما تمالك أن رجع إلى حيهم، فلما هدأ الليل قال: لعلي أسكن بالنظر إليها بعض ما بي.

فأتاها وهي جالسة وأخوتها نيام حولها. فقال لها: يا قرّة عيني، قد والله أذهب الشوق عقلي، وكدر علي عيشي.

فقالت له: امضِ إلى حالك، وإلا أنبهت أخوتي فيقتلونك.

فقال لها: إن القتل أهون علي مما أنا فيه. قالت: وهل يكون شيء أشد من القتل؟

قال: نعم، ما أنا فيه من حبك، قالت له: فما تشاء؟ فقال: أمكنيني من يدك حتى أضعها على قلبي، ولك عهد الله أن أرجع.

ففعلت.

فلما كانت القابلة عاد فوجدها على مثل حالها. فقالت له كقولها.

فقال: أمكنيني من شفتيك حتى أرشفهما وأنصرف.

فلما فعلت ذلك وقع في قلبها منه كهيئة النار. فأقبلت تتلقاه كل ليلة.

فنذر به حيها وإخوتها فقالوا: ما لهذا الكلب قد أطال المكث في هذا الجبل وهو يتخطانا؟ فقعدوا لطلبه في ليلتهم تلك.

فأرسلت إليه: أن القوم يريدونك فكن على حذر، وإياك والغفلة.

فجاءت السماء بمطر حال بينهم وبين طلبه. ثم انجلت السماء وطلع القمر فتطيبت الجارية ونشرت شعرها وأعجبت بنفسها، فاشتهت أن يراها على تلك الحال فقالت لترب لها: قد كانت قد أطلعتها على شأنها؛ يا فلانة: أسعديني على المضي إليه.

فخرجتا يريدانه، وهو على الجبل خائف من الطلب لما حذرته، فبصر بشخصين يسيران في القمر.

فلم يشك أنهما من الطالبين له ليقتلوه فنزع بسهم فما أخطأ قلب صاحبته.

قال: فسقطت لوجهها مضرجة بدمائها، فلم تزل تضطرب حتى ماتت.

فبهت شاخصًا ينظر إليها ثم أنشأ يقول:

نَعبَ الغرَابُ بِمَا كَرِهْتُ ... وَلَا إزَالَةَ لِلْقَدَرْ

تَبْكِي وَأَنْتَ قَتَلْتَهَا ... فَاصْبِرْ وَإلَّا فَانْتَحِر

ثم جمع نبله، فجعل يجأ بها أوداجه حتى قتل نفسه.

وفي كتاب الكلبي عن أبي مسكين: خرج ناس من بني خنيفة يتنزهون فبَصُر فتًى منهم اسمه عباس بجارية فعشقها.

فقال لأصحابه: انصرفوا حتى أقيم وأرسلها.

قال: فطلبوه إليه أن يكف، فأبى.

فذكر الحديث وفي آخره: فجاء الحي فوجدوهما ميتين، فدفنوهما في قبر واحد.

ابن بنت أبي العباس أو أبي العنبس الثقفي وجارته بنت أبي الحكم

لما جاوز أبو العباس الثقفي بمكة، ووجدته في نسخة: أبو العنبس ومعه ابن ابنته، وإلى جانبهم قوم من آل الحكم مجاورون، فعشق الفتى جارية منهم، فأرسل إليها، فأجابته، وكان يتحدث إليها.

فلما أراد جده الرحيل جعل الفتى يبكي أحر بكاء.

فقال له جده: يا بني مالك؟ لعلك ذكرت مصر؟

قال: نعم، وأنشأ يقول فيما ذكره أبو الحسن المدائني:

يُسَائِلُنِي غَدَاة البَيْنِ جَدّي ... وَقَدْ وَبِلَتْ دُمُوعِ العَيْن تَجْرِي

أَمِنْ جَزَعٍ بَكَيْت ذَكَرْتَ مِصْرًا؟ ... فَقُلْتُ نَعَمْ وَمَا بِي ذِكْرِ مِصْرِ

وَلَكِـن لِلَّذي خَـلَّفْـتُ خَـلْفِـي ... بَكَتْ عَيْنِي وَعِيْلَ الْيَوْم صَبْرِي
فَمَنْ ذَا إنّ هَلَكْتُ وَحَانَ مَوْتي ... يُـخَـبِّـرُ وَالِدَيَّ بِـكُـلِ أَمْـرِي؟
لَيَحْفَظَ أَهْل مَكَّةَ فِي هَوَائي ... وَإنْ كَانُوا أُولي سَقَمِي وَضُرّي

ثم ارتحلوا، فلما خرجوا عن أبيات مكة، قال:

رَحَلُوا وَكُلُّهُـم يَحِنّ صَبَابَةً ... شَوْقًا إلَى مِصْرَ وَدَارِي بالحَرَمْ
لَيْتَ الرّكَابَ غَدَاةَ جَمّ فِراقَنَا ... كَانَتْ لُحُومًا قُسِّمَتْ فَوْق الوَضَمْ
نَاخُوا سرَاعًا يُعْمِلُونَ مَطيَّهُم ... قُدُمًا وَبتُّ مِنَ الصَّبَابَةِ لَمْ أَنَمْ
طُوبَى لَهُمْ يَبْغَونَ قَصْدَ سَبِيْلَهِمْ ... وَالْقَلْبُ مُرْتَهِنُ بِبِنْتِ أَبِي الحَكَمْ

ثم إن الفتى اعتلّ واشتدت علته، فلما وردوا أطراف الشام مات، فدفنه جده، ووجد عليه وجدًا شديدًا وقال يرثيه:

يَا صَاحِبُ القَبْرِ الغَرِيْبِ ... بِالشَّام مِنْ أَرْضِ الكَثِيْب
بالشَّعْبِ بَيـنَ صَفَائِحٍ ... حُمٍّ تُرَصَّفُ بِالجُنُوبِ
لَمّا سَمِعْتُ أَنِيْنَهُ ... وَدعَاءَهُ عِنْدَ المَغِيبِ
أَقْبَلتُ أَطْلُبُ طِبَّهُ ... وَالمَوْتُ يَغْضلُ بِالطَّبِيْبِ
وَاللَّيْلُ مُنْسَدِلُ الدُّجَى ... وَحشُ الجِنابِ مِنَ الغُرُوبِ

الفتى المقيّد بالسلسلة في الدير

ذكر عبد الله بن عبد العزيز السامري فيما ذكره السراج قال: مررت بدير هرقل أنا وصديق لي فقال لي هل لك أن ندخل فنرى من فيه من ملاك المجانين؟ فقلت: ذاك إليك.

فدخلنا، فإذا بشاب حسن الوجه مرجل الشعر مكحول العينين أزج الحاجب، كأن شعر جفانه مقاوم النسور، وعليه طلاوة، وتعلوه حلاوة، ومشدود بسلسلة إلى جدار.

فلما بصر بنا قال: مرحبًا بالوفد، قرب الله ما نأى منكما بأبي أنتما. قلنا: وأنت متع الله الخاصة والعامة بقربك وآنس جماعة ذوي المروءة بشخصك وجعلنا وسائر مَن يحبك فداك.

فقال: أحسن الله عن جميل القول جزاء كما وتولى عني مكافأتكما.

قلنا: ما تصنع في هذا المكان الذي أنت لغيره أهلٌ؟ فقال:

الله يَـعْـلَمُ أنَّـنـي كَـمِـدُ   لَا أسْتَطِيْعُ أبُثُّ مَا أجِدُ
نَـفْسَانِ لي نَفْسٌ تَضَمَّنَهَا   بَلَدٌ وَأُخْرَى حَازَهَا بَلَدُ
أمَّا المُقِيْمَةُ لَيْسَ يَنْفَعُهَا   صَبْرٌ وَلَيْسَ يُقِرْ بِهَا جلَدُ
وَأظُن غائِبَتِي كشَاهِدَتِي   بِمَكَانِهَا تَجِدُ الَّذِي أجِدُ

زائد التميمي في كتاب امتزاج النفوس:

أتُرِي المُحِبِّيْنَ الَّذِي سَلَفُوا   وَجَدُوا مِنَ الأحْبَابِ مَا أجِدُ
بَيْنَ الجَوَانِحِ جَمْرَةٌ تَقِدُ   تَنفِي الكَرَى وَيُزوْرُ فِي السَّهَدُ

ثم التفت إلينا فقال: أحْسَنْتُ؟ قلنا: نعم، ثم ولينا.

فقال: بأبي أنتما ما أسرع مللكما بالله أعيروني فهم أفهامكما، وأذهانكما.

قلنا: هات. فقال:

لَمَّا أنَاخُوا قُبَيْلَ الصُّبح عِيْرَهُمُ   وَرَحَلُوا فَسَارَتْ بِالهَوَى الإبِلُ
وَقَلَّبَتْ مِنْ خِلَالِ السَّجْفِ نَاظِرَهَا   تَرْنُو إلَيَّ وَدَمْعُ العَيْنِ مُنْهَمِلُ
وَوَدَّعَتْ بِبَنَانٍ عقدُهَا عَنَم   نَادَيْتُ: لا حمَلَتْ رِجْلاكَ يا جَمَلُ
وَيْلي منَ البَيْنِ مَاذَا حَلّ بِي وَبِهَا؟   مِنْ نَازِلِ البَيْنِ حَلّ البَيْنُ وَارْتَحَلُوا
يَا حَادِيَ العِيْسِ عَرِّجْ كَيْ أُوَدِّعهَا   يَا رَاحِلَ العَيْسِ في ترحَالكَ الأجَلُ
إنِّي عَلَى العَهْدِ لَمْ أنْقُضْ مَوَدَّتكُمْ   فَلَيْت شِعْرِي وطَالَ العَهْدُ مَا فَعَلُوا؟

وقلنا: ولم نعلم حقيقة ما وصف مجونًا منا: ماتوا.

فقال: أقسمت عليكم، ماتوا؟

فقلنا: للنظر ما يصنع؟ نعم ماتوا.

فقال: إني والله ميت في إثرهم.

ثم جذب نفسه منها لسانه، وندرت لها عيناه وانبعث شفتاه بالدماء، فتلبط ساعة ثم مات.

قال عبد الله: فلا أنس ندامتنا على ما صنعنا.

وفي كتاب التميمي أنه قال لهم: إن أبي كان عقد علي ابنة عمي فمات قبل زفافها عن مال عظيم، فقبض عمي ذلك جميعه، وزعم أني مجنون فحبسني هنا وأنشدهما أيضًا آخرًا:

أَيــنَ لِي أيُّــهَــا الــطَّــلَلُ عَــنِ الأحْــبَــابِ مَــا فَــعَــلُوا؟
تُــرَى سَــارُوا تُــرَى نَــزَلَوا بِــأَرْضِــي الــشَّــامِ أمْ رَحَــلُوا؟

قالوا: ماتوا...

عبد الله بن العجلان وطليقته هند

ذكر أبو الفرج الأصبهاني في تاريخه الكبير: عن عبد الله بن العجلان بن عبد الأحب بن عامر بن كعب بن صباح بن نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحارث بن قضاعة، فقال: شاعر جاهلي أحد المتيمين من الشعراء ممن قتله الحب.

وكانت له زوجة يقال لها: هند، فطلقها ثم ندم على طلاقها، فتزوجت زوجًا غيره، فمات أسفًا عليها.

قال الهيثم: كان ابن عجلان سيّدًا في قومه، وابن سيّد من ساداتهم، وكان أبوه أكبر بني نهد مالاً.

وكانت هند امرأة من قومه من بني نهد وكانت أحب الناس إليه، وأحظاهم عنده، فمكثت عنده سبع سنين أو ثمان سنين لم تلد.

فقال له أبوه: إنه لا ولد لي غيرك، ولا ولد لك، وهذه المرأة عاقر، فطلقها وتزوج غيرها.

فأبى ذلك عليه، فآلى أن لا يكلمه أبدًا حتى يطلقها. فأقام على أمره، ثم عمد إليه يومًا وقد شرب الخمر حتى سكر، وهو جالس مع هند.

فأرسل إليه: أن سر إلينا.

فقالت له هند: لا تمضِ إليه، فأبى وعصاها فتعلقت بثوبه، فضربها بمسواك فأرسلته، وكان في يدها زعفران فأثر في ثوبه مكان يدها.

ومضى إلى أبيه، فعاوده في أمرها وأنبه وضعفه وجمع عليه مشيخة الحي وفتيانهم، فتناولوه بألسنتهم، وعيروه بشغفه بها وضعف حزمه، ولم يزالوا به حتى طلقها.

فلما أصبح خبر بذلك، وقد علمت به هند، فاحتجبت عنه. وعادت إلى بيت أبيها، وأسف عليها أسفًا شديدًا.

فلما رجعت إلى أبيها خطبها رجل من بني نمير، فزوجها أبوها به فبنى بها عندهم، ثم أخرجها إلى بلده.

فلم يزل ابن عجلان دنفًا سقيمًا وأخذ يقول فيها الشعر ويبكيها حتى مات أسفًا وعرضوا عليه فتيات الحي جميعًا فلم يقبل واحدة منهن.

وقال في طلاقه إياها:

طَلَّقْتُ هِندًا طَائِعًا ... فَنَدِمْتُ بَعْدَ فُرَاقِهَا
فَالْعَيْنُ تَذْرِف دَمْعَة ... كَالدُّرِ مِنْ آمَاقِهَا
مُتَحَلِّيًا فَوقَ الرِّدَاء ... يَجُولُ فِي رَقْرَاقِهَا
خَد رَوَاحُ طِفْلَةٌ ... مَا الفُحْش مِنْ أَخْلاقِهَا
إن كَنْت سَاقِيَة بنز ... لِ الأدم أَوْ بِحِقَاقِهَا
فَاسْقِي بَنِي نَهْدٍ إذا ... شَرِبُوا خِيَار رِقَاقِهَا
فَالْخَيْلُ تَعْلَدُ كَيْفَا ... لحقها غداةِ لحاقِها
بأسنة زَرْقِ صحنا ... لِقَوْم حَدَّ رقَاقِهَا
حتَّى تَرَى قَصْدَ القَنَا ... وَالبِيْضُ فِي أَعْنَاقِهَا

وقال أبو عمرو الشيباني: لما طلق ابن عجلان هندًا، نكحت في بني عامر، وكانت بينهم وبين بني نهد مغاورات فجمعت نهد لبني عامر جمعًا، وأغارت على طوائف منهم فيهم بنو العجلان، وبنو الوحيد، وبنو الجريش، وبنو قشير فنذروا بهم فقتلوا قتالًا شديدًا، وانهزمت بنوا عامر، وقتلوا منهم جماعة من أشرافهم فقال ابن العجلان في ذلك:

أَلَا أَبْلِغْ بَنِي الحَجَا عَنِّي ... فَلَا يُنْبِئكَ بِالْحَدَثَانِ غَيْري
بِأَنَّا قَدْ قَتَلْنَا الخير قرطا ... وَجَوْنَا فِي سُرَاةِ بَنِي نُمَيْرِ
وَأَقْبَلْنَا بَنُوا شكل رِجَالًا ... حُفَاة يَرْقَؤنَ عَلَى سَمِيْرِ

قال أبو عمرو: فلما اشتد بما به من الوجد خرج سرًّا من أبيه، مخاطرًا بنفسه حتى أتى أرض بني عامر، ولا يرهب ما بينهم من الشر، والتراث حتى نزل

بني نمير وقصد خباء هند، فلما قاربه رآها، وهي جالسة على الحوض، وزوجها يسقي ويزود الإبل عن مائة.

فلما نظر إليها، ونظرت إليه، رمى بنفسه عن بعيره، وأقبل يشتد إليها وأقبلت تشتد عليه واعتنق كل واحد منهما صاحبه، وجعلا يبكيان وينشجان ويشهقان حتى سقطا على وجهيهما. وأقبل زوج هند لينظر ما حالهما؟ فوجدهما ميتين.

أبو عبد الله الحبشاني وصفراء العلاقمية

ذكر أبو القاسم التنوخي: أن أبا عبد الله الحبشاني كان يعشق صفراء العلاقمية، وكانت سوداء، فاشتكى من حبها وضنى حتى صار إلى حد الموت.

فقال بعض أهله لمولاها: لو وجهت صفراء إلى أبي عبد الله الحبشاني فلعله أن يعقل إذا رآها. ففعل، فلما دخلت عليه صفراء. قالت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: بخير ما لم تبرحي.

قالت: ما تشتهي؟ قال: قربكِ. قالت: فما تشتكي؟ قال: حُبكِ. قالت: فتوصني بشيء؟ قال: نعم، أوصي عليّ.

فقامت وانصرفت، فلما رآها مولية تنفس الصعداء، ومات من ساعته.

أخو عبد الله بن أحمد بن يحيىٰ وجارية الدرب

ذكر ابن حزم عن أبي القاسم الهمداني قال: كان معنا ببغداد أخ لعبد الله بن أحمد بن يحيىٰ بن دحون الفقيه بقرطبة وأنه جاز يومًا بدرب قطنه يتقد فدخل فيه.

فرأى في أقصاه جارية واقفة مسفرة، فقالت له: يا هذا، إن الدرب لا ينفد. قال: فلما نظر إليها، هام بها وانصرف، إلينا قد تزايد أمره، وخشي الفتنة، فخرج إلى البصرة، فمات بها عشقًا وكان فيما يذكر من الصالحين، وكان أعلم من أخيه وأجل مقدارًا، وما كان من أصحابنا ببغداد مثله في العلم والدين.

المغنية وصاحب المذَبة

ذكر أبو محمد الحسن بن عليّ الجوهري: أن عبد الرحمٰن بن إسحٰق القاضي قال: انحدرت من سر مَن رأى مع محمد بن إبراهيم بن إسحٰق، ودجلة تزخر من كثرة مائها.

فلما أن سرنا ساعة قال: ارفعوا بنا ثم دعا بطعامه، فأكلنا.

ثم قال: ما ترى في النبيذ؟ قلت له: أعزّك الله أيها الأمير، هذه دجلة قد جاءت بمدّ عظيم ترغَبُ عن مثله، وبينك وبين منزلك مبيت ليلة؟! فلو شئت أخرته.

قال: لا بد لي من الشراب. فضربت ستارة، واندفعت مغنية تغني وأخرى تجيبها:

يَـا رَحْـمَـتَّـا لِـلْعَـاشِـقِـيْـنـا مَـا أَنْ أَرَى لَهُـمَـا مُـعِـيْـنَـا
كـم يُـشْـتَـمُـونَ وَيُـضْـرَبُـونَ وَيُـهْـجَـرُونَ فَـيَـصْـبِـرُونَـا

فقالت لها المغنية الأولى: فيصنعوا ماذا؟

قالت: يصنعون هكذا، ورفعت الستارة وقذفت نفسها في الدجلة.

وكان بين يدي محمد غلام ذكر أنه اشتراه بجملة من ذهب بيده مذبة لم أر أحسن منه، فوضع المذبة، وقذف بنفسه في دجلة وهو يقول:

أَنْـــتِ الَّذي غَـــرَّقْـــتِـــنِ بَـعْـدَ الـقَـضَـا لَوْ تَـعْـلَـمِـيْـنَـا
لَا خَـيْـرَ بَـعْـدَكِ إِنْ بَـقَـيْـت وَالـمَـوتُ زَيْـن الـعَـاشِـقِـيْـنَـا

فأراد الملّاحون أن يطرحوا أنفسهم خلفهما فصاح بهم محمد دعوهما يغرقا إلى لعنة الله قال: فرأيتهما وقد خرجا من الماء معتنقين ثم غرقا.

أحد ولد عبد الرحمـٰن بن عوف وابنة عمه والفقر

ذكر هشام بن محمد بن السائب في كتاب اللباب قال: كان بالمدينة رجلٍ من ولد عبد الرحمـٰن بن عوف، وكان عنده ابنة عم له، وكان لها عاشقًا وبها مستهترًا فضاق ضيقة شديدة.

فأراد المسير إلى هشام بن عبد الملك بالرصافة فمنعه من ذلك ما كان يجد بها وكره فراقها.

فقالت له يومًا وقد بلغ منها الضيق: يا ابن عم ألا تأتي الخليفة لعل الله أن يقسم لك منه رزقا فنكشف به بعض ما نحن فيه.

فلما سمع ذلك منها نشط للخروج فتجهز ومضى حتى إذا كان من الرصافة على أميال خطر ذكرها بقلبه وتمثلت له فلبث ساعة شبيهًا بالمغمى عليه، ثم أفاق.

فقال: والله لا تخطو خطوة إلا راجعة.

فرجع فلما كان من المدينة على قدر ميل لقيه بعض بني عمه، فأخبره أن امرأته قد توفيت. فشهق شهقة وسقط عن ظهر البعير ميتًا:

أَتَظْعَنُ عَنْ حَبِيْبِكَ ثُمَّ تَبْكِي عَلَيْهِ فَمَا دَعَاكَ إِلَى الفِرَاقِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَذُقْ طَعْمًا لِبَيْنٍ فَتَحْسَبُ أَنَّهُ مُرّ المَذَاقِ

عبد العزيز بن الشاة، ومحمد بن الحسين الضبي

ذكر السراج: أن محمد بن الحسين الضبي، وعبد العزيز بن الشاة التميمي، كانا كأنهما هلالان أو وردتان من حسنهما وجمالهما، فسمعا كلام أبي عبد الله الديلمي، وكان من أحسن الناس كلامًا وأظهره جزعًا، وأكثرهم صلاة واجتهادًا، فاصطحباه مدة طويلة على خير وعفاف.

فحضر محمد الوفاة، فجزع عليه عبد العزيز جزعًا شديدًا لم يرَ مثله، وأقام أيامًا لا يطعم ولا يتكلم.

قال الراوي عنه: فرأيته في صلاة الغداة من بعد أربعة أيام قام إلى جنبي في الصف، فسمعته يدعو بعد ما فرغ من الصلاة: اللهم لا تجمع علي كرب الدنيا وعذاب الآخرة وعجل خروجي من الدنيا سالمًا منها إلى رضاك ومغفرتك، وارحم غربتي واجب دعوتي واجمع بيني وبين من أحبني فيك وأحببته لك، ولا تفرق بيني وبينه، واجعل اجتماعنا في محل الفائزين، ثم قال: أقسمت عليك إلّا فعلت، ثم خَرّ ساجدًا، فأطال السجود، فدنوت منه فحركته، فإذا هو قد قضي، فدفن إلى جنب صاحبه.

ومكثت حينًا من الدهر أسأل الله أن يريني أحدهم في المنام.

فرأيت عبد العزيز بن الشاة عليه ثياب خضر، وهو يطير بينْ السماء والأرض. فناديته، فوقف. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بقول الناس في ما لا يعلمون ورميهم إياي بالإفك والظنون.

قلت: فما فعل محمد بن الحسين؟ قال: جمع الله بيني وبينه وأنا وهو في درجة واحدة.

الفتى الهائم بين الحجيج سائلًا عن محبوبة

ذكر أبو محمد السراج أن عبد الملك بن محمد قال: خرجت من البصرة، وأنا أريد الحج، فإذا أنا بفتى نضو قد نهكه السقام يقف على محمل محمل وهودج هودج يتطلع فيه ويقول:

أَحُجَاجَ بَيْت الله في أَيْ هَوْدَجٍ … وَفي أَيْ خُذر مِنْ خُدُورِكُم قَلْبِي؟
أَأَبْقَى أَسِيْرًا لِحُبٌ فِي دَارِ غُرْبَة … وَحَادِيْكُمْ يَحْدُو بقَلْبِي فِي الرَّكْبِ؟

فلم أزل أتبعه حتى جاء إلى المنزل فاستند إلى جدار ثم قال:

خَلِّ فيض الدَّمْع يَنْهَمِلُ … أَنَّ مَنْ تَهْوَاهُ قَد رَحَلُوا
كُلّ دَمْع صَانَه كَلِفٌ … فَهُوَ يَوْم البَيْن مُبْتَدلُ

قال: ثم تنفس الصعداء وشهق فحركته فإذا هو ميت.

الأصمعي والمرأة التي استكتمته أمرها

ذكر ابن المرزبان في كتاب الذهول والنحول: أنبأنا أحمد أنبأنا محمد بن زكريا عن المساور بن حميد قال: ما رأيت الأصمعي قط خفر إلا في شيء واحد فلا أدري أعرب رأيه عنه، أم عمينا نحن عما قصد له؟ قلت: وما ذاك؟ قال: أخبرني أنه مضى يومان من الأيام في حداثته متنزهًا، فرأى في طريقه امرأة قائمة لم ير أحسن منها قط وهي كالمتحيرة أو كالمترقبة لشيء ضال.

فقلت لها: ما بك؟ فقالت:

مَا يُقِيْمُ الغَزَال وَسَط الطَّرِيْق … طَمَعًا فِي صَدِيْقَةٍ أَوْ صَدِيْق

فقالت: أترك ذاك فإني عنك في شغل أأترك إنسانة مثلي في قدري وشكلي قد روت الأخبار، وعرفت الأشعار، واجتمع فيها من الخصال ما تفوق بها سواها، فهي كما قال الشاعر:

كَبِكْرِ المعاناة البياضِ بِصُفْرَةٍ … غَذَاهَا نَمِيْرُ المَاءِ غَيْر المُحَلّلِ

فقلت لها: هذه صفة من تعنين فما صفاتك أنت؟

قالت: أنا كما قال الشاعر:

بِـرَهْـرَهَـةٌ رُودَةٌ رَخْـصَـةٌ كـحـزعُـونـه الـبـانـة الـمُـنْـفَـطِـرْ
فَـتُـورُ الـقِـيَـام قَـطُـوع الـكَـلَام يَـفْـتـر عَـنْ ذِي عَـزُوبٍ أشِـرْ

قال: فقلت: أنت والله أحسن صفة ممن ذكرت.

قالت: لا والله بل هي كما قال الشاعر:

خَوْدَ[1] خَدَلَّجَةَ[2] دَعْجاء[3] بهُنكةٍ مَتْنَاءُ مُفَلَّجَةٌ كَالبَدْرِ فِي الدجُنِ

قال: فقلت: إن عندي من الحديث والمفاكهة ما يقوم مقام الباه.

قالت: تبًّا لك، والله ما شأن أهل الأدب بالدخول في الريب ولو لم يكن ورع يمنع لكان حياء حجز، وهل نحن إلا في نزعة من الأدب وروضة من أخبار الناس؟ قال: ثم قالت: ضمنت لك ولأهلك ألا تزال تهيم فذكرت هذا البيت:

ظَلُوم الَّتي قَالَتْ لِجَاراتِ بَيْتِهَا ضَـمَـنْـتُ لَهُـمْ أَلَّا يَـزَال يَـهِـيْـمُ

ثم قالت: وأعجب من ذلك أنها كما قال الشاعر:

لـمْ يَـخْـلق الله أخَـا فِـتْـنَـةٍ إلَّا وَعَـنْ قَـوْسٍ لَهَـا يَـرْمِـي

ثم أومأت إلى حي من أحياء العرب تخبرني أنها عندهم وبين أظهرهم في منعة من نفسها وعلو من أمرها. وحانت مني التفاتة إلى بعض من نظرت إليه فكأن الأرض اختطفتها.

فتعطلت على نزهتي، ووقعت من الفكر وشغل القلب فيما لا قوام لي به. فانصرفت ثم عدت مع عدة من أهل الأدب حتى أتيت الحي، فسألت. فإذا هي نبيهة الذكر عالية القدر فرمت الدخول، فلم أجد إلى ذلك سبيلًا وإذا جوار بالباب، فقلت لبعضهن: استأذني على مولاتك، وأعلميها باسمي. فأذنت لي، فإذا هي على سرير، فلما رأتني قالت:

مرحبًا، وأهلًا وسهلًا، ما كنت لنا، بزوار، فما بدا لك؟ قلت: قصدتك لما يذكر من شأنك وحلاوة لسانك.

---

(١) الخودُ، الفتاة الحسناء. (٢) الخَدَلَّجةُ: الرَّيَّاءُ الممتلئة الذراعين والساقين.
(٣) الدعج: شدة بياض بياض العين، وشدة سواد سواد العين. والمراد به جمالها.

فقالت لي: يا أبا سعيد، أنا أناشدك الله أن تشهرني أو تشيد بذكري، فإنك تعلم السلطان وما هو عليه ومثلك لا يزور مثلي، على أنني في علة، أحسبها ستفرق بيني وبينك عن قريب، وإذا لها محراب عليه ثوب حرير عليه كتاب في تربيعة. وإذا صحيفة مفصلة بذهب منشورة بين يديها وعصابة منسوجة بالذهب، فقرأته وإذا فيه:

أَشُـدُّ إزارِي عَـلَي جَسَـد بَـالِي مَخَافَةَ أَنْ أَنْسَلّ مِنْ تَحْتِ سِرْبَالِ

فقلت: ما أشبه هذا البيت بما أنا فيه. فقالت: الله الله أن تعود إلى ذكر هذا. قال: فقلت: إني غير عائد وإن لي حاجة. قالت: وما هي؟ قلت: أنصيب أهل الهوى في هذا الزمان كما روينا في أخبار المتقدمين؟

قالت: ولي الأمان لا تذكره؟ قلت: ذلك لك، وهو أمان من سخطك. قالت: أما إذا سألت عن هذا، فسأحدثك عن سبب علتي هذه:

كنت سراجًا للأوانس، ومفزعًا للآلاف. ومشكى لكل ذي حاجة.

فعبرت بذلك زمانًا أسمع منهن وأحكم بينهن أقضي لهن ما أجد إليه السبيل. فجاءتني جارية من أهل القدر والنعمة كأنما قلبها تخفق منه أمواج البحر وعواصف الريح، وقد كانت تجيئنا وتغشانا على سبيل التلذذ والتفكه، فلا تسمع بقتيل الهوى إلا قالت: زاده الله، ولا ببيت غزل إلا قالت: كذب صاحبه والله، ولا ترى دمعة تسيل إلا هزئت بصاحبها فكنا نحتملها لموضعها ومكانها. فجاءتني يومًا وهي كالوالهة، وقد أريت في المنام صورة رجل أو جارية وقعت في قلبها بالمقة، وقد صورت تلك الصورة معجبة.

فلم تلتذ بطعام ولا شراب، وانفردت بتلك الصورة حتى أشفقت عليها أن يذهب عقلها، فعدلتها فلم ينفعني ذلك. فكانت بعد مسعدة لكل ذي شجون ومَن لم يبك أرته من حالها ما يرق فيبكي لبكائها. فاجتمع إلى جميع أهلها، ومن كنت أعرف في طلب الحيلة لها، فتعذر ذلك إلى أن كتبت لها في الثوب الحرير من الشعر ما تراه، فكانت تنظر إلى البيت فينة فتقرأه وتستحسنه فيصفو عيشها حتى اعتلت علة شديدة، ثم نظرت بعد ذلك في الحيلة لها، وعندي الصورة التي كانت صورتها، فأحضرت المصورين والمزوقين.

فزوّقت لها بيتًا وجعلت فيه من كل الصورة، ثم جعلت الصورة الأولى في صدر المجلس كأحسن ما يكون. وجعلت يد الصورة على وجهها للغم والاكتئاب. وجمعت كل مَن حضر إليَّ من أهل الأدب من الجواري ليسلوها عما هي عليه، واتخذت لهن طعامًا.

ثم أتيتها فقلت لها: أو دخلت بيتًا قد مُتِّعت فيه العيون ولا أحب أن تقع عليه إلا عينك. فنظرت إليه ثم خرجت إلى الجواري فأنست بهن، وتحدّثت معهن باقي يومها، فوثبت إلى البيت الذي وصفته لها فاستقبلت الصورة التي كانت في صدر البيت. فوالله ما سمعت لها كلمة ولا شهقة ولا أنّة، من أني دخلت البيت، فرأيت قريبًا من الصورة بخطها: أنتِ قتلتني، لِمَ جعلتيها مكتبئة؟ لو أردت سروري، حطيتيها ضاحكة، وأنا أسألك بحق الله، وبحق ما كان بيننا إلا دفنتيني في هذا البيت إن حدث على حادث الموت، ولم تخرجيني منه. وأبطأ على خبرها.

فقلت لبعض الجواري: اعلمي لي علمها فمضت ثم رجعت، فقالت: دعوها فإنها كالنائمة. ثم أنه جاء وقت الظهر، فقمت أنظر ما حالها؟ ومعي جماعة ممن كن معي فدخلنا إليها فوجدناها معتنقة للصورة وهي ميتة كأنها لم تزل كذلك.

فكان من جمعت من الجواري للفرج والطعام الذي عملت لهن صار للحزن والمأتم.

فبعثت إلى أهلها فحضروها ودفنوها كما قالت، فهذا قبرها.

ثم أصابني من الغم والأسف والعلّة ما لا بقاء لي بعدها.

وقد كنت أمرت من كان معي من أهل الأدب أن ينتخبوا ما قدروا عليه من الشعر الذي رأيت على الثوب، فوافق فراغها من الحزن فراغهم مما كنت أمرتهم.

فأومأت إليهم أن انهضوا. وانصرفت عنها وقد ضمنت لها أن أعود وأبعث إليها رسول، وقد كنت خلفتها بحال من العلة عندما حدّثتني بهذا الحديث.

فلما كان الغد، وجّهت من يعرف خبرها خوفًا من أن تغضب فوجدها قد ماتت.

قال مساور: فقلت له: والله، إنه لحق ما بلغني: أنك أرق أهل زمانك، إلا أنني ظننتك أن تقف ذلك الموقف.

فقال: يا ابن أخي، لو رأيتها ما ملكت لنفسك ضرًا ولا نفعًا، ولتمنيت أنك لو تصوّرت خالًا في أسفل رجلها تطأ بك الأرض.

فقلت: أحب أن تعطيني الأبيات التي أمرت أن تكتب.

فقال: أما الكل فلا، ولكن اكتب البعض، فأملى:

أَرَى حُبَّهَا يَزْدَادُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَجِسْمِي عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ يَذُوبُ
فَلَوْ أَنَّهَا مِيتٌ تَعَلَّلَتْ بِالْمُنَى وَلَكِن حَظِيَّ جَفْوَةٌ وَقُطُوبُ
وَلَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ قَلْبِي رَأَتْ بِهِ جَوَىً وَتَذَوُّبًا مَا لَهُنَّ طَبِيبُ
هَجَرْتُكَ لَا هَجْرَ الَّذِي عَزَمَ القِلَى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ هَوَاكَ نَصِيبُ

وأملى عليّ أيضًا:

يَا مُوْقَدَ النَّارِ يُذَكِيهَا وَيُخْمِدُهَا قَرَّ الشِّتَاءِ بِأَرْيَاحٍ وَأَمْطَارِ
قُمْ فَاصْطَلِي النَّارَ مِنْ قَلْبِي مُضَرَّمَة بِالشَّرْقِ يُغْرِبُهَا يَا مُوْقِد النَّارِ
وَيَا أَخَا الذُّوْدِ قَدْ طَالَ الظَّمَا بِهَا لَمْ تَدْرِ مَا الرِّيَّ مِنْ جَدْبٍ وَإِقْفَارِ
رِدْ بالعَطَاشِ عَلَى عَيْنِي وَمحجرهَا تَرَى العطَاش بدَمْعٍ وَاكفٌ جَارِي
إِنْ غَابَ شَخْصكَ عَنْ عَيْنِي فَلَمْ تَرَهُ فَإِنَّ ذِكْرَكَ مَقْرُونٌ بِإِضْمَارِي

الباكية شعرًا عند القبر حتى الموت

ذكر القالي: أن الأصمعي قال: رأيت بالبادية امرأة على راحلة تطوف حول قبر وهي تقول:

يَا مَنْ بِمَقْتَلِهِ زَهَى الدَّهْرُ قَدْ كَانَ فِيكَ تَضَاءَلَ الأَمْرُ
زَعَمُوا قُتِلْتَ وَمَا لَهُمْ خَبَرٌ كَذَبُوا وَقَبْرِكَ مَا لَهُمْ عُذْرُ
يَا قَبْر سَيِّدنَا المجن سَمَاحَةً صَلَّى الإِلٰهُ عَلَيْكَ يَا قَبْرُ
مَا ضَرّ قَبْرًا فَيْهِ شَلْوُكَ سَاكِنُ إِلَّا يَمُر رَيَاضه القَطْرُ
فَلْيَنْبَعَنَّ سَمَاح جَودك فِي الثرى وَلْيُورِقَنَّ بِقُرْبِكَ الصَّخْرُ
وَإِذَا غَضِبْت تَصَدَّعَت فَرَقًا مِنْكَ الجِبَالُ وَخَافَكَ الذُعْرُ

وَإِذَا رَقَـدتَ فَـأَنْـتَ مُـنَـقـبَـة ... وَإِذَا انْـتَبَـهْـت فَـوَجْـهـكَ الـبَـدْرُ
وَاللهِ لَو يَـــكُ لَمْ أَدَعْ أَحَـــدًا ... إِلَّا قَـتَـلْتُ لَفَـاتَـنِـي الـدَّهْـرُ

قال: فدنوت منها لأسألها عن أمرها فإذا هي ميتة.

المستزينة عند قبر حبيبها

ذكر ابن دريد حدّثنا الرياسي حدّثنا الأصمعي عبد الملك بن قريب قال: مررت أنا وصاحب لي بجارية عند قبر لم أر أحسن منها ولا أجمل، وعليها ثياب نظيفة وحلي كثيرة، وهي تبكي على القبر، فتعجبت من حالها وزينتها. فقلت: ياه هذه، علام هذا الحزن الشديد؟ فبكت، ثم أنشأت تقول:

فَإِنْ تَسْأَلانِي فِيْمَا حُزنِي فَإِنَّنِي ... رَهِـيْـنَـةُ هَـذا الـقَـبْـرِ يَـا فَـتْـيَـانِ
وَإِنِّي لأَسْتَحْيِيهِ وَالتُّرْبُ بَيْنَنَا ... كَمَا كُنْتُ أَسْتَحْيِيهِ حَيْثُ يَرَانِي

قال: فعجبنا منها ومن طرفها، فاستحيينا منها. فتقدمنا قليلًا، ثم جلسنا نسمع ما تقول بحيث لا ترانا، ولا تعلم بنا، فسمعناها تقول:

يَا صَاحِبَ القَبْرَ يَا مَنْ كَانَ يُؤنِسُنِي ... وَكَـانَ يُـكْـثِـرُ فِي الـدُّنْـيَـا مُـؤَاتَـاتِـي
قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ فِي حَلْيِي وَفِي حُلَلِي ... كَـأَنَّنِي لَسْـتُ مِنْ أَهْلِ الـمُصِيبَاتِ
لَزِمْتُ مَا كُنْتَ تَهْوَى أَنْ تَرَاهُ وَمَا ... قَـدْ كُـنْـت تَـأْلَفُـهُ مِـنْ كُـلِّ هَـيْـئَاتِ
فَـمَـنْ رَآنِـي رأى عَـبْـرَي مُـوَلَّهَـةً ... مَشْهُورَةَ الزَّيِّ تَبْكِي بَيْن أَمْوَاتِي

فلم نزل قعودًا حتى انصرفت فتبعناها حتى عرفنا موضعها ومن هي. فلما خرجت إلى هارون الرشيد قال لي: يا أصمعي، ما أعجب ما رأيت بالبصرة؟ فأخبرته خبر المرأة. فقال: ما سمعت بأعجب منها.

وكتب إلى متولي البصرة بأن يجهزها بعشرة آلاف درهم ويحملها إليه.

قال الأصمعي: فحملت إلى هارون، وقد سقمت حزنًا على الميت، فلما وصلت إلى المدائن ماتت أسفًا. فَقَلَّ ما ذكرها الخليفة إلَا دمعت عيناه.

الشاب والقينة وصاحبتها

ذكر العتبي قال: جلست يومًا عند جماعة من أهل الأدب، فنزع بنا الحديث إلى أخبار العشاق.

وفي الجماعة شيخ ساكت فسئل، فقال: كانت لي ابنة، وكانت تهوى شابًا ونحن لا نعلم بذلك وكان الشاب يهوى قينة، وكانت القينة تهوى ابنتي.

فحضرت في بعض الأيام مجلسًا فيه ذلك الشاب والقينة، فغنت:

عَلَامَةُ ذُلّ الهَوَى عَلَى العَاشِقِيْنِ البُكَا
وَلَا سِيَّمَا عَاشِقٌ إذَا لَمْ تَجِدْ مُشْتَكَى

فقال لها الشاب أحسنتي يا سيدتي، أتأذنين لي أن أموت؟ فقالت: نعم مت راشدًا إن كنت عاشقًا. قال: فنام وغمض عينيه، فمات. فانصرفنا مهمومين إلى منازلنا.

فأخبرت أهلي بما كان من شأن الفتى. فلما سمعت ابنتي كلامي نهضت إلى مجلس لنا مبادرة. فأنكرت ذلك منها، فوجدتها توسدت كما كنت وصفته عن الفتى فحركتها فإذا هي ميتة.

فأخذنا في جهازها وغدونا بجنازتها وجنازة الشاب. فإذا نحن بجنازة ثالثة، فسألنا عنها، فإذا هي جنازة القينة، بلغها موت ابنتي ففعلت مثل ما فعلت فماتت. فدفنا الثلاثة في يوم واحد.

الشاب والفتاة المتعاتبان

قال العتبي: كنت في مجلس فيه شاب، وفتاة كأنها المهاة يتعاتبان ويتباكيان ثم نظرت إليه وأنشدت:

وَأَنْتَ الَّذي أَخْلفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيْكَ يَلُوْمُ
وَأَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ حَتَّى تَرَكْتَنِي لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وَأَنْتَ سَلِيْمُ

فقال مجيبًا لها:

غَدَرْتُمْ وَلَمْ نَغْدُرْ وَخُنْتُمْ وَلَمْ نَخنْ وَفِي بعْضِ هَذا لِلْمُحبِ عَزَاءُ
جَزَيْتُكِ ضِعْفَ الوُدّ ثُمّ حَرَمْتِنِي فَحَمَّلْتُ مَنْ صُدُوْدِكِ دَاء

فقالت:

تَجاهَلْتَ وَصْلي حِيْنَ لَاحتْ عَمايَتِي فَهلَّا صَرَمْتَ الود إذْ أنَا أُبصرُ
وَلِي مِنْ قُوَى الحَبْل الَّذي قَدْ قَطَعْتَه نَصِيْبُ وَحَالِي لِلْوصَالِ مُوَفَّرُ

فقام إليها وقبّلها واعتذر كل واحد منهما إلى صاحبه وبكى بكاءً طويلًا، ثم أنشأ يقول:

دَمْعِي عَلَيْكِ مِنَ الجُفُونِ سَكُوبُ وَالْقَلْب مِنْكِ مُرَوَّعٌ مَكْرُوبُ
لَا شَيء في الدُّنْيَا أَلَذّ مِنَ الهَوَى إنْ لَمْ يَحِن عَهْدَ الحَبِيْب حَبِيْبُ

فأجابته:

خَلَوْتُمْ بِأَنْوَاعِ السُّرُورِ هَنَاكُم وَأَفْرِدْتُمُونِي لِلصَّبَابَة وَالحُزْنِ
وَعَذَّبْتُمُونِي بِالصّدُوْدِ وَإِنَّنِي لَرَاضٍ بما تَرْضَوْنَهُ لِي مِنَ الفتَن

فأجابها:

وَقَدْ كُنت أَنْهَى النَّفس عَنك لَعَلَّهَا إذَا وُعِدَتْ بِالنَّائِي عَنك تَطِيْبُ

قال: فصاحت صيحة عظيمة وقالت: أو كنت تفعل هذا وطابت نفسك عنه، والله ما فيك من خير. ثم نظرت إليّ وقالت: يا عم والله ما فيه من خير وأنه قاس القلب. ثم قالت: يا عم إذا كان في السحر تعالى إلى عندي.

فخرجنا من عندها معتمين. فلما كان في السحر جئت إلى دارها، فإذا صراخ في الدار وضجة عظيمة. فقلت: ما الخبر؟ فقالت الجارية: إنها بعد خروجكما وضعت في حلقها أنشوطة وخنقت نفسها وجلست تحدّثنا ساعة، ثم تذكرت قوله وشهقت شهقة خرّت ميتة. فلما سمع الفتى بذلك بكى وجلس على قبرها يبكي حتى رآها في النوم وهي تقول له: هلاكان في الحياة؟ فصرخ ومات. ذكره الشيرازي في روضة القلوب.

مضيف عبيد الثعلبي الباكي عند قبر محبوبه

ذكر ابن دريد قال: حدّثنا عبيد الثعلبي غلام أبي الهذيل قال: انصرفت من جنازة من مسجد الرضي في وقت الهاجرة، فلما دخلت سكك البصرة اشتد عليّ الحر فتوخيت سكة ظليلة فاضطجعت على باب دار فسمعت ترنمًا يجذب القلب. فطرقت الباب، واستسقيت ماءً، فإذا فتى اجتهر جماله إلا أن العلة والسقم عليه بيّن فادخلني إلى حش نظيف، وفرش سري، فلما اطمأننت خرج الفتى ومعه وصيفة معها طست وماء، ومنديل. فغسلت رجلي وأخذت ردائي ونعلي وانصرفت. فإذا بجارية أخرى، قد جاءت بطست وماء. فقلت: قد غسلت يدي.

فقالت: إنما غسلت رجليك، فاغسل الآن يديك للغداء. وإذا الفتى أقبل ضاحكًا ليؤنسني، وأنا أعرف الغيرة في عينيه.

وجيء بالطعام، فأقبل يأكل كأنه يغص بما يأكله، وهو في ذلك ينتظر، فلما انقضى أكلنا، أتينا بشراب فشرب قدحًا، وشربت آخر.

ثم زفر زفرة ظننت أن أعضاءه قد زالت، وقال لي: يا أخي إن لي نديمًا فقم بنا إليه. فقمت وتقدمني، ودخل مجلسًا، فإذا قبر عليه ثوب أخضر، وفي البيت رمل مصبوب فقعدت على الرمل، وطرح لي مصلى. فقلت: والله لا قعدت إلا كما قعدت. فأقبل يردد العبرات، ثم شرب كأسًا وشربت آخر، فأنشأ يقول:

أَطَأُ الثَّرى وَأَنْتَ رَهِنُ حَفَيْرَة   هَالَتْ يَدَيَّ عَلَى صَدَاكَ تُرَابَها
إنِّي لأَعْذُرُ مَنْ مَشَى إنْ لَمْ أَطَأْ   بِجُفُونِ عَيْنِي مَا حَيِّيْتُ حِبَابَهَا
لَوْ أَنَّ حُمُوّ جَوَانِحِي مُتَلَبِّسٌ   بِالنَّارِ أَطْفَأَ حَرُّهَا وَأَذَابَهَا

ثم أكب على القبر مغشيًا عليه فجاء غلام بماءٍ فصبّه على وجهه، فأفاق، وشرب قدحًا، ثم أنشأ يقول:

اليَوْم بَابَ لِيَ السُّرُور لأَنَّنِي   أَيْقَنْتُ أَنِي عَاجِلٌ بِكَ لَاحِقُ
فَغَدًا أُقَاسِمُكَ البِلَى وَيَسُوقني   طَوْعًا إِلَيْكَ مِنَ المَنِيَّةِ سَائِقُ

ثم قال: قد وجب حقي عليك، فاحضر غدًا جنازتي.

فقلت: يطيل الله عمرك. قال: إني ميت لا محالة. فدعوت له بالبقاء.

فقال: لقد عققتني، ألا قلت:

جَاوِرْ خَلْيلكَ مُسْعِدِا فِي رَمْسِهِ   كَيْمَا يَنَالكَ مِنَ البِلَى مَا نَالَهُ

فانصرفت، فطالت عليّ ليلتي، وغدوت فإذا هو قد مات.

العباس بن الأحنف بن الأسود وفوز

ذكر أبو الفرج العباس بن الأحنف بن الأسود الشاعر المشهور وزعم أنه نشأ ببغداد، وهو القائل:

وَيْحَ المُحِبِّيْنَ مَا أَشْقَى حُدُودَهُم   إنْ كَانَ مثْلَ الَّذي بِي بالمُحبينَا

يَشْقَوْنَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِعِشْقِهِم   لَا يُدْرِكُوْنَ بِهِ دُنْيَا وَلَا دِيْنَا
يَرِقُّ قَلْبِي لأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُم   إِذَا رَأَوْنِي وَمَا أَلْقَى يَرِقُّونَا

وله أيضًا:

أَيُّهَا النَّادِبَ قَوْمًا هَلَكُوا   صَارَت الأَرْضُ عَلَيْهِم طَبَقَا
أَنْدُبُ العُشَّاقَ لَا غَيْرِهُمُ   إِنَّمَا الهَالِكُ مَنْ قَدْ عَشِقَا

قال ابن الأنباري: كان يعشق جارية يقال لها فوز، وفيها يقول أبياتًا كثيرة أولها سيدتي سيدتي منها:

سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي إِنَّهُ   لَيْسَ بِالْعَاشِقِيْنَ اكْشِحَامْ
سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي وَاسْمَعِي   دُعَاءَ صَبَ عَاشِق مُسْتَهَامْ
سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي إِنَّنِي   أَعْجَزُ عَنْ حَمْلِ البَلَايا العَظَامْ

فلما سمعها أبو نواس قال: لقد خضعت لهذه المرأة خضوعًا ظننت أنك تموت قبل تمام القصيدة. وكان ابن المعتز يقول: لو قيل لي ما أحسن ما تعرفه لقلت قول العباس في معشوقته:

قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَال الظُّنُون بِنَا   وَفُرّقَ النَّاسُ فِيْنَا قَوْلَهُم فِرَقَا
فَكَاذِبٌ قَدْ رَمَى بالظَّنِ غَيْرَكُمُ   وَصَادِق لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا

وكان بشار بن برد يقول: ما كنا نعد هذا الغلام في الشعراء حتى قال هذين البيتين يعني ابن الأحنف، ومن شعره الجيد:

نَزَفَ البُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنكَ فَاسْتَعِرْ   عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعها مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعَيْرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا   أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَارُ

وله أيضًا:

إذا أَرَدْتَ سَلْوًا كَانَ نَاصِرَكُم   قَلْبِي فَهَلْ أَنَا مِنْ قَلْبِي بِمُنْتَصِرِ؟
فَأَكْثِرُوا وأَقِلُّوا مِنْ مُسَاءَتِكُم   فَكُلّ ذَلِكَ مَحْمُولُ عَلى القَدَرِ
وَضَعْتُ خَدِّي لأَدْنَى مَنْ يَطِيْفُ بِكُم   حَتَّى احْتُقِرْتُ وَمَا مِثْلِي بِمُحْتَقَرِ
يَا مَنْ يُسَائِلُ عَنْ فَوْزٍ وَصُوْرَتِهَا   إِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَهَا فَانْظُرْ إِلَى القَمَرِ
مَا زِلْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الشَمْسَ وَاحِدَةٌ   حَتَّى رَأَيْت لَهَا أُخْتًا مِنَ البَشَرِ
يَقُوْلُ قَلْبِي لِعَيْنِي كُلَّمَا نَظَرَتْ   كَمْ تَنْظُرِيْنَ رَمَاكِ اللهُ بِالسَّهَرِ

وقال الأصمعي: دخلت عليه وهو على فراشه ملقى، وهو يقول:

يَا بَعِيدَ الدَّارِ عَنْ وَطَنِهِ مُفْرَدًا يَبْكِي عَلَى شَجَنِهِ
كُلَّمَا جَدَّ النَّحِيبُ بِهِ زَادَتِ الأَسْقَامُ فِي بَدَنِهِ

ثم أغمي عليه، فأفاق بتغريد طائر على شجرة وهو يقول:

لَقَدْ زَادَ الفُؤَاد شَجِي هَاتِفٍ يَبْكِي عَلَى فَنَنِه
شَاقَهُ مَا شَاقَنِي فَبَكَى كُلّنَا يَبْكِي عَلَى سَكَنِه

ثم أغمي عليه فظننتها مثل الأولى فحركته فإذا هو قد مات.

ومن جيد شعره فيها:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُبْصِر شَيْئًا يُعْجِبُ النَّاسَا
فَصَوِّرْهَا هُنَا فَوْزًا وَصَوِّرْ ثَمَّ عَبَّاسَا
وَقِسْ بَيْنَهُمَا شِبْرًا وَإِنْ زَادَ فَلا تَاسَا
فَإِنْ لَمْ يَدْنُوَا حَتَّى تَرَى رَأْسَيْهِمَا رَاسَا
فَكَذِّبْهَا بِمَا قَالَتْ وَكَذِّبْهُ بِمَا قَاسَا

وهذا كقول عمر بن ربيعة، ولعله أخذه منه:

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تُبْصِر شَيْئًا يُعْجِبُ البَشَرَا
فَصَوِّرْهَا هُنَا هِنْدٌ وَصَوِّرْهَا هُنَا عُمَرَا
فَإِنْ لَمْ يَدْنُوَا حَتَّى تَرَى بَشَرَيْهِمَا بَشَرَا
فَكَذِّبْهَا بِمَا ذَكَرَتْ وَكَذِّبْهُ بِمَا ذَكَرَا

عتبة بن الحباب بن المنذرَ وَريًا بنت الغطريف السلمية

قال عبد الله بن معمر القيسي: حججت سنة فبينما أنا ذات ليلة جالس بين القبر والروضة إذ سمعت أنينًا عاليًا وحنينًا ناديًا، فانصرفت إليه فإذا هو يقول:

أَشْجَاكَ نَوح حَمائم السِّدْر فَأهَجْنَ مِنْكَ بَلَابِل الصَّدْر
أَمْ عَزّ يَوْمَكَ ذِكْر غَانِيَةٍ أَهْدَتْ إِلَيْكَ وَسَاوِسَ الفِكْر
يَا لَيْلَةً طَالَتْ عَلَى دَنفٍ يَشْكُو الفراقَ وَقلَّة الصَّبْر
أَسْلَمْت مَنْ تَهْوَى لِحَرِّ جوًى مُتَوَقِّد كَتَوَقّد الجَمْر

فَـالْبَـدْرُ يَـشْـهَـدُ أَنَّـنِـي كَـلِفٌ ... مَـغْـرًى بِـحُـبِّ شَـبِـيْـهَـة الـبَـدْرِ
مَـا كُـنْـتُ أَحْـسِبُنِـي لَهَـا شَـجِنًـا ... حَـتَّـى بُـلِيْـتُ وَكُـنْـتُ لَا أَدْرِي

قال: ثم انقطع الصوت ولم أدر من أين جاءني فبقيت متحيّرًا ساعة وإذا به قد أعادَ البكاء والحنين وهو يقول:

أَشَـجَـاكَ مِـنْ لَيْـلِ خَـيَـالٌ زَائـرٌ ... وَالـلَيْـلُ مُـسَوَدّ الـذَّوَائـب عَـاكِـرُ
وَاعْـتَـادَ مُـهْـجَـتـكَ الـهَـوَى بِـرَسِـيْـسِه ... وَاهْـتَـاجَ مُـقْـلَتـكَ الـخَـيَـالُ الـزَّائـرُ
نَـادَيْـت لَيْـلَى وَالـظَّـلَام كَـأَنَّـهُ ... يَـمٌّ تَـلَاطَـم فِـيْـهِ مَـوْجٌ زَاخِـرُ
وَالْبَـدْرُ يَـسْـرِي فِـي الـسَّـمَـاءِ كَـأَنَّـهُ ... مَـلِكٌ تَـرَجَّـل وَالـنُّـجُـوم عَـسَـاكِـرُ
وَتَـرَى بِهِ الجَوْزَاءَ تَرْقُصُ في الدُّجَى ... رَقْـصَ الـحَـبِـيْـب عَـلَاهُ سُكْـرٌ ظَاهِـرِ
يَـا لَيْـلُ طُـلْتَ عَـلَى مُـحِـبّ مَـالَهُ ... إِلَّا الـصَّـبَـاح مُـسَـاعِـدٌ وَمُـؤَزِرُ
فَأَجَابَنِي: مُتْ حَتْفَ أنفِكَ وَاعْلَمَنْ ... أَنَّ الـهَـوَى لَهُـوَ الـهَـوَانَ الـحَـاضِـرُ

قال: فنهضت أؤم الصوت، فرأيت غلامًا كما بقل عذاره، وقد حَرق الدمع في وجنتيه حرقي، فسلمت عليه، فنسبني، فانتسبت له، فقال: ألك حاجة؟ فقلت: راعني صوتك فبنفسي أقيك وبنفسي أفديك. فقال: اجلس أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري رأيت عند مسجد الأحزاب جارية مرة لم أسمع لها خبرًا، ولا قفوت لها أثرًا، فأنا حيران أتنقل من مكان إلى مكان. ثم صرخ وأكب على الأرض مغشيًا عليه، ثم أفاق كأنما صبغت ديباجتي خديه بورس، ثم أنشأ يقول:

أَرَاكُـمْ بِـقَـلْبِـي مِـنْ بِـلَادِ بَـعِـيْـدَةٍ ... تُرَاكُمْ تَرَوْنِي بِالْقُلُوْبِ عَلَى بُعْدِ؟
فُـؤَادي وَطَـرْفِـي يَـأْسَـفَـانِ عَـلَيْـكُـم ... وَعِـنْـدَكُـم رُوْحِـي وَذِكْـركُـمْ عِـنْـدِي
وَلَسْـتُ أَلـذ الـعَـيْـش حَـتَّـى أَرَاكُـم ... وَلَوْ كُنْت في الفِرْدَوْسِ أَوْ جَنّةِ الخُلْدِ

قال: فشرعت في تسليته. فقال: هيهات ما أنا بسالٍ حتى يؤب القارطان. فلم أزل به حتى طلع الصبح، فقلت له: قم بنا إلى مسجد الأحزاب.

فسمعته يقول:

يَـا لِلرِّجَـالِ لِيَـوم الأَرْبَـعَـاء أَمَـا ... يَنفَكُ يَحدُثُ لِي بَعْد النَّوَى طَرَبَا
مَا أَنْ يَزَال غَزَالٌ فَيْه يَظْلِمنِي ... يَهْوَى إِلَى مَسْجِد الأَحْزَاب مُنْتَقِبَا

يُخْبِر النَّاس أنّ الأجْرَ هِمَّتَهُ وَمَا أَتَى طَالِبًا لِلأَجْرِ مُحْتَسِبًا
لَوْ كَانَ يَبْغِي ثَوَابًا مَا أَتَى ظُهْرًا مُضَمَّخًا بفتيتَ المسك مختضبا

فلا صلينا الظهر، إذا بنسوة قد أقبلن وما الجارية فيهن، فقلن: يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاسفة بالك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها وارتحل إلى السماوة. فسألتهن عن الجارية. فقلن: هي ريا بنت الغطريف السلمي فرفع رأسه وهو يقول:

خَلِيلَيَّ رَيَّا قَد أَجَدّ بَكُورهَا وَسَارَتْ إِلَى أَرْضِي السَمَاوةِ غيْرِهَا
خَلِيْلَيّ إنِّي قَدْ غشيتُ مِنَ البُكَا فَهَلْ عِنْدَ غَيْرِي عَبْرَةٌ أَسْتَعيْرُهَا

قال: فقلت: يا عتبة، إني وردت بمال جزيل، أريد به أهل الستر، ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك، وفوق الرضا، فقم بنا إلى أرض مجلس الأنصار.

فقمنا حتى أشرفنا على ملأ منهم، فرحلنا بجماعة منهم حتى أشرفنا على بني سليم. فخرج الغطريف مبادرًا، وذبح الذبائح.

فقلنا: لسنا بذائقي طعامك حتى تقضي حاجتنا. فقال: وما هي؟

فقلنا: نخطب عقيلتك على عتبة.

فقال: يا إخوتي، إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها. ثم مضى إلى ريا مغضبًا. فسألته ابنته عن غضبه، فأخبرها. فقالت: بالله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفي بما وعد، ويدرك إذا قصد.

فقال: أقسم لا أزوجنك به أبدًا، فقد نمى إلى بعض حديثك. قالت: ما كان ذلك، ولكن إذا أقسمت فإن الأنصار لا يردون مردًا قبيحًا فأحسن لهم الرد. قال: بأي شيء؟ قالت: أغلظ لهم في المهر. قال: ما أحسن ما قلت.

ثم خرج، فقال أريد مهر مثلها، فمن القائم به؟ قال: أريد ألف دينار، وخمسة آلاف درهم هجرية، ومائة ثوب من الأبراد والحبر، وخمسة أكرشة من العنبر.

قال: قلت: لك ذلك، فهل أجبت؟ قال: أجل. قال: فعملت الولائم أربعين يومًا. ثم قال: خذوا فتاتكم وانصرفوا. وحملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من التحف.

وسرنا حتى بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة، خرجت علينا خيل مغيرة أحسب أنها من سليم. فحمل عليها عتبة فقتل منها عدة رجال وانحرف راجعًا وبه طعنة تفور دمًا، ثم سقط إلى الأرض ميتًا. فقلنا: واعتبتاه. فسمعت الجارية، وأطلقت نفسها من البعير، وجعلت تصيح بحرقة، وتقول:

تَصَبَّرْت لَا أنّي صَبَرْت وَإنَّمَا ... أُعَلِّلُ نَفْسِي أَنَّهَا بك لَاحِقَة
وَلَوْ أنْصَفَتْ رُوْحي لَكَانَتْ إلَى الرَّدَى ... أَمَامَكَ مِنْ دُوْنِ البَرِيَّةِ سَابِقَة
فَمَا أَحَدٌ بَعْدِي وَبَعْدكَ مُنْصِفٌ ... خَلِيلًا وَلَا نَفس لِنَفْس مُوَافِقَة

ثم شهقت شهقة واحدة، قضت نحبها. قال: فاحتفرن لهما قبرًا واحدًا وواريناهما فيه. ورجعت إلى ديار قومي فأقمت سبع سنين ثم عدت إلى الحجاز، ووردت إلى مدينة النبيّ ﷺ للزيارة فقلت: والله لأعودن إلى قبر عتبة فأزوره.

فإذا عليه شجرة عليها عصاب حُمر وصفر وخضر. فسألت: ما هذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين، فأقمت عند القبر يومًا وليلة، ثم انصرفت.

الفتى العذري وجارية الحي

ذكر أن رجلًا من بني عذرة قال: كان فينا فتًى ظريف غزل وكان كثيرًا ما يتحدث إلى النساء، فهوى جارية من الحي فراسلها فأظهرت جفوته فوقع مضنًا دنفًا. فظهر أمره فلم يزل النساء من أهله وأهلها يكلموها فيه، حتى أجابت وسارت إليه عائدة ومسلمة. فلما نظر إليها تحدرت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول:

أرأَيْتِ إنْ مَرَّتْ عَلَيْك جِنَازَتِي ... تَمرُ بِهَا أيد طوَالٌ وَشرّع
أَمَا تَتبعن النَّعْش حَتَّى تُسلِّمِي ... عَلَى رَمْسِ مَيّتٍ فِي الحَفِيْرةِ مُوْدَع

قال: فبكت رحمة له، وقالت: ما ظننت أن الأمر بلغ بك كل هذا، فوالله لأساعدنك ولأدومن على وصلك فهملت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول:

أَتَتْ وَحِيَاضُ المَوْتِ بيْنِي وَبَيْنَهَا ... وَجَاءَتْ بِوَصْلٍ حِيْنَ لَا يَنْفَعُ الوَصْل

ثم شهق شهقة خرجت روحه، فوقعت عليه تلثمه وتبكي. فرفعت عنه مغشيًا عليها، فما مكثت بعده إلا أيامًا حتى ماتت.

إسلام عبد المسيح والفتاة النصرانية والشاب المسلم

ذكر الشيرازي في كتاب روضة العشاق: أنه كان بعمورية راهب يسمى عبد المسيح أسلم فسُئل عن سبب إسلامه فقال: كان عندنا شاب مسلم، فهوي جارية نصرانية تبيع الخبز، وكان لا يبرح ناظرًا إليها. فلما علمت به سلطت عليه الصغار يضربونه، ويصيحون به. وكان يفعل ذلك به كل يوم، فلما علمت صدقه دعته إلى نفسها حرامًا فأبى، فعرضت عليه التنصّر ويتزوجها فأبى، فسلطت عليه الصغار، فأثخنوه قتلًا.

قال عبد المسيح: فأدركته وهو لما به، وهو يقول: اللهم اجمع بيننا في الجنة، ومات. فلما كان في الليل رأت الجارية الشاب قالت: فأخذ بيدي وانطلق بي إلى الجنة، فلما أردت أن أدخلها منعت لأجل الكفر. قالت: فأسلمت، ودخلت معه، فرأيت شيئًا عظيمًا، ورأيت قصرًا من الجوهر. فقال: هذا لي ولك، وأنا لا أدخله إلا بك، ولي خمس ليالٍ تكونين عندي. فلما استيقظت أسلمت، وجلست عند قبره، وماتت في الليلة الخامسة.

وكان ذلك سبب إسلامي.

عروة بن حزام العذري وابنة عمه عفراء بنت معاصر

ذكر المرزباني في معجمه: عن عروة بن حزام بن مالك بن ضبّة بن عبد كثير، من بطن يقال لهم بنو هند بن عذرة، يكنّى أبا سعيد. وهو شاعر مخضرم كان في صدر الإسلام وهو العاشق الذي يضرب به المثل في شدة العشق. وكان يهوى ابنة عمه عفراء بنت معاصر بن مالك، ومات عشقًا وضرب به المثل في العشق.

قال أبو عيينة:

فَمَا وَجَدَ النَّهْديُّ إذْ مَاتَ حَسْرَةً ... عَشِيَّةَ بَاتتْ فِي حَبَائِلِه هِنْدُ
وَلَا عُرْوَةَ العُذْرِيُّ إذْ طَالَ وَجْدُهُ ... بِعَفْرَاء حَتَّى شَفَّ مُهْجَتَهُ الوَجْدُ
كَوَجْدِي غدَاةَ البَيْن عِنْدَ الْتفَاتِهَا ... وَقَدْ طَارَ عَنْهَا بَيْن أَتْرَابِهَا البُرْدُ

روى عروة بن هشام عن أبيه عن النعمان بن بشير قال: استعملني عثمان بن عفان على صدقات بني عذرة، فرأيت شابًا مدنفًا لم يبق منه إلا شبحه وعيناه

تدوران في رأسه فنظر إليّ وأنشأ يقول:

كـأَنَّ قَـطَـاة عُـلِّقـت بِـجَـنَـاحِـهـا عَلى كَـيدِي مِنْ شِـدَّة الـخَـفَـقَـانِ
جَـعَـلَـتْ لعُـرّاف الـيَـمَـامَـةِ حِـكْـمَـة وَعـرّافَ حـجـران هُـمَـا شَـفَـيَـانِ
فَـقَـالَا نَـعَـمْ تَـشْـفَـى مِـنَ الـدَّاءِ كُـلِّه وَقَـامَـا مَـعَ الـعُـوَادِ يَـبْـتَـدِرَانِ
فَـمَـا تَـرَكَـا مِـنْ سَـلْـوَةٍ يَـعْـلَـمـانـهَـا ولَا رُقْـيَـةٌ إلا وَقَـدْ رَقَـيَـانِ
وَقَـالَا شَـفَـاكَ الله وَالله مَـا لَـنَـا بِما ضمِنَتْ مِنْكَ الضُلُوع يَدَانِ

ثم غمض عينيه فظننت أنه غشي عليه، فقامت عجوز كانت إلى جانبه فاطلعت في وجهه، فإذا هو قد مات.

فقلت: مَن هذا؟ فقالت عروة بن حزام. فشهدت غسله والصلاة عليه.

الشاب الذي أحب ابنة عمه واستحى أن يخطبها

ذكر ابن دريد عن الرياشي قال: قال العركن بن الجميح الأسدي: كان لي صديق من الحي، وكان شابًا جميلًا، يعشق ابنة عم له، وكانت له محبة. وكانت هيبة عمه تمنعه أن يخطبها إليه فحجبت عنه، فكان يأتيني فيشكو شوقه إليها.

فما لبث أن مرض عمه مرضًا شديدًا، فكان الفتى يدخل إليه وابنته عند رأسه فيستشفي بالنظر إليها، ثم يخرج إليّ مسرورًا جذلًا إلى أن برىء عمه، فقال:

أَبْكِي مِنَ الخَوْفِ أَنْ يَبْرَأْ فَيَحْجِبُهَا وَلَسْتُ أَبْكِي عَلَى عَمِّي مِنَ الجَزَعِ
لَا مَاتَ عَمِّي وَلَا عُوْفِي مِنَ الوَجَع وَعَاشَ مَا عَاشَ بَيْنَ اليَأْسِ وَالطَّمَعِ

فخطبت الجارية، فزوجها أبوها غيره، فجاءني الفتى فودعني وقال: هذا وداع لا نتلاقى بعده أبدًا، فناشدته، فإذا الجزع قد حال دون فهمه.

فقلت: وأين تذهب؟ فقال: أذهب ما وجدت أرضًا، ونهض. فكان آخر العهد به، ولقد التمسه عمه آفاق البلاد فما قدر عليه.

ولم يطل عمر الجارية بعده شهرًا.

الفتى العذري المستشفى له عند ابن عباس

ذكر الزبير عن عكرمة مولى ابن عباس قال: إني لمعي مولاي عشية عرفة إذ أقبل فتية من بني عذرة يحملون فتًى من بني عذرة قد بلى بدنه حتى أوقفوه

بين يديه، ثم قالوا له: استشف لهذا يا ابن أخي رسول الله ﷺ. فقال: وما به؟ قالوا: العشق.

فترنم الفتى بصوت ضعيف حتى لا يبين:

بِنَا مِنْ جَوَى الأَحْزَانِ وَالحُبِّ لَوْعَةٌ ... تَكَادُ لَهَا نَفْس الشَّفِيْقِ تَذُوبُ

وَلَكِنَّمَا أَبْقَى حُشَاشَه مقْوَلٍ ... عَلَى بَابه عُوْدٌ هنَاكَ صَلِيْبُ

وَمَا عَجَبِي مَوْت المُحِبِّيْنَ فِي الهَوَى ... وَلَكِنْ بَقَاءُ العَاشِقِيْنَ عَجِيْبُ

ثم شهق شهقة فمات. قال عكرمة: فما زال ابن عباس بقية يومه يتعوّذ بالله تعالى من الحب.

علي بن صالح بن داود والقينة التي تهواه

ذكر أبو الحسن القاري رحمه الله تعالى: أن علي بن صالح بن داود ذكر له: أن جارية من جوار القيان تميل إليه وتحبه وتكلّف به، وكانت موصوفة بالأدب شاعرة.

فكره مراسلتها، فحضر يومًا عند بعض أهل البصرة وكانت عنده.

فلما رآها عليًا قالت: طاب عيشنا في يومنا هذا. فلم يلتفت إليها، فأطرقت هي أيضًا فلم تنظر إليه ثم دعت بدواة فكتبت على منديل كان معها. ثم تغافلت أهل المجلس فألقت إليه المنديل، فأخذه فيه:

لَعَلَّ الَّذِي أَبْلَى بِحُبِّكَ يَا فَتَى ... يَرُدُّكَ لِي يَوْمًا إِلَى أَحْسِنِ العَهْدِ

قال عليّ: فما هو إلا أنْ قرأت الشعر حتى وجدت في قلبي من أمرها مثل النار. فقمت وانصرفت خوفًا من الفضيحة. فلم أزل أعمل الحيلة في ابتياعها، من حيث لا تعلم، فعسر ذلك عليَّ فعرفتها الخبر وما عزمت عليه من ابتياعها فأعانتني على ذلك حتى امتلكتها فلم أوثر عليها أحدًا من حريمي ولا أهلي ولم يبق عندي شيء يعدلها، فتوفيت، فأنا لا عيش لي بعدها ولا سرور.

فوالله ما لبث بعد هذا الكلام إلا أيامًا يسيرة، ومات أسفًا عليها وكمدًا، فدفن إلى جنبها.

قِفِي أَخْبِرْك مَا صَنَع الغَرَامُ ... عَشِيَّتَ قُوِّضَتْ تِلْكَ الخِيَامُ

لَقَدْ فَتَكَ الهَوَى بِي يَوْمَ سَارَوا وَلَوْ لَمْ تُؤْثِرُوا قَتْلِي أَقَامُوا
سَرُوا وَالليلُ فِي ثَوْبَيْ جِدَادِ وَقَدْ أَلْقَى مَرَاسِيَهُ الظَّلَامُ
وَقَدْ هَتَكُوا الأهلَةَ عَنْ بُدُورٍ كَوَامِل لَيْسَ يَبْرَحُهَا التَّمامُ
وَفِي الأَحْدَاجِ ذُو لَعَس لَماهُ لَنَا كَأْسٌ وَرِيقَتُهُ مُدَامُ
رَمَى وَقُلُوبُنَا الأغْرَاضُ فانْظُرْ بعَيْنِكَ هَلْ يَطِيْشُ لَهَا سِهَامُ

علي بن أديم والقينة منهلَة

ذكر الأصبهاني في كتاب القيان: كانت منهلة من أحسن الناس وجهًا وغناء، وكانت لامرأة من بني عبس تنزل الكوفة، وكان بها رجل يقال: أنه أسدي، ويقال: جعفي، يقال له: عليّ بن أديم يهواها، وله فيها أشعار كثيرة. فباعتها مولاتها من رجل هاشمي، وبلغ عليًا ذلك، فمات كمدًا بعد ثلاثة أيام جزعًا عليها. فمن شعره فيها:

يَا نُصْبَ عَيْنِي لَا أَرَى حَيْثُ التَفَت سِوَاك شَيْئا
إنِّي لَمَيِّتٌ إنْ هَجَرْتِ وَإنْ وَصَلْتِ رَجَعْتُ حَيّا

وله فيها أيضًا:

جَدَّ الرَّحِيلُ وَحَثَّنِي صَحْبِي قَالُوا الرَّوَاح فَطَيَّرُوا قَلْبِي
وَاشْتَقْتُ شَوْقًا كَادَ يَقْتُلِنِي وَالنفْسُ مُشْرِفَةٌ عَلَى النَّحبِ
وَلَا صَبْر لِي عِنْدَ الفراق عَلَى فَقْدِ الحَبِيْبِ وَلَوْعَةِ الحَبِّ
لَمْ يَلْقَ عِنْد البَيْنِ ذُو كَلَفِ يَوْمًا كَمَا لَاقِيْتُ مِنْ كَرْبِ

فلما مات ابن أديم عمل أهل الكوفة كتابًا ذكروا فيه أخباره مع منهلة يومًا يومًا، وحالًا حالًا، وهو كتاب معروف عندهم.

أخبرني ابن المرزبان عن أبي صالح الأزدي عن محمد بن الحسين الرقي قال: أخبرني محمد بن سماعة القرشي قال: آخر مَن مات عشقًا علي بن أديم مولى أديم الجعفي وكان خرازًا مرّ بكتاب الكوفة في بني عبس، فرأى صبية تمشي في بني عبس يقال لها: منهلة، تختلف في الكتاب عليها قميص أسود ـ لأجل المداد ـ فهويها.

ثم قال فيها:

إنِّـي لـمَـا يـغـتَـادنـي مِـنْ حُـبّ لَابِـسَـة الـسَّـوَادِ
فِـي فِـتْـنَـةٍ وَبَـلِـيَّـةٍ مَـا إن يُـطِـيْـقَـهُـمَـا فُـؤَادِي
فَـبَـقِـيْـتُ لَا دُنْـيَـا أَصَـبْـتُ وَفَـاتَـنِـي طَـلـبُ الـمَـعَـادِ

ويقال إنه خرج إلى أم جعفر يستعينها على شرائها. فقالت له جارية: كيف خليت حبيبتك ورحلت عنها؟ فرجع فمات يوم وصوله الكوفة، وكان قد تمادى حبه لها. فنشأت وتعلّمت الغناء.

وكان عليّ خرازًا موسرًا، فأراد شراءها فلم ترض سيدتها، وباعتها من غيره. فمات عشقًا، وبلغ الجارية خبره فماتت بعد ثلاثة أيام حبًّا له أيضًا.

بائع الجارية التي تبعتها نفسه

قال ابن حزم علي بن أحمد: لم أزل أسمع عن ملوك الزاب، والبربر: أن رجلًا أندلسيًّا باع جارية كان يجد بها وجدًا شديدًا لفاقة أصابته لرجل من أهل البلد. ولم يظن أن نفسه تتبعها ذلك التتبع فلما حقت الصفقة كادت نفسه تخرج. فأتى الذي ابتاعها منه، وحكمه في ماله أجمع وفي نفسه فأبى.

فتحمل عليه بأهل البلد، فلم يجب. فتصدّى للملك وهو في متشرف عالٍ فذكر له قصته فطلب المبتاع، وشفع له، فأبى، وقال: أنا أشد حبًّا لها. فبذل له أموالًا جمّة، فامتنع. فقال للأندلسي: قد ترى ما جهدت لك، وهو يتعذر لشدة محبتها.

فقال الأندلسي: لم يبق لي عندك حيلة؟ قال: لا. قال: فجمع الرجل يديه، وانصبّ من أعلى الأرض.

فارتاع الملك، وأمر بالمبادرة إليه فقضى أنه لم يتأذى كبير أذى.

فصعد به إلى الملك، فقال له: ماذا أردت بهذا؟ قال: لا سبيل لي والله إلى العيش بعدها، ثم حبّذ يده من الماسكين له ليترامى ثانية فمنع. فقال الملك: الله أكبر، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة.

ثم قال للمشتري: أنت تزعم أنك تحبها أكثر منه، فافعل كفعله وارم بنفسك من حيث رمى، فإن مت فبأجلك، وإن عشت كنت أولى بالجارية منه، ويمضي الرجل، وإن أبيت نزعتها من يدك رغمًا ودفعتها إليه.

فتمنع ساعة، ثم قال: أترامى، فلما قرب من الباب، ونظر إلى الهوةِ تحته فرجع. فقال له الملك: هو والله ما قلت لك. فهم ثم نكل، فلما لم يقدم قال له: تتلاعب بنا خذوا يا غلامان برجله فاقذفوه. فلما رأى العزيمة قال: أيها الملك قد طابت نفسي بالجارية فأخذها وسلمها إلى بائعها وانصرف.

العاشق المودع البيمارستان وفتاته التي أرسلت له الشعر

ذكر ابن المرزبان عن أبي الحسين علي بن الحسين بن علي بن الحسين الصوفي المعروف برباح قال: حدّثني بعض أصدقائي أنه دخل بيمارستان ببغداد فرأى شابًا حسن الوجه نظيف الثياب جالسًا على حصير نظيف وعن يساره مخدة، وفي يديه مروحة وإلى جانبه كراز فيه ماء. فسلّمت عليه، فرد أحسن رد. فقلت له: هل لك في حاجة؟ قال: نعم، أريد قرصتين عليهما فالوذج. قال: فمضيت وجئته بذلك، وجلست مقابله حتى أكل.

ثم قلت له: هل بقي لك حاجة؟ قال: نعم، ولا أظنك تقدر عليها. قلت: أذكرها فلعل الله أن ييسرها قال: تمضي إلى نهر الزجاج، درب أحمد الدهقان، إلى دار على باب زقاق الغفلة، فاطرق الباب وقل: إن فلانًا قال:

مُـر بِـالْحَـبِـيْـبِ وَقُـلْ لَهُ: مَـحْـبُـوبَـكُـمْ مَـنْ أَنْـحَـلَه؟

قال: فمشيت وسألت عن الدرب والزقاق، فطرقت الباب، فخرجت إلى عجوز فأبلغتها الرسالة. فدخلت وغابت عني ساعة، ثم خرجت، فقالت:

ارْجِـعْ إِلَيْـهِ وَقُـلْ لَهُ وَعَـلِيْـلُكُـمْ مَـنْ أَعْـلَلَهُ؟

فرجعت إلى الفتى وأخبرته بالجواب فشهق شهقة فمات. وعدت إلى القوم فوجدت الصراخ في الديار وقد ماتت الجارية.

العلاء بن عبد الرحمـٰن التغلبي والجارية القينة

ذكر السراج: أن العلاء بن عبد الرحمـٰن التغلبي كان من أهل الأدب والظرف.

فواصلته جارية من جوار القيان، فكان يظهر لها ما ليس في قلبه، وكانت الجارية على غاية العشق له والميل إليه. فلم يزالا على ذلك حتى ماتت الجارية عشقًا له ووجدًا. فذكرها بعد ذلك وأسف على ما كان من جفائه لها وإعراضه عنها.

فرآها ليلة في منامه، وهي تقول له:

أَتَبْكِي بَعْدَ قَتْلِك لِي عَلِيًّا   فَهَلَّا كَانَ ذَا إذْ كُنْتُ حَيًّا
سَكَبْتَ دَمُوعَ عَيْنكَ لِي وَفَاءً   وَمن قَبْلِ المَمَاتِ تُسِي إلَيًّا
فَيَا قَمَرًا بَرِيَ جِسْمِي وَرُوحِي   وَيَقْتُلنِي وَمَا أَبْقَى عَلَيًّا
أَقِلَّ مِنَ النِّيَاحَةِ وَالمَرَاثِي   فإِنِّي مَا أَرَاكَ صَنَعْتَ شَيْئًا

قال: فزاد ما كان عليه من الأسف، والغم، والبكاء، حتى فاضت نفسه فمات رحمه الله تعالى.

عمر بن عون وصاحبته ينا المرية

ذكر ابن المرزبان قال: كان فتى من بني مرة يقال له عمر بن عون.

وكان يحب جارية من قومه يقال لها: ينا. فتزوجها رجل من قومه يقال له: دُهَيْم، وفرّ بها إلى اليمن في بني الحارث بن كعب. فطلبها عمر، فخفى عليه أمرها ولم يعلم موضعها فمكث حينًا يبكي ويبكي له من عرفه. ثم خرج حاجًا على ناقة له مع أصحاب له. وقال: لعلي أتعلّق بأستار الكعبة وأسأل الله فعسى أن يرحمني فيردها عليّ أو يذهب بقلبي عن حبها. فلما كان بمنى نظر إليه فتًى من بني الحارث بن كعب فأعجبه.

فجلس إليه يتحدث معه. وأنشد عمر بعض شعره في ينا، وشكى إليه بعض ما هو فيه من البلاء، فرق له.

فقال له الفتى وسأله عن صفتها، وصفة زوجها. فقال له عمر: صفها. فوصفها له. فقال الفتى: عندي صفة هذه المرأة، وهذا الرجل، منذ سنوات.

فخرّ عمر لله تعالى ساجدًا، ثم سأله عن حالها. فذكر له أنها سالمة، وأنها باكية حزينة لا يهنئها شيء من العيش. فقال له عمر: هل لك في صنيعة عند من يحسن الشكر؟

فقال له الفتى: أفعل ماذا؟ قال: عمر تتخلف عن أصحابك، وأتخلف عن أصحابي، حتى لا يكون عند أحد منا علم، ثم أمضى معك مبكرًا، حتى تخفيني في موضع وتعلمها بمكاني. قال الفتى: ذلك في عنقي.

فلما بَانَ النفر، تخلّف كل واحد منهما عن أصحابه، وأقاما بمكة أيامًا ثلاثة، أو أربعة، حتى ارتحل الحاج ثم مضينا حتى وصل الفتى إلى أهله.

فأدخله مع امرأته وأخته في منزلهما ومضى إلى ينا، فأخبرها به. فكانت تجيئه كل يوم ويتحدثان ويشكوان ما كانا فيه من البلاء والوحشة. فاستراب زوجها من كثرة غشيانها ذلك البيت، ولم تكن من قبل تغشاه، ولا تعرف أهله. واستراب أيضًا تطييب نفسها، فإنها ليست كما كانت.

فخرج في رفقة من نجران على أن يغيب عشر ليال. فأقام ليلتين مختفيًا في موضع، ثم أقبل راجعًا في الليلة الثالثة، وقد أمنه عمر، وظن أنه قد ذهب. فأتاها ففرشت له بساطًا قدام البيت فتحدثا ساعة، ثم غلبهما النوم، وهي على جانب البساط، وعمر على جانبه الآخر. فأقبل الزوج، فوجدهما على تلك الحال. فنظر في وجه عمر فعرفه فأثبته، وأنبهه فوثب بالسيف فزعًا. فقال له الزوج: ويلك يا عمر، ما ينجيني منك بر ولا بحر؟

فقال عمر: يا ابن عم، ما أنا على ريبةٍ وما يسألني الله عزّ وجلّ عن أهلك عن قبيح قط. ولكن نشأت أنا وهي فألفتها وألفتني ونحن صبيان، فلست أعطي عنها صبرًا، وما بيننا شيء أكثر من هذا الحديث الذي ترى. فقال له الزوج: أما أنا فلم أهرب إلى هذه البلاد إلا منك. فأما بعد أن صح عندي من عفتك وصدق قولك وأمانتك فإني لا أهرب منك أبدًا. فأقاموا سنوات وهم على تلك الحال.

فمات عمر وَجدًا فكانت تبكي عليه الدماء فضلًا عن الدموع، ثم مات دهيم بعد ذلك. وعمرت هي.

عمر بن ميسرة وابنة عمه

ذكر ابن المرزبان: أن عمر بن ميسرة كان كهيئة الخيال وكأنه صبغ بالورث لا يكاد يكلم أحدًا ولا يجالسه، وكانوا يسألونه عن حاله فيقول:

يُسَائِلُني ذُو اللُّبِ عَنْ طُوْلِ علَّتِي ... وَمَا أَنَا بِالمُبْدِي لَذِي النَّاسِ عِلَّتِي
سَأَكْتُمُهَا صَبْرًا عَلَى حَرِّ جَمْرِهَا ... وَأَكْتُمُهَا إذْ ذَاكَ فِي السَّتْرِ رَاحَتِي
وَإِذَا كُنت قَدْ أَبْصَرْت مَوْضِعَ عِلَّتِي ... وَكَانَ دَوَائِي فِي مَوَاضِعِ لَذَّتي
صَبَرْتُ عَلَى دَائِي احْتِسَابًا وَرَغْبَة ... وَلَمْ أَكُ أَحْذر بَابَ أَهْلِي وَحِلَّتِي

قال: فما ظهر أمره، ولا علم أحد بقصته حتى كان عند الموت قال: إن العلة التي كانت بي من أجل فلانة ابنة عمي.

وأنه والله ما حجبني عنها وألزمني الصبر إلا خوف الله تعالى. فمن بلى في هذه الدنيا بشيء، فلا يكن أحدًا أوثق عنده لسره من نفسه، ولولا أن الموت نازل بي الساعة ما حدثتكم به فأقرؤها مني السلام ومات. ذكره في كتاب الذهول والنحول.

عقيلة بنت الضحاك بن المنذر، وابن عمها عمرو

ذكر ابن دريد عن الرياشي أن الفرزدق قال: أبق غلام لرجل من بني نهشل يقال له: الخضر. قال: فخرجت في طلبه، أريد اليمامة، وأنا على ناقة لي عيساء، فلما صرت على ماء لبني حنيفة، ارتفعت سحابة فرعدت وبرقت وأرخت عزاليها، فعدلت إلى بعض ديارهم فسألتهم القرى فأجابوا، فأنخت ناقتي، وجلست تحت بيت لهم من جريد النخل، وفي الدار جويرية سوداء، فدخلت جارية أخرى كأنها فلقة قمر، فسألت السوداء: لمن هذه العيساء؟ فأشارت إليّ وقالت لضيفكم هذا فعدلت إليّ وسلمت، وقالت: ممن الرجل؟ فقلت: من بني تميم. قالت: من أيهم؟ قلت: من بني نهشل. قالت: أنتم الذي يقول لكم الفرزدق:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاء بضنَي لَنَا ... بَـيْـتًـا دَعَـائِمُـه أَعَـزّ وَأَطْـوَلُ
بَيْـتٌ زُرَارَةُ مُـحْـتَـسَـبي بِـفَـنَـائِهِ ... وَمُجَاشِعٌ وَأَبُو الفَوَارِسِ نَهْشَلُ

قلت: نعم. قال: فضحكت، وقالت: فإن جريرًا هدم عليه بيته حيث يقول:

أَخْزَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاء مُجَاشِعًا ... وَأَحَلّ بَيْتَكَ بِالْحَضِيْضِ الأَوْهَدِ

قال: فأعجبتني، فلما رأت ذلك في عيني. قالت: أين تؤم؟

قلت: اليمامة. فتنفست الصعداء ثم قالت:

تَـذَكَّـرْتُ الـيَـمَـامَـةَ إنّ ذِكْـرَى ... بِـهَـا أَهْـلَ الـمُـرُوءَةِ وَالـكَـرَامَـةَ
أَلَا فَسَقَي المَلِيْكُ أَجَشّ جَونًا ... يَـجُـودُ بِـسَـحِّـهِ تـلك الـيـمـامـة
أُحَـيّ بِـالـسَّـلَامِ أَبَـا نُـجَـيْـدٍ ... وَأَهْـلٌ لِلتَّـحِـيَّـةِ وَالـسَّـلَامَـة

قال: فأنست بها، فقلت: أذات خدر، أم ذات بعل؟

فقالت ـ في رواية النوقاني، وهي ساقطة من كتاب ابن دريد ـ:

إِذَا رَقَدَ النِّيَامُ فَإِنَّ عَمْرًا تُؤَرِّقُهُ الهُمُوْمُ إِلَى الصَّبَاحِ
تُقَطِّعُ قَلْبَهُ الذِّكْرَى وَقَلْبِي وَلَا هُوَ بِالْخَلِيِّ وَلَا بَصَاحِي
سَقَى الله الْيَمَامَةَ دَارَ قَوْمٍ بِهَا عَمْرو يَحِنُّ إِلَى الرَّواحِ

فقلت لها: من عمرو؟ فأنشدت:

إِذَا رَقَدَ النِّيَامُ فَإِنَّ عَمْرًا هُوَ القَمَرُ المُنِيْرُ المُسْتَنِيْرُ
وَمَا لِي فِي التَّبَعُّلِ مِنْ مَرَاحٍ وَلَوْ رُدّ التَّبَعُّلُ لِي أَسِيْرُ

ثم سكتت كأنها تسمع كلامًا، ثم أنشأت تقول:

يُخَيَّلُ لِي أَبَا كَعْبِ بنِ عَمْرُو بِأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتُ عَلَى سَرِيْرِ
فَإِنْ تكُ هَكَذَا يَا عَمْرُو إِنِّي مُبَكِّرَةٌ عَلَيْكَ إِلَى القُبُوْرِ

ثم شهقت شهقة فماتت فسألت عنها فقيل لي: هي عقيلة بنت الضحاك بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء.

وسألت عن عمرو، فقيل: ابن عمها وكان مغرمًا بها وهي كذلك. فدخلت اليمامة فسألت عن عمرو، فإذا به قد مات في ذلك اليوم في ذلك الوقت.

الفتى البغدادي وجارية هارون الرشيد

قال الفضل بن الربيع فيما ذكره السامري: اشتريت لأمير المؤمنين الرشيد جارية مدنية، فأعجب بها، فأمرني أن أبعث في حمل أهلها ومواليها لينصرفوا بالجوائز، وأراد بذلك تشريفها.

فوفد منهم إلى بغداد ثمانون رجلًا، ووفد معهم رجل من أهل العراق استوطن المدينة كان يهوى الجارية. فلما بلغ الرشيد خبرهم، أمرني بكتب أسمائهم وحوائجهم. ففعلت ذلك حتى بلغ الأمر العراقي، فقال له الفضل: حاجتك؟ قال: إن أنت كتبتها وضمنت لي عرضها مع ما تعرض أنبأتك بها؟

فقلت: أفعل. فقال: حاجتي أن أجلس مع فلانة، وتغنيني ثلاثة أصوات، وأشرب ثلاثة أرطال، وأخبرها بما تجن ضلوعي من حبها. قال: فقلت أنت

موسوس مدخول عليك في عقلك؟! قال: فقال: يا هذا، قد أمرت بأن تكتب ما يقول كل واحد منا، فاكتب ما أقول، واعرضه، فإن أجبت إليه وإلا فأنت في أوسع العذر.

قال: فدخلت إلى الخليفة مغضبًا، فقرأت ما كتبت. فلما فرغت، قلت: يا أمير المؤمنين، فيهم رجل مجنون، سأل ما أجل مجلس أمير المؤمنين عن التفوّه فيهب. قال: قل ولا تجزع. فقلت: قال: كذا وكذا. قال: فقال: اخرج إليه، فإذا كان بعد ثلاث يحضر حتى ننجز له ما سأل.

ودعا بخادم وقال: امضِ إلى فلانة وأعلمها ما جرى لتكون على أُهبة.

قال الفضل: فأعلمت الفتى بالخبر، فانصرف. فلما كان في اليوم الثالث حضر، وعرف الرشيد خبره.

فقال: يلقى له كرسي بحيث أرى، وللجارية مثله. ولتخرج إليه، ويحضر ثلاثة أرطال. فجلس الفتى على الكرسي، والجارية بإزائه فحدثها، والرشيد يراهما.

ثم أخذ رطلًا، وخرّ ساجدًا، وقال: إذا شئت أن تغني فغني:

خَلِيْلَيَّ عَرِّجَا بَارَكَ الله فِيكُمَا ... وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هِنْد لأَرْضِكُما قَصْدَا
وَقُولَا لَهَا لَيْسَ الضَّلَالُ أَجَازَنَا ... وَلَكِنَّنَا جُزْنَا لِنَلْقَاكُمُ عَمْدَا
قَدْ يَكثُرُ البَاكُوْنَ مِنَّا وَمِنْكُم ... وَتَزْدَادُ دَاري مِنْ دِيَارِكُم بَعْدًا

قال: فغنته، ثم شرب الرطل وحادثها ساعة، فاستحثه الخدم، فأخذ الرطل مدة، ثم قال: جعلني الله فداك.

تَكَلّم مِنَّا فِي الوُجُوهِ عُيُونَنا ... فَنَحْنُ سُكُوْتٌ وَالهَوَى يَتَكَلَّمُ
وَنَغْضَبُ أَحْيَانًا وَنَرْضَى بِطَرْفِنَا ... وَذَلِكَ فِيمَا بَيْنَنَا لَيْس يعْلَمُ

فغنته، ثم شرب الرطل الثالث وحدثها ساعة فاستحثه الخدم فخرّ ساجدًا يبكي، وأخذ الرطل بيده واستودعها الله تعالى، وقام على رجليه، ودموعه تستبق استباق المطر. وقال: إن شئت أن تغني فغني:

أَحْسَن مَا كُنَّا تَفَرَّقْنَا ... وَخَانَنَا الدَّهْرُ وَمَا خُنَّا
فَلَيْتَ ذَا الدَّهْر لَنَا مَرّة ... عَادَ لَنَا يَوْمًا كَمَا كُنَّا

فغنته الصوت.

فقلب الفتى ببصره، فبصر بدرجة في الصحن، فأمها، وأتبعه الخدم ليهدوه الطريق ففاتهم، وقصد الدرجة، فألقى نفسه إلى الأرض على رأسه فخرّ ميتًا.

فقال الرشيد: عجل عليّ بنفسه، ولو لم يعجل لوهبناها له.

قيــس وليلى

ذكر المرزباني عن قيس بن معاذ، وقيل: قيس بن الملوّح، وقيل: اسمه معاذ بن كليب. وقالوا: الملوح هو معاذ، ومعاذ هو صاحب ليلى وقيس ابنه. وقيل: بل قيس هو صاحب ليلى. واختلفوا فيه: أهو عقيلي، أو جعدي أو قشيري.

ومنهم مَن يقول: هو من بني أبي بكر بن كلاب. وقال بعضهم: كان في بني عامر مجنونان. وقيل: بل كانوا ثلاثة مجانين. وقيل: بل كانوا أربعة. ومنهم مَن يذكر أنه لم يكن مجنونًا، وإنما استهيم بليلى. وقال الأصمعي: سألت أعرابيًا من بني عامر عن المجنون؟ فقال: عن أيهم تسألني؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون.

فقلت: عن الذي كان يشبب بليلى؟ فقال: كلهم كان يشبب بليلى. قال: وقيس كان يكنّى أبا المهدي، وهو: قيس بن معاذ.

وذكره أبو العباس المبرد ونسبه إلى بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

ومَن قال: قيس بن الملوح نسبة إلى بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

وكان مديد القامة، جعد الشعر، أبيض الوجه، وكان من أحسن الرجال وقد نالته صفرة وهزل.

وقال أبو عبيدة معمر: هو البحتري بن الجعد. وقال أبو العالية فيما ذكره ابن الجوزي: هو الأقرع بن معاذ. وقال أبو الفرج الأموي: هو قيس بن الملوح بن مزاحم بن قيس بن عديّ بن ربيعة بن جعدة.

وقال الأصمعي: لم يكن مجنونًا إنما كانت به لوثة كلوثة أبي حية النميري.

ويشهد لصحة هذا، قوله وقد عقر على قبر أبيه:

عَقَرْتُ عَلَى قَبْرِ المُلَوّح نَاقَتِي ... بِذِي السَّرْحِ لَمَّا أَنْ جَفَتْهُ الأقَارِبُ
وَقُلْتُ لَهَا كُوْسِي عَقِيْرًا فَإنَّني ... غَدَاةَ غَدٍ مَاشٍ وَبَالأمْسِ رَاكِبُ
وَلَا يُبْعِدَنّكَ الله يا ابْنَ مُزَاحِم ... فَكُلّ بِكَاسِ المَوْتِ لَا بُدّ شَارِبُ

وقال أيوب بن عباية: سألت بني عامر بطنًا بطنًا عن مجنون بني عامر فما وجدت أحدًا عرفه، وليس له حقيقة. وكذا قاله أبو بكر العدوي. وقال ابن دأب: قلت لرجل من بني عامر: أتعرف المجنون، وتروي من شعره شيئًا؟ قال: أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين؟! إنهم لكثير. قلت: ليس هؤلاء أعني، إنما عنيت مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق.

قال: هيهات، بنوا عامر أغلظ أكبادًا من ذلك، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف السخيفة عقولها الصعلة رؤوسها.

وقال الأصمعي: رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا باسم المجنون مجنون بني عامر، وابن القرية، إنما وضعتها الرواة، انتهى كلامه.

وفيه نظر لما تقدم من التعريف بحال المجنون وشعره، وضعه فتًى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها. فوضع حديث المجنون والأشعار التي يرويها الناس ونسبتها إليه.

وليلى التي بلي بعشقها هي ابنة سعد بن مهدي بن ربيعة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. وقال الهجري في نوادره: المجنون صحيح، ومَن قال: أنه ليس بشيء، هذا خطأ.

وقال الجاحظ: ما ترك الناس شعرًا مجهولًا لا يعرف قائله قيل في ليلى إلا نسبوه إليه، ولا شعرًا قيل في لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح.

وقال ابن قتيبة: لقب المجنون لذهاب عقله وشدة عشقه.

وهو من أشعر الناس، وكان هو وليلى يرعيان البهم وهما صبيان فعلقها علاقة الصبي، وفي ذلك يقول:

تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وَهِيَ غُرٌّ صَغِيرة ... وَلَمْ يَبْدُ للأتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ
صَغِيْرَيْنِ نَرْعَى البَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إلَى اليَوْمِ لَمْ نَكْبَر وَلَمْ تَكْبَر البَهْم

ثم نشأ فكان يجلس معها يتحدث في ناس من قومه، وكان جميلًا ظريفًا راوية للشعر.

قال الحسن بن حبيب في كتاب عقلاء المجانين: سئل قيس عن سبب عشقه لليلى فقال: بينا أنا في عنفوان عزتي وريعان حدتي أسحب ذيل اللعب، وأرمي الكواعب من كثب أصبو إليهن، فيعرفن، وأهزّ أرباقهن فلا ينتصفن إذ اعتلقتني حبائل فتات من بني عذرة فذهلني حبها وتيمني عشقها.

كذا قال، إنها من بني عذرة، وهو غير صواب.

والصواب، والذي كأنه إجماع أنها بنت عمه، والله أعلم.

قال ابن قتيبة: فلما هويها، كانت تعرض عنه، وتقبل على غيره، حتى شق ذلك عليه، وعرفته فأقبلت عليه يومًا، وقالت:

وَكَلّ مُظْهِرٌ فِي النَّاسِ بُغْضًا ... وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِيْنُ
وَأَبْرَار المَلاحِظ لَيْسَ تَخْفَى ... وَقَدْ يَغْزي بِذِي اللَّحْظ الظُنُونُ
وَكَيْفَ يَفُوتُ هَذَا النَّاس شيء ... وَمَا فِي النَّاسِ تُظْهِرُهُ العُيُونُ

ثم تمادى به الأمر حتى ذهب عقله، فكان لا يلبس ثوبًا إلا خرقه، ولا يعقل شيئًا إلا أن تذكر ليلى، فإذا ذكرت ليلى ثاب إليه عقله، وتحدث عنها لا يسقط حرفًا، وفي ذلك يقول:

وَشُغِلْتُ عَنْ فَهم الحَدِيْثِ سُوَى ... مَا كَانَ مِنك فَإِنَّهُ شُغلِي
وَأُدِيم لَحْظ مُحَدِّثي لِيَرَى ... أَنْ قَدْ فَهِمْت وَعِنْدَكُم عَقْلِي

فسعى عليهم نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة، أحد بني مالك بن خالد بن عمر بن لؤي ـ يعني صاحب النبيّ ﷺ ببدر، والمتوفّى زمن عبد الملك بن مروان.

وقال الكلبي: المستعمل على هذه الصدقة رجل من قريش اسمه: محمد بن عبد الرحمٰن من قبل مروان بن الحكم.

فنزل جمعًا من تلك المجاميع، فرآه عريانًا يلعب بالتراب، فكساه ثوبًا.

فقال له قائل: هل تدري من هذا؟ قال: هذا المجنون.

فدعى به، فكلمه فجعل يجيبه عن غير ما يكلمه به. فقالوا: إن أردت أن يكلمك كلامًا صحيحًا فاذكر له ليلى وسله عن حبه لها. ففعل، فأقبل عليه المجنون يحدثه بحديثها، وينشده شعره فيها.

فقال له نوفل: الحب صيرك إلى ما أرى؟ قال: نعم، سينمى بي إلى أشد مما ترى. قال: أتحب أن أزوجكها؟ قال: نعم. قال: وهل إلى ذلك من سبيل؟

قال: فانطلق معي حتى أقدم بك عليها، وأخطبها لك، وأرغب لك في المهر.

قال: أتراك فاعلًا؟! قال: نعم. قال: أنظر ما تقول. قال: عليّ أن أفعل ذلك فارتحل معه، ودعى له بثياب ألبسه إياها، وراح به معه كأصح أصحابه يحدثه وينشده.

فبلغ ذلك قومها، فتلقوه بالسلاح، وقالوا: والله يا ابن مساحق، لا يدخل المجنون منزلنا أبدًا أو يموت، وقد هدر السلطان لنا دمه. فأقبل بهم وأدبر، فأبوا.

فلما رأى لك، قال للمجنون: انصرف. فقال له: والله ما وفيت. قال: انصرف أيسر عليّ من سفك الدماء. فانصرف وهو يقول وقد أمر له بقلائص من قلائص الصدقة، فأبى أن يقبلها:

رَدَدْتُ قَلَائِصَ القُرَشِيّ لَمّا ... أَتَانِي النَّقْض مِنْهُ لِلْعُهُودِ
وَرَاحُوا مُقْصِدِيْنَ وَخَلَّفُونِي ... إِلَى حُزْنٍ أعَالِجُهُ شَدِيْدِ

وقال أيضًا:

يَا صَاحِبَيَّ أَلَّما بِي بِمَنْزِلَةٍ ... قَدْ مَرَّ حِيْنٌ عَلَيْهَا أَيَمَا حِيْنِ
فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ دِيْوَان مَعْرِفَةٌ ... لَمْ تُبْقَ بَاقِيَة ذِكْر الدَّوَاوِيْنِ
إنِّي أرَى رَجَعَات الحُب تَقْتُلِنِي ... وَكَانَ فِي بَدِهَا مَا كَانَ يَكْفِيْنِي

أَلْقَى مِنَ الْيَأْسِ ثَارَات فَتَقْتلني وَلِلرَّجَاءِ بَشَاشَات فَتُحْيِيني
لَا خَيْر فِي الحُبِّ لَيسَت فِيْهِ قَارِعَة كَأَنَّ صَاحِبهَا فِي نَزْعِ مَوْتُونِ

وفي رجوع عقله عند ذكرها يقول قصيدة طويلة منها:

أيَا وَيْحَ مَنْ أَمسَى تَخَلَّصَ عَقْله فأَصْبَحَ مَذْهُوبًا بِهِ كُلّ مَذْهَبِ
خَلِيًّا مِنَ الإِخْوَانِ إلّا مُعذر يُضَاحِلْنِي مَنْ كَانَ يَهْوَى تَجَنُّبِي
إِذَا ذُكِرتْ لَيْلَى عَقلَتْ وَرَاجَعْت زَوَائِع قَلْبِي مِنْ هَوَى مُتَشَعِبِ
وَقَالُوا صَحِيح مَا بِهِ طَيْفُ حنَّة وَلَا لَمَمٌ إلَّا افْتَرا التَّكذُّبِ
وَشَاهِدُ وَجْدِي دَمْع عَيْنِيَ وَحبّهَا يَرَى اللَّحم عَنْ إخباءِ عَظْمِي وَمَنكِبِي
تَجَنَّبْت لَيْلَى أَنْ يَلِجْ بِكَ الهَوَى وَهَيْهَات كَانَ الحُبُّ قَبْل التَّحبب
ألا إنَّمَا غَادَرْت يَا أُمَّ مَالِك صَدَى أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيْحُ يَذْهَب
فَلَمْ أَرَ لَيْلى بَعْد مَوْقِف سَاعَةٍ ببطْن مِنًى تَرْمِي جمار المُحَصّب
وَتَبْدِي الحَصَا مِنْهَا إذَا قَذَفَت مِنَ البَرْدِ أَطْرَافِ البَنَانِ المُخَضّب
فَأَصْبَحْت مَنْ لَيْلى الغَدَاة كَنَاظِرٍ مَعَ الصُّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْم مُغَرّب

وكان أبو المجنون ورهطه أتوا أبا ليلى وأهلها، فسألوهم بالرحم وأعظموا عليهم أمرها، وأخبروهم بما ابتلى به قيس. فأبى أبو ليلى، وحلف أن لا يزوجه إياها أبدًا.

فقال الناس لأبيه: لو خرجت به إلى مكة، فعاذ بالبيت ودعا الله، رجونا أن ينساها، ويعافيه مما ابتلاه به. فخرج، فبينا هو يمشي بمنى وقد أخذ أبوه بيده يريد الجمار، نادى منادي: يا ليلى، ومن تلك الخيام يا ليلى. فخرّ مغشيًا عليه، فاجتمع عليه الناس، ونضحوا عليه من الماء. وأبوه يبكي عند رأسه، ثم أفاق، وهو مصفر اللون متغير لونه وهو يقول:

وَدَاعٍ دَعَا إذْ نَحنُ بِالخيْفِ مِنْ مِنًى فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الفُؤاد وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أطَارَ بِلَيْلَى طَائرًا كَانَ فِي صَدْرِي

ورآه أبو مسكين بمكة والناس حوله، فسألهم، فقالوا: نمسكه خوفًا عليه من أن يردي نفسه من الجبل فلو شئت دنوت منه وأعلمته أنك قدمت من نجد، فيسألك عنها، وعن بلاده فتخبره. فقلت: أفعل. فقالوا: يا أبا المهدي، هذا رجل

قدم من نجد. قال: فتنفس تنفسًا ظننت أن كبده قد انصدعت، ثم جعل يسألني عن وادي وادي، وموضع موضع. وأنا أصف له، وهو يبكي أحر بكاء. وأوجعه القلب، ثم قال:

أَلَا لَيْـتَ شِـعْـرِي عَـنْ عَـوَارِضَـتِـي فَـيَـا
لَطُـولِ الـلـيَـالِي هَـلْ تَـغَـيَّـرَتَـا بَـعْـدِي
وَهَـلْ جَـارَتَـيْـنَـا بِـالـنَّـثِـيـل إِلَـى الـحِـمَـى
عَـلَى عَـهْـدِنَـا أَمْ لَمْ يَـدُومَـا عَـلَى عَـهْـدِي
وَمِـنْ عَـلَوِيَّـاتِ الـرِّيَـاحِ إِذَا جَـرَتْ
بِـرِيْـحِ الـخُـزَامـي هَـلْ تَـهِـبّ عَـلَى نَـجْـدِ
وَعَـن أُقْـحُـوَان الـرَّمْـل مَـا هُـو فَـاعِـل
إِذَا هُـوَ أَسْـرَى لَـيْـلَةٍ بِـثَـرَى جَـعْـدِ
وَهَـلْ تَـنْـفُـضَـنّ الـرِّيْـح أَفْـنَـانَ لِمـتـي
عَـلَى لَاحَـقّ الـرَّجُـلَيْـنِ مُـنْـدَلـث الـوَجْـدِ
وَهَـلْ أَسْـمَـعَـنَّ الـدَّهْـر أَصْـوَات هَـجْـمَـة
تُـطَـالِع مَـنْ وَهْـدِ خَـصِـيْـبِ إِلَـى وَهْـدِ

وقـال:

دَعَا المُحْرِمُونَ الله يسْتَغْفِرُونَهُ بِمَكَّةَ لَيْلًا أَنْ تُمْحَى ذُنُوبَـهـا
وَنَـادَيْـت يَـا رَبَّـاهُ أَوَّلَ سُـؤْلَتِي لِنَفْسِي لَيْلَى ثُمَّ أَنْتَ حَسِيْبَهَا

فإن أعطى ليلى في حياتي لا يتب إلى الله عبد توبة إلا أتوبها ونزل رجل من بني مرة بخباء ليلى، وهو لا يعرفها، فسألته: من أين أقبلت؟ فقال: من تهامة.

فقالت: أي بلادها وطئت؟ قال: ببني عامر. فتنفست الصعداء، فقالت: هل سمعت فتى منهم يقال له: قيس؟ فقال: أي والله. فقالت: فما حاله؟ قال: يهيم في تلك الفيافي مع الوحش لا يعقل، ولا يفهم إلا إذا ذكرت له ليلى. قال: فرفعت الستر، فإذا شقة قمر، لم تر عيني مثلها قط. فبكت وانتحبت حتى ظننت

والله أن قلبها قد انصدع. فقلت: أيتها المرأة، اتقي الله، فوالله ما قلت بأسًا. فمكثت طويلًا على تلك الحال من البكاء ثم قالت:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالخُطُوبُ كَثِيْرَةٌ ... مَتَى رَحْلُ قَيْسٍ مُسْتَقِلٌ فَرَاجِعُ
بِنَفْسِي مَنْ لَا يَسْتَقِلّ بِرَحْلِهِ ... وَمَنْ هوَ إنْ لَمْ يَحْفِظ الله ضَائِعُ

ثم بكت حتى غشي عليها، فلما أفاقت، قلت: مَن أنت يا أمة الله؟ قالت: أنا ليلى المشؤومة عليه غير المواسية له. قال: فما رأيت مثل حزنها ووجدها عليه ولا مثل جزعها. وكان لأبيه نعمة ظاهرة، وخير كثير، وولد، وكان قيس أحب ولده إليه. وكان ابنه وأسرى من أبي ليلى، فلما فشى أمره وأمرها كرهه أبوها، وما كان يطمع في مثله فزوجها من رجل، فقال قيس:

وَقَدْ شَاعَت الأَخْبَارُ أَنْ قَدْ تَزَوَّجَتْ ... فَهَلْ يَأْتِيْنِي بِالطَّلَاقِ بَشِيْرُ
دَعوْت إلـٰهي دَعْوَةَ ما جهلتُهَا ... وَرَبِّي بِمَا تُخْفِي الصُّدُور بَصِيْرُ
لإنْ كُنت تَهْدِي برد أَبْيَاتهَا العُلَى ... لأفقر مني إنَّنِي لَفَقِيْرُ

ورأى زوج ليلى يومًا فقال:

بِرَبك هَلْ ضَمَمت إلَيْكَ لَيْلَى ... قُبَيْلَ الصُّبْح أَوْ قَبَّلْت فَاهَا؟
وَهَلْ زَفَتْ عَلَيْكَ قُرُوْن لَيْلَى ... زَفِيْف الأُقْحُوَانَة فِي نَدَاهَا

فقال: اللهم نعم. فقبض قيس بكلتا يديه على الجمر، فما فارقها حتى خرّ مغشيًا عليه فسقط الجمر مع لحم راحتيه.

فلما استطير عقله حبسه أبوه وقيده. فكان يعض لسانه وشفتيه حتى خشينا أن يقطعهما، فخلينا سبيله، فهو مع الوحش، يذهب كل يوم بطعامه فيوضع حيث يراه، فإذا تنحوا عنه جاءه فأكل منه. فإذا خلقت ثيابه فعل به كذلك إلى أن ذهبوا إليه يومًا بالطعام، فلم يوجد.

قال صباح بن عامر النهدي في كتاب الذهول: فالتمسه إخوته فإذا هو ميت في وادٍ من تلك الأودية، فاحتملوه، ودفنوه.

وفي كتاب المحنة: قال له قائل: قيس، قد ماتت ليلى ففزع، وقال: فما لي لا أموت، ثم أنشأ يقول:

أَمتَعَتْهُ بِالمَوْتِ لَيْلَى وَلَمْ تَمُتْ ... كَأَنك عَمَا قَدْ أَضَلَّك غَافِلُ

ثم مضى على وجهه فلم يلبث أن مات. وذكر ابن الكلبي: أن الذي كان يفعل به هذا من الأكل وغيره دابته، وكان لا يركن ولا يألف إلا لها. وقال ابن المرزباني: إن الذي حبسه وقيده نوفل بن مساحق طلبًا لعلاجه.

وذكر له يومًا عروة وموته من العشق فقال:

عَجِبْتُ لعُرْوَةَ العُذْرِي أَمْسَى ... أَحَادِيثًا لِقَوْمٍ بَعْدَ قَوْمِ
وَعُرْوَة مَاتَ مَوْتًا مُسْتَرِيحًا ... وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ كلّ يَوْمِ

قال ابن قتيبة: وله عقب بنجد ولم يقل أحد من الشعراء في معنى قوله:

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إذَا مَا سَبَيْتَنِي ... تَقُول بخيْلُ العُصم سَهْلِ الأَبَاطحِ
فَجَافَيْت عَنْهُ حِيْنَ لَا لِيَ حِيْلَةٌ ... وَخَلّفت مَا خَلّفْتَ بَيْنَ الجَوَانِحِ

شيئًا أحسن منه، وفيه نظر في موضعين: الأول: قيس لم يتزوج أنه علق ليلى صغيرًا، واستُطير عقله بها كبيرًا، فأنى يكون الزواج.

الثاني: هذان البيتان لكثير بن أبي جمعة، إجماعًا. والله أعلم.

ومن جيد شعره:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّ تَيْمَاء مَنْزِلٌ
بِلَيْلَى إذَا مَا الصَّيْفُ أَلْقَى المَرَاسِيَا
فَهَذِي شُهُور الصَّيْف أَمْسَت قَدْ انْقَضَتْ
فَمَا لِلنَّوَى يُزْدِي بِلَيْلَى المَرَامِيَا
فَلَوْ كَانَ وَاشٍ بِاليَمَامَةِ دَارُهُ
وَدَارِي بِأَعْلَى حَضْرَمَوْت اهْتَدَى لِيَا
إِذَا مَا جَلَسْنَا مَجْلِسًا نَسْتَلِذّه
تَوَاصَوْا بِنَاحَتي امَل مَكَانِيَا
وَمَاذَا لَهُمُ لَا كَثَّر الله حَظَّهُم
مِنَ الحَظُّ فِي تَصْرِيْمِ لَيْلَى حِبَالِيَا
وَإِنِّي لأَسْتَغْشَى وَمَا بِيَ غَشْيَة
لَعَلّ خَيَالًا مِنْك يَلْقَى خَيَالِيَا

وَأَخْــرُجُ مِــنْ بَــيْــنِ الــجُــلُوسِ لَعَــلَّنــي
أُحَــدِّثُ عَــنــكِ الــنَّــفْس فِــي الــبَــيْــنِ خَــالِيَــا
أعــدّ الــلّيَــالِي لَيْــلَة بَــعْــدَ لَيْــلَةٍ
وَقَــدْ عــشْــت دَهْــرًا لَا أعــدّ الــلّيَــالِيَــا
أَرَانِــي إِذَا صَــلّيْــت يَــمَّــمْــت أَرْضَــهَــا
بِــوَجْــهِــي وَإِنْ كَــانَ الــمُــصَــلَّى وَرَائِيَــا
وَمَــا بِــي إِشْــرَاكٌ وَلَكِــنّ حُــبْــهَــا
مَــكَــانَ الــشَّــجَــا أعْــي الــطَّــبِــيْــبَ الــمُــدَاوِيَــا
أُحِــبَ مِــنَ الأسْــمَــاءِ مَــا وَافَــقَ اسْــمَــهــا
وَأَشْــبَــهَــهُ إِذَ كَــانَ مِــنْــهُ مُــدَانِــيَــا
فَــأَنْــتِ الَّتِــي إِنْ شــئــتِ أَشْــقَــيْــتِ عــيــشَــتِــي
وَإِنْ شــئْــتِ بَــعْــدَ الله أَنْــعَــمــتِ بــالِيَــا

ومنه أيضًا في رواية المبرد:

جَرَى السَّيْل فَاسْتَبْكَانِي إِذْ جَرَى ... وَفَاضَتْ لَهُ مِنْ مُقْلَتَيّ عَرْزَبُ
تَكُونُ أُجَاجًا دُونَكُم فَإِذَا انْتَهَى ... إِلَيْكُمْ تَلَقَّى طِيْبَكُمْ فَيَطِيْبُ
فَيَا سكنى أَكْنَافَ نَخْلَةَ كُلّكُم ... إِلَى القَلْبِ مِنْ أَجْلِ الحَبِيْبِ حَبِيْبُ
أَظَل غَرِيْبَ الدَّار فِي أَرْض عَامِرٍ ... أَلَا كُلّ مَهْجُور هُنَاكَ غَرِيْبُ
وَإِنَّ كَثِيْبَ الفَرْد مِنْ أَيْمَن الحِمَى ... إِلَيَّ وَإِنْ لَمْ آتِـهِ لَحَبِيْبُ
فَلَا خَيْر فِي الدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ لَمْ تَزُرْ ... حَبِيْبًا وَلَمْ يَقْرُبْ إِلَيْكَ حَبِيْبُ
أَلَا أَيّهَا البيْت الذي لَا أَزُوْرُهُ ... وَهِجْرَانُهُ مِنّي إِلَيْه ذُنُوبُ
هَجَرْتُكَ مُشْتَاقًا، وَزُرْتُكَ خَائِفًا ... وَفِيْكَ عَلَيَّ الدَّهْرُ مِنْكَ رَقِيْبُ
ستَعْطِفَ الأيام فِيْكِ لَعَلَّهَا ... بِيَوْم سُرُرٍ فِي هَوَاكِ تُنِيْبُ
وَأُفْرِدْت إِفْرَاد الطَّرِيْد وَبَاعَدت ... إِلَى النَّفْسِ حَجَات وَهُنَّ قَرِيْبُ
لَئِنْ حَالَ يَأْسٌ دُوْنَ لَيْلَى لَرُبَّمَا ... أَتَى اليَأْسُ بَعْد الأمْرِ وَهُو قَرِيْبُ
وَمَنَّيْتِنِي حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتنِي ... عَلَى شَرَفٍ لِلنَّاظِرِيْنَ يُرِيْبُ
صَدَقْتِ وَأَشْمَت العَدُوّ بِصَرْمِنَا ... أَثَابَكِ يَا لَيْلَى الجَزَاءُ مُثِيْبُ

ولما منع من الإلمام بحي ليلى قال:

أَأَتْرُكُ لَيْلَى لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... سُوَى لَيْلَةٍ إِنِّي إذ الصَّبُورُ
هَبُونِي امْرَىء مِنْكُم أَضَلّ بَعِيْرَهُ ... لَهُ ذِمَّةٌ إِنَّ الذِّمَامُ كَبِيْرُ
وَلِلصَّاحِبِ المَتْرُوكِ أَعْظَم حُرْمَة ... عَلَى صَاحِبٍ مِنْ أَنْ يَضِلّ بَعِيْرُ
عَفَى الله عَنْ لَيْلَى الغَدَاةَ فَإِنَّهَا ... إِذَا وَلِيَتْ حُكْمًا عَلَيَّ تَجُوْرُ

ويستجاد قوله وهو أول علوقه بليلى:

نَهَارِي نَهَار النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا ... لِيَ اللّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكِ المَضَاجِعُ
أَقْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيْثِ وَبِالْمنى ... وَيَجْمَعنِي وَالْهَمُ بِاللَّيْلِ جَامِعُ

كذا الرواية بالزاي.

وزعم ابن جنى أنها بالراء، ومن قالها بالزاي فقد صحف.

ومعناه كرهتني فنبت بي. والله أعلم.

ومن جيد شعره، ومشكور قوله، وهي غير القصيدة المذكورة قبل:

أَلَا يَا حَمَامِي قضر ودّاني هجْتُمَا ... عَلَيَّ الهَوَى لَمّا تَغَنَيْتُما لِيَا
وَأَبْكَيْتُمَانِي وَسْطَ صَحْبِي وَلَمْ أَكُن ... أُبَالِي دُمُوعَ العَيْن لَوْ كُنْت خَالِيَا
أَلَا يَا خَلِيْلَيَّ حُبّ لَيْلَى مُجْتِمي ... حِيَاضَ المَنَايَا أَوْ مُعِيْدِي الأَعَادِيَا
وَيَا أَيُّهَا القِمْرِيَّتَان تَجاوَبَا ... بِلَحْنَيْكُمَا ثُمَّ اسْجعَا عَلّانِيَا
أُسَائِلكُم هَلْ سَالَ نُعْمَان بَعْدَنَا ... وَحَبّ إِلَيْنَا بَطْن نُعْمَان وَادِيَا

قيس بن ذريح ولبنى

قال علي بن الحسين الكاتب في تاريخه: قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة بن طريف بن عتوارة بن عامر بن كثير بن بكر بن عبد مناة - وهو علي - بن كنانة بن خزيمة.

وقال أبو شراعة: هو قيس بن ذريح بن الحباب بن سنة. محتجًا بقول قيس:

فَإِنْ يَكُ تِهْيَامِي بِلُبْنَى غَوَايَة ... فَقَدْ يا ذَرِيْحُ بن الحُبَاب غَوِيْت

وكان رضيع الحسين بن علي رضي الله عنهما أرضعته أم قيس، وكان منزله ظاهر المدينة. وقيل: كان ينزل بسرف، فمرّ يومًا لبعض حاجته بخيام بني كعب من خزاعة، وهم خلوف. فوقف على خيمة للبنى بنت الحباب الكعبية فاستسقى ماءً، فخرجت إليه بالماء، وكانت مديدة القامة، شهلاء، حلوة المنظر والكلام. فلما رآها وقعت في نفسه، فلما شرب قالت له: أتنزل فتبرد عندنا؟

قال: نعم، فنزل بهم. وجاء أبوها، فنحر له وأكرمه. فانصرف قيس وفي قلبه منها حر لا يطفى. فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع ورُوِيَ.

ثم أتاها يومًا آخر، وقد اشتد وجده بها، فسلم، فظهرت له، وردت سلامه، وتحفت به. فشكى إليها ما يجد بها، وما لقي من حبها فبكت، وشكت إليه مثل ذلك، فأطالت وعرف كل واحد منهما ماله عند صاحبه. فانصرف إلى أبيه، فأعلمه حاله، وسأله أن يزوجه بها. فأبى عليه وقال: يا بني عليك بإحدى بنات عمك فهي أحق بك.

وكان ذريح كثير المال موسرًا، فأحب ألا يخرج ابنه إلى غريبة. فانصرف قيس، وقد ساءه ما خاطبه به. فأتى أمه، فوجدها كأبيه. فأتى الحسين بن علي، وابن أبي عتيق، فشكى إليهما ما به، وما رد أبوه عليه. فقال له الحسين: أنا أكفيك. فمشى معه إلى أن أتى أبا لبنى فأعظمه ووثب إليه وقال: يا ابن رسول الله ما جاء بك؟! ألا بعثت إليّ؟

فقال: إن الذي جئت فيه يوجب قصدك، وقد جئتك خاطبًا ابنتك لقيس بن ذريح.

فقال: يا ابن رسول الله، ما كنا لنعصي لك أمرًا، وما بنا عن الفتى رغبة، ولكن أحب الأمرين إلينا أن يخطبها ذريح أبوه عليه، وأن يكون ذلك عن أمره فإني أخاف إن لم يسع أبوه في هذا أن يكون عارًا وسبة علينا فأتى الحسين ذريحًا، فكلمه في ذلك فلم يسعه إلا السمع لما قاله.

فخرج بوجوه قومه حتى خطبها على ابنه، وبنى بها، وأقاما مدة لا ينكر أحدهما من صاحبه شيئًا، وكان أبرّ الناس لأمه فألهاه عكوفه على لبنى عن بعض ذلك، فوجدت أمه في نفسها، وقالت: لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بري.

ولم تر للكلام في ذلك موضعًا حتى مرض قيس مرضًا شديدًا فلما مرض قيس قالت لأبيه: لقد خشيت أن يموت ولم يترك خلفًا، وقد حرم الولد من هذه المرأة، فزوجه غيرها لعل الله أن يرزقه ولدًا، وألحت عليه.

فقال له، فأبى أشد الإباء، فعرض عليه التسري. فقال: والله لا أسوؤها أبدًا. فأقسم عليه أن يطلقها، وأن لا يكنه سقف بيت أبدًا حتى يطلقها.

فكان يخرج فيقف في حر الشمس، يجيء قيس فيقف إلى جنبه فيظله بردائه ويصلي هو بحر الشمس، حتى يفيء الفيء فينصرف عنه، ويدخل على لبنى فيعانقها ويبكيان. وتقول له: لا تطع أباك فتهلك وتهلكني فمكث على ذلك سنة وقيل: عشر سنين حتى طلقها.

فلما كان بانت منه استطير عقله، ولحقه مثل الجنون، وجعل يبكي. وبلغها الخبر، فأرسلت إلى أبيها، فاحتملها. فلما رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها وقال: ويحك ما دهاني فيكم؟

قالت: لا تسلني وسل لبنى. فذهب ليسألها فمنعه قومها، وأقبلت عليه امرأة من قومه فقالت: ويحك، كأنك جاهل أو تتجاهل، هذه لبنى ترتحل الليلة أو غدًا. فسقط مغشيًا عليه، لا يعقل، ثم أفاق وهو يقول:

وَإِنِّي لَمفْنٍ دَمْعَ عَيْنِي بِالبُكَا ... حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
وَقَالُوا غَدًا أَوْبَعْدَ ذَاكَ بِلَيْلَةٍ ... فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبِنْ وَهُوَ بَائِنُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي ... بِكَفَّيْكِ إِلَا أَنَّ مَا حَانَ حَائِنُ

وقال أيضًا:

يَقُولُونَ لُبْنَى فِتْنَةٌ كُنتَ قَبْلَهَا ... بُخَيْرٍ فَلَا تَنْدَمْ عَلَيْهَا وَطَلِّقِ
فَطَاوَعْتُ أَعْدَائي وَعَاصَيْتُ نَاصِحي ... وَأَقْرَرْتُ عَيْنَ الشَامِتِ المُتَخَلِّقِ
وَدِدْتُ وَبَيْتِ الله أَنِّي عَصَيْتُهُم ... وَحُمِّلْتُ فِي رَضْوَانِهَا كُلَّ مُوبِقِ
كَأَنِّي أَرَى النَّاسَ المُحِبِّينَ بَعْدَهَا ... عُصَارَةَ مَاءِ الحَنْظَلِ المُتَفَلِّقِ
فَتُنْكِرُ عَيْنِي بَعْدَهَا كُلَّ مَنْظَرٍ ... وَيَكْرَهُ سَمْعِي بَعْدَهَا كُلَّ مَنْطِقِ

وسقط غراب قريبًا منه فجعل ينعق مرارًا، فتطير به، وقال:

لَقَدْ نَادَى الغُرَابُ بِبَيْنِ لُبْنَى ... فَطَارَ القَلْبُ مِنْ حَذَرِ الغُرَابِ

وَقَالَ: غَدًا تَبَاعَدُ دَارُ لُبْنَى ... وَتَنْأَى بَعْدَ وُدٍ واقْتِرَابِ
فَقُلْتُ: تَعِسْتَ وَيْحَكَ مِنْ غرَابٍ ... وَكَانَ الدَّهْرُ سَعْيُكَ فِي تَبَابِ

فلما ارتحل بها أبوها تبعها مَلِيًّا، ثم وقف ينظر إليهم يبكي حتى غابوا عن عينه كر راجعًا. فلما رأى أثر خف بعيرها أكب عليه يقبله، ويقبل موضع مجلسها، وأثر قدمها. فليم على ذلك وعنف على تقبيله التراب.

فقال:

وَمَا أَحْبَبْتُ أَرْضَكُمُ وَلَكِنْ ... أُقَبِّل أثَر مَنْ وَطِيء التُرَابَا
لَقَدْ لاقَيْتُ مِنْ كَلَفِي بِلُبْنَى ... بَلاءً مَا أُسِيغ بِهِ الشَّرَابَا
إِذَا نَادَى المُنَادِي بِاسْم لُبْنَى ... عَيِيتُ فَلَا أُطِيقُ لَهُ جَوَابَا

ثم نظر إلى ربعها ودثوره فقال:

ألا يا رَبْعَ لُبْنَى ما تَقُوْلْ ... أَين لِي اليَوْمُ مَا فَعَل الحُلُولُ
فَلَوْ أَنْ الدِّيَارَ تُجِيْبُ صَبًّا ... لَرَدَّ جَوَابِيَ الرَّبْعُ المُحِيْلُ
وَلَوْ أَنِّي غَدَرْتُ بَكَتْ وَقَالَتْ: ... غَدَرْتَ وَمَاءُ مُقْلتِهَا يَسِيْلُ
نَحَرْتُ النَّفسَ حِيْنَ سَمِعْتُ مِنْهَا ... مَقَالَتهَا وَذَاكَ لَهَا قَلِيْلُ
شَفَيْتُ غَلِيْل نَفْسِي مِنْ فِعَالٍ ... وَلَمْ أعْبُر بِلَا عَقْلٍ أجُولُ
كَأَنِّي وَالِهٌ لِفِراقِ لُبْنَى ... يَهِيْمُ بِفَقْدِهَا واحدها عجُولُ
أَلَا يَا قَلْبُ وَيْحكَ كُنْ جَلِيْدًا ... لَقَدْ رَحَلَتْ وَفَازَ بِهَا الدّمِيْلُ
وَأَنَّكَ لَا تُطِيْق رُجُوع لُبْنَى ... إِذَا رَحَلَتْ وَإِنْ كَثُرَ العَوِيْلُ
وَكَمْ قَدْ عِشْت بالتَّقْرِيْبِ مِنْهَا ... وَلَكِنَّ الفُرَاقُ هُوَ السَّبِيْلُ
فَصَبْرًا كُلُّ مُؤْتَلِفَيْن يَوْمًا ... مِنَ الأيَّامِ عَيْشُهُمَا يَزُوْلُ

فلما جن عليه الليل، وانفرد، أوى إلى مضجعه، فلم يتقار، وجعل يتململ فيه تململ السليم، ثم وثب حتى أتى موضع خبائها، فجعل يتمرغ فيه ويبكي وهو يقول:

بِتُ وَالْهَمُ يَا لُبْنَى ضَجِيْعِي ... وَجَرَتْ مُذْ نُأَيتِ عَنِّي دُمُوْعِي
وَتَنفَّستُ إِذْ ذَكَرْتُكِ حَتَّى ... زَالَتْ الْيَوْمَ عَنْ فُؤَادِي ضُلُوْعِي

أَتَـنَـاسَـاكِ كَـي يُـرِيْـغَ فُـؤَادي ... ثُـمَّ يَسْتَـمِـدُّ عِـنْـدَ ذَاكَ وَلُوعِـي
يَا لُبَيْنتي فَدَتكِ نَفسِي وَأَهْلِي ... هَلْ لِدَهْرِ مَضَى لَنَا مِنْ رُجُوعِ

ثم قال أيضًا:

قَدْ قُلْتُ لِلْقَلْبِ لَا لبْنَاكَ فَاعْتَرِف ... فَضَّ اللبَانَة مَا قَضَيْت وَانْصَرِف
قَدْ كُنْتُ أَحْلِفُ جَهْدًا لَا أُفَارِقُهَا ... أُفٌ لِكَثْرةِ هَذَا القِيْلِ وَالحلَفِ
حَتَّى تَكَنَّفَنِي الوَاشُوْنَ فَافْتَلَتَتْ ... لَا تَأْمَنَنَّ أَبَدًا مِنْ غِشٍّ مُكْتَنِفِ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ قَدْ أَمْسَتْ مُجَاوِرة ... أَهْلَ العَقِيْقِ وَأَمْسَيْنا عَلَى سَرِفِ
حَيّ يَمَانُوْنَ وَالْبَطحَاء مَنْزِلنَا ... هَذَا لعَمْرِكَ شكْلٌ غَيْر مُؤْتِلِفِ

قال: فأرسلت إليه أمه بقينات تغنين عنده لبنى وتغنينه بجزعه وكثرة بكائه ويتعرضن لوصاله، فأتينه، ومازحنه، وعبن لبنى عنده، فلما أطلن، أقبل عليهن، وقال:

يَقرّ بِعَيْنِي قُرْبُهَا وَيزِيْدنِي ... بِهَا عُجْبًا مِنْ كَانَ عِنْدِي يَعِيْبُهَا
وَكمْ قائل قَدْ قَالَ تُبْ فَعَصَيْتهُ ... وَتِلْكَ لَعمْرِي توْبَة لَا أَتُوبُـهَا
فَيَا نَفْسِي صَبْرًا لَسْتُ وَالله فَاعْلَمِي ... بأَوْلِ نَفْسٍ غَابَ عَنْهَا حَبِيْبهَا

فلم ينصرفن وأخذن في الكلام الأول فسها عنهن ساعة، ثم نادى: يا لبنى. فقلن له: مالك؟ قال: خدرت رجلي. ويقال: إن دعا الإنسان باسم أحب الناس إليه تسكن رجله إذا خدرت، فناديتها لذلك، فقمن عنه. أبيات من أولاعه. قال:

إِذَا خَدرتْ رِجْلِي تَذَكَّرْتُ مَنْ لَهَا ... فَنَادَيْتُ لبْنَى باسْمِهَا وَدَعَوْتُ
دَعَوْتُ الَّذِي لَوْ أَنْ نَفسِي تُطِيْعنِي ... لَفَارَقتهَا مِنْ حُبّهَا فَقَضيْتُ
بَرَتْ نِبْلهَا لِلصَّيْد لُبْنَي عَشِيّةٍ ... وَرَشَتْ بِأُخْرَى مِثْلَهَا وَبريْتُ
فَلَمَّا رَمتْنِي أَقْصَدَتْنِي بِنَبْلِهَا ... وَأَخْطَأْتهَا بِالسَّهْم حِينَ رَمَيتُ
وَفَارَقَتْ لُبْنَى حَلة فَكَأَنَّنِي ... قرنْتُ إِلَى العيُوقِ ثُم هَوَيْتُ
فَيَا لَيْتَ أَنِّي مِتّ قَبْل فِرَاقِهَا ... وَهَلْ يَرْجِعَنَّ قَوْل القَضِيَّة لَيْتُ
فَوَّضْتُ لِهَلكِي مِنْكَ نَفْسًا فَإِنَّنِي ... كَأَنّكِ بِي قَدْ يَا ذَرِيح قَضَيْتُ

ثم إنه مرض مرضًا شديدًا، فأرسل أبوه فتيات الحي يعدنه مع طبيب، فلما اجتمعن عنده يحادثنه وأطلن سؤاله، فقال:

عِيْدَ قَيْسٌ مِنْ حُبّ لُبْنَى وَلُبْنَى ... دَاءُ قَيْسٍ وَالحُبُّ صَعْبٌ شَدِيْدُ
فَإِذَا عَادَنِي العَوَائدُ يضوْمًا ... قَالَتْ العَيْنُ لَا أَرَى مَنْ أُرِيْدُ
لَيتَ لُبْنَى تَعُودنِي ثُمَّ أَقْضِي ... إِنَّهَا لَا تَعُودُ فِيْمَنْ يَعُوْدُ
وَيْحَ قَيسٍ لَقَدْ تَضَمَّنَ مِنْهَا ... دَاءَ خَبْلٍ فَالقَلْبُ مِنْهُ عَمِيْدُ

فقال له الطبيب: منذ كم هذه العلة بك؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت؟ فقال:

تَعَلّق رُوحِي رُوحَهَا قَبْل خَلْقَنا ... وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نِطَافًا وَفِي المهْدِ
فَزَاد كَمَا زِدْنَا وَأَصْبَحَ نَامِيًا ... وَلَسْنَا إِذَا مُتْنَا بِمُنْفَصِم العَقْدِ
وَلَكِنَّهُ بَاقٍ عَلَى كُلِّ حَادِثٍ ... وَزَائِرُنِي فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ وَاللُّحْدِ

فقال له: إنما يسليك عنها تذكر ما فيها من المساوىء والمعائب وما تعافه النفس فقال:

إِذَا عِبْتُهَا شَبَّهْتُهَا البَدْرَ طَالِعًا ... وَحَسْبِكَ مِنْ عَيْبٍ لَهَا شَبَهُ البَدْرِ
لَقَدْ فَضّلَت لُبْنَى عَلَى النَّاسِ كَالَّذِي ... عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ
إِذَا مَا مَشَتْ شِبْرًا منَ الأرْضِ أَرْجَفَتْ ... مِنْ البَهْرِ حَتَّى مَا تَزِيْدُ عَلَى شِبْرِ
لَهَا كِفْلٌ يَرْتَجُّ مِنْهَا إِذَا مَشَتْ ... وَمَتْنٌ كَغُصْنِ البَانِ مضطَمِرُ الخَصْرِ

فدخل عليه أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة. فأنبه ولامه وقال: يا بني الله في نفسك، فإنك ميت إن دمت على هذا. فقال:

فَفِي عُرْوَةَ العُذْرِيّ إِنْ مَتُّ أُسْوَةٌ ... وَعمرِ بن عَجْلانَ الَّذِي قَتَلَت هِنْدُ
فَبِي مِثْلُ مَا مَاتَا بِهِ غَيْرَ أَنَّنِي ... إِلَى أَجَلٍ لَمْ يَأْتِنِي وَقْتُه بَعْدُ
هَلْ الحُبُّ إِلَّا عَبْرَةٌ بَعْدَ عَبْرَةٍ ... وَحَرٌّ عَلَى الأحشَاءِ لَيْسَ لَهُ بَرْدُ
وَفَيْضُ دُمُوعِ تَسْتَهِلُّ إِذَا بَدَا ... لَنَا عَلَمٌ مِن أَرْضِكُمْ لَمْ يُكن يَبْدُو

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بتزويجه لعله أن يسلوا، فدعاه إلى ذلك، فأباه، وقال:

لَقَدْ خفْتُ ألّا تَقْنَع النَّفْسُ بَعْدَهَا بِشَيءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ مُقْنِعَا
وَأَزْجُرُ عَنْهَا النَّفْسَ إِن حِيْلَ دُوْنَهَا وَتَأْبَى إِلَيْهَا النَّفْسُ إِلّا تَطَلُّعَا

فأشاروا عليه أن يسير في أحياء العرب فلعل عينه أن تقع على امرأة تعجبه فيتزوج بها.

فأقسم عليه أبوه، أن يفعل، فسار حي نزل بحي من فزارة، فرأى جارية قد حسرت برقع خز عن وجهها، وهي كالبدر في ليلة تمه. فقال لها: ما اسمك؟ قالت: لبنى. فسقط على وجهه مغشيًا عليه، فنضحت على وجهه ماءً، وارتاعت لما عراه، ثم قالت: إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لمجنون. فلما أفاق نسبته، فانتسب. فقالت: قد علمت أنك إياه، فنشدتك الله تعالى، وحق لبنى إلا أصبت من طعامنا. وقدمت إليه طعامًا، فأصاب منه بإصبعه وركب وأتى على أثره أخ لها كان غائبًا، فرأى مناخ ناقته، فسألهم عنه، فأخبروه، فركب حتى رده إلى منزله، وحلف ليقيمن عنده شهرًا. فقال: لقد شققت عليّ، فأقام عنده شهرًا، والفزاري يزداد إعجابًا بحديثه وعقله وروايته. فعرض عليه الصهر. فقال: يا أخي إن فيك لرغبة، ولكن في شغل لا ينتفع بي معه.

فلم يزل يعاوده، والحي يلومونه على عرضه الصهر، ويقولون لقد خشينا أن يصير علينا فلعلك سبّة.

فقال: دعوني، ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام. فلم يزل به حتى أجابه، وعقد الصهر بينه وبينه على أخته المسماه لبنى. فلما دخل بها لم يهتز بها، ولا دنى منها ولا خاطبها بحرف. فأقام على ذلك أيامًا كثيرة، ثم أعلمهم أنه يريد الخروج. فأذنوا له فمضى إلى المدينة، وكان له صديق فأعلمه أن خبر تزويجه بلغ لبنى، فغمها، وقالت: إنه لغرار ولقد كنت امتنع من الإجابة إلى التزويج، فأنا الآن أجيبهم.

وكان أبوها شكى قيسًا إلى معاوية، وأعلمه بتعرضه لها، وأمر أباها أن يزوجها لخالد بن حلزة، من بني عبد الله بن غطفان. ويقال: بل أمره بتزويجها رجلًا من آل كثير بن الصلت الكندي حليف قريش فزوجها أبوها منه فجعل نساء

الحي ليلة زفافها يقلن:

لُبَيْنَي زَوْجَهَا أَصْبَحَ ... لَا حُرَّ بِوَادِيْهِ
لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ ... بِمَا بَاتَتْ تُنَاجِيْهِ
وَقَيْسٌ مَيِّتٌ حَقًّا ... صَرِيْعٌ فِي بَوَاكِيْهِ
فَلَا يُبْعِدْهُ الله ... وَبُعْدًا لِنَوَاعِيْهِ

فلما سمع ذلك قيس جزع جزعًا شديدًا، وبكى أشد بكاء، ثم ركب من فوره حتى أتى محلة قومها، فناداه النساء: ما تصنع الآن هنا، وقد نقلت لبنى إلى زوجها؟

فلم يجبهم حتى أتى موضع خبائها، فتمعك(١) في موضعها على التراب بخده وهو يبكي ويقول:

إِلَى الله أَشْكُو فَقْدَ لُبْنَى كَمَا شَكَى ... إِلَى الله فَقْدَ الوَالِدَيْن يَتِيْمُ
يَتِيْمٌ جَفَاهُ الأَقْرَبُونَ فَجِسْمُهُ ... نَحِيْلٌ وَعَهْدُ الوَالِدَيْن قَدِيْمُ

ولما بلغه إهدار دمه قال:

فَإِنْ يَحْجبُوهَا أَوْ يَحُلْ دُوْنَ وَصْلِهَا ... مَقَالَةُ وَاشٍ أَوْ وَعِيْدُ أَمِيْرِ
فَلَنْ يَمْنَعُوا عَيْنِي مِنْ دَائِمِ البُكَا ... وَلَنْ يُذْهِبُوا مَا قَدْ أَجَنَّ ضَمِيْرِي
إِلَى الله أَشْكُو مَا أُلَاقِي مِنَ الهَوَى ... وَمِنْ كَرْبٍ يَعْتَادُنِي وَزَفِيْرِ
وَمِنْ حَرَقٍ لِلْحُبِّ فِي بَاطِنِ الحَشَى ... وَلَيْلٍ طَوِيْلِ الحُزْنِ غَيْرِ قَصِيْرِ
سَأَبْكِي عَلَى نَفْسي بِعَيْنٍ غَزِيْرَةٍ ... بُكَاءَ حَزِينٍ فِي الوَثَاقِ أَسِيْرِ
وَكُنَّا جَمِيْعًا قَبْلَ أَنْ يَظْهَر النَّوَى ... بِأَنْعَمِ حَالِ غِبْطَةٍ وَسُرُوْرِ
فَمَا بَرِحَ الوَاشُوْنَ حَتَّى بَدَتْ لَنَا ... بُطُونُ الهَوَى مَقْلُوبَةً لِظُهُوْرِ
لَقَدْ كُنتِ حِسْبَ النَّفْسِ لَوْ دَامَ وَصْلُنَا ... وَلَكِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعُ غُرُوْرِ

وقال في ذلك أيضًا:

وَإِنْ يَكَ لُبْنَى قَدْ أَتَى دُوْن قُرْبَها ... حِجَابٌ مَنِيْعٌ مَا إِلَيْهِ سبِيْلُ
فإِنَّ نَسِيْمَ الجَوْ يَجْمعُ بَيْنَنَا ... وَنُبْصِرُ قَرْنَ الشَّمْسِ حِيْنَ تَزُوْلُ

---

(١) أي تمرغ فيه، أو تململ فيه.

وَأَرْوَاحنَا بِاللَّيْلِ فِي الحيْنِ تَلْتَقِي ... وَنَـعْـلَمُ أَنَّـا بِـالـنَّـهَـارِ نَـقِـيْـلُ
وَتَجْمَعَنَا الأَرْضُ القَرَارُ وَفَوْقَهَا ... سَمَاءٌ نرى فِيْهَا النُّجُوْمُ تَجُوْلُ
إِلَى أَنْ يَعْود الدَّهْرَ سَلْمًا وَتَنْقَضِي ... تِـرَاتٌ تَـرَاهَـا عِـنْـدَنَـا وَذُحُـوْلُ

قال: وحجت لبنى في تلك السنة، فرآها ومعها امرأة من قومها فدهش وبقي واقفًا مكانه، ومضت لسبيلها، ثم أرسلت إليه المرأة تبلغه السلام، وتسأله عن خبره.

فأمرها أن تبلغها السلام، وتقول لها:

إذا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَسَلِّمِي ... فَـآيَـةُ تَـسْـلِـيـمـي عَـلَيْـكِ طُـلُوعُـهَـا
بِعَشْرِ تَحيَّاتٍ إِذَا الشَّمْسُ أَشْرَقَتْ ... وَعَـشْـرٍ إِذَا اصْـفَـرَّتْ وَحَـانَ رُجُـوعُـهَـا
وَلَوْ أَبْـلَغَـتْـهَـا جَـارَةٌ قَـوْلِـيَ اسْـلِـمِي ... طَوَتْ حُزْنًا وَأَرْفَضَ مِنْهَا دُمُوعُهَا

ولما قضي الحج مرض قيس في طريقه مرضًا أشفى منه، فلم يأته رسولها عائدًا لأن قومها رأوه، وعلموا أنه قيس، فقال:

أَلُبْنَى لَقَدْ جَلَّتْ عَلَيْكِ مُصِيبَتِي ... غَـدَاةَ غَـدٍ إِذْ حَـلَّ مَـا أَتَـوَقَّـعُ
تُـمَـنِّـيْـنَـنِي نَـيْـلًا وَتَـلْوِيْـنَـنِـي بِـهِ ... فَنَفْسِي شَوْقًا كُلَّ يَوْمٍ تَقَطَّعُ
أَلُومُكِ فِي شَأْنِي وَأَنْتِ مُلِيمَةٌ ... لعمْرِي وَأَجْفَى لِلْمُحِبِّ وَأَقْطَعُ
أُخْبِرتِ أَنَّ فِيْكِ مِتُّ بِحَسْرَتِي ... فَمَا فَاضَ مِنْ عَيْنَيْكِ لِلْوَجْدِ مَدْمَعُ
إِذَا أَنْـتِ لَمْ تَـبْـكِ عَـلَيَّ جَـنَـازَةً ... لَدَيْكِ فَلَا تَبْكِي غَدًا حِيْنَ أُرْفَعُ

فلما بلغتها الأبيات جزعت وبكت بكاءً شديدًا، ثم خرجت إليه ليلًا على موعد فاعتذرت، وقالت: إنما أبقى عليك وأخشى أن تقتل فأنا أتجافاك لذلك، ولولا ذلك لما افترقنا.

وقال خالد بن كلثوم: إن أهلها لما قالوا لها: إنه عليل لما به وإنه سيموت فقالت لتدفعهم عن نفسها: ما أراه إلا كاذبًا فيما يدعي ومتعاللًا لا

---

(١) التفصيل في العقد: أن يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة.
(٢) التسهيم في الثوب: التخطيط.

عليلًا. فلما بلغه ذلك. قال:

تُكَذِّبني بِالوُدِّ لُبْنَى وَلَيْتَهَا تُكَلَّف منِّي مُثْلَهُ فَتَذُوقُ
وَلَوْ تَعْلَمِينَ أَيْقَنْتِ أَنَّني لَكُمْ وَالْهَدَايَا المُشْعَراتِ صَدِيْقُ
تَتُوقُ إِلَيْكِ النَّفْسُ ثُمَّ أَرُدُّهَا حَيَاءً وَمِثْلِي بِالْحَيَاءِ حَقِيْقُ
أَذُودُ سَوَامَ النَّفسِ عَنْكِ وَمَالَهُ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكِ طَرِيْقُ
شَهِدْتُ عَلَى نَفْسِي بِأَنَّكِ غَادَةٌ رَدَاحٌ وَأَنَّ الوَجْهَ مِنْكِ عَتِيْقُ
وَأَنَّكِ لَا تَجْزِيْنَنِي بِصَحَابَةٍ وَلَا أَنَا بِالْهِجْرَانِ مِنْكِ مُطِيْقُ
وَأَنَّكِ قَسَّمْتِ الفُؤاد فَنِصْفُهُ رَهِيْنٌ وَنِصْفٌ فِي الحِبَالِ وَثِيْقُ
كَأَنَّ الهَوَى بينَ الحَيَازِيمْ وَالحَشَى وَبَيْنَ التَّرَاقِي وَاللَّهَاةِ حَرِيْقُ
فَإِنْ كُنْتِ لَمَّا تَعْلَمِي العِلْمَ فَاسْأَلي وَبَعْضٌ لِبَعْضٍ فِي الفَعَالِ يَفُوقُ
سَلي هَلْ قَلَانِي مِنْ خَلِيْلٍ صَحِبْتُهُ وهَل ذَمَّ رَحْلِي فِي الرِّفَاقِ رَفِيْقُ
وَهلْ يَجْتَوِي القَوْمُ الكِرَامُ صَحَابَتِي إِذَا اغْبَرَّ مَخْشِيُّ الفِجَاج عَمِيْقُ
وَأَكْتُم أَسْرارَ الهَوَى فَأُمِيْتهَا إِذَا بَاحَ مَزَّاحٌ بِهِنَّ يَرُوْقُ
هَلْ الصَّبْرُ إِلَّا أَنْ أَصُدّ فَلَا أرى بِأَرْضِكِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ طَرِيْقُ

قال: ثم أتى أهله، فاقتطع قطعة من إبله، وأعلم أباه أنه يريد المدينة بها ليبيعها. فعرف أبوه مقصده فعاتبه وزجره، فلم يقبل منه. فلما قدم المدينة ساومه زوج لبنى بناقةٍ منها، وهما لا يتعارفان، فباعه إياها. فقال له: إذا كان في غدٍ، فأتني في دار كثير بن الصلت، فاقبض الثمن. قال: نعم. ومضى زوج لبنى إليها، فقال: إني ابتعت ناقة من رجل بدوي، وهو يأتينا غدًا، ليقبض الثمن، فأعدي له طعامًا. ففعلت، فلما كان من الغد، جاء قيس فصوت بالخادم فعرفت لبنى نغمته فلم تقل شيئًا.

فأذن له الزوج، فلما جلس، قالت لبنى للخادم: قولي له: يا فتى مالي أراك أشعث أغبر؟ فلما قالت له ذلك تنفس ثم قال: هكذا يكون حال من فارق الأحبة وبكى. فقالت: قولي له: حدّثنا حديثك. فلما ابتدأ يحدثهم كشفت لبنى الحجاب، وقالت: حسبك قد عرفنا حديثك وأسبلت الحجاب. فبهت ساعة لا يتكلم، ثم انفجر باكيًا ونهض، فخرج فناداه زوجها: ويحك ما قضيتك؟ ارجع فاقبض ثمن ناقتك، وإن شئت زدناك، فلم يكلمه، ومضى.

فقالت لبنى لزوجها: ويحك هذا قيس بن ذريح، فما حملك على ما فعلت به؟ قال: ما عرفته. وذهب قيس لوجهه، وهو يقول:

أَتَبْكِي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا وَكُنْت عَلَيْهَا بِالْمَلا أَنْتَ أَقْدَرُ
فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بلُبْنَى تَقَلَّبَتْ فَلِلدَّهْرِ وَالدُّنْيَا بَطُونٌ وَأَظْهرُ
كَأَنِّي فِي أرْجُوحَةٍ بيْنَ أحْبُلٍ إِذَا ذُكْرةٌ مِنْهَا عَلَى القَلْبِ يَخْطُرُ

ودسّت إليه رسولًا، وعنفته على تزوجه، حتى أجابت هي إلى التزويج.

فحلف أن عينه ما اكتحلت بالمرأة التي تزوجها، وأنه لو رآها في نسوة ما عرفها، وأنه ما مد يده إليها ولا كلمها ولا كشف لها عن ثوب.

قال المدائني: فلما اشتهر أمر لبنى، وغني في شعر قيس الغريض، ومعبد، ومالك بن أبي السمح، وغيرهم. فلم يبق شريف، ولا وضيع إلا حزن لقيس بما به. وجاء زوج لبنى، فأنبها على ذلك وعاتبها. فغضبت وقالت: إني والله ما تزوجتك رغبة فيك، ولا فيما عندك، ولا أدلس أمري عليك، وقد علمت بحالنا، ووالله ما قبلت التزويج حتى أهدر دمه، فخشيت أن يحمله ما يجد على المخاطرة فيقتل وأمرك الآن إليك، ففارقني فلا حاجة لي بك.

قال: فأمسك عن جوابها، وجعل يأتيها بجواري المدينة يغنينها بشعر قيس يستصلحها بذلك فلم تزدد منه إلا بعدًا، ثم ارتحل قيس إلى معاوية، فامتدحه. فرق له وقال: سل حاجتك إن شئت أن أكتبها إلى زوجها فيطلقها، فعلت.

قال: لا، ولكن أحب أن أقيم بحيث يقيم من البلاد حيث أعرف أخبارها من غير إهدار دمي ففعل، ونزل بلدها فبلغ الفزاريين خبره، فعاتبوه. فقال لرسولهم: قل لأخيها يا أخي ما غررتك بنفسي، وقد جعلت أمر أختك إليك فامضِ فيه حكمك ما رأيت. فتكرم الفتى من أن يفرق بينهما، فمكثت في حباله مدة ثم ماتت.

وقال أبو الفرج: وقد اختلف في أمر قيس، ولبنى، فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على افتراقهما.

فمنهم مَن قال: أنه مات قبلها، وبلغها ذلك فماتت أسفًا عليه.

وممن ذكر غير ذلك علي بن صالح قال: قال أبو عمرو المديني: ماتت لبنى فجزع قيس، ثم أتى قبرها في جماعة من أهله، فوقف عليه، فقال:

مَـاتَـتْ لُبْـنَـى فَـمَـوْتُـهَـا مَـوْتِـي ... هَلْ تَنْفَعَنَّ حَسْرَتِي عَلَى الفَوْتِ
فَـسَـوْفَ أَبْـكِـي بُـكَـاءَ مُـكْـتَـئِـبٍ ... قَـضَـى حَـيَـاةَ وَجْـدًا عَـلَى مَـيْـتِ

ثم أكب على قبرها يبكي حتى أغمي عليه، فرفعه أهله إلى منزله، وهو لا يعقل، فلم يزل عليلًا لا يفيق ولا يجيب مكملًا ثلاثًا، ثم مات فدفن إلى جنبها.

ذكره الفحذمي، وابن عائشة، وخالد بن أبي عتيق، فقالوا: صار إلى الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وجماعة من قريش رضي الله عنهم، فقال: إن لي حاجة إلى رجل أخشى أن يردني وأنا أستعين بجاهكم وأموالكم عليه؟ قالوا: ذلك لك. قال: فمضى بهم إلى زوج لبنى، فلما رآهم أعظمهم وأكبر مجيئهم إليه وقالوا: قد جئناك في حاجة لابن أبي عتيق. فقال: هي مقضية. قالوا: كائنة ما كانت؟

قال: نعم. قال: تهب لي ولهم لبنى، وتطلقها. قال: فطلقها ثلاثًا. فاستحيا القوم واعتذروا، وقالوا: والله ما عرفنا حاجته ولو عرفناها ما سألناك إياها. فعوضه الحسن من ذلك مائة ألف درهم، فلما انقضت عدتها، تزوجها، ولم تزل معه حتى ماتا. وقال قيس يمدح ابن أبي عتيق:

جَزَى الرَّحْمَٰنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِي ... عَلَى الإِحْسَانِ خَيْرًا مِنْ صَدِيْقِ
فَـقَـدْ جَـرَّبْـتُ إِخْـوَانِي جَـمِـيْـعًـا ... فَـمَـا أَلْفَـيْـتُ كَـابْـنِ أَبِـي عَـتِـيْـقِ
سَعَى فِي جَمْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعٍ ... وَرَأْيٍ جُـرْت فِـيْـهِ عَـن طَـرِيْـقِـي
وَأَطْـفَـأَ لَوْعَـةً كَـانَـتْ بِـقَـلْـبِـي ... أَغَـصَّـتْـنِـي حَـرَارَتُـهَـا بِـرِيْـقِـي

فلما بلغت ابن أبي عتيق، قال: يا حبيبي أمسك عن هذا المديح فما سمعه أحد إلا ظنني قوادًا.

وفي كتاب ابن المزربان: أن زوج لبنى اشترى منه ناقة، ولم يعرفه قيس، فلما عرفه أخذها وانطلق. وقال: والله لا تركت لك مطيتين أبدًا. فقال: أنت قيس بن ذريح؟ قال: نعم. قال: أقم حتى أخبر لبنى، فإن اختارتك طلقتها. فظن أنها تحبه، فلما خيرها اختارت قيسًا فطلقها.

وأقام قيس ينتظر انقضاء العدة ليتزوجها فمات قبل انقضاء عدتها. وفي كتاب المحنة: فماتت هي قبل انقضاء العدة.

صائد الظباء، وليلى

ذكر النوقاني: أن عبد الملك سأل كثيرًا: هل رأى أحدًا أعشق منه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، بينا أنا في معمع ليس به أنيس إذا أنا برجل قاعد وحده. فقلت: إنسي أم جني؟ فقال: إنسي. فقلت: ما يقعدك هنا؟ قال: نصبت شركًا للصيد. فقلت: إن صدت شيئًا، أتطعمني منه؟ قال: إيهًا إذًا ونعمة عين. فما لبث أن خرج يعدو إلى شركة، فإذا فيه ظبية عظيمة، فاستخرجها من الشرك ثم جعل ينظر إلى عينيها ووجعها، ثم خلي سبيلها، وقال:

اذهَبِي فِي كَلاءَةِ الرَّحمَٰنِ ... أَنْتِ مِنِّي فِي ذمَّةٍ وَأَمَانِ
لَا تَخَافِيْنَ أَنْ تُرَاعِي بِسُوءٍ ... مَا تَغَنَّي الحَمَامُ فِي الأغْصَانِ

فأقمنا يومًا فلما أصبحنا وجد فيه آخر كالأول فنظر إليه، ثم أطلقه، وقال:

أَيَا شِبْهَ لَيْلَى لَا تُرَاعِي فَإِنَّني ... لَكِ اليَوْمَ مِنْ وَحشِيَّةٍ لِصَدْيقِ
يَفِرُّ وَقَدْ أَطْلَقْتُ عَنْهُ لِحُبِّهَا ... فَأَنْتَ لِلَيْلَى مَا حَيِيْتَ طَلِيق

فأقمت عنده يومين وليلتين، ثم أصبحنا وغدونا إلى الشرك، فإذا هو بظبية، فأخذها ونظر إليها، ثم جعل يقول، وقد خلي عنها:

تُذَكِّرُني لَيْلَى مِنَ الوَحْشِ ظَبْيَةً ... لَهَا مَقْلَتَاهَا وَالقَلَادَةُ وَالحَشَى
فَيَهْمل دَمْع العَيْن مَنِّي صَبَابَةً ... سَتَبْكِي عَلَيْكِ العَيْن بِالدَّمْع مَا جَرَى

فقلت: مالك؟ أشكو إليك الجزع منذ ثلاث كلما أخذت صيدًا خليته. فنظر في وجهي مليًا، ثم قال:

أتلْحَى مُحبًّا هَائِمًا أَنْ رَأَى لِمَنْ ... يُحِب شَبِيْهَا فِي الحَبَائِلِ مُوْثَقَا
فَهَيَّجَ مِنْهُ حَائِل دُوْنَ ذَبْحِهِ ... فَأَطْلَقَهُ حِفْظًا لِلَيْلَى وَأَعْتَقَا

فانصرفت عنه وأنا أقول: ما رأيت كاليوم: وفي رواية: فوالله العظيم إنا لفي ذلك إذ أقبل راكب. قال كثير: فقال صاحبي: اللهم إني أسألك خير ما عنده. فجاء حتى وقف فقال: تعزيا فلان؟ قال: عن من؟ قال: عن ليلى. فقام

إلى بعيره، وقمت معه، فأقبلنا إلى الحي. فقال: أرشدني إلى قبرها. قال: فأشار إليه. فإذا هو قبر حديث عهد، فأكب عليه يقبله، ويلتزمه، ويستنشق ترابه، وهو يقول:

أَيَا قَبْر لَيْلَى لَوْ شَهِدْنَاكَ أَعْوَلَتْ　　عَلَيْكَ نِسَاء مَنْ فَصِيحٍ وَمَنْ عَجَمِ
وَيا قَبْر لَيْلَى إِنَّ فِي الصَّدْرِ غصَّة　　مَكَانَ الشَّذَا شَذَّتْ مَعَ الرِيِّقِ

ثم شهق فمات. فدفنته أنا والراكب، وأنشأت أقول:

سَأَبْكِيكُمَا مَا عِشْت حَيًّا فَإِنَ أَمُتْ　　فَإِنِّي قَدْ لَقِيت مَا تَجِدَانِ

انتهى.

كامل بن الوضين، وأسماء بنت فلان بن مسافر

ذكر المفضل الضبي: أن كاملًا بن الوضين، عشق أسماء بنت فلان بن مسافر، ابنة عمه. فلم يزل به العشق إلى أن صار كالشن البالي، فشكى أبوه إلى أبيها حاله. فأمر بحمله إلى داره ليزوجها منه، ولم يعلم كامل. فلما علم قال: وإن أسماء لتسمع؟ قيل: نعم. فشهق شهقة، قضى مكانه. فقيل لها: مات بغصته، وشجنه. فقالت: والله لأموتن بعده بمثلها، ولقد كنت على زيارته قادرة، فمنعني منها قبح الريبة. ومرضت فلما اشتد بها المرض قالت: لأشفق نسائها عليها: صوري لي مثاله، فإني أحب أن أزوره قبل موتي ففعلت، فلما صورت لها الصورة اعتنقتها وشهقت فماتت. فطلب أبو الفتى إلى أبيها أن يدفنها إلى جانب قبر ابنه، ففعل، وكتب على قبريهما:

بِنَفْسِي هُمَا لَمْ يُمَتَّعا بِهَوَاهُمَا　　عَلَى الدَّهْرِ حَتَّى غُيِّبَا فِي المَقَابِرِ
أَقَامَا عَلَى غَيْرِ التَّزَاوُرِ بُرْهَةً　　فَلَمَّا أُصِيبَا قَرِّبَا بِالتَّزَاوُرِ
فَيَا حُسْنَ قَبْرٍ زَارَ قَبْرًا يُحِيّهُ　　وَيَا زَوْرَةَ جَاءَتْ بِرَبِ المَقَادِرِ

مالك بن عمرو الغساني، وبنت عم النعمان بن بشير

ذكر مصعب الزبيري: أن مالك بن عمرو الغساني تزوج بنت عم النعمان بن بشير، وكلف كل واحد منهما بصاحبه. وكان مليحًا شجاعًا، فاشترطت عليه ألا يقاتل إذا لُقي شفقة عليه وضنًّا به. وأنه غزى حيًّا من لخم، فباشر القتال، فأصابه

جراحة. فقال وهو مثقل منها:

أَلَا لَيتَ شِعْرِي عَنْ غَزَال تَرَكْتُه إِذَا مَا أَتَاهُ مَصرَعِي كَيْفَ يَصْنَعُ؟
فَلَوْ أَنَّنِي كُنتُ الـمُؤَخَّرَ بَعْدَهُ لَمَا بَرَحَتْ نَفْسِي عَلَيْهِ تقطع

ومكث يومًا وليلة، ثم مات.

فلما وصل خبره إلى زوجته بكته سنة، ثم اعتقل لسانها، وامتنعت من الكلام وكثر خطابها. فقال من يلي أمرها: زوجوها لعل لسانها ينطلق، ويذهب حزنها، فإنما هي من النساء. فزوجوها بعض أبناء الملوك، فساق إليها ألف بعير. فلما كانت في الليلة التي أهديت إليه فيها، قامت على باب القبة، وقالت:

يَقُولُ رِجَالٌ: زَوِّجُوهَا لَعَلَّهَا تَقَرُّ وَتَرْضَى بَعْدهُ بِخَلِيلِ
فَأَخْفَيتُ فِي النَّفْسِ التي لَيْسَ بَعْدَها رَجَاءٌ لهمُ وَأَنَّ الصِّدْقَ أَفْضَلُ وقِيْل
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنْ مَالِكًا ضَرُوبٌ بِحَدِ السَّيْفِ غَيرُ فَلُوْلِ
وحَدَثَنِي أصحَابُهُ أَنَّ مَالكًا جَوَادٌ بِمَا فِي الرَّحْلِ غَيْرُ بَخِيلِ
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكًا خَفِيْفٌ عَلَى الأحدَاثِ غِيْرُ ثَقِيْلِ
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكًا صَرُومٌ كَمَا فِي الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيْل

سميدع وما كان في طريقه إلى اليمامة بين رجل وامرأة

ذكر الأصمعي: أن الرشيد قال له: أخبرني بأعجب حديث سمعته. قال: قلت: أدركت بالبادية رجلًا من بني عمرو بن كلاب يقال له: سميدع وكان له بنون يردون البصرة، فحدّثني يومًا قال: خرجت يومًا وأنا شاب جلد على ناقة لي أريد اليمامة فأدركني الليل وقد رفع لي سواد فيممته، فإذا امرأة، فسلمت، فقالت: أضيف؟ قلت: نعم، فقالت: بالرحب والسعة. فنزلت، فإذا رب البيت شاب، كأحسن ما يكون من الشباب.

فذبح لي وقال: لا ترحلن حتى نصطبح، فلما برق الفجر أقبل وعبده يقودون كبشًا، فذبحه، ثم أجج نارًا، فأشوي وطبخ. فلما سرح الرعاء ركب فرسه، وتقلّد سيفه، وتوجه نحو إبله. فأتتني أمة فقالت: إن ابنة عمك تريد أن تكلمك من وراء حجاب. فلما قربت من البيت. قالت لي: يا ابن عم، اليمامة تريد؟

قلت: بلى. قالت: فاحفظ عني رسالة ترد علي جوابها. فقلت: نعم. فقالت:

أَعَلَى العَهدِ مَالك بن سَنَانِ ... أَمْ سَقَاهُ أَفَاوِق الغَدْرِ سَاقِ
إِنْ يَكُنْ خَاسَ أَوْ تَنَاسَى فَإِنِّي ... لَعَلَى الدَّهْرِ مَا اسْتَسَاغَ وَبَاقِي
مَا أَلَم الرُّقَاد مُذ غِبْتَ إِلَّا ... بِجُفُونٍ قَرِيحَة الأَمَاقِي
فَعَلَيْكَ السَّلَام مَا لَا الفَوْز ... وَمَادَتْ فِي الثَّرى عُرف سَاقِ

ثم قالت: إذا وردت اليمامة، فأت الحضرة فقف بموضع كذا وأنشد الشعر واحفظ الجواب. قال: ثم سافرت فسبقني الرجل، فلما أراد فراقي قال: يا ابن عمر هل أنت حامل رسالة تؤديها وترد جوابها؟ قلت: نعم. قال: فقف بقران بني سحيم، وأنشد هذه الأبيات، واحفظ الجواب، ثم أنشده:

أَيَا سَرْ حَتَّى قُرَّان بِاللهِ خبرًا ... عَنْ البكْرَةِ الغَنَّاء كَيْفَ بَراعُها
فَلَوْ أَنَّ فِيْهَا مَطْمَعًا لِمُتَيَّم ... نَأَتْ دَارهَا عَنْهُ وخِيْفَ امْتِنَاعُهَا
لَهَانَ عَلَيْهِ حَرْب كُلّ بيوقة ... يَخَافُ عَلَيْهَا حَوْرِهَا وضَيَاعُهَا
فَغَرَّبت عَنْ نَفْسِي وَأَيْقَنْت أَنَّهَا ... تُرِيْدُ وَدَاعًا يَوْمَ جدَّ وَدَاعُهَا

ثم افترقنا ومضيت لوجهي فأتيت اليمامة، ثم أتيت الحضرمة فأنشدت الشعر، فإذا شاب قد برز إليّ منها وهو يقول:

لَمْ يَخْلُ عَنْ وِقَايَة ابن سنانِ ... لَا وَلَا عَالَةُ أَثْنَاءَ الفَراقِ
إِنَّ بَيْنَ الحشَا لَهِيْب اشْتِيَاقِ ... لَيْس يشْفِي جَوَاهُ إِلَّا التَّلَاق
ثُمَّ أَبْقَتْ لي الهُمُوم جَنَانًا ... بَالِيًا مُمْسِكًا بِمَاء الرَمَاق

ثم انحنى على كبده فمات فرار بني سحيم فأنشدت الشعر فإذا جارية كأنها مهرة ضامرة قد ألقت خمارها، وهي تقول:

تَحَمَّلْ هَدَاكَ الله مِنِّي تَحِيَّة ... إِلَيْهِ جَدِيْدٌ كُلّ يَوْم سَمَاعَهَا
وَخَبِّر عَنِ الغَنَّاءِ أن قَدْ تَوجَّمَتْ ... عَلَيْهَا مَرَاعِيْهَا وَطَالَ نِزَاعَهَا
لَقَدْ قَطَعَ البَيْن المشبب إِلفِهِ ... عَزِيْزٌ عَلَيْنَا أَنْ يَحمَّ انْقِطَاعَهَا

ثم شهقت شهقة خرجت روحها فدفنتها وكررت راجعًا أدراجي.

فمررت بالمرأة والرجل غائب، فأنشدتها الشعر فشهقت شهقة حتى ظننت أن قد تصدعت كبدها. فلم ألبث أن تصايح الأنام أنها ماتت واتصلت الأصوات، فإذا الرجل أقبل مدهوشًا، فقال لي: ما خبرها؟ فأخبرته، ثم أنشدته جواب شعره. قال سميدع: فوالذي في السماء والأرض أمره ما استتممت إنشاد الشعر حتى خرّ ميتًا، فارتحلت عنهم ولا والله ما أدري ما كان بعدي.

مالـك، وابنة عمه

ذكر ابن دريد عن يونس بن يزيد قال: انصرفت من الحج فمررت بماوية، وكان لي فيها صديق من بني عامر بن صعصعة، فصرت إليه مسلمًا، فأنزلني. فبينا أنا عنده، ونحن قاعدون بفنائه، إذا نساء مستترات، وهن يقلن: تكلم تكلم. فقلت: ما هذا؟ فقال: إن فتًى منا كان يعشق ابنة عمه، فزوجت، وحملت إلى ناحية الحجاز، فإنه لعلى فراشه منذ حول ما تكلم، ولا طلب أكلًا إلّا أن يؤتى به. فقلت: أحب أن أراه. فقام وقمت معه، ومشينا غير بعيد، وإذا فتًى مضطجع بفناء بيت من تلك البيوت، لم يبق منه إلا خيال. فأكب الشيخ عليه يسأله، وأمه واقفة، فقالت: يا مالك، هذا عمك أبو فلان يعودك. ففتح عينيه، وأنشأ يقول:

لِيَبْكِنِي اليَوْمَ أَهْلُ الوُدِّ وَالشَّفَقِ ... لَمْ يَبْقَ مِنْ مُهْجَتِي إِلَّا شَفَا رَمَقِ
اليوم أخر عهدي بالحياة فقد ... أطلقت من ريقه الأحزان والقلق

وتنفس الصعداء، فإذا هو ميت. فقام الشيخ وقمنا، فانصرف إلى الجبانة فإذا بجارية تضمه وتبكي، وتنفخ.

فقال الشيخ: ما يبكيك؟ فقالت:

أَلَا أَبْكِي لِصَبٍ شَفًّا مُهْجَتَهُ ... طُولُ السَّقَامِ وأَضْنَى جِسْمَه الكَمَدُ
يَا لَيْتَهُ خَلَّفَ القلْبَ المُهَيَّم بِهِ ... عِنْدِي فَاشْكُوا إِلَيْهِ بَعْضَ مَا أَجِدُ
أَنَشْرُ بِتُرْبِكَ أَسْرَى لِيَ النَّسِيمُ بِهِ ... أَمْ أَنْتَ حَيْثُ يُنَاطُ السَّحْرِ والكَبِدُ

ثم انثنت على كبدها، وشهقت شهقة فإذا هي ميتة.

قال يونس: فقمت من عند الشيخ وأنا وقيذ.

وأنشدنا شيخنا محمود بن سليمان لنفسه إجازة على لسان حالها:

إن كَانَ مَاتَ أَسًى بِمَنْ لَمْ يُجزِه ... يَـوْمًـا وَلَمْ يَـنْـظُـرْه فِـي عُـوَّادِهِ
فَلَقَدْ وَفَيْتُ لَهُ وَمَا ظَفَرَتْ بِهِ ... نَفْسِي وَلَا عَلَقَتْ يَدِي بِودَادِهِ

يوسف وزوجته

قال العلّامة أبو القاسم محمد بن عبد الرحمٰن الشيرازي في كتاب روضة القلوب ونزهة المحب والمحبوب: شاهدت امرأة تزوجت رجلًا جنديًا أعجميًا، يقال له: يوسف، وكانت تجد به وجدًا شديدًا، حتى أنها كانت لا تصبر عنه لحظة. وكان إذا مضى إلى نوبته في القلعة تبرز وتظل قائمة قباله حتى لا تصبر عنه لحظة حتى ينصرف. فإذا دخل عليها لاعبها وقبلها، فيسكن بعض ما تجد. فدخل عليها يومًا مغضبًا من كلام جرى بينه وبين مقدمه، فلما أرادت منه العادة، فلم يلتفت إليها، ولا هش بها، فظنت أن ذلك بسبب حدث منها فارتاعت وجزعت.

فمكث عندها ساعة ولم يرفع طرفه إليها فقوي عندها التخيل. فلما خرج خرجت خلفه لعادتها فانتهرها. فلم تشك أن غضبه لأجلها فرجعت وجعلت في رقبتها حبلًا وشدته في السقف، فاختنقت به فماتت.

المرأة التي بكت زوجها عند قبره

قال محمد بن عبيد الله العتبي عمن حدثه قال: رأيت بالإخوانة امرأة مضطجعة على قبر وهي تقول فيما ذكره السامري في اعتلال القلوب:

أَيَا قَبْرُ لَوْ شَفَّعْتَنِي فِيْهِ مَرَّةً ... وَأَخْرَجْتَهُ مِنْ ظُلْمَةِ القَبْرِ وَاللَّحْدِ
فَكُنْتُ أَرَى هَلْ غَيَّرَ القَبْرُ وَجْهَهُ ... وَهَلْ عَاثَ دُوْدُ اللُّحدِ فِي ذَلِكَ الْخَدِّ

فقلت لها: من صاحب القبر منك؟ قالت: ابن عم لي، تزوجني ونحن غران بماء الحداثة جذلان فطفق لا يروي مني ولا أنهل منه حتى كان العام الماضي وغزتنا سليم، وليس في الحي غيري وغيره، فخرج يحمي وهو يقول:

نَعَتْنِي زَبْيد أَنْ شَكَوْتُ خَلِيْلي ... طَعَانِي وَكرسي مَا إِذَا الخَيْل كرَّت

فوالله ما برح يقاتل حتى قتل. فقلت: فكم سنّه؟

قالت: أنا أكبر منه بسنة، ولي بضع عشر سنة، والله ما أمكث في الدنيا أكثر من يومي هذا. فظنها هازية، فلما أصبحت رأيت جنازة، فسألت عنها. فقيل: هذه

الجارية التي كانت تحدثك بالأمس عند قبر عن بعلها، فقلت: والله لقد وفت لبعلها، وصدقته نفسها.

الأعرابي الذي عشق جارية حيّه

ذكر المدائني عن محمد بن صالح الثقفي أن بعض الأعراب عشق جارية من حيّه فكان يتحدث إليها.

فلما علم أهلها بمكانه ومجلسه منها تحملوا بها معهم، فتبعهم ينظر إليها ففطن به فلما علم أنه قد فطن به انصرف، وهو يقول:

بـان الـخَـلـيْـطُ فَـأَوْجَـعَـوا قَـلْبي   حَسْبِي بِمَا قَدْ أَوْرَثُوا حَسبِي
إنْ تَكْتُبُوا نَكْتُبْ وَإنْ لَا تَكْتُبُوا   تَـأْتِـيْـكُـمُ بِـمَـكَـانِـكُم كُـتْـبِـي
جَدَّ الرَّحِيْلُ فَكَانَ فُرْقَة بَيْنَنَا   لَا شَـكَّ فِـيْـهِ مُـقْـتَـضَـى نَـحْـبِـي

ثم وقف على جبل ينظر إليهم، فلما غابوا عن عينه خرّ ميتًا.

المتوكل على الله، وجاريته محبوبة

ذكر الخرائطي: أن محبوبة جارية المتوكل على الله كان يحبها محبة شديدة وكانت هي تهيم به عشقًا.

فلما قتل صارت إلى وصيف لكثير، فكانت لا تبرح من البكاء، والنحيب.

فأمرها وصيف يومًا بأن تغني فاستعفت فأبى أن يعفيها، فأخذت العود، وغنّت:

أيُّ عَـيْـشٍ يَـطِـيْـبُ لِي   لَا أَرَى فِـيْـهِ جَـعْـفَـرا
مـلِكٌ قَـدْ رَأَتْـهُ عَـيْـنِـي   جَـرِيْـحَـا مُـعَـفَّـرا
كُـلُّ مَـنْ كـانَ ذَا هَـيَـا   مٍ وَسُـقْـمٍ فَـقَـدْ بَـرَا
غَـيْـر مَـحْـبُـوبَـة الَّتِـي لَوْ   تَـرَى الـمَـوْتَ يُـشْـتَـرَى
لاشْـتَـرتْـه بِـمَـا حَـوَتْـ   ـهُ جَـمِـيْـعَـا لِـتُـقْـبَـرا

فاشتج على وصيف، وأمر بإخراجها، فصارت إلى فسحة، ولبست الصوف وجعلت ترثيه وتبكيه حتى ماتت محبة له رحمها الله تعالى.

المخبل، كعب بن مشهور أو ابن خثعم، وميلاء

ذكر الأصبهاني: أن المخبل، واسمه: كعب بن مشهور. وقال الهجري: هو ابن خثعم.

كان من أهل الحجاز وتحته ابنة عم له اسمها: أم عمرو، وكانت من أحب الناس إليه. فخلا بها ذات يوم وهي واضعة ثيابها فلما نظر إليها قال لها: يا أم عمرو، هل ترين أن أحدًا من النساء أحسن منك؟ قالت: نعم، أختي ميلاء، أحسن مني. قال: فكيف بأن ترينيها؟ قالت: إن علمت بك لم تخرج إليك، ولكن اختبىء في الستر وأبعث إليها. قال: فعلت، وأرسلت إليها.

فلما نظر إليها عشقها وترك أختها وجلس لها. فلما خرجت من عند أختها عارضها من مكان لا تحتسبه.

فشكى إليها حبها، وأعلمها أنه قد رآها. فقالت: والله يا ابن عم ما وجدت بي من شيء إلا وأنا أجد منك مثله، وفطنت أم عمرو، امرأته بأنه عشق أختها فتبعتهما هما ولا يدريان حتى رأتهما قاعدين جميعًا. فمضت قصد إخوتها، وكانوا سبعة، فقالت: إما أن تزوجوا كعبًا من ميلاء وإما أن تغيبوها عني. فلما بلغه أن ذلك قد بلغ إخوتها، هرب فرمى بنفسه نحو الشام، وقال هناك:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ مِنْ بَارِحِ الهَوَى ... إِلَى الشُّمِّ مِنْ أَعْلامِ مَيْلاءَ نَاظِرُ
بَعَمْشَاءِ مِنْ طُولِ البُكَاءِ كَأَنَّهَا ... بِهَا حَرّ نَار طَرْفُهَا مُتَخَارِدُ
تَمَنَّى المُنَى حَتَّى إِذَا قُلت المُنَى ... جَرَى وَاكِفٌ مِنْ دَمْعِهَا مُتَبَادِرُ
كَمَا أَرْفُضُ سلْك بَعْدَ مَا ضَمّ ضَمّة ... بِحَظِ القَتْيلِ اللُّؤْلُؤُ المُتَنَاثِرُ

فروى هذا الشعر رجل من أهل الشام، ثم خرج يريد مكة، فمرّ على أم عمرو، وأختها، ميلاء، وقد ضلّ عن الطريق، فسلّم عليهما، وسألهما عن الطريق.

فقالت أم عمرو: يا ميلاء صفِي له الطريق، فذكر الرجل لما سمعها تقول: يا ميلاء، بَيْتَ كعب، يتمثل به. فقالت أم عمرو: يا عبد الله، من أين أنت؟ قال: أنا رجل من أهل الشام. فقالت: أنى لك هذا الشعر؟ فقال: رويته عن أعرابي بالشام. قالت: أو تدري ما اسمه؟ قال: اسمه كعب. قال: فأقسمتا عليه

أن لا يبرح حتى تراك إخوتنا فيكرموك ويدلوك على الطريق، فأنعم علينا. . . فقال: إني لأروي له شعرًا آخر، فما أدري أتعرفانه أم لا؟ فقالت: أسمعناه. فأنشد له:

خَلِيلَيَّ قَدْ رُمْتُ الأمورَ وَقِسْتُهَا ... بِنَفْسِي وَبِالفِتْيَانِ كُلَّ مَكَانِ
فَلَمْ أُخْفِ يَوْمًا لِلرَّفِيْقِ وَلَمْ أجِدْ ... خَلِيًّا وَلَاذا البَثِّ يَسْتَوِيَانِ
مِنَ النَّاسِ إنْسَانَانِ دَيني عَلَيْهِمَا ... مَلِيَّانِ لَوْلَا النَّاسُ قَد قَضَيَانِي
مَنُوعَانِ ظَلّامانِ مَا يُنصِفَانِني ... بَدَلَيْهِمَا وَالحُسْنِ قَدْ خَلَيَانِي
يُطِيلانِ حَتَّى يَحْسَبَ النَّاسُ أَنَّنِي ... قُضِيْتُ وَلا وَاللهِ مَا قَضَيَانِي
خَلِيلَيَّ أمَّا أُمُّ عَمْرو فَمِنْهُمَا ... وَأَمَّا عَنِ الأُخْرَى فَلا تَسلانِي
بُلِيْنَا بَهِجْرَانٍ وَلَمْ يُرَ مِثْلُنَا ... مَنَ النَّاسِ إنْسَانَانِ يَهْتَجِرَانِ
أَشَدَّ مُصَافَاةً وَأَبْعَدَ مِنْ قِلَى ... وَأَعْصَى لِوَاشٍ حِيْنَ يُكْتَنَفَانِ
تُبَيّنُ طَرْفَانَا الّذِي فِي نُفُوسِنَا ... إذَا اسْتُعْجِمَتْ بِالمَنْطِقِ الشَّفَتَانِ
فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَكُلُّ ذَوِي الهَوَى ... عَلَى شَكلِنَا أَمْ نَحْنُ مُبْتَلَيَانِ
فَلَا تَتَعَجَّبَا مِمَّا بِي اليَوْمَ مِنْ هَوًى ... فَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ مَا تَرَيَانِ
خَلِيلَيَّ عَنْ أيِّ الذي كَانَ بَيْنَنَا ... مِنَ الوَصْلِ أَمْ مَا مَضَى الهَوَى تَسَلَانِ
وَكُنَّا كَرِيمَيْ مَعْشَرٍ حُمّ بَيْنَنَا ... هَوًى فَحَفِظْنَاهُ بِحُسْنِ صِيَانِ
نَذُودُ النُّفُوسَ الجَاعِلات عنْ الهَوَى ... وَهُنّ بِأَعْنَاقٍ إلَيْهِ ثَوَانِ
سَلَامٌ بِأُمِّ العَمْرِوَ مَنْ هِي فَقَدْ بَدا ... بِهِ السَّقْمُ لا يَخْفَى وَطُولُ ضَمَانِ
فَمَا زَادَنَا بُعْدَ المَدَى نَقْصُ مَرّةٍ ... وَلَا رَجَعَا مِنْ عَلْمِنَا بِبَيَانِ
خَلِيلَيّ لا وَاللهِ مَالِي بِالّذي ... تَرِيْدَانِ مِنْ هَجْرِ الصَّدِيْقِ يَدَانِ
وَلَا لِيَ بِالهَجْرِ اعْتِلَاءٌ إذَا بَدَا ... كَمَا أَنْتُمَا بِالْبَيْنِ مُغْتَلَيَانِ

قال: فنزل الرجل وحطّ رحله حتى جاء إخوتهما، فأخبرتاهم الخبر وكانتا مهتمتين بأمره، وذلك لأنه كان ابن عمهم وكان ظريفًا شاعرًا فأكرموا الرجل، ودلّوه على الطريق، وخرجوا يطلبوا كعبًا بالشام. فوجدوه، فأقبلوا به حتى إذ جاءوا إلى بلدهم نزل كعب في بيت ناحية من الحي فرأى ناسًا قد اجتمعوا عند البيوت.

فقال كعب لغلام قائم وكان كعب ترك ابنًا له صغيرًا: يا غلام مَن أبوك؟ قال: المخبل. قال: فعلام يجتمع هؤلاء الناس؟ وأحس فؤاده بشرٍ.

فقال: يجتمعون على خالتي ميلاء، فإنها ماتت الساعة. قال: فزفر زفرة خرّ ميتًا، فدفن إلى جنب قبرها. ومن شعره بالشام في زوجته أم عمرو وحدها:

أَخَفَا عِبَادَ الله أَنْ لَسْت مَاشِيًا ... بِهَرَجَاتٍ حَتى يُحْشَر الثَّقَلَانِ
وَلَا لَا هَنَاءَ لِيَ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ كُلِّهِ ... بِبِيْضٍ لَطَيْفَاتِ الخصُوْرِ رَوَانِ
يُميتننَا حَتَّى تَزِيْغَ قُلُوبنَا ... وَيخْلُطْنَ مُطْلًا ظَاهِرًا بِلِيَانِ
فَعَيْنَيَّ يَا عَيْنَيّ حَتَّامَ أَنْتُمَا ... بِهِجْرَانِ أُمِّ العَمْرو تَخْتَلِجَانِ
فَمَا أَنْتُمَا إِلَّا عَلَيَّ طَلِيْعَة ... عَلَى قُرْبِ أَعْدَائي كَمَا تَرَيَانِ
فَلَوْ أَنَّ أُمّ العَمْرو أَضْحَتْ مُقِيْمَة ... مِصْرَ وَدَوْني السَّحْرُ سَحر عُمَانِ
إِذًا لَرَجَوْت الله يَجْمَعُ بَيْنَنَا ... وَإِنَّا عَلَى مَا كَانَ مُلْتَقِيَانِ
مِنَ البِيْضِ مخلًا وَالعُيُون غذاهُمَا ... نَعِيْمٌ وَعَيْشٌ ضَارِبٌ بِجِرَانِ
أَفِي كُلِّ يَوْم أَنْتَ رَام بِلَادهَا ... بِعَيْنَيْنِ إِنْسَانا هُمَا عَزِفَانِ
إِذَا اغرَوْرَقَتْ عَيْنَايَ قَالَتْ صَحَابتِي ... لَقَدْ أُوْلَعَتْ عَيْنَاكَ بِالْهَمَلَانِ
أَلَا فَاحْمِلَانِي بَارَكَ الله فِيْكُما ... إِلَى حَاضِرِ الرَّوْحَاءِ ثُمَّ ذَرَانِ

مرة النهدي وابنة عمه ليلى

ذكر محمد بن خلف بن أبي بكر أن الهيثم بن عدي قال: كان رجل من بني نهد يقال له مرة، تزوج ابنة عمٍّ له يقال لها: ليلى، وكان مستهامًا بها، فضرب عليه البعث إلى خراسان، فكره فراقها واشتد عليه، ولم يجد من ذلك بدًا. فقال لها: أكره أن أخلفك وقلبي متعلق بك.

قالت: اصنع ما شئت. فمرّ براذان وبها رجل من قومه له شرف وسؤدد، فذكر حاله وحال زوجته، وقال: أريد أن أدعها عند عيالك وأهلك حتى أقدم. قال: حيًا وكرامة. فخلّى لها منزل. فلما قفل من غزوته تعجل، فلما صار براذان جلس قريبًا من المنزل التي كانت فيه حتى يمسي، وكره إتيانها نهارًا. وخرجت جارية من البيت، فسألها عنها، فقالت: أو ما ترى ذلك القبر الجديد؟ قال: بلى.

قالت: فإن ذلك قبرها. فلم يصدق حتى خرجت أخرى، فسألها، فقالت له مثل ذلك. فأتى القبر، فجعل يبكي ويتمرّغ عليه، ويقول:

أَبَا قَبْرَ لَيْلَى لَوْ شَهِدْنَاكَ أَعْوَلَتْ ... عَلَيْكَ نِسَاءٌ مِنْ فَصِيحٍ وَمِنْ عَجَم

وَيَا قَبْرَ لَيْلَى مَا تَضَمَّنْتَ مِثْلَهَا ... شَبِيْهًا لِلَيْلَى فِي عَفَافٍ وَفِي كَرَم

وَيَا قَبْرَ لَيْلَى أَكْرِمَنَّ مَحِلَّهَا ... تَكُنْ لَكَ مَا عِشْنَا عَلَيْنَا بِهَا نعَم

وَيَا قَبْرَ لَيْلَى إِنَّ لَيْلَى غَرِيبَةٌ ... بِرَاذَانِ لَمْ يَشْهَدْهَا خَالٌ وَلَا ابن عَم

وَلَمْ يزل يبكي حتى مات.

فدفن إلى جنبها، وقد تقدم في حرف الكاف قصة شبيهة بهذه، وظاهرها أنها ليست هي، والله أعلم.

المرقش الأكبر وابنة عمه أسماء بنت عوف

ذكر الأصبهاني: أن مرقشًا الأكبر: واسمه عمرو بن سعيد بن مالك بن صنيعة بن قيس بن ثعلبة. وسُمي بقوله:

الدَّارُ قَفْزٌ وَالرُّسُومُ كَمَا ... رَقَّشَ فِي ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَم

وقيل: عوف بن سعد. عشق ابنة عم له يقال لها: أسماء بنت عوف بن مالك صغيرًا، فخطبها إلى أبيها. فوعده ومناه، ثم انطلق مرقش إلى ملك من الملوك، فكان عنده زمانًا ومدحه، وأجازه، وأصاب عوفًا زمان شديدٌ. فأتاه رجل من مراد، ثم أحد بني غطيف فأرغبه في المال. فزوجه أسماء على مائة من الإبل، ثم تنحّى عن بني سعد بن مالك.

ورجع مرقش، فقال إخوتها: لا تخبروه إلا أنها ماتت. فذبحوا كبشًا فأكلوا لحمه، ودفنوا عظامه في ملحفة. فلما قدم مُرقش أخبروه بذلك، وأروه موضع القبر. فنظر إليه وكان بعد ذلك يعتاده ويزوره، فبينا هو ذات يوم مضطجع قد تغطّى بثوبه وأبناء أخيه يلعبان بكعاب لهما إذ اختلفا في كعب، فقال أحدهما: هذا كعبي أعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه، وقالوا: إذا جاء مُرقش أخبرناه أنه قبر أسماء.

فكشف مرقش عن رأسه، ودعا الغلام، وقد ضنى ضنًا شديدًا، فسأله عن الحديث، فأخبره به وبتزوجها. فدعا مرقش وليدة له، وكان لها زوج من عقيل

كان عسيفًا لمرقش فأمرها بأن تدعوه. وكانت له رواحل، فأمره بإحضارها لكي يطلب أسماء، فركبها ومضى، فمرض في الطريق حتى ما يحمل إلا معروضًا. وأنهما نزلا كهفًا بأسفل بحران، وهي أرض مراد.

فسمع مرقش زوج الوليد، وهو يقول لها: اتركيه فقد هلك سقمًا، وهلكنا معه ضرًّا وجوعًا. فجعلت الوليدة تبكي من ذلك. فقال لها زوجها: إن أطعتني وإلا فإني تاركك وذاهب.

قال: وكان المرقش يكتب، فلما سمع ذلك كتب على مؤخرة الرَّحل هذه الأبيات:

يَا صَاحِبَيَّ تَلَبَّثَا لَا تَعْجِلَا	إنَّ الرَّوَاحَ رَهِينُ أَنْ لَا تَفْعَلَا
فَلَعَلَّ لُبثَكُمَا يُقَرِّبُ شَيْئًا	أَوْ سَابِق الإسْرَاع شَيْئًا مُقْبِلَا
يَا رَاكِبًا إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغا	أَنس بن سَعْدٍ إن لَقِيتَ وَحَرْمَلَا
لله دَرُّكُمَا وَدَرُّ أبِيكُمَا	إنْ أفْلَتَ العَقَلِيُّ حَتَّى يُقْتَلَا
مَنْ يُبْلِغُ الأقْوَام أنَّ مُرقِّشًا	أضْحَى عَلَى الأصْحَابِ عِبْئًا مُثْقَلَا
وَكَأَنَّمَا تَرِدُ السِّبَاعُ بِشَلْوِهِ	إذْ غَابَ جَمْعُ بَنِي ضُبَيْعَة مَنْهَلا

قال: وانطلق العقيلي وامرأته حتى رجعا إلى أهلهما.

فقالا: مات المُرقِّش. ونظر حرملة إلى الرَّحل فجعل يقلبه، وقرأ الأبيات، فدعاهما وخوفهما، وأمرهما أن يصدقاه، فحدثاه، فقتلهما، وقد كانا وصفا له الموضع، فركب أخوه حتى أتى مكانه فسأل عن خبره فعرف أنه لم يزل في الكهف حتى إذا هو بغنم تنزو على الغار الذي هو فيه. وأقبل راعيها إليها، فلما أبصر به، قال له: مَن أنت؟ وما شأنك؟ فقال له مرقش: أنا رجل من مراد، فراعي مَن أنت؟ قال: راعي فلانة. وإذا هو راعي زوج أسماء. قال له المرقش: تستطيع أن تكلم أسماء امرأة صاحبك؟ قال: لا، ولا أدنو منها، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عنزًا فتأتيها بلبنها.

فقال: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبت فألقه في اللبن فإنها ستعرفه، وأنك ستصيب به خيرًا لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك فأخذه الراعي، وفعل ما أمره به، فلما شربت اللبن قرع الخاتم سنها. فأخذته واستضاءت بالنار فعرفته.

فقالت للجارية: ما هذا؟ فقالت: لا أعلم. فأرسلتها إلى مولاها، فأقبل فزعًا. فقالت: ادع عبدك الراعي، فدعاه. فقالت: سله: أين وجد هذا الخاتم؟ فذكر لهم قصته. فقال زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش. فاعجل الساعة في طلبه. فركبا فرسين وسارا حتى طرقاه من ليلته، فاحتملاه إلى أهلهما.

فمات عند أسماء عشقًا، فدفن في أرض مراد.

وقال قبل موته:

سما نَحْوِي خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى ... فَأرْقَنِي وَأَصْحَابِي رُقُودُ
فَبِتُّ أُدِيرُ أَمْرِي كُلَّ حَالٍ ... وَأَذْكُر أَهْلَهَا وَهُم بِعِيْدُ
عَلَى أَنْ قَدْ سَمَا طَرْفِي لِنَارٍ ... تُشَبُّ لهَا بِذِي الأَرْطَي وَقُودُ
حَوَالَيْهَا مَهًا بِيْض الترقي ... وآرامٌ وَغِزْلَانٌ رُقُودُ
نَوَاعِمُ لَا تُعَالِجُ بُؤس عَيْشٍ ... أَوَانِسُ لَا تَرُوحُ وَلَا تَرُودُ
يَرُحْن مَعًا بِطَاءِ المَشْي رَوْدًا ... عَلَيْهِنَّ المَجَاسِدُ وَالبُرُودُ
سَكَنَتْ بِبَلْدَةٍ وَسَكَنَّ أُخْرَى ... فَقُطِّعَتِ المَوَاثِقُ وَالعُهُودُ
فَمَا بَالِي أَفِي وَيُخَان عَهْدِي ... وَمَا بَالِي أُصَاد ولَا أَصِيْدُ
وَرُبَّ أَسِيلَة الخَدَّيْنِ بِكْر ... مُنَعَّمَة لَهَا فُرُعٌ وَجِيْدُ
وَذُو أُشُر شَتِيْبُ النَّبْتِ عَذبٌ ... نَقِيُّ اللَّوْن بَرَّاقٌ بَرُوْدُ
لَهَوْتُ بِهَا زَمَانًا فِي شَبَابِي ... وَتَأْتِيْهَا النَّجَائِبُ وَالقَصِيْدُ
أيَا مَنْ كُلَّمَا أُخْلِفْتُ وَصْلَا ... عَنَانِي مِنْهُمُ وَصْلٌ جَدِيْدُ

وقال أيضًا:

أَغَالَبَكَ القَلْب اللّجُوج صَبَابَة ... وَشَوْقًا إلَى أسْمَاءِ أَنْتَ غَالِبهُ
يَهِيْمُ وَلَا يُغْنِي بِأسْمَاءِ قَلبّة ... لَذَابَ الهَوَى امْرَاره وَعَوَاقِبَهُ

وقد ضرب به المثل في العشق.

قال جميل:

قَدْ مَاتَ أَخُو هِنْد وَصَاحِبه مرقَّشٌ ... واشْتَفَى مَنْ عزْوَة الكَمدُ

وقال طرفة واسمه: عمرو بن العبد:

وَقَدْ ذَهَبَتْ سَلْمَى بِعَقْلِك كُلّه فهَلْ غَيْر صَيْدٍ أحْرَزَتْهُ حَبَائِلَهُ
كَمَا أَحْرَزَتْ أسَمَاء قَلْبَ مُرقَّش بِحُبٌّ كَلَمْحِ البَرْقِ لاَحَتْ مَخَائِلَهُ

أبو أمية مسافر بن أبي عمرو بن أمية وهند بنت عتبة

ذكر الأصبهاني: أن أبا أمية: مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، أخا أبي معيط لأبيه وأمه. وكان سيّدًا جوّادًا جميلًا شاعرًا، وكان يناقض عمارة بن الوليد. وكان يهوى هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فخطبها إلى أبيها بعد فراقها الفاكه بن المغيرة، فلم ترض ثروته وماله. فوفد إلى النعمان يستعينه على أمره، ثم عاد. فكان أول مَن لقيه أبو سفيان بن حرب، فأعلمه بتزويجه إياها.

وقيل: إنه كان يعشق هندًا وتعشقه، واتهم بها، فحملت منه، فلما بان حملها، قالت: أخرج، فخرج فرحل إلى الحيرة حتى أتاها أبو سفيان في بعض ما كان يأتيها قريش. فسأله عن حال الناس، فقال له: تزوجت هند، فدخله من ذلك ما اعتلّ معه حتى استسقى بطنه، وقال في ذلك:

أَلَا إنَّ هِنْدًا أَصْبَحَتْ مِنكَ مُحْرَمَا وَأَصْبَحْتَ مِنْ أَدْنَى حُمُوَّتِهَا حَمَا
فَأَصْبَحتَ كَالْمَسْلُوبِ جَفْنَ سِلَاحه يُقَلِّبُ بِالكَفَّيْنِ قَوْسًا وَأَسْهُمَا

فدعا له عمرو بالأطباء. فقالوا: لا دواء له غير الكي. فلما كوي لم يزدد إلا ثقلًا، فخرج يريد مكة، فلما انتهى إلى هبالة مات، فدفن بها. فقال: عبد المطلب بن هاشم يرثيه:

لَيْتَ شِعْرِي مُسَافِر بنَ أبي عَمْـ ـرِو وَلَيتَ، يَقُولُهَا المَحْزُونُ
رَجَعَ الرَّكْبُ سَالِمِيْنَ جَمِيْعًا وَخليلي في مَرْمَسٍ مَدْفُونُ
بُوْرِكَ المَيِّتُ الغَريبُ كَمَا بُو رِكَ غُصْنُ الرَّيْحَانُ وَالزَّيْتُونُ
مِيت صِدْقٍ عَلَى هَبَالَةَ قَدْ حَا لَتْ فَيَافٍ مِنْ دُوْنِهِ وَحُزُونُ
مِدْرَةٌ يَدْفَعُ الخُصُومَ بِأَيْدٍ وَبِوَجْه يَزِيْنُهُ العِرْنِيْنُ

وقال النوفلي: قال هشام: يقال: إن البيتين: «أَلَا إنَّ هِنْدًا» لهشام بن المغيرة، وكانت عنده أسماء النهشلية، فظاهر منها، وهو أول ظهار كان. فتزوجها

أبو ربيعة، فتبعتها نفسه، فقال لهما: وقيل بل قال:

تُحَدِّثنا أسْمَاء أنْ سَوْفَ نَلْتَقِي أَحَادِيثُ طسم أمَا كُنْتَ حَالِمَا
أَلَا أَصْبَحتَ سلْمًا حُجرًا مَحْرَمًا وأَصْبَحت مِنْ أَدْنَى حَمُوَّتهَا حَمَا

قال: وحدّثني أبي: أن مسافرًا إنما خرج إلى النعمان بن المنذر يتعرض لإصابة مال ينكح به هندًا، فأكرمه ونادمه، وضرب عليه قبة من أدم تعظيمًا له.

وقدم أبو سفيان بن حرب في بعض تجاراته فسأله مسافر عن حال الناس. فذكر له أنه تزوج هندًا. فقال: فاضطرب مسافرٌ حتى مات. وهو أحد من قتله العشق. وذكر المرزبان: أن مسافرًا تعشق جارية من أهل مكة فنذر به أهلها.

فلحق بالنعمان، فاعتلّ بالهُلّاسِ، فجمع له النعمان الأطباء، فاجتمعوا على كيّة فكوي، فبرأ.

ثم أنه قدم عليه رجل من أهل مكة، فقال له: ما فعلت فلانة؟ قال: تزوجت. فشهق شهقة، ومات مكانه.

أبو جعفر مسعود بن الحسن البياضي
وجارية بيت فخر الملك

ذكر الحافظ جمال الدين أبو الفرج البغدادي في كتابه المفتاح: أن الشريف أبا جعفر مسعود بن الحسن البياضي كان يحب جارية من جوار بيت فخر الملك، وكان قليلًا ما يفارقها، وله فيها أشعار كثيرة منها:

خَلِيلَيَّ مُرَّ بِالْعِرَاقِ فَنَادِيَا أَلَا مَنْ رَأَى قَلْبًا مِنَ الوجْد بَاليَا
وَإنْ أنتُمَا أعْيَيْتُمَا فِي ابْتِغَائِهِ وَلَمْ تَجِدَاهُ فَأبْغِيَا لِي نَاعِيَا

فمرضت وتوفيت فوجد عليها وجدًا شديدًا وحزن حزنًا عظيمًا، وقال يرثيها، وهو آخر ما قاله رحمه الله تعالى:

دَعِ الوُقُوفَ عَلَى الأطْلَالِ وَالدِمَنِ فَلَيْسَ يَنْفَعُ مَسْكُونٌ بِلَا سَكَنِ
أَمَا تَرَانِي لَا أرَى عَلَى طَلَلٍ بَعْدَ الفِرَاقِ وَلا آوِي إلَى وَطَنِ
فَكَيْفَ يَأنس قَلْبِي بالدِّيَار وَقَدْ أَصَابَ فِيهَا الرَّدَى مَنْ كَان يُؤْنِسُنِي
إنَّ الَّذِينَ أذَاقُونِي فِرَاقَهُمُ أفْنَيْتُ بَعْدَهُمْ دَمْعِي مِنَ الحَزَنِ

لله مَنْ لَعِبَتْ أَيْدِيَ المَنُونُ بِهِ ... صبًّا بِمَا فِيْهِ أَنْ يَبْقَى عَلَى الزَّمَنِ
جَعَلْتُ رُوْحِي لَهُ مِنْ رُوْحِهِ عِوضًا ... مُقِيمَةً مَعَهُ فِي ذَلِكَ الكَفَنِ
فَصَارَ كَالْحَيِّ إِذ رُوحِي تَحِلُ بِهِ ... وَصِرْتُ كَالمَيْتِ إِذْ لَا رُوْح فِي بَدَنِي
وَكَيْفَ تَصْحَبُ رُوْحِي بَعْدَهُ جَسَدِي ... وَكَانَ إِنْ غَابَ تَأْبَى أَنْ تُصَاحِبَنِي

وتوفي رحمه الله في الشهر الذي ماتت فيه عشقًا.

وحدّثني الأستاذ أبو القاسم ابن توبة قال: كنت فيمن عاده في مرضه، فأخذت أسأله أنا والجماعة عن مرضه، وابتدائه، وما أصله؟ فقال:

مَتَى أَنَا بِالشَّكْوَى إِلَى النَّاسِ بَائِحُ ... فَقَدْ طَالَ كِتْمَانِي الهَوَى وَهُوَ لَائِحُ
وَقَدْ سَئِمَ العُوّادُ مِمَّا أُجِيبهُم ... إِذَا سَأَلُوا عَنْ عِلَّتِي أَنَا صَالِحُ
فَلَمَّا دَنَا مِنِّي الحَبِيْبُ تَطَايَرَتْ ... إِلَيْهِ أَنْفَاسِي شَرَار لَوافِحُ
تَبَاعَدَ عَنِّي شَخْصُهُ ثُمَّ قَالَ لِي ... بِجِسْمِكَ نَارٌ قَدْ حَوَتْهَا الجَوَانِحُ
فَقُلْت بَعِيْدٌ مِنْ لَهِيْبِي خُمُوده ... إِذَا كَانَ فِي قَلْبِي زِنَادٌ وَقَادِحُ
وَلَمْ أَصْلَ نِيْرَانَ الهَوَى بِجِنَايَةٍ ... سُوَى أَنَّ مِيْزَانِي مِنَ الفَضْلِ رَاجِحُ
كَمَا أَنَّ عُودَ الهِندِ لَمْ يَصْلَ نَاره ... لِشيءٍ سَوَى أَنْ طَابَ مِنْهُ الرَّوائِحُ
أَلِفْتُ مِمَّا تَطَاوَلَ مُكْثُهُ ... فَلَوْ بَانَ مِنْ جِسْمِي بَكَتْهُ الجَوَارِحُ
وَلِد سُهَاد اللَّيْلِ عِنْدِي وَإِنَّهُ ... لَمُرٌّ وَطَابَ الدَّمْعُ لِي وَهُوَ مَالِحُ
وَطَالَ عَلَيَّ اللَّيْلُ حَتَّى لَقَدْ بَكَتْ ... عَلى الفَجْرِ أَطْيَار الصَّبَاحِ الصَّوادِحُ

الرجل الشامي والمرأة المدينية

ذكر المدائني فيما ذكره أبو بكر الشيرازي في كتابه روضة القلوب. أن امرأة من أهل المدينة كان بها شجن، فتزوجها رجل من الشاميين وخرج بها إلى بلده مكرهة. فبينما هي معه إذ سمعت منشدًا يقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَ بَعْدَنَا ... جَنُوبُ المُصَلَّى أَمْ لِعَهْدِ المَدَائِنُ
وَهلْ أَدْوَرَنَّ حَوْلَ البِلَادِ عَوَامِرًا ... بِأَحْبَابِنَا لَمْ يَنْأَ عَنْهُنَّ سَاكِنُ
إِذَا بَرَقَتْ حَوْلَ الحِجَازِ سَحَابَةُ ... دَعَى الشَّوْقُ مِنِّي بَرْقهَا المُتَبَايِنُ
فَلَمْ نَتْرُكَاهَا رَغْبَةً عَنْ بِلَادِهَا ... وَلَكِنَّهُ مَا قَدَّرَ الله كَائِنُ

فقالت: واشواقاه إلى ما ذكرت. ثم شهقت شهقة، وخرّت على وجهها ميتةً.

الشاب الذي ماتت زوجته ليلة زفافها

ذكرها الحافظ أبو محمد الحسن البغدادي قال: قرأت على لوحين مكتوبًا عليهما عند قبر:

أَمُغَطّي مِنّي عَلَى بَصَرِي فِي الحُبّ ... أَمْ كُنْتَ أَكْمَلُ النَّاسِ حُسْنَا

وَحَدِيثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا ... يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوْزَنُ وَزْنَا

ورأيت امرأة عندهما وهي تقول: بأبي لم تمتع من الدنيا، ولم تساعدك الأقدار بما تهوى منها، فليت شعري كيف وجدت مقيلك؟ وما قلت وقيل لك؟ ثم قالت: استودعك من وهبك لي، ثم سلبنيك ما كنت بك. فقلت لها: يا أمة الله، أرضى بقضاء الله عزّ وجلّ، وسلمي لأمره. فقالت: نعم فجزاك الله خيرًا، لا حرمني الله أجرك ولا فتنني بفراقك؟

فقلت لها: من هذا؟ قالت: ابني، وهذه ابنة عمه، كان متيمًا بها وهما صغيران، فليلة زفت إليه أخذها وجع أتى على نفسها فقضت، فانصدع قلب ابني، فلحقت روحه روحها، فدفنتهما في ساعة واحدة.

فقلت: فمن كتب هذا على القبرين؟ قالت: أنا. قلت: وكيف؟ قالت: كان كثيرًا ما يتمثل بهما. قلت: مَن أنت؟ قالت: فزارية. قلت: فمن القائل البيتين؟ قالت: كريم ابن كريم، سخي ابن سخي، شجاع ابن شجاع، بطل ابن بطل، مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن في امرأته حبيبة بنت أبي جندب الأنصارية.

الباكية على ابن عمها بالكوفة بعد فراقه

قال أبو منيع عبدٌ لآل الحارث بن عبيد، فيما ذكره أبو بكر بن المرزبان: رأيت شخصًا من كلب قاعدًا على رأس هضبة، فملت إليه، فإذا هو يبكي. فقلت: ما يبكيك؟ قال: رحمة لجارية منا كانت تحب ابن عمها وكان أهلها بأعلى وادٍ لكلب، فتزوجها رجل من أهل الكوفة، ونقلها إليها. وبلغ منها الشوق، فأوفت يومًا من علية لها وتغنت بهذا الشعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَشْرَفْتُ أَطْوَلَ مَا أَرَى ... وَكَلَّفْتُ عَيْنِي مَنْظَرًا مُتَعَاليا

وَقُلْتُ زِيَادٌ مُؤْنِسِي مُتَهَلِّلٌ　　أَمْ الشَّوْقُ يُدْنِي مِنْهُ مَا لَيْسَ دَانِيَا
وَقُلْتُ لِبَطْنِ الحَيِّ حيْنَ لَقِيْتُهُ　　سَقَى الله أَعْلَالَ السَّحَابَ الغَوَادِيَا

ثم قبضت مكانها.

الفتى المتعبد في سفح الوادي الذي قتل محبوبته خطأ

ذكر النوقاني عن مهران بن أبي عمرو وكان مجوسيًا وأسلم على يد الثوري، وحسن إسلامه: أنه رأى رجلًا بمكة، فذكر من عبادته وصومه شيئًا عظيمًا. وقالت: فَتَشَوّقت إليه فجئت، وبلده بالشام. فقيل لي: إنه استبطن سفح ذلك الوادي فكان يشتو فيه ويصيف.

قال المخبر: وكانت لي ابنة قد حججت بها يعني التي رآها تلك الليلة، فزوجتها من ابن عم لها، فكانت ترسل إليه بفطر وما يصلحه في كل ليلة. وأيم الله لو علمت أنه يهواها أو تهواه لخلعتها من ابن عمها وزوجتها منه. ثم قال لي: انظر أي شيء ترى في سفح الجبل؟ قلت: أرى قبرين. قال: فلما كانت ليلة إهدائها إلى زوجها أرسلتْ إليه: أني أهدى في ليلتي هذه إلى زوجي، فكن على أهبة حتى أمرَّ بكَ، وأسلم عليك.

قال: فانتظرها هونا من الليل، وأبطأت فلما كان في آخر الليل خرجت مع جارية لها في ثياب مصبغة، فأتته، فلما دنت منه تمثلت، وهي تقول: أتتك الغول، أتتك الغول. فانتبه وهو ذاعرٌ، فوضع سهمه في كبد قوسه، فما أخطأ فؤادها. فلما أصابها قالت: ويحك قتلتني.

الفتى الناسك الذي مات من البكاء عشقًا

ذكر ابن المرزبان: أن النضر بن زياد المهلبي قيل له: هل كان عندكم بالبصرة أحد شهر بالعشق كما شهر من نسمع به من الأمصار؟ قال: نعم، كان عندنا فتًى من النساك له فضل وعلم وأدب. قال: فجعل يذوب ويتغيّر ويصفر لا يعرف له خبر. فعاتبه أهله وإخوته في أمره، وقالوا: لو تعالجت وشربت الدواء، فإن العلاج مبارك، وما أنزل الله تعالى داء إلّا أنزل له دواء. فلما كثروا عليه قال:

وَقَالَ أُنَاسُ لَوْ تَعَالَجْتُ بالدَّوَاء　　فَقُلْتُ: الَّذِي يَخْشَى عَليَّ قَرِيْبُ
تُعَالِجُ أَدْوَاءٌ ولِلْحُبِّ لَوْعَةٌ　　تَكَادُ لَهَا نُفْسُ اللَّبِيْبِ تَذُوْبُ

وَلَوْ كَانَ شُرْبِي لِلْهَلِيلَج نَافِعًا مِنَ الحُبِّ لَمْ تُعكَفْ عَلَيَّ كُروبُ
بَلَى فِي عِلَاجِ الحُبِّ أنْ ذُنُوبَهُ حِسَانٌ وَإِحْسَانِي عَلَيَّ ذُنُوبُ
وَإِنْ رُمْتُ صَبرًا وتَسَلَّيْتُ سَاعَةً فَصَبْرِي لِمَنْ أَهْوى عَلَيَّ رَقِيْبُ

قال: ثم سكت. فعوتب فلم يجب بشيء، وكان بعد ما بدا هذا القول منه لا يكلمه أحد ممن يعرفه في شيء من الأشياء إلا بكى، فلا يستفيق من البكاء، فلم يزل على ذلك مدة حتى مات كمدًا. قال: فأنا أدركت بعض مَن كان ينسب إليه من ولده أو ولد ولده ينسبون إلى البكّاء.

بدر بن سعيد الهمداني، ونعم ابنة حاجب بن عطارد

ذكر ابن الأنباري: أن بدر بن سعيد الهمداني علق نعم ابنة حاجب بن عطارد. وذلك أنه رآها تطوف بالبيت ففتنته، فأنشأ يقول:

مَا كُنتُ أَحْسَبُ أَنَّ الحُبَّ يَعْرِضُ لِي عِنْدَ الطَّوَافِ بِبَيْتِ الله ذِي السِّتْرِ
حَتَّى بَدَتْ فِي طَوَافِ البَيْتِ جَارِيَةٌ أظنّها فِتْنَة لَيْسَتْ مِن البَشَرِ

ثم عظم عليه الأمر في ليلة، ثم امتنع منه النوم، فلما بدا الصبح قال:

يَا صُبْحُ قَدْ جئت عَلَى يَأس مِنح عَاشِقٍ بَاتَ بِوُسْوَاسِ
صَبْرًا وَتَسْلِيْمًا لِمَا قَدْ قَضَى ذُو المَنِّ وَالطَّوْل عَلَى رَاسي

وكانت تنزل الكوفة، فلما عزمت على الرحيل قال:

جَدّ الرَّحِيْلُ فَكَيْفَ وَيْحكَ تَصْنَعُ؟ أتُرَاكَ تَصْبِرُ أَمْ أَخَالكَ تَجْزَعُ
يَا بَدْرُ إنَّكَ قَدْ شَقِيْتَ بِمَا تَرَى كَتَبَ الإِلَهُ عَلَيْكَ مَا لَا يُدْفَعُ
أبْصَرْتَ عِنْدَ البَيْتِ خَودًا غَادَة ذَهَبَتْ بِعَقْلِكَ فالرُّقَى لا تَنْفَعُ

ثم ارتحل معها إلى الكوفة فنزلت في قصر حاجب، وكان يجلس بحذاء القصر، ويقول:

يَا قَصْرَ حَاجِبِ قَدْ أَصْبَحت لِي شَجَنًا لَمْ يَبْقَ مِنْ فِيْكَ لِي سَمعًا وَلَا بَصَرا
يا قصر حَاجب هَلْ لي فِيكَ مِنْ طَمَع أَمْ ذَاكَ مِنْكَ فَدَتْكَ النَّفْسُ قَدْ عَسُرا
الله يَعْلَمُ أنِّي مَا ذَكَرتكُمُ إلَّا تَرَقْرَقَ مَاءُ العَيْنِ فَانْحَدَرَا

ونظر يومًا إلى سطح القصر فرأى حمامًا عليه قد سقط إليه حمام، فقال:

قَدْ بَدَا الصُّبْحُ لِي بِشَيءٍ مَلِيْح فَرَّجَ الكَرْبَ عَنْ فُؤَادٍ قَرِيح
مِنْ حَمَامٍ رَأَيْتَه حِيْنَ وَافَا فَوْقَ سَطْحٍ يَدْعُوا بِصَوْتٍ فصِيحِ
فَأَتَتْهُ حَمَامَةٌ فَدَنَتْ مَنْـ ـهَ دُنُوًا بِغَيْرِ أَمْرٍ قَبِيْحِ
فَزَجَرْت الحَمَامَ نَفْسِي نَفْسًا وَزَجَرَتْ الأُخْرَى شَقِيْقَة رُوح

فاتصل خبرها وكثر مَن يعذله فكان يقول:

أَيُّهَا العَاذِلُونَ بالله كُفُّوا عَن مُلَامِي فَقَدْ خَلَعْتُ العِذَارَا
لسْتُ والله قَائِلًا مِنْ عَذُولِ مَا بِهِ الهَوَى عَلَيَّ أَشَارَا

وكان بدرًا معروفًا بالشجاعة والنجدة والعقل والبيان. وكان غالبًا على عقل الحجاج بن يوسف فأخرجه إلى قتال ابن الأشعث فعمل في الحرب أعمالًا عظيمة وأكثر القتلى، وعظمت الجراحة.

فقال وهو بآخر رمق: احملوني إلى الكوفة وادفنوني بها، ففعل به ذلك واتصل خبره بنعم فأتت قبره، وأنشأت، تقول:

يَا مَنْ لعَيْن بالدُّمُوع سَكُوب تَبْكي قَتيلًا ثَاويًا بقَليْب
يا بَدْرُ قَدْ أَشْجَيْتَني وَتَركْتَني في كُرْبَة تَعْتَادني وَنَحِيْب
بأَبِي وَأُمِّي مِنْ كَرِيْم سيْد جَزْل العَطَايَا للأُلُوف وَهُوْب
لَهْفي عَلَيْكَ إذَا الحُرُوبُ تَسَعَّرَتْ وَتَضَرَّمَتْ وَتَلَهَّبَتْ بلَهيْب
فَلأبْكيَنَّكَ مَا بَقيْتُ بلَوْعَة وَأَشُقُّ منْ جَزَع عَلَيْكَ جُيُوب
أبْكيْكَ يَا بَدْرُ بعَيْن شحَّة وَغَليْل قَلْب مُوجَع مَكْرُوْب
لَا خَيْرَ لي يا بَدْرُ بعْدَكَ في ما خَير عَيْش بَعْد هَلَك حبيْب

ولم تزل مقيمة على قبره تتقلب عليه وتبكي حتى ماتت فدفنت إلى جانبه.

نصر بن الحجاج بن علاط السلمي وشُميلة

ذكر حمزة الأصبهاني في كتاب الأمثال: أن نصر بن الحجاج بن علاط السلمي كان من أجمل أهل زمانه فضنيت امرأة من حُبِّه ودَنَفت من الوَجْد به حتى

صار ذكره هجيراها فمرَّ عمر بن الخطاب ذات ليلة ببابها فسمعها رافعة عقيرتها تقول:

هَلْ مِنْ سَبيْلٍ إلَى خَمْرٍ فأَشْرَبَهَا أَمْ هَلْ سَبْيلٍ إلَى نَصْر بنِ حَجَّاجِ

زاد غيره:

إلَى فَتَى مَاجِد الأعْرَاقِ مُقْتَبِلٍ سَهْلِ المُحَيَّا كَرِيْم غَيْرِ ملْجَاجِ
تَمْتَه أعْرَاق صِدْقٍ حِيْنَ يَنْسُبُهُ أخِي حِفَاظٍ مِنَ المَكْرُوْب فَرَّاجِ

فقال عمر: من هذه فعرف خبرها فلما أصبح أحضر نصرًا.

فلما رآه بهره حسنه، فقال له: أنت الذي تتمناك الغانيات في خدورهن لا أم لك، والله لأزِيْلَنَّ عنك رداء الجمال ثم دعا بحجام فحلقه، ثم تأمله، فقال: أنت محلوق أحسن. فقال: نصر وأي ذنب لي في ذلك فقال: صدقت الذنب لي إذا تركتك في دار الهجرة. ثم أركبه جملًا وصيّره إلى البصرة وكتب معه إلى مجاشع بن مسعود السلمي بأني قد سيّرت إليك المتمنَّى نصر بن حجاج، فاستلب نساء المدينة لفظة عمر فضربتها مثلًا.

وقلن: «أصبُّ منَ المُتمَنِّيَة». وزعم النسابون أن المتمنية كانت الفريعة بنت همام أم الحجاج بن يوسف، وكانت حين عشقته تحب المغير بن شعبة وكما قالوا: بالمدينة: «أصب من المتمنية». قالوا بالبصرة: «أدنف من المتمني». وذلك أن نصرًا لما ورد البصرة أخذ الناس يسألون عنه ويقولون: أين المتمني. فغلب عليه هذا الاسم. وكان مجاشع أنزله منزلة من أجل قرابته، وأخدمه امرأته شميلة بنت أبي حيوة بن أبي بهز بن أنيس بن الخيستي بن مالك بن سعد بن كعب بن الغطريف عامر بن بشر بن صعب بن دهمان بن نصر من الأزد.

وكانت أجمل امرأة بالبصرة، فعلقته وعلقها، وأخفى كل واحد خبر الآخر لملازمة مجاشع لضيفه وكان مجاشع أُميًا ونصر، وشميلة كاتبين.

فعِيلَ صبر نصر: فكتب يومًا على الأرض بحضرة مجاشع. إني قد أحببتك حبًا لو كان فوقك لأضلّك، أو تحتك لأقلّك. فكتبت تحته غير محتشمة: وأنا. فقال مجاشع: ما الذي كتب؟ قالت: كتب: كم تحلب ناقتكم؟ فقال: وما الذي كتبت أنت؟ قالت: كتبت: أنا. فقال مجاشع: ما هذا لهذا بطبق. فقال:

أصدقك، كتبت كم تقل أرضكم؟ فقال: ولا هذا لهذا بطبق. ثم كفأ على الكتاب جفنة، ودعا بغلام من الكتاب. فلما قرأه قال لنصر: يا ابن عم، ما سيرك عمر من خير، فازوا بذلك أوسع لك.

فنهض نصر مستحييًا، ونزل في دار بعض المسلمين ووقع لجنبه وضنى من حب شميلة، ودنف حتى صار رخْمة وانتشر خبره فضربن نساء البصرة به المثل.

ثم إن مجاشعًا وقف على خبر علته فدخل إليه عائدًا، فرق لما رأى ما به فرجع إلى منزله، وقال لشميلة: عزمت عليك لما أخذت خبزه فلبكتيها بسمن، ثم بادرت بها إلى نصر. ففعلت ما أمرها. فلما لم تر به نهوضًا ضمته إلى صدرها وجعلت تلقمه بيدها، فعادت قواه وبرأ كأنه لم يكن به علة. فقال بعض عواده: قاتل الله الأعشى فلكأنه شهد منا النجوى حيث قال:

لَوْ أَسْنَـدَتْ مَيْـتًـا إلَى صَـدْرِهَـا عَـاشَ وَلَمْ يُـنْـقَـلْ إلَى قَـابِـرِ

فلما فارقته عاد إلى نكسه، ولم يزل يتردد في علته حتى مات فيها.

قال أبو عبيد البكري في كتاب الاحتفال: وعاشت شميلة حتى قتل عنها مجاشع يوم الجمل، فخلف عليها عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وأصدقها عشرة آلاف درهم، وإيَّاها عني ابن فسوة بقوله:

أُبِـيْـحُ لِعَـبْـدِ الله يَـوْم لَقِـيْـتَـهُ شَـمَيْلَةَ تَربِي بالْحَدِيْثِ المقبر

زاد ابن قتيبة في كتاب الطبقات تأليفه قبل هذا البيت:

أَتَـيْـتُ ابـن عَـبَّـاس أرْجُـو نَـوَالَهُ فَلَمْ يَرْج مَعْرُوف وَلَمْ يَخْشَ مَنْكَرِي
وَقَـالَ لِبَـوَّابَـيـهِ لَا تُـدْخَـلَانِـهِ وَسُدَّا خصَاصَ البَيْت مِن كُلِّ مَنْظَرِي

وقال الزمخشري في مجمع الأمثال من تأليفه: فلما نفاه مجاشع، ضنى ودنف حتى صار رحمة، ثم مات.

ذكره الميداني في مجمع الأمثال، وابن السكيت، وابن سعد في كتاب نزهة الأنفس في الأمثال.

وفي كتاب المرزباني ويقال: إن المتمنية جدة الحجاج. وكذلك قال عروة بن الزبير بحضرة عبد الملك للحجاج، وقد ذكر الحجاج عبد الله بن

الزبير فنسبه إلى أمه ذات النطاقين، فقال له عروة: يا ابن المتمنية، وما ذكرك عجائز الجنة؟! ولنصر مع معاوية بن أبي سفيان، وأنشد له لما سيّره عمر إلى البصرة:

لَعَمْرِي أَنْ سَيَّرْتَنِي أَنَّ حَرْمَتِي … وَمَا نِلْتَ مِنْ شَتْمِي عَلَيْكَ حَرامُ
لأنْ غَنَّتْ الذَّلْفَاءُ يَوْمًا بِمُنْيَة … وَبَعضُ أمَانِّي النِّسَاءُ غَرَامُ
ظَنَنْتَ بِي الظَّنَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ … بَقَاءٌ فَمَالِي فِي النَّدَى كَلامُ
وَأَصْبَحْتَ مَقصِيًّا عَلَى غَيْرِ ريبَةٍ … وَقَدْ كَانَ لِي بالمِلَّتَيْنِ مَقَامُ

زاد ابن عبيد البكري:

وَيَمْنَعُنِي ممَّا ظَنَنَتَ تَكَرُّمِي … وَآبَاءُ صِدْقٍ طَاهِرُونَ كِرَامُ
وَيَمْنَعُهَا ممَّا ظَنَنتَ صَلَاتُهَا … وحصْنٌ لَهَا في قَوْمِهَا وصيَامُ
فَهَاتَانِ حَالَانا فَهَلْ أَنْتَ رَاجِعي … فَقَدْ جُبَّ مِنَّا غَارِبٌ وَسَنَامُ

فلما بلغت عمر قال: أما ولي سلطان فلا وأقطعه مالًا بالبصرة، ودارًا فاستوطنها. قال: ولما حلق عمر رأسه قال:

لقد حَسَد القُرْعَانُ أَصْلَع لَمْ يَكُنْ … إِذَا مَا مَشَى بالقُرْعِ بالمُتَخَائِلِ
فَصَلَّعَ رَأْسًا لَمْ يَصْلُعْهُ رَبُّهُ … يَرِقُّ رقيقًا بَعْدُ أَسْوَدُ حَاتِلِ

الشاب الواقف تحت الميزاب بالبيت وهلال البصرية

قال ابن الأشدق فيما ذكره ابن الخيمي في كتاب الشامل المفيد: كنت أطوف بالبيت، فرأيت شابًا تحت الميزاب قد أدخل رأسه في كسائه، وهو يئن كالمحموم، فسلمت عليه فرد السلام. فقال: من أين؟ قلت: من البصرة. قال: أوراجع إليها؟ قلت: نعم. قال: فإذا دخلت النِّبَاج، فناد: يا هلال، يا هلال، تخرج إليك جارية فتنشدها هذا البيت:

وَقَدْ كُنْتُ أَهْوَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي … بِعَيْنَيْك حَتَى تَنْظُرِي مَيْتَ الحُبِّ

ومات مكانه. فلما دخلت النِّبَاجُ أتيت الحي فناديت كما قال: فخرجت إليّ جارية لم أر أحسن منها، فقالت: ما وراءك؟ قلت: شاب بمكة أنشدني هذا البيت. فقالت: وما صنع؟ قلت: مات. فخرّت مكانها ميتة.

المرأة التي كانت بمكة معها طفليها وزوجها المسجون ببغداد

ذكر قدامة في كتاب أخبار الأعراب تأليفه عن أبي الهيثم اللغوي قال: انحدرت من مكة، فلما قارنت إذا أنا بامرأة في برقع، وقدامها طفلان، فكلمتها. فإذا هي أفصح الناس وأجملهم فقالت: ممن أنت؟ فقلت: من قيس. فقالت: فتّ أعمامي، ولم تفت أخوالي، فأي البلاد بلادك؟ قلت: العراق. قالت: أية؟ قلت: بغداد.

فقالت: لي بها سجِيْنًا وهو ابن عمي وأبو ولديّ هذين، وهو في سجن باب شامكم، فهل أنت مبلغه عني رسالة؟ قلت: ورسائل، فسميه، فسمته. فقالت: اكتب إليه: وهبني الله فداك، قد احددت بعدك كل الحداد، وقد حرزت الشعر ولبست الصوف، وانفردت من العشيرة، ولم أكسيك عارًا، ولا ألبستك شنارًا، وكنت وأباك سيّدا جعفر بن كلاب.

قال: فقدمت بغداد، فأتيت سجن باب الشام فسألت عن الرجل، فأخرج إليّ شابًا حسن الوجه يُخْبِر خُلقه عن شجاعته إلّا أن السجن قد أثر في صورته. فدفعت إليه الرقعة، فلما قرأ ما فيها تنفس نفسًا طويلًا، كاد أن يحرق شعر وجهه وقال: أرأيت هذا الإنسان؟ قلت: أي والله رأيته، ولم أر أحدًا أعف ولا أشد حزنًا منه. فبكى طويلًا، ثم قال:

وَجْدِي بِكُمْ وَجْد المُوَافِي بِغُلّة ... لِعَشِي فَلَمْ سعف عَلَى المَاءِ سَاقِيَا
تُرَوّى بِفَضَلَات الحيَاضِ عَشِيَّة ... وَخلوّه فِي الأَعْطَانِ يَسْجَع مناديَا
إِذَا مَا رَجَى أَنْ يُكْسَر الله قَيْدَهُ ... ولأَوْطَانِهِ لَمْ يَرجُ شَيْئًا مُدَانِيَا

فاقتضيته الجواب، فوعدني به في غد، فأتيته في غد، فقيل الساعة مات.

فَلَعَلَّكَ بَعْدَ السِّجْنِ وَالقَيْدِ أَنْ تَرَى ... تَـمُـرُّ عَـلَى لَيْـلَى وَأَنْـتَ طَـلِيـقُ
طَلَيْقُ الّذي نَجا منَ الكَرْبِ بَعْدَمَا ... تَلَاحمَ منْ كَرْبٍ عَلَيْكَ مَضِيْقُ

وقال محمد بن صالح العلوي:

وَبَدَا لَهُ من بَعْدَ مَا انْدَمَلَ الهَوَى ... بَـرْق تَـأَلّقَ مُـوْهـنًـا لَمـعَـانُـهُ
يَـبْـدُو كـحَـاشِـيَـة الـرَّدَى وَدُوْنَـهُ ... صَـعْـبُ الـدُري مُتَـمَـنِّـع أَرْكَانُـهُ

فَدَنا لِينْظُرَ أينَ لَاحَ فَلَم يُطق نَـظَـرًا إِلَيْـه وَرَدَّهُ سَـجَـانُـهُ
فالنّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْه ضُلُوعه وَالـمَـاءُ مَـا سَـحَّـتْ بـه أَجْفَانُـهُ

يزيد بن عبد الملك وحبّابة المغنية

قال الزبير بن بكار: لما مات عمر بن عبد العزيز، قال يزيد بن عبد الملك بن مروان: والله ما عمر بأحوج إلى الله مني، فأقام أربعين يومًا يسير سيرة عمر. فأمرت حبّابة خصيًا كان صاحب أمر يزيد أن يغني بحيث يسمع يزيد بشعر الأحوص وأعطته عشرة آلاف درهم.

بَكَيْتُ الصِّبَا جَهْلًا فَمَنْ شَاء لَامَنِي وَمَنْ شَاءَ سَاوَى في البُكَاء وَأَسْعَدا
ألا لَا تَـلُمْـهُ الـيَـوْمَ أَنْ يَـتَـبَـلَّدَا فَـقَـدْ منعَ الـمَـحْـزُونِ أنْ يَتَـجَـلَّدَا
وَمَا الـعَـيْشُ إِلَّا أنْ تَـلَذَّ وَتَـشْـتَـهِي وَإِنْ لَامَ فِـيْـه ذُو الـشُّـنَـانِ وَفَـنَّـدَا
إِذَا كُنْتَ عِزْهَاةً عن اللَّهْوِ وَالصِّبَا فَكُنْ حَجَرًا مِنْ يَابِس الصَّخْرِ جَلْمَدَا
وَإِنِّي وإِنْ فَنَدْتَ في طَلَبِ الصِّبَا لأَعْلَمُ أَنِّي لَسْت فِي الحُبِّ أَوْحَدَا

فلما سمع ذلك قال للخادم: ويلك، قل لصاحب الشرط يصلي بالناس، وأقبل على اللذّات معها.

قال أبو الفرج في كتاب القيان: قيل: إنها أنشدته ذلك لما عَنَّفَهُ مسلمة على كثرة خلوته بها. قال: وكانت حبابة مولدة مدنية أحسن أهل عصرها وجهًا، وأحلاهم منظرًا وشمائلًا وأظرفهم وأشكلهم. وكان اسمها الغالية، فلما اشتراها من يزيد سماها حبّابة، وتكنت هي أم داود. وكانت لرجل من أهل المدينة يدعى ابن مينا. وفي تاريخه: كانت للاحق المكي، فأدخلت على يزيد في إزار له ذنبات وفي يدها دف ترمي به، ثم تتلقاه، وتغني:

مَـا أَحْـسَـنَ الـجِـيْـدُ مـنْ مَـلِـيْـكَـة وَالـلُّـبَـاب إِذْ زَانَـهَـا تَـرَائِبُـهَـا
فِـي لَيْـلَةٍ لَا يُـرَى بِـهَـا أَحَـدٌ يَـسْـعَـى عَـلَيْـنَـا إِلَّا كَـوَاكِـبُـهَـا

قال: ثم خرج بها مولاها إلى إفريقية، فلما كان بعد ما ولي يزيد اشتراها. قيل: وكان يزيد قدم المدينة في خلافة أخيه سليمان، فتزوج سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار. وزليخة بنت عبد الله بن جعفر على مثل ذلك. واشترى الغالية بأربعة آلاف مثقال فبلغ ذلك أخاه سليمان بن عبد الملك

فقال: والله لأحجرن عليه. فبلغ يزيد قوله، فاستقال مولى حبابة فأقاله. فاشتراها رجل من أهل إفريقية. وقال فيها وقد تبعتها نفسه:

أَبْلِغْ حَبَابَةَ أَسْقَى رَبْعَهَا المَطَرُ   مَا لِلْفُؤَادِ سُوَى ذِكْرِكُمْ وَطَرُ
إنْ سَارَ صَحْبِي لَمْ أَمْلِكْ تَذَكّرِكُم   أَوْ عَرَّسُوا فَهُمُومُ النَّفْسِ وَالذّكرُ

فلما صار الأمر إلى يزيد اشترتها سعدة امرأته وعلمت أنه لا بد له أن يطلبها ويشتريها. وذلك أنها أمرت مولى لها بشراها بالغًا ما بلغت، وأن يطلبها في سائر الجهات حتى يجدها.

فمضى إلى المدينة فخبر بأمرها، فرحل إلى مصر، ثم إلى إفريقية حتى صادف مولاها، فأرغبه في الثمن، ووعده عن مولاته الأثرة في المنزلة، وقضاء الحوائج. وقالت له حبابة: إنك إن لم تبعني أرسلت إلى الخليفة فيأخذني منك فباعها من مولى سعدة بمائة ألف درهم. وقدم بها المولى على سعدة، فلما حصلت عندها كستها أحسن كسوة وحلتها، وعطرتها، وأعطتها جواهرًا كثيرًا وطيبًا، وصنعتها. ثم أنها خرجت إلى يزيد وقالت: يا أمير المؤمنين، هل بقي شيء من أمر الدنيا تشتهيه لم تبلغه؟ قال: لا. قالت: بلى، أنا أعلم ما في نفسك، فاذكره لي، فلعلي أن أبلغك إياه. فقال: الغالية جارية مينا. فقالت: أو تعرفها إن رأيتها؟ قال: نعم. قالت: فقم معي. فقام معها فدخل عليها في المنزل الذي أفرد لها. فكشفت له عنها، وقالت: أهي هي؟

قال: نعم. قالت: فبارك الله لك فيها وأقرّ عينك بها. وخرجت وتركته معها، فعظم قدر سعدة عنده. وكانت قد أخذت عليها أن توطىء عند يزيد لابنها أمر الخلافة، فضمنت لها حبابة ذلك.

قال المدائني: وقد قيل: إن أم الوليد بن يزيد هي التي ابتاعتها له سعدة.

وغضب يزيد على خالد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان في أنه خطب له ابنة أخ له فردَه.

فقام إليه معتذرًا. فقالت حبابة ليزيد: أحب أن ترضى عنه بشفاعتي لتسر بذلك أخته سعدة، فأجابها.

فأرسلت إليه مع جارية لها تقول: لك أم داود. قد كلمت أمير المؤمنين في الرضا عنك فرضي. فقال لها: ومن أم داود؟ فقالت له: حبّابة، وذكرت له من

قدرها عنده ما لم يظنه. فلم يلتفت إلى ذلك، وأنف منه، وقال: قولي لها: إن للرضا عندي سببًا ليست به.

فرجعت إليها فأخبرتها. فشكته إلى يزيد، فغضب وقال: اقلعوا أطناب الفسطاط، وأوتاده. فوقع عليه وعلى مَن معه. فقال: ويلكم ما هذا؟ قالوا: خدم حبّابة، هذا ما صنعت بنفسك. فقال: أخزاها الله، ما أشبه رضاها بغضبها، وبعث إليها يعتذر. وقيل: إن الحارث بن خالد المخزومي: كان يهواها قبل وصولها إلى يزيد فلما أراد يزيد الخروج بها قال: فيها الحارث:

قَدْ سُلّ جِسمِي وَقَدْ أَوْدَى بِهِ سِقَمِي ... مِنْ أَجْلِ ظَبْيٍ خَلا عَنْ بَلْدَةِ الحَرَمِ
يحنُّ قَلْبِي إلَيْهَا إنَّهَا رَشَأٌ ... كَالشَّمْسِ رَوْدٌ ثِقَالٌ سَهْلَةُ الشِّيَمِ
فَضَّلَهَا الله رَبَ الشَّمْس إذْ خُلقَتْ ... عَلَى النِّسَاءِ مِنْ أَهْلِ العزِّ وَالكَرَمِ

فلما سمع ذلك يزيد من المغنين قال: هذا، ولم نرحل بعد، فكيف لو رحلنا؟! فردها على مولاها.

فلما وَلِيَ الخلافة، اشترتها امرأته العثمانية، ووهبتها له. وكان يقول: ما يقرّ عيني بشيء من الذي أوتيته من الخلافة حتى اشتريت سلامة جارية ابن مصعب، والغالية جارية أبي لاحق المكي. فلما اجتمعتا عنده، قال: أنا الآن كما قال الشاعر:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى ... كَمَا قرَّ عَيْنًا بالإيَابِ المُسَافِرُ

ولما شيع الناس حبابة إذ رحلت من المدينة وصلوا معها إلى ذي خشب سألوها أن تزودهم صوتًا فغنتهم:

سَلَكُوا بَطْنَ مخيَص ... ثُمَّ وَلّوْا رَاجِعِينَا
أوْرَثُونِي حِينَ وَلَّوْا ... طولَ حُزْنٍ وأنِينَا

ثم أمرت كاتبة لها أن تكتب أسماءهم فلما أن وصلت إلى يزيد أعطته الأسماء وكانوا نحوًا من مائتي رجل وقالت: هؤلاء شيعوني فأمر لكل واحد منهم بألف درهم.

وكان عمرو بن هبيرة تبناها، فكانت هداياه، وألطافه في كل وقت تأتيها فلم تزل حبابة بيزيد حتى ولاه العراق. وكانت بينه وبين القعقاع بن خالد العبسي

عداوة. فقال يزيد: من يطيق ابن هبيرة حبابة بالليل، وهداياه بالنهار تقبض عنه يد كل عدو. قال أبو الفرج: غنت جارية يزيد، حبابة يومًا:

وَإِنِّـي لأَهْـوَاهَـا وَأَهْـوَى لِقَـاهَـا كَمَا يَشْتَهِي الصَّادِي الشَّرَابَ المُبَرَّدَا

فراسلتها سلامةُ، فغنت:

عَلَاقَةَ حُبٍّ لَجَّ فِي سَنَنِ الصِّبَا فَـأَبْـلَى وَمَـا يَـزْدَادُ إِلَّا تَـجَـلُّدَا

فغنّت حبابة:

كَرِيمُ قُرَيْشٍ حِيْنَ يُنْسَبُ وَالَّذِي أَقَرَّتْ لَهُ بِالْفَضْلِ كَهْلًا وَأَمْرَدَا

فغنّت سلامة:

تـروّي بـمَـجْدِ مِنْ أَبِيْهِ وَجَدِّه وَقَدْ أَوْرَثَا بُنْيَانَ مَجْدٍ مُشَيَّدا

فطرب يزيد وشق حُلّة وشيّ كانت عليه حتى سقطت في الأرض وقال: أحسنتما، أفتأذنان لي أن أطير؟ فقالت له حبابة: فعلى مَن تدع الأمة؟ قال: عليك.

وهذا الفعل هو الذي عابه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي الشاري وكان بعثه عبد الله بن يحيىٰ الكندي، الذي تسميه الشراة طالب الحق، فأوقع بأهل المدينة وقتل منهم يوم قديد مقتلة عظيمة، ودخل المدينة فخطب بها خطبة بليغة، وكان من أهل البلاغة والفصاحة، فذكر الخلفاء يعيبهم واحدًا واحدًا حتى انتهى إلى يزيد، فقال: ثم ولي يزيد بن عبد الملك شاب مترف حديث السن لم يؤنس به رشد، يجلس بين حبابة وسلامة فيغنيان له بمزامير الشيطان على شرب الخمر المحرمة صراحًا حتى إذا دبت حميّا الكأس في رأسه ضرب بيده إلى الحلة التي قد ابتيعت بألف دينار أخذت من غير حلها، وأنفقت في غير وجهها بعد أن ضربت فيها الأبشار، وحلقت الأشعار، فشقها، ثم يقول لها: أتأذنان لي أن أطير؟! نعم، فطر إلى لعنة الله لا ردّك الله تعالى.

قال أيوب بن عباية: كان البيدق الأنصاري يدخل على حبابة إذ كانت بالحجاز، فألفها، فلما صارت إلى يزيد خرج إليها متعرضًا فذكرته ليزيد، ووصفت له حسن صوته.

قال البيدق: فدعاني ليلة فدخلت عليه، وهي على فرش مسترق قد ذهب فيها إلى قرب بين يديه، وإذا حبابة على فرش منها، فسلمت فقالت: حبابة يا أمير المؤمنين هذا أبي. فأشار إليّ بالجلوس، فجلست.

فقالت لي حبابة: اقرأ.

فقرأت، فنظرت إلى دموعه تنحدر ثم قالت: إيه يا أبت، وأشارت إليّ: أن غنى. فغنت:

مَــنْ لــصَــبٍّ مُــقَــيّــدِ هَــائِمِ الــقَــلْبِ مَــقْــصَــدِ
أَنْــت زَوَّدْتِــهِ الــهَــوَى بِــئـْـسَ زاد الــمُــزَوِّدِ
فَــلَوْ أَنّــي لَا أرتَــجِــيْــك لَقَــدْ خَــفَّ عَــوَّدِي
غَــيْــر أَنِّــي أُعَــلِّلُ الــنَّــفْــسَ بــالْيَــوْمِ وَالْغِــدَ

قال: فحذفني بمدهن ذهب فيه لؤلؤ، كان في يده وفيه زمرد وياقوت، فوقع في صدري. فأشارت إليّ حبابة، أن خذه فأخذته.

وقال أبو دفاقه: أول ما ارتفعت به حبابة عند يزيد أنه أقبل يومًا إلى البيت الذي هي فيه، فسمعها تتغنّى من حيث لا تشعر به:

كَانَ لِي يَا يَزِيدُ حُبَّكَ حِيْنًا كَادَ يَقْضِي عَليَّ لَمَّا التَقَيْنَا

فرفع الستر، فوجدها مضطجعة مقبلة على الجدار. فعلم أنها قالته عن هوى صادق. ثم إن أهل الخليفة عاتبوه فيها، وأرسلوا إليه مولًى لهم كان ذا قدر عندهم، فعاتبه فيها إذلالًا عليه. فقال له: تدخل إليها وتسمع غناءها، ثم ارجع إلى رأيك. فلما دخل قال يزيد لها: إن لنا شيخًا قد أحب أن يسمع غناك، وغناء سلامة، فاجلسا له. ففعلتا، ودخل الشيخ، فرأى منهما ما لم ير مثله قط، وأمرهما بالغناء، فغنت له حبابة:

وَقَدْ كُنْتُ آتِيْكُم بِعِلَّةِ غَيْركُم فَأفْنَيْتُ عِلَّاتِي فَكَيْفَ أَقُولُ

فطرب الشيخ. فقال له يزيد: ما ترى الآن؟ أدع هذا؟ قال: لا، ولا كرامة. وقال أبو حاتم الأزدي: نزل يزيد ببيت رأس بالشام، ومعه حبابة، فقال: زعموا أنه لا تصفوا لأحد عيشة يومًا إلى الليل لا يكدره عليه شيء، وسأجرب ذلك.

وفي كتاب الزبير: إني لأستحي أن أخلو بها وأرى أحدًا غيرها، وأمر ببستان فجلس فيه. ثم قال لمن معه: إذا كان غدًا فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب. وخلا معها. فأتيا بما يأكلان، فأكلا رمانًا، وقيل: إنه رماها بحبة رمان فشرقت بها فماتت.

وفي كتاب ابن الجوزي: أنه أقام معها في البستان ثلاثًا، ثم انصرفا وأقامت أيامًا، ثم مرضت وماتت.

وقال الأصفهاني: فأقام لا يدفنها ثلاثًا حتى تغيّرت وأنتنت، وهو مع ذلك يرشفها ويشمها. فعاتبه في ذلك ذو قرابته، وعابوا ذلك عليه، حتى أذن لهم في غسلها ودفنها. فأمر، فأخرجت في نطع، وخرج وهو لا يتكلم حتى جلس على قبرها، فلما دفنت قال: أصبحت والله كما قال كثير:

وَإِنْ تَسْلُ عَنْكِ النَّفْسُ أَوْ تَدَعِ الهَوَى ... فِي اليَأْسِ تَسْلُو عَنْكِ لَا بالتَّجُلُّدِ
وَكُـلُّ خَـلِيْـلٍ زَارَنِـي فَـهُـوَ قَـائِلٌ ... مِنْ أَجْلِكِ هَذَا هَامَةُ اليَوْم أَوْغَدِ

فما أقام بعدها إلا خمسة عشر يومًا، وفي رواية أربعين يومًا، حتى دفن إلى جنبها.

وقيل إنه بعد ثالث يوم دفنها، قال: لا بدّ لي من أن أراها. وأمر باللحد، فكشف عنها، فإذا هي قد حالت تحولًا قبيحًا. فقال: ما رأيتها قط أحسن منها الساعة.

فقال مسلمة أخوه: والله لئن أقمت على ما تقول ليقولن أهل الشام إنك خولطت ولنخلعنك، وأنت أعلم. فعرف نصحه، وأمر بها فدفنت، وعاد إلى منزله، فكمد كمدًا شديدًا.

فلم يقدر على النظر في شيء، ولا أذن لأحدٍ عليه بعدها إلّا مرة واحدة. فإنه جلس مستندًا إلى حائط، وحوله من الفرش ما قد واراه، وما يبين منه إلّا وجهه ومنكباه. فلم يدخل الناس حتى قال الحاجب أوجزوا رحمكم الله. ثم لم يروه بعدها.

وقال أبو الحارث الثقفي: لما توفيت حبابة، جزع يزيد جزعًا شديدًا فضم جويرية كانت لها مختصة بخدمتها إلى نفسه. فكانت تؤنسه وتخدمه، فبينا هو يدور

في قصره إذ قال: هذا الموضع الذي كنّا فيه. فقالت الجارية:

كَفَى حُزْنًا بِالْهَائِمِ الصَّبِّ أَنْ يَرَى مَنَازِلَ مَنْ يَهْوَى مُعَطَّلَةً قَفْرا

فبكى حتى كاد أن يموت. ثم لم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها سيدتها حتى مات.

وقال مسلمة: دخلت عليه يومًا فجعلت أعزيه وأسليه وهو ضارب بذقنه على صدره لا يكلمني فلما أكثرت، أنشدت قول كثير المتقدم وكان أراد أن يصلي عليه فمنعه مسلمة، وقال: أنا أكفيك ذلك.

قال أبو الفرج: ولا نعلم خليفة مات عشقًا غير يزيد.

عاشق العابدة التي لم يبح باسمها

ذكر أحمد بن محمد بن مسروق عن مالك بن سعيد قال: حدّثني يسار الخزاعي وغيره من مشيخة خزاعة: وقال ابن المرزبان في كتاب الذهول والنحول وحدث في كتاب بعض إخواني أنبأنا زكريا بن إسحٰق قال: سمعت مالك بن سعيد: أنه كان عندهم بالطائف جارية متعبدة ذات يسار وورع، وكان لها أم أشد عبادة منها، وكانت مشهورة بالعبادة، قليلة المخالطة للناس.

وكانت لهما بضاعة مع رجل من أهل الطائف، فكان يبيعها لهما، فما حصل من شيء أتاهما به. فبعث يومًا ابنه ـ وكان فتًى جميلًا مسرفًا على نفسه ـ إليهما في حوائجهما، فقرع الباب. فقالت أمها: مَن هذا؟ قال: أنا ابن فلان. فقالت: ادخل. فدخل وابنتها في بيت، ولم تعلم بدخول الفتى، فلما قعد معها خرجت ابنتها وهي تظن أنها بعض نسائها حتى جلست بين يديه. فلما نظرت إليه قامت مبادرة، فخرجت ونظر إليها، فوقع حبها في قلبه. فخرج وهو لا يدري أين يسلك. فأتى أباه، فأخبره بما قالت له العجوز ثم جعل ينحل ويذوب جسمه ولزم الوحدة والفكر.

وجعل الناس يظنون أن الذي به من عبادة حتى سقط على فراشه. فدعى له أبوه الأطباء والمعالجين فجعلوا ينظرون إليه، فكل يصف له دواء، ويقول له داء لا يقوله الآخر. والفتى ساكت لا يتكلم، حتى إذا طالت علته واشتد عليه الأمر، دعى أبوه إخوانه الذين كان يألفهم ويأنس بهم. فقال: اخلوا به واسألوه عن علته لعله أن يخبركم ببعض ما يجده. فأتوه، وسألوه فقال: والله ما بي علة أعرفها

فأخبركم بها، فأقلوا الكلام. وكان الفتى فطنًا ذا عقل. فلما طال به الوجد دعى امرأة من بعض أهله، فخلا بها، وقال: إني مُلْقٍ إليك حديثًا ما ألقيته إليك إلّا الإياس من نفسي، فإن ضمنت لي كتمانه أخبرتك، وإلا صبرت حتى يحكم الله في أمري.

وهكذا البلاء الذي فيّ لا شك أنه قاتلي، وأنه يجب عليّ في محبتي أن أكون لمن أحب صائنًا وعليه مشفقًا.

فقالت له المرأة: قل ما بدا لك، فوالله ما أحب بقاء أحد في الدنيا غيرك، ووالله لأكتمن أمرك ما بقيت الدنيا. فذكر لها قصته. فقالت: يا بني، أفلا أخبرتنا، فوالله، ما رأيت كلمة تسكن مجامع القلوب فلا تفارقه أبدًا من كلمة عاشق أخبر من يحبه أنه لو وامق، فتلك الكلمة تروع في قلوب ذوي الألباب شجرًا لا تدرك أصوله.

فقال: وكيف لي بها؟ وأين السبيل إليها وقد بلغك حالها واجتهادها في العبادة فقالت: على أن آتيك بما تسرّ به. ثم لبست ثيابها، وأتت منزل الجارية فتحدثت مع أمها. ثم خلت بها، وذكرت لها الفتى وعلته، وأنها لا تبرح في زيادة، وقد كان رفع إلى الجارية خبره. فعلمت أن ذلك من أجلها، فجعلت العجوز تعرض لها بالتزوّج، والجارية تعارضها بالخدمة والعبادة والاجتهاد. ثم قالت لها: أوضحي لي ما عندك، فإن يكن لك جواب أجبتك.

فذكرت قصة الفتى. فقالت: قد ظننت ذاك، فأبلغيه السلام، وقولي إني قد وهبت نفسي لله تعالى، وليس إلى الرجوع سبيل فتوسل إلى مولاك ومولاي بغفران ما قدّمت يداك، وذكرت موعظة طويلة.

فلما أخبرته العجوز بقولها، بكى بكاءً شديدًا. وقال: كيف لي بالبلوغ إلى ما دعت إليه؟ ومتى تكون آخر المدة التي نلتقي فيها؟ ثم جعل وجعه يشتد ولا يقر قراره، إلى أن أجلسوه في بيت، وأوثقوه، وتوهم القوم أن الذي به من عشق. فكان يبكي ويقول:

أَأَفْشِي إِلَيْكُمْ بَعْضَ مَا قَدْ يُهَيِّجُنِي
أَمْ الصَّبْرُ أَوْلَى بِالْفَتَى عِنْدَمَا يَلْقَى

أَأُوْعَـــدُ وَعْـــدًا مَـــالَهُ الـــدَّهـــرُ آخـــرُ
وَأُوْمَـــرُ بـــالـــتَّـــقـــوَى وَمَـــنْ لِي بـــالـــتُّـــقَـــى
سَـــلَامٌ عَـــلَى مَـــنْ لَا أُسَـــمِّـــى بِـــاسْـــمِـــهِ
وَلَوْ ضَـرَب مَـثْل الـطَّـيْرَ فِي غَـيْـضِـهِ مُـلْقَـى
أَلَا أَيُّـــهَـــا الـــصِـــبْـــيَـــانُ لَوْ ذُقْـــتُـــمُ الـــهَـــوَى
لأَيْـــقَـــنْـــتُـــم أَنّـــي مُـــحَـــدِّثُـــكـــم حَـــقًّـــا
أُحِـــبّـــكُـــم مِـــنْ حُـــبِّـــهَـــا وَأَرَكُـــم
تَـــقُـــولُونَ لِي مُـــتْ يَـــا شَـــجَـــاعَ بِـــهَـــا عِـــشْـــقَـــا
فَـــلَمْ تُـــنْـــصِـــفُـــونِـــي لَا ولَا هِـــيَ أَنْـــصَـــفَـــتْ
فَـــرِفْـــقًـــا رُوَيْـــدًا وَيْـــحَـــكُـــمْ بـــالْـــفَـــتَـــى رِفْـــقَـــا

فلما صح ذلك عند أهله وعلموا أنه عاشق جعلوا يسألونه عن أمره فكان لا يجيبهم. وكتمت العجوز قصته، فأخذوه وحبسوه في بيت فكان إذا جنه الليل قال:

يَـــا لَيْـــلُ أَنْـــتَ رَفِـــيْـــقِـــي ... مِـــنْ بَـــيْـــنِ أَهْـــلِي وَمَـــالِـــي
يَـــا لَيْـــلُ أَنْـــتَ أَنِـــيْـــسِـــي ... مِـــنْ وَحْـــشَـــتِـــي وَاخْـــتِـــيَـــالِـــي
يَـــا لَيْـــلُ إِنْ شَـــكَـــانِـــي ... إِلَيْـــكَ طُـــول اشْـــتِـــغَـــالِـــي
بِـــمَـــنْ بَـــرَتْ جِـــسْـــم صَـــبٍّ ... فَـــصَـــارَ مِـــثْـــلَ الـــخِـــلَال
فَـــالْجِـــسْـــمُ مِـــنِّـــي نَـــحِـــيْـــل ... لَمْ يَـــبْـــقَ إِلّا خَـــيَـــالِـــي
وَالـــشَّـــوْقُ قَـــدْ شَـــفَّ جِـــسْـــمِـــي ... وَلَيْـــس لِـــي خَـــلْقٌ قُـــبَـــالِـــي
وَلَوْ أَرَانِـــي عَـــزُولِـــي لَرَقَّ ... لِـــي وَرَثَـــا لِـــحَـــالِـــي

فلم يزل به يتردى حتى مات رحمه الله تعالى.

الشاب الباكي على سلمى عند متغاطس الصبيان

ذكر أبو الفرج الأصبهاني في تاريخه الكبير عن يونس الكاتب قال: كنا متنزهين إلى الفَنِيْقِ أنا وجماعة من قريش فبينا نحن على ذلك إذ أقبل ابن عائشة المثنى، ومعه غلام من بني ليث. وهو متوكىء به على يده، فلما رأى جماعتنا وسمعني أغني، جاء وسلم وجلس.

فقلت: حدّثني بعض العرب حديثًا يأكل الأحاديث، فإن شئتم حدثتكم به. قالوا: هات. فقلت: حدّثني أنه مَرَّ بناحية الربذة، فإذا صبيان يتغاطسون في غدير، وإذا شاب منهوك الجسم عليه أثر العلة والنحول في جسمه، وهو جالس ينظر إليهم. فسلمت عليه. فرد عليّ السلام، فقال: من أين وضح الراكب؟ فقلت: من الحِمى. قال: ومتى كان به. قلت: رائحًا.

قال: وأين كان مبيتك؟ قال: ببني فلان. قال: أوه، وألقى على ظهره، وتنفس الصعداء. قلت: إنه أحرق حجاب نفسه، ثم أنشأ يقول:

سَقَى بَلَدًا أَمْسَتْ سُليمَى تَحلّهَا ... مِنَ الْمَزنِ مَا تَروَى بِهِ وَتطَيبُ
وَإنْ لَمْ أكُـنْ مِـنْ قَـاطِـنِـيْـهِ ... فَإنه يَحِلُّ بِهِ شَخْصٌ عَلَيّ حَبِيْبُ
أَلَا حَبَّذَا مَن لَيْسَ بَعْدِك قُرْبَةً ... لَدَيّ وَإنْ شَطَّ الـمَـزَارُ قَـرِيْـبُ

ثم سكن مغميًا عليه فصحت بالصبية فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق، وأنشأ يقول:

إذَا الصَّبُّ الغَرِيْبَ رَأى خُضُوعِي ... وَأَنْـفَـاسِـي تَـزَيّـنُ بـالـخُـشُـوْعِ
وَلِي عَـيْـنٌ أضْـرِبُـهَـا الـتَـفَـانـي ... إلَى الأجـزَاعِ مُـطْـلَقَـة الـدُّمُـوع
إلَى الـخُلْوَات يَأنسُ فِيْكَ قَلْبِي ... كَمَا أنسَ الغَرِيْبُ إلَى الجَمِيْعِ

فقلت: ألا أنزل فأسعدك وأكرر عودي إلى الحمى إن كانت لك به حاجة أو رسالة؟ فقال: جزيت خيرًا، وصحبتك العافية والسلام. لو أعلم أنك تغني عن شيئًا لكنت موضعًا للرغبة وحقيقًا بالإسعاف في الميلة. فانصرفت عنه، وأنا لا أراه يبقى حيًا ومات من ليلته رحمه الله.

شاعر المدينة الذي عشق جارية

ذكر أبو عبد الله محمد بن محمد التميمي في كتاب امتزاج النفوس وائتلاف الأرواح والقلوب: أن بعض شعراء المدينة عشق جارية فقال فيها:

ألَا يَـا عَـبَـادَ الله هَـذَا أخُـوكُـمْ ... قَتِيْلٌ فَمَنْ مِنْكُمْ بِهِ اليَوْم ثَائِرُ
خُذُوا بِدَمِي إنْ متُّ كُلّ خَرِيْدَة ... مَرِيْضَة جَفْن العَيْن واللّحْظ سَاحِرُ

ثم مات.

عبد الله بن مسلم، والمرأة الحسناء العينين

ذكر النوقاني في كتاب المحبة معنى هذا البيت عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن جندب قال: خرجت مع أبي زيد العقيق، فلقينا نسوة منهن امرأة حسَّانة العينين. فلما أبصرها أبي صرخ وقال هذين البيتين. فقالت المرأة: يا ابن مسلم، اغتنم نفسك، واحتسب أباك، فإن قتيلنا لا يودى، وأسيرنا لا يفدى.

الذي تذكّر محبوبته حتى عند القتل

عن أبي الحسن أحمد بن الموفق قال: قرأت على حائط قبر مكتوب عليه:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالسِّيَاطُ تَلُفُّنِي عِنْدَ الأمير وَسَاعِدي مَغْلُولُ
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالَّذِي أَنَا عَبْدَهُ وَالسَّيْفُ فَوْقَ ذُؤَابَتِي مَسْلُولُ

وإذا تحته:

هـذا قـبـر عـاشـق مـقـتـول

أمثــال العــرب

قال الشيخ الأديب أبو هلال العسكري في مقدمة كتابه «جمهرة الأمثال»:

... ثم إني ما رأيتُ حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل، والشذرة والكلمة السائرة؛ فإن ذلك يزيد المنطق تفخيمًا، ويكسبه قبولًا، ويجعل له قدرًا في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة، والاستظهار به أوانَ المجاولة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلبات المقاولة؛ وإنما هو في الكلام كالتفصيل[1] في العقد، والتنوير في الورض، والتسهيم[2] في البُرد؛ فينبغي أن يُستكثر من أنواعه؛ لأن الإقلال منها كاسمه إقلال، والتقصير في التماسه قصور؛ وما كان منه مثلًا سائرًا فمعرفته ألزم، لأن منفعته أعمّ، والجهل به أقبح.

ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرَّف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جُلِّ أساليب القول، أخرجوها في أقواها من الألفاظ، ليخفَّ استعمالها، ويسهل تداولها. فهي من أجلِّ الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله، لقلَّة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مؤونتها على المتكلم، مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها.

ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عملَ الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب؛ والحفظُ موكَّلٌ بما راعَ من اللفظ وندر من المعنى.

---

(١) التفصيل في العقد: أن يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة.

(٢) التسهيم في الثوب: التخطيط.

الباب الخامس عشر

قصص الأمثال العربية

والأمثالُ أيضًا نوع من العلم منفرد بنفسه، لا يقدر على التصرف فيه إلا من اجتهد في طلبه حتى أحكمه، وبالغ في التماسه حتى أتقنه. وليس من حفظ صدرًا من الغريب فقام بتفسير قصيدة، وكشفِ أغراض رسالةٍ، قادرًا على أن يقوم بشرح الأمثال والإبانة عن معانيها والإخبار عن المقاصد فيها؛ وإنما يحتاج الرجل في معرفتها مع العلم بالغريب إلى الوقوف على أصولها والإحاطة بأحاديثها.

وأصلُ المثل التماثُل بين الشيئين في الكلام؛ كقولهم: كما تدينُ تُدان. وهو من قولك: هذا مِثْلُ الشيء ومَثَلُه، كما تقول: شِبْهه وشَبَهُه، ثم جُعل كل حكمة سائرةٍ مثلًا. وقد يأتي القائل بما يحسن أن يُتمثَّل به، إلا أنه لا يتَّفق أن يسير فلا يكون مثلًا.

وضربُ المثل جَعْلُه يسير في البلاد، من قولك: ضرب في الأرض، إذا سار فيها. ويقولون: الأمثال تُحكى؛ يعنون بذلك أنها تُضربُ على ما جاءت عن العرب، ولا تُغيَّر صيغتها، فتقول للرجل: «الصيفَ ضيَّعْتِ اللبن»، فتكسر التاء، لأنها حكاية.

أَبْصَرُ من زرقاءِ اليمامة(١)

واليمامة اسمها، وبها سمّي البلد. وذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لقمان بن عاد، وأن اسمها: عنز. وكانت هي زرقاء، وكانت الزَّباء زرقاء، وكانت البسوس زرقاء.

قال محمد بن حبيب: هي امرأة من جديس، كانت تبصرُ الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فلما قتلت جديس طَسْمًا خرج رجل من طسم إلى حسان بن تُبَّع، فاستجاشه ورغَّبهُ في الغنائم، فجهَّز إليهم جيشًا، فلما صاروا من جَوّ - وهي ناحية بأرض اليمامة - على مسافة ثلاث ليال صعدت الزرقاء فنظرت إلى الجيش وقد أُمِروا أن يحمل كل واحد منهم شجرة يستتر بها ليلبِّسوا عليها. فقالت: يا قوم، قد أتتكم الشجر أو أتتكم حمير، فلم يصدّقوها.

فقالت على مثال الرجز:

أقسِمُ بالله لقد دبَّ الشَّجرْ أو حِمْيَر قد أخذت شيئًا يُجَرّ

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٠١. والرجز في جمهرة الأمثال: ١/ ٢٤١، وديوان النابغة: ٢٥.

فلم يصدقوها. فقالت: أحلف بالله إني أرى رجلًا ينهس كتفًا، أو يخصف النصل، فلم يصدقوها ولم يستعدّوا حتى صبَّحهم حسان بن تُبَّع فاجتاحهم، فأخذ الزرقاء فشقَّ عينيها فإذا فيها عروق سود من الإثمد. وكانت أول مَن اكتحل بالإثمد من العرب، وهي التي ذكرها النابغة في قوله:

واحكُمْ كحكمُ فتاةِ الحيِّ إذْ نظرتْ إلى حمامِ سراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ

أجْمَلُ من ذي العِمامة(١)

هذا المثل من أمثال أهل مكة ـ وذو العمامة: سعيد بن العاص بن أمية، وكان في الجاهلي إذا لبس عمامةً لا يلبس قرشيٌّ عمامة على لونها، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إلى جماله. ولما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان خطب بنت سعيد هذا إلى أخيها عمرو بن سعيد الأشدق، فأجابه عمرو بقوله:

فتاةٌ أبوها ذو العمامة وابنُهُ أخوها فما أكفاؤها بكثيرِ

وزعم بعض أصحاب المعاني إنَّ هذا اللقب إنما لزم سعيد بن العاص كنايةً عن السيادة، قال: وذلك لأنَّ العرب تقول: «فلان مُعَمَّمٌ» يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني من تلك القبيلة والعشيرة، فهي معصوبةٌ برأسه.

فإلى هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص: ذا العمامة وذا العصابة.

أَجْهَلُ من قاضي جُبَّلَ(٢)

يقال: إن جُبَّل مدينة من طسُوج، كسكَّر(٣)، وهذا القاضي قضى لخصم جاءه وحده، ثم نقض حكمه لما جاءه الخصم الآخر. وفيه يقول محمد بن عبد الملك الزيات:

قَضَى لمخاصمٍ يومًا فلما أتاهُ خصمه نَقَضَ القضاءَ
دنا منك العدوُّ وغبتَ عنه فقال بحكمهِ ما كان شاءَ

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ١٨٨.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ١٩٠.
(٣) كذا ضبطه في مجمع الأمثال. وقد ضبطه في معجم البلدان بفتح الجيم ورفع الباء المشددة.

أَجْوَدُ من هَرِمٍ[١]

هو هَرِمُ بن سنان بن حارثة المرِّي وقد سار بذكر جوده المثل. قال زهير بن أبي سلمى يمدحه:

إن البخيل ملومٌ حيث كان ... ولكنَّ الجواد على علَّاتِهِ هَرِمُ
هو الجواد الذي يعطيك نائلهُ ... عفوًا ويُظلَمُ أحيانًا فَيَظَّلِمُ[٢]

ووفدت ابنة هرم على عمر بن الخطاب، فقال لها: ما كان الذي أعطى أبوك زهيرًا حتى قابله من المديح بما قد سار فيه؟ فقالت: قد أعطاه خيلًا تُنْضَى[٣]، وإبلًا تَتْوَى[٤]، وثيابًا تَبْلَى، ومالًا يفنى. فقال عمر: لكنَّ ما أعطاكم زهيرٌ لا يبليه الدهر، ولا يفنيه العصر. ويروى أنها قالت: ما أعطى هرمٌ زهيرًا قد نُسي، قال: لكن ما أعطاكم زهيرٌ لا يُنسى.

أَجْوَرُ من قاضي سَدُوم[٥]

قالوا: سدوم ـ بفتح السين ـ مدينة من مدائن لوط. قال الأزهري: إنما هي سذُوم بالذال المعجمة ـ والدال خطأ ـ قال الطبري: هو ملك من بقايا اليونانية غَشوم كان بمدينة سرمين من أرض قنسرين.

أَخْطَبُ من سَحْبَانِ وائلٍ[٦]

وهو رجل من باهلة، وكان من خطبائها وشعرائها، وهو الذي يقول:

لقد علِمَ الحيُّ اليمانون أنني ... إذا قلتُ أمَّا بعدُ أني خطيبُها

وهو الذي قال لطلحة الطلحات الخزاعي:

يا طلحُ أكرَمَ من بها ... حَسَبًا وأعطاهُمْ لِتالِدْ
منك العطاءُ فأعطني ... وعليَّ مَدْحُك في المشاهِدْ

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ١٨٨.
(٢) اظَّلَم: احتمل الظُلم.
(٣) تنضى: تتعب وتهزل.
(٤) تتوى: تهلك وتذهب.
(٥) مجمع الأمثال: ١/ ١٩٠.
(٦) مجمع الأمثال: ١/ ٢٤٩. والدرة الفاخرة: ١/ ٩١. واللسان (سحب). وسرح العيون: ٢٥.

فقال له طلحة: احتكم، فقال: برذونكَ الأشهب الورد، وغلامك الخبَّاز، وقصرك بَزَرَنْج(١) وعشرة آلاف. فقال له طلحة: أُفٍّ لم تسألني على قدري، وإنما سألتني على قدرك وقدر باهلة. ولو سألتني كلَّ قصر لي وعبدٍ ودابة لأعطيتك. ثم أمر له بما سأل ولم يزده عليه شيئًا. وقال: تالله ما رأيت مسألة مُحَكَّم ألأَمَ من هذا.

وطلحة هذا هو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي. وأنا طلحة الطلحات الذي يقال له طلحة الخير وطلحة الفيّاض، فهو طلحة بن عبيد الله التيمي من الصحابة، ومن المهاجرين الأولين، ومن العشرة المسمّين للجنة.

أَبْطَشُ من دَوْسَرَ(٢)

قالوا: إن دوسر إحدى كتائب النعمان بن المنذر ملك العرب، وكانت له خمس كتائب: الرهائن، والصنائع، والوضائع، والأشاهب، ودوسر.

أما الرهائن: فإنهم كانوا خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب، يقيمون على باب الملك سنة ثم يجيء بدلهم خمسمائة أخرى، وينصرف أولئك إلى أحيائهم. فكان الملك يغزو بهم وبوَجْههم في أموره.

وأما الصنائع فبنو قيس وبنو تيم اللَّات ابني ثعلبة، وكانوا خواصّ الملك لا يبرحون بابه.

وأما الوضائع، فإنهم كانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك الملوك بالحيرة نجدة لملك العرب، وكانوا أيضًا يقيمون سنة ثم يأتي بدلهم ألف رجل، وينصرف أولئك.

وأما الأشاهب، فإخوة ملك العرب وبنو عمه ومَن يتبعهم من أعوانهم.

وسمُّوا الأشاهب لأنهم كانوا بيض الوجوه.

وأما الدوسر: فإنها كانت أخشن كتائبهُ وأشدَّها بطشًا ونكاية، وكانوا من كلِّ قبائل العرب، وأكثرهم من ربيعة. سُمِّيتْ دوسر اشتقاقًا من الدَّسْر، وهو الطعن

---

(١) زَرَنْج: مدينة بسجستان.

(٢) مجمع الأمثال: ١/١١٨.

بالثقل، لثقل وطأتها. قال الشاعر:

ضربتْ دَوْسَرُ فيهم ضربةً أثبتتْ أوتادَ مُلْكٍ فاستقرّ(١)

وكان ملك العرب عند رأس كل سنة ـ وذلك أيام الربيع ـ يأتيه وجوه العرب وأصحاب الرهائن، وقد صَيَّر لهم أكلًا عنده، وهم ذوو الآكال، فيقيمون عنده شهرًا، ويأخذون آكالهم، ويبدِّلون رهائنهم، وينصرفون إلى أحيائهم.

أبطأ من غرابِ نوحٍ(٢)

وذلك أن نوحًا بعثه لينظر هل غرقت البلاد، ويأتيه بالخبر، فوجد جيفةً فوقع عليها، فدعا عليه نوح بالخوف؛ فلذلك لا يألف الغرابُ الناس، ويضرب به المثلُ في الإبطاء.

أَبَرَمًا وقَرُونًا؟(٣)

البَرَم هو الذي لا يدخل مع القوم لبخله، أو الذي لا يدخل في الميسر وهو موسر لبخله. والقرون: الذي يقرن بين الشيئين. يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين. وأصله أن امرأة أحد الأبرام استطعمت من بيوت الأيسار فرجعت بقدر فيها قطع لحم، فوضعتها بين يديه وجمعت عليه الأولاد. فأقبل هو يأكل قطعتين قطعتين، فقالت ذلك.

إنَّ الحبيبَ إلى الإخوانِ ذو المالِ(٤)

يُضرب في حفظ المال والإشفاق عليه.

قال أُحيحةُ بن الجُلاح(٥):

كلُّ النداء إذا ناديتُ يخذلني إلَّا ندائي إذا ناديتُ يا مالي
استغنِ أو مُتْ ولا يغررك ذو نسبٍ من ابن عمٍّ ولا عمٍّ ولا خال
إني مقيمٌ على الزوراء أعمرها إنَّ الحبيبَ إلى الإخوان ذو المالْ

---

(١) البيت في اللسان والتاج (دسر). وينسب للمثقّب العبدي، يمدح عمرو بن هند.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ١١٩.
(٣) المستقصى في أمثال العرب: ١/ ١٧. (٤) مجمع الأمثال: ٣/ ٣٥.
(٥) شاعر جاهلي من دعاة العرب وشجعانهم. كان سيد الأوس في الجاهلية، وكان مرابيًا كثير المال.

أحمق من أبي غبشان(١)

كان من حديثه أن خزاعة حدث فيها موت شديد ورعاف(٢) عمّهم بمكة، فخرجوا منها ونزلوا الظهران فرُفع عنهم ذلك. وكان فيهم رجل يقال له حليل ابن حبشية، وكان صاحب البيت، وكان له بنون وبنت يقال لها حُبيّ، وهي امرأة قصي بن كلاب، فمات حليل، وكان أوصى ابنته حبيّ بالحجابة، وأشرك معها أبا غبشان الملكاني، فلما رأى قصي بن كلاب أن حليلًا قد مات، وبنوه غُيّبٌ والمفتاح بيد امرأته، طلب إليها أن تدفع المفتاح إلى ابنه عبد الدار، وحمل بنيه على ذلك وقال: اطلبوا إلى أمكم حجابة جدكم، ولم يزل حتى سلست له بذلك، وقالت: كيف أصنع بأبي غبشان وهو وصيٌ معي؟ فقال قصيّ: أنا أكفيك أمره، فاتفق أن اجتمع أبو عبشان مع قصيّ في شرب بالطائف فخدعه قصي عن مفاتيح الكعبة، بأن أسكره ثم اشترى المفاتيح منه بزقّ خمر وأشهد عليه، ودفع المفاتيح إلى ابنه عبد الدار بن قصي وطيّره إلى مكة.

فلما أشرف عبد الدار على دور مكة رفع عقيرته وقالت: معاشر قريش، هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردّها الله إليكم من غير غدر ولا ظلم، فأفاق أبو غبشان من سكره أندم من الكُسعي، فقال الناس: أحمق من أبي غبشان، فذهبت مثلًا، وأكثر الشعراء فيه، قال بعضهم:

إذا فخرت خزاعة في قديم ... وجدنا فخرها شرب الخمورِ
وبيعًا كعبة الرحمٰن حمقًا ... بزقٍّ بئس مفتخر الفخور

وقال آخر:

أبو غبشان أظلم من قصيّ ... وأظلم من بني فهر خزاعَهْ
فلا تلحوا قصيًّا في شراه ... ولوموا شيخكم إن كان باعَهْ

أشْأَمُ من أحمرِ عاد(٣)

وأحمر عاد هو قدار بن سالف، ولُقّب بالأحمر. قال زهير بن أبي سلمى في وصف الحرب:

فتُنْتجْ لكم غلمانَ أشأم كلّهم ... كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتُفْطَم

---

(١) مجمع الأمثال ١/٢١٦ ـ ٢١٧.
(٢) الرعاف: المطر الكثير.
(٣) مجمع الأمثال: ١/٣٧٩. وجمهرة خطب العرب: ٢/٣٥٢.

قال الأصمعي: أخطأ زهير في هذا، لأن عاقر الناقة ليس من عاد، وإنما هو من ثمود. وقال المبرد: لا غلط، لأن ثمود يقال لها عادٌ الآخرة، ويقال لقوم هود عادٌ الأولى، ويُضرب به المثل في الشؤم، فيقال: أشأمُ من أحمر عاد، لأن الله أهلك بفعله ثمود. وذلك أنهم قالوا لنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان:

يا صالح إن كنت صادقًا فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة - وصفوها له - فأخرجها الله بإذنه من الصخرة: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر: الآية ٢٧] فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ثم قال لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء: الآيات ١٥٥ - ١٥٨].

أَرَيْتُهُ النجومَ وسط النهار(١)

قال النابغة الذبياني يصف الحرب:

تبدو كواكبه والشمسُ طالعةٌ لا النورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

يريد بقوله: «تبدو كواكبه والشمس طالعةٌ»، شدة الهول والكرب، كما تقول العامة: أريتُه النجوم وسط النهار. قال الفرزدق:

أريكَ نجومَ الليل والشمسُ حيَّةٌ

وقال طرفة بن العبد:

وتريكَ النجم يجري في الظّهر

وإليه ذهب جرير في قوله:

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ تبكي عليك نجومَ الليل والقمرا

يقول: إن الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل، لشدّة الغمّ والكرب الذي فيه الناس.

أَدَقُّ من خَيْطِ باطل(٢)

وهذا المثل فيه قولان: أحدهما أنه الهباءُ الذي يكون في ضوء الشمس، فيدخل من الكوّة في البيت. والثاني أنه الخيط الذي يخرج من فم العنكبوت

(١) العقد الفريد: ١/٦٩.
(٢) مجمع الأمثال: ١/٤٨.

ويسمِّيه الصبيان: مخاط الشيطان. وهذا القول أجود. قال الجوهري: خيط باطل، ولعاب الشمس، ومخاط الشيطان، واحدٌ.

وكان لقب مروان بن الحكم: خيط باطل، وذلك لأنه كان طويلًا مضطربًا، فلقِّب به لدقته. وفيه يقول الشاعر:

لحا الله قومًا ملّكوا خَيْطَ باطلٍ على الناسُ يعطي من يشاء ويمنعُ

والطويل أيضًا يُلقب بظلِّ النعامة، كما يُلقَّب بخيط باطل.

أَلْأَمُ من أَسْلَمَ[١]

هو أسلمُ بن زرعة. ومن لؤمه أنه جَبَى أهل خراسان حين وليها ما لم يَجْبِهِ أحد قبله. ثم بلغه أن الفُرس كانت تضع في فم كل مَن مات درهمًا، فأخذ ينبش تربة النواويس ليستخرج ذلك الدرهم، فقال فيه صهبان الجرمي:

تعوَّذْ بنجمٍ واجعل القبر في صفًا من الطود لا يَنْبِشْ عظامَكَ أسلمُ[٢]
هو النابشُ الموتى المجيلُ عظامهم لينظر هل تحت السقائف دِرْهَمُ

أَخْسَرُ من حمَّالةِ الحطب[٣]

وهي أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب وامرأة أبي لهب المذكورة سورة ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾ [المَسَد: الآية ١] وفيها قال الشاعر:

جمعْتَ شتّى وقد فرقتها جُملًا لأنتَ أخْسَرُ من حمَّالةِ الحطبِ

أي أظهر خسرانًا؛ وذلك أنها كانت تحمل العِضَاه[٤] والشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ ليعقره. وقال قتادة ومجاهد والسُّدي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس، فتلقي بينهم العداوة وتهيج نارها، كما توقد النار بالحطب. وتُسمى النميمة حطبًا. ويقال: فلان يحطبُ على فلان، إذا كان يغري به. وقال:

من البيضِ لَم تَصْطَدْ على ظهر سَوْءَةٍ ولم تَمشِ بين القومِ بالحطبِ الرَّطْبِ

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/٢٤٩.
(٢) أي اجعل قبرك في صخرة صمّاء في جبل لئلا ينبش أسلم عظامك.
(٣) مجمع الأمثال: ١/٢٥٦.
(٤) العِضاه: كل شجر له شوك صغر أو كبر. الواحدة: عضاهة.

ارحموا عزيزَ قومٍ ذَلَّ

قيل هذا المثل عن لسان النبي ﷺ.

أراد عمر بن الخطاب أن يبيع بنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيَّات وأعطاهنَّ لدلَّال ينادي عليهنَّ في السوق، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته على وجهه لطمةً شديدة فصاح: واعمراه! وشكا إليه، فدعاهنَّ عمر وأراد أن يضربهن بالدُّرَّة فقال عليّ بن أبي طالب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ارحموا عزيز قوم ذلَّ، وغنيًّا، افتقر، وعالمًا عاش بين جُهَال» إنَّ بنات الملوك لا تباع، ولكن قوِّمْهُنَّ، فَقَوَّمهُنَّ وأعطاه أثمانهنَّ وقسمهن بين الحسن ومحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر.

أَخْنَثُ من طُوَيْسٍ(١)

ويقال: أشأم من طويس.

الطاوس: طائر معروف، ويصغَّر على طويس، بعد حذف الزيادات.

كان طويس هذا من مخنثي المدينة، وكان يسمى طاوسًا، فلما تخنَّث سمي بطويس، ويكنّى بأبي عبد النعيم. وهو أول مَن غنى في الإسلام بالمدينة، ونقر بالدُّفّ المربع، وكان أخذ طرائق الغناء عن سبي الفرس، وذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان صيَّر لهم في كلِّ شهر يومين يستريحون فيهما من المهن، فكان طويس يغشاهم حتى فهم طرائقهم.

وكان طويس خليعًا يُضحك الجميع. فمن مجانته أنه كان يقول: يا أهل المدينة، ما دمت بين أظهركم فتوقَّعوا خروج الدجَّال والدابة، وإن متُّ فأنتم آمنون، فتدبَّروا ما أقول.

إن أمي كانت تمشي بين نساء الأنصار بالنمائم، ثم ولدتني في الليلة التي مات فيها رسول الله ﷺ وفطمتني في اليوم الذي مات فيه أبو بكر، وبلغتُ الحلم في اليوم الذي قتل فيه عمر بن الخطاب، وتزوجت في اليوم الذي قتل فيه عثمان، ووُلد لي في اليوم الذي قتل فيه عليّ بن أبي طالب، فمن مثلي؟

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥. والشعر في الأغاني: ٤/ ٢٧٥، والعقد الفريد: ٦/ ٦٨ برواية أخرى.

وكان يُظهر للناس ما فيه من الآفة غير محتشم منه، ويتحدث به، وقال فيه شعرًا، وهو:

أنـا أبـو عـبـد الـنـعـيـم | أنـا طـاوُسُ الـجـحـيـم
وأنـــا أشـــأمُ مـــن دبَّ | عـلى ظـهـر الـحـطـيـم
أنـــا حـــاءٌ ثـــم لامٌ ثـــم | قـــافٌ حَـشْـــو مـيـــم

عنى بقوله: «حشوِ ميم»: الياء. لأنك إذا قلت ميم فقد وقعت بين ميمين رياء، يريد أنا حَلَقي.

ولما خُصي طويس مع سائر المخنثين قال: ما هذا إلّا ختان أعيد علينا. وكان السبب في خصائهم أنهم كثروا في المدينة، فأفسدوا النساء على الرجال. وزعم بعضهم أن سليمان بن عبد الملك كان مفرط الغيرة وأن جارية له حضرته في ليلة قمراء وعليها حلى ومعصفر، فسمع في الليل سميرًا الأيليّ يغني هذه الأبيات:

وغـادةٍ سـمِـعَـتْ صـوتـي فـأرَّقـهـا | مـن آخـرِ الـلـيـل لـمـا ملَّـهـا الـسَّـهـرُ
تُدْني على فخذيها من معصفرةٍ | والحليُ دانٍ على لبَّانها خَضِرُ[1]
لم يحجب الصوتَ أحراسٌ ولا غَلَقٌ | فـدمـعُـهـا بـأعـالـي الـخـدِّ يـنـحـدرُ
في لـيلة الـبدر ما يدري معانيُها | أوَجْـهُـهَـا عـنـده أبـهـى أم الـقـمـرُ
لو خلِّيتْ لمشتْ نحوي على قدمٍ | تـكـاد مـن رقـةٍ لـلـمـشـي تـنـفَـطـرُ

فاستوعب سليمان الشعر، وظنَّ أن في جاريته، فبعث إلى سمير فأحضره، ودعا بحمَّام ليخصيه، فدخل إليه عمر بن عبد العزيز وكلَّمهُ في أمره، فقال له: اسكُتْ، إن الفرس يَصْهَل فتستودق الحجْرُ له[2]، وإن الفحل يخطر فتضبع[3] له الناقة وأن التيس ينبّ فتستحرم[4] له العنز، وإن الرجل يغنّي فتشبق له المرأة، ثم خصاه.

ودعا بكاتبه فأمره أن يكتب من ساعته إلى عامله ابن حزم بالمدينة «أن أحصي المخنثين المغنين» ـ فتشظَّى قلم الكاتب فوقعت نقطة حبر على ذروة

---

(١) اللبَّة: موضع القلادة من العنق.
(٢) الحِجر: أنثى الخيل. واستودقت له: دنت منه.
(٣) ضبعت الدابة: أرادت الفحل واشتدت شهوتها.
(٤) نبَّ التيس: صاح. واستحرمت: أرادت الفحل.

الحاء، فكان أن باتت لكلمة: إخْص المخنثين المغنين ـ وكان ما كان مما تقدم ذكره.

أَخْصَبُ من صبيحةِ ليلةِ الظُّلْمة(١)

وذلك أنه أصابت الناس ليلةً ببغداد ريحٌ جاءت لما لم تأت به قطُّ ريح، وذلك في أيام المهدي، فألفي ساجدًا وهو يقول: اللهم احفظنا واحفظ نبيَّك فينا عليه السلام، ولا تشمِّتْ بنا أعداءنا من الأمم، وإن كنتَ يا ربِّ أخذتَ الناس بذنبي فهذه ناحيتي بيدك، فارحمنا يا أرحم الراحمين، في دعاء كبير حُفِظ منه هذا. فلما أصبح تصدَّق بألف ألف درهم، وأعتق مائة رقبة، وأحَّج مائة رجل، ففعل مثل ذلك جُلُّ قواده وبطانته والخيزران ومن أشبه هؤلاء، فكان الناس بعد ذلك إذا ذكروا الخصبَ قالوا: أخصبُ من صبيحة ليلة الظلمة.

الشَّماتةُ لؤم(٢)

قاله أكثم بن صيفي(٣) التميمي، أي لا يفرح بنكبة الإنسان إلا من لَؤُم أصله. وقال:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ كَلَاكلهُ أناخ بآخرينا
فقُلْ للشامتين بنا أفيقوا سيلقَى الشامتون كما لقينا

وفي حديث أيوب عليه السلام أنه لما خرج من البلاء الذي كان فيه قيل له: أي شيء كان أشدَّ عليك من جملة ما مرَّ بك؟ قال: شماتة الأعداء.

صارت الفِتيانُ حُمَمًا(٤)

هذا من قول الحمراء بنت ضمرة بن جابر؛ وذلك أن بني تميم قتلوا سعد ابن هند أخا عمرو ابن هند الملك، فنذر عمرو ليقتلنَّ بأخيه مائة من بني تميم، فجمع أهل مملكته فسار إليهم، فبلغهم الخبر، فتفرقوا في نواحي بلادهم، فأتى دارهم

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٦٢.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٣٦٧.
(٣) حكيم العرب في الجاهلية وأحد المعمرين. أدرك الإسلام وقصد المدينة في مائة من قومه يريدون الإسلام فمات في الطريق. وهو المعني بالآية الكريمة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: الآية ١٠٠] .
(٤) مجمع الأمثال: ٢/ ٢١٦.

فلم يجد إلَّا عجوزًا كبيرة وهي الحمراء بنت ضمرة. فلما نظر إليها وإلى حمرتها قال لها: إني لأحسبُك أعجميّة!

فقالت: لا والذي أسأله أن يخفض جناحك، ويهُدّ عمادك، ويضع وسادك، ويسلبك بلادك، ما أنا بأعجميّة! قال: فمن أنت؟ قالت: أنا بنت ضمرة بن جابر، ساد مَعَدًّا كابرًا عن كابر، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة.

قال: فمن زوجك؟ قالت: هَوْذة بن جرول. قال: وأين هو الآن؟ أما تعرفين مكانه؟ قالت: هذه كلمةُ أحمق، لو كنت أعلم مكانه حال بيني وبينك. قال: وأي رجل هو؟ قالت: هذه أحمق من الأولى، أعَنْ هَوْذة يُسأل؟

هو واللهِ طيِّبُ العِرْق، سمين العَرْق[١]، لا ينام ليلة يخاف، ولا يشبع ليلة يُضاف: يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد.

فقال عمرو: أما والله لولا أني أخاف أن تَلدي مثل أبيك وأخيك وزوجك لَاستبقَيْتُك فقالت: وأنت والله لا تقتل إلَّا النساء، أعاليها ثُدِيّ وأسافلها دُميّ[٢]، والله ما أدركت ثأرًا، ولا محوت عارًا، وما من فعلت هذه به بغافل عنك، ومع اليوم غد.

فأمر بإحراقها. فلما نظرت إلى النار قالت: «ألا فتى مكان عجوز؟» فذهبت مثلًا. ثم مكثتْ ساعة. فلم يفدها أحد فقالت: هيهات! «صارت الفِتيان حممًا». فذهبت مثلًا. ثم ألقيت في النار.

ولبث عمرو يومه هذا لا يقدر على أحد، حتى إذا كان آخر النهار أقبل راكبٌ يسمى عمارًا توضع[٣] به راحلته حتى أناخ إليه، فقال له عمرو: مَن أنت؟ قال: أنا من البراجم. قال: فما جاء بك إلينا؟

قال: سطع الدخان، وكنت قد طَوِيت[٤] منذ أيام فظننته طعامًا. فقال عمرو: «إنَّ الشقيّ وافِدُ البراجم» فذهبت مثلًا. وأمر به فألقي في النار، فقال بعضهم: ما بلغنا أنه أصاب من بني تميم غيره، وإنما أحرق النساء والصبيان.

---

(١) العَرْق: العظم أخذ عنه معظم اللحم وبقي عليه لحوم رقيقة طيبة.

(٢) المراد أنها غير مهيأة للمواجهة والقتال.

(٣) توضِع به: تسير به سيرًا سريعًا.

(٤) طوي: جاع.

إذا ما القارظُ الغَنَزيُّ آبا(١)

قال ابن الكلبي: هما قارظان، كلاهما من عنزة. فالأكبر منهما هو ـ يَذْكُرُ ابن عنزة لصُلبه، والأصغر هو رُهْم بن عامر بن عنزة. كان من حديث الأول أن خزيمة بن نهد كان عشِقَ ابنة يَذْكُر وهو القائل فيها:

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثريَّا ظننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا

ثم إن يَذْكُرَ وخزيمة خرجا يطلبان القَرَظ(٢)، فمرَّا بهوَّةٍ من الأرض فيها نخل، فنزل ويذكر يشتارُ عسلًا، وولَّده خزيمة بحبل، فلما فرغ قال يذكر لخزيمة: أمددني لأصعد. فقال خزيمة: لا والله حتى تزوِّجني ابنتك فاطمة. فقال: أعلى هذه الحال؟ لا يكون ذلك أبدًا! فتركه خزيمة حتى مات.

قال: وفيه وقع الشرُّ بين قضاعة وربيعة.

وأما القارض الأصغر، فإنه خرج لطلب القرظ أيضًا، فلم يرجع ولا يُدرى ما كان من خبره، فصار مثلًا في امتداد الغيبة.

قال بشر بن أبي خازم لابنته عند موته:

فَرَجّي الخيرَ وانتظري إيابي إذا ما القارظُ العَنَزيُّ آبا

أَعَزُّ من مَرْوَانِ القَرَظِ(٣)

هو مروان بن زِنْباع العبسي، وكان يحمي القَرَظ لعِزِّه. ويقال: سُمِّي بذلك لأنه كان يغزو اليمن وبها مَنَابتُ القَرَظ.

ووُصف مروان هذا للمنذر بن ماء السماء، فطلبه. ولما حضر عنده قال له: أنت مع ما حُبيتَ به من العزّ في قومك كيف عِلْمُكَ بهم؟ قال: أَبَيْتَ اللعن(٤)، إني إن لم أعلمهم لم أعلم غيرهم. قال:

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢١٨.

(٢) القَرَظ: شجر عظام لها سوق غلاظ أمثال شجر الجوز. وهي نوع من أنواع السنط العربي، يستخرج منه صمغ مشهور. والقارظ هو الذي يجني القرظ.

(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٩١.

(٤) أبيتَ اللعن: أي لا فعلتَ ما تستوجب به اللعن؛ وهي تحية الملوك في الجاهلية.

ما تقول في عبْس؟ قال: رمح حديد إن لم تطعن به يطعنك. قال: ما تقول في عبد الله بن غطفان؟ قال: صقور لا تصيدك.

قال: ما تقول في فزارة؟ قال: وادٍ يحمى ويمنع. قال: فما تقول في مُرَّة؟ قال: لا حُرَّ بوادي عوف.

قال: فما تقول في أشجع؟ قال: ليسوا بداعيك ولا بمجيبيك. قال: فما تقول في ثعلبة بن سعد؟ قال: أصوات ولا أنيس.

أَبْلَغُ من قُسٍّ (١)

هو قُسُّ بن ساعدة بن حُذاقة بن زهير بن إياد بن نزار، الإيادي، وكان من حكماء العرب وأعْقَلَ من سُمع به منهم.

وهو أول مَن كتب: «من فلان إلى فلان» وأوَّلُ من أقرَّ بالبعث من غير علم، وأول مَن قال: «أما بعد» وأول مَن قال: «البيِّنة على مَن ادَّعى واليمين على مَن أنكر. وقد عُمِّر مائة وثمانين سنة. قال الأعشى:

وأبلَغُ من قسٍّ وأجرى مِنَ الذي بذي الغيل من خَفَّانَ أصبح خادِرا(٢)

وأخبر عامر بن شراحيل الشعبي عن عبد الله بن عباس أنَّ وفد بكر بن وائل قدِموا على رسول الله ﷺ فلما فرغ من حوائجهم، قال: هل فيكم أحد يعرف قُسَّ بن ساعدة الإيادي؟ قالوا: كلنا نعرفه. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. فقال الرسول ﷺ: «كأني به على جمل أحمر بعكاظ قائمًا يقول:

أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا وَعُوْا، كلَّ مَن عاش مات، وكلُّ مَن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت. إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لَعِبَرًا، مِهادٌ مَوْضوع، وسقفٌ مرفوع.

ليلٌ داج، وسماء ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذات فجاج. أقسَمَ قُسٌّ حقًا لئن كان في الأرض رضًا ليكونَنَّ بعده سخط، وإن الله عزَّتْ قدرتُه دينًا هو أحبُّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/١١١.

(٢) قوله: وأجرى من الذي... الخ. يعني أنه أسرع من أسد اتخذ من عرينه (غيله) خدرًا وذلك في موضع يقال له خفَّان، وهو مأسدة معروفة بين الثنيّ وعُذَيب.

ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا، أم تُرِكوا فناموا؟ ثم أنشد أبو بكر شعرًا حفظه له، وهو قوله:

في الذاهبين الأولين ... من القرونِ لنا بصائِرْ
لما رأيتُ مواردًا للموت ... ليس لها مصدرْ
ورأيتُ قومي نحوها ... سعى الأصاغِرُ والأكابِرْ
لا يرجعُ الماضي إليَّ ... ولا من الباقين غابِرْ
أيقنتُ أني لا محالةَ ... حيثُ صار القومُ صائِرْ

آكَلُ من السُّوس(١)

وفي مثل آخر: العِيال سوسُ المال. وقيل لخالد بن صفوان بن الأهتم: كيف ابنُك؟ فقال: سيد فتيان قومه ظرفًا وأدبًا. فقيل: كم ترزقه في الشهر؟ قال: ثلاثين درهمًا. فقيل: وأين يقع منه ثلاثون درهمًا؟! هلَّا تزيدُ وأنت تستغلُّ ثلاثين ألفًا؟ فقال: الثلاثون أسرع في هلاك مالي من السوس في الصوف في الصيف. فحكي كلامه للحسن فقال: أشهد أن خالدًا تميميٌّ لرِشْدَة! وإنما قال الحسن ذلك لأن بني تميم معروفون بالبخل والنَّهم.

أكثِرْ من الصديق فإنك على العدوّ قادر(٢)

أول مَن قال هذا فيما ذكر الكلبي: أبجر بن جابر العجلي. وكانِ من خير ذلك أنَّ حجار بن أبجر كان نصرانيًا، فرغب في الإسلام، فأتى أباه فقال: يا أبِ، وإني أرى قومًا قد دخلوا في هذا الدين ليس لهم مثل قومي، ولا مِثلَ آبائي، فتشرفوا، فأحبُّ أن تأذن لي فيه. فقال: يا بني، إذا أزمعت على هذا فلا تعجل حتى أقدم معك على عُمر فأوصِهِ بك، وإن كنت لا بُدَّ فاعلًا فخُذْ مني ما أقول لك: إياك وأن تكون لَك همَّةٌ دون الغاية القُصوى، وإيّاك والسآمة فإنك إن سئمت قذفتك الرجال خلف أعقابها، وإذا دخلت مصرًا فأكثر من الصديق، فإنك على العدوِّ قادر. وإذا حضرت باب السلطان فلا تنازعنَّ بوَّابه على بابه، فإن أيْسَرَ ما يلقاك منه أن يعلقك اسمًا يسبُّك الناس به.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/١٤٨. والدرة الفاخرة: ١/ ٧٢.
(٢) مجمع الأمثال: ٣/ ٤٥.

وإذا وصلتَ إلى أميرك فبَوِّىء لنفسك منزلًا يجمل بك، وإياك أن تجلس مجلسًا يقصر بك. وإن أنت جالست أميرك فلا تجالسه بخلاف هواه، فإنك إن فعلت ذلك لم آمن عليك. وإياكِ والخُطَبُ فإنها مشوارٌ كثير العثار. ولا تكن حلوًا فتُزْدَرَدْ، ولا مُرًّا فتُلْفَظ. واعلم أن أمثل القوم تقيَّةً الصابرُ عند نزول الحقائق الذابُّ عن الحُرُم.

إذا جاء الحَيْن حارَتِ العين(١)

قال أبو عبيد: وقد رُوِيَ نحو هذا عن ابن عباس، وذلك أنَّ نجدة الحروريّ أو نافعًا الأزرق قال له: إنك تقول إن الهدهد إذا نَقَرَ الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء وهو لا يبصر شعيرة الفخ! فقال: إذا جاء القَدَر عميَ البَصَر.

إنه لَهِتْرُ أَهْتار(٢)

الهِتْرِ: العجب والداهية. يضرب للرجل الداهي المنكر. قال بعضهم: الهِتْرُ في اللغة العَجَبُ، فسمي الرجل الدَّاهي به، كأن الدهر أبدعه وأبرزه للناس ليعجبوا منه. والهتر: الباطل، فإذا قيل: «فلان هتر» أي من دهائِهِ يعرض الباطل في معرَض الحق، فهو لا يخلو أبدًا من باطل، فجعلوه نفس الباطل كقول الخنساء:

ترتع ما رتَعَتْ حتى إذا ادَّكَرتْ ... فـإنـمـا هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ

وأضافه إلى أجناسه إشارة إلى أنه تميَّز منهم بخاصية يفْضُلهم بها، ومثله «صِلُّ أصلال» وأصله الحيَّة تكون في الصَّلة وهي الأرض اليابسة.

أنا ابنُ جَلَا(٣)

يضربُ للمشهور المتعالَم. وهو من قول سُحَيْم بن وَثيل الرِّياحي:

أنـا ابـنُ جَـلَا وطـلَّاعُ الـثـنـايـا ... متـى أَضَـعِ الـعـمـامـةَ تـعـرفـونـي

وتمثّل به الحجَّاج على منبر الكوفة.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٠.

(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٢٧.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٣١.

قال بعضهم: ابنُ جَلَا هو النهار. وحكي عن عيسى بن عمر أنه كان لا يصرف رجلًا يسمى بضربَ، ويحتجّ بهذا البيت ويقول: لم ينوّن «جَلَا» لأنه على وزن فَعَل. قالوا: وليس له في البيت حجة؛ لأن الشاعر أراد الحكاية، فحكى الاسم على ما كان عليه قبل التسمية، وتقديره: أنا ابن الذي يقال له جَلا الأمورَ وكشفها.

إذا زلَّ العالِمُ زلَّ بزلَّته عالَمٌ[١]

لأن للعالم تبعًا فهم به يقتدون. قال الشاعر:

إنَّ الفقيهَ إذا غَوَى وأطاعهُ ... قومٌ غَوَوْا معه فضاع وضيَّعا
مِثلَ السفينة إن هَوتْ في لُجَّةٍ ... تغرَق ويغرَقْ كلُّ ما فيها معا

أَمَكْرًا وأنتَ بالحديد؟![٢]

هذا المثل قاله عبد الملك بن مروان ـ لعمرو بن سعيد ـ لما قبض عليه وكبَّله. فقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيتَ أن لا تفضحني بأن تخرجني إلى الناس فتقتلني بحضرتهم فافعل. وإنما أراد عمرو بهذه المقالة أن يخالفه عبد الملك ويخرجه فيمنعه أصحابه منه.

فقال عبد الملك: أبا أمية، أمكرًا وأنت في الحديد؟! يضرب لمن أراد أن يمكر وهو مقهور.

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ[٣]

قال هذا المثل الشاعر عمران بن حطان.

ذكر صاحب الأغاني أن غزالة الحرورية ـ من الخوارج ـ لما دخلت على الحجاج هي وشبيب بن شبَّة بالكوفة، تحصن منها وأغلق قصره عليه، فكتب إليه عمران بن حطان، وقد كان الحجاج لجَّ في طلبه:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ ... فَتْخاءُ[٤] تنفر في صغير الصافرِ

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٤٤. (٢) بلوغ الأرب: ٣/ ١٩.
(٣) عيون الأخبار: ١/ ١٧٠، والعقد الفريد: ٥/ ٣٠٢، وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٢٦.
(٤) الفتخاء: اللينة الجبانة.

هلَّا برزتَ إلى غزالةَ في الوغَى بل كان قبلكَ في جناحي طائرِ
صدعت غزالةُ قلبه بفوارسٍ تركت مدابرهُ كأمسِ الدابرِ

أَقْرَى من مَطاعيم الرِّيح[١]

زعم ابن الأعرابي أنهم أربعة: أحدهم عمُّ أبي محجَن الثقفي، ولم يسمِّ الباقين. وقيل: هم كنانة بن عبد ياليل الثقفي عم أبي محجن، ولبيد بن ربيعة وأبوه، كانوا إذا هبَّت الصَّبا[٢] أطعموا الناس؛ وخصُّوا الصَّبا لأنها لا تهبُّ إلا في جَدْب.

قالت بنت لبيد:

إذا هبَّتْ رياحُ بني عقيلٍ ذكرنا عند هبَّتها وليدا
أشمَّ الأنف أبيضَ عَبْشَميًا[٣] أعان على مروءته لبيدا

والوليد هو ابن عقبة، وكان واليًا على الكوفة. وعندما هبَّت ريح الصبا ذكَّر الناس بفعل لبيد وأرسل أليه مساعدة من أجل ذلك.

أَقْرَى من زاد الرَّكب[٤]

زعم ابن الأعرابي أن المثل من أمثال قريش ـ ضربوه لثلاثة من أجوادهم: مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وأبي أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزَّي. سمُّوا زادَ الركب لأنهم كانوا إذا سافروا مع قوم لم يتزوَّدوا معهم.

أَقْرَى من حاسي الذهب[٥]

هذا أيضًا من قريش، وهو عبد الله بن جُدعان التَّيمي الذي قال فيه أبو الصَّلْت الثقفي:

له داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌ وآخرُ فوق دارته ينادي[٦]

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/١٢٧.
(٢) الصَّبا: ريح مهبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار.
(٣) العبشميّ: نسبة إلى عبد شمس من قريش.
(٤) مجمع الأمثال: ٢/٥٣٤. والدرة الفاخرة: ٢/٣٥٦.
(٥) مجمع الأمثال: ٢/١٢٧.
(٦) اشمعلَّ الرجل: ارتفع وأشرف.

إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى مِلاءٍ لُبابَ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهادِ[١]

وسمي «حاسي الذهب» لأنه كان يشرب في إناء من الذهب.

أَقْرَشُ من المجبِّرين[٢]

القَرْش: الجمع والتجارة. والتقرُّش: التجمع. ومن هذا سميت قريش قريشًا. زعم أبو عبيدة أن أربعة رجال من قريش، وهم أولاد عبد مناف بن قصيّ، أولهم هاشم، ثم عبد شمس، ثم نوفل، ثم المطلب ـ بنو عبد مناف ـ سادوا بعد أبيهم، لم يسقط لهم نجم[٣]، جبر الله تعالى بهم قريشًا فسمُّوا المجبّرين. وذلك أنهم وفدوا على الملوك بتجاراتهم، فأخذوا منهم لقريش العُصُم[٤]. أخذ لهم هاشم عهدًا من ملوك الشام حتى اختلفوا[٥] بذلك السبب إلى أرض الشام وأطراف الروم. وأخذ لهم عبد شمس عهدًا من النجاشي الأكبر حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة. وأخذ لهم نوفل عهدًا من ملوك الفرس حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض فارس والعراق. وأخذ لهم المطلب عهدًا من ملوك حمير حتى اختلفوا بذلك السبب إلى بلاد اليمن.

أَلْوَتْ به عنقاءُ مُغْرِبٌ[٦]

ويقال أيضًا: طارت به عنقاء مغرِبٌ، وحلّقت به...

يضرب مثلًا لما يُئس منه. والعنقاء: طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم. وأغرب: أي صار غريبًا. وإنما وصف هذا الطائر بالمغرب لبعده عن الناس، ولم يؤنثوا صفته لأن العنقاء اسم يقع على الذكر والأنثى كالدابة والحية.

قال ابن الكلبي: كان لأهل الرسّ نبيٌّ يقال له حنظلة بن صفوان[٧]، وكان

---

(١) الردح: جمع رداح، وهو العظيم من كل شيء. والشيزى: خشب أسود تعمل منه الجفان ونحوها. والمراد أن له جفانًا عظامًا مليئة بلباب القمح المعجون بالشهد، وذلك علامة الجود.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٥٣٤. والدرة الفاخرة: ٢/٣٥٦.

(٣) أي لم يهبط مقدارهم يومًا بين القبائل.

(٤) العصم: جمع عصام، وهو الحبل تشدُّ به القربة وتحمل. والمراد: أخذ لهم العهود والمواثيق.

(٥) اختلف إلى المكان: تردَّد إليه.

(٦) مجمع الأمثال: ١/٢٠١ و٤٢٩.

(٧) حنظلة بن صفوان الرسّي: من أنبياء العرب في الجاهلية. كان في الفترة التي بين الميلاد وظهور الإسلام. وهو من أصحاب «الرسّ» الوارد ذكرهم في القرآن. بعث لهدايتهم فكذبوه وقتلوه. =

بأرضهم جبل يقال له دَمْخ، مصعده في السماء ميل، وكانت تنتابه طائرة كأعظم ما يكون، لها عنق طويل، من أحسن الطير، فيها من كل لون. وكانت تقع منتصبة، فكانت تكون على ذلك الجبل تنقضُّ على الطير فتأكله. فجاعت ذات يوم وأعوزت الطير، فانقضَّت على صبي فذهبت به، فسميت «عنقاء مغرب» لأنها تغرب كل ما أخذته. ثم إنها انقضَّت على جارية فضمّتها إلى جناحين صغيرين ثم طارت بها، فشكوا ذلك إلى نبيّهم فقال: اللهم خذها، واقطع نسلها، وسلّط عليها آفة، فأصابتها صاعقة فاحترقت، فضربتها العرب مثلًا في أشعارها. وأنشد لعنترة بن الأخرس الطائي في مرثية خالد بن يزيد:

لقد حلَّقت بالجود فَتْخاءُ كاسرٌ كفتخاءِ دَمْخٍ حلَّقتْ بالحزوَّرِ

أحبَّها وشيَّعته بالبَعَرات

عن يحيىٰ بن طفيل الجشمي قال: كان عند رجل من قريش امرأة يَحبُّها فسافر عنها، فقالت: أشيِّعُك، فشيَّعتهُ ثلاث مراحل. فلما مضى قالت لخادمها: ناولني بعرة وروثة وحصاة فناولها.

فألقت الروثة وقالت: راث خبرك (أي أبطأ خبرك)، وألقتْ البعرة وقالت: وعرَ سفرك، وألقت الحصاة وقالت: حصَّ أثرك، فسمعها رجلٌ على الماء فلحقه، فقال له: ما هذه منك؟ قال: امرأتي وتحبني.

أَسَدةٌ من بني أسد(١)

عن خالد الحذَّاء قال: خطبتُ امرأة من بني أسد، فجئت لأنظر إليها، وبيني وبينها رواق يَشفّ(٢). فدعت بجفنة(٣) مملوءة ثريدًا مكللة باللحم، فأتت على آخرها. وأتت بوعاء مملوءٍ لبنًا أو نبيذًا فشربته حتى كفأته(٤) على وجهها، ثم قالت: يا جارية، ارفعي السَّجْفَ(٥)، فإذا هي جالسة على جلد أسد، وإذا هي شابة جميلة. فقالت: يا عبد الله، أنا أسدة من بني أسد على جلد أسد، وهذا

= قال ابن خلدون: والرس ما بين نجران إلى اليمن، ومن حضرموت إلى اليمامة.

(١) عيون الأخبار: ٤/ ٩. (٢) يشفّ: يُستبان من خلفه.

(٣) الجفنة: وعاء من فخار أو غيره.

(٤) كفأته: شربت كل ما فيه وكاد يلامس وجهها لأنها أحنته لتستخرج كل ما فيه.

(٥) السجف: الستار.

مطعمي ومشربي، فإن أحببت أن تتقدم فافعل، فقلت: أستخير الله وأنظر، فخرجت ولم أعُدْ.

أنا الغريقُ وما خوفي من البَلَلِ(١)

قال المتنبيّ:

والهجر أقتلُ لي مما أراقبهُ أنا الغريقُ فما خوفي من البللِ

عاد المتنبي إلى سيف الدولة بعد غيبة تسعة عشر يومًا، فلما دخل عليه يسأله سيف الدولة عن حاله وهو مستحي فقال أبو الطيب: رأيت الموت عندك أحبَّ إليّ من الحياة عند غيرك. فقال: بل يطيلُ الله في عمرك، ودعا له، ثم ركب أبو الطيب وسار معه خلقٌ كثير إلى منزله، وأَتْبَعَهُ سيف الدولة بالهدايا.

فقال أبو الطيب يمدحهُ بقصيدة أولها:

أجاب دمعي وما الدَّاعي سوى طللِ دعا فلبَّاهُ قبل الرَّكب والإبلِ

إلى أن يقول:

لا أكسبُ الذكر إلّا من مضاربهِ أو من سِنانٍ أصمِّ الكعب معتدلِ
جاد الأمير به لي في مواهبه فزانها وكساني الدرع في الحللِ
ومن عليِّ بن عبد الله معرفتي بحمله من كعبد الله أو كعلي
ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملكٍ مِلءِ الزمانِ وملءِ السهل والجبلِ
فنَحن في جَذَلَ والرُّوم في وَجَلٍ والبرُّ في شُغُلٍ والبحر في خَجَلِ
من تغلب الغالبين الناسَ منصبُهُ ومن عديٍّ أعاديَ الجُبن والبَخَلِ
والمدحُ لابن أبي الهيجاء تُنجدُهُ بالجاهلية عينُ العِيِّ والخطلِ
ليت المدائحُ تستوفي مناقبَهُ فما كليب وأهل الأعصُر الأُوَلِ
خُذْ ما تراه ودعْ شيئًا سمعتَ به في طلعة الشمس ما يُعنيك عن زُحَلِ
وقد وجدتُ مكانَ القول ذا سعةٍ فإن وجدتَ لسانًا قائلًا فَقُلِ

---

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: ٢/ ٢٠٤.

إنَّ البَيْعَ مُرْتَخَصٌ وغالٍ(١)

قالوا: أول مَن قال ذلك أُحيحَةُ بن الجُلاح الأوسيُّ سيِّدُ يثرب. وكان سبب ذلك أن قيس بن زهير العبسي أتاه ـ وكان صديقًا له ـ لمَّا وقع الشَّرُّ بينه وبين بني عامر، وخرج إلى المدينة ليتجهَّزْ لقتالهم حيث قَتل خالدُ بن جعفر زهيرَ بن جذيمة، فقال قيس لأحيحة: يا أبا عمرو، نُبِّئْتُ أن عندك درعًا فبِعْنيها أو هَبْها لي، فقال: يا أخا عُبس، ليس مثلي يبيع السلاح ولا يفضل عنه. ولولا أني أكره أن استلئم إلى بني عامر لوهبتها لك ولحملتُكَ على سوابقِ خيلي، ولكن اشترِها بابن لبون فإن البيع مرتخصٌ وغال، فأرسلها مثلًا.

فقال قيس: وما تكره من استلآمك إلى بني عامر؟ قال: كيف لا أكره ذلك وخالد بن جعفر الذي قال:

إذا ما أردْتَ العزَّ في دار يثرب ... فنادِ بصوتٍ يا أحيحةُ تُمْنَعِ
رأينا أبا عمرٍو أحيحةَ جارُهُ ... يبيتُ قريرَ العين غير مُرَوَّعِ
ومن يأتِه من خائفٍ يَنْسَ خوفهُ ... ومن يأتِهِ من جائع البطن يَشْبَعِ
فضائلُ كانت للجُلاح قديمةٌ ... وأكرِمْ بفَخرٍ من خصالَك أَربَهِ

فقال قيس: يا أبا عمرو، ما بعد هذا عليك من لوم ـ ولهى عنه.

أَشْأَمُ من البسوس(٢)

البسوس في الأصل الناقة التي لا تدرّ إلّا بالإبساس، وهو أن يقال لها: بُسَّ ـ بُسَّ، لتسكن فتدرّ.

وقيل: إن البسوس التي أشار إليها هذا المثل، وهي خالة جسَّاس بن مرة التي أحمسته عندما قتل كليب ناقتها، فوثب عليه فقتله، فهاجت الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة لذلك قيل: أشأم من البسوس.

ورُوِيَ أن رجلًا من بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات يُستجاب له فيها، وكان له امرأة يقال لها البسوس، وكان لها ولد، وكانت له محبة. فقالت: اجعل لي

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٠.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٣٧٤. والمستقصى: ١/ ١٧٧. ولسان العرب (بسس).

منها دعوة واحدة، فأجابها: لك ذلك. فقالت: ادعُ الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، ففعل، فصارت من أجمل النساء لا تضاهيها امرأة في الجمال.

وعند ذلك استخفَّتْ بزوجها، ورغبت عنه، فغضب زوجها ودعا الله أن يمسخها كلبة نباحة فمسخت. إلّا أن أولادها غضبوا وقالوا لوالدهم: ليس لنا على هذا قرار، ولا نرضى أن تكون أمنا كلبة تعيّرنا الناس بها، فادعُ الله أن يعيدها إلى الحال التي كانت عليها، فلم يجد الرجل بدًّا من النزول عند رغبتهم، فدعا الله أن يعيدها إلى حالتها الأولى، فعادت كما كانت. فذهبت الدعوات الثلاث فصارت مثلًا في الشؤم، وقيل: أشأم من البسوس.

أثْقَلُ من الكانون(١)

حكى المفضَّل عن الغرَّاء أن من كلامهم(٢): «قد كَنْوَنَتْ علينا» أي ثَقُلَتْ علينا وحكى عن الأصمعي أن الكانون هو الذي إذا دخل على قوم وهم في حديث كَنَوْا عنه، قال: ولا أعرف هذه العبارة ما معناها. وحكى عن أبي عبيدة أنه «فاعول» من كَنَنْتُ الشيءَ إذا أخفيته وسترته. قال: ومعناه أن القوم يكنون حديثهم عنه. وأنشد للحطيئة في هجاء أمه وكان من العققة(٣):

جـزاكِ الله شـرًّا مـن عـجـوزٍ ... ولقَّـاكِ العُـقـوقَ مـن البـنـيـنـا
تـنـحَّـيْ فـاقـعـدي مـنـي بـعـيـدًا ... أراح الله مـنـكِ الـعـالـمـيـنـا
أَغِـرْبـالًا إذا اسـتـودعـتِ سـرًّا ... وكـانـونًـا عـلى الـمـتـحـدّثـيـنـا
ألـم أظهِرْ لك الشَّحْناء(٤) منّي ... ولـكـن لا إخـالـك تـعـقـلـيـنـا
حياتُك ما علمتُ حياةُ سوءٍ ... وموتُك قد يسرُّ الصالحينا

وقال الطبري: قولهم «أثقل من كانون» فيه وجهان؛ أحدهما أن الكانون عند الروم الشتاء، ويحتاج فيه إلى النفقة ما لا يحتاج إليه في الصيف؛ فهو ثقيل من هذه الجهة. قال الشاعر:

لـعـنـةُ الله والـرسـولِ وأهـل الـ ... أرض طُـرًّا عـلى بـنـي مـظـعـونِ
بعثُ في الصيف عندهم قُبَّة الخيـ ... ـشِ وبعثُ الكانون في الكانونِ

(١) مجمع الأمثال: ١/١٥٦. (٢) أي من كلام العرب.
(٣) العققة: جمع عاق وعقوق. وعقَّ أباه وأمه: استخف بهما وعصاهما وترك الإحسان لهما.
(٤) الشحناء: البغضاء.

والثاني أن الكانون ثقيل، فإذا وُضع لم يحرَّك ولم يرفَعْ إلى آخر الشتاء، فقيل لكل ثقيل: يا أثقل من كانون!

أَنْقَى من مرآةِ الغريبة[١]

يعنون التي تتزوج من غير قومها، فهي تجلو المرآة أبدًا، لئلا يخفى عليها من وجهها شيء: قال ذو الرمة في ناقته:

لـهـا أُذُنٌ حَـشْـرٌ وذِفْـرَى أسـيـلةٌ   وخدٌّ كمرآة الغريبةِ أَسْجَحُ[٢]

أَنْوَمُ من الفَهْد[٣]

لأن الفهد أَنْوَمُ خلق الله، وليس نومه كنوم الكلب، لأن الكلب نومه نعاس، والفهد نومه مصمت. وليس شيء في جسم الفهد ـ أي في حجم الفهد ـ إلا والفهد أثقل منه، وأحطم لظهر الدابَّة.

وقالت امرأة من العرب: زوجي إذا دخل فهد، وإذا خرج أسد، يأكل ما وَجَد، ولا يسأل عما عهد.

أَنْكَدُ من تالي النجم[١]

يعنون بالنجم الثريا، وتاليه الدَّبَران. قال الأخطل:

فهلَّا زجرتِ الطير إذ جاء خاطبًا   بضَيْقَة بين النجم والدَّبَرانِ[٤]

وقال الأسود بن يعفُر يصف رفعة منزلته:

نزلتُ بحادي النجم يحدو قرينَهُ   وبالقلب قلبُ العقرب المتوقِّدُ

والعرب تقول: إن الدبران خطب الثريا، وأراد القمر أن يزوِّجه، فأبت عليه وولَّت عنه، وقالت للقمر: ما أصنع بهذا السُّبروت[٥] الذي لا مال له، فجمع الدبران قلاصَه. يتموَّل بها، فهو يتبعها حيث توجهت، يسوق صداقها (أي مهرها) قُدَّامه، يعنون القلاص.

---

(١) مجمع الأمثال: ٣/٤٠٨.

(٢) أذن حَشر: أي لطيفة، كأنها حشرت حشرًا. والذفرى الأسيلة: العظم الأملس خلف الأذن. والأسجحُ: السهل المنبسط.

(٣) مجمع الأمثال: ٣/٤١١. والدرة الفاخرة: ٢/٤٠٠.

(٤) ضَيْقَة: منزل من منازل القمر.

(٥) السُّبْروت: الشيء القليل التافه.

وإن الجدي قتل نَعْشًا، فبناتُه تدور به تريده وإن سهيلًا ركض وراء الجوزاء فركتضه برجلها فطرحته حيث هو، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها. وإن الشِّعْرى اليمانية كانت مع الشِّعَرى الشامية، ففارقتها وعَبَرت المجرَّة، فسميت الشِّعرى العَبُور، فلما رأت الشِّعرى الشامية فراقها أياها بكت عليها حتى غمِصَت فسُمِّيَتْ الغُميصاء.

أحْلَمُ من الأحنف[1]

هو الأحنف بن قيس، وكنيتُهُ أبو بحر، واسمه صخر، من بني تميم. وكان في رجله حَنَفٌ وهو الميل إلى إنسيِّها، وكانت أمه ترقصه وهو صغير وتقول:

والله لولا ضعفه من هُزْلِهِ وحَنَفٌ أو دِقَّةٌ في رِجْلِهِ
ما كان في صبيانكم من مِثْلِهِ

وكان حليمًا[2] موصوفًا بذلك، حكيمًا معترفًا له به. وكان يقول: كثرة المزاح تذهب بالهيبة، ومن أكثر من شيء عُرف به، والسؤدد كرم الأخلاق وحسن الفعل. وقال: ثلاث ما أقولهنَّ إلا ليعتبر معتبر: لا أَخلف جليسي بغير ما أحضر به، ولا أُدخل نفسي فيما لا مدخل لي فيه، ولا آتي السلطان أو يرسلَ إليّ. وسئل: هل رأيتَ أحلمَ منك؟ قال: نعم، وتعلمتُ منه الحلم. قيل: ومن هو؟ قال: قيس بن عاصم المنقري، حضرتُه يومًا وهو مُحْتَبٍ[3] يحدّثنا، إذ جاءوا بابن له قتيل، وابن عم له كتيف[4]، فقالوا: إن هذا قتل ابنك هذا، فلم يقطع حديثه، ولا نقض حَبْوَته، حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم فقال: ابن ابني فلان؟ فجاءه، فقال: يا بنيَّ قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه، وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) الحِلم (بكسر الحاء): الأناةُ وضبط النفس، والعقل. ويقال لمن يتعظ إذا وُعِظ وينتبه إذا نُبِّه: «إنَّ العصا قرعت لذي الحِلْم». وحَلُمَ حِلْمًا: تأنَّى وصفح وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة وقوة.

(٣) احتبى: جلس على أليتيه وضمَّ فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.

(٤) الكتيف: المقيد من كتفيه.

أَخْرَقُ من ناكِثَةِ غَزْليها[1]

ويقال: من ناقضة غزلها. وهي امرأة كانت من قريش يقال لها: أم رَيْطة بنت كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة، وهي التي قيل فيها «خرقاءُ وجدت صوفًا» والتي قال الله عزّ وجلّ فيها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النّحل: الآية ٩٢]. قال المفسرون: كانت هذه المرأة تغزل وتأمر جواريها أن يغزلن ثم تنقض وتأمرهنَّ أن ينقضن ما فَتَلْن، فضُرب بها المثل في الخُرْق.

أَخْرَقُ من حمامة[2]

لأنها لا تُحكِم عُشَّها. وذلك أنها ربما جاءت إلى الغصن من الشجرة فتبني عليه عشَّها في الموضع الذي تذهب به الريحُ وتجيء، فبيضُها أَضْيَعُ شيء، وما ينكسر منه أكثر مما يسلم. قال عبيد بن الأبرص:

عَـيُّـوا بـأمـرِهـم كـمـا عيَّت ببيضتها الحمامهْ[3]
جـعـلت لـهـا عُـوديـن مـنْ نَـشَـمٍ وآخـرَ مـن ثُـمـامَـهْ[4]

أُنْصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا[5]

يُرْوَى أن النبيّ ﷺ قال هذا، فقيل له: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصر ظالمًا؟ فقال ﷺ: تَرُدُّه عن الظلم. قال أبو عبيد: أما الحديث فهكذا، وأما العرب فكان مذهبها في المثل نصرته على كل حال.

قال المفضَّل: وأول مَن قال ذلك جُندب بن العنبر بن تميم بن عمرو، وكان رجلًا دميمًا فاحشًا شجاعًا (روى مناسبة إرساله هذا المثل في قصة مع سعد بن زيد مناة).

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٥٦.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٢٥٥.
(٣) عيَّت: عجزت.
(٤) الثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية. ويقال: هو على طرف الثُّمام، إذا كان هيِّن المتناول. والنشم: شجر من الفصيلة الزيزفونية كانت تتخذ منه القسيّ. والجمع بين الثمام الهش والنشم الصلب هو من علامات الخُرْق.
(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٣٤.

قال الميداني: قوله «أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» يجوز أن يكون «ظالمًا أو مظلومًا» حالين من قوله: «أخاك»، ويجوز أن يكونا حالين من الضمير المستكن في الأمر، يعني: انصره ظالمًا إن كنتَ خصمه أو مظلومًا من جهة خصمه، أي لا تُسلمه في أي حال كنت.

بِبَقَّةَ صُرِمَ الأمرُ[1]

بقَّة: موضع بالشام. وهذا القول قاله قصير بن سعد اللخمي لجذيمة الأبرش حين وقع في يد الزباء ملكة تدمر. والمعنى: قُطع هذا الأمر هناك، يعني لما أشار عليه أن لا يتزوجها فلم يقبل جذيمة قوله آنذاك. وروى الميداني قصة غدر الزباء بجذيمة الأبرش في كلامه على المثل «خطبٌ يسيرٌ في خطب كبير». ويضرب المثل «ببقَّة صُرم الأمر» لمن يستشير بعد فوت الأمر.

بلغَ السَّيْلُ الزُّبَى[2]

هي جمع زُبْيَة، وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده. وأصلها الرابية لا يعلوها الماء فإذا بلغها السيل كان جارفًا مجحفًا. يضرب لما جاوز الحد.

حديث سعيد بن سماك بن حرب عن أبيه عن ابن المعتمر قال: أُتيَ معاذ بن جبل بثلاثة نفر قتلهم أسد في زُبْية، فلم يدر كيف يفتيهم، فسأل عليًّا وهو محتب بفناء الكعبة، فقال: قُصُّوا عليَّ خبركم. قالوا: صدنا أسدًا في زُبية، فاجتمعنا عليه، فتدافع الناس عليها، فرموا برجل فيها فتعلق الرجل بآخر، وتعلق الآخر بآخر، فهووا فيها ثلاثتهم.

فقضى علي أن للأول ربعَ الديَّة، وللثاني نصف الدية، وللثالث الديَّة كلها. فأُخبر النبيّ ﷺ بقضائه فيهم، فقال: لقد أرشدك الله للحق.

بعض الشّرّ أهْوَنُ من بعض[3]

هذا من قول طرفة بن العبد حين أمر النعمان بقتله، فقال:

أبا منذرٍ أفنيْتَ فاستبْقِ بعضنا حَنَانَيْكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٩٠ و٢٣٣ ـ ٢٣٧. والمستقصى في أمثال العرب: ٢/ ٦.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ١٥٨. والمستقصى: ٢/ ١٤.
(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٢٠٨. ومجمع الأمثال: ١/ ١٦٤.

يُضرب عند ظهور الشَّريْن بينهما تفاوت.

بيضةُ العُقْر[١]

قيل: إنها بيضة الديك، يُضرب للشيء يكون مرة واحدة، لأن الديك يبيض في عمره مرة واحدة فيما يقال. قال بشار بن برد:

قد زرتني زورةً في الدهر واحدةً ثُنّيّ ولا تجعليها بيضةَ الديكِ

قال أبو عبيدة: يقال للبخيل، يعطي مرة ثم لا يعود: كانت بيضة الديك. فإن كان يعطي شيئًا ثم قطعه قيل للمرة الأخيرة: كانت بيضةَ العقْر.

وقال بعضهم: بيضة العقر، كقولهم: «بيض الأَنُوق[٢]، والأبلق العقوق» يقال مثلًا لما لا يكون.

بِئْسَ الرِّدْفُ «لا» بعد «نعم»[٣]

الرِّدْف: الرديف. وأنشد ابن الأعرابي:

لا تُتْبِعَنَّ نَعَمْ لا طائعًا أبدًا فإنَّ لا أفسدتْ من بعدما نَعَمِ
إنْ قلتَ يومًا نَعَمْ بَدْءًا فتمَّ بها فإنَّ إمضاءَها صِنفٌ من الكرمِ

قال المهلَّب بن أبي صُفْرة لابنه عبد الملك: يا بني، إنما كانت وصية رسول الله ﷺ عامَّتُها غِداتٌ أنفذها أبو بكر الصّديق رضي الله عنه، فلا تبدأ بنعم فإن موردها سهل، ومصدرها وَعْر. واعلم أن «لا» وإنْ قبُحت فربما روَّحت، وما قدرت فلا توجب الطمع. وقال سمرة بن جُندب: لأن أقول للشيء لا أفعله ثم يبدو لي فأفعله أحبُّ إليَّ من أن أقول أفعله ثم لا أفعله. قال المثقِّبُ:

حسنٌ قولُ نعم من بعد لا وقبيحٌ قول لا بعد نَعَمْ

جارٌ كجار أبي دؤاد[٤]

يعنون كعب بن مامة الإيادي فإن كعبًا كان إذا جاوره رجلٌ فمات وَدَاه، وإن هلك له بعير أو شاة أخلف عليه، فجاءه أبو دؤاد الشاعر مجاورًا له، فكان كعب

(١) ثمار القلوب: ص ٩٦. ومجمع الأمثال: ١/ ١٦٧.
(٢) الأنوق: العقاب أو الرخمة. (٣) مجمع الأمثال: ١/ ٩٨.
(٤) ديوان طرفة: ص ٢١٥. وشرح شواهد المغني: ٤/ ٢٢٩. وبلوغ الأرب: ١/ ٨١.

يفعل به ذلك، فضربت العرب به المثل في حسنِ الجوار، فقالوا: كجار أبي دُؤاد. قال قيس بن زهير:

أُطـوِّفُ مـا أُطـوِّفُ ثـم آوي إلـى جـارٍ كـجـارِ أبـي دؤادِ

وقال طرفة بن العبد:

إني كفاني من أمرٍ هممتُ به جارٌ كجارِ الحذافيِّ الذي اتَّصفا[١]

جَزَاءَ سِنِمَّار[٢]

أي جزاني جزاءَ سِنِمَّار؛ وهو رجل رومي بنى قصر الخَوَرْنَق الذي بظهر الكوفة للنعمان بن امرىء القيس اللَّخمي[٣]. فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه فخرَّ ميتًا. وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره، فضربت العربُ به المثل لمن يُجزَى بالإحسان الإساءة. قال الشاعر:

جَزَتْنا بنو سعدٍ بحُسن فَعَالنا جزاءَ سنمَّارٍ وما كان ذا ذَنْبِ

وقيل: هو الذي بنى أُطْمَ[٤] أُحيحة بن الجُلاح[٥]، فلما فرغ منه قال له أحيحة: لقد أحكمته؟ قال: إني لأعرفُ فيه حجرًا لو نُزِعَ لتقوَّض من عند آخره. فسأله عن الحجر، فأراه موضعه، فدفعه أحيحةُ من الأَطم فخرَّ ميتًا.

تَرِبَتْ يداك[٦]

قال أبو عبيد: يقال للرجل إذا قلَّ ماله «قد تَرِب» أي افتقَرَ حتى لصق بالتراب. وهذه كلمة جارية على ألسنة العرب، يقولونها ولا يريدون وقوع الأمر، ألا تراهم يقولون: لا أرضَ لك ـ ولا أُمَّ لك، ويعلمون أن له أرضًا وأمًّا.

(١) الحذافي: هو أبو دؤاد، جارية بن الحجاج الإيادي. شاعر جاهلي، كان من وصَّاف الخيل المشهورين.

(٢) جمهرة الأمثال: ١/ ٣٠٥. ومجمع الأمثال: ١/ ٢٨٣.

(٣) كان ملك الحيرة من قبل الفُرس في الجاهلية. يعرف بالأعور السائح، وهو باني القصرين الشهيرين: الخورنق والسَّدير، ويقال له فارس حليمة.

(٤) الأُطْم: الحصن والبيت المرتفع. الجمع: آطام.

(٥) شاعر جاهلي من دعاة العرب وشجعانهم. قال الميداني: كان سيد يثرب، وكان له حصنٌ فيها سمَّاه «المستظلّ» وحصن في ظاهرها سماه «الضحيان» (أمثال الميداني: ١/ ١٣).

(٦) مجمع الأمثال: ١/ ١٣٣.

قال المبرّد: سُمع أعرابي في سنة قحط بمكة يقول:

قد كنتَ تسقينا فما بَدَا لكا ربَّ العبادِ ما لنا ومالَكَا
أنزِلْ علينا الغيثَ لا أبَالكا

قال: فسمعه سليمان بن عبد الملك فقال: أشهد أن لا أبا له ولا أُمَّ ولا ولد.

تركْتُه تُغَنّيه الجرادَتَان(١)

يُضرب لمن كان لاهيًا في نعمة ودَعَة.

والجرادتان: قَيْنتا معاوية بن بكر أحد العماليق. وإن عادًا لما كذَّبوا هودًا (ع) توالت عليهم ثلاث سنوات لم يروا فيها مطرًا، فبعثوا من قومهم وفدًا إلى مكة ليستسقوا لهم، ورأسوا عليهم ـ قيْل بن عنق، ولُقيم بن هزال ولقمان بن عاد.

وكان أهل مكة إذ ذاك العماليق، وهم من بني عمليق بن لاوذ بن سام، وكان سيدهم بمكة ـ معاوية بن بكر، فلما قدموا نزلوا عليه، لأنهم كانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرًا، وكان يُكرِمهم والجرادتان تغنّيانهم، فنسوا قومهم شهرًا، فقال معاوية: هلك أخوالي! ولو قلت لهؤلاء شيئًا ظنُّوا بي بخلًا، فقال شعرًا وألقاه إلى الجرادتين تغنيانه:

ألا يا قَيْلُ ويحك قُمْ فهيْنِمْ لعل الله يبعثها غماما(٢)
فيسقيَ أرضَ عادٍ إن عادًا قَدَ آمْسَوْا لا يُبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو لها الشيخَ الكبير ولا الغُلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ فقد أمست نساؤهم أيامَى
وإن الوحشَ يأتيهم جَهَارًا ولا يخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم هٰهنا فيما أشتهيتم نهاركمُ وليلكم التَّماما
فقُبِّحَ وفدُكم من وفدِ قومٍ ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٣٢.

(٢) القَيْل: من ملوك اليمن في الجاهلية، دون الملك الأعظم. الجمع: أقيال وأقوال. وهينم: دعا الله، أو تكلم وأخفى كلامه.

فلما غنَّتهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوّثون بكم، فقاموا ليدعوا، وتخلَّفَ لقمان، وكانوا إذا دعوا جاءهم نداء من السماء أنْ سلوا ما شئتم فتعطون ما سألتم. فدعوا ربهم، واستسقوا لقومهم، فأنشأ الله لهم ثلاث سحابات: بيضاء وحمراء وسوداء.

ثم نادى منادٍ من السماء: يا قَيْلُ اختر لقومك ولنفسك واحدة من هذه السحائب فقال: أما البيضاء فجَفْل(١)، وأما الحمراء فعارض، وأما السوداء فهطلة، وهي أكثرها ماءً فاختارها.

فنادى منادٍ: قد اخترتُ لقومك رمادًا رمدًا، لا تُبقي من عادٍ أحدًا، لا والدًا ولا ولدًا. قال: وسيَّر الله السحابة التي اختارها قَيْلٌ إلى عاد، ونودي لقمان: سَلْ، فسأل عمرَ ثلاثة أنْسُر، وقيل: سبعة أنسر. وكان يأخذ فرخ النسر من وكرِه فلا يزال عنده حتى يموت، وكان آخرها لُبَد وهو الذي يقول فيه النابغة:

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخْنَى عليها الذي أخْنى على لبدِ

حديثُ خُرافةِ(٢)

خرافة هو رجل من بني عُذْرة استهوته الجن كما تزعم العرب مدَّة، ثم لما رجع أخبر بما رأى منهم فكذَّبوه، حتى قالوا لما لا يمكن: حديث خُرافة. وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «خرافة حقٌّ» ـ يعني ما تحدَّث به خرافةُ عن الجنِّ حق.

الحربُ سِجال(٣)

المساجلة: أن تصنع مثل صنيع صاحبك من جزي أو سقي. وأصله من السَّجْل، وهو الدلو فيها ماء قلَّ أو كثر ـ ولا يقال لها وهي فارغة: سَجْل. قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَن يساجِلْني يُساجِلْ ماجدًا يملأُ الدَّلوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

وقال أبو سفيان يوم أُحُدٍ بعدما وقعت الهزيمة على المسلمين: أعْلُ هَبَلُ، أعْلُ هُبَلُ! فقال عمر: يا رسول الله ألا أجيبه؟ قال: بلى يا عُمر. قال عمر: الله

---

(١) الجَفْل: السحاب الذي يريق ماءه ثم ينجفل ويمضي. والعارض: السحاب المطلّ. والهطلة: مطرها متتابع.

(٢) مجمع الأمثال: ٣٤٦/١.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٣٨٠.

أعلى وأجَلُّ! فقال أبو سفيان: يا ابن الخطاب، إنه يوم الصَّمْت، يومًا بيوم بدر، وإن الأيام دُوَل، وإن الحرب سجال. فقال عمر: ولا سَوَاء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

فقال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خِبْنا إذن وخَسِرْنا!

حتَّى يؤوبَ المثلَّمُ(١)

هذا من أمثال أهل البصرة، يقولون: لا أفعل كذا حتى ينوب المثلم. وأصل هذا أن عبيد الله بن زياد أمر بخارجي أن يُقتل، فأقيم للقتل، فتحاماه الشُّرَطُ مخافة غِيلَة الخوارج.

ومرَّ به رجل يعرف بالمثلَّم ـ وكان يتَّجر باللقاح والبكاةِ ـ فسأل عن الجمع، فقيل له: خارجي قد تحاماه الناس، فانتدب له، فأخذ السيف وقتله به. فرصده الخوارج ودسُّوا إليه رجلين منهم، فقالا له:

هل لك في لقحة من حالها وصفتها كذا؟ قال: نعم، فأخذاه معهما إلى دارٍ قد أعدَّا فيها رجالًا منهم، فلما توسطها رفعوا أصواتهم: أن لا حكم إلا الله، وعَلَوْ بأسيافهم حتى بَرَد(٢)، فذلك حين قال أبو الأسود الدؤلي:

وآلَيْتُ لا أسعى إلى ربِّ لِقْحةٍ … أُساوِمُه حتى يؤوب المثلَّمُ
فأصبَحَ لا يدري أمرؤ كيف حاله … وقد بات يجري فوق أثوابه الدَّمُ

خُذْهُ ولو بقُرْطَيْ ماريَةَ(٣)

هي مارية بنت ظالم بن وهب، وأختها هند الهنود، امرأة حجر آكل المِرار الكندي. قال أبو عبيدة: هي أُمُّ ولد جَفْنة. وقال حسان بن ثابت فيهم:

أولادُ جَفْنَةَ حول قبر أبيهم … قبر ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ

يقال: إنها أهدت إلى الكعبة قرطيها، وعليهما دُرَّتان كبيضتي حمام، لم يَرَ الناس مثلهما، ولم يدروا ما قيمتهما.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٩٣. وديوان أبي الأسود الدؤلي.

(٢) برد: مات.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٤١٠. وديوان حسان بن ثابت: ص ٣٠٩.

يضربُ في الشيء الثمين، أي لا يفوتنَّك بأي ثمن يكون.

خالِفْ تُذْكَرْ[١]

قال المفضّل بن سلمة: أول مَن قال ذلك الحطيئة ـ وكان ورد الكوفة فلقي رجلًا فقال له: دلَّني على أفتى المصر نائلًا[٢]، قال: عليك بعُتيبة بن النهَّاس العجلي، فمضى نحو داره، فصادفه، فقال: أنت عتيبة؟ قال: لا. قال: فأنت عتَّاب؟ قال: لا قال: إن اسمك لشبيه بذلك، قال: أنا عتيبة، فمن أنت؟

قال: أنا جَرْوَل. قال: ومَن جَرْوَل؟ قال: أبو مليكة؟ قال: والله ما ازددت إلَّا عمًى. قال: أنا الحطيئة. قال: مرحبًا بك.

قال الحطيئة: فحدّثني عن أشعر الناس مَن هو؟ قال: أنت ـ قال الحطيئة: «خالف تُذكر»، بل أشعر الناس مني الذي يقول[٣]:

ومن يجعلِ المعروفَ من دون عِرْضهِ يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشَّتمُ يُشْتَمِ[٤]
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضله على قومِه يُستغنَ عنه ويُذممِ

قال: صدقت، فما حاجتك؟ قال: ثيابك هذه فإنها قد أعجبتني، وكان عليه مطرف خَزّ، وجبَّة خَزّ، فدعا بثياب فلبسها ودفع ثيابه إليه ـ ثم قال له: ما حاجتك أيضًا؟ قال: ميرةٌ[٥] أهلي من حَبّ وتمر وكسوةً، فدعا عونًا له فأمره أن يميرهم وأن يكسو أهله، فقال الحطيئة: العَوْدُ أحْمَدُ ـ ثم خرج من عنده وهو يقول:

سُئِلتَ فلم تبخلْ ولم تُعطِ طائِلًا فسِيَّان لا ذمٌّ عليك ولا حَمْدُ

الخَرَسُ لا يُبْطِلُ الزواج[٦]

يُروَى أن رجلًا من العرب خطبَ من آخر ابنته، فقال الأب: قد زوجتك خرساء اللسان، خرساء الدُّمْلُج[٧]، خرساء الخلخال، فقال: قد تزوجت ورضيت.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٤١٠.
(٢) المصر: البلد. وأفتاهم نائلًا: أكثرهم عطاءً. والفتوّة: هي الحرية والكرم.
(٣) هو الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى.
(٤) وفرته عرضه وَفْرًا: إذا أثنيت عليه ولم تُعبه.
(٥) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.
(٦) رسالة الغفران: ١/ ٥٢٢.
(٧) الدملج: سوار يحيط بالساعد.

فلما زُفَّت إليه وجد بلسانها خرس، فذكر ذلك لأبيها فقال الأب: ألم أخبرك أنها خرساء اللسان؟

قال: ظننت أنك تريد أنها قليلة الكلام والصَّخب، لا أنها عاجزة عن النطق. فترافعا إلى بعض القضاة، فحكم عليه بتمام الزواج، لأن الخرس ليس من العيوب التي يُرَدُّ بها الزواج.

وأقامت عنده، فولدت له أولادًا نجباء فقال في ذلك:

وإنَّ بني الخرساء أمطارُ شتوةٍ إذا العام أزرى بالبخيل المزنَّدِ[١]
هُمُ النَّقُر الحامون في موقفِ الوغى وهم خطباءُ الحي في كل مشهد

وكان رجل من «كلب بن وبرة» جالسًا مع قومه، فجعلوا يتحدثون وهو ساكت، فقال له بعضهم: «بحقٍّ ما سُمِّيتم: خُرْسَ العرب!» أي قليلو الكلام.

فلهذا المعنى اغترَّ الخاطب بقول القائل: «زوَّجتك خرساء اللسان».

وفي المثل: «رُبَّ خَرَسٍ أنْجَى من فَرَس».

وذلك أن قومًا من العربُ قتل منهم رجل، فطلبوا قاتله، فوجدوا أخويه، وكان أحدهما أخرس فلم يقتلوه. وركب الآخر فرسًا لينجو فأدركه الطلب فقتِل، فقبلت هذه المقالة.

زَمَنُ الفِطَحْل[٢]

يضربُ في شيء قَدِمَ عهده.

قالوا: هو زمن لم يُخلق الناسُ فيه بعد. وهو زمن نوح النبيّ.

قال الجرمي: سألت أبا عبيدة عنه فقال: الأعراب تقول: ذلك زمن كانت الحجارة فيه رطبة. ورُوِيَ أن رؤبة بن العجاج نزل ماءً من المياه[٣] فأراد أن يتزوج امرأة فقالت له المرأة: ما سنّك، ما مالك، ما كذا؟ فأنشأ يقول:

---

(١) المزنَّد: البخيل الممسك. وإذا أزرى العام بمثل هذا البخيل فهو إذن عام في غاية الشدّة من المَحْل.

(٢) مجمع الأمثال: ٣/ ٣١. ولسان العرب (فطحل).

(٣) أي نزل حيًّا من أحياء العرب، إذ كانوا ينزلون على المياه.

تسألني عن السنين كَمْ لي؟

فقلت: لو عُمِّرْتُ عُمْرَ الحِسْلِ[١]

أو عمر نوحٍ زَمَنَ الفِطَحْلِ

والصخرُ مبتلٌّ كطينِ الوَحْلِ

أو أنني أوتيت عِلْمَ الحُكْلِ[٢]

علمَ سليمان كلامَ النملِ

كنتُ رهينَ هَرَمٍ أو قَتْلِ

رجع بخفَّيْ حُنَين[٣]

يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة:

أصله أن حُنيفًا كان إسكافيًا بالحيرة، وساومهُ أعرابي بخفَّين فاختلفا حتى أغضبه. فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنيْنُ الخفَّيْن فألقى أحدهما على طريقه، ثم ألقى الآخر بموضع آخر. فلما مرَّ الأعرابي بالخفّ الأول قال: ما أشبه هذا بخفي حنين، ولو كانا خفَّين لأخذتهما.

ثم مرَّ بالآخر فندم على ترك الأول، فأناخ راحلته وانصرف إلى الأول، وقد كمن له حنين، فأخذ الراحلة، وذهب بها. وأقبل الأعرابي إلى أهله ليس معه غير خفيَّ حنين فذهبت مثلًا.

زوجٌ من عُودٍ خيرٌ من قعُود[٤]

قالته بعض نساء العرب. قالوا: كان ذو الأصبع العدواني غيورًا وله بنات أربع. وكان لا يزوجهن غيرةً عليهن. فاستمع إليهن يومًا وقد خلون يتحدَّثن، فقالت إحداهن: لتقُلْ كل واحدة منا ما في نفسها، ولتصدقنَّ جميعًا.

---

(١) الحِسْل: ولد الضبّ حين يخرج من بيضته. والمراد: لو عُمّرت طويلًا. وفي المثل: لا آتيك سِنَّ الحِسْل، أي أبدًا، لأن سنها لا تسقط أبدًا حتى تموت.

(٢) الحكل: العجم من الطيور والبهائم. وكلامُ الحُكْل: كلام لا يُفهم.

(٣) نهاية الأرب: ٣/ ٣٢.

(٤) مجمع الأمثال: ١/ ٣٢٠.

فاشتهت كل واحدة من الثلاثة زوجًا وَصَفتْ من جماله وكماله وسعة حاله، ثم أبَت الصغرى أن تتكلم، فقالوا: لا بُدَّ أن تقولي، وألحّوا عليها فقالت: زوج من عُودٍ، خيرٌ من قعود، فزوَّجهنَّ.

زُرْ غبًّا تزدَدْ حبًّا(١)

قاله معاذ بن صَرْم الخزاعي، وكانت أمه من ـ عكّ، وكان يكثر من زيارة أخواله، فأقام فيهم زمانًا، ثم خرج يتصيَّدْ مع بني أخواله. فحمل على عِير، فلحقه ابن خاله ويقال له الغضبان. فتخاصما فقال الغضبان:

والله لو كان فيك خير لما تركت أهلك. فقال معاذ: زُرْ غِبًّا تزدَدْ حبًّا فذهبت مثلًا. وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا شئتَ أن تُقْلَى فَزُرْ مُتَوَاليا وإن شئتُ أن تزداد حبًّا فزُرْ غبًّا

وقال آخر:

عليك بإغباب الزيارة إنها إذا كثرَتْ كانت إلى الهجر مَسْلكا
ألم تَرَ أنَّ القطرِ يُسْأمُ دائمًا ويُسأَلُ بالأيدي إذا هو أمسكا

عِشْ عزيزًا أو مُتْ وأنتَ كريمٌ(٢)

هذا المثل قاله المتنبي في قصيدة نظمها في صباه، وفيها تظهر همته العالية. ومما قال فيها:

مَفْرَشي صهوةُ الحصان ولكـ ـنَّ قميصي مَسْرورةٌ من حديدِ(٣)
أينَ فضلي إذا قنعتُ من الدهـ ـرِ بعيشٍ معجَّلِ التنكيدِ
عِشْ عزيزًا أو مُتْ وأنت كريمٌ بين طعن القَنا وخَفْق البنودِ
لا كما قد حييتَ غير حميدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فقيدِ
فاطلب العزَّ في لظَى ودعِ الذُّ لَّ ولو كان في جنانِ الخلودِ

إلى أن يقول:

ما بقومي شرفْتُ بل شرفوا بي وبنفسي فخرتُ لا بجدودي

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٢٢.
(٢) شرح ديوان المتنبي: ١/ ٦٣ ـ ٦٤.
(٣) المسرودة: هي الدرع المنسوجة. وفي البيت إشارة إلى تأهّبه الدائم للقتال.

وبهم فخرُ كل مَنْ نطق الضَّا دَ وعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطريدِ[١]
إن أكُنْ معجبًا فعُجْبُ عجيبٍ لم يجد فوقَ نفسه من مزيدِ

على الخبير سقَطْتَ[٢]

الخبير: العالم. والخُبْر: العلم. وسقطت: أي عثرت، عبَّر عن العثور بالسقوط؛ لأن عادة العاثر أن يسقط على ما يعثر عليه.

يقال إن المثل لمالك بن جبير العامري، وكان من حكماء العرب. وتمثل به الفرزدق للحسين بن علي رضي الله عنهما حين أقبل يريد العراق، فلقيه وهو يريد الحجاز، فقال له الحسين: ما وراءك؟ قال: على الخبير سقطْتَ قلوبُ الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والأمر ينزل من السماء. فقال الحسين رضي الله عنه: صَدَقْتَني.

اعقِلْ وتوكَّلْ[٣]

يُضربُ في أخذ الأمر بالحزم والوثيقة. ويُروى أن رجلًا قال للنبيّ ﷺ: أأُرسلُ ناقتي وأتوكَّل؟ قال: «اعقِلْها وتوكَّلْ».

العَجَبُ كل العَجَب، بين جُمادَى ورَجَب[٤]

أول مَن قال ذلك عاصم بن المقشعر الضَّبي ـ وكان أخوه ـ أَبَيْدَة ـ علق امرأة الخنيفس بن خشرم الشيباني، وكان الخنيفس أغيَرَ أهل زمانه وأشجَعَهُمْ، وكان أُبَيْدةُ عزيزًا منيعًا، فبلغ الخنَيْفس أن أُبيدَة مضى إلى امرأته، فركب الخنَيْفس فرسه وأخذ رُمحه وانطلق يرصِدُ أُبَيْدة.

وأقبل أُبيدة، وقد قضى حاجتَه راجعًا إلى قومه، وهو يقول:

ألا إنَّ الخُنيْفسَ فأعلموه كما سمَّاه والده اللعينُ
بهيمُ اللون محتَقرٌ ضئيلٌ لئيماتٌ خلائقُهُ قنينُ
أيوعدُني الخنيفس من بعيدٍ ولمَّا ينقطع منه الوَتينُ
لَهَوْتُ بجارتَيه، وحادَ عنِّي ويزعُمُ أنَّهُ أنِفٌ شَنُونُ

---

(١) من نطق الضاد: العرب. العوذ: اللجوء والحماية. الغوث: النصرة.
(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٤.
(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٦.
(٤) مجمع أمثال: ٢/ ٣٥٥.

قال: فشدَّ عليه الخُنَيفس، فقال أُبَيْدة: أذكِّركَ حرمة خَشْرم، فقال: وحُرْمةِ خشرمٍ لأقتلنَّك. قال: فأمهلني حتى أستلئم[١]. قال: أَوَ يستلئمُ الحاسر؟ فقتله، وقال:

أبا ابن المُقْشَعرِ لقِيتَ ليثًا ... له في جوفِ أَيْكَتهِ عَرينُ
تقول صددتُ عنكَ خَنًا وجُبنًا ... وإنك ماجَدٌ بطَلٌ متينُ[٢]
وإنك قد لهوتَ بجارَتَيْنَا ... فهاك أُبَيْدُ لاقاكَ القرينُ
ستعلم أيُّنا أحمَى ذمارًا ... إذا قصُرَتْ شمالُك واليمينُ
لهوتَ بها فقد بُدِّلْتُ قبرًا ... ونائحةً عليك لها رنينُ

قال: فلما بلغ نعيُّه أخاه عاصمًا لبس أطمارًا[٢] من الثياب، وركب فرسه وتقلَّد سيفه، وذلك في آخر يوم من جُمادى الآخرة، وبادر قتلهُ قبل دخول رجب، لأنهم كانوا لا يقتلون في رجب أحدًا، وانطلق حتى وقف بفناء خباء الخنيفس فنادى:

يا ابن خَشْرم! أغِثْ المرهَق فطالما أغَثْتَ، فقال: ما ذاك؟ قال: رجل من بني ضَبَّة غصَبَ أخي امرأته فشدَّ عليه فقتله، وقد عجزتُ عنه.

فأخذ الخنيفس رمحه وخرج معه، فانطلقا فلما علم عاصم أنه قد بعد عن قومه داناه حتى قارنه ثم قنَّعه[٣] بالسيف فأطار رأسه، وقال:

«العجب كل العجب بين جمادى ورجب» فأرسلها مثلًا، ورجع إلى قومه.

عند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقينُ[٤]

أحدث الأخنسُ بن كعب في قومه حَدَثًا، فخرج هاربًا، فلقيه الحصين بنُ عمرو الكلابي فقال له: مَن أنت؛ ثكلتك أمُّك؟ فقال له الأخنس: بل من أنت ثكلتك أمُّك؟ ردد هذا القول حتى قال الأخنس: أنا الأخنس بن كعب، فأخبرني مَن أنت، وإلا أنفذت قلبك بهذا السِّنان. فقال له الحصين: أنا الحصين بن عمرو الكلابي.

---

(١) استلأم: لبس اللأمة، وهي الدرع. (٢) الأطمار: الثياب الخلقة البالية.
(٣) قنَّعه بالسيف أو السوط أو العصا: علاه به. (٤) مجمع الأمثال: ٢/ ٣ ـ ٥.

فقال له الأخنس: فما الذي تريد؟ قال: خرجتُ لِمَا يخرج له الفتيان. قال الأخنس: وأنا خرجتُ لمثل ذلك. فقال له الحسين: هل لك أن نتعاقد ألا نلقى أحدًا من عشيرتك أو عشيرتي إلا سلبناه؟ قال: نعم؛ فتعاقدا على ذلك، وكلاهما فاتك يحذَرُ صاحبه!

فلقيا رجلًا فسلباه، فقال لهما: هل لكما أن تردّا عليّ بعض ما أخذتما مني وأدلّكما على مغنم؟ قالا: نعم، فقال: هذا رجل من لخم، قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير، وهو خلفي في موضع كذا وكذا! فردّا عليه بعض ماله، وطلبا اللّخمي، فوجداه نازلًا في ظل شجرة وقُدّامه طعام وشراب، فحيياه وحياهما، وعرض عليهما الطعام، فكره كلُّ واحدٍ أن ينزل قبل صاحبه فيفتك به، فنزلا جميعًا، وأكلا وشربا مع اللّخمي.

ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه، فرجع واللخمي يتشحّط في دمه. فقال الجهني ـ وهو الأخنس ـ وسلّ سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولًا: ويحك! فتكْتَ برجلٍ قد تحرمنا بطعامه وشرابه، فقال: اقعد يا أخَا جُهينة؛ فلهذا وشبهه خرجنا. فشرِبا ساعةً وتحدثا.

ثم إن الحصين قال: يا أخا جهينة؟ أتدري ما صقلةُ وما صَقل؟ قال الجهني: هذا يوم شرب وأكل؛ فسكت الحصين حتى إذا ظن أنّ الجهني قد نسيَ ما يُراد به قال: يا أخا جهينة؛ هل أنت للطير زاجر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ما تقول هذه العُقاب الكاسر. قال الجهني: وأين تراها؟ قال: هي ذِه، وتطاول ورفع رأسه إلى السماء، فوضع الجهني بادِرة السيف في نحره، فقال: أنا الزاجر والناحر! واحتوى على متاعه ومتاع اللخمي، وانصرف راجعًا إلى قومه.

فمرّ ببطنين من قيس يقال لهما: مراح وأنمار؛ فإذا هو بامرأة تنشُد الحصين، فقال لها: مَنْ أنتِ؟ قالت: أنا صخرة أخت الحصين، قال: أنا قتلتهُ. قالت: كذبت! ما مثلك يقتلُ مثله، أما والله لو لم يكن الحيُّ خِلْوًا ما تكلمت بهذا. فانصرف إلى قومه فأصلح أمرهم، ثم جاءهم، فوقف حيث يسمعهم وقال:

وكم من ضَيْغَم وَرْدٍ هَمُوس ... أبي شبْلين مسكنهُ العرينُ
علوت بَيَاضَ مفرِقه بغَضْبٍ ... فأضحى في الفلاة له سكونُ
وأضحت عِرْسهُ ولها عليه ... بُعَيد هدوءِ ليلتها رَنينُ

وكـم مـن فـارس لا تـزدريـه إذا شخصَتْ لموقعه العيونُ
كصخرة إذ تُسائِلَ في مراحٍ وأنمار وعِلمُهما ظنونُ
تسائل عن حصين كلَّ ركبٍ وعند جُهَينةَ الخبرُ اليقينُ
فمن يكُ سائلًا عنه فعندي لصاحبه البيانُ المستبينُ

في بيته يؤتَى الحَكَم(١)

زعمت العرب عن ألسن البهائم قالوا: إن الأرنب التقطت ثمرة، فأختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب:

يا أبا الحِسْل، فقال: سميعًا دعوت، قالت: أتيناك لنختصم إليك، قال: عادلًا حكّمتما. قالت: فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم ـ قالت: إني وجدت ثمرة. قال: حُلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب وقال: لنفسه بَغَى الخبر. قالت: فلطمته، قال: بحقك أخذت. قالت: فلَطَمني. قال: حرٌّ انتصر. قالت: فاقضِ بيننا. قال: قد قضيت. فذهبت أقواله كلها أمثالًا.

ومما يشبه ذلك ما حكى أن خالد بن الوليد لمَّا توجَّه من الحجاز إلى أطراف العراق دخل عليه عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة ـ فقال له خالد:

أين أقصي أثرك؟ قال: ظهرُ أبي. قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي. قال: علام أنت؟ قال: على الأرض. قال: فيم أنت؟ قال: في ثيابي. قال: فمن أين أقبلت؟ قال: من خلفي. قال: أين تريد؟ قال: أمامي، قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد.

قال: أتعقل؟ قال: نعم وأقيّد. قال: أحربٌ أنت أم سلم؟ قال: سلم. قال فما بال هذه الحصون؟ قال: بنيناها لسفيه حتى يجيء حليم فينهاه.

ومثل هذا أن عدي بن أرطاة أتى إياس بن معاوية قاضي البصرة في مجلس قضائه وعديٌّ كان أمير البصرة، وكان أعرابيَّ الطبع، فقال لإياس: يا هَنَاه(٢) أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: فاسمع مني. قال: للاستماع جلست. قال: إني تزوجت امرأة. قال: بالرفاه، والبنين. قال: وشرطتُ لأهلها ألّا أخرجها من

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٧٢.
(٢) يا هَنَاه: يا رجل؛ ولا يستعمل إلا في النداء.

بينهم. قال: أوف لهم بالشرط. قال: فأنا أريد الخروج، قال: في حفظ الله. قال: فاقض بيننا ـ قال: قد فعلت. قال: فعلى مَن حكمت؟ قال: على ابن أخي عمُّك. قال: بشهادة مَن؟ قال: بشهادة ابن أختِ خالتك.

هذا حِصْرَمٌ(١)

تزعم العرب أن الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلم ينله، فقال: هذا حصرم! وحكى الشاعر ذلك فقال:

أيُّها العائبُ سلمى ... أنت عندي كثُعالهْ
رامَ عنقودًا فلما ... أبصر العنقودَ طالَهْ
قال هذا حامضٌ لـ ... مَّا رأى ألا ينالَهْ

وقال أحمد شوقي في هذا:

فقال هذا حصرمٌ ... رأيته في حلبِ
قال له العنقود بلْ ... خسِئتَ فاذهب يا غبي
طولُ لسانٍ في الهوا ... وقِصَرٌ في الذنبِ

تَعِسَتِ العَجَلَةُ(٢)

أوَل مَن قال هذا ـ فِنْدٌ ـ مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، وكان أحد المغنين المجيدين، وكان يجمع بين النساء والرجال. وفيه يقول ابن قيس الرقيَّات:

قلْ لفِنْدٍ يشيِّعِ الأضعانا ... طالما سرَّ عَيْشنا وكفانا

وكانت عائشة أرسلته يأتيها بنار، فوجد قومًا يخرجون إلى مِصْر، فخرج معهم فأقام بها سنة، ثم قدِم فأخذ نارًا، وجاء يعدُو فعثر وتبدَّد الجمر، فقال: تَعِسَتِ العجلة! وفيه يقول الشاعر:

ما رأينا لغرابٍ مثلًا ... إذْ بعثناه يجيء بالمِشْمَلهْ
غيرَ فِنْدٍ أرسلوه قابسًا ... فنوى حَوْلًا وسبَّ العَجَلَهْ

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/٤٠٧. والشوقيات لأحمد شوقي.

(٢) مجمع الأمثال: ١/٢٤٣.

المشملة: كساء تُجمع فيه المقدحة بآلاتها. وقال بعضهم: الرواية «المشملة» بفتح الميم، وهي مهبُّ الشمال، يعني الجانب الذي بعث نوح عليه السلام الغراب إليه ليأتيه بخبر الأرض، أجفَّتْ أم لا؟

ربَّ رَمْيَةٍ من غيرِ رامٍ[١]

أي ربَّ رمية مصيبةٍ حصلت من رامٍ مخطىءٍ، لا أن تكون رمية من غير رامٍ، فإن هذا لا يكون قط.

وأوَّل مَن قال ذلك: الحكم بن عبد يغوث المنقري، وكان أرمى أهل زمانه وآلى يمينًا ليذبحنَّ على الصنم مهاة، ويروى ليدجنَّ[٢]، فحمل قوسه وكنانته فلم يصنع يومه ذلك شيئًا، فرجع كئيبًا حزينًا، وبات ليلته على ذلك، ثم خرج إلى قومه فقال: ما أنتم صانعون، فإني قاتلُ نفسي أسفًا إن لم أذبحها اليوم؟

فقال الحصين بن عبد يغوث أخوه: يا أخي دِخْ مكانها عشرة إبل ولا تقتل نفسك. قال: لا، واللَّاتِ والعزَّى لا أظلم عاترة، وأترك النافرة[٣]، فقال ابنه المطعم بن الحكم: يا أبتِ احملني أرفِدْك، فقال له أبوه: وما أحمل من رَعْشٍ[٤] وَهِلٍ جبانٍ فشل، فضحك الغلام وقال:

إن لم تر أوداجها تخالط أمشاجها فاجعلني وداجها[٥]، فانطلقا، فإذا بمهاةٍ فرماها الحكم فأخطأها، ثم مرَّت به أخرى فرماها فأخطأها، فقال: يا أبتِ أعطني القوس: فأعطاه فرماها فلم يخطئها، فقال أبوه: «ربَّ رمية من غير رام».

خير ذا بشرِ ذا

قال أبو نواس:

اسقني واسْقِ يوسفا مرَّةَ الطَّعم قَرْقَفا

---

(١) مجمع الأمثال: ١/٢٩٩.

(٢) كذا، ولم نقع لها على معنى يناسب المقام. ولعل الصواب: ليودجنّ. من ودج: أي قطع الأوداج. والأمر منه: دِخْ، وسيأتي.

(٣) العاترة: المضطربة؛ وهي هنا بمعنى العاثرة. (٤) الرعش الوهل: المرتعش الضعيف الجبان.

(٥) الأمشاج: الأوساخ التي تجتمع في السرة. والوداج: عرق في العنق، وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة.

وَضـع الـزِّقّ جـانـبًـا ومـع الـزقّ مـصـحـفـا
خـيـرُ ذا بـشـرٌ ذا فـإذا الله قـد عَـفَـا

وعكس هذا قول الشاعر:

كمُطْعمة الأيتامُ من كَدِّ فَرْجها حنانيكِ لا تزنَيْ ولا تتصدَّقي

رماه الله بالصُّدام والأَوْلقِ والجذام(١)

الصُّدام: داء يأخذ برؤوس الدواب. والأولق: الجنون. والجذام: داء تتقرَّح منه الأعضاء وتتعفّن، وربما تساقَطُ، نعوذ بالله منه ومن جميع الأدواء. والمثل من قول كثير بن المطلب بن أبي وداعة.

قال الرياشي: كتب هشام بن عبد الملك إلى والي المدينة أن يأخذ الناس بسبِّ علي بن أبي طالب عليه السلام. فقال كثير بن أبي وداعة.

لـعـن الله مَـن يـسـبُّ حُـسـيـنًـا وأخـاه مـن سُـوقَـةٍ وإمـامِ
ورمـى اللهُ مـن يـسـبُّ عـليًّـا بـصُـدَامٍ، وأَوْلَقٍ، وجُـذَامِ
طِبْتَ بيتًا وطاب أهلك أهلًا أهـل بـيـتِ الـنـبـيّ والإسـلامِ
رحـمـةُ الله والـسَّـلامُ عـلـيـكـم كـلَّـمـا قـام قـائـمٌ بـسـلامِ
يـأمَـنُ الـطـيـرُ والـظِّـبـاء ولا يـأْ مَنُ رَهْـطُ الـنـبـيِّ عـنـد الـمـقـامِ

قال: فحبسه الوالي، وكتب إلى هشام بما فعل، فكتب إليه هشام يأمره بإطلاقه. وأمر له بعطاء.

في الصيف ضَيَّعْتِ اللبن(٢)

يُضرب لمن يطلب شيئًا قد فوَّته على نفسه. قيل: كانت زوجة الأسود بن هرمز عَنُودًا فرغب عنها إلى امرأة جميلة من قومه ثم جرى بينهما ما أدَّى إلى الفراق، فبعث إلى الأولى يسترضيها، فقالت:

أتـركـتـنـي حـتـى إذا عُـلِّـقـتُ أبـيـض كـالـشَّـطَـنْ

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٠٩.
(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٤٣٤. والأغاني: ١/ ٢١٥.

أنشأتَ تطلب وصلنا في … الصيف ضَيَّعْتِ اللبنْ[1]

ويقول وضّاح اليمن في نونيته التي يتغزل بها بحبيبته روضة:

أتركتني حتى إذا … علقتُ أبيض كالشَّطَنْ
أنشأت تطلب وصلنا … في الصيف ضيعتِ اللبنْ
لو قيل يا وضاح قمْ … فاختر لنفسك أو تَمَنْ
لم أعدُ روضةَ والذي … ساق الحجيجُ لهُ البُدَنْ

قلبَ له ظَهْرَ المِجَنّ[2]

يضرب لمن كان لصاحبه على مودَّة ورعاية ثم حال عن العهد.

كتب أمير المؤمنين عليّ (ع) إلى ابن عباس حين أخذ من مال البصرة ما أخذ: إني شركتك في أمانتي ولم يكن رجلٌ من أهلي أوثق منك في نفسي، فلما رأيت الزمان على ابن عمِّك قد كَلِب والعدو قد حَرِبَ، قلبت لابن عمك ظهر المجن، لفراقه مع المفارقين، وخذله مع الخاذلين، واختطفت ما قدرت عليه من أموال الأمة اختطاف الذنب الأزلُ رابية المعزى. امْحُ رويدًا فكأنْ قد بلغت المدى، وعُرِضَتْ عليك أعمالك بالمحلِّ الذي ينادي به المغترُّ بالحسرة، ويتمنى المضيِّعُ التوبة والظالمُ الرجعة.

كالمستجير من الرمضاء بالنار[3]

عندما انطلق جسَّاس ليقتل كليبًا، اتبعه ابن عمه يقال له عمرو بن الحارث بن ذهل، وقيل الذي اتبعه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة، فلم يدركه حتى فتك جساس بكليب، ثم وقف عليه فصاح كليب: يا جساس أغثني بشربة ماء، فقال جساس: تركت الماء وراءك، وانصرف عنه. ولحقه عمرو فقال كليب: يا عمرو أغثني بشربة فنزل عمرو إليه وجهز عليه فضرب به بالمثل فقيل:

المستجيرُ بعمرو عند كُرْبته … كالمستجير من الرمضاء بالنار

---

(١) ويروى دائمًا بكسر التاء في أي حال، إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع، لأن المثل في الأصل خوطبت به امرأة.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ١٠١.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٣٧٠. أيام العرب، ص ١٤٦. الأغاني: ٤/ ١٤٢.

سَبَقَ السيفُ العَذلَ(١)

أول مَن قال هذا المثل: ضبَّة بن أُدّ بن طابخة، وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد وللآخر سعيد، فنفرت إبل ضبةٍ تحت الليل، فوجه ابنيه في طلبها، فتفرقا فوجدها سعد وردّها ـ أما سعيد وكان بعيدًا عن أخيه فلقيه الحرث بن كعب، وكان على سُعَيْد بُرْدان، فسأله الحرث إياهما، فأبى عليه فقتله وأخذ بُرديه.

وكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادًا قال: أسعدٌ أم سُعَيْد؟ ومكث ما شاء الله وهو يأمل عودة ابنه.

ثم إنه حجّ فوافى عكاظ، فالتقى بالحرث بن كعب ورأى عليه بُرْدَي ابنه سعيد فعرفهما فقال له: هل أنت مخبري ما هذان البردان اللذان عليك؟ قال: بلى، لقيت غلامًا هما عليه فسألته إياهما فأبى عليّ فقتلته، وأخذت برديه هذين. فقال ضبَّة: بسيفك هذا؟ قال: نعم! قال: أعطنيه أنظر إليه فإني أظنه صارمًا ثم ضربه به حتى قتله، فقيل له: يا ضبَّة، أفي الشهر الحرام؟ قال: «سبق السيف العذل».

كثاقبةٍ لحُلْي مستعار(٢)

قال أحدهم:

مررتُ بابن هرمة وهو جالس على دكان في بني زريق، فقلت له: يا أبا إسحٰق ما يجلسك هٰهنا؟ قال: بيت كنت قلته ثم انقطع عليَّ الرويّ فيه وتعذّر علي ما أشتهيه، فأبغضته وتركته، قلت: ما هو؟ قال:

فإنك واطِّراحك وَصْلَ سُعدى ... لأُخرى في مودَّتها نُكوبُ

ثم قال: قلته ثم انقطع بي فيه، فمرَّت بي جويرية صفراء مليحة كنت أستحسنها أبدًا وأكلمها إذا مرَّت بي، فمرَّت اليوم فرأيتها وقد ورم وجهها وتغير خلقها ـ فسألتها عن خبرها فقالت: كان عرسٌ أردت حضوره، فاستعار لي أهلي حليًا وثقبوا أذني لألبسه فورم وجهي وأذناي كما ترى، فردُّوه، ولم أشهد

(١) العقد الفريد: ١/ ١٤٥. وزهر الآداب: ٣/ ١٩٧. وجمهرة خطب العرب: ٣/ ١٤٧.

(٢) الأغاني: ٥/ ٢١٤.

العروس. قال ابن هرمة: فاطَّرد لي الشعر وقلت:

كـثـاقـبـةٍ لـحُـلْـي مـسـتـعـارِ بـأذنـيـهـا فـشـانـهـمـا الـثـقـوبُ
فـردَّت حـلـي جـارتـهـا إلـيـهـا وقـد بـقـيَـتْ بـأذنـيـهـا نُـدوبُ

وأولـه:

عـدا رسـمُ الـقـريَّـةِ فـالـكـثـيـبُ إلـى مـلـحـاء لـيـس بـهـا عَـريـبُ
تـأبَّـدِ رسـمُـهـا وجـرى عـلـيـهـا سـقيُّ الـريـح والـتُّـربُ الـغـريـبُ
فإنك واطِّراحَك وصلُ سعدى لأُجـزى فـي مـودَّتـهـا نـكـوبُ

كأنه جاء برأس خاقان[1]

قال المفضل بن سلمة في كتابه المترجم بالكتاب الفاخر في الأمثال، قال: العامة تقول: «كأنه جاء برأس خاقان».

وخاقان هذا كان ملكًا من ملوكِ الترك، خرج من ناحية باب الأبواب، وظهر على أرمينية، وقتل الجرَّاح بن عبد الله عامل هشام بن عبد الملك عليها، وغلظت نكايته في تلك البلاد.

فبعث إليه هشام بن عبد الملك سعيد بن عمرو الجرشي، وكان مسلمة صاحب الجيش فأوقع سعيد بخاقان، وفضَّ جموعه، واحتزَّ رأسه وبعث به إلى هشام فعظم أثره في قلوب المسلمين، وفخم أمره، ففخر بذلك حتى ضرب به المثل.

رُبَّ أَكْلةٍ منعت أكَلات[2]

لأنها تُمرض فيُحتَمى من غيرها. وأول مَن قاله عامر بن الظرب العدواني، وذلك أنه كان يدفع بالناس في الحج فرآه ملك من ملوك غسان فقال: لا أترك هذا العدواني أو أذله؛ فسأله أن يفد عليه بقومه فيكرمه ويحبوه. فلما وفد عليه أكرمه وقومه، ثم لما انكشف له باطن الملك قال لقومه: الرأي نائم والهوى يقظان. فقالوا له: لقد أكرمنا هذا الملك كما ترى وليس بعده إلا ما هو خير منه. فقال: إن لكل عام طعامًا، ورُبَّ أكلة منعت أكلات. ثم احتال حتى ارتحل عنه وبلغ

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٠١.
(٢) المستقصى في أمثال العرب: ٢/ ٩٤.

بلاده يضرب في التحذير. قال:

ورُبَّـةَ أكـلةٍ مـنـعـت أخـاهـا بـلذة سـاعـة أكـلات دهـر

كأنها نار الحُباحب[١]

قالوا: الحباحب طائر يطير في الظلام كقدر الذباب، له جناح يحمّر، يرى في الظُّلمة كشرارة النار ويقال: نار الحباحب، ونار أبي الحباحب. قال القطامي:

ألا إنما النيران قيسٍ إذا شتوا لطارقِ ليلٍ مثل نار الحباحبِ

وقال الأصمعي: هو رجل كان في الجاهلية، وقد بلغ من بخله أنه كان إذا أوقد السراج فأراد إنسان أن يأخذ منه أطفأه فَيُضرب المثل به في البخل.

ويلٌ للشجيّ من الخليّ[٢]

قيل: أول مَن قاله امرأة كانت في زمن لقمان بن عاد. وقيل: أكثم بن صيفي لما أتاه ابنه من عند رسول الله ﷺ بكتاب فدعى قومه وحثَّهُم على الإسلام. فقال مالك بن نويرة: قد خرف شيخكم إنه ليدعوكم إلى الفناء، ويعرضكم على البلاء، إن تُجيبوه تفرَّقْ جماعتكم، وتظهر أضغانكم، ويذل عزيزكم، فمهلًا مَهلًا!

فقال أكثم: ويل للشجيّ من الخليّ!

يُضرب لسوء مشاركة الرجل صاحبه. يقول: إن الخلي لا يساعد الشجي على ما به ويلومه. والخلي: الخالي البال.

وأما الرواية الأخرى فذكرها الميداني في قصة المثل «صُغراهنَّ شُرَّاهنَّ». وذلك أن امرأة كانت في زمن لقمان بن عاد، وكان لها زوج يقال له الشجيّ وخليل يقال له الخليّ. فنزل لقمان بهم، فرأى هذه المرأة ذات يوم انتبذت من بيوت الحي، فارتاب لقمان بأمرها، فتبعها، فرأى رجلًا عرض لها ومضيا جميعًا وقضيا حاجتهما. ثم إن المرأة قالت للرجل: إني أتماوتُ، فإذا أسندوني في رَجَمي (قبري) فأتني ليلًا فأخرجني ثم اذهبْ إلى مكان لا يعرفنا أهله. فلما سمع لقمان ذلك، قال: ويلٌ للشجيّ من الخليّ، فأرسلها مثلًا.

---

(١) مجمع الأمثال: ٣/ ٣٣.

(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٣٩٨ و٢/ ٣٦٧.

كدودة القَزّ(١)

يقال لمن يتعب نفسه لأجل غيره.

قال أبو الفتح البستي:

ألـم تـر أنَّ الـمرءَ طـول حيـاتـه معنًى بأمر ما يـزال يُعـالـجُهْ
كـدود الـقـزِّ يـنـسـج دائـبًـا ويهلكُ غمًّا وسط ما هو ناسجُهْ

كفيت الدعوة(٢)

يقال لمن يدعو بشيء مفروغ منه.

أصل هذا المثل أنَّ بعض المجَّان نزل براهب في صومعة، وساعده على دينه، وجعل يقتدي به ويزيد عليه في صلاته وصيامه. ثم سَرق صليب ذهب كان عنده، واستأذنه لمفارقته، فأذن له وزوَّده من طعامه. ولمَّا ودَّعه قال له: صَحِبَكَ الصليب، على رسم لهم فيمن يريدون الدعاء له بالخير. فقال الماجن: «كُفِيْتَ الدعوة» فصارت مثلًا.

كل غريب للغريب نسيبُ(٣)

قال هذا المثل امرؤ القيس الكندي، في عودته من عند ملك الروم، وكان قد أهداه ملك الروم ثوبًا مسمومًا، فعندما لبسه سرى السم في جسمه. ومرَّ في عودته بالحجاز وهو مريض وقد أحسّ بالموت، فرأى قبرًا لامرأة من بنات ملوك الروم اسمها مارية ماتت فقُبرَت هناك، قرب جبل يقال له عسيب. فوضع امرؤ القيس يده على القبر وقال:

أجـارتـنـا إن الـمـزارَ قـريـبُ وإنـي مـقـيـمٌ مـا أقـام عـسـيـبُ
أجـارتـنـا إنَّـا غـريـبـان هـٰهـنـا وكـلُّ غـريـب لـلـغـريـب نـسـيـبُ

كل شاةٍ برِجلها معلَّقة(٤)

قال ابن الكلبي: أول مَن قال ذلك وكيع بن سلمة بن زهير بن أياد ـ وكان ولي البيت بعد جرهم ـ فبنى صرحًا بأسفل مكَّة عند سوق الخياطين اليوم ـ وجعل

(١) مجمع الأمثال: ٣/ ٤٧.
(٢) مجمع الأمثال: ٣/ ٤٥.
(٣) ديوان امرىء القيس.
(٤) مجمع الأمثال: ٣/ ٤٥.

فيه أمةً يقال لها حَزْوَرَة ـ وبها سُمِّيتْ حَزْوَرة مكة، وجعل في الصَرح سُلَّمًا، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله تعالى، وكان ينطق بكثير من الخبر.

وكان علماء العرب يزعمون أنه صدِّيق من الصدِّيقين، وكان من قوله: مرضعةٌ أو فاطمة، ووادعةٌ وقاصمة، والقطيعة والفجيعة، وصلة الرحم، وحسن الكلم. ومن كلامه: زعم ربكم ليجزينَّ بالخير ثوابًا وبالشرِّ عقابًا ـ إنَّ من في الأرض عبيدٌ لمن في السماء. هلكتْ جُرْهُم وربلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد.

فلما حضرته الوفاة جمع إيادًا فقال لهم: «اسمعوا وصيتي، الكلم كلمتان، والأمر بعد البيان، من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكلُّ شاةٍ برجلها معلقة؛ فأرسلها مثلًا.

قال: ومات وكيع فنعي على الجبال، وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي:

ونحن إيادٌ عبادُ الإلٰه ... ورهطُ مناجيه في سُلَّمِ
ونحن ولاةُ حجاب العتيق ... زمان النخاع على جرهَم

يقال: أن الله سلّط على جرهم داءً يقال له النخاع، فهلك منهم ثمانون كهلًا في ليلة واحدة سوى الشبان. وفيهم قال بعض العرب:

هلكت جرِهَمُ الكرام فعالًا ... ووُلاةُ البنيَّة الحجَّابِ
نُخعوا ليلَةً ثمانون كهلًا ... وشبابًا كفى بهم من شبابِ

كلاهما وتَمْرًا[(١)]

أوّلُ من قال ذلك عمرو بن حُمران الجعدي. وكان حُمران رجلًا لَسِنًا ماردًا، وإنَّه خطب صَدُوقَ، وهي امرأة كانت تؤيد الكلام وتشجُّع في المنطق. وكانت ذات مال كثير، وقد أتاها قومٌ يخطبونها فردَّتهم، وكانت تتعنَّتُ خُطَّابها في المسألة، وتقول: لا أتزوَّج إلا مَن يعلم ما أسأله عنه، ويجيبني بكلام على حدّه لا يَعْدُوه.

(١) مجمع الأمثال: ٤/ ٣١.

فلمَّا انتهى إليها حُمران قام قائمًا لا يجلس، وكان لا يأتيها خاطبٌ إلا جلس قبل إذنها، فقالت: ما يمنعك من الجلوس؟ قال: حتى يُؤذَنَ لي، قالت: وهل عليك أمير؟ قال: ربُّ المنزلِ أحقّ بفِنَائه، وربّ الماء أحقُّ بسِقَائه، وكلٌّ له ما في وعائه، فقالت: اجلس، فجلس، قالت له: ما أردت؟ قال: حاجة، ولم آتك لحاجة. قالت: تُسِرُّها أم تُعْلِنُها؟ قال: تُسَرُّ وتُعْلَنُ، قالت: فما حاجَتُك؟ قال: قضاؤها هَيِّن، وأمرها بَيِّن، وأنت بها أخْبَر، وبنُجْحِها أبصر، قالت: فأخبرني بها، قال: قد عَرَّضْتُ وإن شئْتِ بيَّنْتُ قالت: مَن أنت؟ قال: أنا بَشَر، وُلِدتُ صغيرًا، ونشأتُ كبيرًا، ورأيتُ كثيرًا، قالت: فما اسمك؟ قال: مَنْ شاء أَحْدَثَ اسمًا، وقال ظُلْمًا، ولم يكن الاسم عليه حتمًا، قالت: فَمَنْ أبوك؟ قال: وَالِدِي الذي وَلَدَني، ووالده جَدِّي، فلم يعش بَعْدِي، قالت: فما مالك؟ قال: بعضُه وَرِثته، وأكثره اكتسبته، قالت: فمَن أنت؟ قال: من بَشَر كثير عَدَده، معروف ولده، قليل صعده، يفنيه أبده، قالت: ما وَرَّثك أبوك عن أوليه؟ قال: حسْن الهِمَم، قالت: فأين تنزل؟ قال: على بساط واسع، في بلدٍ شاسِع، قريبُه بعيد، وبعيدُه قريب، قالت: فَمَن قَوْمُك؟ قال: الذين أنتمي إليهم، وأحني عليهم، وولدت لديهم، قالت: فهل لك امرأة؟ قال: لو كانت لي لم أطلُب غيرها، ولم أُضَيِّع خيرها، قالت: كأنَّكَ ليست لكَ حاجة، قال: لو لم تكن لي حاجة لم أُنخْ ببابكِ، ولم أتعرّض لجوابكِ، وأتعلق بأسبابكِ، قالت: إنّك لحمران بن الأقرع الجَعْدِيّ، قال: إنّ ذلك ليُقال، فَزَوّجَتهُ نفسها، وفوَّضَت إليه أمرها.

عمرو بن حمران(١)

ثم إنّها وَلَدَت له غلامًا فسمّاه عمروً، فنشأ مارِدًا مُفوَّهًا، فلما أَدْرَكَ جَعَله أبوه راعيًا يرعى له الإبل، فبينما هو يومًا إذ مَرَّ به رجل قد أَضَرَّ به العَطَشُ والسُّغوب، وعمرو قاعِدٌ، وبين يديه زُبدٌ وتمرٌ وتامِك(٢)، فَدَنا منه الرجلُ فقال: أطعِمْني من هذا الزُّبد والتامك، فقال عمرو: نعم، كِلاهما وتمرًا، فأطعم الرجل حتى انتهى، وسَقَاه لَبَنًا حتى رَوِيَ، وأقام عنده أيامًا، فذهبت كلمته مثلًا.

---

(١) مجمع الأمثال: ٤/ ٣١.

(٢) التامِك: السنام.

كيف أعاودكَ وهذا أَثَرُ فأسك(١)

أصل هذا المثل على ما حَكَتْهُ العرب على لسان الحيَّة، أنَّ أخوين كانا في إبل لهما فأجدبت بلادهما، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيب وفيه حيَّة تحميه من كلّ أحد فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المُكلِيء فرَعَيْتُ فيه إبلي وأصلحتها، فقال أخوه: إني أخاف عليك الحيَّة، ألا ترى أنَّ أحدًا لا يهبط ذلك الوادي إلَّا أهلكته؟ قال: فوالله لأفعلن، فهبط الوادي ورعى به إبلهُ زمنًا. ثم إنَّ الحية نهشته فقتلته فقال أخوه: والله ما في الحياة بعد أخي خير، فلأطلبنَّ الحيَّة ولأقتلنَّها أو لأتبعن أخي. فهبط ذلك الوادي وطلب الحيَّة ليقتلها، فقالت الحيَّة له:

ألستَ ترى أني قتلتُ أخاك؟ فهل لك في الصُّلح فأدعك بهذا الوادي تكون فيه وأعطيك كلَّ يوم دينارًا ما بقيت؟ قال: أو فاعلةٌ أنت؟ قالت: نعم ـ قال: إني أفعل، فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضُرَّها، وجعلَتْ تُعطيه كل يوم دينارًا. فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالًا.

ثم إنَّهُ تذكَّرَ أخاه فقال: كيف ينفعني العيشُ، وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ فعمِد إلى فأس فأخذها ثم قَعَدَ لها فمرَّتْ به فتبعها فضربها فأخطأها ودخَلَتْ الجُحر، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه، فلما رأت الحية ما فعل قطعت عنه الدينار، فخاف الرَّجُل شرَّها وندم فقال لها: هل لك في أن نتواثق ونعود إلى ما كنَّا عليه؟ فقالت: كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟

يُضرب لمن لا يفي بالعهد.

وهذا من مشاهير أمثال العرب، قال النابغة الذبياني في هذا:

وإني لألْقَى من ذوي الغَيِّ منهمُ … وما أصْبَحَتْ تشكو من الشجو ساهِرَهْ
كما لقيتْ ذاتُ الصَّفاء من حَليفها … وكانت تُريه المال غِبًّا وظاهِرَهْ(٢)
فلمَّا رأى أن ثمَّر الله ماله … وأثَّلَ موجودًا وسدَّ مفاقِرَهْ(٣)
أكبَّ على فأسٍ يُحِدُّ غُرابَها … مُذَكَّرَةٍ من المعاوِلِ باتِرَهْ(٤)

---

(١) مجمع الأمثال: ٣/ ٢٨. وديوان النابغة الذبياني.
(٢) ذات الصفا: الحية.
(٣) أثّله: كثّره.
(٤) فأس مذكرة: قاطعة. وكذلك يقال للسيف.

فقام لها من فوقِ جُحْرٍ مشيَّدٍ ليقتلها أو يُخطيء الكفُّ بادِرَهْ
فلما وقاها الله ضربةَ فأسِهِ وللشرِّ عينٌ لا تُغمضُ ناظره
فقال: تعَالَيْ نجعلِ الله بيننا على ما لَنَا أو تُنجزي ليَ آخِرَهْ
فقالت: يمين الله أفعلُ إنَّني رأيتُكَ مشؤومًا يمينك فاجِرهْ
أبى ليَ قبرٌ لا يزال مقابلي وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقِرهْ

كالكبش يحمل شَفْرةً وزنادًا(١)

يضرب لمن يتعرض للهلاك. وأصله أن كسرى بن قباذ ملَّك عمرو بن هند ملْكَ الحيرة وما يلي مُلك فارس من أرض العرب، فكان شديد السلطان والبطش، وكانت العرب تسميه «مضرِّط الحجارة»، فبلغ من ضبطه الناس وقهره لهم واقتداره في نفسه عليهم أن اشتدَّت سنة على الناس حتى بلغت بهم كل مبلغ من الجهد والشِّدة، فعمد إلى كبش فسمَّنه حتى إذا امتلأ سمنًا علَّق في عنقه شفرة وزنادًا ثم سرَّحه في الناس لينظر هل يجترىء أحد على ذبحه، فلم يتعرض له أحد، حتى مرَّ ببني يَشْكر فقال رجل منهم يقال له عِلباء بن أرقم اليشكري:

ما أراني إلَّا آخذ هذا الكبش فآكله، فلامه أصحابه، فأبى إلَّا ذبحه، فذكروا ذلك لشيخ لهم، فقال:

«إنك لا تعدم الضَّار، ولكن تعدم النافع»، فأرسلها مثلًا.

وقال قائل آخر منهم: «إنَّكَ كائن كقدار على إرم» فذهبت مثلًا.

ولما كثرت اللائمة قال: إني أذبحه، ثم آتي الملك فواضعٌ يدي في يده ومعترف له بذنبي. فإن عفا عني فأهل ذلك هو، وإن كانت منه عقوبة كانت بي دونكم، فذبحه وأكله.

ثم أتى الملك عمرو بن هند، فقال له: أَبَيْتَ اللعن وأسعدك إلٰهُك، يا خير الملوك إني أذنبت ذنبًا عظيمًا إليك، وعفوك أعظم منه، فقال: وما ذنبك؟ قال: إنك بلوتنا بكبش سرَّحته ونحن مجهودون، فأكلته. قال: أَوَقد فعلت؟ قال: نعم.

---

(١) جمهرة الأمثال: ١/ ٢١٢؛ ومجمع الأمثال: ٣/ ٢٤.

قال: إذن قتلتك، قال: «مليك شيء حَكَمه» فأرسلها مثلًا. ثم أنشده قصيدة في تلك الخُطَّة، فخلَّى عنه، فجعلت العرب ذلك الكبش مثلًا.

كأنَّ على رؤوسهم الطير(١)

يضرب مثلًا في الرزانة والحلم والركانة وقلة الطيش والعجلة، حتى كأن على الرؤوس طيرًا يخاف أصحابها طيرانها، فهم سكون لا يتحركون.

لا يُصلح العطَّار ما أفسد الدهرُ(٢)

قال أعرابي في امرأة تزوجها ـ وقد خطبها شابة طرية فدسُّوا إليه عجوزًا:

عجوزٌ ترجِّي أن تكون فتيَّةً ... وقد نحل الجنبان واحدودب الظَّهرُ
تُدسُّ إلى العطار سلعة أهلها ... وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهرُ
تزوجتها قبل المحاق بليلة ... فكان محاقًا كلَّهُ ذلك الشَّهرُ
وما غرَّني إلا خضابٌ بكفها ... وكحل بعينها وأثوابُها الصفرُ

لعلَّني مضلَّلٌ كعامر(٣)

أصله أن شابين كانا يجالسان المستوغر بن ربيعة، فقال أحدهما لصاحبه واسمه عامر: إني أخالف إلى بيت المستوغر، فإذا قام من مجلسه فنبهني بصوتك، ففطن المستوغر لفعله، فمنعه من الصِّياح. ثم أخذ بيده إلى منزله، فقال: هل ترى بأسًا؟ قال: لا. ثم أخذه إلى بيت الفتى، فإذا الرجل مع امرأته، فقال المستوغر: لعلَّني مُضلَّلٌ كعامر فذهبت مثلًا:

يُضرب لمن يطمع في أن يخدعك كما خدع غيرك.

مواعيد عرقوب(٤)

ويقال أيضًا: أخلفُ من عرقوب.

قال كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد» التي مدح بها النبيّ ﷺ:

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلًا ... وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

(١) جمهرة الأمثال: ٢/ ١٤٣.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٤٦.
(٣) مجمع الأمثال: ٣/ ١٢٦.
(٤) مجمع الأمثال: ٢/ ٣١١. وقصيدة «بانت سعاد».

وعرقوب رجل من العماليق، أتاه أخ له يسأله، فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طَلْعُها. فلما أطلعت أتاه للعِدة (الوعد فقال: دعها حتى تصير بلحًا. فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير رطبًا. فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمرًا. فلما أثمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجدَّها[١] ولم يعطِ أخاه شيئًا، فصار مثلًا في الخُلْف.

وقال الشاعر:

وأكذبُ من عرقوب يَتْرَبَ لهجةً ... وأَبْيَنُ شؤمًا في الحوائج من زُحَلْ[٢]

لا ناقتي ولا جملي[٣]

يقال لمن لا علاقة له بالأمر. قال الطغرائي في لامية العجم:

فيمَ الإقامةُ بالزوراء لا سكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي[٤]
ناءٍ عن الأهل صُفْرُ الكف منفردٌ ... كالسيف عُرِّيَ مَتْناه عن الخِلَلِ[٥]

ولمّا اشتدَّ ساعده رماني[٦]

يضرب لمن يسيء إليك وقد أحسنت إليه: قال الشاعر معن بن أوس:

فيا عجبًا لمن ربَّيْتُ طفلًا ... ألقّمهُ بأطراف البنانِ
أعلّمهُ الرماية كل يومٍ ... فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم علّمتُهُ نظم القوافي ... فلمَّا قال قافيةً هجاني
أُعلِّمه الفتوَّة كل وقتٍ ... فلما طرَّ شاربهُ جفاني[٧]

---

(١) جدَّها: قطع ثمرها.

(٢) يَتْرَب (بالتاء وفتح الراء): موضع قريب من اليمامة. ويروى أن الرجل كان من يثرب، المدينة المنورة.

(٣) معادن الجواهر: ٣/ ٥٧٥.

(٤) الزوراء: من أسماء بغداد. سميت بذلك لازورار قبلتها أي انحرافها.

(٥) الصُفْر: الخالي. والخِلل، بكسر الخاء وفتح اللام: جمع خِلَّة، وهي جفن السيف المغشى بالأدم أو بطانة منقوشة يغشى بها غمد السيف.

(٦) المحاسن والمساوىء: ٤/ ١٢٧. ومجمع الأمثال: ٣/ ١٣٠.

(٧) طرَّ شاربه: نبت.

ما وراءَك يا عصامُ؟(١)

يضرب مثلًا في استعلام الخبر. وقال بعضهم: هو للنابغة الذبياني. بعد أن وصف المتجردة زوجة النعمان بن المنذر وغضب النعمان منه فهرب خوفًا من انتقامه إلى ملوك غسان بالشام، كان النابغة يأكل ويشرب في آنية من الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده لحبهم له.

فلما بلغه أن النعمان عليل لا يرجى، أقلقه ذلك ولم يملك الصبر على البعد عنه مع عِلَّته وما خافه عليه وأشفق من حدوثه به، فصار إليه وألفاه محمولًا على سريره ينقل ما بين الغمر وقصور الحيرة فقال لعصام بن سهَبر حاجب النعمان:

أَلَمْ أُقسم عليك لتخبرنّي ... أمحمولٌ على النعش الهمامُ
فإني لا ألومك في دخولي ... ولكن ما وراءَكَ يا عصامُ
فإن يهلك أبو قابوس يهلك ... ربيع الناس والشهرُ الحرامُ
ونمسكُ بعده بذناب عيشٍ ... أجبَّ الظهر ليس له سنامُ

وكانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافهم يتعاقبونه فيكون كذلك على أكتاف الرجال لأنه عندهم أوطأ من الأرض.

يقول النابغة لعصام حاجب النعمان: لستُ ألومك بمنعك إياي عن الدخول إليه، ولكن أعلمني حقيقة خبره.

وقيل أيضًا بأن المثل لامرأة من أهل اليمن يقال لها «عِصام».

لَجَمَلُ أهلك خيرٌ منك(٢)

يقال تحقيرًا للشخص. وكانت العرب تضرب بالجمل المثل في الهوان. وفي ذلك قال العباس بن مرداس:

لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ ... ولم يَسْتغنِ بالعِظَم البعيرُ
يُصَرِّفهُ الصبيُّ بكل وجهٍ ... ويحبسهُ على الخَسْف الجريرُ
وتضربُهُ الوليدةُ بالهراوي ... فلا غيرٌ لديه ولا نكيرُ

---

(١) الأغاني: ١١/ ٢٩. ومجمع الأمثال: ٢/ ٢٦٢. وجمهرة الأمثال: ١/ ٥٦٩.

(٢) ديوان الحماسة: ص ٤١٩؛ وشرح نهج البلاغة ١٨/ ٥٧.

وافق شَنٌّ طبقة(١)

قال الشرقي بن القطامي: كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له شنٌّ، فقال: والله لأطوفنَّ حتى أجد امرأة مثلي أتزوجها. فبينما هو في بعض مسيره إذ وافقه رجل في الطريق، فسأله شَنّ: أين تريد؟ قال: موضع كذا، يريد القرية التي يقصدها شن، فوافقه حتى إذا أخذا في مسيرهما قال له شن: أتحملني أم أحملك؟ فقال له الرجل: يا جاهل أنا راكب، وأنت راكب، فكيف أحملك أو تحملني؟ فسكت شن، وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع يحصده أهله، فقال شن: أترى هذا الزرع أُكِل أم لا؟ فقال الرجل: يا جاهل، ترى نبتًا مستحصدًا وتقول أُكِل أم لا؟ فسكت عنه شن، حتى إذا دخَلا القرية لقيتهما جنازة، فقال شن: أترى صاحب هذا النعش حيًا أو ميتًا؟ فقال الرجل: ما رأيت أجهل منك! ترى جنازة تسأل عنها أميتٌ صاحبها أم حي؟ فسكت شن عنه، فأراد مفارقته فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله، فرضي معه.

وكان للرجل بنت يقال لها طبقة، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ـ فأخبرها بمرافقته إياه وشكا لها جهله وحدثها بحديثه، فقالت: يا أبتِ ما هذا بجاهل.

أما قوله: «أتحملني أم أحملك»؟ يراد: أتحدّثني أم أُحدّثك حتى نقطع طريقنا. وأما قوله: أترى الزرعَ أُكِل أم لا؟ فأراد هل باعه أهله وأكلوا بثمنه أم لا؟ وأما قوله في الجنازة. . . فأراد: هل ترك عقبًا يحيا بهم ذِكره أم لا؟

فخرج الرجل فقعد مع شن فحادثه ساعة ثم قال له: أتحبُّ أن أفسِّر لك ما سألتني عنه؟ قال: نعم فسِّره، ففسره. قال شن: ما هذا من كلامك، فأخبرني عن صاحبه. قال: ابنة لي. فخطبها إليه، فزوجه إياها، وحملها إلى أهله، فلما رأوها قالوا: «وافق شنٌّ طبقة» فذهب مثلًا.

سبق السيف العذل(٢)

كان لضَبَّة بن أُدٍّ ابنان؛ يقال لأحدهما سعدٌ وللآخر سُعَيْد؛ فنفرت إبل لضبَّة تحت الليل فوجّه ابنيه في طلبها؛ فتفرقا. فوجدها سعد، فردها. ومضى سُعيد في

(١) جمهرة الأمثال: ١/١٧٦؛ ومجمع الأمثال: ٣/٤١٨.

(٢) اللسان ـ مادة شجن، أمثال الميداني: ١ ـ ١٨٠.

طلبها؛ فلقيه الحارث بن كعب ـ وكان على الغلام بُرْدان ـ فسأله إياهما، فأبى عليه، فقتله، وأخذ بُرْدَيْهِ.

فكان ضبّة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادًا قال: أسعد أم سعيد[١]؟

فمكث ضبّةُ كذلك ما شاء الله أنْ يمكث. ثم إنه حجَّ؛ فوافى عُكَاظ، فلقي بها الحارثَ بن كعب؛ ورأى عليه بُرْدَي ابنه سُعيد، فعرفهما، فقال: هل أنت مُخْبري: ما هذان البردان اللذان عليك! قال: لقيت غلامًا وهُمَا عليه؛ فسألته إياهما فأبى عليَّ فقتلته؛ وأخذْتُ بُرْديه هذين.

فقال ضبَّة: بسيفك هذا؟ قال: نعم! فقال: فأعطنيه أنظر إليه فإني أظنُّه صارمًا، فأعطاه الحارثُ سيفَه، فلما أخذه من يده هزّه، وقال: الحديث[٢] ذو شُجون، ثم ضربه بِه حتى قتله؛ فقيل له: يا ضبَّة؛ أفي الشهر الحرام؟ فقال: سبق السيفُ العَذل!

جَوّع كَلْبَك يَتْبَعك[٣]

كان أحدُ ملوك حِمْير عنيفًا على أهل مملكته، يَغْصِبُهم أموالهم، وَيَسلُبهم ما في أيديهم، وكانت الكهنة تخبره أنهم سيقتلونه، فلا يحفل بذلك.

وسمعت امرأته أصواتَ السُّؤال؛ فقالت: إني لأرحمُ هؤلاء؛ لما يلقوْن من الجهدِ، ونحن في العيش الرغد، وإني لأخاف عليك أن يصيروا سِباعًا، وقد كانوا لنا أتْباعًا؛ فرد عليها وقال: جَوّع كلْبكَ يتبعك[٤]!

فلبث بذلك زمانًا، ثم أغزاهم، فغنموا، ولم يقسم فيهم شيئًا، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه ـ وهو أميرهم: قد ترى ما نحنُ فيه من الجهد، ونحنُ نكره خروجَ الملْكِ منكم ـ أهلَ البيت ـ إلى غيركم؛ فساعدنا على قتل أخيك، واجلِسْ مكانه.

وكان قد عرف بَغْيه واعتداءَه عليهم؛ فأجابهم إلى ذلك؛ فوثبوا عليه فقتلوه! فمرَّ به عامر بن جَذِيمة ـ وهو مقتول ـ وقد سمع بقوله: جَوِّعْ كلبك يتبعك ـ فقال: ربما أكل الكلبُ مؤدِّبه إذا لم ينل شبعَه!

---

(١) ذهبت مثلًا، ويضرب به النجاح والخيبة. (٢) ذهبت مثلاً.

(٣) الأمثال: ١ ـ ١٥٠.

(٤) مثل يضرب في معاشرة اللئام، وما ينبغي أن يعاملوا به.

عِند جُهَينَة الخَبَر اليَقين[١]

أحدث الأخنسُ بن كعب في قومه حَدَثًا، فخرج هاربًا، فلقيه الحصين بنُ عمرو الكلابي، فقال له: مَن أنت؟ ثَكلتك أُمُّك! فقال له الأخنس: بل مَن أنت ثَكلتك أُمك! فردد هذا القول حتى قال الأخنس: أنا الأخنس بنُ كعب، فأخبرْني مَنْ أنت، وإلا أنفذت قلبك بهذا السِّنان. فقال له الحصين: أنا الحصين بن عمرو الكلابي.

فقال له الأخنس: فما الذي تريد؟ قال: خرجتُ لِمَا يخرج له الفتيان. قال الأخنس: وأنا خرجتُ لمثل ذلك. فقال له الحصين: هل لك أن نتعاقد ألا نلْقَى أحدًا من عشيرتك أو عشيرتي إلا سلبناه؟ قال: نعم؛ فتعاقد على ذلك؛ وكلاهما فاتك يحذَرُ صاحبه!

فلقيا رجلًا فسلبَاه، فقال لهما: هل لكما أن تردّا عليّ بعضَ ما أخذتما مني وأدلّكما على مغنم؟ قالا: نعم. فقال: هذا رجل من لخْم، قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير، وهو خلْفي في موضع كذا وكذا. فرَدّا عليه بعضَ ماله، وطلبا اللّخمي، فوجداه نازلًا في ظل شجرة وقُدّامه طعام وشراب، فحيياه وحياهما، وعرض عليهما الطعام، فكره كلُّ واحدٍ أن ينزل قبل صاحبه فيفْتك به، فنزلا جميعًا، وأكلا وشربا مع اللّخمي.

ثم إنَّ الأخنس ذهب لبعض شأنه، فرجع واللخمي يتشحَّط في دمه[٢]. فقال الجهني ـ وهو الأخنس ـ وسلّ سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولًا: ويحك! فَتكْتَ برجلٍ قد تحرمنًا بطعامه وشرابه، فقال: اقعد يا أخَا جُهينة؛ فلهذا وشبهه خرجنا. فشرِبا ساعةً وتحدثا.

ثم إن الحصين قال: يا أخا جهينة؟ أتدري ما صعْلةُ وما صَعْل[٣]؟ قال الجهني: هذا يوم شرب وأكل؛ فسكت الحصين حتى إذا ظن أنّ الجهني قد نسيَ ما يُراد به قال: يا أخا جهينة؛ هل أنت للطير زاجر! قال: ما ذاك؟ قال: ما تقول هذه العُقاب الكاسر؟ قال الجهني: وأين تراها؟ قال: هي ذهِ، وتطاول ورفع رأسَه

---

(١) مجمع الأمثال: ١ ـ ٣٠٤.

(٢) يتشحط في دمه: يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ.

(٣) الصعلة: النعامة، والصعل: الظليم.

إلى السماء، فوضع الجهني بادِرَةَ السيف في نحره، فقال: أنا الزاجر والناحر! واحتوى على مَتَاعه ومتاع اللخمي، وانصرف راجعًا إلى قومه.

فمرّ ببطنين من قيس يقال لهما: مراح وأنمار، فإذا هو بامرأة تنْشُد الحصين، فقال لها: مَنْ أنتِ؟ قالت: أنا صَخْرة أخت الحصين، قال: أنا قتلتُه. قالت: كذبت! ما مثلك يقتلُ مثلَه، أما والله لو لم يكن الحيُّ خُلْوًا ما تكلمت بهذا. فانصرف إلى قومه فأصلح أمرهم، ثم جاءهم، فوقف حيث يسمعهم وقال:

وكم من ضَيْغَمٍ وَرْدٍ[1] هَمُوس[2] ... أبي شِبْلين مسكنهُ العرين
علوت بياض مَفْرِقِه[3] بعَضْبٍ ... فأضحى في الفلاة له سكونُ
وأضحت عِرْسُه ولها عليه - ... بُعَيْد هدوءِ ليلتها - رَنينُ
وكم من فارس لا تزدريه ... إذا شخصَتْ لموقعه العيون
كصخرةَ إذ تُسَائِلُ في مراحٍ ... وأنمار وعلمُهما ظنونُ
تسائل عن حصين كلَّ ركبٍ ... وعند جهينة الخبرُ اليقين
فمن يكُ سائلًا عنه فعندي ... لصاحبه البيان المستبين
جهينةُ معشري وهمُو ملوك ... إذا طلبُوا المعَالي لم يهونوا

أُكِلتُ يَوم أُكلَ الثورُ الأبيض[4]

قال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما مَثَلي ومثلُ عثمان كمثل أثوار ثلاثة كُنّ في أَجَمةٍ[5]: أبيض، وأسود، وأحمر؛ ومعهنَّ فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهنَّ عليه.

فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجَمتنا إلا الثور الأبيض، فإنَّ لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتماني آكله صَفَتْ لنا الأجمة، فقالا له: دونك فكُلْه، فأكله.

فلما مَضتْ أيام، قال للأحمر: لوني على لونك فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة! فقال له: دونك فكُلْه، فأكله.

---

(١) الورد: الأسد، ولونه بين الكميت والأشقر. (٢) الهموس: السيار بالليل.
(٣) المفرق: وسط الرأس. (٤) مجمع الأمثال: ١ - ٢٣.
(٥) الأجمة: الشجر الكثير الملتف.

ثم قال للأحمر: إني آكِلُك لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثًا، فقال: افعل؛ فنادى: ألا إني أُكِلْت يوم أُكِل الثور الأبيض؛ ثم قال عليّ رضي الله عنه: أَلَا إني أُهِنْتُ يوم قُتِل عثمان! يرفع بها صوته!

مَنْ صَدَقَ الله نجا[١]

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ؛ أنه قال: إن ثلاثة نَفرٍ انطلقوا إلى الصحراء فمَطَرَتهم السماءُ؛ فلجئوا إلى كَهف في جبل ينتظرون إقلاع المَطر؛ فبينما هم كذلك إذ هبطت صخرةٌ من الجبل، وجَثَمَتْ على باب الغار فيئسوا من الحياةِ والنَّجَاة، فقال أحدهم: لينظر كلُّ واحد منكم إلى أَفْضَلِ عملٍ عَمِلَهُ فليذكره، ثم ليدْعُ الله تعالى عسى أن يَرْحَمنا وينجينا.

فقال أحدُهم: اللهم إنك تعلم أني كنت بارًّا بوالديّ، وكنت آتيهما بغَبُوقهما[٢] فيَغْتَبِقَانِه، فأتيت ليلةً بغَبوقهما، فوجدتهما قد ناما، وكرهتُ أن أُوقظَهما، وكرهت الرجوع؛ فلم يزل ذلك دأبي حتى طلع الفجر؛ فإنْ كنتُ عملتُ ذلك لوجهك، فأفرِج عنا؛ فمالت الصخرةُ عن مكانها حتى دخل عليهم الضوء.

وقال الآخر: اللهم إنك تعلم أني هويت امرأة، ولقيت في شأنها أهوالًا حتى ظفرتُ بها، ولكني تركتها خوفًا منك؛ فإن كنتَ تعلم أنه ما حملني على ذلك إلا مخافتُك فأفرج عنا فانفرجت الصَّخْرة حتى لو شاء القوم أن يخرجوا لقدروا.

وقال الثالث: اللهم إنك تعلم أني استأجرتُ أُجَرَاء، فعمِلوا لي فوفَّيْتُهم أجورَهم إلا رجلًا واحدًا ترك أَجْرَه عندي، وخرج مُغَاضبًا، فربَّيت أجره حتى نما وبلغ مبلغًا، ثم جاء الأجيرُ، فطلب أجرتَه؛ فقلت: هاك ما ترى من المال؛ فإن كنتُ عملت ذلك لك فأفرج عنا؛ فمالت الصخرة وانطلقوا سالمين! فقال ﷺ: «مَن صدق نجا».

لَا أُحِبُّ تخديشَ وَجهِ الصَّاحِب[٣]

زعمت العرب أن الثعلب رأى حجرًا أبيض بين لِصْبَيْن[٤]، فأراد أن يغتال به الأسد، فأتاه ذات يوم، فقال له: يا أبا الحارث، الغنيمة الباردة! شحمة

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/١٦٧.
(٢) الغبوق: شراب العشي.
(٣) مجمع الأمثال: ٢ ـ ١٧١.
(٤) اللصب: الشعب الصغير في الجبل.

رأيتها بين لِصِبَيْن، فكرِهت أن أدنو منها، وأحببتُ أن تتولى ذلك أنت! فهلمّ لأريكها!

فانطلق به حتى جاء إليها؛ فقال: دونك يا أبا الحارث!

فذهب الأسد ليدخل، فضاق به المكان؛ فقال له الثعلب: ادْفع برأسك! فأقبل الأسد يدفع برأسه حتى نشب.، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر.

ثم أقبل الثعلب يخدش خَوْرَانه[١]؛ فقال الأسد: ما تصنعُ يا ثُعَالة[٢]؟ قال: أريد لأستنقذك؛ قال: فمن قِبَل الرأس إذَنْ! فقال الثعلب: لا أحب تخديش وجه الصاحب!

حُكومَة الضّب[٣]

زعموا أن أرنبًا التقطت تمرة؛ فاختلَسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضّب؛ فقال الأرنب: يا أبا الحِسْل[٤]! قال: «سميعًا دعوتِ». قالت: أتيناك لِنَخْتَكِم إليك. قال: «عَادِلًا حَكَّمْتُما». قالت: فاخرج إلينا. قال: «في بَيْتِهِ يُؤتَى الحكم»، قالت: إني وجدت تمرة، قال: «حُلْوةٌ فَكُلِيهَا». قالت: فاختلسها الثعلب. قال: «لِنَفْسِهِ بَغى الخيرَ»، قالت: فلطمتُه. قال: «بحقِّكِ أخذتِ»، قالت: فَلَطَمني، قال: «حُرٌّ انتصرَ»، قالت: فاقضِ بيننا؛ قال: قد قضيت!

مُجِير أُمّ عَامِر[٥]

خرجَ قوم إلى الصيد في يوم حارّ؛ فإنهم لكذلك؛ إذ عرضَتْ لهم أُمُّ عامر[٦] ـ وهي كنية الضبُع ـ فطردوها؛ فأتعبتهم حتى ألجأُوها إلى خِباء أعرابيّ، فاقتحمته؛ فخرج إليهم الأعرابي وقال: ما شأنكم؟ قالوا: صيدنا وطريدتنا؛ فقال: كلّا؛ والذي نفسي بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائمُ سيفي في يدي، فرجَعُوا وتركوه، وقام إلى لَقْحَة[٧] فحلبها، وماء فقرب منها، فأقبلت تَلَغُ مرةً في هذا ومرة في هذا حتى رَوِيَت واسْتَرَاحَتْ، فبينا الأعرابيُّ نائم في جوف بيته، إذا وثبتْ عليه فبقرت بَطْنَه، وشربت دمَه وتركَتْهُ!

---

(١) المراد مؤخره.

(٢) ثعالة: لقب الثعلب.

(٣) مجمع الأمثال: ٢ ـ ١٧.

(٤) كنية الضب، والحسل: ولد الضب.

(٥) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٨٢.

(٦) عامر: جرو الضبع، وأم عامر: كنيتها.

(٧) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، ولا يوصف به.

فجاء ابن عم له يطلبه، فإذا هو بِقَبْرٍ في بيته؛ فالتفت إلى موضع الضبع، فلم يرها، فقال: صاحبتي والله، فأخذ قوسه وكنانته واتبعها، فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشأ يقول:

ومَن يصنع المعروف مع غير أهله   يلاقي الذي لاقى مجيرُ أُم عامر!

كَيفَ أُعاوِدُك وَهَذا أَثَر فَأسِك![١]

حُكِيَ أنّ أخوَين كانا في إبل لهما، فأجدبَتْ بلادُهما، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيب، وفيه حية تَحْمِيه من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان؛ لو أني أتيت هذا الوادي المُكلىء[٢] فرعيتُ فيه إبلي وأصلحتُها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحيَّة، ألا ترى أن أحدًا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته؟ قال: فوالله لأفعلَنْ! فهبط الوادي ورعى به إبله زمانًا.

ثم إن الحية نهشته فقتلته، فقال أخُوه: والله ما في الحياة بعد أخي خير، فلأطلُبنَّ الحية ولأقتلنَّها أو لأتْبَعنّ أخي، فَهَبَطَ ذلك الوادي وطلب الحيَّة ليقْتلَها؛ فقالت الحية: ألستَ ترى أني قتلت أخاك؟ فهلْ لك في الصُلْح فأدعَك بهذا الوادي تكونُ فيه وأعطيَك كل يوم دينارًا ما بقيت؟ قال: أوَ فاعلة أنتِ! قالت: نعم. قال: إني أفعل، وحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضرُّها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر مالُه حتى صار من أحسن الناس حالًا، ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العَيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ ثم عمد إلى فأس فأخذها؛ ثم قعد لها؛ فمرَّت به فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجُحر، ووقعت الفأس فوق جحرها فأثرت فيه، فلما رأتْ ما فعل قطعت عنه الدينار؛ فخاف الرجل شرها وندم؛ فقال لها: هل لك أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: «كيف أعاوِدُك وهذا أثر فأسك!»[٣].

---

(١) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٨٢.
(٢) المكلىء: الكثير الكلأ.
(٣) سارت مثلًا.

أَنْفك منك وَإن كَانَ أَجْدَع[١]

دفع الربيع بن كعب المازني فرسًا كان قد أَبَرَّ[٢] على الخَيلِ كرمًا وجودة إلى أخيه كَمِيش ليأتيَ به أهله، وكان كميش مشهورًا بالحمق، وقد كان رجلٌ من بني مالك يقال له: قُرَاد بنُ جرم، قدم على أصحاب الفرس؛ ليصيب منهم غِرَّة فيأخذَها، وكان داهية؛ فمكث فيهم مقيمًا؛ لا يعرفون نسبه، ولا يظهره هو.

فلما نظر إلى كَميش راكبًا الفرس ركب ناقَته، ثم عَارَضَه[٣]، فقال: يا كميش؛ هل لك في عَانَةٍ[٤] لم أر مثلها سِمَنًا ولا عَظَمًا، وعِيرٍ[٥] فيها الذهب؛ فأما الأُتُن فتروح بها إلى أهلك، فتملأ قدورهم وتُفْرح صدورهم؛ وأما العِيرُ فلا افتقار بعده!

قال له كميش: وكيف لنَا به؟ قال: أنا لك به، وليس يُدْرَك إلا على فرسك هذا، ولا يرى إلّا بلَيْلٍ، ولا يراه غيري!

قال كَمِيش: فَدُونَكَه! قال: نعم، وأَمْسِك أنت راحلتي.

فركب قراد الفرس، وقال: انتظرني في هذا المكان إلى هذه الساعة من غد. قال: نعم!

ومضى قراد؛ فلما توارى أنشأ يقول:

ضَيَّعتَ في العيرِ ضَلالًا مُهْرَكا   لتطعمَ الحي جميعًا عِيرَكا
فسوف تأتي بالهوان أهْلَكا   وقبل هذا ما خدعتُ الأنْوَكا[٦]

فلم يزل كميش ينتظر حتى أمْسى من غَدِه وجاع. فلما لم يَرَ له أثرًا انصرف إلى أهله، وقال في نفسه: إن سألني أخي عن الفرس، قلت: تحوَّلَ ناقةً!

فلما رآه الربيعُ عرف أنه خُدع عن الفرس؛ فقال له: أين الفرس؟ قال: تحوّل ناقة! قال: فما فعل السرج؟ قال: لم أَذْكُر السرج فأطلب له عِلَّة!

---

(١) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٢٦.
(٢) أبر على أصحابه: علاهم.
(٣) عارضه: سار حياله.
(٤) العانة: القطيع من حمر الوحش.
(٥) العير: القافلة تحمل الميرة.
(٦) أنوك: أحمق.

فصرعه الربيع ليقتله؛ فقال له قنفذ بن جَعْوَنة: الُهُ عما فاتك، فإن أَنْفَكَ منك وإن كان أَجْدَع[١]!

وقدم قراد بن جرم على أهْله بالفرس، وقال في ذلك:

يؤمِّلُ عيرًا من نُضارٍ وعَسْجَدٍ
فهل كان لي في غير ذلك مطمع
وقلتُ له: أَمْسِك قلوصي[٢] ولا تَرِمْ[٣]
خِداعًا له إذْ ذو المكايد يخْدَع
فأَصْبح يَرْمي الخافقين بطَرْفِه
وأصبح تَخْتِي ذُو أفانين[٤] جُرْشُع[٥]

ألا مَن يَشتري سَهرًا بنَوم[٦]

تفرّقت حِمْيَر على ملكها حَسَّان، وخالفتْ أمره؛ لسوء سيرته فيهم، ومَالوا إلى أخيه عمرو، وحملوه على قَتْل حسان، وأشاروا عليه بذلك، ورغبوه في الملْك، ووعدوه حسنَ الطاعة والمؤازرة، فنهاه ذُو رُعَيْن من بين حمير عن قتل أخيه، وعلم أنه إن قَتَل أخاه ندِم ونفَرَ عنه النوم، وانْتَقَضَتْ عليه أُموره، وأنه سيُعَاقِب الذي أشار عليه بذلك، ويعرف غِشَّهم له.

فلما رأى ذُو رُعَيْن أنه لا يقبل ذلك منه، وخشي العواقب قال:

ألا من يشتري سَهَرًا بنوم ... سعيدٌ من يبيت قريرَ عيْن
فإمّا حميرٌ غدرت وخانَتْ ... فمعذرةُ الإلٰه لذي رُعَيْنِ

ثم كتب البيتين في صحيفة، وختم عليها بخاتم عمرو، وقال: هذه وديعةٌ لي عندك إلى أنْ أطلبها منك؛ فأخذها عمرو ودفعها إلى خَازِنه، وأمره برفعها إلى الخِزانة، والاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها:

(١) صارت مثلًا: يضرب لمن يلزمك خيره وشره، وإن كان ليس بمستحكم القرب.
(٢) القلوص من الإبل: الشابة. (٣) لا ترم: لا تبرح.
(٤) الأفانين: جمع أفنان، وأفنان جمع فنن، وهو الخصلة من الشعر. يقول: إنه ذو خصل من الشعر في ناصيته وذنبه.
(٥) الجرشع: العظيم من الخيل. (٦) الأمثال ١ ـ ٦٥.

فلما قَتل أخاه، وجلس مكانه في الملك مُنِع منه النوم، وسلِّط عليه السهر؛ فلما اشتد ذلك عليه، لم يَدَعْ باليمن طبيبًا ولا كاهنًا، ولا مُنَجِّمًا، ولا عرَّافًا ولا عائِفًا، إلا جمعهم، ثم أخبرهم بقصته، وشكا إليهم ما به. فقالوا له: ما قتلَ رجلٌ أخاه أو ذَا رحم منه على نحو ما قَتَلْتَ أخاك إلا أصابه السهر، ومُنِع منه النوم!

فلما قالوا له ذلك أقبل على مَنْ كان أشار عليه بقتل أخيه وساعده عليه من أقْيَال حِمْيَر، فقتلهم وأفْنَاهم.

فلما وصل إلى ذي رُعَين قال له: أيُّها الملك؛ إنّ لي عندك براءة مما تريد أن تصنعَ بي. قال: وما براءتُك وأمانك؟ قال: مُرْ خَازِنك أن يُخرج الصحيفة التي استودعتكها يوم كذا وكذا.

فأمر خازِنَه فأخرجها، فنظر إلى خاتمه عليها ثم فضّها، فإذا فيها البيتان:

ألا مَن يشتري سهرًا بنوم[١]

ثم قال له: أيها الملك؛ قد نهيتك عن قَتْل أخيك، وعلمتُ أنك إن فعلتَ ذلك أصابك الذي قد أصابك، فكتبتُ هذين البيتين براءةً لي عندك مما علمتُ أنك تصنع بمن أشار عليك بقتل أخيك!

فقبل ذلك منه وعفا عنه، وأَحْسَنَ جائزته.

غثُّك خَير مِن سَمين غَيرك[٢]

كانت بين مذحِج وحيٌ من أحياء العرب حربٌ شديدة، فمرَّ مَعنُ بن عَطِيّة المذْحِجيّ في حَمْلَةٍ حملها برجل من أعدائهم صريعًا؛ فاسْتغَاثه وقال: امنُنْ عليَّ كُفِيتَ البلاء! فأقامه مَعْن، وسار به حتى بلغ مَأْمَنه، ثم عطف أولئك القوم على مَذْحِج فهزمُوهم وَأَسَرُوا مَعْنًا وأخًا له يقال له: روق، وكان يُضَعَّف ويُحَمَّق[٣].

(١) ذهبت مثلًا، ويضرب لمن غمط النعمة وكره العافية.
(٢) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٤.
(٣) حمقه: نسبه إلى الحمق. وضعفه: عده ضعيفًا.

فلما انصرفوا إذا صاحبُ مَعْن الذي نجّاه أخو رئيس القوم، فناداه معن وقال:

يا خيرَ جازٍ بِيَدِ أوليتها نجّ مُنجيكَ
هل من جزاء عندك اليـ ـوم لمن ردّ عواديكَ

فعرفه صاحبُه، فقال لأخيه: هذا المانُّ عليّ، ومُنقِذِي بعد ما أشرفتُ على الموت فهبْه لي، فوهبه له: فخلّى سبيله، وقال: إني أُحِبُّ أن أضاعف لك الجزاء، فاخترْ أسيرًا آخر؛ فاختار مَعْنٌ أخاه رَوْقًا، ولم يلتفتْ إلى سيِّدِ مَذْحِج وهو في الأسارى.

ثم انطلق مَعْن وأخوه راجعَيْن، فمرَّا بأسارى قومهما، فسألوا معْنًا عن حال سيدهم، فأخبرهم الخبر، فقالوا لمعن: قبحك الله تَدَعُ سيدَ قومك وشاعرَهم لا تفكّه، وتفكّ أخاك هذا الأنْوَك[1] الفَسْل[2] الرَّذْل[3]. فوالله ما نَكأَ جُرْحًا ولا أعمل رمحًا، ولا ذَعَر سَرْحًا[4]؛ وإنه لقبيحُ المنظر سَيِّءُ المخبر، لئيم: فقال معن: «غثُّك خيرٌ من سَمِينِ غيرك[5]».

حِكَم وأقوال مأثورة

- قيل لحكيم: أيسرُّك أنك جاهل ولك مائة ألف درهم؟ قال: لا. قيل: لم؟ قال: لأنَّ يُسْرَ الجاهل شَيْنٌ، وعسرَ العاقل زَيْنٌ، وما افتقر رجل صحَّ عقله.

- قيل للفضيل بن عياض: ما أزهدك! قال: فأنتم أزهد مني. قيل: كيف؟ قال: لأني أزهد في الدنيا وهي فانية، وتزهدون في الآخرة وهي باقية.

- قال بعضهم: لا تُمارِ جاهلًا ولا عالمًا، فإن العالم يُحاجُّكَ فيغلبك، والجاهل يلاحيك فيغضبك[6].

- ولا تحدّث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا بالباطل عند الحكماء فيمقتوك. من حدَّث لمن لا يستمع لحديثه، كان كمن قدم طعامه لأهل القبور.

---

(١) الأنوك: الأحمق.
(٢) الفسل: الرذل الذي لا مروءة له.
(٣) الرذل: الدون الخسيس.
(٤) السرح: المال السائم.
(٥) ذهبت مثلًا.
(٦) ماراه: ناظره وجادله. ولاحاه: نازعه وخاصمه.

ـ قال بعض المتقدمين: قلَّما أطلب حاجة إلَّا أدركتها؛ وذلك أني لا أطلبها إلى غيرها، وأطلبها في حينها، ولا أطلب إلَّا ما أستحق.

ـ دخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه وهو نائم نومة الضحى، فقال: أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك؟ فقال: يا بني، إن نفسي مطيتي، إن حملت عليها قطتها.

ـ قيل: استأذن العقل على الحظ، فلم يأذن له. فقال له: لم لا تأذن لي؟ قال: لأنك تحتاج إلي، ولا أحتاج إليك.

ـ كتب واصل بن عطاء عن رجل يختلف إليه حديثًا، فقيل له: أتكتب عن هذا الحديث؟! قال: أما إني أعلم ما كتبته عنه، ولكني أردت أن أذيقه حلاوة الرياسة، ليدعوه ذلك إلى الازدياد من العلم.

ـ قال عثمان بن عفان: خير العباد من عُصم واعتصم بكتاب الله تعالى. ونظر إلى قبر فبكى وقال: هو أول منازل الآخرة، وآخر منازل الدنيا. فمن شُدِّد عليه فما بعده أشد، ومن هُوِّن عليه فما بعده أهون.

ـ قيل لبعض كبار الكتاب بعدما صُودِرَ: ما تُفَكِّرُ في زوال نعمتك؟ فقال: لا بدَّ من الزوال؛ فلئن تزول وأبقى خيرٌ من أن أزول وتبقى هي.

ـ لما فتح خالد بن الوليد عين التمر(١) سأل عن الحرقة بنت النعمان بن المنذر، فأتاها وسألها عن حالها فقالت: لقد طلعت علينا الشمس وما من شيء يدبُّ تحت الخَوَرْنَق(٢) إلَّا وهو تحت أيدينا، ثم غربت وقد رحمنا كل من نُلِمُّ به، وما بيتٌ دخلتَهُ حَبَرة(٣) إلَّا ستدخله عَبْرة ثم قالت:

بينا نسوس الناس والأمرُ أمرنا ... إذا نحن فيهم سُوقةٌ نتنصَّفُ(٤)
فأُفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تُقلَّب تاراتٍ بنا وتُصرَّفُ

---

(١) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة.
(٢) الخورنق والسَّدير: قصران بالحيرة بناهما النعمان بن المنذر. وقيل غير ذلك.
(٣) الحَبَرة: من الحبور، وهو الفرح والسرور. والعَبْرة: الدمعة.
(٤) السوقة: الرعيَّة، وأوساط الناس. نتنصَّف: نطلب الإنصاف.

وجاءها سعد بن أبي وقاص مرةً فلما رآها، قال: قاتل الله عديّ بن زيد، كأنه كان ينظر إليها حيث قال لأبيها:

إن للدهر صرعةً فاحْذَرَنْها لا تبيتنَّ قد أمنتَ الدهورا
قد يبيتُ الفتى مُعافى فيُردَى ولقد كان آمنًا مسرورا

- لما قتل عامرُ بن إسماعيل مروانَ بن محمد(١) وقعد على فراشه، قالت ابنة مروان له: يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن فراشه وأقعدك عليها لمُبلغٌ في عِظتك إن عَقَلْتَ.

- وقال شيخ من همدان: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع بهدايا، فمكثت تحت قصره حولًا لا أصل إليه، ثم أشرف إشرافةً من كوَّة له، فخرَّ له من حول العرش سُجَّدًا. ثم رأيته بعد ذلك في حمص فقيرًا يشتري اللحم ويسمِّطه خلف دابته وهو القائل:

أفٍّ لدينا إذا كانت كذا أنا منها في هموم وأذى
إن صفا عيش امرئٍ في صبحها جرَّعته مُمْسيًا كأس القَذَى
ولقد كنت إذا ما قيلَ منْ أنعمُ العالمِ عيشًا؟ قيل: ذا

- وقال الإمام عليّ بن أبي طالب: من استبدَّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها.

- من الناس مَن مدح المشورة، فقالوا: مَن استبدَّ برأيه خاطر به.

- وقالوا: المشورة راحةٌ لك، وتعب على غيرك. وقالوا: من أكثر من المشورة لم يعدم عند الصواب مادحًا، وعند الخطأ عاذرًا.

- وقال بشار:

إذا بلغ الرأيُ النصيحة فاستعِنْ بعزم نصيح أو مشورةِ حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً فإنَّ الخوافي عُدَّةٌ للقوادمِ(٢)

---

(١) مروان بن محمد: آخر ملوك بني أمية بالشام. ويعرف بالجعدي وبالحمار. قتل سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م.
(٢) الخوافي: ريشات أربع إذا ضم الطائر جناحه خفيت. والقوادم: ريشات في مقدم الجناح.

ـ ومن الناس من ذمَّ المشورة.

كان عبد الملك بن صالح الهاشمي يذمُّها ويقول: ما استشرتُ واحدًا قطُّ إلا تكبَّر علي وتصاغرتُ له، ودخلتهُ العزَّة ودخلتني الذلَّة، فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب، واشتبهتْ عليك المسائل، وأدَّاك الاستبداد إلى الخطأ الفادح.

ـ وكان عبد الله بن طاهر يذهب إلى هذا المذهب ويقول: ما حكَّ جلدك مثلُ ظفرك. ولأنْ أُخطيء مع الاستبداد ألفَ خطأ أحبُّ إليَّ من أن أستشيرَ وأُرى بعين النقص والحاجة.

ـ قال خالد بن صفوان: احترس من العين فهي والله أنمُّ عليك من اللسان.

ـ وقال العباس بن الأحنف:

لا جزى الله دمع عيني خيرًا ... بل جزى الله كلَّ خير لساني
نَمَّ طرفي فليس يكتمُ شيئًا ... ووجدتُ اللسان ذا كتمان
ما طار طيرٌ وارتفع ... إلا كما طار وقَعْ

ـ وقال الإمام عليّ في هذا المعنى: لكل مُقبلٍ إدبارٌ، وما أدبر فكأن لم يكن.

ـ قال بعض الحكماء: حركة الإقبال بطيئة، وحركة الإدبار سريعة، لأن المقبل كالصاعد إلى مرقاة، ومرقاةُ المدبر كالمقذوف من علو إلى أسفل. قال الشاعر:

في هذه الدار في هذا الرواق على ... هذي الوسادة كان العزَّ فانقرضا

ـ وفي الخبر المرفوع: كانت ناقة رسول الله ﷺ ـ الغضباء ـ لا تُسبق، فجاء أعرابيّ على قَعُود له فسبقها، فاشتدَّ على الصحابة ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ حقًّا على الله ألَا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه».

ـ قيل: رُبَّ قَوْلٍ أنفذُ من صَوْل.

وفي هذا المعنى قول الشاعر:

والقولُ ينفذ ما لا تنفذ الإبرُ

ـ ومن ذلك: «القولُ لا تملكه إذا نما، كالسهم لا تملكه إذا رمى».

- وقال الشاعر:

وقافيةٍ مثلِ حَدِّ السِّنا ... نِ تَبقى وَيَذْهَبُ من قالَها
تخيَّرْتُها ثم أرسلتُها ... ولم يُطِق الناسُ إرسالَها

- وقال محمود الورّاقِ:

أتاني منكَ ما ليسَ ... على مكروهِهِ صَبْرُ
فأغضيْتُ على عَمْدٍ ... وكم يُغضِي الفَتَى الحُرُّ
وأدَّبتُك بالهَجْرِ ... فما أدّبك الهَجْرُ
ولا ردَّك عَمّا كا ... ن منك الصَّفحُ والبرُّ
فلمّا اضطرني المكرو ... هُ واشتدَّ بيَ الأمرُ
تناولتُك في شِعري ... بما ليس له قَدْرُ
فحرَّكتَ جناحَ الضُّرِّ ... لمّا مَسّكِ الضّرّ
إذا لم يُصلحِ الخير أمـ ... ـرأً أصلَحهُ الشرُّ

- ويقال: المنيَّةُ ولا الدنيَّة؛ والتقلُّلُ ولا التوسُّل.

- وفي هذا الباب شيءٌ كثير، وقال الشاعر:

أُقسِم بالله لَمَصُّ النَّوَى ... وشربُ ماءِ القلبِ المالِحَهْ
أحسنُ بالإنسان من ذِلَّةٍ ... ومن سؤالِ الأوجهِ الكالحَهْ
فاستغنِ بالله تكنْ ذا غنًى ... مغتبطًا بالصّفقة الرابحَهْ
فالزّهد عزٌّ والتُّقَى سُؤددٌ ... وذلّة النفس لها فاضحهْ
كم سالمٍ صيحَ به بَغْتةً ... وقائلٍ عهدي به البارحَهْ
أمسَ وأَمسَتْ عنده قَيْنةٌ ... وأصبحتْ تَنْدُ به نائحهْ
طوبَى لمن كانت موازينهُ ... يومَ يلاقي ربَّه راجِحَهْ

- وقال أيضًا:

لمَصُّ الثِّماد وَخَرْطُ القَتادِ ... وشربُ الأجاج أوانَ الظَّمَى
على المرء أهوَنُ من أن يُرَى ... ذليلًا لخلْقٍ إذا أعْدَما
وخيرٌ لعينيك من منظرٍ ... إلى ما بأيدي اللّئام العَمَى

ـ ويقال: مَنْ لَمْ يُعْطَ قاعِدًا، لَمْ يُعْطَ قائِمًا.

مراده أن الرزق قد قَسَمه الله تعالى، فمن لم يرزقه قاعدًا لم يجب عليه والحركة.

وقد جاء في الحديث، إنّه صلّى الله عليه وآلهِ ناولَ أعرابيًا تَمْرة، وقال له: «خُذْها فلو لم تأتِها لأتتك».

وقال الشاعر:

جرى قلمُ القضاء بما يكونُ فسيّان التحرّكُ والسكونُ
جنونٌ منك أن تسعَى لرزقٍ ويُرزَقُ في غِشاوتِه الجَنِينُ

ـ وقيل في الرشوة: إن البراطيل تنصر الأباطيل.

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي».

ـ ومن كلام عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

من كرُمَتْ عليه نَفْسُه هانَتْ عليه شَهَواتُه.

من عظَّم صِغارَ المصائب ابتلاه الله بكبارها.

خيرُ البلاد ما حملك.

ما لابن آدم والفخر؟ أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه.

الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ. إن الله لم يرَ فيها ثوابًا لأوليائه، ولا عقابًا لأعدائه. وإن أهل الدنيا كركبٍ بينما هم حلولٌ، إذ صاح بهم صائح فارتحلوا.

التُّقَى رئيسُ الأخلاق.

ما أحسنَ تَواضُع الأغنياء للفقراء طلبًا لما عند الله، وأحسن منه تِيهُ الفقراء على الأغنياء اتكالًا على الله.

الدهر يومان: يومٌ لكَ ويومٌ علَيْك. فإن كانَ لكَ فلا تَبطَرْ، وإن كان عليك فلا تضجر.

من كثُرَتْ نعمةُ اللهِ عنده كثُرَتْ حاجاتُ الناس إليه، فمن قام لله فيها بما يحب عرَّضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم عرَّضها للزوال والفناء.

مَن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمقُ بعينه.

الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حبِّ أمه.

وسمع رجلًا من الحرورية يتهجد ويقرأ فقال: نومٌ على يقين خيرٌ من صلاة على شك.

إذا تمَّ العقل نقص الكلام.

قيمة كل امرىء ما يحسنه.

أبيات تجري مجرى الأمثال

قال الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر:

دعَ المكارمَ لا ترحَلْ لبغيتها ... وأقعُدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعلِ الخيرَ لا يعدم جوازيه ... لا يذهبُ العُرْف بين الله والناسِ

وقال الأعشى:

كناطحِ صخرةٍ يومًا ليوهِنَها ... فلم يَهِنْها وأوهى قرنَهُ الوعلُ

قال حميد بن ثور الهلالي في وصف الذئب:

ينامُ بإحدى فعلتيه ويتَّقي ... المنايا بأخرى فهو يقظانُ هاجعُ

يضرب لمن يكون شديد الحذر واليقظة.

مكانكِ تُحمدي أو تستريحي.

قال الشاعر:

أبت لي شيمتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمَد بالثمن الربيحِ
وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطل المشيحِ
وقَوْلي كلّما جشأت وجاشَتْ ... مكانَكِ تُحْمَدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحمي بَعْدُ عن عرضٍ صحيح

وهو ما يُتمثل به في الإقدام وعدم الخوف من الحرب.

ونظير هذا قول قطري بن الفجاءة وهو من زعماء الخوارج:

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال ويحك لا تُراعي
فإنك لو سألت حياة يومٍ ... سوى الأجَلِ الذي لك لم تطاعي

وقال آخر:

وَمَن رعى غنمًا في أرضِ مَسْبَعةٍ ونام عنها تولى رعيها الذئبُ

وتمثل بهذا الشعر أبو مسلم الخراساني في كلامه على بني أمية أنهم لهوا عن ملكهم حتى أخذه بنو العباس.

وقال الشاعر:

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيره هلَّا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء وأنت أولى بالدوا وتطببُ المرضى وأنت سقيمُ
فابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

ومن الشعر الذي أوله مثل وآخره مثل، بيت الحطيئة:

من يفعلِ الخيرَ لَا يُعدمْ جوازيَهُ لا يذهب العُرْفُ بين الله والناسِ

وبيتان لامرىء القيس:

وأفلتهنَّ عِلْباءَ جريضًا ولو أدركْتَهُ صَفُرَ الوطابُ
وقاهُمْ جدُّهم ببني أبيهم وبالأشقَيْن ما كان العِقابُ

ومنه لطرفة بن العبد:

ستُبْدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلًا ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّدِ

وهذا البيت الذي قيل إن النبيّ ﷺ قال فيه: إن معناه من كلام النبوة.

قال الشاعر:

ما كلّف اللهُ نفسًا فوق طاقتها ولا تجودُ يدٌ إلّا بما تجِدُ

قال المتنبي:

بذا قضت الأيامُ ما بين أهلها مصائبُ قوم عند قوم فوائدُ

وقال آخر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحرُ

وقال آخر:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ

وقال آخر:

إذا كان ربُّ البيت بالطبل ضاربًا فشيمةُ أهل البيت كلهم الرقصُ

وقال آخر:

إذا لم تستطع أمرًا فدعهُ وجاوزْهُ إلى ما يستطيعُ

وقال آخر:

المستجيرُ بعمروٍ عند كُرْبتهِ كالمستجير من الرمضاءِ بالنارِ

وقال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورتْ ما كان يُعرفُ طيبُ عُرْفِ العودِ
لولا التخوُّفُ للعواقب لم تَزَلْ للحاسد النُّعمى على المحسودِ

وقال ابن الوردي:

لا تقُلْ أصلي وفصلي أبدًا إنما أصلُ الفتى ما قد حَصَلْ
ينبتهُ الوردُ من الشوك كما ينبتُ النرجس أيضًا من بَصَلْ

وقال صفي الدين الحليّ:

إن الزرازير لما قام قائمها توهَّمَتْ أنها صارت شواهينا
ظَنَّتْ تأنّي البزاة الشهب عن جزعٍ وما درَتْ أنه قد كان تَهْوينا

وقال المتنبي:

وإذا أَتَتْكَ مذمَّتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كاملُ

وقال أيضًا:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرَّدا

وقال ابن الرومي:

رأيتُ الدهرَ يرفع كل وَغْد ويخفض كل ذي زنة شريفهْ
كمِثل البحر يغرق فيه درٌّ ولا ينفك تطفو فيه جيفَهْ
وكالميزان يخفض كل وافٍ ويرفع كل ذي زِنةٍ خفيفهْ

قال أبو الفتح البُسْتي[(١)]:

أَحْسِنْ إلى الناس تستعبِدْ قلوبَهُمُ فلطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
اشددْ يديك بحبل الله معتصمًا فإنه الركنُ إنْ خانتك أركانُ
من يتَّقِ اللهَ يحمد في عواقبهِ ويكْفِهِ شرَّ من عزُّوا ومن هانوا
من استعان بغيرِ الله في طلبٍ فإن ناصرهُ عجزٌ وخُذْلانُ
من يزرع الشرَّ يحصُدْ في عواقبه ندامةً ولحصد الشرِّ إبَّانُ
من استنام إلى الأشرار قام وفي قميصِهِ منهم صِلٌّ وثعبان
والناس أعوانُ من والته دولته وهم عليه إذا عادته أعوانُ
لا تحسب الناسَ طبعًا واحدًا فلهم غرائزُ لست تُحصيها وألوانُ
يا أيها العالم المرضيُّ بسيرته أبشِرْ فأنت بغير الماء ريَّانُ
ويا أخا الجَهل لو أصبحت في لجيج فأنت ما بينها لا شك ظمآنُ

ومن حكم الشاعر علقمة بن عبدة[(٢)]:

ومَن تعرَّض للغربان يزجرها على سلامتهِ لا بُدَّ مشؤومُ
وكل حصن وإن طالت سلامتُهُ على دعائمهِ لا بُدَّ مهدومُ
وكل قومٍ وإن عزُّوا وإن كبروا غريقهم بأثافي الشرِّ مرجومُ

وقال النجاشي الحارثي[(٣)]:

إني امرؤٌ قلَّما أُثني على أحدٍ حتى أرى بعض ما يأتي وما يَذَرُ
لا تمدحنَّ امرءًا حتى تجرّبه ولا تذمَّنَّ من لم يَبْلُهُ الخبرُ

وقال عمرو بن معديكرب[(٤)]:

إذا لم تستطع أمرًا فدَعْهُ وجاوزه إلى ما تستطيعُ

---

(١) هو علي بن محمد بن الحسين البستي: شاعر عصره وكاتبه. كان من كتاب الدولة السامانية في خراسان. توفي سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م.

(٢) هو علقمة بن عَبَدة، ويعرف بعلقمة الفحل. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصرًا لامرىء القيس وله معه مساجلات.

(٣) هو قيس بن عمرو بن مالك: شاعر مخضرم هجّاء، اشتهر في الجاهلية والإسلام. كانت أمه حبشية فنسب إليها وسمي بالنجاشي. توفي نحو سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م.

(٤) عمرو بن معديكرب (أو معد يكرب) الزبيدي. فارس اليمن وصاحب الغارات المذكورة. =

وقال أيضًا:

لـيـس الـجـمـالُ بـمـئـزرٍ   فـاعـلـمْ وإن رُدِّيـتَ بُـرْدَا
إن الـجـمـالَ مـآثـرٌ   ومـنـاقـبٌ أورثْـنَ مـجـدا

ومن أمثال أبي الأسود الدؤلي[1]:

لا تـهـنّـي بـعـد إذْ أكـرمـتـنـي   فـشـديـدٌ حـالـةٌ مـنـتـزعَـهْ
لا يـكـن بـرقُـكَ بَـرْقًـا خُـلَّبًـا   إنَّ خير البرقِ ما الغيثُ مَعَهْ

ومن غرر شعر زفر بن الحارث[2] يوم مرج راهط:

أيـذهـبَ يـومٌ واحـدٌ إن أسـأْتُـهُ   بصالحِ أيامي وحُسْنِ بلائيا
ولـم يَـرَ مـنـي زلـةً قـبـل هـذه   فراري وتركي صاحبي من ورائيا
وقد ينبت المرعى على دِمنِ الثرى   وتبقَى حزازاتُ النفوس كما هيا

ومن غرر شعر المتوكل الليثي[3] في هذا الباب:

أبدأ بنفسك فانْهَهَا عن غَيِّها   فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
لا تَنْهَ عن خلقٍ وتأتي مثلهُ   عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

ومن قوله أيضًا:

لـنـا وإن أحـسـابُـنـا كـرُمَـتْ   يـومًـا عـلى الأحـسـاب نـتـكـلُ
نـبـنـي كـمـا كـانـت أوائـلـنـا   تـبـنـي ونـفـعـلُ مـثـل مـا فـعـلوا

وقال بشر بن أبي خازم[4]:

ألـم تَـرَ أن طـول الـعـهـد يُـسْـلي   ويُـنـسـي مـثـلـمـا نُـسِـيَـتْ جـذامُ

= أسلم سنة ٩ هـ، ثم ارتد، ثم رجع إلى الإسلام وشهد اليرموك والقادسية. توفي سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ م.

(١) هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي: واضع علم النحو. كان من التابعين، ومعدودًا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب. توفي سنة ٦٩ هـ/ ٦٠٥ م.

(٢) زفر بن الحارث بن عبد عمرو الكلابي: أمير، من التابعين. شهد صفين مع معاوية، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري. توفي نحو ٧٥ هـ/ ٦٩٥ م.

(٣) هو المتوكل بن عبد الله بن نهشل الليثي: من شعراء الحماسة. كان على عهد معاوية، ونزل الكوفة. وفاته غير معروفة.

(٤) بشر بن عمرو (أبي خازم) بن عوف الأسدي، أبو نوفل: شاعر جاهلي فحل من الشجعان. =

ومن أقواله أيضًا:

يكن لكَ في قومي يدٌ يشكرونها وأيدي الندى للصالحين فروضُ

ومنه أُخذ المثل: «الأيادي فُروض».

وقال عند موته:

تسائلُ عن أبيها كلَّ ركبٍ ولم تعلم بأن السهم صابا
فَرَجِّي الخيرَ وانتظري إيابي إذا ما القارضُ العنزيُّ آبا

ومنه المثل: «حتى يؤوب القارظان».

قال الطغرائي في لاميته (لامية العجم):

أعلِّلُ النفس بالآمال أرقبها ما أضيقَ العيش لولا فُسحةُ الأملِ
غالي بنفسيَ عرفاني بقيمتها فصنتها عن رخيص القدر مبتذل
ما كنت أوثرُ أن يمتدَّ بي زمني حتى أرى دولةَ الأوغاد والسَّفُل
تقدمتني أناس كان شوطهمُ وراء خطوي إذا أمشي على مَهَل
وإن علانيَ مَنْ دوني فلا عجبٌ لي أسوةٌ بانحطاط الشمسِ عن زُحلِ

وقال ذو الإصبع العدواني[(١)]:

إذا ما الدهر جرَّ على أناسٍ شراشِرَهُ أناخ بآخِرينا[(٢)]
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وقال الشريف الرضي:

إن الزرازير لما قام قائمها توهَّمت أنها صارت شواهينا[(٣)]
ظنَّتْ تأنّي العزاةِ الشُّهْبِ عن جزع وما درتْ أنه قد كان تهوينا

= توفي نحو ٢٢ ق.هـ/ ٥٩٨ م.

(١) هو حُرثان بن الحارث بن محرث: شاعر حكيم شجاع جاهلي. لقب بذي الإصبع لأن حية نهشت إصبع رجله فقطعها. ويقال: كانت له إصبع زائدة. عاش طويلًا حتى عُدَّ من المعمرين.

(٢) ألقى عليه شراشره: أعباءه وهمومه. وتأتي بمعنى آخر هو: ألقى عليه نفسه حرصًا ومحبة، وهو المراد هنا، لأن الشاعر أراد المقابلة بين هذا وما بعده (أناخ بآخرينا).

(٣) الشواهين: الصقور. والزرازير: العصافير الصغار.

وقال بشار بن برد:

إذا كنتَ في كل الأمور معاتبًا صديقك لن تلقى الذي لا تعاتِبُهْ
فعِشْ واحدًا أو صِلْ أخاك فإنهُ مفارقُ ذنبٍ مرَّةٍ ومجانبُهْ
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القَذَى ظننتَ وأيُّ الناس تصفو شاربُهْ

وقال طرفة بن العبد(١):

وأعلم علمًا ليس بالظَّنِّ أنه إذا ذلَّ مولى المرء فهو ذليلُ
وأنَّ لسان المرء ما لم تكن له حصاةٌ على عوارتِهِ لدليلُ

ومن أمثال طرفة بن العبد(١) السائرة على الدهر قوله:

ستُبدي لك الأيامُ ما كانت جاهلًا ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ

ومن أمثاله في ذمِّ الأخلَّاء:

كلُّ خليل كنت خالَلْتُهُ لا تركَ الله له واضِحَهْ
كلهم أروَغُ من ثعلبٍ ما أشبه الليلةَ بالبارحهْ

هو مثل يضرب في تساوي الناس في الشرِّ والخديعة. وراغ الثعلب: إذا ذهب يمنة ويسرة في عدوه هربًا.

ومن أمثاله السائرة قوله لعمرو بن هند:

أبا منذرٍ أفنيت فاستَبْقِ بعضنا حنانيك بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

من أمثال امرىء القيس السائرة:

وقاهم جدُّهم ببني أبيهم وبالأشْقَيْن ما كان العذابُ

وقال:

وقد طوَّفتُ في الآفاق حتَّى رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله من ندمائه. ثم أمر بقتله لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها. قتل شابًا في العشرين، أو في السادسة والعشرين، وذلك نحو ٥٠ ق.هـ.

وقال أيضًا:

وهل يُنبتُ الخطيَّ إلَّا وشيجُهُ وتُغرسُ إلَّا في منابتها النَّخلُ

أي لا تغرس النخل إلا بحيث تنبت وتصلح. والمراد أنه لا يلدُ الكرام إلا الكرام.

وقال عنترة:

نُبِّئْتُ عمرًا غير شاكر نعمتي والكُفْرُ مخبأةٌ لنفسِ المنعم
إن العدوَّ على العدوِّ لقائمٌ ما كان لي علمٌ وما لَم أعلَم

من أمثال النابغة الذبياني[1] المشهورة قوله:

نُبِّئْتُ أن أبا قابوسَ أَوْعدني ولا مقامَ على زَأرٍ من الأسدِ

ويُروى أن عمر بن الخطاب قال يومًا لجلسائه: مَن القائل؟

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرءِ مذهبُ
لئِن كنت قد بُلِّغتَ عني جنايةً لَمَبلغُك الواشي أغشُّ وأكذب

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين ـ قال: فهذا أشعر شعرائكم.

ومن قلائده قوله:

فإن يكُ عامرًا قد قال جهلًا فإنَّ مظنَّة الجهل الشبابُ

أي إن الغرارة والجهل مقترنان بالشباب.

ومن أمثاله:

الرفقُ يُمنٌ والأناة سعادةٌ فاستأن في أمرٍ تُلاقِ نجاحا
واليأس عما فات يعقب راحةً ولرُبَّ مطعمةٍ تعودُ ذباحا[2]
فاسْتَبْقِ وُدَّكِ للصديق ولا تكن قَتَبًا يعضُّ بغاربِ ملحاحا[3]

---

(١) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره عليه.

(٢) الذباح: نبت سام يقتل آكله.

(٣) القتب: الإكاف على قدر سنام البعير. والغارب: الكاهل.

ومن شعر عدي بن زيد العبادي[١] الذي ذهب مثلًا قوله:

أبلغ النعمانَ عني مألُكًا أنني قد طال حبسي وانتظاري[٢]
لو بغَير الماء حلقي شَرِقٌ كنتُ كالغصَّان بالماء اعتصاري

ومنه أيضًا:

كن واعظًا للمرءِ أيام دهر تروح له بالواعظات وتغتدي
عن المرء لا تسألْ وسَلْ عن قرينه فإن القرين بالمقارن مُقْتدي
وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على الحرِّ من وقع الحسام المهنَّدِ

من أمثال عبيد بن الأبرص[٣]:

من يسألِ الناس يحرموه وسائل الله لا يخيبُ
وكلُّ ذي غيبةٍ يؤوب وغائبُ الموت لا يؤوبُ

وقال أيضًا:

الخير يبقى وإن طال الزمان به والشرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ من زادِ

وقال:

الخير لا يأتي على عجلٍ والشرُّ يسبق سيله يطيرُهْ

وقال المرقَّش الأصغر[٤]:

ومَنْ يلْقَ خيرًا يحمَدِ الناسُ أمرهُ ومن يَغْوِ لا يعدم على الغَيّ لائما
أخوك الذي إن أحرجتك مُلِمَّةٌ من الدهر لم يبرح لها الدهرَ واجما
وليس أخوك الذي إن تشعَّبتْ عليك أمورٌ ظلَّ يلحاك لائما

(١) عدي بن زيد بن حماد العبادي: شاعر من دهاة الجاهليين. وهو أول مَن كتب بالعربية في ديوان كسرى، واتخذه في خاصته وجعله ترجمانًا بينه وبين العرب إذ كان يجيد الفارسية.
(٢) المألكة والمألك: الرسالة.
(٣) عبيد بن الأبرص بن عوف الأسدي: شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها. وهو أحد أصحاب «المجمهرات» المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات.
(٤) هو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك. شاعر جاهلي من أهل نجد. كان أجمل الناس وجهًا ومن أحسنهم شعرًا. وهو ابن أخي المرقش الأكبر وعمّ طرفة بن العبد.

ومن أمثال المتلمِّس(١):

قليلُ المال تُصلحُهُ فيبقى ... ولا يبقى الكثيرُ على الفساد
وحِفظ المال خيرٌ من بُغاهُ ... وجَوْلٍ في البلاد بغير زاد(٢)

ويقول في الامتناع عن الذل:

ولا يقيم على ذُلٍّ يرادُ به ... إلا الأذلّان: عِيرُ الحيِّ والوتَدُ
هذا على الخسف مربوطٌ برمتِهِ ... وذا يُشَجُّ فلا يرثي له أحدُ

ومن أمثال حاتم الطائي(٣):

إذا لزم الناسُ البيوتَ رأيتهم ... عُماةً من الأخبار خُرْقَ المكاسب(٤)

ومن أمثال عمرو بن كلثوم(٥):

وإن غدًا وإن اليوم رهنٌ ... وبعد غدٍ بما لا تعلمينا

أي بما لا تعلمين من الحوادث.

ومن أمثال طُفيل الغنوي(٦):

يروى أن أبا بكر قال يومًا للأنصار: زادكم الله عنا يا معشر الأنصار خيرًا؛ فما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلَقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فزلّتِ
أتوْا أن يملُّونا ولو أنَّ أمَّنا ... تلاقي الذي يلقون لملَّتِ

---

(١) هو جرير بن عبد العزّى ـ أو عبد المسيح ـ من ربيعة. شاعر جاهلي من أهل البحرين. وهو خال طرفة بن العبد. كان ينادم عمرو بن هند (ملك العراق) ثم هجاه. وهو الذي تنسب إليه «صحيفة المتلمس». وهي كتاب حمله من عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، وفيه الأمر بقتله. ولذلك يقال في المثل: أشأمُ من صحيفة المتلمس.

(٢) بُغاه: ابتغاؤه والسعي إليه.

(٣) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي: فارس، شاعر، جواد، جاهلي. يضربُ المثل بجوده. أرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبيّ ﷺ.

(٤) خرق المكاسب: غير مرفقين في أعمالهم.

(٥) عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. ساد قومه (تغلب) وهو فتى، وعمّر طويلًا. وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند.

(٦) طفيل بن عوف بن كعب الغنوي: شاعر جاهلي فحل، من الشجعان. وهو أوصف العرب للخيل، وربما سمي «طفيل الخيل» لكثرة وصفه لها. ويسمى أيضًا «المحبّر» لتحسينه شعره. عاصر النابغة الجهدي وزهير بن أبي سلمى.

وقال زهير بن أبي سلمى[(١)]:

والسَّتْرُ دون الفاحشاتِ ولا   يلقاكَ دون الخير من سَتْرِ

من أمثال عائذ بن محصن الشهير بالمثقَّب العبدي[(٢)]:

لا تقولنَّ إذا ما لم تُرِدْ   أن تُتِمُّ الوعدَ في شيء نَعَمْ
حسنٌ قبلَ «نعم» قولك «لا»   وقبيحٌ قولُ «لا» بعد «نَعَمْ»
إنَّ «لا» بعد «نعم» فاحشةٌ   (فبلا) فأبدأ، إذا خفت النَّدَمْ

ومن أمثال الممزَّق العبدي؛ وهو ابن أخت المثقَّب، واسمه شاس بن نهار بن أسود. وإنما لقب بالممزَّق لبيت قاله لبعض الملوك وكان أسيرًا عنده، فذهب مثلًا:

أحقًا - أبَيْتَ اللعنَ - أن ابنَ فَرْتَنَى   على غير إجرامٍ بريقي مُشْرقي[(٣)]
فإنْ كنتُ مأكولًا فكُنْ خيرَ آكلٍ   وإلا فأدركني ولمَّا أُمَزَّقِ[(٤)]

ومن أمثاله أيضًا:

هوِّنْ عليك ولا تُولَعْ بإشفاقِ   فإنما مالنا للوارث الباقي

ومن شعر عامر بن الطفيل[(٥)] السائر سير الأمثال:

فإنّي وإن كنت ابن سيد عامر   وفارسها المشهور في كلّ موكبِ
فما سوَّدتني عامرٌ عن وراثةٍ   أبى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ
ولكنني أحمي حماها وأتَّقي   أذاها وأرمي من رماها بمنكبي

(١) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني: حكيم الشعراء في الجاهلية. أشهر شعره معلقته التي مطلعها: «أمن أم أوْفَى دمنة لم تكلَّمِ». ويقال إن أبياته التي في آخر هذه القصيدة تشبه كلام الأنبياء.

(٢) هو العائذ بن محصن بن ثعلبة، من ربيعة: شاعر جاهلي من أهل البحرين. وقيل: اسمه محصن بن ثعلبة. شعره جيد فيه حكمة ورقّة.

(٣) ابن فرْتَنَى: ابن الزانية. بريقي مشرقي: قاتلي.

(٤) وبهذا البيت تمثَّل عثمان بن عفان رضي الله عنه لما أرسل إلى عليّ بن أبي طالب (ع). يستغيثه حين اقتحم بعض الناس عليه الدار.

(٥) عامر بن الطفيل بن مالك العامري. فارس قومه، وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية.

ومن أمثال الأعشى - وهو ميمون بن قيس، ويقال له: صنَّاجة العرب، لأنه كان يغنّي شعره:

ألسْتَ منتيهًا عن نَحْتِ أَثْلتِنا ولست ضائِرها ما أَطَّت الأبلُ
كناطحٍ صخرةً يومًا ليقلعها فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعلُ

والأثلة: هي الأصل - وواحدة الأثل هي شجرة الطرفاء.

يعني: اترك ذمَّنا والطعن بنا فأنت كناطح الصخرة ليقلعها.

وقال أيضًا:

إذا أنت لم ترحلْ بزادٍ من التُّقَى ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوَّدا
ندمتَ على أن لا تكون كمثله فترصُدَ للأمر الذي كان أرصدا

ومن أمثال لبيد بن ربيعة[١]:

وما المال والأهلون إلَّا ودائعٌ ولا بُدَّ أن تَرَدَّ الودائعُ
وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئهِ يحورُ رمادًا بعد إذْ هو ساطعُ

ومن أمثاله أيضًا:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خَلْفٍ كجلد الأجرب[٢]

ومن أمثال أوس بن حَجَر[٣]:

ولستُ بخابىءٍ لغدٍ طعامًا حذارَ غدٍ لكل غدٍ طعامُ

ومن قوله أيضًا:

فإنكما يا ابني جنابٍ وجدتما كمن دبَّ يستخفي وفي الحلق جلجلُ

---

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامري: أحد الشعراء والفرسان الأشراف في الجاهلية. أدرك الإسلام، ويعدُّ من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم. ترك الشعر بعد إسلامه، ولم يقل إلا بيتًا واحدًا، هو على ما قيل:

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه والمرءُ يُصلحه الجليسُ الصالح

وهذا البيت يذهب مذهب الأمثال السائرة.

(٢) الخَلْف: الظهر، والولد الطالح.

(٣) أوس بن حجر بن مالك التميمي: شاعر تميم في الجاهلية. وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى. في شعره حكمة ورقة. وكان غزلًا مغرمًا بالنساء.

ومن شعر الأفوه الأَوَدي[١]، وكان أحد حكماء الجاهلية:

إنـمـا نـعـمـةُ قـوم مـتـعـةٌ وحـيـاةُ الـمـرء ثـوبٌ مـسـتـعـارُ
حـتَّـم الـدهـرُ عـلـيـنـا أنـه ظَـلَـفٌ مـا نـال مـنـا وجُـبـارُ[٢]

وهي قصيدة من جيد شعر العرب؛ وقد نهى النبيّ ﷺ عن إنشادها لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام. وأولها:

إن تـرى رأسـيَ فـيـه نَـزَعٌ وشُـوَالَى خَـلَّةٌ فـيـهـا دُوَارُ[٣]

---

(١) هو صلاءة بن عمرو بن مالك: شاعر يماني جاهلي. لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان. ومن شعره الذي يسري مسرى الأمثال:

لا يصلح الناس فُوضى لا سراه لهم ولا سـراة إذا جـهـالـهـم سـادوا

(٢) ظلفٌ: باطل. وجبار: هدرٌ.

(٣) النزع: انحسار الشعر من جانبي الجبهة.

الباب السادس عشر

الأجوبة المُسكِتَة

في الأجوبة المُسكِتَة والمُستَحسَنَة

بين معن بن زائدة والمنصور

قيل: إن معن بن زائدة دخل على المنصور، فقال له: هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله:

معنُ بنُ زائدة الذي زادت به ... شرفًا على شرفٍ بنو شيبانِ

فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلتَ يوم الهاشمية معلنًا ... بالسيف دون الرحمٰن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كلِّ مهنّدٍ وسنانِ[1]

فقال: أحسنت والله يا معن، وأمر له بالجوائز والخلع.

بين معاوية وابن أبي محجن

وفد ابن أبي محجن على معاوية، فقام خطيبًا فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه، فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا متّ فادفني إلى جنب كرمةٍ ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنّني ... أخاف إذا ما متّ أن لا أذوقها

وقال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته ... وسائلِ الناس ما جودي وما خُلُقي

---

(١) منعت حوزته: أي دافعت عنه، والحوزة: الناحية، وما يملكه المرء.

أعطي الحسام غداةَ الرّوع حُصّته   وعاملُ الرمح أرويه من العلق(١)
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض   وأكتم السرّ فيه ضربة العنقِ
ويعلم الناس أنّي من سراتهم   إذا سما بصر الرعديد بالفرق(٢)

فقال له معاوية: أحسنت والله يا ابن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

بين عبد الملك بن مروان وشبيب الحارثي

قيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثي، فقال له: ألستَ القائل:

ومنّا شريدٌ والبطين وقعنب   ومنّا أمير المؤمنين شبيب

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما قلت: ومنّا أمير المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداةَ ذلك؛ فكان ذلك سببًا لنجاته.

بين شريك بن الأعور ومعاوية

دخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميمًا، فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم، وإمنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أُمية وما أُمية إلا أمة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟ ثم خرج وهو يقول:

أيشتمني معاويةُ بنُ حربٍ   وسيفي صارمٌ ومعي لساني
وحولي من ذوي يزنٍ ليوثٌ   ضراغمةٌ تهشّ إلى الطعانِ
يُعيَّر بالدمامة من سفاهٍ   وربات الحجال من الغواني

بين يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

دخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج، فقال له سليمان: قبّح الله رجلًا أجّرك رسنه، وأولاك أمانته،

---

(١) العلق: الدم. (٢) سراة: سادة. الرعديد: الجبان

فقال: يا أمير المؤمنين رأيتني والأمر لك وهو عني مدبر، فلو رأيتني وهو عليّ مقبل لاستكبرت مني ما استصغرت، واستعظمت مني ما استعظمت، فقال سليمان: أترى الحجاج استقرّ في جهنم! فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذلّ لكم الجبابرة، وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك، فحيثما كانا كان.

بين علي بن أبي طالب ويهودي

قال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيّكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم، فقال عليّ كرّم الله وجهه: ولِمَ أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم: يا موسى اجعل لنا إلـٰهًا كما لهم آلهة.

الحجاج وما كتب على المنبر

وجد الحجاج على منبره مكتوبًا قل: تمتّع بكفرك قليلًا، إنك من أصحاب النار، فكتب تحته قل: (موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور).

بين عقيل ومعاوية

دخل عقيل على معاوية وقد كفّ بصره، فأجلسه معه على سريره، ثم قال له: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال له عقيل: وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم.

بين معاوية وابن عباس

قيل: اجتمعت بنو هاشم يومًا عند معاوية فأقبل عليهم، وقال: يا بني هاشم إن خيري لكم لممنوح، وإن بابي لكم لمفتوح، فلا يقطع خيري عنكم، ولا يردّ بابي دونكم، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمرًا مختلفًا، إنكم ترون أنكم أحقّ بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم: أعطانا دون حقّنا، وقصّرنا بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حَمْد له، هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم، قال: فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما فقال: والله ما منحتنا شيئًا حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابًا حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا بابًا لنكففن أنفسنا عنك، وأمّا هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين، ولولا حقنا في

هذا المال لم يأتِكَ منا زائر يحمله خفّ، ولا حافر أكفاك أم أزيدك، قال: كفاني يا ابن عباس.

بين معاوية ورجل من اليمن

قال معاوية أيضًا لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب إليم، ولم يقولوا: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

بين معاوية وجارية بن قدامة

قال معاوية يومًا لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية! فقال: ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية، وهي الأنثى من الكلاب! قال: اسكت لا أمّ لك. قال: أم لي ولدتني أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهدًا وميثاقًا، وأعطيناك سمعًا وطاعة، فإن وفّيت لنا وفّينا لك، وإن نزعت إلى غير ذلك فإنا تركنا وراءنا رجالاً شدادًا، وأسنّة حدادًا، فقال معاوية: لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية، فقال له: قل معروفًا، فإن شرّ الدعاء محيطٌ بأهله.

بين معاوية والأحنف

خطب معاوية يومًا فقال: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحِجر: الآية ٢١]، فعلام تلومونني إذا قصرت في عطاياكم، فقال له الأحنف: وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله، ولكن على ما أنزل الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه.

بين مجنون الطاق وأبي حنيفة

قيل: دخل مجنون الطاق يومًا إلى الحمام وكان بغير مئزر، فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه، وكان في الحمام فغمض عينيه، فقال المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

بين الحجاج ورجل من بني عجل

حُكِيَ أن الحجاج خرج يومًا متنزّهًا فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخٍ من بني عجل، فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال:

من هذه القرية، قال: كيف ترون عمالكم؟ قال: شرّ عمّال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم، قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولي العراق شرٌّ منه قبّحه الله، وقبح من استعمله، قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج، قال: جُعِلْت فداك أوَ تعرف من أنا؟ قال: لا، قال: فلان بن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل مرتين، قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة.

بين عجوز وزوجها

قالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تزني ولك حلال طيّب؟ قال: أما حلال فنعم، وأمّا طيّب فلا.

بين ملك ووزيره

قال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عَدِمه، قال: أدبٌ يتحلّى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مالٌ يستره، قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد.

بين المنصور ومتنبئ

تنبّأ رجل في زمن المنصور، فقال له المنصور: أنت نبي سفلة؟ فقال: جُعِلْت فداك، كل نبيٍّ يبعث إلى شكلها.

بين الرشيد وإبراهيم المغني

ذُكِرَ أن إبراهيم مغني الرشيد غنّى يومًا بين يديه، فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يحسن الله إليّ بك، فأمر له بمائة ألف درهم.

بين رسول الله ﷺ وعائشة

ذبحت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها شاة وتصدّقت بها وأفضلت منها كتفًا، فقال لها النبيّ ﷺ: «ما عندك منها»؟ فقالت: ما بَقِيَ منها إلاّ كتف، فقال: «كلّها إلا كتفًا».

بين عبد الله بن يحيىٰ وأبي العيناء

قال عبد الله بن يحيىٰ لأبي العيناء: كيف الحال؟ قال: أنتَ الحال، فانظر كيف أنت لنا، فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته.

بين المأمون وعمرو بن سعد

كان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة، فخرج المأمون يتفقّد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال: عمرو عمّرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلّمك الله. قال: أنت تلكؤنا الليلة؟ قال: الله يلكؤك يا أمير المؤمنين وهو خير حافظٍ وهو أرحم الراحمين، فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضرّ نفسَه لينفعكْ
ومن إذا رأيت الزمان صدعك شتّت فيك شمله ليجمعكْ

ادفعوا إليه أربعة آلاف درهم، قال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت.

بين خبيب بن ديار وزوجته(١)

عن عبد الرحمٰن بن خبيب، عن أبيه، عن جدّه خبيب بن يسار قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يريد غزوًا أنا ورجل من قومي ولم نسلّم، فقلنا: إنا لنستحي أن يشهد قومنا مشهدًا لا نشهده معهم. قال: وأسلمتما؟ قلنا: لا، قال: فإنّا لا نستعين بالمشركين على المشركين. قال: فأسلمنا وشهدنا معه، فقتلت رجلاً وضربني ضربة، فتزوّجت ابنته بعد ذلك، فكانت تقول: لا عدمتَ رجلاً وشحك هذا الوشاح، فأقول لها: لا عدمت رجلاً عجّل أباك إلى النار.

بين حويطب بن عبد العزّى ومروان بن الحكم(١)

عن إبراهيم بن جعفر بن محمود الأشهلي، عن أبيه قال: كان حُوَيْطب بن عبد العزى قد بلغ مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام، فلما ولي مروان بن الحكم المدينة دخل عليه حويطب، فقال له مروان: ما نيّتك؟ فأخبره فقال له: تأخّر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث، فقال: والله لقد هممت بالإسلام غير مرّة، وكل ذلك يعوقني عنه أبوك، وينهاني ويقول: تدع دين آبائك لدين محمد، فأسكت مروان وندم على ما كان.

بين مروان وحبيش بن دلجة(١)

قال مروان لحبيش بن دلجة: أظنّك أحمق، فقال: أحمق ما يكون الشيخ إذا عمل بظنّه.

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١١٩.

بين ابن عائشة وجعفر بن القاسم(١)

محمد بن زكريا قال: حضرت مجلسًا فيه عبيد الله بن محمد ابن عائشة التيمي، وفيه جعفر بن القاسم الهاشمي، فقال لابن عائشة: هٰهنا آية نزلت في بني هاشم خصوصًا، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٤]، فقال ابن عائشة: قومه قريش، وهي لنا معكم. قال: بل هي لنا خصوصًا. قال: فخذ معها ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: الآية ٦٦]، قال: فسكت جعفر، فلم يجد جوابًا.

بين المأمون ورجل(٢)

قال: وقف رجل بين يدي المأمون قد جنا جناية، فقال له: والله لأقتلنّك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، تأنَّ عليَّ فإن الرفق نصف العفو. قال: وكيف؟ قال: أن تلقاه قاتلاً، قال: فخلّى سبيله.

بين يحيىٰ بن أكثم والناس(٢)

قال المنصور: وُلِّيَ يحيىٰ بن أكثم قضاء البصرة، وهو ابن إحدى وعشرين سنة، قال: فاستزرى به الناس واستضعفوه فامتحنوه، فقالوا: كم سن القاضي؟ قال: سن عتاب بن أسيد حيث ولّاه رسول الله ﷺ مكّة.

بين النظام ويونس التمار(٢)

كان النظام لا يكتم سرّا فأسرَّ إليه يونس التمار سرّا، فأذاعه، فلامه، فقال النظام للناس: سلوه، هل أذعت سرًا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فلمن الذنب الآن، فلم يرضَى أن يشاركه في الذنب حتى سار الذنب كله لصاحب السر.

بين الشعبي وشاب(٢)

قال: تكلّم شاب يومًا عند الشعبي، فقال الشعبي: ما سمعنا بهذا، فقال الشاب: كل العلم سمعت؟ قال: لا، قال: فشطره؟ قال: لا، قال: فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه، فأفحم الشعبي.

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١١٩.
(٢) كتاب الأذكياء، ص ١٢٠.

بين هارون الأعور ورجل(١)

وقال عبد الله بن سليمان بن الأشعث: سمعت أبي يقول: كان هارون الأعور يهوديًا، فأسلم وحَسُن إسلامه، وحفظ القرآن وضبطه، وحفظ النحو، فناظره إنسان يومًا في مسألة، فغلبه هارون، فلم يدرِ المغلوب ما يصنع، فقال له: أنت كنت يهوديًا فأسلمت، فقال له هارون: أفبئس ما صنعت؟ فغلبه أيضًا.

بين إبراهيم بن طهمان والخليفة(١)

قال مالك بن سليمان: كان لإبراهيم بن طهمان جراية من بيت المال، فسئل عن مسألة في مجلس الخليفة، فقال: لا أدري، فقالوا له: تأخذ في كل شهر كذا وكذا ولا تحسن مسألة، فقال: إنما آخذ على ما أُحسن، ولو أخذت على ما لا أحسن لفني بيت المال، ولا يفنى ما لا أحسن، فأعجب الخليفة جوابه، وأمر له بجائزة فاخرة، وزاد في جرايته.

ضيف ثقيل(١)

قال أبو العباس المبرد: ضاف رجل قومًا فكرهوه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه؟ فقالت: ألق بيننا شرًا حتى نتحاكم إليه ففعلا، فقالت للضيف: بالذي يبارك لك في غدوّك غدًا أيُنا أظلم؟ فقال الضيف: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرًا ما أعلم.

بين الفضل بن الربيع وشيخ(١)

قال ابن خلف: حدّثني بعض أصحابنا، قال: بلغني أن الرشيد خرج يومًا متنزّهًا وانفرد عن عسكره، والفضل بن الربيع خلفه، فإذا هو بشيخ قد ركب حمارًا له، وفي يده لجام، كأنه مبعر محشو، فنظر إليه فإذا هو رطب العينين، فغمز الفضل عليه، فقال له الفضل: أين تريد؟ قال: حائطًا لي، قال: هل لك أن أدلّك على شيءٍ تداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك، قال له: خذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكماة فصيّره في قشر جوزة واكتحل به، فإنه يذهب عنك ما تجد، قال: فاتّكأ على قربوسة فضرط ضرطة طويلة، ثم قال:

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢١.

تأخذ هذه أجرة لوصفتك، فإن نفعتنا زدناك، قال: فاستضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط عن ظهر دابّته.

بين المأمون ويحيٰى بن أكثم(١)

قال أبو الحسن بن المأمون قال: قال المأمون ليحيٰى بن أكثم: من الذي يقول، وهو يعرض به؟

قاضٍ يَرَى الحدَّ في الزِّناء ولَا ... يَرَى عَلَى مَنْ يَلُوطُ مِنْ باسِ

قال: أوَ ما يعرف أمير المؤمنين من قاله؟ قال: لا، قال: يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول:

حَاكِمُنَا يَرْتشي وقَاضِينَا ... يَلُوطُ والرأس شرّ ما راسِ
لا أحسبُ الجُورَ ينقضي وَعَلَى ... السَّلامةِ وآلٍ مِنْ آلِ عبَّاسِ

قال: فأفحم المأمون وسكت خجلاً، وقال: ينبغي أن ينفى أحمد بن أبي نعيم إلى السند.

بين أبي الهذيل ويهودي(١)

قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد بن شهاب العطار قال: روى يعقوب الشحام قال: قال لي أبو الهذيل: بلغني أن رجلاً يهوديًا قدم البصرة، وقد قطع وغلب عامة متكلّميهم، فقلت لعمي: امضِ إلى هذا اليهودي كلّمه، فقال: يا بني، هذا قد غلب جماعة متكلّمي البصرة، فقلت: لا بد، فأخذ بيدي، فدخلنا على اليهودي، فوجدته يقرّر الناس الذين يكلّمونه نبوّة موسى عليه السلام، ثم يجحد نبوّة نبيّنا ﷺ، فيقول: نحن على ما اتّفقنا عليه من نبوّة موسى إلى أن نتفق على غيره فنقربه، فدخلت إليه، فقلت له: أسألك ولا تسألني؟ فقال: يا بنيّ، أوَ ما ترى ما أفعله بمشايخك؟ فقلت: دَعْ عنك هذا واختر، قال: بل أسألك، أخبرني أليس موسى نبيًا من أنبياء الله قد صحّت نبوّته، وثبت دليله. تقرّ بهذا أو تجحده، فتخالف أصحابك؟ فقلت له: إن الذي سألتني عنه من أمر موسى عندي على أمرين، أحدهما: إني أقرُّ بنبوّة موسى الذي أخبر بصحة نبوّة نبيّنا محمد ﷺ وأمرنا

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢٢.

باتّباعه وبشَّر بنبوّته، فإن كان عن هذا تسألني، فأنا مقرٌّ بنبوته، وإن كان الذي سألتني عنه لا يقرّ بنبوّة نبيّنا محمد ﷺ ولم يأمر باتّباعه، ولا بشَّر به، فلست أعرفه ولا أقرّ بنبوّته، وهو عندي شيطان مخزي، فتحيّر مما قلت له، فقال لي: فما تقول في التوراة؟ فقلت: أمر التوراة أيضًا عندي على وجهين: إن كانت التوراة التي أنزلت على موسى الذي أقرّ بنبوّة نبينا محمد ﷺ، فهي التوراة الحق، وإن كانت الذي تدّعيه، فباطل، وأنا غير مصدّقٌ بها، فقال: أحتاج أن أقول لك شيئًا بيني وبينك، فظننت أنه يقول شيئًا من الخير، فتقدّمت إليه فسارّني، وقال: أمك كذا وكذا، وأم الذي علّمك لا يكنى، وقد رأى أني أثب به، فيقول وثبوا عليّ، فأقبلت على من كان في المجلس، فقلت: أعزَّكم الله، أليس قد أجبته؟ قالوا: نعم، فقلت: أليس عليه أن يردّ جوابي؟ فقالوا: نعم، فقلت: إنه لما سارني شتمني، بالشتم الذي يوجب الحد، وشتم من علّمني وأنه ظن أني أثب به، فيدعي أنا أثبناه، وقد عرفتكم شأنه، فأخذته الأيدي بالنعال، فخرج هاربًا من البصرة، وقد كان له بها دين كثير، فتركه وخرج هاربًا لما لحقه من الانقطاع.

بين المتوكل والجماز(١)

قال: لما دخل الجماز على المتوكل قال له: إني أريد أن أستبرئك، فقال الجماز: بحيضة أو بحيضتين، فضحك الجماعة منه، فقال له الفتح: قد كلّمت أمير المؤمنين فيك حتى ولّاك جزيرة القرود، فقال له الجماز: أفلست في السمع والطاعة أصلحك الله، فحصر الفتح وأسكت، فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم، فأخذها وانحدر، فمات فرحًا بها.

بين الوليد بن يزيد وهشام بن عبد الملك(١)

قال العتبي: دخل الوليد بن يزيد على هشام بن عبد الملك، وعلى الوليد عمامة وشي، فقال له هشام: بكم أخذت عمامتك؟ قال: بألف درهم، فقال هشام: عمامة بألف يستكثر ذلك، فقال الوليد: إنها لأكرم أطرافي يا أمير المؤمنين، وقد اشتريت جارية بعشرة آلاف درهم لأخسّ أطرافك.

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢٣.

بين الجماز وإمام الصلاة(١)

حدّثنا يموت بن المزرع قال: كان أبي والجماز يمشيان، وأنا خلفهما بالعشي، فمررنا بإمام وهو ينتظر من يمرّ عليه، فيصلّي معه، فلما رآنا أقام الصلاة مبادرًا، فقال له الجماز: دَعْ عنك هذا، فإن رسول الله ﷺ قد نهى أن يتلقى الجلب.

بين الأصمعي ورجل(١)

عن الأصمعي قال: اجتزت في بعض سكك الكوفة، فإذا برجل قد خرج من حبسٍ على كتفه جرَّة، وهو ينشد ويقول:

وأكرمُ نَفْسي إنَّني إن أهنتُها ... وحقِّلكَ لم تَكْرمْ على أحدٍ بعدي

فقلت له: تكرمها بمثل هذا؟ فقال: نعم، وأستغني عن سفلةٍ مثلك، إذا سألته يقول: صنع الله لك، فقلت تراه عرفني، فأسرعت، فصاح بي: يا أصمعي، فالتفت إليه فقال:

لَنَقْلُ الصَّخْرِ مِنْ قُلَلِ الجِبَالِ ... أحبُّ إليَّ مِنْ مِنَنِ الرِّجَالِ
يَقُولُ النَّاسُ كَسْبٌ فيه عارٌ ... وكلّ العارِ في ذُلِّ السُّؤالِ

بين يهودي ومسلم(٢)

قال طراد بن محمد: أن يهوديًّا ناظر مسلمًا أظنّه قال في مجلس المرتضى، فقال اليهودي: إيش أقول في قوم سماهم الله مدبرين، يعني النبيّ ﷺ وأصحابه يوم حنين؟ فقال المسلم: فإذا كان موسى أدبر منهم، قال له: كيف؟ قال: لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: الآية ١٠، والقصص الآية ٣١]، وهؤلاء ما قال فيهم ولم يعقبوا، فسكت.

بين عليّ بن أبي طالب ويهودي(٢)

قال رجل من اليهود لعليّ بن أبي طالب: ما دفنتم نبيّكم حتى قالت الأنصار: منّا أمير ومنكم أمير، فقال له عليّ عليه السلام: أنتم ما جفّت أقدامكم

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢٣.
(٢) كتاب الأذكياء، ص ١٢٤.

من ماء البحر حتى قلتم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨].

بين يزيد وامرأته(١)

حبلت امرأة يزيد، فقالت له ـ وكان قبيح الصورة ـ: الويل لك إن كان يشبهك، فقال لها: والويل لك إن لم يشبهني.

بين معاوية وأبي الأسود(٢)

قيل لأبي الأسود: أشهد معاوية بدرًا؟ فقال: نعم من ذاك الجانب.

بين المتيم الصوفي والكيا(٢)

كان أبو الحسن المتيم الصوفي يسكن الرصافة، وكان مطبوعًا مضاحكًا، وكان يتولّع برجل شاهد فيه غفلة يعرف بأبي عبد الله الكيا. قال ابن المتيم: فلقيته يومًا فسلَّمت عليه وصحت به أشهد علي، فاجتمع الناس علينا، فقال: بِمَ أشهد؟ فقلت: بأن الله إلـه واحد لا إلـه إلا هو وأن محمّدًا عبده ورسوله، وأن الجنّة حق والنار حق والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور. فقال: أبشر يا أبا الحسن سقطت عنك الجزية وصرت أخًا من إخواننا، فضحك الناس، وانقلب الولع بي.

بين امرأة قبيحة وعطّار ماجن(٢)

وقفت امرأة قبيحة على عطار ماجن، فلما نظر إليها قال: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: الآية ٥]، فقالت: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [يٰس: الآية ٧٨].

بين معاوية وواحد من الأنصار

قام معاوية رضي الله عنه في طائفةٍ من قومه، وقال لهم: أيها الناس إن الله تعالى حيّا قريشًا بثلاث:

ـ فقال لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤]، ونحن قريش الأقربون. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢٤. (٢) كتاب الأذكياء، ص ١٢٥.

[الزخرف: الآية ٤٤] ونحن قومه. وقال تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾ [قريش: الآيتان ١، ٢] ونحن قريش.

فقام على الفور رجل من الأنصار وأجابه: على رسلك يا معاوية، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: الآية ٦٦] وأنتم قومه. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾ [الزخرف: الآية ٥٧] وأنتم قومه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفُرقان: الآية ٣٠] وأنتم قومه؛ ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك.

بين الحجاج وجامع المحاربي

شكا الحجاج يومًا خروج أهل العراق عن طاعته وسوء مذهبهم وسخط طريقتهم، فقال له جامع المحاربي ـ وكان يستمع له[1] ـ: أما إنهم لو أحبّوك لأطاعوك على أنهم ما يشنئونك[2] لبلدك ولا لذات يدك إلا لما نقموه من أفعالك، فدع ما يبعدهم عنك إلى ما يدنيهم منك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك؛ وليكن إيقاعك بعد وعيدك ووعيدك بعد وعدك. فقال الحجاج: والله ما أرى إن أردّ بني اللخناء إلى طاعتي إلا بالسيف. فقال له جامع: أيها الأمير إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار. قال الحجاج: إن الخيار يومئذ لله وليس لي. فقال جامع: أجل يا أمير المؤمنين ولكن أنت لا تدري لمن يجعل الله الخيار وقتئذ، فغضب الحجاج وقال: يا لك من محارب كاسمك. فقال جامع المحاربي:

وللحرب سمّينا وكنا محاربًا إذا ما الفتى أمسى من الطعن أحمرا

قال الحجاج: والله لقد هممت أن أخلع لسانك وأضرب به وجهك. فقال جامع المحاربي: والله إن صدقناك أغضبناك، وإن كذبناك أغضبنا الله. فسكت الحجاج وقال: أجل يا محارب، وسكن روعه.

---

(١) كان جامع هذا لَسِنًا مُفَوّهًا وهو الذي قال للحجاج حين بنى (واسطًا): والله يا حجاج لقد بنيتها في غير بلدك وأورثتها غير ولدك.

(٢) الشنآن هو البغض والكراهية.

بين الغضبان بن القبعثري وعربي من بني بكر

كان بين العرب رجل اسمه الغضبان بن القبعثري، فبينا كان راجعًا من رملة كرمان في شدَّة الحر والقيظ، وهي رملة شديدة الرمضاء وضرب قبَّته فيها وحطّ عن رواحله، إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل وقد أقبل على بعيرٍ قاصدًا نحوه، وقد اشتدَّ الحرّ وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وظمأ ظمأ شديدًا، فقال له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال الغضبان: هي سنّة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها ما حاجتك يا أعرابي.

قال: أصابتني الرمضاء وشدة الحر والظمأ، فيمّمت قبتك أرجو بركتها.

فقال الغضبان: هلا يمّمت قبّةً أكبر من هذه وأعظم؟ قال: أيتهن تعني؟ فقال: هي قبّة الأمير ابن الأشعث.

قال: تلك لا يوصل إليها. فقال: إن هذه أمنع منها. فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ، فقال: وما تعطي.

قال: أكره أن يكون لي اسمان. فقال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض، قال: وأين تريد؟ قال: أمشي في مناكبها وآكل من رزقها.

فقال الأعرابي وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحرّ: أتقرض الشعر؟

قال: إنما يقرض الفأر. قال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة.

فقال: يا هذا ائذن لي أن أدخل قبّتك، قال: خلفك أوسع لك، فقال: أحرقتني حرارة الشمس، قال: ليس لي عليها من سلطان.

فقال الأعرابي: الرمضاء قد أحرقت قدمي، قال: بُلْ عليها تبرد، فقال: لا تخف إني لا أريد طعامك ولا شرابك.

قال: لا تتعرّض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك.

فقال: سبحان الله، قال: نعم إن تطلع أضراسك، فقال: يا رجل ما عندك غير هذا؟

قال: بلا هراوة أضرب بها رأسك، فاستغاث الأعرابي: يا جار بني كعب، فقال الغضبان: بئس الشيخ أنت فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث وتجأر بهذا الصوت المنكر.

قال الأعرابي: والله ما رأيت رجلاً أقسى منك قلبًا أتيتك مستغيثًا فحجبتني وطردتني، هلا أدخلتني قبّتك وطارحتك القريض.

فقال الغضبان: ما لي بمحادثتك من حاجة، فقال الأعرابي: بالله ما اسمك ومن أنت؟

فقال: أنا الغضبان بن القبعثري. قال الأعرابي: اسمان منكران خُلِقا من غضب، فقال له: قِفْ متوكّئًا على باب قبّتي برجلك هذه العرجاء[(١)].

قال الأعرابي: قطعها الله إن لم تكن خيرًا من رجلك هذه الشنعاء.

فقال له: لو كنت حاكمًا لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة، ورجلك في الرمضاء قائمة.

قال الأعرابي: إني أظنك حروريًا[(٢)]. فقال له: اللّهمّ اجعلني ممن يتحرّي الخير ويريده.

قال الأعرابي: إني لأظنّ عنصرك فاسدًا، فقال له: ما أقدرني على إصلاحه؛ فسكت.

بين حنظلة وابنه مرَّة

قال الأصمعي: كان في بني تميم رجل اسمه حنظلة، وكان معروفًا بسرعة الجواب المسكت، حتى لا يكاد أحد يقهره، فتزوج امرأة منهم اسمها علقمة، فجاءته بعدّة أولاد ولم يسلم له منهم غير ولد اسمه مرَّة، وكان أسرع من أبيه جوابًا مع دمامة منظرٍ، فبدرت منه بادرة سوء أوجبت سبَّه من أبيه في قومه.

فقال الوالد: أنت خبيث كاسمك يا مرَّة. قال الولد: أخبث مني من سمّاني به. فقال الوالد: إنك لمرّ يا مرّة. قال الولد: أعجبتني حلاوتك يا حنظلة. فقال الوالد: تالله لست من الناس. قال الولد: من أشبه أباه فما ظلم. فقال الوالد: لا رضي الله عن بطنٍ تقلّبت فيه. قال الولد: أجل ولا عن ظهر نزلت منه.

فقال الوالد: والله لا تزداد إلاّ سوء أدب. قال الولد: أتجني من الشوك عنبًا. فقال الوالد: لقد كنت شؤمًا على إخوتك حتى ماتوا وبقيت.

---

(١) ذلك لأنه كان من حرارة القيظ يرفع رِجله تارة ويثبتها تارة أخرى.

(٢) نسبة لقبيلة.

قال الولد: أعجبتني كثرة عمومتي يا مبارك (لأن والده مثله ليس له إخوة).

فقال الوالد: لا أفلحت أبدًا.

قال الولد: كيف يفلح من أنت أبوه.

فقال الوالد: ما أحوجك إلى تأديب، قال الولد: الذي نشأت على يديه أحوج مني إليه.

فقال الوالد: أراحني الله كما أراح إخوتك، قال الولد: تختنق بحبلٍ حتى تموت فتستريح من وجهي، فقال الوالد: لأدعونّ الله عليك، قال الولد: الذي تدعوه عالم بك، فقال الوالد: لا يعلم مني إلّا خيرًا، قال الولد: شاكر نفسه يقرئك السلام[١].

فقال الوالد: ما أجد لي خيرًا من السكوت، قال الولد: يمنعك سوء خلقك الذميم.

فقال الوالد: لولا فتوري عنك ما تجرّأت عليّ، قال الولد: إذن نفسك فلُمْ، فقال الوالد: إن قمت إليك لأوجعتك ضربًا، قال الولد: ما أنت أشدّ مني بطشًا، فقال الوالد: أتضربني إذا ضربتك، قال الولد: وهل أنت في شكٍّ من ذلك، فقال الوالد: إذن سوَّد الله وجهك، قال الولد: إلّا أنت بيّض الله عينيك، فقال الوالد: ورَّم الله منك الأرض[٢].

قال الولد: إذن فرَّق الله بينك وبين العافية.

فقال الوالد: يا ربّ ترزق الناس أولادًا حسانًا وأنا ترزقني شيطانًا.

قال الولد: أمَا علمت أن من العصا العصيَّة، والحيَّة لا تلد إلا حيَّية. قال الأصمعي: فانقطع جواب أبيه، ولم يعش بعدها إلّا يومًا وليلة.

بين الخنساء وحسان بن ثابت

عرضت الخنساء يومًا شيئًا من شعرها في معرض الشعر في عكاظ على النابغة الذبياني رئيس الموسم، فقال لها: اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين، ولولا أن الأعمى (يعني الأعشى) أنشدني قبلك لفضّلتك على شعراء هذا الموسم؛ وكان ممن عرض شعره حسان بن ثابت الشاعر المعروف فغضب، وقال للنابغة:

---

(١) يشير إلى إبليس.

(٢) أي أماته.

أنا أشعر منك ومنها، فقال النابغة: أجيبيه يا خنساء.

فقالت الخنساء: ما أجود بيت في قصيدتك هذه التي عرضتها الآن يا حسان. قال حسان: أجوده قولي:

لنا الجنفات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت الخنساء: والله يا حسان لقد ضعف افتخارك في ثمانية مواضع، فقد قلت لنا: الجنفات والجنفات ما دون العشر، ولو قلت: الجفان لكان أكثر؛ وقلت: الغرّ، والغرّة البيضاء في الجبهة، ولو قلت: البيض لكان أكثر اتّساعًا، وقلت: يلمعن، واللمع شيء يأتي، ولو قلت: يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان، وقلت: بالضحى، ولو قلت: بالدجى، لكان أكثر للطارقين.

وقلت: أسياف، والأسياف ما دون العشرة، ولو قلت: سيوف لكان أكثر، وقلت: يقطرن، ولو قلت: يسلن لكان أكثر.

وقلت: دمًا، والدماء أكثر من الدم، فسكت حسَّان ولم يحر جوابًا.

بين معاوية وليلى الأخيلية

قال معاوية أمير المؤمنين لليلى الأُخيلية: ما حاجتك يا ليلى فأقضيها لك.

فقالت ليلى: ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة فتخيّر أنت.

فقال لها بعد أن وهبها خمسين من الإبل: أخبريني عن مُضَر.

قالت ليلى: فاخر يا أمير المؤمنين وحارب بقيس وكاثر بتميم وناظر بأسد.

فقال معاوية: أكان (ثوبة) يا ليلى كما يقول الناس فيه[(١)]؟

قالت ليلى: يا أمير المؤمنين ليس كل الناس يقول حقًّا، الناس شجرة بغي يحسدون النعم حيث كانت وعلى من كانت ـ كان (ثوبة) يا أمير المؤمنين أبسط البنان حديد اللسان شجيّ الأقران كريم المخبر عفيف المئزر جميل المنظر، وكان كما قلت ولم أبعد الحق فيه:

بعيد المدى لا يبلغ القرم قعره ألدّ ملدّ يغلب الحق باطله

---

(١) هو (ثوبة بن حمير الخفاجي) وكان يحبها حبًا جمًّا وله فيها شعر كثير ولها فيه رثاء بليغ وقول طويل ليس هنا محله.

فقال معاوية: يا ليلى يزعم الناس أنه كان عاهرًا فاجرًا.

قالت ليلى مرتجلة:

معاذ النهي قد كان والله ثوبة ... جوادًا على العلّات جمًّا نوافله
أغرّ خفَّاجيًّا يرى البخل سبَّة ... تحالف كفاه الندى وأنامله
عفيفًا بعيد الهمّ صلبًا قناته ... جميلاً محياه قليلاً غوائله
وكان إذا ما الضيف أرغى بعيره ... لديه أتاه نيله وفواضله
وقد علم الجدب الذي كان ساريًا ... على الضيف والجيران أنك قاتله
وإنك رحب الباع يا ثوب بالقرى ... إذا ما لئيم القوم ضاقت منازله
يبيت قرير العين من كان جاره ... ويضحى بخير ضيفه ومنازله

فقال معاوية: ويحك يا ليلى قد تخطّيت (بثوبة) قدره.

قالت ليلى: يا أمير المؤمنين والله لو رأيته وخبرته لعلمت أني مقصرة في نعته لا أبلغ كنه ما هو له.

فقال معاوية: وفي أيّ سنٍّ كان؟

قالت ليلى:

أتته المنايا حين تم تمامه ... وأقصر عنه كل قرن يناضله
وصار كليث الغاب يحمي عرينه ... فترضى به أشباله وحلائله
عطوف حليم حين يطلب حلمه ... وسم زعاف لا تصاب مقاتله

فأمر لها معاوية بجائزة، وقال لها: وأيّ قول لك فيه كان أشعر؟

فقالت ليلى: يا أمير المؤمنين ما قلت شيئًا إلّا والذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدت حيث أقول:

جزى الله خيرًا والجزاء بكفّه ... فتى من عقيل ساد غير مكلّف
فتى كانت الدنيا تهون بأسرها ... عليه فلم ينفك جمّ التصرّف
ينال عليات الأمور بهونةٍ ... إذا هي أعيت كل خرقٍ مسوّفِ

فسكت معاوية وقال: يالله يا ليلى فقد أردت أن أحجّك فأحججتني.

بين أبي الأسود الدؤلي وأحد الأعراب

وقف أعرابي على أبي الأسود الدؤلي وهو يتغذّى فسلّم فرد السلام، وأقبل على الأكل، ولم يدعه إليه، فأراد الأعرابي أن يتحكّك به، فقال له:

أما إني قد مررت بأهلك، قال أبو الأسود: كذلك كان طريقك؟ فقال الأعرابي: وامرأتك حبلى، قال أبو الأسود: كذلك كان عهدي بها، فقال الأعرابي: ولدت غلامين؟ قال أبو الأسود: كذلك كانت أمّها، فقال الأعرابي: ومات أحدهما؟ قال أبو الأسود: وما كانت تقوى على إرضاع اثنين، فقال الأعرابي: ثم مات الثاني؟ قال أبو الأسود: وما كان ليبقى بعد موت أخيه، فقال الأعرابي: وماتت الأم، قال أبو الأسود: حزنًا على ولدها، فقال الأعرابي: ما أطيب طعامك، قال أبو الأسود: لأجل ذلك أكلته وحدي، فانصرف الأعرابي ساكتًا.

بين عبد الملك بن مروان وخالد بن أسيد

جلس عبد الملك بن مروان وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد، وعند رجليه أُمية بن عبد الله بن أسيد، فجاؤوا لعبد الملك بالأموال التي بعث بها الحجاج، فقال عبد الملك:

هذا والله التوفير وهذه الأمانة، وليس ما فعل هذا (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق فاستخدم كل ملظ فاسق، فأدّوا إليه العشرة واحدًا، وأدّى هو إليّ من العشرة واحدًا. واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية) فأهدى إليّ برذونين حطمين[1]، فإن استعملتكم ضيّعتم وإن عزلتكم قلتم استخفّ بنا وقطع أرحامنا.

فأجاب خالد بن عبد الله: استعملتني على العراق وأهله رجلان سامع مطيع مناصح وعدوّ مبغض مكاشح، فأما السامع المطيع المناصح فإنّا جازيناه ليزداد ودًّا إلى ودّه، وأمّا العدوّ المبغض المكاشح فإنّا داريناه ضغنة وسللنا حقده وأكثرنا لك المودّة في صدور رعيّتك، وأما الحجاج هذا الذي قمت تفخر به علينا، فهذا جبى لك الأموال وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال، فيوشك أن تنبت البغضاء فلا أموال ولا رجال.

---

(١) جوادين كريمين.

بين المعتصم وتميم بن جميل

كتب المعتصم بالله إلى (مالك بن طوق) بالحملة على (تميم بن جميل السدوسي) بشاطئ الفرات حيث عظم هناك أمره ونَبُه ذكره، فزحف عليه مالك فبدّد جمعه وظفر به وشدّ وثاقه أسيرًا بين يدي المعتصم، فلما مثل بين يديه أمر المعتصم بالسيف والنطع فجاءوا بهما، و(تميم) بينهما، وكان جميلاً فأراد أن يعرف لسانه من منظره في هذا الموقف الحرج، فقال له:

إني آذنك بالكلام، فتكلّم بحجّتك وأدلِ ببراهنك يا (تميم). فقال تميم مرتجلاً: أما إذ أذنت يا أمير المؤمنين بالكلام، فأنا أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين، جبر بك صدع الدين ولمَّ بك شعث المسلمين، وأوضح بك سُبُل الحق، وأخمد بك شهاب الباطل، إن الذنوب تخرس الألسن الفصيحة وتعيي الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلّا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما مني وأضرعهما إليَّ أسبقهما إليك وأولاهما بكرمك، ثم قال:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنًا ... يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظنّي إنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يفلت
وأي امرىء يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت

فقال المعتصم: لقد أسكتتني حجّتك وحسن دفاعك عن نفسك بالحق أو الباطل.

بين صالح بن عبد الله وأبي الهزيل

مات لصالح بن عبد الله العدوي ولد فجاءه أبو الهزيل العلّاف ومعه إبراهيم النظام وهو صغير، فوجده الهزيل على حالٍ من الحزن والتبرّم على ولده يؤسف له ويشفق عليه منه، فقال له: يا صالح إني لا أجد لقلقك سبيلاً ولا لحزنك عذرًا جميلاً إذ الناس عندك كالنبات، فأجابه صالح: يا أبا الهزيل إنما تحرّقي لأنه مات ولم يقرأ كتاب الشكوك، فقال أبو الهزيل: وما هذا الكتاب؟ قال: كتاب وضعته

من قرأه شك فيما كان حتى كأنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى كأنه كان، فردَّ عليه إبراهيم النظام وقال له: إذًا فابن أنت على أنه لم يمت، وإن كان قد مات وعلى أنه قرأ الكتاب وإن لم يقرأه.

بين الحجاج وبشر بن مالك

لما فرغ المهلب من قتل عبد ربه الحروري دعا بشر بن مالك، فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج، فلما دخل عليه قال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: بشر بن مالك، فقال الحجاج: بشارة وملك إن شاء الله وكيف خلفت المهلب؟ قال: خلفته وقد آمن ما خاف وأدرك ما طلب، فقال له: وكيف كانت حالكم مع عدوّكم؟ قال: كانت البداءة لهم والعاقبة لنا، فقال الحجاج: العاقبة للمتّقين، فما حال الجند؟ قال: وسعهم الحق وأغناهم النفل، وإنهم لمع رجل يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل بهم مقاتلة الصعلوك، فلهم منه برّ الوالد وله منهم طاعة الولد، فقال له: فما حال ولد المهلب؟ قال: رعاة البيات حتى يأمنوه وحماة السرح حتى يردّوه، فقال له: وأيّهم أفضل يا بشارة؟ قال: ذلك إلى أبيهم يا أمير المؤمنين، فقال له: وأنت أيضًا تعرف ذلك لأني أرى لك لسانًا وعبارة، قال: هم كالحلقة المفرغة لا يعرف أين طرفها، فقال الحجاج: ويحك أكنت أعددت لهذا المقام هذا المقال؟ قال: لا يعلم الغيب إلّا الله، فقال الحجاج: لا فضّ فوك.

بين إبراهيم بن هرمة وواحد من العرب

قال الأصمعي: أمَّ رجل من العرب بيت إبراهيم بن هرمة فإذا بنت له صغيرة تعبث بالتراب وتلعب بالطين.

فقال لها الرجل: ما فعل أبوك؟ قالت: وفد إلى بعض الأجواد فما لنا علم من عهد، فقال لها: قولي لأمك تنحر لنا ناقة، فإني وهؤلاء الصحب أضيافها. قالت: والله ما هي لنا في بيت، فقال لها: فأعطينا بيضة، قالت: من أين البيضة إذا لم تكن الدجاجة، فقال لها: إذًا بطل ما قال أبوك:

كم ناقة قد وجأت منحرها ... بمستهلّ الشؤبوب أو جمل
لا أمنع العود النصال ولا ... ابتاع إلا قريبة الأجل

فقالت له البنت: إن هذا الكرم من أبي هو الذي ذهب بنا إلى حيث ترى من القلّة.

بين المهلب وأحد الأعراب

قام أعرابي بين يدي داود بن المهلب وقال: إني قد مدحتك يا أمير المؤمنين فاستمع، فقال له داود: على رسلك ثم دخل بيته، فتقلّد سيفه وخرج وقال له: قل الآن فإن أحسنت جازيناك، وإن أسأت قتلناك، فأنشد الأعرابي:

آمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المخشي والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بداود كبوة ... من الدهر لما أن شددت به أزري
له حكم داود وصورة يوسف ... وملك سليمان وعدل أبي بكر

فقال له داود: قد كافأناك فإن شئت على قدرنا وإن شئت على قدرك؟ قال الأعرابي: بل على قدري يا أمير المؤمنين؛ فأمر له بخمس، فأنكر عليه ذلك أحد الحاضرين وقال له: يا أعرابي أتحتكم على قدر نفسك ولا تحتكم على قدر الأمير وفيه كسب لك؟ قال الأعرابي: نعم أحتكم على قدري لأنه ليس في مال الأمير ما يفي بقدره.

بين عبيد بن علي وإسماعيل بن عمرو

قال عبيد بن علي بعد أن قتل من قتل من بني أمية لإسماعيل بن عمرو: يا عمرو سَلْ عما فعلت بأصحابك، فقال إسماعيل: لست في شيء إلى السؤال فإنما كانوا يدًا واحدة فقطعتها، وعقدة فنقضتها، وركنًا فهدمته، وجناحًا فقصصته، وهذا عارٌ بك ألحقته.

قال عبيد: إذًا أنت خليق بأن تلحق بهم، فقال إسماعيل: والله إني إذًا لسعيد ليعظم جرمك ويتضاعف ذنبك.

بين جرير والفرزدق والأخطل

اجتمع جرير والفرزدق والأخطل - وهم ثلاثة من فحول الشعراء المطبوعين المعدودين[1] - في مجلس عبد الملك، فأعدَّ لهم رهانًا من المال، وقال: ليقل

(١) وصف ابن صفوان هؤلاء الثلاثة فقال: - أما أعظمهم فخرًا وأبعدهم ذكرًا وأحسنهم عذرًا=

كل منكم بيتًا في مدح نفسه، فأيّكم غلب وظفر وسبق وانتصر على خصميه وأسكت صاحبيه، فله هذا الرهان ثمنًا لقوة الحجّة والبرهان.

فبدر الفرزدق وقال:

أنا القطران والشعراء جربى ... وفي القطران للجربى شفاء

وقام الأخطل وقال:

فإن تك زق زاملة فإني ... أنا الطاعون ليس له دواء

ونشط جرير وقال:

أنا الموت الذي آتي عليكم ... فليس لهاربٍ منه نجاء

فقال له عبد الله: لك الرهان يا جرير، فقد أفحمت مناظريك وأسكتَّ خصميك.

بين أبي العيناء وأبيه

قال أبو العيناء: أنا أوّل من أظهر العقوق لوالديه، فقال لي أبي: إن الله قد قرن طاعته بطاعتي، فقال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمَان: الآية ١٤]، فقلت أنا له: يا أبت إن الله تعالىٰ قد أمَّنك عليَّ ولم يؤمنني عليك، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٣١]، فسكت أبي.

بين عمرو بن عاصم وابنة عربية

قال (عمرو بن شيبة): كان عمرو بن عاصم يغزو قبيلة فَهم فيصيب دائمًا منهم، فحقدوا عليه وقتلوه ومرّوا بأخته (جنوب) فقالوا لها: لقد طلبنا أخاك، قالت لهم: لئن طلبتموه لتجدنّه سريعًا، فقالوا لها: قد أخذناه فقتلناه وهذا نبله دليل على فقده، قالت لهم: والله لئن سلبتموه لأنحدرنّ إلى حجرته حافية ولربّ ثدي منكم قد افترشه، ونهب قد احتوشه، وضبّ قد احترشه.

= وأيسرهم مثلاً وأقلّهم غزلاً وأحلاهم عللاً البحر الطامي إذا ذخر والحامي إذا ذعر والسامي إذا خطر الذي إذا هدر قال وإذا خطر سال الفصيح اللسان الطويل العنان فالفرزدق ـ وأما أحسنهم نعتًا وأمدحهم بيتًا وأقلهم قوتًا الذي هجا وضع وإذا مدح رفع فالأخطل ـ وأما أغزرهم بحرًا وأفهمهم شعرًا وأكثرهم ذكرًا الأغر الأبلق الذي إن طلب لم يسبق وإن هرب لم يلحق فجرير. وكلهم ذكي الفؤاد رفيع العماد واري الزناد.

بين أبي الأسود الدؤلي وأحد الأعراب

مرّ أعرابي بأبي الأسود الدؤلي وهو واقف على باب داره فسلّم عليه، فقال له أبو الأسود كلمة مقولة: ما شأنك يا أعرابي؟ فقال الأعرابي: ائذن لي بدخول بيتك، قال أبو الأسود: وراءك أوسع لك، فقال له: هل عندك شيء يؤكل؟ قال أبو الأسود: نعم، فقال الأعرابي: إذن فأطعمني، قال له: عيالي أحقّ به منك، فقال الأعرابي: ما رأيت والله ألأم منك، قال أبو الأسود: والله لست ترى نفسك.

بين الحجاج وأيوب بن القرية

دخل أيوب بن القرية على الحجاج، وكان فيمن أسر من أصحاب عبد الرحمٰن بن الأشعث بن قيس الكندي، فقال له الحجاج: ماذا أعددت لهذا الموقف يا أيوب؟ قال أيوب بن القرية: أعددت ثلاثة صفوف كأنها ركب وقوف: دنيا، وآخرة، ومعروف؛ فقال الحجاج: والله لبئسما منيت به نفسك يا ابن القرية، أترى أني ممن تخدعه بكلامك وخطبك، والله لأنت أقرب إلى الآخرة من موضع نعلي هذه.

قال أيوب: أقلني عثرتي وأسغني ريقي، فإنه لا بدّ للجواد من كبوة، والسيف من نبوة، والحليم من صبوة، فقال الحجاج: والله لأنت إلى المنتصر أقرب منك إلى العفو، ألست القائل وأنت تحرّض حزب الشيطان وعدوّ الرحمٰن (تغدّوا بالحجاج قبل أن يتعشّى بكم)، وقد نقلت هذا للغضبان بن القبعثري؟ فسكت ولم يَحِر جوابًا.

بين المنصور وأحد الخوارج

جيء للمنصور ببعض الخوارج عليه وقد ظفر به أسيرًا، فقال له المنصور: أخبرني يا هذا مَن مِنْ أصحابي كان أشدّ إقدامًا في مبارزتك؟ قال الخارجي: إني لا أعرف وجوه أصحابك مقبلين، وإنما أعرف أقفيتهم مدبرين، فقل لهم يدبرون حتى أدلّك إلى أيّهم كان أشدّ فرارًا.

بين أعرابية وأعرابي

سمع أعرابي أعرابية حسناء تقول وقد أتت إلى جانب النهر:

يا جارية أين أضع رجلي؟ فقال الأعرابي مازحًا: على كتفي. فقالت الأعرابية: بخُفي، قال لها: على رقبة زوجك، فقالت له: من أين خرجت؟ قال لها: من بيتك، فقالت له: مصفوعًا، قال لها: على تهمةٍ بك، فقالت له: وأنت منها بريء.

بين أعرابية وعربي

مرَّت أعرابية من بني نمير على مجلسٍ لهم في يوم ريح، فقال رجل منهم: يا أعرابي إنك لرسحاء[١].

فقالت الأعرابية: والله يا بني نمير ما أطعتم الله ولا أطعتم الشاعر. قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: الآية ٣٠]، وقال الشاعر:

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

بين عثمان وعمرو بن العاص

لما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن أبي السرح دخل عليه عمرو، وعليه جبّة، فقال له عثمان: ما حشو جبّتك يا عمرو؟ فقال له عمرو: حشوها (أنا). قال عثمان: علمت أنك فيها، ولكن أعلمت يا عمرو أن اللقاح درَّت بعدك ألبانها[٢]؟ فأجابه عمرو: ذلك يا عثمان لأنكم أعجفتم ألبانها[٣].

بين الحجاج وأحد الأعراب

حجّ الحجاج فنزل ببعض المياه بين مكَّة والمدينة ودعا بالغذاء، وقال لرسوله: اذهب وتحرَّ من يأكل معي، فذهب الرسول وأرسل بنظره نحو الجبل فإذا براعٍ بين شملتين نائم فلكزه برجله، وقال له: ائت الأمير، فلما تمثّل بين يديه قال له الحجاج:

(١) عيب من عيوب النساء.
(٢) يشير إلى الأموال كثرت بعد عزل سيدنا عمرو رضي الله عنه.
(٣) يشير إلى أن هذه الكثرة التي يبكّته بقلتها في عهده وبكثرتها من بعده إنما هي لأنه هضم الرعية حقها وأجاعها وظلمها.

اغسل يدك وتغدَّ معي يا أعرابي، فقال الأعرابي: دعاني من هو خير منك فأجبته، قال الحجاج: من هو الذي دعاك وهو خيرٌ مني؟ فقال الأعرابي: الله تعالى دعاني إلى الصيام فصمت، قال الحجاج: في هذا الحرّ الشديد؟ فقال الأعرابي: نعم صمت ليوم أشدّ حرًا منه، قال الحجاج: أفطر وصم غدًا، فقال الأعرابي: إن ضمنت لي البقاء إلى غد، قال الحجاج: ليس ذلك إليَّ، فقال الأعرابي: كيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه، قال الحجاج: ذلك لأنه طعام طيّب، فقال الأعرابي: والله لم تطيبه أنت ولكن طيّبته العافية.

بين العباس بن المأمون وإبراهيم بن المهدي

جلس المعتصم يومًا وقد تولّى الخلافة بعد المأمون، وعن يمينه العباس بن المأمون، وعن يساره إبراهيم بن المهدي، فأخذ إبراهيم يقلّب خاتمًا في يده، فقال له العباس: ما هذا الخاتم يا إبراهيم؟ قال إبراهيم: هذا خاتم رهنته في أيام أبيك (المأمون) فلم أفككه إلّا في أيام أمير المؤمنين.

فقال له العباس: والله وأنت لا تشكر أبي على حقن دمائك مع عظيم جرمك، فإنك لا تشكر أمير المؤمنين على فكّ خاتمك.

بين عبد الله بن صفوان وعبد الله بن جعفر

قال عبد الله بن صفوان وكان أُمّيًا لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: أبا جعفر والله لقد صرت حجّة لفتياتنا علينا إذا نهيناهن عن اللّهو قلن: هذا جعفر سيّد بني هاشم يلهو ويلعب، فقال له عبد الله: وأنت يا صفوان صرت حجة لصبياننا علينا إذا لمناهم وآلمناهم على ترك المكتب، قالوا: هذا أبو صفوان سيد بني جمح لا يقرأ حرفًا ولا يخطّها، فسكت.

بين عربي من قريش وجارية من بدر

لقي عربي من قريش كان به وضح(١) جارية من بدر وكان هو مغرمًا بالشراب، فقال لها: أشعرت أنه بعث نبي لهذه الأمة يحمل الخمر للناس؟ فقالت الجارية: إذًا لا تصدّق به حتى يبرئ الأكمه والأبرص.

(١) أثر من آثار البرص.

بين المهدي وعمارة بن حمزة

كان عمارة بن حمزة مشهورًا بالكبر والإعجاب بالنفس، فدخل على المهدي يومًا ولما اطمئنّ به المقام نهض رجل في المجلس كان المهدي قد أوعز إليه ليتهكّم بعمارة، فقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال المهدي: من ظلمك؟ فقال الرجل: عمارة هذا غصبني ضيعتي (وكانت من أحسن ضياع عمارة)، قال المهدي: قم واجلس مع خصمك يا عمارة، فقال عمارة: يا أمير المؤمنين ليس هذا خصمي، فإن كانت الضيعة له فلست أُنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مجلس شرّفني به أمير المؤمنين.

بين محمد بن الفرات وعليّ بن عيسى

كتب محمد بن الفرات أيام وزارته إلى عليّ بن الحسين صاحبه يقول له: إني أستشهد بك في المسألة، وكانت شهادة بغير حق، فأجاب عليّ بقوله: لا تلمني على نكوسي عن نصرتك شهادة زور، فإنّه لا اتفاق على نفاق، ولا وفاء لذي مين واختلاق، وأولى بمن تعدّى الحق في مسرّتك إذا رضي أن يتعدّى الباطل في مساءتك إذا غضب.

بين الفضل بن يحيٰى والقاسم بن إسحٰق

كان الفضل بن يحيٰى يرسل إلى القاسم بن إسحٰق البصري مع جوائزه رقاعًا مختومة، فيردّ الجواب برقاع منشورة. فقال له الفضل: إني أكره ذلك منك، وأنكره عليك.

فقال له يحيٰى: رقاعك تشتمل على برّ ورقاعي تشتمل على شكرٍ، فأنت تكتم برّك وأنا أنشر شكري، فكل منّا فعل ما وجب عليه وندب إليه.

بين المهدي وعكاشة الصوفي

قال صاحب كتاب الأغاني: لما أنشد عكاشة الصوفي يصف الخمر بين يدي المهدي بقوله:

حمراء مثل دم الغزال وتارةً بعد المزاج تخالها زريابا

وإذا المزاج علا فشجّ جبينها نفثت بألسنة المزاج حبابا

قال له المهدي: لقد وصفت الخمر يا عكاشة فأحسنت وصفها إحسان من شَرِبها فاستحققت الحدَّ.

فقال عكاشة: أيؤمّنني أمير المؤمنين حتى أُدلي بحجّتي؟

قال المهدي: قد أمَّنتك، فتكلّم.

فقال عكاشة: وما يدريك يا أمير المؤمنين أني قد أجدت وصفها إن كنت أنت لا تعرفها؟ فسكت.

بين عدي بن أبي أرطاة وأعرابية

اختصمت امرأة أعرابية بعلها إلى عديّ بن أبي أرطاة القاضي، فقالت له: أصلح الله مولانا القاضي، إني أختصم زوجي هذا لأنه حرمني ما أحلّ الله.

فقال القاضي: إني لأستحي أن تذكري مثل هذا، قالت الأعرابية: وكيف ذلك أيّها القاضي ولم لا أرغب أن أكون أُمًّا كما رغبت ذلك أمّك قبل أن تلدك، فعسى ربي يرزقني ولدًا صالحًا مثلك.

بين أبي عبيدة ورجل من بني فزارة

قال (أبو عبيدة): قال رجل من بني فزارة لرجل من بني عذرة: أنتم بنو عذرة تعدّون موتكم في الحب مزية، وإنما هو من ضعف البنية وعجز الرويّة، فأجاب العذري: أما إنكم يا بني فزارة لو رأيتم المحاجر البلج ترشق بالأعين الدعج فوقها الحواجب الزج وتحتها المباسم الفلج والشفاه السمر تفترّ عن الثنايا الغرّ، كأنها برذ الدر لجعلتموها اللّات والعزّى ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم(١).

بين رجلٍ وعمّه

قال عبيد الله (بن محمد بن عمران المرزباني) عن المظفر بن يحيٰى: أحبَّ رجل امرأة دونه في القدر فعزله عمّه، وقال له: ما هذا التسفّل إلى هذا الحدِّ في حبِّ من هي دون مرتبتك وتحت قدرك بكثير، فأَقْلِعْ عن هذا، فإن هذا خيرٌ لك وأولى بك.

---

(١) اللات والعزى: أسماء أصنام يعبدونها في الجاهلية.

فأجاب عمّه قائلاً: يا عمّاه لا تَلُمْ مجبرًا على سقمه، فإن المقرّ على نفسه مستغنٍ عن منازعة خصمه، وإنما يُلام من اقترف ما يقدر على تركه، وليس أمر الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبّره، بل قدرته أغلب وجانبه أعزّ من أن تنفذ فيه حيلة حازم أو لطف محتال.

بين أعرابية وأعرابية

عاتبت أعرابية من المدينة أعرابية مثلها على هوىً لها، فقالت لها: أمَا علمت يا أختاه أنه قيل في الحكمة الغابرة والأمثال السائرة: لا تلومنّ من أساء بك الظن إذ جعلت نفسك هدفًا للتهمة، ومن لم يكن عونًا على نفسه مع خصمه لم يكن معه شيء من عقدة الرأي، ومن أقدم على هوىً وهو يعلم ما فيه من سوء المغبّة سلّط على نفسه لسان العذَّل وضيَّع الحزم.

فأجابت الأعرابية المعزولة: أوَ ما علمت أنت أيضًا أن الهوى ليس أمره إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبّره، وهو أغلب قدرة وأمنع جانبًا من أن ينفذ فيه رأي الحازم، وهلّا سمعت قول الشاعر:

ليس خطب الهوى بخطب يسيرٍ ... لا ينبيك عنه مثل خبير
ليس أمر الهوى يدبر بالرأ ... ي ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمر في الهوى خطرات ... محدثات الأمور بعد الأمور؟

فقالت: صدقت أنت، وكذبت أنا.

بين المنصور وجعفر الصادق

كتب المنصور العباسي إلى عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه يقول له: لِمَ لا تغشانا كما تغشانا الناس؟ فقال له عبد الله: ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمةٍ فنهنيك بها، ولا نعدّها نقمة فنعزّيك لها.

فأجابه المنصور: يا عبد الله تصحبنا لتنصحنا، فقال عبد الله: من يطلب الدنيا لا ينصحك، ومن يطلب الآخرة لا يصحبك.

بين موسى بن عيسى وعبد الله بن عبد العزيز

قال موسى بن عيسى لعبد الله بن عبد العزيز: يا عبد الله لقد بلغ أمير المؤمنين الرشيد أنك تشتمه وتدعو عليه، فبأيّ شيء استحقَ ذلك منك أمير المؤمنين؟

فقال عبد الله بن عبد العزيز: أما شتمه فأنا بريء منه، فهو والله أكرم عليّ من نفسي، أمّا الدعاء عليه فوالله ما قلت: اللّهمّ إنه أصبح عبئًا ثقيلاً على أكتافنا لا تطيقه أبداننا وقذًى في عيوننا لا تنطبق عليه أجفاننا وشجًا في حلوقنا لا تسيغه أفواهنا فاكفنا مؤنته وفرّق بيننا وبينه ـ نعم لم أقل ذلك ـ ولكني قلت: اللّهمّ إن كان أمير المؤمنين تسمى الرشيد ليرشد فأرشده، وإن كان غير ذلك فراجع به. اللّهمّ إن له في الإسلام بالعباس حقًّا على كل مسلم وله بنبيك قرابة ورحمًا فقرّبه من كل خير وأبعده من كل شر وأسعدنا به وأصلحه لنفسه ولنا، فهل هذا دعاء عليه؟

بين الرشيد والعمري

لما دخل أمير المؤمنين (الرشيد) مكّة في عام مابة وست وثمانين انبرى إليه (العمري) من وسط الجماعة، وقال له: يا أمير المؤمنين قِفْ حتى أُكلّمك، فقال أمير المؤمنين: اعقلوا زمام الناقة؛ فعقلوها فقال للعمري: قل ما في نفسك وإني منصتٌ لك.

قال العمري: اعزل عنا إسماعيل بن القاسم فإنه يقبل الرشوة ويطيل النشوة[1] ويضرب العشوة[2]، فقال أمير المؤمنين: لك ذلك يا عمري فقد عزلناه، ثم التفت إلى يحيٰى وقال له: أعندك يا يحيٰى مثل هذه البديهة؟ فقال يحيٰى: إنها يا أمير المؤمنين بديهة يجب أن يُحْسَن له عليها، فأحسن إليه. قال أمير المؤمنين: نعم ونحن إذا عزلنا عنه من يريد عزله فقد كافأناه وأحسنّا إليه.

فأجاب يحيٰى: نعم إنه إحسان من الأمير ولكن إلى العدل وترضية للحق ـ وهذا الإحسان غير الإحسان على البديهة التي يعيّرني بها أمير المؤمنين.

---

(١) يعني سكير. (٢) يعني غير متبصّر ولا مُتَحَرٍّ في الأمر.

بين سليمان الفارسي وأبي الدرداء

كتب سليمان الفارسي إلى أبي الدرداء يقول له: إلى أبي الدرداء، أمّا بعد، فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكرًا وصمتك فكرًا ونظرك عبرًا، فإن الدنيا تتقلّب وبهجتها تتغيّر فلا تغترّ بها وليكن بيتك المسجد والسلام.

فأجاب أبو الدرداء يقول: سلام عليك، أمّا بعد فإني أوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك، ومن جفائك لمودّتك، واذكر حياةً لا موت فيها في أحد المنزلتين، إمّا في الجنّة وإمّا في النار، فإنك لا تدري إلى أيّهما تصير.

بين الربيع وغلامٌ عربي

أقبل غلام من العرب على المنصور، فسأله المنصور عن أبيه، فقال الأعرابي: مرض والدي رحمه الله يوم كذا، ومات رحمه الله يوم كذا، وترك رحمه الله من المال كذا، فانتهره الربيع في المجلس وقال له: ما هذا الحمق كيف وأنت ماثل بين يدي أمير المؤمنين توالي بالدعاء لأبيك. فقال له الأعرابي: لا لوم عليك ولا عتب يا ربيع، لأنك لم تعرف حلاوة الآباء[١].

بين عبد الملك بن مروان وعربي

دعا عبد الملك بن مروان طائفة من القوم للغذاء معه، وكان بين الجماعة أعرابي صميم أبى عليه إجابة الدعوة، وقال له: ليس بي غذاء قد تغذّيت يا أمير المؤمنين.

فقال له عبد الملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا يكون فيه فضل للطعام.

قال الأعرابي: يا أمير المؤمنين فيَّ والله فضل وعندي بقية، ولكن أكره أن آكل فأستحيل إلى ما يستنكره أمير المؤمنين، فسكت عبد الملك.

---

(١) ذلك لأن الربيع كان مولى المنصور ولا يُعرَف له أب.

بين دعبل الشاعر وآخر

جلس دعبل الشاعر في جماعة، فجرى ذكر أبي تمام، فرماه دعبل وهجاه وحطّ من قدره وقدرته شأن أكثر المعاصرين المشتغلين في صناعة واحدة، وقال: إن أبا تمام يتتبع معانيّ فيأخذها ويصوغها في قالب جديد من عنده، فقال له رجل منهم: قل لنا شيئًا أو بعض شيء مما سرقه من معانيك، قال دعبل: إني قلت:

وإن امرءًا أسدى إليّ بشافع ... إليه ويرجو الشكر مني لأحمق
شفيعك فاشكر في الحوائج أنه ... يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فسرق أبو تمام هذا المعنى، وقال:

فمتى أقوم بحق شكرك إذ جنت ... بالغيب كفك لي ثمار نواله
فلقيت بين يديك حلو عطائه ... ولقيت بين يديه مرّ سؤاله
وإذا امرئ أسدى إليه صنيعة ... من جاهه فكأنها من ماله

فقال الرجل: والله لقد أحسن وأجاد أبو تمام. قال دعبل: كذبت قبحك الله، فقال الرجل: والله إن كان أبو تمام قد سبقك إلى هذا المعنى، فما أحسنت، وإن كان هو الذي أخذه منك فقد أجاده عنك وأصبح أولى بالحمد عليه منك.

بين معاوية وحجر الأدبر

أمر معاوية بقتل حجر الأدبر وأصحابه، وبعث إليهم أكفانهم وأوعز بأن تفتح قبورهم ويقتلوا عليها، فلما جيء به بين السيف والنطع جزع جزعًا شديدًا وعرته دهشة وذهول، فقال له أمير المؤمنين: أمثلك يا حجر يجزع من الموت ويكتئب ويحزن، فقال حجر الأدبر: وكيف لا أجزع وأرى سيفًا مشهورًا وكفنًا منشورًا وقبرًا محفورًا؟ فقال معاوية: لقد نطق الحجر وصدق بما نطق.

بين الأصمعي وآخر

سُئِل الأصمعي الشاعر المطبوع: أيّ الرجلين أشعر مسلم بن الوليد أم أبو نوّاس؟

فقال الأصمعي: إني أحكم لأبي نواس. فقالوا له: إن أخاك أبا عبيد حكم لمسلم إنه أشعر، فقال الأصمعي: إن أبا عبيد إنما يروي الشعر، ولكنه لم يكابد

مشقّة العمل في صناعته، وقول الشعر شيءٌ ومكابدة عمله شيءٌ آخر، ولأجل هذا كان أخي ليس أهلاً للحكم.

بين أبي الفضل بن المضاء وشريح بن عبد الله

كان أبو الفضل بن المضاء أحد أُمراء بني الأغلب يخضب شعره، فأراد أبو شراحيل شريح بن عبد الله بن غانم بن العاص أن يعبث به ويعرض بذكره، فقال له:

لعمرك ما الخضاب إذا تولّى ... شباب المرء إلّا كالسراب

فأجابه أبو الفضل مرتجلاً:

فلا تعجل رويدك عن قريب ... كأنك بالمشيب وبالخضاب

بين ملك عربي وغلام عربي

مرّ أحد الملوك بغلام عربي يسوق حيوانًا بعنف وشدّة، والحيوان بطيء الحركة قليل الهمّة، فقال الملك: يا غلام ارفق بهذا الحيوان. قال الغلام العربي: أيّها الملك في الرفق به مضرّة له. فقال له الملك: وكيف ذلك وإني لا أرى مضرّة غير الذي هو فيه الآن.

قال الغلام: ذلك أنه إذا أبطأ يطول طريقه ويشتدّ جوعه، ففي العنف به إحسانٌ إليه. فقال الملك: وما الإحسان إليه؟ قال الغلام: يخفّ حمله ويطول أكله.

فأُعجب الملك بجوابه، وكافأه، فقال الغلام: هو رزق مقدور وواهب مأجور.

فقال الملك: قد أمرت بإثبات اسمك في بطانتي. قال الغلام: كفيت مؤونة ورزقت بها معونة، قال الملك: ولولا حداثة سنّك لاستوزرتك. قال الغلام: لن يُعدم الفضل من رزق العقل. فقال الملك: فهل تصلح لذلك يا غلام؟ قال الغلام: إنما يكون المدح والذمّ بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوَها.

بين يحيٰى بن أكثم وسفيان بن عيينة

بكى سفيان بن عيينة يومًا، فقال له يحيٰى بن أكثم: ما يبكيك يا أبا محمد؟ فقال سفيان: إنما يبكيني أنه بعد مجالستي أصحاب رسول الله ﷺ بليت

بمصاحبتك، فأجاب يحيى بن أكثم وكان حديثًا: إذن فمصيبة أصحاب رسول الله ﷺ بمجالستك بعد رسول الله ﷺ أعظم من مصيبتك بمجالستي بعد أصحابه.

بين معاوية والحسين

كان لمعاوية بن أبي سفيان عينًا[١] بالمدينة يكتب إليه بما يكون من شأن الناس وقريش، فكتب إليه ذلك العين يقول: إن الحسين بن عليّ أعتق جاريةً له وتزوّجها، فكتب معاوية إلى الحسين بن علي: أمّا بعد؛ فإنه بلغني أنك تزوّجت جاريتك وتركت أكفاءك من قريش ممن تستحسنه للولد وتمجد به في الصهر، فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت.

فأجابه الحسين يقول:

أمّا بعد؛ فقد بلغني كتابك وتعييرك إياي بأني تزوّجت مولاتي وتركت أكفّائي من قريش، فليس فوق رسول الله ﷺ منتهى في شرف ولا غاية في نسب، وإنما كانت ملك يميني خرجت عن يدي بأمرٍ التمست فيه ثواب الله تعالى ثم ارتجعتها على سنّة رسول الله ﷺ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنّا به النقيصة، فلا لوم على امرئ مسلم إلّا في أمرٍ مؤثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية. فقرأ معاوية هذا الجواب المسكت، وقال ليزيد: إنما هي السنّة بني هاشم الحداد التي تفلق الصخر وتجفّف البحر.

بين الحسن بن سهل وسهل بن هٰرون

ألّف سهل بن هٰرون كتابًا يمدح البخل ويذمّ الجود ليظهر بقدرته على البلاغة، وأهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون، فلما أمعن الحسن نظره فيه وفكّر في معانيه كتب عليه إليه يقول: يا سهل لقد مدحت ما ذمّه الله وحسَّنت للناس ما قبّح الله ولا يقوم صِلاح لفظك بطلاح معناك. وقد جعلنا نوالك عليه قبول قولك فيه.

(١) العين هو الجاسوس.

بين يموت بن المزرع وسهل بن صدقة

اجتمع أبو بكر بن يموت بن المزرع وسهل بن صدقة، فقال سهل ليموت: ألا ضربك الله باسمك[(١)]؟ فقال له يموت: أمّا أنت فأحوجك الله إلى اسم أبيك[(٢)].

بين خالد بن صفوان والفرزدق

قال خالد بن صفوان للفرزدق: ما أنت بالذي ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: الآية ٣١][(٣)].

فقال له الفرزدق: ولا أنت أبا صفوان بالذي قالت الفتاة لأبيها في صفته: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القَصص: الآية ٢٦][(٣)].

بين يزيد بن حاتم وأبي اليقظان

دخل (أبو اليقظان) القيسي وعليه حلّة وشيء وكسأ خزّ على يزيد بن حاتم وفي حضرته هشام بن خديج، فقال يزيد لهشام: عليك بأبي يقظان يا هشام، فقال هشام وقد التفت إلى أبي يقظان: الحمد لله يا أبا اليقظان فلقد لبستم الوشي بعد العباء والشفوف بعد الصوف. فأجاب أبو يقظان: أجل تحوكون ونلبس فلا عدمتم هذا منّا ولا عدمنا هذا منكم، فسكت.

بين الحسن بن علي وحبيب بن سلمة الفهري

قال الحسن بن علي لحبيب بن سلمة الفهري: ربّ مسير لك في غير طاعة الله، فقال حبيب: أما مسيري إلى أبيك فلا، قال الحسن: بلى ولكنك أطعت معاوية عن دنيا قليلة، فلئن قام بك في دنياك لقد قعد بك في آخرتك، ولو كنت إذ فعلت شرًا قلت خيرًا كنت كما قال تعالى) ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبَة: الآية ١٠٢]، ولكنك كما قال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفِين: الآية ١٤].

---

(١) أي أصابه بالموت (لأن اسمه يموت).
(٢) أي أحوجه إلى الصدقة والسؤال (لأن اسمه سهل بن صدقة).
(٣) آيتان كريمتان.

بين هشام بن عبد الملك ويزيد بن مزيد

دخل يزيد بن مزيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك فلم يجد مكانًا يجلس فيه، وعلم أن ذلك من أمير المؤمنين هشام كيدًا له ونكاية فيه، فقال: يا أمير المؤمنين إنه لا يكبر أحد فوق تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله.

قال هشام: بلغني يا يزيد أنك تمنّي نفسك بالخلافة، ولا تصلح لها وإنك ابن أمة.

فقال يزيد: أمّا قولك إني أُمنّي نفسي بالخلافة فلا يعلم الغيب إلّا الله، وأمّا قولك إني ابن أمة فليس هذا بضائري - وهذا إسمٰعيل بن إبراهيم خليل الرحمٰن ابن أمة ومن صلبه خير البشر محمد ﷺ - وهذا إسحٰق بن حمزة - ليس ابن أمة - ومن صلبه القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، أيكفيك هذا أم أزيدك، فسكت هشام.

بين عمر بن الخطاب والمغيرة

قدم أهل الكوفة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكون إليه سعد بن أبي وقاص، فقال لهم: من يعذرني يا قومي إن وليتهم التقيّ ضعّفوه، وإن وليتهم القويّ فجروه، فقال له المغيرة بن شعبة: يا أمير المؤمنين إن التقيّ الضعيف له تقاه ولك ضعفه، وإن القوي الفاجر لك قوّته وعليه فجوره. فقال له عمر: صدقتَ يا مغيرة، أنت القويّ الفاجر، فاخرج إليهم.

بين خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة

كان بلال بن أبي بردة ثابت الفؤاد رابط الجأش هادئ القلب عند المصيبة فيه، فأحضره يوسف بن عمر في قيوده وأصفاده وقام خالد بن صفوان وقال ليوسف: أيّها الأمير إن عبد الله بلالاً هذا ضربني وحبسني ولم أفارق جماعة ولا خلعت يدًا من طاعة؛ ثم التفت إلى بلال في أصفاده وقال له: الحمد لله الذي أزال سلطانك وهدّ أركانك وأزال حمالك وغيّر حالك، فوالله لقد كنت منيع الحجاب مستخفًا بالشريف متظاهرًا بالعصبية.

فقال بلال وهو يرسف في قيوده: يا خالد إنما تطاولت عليّ بثلاث هنّ معك: الأمير مقبل عليك وهو عني معرض، وأنت مطلق وأنا أسير، وأنت في أرضك وأنا غريب ثلاثة بثلاثة.

بين الرشيد وجعفر بن يحيىٰ

ركب الرشيد وجعفر بن يحيىٰ عن يساره، فرأى الرشيد في طريقه أحمالاً مثقلة ومقبلة، فسأل عنها فقالوا له: هذه هدايا خراسان بعث بها عليّ بن عيسى بن هامان ـ وكان الرشيد ولّاه إياها بعد الفضل بن يحيىٰ، فالتفت الرشيد لجعفر وقال له: أين كانت هذه الهدايا يا جعفر أيّام أخيك؟ فقال له جعفر: هذه الهدايا إنما كانت في منازل أصحابها يا أمير المؤمنين.

بين ابن الزيات والوزير وامرأة

ارتكب رجل جريمة القتل في وزارة ابن الزيات، فأمر بحبسه، فجاءت أمة راكعة مستصرخة بالوزير، وقالت له: إني أستشفعك أيها الوزير وأطمع في العفو عن ولدي وفلذة كبدي، فقال لها الوزير: إن العدالة لا قلب لها والحقّ لا يعرف الشفقة.

فقال أحدهم: ارحمها أيها الوزير، فإنها أمه وعائلة همّه، فقال الوزير: إن كان ما تطلبه له حقًّا، فالحق يخرجه، وإن كان باطلاً فالباطل يصرعه. فقال الرجل: أنا أطلب الرحمة ولا أنتصر للباطل.

قال ابن الزيات: إذن كيف تسعى في أن أرحم أُمّ القاتل، ولا تسعى في أن أرحم أُمّ المقتول؟

بين أعرابي وسليمان بن عبد الملك

قال أعرابي لسليمان بن عبد الملك: إني أُكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبّه. فقال أمير المؤمنين: هات يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته ولا نرجو نصيحته، وأنت المأمون غيبًا الناصح جهرةً، فقال الأعرابي: إني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأديةً لحقّ الله تعالىٰ. إنه قد اكتنفك رجال أساؤا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربّهم، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للآخرة وسلّم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعًا، والأمة كسفًا وخسفًا، وأنت مسؤول عمّا اجترموا وليسوا مسؤولين عمّا اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله غبنًا من باع آخرته بدنيا غيره.

فقال له أمير المؤمنين: أمّا أنت يا أعرابي فقد سَلَلْت لسانك وهو سيفك، فأجابه الأعرابي: إنما سَلَلْت لساني أو سيفي لك لا عليك يا أمير المؤمنين.

بين عمر بن عبد العزيز وغلام حجازي

لما بُويع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالخلافة قدم إليه وفود المهنّئين من كل حدبٍ، وكان من بينها وفد أهل الحجاز، فاشرأبّ منهم غلام للكلام، فقال له عمر: يا غلام ليتكلّم من هو أسنّ منك، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين إنما المَرْء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا فقد أحسن له الاختيار، ولو أن الأمر بالسن لكان في مجلسك هذا من هو أحقّ به منك.

فقال عمر: صدقتَ يا غلام تكلّم، فهذا السحر الحلال. فقال الغلام: ليعلم الأمير أنّا نحن وفد التهنئة لا وفد الترزئة، ولم نقدم إليك رغبةً فيك ولا رهبةً منك، لأنّا أمِنّا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا. فقال عمر: زه وسكت.

بين الخليفة المتوكّل وجارية أحد الشعراء

رغب الخليفة المتوكّل من أحد الشعراء جاريةً وأطمعه في عشرة آلاف درهم إذا هو تنازل له عنها، فأبى الشاعر عليه تحقيق رجائه، فمات الشاعر فابتاعها المتوكّل من بين ميراثه بخمسة آلاف، وقال للجارية: يا جارية كنّا أعطينا مولاك بك في حياته عشرة آلاف درهم فأبى وتمنّع، وها نحن قد اشتريناك الآن بعد وفاته بخمسة آلاف، فأنقص من قيمتك خمسة آلاف، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين، إذا كانت الخلفاء تتربّص بلذاتها المواريث فسنشتري نحن أيضًا فيما بعد بأرخص مما اشتريت أنت الآن!

بين محمد بن صبيح وجاريته

قال محمد بن صبيح (المعروف بابن السماك) لجاريته: كيف ترين ما أعِظُ الناس به، فأجابت الجارية: إن الذي تعظ الناس به هو حسنٌ، إلّا أنك تكرره.

فقال لها محمد: إنما أكرّره ليفهمه من لم يكن فهمه.

فأجابت الجارية: ولكن إلى أن يفهم البطيء ما تقول يثقل على سمع الذكيّ.

بين المنذر بن المنذر وحمزة بن حمزة

دخل حمزة بن حمزة على المنذر بن المنذر وهو ملك، وكان ذا رأي وعقل ودميم، فاحتقره المنذر لدمامته وقال له: والله لأن تسمع بالمعيديّ خيرٌ من أن تراه، فأجابه حمزة: أبيت اللعن إنما المَرْء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا نطق نطق ببيان، وإذا قاتل قاتل بجنان، والرجال لا تكال بالقفزان، ولا توزن بالقبان؛ فسكت المنذر.

بين عمرو بن هبيرة وأعرابي

خرج أعرابي من الحرب وتعلق بأذيال الهرب، فقال له عمرو بن هبيرة: يا هذا قاتل وخذ الرزق، فقال له الأعرابي: أنا لا أقاتل حتى تقدم لي رزقي. قال عمرو بن هبيرة: وأنا لا أقدم لك الرزق حتى تقاتل. فقال الأعرابي: عجبًا يا عمرو كيف أُقاتل وأنا أرى أن منيّتي معجلة وأمنيّتي مؤجلة.

بين الأشعث بن قيس وآخر

أسدى الأشعث بن قيس لرجل معروفًا، فلم يشكره الرجل له وأنكره عليه فحنق الأشعث، وقال له: يا هذا إني أكرمتك فجحدت وما هكذا، والله يقابل الإحسان بالكفر والعرف بالنكر.

فأجاب الرجل قائلاً: والله ما أنكرت معروفك هذا إنما كان معروفك من غير محتسب فوقع عند غير شاكر.

بين زياد ومعاوية

طلب زياد رجلاً لمحاكمته فهرب منه ولاذ بأمير المؤمنين معاوية، واحتمى به فكتب زياد إلى معاوية يقول له: إن هذا فساد لعملي إذا طلبت أحدًا لجأ إليك ولاذَ بك.

فأجابه معاوية: يا زياد إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد. ولكن فلتكن أنت للشدَّة والخشونة ولأكن أنا للرحمة والرأفة، فيستريح الناس فيما بيننا، فسكت زياد وقال: ما غلبني معاوية إلّا في هذه.

بين الحسن بن سهل وأعرابي

كان الحسن بن سهل جم السخاء كثير العطاء، فكتب إليه أعرابي يقول: ما هكذا والله يا حسن سبيل الإحسان، أمَا علمتَ أنّه لا خير في السرف. فأجاب حسن بن سهل قائلاً: قد علمت أنا أنه لا خير في السرف، فهل علمتَ أنت أيضًا أنه لا سرف في الخير.

بين عبد الله بن زياد والمنصور

كتب عبد الله بن زياد إلى المنصور رقعة بليغة يسأله فيها، فطال سكوت المنصور عن الرد، فاستعجله عبد الله وقال له: كتبت إليك أسألك فما رددتَ عليّ.

فأجاب المنصور: قرأت كتابك وأعجبت ببلاغتك وحسن ديباجتك، ولكني رأيت أن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجلٍ أبطراه، وأمير المؤمنين مشفقٌ عليك فاكتفِ بالبلاغة.

بين عليّ كرّم الله وجهه وآخر

قال رجل لعليّ كرّم الله وجهه: ما بال خلافة عثمان مع خلافتك متكدّرة وليست كخلافة الشيخين[1]؟

فردّ عليّ قائلاً: ذلك لأني كنت أنا وعثمان من أعوانهما وأنت وأمثالك من أعواننا، فاتفقا هما واختلفنا نحن.

بين الحجاج وأحد الخوارج

أمر الحجاج بأحد الخوارج عليه، فجيء به بين يديه فقال له: يا خارجي، والله لأنت مِن قوم أبغضهم وأحنق عليهم ولا أحنّ إليهم. فأجاب الخارجي: إذن أدخل الله أشدّنا بغَضًا لصاحبه الجنّة.

بين أعرابي وعبد الله بن طالب

جاء أعرابي في شدقه عوج إلى عبد الله بن طالب، فقال عبد الله بن طالب للأعرابي: يا أعرابي ما بال شدقك معوجًّا؟ فأجاب الأعرابي: تلك يا عبد الله عقوبة عاقبني الله لكثرة ثنائي عليك بالباطل.

---

(١) أبو بكر وعمر.

بين أعرابي وأبيه

حنق أعرابي على ابنه فعيّره بأُمّه، وقال له: أتعصاني وتشمخ بأنفك وأنت ابن أمَة! فأجاب الولد: يا أبتِ هي والله خير لي منك. فقال أبوه: وكيف ذلك وهي أمَة وأنا حر؟ فأجاب الولد: ذلك لأنها أحسنت إليّ الاختيار فولدتني من حرٍّ، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمَة.

بين المنصور وسليمان بن راشد

ولى المنصور سليمان بن راشد على الموصل وضمّ إليه طائفة ليستعين بها، وقال له: قد ضممت إليك ألف شيطان تذلّ بهم الخلق؛ فلما أتى سليمان إلى الموصل عاثوا في البلاد وقطعوا السبل على العبادة، فانتهى خبرهم إلى المنصور فكتب إلى سليمان يقول:

أكفرت بالنعمة يا سليمان؟

فأجاب سليمان: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: الآية ١٠٢][(١)].

بين أبي ذرّ الغفاري وعبدٍ لعثمان بن عفان

أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه مع عبدٍ له بحقيبة من النقود إلى أبي ذرٍّ الغفاري، وقال له: إن قَبِلَ هذا منك أبا ذرٍّ فأنت حرٌّ لوجه الله.

فلمّا جاء العبد إلى أبي ذر قال له: يا أبا ذر إني متوسّلٌ إليك بكل عزيزٍ عليك أن تقبل هذه العطية فإن فيها عتقي، فنظر إليه أبو ذر نظرًا شزرًا وقال له: أنت ترغب إليّ في قبول عطيتك لأن فيها عتقك، وأنا أرغب كذلك في ردِّها إليك لأن فيها رقّي.

بين الخياط المتكلّم وغلام

جاء غلام إلى الخياط المتكلّم اللسن، وقال له: إني أطلب إليك رأيك في معاوية. فقال الخياط: إن اللسان والجنان يقف في معاوية. قال الغلام: وما رأيك

(١) قرآن كريم.

في ابنه يزيد؟ فقال الخياط: أمّا ابنه يزيد فإني ألعنه. فقال الغلام: وما عسى أن تقول فيمن يحبّه؟ قال الخياط: إني ألعن معه من يحبه. فقال الغلام: أفترى أن معاوية كان لا يحبّ ابنه؟ فسكت الخياط المتكلّم وقال: ما أسكتني أحد غير هذا الغلام.

بين معاوية وآخر

خطب معاوية خطبة أعجب بها كثيرًا وفاخر ببلاغتها وحسن صياغتها، فقال: أيّها الناس هل ترون في خطابتي من خلل؟ فأجابه رجل: نعم خلل كخلل المنخل. فقال معاوية: وما يكون ذلك الخلل؟ فأجاب الرجل: ذلك الخلل هو إعجابك بها ومدحك إيّاها.

بين أعرابية وأعرابية

تزوّج أعرابي امرأة على امرأته، فجاءت الثانية إلى باب الأخرى وقالت:

وما يستوي الرجلان رجل صحيحة ... ورجل رمى فيها الزمان فشُلّت

ثم عادت بعد أيام وقالت:

وما يستوي الثوبان ثوب به البلى ... وثوب بأيدي البائعين جديد

عند ذلك خرجت الزوج القديم وقالت:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... وما القلب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

بين أبي تمام وآخر

أنشد أبو تمام هذا البيت:

لا تسقني ماء الملام لأنني ... صبّ قد استعذبت ماء بكائي

فسمعه آخر وهو يكرّره فأعدّ له كأسًا، وقال له: ابعث إليّ في هذا قليل من ماء الملام. فأجابه أبو تمام: لا أبعث إليك حتى تبعث إليّ بريشة من جناح الذل أكتب بها(١).

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى توصية للولد بأبويه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٤] وهذا رد في غاية الإيجاز.

بين معاوية وعقيل

قال معاوية رضي الله عنه لعقيل، وكان من بني هاشم: والله إن فيكم لخصلة أنكرها عليكم يا بني هاشم. فقال عقيل: وما هي تلك الخصلة التي تنكرها علينا؟ فأجاب معاوية: ذلك هو اللّين الذي فيكم. فقال عقيل: أتعيّرنا يا معاوية والله إن فينا لليّنًا من غير ضعف، وعزًّا من غير جبروت. وأمّا أنتم يا بني أُميَّة فإن لينكم غدر، وعزّكم كفر. فسكت معاوية وقال: ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد.

بين عبد الملك بن مروان وعباد بن زياد

قال عبد الملك بن مروان لعباد بن زياد: أين كانت سيرة زياد من سيرة الحجاج؟

فأجاب عباد: يا أمير المؤمنين إن زيادًا قدم العراق وهي جمرة تشتعل فسلّ أحقادهم وداوى أدواءهم وضبط أهل العراق بأهل العراق، وقدمها الحجاج فكسر الخراج وأفسد قلوب الناس ولم يضبطهم بأهل الشام فضلاً عن أهل العراق، ولو رامَ منهم ما رامه زياد لم يفاجأك إلّا على قعود يوجف به[(١)].

بين عمر بن الخطاب وزياد

أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبو موسى الأشعري أن ينزل زيادًا عن ولايته لأسباب عنده، فجاء زياد إلى عمر وقال له: أعن موجدة أو جناية تنزلني عن ولايتي يا أمير المؤمنين؟

فأجاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا عن هذه ولا هذه يا زياد أنزلناك، ولكن كرهنا أن يحمل الناس فضل عقلك فأقلناك.

بين المأمون وأحمد بن خالد

ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي أخي هٰرون الرشيد، فشاور في أمره أحمد بن خالد الأحول وزيره، وقال له: يا أحمد إني أرغب في قتل إبراهيم انتقامًا منه وتشفّيًا، فماذا ترى؟ فأجابه أحمد بن خالد وزيره: والله يا أمير المؤمنين إنْ قتلتَه فلك نظراء، وإن عفوت عنه فليس لك نظير.

---

(١) يشير إلى أنه إذا رام الحجاج ما رامه زياد من الإصلاح والتوفيق لم يستقبل عبد الملك بن مروان إلا بمباغتته بسقوط وانحطاط يخاف عاقبته.

بين يحيىٰ بن عبد الله وشريك بن عبد الله

اجتمع شريك بن عبد الله ويحيىٰ بن عبد الله في دار الرشيد، فقال يحيىٰ لشريك: يا شريك ما تقول في النبيذ؟ قال شريك: إن النبيذ حلال. فقال يحيىٰ: وهل قليله خير من كثيره أو كثيره خيرٌ من قليله. قال شريك: إنما قليله خيرٌ من كثيره. فقال يحيىٰ: عجبًا لك والله ما رأيت خيرًا قطّ إلّا والزيادة منه خير من قليله إلّا خيرك هذا! فقال شريك: وأنت والله لقد استدرجتني حتى أسكتّني.

بين الأحنف وأعرابي

قال أعرابي للأحنف: بِمَ سوّدك قومك يا أحنف وما أنت بأشرفهم بيتًا، ولا بأصبحهم وجهًا، ولا بأحسنهم خلقًا؟ فقال الأحنف: سوّدني فيَّ قومي ما ليس فيك يا ابن أخي. قال الأعرابي: وما هذا الذي ليس فيَّ يا أحنف؟ فقال الأحنف: إن ذلك هو تركي من أمرك ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك، فسكت الأعرابي.

بين المهدي وأعرابيه من طيّ

وقف المهدي على امرأة من (بني ثقل)، فقال لها: ممن العجوز التي أرى؟ فقالت المرأة: امرأة من طيّ. قال المهدي: وما منع طيًّا أن يكون فيهم آخر مثل هاشم؟ فقالت المرأة وقد تبيَّنته وعرفته: إن الذي منعها هو الذي منع أن يكون فيها مثلك يا أمير المؤمنين، فسكت.

بين النميريّ والعتابيّ

مرّ النميري بالعتابي وكان مغمومًا مكتئبًا، فقال العتابيّ: ما لك أعزّك الله مغمومًا مهمومًا؟

قال النميريّ: قد جاء المخاض امرأتي منذ ثلاث ونحن على بأس. فقال له العتابي: والله إن دواءها في يدك بل هو منك أقرب من وجهها إليك، ذلك أن تهتف باسم هٰرون الرشيد، فإن الجنين يخرج لوقته.

فقال النميريّ: إني مهموم مغموم وشكوت إليك أمري وبثثت حزني فتجيبني بهذا المجون؟ قال العتابي: والله ما أخذت هذا العلاج إلّا منك ولا تلقّيت هذا

العلاج إلّا عنك، ألستَ أنت القائل في هٰرون الرشيد:

إنْ أخلف المزن لم تخلف أنامله   أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتّسع؟

فخجل النميريّ وسكت.

بين قتيبة بن مسلم وهبيرة بن مسروح

قال قتيبة بن مسلم لهبيرة بن مسروح: أيّ رجل أنت يا هبيرة لو كانت أخوالك من غير سلول[١]، فبادل بهم بغيرهم.

فأجاب هُبيرة: أصلح الله الأمير بادل بهم من أيّ قبيلة شِئْت وجنّبني باهلة[٢].

بين الخليفة المعتصم والفتح بن خاقان

عاد الخليفة المعتصم بالله خاقان عند مرضه، وكان لخاقان هذا ولد اسمه الفتح، فأراد المعتصم أن يمتحن بديهته ويختبر ذكاءه ويعرف تأثير سنّه على عقله، فقال له: يا فتح، داري أحسن أم دار أبيك؟ فأجاب الفتح: ما دام أمير المؤمنين في داري فهي أحسن. فقال المعتصم: نِعْم الجواب جوابك يا فتح.

بين العتّابي ويحيٰى بن خالد

كان العتابي قليل العناية بلباسه فلا يهتمّ قليلاً ولا كثيرًا بزيّه، فانتقده يحيىٰ بن خالد وقال له: إن زيّك مبتذل يلفت النظر ويسخط الناس.

فقال العتابي: أبعد الله يا يحيىٰ رجلاً يرى أن يكون جماله في لباسه وعطره، فإن ذلك حظّ النساء ونصيب أهل الأهواء حتى يرفعه أكبراه همّته ولبّه، ويعلو به أصغراه لسانه وقلبه.

بين الحجاج والمهلب بن أبي صفرة

كان المهلب بن أبي صفرة يقود الحملة في حرب الأزارقة ويتولّى الشأن فيها، فاستبطأ الحجاج النتيجة، فكتب إليه يستعجله، فأجاب المهلب قائلاً: إن من البليّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

---

(١) قبيلة من قبائل العرب.

(٢) قبيلة من قبائل العرب وكان قتيبة من باهلة.

بين المأمون وأحد الأعراب

وقف أعرابيٌّ بين يدي المأمون وقد جنى جناية، فقال له المأمون: والله لأقتلنّك يا أعرابي جزاءًا وفاقًا لما أثِمَت يدك. فقال الأعرابي: عفوًا يا أمير المؤمنين. فقال المأمون: وكيف ألقى الله إذا عفوت عنك؟ فأجاب الأعرابي: والله لأن تلقى الله جانيًا خير لك من أن تلقاه قاتلاً.

بين معاوية والأحنف بن قيس

استشار معاوية الأحنف بن قيس في استخلافه يزيد، فسكت الأحنف ولم يبدِ رأيًا فيما سُئِل فيه، فقال له معاوية: ما لَكَ يا أحنف قد سكتّ قُلْ رأيك. فأجاب الأحنف: والله يا أمير المؤمنين إن صدقناك أسخطناك، وإن كذبناك أسخطنا الله، فسخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله.

بين الرشيد وعبد الملك بن صالح

دعا الرشيد عبد الملك بن صالح من سجنه، وقال له: يا عبد الملك أكفرًا بالنعمة وغدرًا بالسلطان ووثوبًا على الإمام، فأجاب عبد الملك قائلاً: يا أمير المؤمنين، بُؤت بأعبأ الندم واستحلال النِّقم وما ذاك إلّا من قولِ حاسدٍ ناشدتك الله والولاء ومودَّة القرابة.

فقال له الرشيد: يا عبد الملك هذا كاتبك قمامة ينبئ عن عملك ويشهد على ما أقول. فأجاب عبد الملك: وكيف لا يكذب عليّ يا أمير المؤمنين في غيبتي من يبهتني في حضرتي. فقال الرشيد: دعنا من قمامة يا عبد الملك فهذا ابنك وفلذة قلبك عبد الرحمٰن ينمّ عليك ويقول الحقيقة فيك.

فأجاب عبد الملك: إن ابني عبد الرحمٰن مأمور أو عاق، فإن كان مأمورًا فهو معذور لأن طاعة الأمير واجبة، وإن كان عاقًّا فإني أتوقع من عقوقه أكثر من هذه الشهادة عليّ، والسلام.

بين العباس رضي الله عنه وآخر

قال رجل للعباس رضي الله عنه: أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فأجاب العباس قائلاً: إنّ رسول الله ﷺ أكبر وأنا وُلدت قبله.

بين هشام بن عبد الملك وأحد الأعراب

مدح أعرابي هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: يا هذا إن مدح الرجل للرجل في وجهه غير مرغوب فيه ومنهيٌّ عنه، فلا تمدح الناس في وجوههم.

فقال الأعرابي: والله يا هشام إني لست أمدحك ولكني أُذكِّرك بنِعَم الله عليك حتى لا تنساها فتجدّد لها شكرًا.

بين ابن جعفر وآخر

امتدح نصيب عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فأجزل جعفر العطية له من إبلٍ وخيلٍ ودراهم كثيرة، فحقد على نصيب أحد الحاضرين وحسده على هذا النوال، وقال لجعفر رضي الله عنه: أمثل هذا الجزاء الأوفى لمثل هذا الأسود!

فقال جعفر رضي الله عنه: والله إن كان هو أسود فعمله أبيض، وأن كان عبدًا فإن ثناءه حرّ، ولقد استحقّ بما قال أكثر مما أعطيناه، وهل نحن أعطيناه إلّا ثيابًا تبلى، ومالاً يفنى، ومطايا تنضى، وأعطانا هو مديحًا يُروى وثناءً يبقى!

بين أعرابيّ وآخر

مات لأعرابي ولد كان قرّة عينٍ له ولأمّه، فجزع عليه جزعًا شديدًا وتبرّم لفقده تبرّمًا كبيرًا، فقال له أحد صحبه: اصبر يا أعرابي ولا تجزع، فليس القلق من شِيَم الرجال.

فأجاب الأعرابي: يا هذا أعلى الله أتجلّد أم في مصيبتي أتبلّد، والله للجزع من أمره أحبّ إليّ الآن من الصبر على فقده؛ لأن الجزع استكانة والصبر قسوة، ولئن لم أجزع من النقص لم أفرح بالمزيد.

بين الشعبي وآخر

اختلفت امرأة وزوجها فرفعت أمرها إلى الشعبيّ، وبكت بكاءًا مرًّا، فقال الشعبي: إني ألحظ أيّها الرجل أنك ظالم لها لأنها تبكي بكاءًا حارًّا، وتنتحب من ذات قلبها. فأجاب الرجل: والله إنها لتبكي بكاء إخوة يوسف إذ جاؤوا ﴿أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٦] وهم ظالمون.

بين المأمون وأحد الأدباء

دخل واحد من الأدباء على المأمون فسأله حاجة، فردَّه المأمون خائبًا بغير حاجة، فقال الأديب: إني أدَّخر لك شكرًا وثناءً حرًّا ومدحًا بكرًا يا أمير المؤمنين.

فقال المأمون: ومن يحتاج إلى شكرك؟ وهل مثلي في حاجة إلى تقريظ مثلك؟

فقال الأديب: لا تحرّك لسانك لتعجل به:

فلو كان يستغني عن الشكر مالك لكثرة مال أو علوّ مكان
لما ندب الله العباد لشكره وقال (اشكروني أيها الثقلان)

بين الأبرش الكلبي وخالد بن صفوان

قال الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان، وكانا في حضرة هشام بن عبد الملك: أتفاخرني يا خالد؟ فقال له خالد: أفاخرك يا أبرش، فهات ما عندك. فقال الأبرش: لنا ربع البيت، ومنّا حاتم طيّ ومنّا المهلب بن أبي صفرة.

فأجاب خالد: أمّا نحن يا أبرش فمنّا النبيّ المرسل، وفينا الكتاب المنزّل، ولنا الخليفة المؤمّل، أيكفيك هذا أم أزيدك؟

فقال الأبرش: كفى ووالله ما فاخرت مضريًا بعدك.

بين الحجاج وأحد الخوارج

جيء إلى الحجاج بطائفةٍ من أسرى الخوارج فأمر بقتلهم عن آخرهم، وقال لهم: والله إن هذا الحكم هو الجزاء العدل لمن أساء، والدواء الناجع لمن عصا وجاهر بالمقاومة. فقام واحد من بينهم وقال: وأنت يا حجاج فاعلم بأنّا وإن أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو، فكلانا مجرمٌ وكلانا مُسِيء.

بين خالد بن برمك والسفاح

كان خالد بن برمك سخيّ اليد جوّادًا كريمًا، فلامَه السفاح على ذلك، وقال له: يا خالد لا تبسط يدك كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا.

فأجاب خالد: لا أبسط يدي ولا أقبضها وإذا بسطتها فإنما أبسطها لأني لم أرَ شكري يحيط بنِعَمِ أمير المؤمنين، فاستعنت بألسنة الناس عليها.

بين يزيد بن منصور ويزيد بن مزيد

نظر يزيد بن منصور (خالد المهدي) إلى يزيد بن مزيد وعليه رداء يماني وهو يجرّه ويسحبه وراءه، فقال له: أبا يزيد ليس عليك غزله فاسحب وجر.

فأجابه يزيد: نعم على آبائك غزله وعليّ سحبه.

بين المأمون وإسحٰق بن العباس

قال المأمون لإسحٰق بن العباس: لا تحسبني يا إسحٰق إني أغفلت أمر ابن المهدي وتأييدك له وإيقادك لناره.

فقال إسحٰق: والله يا أمير المؤمنين لأجرام قريش إلى رسول الله ﷺ أعظم من جرمي إليك، ولرحمي بك أمسّ من أرحامهم، وقد قال لهم كما قال يوسف على نبيّنا وعليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢]، وأنت يا أمير المؤمنين أحقّ وارث لهذه المِنَّة في الطَّول وممتثل لخلال العفو والفضل.

فقال المأمون: هيهات تلك إجرام جاهلية عفا عنها الإسلام، وجرمك جرم في إسلامك وفي دار خلافتك.

فأجاب إسحٰق: يا أمير المؤمنين فوالله للمسلم أحقّ بإقالة العثرة وغفران الذنب من الكافر. وهذا كتاب الله بيني وبينك إذ يقول: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٣٣، ١٣٤]، والناس يا أمير المؤمنين نسبةٌ دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف.

فقال أمير المؤمنين: صدقتَ أورى الله زنادك ولا برحت أرى من أهلك أمثالك.

بين عمرو بن العاص وآخر

تكلّم رجل في حضرة معاوية، وكان ذا عيّ، فقال عمرو بن العاص وكان حاضرًا: إن سكوت الألكن نقمة. فأجاب معاوية: نَعَم وكلام الأحمق نقمة، فسكت عمرو.

بين الوليد بن عبد الملك وعربي

هرب الوليد بن عبد الملك من الطاعون، فقال له أحد الأعراب: أيهرب أمير المؤمنين ويفرّ خوفًا وفرقًا من الطاعون، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحـزاب: الآية ١٦].

فأجاب أمير المؤمنين: ونحن والله يا أعرابي ذلك القليل نريد.

بين معبد بن طوق وأعرابي

قال المعافر بن نعيم: وقفت أنا (ومعبد بن طوق العنبريّ) على مجلس لبني العنبر، وأنا على ناقةٍ وهو على دابّة، فقاموا جميعًا وبدأوا بالسلام عليّ، ثم أرادوا السلام على معبد فقبض يده عنهم، وقال لهم: لا ولا كرامة بدأتم بالصغير قبل الكبير، وبالمولى قبل العربي، وبالمعجم قبل الشاعر، فأسكت القوم. فانبرى غلام من الأعراب وقال له: والله لقد بدأ بالكاتب قبل الأميّ، وبالمهاجر قبل الأعرابي، وبراكب الراحلة قبل راكب الدابّة، أيكفيك هذا.

بين المأمون وأعرابي

جيء إلى المأمون بأعرابيّ وجب عليه الحدّ فأمر بضربه، فقال الأعرابي: قتلتني يا أمير المؤمنين فاعْفُ عني.

فقال المأمون: كذبت وأيم الله وإنما الحقّ الذي قتلك أو يقتلك. فقال الأعرابي: ارحمني فإن الرحمة فوق العدل.

فقال المأمون: لستُ أنا بأرحم من الذي أوجب عليكَ الحدَّ.

بين المأمون وأعرابي

دخل أعرابيٌّ على المأمون، فقال له: يا أمير المؤمنين أنا رجل من الأعراب. فقال المأمون: ليس بعجيب أن تكون واحدًا منهم. فقال الأعرابي: إني أريد الحجّ أداءً للفريضة. فقال المأمون: الطريق واسعة. فقال الأعرابي: ولكن ليس معي نفقة وليس معي زاد. قال المأمون: إذن قد سقط عنك الحجّ، والله تعالى يقول: ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٧].

بين مطرف بن عبد الله ويزيد بن المهلّب

نظر مطرف بن عبد الله بن الشخّير إلى يزيد بن المهلّب وهو يمشي في حُلَّة يسحبها، فقال له مطرف: ما هذه المشية التي يبغضها الله تعالى ورسوله؟

قال يزيد: أمَا تعرفني يا مطرف؟ فقال له: بلى أعرفك أوّلك نطفة مذرة وآخرك جيفة قَذِرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة.

بين الخليفة المتوكّل وأبي العيناء

قال الصولي: دخل (أبو العيناء الشاعر) على الخليفة المتوكّل فدعا له وكلّمه، فاستحسن الخليفة كلامه، وقال له يا أبا العيناء بلغني أنّ فيك شرًّا؟ فأجاب أبو العيناء: إن يكن الشرّ ذكر المُحْسن بإحسانه والمُسِيء بإساءته، فقد زكّى الله تعالىٰ وذمّ، فقال في التزكية: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: الآية ٣٠]، وقال في الذمّ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم: الآيتان ١١، ١٢]، وقال الشاعر:

إذا أنا لم أمدح على الخيرِ أهله ... ولم أذْمُمْ الرجل اللّئيم المذمّما
ففيم عرفت الخير والشرّ باسمه ... وشقّ لِيَ الله المسامع والفما

وإن كان الشرّ كفعل العقرب التي تلدغ الرفيع والوضيع بطبع لا بتمييز، فقد صان الله عبدك عن ذلك.

بين عبد الله بن سليمان وأبي العيناء

دخل (أبو العيناء الشاعر) على الوزير عبيد الله بن سليمان، فشكا إليه حاله، فقال عبيد الله: أمَا كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر يا أبا العيناء. فقال أبو العيناء: كتبتَ إلى رجل قد قصر من همّته طول الفقر وذلّ الأسر ومعاناة محن الدَّهر، فأخفقته في طلبتي. فأجابه عبيد الله: إنما أنت الذي اخترته لنفسك.

فقال أبو العيناء: وما عليَّ أعزّ الله الوزير في ذلك، فقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً فما كان منهم رجلٌ رشيد، واختار النبيّ ﷺ ابن أبي السَّرح كاتبًا فرجع إلى المشركين مرتدًا، واختار عليّ بن أبي طالب أبا موسى حاكمًا له فحكم عليه.

بين الأصمعي وأحد الأعراب

وقف أعرابيٌّ في طائفة من أهل الأدب والفضل، وكان الأصمعي واحدًا منهم، فقال: أفيكم الأصمعيّ الشاعر؟ قال الأصمعي: أنا ذاك. فاستأذن عليهم وجلس وقال: يا أصمعي أنت الذي يزعم هؤلاء النفر أنّك أثقبهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الأعراب؟

فقال الأصمعي: ولكنَّ بينهم من هو أعلم مني ومن هو دوني. قال الأعرابي: أفلا تنشدونني من شعر أهل الحضر؟

فأنشده الأصمعي شعرًا لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك:

أمسلم أنت البحر إن جاء وارد ... وليثٌ إذا ما الحرب طار عقابها
وأنت كسيف الهند وإنّي إن غدت ... حوادثُ من حربٍ يعبّ عبابها
وما خلقت أكرومة في امرئ له ... ولا غايةً إلّا إليك مآبها
كأنك ديّانٌ عليها موكلٌ ... بها وعلى كفّيك يجري حسابها
إليك رحلنا العيس إذا لم نجد لها ... أخا ثقةٍ يُرجى لديه ثوابها

عند ذلك تبسّم الأعرابي وهزّ رأسه، وقال: يا أصمعي هذا شعر مهلهل خلق النسيج خطؤه أكثر من صوابه يغطّي عيوبه حسن الرويّ ورواية المنشد، يشبّهون الملك بالأسد والأسد أبخر[١] شئيم[٢] المنظر، وربما طاردته فطردته شرذمة من إمائنا وتلاعب به صبياننا، ويشبّهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه مُرّ على من شربه، ويشبّهونه بالسيد والسيف ربما خان في الحقيقة ونبا عند الضريبة، وأين هذا مما قال صبيٌّ من حيّنا:

إذا سألت الورى عن كلّ مكرمةٍ ... لم يعز أكرامها إلّا إلى الهول
فتى جوّاد أذاب المال نائله ... فالنيل يشكر منه كثرةُ النيل
الموت يكره أن يلقى منيّته ... في كرهٍ عند لفّ الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس أبقى الشمس كاسفةً ... أو زاحم الصمّ الجاها إلى المَيْل
أمضى من النجم إن نابته نائبةً ... وعند أعدائه أجرى من السيل

(١) كريه الرائحة.
(٢) قبيح المنظر.

لا يستريح من الدُّنيا وزينتها ولا تراه إليها ساحبُ الذَّيْل
يقصر المجدُ عنه في مكارمه كما يقصر عن أفعاله قولي

فبُهِتَ الأصمعي ومن معه، وقال لهم: اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المُدَى[١] على رقاب الأكباد.

بين المهدي وآخر

قال رجلٌ للمهدي: لك نصيحة عندي يا أمير المؤمنين، فقال المهدي: وهل نصيحتك هذه لنا أم لعامّة المسلمين أم لنفسك؟ قال الرجل: إنما هي نصيحة لك يا أمير المؤمنين. فأجاب المهدي: اعلم يا هذا بأن الساعي ليس بأعظم عورة ولا أقبح حالاً ممن قبل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا تشفي غيظك أو عدوًّا فلا نعاقب لك عدوّك ولا ينصح لك ناصح إلّا بما فيه لله رضاءً وللمسلمين صلاح، فالظاهر لنا والباطن ليس لنا، ومن استتر عنّا لم نكشفه، ومن بادأنا طلبنا توبته، ومن أخطأ أقلنا عثرته، فإني أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة، والقلوب لا تبقى لوالٍ لا ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استُرْحم، فأين أنت مما سمعت؟

بين الواثق وأحمد بن دؤاد

قال الواثق لأحمد بن دؤاد: إن فلانًا قال فيك كثيرًا وحطّ من قدرك في غيبتك.

فقال أحمد: دَعْه يقول، فالحمد لله الذي أحوجه إلى الكذب فيّ وزهق عن الصدق فيه.

بين عبد الملك بن مروان وأعرابية

حكم عبد الملك بن مروان على أعرابي بقطع يده، فقال الأعرابي:

يدي يا أمير المؤمنين أُعيذها بعفوِكَ أن تلقى مكانًا يشينها
ولا خيرَ في الدنيا ولا في دَوَامها إذا ما شمالي فارَقَتْها يمينها

(١) جمع مدية وهي السكّين.

قال عبد الملك: والله لا مناص من قطعها يا أعرابي. فقالت أمّ الأعرابي: يا أمير المؤمنين هذا واحدي وكسبي. قال عبد الملك: بِئْس الكاسب لك، وهذا حدٌّ من حدود الله تعالىٰ. فقالت أمّ الأعرابي: أجل إنّه حدٌّ من حدود الله يجب الإذعان له والصبر عليه، ولكن اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها.

بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن ظبيان

دخل عبد الله بن ظبيان على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: ما هذا الذي يقول الناس عنك؟ قال ابن ظبيان: ماذا يقولون؟ فأجاب عبد الملك: إنهم يقولون أنك لا تشبه أباك. قال ابن ظبيان: والله لأنا أشبه به من الماء بالماء، والغراب بالغراب، ولكن أدلّك على من لم يشبه أباه، ولم تنضجه الأرحام، ولم يولد لتمام، ولم يشبه الأخوال والأعمام! قال عبد الملك: ومن هو ذلك الرجل؟ فأجاب ابن ظبيان: ذلك الرجل هو متزمّل في ثيابك[١].

بين الشعبي وشاب ناشئ

تكلّم شابٌّ عند الشعبي في مسألةٍ وخاض فيها كل الخوض، فالتفت إليه الشعبي وقال له: ما سمعنا بهذا من قبل! فقال الشاب: وهل كل العِلْم سمعت؟ قال الشعبيّ: كلّا. فقال الشاب: وهل بعض العلم سمعت؟ قال الشعبي: نعم. فقال الشاب: إذن فاجعل هذا الذي أقول في البعض الذي لم تسمعه.

بين المنصور ومعن بن زائدة

دخل معن بن زائدة على أبي جعفر المنصور، فقارب في خطواته، فقال له أبو جعفر: كَبِرْت يا معن؟ قال معن: في طاعتك يا أمير المؤمنين. فقال أبو جعفر: وإنك لجلَد. قال معن: نعم ولكن على أعدائك.

فقال جعفر: وإنّ فيك لبقيّة، قال معن: هِيَ لك يا أمير المؤمنين. فقال أبو جعفر: أيُّ الدولتين أحبّ إليك هذه أم دولة بني أميّة؟

قال معن: إن ذلك إليك يا أمير المؤمنين، إن زاد برّك على برّهم كانت دولتك أحبُّ إليّ.

---

(١) لأن عبد الملك ولد لستة أشهر فقط.

بين أبي جعفر بن عليّ وعربيّ

قال أعرابيٌّ لأبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين رضي الله عنه: هل رأيت الله حين عبدته؟ فقال أبو جعفر: لم أكن لأعبد مَنْ لم أرَه. قال الأعرابي: جلّ شأن الله وكيف رأيته؟ فقال أبو جعفر: لم ترَه الأبصار بمشاهدة العيون، ورأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالجواب ولا يشبّه بالناس معروف بالآيات منعوت بالعلامات، لا يجوز في القضيّات؛ ذلك الله الذي لا إلـه إلّا هو، فهل عرفته يا أعرابيّ؟

قال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

بين أعرابيٍّ وسائل

قال سائلٌ لأعرابي: يا أعرابي حاجة لوجه الله؟

فقال الأعرابي: والله ليس عندي ما أتفضّل به على الناس، والذي عندي أنا أولى الناس به.

قال السائل: أين الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟

فقال الأعرابي: ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافًا.

بين ابن حمامة وابن هرمة

مرّ ابن حمامة بابن هرمة وهو جالس بفناء بيته، فقال له: السَّلامُ عليكم، قال ابن هرمة: قد قُلت ما لا يُنْكر، فقال ابن حمامة: خرجتُ من أهلي بغير زاد، قال ابن هَرمة: وأنا ما ضمنت لأهلك قِراك، فقال ابن حمامة: ائْذَن لي أن أفيءَ بظلّ بيتك، قال ابن هرمة: دُونَك الجبل يفيءُ عليك، فقال ابن حمامة: أمَا عرفتني أنا ابن حمامة، قال ابن هرمة: انصرف عنّي وكن ابن أي طائرٍ شِئْت.

ابن أبي تمام والكنديّ

امتدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدةٍ، فبلما بلغ إلى قوله فيها:

إقدامُ عمرو في سماحة حاتم   في حُلم أحنفِ في ذكاء إياس

قال له الكندي الفيلسوف وكان حاضرًا: إن الأمير يا أبا تمام فوق من وصفت، فقال أبو تمام مرتجلاً وقد أطرق قليلاً:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شرودًا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنّبراس[1]

بين معاوية وعقيل بن أبي طالب

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليًا قد قطعك وأنا وصلتك، ولا يرضيني منك إلّا أن تلعنه على المنبر على سمعِ الناس وبصرهم.

فقال عقيل: لك ذلك يا أمير المؤمنين، وصعد المنبر وقال: الحمد لله والصلاة والسلام على نبيِّه الكريم، أمّا بعد؛ فيا أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًا ابن أبي طالب طالب فالعنوه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل. فقال له معاوية:

إنك يا عقيل لم تبيّن للناس من لعنت بيني وبينه، فأجاب عقيل: والله لا زدت حرفًا ولا أنقصت الدعاء حرفًا، والكلام إلى نيَّة المتكلّم.

بين الحسن ومروان بن الحكم

استأذن الحسن على معاوية، فقال معاوية: والله إن دخل الحسن أفسد علينا ما نحن فيه، فقال مروان بن الحكم وكان بين الجماعة في المجلس: يا أمير المؤمنين أنا أُفسد عليه رأيه، فقال معاوية: دَعْه وشأنه فإنهم قوم قد أُلهموا الكلام وأُذن له. ولمّا اطمئنّ به المكان قال له مروان: والله لقد أسرع الشَّيب إلى شاربك يا حسن، ويقال إن ذلك دليل الخرق.

فأجاب الحسن: ليس كما بلغك يا مروان، ولكنَّا معشر بني هاشم أفواهنا عَذْبةٌ شفاهها، فنساؤنا يقبلن علينا بأنفاسهنّ وقبلهنّ، وأنتم معشر بني أُمية فيكم بخر[2] شديد فنساؤكم أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصداغكم، فيشيب منكم

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: الآية ٣٥] الآية.

(٢) رائحة كريهة.

موضع العذار، فسكت مروان وقال معاوية: كنت أخلصت لكم النصيحة فأبيتم حتى سمعتم ما أفسد عليكم مجلسكم.

بين معاوية وأبي الطفيل

قال معاوية لأبي الطفيل: أنت يا أبا الطفيل من الذين اشتركوا في قتل عثمان رضي الله عنه، فقال أبو الطفيل: لا يا أمير المؤمنين ولكني ممن حضره ولم ينصره.

فقال معاوية: وما منعك من أن تنصره؟ أجاب أبو الطفيل: ذلك لأن المهاجرين والأنصار لم ينصروه فلم أنصره.

فقال معاوية: والله إنه كان حقًّا واجبًا أن ينصروه.

أجاب أبو الطفيل: وما منعك من نصرته يا أمير المؤمنين وأنت ابنُ عمّه؟ فقال معاوية: أوَ ليست المطالبة بدمه نصرةً له.

أجاب أبو الطفيل: والله إن مثلك ومثل عثمان في هذا الحادث كما قال الشاعر:

لأعرفنّك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زوّدتني زادا

بين الحجاج وامرأة خارجية

قال الحجاج لامرأة من الخوارج عليه: والله لأعدنَّكم عدًّا ولأحصدنَّكم حصدًا، فأجابت الخارجية: يا حجاج إنّ الله يزرع فيصلح، وأنت تحصد فتفسد، فأين قدرة المخلوق من الخالق؟ واستشار الحجاج وزراءه في قتل إحدى الخوارج، فقالوا له: أيّها الأمير، عاجلها القتل؛ فنظرت الخارجية وقالت: والله لقد كان وزراء صاحبك يا حجاج خيرًا من وزرائك.

فقال الحجاج: ومن هو صاحبي الذي تشيرين إليه؟ أجابت الخارجية: هو فرعون فقد استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١١١].

بين عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب

عاتب عثمان بن عفان رضي الله عنه عليًّا كرّم الله وجهه، فسكت عليّ ولم ينبث ببنت شفه، فقال عثمان: أراك سكتَّ يا عليّ فقُلْ ما شئت. فأجاب عليٌّ

كرَّم الله وجهه: والله يا عثمان ليس لك عندي إلّا ما تحب وليس جوابك إلّا ما تكره، فاختر لنفسك ما تحبّ.

بين معاوية والأحنف

خطب رجل في حضرة معاوية وجمعٌ كبير من الناس، فاختتم كلامه بلعن عليّ كرّم الله وجهه، فأطرق الناس كأنّ على رؤوسهم الطير، ونهض الأحنف وكان حاضرًا، وقال: يا أمير المؤمنين لو علم هذا القائل أن رضاك في لعن الصحابة لما لعنهم، فاتّق الله ودَعْ عنك عليًا فقد لَقِيَ ربَّه وأُفرد في قبره وخلا بعمله، وكان والله المبرَّز سيفه، الطاهر ثوبه، الميمون نقيبته، العظيم مصيبته.

فقال معاوية: يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى، وقلت ما ترى، وأيْم الله لتصعدنّ المنبر فتلعننه طوعًا أو كرهًا. قال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خيرٌ لك، وإن تُكرهني على القول، فوالله لا تجري فيه شفتاي أبدًا. فقال معاوية: يا أحنف قُمْ فاصعد المنبر والعنه. فأجاب الأحنف: أمَا والله لأنصفنَّك في القول والفعل. فقال معاوية: وماذا عسى أن تقول إذا أنصفتني يا أحنف. فأجاب الأحنف: إني أصعد المنبر فأحمد الله بما هو أهله وأصلّي على نبيّه؛ ثم أقول: أيّها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًا وأن عليًا ومعاوية اختلفا فاقتتلا وادَّعى كل واحدٍ منهما أنّه بغى عليه وعلى فئته، وإذا دعوت فأمّنوا رحمكم الله، ثم أقول: اللّهمّ الْعن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية، اللّهمّ العنهم لعنًا كثيرًا، هذا يا معاوية الذي أنصفك فيه ولا أُزيد عليه ولا أُنقص منه، ولو ذهبت روحي في سبيله.

فقال معاوية: إذن عفيناك من القول يا أحنف.

بين معاوية وابن الزُّبير

قال معاوية لابن الزُّبير: أنت تنازعني هذا الأمر كأنك أحقُّ به مني. فقال ابن الزبير: ولـم لا أكون أحقُّ به منك يا معاوية وقد اتّبع أبي رسول الله ﷺ على الإيمان واتّبع الناس أباك على الكفر.

فأجاب معاوية: غلطت يا ابن الزبير، فقد، بعث الله ابن عمّي نبيًا فدعا أباك فأجابه، فما أنت إلّا تابع لي ضالّا كنت أو مهديًا.

بين عبد الملك بن مروان ويحيىٰ بن الحكم

رغب عبد الملك بن مروان إلى عبد الرحمٰن بن الحٰرث بن هشام في زواجه بابنته، فقالت البنت لأبيها: والله يا أبت لا أتزوّج به وهو الشهير (بأبي الذباب)، فلم يزوّجه بها وتزوّجها يحيٰى بن الحكم.

فقال له عبد الملك: أما والله يا يحيٰى لقد تزوَّجتَ البنت أسود أفْوَه.

فأجاب يحيٰى: أمَا والله إنها أحبّت مني ما كَرِهَتْ منك[١].

بين معاوية ومروان بن الحكم

تجادل مروان بن الحكم وابن الزبير عند معاوية، فانتصر معاوية لمروان وقال: إن مروان محقٌّ فيما يقول، فأجاب ابن الزبير: يا معاوية إنّ لك حقًّا وطاعة، وإنّ لك بسطة وحُرمة، فأطِعْ الله نطعك، فإنه لا طاعة لك علينا إن لم تطع الله، ولا تطرق إطراق الأفعوان في أصول الشجر.

بين المنذر بن الجارود وعمرو بن العاص

قال المنذر بن الجارود العبدي، وكان من قبيلة (عبد القيس) لعمرو بن العاص: أيُّ رجلٍ أنت لو لم تكن أمّك ممن هِيَ؟

فأجاب عمرو بن العاص: أحمد الله إليك لقد فكرت فيها البارحة، فجعلت أنقلها في قبائل العرب فما خطرت لي (عبد القيس) ببال.

بين عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس

حجّ عمرو بن العاص، فمرّ بعبد الله بن عباس فأنكر عليه ابن العباس مكانه وما رأى من هيبةِ الناس له ومنزله من قلوبهم، فقال له عمرو: يا ابن عباس ما لك إذا رأيتني وليتني القصرة، وكان بين عينيك دُبرة، وإذا كنت في ملإٍ من الناس كنت الهوهاة الهمزة؟

فأجاب ابن العباس: ذلك لأنك من اللُّئام الفَجرة، وقريش الكرام البَرَة، لا ينطقون بباطل جهلوه، ولا يكتمون حقًّا علموه، وهم أعظم الناس أحلامًا،

(١) ذلك أن عبد الملك كان كريه الفم يدمى فيتساقط الذباب عليه.

وأرفع الناس أعلامًا. دخلت في قريش ولستَ منها، فأنت الساقط بين قراشين، لا في بني هاشم رحلك، ولا في بني عبد شمس راحلتك، فأنت الأثيم الذنيم الضالّ المضل، حملك معاوية على رقاب الناس، فأنت تسطو بحلمه وتعفو بكرمه.

بين أعرابيٍّ وعتبة المخزوميّ

قال عتبة المخزومي لعربيٍّ كان معه: ممن أنت يا أعرابي؟ فأجاب الأعرابي: أنا من قبيلة مذحج يا عتبة. فقال عتبة: أمِنْ زيدها الأكرمين أو من مُرادها الأطيبين؟

قال الأعرابي: لست من زيدها ولا من مرادها، ولكن من حماة أعراضها وزهرة رياضها بني زبيد، فأفحم عتبة حتى وضع قلنسوته عن رأسه، وكان أصلع، فقال له الأعرابي: وأنت يا أصلع ممن أنت؟ قال عتبة: أنا رجلٌ من قريش. فقال الأعرابي: فمن بيت نبوّتها أو من بيت مملكتها؟

قال عتبة: إني من ريحانتها بني مخزوم، فقال الأعرابي: والله لو علمت لم سُمّيت بنو مخزوم ريحانة قريش ما فخرت بها أبدًا، ذلك أنها سُمّيت ريحانة قريش لخور رجالها ولين نسائها.

قال عتبة: والله يا أعرابي لا جادلت أعرابيًا بعدك أبدًا.

بين أبي العيناء الهاشميّ وابن أبي دؤاد

قال أبو العيناء الهاشميّ لابن أبي دؤاد: إن قومًا تضافروا عليّ، فقال ابن أبي دؤاد: لا يضيرك تضافرهم فيدُ الله فوق أيديهم. قال أبو العيناء: ولكنهم جماعة وأنا فردٌ واحد، فقال ابن أبي دؤاد: كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

قال أبو العيناء: إنّ لهم مكرًا وأخاف مكرهم، فقال ابن أبي دؤاد: ولا يحيق المكر السيّء إلّا بأهله.

بين أعرابيٍّ وفتى

سأل أعرابيٌّ حاجة فعبث به فتى من الحيّ، وقال له: ممّن الرجل ومن أيّ حيٍّ هو؟ فقال الأعرابي: من بني عامر بن صعصعة. قال الفتى: ومن أيُّهم يا ترى؟

فقال الأعرابي: إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا القدر من المعرفة، فليس مقامي بمقام مجادلة ولا مفاخرة، وأنا أقول فإن لم أكن من هاماتهم فلست من أعجازهم.

قال الفتى: والله ما رويتَ عن فضيلتك لا النقص في حسبك، ثم اعتذر له، فامتعضّ الأعرابي وقال: يا هذا إنك اليوم قد أدّبتني بمزحك وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك. ويحك إن الجاهل إن فرح أسخط، وإن اعتذر أفرط، وإن حدّث أسقط، وإن قدر تسلّط، وإن عزم على أمرٍ تورّط، وإن جلس مجلس الوقار تبسّط، أعوذ بك ومن حالٍ اضطرّتني إلى احتمال مثلك.

بين مروان بن الحكم والحسن بن دلجة

قال مروان بن الحكم في حديثٍ له مع الحسن بن دلجة: إني أظنّك أحمق يا حسن، فأجاب الحسن: وما عسى يا ترى أن يكون الشيخ إذا أعمل ظنّه؟

بين عتيبة بن عبد الرحمٰن وخالد بن عبد الله

دخل عتيبة بن عبد الله بن الحٰرث بن هشام على خالد بن عبد الله القسري، وكان عتيبة هذا جوّادًا سخيًا، فقال له خالد تعريضًا به: إن هٰهنا رجالاً يداينون في أموالهم فإذا فنيت يداينون في أعراضهم. فأدرك عتبة القرشيّ أنه يعرض به، فقال: أصلح الله الأمير إن رجالاً تكون أموالهم أكثر من مرؤآتهم فأولٰئك تبقى أموالهم. ورجالٌ تكون مرؤآتهم أكثر من أموالهم فإذا نفدت أموالهم بقيت مرؤآتهم، وأدانوا على سعةٍ مما عند الله.

بين عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس

قام عمرو بن العاص في موسمٍ من مواسم العرب، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبني أُميّة وذكر مشاهده بصفّينَ، واجتمعت قريش حوله يستمعون له، فأقبل عبد الله بن عباس على عمرو، وقال: يا عمرو إنك بِعت دينك من معاوية وأعطيته ما بيدك، ومنّاك ما بيد غيرك، وكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته، وكل راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في

يدك كدَّرها عليك بالعزل حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها، وذكرت مشاهده بصفّين فوالله ما نقلت علينا وطأتك ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت فيها طويل اللسان، قصير السِّنان، آخر الخيل إذا أقبلت، وأهلها إذا أدبرت، لك يدان يدٌ لا تبسطها إلى خير، وأخرى لا تقبضها عن شرّ، ولسان غرور ذو وجهين، وجهٌ موحش، ووجه مؤنس. ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحريٌّ أن يطول عليها ندمه، لك لسان وفيه خطل، ولك رأيٌ وفيه نكد، ولك قدرٌ وفيك حسد، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك.

فنهض عمرو، وقال: والله يا ابن العباس ليس في قريش أثقل عليّ مسألةً ولا أمرّ جوابًا منك، ولو استطعت أن لا أُجيبك لفعلت. غير أني لم أبغِ ديني من معاوية، ولكن بعت الله نفسي، ولم أنسَ نصيبي من الدنيا. وأمّا ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا يُعلّم العوان الخُمرة[١]، وأمّا ما أتى معاوية إليَّ في مصر فإن ذلك لم يغيّرني له. وأمّا خفّة وطأتي عليكم بصفّين، فلِمَ استثقلتم حياتي واستبطأتم وفاتي؟ وأمّا الجبن فقد علمت قريش أنّي أول من يُبارز وآخر من يُنازل. وأمّا طول لساني فإني كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان رضي الله عنه:

لساني طويلٌ فاحترس من شذّاته ... عليك وسيفي من لساني أطول

وأمّا وجهاي ولساناي فإني ألقى كلّ ذي قدرٍ بقدره، وأرمي كل نابحٍ بحجره، فمن عرف قدره كفاني نفسه، ومن جهل قدره كفيته نفسي. ولعمري ما لأحدٍ من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية، فما ينفعني ذلك عندك؛ وأنشد:

بني هاشم ما لي أراكم كأنّكم ... بِيَ اليوم جهّال وليس بكم جهل
ألم تعلموا أني جَسُورٌ على الوَغَى ... سريعٌ إلى الداعي إذا كَثُر القتل
وأوّل من يدعو نزال طبيعةٍ ... جُبِلَتْ عليها والطِّباع هو الجبل
وإني فصلت الأمر بعد اشتباهه ... بدومةٍ إذ أعيا على الحكم الفصل
وإنّيَ لا أعيى بأمرٍ أريده ... وإنّي إذا عجت بكاركم فحل

(١) العوان: الوسط ـ ويقال امرأة عوان أي وسط، والخمرة: غطاء الوجه.

بين معاوية وابن الزبير ومولى الحسين

دخل الحسين على معاوية رضي الله عنهما وكان معه مولًى له يقال له (ذكوان)، وكان في حضرة معاوية جماعة من قريش بينهم ابن الزبير، فرحَّب معاوية بالحسين وقرَّبه منه، وقال له: أترى هذا القاعد (وأشار إلى ابن الزبير)، فإنه ليدركه الحسد لبني عبد مناف (وكان حسين من بني عبد مناف).

فقال ابن الزبير لمعاوية: قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله ﷺ وإن شئتَ أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان، فأجاب مولى الحسين: يا ابن الزبير إن مولاي الحسين لا يمنعه من الكلام إلّا أن يكون طلق اللسان رابط الجنان، فإن نطقَ نطق بعلمٍ، وإن صمتَ صمت بحُلْمٍ، غير أنه كفّ الكلام.

فقال معاوية: صدقتَ يا (ذكوان)، أكثر الله في موالي الكرام مثلك.

فقال ابن الزبير: إن أبا عبد الله الحسين سكت وتكلّم مولاه، ولو تكلّم هو لأجبناه أو لكففنا عن جوابه إجلالاً له، ولا جواب لهذا العبد. فأجاب (ذكوان): والله إن هذا العبد خيرٌ منك، فقد قال رسول الله ﷺ: «مولى القوم منهم»، فأنا مولى رسول الله، وأنت ابن العوام بن خويلد، فنحن أكرم ولاءً وأحسن وفاءً.

فقال ابن الزبير) إني لست أُجيب هذا، فهات ما عندك. فأجاب معاوية: قاتلك الله يا ابن الزبير ما أعياك وأبغاك، أتفخر بين يدي أمير المؤمنين وأبي عبد الله، إنك أنت المتعدّي لطورك الذي لا تعرف قدرك، فقِسْ شبرك بفترك ثم تعرّف كيف تقع بين عرانين عبد مناف. . . أمَا والله لَئِن دفعت في بحور بني هاشم وبني عبد شمس لتُقطعنّك بأمواجها ثم لتوهننّ بك في أجاجها، فما بقاؤك في البحور إذا غمرتك، وفي الأمواج إذا بهرتك، هنالك تعرف نفسك وتندم على ما كان من جرأتك. فأطرق ابن الزبير مليًا ثم التفت لمن حوله وقال: أسألكم بالله أتعلمون إن أبي حواريّ رسول الله ﷺ وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله، وأن أمّي أسماء بنت أبي بكر الصدّيق وأمّه هند آكلة الأكباد، وجدّي الصدّيق وجدّه المشدوخ ببدر ورأس الكفر، وعمّتي خديجة ذات الخطر والحسب وعمّته أمّ جميل حمالة الحطب، وجدّتي صفية وجدّته حمامة، وزوج عمّتي خير ولد آدم محمد ﷺ

وزوج عمّته شرّ ولد آدم أبو لهب سيصلى نارًا ذات لهب، وخالتي عائشة أمّ المؤمنين وخالته أشقى الأشقين، وأنا عبد الله وهو معاوية.

عند ذلك قام معاوية من وسط الجماعة، وقال: ويحك يا ابن الزبير كيف تصف نفسك بما وصفتها، والله ما لك في القديم من رئاسة ولا في الحديث من سياسة، ولقد قدناك وسدناك قديمًا وحديثًا، لا تستطيع لذلك إنكارًا ولا عنه فرارًا، وإن هؤلاء الشهود ليعلمون أن قريشًا قد اجتمعت يوم الفخار على رئاسة (حرب بن أميّة)، وأن أباك وأسرتك تحت رايته راضون بأمارته غير منكرين لفضله ولا طامعين في عزله، إن أمر أطاعوا، وإن قال أنصتوا، فأنزل فينا القيادة وعزّ الولاية حتى بعث الله رسوله فانتخبه من خير خلقه من أسرتي لا أسرتك، وبني أبي لا بني أبيك، فجحدته قريش أشدّ الجحود، وأنكرته أشدّ الإنكار، وجاهدته أشدّ الجهاد، إلّا من عصم الله من قريش فما ساد قريشًا وقادهم إلّا أبو سفيان بن حرب، فكانت الفئتان تلتقي ورئيس الهدى منّا ورئيس الضلالة منّا فمهديكم تحت راية مهدينا، وضالّكم تحت راية ضالّنا، فنحن الأرباب وأنتم الأذناب، حتى خلص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظم شركه وعصمه بالإسلام من عبادة الأصنام، فكان في الجاهلية عظيمًا شأنه، وفي الإسلام معروفًا مكانه، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يُعْط أحدٌ من آبائك، وإن منادي رسول الله ﷺ نادى: من دخل المسجد فهو آمِنٌ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمِنٌ، وكانت داره حَرَمًا لا دارك ولا دار أبيك.

وأمّا هند، فكانت امرأة من قريش في الجاهلية عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخبر. وأمّا جدّك الصدّيق فبتصديق عبد مناف سُمّي صدّيقًا، لا بتصديق عبد العزّى.

وأمّا ما ذكرت من جدّي المشدوخ ببدر، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه، فلو برزت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ولا رأوكم لهم أكفّاء كما قد رغب ذلك غيركم، فلم يقبلوهم وردّوهم على أعقابهم حتى برز إليهم أكفاؤهم من بني أبيهم، فقضى الله مناياهم بأيديهم، فنحن قَتلنا ونحن قُتِلنا وما أنت وذاك. وأمّا عمّتك أمّ المؤمنين فبنا شرُفت وسمّيت أمّ المؤمنين، وخالتك عائشة مثل ذلك.

وأمّا صفية، فهي أدنتك من الظلّ ولولا هي لكنت ضاحيًا، وأمّا ما ذكرت من ابن عمّك وخال أبيك سيّد الشهداء، فكذلك كانوا رحمهم الله فخرهم

وأرثهم لي دونك ولا فخر لك فيهم ولا أرث بينك وبينهم. وأمّا قولك أنا عبد الله وهو معاوية فقد علمت قريش أيّنا أجود في الأزم، وأحزم في القدم، وأمنع للحرم، لا والله ما أراك منتهيًا حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك، فقد طالعهم الدخول وقدّم إليهم الخيول، وخدعتم أمّ المؤمنين، ولم تراقبوا رسول الله ﷺ إذ مددتم على نسائكم السجوف، وأبرزتم زوجته للحتوف، ومقارعة السيوف، فلمّا التقى الجمعان نكص أبوك هاربًا، فلم ينجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكله طحن الحصيد بأيدي العبيد. وأمّا أنت فأفلتّ بعد أن خمشتك براثينه ونالتك مخاليبه. وأيم الله ليقومنّك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصبحن منها صباح أبيك بوادي السّباع، وما كان أبوك المدهن خدّه، ولكنه كما قال الشاعر:

تناول سرحان فريسة ضيغم ففضفضه بالكف منه وحطّما

بين معاوية والضحاك بن قيس وسعيد بن العاص

اجتمع الضحاك بن قيس وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص عند معاوية، وقالوا: فلنتناظر فيما هو أعجب الأشياء، ولنحكم له بالغلبة. فقام الضحاك بن قيس من بينهم، وقال:

عندي أن أعجب الأشياء إكداء العاقل، وإجداء الجاهل[1].

فردَّ عليه سعيد بن العاص وقال: ليس هذا أعجب الأشياء ولكنّ أعجبها غلبة من لا حقّ له ذا الحقّ على حقّه.

عند ذلك قام معاوية رضي الله عنه وقال: والله لا هذا ولا هذا أعجب الأشياء، ولكنّ أعجبها أن يأخذ من لا حقّ له ما ليس له بحقٍّ من غير غلبة.

بين الحجاج وواحد من الخوارج

سأل الحجاج رجلاً من الخوارج عليه وقد أوقفه صاغرًا بين يديه: أجمعت القرآن يا خارجيّ؟ فقال الخارجي: والله ما كان مفرقًا فأجمعه. قال الحجاج: وهل حفظته في صدرك؟ فقال الخارجي: والله ما خشيت فراره فأحفظه. قال الحجاج: وماذا تقول في أمير المؤمنين؟ فقال الخارجيّ: لعنه الله ولعنك معه. قال الحجاج

(١) الإكداء بمعنى الفقر، والإجداء بمعنى الغنى والسّعة.

وقد أخذته ثورة الغضب: والله إنك لمقتول، فانظر كيف تلقَى الله؟ فقال الخارجي: ألقاه أنا بعملي وتلقاه أنت بدمي.

بين الجاحظ وسعيد بن عبد العزيز وغيرهما

قال أبو تمام: تناقشنا في مجلس سعيد بن عبد العزيز في فضيلة الكلام وفضيلة الصمت وأيُّهما أرفع شأنًا وأعزّ مكانًا، فقال واحد في المجلس: إن الصمت زين الرجل وفضيلة من الفضائل المطلوبة له والمكمّلة لأدبه، وكثرة الكلام دليل الطيش وعلامة على ضعف الرأي.

فأجاب سعيد بن عبد العزيز: يا هذا إنك إنما تمدح السكوت بالكلام، ولا تمدح الكلام بالسكوت، ومن أنبأ عن شيء فهو أكبر منه.

فقام الجاحظ وقال: كيف تقولون إن الصمت أنفع من الكلام، ونفع الصمت لا يتجاوز صاحبه، ونفع الكلام يعمّ ويخص. والرّواة لم ترو سكوت الصامتين كما رَوَت كلام الناظمين والناثرين، فبالكلام أرسل الله تعالىٰ أنبياءه وليس بالصمت أرسلهم، ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواطن الكلام المحمودة كثيرة، وبطول الصمت يفسد البيان، ومحادلة الرجال تلقيح لألبابها.

بين عمرو وميمون بن مهران

دخل ميمون بن مهران على عمر رضي الله عنه فإذا هو يبكي ويكثر من البكاء، ويسأل الله الموت العاجل، فقال له ميمون:

ما بال أمير المؤمنين يبكي هذا البكاء المرّ، ويسأل الله الموت العاجل، في حين أن الله تعالىٰ أجرى على يديك خيرًا كثيرًا وبركةً عامّة شاملة، فأحيا بك سننًا وأمات بك بدعًا.

فأجاب عمر رضي الله عنه: يا ميمون أفتكره مني أن يكون مَثَلي كمثل ذلك العبد الصالح حين أقرّ الله به عينه وجمع له أمره، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: الآية ١٠١]؟

بين عليٍّ كرّم الله وجهه وآخر

قال رجل لعليّ كرّم الله وجهه وهو يعدو على بغلةٍ له في بعض الحروب: حبّذا لو اتّخذ أمير المؤمنين الخيل مطيّةً له، فإنها أقرب إلى النّجدة، وأوسع في

الخطوة. فقال أمير المؤمنين عليٌّ كرّم الله وجهه: يا رجل أنَا لا أفرّ ممن كرّ، ولا أكرّ على من فرّ، فالبغلة تكفيني.

بين المأمون وآخر

بينا كان المأمون في بطانته وحاشيته في الطريق وإذا برجلٍ يركض وراءه ويشتدّ في طلبه، ويقول: يا عبد الله! يا عبد الله! فغضب المأمون وأمر بإحضاره، فجيء به فقال له: أتركض ورائي وتدعوني باسمي؟

فقال الرجل: أجل يا أمير المؤمنين أنا دعوتك باسمك كما ندعو الله باسمه، فنقول: (يا ألله يا ألله).

بين المعتصم والفتح بن خاقان

قال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبيّ في مقتبل عمره: أرأيت يا فتح أحسن من هذا الخاتم؟ (لخاتمٍ كان في يده).

فقال الفتح بن خاقان: نعم يا أمير المؤمنين اليد التي هو فيها أحسن منه.

بين الهادي ورجلٌ من أصحاب عبد الملك

أحضر الهادي رجلٌ من أصحاب عبد الملك بن مالك واضطهده واحتقره على ذنبٍ اجترمه، وقال له: أتعرف الذنب الذي أضطهدك لأجله؟

فقال الرجل: والله لا أذكر أني أذنبت ولا أجرمت يا أمير المؤمنين؟ قال الهادي: أذَنب وكذب في وقتٍ واحد. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن إقراري يلزمني ذنبًا لم أفعله، ويلحق بي جرمًا لم أقف عليه، وإنكاري ردَّ عليك ومعارضة لك، ولكني أقول:

فإن كنت تبغي بالعقاب تشفّيًا   فلا تزهدنّ عند التجاوز في الأجر

بين عبد الملك بن مروان ورجل من بني مخزوم

قال عبد الملك بن مروان لرجل من بني مخزوم: أليس الله قد ردَّك على عقبيك يا مخزومي؟ فقال المخزومي: أجل يا أمير المؤمنين ومن رُدّ إليك فقد ردَّه الله على عقبيه.

بين أعرابي وأعرابي

اعتدى أعرابيٌّ على أعرابيٍّ مثله، وقال له: إني لأسبك حتى أضع منك وأصغّر من شأنك بين قومك، فقال الأعرابي: والله إن خيرًا من هذا أنك لا تغرق في سبي ولا تتمادى في الطعن عليّ والنيل مني، وأن تَدَع للصلح منفذًا يمرّ منه، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا فلم أجيئها كبيرًا، وإني لن أكافئ من عصا الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

بين المأمون ومحمد بن عمران

شيَّد محمد بن عمران قصرًا فخمًا أزاء قصر عبد الله المأمون، فسعى في الوشاية به جماعة من الحاقدين عليه والحاسدين له، وأوغروا صدر المأمون، وقالوا له: يا أمير المؤمنين إن محمدًا شيَّد قصرًا إزاء قصرك تشبّهًا بك ومحاكاةً لعملك؛ فأرسل المأمون في طلبه وقال له: يا محمد قالوا إنك إنما أقمت قصرك هذا بجواري تشبّهًا بي ومحاكاةً لي، فَلِمَ شيَّدته جنبًا لجنب؟

فأجاب محمد بن عمران: يا أمير المؤمنين قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ [الحجرات: الآية ٦]، ووالله ما شيَّدت هذا القصر للمشابهة بك يا أمير المؤمنين، ولا للمحاكاة والمباهاة، ولكن لترى بعينيك آثار نعمتك عليَّ.

بين الجاحظ ومحمد بن عبد الملك

كان الجاحظ كثير المَيْل عظيم الرغبة إلى محمد بن عبد الملك دون (أبي دؤاد)، فلما نكب محمد بن عبد الملك جاؤوا بالجاحظ بين يدي أبي (دؤاد) مكبّلًا بالأصفاد، فقال له: والله لا أعرفك إلّا متناسيًا للنعمة، كفورًا للصنيعة، معدّدًا للمساوئ، وما فتئت أستصلح لك ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك، ورداءة دخيلتك، وسوء اختيارك، وتغلّب طباعك.

فأجاب الجاحظ بثبات وإرادة: خفِّض عنك أصلحك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتُحسن أحسن في الأحدوثة من أن أُحسن أنا وتُسِيء أنت، ولأن تعفو عني على حال قدرتك عليَّ أجمل بك من الانتقام مني، والسلام.

بين المأمون والفضل بن الربيع

قال أمير المؤمنين للفضل بن الربيع وقد ظفر به: يا فضل أكان من حقّي عليك وحق آبائي ونِعَمهم عند أبيك وعندك أن تثلبني وتسبّني وتحرّض على دمي؟ أتحبّ أن أفعل بك ما فعلتَ بي؟

فأجاب الفضل بن الربيع: يا أمير المؤمنين إنّ عذري يحقدك إذا كان واضحًا جليًا، فكيف به إذا اكتنفته العيوب وقبّحته الذنوب، فلا يضيق عنّي من عفوك ما وسع غيري منك؛ كما قال الشاعر:

صفوحٌ عن الإجرام حتى كأنه ... من العفوِ لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى ... إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

بين هشام بن عبد الملك وأعرابي

حضر أعرابيٌّ مائدة هشام بن عبد الملك فبينا هو يأكل علقت شعرة لحظها هشام، فقال للأعرابي: يا أعرابي نحِّ الشعرة عنك. فنظر الأعرابي نظرًا شذرًا إلى هشام، وقال له:

وإنك يا هشام تلاحظني ملاحظة مَن يرى الشعرة في اللقمة:

وللموت خيرٌ من زيارة باخلٍ ... يلاحظ أطراف الأكيل على عمدِ

بين عبد الله السلولي وابن معاوية

لما توفي معاوية رضي الله عنه وبُويع ابنه بالخلافة، اجتمع الناس على بابه ولم تجرأ أحد منهم على الجمع بين التهنئة له والتعزية في أبيه، فأتى عبد الله بن همام السلولي وقال للجماعة: أنا أُهنّئه وأنا أُحسن عزاءه.

فقالوا له: هذا موقف حرج لا تقدر عليه ويرتجّ عليك فيه بين يديه.

فقال عبد الله السلولي: ليس هذا لكم وستسمعون الحجّة بين يدي أمير المؤمنين بيضاء ناصعة، ودخلوا عليه جميعًا، فقام من بينهم عبد الله وقال: يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرزية وبارك لك في العطية وأعانك على الرعية، فلقد رزئت عظيمًا وأُعطيت جسيمًا، فاشكر الله على ما أُعطيت واصْبِرْ له على ما رزيت، فقد فقدت خليفة الله ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلًا ووُهِبْت جزيلًا، إذ قضى

معاوية نحبه فغفر الله ذنبه، ووُليت الرياسة فأُعطيت السياسة، فأوردك الله موارد السرور، ووفّقك لصالح الأمور.

فقال ابن معاوية: ما هذه البديهة يا عبد الله، فقد أرضيتني وأنا بين حياتين حياةٌ مدبرة وحياةٌ مقبلة.

بين عقيل الشاعر ورجل متشاعر(١)

ادّعى رجل قرض الشعر، فأنكر ذلك قومه عليه، وقالوا له:

إنك تدّعي الشعر كذبًا، وما هو إلا شعر بارد. فقال الرجل المتشاعر: إن إنكاركم ما أقول وطعنكم فيما أنظم إنما هو حسدٌ من عند أنفسكم ومرضٌ في قلوبكم، ولكن فليكن بيننا حَكَم إذا أردتم.

فقال قومه: ها هو العقيلي شاعر مطبوع ونظّام معروف يحكم بيننا وبينك بالحق، فتحاكموا إليه، فقال لشاعرهم: أنشدني طائفة مما قلت، فأنشد ولما فرغ من إنشاده قال للعقيلي: ماذا يرى الحَكَم في شاعريتي؟

فقال العقيلي: إني لأظنّك يا هذا من أهل بيت النبوّة. قال المتشاعر: وما معنى هذا؟

فقال العقيلي: ذلك لأن الله تعالىٰ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يٓس: الآية ٦٩].

بين عيسى بن فرخان وأبي العيناء

كان عيسى بن فرخان في وزارته يتيه عجبًا وكبرًا على أبي العيناء الشاعر، فلما نزل عن عرشه تهيّب الشيخ ولقيه مرة، فاحتفل به وبالغ في السؤال عليه، وقال له: يا أبا العيناء أين أنت فالحمد لله على رؤيتك.

فأجاب أبو العيناء: والله لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك، وبلحظك دون لفظك، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة فلقد أصابت فيك النقمة، ولَئِن كانت الدنيا أبْدت مقابحها بالإقبال عليك لقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك. ولله المِنَّة إذ أغنانا عن الكَذِب عليك ونزَّهنا عن قول الزور فيك، فقد والله أسأت حمل النعم وما شكرت حق المنعم.

---

(١) مُدَّعٍ للشعر.

فقال عيسى: يا عبد الله لقد بالغت في السبِّ، فما كان الذنب؟ قال أبو العيناء: والله لقد سألتك حاجة أقل من قيمتك فرددتني بأقبح من خلقتك.

بين عبد الملك بن مروان وكُثَيِّر عَزَّة[١]

دخل كُثَيْر عَزّة على عبد الملك بن مروان في أوّل خلافته، فقال له عبد الملك: أأنت كُثَيْر عزّة الذي يقولون؟ فأجاب كُثَيْر: نعم أنا ذا، فاقتحمه عبد الملك وازدراه وقال له: والله لتسمع بالمعيّدي خير من تراه.

فقال كُثَيْر على البديهة: يا أمير المؤمنين كل إنسان عند محلّه رحب الفناء شامخ البناء عالي السناء، وأنشد:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير إذا تراه ... فيخلف ظنّك الرجل الطرير[٢]
بغاث الطير أطولها رقابا ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
خشاش الطَّيْر أكثرها فراخًا ... وأمّ الباز مقلاة نزور
ضعاف الأسد أكثرها زئيرًا ... وأصرمها اللواتي لا تزير
وقد عَظُم البعير بغير لبٍّ ... فلم يستغنِ بالعظم البعير
ينوّح ثم يضرب بالهراوي ... فلا عُرْف لديه ولا نَكِير
يقوده الصبي بكلّ أرضٍ ... ويصرعه على الجَنْب الصغير
فما عُظْم الرجالِ لهم بزينٍ ... ولكن زينتهم حسنٌ وخير

فأطرق عبد الملك وقال: قاتلك الله ما أطول لسانك، وأمدَّ عنانك، وأوسع جنانك.

بين المنصور وعيسى بن موسى

لما همّ المنصور بالفتك بأبي مسلم فزع من ذلك عيسى بن موسى، فكتب للمنصور يقول:

إذا كنت ذا رأي فكُنْ ذا تدبّر ... فإنّ فساد الرأي أن تتعجّلا

---

(١) شاعر معدود.
(٢) الغليظ.

فأجابه المنصور:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ فإن فساد الرأي أن تتردّدا
ولا تمهل الأعداء يومًا بغدوةٍ وبادرهمو أن يملكوا مثلها غدا

بين عمر بن الخطاب وأحد الأُسراء

جاؤوا بأسيرٍ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعاه عمر إلى الإسلام فأبَى عليه فأمر بقتله، ولما اقتربت الساعة، قال الأسير: والله لو أمرت لي يا أمير المؤمنين بشربةٍ من ماءٍ فهو خيرٌ لي من قتلي على الظمإ، فأمر له بها، ولما وصل الماء إلى يده قال: أنا آمن حتى أشرب يا أمير المؤمنين.

فقال عمر بن الخطاب: ونحن قد أمنّاك حتى تشرب، عند ذلك لقي الأسير الماء من يده وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج.

فقال عمر بن الخطاب: ونحن موفّون بما عاهدناك عليه، ولك التوقف حتى ننظر في أمرك، فلما رُفِعَت آلة الإعدام قال الأسير: ألآن أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

فقال عمر بن الخطاب: ويحك أسلمتَ خيرَ إسلامٍ، فما أخّرك؟ قال الأسير: والله يا أمير المؤمنين لقد خشيت أن يقال إنّ إسلامي إنما كان جَزَعًا من الموت.

بين أبي مسلم وأحد قوّاده

أغلظ أحد القوّاد لأبي مسلم في الكلام، فغضب عليه أبو مسلم، فندم القائد وأخذ يضرع إليه ويطلب العفو منه، فقال أبو مسلم: لا شيء عليك وما هو إلّا لسان سبق ووهم أخطأ، والغضب شيطان وما جرّأك عليّ إلّا طول احتمالي عنك، فإن كنت للذنب متعمّدًا فقد شاركناك فيه، وأنت كنت مغلوبًا، فإن العذر يسعك وقد عفونا على كلِّ حال. فقال القائد: أصلح الله الأمير إنّ عفو مثلك لا يكون غرورًا.

قال أبو مسلم: أجل قد عفونا وسامحنا، فقال القائد: إن عظم الذنب أيّها الأمير لا يدع قلبي يسكن، فألحُّ في الاعتذار. قال أبو مسلم: عجبًا لك إنك أسأت فأحسنتُ فلما أحسنتَ أأُسِيء؟

بين معاوية وأحد الأُسراء

قال معاوية أمير المؤمنين لأسيرٍ جيء به بين يديه: الحمد لله الذي أمكنني منك، فقال الأسير: لا تقل ذلك يا معاوية فإنها مصيبة. قال معاوية أمير المؤمنين: وأيّ نعمةٍ أعظم من أن أمكنني الله من رجلٍ قتل جماعة من أصحابي في ساعةٍ واحدة، اَضرب عنقه يا غلام.

فقال الأسير: اللّهمّ اشهد أنّ معاوية لم يقتلني فيك، وأنك لا ترضى بقتلي، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام هذه الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله.

قال معاوية أمير المؤمنين: ويحك لقد سبَبت فأبلغت، ودعوت فأحسنت وحججت.

بين أبي العيناء وشاعرة

عرضت على المتوكّل جارية شاعرة، فدعا أبو العيناء الشاعر ليختبرها له، فقال أبو العيناء للجارية: أتقولين الشعر كما يقولون؟ قالت الجارية: نعم يا أبا العيناء أقول الشعر وأُجيده.

فقال أبو العيناء: وإني أختبرك في شطرٍ واحدٍ من بيتٍ واحدٍ وعليك أنت تكملته. قالت الجارية: هاتِ ما عندك يا أبا العيناء. فقال أبو العيناء:

الحمد لله كثيرًا

قالت الجارية:

حيث أنشاك ضريرا

وكان ضريرًا.

فقال أبو العيناء: يا أمير المؤمنين قد أحسنت والله في إساءتها، فخذها.

بين المنصور وآخر

جيءَ برجلٍ إلى المنصور وقد اقترف ذنبًا، فقال له المنصور:

يا رجل لقد اقترفت ذنبًا لا حيلة من القصاص عليه، قال الرجل: إنما الحيلة في يدك يا أمير المؤمنين، وهي العفو إذا شِئت.

فقال الخليفة المنصور: إنما العفو من عند الله وأنا مُوكل بإقامة العدل ونشر الحقّ بين الناس، قال الرجل: أجل يا أمير المؤمنين إنّ الله قد أمر بالعدل والإحسان، فإن أخذت في غيري بالعدل، فخُذْ فيَّ بالإحسان.

بين المعتصم والعباس بن المأمون

لما أفْضَت الخلافة إلى المعتصم بالله دخل عليه العباس بن المأمون، فقال له المعتصم: هذا مجلس كنتَ أكره الناس لجلوس فيه(١).

قال العباس بن المأمون: يا أمير المؤمنين أنت تعفو عما تيقَّنته، فكيف تعاقب على ما توهّمته؟ فقال المعتصم: ما أنصع حجّتك وأصفى بديهتك، ووالله لو أردت عقابك لتركت عتابك.

بين الحجاج والشعبي

دخل الشعبي على الحجاج فقال له الحجاج: كم عطاك يا شعبي؟ قال الشعبي: ألفين يا أمير المؤمنين. فقال الحجاج: ويحك كم عطاؤك؟ قال الشعبي: ألفان يا أمير المؤمنين. فقال الحجاج: فلمَ لحنت لأول مرة فيما لا يلحن فيه مثلك (فقلت ألفين).

قال الشعبي: لَحَنَ أمير المؤمنين فلحنت وأعرب الأمير فأعربت ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرّع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول قبله.

بين الحجاج وأحد الخوارج

أمر الحجاج بقتل جماعة من الخوارج عليه فقام من بينهم شاب وقال له: لا جزاك الله عن السنة خيرًا. فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: الآية ٤] هذا قول الله تعالى وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل القلائد

---

(١) ذلك لأن الخلافة أفضت إليه بعد المأمون (أبو العباس).

فقال أمير المؤمنين الحجاج: ويلكم أعجزتم أن تخبروني بما أخبرني هذا المنافق وعفا عنهم.

بين الحجاج وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى

دخل عبد الرحمٰن بن أبي ليلى على الحجاج فقال الحجاج لجلسائه: إن أردتم أن تنظروا إلى رجل يسب أمير المؤمنين عثمان بن عفان فهذا عندكم (وأشار إلى عبد الرحمٰن بن أبي ليلى).

فقام عبد الرحمٰن بن أبي ليلى وقال: معاذ الله أيها الأمير أن أكون أسب أمير المؤمنين. إنه ليحجزني عن ذلك ثلاث آيات في كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: الآية ٨] فكان عثمان رضي الله عنه منهم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: الآية ٩] فكان أبي منهم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: الآية ١٠] فكنت أنا منهم.

فقال أمير المؤمنين الحجاج ـ صدق الله العظيم وصدقت يا عبد الرحمٰن.

بين الحجاج وأبي عوانة

بعث الحجاج إلى (أبي عوانة) فمثُل بين يديه فقال له الحجاج: ما اسمك؟

قال أبو عوانة: والله ما أرسل إليّ الأمير حتى عرف اسمي.

فقال الحجاج: ومتى هبطت هذا البلد؟ قال أبو عوانة: هبطت حين هبط أهله. فقال الحجاج: وما الذي تقرأ من القرآن؟ قال أبو عوانة: اقرأ منه ما إذا ابتعته كفاني. فقال الحجاج: إني أريد أن أستعين بك في عملي.

قال أبو عوانة: إن تستعن بي إنما تستعن بكبير أخرق ضعيف يخاف أعوان السوء وإن تدعني فهو أحب إليّ وإن تقحمني أقتحم.

فقال الحجاج: إن لم أجد غيرك أقحمتك. وإن وجدت غيرك لم أقحمك.

قال أبو عوانة: وأُخرى أكرم الله الأمير - ذلك أني ما علمت الناس هابوا أميرًا قط هيبتهم لك ووالله لأسهر الليل ولا يأتيني النوم من ذكرك حتى أصبح - هذا ولستَ لك عليّ عمل فكيف بي إذا أصبحت وأمسيت وعملي معك؟ فقال الحجاج إذن لم يبق إلا أن تنصرف.

بين أبي العلاء صاعد وأحد الشعراء

ألّف أبو العلاء صاعد كتبًا منها - كتاب الفصوص - وعند الفراغ من وضعه وتبويبه جاء غلامه يحمله إليه وعبر به نهر قرطبة فخانت الغلام رجله وسقط في النهر هو والكتاب فقال شاعر في ذلك بحضرة المأمون وعلى سمع أبي العلاء مرتجلًا ومتهكمًا:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص ... وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجاب أبو العلاء قائلًا:

قد عاد إلى معدنه إنما ... توجد في قاع البحار الفصوص

بين الربيع وموسى بن عبد الله بن الحسن

حبس أبو جعفر المنصور موسى بن عبد الله بن الحسن لخروجه عليه هو وأخويه وأمر بضربه ألف سوط فما استغاث ولم ينطق بكلمة واحدة فقال الربيع وكان حاضرًا: إني يا أمير المؤمنين قد عذرت أولئك الفساق في صبرهم على الجلد واحتمالهم للأذى ولكن كيف أعذر هذا الفتى الذي نشأ في النعمة والدعة.

فأجاب موسى على البديهة قائلًا: ألا فَاعلمن يا ربيع.

إني من القوم الذين يزيدهم ... جلدًا وصبرًا قسوة السلطان

بين المنصور وأحد الخوارج

دخل عنان بن خريم على المنصور، وقدم إليه طائفة من الذين خرجوا عليه فقال لهم المنصور: أنتم الذين خرجوا عليّ وشقوا عصا الطاعة وجاهروا بالعصيان فجزاؤكم القتل انتقامًا منكم وعبرة لغيركم.

فقام واحد منهم وقال: يا أمير المؤمنين مَن انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه ومن شفي غيظه وأخذ حقه لم يجب شكره ولم يحسن في العالمين ذكره. وإنك إن انتقمت فقد انتصفت وإذا عفوت فقد تفضلت. على أن إقالتك عثار عباد الله موجبة لإقالة عثرتك وعفوك عنهم موصل بعفوهم عنك ولك رأيك والسلام.

بين أبي العلاء وغلام عربي

لقيَ غلام من العرب أبا العلاء المعرّي الشاعر المطبوع فقال له: من أنت يا شيخ؟ قال أبو العلاء: أنا أبا العلاء المعري شاعركم المعروف.

فقال الغلام: أهلاً بالشاعر الفحل ـ أأنت القائل في شعرك:

فإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

قال أبو العلاء: نعم أنا الذي قلت هذا ولماذا؟

فقال الغلام: قول طيب وثقة بالنفس وإعلان عن الكفاءة والقدرة ولكنّ الأوائل قد وضعوا ثمانية وعشرين حرفًا للهجاء فهل لك أن تزيد عليها حرفًا واحدًا؟

فسكت أبو العلاء المعري وقال: والله ما عهدت لي سكوتًا كهذا السكوت.

بين والٍ وأعرابي

قال والٍ لأحد الأعراب: يا أعرابي قل الحق وإلا أوجعتك ضربًا وقتلتك تعذيبًا.

فقال الأعرابي: وأنت فاعمل به ـ فوالله لما أوعدك الله به منه أعظم مما وُعدت به منك.

بين عبد الملك بن مروان وأحد الأعراب

جاء أحد الأعراب لعبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك: تكلم بحاجتك يا أعرابي.

قال الأعرابي: يا أمير المؤمنين ـ جلال الدرجة وهيبة الخلافة يمنعاني من ذلك. فقال عبد الملك: على رسلك يا أعرابي فإنا لا نحب مدح المشاهدة ولا

تزكية اللقاء. قال الأعرابي: أنا لست أمدحك يا أمير المؤمنين ولا أزكيك ولكني أحمد الله تعالى على النعمة فيك.

بين المهدي والربيع وشريك القاضي

قال العتبي - كان بين شريك القاضي والربيع حاجة في النفس فكان الربيع يدس عليه ويشي به عند أمير المؤمنين المهدي كلما أمكنته الفرصة من الوقيعة. وقد رأى أمير المؤمنين شريكًا في نومه وكأنه مصروفًا عنه فقصّ رؤياه على الربيع ففسرها بأن شريكًا مخالف لأمير المؤمنين وأنه فاطميّ بحت فأمر المهدي بإحضار شريك فجيء به فقال له: بلغني أنك فاطميّ يا شريك.

قال شريك القاضي: وإني أعيذك يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطميّ إلا أن تعني فاطمة بنت كسرى فقال أمير المؤمنين: ولكني أعني فاطمة بنت محمد ﷺ.

قال شريك القاضي: أفتلعنها يا أمير المؤمنين. فقال أمير المؤمنين: معاذ الله من ذلك. قال شريك القاضي: فماذا عسى أن تقول فيمن يلعنها.

فقال أمير المؤمنين: أقول عليه لعنة الله. قال شريك القاضي: إذن فالعن هذا يا أمير المؤمنين (وأشار إلى الربيع) فإنه يلعنها فعليه لعنة الله.

فقال الربيع: لا والله يا أمير المؤمنين ما لعنتها ولا ألعنها. قال شريك القاضي: يا ماجن فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال... فقال أمير المؤمنين: دعني من هذا فإني رأيتك في نومي كأن وجهك مصروفًا عني وقفاك إليّ ورأيت في نومي كأني أقتل زنديقًا.

قال شريك القاضي: والله إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصدّيق صلوات الله على محمد وعليه. وأن الدماء لا تُستحل بالأحلام. وأن علامة الزندقة بيّنة.

فقال أمير المؤمنين: وما هي هذه العلامة يا شريك. قال شريك القاضي: علامتها شرب الخمر والرشا في الحكم ومهر البغيّ يا أمير المؤمنين.

فسكت المهدي وقال: صدقت أبا عبد الله ولأنت خير من الذي حرضني عليك.

بين الفرزدق وسليمان بن عبد الملك

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك فقال له: مَن أنت وتجهم له كأنه لا يعرفه.

قال الفرزدق: وما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ فقال سليمان بن عبد الملك: لا أعرفك فمن أنت؟ قال الفرزدق: أنا من قوم منهم أوفى العرب وأسود العرب وأجود العرب وأحلم العرب وأفرس العرب وأشعر العرب.

فقال سليمان بن عبد الله: والله لتبيّنن ما قلت أو لأوجعن ظهرك ولأهدّ من دارك.

قال الفرزدق: لك ذلك يا أمير المؤمنين. أما أوفى العرب فحاجب بن زرارة الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفّي بها. وأما أسود العرب فقيس بن عاصم الذي وفد على رسول الله ﷺ فبسط له رداءه وقال هذا سيد الوبر. وأما أحلم العرب فعتّاب بن ورقاء الرياحي. وأما أفرس العرب فالحريش بن عبد الله السعدي. وأما أشعر العرب: فها أنا ذا يا أمير المؤمنين ـ فاغتمّ سليمان مما سمع من فخره وقال له: ارجع على عقبيك فما لك عندنا شيء من خير.

فرجع الفرزدق وقال له:

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا ... إليك ولا من قلة في مجاشع

فلم يجبه سليمان بكلمة.

بين النعمان بن المنذر وعامر بن أحيمر

قال أبو عبيدة رضي الله عنه ـ اجتمعت وفود العرب عند النعمان بن المنذر فأخرج النعمان إليهم بردي مخرّق وقال لهم.

ليقم أعز العرب قبيلة فليلبسهما ـ فقام من بين الجماعة عامر بن أحيمر السعدي فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر.

فقال له النعمان بن المنذر: وبِمَ أنت أعز العرب؟ قال عامر بن أحيمر السعدي: ألعز والعدد من العرب في سعد وهو منها ثم في نزار ثم في تميم ثم في سعيد ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدلة ـ فمن أنكر هذا من العرب فلينافرني.

فسكت الناس وكأن على رؤوسهم الطير فقال النعمان:

هذه يا عامر حالك في قومك فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك.

قال عامر بن أحيمر السعدي: أنا أبو عشرة. وخال عشرة. وعم عشرة. وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي وثبّت قدمه في الأرض ثم قال: مَن أزالها عن مكانها فله مائة من الإبل ـ فلم يحرك أحد الحاضرين ساكنًا ولم ينبذ بنت شفة.

بين الوليد وملك الروم

قال الرياشي: هدم الوليد إحدى الكنائس فكتب إليه ملك الروم يقول: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فإن كان صوابًا فقد أخطأ أبوك. وإن كان خطأ فما عذرك؟

فرد عليه الوليد يقول: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٨، ٧٩][(١)] فأسكته.

بين المهلب بن أبي صفرة وآخر

قال رجل للمهلب بن أبي صفرة: يا أبا المهلب بم أدركت ما أدركت. فقال المهلب بن أبي صفرة: إنما أدركت ما أدركت بالعلم. قال الرجل: ولكنّ غيرك قد علم أكثر مما علمت ولم يدرك ما أدركت.

فقال المهلب بن أبي صفرة: ذلك عِلْمٌ حُمِلَ وهذا علم استعمل وقد قالت الحكماء ـ العلم قائد والعقل سائق والنفس ذود. فإن كان قائد بلا سائق هلكت. وإن كان سائق بلا قائد أخذت يمينًا وشمالاً وإذا اجتمعا أنابت طوعًا أو كُرهًا.

أجوبة الفلاسفة

سقراط

عاش هذا الفيلسوف (٧٠) سنة وهو من تلامذة فيثاغورث وقد اتفق الأقدمون على أنه من عظماء الفلاسفة وكان قبيح الوجه بطيء الحركة سريع الجواب إذا

(١) قرآن كريم.

تكلم أقنع. وقد تعلم الفلسفة على انكسغوراس وبعده على أرخبينوس الطبائعي. ولما رأى أن النظر في هذه الأشياء الطبيعية لا تجديه نفعًا ولا تجعل للفلسفي خصالاً محمودة تعلق بقراءة علوم الآداب والأخلاق حتى قيل إنه واضع الحكمة العملية الأدبية عند جميع اليونان.

وقد اشتغل بالبحث عن الخصال الحميدة والذميمة والخير والشر وأعرض عما دون ذلك قائلاً أن جميع ما يتعلق بالنجوم والكواكب بعيد عن إدراكنا ومعرفتنا ولا جدوى لها في تحسين الأخلاق. وقنع من الفلسفة على البحث المرتبط بالآداب واللائق لآداب الإنسان وما يلزم له مدة حياته وهو مذهب جديد وضعه هذا الفيلسوف.

وكان يقول: إن مَن عرف نفسه عرف كل شيء ومَن جهل نفسه جهل كل شيء.

ومن رأيه أنه لا يستودع الحكمة الصحف والقراطيس تنزيهًا لها واحترامًا لقدرها ـ ويقول: إن الحكمة طاهرة مقدّسة غير فاسدة فلا ينبغي لنا أن نستودعها إلا الأنفس الحية ونصونها عن القلوب المتمردة ـ ولم يصنف كتابًا ولا أملى على أحد من تلاميذه ما أثبته في قرطاس وإنما كان يلقنهم علمه تلقينًا.

ولما كانت الفلسفة الأدبية علمًا أكثره عمليات لا عبارات رتب قانونًا كليًا وهو:

ينبغي للعاقل أن يسلك ما يأذنه به العقل السليم والطبع المستقيم.

وكان يفتتح للدرس بطريقة سائل فإذا أجيب تكلم وباحث وناقض وبرهن حتى يكشف لهم الحقيقة.

(١)

كان سقراط قليل الأكل خشن اللباس فكتب إليه أحد الفلاسفة يقول: أنك تحسب الرحمة لكل ذي روح واجبة وأنت ذو روح ولم ترحمها بترك قلة الأكل وخشن اللباس.

فأجاب سقراط يقول: عاتبتني على لبس الخشن وقد يعشق الإنسان القبيحة ويترك الحسناء وعاتبتني على قلة الأكل وإنما أريد أن آكل لأعيش وأنت تريد أن تعيش لتأكل.

فكتب إليه الفيلسوف يقول: قد عرفت السبب في قلة الأكل فما هو السبب في قلة الكلام.

فأجاب سقراط: إن ما أصبحت إلى مفارقته وتركه للناس فليس لك والشغل بما ليس لك عبث وقد خلق الحق سبحانه وتعالى لك أذنين ولسانًا واحدًا لتسمع ضعف ما تقول لا لتقول أكثر مما تسمع.

(٢)

انتقد انتيفوس السوفسطائي سقراط الفيلسوف وتحكم عليه وقال له: إنك في غاية الفقر ومنتهى الذل والمسكنة وإن حالتك هذه لا يقنع بها أحد ولو كان رقيقًا وإن قوتك أخس الأقوات وزيك زي المساكين بحيث إنه قميص واحد لرحلة الشتاء والصيف ولا نعل لك فما هذه الحال الدون؟

فأجاب سقراط يقول: إنك شططت وخلطت كثيرًا حيث زعمت أن السعادة إنما هي بالغنى والذات. والحقيقة أنه وإن ظهر لك فقري في هذه الحالة فأراني أسعد منك بالاً وأهدأ حالاً لأني أعتقد أن الغني المطلق خاصًا بالمعبود وكلما قنع الإنسان بما عنده وضرب كشحا عما في أيدي الناس قرب من أوصاف الألوهية.

(٣)

قال رجل لسقراط: إن الكلام الذي قلته كلام غير مقبول. فأجاب سقراط: ليس يلزمني أن يكون مقبولاً وإنما يجب عليّ أن يكون صوابًا.

(٤)

أشهر أحمق سيفه على سقراط ليضربه فغضب له أحد أصحابه وقال لسقراط: ما هذا السكوت على هذا الأحمق فأوعز إليّ فأضربه.

فأجاب سقراط: إذا أنت ضربته قالوا أحمق يضرب أحمق ـ وأنا لا آمرك بالضرب لأنه ليس بحكيم مَن يأمر بالشر.

(٥)

كان سقراط أكثر الناس استخفافًا واحتقارًا للملوك فقال له رجل من البلاط: ما هذا الازدراء بالملوك وهذا الاستخفاف بمقامهم وجلالهم وكلنا عبيدًا لهم.

فأجاب سقراط: أنا لست بعبد للملك ولكن الملك هو عبد لي لأني ملكت الشهوة والغضب وهما ملكاه فهو عبد لعبدي.

(٦)

قال سفيه لسقراط: والله يا سقراط لو قلت واحدة سمعت عشرًا. فقال سقراط: وأنت والله لو قلت عشرًا لم تسمع واحدة.

(٧)

عيّر رجل سقراط فقال له: ما أشد فقرك وأعوزك يا سقراط. فأجاب سقراط: والله لو عرفت الفقر لشغلك التوجه لنفسك عن التوجع لسقراط(١).

(٨)

جزعت امرأة سقراط لقتله وبكت وانتحبت كثيرًا فقال لها: ما هذا البكاء وهذا الجزع.

فقالت له: إنما بكيت وجزعت لأنك تُقتل مظلومًا ولغير ذنب.

فأجاب سقراط: يا عاجزة الرأي أكنتِ تريدين أن أُقتل بحق(٢).

أفـــلاطون

عاش هذا الفيلسوف (٨١) سنة ووافق يوم وفاته يوم ولادته. وهو فيلسوف يوناني طبي عالم بالهندسة وطبائع الأعداد وله في الفلسفة كلام عجيب.

وقد وضع لأهل زمانه سننًا ومبادىء وحدودًا جروا عليها وعملوا بها وأخذ هو في أول أمره في تعلم علم الشعر واللغة فبلغ مبلغًا عظيمًا فيهما.

وكان ميّالاً إلى الانفراد والعزلة محبًا للخلوات والوحدة وكان ذا قامة طويلة ضخمًا وعظيم الجبهة وعريض الأكتاف فسمى أفلاطون وهو غير اسمه الحقيقي حتى أصبح عَلَمًا عليه وعرف به.

---

(١) يشير إلى أن الغنى إنما هوالقناعة التي يشعر بها هو نفسه ويريد بالفقر ـ الجهل ـ الذي هو فقر النفس من الكمال.

(٢) يريد بذلك إلى أن قتله مظلومًا أنفع له من قتله ظالمًا (أي مذنبًا).

وكان فصيحًا مجتهدًا في الشعر من صباه وعاش أعزب مدة حياته ملازمًا للعفة والتحفظ من الشهوات حتى من الصبا وكان نادر الضحك أميرًا على نفسه في هواها وغير غضوب. وكان شديد العناية بعلم الهندسة حتى كان يقول إن هذا العلم لازمًا لتعلم الفلسفة وكتب على باب المدرسة:

لا يدخلها إلا الماهر في علم الهندسة.

وقد دوّن مذهبه من ثلاثة من مذاهب الفلاسفة:

١ ـ تبع زهير قليطس في الطبيعيات والمحسوسات.

٢ ـ وتبع فيثاغورث فيما وراء الطبيعيات والعقليات.

٣ ـ وتبع سقراط في القوانين والآداب وفضّله على المذهبين.

ومن آرائه ـ أن للعادة على كل شيء سلطان وكان يقول:

إذا هرب الحكيم من الناس فاطلبه.

وإذا طلبهم فاهرب منه.

وإياك في وقت الحرب أن تستعمل النجدة وتترك العقل فإن للعقل مواقف قد تتمّ بلا حاجة إلى النجدة ولا ترى للنجدة في كل مواقفها غنًى عن العقل.

وإن الحلم لا ينسب إلا للقادر على السطوة.

(١)

كان أفلاطون يوضح آراءه في أحد الأيام في مباحث شتّى فتطرق إلى البحث في شكل (لوح الطاولة والقدح: فقال له ديوجانس الحكيم: إني بالمشاهدة أتصوّر حقيقة ما تقول عن شكل (الطاولة والقدح) ولكن أنا الآن لا أدرك شكلهما على نحو ما ذكرت.

فأجاب أفلاطون: صدقت يا ديوجانس لأن معرفة شكل (الطاولة والقدح) بالمشاهدة لا يلزم لها البصر وأما معرفتهما من طريق الشكل فقط فمتوقفة على الذهن.

(٢)

سمع أفلاطون رجلاً دميمًا مشوّهًا يسب آخر جميلاً وسيمًا فنصح إلى الدميم في أن يكف عن سبه وقال له: إني أنصح لك أن تقلع عن هذا ولتكن أنت دائمًا

أكثر أدبًا وأحمد خلقًا من غيرك. فقال الدميم: ولِمَ هذه الميزة في المعاملة وهل الأدب يطلب لفئةٍ دون فئة؟

فأجاب أفلاطون: ليس هذا الذي أرمي إليه ومع ذلك أقول لك: ينبغي للمرء دائمًا أن ينظر وجهه في المرآة فإن كان قبيحًا استقبح أن يجمع بين قبيحين. وينبغي أيضًا أن ينظر في هذه المرآة نفسها فإن كان حسنًا استقبح أن يضيف إليه فعلاً قبيحًا. هذه هي نصيحتي التي أدلي بها إليكما ـ فسكتا.

(٣)

بدأ أفلاطون في عمل وغاب في أتمامه فضاق بعضهم صبرًا وانتظارًا طويلاً فقال له: يا أفلاطون قد بدأت بعملك هذا من زمن طويل ولم تخرجه للناس حتى تقوّلوا عليك وأكثروا النقد فيك ورموك بالبطيء وعدم الحركة فما هذا الحال؟

فأجاب أفلاطون: اعلم يا هذا إني لا أطلب سرعة العمل وأطلب تجويده فإن الناس لا يجب أن يسألوا في كم فرغ من هذا العمل وإنما يجب أن يسألوا عن مبلغ جودته وحسن العناية فيه.

(٤)

بينا كان أفلاطون في بيته إذ دخل عليه ديوجانس الحكيم ووطأ بنعليه بساطًا جميلاً له وقال له: إني يا أفلاطون أحتقر بعملي هذا كِبر أفلاطون وإعجابه.

فأجاب أفلاطون: والله يا ديوجانس لقد فاتك أن عملك هذا هو عين الكبر.

(٥)

تناظر اثنان أمام أفلاطون فتهكما وتطاولا في المناظرة وخلطا بين الغرض من المناظرة وغرضهما الشخصي فقال لهما أفلاطون: أنتما في هذن المناظرة لا تطلبان الحق.

فقالا له: وكيف لا نطلبه ونحن نقتتل من أجله.

فقال أفلاطون: لهذا قلت إنكما لا تطلبانه لأنه إذا طلب المتناظران الحق لم يقتتلا في المناظرة لأن مطلوبهما واحد هو الحق وإذا طلبا الغلبة اقتتلا لأن فيهما غلبتين وكل واحد من الخصمين يطلب أن يجذب صاحبه إلى الغلبة التي فيه.

(٦)

جاء ملك جائر وظالم إلى أفلاطون وقال له: يا أفلاطون ماذا تقول في ملكي؟

فأجاب أفلاطون: هو ملك قصير. قال الملك: وما يدريك أنه قصير؟

فقال أفلاطون: لأنك جائر ولأنك ظالم. قال الملك: وما دليلك على ما تقول؟ فقال أفلاطون: دليلي على ذلك أن زمان الجائر من الملوك أقصر من زمان العادل وأن الجائر مفسد والعادل مصلح وإفساد الشيء أسرع من إصلاحه.

(٧)

قال رجل لأفلاطون: أيهما أشد ضررًا بالقلب السمع أم البصر؟

فقال أفلاطون: إن السمع والبصر للقلب كالجناحين للطائر لا يستقل إلا بهما ولا ينهض إلا بقوتهما وربما قصّ أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة.

قال الرجل: فما بال الأعمى يعشق ولا يرى والأصم يعشق ولا يسمع.

فقال أفلاطون: لذلك قلت لك إن الطائر قد ينهض بأحد جناحيه ولا يستقل بهما طيرانًا فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى وأوحى.

(٨)

تخاصم وليّا عهد في ملك أحدهما شيخ كبير والثاني شاب صغير إلى أفلاطون وكان ينازع الشيخ الشاب ولاية العهد وقالا لأفلاطون: قد رضيناك حكمًا عدلاً فاقضِ بيننا بما أنت قاضٍ ونحن كما ترى شيخ كبير وشاب صغير.

فأجاب أفلاطون: يا شيخ إن هذا الشاب أحق بالعهد منك.

فقال الشيخ: ما هذا الخلط في الرأي والتعسف في الحكم والتشيع للباطل.

فأجاب أفلاطون: اعلم يا هذا أنه لا ينبغي أن يكون الملك بحق السن بل يجب أن يكون بحق السجية لأنه قد يكون الشيخ ـ كما رأيت ـ على غير ما يجب والشاب على ما يجب ـ والملك يطلب العقل أكثر ما يطلب السن.

أرســـطو

عاش هذا الفيلسوف (٦٣) سنة وكان من أشهر كبار الفلاسفة وفقد أباه وأمه في صغره وذهب إلى أثينا في طلب العلم واجتهد في التحصيل بمكتب أفلاطون حتى إنه لم يمضِ عليه زمن قليل حتى برع على أقرانه الأفلاطونيين الذين كانوا لا يقطعون حكمًا في شيء قبل مراجعته ـ وكان دقيق الفهم يسرع فهمه إلى المسائل الصعبة العويصة حتى حكم التلاميذ على قريحته أنها خارقة للعادة واشتهرت فلسفته شهرة عظيمة في الفلسفة والسياسة.

وكان إذا دعا الناس أفلاطون للكلام تمنّع وقال حتى يحضر العقل فإذا حضر أرسطو دار الحديث ودارت المناقشة ـ وكان الناس بعد وفاته يستريحون إلى قبره ويسكنون إلى عظامه فإذا صعب عليهم شيء من فنون العلم والحكمة جاؤوا ذلك الموضع وجلسوا إليه وتناظروا فيما بينهم حتى يستنبطوا ما أشكل عليهم ويصحح لهم ما شجر بينهم ـ وكانوا يرون أن في جلوسهم على القبر إصلاح لعقولهم وترويض لأفكارهم وتلطيف لأذهانهم.

اجتهد هذا الفيلسوف بالأسباب التي تجعل الإنسان سعيدًا في هذه الدنيا فنقض أولاً:

رأى أرباب الشهوات الزاعمين أن السعادة في اللذات البدنية قائلاً إنه مع ما فيها من عدم الدوام فإنها تحدث سآمة وتسبب زهدًا فيها بل ربما أضعفت البدن وشوهت وظائف العقل.

وزيف أيضًا: رأى أرباب الطمع والحرص الواهمين أن السعادة في العز والشرف قائلًا: أن الشرف ارتكاب ما يشرف ـ وقال كذلك أن أرباب الطمع يتمنون أن يكونوا مترفين لتظاهرهم ببعض خصال حميدة ويريدون أن تظنها الناس فيهم.

وزيف أيضًا: رأى البخلاء الزاعمين أن السعادة في الأموال قائلًا: إن الأموال ليست مرغوبة لذاتها وأنها سبب شقاء لمن كنزها وخاف إنفاقها. ورأى أن السعادة الصحيحة هي أعمال العقل الحسن وسلوكه طريق الفضائل وأن أشرف أعمال العقل تأمله في الكائنات وبحثه في الموجودات.

وقال: إن سعادة الإنسان في ثلاثة أشياء:

١ ـ الكمالات العقلية:

كسداد الرأي وحسن التدبير والضبط.

٢ ـ والكمالات البدنية:

كالجمال والقوة واعتدال المزاج.

٣ ـ والكمالات الدنيوية:

كالغنى وطيب الأصل وقال إن الصلاح وحده لا يكفي في سعادة الإنسان بل لا بد من كمالات الجسم والمعيشة. وإن العلوم الأدبية أعظم ما يوجب تسلية الأديب إذا صار هرمًا.

(١)

تهور جاهل على عالم على مرأى ومسمع من أرسطو فساء العالم هذا التهوّر عليه وجادل الجاهل وناضله كثيرًا فقال له أرسطو: خفف عن نفسك ولا تلمه كثيرًا وكن هادىء الروع رابط الجأش. فقال له العالم: وكيف لا ألومه وهو جاهل والجاهل أولى بالمؤاخذة والمقاصّة من غيره. فأجاب أرسطو: نعم يجب أن تترك عتبه لأنك عالم والعالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلًا فأصبح عالمًا ـ والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالمًا.

(٢)

سأل أحد الناس أرسطو في مسألة. فسكت فقال السائل: قد سألتك فسكت فكأني بك وقد أعجزتك. فأجاب أرسطو: يا هذا لا يلام الإنسان على ترك الجواب إذا سئل حتى يتبين أن السائل قد أحسن السؤال لأن حسن السؤال سبيل وعلّة إلى حسن الجواب.

(٣)

تحكم رجل بأرسطو فقال له: لقد نقل إليّ ثقة عنك ما أوغر الصدر عليك وغير الظن فيك وعهد الوفاء عندك. فأجاب أرسطو: والله يا هذا ـ إن الثقة لا ينُمّ.

(٤)

قال رجل لأرسطو: ماذا أعمل وأنا لا أجد لي صبرًا ولا جلدًا على تعب العلم.

فأجاب أرسطو: إذًا فاصبر على شقاء الجهل.

(٥)

سأل رجل أرسطو: لماذا أنت تناقض صديقك أفلاطون وتتعقبه في آرائه وتخالفه في مبادئه وهو فيلسوف مثلك وصديق لك.

فأجاب أرسطو: نعم إن أفلاطون صديقي ولكن الحق أولى بالصداقة منه.

(٦)

تكلم رجل مع أرسطو كلامًا طويلاً ثم قال له: هل فهمت كلامي وفقهت حديثي.

فأجاب أرسطو: أما كلامك فقد نسيته لطول عهده وأما آخره فلم أفهمه لتفاوت أوله.

ديــوجــانس

عاش ديوجانس (٩٠) سنة وكان مولعًا بعلوم الأدب زاهدًا في غيرها من العلوم حاد الذهن قوي الفكر يستوعب المقام بحيث لا يبقى لأحد بعده مقالاً فيه.

وكان رأيه في الزواج لا يرضى به أحد حتى ولا العامة الوحشيون لأنه رفض فيه رأي أرباب الشرائع والقوانين السياسية ورفض القوانين الطبيعية وجعل الخيرة فيه لهوى النفس.

وكان يلوم أرباب الموسيقى والألحان على تحملهم المشقة في تطبيق الموسيقى والألحان مع بعضهما على أن عقولهم سيئة الترتيب مضطربة الحركات وكان خبيث الهجاء حتى لم يسلم أحد من لسانه.

وكان يقول: إني وإن كنت لا دار لي ولا مدينة ولا وطن وأتقوت يومًا بيوم فإني جلد على مقاومة صروف الدهر أقابل المال بالثبات والعفة وأقابل العوائد بالحالة الفطرية وأقابل أكدار النفس ومتاعبها بالتدبر والعقل.

وكان من عادته تعطير أقدامه بالروائح الطيبة لأن رائحة العطر في الرأس ـ في رأيه ـ تذهب في الهواء وإذا وضعت في الأقدام تصعد إلى الأنف.

(١)

حاول واحد من السوفسطائيين أن يظهر قوة إدراكه وسلامة رأيه لديوجانس الفيلسوف فقال له: يا ديوجانس أنك لست أنا ـ وأنا رجل فلست أنت برجل.

فأجاب ديوجانس: لو قلت أنت لست أنا وسكت لأنتجت بنفسها أنك لست برجل.

(٢)

اتهم رجل ديوجانس بتزييف النقود وغشها والتلاعب فيها وقال له: إنك يا ديوجانس تخون بعملك هذا وطنك وتخون الأمانة. فأجاب ديوجانس: نعم إني كنت في الأيام الخالية كما أنت الآن ولكن ما أنا عليه الآن لا تصل إليه أنت طول عمرك.

(٣)

رمى بعضهم ديوجانس في حسبه ونسبه ونَعَتَهُ بالخسّة والضعة والعون وقال له: والله يا ديوجانس ليس بمثل هذه الخلال وهذه النعوت تشرف الفلسفة وتكرم الحكمة وتعظم الحجة.

فأجاب ديوجانس قائلاً: اعلم يا هذا إن حسبي عيب عليّ عندك أما أنت فعيب على حسبك عندي.

(٤)

قال رجل لديوجانس وكان يشتغل في صناعة التصوير وزهد فيها وزاول صناعة الطب. إنك يا ديوجانس لم تتقن في حياتك غير الفلسفة أما أنا فأفضلُك لأني اشتغلت في فن التصوير وتركته إلى غيره فاشتغلت في صناعة الطب.

فأجاب ديوجانس قائلاً: قد أحسنت يا هذا فإنك مذ رأيت أن خطأ التصوير ظاهرًا للعيان وخطأ الطب يواريه التراب تركت ذاك ودخلت في هذا.

(٥)

سأل أحدهم ديوجانس: أتعرف يا ديوجانس الحكمة في إحسان الناس وتصدّقهم على العمي والعرج وعدم إحسانهم وتصدقهم عليكم أنتم معشر الفلاسفة.

فأجاب ديوجانس قائلًا: إن الحكمة في ذلك لأن الناس متأهلون ومستعدون للعمى والعرج وليس كل واحد أهلًا للفلسفة.

(٦)

اختلف ديوجانس وامرأته وتلاحيا فقال له: أما نظرت يا هذا إلى وجهك الدميم ولو مرة واحدة في المرآة فتعذر زوجك في تبرمها وقلقها. فأجابها ديوجانس: اعلمي يا هذه إني أعرف الناس بخلقي وأعرفهم بخلقك. وإن منظر الرجال بعد المخبر ولكن مخبر النساء بعد المنظر.

(٧)

سأل ديوجانس أحد المسرفين دينارًا فقال المسرف: إنك يا ديوجانس تطلب مني دينارًا في الوقت الذي تطلب فيه من غيري. فأجاب ديوجانس قائلًا: ذلك لأن صاحب الدرهم يعطيني كلما سألته وأما أنت فإني أشك أن أجدك بعد اليوم على حال يسمح لك أن تعطيني مرة ثانية لأنك مبذر وذاك مدبر.

(٨)

حاول واحد من أصحاب ديوجانس أن ينقذه وقت محنته من سجنه فقال له ديوجانس: لماذا جئت إلى هنا أيها الصاحب؟ فقال الصاحب لديوجانس: إنما جئت لأنقذك وأخلصك من ذل العبودية لتتمتع بالحرية.

فأجاب ديوجانس: أبك جنون أم أنت تهزأ بصاحبك.

فقال صاحبه وهو يحاوره: وكيف ذلك وما أردت إلى الإصلاح لك لأنك أسير.

فأجاب ديوجانس: اذهب أيها الصاحب بسلام واعلم أن السبع ليس أسيرًا عند مَن يطعمه وإنما المطعم للسبع والخادم له هو أسيره.

(٩)

قال لوسياس العقاقيري لديوجانس:

يا ترى هل يعتقد ديوجانس بوجود الله تعالى؟ فأجاب ديوجانس قائلاً: وكيف لا يعتقد ديوجانس بالله سبحانه وتعالى مع علمه أنه عدوك الأكبر؟

(١٠)

جلس ديوجانس في الطريق وكان جائعًا فأكل وهو جالس في مكانه في الطريق فالتفّ الناس حوله وأكبروا منه هذا العمل وقالوا له: إن ديوجانس يأكل الآن في الطريق ككل كلب يأكل.

فقال ديوجانس: ليس ديوجانس هو الذي يشبه الكلب ولكنكم أنتم الذين تشبهونه لأنكم اجتمعتم حول مَن يأكل.

(١١)

ذهب الإسكندر إلى مدينة فورنته لرؤية ديوجانس فرآه جالسًا في قرص الشمس فقال له الأسكندر: أنا الملك الأكبر ديوجانس. فأجاب ديوجانس: وأنا الكلب ديوجانس.

فقال الإسكندر: أما تهابني وتخشاني يا ديوجانس. فأجاب ديوجانس: وهل أنت طيب أم رديء؟ فقال الإسكندر: بل إني طيب ومحبوب. فأجاب ديوجانس: ومَن الذي يهاب الطيب ويخشاه.

فقال الإسكندر: إني يا ديوجانس أعلم بحاجتك إلى أشياء كثيرة وأكون مسرورًا ومغتبطًا إذا أنا وفقت لقضائها. فأجاب ديوجانس: إذا عاهدني الملك الأكبر على الوفاء بما أرجو عرضت عليه ما شئت.

فقال الإسكندر: لك عليّ ذلك العهد. فأجاب ديوجانس: إن كل ما أطلبه منك هو أن تتحول من هذه الجهة فقد منعت عني ضوء الشمس وقطعت لذتي بها.

(١٢)

قال رجل لديوجانس: والله يا ديوجانس إنه من أكبر العيب أن فيلسوفًا مثلك يعيش كما يجيء لا كما يجب وليس لك بيت تسكن إليه وترتاح فيه فأجاب

ديوجانس: وأنت والله لو فقهت معنى الحكمة وأسرار الحياة لعلمت أن الإنسان إنما يحتاج إلى البيت ليستريح فيه وحيث استراح فهو بيت له.

(١٣)

عيّرت امرأةٌ ـ ديوجانس بدمامته وبشاعة خلقه وقالت له:

والله يا ديوجانس ليس أقبح في الرجل عند المرأة من دمامته وعدم تناسب أجزائه وتلائم أعضائه.

فقال لها ديوجانس: لا والله ـ فإنه أقبح منه أن يكون ذلك في المرأة. لأن منظر الرجال بعد المخبر ولكنّ مخبر النساء بعد المنظر.

أرستيب

كان هذا الفيلسوف ذكيّ الفؤاد سريع الجواب حاضر البديهة بليغًا في كلامه فصيحًا لسنًا وكان من طبعه التملق والتزلّف إلى الملوك. وأخذ الفلسفة عن سقراط.

وكان يقول: إن اتصاف الإنسان بشدة الفقر أولى وأحسن من اتصافه بالجهل. لأن الفقير لم يفقد غير الدرهم ولكنّ الجاهل فقد فقدَ الإنسانية الكاملة. والفرق بين العالم والجاهل أو العلم والجهل كالفرق بين الفرس الجموح والفرس المتريضة.

وكان لهذا الفيلسوف آراء ومبادىء ضارة بالآداب ومذاهب ونظريات غير نافعة ولا منتجة كقوله:

يسوغ للإنسان الزنا والسرقة وغيرهما من الموبقات وهو رأي سخيف وبعيد عن الحكمة وسلامة النظر. وقالوا إنه حكم عليه بالموت وأنه أرغم على شرب السمّ فمات.

(١)

قال الملك دينيس لأرستيب الفيلسوف: يا أرستيب أنا أنتقد عليك وعلى أمثالك من الفلاسفة ترددكم على أبواب الملوك. على أن الملوك لا يترددون ولا يخفّون للتردد على أبواب الفلاسفة. فما هذه المباينة أيها الفلاسفة.

فأجاب أرستيب قائلاً: إنك أيها الملك لم تصب شاكلة الصواب ـ فاعلم أن ذلك من الفلاسفة إنما لأنهم يفهمون أكثر من الملوك ما يحتاجون إليه. أما الملوك فلا يعرفون ما تحتاج إليه أنفسهم. وأن من شأن الحكماء ووظيفتهم في الحياة أن يسعوا إلى المرضى لمعالجتهم والقيام عليهم وتعهدهم. ولا شك أن كل واحد يطلب لنفسه أن يكون طبيبًا على أن يكون مريضًا.

(٢)

عهد رجل إلى أرستيب الفيلسوف الأمر في تربية ولده وتقويمه وتثقيف عقله بالحكمة والموعظة الحسنة. فطلب أرستيب من الرجل جُعْلاً على أتعابه فقال له الرجل: إن هذا الجعل الذي فرضته عليّ لتعليم ولدي وتقويمه أكثر من الواجب لك ويمكن لي أن أبتاع بما فرضت عليّ مملوكًا انتفع به واستخدمه في شأني.

فأجاب أرستيب: لا حرج عليك في ذلك فاشتر مملوكًا حتى يكون لك خادمان[١].

(٣)

ألحّ أرستيب الفيلسوف على الملك دينيس في تحقيق رجاء له فرده خائبًا فخرّ أرستيب على قدمين الملك يقبلهما فكبر ذلك على رجل في المجلس وقال له: ما هذا التسفل: وهذا الصغار وهذا التحقير لشأن العلم والحكمة.

فأجاب أرستيب: لا لوم عليّ ولا حرج في ذلك وإنما اللوم لوم الملك الذي وضع أذنيه في قدميه.

(٤)

بينا كان ديوجانس الفيلسوف جالسًا يغسل بعض الحشائش على عادته إذ فات عليه أرستيب الفيلسوف فقال له ديوجانس: والله يا أرستيب لو أمكن لك أن تقنع بمثل هذه الحشائش لما رأيت نفسك مضطرًا أو مكرهًا في أحد الأيام لمجالسة الملوك وإنصاتك لما يسرّ وما لا يسرّ.

فأجاب أرستيب: وأنت والله يا ديوجانس لو عرفت صناعة مجالسة الملوك لبغضت هذه الحشائش وزهدت فيها.

---

(١) يشير بذلك إلى أنه ما دام الولد يبقى بغير تعليم وتحت تأثير الجهل فهو والخادم سواء.

(٥)

ابتاع أرستيب الفيلسوف حاجة بثمن أكثر من قيمته التي تساويه فلامه واحد من صحبه ومريديه وقال له: قد غلبوك يا أرستيب في الذي اشتريت. فقال أرستيب لصاحبه: وهل كنت أنت تبتاع الذي ابتعته أنا بأقل مما اشتريت.

فقال صاحبه وهو يحاوره: بلى وهل أنت في شك من ذلك.

فقال أرستيب: والله يا هذا أن ما عندي من الإسراف لا يعدل ما عندك من الطمع والحرص ورب إسراف لا يضرّ خير من طمع قد يضر.

(٦)

شتم رجل أرستيب الفيلسوف فتركه أرستيب ولم يهتم بأمره فاقتفى الرجل أثره وقال له: لم هربت ولم تستمع ما ألقي عليك ـ قف واستمع.

فأجاب أرستيب الفيلسوف: والله ما سمعت بهذا من قبل ـ أما أنت فرجل قادر على السب وأما أنا فرجل غير مأذون بسماعه.

(٧)

حنق الملك دينيس على أرستيب الفيلسوف فأمر أن يجلس من الطعام في غير مجلسه اللائق به. ولما تم للملك أمره قال له: كيف مكانك من المجلس يا أرستيب اليوم.

فأجاب أرستيب الفيلسوف بهدوء وسكون: نِعم المجلس الذي أجلسني الملك والظاهر أنه أراد أن يشرف بي هذا المكان فأجلسني فيه الآن.

بين صاحب قلم وحامل سيف

قال صاحب قلم لحامل سيف: أنا أقتل بلا غرر. وأنت تقتل على خطر. فقال حامل السيف: القلم خادم السيف إن تم مراده وإلّا فإلى السيف معاده ولله درّ أبي تمام حيث يقول في ذلك:

السيف أصدق أنباء من الكتب ‏ ‏ ‏ ‏ في حده الحد بين الجد واللعب

بين كاتب ونديم

قال كاتب لأحد الندماء: أنا معونة وأنت مؤونة. وأنا للجد وأنت للهزل. وأنا للشدة وأنت للذة. وأنا للحرب وأنت للسلم.

فأجاب النديم قائلاً: وأنا للنعمة وأنت للخدمة. وأنا للحضرة وأنت للمهنة. تقوم وأنا جالس وتحتشم وأنا مؤانس. تدأب لراحي وتشقى لسعادتي. فأنا شريك وأنت معين كما أنك تابع وأنا قرين.

بين أخ وأخيه

قال أخ لأخيه في كتاب له: أما بعد فإن رأيت أن تجرد لي ميعادًا لزيارتك أتوق به إلى وقت رؤيتك ويؤنسني إلى حين لقائك فعلت مشكورًا إن شاء الله.

فأجاب أخوه قائلاً: أخاف أن أعدك وعدًا يعترض دون الوفاء به ما لا أقدر على دفعه فتكون الحسرة أشد من الفرقة.

فرد أخوه يقول: والله إني أسر بموعدك وأكون جذلاً بانتظارك. فإن عاق عن الإنجاز عائق كنت قد ربحت السرور بالتوقع لما أحبه وأصبت أجري على الحسرة بما حرمته.

بين معلم وتلميذ

كان في مدينة صقلية خطيبًا مشهورًا يلقب بالغراب وكانت الطلبة تنسل إليه من كل حدب للانتفاع واستفادة الخطابة منه. وكان من بين قاصديه ومريديه فتى من اليونان يقال له: تيسياس وهذا رغب إليه في تعلم هذا الفن بحقٍّ معلوم ولما تم له ما أراد من تعلم هذا الفن والنبوغ فيه جادل معلمه الخطيب وقال له وهو يحاوره: يا معلم ـ ما حدّ الخطابة. فقال المعلم: إن حدّ الخطابة هو الانتفاع بالإقناع.

قال الفتى: إذن أنا أحاورك وأناظرك الآن في الأجرة التي فرضتها عليّ فإن أقنعتك بأنني لا أدفعها إليك لم أدفعها إذ أكون قد أقنعتك بذلك. وإن لم أقدر على إقناعك فلست أعطيك شيئًا أيضًا لأنني أكون ما تعلمت منك الخطابة التي هي مفيدة للإقناع.

فقال المعلم: وأنا أيضًا أناظرك فإن أقنعتك بأنه يجب لي أخذ حقي منك آخذه أخْذَ من أقنع. وإن لم أقنعك فيجب أيضًا أن آخذه منك إذ قد نشأت تلميذًا يستظهر على معلمه ـ فسكت الفتى وسكت عن المناظرة.

بين أحد الأكاسرة وآخر

لقيَ أحد الأكاسرة في موكبه رجلاً بعين واحدة فأمر بسجنه ثم أفرج عنه وأطلق سراحه وقال له: يا هذا إني أمرت بسجنك لأني تشاءمت منك.

فقال الرجل: إذن أنت والله أشأم مني لأنك خرجت من منزلك ولقيتني فما رأيت إلا خيرًا وخرجت أنا من منزلي فلقيتك فسجنت.

بين صائد وآخر

رمى رجل عصفورًا بسهم فأخطأه فقال له رجل شهد خطأ السهم: أحسنت يا هذا. فقال الرامي وهو غاضب: أتهزأ بي. قال الرجل: معاذ الله ولكن أحسنتَ (إلى العصفور)!!

بين عارِف بالله وطبيب

مرض أحد العارفين بالله فشكا ألمه إلى أحد الأطباء فقال له الطبيب: إن العارفين بالله لا يشكون أمراضهم وآلامهم لغير الله فما لك تشكو إليَّ أمرك وتخالف طريقتك.

قال العارف بالله: والله ليس هذا باسم الشكوى وإنما هو أخبار بقدرة الله تعالى.

بين رجل ورجل

قال رجل لآخر وقد ابتاع منه بستانًا أغنّ: والله لو صبرتَ وما تعجلت لاشتريت منك الزراع بعشرة أمثال ما اشتريت.

فقال صاحب البستان: وأنت والله لو صبرت وما تعجّلت لبعتك الزراع بمثلِ واحد.

بين ملك ووزيره

قال ملك لوزيره في حديث له: ما أحسن المُلك لو دام. فقال الوزير: والله لو دام المُلك لما وصل إليك!!

بين أمير ومعلم

قال أمير لمعلم ابنه: يا معلم - علمه السباحة قبل الكتابة. فقال المعلم: أيها الأمير إن الكتابة أفضل من السباحة.

قال الأمير: أجل - الكتابة أفضل ولكن السباحة أوجب لأنه قد يجد مَن يكتب له ولا يجد مَن يسبح عنه.

بين عاقل ومجنون

قال رجل لمجنون: هل لك في الشراب. فقال المجنون: إن العاقل يشرب الخمر حتى يتشبه بي فأنا إذا شربته بمن أتشبه؟

بين رجل وامرأة

رأى رجل ماجن امرأة دميمة فقال لها: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: الآية ٥][1]. فقالت المرأة وقد عمل الغيظ عمله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: الآية ٧٨][1].

بين شيخ وشيخ

لقي شيخ شيخًا آخر مثله فقال له: ماذا يعمل الشيخ النحس اليوم؟

فقال الشيخ: يشتمني - فأسكته.

بين رجل ورجل

كان رجلًا يكتب كتابًا وإلى جانبه رجل آخر فكتب عمروًا بغير واو فقال له الرجل: يا مولانا زدها واوًا. فأجاب الكاتب: والله لقد تفضل مولانا بزيادة الواو![2].

بين رجل ورجل

رأى رجل اثنان يتكلمان همسًا فقال لأحدهما: بالله عليكما فيم تكذبان. قال الرجل: نعم نحن نكذب ولكن في مدحك.

---

(١) قرآن كريم.

(٢) يعني تطفّل وتداخل فيما لا يعنيه.

بين حكيم وثقيل

قال أحد الحكماء لأحد الثقلاء: والله لأنت أثقل على الطبع من الحمل الثقيل.

فقال الثقيل: والله ما صدقت في تشبيهك هذا لأنه لا علاقة بين الطبع والحمل.

فأجاب الحكيم: وأنت كذبت في قولك هذا ـ ذلك لأن الحمل الثقيل تشارك الروح الجسد في حمله ـ والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله.

بين رجل وصاحبه

أقام رجل بناء فخمًا أعجب به كل الإعجاب وقال لأحد صحبه: هذا هو البناء الذي لا عيب فيه ولا نقص. فقال له صاحبه: أجل إلا أن فيه عيبًا واحدًا.

فقال الرجل: وما يكون ذلك العيب يا ترى. فقال له صاحبه: ذلك العيب أن لك منه خرجة لا تعود بعدها إليه أو دخلة لا تخرج بعدها منه.

بين حكيم وحكيم

كتب أحد الحكماء على باب داره: لا يدخل بابي شر. فقال له حكيم مثله: فمن أين تدخل امرأتك فهي شر وشر ما فيها أنه لا بد منها.

بين رجل وحكيم

قال رجل لحكيم: كيف حال أخيك فقد كان مريضًا. فقال الحكيم: إن أخي قد مات. قال الرجل: وما سبب موته. فقال الحكيم: إن سبب موته حياته.

فهرس المحتويات

الباب الثالث عشر
قصص الفخر والمفاخرة

الباب الرابع عشر
قصص عشّاق العرب في ذكر العشق ومَن بُلِيَ به والافتخار بالعفاف وأخبار مَن مات بالعشق

الباب الخامس عشر
قصص الأمثال العربية

الباب السادس عشر
الأجوبة المُسكِتَة